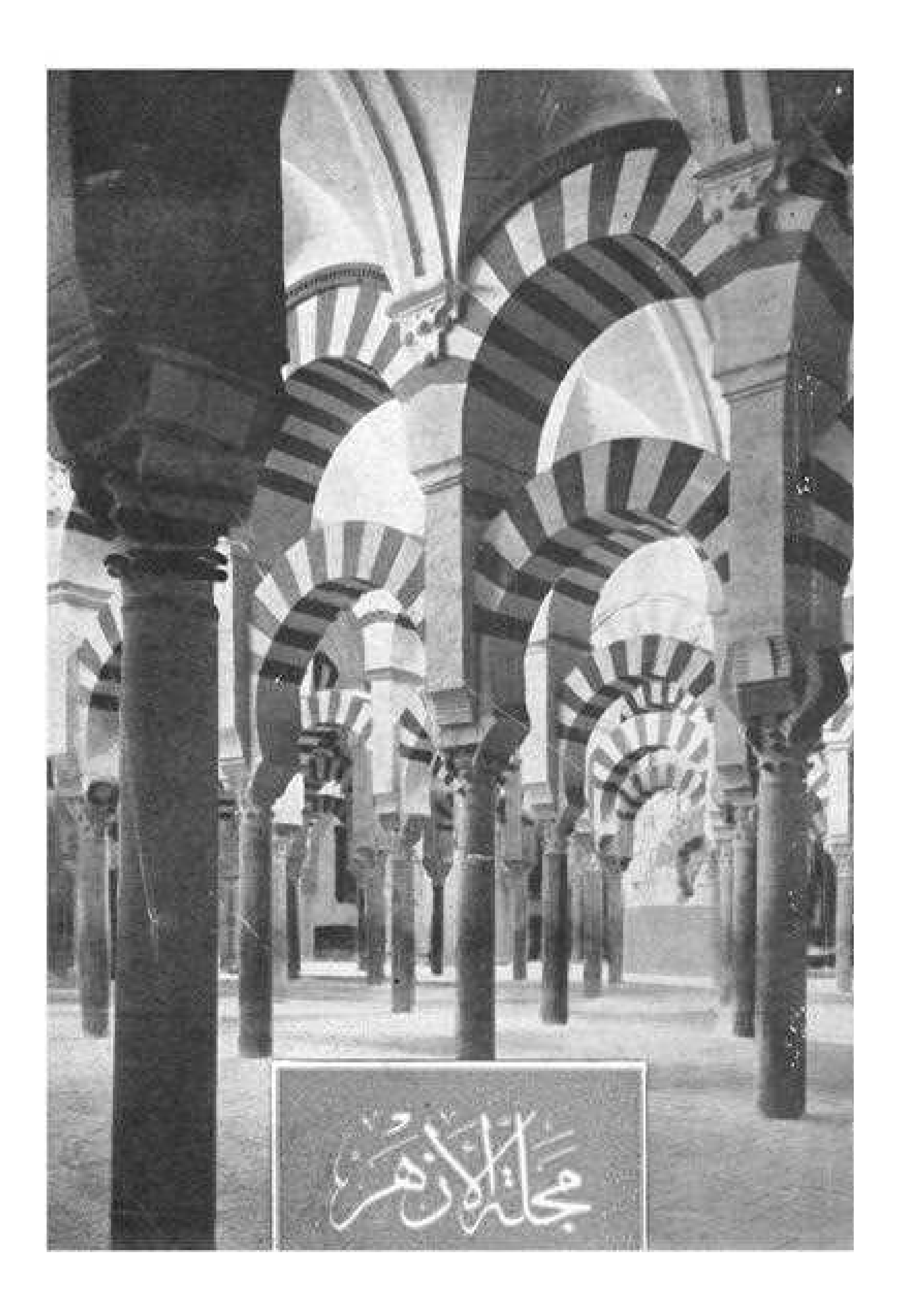

مجلة الأزهر

مدير المجلة ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات
العنوان: إدارة الجامع الأزهر بالقاهرة
تليفون: ٤٦٢١٢



بدل الاشتراك
٥٠ في مصر والسودان
٦٠ في الأقطار الإسلامية
٥ ثمن الجزء

الجزء الأول - القاهرة في غرة المحرم سنة ١٣٧٢ — ٢١ سبتمبر سنة ١٩٥٢ — المجلد الرابع والعشرون

فهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

كان ظهور الإسلام فتحا لعالم جديد

نستطيع من غير أن نغضب المؤرخين أن نجعل ظهور الإسلام هو الفاروق بين عالم قديم كان يقاسى سكرات الموت، وعالم جديد كان يستهل استهلال الحياة؛ وأن نطلق الوصف بالجاهلية على العالم القديم كله شرقيه وغربيه، والوصف بالإسلامية على العالم الجديد كله مسيحيته ومحمديّته.

ومما يعزز هذا التقسيم أن الله جل جلاله قد أرسل رسوله محمداً بالهدى إلى الناس كافة، وكانت سنته من قبل أن يرسل من اصطفاه إلى البلد الذى فسد، والشعب الذى شرد. فلما عمت الجهالة، وشاعت الضلالة، وأوفت الإنسانية، اقتضت حكمة الخالق أن تكون الرسالة عامة والدعوة شاملة. ومن طبيعة الشريعة العامة أن تكون كاملة لا ينالها النقص، متجددة لا يعتريها البلى، صالحة لكل نفس ولكل أفق، حتى يكون فيها لكل داء علاج، ولكل قوم منهاج، ولكل مشكلة حل. وتلك هى الخصائص المميزة للشريعة التى انقطع بعدها الوحى، ولصاحبها الذى اختتمت به الرسل.

• • •

كانت الجاهلية العالمية، التى سبقت الإسلامية العالمية ليلا موصول الظلام بالأزل، مبسوط الهول على الأرض. ومن حقبة إلى حقبة كانت تضىء سماءه الداجية ومضات من عقل الإنسان فى طيبة وأثينا، وأشعة من وحى الله فى سيناء وأورشليم. حتى إذا خبا نور العقل بحيوانية الرومان، وخفت صوت الوحى بمادية اليهود، أطبق الظلام فى كل سماء، وغشى الضلال على كل أرض، وسرت قافلة الحياة غريّة تخبط فى مجاهل البيد، يسوقها من الشرق الفرس، ويقودها إلى الغرب الروم. ولم تكن الروم فى القرنين السادس والسابع الميلاد إلا دولة منحلة ألح عليها سرف الغنى وترف العيش وفساد العقيدة وتباين المذاهب، حتى انتهى أمر دينها فى بيزنطة إلى خلاف مستحكم فى طبيعة المسيح، وجدل متحكم فى صفات هذه الطبيعة. وآل أمر دنياها فى رومة إلى استغراق فى شهوات الحس ونزوات النفس كفكفت من سلطان العقل، وطأطأت من إشراف الروح. وكان من هذا الدين المسيخ ومن هذه الدنيا الداعرة أن قام فى شطرى الامبراطورية الغاربة نظام من الحكم السفيه الفاجر أرهق الأمة بالضرائب، وأفسد الحكومة بالرشا، ولوّث

المجتمع بالرذائل ، وأشعر الناس مذلة الرق ، فعظموا القادة ، وقدسوا السادة ، وألهوا القياصرة ، حتى انحدر السيد والمسود ، والعابد والمعبود ، إلى هوة لا قرار لها إلا العدم .

كذلك لم تكن الفرس في ذلك العصر نفسه إلا حطام دولة وغثاء جيل . منيت بما منيت به الروم من تحلل العقد ، وتعفن الأخلاق ، وسطوة الشهوات ، وتفاوت الطبقات ، وطغيان الملوك ، وبطلان الدين . وأربت عليها بنشوء المذاهب المعوجة فيها ، وغلبة الميول الشاذة عليها ، فمن (دهرية) زرادشت ، الذى مهد للمجوسية الحمقاء ، إلى (عدمية) مانى ، الذى حرم الزواج استعجالا للفناء ، إلى (وجودية) مزدك الذى جعل الناس شركة فى الأموال والنساء ، إلى حال من الاجتماع العفن والنظام البالى لا يعيش فيهما حر ، ولا يدوم عليهما مُلك .

وكان الناس من وراء هاتين الدولتين يعيشون على حال أسوأ من هذه الحال ، وفى درك أسفل من هذا الدرك ؛ فالعرب واليهود قد وضعهم الكتاب العزيز بما لا بيان بعده . والهنود وأهل الصين كانوا من البوذية والبرهمية فى وثنية إباحية لا حصر لأصنامها ، ولا حد لأوهامها ، ولا علاج لما ابتلتهم به من أدواء خلقية واجتماعية بعضها يبيد عالماً بأسره . أما الشعوب الأوروبية فى الشمال والغرب فكانت لا تزال خارج الوجود المتمدن لا تشعر بأحد ، ولا يشعر بها أحد .

• • •

على هذه الحال الآثمة والقيادة المضلة كانت قافلة الحياة تسرى ..! ظلام مخيم على الكون كله ! فيه التهاويل التى تفزع كل نفس ، والعراقيل التى تصدم كل قدم ، والشياطين التى توسوس هنا بالفتنة ، وتغرى هناك بالإثم ، وتعيث هنالك فى الدين ، وتستعين دائماً بحواء على إغواء آدم !.

وما كان الله ــ جل شأنه ــ ليكل ركب الخليقة إلى نفسه ، فيعمه فى هذا التيه وقد قضى عليه أن يقطع مراحل الدنيا ويبلغ غاية الأجل . لذلك أذن ــ وهو الرءوف الرحيم ــ لهذا الليل أن يصبح ، وشاء ــ وهو الخبير العليم ــ أن يكون إسفار صبحه من غار حراء !

هنالك تجلى الله لجبل النور فأشرق الحجاز كله . ونزل الرسول المصطفى من الغار ونور الله يسعى بين يديه ، وصوت الروح الأمين يتردد فى أذنيه ، فدعا إلى الإسلام البداة الرعاة الذين اختارهم الله لهداية خلقه ورعاية حقه ، ثم خرج بهم إلى القافلة البشرية وقد شردها الضلال ، وأضناها الكلال ، وأعوزها الهادى الذى يدل ، والحادى الذى يرفه . فرد الشارد ، وألف النافر ، وجمع الشتيت ، وطمأن السادرين اليائسين الملكى بقول ربه : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » فنهم من آمن ومنهم من كفر . وحينئذ بدأ المجاهدون فى سبيل الله معارك التطهير والتحرير ، فطهروا النفوس من الرجس ،

وحرروا العقول من الشرك ، وثلوا عرش قيصر ، وقوّضوا إيوان كسرى ، وشادوا على أنقاضهما مأذنة بلال ومنبر محمد . ثم طبقوا فى البلاد المطهرة المحررة شريعة الله التى تكرم الإنسان وتملى حقوقه ، وتمحو فروقه ، وترفع شأنه . ثم حملوا فى الشرق والغرب شعلة المعرفة بما تجمع لهم من وراثة ما مضى من الديانات والثقافات والحضارات ، وأقبسوها أقواما لم يروا قبلها النور فى ذهن ولا ضمير .

ورثوا ديانات إبراهيم وموسى وعيسى ، وثقافات اليونان والعبران والهنود ، وحضارات المصريين والرومانيين والفرس ، ثم أخضعوا هذا الإرث الضخم لعبقرية الإسلام ومزية الجنس ، فانتفى منه الخَبَث ، وارتفع الخطأ ، وانجلى الغموض ، وكمل النقص ، وأصبح صالحا لتغذية العقول ، وتقوية القلوب ، وتنمية المدارك ، وتكوين مجتمع صحيح قوى حر ، لا يوجهه إلا الحق ، ولا يحكمه إلا الله .

ثم كان من فضل الله على الناس أن أظهر نوره فى مكان وسط بين قرنى الشمس ، ليمشو على ضوئه الضالون فى الشرق والغرب من المحيط إلى المحيط .

* * *

على أن نور الله لم يلبث أن غمر الشرق حتى بلاد الصين ، وطبق الغرب حتى بلاد الغال . ومن حرمه الله نعمة الانتفاع بهدايته وقيادته ، لم يحرمه فضل الاستمتاع بثقافته وحضارته . فالمسيحيون الأوربيون قد أخذوا ثقافة العرب عن طريق المغرب والأندلس فى فتوح الهلال ، وقبسوا حضارة المسلمين عن طريق مصر وفلسطين فى غزوات الصليب . ثم كان من أثر الفتح الإسلامى للقسطنطينية أن انتشر الدين المحمدى فى شرق أوربا ، وتفرق العلم المسيحى فى وسط القارة ، فكانت حركة (الإحياء) .

وما الإحياء إلا اختلاط الثقافة اللاتينية التى أطلقها محمد الفاتح من الأديرة والكنائس ، بالثقافة اليونانية التى بعثها محمد المأمون فى المساجد والمدارس ، ومن هاتين الثقافتين وما خالطهما من علوم الإسلام وفنون المسلمين كانت هذه الثقافة الحديثة والحضارة القائمة .

* * *

لم تكن الفتوح الإسلامية اذن فتوح استعمار وجباية ، وإنما كانت فتوح تحرير وهداية .

كانت فتوحا فى الأرض للحرية والعمران ، وفتوحا فى العقيدة للتوحيد والإيمان ، وفتوحا فى الشريعة للحق والعقل ، وفتوحا فى السياسة للإحسان والعدل ، وفتوحا فى اللغة للأدب والبلاغة ، وفتوحا فى العلم للإحياء والتجديد ، وفتوحا فى الفن للابتكار والطرافة .

وفى المقالات التى ستقرأها فى هذا العدد تفصيل لهذا الإجمال وتدليل على هذه الدعوى .

والله اللطيف بعباده هو المسئول أن يظهر دين الحق على الدين كله ؛ فإن الإسلامية هى الإنسانية ؛ وإن القرآن هو الفرقان ؛ وإن الإسلام هو السلام ؟

احمد حسن الزيات

فتوح المجاهدين في سبيل الله

سر الفوز العظيم في الفتوح الإسلامية

للدكتور عبد الوهاب عزام
سفير مصر في باكستان

١

يوم السابع عشر من رمضان للسنة الثانية من الهجرة. اجتمع المسلمون ، يقودهم إمامهم ومعلمهم وقائدهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. والمشركون من قريش وألفافهم .

اجتمعوا في سهل غير فسيح ، يعلو على وادى الصفراء المقبل من الشمال من جهة المدينة ، ويتصل به الخيف الأخضر الذى تتطلع منه ذرا النخيل إلى هذا السهل ، وتحد الطرف فيه أنى توجه الجبال ، إلا حيث يقبل وادى الصفراء . وإلا حيث يشرف كثيب عظيم من الرمل تجوزه السابلة إلى الغرب شطر البحر .

ذلكم بدر ، هناك اجتمعت فئة من المسلمين هى شعاع من الغيب يبشر بالصبح الصادق تتلوه شمس الضحى ، واجتمعت فئة من المشركين هى طليعة سواد الكفر فى أرجاء الأرض تريد أن تطبق ظلماتها على هذا الشعاع .

اجتمع المسلمون يحملون فى قلوبهم وعلى ألسنتهم وبأيديهم ، توحيدا وطهارة وشريعة ونظاما وطاعة . وقابلهم المشركون فى موكب من الوثنية والرذائل ، والهمجية والفوضى .

جاء المسلمون وليس لهم مدد إلا إيمانهم وشريعتهم . وجاء المشركون كأمواج الظلام ، تمدهم كل ظلمة على الأرض ويصلهم كل باطل فيها .

كان العرب المشركون الذين لم يشهدوا الوقعة أنصار من شهدها من المشركين ؛ ولو استنجدهم هؤلاء لأنجدوهم ، ولو شهدوا لنصروهم . ووراء مشركى العرب كلُّ دين للشرك ، وكل شريعة للباطل، وكل مشوه مبدل من الأديان والشرائع. فلا حرج على متخيل أن يرى أمم العالم كافة مددا وراء مشركى قريش يوم بدر ، وأن يصور رايات الشرك والظلم والباطل فى كل أرجاء الأرض محشورة بجانب راية قريش يوم بدر .

علم هذا رسول الله حين قال وهو قائم على هذه الصخور التى تشرف على موضع المعركة والتى تطل اليوم على الحفرة التى ثوى فيها الشهداء — قال يخاطب ربه الذى أرسله بالهدى ودين الحق : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض بعد اليوم » . وصدق رسول الله .

٢

وبعد عام سار سواد الكفر إلى المدينة يغزو هذه العصابة فى دارها ، يريد أن يطفىء الشعاع فى مصباحه ، يريد أن يسد النهر حيث ينبع . وكانت وقعة أُحد . وكاد السحاب

المتكاثف المظلم يطبق على نجم الصبح المتلألىء . ثم انقشع الغمام وبقى الكوكب فى لألائه .

وبعد عامين آخرين جاء سواد الشرك والباطل فى جحافل كثيفة لتأخذ المدينة من أقطارها ، واجتمعت سيول القبائل فى مجتمع الأسيال إلى الشمال والغرب من المدينة ، وسالت على مواطن أخرى . وخندق المسلمون على أنفسهم إذ لم تكن لهم طاقة بهذا السيل .

« إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا » .

والرسول يضرب بمعوله على صخور اعترضت الحافرين فيقدح نارا تضىء قصور الأكاسرة والقياصرة . وصدق رسول الله ، إن الضربات التى زلزلت العروش من بعد هى نسية ضربات المعول فى يد إمام المسلمين يوم حفر الخندق .

٣

وفتح المسلمون مكة ، ودخلها إمامهم ساجدا على رحله . فما كان انتصارهم إلا انتصار الحق العزيز ، والعدل المسلط والرحمة القادرة والأخوة الجامعة ، والعفو الشامل : انتصار الإيمان بالحق والخير على العبودية للباطل والشر .

وبعث المسلمون فى حنين فهزموا . فلو كان الأمر حربا وكيدا وخدعة ومباغتة ، وجندا وسلاحا ، لهزم العرب المشركون العرب المسلمين هزيمة ماحقة ، ولكن الجمع تفرق ، والجند فزع فانذعر ، وثبت الإيمان الذى اجتمع عليه الحشد ، والحق الذى أطاف به الجند ، ثبت محمد وإيمانه ودينه فانحاز إليه الفارُّون ، وأوى إليه المتفرقون . ثبت القطب حين البأس ولم يزل ، فدارت الرحى على هوازن . فانقلب انتصارهم هزيمة ، يقول القرآن للمسلمين « وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » .

٤

وهكذا تتابعت الحادثات حتى سير رسول الله جيشاً إلى أرض الروم ، فكانت بين شرذمة من العرب وجيش الروم وألفافهم من العرب موقعة مؤتة . ومتى كانت مؤتة ؟ كانت والروم فى أوج الانتصار والفخار ، كانت حين أتم هرقل هزيمة الفرس واسترد آسيا الصغرى والشام وتبع كسرى ابرويز إلى دار ملكه وقضى على كسرى وجيشه ورد الصليب الكبير إلى بيت المقدس ولكن الجند الذين شهدوا مؤتة كانوا يحملون من الحقائق ما هو أعظم من الروم والفرس وكل دولة فى العالم . فمن ارتاب فى هذا فليعلم أن مؤتة التى هزم فيها المسلمون وتهافت قوادهم فيها ، ولدت بعد سبعة أعوام وقعة اليرموك . ولم يكن المسلمون فى اليرموك منتصرين يتقدم بهم خالد إلى فتح بعد فتح ، أعظم من المسلمين القليلين فى مؤتة يتقهقر بهم خالد لينجو بهم من بأس الروم . فالحقائق التى حارب بها المسلمون فى مؤتة هى الحقائق التى حارب لها المسلمون فى اليرموك . دعوا الكثرة والقلة ، والانتصار والانهزام يا من ترون ظواهر الأمور ولا تبصرون بواطنها .

٥

ومن أطراف الجزيرة العربية إلى خليج

القسطنطينية شطر الشمال وإلى حدود الصين وما وراء نهر السند شطر الشرق ، وإلى بحر الظلمات حيث دفع عقبة فرسه فى البحر صائحاً :

« لو علمت وراءك أرضاً لسرت غازياً فى سبيل الله » ، ثم إلى نهر اللوار فى فرنسا وإلى أرجاء أخرى ، سار المسلمون ،قاتلين ومصالحين ، يفرقون الجيوش المجتمعة بالقهر على الباطل ، ليجمعوها بالعدل على الحق ، ويلقون الأقوام والألوان ، فى أخوة الإسلام .

كانت موقعة بلاط الشهداء سنة أربع عشرة ومائة موقعة امتحن فيها المسلمون وقتل كثير منهم وانتصر شارل مرتل على عبد الرحمن الغافقى .

وروى الراوون أن الناس لبثوا حقبة يسمعون الأذان ، أذان الشهداء فى بلاط الشهداء . لم يسمعوا فى الآفاق أو فى أنفسهم طبل الحرب ولا صلصلة السيوف ، ولا صياح المحاربين ، ولكنهم سمعوا الأذان شعار التوحيد والإيمان والصلاة والفلاح ذلكم كان مقصد هذه الوقائع وشعارها وسرها وعلانيتها .

أكتب هذه الكلمة فى « كراچى » من أرض السند ، لست بعيداً من أطلال مدينة « الديبل » ، مدينة الصنم الكبير الذى حطمه المسلمون فى السند ، كما حطموا « هبل » فى مكة وحطموا كل صنم من الحجر أو البشر بين مكة والديبل وفى أرجاء من الأرض كثيرة .

يقول المسلمون هنا كلما رأوا نخلا ـ والنخل كثير فى أمكنة شتى من هذه البلاد ـ هذه آثار العرب ، كانوا حيثما ساروا أو خيموا نبت النخل . قلت : ونبت الإيمان والحق والخير ومعان أخرى كثيرة .

٦

انظروا إلى العرب المسلمين يسيرون من بلادهم فى البر والبحر إلى المشارق والمغارب ، على بعد الشقة ، وضآلة العدد ، وعظم المطلب . يسيرون إلى المشارق والمغارب دعاة توحيد وأخوة ، ورسل شريعة عادلة وخلق كريم . الله ربهم . والناس إخوانهم ، والأرض كلها ديارهم ، غلبوا ولم يذلوا ، وفتحوا ولم يخربوا ، وتسلطوا فساسوا بالعدل ، وواسوا بالحق ، وخلطوا الأمم بعضها ببعض فى أخوة الإسلام التى لا تميز بين الأقوام والألوان والأوطان . وذاع فى الأرض عدلهم ، وشاعت بين الناس سيرتهم ، فسالم من سالم وحارب من حارب ، قوماً أصحاب شريعة من العدل والرحمة ، دعوتهم الأخوة وسيرتهم مكارم الأخلاق ، قوماً بيوتهم مساجد ورحالهم معابد ، يحاربون على شريعة ، ويسالمون على شريعة .

٧

ما الذى يسر للمسلمين الفتح ، ونشر سلطانهم فى المشرق والمغرب فى سنين قليلة ؟

الإيمان الذى ملأ قلوبهم فى مبدأ سيرهم ونهايته وصحبهم من بدر إلى بلاط الشهداء وحالفهم مشرقين ومغربين وهازمين ومهزومين ، والثقة بوعد الله فى فتح الأرض ، والسيطرة عليها بالحق والعدل .

يسر لهم الإيمان واليقين كل عسير ، وذلل لهم كل صعب ، وأصغر كل كبير ، وجمع كلمتهم وقلوبهم على الجهاد فى سبيل الله والصبر على

ما يلقون ، ولقاء الموت راضين مستبشرين .

وكذلك يسر لهم الفتح أنهم ساروا إلى الأمم على شريعة جامعة ، وقانون محكم ، لا يعتدون ولا يخون ، ولا ينقضون العهد ، ولا يخفرون الذمة ، تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم .

وأنهم جماعة نظام ، وجند طاعة في السراء والضراء والشدة والرخاء ، والحرب والسلم .

وأنهم لم يسيروا في الأرض ابتغاء المال والملك والسلطان والجبروت ، ولكن دعاة دين وشرع قويم ، وخلق كريم ، ورسل عدل ورحمة وأخوة ومواساة . شعارهم الآية :

« وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون »

عباد زهاد ، شعارهم الأذان ، وحداؤهم القرآن وما رأى الناس جيوشاً من العباد قبلهم سارت للدعوة إلى الحق ، وتمكين عدل الله في الأرض .

بهذا طار ذكرهم ، وانتشر صيتهم . لقد أخرجوا عبادة الله من الصوامع إلى أرض الله الواسعة .

وأنهم سيطروا فأزالوا سلطان الجبارين عن الضعفاء والمساكين ، وأمنوا الناس على ما تعمله أيديهم ، وما يناله جدهم وسعيهم ، فاستبشر الزارع والصانع وأمن التاجر ، وشمل الناس الأمن مقيمين وظاعنين ، وبادين وحاضرين ، وعم الرخاء واستبحر العمران .

وكثير من الأمم انتظروا العرب ليفتحوا بلادهم ، وينقذوهم من الجبارين المسلطين عليهم ويشملوهم بما شاع عنهم من العدل والرحمة والأخوة والمساواة .

ساروا على الأرض قوانين من قوانين الله ، وسننا من سننه لا تعطل ولا يصدها عن غايتها شيء .

٨

وقال قائلون ضلوا وأضلوا – وكم منيت هذه الأمة بالمفترين ، يغضون من أقدارها ، ويهونون من مآثرها – قالوا : طلب القوت والطمع في الغنائم نشر هؤلاء العرب في أرجاء الأرض . قاس هؤلاء الدعوة الإسلامية على الاستغلال الذي يسمّى الاستعمار في حضارة هذا العصر . وكل شيء عندهم قهر وتسلط ، واستغلال ونهب ، وشره وحرص ، وتفريق بين الناس وعبادة المال من دون الله .

فقل لهؤلاء : إن الإنسان ربما يحارب على الخبز ولكنه لا يطلب الشهادة في سبيله ، إن الإنسان يريد أن يظفر بالطعام ليعيش به ، لا أن يموت في طلبه . فما بال هؤلاء العرب المسلمين طلبوا الموت حيثما ذهبوا ، وحقروا العيش أينما توجهوا .

ما بالهم وقد فتحت لهم مصر ورأوا الخصب في أرضها ، ورغد العيش على حفافي نيلها ، جاوزوها إلى صحارى النوبة وسهوب أفريقية ؟

ما بالهم وقد فتحت لهم الأندلس ورأوا النعيم المقيم ، جاوزوا جبال البرانس ليستشهدوا في بلاط الشهداء ؟

ما بالهم وقد دانت لهم فارس ، جابوا صحارى مكران إلى السند ، وعبروا نهر جيحون إلى ما وراء النهر ؟ ما بالهم يتركون النعيم والخير العميم ؟

٩

من مواقف البطولة الإسلامية في القتال

للأستاذ عبد الحميد العبادي
أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة فاروق

إن من يطلع على تاريخ الحروب التي وقعت بين الفرس والروم في أواخر القرن السادس الميلادي وأوائل السابع، يرى إلى أي حد كانت هذه الحروب راجعة إلى الشهوات والأهواء الشخصية، شهوات الأكاسرة تارة والقياصرة أخرى، وإلى أي حد كان يحدوها حب المغنم والسلب والنهب، وإلى أي حد كان يذكي أوارها حب التشفي والانتقام، وإلى أي حد كان يصاحبها التخريب والتدمير، ونقض العهود والمواثيق. الشهوة، والغنيمة، والانتقام، والتخريب والغدر، تلك كانت الصفات الغالبة على تلك الحروب التي كادت تترك المشرق والمغرب خرابا يبابا.

والعجب العاجب أن هذه التقاليد المشئومة استمرت في الغرب الذي يدين بالمسيحية السمحة طوال العصر الوسيط ومطلع العصر الحديث، ولعله لم يخل منها حتى يومنا هذا. ولنمثل لذلك بالحروب الصليبية التي ارتكب فيها الصليبيون في مدن الشام عامة وبيت المقدس خاصة من أفاعيل تقشعر لهولها الأبدان، وبما صنعه الملكان الكاثوليكيان الأسبانيان فردنند وإزابلا، بمسلمي غرناطة غداة استيلائهم على مدنهم صلحا، من نقض للعهود المؤكدة، والمواثيق المغلظة. وبالحروب المعروفة في التاريخ الأوربي الحديث في القرنين السادس عشر والسابع عشر بالحروب

والعز المقيم في الأرض التي سيطروا عليها ليجوزوا فيافي قاحلة، ويحاربوا أقواما غلاظاً شداداً، في بلاد تنتظرهم فيها قبورهم، إن الأمر لأعظم مما توهموا، وأسمى مما قالوا.

٩

وبعد: فالحرب هي الحرب في كل أرض وكل عصر. فيها قتل وفيها أسر وفيها غلب وسلب. وليس عجيباً أن يفرح المجاهد الذي شرى نفسه في سبيل الله، بغنيمة ينالها، وليس بعيداً أن يكون في سواد الجند من تكون الغنيمة همّه، ولكن جيوش المسلمين سارت داعية الى الإسلام مجاهدة في الله، ترجو الشهادة قبل الغنيمة، وتتهيأ للموت قبل الطعام.

إن النهر العظيم الذي ينحدر من منبعه إلى منتهاه يسير بالحياة والخصب ولكنه يجرف أرضا ويحمل غثاء ويغرق ناسا، ولكن الله أجراه للحياة والخصب لا ليسير بالكدر والغثاء، ويهلك الأحياء.

فأعيدوا النظر أيها الضالون، وأنعموا الفكر لعلكم تهتدون.

هذا سطر من كتاب، وموجة من عباب، والكتاب هو تاريخ الفتح الإسلامي على سعته وطوله، والعباب هو مجد العرب المسلمين، لا يزال يعي الزمان صداه، ويحلم التاريخ بذكراه. فمن عبقري عادل يفقه التاريخ ويكتب الكتاب، ويصور في السطور أمواج هذا العباب!

عبد الوهاب عزام

الدينية ، وأخيراً بما ارتكب فى الحرب العالمية الأخيرة من تدمير كان ختامه إلقاء القنابل الذرية على المدن اليابانية ، مما أودى بالآلاف المؤلفة من اليابانيين ، غدراً وبغياً وعدوانا .

ولنضرب صفحا عن وصف الحرب فى العصور الوسطى عند القبائل الجرمانية التى قضت على الدولة الرومانية ، وغمرت أوربا فى ظلام دامس طوال ألف سنة تقريبا ، وعند التتر الذين قضوا على الدولة العباسية ودكوا صرح الحضارة الإسلامية فى المشرق ، فقد يعتذر عن هؤلاء وهؤلاء بأنهم همج وبرابرة ليست لهم حضارة الفرس ولا نصرانية الروم ولا مدنية أوربا وأمريكا فى القرن العشرين .

ولكن كم لحوادث التاريخ وتصاريفها من أسرار جهد العلماء ولا يزالون يجهدون فى الوقوف عليها ! وكم لله من لطف خفى حارت فى كنهه الأفهام ! ففى وسط هذه الغياهب المدلهمة والظلمات الحالكة ، تبزغ شمس الدعوة الإسلامية فإذا الحرب المشروعة هى المنزهة عن شهوة السلطان ، وحب المغنم ، والسمعة ، والمرأة من عوامل الغدر والخيانة والعدوان ، وإذا بها نظام من نظم العمران ، به يكف الظلم ويقمع الطغيان ، ويستأصل الفساد . وقد عبر شوقى عن كل ذلك فى قوله مخاطبا الرسول العربى :

والحرب فى حق لديك شريعة
ومن السموم الناقعات دواء

وإذا بهذه الحرب المشروعة تسمى « جهادا فى سبيل الله » أى كفاحا لإعلاء كلمته بما تشتمل عليه هذه العبارة من معانى العدالة والإصلاح فى الأرض وتحقيق المثل العليا . وإذا الجهاد أعظم ما يتقرب به العبد إلى الله بعد الإيمان به تعالى وبعد بر الوالدين ، وإذا المجاهد له إحدى الحسنيين إما الظفر وإما الشهادة ، « وإذا الذين يقتلون فى سبيل الله غير أموات بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

كانت هذه المبادىء جزءا جوهريا من تعاليم الدعوة الإسلامية ، اعتنقها المسلمون الأولون وعملوا بها فى حروبهم ، فلا غرو أن حفلت هذه الحروب بذكر الأبطال ومواقف البطولة الصحيحة فى القتال . ونحن نورد ، فيما يلى ، على سبيل المثال لا الحصر ، بعضا من صور هذه البطولة ، سواء أكانت بطولة آحاد أم بطولة جيوش وجماعات .

١ — أبطال :

يروى أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج من العريش يوم بدر يحرض الناس على القتال ، وقال « والذى نفسى بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » . فقال عمير بن حمام من بنى مسلمة ، وفى يده تمرات يأكلهن : بخ ! بخ ! ما بقى بينى وبين الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء القوم ! ، ثم قذف بالتمرات من يده ، وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

ويروى أنه عليه السلام يوم أحد أخذ سيفا فهزه وقال : « من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه عمر بن الخطاب فقال : أنا آخذه بحقه ، فأعرض عنه . ثم هزه الثانية وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه الزبير بن العوام وقال : أنا آخذه بحقه ، فأعرض عنه ، فوجدا فى أنفسهما . ثم عرضه الثالثة وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه أبو دجانة ، فقال وما حقه يا رسول الله ؟ : قال « أن تضرب فى العدو حتى ينثنى ! فأخذه منه ،

وأعلم نفسه بعصابة حمراء ومشى إلى الحرب ، وجعل يتبختر بين الصفين ، فقال الرسول « إنها لمشية يبغضها الله إلا فى هذا الموطن ! ودخل أبو دجانة فى الحرب مبتدئا بالقتال ، فأبلى وأنكى .

ومما استدل به الفقهاء على جواز المبارزة مع التغرير بالنفس ما حدث فى حرب الخندق إذ دعا عمرو بن عبدود فارس قريش وبطلها الجنديد ، إلى البراز أول يوم ، فلم يجبه أحد ثم دعا إلى البراز فى اليوم الثانى ، فلم يجبه أحد . ثم دعا إلى البراز فى اليوم الثالث ، وجعل يعير المسلمين إحجامهم عن مبارزته . فقام على بن أبى طالب فاستأذن رسول الله فى المبارزة ، فاذن له على ضنه به ، وقال « اخرج يا على فى حفظ الله وعياذه ! . فخرج فتجاولا وثارت عجاجة أخفتهما عن الأبصار ، ثم انجابت عنهما وعلى يمسح سيفه بثوب عمرو وهو قتيل .

٢ — العفو عند المقدرة :

لما نقضت قريش هدنة الحديبية التى كانت بينها وبين الرسول ، عزم الرسول على غزوها وفتح مكة وذلك فى رمضان سنة ٨ فخرج من المدينة فى عشرة آلاف وبغت قريشا على غير استعداد ، فلم يسع ساداتها وكبراءها إلا أن يبادروا إلى أخذ الأمان لأنفسهم ولبلدهم ، وقد أعطاهم الرسول هذا الأمان بعد أن أسلموا ونهى الجيش عن أن يقاتل إلا من قاتله ، وقال فى تأمين أهل مكة : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن » ودخل الرسول وجيشه مكة من أقطارها فلم يقع قتال يذكر ، واجتمعت قريش إليه عند الكعبة معلنة إسلامها ومبايعتها ، فخطبهم فقال « يا معشر قريش ماذا ترون أنى فاعل بكم ؟ فقالوا « خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ! » فقال اذهبوا فأنتم الطلقاء ! هكذا عامل الرسول هذه القبيلة التى كذبته، وآذته ، وأخرجته وأصحابه ، وحاربته أكثر من عشرين سنة ! فضرب بذلك أروع مثل للحلم والعفو عند المقدرة .

٣ — طلب الشهادة فلم يعطها :

كان زيد أخو عمر بن الخطاب ممن قتل فى وقعة اليمامة ، إحدى وقائع حرب الردة وذلك سنة ١١ فلما رجع الناس قال عمر لابنه عبدالله ، وكان معهم ، ألا هلكت قبل زيد؟ هلك زيد وأنت حى ! ألا داريت وجهك عنى ؟ فقال عبد الله « سأل زيد الله الشهادة فأعطيها ، وجهدت أن تساق إلى فلم أعطها ! » .

٤ — لا نامت أعين الجبناء :

لا شك أن خالد بن الوليد أعظم قائد فى الإسلام ومن أعظم قواد العالم على الإطلاق . ولقد سماه الرسول سيفا من سيوف الله ، وكفى بذلك شرفا له وتنويها بقدره . فظهرت عبقريته فى وقائع مؤتة والردة وفتوح العراق والشام . ولكن بطولته تظهر فوق ذلك فى تواضعه ، فعندما عزله الخليفة عمر بن الخطاب عن التقدم على جيوش الشام لمصلحة ارتآها ، نزل على أمر الخليفة ، وعمل راضيا تحت إمرة أبى عبيدة . وهى تتجلى بوجه أخص فى العبرة التى استخلصها من تجاربه وعبر عنها فى ألفاظ قلائل قالها عندما حضرته الوفاة ، قال: « لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ، وما فى بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية . وها أنذا أموت كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء » .

٥ – قائد محبوب :

كان المثنى بن حارثة الشيباني يقاتل العجم بالعراق على شاطئ الفرات ، فاشتبك مع الفرس فى وقعة كبيرة تعرف بوقعة البويب وذلك سنة ١٣ هـ. وكان قد انضم إليه قبيل الوقعة جمع من نصارى تغلب حمية لصلة العروبة . وإلى القارئ ما تصف به الرواية هذا القائد وجيشه فى ذلك اليوم : « وأقبل الفرس يقودهم قائدهم مهران فى ثلاثة صفوف ومع كل صف فيل ولهم زجل ، فقال المثنى للمسلمين : « إن الذى تسمعون فشل ، فالزموا الصمت ! » وطوّف المثنى فى صفوفه يعهد إليهم ، وهو على فرسه الشموس ، وكان لا يركبه إلا لقتال ، فوقف على الرايات يحرضهم ويهزهم بأحسن ما فيهم ، ولكلهم يقول : « إنى لأرجو ألا يؤتى العرب من قبلكم اليوم ، والله ما يسرنى اليوم لنفسى شيء إلا وهو يسرنى لعامتكم » ، فيجيبونه بمثل ذلك . وأنصفهم من نفسه فى القول والفعل ، وخلط الناس فى المحبوب والمكروه ، فلم يستطع أحد منهم أن يعيب له قولا ولا فعلا . وقال : « إنى مكبر ثلاثاً فتهيأوا ، ثم احملوا فى الرابعة ! » فلما كبر أول تكبيرة أعجلتهم فارس وخالطوهم ، وركدت خيلهم وحربهم مليا ، ورأى المثنى خللا فى صفوف بنى عجل ، فجعل يمد لحيته لما يرى منهم ، وأرسل إليهم يقول : « الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول لا تفضحوا المسلمين اليوم ! فقالوا : نعم ! واعتدلوا . فضحك فرحاً » .

فلما طال القتال واشتد ، قال المثنى لأنس بن هلال النمرى : « إنك امرؤ عربى ، وإن لم تكن على ديننا ، فإذا حملت على مهران فاحمل معى ! فأجابه ، فحمل المثنى على قلب الجيش الفارسى فأزاله ثم أباده ، وقتل مهران ، قتله غلام من تغلب نصرانى . فلما رأت ذلك مجنبات المسلمين حملوا على مجنبات الفرس ، وجعل المثنى والمسلمون فى القلب يدعون لهم بالنصر ويرسل إليهم من يذمرهم ويقول لهم : « عاداتكم فى أمثالهم ! انصروا الله ينصركم ! » حتى هزموا الفرس .

ومات أناس من الجرحى ، منهم : مسعود أخو المثنى فصلى عليهم المثنى ، وقال : « والله إنه ليهوّن وجدى عليهم أن شهدوا البويب وأقدموا وصبروا ولم يجزعوا ولم ينكلوا » .

٦ – العفو عند المقدرة أيضاً :

من أفظع حوادث الحروب وأشنعها ما وقع من الصليبيين فى البيت المقدس غداة استيلائهم عليه فى سنة ٤٩٢ هـ . أجمعت على ذلك جميع المصادر الإسلامية والصليبية على السواء . فلنورد للقارئ مجملا لما حدث عند ما فتح صلاح الدين الأيوبى تلك المدينة فى سنة ٥٨٣ هـ .

فبعد أن دحر صلاح الدين جيش الصليبيين فى وقعة حطين سار إلى عسقلان فافتتحها وأخذ يتأهب للزحف منها إلى بيت المقدس . وكان حريصاً على أن يجنب تلك المدينة ويلات الحرب والحصار ، فاستدعى وفداً من الصليبيين الذين كانوا بها وطلب إليهم تسليم تلك المدينة التى يقدسها المسلمون كما يقدسها الصليبيون ولكنهم صرحوا له بأنهم لن يسلموها طوعاً أبداً . عند ذلك أقسم لهم أنه لن يفتحها إلا بالسيف .

وتقدم صلاح الدين إلى بيت المقدس وأخذ فى مهاجمتها ، ونقب أسوارها ، وأوشكت جنوده أن تقتحمها . فلما رأى الصليبيون ذلك أنفذوا

الأمير بليان لمفاوضة صلاح الدين ـ فطلب هذا الأمير أن يمنح السلطان بيت المقدس عفوه الذى منحه مدنا صليبية أخرى . فلم يجبه السلطان إلى ما طلب مستمسكا بيمينه التى أقسمها . عند ذلك قال له بليان : إن فى المدينة ستين ألف مقاتل سيخرجون إليه بعد أن يقتلوا نساءهم وأطفالهم ويدمروا كل ما يسعهم تدميره ، ثم يقاتلونه حتى يقتلوا عن آخرهم . ولقد راع هذا التهديد صلاح الدين ، فاستشار من معه من الفقهاء فأفتوه بأن ما حدث من قتال حول المدينة كاف فى إبرار قسمه ، وأن فى وسعه أن يعتبر كل من فى المدينة من الصليبيين أسرى حرب ، له أن يضرب عليهم الفداء .

وقد أخذ صلاح الدين بهذا الرأى وتم الاتفاق على أن يكون الفداء عن كل رجل عشرة دنانير ، وعن المرأة خمسة دنانير ، وعن كل طفل ديناراً واحداً ، وأن تكون المدة التى يؤدى فيها الفداء ويتم الجلاء أربعين يوماً . فمن وجد فى المدينة بعدها كان ملكا مسترقا للسلطان .

وفتحت المدينة أبوابها للسلطان وجيشه وذلك فى السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ ، وكانت الليلة ليلة المعراج الشهيرة ، وهى مصادفة عجيبة . وأقام صلاح الدين على الأبواب أمناء يتقاضون مال الفداء .

فخرج الأمير بليان ومعه سبعة آلاف فقير بعد أن أدى عنهم ثلاثين ألف دينار ، ثم تتابع خروج الصليبيين على الرسم المقرر ، ثم يأتى البطرك الكبير بجر من أموال الكنائس وتحفها وجواهرها ما لا يقـــدر بمال ، فلم يعرض صلاح الدين لشىء مما معه على الرغم من اعتراض أصحابه ، وأبى أن ينقض عهده ولم يأخذ منه غير الدنانير العشرة المقررة . وانقضت الأربعون يوماً ولا يزال فى المدينة آلاف كثيرة من فقراء الصليبيين لا يملكون فداء . يقول المؤرخ الصليبى « أرنول » ولعله كان حاضراً ذلك اليوم المشهود . فتقدم العادل إلى أخيه السلطان صلاح الدين وقال : « سيدى ! لقد أعنتك بحمد الله على فتح هذه البلاد وهذه المدينة وإنى أستوهبك ألفاً من أولئك الأرقاء » . فأجابه السلطان إلى طلبه وعند ذلك أعتقهم العادل من فوره . ثم جاء بليان والبطرك وطلبا مثل الذى طلب العادل فوهبهم صلاح الدين ألف رقيق أطلقوا فى الحال ، وأخيراً يلتفت صلاح الدين إلى أصحابه ويقول : « لقد أدى أخى صدقته ، وكذلك صنع بليان والبطرك ، وقد بقى أن أؤدى أنا صدقتى » . ثم إنه أمر رجالا من حرسه أن ينطلقوا فينادوا فى جميع شوارع المدينة أن كل عاجز عن دفع الفداء له أن يخرج وأنه حر لوجه الله تعالى . يقول أرنول : « وقد استغرق خروج هؤلاء نهاراً كاملا من لدن شروق الشمس إلى أن خيم الظلام » .

ثم يمضى المؤرخ المسيحى المذكور فيقول متحدثا عن أدب صلاح الدين ونبله ورقة قلبه : إن نساء من نساء فرسان الصليبيين كن قد لجأن إلى بيت المقدس بعد أن قتل أو أسر أزواجهن وعائلوهن فى الحرب . فاجتمعن بعد أن أدين الفداء وحضرن عند صلاح الدين باكيات معولات يشكون إليه سوء حالهن . فما كان منه إلا أن أطلق لكل من لها زوج فى حبسه زوجها ،

وأمر بمال من ماله الخاص لكل من لا عائل لها، مما ألهج ألسنتهن بالشكر له والثناء عليه.

ويقول المؤرخ الانجليزى لين بول: «لو لم يكن لصلاح الدين من الأعمال الثابتة إلا أخذه بيت المقدس، لكان ذلك كافيا فى عده أعظم الفاتحين فى عصره فروسية وأكبرهم قلبا، بل لعله كذلك فى أى عصر من العصور».

٧ — واإسلاماه!

اجتاح التتر أقاليم الدولة العباسية الشرقية ودمروها تدميراً، ثم دخل زعيمهم هولاكو بغداد فى سنة ٦٥٦ وقضى على الخلافة العباسية ثم اكتسحت جيوشه الشام وأصبحت على أبواب مصر. ولقد أرسل هولاكو إلى سلطان مصر إذ ذاك وهو الملك المظفر قطز كتابا ملأه تهديداً ووعيدا وطلب إليه فيه المبادرة إلى الخضوع له والاستسلام إليه. فثارت حمية السلطان واستنفر الناس لجهاد التتار فتثاقلوا لما ثبت فى الأذهان إذ ذاك أن التتر لا يغلبون ولكن السلطان أعلن أنه سائر بنفسه للجهاد على أى حال وليصحبه من يشاء. عند ذلك نفر معه الأمراء بأجنادهم. فسار بالجيش إلى فلسطين مقدما أمامه الأمير بيبرس، وجرت بينه وبين التتار وقعة عظيمة عند عين جالوت وذلك فى رمضان سنة ٦٥٨ هـ.

يقول المقريزى فى وصف بلاء قطز وبيبرس والجيش المصرى فى ذلك اليوم العصيب: «فلما كان يوم الجمعة خامس عشر من رمضان التقى الجمعان، وفى قلوب المصريين وهم عظيم من التتر، وذلك بعد طلوع الشمس، وقد امتلأ الوادى، وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين، وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء، فتحيز التتر إلى الجبل. فعندما اصطدم العسكران اضطرب جناح السلطان وانتقض طرف منه، فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته عن رأسه إلى الأرض، وصرخ بأعلى صوته: «وا إسلاماه!»، وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة، فأيده الله بنصره. وقتل كتبغا مقدم التتر، وانهزم باقيهم...... وأبلى الأمير بيبرس أيضاً بلاء حسناً بين يدى السلطان ... ومر العسكر فى أثر التتر إلى قرب بيسان، فرجع التتر وصافوا مصافا ثانياً أعظم من الأول، فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم، وكان قد زلزل المسلمون زلزالا شديداً، فصرخ السلطان صرخة عظيمة، سمعه معظم العسكر وهو يقول: «وا إسلاماه» ثلاث مرات «يا الله! انصر عبدك قطز على التتار». فلما انكسر التتار الكسرة الثانية، نزل السلطان عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها، وصلى ركعتين شكراً لله تعالى ثم ركب، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالمغانم».

هذه وقعة عين جالوت التى صد فيها الجيش المصرى سيل الغزو التترى الجارف، واستنقذ بها الشام من أيدى التتار، ورد عن مصر والمغرب الإسلامى كيدهم وجبروتهم، وفوق ذلك فإنه وقى فى ذلك اليوم على غير علم منه أوربا وحضارتها الناشئة دماراً محققاً وذلك باعتراف مؤرخى أوربا أنفسهم.

وبعد فلعل القارىء يكون قد رأى من جميع هذه النصوص المتقدمة أن الإسلام قد شرع للحرب والجهاد منهاجا واضحاً قاصداً وسن آدابا جديدة حميدة؟

عبد الحميد العبادى

رأى الإسلام فى القتال

لصاحب الفضيلة الدكتور محمد عبد الله دراز
عضو جماعة كبار العلماء

هذه إحدى « الثلاثيات » القرآنية .

وأعنى بتلك « الثلاثيات » طرازاً خاصاً من الأحكام ، يصدرها القرآن فى ثلاثة ألوان مختلفة من أساليب البيان : أسلوب « الإثبات » المجمل تارة ، و « النفى » المجمل تارة ، و « الإثبات والنفى » جميعاً تارة أخرى ؛ مفصلا فى هذا الوضع الأخير مطالع الحكم ومقاطعه ، ومحدداً فيه منازل التشريع ومنازعه ؛ مبيناً بذلك أنه ، حين يثبت مجملا وحين ينفى مجملا ، إنما يقضى فى شأنين مختلفين ، فيقرر فى كل شأن حكمه العدل ، ويقول فى كل مقام قوله الفصل .

ليس أخطر على الباحث فى الشريعة الإسلامية من الوقوف عند أطرافها المجملة ؛ لأنه بذلك يدع نصوصها تتصادم وتتخاصم .. حتى إذا سعى فى الصلح بينها برأيه لم يأمن على نفسه الهوى والزلل فى تأويلها . وهذا شأن اتباع المتشابه الذى نهى الله عنه .

وإنما يستبين موقف الإسلام واضحاً جلياً فى هذا الضرب من المسائل ، حين يلتمس حلها فى تلك الآيات الجامعات ، التى تلتقى فيها الأطراف على قدر ، والتى يبرز بها التشريع الإسلامى فى وحدة لا تنقسم ، وعروة لا تنفصم . تلك هى الآيات المحكمات ، وهن أم الكتاب .

هذا الطراز من التشريع الثلاثى مفتاحه إذاً فى وسطه لا فى طرفيـــه ، وروحه فى قلبه لا فى جناحيه . وستريك الآن : أين الأطراف ، وأين الأوساط فى موضوع حديثنا .

* * *

فانظر ها هنا ، فى أقصى الجانب الأيمن !

أليس يبرز الإسلام أمامك فى شعاب « مكة » ووديانها رافعاً راية السلام بيضاء نقية لا شية فيها ؟ أليس يبدو نبى الإسلام باسطاً جناحى رأفة ورحمة يفىء إلى ظلهما الوارف أنصـــاره وأعداؤه على السواء ؟ ألست تسمع كتاب الإسلام وهو يحدد مهمة حامله ؟ فإذا هى هداية وإرشاد ، وموعظة وتذكير ، وإنذار وتبشير . ويجمع ذلك كله فى كلمة واحدة : « بلاغ » .

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » . « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » . « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » . « وما أنت عليهم بجبار » . « ادفع بالتى هى أحسن السيئة » . « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » . « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » . « فإن تولوا فإنما عليك البلاغ » . . . .

وزد ما شئت من سماحة وكرم ، لا ترى فيهما شائبة لعنف ولا انتقام ، ولا أثارة من مقاومة أو اصطدام . . . الإسلام إذاً هو رسالة السلام .

ولكن هلم إلى أقصى الطرف الآخر !

ألست تسمع من قِبَل « المدينة » صيحات النفير إلى النزال ، وقعقعة السلاح في ميادين القتال ؟ أو لست ترى هنالك أشلاء تتناثر ، وأطرافا تتطاير ، وأعناقا تدق ، ودماء تسفك ، وأرواحا تزهق ، وأسرى يشد وثاقهم ، وشهداء يهنأون بقبيل تضحياتهم، ويبشرون بعظيم أجورهم؟

« يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » ، يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال » ، « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ؛ يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون » ، « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة » ، « فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان » ، « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب . حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق » ، « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

الحرب إذاً شريعة إسلامية ، وفريضة محمدية ، بل هي أعظم من ذلك ؛ إنها عنصر أصيل من عناصر الإيمان الصادق : « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا » ، « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله . أولئك هم الصادقون » .

يا لله ! ما أبعد الشقة ، وأشد المفارقة ! . . . أمن السلام الأبيض الناصع ، الرحيم المتواضع ، إلى الثورة الحمراء القانية ، والحرب الفاتكة المهلكة ؟

تلك هي المشكلة التي فتحت باب التعليل والتأويل أمام الذين يأخذون الأمور من أطرافها . وما أكثر الفروض ، وما أبعد تشعب الظنون ، حين يتحرر المرء من قيود العيان والبرهان ! وما أشد إغراء الهوى لمن وقف في محراب العلم وهو لمّا يفق من نشوة نزعاته وعصبياته ، ولمّا يتجرد من سلطان عقائده وعوائده ! هنالك يطير خلف كل سانحة وبارحة من الرأي ، فيمسك بأيها كان أحب لقلبه ، أو أكثر تملقا لشعور قومه ، ثم يرسلها في الناس باسم العلم وفلسفة التاريخ . وما هي من العلم ولا من التاريخ في شيء .

ذلك مثل فريق من كتاب الغرب حين تفرقت بهم السبل في معالجتهم لهذه القضية :

أكان محمد متعطشا للدماء بفطرته ، ولم يمنعه من سفكها إذ كان في « مكة » ، إلا أنه كان من الأعوان في قلة ، ولم يكن أعوانه في عامة الأمر يومئذ إلا الضعفاء والمستضعفين ؛ فكان تسامحه حينذاك ضرورة ألجأه إليها العجز وفقد النصير حتى إذا واتته الفرصة في موطنه الجديد اهتبلها ، وغمس يده في الدماء إشباعا لغريزة الثأر والتشفي ؟

أم كان في هذا الموقف الحربي متحركا بحركة قسرية لا يستمليها من قرارة قلبه ، ولكنه دفع إليها دفعا ، وكان فيها تابعا لا متبوعا ؟ ذلك أنه وجد نفسه في قوم عاشوا جل دهرهم على الغارات والحروب ؛ فما كان منه إلا أن نزل على إرادتهم وجرى في تيارهم .

وهل أنا إلا من غزية ؟ إن غوت
غويت ؛ وإن ترشد غزية أرشد

لقد قلبوا وجوه الرأى وذهبوا فيها كل مذهب ؛ ولكنهم حيثما ذهبوا لم يجدوا إلا برقا خلبا ، وسرابا خادعا ، يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا . نعم لقد اصطدموا بحقائق التاريخ فى كل مسلك سلكوه ، وضلوا ضلالا بعيداً فى كل مثل ضربوه .

ذلك أن الذين درسوا منهم نفسية محمد فى مختلف أطواره : فى شبابه وكهولته ، فى بأسائه ونعمائه ، حتى فى أوج سلطانه ، شهدوا بأن محمداً لم يكن يوماً ما فظ الطبع ، ولا غليظ القلب ، ولا خشن العشرة ، ولا عاتى الحكم ، ولا حامل ضغن على صديق أو عدو . ولئن كانت فى طباعه نزعة عاتبه الوحى فيها عتاباً بلغ حد اللوم والتثريب ، لقد كانت تلك ، على العكس ، نزعته للصفح عن أعدائه ، ومجازاتهم بالذنب غفرانا ، وبالسوء إحسانا . وإن شواهد سيرته العطرة فى هذا كله لأشهر من أن ينبه عليها ، وأكثر من أن يعد بعضها . ناهيك بمنه بالحياة على قريش وهم فى قبضته ، بعد ما تآمروا على قتله .

وذلك أن الذين درسوا حياة محمد شهدوا فى الوقت نفسه بأنه لم يكن يوماً ما إمعة فى رأيه ، ولا رخواً فى حكمه ؛ وأنه لم يعرف عن أمة فى التاريخ أنها كانت أطوع لملك أو قائد أو زعيم من قوم محمد له : طاعة لا يمليها سوط ولا صولجان ، ولكن يبعثها الحب والمهابة والثقة والإيمان ؛ وأنهم بلغوا فيها إلى حد تفديته بأهليهم وآبائهم وأبنائهم وأنفسهم .

وكذلك شهد التاريخ أن خروج محمد من القرية الظالمة إلى دار الأنصار لم يكن سبباً فى تحول سياسته مع قريش من اللطف إلى العنف ، ومن المسالمة إلى المقاومة ، على الرغم من وضوح حقه فى هذا التحول وتمكنه منه ؛ فقد بايعه الأنصار من قبل هجرته إليهم ، وأعطوه المواثيق الغلاظ على مؤازرته ونصرته . فلو أنه فكر فى الثأر لرمى بهم فى وجه عدوه من أول يوم ، ولكانوا أطوع له من بنانه ؛ ولكنه لبث فيهم زهاء عامين شغل فى أثنائهما شغلا مستغرقا بشعائر دينه ، وشئون قومه ، وكان كل شىء فى سيرته إذ ذاك يدل على أنه قد تناسى الماضى بحسناته وسيئاته ، وأنه قد اطمأن الاطمئنان كله إلى حياته الجديدة : فهاهو ذا قد استبدل داراً بدار ، وأهلا بأهل ؛ بل لقد استبدل شعاراً بشعار ، وقبلة بقبلة : إذ أصبح يولى وجهه فى الصلاة شطر بيت المقدس بعد أن كان يستقبل الكعبة . وجملة القول : إن خوضه غمار الحرب لأول مرة كان حادثاً فجائيا حقا ، لم تمهد له مقدمات من حياته بالمدينة ، كما لم تمهد له مقدمات من ميوله ونزعاته ، ولا من شخصيته ومنزلته فى قومه .

° ° °

هكذا فشل كتاب الغرب فى محاولتهم تعليل هذا الموقف الجديد بأسباب وعوامل التمسوها فى المعسكر الإسلامى .

وكان الإنصاف العلمى يقضى عليهم أن يلتمسوها بعد ذلك فى الجانب الآخر : فلم يفعلوا . ولو أنهم

طرقوا هذا الباب لوجدوا من ورائه ضالتهم ، ولقبضوا من فورهم على جريمة الحرب فى مهدها ومولدها .

فالواقع أن أول حرب فى الإسلام لم يوقدها المسلمون ، بل كانوا وقودها ، وأن أعداء الإسلام هم الذين أشعلوا نارها ، وأطاروا شررها . لا أقول إنهم كانوا سببها البعيد فحسب ، بل كانوا هم معلنيها عمليا ، والمتسببين فيها من طريق مباشر ؛ وما كان من المسلمين إلا أنهم قبلوا التحدّى ، وردُّوا التعدّى .

لا تعجل أيها القارىء علىّ ردًّا وإنكاراً ، ولا تنغض رأسك إلىّ دهشاً وعجباً : فإنى أعرف أنك تقرأ فى كتب التاريخ كلها أن أصحاب الرسول هم الذين أخذوا يتعقبون عير قريش وهى آمنة مطمئنة فى قفولها من الشام إلى الحجاز . أفلا يكونون إذاً هم البادئين بالمناوشة ... ؟ ألا فليعلم القارىء الكريم أن هذا الذى سطرته كتب التاريخ إنما هو الحلقة الثانية من قصة هذه الحرب ، وأن الحلقة الأولى ظلت صفحة منسية منعزلة ، لم تأخذ مكانها فى سلسلة السرد التاريخى لهذه الفترة من الزمان ، وأن مؤرخى العرب ومؤرخى الغرب كانوا سواء فى السكوت عنها : فحق علينا أن نرد هذه اللبنة المفقودة إلى مكانها من البنيان . وإليك جلية الخبر !

لقد بدأت قريش بعد هجرة النبى وأصحابه تغير أسلوب معاملتها للمسلمين المستوطنين فى « مكة » وهم أولئك الذين لم يجدوا سبيلا للحاق بإخوانهم المهاجرين . فبعد أن كانت حوادث عدوانها عليهم قبل الهجرة حوادث فردية ، متفرقة ، وكان يلطف من حدتها فى غالب الأمر مقام الرسول وعظماء أصحابه بين ظهرانيهم ، أخذت حين خلا لها الجو تهاجم جموعهم ، وتوالى التنكيل بهم ، وهى آمنة أن تلاقى لهم وليا حميا تخشى غضبه ، أو يلاقيها شفيع متوسل تستحيى أن ترد سعيه . وما زال طغيانها عليهم يزداد يوماً بعد يوم ، حتى عيل صبرهم ، وطفح كيل بلائهم ، فهنالك أخذوا يجأرون إلى الله مستغيثين ، فى صرخات عالية ، تسمع دويها فى القرآن الكريم . . وهنالك فقط أمر الله المهاجرين والأنصار أن يخفوا لإغاثتهم ، فكان ذلك هو أول تحريض على القتال : « وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً ، واجعل لنا من لدنك نصيرا » .

لم تكن الغزوة الأولى إذاً حملة تحرش وبدء بالعدوان ، كما زعم الجاهلون ، فذلك ذنب خليق أن يعتذر منه لو وقع . ولم تكن دفعة ثأر وانتقام لجروح قديمة قد اندملت ، أو محاولة تعويض واسترداد لحقوق استولى عليها الأعداء من ديار المهاجرين وأموالهم ، كما قد يظن بادىء الرأى ؛ ولو فعلوا لكان حقا لهم تقره كافة الشرائع السماوية والوضعية ، ولكنه حق مشروع فحسب ، وكان من السائغ التنازل عنه . كلا ، لم تكن هذا ولا ذاك ، ولكنها كانت عملا أعلى من ذلك كله وأسمى : لقد كانت قياما بواجب منزه القصد مبرأ الغاية عن كل الأغراض والمنافع العاجلة ، واجب نجدة المظلوم ، وإغاثة الملهوف . فهى إذاً صفحة فخار جديرة أن تسجل فى أعلى

مكان من ديوان التضحية والإيثار ، وليست عملا عاديا يتطلب التبرير أو الاعتذار .

* * *

والآن وقد صححنا الوضع فى هذا الحادث التاريخى الذى ضلت به أفهام ، وزلت فيه أقلام ، نعود إلى سياق الحديث عن المبادىء العامة فنقول : إن أمثال هذه الضلات والزلات فى تحديد موقف الإسلام من الحروب مردها كما أسلفنا إلى تلك النظرات الجزئية الجانبية فى نصوص التشريع ، وإلى تلك الوقفات المترددة عند أطرافها المتباعدة . ولا ريب فى أن المقارنة بين الدعوة إلى السلام فى السور المكية ، وبين التحريض على القتال فى آيات من التشريع المدنى ، وهو آخر دورى التشريع الإسلامى ، كانت مثار شبهة وفتنة لكثير من النفوس المريضة ، فقد خيل إليها أن شريعة القتال جاءت قاعدة عامة ختمت بها الدعوة المحمدية ، وأنها تمثل انقلابا نهائيا محيت به آية السلام فى الإسلام . وإنه لمن العجيب والمؤسف حقاً أن أكثر الكتاب الغربيين لا يزالون إلى يومنا هذا يرددون صدى هذا الضلال القديم ؛ حتى إن بعض كبار المستشرقين (١) ، الذين عاشوا بيننا ، ودرسوا لغتنا ، وتولوا إدارات فنية فى دورنا العربية ، كتبوا فى الموسوعات الأوروبية الحديثة فصولا مطولة عن الإسلام قرروا فيها هذه النظرية الخاطئة ؛ وكانت زلتهم كنظيرهم أنهم نظروا فى التشريع القرآنى إلى طرفى خطابه المنفرجين ، ولم يحوموا حول رأس الزاوية التى يلتقى عندها الخطان .

وها نحن أولاء ندعو الباحثين المنصفين منهم أن ينتقلوا معنا من هذه الأطراف إلى الحد الوسط الذى كان وجوده فى القرآن حكمة بالغة ، وحجة دامغة ، تنقطع عند نصوصها كل الفروض والظنون ، وتنهزم أمامها كل التعليلات والتأويلات ؛ فإنه متى ظهر النص بطل القياس ، ومتى طلع النهار زال كل لبس والتباس .

أجل إن القرآن الحكيم لم يكتف فى تعيين مراده بأنه كان يدعو إلى السلم فى ظروف وملابسات عادية تلائمه ، ويأمر بالقتال فى ظروف وملابسات استثنائية تحتمه ، ولو أن القرآن نزل لأهل عصره وحدهم لكفاهم ذلك ؛ إذ كان واقع الحال فى كلا المقامين تفسيراً شافياً لموقع كل تشريع ، وتحديداً كافياً لمجال تطبيقه ، أما وهو دستور الإنسانية الخالد فقد كان من الحكمة السامية ألا يعتمد فى تحديد مقاصده على

---

(١) اقرأ البحث الذى كتبه المسيو « ويت » المدير السابق لدار الآثار العربية ، عن (الديانة الإسلامية) ونشره فى موسوعة « التاريخ العام للديانات » باللغة الفرنسية .

Gaston Wist, La Religion Islamique. in Histoire générale des Religions, PP. 347, 359-360 Quillet, Paris 1948.

ففى هذا البحث يقرر المؤلف أن فكرة الشيخ محمد عبده فى قصر الحروب الإسلامية على الدفاع فكرة عصرية تمثل تطوراً حديثاً = = فى وجهة نظر المسلمين ، وأن النصوص تدل على عكس هذه النظرية ، ويستشهد على رأيه بآية القتال : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » . فالمؤلف كما ترى يتمسك بآية من آيات الأطراف ، غافلا عن الآيات الجامعة التى سنشير إليها . على أنه قد أخطأ فى فهم الآية التى أوردها نفسها . ولو قرأ آخرها لتبين له أنها فى لقاء الجيوش فى الحروب « حتى تضع الحرب أوزارها » وأنها فى حرب الدفاع والانتصاف « ولو يشاء الله لانتصر منهم » .

ظروف واقعية فى عصر نزوله ، لا تلبث أن تنسى إذا طال العهد بها ، وكان من الرحمة الشاملة أن يسجل أهدافه بنفسه فى نص صريح يضع كل تشريع فى موضعه ، ويكون مرجعاً للناس على مر العصور والأجيال ، ولاسيما فى قضية الأمن العالمى التى يرتبط بها مصير البشرية جمعاء .

ولقد قام القرآن بهذه المهمة على أدق وجه فى آيات جامعات ، استبان بها أن الحرب ليست هى القاعدة ، وإنما هى استثناء من القاعدة ، وأنها لا يخلقها الإسلام ، ولكن يخلقها أعداؤه بعدوانهم المسلح على دعوته السلمية ، وأنها ضرورة تقدر بقدر أسبابها ، وعقوبة تزول بزوال الجريمة التى استوجبتها ؛ وبالجملة أنها محدودة بحدود الدفاع المشروع لا تستقدم عنه خطوة ، ولا تستأخر خطوة :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم » . « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » . « فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا . فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبيناً » . « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ؛ إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم . ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

لقد أبطل الإسلام حروب العصبية الدينية : « لا إكراه فى الدين » . « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ » .

ومنع حروب التشفى والانتقام للإساءات الأدبية : « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا » !

وأنكر حروب التخريب والتدمير ، وحروب الفتح والتوسع والاستعلاء : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا » !

واستنكر حروب التنافس بين الأمم فى مجال الضخامة والفخامة : « ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة » .

فهل كان يراد منه فوق ذلك كله أن يمحو حق الدفاع عن النفس والحيف ، وواجب الذود عن المستضعف والمظلوم ؟ كلا : إن الإسلام دين إحسان ولكنه إحسان لا يناقض العدل ، ولا يشجع الإجرام ، ولا يدع الحق مكبل اليدين إذا أراد الباطل أن يفتك به ؛ إنه ذو رحمة واسعة ، ولكنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين .

فهو دين عدل وإحسان معا ؛ وبذلك فضل الشرائع السابقة التى فرقت بينهما . ولقد علمنا كيف ننزل بالحكمة كلا المبدأين فى منزلته ، وحذرنا أن نضع واحداً منهما فى موضع صاحبه ؛

فوضع الندى فى موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف فى موضع الندى

محمد عبد الله دراز

طبيعة الفتح الإسلامي

للأستاذ سيد قطب

يخيل إلى أحياناً أن طبيعة الفتوح الإسلامية وبواعثها وأهدافها الحقيقية ليست مجهولة من الغربيين فحسب ، ممن يحسبون المدّ الإسلامي كان حركة سيف ، وهجرة جنس ، ودفعة أطماع . بل إنها مجهولة كذلك من كثرة المسلمين ، الذين يحسبون مجرد التوسع في الفتوحات العسكرية كسباً للإسلام ، ومأثرة للفاتحين في جميع العصور .

هؤلاء وهؤلاء سواء في البعد عن إدراك طبيعة الفتوح الإسلامية ، وبواعثها وأهدافها الحقيقية . وإنه ليحسن أن نصحح تلك الصورة المزورة أو المشوهة لا للفتوح الإسلامية ، بل للفكرة الإسلامية ذاتها في النهاية .

قال تعالى : « لا إكراهَ في الدين قدْ تبينَ الرُّشدُ منَ الغيّ » .

وقال تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى . فمن في سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » .

هذه النصوص الثلاثة من القرآن والحديث تكشف لنا عن طبيعة الحروب الإسلامية وطبيعة الفتوح الإسلامية إجمالا .

إن الإسلام يستبعد من حسابه أن تقوم حرب ، أو أن يتم فتح ، بقصد إكراه أحد على الدخول في الإسلام . وبذلك يستبعد جميع الحروب والفتوحات التي تثيرها العصبية الدينية بهذا المعنى ؛ والتي ذاق العـــالم من ويلاتها لا في الحروب الصليبية المعروفة فحسب ، ولا في الاضطهاد الأسباني للمسلمين في الأندلس فحسب ، بل في كثير من بقاع الأرض ، وفي كثير من أدوار التاريخ ؛ والتي ما تزال البشرية إلى يومنا هذا تتجرع مرارتها ، وإن كانت تتخفى تحت عنوانات أخرى غير عنوان التعصب الديني !

والإسلام يستبعد من حسابه أن تقوم حرب ، أو أن يتم فتح بقصد سيادة عنصر أو تغليب جنس ، فالناس قد جعلوا شعوباً وقبائل ليتعارفوا ؛ لا ليستذل بعضهم رقاب بعض ، ولا ليسود جنس أو شعب . وبذلك يستبعد جميع الحروب والفتوحات التي تثيرها عصبية الجنس أو اللون أو اللغة . والتي ذاق العالم وما يزال يذوق ثمراتها المرة ، حتى في العصور الحديثة ، التي يزعم الزاعمون أنها تحضرت ، وارتفعت على دوافع القبيلة !

كذلك يستبعد الإسلام من حسابه أن تقوم حرب ، أو أن يتم فتح ، بقصد جر المغانم . وبذلك يستبعد كافة الفتوح الاستعمارية ، التي تكمن وراءها مطامع اقتصادية كفتح الأسواق واستجلاب الخامات ، واستغلال الموارد ؛

أو الحصول على مراكز استراتيجية ، ومميزات عسكرية ؛ تلك الفتوحات التى عانت البشرية وما تزال تعانى من ويلاتها ، والتى تدرم الحضارة الغربية الراهنة على أساسها ، لأنها مقوم أساسى من مقوماتها .

وأخيراً يستبعد الإسلام من حسابه أن تقوم حرب ، أو أن يتم فتح ، بقصد اكتساب أمجاد شخصية للملوك والقواد ، أو إرضاء نزعات الاستعلاء والسيطرة والبروز ، التى تهيمن على أولئك الرجال ، فيسخرون من أجلها الشعوب ، لإضافة شارة إلى تاج ، أو وسام إلى رداء !

ومن ثم يتعين باعث واحد ، وهدف واحد للفتح الإسلامى ، هو الذى يقول عنه الرسول صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

إنها إذن فكرة هى التى يراد نشرها ويراد تحقيقها : أن تكون كلمة الله هى العليا . فما هى كلمة الله المعنية فى هذا الحديث ؟ ما طبيعتها ؟ وما حدودها ؟ إنه لابد لنا أن ندرك طبيعة هذه الفكرة وحدودها لكى ندرك طبيعة الفتح الإسلامى ، ولكى ندرك الفارق بينه وبين الفتوح العسكرية الأخرى . ثم لندرك أى الفتوح الإسلامية كان فى حدود الفكرة الإسلامية ؛ وأيها لم يكن ولو أنه تم على أيدى المسلمين .

قال تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام » ، « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه » .

فتحقيق كلمة الله وجعلها هى العليا يتضمن أن يصبح الإسلام لله هو دين البشرية كافة . الإسلام لله على إطلاقه بمعنى إخلاص القلب لله دون سواه . والنظرية الإسلامية تعتبر أن جميع الرسل قد جاءوا بالإسلام على هذا المعنى ، وأن جميع الرسالات قد قامت على أساسه ، وأن محمداً — صلى الله عليه وسلم — إنما جاء بالإسلام فى صورته الأخيرة التى ارتضاها الله للبشرية كافة ؛ وأن القرآن إنما جاء « مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه » ومن ثم ينبغى أن يفىء الناس كلهم إليه ، فتتحقق كلمة الله فى الأرض ، وتصبح كلمة الله هى العليا . وهذه إحدى معانى كلمة الله فى هذا السياق .

إلا أن الطريقة لأن يفىء الناس إلى هذا الدين الأخير لا يجوز أن تخرج على القاعدة الكلية التى قررها : « لا إكراه فى الدين » ؛ والمطلوب من رسول الإسلام ومعتنقيه أن يحاولوا هداية الناس إليه بالدعوة اللينة والموعظة الحسنة : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » .

فإذا وقفت قوة مادية فى وجه الدعوة السليمة فهنا فقط يجوز حمل السلاح ، لتقرير حرية الدعوة . كذلك إذا تعرضت هذه القوة للذين استجابوا للدعوة كى تفتنهم عن دينهم الذى ارتضوه بملء حريتهم . وذلك لتقرير حرية العقيدة : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » .

وفى مثل هذه الحالة يبدو واضحاً معنى القتال لتكون كلمة الله هى العليا . فكلمة الله هنا تعنى كذلك حرية الدعوة وحرية الاعتقاد . وكل قوة مادية تقوم فى وجه هاتين الحريتين أو إحداهما

هي قوة معتدية مضادة لكلمة الله الذي كرم الإنسان، وجعله على نفسه بصيرة، وجعل عقله هو الحكم، وإرادته هي مناط التكليف؛ واعتبر الوقوف بالقوة في وجه الدعوة، أو استخدام القوة للإكراه على العقيدة، معطلا لكلمة الله. فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله.

وفي هذا السبيل كانت الحروب والفتوح الإسلامية في عهدها الأول، الذي نشر الإسلام وقرره في مواطنه الرئيسية في داخل الجزيرة أو خارجها. وقد سبقت الدعوة إلى الإسلام تلك الحروب والفتوح جميعاً، ولم تتقرر الحرب إلا في حالة من حالتين: الوقوف بالقوة المادية في وجه الدعوة السلمية، أو الاعتداء على حرية العقيدة وفتنة المسلمين عن دينهم أفراداً أو جماعات.

وإن كان هذا لا ينفي أن بعض من خرجوا في هذه الفتوح كانت الغنائم والأسلاب والفيء حافزاً من حوافزهم، ولكن العبرة في هذه الحالة ليست بدوافع بعض الأفراد، إنما العبرة بأهداف القيادة. فأنا لا أحاسب دولة دخلت الحرب بطمع أفراد من جيوشها في مغانم وأسلاب، أو مغامرات ومتاع، إنما أحاسبها على الفكرة التي من أجلها دخلت الحرب، والهدف المرسوم من ورائها.

وما من شك أن القيادة الإسلامية في فتوحها الأولى على وجه التحديد، وفي كثير من فتوحاتها المتأخرة كذلك، ما كانت تهدف إلى أكثر من أن تكون كلمة الله هي العليا؛ وأن يكون الإسلام هو دين البشرية كافة؛ لا عن طريق الإكراه، ولكن عن طريق الدعوة. وضماناً لحرية الدعوة، ولحرية العقيدة، سافت الجيوش وخاضت المعارك، وفتحت البلاد بعد أن قدمت الدعوة بين يديها، وأعلنت أنها الغاية الأولى والأخيرة.

ومن ثم تتهاوى جميع الأباطيل والمفتريات، التي تقوّلها الغربيون على الفتوحات الإسلامية: طبيعتها وبواعثها، والتي نشأ بعضها عن التعصب الديني ضد الإسلام والمسلمين؛ ونشأ البعض الآخر عن سوء التفسير، بسبب قياس المؤرخين الغربيين لفتوحات الإسلام على فتوحاتهم هم، وقياس بواعث الفتوحات الإسلامية على الفتوحات الامبراطورية الاستعمارية عندهم في القديم والحديث!

وثمة مفهوم ثالث لجعل كلمة الله هي العليا، مشتق من المفهومين السابقين ومكمل لها:

إن الإسلام عقيدة وجدانية، تنبثق منها شريعة قانونية ويقوم عليها نظام اجتماعي. نظام متميز عن سائر النظم الاجتماعية التي عرفتها البشرية، ذو مقومات خاصة به، قد تشترك معه في بعضها بعض النظم الأخرى. ولكنه في مجموعه يبدو متميزا عن سائر النظم بكل تأكيد.

من هذه الخصائص أنه نظام عالمي مبرأ من العصبية العنصرية ومن التعصب الديني. ومن ثم فهو يسمح لكل إنسان أن ينضم إلى موكبه في يسر، وأن يتمتع فور انضمامه إليه بكافة الحقوق

التى يتمتع بها أول مسلم من أى جنس ومن أية قبيلة : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ومنها أنه نظام عادل ، يضمن لجميع الأفراد حقوقاً متساوية ، ولا يجعل للحاكم أو الأسرة أو لطبقة أى حق زائد عن حقوق الفرد العادى . كما يضمن العدالة المطلقة فى علاقات الطوائف والأمم فلا يقيم وزنا للعداوة والشنآن ، كما أنه لا يقيم وزنا للصداقة والقربى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى » : « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » .

وحتى ما يسمونه فى العصر الحديث باسم « مصلحة الدولة » فإنه لا يبرر فى عرف الإسلام أن تحيد الدولة عن العدل المطلق فى معاملتها مع الأفراد أو الجماعات أو الأمم . فرد الأمر كله إلى تحقيق شريعة الإسلام لتكون كلمة الله هى العليا .

ومن ثم يدعو الإسلام أهله أن يكونوا هم الأمناء على تحقيق العدل فى الأرض كلها ، ومنع الجور ، ورد الطغيان ، تحقيقاً لكلمة الله حيثما كان ظلم وكان بغى فالمسلمون منتدبون لدفعه ورفعه ، دون نظر إلى من وقع منه الظلم والبغى ، أو إلى من وقع عليه الظلم والبغى ، فى أية صورة ، وتحت أى عنوان سواء أكان ظلم فرد لفرد ، أم ظلم فرد لجماعة ، أم ظلم جماعة لفرد أم ظلم جماعة لجماعة . كله سواء لأن الناس كلهم سواء :

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما : فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا . إن الله يحب المقسطين » .

« وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً » .

ومن رفع الظلم وتحقيق العدل كل ما يتعلق بتحقيق العدالة الاجتماعية . والإسلام فوق أنه يعد العدالة الاجتماعية فى أدق صورها شريعة من شرائعه ، وتكليفاً من تكاليفه ؛ يعدها فى الوقت نفسه عبادة من عباداته ينهض بها الفرد المسلم ، وتنهض بها الدولة المسلمة ، ابتغاء ثواب الله وتجنباً لعقابه ، ومن ثم يربطها بالدين فوق كفالتها بالقانون ؛ ويفرض القتال لتحقيقها إذا لم تكن ثمة وسيلة أخرى سوى القتال .

والنتيجة التى تخلص من هذه المقدمات كلها ، أن الحروب الإسلامية والفتوح ملحوظ فيها أن تحقق إلى جانب حرية الدعوة وحرية العقيدة العدالة المطلقة لجميع الناس ، فإذا هى لم تحمل هذه المقدمات معها لأهلها والبلاد المفتوحة كذلك لم تكن حربا إسلامية ولا فتحاً إسلامياً . ولم تزد ثمرتها على ضم رقعة من الأرض إلى الدار الإسلامى . وزيادة رقعة الأرض لم تكن يوما ما ذات قيمة فى حساب الإسلام . إنما القيمة كلها لتحقيق النظام العادل الكامل الذى يقوم على الشريعة الإسلامية المنبثقة من العقيدة الإسلامية . وهذا

هو الذى كان يضيف إلى الإسلام قلوبا وشعوبا . وهذه هى غاية الفتح الإسلامى لا الأرض ، ولا الفىء ، ولا الغنيمة ، ولا الغلبة على البلاد والعباد .

جاء فى كتاب « الدعوة إلى الإسلام » تأليف . سيرت . و . أرنولد ، وترجمة حسن إبراهيم حسن وزميليه فى ص ٥٣ وما بعدها :

« وقد استطاع ميشيل الأكبر Micheal The Elder بطريق أنطاكية اليعقوبى أن يحبذ فيما كتبه فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، ما كتبه إخوانه فى الدين ، وأن يرى أصبع الله فى الفتوح العربية ، حتى بعد أن خبرت الكنائس الشرقية الحكم الإسلامى خمسة قرون . وقد كتب يقول بعد أن سرد اضطهادات هرقل : [وهذا هو السبب فى أن إله الانتقام ، الذى تفرد بالقوة والجبروت ، والذى يديل دولة البشر كما يشاء ، فيؤتيها من يشاء ، ويرفع الوضيع ، لما رأى شرور الروم الذين لجأوا إلى القوة ، فنهبوا كنائسنا ، وسلبوا أديارنا فى كافة ممتلكاتهم ، وأنزلوا بنا العقاب فى غير رحمة ولا شفقة ، أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب لتخليصنا على أيديهم من قبضة الروم . وفى الحق أننا إذا كنا قد تحملنا شيئا من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا ، وإعطائها لأهل خلقيدونية ، فقد استمرت هذه الكنائس فى حوزتهم . ولما أسلمت المدن للعرب خصص لكل طائفة الكنائس التى فى حوزتها (وفى ذلك الوقت كانت قد انتزعت منا كنيسة حمص الكبرى وكنيسة حران) ومع ذلك فلم يكن كسبا هينا أن نتخلص من قسوة الروم وأذاهم ، وحنقهم العنيف ضدنا ، وأن نجد أنفسنا فى أمن وسلام] .

« ولما بلغ الجيش الإسلامى وادى الأردن ، وعسكر أبو عبيدة فى فحل . كتب الأهالى المسيحيون فى هذه البلاد إلى العرب يقولون : [يا معشر المسلمين . أنتم أحب إلينا من الروم ، وإن كانوا على ديننا . أنتم أوفى لنا ، وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنا ، وأحسن ولاية علينا . ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا] .

وغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل ، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم .

لقد كان الفتح الإسلامى فتحا فريدا فى تاريخ البشرية كلها ، لم تعرف له من قبل ولا من بعد نظيرا ، إنه لم يكن فتحاً للأرض وكنوزها ، إنما كان فتحاً لقلوب ساكنى الأرض ، وغرس بذرة العدل والتسامح والمساواة والإخاء فيها .

وإن أى إنسان مخلص للإنسانية ، يعرف طبيعة الفتح الإسلامى ، ويدرك أهدافه وبواعثه ليتمنى أن لو كان مد الإسلام الأول قد غمر الأرض جميعا ، وألقى فيها تلك البذرة الطيبة الخيرة ، وإن الرجاء المعقود - بعون الله - على مد الإسلام الثانى . الذى أخذت بوادره تظهر فى يقظة العالم الإسلامى ، وانبعاث الفكرة الإسلامية ، أن يغمر الأرض ومن عليها .

سيد قطب

فتوح المجاهدين في سبيل الله

العقيدة الإسلامية وأثرها في سمو الإنسان

لصاحب الفضيلة الأستاذ محمد محمد المدني
السكرتير العام المساعد للأزهر

تدل الدراسات النفسية للأفراد والجماعات على أن الإرادة تخضع إلى حد بعيد للقوة العقلية وتصطبغ فى الأفراد والجماعات بصبغتها ، فإذا اقتنع العقل بشيء وآمن به وتجه الإرادة إليه ، وبعث الرغبة فيه ، فكأن هذا الاقتناع هو القوة المحركة العاملة على وجود هذا الشيء أو بقائه ، ولذلك يحرص أصحاب الدعوات دائما على مخاطبة العقول وإقناعها بما يريدون ، لأنها متى اقتنعت استجابت ، ومتى استجابت كانت العزيمة والإرادة فالعمل ، ولا تجد الحذاق منهم يرمون إلى التسلط بالقوة والاعتماد عليها ، فإن القوة قد تفلح فى فرض شيء ما ، ولكنها لا تستطيع أن تكفل له بقاء مستقرا مثمرا ثمرات طيبة مهما كان تأثيرها ومداها .

ومن ثم كانت الأديان ذات تأثير قوى لا يغالب ، ذلك بأنها تصل بعقائدها وما تبثه فى العقول والقلوب إلى تكوين إيمان قوى تثير به العزائم إثارة قوية فعالة مكتسحة ، يظنها الناس إعجازاً ، وإنما هى سنة الله فى القلوب إذا آمنت إيمانا حقاً .

والأديان كلها متفقة فى أصول العقائد من الإيمان بالله والرسل والكتب واليوم الآخر والحساب والجزاء ، وقد سما هذا الإيمان بالإنسانية فى عهودها المظلمة إلى حد ما ، نعم إن الجهالة والبهيمية كانتا حينئذ أبعد أثراً وأكبر نجاحا فى التشبث ببقاء الإنسان فى حضيضه ، ولكن كانت توجد دائماً قلة مؤمنة حول الرسل ودعاة الإصلاح فى الأمم ، تبشر بالمستقبل المنتظر للإنسانية ، فلما بزغ شمس الرسالة المحمدية كان ذلك إيذانا بتغلب قوة الإصلاح والخير ، ومطلعا لعهد قريب من السمو بالإنسانية إلى أقصى ما ينبغى لها من مراتب الكمال والكرامة .

ومقال كهذا لا يمكن أن يستوعب جميع العقائد الإسلامية التى كان لها أثر فى السمو بالإنسان ، فحسبنا أن نضرب المثل ببعض الأصول التى امتازت بها الرسالة المحمدية فى ذلك ليعرف الناس أى جميل أسداه الإسلام للكرامة البشرية :

١ - كان رجال الأديان الأخرى يضربون نطاقا فولاذيا على الناس ، ويستبدون بشئونهم استبداداً عجيباً ، ولم يكونوا يكتفون بما جعلته إليهم نظم الحكم والسياسة ، من وجوب استئذانهم فى سائر التصرفات المادية ، من بيع وشراء وهبة وزواج ونحو ذلك ، بل جعلوا من أنفسهم وسطاء بين العباد ورب العباد ، فمن أراد أن يتوب إلى ربه فعن طريقهم ، إن شاءوا فتحوا له باب التوبة وإن شاءوا أغلقوه ، ومن أراد أن يدعو ربه فإليهم أولا يجب أن يرجع . وفى سبيل هذا

أو ذاك يجب أن تقدم إليهم القرابين ، وأن تملأ أيديهم بالذهب النضار ، وأن يدخل معهم في مساومات يسيرة أحياناً ، وشاقة أحياناً تبعا لما اقترفه من ذنب صغير أو كبير .

وقد نزلت هذه الأوهام والأباطيل بالإنسان إلى مستوى العبودية لغير الله ، وجعلته ذليلا خاضعاً لحفنة من الناس الذين لا يمتازون عنه في شيء ، وليس لهم عمل في الحياة إلا أن يبتزوا ماله وثمرات سعيه بهذا الإيهام الكاذب ، كما أثر ذلك في العقول فأصابها بالشلل والعقم والجمود ، ومن ثم لم يكن من العجب أن يظل البشر في عماية عن الحقائق ، وجهل عميق بقيمة أنفسهم وبما يجب عليهم أن يقوموا به لأداء رسالتهم السامية في عمارة هذا الكوكب الذي أسكنهم الله إياه ، وسخر لهم كل شيء فيه ، حتى إذا جاء الإسلام صرع هؤلاء الوسطاء الكاذبين صرعة لا قيام لهم من بعدها ، فأعلن في صراحة أن الله قريب من عباده يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، وأنه أقرب إلى عبده من حبل الوريد ، وأنه لا يشترط في قبول العبادة من الناس أو التوبة من الذنوب وساطة أحد أو شفاعة أحد ، فما على المرء إلا أن ينيب إلى ربه ، ويتوب من ذنبه ، دون أن يتذلل أو يتزلف أو يقدم القرابين .

بهذا كُرِّم الإنسان ، وصينت عليه عزته ، وانفتحت أمامه أبواب الأمل التي كانت مغلقة ، وسما بعقله وتفكيره عن ذلك الضيق الذي قصر عليه ، وحبس فيه ، وعلى الجملة كان شعوره شبيهاً بمن كان تحت الوصاية ثم رفعت عنه قيودها ، وأصبح حراً طليقاً يفعل ما يشاء غير مُراقِب أحدا إلا ربه ، ولم تكن بركة هذه العقيدة قاصرة على الذين اعتنقوا الإسلام وآمنوا برسوله الكريم ، ولكنها سرت إلى أهل الأديان الأخرى سريانا عجيبا ، فلم تمض فترة طويلة حتى خرجوا على أحبارهم ورهبانهم وقسيسيهم فلم يعد أحد يؤمن إيمانا صادقا بوصايتهم أو وساطتهم إلا أن يكون ذلك صورة من الصور التقليدية يؤدونها وهم بها كافرون ، ولها كارهون ، فكأن الإسلام بذلك قد بذر للإنسانية كلها هذا البذر الطيب فأخرج نباته بإذن ربه .

٢ - وعقيدة « التوحيد » من العقائد المشتركة بين الأديان ، ولكن أمرها كان عجيباً في أذهان المنتسبين إلى هذه الأديان حتى إذا قطعنا النظر عن اضطراب أهـــل التثليث فيها ، وما يحاولونه من حمل العقول على قبول نظرية الأب والابن والروح القدس ، كصـــورة من صور الوحدانية أو التوحّد ، فالأحبار والرهبان - وساعدهم الملوك وأصحاب السلطة المادية - قسموا الناس طبقات ، وخيلوا لهم أن الدماء الآدمية تختلف ، فلهذه الطبقة من الحقوق ما ليس لتلك . ولهذا الدم أن يحكم وأن يورِّث الحكم في أعقابه بأمر الله ، وليس لأحد من العامة أن يعترض وإلا كان جزاءه الطرد على يد الحكام من الحياة الدنيا بالموت ، والطرد على يد رجال الكهنوت في الحياة الآخرة من رضوان الله ، وبهذا فترت الهمم ، وانحلت العزائم ،

وصار الناس يدورون فى فلك ضيق ، إن كانوا من الخاصة لم يكدوا ولم يكدحوا ولم يكلفوا أنفسهم أن يسلكوا فى الحياة سبيلا قويما لأنهم لا يخافون أن يضيع مجدهم أو ينزلوا إلى مرتبة العامة ، وإن كانوا من العامة لم تسم نفوسهم إلى حياة أرفع لأن هذه الحياة مستحيلة عليهم فى ظل هذا التقسيم الجائر الذى فرض على المجتمع ، ومن ثم استرخى هؤلاء وهؤلاء ، وصار العز والرفعة ميراثا يصل إلى الأبناء عن آبائهم وأجدادهم ، كما صار الفقر والشقاء ميراثا لقوم آخرين لا يعدوهم .

وهذا نوع من الشرك بالله ، فإن الله هو الذى له العزة جميعا ، وعباده هم الفقراء إليه ، المحتاجون إلى فضله دائما ، فكيف يشارك رب العزة فيما هو من خصائصه ؟ .

وشىء آخر فى هذا النظام الطبقى ، إنما هو نوع من الشرك ، ذلك هو ادعاء الأحبار والرهبان حق التشريع بالتحليل والتحريم ، وما كان التشريع والحكم إلا لله .

وهكذا كان الناس غارقين فى الشرك وإن انتسبوا إلى شرائع تنادى بالتوحيد .

ثم جاء الإسلام فكان منطقيا عمليا فى دعوته ، فالناس جميعا لديه سواء كأسنان المشط ، لا فضل لأحد على أحد بدعوى أنه من هذه الطبقة أو من تلك ، ولا بدعوى أنه تجرى فى عروقه دماء معينة ، وفى ذلك يقول رسوله صلوات الله وسلامه عليه : « أيها الناس . إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ، ويقول الله فى كتابه الكريم « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . وفى هذا المبدأ الذى هو استواء الناس فى الحقوق والواجبات نتيجة لاستوائهم فى المربوبية لرب واحد وفى البنوة لأب واحد ، يصل السمو بالإنسانية إلى مرتبته الكاملة ، وفى جعل التفاضل والتمايز ، بالتقوى ، تقدير للقيم المعنوية ، وحفز للهمم والعزمات ، وما التقوى إلا سلوك طريق الرشاد فى كل ناحية من نواحى الحياة .

وقد كان من أثر هـــذه العقيدة التى أعلنها الإسلام وأوجبها أن استوى الناس فلا طبقات ولا متقمصين لسلطة التشريع والحكم « إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه » .

وعندما تولى الخليفة الأول كان مما أعلنه على رءوس الأشهاد قوله « إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، ولقد وددت لو أن أحدكم قام بهذا الأمر عنى ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى » .

ولم نر أحداً من أهل العلم أو الحكم يزعم أنه ذو حق فى التشريع والتحليل والتحريم ، وإنما هم ناظرون فى كتاب الله وسنة رسوله يستنبطون حكم الله ويبلغونه للناس أو يقومون عليه ، ولذلك يعتقد كل مجتهد أنه عرضة للخطأ والصواب ، ولم يرض أبو بكر حين بويع بالخلافة أن يُدْعى « خليفة الله » وقال : إنما أنا « خليفة رسول الله » ثم رأى عمر أن يزداد بعداً عن

مظنة التشريع والنيابة عن الشرع فسمى نفسه « أمير المؤمنين ».

٣ - وقد سما الإسلام بالإنسانية سموا آخر، حيث جعل كل إنسان مسئولا عن نفسه، محاسباً على ما يفعله هو من خير أو شر، فلا هو بمسئول عما يأتيه غيره، ولا هو بمنتفع بعمل أبيه أو جده « أن لا تزر وازرة وزر أخرى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى »، « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها »، « كل نفس بما كسبت رهينة »، « فما تنفعهم شفاعة الشافعين »، « يا فاطمة اعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً ».

وبهذه العقيدة أدرك الإنسان قيمته، وأحس بالمسئولية الملقاة على عاتقه، واستثار كوامن قوته ومواهبه ليخطو فى الحياة معتمداً على نفسه مستمداً النجاح والفوز من ذاته وعمله، وبهذه العقيدة أيضاً قضى على تلك السلطة الغيبية التى كان يزعمها رؤساء الأديان من أنهم يستطيعون أن يجعلوا العاصى طائعاً لو أرادوا، وأن الجنة ملك لهم يقطعون منها ما يشاءون لمن يشاءون.

* * *

هذه أمثلة مما جاء به الإسلام من عقائد الحق التى سمت بالإنسان وحفظت كرامته، ووجهته فى الحياة الوجهة الصحيحة المعينة له على القيام برسالته من عمارة الكون، وعبادة ربه الأعلى.

وهناك عقائد أخرى تجرى فى هذا المضمار، ولها تلك الآثار، كعقيدة البعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال، وعقيدة التآخى بين الدين والعلم، على معنى أنه لا يمكن أن يختلف العلم الصحيح مع الدين، والإيمان بالحكمة التامة فى كل ما يصدر عن الإله، وبأن للكون سنناً لا تتبدل ولا تتحول، وبوجوب البحث والنظر على كل مستطيع، وبحرية العقل فيهما وعدم تكبيله والحجر عليه ... الخ.

نعم إن الأديان الأخرى قد شاركت الإسلام فى بعض تلك العقائد، ولكن أهلها - كما بينا فى عقيدة التوحيد - قد حرّفوها والتووا بها عن أصلها، وغفلوا عن لوازمها ومقتضياتها فكانوا بذلك مجافين لمنطقها، وحائلين بينها وبين أن تؤدى إلى الغاية المقصودة منها، أما الإسلام فأهدى للناس ما أهدى من ذلك صافياً لم تشبه الشوائب فكان حقاً وصدقاً هو الحجة البيضاء، ثم انفرد بما لم يشاركه فيه سواه، فكان دين الإصلاح الكامل، ومنهج السمو الذى ليس بعده سمو، وكان جديراً بما قاله الله عز وجل حين أتمه « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً ».

محمد محمد المدنى

قال الله تعالى :

ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا .

الأسس التي قام عليها التشريع الإسلامي

لصاحب الفضيلة الأستاذ على الخفيف
أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق

الشريعة الإسلامية أبعد الشرائع عن التأثر بالأهواء والاستجابة للأغراض الشخصية والمطامع الطائفية ، لا يأتيها الباطل ولا تجنح إلى التمييز ولا تجعل الناس طبقات بعضها فوق بعض . وإذا جاز لشريعة أن تنزع إلى تحقيق شهوة ملك ، أو أن تهدف إلى رفع طبقة من الناس ، أو أن تميل إلى تحقيق مصلحة حزبية أو فكرة مذهبية ، أو أن تزل فى وضعها العقول وتضل فى توجيهها الأفكار ، فلن يجوز ذلك على شريعة شرعها الحكيم العليم وأنزلها لهداية الناس أجمعين والوصول بهم إلى عيشة راضية ينعم بها الفرد ويسعد بها المجموع .

ويهدينا النظر فى هذه الشريعة إلى أنها قد قامت على أسس حكيمة وقواعد متينة ، روعيت فيها الطبائع الإنسانية والنزعات النفسية ولوحظت فيها القوى البشرية وما يعرض لها من عوارض وما تتأثر به من أسباب وعوامل ، فحققت لذلك أغراضها وآتت أكلها . ولكن الناس قد صدوا عنها فأعقبهم ذلك انحطاطا فى أخلاقهم وضعفاً فى نفوسهم وانحلالا فى وحدتهم وخرابا فى أوطانهم فأصبحوا ، عبيداً أذلاء لغيرهم يسخرونهم فى تنفيذ أغراضهم ويحكمونهم بأهوائهم .

قامت الشريعة الإسلامية على أسس عديدة أهمها أسس ثلاثة ، إليها يرجع كثير من قواعدها وأصولها وفيها تندرج جميع الأغراض والحكم التى قصدت إليها فى جميع نواحيها واتجاهاتها ، وهذه الأسس هى رعاية مصالح الناس والتيسير عليهم والعدل بينهم ، فأما رعايتها لمصالح الناس فجماع أغراضها وأهم أهدافها ، لا تغفله فى حكم ولا تتحول عنه فى تشريع فحيث تكون المصلحة يكون حكمها ، وحيث تكون المفسدة يأتى حكمها . وهذه حقيقة تضافرت عليها الأدلة حتى أصبحت علماً ضروريا لا يرقى إليه شك ولا تقاربه ريبة ، يدل عليها ما وصف به الكتاب الحكيم الذى جاء بها وما نعت به الرسول الذى شرع للناس أصولها وبين لهم أحكامها ، فقد وصف الكتاب بأنه مبارك أنزل رحمة للعالمين وهدى وبشرى للمؤمنين ونورا وموعظة للمتقين وبصائر وشفاء للناس أجمعين : يقول الله تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » ويقول « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » ويقول « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » ويقول فى وصف الرسول : « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » . وغير ذلك من آى القرآن كثير معلوم ، وليس

بعد هذا صلاح يرتجى ولا خير يطلب. وليس فى الإمكان أن يأتى كتاب هذه بعض أوصافه بشريعة تسيم الناس الخسف وتهدر فيها الحقوق وتضيع معها المصلحة ويشقى بها أهلها، إذ لا يمكن أن يكون هدى وقد جاء بالضلال ولا أن يكون رحمة وفلاحا وقد أتى بالشقاء، ولا أن يكون شفاء وقد نزل بالمرض ولا أن يكون نوراً ورشداً إذا ضل به العقل وفشت به الجهالة. ثم أى شىء يكون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وحل الطيبات وتحريم الخبائث ووضع الأثقال وتحطيم الأغلال إذا لم تتوافر بذلك المصالح وتتحقق المنافع ويزول الضرر وتجتث أصول الشر.

وإذا كان صنيع الله فى خلقه أن هيأ للإنسان منافعه ويسر له حوائجه وأحضر له مطالبه فسخر له ما فى السموات وما فى الأرض وسخر له الليل والنهار وسخر له الشمس والقمر دائبين وسخر له الفلك وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة فهل يمكن أن يكون صنيعه فى شرعه على خلاف صنيعه فى خلقه؟

لقد دل استقراء الشريعة والنظر فى أدلتها كلية وجزئية والبحث فيما انطوت عليه من الأغراض والحكم، على صحة هذه النظرية فكانت أدلة الشريعة كلها لا فرق بين خاصها وعامها ولا بين مطلقها ومقيدها ولا بين كليها وجزئيها، دائرة على رعاية المصالح فى جميع مناحيها ووقائعها حتى صار العلم بذلك علماً ضروريا وتبين أن رعاية المصالح قطب التشريع الإسلامى وأصله الذى لا متحول عنه.

كما دل استقراء تلك الأدلة على أن رعاية الشارع الإسلامى إنما كانت لمصلحة المجموع فكانت هى أساسه فى شرعه دون أن يكون لمصلحة الفرد أى اعتبار فى حكمه إذا عارضت مصلحة كلية. ولذا كان من قواعد هذه الشريعة تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة عند تعارض المصلحتين. وعلى هذا الأصل شرعت أحكام كثيرة، منها الحكم القاضى بأخذ الملك من صاحبه جبرا عنه لأجل مصلحة عامة كشق طريق أو توسيع مسجد، فعل ذلك عمر حين ضاق المسجد الحرام على الناس وكانت دور الناس يومئذ محدقة به من كل جانب عدا فتحات جانبية يدخل منها الناس إليه فاشترى عمر دورا منها وأبى عليه ذلك أصحاب الدور الأخرى فأخذها منهم جبرا وأدخل الجميع فى المسجد بعد أن أودع قيمة ما أخذ جبرا باسم أصحابه.

وهذا حل سليم، لأن المصالح الفردية متضاربة متعارضة ليس فى الإمكان رعاية شىء منها إلا باطراح كثير غيره، وليست رعاية مصلحة فرد بأولى من رعاية مصلحة فرد آخر والضرر يجب أن يزال. وفى رعاية مصلحة المجموع رعاية لمصلحة كل فرد من ناحية أنه جزء منه ومصلحة عائدة إليه، فكان ذلك هو الواجب مراعاته دون نظر إلى ما قد يعارضه من المصالح الفردية. ومصالح الناس فى هذه الحياة تتكون من أمور هى لهم ضرورية تتوقف عليها حياتهم ويختل بفقدها وجودهم. وأخرى هم فى حاجة إليها ولكنها دون الأولى فى اعتماد الحياة عليها وصلاح الوجود بها فلا تختل بفقدها حياة الناس ولا يعمهم بسبب ذلك الفساد ولا تسود فيهم الفوضى ولكن يصيبهم عند فقدها حرج

ومشقة لا يبلغان مبلغ ما يكون من فساد وضرر عند فقد الأولى . وينضم إلى هاتين الطائفتين من المصالح طائفة ثالثة من أمور لا تدخل فى الطائفتين السابقتين لأنها دونهما ولكن تعتبر مكملة لها ويجمعها الأخذ بمحاسن العادات والعمل بما تتطلبه المروءات ورعاية أحسن المناهج فى العادات والمعاملات[1] فتتحقق للناس مصالحهم على أكمل وجه وتطيب معايشهم . وينعمون بحياتهم .

وقد بنى أمر هذه الحياة على اختلاط المصالح بالمفاسد واللذات بالآلام ، فلا يقع فى هذا الوجود نفع إلا مشوبا بضرر ، ولا لذة إلا مختلطة بألم ويعجزك الفصل بينهما إذا حاولته ويعييك الظفر بأحدهما وحده إذا أردته . ولهذا كان اتجاه الشارع الإسلامى فى شرعه إلى غلبة أحد العنصرين فهو يراعى ما غلب فيه جانب المنفعة ، ويدرأ ما غلب فيه جانب المفسدة ، وما قد يوجد فى الأمر من ضرر وحرج فإن الشارع لا يقصد إليه ولا يريده من شرعه ولا يجعل لوجوده اعتبارا نظرا إلى ما يصاحبه من نفع راجح وصلاح غالب .

ورعاية الشارع للمصالح ودرئه للمفاسد على هذا الوضع تتناول أمورا كانت هى الأخرى من أسس شرعه التى قام بها ومن قواعده ، التى بنى عليها كثيرا من أحكامه لما فى رعايتها من توفير الخير وتحقيق النفع .

من ذلك مراعاة ما جرى به عرف الناس فى تعاملهم وما اعتادوه فى تصريف شؤونهم مما ليس فيه ضرر غالب فإن الناس قد تدفعهم الحاجة وتقتضيهم الحياة أن يزاولوا أمورا يرون فيها استقامة أحوالهم وسداد حاجتهم فتصير جزءا من نظامهم وعرفا جاريا فيهم ، تقوم به حياتهم وتصلح أمورهم فلا يكون من الحكمة والمصلحة إحراجهم بحملهم على تركه دون أن يكون فى ذلك صلاحهم . وما جاءت الشريعة بحرج ولا شرعت الإعنات ومع هذا قد تدعو الناس أهواؤهم الجامحة وشهواتهم الطاغية إلى ارتكاب أمور أخرى يخدعهم زيفها ويغريهم بريقها فيتخذونها عبثا ولهوا وتصير محببة إلى نفوسهم السيئة ونزعاتها الآثمة فينغمسون فيها حتى تتمكن منهم وتفشو فيهم وتصير عادة عامة لهم .

فى مثل هذه الحالة رأت الشريعة أن تطهرهم منها وأن تجنبهم آثامها وشرورها وأن تعالجهم من أمراضها بكل وسيلة تدعو إليها الحكمة مع الموعظة الحسنة .

وهذان نوعان من العرف أولها : عرف صحيح لأنه لا يعارض شرعا ولا يخل بصلاح . وقد راعت الشريعة الإسلامية ما يقضى به فأقرت فرض الدية على العاقلة ، واشتراط الكفاءة فى الزواج ، ومبدأ العصبية فى الإرث ، وتحريم الزواج بين المحارم من الأقارب ، وكثيراً من أنواع المعاملة والمبادلة ، كالسلم والعارية وغير ذلك مما كان معروفا لدى العرب قبل الإسلام . وثانيهما عرف فاسد لما يترتب عليه من ضرر وما يجر إليه من مفاسد . وقد حاربته الشريعة لحرمته

(١) ورعاية الشريعة لها على هذا الترتيب تهمل رعاية الطائفة الثانية إذا عارضت الأولى وتهمل الثالثة عند معارضتها الثانية وتراعيها جميعا عند عدم التعارض بينها وتراعى هذا الوضع .

وفرضت العقوبات على مقترفه . ومن ذلك التعامل بالربا والميسر وشرب الخمر وغير ذلك من منكرات الجاهلية . ولذا لم تكن الشريعة الإسلامية شريعة مستحدثة جديدة فى جميع نواحيها بل كان كثير من أحكامها معروفا مقررا قبل مجيئها وكانت مهمتها فى الواقع إصلاح المجتمع وعلاجه . وذلك بإصلاح الفاسد وتكميل الناقص وتحريم الضار وإقرار الصالح .

وقد يتناول العرف ما بقى فى الناس من شرائع سابقة لم تعمل فيها يد الإفساد والتحريف فبقى على صلاحه وأصبح عرفا صحيحا راعاه الشارع الإسلامى لأنه موف بالغرض الذى قصد إليه من شرعه .

ويتصل بهذا الأصل أيضاً إقرار الشارع الإسلامى لما يراه المسلمون حسنا من الأفعال والأحكام ، فإن إسلامهم يمنعهم أن يروا الحرام حلالا والخبيث طيباً والفاسد صالحا ، فلا يرون الشىء حسناً إلا إذا كان خيراً أو وسيلة إلى خير ؛ وتلك أغراض توخاها الشارع فى شرعه وقصد إليها فى حكمه ؛ ويؤيد ذلك الأثر : «ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن » ، وكانت هذه الفكرة إحدى الدعائم التى قامت عليها حجية الإجماع واعتضدت بها الشورى فى الإسلام .

وإذا كانت الشريعة كما بينا قد شرعت لتحقيق مصالح الناس وسد حاجاتهم فليس فى توفير المصالح ما هو أهم وألزم من درء المفاسد ودفع المضار ، ولذا حرمت الخبائث ونهت عن الجرائم وأمرت بالكف عن المحرمات والسعى إليها وكان شرع الله فى ذلك سبيلا إلى توفير النفع وتحقيق الخير العام دون نظر إلى ما قد يخالط ذلك من ضرر قد يصيب فرداً وقلة من الناس .

وعلى هذا الأساس أمر الناس بالدفاع عن أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ودينهم ولو أدى ذلك إلى قتل النفس . وساغ للتاجر أن يرخص فى سلعته وإن ترتب على ذلك إعراض الناس عن سلع غيره[1] وأن يدفع الرجل عن نفسه ظلماً وإن رأى أنه يصيب عند ذلك غيره : قيل لحماد بن أبى سليمان : قد يتكلم الرجل فترفع عنه المظلمة وتوضع على غيره فقال إنما عليك أن تدفع عن نفسك فإذا وقعت على غيرك فلا تبالى إذ لا سبيل عليك إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق .

وقد يكون الضرر فى أمر من الأمور غالبا فيحرم لذلك ، ثم يعرض له فى بعض الظروف ما يجعل النفع فيه راجحا ، فيتغير لذلك حكمه ويصير جائزاً أو مطلوبا بعد أن كان ممنوعا ، غير أن ذلك يجب أن يكون موقوتا ببقاء تلك الحالة واقتضاء ذلك الظرف وعلى قدر ما تستوجبه الضرورة فتقدر عند ذلك بقدرها ولا يجوز مجاوزتها وعلى هذا الأساس أحلت الشريعة كثيراً من المحظورات حسبما تقضى به الضرورات ووضعت القاعدة : الضرورات تبيح المحظورات . وعلى أساس ذلك أحل أكل الميتة لمن اضطر

---

(١) وحرم على الناس تلقى الركبان من التجار لأخذ السلع قبل دخولهم إلى الأسواق وبيع الحاضر للبادى قبل تعرف الأسعار وبيع السلاح لأهل الحرب والفتنة والتكرت عن المنكر .

فى مخمصة غير متجاوز ما يدفع عنه الهلاك . وأحل أكل مال الغير دفعا للهلاك عند شدة الجوع بقدر ما يدفع الضرر . وحل شرب الخمر للتداوى أو لدفع الظمأ الشديد الضار . وفى مثل ذلك نزل كثير من آى القرآن الحكيم قال تعالى بعد بيانه لبعض المحرمات : « فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » وقال فى موضع آخر : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم » وفى موضع آخر « إلا ما اضطررتم إليه » وفى آخر « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » .

وعلى هذا الأساس شرعت العقوبات بجميع أنواعها ففيها صلاح الجانى فى كثير من حالاتها على الرغم مما يصيبه من ألم ، وفيها زجر غيره ممن تسول لهم أنفسهم أن يعتدوا على غيرهم أو يخرجوا على النظام أو يعبثوا به . وفيها صلاح المجتمع ، وهو غاية كل تشريع صالح وأمل كل مصلح ورجاء كل عاقل حكيم .

ويتصل بهذا الأصل قاعدة هامة من قواعد التشريع الإسلامى ، وهى قاعدة سد الذرائع وتتحقق عندما يكون الفعل الجائز فى نفسه ذريعة وطريقاً إلى ما هو شر فى نفسه . وإن شئت قلت عندما يكون فى مباشرة أمر فيه مصلحة إفضاء إلى مفسدة .

عند ذلك يكون للوسيلة حكم ما تفضى إليه من مفسدة حرمة أو كراهية . وقد حكمت هذه القاعدة فى كثير من أحكام الشريعة الإسلامية حتى جعلها ابن القيم أصلا لرابعها . وليست هذه القاعدة فى الواقع إلا تطبيقاً للأصل القاضى بدرء المفاسد على أتم وجه وأكمل وضع ، حتى لا يتورط الإنسان فى شر من حيث أراد الخير لنفسه ، فاقتضت إرادة الشارع الحكيم أن تكون لوسائل المفاسد وطرائقها من الكراهة والتحريم ما لعواقبها ، إذ لو أباحها لكان ذلك نقضاً لحكمه ورفعاً لتحريمه ولا نفتح على الناس باب المفاسد والشرور لا يصلح به حال ولا يقوم معه نظام ولا يسلم معه اجتماع .

ومما بنى على هذه القاعدة من الأحكام تحريم الخلوة بالنساء الأجنبيات وسفرهن مع غير ذى رحم محرم منهن . والجمع بين المحارم والزيادة على أربع زوجات . ومن ذلك قوله تعالى « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم » . وغير ذلك كثير من الأحكام .

وأما قصد التيسير على الناس فهو مستبين فى جميع أحكامها واضح فى كل دلالاتها ظاهر فى خلق من جاء بها وبيّنها وليس أدل على ذلك من قوله تعالى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » فقد دل على أن إرادة اليسر إرادة عامة شاملة غير منقطعة لا تصاحبها إرادة العسر فى أى زمن أو أية حالة . ومن قوله تعالى لرسوله « ونيسرك لليسرى فذكر إن نفعت الذكرى » أى نمدك ونهيئك للشريعة اليسرى السهلة الهينة التى لا تضنى ولا ترهق فذكر الناس بها . ولقد تمكن ذلك من نفسه حتى كان من أخلاقه صلى الله عليه وسلم ، فيما ذكرته عائشة أنه ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما وقد . روى عنه أنه واصل الصيام أياما ثم تركه ونهى عنه مخافة أن

يأتسي به الناس في ذلك. وكان يترك العمل وهو يحب أن يعمله خشية أن يظن الناس وجوبه فيعسر عليهم فعله.

وقال: «خذوا من العمل ما تطيقون»، وقال: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم» إلى غير ذلك من أقواله وأفعاله التي تدل على أن التيسير على الناس من أهم أغراض الشريعة وأعظم قواعد الدين.

وعلى هذا الأساس كان التكليف في الشريعة على حسب الوسع وكان الأمر فيها على قدر الطاقة وجانبت في أحكامها الحرج والمشقة يدل على ذلك قوله تعالى في سورة البقرة «لا تكلف نفس إلا وسعها»، «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها»، وفي سورة المائدة «لا نكلف نفساً إلا وسعها»، «ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج»، وفي الحج «وما جعل عليكم في الدين من حرج»، وفي سورة النساء «يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً»، ويقول الرسول: بعثت بالحنيفية السمحة. أي المائلة عن الضلال السهلة اليسيرة التي بنيت على القصد والتوسط لا تنتهي بأهلها إلى الانقطاع عنها والوقوف دون غايتها عجزاً عن متابعتها. وعلى هذا الأساس روعيت فيها الأعذار الطارئة التي يشق معها الحكم ويتعاسر، فرفع أو استبدل بما هو أيسر منه. ولذا أبيح للمكره أن يتلفظ بالكفر وقلبه مطمئن بالإيمان. وأبيح أكل الميتة وشرب الخمر عند الضرورة. وأبيح الفطر في السفر وعند المرض في رمضان. وقصرت الصلاة في السفر. وكان من قواعد هذه الشريعة «الضرورات تبيح المحظورات»، وعليها بني كثير من الأحكام.

ومن مظاهر هذا التيسير والقصد، إليه التدرج في بيان هذه الشريعة وفي تكليف الناس ببعض أحكامها حتى لا يرهقوا بتكاليفها دفعة واحدة، ولا يعنتهم مطالبتهم بترك ما اعتادوه مرة واحدة، فأنزل القرآن مفرقا على حسب الحوادث ومقتضيات الأحوال والظروف في مدة بلغت ٢٢ سنة نزل فيها تباعا فيما يحدث من وقائع تتطلب حكما، أو أحوالا تقتضي بيانا، وكذلك كان شأن السنة، لم يأتهم بها الرسول إلا مفرقة مجزأة على حسب مقتضيات الأحوال وتطلب الظروف. وكذلك روعي هذا التدرج في التكليف ببعض الأحكام فلم تحرم الخمر على الناس من غير تمهيد لذلك التحريم، بل أعدت له النفوس قبل نزوله بأن بين أن إثمها أكبر من نفعها، ثم حرمت عند الصلاة ثم حرمت بعد ذلك تحريما نهائيا. وبهذا التدرج لم يواجه الناس جميع التكاليف دفعة واحدة، ولم يطلب إليهم عمل شيء إلا بعد أن هيئت نفوسهم له واستعدت لأمثاله حتى لا يشق عليهم فعله.

وكان من مظاهر هذا التيسير أيضا قلة التكاليف فيها، فإذا نظرت في القرآن رأيت أن ما يحويه من الأوامر والنواهي قليل العدد قليل التفصيل يسير التنفيذ لا يرهق تنفيذه ولا يشق احتماله. ولكيلا تكثر التكاليف بسبب المسألة والإلحاف فيها، نهى عن السؤال فقال: «يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم، عفا الله عنها والله غفور حليم. قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين»، وقد نزلت هذه الآية

حين كان الرسول يبين للناس فريضة الحج فقام إليه رجل فقال: أكل عام يا رسول الله فأعرض عنه فكرر الرجل السؤال ثلاثا: وفى كل مرة يعرض عنه، حتى قال له فى الرابعة: «لا، والذى نفسى بيده لو قلت نعم لوجبت. ولو وجبت ما استطعتم، ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم». وفى ذلك يقول الرسول أيضا: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها، وحد حدودا فلا تعتدوها، وعفا عن أشياء رحمة بكم لا عن نسيان فلا تبحثوا عنها».

ومن مظاهر التيسير أيضا درء الحدود بالشبهات حتى لا يقام حد مع شبهة تشكك فى وجوبه لأن فى إقامة الحد مع الشبهة حرجا يثيره احتمال البراءة وعدم اطمئنان النفس إلى استحقاق العقوبة، ولذا قال الرسول «ادرءوا الحدود بالشبهات ما استطعتم». كما كان من آثاره احتمال الضرر لدفع ما هو أعظم منه، فإن فى دفعه إزالة ضرر لنا عنه مندوحة. على هذا الأساس بنيت أحكام كثيرة كإيجاب النفقة على القريب، وإجبار المدين على الوفاء، وإجبار الشفيع على تملك ما زاده المشترى فى العقار المبيع، وإلزام الزوجة بطاعة زوجها، وغير ذلك من الأحكام.

وأما العدل بين الناس فليس لأية شريعة منه مثل ما للشريعة الإسلامية فيه من حظ، فقد عنيت ببيان ما للناس من حقوق حافظت عليها وسنت الأحكام الكفيلة بردها إلى أصحابها، حتى أمن الناس بها على أنفسهم وأعراضهم ودينهم وأموالهم وحقوقهم واطمأنوا إلى الاستمتاع بها فى حدود ما شرعت من أحكام، وما سنت من نظام وكان من أسسها التزام العدل فى جميع الأمور فى القول والفعل وفى المعاملة والمجازاة قال تعالى: «إن الله يأمر بالعدل والإحسان» وقال «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى» وقال «وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل».

وكان من آثار قيامها على العدل أن جعلت الناس أمامها سواء، فهم فيها سواسية غنيهم وفقيرهم، وكبيرهم، وصغيرهم، وأميرهم، وسوقيهم، لا يرتفع فيها أمير على حكم ولا يفلت من جزاء، وفى ذلك يقول الرسول: «الناس سواسية كأسنان المشط»، ويقول حين شفع إليه أسامة فى حد من حدود الله: «والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

وبقيام الشريعة الإسلامية على هذه الأسس سايرت الزمن ووسعت التطور وصلحت لكل أمة ولاءمت كل وقت ولم ينب بها مكان، ولكن الناس جهلوا أصولها ولم يعرفوها على وجهها فانصرفوا عنها إلى غيرها فضلت بهم السبل فلم يصلوا إلى غايتهم المرجوة ولا إلى كمالهم المطلوب.

على الخفيف

مناهج الفقهاء الأئمة فى التشريع

لصاحب الفضيلة الدكتور أحمد أمين

اتفقت كلمة المشرّعين على أن أصول الأحكام الكتاب والسنة والإجماع والقياس وإن اختلفوا فى الاعتماد والتفسير لبعض هذه المصادر . فتلا يعتمد الإمام أحمد بن حنبل على الحديث كل الاعتماد ، ويجمع فى مسنده نحو ستة آلاف حديث ، يبنى عليها أحكامه الفقهية ، على حين أن أبا حنيفة لم يصح عنده إلا نحو تسعة عشر حديثاً ، كما يخبرنا بذلك ابن خلدون . ويضيّق الإمام مالك فكرة الإجماع ويقصرها على إجماع أهل المدينة ، على حين أن غيره من الأئمة يجعل الإجماع عاما لجميع المسلمين ، استناداً إلى قوله عليه الصلاة والسلام : «لا تجتمع أمتى على ضلالة» ويتوسع أبو حنيفة فى القياس حيث يضيقه أحمد ابن حنبل . وهكذا تختلف منازعهم ، وإن اتفقوا على الأصول الأربعة . وعدا ذلك اختلفت منازع الأئمة فى التشريع . وكان لابد من اختلاف اتجاهاتهم فإن الأحكام الواردة فى القرآن والسنة أكثرها أحكام كلية ، مثل « لا تضارّ والدة بولدها ، ولا مولود له بولده » ومثل « لا ضرر ولا ضرار » ، وهكذا . وقد واجه الأئمة بعد فتح الأمصار حالات كثيرة جديدة ، لم تكن معروفة فى جزيرة العرب . ففى العراق واجهوا مسائل الرّى الناشئة عن دجلة والفرات ، واجهها أبو حنيفة ، ثم من بعده تلميذاه أبو يوسف ومحمد . وفى مصر واجه الشافعى مشاكل الرّى الناشئة عن النيل ، هذا إلى مشاكل المعاملات والجنايات .

ولكل قطر عاداته فى المعاملات والجنايات . ومن أجل ذلك كان للشافعىّ مذهبان : قديم وجديد ؛ قديم قبل أن يدخل فى مصر ، وجديد استدعته أحوال مصر . ولذلك أود أن يتجه بعض الناشئين الباحثين ، فيقارنوا بين مذهبه القديم والجديد ، ليعرفوا إلى أىّ حدّ غيرت مصر من مذهبه القديم ، ويعرفوا الحالة الاجتماعية التى استدعت ذلك .

هذا إلى أن كثيراً من الأمم التى دخلت تحت حكم الإسلام كالفرس والروم كانت لهم عادات خاصة ، فلما دخلها الإسلام كان لابد أن يعرضوها على الأئمة ، ليعرضها هؤلاء بدورهم على الأصول الكلية للإسلام ، ويقرّوها أو يحكموا ببطلانها .

وأسباب الخلافات بين الأئمة ترجع إلى عوامل كثيرة ، منها صحة حديث عند بعض الأئمة فى بعض الأقطار ، وعدم صحتها عند الآخر . ومنها فهم الإمام لآية وحديث حيث لا يفهم الإمام الآخر هذا المعنى منهما ، ومنها أن أحد الأئمة يشترط شروطا كثيرة فى قبول الحديث حيث لا يشترطها الإمام الآخر ، ومنها تأثر الإمام

إلى درجة كبيرة بالبيئة التي يعيش فيها ، حيث يتأثر الآخر ببيئة غيرها . ومنها ثقافة كل إمام وإن كان كلهم مثقفين ، إلا أنه مهما كانت ثقافتهم فإن كلا منهم يختلف عن الآخر في نوع الثقافة ومقدارها : فمثلا الإمام مالك متأثر ببيئة المدينة حيث كان يسكن رسول الله ، ويخالف الصحابة الذين كانوا يعيشون حوله ، وكان يقدرهم تقديراً كبيراً حتى جعل الإجماع الذي يعتد به هو إجماعهم . ووجوده في المدينة مكنه من معرفة الأحاديث الصحيحة التي اعتمد عليها في كتابه الموطأ . ولكن من ناحية أخرى ، كان وجوده هذا في المدينة سبباً في عدم اطلاعه على المدنيات الأخرى ومعاملاتها وجناياتها ، كالتي اطلع عليها أبو حنيفة في العراق والشافعي في مصر . والشافعي مثلا تلميذ الإمام مالك ، ومتأثر به ، ومطلع أكثر من الإمام مالك على المدنيات الأخرى التي رآها في مصر والعراق ، ومما امتاز به اهتداؤه إلى علم الأصول ووضعه له ، ثم استنباطه الأحكام على وفقه ، مما لم يصل إليه إمام آخر.

ولذلك كان مذهبه أكثر المذاهب انطباقاً على المنطق بعكس الأئمة الآخرين ، فإنهم كانوا يعتمدون على فهمهم لآيات الأحكام وأحاديثها ، وكان الاستنباط كالملكات في نفوسهم ، فجاء الشافعي ، فوضع تلك الأصول والتزمها ، والشافعي كما تدل عليه رسالته في الأصول يقدر السنة تقديراً عظيما ، لأنها في كثير من الأحوال مبينة للكتاب ، مفصلة لمجمله . وقد نفعه في ذلك دراسته الموطأ على الإمام مالك ، وملاقاته مشاهير المحدثين في بغداد ومصر .

وملخص منهجه أنه إذا عرض له أمر ، بحث عنه في الكتاب ، فإن لم يجده بحث عنه في السنة ، وإذا وجده في الكتاب مجملا ، بحث عنه في السنة مفصلا . ولذلك يجعل الشافعي العلم بالسنة في مجموعها في مرتبة القرآن ، ويعني بذلك الحديث الذي ثبتت صحته ، إذ قيّد السنة التي في مرتبة القرآن بالسنة الثابتة ، فإذا لم يجد الحكم في كتاب ولا سنة اتجه إلى الإجماع ، فإن لم يجد إجماعاً ، التجأ إلى القياس . وقد عني الشافعي بدرس القياس وتحديده ، وقد حدده بالمثال ، ووضع قواعد معينة لاستعمال القياس .

أما أبو حنيفة فقد تشدد في الحديث الذي يقبله ، ولذلك قل اعتماده على الأحاديث كما ذكرنا ، واضطره ذلك إلى التوسع في القياس ، لأنه إذا لم يكن في المسألة العارضة حكم في الكتاب ولا في السنة ، اضطر إلى أن يلجأ إلى القياس ، فتوسع فيه أكثر من باقي الأئمة .

وأما أحمد بن حنبل ، فقد توسع في الحديث ما شاء الله أن يتوسع ، فلم يعتمد على القياس إلا قليلا ، ولم يتصور إجماعاً غير إجماع الصحابة.

وبجانب هؤلاء الأئمة الأربعة كان هنالك أئمة يتجهون اتجاهات مخالفة بعض الشيء . فمنهم من كان ينكر الحديث بتاتاً ، وقد حكى ذلك عنهم الإمام الشافعي نفسه في الأم . وأئمة رفضوا القياس بتاتاً ، ولم يعتمدوا إلا على النص . حكى عنهم ذلك الماوردي في كتابه « الأحكام السلطانية » ، كما فعل أهل الظاهر ، فأهل الظاهر

يرفضون القياس ولا يعتمدون إلا على النصوص . ويعتبرون أن النص إذا ذكرت علته ، كان أخذ الحكم من هذه العلة بناء على النص لا بناء على القياس. ومع اعتمادهم جميعاً على الأصول الأربعة ، وهى الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، فإنهم واجهوا مسائل اضطروا فيها إلى الرجوع إلى العدالة ، كما يقررها العقل ، وهى التى كان يسميها القانون الرومانى بقانون الطبيعة . وسماها كل إمام باسم خاص فسماها بعضهم استحساناً ، وسماها بعضهم استصلاحاً ، وسماها بعضهم المصالح المرسلة .

وقد تعسف بعضهم فأرجعها إلى القياس ، وسماها قياساً خفياً ، مع أن العقل غير المتعسف يرى أنها ترجع إلى طبيعة المشرع فى تقويم العدالة ، وليست من قبيل القياس المعروف .

فترى من هذا أن مناهج الفقهاء تكاد تكون متقاربة ، لأن اختلافها إنما هو فى التفصيلات لا فى الأسس ، على أنا لا ننكر أن السياسة لعبت دوراً كبيراً عند بعض الفقهاء ، وأثرت فى بعض آرائهم ، فمثلا كان الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ هـ رجلا كبير النفس ، واسع العلم ، ومع ذلك كان كثير الاتصال بالأمويين . فكان يسهل أحكامهم ، ويمهد الأمور لسلطانهم . وربما كان يرى أن مسالمتهم وعدم الخروج عليهم ، مما يجمع أمر المسلمين ، ويوحد كلمتهم . وكان كثيرون يرون أن سوء العقيدة مع العمل والقوة خير من صحة العقيدة مع الضعف والظلم .

أما فى الدولة العباسية فتدخلهم فى التشريع ظاهر أكثر من ظهور ذلك فى الدولة الأموية ، فأولا رويت الأحاديث الكثيرة عن عبد الله ابن عباس ، وأعلى شأنه كثيراً ، وثانياً ظهر فى التشريعات أشياء كثيرة ، تخدم سياستهم التشريعية ، كالتشديد على النصارى بلبس الزنار ، وتميزهم بالملابس الخاصة ، يدرك ذلك من دقق النظر فى كتاب « الخراج » لأبى يوسف . وهذا التدخل السياسى فى التشريع هو الذى كان السبب فى رفض كثير من الأئمة تولى القضاء ، وإن عذبوا وأهينوا ، لأنهم متى قبلوا القضاء ، فقد خضعوا للسلطة السياسية ، وجاروها ، وعملوا حسب رأيها .

على كل حال قد أفاد هؤلاء المشرعون بمناهجهم الإسلام فائدة كبيرة . والذى يريد أن يدرس فلسفة المسلمين الأصيلة وبعد نظرهم ، وجدهم المضنى ، فليدرس المشرعين وتاريخهم ، وفقههم ، وأصولهم ، فهنا يجد الإصالة التامة ، حيث لا يجد ذلك فى دراسته للفلسفة والفلاسفة المسلمين ، فإنها تقليد لليونانيين ، وليس فيها من الإصالة ما للمشرعين . ولو ظل باب الاجتهاد مفتوحا طول العصور ، لرأينا العجب العجاب من نمو الفقه وتطوره ، بما يناسب كل عصر ؛ ولكنهم جازاهم الله على عملهم ، ضيقوا فى الدين واسعا ، وحرموا على أنفسهم ما أحله الله . فكان كلام الخلف ليس إلا ترديداً لما قاله السلف ، حتى فى الأمثلة .

وليسوا يبيحون لأنفسهم أن يواجهوا مسألة جدت ولم يكن لها فى الماضى نظير ، ولا أن

اليوم أكملت لكم دينكم

لصاحب الفضيلة الأستاذ محمود شلتوت
عضو جماعة كبار العلماء

قد رأينا أن تكون الآية التي نكتب عنها في العدد الأول بعد عيد الأضحى، هذه الآية الكريمة التي تعتبر أعظم ذكريات عيد الأضحى، الذي نزلت فيه والنبي صلى الله عليه وسلم يحج بالمسلمين حجة الفريضة وهي حجة الوداع التي لبّى بعدها نداء ربه.

والكلام عليها يتقاضانا نظرتين: إحداهما في تصوير الوقت والحال اللتين نزلت فيهما. وثانيتهما في بيان المراد من إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضاء الله الإسلام ديناً للمؤمنين.

وقياما بحق النظرة الأولى يجدر بنا أن نرجع إلى الوراء ونشير في إجمال إلى مراحل الدعوة المحمدية من جهة البيان والتشريع. ومن جهة النفوذ وإقرار السلطان.

بدأت الرسالة المحمدية بدعوة النـــاس إلى الإيمـان بالله، وتطهير القلوب من الشرك والوثنيـة، وعبادة ما لا يسمع ولا يبصر، وإلى الإيمـان بالوحي الذي ينظم به الله حياة الإنسان منفرداً ومجتمعاً، ويرسم له طرق القربى إليه، ويجمع هذا الإيمـان بالملائكة والكتاب والنبيين، وإلى الإيمـان باليوم الآخر، يوم البعث والجزاء الذي يحاسب فيه المرء على ما قدم من خير أو شر، والذي يخلق في الإنسان. معنى الضمير

يقدروا عمـــل الزمان في تغيير الأحداث والأحكام، فنحن أحوج ما نكون إلى طائفة مجتهدة تماشي العصر، وتشرع للزمان.

لقد ملىء العالم بانقلابات خطيرة في الصناعة، كالطيارات والغواصات والقطارات، والقنابل الذرية، والراديو والتليفزيون، وغير ذلك من آلاف المخترعات، وكلهـا تتطلب تشريعات جديدة، فمثلا الطائرات تقتضي بحثا في مدى ملكية الأمة لسمائها، وهل يجوز لطائر من أمة أن يطير بطائرته في سماء أمة أخرى من غير إذنها، ونحو ذلك من مشاكل. وكثيرا ما كان الشيخ محمد عبده رحمه الله يستفتي في مسائل جديدة تواجه المسلمين، كلبس البرنيطة وإيداع المال في صناديق التوفير، وأكل ذبائح النصارى، ونحو ذلك، فكان يجتهد، ويشنّع عليه في اجتهاده. ولولا اجتهاده هذا لحار المسلمون في أمرهم.

أما هذا الجمود، وإغلاق العين عما يحصل، فنتيجته إهمال الساسة الفقه الإسلامي، والاتجاه إلى غيره من القوانين الغربية. كما حدث في عهد الخديو إسماعيل فقد روى أنه طلب من جمهرة من العلماء أن يجمعوا له الأحكام من سائر المذاهب المختلفة، ولا يتقيدوا بمذهب واحد، وأن يعدلوا عن بعض المسائل في مذهب إلى غيرها أصلح منها في مذهب آخر، فلم يقبلوا، فاضطر إلى التشريع على أساس القانون الفرنسي، وإنشاء المحاكم الأهلية. فكان ذلك ضربة كبرى على التشريع الإسلامي.

ولو كان مصطفى كمال قد رأى من علماء المسلمين مرونة واجتهاداً ما التجأ إلى القوانين الأوربية ينقلها بحذافيرها من غير مراعاة لوطنه.

ومن هذا نرى أننا نحتاج إلى ثورة فقهيـة، وثورة أدبية بجانب الثورة السياسية والله الموفق.

أحمد أمين

الديني الذي يحول بينه وبين ارتكاب الفسوق والعصيان ، إن لم يكن خوفا من جلال الله وجماله ، فطمعا في وعده وثوابه ، أو خشية من غضبه وعقابه ، وبالدعوة إلى مكارم الأخلاق التي تحقق معنى الإنسانية الفاضلة التي تربط الناس بروابط المحبة والرحمة والتعاون والتواصي بالحق والتواصي بالصبر . وما إلى ذلك من الخلال التي تفتح للناس أبواب الخير والسعادة ، وتسد دونهم منافذ الشر والشقاء .

عني الرسول (ص) وهو في مكة بتطهير الباطن وإصلاح النفوس عن هذا الطريق حتى إذا ما كمل له ذلك تتابع عليه الوحي بالتشريعات العملية ، التي تنظم الأسر ، وتنظم شئون المجتمع ، وتحفظ كيان الدولة من التأثر بمكائد الأعداء وعدوانهم على الحق والفضيلة . وقد هاجر في سبيل ذلك إلى المدينة التماساً للتربة الخصبة التي ينمو فيها غرسه ، ويثمر ثمراته الطيبة ، وما زال يجاهد ويكافح حتى هيأ الله له فتح مكة ، فعاد إليها هو وصحبه بعد أن أخرجوا منها ، ودخلوا المسجد الحرام بعد أن صدوا عنه ، وحالفهم نصر الله وتأييده فيما حصل بعد الفتح من وقائع وحروب حتى كانت السنة التاسعة من الهجرة فأمر عليه الصلاة والسلام صاحبه أبا بكر على المسلمين في أداء فريضة الحج لأول مرة يؤدونها بصفة عامة بعد أن خلص لهم السلطان على مكة وعلى مشاعر الحج كلها ، وكانت فلول المشركين المتفرقة في شبه الجزيرة لا تزال تقصد بيت الله الحرام لتؤدي مناسكها على منهاجها الجاهلي : شرك في السجود ، شرك في التلبية ، عُري في الطواف .

ولذلك كان من غير الممكن أن يخرج الرسول وهو مقوض دعائم الشرك والوثنية ، والداعي إلى التوحيد ، والمكلف من قبل ربه بتطهير البيت من نداء غير الله ، ومن مخالفة أوامر الله ، وبالتزام المناسك التي شرعها الله . فكان لابد من العمل أولا على تطهير البيت من هذه العبادة الشركية التي زل بها العقل البشري ، وأودت بكرامة الانسان ، والتي كانت في حقيقتها ومعناها تمثل بما لها من تقاليد فاسدة ، وعادات منكرة أخس نظام عرفه البشر إلى يومنا هذا ، كان فيه وأد البنات وإكراههن على البغاء ، وعضلهن عن التزوج طمعا في مالهن ، كان فيه استغلال حاجة المحتاجين في أقبح صور الاستغلال ، كانت فيه الإباحة الخلقية والجنسية إلى غير حد تخجل منه الانسانية . ولاريب أن الشرك بما يحمل في طياته من هذه الشرور والمآثم ثورة جامحة على الإيمان وما يحمل في طياته من خير وصلاح . وليس من المعقول أن يبقى منبع الشر إزاء منبع الخير العام ، وإلا اضطرب الخير واستهدف لتيارات الشرك ، والتوت به طرق الهدى والصلاح .

كما أنه ليس من المعقول وقد وقف المشركون مع المؤمنين الموحدين هذه المواقف الشديدة التي قصها التاريخ علينا ـ والتي كان منها صدهم عن المسجد الحرام ، والسخرية منهم في عبادة الواحد ، ـ أن يتركوا ينفثون غازاتهم السامة في جو الإيمان الطاهر النقي ، ومن ذلك كان لابد أن يسبق خروج النبي لأداء فريضة الحج عملية

التطهير والقضاء على مظاهر الفساد ، وانتزاع أصول الشر حتى تسلم الكلمة لله ، ولأولياء بيته الحرام ، وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه ، إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لايعلمون . وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ».

ولهذا اقتضت الحكمة أن يخرج أبو بكر رضى الله تعالى عنه فى السنة التاسعة على رأس المسلمين لتأدية فريضة الحج ، ولم يكد يصل إلى أماكن المناسك حتى نزلت أوائل سورة براءة تعلن كلمة الإسلام النهائية فى علاقة المشركين بمكة وفى زيارة بيت الله الحرام ، فيرسل النبى صلى الله عليه وسلم ابن عمه عليا ليبلغ الناس عنه هذه الآيات ويؤذن بها فيهم يوم الحج الأكبر ، فيلحق عليٌّ بأبى بكر ويجتمع بالناس فى يوم النحر عند جمرة العقبة بمنى ، وينادى : يا أيها الناس إنى رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكم ، فيقولون : بماذا ؟ فيقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية هى أوائل سورة التوبة ، ومنها : إعلان التصفية النهائية بين أهل التوحيد والشرك ، وبين أهل العدل والظلم ، وبين أهل الوفاء والخيانة ، ومنها رفع العصمة عن المشركين فى أنفسهم وأموالهم ، وقطع ما بينهم وبين الله من صلات ، « وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم » . « ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ، أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون . إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » .

« يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ، إن شاء إن الله عليم حكيم » . وفى هذه الآيات الإهابة بالمؤمنين إلى قطع ما بينهم وبين المشركين من ولاية القربى وصلات الرحم ، إيثارا للحق على الباطل ، وإيثارا لرضا الله عن مقتضى العاطفة والهوى فتسلم الدعوى ، ولا ينفذ إلى صفوف المسلمين شىء من عوامل التفرق والانقسام . « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ، قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » . ثم لا يفوت الآيات وهى تركز للمؤمنين شأنهم وتضع لهم قواعد العز والسيادة ، أن تحذرهم من مجاراة غيرهم فى الاغترار بزخارف الدنيا وأكل أموال الناس بالباطل ، والضن بإنفاقها فى سبيل الله ، فتوجه إليهم هذا الخطاب المصحوب بالإنذار الشديد لمن يسلك منهم هذا السبيل « يا أيها الذين

آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هـــذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

يتلو عليّ هذه الآيات على حجاج بيت الله مسلمهم ومشركهم إنذاراً وتحذيرا ، وتعليما وإرشاداً ، ثم يقول : أمرت بأربع : لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته . وبذلك التبليغ أعلنت حكمة الإسلام النهائية في شبه الجزيرة ، وتمت التصفية بين الشرك والإيمان ، وتركزت قوى الخير ، وولت قوى الشر ، مبعثرة في الفيافي والقفار تتوارى من ضغط الحق وسلطانه . وقد أثمر هذا التبليغ ثمرته الطيبة المباركة من الجهة الإيجابية ، فلم يكد يرجع الناس إلى بلادهم وينتشر بواسطتهم أمر هذا التبليغ ، ويصل إلى أطراف البلاد ، حتى ازدحمت المدينة بوفود القبائل الباقية على الشرك ، معلنة إسلامها وانضواءها تحت راية التوحيد والعدل . وبهذا تمت حكمة ربك للموحدين ، وهكذا يفعل الحزم، وتفعل أوامر الحازمين ، القادرين على تنفيذ ما رسموا لصالح الإنسانية ، وحسبهم أن يعلنوا أمرهم ، وإن في إعلان الأمر من المؤمن الحازم لأعظم غناء عن توقيع العقوبة التي يكفي إعلانها في تطهير الجو من أسبابها .

بهذا شرح الله صدر رسوله ، واطمأن قلبه على أن بلغ رسالة ربه ، وتوجهت نفسه الكريمة إلى زيارة البيت الحرام ، ليقدم الشكر والقربان بنفسه ، ويتعلق بأستار مولاه الذي نصره وأعزه وعصمه ، حتى أوفى على الغاية ، وكأنه عليه الصلاة والسلام أراد بعد أن أدى رسالة ربه ، وقام بمهمته ، أن يعود فيقف بين يدي مولاه واضعاً نفسه تحت أمره وتصريفه ، فيخرج على رأس جمع من المسلمين ، ويحرم للحج ، وينطلق صوته بالتلبية : لبيك اللهم لبيك . لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك . ثم يطوف بالبيت ويستلم الحجر الأسود ، ويصلي ركعتين عند مقام ابراهيم الذي كان البيت أثراً من آثاره ، وكانت بعثة الرسول صـــلى الله عليه وسلم أثرا من آثار دعوته « وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » . ثم يسعى بين الصفا والمروة ويقول كلما صعد الصفا : « لا إله إلا الله

الله أكبر ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » .

ثم يتوجه إلى عرفات ويقف على رأس الحجيج خاشعا ضارعا ، وداعيا مليا ، وفى هذه الوقفة التاريخية فى حياة الإسلام خاصة ، وفى حياة الإنسانية جميعا ، يقف محمد وقد بلغ ما أراد الله بصبره وجهاده وإخلاص المؤمنين معه ، فيخطب الناس هذه الخطبة الجامعة التى توج بها تبليغه لرسالة ربه وأحكام دينه ، وكان مما جاء فيها :

أما بعد أيها الناس ، اسمعوا منى أبين لكم فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا .

أيها الناس . إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم حرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد .

أيها الناس . إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم .

أيها الناس . إن لنسائكم عليكم حقا ، ولكم عليهن حقا ، ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحداً تكرهونه إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة ، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن ، وتهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا . ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد .

أيها الناس . إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه . ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد . فلا ترجعن بعدى كفارا ، يضرب بعضكم رقاب بعض فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتاب الله . ألا هل بلغت اللهم فاشهد .

أيها الناس . إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى . ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

وهكذا أخذ يلقى عليهم ما يفيض الله به عليه من مبادىء الحياة الطيبة ، والسعادة الخالدة ، ومعانى العزة والكرامة . وأين من هذه الخطبة وما احتوت عليه من حقوق الإنسان ما يطنطن به اليوم قادة الشعوب ، وفلاسفة الاجتماع عما يسمونه « حقوق الإنسان » ، ويعقدون لبحثها المؤتمرات ، وتهتز بها الأسلاك ، والإنسان هو الإنسان منه الظالم الفاتك ، والمتجبر الطاغى ، والغنى الكنود ، منه المظلوم الضعيف ، والمستخذى أمام الجبروت ، والمتضور جوعا يلتحف السماء ويفترش الغبراء .

هذه هى حقوق الإنسان ، كما رسمها الله لنبيه محمد ، وأعلنها منذ أربعة عشر قرنا فعليهم إن كانوا جادين فى قيادة الشعوب إلى الرخاء والسلم أن يتدبروها ، وأن يعلنوها للناس مرة أخرى بنصها وأبعادها ، مقترنة بالعزيمة الصادقة ، والقوة الحازمة ، فينعم الناس بخيرها ، وتذكرهم الإنسانية عند ربها ، ويكونوا بحق ، قادة الأمم

والشعوب ، وبدون هذا سيظلون يخطبون ويسكتون ، ويجتمعون وينفضون ، ولا رائد لهم سوى مصلحتهم الشخصية . أو الجنسية ، والإنسان هو الإنسان ، منه الظالم ومنه المظلوم .

فى هذا الجو الذى اتصلت به رحمة السماء بالأرض ، وكثر فيض الله على عبده محمد ، بما ينظم به الناس حياتهم ، ينزل عليه قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » . وفيها يروى أئمة الحديث أن اليهود قالوا لعمر : إنكم تقرءون آية فى كتابكم لو علينا معشر اليهود أنزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً . قال عمر : وأى آية ؟ قالوا : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى » قال عمر : إنى والله لأعلم اليوم الذى نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه والساعة التى نزلت فيها ، نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة ، والحمد لله الذى جعله لنا عيدا واليوم الثانى يوم النحر .

هذه هى النظرة الأولى التى تصور لنا الوقت والحال اللتين نزلت فيهما الآية الكريمة . وبها يتبين أنها نزلت بعد أن تمت مراحل الجهاد المحمدى فى نشر الدعوة وتبليغ الرسالة ، وبعد أن تغلغلت هذه الدعوة فى قلوب من وصلت إليهم ودخلوا بها فى دين الله أفواجا ، وبعد أن توج محمد رسالة ربه بهذه الخطبة الجامعة لكثير من الأحكام والشرائع التى لابد منها فى سعادة الناس ، وطيب حياتهم وحصولهم على رضا الله وقبوله . ونحن إذا نظرنا إلى الآية التى قبلها وهى قوله تعالى : « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون » ونظرنا إلى السورة التى نزلت فيها لوجدنا شواهد تعيين الوقت والحال اللتين نزلت فيها الآية بينة واضحة ، وكثيرة متعددة . فالآية التى قبلها تقرر يأس المشركين من أطماعهم فى فتنة المسلمين عن دينهم ، وفى وقوف دعوتهم ، وفى رجوعهم إلى ماهم فيه من الشرك والوثنية ، وعبادة غير الله ، والسورة من جهة أخرى تعنى عناية تامة بتوجيه الخطاب إلى المؤمنين خاصة فى ستة عشر موضعاً ، تقرر فى كل نداء حكما من الأحكام ومبدأ من المبادىء التى يأخذ المسلمون بها أنفسهم فى خاصة حياتهم ، وفى علاقتهم بمن يجاورون من أهل الكتاب ، ولا تعرض فى شىء مما اشتملت لذكر الشرك والمشركين ، كما لا تعرض لذكر قتالهم ، ولا معاملاتهم ، ولا ريب أن كل ذلك مما يدل دلالة واضحة على أن الجو الذى نزلت فيه هذه الآية « اليوم أكملت لكم دينكم » هو جو القوة والسيطرة العامة ، وخلوص الأمر للمسلمين ، والبلوغ برسالة الله إلى أقصاها . ومن هنا كان يوم نزولها عيداً عند المسلمين وأى عيد ؟ يذكرون بها فضل الله عليهم فى التمكين والتشريع .

أما النظرة الثانية وهى النظرة الجوهرية المتعلقة بمعنى إكمال الدين وإتمام النعمة ، فوعدنا بها العدد المقبل إن شاء الله .

محمود شلتوت

جهود الفقهاء في التشريع

لصاحب الفضيلة الأستاذ عبد الوهاب خلاف
أستاذ الشريعة بكلية الحقوق

أول ما يسترعى النظر من تاريخ المسلمين فى فجر الإسلام أن كل مسلم كان يعد نفسه مجندا لخدمة الإسلام والمسلمين فى الميدان الذى يشعر أنه أهل للقيام بالواجب فيه . وكان كل مسلم جنديا فى ميدانه متطوعا يقوم بواجبه بوازع من دينه وضميره لا بتكليف من غيره . وبهذا الشعور كانت ميادين العمل وكل مصالح الدولة مليئة بالعاملين . ولم يخل ميدان من ميادين الإصلاح والنهوض من أيد مجندة تتسابق فيه . وبهذا خطت الدولة الإسلامية فى سنوات قليلة خطوات بعيدة المدى فى ميادين المجد السياسى . والعلمى . والاقتصادى . فبعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم شعر المسلمون أن عليهم واجبا أن ينشروا دعوته . وأن يواصلوا سعيه وجهوده لإعلاء كلمة التوحيد وهداية الناس بهدى الإسلام .

فأهل البسالة والقوة والحرب والقتال منهم تجندوا فى ميدان الغزو والجهاد وكوّنوا الجيوش الإسلامية لدعوة الناس إلى الإسلام والدفاع عن المسلمين . وأهل العلم والفقه والقرآن والسنة منهم تجندوا فى ميدان الاجتهاد والاستنباط والتشريع والتقنين . وأهل الولاية والإمارة والسياسة منهم تولوا تدبير الشئون الإدارية والمالية فى الأمصار . وكل من آنس من نفسه أهلية وكفاءة للقيام بواجب للإسلام والمسلمين تصدى للقيام به ، حتى كانت نهضة المسلمين فى القرون الهجرية الأول والثانى والثالث ظاهرة عجيبة حار فى تعليلها المؤرخون وبلغ المسلمون فيها إلى غاية فى المجد السياسى والعلمى والمالى لم تبلغها دولة غيرها . وكانت فتوح الجيوش فى الاستيلاء على البلدان وفى بسط السلطان يسايرها فتوح علماء الفقه والتشريع فى الاجتهاد والتقنين ، وفتوح الولاة والأمراء فى تنمية موارد الدولة ووفرة الثراء . وكان الانتصار فى كل ميدان من هذه الميادين انتصارا فى الميادين كلها . وقادة كل ميدان يشعرون أنهم أعوان متضامنون مع قادة الميادين الأخرى .

يتجلى هذا من النظرة فى تاريخ المسلمين بعد وفاة الرسول ، ففى ميدان الغزو والجهاد كانت جيوش المسلمين تواصل فتوحها بقيادة أبى عبيدة وخالد بن الوليد والمثنى بن حارثة وسعد بن أبى وقاص وعمرو بن العاص ويتلق راية القيادة قائد بعد قائد ، حتى وصل عبد الله بن عامر والى البصرة وقتيبة بن مسلم شرقا إلى حدود الصين ، ووصل موسى بن نصير وطارق بن زياد غربا إلى جبال أسبانيا ، واستولى المسلمون على جزر البحر الأبيض المتوسط وصار هذا البحر بحيرة إسلامية .

وهذه الفتوح السياسية كانت تسايرها فتوح تشريعية وحركة اجتهادية بقيادة الخلفاء الراشدين وعبد الله بن عمر وزيد بن ثابت ثم سعيد ابن المسيب وأقرانه بالمدينة . وبقيادة عبد الله ابن عباس ثم تلاميذه بمكة . وبقيادة عبد الله ابن مسعود ثم تلاميذه بالكوفة . وعبد الله ابن عمرو بن العاص ثم تلاميذه بمصر . وكانت ميادين الغزو عامرة بالانتصار تلو الانتصار . ومساجد الأمصار عامرة بالعلم والفقه والتشريع والاستنباط ، فقادة الجيوش بسطوا سلطان الإسلام ورفعوا رايته على كثير من البلدان ، وقادة التشريع سدوا حاجات المسلمين وسايروا مصالحهم ، وأقاموا البراهين على أن الإسلام لا يضيق بحاجة ولا يقصر عن مصلحة وأنه كلما اتسعت فتوح المسلمين اتسع التشريع الإسلامى وإن اختلفت الأجناس والبيئات والنظم والمعاملات وإن نمت موارد الدولة وزاد ثراؤها . وبهذا التعاون والتضامن بين جيوش الميادين الثلاثة عزت الدولة ونهضت وتوافرت لها الدعامات التى تقوم عليها نهضة الأمة وهى : القوة والعلم والمال .

وهذه كلمة موجزة فى ميدان التشريع الإسلامى وبعض جهود الأئمة المجتهدين فيه .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته مرجع المسلمين فى جميع شؤونهم الدينية يستفتونه فى وقائعهم ويسألونه عما يعرض لهم . ويقضى بينهم فى خصوماتهم . ولما توفى لم يكن أصحابه كلهم أهلا للفتيا . ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم بل كان فيهم الخاصة العارفون بالقرآن والسنة الفاهمون روح التشريع بما تلقوه من رسول الله وما شاهدوه من قضائه وفتاويه . وفيهم العامة الذين يحتاجون إلى من يستفتونه ويسألونه . وكذلك لم يكن القرآن مدوناً ومنشوراً بحيث يتيسر لكافة المسلمين الرجوع إليه، بل كان مدوناً فى صحف محفوظة عند أبى بكر ثم عند عمر ثم عند حفصة . والسنة لم تكن مدونة أصلا. وقد حدثت للمسلمين بعد الرسول وقائع ووقعت حوادث لا نص على أحكامها فى القرآن أو السنة ، لهذه الأسباب رأى علماء الصحابة أن عليهم واجباً تشريعيا أن يخلفوا رسول الله فى إفتاء المسلمين والقضاء بينهم وأخذ الدين عنهم ، فتصدوا لبيان نصوص القرآن والسنة ، والإفتاء فيما لا نص فيه. ولم يكتسبوا هذا السلطان التشريعى من تعيين من الخليفة أو انتخاب من الأمة ، وإنما كسبوه بما امتازوا به من طول صحبتهم الرسول وحفظهم القرآن وروايتهم السنة ومشاهدتهم كثيراً من أقضية الرسول وفتاويه ومن مواهبهم فى العلم والفهم ، فلهذه المميزات تصدروا لتولى السلطة التشريعية ودان المسلمون لهم بهذا وتفرقوا فى أمصار المسلمين لأداء هذا الواجب التشريعى فكان فى كل مصر إسلامى رءوس من الصحابة هم مرجع الولاة والأفراد والجماعات فى معرفة حكم الشريعة فيما يعرض وما يحدث من الوقائع وفى كل مصر التف حول من فيه من أهل الفتيا من الصحابة رءوس من التابعين أخذوا عنهم القرآن ورووا عنهم السنة ومارسوا

استنباطهم الأحكام فيما لا نص فيه وخلفوا الصحابة فى القيام بهذا الواجب وتصدوا لإفتاء المسلمين والتشريع فيما يعرض لهم . والتف حول أهل الفتيا من التابعين رءوس من تابعى التابعين أخذوا عنهم علمهم وفقههم وتصدوا للتشريع والتقنين . وعن هؤلاء أخذ الأئمة المجتهدون فى القرنين الهجريين الثانى والثالث ، فكان رجال التشريع فى الأمصار يخلف خلفهم سلفهم ، وبعد كل طبقة منهم تلاميذ لمن قبلهم وأساتذة لمن بعدهم ، والمسلمون واثقون بهم ويأخذون عنهم طيبة نفوسهم وما شعر مسلم بقصور شريعته عن مصلحة من مصالحه . وما ضاقت هذه الشريعة عن حاجات المسلمين مع تعدد أجناسهم وبيئاتهم وبلدانهم ومع تعدد ما خلفته امبراطورية الفرس والرومان من نظم وعقود ومعاملات .

فنى المدينة أشهر أساتذة التشريع من الصحابة عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعبد الله ابن عمر وزيد بن ثابت . وأشهر تلاميذهم من التابعين ، سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وسائر فقهاء المدينة السبعة وأشهر تلاميذ هؤلاء ، محمد بن شهاب الزهرى ويحيى بن سعيد . وأشهر تلاميذ هؤلاء ، مالك بن أنس وأقرانه ، وفى مكة أشهر أساتذة التشريع من الصحابة ، عبد الله بن عباس وأشهر تلاميذه من التابعين عكرمة وعطاء ومجاهد ، وأشهر تلاميذهم سفيان ابن عيينة ومفتى الحرم مسلم بن خالد . وأشهر تلاميذ هؤلاء محمد بن إدريس الشافعى .

وفى الكوفة أشهر أساتذة التشريع من الصحابة عبد الله بن مسعود وأشهر تلاميذه ، علقمة بن قيس وسعيد بن جبير والقاضى شريح . وأشهر تلاميذهم ، إبراهيم النخعى وأشهر تلاميذه حماد ابن أبى سليمان أستاذ أبى حنيفة وأصحابه .

وفى مصر أشهر أساتذة التشريع من الصحابة ، عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأشهر تلاميذه مفتى مصر يزيد بن حبيب ، وأشهر تلاميذه الليث ابن سعد وأقرانه من بنى عبد الحكم . وأشهر من خلفهم محمد بن إدريس الشافعى فى المرحلة الأخيرة من حياته ، وكذلك كان فى دمشق وبغداد وفى كل من أمصار المسلمين أئمة للتشريع من الصحابة والتابعين وتابعيهم وتلاميذهم ومن هذا يتبين أن كل مصر من أمصار المسلمين كانت فيه مدرسة تشريعية ، وأن الأئمة الأربعة المجتهدين كانوا فى أمصارهم تلاميذ لمن سبقوهم وفروعا من شجرة تشريعية أصلها من رءوس الصحابة والتابعين . وما كان الاجتهاد والتشريع فى طبقة الأئمة الأربعة خاصا بهم ، وإنما كان لهم أقران اجتهدوا وأفتوا واستنبطوا ، كما اجتهد الأئمة الأربعة واستنبطوا ، ولكن لم يقدر لفقههم واستنباطهم الذيوع والتدوين والبقاء وكثرة الأتباع كما قدر لفقه الأئمة الأربعة . من أولئك الأعلام عبد الرحمن الأوزاعى إمام أهل الشام . والليث بن سعد إمام أهل مصر . وأبو داود الظاهرى وسفيان الثورى ومحمد بن جرير الطبرى وأقرانهم .

وأهم العوامل التى توافرت للأئمة الأربعة وجعلت من جهودهم التشريعية فتحا مبينا وآثارا خالدة هى ما يأتى :

أولا ـ أن الأئمة الأربعة كانوا في القرنين الثاني والثالث الهجريين، وهذا هو العهد الذهبي للدولة الإسلامية الذي اتسعت فيه رقعة الدولة وامتدت الفتوح شرقا وغربا ودخل في الإسلام وفي رعاية الدولة الإسلامية شعوب وأمم وبلدان مختلفة النظم والعبادات والمعاملات، كثيرة المصالح والحاجات، فكان لابد من جهود تشريعية تساير هذا النهوض وتفي بهذه الحاجات. وقد بذل الأئمة الأربعة في بيئاتهم هذه الجهود وبحثوا وشرعوا واستنبطوا ووفوا بحاجات الناس أفراداً وجماعات ووفوا بحاجات الولاة والحكام وما شعر فرد أو جماعة أو وال أو حاكم بقصور التشريع الإسلامي عن تحقيق أي مصلحة أو إقامة العدل في واقعة مدنية أو تجارية أو جنائية أو غيرها بل استنبط الأئمة أحكاما لوقائع فرضية وخصومات محتملة فكان النشاط السياسي يسايره الرأي التشريعي.

وثانيا ـ أن الأئمة الأربعة وجدوا بين أيديهم ثروة تشريعية خلفها لهم سلفهم من رجال التشريع من الصحابة والتابعين وتابعيهم: فالقرآن مدوّن ومنشور بين الكافة وكذلك المأثور عن الصحابة والتابعين في تفسيره وتأويله، والسنة مدوّنة، وفتاوى الصحابة والتابعين وتابعيهم متوارثة فهم انتفعوا بهذه الثروة ونموها وكملوها بما أثمرته مواهبهم وعقولهم من استنباطات اقتضتها بيئاتهم، فبجهودهم حفظت ثروة سلفهم وبجهودهم كملت ووفر إنتاجها.

وثالثاً ـ أن الأئمة الأربعة وجدوا في عصر دخلت في بلاد الإسلام فيه علوم كثيرة من علوم الفرس واليونان وغيرهما، ودخل في الإسلام فيه علماء كثيرون من غير المسلمين وتبادل البحث والنظر في هذه العلوم. ومع هؤلاء العلماء توجه الفقهاء إلى الصنعة العلمية، فبعد أن كان الفقه الإسلامي مجرد حلول جزئية وفتاوى في وقائع من غير تعليل ولا تحليل، اتجه الأئمة إلى تعليل الأحكام والاستدلال عليها وجمعها في ضوابط كلية وبهذا صار الفقه علماً ذا ضوابط ووضعت فيه مصطلحات لم تكن من قبل. وصار البحث فيه بحثاً علمياً لإثبات الأحكام بأدلتها واستنباط عللها وحكمها. ولهذا عني بتدوينه فدوّن محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة، كتب ظاهر الرواية والسنة ودوّن سحنون القيرواني معاصر الإمام مالك، المدونة في فقه مالك بن أنس، وأملى الإمام الشافعي فقهه في كتاب الأم. وجمع ابن قدامة فقه أحمد في كتابه المغنى وتتابع التدوين والتأليف كما هو الشأن في كل علم.

ورابعاً ـ أنه في عهد الأئمة الأربعة وجدت مدرستان تشريعيتان مدرسة الحجازيين ومدرسة العراقيين. والتنافس بين أساتذة المدرستين أنضج كثيراً من البحوث التشريعية ووسع دائرة الاستدلال. وهذه التوسعة في الاستدلال والنظر في الأدلة أدى إلى العناية بأصول الفقه فدون فيه أبو يوسف، ولم يصل إلينا مادوّنه، ودوّن فيه الإمام الشافعي رسالته وهي أول مدوّن في أصول الفقه بين أيدينا. وبهذا أخذ الفقه صبغة علمية تستند أحكامه إلى أصول وتتسع أصولها لكل جزئية.

عبد الوهاب خلاف

مقارنة بين شريعة الله وشرائع الإنسان

لصاحب الفضيلة الدكتور محمد يوسف موسى
أستاذ الشريعة السابق بكلية الحقوق

١ ـ أرسل الله رسوله المصطفى بدين الإسلام بعد أن أدّت كل من الديانات السابقة غرضها ، وصارت الإنسانية فى حاجة ملحة لدين جديد تجىء به رسالة إلهية جديدة تكون خاتمة الرسالات السماوية جميعا .

والإسلام نظام عام : عقيدة ، وتشريع ، واجتماع . ولا تتسع الصفحات القليلة ، المخصصة من هذا العدد الخاص لهذه الكلمة ، لبحث مقارن بين شريعة الله العليم الحكيم وبين شرائع الإنسان التى عرفها العالم قبل الإسلام وبعده إلا إذا كان موضوع المقارنة مسألة واحدة من مسائل الفقه الهامة .

لذلك رأينا أن نتناول أولا بالبحث الطابع العام للشريعة الإسلامية ، مقارنا بما نعرف من الطابع للشرائع الوضعية ؛ فإن هذا الطابع لكل شريعة هو الذى يحدد مقاصدها ، وهو الذى يستلهمه الفقهاء فيما يقررون من أحكام ، ومن هذه المقارنة ، نعلم أن الإسلام كان فى ناحية التشريع ، كما هو فى سائر النواحى الأخرى ، فتحا أى فتح !.

ثم ، من باب التطبيق ، نبحث مظهر وأثر هذا الطابع العام لشريعة الله فى مسألة واحدة ، وهى مسألة « الحق » ؛ أى مدى ما لصاحبه من سلطان فى الانتفاع به واستعماله ، وما يكون من تقييد الشارع له بألا يضر هذا الاستعمال الغير ، مقارنين الشريعة الإسلامية فى هذه الناحية بالقانون الرومانى والقانون الفرنسى ، وهذه المسألة هى ما تعرف بنظرية « سوء استعمال الحق » .

٢ ـ لقد واجه الإسلام حين جاء دولة الروم ودولة الفرس ، وفى كلتيهما كان الفساد قد بلغ مداه ، وشارفت الأمة نهايتها المحتومة . وفى كلتيهما كانت القوانين والنظم العامة تهدف إلى تمكين السادة والأقوياء ، على حساب الرعية والضعفاء ، وبلغ الأمر إلى درجة تقديس القياصرة والأكاسرة وتقديم الرعايا لهم فروض العبادة .

أما فى دولة الروم ، فقد كانت المسيحية قد تحولت من ديانة سماوية تأمر بعبادة الله وحده ، إلى دين زعم رؤساؤه أن الله هو المسيح بن مريم ، بل نادوا بعد هذا بعبادة القديسين معه ، فلا عجب أن يكون الإمبراطور موضع تقديس وعبادة أيضا . وفى هذا يقول مؤرخ إنجليزى معروف : « وهنا التقت الكنيسة ، على وجه الخصوص ، وجها لوجه مع مذهب عبادة الامبراطور » [1] .

وأما فى فارس ، فقد كان الأكاسرة يزعمون أن دما إلهيا يجرى فى عروقهم ؛ ومن ثمّ كانت الرعية تنظر إليهم كأنهم آلهة ، فكانت تكفّر لهم وتتحمل فى هذا السبيل مالا تطيق . والمستمع

---

(١) الامبراطورية البيزنطية ، تأليف نورمان بينز وترجمة الدكتور حسين مؤنس وآخر ، مطبعة لجنة التأليف سنة ١٩٥٠ ص ٩٧

إلى محمد بن جرير الطبري يقص علينا هذا الخبر ، ومنه نرى كيف كانت منزلة قائد من قواد كسرى - لا كسرى نفسه ! - من الرعية ومنزلة الرعية منه ، حين يقول : (١)

« لما جاء المغيرة [بن شعبة] إلى القنطرة فعبرها إلى أهل فارس ، أجلسوه واستأذنوا رُستم [وكان قائدهم في حرب المسلمين] في إجازته ... ، فأقبل المغيرة - وله أربع ضفائر - يمشي حتى جلس معه على سريره ووسادته ، فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه ومغثوه ، فقال : كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قوما أسفه منكم ، إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضا إلا أن يكون محاربا لصاحبه ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى ، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض ... اليوم علمت أن أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون . وإن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول » .

٣ - وهذه النزعة الفردية المطلقة التي كانت تسود في النظم الاجتماعية لدى الروم والفرس ، من قمة المجتمع إلى آخر درجاته منزلة ، نراها تسود في نُظُمهم القانونية أيضا ؛ فما القانون - في رأينا - إلا التقاليد والعادات العامة تتأصل في النفوس ثم تتبلور حتى تأخذ أوضاع القانون ، أو - على الأقل - تعتبر هذه التقاليد والعادات والأعراف مصدراً له خطره من مصادر القانون . من أجل ذلك نجد القانون الروماني (٢) في مراحله الأولى يبنى على فكرة استبداد صاحب الحق بما يزعمه من حقه الذي يملكه ، سواء في ناحية الأسرة أو ناحية المعاملات .

« ففي الأسرة كان لرب العائلة حقوق مطلقة على جميع أفرادها ؛ كان له حق الحياة أو الموت على زوجه وأولاده وعبيده ، فلم يكن للزوجة حقوق ولا أموال ، وكان الولد معرضا للبيع ، والعبد للترك والقتل . وفي المعاملات كان للدائن سلطة مطلقة على مدينه ، فكان المدين يباع أو يقسم بين دائنيه » (١) .

بل إن قوانين « جستنيان » ، وهو المشرع الروماني الأكبر ، قد حرمت على من لم يكونوا تابعين للمذهب الرسمي للدولة - وهم مسيحيون مع ذلك - الاشتغال بالمهن الحرة ، وأغلقت دونهم الاجتماعات العامة ، وجعلت وصاياهم لاغية ، ومنعتهم الحق في أن يرثوا شيئاً من ذويهم . (٢)

٤ - وفي مقابل هذا الطابع الفردي المقيت للقوانين والنظم الرومانية ، نجد الطابع الجماعي للتشريع الإسلامي الإلهي . ذلك بأن الإسلام لم يجيء لإسعاد الملوك والسادة على أنقاض الشعب ؛ فهو الدين الذي لا يعرف فضلا لأحد إلا بمقدار حظه من تقوى الله ، ورسوله ينادي بأنه ليس إلا بشراً كسائر البشر ، وبأنه ابن امرأة كانت تأكل القديد ! وهو الدين الذي جاء ليحقق العيش الكريم والسعادة للفرد والمجتمع معا ، بل للإنسانية عامة ولا فرق بين عرب وعجم وبيض وسود .

---

(١) ج ٤ : ١٠٨ من كتابه الكبير في التاريخ .

(٢) نكتفي هنا في المقارنة بالقانون الروماني التي أخذت عنه أكثر دول الغرب قوانينها الحديثة .

(١) الدكتور أنور سلطان ، مجلة القانون والاقتصاد ، عدد مارس سنة ١٩٤٧ ، ص ٧٧ - ٧٨

(٢) الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٠٧ - ١٠٨

وهذا الطابع الجماعى للشريعة الإسلامية ، له أثره ومظهره بلا ريب فى التشريع والفقه العملى أو المعاملات ، كما له أثره الواضح فيما فرض الإسلام من عبادات ، وله بعد هذا وذاك أثره القوى فى تحديد مدى ما يكون لصاحب الحق فى استعماله .

على أن من الواجب أن نضيف لذلك اعتباراً آخر . وهو أن أى قانون وضعى يعتبر حقوق الفرد حقوقا طبيعية له ، فهو يعمل على حمايتها له وتمكينه من الانتفاع بها على ما يشاء ، ما دام يتصرف فى زعمه فى خالص حقه . أما الشريعة الإلهية فتقرر من أول الأمر أن الإنسان وكل ما يملك ملك لله وحده ، والله لا يمنح الفرد ما يمنح من ملك وحق إلا ليتصرف فيه وفقاً لمقصد المشرع العليم الحكيم ، نعنى لتحقيق مصلحة الفرد والجماعة معاً ، ومن ثم نجد تقييد استعمال « الحق » من نواح عديدة ، ولنضرب لذلك بعض المثل :

(ا) من حق الأب أن يشرف على تربية ولده ، وأن يؤدبهم على ما قد يكون منهم مما يستحق الأدب شرعا ، وكذلك من حق الزوج أن تطيعه زوجته وتكون تحت ولايته ، فلا تخرج من بيته بلا إذنه ولا تُدخل داره أحدا لا يرغب فيه ، ولكن هذه الحقوق ، وأمثالها ، التى للأب والزوج مقيدة كلها بعدم الضرر بالأولاد والزوجة ، وإلا تدخل القضاء ، لأنه لا ضرر ولا ضرار .

(ب) للمالك الحق فى أن يتصرف فى ملكه كما يريد بأى نوع من التصرفات ، ومن ذلك البيع لمن يشاء ، ولكن الشريعة التى عنيت بتأكيد ما للجار من حقوق على جاره ، حتى جاء فى هذا كثير من آيات القرآن وأحاديث الرسول ، أوجبت للجار حق الشفعة فيما يبيعه جاره ، كما منعت الجار المالك ـ وهو مذهب الإمام مالك رضى الله عنه (١) ـ أن يتصرف فى ملكه تصرفا يضر ضرراً فاحشا بجاره . وذلك كله تطبيقا لقاعدة : « لا ضرر ولا ضرار » وقاعدة دفع أكبر الضررين بأيسرهما ، وفى هذا الخير لصاحب الحق وللجار معاً .

(ج) ولرعاية هذه المصلحة التى تكون للغير وقد تكون مصلحة جماعة لا مصلحة فرد واحد نرى الشريعة الإسلامية تقرر للغير على صاحب الماء ما يسمى بحق الشفة وحق الشرب ، ويراد بالحق الأول حق شرب الإنسان ودوابه من عين أو قناة مملوكة للغير ، ويراد بالثانى حق سقى زرعه من ماء يمر بأرض لغيره ، مع أن من خواص الملكية حرية المالك فى ملكه يتصرف فيه كما يشاء ويهوى .

وتطبيقا للحق الأول يروى الإمام أبو يوسف أن قوما مروا بماء وهم فى سفر ، فأرادوا أن يستقوا منه لأنفسهم ودوابهم فنعهم أهله ، فقالوا لهم إن أعناقنا وأعناق مطايانا كادت تقطع عطشا ، فأبوا أيضا ، وحين رجعوا ذكروا ذلك لعمر بن الخطاب ، الفاروق بحق ! فقال لهم هلا وضعتم فيهم السلاح ! (٢) :

---

(١) وذهب إلى ذلك أيضا فريق من الفقهاء ، ومنهم بعض الأحناف المتأخرين .

(٢) كتاب الخراج طبع المطبعة الأميرية ، ص ٥٥

وتطبيقا للحق الثانى ، تجعل الشريعة للمرء أن يحفر مجرى ماء فى ملك غيره ليصل الماء لأرضه البعيدة عن مصدر الماء ، فإن أبي ألزمه ولىّ الأمر أو القضاء.

وفى هذا يروى يحيى بن آدم القرشى بطرق مختلفة فى كتابه الخراج ، أنه كان للضحاك بن خليفة الأنصارى أرض بعيدة عن مجرى الماء فلا يصل إليها إلا إذا مر ببستان لمحمد بن مسلمة ، ولكن محمدا هذا أبى أن يمر الماء بأرضه ، فألزمه عمر بن الخطاب بإمداده بعد أن تبين له أنه لا ضرر عليه منه ، وكان من كلامه فى هذا أن قال : والله لو لم أجد له ممراً إلا على بطنك لأمررته [1] !

(د) وأخيراً ، مما لا شك فيه أن للفاتحين لأرض من أراضى الأعداء أربعة أخماس الغنيمة والخمس الباقى يصرف فى مصارفه التى حددتها آية الأنفال : « واعلموا أن ماغنمتم من شىء فأن لله خمسه » الآية .

غير أن حق ملكية الفاتحين لأربعة أخماس ما فتح الله عليهم به ، قد يكون فيه ضرر بالجماعة وبالمسلمين الذين يأتون بعدهم ، ولهذا رأى عمر ابن الخطاب أيضا عدم التسليم بهذا الحق للمحاربين بإطلاق فى بعض الحالات ، ومعنى هـذا تقييد « الحق » لمصلحة الجماعة ودفعا للضرر عنها.

ذلك أنه لما تم فتح العراق والشام وغيرهما من الأقطار فى عهد عمر ، رأى ألا تقسم بين الفاتحين ، بل تبقى خراجية ينتفعون بها هم ومن يجىء بعدهم من المسلمين ، وكان من كلامه فى هذا : كيف بمن يأتى من المسلمين فيجد الأرض قد قسمت وورثت عن الآباء ! ما هذا والله برأى ، واستشهد بآيات من سورة الحشر [1]

لكن المعارضين ذكروا أنه كيف يقف عمر ما أفاء الله عليهم بأسيافهم على قوم لم يحضروا الحرب ، ثم على أبنائهم وذرياتهم من بعدهم ! ولما اشتد الخلاف ، حكم الخليفة عشرة من الأنصار ، رغبة - كما قال - فى أن يشركوه فى الأمانة التى حملها . فلما اجتمعوا وتكلم مخالفوه بما يرون من رأى وحجة ، قال فيما قال بأنه لم يبق شىء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد رأيت بعد صرف الخمس فى وجوهه أن أحبس الأرض بعلوجها وأضع عليهم الخراج وفى رقابهم الجزية يؤدونها ، فتكون فيئا للمسلمين الحاضرين ولمن يأتى بعدهم . ثم قال : أرأيتم هذه الثغور لابد لها من رجال يلزمونها ! أرأيتم هذه المدن العظام ، كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر ، لا بد لها أن تشحن بالجيوش وإدرار العطاء عليهم ، فن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرض والعلوج ؟

وكانت النتيجة أن أعطى المحكمون ، بعد وزن كل رأى ودليله ، الرأى لعمر ، ولم يسع المخالفين إلا الرضا والتسليم ، وكان هذا إلهاماً من الله العليم الحكيم ، وتوفيقاً للخير العام فى العاجل والآجل من الزمان .

هذه المثل ، ولو شئنا لأتينا بكثير غيرها ، تشهد بلا ريب بالطابع الجماعى لشريعة الله ،

(١) كتاب الخراج طبع المطبعة السلفية ، ص ١١١ - ١١٢

(١) الآيات ٨ - ١٠

وبأنه من أجل هذا الطابع قيدت استعمال المرء لما يخوله حقه بألا يكون فى استعماله ضرر لغيره، بل إنها منحت أحيانا ـ رعاية لمصلحة الجماعة والأمة عامة ـ إعطاء بعض الأفراد ما يزعمون أنه لهم من حقوق، ومن هذا الباب، المثال الأخير.

(هـ) أما القوانين التى صنعها البشر لأنفسهم، فلم تلاحظ شيئاً من هذه النظرة الجماعية الإنسانية إلا بعد زمن طويل، ثم لم تبلغ بعد شأو الشريعة الإسلامية فى هذه الناحية، بل لم تقاربها.

ولنأخذ مثلا لذلك القانون الفرنسى الذى صدر عام ١٨٠٤ م، لقد كان هذا القانون وليد الثورة الفرنسية التى قامت لتحطيم سلطان الملوك والسادة وإعلان أن للإنسان، باعتباره فرداً، حقوقاً طبيعية مقدسة ليس لأحد المساس بها مطلقا، ومن ثم ساد هذا القانون روح فردى قوى يلتئم مع الروح الذى أملى إعلان حقوق الإنسان، وهو تدعيم حقوق الأفراد وحمايتها، وينظر إلى الفرد باعتباره العنصر الأهم فى الحياة لا باعتباره جزءاً من كل هو الجماعة، ولقد كان من نتائج ذلك أن أتى وقت اعتبرت فيه الحقوق مطلقة المدى، وأن صاحب الحق فى استعماله سيد لا يُسأل عما يترتب على هذا الاستعمال من الأضرار التى تحيق بغيره [١].

وقد حدث بعد ذلك أن اضطربت القوانين الحديثة للتطور تبعا للتطورات الاجتماعية العامة، فأخذت فى تقييد حرية الفرد فى استعمال حقه حتى لا يسيء استعماله ويضر غيره بهذا الاستعمال السيء، إلا أنه من الثابت أن نظرة الشريعة الإسلامية ـ التى سبقت هذه القوانين بقرون طويلة ـ لمصلحة الجماعة وتقييد حرية الأفراد فى استعمال حقوقهم ـ ظلت أوسع مدى وأبعد أثرا من نظرة القوانين الحديثة فى هذه الناحية [١] ونعتقد أن السبب فى هذه التفرقة الواضحة بين طابع شريعة الله وطابع شرائع الإنسان، هو ما سبق أن ذكرناه من التفرقة الأساسية بين أصل حقوق الفرد فى كل من هذين النوعين من التشريع.

هذا، وفضل الشريعة الإسلامية فى تقرير نظرية «سوء استعمال الحق، حتى لا يضار أحد باستعمال صاحب الحق حقه» فضل غير مسبوق وغير منكور من رجال القانون المحدثين وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور عبد الرازق السنهورى واضع التشريع المصرى الحديث [٢].

إن لنا، بعد ذلك، أن نتوجه إلى أولى الأمر فى الأزهر بالعناية بدراسة الفقه الإسلامى دراسة جدية مقارنة، وإلى أولى الأمر فى الدولة بالعمل على إحياء تراثنا الإسلامى، والإفادة منه قبل أن نولى وجوهنا شطر الغرب، والله المستعان؟

محمد يوسف موسى

---

(١) انظر «مدى استعمال حقوق الزوجية وما تتقيد به فى الشريعة الاسلامية والقانون المصرى الحديث»، للدكتور السعيد مصطفى السعيد الأستاذ بكلية الحقوق ـ فؤاد، ص ٥

(١) مدى استعمال حقوق الزوجية، للدكتور السعيد مصطفى السعيد، ص ٤٣

(٢) الدكتور أنور سلطان الأستاذ بكلية الحقوق، المرجع السابق ذكره له، ص ٧٧، ٩٠، ١٣٥، ١٣٦، الدكتور السنهورى، مجلة المحاماة سنة ١٩٢٢ ص ٤١٩

فتوح الإسلام فى العقيدة والتشريع

القرآن واللغة

للأستاذ عباس محمود العقاد

منذ أربعة عشر قرنا تغيرت لغات كثيرة، بل تغيرت جميع اللغات التى كانت تحسب يومئذ من اللغات الحية، فانتقلت من ميدان الحياة إلى سجلات الآثار والمحفوظات، أو إلى المراجع التى يتخصص لها علماء اللغات المهجورة. إلا اللغة العربية، فإنها نشأت منذ أربعة عشر قرنا نشأة جديدة، وتقدمت أشواطا بعد أشواط، وأخذت من إكسير الحياة ما يضمن لها طول البقاء.

وذلك بفضل القرآن الكريم، لأنه جعلها لغة العقيدة الإسلامية ولغة الثقافة الإسلامية فى وقت واحد، بل جعل لها فضلا على الثقافة الإنسانية عامة، لحفظت إلى حين ما كان وشيك الضياع.

فلولا القرآن الكريم لكان من المشكوك فيه كثيراً أن يتوفر العلماء على وضع علم النحو وعلوم البلاغة واستقصاء المفردات وتحرّى مصادر الفصيح والدخيل وضبط المعجمات التى لم تسبق فى لغة من اللغات.

والأرجح فيما نعتقد أن البحث فى الصفات والقضاء والقدر، كان مصدر علم الكلام فالحكمة الإسلامية فالدراسات المنطقية التى تتصل بها وتعين عليها. ولا يخفى أن هذه الدراسات هى التى أنقذت الفلسفة القديمة من الدثور والإهمال، فدبت الحياة فيما استحق الحياة من فلسفة يونان وعلومها ومباحثها، واتصلت الثقافة الإنسانية منذ أقدم العصور إلى العصر الحديث فى هذا الاتجاه.

ومما لا خلاف عليه أن اللغة العربية نشطت هذا النشاط وتقدمت هذا التقدم لأنها لغة كتاب مقدس يدين به المسلمون، وهو القرآن الكريم.

ولكن اللغات التى كتبت بها الأسفار المقدسة كثيرة، منها العبرية لغة التوراة، والآرية القديمة لغة الزندافستا، ولغات آرية أخرى فى الهند كتبت بها الأسفار التى يقدسها الهنود الأقدمون والمعاصرون.

إلا أن اللغة العبرية أصبحت إحدى اللغات التى لحقت بسجلات الآثار أو سجلات المراجع والدراسات، وقد كتبت بعض أسفار العهد القديم باللغة الآرامية فى حياة اللغة العبرية وإبان نشأتها، وقد ترجمت أسفار العبرية والآرامية جميعا إلى اللغة اليونانية قبل ألفى سنة، ولا تزال هذه الأسفار كتبا مقدسة عند اليهود. وهم لا يطلعون عليها فى لغتها ولا يتكلمون تلك اللغة إلا بالإضافة إلى لغة أخرى هى لغة الحياة أو لغة كل يوم. أما اللغة العبرية فهم يستحيونها من طوايا التاريخ ويفهمونها كما يفهم الأثرى نقوش الهيكل أو البردى العتيق.

وانتهت حياة اللغات التى كتبت بها أسفار

المجوس والبراهمة ، وأصبحت مجهولة عند من يدينون بها ولا يؤمنون بشيء منها ...

إذن ليس مجرد الإيمان بكتاب مقدس كفيلا بحفظ اللغة وعصمتها من الزوال أو الانتقال من ميدان الحياة إلى المراجع المهجورة .

ولا بد من فضل خاص للقرآن الكريم ميزه بين الكتب الدينية وجعل له من الأثر في استبقاء اللغة العربية ما لم يكن لكتاب آخر في اللغات السامية ، أو اللغات الآرية ، وقد كانت العبرية والآرامية من اللغات السامية ، وكانت لغة المجوس والبراهمة من صميم اللغات الآرية ، أو الهندية الجرمانية كما يقولون عنها في علوم اللغات ، فما هو سر هذا الفارق بين كتاب وكتاب وبين اعتقاد واعتقاد ؟

سره أن القرآن العربي قد جاء برسالة عامة إلى الناس كافة ، ولم يكن رسالة خاصة ببني إسرائيل أو بالطبقة الحاكمة بين الهنود ، ولو كان عربياً للعرب دون غيرهم لما كان له هذا الشأن الذي امتاز به على كل شأن لكتاب من كتب الأديان .

فالتوراة كتاب يؤمن به بنو إسرائيل ولكنه لم يحفظ اللغة العبرية بين أهلها فضلا عن حفظها بين الغرباء عنها ، لأن بني إسرائيل أنفسهم قد هجروا لغتهم وانساقوا في التيار الذي يشمل الأمم الإنسانية بأجمعها .

وكتب البراهمة أسفار يدين بها أتباعها ، ولكنها كذلك لم تحفظ لغاتها التي كتبت بها من قديم الزمن ، لأن البراهمة كانوا سادة يفرضون دينهم على عبيد مسخرين ، لا يعاملونهم معاملة الإخاء والمساواة ، ومن ثم هذه الطوائف المنبوذة التي تعد بعشرات الملايين ، ومن ثم هذا التفاوت بين طبقة وطبقة ، وصناعة وصناعة ، بل من ثم هذه الأعجوبة في تاريخ الهند الحديث من ناحية اللغات والتفاهم بها بين أقاليم الهند على تباعد مواقعها ، فقد أصبح التفاهم بين أهل الشمال وأهل الجنوب باللغة الإنجليزية أسهل من التفاهم بين الجيران في الإقليم الواحد بلغة الكتب المقدسة التي انقضى عليها ثلاثون قرناً على أقرب تقدير .

وهذا هو الفارق العظيم بين كتاب وكتاب ، ولغة ولغة ، فإن العقيدة وحدها لا تحمى لغتها ، ولا تحمى أمتها إذا جاءت منعزلة عن الدنيا مقصورة على عصبية واحدة ، وإنما تبقى اللغة مع بقاء العقيدة إذا تفتحت أبوابها للأمم كافة بغير عصبية ولا عزلة قومية أو جنسية ، ولهذا خصت العربية ، بظاهرة ، قل نظيرها في لغة من لغات الكتب المقدسة أو غير هذه اللغات ، فإن خدامها من الفرس والأمم الآرية لا يقلون عن خدامها من أبناء الأمة العربية ، وإن البلاد التي انتقلت إليها العربية من مهدها تخرج من المشتغلين بها ، والعاكفين على آدابها وفنونها أضعاف من يتخرجون في بيئتها الأولى .

ويبدو لنا أن هذه اللغة الجليلة مستعدة بطبيعتها للعموم والشيوع والنهوض بالأمانة الإنسانية ، لأنها كلما انتقلت من تربة إلى تربة أخرى ترعرعت في تربتها الجديدة وسمقت لها فيها فروع كالأصول بل أثبت وأبقى .

فاللغة في عهد العرب المستعربة أصح وأفصح

عما كانت عليه فى عهد العرب العاربة ، وهى فى عهد العرب العاربة تقترب فى فصاحة اللهجة واستقامة القاعدة وتبتعد من الحيرية التى تشبه الرطانة الأعجمية ، وقد اطرد هذا القياس زمنا فاستفادت العربية بالعموم والشيوع ، وما زالت كلما قادها العموم والشيوع إلى شيء من الإسفاف و « العامية » ، وجدت مرساة الأمان فى القرآن الكريم ، فلم تنقطع الآصرة بينها وبين أصولها ولم تنقطع كذلك عن مجاراة الزمن والاحتفاظ بالمزية الإنسانية : مزية العموم والشيوع .

« الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

نعم ويصدق ذلك على اللغة التى تقوم بها الرسالة كما يصدق على الرسول الذى يؤديها إلى بلاغها ، فتمضى الرسالة إلى غايتها ببلاغة اللغة وبلاغ الرسول .

وتتضح هذه الحقيقة من الموازنة بين العربية والعبرية واللغات الآرية والمجوسية ، فإن العربية قد انتهت إلى عصر الدعوة الإسلامية وهى تزدهر وتتسع للنظم المتين والخطابة المبينة والحكمة المأثورة ، ولم يعرف عن لغات الكتب الدينية كالعبرية أو الآرية القديمة أنها وعت إلى جانب الآيات الدينية شيئا من روائع البلاغة التى يتفاهم بها الناس فى مطالب الفن والأدب ، فلم ترزق من الحياة ما يعبر عن الحياة ، وانقضت مهمتها ولما تجاوز نطاقها المحدود من عصبية القبيل والإقليم .

وهذه البلاغة العربية التى نضجت وسرت فى سليقة الناطقين بها مسرى الوظيفة الحية قد كانت حصنا للعقيدة كما كانت حصنا للغة ولهجاتها وأساليبها ، فلما انتشر المبشرون بالمذاهب المختلفة فى بلاد المسلمين أخفقوا واعترفوا بالإخفاق وقرروا أن المسلم لا يخرج من دينه إلى دين آخر وأن نسبة الصابئين عن دينهم من المسلمين لا تزيد على الآحاد فى الملايين ، وبعضهم يتحولون لمنفعة أو غواية وعلى غير اقتناع وإيمان ، ومهما يكن من ثبات العقيدة الدينية فلا يقال إن المبشر المدرب على التبشير يعجز عن إقناع جاهل أو ساذج بما حذقه من وسائل التشكيك والتأثير وإنما العصمة حق العصمة أن بلاغة القرآن حق فى مسامع الجهلاء قد عودتهم نمطا من الكلام العذب المستساغ يرفضون كل ما عداه ولا يحسون فيه الروحانية الإلهية ، فيصعب إقناعهم بكلام على غير ذلك النسق البليغ .

ولقد مضى أربعة عشر قرنا على اللغة العربية فى تجددها وارتقائها بعد نزول القرآن الكريم ، وقد زالت كما أسلفنا لغات كانت تحسب من اللغات الحية عند انتشار الدعوة الإسلامية ، وقد بقيت اللغة العربية لغة عقيدة ولغة ثقافة ولغة خطاب بين المتعلمين من أبنائها ، ولغة فهم بين غير المتعلمين منهم ، ولكن المعجزة القرآنية لم تقف ولن تقف عند هذه الغاية ، فبفضل هذه المعجزة يرجى أن تكون هذه اللغة بعد قرن من الزمان لغة الملايين عن لم يتكلموها حتى الآن ، وفى طليعتهم أهل الهند والملايو المسلمون ، ومعهم فى آسيا وأفريقية شعوب تنمو وتزداد صلة بلغة القرآن على مر السنين .

عباس محمود العقاد

جهود المسلمين فى النحو والبلاغة

لصاحب الفضيلة الأستاذ محمد عرفة
عضو جماعة كبار العلماء

للعرب جهود موفقة فى ابتكار علمى النحو والصرف، جهود نذكرها مع الإعجاب والإجلال .

نعجب بهم لأنهم أحاطوا باللغة العربية إحاطة شاملة كاملة .

ولأنهم استوعبوا شواردها والنادر منها ، فتراهم يجمعون فى الموضع الواحد ما يمكن أن تستنتج منه قاعدة ، ويجمعون ما خرج عن هذه القاعدة ويحكمون عليه بالشذوذ والندور .

ونعجب بهم لأنهم تعمقوا فى البحث وأدركوا العلل والأسباب وحسن تهديهم إلى القياس .

ونجلهم لأمانتهم وحرصهم على أن يصلوا إلى الحقائق وخوفهم من أن يقولوا فى اللغة بغير علم كأنما هى دين لا يجوز فيه التهاون والتسامح بل يجب أن يفرغ المرء جهده ليصل إلى الحق ولا يجوز أن يثق المرء بأول خاطر أو يسكن إلى الراحة والدعة .

إن ابتكار العــــلوم يقتضى أموراً لابد من وجودها ليمكن الابتكار :

أولهــا ـ عقل مبتكر منطق يبحث عن العلل والأسباب ويقيس الأمور بأمثالها .

ثانيها ـ حب للبحث والاستقصاء والابتكار وإيثار له على جميع حظوظ الدنيا وما فيها من متع وزخارف .

ثالثها ـ إيمان بجدوى هذه البحوث وبأنها تهدف إلى غرض معين وتوصل إلى فائدة مطلوبة .

رابعها ـ بيئة تقدر العلم والعلماء وتبحث عن مبتكرات القرائح وثمرات القرائح وترى فيها غذاء عقلياً لا تقل حاجتها إليه عن حاجتها إلى غذاء الأجسام ، والبيئة الإسلامية فى البصرة والكوفة فى عهد وضع النحو والصرف كانت تستكمل هذه العناصر .

أما العقول المبتكرة الخصبة التى كانت تعلل وتقيس لتهتدى إلى المجهول العقلى ، فقد وجد منها فى هذا العصر عدد ليس بالقليل ، فهذا الخليل ابن أحمد الفراهيدى كان عقله آية فى البحث والابتكار والتعليل والقياس ، وكان عنده من هذه الملكة ما كان عند أئمة اليونان فى عهد ازدهار العــــلوم فيها ، كان مثل أرسطو وأفلاطون وسقراط إلا أنه صرف هذه الملكة إلى معرفة مقاييس العربية وتعليلها ولو صرفها إلى علوم الطبيعة والاجتماع والأخلاق لما قل شأنه عن هؤلاء الأفذاذ فى التاريخ من اليونان .

وقد بلغ الخليل بن أحمد الغاية القصوى فى معرفة قوانين العربية قوانين مفرداتها ومركباتها .

وقد كان ككل العلماء المبتكرين إنما يعنيه الابتكار ويشغله البحث ولا يعنى بالتأليف والتنظيم . وقد كان تلميذه سيبويه من رزق ملكة التأليف والتنظيم فأخذ علم الخليل ونظمه وأخرج

الكتاب فى النحو ، فطارت شهرته فى الآفاق وذهب سيبويه بفخره ، فلما رأى الخليل ذلك أراد أن يصنع علماً ينسب إليه ويختص به فوضع قوانين الشعر العربى وحصرها وبين علله وأعاريضه وما يصح منها وما لا يصح. وقد وضع كتابا فى اللغة سماه كتاب العين هو الأصل لكل القواميس التى ألفت بعده. وكان يظهر عقله للباحث إذا اجتمع به .

يروى أنه اجتمع مع عبد الله بن المقفع ثم افترقا فسئل كل منهما عن صاحبه فقال الخليل عن ابن المقفع : علمه أكبر من عقله . وقال عبد الله ابن المقفع عن الخليل : عقله أكبر من علمه . وكذلك كان كل واحد منهما ، فلو تتبع العالم الباحث آثارهما ودرسهما أزمانا متطاولة لكانت خلاصة بحثه هذه النتيجة .

انظر إلى آثار ابن المقفع تجدها ترجمة لحكم الأولين وأمثالهم. وقد يأتى ببعض الحكم ولكنه يراه مشتقاً من كلام الأولين .

وترى ملكته التقليدية ظاهرة فى أوائل كتبه . اقرأ قوله فى أول كتابه الأدب الصغير ، ومن أخذ كلاما حسناً من غيره فتكلم به فى موضعه وعلى وجهه ، فلا ترين عليه فى ذلك ضؤولة ، فإنه من أعين على حفظ كلام المصيبين وهدى للاقتداء بالصالحين ووفق للأخذ عن الحكماء - ولا عليه ألا يزداد - فقد بلغ الغاية ، وليس بناقصه فى رأيه ولا غامطه من حقه ألا يكون هو استحدث ذلك وسبق إليه . تجده يدل على أنه مصروف إلى جمع العلوم والحكم والاستكثار منها . ويرى أن من فعل ذلك فقد بلغ الغاية ولا يضيره ألا يكون استنبط واستحدث . وانظر إلى آثار الخليل تجدها كلها تعليلا وقياساً واستنتاجا وابتكاراً .

وقد يعجب المرء كيف توجد هذه العقول الخصبة فى أوائل الدولة الإسلامية ولم تمر بالأدوار التى تمر بها الأمم من طفولة وشباب واكتمال مما يقتضى أحقابا طوالا حتى تصل إلى سن ابتكار العلوم. ولو علم المرء أن الإسلام جاء إلى أمم كانت قد مرت بأدوار الصبا والطفولة ووصلت إلى حد الاكتمال فلم ينشئها الإسلام إنشاء وإنما جاء فأصلح من عقائدها وأخلاقها واجتماعها ، نقول لو علم الباحث ذلك لزال منه العجب. إن الإسلام دخل فى أمة الفرس والروم والسريان وقد كانت أمما ذات ثقافة ومدنية بل العرب أنفسهم جاءهم الإسلام بعد أجيال وأجيال من منشئهم فلا عجب أن تظهر فيهم ملكة الابتكار والاستنباط التى لا تظهر فى الأمم إلا فى دور نضوجها واستكمالها .

أما حب البحث والابتكار حبا يصل إلى درجة العشق والهيام وإيثاره على كل شىء عداه ، فيحدثنا التاريخ بأعاجيب منه. وحسبنا أن نذكر هنا الحادثتين الآتيتين : يروى عن أبى عمرو بن العلاء قال : كنت هاربا من الحجاج بن يوسف وكان يشتبه على « فرجة » هل هو بالفتح أو بالضم فسمعت قائلا يقول :

ربما تجزع النفوس من الأمـ
ـر له فرجة كحل العقال

بفتح الفاء من فرجة ثم قال : ألا إنه قد مات الحجاج . قال أبو عمرو : فما أدرى بأيهما كنت

أشد فرحا بقوله «فرجة» أم بقوله مات الحجاج».

فأنت تراه قد فرح باستفادته حرفا واحداً من اللغة فرحا يعدل الأمن بعد الخوف، والظهور إلى الناس بعد الاستخفاء. وأما الحادثة الثانية فهي أن سليمان بن علي وجه إلى الخليل بن أحمد، من الأهواز لتأديب ولده فأخرج الخليل إلى رسول سليمان خبزاً يابساً وقال: كل فما عندي غيره وما دمت أجده فلا حاجة لي إلى سليمان. فقال الرسول: فما أبلغه؟ فأنشأ يقول:

أبلغ سليمان أني عنه في سعة
وفي غنى غير أني لست ذا مال
والفقر في النفس لا في المال نعرفه
ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

وما أحسب الخليل آثر الإقامة مع فقره وإقلاله على الرحلة مع ما فيها من غنى ويسار إلا لأنه كان في بيئة يفهمها وتفهمه، ويبتكر لها فتعجب بابتكاره وتناقشه فيسر لهذه المناقشة. وكان لذلك في سعادة نفسية يتمنى جزءا منها الأغنياء والموسرون. وستفوته هذه السعادة إذا ذهب إلى الأهواز وشغل بتعليم ولد سليمان وفاته تلاميذه الذين كان يأنس بمحاوراتهم ومساجلاتهم كسيبويه والنضر بن شميل ومؤرج السدوسي وعلي بن نصر الجهضمي.

وكان النضر بن شميل يقول: أكلت الدنيا بعلم الخليل بن أحمد وكتبه وهو في خص لا يشعر به. ولم تؤكل الدنيا بعلمه في زمنه فحسب، بل أكلت الدنيا بعلمه في جميع الأزمان بعده إلى اليوم. ولا يزال للخليل فضل جسيم على معلمي العربية اليوم في الأزهر ووزارة المعارف والجامعة، فبعلمه يرزقون وبفضله كان لهم الجاه والشرف والمثالة في قومهم. كل ذلك كان من صوفيته في العلم التي كان يراها عبادة وزهادة، ولذلك كان يقول: إذا لم تكن هذه الطائفة - يعني أهل العلم - أولياء الله تعالى فليس لله ولي. ولعلمه وزهده وعفته ورغبته عما في أيدي الناس كان سفيان يقول: من أراد أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل بن أحمد.

بمثل هذا العشق والهيام بالبحث يستنبط العلم وتكتسب المعرفة.

أما أنهم كانوا يؤملون من وراء بحثهم غرضاً عزيزاً لديهم ويرونهم في أشد الحاجة إلى تحصيله فلأنهم كانوا يريدون المحافظة على كتاب الله أن يتطرق إليه اللحن وفساد الإعراب. وكانوا يخافون على اللغة العربية أن يذهب نظامها بمخالطة الأعاجم الذين دخلوا في الإسلام، فقد كانوا يسمعون اللحن في القرآن فيسوءهم ذلك. وأشد ما ساءهم أن قارئاً قرأ: إن الله بريء من المشركين ورسوله بالجر فقيل معاذ الله أن يبرأ من رسوله. وقد هرعوا إلى وضع النحو بعد هذه الحادثة. وقد كانوا يرون اللحن في لغة العرب فيسوءهم ذلك إلى وضع قوانين فيما كان فيه اللحن.

يروى أن أبا الأسود قالت له ابنته: ما أحسنُ السماء. فقال لها: يا بنيّ نجومها. فقالت: إني لم أرد هذا وإنما تعجبت من حسنها فقال لها: إذن فقولي ما أحسنَ السماء. ووضع باب التعجب.

وما أظن أنهم غاروا على اللغة العربية، هذه الغيرة إلا من أجل القرآن، وإلا فإن أمما

كثيرة تركت لغتها تتطور وتتفرع إلى لغات كثيرة دون أن تعنى بضبطها والوقوف فى سبيل تطورها ، ولكن علماء الإسلام عنوا بضبط لغتهم من أجل المحافظة على القرآن، فنشأت هذه الظاهرة العجيبة ، وهى أنه لو قدر أن يحيا اليوم رجل مات منذ ألف سنة ، فسمع المتحدثين بالعربية لما أنكرها ولفهمها ، أما اللغات الأخرى فليست كذلك . فلو أن فرنسيا مات منذ مائتى سنة وبعث اليوم ، لما فهم اللغة الفرنسية التى يتحدث بها أهل هذا العصر لتطورها ومطاوعتها للأحداث الجارية عليها .

وقد بلغ من حرصهم على صحة اللغة وسلامة إعرابها أن أحدهم كان يخجل من اللحن ويراه سوءة لا ينبغى أن يعلمها أحد عنه .

يروى أن الحجاج بن يوسف قال ليحيى بن يعمر العدوانى : أتجدنى ألحن؟ فقال : الأمير أفصح من ذلك . فقال : عزمت عليك أتجدنى ألحن ؟ فقال يحيى : نعم ، فقال له : فى أى شيء ؟ فقال : فى كتاب الله تعالى ، فقال : ذلك أشنع ، فى أى شيء من كتاب الله تعالى ؟ قال : قرأت « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم » فرفعت أحب وهو منصوب . فقال له الحجاج : طول لحيتك دنعك ـ وكان طويل اللحية ـ لا تساكنى فى بلد أنا فيه ونفاه إلى خراسان .

وأما البيئة العربية فى ذلك الحين ، فقد كانت تشجع أعظم التشجيع ، على البحث والدرس ، فقد كان الناس يعظمون العلماء ويستفيدون منهم ويرحلون إليهم . وكان الخلفاء والأمراء يجزلون صلات العلماء بحرف واحد من اللغة يستفيدونه منهم ، كما يحكى أن المأمون قال بحضرة النضر بن شميل : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها ، كان فيها سداد من عوز ، فأورده بفتح السين . فقال النضر : سداد بكسر السين. فقال المأمون: وما الفرق بينهما ؟ فقال النضر: السداد بالفتح القصد فى الدين والسبيل والسداد بالكسر البلغة ، وكل ما سددت به شيئا فهو سداد ، قال العرجى :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

ثم أمر له المأمون بخمسين ألف درهم وأمر له الفضل بثلاثين ألفا .

هذه العناصر الأربعة التى ذكرنا أنها تدعو إلى استنباط العلوم وابتكار قوانين اللغة كانت موجودة فى البصرة والكوفة ، ولذلك بدأ النحو فى هذين المصرين ثم انتشر بعد ذلك فى الأمصار الإسلامية ، فليت شعرى ما الذى فقدته الأمصار الإسلامية ، كمصر ، والشام ، والحجاز ، من هذه العناصر الأربعة فلم يظهر فيها النحو ولم تستنبطه وكانت عيالا فيه على نحو البصرة والكوفة ! وليت شعرى ما الذى تنقصه الممالك الإسلامية الآن من هذه العناصر فعجزت عن استنباط العلوم ومجاراة الأمم فى بناء هيكل العلم المقدس ؟ هذا موضوع حقيق بأن يبحث مستقلا لأنه لا يخلو من طرافة ، ولا يخلو من فائدة أيضا ؟

محمد عرفه

فتوح العقلية الإسلامية في العلم والفلسفة

فضل العرب على فلسفة اليونان

للدكتور أحمد فؤاد الأهواني

نحسب أنه قد جاء الأوان الذي نكتب فيه فلسفتنا بأيدينا ، وأن نؤرخ لها بأقلامنا ، بعد أن سجل المستشرقون رأيهم فيها ، وأعلنوا أن الفلسفة الإسلامية ليست شيئاً آخر إلا الفلسفة اليونانية دوّنت بحروف عربية . بل لقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك فقالوا : إن علم الكلام ، والفقه ، والنحو ، وغيرها من العلوم ، يونانية .

ولن نذهب مذهب هؤلاء القوم من الغلو في تقدير اليونان والحط من شأن العرب ، أو نتطرف على العكس في رفع قيمة العرب وتجريد غيرهم من كل شيء . ولكننا نقول كما قال أرسطو في أوائل كتاب ما بعد الطبيعة : إنه ينبغي أن نشكر السابقين لأنهم مهدوا الطريق . ولم يفته أن يسجل الفضل للمصريين بوجه خاص لامتيازهم في العلم الرياضي . وقد صاغ الكندي هذا الرأي في كتابه إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى فقال : « فينبغي أن يعظم شكرنا للآتين بيسير الحق فضلا عمن أتى بكثير من الحق ، إذ أشركونا في ثمار فكرهم ، وسهلوا لنا المطالب الخفية الحقية . فإنهم لو لم يكونوا لم يجتمع لنا مع شدة البحث في مددنا كلها هذه الأوائل الحقية ، التي بها خرجنا إلى الأواخر من مطلوباتنا الخفية . فإن ذلك إنما اجتمع في الأعصار السالفة المتقادمة عصراً بعد عصر إلى زماننا هذا ... »

وقد كان من الخير أن تنتقل حضارة الإغريق على يد المترجمين إلى أرض جديدة ، وتدرج إلى عقول جديدة ، لأنها كانت كالحب الذي ينبت في غير وطنه فيعطي ثمراً يختلف في طعمه عن الثمر الأصلي . بل وفي شكله . فلما تمثل العرب فلسفة اليونان ، اختلطت بأقوى عنصر من عناصر الحضارة الإسلامية ، وهو الدين الذي يعتمد على أصل ثابت من الكتاب الكريم ، لا ريب فيه ، ولا مبدل لكلماته ، هدى للمتقين .

ولم تكن الفلسفة اليونانية غريبة عن الدين ، ولكنه دين أساطير يؤله البحر والسماء والشمس والقمر ويتخذ آلهة كثيرة ، ولم يستطع فلاسفتهم المبرزون مثل أفلاطون وأرسطو أن يخلصوا من أثر تلك الأديان . وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن فلسفة أفلاطون متأثرة تأثراً شديداً بالنحلة الأورفية . ومَنْ أراد من فلاسفتهم أن يتحرر من سلطان الدين ، وأن ينظر إليه بعين العقل ، لقي من غضب الشعب ما يقسره على الخوف ، وكتم الرأي ، ومسايرة الجماعة . فقد اتهم سقراط بإنكار آلهة اليونان ، وحوكم من أجل ذلك وأعدم . واتهم أرسطو بتهمة شبيهة بذلك لأنه نظم قصيدة رثاء عند موت صديقه الملك هرمياس ، وكان الشعر وقفاً على الآلهة فقط ، وهرب أرسطو خوفاً على مصيره . وقد جرد أرسطو الإله من كل شيء ، فهو عنده « المحرك الذي لا يتحرك » ، « مفارق للعالم ، لا يُعنى به » ، ولا يعلم عنه شيئاً . وتختلف هذه النظرة اختلافاً شديداً عن نظرة الأديان

السماوية ، كاليهودية والمسيحية والإسلام ، ولذلك عدل المسيحيون والمسلمون عن رأى أرسطو فى الله ، واصطنعوا فلسفة أخرى تتلاءم مع الأديان السماوية .

ومع ذلك فقد نصب فلاسفة المسلمين أقلامهم للدفاع عن فلسفة اليونان الدينية ، وذهب الشهرزورى فى كتاب نزهة الارواح ، بعد أن حكى آراء الفلاسفة الطبيعيين ، إلى أن نظرياتهم كانت «رمزاً» ، أما الحقيقة فإنهم كانوا من المؤلهة .

فإذا كانوا مؤلهة على الحقيقة ، فإنما رمزوا خشية ورهبة . والواقع أن الفلسفة اليونانية لم تكن تمتاز بالتصريح العلانية ، حتى فى أزهى عصورها . فهذا أفلاطون لم يدون دروسه فى « الأكاديمية » ، أما محاوراته فقد كتبها للجمهور لا للفلاسفة . وكان أرسطو يلقى دروساً للخاصة من تلاميذه ، وأخرى فى المساء لجمهور المستمعين . وكتبه التى وصلت إلينا هى المذكرات، التى كان يلقى منها دروسه ، وهذا سر غموضها وعلة تركيزها ، ويسميها العرب « التذاكير » .

ولم يكن فى الفلسفة الإسلامية سر تخفيه عن الناس ، أو علم يستأثر به الفلاسفة دون العامة والجمهور . وهذا كتاب « الشفاء » لابن سينا يعد موسوعة كبرى حوت جميع أبواب الفلسفة ، ولم يكن الكتاب مقصوراً على فئة دون فئة ، بل لقد يسر الشيخ الرئيس قراءته للناس فاختصره فى كتاب « النجاة » ليكون أيسر تداولا .

فأول فضل للعرب على فلسفة اليونان ، هو هذه النزعة الديمقراطية ، التى أنزلت الفلسفة من السماء إلى الأرض على الحقيقة ، ويسرت لكل « إنسان » أن يفكر فيها ، باحثا ومبتكرا ، مؤيدا ومعارضا .

الدين الجديد :

وإنما جاءت هذه النزعة من طبيعة الدين الجديد . فهو دين عقل وتجديد لا دين رسوم وتقليد . والقرآن خطاب للناس كافة دون تمييز بين جنس وجنس أو طبقة وأخرى ، وفى الأثر « لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » .

وقد جاء الإسلام بعدة أصول عامة عما يتعرض لها الفلاسفة ، ولكنه نظر إليها بطريقة خاصة تختلف عن طريقة الحكماء . هذه الأصول هى وجود الله ، ووحدانيته ، وخلق العالم ، ثم الصلة بين الله تعالى والعالم جملة ، وبالإنسان ومصيره بوجه خاص .

وليس بين فلاسفة الإسلام من أنكر وجود الله ، أو قال بالتعدد مثل فلاسفة اليونان ؛ وأدلتهم على الوجود والوحدانية متأثرة تأثراً شديداً بالإسلام ، وتختلف اختلافاً بيناً عن أدلة اليونانيين ، وعن أدلة أفلوطين صاحب الأفلاطونية الجديدة ، والذى نقل كتابه التاسوعات ونسب خطأ إلى أرسطو باسم «الأثولوجيا» أو «الربوبية» ، وقيل إنه أثر فى الفلسفة الإسلامية أبلغ الأثر . ونحن لا ننكر ذلك فى تفصيلات كثيرة ، ولكن النظرية العامة لأفلاطين تختلف عما ذهب إليه فلاسفة المسلمين .

وعند الكندى : الله هو « المدبر » الأول ، ويعتمد فيلسوف العرب فى إثبات وجود الله ،

على البرهان الغائى ، وفكرة التدبير ، بل لفظ التدبير ، مما ورد فى القرآن الكريم .

وعند الفارابى : أن الله هو « مبدع » الكل .

وهنا ينظر المعلم الثانى فى وجود الله إلى العلة الأولى ، وإلى الإبداع ، طبقاً لما جاء فى محكم التنزيل من أن الله تعالى بديع السموات والأرض.

ويرى أبو على بن سينا أن الله «واجب الوجود» وذلك بعد قسمة الموجودات إلى واجب وممكن ومستحيل . وهذه قسمة تعتمد على المنطق ، وقد درجت فى براهين المتكلمين فيما بعد ، حتى لقد أورد محمد عبده فى رسالة التوحيد هذا البرهان.

أما أبو يوسف وأبو نصر فقد كانا أدنى إلى روح الإسلام وأقرب من نصوصه . وكان أبو على فى برهانه فيلسوفاً مستقل الفكر لم يأخذ عن اليونان ، ولم يتأثر بالإسلام ، ولذلك هاجمه أبو حامد الغزالى فى التهافت هجوماً شديداً .

ومن الطبيعى وقد برهن الفلاسفة على وجود الله أن يبرهنوا كذلك على الصلة بينه وبين العالم وأن يفسروا الظاهرة التى تعد أساس الأديان السماوية وهى النبوة والوحى .

وهذا كله هو موضوع التوفيق بين الدين والفلسفة . وقد زعم المستشرقون أن فضل الفلسفة الإسلامية يقف عند هذا التوفيق ولا يتعداه ، وسوف نبين أن لها أفضالا كثيرة خلاف ما فطنوا إليه . وكان عمادهم فى تصوير هذا التوفيق ما سجله أبو الوليد فى كتابه «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» ، وسبقه أستاذه أبو بكر بن طفيل فصور هذه المشكلة تصويراً قصصياً فى كتابه «حى بن يقظان» الذى نقل إلى أوربا وأثر فى أهلها تأثيرا كبيرا .

العلم والفلسفة :

وإذا كانت الفلسفة قد اتصلت بالدين من جهة ، فقد اتصلت بالعلم من جانب آخر ، ولا نعدو الصواب إذا قلنا إن العلوم المختلفة ، كالحساب والهندسة والطبيعة والكيمياء والنبات والحيوان والطب كانت فروعا من شجرة الفلسفة .

حقا نقل العرب فلك بطليموس ، ورياضة أقليدس ، وطب أبقراط وجالينوس ، ولكن هذه العلوم كانت قد تفرقت ، واختص بكل فرع منها قوم ، حتى جاء العرب وسن لهم أبو يوسف يعقوب الكندى سنة الجمع بينها ، فكانت له رسائل فى الفلك والهندسة والكيمياء كما كتب فى الفلسفة . وبذلك أصبحت الفلسفة هى المعرفة الشاملة بجميع العلوم . ولم يقتصر فلاسفة الإسلام على الفلسفة وحدها ، بل كان معظمهم « علماء » إما فى العلم الرياضى وإما فى العلم الطبيعى . وهذا هو سبب نهضة الفلسفة الإسلامية، وارتفاع شأن ممثليها ، كالحال فى ديكارت وليبنتز ، ولكل منهما نظريات رياضية جديدة . ولا تزال هذه السنة قائمة حتى الآن ، فهذا بوانكاريه وبرجسون وبرتراند رسل وهوايتهيد وأينشتين وغيرهم لم تصبح لهم كلمة فى الفلسفة مسموعة إلا لامتلاكهم ناصية العلم الرياضى أو الطبيعى .

ومن الغريب أن يقال إن الفلسفة الإسلامية اقتصرت على نقل علوم اليونان والوقوف عند شرحها . فهذا أبو نصر الفارابى ابتكر علم

الموسيقى ، حتى لقد وصفه ابن قيم الجوزية فى كتابه إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، بأنه سمى « المعلم الثانى » لأنه وضع التعاليم الصوتية كما وضع أرسطو المنطق فلقب بالمعلم الأول . وكان الفارابي إلى ذلك صاحب معرفة شاملة ، وهو صاحب « إحصاء العلوم » ، وقد أراد صديقنا الدكتور عثمان أمين أن يفسر تسميته بالمعلم الثانى من أجل ذلك . وذهب الأستاذ زكريا يوسف فى مهرجان ابن سينا الذى أقيم فى بغداد إلى أن الشيخ الرئيس هو أول من وضع علم الموسيقى .

ولا نريد أن نخوض فى تفصيل العلوم واحدا واحدا فنبين فضل فلاسفة العرب على علم الفلك ، والرياضة ، والنبات والحيوان ، والكيمياء وغير ذلك ، فكتبهم التى نقلت إلى اللاتينية فى العصر الوسيط هى التى عوّل عليها الأوربيون فى نهضتهم العلمية . غير أننا نريد الإشارة إلى هذا المعنى ، وهو أن فلاسفة المسلمين هم الذين سنوا سنة الجمع بين الحكمة والعلم . ولعل لفظ « الحكيم » الذى يعنى به العامة « الطبيب » إنما يرجع إلى أن أطباء الإسلام كانوا فلاسفة وحكماء فى الوقت نفسه . ولا غرابة بعد ذلك أن نجد سيرة الفلاسفة فى كتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » لابن أبي أصيبعة .

نظرية المعرفة :

ومن المسائل التى تضرب فى الفلسفة إلى الصميم ، بل التى تعد جوهر الفلسفة ، هذه المسائل التى يسميها المحدثون نظرية المعرفة ، والتى سماها القدماء « العلم » . وإنما عدلنا عن لفظ « العلم » إلى « المعرفة » لأن العلم (Science) فى العصر الحاضر إصطلاح خاص يقصد به مجموعة القوانين العامة المستمرة من المشاهدات والمؤيدة بالتجارب .

ولفلاسفة الإسلام رأى فى المعرفة ، ولعلماء الكلام رأى كذلك ، حتى لقد أفرد المتأخرون منهم بابا خاصا باسم العلم ، كما هو الحال فى « المواقف » للإيجى مثلا . ولعلك تقول : وما شأن المتكلمين بالفلاسفة وكيف تخلط بين هؤلاء وأولئك ؟ كان ذلك صحيحا فى القرن الثالث وابتداء الرابع ، حتى إذا كنا فى القرنين الخامس والسادس ، اختلطت مباحث الكلام بالفلسفة ، وذلك باعتراف المتكلمين أنفسهم ، ويكفى أن تقرأ استهلال كتاب « العقائد » للنسفى الذى يقول فيه « قال أهل الحق : حقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقق خلافا للسفسطائية . . . . » لتحس أنك بإزاء كتاب فى الفلسفة لا فى علم الكلام . وفى رأى الكثيرين أن الغزالى يعد بسبب كتابيه المقاصد والتهافت من الفلاسفة لا من المتكلمين أو الفقهاء أو الصوفية . وهذا هو رأينا أيضا .

على أن نظرية المعرفة عند المتكلمين تلائم أغراضهم من إثبات الحقائق الدينية التى وردت فى الشرع ، أما الفلاسفة فقد نظروا إلى المعرفة نظراً حراً من كل تأثير دينى .

ما هى طرق المعرفة ؟ أهى الحواس أم العقل ؟ أم يوجد طريق آخر غير الحواس والعقل ؟ وكيف نصل إلى تكوين المعانى الكلية

وإلى القضايا التى نحكم فيها بمعنى على معنى ؟ وهل المعرفة كلها مكتسبة أو نظرية ، أو بعضها نظرى وبعضها الآخر مكتسب ؟ .

لقد نظر فلاسفة اليونان فى هذه المشكلات ، أو فى بعضها على الأقل ، ولكنه نظر لا يغنى . فهذا أفلاطون يحدثنا عن الجدل الصاعد من المحسوس إلى المعقول ، ثم الجدل النازل من المعقول إلى المحسوس ، ولكن رأيه شديد الغموض ، أما فلاسفة الإسلام ، فلأنهم اشتغلوا كما ذكرنا بالعلم الرياضى والطبيعى وكانوا أطباء يعولون على المشاهدة والتجارب ، فقد تأثروا بالمنهج العلمى . ونحن نجد نواة نظرية المعرفة عند الفارابى الذى جمع بين المعلومات المكتسبة من الحواس وبين العقل . ولكن الفارابى فيلسوف مركز ، يكتب على طريقة « الفصوص » . حتى إذا جاء أبو على بن سينا بسط هذه النظرية فى إفاضة . فالكليات تكتسب بتجريدها من المحسوسات الجزئية ، والأحكام العامة مستفادة من التجربة مثل أن السقمونيا مسهل للصفراء ، وذلك لمشاهدتنا ذلك كثيراً ، كما حكى الشيخ فى « النجاة » . ونحن نجد هنا أن الرأى للطبيب لا للفيلسوف . ولكن ابن سينا يحدثنا إلى جانب ذلك أن العقل البشرى فيه « أوليات » أو « بديهيات » ، مثل أن الكل أعظم من الجزء ، وأن الأشياء المساوية لشىء واحد متساوية وهذه من طبيعة العقل لا تستفاد من مشاهدة أو تجربة .

لا نود أن نعرض هنا بالتفصيل لمذهب ابن سينا ، ولكننا نشير إلى أن النجاة والشفاء قد ترجما إلى اللاتينية ، ولا نستبعد أن يكون ديكارت وكانط قد تأثرا بالشيخ الرئيس فى كثير من آرائهما ، كما بينا ذلك فى بعض مباحثنا .

ويضيف المتكلمون إلى طرق المعرفة طريقاً جديداً ، هو « الخبر الصادق » ويذهب الفارابى إلى أن العلم إما أن يكون ربانياً وإما أن يكون إنسانياً . فالعلم الربانى يحصل بالكشف والذوق والعلم الإنسانى يتم بالمشاهدة والتحصيل .

الأسباب والمسببات :

وهذه مسألة من أخطر المسائل الفلسفية نعنى بها نظرية السببية . وقد فتح بابها الغزالى ولا تزال المشكلة معروضة على بساط البحث حتى اليوم . عاش فيها هيوم ، وكانط ، كما عرض لها المحدثون المعاصرون .

يقول الغزالى إن النار إذا اقتربت من القطن أحرقته ، فيذهب الفلاسفة إلى أن النار « علة » الإحراق . فما معنى العلة أو السبب ، أذلك فى الأشياء الطبيعية ، أم فى عقولنا ؟ فإن كانت الأسباب فى الأشياء الطبيعية فإنها عادمة للعقل وتحتاج إلى مدبر يدبرها . وإن كانت السببية فى عقولنا ، فإن مرجع ذلك إلى « العادة » التى ألفنا فيها النظر إلى تكرار وقوع الاحتراق بعد اقتراب النار من القطن . ويخلص الغزالى من ذلك كله إلى مسبب الأسباب وهو الله تعالى

وهذا الذى يقوله الغزالى يشبه إلى حد كبير ما يقوله : « مالبرانش » تلميذ ديكارت ، حين يذهب إلى أن الأسباب الظاهرة إن هى

إلا و مناسبات ، تبرز فيها الإرادة الإلهية .

أما هيوم ، فإنه أرجع السببية إلى قانون ارتباط المعانى فى الذهن . وكان لهدمه مبدأ السببية أثر عظيم فى فلسفة كانط ، الذى رأى فى هدم السببيه هدماً للعلم ، فذهب إلى أن السببية من جملة الصور الموجودة فى العقل البشرى والتى تفرض فرضاً على الأشياء . ولم يجد برتراند رسل فى كتابه الأخير ، المعرفة الإنسانية ، أدلة فلسفية يمكن أن تنطع بالاعتقاد فى السببية ، ولكنه أجازها ، لأن العلم لا يقف على قدميه إلا على هذا المبدأ . وهكذا نرى أن موقف الغزالى وبراهينه ونقده القوى ومناقشته العميقة كل ذلك لا يزال فتحاً جديدا فى عالم الفلسفة . وهذا من فضل العرب على فلسفة اليونان ، بل على الفلسفة الحديثة .

العقل والنفس :

وقد نظر فلاسفة اليونان إلى العقل والنفس . ويعد كتاب النفس لأرسطو مرجعاً فى هاتين المسألتين . وقد نقل اسحاق بن حنين هذا الكتاب إلى العربية ، وشرحه الإسكندر الأفروديسى ، وعرف العرب الأصل والشرح . ولكن مقالة أرسطو فى العقل كانت أشبه بالرموز المستغلقة ، وهى إلى ذلك شديدة الإيجاز ، وأشار فيها إلى خلود العقل ، ومفارقته ، مما يتنافى مع مذهبه الطبيعى العام مما جعله يلحق علم النفس بالعلم الطبيعى .

ونحن نجد لفلاسفة الإسلام البارزين آراء فى العقل والنفس ، مثل الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد .

وأوضح هؤلاء جميعاً ، وأبعدهم أثرا فى تاريخ الفلسفة ، سواء فى الشرق أو فى الغرب ، هو ابن سينا .

وقد ميز الشيخ الرئيس بين النفس والعقل ، فالنفس الإنسانية حين اتصالها بالبدن تسمى النفس ، فإذا فارقته بعد الموت تسمى العقل .

وساق ابن سينا أدلة كثيرة على وجود النفس وامتيازها عن البدن ، منها برهان « الأنا » حين تقول أنا فعلت كذا أو كذا . وبرهان الرجل الطائر الموجود فى الشفاء وبرهان الشعور بالأحوال النفسية واستمرارها . وقد تنبه المستشرقون إلى أن ديكارت متأثر فى برهانه المشهور ، « أنا أفكر ، إذن أنا موجود » ببراهين ابن سينا ، ولا سيما وقد كانت كتبه مترجمة إلى اللاتينية ومتداولة فى أوربا . وكذلك تلتق آراء الشيخ بآراء وليم جيمس وبرجسون فى العصر الحديث .

إلا أن المسلمين بعد ابن سينا ، لم يجددوا مع الأسف فى الفلسفة ، ولم يتابعوا النهضة التى بدأها الكندى وسار على هداها الفارابى حتى انتهت إلى المعلم الثالث .

وانتقلت الفلسفة إلى أوربا ، وشقت طريقها ، وظلت تتقدم حتى اليوم .

وليس ببعيد أن نرى الفلسفة تعود مرة أخرى إلى الشرق ، فتتبوأ ما كان لها من منزلة على يد المعلمين الثانى والثالث .

أحمد فؤاد الأهوانى

تدعيم الإسلام للأسرة

للدكتور علي عبد الواحد وافي

تتأثر شئون المجتمع تأثراً كبيراً بمقومات الأسرة وما تعتمد عليه من دعائم. فإذا قامت الأسرة على أسس قوية سليمة استقرت أحوال المجتمع وتوطدت أركانه؛ وإذا وهنت قواعدها اضطربت حياته واختل توازنه. فالأسرات، كما يقول «أوجيست كونت» منشىء علم الاجتماع، هي الخلايا الأولى التي يتألف منها جسم المجتمع، فبصلاحها يصلح هذا الجسم، وبفسادها يدب إليه السقم والانحلال.

ولذلك وجه الإسلام قسطاً كبيراً من عنايته نحو تدعيم نظام الأسرة، وتخليصها من شوائب الضعف، وإحاطتها بما يكفل لها الصلاح والاستقرار. فلم يغادر أية ناحية من نواحيها إلا أقامها على نظم رشيدة، وقضى على ما كانت تسير عليه عند العرب وغيرهم من طرائق معوجة فاسدة. ذلك كان موقفه في شئون الخطبة، واختيار الزوج لزوجه، ومراعاة الكفاءة بين الزوجين، ونظام المهور، وإجراءات عقد الزواج وإشهاره، وما أضفاه على هذا الميثاق من قدسية وجلال، وما قرره في حقوق كل من الرجل والمرأة والأولاد والأقرباء وواجباتهم بعضهم حيال بعض، وتنظيمه لاقتصاديات الأسرة وتوزيع وظائفها وأعبائها بين أفرادها، وتحديد الشخصية المدنية لكل منهم، ومبلغ ما يتمتع به من حرية في التملك والتعاقد والالتزام، ومدى مسئوليته عن تصرفاته وأعماله وعن أعمال غيره من بقية أفراد أسرته الخاصة وأسرتيه العامتين وهما عاقلته أو عصبته وذوو أرحامه أو أقرباؤه من جهة الأب ومن جهة الأم، والنظم الحكيمة التي قررها بصدد الأرقاء والموالي من الجنسين وعلاقتهم بأسيادهم وحقوقهم وواجباتهم وشئون أسراتهم الخاصة والعلاقة بين السيد ورقيقاته وأولاد الجواري من أسيادهم ومن غيرهم، والأسس التي أقام عليها شئون البنوة والقرابة والنفقة والرضاع والحضانة وتعدد الزوجات والصلح بين الزوجين والتحكيم فيما ينجم بينهما من خلاف والطلاق والميراث والوصية.. وهلم جرا.

وغني عن البيان أن المقام لا يتسع للكلام على ما جاء به الإسلام من نظم في جميع هذه الشئون. هذا إلى أن معظمها قد قتله العلماء بحثاً في مؤلفات الفقه والشريعة المقارنة وتاريخ النظم الإسلامية، وأصبح الكلام فيه من نافلة القول. ولذلك سنقتصر في مقالنا على بيان ما جاء به الإسلام من تدعيم لنظام الأسرة في أربعة مواقف لم يوجه إليها الباحثون من قبلنا عناية كبيرة، ولم يوفوها حقها من الدراسة، ولم يبينوا ما لها من آثار خطيرة في هذا الصدد: وهي مواقفه حيال نظام «التبني»، ونظام «الاعتراف بالولد»، ونظامي «الادعاء»، و «الخلع» في القرابة.

١ ـ أما نظام «التبنى» فيجيز للإنسان أن يتخذ فردا غير منحدر من صلبه ولداً له؛ فيعامل هذا الغريب معاملة أولاده أمام القانون والمجتمع ويتمتع بحقوقهم، وتقع عليه أعباؤهم وواجباتهم.

وقد عمل بهذا النظام كثير من الأمم فى العصور القديمة والوسطى بشروط وأوضاع تختلف باختلاف الأمم التى أخذت به. وكان العرب فى الجاهلية يطبقونه فى نطاق واسع؛ حتى لقد كان يندر أن تجد من بين سراتهم وأوساطهم من ليس له ولد أو أولاد بطريق التبنى. ولقد تبنى الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه قبل رسالته زيد بن حارثة، مع أنه كان معروف الأب والأم. وذلك أن أم زيد هذا قد خرجت به لزيارة أهلها، فسطا عليها بعض الأعراب وخطفوا منها ابنها؛ وكان الخطف رافدا من روافد الرق فى الجاهلية. فباعوه بيع الأرقاء مع أنه معروف النسب ومن أسرة عربية عريقة. وظلّ ينتقل من يد إلى يد حتى وقع أخيرا فى يد خديجة. وقد وهبته خديجة لزوجها محمد بن عبد الله، فأعتقه وتبناه قبل الرسالة.

ولا يخفى ما يؤدى إليه نظام التبنى من اختلاط فى الأنساب، وتوهين لحرمة القرابة، وإضعاف لوشائج الدم، وإفساد لمقومات الأسرة، وإثارة لعوامل الفتنة والضغينة، وإضرام لنار الشقاق والنزاع بين العشائر والأسرات.

ولذلك حرمه الإسلام تحريماً قاطعاً، وأنكره القرآن فى عبارات قوية تنم على شدة تعارضه مع الدعائم السليمة التى ينبغى أن يقوم عليها نظام الأسرة الإنسانية: «ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه... وما جعل أدعياءكم [1] أبناءكم، ذلكم قولكم بأفواهكم، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل. ادعوهم لآبائهم هو أقسط [2] عند الله، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم» [3].

ولحرص الإسلام على القضاء على هذا النظام، وإزالة جميع آثاره، ولقوة تأصله فى نفوس العرب لم يكتف بإلغائه بالقول، بل رأى أن يمحوه كذلك بطريق عملى وبفعل الرسول نفسه، فأوحى الله تعالى إلى نبيه أن يتزوج مطلقة زيد بن حارثة الذى كان قد تبناه قبل الرسالة، ليبين للناس بطريق عملى أنه لا تبنى فى الإسلام، وأن الدين الجديد قد قضى على هذه القرابة المصطنعة، ومحا جميع آثارها، وأحل ما كانت تحرمه، ومن ذلك زواج الرجل بمطلقة من تبناه. وذلك أن العرب فى الجاهلية، لإنزالهم الدعى منزلة الابن من جميع الوجوه، كانوا يحرمون على من تبناه أن يتزوج بمطلقته كما يحرم على الأب الزواج بمطلقة ابنه من صلبه. فجاء زواج الرسول عليه السلام بمطلقة زيد تقريرا عمليا لإلغاء هذا النظام وما يترتب عليه.

هذا، وقد تخبط كثير من المؤرخين والمفسرين تخبطا كبيراً فى بيان الأسباب التى دعت الرسول إلى الزواج بزينب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة

(١) المقصود بالأدعياء فى الآية: الذين كان الناس يتخذونهم أولادا بطريق التبنى.
(٢) أعـــدل.
(٣) سورة الأحزاب آيتى ٤، ٥.

مع أن القرآن نفسه بيّن بصريح العبارة أن السبب في ذلك حرص الشارع على القضاء على نظام التبنى ومحو آثاره بطريق عملى بفعل الرسول نفسه . وذلك إذ يقول : « فلما قضى زيد منها وطراً [١] زوجناكها ، لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا [٢] » . ولتوكيد هذا الحكم يقول الله تعالى فى الآية التى بين فيها من يحرم الزواج بهن : « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت .. وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ، [٣] » : أى إن الأبناء الذين يحرم على الآباء الزواج بمطلقاتهم هم الأبناء الذين ينحدرون من أصلابهم لا الذين يجيئون عن طريق الادعاء والتبنى الذى قضى عليه الإسلام

ولم تستثن الشريعة الإسلامية من ذلك إلا حالة واحدة وهى حالة اللقيط الذى لا يعرف نسبه ؛ فتبيح أن يلتحق نسبه بمن التقطه إذا قبل أن يلتحق نسبه به أو بأى شخص آخر يدعيه إذا لم يدعه الملتقط نفسه (أما إذا ادعاه الملتقط وادعاه فى الوقت نفسه شخص آخر فالملتقط أولى به) ؛ ويصبح فى جميع هذه الأحوال من أولاد من ادعاه، سواء أكان الملتقط أم غيره ويعامل معاملتهم من معظم الوجوه [٤] .

(١) كناية عن طلاقه إياها .

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٧

(٣) سورة النساء آية ٢٣

[٤] انظر فى ذلك الميدانى على القدورى [المطبعة الأزهرية سنة ١٩٢٧] صفحة ١٩٦ وبدائع الصنائع للكاسانى [مطبعة الجمالية سنة ١٩١٠] الجزء السادس صفحة ١٩٨ .

وقد قصد الإسلام بهذا الاستثناء أن يشجع الناس على حماية اللقطاء وأن يحقق لهؤلاء من رعاية الأسرة وألفة القرابة والتنشئة الصالحة والحقوق المدنية ما لا يمكن أن يتحقق لأمثالهم بدون هذا الإجراء .

• • •

٢ — وأما نظام « الاعتراف بالولد » فيقضى ألا يلتحق نسب الولد بأبيه الشرعى إلا إذا اعترف به اعترافاً صريحاً ورضى أن يلتحق نسبه به . وكان هذا النظام سائدا عند كثير من الأمم فى العصور القديمة والوسطى . فعند قدماء الرومان مثلا كان إذا ولد لعميد الأسرة ولد من زوجه الشرعية وجب تقديمه له ، بأن يوضع على عتبة حجرته ؛ فإذا قام ورفعه إلى صدره كان ذلك اعترافا منه ببنوته ، وإذا تركه ملقى على العتبة اعتبر أجنبيا عنه وعن أسرته [١] . وكذلك كان شأن العرب فى الجاهلية . فكانت البنوة فى كثير من عشائرهم لاتثبت لمن يجىء من الزوجة الشرعية إلا باعتراف صريح من الأب .

ولا يخفى ما ينطوى عليه هذا النظام من استهانة بحرمة الزواج ، واستخفاف بميثاقه ، واستبداد بشئون الأسرة ، وإخضاعها لأهواء الأزواج ونزواتهم ، ونيل من كرامة الزوجات ، وتعريض الأولاد للضياع ، وحرمانهم من أعز الحقوق الإنسانية وألزمها للحياة ، وتفرقة ظالمة بين الإخوة والأخوات ، وزلزلة عنيفة لدعائم النظام

[١] انظر فى كتابنا فى « الأسرة والمجتمع » صفحتى ١٣ ، ١٤ من الطبعة الثانية .

العائلى ومقوماته على العموم .

ولذلك حارب الإسلام هذا النظام فى جميع مظاهره ، ولم يأل جهدا فى القضاء عليه فقرر أن « الولد للفراش » [١] ، أى إن من يجىء من الأولاد ثمرة لفراش صحيح قائم على عقد الزواج يلتحق نسبه بالزوج من غير حاجة إلى اعترافه به اعترافا صريحا . وأخذت الشريعة الإسلامية بهذا المبدأ حتى فى الحالات التى يبدو فيها تعذر اتصال الزوج بزوجه ، كما إذا عقد مشرق على مغربية بدون أن يتصل أحدهما اتصالا ظاهرا بالآخر ، وظل كل منهما مقيما فى بلده ، ثم جاءت الزوجة بولد بعد انتهاء مدة الحمل الشرعية فإنه يثبت نسبه من الزوج بدون حاجة إلى اعترافه به اعترافاً صريحاً [٢] .

ولم تستثن الشريعة الإسلامية من ذلك إلا من تجىء به الرقيقة التى لم يزوجها سيدها لشخص آخر ؛ فإنه لا يثبت نسبه من سيدها ولا يعتبر ولده إلا إذا اعترف به اعترافا صريحا [٣] . والسبب فى ذلك أن صلة الجارية بمولاها ليست صلة زوجة بزوجها بل صلة مملوكة بمالكها ، وأن هذه الصلة ليست قائمة على ميثاق وتعاقد بل قائمة على ملك اليمين ، وأنه ليس مفروضا دائما أن يعاشر السيد جاريته ويستمتع بها كما هو الشأن حيال زوجته الشرعية ، بل يجوز له ذلك ، ويجوز له أن يزوجها لرقيق مثلها أو لحر [١] ، كما يجوز له أن يقصرها على شئون الخدمة والعمل . فكان من العدالة إذن ألا يلتحق نسب ولدها به إلا بادعائه أى باعترافه اعترافا صريحا بمعاشرته إياها وبأن الولد من صلبه . وقد كان السيد ملزما ديانة ، أى فيما بينه وبين ربه ، أن يعترف بالولد الذى يجىء من معاشرته لرقيقته .

● ● ●

٣ ، ٤ - وأما نظاما « الادعاء » و « الخلع » فى القرابة فيجيز أولهما لعميد العشيرة أو لجمع شيوخها أن يضم إليها بطريق الادعاء فردا غريبا عنها فيصبح عضوا فيها ويشارك أفرادها فى مختلف حقوقهم وواجباتهم ، ويبيح له ثانيهما أن يخلع أحد أعضائها الأصليين عن ذمتها ويقطع صلتها به ، فيصبح « خليعا » أجنبيا عنها من جميع الوجوه .

وقد أقر هذين النظامين أمم كثيرة فى العصور القديمة والوسطى بشروط وأوضاع تختلف باختلاف اتجاهاتها فى التشريع . وكان العرب فى الجاهلية يطبقونهما فى نطاق واسع . وقد شاع

[١] حديث نبوى ونصه « الولد للفراش وللعاهر الحجر » وقد ورد فى خطبة الوداع للرسول عليه السلام . ومعنى الجملة الثانية من الحديث أن من يثبت عليها الزنا بالأدلة القاطعة التى فرضها الإسلام يقتل نسب ولدها من زوجها وتعاقب رجما بالحجارة .

[٢] انظر فى ذلك مقالا قيما لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت فى عدد ٢/٦/٤٥ من جريدة المصرى .

[٣] انظر الميدانى على القدورى صفحة ٣٦٧ ، وبدائع الصنائع ، جزء رابع ، صفحة ١٢٥ .

[١] وفى هذا يقول الله تعالى : « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم » [سورة النور ، آية ٣٢] والفعل فى الآية بهمزة قطع من الرباعى بمعنى زوجوهم .

لديهم على الأخص نظام «الخليع»، وكانوا يلجئون إليه فى الغالب لمجازاة أحد أفراد العشيرة لخصال أو أعمال تتعارض مع عرفها أو نظمها أو آدابها أو عقائدها. فإذا وقع عليه هذا الجزاء أصبح «خليعا» غريبا عن عشيرته لا تعده من أفرادها، فلا تؤخذ بجرائر أعماله ولا تثأر له إذا قتل. وقد طلب كفار قريش الذين ضاقوا ذرعا بمحمد عليه السلام وبدينه الجديد إلى عمه أبى طالب أن «يخلعه» حتى يستطيعوا قتله بدون أن يخشوا مطالبة بنى هاشم بثأره [1].

وجميع ماقلناه فى مثالب نظامى «التبنى» و«الاعتراف»، وآثارهما الهدامة وتقويضهما لدعائم الأسرة واعتدائهما على الكرامة والحقوق وإضرامها لنار الفتن والشقاق يصدق أكمل صدق على نظامى «الادعاء» و«الخلع» فى القرابة.

ومن أجل ذلك حرمهما الإسلام تحريماً باتاً كما حرم النظامين الأولين، وقرر أن القرابة ليست هبة تمنح ولا رداء يخلع، وليست خاضعة لإرادة الناس ولا لأهوائهم، وإنما هى وشيجة دم لا يلقاها من لم تعطها له الطبيعة، وعروة وثقى تنبعث عن لحمة النسب ولا تنفصم عمن امتزجت به.

[١] لم يذعن أبو طالب لرغبتهم هذه. ولما علموا ببيعة الأنصار له اتفقوا على أن يختاروا من كل قبيلة فتى جلدا ويذهب هؤلاء الفتيان إلى محمد ويقتلونه معا، وبذلك يتفرق دمه بين القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على محاربة جميع العرب. ولكن الله تعالى كتب لرسوله النجاة ولدينه البقاء بهجرته مع صاحبه إلى المدينة فى اليوم نفسه المحدد لتنفيذ جرمهم

ولم تستثن الشريعة الإسلامية من ذلك إلا حالتين، أوجبت فى إحداهما قرابة غير قائمة على صلات الدم، وأجازت فى الأخرى هذا النوع من القرابة، مراعية فى هذه وتلك صالح الأفراد والصالح العام.

وأما إحداهما فتتمثل فى نظام «مولى العتق»، وهو الذى يصبح بمقتضاه العبد بعد عتقه: فى نظر الإسلام، عضواً فى أسرة سيده يشترك مع أفرادها فى كثير من حقوقهم وواجباتهم، حتى لقد كان يجب عليها أن تدفع عنه الدية، إذا ارتكب جناية توجب الدية، كما تفعل ذلك حيال أعضائها الأصليين، وكان سيده يرثه إذا مات ولم يترك عصبة. وقد قصد الإسلام من ذلك إلى غرض إنسانى سام وهدف عمرانى نبيل، وهو أن يكمل نعمة الحرية للعبد بعد تحريره، فيجعله مساويا فى الحقوق والواجبات لأفراد الأسرة التى كانت تملكه، ويجعل له من هذه الأسرة درعا تحمى حريته الطارئة وتدرأ عنه ما عسى أن يوجه إليه من عدوان، ويسبغ عليه فوق هذا وذاك صفة من أهم الصفات الاجتماعية التى يمتاز بها الحر عن العبد إذ لا يعتد الأول عضواً فى أسرة وعشيرة بينما يعد الثانى فرداً لا أسرة له ولا عشيرة. [1]

وأما الأخرى فتتمثل فى نظام «مولى الموالاة»، وذلك أن الشريعة الإسلامية تجيز لغير العربى إذا كان مجهول النسب أن يتخذ له وليًّا من أسرة

[١] انظر فى موضوع «مولى العتق» الميدانى على القدورى ٢٧٤ - ٢٧٦، والبدائع الجزء الرابع ١٥٩ - ١٧٠

جهود العلماء المسلمين في ميدان العلوم

للدكتور ابراهيم علي عبد الرحمن

الرأي عند الثقات أن العلم الإسلامي قد بلغ أوج ازدهاره في النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي . وهم يدللون على ذلك بكثرة العلماء الفطاحل في ذلك العصر وقوة الابتكار التي تظهر في أعمالهم ، وفي تميز نتاجهم العلمي عن علوم اليونان والهند وغيرها من الأمم السالفة التي كان العرب ينقلون عنها في مبدأ الأمر . ومعنى ذلك أن العلم الإسلامي كان قد تأصل في بيئته وأينع وأثمر ولم يعد عالة على غيره وغدا قائما بنفسه مبدعا بذاته .

وربما يتساءل المرء عن القيمة الحقيقية للتقدم العلمي عند العرب ، وخاصة إذا قورن بالعلم الحديث ، فكلنا يعلم أن العلم الأوربي الحديث قد أنتج للبشرية الكهرباء والطائرات والراديو وأنواع العلاج الطبي والمستحدثات الزراعية والصناعية ووسائل الترفيه والتسلية وأدوات الهلاك والدمار . فلنا أن نسأل هل أنتج العلم العربي قديما ما يقارن بمستحدثات العلم الحديث ؟ والجواب بالنفي . ولكن يلزم أولا لتقدير قيمة العلم العربي الحقيقية أن نوضح الفرق بين العلم القديم والحديث .

١ - العلم قديماً وحديثاً :

إن العلم الحديث أشبه شيء بجبل الثلج الطافي الذي يظهر منه فوق سطح الماء جزء ويختفي منه تحت الماء تسعة أجزاء ، فالناس عامة يرون من العلم الاختراعات والابتكارات والمستحدثات التي تتصل بحياتهم اليومية أو بثقافتهم العادية وهذا هو العشر الظاهر ، أما الذي لا يظهر لهم فهو الأسس النظرية والعملية للمعرفة العلمية والجهود المضنية التي يبذلها مئات العلماء في خلال عشرات السنين في البحث والدرس والتنقيب وإعمال الفكر وعصر الذهن ، سعياً وراء المعرفة وتجميعاً لكل دقيق من خيوطها والعمل الأخير - وهو الأهم في العلم - لا يقدره الناس عامة حق قدره ، لأنه غير ظاهر أمام أعينهم ، فلو قلت لهم مثلا إن عالما جليلا في معهد علمي أجنبي قضى طيلة حياته يدرس طبائع نوع واحد من أنواع الحشرات وأنه أصبح حجة في هذا الفرع وأنه منح لذلك أكبر الجوائز العلمية ، إذا قلت ذلك فللقارىء العادي أن يعجب من غرابة أطوار

معروفة ، يرتبط معه بعقد صريح ، فيصبح بمنزلة عضو في أسرة هذا الولي ، يدفع عنه الولي الدية إذا ارتكب جناية توجب الدية ويرثه إذا مات ولم يترك وارثاً . ويسمى من يكتسب قرابته عن طريق هذا العقد « مولى الموالاة »[1] . - وقد قصد الإسلام من هذه الرخصة أن يحقق للمستضعفين من الناس سنداً وحماية في المجتمع الذي يعيشون فيه . ولذلك لم يبحها إلا لشخص غير عربي مجهول النسب ، لأن العربي ليس في حاجة إلى هذه الحماية ، لأنه محمي بعشيرته وذو النسب المعروف من غير العرب ليس في حاجة إليها كذلك ، لأنه في ظلال أسرته ، وانتماؤه لغيرها يؤدي إلى اختلاط الأنساب واضطراب الأسس التي يقوم عليها نظام القرابة .

علي عبد الواحد وافي

[1] انظر في موضوع « مولى الموالاة » : الميداني على القدوري ٣٧٦ ، والجزء الرابع من البدائع ١٧٠ - ١٧٣

العالم ولعله يحكم عليه بالشذوذ أو الجنون، ولعله يأسف على ما بذل من جهد وما ضاع من مال سعياً وراء طبائع إحدى الحشرات . ولكنك إذا قلت له بعد ذلك إن تلك الحشرة عندما درست حياتها كشفت الطريق أمام الباحثين فعرفوا المبيدات الحشرية وأنقذوا محاصيل زراعية تقدر بمئات الملايين من الجنيهات ، عندئذ لا يستكثر المرء أى جهد ولا يستقل أى نتيجة يصل إليها العلماء ، فالعلم الظاهر للجمهور يسبقه ويرتبط به علم كثير لا يقدره الجمهور .

والآن نرجع إلى العلم الحديث فنقول : إنه سريع التطور والارتباط بالمجتمع ، بينما العلم القديم كان بطىء التطور ضعيف الارتباط بالمجتمع . انظر مثلا إلى (أبى سهل الكوهى) عندما يكتب إلى (أبى إسحاق الصابىء) قائلا :

« وأما مراكز الأثقال فيبقى منها شىء يسد حتى يتم ست مقالات متوالية ، أربع منها عملتها هاهنا بالبصرة ، واثنتان ببغداد . أما فى أربع المقالات التى عملتها هاهنا فقد ظهر لنا فيه أشياء عجيبة يدل كلها على نظم أفعال البارى عز وجل . منها . . . ثم يسترسل فى بيان مراكز أثقال الأشكال المسطحة والمجسمة المختلفة بنتائج بديعة إنها نتائج علمية صحيحة كانت مبتكرة فى حينها واعتبرت أساساً لكل البحوث التى أتت من بعدها إلى العصر الحديث . ولكنها بحوث لم تؤد حينئذ بذاتها إلى أى اختراع عملى ، فلم تظهر قيمتها للعامة . ولكن العلماء يقدرونها حق قدرها وهى اليوم من أسس علم الميكانيكا وتوازن الأجسام الذى هو بدوره ركن من أركان الحضارة الحديثة كلها .

فالحق يقال إن أبا سهل الكوهى قد أضاف نتائج من ابتكاره إلى حقائق علم مراكز الأثقال وإنه بذلك قد ساهم فى وضع أساس علم توازن الأجسام الحديث الذى يستعمل كل يوم فى صناعة الطائرات والسفن وكل قائم أو دائر من الآلات والمنشآت .

وهذا بيان ما نقوله بأن العلم القديم كان بطىء التطور ضعيف الرابطة بالمجتمع المعاصر له ، أما إذا نظرنا إلى العلم الحديث ، فإننا نجد مثلا أن فطر (البنسلين) يعرف فى المخترعات العلمية وتتضح خصائصه الحيوية ، ثم لا تمضى بضعة سنوات حتى يكون منها دواء شاف يستعمله الناس تعم به الفائدة ويصير اسمه على كل لسان ، ذلك أن العلم فى المجتمع الحديث سريع التطور قوى التفاعل وثيق العرى ، ولم يكن الأمر كذلك من قبل .

فإذا تكلمنا اليوم عن العلم الإسلامى أو العلم اليونانى نكون قد حدنا عن جادة الصواب إذا سلكنا فى تقديره سبيل البحث عن الاختراعات والابتكارات التى نتجت عنه . فالزراعة والطب والهندسة والملاحة عند العرب وهى كلها فنون عملية كانت لا تعتمد على نتائج العلم المعاصر لها فى أغلب الأمر ، إنما كانت تستمد معرفتها من العلم القديم الذى سبقها بعشرات القرون وكان قد تأصل فى المجتمع كحرمة يتوارثها أصحاب الصنائع والحرف .

وأولى بنا أن ننظر إلى علم الأقدمين لتقدر ما فيه من قدرة عقلية على الابتكار وما فيه من جهد ذهنى وتفكير صحيح .

ولما كان العلم القديم منفصلا عن التطبيق العملى إلى حد كبير ، فإنه كان يقوم إما على رغبة

العلماء أنفسهم فى الانقطاع له والعكوف عليه دون انتظار جزاء أو أجر، أو كان يقوم على تشجيع الأمراء والخلفاء ونصراء العلم والمعرفة. فلم يكن الانقطاع للعلم حرفة يتكسب بها المرء عن سعة إلا إذا تلقفته أيدى السراة وأولى النفوذ من الحكام والولاة. وبذلك نشأ علم (البلاط) أى العلم الذى يتحايل به العلماء البقاء فى حاشية الأمراء. فكان من العلماء من يدرس التطبيب ومنهم من يدرس التنجيم ومنهم من يسعى وراء إكسير الحياة أو حجر الفلاسفة، وكل هذه مباحث زائفة ولكنها حبيبة إلى الولاة والأمراء الذين يبغون طالعاً سعيداً أو كنوزاً من الذهب أو هبة تطيل العمر وتمد لهم فى حبل الحياة.

وهكذا اختلط العلم القديم دائماً بعلوم زائفة، فاختلط الطب الصحيح (بفوائد) سحرية وأحجبة وتمائم، واختلط علم الفلك الصحيح بالتنجيم والكشف عن الغيب ومعرفة الطالع، كما اختلط علم المعادن والكيمياء بأبحاث إكسير الحياة وحجر الفلاسفة الذى يحيل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة (*).

وخلاصة القول أن على الباحث فى علم الأقدمين أن يقدر أنه علم منفصل عن المجتمع الذى يعاصره وأنه حينما يتصل بالمجتمع يختلط به علم فاسد كثير، فإذا قدر هذا كله واستصفى ما تبقى فإنه يجد كنوزاً من المعرفة الصحيحة

(*) ولا يحسبن المرء أن الأقدمين وحدهم هم الذين خلطوا العلم الصحيح بعلم فاسد، إذ أننا نجد فى عصرنا الحاضر حكاماً أذلوا العلم واستعدوه أيما إفساد. وأقرب مثل على ذلك نظرية الجنس والدم الآرى الذى أوجدتها النازية على غير أساس صحيح تدعيا لمبادئها السياسية.

ودرراً من العلم فريدة. جعلت الثقات من العلماء يعترفون بلا مراء أن التراث العلمى عند العرب لمما تعتز به الحضارة وأنه بلغ أوج ازدهاره فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى.

٢ — العلم عند العرب:

إن العالم المبتدىء إذا رغب اليوم فى بحث موضوع يبدأ أول ما يبدأ فى الاطلاع على بحوث من سبقوه فى دراسة نفس الموضوع، فإذا حصل على ذلك زاد على علمهم وأضاف إلى نتائجهم. وهذا هو المنهج الذى اتبعه علماء العرب، فقد بدأوا بالاطلاع على كتب الأقدمين، وخاصة اليونان والهنود الذين كانت لهم حضارة علمية زاهرة سابقة على عهد العرب بقرون عدة وكانت تلك المؤلفات بلغات غير اللغة العربية، ولذلك لزم ترجمتها وتعريبها، فكانت المرحلة العلمية الأولى عند العرب هى الترجمة والنقل. ولا ضير فى هذا، بل هذا هو عين الصواب. وقد تم النقل فى صور مختلفة؛ فوجدت مدارس للترجمة فى صدر الدولة العباسية وأرسلت البعوث إلى بيزنطة غرباً والهند شرقاً لتستحضر نفائس المخطوطات للتعريب.

وكانت الترجمات الأولى فى الغالب ركيكة الأسلوب، سقيمة معقدة غير واضحة، ولم يكن المترجمون أنفسهم فى العادة قادرين على استيعاب ما فيها أو مناقشته، فكثرت فيها الأغلاط ولزم إعادة ترجمتها وشرحها شرحاً وافياً (*).

(*) حكى عن الفارابى أنه قرأ كتاب النفس لأرسطو مائتى مرة وذكر ابن سينا عن نفسه أنه قرأ كتاب ما بعد الطبيعة أربعين مرة من غير أن يفهم ما فيه.

وكان العلم عند العرب يكتب للخاصة من يتدارسوه، وكانت المخطوطات تنسخ وتجلد لتوضع كالنفائس والدرر فى خزائن كتب الأمراء ، فراجت تجارة استجلاب المخطوطات الصحيحة والزائفة سواء بسواء، بل إن الكثيرين من الكتاب والمؤلفين كانوا يصنعون الكتب بأنفسهم وينسبونها إلى علماء من الهنود أو إلى حكماء اليونان حتى يزيد قدرها فى سوق المعرفة وتنال حظوة ويسعى إليها الساعون . والمؤلفات المنسوبة إلى هرمس الحكيم وحده دليل على ذلك .

وهكذا ضاعت معرفة كثيرة من التى نقلت نظراً لعقم الترجمة وكثرة الأخطاء ، كما ضاعت معرفة كثيرة مبتكرة كان الفضل فيها للعرب بأن نسبت إلى حكماء أقدمين اكتساباً للشهرة والتجارة .

ثم انتهى دور النقل والاتباع وجاء دور الإنتاج والإبداع . فوضعت الشروح لأمهات الكتب العلمية وكانت تلك الشروح تتضمن عادة الكثير من المعرفة المبتكرة ، وانتشر العلماء فى الدولة الإسلامية فكانت منهم فئة بالأندلس وأخرى بالقاهرة وثالثة بالشام ورابعة ببغداد والبصرة وأخرى فى فارس وبلاد المشرق الإسلامى ، وكان العلماء يتنقلون بين كل هذه العواصم وإن الثقافة الإسلامية كانت تجمعهم معاً وكانوا يتراسلون فيما بينهم ويتطارحون المسائل العلمية ويتبادلون المؤلفات والمخطوطات فكانت وحدة إسلامية علمية على الرغم من تفكك الدولة ذاتها وانقسامها إلى خلافات متنافرة ودويلات متناحرة .

وقد بقى منار العلم مضاء فى الدولة الإسلامية خمسة قرون أو تزيد ، ثم خبا نوره وتلقفه منهم الإفرنجة فى أوروبا . وقد بدأ الأوربيون نهضتهم العلمية بالطريقة التى بدأها بها العرب ، أى بالنقل والترجمة عن العرب والاطلاع على الكتب القديمة . وما يسر لهم ذلك اتخاذهم اللاتينية لغة للتخاطب فيما بينهم ودراستهم اليونانية كلغة أصلية لمصادر علمية كثيرة .

ولكن علماء أوروبا منذ أواسط القرن السابع عشر ، كانوا قد انتقلوا إلى مرحلة جديدة من مراحل العلم ، هى ارتباطه بمسائل المجتمع والحياة وازدياد ترابطه بها وتفاعله معها ، وفى تلك المرحلة تقدم العلم تقدما كبيرا وارتقى رقيا مضطردا لا زلنا نلمس آثاره كل يوم حتى الآن .

أما العلم عند العرب فقد بلغ القمة بعد أن كانت الدولة ذاتها قد أخذت فى التدهور والانحدار وبدأ الترك والتتار فى المشرق والإفرنجة والبربر فى المغرب ينقضون من أطراف تلك الدولة وهؤلاء لم يكونوا أصحاب ثقافة قديمة ولم تكن لهم بالعلم حاجة ولم يكنوا له من التقدير والإجلال مثلما كان يفعل الأمراء والخلفاء فى عهد الدولة الإسلامية (*) لذلك خبا نور العلم ولم يدخل فى مرحلة التطبيق العلمى والتفاعل مع المجتمع كما حدث للعلم الأوربى الحديث .

والناظر فى تاريخ المعارف اليونانية قد يجد شبيها بذلك ، إذ أن العلم الإغريقى بلغ الذروة فى

(*) كان العلماء العرب لا يسمح لهم بالرصد إلا إذا أقسموا يمينا بأن يكونوا أمناء فيما صادفوه فى إثبات المشاهدة .

فى التقدم ، بعد أن كانت الدويلات الإغريقية ذاتها قد بدأت تنهار سياسياً أمام سطوة الرومان ذوى البطش والجبروت الذين عندما دانت لهم البلاد لم يساهموا هم أنفسهم بكثير أو قليل فى الحركة العلمية ذاتها وبقيت مراكز العلم القليلة قائمة فى الإسكندرية وفى جزائر البحر الأبيض وهى كلها معاقل متفرقة للمعرفة اليونانية لم تلبث طويلا حتى لحقها طوفان الرومان فعفت آثارها واندثرت من الوجود .

نذكر هذه الأمثال لنبين للقارىء أن تقدم العلوم عند العرب كان تقدما حقيقيا لا شك فيه ، وأنه كان عظيم الأثر فى تطور العلم وانتقاله إلى أوروبا وأن العلم الأوروبى الحديث عندما بدأ اتخذ عين الخطة التى انتهجها علماء العرب والإغريق من قبل وهى النقل والاستيعاب ، وأخيرا أن أهم ما يميز العلم الأوروبى الحديث عن العلم فى مراحله القديمة هو سرعة تطوره وارتباطه الوثيق العرى بواقع الحياة وتفاعله مع المجتمع ، الشىء الذى لم يهيأ من قبل لا للعلم الإغريقى ولا للعلم الإسلامى .

ولكن يقتضينا واجب الإنصاف أن نزيد أن العلم العربى اتصل بالمجتمع وتفاعل معه فى بعض النواحى مثل الفلك والجبر والطب ، فى الفلك درست مواقيت الصلاة والملاحة البحرية واستمدت العرب فى هذا العلم معرفة كانت تطبق فعلا فى أغراض عملية وكانت ضرورة تحديد المواقيت وتنظيم الأعياد فى ذاتها حافزاً للعلماء للتبحر فى هذا العلم .

أما الجبر والحساب فلعل الباحث يجد نشأته فى مسائل المواريث وهى ضرورة دينية جعلت العلماء يبتغون سبيلا إلى حل مسائلها العويصة فوجد علم الرمز ثم الجبر والمقابلة . وفى الطب استخدم العرب نباتات كثيرة لم تكن معروفة لدى الإغريق أو السريان ، ونقلوا معرفة الهند الطبية وتبحروا فى الرمد وجراحة العيون خاصة نظراً لانتشار أمراض العين فى بيئتهم الصحراوية .

وهذه الملاحظات على صحتها لا تغير عما سبق أن أوردناه من أن العلم العربى إذا قورن بالعلم الحديث يبدو منفصلا عن الحياة الاجتماعية .

٣ — أكبر علماء العرب :

ونورد فيما يلى تراجم مختصرة لأربعة من فطاحل علماء العرب فى صدر القرن الحادى عشر الميلادى الذى كان بحق العصر الزاهر للعلم العربى . وكانت الخلافة الفاطمية بمصر ، بينما قامت الدولة الإسلامية فى الأندلس ودويلات وإمارات بنى بويه والغزنويين وغيرهم فى المشرق وفارس .

(١) ابن يونس المصرى

أما من القاهرة فبزغ نجم ابن يونس الذى ولد فى مصر وتوفى فيها عام ١٠٠٩ ميلادية . وهو أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفى المصرى . اشتغل بالفلك فى مرصد بنى له على جبل قرب الفسطاط وجهز بكل مايلزم من الآلات والأدوات ، وأمره العزيز أن يصنع زيجاً ، فبدأ به فى أواخر القرن العاشر للميلاد وأتمه فى عهد الحاكم بأمر الله وسماه

(الزيج الحاكمي) وصفه ابن خلكان بأنه « زيج كبير رأيته في أربعة مجلدات ولم أر في الأزياج على كثرتها أطول منه » . ورصد ابن يونس الخسوف والكسوف واقتران الكواكب وأثبت بالرصد تزايد حركة القمر .

وينسب إلى ابن يونس أنه أول من استعمل (الخطار) بندول الساعة الدقاقة ، وبذلك سبق غاليليو بستة قرون . وبرع في حساب المثلثات وقد حل أعمالا صعبة في المثلثات الكروية وحسب جداول ستينية واخترع حساب الأقواس وكذلك اخترع آلة الربع ذي الثقب .

ويقول عنه بعض معاصريه إنه كان شاذ الطباع يضع رداءه فوق عمامته إذا ركب فضحك منه الناس لسوء حاله وشذوذ لباسه ، ولكن كان له مع هذه الهيئة إصابة بديعة غريبة في التجامة لا يشاركه فيها غيره ، وكان متفننا في علوم كثيرة .

(٢) ابن الهيثم

هو أبو علي الحسن بن الحسن بن الهيثم . ولد عام ٩٦٥ بالبصرة ، وعاش في مصر في خلافة الحاكم بأمر الله الفاطمي (٩٩٦ - ١٠٢٠) وتوفي بالقاهرة عام ١٠٣٩ ويعتبر بلا منازع أكبر علماء الطبيعة في الإسلام ومن أعظم الباحثين عن علم الضوء في تاريخ البشرية جمعاء ، اعترف بالفضل له المحدثون والقدماء على السواء . قال ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء :

« كان ابن الهيثم فاضل النفس قوي الذكاء متفننا في العلوم لم يماثله أحد من أهل زمانه في العلم الرياضي ولا يقرب منه . وكان دائم الاشتغال كثير التصنيف وافر التزهد ... »

وجاء في كتاب تراث الإسلام « إن علم البصريات وصل أعلى درجة من درجات التقدم بفضل ابن الهيثم » ، وقد درس الأستاذ مصطفى نظيف ، أخيرا حياة ابن الهيثم العلمية دراسة مستفيضة في مجلدين نالا تقدير العلماء في مصر والخارج ، وكشف فيها عن مقدرة ابن الهيثم العلمية ، وبحوثه المفيدة التي بقيت نبراساً لعلماء أوربا خمسة قرون متوالية .

جاء في كتب التاريخ أنه نقل إلى حاكم مصر أن ابن الهيثم وهو في البصرة قال « لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملا يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقصان ... »

فازداد الحاكم شوقا وسير إليه سراً جملة من المال ورغبه في الحضور ، فسافر نحو مصر ولما أتاها ودرس أحوال النيل تحقق لديه أن ما يقصده غير ممكن ففترت عزيمته وانكسرت همته « ووقف خاطره ووصل إلى الموضع المعروف بالجنادل قبلي مدينة أسوان وهو موضع مرتفع ينحدر منه ماء النيل ، فعاينه وباشره واختبره من جانبيه فوجد أمره لا يمشي على موافقة مراده ، وتحقق الخطأ فيما وعد به وعاد خجلا منخذلا واعتذر بما قبل الحاكم ظاهره ووافقه عليه ... » ثم بعد ذلك أحيطت حياته بصعوبات كثيرة ، وخشي الحاكم بأمر الله الفاطمي « الذي كان سريعاً للدماء بغير سبب أو بأضعف سبب من خيال يتخيله ... » فتظاهر بالجنون والخبال ، ولم يزل على ذلك إلى أن تحقق من

وفاة الحاكم فأظهر العقل ، وعاد سيرته الأولى وخرج من داره واستوطن قبة على باب الجامع الأزهر مشتغلا بالتصنيف والنسخ والإفادة .

وأهم مؤلفات الحسن بن الهيثم هو كتاب المناظر، الذي درس في أوروبا قرونا عديدة وتأثر بمسائله باكون وكبلر وغيرهما من كبار العلماء الأوروبيين الأوائل . وتعتبر دراسته في تركيب العين وكيفية الإبصار أهم ما عرفته الإنسانية في حقبة طويلة تمتد حوالي العشرين قرنا .

وقد حاول مقياس ارتفاع جو الأرض بدراسة الشفق عند الفجر وعند الغسق، وحل مسائل رياضية معقدة بطرائق مبتكرة وشرح ظاهرة قوس قزح وظواهر ضوئية كثيرة . وله دراسات فلكية في الانكسار وأرصاد مختلفة متنوعة . وفي أواخر أيامه كان يعتكف في قبته أمام الأزهر ينسخ كتبه ويبيع منها بما يقيم أوده وييسر له العيش .

(٣) البيروني

هو محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني الخوارزمي ولد في خوارزم عام ٩٧٣ ميلادية ثم التحق بشمس المعالي قابوس وأصبح بعد ذلك ذا حظوة لدى بني مأمون ملوك خوارزم، ثم ارتحل إلى الهند . ويقال إنه مكث فيها أربعين سنة . واستفاد البيروني من فتوح الغزنويين للهند والمرجح أنه توفي في خوارزم عام ١٠٤٨ م .

والبيروني أقرب مثل لشخصية العلماء الباحثين الموفقين ، فقد كانت حياته كلها بحث وملاحظة وتنقيب ، اشتغل بالرياضيات والفلك وبالتاريخ وبالجغرافية وبعلم المعادن والطبيعة . وله أعمال في التاريخ الطبيعي والجيولوجي وكانت ثقافته العلمية واسعة وقدرته عظيمة وكان يحسن السريانية والسنكريتية والفارسية والعبرية عدا العربية كان حر التفكير راغباً في المعرفة يقبل على الدراسة . سافر إلى الهند فكتب عن تاريخها وجغرافيتها ونباتها وأنهارها وأهلها ودرس الفلسفة الهندية دراسة عميقة كاملة ، فكان أول من عني بذلك من علماء الإسلام ، فكأنه كان وحده بعثة علمية كاملة أحاطت بكل علم الهند وما فيها . فسبق بذلك نابليون عند ما قدم إلى مصر واصطحب معه بعثة من أكبر علماء فرنسا مسحت مصر وسجلت مشاهداتها العلمية في سفر جليل عرف باسم (وصف مصر) لا زال حتى اليوم من أعظم مفاخر العلم الفرنسي ومن أهم مراجع العلم والثقافة في مصر .

يقول سخاو العالم الألماني : إن البيروني أكبر عقلية عرفها التاريخ ، واعتبره سارطون أعظم العلماء في عصره قاطبة ، ووضعه في مركز الصدارة بين علماء القرن الحادي عشر ومن بعده الرئيس ابن سينا وابن الهيثم وابن يونس والكرخي وغيرهم ولا يتسع المجال هنا لتفصيل كل كتابات البيروني ومؤلفاته العديدة التي يربى عددها على المائة والعشرين . وقد أوضح فيها كيف أخذ العرب الترقيم عن الهند وهي الأرقام التي عرفت عند العرب بالأرقام الهندية ، ثم انتقلت إلى أوروبا حيث تعرف حتى اليوم بالأرقام العربية تمييزاً لها عما سبقها من أرقام لاتينية كانت مستعملة قديماً .

(٤) ابن سينا

هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسن بن عبد الله ابن سينا . ولد في بخارى عام ٩٨٠م وتوفي في همذان

عام ١٠٣٧م . فكان معاصراً للبيرونى وكان بينهما اتصال وتراسل . ويعرف ابن سينا بأنه فيلسوف العرب الأول وأرسطو الإسلام . وهو مؤلف كتاب الشفاء الذى يقع فى ١٨ مجلداً ضخماً ، ثم يعرف بموسوعته الكبرى الطبية المعروفة باسم (القانون) وهو مؤلف ضخم فيه أكثر من مليون كلمة (أو أكثر من ٢٥٠٠ صفحة من قطع مجلة الأزهر) جمع فيه كل المعارف الطبية ونقل إلى اللغة اللاتينية وبقى مرجعاً للبحث والدراسة هناك حتى القرن السابع عشر . وله مقالات عديدة وكتب فى الرياضيات وفى الفلك وفى الطبيعة والموسيقى والتقاويم وآلات الرصد وخراج الممالك وتدبير الجند وأرزاقهم (أى المالية والإدارة الحربية) وقد ضرب بسهم وافر فى كل فرع من هذه الفروع .

وكان ابن سينا فيلسوفاً ينظر إلى كليات المسائل وينظمها نظاماً منطقياً فلسفياً ترضاه نفسه ويستريح إليه فؤاده ، فلزم أن يكون محيطاً بالمعرفة ولذلك كتب موسوعات كاملة فى الطب والفلسفة والعلوم ولكنه إذا قورن بالبيرونى فى المسائل العلمية يبدو أقل اهتماماً بالتعرف على الحقائق والتنقيب عن المعارف وأكثر اتجاهاً إلى تقنين المعرفة وتركيبها معاً تركيباً نظامياً منطقياً . بينما كان البيرونى منقباً عن دقائق الأشياء محباً للكشف والمخاطرة شغوفاً بالمسائل الفرعية يحللها تحليلا كاملا .

٤ — خاتمة

من هذا يتضح أن علماء القرن الحادى عشر الميلادى من المسلمين كانوا فى مقدمة علماء عصرهم وأنهم إذا قورنوا بفطاحل العلماء فى تاريخ العالم تكون لهم المكانة المرموقة ومركز الصدارة ، وأنهم بذكائهم واجتهادهم قد أحاطوا بالمعارف السابقة إحاطة شاملة ، ثم صنفوا التآليف المطولة المفصلة التى بقيت بعدهم مرجعاً لكل باحث وقرآناً لكل عالم خمسة قرون أو أكثر ، حتى استرجعت أوروبا فى نهضتها علم العرب والإغريق وبدأت تزيد عليه زيادات كبيرة .

فالقول بأن العرب لم يكونوا سوى نقلة للعلوم القديمة وحفظة لها من يد الضياع قول مردود . والدليل على ذلك ، تلك الإضافات والبحوث المبتكرة التى تزخر بها المؤلفات العلمية الإسلامية الكثيرة التى لم تدرس بعد كلها دراسة وافية . وما درس منها يكشف دائماً عن إضافات مبتكرة وحقائق كانت خافية . ولعل واجب الأمانة أو الرغبة فى اكتساب قدسية القوم كانت تفرض على علماء العرب ألا يبخسوا القدماء حقهم من الذكر عند تحرير مؤلفاتهم ، فالمتصفح لها قد يبدو له لأول وهلة أن معظم ما فيها منقول عن السابقين والأمر فى الحقيقة بخلاف ذلك .

ويجدر بنا أن نقول : إن الإسلام كدين لم يكن عائقاً أمام هؤلاء العلماء فى طريق العلم والمعرفة ، وأن الحضارة الإسلامية كانت تقبل بل وتشجع كل معرفة وثقافة ، فالذين يودون اليوم نهضة علمية فى البلاد ، لهم أن يطمئنوا إلى أن الإسلام الصحيح لا أثر فيه للرجعية فى التفكير ولا يحد العقل عن الانطلاق .

إبراهيم حلمى عبد الرحمن

فتوح الذوق الإسلامي في الفنون

خصائص العمارة الإسلامية

للأستاذ حسن عبد الوهاب
المفتش الأول للآثار العربية

كانت الفتوحات الإسلامية سبباً في نشأة العمارة الإسلامية . ولقد نجح العرب في تعريب الأقطار التي افتتحوها حيث اندمجوا في أهل البلاد وتعلموا منهم الزراعة والصناعة وذلك بعكس ما اتهموا به من أنهم لم يمارسوا زراعة ولا صناعة . ويدحض هذا الرأي إجابة عمرو بن العاص على سؤال عمر بن الخطاب حينما سأله من أين لك هذا ... وإني أعلم أمير المؤمنين أني بأرض السعر فيه رخيص وإني أعالج من الحرفة والزراعة ما يعالج أهله .

ولا شك في أن المسلمين في صدر دولتهم استعانوا بعباقرة الصناعة وغيرها من وجوه في الأقطار التي افتتحوها ، كما أنه كان من بينهم عدد من ذوي الصناعات لأنهم لم يكونوا كلهم من البادية كما توهم الكثير . بل كان منهم من اليمن والشام . وهي بلاد لها حضارات عريقة .

ويبدو لي أن استعانتهم بصناعي تلك البلاد في مستهل فتوحاتهم كان غالباً في المنشآت المدنية . ولذلك نرى كل المساجد الجامعة عند نشأتها في صدر الإسلام كانت مثالا للبساطة لا أثر للفن المعماري فيها . فلا زخرف ولا حجارة ولا رخام ولا بلاط ولا محاريب . ولكنها لم تلبث طويلا حتى سايرت سنة التطور . وهذا نلمسه جلياً فيما سأذكره عن نشأة المسجد النبوي وعن جامع عمرو بن العاص . وهما مثالان للمساجد الجامعة في الأمصار عند نشأتها .

المسجد النبوي :

بني هذا المسجد عند إنشائه باللبن على أساس من الحجارة يسقف بالجريد واتخذت عمده من جذوع النخل . وظل على بساطة هذا رغم توسيعه إلى خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه فقد هدمه وأعاد بناءه بالحجارة وبيضه بالجص واتخذ له عمداً من الحجارة وسقفه بالساج وزاد فيه .

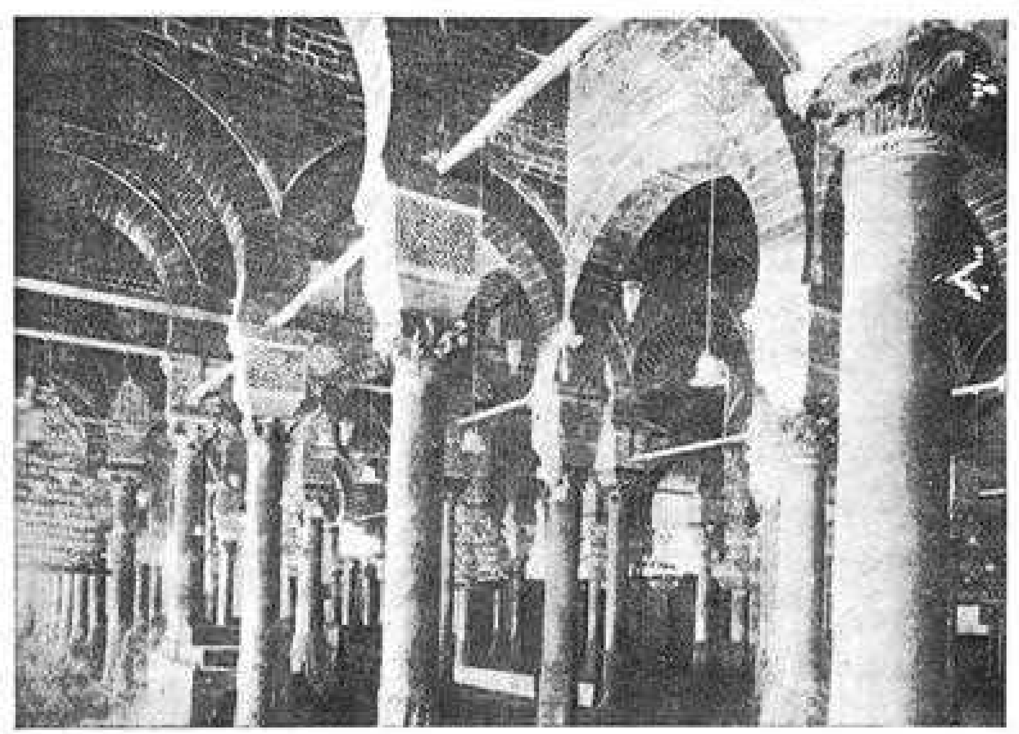
وفي سنة ٨٨ هـ ٧٠٦ م أمر الوليد بن عبد الملك بهدم المسجد وتجديده بما يتفق مع أهميته وبعث اليه بالرخام والفسيفساء مع صناع من مختلف الأقطار مصر والشام والآستانة فهدمه عامله على المدينة عمر بن عبد العزيز وأعاد بناءه بالحجارة المنقوشة وكسا جدرانه بالفسيفساء والرخام وعمل سقفه بالساج المموه بالذهب . وأقام به أربع منارات .

ثم توالت العناية على المسجد مسايرة للنهوض المعماري حتى بلغ منتهى الروعة في القرن الثالث وتمثلت فيه أرق نماذج العمارة وفنونها .

جامع عمرو بن العاص بالفسطاط :

ومثله جامع عمرو بن العاص فانه لما أنشىء بمصر سنة ٢١ هـ ٦٤١ م كانت مساحته ٥٠ × ٣٠





(١) قبة الصخـــرة (٢) داخل مسجد الزيتونة

ذراعا فرشت أرضه بالحصاء وبنى باللبن وسقف بالجريد والطين واتخذت عمده من جذوع النخل ولم يجعل له مئذنة ولا محرابا مجوفا ولا منبراً .

ثم تدرجت أعمال الإصلاح مع الزيادة تبعا لاطراد التقدم والعمران . وهذا ما كان يبدو أثره عاما فعاما فى تلك المنشآت ، فما انتهى القرن الأول إلا وكان الجامع هدم وأعيد بناؤه أكثر من مرة مع الإضافة والتجميل ، فقد هدمه فى سنة ٩٠ هـ ٧٠٨ م قرة بن شريك والى مصر من قبل الوليد بن عبد الملك وأعاد بناءه وأحدث فيه المحراب المجوف اقتداء بالمحراب الذى أحدثه بالحرم النبوى الأمير عمر بن عبد العزيز سنة ٨٨ هـ ٧٠٦ م وأقام به منبراً خشبياً جديداً سنة ٩٤ هـ ٧١٢ م وأحدث فيه المقصورة ، ومن ثم سار الجامع فى درجات الكمال ومسايرة التقدم المعمارى فى زخرفة المساجد وتذهيبها وكسوتها بالرخام والفسيفساء وهذا أكبر برهان على نهوضهم بالعمارة والصناعة . فانهم ما إن تم لهم تمكين مكانهم الجديد وتوطيده ، وما إن ألقوا عصا التسيار واطمأنت بهم الدار ، حتى نشطوا للفتح الثانى وهو الفتح العلمى والصناعى ، فأتوا فى الفتحين على قصر المدة بما لم يسبق له مثيل مما أثار الإعجاب .

وكان من أثر ذلك أنهم ملكوا ناصيتى العلم والصناعة كما ملكوا ناصية العالم وأحدثوا لهم مدنية خاصة صبغوها بصبغتهم فى كل مظهر من مظاهرها ، وأبقوا لهم الأثر البين فيما نقلوه من علوم الأوائل إما بالتنقيح والتهذيب أو الزيادة والاختراع . فكان للصناعة والعمارة نصيب موفور تجلى فى منشآتهم من مساجد وقصور وغيرها .

وخير دليل على عصبيتهم وميلهم لطبع كل شىء بطابعهم أنه ما انتهى القرن الأول الهجرى إلا والدواوين عربت والنقود ضربت باللغة العربية ، وأخذت الفنون والصناعات فى الازدهار والانطباع بطابعهم .

نعم إن العمارة الإسلامية فى نشأتها تأثرت بالبيئة التى نشأت فيها ، إلا أن تلك التأثيرات مع الآثار التى وقعت عليها ، زال غالبها من الوجود ، اللهم إلا بقايا تأثيرات جزئية فى الزخارف وعلى بقايا القصور فى بادية الشام وشرق الأردن والعراق وبخاصة فى التخطيط وفى التصوير والفسيفساء وهى تأثيرات بيزنطية وفارسية فى سوريا وساسانية فى العراق وهلينستية وبيزنطية فى مصر ، كما كانت الشام أيضاً ملتقى لتيارات مختلفة من الأساليب الفنية الهلينستية والساسانية المصرية .

وبالرغم من التأثيرات التى وقعت عليها فانها تغلبت عليها وطبعت بطابع عمارى إسلامى جديد .

ومما لا شك فيه أن للدولة الأموية فضل النهوض بالعمارة الإسلامية والوصول بها إلى مدارج الكمال بما أنشأوه من قصور فى المدن وفى البادية . وبما شيدوه وجددوه من مساجد النبوى والأموى والأقصى والصخرة والمعتبرة دعائم للفن الاسلامى .

ولا عجب فالدولة الأموية دولة بناء وتعمير

كان من أهم أهدافها مناهضة الشعوب المسيحية وإقناعها بأن المسلمين على قصر مدة حكمهم قادرين على تكوين حضارة عمارية تضاهى حضارتهم ، وإن مساجدهم فاقت معابدهم فخامة وزخرفاً حتى لا يتيهوا على المسلمين.

ولذلك ينسب إلى الوليد أنه قال لأهل دمشق « إنى رأيتكم تفخرون بمائكم وهوائكم وفاكهتكم وحماماتكم فأحببت أن يكون مسجدكم الخامس ».

وقد تجلىّ هذا الهدف السامى فى مراقبة الوافدين من الأجانب لزيارة المسجد الأموى ومعرفة رأيهم فى المسجد دون علمهم . وحينما نقلوا اليه آراءهم المليئة بالدهشة والإعجاب من فخامة بنائه ورخامه وفسيفسائه قال « لا أرى مسجد دمشق إلا غيظا على الكفار ».

وحينما عرض عليه عمر بن عبد العزيز ان ينقل ما فى محراب مسجد دمشق من ذهب كى لا يشغل المصلين « عرض عليه فى هذا الوقت رأى زوار آخرين بأنهم حينما وقفوا تحت قبة المسجد سأل كبيرهم . كم للإسلام ؟ قالوا مائة سنة قال فكيف تصغرون أمرهم ، مابنى هذا البنيان إلاملك عظيم » قال : إذا غايظ العدو فدعه ».

ولما زار الرحالة أبو عبد الله محمد بن أحمد البشارى الجامع الأموى فى القرن الرابع الهجرى وافتتن بما رآه فيه من وزرات رخامية وفسيفساء مذهبة تكسو جدرانه وعقوده وبها صور الأشجار والأمصار والكتابات ، ومصاريع مصفحة بالنحاس وغير ذلك من روائع الصناعة قال لعمه يا عم « لم يحسن الوليد حيث أنفق أموال المسلمين على جامع دمشق . ولو صرف ذلك فى عمارة الطرق والمصانع ورمّ الحصون لكان أصوب وأفضل » ، أجابه : « يا بنى إن الوليد وفق وكشف له عن أمر جليل ، ذلك أنه رأى الشام بلد النصارى ورأى لهم فيها بيعاً حسنة قد افتن فى زخارفها وانتشر ذكرها كالقيامة وبيعة لد والرها فاتخذ للمسلمين مسجداً شغلهم به عنهن وجعله أحد عجائب الدنيا . ألا ترى أن عبد الملك لما رأى عظم قبة القيامة وهيأتها خشى أن تعظم فى قلوب المسلمين فنصب على الصخرة قبة على ما ترى ».

وخير دليل على أن الأمويين نهجوا فى تشييد منشآتهم نهجاً عمارياً جديداً طبع بالطابع



مدرسة السلطان قايتباى

الإسلامى ، تصريح الخليفة المأمون عقب زيارته للجامع الأموى ، إن بنيانه على غير مثال متقدم » .

وقد نهجت الدولة العباسية سبيل المنافسة فى تشييد المنشآت المعمارية من مساجد وقصور وأبدعوا فيها أيما إبداع ، وكان هدفهم أيضاً هو هدف الدولة الأموية . ذلك أن المأمون رد على من انتقد إسرافه فى بهرجة قصوره . وبعد حوار معه ألزمه فيه الحجة قال :

« هذا البناء ضرب من مكايدنا تبنيه وتتخذ الجيوش وتعد السلاح والكراع وما بنا إلى إلى أكثره حاجة » .

ومنذ القرن الثالث الهجرى التاسع الميلادى أخذت العمارة الإسلامية تتخلص من المؤثرات القديمة وما بقى منها بقى فى عناصر قليلة فى الزخرف حورت أيضا وأصبحت التأثيرات التى تقع على العمارة تأثيرات إسلامية جزئية بين الأقطار الإسلامية وبعضها ، تنوعت بتعاقب الدول .

ومن خصائص العمارة الإسلامية أنها هيأت منشآت عادية لمختلف الأغراض . فإنها بجانب ما أعدته من منشآت مدنية تناسب طقس كل قطر فإنها أعدت بجانبها منشآت دينية كالمساجد والمشاهد والزوايا والربط . وثقافية كالمدارس والخوانق والكتاتيب ، ساعدت المساجد فى رسالتها الثقافية . ومالية بإنشاء بيوت المال فى مساجدها الجامعة ومنها ما هو موجود إلى الآن فى مسجد دمشق وحماه . واجتماعية كدور كفالة المرأة وإيواء الفقراء والمنقطعين . وصحية كالمستشفيات والحمامات . وتجارية كالوكالات والأسواق والخانات . وحربية كالأسوار بأبوابها وأبراجها والحصون . ومائية كالقناطر ومقاييس النيل والموانىء .

وكما اختلفت طرز العمارة عن بعضها فى الأقطار الإسلامية ، حتى أصبح كل طرز علما على دولته ، فإنها اختلفت كذلك فى طريقة الانتفاع ببعض تلك المؤسسات ، فالمدرسة التى شيدت فى مصر تؤدى وظيفة المسجد وإقامة الجمعة والأوقات الخمسة حيث أقيم بها منارة ومنبر أو لحق بها سبيل وكتاب ومدفن للمنشىء ومساكن للطلبة وحوض لشرب الدواب ، نراها فى فاس ومكناس وبغداد ، أنشئت كى تلقى بها الدروس فقط وتؤدى بها الأوقات الخمس دون الجمعة ، ولذلك لا نرى بها منارة ولا منبراً ولا بقية الملحقات .

وإذا كانت المدارس بمصر والعراق وشمال إفريقيا هيئت للتعليم ومنها علوم القرآن فإن سوريا امتازت بإنشاء دور القرآن لدراسة علوم القرآن خاصة . والمنبر فى مصر والعراق والشام ثابت فى مكانه بجوار المحراب بينما هو فى كثير من بلدان شمال إفريقيا - تونس ، والجزائر ، وفاس - لا يظهر إلا يوم الجمعة حيث يخرج على عجل من الحجرة الخاصة به بجوار المحراب .

وكما عرف كل قطر بما يجلب منه من طرائف وسلع فإنه عرف كذلك بأهم عمائره بل أصبحت من أهم خصائصه وعلما عليه .

فمن خصائص دمشق المسجد الأموى ، وقبر صلاح الدين ، والمدرسة الظاهرية ، وقصر الحير وحصونها . ومن خصائص الأندلس - مسجد قرطبة[1] ، وقصر الحمراء بغرناطة ، ومنارة الجامع

(١) وترى صورته من الداخل على غلاف هذا العدد .

الكبير (الجيرالدا) وقصر بنى عباد بأشبيلة .

ومن خصائص القدس : المسجد الأقصى ، وقبة الصخرة ، وقصر هشام بخربة المفجر ، والقصور الأموية فى شرق الأردن .

ومن خصائص العراق : المنارات الملوية ، وزخارف القصور فى سامرا ، وقصر الأخيضر ، والعتبات الشريفة : الكاظمية فى بغداد ، والإمام العسكرى بسر من رأى ، والإمام الحسين بكربلاء ، والإمام على بالنجف ، تلك المشاهد الغنية بأنواع الزخرف والمكسوة قبابها ومناراتها برقائق الذهب وبالقاشانى ومقرنصات البلور والزخرف المتخذ من قطع المرايا . وصناعة الطابوق (الآجر) المنقوش بشتى أنواع الزخرف . والقباب المخروطة .

ومن خصائص مصر : مقياس النيل ، والجامع الطولونى ، والجامع الأزهر ، وأبواب القاهرة ، ومدرسة السلطان حسن ، ومدرستا السلطان قايتباى والغورى .

ومن خصائص شمال أفريقيا : مسجد القرويين فى فاس ومدرسة أبو عنان وأسواقها ، ومسجد الزيتونة بتونس ، وعقبة بالقيروان ، وأبو مدين بتلسان ، وهكذا بقية الأقطار .

ولكل قطر خصائص أيضاً فى تفاصيله المعمارية وخاصة القبة والمنارة وهما أبرز عنصر يميز لعمارة كل قطر .

ولما كانت القاهرة أغنى الأقطار الإسلامية وأسعدها حظاً فى المحافظة على تراثها المعمارى ، فإنها كذلك امتازت بخصائص لا توجد فى غيرها ، فقد تمثلت فيها الحضارات المتعاقبة عليها ممثلة فى شتى التفاصيل المعمارية من جص وأحجار ورخام ونحاس وأخشاب ما بين خرط وتطعيم وتجميع وحفر وفسيفساء ونقش ، وببراعة الخطاطين وتكوينهم للعناصر الزخرفية فى الخط الكوفى ما بين نباتية وهندسية .

هذا عدا التنوع فى تصميم المسجد والمدرسة ، وفى تصميم وجهات المساجد والمدارس ، وتنوع أشكال المقرنصات والزخارف .

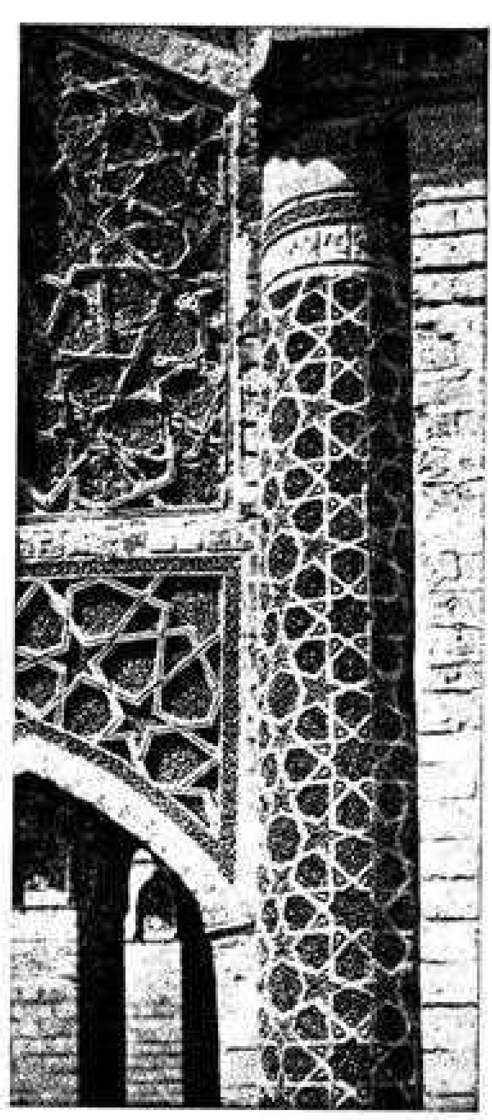
وثمة خاصة أخرى انفردت بها وهى تكسية الزخارف الجصية الملونة برقائق الزجاج ، ومنها أنموذج وحيد بمصر فى رباط أحمد بن سليمان .

ومن أبرز خصائصها جمال ورشاقة القبة والمنارة فكلاهما بلغ القمة فى جمال التناسق ، ودقة النقش وخاصة فى دولة المماليك الجراكسة .

وعلى ذكر القبة أذكر أن مصر لها فضل السبق فى إنشاء القبة ذات المثور ، وفى أن مهندساً سبق عصر برونيلسكى سنة ١٤٢٠ م الذى ينسب إليه فى وقت ما اختراع هذا النوع من القباب بمدينة البندقية .

وإذا أردنا الإشارة إلى خصائصها فى طرائف كل عصر ، فهذا ما لا يتسع له المجال ويكفى أن تفتخر بالجامع الطولونى وزخارفه المتنوعة طولونية وفاطمية ، وبالجامع الأزهر وبغيره من منشآت الدولة الفاطمية الغنية بدقائق صناعة الجص والحفر فى الخشب ومثلها الدولة الأيوبية . وبمنشآت المنصور قلاون وأفراد أسرته فى هذا العصر الزاهر الذى تركزت فيه قواعد العمارة

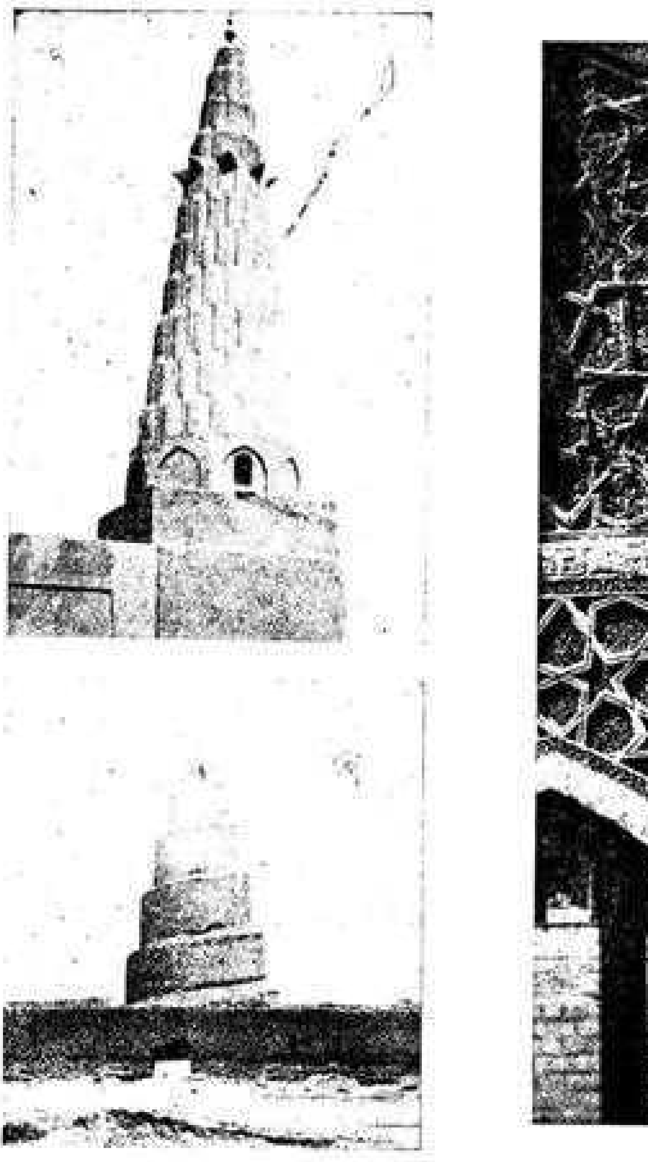
في مصر ، وكفاه فخراً مدرسة السلطان حسن إحدى عجائب العمارة الإسلامية في العالم .



الزخارف في الآجر بالمدرسة المستنصرية بالعراق ببغداد

ثم منشآت دولة المماليك الجراكسة ، تلك المنشآت التي أخذت زخرفها وازينت ، وكفاها فخراً منشآت السلطان قايتباي وخاصة مدرسته بالصحراء

ومنشآت أمرائه أمثال الأمير قجماس الاسحاق ، وأبو بكر مزهر ، ثم منشآت السلطان الغوري



(١) قبة عمر السهروردي في بغداد (٢) المنارة الملوية بسامرا

وهي خاتمة خصائص العمارة الإسلامية في مصر وكانت حسن الختام .

حسن عبد الوهاب

جهود المسلمين فى الموسيقى

للدكتور محمود أحمد الحفنى
المراقب العام للموسيقى بوزارة المعارف

عصر صدر الإسلام :

أشرق الإسلام على الدنيا بنوره الساطع وضرب المثل العالية الرفيعة لتحقيق أسمى مبادىء الاجتماع البشرى المؤسسة على مكارم الأخلاق والرقى النفسى والكمال الإنسانى ، فكان لزاماً أن تنهض الموسيقى فى أحضانه ، وتزدهر فى ظل سلطانه ، وترقى حتى تكون ثقافة تثمر فى كنفه ، ذلك بأن الموسيقى هى الباعث للكمال الأدبى فى الإنسان بتربية طباعه وتهذيبه ، فإن سماع الأنغام يوقظ المشاعر ، ويلهب الحس ، فيدفع بالعاطفة نحو السمو ، وبالعقل نحو التفكير ، وبالخيال نحو دنيا الروح ، على حد قول أرسطو « أثر الموسيقى أسمى من أن ينحصر فى نشوة الحواس بحلو النغم ومجرد اللهو بها ، إنما هو فى تطهير النفس والتخفيف عنها » . وعلى الجملة فإن الموسيقى الجيدة تكبت الشهوات الجسدية فيسود العقل الراجح والعاطفة النبيلة والروح المشرقة الصافية جميع غرائز النفس ونزواتها .

وما تعدو الصواب حين تقرر أن الموسيقى فى صدر الإسلام قد لبست ثوبا دينيا ناصعاً يوم سرت تلاوة القرآن الكريم بالصوت الجميل فى أنفس الناس سريان العافية فى الجسم السقيم . وآية ذلك ما بين أيدينا من أحاديث مأثورة عن مشهورى الصحابة فى مدح قارىء القرآن إذا كان جميل الصوت لم يخرج عن حد المعقول فى القراءة والأدب الواجب للقرآن . وهنا رفع القرآن الكريم علم الموسيقى عاليا بين العرب ، ونشأ علم التجويد .

ومن إعجاز القرآن نظمه الموسيقى الرائع الذى يسيطر على مستمعيه ، ولو كانوا غير مسلمين ؛ حتى قال بعض الأجلاء « إن قوانين الموسيقى قد لحظت فى القرآن تامة مكتملة » . وكذلك الشأن فى بعض شعائر الدين الأخرى كالأذان للصلاة عامة وصلاة العيدين وتلاوة التكبيرات فيهما فى لحن موسيقى رائع ، مما يرقق حاشية الروح ، ويهيىء الناس لتلقى النفحات الإلهية فى بهجة وانشراح .

وقد اشتهر فى صدر الإسلام من المغنيات كثير من القيان ، نذكر من بينهن سيرين مولاة حسان بن ثابت ، وهى إحدى الجاريتين المصريتين اللتين أهداهما المقوقس فى العام التاسع الهجرى (عام ٦٣٠ م) إلى النبى صلى الله عليه وسلم وعنها أخذت عزة الميلاء الأستاذة الأولى لمدرسة الغناء العربى التى درج عليها من عاصرها أو جاء بعدها ، فقد حدث صاحب الأغانى أن عزة كانت تغنى من أغانى سيرين . وبهذا تكون الموسيقى المصرية القديمة قد وجدت طريقها إلى الجزيرة العربية منذ فجر الإسلام

فى حنجرة سيرين وتلميذاتها ، فوضعت بذلك نواة الصلة الفنية بين مصر والموسيقى العربية .

وكان عمر بن الخطاب على الرغم مما عرف عنه من شديد زهده فى الدنيا ، راضيا عما يعفو الله عنه من الغناء . فقد نقل صاحب العقد الفريد أن عمر قال للنابغة الجعدى أسمعنى بعض ما عفا الله عنه من غنائك ، فأسمعه كلمة له ، قال وإنك لقائلها ؟ قال نعم . قال لطالما غنيت بها خلف جمال الخطاب .

وكان عمر يكره . من الموسيقى الغناء المخنث الذى يبعد الشعب عن الجهاد والتخشين ويسلمه إلى الرفاهية والطراوة ، وما كان ذلك من طبيعة الإسلام ، ولا من سجية عمر ، ولا مما يأذن به الخلق القويم .

وما كاد يقبل عصر عثمان رضى الله عنه حتى سجلت أخبار المدينة أن رائقة المغنية وتلميذتها الفنية عزة الميلاء وغيرهما كن يقمن فيها حفلات موسيقية يحضرها أشراف القوم وفتيانهم .

وقد كان فى اتساع الفتوحات التى تمت فى عهد عثمان وفى عهد سلفه والممالك التى دانت للإسلام والأسرى الذين قدموا إلى الديار العربية ما جعل تيار مدنيات هذه البلاد ، وبخاصة المدنيات المصرية والفارسية واليونانية ، ينتشر فى البلاد العربية . وأخذ المسلمون ينظرون إلى أمور دنياهم ، فقللوا من غلواء نظرتهم إلى الموسيقيين ، وحفلت بهم بيوت الأمراء والأشراف ، وأخذت الموسيقى مكانها فى مجالسهم بجانب الشعر والأدب .

وما كاد ينقضى عصر الخلفاء الراشدين حتى أخذت الموسيقى تسلك سبيلها إلى وجهتها الفنية الواضحة . وأورقت تلك الدوحة التى بدأت نواتها منذ قريب لتمتد ظلالها وتستكمل نضج ثمارها فى عصر بنى أمية .

عصر بنى أمية :

كان الروح العربى الموسيقى روحا فنياً رياضياً غير متعصب ولا جامد ، فما كاد ينبثق فجر الدولة الأموية ويزداد اتصالها بالمدنيات المصرية والفارسية واليونانية حتى تشرب الروح العربى تلك المدنيات ونقل غناءها إلى غناء العرب وآلاتها إلى آلات العرب .

وكان للموسيقى فى الدولة الأموية حظ العلوم والفنون الأخرى ، فازدهرت وأينعت وظهر من مشهورى المغنين والمغنيات من يجدر بنا أن نطلق عليهم وعلى فنهم : المدرسة الحديثة .

ويعتبر سائب خاثر نواة النهضة الموسيقية فى البلاد العربية ، وأول من نقل الغناء الفارسى وأسبغ عليه الطابع العربى وعرف بعد ذلك بالغناء « المتقن » . وهذا النوع المستحدث يقابل غناء « الركبان » الذى يمثل روح العصر الجاهلى وطابع البادية . ولقد كان من عادة المغنين من العرب حتى ذلك الوقت أن يستعملوا فى غنائهم القضيب ، وكان سائب خاثر يستعمله كذلك ، إلى أن رأى نشيطاً الفارسى يستعمل فى غنائه العود فاستعمله هو أيضاً فى أغانيه ، فكان أول من غنى فى المدينة مستعملا العود . وتبع ممن أخذ الغناء عن سائب خاثر أربعة عدوا أعلام الغناء وهم : عزة الميلاء وجميلة زعيمتا النهضة

الموسيقية العربية ، وابن سريج ومعبد .

وكان ابن مسجح ـ وهو أحد فحول المغنين فى العصر الأموى ـ أول من نقل غناء الفرس إلى غناء العرب بمكة فى حداثته . وقد أتقن محاسن النغمات لحذقها وأصبح له فى الغناء مذهب خاص وطريقة تبعها الناس بعده . وقد أخذ عنه ابن محرز ومعبد وابن سريج والغريض .

وإننا لنرى الموسيقيين يرتفع مقامهم شيئا فشيئا ويصبحون موضع الاحترام والتقدير ، ويسلكون نهجهم رويداً حتى يصلوا إلى قصور الخلفاء وينالوا الحظوة عندهم ، فلا نكاد نذكر خلفاء بنى أمية فى أول عهدهم بالحكم حتى نرى الخليفة عبد الملك بن مروان يشجع أهل هذه الصناعة ، بل نراه هو نفسه موسيقيا وملحنا ، عارفا بأنواع الغناء ، يسأل ابن مسجح وهو فى حضرته : هل يغنى غناء « الركبان » وهل يغنى الغناء « المتقن » ؟ .

وكان سليمان بن عبد الملك يجرى المسابقات بين المغنين ويجزل لهم العطاء . وبلغ من تقدير يزيد بن عبد الملك للموسيقى أنه ما كاد يتولى الخلافة حتى اشترى حبابة المغنية بأربعة آلاف دينار ، وظلت موضع إكرامه حتى وفاتها .

ورأينا الوليد بن يزيد يعظم الرعاية للموسيقى وأهلها ، وقد بلغ من إكرامه لمعبد ، أنه عند ما مرض تولى أمره وآواه فى قصره ، فلما مات شيعه بنفسه إلى مثواه . بل كان الوليد كذلك عالما بصناعة تأليف الألحان ، وله فيها أصوات مشهورة ، كما كان يضرب بالعود ويوقع بالطبل والدف .

ولم تقتصر معاضدة أهل هذه الصناعة على الخلفاء بل سرت إلى الأشراف والنبلاء والسراة . وقد كان لعبد الله بن جعفر مجالس طرب عظيمة يدعو إليها مشهورى المغنين ، وكان سائب خاثر ونشيط منقطعين إليه ، كما كانت السيدة سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما ترتاح إلى سماع الموسيقى ، وكان الغريض المغنى المشهور فى خدمتها منقطعاً لها منشداً مراثى أهل البيت ونائحاً عليهم ، وكانت عند ما يجتمع عندها المغنون تأذن للناس فى دخول بيتها إذنا عاما .

ولقد وضح من أنباء المغنين والمغنيات اطراد ظهور أثر الموسيقى الفارسية فى موسيقى العرب ، حتى دخل فى اللغة العربية كثير من الألفاظ ، والمصطلحات الفارسية مما كان دليلا على عظم هذا الأثر . كذلك تأثرت الموسيقى العربية بنظريات الموسيقى اليونانية تأثراً كبيراً . وكثيراً ما كان يرد ذكر علماء هذا الفن من اليونان فى مصنفات العرب وكتبهم . غير أنه مما يجب الإقرار به أن فلاسفة العرب ومغنيهم وإن أخذوا العلوم الموسيقية وفنونها عن اليونان والفرس ومصر ، فقد احتفظوا فيها إلى حد كبير بطابعهم العربى الذى ميز موسيقاهم وجعل لها صبغة خاصة .

ومما يذكر بالفخر لذلك العصر أنه بدىء فيه بوضع أول تصانيف عربية فى أخبار الموسيقى والغناء ، فقد وضع يونس الكاتب « كتاب النغم » و « كتاب القيان » فكانا نواة لما صنف بعد ذلك فى هذا الباب .

عصر الدولة العباسية :

جاء العصر العباسى فدخلت الموسيقى العربية فى عصرها الذهبى وخطت خطوات سريعة نحو الكمال ، حتى بلغت أوج مجدها وذروة علاها . وزادت المقامات وطرائق الإيقاع حتى تعددت فى اللحن الواحد . وكثرت الآلات وتنوعت وشاع استعمالها حتى عرفت مائة قينة معاً . وسما قدر أهل الموسيقى حتى اتخذ الخليفة منهم مسامراً له وجليساً .

ولقد بدت فى العصر ظاهرة جديدة ، فلم يعد العرب ينظرون إلى الموسيقى بشطر العين ، أو يتأبون احترافها بل إن من أبناء أشرافهم من دخل فى زمرة أهل هذه الصناعة ، فمن أساطينها ابن جامع الذى يتصل نسبه بقريش . بل لقد زاول هذه الصناعة بعض أمرائهم ، كإبراهيم ابن المهدى .

كذلك كان الخليفة الواثق موسيقيا من كبار الموسيقيين ومن أعلم الخلفاء بالغناء . بلغت صنيعته فيه مائة صوت (لحن) وروى أنه كان أحذق من غنى وضرب على العود ، وكان كثير التقدير للموسيقى وأهلها ، وإن قوله فى إسحق الموصلى لدليل على ما يكنه خلفاء هذا العصر من احترام هذه الصناعة وأهلها إذ قال :

« ما غنانى إسحق قط إلا ظننت أنه قد زيد لى فى ملكى ، وإن إسحق لنعمة من نعم الملك التى لم يحظ بمثلها ، ولو أن العمر والشباب والنشاط مما يشترى لاشتريتهن له بشطر ملكى » .

ولقد أعطى الخليفة الهادى إبراهيم الموصلى مائة وخمسين ألف دينار فى يوم واحد حتى قال :

« لو عاش الهادى لبنينا حيطان دورنا بالذهب والفضة » .

ولقد أسست فى العصر أول جامعة عربية لدراسة العلوم والفنون ، بناها المأمون فى بغداد وأسماها « بيت الحكمة » فاشتغل فيها فطاحل العلماء ، ومنهم يحيى بن منصور وبنو موسى وغيرهم ، بترجمة علوم اليونان التى كان من بينها العلوم الموسيقية . ونسج الخلفاء بعده على منواله فشجعوا الفلاسفة والعلماء لاستقراء كنوز العلوم اليونانية والوقوف على أسرارها وترجمة عيون مصنفاتها .

ومما يسجل لهذا العصر بالفخر ، أنه ظهرت فيه عناية خاصة بإثبات قواعد الموسيقى ونظرياتها . فكان الخليل بن أحمد أول من عنى بهذه الناحية بعد يونس الكاتب الأموى ، الذى سبقت الإشارة إليه ، فوضع « كتاب النغم » و « كتاب الإيقاع » فكانا بحق أول مؤلفات علمية فى الدولة العباسية واستكمل إسحق الموصلى هذه المؤلفات . ثم جاء بعدهما من بزّهما فى هذا النوع من التأليف وهو إسحق بن يعقوب الكندى فكتب ما يربى على سبعة مؤلفات فى العلوم الموسيقية ونظرياتها . وجاء بعده أبو نصر محمد الفارابى ، فكان من أكبر فلاسفة العرب دراية بعلوم اليونان ، وكان موسيقيا حاذقا يجيد العزف بالعود ، وقد وضع كثيراً من الكتب فى هذا الفن . أما الرئيس ابن سينا فقد جال فى علوم الموسيقى حتى صار إمام عصره فيها مشرقا ومغرباً . وقد احتوت

موسوعتاه « الشفاء » و « النجاة » على تصنيف موسيقى مبتكر .

ومن أساطين من اشتهروا من الموسيقيين فى ذلك العصر : حكم الوادى وإبرهيم الموصلى وزلزل وفليح بن أبى العوراء ومخارق ، ومن المغنيات : بذل ودنانير ومتيم الهشامية .

وقد نسب بعض علماء الموسيقى إلى العرب إهمالهم تدوين ألحانهم ، غير أن هذا مخالف للواقع فإن دقة الكندى فى تدوين الموسيقى بالحروف فى كتابه « رسالة فى خبر تأليف الألحان » وما أورده صفى الدين عبد المؤمن الأرموى من طرائق التدوين فى كتابيه « الشرفية » و « الأدوار » لأكبر دليل على عناية كتاب العرب بهذه الناحية واسبقيتهم لمعاصريهم .

وفى ذلك العصر الذهبى انتخبت مائة الصوت المختارة ، فقد كلف هارون الرشيد إبرهيم الموصلى وإسماعيل بن جامع وفليح بن أبى العوراء أن يختاروا له من ألحان العرب كلها مائة صوت ، ثم أمرهم أن يختاروا عشرة منها ، ثم أمرهم أن يختاروا ثلاثة من العشرة فكانت تلك الأصوات الثلاثة لحناً لمعبد، ولحناً لابن سريج، ولحناً لابن محرز.

عصر الأندلس :

انبثق فجر المدنية فى بلاد الأندلس عند ما فتحها بنو أمية ، وسطر العرب لها على صفحات التاريخ آيات مجد ظلت مضرب الأمثال ، وتوجت رأس العلوم والفنون بأفخر تيجان الرق . وظلت عندئذ تفيض بنورها على أوربا التى لم تكن بعد قد أفاقت من سباتها العميق ، فكانت قرطبة حاضرة الأندلس موطناً لأساطين العلماء ، كما كانت إشبيلية أعظم مركز للموسيقى والشعر وصناعة الآلات الموسيقية . قال ابن خلدون « حينما كان يموت عالم فى إشبيلية ويراد أن تباع كتبه بثمن عظيم ترسل إلى قرطبة ، وإن مات موسيقى فى عاصمة الأندلس كانوا يرسلون آلاته الموسيقية ومخطوطاته إلى إشبيلية التى نمت فيها الموسيقى وولع بها أهلها أشد الولع » .

وكان اهتمام خلفاء الأندلس بالثقافة عظيما وكلفهم بالعلوم شديداً ، حتى إن الحكم الثانى جمع فى عهد خلافته من البلاد العربية ما يربى على أربعمائة ألف مجلد . ولقد كانت الموسيقى فى طليعة هذه العلوم والفنون التى عنى بها خلفاء الأندلس فازدهرت وذاع انتشارها ، حتى إنها لم تعد مقصورة على فئة خاصة بل غدت ثقافة عامة يشترك فيها جميع طبقات الشعب .

ونقل العرب إلى الأندلس كل ما سبق لهم معرفته من الآلات الموسيقية ، ثم افتنوا فيها وزادوا عليها ، فأصبح لديهم منها عدد جم ، إذ استعملت الأندلس من الآلات الوترية : العود القديم ذا الأوتار الأربعة ، والعود الكامل ذا الأوتار الخمسة ، والشهرود ، وهو نوع من العود ، والطنبور ، والقيثارة ، والمزهر ، والكنارة ، والقانون ، والنزهة ، والرباب ، والكمنجة ، والشقرة (أو المشقر) . ومن آلات النفخ المزمار ، والسرنا (السرناى) والناى ، والشبابة واليراع ، والزمارة ، والقصبة ، والموصول ، والصفارة . ومن الآلات النحاسية : البوق ،

والنفير . ومن آلات النقر : الدفوف ، والغربال والبندير ، والصنوج ، والكاسات ، والمصفقات ، والقضيب ، والنقارة ، والقصعة ، والطبل .

ولم يكن افتنان العرب فى الأندلس مقصوراً فى الموسيقى على آلاتها بل افتنوا كذلك فى التأليف الموسيقى وأنواعه ، وسايروا بها ارتقاءهم فى مدارج المدنية ، فاستحدثوا الجديد فيها . من ذلك « النوبة » وهى أهم أنواع الموسيقى والغناء فى الأندلس . كذلك ابتدعوا الزجل والموشحات خدمة الموسيقى واستجابة إلى دواعى حاجتها إلى أوزان جديدة مبتكرة . وانتقلت هذه الأنواع إلى بلاد المغرب وإلى مصر فبلاد العرب ، وأخذ الأبناء يتناقلونها عن الآباء .

وكان من أقدم السابقين إلى ابتداع فن الموشحات فى الأندلس مقدم بن معافر ، ثم تبعه أحمد ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، ثم عبادة القزاز شاعر المعتصم صاحب المرية من ملوك الطوائف . وكذلك الأعمى الطليطلى . وأول المحسنين فى هذا الفن من المشارقة : ابن سناء الملك .

ومن أهم من اشتهر من الموسيقيين فى الأندلس زرياب وابن باجة الطبيب وعبد الوهاب بن جعفر الحاجب وولادة بنت المستكفى . ومن القيان عازفة وفضل ومتعة وهند جارية أبى محمد عبد الله .

ولقد ظلت الأندلس زهرة أوربا اليانعة طوال خمسة قرون تنشر عليها أريجها من كل علم وفن . وأرسلت أوربا إلى جامعاتها بالبعوث لارتشاف العلوم العربية ودراستها على أئمة العرب وأساطين علمائها . وكانت الموسيقى أولى هذه العلوم التى وفدت البعوث لدراستها وترجمة كتبها . وممن اشتهروا من أعضاء البعوث إلى بلاد الإسلام وصاروا أعــــلاماً فى أوربا بعد عودتهم إليها : جربرت وهرمان كنتراكت وجين الإشبيلى وقسطندى الإفريقى وقد تعلم فى تونس ومصر وبغداد . وقد نقل هؤلاء وزملاؤهم الكثير من كتب العرب فى الموسيقى كمؤلفات الكندى وثابت بن قره وزكريا الرازى والفارابى وإخوان الصفا وابن سينا وابن باجة .

وقد انتشرت فى ممالك أوربا ولا سيما البلاد الجنوبية منها آلات الموسيقى العربية ، وكثير من هذه الآلات قد انتقل إليها بأسمائه التى تنم فى اشتقاقها عن أصل عربى كالعود والقيثارة والنقارة والرباب والطنبور . والواقع أن أوربا ظلت تحت تأثير غزو الموسيقى العربية عــــدة قرون طويلة حتى بعد عصر الإصلاح .

عصر الدولة الفاطمية :

وكذلك تدرجت الموسيقى العربية فى مصر فى مدارج الرقى منذ أن فتحها العرب فى عهد الخلفاء الراشدين وتعاقبت عليها المدنيات العربية المختلفة حتى بلغت عصر الفاطميين ، فكانت حضارتها فيه حلقة من حلقات تلك الحضارات الزاهرة اليانعة ، بل صارت مصر حتى منتصف القرن الثالث عشر ملتقى المدنيتين العربيتين الشرقية والغربية (الأندلسية) تربطهما وتوحد بينهما .

وكان المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين ، ومنشىء القاهرة ، مشغوفاً بالفنون الجميلة عظيم

الرعاية للموسيقى ، كما كان ابنه وخليفته العزيز مولعاً بها ، بل لقد كانت الموسيقى موضع عناية خلفاء تلك الدولة حتى المتصوفين منهم ، فإن الحاكم بأمر الله برغم تشدده كان يشجع علماء الموسيقى على التأليف فى علومها وجمع أغانيها .

ورعايته لابن الهيثم الموسيقار الرياضى دليل على ذلك ، فقد شجعه على وضع كثير من الكتب القيمة صنف منها فى الموسيقى كتابه « رسالة فى تأثير اللحون الموسيقية فى النفوس الحيوانية » . وكان للمسبحى أحد كتاب الحاكم وولاته المقربين مجموعة فى « مختار الأغانى ومعانيها » .

وكذلك كان الخليفة الظاهر بن الحاكم من هواة الموسيقى ، كما كان الخليفة المنتصر والآمر وباقى من تبعهم من خلفاء الدولة الفاطمية يبذلون الطائل من الأموال فى سبيلها ويجزلون العطاء للمغنين .

وكان أبو الصلت أمية ، وهو من أكبر فلاسفة هذا العصر وأساطين علمائه ، واسع الدراية بالعلوم الموسيقية ، مجيداً للعزف بالعود ، وكان بين مصنفاته ، رسالة فى الموسيقى ، وكذلك كان ابن أبى القاسم من أعلام صعيد مصر فى أوائل القرن الثانى عشر معنيا بالعلوم الموسيقية ، ومن أكبر معاصريه ابن القفطى المؤرخ الكبير الذى يعد مرجعاً لحياة الموسيقيين .

• • •

هذه هى جهود المسلمين فى عصور الرقى والازدهار ، وفى الممالك التى تجلت بها مدنية الإسلام فكانت ذات تاريخ مشرق الصفحات .

وإذا كانت هذه جهودهم فى الحجاز وفى دمشق وبغداد ، والأندلس ومصر ، فليس معنى ذلك أن تلك الجهود كانت مقصورة على ما ذكرنا من جهات أو من عصور . فلقد كان للمسلمين جهود مثمرة سمحت بها الموسيقى واتسعت آفاقها فى الشعوب الهندية والفارسية ، وما وراء النهر وتركيا ، فى أزمنة تناولتها عوامل المد والجزر والتقدم والتخلف ... وكذلك مصر أيضا وقد حملت العبء الأكبر فى نهضتها الحديثة وقامت للموسيقى بأعظم دور إنشائى جعلها تقف على قدم المساواة مع بقية العلوم والفنون .

كل ذلك حق لا ريب فيه . ولكن المجال لا يستوفيه مقال ، وقد أغنى عن التفصيل هذا الإجمال . وفى هذه الصحيفة من التاريخ وتلك الصورة من الوقائع والحوادث والأطوار التى اجتازت الموسيقى العربية مراحلها ، فكرة وإن تكن موجزة فهى سجل شرف وفخار لجهود المسلمين فى خدمة الموسيقى تصنيفاً فى فنونها وابتكارا فى أنغامها وتجديداً فى آلاتها وتبويبا لمختلف مناحيها وتدوينا لشتى مآثرها .

والأمل عظيم والرجاء وطيد فى أن تكون هذه الصحائف باعثة لعزائمنا ولهمم الأجيال من بعدنا على إضافة صحائف أخرى إلى سجل جهود الأمم الإسلامية فى الموسيقى ، تكون أعظم إنشاء وتجديداً وأسمى فى الزمان بقاء وتخليدا ؟

دكتور محمود أحمد الحفنى

أثر الإسلام فى الفنون الزخرفية

للأستاذ الدكتور زكى محمد حسن

كان العرب فى جاهليتهم أهل بداوة وأمية ، يسكن أكثرهم الخيام ، ويترحلون فى طلب الماء والعشب ، ويغير بعضهم على بعض ، ومن هنا كثر بينهم الفرسان والخطباء والشعراء ، فى حين لم يكن لهم شأن يستحق الذكر فى العلوم والفنون .

وبقى العرب وهذا شأن السواد الأعظم منهم حتى ظهر الإسلام فى بلادهم فأخذ بأيديهم إلى ماوراء الصحراء من أمصار ومدائن بلغت شأواً بعيداً من الحضارة والعمران ، فلكوها وبسطوا عليها سلطانهم ، وانتفعوا ونفعوا العالم أجمع بما أخذوه عنها من مختلف العلوم والفنون بعد أن طبعوها بطابعهم الخاص .

على أن الطابع المميز للفنون العربية الإسلامية لم يبلغ غايته ويجمع تحت لوائه مختلف الأساليب والمدارس الفنية المحلية فى البلاد التى فتحها العرب المسلمون إلا بعد أجيال عدة ، استمرت طيلة القرن السابع الميلادى وشطراً كبيراً من القرن الذى تلاه .

ولا مندوحة لنا عن التنبيه إلى اتجاه الفنون الإسلامية منذ البداية إلى الزخرفة والنقش على اختلاف أنواعهما ، مع تجنب النحت وتصوير الكائنات الحية ، نظراً إلى ما ساد من اعتقاد أن الإسلام وقد حطم الأصنام ونهى عن عبادة الصور وما إليها[1] يحرّم إقامة التماثيل والتصوير ، وعلى هذا خلت المساجد وهى أهم مظاهر العمارة الإسلامية مما حفلت به المعابد القديمة والكنائس من التماثيل والصور التى تفسر الأحداث الدينية ، وتركزت عناية الفنانين المسلمين فى تجويد الزخارف والنقوش ، فأتوا فيها بالأعاجيب ، سواء أكانت على الجدران والسقف ، أم كانت على الأوانى المعدنية والخزف والزجاج والخشب والجلود .

وغنى عن البيان أن هذا الاتجاه قيد الفنان المسلم وضيق من الدائرة التى يعمل فيها ، فلم يتح له ما أتيح للفنانين الغربيين من الانطلاق فى سبيل محاكاة الطبيعة وإبراز معالم الحسن والروعة

---

[١] (أ) حدثنا آدم (قال) حدثنا ابن أبى ذئب عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس عن أبى طلحة رضى الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا تصاوير .

(ب) حدثنا الحميدى (قال) حدثنا سفيان قال حدثنا الأعمش عن مسلم قال : كنا مع مسروق فى دار يسار ابن نمير فرأى فى صفته تماثيل ، فقال سمعت عبد الله قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : إن أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة المصورون .

(ج) حدثنا ابراهيم بن المنذر (قال) حدثنا أنس ابن عياض عن عبيد الله عن نافع أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة يقال لهم أحيوا ما خلقتم . [صحيح البخارى ، الجزء السابع ص ٦٠ ، ٦١ طبعة بولاق سنة ١٢٩٦ هـ] .

فى المرئيات المجسمة ، وخلت منتجاته الفنية من آثار الابتكار والإبداع الصادر من أعماق نفسه والمعبر عن مشاعره .

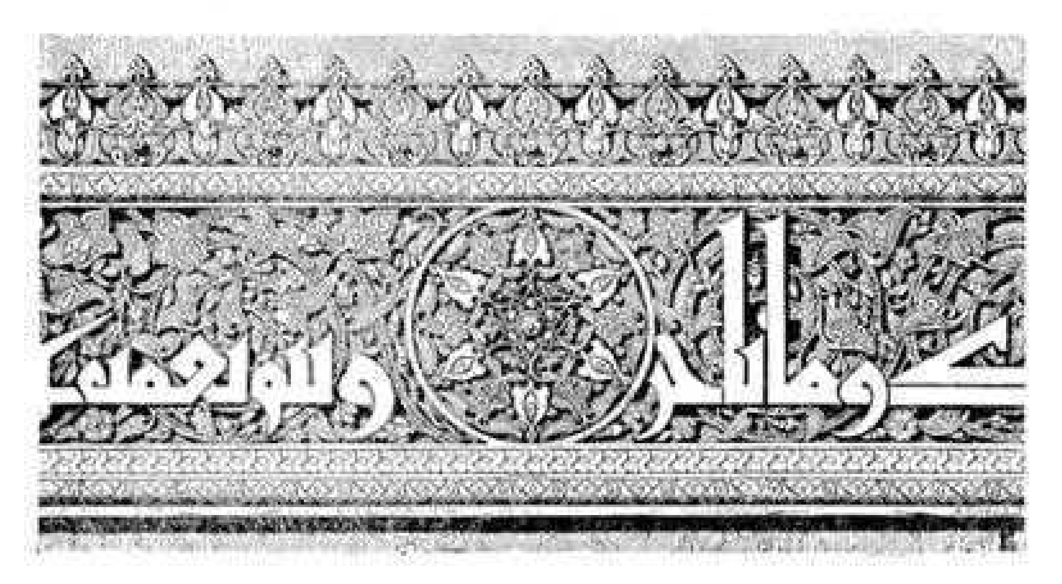
وكذلك كان هذا الاتجاه نفسه مما اضطر كثيراً من الفنانين المسلمين إلى الإعادة والتكرار فيما ينتج من أشكال زخرفية لملء فراغ المساحات المراد زخرفتها .

وأيا ما كان الأمر ، فلا مشاحة فى أن الفن الإسلامى أوسع الفنون انتشاراً وأطولها عمراً ، فهو قد امتد عبر الامبراطورية الإسلامية الكبرى من حدود الصين شرقا إلى الأندلس غرباً ، ومن آسيا الوسطى شمالا إلى صحارى السودان والمحيط الهندى جنوباً وما زال قائماً منذ القرن السابع الميلادى حتى الآن ولو بقسط .

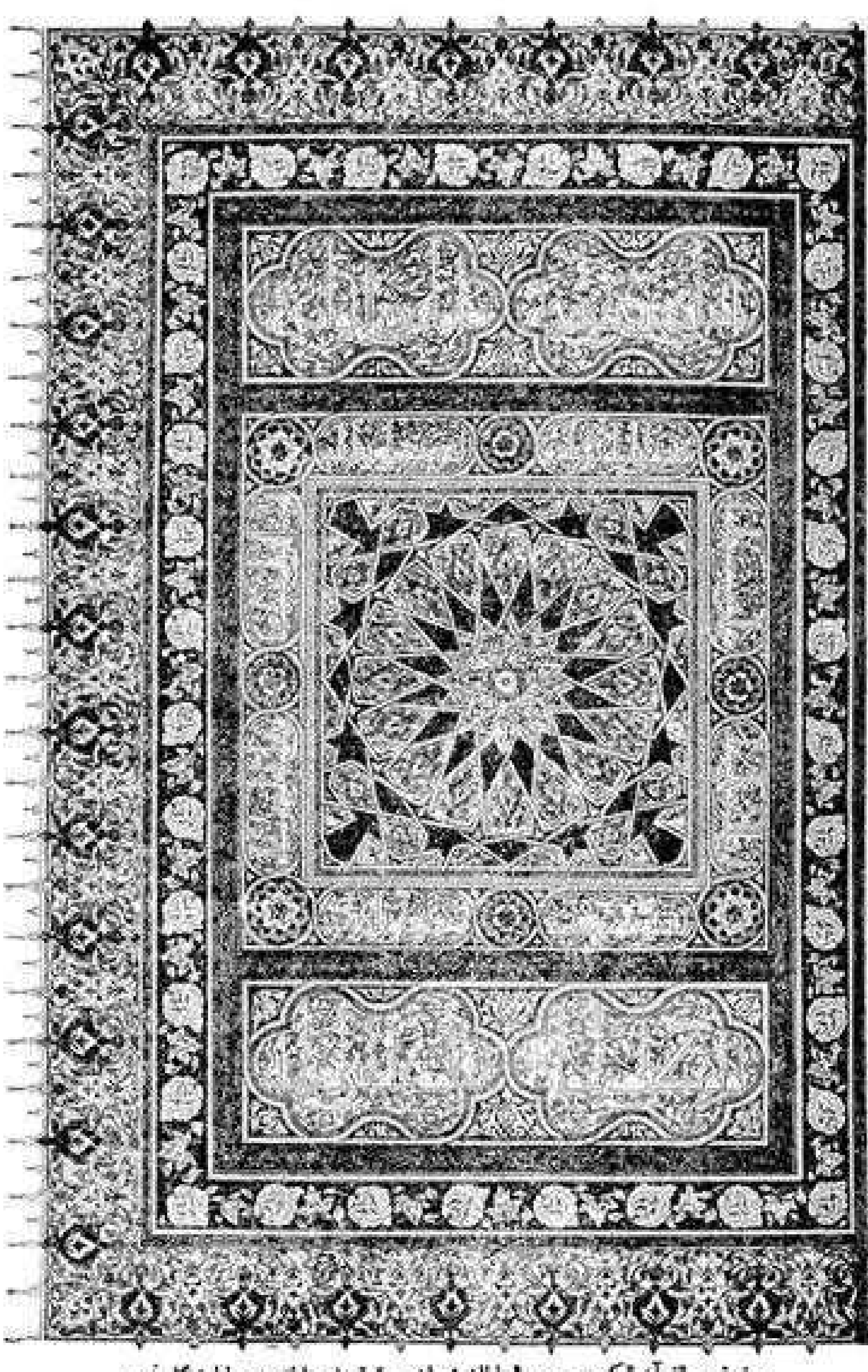
على أن العصر الذهبى للفن الإسلامى هو العصر الذى بلغ فيه أوج مجده فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، سواء فى العمائر الفخمة الضخمة وما اشتملت عليه من زخرفة هندسية ونقوش وكتابات تسترعى الإعجاب ، أم فيما اتخذ لتزيين الأدوات المنزلية والمنسوجات والكتب وغيرها .

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن الفنون الإسلامية وإن اتخذت طابعاً واحداً مميزاً عرفت به على اختلاف العصور والأمصار ، كانت تختلف من حيث طرزها وأساليبها من عصر إلى عصر ، وطبقا لخصائص الإقليم التى هى فيه ، غير أنه ليس من الميسور تحديد تاريخ دقيق لنشأة طراز بعينه من تلك الطرز أو لزواله ، ذلك لأنها كانت فى تطورها المستمر تتداخل وتمتزج ويقتبس بعضها من بعض ، دون أن يكون لأحدها استقلال تام لوقت طويل .

وليس ثمة من شك فى أن الطرز الإيرانية



كتابة كوفية مزخرفة على أرضيته بزخارف نباتية هندسية من جامع السلطان حسن بالقاهرة



صفحة من القرآن الكريم - عصر السلطان شعبان مقسمة على مناطق يتوسطها شكل نجمي ويحيط بها شريط من زخارف نباتية ثم إطار حافل بالزخارف

(١٣)

للفنون الإسلامية قد امتازت بالتنوع وتناول الكائنات الحية بالتسجيل، ولكن الطرز التي ازدهرت في مصر والشام لهذه الفنون تعد أعظم قدراً لما امتازت به من بساطة محببة هي أول قوانين النجاح الفني إلى جانب الذوق الخالص الرفيع.

ويعد الخط العربي في مقدمة الفنون الإسلامية الرائعة، وقد بدأ بسيطاً خالياً من التحلية، ثم تدرج وتطور على تعاقب العصور حتى بلغ مرتبة فنية سامية لم يبلغها أي خط آخر سواه. وكان لليونة حروفه ومطاوعتها واختلاف رسومها وأشكالها من تقوس وانبساط واستقامة عمودية أو أفقية خير معوان للفنان على جعله عنصراً من عناصر الزخرفة والتجميل. ولا تزال الكتابات الزخرفية العربية التي ازدانت بها واجهات المساجد والأضرحة الإسلامية من أبرز معالم الفنون التي امتاز بها العرب والمسلمون وأحفلها بالروعة والإبداع باعتراف أهل الفن من غربيين وشرقيين.

ولهذه الكتابات العربية الزخرفية عدا ذلك فوائد ومزايا عديدة، من بينها أنها تسجل تاريخ ما نقشت عليه من بنايات أو أدوات، وتحدد الأسلوب الفني للعصر أو الإقليم الذي وجدت فيه، كما أنها كانت وسيلة إلى تجنب الفنان المسلم ذلك التكرار الممل الذي كان مضطراً إليه فيما يرسم من وحدات زخرفية، بحكم عدم استطاعته ملء فراغ المساحات التي لديه بصور الأحياء.

هذا إلى أن الخط العربي كان يفصح بطريقة كتابته عن البلد الذي نشأ فيه [1] فتجد خطاً مكياً وآخر مدنياً إلى جانب خط الأنبار والحيرة [2] والكوفة [3]. وكانت النتيجة المحتومة لهذا أن الفنانين من الخطاطين الذين بدأوا خطهم في معظم الأحوال بالحفر على الحجر أو الخشب أخذوا يكثرون من استعمال الخطوط المستقيمة والتقليل من الخطوط المقوسة، وبذلك أصبح الخط العربي في أول أمره كثير التضليع يابساً جافاً، جاء هندسياً، كما هو الحال في أول أنواع الخط الكوفي الذي انتشر في العالم الإسلامي كله.



إناء بنقوش عربية من وضع هانس هولباين في سنة ١٥٣٧م عن كونل

[١] انتشار الخط العربي في العالم الشرقي والعالم الغربي لعبد الفتاح عبادة، القاهرة ١٩١٥

[٢] تاريخ أدب اللغة العربية لحفني ناصف، القاهرة (ج ٣ ص ١٢٤ وما بعدها).

[٣] تاريخ التمدن الإسلامي لجورجي زيدان (ج ٣ ص ٥٤).

ثم كان من أثر كثرة المكاتبات فى المعاملات والمراسلات تبعاً لتقدم الحياة الإســلامية وتطورها،أن تحرر الخط العربى من جفاف تلك الخطوط المستقيمة، وصارت الكتابة العربية مدورة لينة مرنة. ولا يمكن اعتبار هذا الاتجاه ضعفاً فنياً أو تخلصاً مما يتطلبه فن الكتابة الكوفية من جهد ووقت، ذلك لأن الطرازين: طراز الكتابة الفنية الكوفية وطراز الكتابة المدنية السريعة، عاشا وأقاما وانتشرا جنباً إلى جنب منذ بداية التمدن الإسلامى.

وهنا نذكر ما للقرآن الكريم من فضل عظيم على الفن الإسلامى والفنانين المسلمين، فإن الاشتغال بكتابة المصاحف مع التفانى فى إظهارها بمظهر فاخر باهر، يتناسب مع جلالها ومكانتها العظيمة، كان منبعاً فياضا ومجالا فسيحاً لإبراز المقدرة الفنية فى رسم الخط العربى وتجويده وزخرفته.

وكذلك كان لكتب الأدب ودواوين الشعر فضل مشكور فى تقدم فن الكتابة الزخرفية، كما يمكن القول بأن كثيراً من الفضل فى عناية الفنانين من الخطاطين بذلك التجويد يرجع إلى ما جرت به العادة من تسجيل كل منهم اسمه تحت ما يكتبه، مما لم يعهد فى غير الخط من الفنون إلا نادراً.

وقد ظهرت فى الأفق الفنى أساليب جديدة فى كتابة الخط العربى سميت بالخط النسخى والثلث والريحانى والتعليق ثم جاء بعدها خط الرقعة والخط الديوانى وغيرهما مما لا يتسع المجال للإفاضة فى الحديث عنه [1].

ولئن كانت الفنون القديمة السابقة للفنون الإسلامية، قد عرفت كثيراً من الرسوم والنقوش الهندسية أو الزخرفية، فالواقع أن استعمالها فى تلك الفنون القديمة لم يكن مقصوداً لذاته، بل كان من قبيل الاستعانة بها على تكملة الموضوع، أى أنها كانت شيئا ثانوياً وليست فى صميم الفن وجوهره، كما هو شأنها فى الفنون الإسلامية حيث تكون العنصر الأساسى فيها جميعاً بلا استثناء.

ومن أجل ذلك كان طبيعياً أن امتاز فن الزخرفة الإسلامية بما وضع له من أصول وقواعد، وبما عُنى به أساطين البحوث الفنية من تحليل هذه الزخرفة وإرجاع خطوطها ومعالمها



كتابة كوفية مزخرفة من إيران - القرن الثانى عشر - عن كونل

[1] فنون الإسلام للدكتور زكى محمد حسن ص ١٢٧ وما بعدها.

المركبة إلى أصولها البسيطة أو إلى الخطوط والأشكال الهندسية الأولية التي تألفت منها .

وقد أثبتت هذه البحوث التحليلية الفنية بما لا يدع مجالاً للشك أن الفنانين المسلمين بلغوا درجة عظيمة لم يبلغها غيرهم من حيث الخبرة التامة بالرسم الآلى الهندسى وتقسيم الدوائر واستعمال الفرجار .

ويمكن القول بأن هذه الرسوم الهندسية العربية استمر تطورها وتقدمها على مر العصور حتى بلغت قمة الإبداع والروعة في مصر أثناء حكم المماليك ، حيث كانت تستخدم لزخرفة المصنوعات الخشبية والمعدنية ولتحلية المصاحف والكتب فضلا عن استخدامها في تزيين المساجد والأضرحة والمدارس وما إليها من البنايات الدينية والمدنية .

وبلغ من إعجاب الفنانين الغربيين بالفنون الزخرفية الإسلامية وما اشتملت عليه من بدائع الرسوم والأشكال الهندسية أن تأثر بها كثير من أساطين الفن عندهم ؛ فجاءت بعض لوحات «ليوناردو دافينشى» الفنـــان الإيطالى الكبير مشتملة على زخارف إسلامية ، كما وجد بعض هذه الزخارف مسجلاً طبق الأصل في بعض ما أنتجه الفنان العظيم «هانس هولباين» ، كما ثبت اقتباس كثير من الزخارف الإسلامية في اللوحات النحاسية التي كان يحفرها الفنانون الألمان بأيديهم في منتصف القرن السادس عشر .

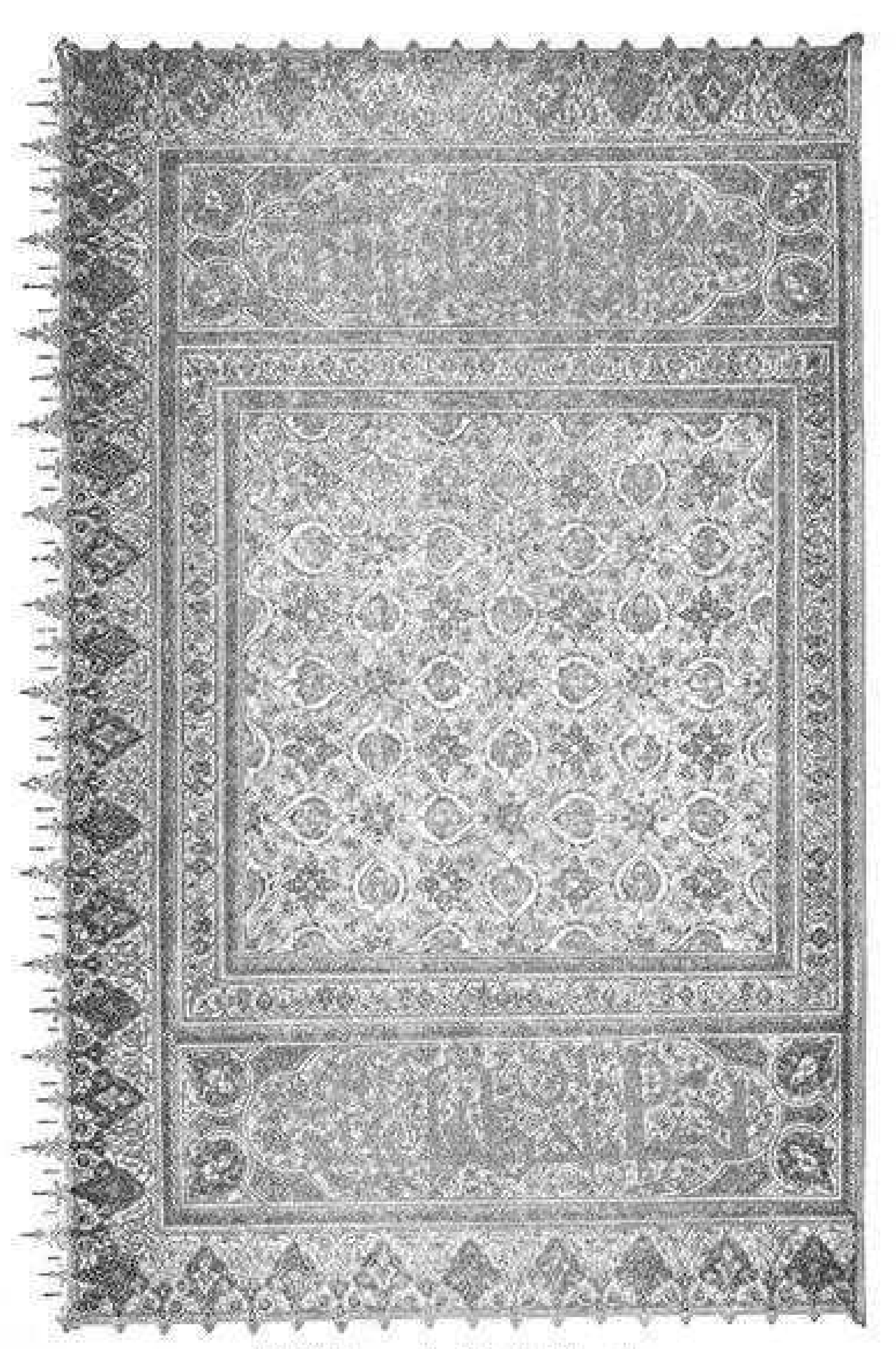
بقى أن نشير إلى ميزة أخرى لفن الزخرفة الإسلامية ، وتلك هي ما يلاحظ آثارها الماثلة للعيان حتى الآن من توافر الوحدات النباتية دون التقيد بالطبيعة أو تقليدها تقليداً تاماً ، ففي كثير من هذه الآثار نجد منتجها من الفنانين المسلمين قد استخدموا في الزخرفة أجزاء يسيرة من المرئيات الطبيعية كجذوع الأشجار وأوراقها وثمارها ، ثم اتخذوا منها نماذج أو وحدات كرَّرُوها لملء فراغ المساحات التي يزخرفونها



زخارف نباتية من كتاب بليجرينو في سنة ١٥٣٠ عن كونل

مع التفنن في هذا التكرار ، بوضعها متقابلة أو متناظرة تارة ، وبوضعها متجاورة أو متماكسة تارة أخرى ... وهلم جرا .

ومن هنا نشأ ما أطلق عليه الأوربيون اسم «أرابسك» منذ عصر النهضة الإيطالية ، وأطلق



إحدى صفحات المصحف الشريف من عصر السلطان المؤيد

آراء وأحاديث

مجلة الأزهر

للأستاذ عبد الله أمين

صدر العدد الأول من مجلة الأزهر في عهدها الجديد ، في غرة شهر رمضان لسنة ١٣٧١ هـ ، فإذا به في ورقه وغلافه وطبعه وضخامته ، في الذروة العليا من المجلات التي تصدر بالعربية في مصر وغيرها ، وإذا حُقق رجاؤها - ونرجو أن يحقق - فستكون في الأعداد التالية أجمل وأجود.

أما كتّاب هذا العدد فهم الصفوة المختارة من رجال العلم والأدب ، في العالم العربي كله ، ومنهم من ملأت شهرتهم المشارق والمغارب، وهؤلاء أنفسهم هم الذين تتهافت عليهم جميع المجلات والصحف المصرية لتظفر من أحدهم بمقال تزين به جيدها ، وتضمن به تهافت القراء عليها ورواجها .

وأما ما كتبه كل منهم في هذا العدد فهو من خير ما كتب ، ومن خير ما تزدان به المجلات والصحف ، وحَسْب هذا العدد مقال حضرة الأستاذ مدير المجلة ورئيس تحريرها الأستاذ أحمد حسن الزيات وهو (عهد جديد) ، فهو جدير بأن يوزن العدد كله من أجله بالجواهر . إنه من أجود الكلام معاني ومباني وترتيباً .

لا شك أن هذا العدد غزير المعاني ، جليل القدر ، منقطع النظير ، والمأمول في همة مدير المجلة ورئيس تحريرها ، ولباقته وخبرته أن يطّرد تقدمها على يديه ، حتى تبلغ ما يرجى لها من كمال ، ولن تبلغ هذا الكمال المرجو بدون أن تفسح صدرها للنقد .

ولهذا أقول : إن ما يشعر به القارىء حين يطلع على هذا العدد لأول نظرة أنه يسابق المجلات المصرية في ميدان واحد ، وإن كان هو المجلي فيه ، فكتابه هم كتابها ، وإن اجتمع فيه منهم من لم يجتمع في عدد آخر من المجلات الأخرى، وأساليبهم ومعانيهم ومناحيهم هي هي ، مع شيء من العناية اللائقة بمجلة الأزهر، وإذا أردنا أن نرى في هذا العدد صورة بعينها ، رأيناها صورة الجامعة

عليه الألمان منذ عصر نهضتهم الفنية اسم «ماوريسك» Maureske وجعلوه علماً على كل الزخارف المتألفة من الفروع النباتية المتشابكة وما إليها .

وإلى جانب هذه الوحدات النباتية التي استخدمها الفنانون المسلمون في الزخرفة ، استخدم بعضهم أيضاً رسوم بعض أنواع الحيوان والوحوش والطير والحشرات ، كالأسود والفهود والظباء والأرانب والحمائم ، ولعل هؤلاء الفنانين المسلمين قد اقتبسوا هذه الرسوم من البلاد الشرقية التي دخلها الإسلام كالصين وإيران وغيرهما حيث كان الفنانون هناك يرسمون صور الحيوانات خرافية مثل التنين أو البراق (فرس له وجه آدمي) .

وقد استخدم رسم البراق هذا كثيراً في زخرفة القصص المكتوبة عن المعراج ، كما رسموا بعض الأفاعي والحيات والعقارب تحت أقدام بعض الواصلين من المشايخ .

أحمد موسى

من الجامعات المدنية أو لغيرها، أما الجامعة الأزهرية التي صَدَرَ عنها وباسمها فلا يمكن أن يكون مرآة صادقة لها تتجلى فيها صورتها على حقيقتها.

إنما تكون مجلة الأزهر مرآة صادقة للأزهر، حين يكون جميع محرريها من أبناء الأزهر لحماً ودماً وروحاً، أي ممن تعلموا فيه وأصبحوا معلمين فيه، ووقفوا كل حياتهم وجهودهم على تفهم رسالته والعمل بها، وعلى تأدية هذه الرسالة، وحين يكون كل ما يكتب فيها، في هذه الرسالة نفسها، ولا يتناقض هذا وذاك، أن تنشر المجلة لبعض النابهين من غير أبناء الأزهر، من أمثال كتاب هذا العدد شيئاً ما في هذه الرسالة أو فيما يتصل بها من قرب أو من بعد.

وما رسالة الأزهر التي يجب أن تكون القبلة التي يتوجه إليها جميع طلابه وأساتذته، وألا تتحول عنها أبصارهم وقلوبهم ونفوسهم قيد شعرة؟ إني لا أبالغ ولا أتجنى إذا قلت: إن هذه الرسالة غير محدودة، وبعبارة أخرى غير واضحة المعالم. ولقد آن الأوان لوضع حدودها، وتبين معالمها، في هذا العصر الذي تكاثرت فيه وقويت عوامل الإلحاد والإباحة، والتحرر من قيود الأديان واشتدت فيه حاجة البشر إلى الدين النظيف الخالص الذي يستولي على عقولهم وقلوبهم، وينقذهم مما هم مشرفون عليه من الشقاء والدمار.

إن رسالة الأزهر هي رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد كانت هذه الرسالة الحكيمة الرحيمة الفذة، وتحتوي بلا شك على أقسام الدين الأربعة وهي:

١ ـ العقائد، وهي الإيمان بالله ورسله وبعالم الغيب، من الملائكة والجن والحياة الآخرة.

٢ ـ العبادات، وهي الصلاة والصوم والزكاة والحج.

٣ ـ الفضائل والآداب، ويجمعها تزويد الجسوم والنفوس والعقول بما ينميها ويقويها ويزينها ويطهرها مما يشينها.

٤ ـ المعاملات، وتجمع كل الأمور القضائية، والسياسية، والإدارية، والحربية، والصحية، وغيرها من الأمور التي تنظم حياة الجماعات.

غير أن الجزء الأكبر من عناية الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن جهوده، إن لم تكن كلها كانت، موجهة في عهد الرسالة كلها وهو ثلاث وعشرون سنة، إلى تحرير العقائد والعبادات، من عقائد الشرك وعباداته. وذلك لأن العقائد والعبادات هي الدين المحض، فهما كما جاء في مجلة المنار الإسلامي يكملان أمور الإنسان الروحية وينظمان علاقته بربه، ويفضيان به إلى سعادة الدار الآخرة، وفيهما مع ذلك ناحية دنيوية؛ لأنهما يحرران العقول من الأوهام والخرافات، والنفوس من الرذائل والضلالات، وفي ذلك التحرير سعادة البشر في الدنيا أيضاً.

وهما اللذان قال فيهما سبحانه وتعالى «اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً». ولذلك يجب أن تلتزم فيهما الحدود التي حدها الرسول صلى الله عليه وسلم بالقول والعمل، وجرى عليها الصدر الأول من الصحابة، بلا زيادة ولا نقص، لا بقياس،

ولا بدعوى إجماع لمن بعدهم ، ولا لمصلحة ، ولا لغير مصلحة ، ولا لغير ذلك من العلل والأسباب .

هكذا كان هم الرسول صلى الله عليه وسلم ، مصروفا كله إلى تصحيح العقائد والعبادات ؛ لأنهما الدين المحض ، ولأن المشركين كانوا منغمسين إلى الأذقان فى الشرك وفيما يتفرع منه من الأوهام والخرافات ، والرذائل والضلالات ، وهذه وتلك المصدر الأكبر الأول لشقاء البشر وتعاسته فى الدنيا والآخرة جميعاً ، ولن يستقيم له أمر فيهما ما لم يرد إلى العقائد والعبادات النظيفة ، وهى الإسلامية حقا .

وما حال المسلمين والمشركين الآن ، وغداً وبعد غد ، وإلى أن تقوم الساعة ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، ومنها مصر العزيزة مقر الأزهر الشريف ، بأحسن من حال المشركين حين الرسالة ؛ فالناس هم الناس فى كل زمان ومكان ، إنهم عبيد التراث القديم الذى ورثوه منذ آلاف السنين عن الآباء والأجداد ، وعما أحاطهم من ملابسات ومؤثرات ودرجوا عليه وطبعوا بطابعه . إنه ملىء دائماً بالجهالة والضلالة لا يتحررون من فساد العقيدة ، ولا من فساد العبادات ، وهما أصل شقائهم ومصدر بلائهم . فهم دائماً فى حاجة ملحة إلى حرب عنيفة شعواء واسعة النطاق ضد عقائد الشرك وعباداته ، وأصل هذا الفساد كله دعاء غير الله الواحد القهار ، ففى الحديث الصحيح : « الدعاء مخ العبادة » .

فلا يمكن أن يعد الأزهر حاملا لواء الرسالة المحمدية العليا ، إذا لم يرفع علم هذه الحرب عالياً خفاقا ضد البدع والخرافات ، والأوهام والضلالات ، فى كل مكان ، وفى مجلة الأزهر .

فتى يعلن هذه الحرب ؟ إن جميع الأحوال الآن تدل دلالة قاطعة على أن وقتنا هذا هو الوقت الملائم لشن هذه الحرب ؛ فالبلاد الإسلامية وفى مقدمتها مصر تسابق الريح بل الأمواج الكهربية ، طائعة أو مكرهة ، فى سبيل الأخذ بأسباب المدنية الحديثة التى تكاد تقضى على الأديان كلها ، وفى الأزهر الآن نخبة من العلماء الذين يؤمنون بالدين الخالص ، ويعتقدون أن كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار ، ويمقتون هذه البدع أشد المقت .

وفى مقدمة هؤلاء : الحبيب العزيز القديم حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الأكبر الإمام الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الجامع الأزهر ، بقية السلف الصالح ، وإذا تم فى عهده الميمون إنشاء المعهد الحديث للدعوة الإسلامية - ونرجو أن يتم إنشاؤه قريباً إن شاء الله تعالى - كان إنشاؤه الخطوة الأولى التى لا بد منها لتحرير العقائد والعبادات ، وهما الدين المحض ، عما علق بهما .

فلا نزاع أن أساس الدراسات فى هذا المعهد ستكون الدين الخالص ، والفصل بينه وبين غيره من الأديان ، وعما أضافته إليه الأمم من عقائد الشرك وعباداته ، وأن العلماء الذين يتمون الدراسة فيه سيقفون جنبا إلى جنب مع العلماء الذين أتموا الدراسة فى قسم الوعظ والإرشاد وغيرهم من العلماء الذين يجيدون الوعظ والإرشاد ، فيكتمل للأزهر بهؤلاء وهؤلاء القيام بالرسالة كلها : فإن رسالة

الوعظ والإرشاد، الدعوة إلى : (١) الفضائل والآداب (٢) تقويم المعاملات بين الناس فهي تحيي القسمين الثالث والرابع من أقسام الدين .

وهذان القسمان كما جاء في مجلة المنار الإسلامي دنيويان ؛ لأنهما مدنيان اجتماعيان ، منظمان لشؤون الإنسان في الدنيا ، وعلاقته بأهـــله وبقومه وبغيرهما من خلق الله سبحانه ، فيسعد بهما هو ومن يتصل به في الدنيا .

وفيهما مع ذلك ناحية دينية ؛ لما ورد فيها من نصوص في الحلال والحرام تجب طاعتها والعمل بها ، وفي هذه الطاعة ، وفي هذا العمل زلفى إلى الله سبحانه وحسن مآب ؛ لما فيهما من نفع ، وتربية للنفس ، وفي عصيانهما ومخالفتهما بعد من الله وسوء مآب ، وفي إحلال حرامهما ، وتحريم حلالهما عمداً كفر . وهذا ما يؤيد أنهما دينيان من ناحية .

وهنا في هذين القسمين مجال للزيادة بالقياس وبالإجماع فيما لم يرد فيـه نص فيهما ، وهذا موكول لأولي الأمر ، وفي أولي الأمر كلام يطلب في مواضعه .

فللأزهر رسالة أخذ بالشطر الثاني منها ، وأعد لها عدتها وقام ويقوم بها ، أما الشطر الأول من هذه الرسالة فهو يتهيأ له الآن ، ونطالبه به . إن هذا الشطر الأكبر الأول بل الأزهر كله أمانة للإسلام والمسلمين بين يدي حكيم خبير من أبناء الأزهر ، هو شيخه الإمام الجليل ، ومجلة الأزهر هي الأخرى أمانة للأزهر بين يدي أجدر الصحفيين بحمل هـذه الأمانة ، وهو حضرة الأستاذ مديرها ورئيس تحريرها أحمد حسن الزيات ، ووفاؤه بهذه الأمانة لا يكون إلا بأن يعمل جاهداً على إحلال أبناء الأزهر من العلماء المؤمنين بالرسالة على النحو الذي شرحته هنا في تحرير المجلة محل المختارين لتحريرها من غيرهم وذلك بالتدريج في مدة لا تتجاوز بضع سنين على أن يكون هو آخر من يتخلى عن المجلة ويدع إدارتها ورياسة تحريرها لمن يختاره هو منهم لها ـ والله ولي التوفيق ـ بعد كتابة هذا المقال صدر عدد شوال سنة ١٣٧١ من المجلة فإذا به كعدد رمضان .

عبد الله أمين

تعقيب :

وافق الأستاذ على جلة قوله ، ولا أعقب إلا على رأيه في تحرير المجلة .

المسألة يا سيدي الأستاذ واحدة من ثلاث : إما أن تخرج المجلة بيضاء ؛ وإما أن أكتبها كلها بقلمي ؛ وإما أن استكتب لها الكتاب ، فالأولى غير معقولة ، والثانية غير مقبولة ، والثالثة فيها كلام .

توليت إدارة هذه المجلة وليس فيها محرر ولا مترجم ولا موظف يعين على التحرير والترجمة ، فلم أجد بداً من الاستعانة بالكتاب الذين حملوا أمانة العلم وفهموا ثقافة الإسلام . وكان من أول هؤلاء وأولاهم كتاب الأزهر ، ولكن معرفتي بأكثرهم قليلة . وهم لم يتكرموا بالتعارف ولم يتقدموا بالمعونة ، فلجأت إلى من أعرف من الأزهريين والجامعيين والمجمعيين . وخرج عدد رمضان على النحو الذي عرفت . ولم تتغير الحال في عدد شوال فصدر على الوضع الذي رأيت .

الفتح المبين

حديث من أحاديث الإذاعة المصرية ألقاه صاحب الفضيلة الشيخ محمود شلتوت في ذكرى الفتح ، فرأينا أن ننشره في هذا العدد الخاص بالفتح استزادة من مجد الفتح واستفادة من أدب الأستاذ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصراً عزيزاً » .

في السنة السادسة من الهجرة رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين ، محلقين رءوسهم ومقصرين . وأخبر المسلمين بهذه الرؤيا . وثقة بما أراه ربه – وهو لا يريه إلا حقاً – توجهت نفسه إلى تحقيق هذه الرؤيا ، فاستنفر أصحابه واستنفر الأعراب الذين حول المدينة ليكونوا معه ، ولكنهم لم يستجيبوا لدعوته ، اعتذروا وتعللوا ، فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار معلنا أنه لا يريد حربا ، وإنما يريد عمرة ونسكا . وعلى الرغم من ذلك جاءته الأنباء بأن قريشاً أجمعوا على منعه من دخول مكة وصده عن المسجد الحرام وأنهم تجهزوا فعلا لقتاله ، ولكنه صلى الله عليه وسلم ، تفاديا للقتال الذي لا يريده ، غير طريقه الذي ترصدوا له فيه ، وتحول بأصحابه إلى جهة تعرف باسم الحديبية ، قريبة من مكة . وفي هذا المكان جاءه سفير من قريش يتحدث معه فيما يريد ، واتصلت المفاوضة بينه وبين قريش حتى بعث إليهم عثمان بن عفان يوضح لهم مقصده ، وأنه لا يريد قتالا . ولما أبطأ عثمان ابن عفان في مكة ، شاع فيما بين المسلمين أن قريشا قتلته ، وهنا قال الرسول : لا نبرح حتى

وفي عدد المحرم الذي بين يديك اختلف الأمر بعض الاختلاف . لم أجد بعد ثلاثة أشهر مسوغا لانتظار التعارف أو التعاون ، ففزعت إلى لجنة من صفوة العلماء الأصدقاء في الأزهر ومعي خطة لهذا العدد الخاص مبينة المعاني معينة الأغراض ، وسألتهم أن يختاروا لهذه الموضوعات كتابها من رجال الأزهر ، فاختاروا طائفة من أعيانهم كتبت إلى كل منهم رسالة بموضوعه وموعده . ثم انتظرت ونظرت فإذا الأساتذة جميعاً لا يكتبون ولا يعتذرون ، ما عدا الأستاذ الشيخ محمد عرفه ، وكان الوقت قد ضاق عن استكتاب غيرهم ممن يكتبون أو يعتذرون فنزلنا مضطرين على حكم الواقع ، فإذا رأيت يا سيدي الأستاذ في هذا العدد خللا لم يسد وثغرة لم تملأ ، فأرجع هذا إلى ذاك .

ورأيي قبل هذا أن الأزهر فكرة ؛ فكل من أخذ بها وعبر عنها ودعا إليها فهو أزهري وإن لم يخرجه الأزهر . أما رأيي بعد هذا ، فهو أن العبء باهظ والجو خانق والعدة ضعيفة والمعاونة قليلة والسن متقدمة والصحة متأخرة .

وما أطمعت فضيلة الشيخ الأكبر الإمام عبد المجيد سليم في تولي هذه المجلة إلا لأرسم الخطة وأضع النموذج .

وفي اعتقادي أن في الأعداد الثلاثة التي صدرت على علاتها ما يكفي .

ولك يا سيدي الأستاذ أجزل الشكر على جميل رأيك وحسن ظنك .

مدير المجلة

تناجزهم الحرب. ودعا أصحابه للبيعة على القتال فبايعوه تحت شجرة هناك ، عرفت بشجرة الرضوان . ولما ذاع نبأ تلك البيعة ، ووصل قريشاً أمرها ، وهم يعرفون قيمة البيعة عند المؤمنين ، لجأوا إلى المسالمة ، وأرسلوا إلى الرسول عليه السلام من يعرض عليه الصلح . وقد تم الصلح بشروط قبلها النبي صلى الله عليه وسلم ، ورأى فيها بعض أصحابه غبناً شديداً على المسلمين ، فتلكأوا به بعض الوقت فى تنفيذ ما أمرهم به النبي من التحلل والرجوع ، ثم سارعوا إلى الامتثال حينما رأوه يباشر فعلا عملية التحلل بالنحر والحلق ، فتحللوا ورجعوا إلى المدينة وفى قلوبهم ما فيها من آلام الموقف . ولكن الله العليم بخير هذا الصلح على المسلمين وما يثمره من الثمرات الطيبة فى نشر الدعوة بادرهم بإنزال تلك السورة العظيمة وهم فى طريقهم إلى المدينة ليكشف لهم الغطاء عما لم يدركوا من أسرار توجيه النبي عليه السلام وأكد لهم أن ما حصل ليس كما يظنون ، غبنا ودنية » .

وإنما هو فتح ، وفتح مبين : فتح للعقول لتدرك سمو الإسلام ، وفتح للقلوب لتخالطها بشاشة الإيمان ، وفتح لمكة وغيرها من القرى والمدن التى ستعلو فيها كلمة الحق والعدل ، ويندك بها صرح الباطل والظلم ، وأنه بهذا الفتح سيطهر قلب النبي صلى الله عليه وسلم من الحرج واستبطاء نصر الله له الذى كان يحسه فى مواقف الشدة ، ويظفر بإتمام نعمة الله عليه وإكمال دينه بالتشريع والبيان ، وبهدايته هداية عملية واقعية ، إلى صراطه المستقيم ، وبالنصر الذى لا تعتريه هزيمة ، ولا يلحقه غلب « إنا فتحنا لك فتحاً مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصراً عزيزا » .

ثم يمتن الله فى السورة على المؤمنين بموقفهم فى الانقياد للنبي صلى الله عليه وسلم وأمره إياهم بالرجوع معه إلى المدينة ، وأن ذلك لم يكن إلا بطمأنينة ملأ الله بها قلوبهم ، هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم » . وأن الله تعالى كان قادرا على أن يشرد بأعدائهم - بما له من جنود السموات والأرض - دون أن يكون للمؤمنين دخل فى هزيمتهم ، وتمزيق قوتهم ، ولكنه سبحانه رتب الأمر هكذا وجعله بأيدى المؤمنين لينالوا ما أعد لهم من نعيم ، ولينكشف المنافقون والمشركون ، وينزل بهم ما يستحقون من جحيم ، وقد نوهت السورة بعد ذلك بالمبايعة التى حصلت تحت الشجرة ، « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريبا » . كما فضحت أسرار المنافقين الذين لم يخرجوا معه . وفى ذلك يقول « سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ، يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم » . « سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ، ذرونا نتبعكم ، يريدون أن يبدلوا كلام الله . قل لن تتبعونا ، كذلكم قال الله من قبل » . وفى بيان الحكمة فى قبول الصلح وعدم القتال ، وأن ذلك

لم يكن ضعفا ولا عجزا من المؤمنين ، تقول السورة : « ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ، ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا » . وتقول « وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم » وتقول « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم » .

ولقد كان من بركة هذا الموقف أن اعترفت قريش للمؤمنين بدولة ، لها كيانها ، ولها سفراؤها ، ولها قوتها ، وأنه مهد لكثير من العرب : قريش وغيرها ، أن يختلطوا بالمسلمين فيعرفوا عن كثب حقيقة الإسلام ، وما يدعو إليه من فضائل وأخلاق ، وقد مهد كل هذا للفتح الأكبر الذى به سقطت دولة الظلم ، وتحطمت أصنامه ، وبه تحققت رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم . وفتح المسلمون مكة ، ودخلوا المسجد الحرام « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ، محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا » .

ثم أكدت السورة ضمان حسن العاقبة للرسول ، وأن الله سيظهر دينه على الدين كله ، وذكرت أصحابه عليه السلام بالتراحم فيما بينهم ، والإخلاص لله ، وذكرتهم بالشدة على الكفار والغيرة على الحق « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا . محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » .

ثم بجلت لهم ، ولكل من سار على نهجهم فى قوة الإيمان والعمل الصالح ، هذا الوعد الكريم « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » .

هذا هو الفتح المبين ، وهذه هى سورة الفتح ، ومن العبر التى توحى بها هذه السورة الكريمة والتى يجب علينا أن نستخلصها لننتفع بها فى حياتنا الراهنة ، أن القائد لابد لنجاحه فى تكوين أمته ، وتركيز قوى الخير فيها ، من أن يبذل جهده فى تعرف جانب الحكمة والسداد فى الرأى ، وأن يعتمد على من عرف إخلاصهم ، وصدق إيمانهم ، وأن الجيش المظفر هو الجيش الذى يطهر نفسه من عناصر التخذيل والضعف ، وأرباب الغايات المادية الفانية ، التى لا تتصل بشرف الأمة ومجدها ، وأنه يجب تنحية المنافقين الذين لا يقصدون من القتال سوى تلك الغنائم المادية .

وبسداد الرأى ، وقوة العزيمة ، وصدق الإيمان ، وطهر الجيش ، وسمو هدفه ، يكون النجاح والظفر ، وتكون العزة والمناعة .

نسألك اللهم أن تكلل عمل المجاهدين المخلصين بالنصر والتأييد ؟

محمود شلتوت

ما يقال عن الإسلام

رأينا أن نختار لهذا العدد من مجلة الأزهر ما يلائم فكرته ، ولذلك لم نقتصر على ما يقوله المعاصرون فى صحفهم ومؤلفاتهم .

• • •

بعض ما يقوله المؤرخ الإنجليزى جيبون

تعرض هذا المؤرخ الشهير لظهور الإسلام فى كتابه الضخم « اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » الذى طبع سنة ١٧٨٨ ، ولقد كان متأثراً فيما كتب عن الإسلام بما كان يسود أوربا يومئذ من التعصب والسخط على هــذا الدين ، ولكنه كان ينسى تعصبه أحيانا إذ تتغلب عليه نزعة المؤرخ : قال يصف جانبا من حياة الرسول صلوات الله عليه « إن سمو إحساس محمد جعله يحتقر بهرج الملك ؛ وكان رسول الله يخضع نفسه لما تتطلبه حياة الأسرة من عمل ، فقد أوقد النار وكنس المنزل وحلب الشاة ، وخصف بيديه نعليه ورتق ثوبه ، ولقد كان قانعا يأكل كما يأكل العربى والجندى ؛ وكان فى مناسبات قليلة يولم لرفاقه فى سعة ، ولكن الأسابيع الكثيرة كانت تنقضى ولا يوقد فى بيته نار لطعام ؛ وكان يحرم الخمر كما يقضى بذلك الدين ؛ وكثيرا ما كان يخفف وطأة الجوع بكسرة من خبز الشعير » .

وقال هــذا المؤرخ يصف جهاد المسلمين فى غزوة مؤتة « أعطى لواء المعركة لزيد ، فإذا مات خلفه جعفر ، وإذا مات جعفر خلفه عبدالله ، وبعد ذلك يختار المسلمون من يقودهم ؛ ولقد مات القواد الثلاثة فى معركة مؤتة أول المعارك التى امتحن فيها حماس المسلمين أمام عدو أجنبى : أما زيد فقد سقط كما يسقط الجندى فى مقدمة الصفوف ، وأما جعفر فقد مات موتة البطل ، فقد قطعت يمناه ، فأمسك اللواء بيسراه ، فذهبت يسراه فاحتضن اللواء بعضديه النازفين ، ثم سقط وفى جسده خمسون جرحا مشرفا ؛ ونادى عبد الله وقد التقط اللواء : تقدموا فإما النصر وإما الجنة ، فأردته حربة رومانية فتقدم خالد فاتح مكة ، فرفع اللواء وقد تكسرت فى يده عشرة سيوف ؛ ومكنته بسالته من الوقوف وحده فى وجه مكاثريه من العدو بل ردهم » .

• • •

هـ . ج . ولز وخصائص الإسلام

كتب ولز فى كتابه « مختصر تاريخ العالم » إن المؤرخ المتنبىء فى أوائل القرن السابع الميلادى

كان يستطيع أن يقول بحق إنه ما هي إلا قرون ثم يغزو العالم المغول فيحكمون ما بين المحيط الهادى والطونة وذلك لأن الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية كانتا تعانيان الانحلال ، وكانت الهند مقسمة ، وكانت الصين تمد فى رقعتها الفسيحة ، وكانت الشعوب التركية فى وسط آسيا تفعل مثلما تفعل الصين .

ثم يقول هذا المؤرخ الإنجليزى والقصصى الذائع الصيت ، إنه إذا كان ثمة من خطأ يقع فيه ذلك المتنبىء فمصدر هذا الخطأ هو الصحراء العربية ، فإن بلاد العرب كانت تبدو له كما هى حالها من زمن سحيق موطناً لقبائل صغيرة من البدو الرعاة .... ولكن هؤلاء البدو انبعثوا فجأة ، وبلغوا فى قرن قصير غاية الرفاهية ، فلقد نشروا حكمهم ولغتهم ما بين أسبانيا وبلاد الصين . ولقد أمدوا العالم بثقافة جديدة ، وخلقوا ديناً لايزال حتى اليوم قوة من أهم القوى الحيوية فى هذه الدنيا ، ثم لخص ولز حياة الرسول وقال عن دينه ، إن فى ذلك الدين الذى نشره محمد فى العرب كثيراً من أسباب القوى والوحى ، ومن أبرز خصائصه ، الوحدانية المطلقة التى لا تعرف هوادة . وعقيدته السهلة المتحمسة فى الله وحكمه ؛ وخلوه من التعقيد المذهبى . والتحرر المطلق من الرهبنة والمعبد ، وثمة عنصر هام من عناصر القوة فى الإسلام ذلك هو تأكيده الإخاء والمساواة بين المسلمين أمام الله مهما تكن ألوانهم وأجناسهم وأوضاعهم .... تلك هى الخصائص التى جعلت للإسلام قوة فى شؤون هذه الدنيا ، .

جيته والإسلام

للشاعر الألمانى العظيم جيته كلمات طيبات عن الإسلام تتناثر فى أحاديثه وكتاباته ، وإعجاب روحى يظهر فى بعض أعماله الفنية مثل ، الديوان الشرقى ، ؛ ومن أشهر ما قاله جيته عن الإسلام عبارته ، إذا كان المراد من الإسلام أن يسلم المرء وجهه لله ، فإننا على الإســـلام نحيا جميعا ونموت جميعا ، .

ولقد قال جيته لصديقه المستشار فون ملر سنة ١٨١٩ ، إن الإذعان والاستسلام هما فى كل دين القاعدتان الحقيقيتان : أعنى الخضوع لإرادة عليا مهيمنة على كل شىء ، لا تستطيع عقولنا إدراكها لأنها فوق مداركنا ، وفى هذا يعظم الشبه بين الإسلام والبروتستنتية ، .

ويجعل جيته التقوى والإسلام شيئا واحدا فيقول ، إننا حين تطهر أرواحنا نحس رغبة قوية متأججة فى أن نسلم أنفسنا طوعا لموجود لا تدركه أعلى وأطهر منا نحمده ونشكره ، وبهذا نصور لأنفسنا هذا الأزلى الذى لا تدركه العقول ، وذلك هى التقوى ، وإذا كان الإسلام هو هذا التسليم فكلنا مسلمون ، .

الكونت هنرى دى كاسترى وخواطره عن الإسلام

ألف الكونت كتابه سنة ١٨٩٦ ؛ وقد عربه المرحوم أحمد فتحى زغلول باشا ؛ ومن آراء المؤلف فى سر انتشار الإسلام قوله ، جند

الإسلام قسماً عظيماً من العالم بما أودع فيه من إعلاء شأن النفس بتصور الذات الإلهية على صفات فوق صفات البشر تذكرها فى خمس صلوات فى كل يوم ، وبما اشتمل عليه من الرفق بطبيعة البشر حيث أتاح للناس شيئاً مما يشتهون؛ وأعظم عامل فى انتشار الإسلام وبخاصة بين الأمم البدائية ، بساطة مذهبه وسهولة تعاليمه وهو سبب موجود فى القرآن نفسه فهو بذلك يلائم طباع الذين لم يعرفوا ديناً من قبل ؛ إنه دين لا أسرار فيه وكلمته أو كلمة الشهادة يعتاض عنها عند الاختصار بإشارة تدل عليها كرفع السبابة إلى السماء إشارة إلى وحدانية الله تعالى ، فكلما وجد الرجل الجاهل أمامه دينين متحدين فى حقيقتين : وحدانية الله ، وخلود الروح . وهما الإسلام ودين عيسى ، يختار الدين الذى لا يزيد شيئاً عن تينك الحقيقتين ، ويعتنق الاسـلام بلا محالة ؛ وهى قوة يفضل بها الإسلام المسيحية فى الانتشار » .

وقال المؤلف « ولانتشار الإسلام وخضوع الأمم لسلطانه سبب آخر فى آسيا وأفريقيا الشمالية هو استبداد القسطنطينية فإنه كان قد بلغ منتهى العسف ، ووصل جور الحكام إلى درجة أزهقت النفوس ، فلما جاء الإسلام تراموا إليه هرباً من الضرائب الفادحة واستلاب الأموال لأنه كلما أسلمت عشيرة رفع عنها أثقال المغارم ، ورد إليها مالها المسلوب ، ومن لم يقبل شريعة القرآن عومل هذه المعاملة عينها بلا قيد غير أداء الجزية ، وكانت شيئاً يسيراً أو جزءاً من اثنى عشر . وبذلك أمنوا فى ظل الدين الجديد ، ولم يتعرض إليهم أحد من دعاته فى دينهم ولم يفرق بين أصلى فى المسيحية ومنشق عنها وهذه المعاملة هى التى جاء بها القرآن وجرى عليها الخلفاء الأولون ، فكان اليهود والمسيحيون يسمون ذميين » .

وقال عن الأندلس : « ولقد زادت محاسنة المسلمين للمسيحيين فى بلاد الأندلس حتى صاروا فى حالة أهنأ من التى كانوا عليها أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين . ويقول (دوزى) إن هذا الفتح لم يكن مضراً بالأندلس ، وما حصل من الاضطراب والهرج بعده لم يلبث أن زال باستقرار الحكومة الإسلامية المطلقة فى تلك البلاد . وقد أبقى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم وقلدوهم بعض الوظائف حتى كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء وكثير منهم تولى قيادة الجيوش ، وتولد عن هذه السياسة الرحيمة انحياز عقـــلاء الأمة الأندلسية إلى المسلمين ... ونحن نعلم أن المسيحيين أيام الحروب الصليبية ما دخلوا بلاداً إلا وأعملوا السيف فى يهودها ومسلميها ، وذلك يؤيد أن اليهود إنما وجدوا مجيراً فى الإسلام ، فإن كانت لهم باقية حتى الآن فالفضل فيها راجع لمحاسنة المسلمين ولين جانبهم لا إلى ما يوجد بين الاثنين من الجامعة فى الأصل والجنس واللغة والدين ... ولم يطالب المسلمون من مسيحى الأندلس إلا ما فرضوه على غيرهم وهو الجزية » .

كارليل يشيد بالإسلام

كتب الفيلسوف كارليل فصلا عن محمد فى كتابه « الأبطال وعبادة البطولة » ، وقد اختار نبى الإسلام للبطل فى صورة نبى ، وقد اختتم هذا الفصل البليغ بقوله عن الإسلام : لقد ظل الإسلام مدة اثنى عشر قرنا دينا وهاديا فى الحياة لخمس الجنس البشرى كله ، ولقد كان فوق كل شىء دينا مصدقا من أعماق القلوب : إن هؤلاء العرب يصدقون بدينهم ويعيشون به ؛ ولم يكن ثمة من مسيحيين منذ العصور الأولى ، أو منذ البيوريتان الإنجليز فى الأزمنة الحديثة آمنوا بدينهم كما يؤمن المسلمون بالإسلام ... الله أكبر! هذا ما يهز به الإسلام أرواح هؤلاء الملايين وما يملأ به حياتهم اليومية ...

لقد كان الإسلام للأمة العربية بمثابة الميلاد : الخروج من الظلمة إلى النور ؛ كانوا قبائل فقيرة من الرعاة يتنقلون فى جزيرتهم لا يعلم بهم أحد ، فأرسل إليهم بطل نبى بكلمة استطاعوا أن يصدقوها ؛ فانظر إلى أولئك المجهولين يلفتون أنظار الدنيا ، وإلى تلك القلة تعظم حتى تملأ العالم ؛ لقد أصبحت بلاد العرب فى قرن تمتد إلى غرناطة من ناحية وإلى دلهى من الناحية الأخرى . هؤلاء العرب وهذا النبى محمد وهذا القرن من الزمان ! أليس ذلك كما لو نزلت شعلة ، شعلة واحدة على عالم يبدو رمالا مجهولة سوداء ؛ ولكن ها هو ذا الرمل يصبح مادة متفجرة ثم يتوهج متطاولا السماء من غرناطة إلى دلهى !

لقد قلت إن الرجل العظيم كان أبدا كالبرق ينبعث من السماء ، وإن بقية الناس إنما ينتظرونه كالوقود وعندئذ تراهم كذلك يشتعلون » .

* * *

المستشرق جب ورسالة الإسلام

يقول المستشرق الأستاذ جب فى كتاب « وجهة الإسلام » الذى عربه الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريدة سنة ١٩٣٣ : « لا يزال الإسلام فى العالم العربى يسلك سبيلا وسطا بين المتناقضات الشديدة ؛ وهو على معارضته لفوضى القومية الأوربية وللنظام العسكرى لروسيا الشيوعية ، لم يقع بعد فريسة للهجمات الاقتصادية الملحة التى تمتاز بها أوربا وروسيا ، وقد لخص الأستاذ ماسينيون الأخلاق الاجتماعية فى الإسلام تلخيصا يدعو إلى الاعجاب حيث قال « للإسلام الفضل فى أنه يمثل لنا فكرة عادلة عما يقوم به كل فرد من أبناء الوطن بدفع عشر ريع الأرض للخزانة العامة ؛ إنه يشن الغارة على المبادلة المطلقة ورأسمالية المصارف وقروض الدولة والضرائب غير المباشرة على الأشياء ذات الأهمية الجوهرية ؛ ثم هو يؤكد حقوق الأب والزوج والملكية الفردية ورأس المال التجارى ، ونراه هنا يقف مرة أخرى فى مكان وسط بين الرأسمالية البرجوازية وبين الشيوعية البولشفية »

ولكن لا تزال للإسلام رسالة يؤديها من أجل الإنسانية ؛ إنه يقف برغم كل شيء أقرب من أوربا إلى الشرق ، وله ماض مجيد من تفاهم الأجناس وتعاونها ، ولا يوجد مجتمع سجل له من النجاح فى أن يجمع بين كثير من الأجناس المختلفة وأن يسوى بينهم فى العمل والمكانة وتهيئة الفرص كما سجل للإسلام . وإن الجماعات الإسلامية العظيمة فى أفريقية والهند وإندونسيا والجماعات الإسلامية الصغيرة فى الصين والجماعة الصغرى فى اليابان لتبين جميعاً أنه لا تزال للإسلام القوة على أن يتألف العناصر التى لا سبيل إلى التوفيق بينها بسبب الجنس والتقاليد ؛ وإذا لم يكن بد من أن يحل التعاون محل الشقاق بين المجتمعات العظيمة فى الشرق والغرب ، فإن وساطة الإسلام شرط لا بد منه ، لأن فى يده إلى حد كبير حل المشكلة التى تواجه أوربا فى علاقاتها مع الشرق ؛ وإن اتحدا زاد الأمل زيادة لا حد لها فى بلوغ نتيجة سلمية ؛ أما إذا قذفت أوربا بالإسلام بين أذرع خصومها ورفضت التعاون معه ، فلا بد أن تكون النتيجة كارثة للجانبين » .

• • •

رأى آخر للمستشرق جب :

وتحدث هذا المستشرق فى كتاب حديث له هو « النزعات الحديثة فى الإسلام » ، وهو بصدد الكلام عن الإسلام اليوم فى العالم ، فتعرض لعلماء الدين الإسلامى ، وعن عدم مجاراتهم العصر فى تفكيرهم وفى لغتهم وصيغ أفكارهم ؛ وقال إن هذا قد يعطى حجة للذين يرمون الدين الإسلامى بأنه دين تحجر ؛ ورد جب على هذه التهمة بقوله : « ولكن هذه التهمة باطلة فإن الإسلام دين حى يبعث الحيوية ، تستجيب له قلوب عشرات ومئات الملايين وعقولهم وضمائرهم ؛ ويمدهم بالمثل الذى يريهم كيف يعيشون به عيشة الأمانة والوقار والتقوى » ويختتم جب هذا الفصل بقوله : « إنه لواجب على المسلمين أنفسهم أن يرسموا أساليب تفكيرهم وتصرفهم العملى المترتب على ذلك . وهذا عمل لن يتم إلا فى عدة أجيال وربما احتاج إلى صراع . إن الحق ينبغى أن يكافح أبداً عن وجوده ، وليس من المقدر دائماً أن يظفر فى الجولة القصيرة » .

من الادارة

بهذا العدد الخاص بالفتوح الإسلامية تفتتح المجلة عامها الرابع والعشرين . وهى بهذه المناسبة تقدم إلى العـــالم الإسلامى أخلص التهنئات وأصدق الأمانى ، وترجو من مشتركيها ومتعهديها أن يجددوا الإشتراك ويسددوا المتأخر ولهم الشـــكر ؟



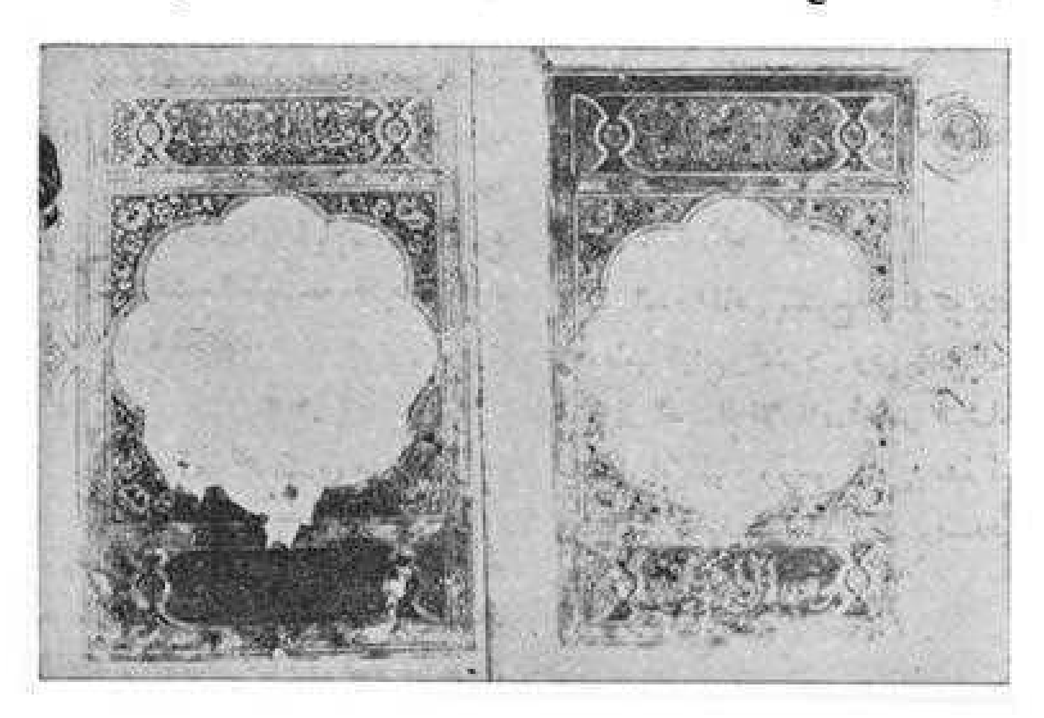
مخطوط فريد :

كشف جديد فى تاريخ الدعوة العباسية

للأستاذ عبد الفتاح السرنجاوى

عثرت فى خزانة الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان ببغداد على مخطوط يقع فى ٢٠٤ ورقة من القطع الكبير ، فى موضوع له أهميته الكبيرة فى مجرى التاريخ الإسلامى ، هو حركة الدعوة العباسية ، ومذ عرفت هذا المخطوط وأنا عاكف حتى اليوم على دراسته وتصحيح أخطائه وتعليق حواشيه حتى صار شغلى الشاغل فى السنوات الثلاث الماضية ، وكنت قد انتسخت لنفسى نسخة من الكتاب ساعدنى على انتساخها زميلى السيد ناجى معروف ووعدنى بالمعاونة فى التعليق على الكتاب .

وقد لاحظت أن هذا الكتاب لم يقسم إلى أبواب وفصول وإنما جعلت عناوين الموضوعات



يشبه بعضها بعضاً ، وهى مكتوبة بالخط النسخ المذهّب ، وأول عنوان يصادفك «موت العباس» وهذا جعل الكتاب يعرف فى قوائم الخزانة بهذا الاسم ، وبقى كذلك حتى استطعنا كشف اسم آخر للكتاب يعرف به الآن فى بغداد .

واستطعت بعد اختبار وتمحيص طويلين أن أتأكد من أن المخطوط غير منقوص من آخره ، أما من أوله فقد ضاعت ثلاث كراسات أى ثلاثون ورقة كانت قد جعلت لتتبع الأصل الأول للدولة العباسية والكلام عن حياة العباس بن عبد المطلب .

ومن الغريب أن الصحيفتين الأولى والثانية من الكراسة الأولى المفقودة ، وعليهما زخارف هندسية ونباتية مذهّبة وملونة لا تزال الآن فى صدر المخطوط الحالى ، وأقصد بذلك أن مقتنى المخطوط وجد هاتين الصحيفتين قد تآكلت من أطرافهما ووسطهما فهذب هذه الأطراف المتآكلة وقص وسطهما ولم يُبق إلا الزخارف ثم لصقهما على ورقتين متقابلتين فى صدر الجزء الباقى من المخطوط ، وهاتان الصحيفتان لهما أهمية أثرية عظيمة ، وهما بحق جديرتان بالبقاء لدقة نقوشهما ذات الألوان الزاهية الجميلة ، ولأنهما يساعدان على تعيين

عصر هذه النسخة تمييزا واضحاً من حيث الخط والموضوعات الزخرفية، ولعل أهم ما فيهما من حيث الدلالة على موضوع المخطوط ما كتب فى أعلى الصحيفة الأولى وسط الزخارف المذهبة الملونة بالخط النسخ الجميل، واستمر فى رأس الصحيفة الثانية ثم انتقل إلى أسفل الصحيفة الأولى فالثانية وهذا نصه:

«كتاب فيه أخبار العباس وفضائله ومناقبه وفضائل ولده ومناقبهم ومآثرهم رضى الله عنهم أجمعين».

إلى هنا لم نعرف اسم الكتاب الحقيق، لأن موضعه الأول كان فى الدائرتين المزخرفتين اللتين قص وسطاهما وألصقا على ورق جديد (شكل ١) وبقى الوسط فى كلتيهما خلواً من الكتابة إلى الآن، وقرأت الكتاب كله فلم أجد فيه مايدل على اسمه أو اسم مؤلفه وأخيراً وجدت على الحافة العليا للكتاب آثار كتابة لا تكاد تبين قرأتها بعد جهد فإذا هى:

المرائع الأنسية

فى أخبار الدولة العباسية

فهل هذا هو الاسم الحقيق الأول للكتاب؟ وإذا كان كذلك، فلماذا لم يكتبه مقتنى الكتاب فى هاتين الدائرتين فى صدر المخطوط؟

هل كانت الكتابة التى قصها من الوسط هى عنوان الكتاب فقرأها واكتفى بكتابتها على حافة المخطوط العليا؟ ولماذا لا نذهب مذهباً آخر هو أنه لم يستطع تبين هذه الكتابة فأغفلها ولم يستطع معرفة اسم الكتاب فوضع له هذا



الاسم وكتبه على الحافة العليا ليعرف به الكتاب ويسهل عليه إخراجه من بين الكتب الأخرى. - وما يجعلنى أفترض هذا - ولو أننى لا أجزم به - أن المخطوط لم يتناول تاريخ الدولة العباسية، وإنما تناول تاريخ الدعوة وحدها ووصل بها إلى موت إبراهيم الإمام ووصول وصيته إلى أبى العباس الذى خرج بمن معه قاصداً الكوفة. وهنا ينتهى الكتاب دون أن يجاوز هذا إلى إجلاس أبى العباس على عرش الخلافة، فكيف يكون هذا فى أخبار الدولة العباسية؟ الحق أن اسم الكتاب ما زال يخامرنى فيه شيء من التردد، وعلى الجملة فقد عرف هذا المخطوط الآن بهذا الاسم فى بغداد بعد أن تهيأ لنا كشفه وإذاعته.

أما عصر المخطوط، فقد وجدت فى آخره نصاً صريحاً يدل على أنه يرجع إلى القرن الثامن الهجرى، ذلك أن الورقات الثلاث الأخيرة رقم ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤ من المخطوط فيها قوائم بتسمية وتواريخ الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس، فإذا وصلنا فى سياق التسمية إلى المستعصم بالله آخر خلفاء بغداد، جاءت أسماء الخلفاء من بنى العباس فى مصر حتى خلافة الإمام المتوكل على الله أبى عبد الله محمد فى سنة ثلاث وستين وسبعمائة، وهنا تذكر العبارة الآتية:

« فسح الله فى أجله وهو الخليفة القوّام بعصرنا هذا أدام الله أيامه ». (شكل ٣)

وهى تدل دلالة صريحة على أن المخطوط يرجع إلى هذا التاريخ، ولكن هل يرجع إلى هذا التاريخ فى انتساخه أو فى تأليفه؟ هذه مشكلة أخرى أفردت لها بحثاً عن تاريخ الكتاب معتمداً على أسلوب الكتابة ورجال السند وعناصر أخرى فى منهج البحث العلمى.

بقيت مسألة أخرى: هل لهذه النسخة من الكتاب نظيرة أو نظيرات؟ لقد استقصيت فى هذا الأمر وأنا أدور آفاق العراق حيث زرت كثيراً من ألوية الشمال مثل: السليمانية وأربيل وكركوك، وأخيراً علمت أن فى البصرة خزانتين للمخطوطات القيمة: إحداهما خزانة آل باش أعيان العباسية. والثانية خزانة المحامى محمد أحمد، فلما زرت البصرة انتسخت نسخة لقوائم الكتب الخطية فى الخزانتين بمساعدة الأستاذ محمد ناصر الصانع مدير المعارف فى منطقة البصرة جزاه الله أحسن الجزاء.

وفى بغداد خبير حجة فى شئون المخطوطات هو الأستاذ عباس العزاوى المحامى، جمعنى به ندوة علمية تقام فى بيت السيد إبراهيم الواعظ رئيس محكمة استئناف بغداد، فسألته عن هذا المخطوط وهل توجد منه نسخة فى خزانته أو أية خزانة يعرفها؟ وبحثت فى مكتبات مصر، وتهيأت لى زيارة طهران فوجدت بها مكتبة حافلة بالمخطوطات الفارسية والعربية فى جميع الفنون، هى (كتابخانه مجلس شوراى ملى) وطلبت الاطلاع على فهارس المخطوطات فسارع مدير المكتبة إلى إهدائى المجلد الثالث من الفهرست وهو خاص بالمخطوطات ويقع فى ٨١٤ صحيفة رتبه ابن يوسف شيرازى وفرغت مطبعة المجلس من طبعه فى سنة ١٣٦٠ هـ فلم أجد بين دفتيه اسم مخطوطنا هذا، كذلك بحثت بنفسى فى مكتبات أصفهان وقم وغيرهما من مدن إيران، وكنت

أود زيارة استانبول فى الربيع الماضى والبحث فى مكتباتها ولكن عدتنى العوادى عن إتمام ذلك ، ولا يزال يحدونى الأمل فى أن أجد مدى فى أمر هذا المخطوط القيم ، وإلى وقت كتابة هذه السطور أستطيع القول فى هذه الحدود بأن المخطوط فريد لا نظير له ، وهـــذا يجعل له أهمية كبيرة . وفقنى الله إلى إذاعة البحوث الأخرى عن عصر المخطوط وقيمته من الناحية العلمية .

التفسير الواضح

للأستاذ محمد محمود حجازى

المدرس بمعهد الزقازيق

تفسير يصور المعنى أمام القارىء بأوضح أسلوب وأجلى بيان ، فهو يرشد إلى تفهم كلام الله من أقرب الطرق بغير عناء ولا إجهاد .

قد اشتمل على بحث المفردات وتوضيح الغريب منها بالمألوف من الألفاظ .

قد ربط الآيات ، وذكر المناسبات ، بما يجعل القرآن الكريم عقداً أحكم نظامه ، وأبدع تنسيقه .

قد امتاز بالعنوان المناسب لكل موضوع ، مع تحديد الغرض ، وما تشير إليه الآية الكريمة .

وقد عنى هذا التفسير بالآيات التى تعالج أمراضنا ، وتصف أدواءنا عناية خاصة تظهر فيها حاجة الفرد والجماعة إلى هذا العلاج .

وأما الأحكام الفقهية فعرضت عرضاً مناسباً مع بيان حكمة التشريع ، وأنها ضرورية للأمة .

وهو تفسير تستفيد منه العامة والخاصة .

وقد نفدت الطبعة الأولى للأجزاء الأربعة الأول وأعيد طبع الجزء الأول والثانى ، وقد ظهر منه إلى الآن ثمانية أجزاء .

كتب إفرنجية

نماذج موضوعات إسلامية وشرقية

****

تطور مصر من ١٩٢٤ إلى ١٩٥٠

L'Evolution de L'Egypte, 1924-50

تأليف مارسيل كولومب

من نشر دار (ميزون نوبو) بباريس .

حاول المؤلف فى هذا الكتاب النافع أن يدون تاريخ مصر الحديث تدويناً يشمل الأحداث التى مرت بها خلال العشرين عاماً الأخيرة .

والمؤلف معروف ببحوثه عن العرب والإسلام وقد تولى منصب الأمين العام لمعهد الدراسات الإسلامية بباريس .

ويعترف المؤلف بأن معالجته تاريخ مصر الحديث لا تكتفى بمؤلف واحد ، وإنما تحتاج إلى مجلدات .

ومع أن هذا المؤلف الفرنسى بغمط الحركة القومية المصرية حقها فى بعض الحالات والحوادث إلا أنه يحاول أن يدين السياسة الإنجليزية فى مصر ويلزمها تبعة بعض التطورات العنيفة التى مر بها الشعب المصرى منذ أزمة نوفمبر عام ١٩٢٤ .

ومن مزايا هذا الكتاب أنه لا يقتصر على تسجيل الحوادث والتطورات السياسية ، وإنما يخصص بعض الفصول لتسجيل التطور الفكرى فى الثقافة العربية إجمالا ممثلة فى مصر زعيمة الفكر العربى . ولا يترك المؤلف مشاكل مصر الاجتماعية دون أن يلقى عليها بعض الضوء .

وفى ذيل الكتاب فهارس وافيـة وسجـل للوزارات التى تتابعت على حكم مصر خلال العشرين عاما الماضية ، وقائمة بأسماء المراجع العلمية عن مصر .

****

العراق المستقل :

Inqependent Iraq

من تأليف الأستاذ مجيد خضورى

من نشر مطبعة جامعة اكسفورد

٢٩١ صفحة والثمن ٢١ شلنا .

السيد مجيدى خضورى أديب عراقى اختار الإقامة فى أمريكا واشتغل بالتعليم فى جامعتها عن شؤون الشرق العربى .

وقد ظهر له فى المجلات العلمية الغربية بحوث عديدة عن حاضر العالم الإسلامى عامة والشرق العربى بصورة خاصة .

ولعل الرغبة فى إرضاء القارئ الأوربى والأمريكى هى التى دفعت الأستاذ خضورى لأن يفسر تاريخ العرب والإسلام المعاصر تفسيرا يتمشى مع الصور الخاطئة التى يحملها الغرب عن هذا الجزء من العالم : صور تحمل فى ثناياها مزيجا من الخوف والاستهتار فى التطورات الفكرية والسياسية التى ألمت ولا تزال تكتنف بلاد العروبة والإسلام .

وكتاب السيد خضورى الجديد عن حاضر العراق سجل واف للتطورات السياسية والتشريعية والفكرية التى مر بها العراق منذ أن انتزع استقلاله الداخلى من اليد البريطانية .

وفائدة هذا الكتاب للقارئ العربى أهم من فائدته للقارئ الغربى ، وذلك لأن الأستاذ خضورى أستعان بالمراجع العربية التى لا تتوفر للناس فى أوروبا وأمريكا .

****

الأفغان ـ دراسة فى التطور السياسى

فى آسيا الوسطى :

Afganistan : Astudy in Political Developnnt Central Asia.

المؤلف : و . ك . فريز ـ تايلور

الناشر : مطبعة جامعة اكسفورد

الثمن : ٥ دولارات

هذه دراسة طيبـة وضعها وزير بريطانيا المفوض فى كابول سابقا . واستعرض فيها تاريخ الأفغان فى مختلف عصوره . وخص المؤلف حاضر الأفغان بجزء واف من الكتاب .

ويعتقد هذا المؤلف بأن الأوساط الدولية مغفلة للقيمة الاستراتيجية التى تحتلها الأفغان فى ميزان القوى العسكرية فى آسيا الوسطى . وأهمية الأفغان الاستراتيجية لا تعود إلى قوة جيشها أو وفرة مواردها الطبيعية ، وإنما تعود إلى الموقع الجغرافى الممتاز التى تحتله كنقطة حياد بين الاتحاد السوفيتى ومناطق النفوذ الانجلوسكسونى فى جنوبى آسيا الوسطى .

وفى الكتاب فصل عن العلاقات بين الأفغان والباكستان يشرح المشاكل التى أدت إلى نوع

من القطيعة السياسية بين هذين البلدين الإسلاميين ، والتى خفت حدتها فى الأزمنة الأخيرة بعد أن تدخل المؤتمر الإسلامى العالمى بين الدولتين الشقيقتين .

****

الرحلة العربية ورحلات صحراوية أخرى :

Arabian Journey and other desert travels.

من تأليف الكولونيل جرالد دى جورى

الناشر : دار هاراب بلندن .

الثمن ١٢½ شلنا .

مؤلف هذه الرحلة أحد العملاء الإنجليزيين الذين اعتادوا التجوال فى الجزيرة العربية متخطين آثار لورنس ، الداهية الإنجليزى المعروف .

والكولونيل دى جورى ضابط فى الجيش البريطانى أنفق سنوات عديدة فى الجزيرة العربية يعالج مشاكل القبائل بالتعاون مع السلطات البريطانية فى المحميات .

ويصف الكاتب رحلاته العديدة التى قام بها إلى نجد وعسير ضيفا على جلالة الملك عبد العزيز آل سعود .

وبالإضافة إلى الناحية الفنية فى الكتاب فإنه طافح بمعلومات عن حاضر بلاد العرب قل أن تجد لها مثيلا فى المكتبة العربية .

****

صاحب الجلالة البترول

Sa Majesté le pétrole

من تأليف جورج لو فيفر .

ومن نشر دار هاشيت بباريس .

هذا بحث طريف صدر بالفرنسية واختص الشرق الأوسط بجزء واف ، فقد أصبح البترول علماً على الشرق الأوسط فى الأيام الأخيرة .

وهذا الكتاب لا يتعمد الدراسة التحليلية بقدر ما يرمى إلى وصف الأوضاع فى مناطق البترول فى قالب طريف ظريف لا يحسنه إلا الفرنسيون .

وفى صفحات الكتاب عدد من الطرائف والأقاصيص الفكهة التى عكس فيها المؤلف ما ألم بالشرق الأوسط من تطورات ، بعد أن طغى النفط على الصحارى والقفار وقلب الأوضاع الاجتماعية للسكان الوطنيين رأسا على عقب .

****

استعراض للأوضاع الاقتصادية فى الشرق الأوسط

Review of economic conditions in the Middle east.

من منشورات الأمم المتحدة .

فى ١٠٠ صفحة من الحجم الكبير (خرائط وبيانات إحصائية) .

تنشر دائرة الشئون الاقتصادية التابعة للأمانة العامة لهيئة الأمم فى كل عام دراسة منهجية عن الأوضاع الاقتصادية فى مختلف مناطق العالم ومنها الشرق الأوسط .

ومن مزايا هذه الدراسة أنها تشمل كثيرا من الإحصاءات والمعلومات التى لا تتوفر للباحث الاقتصادى فى دور العلم وبيوت النشر التجارية .

وتحصل دائرة الشئون الاقتصادية فى هيئة الأمم على معلومات من الحكومات ومن مصادر أخرى .

العيد الفضي للجزيرة العربية

Arabian Jubilee

نشر دار Robert Hale بلندن والثمن ٣٠ شلنا

الحاج عبد الله فيلبي (واسمه بالإنجليزية هـ القديس جنا فيلبي) شخصية معروفة فى أوساط الرياض ومكة والطائف وشبه الجزيرة العربية إجمالا . وقد سبق لفيلبي أن خدم فى السلك الحكومى البريطانى كبعوث إخصائى فى الأوضاع العربية فى الحجاز ونجد وخليج العجم . وهو الآن فى سن الشيخوخة وله نشاط فى أعمال الحفريات فى الربع الخالى . وله بعض النشاط التجارى المحض. ولفيلبي مؤلفات كثيرة عن العرب وجزيرتهم . والكتاب الذى نراجعه هنا هو فى معظمه ترجمة لعاهل الجزيرة جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود، وتسجيل التطور الحـــديث الذى ألم بالجزيرة العربية فى عهد جلالته . وفيلبي لا يخل بعاطر الثناء والمدح على جلالة العاهل السعودى ويسجل له طرائف وحوادث تزيد من المجموعة التى يحفظها الناس عن جلالة ملك نجد والحجاز وملحقاتهما . وقد وضع فيلبي هذا الكتاب ليوافق العيد الفضى لتأسيس العهد السعودى فى نجـد والحجاز . فهو إذن قصيدة مدح لآل سعود ولملكهم العظيم .

وقد تطرق فيلبي فى كتابه إلى دراسة بعض الأوضاع الناجمة عن تلاقى الحياة الصناعة (فى منشآت البترول) مع الحياة البسيطة التى يعيش عليها المجتمع النجدى خاصة والمجتمع العربى فى شبه الجزيرة عامة . ويبدو أن فيلبي يلمس بعض السوء فى سرعة التطور واحتكاك الصناعة الغربية بنماذج السلوك التقليدى المحافظ فى شبه الجزيرة ، وقد عالج فيلبي هذا الاحتكاك فى نظرة قائمة إلا من إيمان بمقدرة العقلية العربية على أن تتلاءم مع التطور فى المراحل النهائية مهما كانت طبيعة هذا التطور وعوامل هذا الاحتكاك .

الأديان العالمية وآمال العالم :

World religions and the hope for peace

تأليف : W. D. R. Williams.

الناشر مطبعة بيكون . بيوسطن (الولايات المتحدة) .

الثمن دولاران وثلاثة أرباع الدولار .

هدف هذا الكتاب دراسة الأديان السماوية ودراسة مقارنة عن طرائق الأنبياء الذين بشروا بها . وللرسول العربى عليه الصلاة والسلام مكانة ملحوظة فى هذه الدراسة . ولمؤلف هذا الكتاب هدف آخر ، وهو الدلالة على أن فى الأديان السماوية قوى دافعة إذا أحسن توجيهها استطاعت أن تتغلب على شذوذ الساسة وجنون الحرب بإذكاء العناصر الروحية السامية التى تعيش فى المرء حيث يخلص لعقيدته الدينية إخلاصا منزها عن الأهواء .

وجدير بالذكر أن مؤلف الكتاب لاهوتى مسيحى يؤمن بالنظرة الحرة إلى الأديان السماوية ولا يتقيد بالتفسير المسيحى لها .

والواقع أن القارىء المسلم لهذا الكتاب لا يسعه أن يقبل تصنيف « الأنبياء » على النحو

الذى صنفه المؤلف ، فتحت هذا التصنيف شخصيات ليس لها فى الأديان السماوية التوحيدية ذكر أو صلة ، أمثال غاندى والقديسة فرنسيس مؤسسة رهبنة السالزيات ، وبعض القديسيين الكاثوليك الآخرين ، وطائفة من كبار أتباع فلسفة كنفيوشوس الصينية . حتى كارل ماركس الشيوعى له فى هذا التصنيف مكانة ؛ وإن كانت هذه المكانة مدرجة فى مستوى الشر لا مستوى الخير . والفصل الخاص بالإسلام فى هذا الكتاب لا يتعدى مجرد استعراض تاريخى وتحليل سطحى للتعاليم الإسلامية . ومن الطريف أن هذه المعالجة للأديان من لاهوتى مسيحى الأسلوب والتفكير له فى الثقافات الانجلوسكسونية تلامذة وأتباع .

ولعل هذا ما يفسر البلبلة الروحية التى تعترى اللاهوت المسيحى (والبروتستانتى على وجه الخصوص) حين يحاول أن يستعيد القوة على توجيه المجتمع توجيها روحيا يتغلب على أزمة النفس والعقل والروح فى العلم الغربى المعاصر .

دم وزيت ورمال :

Blood, oil and sand

من تأليف : راى بروك

من نشر World publishing Co

٢٤٦ صفحة والثمن ٣½ دولارات

مؤلف هذا الكتاب مراسل عاش فى الشرق الأوسط سنوات الحرب العالمية الأخيرة ، ثم عاد إليه فى الآونة الأخيرة لينقل إلى قراءه الأمريكان بعض ما يعترى المجتمع الإسلامى من انفعالات إزاء العالم الغربى .

والكتاب لا يعالج التيارات الثقافية والفكرية فى العالم الإسلامى وإنما يكتفى بتسجيل الاتجاهات والانفعالات السياسية والتقلبات الاقتصادية التى أحدثتها الثورات الصناعية التى ألمت ببعض أجزاء الشرق الإسلامى من جراء انتشار صناعة البترول وحركات التصنيع فى مصر وسوريا .

وفى الكتاب صرخة مداوية للحكومة والشعب الأمريكى للاهتمام بمشاكل العالم الإسلامى ، الذى يلهب بنار الغضب والاستياء من غباوة الأمريكان وتجاهلهم حقيقة المصالح فى الشرق الأوسط .

ويعتقد مؤلف الكتاب بأن الحكومة السوفيتية تتبع فى سياستها إزاء الشرق الأوسط أسلوبا جديداً يشجع القوميات العنيفة فى الشرق الإسلامى ويجعل من عدائها للاستعمار الغربى غذاء لأوربا جديدا يرمى إلى القضاء على البقية الباقية من سمعة الأمريكان والبريطانيين والفرنسيين فى هذا الجزء الهام من العالم .

ولما كان هذا الكتاب موجها للقارىء الأمريكى فإن التحيز فيه لليهود تحيز سافر .

المسألة السودانية :

The Sodanese Question

تأليف السيد مكى عباس

الناشر Fader aqn Fader بلندن

٢٠١ صفحة والثمن ٢١ شلنا

مؤلف هذا الكتاب سودانى من خريجى كلية غوردون وجامعة أكسفورد ومن رجال البعثات

الحكومية القليلة العدد التي ترسلها الإدارة البريطانية في السودان إلى معاهد العلم البريطانية لتجعل منها نواة للعهد « الاستقلالي » الذي تحاول تنفيذه في السودان مرحضة عن وحدة شطري الوادي ، وهذه الروابط الدينية واللغوية والطبيعية التي تؤكد وحدته .

وقد أعلنت الدار البريطانية التي نشرت هذا الكتاب بأنه عرض لوجهة النظر السودانية في النزاع المصري - البريطاني والصواب أنه عرض لوجهة نظر فريق معروف من السودانيين عرفت كيف تدربهم كلية غوردون والإدارة البريطانية في السودان على تفهم الاستقلال وحدود الحكم الذاتي . ويبدو أن البرودة البريطانية لم تجد تربة صالحة في هذا المؤلف السوداني ، وأن لغته الإكسفوردية لم تسعفه في تفادي بعض الانفعالات العاطفية التي تشوب طابع الكتاب برغم أن مؤلفه قد راعى الناحية العلمية في التأليف واستند إلى عدد طيب من المصادر العربية والأجنبية والبريطانية بوجه خاص ، ولجأ إلى أسلوب الكتابة البريطاني الذي يحاول أن يحمل الجملة أكثر من معنى واحد .

وقد تعمد المؤلف أن يتجاهل وجهة النظر المصرية القديمة التي أدت إلى فشل المفاوضات حول مستقبل السودان ، هذه المفاوضات التي جرت منذ أكثر من ثلاثين عاما .

ويحاول السيد عباس أن يبرز جوهر الخلاف بين وجهتي النظر البريطانية والمصرية وأثره على شعور السودانيين ، أو بالأحرى ذلك النفر من السودانيين الذين يطالبون بالاستقلال الداخلي دون أن يتقيدوا بالوحدة السياسية والاقتصادية التي ربط بها النيل شطرى واديه .

ومن أمثلة التحليل التي يعالج بها المؤلف وجهة النظر المصرية ، ما أشار إليه عند تبريره مناورات بريطانيا للانفراد بالحكم وإقصاء المصريين عن السودان بعد أن أرغمت القوات المصرية على الجلاء في عام ١٨٨٤ ، فيقول : « عندما تتم الشركة بين طرفين في مشروع من المشروعات فإن من الصعب تقدير نصيب كل منهما في إدارة المشروع والنتائج المتولدة عنه » ؛ وبمعنى آخر فإن صاحبنا على رغم ثقافته الإكسفوردية يضرب بالاتفاقات الثنائية والمواثيق القانونية عرض الحائط .

وفي رأي السيد عباس أن الرشوة والإغراءات المادية تلعب دورا كبيرا في النزاع المصري - البريطاني حول السودان وموقف السودانيين أنفسهم منه . ويؤكد بأن النقود تتكلم بلغة أقوى وأصلح من لغة السياسة والأحزاب . وسيقدر لها أن تلعب دورا فاصلا في مستقبل هذا الجزء من الوادي وموقف السودانيين من علاقاتهم بمصر حكومة وشعبا .

وفي الكتاب لون من النقد الخفيف لبعض مساوىء الحكم البريطاني في السودان . والمؤلف لا يصفع وإنما يمس السلوك البريطاني في السودان مسا رقيقا شبيها بمداعبة الغانية لمعشوقها في حالة من حالات الانفعال الطارىء ؛ فهي لا تضربه بالمسدس وإنما ترميه بمروحتها الرقيقة التي تلطف بها حرارة الجو .

دكتور عمر حليق

الأدب والعلوم في شهر

الدراسات الإسلامية في كندا :

أنشأت جامعة « ماك جيل » كبرى جامعات كندا معهداً جديداً للدراسات الإسلامية أسندت رياسته إلى الدكتور « ويلفرد سميث » أحد خبراء الثقافة الإسلامية في كندا .

وستتألف هيئة التدريس في هذا المعهد من أساتذة م : البرفسور « هوارد ريد » والدكتور « إسحق موسى الحسيني » والبرفسور « فضل الرحمن » والدكتور « نيازى بركس » .

أما البرفسور « ريد » فهو نجل المستشرق الأمريكي المعروف « كاس ارثر ريد » رئيس الكلية العالمية في أزمير وهي إحدى مؤسسات التبشير البروتستانية . وقد خدم البرفسور ريد كضابط استخبارات مع الأسطول الأمريكي خلال الحرب العالمية الأخيرة .

والدكتور « إسحق موسى الحسيني » أديب فلسطيني معروف وكان قبيل التحاقه بمعهد جامعة « ماك جيل » الكندية يقوم بتدريس اللغة العربية في جامعة بيروت الأمريكية ، وقد اشتغل الدكتور الحسيني بالتدريس في معاهد فلسطين قبل الكارثة التي حاقت بهذا البلد الإسلامي .

والبرفسور « فضل الرحمن » عالم باكستاني اشتغل بتدريس الثقافة الإسلامية في جامعات بريطانيا والبنجاب .

أما الدكتور « بركس » فهو أستاذ تركي في جامعة أنقرة .

وقد وضع المعهد الجديد في جامعة « ماك جيل » برنامجاً لدراسة « الإسلام في حاضر العالم » يستغرق تدريسه ٥ سنوات .

اليونسكو وثروة العالم الثقافية :

تقدم اليونسكو (مؤسسة التربية والعلوم والثقافة العالمية) بإعداد مشروع اتفاقية دولية لتنظيم وسائل حماية الثروات الثقافية في مختلف مناطق العالم . وكان المؤتمر العام لمؤسسة اليونسكو عام ١٩٥١ قد أقر توصيات تقضي بأن تقوم كل دولة على حدة باتخاذ الإجراءات الكفيلة بصون منشآتها الثقافية ، كما أوصى المؤتمر - بناء على اقتراح قدمته حكومة إيطاليا - بأن تذيع كل دولة إعلاناً خاصاً بها يؤكد حمايتها لمرافقها الثقافية .

وقد أعلنت حكومة العراق مؤخراً تعهدها بتنفيذ هذا القرار والامتثال لهذه التوصية .

وقد أرسلت العراق نص هذا التعهد إلى المركز العام لمؤسسة اليونسكو بباريس .

علم النفس الاجتماعى ومشاكل السلم والحرب

عقدت فى باريس فى أواخر شهر أغسطس حلقة علمية تحت إشراف اليونسكو مكونة من ١٣ عالماً من أساتذة علم النفس الاجتماعى لدراسة المساهمة الجدية التى يمكن لعلم النفس الاجتماعى أن يعين بهـــا صناع السياسة الدبلوماسيين والحكومات والأوساط الشعبية الواعية للتغلب على الاتجاهات العنيفة التى يبدو أنها تقود العالم إلى حرب عالمية جديدة .

وقد سبق لهؤلاء العلماء فى العام المنصرم أن اجتمعوا فى « ستوكهولم » عاصمة السويد . ودرسوا هذا الموضوع وقرروا عرضه على مؤسسة اليونسكو للإشراف على دعوة حلقة لدراسته المفصلة يكون لها الطابع الدولى الذى تتمتع به اليونسكو . وهذه هى مواضيع البحث فى هذه الحلقة :

١ ـ ما هى الصورة (الخاطئة أو الصادقة) التى يحملها شعب ما عن الشعوب الأخرى التى تشاركه فى العائلة الإنسانية .

٢ ـ النواحى النفسية فى التطور الفنى الذى يلم بالمجتمعات التقليدية والمجتمعات التى لم يكتمل نموها الاجتماعى .

٣ ـ التوتر الداخلى فى دولة ما ، وعلاقته بسياستها الخارجية خاصة ، والتوتر الذى يعترى العلاقات الدولية عامة .

٤ ـ العوامل النفسية فى سياسة الوساطة ، والمفاوضات السلمية ، والعلاقات الدبلوماسية .

وجدير بالذكر أن هذه الموضوعات تتخطى الفائدة العلمية وتتصل اتصالا مباشراً بالناحية العملية والتطبيقية فى السلوك السياسى فى نطاقه الدولى .

طباعة الكتب الروسية فى أمريكا :

خصصت مؤسسة فورد الخيرية (صاحب مصانع السيارات المعروفة بهذا الاسم) مبلغاً كبيراً من المال لطباعة أمهات الكتب الروسية الأدبية والعلمية باللغة الروسية فى المطابع الأمريكية ، لتوزيعها على المتخصصين بدراسة الشئون والثقافة الروسية فى الجامعات وألسنة الرأى العام ، ولكى توزع هذه الكتب على المهاجرين الروس الذين يعيشون خارج الاتحاد السوفييتى .

النقد الأدبى قديما وحديثا :

أصدرت جامعة شيكاغو فى الولايات المتحدة الأمريكية مجموعة جديدة لبحوث عميقة بأقلام عدة من أقطاب الأدب الأمريكى ، يعالجون فيها فلسفة النقد الأدبى وتطوره فى تاريخ الأدب

القديم والحديث . والغاية من هذا المؤلف الجديد هو توجيه الناشئين من النقاد بحيث يتفادون الأخطاء التي ينزلق إليها كل من آنس في نفسه مقدرة على التطرف إلى النقد الأدبي ، غير مدرك لمسئوليته وأثره في الإنتاج الأدبي وفي النمو الثقافي للشعوب الحية .

ويكاد يجمع هؤلاء الأقطاب الذين اشتركوا في وضع هذه المجموعة على الحط من القيمة الفنية للكثرة من النقاد المعاصرين الذين أغرام اتساع تجارة الكتب والمجلات إلى معالجة الإنتاج الأدبي دون استعداد عقلي وثقافي لهذه المهمة .

ذكرى جوركي الكاتب الروسي المعروف :

أقام سكان مدينة « جوركي » الروسية احتفالا تذكاريا لهذا الكاتب الروسي الشهير وأصدرت المطابع الروسية سجلا لهذا الاحتفال .

وهذه المدينة حديثة العهد إذ أن الحكومة السوفيتية قد أنشأتها تخليداً لذكرى هذا الأديب الذي سبق الحركة الشيوعية الروسية في انتقاد مساوئ الحكم وفقدان العدالة الاقتصادية ، والاجتماعية في المجتمع الروسي . وجوركي من الأدباء الروس القلائل الذين أبقت الحكومة الروسية على ذكرام بعد أن توطد الأمر للحزب الشيوعي في السيطرة على مقومات الحكم والحياة في البلاد الروسية .

ذكرى انقضاء ١٦٠ عاماً

على ميلاد « شلي » الشاعر الإنجليزي

احتفلت الأوساط الأدبية في كثير من بقاع العالم بذكرى انقضاء ١٦٠ عاماً على ميلاد الشاعر الإنجليزي العبقري « برسي شلي » وتراث هذا الشاعر يمتاز بالروح الحرة الطلقة الوثابة ، التي ثارت على الأوضاع القاسية في المجتمع وصاغت هذه الثورة في عقد من القصيد الرقيق . وكان المقدر لهذا الشاعر الإنجليزي أن يزيد من تراث الشعر العالمي أضعاف ما خلفه في حياته القصيرة فقد مات شلي في عنفوان الشباب .

الأغراض والمقدرة

على التعبير عن الحقائق في أدب التراجم

عالج الكاتب المتفاري « مانس سبربر » أدب التراجم الشخصية في عدد ٦ يولية سنة ١٩٥٢ في الملحق الأدبي لجريدة نيويورك تايمس بمناسبة الظاهرة الطارئة على الإنتاج الأدبي في أمريكا وأوربا الغربية في الإكثار من أدب التراجم و « الاعترافات » التي أغرم بها الكتاب مؤخرا والتي تقبلتها الأسواق الأدبية قبولا حسناً .

ويعتقد المسيو سبربر أن أدب التراجم يروج في الفترات التاريخية التي تكثر فيها الحروب ويزداد فيها القلق ، وتنتشر فيها الانقلابات والثورات وما يترك ذلك كله من أثر مباشر على حياة الناس واتجاهات المجتمع . ففي هذه الفترات

تزداد الرغبة بين الناس فى التعرف على خفايا الحوادث وما استتر فيها من هذه « المعاملات » السياسية والمساومة الدبلوماسية وما إليها من أوجه العلاقات بين الدول وبين الأفراد والهيئات ، فاشتداد الرغبة بين الناس فى التعرف على هذه الخفايا يخلق فى الكتاب وأولى الزعامة الفكرية والسياسية ، والذين ساهموا فى حـــدث من أحداث التاريخ المعاصر ، اتجاها لرى هذا الظمأ وتعريف الناس هذه الخفايا كما اختبروها عن كثب فى حياتهم الخاصة أو فى مشاركتهم فى الشئون العامة التى أولدت هذه الأحداث التاريخية وهذه التيارات الفكرية .

ويشير هذا الكاتب المتغارى إلى أن النقطة الجوهرية فى موازنة أدب مترجم هو التفرقة بين إخلاص الكاتب وبين الحقيقة المجردة التى يحاول أن ينشرها فى الناس على لسانه وحسب اختباره لها وتفهمه لجوهرها .

وهذه نقطة تؤلف محور النقد والتحليل الذى يعالج به النقاد والقراء أدب التراجم ، فقد سبقت لجان جاك روسو فى « اعترافاته » الشهيرة أن لمس دقة هذه النقطة . فقال فى المقدمة الأصلية « لاعترافاته » - وهى مقدمة لم تنشر فى النص المتداول : لا يستطيع أحد أن يصف حياة امرىء غير هذا المرء نفسه ، فحقيقة تلك الحياة وأسرارها الدفينة شىء لا يقوى على معرفته إلا ذلك المرء نفسه .

ولكن المرء حين يسعى لوصف حياته يتجه من غير وعى لإخفائها - أو على الأقل إخفاء جزء منها - لا يسر اطلاع الناس عليه . فهو لا يصف نفسه كما هى على حقيقتها السافرة ولكن كما يريد أن يعرف بها بين الناس . وحتى لو أخلص الكاتب فى اعترافاته أو ترجمة حياته الشخصية فلا مفر من أن يستر - عن وعى وعن غير وعى - ألوانا من هذه الحياة لا يستطيع اطلاع الناس عليها لا لأنه يخشى ذيوع ذلك ولكن لأنه لا يدركها هو نفسه حين يسجل فى اعترافاته هذه الألوان .

ويحاول المسيو سبربر أن يحلل أسباب هذا التناقض بين الإخلاص فى التعبير وبين نشر الحقيقة المجردة فى أدب الاعترافات والتراجم فيقول : إن المرء حين يكتب عن نفسه يصبح أشبه بالرجل الذى يشاهد نفسه فى المرآة . فهو لا يرى نفسه كما هى ولكن يشاهد بعينيه خيالا لنفسه فى موقف محرج . فالنظر فى المرآة حالة من حالات العزلة النفسية . وعقل المرء فى عزلته النفسية أقل خصوبة منه فى الحالات التى يتصل فيها عن كثب بالحياة والمجتمع .

وسبب آخر لا يزكى الحقيقة فى أدب التراجم الشخصية والاعترافات . وهو أن الذى يدون اعترافاته ويكتب سيرة حياته هو فى الواقع إنسان ارتكب جرما أو خطيئة لجاء يطلب الصفح والمغفرة عن طريقة الاعتراف وكتابة سيرته الخاصة .

ومن أسباب التناقض بين الإخلاص والحقيقة

فى آدب السير الشخصية والاعترافات ، كون الذين يلجأون إلى هذا النوع من الكتابة مشغوفين بالتطلع إلى ما ودوا لو كان لهم ، والنفور مما كان لديهم . فهم والحالة هذه عاجزون عن إدراك ما هم فيه الآن .

فالإخلاص فى القيام بعمل ما أدبياً كان أم مادياً لا يعنى المقدرة على اكتشاف الحقيقة ، فالإخلاص شىء والمقدرة على بلوغ الحقائق والتعبير عنها شىء آخر .

إعادة كتابة التوراة والإنجيل :

يشتغل رجال الكهنوت فى أمريكا فى إعادة كتابة « الكتاب المقدس » مبتدئين بالعهد القديم (التوراة) ومنه إلى العهد الجديد (الإنجيل) .

فقد أعلن مجمع الكنائس البروتستانية الأعلى فى الولايات المتحدة الأمريكية بأن لجنة من أهل الاختصاص فى اللاهوت واللغات الشرقية القديمة قد تفرغوا منذ سبعة أعوام إلى إعادة كتابة التوراة والإنجيل فى لغة عصرية مجردة من التعابير القديمة التى يحتويها الكتاب المقدس فى ترجمته الحالية المعمول بها فى العالم البروتستانتى . وستصدر الطبعة الجديدة من الكتاب المقدس فى صورته المعدلة فى أوائل الشتاء المقبل .

وقد كلفت سيدة من المتبحرين فى اللغة الانجليزية بالإشراف على طبع النسخة الجديدة من التوراة والإنجيل .

وفى نفس الوقت أعلن مركز البابوية الكاثوليكية فى الفاتيكان بأن النسخة المتداولة حاليا من التوراة والإنجيل فى البلدان الكاثوليكية التى تتكلم اللغة الانجليزية قد عدلت ، وأن الكتاب المقدس سيظهر قريبا فى طبعة معدلة يراعى فيها التطور الذى ألم باللغة والفكر الانجلوسكسونى المعاصر . وغرض الأوساط الكاثوليكية من هذا التعديل فى لغة التوراة والإنجيل هو تسهيل القراءة واستيعاب الحكم والعظات فى الكتاب المقدس على النشء الجديد من الكهنوت والرعية . وستشرف على طبع هذه النسخة الكاثوليكية المعدلة من الكتاب التوراة والانجيل رئيسة إحدى أديرة الراهبات الكاثوليكية .

وقد سبق للمجمع الحاخامى اليهودى العالمى فى عام ١٩١٧ أن أدخل تعديلات جمة على الترجمة الانجليزية لتوراة اليهود (وهى العهد القديم فى الكتاب المقدس الذى يستعمله المسيحيون) . ويحاول اليهود حمل المراجع المسيحية على إزالة بعض الآيات من العهد الجديد التى تمس باليهود وتعذيبهم للسيد المسيح .

السرطان والطب العربى :

أذاعت وكالة أنباء الشرق من بيروت الخبر التالى :

زار وكالة أنباء الشرق السيد محمد سعيد التحيل من سكان شارع حيدرا فى بيروت وروى القصة التالية :

إننى مصاب بداء السرطان فى قصبة رجلى اليسرى وقد أجريت لى عملية جراحية فى مستشفى الصنائع ثم جلسات كهربائية فى مستشفى أوتيل ديو، فلم أحصل على فائدة.

وقد توالى نزيف الدم حتى هزل جسمى وساءت صحتى ولزمت الفراش وقد أصابنى فقر شديد فى الدم.

وقد تقدم مؤخراً لمعالجتى بواسطة العقاقير العربية السيد محمد معاذ فوقف نزيف الدم بعد أربعة أيام من بدء المعالجة وبدأت الكتلة السرطانية تتقلص والدرنة السرطانية تنكشف من جميع جهاتها ما عدا جهة العظم وقد خف سريان الماء والروائح الكريهة المنبعثة من السرطان.

هذه هى القصة كما رواها المصاب حرفياً. واستطردت وكالة الأنباء توضح ما يأتى:

وزيادة فى التثبت من صدق هذه القصة استدعت الوكالة السيد محمد معاذ الذى أكد صحة ما رواه المريض وأطلعنا على إفادات مسلمة إليه من الدكتور عفيق بربير طبيب المؤسسة الفرنسية لمكافحة السرطان فى بيروت.

دموع الشفاء:

يقول صحفى فرنسى زار إيران مؤخرا: إنه دهش لنجاح الطريقة التى يعالج بها بعض الإيرانيين مرضاهم بالدموع واعتقاد هؤلاء بأن الدموع تشفى من الأمراض المزمنة.

ويقول هذا الصحفى إن بعض مآتم الإيرانيين تخصص لجمع الدموع، إذ يعطى النائحون قطعا من الإسفنج لالتقاط دموعهم المسكوبة على خدودهم فى فترات الانفعال النفسى العنيف الذى يجرى فى هذه المآتم.

وتؤخذ قطع الإسفنج المبللة بالدموع إلى أحد الرؤساء الروحيين للجماعة فيعصر الدموع الراسبة فيها فى قوارير صغيرة تخزن للاستعمال عند الحاجة.

وهذه عادة تعود إلى ألوف السنين وقد أشار الصحفى الفرنسى إلى أن التوراة قد سجلت هذه العادة فى المزمور الخامس والعشرين إذ يقول داوود: «قد عودت مهاجراتى فادخر دموعى فى كنوزك أو ليست فى سفرك».

أول من اخترع اللاسلكى

كتب أحد علماء الفيزياء الأمريكان يجادل القول بأن ماركونى الإيطالى هو أول من اخترع الراديو.

ويدعى هذا العالم الأمريكى أن أول من اخترع الراديو هو مزارع أمريكى فى بلدة موارى فى ولاية كنتاكى فى الولايات المتحدة الأمريكية واسمه ناثان سبتفيلد. وذلك إثر تجربة قام بها فى سنة ١٨٩٢، أى قبل تجربة ماركونى بثلاث سنوات.

وتجربة المزارع الأمريكى كانت باستعمال سلك عادى استطاع أن يحمل حديثه إلى مسافة طولها أكثر من ميل.

وقد سجل هذا المزارع اختراعه في سنة ١٩٠٨ وحصل على امتياز لإنتاجه على شكل أدق بمعونة أحد الشركات التجارية.

ويقول العالم الأمريكي إن بعض المحتالين استطاعوا سرقة سر اختراع المزارع الأمريكي فذهب ضحية هذا الاحتيال وأنفق بقية حياته منعزلا في قرية نائية يلهو بتجاربه اللاسلكية.

معالجة السل بعقاقير جديدة

تبحث الدوائر الطبية في أمريكا في اكتشاف دواء جديد للسل، فقد كانت الوسائل الطبية المألوفة في معالجة مرض السل على ثلاثة أنواع:

١ — مناخية وغذائية.

٢ — جراحيـــة.

٣ — عقاقيرية.

والدواء الجديد يستند إلى المعالجة العقاقيرية. فالمعالجة العقاقيرية تهدف إلى قتل الجرثومة أو تقوية مكافحة الجسم لها بواسطة أملاح الكلس والذهب والحـــديد، وكان الأطباء يقترحون للمعالجة مادة (الستربتومايسين) و (الاسيد بارميند سكيسيليك).

أما الدواء الجـــديد فشتق مباشرة من (الأسيد نيكوتينيك) أحد فروع الفيتامين ب. وهو يستخرج بكميات كبيرة وبسهولة ونفقات رخيصة من الفحم الحجري ومشتقاته.

وقد أخذت المعامل الكيماوية الأمريكية تخرجه في شكل أقراص بيضاء كأقراص الاسبيرين تحت ثلاثة أسماء.

نايدرازايد — ذريميفون — مارسيليد.

وهذه الأقراص تؤخذ بطريق الفم ولها تأثير سريع على المرضى وليست لها خاصية التسمم. وأثمانها معتدلة.

وقد أثبتت التجارب التي أجريت على مرضى السل بواسطة هذا الدواء الجديد أن جرثومة السل لم تظهر مقاومة قوية ضد هذه الأقراص. وقد أولدت هذه التجارب نتائج عجيبة. فقد ثبت أن تأثير هذه الأقراص على المرضى الذين قطع منهم أمل الشفاء كان من قبيل المعجزات.

وهذا التأثير النافع حدث للمرضى من جميع الأعمار والأجناس وفي الحالات المزمنة.

ومن ظواهر مفعولية هذا الدواء الجديد ما أثبتته النتائج الأولى وهي هبوط حرارة المريض إلى الحد الطبيعي بعد أن كان ارتفاعها — قبل استعمال الدواء، يصل إلى ١٠٣ أو ١٠٥ درجات.

وقد تضاعفت قابلية الأكل والنشاط عند المرضى بشكل ملحوظ وزادت أوزانهم زيادة سريعة، وهذه النتائج السريعة على غاية من الأهمية كما يشهد بذلك الاهتمام البالغ الذي تظهره الأوساط الطبية نحو هذا الدواء السحري.

ولن تستطيع الأوساط الطبية أن تعطي حكمها النهائي على مفعول هذا الدواء الجديد قبل مضي أشهر أو سنوات ليتأكد الأطباء من شفاء المريض شفاء تاما والتيقن من ظواهرها التي هي ظواهر عارضة ليس إلا.

دكتور عمر حليق

العالم الإسلامي في شهر

وثبة الجيش المصرى على الطغيان :

لقد مر زهاء شهرين وهذا العدد فى أيدى القراء، على تلك الحركة المباركة، ألا وهى وثبة الجيش المصرى على الطغيان.

وإن هذه الحركة الموفقة لما يؤرخ به فى مصائر الأمم، ذلك أنها نقلت تاريخ مصر من فصل إلى فصل شأنها فى ذلك شأن الحركات القومية الكبرى.

ولسوف يكون لهذه الحركة الميمونة أثرها البعيد فى مستقبل الشرق الأوسط كله فيما أعتقد، فإن مثل هذه الحركات الخطيرة العظيمة الأهداف لن يقف أثرها عند البلد الذى انبعثت منه وبخاصة فى هذا العصر الذى عظمت فيه أسباب الاتصال بين الأمم والذى ازدادت فيه أواصر القربى بين مصر وجاراتها.

لقد ظلت مصر سنوات طويلة بعد وثبة سعد على الاحتلال، تعانى من أصناف البلاء، وضروب المساوىء ما نفد معه صبرها؛ ذلك أن سادتها وكبراءها، قد اقتنعوا من الإصلاح بالخطب والكتابة، حتى بحت الأسماع والأذهان دعوة الإصلاح، ورأت مصر أن الفاقة والجهل والمرض توبق أرواح بنيها، أن غاية الحاكمين من الحكم هى المغانم وهم فى ذلك سواء مهما تغيرت الوجوه والأسماء

اللهم إلا فئة قليلة ممن يبغون الخير ولكنهم لا يجدون إلى غايتهم سبيلا.

وكانت بلية مصر بملكها أعظم من بليتها بزعمائها وحكامها: فلقد أمعن هذا الملك فى اللهو وأسرف فى التبذل، وراح يجمع المال ولا يقنع، ويأكل بالباطل ولا يشبع. وليت أمره اقتصر على فساد شخصه؛ بل لقد عمد هذا اللاهى الهازل إلى إذلال شعبه ما وسعه الإذلال، لا يعبأ بما يصيب أمته ما دامت كلمته هى العليا، وما دام ينظر إلى الناس جميعا فى تبطله ولهوه نظرته إلى عبيده.

وأحاط اليأس بالناس، فإذا اجتمع الأحرار تهامسوا يتساءلون كيف الخلاص، والعدو الأجنبى يتربص بمصر الدوائر، وقادتها قد أحنوا رؤوسهم للطاغية العابث؟ ثم ينصرف المتهامسون وفى قلوبهم حسرات ومن حولهم ظلمات.

ولكن الأحرار لم يكونوا يعلمون أن الله قد كتب لمصر النجاة على يد جيشها الباسل، فقد تحرك الجيش لا كما تتحرك جيوش الطاغين ليضرب الشعب بل تحرك ليبعد عن مصر من أذل ذلك الشعب.

وتطلعت مصر فإذا بها ترى الرجل الذى حلمت به طويلا حقيقة ماثلة أمامها. وقد رأت مصر القائد، محمد نجيب، يفعل ولا يتكلم، فيتقدم باسم الشعب المصرى إلى الطاغية فيطلب إليه

فى اليوم السادس والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩٥٢ أن ينزل عن عرشه لولى عهده قبل الساعة الثانية عشرة ، وأن يغادر البلاد قبل الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم .

وتم للقائد الذى ادخره الله لهذا اليوم المشهود ما أراد ، وانقضى أمر الطاغية كما كانت تنقضى ليلة من ليالى فسوقه !

وجاءت هـــذه الثورة الجليلة النبيلة متممة لثورة القائد أحمد عرابى ، فإن عرابيا قد دهمه الاحتلال فلم يحقق ما أراد من إصلاح ؛ وظلت مصر مغلوبة على أمرها حائرة بين الظلام والنور حتى أهل هذا الفجر الجديد وأخذ القائد المظفر وأعوانه من العاملين المخلصين يضعون فى سرعة تدعو إلى الإعجاب أسس الإصلاح التى طالما تحرقت إليها البلاد .

وحل النهوض والتطهير محل القعود والفساد ؛ وافتتح فى تاريخ مصر عهد وتم لها فى مدى شهرين ما لم تكن لتبلغه فى عشرات السنين ؛ فما هى ذى التشريعات والقوانين التى كان يظنها الناس أحلاما ، ترى بعضها فى إثر بعض ، ومن أهمها قانون تحديد الملكية ، وكلها مؤدية بعون الله إلى بعث جديد . ورأت مصر وزراءها يتنافسون فى العمل المثمر ، يحسون إحساس الشعب ولا يجعلون بينهم وبينه حجابا ورائدهم فى ذلك قائدهم المخلص الباسل الذى قوض دعائم الفساد والظلم .

ولن يقتصر أثر هـــذه الحركة المباركة على الإصلاح المادى وحده ، فإن خطرها الأدبى لعظيم ، وحسبنا أن تصرف اليأس عن القلوب ، وأن تبث الثقة فى النفوس ، وأن تربط بين الحاكم والمحكوم بروابط المحبة ، وأن تجعل الناس يؤمنون بالعدل ويسمون بأنفسهم فلا يرتضون بعد اليوم ذلا ولا يخافون ظلماً ولا هضماً .

ولهذه الحركة الموفقة أثرها بعون الله فيما بيننا وبين الدول الأجنبية ، فقد آمن من لم يكن يؤمن أن مصر جادة لن يعوقها عما تطلب لنفسها من مكانة بعد اليوم عائق ، ولن يصدها عن سبيلها مدع ولا عائب ، والله موفقها إلى ما تريد .

لبنان وحركة الإصلاح والتطهير :

فى لبنان اليوم حركة تهدف إلى الإصلاح الشامل والتخلص من مساوىء الماضى وما أشبه ما يطلبه لبنان بما ظفرت به مصر ؛ وهكذا أخذ يتجاوب الشرق بأصداء الحركة المصرية .

تقدمت الجبهة الشعبية المؤلفة من الكتائب والهيئة الوطنية والمؤتمر الوطنى إلى رئيس الجمهورية تطلب إليه أن يسند الحكم إلى شخصيات نزيهة لم يسبق لها الاشتراك فى الحكم ، بحيث تتألف منها وزارة شعبية قوية ،هدفها الإصلاح الحق والتطهير الشامل ، من الفساد والرشوة واستغلال النفوذ .

وكان رئيس الجمهورية قد أعد برنامجا شاملا للإصلاح أقرته عليه وزارة سامى الصلح . ولكن نواب المعارضة حملوا حملة قوية على رئيس الجمهورية ووصفوا برنامجه الإصلاحى بأنه برنامج سطحى

لا يحقق رغبات الشعب ؛ وأصروا على وجوب إقصاء كل من كان له يد فى فساد الحكم منذ سنوات عديدة .

ولم يسغ السيد سامى الصلح هذه المطالب ؛ ورفض أن يستقيل من الحكم وأعلن أنه يطلق قنبلة سياسية إذا أصر رئيس الجمهورية على إقصائه من منصبه .

وفى التاسع من هذا الشهر اشتدت الأزمة اللبنانية ، فقد استقال أعضاء الوزارة فلم يجد رئيس الجمهورية بدا من إعفاء السيد سامى الصلح من منصبه ، ثم عهد إلى مجلس وزراء مؤقت مكون من ثلاثة أعضاء للقيام على شؤون الحكم حتى تؤلف وزارة جديدة ، ولا شك أن صفاء الجو رهين بما يعتزمه رئيس الجمهورية حيال مطالب الشعب ، وعلى مبلغ ما تحققه أية وزارة من هذه المطالب ، فلم تعد ترضى الشعوب إلا بالعمل الحاسم الذى يقضى على ما تحملته طويلا من ضروب الفساد والعدوان . وقد جاءت الأنباء اليوم بأن الجيش اللبنانى أرغم رئيس الجمهورية السيد بشاره الخورى على الاستقالة وقدر أنه تولى الحكم

مشكلة تونس

لا يرى الوطنيون فى تونس هدفا لهم إلا الاستقلال التام عن فرنسا ؛ أما ما تتقدم به فرنسا من مقترحات للإصلاح فما هى فى نظر الوطنيين إلا من ألاعيب السياسة ؛ ولقد أشرنا فى العدد الماضى إلى أن فرنسا لم تتقدم بهذه الإصلاحات إلا حين أرادت أمريكا أن تخرج من حرج موقفها بعد أن امتنعت عن التصويت حينما أريد عرض قضية تونس على مجلس الأمن إذا لم تنفذ الحكومة الفرنسية برنامج إصلاح داخلى فى تونس .

وقد تقدمت فرنسا فعلا بما تراه من إصلاح ؛ ولكن الأزمة التونسية قد دخلت مرحلة حرجة ، فلقد أرسل جلالة باى تونس إلى رئيس الجمهورية الفرنسية كتابا رفض فيه مشروع قانون الإصلاح الفرنسى لأنه لا يتفق مع الأمانى القومية للشعب التونسى .

مشكلة البترول فى ايران

عادت إنجلترة وأمريكا تحاولان بعد حكم محكمة العدل الدولية فى مصلحة إيران ، أن تحملا إيران على حل هذه المشكلة عن طريق المقترحات والمفاوضات ، فتقدمتا إلى الدكتور محمد مصدق باقتراحات جديدة ، وقد وصفها الدكتور مصدق بأنها أسوأ ما قدم إليه من مقترحات لحل هذه المشكلة منذ قيامها ، وأبدى عجبه من هذه الأساليب الاستعمارية التى لا تملها إنجلترة ، ثم قال « إن المقترحات التى قدمها ترومان وتشرشل لحل مشكلة الزيت الإيرانى توحى بأن الحكومة البريطانية ما برحت تتبع سياستها القديمة تحت ستار ألفاظ وتعبيرات جديدة ، وأنه ليس

طرائف علمية وأدبية

البيان والبـــديع فى القرآن

محاورة بين أبى بكر بن دريد وأبى حاتم السجستانى

****

روى العلامة المحدث الرحالة أبو عبد الله محمد ابن رشيد الفهرى السبتى فى رحلته (ملء العيبة) (الجزء الثانى ، وهو بخط المؤلف ، من النسخة الوحيدة المحفوظة بالاسكوريال) عن العلامة الأديب الناقد أبى بكر محمد بن حسن بن حبيش اللخمى التونسى بسنده إلى الإمام أبى أحمد الحسن ابن عبد الله بن سعيد العسكرى مما تضمنه كتابه المسمى « بالحكم والأمثال » قال : أخبرنا أبو بكر ابن دريد قال : قلت لأبى حاتم سهل بن محمد السجستانى : إن الشعر يتضمن من محاسن البيان ما لا يكاد يوجد إلا فيه ولا يؤخذ إلا منه . فقال : لا أعلم شيئاً مما تومىء إليه إلا وقد اشتمل القرآن عليه ووجد فى كلام الرسول صلى الله عليه وسلم مثله ، وجاء فى فقر الصحابة عدله . فإلام تشير ؟ فقلت : الاستعارة كقول امرىء القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله

فى تلك المقترحات أية مراعاة لشعور الشعب الإيرانى » .

ولم تر إيران بدأ من رفض هذه المقترحات الجديدة ، وسيمضى الدكتور مصدق فى سياسته الوطنية الحازمة غير عابىء بما تضعه إنجلترة فى طريقه من عقبات سياسية واقتصادية ؛ ولا تألو حكومة الدكتور مصدق جهداً على الرغم مما يواجهها من صعاب ، فى العمل على تذليل الصعوبات الاقتصادية التى ترتبت على هذه المشكلة وهى تستعين فى سياستها باستشارة الخبراء الاقتصاديين العالميين .

وقد أراد الدكتور مصدق أن يستوثق من مكانة وزارته قبل أن يقدم على أى عمل جديد بسبب هذه المشكلة ؛ لذلك قرر أن يطرح على مجلس النواب الثقة بوزارته بعد أن يفضى إليه بأسباب رفضه هذه المقترحات ؛ وقد يلجأ الدكتور مصدق إلى قطع العـــلاقات الدبلوماسية بين إيران وإنجلترة .

وقد علق الزعيم الدينى آية الله كاشانى على تلك المقترحات الثنائية بقوله : إنها امتهان لكرامة إيران وندد بتدخل الدولتين فى النزاع بين إيران وشركة البترول قائلا : إنه يعد تدخلا فى الشئون الداخلية لدولة مستقلة .

محمود الخفيف

عليّ بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بجوزه
وأردف أعجازاً وناء بكلكل

وكقول أوس :

وإني امرؤ أعددت للحرب بعد ما
رأيت لها ناباً من الشر أعصلا

فقال : أبو حاتم قال الله عز وجل : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » وقال تعالى : « واشتعل الرأس شيباً » وقال عز اسمه : « أو يأتيهم عذاب يوم عقيم » وقال : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : ضموا فواشيكم حتى تذهب فحمة العشاء . وقال : خير الناس رجل يمسك بعنان فرسه في سبيل الله كلما سمع هيعة طار إليها . وقال صلى الله عليه وسلم : دب إليكم داء الأمم قبلكم البغضاء والحسد ، وهي الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر . وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : السفر ميزان القوم ، وسأل عليه السلام كبير فارس عن الغالب على أنوشروان فقال : الحلم والأناة ، فقال أمير المؤمنين : توأمان ينتجهما علو الهمة . ووصف أعرابي قومه فقال : إذا اصطفوا واسفرت بينهم السهام ، وإذا تصالحوا بالسيوف فغر (فاه) الحمام .

قال أبو بكر : فقلت حسبي ، فالمجانس كقول جرير :

وما زال معقولا عقال عن الندى
وما زال محبوساً عن المجد حابس

وكقول زياد الأعجم :

رأيتهم يستنصرون بكاهل
وللؤم فيهم كاهل وسنام

وكقول العبسي :

أبلغ لديك بني سعد مغلغلة
إن الذي بيننا قد مات أو دنفا
وذاكم إن ذل الجار حالفكم
وإن أنفكم لا تعرف الأنفا

فقال أبو حاتم : قال الله جل ذكره : « وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » وقال : « فأقم وجهك للدين القيم » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عصية عصت الله ورسوله ، وغفار غفر الله لها[1] وقال : الظلم ظلمات . وقال معاوية لابن عباس : مالكم تصابون يا بني هاشم بأبصاركم ؟ فقال ابن عباس : كما تصابون ببصائركم ، ومات لصدقة بن عامر المازني سبعة بنين في يوم واحد بالطاعون فقال : اللهم إني مُسْلِمٌ وَمُسَلِّمٌ .

قال أبو بكر : فقلت : حسبي . فالمطابقة كقول زهير :

ليث بعثر يصطاد الرجال إذا
ما الليث كذب عن اقرانه صدقا

وكقول الفرزدق :

يستيقظون إلى نهاق حميرهم
وتنام أعينهم عن الأوتار

فقال أبو حاتم : قال الله عز وجل : « ولكم في القصاص حياة » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار : إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع . وقال الحسن : ما رأيت يقيناً لا شك

---

(١) في طرة الأصل بخط المؤلف : يذكر أسلم في هذه الرواية ، وذلك لأنه ورد في رواية أخرى بلفظ أسلم سالمها الله ، وغفار غفر الله لها ، وهي أيضاً صالحة الاستشهاد بها وعصية ، وغفار ، وأسلم ، قبائل من العرب .

فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت ، وقال رحمه الله وقد عوتب على تخويفه الناس بوعظه : إن من خوفك حتى تلقى الأمن ، خير من من أمنك حتى تلقى الخوف .

قال أبو بكر : فقلت : حسبي فرد إعجاز الكلام على صدوره كقوله :

غريب بنى سليم أقصدته
سهام الموت وهى له سهام

فقال أبو حاتم : قال الله عز وجل : « لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى » . وفى الحديث : من مقت نفسه أمنه الله من مقته .

قال أبو بكر : فالالتفات من الكناية إلى المخاطبة كقول جرير :

متى كان الخيام بذى طلوح
سقيت الغيث أيتها الخيام

وكقوله :

طرب الحمام بذى الأراك فهاجنى
لا زلت فى غلل وأيك ناضر

قال أبو حاتم : قال الله عز وجل : « حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم » . وقال : « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد » . ثم قال : « وبرزوا لله جميعاً » .

فقال أبو بكر : حسبي أنك لا تكاثر !.

****

الزكام

الزكام مرض خفيف عادى لكنه من أغرب الأمراض التى تطرأ على الإنسان ، ولم يهتد الطب حتى الآن إلى علاج فعال له ، وقد صرح أحد مشاهير الأطباء وهو الدكتور أندروز فى محاضرة عن الزكام ألقاها منذ نحو ثلاث سنوات أمام جمعية الفنون الملكية بلندن بقوله : « سأحدثكم عن جهلنا بالزكام أكثر مما أحدثكم عن معرفتنا به » . والدكتور أندروز كان رئيس لجنة من الأطباء عهدت إليها المراجع الصحية فى بريطانيا إن تدرس الزكام دراسة علمية مستفيضة ، ولكنها لم تصل إلى نتيجة حاسمة .

أما الأدوية التى توصف للزكام فلا تحصى لكثرتها وقد سجل حتى اليوم بلندن وحدها فى دائرة تسجيل الاكتشافات والاختراعات نحو عشرة آلاف دواء للزكام ولكن بدون جدوى .

والسبب الرئيسى الذى يعيق دراسة مرض الزكام هو أن جرثومته صغيرة جداً من نوع الفيروس حتى إن المجهر الالكترونى رغم قوته الكبيرة لا يستطيع أن يظهرها . وهذا الصغر لا يمكن العقل أن يحده ولا أن يتصور كيف تعيش هذه المخلوقات المتناهية فى الصغر .

ويؤخذ من أبحاث تلك اللجنة أن المنديل الذى يستعمله المزكوم تتناثر منه نحو ١٥ ألف ذرة وفى كل ذرة عدد كبير من فيروس الزكام ، وإن السعلة الواحدة تنثر نحو أربعمائة من هذه الذرات . أما العطسة فتنثر نحو مليون .

مدير المجلة
محمد عرفة
من جماعة كبار العلماء
العنوان
إدارة الجامع الأزهر بالقاهرة
تليفون ٤٦٩٩٥

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

رئيس التحرير
محب الدين الخطيب
بدل الاشتراك
٥٠ في مصر والسودان
٦٠ في الأقطار الإسلامية
٥ ثمن الجزء

الجزء الثاني ـ القاهرة في غرة صفر سنة ١٣٧٢ ـ ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٥٢ ـ المجلد الرابع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة الأزهري
في عهده الجديد

لو لم يكن لأحد في هذه الأرض رسالة قدسية عليا يؤمن بها ، ويعيش لها ، ويتصرف في جميع أموره ـ الخاصة والعامة ـ بمبادئها وسننها ، لكان ينبغي أن يكون ذلك لربيب الأزهر ، لأنه مسلم يؤمن برسالة الإسلام ، وبها يحيا وعليها يموت .

ولو جاز لمسلم أن يجهل بعضَ شعب الإيمان في رسالة الإسلام ، لكان ينبغي لربيب الأزهر أن يكون بمنجاة من هذه النقيصة ، لأنه ـ ولله الحمد ـ عالم برسالة الإسلام ، وواقف على تفاصيل شعبها ، وقد ارتفع به علمه بها إلى منزلة يحسده عليها كل ذي نعمة في الأرض ، وهي منزلة الوراثة لمقام النبوة ؛ والأزهري من أعرف العارفين بما لهذا المقام من مزايا ، وما على صاحبه من أعباء ومسئوليات .

وللأزهريِّ ضمير طالما كان يناجيه في خلواته ، ويتحدث إليه ـ بين الفينة والفينة ـ بما حمّله الإسلام من تلك المسئوليات والأعباء ، منذ تأهل لنصيبه في الوراثة من مقام النبوة ، إلا أن بعض الذين يؤثرون العافية في حاضرهم ، كانوا يجدون لأنفسهم ما تعتذر به إلى ضمائرهم يوم كانت تناجيهم بما عليهم من أعباء الميراث الأعظم : كيف لا والنظام الذي

كان قائما فى هذه الناحية من دنيا المسلمين ، أسسه لنا الأغيار على أنه يسالم للإسلام فى ظاهره بينما هو حرب عليه فى مقوماته وحقائقه الجوهرية وأهدافه الإنسانية القصوى ، فكان ذلك النظام يحاول — بأساليبه المرنة وأنامله الناعمة — أن يحمل الإسلام على أن يبقى قابعاً فى المسجد فلا يخرج منه بعبادته وسننه إلى ساحات المجتمع ، وأندية الناس ، وأسواق التعامل ، ومدارس التثقيف ، فضلا عن محاكم القضاء ودواوين الحكم . ومن هنا كان بعض حملة رسالة الإسلام يجدون لأنفسهم بعض العذر بأن أمام هذه الرسالة عقبات تعترضها ، وتحول بينهم وبين العمل بها .

ولا ينكر أحد على ورثة الأنبياء أن فيهم طائفة لم تكن تبيح لنفسها الإسراف فى هذه المعاذير ، لأن الله جل وعز وهبهم من مضاء العزيمة وسعة الأفق وحكمة التصرف ما يصل ماضى هذه الأمة بحاضرها ، ويلوح به النور فى أهدافها نحو المستقبل .

والآن وقد أكرم الله الإنسانية بهذا الانقلاب العظيم الذى وقع على مرأى منا ومسمع فى الثلاثة الأشهر الأخيرة ، فإنه ساوى بين العلماء فى موقفهم من رسالة الإسلام . وكما ذهب الانقلاب بذلك النظام الجاهلى الفاسد فقوضه تقويضاً ، فإنه قد ذهب كذلك بالمعاذير التى كان بعض ورثة الأنبياء يعللون بها موقفهم من العمل برسالة الإسلام إذا ناجتهم ضمائرهم بما حمّلهم الله من أعبائها .

ويشاء الله أن تبدأ السنة الدراسية فى معاهدنا الأزهرية ومدارسنا الرسمية وجامعاتنا بعد استتباب هذا الانقلاب المبارك ، فيقف المدرس من أبنائه الطلبة موقف الأمين على أثمن ما ائتمن الله الأمناء عليه فى الأرض ، وإنها لأمانة مزدوجة : أمانة العلم ، وأمانة الجيل . بل أمانة الملة ، وأمانة الوطن .

إن النظام الذى أقامه الأغيار لنا فى الجيل الذى مضى قد صرف النفوس عن تضامن الجماعة وتعاونها بالمبادىء الإنسانية الكريمة ، والسنن الإسلامية الحكيمة ، بما أيقظ من أنانيات ، وما هيج من شهوات ، وما أحدث من عصبيات وحزبيات ، وما ترتب على ذلك من فرقة وتشتت ، حتى صرنا إلى ما ضجت من شناعته الأرض والسماء ، وتحولنا به عن إنسانيتنا المتراحمة إلى ما لا يرضاه لنا إلا العدو . وأفدح ما منينا به فى عشرات السنين الأخيرة اختلاف قلوبنا عما أراد لها الإسلام أن تكون عليه ، وقد سرت عدوى ذلك من طبقة إلى طبقة ومن جيل إلى جيل ، حتى وصلنا إلى بداية السنة الدراسية لهذا العام ، وإذا

أمانة الجيل الآتى كلها بين يدى المدرس أزهريا كان أو فى المدارس الأخرى والجامعات. وإن الدولة بجميع قواها قائمة الآن بمهمة التطهير، ومهمتها هذه تتناول آثار ما أفسد الدهر من قلوب الخاصة، وهاهى ذى قلوب الخاصة نفسها ممن سيتولون بعد سنوات قريبة جميع أمور الأمة — من صغيرها إلى كبيرها — قد وضعها الله أمانة بين أيدى القائمين بالتدريس، وهم مكلفون من الله، ومن روح النظام القائم، ومن حاجة الأمة الملحة، بأن يعنوا بقلوب تلاميذهم فيعدوها للطهر والفضيلة والشهامة والرجولة ومكارم الأخلاق.

وأول ما يكون ذلك بالقدوة والأسوة. والتلميذ الناشىء يتعلم مما يرى بعينه أكثر مما يتعلم مما يسمع بأذنه، والدعوة بالقدوة والأسوة هى التى تمت بها أعظم معجزة عرفتها مصر فى الوقت مؤلفة من السنين، وذلك يوم تحولت عما كانت عليه إلى ما رأت بعينها آثاره الباهرة فى سيرة أبى عبد الله عمرو بن العاص السهمى وصحبه الأكرمين، بل هى تنازلت حتى عن لغتها إلى لغة هؤلاء الفضلاء الرحماء الطاهرى القلوب العاملين بسنن الأنبياء من إبراهيم إلى موسى فالمسيح فخاتم النبيين وإمام المصلحين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه. فبالقدوة تحولت مصر والشام والعراق وشمال إفريقية عن دياناتها إلى دين الإسلام فى عشرات قليلة من السنين، وبالقدوة وحدت قومياتها بقومية هؤلاء الانسانيين السائرين على قدم الأنبياء، وانصرفت عن ألسنتها إلى لسانهم، فكانوا جميعاً أمة الحق والخير، وبالقدوة يستطيع مدرسو الأزهر والمدارس الأخرى كلها أن يطهروا قلوب أبنائهم رجال الجيل الآتى، فيحدثوا فيها انقلابا — كالانقلاب العسكرى — فى أقل من سنة، بل من الحصة الأولى التى يلقون فيها أبناءهم الطلبة ويتطلعون منهم العهد أمام الله على أننا عزمنا على أن نكون أمة صدق وحياء وجد وعمل، نقيم الحق حيثما يكون، ونعين على الخير ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.

يقول أبو عبد الرحمن عبد الله بن حبيب بن ربيعة السلمى (تلميذ أميرى المؤمنين عثمان ابن عفان وعلى بن أبى طالب وأضرابهما من علماء الصحابة كعبد الله بن مسعود وزيد ابن ثابت وأبى بن كعب): وحدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن — كعثمان بن عفان وعبدالله ابن مسعود وغيرهما — أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً.

وهذا معنى قول أم المؤمنين عائشة يوم سألها التابعون عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : « كان خلقه القرآن » ، أى أنه وأصحابه كانوا كلما حملت رحمة الله إلى إنسانية الأرض آية فى تقويم الأخلاق وتهذيبها تخلقوا بها بالعمل ، حتى تكون خلقهم الأصيل ، وحتى تصدر أعمالهم كلها عن ذلك الخلق كما أراده الله لعباده . فالعلم حجة على صاحبه حتى يصحبه العمل ، والعلم بلا عمل أضر على صاحبه من الجهل البسيط ، ولذلك استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من علم لا ينفع . ولا ينتفع التلميذ بمعرفة المبادىء إلى درجة أن يعمل بها وتكون سنة له فى الحياة إلا إذا تلقى ذلك بالقدوة ، ورأى تطبيقه وتنفيذه فى تصرفات أبيه فى الروح ، وهو المعلم الذى ائتمنه الله على فلذات أكباد الناس ، وعلقت الدولة آمالها عليهم فى إقامة الحق والخير للوطن ، بعد أن تستريح هى من عناء التطهير فيما أفسدته الأجيال التى عاصرناها والتى سبقتنا .

إن القيام بمهمة « التطهير » له ناحية رسمية تتعلق بموظفى الحكومة والذين يتصل سلطانهم ونشاطهم بأمانات الدولة والمصالح العامة ، وهؤلاء قد رسمت الدولة خطتها الحكيمة فى تمحيصهم ، واستخلاص ذوى الأيدى الطاهرة منهم ليحملوا بها تلك الأمانات ، وليؤدوا بها ما نيط بهم من مصالح . وهنالك ناحية أخرى للتطهير تتصل بقلوب الأمة ونفوسها ، والقيامُ بذلك من واجب ورثة الأنبياء حيثما كانوا وحيثما يكون الناس . فالعالم المسلم إذا بدأ فطهر قلبه ، وأخلص لله نفسه ومداركه وجوارحه ، جعل الله له على قلوب الناس ومداركهم وجوارحهم سلطاناً يصوغها به على ما يرضى الله فى كل ما يصدر عنه من توجيه وإرشاد ، وأخطر من ذلك سلطان المدرس الأزهرىّ على قلوب أبنائه الطلبة ونفوسهم ومداركهم وجوارحهم ، لأن سلطانه مستمد من هدى الله ، ومكتسب من مواريث النبوة ، وما أعظمه من سلطان ، وما أغلاها من مواريث !

إنها مهمة خطيرة ، وإذا كان المدرس فى غير المعاهد الأزهرية مكلفاً بها من الدولة ، ومن نداء الوطن ، فالمدرس الأزهرى مكلف بمثل ذلك وبما هو أعظم منه ، من الدولة وممن هو أعظم من الدولة ، ومن الوطن وممن هو أعز وأجل من الوطن ، وهو الله تباركت آلاؤه وعز سلطانه .

محب الدين الخطيب

تحديد الملكية فى الإسلام

لقد تغيرت أوضاع، وتبدلت نظم، وسنت قوانين فى هذا العهد الجديد، ومن القوانين التى سنت. قانون تحديد الملكية الزراعية، والناس يتساءلون عن رأى الفقه الإسلامى فيه وهل فى ذلك شىء سلف عن الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين ؟

ونحن سنبين هنا أن الإسلام يمنع التفاوت الكثير فى الأرض الزراعية ويحرص على ألا تتجمع الأرض فى جانب من الأمة فيكون فيه الغنى والعزة والقوة، وتحرمها الجوانب الأخرى فيكون فيها الفقر والعجز والضعف، وما وقع فى مصر إلى الآن من الملكيات الكبيرة حتى صار رجل واحد يملك آلاف الأفدنة وعنده من عبيد الأرض مثل هذا العدد يزرعونها له ويؤدون له غلاتها، لم يكن بإذن الإسلام، وعلى الرغم من تعاليمه وقع.

سوء توزيع الأرضين مما يمقته الإسلام ويقى الأمة إياه قبل أن يقع، لأن الوقاية خير من العلاج، ويعالجه إذا وقع. وقد عالجه الإسلام قديما بمثل ما عالجته الدولة اليوم فالتاريخ يعيد نفسه.

قد يستغرب السامع هذا الذى أقوله من أن الإسلام نزع بعض الأرضين من أيدى مالكيها بعد أن رآها تتجمع فى جانب من الأمة وتصغر منها جوانب أخرى، ومن أنه منع ذلك قبل أن يقع، ولكن الغرابة ستزول عند ما نورد من الآثار ما يدل على ذلك.

روى عن يزيد بن أبى حبيب أن عمر كتب إلى سعد بن أبى وقاص يوم افتتح العراق « أما بعد فقد بلغنى كتابك أن الناس قد سألوا أن تقسم بينهم غنائمهم وما أفاء الله عليهم، فانظر ما أجلبوا به عليك فى العسكر من كراع أو مال فاقسمه بين من حضر من المسلمين، واترك الأرضين والأنهار لعمالها، ليكون ذلك فى أعطيات المسلمين، فإنا لو قسمناها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شىء [1] ».

علم من قواعد الإسلام ومن عمل الرسول أن ما غنمه المسلمون من مال وأرض يقسم أربعة أخماسه على المجاهدين، وقد قسم رسول الله أربعة أخماس أرض خيبر على المجاهدين

(١) ص ٥٩ كتاب الأموال لأبى عبيد القاسم بن سلام، و ص ٢٤ كتاب الخراج لأبى يوسف، و ص ٢٧ و ٤٨ كتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشى. ويزيد بن أبى حبيب راوى هذا النص هو عالم مصر وإمامها. قال فيه الليث بن سعد: « يزيد عالمنا وسيدنا »، توفى سنة ١٢٨.

فلما فتح المسلمون العراق بقيادة سعد بن أبي وقاص سأل المقاتلون سعدا نصيبهم فى الأرض وطلبوا أربعة أخماسها فمنعه عمر وقال : أما ما غنموه من منقول فاقسمه بينهم وأما الأرض والأنهار فلا تقسمها واتركها بأيدى عمالها ليزرعوها ويؤدوا خراجا يقسم على المسلمين . وعلل عمر ذلك بأنه لو قسمها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء فجعلها باقية على حالها يملكها المسلمون جميعا وقسم خراجها بين المسلمين مخافة أن يحوزها المقاتلون فلا يبقى شيء لمن يأتى بعدهم من المسلمين . فأنت تراه قد منع من تكدس الأرض فى جانب من المسلمين وإخلاء الجانب الآخر منها قبل أن يقع .

وورد هذا المعنى فى حديث آخر عن ابراهيم التيمى قال : لما افتتح المسلمون السواد قالوا لعمر قسمه بيننا فإنا افتتحناه عنوة قال فأبى وقال فما لمن جاء بعدكم من المسلمين وأخاف إن قسمته أن تفاسدوا بينكم فى المياه . قال فأقر أهل السواد فى أرضيهم وضرب على رؤسهم الجزية وعلى أراضيهم ، الطسق ، أى الخراج ولم يقسم بينهم [1] » .

ولم يكن ذلك بأرض السواد بالعراق فحسب بل وقع مثله فى أرض مصر نفسها وحدث سفيان بن وهب الخولانى قال : لما افتتحت مصر بغير عهد ، قام الزبير . فقال : يا عمرو ابن العاص اقسمها . فقال عمرو : لا أقسمها . فقال الزبير : لتقسمنها كما قسم رسول الله ﷺ خيبر . فقال عمرو لا أقسمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين . فكتب إلى عمر فكتب إليه عمر أن دعها حتى يغزو منها حبل الحبلة » . قال أبو عبيد القاسم بن سلام الذى روى هذا الحديث فى كتابه الأموال : أراه أراد أن تكون فيئا موقوفا للمسلمين ما تناسلوا يرثه قرن عن قرن فتكون قوة لهم على عدوهم [2] .

فهذه روايات متضافرة على معنى واحد ، وهو أن عمر منع المقاتلة ما كانوا يرونه حقا لهم بمقتضى الكتاب وعمل الرسول من قسمة أربعة أخماسها عليهم لئلا يحوزها الحاضرون ولا يبقى منها شيء لمن يأتى بعدهم .

ولم ينفرد بذلك عمر ، بل روى مثله عن على ومعاذ بن جبل ، روى عن عبد الله ابن قيس الهمدانى قال : قدم عمر الجابية فأراد قسمة الأرض بين المسلمين . فقال له معاذ : والله إذن ليكونن ما تكره إنك إن قسمتها صار الريع العظيم فى أيدى القوم ، ثم يبيدون

---

(١) ص ٥٧ كتاب الأموال لأبى عبيد . (٢) ص ٥٨ المصدر نفسه .

فيصير ذلك إلى الرجل الواحد أو المرأة ، ثم يأتى من بعدهم قوم يسدون من الإسلام مسداً وهم لا يجدون شيئاً فانظر أمراً يسع أولهم وآخرهم » [1] .

وأشار بمثل ذلك على حين استشاره عمر ، فهؤلاء النفر من جلة الصحابة : عمر وعلى ومعاذ ابن جبل ، اتفقوا على منع المقاتلة عن قسمة الأرض بينهم رعاية لمصلحة بقية المسلمين لئلا يحوزها المقاتلة ولا يبقى شىء لمن يجىء بعدهم وقد وافقهم الصحابة وجرى العمل عليه فى أيام عمر والخلفاء من بعده فقد منعوا التفاوت الشديد فى امتلاك الأرض قبل أن يقع .

وأما أنه عالجه بعد أن وقع ، فقد ورد عن قيس بن أبى حازم قال : كانت بجيلة (وهى قبيلة من المسلمين) ربع الناس يوم القادسية ، فجعل لهم عمر ربع السواد ، فأخذوه سنتين أو ثلاثاً . فوفد عمار بن ياسر إلى عمر ومعه جرير بن عبد الله البجلى فقال عمر لجرير : يا جرير لولا أنى قاسم مسئول لكنتم على ما جعل لكم ، وأرى الناس قد كثروا فأرى أن ترده عليهم . ففعل جرير ذلك فأجازه عمر بثمانين ديناراً » [2] .

وورد أن امرأة من بجيلة يقال لها أم كرز قالت لعمر : يا أمير المؤمنين إن أبى هلك وسهمه ثابت فى السواد وإنى لم أسلم . فقال لها يا أم كرز إن قومك قد صنعوا ما قد علمت - أى من تسليم الأرض - قالت : إن كانوا قد صنعوا ما صنعوا فإنى لست أسلم حتى تحملنى على ناقة ذلول عليها قطيفة حمراء وتملأ كفى ذهباً . ففعل عمر ذلك ، فكانت الدنانير نحواً من ثمانين ديناراً » [3] .

وحادثة قبيلة بجيلة تشبه ذلك القانون الذى أصدرته الدولة بتحديد الملكية الزراعية فهما يجتمعان فى أنهما أخذا الأرض ممن كانت تحت أيديهم بعوض يؤدى لهم نظراً لمصلحة المجتمع ، فقد قال عمر لولا أنى قاسم مسئول لكنتم على ما جعل لكم ؛ وأرى الناس قد كثروا فأرى أن ترده عليهم مع شىء من الفوارق :

منها أن عمر نزع الأرض كلها . والقانون نزع ما زاد على مائتى فدان وأبقى له مائتين ، وهذا الفرق لا يؤثر لأنه إذا جاز أن تنزع الأرض كلها ممن هى بيده ، فلأن يجوز أن ينزع بعضها ويبقى بعضها من باب أولى ، ومنها أن عمر جعلها وقفاً على المسلمين يزرعها من يزرعها على خراج يؤديه يصرف على المسلمين ، أما القانون فقد ملكها لغيرهم من الفقراء ، ومنها أن عمر فعل ذلك والعهد قريب . والتراحم والإيثار بين المسلمين ، وهذا يجعل مهمته سهلة ، أما القانون فيفعل ذلك وقد بعد العهد وفنى عليه الكبير ونشأ عليه الصغير ، وقد تغيرت

(١) ص ٥٩ المصدر نفسه .

(٢) ص ٦١ كتاب الأموال ، و ٣١ الخراج لأبى يوسف .

(٣) ص ٦٢ كتاب الأموال .

نظرة المسلمين بعضهم لبعض فصارت نظرة استغلال لا نظرة أخوة وتعاون ، وهذا ما يجعل المهمة شاقة ، وأمل فى هذا التدرج الذى جعل تنفيذه على خمس سنوات ما يخفف من وقعه ، ولعله إذا فهم الإقطاعيون أن هذه الكظة كانت تضر بهم ولا تنفعهم وكانت تحرم كثيراً من إخوانهم ما خلقه الله لهم ، خف وقعه وزال ألمه .

تأملوا فى هاته الوقائع التى تتعلق بالأرض تتبينوا المبادىء الإسلامية من خلالها ، تلك المبادىء التى غرست فى نفوس المسلمين الأولين وظهرت منهم أعمالا حكيمة وقضايا عادلة .

يرى الإسلام أن المجتمع الإسلامى كأسرة واحدة ، وليس من العدل أن يختص بعض الأسرة بالأرض ويحرم الباقون . وقد فهم ذلك عمر ، بل إنه لم ينظر لمن حضر فقط بل نظر للحاضر ولمن تلده الأرحام . انظر إليه حين يقول : فما لمن يأتى بعد ؟ كره أن يحوز الأرض المقاتلة الذين بذلوا دماءهم وأموالهم فى الجهاد حتى دانت لهم الأرض فيولد من يولد ويدخل فى الإسلام من يدخل فيجد الأرض قد حازها من حازها ولا يجد ما يملكه .

ماذا يكون حكم عمر حين يجد قوما لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب إنما ملكوها إقطاعا غير شرعى أو ورثوها عمن ملكها كذلك ، وحازوها ومنعوها عن بقية المسلمين وقد أساءوا التصرف فيها فلم يراعوا حق الله ولا حق الفقراء فى هذه الأموال .

وقد بقى أن يقال : كيف يخالف عمر عمل رسول الله فى خيبر من قسمة الأرض أخماساً وجعل الخمس لله وللرسول والفقراء ، وأربعة أخماسها فى المقاتلة ، ويذهب إلى حرمانهم وجعلها ملكا للأمة يزرعها من يزرعها على خراج يؤدى ينفق منه على المسلمين ؟ قلنا فى ذلك وجوه :

منها أن عمر ربما علم أن ما فعله الرسول كان على التخيير لا على طريق الإلزام .

ومنها أن عمر تأول آية الفىء على ما ذهب إليه وهى قوله :

« ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب . للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون . والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك

هم المفلحون . والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم » .

وقد قال حين ذكر الأموال وأصنافها والآيات الدالة عليها : استوعبت هذه الآية الناس .

ولعل عمر ذهب إلى المصلحة المرسلة ، ورفع الضرر ، وقد علل بذلك فيما روينا عنه .

ورحم الله عمر بن الخطاب فقد كان يعرف الأغراض العظمى للإسلام ويحافظ عليها ، وقد كان يعلم أن الشريعة عدل وإنصاف فحيث وجد العدل والانصاف فثم شرع الله .

وربما رأى فى النص والحادثة تقييداً بالزمان والمصلحة وما لابسها من حوادث ، وكان يراعى المصلحة ورفع الضرر عن الأمة ، ولا أعلم ضررا أبلغ من التفاوت الكثير فى الملكية الزراعية . وحسبنا أن ننظر إلى آثاره السيئة عندنا فقد جعل فى الأمة طبقتين طبقة أصحاب الأرض المالكين وفيهم الغنى والقوة ، وفيهم ما ينتجه الغنى من الترف والكبر والأثر والبطر والاستعلاء وغمط الناس . وطبقة الفلاحين وهم الكثرة الكاثرة من الأمة وفيهم الفقر والحاجة ، وتتبعه آثاره من الجهل والمرض والذلة والضعة والمهانة والاستخذاء وخلق العبيد من الجبن والخور والصغار .

ومثل هؤلاء لا يأبون الضيم ولا يحمون الذمار ولا يدفعون العار .

وإنما تولدت فيهم هذه الرذائل وما يتبعها لأنهم يرون أن رزقهم وحياتهم وعزهم وذلهم بيد صاحب الأرض إن شاء أبقاهم وإن شاء أخرجهم فرمى بهم إلى الطرقات حيث الجوع والعرى والموت فيذلون له ويخضعون .

وهذه النفوس المريضة لا ينفع فيها علاج ، لأنه كلما رفع المربون والعلماء من نفوسهم وراضوهم على العزة ، طغى على ذلك كله ما هم فيه من حالة اجتماعية فاسدة ومن وضع يجعلهم محتاجين لمخلوق مثلهم ، ماذا تنفع العظات والعبر إذا كانت تبنى والواقع يهدم وإذا كانت تدعو الى العزة وواقع الحياة يدعو للذلة ؟ !

أما الآن فإننا نأمل أن يصلح الله بتحديد الملكية الحالة الاجتماعية ، وأن يحقق الله به كثيرا من العدل فى الجماعة ، وأن يرفع مستوى المعيشة لكثير من الفلاحين فيتعلموا بعد جهل ، ويصحوا بعد مرض ، ويأمنوا بعد خوف ، وأن يشعروا بالعزة والقوة والحرية ، وأن تربى فيهم أخلاق الأحرار من الغضب للحق ، والإباء للظلم ، والكراهية للاستعباد . فإذا استنصروا نصروا ، وإذا استنفروا نفروا ، وإذا أتاهم عدو مغير طاروا إليه زرافات ووحدانا .

محمد عرفه

عضو جماعة كبار العلماء

مشيخة الأزهر الشريف

في أكمل ما شهدناه من عهودنا

إذا أراد الله بطبقة من أهل هذه الملة الإسلامية خيراً، هيأ لمستقبلهم القريب الحكم الصالح، ويسر لهم الإمام الذي انطوت سيرته النقية الطاهرة في جميع أدوارها على ما تستقيم لهم به القدوة، وتحسن به الأسوة، وتشيع به عدوى الإخلاص لله عز وجل في السر والعلن والقول والعمل.

وأحسب أن طلبة الأزهر الشريف لهذا العهد سيكون منهم لهذه الملة في مستقبلها القريب الخير الكثير، ولذلك كان من حظهم أن قيّض الله لهم الحكومة الصالحة التي تتحرى للولاية أكفاءها، كما قيض لهم القدوة والأسوة في سيرة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر مدّ الله في عمره وأدام النفع به.

إنهم الآن ليسوا أمام مركز رسمي تولاه كفؤه بالعلم والسابقة والصلاح فحسب، بل هم أمام مَثَلٍ أعلى للمسلم الكامل الذي ابتدأ حياته بنيّة الكفاح عن الإسلام وأهله، والاضطلاع برسالته، وتحمّل أماناته كاملة وافية. و «النيّة» هي الإبرة المغناطيسية التي يتوجه بها المسلم إلى هدفه من الحياة. ولذلك قال معلم الناس الخير صلوات الله وسلامه عليه «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى»، والحياة وتصرّفات المرء باتجاهاته في جميع أدوارها هي مجاع الأعمال، فهي أحوج إلى النية الوثيقة الثابتة الصادقة ليكون ما يصدر عن الإنسان من الأعمال في حياته تبعاً لها لا يحيد عنها مهما غالبته الظروف، ولا ينحرف عن اتجاهها ما استطاع، وإن انحرفت به الأهواء والمؤثرات. وطالب العلم الإسلامي إذا نوى من بدء حياته أن يقتصر في حياته على مطالب العيش ومتاع الدنيا بقي هدفه محدداً بهذا النطاق الضيق، وعاش على هامش الحياة عيشة تتناسب مع نيته، وكان في نظر نفسه - ثم في أنظار الناس - موزوناً بهذا المقدار، لا ينخدع به الناس بأكثر من ذلك، ولا يستطيع أحد أن يخدعه عن نفسه بأنها فوق ذلك. أما إذا نوى طالب العلم الإسلامي أن يعيش مكافحاً عن حقائق الإسلام - مهما كانت - وعن حقوق المسلمين حيثما كانوا، فإن حياته كلها تصبح حينئذ

حياة عبادة ، ويكون قدره عند الخالق والخلق متناسباً مع قدر النية القدسية التي عاش على ضوئها ، وعوّل على السير في الحياة بتوجيهها .

يقول فضيلة الأستاذ الأكبر شيخنا السيد محمد الخضر حسين متعه الله بالقوة والعافية والتوفيق :

ولولا ارتياحي للنضال عن الهدى لفتشت عن واد أعيش به وحدي

ونحن تلاميذه ، ومعنا إخواننا من طلبة الجامع الأزهر وكلياته ومعاهده الذين يعدون بالألوف ، ينبغي لنا أن يكون لنا في حياة شيخنا القدوة الصالحة ، وأن تكون لنا فيه الأسوة الحسنة ، فيكون أول ما نرتاح إليه هو النضال عن الهدى ، ولا يناضل عن الهدى إلا الذي تحرى معرفته ، وتتبع ما جل أو دق من علوم أئمته وتراث علمائه ، وجعل من نفسه حلقة متواضعة في سلسلته الذهبية التي أولها عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم بإحسان ، وآخرها عند شيخنا الجليل إمام الهدى السيد محمد الخضر حسين بارك الله في جهاده .

إنه أحسن النية لله منذ البداية فاتخذ منها إبرة المغناطيس التي توجه سفينة حياته في سيرها ، فما تعارضت دنياه وآخرته إلا اختار ما يبقى له في آخرته على ما هو زائل من بهرج دنياه . ومن عادة الله فيمن يؤثر الآجلة على العاجلة أن يجعله راضياً عن نصيبه في دنياه ، وقد يعلن الله كرامته لأوليائه بمكافأتهم حتى في إعلان مقامهم في الدنيا جزاء إيثارهم ما يرضاه لهم في يوم الدين .

أيها الطلبة الأزهريون ، إنكم تستقبلون في أول سنتكم الدراسية المباركة إن شاء الله مناهج لتثقيف عقولكم بعلوم الشريعة التي تقوم عليها رسالة دينكم ، وما يعين عليها من علوم العربية والسنن الكونية . ثم إنكم تستقبلون في هذا العام ما لا يفترق عن هذا ، أعني به خلاصته ، وثمرته الناضجة ، وغايته العليا ، وهو الأخلاق المحمدية ممثلة بسجايا أستاذنا الأكبر وسيرته في أكثر من سبعين عاماً ، وكفاحه في سبيل حقائق الإسلام وحقوق المسلمين . وتستقبلون مع هذا وهذا ، عهداً يتحرى الحق والخير ، والحق والخير جناحا الإسلام ومادة رسالته . فهنيئاً لكم سنتكم الجديدة ، وبارك الله لنا ولكم بحياة شيخنا وشيخكم ، وكونوا في عهد الحق والخير من خاصة أهلهما ، ومن أنشط الأعوان على تأهيل هذا الشعب للإفادة منهما ، وبذلك تكون إن شاء الله أمة صالحة ، وبذلك نكون من الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، والله يتولى الصالحين .



حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر
السيد محمد الخضر حسين

طالعت جريدة الأهرام في صباح يوم الأربعاء ٢٧ من ذي الحجة سنة ١٣٧١ (١٧ سبتمبر سنة ١٩٥٢) وفي صدرها المقال الآتي:

كانت مفاجأة حين خرج ثلاثة من حضرات الوزراء: هم السادة فتحي رضوان وأحمد حسن الباقوري وعبد العزيز علي، من مجلس الوزراء أثناء انعقاده، وتوجهوا إلى جهة لم يشاءوا ولم يشأ أحدهم أن يذكر عنها شيئاً، ولكن الصحفيين رأوا أن يقتفوا أثرهم، ولشدّ ما كانت دهشتهم بالغة حينما رأوهم يدخلون بيتاً صغيراً من البيوت الواقعة في شارع خيرت، ويطرقون باب شقة متواضعة يسكنها فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد الخضر حسين عضو جماعة كبار العلماء ورئيس تحرير مجلة الأزهر سابقاً. ولئن كانت هذه المفاجأة قد أدهشت الصحفيين، فإن فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد الخضر حسين كان أكثر منهم دهشة حين تحدث إليه الوزراء الثلاثة وعرضوا عليه مشيخة الأزهر باسم مجلس الوزراء واسم الرئيس اللواء محمد نجيب.

ويقول مندوب «الأهرام» الخاص: إن فضيلة الشيخ قد قبل منصب المشيخة الجليلة ورجا أن يوفق في تحمل أعبائها.

وقد أردت أن أقف من فضيلته على ما إذا كان له برنامج معين، فقال: إنها مفاجأة لم أتمكن حيالها من أن أضع برنامجاً معيناً أو أرسم سياسة خاصة.

فسألت فضيلته: وهل لكم رأي معين في كبار علماء الأزهر الذين يشغلون مناصب هامة؟

فقال: ليس لي رأي معين في واحد من حضراتهم، وكلهم موضع إجلالي واحترامي وتقديري

فقلت: وما رأيكم في المطلب الخاص بإقصاء أربعة من كبار العلماء الرسميين الأزهريين عن مناصبهم؟

فقال وهو يبتسم: طبعاً لن يكون هناك إقصاء، ومن رأيي أن تؤخذ المسائل بالرفق واللين

قلت: ومتى أخذتم الجنسية المصرية؟

فقال فضيلته : أخذتها فى نحو سنة ١٩٣٨

قلت : إن العالم الإسلامى يسره كثيراً أن تسند مشيخة الأزهر إلى رجل جليل مثلكم بعيد عن التيارات المختلفة ، فهل لكم كلمة توجهون بها إلى هذا العالم فى هذه المناسبة ؟

فقال : إن الكلمة التى أتوجه بها إلى العالم الإسلامى هى أننى أرجو المعونة من الله أن يحقق أمل المسلمين فى الأزهر الشريف .

قلت : وهل تقصدون غداً (اليوم) إلى مشيخة الأزهر ؟

فقال : إن فضيلة السيد أحمد حسن الباقورى سوف يحضر إلى غداً (اليوم) لأتوجه معه إلى دار الرياسة حيث أقابل الرئيس اللواء محمد نجيب .

من تاريخ حياته :

وقد ولد فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين فى بلدة « نفطة » من أعمال تونس فى سنة ١٢٩٣ هجرية ، فعمره الآن ٧٨ عاماً ، ولما بلغ الثانية عشرة من عمره انتقل إلى تونس والتحق بجامعة الزيتونة وحصل منها على شهادة العالمية فى العلوم الدينية والعربية .

وقد استهل فضيلته حياته العملية بالعمل فى الصحافة حيث أنشأ مجلة « السعادة » وراح يدبج فيها الفصول القيمة يعالج بها الشئون الدينية والأدبية .

ثم تولى القضاء فى بلدة « بنزرت » والبلاد المجاورة لها ، ولبث يمارس القضاء حتى سنة ١٣٢٤ هـ ، ثم عين مدرساً للعلوم الدينية والعربية فى جامعة الزيتونة ، وكذلك تولى التدريس فى المدرسة الصادقية وهى المدرسة الثانوية الوحيدة فى تونس .

يحكم عليه بالإعدام !

وقد اشتهر بعدائه للسياسة الفرنسية إذ كان يهاجمها فى مجلته ، وكان يبث روح العداء لها فى تلاميذه ، يريد بذلك أن يغرس فيهم الروح الوطنية والحرية الإنسانية التى يدعو إليها الإسلام ، فحقد عليه ساسة الفرنسيين وأكنوا له الحفيظة ، ودبروا له مكيدة سياسية قدموه من أجلها إلى المحاكمة حيث حكم عليه غيابياً بالإعدام ، فهاجر فضيلته إلى الشام ومعه عائلته وفيها تولى تدريس العلوم العربية والدينية فى المدرسة السلطانية .

وقد أوفده أنور باشا وزير الحربية التركية يومئذ إلى ألمانيا فى مهمة سياسية ، فقضى فيها نحو تسعة أشهر ، رجع بعدها إلى الشام ، وتولى التدريس فى تلك المدرسة ، حتى رؤى الانتفاع به فى وزارة الحربية التركية فعيّن محرراً عربياً فى ديوان تلك الوزارة .

شيخ الأزهر يتحدث إلى الأهرام

وكتب مندوب جريدة « الأهرام » الخاص فى عددها الصادر يوم الخميس ١٢ المحرم سنة ١٣٧٢ هـ (٢ أكتوبر سنة ١٩٥٢) يقول :

لا يزال فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر يحتفظ ببساطته فى كل مظهر من مظاهر الحياة العامة والخاصة ، ومع أنه يشغل الآن منصباً دينيا خطيراً ، فلا تزال هذه البساطة التى درج عليها وألفها الناس عنه منذ وفد إلى مصر تلازمه ، إن مجلسه لا يزال كما كان ، يغشاه كل محب له وكل مريد للعلم كيفما كان مظهره ومخبره ، ولقد أردت أن أقف على آراء فضيلته فى طائفة من المشاكل الأزهرية التى تواجه المسئولين عادة فى مستهل كل عام دراسى ، ولما أفضيت إلى فضيلته بهذه الرغبة لم يشعر بالحرج الذى يشعر به الرسميون والمسئولون عادة فى مثل هذا الموقف ، بل آثر أن يكون صريحاً على سجيته ، واضحاً كما عرفته منذ نيف وعشرين عاما .

ورؤى مرة أخرى أن يعود إلى ألمانيا فى مهمة سياسية كذلك . فذهب إليها وقضى فيها نحو سبعة أشهر . ولما رجع إلى تركيا رأى ولاة الأمور فيها - بالاتفاق معه - أن يعود إلى الشام لمتابعة دروسه هناك ، ولكنه حين رجع إلى هذه البلاد وجد الفرنسيين قد احتلوها ، فهرب إلى مصر لاجئاً سياسياً ، وظل فيها منذ سنة ١٩٢٢ م يشتغل بالكتابة والتحرير والدرس حتى سنة ١٩٣١ م إذ رأى فضيلة الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى أن ينتفع به فى تحرير مجلة الأزهر ، وكانت تسمى وقتئذ مجلة « نور الإسلام » فعينه رئيساً لتحريرها وقد لبث فى هذه الوظيفة حتى عين فيها الأستاذ محمد فريد وجدى ، فانتقل فضيلته إلى رياسة تحرير مجلة « لواء الإسلام » التى يصدرها الأستاذ أحمد حمزة وزير التموين السابق .

فى جماعة كبار العلماء :

وقد قدم فضيلته رسالة علمية [1] نال بها العضوية فى جماعة كبار العلماء .

(١) هى رسالة « القياس فى اللغة العربية » نشرتها المطبعة السلفية بالقاهرة .

تنظيم البعوث الإسلامية :

قلت : إن البعوث الإسلامية لا تزال قائمة ، ولعل هذه المشكلة تكون هامة إذا عرفنا أن هذه البعوث إنما هي أداة صالحة للدعاية الإسلامية لمصر في مختلف الأمم التي تدين بالإسلام . فهل تزمعون فضيلتكم أن تعملوا على أن تكون هذه البعوث الإسلامية في نظامها الحاضر وفي طريقة إعدادها متمشية مع ما نرجوه منها وما نؤمله فيها ؟

فقال فضيلته :

لا شك أنني أقدر الرسالة التي يصح أن يضطلع بها طلاب البعوث الإسلامية في الأزهر تقديراً خاصاً ، فهم رسلنا لدى أممهم ، وهم ألسنتنا المعبرة عن أمانينا وآمالنا ، بل لا أبالغ إذا قلت : إنهم المرايا التي تصورنا عند أممهم وشعوبهم بما فينا من خصائص ومزايا ومناقب أصدق تصوير . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن العناية بهم وبإعدادهم يجب أن تشغل حيزاً كبيراً من أوقاتنا . إنني أعنى في هذه الأيام بوضع نظام خاص بإعدادهم إعداداً قوياً يمكنهم من أن يؤدوا رسالة الخير والسلام على خير الوجوه . إنني أعد الأزهر في مصر بمنزلة الكعبة الشريفة التي يحج إليها المسلمون على مختلف أجناسهم ومذاهبهم ليؤدوا فريضة دينية ، والواجب يقتضي أن نعنى بكل ما يعود بالخير على الأزهر ، لأنه يعود بالخير نفسه على مصر وعلى الإسلام . ولا أذيع سراً إذا قلت إنني كنت أسمع الكثير من الأنباء التي تحز في نفسي وتؤلمني ، لأنها كانت تمثل العلاقة بين طالب البعوث وشيخ رواقه تمثيلا لا أحبه ولا أرضاه . لذلك عنيت كل العناية بأن أعمل على أن تقوم بين الاثنين علاقة روحية قوامها الحب والمودة والإخاء والخير ، وأعتقد أن هذه العلاقة سوف تقوم وتتوطد منذ الآن ، فلا أعود أسمع مرة أخرى أن شيخاً ظلم تلميذاً له ، أو أن تلميذاً لم يوقر شيخه التوقير الذي يليق به .

المكتبة الأزهرية :

قلت : والمكتبة الأزهرية . ألا ترى فضيلتكم أنها اسم على غير مسمى ، وعنوان لا موضوع له . ؟ وما هي الفائدة من أن يقال « المكتبة الأزهرية » أي المكتبة التي تمثل أقدم جامعة دينية في العالم ، ثم تعطل وظيفتها فلا ينتفع بها طالب ولا عالم ، ولا أجنبي ولا وطني ، ولم لا تكون مكتبة عامة على غرار دار الكتب . ؟ ولم لا تنشأ فيها غرفة للمطالعة وأخرى للبحوث والدراسات ؟ !

فقال فضيلته :

إن من الحقائق الثابتة أن المكتبة الأزهرية تشغل مكانا غير لائق بها ، ويسمح لطلاب العلم والبحث والمعرفة بالانتفاع من كنوزها النفيسة وذخائرها العلمية التى لا يوجد لها مثيل فى جميع مكتبات العالم ، إنها تشتمل على آلاف من الموسوعات العلمية والدينية ذات القيمة الخاصة فى عالم البحث والمعرفة ، وإن الأجانب الذين يترددون على الأزهر من العلماء والمستشرقين لا يعرفون كيف ينتفعون بما تشتمل عليه من النفائس والذخائر . ولذلك فإنى أعمل الآن على تدبير مكان صالح لها ، على أن تتوافر فى هذا المكان الشروط التى يجب أن تتوافر فى مكتبة تاريخية عامة تكاد تكون عالمية كمكتبة الأزهر . فيكون فيها نظام الإعارة على نظام جـديد ، وأن ينتفع بها الطالب والعالم والباحث على الطريقة العلمية الصحيحة . وقد أفرغ من دراسة هذا النظام فى وقت قريب إن شاء الله ، وسوف يكون من شأن هـذا النظام أن توحد المكتبات الأزهرية التى توجد فى مختلف الأروقة وتجمع كلها فى المكتبة الأزهرية الكبرى ، فيشرف عليها مدير واحد ، ويكون نظامها واحدا .

المعاهـــد الدينية :

قلت : أعرف أن فضيلتكم تشتغلون الآن فى إعداد حركة تنقلات بين أصحاب الفضيلة شيوخ المعاهد ، فهل انتهيتم إلى رأى فى هذا الموضوع الهام وقد أصبحنا فى مستهل السنة الدراسية ؟

قال فضيلته :

إنى أعتقد أن شيخ المعهد فى الأقليم هو مظهره ورأسه المدبر ، وعنوانه بين مختلف الطوائف والطبقات فى هذا الإقليم ، وأعتقد أن العناية باختيار شيخ المعهد تحتاج إلى البحث عن صفات وشروط خاصة فلا يصح أن يختار شيخ المعهد بدرجته أو أقدميته ، وإنما يجب أن يختار بكفايته وأهليته ومكانته ، سواء من ناحية العلم والخلق والكرامة ، أو من أية ناحية أخرى . ولذلك فإنى استضىء فى بحثى بهذه الاعتبارات ، لأنى أحرص على اختيار شيوخ يتسمون بالخلق والكرامة والأهلية والكفاية مع الغيرة الدينية ، ليكونوا قدوة حسنة لأبنائهم من الطلاب ، وليكون شيخ المعهد فى إقليمه خير سفير يمثل المسلمين فى هذا الإقليم . وإنى لأرجو أن أنتهى من هذه المسألة فى وقت قريب جدا ، أو فى أيام قلائل ، ليكون كل شيخ على رأس المعهد الذى يعين شيخا له فى مفتتح العام الدراسى .

مدير مجلة الأزهر :

قلت : ولا زلت أرى أن مجلة الأزهر فى حاجة قصوى إلى أن يوضع لها نظام محكم يمكنها من أن تساير النهضات الاجتماعية فى مختلف مرافق الحياة ، وقد قرأت أن فضيلتكم قد قبلتم استقالة مديرها السابق الأستاذ أحمد حسن الزيات .

وهنا قاطعنى فضيلة الأستاذ الأكبر وقال بصوت خفيت :

إنى سوف أختار لهذه المجلة عالما أزهريا يجعل طابعها أزهريا ويمثل فيها الأزهر بحوثه ، أو بالبحوث التى ينشرها فيها . ولا شك أنى أرى من وراء ذلك إلى أن تكون هذه المجلة اللسان المعبر عن نزعات الأزهريين المختلفة ، وآرائهم فى مختلف البحوث التى تتصل بالإسلام أو بالحياة الإسلامية ، فتنير الطريق أمام قرائها سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين فى أمهات المشاكل ومعضلات المسائل العامة التى تكون موضع أخذ ورد بين الناس ، وبهذا تكون المجلة قد أدت رسالتها على نحو سليم صحيح . وأنت تعرف أنى قد تحملت أعباء العمل فى هذه المجلة بضع سنوات فعرفت مواطن الضعف فيها ومكان النقص فى رسالتها ، ولذلك فإنى أسترشد بما لمسته من الحقائق ، وأرجو أن يكون رائدى فيما اعتزمه من العمل ، على أن يوضع لها النظام الذى يكفل لها الحياة والنمو والبقاء .

الأزهريون عنوان الخير والمحبة والسلام :

قلت : وهل لفضيلتكم كلمة تستقبلون بها أبناءكم من العلماء والطلاب فى مناسبة افتتاح السنة الدراسية ، انى قد رأيت فى الأيام الأخيرة أن هناك اتجاهات متناقضة تصور بعض الأزهريين على أن بينهم خلافا مستحكما ؟

فقال فضيلة الأستاذ الأكبر :

أنا أميل بطبعى إلى الخير والسلام ، ولم أكن فى يوم من أيام حياتى متحزبا ولا متعصبا ، بل كنت دائما أكره التحزب والتعصب ، وأوثر أن آخذ الأمور باللين والرفق والهوادة ، وأنت تعلم أن شيخ الأزهر هو الذى يمثل الأزهر ، ودعوة الأزهر إنما تقوم على تحقيق معانى الخير والتواد والتحاب بين الناس أجمعين ، والأزهريون بحكم وضعهم ووصفهم هم الذين يبصرون الناس فى أمور دينهم ودنياهم ، ولذلك كان طبيعيا أن يكونوا عنوانا للخير والمودة والمحبة والسلام ، وأن يكونوا إخوانا متحابين فى الله متساندين لتكون لدعوتهم صداها وأثرها فى التوجيه والإرشاد فى مختلف الأمم الإسلامية ، إن علماء الأزهر هم أقرب

الدين والقوة وسيلتان إلى غاية واحدة

العوامل ذات الأثر فى نظام المجتمع لا تعدو أن تكون أدبية ومادية ، وليس من قصدى أن أعرض لكل ما ينضوى تحت هذين النوعين ، فذلك اتجاه قد لا أبلغه ، وإنما أقصد — فى إجمال — إلى ما شرع الله لحماية المجتمع ، من دين وقوة ، فكلاهما وسيلة تلتقى مع الأخرى عند غاية واحدة : هى (أولا) تهذيب الإنسان حتى يكون فى الوضع الذى امتاز به بين الكائنات ، خليفة عن الله سبحانه فى عمارة دنياه ، و إنى جاعل فى الأرض خليفة ، (ثانيا) إحاطته بما يسبغ الله من الخير ، حتى تتجلى أنعم الله على خلقه ، فيشكرها من يقدرها ، ويسعد بها فى حياته الأولى والآخرة ، وهذا مظهر الألوهية فى عظمتها ، وذلك تقدير العزيز العليم :

الناس إلى معرفة أوامر الله ونواهيه ، وهم من الأمة فى مقام الأئمة والهداة ، ومن أجل هذا وجب عليهم أن يكونوا حريصين على كل ما يرضى الله وما يحقق الخير لهم وللناس ، وأنت تعلم أن الصفح والعفو والمغفرة من صفات الرجل المؤمن بالله العالم الإمام الحذق ، وأن من أحب الأمور إلى أن تجتمع قلوبنا على ما يكون ، وأن نستقبل الأيام بروح التسامح والمحبة حتى نصل إلى ما يرضى الله ويحقق الصالح العام ، والله وحده يهدينا إلى سواء السبيل .

ترجمة تفسير القرآن

قلت : هل أستطيع أن أقف على رأى فضيلتكم فى ترجمة معانى القرآن ؟

فأجاب فضيلته :

هل تريد ترجمة معانى القرآن أم ترجمة تفسير القرآن ؟ إن هناك فرقا بين ترجمة معانى القرآن وترجمة تفسيره ، وعلى كل فإنى أرى أن ترجىء الكلام فى هذا الموضوع حتى أتمكن من الاطلاع على ما سبق أن وضع من التقارير والمذكرات فى هذا الموضوع ، وإلى فرصة قريبة إن شاء الله .

* * *

وهنا شعرت أنى أطلت على فضيلة الأستاذ الأكبر ، بل أثقلت عليه ، فاستأذنت فضيلته فى نشر هذا الحديث ، فتفضل وأذن مشكوراً .

(١) يسلك الدين إلى تلك الغاية سبيل الدعوة السلمية في تنشئة الفرد على نمط يهيء له أن يكون لبنة صلبة في بناء رصين ، ووحدة سليمة في مجتمع قوى ، ثم يتجه إلى تكوين الجماعة من أولئك الأفراد الصحاح ، ويضع هذه الجماعة الآخذة به الراضخة لسلطانه ، في إطار من النظام الجماعي : تخيره من يعلم الخير والشر ، وماز الخبيث من الطيب .

يوقظ الدين في المرء إرادته ، وينبه فكرته ، ويحترم عقليته ، ويدعوه إلى الجادة المثلى الواضحة المعالم ، دعوة مقرونة بالإقناع ، ويحضه على التقرب إلى ربه بما شرع له ، ويشد أزره بالترغيب فيما عنده ، ليغالب نفسه ، ويهتدى بعقله ، ويستجيب لضميره ، وينأى عن الغى ، ويجنح إلى الرشد .

وما كانت العبادات على تعدد أنواعها ، والتأكيد لشأنها ، وترتيب الثواب عليها إيجابا ، والعقاب عليها سلبا ، إلا سببا بين العبد وربه ، وعروة وثقى في الصلة به ، لا لمجرد أنها تكليف ؛ ولكن لأنها نماذج للنظام الفردى والجماعى ، والله بديع السموات والأرض يحب من عباده أن يقتدوا بنظامه في ملكه فيما يخصهم ، وفيما يعمهم ، ففي العبادات تحديد للوعد ، ووفاء بالوعد ، وحفاظ على العهد ، وفيها عزوف وكبح للنفس عما تهوى من المآثم ، وفيها تعاطف ومعونة ، وتضحية بالمال وبالنفس عند الاقتضاء ، وفيها على الإجمال طموح إلى الإنسانية في أوجها الرفيع .

وهذا النمط الذى تبدو فيه علاقة المرء بربه لم يقف به في دائرته الفردية ، وإنما يرافقه بين الجماعة ، ويربطه بها ربطا وثيقا ، حتى ليجعل عبادة الفرد أحيانا مقرونة صحتها بالاشتراك مع غيره ، كما جعل من حياة الجماعة تكميلا لحياته وفي نظامها صيانة لشخصيته وحماية لوجوده .

وإذ يكون بمقتضى هذا جزءا لا ينفصل عن جملتها لم يسلبه الدين حقه كفرد له دائرته الخاصة به في هذا الحشد الزاخر .

وسبيل الدين في ذلك تنظيم الحكم ، وتحديد السلطة ، وتوثيق الأنساب ، وضبط المعاملات المالية في أوضاع لا تشذ عن المصالح ، وربط السياسة الداخلة في حيز الدولة وسياسة الدولة مع أخرى ، بأصول قائمة على العدالة الاجتماعية ، وعلى الحزم ورعاية الأحكام .

بهذا الإيجاز تتبين الوسيلة الدينية وما تنتهى إليه من غاية في كفالة الفرد من الطغيان وفي كفالة المجتمع من الشرور ، والجرائم التي تهد من كيانه ، أو تسلبه الاستقرار في محيطه .

وبهذا التصوير تتشخص الحياة المثالية التي يرتضيها الدين الإسلامي لأهله، ويهدى إليها القرآن وآياته البينات، والتي انتهجها النبي ﷺ وصحبه وجاهدوا فيها، ولكن هل يكفي ذلك التشريع الرحب الفضفاض لإرضاء النفوس الجوامح، ورياضتها على الطاعة، وإسلاس القياد فيمن يتملكهم الشذوذ عن الجماعة؟.

إن الذي خلق النفوس لم يشأ لها أن تكون على غرار واحد، ولم تقتض حكمته أن تكون سواسية في الهدى «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة». «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها».

(ب) وهنا تشتد حاجة الدعوة الدينية الى القوة المادية ماثلة في الجيش، لتقمع الخوارج، وترجع بالشواذ إلى حظيرة الجماعة، وتفتح الآذان الموقورة لسماع دعوة الأذان إلى الفلاح، وتنفذ إلى القلوب الغلف بنور السماء لمن شاء الله أن يهديه.

تشتد حاجة الدعوة إلى القوة لتحمي الأخلاق عما يغتالها، وتصون الكرامات مما يثلمها وتناصر الدعوة في كفاحها، وتوفر لها الأمن في وطنها، وتشق لها طريقها لتسعى قدماً الى غايتها:

لا ترجع الأنفس عن غيها ... ما لم يكن منها لها زاجر

ومن هنا اتفق في حكمة الله أن تكون الرسالة الدينية في الإسلام قائمة على الدعوة والقوة جميعاً، إذ الإسلام دين ودولة، وهو يعتمد في دولته على الدعوة أولا، ثم يلجأ إلى القوة إذا تمردت عليه الجاهلية، أو وقف في سبيله العداء الموروث. ومنهج القرآن في تنظيم الأمة جاء على ذلك، وبه نهضت للمسلمين دولة في أرض موحشة، وبين خصوم جبارة، ثم اتسعت لهم الرقعة، وتركزت لهم السيادة بتآزر الدعوة والقوة، وتلك سنة الله لم تتخلف بعد إلا عمن تخلف عنها، ولم تتغير إلا بقوم غيروا ما بأنفسهم.

غير أن الدعوة لا ترتكز على القوة الغاشمة المطلقة عن القيود؛ فإن هذه تكون ضراوة وحشية، تزيد في الفوضى أولا ولا تجدى في العلاج، وتعود بالنقض على أغراض الدعوة السلمية.

إذا استشفيت من داء بداء ... فأقتل ما أعلك ما شفاكا

وإنما تعتمد على القوة المصقولة بصقال الدين، المشربة بروحه، وإنسانيته، وتلطفه، النازلة على حكمه فيما لها أو عليها مع أولياء الدين أو خصومه.

ومن أجل ذلك كان الإسلام رحمة بالناس ، حتى فى خصومته وحروبه ، وفيئا بعهده كريماً فى هدنته ، ومن لم يهد بقصص القرآن ، ومن لم يؤمن بما يؤيده من أحداث التاريخ فله شأنه :

وليس يصح فى الأذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

وبعد : فإن لدينا فى مصر أصدق العبر - ومصر هى البلد العريق فى إسلامه وفى عروبته ، وبلد الخلافة يوم أوت إليها مهيضة فآوتها ، وهى بلد الأزهر قديماً ودائماً - إن شاء الله - إذ دخلتها دعوة الإسلام تؤازرها القوة ، وخفقت على شرفاتها راية الإسلام فى ظل القوة ثم وهنت قوتها أخيراً بفعل الزمن وأعاصير السياسة ، فوهنت دعوة الدين نوعا واعتورتها سهام الإلحاد ، وزاحمتها المجانة ، وطغت عليها نوازع الشر ، واتسعت الهوة بين دعوتها ، وجيشها ، ولم يبق إلا الأزهر وحده قائما على دعوته ، ولكن فى شىء من الجهد ، لكثرة ما افتتن الناس به من مغريات زحفت علينا ، حتى أصبح الأزهر فى وطنه كالدخيل على غير أهله ، يتعرفه واحد ويتجاهله آخرون ، وحتى خشى الأزهر أن تتأصل وتعيش حوله تلك المخازى ، فتحيف من شأنه ومكانته ، بل لقد رأى الأزهر أثراً لذلك الذى يخشاه فى أفراد أحاطت بهم عوامل السوء فلانت قناتهم فى يد الفتنة ، مما يشتد لهوله الأسى ، وتتقد له الحسرة بين الضلوع .

وكأن هذا فى علم الله إيذان بانتهاء المحنة ، وتقلص الفتنة ، واستعادة الدين لصولته ، وانتعاش الأزهر فى رسالته ، إذ بعث من معاقل الجيش المصرى همة فى كبرياء ، وغيرة فى إباء ، بعث من معاقل الجيش حماسة ابن الخطاب ، ماثلة فى إقدام ابن العاص ، وجدد وفاء السابقين من أبطال الأمس ، فى نجيب وصحبه من أبطال اليوم ، فدالت دولة الفساد والظلم والإلحاد فى ساعة ، وتجددت للوطن كرامته ، وللدين قداسته ، وللشعب بهجته ، وستظل - برعاية الله ، ومعونته - هذه النهضة على قدم وساق . ولعل من الفأل الحسن أن تقترن هذه الوثبة باستقبال الأزهر لشيخ تقى يستعين بالله حقاً ، ولا يقول إلا صدقا ، وهو بعد ، لا تخدعه الزلفى ، ولا يغره الثناء ، وعلى مثل هذا الشيخ يتوكأ الأزهر وينهض ويستفيد ويفيد ، والله المستجيب .

محمد عبد اللطيف السبكى
عضو جماعة كبار العلماء



دعاء واستعاذة

عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال : لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . كان يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر . اللهم آت نفسى تقواها ، وزكّها ، أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها . اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها » رواه مسلم .

• • •

للدعاء فى الإسلام ، وهدى النبى عليه الصلاة والسلام ، شأن عظيم ومقام كريم . ألم تر إلى فاتحة الكتاب : أم القرآن وأعظم سورة فيه ؟! شطرها الأول ثناء ، وشطرها الآخر دعاء . أو لم تر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ؟! لم يكتف بأن يحدثنا أن الدعاء أكرم شىء على الله تعالى ، حتى حدثنا أنه هو العبادة أو هو مخ العبادة [1] .

والعبادة هى منتهى الخشوع والخضوع لله رب العالمين . وبحسب إخلاص العبد فيها واستقامته عليها ، ترتفع درجته ، وتشرف عند الله مكانته .

وفى هذا الحديث الذى استخرنا الله تعالى أن يكون فاتحة المجلة ـ وقد عادت إلى السُّنة ـ يستعيذ النبى صلى الله عليه وسلم ، ويعلم أمته أن تستعيذ من خمس آفات مهلكات ، كلهن شر يُتقى ، وبلاء يستعاذ بالله منه ! ثم يستعيذ صلوات الله وسلامه عليه من عذاب القبر ، وكأنه عاقبة محتومة للآفات السابقة ، ونذير سوء لما بعده من عذاب الآخرة ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ، ثم يضرع إلى الله تعالى أن يؤتيه ومن اتبع هداه التقوى ، وأن يطهره من هذه الآفات وما إليها ، ويقرن هذه الضراعة بالثناء عليه بما هو أهله ، ثم يتحصن به ـ وهو نعم الملجأ ـ من أربع بلايا من كفيهن فقد كفى الشر كله ، وضرب فى الخير بسهم وفير .

وقد زاوج النبى صلى الله عليه وسلم بين كل اثنين من هذه البلايا التى عاذ بالله منها

---

(١) إشارة إلى ثلاثة أحاديث رواها الترمذى وغيره : الأول عن أبى هريرة ، والثانى عن النعمان بن بشير ، والثالث عن أنس رضى الله عنهم .

لمشاكلة بينهما . فتعوذ أول ما تعوذ من العجز والكسل ، وكلاهما داء وبيل ومرض قاتل للحياة الروحية والاجتماعية ، بل للحياة الطيبة فى الآخرة والأولى . ويتفقان كلاهما فى صفة سلبية وهى التخلى عن العمل ، وإن كان منشأ التخلى فى العجز عاهة أو نحوها ، ومنشأ التخلى فى الكسل التقاعد والتثاقل عن العمل مع القدرة عليه ، إيثارا لراحة البدن أو حظ من حظوظ النفس وأهوائها . ويختلفان فى أن الكسلان مذموم ملوم لا عذر له ، لأنه ساقط الهمة خائر العزيمة متخلف عن الركب ، بضاعته الأحلام والأمانى « وبئس للظالمين بدلا » . أما العاجز فهو معذور إلى أمد بعيد ، ولا سيما عجز بمحض القضاء والقدر لا يد لصاحبه فيه كالذى يولد كذلك أو الذى يصاب من حيث لا يحتسب ؛ فأما من جنى على نفسه حتى أعجزها ، أو حاد بها عن طريق الجادة حتى أتلفها فهو أعظم من الكسلان جرما وأقبح إثما وذما ! فليتق الله امرؤ فى نفسه ، وليجنبها بواعث العجز والكسل ، وإلا فهو عضو فاسد يجب النظر فى إصلاحه أو بتره قبل أن يعدو فساده على المجتمع .

• • •

وتعوّذ صلى الله عليه وسلم من الجبن والبخل ، وكلاهما منع وشح ، غير أن الأول شح بالنفس ، والثانى شح بحبيب النفس ، وهما قرينان لا يكاد يذكر أحدهما دون صاحبه ، وكذلك ضداهما : الشجاعة والكرم . ومن أمثلة الاستدراك فى مبادىء النحو : فلان شجاع لكنه بخيل ، وذلك لأنه لا تخطر الشجاعة بالبال إلا ومعها الكرم . وتعليل ذلك هين ، فإن الكرم ضرب من ضروب الشجاعة .

ومرد الشجاعة بجميع صنوفها إلى الثقة بالله أولا ثم بالنفس ثانيا ، ومن هنا كان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أشجع الناس وأكرم الناس ، لأنهم أوثق الناس بالله عز وجل . وجود الخليل والحبيب بالنفس والمال ليس موضع ريبة ولا جدال . وكذلك ورثة الأنبياء من بعدهم ، وكم ضحّوا بالنفس والنفيس فى سبيل الله وسبيل أوطانهم ، لا يبتغون إلا وجه الله ولا يخشون أحداً سواه . فأما الجبناء والبخلاء فليسوا من ورثة الأنبياء فى شىء .

• • •

وتعوّذ صلى الله عليه وسلم من الهرم وعذاب القبر .

والهرم أقصى السن وأرذل العمر ، والهرم على هذه الحال كَلّ ثقيل على الأهل والولد ، وبالحرى غيرهم . وكبر السن مع ثقل الظل داء يستعاذ بالله منه ، فأما مجرد الكبر ، ولو جاوز المائة ، مع سلامة العقل وهدوء النفس واستقامة العمل فذلك خير يطلب المزيد منه . فإذا

اجتمع إلى تلك الصفات حنكة وتجربة وسداد فى الرأى ورشد فى السياسة ونور فى البصيرة وخشية لله وحده ، فذلك الإمام المقتدى به ، والسراج الذى يستضاء بنوره ، وفى مثل هذا يقول صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه الإمام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن بشر رضى الله عنه : « خير الناس من طال عمره وحسن عمله » .

* * *

وعذاب القبر ونعيمه كلاهما حق ، تضافرت الأدلة عليه ، وصحت الرواية فيه عن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم فى مواطن كثيرة . ولا يأبى دستور العقل أن يعيد الله تعالى حياة العبد فى جسده أو فى جزء منه ، وأن يعرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، ويقال له هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة . وقاعدة أهل السنة والجماعة أن شيئاً ورد به نقل قويم ولم يمنع منه عقل سليم ، وجب قبوله واعتقاده والإيمان به . وكم من شىء أثبته العلم الحديث فى عالم الأحياء ، بعد أن أنكره قليلو البضاعة من أشباه العلماء ، فكيف بهم فى عالم الأموات وبضاعتهم فيه مزجاة ؟! ألا إن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ، فليعد امرؤ قبره كما يشاء ويختار ، « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » .

بعد أن تعوّذ صلى الله عليه وسلم من هذه الآفات التى تهلك من يبتلى بها ـ فردا كان أو جماعة ـ ضرع إلى الله سبحانه أن يمنح نفسه تقواها له وخشيتها منه ، وأن يزكيها ويجملها لأنه القادر على ذلك وحده ، فهو مالك أمرها ومدبر شأنها والقائم على كل نفس بما كسبت ، لا يسوق الخير غيره ولا يكشف الضر أحد سواه . إن ضراعته هذه بعد استعاذته ، من قبيل التحلية بعد التخلية ، أو من قبيل الصحة بعد العافية .

وتزكية النفس : تطهيرها سراً وعلانية من الخبث والدنس ، فى عقيدة المرء وسلوكه ومعاملته ، لنفسه أو لربه ، أو لأهله وعشيرته ، أو لوطنه وأمته والعالم أجمع .

ولقد قام الإسلام على قواعد التطهير العام الشامل : فدعا إلى تطهير العقائد من دنس الشرك والكفر وعبادة غير الله عز وجل ، وإلى تطهير العقل من الخشوع والخضوع للخرافات والأوهام والأضاليل ، وتقليد الآباء والكبراء على غير هدى وبصيرة ؛ وإلى تطهير القلب من الحقد والحسد والغل والشحناء والبغضاء وما إلى ذلك من أمراضه الذاهبة به وبصاحبه ؛ ودعا إلى تطهير المعاملات من الكذب والزور والرشوة والربا ، والحرص والجشع والخداع والطمع وما إليها من أكل أموال الناس بالباطل والعدوان عليهم فى المال أو العرض أو النفس .

بنى الإسلام - ولا نقول سبق - على هذا التطهير العام الشامل الذى لم يدع رذيلة إلا هدمها ، ولا نقيصة إلا محاها ، ثم شيد على أنقاض هذه الرذائل مدرسة قوية الأركان ، عتيدة البنيان ، منهاجها الكتاب المبين ، وإمامها خاتم النبيين ، وبنوها خير أمة أخرجت للناس .

وليس التطهير الذى تقوم به الحكومات الرشيدة فى عهودها المباركة إلا شيئا قليلا مما حمل الإسلام عبئه . وإذا كان الدين خير ظهير للحكومات ، يعينها ويؤيدها ويأخذ بيدها إلى ما ترجو من عزة وسعادة ومجد ورفعة . فما أجدرها أن تبادله معونة بمعونة ، فتكون له خير نصير ، تؤيده وتظهره ، وتثبته وتنصره ، وتتخذه فى كل عمل من أعمالها منهاجا لها وإماما .

فعلى بركة الله سيرى أيتها الحكومات السديدة مطهرة ومربية ، ومعلمة ومزكية ، موقنة بأن الله هو القيوم الديان ، وأنه يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » .

* * *

ولما كان النبى فى أمته ، والإمام فى رعيته ، والقائد فى جنده ، كالطبيب الشفيق الناصح ، وكان أخوف ما يخاف على مريضه الانتكاس والعياذ بالله تعالى ، عاد صلى الله عليه وسلم يتعوذ بالله من أربع آفات أخرى فيهن فساد المرء ودنسه ، ومنهن يكون بلاؤه وانتكاسه . على أنه صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ أحيانا من هذه الأربع على حدة ، فقد روى الاستعاذة منها فى حديث مستقل الترمذىّ والنسائى عن ابن عمرو رضى الله عنهما ، وكذلك أبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه :

الآفة الأولى : علم لا ينفع ، لأنه شر من الجهل ، فإن الجاهل قد يعذر بجهله ، وأما العالم الذى لم ينفعه الله بعلمه فهو فتنة للناس ومضلة لهم لأنه فى موضع القدوة منهم ، لا جرم أن علمه حجة عليه لا له وأنه أشد الناس خزيا ومقتا فى الدنيا والآخرة « يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .

الآفة الثانية : قلب لا يخشع ؛ لخلوه من الإيمان واليقين ، ولفساده باجتراح السيئات والمعاصى ، طبع الله عليه فلم يلن لذكر الله ولم يتعظ بمواعظ الله ، ثم انتقل فساده إلى الجوارح لأنه المهيمن عليها والمحرك لها . وفى حديث الصحيحين المعروف « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

الآفة الثالثة : نفس لا تشبع ؛ لجشعها وطمعها فهى وبال على صاحبها ومتعبة له ، لاتدعه يتمتع بما أوتى من نعمة ومتاع ، لا يتمتع بنعمة عاجلة لأنه مشغول عنها بالآجلة ، ولا يتمتع بنعمة آجلة لأنها لم تأت بعد ، لا جرم أنه الشقى المحروم الذى سلب نعمة الرضا وملئ قلبه بحب الدنيا . وحب الدنيا رأس كل خطيئة .

الآفة الرابعة: دعوة لا يستجاب لها، أو «دعاء لا يسمع» كما فى الرواية الأخرى؛ لأن عدم الاستجابة أمارة إعراض الله عن العبد لإعراض العبد عنه. وينبغى أن يعلم أن تأخير الإجابة ليس دليلا على رد المسألة، فقد تؤخر لأسرار إلهية، منها أن الله يحب أن يسمع صوت الداعى وتضرعه، كما أنه ليس من شرط الإجابة أن تقضى حاجة العبد نفسها، فربما ادخرها الله له فى الآخرة، وربما صرف عنه من السوء مثلها. فلا ييئس العبد من رَوح الله وليدْعُ ربه صادق النية حاضر القلب طيب الكسب موقنا بالإجابة. وقد بسطنا القول فى أدب الدعاء [1] فى شرح حديث الصحيحين «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل» فلا حاجة بنا إلى إعادته.

ذلك، وينطوى الحديث على لطائف جمة، وإشارات كريمة، إذا لم يتسع المقام لتفصيلها كلها فلا أقل من التنبيه على بعضها.

فمنها: أن التحصن من الآفات والبلايا، بالدعوات والاستعاذة، بمنزلة الوقاية منها قبل وقوعها. ومثل الأمراض الروحية والاجتماعيـة كمثل الأمراض الجسمية، الوقاية فى كل منها خير من العلاج. فاذا وقع شىء من هذه الأدواء، وجد إلى جانبه الأدوية التى أنزلها الحكيم الخبير ضامنة الشفاء. ومتى أصاب الدواء موضع الداء برأ بإذن الله. وما مثل الضمان الاجتماعى الذى تتباهى به الأمم بجانب هذا الضمان الإلهى إلا كمثل القشر من اللب أو كمثل الزَّبد من الزُّبد، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

ومنها شدة الصحابة رضى الله عنهم فى تحرى الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أخذاً من قول زيد رضى الله عنه: «لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول». وحسْبُ زيد شرفا وتحريا أن الله تعالى صدقه لما رفع إلى النبى صلى الله عليه وسلم قول عبد الله بن أبىّ رأس المنافقين: «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل». وقد أكذبه ابن أبى وحلف، فأنزل الله تصديقه؛ وأخذ صلى الله عليه وسلم بأذنه وقال: «وفت أذنك يا غلام». ولبسط القصة مقام آخر غير هذا المقام.

ومنها الإشارة إلى فضل الدعاء والاستعاذة، وعظيم أثرهما فى تزكية النفس وتربيتها، وصلتها بربها ومالك أمرها وناصيتها، ولا سيما مع الدوام الذى تشير إليه صيغة «كان...».

فاللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة، وهذا الجهد وعليك التكلان. اللهم اهدنا لأحسن الأعمال وأحسن الأخلاق، لا يهدى لأحسنها إلا أنت، وقنا سىء الأعمال وسىء الأخلاق لا يقى سيئها إلا أنت، ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا.

طه محمد الساكت

(١) بالجزء العاشر من المجلد الرابع عشر.

فى الفقه الإسلامى
نشأته - خصائصه

تمهيد :

١ — لكل مجتمع ، مهما كانت درجته من الفكر والحضارة ، حظه من قواعد وأصول تحكم تصرفاته ومعاملاته وسائر شئونه . والمجتمع العربى قبل الإسلام لم يشذ عن هذا الأساس الذى يقوم عليه بقاء الشخص والنوع والاجتماع والعمران .

لذلك ، نجد العرب عرفوا كثيراً من ضروب المعاملات ، كالبيع والمضاربة والشركة والإجارة ، وأقر الإسلام - على لسان رسوله وفعله وتقريره - ما وجده صالحا منها ، وحرم ما رآه غير صالح ولا يقوم عليه مجتمع سليم .

جاء فى سنن أبى داود عن رسول الله ﷺ أنه قال للسائب بن أبى السائب : « كنت شريكى ، فنعم الشريك ! كنت لا تدارى ولا تمارى » ومعروف أن السيدة خديجة بنت خويلد كانت امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه بشىء تجعله لهم [1] .

كما عرفوا أيضا عقد « السلم » ، ولذلك نجد الرسول حين ينهى عن بيع « الغرر » يستثنى السلم لما فى منعه من الحرج على الناس . وفى هذا يروى البخارى أن النبى ﷺ قدم المدينة وهم يُسلفون فى الثمار السنة والسنتين ، فقال : من أسلف ، فليسلف فى كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم ، ومعنى هذا ، إقرار ذلك العقد ، مع بيان الشروط الضرورية لصحته .

٢ — إلا أنه لا يستطيع أحد أن يزعم أن العرب فى جاهليتهم وصلوا من ذلك إلى بعض ما تصلح به أمة للحياة ؛ إن ما عرفوه فى هذه الناحية لم يكن إلا قواعد أو مبادىء متفرقة فى غير شمول ولا كفاية ، ومن أجل هذا وغيره كانت الحاجة ماسة للإسلام وشريعته .

أجل ! ظهر الإسلام والعرب ، بل العالم كله ، فى أشد الحاجة إليه ، فأعطاهم العقيدة الحقة ، والنظم التى يقوم عليها المجتمع والأمة ، وكان من هذه النظم الحكيمة ، ما نسميه اليوم « بالفقه » . وهو ما نرجو أن يوفقنا الله تعالى — فى هذه الكلمات — للتعريف بنشأته وخصائصه ، وبيان الطريق للإفادة منه ليكون القانون العام الشامل ، بدل

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ، نشر المكتبة التجارية سنة ١٩٣٧ ، ج ١ : ٢٠٣ .

ما نستجلبه من أمم أجنبية عنا بحضارتها وأهدافها في الحياة فليس كل ما يصلح لها يصلح لنا ، وبالله العون والتوفيق والسداد .

نشأة الفقه

٣ — لم ينشأ الفقه الإسلامي ، كما نعرفه اليوم ، كاملا مرة واحدة ، بل تدرج في مراحل مختلفة حتى بلغ ما قدر له من نضج وكمال ، شأنه في هذه الظاهرة شأن كل شيء وجد وعرف نور الحياة ، على أن الرسول ﷺ لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى ، حتى كان الفقه قد استكمل أصوله التي قام عليها واستوى فيها بعد ؛ إذ انقضى بوفاته عهد وضع الشريعة في أسسها وأصولها ، فلم يبق للفقهاء بعده إلا الاستنباط والتفريع والتطبيقات .

وكان من الطبيعي أن يكون عماد الفقه في الفترة الأولى من حياته الخالدة ، على القرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة ، وقد استمرت هذه الفترة طوال حياة الرسول ، وفيها نزل القرآن مفرقا في مكة والمدينة ، وكان ما نزل بمكة نحو ثلثيه والباقي بالمدينة ، وقد اشتمل ما نزل بالمدينة على الجانب الأكبر من التشريعات الفقهية التفصيلية . أما ما نزل بمكة ، فقد كان مقصده الأول الدعوة إلى الله وتوحيده ، والتدليل على ذلك وعلى وجود الدار الأخرى .

٤ — ولا عجب أن يكون هذا هو منهج القرآن مكيه ومدنيه . فالهم الأول كان صرف الناس عن الأديان والاعتقادات الباطلة ، وتوجيههم للدين الحق . وبعد أن تم للرسول النصر ولدين الله الفوز والثبات ، ودخل الناس في الإسلام أفواجا ، كان قد آن أن ينزل القرآن بالتشريعات التفصيلية الواجبة لتنظيم حياة المسلمين ومجتمعهم ، وبخاصة وقد صار للإسلام دولة بالمدينة تتطلب ما تقوم عليه من شرائع ونظم متعددة تحكم الحياة في نواحيها المختلفة .

ومن حكمة الله أن نزل القرآن بتكاليفه وأحكامه على التدريج ، رحمة بالناس وأخذاً لهم باليسر . وكان بعض ما نزل به إجابة على أسئلة واستفتاءات يتقدم بها هذا أو ذاك من المسلمين ، ولذلك نجد في القرآن خمس عشرة آية مصدرة بكلمة : « يسألونك » ، وآيتين مصدرتين بكلمة : « يستفتونك » ، ومن الضرب الأول ثمان آيات كان السؤال فيها عن بعض ما يتناول الفقه من موضوعات ، وكلها بسورة البقرة ماعدا واحدة بالمائدة وأخرى بالأنفال .

٥ — وكان الرسول إذا سئل عن مسألة ، أو جدت حادثة تقتضى حكم الله تعالى ، ينتظر الوحى السماوى ؛ فإن نزل بالمراد كان بها ، وإلا كان هذا إيذانا من الله بأنه وكل إلى رسوله أن ينطق بالتشريع اللازم ، ومعلوم أنه لا ينطق عن الهوى . ومن أجل ذلك ، يجب أن نجزم بأن كل التشريعات التى ظفر بها الإسلام فى عهد المصطفى ، هى تشريعات وأحكام إلهية : إما عن طريق مباشر بنزول القرآن بها ، وإما عن الرسول ويقرّه الله عليها .

وهنا ، ينبغى أن نلاحظ أن القرآن كثيراً ما كان يأتى بالتشريعات والأحكام بصفة عامة إجمالية ، وكان على الرسول — فى هذه الحالات — تفصيل هذا الإجمال . ولا عجب فى ذلك ، فإن مهمة الرسول دائما هى البيان لرسالته بكافة طرق البيان ، عما يرشد إلى مقاصد صاحب الرسالة الأعظم وهو الله تعالى . وقد يكون لنا أن نقرر فى إيجاز أن دور الرسول هو دور المفسر والشارح للنص الذى هو القرآن : إلا أنه شارح ملهم من الله ، مصحوب بتوفيقه .

وكان من ذلك ، أن مر الفقه بدور الشباب ، ثم دور النضج والكمال ، وأخيرا دور الشيخوخة بسبب التقليد ، ونرجو أن يستعيد من جديد فتوته وقوته وحيويته الدائمة .

وقيام الرسول ببيان وتفصيل ما جاء به القرآن من أحكام وتشريعات ، له مثل كثيرة : فى الصلاة والصيام والزكاة والحج ، [1] وفى غير ذلك كله من ضروب المعاملات ، وهكذا كانت السنة مبينة للقرآن ، وكان الرسول مشرعا بقوله وفعله وتقريره — وإن كان الله هو المشرع الأعظم فى الحقيقة — باستلهامه القرآن دائما : نصه ، وروحه ، ومقاصده التى ترمى دائما للصالح والخير العام .

٦ — هذا ، والذى يقرأ القرآن بتدبر وملاحظة لما فيه من أبواب الفقه ، يجد أن لكل من فروع القانون التى نعرفها اليوم آيات خاصة تبين أحكامه . ففى القرآن نحو سبعين آية فى الأحوال الشخصية . وفى المعاملات أو القانون المدنى نحو هذا القدر ، وفى باب العقوبات وإجراءات التحقيق نحو ثلاثين آية ، وفى باب القضاء والشهادة وما يتصل بذلك من مرافعات نحو عشرين آية والذى يتتبع فقه السنة ، يجد أيضا أن فى كل من هذه الأبواب كثيرا من الأحاديث ، منها ما يبين ما جاء فى القرآن مجملا ، ومنها ما يجىء بما سكت عنه . وكل

---

(١) لم نجد ضروريا أن نطيل بذكر الآيات التى شرعت بإجمال هذه العبادات والأحاديث التى تناولتها بالتفصيل ، فذلك معروف لمن يعرف شيئا من علوم القرآن والحديث .

هذا وذاك ، قد كل بما قرره القرآن والرسول من الأصول الكلية التشريعية ، وبذلك ظفر الإسلام حال حياة الرسول بتشريعات كاملة وافية بحاجات المسلمين الكثيرة المتنوعة والمتجددة فى كل زمان ومكان [١] .

ثم إن بعض رجال الحديث ، رضوان الله عليهم ، قد رتبوا ماصح عندهم من الأحاديث على أبواب الفقه ، بحيث يسهل للباحث معرفة مدى أثر السنة فى الفقه الإسلامى بجانب القرآن الذى هو المصدر الأساسى الأول لكل تشريع .

٧ — وبعد لحاق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى ، أخذ الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين والدولة الأموية يمتد إلى أقطار الأرض كلها ، شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، إذ فتح الله على المسلمين العراق والشام ومصر وشمال إفريقية والهند وغيرها . ولكل من هذه البلاد حضارتها وتشريعاتها المختلفة . ولكل منها أيضا تقاليدها وعاداتها وأعرافها التى تعتبر من مصادر التشريع . وكان من هذا كله ، أن كثرت الحوادث والنوازل التى تتطلب أحكام الله تعالى ، وأن أصبح المأثور من قضاء الرسول وأحكامه لا يفى بهذه الحوادث والواقعات التى تزيد وتتجدد فى كل آن .

وثمة عامل آخر كان له أثره فى الفقه فى هذه الفترة وما تلاها ، وهو هجرة كثير من الصحابة بعد عهد عمر ، رضوان الله عليه ، إلى هذه الأقطار ، فشاع التحديث عن الرسول ﷺ وكثر استنباط الاحكام من القرآن ومما يرونه صحيحاً من أحاديث الرسول . وطبيعى أن يكون لكل هذه العوامل ، وتلك ، أثرها فى الفقه والتشريعات ، وفى كثرة الاجتهاد والمجتهدين .

وهكذا ، بدأ الفقه الإسلامى يتسع ويزدهر ، وأخذت أصوله تعرف وتتميز ، من الكتاب والسنة والإجماع والقياس وغيرها كالمصالح المرسلة ، وبدأت أعراف البلاد المختلفة - التى أصبحت تكون جسم الدولة الإسلامية - تؤثر فى الفقهاء والفقه أثراً غير قليل ، إلا أن هذا الأثر يكاد ينحصر فى إثارة مشاكل لم يعرفها المسلمون من قبل ، فكانت ميدانا لاجتهاد المجتهدين .

٨ — وبعد فقد كان أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، إذا سئل أحدهما عن مسألة ، يلجأ أولا إلى الكتاب والسنة ، فإن وجد الحكم الذى يريد فذاك ، وإلا لجأ إلى الصحابة ويقضى

(١) ولذلك ، يقول الله تعالى فى أواخر حياة الرسول : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » .

بما يجد عند أحدهم عن الرسول . فإن أعياه الأمر ، استشار أهل الرأى والعلم وقضى بما يجتمعون عليه ، إلا أن عمر كان يرجع ، بعد الكتاب والسنة ، إلى رأى الصديق إن كان له رأى فى الحادثة ، قبل أن يلجأ إلى استشارة ذوى الرأى والعلم من الصحابة جميعاً .

ومع ذلك ، فقد كان لكل منهما اجتهاده فى بعض المسائل التى جدت فى أيامهم ، كما كانا يستعملان القياس أحيانا فيما لا نص فيه . لكن عمر كان يتخوف على الناس أن يجتهدوا فلا يوفقوا دائما لحكم الله . ومن ثم ، نجده يكتب لشريح ، حين ولاه قضاء الكوفة فيقول : « إذا حضرك أمر لا بد منه ، فانظر ما فى كتاب الله فاقض به ، فإن لم يكن ففيما قضى به رسول الله ﷺ ، فإن لم يكن ففيما قضى به الصالحون وأئمة العدل ، فإن لم يكن فأنت بالخيار ، فإن شئت أن تجتهد رأيك فاجتهد رأيك ، وإن شئت أن تؤمرنى ولا أرى مؤامرتك إياى إلا خيراً والسلام » [١] .

٩ — وإلى تشدد الصحابة فى الاجتهاد بالرأى ، مخافة القول على الله ورسوله بلا علم ، ينبغى أن نضيف أن الشيخين بخاصة كانا يتشددان فى الإكثار من الرواية عن الرسول خوف الوقوع فى الكذب وانصراف الناس عن الاستنباط من القرآن .

روى الحافظ الذهبى أن الصديق جمع الناس بعد وفاة النبى وقال : « إنكم تحدثون عن رسول الله ﷺ أحاديث تختلفون فيها ؛ والناس بعدكم أشد اختلافا ، فلا تحدثوا عن رسول الله شيئا ، فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه » [٢] . وروى أيضا عن قرظة بن كعب قال : لما سيرنا عمر إلى العراق مشى معنا ، وقال : أتدرون لم شيعتكم ؟ قالوا : نعم مكرمة لنا ، قال : ومع ذلك ، إنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل ، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم . جردوا القرآن ، وأقلوا الرواية عن رسول الله وأنا شريككم . فلما قدم قرظة ، قالوا : حدثنا ، فقال : نهانا عمر ! » [٣] .

١٠ — وما ينبغى لنا أن نظن من ذلك عدم اعتبار الصحابة للسنة مصدرا من مصادر التشريع بعد القرآن ؛ أنهم كانوا بلا ريب يعتبرونها كذلك ، ولكنهم كانوا يتشددون فى الرواية للحديث ، كما قلنا ، خشية الكذب أو الخطأ ، وهكذا كان الشك فى الحديث

(١) إعلام الموقعين لابن القيم ، طبعة منير الدمشقى ، ج ١ : ٧١ .

(٢) تذكرة الحفاظ ، ج ١ : ٣ (٣) نفسه ، جـ ٧ .

فيما بعد من عوامل ظهور الرأي في الفقه ، إلى درجة أن ظهر في الفقه في عصر متأخر قليلا عن هذه الفترة ، مدرستان : مدرسة أهل الحديث ، ومدرسة أهل الرأي .

وليس ضروريا أن نأتي بشيء من الأدلة على اعتبار الصحابة السنة مصدرا من مصادر التشريع ، فذلك معروف وبدهي ، ولكن نذكر — مع ذلك — مثالين في هذه الناحية . فقد جاءت جدة إلى أبي بكر تسأله ميراثها ، فقال لها لا أعلم لك في كتاب الله أو سنة رسوله شيئا ولكن سأل الناس ، فقال المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة بأن الرسول يعطيها السدس ، فقضى أبو بكر به . وكذلك استشار عمر في سقط المرأة إذا نزل بتعد من واحد من الناس ، فشهد هذان أيضا بأن الرسول قضى فيه بغرة [الغرة عبد أو أمة] ، فما كان من الفاروق إلا أن أمضى ذلك القضاء . [1] ومن هذين المثالين — وغيرهما كثير — نعلم مقدار احترام الشيخين لسنة الرسول ﷺ ، كما نعلم أنهما لم يكونا يتهمان أحدا من الصحابة بالكذب على الرسول ، حينما طلب كل منهما شاهدا يسند راوي حديث في ميراث الجدة وحديث سقط المرأة ، ولكن هو الاحتياط في الشريعة والرغبة في التثبت .

١١ — وهنا ، تظهر لنا مشكلة تشريعية تتطلب الحل . لقد رأينا أن الصحابة كانوا يلجأون إلى الرأي بعد الكتاب المحكم والسنة الثابتة ، وكان الحكم الذي يجمعون عليه يعتبر حكما ليس لأحد أن يخالفه ، فهل الأمر كذلك في قول الصحابي الواحد ؟ أي هل يعتبر قوله حجة لا يجوز أن نحيد عنه ؟ ويحسن بنا ، في طريق حل المشكلة ، أن ننظر لعامل الزمن والتاريخ .

إذا رجعنا لأقاويل الصحابة أنفسهم ، حين كان الواحد منهم يفتى باجتهاده ، نجد المفتى منهم لا يرى أن يكون رأيه ملزما ، لأنه يحتمل الخطأ كما يحتمل الصواب ، وليس لأحد حمل الناس جميعا على رأي فيه هذا الاحتمال .

لقد كان الصديق إذا اجتهد وبان له الرأي الذي يعتقده حقا ، يقول : هذا رأيي ؛ فإن يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمني وأستغفر الله ، وكذلك كان صنيع عمر ، فقد كتب كاتب له : هذا ما رأى الله ورأى عمر ، فقال له : بئسما قلت ! هذا ما رأى عمر ؛ فإن يكن

(١) راجع تذكرة الحفاظ ، ج ١ ص ٣ ، و ص ٨ .

(٢) إعلام الموقعين ، ج ٤ ، ١٠٣ وما بعدها .

صوابا فن الله ، وإن يكن خطأ فن عمر . وقال : السنة ما سنه الله ورسوله ، لا تجعلوا خطأ الرأى - لعله يريد الرأى الذى قد يكون خطأ - سنة للأمة .

١٢ — هذا ، ما كان يراه الصحابة وكبار التابعين ، عند ما يفتون بالرأى عن اجتهاد ، فلا يرونه ملزما للأمة وحجة على الناس جميعا لاحتماله الخطأ . أما إذا طوينا الزمن ، وانتقلنا إلى العصر الوسيط ، فإذا نرى مثلا الإمام ابن القيم المتوفى عام ٧٥١ هـ يعقد لقول الصحابى برأيه فصلا يقول فيه ما نذكره باختصار :

« إذا قال الصحابى قولا وخالفه مثله ، لم يكن قول أحدهما حجة على الآخر . وإن خالفه أعلم منه ، كما إذا خالف الخلفاء الراشدين أو بعضهم غيرهم من الصحابة ، فالصحيح أن الجانب الذى فيه الراشدون أو بعضهم أرجح وأولى أن يؤخذ به ، فإن كان الأربعة فى شق فلاشك أنه الصواب ، وإن كان أكثرهم فى شق فالصواب فيه أغلب ، وإن كانوا اثنين اثنين فجانب أبى بكر وعمر أقرب إلى الصواب ، فإن اختلف هذان فالصواب مع أبى بكر . وهذه جملة لا يعرف تفصيلها إلا من له خبرة واطلاع على ما اختلفوا فيه ، وعلى الراجح من أقوالهم ، ولا يعرف للصديق خلاف نص أبدا ، ولا يعرف له حكم ولا فتوى مأخذها ضعيف أبدا ، وهو تحقيق لكون خلافته نبوية .

وإن لم يخالف صحابى صحابيا آخر ، واشتهر قوله فى الصحابة ، فالذى عليه جماهير الطوائف الفقهاء أنه إجماع وحجة ، وقالت طائفة منهم هو حجة وليس بإجماع ، وقالت شرذمة من المتكلمين وبعض الفقهاء المتأخرين لا يكون إجماعا ولا حجة .

وإن لم يشتهر قوله ، أو لم يعلم هل اشتهر أم لا ، فالذى عليه جمهور الأمة أنه حجة ، وهو قول جمهور الحنفية ، ومذهب مالك وأصحابه ، ومنصوص الإمام أحمد واختيار جمهور أصحابه ، ومنصوص الشافعى فى القديم والجديد »[1] .

من ذلك كله ، نرى أن المتأخرين قد أعطوا لقول الصحابى برأيه مجتهدا فى الفقه قيمة أكثر مما كان يعطى الصحابة أنفسهم لآرائهم فيما لا نص فيه من كتاب أو سنة ، ونعتقد أن هذا أمر طبيعى ، فإن الصحابة لاتصالهم بالرسول ﷺ ، ولقدرتهم على الاجتهاد ، كان الواحد منهم لا يرى حمل الناس على رأيه ، أما فى العصور التى جاءت بعدهم ، فحق الحق عرفان قدرهم تماما لهم ، ووجوب العمل بآرائهم التى لم يقولوا بها إلا ولها سند من كتاب الله أو سنة رسوله ، وقد كانوا بلا ريب أقرب إلى فهم ذلك فهما حقا لمن جاء بعدهم إلى هذه الأيام التى نعيش فيها ؟

محمد يوسف موسى
أستاذ الشريعة بكلية الحقوق - بجامعة فؤاد

(١) إلى آخر ما قال ، فانه فيم حقا على طول فيه .

كلمة في الاجتهاد والتقليد

من نحو ست سنوات ندبتني وزارة العدل في سورية إلى إعداد مشروع لقانون الأحوال الشخصية ، وكان العمل في محاكم الشام الشرعية (ولا يزال) بالراجح من مذهب أبي حنيفة إلا ما نص على غيره في قانون العائلة الذي أصدره العثمانيون قبل الحرب الأولى وعدلوا فيه طائفة من الأحكام تشبه في الجملة ما اشتملت عليه القوانين التي صدرت في مصر قبل سنة ١٩٣٠ ، وبقي العمل بهذا القانون إلى الآن ، فكان المرجع القانوني للقضاة في الأحكام الموضوعية قانون العائلة ، فإن لم ينص فيه على حكم رجع إلى كتاب الأحكام الشرعية لقدري باشا رحمه الله ، وإلى كتب الفتوى في المذهب كحاشية ابن عابدين وتنقيح الحامدية وجامع الفصولين وأمثالها من كتب المتأخرين .

فلما شرعت بإعداد المشروع جعلت كتاب قدري باشا هو الأصل ، ووضعت أمامي قانون العائلة والقوانين المصرية ، وكتب المذهب والمذاهب الثلاثة الأخرى ، وغيرها من الكتب الفقهية ككتب الشوكاني وابن حزم وابن تيمية وابن القيم وفقهاء الجعفرية . ونظرت فعرضت لي مشكلة : هل ينبغي الوقوف في الترجيح عندما رجحه الفقهاء المتأخرون وعلى رأسهم الإمام ابن عابدين جزاه الله خيراً ؟ ثم جاوزت ذلك فسألت نفسي : هل يجب أن نقتصر في التقليد على المذهب الحنفي ؟ ثم سألت : هل من الواجب علينا التقيد بالمذاهب الأربعة الرسمية ؟

وإذا أردنا أن نأخذ من غيرها ، هل نصنع كما صنعت مصر ، فنعين أولا الحكم الذي نراه أوفق للمصلحة ثم نفتش عن قائل به[1] ، سواء علينا أكان هذا القائل معروفاً أم كان مجهولا ، وكان هذا القول مروياً بالسند المتصل أم كان مذكوراً عرضاً أو منقولا على لسان المخالف للرد عليه ! أم ننظر في الدليل ، فإن قام دليله أخذناه ، وإلا نبذناه ؟

وجرتني هذه الأفكار إلى تحديد موقفي (كما يقولون اليوم) من مسألة الاجتهاد والتقليد — ولما كنت قد نشأت نشأة غربية ، فواليت الدراسة في المدارس النظامية

---

(١) انظر كلمة الأستاذ المراغي رحمة الله عليه في ضبط الجلسة الأولى للجنة الأحوال الشخصية ، وهو في إدارة التشريع في وزارة العدل المصرية .

الابتدائية والثانوية والعالية ، وكنت مع ذلك أتردد صباحا ومساء على المشايخ ، وأجلس في حلقاتهم وآخذ عنهم العربية والفقه على الأسلوب القديم ، وكنت قريباً من جوهم إذ كان والدى من أعيان علماء الشام وكانت إليه أمانة الفتوى في دمشق ، فكان أول ما استقر في ذهنى أن الاجتهاد سد بابه من قرن كذا (نسيت الآن من أى قرن سدوه) ، وأن القائلين بفتحه مبتدعة ووهابية لا يعتد بهم ، ولا يلتفت إليهم ، وأن للفقهاء طبقات في التقليد ، عدها ابن عابدين في أول الحاشية ، وأن علماءنا الأحياء من الطبقة الدنيا منها ، وأنهم ليسوا أهلا للتخريج أو الترجيح فضلا عن الاجتهاد .

ولكنى فكرت في هذا المبدأ بحكم دراستى النظامية ونقدته بعقلى الآخر الذى كونته المدارس وعلومها ، فوضح لى أن هـــذا المبدأ صحيح إن كان المراد بالاجتهاد أن نلغى كل ما وصل إليه فقهاء المذاهب الأربعة ، ونؤسس مذهباً خامساً من جديد ، نضع له أصولا جديدة ونبنى عليها الفروع الجديدة ، فنكون كمن يهمل كل ما وصلت إليه صناعة الطيران ويعيد محاولة العباس بن فرناس ليضع طيارة يطير بها . أما إن كان المراد منع الاجتهاد إطلاقاً فليس بصحيح لأنها قد تجد أحداث لم تكن على عهد ابن عابدين ، ولا بد من بيان حكم الله فيها ، كثبوت رمضان بالبرق أو الهاتف (التليفون) ، وكصحة الجمعة بخطبة من الراد (الراديو) بدل الخطيب والكلام فيها ضرب من الاجتهاد ، ثم إن سد باب الاجتهاد بالكلية حظر على الله أن يخلق كأبى حنيفة ، وهذا محال .

فلما توثقت عرى المودة بعد ذلك بينى وبين العالم النبيل الشيخ محمد بهجة البيطار وهو ممثل مدرسة المنار في دمشق (إن صح هـذا التعبير) بلغتنى مقالة له يقول بمنع التقليد ، ووجوب الاجتهاد على جميع المكلفين ، وأعجبتنى هذه المقالة لجدتها ، ولأنها حررتنى من تلك التى كنت أشك فيها وأشكو منها ، ولكنى لما أنعمت فيها النظر ، وجدتها أكثر إمعانا في الخطأ من تلك وأبعد عن الصواب .

فحاولت أن أبعد عن ذهنى أقوال الطرفين ، وأن أجد السبيل إلى الحق بينهما ، فرجعت إلى أدلة الشرع فلم أجد نصاً في المسألة ، ووجدت أن الصحابة كان يفتى منهم أقل من ثلاثين ويرجع الباقون إليهم ، ويأخذون بأقوالهم ، ولكن من غير التزام لمذهب واحد منهم بعينه ، أو تسمية لمقلد ومجتهد ، أو ذكر لاجتهاد وتقليد .

فلما لم أقع على نقل في المسألة يوقف عنده رجعت إلى العقل ، فوجدت أن لكل علم من العلوم منقطعين إليه مشتغلين به ، وغرباء عنه زاهدين فيه جاهلين بأحكامه .

فإذا كانت لك قضية في المحكمة ولم تكن من أهل القانون اضطررت إلى الرجوع إلى المحامين و (تقليد) أحدهم فيما يؤدي به إليه (اجتهاده)، وإن عزمت على بناء دار رجعت إلى المهندسين، وإن مرض ولدك راجعت الأطباء، فإن رأى الطبيب الذي درس في فرنسا شفاء الولد في علاج، ورأى الطبيب الذي تخرج في أمريكا مضرته في هذا العلاج، ولم يكن بد من (تقليد) أحدهما، ولم يكن لك طريق إلى ترجيح واحد من القولين فماذا تصنع؟

تستفتي قلبك - وتميل إلى ما يميل اليه!

وهذا هو حال المقلد العامي في أمور دينه، فلا بد إذن من التقليد في علم الدين وفي علوم الدنيا، لأنه يستحيل أن يكون كل إنسان عارفاً بكل علم، له فيه رأي وبحث واجتهاد.

لكن إذا كنت تفهم شيئاً من أحوال هذا المرض - كأن سبقت لولدك الإصابة به وجرب العلاج وعرف أثره، فإنه لا يمنعك من الترجيح ومن الرد على أحد الطبيبين أنك لست طبيباً ولا عالماً بالطب، ولست عارفاً بأحوال الأمراض كلها.

وكذلك من بحث في مسألة من مسائل الفقه ونظر في أدلة من تكلم فيها - وكان له معرفة بعلم الأصول ومقدرة على فهم كلام العرب - لا يمنعه من أن يكون مجتهداً فيها أنه لا معرفة له بغيرها، ولا يسعه تقليد من يقول بعكس ما أوصله إليه اجتهاده.

فإذا كنت أديباً متمكناً من العربية وراجعت في مطولات كتب الفقه باب القراءة خلف الإمام - ونظرت في أدلة كل فريق ورجعت إلى كتب الحديث فعرفت درجة كل حديث منها، ومبلغه من الصحة - وكان لك إلمام بالأحوال - ورأيت أن الحق مع المالكية في الإنصات عند جهر الإمام، والقراءة عند إسراره، كنت مجتهداً في هذه المسألة، ولم يجز لك أن تقلد فيها أبا حنيفة وإن كنت حنفياً، بعد هذا الاجتهاد.

وفكرت بعد ذلك في التلفيق - هل يجوز؟.

فرأيت أنه لا بد من التفريق بين التلفيق عن هوى، أو عن نظر واجتهاد، وبين ان يكون من العامي أو من العالم.

أما التلفيق عن هوى، أو من العالم بأنه تلفيق فلا يجوز، وأما التلفيق عن بحث ونظر، أو من العامي فجائز، لأن العامي لا مذهب له، ومذهبه مذهب مفتيه.

هذا كله للفرد الواحد، ليقيم أمر دينه، ويبرىء ذمته. أما في التشريع للناس، فلا بد مع النظر في صحة الدليل، من معرفة حاجة الناس، وجعل العرف (إن كان عاماً) ومصلحة

الناس من جملة الأدلة ، وهذا ما جرى عليه علماؤنا حين جعلوا من الأدلة رفع الحرج ، وعموم البلوى ، والعرف ، وبنوا على ذلك فروعا كثيرة معروفة ، وقواعد منها أن للإمام أن يأمر بالمباح فيصير واجبا (ذكر ذلك فى الحاشية والأشباه) ، وأن يأمر الحكام باتباع أحد القولين .

ولقد وجدت خلال اشتغالى بوضع مشروع القانون أن فى المذهب أحكاما ثابتة بالنص القطعى كمنع الوصية للوارث ، ولا أزال أعجب كيف خالفتها مصر ، ولا أجد لها وجهاً برغم المباحث والمناقشات الطويلة التى كانت بينى وبين الأستاذ العلامة الشيخ فرج السنهورى فى داره العامرة فى مصر وفى مكتبه فى وزارة العدل .

وأحكاماً فيها نص ، ولكن النصّ فيها كالفقرة الحكمية المبنية على (حيثيات) . أخذ قوم بالحكم وحده (وهم الذين كانوا يسمون بأصحاب الحديث) وقوم كانوا أبعد نظراً ، وأدق فهماً ، نظروا إلى (الحيثيات) والأسباب ، فلم يجعلوا الصاع من التمر فى مسألة المُصَرَّاة هو القاعدة ، بل ثمن اللبن الذى أخذه المشترى من الضرع ، لأن النبى ﷺ ماحدد الصاع إلا لأنه كان عدلاً له ، ولعلّ من ذلك (فى رأيى) حكم الربا ، فى مبادلة القمح بالقمح مع الفضل ، فلقد كان ملاحظاً فيه أن القمح كله نوع واحد ، أفلا يتغير الحكم إن ثبت اليوم بالعرف العام أن القمح أنواع مختلفات بالخصائص والأثمان ؟

وأحكاماً مبنية على استقراء ، كتحديد أكثر الحمل بسنتين عندنا ولا يمنع مانع من تبديل هذه الأحكام إن ثبت بالاستقراء التام غير ما ثبت لدى الأولين بالاستقراء الناقص .

وأحكاماً مبنية على نص ، بوصف من الأوصاف ، لكن النص لا ينطبق عليها بوصف غيره ، كابن المحروم لا يرث من جده مع وجود الأعمام ، ولكن يعطى مثل نصيب أبيه (فى حدود الثلث) بوصف ذلك وصية واجبة .

وقد كان فى نفسى من ذلك شىء : كيف يحرم الله هذا الحفيد ونعطيه نحن ؟ وترددت قبل وضع هذا الحكم فى مشروعى ، وجادلت الأستاذ السنهورى فيه جدالا طويلا ، ثم شرح الله صدرى ، حين ذكرت أن المسلمين الأولين كان يكفيهم الندب لإعطاء هذا الحفيد . فلما قصر الناس فى أداء المندوبات ، كان من المصلحة أمر الحاكم الناس به . وكان فى ذلك تحقيق الإعطاء الذى أراده الشارع حين ندب إليه .

وأحكاماً مبنية على نص يقابله نص آخر ، وليس من مانع من الرجوع إلى النص الآخر ، كمسألة طلاق الثلاث بفم واحد .

وأحكاماً مبنية على اجتهادين : اعتبار مدلول اللفظ أو قصد المتكلم ، كمسألة الحلف بالطلاق أو استعماله للحث على فعل أو المنع منه ، ولا وجه لإيجاب أحد الاجتهادين حتماً ، ومنع الآخر حتماً .

وأحكاماً لم ينص عليها ، نستطيع أن نقرها سداً للذريعة كمنع المتزوج من الزواج مرة ثانية إلا بعد إثبات مقدرته على الإنفاق عليهما معاً ، وذلك خير من الإذن له بالزواج ثم الطلاق عليه لعدم الإنفاق ، أو تحقيقاً للمصلحة ، كمراعاة الكفاءة فى السن بين الزوجين ، وعدم الإذن بالزواج إن كان الفارق بينهما فاحشاً أربعين أو خمسين سنة مثلا ، أو إيجاباً لمندوب كأن تلزم من يطلق زوجته طلاقاً تعسفياً يؤدى بها إلى العوز والفاقة بتعويض فوق المؤجل يقدره القاضى .

* * *

هذه خواطر ما أردت بها الإحاطة بالموضوع ، ولكن فتح باب البحث فيه .

على الطنطاوى
قاضى دمشق

أهل الفتوى الأولون

قال ابن القيم فى أعلام الموقعين (١ : ٩) :

الذين حفظت عنهم الفتوى من أصحاب رسول الله ﷺ مائة ونيف وثلاثون نفساً ما بين رجل وامرأة .

وكان المكثرون منهم سبعة : عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود وعائشة أم المؤمنين ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر .

قال أبو محمد بن حزم : ويمكن أن يجمع من فتوى كل واحد منهم سفر ضخم . قال : وقد جمع أبو بكر محمد بن موسى بن يعقوب ابن أمير المؤمنين المأمون فتيا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى عشرين كتابا . وأبو بكر محمد المذكور أحد أئمة الإسلام فى العلم والحديث .

شعار المؤمن
السمع والطاعة للحق والعدل

بسم الله الرحمن الرحيم .

« يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات ، فاعلموا أن الله عزيز حكيم » .

آيتان محكمتان ، صدرت بهما طائفة من الآى الكريمة ، هى فى جملتها رسالة الرحمة ، توجهها السماء إلى أهل الأرض ، مناشدة إياهم أن يفيئوا من السلام إلى ظل ظليل ، يمحو من بينهم أسباب النزاع والخصام ، ومذكرة إياهم برباط الوحدة الإنسانية ، التى تسمو على فوارق الأحساب والأنساب ، والأجناس والألوان «كان الناس أمة واحدة» .

ولقد كان من بالغ الحكمة وجميل التلطف فى أسلوب هذه الدعوة ، أنها قبل أن ترقى إلى هذا الأفق العالمى الرفيع ، صعدت إلى منتصف الطريق ، فاختارت من بين الأسرة العالمية الكبرى ، أسرة كبيرة هى أحق بالترابط والتراحم فيما بينها ، تلك هى أسرة المؤمنين بالأديان السماوية ، الذين يجمعهم مبدأ الإيمان بالله واليوم الآخر ، نظمتهم الآية الكريمة فى سلك واحد ، وجعلت تناشدهم أن يلموا شعثهم ، ويضموا صفوفهم تحت لواء السلام الشامل «يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة» .

* * *

أول ما يعنى الباحث ماهنا ، هو الكشف عن حقيقة هذا السلام الشامل الذى يدعو القرآن إليه أهل الإيمان .

فنحن نفهم فى العادة من كلمة «السلم» معنى : كف الأذى ، وترك الشغب والفتنة ، ونبذ الحروب والخصومات ، وبالجملة معنى المسالمة فى معاملة الناس بعضهم بعضاً ؛ وهذا معنى صحيح فى ذاته ، غير أنه لا يمثل من السلام إلا عنصره السلبى ، ولا يصور منه إلا قشرته السطحية ، ومظهره الخارجى ، وكثيراً ما كان هذا المظهر طلاء خادعاً ، يخفى وراءه الداء الدفين ، والضغن الكمين ، وإنما السلام الحقيقى هو الذى يتقرر فى الآراء والعقائد ، قبل أن تحرر مواثيقه فى صكوك المعاهدات ، وقبل أن تطبق قواعده فى البر والبحر .

وكلنا نعلم أن القرآن الكريم ليس رسالة مدنية فحسب ، وأنه ليس كل همه تنظيم صور الحياة ومظاهرها ، وإنما هو قبل كل شىء تربية للعقول بالعقائد السليمة ، وتزكية

للقلوب بالمبادىء الفاضلة ، التى متى نبتت بين الجوانح ، أينعت ثمراتها الطيبة على اللسان والجوارح. أجل إنه ليس من سنة القرآن أن يكتفى فى معالجة الأمور بذلك النوع من العلاج السطحى الجانبى ، ولكنه دائماً يأتى البنيان من قواعده ويسوس الأمر من باطنه وأعماقه : يمكن للخيرات والفضائل بغرس بذورها ؛ ويكافح الشرور والرذائل ، باقتلاع جذورها .

السلام الذى يدعو اليه القرآن هاهنا ، هو إذاً شىء آخر ، أعمق من كل هذه المظاهر المادية : إنه فكرة حية ، وحقيقة روحية ، هو عقد وميثاق بين المرء وقلبه ، يلتزم فيه كل امرىء أن يكون متجاوبا حقا وصدقاً مع المثل العليا التى يؤمن بها . بحيث لا يثور تمرداً على تلك المبادىء إذا خالفت هواه ، ولا يعرض عنها كلما تعارضت مع ميوله ورغائبه ، فالدخول فى السلم هو الثبات تحت راية الحق فى خضوع واستسلام ، والانقياد لقانون العدل ، فى طاعة ونظام ، ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ، ، ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى » .

هذا هو لب المعنى وجوهره فى لغة العرب ، وهذا هو حقيقة السلم ، وحقيقة الإسلام ، فى لغة القرآن ، وهذا هو الدين الذى دعا إليه جميع الأنبياء ، وهذا هو الطريق الوحيد لنشر لواء الأمن والسلام بين الأمم والأفراد .

ذلك أنه لا يستقر أمن إلا فى ظل الألفة والترابط ، ولا تدوم ألفة إلا على أساس مبدأ واحد ثابت ، ولاوحدة ولاثبات إلا لمبدأ الحق الذى لا يتحول ولا يتعدد . وبضدها تتميز الأشياء . فليس على وجه الأرض فتنة وخصومة ، إلا كانت وليدة اختلاف ؛ ولا اختلاف يورث الخصام إلا أن يكون مبعثه تشعب الأهواء وتناقضها ، ولا تتشعب الأهواء وتتناقض إلا بمقياس بعدها عن جادة الحق ، وطريقه القويم : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » . « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن » .

هذا ولقد علمتنا التجربة والملاحظة المتكررة ، أن كثيراً من عندهم أصل الإيمان ، لا يعوزهم اعتناق المبادىء ، ولكن يعوزهم الثبات عليها ، وأنهم لا يتقم عليهم رفض مبادئهم والارتداد عنها ، بقدر ما يؤخذ عليهم تجزئة هذه المبادىء وتفتيتها ، وتركهم الميول والأهواء تعترض سبيلها ، وتقيم الحواجز أمام تطبيقها على عمومها : « يحلونه عاما ويحرمونه عاما ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله » .

ومن هنا يعرف السر فى أن القرآن لم يكتف بمجرد الدخول فى السلم ، بل طلب أن يكون « كافة » عامة ، وأن يكون الإذعان لأمره إذعانا كليا ، شاملا كاملا ، لا قيود له ولا حدود ، ولا التواء فيه ولا استثناء . فتلك هى أنصاف الحلول التى يأباها القرآن ، وذلك هو مناط الذم ، الذى وجهه إلى كثير من أهل الأديان ، فنحن نراه ـ حين يضرب للناس أمثالهم ـ يعرف لنا المؤمنين الصادقين بأنهم هم الذين يعتنقون الحق جملة واحدة « : يؤمنون بالكتاب كله ولا يفرقون بين الله ورسله ؛ وهم الذين إذا شرعت لهم القوانين العادلة لم يتبرموا بها ، ولو كان فيها ما تكرهه نفوسهم . ولم يتهربوا منها ، ولو كان من ورائها نقص شيء من حظوظهم وأمانيهم » إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، أن يقولوا : سمعنا وأطعنا » وفى ذلك يقول الرسول الكريم : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، إلا أن يؤمر بمعصية » .

أما الذين فى قلوبهم زيغ ، فقد وصفهم القرآن بأن كل شيء عندهم منقسم : عقائدهم ، ومعاملاتهم ، وأحكامهم ، فأما فى عقائدهم فإنهم يؤمنون ببعض الحق ، ويكفرون ببعضه ، وكلما جاءهم داعى الحق بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ، ففريقاً كذبوا ، وفريقاً يقتلون . وأما فى معاملاتهم فإنهم إذا لزمهم الحق لم يؤدوه إلا مكرهين ، « وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين » . وأما فى حكمهم على الأشياء وعلى الناس ، فإنهم لا يحمدون إلا الناحية التى يهب عليهم منها ريح الغنيمة : « فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » .

على أن الذى يذعن للحق فيما يرضيه ، ويعرض عنه فيما يسخطه ، ليس فى الحقيقة مذعناً له فى واحدة منهما ، ولكنه مستسلم لهواه فى كلتا الحالين .

ومهما يكن من أمر ، فإن التمرد على الحق كلا أو بعضا ، لا يمكن أن يكون نزعة من نزعات الإيمان ، وإنما هو نزعة من نزغات الشيطان . لا جرم حذرنا الله منه أشد تحذير ، حيث قال ـ جل شأنه ـ : « ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين » ، فكان صدر الآية تبصيراً بطريق الهداية ، وعجزها تحذيراً من طرق الغواية .

وهكذا كل قيادة حكيمة ، تبدأ بالبيان والإرشاد ، وتثنى بالنصح والتحذير ، فإذا أصر الناس على العناد بعد أن تبين لهم الرشد من الغى ، لم يبق إلا أن يؤخذوا بالحزم والعزم ، وآخر الدواء الكى : « فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات ، فاعلموا أن الله عزيز حكيم » . وصدق الله العظيم .

محمد عبد الله دراز

عضو جماعة كبار العلماء

من صور القوة في القرآن

ما أعذب الماء البارد على شدة الظمأ ! وما أجمل القوة العادلة عندما تنساب برداً وسلاماً فتحسم المظالم النازلة على الأفئدة الكسيرة، وتداوي الآلام التي برحت بالمظلومين والمستضعفين . . .

إنه لا يعرف فضل القوة المؤيدة للحق إلا من شقي تحت وطأة الطغيان دهراً طويلاً، إنه يستقبل طلائعها استقبال المقرور للدفء، واستقبال الحيران للإلف، إنه يعتبر زحفها بوارق الصبح تشق جنح الظلام، ومعالم اليقظة تغزو البصائر والأبصار . . .

وسلنا نحن — الذين طالما ناشدنا المستكبرين أن يتواضعوا، والغاوين أن يرشدوا — سلنا نحن — الذين طالما ناشدنا الظالمين أن يعدلوا، والعابدين لأنفسهم وهواها أن يوقروا ربهم ودينه — سلنا نحن — الذين بحت أصواتنا في التذكير بآيات الله والحكمة، فلم نجد إلا صداً وعلوا، وحقداً وعتواً — سلنا : كم تكون الفرحة ملء جوانحنا حينما نجد السيف قد قوم الصعر، وأدب البطر . . . وأكره الطاغوت أن يتضاءل ويتطامن، ويستمع للحق الذي كان يصم أذنيه عنه، ويستسلم للقصاص الذي كان في منجاة منه . . .

ما أنبل القوة العادلة عندما تحق الحق وتبطل الباطل، بعد ما كادت النفوس تزهق من باطل لبس مسوح الحق ومشى في الأرض مطمئناً، ومن حق علته زراية الباطل فتوارى عن الأعين مخذولا ضائعاً . . . !!

إن القوة التي تقيم بين الناس الموازين القسط هي ما أمر الإسلام بإعداده، وحض على بذل النفس والنفيس فيه.

وفي القرآن سورة يصح أن توضع آياتها في إطار من المدافع المتشابكة والقذائف الملتهبة، لأنك تلمح في كلها القوى صورة الصراع الدامي بين جند الرحمن، وجند الطغيان ! وترى الفريقين وقد ارتجت من تحتهما الأرض، وثار من فوقهما النقع ! ثم انجلى القتال بعد ما كتب النصر لأهدى الفئتين وأرضاهما لله، فتذكر قول الشاعر :

فتحت لكم ريح الجلاد بعنبر وأمدكم فلق الصباح المسفر !
وجنيتم ثمر الوقائع يانعاً بالنصر من ورق الحديد الأخضر !

أما هذه السورة فهى سورة (العاديات) .

بدأت بوصف رائق لخيل المجاهدين وهى تنطلق بأصحابها إلى الميدان ! إنها تركض حثيثا إلى غايتها ، تنهب البر وتخرق الريح ، وإصدورها علو وهبوط من تتابع الأنفاس واطراد العدو ، وفوقها فرسانها المغاوير يتسابقون إلى لقاء العدو . . .

كأنهم فى ظهور الخيل نبت ربا من شدة الحزم لامن شدة الحُزُم

ذاك ما أخذت السورة تصفه . فجاءت آياتها على هذا النسق « والعاديات ضبحاً . فالموريات قدحا . فالمغيرات صبحاً . فأثرن به نقعا . فوسطن به جمعاً » .

فإذا أحسست ضبح الخيل من طول لهثها ، أحسست كذلك انقداح الشرر تحت سنابكها وهى تضرب الصخور فى طريقها إلى ضرب المبطلين ، وتورى النار التى سوف تحرق وتضيء ، تحرق جلود الطغاة ، وتضيء سبل المعذبين المقهورين .

ثم تجيء بعد ذلك غارة الصباح ، وماغارة الصباح ؟ إنها الضربة المفاجئة تنزل بالغاوين على حين غرة فيستيقظون من غفلتهم على مس العقاب ، ولات حين مناص .

إنهم ظنوا أن الدنيا دانت لهم ، وأن الأوضاع استقرت تحت أقدامهم ، وأن الفضائل التى طاردوها لن تجد من يحميها ، وأن الرذائل التى ألفوها لن تجد من يدوسها ، فناموا ، وهم آمنون ! بيد أن للحق حراساً تسهدهم الآلام ، ويؤرقهم مانلقاه الحياة من عبث الطواغيت بأقدار العباد والبلاد ، إنهم يتحينون الفرص ، حتى إذا سنحت انقضوا على المجرمين انقضاض الصواعق ، فإذا الليالى تتمخض عن المغيرات صبحا ، يطالع الناس أنباءها مع مطالع الفجر .

حدث قديما قتال بين المسلمين واليهود . فزحف النبى ﷺ ليلا بجيشه على حصون خيبر ، فصحا اليهود مع الفجر ، ورأوا الصحابة محيطين بهم . فقالوا : محمد والخميس ! فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر ، هلكت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين !

إن العاديات المغيرات مع الصباح ليست جيوش استغلال ونهب ! إنها القوة جاءت مع موكب النور لتحرير العبيد من أوهام الظلام ، ولتحقق الهدف الأسمى من نزول القرآن « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ، بإذن ربهم ، إلى صراط العزيز الحميد الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض » .

وإذا انطلقت القوى العادلة من مكامنها لتؤدى رسالتها فإن الاصطدام بالجموع المتألبة المتحزبة ، وثوران النقع فى جو المعركة هو أول ما يتبادر إلى الذهن ، ذلك أن الباطل المستعلن بفجوره ، المستغرق فى غروره ، لا يتخلى عن ضلاله القديم بسهولة ، وربما تفانى فى التشبث بآثامه وأوزاره !

ومن ثم فلن يستطيع تأديبه إلا رجال لهم جرأة فى الحق تربو على جرأة عدوهم فى الباطل ، ولديهم حرص على التضحية فى سبيل الله أشد من حرص أعدائهم على المغامرة والسطو ، والاحتفاظ بمكاسبها الحرام ...

ونحن إذا راقبنا سير الطغاة فى الأرض وجدنا السيادة التى يظفرون بها أول أمرهم لا تعود إلى خصائص القوة فى أنفسهم قدر ما تعود إلى آثار الوهن فى صفوف غيرهم ...

حتى إذا رزقت المثل العليا بأتباع من أولى النجدة والفداء ، لم تلبث الحياة أن تعود إلى رشدها ، ولم تلبث الأصنام المقدسة أن تستحيل إلى أنقاض مبعثرة فى الرغام ... !!

وكيف تتم هذه الآيات الباهرة ؟ تتم بالقوة وحدها حين تنجد الحق المهزوم والخير المكلوم ... فلا عجب إذا أقسم القرآن بأدوات هذه القوة ومجد طريقة عملها ، والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا ، ...

إنه أقسم بصرامة الدواء على شدة الداء . أجل . فربما كان استخدام القوة عملا ينطوى فى ظاهره على خشونة وقسوة . لكن هذه الخشونة وتلك القسوة تعتبران برا كريما وفضلا عظيما يوم تكونان علاجا للكنود والعدوان والتبجح ، وكم ابتليت الحياة بمن ملأ لجاجها بهذه الخلال الخسيسة فحولها جحيما تشق فيها الأفراد والجماعات ...

فكيف النجاة من هذه الكروب إلا بالقوة العادلة ، القوة التى تجعل الشاعر يقول :

إذا الملكُ الجبار صعَّر خده مشينا إليه بالسيوف نعاتبه !

وعلاج الجبروت بالسيف عدالة تحمد لأصحابها فى الأرض والسماء .

وقد أقسم الله بالعاديات وما وراءها على هذا المعنى إذ قال : « إن الإنسان لربه لكنود ، وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد ، جحود حق الله ، والمغالاة بذلك ، والاستئثار دون الناس بالخير : هذه هى أسباب الفساد التى يجب أن تستأصل . ولن تستأصل بالنصح والإرشاد إلا إذا كانت رذائل فردية هينة ، أما إذا قام لها ملك ، وشرعت لتدعيمها رماح ، فلا يفل الحديد إلا الحديد .

وكان الإسلام يود لو أنصف الناس من أنفسهم بالعقل والحكمة ، بدل أن يلتزموا الإنصاف بالقهر والعنف ، غير أن غرائز السوء غلبت فلم يبق من قمعها بدٌّ .

والأديان لا تحمل السلاح إلا مكرهة ، وأنبياء الله كافة كانوا يمنون لو استمسك الناس بفضائلهم ، وتعرفوا إلى ربهم وكرسوا حياتهم فى شكر أنعمه ، وأحيوا ضمائرهم بمراقبته ، وأحسنوا الاستعداد للقائه .

فلا غرو إذ اختتمت هذه الصورة العسكرية بمناشدة الإنسان أن يلتزم هذه المعانى الطيبة النبيلة . « أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور . وحصل ما فى الصدور . إن ربهم بهم يومئذ لخبير » .

والحق أنه لو توفرت بين الناس الصدور السليمة ، وتركزت فى قرارة أفئدتهم حدود الثواب والعقاب ، فإنه لن يكون ثم مكان للحرب والضرب ، أما مع طغيان الأثرة وانفلات الزمام فسيبقى العالم محتاجا إلى القوة التى تقر العدالة ، العدالة والنظام ، مثل حاجته إلى الشراب والطعام ! ! وسنرى أنفسنا متساقين إلى تمجيد هذه القوة الكريمة ؟

محمد الغزالى

من التوجيه المحمدى :

المسلمون كما يريدهم الاسلام

فى كتاب البر والصلة والآداب من صحيح مسلم (٨ : ١٠ الطبعة السلطانية) من حديث أبي سعيد مولى عامر بن كريز عن أبي هريرة قال :

قال رسول الله ﷺ : « لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخوانا .

« المسلم أخو المسلم : لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره .

« التقوى هاهنا (ويشير ﷺ إلى صدره ثلاث مرات) . بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم .

« كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه » .

الحديث النبوى
مقاصده ، ألفاظه ، معانيه

أردت أولا أن أجعل موضوع هذا البحث (البلاغة النبوية) فقط ، ولكنى رأيت ذلك لا يشمل الحديث عن مقاصد الكلام النبوى الكريم ، وما فيه من توجيه صالح وثقافة تهذيبية وإرشاد سام يشبه النفس العظيمة التى صدر عنها ، ويرتفع بمستوى النفس البشرية عن كل رعوناتها ، حتى يصل بينها وبين السماء بأقوى وصلة وأحكم رباط . وذلك شىء يفوت علىّ وعلى القارىء الكريم فرصة حبيبة إلى كل نفس مسلمة ، فإن الحاجة إلى التأنق بين رياض الإسلام ومقاصده الشريفة يتجلى فى موضوعات حديث صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ، ليست أقل من الحاجة إلى معرفة البلاغة النبوية على سمو هذه المحاولة فإنها ناحية فنية كمالية لا يتطرق العوز بها إلى كل شخص ، فأما مقاصد الإسلام فإنها ضالة كل إنسان فى الوجود ، والتعريف بها ولو على وجه كلى يحمل توجيه إلى كل فرد وكل جماعة وكل أمة كيف تسلك سبل النجاة والرفعة فى دينها ودنياها من أقرب طريق وعلى أصح وجه .

وأظن أن القارىء الكريم فى غير حاجة أن يعلم أن معنى البلاغة النبوية شىء خاص يرجع إلى دراسة الألفاظ ومزاياها فى دلالتها على معانيها وما فيها من صفات وبجازة أو بسط ، وتقديم فى الأسلوب أو تأخير أوحذف وفصل بين الجمل أو وصل ، وما إلى ذلك من أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال كما يقولون . وذلك شىء فى ذاته يجرى مع كل غرض سما أو نزل . ويقع فى الهجر والإثم كما يتحقق مع الحق والحكم ، ويكون مع الحطيئة والفرزدق أقوى مما يكون مع الحسن البصرى أوالحسن بن على أحيانا .

لهذا جعلت موضوع هذه المحاولة (الحديث النبوى) من جميع نواحيه سواء منها ما يتصل بأغراضه ومقاصده ، وما يتصل بألفاظه وبلاغتها ، وما يتصل بمعانيه وامتيازها فى لطفها مع بساطتها ، وعلوها مع دنوها ، ويسرها مع اعتياصها على محاولها . وسترى تصوير ذلك كله مقربا ميسرا إن شاء الله .

فأما موضوع الحديث النبوى ومقاصده ، فإنها رسالة الإسلام العظمى التى قامت على هداية الناس ودعوتهم إلى ما يرفع مستواهم ، ويصلحهم فى دينهم وآخرتهم ودنياهم من أقرب الطرق وعلى أصح الوجوه ، ذلك هو سبيل الكلام النبوى الشريف : لا ينطق عن الهوى ، ولا يلفظ العوراء ، ولا يقرب الخنا حتى إنه كان إذا مزح لا يقول إلا حقاً ، وإذا أراد إخفاء أمر عرض فى قوله فكان صدقاً ، يقول فى بعض حديثه « إن فى المعاريض مندوحة عن الكذب » .

لقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، فكان الخير يتضوع من جميع جوانبه ونواحيه ويتمثل فى قوله كما يتجلى فى فعله . وكان يأبى إلا أن يكون مشرعا أمينا وناصحاً مبيناً . فهو يتوقف عما لم يوح به إليه فى مقام التعليم ، ويقول لمن سأله عن الحج : أفى كل عام يا رسول الله ؟ « لو قلت نعم لوجبت ولم تستطيعوا . إذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم ، فإنما أهلك من قبلكم كثرة مسائلهم ، واختلافهم على أنبيائهم » .

وليس معنى ذلك أن كلام النبى صلى الله عليه وسلم كان وحيا كله ، ولا أنه كان تشريعاً فى جمله وتفصيله ، فإنه صلى الله عليه وسلم كانت له ناحية البشرية التى تحقق له بعض الملذات وتمتعه أحيانا بالطيبات ، يقول القول أحيانا فلا يمضيه لأن الله يصرفه عنه إلى ما هو خير منه ، وذلك هو معنى العصمة فى جانبه صلى الله عليه وسلم ، ولهذا يقول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى رواه مسلم وغيره عن رافع بن خديج : « إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من دنياكم فإنما أنا بشر » .

وهذا شىء لا أريد أن أخوض فى تفصيله ولا هو من شأنى الآن ، إنما أريد أن أصور أن حديث رسول الله فى جوانب الخير ونواحى الإصلاح ، وأنه لم يكن يتناول من الموضوعات إلا ما يتفق مع سمو شخصه ، ويتناسب مع رسالته . وإنه وصف فى التوراة والإنجيل بما يحقق فيه الأسوة الصالحة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، لا يقابل السيئة بمثلها ولكن يعفو ويصفح . ووصف فى القرآن الكريم بقول الله سبحانه ، « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » . ووصف فى السنة بأن مجلسه لا تؤبن فيه الحرم . وأنه لا يسمع القبيح ولا يقره ، فمحال أن يصدر عنه . ومن

شاء فليتابع كل ما نقل عنه الناقلون فى أخباره وسيرته ، هل يرى فيها إلا ما يشبه رسالته ويناسب صفته ، من قول صالح وعلم نافع .

موضوع السنة النبوية الكريمة إذاً هو كل ما تشتهيه النفوس السليمة مما يدعو إلى تقوى الله ، وصلاح المجتمع ، ومقاومة كل رعونة فى الأرض من ظلم وبغى ، أو حسد ، أو مكر أو سقم فى العقل ، تقع فيه روضات فيح وجنات ، وتزكية من الضلالات ، فإنك فى حديثه ومع سنته كصاحب المسك : إما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد ريحاً طيبة .

وإليك بعض الصور من تلك من المقاصد السامية والأغراض الكريمة :

من أغراض السنة الكريمة بيان دعوة المرسلين جميعاً من عبادة المستحق للعبادة وهو الله وحده ، وإفراده سبحانه بكل مظاهر التعظيم ، وإخلاص الأعمال كلها لوجهه .

فما جاء فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم «ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا » ، « من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان » .

وعن مالك بن عوف الأشجعى قال : «كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ألا تبايعون رسول الله ؟ فبسطنا أيدينا وقلنا : علام نبايعك يا رسول الله ؟ قال : على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وتصلوا الصلوات الخمس (وأسر كلمة فى خفية) قال : ولا تسألوا الناس شيئاً . فلقد رأيت أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه » . وهذا الغرض أساس الإسلام ومحور الدين الكريم .

ويتصل بذلك الدعوة إلى عزة الإسلام ، وعدم الخضوع والذلة لمخلوق أياً كان .

وفى ذلك يقول صلى الله عليه وسلم لابن عباس « يا غلام إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو أجمعت على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك . ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك » .

ومن أغراضه الكريمة مقاومة خرافات الجاهلية وجهالاتها من التفاوت بين الناس ، ونظام الطبقات ، واعتداء القوى على الضعيف ، وما إلى ذلك مما أشاعته الفوضى والجهالة بلا عقل سليم ولا منطق مفهوم ، وما أكثر هذا الغرض فى السنة ، كقوله صلى

الله عليه وسلم . أنها كم عن قيل وقال ، وإضاعة المال ، ووأد البنات ، ومنع وهات ، إن الله تعالى قد رفع عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء ، دعوا دعوى الجاهلية ذميمة . لا حي إلا الله ورسوله ، لا عدوى ولا صفر ولا هامة ، من أتى منجماً أو كاهناً او عرافا فقد كفر بما أنزل على محمد . من حلف بغير الله فقد أشرك . الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » .

ومن أغراضه الكريمة الدعوة إلى مكارم الأخلاق من العدل والإحسان بين الأخ وأخيه وبين الراعي والرعية وتعهد بعض الناس لبعض بمعونة الضعيف وإغاثة اللهفان ، وإطعام الجائع وكسوة العاري ، ومن بسطة الوجه وحسن الخلق وتوطئة الأكناف وكل ما يبعث على المحبة ويغرس الألفة والمودة ، حتى يعيش الناس إخوانا متصافين يشيع فيهم السلام والوئام فيعبدوا الله ، ويسعدوا في هذه الحياة ، مما لو أخذ العالم بمعضه لكانت الدنيا جنة لأهلها . لا جحيا كعهدك اليوم بها .

وإليك بعض ما في السنة الكريمة من ذلك :

« كل سلامى من الناس عليه صدقة . كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة وتعين الرجل على دابته فيحمل عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، ودليل الطريق صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة » .

ألا بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ما تركت بابا من الخير فيه سعادة إلا وجهت إليه ، ولا تركت بابا من الخير فيه مساس بإنسان أو حيوان إلا نهيت عنه .

وفي الصحيح أيضاً « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع في مال أبيه وهو مسئول عن رعيته ، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

« ما من مسلم يزرع زرعا أو يغرس غرسا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له صدقة » .

« إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فليسعهم منكم بسطة الوجه وحسن الخلق » .

« إن أحبكم إلى وأقربكم منى منازل يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون . وإن أبغضكم إلى الثرثارون المتفيهقون » . وما أكثر ذلك الإرشاد والرشاد فى السنة المحمدية .

وهو صلى الله عليه وسلم يحث على احترام حقوق المسلم ، ويحرم دمه وماله وعرضه ويقول : « من قطع رجاء أخيه قطع الله رجاءه » . « إذا أشار الرجل على أخيه بالسلاح فهما على حرف جهنم » .

وهو صلى الله عليه وسلم يوصى بالمرأة ، وينفى ما كانت عليه الجاهلية من إهدار آدميها ، ويرفع من شأنها ، ويأمر بمراقبة الله فيها فيقول فى بعض ما يحدث :

« ألا فاستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان ، ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك ، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » .

ومن أغراضه الكريمة التزهيد فى الدنيا حتى تصفو النفس وتستقبل المكارم ، وحتى يتحاب الناس ويعرف بعضهم حق بعض . فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « ابن آدم عندك ما يكفيك وأنت تطلب ما يطغيك . ابن آدم لا بقليل تقنع ولا بكثير تشبع . ابن آدم إذا أصبحت معافى فى بدنك آمناً فى سربك عندك قوت يومك فعلى الدنيا العفاء . ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس » .

ولو أننى ذهبت أتتبع ما جاء من أغراض فى التشريع الصالح ، والإرشاد المنقذ الشامل ، لخرجت عن القصد ، ولما استطعت . فإن موضوع ذلك الأسفار الضخام من كتب السنة الكريمة . ولكننى بصدد الإشارة بسمو غرضه ، والإشارة إلى بعض اتجاهه وتوجيهه ، وبيان أن كلامه صلى الله عليه وسلم أسمى كلام فى مقاصده ، كما أنه أسمى شىء بعد كلام الله فى بلاغته . فلأدع المجال للتحدث عن سمو لفظه ومعناه . فى مقام آخر إن شاء الله .

محمود النواوى

العربية بين الجزر والمد

تتصارع اللغات وتتطاحن كما يتصارع الأفراد ويتطاحنون سواء بسواء ، ولكن صراعها وتطاحنها لا يكون عادة واضح المعالم سريع النتائج ، بل هو صراع بطيء هين فى سريانه رغم عنفه وجبروته . طبيعة ركبت فى اللغة كما ركبت فى الأفراد ! ولا غرو فإن حياة اللغة رهينة بحياة الأفراد .

وقد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة أن المنازعات والحروب التى تقوم بين الشعوب والجماعات هى السبب فى ذلك الصراع الذى يقوم بين اللغات . وهذا فى الواقع صحيح ولكنه ليس كل السبب ، بل هو سبب يصح أحياناً ولا يصح أخرى ، والمرجع فى ذلك إلى مدى قوة اللغتين المصطرعتين : لغة الغازين ولغة المغزوين . والمد الذى حدث للغة العربية فى فارس ومصر أوضح مثال على ذلك ؛ فالعربية - وإن تفاعلت مع الفارسية تفاعلا لم يمح للفارسية شخصيتها (نحوها وصرفها وتركيب عبارتها) - قد استطاعت فى مصر وفى زمن وجيز نسبياً أن تطغى على لغة المصريين طغياناً عارماً وأن تفرض نفسها عليهم .

ولكن يبدو أن هذا هو أوضح ألوان الصراع بين اللغات . وسببه المباشر هو الحروب ، غير أن هناك أسباباً أخرى غير الحرب تؤدى إلى ذلك الصراع بين اللغات ، وهى أسباب مادية جديرة بالملاحظة ، وهى تعمل عادة فى شبه خفاء ، وهى بطيئة الأثر بطيئة النتائج . ولعل السبب فى هذا البطء أن صراع اللغات الناشىء عن صراع الأفراد يقطع مرحلة حاسمة على أيدى المصطرعين أنفسهم ، فيفرض الغازون لغتهم على المغزوين مثلا أو يستدرجونهم إليها بشتى الوسائل .

أما فى حالة الصراع الناتج عن غير ذلك من الأسباب ، فإن عملية الفرض هذه أو الاستدراج لا يكون لها وجود ، وتكاد تقف اللغتان المصطرعتان وحدهما فى الميدان دون عامل خارجى ملزم من الأفراد . وهنا يكون التطاحن اللغوى بالمعنى الصحيح . وهنا تتغلب اللغة أو تنهزم وتفتح صدرها للغة الغازية تبعاً لمدى قوتها ومدى إمكانياتها العقلية والمادية على السواء .

ولعل من أهم أسباب اصطراع اللغات ، الحالة الفكرية والاقتصادية والدينية والاجتماعية للشعوب المصطرعة لغاتها . فتقدم الحياة العقلية فى أمة من الأمم عامل كبير فى نشر لغتها وتسربها بين صفوف اللغات الأخرى فى الأمم التى تقل عنها فى مستوى الحياة العقلية . واليونان والرومان شاهد على ذلك ؛ فقد كان اليونان فى الذروة من التقدم الفكرى ، بينما كان الرومان فى مستوى فكرى منحط ، ولذلك فإن أثر العقل اليونانى فى العقل الرومانى

واضح لا ينكر ، ومن الشائع فى كتب التاريخ والحضارة أن الرومان فتحوا اليونان عسكريا بينما غزاهم اليونان عقليا . وهنا يتضح لنا إلى أى مدى يصح القول بأن الحروب هى السبب كل السبب أو السبب الأصيل فى تغلب لغة على أخرى ، فقد رأينا المغزوين ينهزمون أمام الغازين فى ميدان الحرب حقا ، ولكنهم ينتصرون عليهم فكريا .

وأما الحياة الاقتصادية فإن عامل التجارة له أثر لا يخفى فى احتكاك لغة المتجرين ، وإذا تصورنا بلداً فقراً مجدبا يعتمد أهله على ما تنتجه البلدان الأخرى ، وإذا تصورناهم يرحلون إلى هذه البلدان يشترون ما يلزمهم ، فإنه يكون من السهل علينا أن نتصور أيضا إلى أى حد تشيع لغة أهل هذه البلدان فى لغة أهل ذلك البلد . ذلك أنهم سينقلون إليهم البضائع بأسمائها كما وضعها أهلها .

وإذا تصورنا هذه البضائع لا على أنها الأشياء التى تؤكل فحسب بل على أنها كل مايلزم الإنسان فى حياته من أدوات منزلية ، وفى حقله من آلات زراعية ، وفى حربه من معدات حربية ، وما يلزمه لحياته الصحية من أدوية وعقاقير ، وما يلزم حياته المترفة من وسائل الترفيه . . . الخ ، إذا تصورنا ذلك سهل علينا أيضا أن نتصور كمية الألفاظ التى يستخدمها المستوردون بالضرورة من لغة المستورد منهم . وإذا عرفنا أن تفكيرنا دائما يحتاج إلى المحسوس يركب منه صوره العقلية ، وأن يختار هذا المحسوس من الأشياء الواقعة بيننا الملابسة لحياتنا ، استطعنا أن ندرك مدى خطورة العامل الاقتصادى فى صراع اللغات .

ثم يأتى عامل الدين : وهو عامل لا يقل عن العاملين السابقين أثرا فى صراع اللغات . فلكى يفهم الإنسان دينا من الأديان يحسن به أن يعرف لغته ، ولكى يدخل الإنسان فى دين من الأديان يعتقد عقائده ويؤدى شعائره ، يتحتم عليه أن يتقن لغته . وهل كسبت العربية من غلبة وانتشار فى الشرق والغرب ، وما زالت تمارس هذا الكسب ، بغير عامل الدين؟

وفيما يختص بالعامل الاجتماعى فإن اللغة ظاهرة اجتماعية من الطراز الأول ، وحياتها من حياة المجتمع الذى تعيش فيه ، تصطبغ بكل ما يطغى عليه من مبادىء وما يجرى فيه من تيارات . والمجتمع الزاخر بشتى ضروب الحياة ، الذى تأصلت فيه الطبائع واستقرت فيه العادات ورسخ فيه العرف ، يمنح لغته نوعا من التماسك والقوة والثبات ، لا يمنحه المجتمع المتهافت المفكك المختلف العناصر المتضارب المشارب للغته .

والعرب حين فتحوا الأندلس مثلا لم يكن فيها شعب واحد من جنس واحد وديانة واحدة . . . بل كان هناك أجناس مختلفة وعقائد مختلفة وألسنة مختلفة ، فلم يكن بينها تماسك ، ولم تكن وحدة سياسية متعاونة متآزرة . ولذلك سرعان ما استقرت لغة العرب هناك وظهرت غلبتها .

وأيا ما كان الأمر فإن صراع اللغات وإن اعتمد على مثل هذه العوامل والأسباب التي تعد خارجية بالنسبة للغة، أي خارجة عن نطاق اللغة، فإن الذي لا شك فيه أن هناك أسبابا أخرى تنبع من طبيعة اللغة ذاتها التي تنزل الميدان. وطبيعة اللغة هنا هي بعبارة أخرى عبقرية اللغة. وعبقرية اللغة هي مجموعة الصفات والخصائص التي تتميز بها لغة عن أخرى. وتتحدد هذه الصفات في نحو اللغة وصرفها وتركيب عباراتها وفي تاريخ تطورها. ثم هناك صفات أخص من هذه وإن لم تكن تقل أهمية عنها كالناحية الصوتية (نظام المقاطع والحروف وعددها في الكلمة وعدد الأصوات المستخدمة سواء من الحروف المفردة كالحرف S في الإنجليزية مثلا ويقابله حرف السين، أو المركبة كالحروف Sh في الإنجليزية و Sch في الألمانية وهي تقابل حرف الشين في العربية). وهناك أيضاً الناحية الفنية وهي ما نستطيع تسميتها بذوق اللغة. فهذا الذوق يقبل أن يرفض من الألفاظ الطارئة ما يتنافى معه أو ينبو عنه. فإذا كنا نجد الأذن الألمانية مثلا ترتاح لصوت حرف الـ G المتكرر ثلاث مرات في كلمة قصيرة مثل Gegangen (جاجانجن) فإن الأذن العربية تنبو عنه وتنفر منه ولا تفكر في استخدامه.

هذه العوامل الداخلية، أي التي تنبع من صميم اللغة هي ما سميناه بإمكانيات اللغة في بداية هذا البحث. وهذه العوامل الداخلية متضافرة مع العوامل الخارجية التي سبق بحثها من فكرية واقتصادية ودينية واجتماعية هي التي يجب مراعاتها وبحثها عندما نحاول الكلام عن تاريخ الصراع الذي قامت به لغة من اللغات جزراً ومداً.

واللغة العربية كما نعرفها لها نشاط واسع النطاق بعيد التاريخ في ميدان الصراع اللغوي، ويكفي أن نعلم - وهو بلا شك معلوم لدى الجميع - أنها هي الخلاصة التي نتجت عن صراع محلي، هو ذلك الصراع الذي شهدته اللهجات العربية المختلفة التي كانت سائدة في شبه الجزيرة قبل الإسلام، وهذا الصراع المحلي لا يختلف في عوامله وأسبابه عن ذلك الصراع الخارجي أو العالمي للغات، ولكن ربما لا يكون معلوما لدى الجميع أن في هذه اللغة، مأثوراً كبيراً دخل إليها في حالة من حالات الجزر التي تصيب اللغة، وهذا المأثور لا يقتصر على المفردات كما قد يتبادر إلى الأذهان بل يمتد إلى أركان الجملة. وهناك محاولات جريئة يقوم بها الدكتور فؤاد حسنين تقوم على المقارنة بين اللغات السامية القديمة السابقة للعربية في صورتها الأخيرة لتبين مدى ما أخذته اللغة العربية من تلك اللغات من خصائص وصفات، وقد حاول جويدى Guidi في كتابه «بلاد العرب قبل الإسلام

L'Arabie Antéislamique ، أن يقدم أمثلة على مدى أخذ العربية من اللغات الأخرى . فهو يذهب إلى أن حضارة البيزنطيين والفرس ونفوذهم أيضا كانا متغلغلين في شبه الجزيرة يؤكد ذلك ما اصطنعه العرب عن هذين الشعبين من كلمات ، ولكن اللغة العربية لها خاصية عجيبة في تعريب الكلمات الأجنبية ، فكلمة صلدى Soldi (Sous) الإيطالية تجمع على صلادى ، وهي صيغة عربية خالصة ، من الصعب أن تعرف منها الكلمة الأجنبية ، وهذا يدلنا في الواقع على استقرار نظام الصرف في هذه اللغة بحيث لا يؤثر فيها نظام صرف اللغة المأخوذة . فإذا كانت الكلمات الطارئة من أصل سامي شديد الشبه بالعربية تضاعفت صعوبة القول بما إذا كانت دخيلة أم أصلية .

ويذهب جويدي إلى أن العرب البدو كانوا يحقرون الزراعة ، ومن هنا كانت الكلمات التي تتعلق بالزراعة من أصل آرامي ، ومن أمثلتها كلمة « نير Nir » أي مقرن البقر وكلمة « ناطور » أي حارث الكروم وهي في الآرامية Natora وكلمة « فدان » وغيرها . ومما ورد إلى العرب من الخارج كلمة « بندق » وهم يجمعونها على بنادق كأنها أصيلة في العربية وليست هي غير العكس بنتيكا وتكتب Nux pontica المعروف في عالمك بنت ولذلك سمى باسم إقليمه الأصلي ، وقد صارت بنتيكا في الآرامية إلى بنداق وفي العربية إلى بندق ، ومثل ذلك كلمة « زيتون » جاءت عن الآرامية . ومنها أيضا جاءت كلمة قنديل وأصلها اللاتيني Candela صارت عند الإغريق كانديلا ، ومثل ذلك كلمة سراج وكلمة نبراس .

وهذا كله يدلنا على الأثر الاقتصادي في حياة اللغة العربية وفي تاريخ صراعها ، حتى إذا تبلورت العربية في صورتها الأخيرة وأصبحت اللغة السائدة ، وتم لها نظام نحوي وصرفي ومحصول لغوي كامل امتدت مع فتوحات المسلمين شرقا وغربا واستقرت في البلدان المفتوحة بفضل الدين الجديد وبفضل أهلها ، وإن انتهى بها هذا الصراع إلى أن تتشكل في كل أمة إلى حد كبير بحسب مزاجهم اللغوي واستعدادهم ، ولم يعد العرب - كما يقرر جويدي - يتطلبون عند الشعوب الأخرى لا الأفكار الدينية ولا الحياة المترفة ولا المنتجات الصناعية ، ولكنهم يتطلبون لديهم شيئاً واحداً هو العلم اليوناني ، وينتقل هذا العلم إلى العرب في عهد المنصور وهارون الرشيد ، وعلى وجه الخصوص في عهد المأمون ، بنقله العلماء السريان الذين كانوا همزة الوصل ، مثل حنين بن اسحق وقسطا بن لوقا ، وغيرهم . وقد عمل تأثيرهم الفكري في علماء المسلمين بسهولة ، وذلك بفضل التسامح الذي كانوا متمتعين به بمقتضى الذمة ، مما سهل اتصالهم بالمسلمين ، وصارت الرياضة والتجامة والطب والفلسفة موضع

دراسة العلماء العرب . وشخصيات الكندى والفارابى وابن سينا والرازى والفرغانى والبتانى وابن رشد مشهورة فى الشرق كما فى الغرب الذى صارت فيه أسماؤهم :
Alfraganus, Rhasé's, Avicenne Averrhoe's, Albatignius.

ويؤثر العرب الآن بدورهم فى أوربا نفسها التى أفادت من مؤلفاتهم مثلما أفادت من منتجاتهم الصناعية ؛ فقد أدخلوا فى إسبانيا وصقلية كثيرا من النباتات النافعة ، كما أرسلوا إلى الغرب الأقمشة والمنتجات الثمينة المعروفة بأسمائها العربية . وكلمة « قصر » العربية هى Castrum اللاتينية صارت إلى كاسترون اليونانية ثم صارت إلى قسطرا فى السريانية وإلى قصرا فى الآرامية الغربية ، ومنها قصر العربية . ثم تنتقل قصر العربية إلى كيرسرو Cassera فى الإيطالية والكازار Alcazar فى الأسبانية .

والكلمات التى من أصل عربى كثيرة فى اللغات الأوربية المعاصرة . ومن أمثلتها كلمات : Alcôve وهى فى العربية القبة ، وموسلين Mousseline هو اسم الحرير المنسوب للموصل ، وكلمة Drogman « هى » ترجمان العربية ، وكلمة Cup هى « كوب » العربية .. الخ .

حدث كل هذا فى فترة المد اللغوى للعربية . ولكن الذى لاشك فيه أن هذا المد قد توقف منذ عدة قرون ، فتوقفت الحياة العقلية أو كادت وأصاب اللغة ركود وخيم وصلت فيه الى حالة من الجزر والانحسار والانقطاع عن العالم لا ترضى بحال . وقد كان نتيجة التدهور الفكرى والاقتصادى والدينى والاجتماعى فى شعوب العربية فى هذه القرون أن أصبحت اللغة فى الوقت الحاضر واقعة تحت تأثير المد الخارجى لما نالته الأمم الأجنبية من تقدم ملحوظ فى هذه الميادين المختلفة : نشاطها الفكرى يزحمنا ، ونشاطها الاقتصادى يتقاذفنا ، وتقدمها السياسى يفرض نفسه علينا ، وإنتاجها فى ميادين الصناعة والحرب يعيش بيننا بأسمائه الأجنبية التى أصبحنا نستخدمها كما لو كانت عربية أصيلة : الترام والتليفون والأوتوبيس وأسماء الأقمشة وأسماء العقاقير والأدوية والبرلمان والديمقراطية وغيرها كثير كلها من أصل أجنبى ، فضلا عن المذاهب العلمية والفلسفية والفنية التى تتمثل بين طبقة المثقفين .

وهكذا تقف العربية الآن فى موقف الانحسار والجزر كما يقف أهلها سواء بسواء . ولكنه الانحسار والجزر الذى يتلوه « مد » .

سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

عز الدين إسماعيل
معيد بكلية الآداب بجامعة ابراهيم

مد العربية وجزرها

عالج الأستاذ السيد عز الدين إسماعيل ، فى مقاله المنشور قبل هذا ، موضوعاً جديراً بعناية الباحثين ، وهو اصطراع اللغات بوجه عام ، ومد العربية وجزرها بوجه خاص ، وأثر الحروب والتقدم الفكرى والحياة الاقتصادية والاجتماعية فى امتداد اللغة أو تقلصها .

وكنا نتمنى لو أن وقفة الكاتب كانت طويلة عند أعظم حادث وقع فى تاريخ مد اللغات وجزرها ، وأعنى به دخول مصر والشام والعراق وشمال إفريقية فى أسرة العروبة ، وانصرافهن عن لغاتهن الأولى إلى لغة القرآن : فى المنزل ، والسوق ، والمجتمع ، ودواوين الحكم ، بأقل مدة عرفت فى التاريخ .

إن لهذا الحادث التاريخى المفاجىء - الذى لا يكاد يعرف له نظير - أسبابا يلاحظها المشتغلون بالتاريخ ، وأخرى تستحق العناية والدرس من العلماء بتطور اللغات .

والذين كانوا يزعمون أن العربية تحولت إلى لغة وطنية فى خارج جزيرة العرب من طريق الفرض والاستدراج ، قد سقطت دعواهم بما حاوله الاستعمار فى الجزائر من سنة ١٨٣٠ إلى الآن ، ثم فى القطرين المجاورين للجزائر شرقا وغرباً ، وما استخدمه لذلك من وسائل الحضارة الحديثة وفى طليعتها الطباعة والصحافة والمدرسة والجندية وضرورات المعايش وأحدثها السينما والإذاعة ، فضلا عن الوسائل الأخرى غير المشروعة ، فباء الاستعمار بعد كل ذلك بالفشل ، واعترف بلسان حاله ولسان مقاله بأن ما تم فى إفريقية الشمالية لما تعربت قبل ثلاثة عشر قرنا لا يزال من المعجزات التى اختص بها نظام العروبة والإسلام ، وأن الأمم الأخرى من قبل العرب كاليونان والرومان ، والذين جاءوا من بعدهم كالترك ودول الاستعمار الغربى ، لايكاد يتقلص ظل سلطانهم عن الأوطان التى حكموها مئات السنين حتى يذهب الدهر بلغاتهم وآثارها كأن لم يكونوا هنالك من قبل .

نعم إن عرب الإسلام الأولين استهووا سكان الأقطار التى فتحوها - كمصر والشام والعراق وشمال إفريقية - وذلك بما كانوا عليه من فضائل النفس ومعادن الخير والاستقامة على الحق والتعامل بين الإنسانية الخالصة من شوائب الأنانية والبغى ، فرأى المصريون والشاميون والعراقيون والمغاربة أن هذا الذى جاء به العرب الفاتحون من أكمل رسالات

الله بل هو أكلها . وكان الفاتحون يدعون إلى ما هم عليه من حق وخير بأعمالهم وسيرتهم ، لا بالمحاضرات فى الأندية ، ولا بالإغراء فى المستشفيات ، ولا بالتسلط على عقول الأحداث القاصرين ، فرأى الناس دعوة المسلمين مترجمة بتصرفاتهم ، ومعروضة على الأنظار فى معاملاتهم ، فلما أراد أذكياء الناس وعقلاؤهم أن يشاركوا الفاتحين فيما حلوه إليهم من خير ، وحاولوا أن يتعرفوا إلى تفاصيله ليؤمنوا بها ، ولا يبعد أن يكونوا رغبوا فى أن تترجم لهم دعوة الإسلام وأن تنقل إليهم نصوصه وقواعده وأحكامه بلغاتهم ، اصطدموا بسياسة الإسلام فى الدعوة ، وهى قائمة على « أن تنتقل الأمم إلى الإسلام ، لا أن ينتقل الإسلام إلى الأمم » . ومعنى ذلك أن على من أراد أن يتعرف إلى الإسلام ويتصل به ويأخذ بأحكامه أن يعرف لغته ، ويغترف من ينابيعه مباشرة ، إلى أن يكون من أهله الأصلاء ، لا أن يكون للدين أصحاب يحتكرونه ثم يكون الدخيل عليهم تبعا لهم فيه . وسياسة الإسلام هذه فى الدعوة إليه كانت السبب الأول فى « انتشار العربية » ، لأنها مفتاح الدين وبابه والطريق إليه ، وفيما بين زمن عمرو بن العاص وزمن الليث بن سعد مولى بنى فهم المولود سنة ٩٤ هـ كانت مصر قد امتلأت بالأئمة الأعلام من المصريين أنفسهم . فكانوا الرءوس فى الشريعة على تفاوت أقدارهم فى العلم ، والذى لم يكن منهم فى الأصل عربيا صار لا يعرف لنفسه لغة غير العربية ، وصار بيانه بالعربية مضرب الأمثال فى فصاحتها وبلاغتها ، كما أن فقهه فى الشريعة مضرب الأمثال فى التأصيل والتفريع بحيث تضرب إليه أكباد الإبل من مختلف الأقطار للتلمذ عليه والتأدب بأدبه والرواية عنه والعمل بفتاويه . والذين تحدثوا من الافرنج ومقلدتهم عن نظام الولاء فى الإسلام استشهدوا بأحقاد الشعوبيين الذين « لبسوا الإسلام على أبدانهم ولم ينفذ شىء منه إلى قلوبهم » ، فصوروا العلاقة بين عرب الأنساب وعرب الثقافة الإسلامية على غير حقيقتها ، ولو نظروا إليها من ناحية العلماء وأئمة الدين الذين أسلموا وتعربوا وحسن إسلامهم وصاروا من أعلام هذه الأمة فى دينها وأدبها وبلاغتها ، لعلموا أن الإسلام يعد مولى المرء منهم ، وأن نظام الولاء هو نظام الاتحاد بالأسرة والانضمام إلى أخوتها ونصرتها .

وإن مثل الإمام محمد بن عبد الله البخارى كان يرتاح قلبه وتفتخر نفسه بأن ينسب إلى ولاء قبيلته اليمنية من جعفى ، لأن فى ذلك عنده ذكرى دخول سلفه فى هداية الإسلام على أيدى تلك القبيلة ، وأنهم هم الذين أخذوا بيده إلى هذا الخير الذى صار إليه ، وضموه اليهم فاتخذوه واحداً منهم ، ولذلك أحكام فى الفقه تفقأ عيون الشعوبيين وتميتهم من الغيظ . والعروبة

فى الإسلام ، أخلاق » . فالذى يتكلم فى بيته بلغة العرب ويتخلق فى نفسه بأخلاقها ، يفضله الإسلام وتقدمه العروبة على الجلف الجافى الذى عرى من تلك الأخلاق ولم يتجمل بها .

وهذه القواعد فى نظام المجتمع الإسلامى الرفيع هى التى « نشرت العربية على مدى انتشار الإسلام » . ولما كانت الأمم الأخرى – وأحدثها عهداً دول الاستعمار – لم يكن لها مثل هذه القواعد الإنسانية العليا فى اتصال الأمم بعضها ببعض فشلت فيما حاولته من تقليد العروبة فى انتشار لغتها يوم زحف الإسلام لنشر دعوته فى قارات الأرض المعمورة يومئذ .

وإذا تحولنا عن الأسباب التاريخية فى تأثير سياسة الإسلام على انتشار العربية ، نجد أمامنا ناحية أخرى من أسرار التاريخ فى هذا الموضوع ، وهى ناحية القرب أو البعد بين العربية واللغات التى اصطرعت معها أو ذابت فيها . فالعراق والشام من صريح البلاد السامية التى كانت تتكلم بالآرامية والسريانية وبقايا الكنعانية ، وكلها أخوات ضعيفة ساذجة للغة العربية التى تعد البنت البكر للغة السامية الأولى المنقرضة ، والعربية لعراقتها فى القدم قبل كل أخواتها الساميات اجتازت جميع أطوار التكون والنمو ، حتى بلغت ذروة الكمال وتمام النضوج والازدهار ، فكانت أهلا لأن تلتهم أخواتها المتخلفة عنها فى النضوج اللغوى . وإذا اعتبرنا أن للغات السامية أُمّاً قديمة تفرعت عنها هذه اللغات وكانت لهجات لها ، ثم حلت هذه اللهجات محل أمهن القديمة فزالت بوجودهن ، يمكننا حينئذ أن نتصور أن الأمم السامية كانت لهن وحدة لغوية قبل ظهور اللهجات – أو اللغات – السامية ، وأن لغة الوحدة زالت بظهور هذه اللهجات التى ما زالت تفترق وتختلف حتى صارت لغات ، فحرمت الأمم السامية من وحدتها بزوال اللغة الأولى وحلول اللغات الفرعية محلها ، فلما ظهر الإسلام ، وانتشر أولا فى البلاد السامية ، فانتشرت بانتشاره اللغة العربية وهى فى إبان كمالها ، اصطدمت بلغات من جنسها غير أنهن أضعف منها وأقل جدارة بالبقاء ، فبقى الأصلح ، وزال ما هو أقل صلاحاً ، وانضمت الى ذلك رغبة شعوب البلاد المفتوحة فى أن يلتحقوا بدعوة الحق والخير التى حمل الإسلام لواءها إليهم ، ودلهم الإسلام على أن سبيل ذلك أن يتعربوا ، وأن ينهلوا بأنفسهم من ينابيع الإسلام فى لغته مباشرة بلا واسطة ، فعادت إلى البلاد السامية وحدتها باللغة العربية ، بعد أن كان آخر عهدها بهذه الوحدة يوم زالت اللغة السامية الأولى بظهور لهجاتها . وإن رجوع الوحدة إلى الشعوب السامية بعد

جرمانهم منها يعد من أحداث التاريخ الكبرى ، بل هو إحدى معجزات الإسلام التى تستحق التدوين والتنويه والتخليد . والأمم السامية لم تخسر بهذا الحادث شيئا ، لأن العربية نفسها لغة سامية ، بل هى البنت البكر لأمها الأولى ، وقد تبدل الساميون بها من دراهمهم التافهة دينارا وهاجا متألقا عادت لهم به وحدتهم القومية واللغوية .

ونتنقل من العراق والشام إلى مصر وشمال إفريقية ، فنلاحظ أن لغة قدماء المصريين وإن لم تكن صريحة فى ساميتها كصراحة الآرامية والكنعانية وأمثالها ، إلا أن المعجم العظيم الذى وضعه العلامة الأثرى المصرى أحمد كمال للغة المصرية القديمة دل على أن نحو ثلثها كان يوافق العربية المضرية فى معانيه ومبانيه ، مع تسامح قليل فى القلب والإبدال الموجود فى اللغتين . ولو أن العربية المعاصرة لقدماء المصريين من قبل مضر ، بل ومن قبل إسماعيل ، كانت معروفة لنا الآن لتبين لنا أن نسبة التوافق بين المصرية القديمة والعربية التى كانت معاصرة لها أكثر بكثير من نسبة الثلث ، بل لا يبعد أن يكون التقارب بين اللغتين فى تلك العصور أشبه بالتقارب بين لغة مصر العربية الآن ولغة معاصريها من أهل الحجاز ونجد ، وبهذا نعلل رحلة إبراهيم من وطنه العراق إلى مهاجره فى الشام وزيارته لمصر وزواجه منها بهاجر وعيشته مع زوجته وذهابه بها وبابنها إسماعيل إلى الحجاز ، ولا نسرف إذا قلنا إن لغات تلك الأقطار كانت يومئذ كلها متقاربة ، ولا يبعد أن تكون لهجات للغة واحدة ، كما أن لغات هذه الأقطار نفسها الآن لهجات للغة واحدة ، فكان إبراهيم وهاجر يتكلمان بلهجتيهما فيتفاهمان فيما بينهما ، ويكلمان أهل الأقطار التى اتصلا بها فيتفاهمان معهم جميعا . وإذا كان هذا حال اللغة المصرية القديمة فنزول العربية ضيفة عليها مع الإسلام قد حببها إلى المصريين بحبهم الإسلام وأهله الأخيار الطيبين الرحماء الصالحين ، وبذلك كانت المعجزة بتسلم جيل الليث بن سعد المصرى المولود سنة ٩٤ قياد البلاغة العربية فى مصر وأزمة فصاحتها ، وارثا ذلك عن شيوخه وشيوخهم الذين كانوا من حادث دخول الإسلام إلى مصر قاب قوسين أو أدنى .

وما يقال عن مصر يقال عن جاراتها فى الغرب : لوبياء والقيروان فالمغرب الأوسط والمغرب الأقصى ، وفى تلك الربوع بقايا الفينيقيين والقرطاجنيين وذكريات هنى بعل ، بل إن البربر يوغلون فى شوط أبعد فيحملون إلينا مع تقاليدهم القديمة ذكريات علاقات لهم باليمن وأذوائه وإفريقش وما فى الوعى التاريخى من أحلام لذيذة عن مجالاته فى تلك الربوع .

وبعد فإن العربية فى صدر الإسلام دخلت بلاداً تمتُّ إليها بأواصر لغوية لا يستهان بها ، وهذا هو السر فى أن العربية ثبتت بعد زوال سلطانها فى البلاد السامية أو المتصلة بالسامية ، ولم تثبت فى مثل إيران إلا فى محيط العلم الدينى ، ولم يبق منها فى مثل الأندلس وصقلية إلا بقايا تتألق فى لغـــة السكان ، كما تتألق بقايا العمران العربى تحت سماء تلك الأوطان .

وأحبُّ من إخوانى الجامعيين إذا اتسع بهم البحث فى مد العربية وجزرها أن يعتمدوا على جهودهم وبحوثهم وسليقتهم ، فقد رأينا مثل الأب انستاس مارى الكرملى يشكو تعصب بعض الأوربيين فى هــذه البحوث ، ويصرح لنا بأنهم متفاهمون فيما بينهم على سياسة لهم مبنية على غمط العربية فى كثير من حقوقها . وقد ردد الأب انستاس هذه الشكوى فى كتابه (نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها) المطبوع قبيل الحرب العالمية الثانية ، وأوجزه فى فصل مستقل من ذلك الكتاب (ص ١٥٥ — ١٦٨) . وقد أذكرنى ما كتبه الأب أنستاس الكرملى فى موضوع غمط الغرب للشرق ، محاضرات كان الأستاذ ميكائيل أنجلو جويدى من أساتذة جامعة روما ، ألقاها فى قاعة الجمعية الجغرافية فى القاهرة قبل بضع وعشرين سنة عن (علم الشرق وتاريخ العمران) ، وهى تنزع إلى معنى غمط الشرق كله ومصر القديمة بوجه خاص ، وتشعر قارئها بما وراءها من تحامل يؤيد شكوى الأب انستاس الكرملى . وكل هذا يوقظ أنا ضنا الجامعيين ، ويحملهم على الاعتماد على أنفسهم فى دراستنا القومية واللغوية عندما يعتزمون استيفاءها ، وكل من سار على الدرب وصل .

محب الدين الخطيب

العربية فى كمالها

يقول العلامة الفرنسى أرنست رينان فى كتابه (تاريخ اللغات السامية) :

إن اللغة العربية ، لغة الصحراء ، هى اللغة الوحيدة التى عرفها الناس فى دور الكمال ، ولا يعرف لها التاريخ طفولة ولا شيخوخة .

وقيمة للعلم
مالم يلازمه الفضائل الخلقية

سأل مندوب (المصرى) فضيلة الأستاذ الأكبر عن رأيه فى التعليم وموقف الإسلام منه ، فقال فضيلته :

كانت إساءة الاستعمار باحتلاله العسكرى فى السبعين سنة الماضية ، ثم باحتلاله السياسى والاقتصادى ، أهون شراً وأدنى إلى دفع غوائله ـ على فداحتها ـ من إساءته إلى مصر على يد دنلوب فيما رسم من خطط لتوجيه الثقافة المصرية العامة توجيها آلياً يعنى بالقشور والشكليات ، وينأى بالمدارس ومعاهد العلم عن أن تكون لها رسالة سامية من رسالات الله فى تهذيب النفوس ، وإعداد الجيل الصالح ، وتكوين الرجال الذين يعيشون لأمتهم ، وينهضون بها إلى المستوى الكريم الذى يستحق أهله السعادة فى أنفسهم وفى مجتمعهم والاحترام من الأمم الأخرى .

والمتاعب التى يواجهها الآن رجال الإصلاح فى تطهير الأداة الحكومية وإصلاحها ، وتقويم الإعوجاج الاقتصادى والاجتماعى . وتوجيه الأمه والوطن إلى الخير ، لا شك أنها بعض نتائج هذه الناحية الضعيفة فى نظام التعليم كما رسم دانلوب خططه ووضع أسسه ليبتعد برجال المستقبل عن مواطن الخوف من الله وحده ، وعن معايير الفضائل والأخلاق ، وأن تكون للمصرى المتعلم رسالة سامية فى الحياة يحقق بها لوطنه السعادة والقوة والحيوية والنشاط الدائب الدائم ، فطفقت هذه المصانع التعليمه تخرج الجيل بعد الجيل من المؤمنين بالمصلحة الذاتية وحدها دون المصلة العامة ، وبالرفاهية الشخصية من الحلال والحرام وأن وصل الوطن إلى الحالة التى تتحدث عنها الصحف اليوم وكان يبكى منها العقلاء دماء من قبل .

هذا التعليم فى المدارس المصرية من زمن كرومر إلى يوم الناس هذا ، تعليمٌ جاف لا يعنى بتكوين الإنسانية فى الإنسان ، ولا الإسلامية فى المسلم ، ولا الوطنية فى ابن الوطن ، ولا الرحمة والرفق والتعاون على البر والتقوى فى قلب الرجل المثقف ، ولا يصل حاضر الأمة بماضيها فى طريقهما إلى أهداف قومية متحدة ، كما كان يجب أن تكون فى الأمة الأصيلة التى تحمل لنفسها وللإنسانية اكرم أمانات الله وأنبلها .

ولعل أصدق شهادة على هذه الحقيقة جنوح كثير من كبار رجال وزارة المعارف نفسها ـ فضلا عن غيرهم ـ إلى تخريج أبنائهم فى مدارس أجنبية يعلمون أنها أسست لأبناء جاليات لا حاجة بهم إلى كثير مما يحتاج إليه التلاميذ المصريون فى قوميتهم ودينهم ، لكنهم

اضطروا إلى الرضا لأبنائهم بهذه المدارس الغريبة عنهم، العارية عن أمس حاجاتهم القومية والملية ، فراراً من ناحية الضعف التي أزمنت عللها في مدارسنا ، واستشرى داؤها مدة نصف قرن وأكثر .

والآن وقد منّ الله بهذا الانقلاب الذي هيأ برحمته أسبابه ، فقد آن لمدارسنا أن تبنى على أساس أن اكتساب العلم والمعرفة غاية مطلوبة لذاتها ، لا وسيلة يتذرع بها للحصول على الشهادة ثم الحصول بالشهادة على الوظائف، نعم إن الوظائف تحتاج إلى موظفين مثقفين من حملة الشهادات بشرط أن تكون في قلوبهم مخافة الله في حقوق الأمة ومصالح أبنائها .

وقد آن لها أن تبنى على أساس أن العلم إذا لم تلازمه الفضائل الخلقية والخوف من الله والحرص على مرضاته فإنه يكون حينئذ كالسلاح في أيدي من لا يجيز القانون أن يكون في أيديهم .

بل من هنا تولدت الحاجة العظمى اليوم إلى التطهير والإصلاح ، وإذا لم يتغير اتجاه القطار في التعليم فستبقى هذه الحاجة إلى التطهير والإصلاح ما دمنا على ما نحن عليه .

وقد يظن البعيدون عن معرفة أثر الدين في نفوس الجيل أن العرض السطحي للأخلاق في كتب المطالعة وأمثالها يغني الناشئة عن تثبيت عقيدتها بالله وتوثيق معرفتها برسالات الله في مرحلتي التعليم الابتدائية والثانوية ، وعن تحقيق ذلك بتطبيقه عملياً حتى يتمرن التلاميذ عليه ، وتكون فضائله سجية ، لا عادة . وكل تقصير في ذلك يجعل الانحراف الناشئ عن زيغ العقيدة أصعب صلاحاً من الانحراف الناشئ عند طغيان الشهوة لأن زائغ العقيدة يستهين بمحاسن الآداب بزعم أنها ليست من الحسن في شيء ، أما المغلوب للشهوة وحدها فإنه ينصرف عن الحسنة معترفاً بأنه أقبل على سيئة . لذلك كانت معالجة المغلوب للشهوة أهون من معالجة من زاغت عقيدته لتهاون المدرسة في حياطة هذه العقيدة والقيام على أمانات الله فيها .

وإذا كان سوء الأخلاق ـ الذي هو علة اختلال النظام ، ينشأ من زيغ العقيدة تارة ومن طغيان الشهوات تارة أخرى ، فإن الإسلام دين ينير العقول بالحجة ، ويهذب النفوس بالحكمة ، وكم أخرجت مدارسه ومجالس القوّامين على هدايته ، من رجال يلاقون الأسود فيصرعونها ، ويخفضون اجنحتهم تواضعاً للمستضعفين . وإن سماحة الدين وما له من الأثر الخطير في إعداد أمة روحها البطولة ، وزينتها التقوى ، وغايتها السيادة ، من أشد ما يحث أولي الأمر منا على أن يضعوا علوم الدين بالمكانة العليا ، والتربية على آدابه وفضائله ـ بالإشراف ، والمراقبة ، والتدريب ، والقدوة ـ في مقدمة ما يطلب من مدرسة العهد الجديد أن تحققه لهذا الوطن .

إن هذه الأمة مسلمة ، والأمة المسلمة لا ترضى إلا أن يكون أبناؤها مطمئنين بحجج الدين الحنيف ، سائرين فى ضوء حكمته الغراء ، مسترشدين بسيرة عظماء السلف ، وينشدون فيها مثلهم العليا . وإذا وجد فى الناس من لا يؤلمه أن يكون ولده فى ظلام من الغى ، فأمثال هؤلاء على قلتهم طائفة استهواهم زخرف الحياة غروراً ، وما كان للحكومة الرشيدة إلا أن تقيم سياستها على رعاية ما فيه خير النشء ويكون قسط تلك الطائفة فى هذه السياسة تقويم عوجهم . وإذا أهملت بلا تربية أبنائها على الدين باض الإلحاد وأفرخ فى أدمغتهم يوم تكون فى أيديهم أزمتها ، ويا شقاء أمة يتولاها من لا يخاف الله ولا يتوخى مرضاته .

تحيــة

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ

محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر

سيُعيد للإسلام فضل جلاله ... شيخ سما بفعاله وخلاله
نور الهداية فى أسرة وجهه ... متألق كالبدر عند كماله

• • •

« شيخ الشيوخ » لقد حللت مكانة ... فى الشرق بين الغر من أبطاله
سيان ماضيك المجيد وحاضر ... كالضوء عند ضحاه أو آصاله
عاش له فى كل علم جــولة ، ... حتى ليلقى من كبار رجاله
« الأزهر المعمور » يأمل فيكم ... تحقيق ما يرجوه من آماله
إنا لنعرف فيك ديناً قيماً ... « عوذت دينك بالنبى وآله »

من الأستاذ الأكبر

إلى أبنائه الطلبة ، لمناسبة افتتاح العام الدراسي الجديد

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فباسم الله تعالى ، وعلى بركته ، نستقبل عاماً دراسياً جديداً في عهد جديد ، والعهد الجديد يطالب من كل فرد أو جماعة أن يحقق الغاية التي يناط به تحقيقها .

والغاية التي ناطها الله بكم ، وجعلها أمانة في أعناقكم ، هي غرس الدين وتقوية اليقين في الأمة ، وتربية الفضائل فيها ، واجتثاث الرذائل منها ، ونشر الأخوة الإسلامية والوطنية بين أفرادها ، وإحلال المحبة والتراحم محل التباغض والتشاحن ، وإحلال التعاون على البر والتقوى محل التعاون على الإثم والعدوان .

بهذه التربية الرشيدة ، تنشأ الأمة مؤمنة قوية ، شديدة الأسر ، عزيزة الجانب ، تأبى الضيم ، وتنفر من الاستعباد ، وتكون من الأمم - بحق - موضع الإجلال والكرامة ، بل موضع القدوة والزعامة .

إن غايتكم هذه هي غاية الأنبياء والمرسلين ، وقد جعلكم الله ورثتهم : تقومون بما قاموا ، وتؤدون لله والوطن ما أدوا . إنها أسمى غاية وأنبلها ، وبدونها يكون كل إصلاح - وإن اجتهد صاحبه - سطحياً ظاهرياً لا ينفذ إلى باطن الأمر ولبه ، بل يكون رقماً على الماء ، أو نقشاً في الهواء . وقد نبه على ذلك النبي صلى الله عليه وسلم إذ يقول : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » .

أبنــــائي : إن الأمر الجسيم ، لاينال إلا بالعمل الجسيم ، والإعداد القوي .

فعليكم أيها الطلاب أن تعدوا أنفسكم لهذا الأمر الجلل ، وذلك بأن تكملوا أنفسكم بالعلم ، وتهذبوها بالخلق ، وتجعلوا غايتكم أمامكم ، لتسددكم وتقويكم وتشد من عزائمكم . وستجدون إن شاء الله من أساتذتكم آباء رحماء ، ينهلونكم من مناهل العلم والتثقيف ، ويعنون بكم في الدرس وفي خارج الدرس ، ويرعونكم ويوجهونكم ، ويحلون ما يعرض لكم من مشكلات في حياتكم العلمية والاجتماعية . وسيربط بينكم بإذن الله رباط وثيق من المحبة والتعاون على بلوغ هذه الغاية العظمى .

سددكم الله وقواكم ، وأعاننا وإياكم على هذا الإصلاح العظيم ، في هذه النهضة العظيمة المباركة . والسلام عليكم ورحمة الله .

عهدان

أما أحدهما فليل بهيم ، وأما ثانيهما فصبح منير .

أما الأول فقد تصرم وانقضى وشيعناه ساخطين غاضبين ، لم نقل فى كنف الله وفى ظله ، غداة ولى وراح ، وأما الثانى فقد أسفر فجره ، وانبثق نوره ، واستقبلناه راضين مستبشرين ، قائلين : حللت سهلا ، ونزلت أهلا .

كان العهد الماضى عهد الهوى والاستبداد ، والظلم والفساد ، والوساطات والشفاعات ، والرشوة والمحسوبيات ، وظلم الأقوياء للضعفاء ، وأما العهد الثانى فهو ، إن شاء الله ، عهد الطهر والعفاف ، والعدل والإنصاف ، والقدرة والكفاية ، والتعاون بين الحاكمين والمحكومين ، والفقراء والموسرين .

وكل من يحب أمته يرجو لهذا العهد أن يمكن الله له ، وأن يزداد على توالى الأيام رسوخا ، وأن يجعلها الله صحة لا نكسة فيها ، وتقدما لا رجوع فيه ولا انتكاس . وليس إدراك ذلك بالأمل والتمنى ، وإنما هو بالعمل والإنتاج ، وذلك بأن يفرض كل واحد نفسه جندا فى الصفوف الأمامية من الثورة ينظر إلى أهدافها ، ويعمل على تحقيقها ، وأن يسددها ويقدم لها خير ما يجود به فكره . إن الثورة لها أهداف فيجب أن تبين أهدافها ، ولهذه الأهداف سبل ، فيجب أن تبين سبلها ، المستقيم منها وغير المستقيم ، وأن يتولى ذلك كلٌّ فى اختصاصه ، وما هو منه بسبيل .

وأرجو أن أقوم بذلك إن شاء الله ، فى الدائرة التى أنا فيها ، دائرة العلم والتهذيب ، وإن كان جهد المقل ، وسير الضعيف .

وأول ما ينبغى أن أبينه هو التعريف بالثورة نفسها وبرجالها وبأهدافها ، لأن من الناس من جهلوا مقاصدها السامية فانقادوا للشغب متأثرين بتضليل المضللين ، وإنى إذ أكتب عن رجال الثورة ، لست أكتب عنهم لسابقة معرفة ، وإنما أكتب فيما بدا من أفعالهم ، وأستخلص نياتهم وأخلاقهم ، عما ظهر من عفتهم وزهدهم .

هذه الثورة فريدة فذة فى التاريخ ، لم تنسج على منوال سبق ولا مثال تقدم ، فقد مشت لطيفها وئيدة مطمئنة ، لم يعجلها خوف ، ولم يثملها ظفر ، ولم يحملها حقد ولا بغض على أن تجور وتظلم . ترى الثورات فى التاريخ يعجلها الخوف فتقتل وتسرف فى القتل ، ويثملها

النصر فتطغى وتسرف فى الطغيان ، ويحملها الحقد الدفين على ألا تذر شيئاً أتت عليه إلا جعلته كالرميم .

أما هذه الثورة ، ففى لينها ورحمتها وإتئادها واتساقها وعدلها ، ما يدعو المرء إلى ألا يطلق عليها اسم الثورة .

لم يكتف الثائرون بضبط نفوسهم ، بل أرادوه من الشعب المغيظ المحنق ، فكان ما أرادوا فشت الحياة اليومية على سجيتها : وادعة مطمئنة لا خلل فيها ولا اضطراب .

وكما أن هذه الثورة فذة فى التاريخ ، كذلك أصحابها الذين قاموا بها أفذاذ فى التاريخ ، لم يقوموا لنفع شخصى ، ولا لغرض مادى ، إنما قاموا لينقذوا أمتهم من الفوضى والفساد ، والظلم والاستبداد ، وليس أدل على ذلك من أن قواد الثورة أزالوا الملك عن عرشه فى ضجة من فرح الشعب وتهليله ، وكان لهم كل ما يشاءون إن أرادوا : من المال والجاه والسلطان لا ينازعهم منازع ، فعفوا عن ذلك كله : عفّوا عن القصور والدور ، والضياع والزروع ، ونظروا إليها باحتقار وازدراء .

فهل رأى التاريخ أشرف نفسا ، وأنبل مقصدا ، وأسمى غاية وأزهد فى السلطان ، والجاه والمال والغنى من هؤلاء القواد البواسل .

ليس الزاهد من زهد فى الدنيا وهى عنه معرضة ، إنما الزاهد من زهد فيها وهى عليه مقبلة .

لقد بلغ من زهدهم أن قائدهم منح رتبة الفريق ومرتبها ، فأبى الرتبة وما يتبعها من مرتب . وكذلك فعل إخوانه حين تولوا قيادة الألوية ، ورفضوا مرتباتها . ألا إنه زهد وأمانة وعفة يقضى المرء منها العجب ، وأعجب منها أنها وجدت فى ذلك العصر المتعفن .

يروى التاريخ أن عمر بن الخطاب جاءه المجاهدون الذين فتحوا بلاد كسرى بتاجه ـ وكان من ذهب ومرصعا باللآلىء ـ فقال : إن قوما أدوا هذا لأمناء . فماذا كان يقول عمر لو رأى أبطالنا الذين أدوا التاج والعرش والضياع الواسعة والجنات الوارفة والجاه الطويل العريض .

هذه الثورة ، وهؤلاء أبطالها ، وهذه أغراضها : شجاعة وإقدام وحلم وأناة ، وعفة وزهد ، وسمو وشرف ، وترفع وإباء .

كجنود عمرو كلما ركزوا القنا عفّوا يدا ومهندا وسنانا

محمد عرفه

عضو جماعة كبار العلماء



المعمى واللغــــز

المعمى وصف من عميت الشيء على آخر ، إذا أخفيته عنه وألبسته عليه ، فلا يهتدى له . وقد تعورف المعمى فى الخفى من القول لا يبين إلا بعد إنعام النظر وقدح الفكرة . وأصل ذلك من العمى ، كأن السامع فى عمى لما لم يدرك وجه الكلام ومغزاه .

واللغز - بضم فسكون ، وبضم ففتح - فى الأصل: جحر يحفره اليربوع ملتويا منحرفا ، يلجأ إليه حين يقصد فى جحره المستقيم . وقد أريد به ما أخفى معناه من الكلام وألبس ، تشبيها بلغز اليربوع .

وترى أن المعمى واللغز يئولان إلى مغزى واحـــد ، وهذا هو المعروف عند قدامى العلماء . وسأسير على هذا النهج حتى أعرض لاصطلاح المحدثين .

والتعمية للمراد والإلغاز فيه ، تكاد فى بعض المواطن تكون من طبيعة الناس . ويدعو إلى التعمية الرغبة فى إخفاء بعض الأغراض ، أو التفاطن واختبار ذكاء السامع وابتلاء زكانته . وألغاز التفاطن تعرف بالأحاجى ، واحدها أحجية ، ويقال لها أيضا الأداعى واحدها أدعية . ويقال فى ذلك : حاجاه ، وداعاه إذا ألقى عليه أحجية أو أدعية . وهذا الضرب يقع بين العامة كثيراً ، ويسمون الأحجية حزُّورة ، وهى فعولة ، من الحزْر وهو الحدْس والخرْص والتخمين . وقد يقولون فى بدء المحاجاة : حزُّورة فزُّورة ، ويبدو أن الكلمة الثانية إتباع للأولى ، كقولهم : حسن بسن .

ومن أمثلة المحاجاة عند العرب قول الشاعر فى السيوف :

أداعيك ما مستحقبات مع السرى حسان وما آثارها بحسان

مستحقبات أى محمولات ، وهذا الوصف يلبس بالنساء .

ومنها قول الشاعر فى القلم .

حاجيتـــك يا خنســـا . فى جنس من الشعر

وفيا طـــوله شـــبر وقد يربى على الشـــبر

له في رأســه شق نطوف ماؤه يجــرى
أبيني لم أقل هجــرا ورب البيت والحجر

والنطوف وصف من نطف أي سال وقطر أراد سيلان الحبر، وهو ماؤه. ولما كان هذا الوصف يوهم ّعن الرجل، وهو مالا يصح المحاجاة به لنساء قال لم أقل هجراً.

ومن أمثلة الحزورة عند العامة قولهم في القميص: أبويا بنى لى بيت ما يمشى إلا نا. وقولهم في جنين الحيوان تجتاز أمه البحر: عدى البحر وما تباش، وقولهم في الإبرة فيها الخيط: قد الصباع، وديلها وراها دراع، وقولهم في الطماطم: قاعد في الخط أحمر زلبط. وزلبط أي أملس لا زغب عليه. وأصل ذلك في الرأس يحلق بالموسى، يقال: حالق زلبط، والخط هنا: السطر في الزرع.

والمعمى يقع في الكلام على أنحاء.

١ — فقد تقع التعمية بذكر أوصاف ظاهرة في غير المراد، أو بذكر كلمة ظاهرة في غير المقصود. وللاستعارة والتشبيه والاشتراك اللغوى عمل كبير هنا.

وأكثر ما يقع هذا الضرب في أبيات المعاني، وهي التي تحوج إلى أن يسأل عن معانيها، وقد ألف فيها كثير من العلماء. ومما طبع منها كتاب معاني الشعر لأبي عثمان الأشنانداني، طبع في دمشق سنة ١٣٤٠هـ، والمعاني لابن قتيبة، وقد جاءنا أخيرا من الهند.

ومن أمثلة هذا قول الشاعر: (١)

ولما رأيت النسر عز ابن دأية وعشش في وكريه جاشت له نفسى

أراد بالنسر الشيب، شبهه به لبياضه، وابن دأية: الغراب الأسود، أراد به الشباب لأن شعر الشباب أسود.

ومن هذا قول الشاعر(٢):

ولقد رأيت مطيــة معكوسة تمشى بكلكلها وتزجيها الصبا
ولقد رأيت الخيل أو أشباهها تثنى معطفة إذا ما تحتــل
ولقــد رأيت مكفشرا ذا نعمة جهدوه: بالإعمال حتى قد ونى

---

(١) انظر اللسان في لفظ رودأى.
(٢) الأمالى ٢٦٧/١.

أراد بالمطية المعكوسة ، سفينة . وجعلها معكوسة إذ كان كلكلها وصدرها معطوفان إلى الوراء، يقال: عكس الدابة إذا جذب رأسها اليه لترجع القهقرى، وأراد بالخيل: تصاوير على صورة الخيل فى وسائد ، فهى تثنى للجلوس عليها ، وأراد بالمكفر : السيف ، والمكفر : المستور المغطى ، والسيف يكفر فى الغمد . ويرى القارىء فى الشعرين السابقين الاعتماد على الاستعارة والتشبيه فى التعمية .

ومن هذا ما جاء [1] فى التعمية عن الحسناء بما يوهم أنها نار :

ومشبوبة لا يقبس الجار ربها ... ولا طارق ظلماء منها يؤنس
متى ما يزرها زائر يلف دونها ... عقيلة دارى من المجم تفرس

أراد بالمشبوبة : الحسناء الجميلة ، وأصل هذا فى وصف النار . وأراد بربها : زوجها ، وهو لايدع الجار يقتبس من حسنها والمتاع بها كما يقتبس النار . والدارى المنسوب إلى دارين ، وهى فرضة بالبحرين فيها سوق ، يحمل إليها المسك من ناحية الهند ، وأراد به العطار الذى عنده المسك والطيب . والعقيلة : أكرم الشيء وأنفسه ، أراد به المسك ، وقوله : تفرس أى تشق فتفوح ريحها .

وقد ألغز الشاعر بالمرأة وهو يريد النار فى قوله :

وشعثاء غبراء الفروع منيفة ... بها توصف الحسناء أو هى أجمل
دعوت بها أبناء ليل كأنهم ... وقد أبصروها معطشون قد أنهلوا

أورده صاحب الأمالى فى آخر الجزء الأول ، وقال ، يصف ناراً ، وجعلها شعثاء لتفرق لهبها ، وغبراء الفروع لدخانها ، والفروع : الأعالى ، ومنيفة : مرتفعة ، يريد أنها على جبل أو فى مكان عال . وقوله : « بها توصف الحسناء » أى بها تشبه الجارية . وذلك أن العرب تصف الجارية فتقول : كأنها شعلة نار . . . وقوله : « دعوت بها أبناء ليل » يعنى النار ، دعا بضوئها أبناء ليل ، أى قوما سروا ليلا فجاروا عن القصد ، وقوله : « كأنهم وقد أبصروها معطشون » يعنى أنهم من فرحهم بهذه النار كأنهم قوم كانت عطشت إبلهم فأنهلوا أى رويت إبلهم » .

ومن الإلغاز فى النار أيضاً قوله :

وزهراء إن كفنتها فهو عيشها ... وإن لم أكفنها فموت معجل

(١) معاهد التنصيص للعباسى ٣٦ [illegible]

أورده القالى [١] ، وقال : « يعنى النار . هى زهراء أى بيضاء تزهر ، يقول : إن قدحتها فخرجت فلم أدركها بخرقة أو غير ذلك ماتت ، فهو يريد بتكفينها أن يلقاها فى خرقة أو صوفة أو قطنة ، وإذاً تعيش وتحيا ، فأما إن لم يفعل ذلك فلا يكون سبيل إلى الحصول عليها .

ومن الإلغاز فى القدر ما رواه ابن الأعرابى [٢] .

ألقت قوائمهـــا خمساً وتَرنّمت   طرباً كما يترنم السكران

أراد بقوائمها : الأثافى التى تنصب عليها ، وجعلها خمساً أى فرد أو وتراً غير زوج لأنها ثلاث ، وهى تترنم لغليانها ، فهى تصوت كالطارب .

ومن هذا الضرب ما يستعمل فى الرسائل التى يراد إخفاء المراد منها فى بعض المواطن ، ويقرب هذا مما يعرف فى اصطلاح العصر بالشفرة .

ومن أمثلة هذا أن [٣] رجلا من تميم كان أسيراً فى بكر بن وائل ، فسألهم رسولا إلى قومه فقالوا له : لا ترسل إلا بحضرتنا ، وكانوا قد أزمعوا حرب قومه تميم فخشوا أن ينذرهم . فقال الأسير الرسول : أبلغ قومى التحية ، وقل لهم : ليكرموا فلاناً ـ وهو أسير بكر عندهم ـ فإن قومه لى مكرمون . وقل لهم : إن العرفج قد أدبى ، وقد شكت النساء ، وأمرهم أن يعروا ناقتى الحمراء ، فقد أطالوا ركوبها ، وأن يركبوا جملى الأصهب ، بآية ما أكلت معكم حيساً ، واسألوا الحارث عن خبرى . فلما أدى الرسول الرسالة قالوا : لقد جن الأعور ! والله ما نعرف له ناقة حمراء ولا جملا أصهب . ثم سرحوا الرسول ، ودعوا الحارث فقصوا عليه القصة . فقال : قد أنذركم . أما قوله : « قد أدبى العرفج » ، فإنه يريد أن الرجال قد استلأموا . وقوله : « شكت النساء » أى اتخذت الشكاء للسفر ، وقوله : « ناقتى الحمراء » أى ارتحلوا عن الدهناء واركبوا الصمان ، وهو الجمل الأصهب ، وقوله : « بآية ما أكلت معكم حيساً » ، يريد أخلاطاً من الناس قد غزوكم ؛ لأن الحيس يجمع التمر والسمن والأقط . فامتثلوا أمره وعرفوا فحوى كلامه .

وأعود إلى شرح بعض الكلم فى القصة : فالعرفج نبات له ثمرة خشناء كالحسك ، وهو كثير القضبان والامتداد فى الأرض ، وإدباؤه أن ينضج وتمتد أعواده ، وذلك إذا أصابه

---

(١) الأمالى ٨٨/٢
(٢) الأمالى ١٤٥
(٣) الأمالى ٦/١

المطر . وقد ضربه مثلا لاستلئام الرجال أى لبسهم اللأمة وهى الدرع ، كأن الرجل إذ يلبس الدرع كالعرفجة إذ تبدو ثمرتها التى هى كالحسك وهو الشوك ، وكثرة الرجال وانتشارهم كالعرفج إذ يمتد فى الأرض . والشكاء جمع الشكاوة ، وهى وعاء من أدم كالقربة يحبس فيه اللبن . والدهناء : أرض لبنى تميم فى نجد سهلة ، شبهها بالناقة لسهولة ركوبها ، ولمكان تأنيث لفظها. والصمان : بلد لهم أيضا أرضه صعبة الموطىء ، فشبهها بالجمل لصعوبته ، ولمكان تذكير اللفظ.

وكأنما أعجب هذا بعض الشعراء فنظمه فى قوله :

خلوا عن الناقة الحمراء وارتحلوا الـ ـعَوْد الذى فى جنابى ظهره وقع
إن الذئاب قد اخضرت براثنها والناس كلهم بكر إذا شبعوا

فالناقة الحمراء هى الدهناء ، كما سلف . والعَوْد ـ وهو الجمل المسن ـ الصمان . وجعل فى ناحيتى ظهره وقعا ـ وهو أثر الدبر فى ظهر البعير ـ لما أنه وطىء وكثرت فيه آثار الناس . فهو ينصحهم أن يتركوا الدهناء ويعتصموا بالصمان ، وهو صلب يشق على الخيل أن تطأه . والدهناء ممكنة سهلة . ووصف أن أعداءه ـ وكنى عنهم بالذئاب ـ اخضرت براثنها ، أى أن أرضهم أخصبت وكثر العشب فيها ، فالأقدام مخضرة من الكلأ . وهذا يدعوهم إلى الغزو إذ تقوى إبلهم وخيلهم . وقد كان حى بكر بن وائل من أشد الأحياء عداوة لبنى تميم حتى صارت كلمة بكر مثلا عندهم فى العدو ، فهو يقول : الناس كلهم بكر ـ أى عدو ـ إذا أخصبوا . وقد جرت لتميم أمثال فى عداوة بكر ؛ كقولهم : لا تبت من بكرى قريبا ، وقولهم : البكرى أخوك فلا تأمنه .

٢ ـ وقد تكون التعمية من قبل اشتراك اللفظ وإرادة غير المعنى المتبادر منه ، ومن استعمال الغريب .

ومن أمثلة ذلك قوله ـ وتقدم أبيات من مقطوعة هذا الشعر ـ :

ولقد رأيت معضمضة هركولة رؤد الشباب غريرة عادت فتى

الهركولة : الحسنة الجسم والخلق والمشية . والرؤد : الشابة الحسنة . وقوله : عادت فتى هو من العيادة ، وهى الزيارة ، والمتبادر إلى الذهن أن تؤخذ من العود ، ومن هنا جاء الإلباس .

ومن هذا الشعر المشهور فى كتب (١) النحو ، وهو :

إنى رأيت غزالا أورث قلبى خبالا

(١) انظر مبحث كان وأخواتها .

قــد صار كلبا وقرداً   وصار بعــد غزالا

فقوله : صار أى ضم ، ومنه قوله تعالى : فصُرهن إليك .

ومن هذا ما يروى [1] عن الشافعى رضى الله عنه أنه سئل : هل تسمع شهادة الخالق ؟ قال . لا ، ولا روايته ، أريد بالخالق الكاذب ، لأنه يخلق الكذب ويفتريه . وسئل : فارس المعركة إذا قضى على أبى المضاء قبل أن يحمى الوطيس ، هل يستحق السهم ؟ قال : نعم إذا أدرك الوقعة ، فقوله : قضى أى مات ؛ وأبو المضاء كنية الفرس .

ومن الضرب الذى جاء عن الشافعى ما يعرف بفتيا فقيه العرب ، وهى تنبنى على الإتيان بغريب اللغة ، وتكون لهذا غريبة فى الحكم والإفتاء منكرة فى ظاهرها وقد ألف فى هذا الفن ابن فارس تأليفاً لطيفاً سماه بهذا الاسم وبنى الحريرى المقامة الثانية والثلاثين على هذا الباب . ومن أمثلة ما جاء فى هذه المقامة : « ما تقول فيمن توضأ ثم لمس ظهر نعله ؟ قال : انتقض الوضوء بفعله » فالنعل هنا الزوجة . وقد جرى الحريرى على مذهب الشافعى فى هذا الحكم إذ كان شافعى المذهب ومنها : « قال : أيجوز للدارس حمل المصاحف ؟ قال : لا ولا حملها فى الملاحف » الدارس هنا الحائض .   (للحديث بقية)

محمد على النجار
الأستاذ بكلية اللغة العربية

حــــكم

صُنْ وعدك عن الخلف فإنّ الخلف شين .

وشب وعيدك بالعفو فإن العفو زين .

وكن عبداً للحق فإن عبد الحق حر .

واظهر لأهلك أنك منهم ، ولأصحابك أنك لهم ولرعيتك أنك بهم .

---

(١) انظر المزهر فى أواخر الجزء الأول .

المراجع الأولى فى تاريخنا :

تاريخ الأمم والملوك

لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى

٢٢٤ — ٣١٠

مفارقات :

من عجيب المفارقات فى تاريخنا وتواريخ الأمم الأخرى ، وفى موقفنا من تاريخنا ومواقف الأمم الأخرى من تاريخها ، أن تكون أغناهن جميعاً فى كل ما يتصل به تاريخ الأمة من أنباء ونصوص ومراجع وقرائن وإشارات وتحقيقات ، ثم نبقى أفقرهن وأقلهن انتفاعا بهذه الثروة فى إقامة معالم تاريخنا على أساسها ، بينما الآخرون قد أحدثوا - حتى من الأوهام - مكتبات جديدة لأجيالهم وجماهير قرائهم ، حافلة بالطلى الشهى من صفحات ماضيهم ، فوثقوا أواصر خلفهم بسلفهم ، ويسروا لهم القدوة الحسنة بعظمة العظماء من نوابغهم ، وبعثوا لهم من ذلك الماضى صوراً حية ترتفع الرءوس بأمجادها ، وتمتلىء القلوب بإجلالها واحترامها ، وتطمئن العقول إلى تعليل تصرفاتهم والاعتبار بها ومواصلة السير نحو أهدافها .

مواطن ضعف :

ومواطن الضعف - التى أدت ببعض معاصرينا من حملة أمانات التاريخ العربى والإسلامى إلى أن يكون انتفاعهم بهذه « التركة » ضئيلا - لا يكاد يأتى عليها الحصر . ومما يتبادر إلى الذهن منها الآن أمران :

أولهما - أن الذين تثقفوا منا بثقافة أجنبية عنا قد غلب عليهم الوهم بأنهم « غرباء » عن هذا الماضى ، وأن موقفهم من رجاله كموقف وكلاء النيابة من المتهمين . بل لقد أوغل بعضهم فى الحرص على الظهور أمام الأغيار بمظهر المتجرد عن كل آصرة له بماضى العروبة والإسلام ، لئلا يتهم فى زعمه بالعصبية لهما ، فوضع نفسه فى موضع التهمة بالتحامل عليهما ، جرياً وراء بعض المستشرقين فى ارتيابهم حيث تحسن الطمأنينة ، وفى ميلهم مع الهوى

عندما يدعوهم الحق إلى التثبت ، وفى إشاتهم الحكم وارتياحهم إليه قبل أن تكون فى أيديهم أشباه الدلائل عليه . ولو أن إخواننا هؤلاء نشأوا على الإيمان بأنهم هم أصحاب هذه « التركة » ، وبأن هذا الماضى ماضيهم ، وأن جيلنا حلقة فى سلسلة هذا الماضى ، وأن أحداثه ثروة لنا فى القدوة والاعتبار ، لنظروا إليه بعين الأم إلى ابنها ، إن لم ينظروا إليه بعين الابن إلى أمه ، ولا يكون ذلك إلا بتبنى هذا التاريخ ، والحرمة له ، وبث الحياة فى أمجاده ، والحرص على استجلاء جماله ، وإبراز فضائله ، وتحرى مواطن العظة والاعتبار فى أخطائه ، وحسن التعليل لذلك بالرفق والإنصاف وكمال التقدير . على أنه إذا كان هذا حال أهل الصبر منا على البحث والدرس ، فما بالك بالآخرين الذين قد تقع أنظار الواحد منهم على بحث فج لمستشرق ناشئ أو مفس ، فينتحل ذلك البحث من غير تعب ، ويزعمه لقرائنا مبتكراً من عنده ، وينقله لنا محرف الاعلام ، متضارب الاحكام ، مزدوج المعنى ، ملتهب الحماسة فى التحامل حتى على الفضائل عندما ينظر إليها ـ بعينه أو بعين من ترجم عنه ـ من وراء منظار أسود .

ذلك أحد مواطن الضعف فى دراستنا لتاريخ العروبة والإسلام ، أما الموطن الآخر فهو ما لاحظته على بعض المعاصرين لنا من اشتباه الأدلة التاريخية عليهم ، وحيرتهم بين جيدها وأجودها ، بل فيهم من لا يميز بين الجيد منها والردىء ، مع أن ذلك كان فى متناول يده لو سبق له معرفة موازين رواتنا فى النقد ، أو وقف على مناهجهم فى التأليف ومصطلحاتهم فى الرواية ، ومراميهم فى الاستشهاد .

وقد اخترت اليوم من هذه المراجع كتاب (تاريخ الأمم والملوك) للإمام أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (٢٢٤ — ٣١٠) لأتحدث عنه إلى إخوانى المشتغلين بالتاريخ ، عن يحاولون الانتفاع به فى الاستدلال والنقل ، لأنى رأيت منهم من يظن أن إيراد الطبرى لخبر من الأخبار كاف لتحميل هذا الإمام مسئولية الخبر الذى أورده ، واعتباره هو المصدر لهذا الخبر ، وأن الأخبار التى يوردها سواء كلها فى ميزان الصحة عنده ، وأن عزوهم الخبر إلى الطبرى ودلالتهم على موضعه من تاريخه تتم بهما مهمتهم من الاستدلال ، وتبرأ بذلك ذمتهم من عهدة هذا الخبر ، ويبقى الطبرى هو المتحمل لمسئولية ما يترتب على ذلك فى الحكم على أحداث التاريخ وعلى أقدار رجاله وتصرفاتهم .

إن ظنهم هذا لا يغنى من الحق شيئاً ، وإن الطبرى ليس هو صاحب الأخبار التى يوردها بل لها أصحاب آخرون أبرأ هو ذمته بتسميتهم ، وهؤلاء متفاوتون فى الأقدار ، وأخبارهم

ليست سواء فى قيمها العلمية ، ولا يتم اعتبار الطبرى مرجعاً فى التاريخ إلا بإكمال المهمة التى بدأ بها ، وهى تقدير أخباره بأقدار أصحابها ، ففيها ما يعد من سلسلة الذهب ، وفيها مالا تزيد قيمته على قيمة الخزف ، ولكل ذلك نقاده وصيارفته وتجاره ، وهم يعرفون أقدار هذه الأخبار عند التعريف بأقدار أهلها ، وقديماً قيل : وما آفة الأخبار إلا رواتها .

أنى لك هذا ؟

إن كل خبر فى تاريخ الطبرى ، بل كل نص يتناقله أهل العلم فى أجيال الإسلام ، له عند أهله قيمة رفيعة أو وضيعة ، على قدر شرفه أو خسته بالرواة الذين ينتسب إليهم ذلك الخبر أو ذلك النص . فشرف الخبر فى التراث الإسلامى تبع لصدق راويه ومنزلته من الأمانة والعدالة والتثبت . لذلك امتازت كتب سلفنا الأول بتسمية الرجل المسئول عن أى حديث نبوى يوردونه فيها ، وبيان المصدر الذى جاءوا منه بأى خبر تحدثوا به الى الناس . ولو لم يسموا الرجل المسئول عن الحديث النبوى عند ايراده ، ولو لم يبينوا المصدر الذى حصلوا منه على أى خبر يودون ذيوعه بين الناس ، لطالبهم بذلك علماء الثقافة الإسلامية بأشد من مطالبة المحاكم من يدعى ملكية العقار أو الحقل بما يثبت ملكيته له ومن أين صار ذلك إليه؟

وإذا كان مبدأ « أنى لك هذا ؟ » مما سنه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى مشروعية امتلاك الأموال ، فإن أبناء الجيل الذى منه عمر بن الخطاب هم الذين سنوا للناس بعدهم وجوب بيان مصادر العلم ، كما سنوا لهم وجوب بيان مصادر المال ، والعلم أثمن عندهم من المال وأشرف ، وأنفع منه وأبقى .

نحن نعتبر تاريخ الطبرى الآن من أقدم مصادرنا ، وكان تاريخ الطبرى فى النصف الثانى من القرن الثالث (أى قبل أحد عشر قرنا) يعد من مصادر التاريخ الإسلامى الحديثة بالنسبة إلى المصنفات التى دونت قبله بثلاثة بطون ، بل بأربعة . ولعل أقدمها مغازى مؤرخ المدينة موسى بن عقبة الأسدى المتوفى سنة ١٤٠ هـ ، وهو الذى يقول فيه الإمام مالك « عليكم بمغازى ابن عقبة فإنه ثقة ، وهى أصح المغازى » . وابن عقبة من تلاميذ عروة بن الزبير وعلقمة بن وقاص الليثى . ومن طبقة تلاميذه العراقيين سيف بن عمر التميمى الكوفى المتوفى بعد سنة ١٧٠ هـ ، وله فى سنن الترمذى حديث واحد ، والطبرى يروى عنه بواسطتين ، أى عن شيوخه وهم عن شيوخهم الذين كانوا تلاميذ لسيف . ومن طبقة تلاميذ موسى بن عقبة مؤرخ الشام أبو إسحاق الفزارى الحافظ المتوفى سنة ١٨٦ هـ ، وهو حفيد أسماء بن خارجة

الفزارى وكان له كتاب فى التاريخ أثنى عليه شيخ الإسلام ابن تيمية فى « مقدمة أصول التفسير »[1] ، بعد أن قال : « إن أعلم الناس بالمغازى أهل المدينة ، ثم أهل الشام ، ثم أهل العراق ، فأهل المدينة أعلم بها لأنها كانت عندهم . وأهل الشام كانوا أهل غزو وجهاد فكان لهم من العلم بالجهاد والسير ماليس لغيرهم . ولهذا أعظم الناس كتاب أبى إسحاق الفزارى الذى صنفه فى ذلك . وجعلوا الأوزاعى أعلم بهذا الباب من غيره من علماء الأمصار » .

ويأتى بعد تلاميذ موسى بن عقبة طبقة يحيى بن سعيد بن أبان بن سعيد بن العاص الأموى المتوفى سنة ١٩٤ هـ ، ومن مؤرخى الشام الوليد بن مسلم أبو العباس الدمشقى مولى الأمويين المتوفى سنة ١٩٥ هـ ومحمد بن عمر الواقدى المدنى قاضى العراق المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ثم كاتبه المؤرخ الحافظ الثقة محمد بن سعد بن منيع البصرى (١٦٨ — ٢٣٠) . ومن هذا الجو العلمى استمد أبو جعفر الطبرى هديته الكبرى إلى الأمم الإسلامية بما سجله وخلده من جهود شيوخه وشيوخ شيوخه ومن سبقهم إلى زمن التابعين والصحابة ، فلم يترك مهماً من أخبار سلف الأمة مما أثر عن الأئمة الذين سمينا بعضهم إلا وقد دون طرفا منه ، ناسباً كل خبر إلى صاحبه وإلى من يرويه عنهم صاحب ذلك الخبر من شيوخه وأسلافهم .

الأخبار الضعيفة عند الطبرى :

لم يقتصر الطبرى على المصادر التى أشرت إلى بعضها ، بل أراد أن يقف قارئه على مختلف وجهات النظر ، فأخذ عن مصادر أخرى قد لا يثق هو بأكثرها ، إلا أنها تفيد عند معارضتها بالأخبار القوية ، وقد تكمل بعض ما فيها من نقص . كما صنع بنقله كثيراً من أخبار أبى مخنف لوط بن يحيى الأزدى الذى قال فيه الحافظ الذهبى فى ميزان الاعتدال : « إخبارى تالف لا يوثق به ، تركه أبو حاتم وغيره ، وقال ابن معين : ليس بثقة . وقال مرة : ليس بشىء . وقال ابن عدى : شيعى محترق ، صاحب أخبارهم . مات قبل السبعين ومائة » . فقد نقل الطبرى من أخباره فى مئات المواضع ، ولو أن الذين ينقلون عن الطبرى ويقفون عنده ، استقروا أخبارهم من لوط بن يحيى هذا واكتفوا بعزوها الى الطبرى لظلموا الطبرى بذلك ، وهو لا ذنب له بعد أن بين لقارئه مصادر أخباره ، وعليهم أن يعرفوا نزعات أصحاب هذه المصادر ويزنوها بالموازين العادلة اللائقة بهم وبها .

---

(١) ص ٣٢ طبع السلفية .

إن مثل الطبرى ومن فى طبقته من العلماء الثقات المتثبتين ـ فى إيرادهم الأخبار الضعيفة ـ كمثل رجال النيابة الآن إذا أرادوا أن يبحثوا فى قضية فإنهم يجمعون كل ما تصل إليه أيديهم من الأدلة والشواهد المتصلة بها ، مع علمهم بتفاهة بعضها أو ضعفه ، اعتماداً منهم على أن كل شىء سيقدر بقدره . وهكذا الطبرى وكبار حملة الأخبار من سلفنا كانوا لا يفرطون فى خبر مهما علموا من ضعف ناقله خشية أن يفوتهم بإهماله شىء من العلم ولو من بعض النواحى . إلا أنهم يردون كل خبر معزواً إلى راويه ليعرف القارىء قوة الخبر من كون رواته ثقات أو ضعفه من كون رواته لا يوثق بهم ، وبذلك يرون أنهم أدوا الأمانة ، ووضعوا بين أيدى القراء كل ما وصلت إليه أيديهم . قال الحافظ ابن حجر فى ترجمة الطبرانى من لسان الميزان : « إن الحفاظ الأقدمين يعتمدون فى روايتهم الأحاديث الموضوعة مع سكوتهم عنها على ذكرهم الأسانيد ، لاعتقادهم أنهم متى أوردوا الحديث بإسناده فقد برئوا من عهدته ، وأسندوا أمره إلى النظر فى إسناده » .

ومن فوائد إيراد الحادث الواحد بأخبار من طرق شتى وإن كانت ضعيفة قول شيخ الإسلام ابن تيمية فى مقدمة تفسير القرآن (ص ٣٠ — ٣١) : إن تعدد الطرق مع عدم التشاعر أو الاتفاق فى العادة يوجب العلم بمضمون المنقول (أى بالقدر المشترك فى أصل الخبر) لكن هذا ينتفع به كثيراً فى علم أحوال الناقلين (أى نزعاتهم والجهة التى يحتمل أن يتعصب لها بعضهم) ، وفى مثل هذا ينتفع برواية المجهول ، والسيىء الحفظ ، وبالحديث المرسل ونحو ذلك ، ولهذا كان أهل العلم يكتبون مثل هذه الأحاديث ويقولون : إنه يصلح للشواهد والاعتبار ما لا يصلح لغيره . قال أحمد : « قد أكتب حديث الرجل لأعتبره » .

ومن الإنصاف أن نشير إلى أن اتساع صدور أئمة السنة — من أمثال أبى جعفر الطبرى — لإيراد أخبار المخالفين من الشيعة وغيرهم ، دليل على حريتهم ، وأمانتهم ، ورغبتهم فى تمكين قرائهم من أن يطلعوا على كل ما فى الباب ، واثقين من أن القارىء الحصيف لا يفوته أن يعلم أن مثل أبى مخنف موضع تهمة — هو ورواته — فيما يتصل بكل ما هم متعصبون له ، لأن التعصب يبعد صاحبه عن الحق . أما سعة الصدر فى إيراد أخبار المخالفين فهى دليل على عكس ذلك . وعلى القارىء الحصيف أن يأخذ ما صفا ويدع ما كدر . وأن يستخلص الحق عند ما يكون موزعا أو معقداً .

الانتفاع بأخبار الطبري :

إنما ينتفع بأخبار الطبري من يرجع إلى تراجم رواته في كتب الجرح والتعديل . فتراجم شيوخه مباشرة وشيوخهم توجد في الأكثر في مثل تذكرة الحفاظ للذهبي . وتراجم الرواة الذين كانوا إلى أواخر المائة الثانية توجد في خلاصة تذهيب الكمال للصفي الخزرجي وتقريب التهذيب وتهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر . والذين تناولهم الجرح من الضعفاء يترجم لهم الحافظ الذهبي في ميزان الاعتدال والحافظ ابن حجر في لسان الميزان . وفي طبقات ابن سعد وتاريخ بغداد للخطيب وتاريخ دمشق لابن عساكر وتاريخ الإسلام للذهبي والبداية والنهاية لابن كثير . وإن كتب مصطلح الحديث تبين الصفات اللازمة للراوي ومتى يجوز الأخذ برواية المخالف . ولا نعرف أمة عنى مؤرخوها بتمحيص الأخبار وبيان درجاتها وشروط الانتفاع بها كما عني بذلك علماء المسلمين . وإن العلم بذلك من لوازم الاشتغال بالتاريخ الإسلامي ، أما الذين يحتطبون الأخبار بأهوائهم ، ولا يتعرفون إلى رواتها ، ويكتفون بأن يشيروا في ذيل الخبر إلى أن الطبري رواه في صفحة كذا من جزئه الفلاني ويظنون أن مهمتهم انتهت بذلك ، فهؤلاء من أبعد الناس عن الانتفاع بما حفلت به كتب التاريخ الإسلامي من ألوف الأخبار . ولو أنهم تمكنوا من علم مصطلح الحديث ، وأنسوا بكتب الجرح والتعديل ، واهتموا برواة كل خبر كاهتمامهم بذلك الخبر لاستطاعوا أن يعيشوا في جو التاريخ الإسلامي ، ولتمكنوا من التمييز بين غث الأخبار وسمينها ، ولعرفوا للأخبار أقدارها بوقوفهم على أقدار أصحابها .

وبعد فإن تركة سلف هذه الأمة - في كل ضرب من ضروب المعرفة - من أنفس ما ورثت عن أسلافها . وقد كانت لعلمائنا الأقدمين مشاركة في علوم كثيرة ، فجاءت مؤلفاتهم مرتبطاً بعضها ببعض ومكملا بعضها لبعض . والذي ألفوه في التاريخ واعتمدوا فيه على الرواية ، مبالغة منهم في أداء الأمانة كاملة وافية ، لا يجوز لمن ينقله عنهم أن يقصر في عرض تلك الأخبار على قواعد علم الرواية وعلى المعاجم المؤلفة في تراجم الرواة ، وإن لم يفعل أخطأ الطريق ، وكان عمله خارجا عن مناهج العلماء .

محب الدين الخطيب

نحو مجتمع جديد :

مهاجرون وأنصار

بسم الله الرحمن الرحيم : قال الله تعالى فى كتابه الحكيم فى قصة الهجرة ونصره لرسوله : « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ، ثانى اثنين ، إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا ؛ فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » ، وقال فى شأن المهاجرين والأنصار : «واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا » .

كانت هجرة الرسول صلوات الله عليه من مكة إلى المدينة ، إيذانا ببدء عصر جديد فى تاريخ العالم ، وعاملا قويا فى رقى الإنسانية ونهضتها ، وحدا فاصلا بين الوحشية والمدنية ، والعبودية والحرية ، والجهل والمعرفة ، والظلام والنور .

ففى المدينة بعد الهجرة بقليل ، بدأ الرسول يبشر بحقوق الإنسان ؛ ويرفع من كرامته فى الحياة ، ويعمل على تحرير الطبقات والأجناس من الرق والاضطهاد والاستعباد والاستغلال ، ويفتح الأبواب أمام المتنافسين من ذوى الكفاية من كل أمة ولون ، ويشرع أصول الحكم العادل ، ويضع مناهج التقدم الروحى والاجتماعى ، ويعلن أن للمحكومين ما للحاكمين ، وأن الدولة إنما وجدت لخدمة الفرد . . . ووجد الرسول نفسه أمام ثلاث طوائف فى المدينة :

أولاها - طائفة المهاجرين الفقراء ، الذين ضحوا بوطنهم ومالهم وتجارتهم ، طلبا للحرية ، وفرارا من الطغيان ، فهاجروا من مكة إلى المدينة ، فرادى وجماعات ، بعد هجرة محمد صلوات الله عليه ، وكان أغلبهم يعمل بمكة فى التجارة يكسب منها الأموال الطائلة ، ويصفهم الله تعالى فى القرآن بقوله : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون » ، ويصف الطبقة التى تلتهم فى الهجرة بقوله : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم » .

والطائفة الثانية - هم الأنصار الذين أحبوا الرسول ونصروه، واتبعوا النور الذى أنزل معه: من الأوس والخزرج سكان المدينة، وكانت مهنة أكثرهم الزراعة وتعهد الثمار والأشجار والفاكهة، وكانوا ذوى عدد وثروة، ووصفهم الله تعالى بقوله: «والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم، يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون».

والطائفة الثالثة - يهود المدينة، الذين طالما أشعلوا نار الخصومة والحرب بين الأوس والخزرج، وسخروا برسالة محمد وبأصحابه.

مجتمع كهذا المجتمع، فيه الفقراء والأغنياء، والمفسدون والمتآمرون، لابد فيه من بناء جديد، وحركة بعث وتجديد؛ فماذا فعل محمد صلوات الله عليه؟ بدأ الرسول يعالج هذه المشكلات بإلهام سديد، وعقل حصيف، وسياسة حكيمة:

طمأن اليهود على حرياتهم الدينية والشخصية، وتعهد بحمايتهم والدفاع عنهم، فى وثيقة سياسية بارعة، وادّعَ فيها اليهود وعاهدهم وحذرهم، ليضمن سلامة الدولة وأمنها.

والتفت إلى علاج مشكلة التفاوت الشديد فى الثروة، بين الأغنياء والفقراء، بين الأنصار والمهاجرين، فآخى بينهما إخاء فريداً فى تاريخ الإنسانية، إخاء مودة وتعاون وإخلاص، فكان يأخذ بيدى المهاجرىّ والأنصارى ويقول: «تآخيا فى الله أخوين». قال ابن هشام: آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار فقال: تآخوا فى الله أخوين أخوين، فكان الرسول وعلى بن أبى طالب أخوين، وأبو بكر وخارجة بن زهير أخوين، وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك أخوين، وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت أخوين، وحمزة أسد الله وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين، وجعفر بن أبى طالب ومعاذ بن جبل أخوين، وسوى هؤلاء وهؤلاء.

كان الرجل من المهاجرين يرتبط برباط الأخوة بآخر من الأنصار، وصار لكل أنصارى أخ من المهاجرين، يشاطره داره وماله وإبله وتجارته، لهذا نصف ولهذا نصف، وكان إذا توفى أحدهما ورثه أخوه - فى العقيدة لا فى النسب - إلى أن نزلت آية الميراث، فجعل الإرث بين ذوى الأرحام والقرابة.

وهكذا تنازل الأنصار الأغنياء ، بوازع من دينهم وضميرهم وحبهم وطنهم ، لإخوانهم المهاجرين الفقراء عن نصف ما يملكون من ثروة وعقار وأرض ، دون تردد أو إبطاء .

وجدّت مشكلة أخرى ، فقد كان الأنصار أصحاب زراعة ، بينما المهاجرون أهل تجارة لا عهد لهم بسواها من الحرف ، فماذا يفعلون بالأرض التي أصابتهم ؟

هنا تجلت عظمة إيمان الأنصار ، وجلال أخلاقهم ، وإيثارهم على أنفسهم ؛ فقد أصروا على أن يزرعوا أرضهم وأرض المهاجرين بأنفسهم ، ويقسموا محصولها مناصفة فيما بينهم ، ويكفوهم العمل والمؤونة ، تعاونا منهم في بناء الأمة والمجتمع .

ومع ذلك فقد عمل كثير من المهاجرين في الزراعة ، كأبي بكر وعمر وعلي وسواهم . وعمل آخرون في التجارة ونجحوا فيها نجاحا عجيبا ، كعبد الرحمن بن عوف الذي عرض أخوه الأنصاري سعد بن الربيع أن يشاطره ماله فأبى ، وطلب إليه أن يدله على السوق فتاجر وربح ، ولما توفي وترك ثروة واسعة قال أناس من أصحاب رسول الله : إنا نخاف على عبد الرحمن فيما ترك ، فقال كعب : سبحان الله ، ولم تخافون عليه ؟ كسب طيبا ، وأنفق طيبا ، وترك طيبا .

ولم يكن هذا هو العلاج الوحيد الذي عالج به الرسول الكريم مشكلة الفقر في المدينة ، بل خص المهاجرين ببعض الغنائم ، كأموال بني النضير ، فلم يعط الأنصار منها شيئا ، إلا ثلاثة نفر محتاجين ، وقال لهم : إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم في هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة ، فقال الأنصار : بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها ... وهكذا كانت يد الأنصار جليلة على المهاجرين ، حتى قالوا فيهم : ما رأينا مثل أنصار المدينة ، لقد أحسنوا مواساتنا ، وبذلوا الكثير ، وأشركونا في المهنة ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله .

وحض الرسول على المحبة والتعاون والرحمة ، وعلى البذل والسخاء والإيثار والصدقة والإحسان ، وإطعام الجائع ، ومساعدة المحتاج ، وإغاثة الملهوف ، وشرع فريضة الزكاة ، وجعل بيت المال في خدمة الفقراء . وكان الرسول يضرب في ذلك أروع الأمثال ، ويؤثر على نفسه .

قالت عائشة : ماشبع رسول الله ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ، ولو شئنا لشبعنا ، ولكننا كنا نؤثر على أنفسنا .

وذهب الرسول يعود ابنته فاطمة فى بيت زوجها على بن أبى طالب ، فقال : السلام عليك يابنتاه ، كيف أصبحت ؟ قالت أصبحت والله وجعة ، وزادنى وجعا أنى لست أقدر على طعام آكله ، حتى أجهدنى الجوع ، فبكى رسول الله ، وقال : لا تجزعى يابنتاه ، فوالله ما ذقت طعاما منذ ثلاث ، وإنى لأكرم على الله منك ، ولو سألت ربى لأطعمنى ، ولكنى آثرت الآخرة على الدنيا ، أبشرى ، فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة .

وحمل إليه صلوات الله عليه فى يوم تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ، ثم قام إليها فقسمها ، فما رد سائلا حتى فرغ منها وعاد لا يمسك منها درهما .

وكان المسلمون من الأنصار والمهاجرين يضربون المثل رائعا كريما فى فضيلة الإيثار ، نزل برسول الله ضيف ، فلم يجد عند أهله شيئا ، فدخل عليه رجل من الأنصار ، فذهب بالضيف إلى أهله ، ثم وضع بين يديه الطعام ، وأمر امرأته أن تطفىء السراج ، وجعل يمد يده إلى الطعام ، كأنه يأكل ولا يأكل ، حتى أكل الضيف الطعام ، فلما أصبح قال رسول الله : « لقد عجب الله من صنعكم الليلة إلى ضيفكم » .

وأهديت لعبادة بن الصامت هدية ، وإن معه فى الدار اثنى عشر من أهل بيته ، فقال عبادة : اذهبوا بها إلى آل فلان فهم أحوج إليها منا ، قال الوليد بن عبادة فأخذتها فكنت كلما جئت أهل بيت يقولون : اذهبوا بها إلى آل فلان ، فهم أحوج منا إليها ، حتى رجعت الهدية ثانية إلى عبادة .

وحرم رسول الله الاستغلال وأكل أموال الناس بالباطل ، ودعا الأغنياء إلى التنازل لإخوانهم الفقراء عن بعض يملكون من أرض هبة ومنحة ، فقال : من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها أخاه ولا يؤاجرها إياه ، وقال : من كانت له أرض فليزرعها أو ليحرثها أخاه فإن أبى فليمسك أرضه ، وقال : لأن يمنح الرجل أخاه أرضه خير له من أن يأخذ عليها خرجا معلوما . ودعا إلى الرحمة والبر والخير والتعاون والمساواة .

هذا هو الرسول الكريم ، وهؤلاء هم المسلمون حقا ، من الأنصار والمهاجرين ، من بناة مجدنا الخالد ، والدعاة إلى خير الدنيا والآخرة ، وممن لم يفتنهم المال ، ولم تلههم

الإسلام ومساهمته في بناء السلام العالمي

لم ترسل الرسل وتنزل عليهم الملائكة بالوحي والكتب من عند الله إلا لإصلاح حال البشر، وتزكية نفوسهم، وإقامة العدل والمساواة بينهم، ودفع طغيان بعضهم عن بعض، وتأسيس بناء المجتمع في الأرض على دعائم صالحة للحياة والعمران حتى تنصرف قوى البشر لمنفعة البشر «ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض» (سورة الأعراف آية ٩٦)

وكان من عجيب سر الأديان جميعاً، وترادف الرسل إلى أهل الأرض، أن كان أول ما يهدفون إليه ويدعون له، إنما هو عقيدة التوحيد وإزالة كل معبود على وجه الأرض

زهرة الحياة الدنيا، وكانوا مع الله فكان الله معهم، وممن أدوا الحقوق، وجعلوا أنفسهم في خدمة إخوانهم في الله والوطن.

وما أحوجنا اليوم إلى أن نسير على ضوئهم، ونستهدى بهدى رسولنا الأعظم، ونساعد الدولة في خدمة الشعب وبناء الأمة وضمان الحياة الكريمة للفقراء، وأن يؤثر أغنياؤنا على أنفسهم، ولا يبخلون بما لهم في سبيل الله والمعروف.

وإنى لا أجد في ختام هذه الكلمة أبلغ من قول الإمام أبي حامد الغزالي في «الإحياء»:

«إن على الإنسان في ماله أن يعرف مقصود المال، وأنه لماذا خلق؟ وأنه لم يحتاج إليه حتى يكتسب؟ فلا يحفظ إلا قدر الحاجة، وألا يعطيه من همته فوق ما يستحق. وعليه أن يراعى جهة دخل المال، فيجتنب الحرام المحض، وما الغالب عليه الحرام، كمال السلطان؛ ويجتنب الجهات المكروهة القادحة في المروءة كالهدايا التي فيها شوائب الرشوة. وأن لا يستكثر من المال ولا يستقل منه، بل القدر الواجب، ومعياره الحاجة، والحاجة ملبس ومسكن ومطعم».

عبد المنعم خفاجة
المدرس في كلية اللغة العربية

من دون الله ، ولم يكن ذلك لأن عقيدة التوحيد هي حق في نفسها فحسب ، وإنما كان إلى ذلك أنها حينما تتضمن إفراد الله بالعظمة ، تتضمن المساواة بين أفراد من عداه . إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم . وفيه تمام المساواة بين أبناء البشر وأفراد المجتمع الواحد . وهذه هي الحرية والمساواة التي تصرخ بها الحضارة والمدنية الحديثة على أنها ثمرة الثورة الفرنسية ، بينما هي أولى عقائد الأديان منذ نزلت الأديان ، إذ هي صنو عقيدة التوحيد ، ومقتضاها أن السيد الفرد هو الله سبحانه ، والجميع بعد سواء في الحقوق والواجبات ، حتى كان النبي يقول لقومه « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت » (سورة هود آية ٨٨) فأول مبادىء الإسلام وعقائده هو تأسيس المجتمع على المساواة والعدل بين الناس ، لأنهم سواسية لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح .

وهذا هو مبدأ إخراج الناس من الظلمات إلى النور الذى جاءت به الأنبياء فأخرجوا الناس من ظلمات جهلهم بالله سبحانه إلى نور المعرفة به ، ومن ظلمات جهلهم بحقوقهم الشخصية أمام كبرائهم وملوكهم إلى نور العلم بأنهم وإياهم سواسية كأسنان المشط ، لا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله .

وبذلك يتم بناء صرح المجتمع على أسس من العدالة لا تنهار . وقطعت الرسل مرحلتها الأولى في رسالتها في ترويض العقل البشرى على فهم هذه الحقيقة في عقيدة التوحيد ومبدأ المساواة .

وكان كثير من السادات في أممهم يقبلون عقيدة التوحيد ولا يقبلون المساواة بينهم وبين الضعفاء من أممهم ، فيأبى عليهم الأنبياء ذلك ولا يقبلون منهم إلا العقيدة كاملة « قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون » . . . الآيات . وكذلك فعلوا مع الرسول ﷺ وطلبوا أن ينحى من مجلسه الضعفاء ليجلسوا معه ويستمعوا إليه ، فأبى . ونزل قرآن كريم على النبي صلوات الله عليه في إشاحة خفيفة عن أعمى جاءه وكان مشغولا بوفد من السادات « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » . . . الآيات .

هذا هو مبدأ الدين من عقيدة إفراد الله سبحانه بالألوهية والربوبية ، وخرط جميع من سواه في سلك العبودية له على السواء ، فتتحد كلمة الأمة ويخف بينها الخلاف أو ينعدم .

وكلما كانت الأمة أو الأمم متحدة في العقيدة الصحيحة السليمة كان ذلك أدعى إلى السلم

فيما بينها ، وأدفع للقوى أن تتجه إلى الإنتاج الاقتصادى النافع متعاونة بروح واحدة هى روح الأخوة ، وفى ذلك عماد الحياة وصلاح الأرض وسلامة الأمن وتواد النفوس ، فلم يكن إجماع الرسل وتضافر الأديان فى كل زمن على عقيدة التوحيد إلا لمصلحة البشر أنفسهم ، واجتثاث نزعة الطغيان منهم بعضهم على بعض بسبب تفاوت البشر فى القوى والقدر ، فيظن القوى أنه خير من الضعيف ، فجاءت الأديان كلها بعقيدة التوحيد والمساواة توحيداً لله بالربوبية والمساواة بين أفراد من عداه .

وهذه الحروب الطاحنة التى تنشب فى هذا العصر ، بين كل وقت وآخر ، بين بنى الجنس الواحد من أبناء البشر ، مما لا يوجد له نظير فى أبناء جنس آخر من الكائنات الحية التى على وجه الأرض ، والتى لم توهب نعمة العقل ، هذه الحروب التى تستنفد قوى البشر وإنتاجهم فى تدمير بعضهم بعضا بسبب اختلافهم فى مبادىء وآراء ، فراحوا يستخدمون العلم فى سفك الدماء والنكال ، ويبتكرون أسرع المهلكات وأغزرها فى الفناء لأهل الأرض .

أى فساد فى الدنيا أشد من ذلك ؟ قوم يتواطئون على إهلاك أنفسهم وغيرهم بأيديهم . فهل هذا الجنون العالمى والانتحار الإنسانى والسير فى سبيل تدمير الحضارة والبشرية خير للإنسانية ، أم الاستغاثة بالسماء لصلاح الأرض ودرء الحرب عنها والانتفاع بالبقية الباقية من الروح الدينية لجمع كلمة البشر على وحدانية الله سبحانه ، والتعاون على محبته وشرعه ، ليكون هؤلاء المتعاونون كتلة واحدة على هدف واحد ، فلا يتحاربون ولا يستنفدون قواهم فيما يعود عليهم إلا بالخير والعافية وبقاء السلام : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » .

حرية العقيدة والحرية الشخصية :

تعترض تلك الكلمة سبيل الباحثين هنا وتصطك بآذانهم حيثما يتفاهمون ، وهى وإن كانت كلمة حق فى بعض وجوهها فقد أريد بها باطل استغله الشيطان وألقاه فى نفوس الكثير من العقلاء ، إبقاء على حبه دوام الخلاف واتساعه بين البشر ، ذلك الخلاف الذى يبتدىء بحجة هذه الكلمة بين كل اثنين من أسرتين أو بلدين إلى ما اتسع له الآن من انقسام الدنيا إلى معسكرين ـ رأسماليين وشيوعيين ـ لا يلبث الشر أن تندلع منه شرارة بينهما ، فتطيح بالدنيا بأسرها بسبب مبادىء وآراء ما أنزل الله بها من سلطان .

وهذا الذى نخشاه إنما هو عقاب سماوى ، وإنذار لأهل الأرض الذين أباحوا الكفر الصراح والفسوق والعصيان ، وانتهاك حرمة الآداب وانحلال الأخلاق وفساد الذمم ،كل ذلك بسبب استخدام هذه الكلمة ، الحرية الشخصية ، فى إطلاق الأهواء والميول ونشر الإباحية الفاجرة .

ولو أن عشر معشار ما ينفق على التسلح والسياسة الآن ،كان ينفق على حرمة الآداب واحترام الدين ودعوة الإنسانية إلى الخير والصلاح وإيمان الأرض بالسماء ، مابلغ الخلاف ما بلغه الآن ، ولما كشر الشر عن نابه لأهل الأرض يريد أن يفترسهم بين عشية وضحاها .

فأين رجال الدين ، وأين انتفاع الحكومات بهم الآن ؟

إن الدين هو موضع الغوث الذى تنتظره البشرية الآن لإغاثتها مما سيجرفها من حرب طاحنة واقفة على الأبواب ستدمر المدنية وتأتى على الأخضر واليابس .

« قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

أمر النبى ﷺ أن يوجه هذا النداء الكريم ، وهذه الكلمة العادلة على ملأ الأشهاد والرأى العام ، إلى المخالفين المعاندين ، قبل أن يزداد الخلاف وتنشب الحرب .

فهذا النداء الإسلامى والسياسة العليا النازلة من السماء لتوجه من الجبهة الإسلامية إلى جبهة المخالفين ، تؤذن بأن تحتذى ويوجه مثلها مثلا إلى تلك الكتلة الشرقية التى تريد أن تجتاح الأديان والإسلام كما اجتاحته فى مسلمى الشرق ، فنقول : « تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا » ـ الرأسماليون ـ المال والأرض احتكارا لهم من دون الناس ، ولا يتخذ بعضنا الحكم قسرا على عباد الله بتحريم الملكية الفردية التى أباحها الله فى كل الأديان ، إلى آخر ما نغزو به مبادئهم الهدامة ونمهد لهم من مبادىء إسلامية كريمة تشبع نهمهم الإصلاحى من غير هدم ولا طغيان لمن يريد الإصلاح .

وإذا سمعوا أن الرأسمالية والاحتكار والإقطاعيات والكسب غير المشروع أعداءهم الأولى قد أصبحت تحارب بلا هوادة فى مصر الإسلامية لأنها موارد يحرمها الإسلام كان ذلك أدعى للإصغاء إلى مصر ونهضتها الحديثة ، وخطتها الوسط العادلة الحكيمة .

والإسلام فى مبادئه وسماحته بين مبادئ الشرق والغرب كلبن سائغ حلو للشاربين يخرج من بين فرث ودم .

وقد راح كل من الطرفين يعبئ قوى الشر والحرب ضد الآخر وهاهو العالم ينتظر البوق ، فهذه الروح الإسلامية فى سياسة السلم وهذا النداء السماوى الذى وجهه القرآن ونزل به جبريل من السماء إلى خصوم الإسلام أشد ما كانت الخصومة ، هى سياسة تحتذى ويقتبس منها النور .

فلماذا لا ينتفع المسلمون فى مواقفهم بقرآنهم الكريم الداعى للسلم ، ويتخذون منه نبراسا ويتفهمون مراميه وأهدافه ليستوحوا منها ما ينفعهم فى ذلك وليرفعوا به الصوت عاليا فى السياسة العالمية ويعلنوا همة الإسلام العالية فى خدمة البشرية ولا سيما فى درء الشيوعية وكفرها الصراح .

ليس إكرام القرآن الكريم بين أهله هو تلاوته فحسب والتغنى به فى المآتم والحفلات ، وإنما إكرامه العمل به ، والتضامن على تدبره وفهمه ، وإشعار الأمم والشعوب والطبقات العالمية المثقفة بأن القرآن فيه فصل القضاء فيما اختلف فيه الناس فى كل زمان ومكان .

وهذه مهمة شاقة يجب أن ينهض بها الأزهر الشريف فى عهده الجديد وعهد هذه الحكومة الناهضة وعهد هذا الظرف العالمى الحاضر الموجب لذلك . ومن اتخذ القرآن مهجورا هيهات أن يكون بين الناس منصورا . فيجب على أهل القرآن الآن المؤمنين به وبرسالته العالمية أن يواجهوا الناس بما فيه من مقاطع الحكم ومفاصل الخلاف ، وأن يقنعوا العالم بذلك ، ساستهم وشعوبهم ، وطرق الإقناع واسعة ، والسبيل نهج والدين واضح والدولة للبيان ، وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا ، .

وهذه فرصة للإسلام لن تعوض يجب أن ينتهزها الأزهر الشريف فى عهده الجديد وعهد حكومة مصر الناهضة، فقد ذهب العصر الذى كان إذا تكلم فيه المسلمون قالوا : متعصبون، وجاء العصر الذى سيستغيث بنا فيه الساسة العالميون لدرء الشيوعية الكافرة . وما أدرانا لعل الإسلام حينما يجلجل صوته بين الكتلتين تهفو له قلوب وتؤمن به شعوب وتنطفئ به حروب ، وتقع عليه العين وتصلح به ذات البين ، وتحقن به دماء وترضى به عن الأرض السماء .

عبد السلام العبادى
أستاذ بكلية الشريعة

الحدود في نظر الإسلام

هذا أسلوب من أساليب التربية الدينية يريد الشارع الحكيم أن يستقيم حال الناس به، ويصلح سلوكهم عليه، وتسود فيهم الأمانة، وتعلو بينهم راية الشرف، لأنه سبحانه بعد خلقه إياهم في أحسن تقويم، وتسخيره لهم الكون كله يستقلون أرضه، ويستظلون بسمائه، ويتمتعون بخيراته التي يحتويها، لم يبق لهم عذر في عـــدم تذليله لإسعادهم، واستخدامه لرفاهيتهم. وشذوذهم عن هذه الطبيعة، وخروجهم عن مألوف تلك العادة، وتمردهم على ما تقضى به السنن من الهدوء والسلام، والأمن والاستقرار، وميلهم إلى الإفساد والشر، والإضرار والكيد، والإيلام والتنغيص، وتحويل البيئة التي يعيشون فيها إلى مباءة للآثام والفجور، كفران بنعمة الله التي أنعم بها عليهم، ونكران لجميله الذي أسداه إليهم، يستأهلون من أجله الغضب والسخط والعقاب والوعيد، والزجر والتأنيب... ولذلك جعل — جل وعلا — الحدود بمثابة الردع للمفسدين، والتهذيب للمذنبين، والتخويف للملتوين، عسى أن يكون هذا باعثا على إقرار الأمور، وصلاح الأحوال، والاستقامة على الجادة، ليتوفر للناس العيش السعيد، والحياة الرتيبة الهادئة.

والناظر إلى الحدود الإسلامية — في بادىء الأمر — ربما ظن أنها قاسية على ابن آدم الذي خصه ربه بالكرامة، وميزه بالعقل، وفضله على سائر المخلوقات. ولكن الذي يدقق التأمل، ويمعن التفكير، يعتقد أن المرء الذي يصل به تحلله في خلقه، وانحداره في سلوكه، وتهاونه في شرفه، واستهتاره بغيره، إلى هذا القدر من استباحته للأعراض، وتغاضيه عن الحقوق، وتنصيبه من نفسه — هكذا — معول هدم لإفساد الجماعة البشرية، يجدر به أن يزول من على الأرض، لا أن يبقى كما تبقى الجراثيم الفتاكة يتطاير شررها، ويستفحل ضررها، ويعم وباؤها، ويتزايد على تطاول الليالي فتكها الذريع. على أن الباحث فيها من ناحية أخرى يرى أنها ترفقت بالمجرم وعاقت عليه بعض الآمال حين أبقت على حياته من الموت، وصانته من الهلاك، لأنها ترجو منه الاستقامة على الصراط السوى، والمهيع

الصحيح ، ليصبح نافعا لنفسه وللناس ، ويكون الذى صادفه موقظا لأحاسيس الخير فيه ، ثم لا يكون فى عمله بعد ذلك ما يشين الحياة ، ويزرى بالإنسانية .

وإذا قيس هذا الصنيع بما تفعله بعض الدول الآن — على ضوء الفلسفة الحديثة — من حرمان أمثال هؤلاء من التناسل والاختلاط ، ومباشرة الحقوق الدستورية ، والميزات الاجتماعية ، لا يصح لنا إلا أن نقول إن الإسلام كان متسامحا إلى أقصى حدود التسامح .. على أنه فى بعض حالات العقوبة لا تأخذه هوادة ولا رحمة ، ولا تعطفه عليهم شفقة ولا رأفة ، فيكون حكمه بالموت ، وذلك فى زنا المحصن ، وقتل النفس التى حرم الله قتلها ، والذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً . ومما لا شك فيه أن أمثال هؤلاء لا يرجى منهم إلا أن يكونوا على هذه النحيزة من الشر ، ولؤم الطبع ، وفساد الطوية ، وخبث النفس ، وهم فى هذه الحال أشبه بالعضو الذى احتوى على المرض الخطير ، وقرر الطبيب أن وجوده يودى بالجسم كله ، ويقضى على الأعضاء جميعها .

ولخطورة هذه المواقف ، وصعوبة ثبوتها فى كثير من الأوقات لم يرض أن يكون ادعاء حدوثها قضية مسلمة ، بل أحاطها بسياج من الحذر ، وجعلها لا تتقرر فى الواقع إلا بشهادة العدول من المكلفين الأحرار ، وبخاصة الزنا لما يترتب عليه من التفريق بين الزوجين ، وتشريد الأطفال ، وتقويض صروح السعادة .. فإنه لم يقبل الشهادة إلا من أربعة شهداء يشهدون أنهم رأوا كلا من الرجل والمرأة على وضع خاص ، وجعل للشهود عليهما الحق فى درء الحدود بالشبهات وليس بعد هذا حذر من العبث ، وصون للأخلاق ، وحفظ للأعراض ، ودفاع عن الأنساب التى هى الرصيد الضخم من المجد والشرف ، والعزة والكرامة ...

وفى هذه الفاحشة تقول الآية القرآنية « ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » وهو ـ جلت حكمته ـ يدلنا بهذا البيان ، على قيمة هذه الجريمة من الخطر الذى يهدد المجتمع ، ويفسد الأمة ، حين يأمر بهذه القسوة ، وتلك الغلظة ...

أما القاتل للنفس التى حرم الله قتلها فإنه حيوان تحولت طبيعته ، وفسدت غرائزه ، وأصبح الأمل فى الأنس به ، والمعاشرة له ، والحياة معه ، ورجاء النفع منه ، من الأوهام

الباطلة ، والتخيلات المكذوبة ، لأن تلك الضراوة التى ظهرت عليه ، والوحشية التى بدت آثارها فيه ، دليل قاطع على أن الخير كل الخير كان فى استئصال شأفته من الوجود ، وذهاب آثار نفسه الشريرة من الحياة ، لئلا يهدد بقاؤه الناس ، ويشيع ظله الفوضى فى العالمين . . .

وكان المسلم الأول ، حين يتردى فى تلك المعصية يعتقد أن الشيطان قد انتصر عليه ، وأن الهوى قد غلبه ، وأن الطيش قد لعب به ، فلا يسعه إلا أن ينتقم من هذه كلها بالاعتراف على نفسه ، والتقدم بين يدى الحاكم ليقيم الحد عليه ، ويغسل عنه أوضار المعصية وقذر الذنب ... وقد ثبت أن ذلك العمل حدث أكثر من مرة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع أن العهد كان قريباً من جهالة الكفر ، وفظاظة الشرك ، وخشونة البداوة وكان الظن أنهم يتجاهلون سلطان الشريعة ، وهيمنة الدين ، أو يحتالون الحيل لعدم الإذعان له جهد المستطاع ، ولكن رجولة العرب ، وصراحة المسلمين ، جعلت تلك الروح أشبه بالأشياء التى تصدر عن الطبع والعادة من غير تكلف ولا معاناة .

ولو أن الدين الإسلامى ظل له هيله وهيلمانه ، وكانت أحكامه تسود العبادات والمعاملات ، وآدابه تهيمن على الأندية والمجتمعات ، وسلطانه يتركز فى أنحاء الدنيا ، ويتهامس الناس أن الحدود قائمة ، وأن الإشراف على تنفيذها يأخذ من رجال الإدارة والحكم اهتمامهم وعنايتهم ، لما سرى إلينا نبأ حوادث السرقات والغصب ، والفجور والعهر ، والعدوان والظلم ، والقتل وسفك الدماء ، ولظلت البسيطة ميدانا للسلام والوئام ، والسعادة والحب ، والطمأنينة والاستقرار ، ولما مشى هذا الفشل والفوضى إلى أوساطنا المختلفة بذلك القدر الشنيع ...

ويقيننا أن ما نقاسيه الآن من ذبذبة خالية من الاتزان ، مجردة من العقل ، بعيدة عن المنطق ، نائية عن الصواب ، مجافية للمصلحة ، سيحملنا ـ رغم أنوفنا ـ على أن نحتكم إلى القرآن فى هديه وإرشاده ، وتشريعاته وأحكامه ، وتوجيهه وتهذيبه ، ولا سيما حينما يبدو لنا أن ما نتخبط فيه من دساتير ونظم أجنبية عنا ، ما هو إلا أسلوب الأحمق ، وحيلة العاجز ، وربما كان ذلك قريباً جداً .

ابراهيم أبو الخشب
مدرس بكلية الشريعة

شيخ الأزهر يعترض على القبعة

قالت جريدة «الأهرام» في عددها الصادر يوم الأحد ١٢ أكتوبر:

على أثر ما أذيع خاصاً بأن اللجنة التي ألفت لتوحيد الزى أنها قد رأت استبعاد الطربوش كغطاء للرأس والاستعاضة عنه بغطاء على مناسب كالبيرية أو القبعة، على أن يشمل توحيد الزى جميع المصريين، عدا رجال هيئة كبار العلماء، والعلماء المشتغلين بالتدريس، توجه مندوب «الأهرام» إلى فضيلة الأستاذ الأكبر وسأله رأيه في هذا الزى المقترح، فأفضى إليه فضيلته بهذا التصريح الهام.

إنى علمت أنه قد اقترح أن يكون الزى الموحد هو الزى الأوربي، لأنه أصبح زيا عالميا ولأنه من الناحية العملية أكثر ملاءمة لهيئات العمال والفلاحين وهذا الزى يتألف من بنطلون وقميص بأثمان مناسبة.

وإنى أصرح بأن القبعة والبيرية ليستا زيا عالميا، وأن مئات كثيرة من الملايين في آفاق لا حد لها من قارات الأرض لم تتخذ هذا الزى، ولذلك لم يبلغ أن يكون زيا عالميا، ثم إنه ليس من الحتم على أية أمة أن تجارى الشكليات حتى لو كانت عالمية قبل أن تقتنع بأن ذلك أصلح لها.

والأصلح لجو كل أمة هو ما دلها عليه تجارب ألوف السنين. وإذا استوحى المصلحون من هذه التجارب الطويلة ما يكون به توحيد الزى، فإنهم يصيبون بذلك الغرض من التوحيد والإفادة من تجارب الزمن.

وإن مصر على الخصوص عضو ممتاز ومرموق في العالم الإسلامى الذى زاد تعداده في هذه السنوات على خمسمائة مليون، ومن غير المنتظر أبداً أن يرضى العالم الإسلامى بأن يفنى شخصيته في غيره ويندمج في الزى الأجنبى عنه المزعوم أنه عالمى، لا سيما وأن في سنن الإسلام الجوهرية التى لا يمكن أن يتساهل فيها المسلمون — إلا بانحرافهم عن دينهم — أن يكونوا متميزين عن غيرهم. وأئمة المسلمين يعدون من الخروج على الإسلام الانحراف عن زيه إلى زى غير المسلمين فيما اختصوا به من علاماتهم، وقد كان من علاماتهم في القرون السالفة «الزنار» فكان لبس المسلمين يومئذ للزنار يعد في الفقه الإسلامى خروجا على الإسلام يستحق فاعله العقوبة. والمتعارف الآن عند المسلمين في مختلف أقطارهم أن القبعة هى علامة غير المسلمين التى يفترقون بها عن أهل الإسلام، فلها الآن مثل حكم الزنار فيما مضى.

وعلى كل حال فإن شهوة الانغمار فى الزى على زعم أنه عالمى — وما هو بعالمى — سيفصل المصريين وهم قلة قليلة من المسلمين ، عن إخوانهم من أمم العالم الإسلامى البالغ عددهم خمسمائة مليون ، وأول ما سيكون من سوء الأثر لذلك فى شطر وادى النيل الجنوبى . وقد جربت إحدى الأمم الشرقية هذا الأمر قبل نحو ربع قرن ، وحملت شعبها عليه بالقوة ومع ذلك لا يزال شعبها حزينا آسفا مكسور الخاطر ، مما حمل عليه .

ولا يزال العالم الإسلامى ينظر إلى ذلك بعين الاستنكار والاستغراب ، وقد كان القائمون بهذه التجربة يتوقعون هم والذين مجموهم على ذلك أن يكونوا قدوة فيه لأمم إسلامية أخرى .

فكان المسلمون أحصف من أن ينزلقوا فى ذلك ، لأنهم يعلمون أن به خروجا عن سنة من سنتهم التى احترموها والتزموها منذ أربعة عشر قرنا . إن فكرة توحيد الزى فكرة حسنة ، ولكنها فى أى قطر يغلب على سكانه العمل بأحكام الإسلام ينبغى أن لا يصطدم بسنة من سننه ليكتب لها النجاح والبقاء والرضا من جمهور الأمة .

وقد سأل مندوب « الأهرام » فضيلته عن الزى الذى يراه ملائما لنا ، فقال : للقائمين بالأمر أن يختاروا الزى الذى يرونه ملائما لنا ، على أن يكون مخالفاً لما امتاز به غير المسلمين .

المفتى كشيخ الأزهر

فى استبدال القبعة بالطربوش

سأل مندوب « الأهرام » الأستاذ الشيخ حسنين مخلوف مفتى الديار المصرية عن رأيه فى استبدال القبعة بالطربوش .

فأجاب بقوله : « إن الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر قال قولته عند ذلك ، وبهذه القولة قطعت جهيزة قول كل خطيب » .

توحيد الزى

فى جريدتى (الأهرام) و (الأخبار الجديدة) الصادرين يوم ١٣ أكتوبر حديث لمندوبيهما مع السيد حسين أبو زيد وزير المواصلات جاء فيه قول الوزير عن توحيد الزى

« إن رأيى الشخصى هو أنه لاداعى للتفكير فى هذا الموضوع اليوم ، فلم يحن الوقت بعد لمثل هذا العمل ، فإن لدينا من المهام الخطيرة ما هو أجدر باهتمامنا فى الوقت الحاضر من توحيد الزى ، أما بالنسبة لطلبة المدارس فلا ضير هناك من أن تقتصر ملابسهم على القميص و « الشورت » .

القرآن الكريم

والحاجة إلى المدارس التي تقوم على تحفيظه

والتلاميذ الذين يقبلون على حفظه

كانت « الكتاتيب » هي المدرسة الأولى لتعليم القرآن الكريم وعن طريقها كان يلحق الطالب بالأزهر الشريف ، ثم جاءت المدارس الأولية وكان في برنامجها تحفيظ القرآن الكريم ليكون جواز المرور إلى الالتحاق بمدارس المعلمين الأولية ، ولما عم التعليم الإلزامي لم تجد « الكتاتيب » لها مكانا بجوار ذلك المنافس الخطر فأغلقت أبوابها وانقرضت . ومن المؤسف أن ما كان يتعلمه التلميذ في تلك المدارس لم يكن يزيد عن الثلاثة الأجزاء الأخيرة من القرآن ، فكانت بوضعها هذا ، الحلقة الأولى من السلسلة التي أريد إحكامها حول الجيل الجديد لتطويقه بها . ثم الابتعاد به عن حظيرة ذلك الكتاب المقدس ، وعندما أصبح التعليم الابتدائي والثانوي مجانا دون قيد ولا شرط تهافت عليه الجميع وتحولت المدارس الأولية والإلزامية إلى مدارس ابتدائية لتستوعب الجيوش الجرارة من التلاميذ ، وبتحويلها هذا تمت الحلقة الثانية من السلسلة الرهيبة ، فقد قضى بذلك على تحفيظ القرآن الكريم بالمدارس إذا استثنينا بعض الآيات المتفرقة التي اشتمل عليها المنهج الدراسي ، أما قسم الحفاظ الموجود في بعض المدارس فالإقبال عليه في حكم المعدوم .

ثم جاءت الحلقة الأخيرة وهي النتيجة الحتمية لتلك المقدمات ، فقد نشر بجريدة الأهرام الصادرة في صباح يوم ١٩٥٢/٩/٢٥ تحت عنوان « العناية بالقومية المصرية في مناهج الدراسة الجامعية » موضوع قيل إنه معروض على لجنة العمداء بجامعة فؤاد تمهيداً لعرضه على مجلس الجامعة لإقراره . وقد كان هذا الموضوع خاصا بكلية دار العلوم ولكن جاء في صلبه ما يأتي وهو بيت القصيد : « وإذ نظر المجلس في الطلبات المقدمة رأى أن عدد المتقدمين من حملة الشهادات الثانوية في الأزهر الشريف أقل بكثير من العدد المحدد هذا العام ، وأن قبول

حملة شهادة إتمام الدراسة الثانوية القسم الخاص ، التوجيهية ، يتفق مع لائحة الكلية . وعلى هذا فقد قرر المجلس السماح لهم بالالتحاق بالكليات هذا العام ، أملا فى أن يكون هذا بداية عهد جديد تنتهى فيه الفروق الصناعية بأن يسمح لحملة التوجيهية بالانتساب إلى جميع كليات الأزهر الشريف ، كما يسمح لحملة الشهادة الثانوية الأزهرية بالانتساب إلى الكليات الجامعية ما لم يحل دون ذلك حائل فنى » . وهكذا اقتربنا من الخاتمة بصورة واضحة .

قد يكون معقولا أن يلتحق الطالب الأزهرى بالجامعات فى كلياتها المختلفة عدا الشعب التى تكون فيها اللغات الأجنبية مادة أساسية ، لأن المنهاج الثانوى فى الأزهر والمدارس واحد إذا استثنينا اللغات الأجنبية ، ولكن الذى لا يقبل عقلا ولا فرضا هو التحاق طالب الثانوى بالكليات الأزهرية وهو الذى لا يعرف من أمور دينه إلا القشور ، إذ كيف يرجى منه أن يكون واعظا دينيا أو خطيبا ومدرسا فى مسجد أو قاضيا شرعيا أو غير ذلك من الوظائف الدينية التى تحتم على صاحبها إجادة حفظ القرآن الكريم والإحاطة بالشريعة الإسلامية إحاطة تامة من جميع نواحيها وأصولها وفروعها .

مما تقدم يتضح مع الأسف الشديد أن القرآن الكريم سوف لا يجد المدارس التى تقوم على تحفيظه ، ولا التلاميذ الذين يقبلون على حفظه ، طالما أن هناك بالمدارس من المغريات ما يجتذب إليها التلاميذ ، وسيكون نتيجة لذلك أن يأتى يوم لا يجد فيه الأزهر من يتقدم إليه من الطلبة ليخرج لنا مصابيح الهدى وأعلام الشريعة ، وبذلك يكون ما جاء بجريدة الأهرام هو الملجأ الأخير والغاية المنشودة ، وعندها قل على الأزهر العفاء وعلى الدين السلام .

فإلى رجال العهد الجديد ، عهد النور والحرية والإصلاح ، وإلى فضيلة العالم العامل الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر أبعث بهذه الصرخة ، راجيا دراسة هذه المشكلة الخطيرة وأن يكون لها من رعايتهم ما هى جديرة به من العناية والاهتمام قبل أن يستفحل الخطب ويعم البلاء .

عبد الجليل النمر

مستشفى الأوقاف — بطنطا

طليعة الوحي الإلهي

النص القــــرآني :

[اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم] .

اقرأ أول نجم نزل على محمد ﷺ :

روى البخارى عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ـــ وهو التعبد ـــ الليالى ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارىء . قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال :

[اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من عَلَق ، اقرأ وربك الأكرم]

فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد ، فقال : زملونى ، زملونى ؛ فزملوه حتى ذهب عنه الروع . فقال لخديجة ، وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى . فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبدا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة . وكان امرأ قد تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ـ وكان شيخاً كبيراً قد عمى ـــ فقالت له خديجة : يابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يابن أخى ، ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ، يا ليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : أو مخرجى هم ؟ قال : نعم :

لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً .
ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي .

وكون هذه الآيات أول نجم نزل على محمد ﷺ هو ما اعتمده العلماء على وفق هذه الرواية الصحيحة المؤيدة بكثير من الروايات الأخرى .

ومن هذه الرواية نستطيع أن نتبين حالة الرسول قبيل البعثة ، وحالته عند مبدإ البعثة ، ثم حاله بعد أن تلقى أول نجم نزل عليه ، مما يرشد إلى أنه كان متهيئاً لما أتم التهيؤ ، في حال أنه كان خالياً عنها تمام الخلو ، ثم تركته وهو في دهش الحادث ، فلم يقدر أن يضبط قواه ، ويراجع نفسه ، حتى يحكم فيها حكماً جازماً بأنها وحي من الله ، فذهب يستعين بورقة بن نوفل - وهو من أولي العلم بهذا الشأن - كما أنها أوقفتنا على فترة الوحي بعد ذلك ، مما يدل على براءة ساحته من التقول والادعاء .

تصوير الموقف :

نزل الروح الأمين على محمد ﷺ بأول نجم من نجوم الرسالة العظمى التي مكثت تنزل ثلاثاً وعشرين سنة ، كلها كانت جهاداً في سبيل إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، بالدعوة تارة ، وبالهجرة أخرى ، وبالقتال ثالثة ، حتى تم له الأمر ، واستقر له الحال ، وأدى الرسالة تامة كاملة ، ثم تركها لخير أمة أخرجت للناس ولحق بربه . . !

فانظر ما ذا كان يقتضيه الموقف في افتتاح تلك الرسالة العظمى ، من الرب الأعلى ، إلى محمد الأمي ، ليقوم بهذه المهمة الخطيرة .

محمد خالي الذهن عن مخاطبة من ربه ، اللهم إلا ما كان عنده من ذلك الشعور الذي حصل له بسبب الرؤيا الصالحة في النوم ؛ وربه الأعلى يريد أن يرسله للناس ليبلغهم عنه نجوم هذه الرسالة ، ليتمثلوا ما فيها من أوامر ونواه . . فما تكون إذاً عناصر تلك الرسالة ؟

من المعقول أن تكون هذه الرسالة مشتملة على تعريفه بالمرسل الرسالة ، ثم بمنزلته منه التي ترتبط به ، ثم بالمهمة المأمور بها التي هي غرض الرسالة ، ثم بالعلاقة التي تربطه بالمرسل إليهم ، ليصح منهم تقبل ما كلفوا به ، ثم تعريفه بالجهة التي تلزمهم بالاعتراف بتلك الرابطة .

المرسل هو الله ، وهو رب محمد ، ومهمة محمد التبليغ ، ثم هو رب الناس المبلغ إليهم ، ثم المبلغ هو ما يهتدون به إلى ما يجب عليهم التزامه في هذه الحياة من مبدأ ومنهج وغاية ،

ثم جهة الإلزام تكون أولا بإثبات ربوبيته لهم ، ثم بإثبات كرمه الذى يقتضى امتنانه عليهم ، ثم بإثبات استعدادهم لقبوله ، ثم بإثبات افتقارهم إليه .

أما إثبات ربوبيته فأوضح طريق له الدلالة البينة فى الخلق من التدبير الإلهى الماثل مثولا بيناً فى أطوار الإنسان .

وأما إثبات كرمه فبيان رحمته لهم ، وعنايته تعالى بهم .

وأما إثبات استعدادهم لقبوله فبيان أنه ميزهم بالعقل والفهم والعلم والقدرة على ضبط علومهم وتقييدها بالقلم .

وأما إثبات افتقارهم إليه فبيان أنه الهدى الذى تتوقف عليه سعادتهم من جهة ، وهو فوق طاقة إدراكهم من جهة أخرى .

ولو أن هذه الرسالة صيغت على سنن إنسانى مشتملة على هذه العناصر ، لبرزت على وفق التفكير الإنسانى ، بما يحوطه من مهارة فى القول ، وبراعة فى صيغة البيان ، لا يخرج به عن قدر البشر كالنموذج الآتى :

« من رب محمد إلى محمد . أما بعد ...

فإنى سأرسلك إلى الناس ، لتبلغهم عنى ما أوحيه إليك مما يهتدون به إلى سعادتهم ، إذ أنا ربك وربهم ، وخالقك وخالقهم ، وخالق كل شىء مما تتفهمون به حولكم ، ألم أخلقكم من ماء مهين تدرج فى تطورات الخلق طوراً بعد طور حتى صار إنساناً سويا فى أحسن تقويم ؟ ألم أميزكم على سائر الحيوان الأرضى بالعلم والعقل ؟ ألم أمدكم إلى ضبط معلوماتكم ومعارفكم بالكتاب ؟ ألم يكن كل هذا تفضلا منى عليكم ؟ أأعنى بكم هذه العناية التامة ثم أدعكم فى ضلالكم وأنا الرب الأكرم ؟ ! اقرأ يا محمد عنى ما ألقيه إليك والسلام » ؟

هذه هى الرسالة النموذجية التى يقتضيها موقف أول نجم من نجوم الرسالة لو صيغت صياغة إنسانية ، أما وإن القرآن سيكون معجزة بيانية للبشر فلا بد أن يضمن هذه المعانى فى أفضل البيان وأوجز القول ، فى أسلوب إلهى لا يقدر عليه البشر ، ذلك هو ما نزل فى أول نجم من قوله عز من قائل : [اقرأ باسم ربك ـ الآيات] .

بيان ما اشتمل عليه النص :

يأمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بالقراءة بقوله (اقرأ) ، ثم لم يذكر أى شىء

يقرؤه . هذه القراءة باسم ربه الذى خلق ، خلق الإنسان من علق . كان يكفى فى التعريف أن يقول له : [باسم ربك] إذ كان محمد لا يعبد رباً غير ربه [الذى خلق ، خلق الإنسان من علق] ، فوصفه بهذا الوصف لو لم يكن لفائدة فى الرسالة لكان ذكره ـ فيما يظهر ـ لغوا لا فائدة له ، ولو ذهبت تستقرىء وجوه الفوائد الممكنة من ذكره ، لما وجدت وجها أوجه من كونه توضيحاً لربوبيته تعالى ، توضيحاً يقتضى أن يكون ربا لجميع الخلق على العموم وربا لجميع الناس على الخصوص ، المستلزم لكونه رب محمد ، مع تضمنه الإشارة إلى جهة الدلالة على خلقه بإشارته إلى التدبير الإنسانى من عهد تدرجه من العلقة إلى أن صار إنسانا سويا .

وذكر العلق ـــ واحده علقة ـــ فى هذا المكان إن لم يكن وجهاً واضحاً من وجوه إعجاز القرآن ، فلا أقل من كونه معجزة علمية عند الخبيرين بشئون الأدلة وسياقها لتفيد الدليل القاطع على ما تساق اليه .

بيان ذلك : أن القرآن يطلق (علقة) على الطور الثالث من التطورات الإنسانية ، فأولها التراب ، ثم النطفة ، ثم العلقة ، ثم المضغة ، . . . قال تعالى « يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة » . فكان من الممكن أن يقول (خلق الإنسان من تراب) وكان من الممكن أن يقول : خلق الإنسان من نطفة ، وكان من الممكن أن يقول : خلق الإنسان من مضغة . لكن تخير « علق » فى مقام الاستدلال على أن الإنسان مخلوق لابد له من خالق ، تخير عجيب أشد العجب ، إذ هذا الطور لا يطلق إلا بعد ظهور آثار تعلق الجرثومة المنوية ببويضة الأنثى فى الرحم ، هذا التعلق الذى يبتدىء منه التطور التكوينى للجنين ، هذا التعلق المزدوج من نطفة الرجل وبويضة المرأة هو الذى يتكون منه الذكر تارة والأنثى تارة أخرى ، فلو لم يكن هذا التعلق من هذين الشيئين لما كان ذكر ولا كانت أنثى ، ولو لم يكن ذكر ولا أنثى لما كان هناك شىء من هذا التعلق ، فلو ذهبنا نتوهم مبدأ السلسلة على مذهب الطبيعيين لوجدناها لا تتناهى إلى حد . وإذاً فلا بد من التسلسل فى سلسلة وجودية شخصية لا تتناهى إلى ابتداء فى القدم وهو محال ، إذ هى حوادث متوقف بعضها على بعض فى الشاهد فلا بد أن تكون لها علة أولية لا تتوقف على معلولها ، وإذاً لا بد أن يكون مبدأ هذه السلسلة إما التعلق من جرثومة وبويضة لا علاقة لها بالذكر والأنثى ، وإما الذكر والأنثى من غير توقف على جرثومة الرجل وبويضة المرأة وفى كل من الفرضين خروج على مقتضى

الطبيعة فى تكوين الأشياء . ثم إذا استمر بك البحث فلا بد من الاعتراف بأن هناك قدرة خارجة كونت الذكر والأنثى تكويناً صالحاً للاقتران ، لا من طريق تعلق الجرثومة الذكرية بالبويضة الأنثوية ، تبتدىء منهما السلسلة ، أو كونت الجرثومة والبويضة تكوينا صالحا للتعلق فى مكان صالح للتربية غير هذا المكان حتى يتكون منهما الذكر والأنثى، وعلى أى فرض فهو اعتراف باحتياج الإنسان فى خلقه إلى خالق مبدع ، ثم إذا نظرنا إلى هذا التدبير الذى يحوط هذا التطور ومبادئه ، من جعل أعضاء التذكير فى الذكر ، وأعضاء التأنيث فى الأنثى ، وكيفية تحول الغذاء الناشىء من التراب نطفة مشتملة على الجراثيم ، ثم القذف بها على طريقة أعد لها من الغرائز والمقتضيات ما أعد ، ثم تحول مثل ذلك فى الأنثى إلى بويضات قابلة للجراثيم ، ثم المكان الصالح للتربية ، وإعداد الغذاء الصالح إلى غاية الاستكمال الجنينى ، ثم تصوير الجنين فى هذا المكان المظلم البعيد عن المؤثرات الخارجية كل البعد ، تصويرا يهيئه لما أعد له فى هذا الوجود ، فتبدع له العين الباصرة ، والأذن السميعة ، واليد الصانعة ، والحواس الظاهرة والباطنة ، والأجهزة المختلفة ، كالجهاز التنفسى ، أو الجهاز الهضمى ، والجهاز العصبى ، ثم إعداده لموهبة العقل ، ثم تسويته فى أحسن تقويم ، ذكرا أو أنثى ، ثم قبوله للنماء إلى أن يصير إنسانا سويا .

كل هذا مع ما بيناه من التوقف المذكور آنفا يجعلك تجزم جزما لا شك فيه بوجود الخالق المدبر الحكيم القدير العليم .

ثم لو نظرت مثل هذا النظر إلى سائر الحيوان لوجدته مثل الإنسان سواء بسواء ، ولو نظرت مثل هذا النظر فى النبات لوجدته كذلك ، ولو انتقلت بنظر إلى الجماد لوجدته مركبا من البسائط (العناصر) على نسب خاصة ووجدت تلك البسائط مكونة من الذرات على كيفيات خاصة ، ونظرت إلى الذرة فوجدتها مجموعة قوى متماسكة يدور بعضها على بعض أشبه شىء بالنظام الشمسى قابلة للانفكاك والفناء ، لعلمت علماً لا شك فيه أنها مفتقرة إلى مدبر لها آخذ بناصيتها .

ولو نظرت إلى ذلك كله لوجدت العالم كله عللا ومعلولات ، أو بعبارة أصح ، أسباباً ومسببات ، يتوقف بعضها على بعض لابد من انتهائها إلى مبدعها الذى لا أول له ، سبحانه ما أعظم خلقه وما أحكم أمره .

بذلك ثبت أن الإنسان مخلوق كما أن العالم مخلوق لخالق قادر ، وكون الخالق ربا لخلقه أمر يكاد يكون بدهيا ، إذ الرب هو المالك المتصرف ولا شىء أقوى من الخلق يوجب الملك

والتصرف ، وكون المملوك واجباً عليه أن يمتثل أمر مالكه أمر كذلك ضرورى الإدراك إذ المملوك فى حيازة مالكه ، يتصرف فيه بما يشاء ، ويأمره بما يريد ، فإن لم يفعل استحق الجزاء ؛ جزاء خروجه أو محاولة خروجه على تصرف مالكه ومربيه . تلك العلاقة وحدها هى التى توجب على محمد ﷺ امتثال أمر ربه فى التبليغ ، كما توجب الامتثال على المبلغ إليهم .

والمفعول المحذوف هو ما يقرؤه محمد ﷺ باسم ربه لا باسم نفسه وهو ما أوحى إليه . والمعنى اقرأ ما أوحيه إليك باسم ربك ... الخ [١]

ثم إعادة الأمر وتقييده بأكرمية ربه فى قوله تعالى [اقرأ وربك الأكرم] يدل على على أن المقروء من وادى ما يتكرم به الرب سبحانه وتعالى على محمد ﷺ ، وتوضيح الأكرمية بالتعليم بالقلم وتعليم الإنسان ما لم يعلم فى قوله [الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم] يدل على أنه من وادى ما تتم به تلك الأكرمية ، ولو ذهبت تحلل معنى (أكرم) وما به يكون الكرم لوجدت أن معنى الكرم لا يصح إلا حيث يكون المتكرم متفضلا ويكون المتكرم عليه فى حاجة إلى هذا التفضل ، إما لسد نقصه أو لتتميم كماله ، وتطرد نسبة عظم الكرم لنسبة مقدار الحاجة إلى المتكرم به ، وفائدتها عند المتكرم عليه ، فكلما اشتدت حاجته إليها ، وزادت فائدتها عنده من دفع ضر أو جلب نفع ، عظم هذا الكرم والعكس بالعكس .

وإنما كان التعليم بالقلم وتعليم الإنسان ما لم يعلم كرما من الله سبحانه وتعالى بعد الخلق لأنه ميزة الإنسان على سائر الحيوان الأرضى ، ولما كان الخلق على الوجه السابق من كرم الله كان التعليم على هذا الوجه من زيادة كرمه المعبر عنه بالأكرمية ، ولما كانت هذه الأكرمية لا تتم إلا بهداية الرسل كان ذكرها من مؤيدات إرسال الرسل بهذه الهداية التى تتم بها أكرميته سبحانه ، إذ الإنسان مفتقر إليها فى تحصيل سعادته فى الأولى والآخرة ولا يستطيع الحصول عليها إلا بوحى إلهى .

ومن علم قيمة القلم والعلم الذى أنتجه العقل البشرى وهدى الرسالة الذى هو كمال هاتين النعمتين ، علم مقدار كرم الرب الأعلى على الإنسان الضعيف الفقير إليه الذى لا يملك من شأنه شيئاً إلا بنعمة الله وفضله .

فانظر لهذه الرسالة المباركة ، وأشهد بأنها من كتاب ليس من قول البشر ؟

محمد السماحى
مدرس بكلية أصول الدين

---

(١) من العجب أن تبق عبارة التوراة ملوحة بهذا المعنى إذ يقول فيها [أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك واجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ويكون الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه] .

باب الأسئلة والفتاوى

البهائيون

مرتدون وخارجون عن دين الإسلام

جاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

١ — ما رأيكم فى النحلة البهائية ومعتنقيها من الإسلام ؟

٢ — هل يورث معتنق البهائية من المسلم ؟

على محمد الوقاد

١٢٩ شارع السد البرانى ـ قسم السيدة زينب

الجواب :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد . فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال وعلى البيان المرافق الذى شرح به المستفتى مبادىء المذهب البهائى . وتفيد بأن مذهب البهائية مذهب باطل ليس من الإسلام فى شىء ، بل أنه ليس من اليهودية ولا النصرانية ، ومن يعتنقه من المسلمين يكون مرتداً خارجا عن دين الإسلام .

فإن هذا المذهب قد اشتمل على عقائد تخالف الإسلام ويأباها كل الإباء . منها : ادعاء النبوة لبعض زعماء هذا المذهب والألوهية لبعض آخر ، وأن الإيمان هو متابعة هذا المذهب والكفر هو مخالفته ، وأن هذا المذهب ناسخ لجميع الأديان ، إلى غير ذلك .

ومن المقرر شرعا أن المرتد لا يرث المسلم ولا غيره . وعلى ذلك فمعتنق مذهب البهائية لا يرث غيره مطلقاً . وبهذا علم الجواب عن السؤال . والله أعلم .

تصوير المرأة العارية

وجاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

أنا تلميذ فى معهد من معاهد الرسم والتصوير التى تشرف عليها وزارة المعارف ، وبرنامج الدراسة فى هذا المعهد يشتمل على رسم المرأة وهى عارية الجسم من كل ساتر ، وعلى هذا تحضر إلينا المرأة وتقف بين عدد كبير من الطلاب ويأخذ كل من الطلبة فى الإمعان إلى جميع أجزاء جسمها ويرسم جميع ما يتناوله النظر لا فرق بين عورة وغيرها .

فهل يجوز شرعاً ذلك الرسم على النحو السالف الذكر . وهل يعتبر التعليم مسوغاً وضرورة تبيحه ؟ كمال أحمد

الجواب :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

أما بعد فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال ، وتفيد بأن جميع بدن المرأة عورة يحرم نظر الأجنبي إليه ، ما عدا وجهها وكفيها فإنه يجوز كشفهما ونظر الأجنبي إليهما أيضاً إذا أمنت الفتنة . أما إذا لم تؤمن الفتنة فإنه لا يجوز النظر إليهما أيضاً ويجب على المرأة سترهما .

نعم يجوز لضرورة العلاج أن ينظر الطبيب إلى شىء من جسم المرأة مما يحرم النظر إليه فى ذاته بقدر ما تقتضيه ضرورة العلاج ، ولا يجوز فيما عدا ذلك .

ويجوز لكل من القاضى والشاهد أن ينظر إلى وجه المرأة الواجب ستره لتعرف شخصيتها .

وعلى ذلك يكون تعرض المرأة لتصويرها عارية حراما ، ويحرم على المصور أن يصورها كذلك وأن ينظر إلى أى جزء من جسمها فيما عدا الوجه والكفين كما قدمنا . ويحرم أن يكون هذا النوع من التصوير فى مناهج الدراسة .

والتصوير على النحو الوارد بالسؤال يترتب عليه مفاسد خلقية واجتماعية ، ولا تقره شريعة من الشرائع السماوية . وليس تقرير هذا التصوير فى منهاج الدراسة مبيحاً للطالب أن يسير فيه ، كما أن المصور الذى يعيش من أجر هذا التصوير ، لا يجوز له مباشرة هذا العمل فإن الكسب الحاصل منه خبيث ، وهو منهى عنه شرعاً ، ويجب عليه أن يتخذ طريقاً آخر للعيش يكون حلالا . وبهذا علم الجواب عن السؤال والله أعلم .

الهدايا والنذور وفتاوى أخرى

وجاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :

١ — هل من يسلم شيخه هدية بأى طريق يكون هذا مدعاة لألمه . وهل تألم الرسول صلى الله عليه وسلم من الهدايا .

٢ — وهل فى كتاب الله أو سنة رسوله ما يجيز للشيخ أن يفصل مقدم الهدية له من الطريق ؟

٣ — إذا حدد الناذر المصرف ، فهل يباح له أن يخالف ذلك ويصرف النذر إلى اليتامى والمساكين ببلد هذا الناذر ؟

٤ — وهل اليتامى والمساكين هم الذين لا تزيد سنهم على عشر سنوات ؟

٥ — وهل العاجزون والعاجزات هم الذين لا تنقص سنهم عن سبعين سنة ؟

٦ — قد ورد فى الكتاب المرافق للسؤال — وهو تأليف شيخ الطريق الذى يمتنع من قبول الهدية — أن الحسن رضى الله عنه صلى على أبيه صلاة الجنازة فكبر تسع تكبيرات . فهل الأمر كذلك فى الشريعة .

٧ — قد طبع شيخ الطريق هذا ديوان شعر نسبه إلى الإمام على ، فهل صحيح أن الإمام عليا كان مكثرا من قول الشعر وأن له مثل هذا الديوان .

٨ — يمنعنى هذا الشيخ من قراءة درس فى مسجد جده أفسر فيه سورة الحجرات . فهل له حق فى هذا المنع ؟

عبد الرحمن سالم نصر الدين
مدرس أول بمعلمات المنصورة

الجـواب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال ، وتفيد :

عن الأول — بأن الإهداء وقبول الهدية أمر مندوب إليه شرعا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تهادوا تحابوا » . وقال عليه الصلاة والسلام « لو دعيت إلى كراع أو ذراع لأجبت ، ولو أهدى إلى ذراع أو كراع لقبلت » رواه البخارى .

لكن امتناع الشيخ المشار اليه عن قبول الهدايا، إذا كان القصد منه التباعد عن اتخاذ الطريقة وسيلة لكسب المال فهو قصد حسن، فان اتخاذ الطريقة حرفة ووسيلة لكسب المال أمر مذموم وممنوع شرعا، ويجب أن تكون الدعوة إلى الله والإرشاد إلى دينه خالصا لوجهه الكريم.

عن الثانى — بأن تصرف الشيخ مع بعض أتباعه الذين يقدمون له هدية بفصلهم من الطريق هو أمر موكول إلى الشيخ ولا يضر المفصول ما دام محافظا على العمل بالشريعة من أداء الواجبات واجتناب المحرمات.

وعن الثالث - بأن النذر يجب الوفاء به متى كان المنذور طاعة، فإذا حدد الناذر فى نذره جهة بر وقربة إلى الله تعالى، تعين صرف المنذور فى تلك الجهة، أما إذا كان المنذور معصية فإنه يحرم الوفاء به، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه».

وعن الرابع والخامس - بأن النذر إذا كان للفقراء أو المساكين أو اليتامى فإن الناذر يلزمه صرف المنذور إلى من يريد من هؤلاء. وينبغى له تفضيل الأحوج ولا يتقيد ذلك بسن مخصوصة لا فى اليتامى ولا فى كبار السن. والمعول عليه هو الفقر والحاجة وعدم القدرة على الكسب.

وعن السادس - بأن التكبير فى صلاة الجنازة اختلف عدده فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم من أربع إلى تسع. واستقر فى آخر الأمر على أربع تكبيرات، وعلى هذا جمهور العلماء، وما عداه فهو شذوذ. والمنقول فى بعض كتب الشافعية أن الحسن رضى الله عنه كبر على أبيه أربعا.

وعن السؤال السابع - بأن مسألة كون الإمام على كان يقول الشعر بكثرة أو بقلة ليست من الدين فى قليل أو كثير ولا يتعلق بها حكم شرعى. غير أنه لا يجوز أن ينسب إلى إنسان شىء إلا بعد التثبت من صحته إنصافا للحق والتاريخ.

وعن الثامن - بأن المساجد لله، وإلقاء الدروس الدينية والوعظ والإرشاد فيها من السنة الثابتة من عهد المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى الآن.

غير أنه إذا لم يكن المدرس أو الواعظ أهلا للتدريس أو الوعظ، أو كان يدس فى دروسهم ما يخالف الدين أو ما يبعث على إثارة الفتن بين الناس فإنه يمنع من ذلك.

وبهذا علم الجواب عن السؤال. والله أعلم.

محمد عبد الفتاح العنانى
رئيس لجنة الفتوى



المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول

نشأتها ، مقوماتها ، تطورها اللغوى والأدبى

لأول مرة فى تاريخ جامعاتنا العربية تصدر عن خريج من أبنائها دراسة جيدة لموضوع عن تراث العروبة والإسلام تشعر منها وأنت تتنقل بين فصولها بأن كاتبها قد هضم موضوعه وعاش فى بيئته ، وتحرى معرفته كما لو كان معاصراً له . ذلك هو كتاب المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول الذى ألفه الدكتور شكرى فيصل لنيل درجة الدكتوراه من كلية الآداب فى جامعة القاهرة ، فكان موضع تقدير اللجنة التى ناقشته ، وإنها قد أحسنت إذ منحته عليه أعلى الدرجات .

وقد نشر الدكتور شكرى فيصل مؤلفه هذا فجاء فى ٤٨٦ صفحة كبيرة بالحرف الدقيق مؤيدة بالنصوص ، مشفوعة بتسمية المصادر والدلالة على مواضعها . وهو يقول فى تصدير كتابه : إن الفقر فى دراسة التاريخ الإسلامى لا يرجع إلى فقر مصادرنا التى تعودنا أن نشكو منها ، بل إلى أننا لم نحسن بعدُ استثمارها واستقطارها ، ثم أعلن حقيقة ثانية وهى قوله : أخذنا كتبنا القديمة بمفاهيمها الحديثة ، وكان ذلك مصدر كثير من أخطائنا . وعقب على هاتين الحقيقتين بحقيقة ثالثة فى قوله : من المؤكد أن المراجع الأولى الأصلية — كالطبرى والبلاذرى وابن عبد الحكم — تتيح لنا قدراً من المعرفة ، ومن المتعة أيضاً ، لا يتوفر فى المراجع المتأخرة . وقد نجد فى مرجع متأخر قدراً أكبر من الحوادث ، ولكننا نعرف كيف تتضخم الحوادث مع الزمن ، أثراً لكثير من الأهواء والنزعات .

فأنت ترى أن هذا المؤلف المجيد استطاع — وهو فى المرحلة الأولى من حياة التأليف — أن ينتبه إلى مزالق الخطأ فى دراسة تاريخ الإسلام ، فآثر الأخذ من الينابيع الأولى الصافية متوقعاً أن يكون التضخم فى سرد الحوادث عند المتأخرين يحتمل أن يكون من أثر الأهواء

والنزعات . والتنبه إلى أن لغة الأقدمين يجب أن تفهم بمدلولاتها عندهم لا بمفاهيمنا الحديثة ، وإلا كان ما نفهمه منها غير الذى أرادوه بما قدموه لنا . والتنبه قبل هذا وذاك إلى أن النصوص التى تركها لنا السلف عن أحداث زمنهم ، تكفى لمعرفة حقيقة تلك الأحداث .

ونحن نضيف إلى ملاحظاته أن الكتب القديمة التى ألفت فى التاريخ يجب على من يريد أن يستفيد منها ، أن يدرك مشارب مؤلفيها ويعرف أقدارهم ، ثم إن أئمتنا أنفسهم قد كانوا من سعة الصدر واحترام حرية الرأى إلى الحد الذى يوردون فيه حتى روايات خصومهم ، لكنهم يعتمدون فى إيرادها على تسمية رواتها ليكون القارىء على بينة من قيمتها . ونحن الآن لا نستطيع أن نميز بين الرواية التى رواتها ثقات ، من الرواية التى رواتها قد يكونون من أهل الأهواء والأغراض ، إلا إذا رجعنا فى النقد إلى قواعد الجرح والتعديل وإلى تراجم الرواة التى كتبها العلماء بهذه القواعد . فإذا وقفنا على ذلك وأعطينا لكل ذى حق حقه أمكننا الاستفادة من مقارنة الأخبار بعضها ببعض والأخذ بما يستحق الأخذ به ، والاعتبار بما يصلح للاعتبار به . ومن هذه المقارنة يتوصل الدارس إلى حقائق أدسم وأغنى وأدعى إلى الاطمئنان مما لو اقتصر المؤرخ القديم على النصوص المعتبرة عنده وأهمل ما عداها .

ودراسة الدكتور شكرى فيصل للمجتمعات الإسلامية فى القرن الأول تتألف من تمهيد عن الجزيرة العربية ، ومن أربعة كتب ، عنوان أولها ، من الجاهلية إلى الإسلام ، بحث المؤلف فيه حال المجتمع العربى قبيل الإسلام وعند ظهور الإسلام ، وكيف تشكل المجتمع العربى فى صدر الإسلام . وعنوان الكتاب الثانى ، نشأة المجتمعات الإسلامية الجديدة فى الأقطار المفتوحة ، بحث فيه حالة المجتمع الجديد فى الشام ، ثم فى العراق ، ثم فى مصر وطرابلس وبرقة والنوبة ، ثم فى المغرب ، فالمجتمع الجديد فى الجناح الشرقى من المملكة الإسلامية . وعنوان الكتاب الثالث ، التطور اللغوى ، بحث فيه عن التطور الكمى والتطور الكيفى ، وعن الملاقات اللغوية فى أواخر القرن الأول . وعنوان الكتاب الرابع ، التطور الأدبى ، بحث فيه عن الدور الأدبى الأول وهو دور الهدوء ، وعن الدور الأدبى الثانى وهو دور اليقظة والتفتح .

ومما ساعد المؤلف على تجويد عمله ، وعلى أن ينظر إلى البحوث الإسلامية وتركة السلف بعين العلم المسلمة ، أنه نشأ فى بيت علم تحت جناح خاله محدث الشام الشيخ محمود ياسين ـ رحمه الله ـ ولذلك قال فى تصدير الكتاب ، إن صلتى الرحمية بالموضوع تبدأ منذ أن

بحثه فى الجامعة لدرجة الدكتوراه ، غير أن صلتى الشخصية به ترجع إلى بعيد حتى تبلغ الفترات الأولى التى كانت تنفتح فيها أذهاننا - فى سنوات الدراسة - لتيارات الثقافة العميقة ومشكلات الحياة الكبرى ، وكنت حريصاً أشد الحرص على أن أبوىء الحركة الإسلامية مكانها من هذه الحركات التى تمخضت عنها الإنسانية ، وأن أدرك - فى شىء من العمق - دورها الفخم فى قيادة الناس ، وأسلوبها فى جمعهم على صعيد واحد من الفكر والعقيدة واللغة . .

ولو أن كل متخرجى الجامعات العربية فى مصر والشام وغيرهما ينظرون إلى تراثهم بعيونهم هم - كما فعل شكرى فيصل - لا بعيون الأغيار من أجانب وشانئين ، لا وشك أن يبدأ لنا دور على فى حياة النهضة ، يصحح إيمان الأمة بماضيها ويسدد طريقها نحو مستقبلها ، ويفسح لها مكاناً بين الأمم التى تحترم نفسها ويحترمها الناس .

هذا وإن المؤلف لما مضى فى تأليف كتابه (المجتمعات الإسلامية) شعر بحاجة هذا البحث إلى أن يكون فى جانبه بحث آخر متمم له ، بل هو منه بمنزلة الأساس الذى يقوم عليه بناؤه ، وهذا البحث الآخر هو (حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول) وقد جاء هذا الكتاب الثانى فى نحو ٣٠٠ صفحة ولعلنا نتكلم عليه فى جزء آخر من مجلة الأزهر إذا شاء الله .

العواصم من القواصم

فى تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم

كما أن الصورة التى يجدها المسلم فيما جاء عن الأنبياء فى القرآن الحكيم تتفق مع ما يشترط فيهم من العصمة والكمال الإنسانى لتتم القدوة بأعمالهم ، وتحسن الأسوة بأخلاقهم ؛ بينما الوارد عنهم فى كتب أخرى لغير المسلمين يخالف ذلك ويصمهم بما لا يتفق مع ما يحملونه إلى الإنسانية من رسالات الله ؛ كذلك ما ورد فى صحيحى البخارى ومسلم وفى أمهات كتب السنة ونصوص الأعلام من أئمة الإسلام عن أصحاب رسول الله ﷺ وما كانوا عليه من سلامة الدين وصدق اليقين والتزام الحق والتحلى بالفضائل فى سلمهم وحربهم وفى اتفاقهم واختلافهم وفى خاصة أنفسهم أو ما كانوا يتحملونه من أعباء الأمة ، فإن ذلك هو الذى يتفق مع سيرتهم التى كانوا عليها فى الواقع ، كما يتفق مع ما أثنى الله به عليهم فى مواطن كثيرة من كتابه الحكيم ، ومع ما وصفهم به رسوله ﷺ بقوله « أصحابى كالنجوم » ، وقوله

« خير القرون قرني » . وقد خلف من بعد الصحابة والتابعين والتابعين لهم بإحسان خلف كان تدوين الأخبار في زمانهم ، فاختلق بعضهم على القرن الذي كان منهم رسول الله ﷺ وعلى الذين جاءوا بعدهم من المجاهدين والدعاة الفاتحين ، أخباراً قد يكون لبعضها أصل سليم لكنهم حرفوه وزادوا فيه ، ما أخرجه من باب الفضيلة إلى ضدها ، حتى صارت لأشرف عصور الإنسانية في أذهان الناس صورة كاذبة مشوهة تخالف ما كان عليه أولئك المجاهدون الأبرار والأولياء الأخيار ، بسبب هذه الكتب التافهة التي كان بعض مؤلفيها كبعض الصحفيين في عصرنا هذا . وقد كان الأقدمون يعدلون عن هذه المصادر المريضة إلى المأثور في كتب السنة ومؤلفات الأئمة للوقوف على حقيقة ما كان في زمن الصحابة والتابعين ، وما كانوا عليه في اتفاقهم واختلافهم . ثم جاءت عصور عمت فيها البلوى بكتب من لا يميزون بين الروايات الصادقة والروايات الكاذبة ، وقل عدد القارئين الذين يحسنون الرجوع إلى كتب المحدثين والمحققين ، فرأى إمام المالكية في عصره وكبير فقهاء الأندلس وعلمائها القاضي أبو بكر بن العربي أن هذه الحالة من قواصم الحق في الإسلام ومن أكبر المصائب الواقعة على المسلمين ، وأي شر أعظم من أن يكون لأمة ماض كريم مشرف فتمد إليه يدها بالتشويه حتى تحيل فضائله رذائل ؟! لذلك ألف كتابه (العواصم من القواصم) وأعلن فيه الحقائق التي تعصم الأمة من هذه الأكاذيب القاصمة والمفتريات المنكرة .

وقد رأت (لجنة الشباب المسلم) وهم طائفة من خريجي الجامعات المصرية المنتسبين إلى الإخوان المسلمين أن هذا التحقيق التاريخي العظيم من خير ما يجب على المسلمين تدبره والوقوف على حقائقه ونشرها في العالم الإسلامي ، فاقترحوا على رئيس تحرير هذه المجلة أن يعلق عليه بما يزيده وضوحاً ، وبما تقوى به الحجة ويستنير الحق ، فقام بهذا العمل لوجه الله عز وجل متقرباً به إليه ، فجاء كتاباً جامعاً من النصوص الأصيلة عن عصر الصحابة ما لو أراد باحث أن يجمعه من مظانه ويلتقطه من مراجعه لاحتاج إلى مجهود عظيم ووقت طويل . والحق أن الأخطاء العالقة في أذهان الناس عن عصر الصحابة الزاهر الباهر قد صححت كلها ولله الحمد بعلم القاضي ابن العربي وبالتعليقات القيمة التي ألحقت به . فأصبح من المأمول بعد اليوم أن يصحح المؤلفون في التاريخ الأخطاء التي كانوا يجدونها في المصادر المألوفة ، وأن يعتمد مدرسو التاريخ الإسلامي في الأزهر ومعاهده والمدارس والجامعات هذه النصوص الصحيحة التي احتواها كتاب (العواصم من القواصم) وتعليقاته . وهو في نحو ثلاثمائة صفحة ، وفي أوله تصدير بقلم محرر هذه المجلة ، وترجمة مطولة للإمام

ابن العربي من نشأته إلى وفاته ، وفصل عن الصحابة وأنهم عدول بتعديل الله ورسوله لهم ، وأنه لا ينتقص أحداً منهم إلا زنديق. وبآخر الكتاب فهرس مطول للموضوعات ، وفهرس للأعلام التاريخية ، وآخر للأعلام الجغرافية ، وجريدة بالمراجع التي كان الاعتماد عليها في كتابة التعليقات . فنلفت الأنظار إلى هذا الكتاب النفيس ، ونحث كل مشتغل بالتاريخ الإسلامي تأليفاً أو تدريساً على قراءته بتدبر وإمعان .

بنو خفاجة وتاريخهم السياسي والأدبي

بنو خفاجة بن عمرو بن عقيل أحد بطون بني عامر بن صعصعة من قيس عيلان ، كانت مواطنهم الأولى في نجد مما يلي المدينة . فلما تنقلت قبائل الجزيرة في صدر الإسلام لتتخذ لها منازل قريبة من معسكرات الزحف للجهاد والفتوح ، كثر بنو خفاجة في العراق والجزيرة ، وتفرقت قبائل منهم في الشام والأندلس وجاء بعضهم إلى مصر ، كما في سبائك الذهب للسويدي المقتبس من كتاب أنساب العرب للقلقشندي . وأقدم من وفد من قبائل قيس عيلان إلى أرض مصر بطون من فهم وعدوان . وفي ولاية الوليد بن رفاعة الفهمي القيسي نزلت أرض مصر في سنة ١٠٩ هـ بنو سليم وقبائل قيسية أخرى . وفي خلافة هشام ابن عبد الملك ، تولى مصر عبد الله بن الحبحاب مولى بني سلول القيسيين ، فقدم ثلاثة آلاف من قيس ، أذن لهم هشام بذلك مشترطاً أن لا ينزلوا بالفسطاط ، فوزعوا على الحوف الشرقي ومنهم مائة أهل بيت من بني عامر بن صعصعة الذين منهم بنو خفاجة فنزلوا في بلبيس ، وعملوا في الزراعة . وفي خلافة مروان بن محمد كان الوالي له على مصر الحوثرة بن سهيل الباهلي فمات مروان وبمصر ثلاثة آلاف بيت من قيس ، ثم أحصوا في ولاية محمد بن سعيد فكانوا ٥٢٠٠ كما يقول المقريزي في البيان والإعراب .

وكتاب (بنو خفاجة وتاريخهم السياسي والأدبي) ألفه فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجي المدرس بكلية اللغة العربية بالأزهر ، وهو في خمسة أجزاء في أكثر من ٥٠٠ صفحة ، ألم بكثير مما في كتب الأدب والتاريخ المتداولة من أخبار هذا الجذم من بني قيس عيلان ، وترجم لأعلامهم من شعراء وفرسان وساسة وعلماء ، ونوه بالبارزين من أفاضلهم المعاصرين ، وبذلك جمع الكتاب أقصى ما وصلت إليه يد المؤلف من المعلومات عن هذا الفرع الخصب من أرومة العروبة المباركة ، التي ملأت الدنيا فخرا وذكرا .

وعناء، إذا أتيح له إعادة طبع مؤلفه هذا، أن يستقصي النصوص في المراجع الأخرى ليكون كتابه أشمل، وأن يحذف منه ما لا يدخل في موضوعه. وكان أليق به أن يكون في كتب أخرى، ثم أن يعيد تنظيمه تنظيماً علمياً، لأن موضوعه الطريف جدير بهذه العناية.

المختصر في علم رجال الأثر

هو كتاب في علم السنة والتعريف برجالها، ألفه فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف مدرس هذه المادة في كلية الشريعة وسد به فراغاً كان يشعر به الطلاب، فتكلم فيه عن الإسناد وطبقات الرواة مبتدئاً من طبقات الصحابة فالتابعين وأتباع التابعين ثم تكلم على الجرح والتعديل وتاريخ علم الحديث رواية ودراية وتاريخ علم المصطلح وأشهر كتبه. وعقد باباً لتواريخ الرواة من زمن الصحابة إلى عصر التدوين لجاء الكتاب في ٢٢٤ صفحة حافلاً بكل ما يحتاج إليه من يريد الوقوف على علم السنة وعناية المسلمين به.

الملكية في الإسلام

هو بحث كتبه الأستاذ السيد أبو النصر أحمد الحسيني عن الملكية الخاصة في الإسلام في الأعيان والمنافع، وما يقبل منها الملك وما لا يقبله، مع المقارنة بمدلول الملكية في النظام الرأسمالي وأنظمة الشيوعية والاشتراكية والنازية والأديان الأخرى، وتعرض لمعنى الرق في الإسلام، والخدمات التي لا تملك، وأن العمل منشأ الملكية. وبعد أن استوفى المعاني التي تعرض لها تكلم على غاية تشريع الملك في الإسلام، وعلى نظام الملكية الإسلامي وقيمته وأثره. والكتاب مستمد من مراجع كثيرة إسلامية وأجنبية وهو في ١٤٦ صفحة بعد مقدمة في ٢٤ صفحة. فنلفت إليه الأنظار.

فلسفة غاندي الاقتصادية

بحث يبين فلسفة غاندي الخاصة المحتوية على مبادئه وآرائه المستقلة التي تختلف عما لدى الغرب من مثيلها في الاقتصاد. وهذا البحث بقلم الأستاذ السيد أبو النصر أحمد الحسيني، ويقع في ١٥ صفحة، ومن مطالعته تتكون عند القارىء فكرة عن الانقلاب الذي حدث في مبادىء الهند الاقتصادية.

النشاط الثقافي للأزهر

جماعة كبار العلماء

في صباح الأربعاء ٢٥ المحرم اجتمعت جماعة كبار العلماء برياسة الأستاذ الأكبر السيد محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر لأول مرة بعد توليه منصبه ، وقد افتتح الجلسة باسم الله عز وجل ، والدعاء إليه تعالى أن يوفقه إلى العمل لخير الأزهر .

وعلى أثر ذلك تلى الأمر الملكي الخاص بتعيينه شيخاً للأزهر ، فرحب به حضرات الأعضاء ، وألقيت في ذلك كلمات من الأساتذة المشايخ حسنين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية وعبد اللطيف السبكي ، ومحمد عرفة ، أشادوا فيها بصفاته الحميدة ، وعاهدوه على أن يكونوا يداً واحدة لخير الأزهر والأزهريين .

وأخذت الجماعة بعد ذلك في توزيع الأعمال على الأعضاء ، فأختار بعضهم البحث أو التدريس ، واختارهما بعضهم معاً .

وعرض الأستاذ الأكبر على الأعضاء ما قد يذاع عن الإسلام من آراء لا تتفق معه ، ويحسبها بعض الناس من صميم الإسلام وهي ليست منه في شيء ، وبعد البحث تقرر أن تؤلف لجنة من حضرات الأعضاء للرد على هذه الآراء . كما تقرر أن تؤلف لجنة أخرى لتنظيم إلقاء المحاضرات بقاعة المحاضرات الكبرى بالأزهر ، وألفت لجنة ثالثة لتنظيم أعمال اللجان وتحديد مهمة كل لجنة بالتفصيل على أن يقدم ذلك كله إلى جماعة كبار العلماء لإقراره في اجتماعها المقبل .

ثم تحدث الأستاذ الأكبر في مسألة التبرع لمشوهي الحرب ، فتقرر أن يساهم الأزهر في هذا العمل الإنساني النبيل ، وتبرع أعضاء الجماعة لذلك بخمسة في المائة من مرتباتهم عن شهر أكتوبر ، ثم ينظر في تقدير نسبة معينة تؤخذ من الموظفين والعلماء من مختلف الدرجات من مرتباتهم عن الشهر نفسه .

وكيلا الأزهر

باشر صاحبا الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد اللطيف دراز والأستاذ الشيخ محمد نور الحسن وكيلا الأزهر الجديدان عملهما في هذا الشهر . ومما قاله الأستاذ الشيخ محمد نور الحسن للذين زاروه مهنئين : « إن التهنئة تكون على قدر العمل . وقد قال الله عز وجل « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله

والمؤمنون » . وقال الأستاذ الشيخ محمد عبد اللطيف دراز لمندوب الأهرام : إن الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر رجل يؤمن برسالة الأزهر ، وسيبذل جهده في سبيل أداء هذه الرسالة وهي رسالة الإسلام . ثم قال : إن أعوانه متعاونون معه على ذلك في صدق وإخلاص . وإن النجاح في هذا وغيره موقوف على تعاون حضرات علماء الأزهر جميعا في أداء واجبهم ، وعلى أن يعتبر كل واحد منهم مسئولا عن هذا النجاح ، فإذا حصل هذا ، اعتبرنا أنفسنا قبل كل شيء مسلمين مجاهدين في سبيل الله وفي رفع كلمة الإسلام ، فإن الله أكرم من أن يخذل المؤمنين المجاهدين .

أفريقيا والبعوث الإسلامية :

كان من بين الأقطار التي عرفت فضل الأزهر على نشر الدين الإسلامي وحفظه ، قطر صغير من أقطار إفريقيا ، ممتد على ساحل البحر الأحمر ، ويقع شرق السودان وجنوبيه وشرق الحبشة وشمالي الصومال الفرنسي ، وكان مستعمراً لإيطاليا ما يقرب من سبعين عاما حتى كاد يصبح بلداً إيطاليا في سياسته واقتصادياته ولغته الرسمية ، لكنه - مع ذلك - احتفظ بدينه وتقاليده .

هذا القطر هو إريتريا وعاصمته « أسمرا » التي ترتفع عن سطح البحر ما يقرب من سبعة آلاف قدم .

في عام ١٩٤٧ اتجه هذا القطر إلى الأزهر يطلب منه عالما يقوم بالتدريس في جزء من المسجد الكبير اتخذه أهله ليكون محلا لدراسة الدين الإسلامي واللغة العربية مع بعض من تخرج في الأزهر من أهل هذا القطر .

فوقع اختيار الأزهر على فضيلة الشيخ على مصطفى الغرابي المدرس الآن في كلية أصول الدين ، وسافر في أوائل فبراير سنة ١٩٤٨ وهذه أول بعثة أزهرية بل إسلامية إلى بلد إفريقي مجاور لإثيوبيا ، فكان إيفاد عالم أزهري مصري نعمة وبشرى للمسلمين في إريتريا وأثيوبيا . وانتشر خبر البعثة في الصومال الفرنسي والبريطاني والإيطالي وأوغنده وكينيا ، وتطلع المسلمون في هذه البلاد كلها إلى أن يكون لهم مبعوثون أزهريون كما كان لإريتريا ، أو على الأقل أن يزور مبعوث الأزهر إلى إريتريا بلادهم ويقيم بينهم ليستضيئوا من نور الإسلام .

ووقعت بينهم وبين المبعوث اتصالات وتعارف ، بالرسائل والخطابات ، ثم طلبوا منه السفر لزيارة بلادهم فحول خطاباتهم إلى إدارة الأزهر للتصرف ، وكان من أثرها إرسال البعثة الطوافة المؤلفة من الأستاذين الشيخ عبد الله المشد والشيخ محمود خليفة ، والتي قامت بمهمتها خير قيام . وكتبا تقريراً مسهباً عن حالة المسلمين في البلاد التي زاراها ، وعما يجب على الأزهر نحوهم من إرسال البعوث من العلماء الأزهريين ، وتقبل بعوث الطلبة وإرسال الكتب إليهم لتنتشر الثقافة الإسلامية في ربوع إفريقيا .

ولقد كان ذلك كله أثر البعث الأول إلى إريتريا على الرغم مما صادفه من عقبات أهمها :

(١) منهج الدراسة ـ لما وصل مبعوث الأزهر إلى إريتريا كان الطلبة الذين فى المعهد ليس لهم منهج دراسى معين ، وإنما هى دراسات عامة فى النحو والفقه والتوحيد ، فنظم الدراسة فى المعهد على حسب المنهج فى المعاهد الدينية المصرية ، وأدخل فيه نظام انتقال الطالب من سنة إلى أخرى بعد أداء الامتحان فى المواد التى درسها .

(٢) الكتب ـ لم يكن عند الطلبة الكتب المقررة على حسب المنهج ، ولم تكن الحكومة الإنجليزية لتسمح بإدخال كتب من مصر ، فاشترطت أمرين : أن يكون الدفع بالاسترلين ، وأن يكون الترخيص بمجىء الكتب مباشرة .

إطعام الطلبة :

إن الطلبة الذين يدرسون فى المعهد ليسوا من أهل المدن وإنما هم من أهل البادية رعاة البقر ، فكان الواحد منهم يأتى فارا من رعى البقر لطلب العلم ، ولا يملك إلا ثوبا ممزقا يستر به عورته ، وليس معه نقود ، ولا يرسل له أهله شيئا منها ، فكان البحث عن طريق لإطعام هؤلاء مشكلة المشاكل .

ولما كان الموسرون منهم يخرجون عن جزء من مال الزكاة كل عام فى رمضان ليوضع فى صندوق للصرف منه فى أوجه البر كعلاج بعض المرضى من الفقراء ودفن من مات منهم ، ومساعدة من أخنى عليه الدهر من التجار ، اقترح عليهم أن يخصصوا الطلبة العلم من مال الزكاة مقدارا شهريا يصرف لهم ليساعدهم على الإقامة فى « أسمرا » لطلب العلم فاستجابوا لذلك ، ثم تأخرت الحالة الاقتصادية فى البلاد ، وقل مقدار الزكاة فقطعوا المساعدة عن طلبة العلم ، فعادت المشكلة مرة أخرى فلجأ مبعوث الأزهر إلى طريقة أخرى ، يعمل بها فى السودان ، وهى توزيع الطلبة على الموسرين من التجار ليأكلوا معهم فى منازلهم .

المدرسون :

لقد كثر عدد الطلبة فى المعهد وزادت الحاجة إلى مدرسين ، ولم يقف الأمر عند معهد أسمرا ، فقد طالب أهل مصوع أيضا بإرسال مدرسين لمعهدهم الذى أنشأه رجل من أصل مصرى يسمى « الحاج أحمد هلال » ، ثم طالب أهل « كرن » عاصمة إقليم غربى إريتريا بمعاونتهم على إنشاء معهد دينى بعاصمة إقليمهم ليؤتى لهم بعلماء من الأزهر ليعلموا أولادهم اللغة العربية والدين أسوة بأهل أسمرا فتم إنشاء المعهد ولعل الأسباب تتيسر لإمداد هؤلاء بمن يتولى تعليمهم وإرشادهم .

التعليم المدنى :

أما التعليم المدنى فالحكومة الإنجليزية غير مهتمة بتعليم المسلمين ، لهذا أنشأ المسلمون مدرستين إحداهما للوطنيين ، والأخرى للعرب ، وكان يقوم بالتدريس فيها بعض

شبان السودانيين الذين نزحوا مع الجيش الانجليزي منذ دخوله إريتريا . ولكن لم يكن للدراسة منهج تسير عليه ، فاقترح عليهم مبعوث الأزهر إنشاء مجلس يقوم بمهمة تنظيم التعليم في المدارس والمعاهد والإشراف عليه إشرافا يحقق الغاية منه ، فصادفت الفكرة قبولا ، وتألف المجلس برئاسة مبعوث الأزهر ووضعت له لائحة طبعت طبعا منسقا وأدخل المنهج المصري في المدارس الوطنية . وبعد عام دراسي جيء إلى مصر ببعثة من الطلبة الإريتريين ليشتركوا في أداء الشهادة الابتدائية المصرية مع الطلبة المصريين وكان من ثلاثة عشر طالبا ، نجح منهم أحد عشر وأعاد اثنان وهم جميعا الآن في مدرسة ساحل سليم الثانوية داخليا على حساب وزارة المعارف ، وبعضهم في السنة الرابعة وبعضهم في السنة الثالثة ، بل بعضهم في التوجيهي هذا العام لاختياره امتحان فرقتين مرة واحدة كما أباحته لهم وزارة المعارف .

بعوث الطلبة الى مصر :

كان من أهم ما سعى له مبعوث الأزهر إرسال الطلبة إلى مصر لا من أرتيريا وحدها بل من الحبشة أيضاً فأرسل البعض وهو العدد الأكبر إلى الأزهر ، وقليل منهم أرسلوا إلى وزارة المعارف للاشتراك في امتحان الشهادة الابتدائية المصرية كما تقدم ، ثم أرسلت إلى وزارة المعارف بعثة أخرى مكونة من ثمانية وثلاثين طالبا سنة ١٩٥٠ ثم بعثة ثالثة حضرت مع مبعوث الأزهر في العام الماضي مكونة من خمسة وعشرين طالبا . وهم جميعا ينتسبون الآن في الأزهر لعدم قبول وزارة المعارف إياهم بعد قبولها الثلاثة عشر طالبا الذين جاؤا في البعثة الأولى ، لكنهم يدرسون ليلا في المدارس مع دراستهم نهاراً في الأزهر ودراستهم مستمرة في الناحيتين مع نجاحهم فيهما ، وهـذا يشهد لهم بالذكاء النادر ، والاجتهاد المتواصل .

وقد كان من يحضر إلى الأزهر من الطلبة الارتيريين والأحباش بوساطة التجار الأحباش والسودانيين ، فكان تجار الأحباش يحملونهم معهم من الحبشة إلى إرتيريا ، ثم يحملهم التجار السودانيون من إرتيريا إلى السودان ، وبهذه الطريقة بلغ من حضر من إرتيريا من الطلبة ما يقرب من المائتي طالب ومن حضر من الحبشة منهم ما يقرب من مائة طالب .

إن للأزهر مكانة سامية في نفوس غير المصريين من المسلمين ، ومتى تمكن الأزهر من استغلال هذه المكانة أفاد الدين الإسلامي إفادة خاصة ، ومصر إفادة عامة تعود عليها بالخير سياسيا واقتصاديا . وأملنا أن يحقق الأزهر هذه الغاية النبيلة في عهده الجديد حيث يقود أموره الآن مجاهد إسلامي كبير ، وعالم سلفي عظيم . والله الموفق .

الأدب والعلوم في شهر

في مجمع اللغة العربية :

استأنف مجمع اللغة العربية نشاطه يوم ٦ أكتوبر بعد انتهاء العطلة الصيفية ، فعقد جلسة قام فيها فريق من أعضاء المجمع بإلقاء كلمات ترحيب ، تتضمن التكريم الذى لحق المجمع باختيار حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر السيد محمد الخضر حسين شيخاً للأزهر الشريف ، وقد عددوا مآثر فضيلته ونوّهوا ببحوثه العلمية والدينية ، التى كان لها الأثر الكبير فى النهوض بمختلف الشئون الدينية والعلمية .

العلم والأخلاق :

قال وزير المعارف فى كلمة أذاعها على الطلبة فى مفتتح العام الدراسى :

« إنكم إذ تتلقون العلم فى مدارسكم ومعاهدكم تعملون ما يعمله الجندى الذى يتدرب فى معسكره لكى يبلى أحسن البلاء فى ميدان الجهاد ، ولكن العلم وحده لا يغنى عن الأمة شيئاً إذا لم تدعمه قوة الأخلاق ونبل النفوس ، كما أن تدريب الجندى لا يغنى عن الأمة شيئاً إذا لم تدعمه قوة الجنان وشهامة الطبع . ولست أشك أنكم - فى تحقيق هذه الأغراض - ستجدون من أساتذكم خير هداة تسترشدون بهديهم ، وتنتفعون بخبرتهم وعلمهم ، وتتجهون إليهم طالبين النصيحة والعون كلما صادفتكم صعوبة أو قابلتكم مشكلة ، وستلاقون منهم عطف الآباء على الأبناء ، وحرص المربين على كل ما يعود بالنفع على طلابهم ، وبهذا تهيأ لكم أسباب النجاح ، وتسعدون بجو يسوده النظام والثقة والمحبة ، فتعود بذلك إلى معاهد التعليم قداستها وحرمتها » .

من أدب العلم :

تحدث العالم المكتشف (اينشتاين) إلى طلبة العلم فى نيويورك فى هذا الشهر فقال لهم : « ليس للطالب غنى عن شىء واحد وهو الشعور الفياض بكل ما يقوم على الخير من الناحية الأدبية ، وتقدير لكل ما هو جميل ، فإن لم يفعل ، فانه يكون — مهما اكتملت ثقافته — كالطالب الذى أحسن ذووه تدريبه ، لا كالإنسان الذى تناسقت شمائله وسمت أخلاقه .

« ومما ينبغى للطالب ، أن يدرك الدوافع البشرية ، وما قد يتعرض له العامل المجد من فشل وما يحتمل أن ينتاب الإنسان من كوارث وآلام ، فإذا أدرك الطالب ذلك وتوقعه فانه ستتوطد صلته بالمجتمع .

« وهذه السجايا لا يمكن أن تثبت فى نفوس النشء إلا بوسيلة واحدة وهى (القدوة الشخصية) لا من طريق الكتب وحدها . وهذه هى الوسيلة التى تؤدى إلى قيام الثقافة الصحيحة ، والسير بها نحو الكمال » .

وختم حديثه بقوله : « إن هذا الطراز من الثقافة قد يقضى عليه روح التنافس فى دراسة معينة لا يتمكن صاحبها من أن ينهل من معين المعرفة الشاملة الذى لا ينضب والبحث القائم على النقد الصحيح وتوخى الحقيقة » .

منابع ثقافة الأمريكيين
فى الشرق الأوسط

عاد الدكتور سليمان حزين مدير الثقافة العامة بوزارة المعارف من رحلته الطويلة فى الولايات المتحدة التى استغرقت شهرين وبعد أن شهد الاحتفال المئوى للجمعية الجغرافية الأمريكية فى المؤتمر الجغرافى الدولى الذى عقد فى واشنطن ، وبعد أن زار الجامعات الأمريكية إجابة للدعوة التى نظمت طبقاً لبرنامج «سميث مندث» ، اقتنع بأن الأمريكيين أخذوا يغيرون رأيهم فى منابع ثقافتهم ، فبعد أن كانوا معتقدين فى أول الأمر أنها ترجع إلى غرب أوربا ، أخذ الجامعيون منهم وقادة الفكر يكتشفون الحقيقة التى تأخروا فى اكتشافها ، وهى أن جذور الثقافة الأمريكية تمتد إلى أعمق من ذلك بكثير ، وأنها ترجع إلى هذا الشرق الأوسط ، ولذلك بدأ اهتمامهم بالشرق الأوسط يتزايد باستمرار .

مكتبة عربية بجامعة درهام :

تعتزم جامعة « درهام » إنشاء مكتبة عربية ينتظر أن تصبح أكبر مؤسسة من نوعها فى بريطانيا . وتقوم الجامعة الآن بالاتصال بالمعاهد العربية والناشرين والمكتبات العربية للحصول على بيانات عن المؤلفات المنشورة بالعربية . وكان أحد وزراء المعارف السابقين قد وعد هذه الجامعة بإهدائها طائفة من الكتب العربية القيمة .

الاضطراب فى الحياة الجامعية :

يقول عميد كلية الآداب فى جامعة الإسكندرية: إن الاضطراب الذى أصاب الحياة الجامعية فى السنوات الأخيرة كان السبب الأكبر فيه سوء النظام المالى وكثرة درجات السلم الجامعى، مما شغل فريقاً من أعضاء هيئة التدريس بشئون الأقدميات والترقيات المتعاقبة ، ومما اضطر بعضهم إلى الدخول فى خصومات قضائية . ولو أن الجامعة وفقت إلى تبسيط وظائفها لاستتمام كثير من الشئون ، ولتفرغت هيئة التدريس لعملها الأصيل فى البحث والكشف العلمى .

حلقة الدراسات الاجتماعية :

تعقد فى دمشق اجتماعات حلقة الدراسات الاجتماعية الثالثة من ٨ ديسمبر القادم إلى ٢٠ منه ، وتشترك فى ذلك دول الجامعة العربية . ولما كان ميثاق الجامعة ينص على أن تمثل الدول العربية غير المنضمة إلى الجامعة فى

اللجان الثقافية والاجتماعية ، فقد طلبت الحكومة السورية من الجامعة العربية دعوة تونس والجزائر والمغرب الأقصى إلى إرسال مندبين عنها لحضور اجتماعات هذه الحلقة .

التعليم الفني المتوسط :

قال الدكتور «توماس هارت» مدير برامج النقطة الرابعة في المملكة العربية السعودية واليمن : إن الحاجة ماسة في الشرق الأوسط إلى التعليم الفني المتوسط لملء الفجوة الناشئة بين أصحاب المهن الفنية والسكان العاديين .

كان الدكتور توماس هارت قد شهد أخيراً المؤتمر الذي عقد في جامعة بيروت الأمريكية لبحث المشاكل الاجتماعية والاقتصادية في الشرق الأوسط وعاد بعد ذلك إلى واشنطن .

السينما بوزارة المعارف :

في الإدارة العامة للنشاط الرياضي والاجتماعي بوزارة المعارف المصرية قسم خاص عنوانه (مراقبة السينما والتصوير) كان المفروض أن تكون مهمته العناية بالسينما الثقافية وتوسيع نطاق الإفادة منها في تهذيب الأخلاق ، وتوثيق صلة رجال الغد بأمجاد الماضي، بإحياء مفاخر التاريخ الإسلامي والعربي والمصري ، وزيادة معارف الطلبة بالأقطار العربية الشقيقة والأوطان الإسلامية بعرض مشاهدها ، وتبادل الأفلام معها ، فتزود الأقطار الشقيقة بما يزيدها معرفة بمصر ، كما تعنى بزيادة معلومات النشء المصري عن الأقطار المشاركة له في اللغة والدين، واستئناس بعالمه وعمرانه ومناظره الطبيعية وعادات أهله وأزيائهم وسائر أحوالهم . ومما يؤسف له أن هذه النواحي آخر ما كان يخطر على البال من مهمة مراقبة السينما بوزارة المعارف في مراحلها السابقة ، فلما دبت الآن روح الحياة في المرافق المصرية ، التفتت الأنظار إلى ناحية السينما الثقافية في وزارة المعارف ، ولعل وزارة الإرشاد القومي المزمع إنشاؤها قريباً ستضع الأمور في نصابها من هذه الناحية على النحو الذي أشرنا إليه في هذه الكلمة .

حركة المطالعة في مصر :

تردد على دار الكتب المصرية وأقسامها المختلفة خلال شهر سبتمبر : ٩١٢٥ ، وعلى فروعها ١٤٢٧٥ ، وبلغ عدد الكتب التي صرفت للمطالعة داخل الدار وفروعها ٢٧١٣١ والتي أعيرت لخارج الدار وفروعها ٩٣٥١

وبلغ عدد ما اقتنته الدار من كتب في ذلك الشهر ٧٤٤ منها ٥٩١ باللغة العربية واللغات الشرقية و ١٥٣ باللغات الأوربية .

والمواد التي أقبل المطالعون على مطالعتها هي أولا : الأدب والقصص ، ثم التاريخ والجغرافيا فالعلوم الاجتماعية والعلوم المقيدة فالعلوم البحتة والفلسفة وعلم النفس والمراجع العامة والديانات والفنون الجميلة .

العالم الإسلامي في شهر

قضية تونس

عقدت الجمعية العامة للأمم المتحدة دورتها السابعة فى مبناها الجديد المطل على النهر الشرقى فى نيويورك ، وكانت ثلاث عشرة دولة عربية وآسيوية قد أعدت عدتها قبل ذلك لدراسة أفضل الطرق التى ينبغى لها اتباعها لعرض النزاع القائم بين تونس وفرنسا على الجمعية العامة وإقناعها بالنظر فيـــه ، ولعل أهم ما ستطالب به الجمعية العامة إيفاد لجنة من مراقبى الهيئة لدراسة الموقف فى تونس والتقدم إلى الأمم المتحدة بالتوصيات التى تراها مناسبة لحـــل النزاع الذى يعرض السلام العام للخطر .

وكانت الحكومة الفرنسية قد قررت أن يدفع وفدها بعدم اختصاص الجمعية العامة فى نظر هـذا النزاع ، وهى تستند فى هذا القرار إلى المبدأ الذى ينص عليه ميثاق الأمم المتحدة ويقضى بعدم تدخل الأمم المتحدة فى الشئون الداخلية لأية دولة هى عضو فى هذه الهيئة الدولية . واعتبار قضيتى تونس والمغرب الأقصى من الشئون الداخلية لدولة فرنسا متفرع عن العقلية الاستعمارية البالية التى لا يزال بعض الناس يعيشون عليها حتى فى إنكار حق الحياة القومية على أمة كالأمة التونسية لها حكومة وعرش وكيان دولى من قبل أن يكون لها أى علاقة بفرنسا .

وسلوك فرنسا هذا السبيل فى الدفاع أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة تحتاج فيه إلى موافقة أكثرية ثلثى أعضاء الجمعية العامة على وجهة نظرها ، وهى أكثرية لا تقل عن أربعين دولة . وقد كان مفهوماً أن فرنسا لن تحصل على هذه الأكثرية ولا على نصفها لأن الدول العربية والإسلامية والآسيوية ووفود أمريكا اللاتينية وبعض الوفود الأوربية وحتى الولايات المتحدة والكتلة السوفيتية ، تبين أنها تكون فى الجانب الذى تكون فيه هزيمة هذا المنطق الاستعمارى .

وقد سافر إلى نيويورك السيد صالح ابن يوسف وزير العدل التونسى على احتمال أن الجمعية العامة قد تطلب منه أن يدلى ببعض البيانات .

وإدراج القضايا فى جدول أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة تقوم به لجنة التوجيه التى تتألف من ١٥ عضواً هم نواب الرئيس ورؤساء اللجان المتفرعة عن الجمعية .

وقد فازت مصر أخيراً بالمقعد السابع في هذه اللجنة التي اجتمعت يوم ١٥ أكتوبر وقررت الموافقة على إدراج مشكلتي تونس والمغرب الأقصى في جدول الأعمال ، رغم احتجاجات المندوب الفرنسي ، الذي أعلن أن فرنسا ستقاطع المناقشة التي ستجرى في الجمعية العامة بشأن السياسة التي تنتهجها في محميتها بأفريقيا الشمالية .

قضية المغرب الأقصى :

أصدر القصر الملكي في المغرب الأقصى بياناً بلسان ملك البلاد يصارح فيه أمته بالأدوار التي مرت على القضية منذ زار باريس سنة ١٩٥٠ إلى الآن ، وقد جاء فيه ما يأتي :

« كان القصد الجوهري من زيارتنا لباريس في سنة ١٩٥٠ هو أن تقدم للحكومة الفرنسية مذكرة أوضحنا فيها أن القضية المغربية ليست قضية إصلاحات جزئية تحقق في نطاق النظام القائم ، ولكنها قضية شعب يطالب بوضع نظام جديد يساير آماله ، ويتلاءم مع الظروف العالمية الجديدة .

« وقد ردت حكومة الجمهورية الفرنسية على مذكرتنا في ٣١ أكتوبر ١٩٥١ بأن تعديل النظام القائم سابق لأوانه ، واقتصرت على عرض إصلاحات جزئية داخل نطاق الحماية .

« ولما لاحظنا التباين بين وجهة نظرنا ووجهة نظر الحكومة الفرنسية ، بالإضافة إلى الأزمة الشديدة التي زجت بالعلاقات المغربية الفرنسية في مأزق حرج ، وكذلك وقف المباحثات - التي كان أملنا أن تفتح باب الدخول فيها واجهنا - حكومة الجمهورية الفرنسية بمذكرة أخرى في ١٤ مارس ١٩٥٢ أوضحنا فيها - على ضوء تجربة الأزمة - أن أسلم حل للقضية المغربية هو تحديد العلاقات بيننا تحديداً جديداً يضمن للمغرب سيادتها وللفرنسيين المقيمين بها حقوقهم المشروعة في نطاق التعاون المثمر بين البلدين ، وذلك في الميادين الاقتصادية والثقافية والدولية ، ويحافظ على حقوق الأقليات الأجنبية الأخرى .

« وقد اقترحنا لأجل الوصول إلى هذه الغاية :

١ - تطهير الجو السياسي في المغرب .

٢ - منح الحريات العامة والخاصة ، وخصوصاً الحريات النقابية .

٣ - تأليف حكومة مغربية مؤقتة يناط بها أن تدخل - تحت إشرافنا - في مباحثات مع الحكومة الفرنسية لوضع اتفاق جديد بين المغرب وفرنسا .

« وكانت مقترحاتنا ترمي إلى غاية مثالية هي السماح للشعب المغربي بأن يمارس شئون بلاده بنفسه بواسطة برلمان وحكومة دستورية ، على نحو ما تقضي به أساليب

الديمقراطية الحديثة . وإن إنشاء مثل هذا النظام لما لا يتعارض مع استمرار التعاون المغربي الفرنسي .

« وفي ١٧ سبتمبر سنة ١٩٥٢ قدمت إلينا الحكومة الفرنسية - عن طريق المقيم العام - ردها على مذكرة ١٤ مارس ، وسردت في القسم الأول من ردها كل ما حققته الحماية في مختلف الميادين ، وخصوصاً فيما يتعلق بالتعليم والصحة والتجهيز الاقتصادي والصناعي . وفي القسم الثاني عرضت برنامجاً للإصلاح تتلخص معالمه الكبرى في تكوين مجالس جماعات إدارية في البوادي ، وإنشاء مجالس بلدية مختلطة في المدن ، ومجالس فرنسية مغربية في المراكز البدوية ، الأمر الذي يعطي للفرنسيين المقيمين في المغرب حق التقدم للانتخابات على قدم المساواة مع المغاربة أهل البلاد . وفيما يتعلق بالسلطة التنفيذية أشار الرد الفرنسي إلى وجود مجلس الوزراء والمندوبين الفرنسيين الذي تكوّن سنة ١٩٤٧ ، واقترح الرد أن ينضم السكرتير العام للحماية - وهو فرنسي - إلى المجلس ليقوم بمساعدته باعتباره رئيساً للإدارة . وكان من المفروغ منه في الرد الفرنسي أن الإدارة في المغرب ذات طابع مختلط ، أي أنها فرنسية مغربية تسير تحت إشراف السلطات الفرنسية ، أما فيما يتعلق بالتنظيم القضائي فقد وعدت الحكومة الفرنسية بأن تقدم إلينا نصوصاً تشريعية حوله في وقت قريب .

« ومن المهم أن نلاحظ أن برنامج الإصلاح الفرنسي لا يشتمل على أي عنصر جديد ، فقد صدرت المراسيم الخاصة بمجالس الجماعات في يونية سنة ١٩٥١ وبدأ العمل بها فعلا ، كما قدم مشروع البلديات إلى لجنة مغربية حكومية لدراسته في ٨ مايو سنة ١٩٤٨

ثم قدم إلى مجلس الوزراء لبحثه في ٢٦ يونيه ١٩٥١ فرفض العمل به لأن من شأنه أن يمس السيادة المغربية التي تضمن المعاهدات الدولية حمايتها . وفيما يتعلق بإصلاح الأداة القضائية سبق أن قدم فيه المقيم العام مشروعا سنة ١٩٤٧ فألفت الحكومة المغربية لجنة فنية ردت عليه بمشروعات مضادة . ولم يشر الرد الفرنسي فوق ذلك إلى المشروعات التي قدمناها في ١٤ مارس ١٩٥٢ فيما يتعلق بتأليف حكومة مغربية ومنح الشعب بعض الحريات الجوهرية التي لا يتمتع بها كالحق النقابي . وبالاختصار عبرت الحكومة الفرنسية عن تصميمها على تدعيم معاهدة الحماية ، وقدمت إلينا برنامجا للإصلاحات ، ولفتت نظرنا إلى أن هذه الإصلاحات وحدة صادرة عن فكرة متجانسة ، وبذلك يتمثل فيها كل غير قابل للتجزئة . وأخيرا أبدت الحكومة الفرنسية استعدادها - في حالة التسليم بقبول مبدأ هذا الإصلاح واتجاهاته -

لأن تعلن نشأة الصداقة المشتركة والمصالح المتداخلة ، لتقوم على أساس ذلك فى المستقبل العلاقات بين فرنسا والمغرب دون مانعرض إلى السلطات المادية التى نصت عليها معاهدة ٣٠ مارس سنة ١٩١٢

« وقد أبدينا فى الرد الذى قدمناه إلى الحكومة الفرنسية فى ٣ أكتوبر سنة ١٩٥٢ أسفنا العميق لما لاحظناه من عدم أخذ الحكومة الفرنسية بمقترحاتنا ، كما لفتنا أنظارها إلى أن مشروعات الإصلاح التى قدمتها إلينا ترمى بصفة عملية - فى مفهومها ومنطوقها - إلى تصديع السيادة المغربية » .

قضية كشمير :

يقول السيد محمود حسين الوزير الباكستانى لشئون كشمير فى حديث أدلى به فى مدينة (دكا) : « إن اقتراحى نزع السلاح وتعيين مدير لعملية استفتاء فى كشمير قد بحثا كثيراً حتى الآن ولكن بلا جدوى . ولو أن استفتاء نزيها أجرى فى كشمير ، فإن مما لا يتطرق إليه الشك أن الأكثرية الإسلامية الساحقة التى يتألف منها سكان كشمير ستطالب بالإجماع الالتحاق بأمها باكستان . وماتنشره صحف الهند من أن الباكستان تحاول إرسال بعض القبائل إلى كشمير لا نصيب له من الصحة ، لأن باكستان تسعى للوصول إلى حقوق كشمير بالوسائل والحلول السلمية ، ولا حاجة بحكومة باكستان ولا بمسلمى كشمير إلى استعمال القوة .

« نعلى مجلس الأمن أن يتخذ فى هذه القضية الواضحة حلا نهائياً حاسما ، لأن هنالك حداً لصبر البشر ، ومن الحكمة أن لايستنفد الصبر بتجاوز حدوده » .

وقد جاء بعد هذا أن مجلس الأمن دعى إلى الانعقاد لدراسة تقرير الدكتور جرهام عن محادثات كشمير . وقد مر وزير خارجية باكستان بمصر فى طريقه إلى نيويورك لحضور الدورة السابعة للجمعية العامة للأمم المتحدة ، وليكون على مقربة من مجلس الأمن وهو يبحث قضية كشمير .

السعى لكتلة مبادئ :

زار الوطن المصرى فى الشهر الماضى بمهمة رسمية الدكتور أحمد سوبارجو وزير خارجية أندونيسيا السابق والسفير فوق العادة . وبعد اتصاله بأهل الرأى صرح بأنه مرتاح لنتائج زيارته لمصر ، ومسرور لما يرجو من توثيق العلاقات بين البلدين ، ومن بينها العلاقات التجارية . وقد دعا المسئولين فى مصر إلى زيارة أندونيسيا ، لأن فى تبادل مثل هذه الزيارات ما يقرّب بين الشعوب الإسلامية وحكوماتها .

ويقول الدكتور سوبارجو فى حديث له مع مندوب جريدة (الأهرام) : إن

أندونيسيا - بحكم موقعها الجغرافى - تشعر كسائر دول الشرق الأقصى بوطأة الصراع المحتدم فى تلك المنطقة بين الكتلتين الشرقية والغربية . وأندونيسيا دولة ناشئة تحتاج إلى السلام لتتفرغ للإنشاء والتعمير فى ربوعها، لذلك كان من مصلحتها الوقوف على الحياد فى الحرب الباردة بين المعسكرين ، كما ترى من مصلحتها الوقوف على الحياد كذلك - إذا استطاعت - عند وقوع حرب مسلحة . قال : ولكننا لا نستطيع ذلك بمفردنا ، لذلك نحاول الاتصال بالدول التى تشاركنا فى أهدافنا وأمانينا .

ثم قال : إن دول الكتلتين لا تريد الحرب وفى رأينا أن قيام كتلة حيادية - أى من أمثال حكومات الشرق الأقصى والأوسط - قد يؤدى إلى منع وقوع الحرب ، أو على الأقل إلى تأجيل وقوعها .

وتحدث عن أهمية الاستقلال الاقتصادى لتحقيق الاستقلال السياسى وقال : إن أندونيسيا ينص دستورها على أن الاستعمار مضى زمنه ، وكان من أسباب وقوع الحروب . وهذه النظرية نستوحيها فى سياستنا العملية .

أمريكا بين العرب واليهود :

ألقى الدكتور . والتر والباتك ، أستاذ التاريخ بجامعة كاليفورنيا ، محاضرة نفيسة عن الشرق ، أصغى إليها خمسمائة من أساتذة الجامعة وكبـــار المفكرين الأمريكيين والمهتمين بشئون الشرق الأوسط . والدكتور والتر والباتك كان فيما مضى أستاذاً بجامعة القاهرة ، وطاف بلاد الشرق الأوسط ووقف على حقائقها . وقد وصف فى محاضرته الحالة الاجتماعية فى مصر . ثم انتقد موقف الولايات المتحدة فى الماضى من إسرائيل وقال : إن هذا الموقف لم يكن عادلا ولا حكيما ، وإن أمريكا بسياستها ساعدت على طرد ٨٠٠ ألف عربى من بلادهم لتؤوى بعض الصهيونيين الذين سيتخلص منهم العرب فى يوم ما . وانتقد أن تعطى أمريكا مساعدة مالية لإسرائيل تساوى مجموع المساعدات المالية التى تعطيها للبلاد الأخرى مجتمعة . وتساءل : لماذا نخسر صداقة العرب لنكسب صداقة أشخاص سوف ينقلبون على أمريكا فى أى لحظة ؟ ولماذا نمدهم بالأسلحة ونكون السبب فى إشعال نار الحرب فى الشرق الأوسط .

ومما قاله : إن بعض المصريين كان يلقى علىّ أسئلة لا أستطيع الجواب عليها ، ومن هذه الأسئلة موقف أمريكا من إسرائيل ، ومعاملتها للزنوج ، وموقف أمريكا السابق من تأييد السياسة البريطانية . وختم محاضرته بالتحدث عن الفجر الجديد فى ظلام مصر بقيام الجيش لتحرير مصر من الفساد والطغيان ومستغلى النفوذ والأحزاب الفاسدة . وتوقع قيام حركة إصلاح حقيقية ذات خطة مرسومة وسريعة .

أنباء العالم الإسلامي

تجديد الحرم النبوي :

عادت من الحجاز البعثة الهندسية التي كانت الحكومة المصرية قد أوفدتها إلى المدينة المنورة لاختبار طبقات التربة في أساس الحرم النبوي الشريف الذي قدرت تكاليف تجديد بنائه بنحو أربعة ملايين جنيه تكفل بها الملك عبد العزيز السعودي من جيبه الخاص .

ويقوم المختصون الآن بتجارب في معمل ميكانيكا التربة في كلية الهندسة تمهيداً لإجراء التصميمات اللازمة للأساس . وقد سبق إعداد التصميمات والرسوم الخاصة بمباني الحرم ومنشآته ومآذنه .

والمفهوم أن هذا المشروع العمراني العظيم يستغرق أربع سنوات ، وسيكون الحرم المدني الشريف بعد إتمامه أعظم مسجد إسلامي في العالم وأفخمه .

وقد شرع من الآن في إخلاء بعض المباني المحيطة بالحرم ، كما بوشر إخلاء بعض الأجزاء الداخلية من الحرم نفسه .

حماية المسجد الأقصى :

اجتمع مجلس إدارة الشبان المسلمين في الإسكندرية وبحث مسألة حماية المسجد الأقصى ، لمناسبة ما يقوم به اليهود من حركات وجهود عسكرية وسياسية في بيت المقدس فنقلوا إليها وزارة خارجيتهم من تل أبيب وحشدوا قواتهم في مشارف القدس القديمة والمسجد الأقصى وأنشأوا المعاقل في جبل الزيتون مخالفين في كل ذلك العهود والمواثيق التي دانوا بها للجنة الهدنة وهيئة الأمم المتحدة . والجمعية تستصرخ كل مسلم في أن يرفع صوتها ليبلغ مسامع ممثلي الدول الإسلامية لتنقله إلى حكوماتها راجية أن تبذل الحكومات الإسلامية كل ما يسعها من جهد لوقف هذا العدوان .

مرافق الحجاز :

يقول السيد الحسيني الخطيب أمير الحج المصري ووزير مصر المفوض في الحجاز : إن ولي عهد المملكة العربية السعودية أبدى رغبة حكومته في إيفاد مهندسين ، وبوليس مرور ، وعمال ، ومدرسين من مصر ، للنهوض بمرافق الحجاز والمملكة العربية السعودية . وافتتح ولي العهد ـ وكان بصحبته أعضاء بعثة الحج المصرية ـ عدة مستشفيات جديدة أنشئت في المملكة العربية السعودية يديرها ويرأسها أطباء مصريون . ومن هذه المستشفيات واحد لعلاج الأمراض النسائية هو الأول من نوعه هناك . كما أنشئت هناك مصحات كثيرة لعلاج ضربة الشمس . وصدرت

الأوامر بإنشاء مجموعة كبيرة من المظلات الواقية من أشعة الشمس فيما بين منى وعرفات. وقد أبدى ولى العهد رغبة فى إنشاء خط ترام كهربائى بين جـــدة ومكة والمسافة بينهما ٧٥ كيلو متراً ، على أن تساهم فى هذا المشروع رءوس الأموال الإسلامية . وأن تطرح مناقصة عملية إنشائه فى البلاد الإسلامية وحدها ، قال أمير الحج : وينتظر تنفيذ هذا المشروع قريباً .

الجلاء عن كوبرى الفردان :

فى الساعة الواحدة من بعد ظهر يوم الجمعة ١١ أكتوبر انسحبت القوة البريطانية التى كانت تحتل كوبرى الفردان الذى يمر عليه الخط الحديدى عبر قناة السويس ويوصل إلى شبه جزيرة سينا . وفى الساعة الثانية عقب ذلك كانت قوة من رجال الجيش المصرى تحتل هذا الكوبرى وتقوم على حراسته .

فراديس فى البحر الأحمر :

لفت الدكتور محمد طلعت طه الأنظار إلى فراديس مهملة لا يحفل بها إلا قلة من أغنياء الأجانب فى مصر ، وهى جزر متناثرة فى خليج السويس وقرب الشاطىء المصرى للبحر الأحمر . وأهم تلك الجزر : شدوان ، وجزيرة الأخوين ، والزبرجد . وهى جزر جبلية ذات سفوح متدرجة إلى شواطىء رملية بديعة كثيرة الخلجان وجوها ساحر بديع صيفاً وشتاء . فالشمس ساطعة طول العام والريح مستمرة ومنتظمة ، مما يتيح استخدامها لإدارة طواحين هوائية متصلة بمولدات الكهرباء التى تنتج تياراً كهربائياً للإضاءة والطهى وتقطير الماء العذب من ماء البحر وكافة الأغراض الحيوية والصناعية . وتمتاز هذه الجزر بدفئها شتاء واعتدال هوائها صيفاً فهى مصيف ومشتى . بل تصلح مصحاً عالمياً لتوافر الأوزون (أى الاوكسيجين الذرى) فى جوها . وتزخر خلجانها بكميات هائلة من الأسماك الكبيرة قال لحبذا لو بذلت الدولة جهداً فى تعميرها وإعدادها والإعلان عنها .

صناعة البترول فى مصر :

تعنى مصلحة الوقود المصرية الآن بتوسيع معمل تكرير البترول الأميرى فى السويس ، وستنتهى من إقامة المبانى والمرافق الجديدة فى هذا العمل فى أواخر سنة ١٩٥٣ ثم تنتظر منه إنتاجاً سنوياً لا يقل عن مليون ونصف مليون طن من المواد البترولية الصالحة للاستهلاك ، وإذا أضيفت هذه الكمية الضخمة إلى ما تنتجه شركة آبار الزيوت الإنجليزية المصرية استغنت مصر بذلك عن استيراد البترول من الخارج ، اللهم إلا القليل من الكيروسين لضخامة المطلوب منه للاستهلاك الشعبى .

والحكومة تستعد لتسلم بئر وادى فيران بمنطقة سيناء ، التى تم كشفها عام ١٩٤٩ ولم

تستغل حتى الآن ، إلى الجمعية التعاونية المصرية للبترول لتستغلها على حساب الحكومة ، وقد منحت هذه الجمعية ١٩ ترخيصاً بالبحث عن البترول ، وأعطيت الشركة الأهلية المصرية ١٠٦ ترخيص بالتنقيب ، ولدى شركة آبار الزيوت الإنجليزية المصرية وشركة سوكونى فاكوم ٦١ ترخيصاً ، ومنحت إحدى الشركات الفرنسية ٥٢ ترخيصاً . وسياسة مصر البترولية قائمة على حرية المنافسة . وإن صدور قانون المناجم بعد تعديله طبقاً لمقترحات غرفة المناجم والمحاجر سيبطل حجة تعطيل أعمال التنقيب فى بعض المناطق ، ويبدأ العمل بأوسع نطاق .

ميزان مصر التجارى :

يقول الأستاذ محمود كامل المحامى : إن مجموع ما استوردناه فى سنة ١٩٥١ مبلغ ٢٧٩٫٥٩٤٫٠٠٠ من الجنيهات ، ولم نصدر فى ذلك العام إلا ما قيمته ٢٠٣٫٠٨٠٫٠٠٠ ج وليس هذا الاختلال فى ميزاننا التجارى مقتصراً على عام ١٩٥١ ، فقد حدث ذلك فى كل سنة من السنوات الخمس الأخيرة حتى بلغ مجموع الخسارة التى منى بها الاقتصاد القومى فى هذه الفترة نحو مائتى مليون جنيه . ولا يمكن علاج مأساة الدخل القومى إلا على أساس موازنة الوردات بالصادرات ، وهذا لا يمكن ـ مع التوسع فى الرى والزراعة ـ إلا بوضع سياسة ثابتة على أساس برنامج مدروس لتصنيع مصر . وإذا ارتفع مجموع المستثمر فى الصناعة فمتوسط دخل المواطن المصرى سيتضاعف بضع مرات ، أو بالتالى سيقترب هذا المواطن من الحياة الكريمة التى يحياها المواطنون فى الدول المتحضرة .

ومما يخطر على البال فى معالجة الاختلال فى ميزاننا التجارى أن يعمل المعلدون على التقريب بين قيمة الواردات والصادرات بمكافحة استيراد الكماليات وأدوات الترف والبذخ ، ورسم سياسة قوية تحمل الأمة على الاستغناء عنها من طريق الإرشاد الأدبى ، والترغيب فى الحياة الاقتصادية المعتدلة ، مع التوسع بزيادة الرسوم الجمركية على بعض الأصناف والمنع القطعى لاستيراد البعض الآخر ، إلى أن يتساوى ميزاننا التجارى ، وتضمحل نهائيا هذه الخسارة السنوية من زيادة الواردات بما يزيد على سبعين مليون من الجنيهات .

وادى الريان :

كان المهندس «سيريل فوكس» قد حضر إلى مصر وزار موقع وادى الريان وكتب عنه تقريراً نفى فيه أن يترتب أى خطر على مديرية الفيوم لو نفذ مشروع تخزين المياه فى وادى الريان ، ومع ذلك فإن المختصين فى الحكومة المصرية لم يقطعوا برأى نهائى فى هذا الأمر ورأوا أن يستدعوا خبراء آخرين للاستئناس برأيهم . وسيصل إلى مصر فى ديسمبر القادم ثلاثة خبراء من سويسرا وأمريكا وانجلترا لدراسة هذا المشروع العمرانى الكبير .

القانون الأساسي لولاية طرابلس :

صدر القانون الأساسي لولاية طرابلس مؤلفاً من ٥٩ مادة ، مصرحا بأن دستور ليبيا يعد القانون الأعلى للولاية ، وينص على :

١ - أن الوالي يمثل الملك ، وهو مسئول عن جميع السلطات والامتيازات .

٢ - أن الملك - بمشاورة الوالي - يعين المجلس التنفيذي المكون من نظار العدل والداخلية والمعارف والأشغال والمالية والزراعة والمواصلات والسياحة ، وهو مسئول أمام الملك والمجلس التشريعي .

٣ - يتولى السلطة التشريعية الوالي ومجلس تشريعي يتكون من أربعين عضواً ، ثلاثون منهم منتخبون ، وعشرة يعينهم الملك بمشاورة الوالي .

الاعتراف باستقلال المغرب :

تدور المباحثات بين الحكومات العربية والإسلامية والأسيوية حول الاعتراف باستقلال المغرب الأقصى ، عملا بمعاهدة ٧ إبريل ١٩٠٦ التي أبرمت بين حكومة المخزن و ١٦ دولة أجنبية اعترفت بسيادة المغرب واستقلاله ووحدة أرضه وحريته الاقتصادية ، وعملا بمعاهدة الجزيرة الخضراء التي أخذت بها محكمة العدل الدولية في ٢٧ أغسطس من هذه السنة .

الوصاية والاستعمار :

طلبت الهند من محكمة العدل الدولية أن تصدر قراراً فيما إذا كان يجوز للدول التي تتولى الوصاية على بعض المستعمرات بالنيابة عن الأمم المتحدة ، أن تدمج هذه المستعمرات مع مستعمراتها المجاورة لها تحت حكم واحد ، وتتهم الهند كلا من فرنسا وبريطانيا وبلجيكا بإدماج المناطق التي تتولى هذه الدول الوصاية عليها بالنيابة عن الأمم المتحدة على مستعمراتها الخاصة ، ولم تزل مشكلة إدارة المستعمرات التابعة للأمم المتحدة معروضة على الجمعية العامة منذ بضع سنوات . وترى الدول الاستعمارية المتهمة من الهند بهذا العمل ، أن إدماجها مستعمرات الوصاية بالمستعمرات الخاصة يسهل عليها مهمة الوصاية ، ولكن الهند ومعها بعض الدول الآسيوية الأخرى ترى أن هذه الحجة إن هي إلا ثوب ملفوف يخفي تحته حقيقة الاستعمار ، وذلك مما لا يتفق مع ميثاق الأمم المتحدة .

ايران وبريطانيا :

أذاع الدكتور مصدق رئيس الوزارة الإيرانية في يوم ١٦ أكتوبر بيانا أعلن فيه قطع العلاقات الدبلوماسية بين إيران وبريطانيا وقال إنه اضطر إلى ذلك لأن الحكومة البريطانية حالت دون الوصول إلى اتفاق بشأن النزاع حول البترول . ومما

قال في بيانه أن قطع العلاقات الدبلوماسية لا يعني قطع روابط الصداقة بين الشعبين الإيراني والبريطاني ، وهو يأمل أن تبدى السلطات البريطانية المسئولة اهتماما أكبر بحقائق الحالة الدولية وتتخلى عن الموقف الذي ظلت متمسكة به حتى الآن في معالجة مختلف المشاكل .

وقدم الدكتور مصدق لبيانه بشرح واف للمراحل التي مر بها النزاع الإيراني البريطاني ، منذ أعلنت الحكومة الإيرانية قرار تأميم البترول ، وكرر ما سبق أن وجهه لبريطانيا من اتهامات حول المؤامرات الداخلية والاضطرابات التي حاولت إثارتها في إيران ثم قال : إن إيران بذلت كل جهد للوصول إلى اتفاق في النزاع القائم حول البترول ولكن بريطانيا عمدت إلى محاولة وضع إيران تحت الضغط الاقتصادي متجاهلة المبادىء الدولية ، وراحت تماطل كعادتها وتعد المذكرة تلو المذكرة لكسب الوقت وإجبار إيران على الخضوع لرغباتها ، والحيلولة بين الشعب الإيراني وتحقيق حريته الاقتصادية

وقد منح الإنجليز مهلة عشرة أيام لسحب بعثتهم الدبلوماسية من إيران ، وسيعود القائم بأعمال السفارة الإيرانية في لندن وموظفو السفارة في غضون عشرة أيام .

المسلمون وراء الستار الحديدي :

أصدر الزعيم الإسلامي الباكستاني السيد خليق الزمان ، بياناً تحدى فيه الاتحاد السوفيتي بأن يسمح لوفد حر من مسلمي العالم بزيارة الأوطان الإسلامية في روسيا للاطلاع على حقيقة ما عليه حال أربعين مليوناً من إخواننا في الدين هناك ، فإذا كانوا في حالة حسنة من معيشتهم وحريتهم الدينية ، أعلن الوفد هذه الحقيقة للناس ، وإن كانت الأخرى كان للحقيقة أن تعرب عن نفسها .

النشاط اليهودي في إيران :

في برقية إلى وكالة الأنباء العربية في بغداد يوم ١١ أكتوبر أن حكومة العراق جددت المساعي لدى الحكومة الإيرانية لإقناعها بوضع حد لنشاط الوكالة اليهودية في إيران .

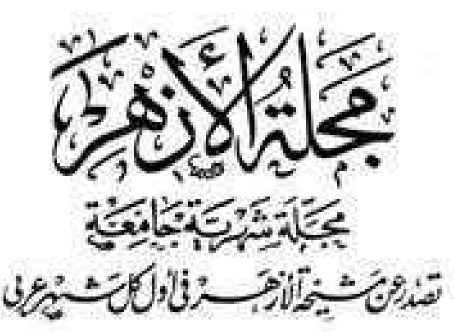
وقد فاتح بعض الزعماء الدينيين العراقيين الذين زاروا إيران أخيرا الدكتور مصدق والسيد الكاشاني في هذه المسألة .

ويلوم العراق إيران على التساهل الذي تبديه نحـــو النشاط اليهودي في الميادين الاقتصادية والسياسية ، ويشكو من أن اليهود استطاعوا أن يصدروا في الوقت الحاضر سبع صحف في إيران تعمل على إثارة الخلافات بين العراق والعالم الإسلامي .

والمفهوم أن السفارة العراقية ناقشت هذه المسألة مع الحكومة الإيرانية ، وطلبت منها أن تتخذ من الإجراءات ما هو كفيل بالقضاء على خطر الصحف اليهودية .

طبعت بمطبعة الأزهر







الجزء الثالث - القاهرة في غرة ربيع الأول ١٣٧٢ - ١٩ نوفمبر ١٩٥٢ - المجلد الرابع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

كيف بنى محمد الأمة الإسلامية

أكان يدور بخلد أحد يعرف سكان جزيرة العرب في القرن السادس للميلاد، أن هذه الجزيرة ستحكم الدنيا يوما من الأيام؟

أكان يدور بخلد أحد أن هؤلاء الشراذم والأوزاع، سيحاربون دولة الأكاسرة ودولة القياصرة، فيرثون ملكهم وأرضهم وديارهم؟

أكان يدور بخلد أحد أن هذه القبائل العربية وهي متحاربة متنابذة يجمع الله بينها، ويوحد رأيها، ويؤلف بين قلوبها، حتى تصير كتلة واحدة تأخذ مكانها في الوجود، رغم العقبات والنكبات والسدود والحوائل؟

أكان يدور بخلد أحد أن هذه العقائد الفاسدة، والنحل الباطلة، وعبادة الأوثان والأصنام، والخضوع للعرافين والكهان، تطهر منها نفوسهم، وتحل محلها عقائد صحيحة وتحل حقة عليها جلال الحسن ونور العلم؟

نعم إن ذلك قد كان، وفي أقل من قرن من الزمان. وكان على يد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي. وهذه هي العجيبة الأخرى، فهل كان يدور بخلد أحد أن هذا اليتيم الذي فقد أبويه، وخرج إلى هذه الدنيا دون معين يعينه، ولا ناصر ينصره، لم يتعلم العلم ولم تثقفه جامعة، يقوم بهذا العمل العظيم ويأتي بهذا الأمر الجسيم؟

هذه حكمة الله وهذا قضاؤه، وهو أعلم حيث يجعل رسالته: يعلم من يصلح لها من الناس، ويعلم من تكون فيهم من البشر. فليس كل أحد يصلح لها، وليست كل أمة تكون فيها الرسالة، تقوم بأعبائها.

ويجب على مصر وهي في مستهل عهد جديد، تبحث فيه عن أسباب النهوض لتنهض، وعن أسباب العزة لتعز، وأسباب القوة لتقوى، يجب عليها أن تدرس تاريخ صاحب الدعوة الإسلامية، وماذا فعل بالأمة العربية؟ إننا إذا درسنا هذا الدرس وجدنا أسباب نهوض الأمة العربية كثيرة، أهمها أن محمدا هداه الله إلى أن يغرس في قلوبهم الإيمان، ويزينه في قلوبهم، وآمنوا بالله وبأنبيائه ورسله وباليوم الآخر الذي يجزى فيه المرء بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فوصل حياتهم الأخرى بحياتهم الدنيا، وجعلها امتدادا لها.

وأي امرئ لا يستمسك بعمل الخير ليجزى به خيراً، ولا يبتعد عن الشر لئلا يجزى به شراً؟ وأي امرىء يعمل الخير ويتأى عن الشر، لايحب أن يتعجل الجزاء عليه، ويجتاز القنطرة التي تحجزه عن الخير الكثير الذي ينتظره؟ وهذه القنطرة هي الموت.

وبذلك ربى فيهم الضمير الديني الذي يدفع إلى عمل الخير ويبعد عن عمل الشر، وباعد بينهم وبين حب الحياة وكراهية الموت، فكانت اللبنات التي تتكون منها الأمة، لبنات قوية متينة.

ثم رأى أن الأمة العربية أمة أكلها التعصب القبلي والحروب الداخلية، فقد كانت كل قبيلة تعادي الأخرى، وكانت تقوم الحرب بينهما، وتأكلهما أكلا، وتستمر السنين الطوال، فوحّد بينها، وألف بين قلوبها، وأبدلهم من هذه العصبية الضيقة، عصبية أوسع ليست للدم والجنس، وإنما هي للحق والخير، وهي عصبية الإسلام.

وبذلك كوّنهم مجتمعاً قوياً يثبت للحدثان ولا يصدعه الزمان، ثم رباهم تربية قوّت نفوسهم، وأدخلت فيهم العزة والكرامة، فأراهم بحق حقيقة أنفسهم، وهي أنهم خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويؤمنون بالله، وأنهم مخلصو البشرية ومنقذو الإنسانية.

فلا عجب بعد ذلك أن تنساب هذه الأمة ـ الفتية، القوية، المتحابة، المخلصة، المتعاونة ـ على العالم القديم لتخلصه مما هو فيه من ظلم واستبداد، وتبدله بحكامه الغاشمين حكاما عدولا يعدلون في الرعية ويقسمون بالسوية.

ماذا يقف فى سبيلها ؟ إنها مؤمنة متحابة متعاونة ، إنها تبغى رضا الله وفى تخليص العالم رضاه ، وهى قد وهبها الله النور ، وطلب منها أن تنير الطريق للدلجين .

إنها كانت تحارب وهى مقدرة أن تفوز بإحدى الحسنيين : الغلبة والنصر ، أو الشهادة والأجر ، وكانت تتربص بأعدائها أن يصيبهم الله بعذاب من عنده أو بأيديهم .

إنها كانت تؤمن أنها تقوم بأعظم عمل وتؤدى أجل رسالة فى الوجود ، وهى هداية الحيارى من البشر ، ونشر الفضيلة ، ومبادىء الخير والحق .

أما آن لنا أن نستفيد من هدى الرسول فى تربية أمتنا ؟

إن العهد الجديد قد زالت من أمامه العوائق ، فله الحرية والاختيار فى أن يبنى أمته على الأسس التى يختارها .

وأول ما يجب علينا ، اقتداء بنبى الإسلام ، أن نغرس الدين وتقوى اليقين فى نفوس الناشئين ، وذلك بتعميم التعليم الدينى الحق فى المدارس ، وإقامة الشعائر الدينية فيها .

وينبغى أن يلاحظ أنه ربما يعمم التعليم الدينى ولا يأتى بالأثر المطلوب ، لأنه لا يلقى بطريقة تستولى على القلوب ، ولا يعطى لدروسه الإجلال الواجب ، فليتنبه إلى هذا .

ثانيها أنه يجب أن تزول أسباب التفرقة والخلاف ، وأن يعنى بالأخوة الإسلامية فتغرس فى القلوب ، ويعنى بها أكثر مما يعنى بأشياء أخرى أقل منها أثراً .

ثالثها أن نربى أمتنا على الشعور بالكرامة والعزة ، بنشر الصفحات الناصعة من تاريخ رجالنا فى العلم والحرب والأخلاق ، وأن يلغى هذا البرنامج الذى كان يهدف إلى إضعاف نفسية الأمة ، والإيمان بالأمم الأخرى .

وإنى أرجو إذا أخذ بهذا الإصلاح ، أن تعيد الأمة مجدها ، وتقطع هذه الحلقات الصدئة ، وتتصل بتلك السلسلة الذهبية من آبائنا الغر الميامين .

محمد عرفه
عضو جماعة كبار العلماء

الأدب خير المواريث

روى الترمذى فى سننه عن سعيد بن العاص أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما نحل والد ولداً من نحلة ، أفضل من أدب حسن »

الإنسانية بين النظام المحمدي والنظام الإسرائيلي

يحتفل المسلمون في هذا الشهر بذكرى المولد المحمدي العظيم الأثر، الجسيم الخطر، الذي شهدت الإنسانية طليعة معجزاته قبل أربعة عشر قرناً، ويوشك أن تشهد نماذج أخرى من نوعها لو عرف المسلمون رسالتهم، واستعدوا للاضطلاع بها في أنفسهم، وإبلاغها لذويهم وللناس.

في مثل هذا الشهر من العام الماضي لم يكن يخطر على بال أحد في مصر، ولا في غير مصر، أن الذي حدث بين ظهرانينا في أربعة الأشهر الأخيرة، يمكن أن يحدث في جيلنا أو في الجيل الذي بعده. والذين يفكرون تفكيراً عميقاً، وينظرون نظراً بعيداً، يحسبون أنهم في هذه الأشهر الأربعة في منام: لأنهم كانوا يرون — إلى الأمس القريب — أن الباشويات والبكويات هي كل شيء في مصر، ثم صارت لا شيء! وكانوا يرون أن بغي القوة على الضعف، والثروة على الفقر، هو الأمر الطبيعي المألوف في مصر، وما لبث هذا البغي أن أنكب على وجهه في الأرض ذليلاً حقيراً كأن لم يكن بالأمس! وكانوا يرون للرذيلة دولة وأبطالاً، ومعاقل وحصوناً، وأسواقاً وصيارفة وتجاراً، بل كانوا يرون لها — بعيونهم المسحورة — بهاء وجمالاً، وخاطبين ومتزلفين، بل كان من أنصاف الفضلاء من يودون لو يبتغون الوسيلة إلى أولئك الأبطال والصيارفة والتجار، ويسمونهم بغير أسمائهم، على زعم أن العيش لا ينال إلا بذلك. وبين عشية وضحاها جعل الله عالي ذلك النظام سافله، ومحا آية الليل بآية النهار، وصار أبطاله ووسطاؤه إلى المكان اللائق بهم.

إن هذا الانقلاب أكبر من أن يكون من عمل البشر. إنه من عمل الله. وقد مكن الله لهذا الأمر العجيب أن يتم، لأن نفحة من نفحات السنن والأنظمة والمبادىء التي جاء بها صاحب ذكرى ربيع الأول، كانت تهب على قلوب عدد قليل من أبناء أمته، فاندفع شراعهم مع نسماتها، وحركوا دفة سفينتهم على ما يرونه من اتجاه إبرتها المغناطيسية، وأسلموا قيادهم لما اقتنعوا به من أنظمتها الإلهية، فكافأهم الله بما أتمه لمصر على أيديهم، وإنه لأمر — بحول الله وقوته — عظيم.

لقد كان أمام مصر قبل أربعة أشهر ثلاثة أنظمة:

أحدها «نظام الذئاب»، الذي كنا نعيش فيه إلى اليوم الرابع من ذي القعدة ١٣٧١هـ (٢٦ يوليو ١٩٥٢م)، فكان الأخ الشقيق ينهش أخاه لأمه وأبيه، وهو يقول له: يا أخي!

وكان الرفيق يكيد لرفيقه ويناديه يا حبيبي ! وكان الزميل يتمنى الشر لزميله ، ويدأب على قطع موارد الخير عنه ما استطاع ، حتى إذا لقيه استقبله معانقاً ، وقبل خديه من يمين وشمال ، وقد يكون هؤلاء جميعاً — في الأصل — من أهل المعادن الطيبة ، ومعذرتهم إلى ضمائرهم فيما يصنعون ، أن ضرورات العيش ، والنظام القائم في ذلك المجتمع ، يقضيان عليهم بأن يكونوا هكذا ليضمنوا لأنفسهم الحياة والبقاء . . .

والنظام الثاني - هو « النظام الإسرائيلي » ، الذي أملاه اليهود على الغرب ، وأغروه به ، أو جعلوه منه أمام أمر واقع ، أو عدلوه له ، أو توصل غيرهم إلى بعض مبادئه فوجد اليهود تلك المبادىء داخلة في برنامجهم ، فأيدوها وروجوها ، وفسروها ونشروها ، حتى صارت من صلب ذلك النظام المعمول به في الغرب ، والذي أخذنا نقتبسه عنه منذ نحو مائة سنة ، ففشي دواوين حكمنا ، وأسواق تجارتنا ، وساد في مجامعنا ، وسابق نساؤنا رجالنا إليه في الأزياء والآداب والمعاشرة ، حتى آمنا به ، وكفرنا بما سواه ، فأصبح الرجل المستقيم منا هو الذي يمدحه الناس بأنه ملتزم لذلك النظام وغير مخل بشيء من أصوله أو فروعه أو آدابه .

إن اليهود — من ألفي سنة — منبثون في بلاد الناس ، وقد تقدموا ونجحوا بأموالهم ونشاطهم وذكائهم وبشاشتهم ولين عريكتهم وإقناعهم المتعاملين معهم بأن من مصلحتهم أن يتعاملوا معهم ، وبهذه الوسائل استطاعوا أن يمذقوا ماهم العسكر بلبن الناس ، وأن يشوبوا ويربوا كما يشاءون ، ففي المجتمع أملوا على الناس أوضاعاً ومذاهب : أولها في الماسونية وعلاماتها وطقوسها وهيكلها ، وآخرها في الشيوعية ومبادئها وغاياتها . وفي التجارة والاقتصاد والمال ، هم مخترعو البنك والكمبيالة والأسهم ونظام الفوائد ، وهم المتفننون في الأزياء وتوافه الغش في زينة النساء . وهذه الانتخابات في كل بلاد العالم ، وآخرها انتخابات أمريكا للرئاسة ، التي كانت في هذا الشهر لإيزنهاور ، وكانت قبله لترومان ، وقبلهما لروزفلت ، فإن الأشباح التي رأيناها ظاهرة أمامنا ، كانت اليهود . وكانت أموالهم وصحفهم وشركات أخبارهم وسائر وسائلهم من وراء كل شبح منها إما معه وإما عليه .

إن النظام اليهودي قائم على « تبادل المنفعة » ، وافق هذا التبادل الفضيلة أم خالفها . والحق عندهم هو الذي يمشي مع القانون ولا تعاقب المحاكم عليه ، ولا يبالون بعد ذلك أن يكون هو الحق في نفس الأمر أم لا . واليهودي إذا عاملك قد يلتزم أن يكون أميناً في معاملاتك ، لا لأن الأمانة فضيلة في نفسها ، بل لأجل أن تقابله عليها بمثلها ، ومرافق الخير التي يقيمونها ، كالجمعيات الخيرية والمستشفيات ، إنما يقيمونها على أساس من المصلحة الذاتية والطائفية ، فلا يعملون الخير إلا لثمرته المادية التي يتوقعونها ، أو لدفع أذى كان

يكون عليهم أكبر مما يرزءون فيما يصيب الواحد منهم من المساهمة فى عمل الخير .

هذه المبادىء التى وضعها اليهود ، وشاع العمل بها فى الغرب ، هى التى كنا نقتبسها . وكان المثقفون فى الغرب من أبنائنا يرونها سائدة فى ذلك المجتمع ، فإذا انقلبوا إلى وطنهم ، ورأوا النظام الشاذ السائد فيه والذى سميناه « نظام الذئاب » ، ظنوا أن هـــذا النظام هو نظامنا الطبيعى ، وهم معذورون إذا وصموه باسم الرذيلة ووسموا نظام الغرب بميسم الفضيلة ، وكانوا بعد أن يندمجوا فى مجتمعنا ويتبوءوا فيه المراكز اللائقة بشهاداتهم ومؤهلاتهم يقاومون نظامنا الشاذ أياما أو أشهراً ، ثم يألفونه ويتذوقون بحلاوته ، إلى أن يكونوا من أئمته وأقطابه . وهذا ما كانت عليه الحال عندنا إلى ما قبل أربعة أشهر ، وذلك ما عليه الغرب فى نظام « المصلحة المتبادلة » حتى يومنا هذا .

****

إن صاحب ذكرى ربيع الأول ، صلوات الله وسلامه عليه ، يبرأ من نظام الذئاب الذى كنا مندفعين فيه . وإن الله عز وجل ، الذى بعث محمداً ﷺ بالحق المحض والخير من حيث هو خير ، كان ساخطاً على نظامنا وأخلاقنا وكل ما كنا فيه ، ولذلك لما اصطدمت دولنا السبع بحفنة من بنى إسرائيل ، فى بقعة ضيقة من الأرض ، قد تكون أصغر دولنا وهى شرق الأردن أوسع منها وأعظم ، انتهينا معهم إلى النتيجة التى رأيناها ورآها الناس . وقد يعتذر بعضنا بأن الحفنة من بنى إسرائيل التى اصطدمنا بها ، كانت مؤيدة بآخرين من ورائها ؛ ولو فكروا ، لحكموا بأن تأييد الغير لها حجة على أن ما كنا فيه ، كان شراً مما كانت هى فيه ، ولذلك نالت من تأييد الآخرين مالم نستطع أن نناله .

****

هذه إشارة خاطفة إلى النظام الذى كنا عليه إلى ما قبل أربعة أشهر ، وإلى النظام الإسرائيلى الشائع الآن فى أوربا وأمريكا . وإن الدنيا اليوم على أبواب حرب عالمية ثالثة ، تهيأت أسبابها كاملة من اليوم الذى انتهت فيه الحرب العالمية الثانية ، ولا يمنع ذوى الشأن فيها عن إيقاد نارها ، إلا الأوجاع والأوصاب التى تحسها شعوبهم من جراحات الحربين الماضيتين ، وأمل كل فريق من الفريقين أن يكون الوقت من أسلحتهم ليزيدوا فيه أسلحتهم ، فيتقدموا للحرب الثالثة بعدة أكمل ، واختراعات يمتازون بها على الآخرين . وسواء وقعت الحرب المنتظرة فى السنة القادمة أو بعد سنوات ، فإنها آتية على كل حال ، وكل آت قريب . ومتى اندلع لهيبها ، فإنها لا تنتهى إلا بتحطيم المنتصر وسحق المنكسر ، ويومئذ تكون الدنيا أمام أحد النظامين : الاتجاه من جديد إلى النظام المحمدى ، وفى ذلك نجاة الإنسانية كلها ،

أو استمرار الغرب ومقلديه فى المضى مع النظام الإسرائيلى ، استعداداً لحرب عالمية رابعة ، ولو بعد عشرات السنين . وقد عرفنا النظام الإسرائيلى إجمالا على قدر ما تحتمله إشارة خاطفة فى مقال . ولكن ما هو النظام المحمدى ؟ هذا ما أردت تذكير المسلمين به فى ذكرى صاحب هذه الذكرى السنوية ، صلوات الله وسلامه عليه .

إن النظام المحمدى ينظر إلى الحق من حيث هو حق ، خالصاً من كل ما قد يشوبه أو يخالفه ، وإلى الخير من حيث هو خير ، مجرداً من كل طارىء عليه . وإذا كان النظام الإسرائيلى المعمول به الآن فى الغرب قائماً على مبدإ « المنفعة المتقابلة » فإن النظام الإسلامى قائم على مبدإ « الإيثار المتقابل » . فالشريكان فى النظام الإسرائيلى يحرص كل منهما على نصيبه كاملا لا يتسامح فى دانق منه ، فإذا كان نصيبه خمسين فى المائة استوفاها بحذافيرها . وفى النظام المحمدى يوطن كل من الشريكين نفسه على الرضا بالتسعة والأربعين من الخمسين ليبرىء ذمته من شبهة الحيف أو الحرام ، ولتطيب نفس شريكه بهذه القسمة فتدوم المحبة بينهما ، وتتسع دائرة التعاون ، فتشيع البركة فى عملهما . ومن الأمثلة على ما بين النظامين من فروق ، أن الدولة إذا سنت قانونا لأجور المساكن فى حالة الحرب — مثلا — فمنعت من زيادتها على ما كانت عليه قبل الحرب ، على اعتبار أن أصحاب العقار أوسع حالا وأغنى عن الفضول من مستأجريها ، فإذا كان فى مالكى العقار أسرة فقيرة ، لا مورد لها تعيش منه إلا أجرة عقارها ، ثم ارتفعت تكاليف الحياة بسبب الحرب فإن مستأجر عقارها إذا كان أوسع حالا من تلك الأسرة وكان من العاملين بالنظام الإسرائيلى ، فإنه يصر على الاستفادة من قانون منع الزيادة فى أجور المساكن ، ويحرم تلك الأسرة الفقيرة صاحبة العقار من زيادة الأجرة التى كانت ستحصل عليها لولا ذلك القانون ، ولا يعذبه ضميره عند ما يراها تتضور من ألم الحاجة . أما إذا كان من العاملين بالنظام المحمدى فإنه لا يتقيد بما أباحه له قانون منع الزيادة فى أجور المساكن ، فيلاحظ أن الحكمة فى هذا القانون أن يحتمل الغنى بعض أعباء الذين هم أقل منه غنى ، فيطبق هذه القاعدة مع مالكى العقار الذى يسكنه ويزيدهم فى الأجر بنسبة الزيادة فى الغلاء بسبب الحرب متجاوزاً عن الامتياز الممنوح له من قانون منع الزيادة فى أجور المساكن .

إن جميع أنظمة الغرب التى كان لليهود إصبع فى وضعها أو فى تعديلها أو فى تفسيرها ونشرها ، قد وضعت إما لمصلحة أصحاب رءوس الأموال ، أو لمصلحة طائفة أخرى من أهل القوة والتأثير ، أو لترويج نزعة من النزعات التى يرتاح إليها فريق ويسخطها آخرون .

أما النظام المحمدى فإنه فى جميع تفاصيله منتزع من ينبوع العدالة المحضة الخالصة ، ومتمشّ مع نسمات الرحمة ونفحات الرضا ، واعتبار أن القليل الذى يضحى به الإنسان لخير الإنسانية أو بعض بنيها يعوّض عنه بالكثير مما عند الله فى عالم الغيب أو فى حياة الخلود . ونحن نصف هنا من هذا النظام ملامحه وقسمات وجهه ووميض جماله . أما تفاصيل شمائله وبيان جميع نواحيه حتى يكون معلوما كله ، فهذا يحتاج فى بيانه إلى المجلدات ، ولن تترجم عنه تلك المجلدات أبدا ، بدليل أنه لما أطل على الدنيا فى خارج جزيرة العرب عندما مشى الصحابة إلى مصر والشام والعراق وشمال إفريقية ، ثم مشى بعدهم التابعون لهم بإحسان إلى الأندلس وصقلية وجنوب فرنسا وبعض البلاد الإيطالية فى الجناح الغربى ، وإلى ما وراء إيران إلى السند والأفغان والقفقاس حتى بخارى وخيوة وسمرقند وما بعدهن فى الجناح الشرقى ، لم يحملوا معهم تلك المجلدات إلى الناس مفصلا فيها النظام المحمدى ، بل اكتفوا بأن ترجموا عنها بأخلاقهم ومعاملتهم للناس ، ففهمها الناس من طريق أبصارهم لا من طريق أسماعهم ، فكان انتشار هذا النظام بالقدوة والأسوة ، كما تمثله الصحابة بالقدوة والأسوة من معلم الناس الخير صلوات الله وسلامه عليه .

والآن وقد نسخ الله نظام الذئاب فى مصر ، ومسخ أبطاله وتجاره وصيارفته . وحطم حصونه ومعاقله على رءوسهم ، فقد آن لمصر أن ترجع إلى نظامها المحمدى ، وأن تبدأ بذلك من المنزل ، فيتعامل به الأب مع بنيه والأم مع فلذات كبدها والأخ مع إخوته والجار مع جيرانه والأقارب مع ذوى قراباتهم ، والموظف مع الذين لهم عنده مصالح من مواطنيه ، والشريك مع شريكه ، والبائع مع زبائنه ، ومستأجر الأرض مع مالكها ، حتى إذا شاعت أساليب النظام المحمدى فيما بين الناس بمقياس واسع كانت النتيجة الطبيعية المحتمة أن يكون لها أثرها فيما تجدده الدولة من أنظمتها . والسنة الإلهية التى يقررها الاسلام هى أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، والاسلام هو الذى قرر هذه الحقيقة السياسية : « كما تكونوا يول عليكم » ، وقد يحسن الله إلى الأمة بالحكم الصالح والنعمة الطارئة فيكون ذلك منه لها على سبيل الامتحان ، فإن تجاوب صلاحها مع صلاح الحكم دام وتقدم ونما ، وإن لم يتجاوب صلاحها مع صلاحه ، فإنها لا تأمن أن يسلبها الله النعمة إلى أن تستحقها بسيرتها وعملها . وإذا كانت الدنيا قد تغيرت نظرتها لمصر بما صنعه محمد نجيب وأصحابه رضى الله عنهم فى مدة قصيرة من الزمن ، فإن الدنيا ستغبطنا ، وستحاول الأخذ بنظامنا المحمدى ، يوم ترانا نعمل به ويظهر لها أثره فى محبة بعضنا لبعض ، ومودة بعضنا لبعض ،

وتعاون بعضنا مع بعض ، على كل ما يرضى الله عز وجل من صنوف البر ووجوه التقوى .

إن مصرنا هذه — وأقطاراً كثيرة غيرها — لم تكن بلاداً إسلامية قبل أن يترجم الصحابة نظامهم المحمدي للناس بأعمالهم ومعاملاتهم ، فلما ترجموه لهم بأعمالهم الصالحة ومعاملاتهم المستقيمة وأخلاقهم الرضية ونفوسهم المتواضعة الرحيمة ، فهمه المصريون وغيرهم فى عشرات قليلة جداً من السنين وارتضوا هذا النظام مسرورين مغتبطين ، لا فيما يتناوله سلطان الدولة ، فهذا كان ماضيا فيهم على كل حال ، ولكن فيما لا سلطان للدولة عليه فى داخل البيوت وبين الزوج وزوجه والأب وبنيه والشريك مع شريكه والجار مع جيرانه وسائر الناس مع جميع الناس .

كان يقال فيما سلف من عصورنا الطيبة « أن كذبة المنبر بلقاء مشهورة » أى أن الخطيب لا يكذب وهو على رءوس الأشهاد من أعواد المنبر ، لأن الكذب فى هذا المقام لا يلبث أن يشتهر بين الناس ويفتضح أمره . والصحافة اليوم أوسع نطاقا من صدى الصوت يرسله الخطيب من المنبر ، لأنها تعم البلاد وتسير فى البر والبحر والجو . وإنى أرسلها كلمة صادقة إن شاء الله من هذه الصحيفة المباركة التى تصدر عن أقدم معاهد العلم فى الإسلام ، فأقول لإخوانى المسلمين : إن العالم كله على استعداد الآن ليسير فى العشرات القليلة الآتية من السنين إما وراء نظام بنى إسحاق وهم اليهود ، فينغمس فى الشرور التى يتخبط فيها اليوم ، أو وراء نظام سيد بنى إسماعيل — أعنى النظام المحمدى — فينتشل الإنسانية من الوهدة التى هى ساقطة فيها ، وحينئذ تنفس الصعداء من الختل والغدر والرياء والشر . ولكن هذا لن يكون أبدا إلا إذا أسلم المسلمون ، ورجعوا إلى نظامهم المحمدى فى أخلاقهم ومعاملاتهم ، وفى بيوتهم وأسواقهم ، قبل حكوماتهم ومحاكمهم . فإذا فعلوا فإنى لا أقتصر فى بشارتى لهم على أن مصر ستعمل بالنظام المحمدى ، بل أدعى — وأتحدى الدنيا فيما أدعيه — بأن الدنيا كلها ستعرف محمدا وستتخذه إماما لها وستعمل بنظامه ، لأنها لا نجاة لها مما هى فيه إلا به . أما إذا أصر المسلمون على أن يبقوا مسلمين بشهادة الميلاد ، وعلى أن يتكلموا بالإسلام ولا يعملوا به ، فإنهم سيبوءون بإثمهم وإثم الإنسانية كلها ، وسيلقون الله وهم حاملون هذه الأوزار على ظهورهم ، فيحاسبون عليها حساباً عسيرا .

أيها المسلمون ، ضعوا أنفسكم حيث شئتم ، وقديماً قيل : « المرء حيث يضع نفسه » .

محب الدين الخطيب

موهبة النبي ﷺ السياسية

لا يكاد التاريخ يعرف رجلا جمله الله بالكمالات البشرية مثل ما عرف ذلك لنبينا محمد ﷺ ، ولا رجلا تجمعت في سيرته العبقرية من جميع نواحيها مثل ما عرف ذلك له .

وجوانب العظمة في السيرة المحمدية مشرقة خصبة ، تستولى على القلوب بإشراقها ، وعلى العقول بقوتها وخصوبتها . وما السيرة المحمدية إلا كبستان حافل بشتى الثمار الشهية ، والأزاهير الشذية ، لا يكاد الإنسان يهم بقطف ثمرة أو زهرة حتى تنازعه نفسه إلى الأخرى ، ولا يزال في حيرة من أمره حتى يقطف أدناها إليه وأيسرها عليه .

هكذا كان شأنى حينما هممت أن أكتب في ناحية من نواحى العظمة المحمدية ، فقد تسهل لى أن أكتب في عبقرية من عبقرياته ، ألا وهى سياسته الرشيدة الحكيمة التى أخذ بها نفسه وساس بها الناس جميعاً . هذه السياسة التى مبعثها الرحمة والرفق ، ومرماها النظر البعيد العميق ، وأساسها المعرفة الشاملة الدقيقة بطبائع الناس والنفوس البشرية وغرائزها وانفعالاتها ، وصدق الله « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » وإن إنساناً ، بكل ما في الكلمة من معانى الإنسانية ، اختاره الله من خيار البشر ، وتعهده بالرعاية والعناية من يوم ميلاده إلى وفاته ، وأدبه فأحسن تأديبه ، وامتلأ قلبه بإشراقات الوحى وفيوضاته ، لجدير بهذه السياسة النبوية الرشيدة . وقد تجلت باكورة هذه السياسة الحكيمة يوم أن بنت قريش الكعبة المشرفة من حر مالها وأطيبه ، حتى وصلوا إلى موضع الحجر الأسود ، واختلفت القبائل فيمن يكون الواضع له ، وتحركت العصبية ونعرة الجاهلية ، وكادت نيران الحرب تشتعل فتأكل الأخضر واليابس ، لولا أن تداركتهم رحمة الله ، فاتفقوا على أن يحكموا أول داخل من باب بنى شيبة . وشخصت الأبصار ، وتطاولت الأعناق ليروا من الداخل ! فإذا به أمينهم محمد بن عبد الله ، فارتضوه حكما . ورأى السيد الأمين الشرر يتطاير من العيون والأيدى تكاد تأخذ بالسيوف ، فتفتح عقله الكبير عن هذه السياسة الفائقة التى وأدت الفتنة وهى في مهدها ، فبسط ثوبه ووضع عليه الحجر ، ثم دعا رؤساء القبائل وقال : ليأخذ كل رئيس بطرفه ، حتى استووا به إلى حيث يوضع ، فأخذه ووضعه موضعه . وبذلك وقاهم شر فتنة لا يعلم مداها إلا الله .

ومن مظاهر هذه السياسة الحازمة ما حدث فى بيعة العقبة الثانية ، فقد دبرت تحت جنح الليل ، وأشار عليهم النبي بالتكتم الشديد ، حتى لا يفسد أعداؤهم عليهم الخطة ، وكان مما قاله فى هذه الليلة « ليتكلم متكلمكم ولا يطيل الخطبة ، فإن عليكم من المشركين عيناً » وكان لهذه البيعة آثارها البعيدة فى انتشار الإسلام فى المدينة ، وبالتالى فى تسهيل الهجرة إلى المدينة .

ولما هاجر النبي ، صلوات الله وسلامه عليه ، وأصحابه إلى المدينة فعل أمراً عجباً ، ذلك أنه آخى بين المهاجرين والأنصار اثنين اثنين ، وكانت هذه الأخوة الدينية بمنزلة الأخوة فى النسب : بها يتناصرون ويتوارثون ، حتى انتشر الإسلام وكثر المسلمون ، فجعل الله الإرث بالقرابة حيث قال : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين » ، وكان عمله هذا سياسة بارعة موفقة فى توثيق عرى الأخوة والمحبة بين المهاجرين والأنصار ، فيتعاونون ويتراحمون ، ويصيرون قوة لا يستهان بها أمام أعدائهم المجاورين لهم من اليهود .

وإن شئت أن تعرف أروع من ذلك فى باب السياسة المحمدية البصيرة ، فهاك ما حدث فى غزوة بنى المصطلق :

بينما الناس على ماء يستقون ، إذ اقتتل أجير للفاروق عمر بن الخطاب مع رجل جهنى حليف للأنصار ، واستنصر الجهنى بالأنصار ، والأجير بالمهاجرين ، وكادت تقع فتنة أراد أن يشعلها « ابن أبىّ » المنافق ، فقال وعنده زيد بن أرقم ، غلام يافع : أوقد فعلوها ! قد كاثرونا ونافرونا فى بلادنا ، ما مثلنا معهم إلا كما قال الأول « سمن كلبك يأكلك » ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فنقل ابن أرقم مقالة ابن أبىّ إلى النبي ﷺ فقال عمر : « مر به يا رسول الله من يقتله » فقال السيد الحكيم : « فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، ولكن آذن بالرحيل » .

فرحل رسول الله بالجيش فى وقت لم يكن يرحل فيه ، فسار بهم يومهم ذلك حتى أمسى وليلهم حتى أصبح . وصدر يومهم التالى حتى آذتهم الشمس ، فنزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نياماً ، وكان غرض النبي ﷺ أن يشغلهم بالسير عن الحديث فيما وقع ، وبذلك وقى المسلمين من فتنة وخيمة العواقب ، ولما علم عبد الله ابنه [1]

(١) عبد الله بن أبى ، ابن سلول ، كان رأس المنافقين ، وعبد الله بن عبد الله بن أبى كان من خيار المسلمين فكن على بينة من ذلك حتى لا يلتبس الأمر .

ـ وكان من خيار المسلمين ـ بما قال أبوه ، جاء إلى النبي وقال : إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله ابن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلا فمرني وأنا آتيك برأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها أبر بوالده مني ، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس ، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار . ترى ماذا يكون جواب النبي ؟ لقد كان : جواب الحكيم الرؤوف الرحيم بالمؤمنين ، الخبير بطبائع البشر ، فقال ﷺ : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما دام معنا » . ولقد كان لهذه السياسة أثرها البعيد فصار ابن أبيّ المنافق كلما أحدث حدثاً أقبل عليه قومه وأهله يعاتبونه ويعنفونه ويأخذونه مما صنع . وقد أراد النبي ﷺ أن يبين لعمر ، رضي الله عنه ، عمق سياسته المتئدة فقال : « كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي ، لأرعدت له أنوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته » فقال عمر وهو الملهم المحدث « والله لقد علمت ، لأمر رسول الله أعظم بركة من أمري » .

ولما قسم النبي ﷺ غنائم هوازن ، التي أفاء الله بها عليهم من حنين ، أعطى المهاجرين والمؤلفة قلوبهم ، ولم يعط الأنصار ، فوجدوا في أنفسهم أن يعطي رسول الله المؤلفة ولا يعطيهم . فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ جمعهم ووقف بينهم خطيباً فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله : « يا معشر الأنصار ألم آتكم ضلالا فهداكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ » قالوا : بلى . ثم قال رسول الله « ألا تجيبون يا معشر الأنصار » ، قالوا : وما نقول يا رسول الله ، المن لله ولرسوله . قال : والله لو شئتم لقلتم وصدقتم جئتنا طريداً فآويناك ، وعائلا فآسيناك ، وخائفاً فأمناك ، ومخذولا فنصرناك . فقالوا : المن لله ولرسوله . فقال رسول الله ﷺ : أوجدتم في أنفسكم ـ يا معشر الأنصار ـ في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً أسلموا ، ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام ؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير ، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذي نفسي بيده ، لو أن الناس سلكوا شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار ، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا بالله رباً وبرسوله قسما . ثم انصرفوا بعد ما ثلجت صدورهم ورضيت نفوسهم . فهل سمعت في باب الاسترضاء أروع من هذه الخطبة البليغة الجامعة بين الحق والصراحة والرقة والاستعطاف ، وهي مع ذلك لا التواء فيها ولا وعود كاذبة ولا إنكار للجميل ، كما يفعل دهاقين السياسة في هذا العصر .

وهل سمعت فى تهدئة النفوس الثائرة مثل هذه الكلمات الرقاق الصادقة ، التى تضرب على أوتار القلوب وتهز المشاعر وتستولى على الوجدان ؟ وأى سياسى - مهما سمت منزلته - يصل به التواضع إلى تقرير الحقيقة التى فيها هضم النفس ، والإقرار بالفضل لتابعيه ، بهذه الصراحة التى لا تملق فيها ولا مداهنة ؟

ألا إن هذه السياسة الحكيمة المؤيدة من الله ، لن تكون إلا من مثل سيدنا محمد ، الذى وهبه الله عقلا كبيراً ، وقلباً رحيما ، وخلقاً رحيباً ، وفطرة سليمة تسمو عن النظير .

هذا قل من كثر ، مما زخرت به السيرة المحمدية من ألوان السياسة العبقرية . وقد كان خريج هذه السياسة المحمدية الرشيدة : السادة البهاليل أبو بكر وعمر وعلى وخالد وأبو عبيدة والمقداد وأضرابهم من دهاة الحروب وأساطين السياسة ، الذين رفعوا شأن الإسلام ووسعوا رقعته وتركوا ذكراً عاطراً ، لا تزال الدنيا تردده بالإعجاب والإكبار .

محمد محمد أبو شهبة
المدرس بكلية أصول الدين

صناعات أبناء الملوك

روى أبو عمر بن عبد البر فى (بهجة المجالس) أن عبد الملك بن مروان قال يوماً لبنيه : « يا بنى ، لو عدا كم ما أنتم فيه ، ما كنتم تقبلون عليه ؟ » .

فقال الوليد : أما أنا ففارس حرب . وقال سليمان : وأما أنا فكاتب سلطان .

فقال ليزيد : فأنت ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين ما تركا حظاً لمختار .

فقال عبد الملك : فأين أنتم يا بنى من التجارة التى هى أصلكم ونسبكم . قالوا : تلك صناعة لا يفارقها ذل الرغبة والرهبة ، ولا ينجو صاحبها من الدخول فى جملة الدهماء والرعية .

فقال : عليكم إذن بطلب الأدب ، فإن كنتم ملوكا سدتم ، وإن كنتم وسطاً رأستم ، وإن أعوزتكم المعيشة عشتم .

فى الفقه الإسلامى

نشأته - خصائصه

١ – نذكر الآن ، بعد ما عرفنا فى الكلمة السابقة ، أن الصحابة كانوا يختلفون أحيانا فى مسائل الفقه التى لم يرد فيها نص من الكتاب أو السنة ، وإليك بعض المُثُل لهذا الاختلاف :

(ا) كان الصديق ، رضى الله عنه ، يُسَوِّى فى خلافته بين المسلمين فى أعطياتهم ، فلما ذُكر له أن الخير فى التفضيل تبعاً للسابقية فى الإسلام والقدم فى الجهاد ، رد بأنه من أعرف المسلمين بذلك ، ولكنه يدع هذا لله يثيب عليه ، وأما الأعطيات ، فهى للمعاش فالأُسوة فيها خير من الأثرة .

فلما صارت الخلافة للفاروق وجاءت الفتوح بمال كثير ، رأى غير ذلك الرأى ، فلم يُسَوِّ بين من قاتل رسول الله وبين من قاتل معه ، وكان من كلامه فى هذا : « ما أنا فيه [أى فى المال] إلا كأحدكم ، ولكننا على منازلنا من كتاب الله عز وجل وقسمنا من رسول الله ﷺ ، فالرجل وتلاده فى الإسلام ، والرجل وغناؤه فى الإسلام ، والرجل وحاجته فى الإسلام » ، وهكذا ، فضل البعض على البعض فى العطاء تبعاً للأصل الذى ارتضاه [1] .

(ب) وأكبر من هذا الخلاف أثراً فى بناء الدولة ، اختلاف عمر أيضاً وغيره من الصحابة فى قسمة الأرض التى افتتحها المسلمون فى العراق وغيره ، أو تركها بين أصحابها على أن يوضع عليهم الخراج ليكون عُدة للمسلمين طول الزمن ، وكان من رأى عمر رضى الله عنه عدم قسمة الأرض ، ومن رأى آخرين من الصحابة قسمتها بين الفاتحين ، وكل فريق يجد له سنداً من القرآن ، مما جاء من ذلك فى سورة الأنفال وسورة الحشر .

وكان من كلام الفاروق فى ذلك : « كيف بمن يأتى من المسلمين فيجد الأرض قد قسمت

(١) إعلام الموقعين لابن القيم ، ج ١ : ١٨٢ ، تاريخ التشريع للمرحوم الشيخ الخضرى ، ص ١٢٦

ووُرثت عن الآباء ، ما هذا والله برأي ، اكما كان مما أثر عنه : أرأيتم هذه الثغور ، لابد لها من رجال يلزمونها : أرأيتم هذه المدن العظام ، لا بد لها أن تشحن بالجيوش ؛ فمن أين يُعطَى هؤلاء إذا قسمت الأرض والعلوج ؟ ولم يرض الفاروق أن يستبد برأيه ، بل ترك الخلاف لعشرة من الأنصار يحكمون فيه ، فحكموا بأن الرأى الحق رأيه ، واطمأن الصحابة جميعاً لهذا الحكم ورضوا به ، وكان هذا إلهاما من الله ، وتوفيقاً للخير العام فى العاجل والآجل من الزمان .

(ج) ومن الخلافات فى باب الطلاق ، ما كان من عمر حين جعل الطلاق الثلاث بلفظ واحد ثلاثا حقا ، به تبين الزوجة بينونة كبرى ، مع أن الأمر جرى طول عهد الصديق وصدرا من خلافة عمر نفسه على اعتبار ذلك طلقة واحدة رجعية ، لكن الفاروق قال فى هذا : إن الناس قد استعجلوا فى أمر كانت لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم ! فكان أن أمضاه حقاً عليهم ، عقوبة على إسراعهم فى الطلاق . وهو أبغض الحلال إلى الله ، وهنا نجد كثيراً من الصحابة يخالفونه ويذهبون إلى أنه واحدة ، ومنهم علىّ وأبو موسى الأشعرى[1] .

ونحن الآن نعرف أن الأمر جرى بعد عهد عمر على رأيه ، حتى صدر أخيراً فى مصر قانون للمحاكم الشرعية بجعل الطلاق الثلاث بلفظ واحد طلقة واحدة ، علاجا لمشكلة اجتماعية ، بعد أن طغا السيل فى استعمال الطلاق بسبب وبغير سبب .

٢ — وبعد كبار الصحابة طوال عصر الخلفاء الراشدين ، تجىء فترة صغار الصحابة وكبار التابعين ، وتبدأ هذه الفترة بعام ٤١ هـ الذى آلت فيه الخلافة إلى الدولة الأموية ، وتنتهى بعد المائة الأولى بقليل . وقد تميزت هذه الفترة من حياة الفقه بأمور :

(ا) فرقة المسلمين سياسياً إلى خوارج وشيعة وأهل السنة والجماعة ، وكان لذلك أثره الكبير فى الفقه بلا ريب . فإن الخوارج ، وكذلك الشيعة ، لم يكونوا يعتمدون من الأحاديث إلا ما رواه رجالاتهم ، على حين كان يعتمد جمهور المسلمين ما صح عندهم من أحاديث الرسول ، وإن دخل فى أسانيدها بعض رجال الفرق الأخرى .

(ب) انتشار الصحابة وغيرهم من التابعين فى البلاد الإسلامية المختلفة ، وكان منهم من القراء وأهل البصر بالكتاب والسنة وآراء كبار الصحابة فى مسائل الدين والفقه عدد

---

(١) إعلام الموقعين ، ج ٣ : ٢٤ وما بعدها .

كثير . وطبيعى أن يصح من الأحاديث عند البعض مالا يصح عند آخرين ، وذلك لعوامل مختلفة ليس هنا موضع بيانها .

(ح) كثرة الآراء الفقهية والفتاوى فى الواقعات والحوادث المختلفة التى تتطلب أحكاما لها ، وبخاصة وقد وجد المسلمون أنفسهم فى بلاد لها عادات وتقاليد وأعراف غير ما كانوا يعرفون فى الحجاز والبلاد العربية الأصلية ، وكل ذلك يستدعى أن تحدث أقضية وفتاوى للعقل فيها مجال كبير بجانب تلك العادات والأعراف .

(د) وربما كان الشك فى كثير من الأحاديث فى هذه الفترة ، سببا لظهور « الرأى » أو القياس فى الفقه . فإن كثيراً من الورعين ، العلماء بالكتاب والسنة ، حين رأوا شيوع التحديث عن الرسول والكذب عليه أحياناً ، لجأوا فى معرفة الأحكام الشرعية إلى اجتهادهم الخاص فى فهم القرآن والثابت صحته لديهم من الحديث ، فكثر لهذا السبب أيضاً الخلاف فى الأحكام والفتاوى فى الأمر الواحد . وهذا كله ، فضلا عما كان للخوارج والشيعة من آراء وفتاوى خاصة تتبع مذهبهم فى الفقه وأصوله .

(هـ) ظهور نزعتين فى الفقه والتشريع : نزعة أهل الحديث ، ونزعة أهل الرأى والقياس . وقد ظهر تبعاً لذلك ، مفتون من كل من الطائفتين . وقد كان جمهرة أهل الحديث بالحجاز ، وجمهرة أهل الرأى والقياس بالعراق ، ولا عجب فى ذلك . فإن الحجاز مهد السنة وموطن الصحابة الأولين ، والعراق بلد جديد فى الإسلام وبعيد عن موطن السنة ورجالها .

وكان لكل طائفة رئيس هو حامل لوائها ، فرئيس أهل الحديث كان أولا سعيد بن المسيب المتوفى عام ٩٣ هـ ، وزعيم أهل القياس إبراهيم بن يزيد النخعى [1] شيخ حماد بن أبى سليمان الذى يعتبر شيخ أبى حنيفة ، وقد توفى عام ٩٦ هـ .

وقد تفرع فيما بعد ، أصحاب الحديث من الفقهاء إلى مالكية وشافعية وحنابلة ، كما كان منهم الظاهرية أتباع داود بن على ، ثم ابن حزم ، الذين يتمسكون بالظاهر من القرآن والحديث ، ومن يتتبع كتب الفقه يرى بوضوح كثرة الاختلافات بين أهل الحديث وأهل الرأى

(١) نسبة إلى قبيلة كبيرة من مذحج باليمن ، وراجع ابن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان حـ ١ : ع من طبعة بولاق .

والقياس تبعاً لاختلافهم في الأصل الذي يرجع إليه كل من الطائفتين في الفقه ، ولكل وجهة هو موليها [١] .

٣ — جاء بعد هذه الفترة فترة أخرى تعتبر أطول أدوار الفقه عمراً ، وهو دور النضج والكمال ، وقد بدأ هذا الدور في أوائل القرن الثاني واستمر إلى منتصف الرابع ، وفيه بدأ تدوين الفقه ومذاهب الفقه ، وفيه ظهرت المذاهب الكبرى التي لا تزال بحمد الله معروفة ومتبعة في العالم الإسلامي إلى اليوم ، نعني مذاهب : أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل ، رضوان الله عليهم جميعاً . ولهذا الدور من حياة الفقه خصائصه التي تميزه عن الأدوار الأخرى ، وهي :

(ا) قيام الدولة العباسية الذي يعتبر حدثاً ملحوظاً في حياة الفقه والتشريع ، لأنها دولة قامت باسم الدين ، فلا عجب أن يكون لرجالها رعاية ملحوظة بالحياة الدينية بعامة ، وبالفقه والفقهاء بخاصة ، ولا سيما وقد كان من همهم أن تقوم الدولة على قانون مستمد من صميم الفقه الإسلامي .

ومن مظاهر العناية الطيبة بالفقه والفقهاء في هذه المرحلة ، ما نعرفه من إجلال الخلفاء العباسيين لرجال الفقه ، وفي هذا نجد الإمام مالك بن أنس يوجه للرشيد رسالة قوية ، يذكره فيها بما يجب عليه لله وللمسلمين ، كما نجد هذا الخليفة يرسل إليه ابنيه الأمين والمأمون ليسمعا منه بالمسجد حديث الرسول ، مع عامة المسلمين [٢] .

ومن ذلك أيضاً ، نجد الرشيد نفسه يطلب من الإمام أبي يوسف أن يضع له كتاباً يستشهد به في إدارة الدولة ، فيكتب له « كتاب الخراج » المعروف ، وفي مقدمة هذا الكتاب يقول لأقوى سلطان في عصره : « فأقم الحق فيما ولاك الله وقلدك . . . ولا تزغ فتزيغ رعيتك ، وإياك والأمر بالهوى ، والأخذ بالغضب [٣] » إلى آخر ما قال .

لا عجب إذاً ، أن يجد الفقه في هذه الفترة الطيبة من حياته ، تربة صالحة للنمو والكمال ، ويكون من ذلك نشر سنة الرسول وظهور كبار المجاميع فيها ، وكثرة ما زخرت به كتب

---

١ — راجع أعلام الموقعين ج ١ : وما بعدها من طبعة منير ، فقد صور ابن القيم النزاع بين هاتين المدرستين بصورة كبيرة ، وأورد حجج الفريقين وكثيراً من مواضع الخلاف .

٢ — مفتاح السعادة ، ج ٢ : ٨٦ .

(٣) كتاب الخراج ، ص ٢ — ٣ من طبعة بولاق .

الفقه من الأحكام والتفريعات العملية ، وتدوين ذلك كله فى مؤلفات رويت عن الأئمة أنفسهم وكبار أصحابهم وتلاميذهم .

(ب) قوة الحركة العلمية واشتدادها لعوامل عديدة ، وكان من أهم هذه العوامل ترجمة العلوم والفلسفة اليونانية للعربية ، فضلا عما نقل من تراث فارس والروم ، وكان من ضمن ما نقل للعربية ، منطق أرسطو ، والمنطق — كما تعرف — يعين على الوصول للمجهول بطريق القياس .

(ج) وقد كان من كثرة الحديث عن الرسول ، والشك فى الكثير منه ، أن وجدت طائفة حمقاء رفضت السنة جميعها ، أى رفضت الأخذ بها فى الأحكام الفقهية ، زاعمين أن فى القرآن غنية عنها ، ما دام قد نزل و تبياناً لكل شيء . والإمام الشافعى يذكر لنا أقوال هذه الطائفة وما تحتج به لما ذهبت إليه ، ثم يحاجهم ويبين ضلال ما ذهبوا إليه ، وذلك فى كلام قيم يجب الرجوع إليه [1] .

على أن هذا الرأى البين بطلانه ، كان لا بد أن يختنق بفضل رجال الحديث والفقة ، الذين يرون بحق أن السنة أصل أصيل للفقه بعد القرآن ، وإلا لم تكون رسالة الرسول إن لم تكن لبيان ما نزل إليه من الكتاب ! وبخاصة وقد عنى بعض أعلام المسلمين من رجال الحديث أنفسهم بالفحص عن الأحاديث وبيان صحيحها من غيره ، ثم دونوا ما صح عندهم فى مجاميع هى مراجع أساسية للسلمين جميعاً فى الفقه وغيره من العلوم الإسلامية .

كل هذه الخصائص جعلت هذا الدور هو دور ازدهار الفقه والسنة ، ودور تدوين المذاهب المعروفة وتأليف الكتب القيمة فى الفقه ، ثم تلا ذلك ، الدور الأخير وهو دور القيام على المذاهب المعروفة وتقليد أصحابها ، وهو دور لا يزال مستمرا حتى الآن ، وكان منه فى أيامه الأولى ـ مع ذلك ـ ثروة فقهية كبيرة نعتمد عليها حتى اليوم ؟

الحديث موصول

الدكتور محمد يوسف موسى
أستاذ الشريعة الاسلامية بكلية الحقوق بجامعة فؤاد

---

(١) كتاب الأم ، الطبعة الأولى الأميرية ، ج ٧ : ٢٥٠ وما بعدها .

طوائف
بهائية وبكتاشية - ثم جماعة التقريب

١ - أفصحت لجنة الفتوى بالأزهر عن حكم الإسلام فى البهائية، بناء على ماقدم إليها من شأن هذا المذهب، وكذلك أفصح فضيلة مفتى مصر - الشيخ حسنين مخلوف - عن الحكم فى طائفة البكتاشية، بناء على ما استند إليه من التاريخ ومن الشريعة. وقد التقت الفتويان فى شأن الطائفتين عند غاية واضحة، وعرف من لم يكن يعرف، أنهما على غير الحق الصراح، مع فارق بينهما فى العقيدة. فالبهائية - كما نمى إلى لجنة الفتوى - قائمة على نسخ الأديان السماوية السالفة كلها، ثم هى حائرة بعد ذلك بين القول حينا بألوهية زعيمها الأول، والقول حينا آخر بنبوة زعيمها الخلف.

ووسيلتها فى الدعوة إلى مذهبها المتأرجح، لاتخلو غالبا من الإباحة لأمور محظورة، والتحلل من تكاليف مقطوع بثبوتها، ونبذ القيود الكابحة عن الغواية.

ثم هى تسمى ذلك الباطل - دينا - وتكسوه بهذه التسمية ثوبا ريائيا تخادع به البسطاء، وثوب الرياء يشف عما تحته، فإذا تكشف أمرهم سارعوا إلى القول بأنهم مؤمنون بكل شىء جاءت به الأديان، غير أنهم يرون باب الفيض الإلهى لا يزال مفتوحا.

وآخر ما قرأنا عن ذلك مانشره سكرتير حزبهم فى أهرام ٥ من نوفمبر الحالى سنة ١٩٥٢ ردا على فتوى اللجنة، وإن زعمها هو فتوى فضيلة المفتى.

وهذا الرد مهما كان مخففا وملتويا لا يدفع عنهم ما تبرءوا منه، إذ هم لايرضون بالإسلام، ولا يقرون بما جاء به القرآن من أن محمدا - ﷺ - خاتم النبيين.

ولا يزالون على ضلالتهم، فى أن باب الفيض، الوحى، لا يزال مفتوحا، وأن النبوة - بعد أن كانت ألوهية - حاصلة لزعيمهم البهاء. وهكذا من خلطهم المصطنع. وفى هذا الزعم وحده ما يكفى لتصحيح القول بإغراقهم فى الكفر، وإن تنصلوا بالمحاولات الهـزيلة.

٢ - أما البكتاشية، فشرذمة من أتباع الفاطميين، الذين يمتون إلى الإسلام، غير أنهم - الفاطميين - انشقوا على الجماعة الأولى من عهد على وخلافه مع معاوية، رضى الله عنهما، وقد كان تحزبهم ثغرة نفذ منها خصوم الإسلام الذين غاظهم أن تكون له تلك الوحدة المتماسكة، ولم يجدوا وسيلة إلى النيل من قوته أقرب إليهم من التظاهر بالتفانى فى الحب، وفى التشيع لآل البيت من ذرية على خاصة.

وسواء أكان التشيع فى أصله غيرة صادقة على بيت النبوة ، أم كان حقا أريد به باطل ، فقد استتر به من يعنيهم اقتلاع شجرة النبوة من أصلها ، واستطاعوا ان يفتحوا على الإسلام أبواب الفتنة ، وأن يشقوا وحدة المسلمين فى ألوان شتى من المذاهب والنحل ، مما يفيض فى استيعابه وبيان خطره أهل الذكر من المؤمنين والفقهاء .

ومهما يكن من تقدير الشيعة للتاريخ فى قصصه عنهم ، فالذى لا شك فيه أن لهم طابعا دينيا خاصا بين جمهرة المسلمين ، وأن لهم مسالك متباينة لا يختلف بعضها عن بعض كما يختلف مجتهد مع مجتهد فى فهم واستدلال ، ومحاولة للوصول إلى الحق جهد المستطاع ، بل تختلف كما يختلف متعصب مسرف مع متعصب مسرف : كل يتهم غيره بالضلال والمروق ، ويزعم أنه وحده الملهم من الله المشمول بالعناية الربانية الموروثة له عن إمامه وزعيمه الذى اختاره ، وكل حزب بما لديهم فرحون .

ونحن نعلم أن الدين يدعو إلى الوحدة ، ويحرص على تكوين الشخصية المعنوية للأمة الإسلامية ، وينصح بأن شخصية الأمة لا تقوم على التفرق ، بل على التضامن والانسجام والتآخى ، وعلى الرجوع والخضوع للقرآن والسنة ، فى كل ما يجد من شأن خاص أو عام ، ويفسح للعقول مجال الفكر المتزن ، والاستمداد من دستور الإسلام ، فى غير التواء ، ولا تسخير للقرآن ، وإخضاعه للنزعات ، وإتباعه للميول ، حتى ليرغب الإسلام إلى أهله فى التكتل ، والتضامن مع أهل الكتاب ، والتعاون معهم فى الشئون المدنية ، والارتباط بهم فى المعاهدات ، والأنساب ، متى كان ذلك التآخى الإنسانى فى غير مساس بالتقاليد الإسلامية .

ومن ذلك ـ وهو جوهر النظام الإسلامى لبناء المجتمع الصالح ـ يتبين أن كل شاذ عن الجماعة ، وكل داع إلى نحلة تباين الأصل ولو قليلا ، وتشق المسلمين ، أو نفرا منهم ، يعتبر منتقضا على الدين فى أساسه ، ونابذا لتوجيهاته ، وليس ينفعه أن يتحمل سببا أو أسبابا يأخذها فى تبرير انحيازه .

ولئن كانت هناك طوائف بين هاتيك الطوائف ، ألين جانبا من غيرها وأقرب إلى تحاشى العصبية المسرفة ، فذلك على أى حال تصدع فى صرح الإسلام ، ولولا أن لهذا الدين قوة ذاتية مستمدة من طبيعته وتعاليمه ، ونقاوته من الزيف ، ومطابقته للفطرة فى اتجاهها الأصح ، لعصفت به تلك المنازعة بين الطوائف المنتمية إليه .

ولكن ، مع أن دعوة السوء توطنت بين صفوف هؤلاء ، ومع أن الطائفية همست بها

فى آذانهم قديما ، ومع أن الإسلام خصوما سافرين يقاومونه ، ويدفعونه ما استطاعوا ، ظل الإسلام يحتمل التخاذل من المحسوبين عليه ، ويحتمل مدافعة المقاومين له ، لأن له مدداً من عند الله ، ولأن فى أمته - والحمد لله - جمهرة عظمى تعتز بصلابتها فى الحق ، وتنحيها عن التشقق ، ورجوعها إلى صراطه المستقيم ، ووقوفها عند المورد العذب : من الكتاب والسنة ، والمأثور عن السلف من أصحاب محمد ، والتابعين منهجهم من الأئمة المعتدلين ، وذلك سبيل المؤمنين ، وسيظل كذلك شأنهم مادام الحق ناهضاً فى رعاية الله ، وما دام الباطل زهوقا وإن تطاول زمنه .

نحن لا نذكى الخصومة بهذا التعريض ، ولا ننفخ فى بوق الفتنة ، ولا نتحكم فى جماعة أن تكون طوع جماعة ، ولكن نقول بنبذ الجنوح إلى تزعيم زعيم ، والتمذهب له بمذهب خاص ، ولا نرضى بالتشاغل عن المصدر الأول فى التشريع الإسلامى ، والتفرغ للأشخاص من تصبهم أئمة ، ونخلع عليهم من المدائح كل باطل ، حتى ندعم تلك الدعاوى المكذوبة بما ليس يثبت من الطرق الصحيحة ، بل ولا من الطرق المعقولة ، ولكنها العصبية المألوفة تعمى وتصم . وكلما قوى الأمل فى نشاط العقلية الإسلامية ، نرى أشياعا لتلك الخلافات يدأبون على تعميم الأول ، ويتغنون بما طرب له قديماً الحانقون على الإسلام فى وحدته وتماسكه وقوته .

٣ - هذا ، ولدينا اليوم فى مصر مظهر لذلك : «جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية» ، نشط فى تكوين هذه الجماعة شيخ شيعى ، من النجف ، يقيم فى مصر لعهد قريب أو بعيد ، وقد استجاب لدعوته ثلة كريمة من رجالات مصر ، ولم يكن يسع مسلماً أن يتخلف عن تلبية الدعوة لتجديد وحدة المسلمين التى هتف بها القرآن أول ما هتف : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » ، « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء » .

جذبتنى هذه الدعوة ، فتشرفت بالعضوية المتواضعة بين أولئك الأمجاد ، فماذا أجدت جماعتنا ، وقد مضى عليها أربع سنوات تقريباً ؟؟

نشطت فى صدر عهدها إلى تعاقب الاجتماعات ، فرة : للتعارف ، واختيار الرئيس ، والوكيل ، والسكرتير الخ . ومرة ثانية : لاستقبال ضيف شرقى مسلم سيزور دارنا ، دار التقريب . وثالثة : لسماع رسائل وردت من جهات إسلامية ، ومن بينها رسالة من النجف - مركز الشيعة - يطلب مرسلوها كلمة تلقى هناك فى الذكرى الموسمية للإمام الحسين بن على رضى الله عنهما ، ثم يقترح علينا فى هذه الجلسة أن تطلب الجماعة إلى الأزهر تدريس الفقه

الشيعى إلى جانب مذاهب أهل السنة ، ويتوارى الاقتراح فى سرعة لأنه قبل أوانه ، كما همس بذلك من همس .

وبعد ذلك توقفت الاجتماعات ، وانحصرت الجهود فى مجلة تصدرها دار التقريب هذه ، وتسميها (رسالة الإسلام) .

وتعنى رسالة الإسلام هذه بنشر مقالات لأهل النجف ، يبثون فيها آراءهم ومعارفهم ، وتلقينهم بيننا ، ولم يكن يتاح لهم ذلك لو لم تكن فى مصر دار تقريب ، ورسالة إسلام ، وأنصار ينتفعون .

وكان بودنا أن تصدق النية ، وتسلم الوسائل من الريبة حتى يكون تقريب بالمعنى الذى هرعنا إلى العمل على تحقيقه ، ولكن تبين من أمارات عدة ، أننا مسوقون إلى تأييد النجف فى مزاعمها ، وفى الجنوح إلى مذهبها ، دون أن يتقدموا إلينا – ولو قليلا – نحو الغرض الذى زعموا ، بل ظهر أن التقريب فى نظر القائمين على ، رسالة الإسلام ، أوسع مما فهمنا ، حتى أصبح تقريبا بين الإسلام نفسه وبين الأديان الأخرى بإسقاط الفوارق ، والتسوية بين الجميع فى الحكم ، متى كان العمل الدنيوى طيباً (هكذا قرأنا لهم يوما ما ، من عهد قريب) .

رابنى هذا التلاعب فى استغلال جماعة التقريب – وإن كان غيرى لا يزال حسن الظن بها ، وباقياً فيها ، ورابنى – ويجب أن يرتاب معى كل عضو بريء – أنها تنفق عن سعة ، دون أن نعرف لها مورداً من المال ، ودون أن يطلب منا دفع اشتراكات تنفق على دار أنيقة ، بالزمالك فى القاهرة فيها أثاث فاخر ، وفيها أدوات قيمة ، وتنفق على مجلتها ، فتكافىء القائمين عليها ، وتكافىء الكاتبين فيها ، وتتأنق فى طبع أعدادها وتغليف ما يطبع ، إلى غير ذلك مما يحتاج إلى مورد فياض . . فمن أين ذلك ؟؟؟! وعلى حساب من يا ترى ؟؟؟!

ثم هل صحيح أن علماء النجف مستعدون للتلاقى مع غيرهم لتعود وحدة المسلمين ، أو يتحقق شيء من التقريب ؟؟

هل يمكنهم أن يحيدوا عن القول بأن لهم أئمة معدودين باثنى عشر – مثلا – وأن هؤلاء هم وحدهم المهديون ، ومن بينهم الإمام المنتظر ، المختفى حيث يعلم الله وإلى أن يشاء الله ؟؟ .

وهل هؤلاء الأئمة : من ظهر منهم ، ومن اختفى ، معصومون كعصمة الأنبياء : وإن لم يكونوا أنبياء ؟؟ .

وهل الوصية لعلى أمر معقول ، فضلا عن صحته واعتباره من أصول الدين ؟ وهل زواج المتعة قابل للتفاهم معهم فى صحته أو بطلانه وهم يستطيبونه وإن خالفوا ، وهل سب الصحابة والتنكر لأشياخ الصحابة أمر يرتضيه أدب الإسلام ، وتسمح به تعاليم النبي ﷺ ويتفق مع ما صح عنه ﷺ من التنويه بفضلهم ؟؟ أمور ليست جديدة ، والكلام فيها ليس مستحدثا ، والأمل فى تصحيحها لا مطمع فيه ، ولكن كلفت نفسى ذكرها ، وكلفت القارىء قراءتها ، لتحديد موقفنا من جماعة التقريب فيما هى توهمنا بالعمل على تذليله ، ثم هى فى الوقت نفسه تدب فى خطاها إلى الأخذ بها ، أو على الأقل هى تقود الناس إلى حيرة واضطراب بين ما يعرفون من طرق العلم الصحيحة ، وبين ما يقرءون لجماعة التقريب ، أو لغيرها من الجماعات المنبثة بأسماء مختلفة ! فى جهات متعددة .

وبعد : فما وراءك يا عصام ؟!؟

لقد أبى الأزهر من أول أمره أن يكون وطنا للتشيع ، وأبت مصر من قديم أن تكون صومعة تفرخ فيها النحل الباطلة كالبهائية ، والنحل المدخولة كالبكتاشية وما يشا كلها ، فما بالها تطمئن إلى تركيز دعوات الفرقة فيها على مقربة من الأزهر ، وهو المهيمن على التوجيه الديني ، وهو المرجع المأخوذ عنه فى اطمئنان ؟؟

أخشى أن يطول الزمن فيصبح التقريب من الأثر ما أصبح البكتاشية وأمثال البكتاشية وتتجدد بيننا دسائس دينية ، أو دسائس مذهبية ، كما تتحرك دسائس البهائية فى ظل السكوت عنها ، والتساهل فى شأنها ، والناس يحسون فى أطارف مصر بنشاط المركز البهائى بالقاهرة فى بث دعايته ، فإن يكن عذر مصر فيما مضى أنها لم تكن طليقة اليد فى تدبير أمرها ، وتطهير رقعتها ، ممن لا يتحرجون أن يحتموا بدول أخرى ، فعليها أن تدرك اليوم ما فاتها بالأمس ، ولتذكر مصر وعلماؤها أنها بلد القرآن حفظا ، ودراسة ، وصيانة ، وأنها بلد الأزهر ، فما يليق بها أن تدع هذه الطفيليات تتراكم حول هذا المصباح الوضاء .

ولا يصدنا عن ذلك أن يقال : حرية العقيدة مصونة فى الدستور ، فإنما يعنى الدستور حرية العقيدة المعترف بها فى الديار لأهل الكتاب ، أما النزعات الهدامة الغريبة عنا ، والدعوات الشاذة المفرقة للجماعة على حساب الدين ، فباطل كله ، ودستور مصر يجب ألا يحمى الأباطيل ، وألا يحتضن المفسدين .

عبد اللطيف محمد السبكى
عضو جماعة كبار العلماء

نظام الإسلام السياسي

تحت هـذا العنوان كتب الأستاذ محمود اللبابيدى الحلبي مقالا في مجلة (رسالة الإسلام) التي تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية وذلك في العدد الصادر في المحرم سنة ١٣٧٢ هـ أكتوبر سنة ١٩٥٢ والبحث جليل والمقال ضاف يشهد لكاتبه بطول النفس وسعة الاطلاع ، وقد استطاع فيه بنشاطه الذهني وقوة تخريجه أن يوفق إلى حد ما بين نظريتين أشار إليهما في مقاله وادعى أن كلا من القائلين بهما لو تعمق في دراسة الإسلام لا لتقى مع صاحبه ولم يختلفا .

الأولى : تقول : إن الإسلام رسالة لا حكم ، ودين لا دولة ، وهى تتمثل في كتابي الأستاذين على عبد الرازق ، الإسلام وأصول الحكم ، ومحمد خالد ، من هنا نبدأ » .

والثانية : تقول : إن الاسلام نزع جميع السلطات من البشر وجعل الحكم لله في الأمر كله .

وقال في التوفيق : إن الفريق الذى نزع الحكم عن الإسلام نظر إلى ما صار إليه المسلمون من الركود والخمول وفساد الحال ، فظن أن الداء في الحكومة التي مزجت بين الدين والسياسة ، فنصب نفسه محاربا لهذا النوع .

وأما الفريق الذى يرى أن الاسلام دين الحكم والتشريع في كل ما يلابس شئون الحياة ، فإنه نظر إلى ما فيه المسلمون من الضعف وفقد الثقة بالنفس ، حتى صاروا يتعلقون بكل نظام سياسى مهما كان متعارضا مع نظام الإسلام ، فيقولون إن الإسلام ديمقراطى أو اشتراكى أو شيوعى ، فأراد أن يكافح هذه النزعة من الاستخذاء ، وقام بدراسة سطحية لبعض النصوص .

وقد تحامل على هذا الفريق ، وهو على الحق عند التحقيق ، لأنه نتيجة تعمق في نصوص الإسلام ، لا نتيجة دراسة سطحية . فالاسلام موجه للناس في كل ما يتعلق بشئونهم ، مهيمن على جميعها ، لم يترك شيئا إلا بينه تفصيلا أو إجمالا ، وترك للراسخين في العلم الاجتهاد على ضوء قواعده لا يخرج عنها عمل ما ولا يشذ عن أحكامه تصرف ، وقد انتهى من تعقيبه على هذا الرأى بأن رمى أصحابه بأنهم ظنوا أن الدواء في إحاطة الشريعة الإسلامية بأسوار من الحماية تقيها شر التعديل والتحوير . وكان في غنى عن أن يسوق هذه العبارة التي تدل على قلة تقديره للإسلام . ولقد ردد معناها وبعض ألفاظها في صورة أخرى . وتورط في سياقتها

فكان قوله حشوا مفسدا كما سأبين للقارئ الكريم بعد أن أشير إلى ما تضمنه المقال بعد ذلك من بحوث، ليكون حديثى تصويرا للمقال كله . ولأكون قد أجملت فى سمينه وغثه وإن تكن الحسنات مذهبة للسيئات فى الحق أن سيئات هذا المقال أفظع من أن تغطى على عوارها حسنة ، وعند الله سبحانه التوفيق والهداية .

قام الأستاذ بعد ذلك بدراسة وجيزة كما يقول للنظرية السياسية فى الإسلام فى خطوطها الرئيسية ووزعها على مباحث أربعة :

(١) هل للإسلام نظرية سياسية ؟

(٢) ما مصدر السلطة السياسية فى الإسلام ؟

(٣) هل يربط الإسلام بين الدين والسياسة ؟

(٤) إلى أى مدى يربط الإسلام بين الدين والدولة ؟

وأحسن فى البحث الأول استدلالا واستنتاجا ولطف مذهب وصحة رأى ، ونستطيع أن نتصور فكرته فى فقرتين متفرقتين فى هذا البحث :

الأولى قوله : ويقينى أنى بعد هذا أستطيع أن أقرر بكثير من العزيمة والثقة أن الإسلام دولة ، وأن للإسلام نظرية سياسية واضحة المعالم هى نظرية الحكم الدستورى النيابى القائم على حق الترشيح وحق الانتخاب وحق المعارضة .

والثانية قوله : نخلص من كل ذلك للقول بأنه قد ثبت ثبوتاً قطعيا أن للإسلام نظرية سياسية واضحة المعالم ، هى الحكم الشورى المنطوى على حق الترشيح وحق الانتخاب وحق المعارضة ، وقد عرفها المسلمون وطبقوها فى صدر دولتهم تنفيذا للقاعدة الدستورية الواردة فى الآية الثامنة والثلاثين من سورة الشورى « وأمرهم شورى بينهم » .

وذهب فى البحث الثانى إلى أن مصدر السلطة هو القانون الإسلامى وقال : إنه لا يعرف متجرئا تجرأ على إبطال العمل بالكتاب والسنة من الخلفاء والملوك والأمراء والولاة والحكام فى كافة الممالك التى أظلها العرب ، ولكنه كانت تجرى مخالفات وهذه المخالفات لا يمكن أن تبطل عمل القانون . وقال قبل الفراغ من هذا البحث :

فلم يبق والحالة هذه إلا أن نقرر أن حكم القاعدة الدستورية المكتوبة « وأمرهم شورى بينهم » ما يزال مستمرا — ثم أخذ بعد ذلك يبين طريق الشورى ويحاول أن يناضل عنها وهى لا تحتمل خلافا من عاقل ، فجاهد فى غير عدو ، وزلت به قدمه كما سأبين لك .

فالفكرة فى ذاتها سليمة ولكنه تطرق فاستطرد إلى غيرها وبالية استطراد فى مفيد، ولكنه كان حشوا مفسدا، ورأيا فائلا، ومذهبا ضالا.

وفى البحث الثالث، يرى أن الإسلام يربط بين الدين والسياسة أقوى رباط ويقول: إن مفهوم الإسلام فى جوهره تحقيق قوله تعالى «اتقوا الله»، والتقوى هى توفير العنصر الأخلاق، وإن السياسة يجب أن تخضع لإطار الدين أى تخضع لمبدأ أخلاق ينفى عنها الظلم والعدوان.

وقال: إن الدين إذن عبارة عن العنصر الأخلاقى. وتحقيق وجوده فى كل مرفق من مرافق الحياة، وهو ما عبرت عنه الكلمة المأثورة «الدين المعاملة»، وأطال فى بيان مزايا الإسلام فى ذلك المقام وفضله على سائر الأديان وأحسن كثيراً.

وفى البحث الرابع قال: إن الجانب الأخلاقى فى الإسلام يقوم على يقظة الضمير الإنسانى تحت مراقبة الله وحده، وجميع العبادات فى الإسلام وسائل لهذا الغرض بالسياسة.

وخلص من ذلك إلى أن ربط الإسلام بين الدولة والدين لا يتعدى ربط الأخلاق وعاد يناقش النظريتين السابقتين باطلاقهما ويدلل لذلك. وانتهى فى فصل المقال وتلخيصه إلى أن للاسلام نظرية سياسية هى أرق أشكال الحكم، وأنه يربط بين الدين والدولة لا على أساس تأسيس حكومة دينية، بل على أساس ربط السياسة بمكارم الأخلاق فى حدود مرنة.

وهذا الكلام يحتمل المناقشة ولكنه قد يُحتمل. فأما ما لا يُحتمل فهو ما أورده فى نهاية البحث الثانى وهو بصدد تحديد الحكم الشورى ثم الاستدلال على الشورى ومناقشة ما يتوهم من خلاف عليها.

وإلى القارىء الكريم العبارة ثم المناقشة. قال:

«وتبعاً لهذه القاعدة المكتوبة فإن مصدر السلطة السياسية يكون فى يد جمعية تشريعية ينتخبها المسلمون بمحض اختيارهم من أهل المشورة فيهم، أى أن الأمة هى مصدر السيادة والسلطان بنص الدستور. أما القول بأن شريعة الإسلام شريعة إلهية فلا تقبل التعديل كغيرها من الشرائع السماوية فأعتقد أن هذا القول لا ينسحب على الإسلام لأن دستوره قد قال بقاعدة النسخ (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها). ولا يتوهمن أحد أن هذه الآية قد انتهى حكمها بوفاة الرسول عليه الصلاة والسلام كما يتبادر إلى ذهن بعضهم، كلا، فإن القرآن قد نص على أن الأمة وحدها هى مصدر السيادة والسلطة، وليس

الله . ثم كان الله هو المشرع ابتداء ، ثم صار التشريع إلى الأمة انتهاء . لأن الله سبحانه هو الذى رد هذه السلطة إلى الأمة حين قال (وأمرهم شورى بينهم) .

وهذا الكلام فاسد لا يعوزه دليل ، ولا يقوم عليه برهان . فهو يرى أن قاعدة الشورى تقتضى أن مصدر السلطة السياسية فى يد جمعية تشريعية إلخ . وليت شعرى متى كان هذا الاستلزام ، ومن قال إن كون الأمر شورى لا يكون إلا على هذا ؟ وهل جهل المسلمون الأولون ذلك يوم كانوا يحكمون على ما أنزل بلا تحريف ولا تزيد ؟ لقد سارت السلطة السياسية منذ عهد محمد ﷺ فلم يلتزم المسلمون فيها ذلك ، وإنما كان الدستور كما ذكره هو نفسه هو حكم الإسلام ، فإذا عم أمر على أمير من الأمراء جمع أقرب الناس من أهل الرأى ، لجمع آرائهم . ولقد كان الواحد منهم يرى الرأى فيرد عليه . فإن وجد الدليل المقنع رجع عما قال ، كما جرى لعمر بن الخطاب حين أراد أن يبطل التغالى فى المهور فاحتجت عليه امرأة بقوله تعالى « وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً » . فرجع عما قال ، وقال الجملة المشهورة : « أخطأ عمر وأصابت امرأة » . وإن لم يجد الدليل المقنع فلا يرجع كما فعل أبو بكر فى قتال مانعى الزكاة ، وحاول عمر أن يرده فلم يستطع ، لأن ذلك شىء كان فى عهد النبى ﷺ فلا بد أن يقاتل دون تحقيقه .

إن هذه الجمعيات التشريعية التى يذكرها نظام مدنى غربى ، فنحن نريد أن نلزم الناس به ، لماذا ؟ قال الأستاذ : لأن الله سبحانه أمر بالشورى . ولكن الشورى شىء أوسع عما قال ، وهى بالإجماع لا تكون إلا فيما أشكل ولم يكن فيه نص من كتاب الله ولا سنة رسول الله . ولكنه يقع فيما أنكر على الناس من التعلق بكل نظام سياسى أجنبى .

ثم زعم - ويا سوء ما زعم - زعم أن شريعة الإسلام تقبل التعديل بخلاف غيرها من الشرائع . وهذا إثم كبير وضلال بين . فإن شريعة الإسلام عامة لكل زمان ومكان من يوم أرسل الله محمداً حتى يرث الأرض ومن عليها « لا تبديل لكلمات الله ذلك الدين القيم » ، قامت أحكام الشريعة فى كل ما يتعلق بشئون الناس من أولها الى آخرها خاصها وعامها تشق طريقها فى الأمة الإسلامية لا يجرؤ أحد على أن يخالف شيئاً منها إلا إذا كان ظالماً مضطهداً وشاذاً مخالفاً ، فكل ما فيها دستور مطرد فى كل مكان ، وممتد الى آخر

الزمان . فأحكام الولايات وجميع السياسات فى داخل البلاد وخارجها ، على ما أمر الله وأنزل . فإن وقع شيء لم ينص عليه أو جزئية لم تقع فى عهد النبي ، ردت الى أولى الأمر من المسلمين ليستنبطوا لها حكما من الأدلة الشرعية المعروفة : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس .

فالجهاد فريضة قائمة بقيوده الشرعية لا يجوز النكوص عنه ولا العدول عن القول بوجوبه . وحماية البلاد الإسلامية واجبة شرعاً ولا يصح فى هذا خلاف ولا تعديل .

والزنا حرام ، والربا حرام ، والخمر حرام . والبيع بأنواعه الشرعية على ما حكم الله ورسوله بلا تغيير ولا تبديل فى شيء من ذلك .

ولو جاز التعديل ، لصح القول بحل الزنا أحياناً كما يقول به بعض المدنيين ، وكما تورطت فيه بلادنا وغيرها على خلاف أحكام المسلمين .

لو جاز التعديل لأبيح شرب الخمر إذا رأته الجمعية التشريعية ، ولصح التعامل بالربا ، ولكان لها أن تغير فى نظام النكاح والطلاق والإرث وما إلى ذلك . وجميع هذه اللوازم بشعة منفية ، والقول بها إلحاد خارج على حكم الملة ، نعوذ بالله من الضلال .

يا هذا قد أكمل الله الدين بما شرع من شرائع خالدة ، وبما وضع من رخص قائمة ، وبما سن من قواعد محكمة ، لايشذ عنها شيء من الوقائع أبداً . ولكن على الناس أن يجتهدوا ويستنبطوا من أدلة الشرع أحكام جميع الوقائع كما تطبق القوانين والدساتير العامة ، وإلا تحقق الحكم بغير ما أنزل الله ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، والظالمون والفاسقون بنص الكتاب الكريم .

فمن أين يقع التعديل والتغيير كما زعمت ؟ إن الشورى لا تملك أن تنحرف عن أحكام الدين الحق ، وإنما هى فيما أشكل أمره ، واختلف وجه النظر فيه ، فهى ترجح وجهة على أخرى ، وتزيد الحاكم معرفة بجميع الأدلة ، والتذكير بالدعائم التى ترتكز عليها الأحكام ولا يقبل فيها قول بغير برهان صحيح ، ودين متبع . قال الله سبحانه وهو أصدق القائلين : « فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » .

شريعة الإسلام تقبل التعديل ؟ ! لقد كبرت كلمة تخرج من فم قائلها ، إن يقول إلا كذبا ، وإنما التعديل للشيء المائل الجائر . وأحكام الإسلام كلها اعتدال وعدل ، ما لجأ إليها فرد أو جماعة إلا كانت قواماً وقصداً ونصفة ومفزعاً ورحمة ، ولا اضطربت مسالك الحياة بأمة فرجعت إلى ميزانها إلا هدأت وسلمت . ولقد طوف بها المسلمون الأولون فى آفاق الأرض يطبقونها فى كل بقعة ويوجهون إليها فى كل أمة حتى أعلنوا عنها بخير دعاية وحببوها إلى الناس فدخلوا فى دين الله أفواجا ، لأن الله سبحانه قد جعل فيها من السعة والقوة والنصفة والرحمة ما يكفل لها ما أعد الله من خلود ودوام إلى يوم الدين .

يجب أن يعلم الناس أن الدين هو الدين ، وأن أحكامه الآن فى السياسة وفى غير السياسة هى ما كان عليه محمد وأصحابه ، وأن يذكروا قول الصادق المصدوق محمد ﷺ : افترقت اليهود والنصارى على اثنين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا واحدة . قيل : من هى يا رسول الله ؟ قال التى على ما أنا عليه وأصحابى ، فمن عدّل فى دين الله – ومعاذ الله أن يقبل دينه تعديلا – ومن غير أو بدل ، فقد خالف ما كان عليه محمد وأصحابه ، وقد شاق الرسول ، واتبع غير سبيل المؤمنين ، فحسبه جهنم وساءت مصيرا .

يجب أن يعلم الناس أن لا حاكم إلا الله فيما أجمع عليه المسلمون ، فإن من قال من الفرق بأن للعقل حكما فسره بأنه يستطيع أن يدرك الحكم فيما لا نص فيه بحسب ما فيه من مصلحة تقتضيه ، لأن أحكام الشرع معللة بالمصالح ودفع المفاسد .

وحتى إن من قال بالقياس من المسلمين منع القياس وهو دليل شرعى عند وجود النص ، مما يدل على أنه لا تبديل لكلمات الله ولا تغيير فى أحكام الله .

ولكن علماء الغرب قالوا إن الدين « يتأقلم » ، فصرنا نقول كما يقولون ، ونحتال للاستدلال لذلك من كلام الله وسنة رسوله . والمسلمون جميعاً منذ بعث محمد ﷺ يشددون النكير على من يخالف شيئاً من الكتاب أو السنة ، ويحاسبون أهل البدع والاختراعات ، ويتحاشون الوقوع فى بعض المستحدثات ، ولا سيما بعد أن حذر من ذلك سيد المسلمين بقوله : « من يعش منكم فسيرى اختلافا ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى : عضوا عليها بالنواجذ . وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ،

وكل ضلالة فى النار » وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » .

وبعد - فهذا قول كان جديراً بعدم الرد عليه لمخالفته ما علم من دين الإسلام بالضرورة . ولكن لما كان فى المقال وجاهة فى بعض البحث وخلابة فى بعض القول ، خشيت أن يضل القارىء عن سبيل الله فيظن أن شريعة الإسلام كما يزعم بعض ضعفاء الدين تقبل التغيير ومسايرة المدنية والفناء فى مقتضياتها المادية . وإباحة الربا والزنا والسفور والاختلاط ونكاح (الكونتراتو) وحظر الطلاق وما إلى ذلك مما يخشى أن يتورط فيه المسلمون فيفقدوا البقية الباقية من هذا الدين .

ثم انظر إلى ما استدل به الكاتب على جواز التبديل بالجمعية التشريعية كما يقول :

إنه يستدل على ذلك بأن فى الشريعة الإسلامية نسخاً ليبرهن على أنه يركب متن العمياء ، ويخبط خبط العشواء . نعم إن فى الشريعة الإسلامية نسخاً كما تقول ، ولكن ليس النسخ إلى جمعية تشريعية كما تزعم ، إنه لا ينسخ أحكام الله إلا الله أو رسوله بوحى منه إذا كان الحديث قطعى الدلالة كالقرآن الكريم . وهل تقول الآية التى استدللت بها إلا ذلك ؟ إن الله سبحانه يقول ، ما ننسخ من آية ، ولا يقول : ما ينسخ المشرعون من آياتنا ، تعالى الله عما تقول !!

أهذا مبلغك من العلم على الاستدلال للجمعيات التشريعية ؟ ما أظن إلا أن هذا القول له خبىء ، إلا أن يكون قضاء على العقل فى ساعات محنته !

أما نحن فنقول إن الجمعيات التشريعية جائزة ، وإن الشورى مشروعة بالآيتين اللتين سقتهما وبدلالة العمل المطرد فى الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وبدلالة المنطق القويم والعقل السليم ، فما ندم من استشار كلما التبس أمر أو فدح عبء وأثقل ، ولا شورى إلا عند اللبس وعند عدم وجود النص .

أما أن تستدل على ذلك بصحة النسخ ، وتسوق الآية الكريمة تزجى بها الباطل وتجوز بها التغيير فى أحكام الله ، فذلك إلحاد فى آيات الله ، وضلال عن قصد السبيل . . .

لقد نص علماء الأصول على أن الإجماع نفسه (وهو دليل شرعى له خطره) ليس من حقه أن ينسخ ، لأنه لا يكون إلا بعد انقراض زمن النسخ .

ثم ماذا ؟ ثم يتمادى الكاتب فى باطله فيزعم أن هذه الآية لم يبق حكمها بوفاة الرسول ! وجعل ذلك توهما ! ووصفه بأنه يتبادر إلى بعض الأذهان ! وهو الحق كما علمت ، فإن الناسخ هو الله ، ولا نسخ أبدا بعد رسول الله ، وإلا ذهب الدين وعاد الناس كما كانوا فى جاهليتهم فلا مدنية مهذبة كما اغترّ بها الجاهلون ، ولا علم رادع كما تشاهد فى أحوال العلم والمدنية من الضلال والعدوان .

ولقد تمادى فى تعاميه عن الحق ، وران على قلبه ما اجترأ على الله والدين والعلم ، فعزز حكم الجمعيات على آيات الله ، ونسخها لكتاب الله ، واطراد ذلك النسخ بأن القرآن نص على أن الأمة وحدها مصدر السلطات . وليت شعرى أين هذا النص ؟

وزعم أن الحكم كان لله إبتداء ثم صار إلى الأمة انتهاء . وكل ما يستدل به على ذلك (وأمرهم شورى بينهم) ! فانظر إلى الإفلاس فى الحجة ، ومنطق التزوير والمهاترة هل آية الشورى هى التى فعلت هذا كله فجعلت الحكم لا بد أن يكون بجمعية تشريعية . وجعلت النسخ جائزا بل واجبا بأقوال الرجال . وأوجبت أن يكون الحكم للأمة وحدها لا لله انتهاء ؟ !

اللهم إنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين . اللهم أنقذ أفكار هذه الأمـــة من سموم الإلحاد وزيغه ، وثبتها بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة يارب العالمين .

محمود النواوى
المفتش بالأزهر

من أمثال العرب

- أتتك بحائن رجلاه .
- البـــلاء موكل بالمنطق .
- الشر خير من شر منه .
- من أحب الحياة ذل .



الحب الالهى

منزلته ـ وسيلته وأسبابه ـ أماراته ـ أدعياء المحبة
أولى الناس بالمحبة ـ ثمرة الحب الإلهى ـ لمحات ولطائف

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « إذا أحب الله عبداً نادى جبريل إن الله يحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل . فينادى جبريل فى أهل السماء : إن الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض » رواه الشيخان (*) .

****

محبة الله لعبده وما يتبعها ، من ولاية الله ونصره له ، ودفاعه عنه ، ومعاداته لمن عاداه ، ومسالمته لمن سالمه ، وإكرامه لمن أكرمه ، ومن إعزاز السماء والأرض له ، حتى لتفرحان به فى حياته ، وتبكيان عليه عند موته ؛ هذه المحبة التى لا محبة فوقها ، وكل محبة دونها منزلة ما أجلها ! حقيقة بأن يتنافس فيها المتنافسون ، ويتسابق إليها المتسابقون ، من العباد المخلصين والأبرار المقربين ؛ إذ كانت هى الغاية القصوى من المقامات ، والذروة العليا من الدرجات ، لا جرم أنها حرام على أرباب الكلام ، وأصحاب الأمانىّ والأحلام ، حلال لأولى العلم والنُّهى ، والعمل والخشية ، من الذين جاهدوا فى الله حق جهاده ، وتوَلّوا الله حق ولايته ، فاجتباهم ربهم ، واصطفاهم لمحبته ، واختصهم برحمته ، يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

غير أنه ـ سبحانه ـ وإن اختص برحمته من يشاء من عباده ، علمنا فى كتابه المبين ، وفيما أوحى إلى رسوله الصادق الأمين ، أن لهذه الدرجة الرفيعة ـ درجة محبته وولايته ـ أسبابا تدل عليها ، ووسائل تهدى إليها ، وأمارات ترشد إلى أهلها ، على تفاوت ما بينهم فيها .

(*) غير أن مسلماً انفرد بذكر الشطر المقابل وهو : « وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول : إنى أبغض فلانا فأبغضه ، فيبغضه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه ، ثم توضع له البغضاء فى الأرض » .

وقد أمرنا الله أن نعمل ونكدح ، آخذين بالأسباب والوسائل لما قضى ـ وله الحجة البالغة ـ من الربط الإلهي الوثيق بين الأسباب ومسبباتها ، والوسائل وغاياتها . . فمن طمع في محبة الله له ورضوانه عليه ، دون أن يأخذ في أسباب هذه المحبة ويسلك سبلها ، فهو إما مخدوع جاهل ، أو مبطل عنيد ، يريد أن يلغي عقله ، ويفسد فطرته ، ويبدل سنة الله في خلقه وشرعه ، « ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

****

وأساس حب الله لعبده وولايته له ، هو حب العبد لربه وإخلاصه له ، وعلى قدر حب العبد وإخلاصه ، يكون حب الله تعالى ومعونته ، وتوفيقه وهدايته . ولا يزال العبد يتدرج في الإخلاص والمحبة ، حتى يكون عالماً ربانياً : لا ينام ولا يقوم ، ولا يحب ولا يبغض ، ولا يفعل ولا يترك ، ولا يتحرك ولا يسكن ، إلا بالله ولله ؛ يتقيه حق تقاته ، ويبلغ الجهد في مرضاته ، ويتوكل عليه حق توكله ، فلا يخشى أحداً غيره ، ولا يرجو أحداً سواه . . وما أجدره حينئذ بمحبة الله له ، وقربه منه ، حتى يكون أقرب إليه من سمعه وبصره ، ويده ورجله ، وما ظنك بعبد أحبه مولاه ، فكفاه وتولاه ، ورضي عنه وأرضاه ؟ أليس مصداق ذلك ما رواه البخاري في الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني [1] لأعيذنه ،

بيّن هذا الحديث الرباني ـ أيّ بيان ـ طريق محبة العبد لربه ، ووسيلته إلى قربه ، وأجلها في امتثال أوامره ، واجتناب محارمه ، والوقوف عند حدوده ، مع تقديم الأصول على الفروع ، والفرائض على النوافل . وقديماً قال العلماء الربانيون : من شغله الفرض عن النفل فهو معذور ، ومن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور . ومثل من يتقرب إلى الله بالنوافل مع تهاونه في الفرائض ، من جهلة المتصوفة وأمثالهم ، كمثل البستاني يأتمنه سيده على بستانه ، فيعمد إلى أشجاره فيسرقها ، ثم يختلس منها بعض ثمارها ، فيقدمها هدية إلى سيده . لا جرم أنه جدير برفض هديته علاوة على غضب مولاه ومقته !

---

(١) روي بالنون وبالباء ، والرواية بالنون أشهر .

أما الذين يزعمون أن محبة الله أثر للعلاقة القلبية ، والصلة الروحية بين العبد وربه ، ولا دخل للعمل فيها ، من الزنادقة والملاحدة ومن جاراهم ـ من أرباب الفلسفة النظرية والشقشقة اللسانية ـ فلا خطاب لنا معهم ، إذ لا أمل لنا فيهم ؛ لأنهم قوم ركبوا رءوسهم ، وأغلقوا قلوبهم ، واتبعوا أهواءهم. فعموا وصموا وضلوا وأضلوا ، «أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله» .

وقد ادعى محبة الله أقوام أقل من هؤلاء تمرداً وعناداً ، فشهر الله فضيحتهم وإفلاسهم ، وأعلن في كتابه العزيز تكذيبهم وبراءته منهم ، فقال وقوله الحق : «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين» ، وقال في إبطال دعوى أهل الكتاب وإفحامهم «وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق» ثم قال جل شأنه في علامات أوليائه الصادقين ، الذين أحبهم كما أحبوه ، ورضى عنهم كما رضوا عنه ، والذين يباهى بهم ملائكته ، ويعز بهم دينه ، ويجعل منهم العوض ، خير العوض ممن ارتد عنه وجحده : «يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين . يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم» .

هذه أربع علامات تضمنتها الآيتان الكريمتان ، ميز الله بها هؤلاء المحبين المخلصين :

الأولى : ذلتهم للمؤمنين وخفض الجناح لهم وإشفاقهم عليهم ، كإشفاق الوالد على ولده ، أو الأخ على أخيه ، أو الطبيب على مريضه ، فليست الذلة هنا ذلة مذمة وضعف ، ولكنها ذلة تواضع وعطف ، وقد أمر الله الأبناء أن يحسنوا إلى الآباء ، «ويخفضوا لهم جناح الذل من الرحمة» ، ووصف النبي ﷺ الكملة من أمته ، بأنهم في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

الثانية : عزتهم على الكافرين وعدم الخضوع لهم ، فلا يتولونهم ولا يمالئونهم ، ولا يتخذون منهم بطانة وأنصاراً ، ولا يتشبهون بهم في شأن من شئونهم ، مما يهين كرامتهم ، أو يضعف عزتهم وسلطانهم «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» «ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا» .

وفي معنى هاتين العلامتين ما وصف الله تعالى به أصحاب نبيه ﷺ فقال : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » .

الثالثة : جهادهم بأنواع الجهاد كافة : بأنفسهم وأموالهم ، وأيديهم وألسنتهم ، لا يألون جهداً ، ولا يدخرون وسعا . وعلى ضروب الجهاد قام الإسلام ، وبني هذا الدين الحنيف ، وعم نور الله في الأرض ، وبالجهاد سبق السابقون من لا يبلغ المجتهدون منا مد أحدهم ولا نصيفه .

الرابعة : صلابتهم في الحق ومضيهم فيه ، لا يخافون لوم اللائمين ، وإن بلغوا من السلطان أو الجاه أمداً بعيداً ؛ لأنهم لا يعملون رغبة في جزاء من الناس أو ثناء ، أو رهبة من مكروه أو بلاء ، وإنما يخشون الله وحده ، فيحقون الحق ويبطلون الباطل ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، رضي الناس أم كانوا ساخطين .

وتقتضي محبة الله سبحانه أن يحب العبد ما يحبه ربه ، ويبغض ما يبغضه ، من الأعمال والعباد جميعاً . وتلك هي العلامة الجامعة للعلامات السابقة وما إليها ، مما هو مبثوث في كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ . ومما ألفته العقول ، وجرت عليه الفطر ، أن المحب يؤثر حبيبه على نفسه ، ثم يتحسس من كل ما يحب الحبيب فيحبه ، ومن كل ما يبغض فيبغضه ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وأولى الناس بالمحبة هو خاتم النبيين ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم ، إذ أخرجنا من الظلمات إلى النور بإذن ربه ، وأحيانا حياة أبدية روحية ، فوق حياتنا العابرة الجسمية ؛ ولذلك كان حبه ﷺ فوق حب الوالدين ، بل كان ركنا من أركان الإيمان ودعامة من دعائمه ، وكان شكره باتباعه واستجابة ندائه والصلاة والسلام عليه ، فوق شكر الوالدين اللذين أمر الله بشكرهما مقرونا بشكره .

وتلي محبته ـ صلوات الله وسلامه عليه وعلى إخوانه النبيين والمرسلين ـ محبة أصحابه والتابعين لهم بإحسان . ومن آثار محبتهم إجلالهم وإحسان الظن بهم ، لحب الله ورسوله إياهم ، وثنائه عليهم ومغفرته لهم . وحسبنا من دواعي الحب والإجلال ، أنهم شهدوا من النور مالم نشهد ، ثم حدثونا ، وعلموا من الكتاب والسنة مالم نكن نعلم لولا أن علمونا ، وكان فضل الله عليهم بالسبق ثم علينا بالاتباع عظيما (*) .

(*) بسطنا القول في فضل الصحابة رضوان الله عليهم ، في الجزأين الأول والثاني من المجلد السابع عشر ، ثم في كتابنا « درجات الناس » .

إذا بلغ العبد هذه المرتبة العلية من محبة الله له، على ما بينا لك آنفا، من مجمل القول ومفصله، فبشره بما بشر الله به أولياءه من حب الملائكة والناس لهم، ورضا الخلق بعد رضا الخالق عنهم، إلى ما يتنعم به سبحانه من غنى النفس، وقرة العين، وطيب الحياة، بلذة الحب وحلاوة المناجاة، مما لو علمه ملوك الدنيا لاشتروه بملكهم ولقاتلوا المحبين عليه.

ولا ينقص من محبة الولى وهيبته ورضا الله والناس عنه، ما يغض به حاقد أو حاسد، أو فاسق أو منافق، فإنه لا وزن لهؤلاء في حب ولا بغض، وما نجا من بلائهم أولياء الرحمن في زمان أو مكان: «ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب»، «وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن».

تلك عاجلة بشرى العباد الصالحين في الدنيا، وأما في الآخرة فقد أعد الله لهم مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، واقرءوا إن شئتم «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون».

* * *

ولا ندع القلم قبل أن ينبه إجمالا - كعادته - على بعض ما انطوى عليه الحديث من لمحات ولطائف:

فمنها: فضل الروح الأمين، والرسول الكريم: جبريل عليه السلام على سائر الملائكة.

ومنها: إثبات حب الله وبغضه، ودعائه ونداله. وهي من صفاته الثابتة له جل شأنه، على الوجه اللائق بجلاله وجماله، نؤمن بها، دون أن نبحث عن كيفيتها وكنهها، كما آمن الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وكما آمن صحابته والراسخون في العلم.

ومنها: أن محبة الناس وقبولهم - ولا سيما الصالحين منهم - من علامات محبة الله عز وجل، وكذلك بغضهم ونفورهم، من علامات بغضه وسخطه! نعوذ بالله منه.

ومنها: وهو ألطفها وأوفاها وأدقها - أنه ليس الشأن أن تحب الله، بل الشأن أن يحبك الله، ولن تظفر بمحبته إلا إذا اتبعت حبيبه ظاهرا وباطنا، واستقمت على طريقته غائبا وشاهدا، لا ترضى منها بدلا، ولا تبغى عنها حولا.

طه محمد الساكت

أمن الخير أن تبنى الأمة على الحزبية

مصر الآن فى مستهل عصر جديد، لها كل الحرية أن تبنى مستقبلها على ضوء تجاربها فى الماضى، لئلا تقع فى الأغلاط التى وقعت فيها، وعلى ضوء هدى الإسلام ونبى الإسلام.

إنها الآن بين أمرين: إما أن تبنى حياتها السياسية على الحزبية والأحزاب، أو تبنيها على الاجتماع والوحدة.

وإن البوادر تدل على أنها تريد أن تبنيها على الحزبية، كما بنيت عليها عند مبدأ حياتنا الدستورية، وقد قال حينئذ ثروت (باشا): إننى أحمد الله إذ صارت لنا أحزاب كالأمم الديموقراطية، فى العالم. وما درى ثروت (باشا) أنه كان يغتبط لأنه قد بذرت فى أمته بذور الفرقة والانقسام، وقد ظللنا طول هذه المدة نقاسى من التحاسد والتباغض، ما لا يزال عالقاً بالأذهان إلى الآن.

إنا قد بلونا الحزبية فى مصر، وبلونا نظام الأحزاب، فجنينا منها شراً مستطيرا.

إنها فرقت الأمة، وقطعتها شيعاً متباغضة، وشراذم متنافرة.

إنها جعلت بأسها بينها شديداً، وأصبح كل مشغولا بصاحبه، يكيد له ويتقى كيده. إن الأحزاب قد فهموا الحكم الحزبى فهماً خاطئاً: فهموا أن معناه أن يعامل المصريون معاملتين مختلفتين، فيولى مناصب الدولة من هم من حزب الحاكم ويقدم لهم خيراتها، ويحرم الآخرون مناصبها وخيراتها. وقد أدرك هذه الظاهرة أحمد شوقى رحمه الله فسجلها فى قوله:

ولينا الحكم حزباً بعد حزب فلم نك محسنين ولا كراما
جعلنا الحكم تولية وعزلا ولم نعد الجزاء والانتقاما

والآن، بعد هذه التجربة الطويلة القاسية تريد أن تغلط الغلطة نفسها وتكرر التجربة، وتبنى حياتنا السياسية على الحزبية.

لقد كان من قبلنا أعذر منا ، فقد بنوا حياة الأمة على الحزبية وهم يجهلون العواقب ، ولم تكن قد سبقت لهم تجربة .

أما نحن فما عذرنا ، وقد لدغنا من الجحر مرة ، فكيف تدخل يدنا فيه لنلدغ منه مرتين ؟

إنهم كانوا أعذر منا ، فقد كان فيمن يوجهون السياسة المصرية ، من يريد لها الفرقة والانقسام ، ويخاف الوحدة والائتلاف ، وكان يجرى على سياسة : « فرق تسد » .

أما نحن فأقل منهم عذرا ، لأنه لم يبق فيمن يوجهون السياسة الآن ، من يريد تفرقة الأمة ، وضرب بعضها ببعض .

إنى أعجب لهذه الأمة تعرف وتنكر : تعرف ما فى الخلاف والحزبية من أضرار فتسعى لتلافيها ، ثم تنكر ما فيها من أضرار فتغفلها . عرفت ما فى الخلاف من أضرار بين عنصرى الأمة ، فحذرته أشد الحذر ، ولا تفتأ توحد بينهما وتسعى فى الوفاق .

وهى محمودة على ذلك كل الحمد ، ولكنها تنكر ما فى الحزبية السياسية من أضرار ، وهى قريبة عهد بجروحها التى لم تندمل ، فتسعى جاهدة إلى تكوين الأحزاب ، لتكون دولة ديمقراطية . باذلة فى ذلك كل الوسع .

إن الذى يدعونا إلى الاستمساك بالحزبية كلمة ذاعت بيننا ، وهى أن الديمقراطية من لوازمها : الحزبية .

ما ذا يمنع أن تنتخب الأمة نوابها وشيوخها ناظرة إلى أشخاصهم وكفاياتهم ، وأن يعين رئيس الدولة وزراءه ، فان حازوا ثقة مجلس النواب بقوا ، وإلا سقطوا .

لتكسب الحياة الدستورية ، ولتكن هناك مسئولية وزارية ، فيكون الوزراء مسئولين أمام مجلس النواب ، ولكن ذلك حقيقة لا خيالا ، ومحوما بعد ذلك بما تريدون .

إن الأحزاب لا ترتجل ارتجالا ، إنما ولدت فى الأمم حين تطورت ووجدت آراء فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية اختلف عليها ، فكل جماعة اتفقت على رأى كونت حزبا . ومن هنا كانت الأحزاب ، أما نحن فقد خلقناها خلقاً ، تشبهاً بالبلاد الديمقراطية ، فلما لم تجد مبادىء تتحزب لها ، تحزبت للأشخاص .

اتركوا الأمة تدخل ميدان السياسة متحدة ، ولا تقهروها على خلق حزبية لم يأت بعد أوانها .

جنبوها النظام الحزبي فهو لا يصلح لها ولا تصلح له، إنها قريبة عهد بالخلافات الدينية، وإن أخص خصائص الخلافات الدينية، أن المخالف يعتقد العصمة في نفسه، والخطأ والضلال في غيره، وأنه على صوابه وهداه يوشك المخالف أن يستزله، وذلك يستدعي البغض والحقد على المخالفين.

جنبوها النظام الحزبي، فالنواب والشيوخ يفهمون الحزبية كما هي في القرية: ظلم واعتساف وكراهية وبغضاء، وهم يطبقونها على الأحزاب السياسية.

جنبوها النظام الحزبي، فقد جربته مدة ثلث قرن من الزمان فذاقت منه الأمرين، وأخرها عن ركب الحضارة زهاء خمسة قرون.

جنبوها النظام الحزبي، فإن التاريخ ينبئنا أن الأمة الإسلامية لم تبلغ ما بلغته من العز والرفعة، حتى ألغى الإسلام عصبيتها وحزبيتها، وجعلها لا تتعصب إلا للإسلام.

فقد كانت الأمة العربية قبل الإسلام أمة قبلية يتعصب كل إلى قبيلته، وكانت لذلك بأسها بينها شديد: تقوم الحرب بين القبيلة والقبيلة، فتمكث الأعوام الطويلة حتى يهلك بعضها بعضا.

وأدى هذا الانقسام في داخل الجزيرة العربية، إلى ضعف أمام الأمم في خارجها فذلوا للأمم المجاورة، وظلوا كذلك حتى جاء الإسلام فأبدلهم بهذه العصبية القبلية الضعيفة، عصبية إسلامية عامة واسعة، وحرم دعوة الجاهلية والعصبية القبلية، وجعل المسلم أخا المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره. وأعلن أن كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه. وخاف أن ينزغ الشيطان بينهم فيعودوا إلى ما كانوا عليه، فقال: «من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا»، وقال: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»، فإذا العرب أمة ذات عز ومنعة قد صارت كتلة واحدة ينحدر عنها السيل ولا يرقى إليها الطير ـ هذا كله بفضل هذا الدواء.

ألا إن الله لم يمن على المسلمين بنعمة أعظم من نعمة تأليف القلوب بعد عداوتها، ونعمة الإخوة الإسلامية بعد العصبية القبلية فقال: «واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا».

ألا إن الله بين لنا ما في الخلاف والانقسام من الضرر، وحذرنا منه أشد التحذير، وقرنه بالخسف والرجم فقال: «قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض».

ألا إنكم لو ربحتم كل شيء، وخسرتم الوحدة، فقد خسرتم كل شيء، ولو خسرتم كل شيء، وربحتم الوحدة، فقد ربحتم كل شيء.

أعمار زائفة

لفضيلة الأستاذ الأكبر السيد محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر خطرات من الشعر تلوح له بين الفينة والفينة فى صور من المعانى المتألقة ، فيرسلها من نفسه على سجيتها : مكتفيا بما يعقبها من راحة وعبرة ورضا .

ومن ذلك قوله مدّ الله فى حياته ، وأدام النفع به :

نقد العمر وفى القلب ارتياعُ وارتجاع العمر ما لا يستطاع
طائرٌ هيض جناحاه فما دأبه إلا جثوم واضطجاع
نمْ يا سائق بالسوق التى تُعرض الأعمار فيها وتباع
علّنى أبتاع عمراً أفعمت منه بالإحسان أعوامٌ وساع (١)

• • •

قيل : هذا عمر مُثْرٍ غمرت ساحه الفيحَ زروع ورباع
قلت : عمرٌ ماؤه السبخُ وكم سعدت فيه عراة وجياع !
فإذا الإمساك يوحى حوله : ما لهذا العمر فى الإحسان باع

• • •

قيل : هذا عمر والٍ كان إن أمر الناس استكانوا وأطاعوا
قلت : عمرٌ كالسماء امتلأت بالنجوم الزهر يعلوها شعاع !
فإذا الإتراف يوحى حوله : هو هذا العمر لهوٌ ورتاع

• • •

قيل : هذا عمر حبر كان فى بيته كتب وفى الكف يراع
قلت : عمر كسحاب غيثه حكمة غراء أو فتوى تذاع !
فإذا الأهواء توحى حوله : حشوُ هذا العمر خبٌ وابتداع (٢)

---

(١) جمع وسيع (٢) الخب : الخداع .

قيل : هذا عمر راع وُضعت ... تحت رعياه عقول وطباع (١)
قلت : عمر يرتجى منه عُلا ... لبنى العلم ورشد واجتماع !
فإذا الخيبة توحى حوله : ... مرّ هذا العمر زهوٌ وخداع

****

قيل : هذا عمر قاض يصر الـ ... حق إذ يعلو دعاء ودفاع
قلت : عمر طالما زالت به ... إحَنٌ بين خصوم ونزاع !
فإذا الرشوة توحى حوله : ... شأن هذا العمر حيف وطماع

****

قيل : هذا عمر أستاذ روى ... ورأى والعلم رأى وسماع
قلت : عمر مثل واد ممرع ... طاب فى مرعاه للناس انتجاع !
فإذا البى ينادى حوله : ... فات هذا العمر غوص واختراع

• • •

قيل : هذا عمر داع للتقى ... يأمر الناس وينهى فيطاع
قلت : عمر كله خير ولم ... يك فى أوقاته وقت مضاع !
فإذا الخسر ينادى حوله : ... فات ذا العمر امتثال وارتداع

• • •

قيل : هذا عمر مندوب لأن ... يشهد الشورى وآراء تشاع
قلت : عمر ينقذ الحق إذا ... هاجم الحق لصوص أو سباع !
فإذا العجز ينادى حوله ... فات هذا العمر نطق واستماع

• • •

قيل : هذا عمر ساع معول ... ضاق عن ترفيه كف صناع (٢)
قلت : عمر حف بالعسر ومن ... يحمل الكَلّ كريم وشجاع (٣)
فإذا السخط ينادى حوله : ... فات هذا العمر صبر واقتناع

• • •

يا رفيقاً طالما أفصح لى ... عن خبايا ، فانجلى عنها القناع
لم لا يعرض فى السوق سوى ... عمر لم يرضه إلا الرعاع ؟
قال : جد الجد ما من عمر ... ناصع الطلعة فى الدنيا يباع

(١) الرعيا الحفظ . (٢) المعول : كثير العيال . والكف الصناع : الماهرة فيما تصنع .
(٣) الكل : العاجز عن العمل .

تسامح أهل السنة

في الرواية عمن يخالفونهم في العقيدة

من سنة الإسلام أن يتسامح أهله فيما بينهم ، ثم في معاملتهم ومعاشرتهم لغيرهم ، ما لم يخرج بهم التسامح إلى إبطال حق ، أو تعطيل حكم ، أو انحراف عن الخير .

وفي الفصل الذي عقدته للتعريف بتاريخ الأمم والملوك للطبري المنشور في الجزء الماضي من مجلة الأزهر (ص ٢١٤) أشرتُ إلى اتساع صدور أئمة السنة – من أمثال أبي جعفر الطبري – لإيراد أخبار المخالفين ، وعددت ذلك من دلائل حريتهم ، وأمانتهم ، ورغبتهم في تمكين قرائهم من أن يطلعوا على كل ما في الباب .

وأحب الآن أن أتعمق في إقامة الدليل على هذا التسامح ، فأضرب الأمثلة على سعة صدور أعلام هذه الأمة من أئمة الحديث النبوي في روايتهم عن المخالفين لهم في العقيدة ، لأني رأيت الكثيرين ممن يكتبون في وصف الفرق والطوائف الإسلامية قد غلب عليهم الظن بأن رجال الحديث أشد فرق المسلمين وطوائفهم تعصبا في الرواية ، وتحرُّزاً من المخالفين لهم ، ونفرة من التلقي عنهم . ولما كان هذا الظن لا يوافق ما كان واقعاً في الحقيقة – لأن الأئمة الأعلام من أهل السنة كانوا في مختلف العصور يعطون كل ذي حق حقه ، ويحترمون الصادق لصدقه والأمين لأمانته وإن انحرف عن جادة الصواب إلى شيء من الهوى في بعض ما يتأوله – لذلك رأيت أن أشير في هذا المقال إلى ما كان عليه أهل الحديث وأئمة السنة من الإنصاف والتسامح في الرواية عمن يخالفونهم في العقيدة ، إذا توفرت فيهم شروط العدالة والحفظ ، ولم يعرفوا بالدعوة لأهوائهم . وهذه المزية في التسامح مع المخالفين لا نجد مثلها عند غير أهل السنة من سائر الفرق .

ونضرب المثل لذلك بجابر بن يزيد بن الحارث الجعفي الكوفي (المتوفى سنة ١٢٨) ، كان من أئمة الشيعة وعلمائهم ، وكان أعلام أهل السنة يعرفون ذلك فيه ولا يرون منه ما يخالف قواعدهم التي قرروها في التعديل ووزنوا الرجال بموازينها ، فكانوا لذلك يعدّلونه ويثنون عليه . فلما شاعت ثقتهم به واطمأن هو لذلك ، برز لهم بما لا يعرفونه في علمهم ،

وادعى أن عنده خمسين ألف حديث من غير الطرق التي توصل عندهم إلى الصدق والحق ، وأخذ يذكر لهم بعضها ، وحينئذ قال فيه سيد الفقهاء وإمام المحدثين أيوب بن أبي تميمة السختياني (٦٦ - ١٣١) : « الآن فهو كذاب » وكان الإمام عامر بن شراحيل الشعبي (١٩ - ١٠٣) قد توسم حقيقة جابر الجعفي وهو لا يزال في شبابه ، وتوقع له هذا المصير من قرائن وأمارات يدركها الناظرون بنور الله ، فقال له : « يا جابر ، لا تموت حتى تكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم » . قال إسماعيل بن أبي خالد البجلي (المتوفى سنة ١٤٦) وهو راوي هذه الكلمة عن الشعبي وكان من تلاميذه ومن أئمة ذلك العصر وأعلامه : فما مضت الأيام والليالي حتى اتهم جابر بالكذب . وروى عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل أن يحيى بن سعيد القطان (المتوفى سنة ١٩٨) ترك حديث جابر . وقال أبو يحيى الحماني سمعت أبا حنيفة (٨٠ - ١٥٠) يقول : « ما رأيت فيمن رأيت أفضل من عطاء ، ولا أكذب من جابر الجعفي : ما أتيته بشيء إلا جاءني فيه بحديث ، وزعم أن عنده كذا وكذا ألف حديث لم يظهرها » . فالذي كان يعرفه الأئمة من تشيع جابر الجعفي لم يمنعهم من قبول أحاديثه قبل أن يظهروا له على الفضائح التي تجرح روايته وتوهن أحاديثه . ولم يكونوا يرون أن التشيع وحده كاف في الجرح والترك ما دام صاحبه مظنة الصدق . حتى إذا افتضح عندهم كذبه حكموا عليه بما ظهر لهم منه ، ووضعوه في الموضع اللائق به .

وعدي بن ثابت[1] بن قيس بن الخطيم الأنصاري الظفري الكوفي (المتوفى سنة ١١٦) كان عالم الشيعة وقاصهم وإمام مسجدهم ، ويقول فيه المسعودي وهو شيعي أيضاً : « ما رأينا أحداً أقول بقول الشيعة من عدي بن ثابت[2] » ، وقال عنه ابن معين « إنه شيعي مفرط » ، وقال عنه الدارقطني « رافضي غال » . ومع ذلك وثقه الدارقطني والإمام أحمد بن حنبل وأحمد العجلي والنسائي ، لأنه - كما قال عنه أبو حاتم الرازي - « صدوق » . ولصدقه استجازوا الرواية عنه مع ما يعلمونه من غلوه في نحلته .

وكنت قد عقدت مقارنة - في تعليق على الكتاب العاشر من (الإكليل في أنساب همدان[3]) - نوهت فيها بسعة صدور أهل السنة - في معرفة أقدار مخالفيهم ، لمناسبة الكلام

---

(١) ويقال أن ثابتاً جده ، وأبوه عدي بن أبان بن ثابت .

(٢) ميزان الاعتدال ٢ : ١٩٣

(٣) ص ١٢٩ — ١٣١

على الحسن بن صالح بن حي الهمداني (١٠٠ — ١٦٨) وكان من أنصار العلويين في ثوراتهم على بني العباس ، وهو معدود من علماء الزيدية الصالحين الأولين ، وفي بيته توارى عيسى ابن زيد بن علي بن الحسين منصرفه من وقعة باخمرى بعد مقتل إبراهيم بن عبد الله بن الحسن في ثورته على أبي جعفر المنصور ، وكان المفروض أن يكون رجال الجرح والتعديل من الشيعة في كتبهم المتداولة أحسن رأياً فيه من رجالنا وأكرم معرفة لمكانته وقدره . ولكن الواقع عكس ذلك . وإنه لما يوجب الفخر لنا أن رجال الجرح والتعديل من سلفنا أحسنوا الثناء على الحسن بن صالح بن حي في أمانته وعلمه ، وفي عبادته وتقواه ، ولم تشفع له عند الشيعة الاثنى عشرية مشاركته لهم في كل ما يشاركهم فيه الزيدية ، ولا سابقته في مؤازرة الثوار من العلويين على الدولة العباسية ، فعده المامقاني في (مقباس الهداية [1]) من أهل المذاهب الفاسدة ، وقال في (تنقيح المقال [2]) : « وقد ضعف الرجل في (الوجيزة) وهو في محله » . فانظر الى إنصاف علماء أهل السنة لهذا الزيدي العابد الصالح وتوثيقهم له ، وإلى تحامل الآخرين عليه مع أنه أقرب إليهم منا .

ومنصور بن أبي الأسود الليثي الكوفي الخياط كان أئمة الحديث يعرفون تشيعه ، ومع ذلك قبلوا أحاديثه لصدقه وعدالته ، وهي في سنن أبي داود والترمذي والنسائي .

وعلي بن غراب الفزاري الكوفي القاضي (المتوفى سنة ١٨٤) كان من شيوخ الشيعة غير أنه صادق ثقة ، ولذلك روى عنه أئمتنا من طبقة أحمد بن حنبل وأمثاله .

ومن أعلام أئمة السنة في دولة بني العباس الإمام أبو الحسن علي بن عاصم الواسطي (المتوفى سنة ٢٠١) وكان من طبقة شيوخ الإمام أحمد بن حنبل ومن أهل الصلاح والدين ومجلسه الذي يحدث فيه عن رسول الله ﷺ كان يحضره أكثر من ثلاثين ألفاً ، فلا يبقى في بغداد ـ وهي عاصمة الدنيا يومئذ ـ طالب علم ولا ذو مكانة إلا وهو حريص على أن يشهد مجلس حديثه . وقد جاء عنه في كتاب (الكفاية [3]) للخطيب البغدادي أن الفضل ابن مروان الذي كان كاتباً للمعتصم وكان بيده النهي إلى سنة ٢٢٠ قال : كان المعتصم (أي قبل خلافته) يختلف إلى علي بن عاصم المحدث ، وكنت أمضي معه إليه ، فقال علي بن عاصم

---

(١) في علم الدراية ، وهو من أهم كتب الشيعة في مصطلح الحديث .

(٢) ج ١ ص ٢٨٥ وهو أوسع كتبهم في الجرح والتعديل .

(٣) ص ١٢٣ طبعة حيدر اباد الدكن .

يوماً : « حدثنا عمرو بن عبيد وكان قدريا » ، فقال له المعتصم : يا أبا الحسن ، أما تروى أن القدرية مجوس هذه الأمة ؟ قال : بلى . قال : فلم تروى عنه ؟ قال : لأنه ثقة فى الحديث ، صدوق . قال المعتصم : فإن كان المجوسى ثقة فما تقول ، أتروى عنه ؟ فقال له على بن عاصم « أنت شغاب يا أبا إسحاق ! » . وإنما عد على بن عاصم هذا الاعتراض من المعتصم العباسى شغبا لأنه كان ينبغى له أن يميز بين المتأولين غير المعاندين كالمعتزلة والقدرية وبين الذين لا يعترفون برسالة الإسلام من أصلها ، فالكافر الأصلى والفاسق الذى يواقع الفسق متعمدا لا تجوز الرواية عنهما وإن كانا من أهل الصدق لأنهما معاندان ، أما المتأولون فهم من الأمة وغير معاندين ، ولذلك نسبوا فى الحديث إلى الأمة فقيل فيهم « مجوس هذه الأمة » فهم منها وإن انحرفوا مع أهوائهم .

وممن روى أئمة أهل السنة عنهم من الشيعة عبيد الله بن موسى العبسى مولاهم أبو محمد الكوفى (المتوفى سنة ٢١٣) ، قال أبو داود : كان شيعياً ، ومع ذلك فإن أحاديثه قد رواها الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى ، وأبو حاتم الرازى ، وأبو بكر بن أبى شيبة ، وإسحاق الحنظلى وأضرابهم .

وعبد الرزاق بن همام بن نافع الصنعانى (١٢٦ - ٢١١) يعده رجال الشيعة فى الجرح والتعديل من أئمتهم وعلمائهم ، ويعرف ذلك فيه أئمة أهل السنة ، ومع ذلك أخذ عنه الإمام أحمد وأمثاله وأثنوا عليه فى علمه وتقواه وتلقوا روايته بالقبول ، لأنهم لم يظهروا منه على ما يوجب اجتناب حديثه .

وحسين بن حسن الفزارى الأشقر (المتوفى سنة ٢٠٨) جاء عنه فى كتاب (الكفاية[1]) للخطيب البغدادى أن إبراهيم بن عبد الله بن الجنيد الختلى قال : سمعت يحيى بن معين ذكر حسيناً الأشقر فقال : كان من الشيعة الغالية الكبار . قلت : وكيف حديثه ؟ قال : لا بأس به قلت : صدوق ؟ قال : نعم ، كتبت عنه عن أبى كدينة ويعقوب القمى .

وروى الخطيب البغدادى[2] بسنده إلى محمد بن عبد العزيز الأبيوردى قال : سألت أحمد بن حنبل أيكتب (أى الحـــديث) عن المرجىء والقدرى ؟ قال : نعم يكتب عنه إذا لم يكن داعياً .

---

(١) ص ١٣٠ . (٢) الكفاية ١٢٨ .

وروى (فى ص ١٢٩) بسنده إلى أبى إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربى (المتوفى سنة ٢٨٥) أن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله قيل له : فى حديثك أسماء قوم من القدرية. فقال : هو ذا ، نحن نحدث عن القدرية.

وفى الكفاية (ص ١٢٨) عن إبراهيم الحربى أيضاً أن أحمد بن حنبل قيل له : يا أبا عبدالله ، سمعت من أبى قطن القدرى. فقال : لم أره داعية ، ولو كان داعية لم أسمع منه.

* * *

قال الخطيب البغدادى فى (الكفاية[1]) : « والذى يعتمد عليه فى تجويز الاحتجاج بأخبارهم - أى بأخبار أهل الأهواء والمخالفين لأهل السنة فى العقيدة - ما اشتهر من قبول الصحابة أخبار الخوارج وشهاداتهم ومن جرى مجراهم من الفساق بالتأويل، ثم استمرار عمل التابعين والخالفين بعدهم على ذلك ، لما رأوا من تحريهم (أى من تحرى من رووا عنه منهم) الصدق ، وتعظيمهم الكذب ، وحفظهم أنفسهم عن المحظور من الأفعال ، وإنكارهم على أهل الريب والطرائق المذمومة ، ورواياتهم الأحاديث التى تخالف آراءهم ويتعلق بها مخالفوهم فى الاحتجاج عليهم . فاحتجوا برواية عمران بن حطان وهو من الخوارج وعمرو بن دينار وكان يذهب إلى القدر والتشيع ، وكان عكرمة إباضياً ، وابن أبى نجيح وكان معتزليا ، وعن الوارث بن سعيد وشبل بن عباد وسيف بن سليمان وهشام الدستوائى وسعيد بن أبى عروبة وسلام بن مسكين وكانوا قدرية ، وعلقمة بن مرثد وعمرو بن مرة ومسعر بن كدام وكانوا مرجئة ، وعبيد الله بن موسى وخالد بن مخلد وعبد الرزاق بن همام وكانوا يذهبون إلى التشيع ، فى خلق كثير يتسع ذكرهم . دون أهل العلم قديماً وحديثاً رواياتهم واحتجوا بأخبارهم ، فصار ذلك كالإجماع منهم ، وهو أكبر الحجج فى هذا الباب ، وبه يقوى الظن فى مقاربة الصواب » .

* * *

وإذا كانوا يقبلون حديث المخالف لهم ما دام من أهل الأمانة والعدالة والضبط ، فإنهم يرفضون أحاديث العابدين الاتقياء الزاهدين المشهود لهم بالصلاح إذا لم يكونوا من أهل العدالة والضبط فى رواية الحديث .

وقد تناول الإمام مسلم بن الحجاج القشيرى هذا الموضوع فى مقدمة صحيحه بالبسط

---

(١) ص ١٢٥

وحسن البيان ، وعقد الخطيب البغدادي فصلا مستقلا لهذا الموضوع في (الكفاية[1]) روى فيه بسنده إلى الأصمعي (١٢٢ - ٢١٦) عن ابن أبي الزناد وعبد الرحمن بن عبد الله ابن ذكوان (المتوفى سنة ١٧٤) عن أبيه (المتوفى سنة ١٣٠) وكان من أئمة مدينة الرسول ، بل كان الإمام أحمد بن حنبل يسميه أمير المؤمنين أنه قال : « أدركت بالمدينة مائة كلهم مأمون ، ما يؤخذ عنهم شيء من الحديث ، يقال : ليس من أهله » .

وروى بسنده إلى أبي سليمان شيخ من أهل المدينة أن ربيعة الرأي - وهو أبو عثمان ربيعة بن أبي عبد الرحمن التيمي المدني - من أئمة الفقه (المتوفى سنة ١٣٦) قال : « إن من إخواننا من نرجو بركة دعائه ، ولو شهد عندنا بشهادة ما قبلناها » .

وروى بسنده إلى الحافظ أبي اسماعيل محمد بن اسماعيل بن يوسف السلمي الترمذي (المتوفى في رمضان ٢٨٠) قال : سمعت ابن أبي أويس (وهو اسماعيل بن عبد الله الأصبحي المدني المتوفى سنة ٢٢٧) قال : سمعت خالي مالك بن أنس (٩٣ — ١٧٩) يقول : إن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذون دينكم . لقد أدركت سبعين عند هذه الأساطين — وأشار إلى مسجد الرسول ﷺ — يقولون ، قال رسول الله ﷺ ، فما أخذت عنهم شيئا ، وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان به أمينا ، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن ، ويقدم علينا محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري (٥١ — ١٢٤) وهو شاب فنزدحم على بابه » .

وروى أبو إسحاق ابراهيم بن المنذر الأسدي الحزامي المدني أحد كبار العلماء المحدثين المتوفى سنة ٢٣٦ عن معن بن عيسى القزاز المدني المتوفى سنة ١٩٨ وكان من أئمة الحديث الذين أخذوا عن مالك أن مالك بن أنس قال : « لا يؤخذ العلم - أي علم السنة - من رجل صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه ، ولا من سفيه معلن بالسفه وإن كان من أروى الناس ، ولا من رجل يكذب في أحاديث الناس وإن كنت لا تتهمه أن يكذب على رسول الله ﷺ ، ولا من رجل له فضل وصلاح وعبادة لا يعرف ما يحدث » .

وروى أبو الطاهر أحمد بن عمرو بن عبد الله بن عمرو بن السرح أحد علماء مصر وفقهاء الفسطاط وكانت وفاته سنة ٢٥٠ أن أبا يزيد خالد بن نزار الغساني الأيلي المتوفى سنة ٢٢٢

---

(١) ص ١٥٨ - ١٦١

حدثه برسالة بعث بها الإمام مالك بن أنس إلى محمد بن مطرف بن داود التيمي المدني وكان من العلماء الأثبات في ذلك العصر — ولعل رسالة مالك إليه كانت بعد نزوح ابن مطرف عن المدينة إلى فلسطين ونزوله في مدينة عسقلان — قال :

« من مالك بن أنس — إلى محمد بن مطرف . سلام عليك . فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله (وبعد وصايا أخرى قال) : ثم أخذه (يعني العلم) من أهله الذين ورثوه ممن كان قبلهم يقيناً بذلك ، ولا تأخذ كل ما تسمع قائلا يقوله ، فإنه ليس ينبغي أن يؤخذ من كل محدث ولا من كل من قال ، وقد كان بعض من يرضى من أهل العلم يقول : إن هذا الأمر (أي حديث رسول الله ﷺ) دينكم ، فانظروا من تأخذوا عنه دينكم » .

• • •

وبعد فإن أئمة السنة الذين أخذوا على عاتقهم تحقيق كل ما نسب إلى النبي ﷺ من قول أو فعل ، فنجحوا في ذلك بما لا يستطيع أن يدعي المؤرخون مثله لأي شخصية أخرى في العالم ، كان الشرطان الأولان اللذان يشترطونهما في حملة الأخبار المتعلقة بأقوال النبي ﷺ وأفعاله أن يكون الراوي من أهل الصدق والأمانة ، ومن أهل الإدراك والحفظ والضبط ، فإذا توفر هذان الشرطان في الراوي تلقوا الخبر عنه بالقبول وإن كان مخالفا لهم في النحلة والمذهب ، وإن لم يتوفر الشرطان أو أحدهما في رجل اجتنبوا حديثه وإن كان من كبار الصالحين والعابدين الذين يلتمس أهل الحديث دعاءهم ويتبركون بهم . ولهذا امتازت كتب أهل السنة ولا سيما صحيحا البخاري ومسلم وسائر الكتب الستة بأنها المثل الأعلى لما يمكن أن يصل إليه المجهود البشري في التحقيق .

والذي يتردد في الاطمئنان إلى كتب السنة ، ولا سيما أمهاتها التي تلقتها الأمة بالقبول ، فإنه لا يجوز له أن يصدق التاريخ كله في شيء ، ولا أن يدعي معرفة ترجمة رجل من رجال التاريخ ، لأن كل ما ينسب إلى الماضي في جميع الأمم لم يبذل في تحقيقه جزء من ألف جزء مما بذله أئمة السنة لتحقيق ما ينسب إلى الهادي الأعظم محمد ﷺ من قول أو فعل ، والتثبت من صحته وأمانة ناقليه ، لأنهم يعلمون أنه المصدر الأعظم للحق والخير اللذين تنشدهما الإنسانية في تكوين مجتمعها ، وستسعد الإنسانية يوم تستمد من هذا المصدر كيانها ونظامها الاجتماعي ؟

م . خ

سماحة الإسلام

في التعامل مع غير المسلمين

قال مندوب الأهرام :

أتيح لي أن جلست وفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر جلسة طويلة ممتعة ، وتحدثت إلى فضيلته في مختلف الشئون ، وكان في مقدمة هذه الشئون أهمية ما يتعلق بالأجانب المقيمين في مصر ، وما حكم الشريعة الإسلامية في معاملتهم وكيف ينظر إليهم الإسلام ؟ وبماذا يأمرنا به نحوهم !

ولقد تجلى فضيلة الأستاذ الأكبر في تحليلها وتبيان أحكام الشريعة السمحة فيها ، وقد كان فضيلته يعنى أكبر العناية بدعم آرائه بالكتاب الكريم والحديث الشريف والأثر الصالح عن السلف الصالح ، قال فضيلته :

ينظر الإسلام إلى رسالات الله كلها على أنها دين واحد ، تتفق في أصولها وروحها وغاياتها ، وإن اختلفت في صورها ومظاهرها وتطورها .

ولذلك كان الإسلام هو الدين الوحيد الذي عرفه البشر داعياً إلى تكريم رسل الله وأنبيائه جميعاً ، فقال عز وجل في أواخر سورة البقرة « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » .

فنظرة الإسلام هذه إلى وحدة الأصل ووحدة الغاية في ديانات الله ورسالاته كلها ، كان من أول نتائجها أن لا ينظر المسلمون إلى شيء من ديانات الله نظرة ضغينة أو عداء ، وأن لا يذكروا أحداً من الذين حملوا رسالات الله إلى أهل الأرض إلا بالتعظيم والإجلال والتكريم ، فإذا ذكروا أحداً منهم قالوا مثلا « سيدنا إبراهيم عليه السلام » و « سيدنا موسى الكليم عليه السلام » و « سيدنا عيسى المسيح عليه السلام » . يقولون ذلك عن عقيدة وإيمان ؛ لأن كتابهم الحكيم طالبهم بأن يؤمنوا بذلك وأن يقولوا « لا نفرق بين أحد من رسله » .

ولا شك عندنا بأن دين الإسلام هو أول دين في العالم أعلن هذا المبدأ ، وهذا في سورة البقرة أيضاً : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » . بل لعل الإنسانية لم يطرق النداء بهذه العقيدة سمع أحد منها في أي بلد من بلاد الأرض قبل أن يفرض الإيمان

بها فى الحجاز ، وقبل أن تقرر على أنها عقيدة من صميم الإيمان الإسلامى . فكل مسلم يخرج عليها ، أو يعمل بما ينافيها ، فهو مخالف لشعبة عظيمة من شعب إيمانه بالإسلام .

والقرآن يسمى المنتسبين إلى التوراة والإنجيل (أهل الكتاب) ومع تسامحه العجيب الذى لم يسبق له مثيل مع بنى الإنسان جميعاً ؛ فإنه خص أهل الكتاب بمنزلة أسمى ، ومعاملة أكرم . ومن ذلك قول الله عز وجل فى سورة العنكبوت : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا : آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » .

وغير المسلمين فى نظر الإسلام ثلاثة أصناف : محاربون ، ومعاهدون ، وأهل ذمة .

وحكم الإسلام فيمن يحاربونه أن يدفعهم المسلمون إذا هاجموا ، وأن يبادروهم بما يكف بأسهم إذا تحفزوا ، وأن يقوموا اعوجاجهم إذا اعتدوا على الحق إلى أن يعودوا إلى الإنصاف وفى ذلك يقول الله سبحانه فى سورة الحج : « أذن للذين يقاتلون (أى يقاتلهم المعتدون) بأنهم ظلموا (أى فى حالة ظلم عدوهم لهم) وإن الله على نصرهم لقدير » . ويقول فى سورة البقرة : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين » .

ثم إن القتال لا يكون فى سبيل الله إلا إذا التزم فيه المسلمون مرضاة الله ، والله لا يرضى منهم إلا الإنصاف والعدل والرحمة وإيثار الحق على الباطل ، والخير على الشر فى جميع التصرفات ، وهذا هو سبيل الله ، وما خالفه فليس من سبيل الله ، والقتال فيه لا يكون عند المسلمين شرعياً . وإن تفصيل التشريع الإسلامى فى القرآن الحكيم وسنة نبيه الكريم فيما يتعلق بالحرب والمتحاربين ، يدل على أنه قرر المبادىء الإنسانية السامية فى ميادين القتال وجعلها ديناً يحاسب أهله عليه بين يدى الله ، فضلا عما ينالهم فى الدنيا من الخزى إذا خالفوا هذه المبادىء العليا . ولا نظن أن أمة بلغت مبلغ المسلمين فى ذلك ، فضلا عن الرحمة والرفق فى تطبيق هذه المبادىء منذ أربعة عشر قرناً .

ومن الرفق الذى أقام الإسلام عليه سياسته الحربية أنه منع من التعرض بالأذى لمن لم ينصبوا أنفسهم للقتال : كالرهبان ، والفلاحين ، والنساء ، والأطفال ، والشيخ الهرم ، والأجير ، والمعتوه ، والأعمى ، والمصاب بالزمانة ، بل من الفقهاء من لا يجيز قتل الأعمى والزمن ولو كان من ذوى الرأى والتدبير فى الحرب .

ولو أردنا الإفاضة فى تفاصيل مبادىء الإنسانية العليا فى أحكام الإسلام الحربية لاحتجنا إلى تأليف كتاب، لأنه لا يتسع له مقال فى الصحف.

أما المعاهدون، وهم الذين انعقد بهم وبين المسلمين عهد على السلم، فيجب على المسلمين الوفاء لهم بعهدهم كاملا، وأن يستقيموا لهم ما استقاموا للمسلمين.

وقد وصى النبي ﷺ أمته بالذين بينهم وبين المسلمين معاهدة، فقال: «من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة».

وحتى لو توقع المسلمون الغدر والخيانة من عدوهم المعاهد، فلا يجوز لهم أن يعاجلوهم بالقتال إلا بعد إنذارهم وإعلانهم إلغاء حالة السلم التى كانت بين الفريقين. وهذا هو معنى قول الله عز وجل فى سورة الأنفال: «وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين». ومن تمام ذلك قول الله سبحانه فى سورة التوبة: «إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحدا، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم، إن الله يحب المتقين». ثم قوله بعد قليل: «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله، ثم أبلغه مأمنه، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون».

وأكثر الأحكام التى يعامل بها المعاهدون فى بلاد المسلمين مبنية – بعد الوفاء بالعهد – على مبدأ المقابلة بالمثل. فنعامل رعايا كل فريق من الذين بيننا وبينهم عهد بمثل ما يعاملون به رعايانا إذا دخلوا بلادهم، ويوصى الإسلام بنيه بأن يرتبطوا بهم فى بلادنا برباط الألفة والعطف والتعاون، وأن يكونوا متمتعين بحقوقهم الدينية، آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم.

وأعظم من كل ما تقدم مكانة أهل الذمة فى الإسلام، فلفظ «الذمة» معناه ذمة الله وعهده وأمانته ورعايته.

وقد ورد فى الحديث النبوى: «من قذف ذمياً، حد يوم القيامة بسياط من نار». وروى الخطيب البغدادى فى تاريخه – وهو من كبار أئمة الحديث الشريف وحفاظ السنة النبوية – عن عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ، أن النبى ﷺ قال: «من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة».

وقد بنى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على هذا الحديث أوامره إلى قائده الأعظم فى جيش

الفتح المصرى وواليه الأول على وادى النيل وهو أبو عبد الله عمرو بن العاص السهمى ، فكتب إليه عقب فتح مصر يقول : « احذر يا عمرو أن يكون رسول الله ﷺ لك خصما فإنه من خاصمه خصمه » ، ونص عمر بن الخطاب على نفسه فيما كتبه من العهد لأهل بيت المقدس عند فتحها فقال إنه « أعطاهم الأمان لأنفسهم ، وأموالهم ، وكنائسهم ، وسائر ملتهم ، لا تسكن كنائسهم ، ولا ينقص منها ، ولا من خيرها (أى أوقافها وصدقاتها) ولا من صلبهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم » .

وقد نص الفقهاء عند استنباطهم الأحكام التشريعية من حديث « لا يبيع رجل على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبته » فقالوا : « البيع على بيع غير المسلم الداخل فى ذمة الإسلام كالبيع على بيع المسلم . والخطبة على خطبته كالخطبة على خطبة المسلم ، كلاهما حرام » .

وفى أداب المعاشرة نبهوا على حقوق أهل الذمة ، وندبوا إلى الرفق بهم ، واحتمال الأذى فى جوارهم ، وحفظ غيبتهم ، ودفع من يتعرض لأذيتهم .

وقال الشهاب القرافى ـ وهو من كبار أئمة التشريع فى الإسلام ـ فى كتابه الشهير (بالفروق) : « إن عقد الذمة يوجب لهم حقوقا علينا ، لأنهم فى جوارنا ، وفى خفارتنا ، وفى ذمة الله تعالى ، وذمة رسوله ﷺ ، ودين الإسلام . فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة فى عرض أحدهم ، أو أى نوع من أنواع الأذية ، أو أعان على ذلك ، فقد ضيع ذمة الله تعالى ، وذمة رسوله ﷺ ، وذمة دين الإسلام » .

وقال الإمام ابن حزم فى مراتب الإجماع : « إن من كان فى الذمة ، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه (أى يقصدون من كان فى ذمة الإسلام) وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح ونموت دون ذلك ، لمن هو فى ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ ، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة » .

وبعد فإن المسلمين قد استناروا بسماحة دينهم ، وتعلموا من آدابه أن يحسنوا معاشرة أصحاب الأديان الأخرى ، عن لا يكيدون لهم كيدا ، ولا يظاهرون عليهم عدوا ، وأرشدهم إلى أن يعيشوا معهم فى صفاء وتعاون على المصالح الوطنية المشتركة ، وأنه لا ينحرف من المسلمين عن هذه الأحكام والآداب إلا المنحرفون عن دينهم والعياذ بالله .

الميسر وورق اليانصيب

حديث لفضيلة الأستاذ الأكبر

قابل مندوب جريدة (المصرى) صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر وسأله عن حكم الإسلام فى الميسر واليانصيب ، فقال فضيلته :

من الناس من يعد نفسه من ذوى الأخلاق الفاضلة وهو مولع بلعب القمار ، وهذا لا يعد فى نظر الشارع وأهل الفضل ذا أخلاق كريمة ، فإنه قصد إلى الاستيلاء على مال غيره بغير حق فهو والسارق سواء لا فرق بينهما ، إلا أن السارق يمد يده إلى مال غيره بوجه خفى والمقامر يمد يده إلى مال غيره ولا يدرى هل يصل إليه أو يستولى غيره على ماله فيبقى حزيناً كاسف البال ، وهو على كلتا الحالتين منظور إليه بمقت وذم ، ففى الحالة الأولى ممقوت لأنه استولى على مال غيره بغير حق من عمل أو أمر آخر ، وفى الحالة الثانية مذموم محتقر حيث طمع فى مال غيره ومد يده اليه غير أنه لم يصل اليه ، فالشارع الحكيم أباح للإنسان أن يتمتع بما كان ملكا لغيره إن دفع له فى مقابله عملا أو شيئا كان فى ملكه ، فقال تعالى : « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » .

وصاحب القمار لم يتاجر بماله بل تاجر بأخلاقه قبل كل شىء . ولا يغرنك فعل الأمم الأوربية واكتفاؤها برضا صاحب المال فى ظاهر الأمر ، فإنه إذا أخذ منه المال انقلب رضاه غيظاً ، بخلاف من اكتسب بماله عملا أو بضاعة ينتفع بها . والشارع الحكيم راعى فى المعاملات أن تكون عن رضا من صاحبها ظاهر وباطن ، وذلك وجه إباحته للتجارة وحله للبيع ومنعه من القمار ، وإذا كان الأوربيون أغنياء فإن لديهم معامل ومزارع متقنة والقمار قليل بالنسبة إلى مصانعهم ومزارعهم وتجاراتهم ، والشارع الحكيم يحرم على المسلمين أن يدفعوا مالهم طمعاً فى أن ينالوا من إنسان آخر مثله فيعودوا بالمالين جميعاً فمن المحتمل أن يذهب مال المقامر جملة ولا يصل به إلى عمل أو الى بضاعة .

اليانصيب للأعمال الخيرية

أما « اليانصيب » للأعمال الخيرية فهو قمار بلا ريبة ، وقد كان العرب فى الجاهلية - كما ذكر ابن قتيبة فى « الميسر والقداح » - عند شدة البرد وجدب الزمان وتعذر الأقوات على أهل الفقر والمسكنة - يقامرون بالقداح على الإبل ثم يجعلون لحومها لذوى الحاجات منهم والفقراء ، وهذا ما قصده القرآن بالمنفعة فى قوله تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » . ومع هذا قد جعله القرآن بمنزلة الخمر إذ قرنه بها فى الآية . والشارع الحكيم يريد من أتباعه أن يكونوا خياراً كراما يدفعون أموالهم التى لا يتاجرون بها إلى الفقراء وذوى الحاجة العامة قاصدين وجه الله ورضوانه دون أن يقصدوا إلى سلب مال غيرهم ، فإن ذلك إثم كبير .

نفس الحر

قال الإمام محمد بن إدريس الشافعى :

أمطرى لؤلؤاً جبال سرنديب وفيضى آبار تكرور تبرا
أنا ما عشت لست أعدم قوتا وإذا مت لست أعدم قبرا
همتى همة الملوك ونفسى نفس حر ترى المذلة كفراً
وإذا ما قنعت بالقوت عمرى فلماذا أزور زيداً وعمراً

وقال رضى الله عنه :

على ثياب لو تباع جميعها بفلس لكان الفلس منهن أكثرا
وفيهن نفس لو تقاس بمثلها نفوس الورى كانت أجل وأخطرا
وما ضر نصل السيف إخلاق غمده إذا كان عضبا حيث أنفذته سرى

من صور الفداء في الإسلام

فترة الشباب فى حياة الإنسان هى أحفل أطوار العمر بالمشاعر الحارة ، والعواطف الثائرة ، وهى ليست عهد العافية المكتملة فى البدن الناضج فقط ، بل إنها - كذلك - عهد النزعات النفسية الجياشة يمدها الخيال الخصب والأمل البعيد . . !

والأمم تستغل فى شبابها هذه القوى المذخورة ، وتجندها فى ميادين الحرب والسلم لتذلل بها الصعب وتقرب البعيد .

ونجاح النهضات الكبيرة يرجع إلى مقدار ما بذل فيها من جهود الشباب وهممهم ، وإلى مقدار ما ارتبط بها من آمالهم وأعمالهم .

وقد راقبنا الثورات التى اشتعلت فى أرجاء الشرق ضد الغزاة المغيرين على بلاد الإسلام فوجدنا جماهير الشباب هم الذين صلوا حرها وحملوا عبئها ، واندفعوا بحماستهم الملتهبة وإقدامهم الرائع يخطون مصارع الأعداء ويرسمون لأممهم صور التضحية والفداء . . . !

ولا يزال الشباب من طلاب وعمال وقود الحركات الحرة ، وطليعة الثائرين على الفساد والاستبداد ، وقبلة المربين والمرشدين ، والزعماء الذين ينشدون مستقبلا أزكى لهذه الحياة .

ونحن إذ نقرر هذه الحقائق ننوه بما تنطوى عليه من دلائل الإيثار والتفانى ، ونرجو أن يكون حظ أمتنا من هذه الثروة الحية كفاء ما رميت به من أحداث جسام وما فقدت من أمجاد عظام ، فلا ينتهى هذا العصر حتى نكون قد غسلنا بلادنا من أدران الاحتلال الأجنبى الذى أخزانا فى ديننا ودنيانا . . !

بيد أن هناك رجالا تقدمت بهم السن وذهبت عنهم سورة الشباب ، وتكاثرت الصلات التى تربطهم بالدنيا ، ومع ذلك فإن جذوة اليقين المتقد فى قلوبهم تمسك بالشباب المولى عن جلودهم وعظامهم . وتبقيه ، بل تضاعفه ، فى قلوب تنبض بالحق وتدفعه فى العروق مع الدم ، فإذا بك ترى منهم بأس الحديد ، وجرأة الأسود ، وإذا بك ترى رجالا تستهويهم المغامرة ، ويطيرون إلى التضحية فى سبيل الله أخف من الشباب الغض . . .

قد يقبل الشاب الفذ على المخاطر ، وسبل البذل أمامه ميسرة ، فهو إن سجن لم يجزع على أسرة يعولها ! وإن قتل لم تبك امرأة أيم ! ولا ولد يتيم ! وخفة حمله من هذه الناحية

تجعله سريع الاستجابة لنداء الواجب أو نزع العوائق من أمامه إذا ثارت فى دمه نوازع النجدة ...

أما البطولة القارعة فهى أن يكون المرء رب أسرة كبيرة يضرب فى مناكب الأرض لرعايتها ويسير فى الحياة وهو موقر بأثقالها . غير أنه ـ وهو الزوج المحب والأب الرحيم والراعى المسئول ـ مؤمن قبل ذلك كله بالله ورسوله ، مخلص للدين الذى اعتنقه مقدر للحقوق التى ارتبطت به ، فإذا أحس الإسلام طلباً سارع إليه ، ولباه بروحه وماله ، ولم تشغله أعباء الحياة التى يكدح فيها عن مطالب المثل العالية التى آمن بها ..

والإنسان عندما يقرأ استشهاد عبد الله بن حرام ، يرى فى قصته جلالا تحنى له الحياة ، إعزازاً للأبوة الرقيقة التى جادت بنفسها واستودعت الله أسرة من غلام واحد وست بنات !! :

روى أبو داود والنسائى عن جابر بن عبد الله قال ، خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى المشركين يقاتلهم ، وقال لى أبى : يا جابر ، لا عليك أن تكون فى نظارى أهل المدينة حتى تعلم إلام يصير أمرنا ؟ فإنى والله لولا أنى أترك بنات لى بعدى لأحببت أن تقتل بين يدى ، قال : فبينا أنا فى النظارين إذ جاءت عمتى بأبى وخالى ، عادلتهما على ناضح ! فدخلت بهما المدينة لتدفنهما فى مقابرنا ، إذ لحق رجل ينادى : ألا إن النبى ﷺ يأمركم أن ترجعوا بالقتلى فتدفنوهم فى مصارعهم ، فرجعنا بهما ، فدفناهما حيث قتلا ...

وروى البخارى عن جابر أيضاً ، لما حضر أحد دعانى أبى من الليل ، فقال لى : ما أرانى إلا مقتولا فى أول من يقتل من أصحاب النبى ﷺ ، وإنى لا أترك بعدى أعز علىَّ منك غير نفس رسول الله ! وإن على ديناً ، فاقضه ، واستوص بأخواتك خيرا ، فأصبحنا وكان أول قتيل ، .

• • •

هذا الصاحب الجليل خرج مع رسول الله ليصدوا هجوم المشركين على المدينة ، تاركا وراءه هذه الأسرة الكبيرة ، وقوامها كما رأيت بنات يحتجن إلى الكافل الحانى ، ولم يكن أبوهن ذا بسطة فى المال ينفق منه عن سعة . ويترك لعقبه من بعده ما يغنى ويصون ، بل كان الرجل مهموما بشئون الرزق ، ينصب فيه ويستدين . وغلام فرد إلى جوار ست بنات

يكون غالبا قرة عين الوالد وموضع حبه العميق ، لكن عبد الله يقسم أنه يود لو قدم ابنه ليستشهد فى سبيل الله ، وأنه إنما يعجل بنفسه حتى يبقى الابن لأخواته يخدمهن ، فإن ابنه لو قتل قبله ، فلن تطول بالأب حياة ، إنه لا بد مقتول فى أقرب معركة . .

إن أصحاب المبادىء سراع إلى تلبية مبادئهم : عند ما يُقرع باب الكريم ينهض وهو يقول :

فقمت ولم أجثم مكانى ولم تقم مع النفس علات البخيل الفواضح

وعند ما يطلب الشجاع إلى ساحة الوغى يذهل عن الحياة وأواصره بها ، وينطلق وهو يقول : « وعجلت إليك رب لترضى » !!!

وقد خرج أبو جابر إلى أحد ليلقى مصيره مع أبر شهداء الإسلام ، روى الشيخان عن جابر قال : أصيب أبى يوم أحد ، فجعلت أكشف عن وجهه وأبكى ! وجعلوا ينهونى والنبى ﷺ لا ينهانى ، وجعلت فاطمة بنت عمرو رضى الله عنها تبكيه ! فقال ﷺ : تبكيه أو لا تبكيه ، ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه » . وروى الترمذى عن جابر قال : لقينى رسول الله مرة وأنا مهتم ، فقال : ما لى أراك منكسرا ؟ فقلت : استشهد أبى يوم أحد ، وترك عيالا ودينا . فقال : ألا أبشرك بما لقى الله به أباك ؟ قلت : بلى ! قال : ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب ، وإنه أحيى أباك فكلمه كفاحا - أى مواجهة - فقال : يا عبدى ، تمن على أعطك ! قال : يارب ، تحيينى فأقتل ثانية ! فقال سبحانه وتعالى . إنه قد سبق منى أنهم لا يرجعون . فنزلت : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا . . . . » والمرء يحار ، أيعجب من كرامة الشهيد على الله ؟ أم من حلاوة الفناء فى الله التى ذاقها أولئك الشهداء ؟ إن أبا جابر لم يستشعر وحشة لفراق أولاده ، ولم تستشرف نفسه للاطمئنان على فلذات كبده ؛ بل تطلع للعودة إلى الدنيا كيما يذهل مرة أخرى عن أحب شىء فيها ، ويمشى بخطى ثابتة إلى ساحة القتال .

ولقد كفل الله أولاد الشهيد ، وقضى عنه دينه فى حديث يطول .

• • •

ولندع حديث الصدر الأول ، ونستأنف حديث الأشياخ المجاهدين فى عصرنا هذا ، إننا واجدون رجالا من طراز رائع صنعهم الإسلام القوى فأحكم صناعتهم ، وقذف بهم على جند الباطل ليجددوا سير السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار .

من أولئك النفر الغر «عمر المختار» البطل الذى بلغ التسعين من عمره وهو يجوب الصحراء مطارداً « الطليان » الذين أغاروا على طرابلس ، وعملوا على تنصيرها بالحديد والنار . وفيه يقول « شوقى » :

بطل البداوة لم يكن يغزو على ... « تنك » ولم يك يركب الأجواء
لكن أخو خيل حمى صهواتها ... وأدار من أعرافها الهيجاء

وقد وقع الشيخ المهيب فى أسر الأعداء ، فألفوا محكمة قضت بقتله شنقاً !! والطليان قوم لا ينتظر منهم شرف المعاملة ، لا مع صديق ولا مع خصم ، وقد ندد شوقى بهذا الحكم الشائن فقال :

خفيت على القاضى ، وفات نصيبها ... من رفق جند قادة نبلاء !!
تسعون لو ركبت مناكب شاهق ... لترجلت هضباته إعياء ...

ويقول :

شيخ تمالك سنه ، لم ينفجر ... - كالطفل - من خوف العقاب بكاء !
الأسد تزأر فى الحديد ولن ترى ... فى السن ضرغاماً بكى استخذاء

ثم يخاطب الشعب طالباً منه تجنيد الشباب وإعفاء الشيوخ . فيقول :

فأرح شيوخك من تكاليف الوغى ... واحمل على شبانك الأعباء

على أن منطق اليقين لا يكترث بفوارق السن ، فإن العقيدة المتفجرة فى القلوب الكبيرة ترد الكهول الوانين فتياناً نشطين ، أما إذا تخلخل الإيمان فإن الشاب الجلد يمسى حلس منفعة تافهة ولذة مهينة . !!

والدعوات العظيمة لا تضار بشىء مثل ما تضار بهذا الصنف من المتلونين المتطامين ، الصنف الذى يحاذر أن يمسه سوء ، ويسارع إلى إحراز الغنائم ، ويشارك بجسمه أصحاب الرسالات ، أما قلبه فهو بعيد بعيد . . .

الصنف الذى صور القرآن موقفه النابى المريب فى هذه الآيات « وإن منكم لمن ليبطئن ، فإن أصابتكم مصيبة قال : قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن : كأن لم تكن بينكم وبينه مودة . ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما » .

والمرء لا يصلح أن يكون رجل دعوة أو صاحب رسالة إذا بنى حياته فى حساب الأرباح والخسائر على هذا النحو المنكر .

ربما كان الرجل خالى البال لا يتبع أهلا ولا مالا ، فهو يهز كتفيه لما تفد به الليالى من أحداث . أفإذا بلى بأثقال الأهل والمال تخفف فى مسيره من أعباء الفضائل وألقى بها فى عرض الطريق وأضحى لا يهدأ أو لا يهيج إلا لمنافعه الخاصة ؟ ؟

كذلك فعل المنافقون قديما ! فعندما ندبوا للجهاد قعدوا واعتذروا « سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا . يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم . قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا . بل كان الله بما تعملون خبيرا . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا . . . »

إنهم توهموا الخروج مغامرة مخوفة العاقبة أو مقامرة بعيدة الربح فنكصوا ، وأفئدتهم صفر من معانى اليقين والتضحية التى تجعل الشهيد يقبل على الموت ويود لو يرد إلى الحياة ليموت مرة أخرى .

ولو كان الخروج لنفع يسير لكان لهم مع القافلة سواد كثيف ! « سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها : ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله . قل : لن تتبعونا . كذلكم قال الله من قبل . . . »

وقد حذر الله المؤمنين أن تسيطر على أفكارهم هذه المآرب أو تدخل فى نياتهم هذه المنافع « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » .

• • •

فلتكن لنا من حياة المجاهدين عظة ومن عاتهم عبرة ، ومن مسلكهم مع أهليهم وأموالهم أسوة حسنة .

محمد الغزالى

صحوة الأرواح

صحت الأرواح على صيحة الإيمان تحمل النذر وتتوعد السادرين فى غواية الأحلام وتهتك غياهب المخازى التى طوت أمواجها مصر زعيمة الإسلام .

صحت الأرواح على ثورة الحق التى أرعشت عواصفها قلوب المتألهين الذين سخروا للذاتهم كل شيء حتى داسهم الصغار فسخر منهم كل شيء .

صحت الأرواح على وثبة جريئة كسرت الكبول التى شلت أيدينا وحطمت الأغلال التى قوست أصلابنا وهشمت القيود التى أدمت أعقابنا .

صحت أرواح الكتاب بعد خمود وتحركت بعد جمود ، فإذا الليل الرهيب الذى ضلت فى كنهه الأقلام قد انجاب ، وإذا الرعب الذى هصر عودها قد أبحر إلى غير إياب .

وإذا أصبح الأمل تستروح الأرواح نسيمه ، وتغرى الأقلام بوضاءة الحق بسمائه ، صحت أرواح المحدثين على منطق الثورة يصيح فيهم : اخرجوا من السجون التى طوتكم جنباتها وأعمتكم ظلماتها ، فكظمتم عن قول الحق الأفواه ورغمتم على صدق النصيحة الشفاه .

اخرجوا فاحملوا المشعل بين يدى موكب النهضة ، واسبقوا الطلائع واستنفروا الناس ليسيروا مع القافلة إلى المجد ، لا إلى المغانم والأسلاب وإنما إلى حياة العزة التى ينشدها الأحرار والتى حفت سبلها بالمكاره والأهوال .

فتحت أرواح الخطباء على لحن الوطنية الصادق يؤذن مؤذنه : الجهاد خير من النوم ، فدارت عيونهم فى السماء تنقب عن مصدر النداء فإذا خفقات البنود وإذا صوت البعث تلهب جلجلته عزم الجنود ، فجاوب الخطباء على المنابر صداه ، وانطلقت ألسنتهم التى عقلها بطش الطغاة .

لقد أيقظ صوت البعث هذه الأرواح فجاوبت أصداء الكفاح ، وانجلت غيوب الماضى بمخازيها ، وتخلصت مصر من مخالب الاستغلال التى عبثت بأمانيها .

فهل أيقظ صوت البعث أرواح الوعاظ والمرشدين — وهم هداة الأمة ومصابيحها ومعلمو الشعب ورسل الدين إليه — ليوجهوا الأمة إلى الخير ، ويربوا الشعب تربية طيبة

قوامها حب المحسن وبغض المسيء ، ومعاونة المصلحين وتدمير المفسدين ، وإطاعة ولى الأمر العادل والثورة على الظالم الجائر .

هل صحت أرواحهم فغسلوا قلوبهم وطهروا حياتهم من دنياهم التى عاشوا فيها ، دنيا المادة والمظهر الكاذب ، ليشرقوا على المسلمين بنفوس من طراز جديد آمنت إيماناً عميقاً برسالتها فهى لا تفكر فى غير ما تحقق به هذه الرسالة ، فحيثما وجد الواعظ أدى الأمانة لله ولدين الله ودعا الناس إلى تسليح قلوبهم بالفضائل قبل أن يخوضوا المعارك الفاصلة بين الحياة والموت .

الحق أن النهضة تريد واعظاً جديداً تغلغل حبه لرسالته فى أعماق قلبه ، يعظ الناس بروحه لا بلسانه وبعمله قبل علمه ، لتصل العظات إلى القلوب فتخلقها خلقاً جديداً .

ولن تمس العظة الروح إلا إذا كان الواعظ مثلا حيا للأخلاق مؤمناً بما يقول ويفعل ، فهل آن للوعاظ أن تصحو أرواحهم ، وتخلص نفوسهم ليشتركوا فى بناء هذه النهضة ، ويدعموا أركانها .

وهل صحت أرواح المعلمين ليضعوا النشء فى مرجل الأخلاق حتى تنصهر النفوس ، ثم تخرج طاهرة أصفى ما يكون الطهر ، نقية أخلص ما يكون النقاء ، فليست معاهد التعليم غير مصانع للرجولة قبل كل شىء ، فإن فشلت هذه المصانع فيما تنتج ، فالخليق بالدولة أن تحاسب المعلم الفاشل على هذا الفشل ، فالدولة لا تطعمه لوجه الله ، بل ليبنى لها نفوساً لا يروعها معترك الحياة ، ولا تفزعها أمواج الأحداث .

إننا نريد معلماً يؤمن بأن مستقبل البلاد أمانة فى عنقه ، وبأن الشباب الذى بين يديه هم قادة الغد وجنوده لجدير به - وتلك رسالته - أن يخلق للتاريخ الرجال ، وأن يفنى قوته وحياته فى بناء ذلك المستقبل المنشود ، فإن لم يفعل فهو عضو مريض فى جسم الأمة ، ولن يضير الأمة أن تتخلص منه حتى لا يفسد بناءها .

إن واجب المعلم أن يقدم لمصر مصريا عاملا فى المجتمع لا مصريا متمرداً على المجتمع . يجب أن يقدم لمصر مصريا امتلأ قلبه بالرحمة ، وروحه بحب الخير ، لا مصريا أبلته المادة فعاش لأهوائه ومطامعه .

وأخيراً - ونحن بين يدى هذا البعث الجديد : هل صحت أرواح الأمهات فعكفن على جيل الغد تربيته تربية صادقة ، فهن المدرسة الأولى ، وأطفالهن أمانة فى أيديهن ، فعليهن أن

بين الفلسفة وعلم الكلام
عند المسلمين

لقد مضى عصر النبي ﷺ وعصر أبي بكر ، ثم عصر عمر بن الخطاب ، ثم بعض عصر عثمان رضي الله عنهم ، وأمر عقيدة المسلمين واضح لا لبس فيه ولا إبهام ، لأن مصدر العقيدة هو الكتاب والسنة .

ولقد كان الجميع يؤمنون بالقرآن كله ، المحكم منه والمتشابه ، أنه كتاب الله الذي أنزله على نبيه ورسوله محمد ﷺ ، وحيث إنهم قد آمنوا برسالة محمد بن عبد الله ، فإنهم لابد أن يصدقوا بكل ما جاء به .

إن في القرآن الكريم آيات تدل على تنزيه الله وعلى نفي مشابهته للمخلوقات ، قال تعالى : « ليس كمثله شيء » ، « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد »

يرعين هذه الأمانة ، وأن يسهرن على تلقين رجال الغد معاني الرجولة ، ويضعن تحت أعينهن صوراً حية من البطولة الصادقة .

حقاً إن العبء ثقيل على المرأة في بناء هذه النهضة ، ولكنها ستنسى الأعباء يوم يطول البناء وترى ركنها يفرع الجوزاء .

لقد أحيا البعث الإسلامي أمة اختلفت عليها الأدواء ، وتنازعتها مخالب الأهواء ، ونخرت فيها العلل ، واحتربت فيها الفوضى ، فخلقت قوته من تلك الأمة المهلهلة المنحلة أمة قوية في أخلاقها ، فتية في عزمها ، دقيقة في سياستها ، عظيمة بعبادتها ، شريفها ووضيعها أمام الحق سواء . بكل هذا عزت وبكل هذا سادت وبكل هذا ملكت وحكمت .

فهل يخلق البعث المصري الجديد - من تلك الأمة التي تهدمت أخلاقها واضطربت سياستها وجثمت على صدرها الأطماع حتى أنهكتها - أمة تسود بأخلاقها ، وتعز بدينها وبعبادتها ، وتملك بإيمان رجالها .

أيها المصريون ، بل أيها المسلمون ، بل أيها الشرقيون ، إننا يوم نعود إلى الله بقلوبنا ونعتز بدينه في حياتنا ونخلص لوجهه أعمالنا ونستلهمه الرشد في خطانا ونعبيء لخير مصر والشرق كفاياتنا وننسى أهواءنا ونتكر ذواتنا ، سنقلب وجه التاريخ لنعيد لذلك الوجود عهداً لم تحلم به أعظم العهود .

محمد خليفة

وفيه آيات أخرى كثيرة تدل بظاهرها على ما لا يتفق مع آيات التنزيه ، كقوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » وقوله تعالى : « ولتصنع على عيني » وقوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » .

ولكن هل شك مسلم فى صدق آيات التنزيه والآيات الأخرى التى لا يتفق ظاهرها معها ؟ أو هل تحدث فى تعارض ظاهرها أحد من المسلمين فى العصور الثلاثة التى ذكرناها ؟ كلا .

لقد فهم المسلمون أن أصل الإيمان هو التصديق بأن الله سبحانه وتعالى : أرسل محمدا ﷺ للعالمين بشيراً ونذيرا ، وأنه أنزل عليه القرآن الكريم لتحصيل سعادتى الدنيا والآخرة ، وأنه أرسل قبله ـ عليه السلام ـ رسلا مبشرين ومنذرين لمن بعثوا إليهم من الأمم ، وأن لهم كتبا أنزلها الله تعالى عليهم ، وأنه يجب الإيمان بهؤلاء الرسل كما يجب الإيمان برسالة محمد عليه السلام ، كذلك يجب الإيمان بأن الله خلق العالم ، وأنه منزه عن جميع النقائص ، ومتصف بجميع الكمالات ، وأنه سيبعث الناس ، وسيحاسبهم على أعمالهم ، وسيجازيهم عليها بالإثابة إن كانت أعمالا طيبة ، وبالعقوبة إن كانت سيئة . هذا هو مجمل عقيدة المؤمن التى يجب عليه الإيمان بها ، والتى كانت سائدة فى عصر الرسول ـ عليه السلام ـ وعصر أبى بكر وعمر وبعض عصر عثمان ، رضى الله عنهم . وبجانب الآيات التى تتخالف فى ظاهرها بين التنزيه والتشبيه توجد آيات أخرى فى القرآن الكريم تتعارض فى ظاهرها فى أن الإنسان مجبور فى أفعاله أو مختار ، فإننا نقرأ فى سورة واحدة هى « هل أتى على الإنسان حين من الدهر » آية تدل على اختيار الإنسان فى أفعاله « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا » : ثم نقرأ فيها آية أخرى تدل على جبره فى أفعاله « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » . ولقد احتج الدمشقى صاحب القول بالاختيار بالآية الأولى ، ويقال إن عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ احتج عليه بالآية الثانية فأسكته [1] .

ولكن هل عارض مثل هذه الآيات بعضها أحد من المسلمين فى العصور التى نتحدث عنها ؟ كلا فيما نعلم ، لأننا لم نر شيئا من هذا قد ذكر لا فى كتب المتقدمين ، ولا فى كتب المتأخرين ، اللهم إلا ما ذهب إليه أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى صاحب كتاب « الملل والنحل » من أن قول بعض المنافقين فى يوم « أحد » « هل لنا من الأمر من شىء » وقولهم « لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا » وقولهم « لو كانوا عندنا ما ماتوا

---

(١) تاريخ الفرق الإسلامية ص ٣٤ لصاحب المقال .

وما قبلوا « ما هو إلا تصريح « بالقدر » ، وكذلك ما حكى عن المشركين في قوله تعالى « لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء » وقول طائفة منهم « أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » ما هو إلا قول « بالجبر » . على أن ما نقله الشهرستاني إنما كان من المنافقين والمشركين ونحن إنما نتكلم عن حال عقيدة المسلمين ، ولا شك أن كل مسلم كان يؤمن بالقرآن الكريم سواء منه آياته الدالة بظاهرها على « الجبر » وآياته الدالة على « الاختيار » .

إنه لا يمكن وصف أفعالنا كلها « بالاختيار » وإلا كنا أشباه آلهة ، ولكن لتصحيح المسئولية وتنفيذ الشرائع أعطينا قدرا من الاختيار يمكننا من القيام بما كلفنا به الشارع الحكيم من دون أن تكون لنا القدرة على كل شيء ، وبجانب هذا القدر من الاختيار نجد أنفسنا عاجزين عن تحقيق كل ما نريده لأنفسنا من المطالب الدنيوية المباحة ، لأن كل الظروف والملابسات لا تخضع لإرادتنا المحدودة ، وإنما هي خاضعة لإرادة عليا ، هي إرادة خالق الكون ومدبره ، فمثلا الزارع يضع البذر في أرضه وهو يريد أن تأتي بخير الثمرات وأطيبها ، ويبذل ما في وسعه من العناية بسق الأرض وتنظيفها ، وتغذية النبات بمختلف الأسمدة ، ثم تأتي آفة سماوية أو أرضية تقضي على ما كان يؤمل من الجني الطيب والخير الكثير ، فقدرة العبد لم تمتد إلا الى أشياء بسيطة هي وضع البذور ، وري الأرض ، وتنقيتها من الطفيليات النباتية ، ولكنها عجزت عن دفع ما كان بقدرة الله وإرادته . هذه العقيدة الصحيحة في قدرة العبد وقدرة الإله وإرادتهما هي العقيدة التي كان يدين بها النبي ﷺ وأصحابه من بعده ، حتى جدت حوادث ، وقامت فتن ، كان لها ما كان من أثر كبير في تغيير عقائد المسلمين . إنه بناء على العقيدة الإسلامية الصحيحة التي بيناها كيف المسلمون حياتهم العامة والخاصة : يعملون ويرجون ، ويسعون ويتوكلون ، يحاربون ويذكرون ، حتى لا تخدع نفوسهم ويؤمنون بأن النصر من عند الله « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » .

وفي مقال تال نذكر إن شاء الله ، كيف أن الرسول - عليه صلوات الله - وأصحابه من بعده نفذوا المنهج القرآني اعتقادا وعملا بما حقق الغاية في أقل زمن ، ثم نأخذ في ذكر ما دخل على العقيدة الإسلامية من الآراء الفلسفية التي كادت تباعد بينها وبين معينها الأول الصافي ، وهو القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، حتى يظهر لنا واضحا أنه لو رجع المسلمون إلى هذا المعين لتغير حال المسلمين ، وصلح أمر المؤمنين .

علي مصطفى الغرابي

فتوى بإباحة تكذيب رسول الله
ودعوة الأمة إلى أن تنسخ ما تشاء من القرآن

فاضحتان خبيثتان في مجلة دار التقريب

في العدد الأخير (الرابع للسنة الرابعة) من مجلة دار التقريب بين المذاهب، مقال لرئيس المحكمة الشرعية الشيعية العليا في لبنان عنوانه: « من اجتهادات الشيعة الإمامية » جاء فيه ما يأتي في ص ٣٦٨ :

«إن في كتب الشيعة الإمامية اجتهادات لايعرفها الخواص من علماء السنة، ولو اطلعوا عليها لقويت ثقتهم بالشيعة وتفكيرهم».

ثم أورد رئيس المحكمة الشرعية الشيعية العليا ثلاثة أمثلة من اجتهادات الشيعة ليقوّى بها ثقة علماء السنة بالشيعة وتفكيرهم. ونحن ننقل أوسطها. وهذا نصه بالحرف الواحد :

لايجب التدين بقول الرسول في غير الأمور الدينية :

قال الشيخ محمد حسن الاشتياني في كتابه (بحر الفوائد في شرح الفرائد) ج ١ ص ٢٦٧ :

« إن الرسول قد يخبر عن الشيء باعتبار كونه شارعاً ومبلغاً عن الله سبحانه ومأموراً بتبليغه إلى العباد، وقد يخبر لا من هذه الحيثية، بل يخبر عن شيء لا دخل له بشريعة سيد المرسلين مثل كيفية خلق السماوات والأرض، والحور والقصور، وما إلى ذلك مما لا يرجع إلى الإخبار عن الأمر الديني. فما كان من هذا النوع فلا إشكال أنه لا يجب التدين به بعد العلم به ـ أي بعد العلم بصدوره عن الرسول ـ فضلا عن الظن به ».

هذا نموذج من اجتهادات الشيعة التي أوردها رئيس المحكمة الشيعية العليا ليقوّي بها ثقة علماء السنة بالشيعة وتفكيرهم. وقد أراد أن يزيد علماء أهل السنة علماً بهذا المجتهد الشيعي وكتابه الذي نقل منه هذه الفتوى الشيعية فقال في ص ٣٦٩ : « كان هذا الشيخ الجليل (يعني محمد حسن الاشتياني) من علماء القرن الثالث عشر الهجري، وهو من كبار مراجع الشيعة الإمامية، وكتابه هذا بحر الفوائد المعروف بحاشية الآشتياني على الرسائل يقع في مجلدين، طبع في إيران بالطبع الحجري سنة ١٣١٥ هجرية، وموضوعه الأصل الرابع من أصول الفقه، أي الأدلة العقلية على الأحكام الشرعية».

إذن فهذا الاجتهاد الشيعي أو الفتوى الشيعية لرجل يعده الشيعة الإمامية من كبار مراجعهم، والنص منقول من كتاب له في أصول الفقه، وهو يعد ما ثبت صدوره عن

النبي ﷺ من أمور الغيب كوصف الجنة وخلق السماوات والأرض ليس من الضرورى تصديق النبي ﷺ به ، لأنه فى زعمه مما لا يرجع إلى الإخبار عن أمر دينى ، أى أن « الغيب » ليس عندهم من الأمر الدينى ، و « الإيمان بالغيب » ليس عندهم من الإيمان الإسلامى ، والنبي ﷺ إذا أخبر عن مثل هذا من أمور الغيب - وإن ثبت العلم بصدوره عن الرسول - فإنه لا يجب التدين به ، أى بصدق الرسول فيما أخبر به من هذه الأمور .

وهذه الفتوى الشيعية تنافى الاعتقاد بعصمة النبي ﷺ ، ومن العجيب أن يرتاب فى عصمة خاتم النبيين من يؤمن بعصمة طفل دخل السرداب قبل ألف سنة وينتظر خروجه منه بعد مر كل هذه العصور !

إن الجرأة على الإسلام بمثل هذا القول الواضح المكشوف لم يسبق صدورها عن فرقة من فرق الإسلام مهما كان موضعها من دركات النار .

• • •

وفى هذا العدد نفسه (ص ٣٧٦ — ٤٠٢) مقالة أطول من ليالى الشتاء لكاتب نعتته المجلة بأنه « الكاتب الكبير » ، يدعو فى ص ٢٩٢ — ٢٩٣ منها إلى أن تفهم الأمة الإسلامية من معنى قول الله عز وجل « وأمرهم شورى بينهم » أن لأية أمة إسلامية أن تؤلف جمعية تشريعية تملك أن تنسخ ما تشاء من أحكام القرآن ، لأن آية « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » لم ينته حكمها بوفاة الرسول عليه الصلاة والسلام كما تبادر إلى ذهن بعضهم ، كلا ، فإن القرآن قد نص على أن الأمة وحدها هى مصدر السيادة والسلطة ، وليس الله . « هكذا يقول كاتبهم الكبير بالحرف الواحد » . نعم كان الله هو المشرع ابتداء ، ثم غدا التشريع إلى الأمة انتهاء . لأن الله سبحانه — رحمة بالناس — هو الذى رد هذه السلطة إلى الأمة حين قال « وأمرهم شورى بينهم » . ثم ألا ترى أن حق الله يفسره الفقهاء دوما بأنه حق الجماعة » .

هذا نص كلام كاتبهم الكبير بالحرف . ومن المدهش تعليق تلك المجلة عليه بقولها : « لعل السيد الكاتب يتفضل بتوضيح رأيه فى النسخ وجواز أن يكون فى القرآن ، وأن يقع بحكم من الأمة بعد الرسول ﷺ » . فهى لم تكتف بهذا الكلام الواضح الذى يرمى إلى تقويض الإسلام من أساسه الأعظم ، ولا تزال تغرى صاحبه بأن يستأنف القول فيه لتزداد المجلة علما بهذه المعارف ، ولتمعن فى نشرها على قرائها منتهزة فرصة غفلة الناس عنها .

م . خ

أثر العقيدة في نفوس المسلمين

يرى الناظر اليوم في أفق الإسلام طالعاً من السعد ينبثق ضوءه من خلل السحاب ويلوح سناه من سجف الظلام .

ويرى المتأمل اليوم في حال المسلمين أن نفوسهم توثبت إلى العمل ، وأن إحساسهم بالحياة قد شغل أفكارهم وعقولهم .

ذلك أن أعصابهم قد سرت فيها موجة من اليقظة نبهت المشاعر ، وأرهفت الأحاسيس وأن شرايينهم التي كانت بطيئة النبض قد جرت فيها دماء الحياة الفوارة فأكسبتها القوة ، وأورثتها الحركة ، ووهبت لها النشاط .

وإذا شعرت الأمة بالألم الذي يتمشى في عظامها ، وأحست بالداء الذي ينساب في كيانها فقد انبلج صبحها ، وانبثق ضوؤها ، وأشرقت شمسها .

وإن من يقارن الآن بين مسلمي القرن الماضي ومسلمي القرن الحاضر فإنه — من غير شك — يعلم أن جيل اليوم قد نفض عنه غبار الكسل ، وطرح عنه رداء الذل ؛ وأن أمة التي تمتد جذورها إلى أعماق الماضي لا بد أن تعود إلى مكانها من صدر الوجود ، ولا بد من ربيعها وإن طال الخريف .

حقاً إن أشبال الفاتحين الذين دوخوا الأمم وغيروا وجه التاريخ ، وأطاحوا الملوك وثلوا العروش ، قد هبوا الآن يطلبون عز الحياة بعز الممات ، وينشدون شرف البقاء بشرف الكفاح .

وإن أسباب هذه اليقظة التي سرت سريان الكهرباء في نفوس المسلمين ، تلك العقيدة الدينية التي غرسها الإسلام في قلوب ذويه ، فأورثتهم القوة والثبات ، والمضاء والإقدام وذلك القانون السماوي الذي اجتث من نفوس بنيه خور العزائم وجبن القلوب ، والإقامة على الضيم ، وسلك بهم مسالك العز ، وسبل الكرامة ، وطرق البطولة .

وإذا كان للأمة عقيدة ثبتت أصولها ، وقانون أحكمت آياته . فإنها تكون لقواد الإنسانية مثلا مضروبا ، يلهم الصبر على مكاره الأمور ، والاستمساك في مزالق الفتنة ، والاستبسال في مواقف المحنة ، والاستشهاد في سبيل الغاية ، والطموح إلى المقصد وإن طال وقته وامتد زمانه .

وإن أمة ألقت على الأمم دروس الحضارة ، وبثت في الشعوب أضواء المعرفة ، ووصلت إلى المدنية بعقيدتها ودستورها لن تغيب شمسها ، ولن يأفل نجمها ، ولن يخبو ضوءها .

وإذا كان بعض من السحب كونه الإهمال في سماواتها ، وليده التواكل في آفاقها ، فإن نفحة من نسيم تلك الحياة الكامنة في نفوسها كفيلة بأن تذهب تلك الغيوم ، وترجع لها الصفاء والضياء .

لقد جاهد المسلمون الأولون على ضوء عقيدتهم وكتابهم جهاد الأبطال المغاوير حتى وصلوا إلى رغباتهم من الفتح ، واستتب لهم هذا الملك الواسع الذى ترن فى أجوائه كلمة التوحيد ، وترفرف فوق ربوعه راية الإسلام .

ولقد لحقهم فى سبيل ذلك شدائد عظيمة ، وأهوال جسيمة ، فكان من الضرورى بعد ذلك أن يأخذ ذلك الجيش المجاهد المكدود راحته ، وأن يستقر حتى يجدد قوته ، ثم يستأنف المسير إلى الغاية المرجوة والأمل المنشود .

فكل ما شوهد من وقوف فى حركة الجهاد الإسلامية فى القرون الأخيرة إنما هو إناخة فى الطريق كما ينيخ المسافر بعد الضرب فى الفيافى حتى إذا أخذ حظه من الراحة ارتحل بالزاد ، واستأنف المسير .

وإذا قال قائل : إن الفترة التى أناخ فيها المسلمون قد طال أمدها حتى استحالت إلى استنامة ، وإن استنامة الأمم مقدمة الزوال وسبيل الفناء .

إذا قال ذلك ، قلنا له : قد يكون ذلك صحيحاً لو أن الأمة الإسلامية لديها من مسببات الفناء ، وعوامل الزوال ، ومعاول الهدم ما لدى الأمم البائدة .

ولكن أمة يؤازرها الخلق ، وتظاهرها الفضيلة ، وتجملها العقيدة ، ويرشدها الكتاب ، لن تطوى صحيفتها ، ولن تمحى آثارها ، ولن يتقوض بناؤها .

وإلا لكفى قرن واحد من القرون الخمسة الماضية التى وقفت فيها وقفة المدافع أمام هجمات الأعداء ، لدرجها فى أكفان الموتى ، ودفنها فى مقابر الأمم الزائلة ، ووضعها فى سجل الذاهبين .

إننا إذا رجعنا إلى التاريخ وقرأنا أخبار الشعوب التى مال ميزانها ، وأحصينا عدد السنين من ابتداء زوالها إلى مغيب شمسها ، ثم قابلنا بينها وبين الأمة الإسلامية التى يزعم بعض الاجتماعيين أنها شرعت تزول ، - إننا إذا فعلنا ذلك علمنا أن تلك الشعوب قد أسرعت إلى الفناء سرعة الماء من مصبه إلى منحدره ، وأن أسباب فنائها هو الحرمان من العلم والفضيلة ، والانغماس فى الجهل والرذيلة ، والتجرد من العقيدة الخالصة ، والدستور المستقيم . ذلك أن الأمم إذا هى لم تطر بجناحين من العلم والمعرفة ، ولم تستند على سندين من التربية

والخلق ، ولم تسترشد بهديين من العقيدة الصافية ، والأحكام النافعة ، - إذا لم يكن لها كل ذلك كان انزلاقها سريعاً ، وسقوطها وشيكا :

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويـــلا

وإن الأمة الإسلامية قد توفر لديها من العلم والفضيلة ، والخلق والعقيدة ، والحكم والأحكام ، ما حومت به فى سماء المعالى زمانا طويلا ، وطارت به فى آفاق الكمال دهرا مديدا ، وملكت به ناصية الوجود .

وإذا كان هذا شأنها فحال أن تتخاذل اليوم فى مشيتها وفيها كل هاتيك المميزات ، ولو كان طريقها علوءا بالحسك والقتاد .

وإذا تساءل بعض الناس عن سبب تلك اليقظة التى اهتزت بها اليوم أعصاب المسلمين ، ونبهت منهم المشاعر والأحاسيس ، قلنا له : إن السبب هو احتكاك الأمم الطامعة بالأمم المطموع فيها ، واعتداء الشعوب القوية على الشعوب الضعيفة ، وطرح العهود والمواثيق ، ونسيان الحقوق ونبذ الواجبات .

كل هذا قد حرك عقولهم بالتفكير فى أقوم الطرق التى تتقى بها الخطوب ، وأنجع السبل التى يدفع بها العدوان ، وعاد بهم إلى الاعتصام بدينهم ، والاهتداء بدستورهم ، والاستمساك بهدى نبيهم .

ولو لم يقرءوا فى آيات كتابهم سوى قوله تعالى : « واعتصموا بحبـــل الله جميعا ولا تفرقوا » - وقوله : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » - وقوله : « إنما المؤمنون إخوة » لكان ذلك كافيا فى إنشاء وحدتهم ، وتدعيم قوتهم ، وتوحيد صفوفهم توحيدا يصد كل اعتداء ، ويبدد كل لأواء ، ويرد كل عاصفة هوجاء .

وإذا لم يقرءوا سوى قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » - وقوله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم » - وقوله : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون » - أقول : إذا لم يقرءوا غير هذا لكان كافيا فى دفعهم إلى الأمام ، وهبوبهم فى وجه من يحاول اغتصاب حقوقهم هبوب العاصفة الذارية ، والغارة الجائحة .

وها هم المسلمون اليوم أمام ما يعترضهم من النكبات ، وأمام ما يوجه إليهم من اعتداءات قد تقاسموا على الائتمار بأوامر كتابهم ، والعمل بكل ما يحثهم عليه من جهاد وتضحية حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير .

عبد الرحيم فرغل

آراء وأحاديث

إن من ينظر فى تاريخ المسلمين فى القرون الأولى ، يرى فيه ظاهرة من ظواهر الأمم المتقدمة ، وهى البحث الفكرى والإنتاج العلمى . فقد كان همهم الدرس والبحث والنقد والابتكار ، فقد ابتكروا علوما وجددوا فنونا ، وما بين أيدينا من ميراث علمى فى النحو والصرف والعروض والبلاغة والفقه وأصول الفقه وأصول الدين وعلوم التفسير والحديث والفلسفة ، هو من إنتاجهم وابتكارهم .

ثم خلفت خلوف تركوا الإنتاج والابتكار والنقد ، ووقفوا عندما ترك الأولون : لم يزيدوا حرفا ، ولم ينقدوا رأيا ، ولم يتنجروا قاعدة ، هذا العقم فى العقل والجدب فى الفكر مرض من أخطر الأمراض يجب علاجه ، لأن الأمم إنما تتفاضل بعقولها ، وتمتاز بالإنتاج العقلى والبحث الفكرى ، والأمم التى تخصب عقولها ويكثر إنتاجها العلمى هى التى تعرف مجهولات الطبيعة وتسير على هدى فى هذا الوجود ، والأمم التى تجدب عقولها ولا تثمر أفكارها ، لا تفهم نفسها ولا ما حولها وتتخبط فى هذه الحياة . وقد رأت المجلة أن تطب لهذا الداء بفتح باب من النقد تعرض فيه فكرة ما وتتناولها الأقلام بالتفنيد أو التأييد . وهذا فيه تمرين عظيم على البحث والإنتاج ، ويدعو القراء إلى إعمال عقولهم ، وكد أفهامهم لتبين الحق ومعرفة الصواب .

وقد بدأنا بنشر بعض بحوث لمدير المجلة فى علوم البلاغة تحت عنوان :

« علوم البلاغة فى الميزان » وسيرى القارىء أنها إبطال لبعض القواعد البلاغية التى قررها الأولون واعتمدها المتأخرون ، وهو مما يدرس فى دور العلم المختلفة من الأزهر والجامعة ، ووزارة المعارف . ومن أجل ذلك ستتوفر الدواعى على معرفة هذا النقد والنظر فيه والعمل على إبطاله أو تأييده ، لأنه ينقد تراثاً علمياً عظيماً ورثوه عن آبائهم وهو عزيز عليهم ، فهم يحامون عنه ، ويذودون من رماه ، ولأن ما يبطله مما اتفق عليه علماء البلاغة فهل بعد

الصواب عن هؤلاء جميعا ويعرفه واحد ؟ ومن هم هؤلاء الذين أجمعوا عليه ؟ هم المتقدمون من عهد السكاكي إلى الآن .

فلو كان رأى فرد أو جماعة لجاز أن يدخل فيه الخطأ ، أما وهو رأى العصور المختلفة والأجيال المتعاقبة ، فمن العجب أن يدخل عليه الخطأ كل هذه حركات نفس ونزعات فكر تدعو الدارسين والباحثين إلى أن يستقبلوا هذا الباب بالاهتمام والنقد والتعليق ، وإذا كان ذلك ، أدركنا ما أردنا من تنشيط العقول وحفز الهمم للبحث والابتكار ، والله المستعان .

علوم البلاغة فى الميزان

فى علوم البلاغة العربية ، مجال للبحث ومواضع للنقد ، ففيها بعض الخطأ عما يجب التنبيه عليه وإصلاحه ، ليتعاون المفكرون على تنقية هذه العلوم ، ونحن سنمثل ببعض أمثلة من العلوم الثلاثة : المعانى والبيان والبديع .

(١)

إنى لأعجب لهؤلاء الكاتبين فى البلاغة من المتأخرين ، يعمدون إلى أسباب الحسن فى الكلام التى هدى إليها المتقدمون ، فيعللونها بغير عللها النفسية ، ويسوُّون بينها وبين غيرها ، حتى يصرفوا الذوق عن الإحساس بها وعن تذوقها ، كأنهم قد تواصوا فيما بينهم على أن يفسدوا هذا العلم إفسادا ، حتى لا يبقوا فيه شيئا صحيحا .

هُدِىَ المتقدمون – كعبد القاهر – إلى أنه قد يوجد شىء فى النظم فيكسب الكلام حسنا وجمالا ، كالحذف فإنك تحس من الكلام ، المحذوف منه بعض أجزائه ، فى بعض الحالات ، جمالا لا يكون إذا أنت ذكرت المحذوف ، ومثل لذلك بقوله :

قالت سمية قد غويت بأن رأت حقا تناوب ما لنا ووفودا
غىٌّ لعمرك لا أزال أعوده ما دام مال عندنا موجـودا

وقـوله :

تـأمب حتى قلت داسع نفسه وأخرج أنيابا له كالمعـاول

وقـوله :

غضبى ولا والله يا أهلها لا أطعم البارد أو ترضى

وقــوله :

وعلمت أنى يوم ذا ك منازل كعبا ونهدا
قــوم إذا لبسوا الحديد تنمروا حلقا وقــدا

وقال عبد القاهر : هذا باب يشبه السحر ، لأنك تراك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأشد ما تكون بيانا إذا لم تبن ، إلا أن عبد القاهر بين أن فى الحذف حسنا ولم يبين سبب هذا الحسن وعلته ، واكتفى بأن يعرض علينا الشىء الجميل ، ويضع أيدينا على موضع الجمال فيه وهو الحذف ، ويبين أننا لو ذكرنا المحذوف لما كان للكلام ذلك الحسن ، فأما العلة فى ذلك فلم يذكرها . ونحن إذا رجعنا إلى نفوسنا ، نجد أن العلة فى حسن الحذف فى هذه المواضع أمور نفسية ، وهى أن المحذوف تدل عليه قرائنه ، فإذا ذكر كان ثقيلا موضعه ، لأنه تعريف لما عرف ، وبيان لما بين . وإذا حذف رفعت المؤنة عن السامع بذكره ، ورفعت الكلفة التى يكون عليها عند ما يسمع حديثا معادا ، أو كلمة لم يجد فيها فائدة جديدة .

وبالجملة فالكلمة الخالية من الفائدة ، كالثقيل تقذى العين بوجوده ، فإذا لم تبصره فى موضع كان يتوقع وجوده فيه وجدت لذلك من الأنس والمحبة ما يغمر القلب سرورا . وإذا أردت أن تتبين شيئا شبيها بذلك ، فاستمع إلى رجلين أحدهما يطيل فى الكلام ويذكر ما ليست بحاجة إلى ذكره ويطيل فى غير طائل ، والثانى يهجم بك على الفائدة من أقصر طريق ، وكلما سار بك جدد لك فائدة . فإنك تجد للأول ثقلا على القلب وضيقا فى النفس ، وتجد فى الثانى خفة وتجديد سرور ولذة .

وشىء آخر ، وهو الهجوم بالسامع على المطلوب دفعة ، فإن مطلوبه فى مثل :

قال لى كيف أنت ؟ قلت عليل سهر دائم وحزن طويل

معرفة حاله فإذا قال عليل — فقد هجم به على المطلوب وكفاه مؤونة الانتظار . هذا ما نجده فى نفوسنا عند ما نسر لحذف كلمة ، ونبحث عن علة هذا السرور وهذا الارتياح .

وشىء آخر ـ هذه الجدة التى تراها فى هذا الأسلوب ، فإن الناس قد اعتادوا الأسلوب الذى لم يحذف منه شىء لكثرة دورانه فى الكلام ، ولم يعتادوا الأسلوب الذى حذف منه أحد جزأى الإسناد ، لقلة دورانه فى ألسنتهم فإذا سمعوا الكلام المحذوف منه شىء ، سمعوا الجديد الذى لم يألفوه ، والبدع الذى لم يعتادوه ، فاستمتعوا منه بما يستمتعون من الجديد

المبتدع ، والغريب المبتكر ، وليست هذه الجدة فى السمع فحسب ، بل هى جدة فى الفكر ، فقد كنت تتلق المعانى من الألفاظ فمدت تتلقاها من العقل ، يدل عليها ويشير إليها ، وإن ذلك ليروعك ويؤثر عليك وإن كنت لا تدرى ،أماه ولا مصدره .

جاء السكاكى والخطيب ومن بعدهما ، وأبوا أن يكون للحذف مزية على الذكر ، وجعلوا الحذف فى موضعه كالذكر فى موضعه ، وجعلوهما حالين من أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق اللفظ مقتضى الحال ، فيحصلان البلاغة ، ثم ذهبوا يبحثون عن المقامات التى تقتضى الذكر أو الحذف فقالوا : أما حذف المسند إليه فللاحتراز عن العبث بناء على الظاهر أو تخييل العدول إلى أقوى الدليلين من اللفظ أو العقل ، أو اختبار تنبه السامع ، أو مقدار تنبهه ، أو صونه عن لسانك أو صون لسانك عنه ، أو تأتى الانكار عند الحاجة ، أو ادعاء تعينه ، وجعلوا للذكر مقاما ، وهو أنه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه أو الاحتياط لضعف التعويل على القرينة ، أو التنبيه على غباوة السامع ، أو زيادة الإيضاح والتقرير ، أو إظهار تعظيمه أو إهانته أو التبرك بذكره ، أو استلذاذه ، أو بسط الكلام حيث الإصغاء مطلوب .

فأنت تراهم سوّوا بين الذكر والحذف عند المقتضى ، وقد كان يفهم من كلام عبدالقاهر أن للحذف مزية لا تكون لغيره ، ولو مشينا على ما مشى عليه عبد القاهر لعلمنا اختصاص الحذف بهذه المزية ، ودعانا ذلك إلى مراعاة الحذف فى أساليبنا ما وجدنا إلى ذلك سبيلا .

ونراهم قد ذهبوا عن العلل الحقيقية لجمال الحذف — وهى ما ذكرناها — إلى العلل التى ذكروها ، وبعض هذه العلل صناعية لا تخطر إلا ببال الذين توغلوا فى صناعة العلوم العقلية ، كتخييل العدول إلى أقوى الدليلين من العقل واللفظ ، وبعضها لا يخطر للبليغ المتكلم ولا للسامع ببال ، أما العلل التى ذكرناها فهى علل نفسية قد يشعر المرء بآثارها ، ولا يدركها ، ولكن الناقد العارف بخفايا النفوس يدركها ويؤمن بها .

ولقد رغبت أن أحلل كلامهم ما ذكرته من المعانى فقد قالوا : « وأما حذفه فللاحتراز عن العبث بناء على الظاهر ، أو تخييل العدول إلى أقوى الدليلين من العقل واللفظ » . فقلت قد قالوا « الاحتراز عن العبث » ، وهذا يؤدى إلى الاستثقال ، والحذف يؤدى إلى رفع هذا الاستثقال .

وقد لحظوا فى قولهم تخييل العدول إلى أقوى الدليلين من العقل واللفظ ، أن الدلالة على المحذوف عقلية ، ولكننى رأيتهم يرعون فى غير هذا الجانب . فقد قال صاحب المطول فى شرح

ذلك : « فللاحتراز عن العبث ، إذ القرينة دالة عليه فذكره عبث ، لكن لا بناء على الحقيقة في نفس الأمر بل « بناء على الظاهر » وإلا فهو في الحقيقة الركن الأعظم من الكلام فكيف يكون ذكره عبثاً ، وقيل معناه أنه عبث نظراً إلى ظاهر القرينة وأما في الحقيقة فيجوز أن يتعلق به غرض ، مثل التبرك والاستلذاذ والتنبيه على غباوة السامع ونحو ذلك » .

(٢)

لي من فلان صديق حميم لئن سألت فلانا لتسألن به البحر لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد .

هذه الأمثلة فيها جمال وبلاغة ، ويحس المرء بطرب لايجده إذا قال فلان صديق الحميم أو فلان كالأسد أو كالبحر . وقد أحس علماء البلاغة هذا الجمال فذهبوا يحدون ويميزون ويعرفون أسبابه ، وأخيرا سموا هذا النوع الذي أحدث ذلك الجمال : « التجريد » ، وقالوا في تعريفه ما يأتي :

التجريد أن ينتزع من أمر ذي صفة ، أمر آخر مثله فيها ، مبالغة لكمالها فيه ، فقولنا « لي من فلان صديق حميم » يؤخذ منه أن فلانا بلغ من الصداقة حدا صح معه أن ينتزع منه آخر مثله في الصداقة ، وكذلك « لئن لقيته لتلقين به الأسد » يؤخذ منه أنه بلغ من الشجاعة حدا يصلح معه أن ينتزع منه أسد مثله في الشجاعة ، وذلك لكمال الشجاعة فيه . وكذلك « لئن لقيته لتلقين به البحر » يفيد أنه بلغ من الكرم حدا صح معه أن ينتزع منه بحر مثله في الكرم وذلك لكماله في الكرم ...

وهذا تصور غريب لهذه الأمثلة التي فيها هذا النوع من البلاغة ، فلم تجر عادة ، أن المرء إذا بلغ حداً من الكرم ، صح أن ينتزع منه بحر مثله في الكرم وذلك لكماله فيه . وليت شعري ما هذا الانتزاع ؟ أهو بطريق الولادة ، أم بطريق آخر كانتزاع الصخر من الجبل ، أم كانتزاع الثوب من اللابس .

هذه الحالة لاتدل على كرم ولا على مبالغة فيه ، فما عهد أن الكريم إذا بلغ في الكرم المبلغ العظيم ، انتزع منه بحر يساويه في الكرم .

وإن فهم هذه الأمثلة على هذا الوجه يضيع بلاغتها ويفسد معناها ويجعله تصورا كتصور البله والممرورين ، كريم يلد بحرا ، أو شجاع يشتق منه أسد ، وصديق ينتزع منه صديق .

وقد كنا نفهم من هذه الأمثلة قبل أن نعرف التجريد في علوم البلاغة أن فيها حذفا :

لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد ، الأصل لتلقين بلقائه ، أى بسبب لقائه ، الأسد فحذف لقاء ، وإنما كنت تلق بلقائه الأسد ، شبيه لأنه فلست تلق بلقائه إلا أسدا ، وما الجمال فيه إلا من جهة أنه أعطاك التشبيه بطريق مكنى عنه ، لم يصرح به ، وأنه صوره بصورة الأسد ، حتى كأنك تحسه وتراه . ولست تجد أحدا له ذوق فى البلاغة يفهم من هذه الأمثلة إلا ما قدمناه ، وهو المعنى الذى يخطر لأول نظرة ، ولكن علماء البلاغة يأبون إلا أن يعملوه تجريدا وتوليد شىء من شىء ، ولم يلده ، وانتزاع شىء من شىء لم ينتزع منه .

ومن عجب ، أن هذا المعنى المتبادر قد شعر به بعض العلماء فذكره وأبان أن أمثلة التجريد مبنية على الحذف ، فأنكره العلماء المتأخرون وقاوموه ودفعوا فى صدره حتى لم يبق إلا هذا المعنى السخيف الذى ينكره الذوق وينبو عنه الفهم ويجعل الأسد منتزعا من الشجاع والبحر متولدا من الكريم وذلك مبالغة لكمال هذه الشجاعة فى هذا الشجاع وكمال الكرم فى هذا الكريم .

(٣)

« رأيت اليوم حاتما ، ولقيت مادرا ، وسمعت سحبان ، وكان فى المجلس باقل » ، هذه مثل تدور على ألسنة المتكلمين ، والغرض منها التشبيه ، تشبيه الممدوح بحاتم فى الكرم ، وبسحبان فى الفصاحة ، وتشبيه المذموم بمادر فى البخل ، وباقل فى الفهاهة . ولكن علماء البلاغة لا يقتصرون على ذلك بل يتأولون فى حاتم فينتزعونه من معناه وهو العلمية على الرجل المعروف من طيىء ، ويجعلونه كأنه موضوع للجواد سواء أكان ذلك الرجل المعهود من طيىء أم آخر غيره ، فبهذا التأويل يكون حاتم متناولا للفرد المتعارف المعهود والفرد غير المتعارف ، وهو من يتصف بالجود ، لكن استعماله فى غير المتعارف يكون استعمالا فى غير ما وضع له فيكون استعارة .

وإنما فعلوا ذلك ليحافظوا على الأصل الذى وضعوه ، وهو أن الاستعارة تقتضى إدخال المشبه فى جنس المشبه به ، بجعل أفراده قسمين: متعارفا وغير متعارف ، ولا يمكن ذلك إلا فى اسم الجنس ، ولا يمكن فى الأعلام لأن العلم وضع لذات مخصوصة لا يتناول غيرها ، فلهذا ارتكب هذا التأويل فيجعل العلم اسم جنس ليمكن ادعاء دخول المشبه فى جنس المشبه به .

ويرد هذا الذى ذهب إليه البيانيون، أنه ليس من أحد يتكلم بهذه الأمثلة يقصد هذا الذى قالوه، ولا يفهم أحد ممن يسمعها هذا المعنى الذى ذكروه، فما من أحد يقول: رأيت اليوم حاتما، ويدور بخلده أنه شبه ثم تأول حاتماً ننزعه من العلمية، وجعله كأنه موضوع للكريم الجواد وصار له فردان: فرد حقيقى هو ذلك الجواد من طيء، وفرد ادعائى هو ذلك الممدوح إلى آخر هذه الصورة.

وليس أدل على فساد هذا الرأى من أنه دعوى لما لا يخطر بذهن متكلم أو سامع، فنحن نشرح أقوال المتكلمين بما يريدون ويعنون، وكل هذه الصورة لا تخطر إلا بأذهان هؤلاء البيانيين الذين اخترعوها.

ضع يدك على أى بليغ ما تختاره وسله: ماذا يريد بقوله «رأيت حاتما اليوم»، فإنه يجيبك: أردت تشبيه هذا الكريم بحاتم فى جوده وكرمه.

وسله أهو تأول فى حاتم وأراد منه مطلق جواد، وأنه صار يشمل حاتم طيء وهذا الجواد الممدوح؟ فإنه ينفى ذلك كله، ويقسم أنه لم يرد شيئاً من هذا، ولم يرد إلا التشبيه بحاتم فى الجود.

على أنه إذا كان معنى حاتم الجواد فلا استعارة، لأن الجواد يطلق على سبيل الحقيقة على الممدوح، بخلاف أسد فى قولنا: «رأيت أسداً يرمى»، فإنه لا يطلق على الممدوح على سبيل الحقيقة فكان استعارة. وهذا التكلف العظيم ليحافظوا على أصل اخترعوه، وهو أن الاستعارة تقتضى دخول المشبه فى جنس المشبه به. وهذا الأصل أوردوا هم عليه اعتراضاً، وهو أنه كيف يدعى دخول المشبه فى جنس المشبه به ويقيم القرينة لتدل على أنه أراد المشبه لا المشبه به؟ وأجابوا بأنه بعد الادعاء صار المشبه به فردان: فرد حقيقى وفرد ادعائى، والقرينة قامت لنفى الفرد الحقيقى وتثبت الفرد الادعائى، فدخلوا فى باب آخر من الإغراب لم يرده متكلم ولم يفهمه سامع.

م . ع

فلسطين العربية الإسلامية*

١ — إن فلسطين بلاد عربية منذ أربعة عشر قرناً، وقد ظلت الموجات العربية قبل الفتح الإسلامي وبعده تتوالى عليها من آن لآخر. وإن الصبغة العربية راسخة فيها كل الرسوخ، وبرهان ذلك أسماء المناطق مثل: «مرج ابن عامر، وقرى، بنى صعب، وبنى زيد، والحارثية والقسطل، ووادى على وجبل القيسية، وبنى نعيم» إلى غير ذلك من أسماء الأماكن والقبائل والحمائل والعشائر العربية فى مختلف أنحاء فلسطين. وكانت فى فلسطين أشد الحملات الإسلامية لمقاومة الصليبيين بقيادة صلاح الدين ومن جاء بعده من الملوك والسلاطين المجاهدين، حتى أجلوهم عنها وعن سائر بلاد المسلمين، وبقيت إسلامية منذ ذلك التاريخ. وقد لبثت فلسطين تحت الحكم العثمانى نحو أربعمائة سنة حتى احتلها الإنجليز سنة ١٩١٨

٢ — تبلغ مساحة فلسطين ١٠٤٢٩ ميلا مربعاً، تساوى ٢٧ مليون دونم، وهى تؤلف القسم الجنوبى من سوريا «بلاد الشام».

أما حدودها الرسمية، كما كان الحال فى زمن الاحتلال البريطانى، فمن الجنوب تحدها أراضى سيناء المصرية حتى رأس طابة على خليج العقبة، ومن الشرق نهر الأردن وأرض «مملكة الأردن»، ومن الشمال أراضى جمهوريتى سوريا ولبنان، ومن الغرب البحر الأبيض المتوسط.

٣ — كانت فلسطين حين الاحتلال الإنجليزى عربية الصبغة، وكان عدد سكانها ٧٥٠ ألفاً، منهم حوالى خمسين ألفاً من اليهود، فتكون نسبتهم إلى مجموع السكان نحو ٦٪، وجدير بالذكر أن عدد اليهود فى فلسطين كان فى سنة ١٨٤٥ اثنى عشر ألفاً، وفى سنة ١٨٨١ نحو ٢٥ ألفاً.

ومنذ وقعت البلاد تحت الاحتلال البريطانى، فتح الانجليز أبواب الهجرة اليهودية على مصاريعها، حتى بلغ عدد اليهود فى سنة ١٩٣٩ نحو ٤٠٠ ألف من «مليون و٤٠٠ ألف» مجموع سكان فلسطين. وتدل الإحصاءات الرسمية على أن عدد المهاجرين اليهود الذين وصلوا

فلسطين منذ قامت حكومة إسرائيل سنة ١٩٤٨ إلى منتصف سنة ١٩٥٢ ، نحو ٦٥٠ ألفاً ، وما زالت عشرات الألوف منهم تصل فلسطين تباعاً ، رغم مايعانون من الأزمة الاقتصادية وقلة المساكن ، لأنهم يريدون أن يصل عددهم إلى مليونين فى وقت قريب .

ثورات عرب فلسطين :

منذ الاحتلال الانجليزى سنة ١٩١٨ ومأساة فلسطين العربية الدامية تمثل فصولا يقوم البريطانيون فيها بدور الظالم المتجبر الغادر ، واليهود يمثلون دور الطامع الوقح .

وقد ثار العرب على هذه المؤامرة الاستعمارية عدة ثورات دامية ، فكانت ثورة القدس سنة ١٩٢٠ ، ثم ثورة يافا سنة ١٩٢١ ، وكان من أشد ثورات عرب فلسطين ثورتهم سنة ١٩٢٩ ، بدأت فى القدس ثم اشتعلت فى الخليل وصفد ، ويافا ، وحيفا ، وغيرها من أنحاء فلسطين . وفى سنة ١٩٣٣ نشبت الثورة فى يافا والقدس وحيفا ونابلس . وفى عام ١٩٣٦ كانت الثورة الكبرى والإضراب العام الشامل اللذان استمرا ستة أشهر كاملة ، ثم توقفت الثورة لتدخل ملوك العرب ، فلما فشلت مساعيهم وخاب الأمل فيهم ، عادت الثورة إلى الاشتعال سنة ١٩٣٧ واستمرت ماتهبة إلى صيف سنة ١٩٣٩ ، وفى هذه الثورات الدامية استعذب أهل فلسطين الموت فى سبيل الله ، وضحوا بالنفس والنفيس ، وكم بذلوا من أرواح غالية ودماء زكية ، وكم لاقوا من عنت الإنجليز ومظالمهم ، ولكنهم مع ذلك قد كبدوا البريطانيين وحلفاءهم اليهود خسائر كبيرة فى الأرواح والأموال ، وأتلفوا للجيش البريطانى الكثير من قطاراته الحربية ومعداته العسكرية ، حتى اضطرت انجلترا أن تبعث إلى فلسطين فى سنة ١٩٣٦ و ١٩٣٧ بجيش جرار وأسراب كثيرة من طائرات القتال والسفن الحربية ، وعلى رأس ذلك المارشال ديل والمارشال وايفل من كبار قادة جيشها .

٤ — وتقع فلسطين من البلاد العربية بموضع القلب ، لأن البلاد العربية تحيط بها من كل الجهات ، وموقعها العسكرى ، الاستراتيجى ، من أهم المواقع ، وأشدها خطورة : فهى مفتاح بلاد العرب ، وتتصل حدودها اتصالا مباشرا بمصر ، وسوريا ، ولبنان ، والاردن ، والحجاز ، وإن قيام حكومة اليهود المعادية فى أرض فلسطين تهديد دائم وخطر شديد على البلاد العربية كلها ، وذلك خطر ليس من الناحية العسكرية ، السياسية فحسب ، بل هو خطر

اقتصادى واجتماعى ودينى ، لأن اليهود بفلسطين هم دعاة الشيوعية والفوضوية والإلحاد والإباحية . وأن الدول الاستعمارية المعادية للإسلام والعروبة قصدت من إقامة دولة لليهود فى قلب بلاد العرب ، تمزيق وحدة العالم الإسلامى والعربى ، وفصل أجزائه بعضها عن بعض أو فصل آسيا الإسلامية عن أفريقيا الإسلامية .

٥ ـــ أما الوضع الحالى فى فلسطين فيتلخص فى أن عصابات اليهود المسماة « بحكومة إسرائيل » ، قد أصبحت مسيطرة على القسم الأكبر من مدن فلسطين وقراها وأخصب أراضيها ومزارعها وبساتينها ، التى أجلى عنها مليون عربى ، باتوا لاجئين مشردين فى البلاد العربية ، ولم يتم ذلك بفضل قوة اليهود العسكرية ، وإنما تم نتيجة مؤامرة إنجلترا وأمريكا وغيرهما من الدول الاستعمارية التى أقامت هذه الدويلة المعادية فى قلب الأمة العربية نكاية بالمسلمين والعرب . ويدل على ذلك ما صرح به بن غوريون رئيس وزراء حكومة اليهود حيث قال : « إنما أحرزناه من النجاح ﺑ ٩٧ ٪ منه يعود الفضل فيه للسياسة ، و ﺑ ٢ ٪ منه فقط لجهودنا الحربية » .

وأما الأقلية العربية ، التى اضطرت للبقاء تحت حكم اليهود ، والتى يبلغ عددها نحو ١٧٠ ألفاً ، فهى تلاقى عنتاً وقسوة ومعاملة شديدة من سلطات اليهود .

وأما القسم العربى الباقى من فلسطين ، فهو خاضع لسيطرة الجنرال جلوب الانكليزى ، وإن كان تابعاً فى الظاهر لسلطة الأردن . وهذا القسم فى خطر شديد ، لأن اليهود يطمعون فيه قبل أى قسم آخر ، وهم إن لم يجدوا أمامهم القوة الرادعة المانعة فسيتابعون اعتداءهم وتوسعة مساحتهم على حساب البلاد العربية .

محمد صبرى عابدين
من علماء الأزهر الشريف
وأمين سر ديوان الهيئة العربية العليا بفلسطين



المعمّى واللغز

(تابع ما نشر فى العدد الماضى)

٢

٣ — وقد تقع التعمية فى الكلام من قبل تأليف الكلم وتركيبها ، فيوهم التأليف غير المراد وتختلط الأصوات ، فتصبح الكلمتان مثلا كأنهما كلمة واحدة .

ومن أمثلة هـــذا قول الشاعر (١) :

دنانيرنا من قرن ثور ولم تكن من الذهب المضروب عند القساطر

فقوله (دنانيرنا) يوهم الدنانير الذهبية من النقد ، ولكن القارىء يعجب من قوله بعد : « ولم تكن من الذهب » ، فيلتمس للكلام وجهاً آخر . وقد يوحى إليه بالمعنى قوله (من قرن ثور) ، وأياً ما كان الأمر ، فالشاعر يريد (دنا) أى قرب (نيرنا) أى النير الذى لنا ، والنير : ما يوضع فى عنق الثور أو الثورين فى جر الفدان . والفدان هو ما يعرف فى لسان العامة بالمحراث ، أما المحراث فى العربية فهو ما يحرك به النار . ويعرف النير فى لسان العامة بالناف . ومما أذكره فى هذا الموطن أن أبا الفتح بن جنى دخل يوما ديوان الإنشاء فى بغداد ، فوجد أحد الكتاب وبين يديه كانون فيه نار والبرد شديد ، فقال له الكاتب : تعال أيها الشيخ إلى النير ، فقال أبو الفتح : أعوذ بالله ، النير هو صماد البقر ، والصماد : سداد القارورة ، كأن النير سداد للثور يمنعه من الانطلاق . وقد ذهب الكاتب فى النار مذهب الإمالة ، ولكن أبا الفتح نحا نحواً آخر تظرفا . والقساطر جمع القسطر ، وهو الصيرفى الناقد للمال .

---

(١) انظر اللسان فى (نير) والتاج فى (قسطر) .

وقوله : (لم تكن) كذا بالتاء وهو يناسب الدنانير ، وكأنه روعى فى التير أنه أداة ، فأنث ليتم الإلغاز ، وفى التاج : « لم يكن » .

ومن أمثلته أيضاً قول تميم بن رافع المخزومى :

أقول لعبـــد الله لما سقاؤنا ونحن بوادى عبد شمس وهاشم (١)

والقارىء يبحث عما قاله لعبد الله فلا يراه فى البيت ، ويبحث أيضاً عن المسند إلى (سقاؤنا) ، ويبدو من قرن (هاشم) بعبد شمس أنه اسم رجل . وإنما يريد الشاعر : لما سقاؤنا ، وها : أى تخرق وتمزق ، فقوله (وها) فعل ، وحقه أن يكتب بالياء ، ولكنه كتب بالألف للإلغاز ، وقوله : (شم) أى شم البرق أى انظره عسى أن يعقبه المطر ، وهو مقول القول . وحاصل معنى البيت أنه كان مع صاحبه فى وادى عبد شمس فتخرقت القربة التى فيها الماء وأعوزهما ما يشربانه ، فقال لصاحبه : شم البرق عسى أن تغاث بالمطر .

ومنها ما أنشده أبو زيد :

وأطلس يهـــديه إلى الزاد أنفه أطاف بنا والليل داجى العساكر
فقلت لعمرو صاحبي ورأيته ونحن على خوص دقاق عواسر (٢)

الأطلس : الذئب ، وهو وصف من الطلسة ، وهى غبرة إلى سواد ، وذلك لون الذئب . والخوص الدقاق يريد الرواحل التى قد جهدها السير ، وقوله (عواسر) فى ظاهره وصف (خوص دقاق) ، والعواسر من النوق التى ترفع أذنابها عند السير يكون ذلك من نشاطها ، وحينئذ فأين مقول القول ؟ وإنما يريد الشاعر : قلت لصاحبي : عوى الذئب ، فسر ، فلما التصق : عوى وسر ، نشأ الإيهام ، وقد كتب عوى بالألف للإلغاز .

ومنها قول الشاعر :

عافت الماء فى الشتاء فقلنا برديه تصادفيه سخيناً (٣)

ويقال : كيف تجد الماء سخيناً إذا بردته . وهل هذا إلا ضرب من الإحالة ! وإنما يريد : بل رديه ولا تعافيه فستجدينه على غير ما ظننت ، ولما كانت اللام تدغم فى الراء فإن النطق

---

(١) أنظر اللسان فى (بير) ، والتاج فى (مسطر) .
(٢) انظر المغنى فى (لما) وشواهد المغنى للبغدادى ٢/٣٠٨ والمزهر فى النوع التاسع والثلاثين
(٣) الخصائص : إجراء اللازم غير اللازم .

يكون : يرُدّيه ، وقد كتب هكذا كالنطق رغبة فى التعمية . ويروى أن هذا البيت عرض على أبى عثمان المازنى فأجاب :

أيها السائلون لى عن عويص حار فيه الأفكار أن يستبينا
إن لاماً فى الراء ذات ادّغام فافصلنها ترى الجواب يقينا

ومنها قوله :

إنِ هندُ المليحةُ الحسناء وأيَ من أضمرت لخلٍّ وفاء [1]

ويقال : كيف رفع (هند) وهى اسم إنْ ؟ وما ناصب (وأى) ؟ والجواب أن (إنْ) أمر للواحدة من وأى أى وَعدَ . يقال فيه وأى يئى ، ويقال : يا هند إى ، وقد أكد بالنون فحذفت الياء لالتقاء الساكنين فصار (إن) وهند منادًى ، وقوله (وأى) مفعول مطلق لقوله (إنّ) ، أما (المليحة الحسناء) فهما وصفان للمنادًى .

ومنها قول الفرزدق :

يفلقن هاماً لم تنله سيوفنا بأسيافنا هام الملوك القماقم [2]

والبيت فى ظاهره مشكل غير بين المعنى . وإنما المراد : يفلقن بأسيافنا هام الملوك القماقم ، ولكنه زاد فى (يفلقن) الحرف (ها) وهو حرف التنبيه . ثم قال : مَنْ لم تنله سيوفنا ! وهو استفهام إنكارى ، فاختلط (ها) بكلمة (مَنْ) فنشأ (هاماً) ، ومن ثم جاء الإبهام والتعمية .

٤ — وقد تقع التعمية بعكس الضرب السابق . وذلك أن يؤتى بكلم يطلب أن يحل عليها عبارة لو فصلت لأدت معنى الكلم المسئول عنه ، ولكن التبست بالعبارة الواحدة من اختلاط الأصوات وتصاقب الكلمات . فيقال مثلا : ما مثل قولنا : قربت خشبتنا التى توضع على عنق الثور ، فيكون الجواب : دنانيرنا . وهذا الضرب يسمى التحاجى بالمقايضة ، وهو أن يؤتى بلفظ عوضاً عن لفظ آخر يتوارد معه على معنى واحد ، وعليه بنى الحريرى المقامة السادسة والثلاثين . ومن ذلك أن يقال : ما مثل النوم فات ؟ وجوابه : الكرامات

---

(١) انظر المغنى فى مبحث الهمزة .
(٢) الأمالى للقالى ١ / ٢٧٠ .

والكرامات فى الظاهر جمع الكرامة ، ولكنها تفصل إلى الكرى وهو النوم ، ومات وهو فعل الموت ، فتساوى المسئول عنه ، وهو : النوم فات .

ومما أورده الحريرى :

يا من سما بذكاء فى الفضل وارى الزناد
ماذا يماثل قولى جوع أمدّ يراد ؟

ومن أحاجيه قوله :

يا من يشار إليه فى الـ ـقلب الذكى و البراعه
أوضح لنا ما مثل قو لك للمحاجى : دس جماعه ؟

وجوابه : طافية : وهى فى ظاهرها وصف مؤنث من طفا على الماء ، والمراد : طأ فئة ، خففت الهمزة فيهما .

٥ ـــ وقد يقع المعمى فى الكلام من تقديم بعض أجزاء الكلم وتأخير بعض آخر ومخالفة النظم المألوف . ومن أمثلة هذا قوله :

معاوى لم ترع الأمانة فارعها وكن حافظاً لله والدين شاكر[1]

أى لم ترع شاكر ـــ وهى قبيلة من همدان ـــ الأمانة فارعها أنت يا معاوية .

ومن هذا قوله :

سألت ونحن فى البيداء عمرا على جمل ونحن نسير سيرا
فجاء به ولم يبخـــل علينا فقلت له : جزاك الله خيرا[2]

يريد : سألت عمرا سيرا ، أى سيرا من جلد .

ومنه قوله :

من نبات الكروم جاءت سلافا لم يدسها برجله العصارا[3]

يريد : جاءت العصار سلافا لم يدسها برجله .

---

(١) الخصائص ١/٣٣٠ (٢) شرح اللامية المعجم للصفدى ١/٢٢٦
(٣) المرجع السابق ١/ ٢٥٨

٦ — وقد تكون التعمية بإحلال الكلمة محل مرادفها . ومن هذا أن بعضهم سئل عن معشوق له فقال : هو أبو سفيان ، فقيل له : استعن عليه ببنت بسطام . أراد العاشق أن معشوقه صخر فى التمنع والقسوة ، وذلك أن أبا سفيان بن حرب أبا معاوية رضى الله عنهما اسمه صخر . وأراد محاوره ببنت بسطام : الصهباء . وهى الخمر . وقد كان لبسطام بن قيس ابنة تسمى صهباء .

ويقول صاحب كتاب كشف الأسماء : « ومن بديع عمل الترادف ما يحكى أن رجلا وقف على المأمون فقال له : مسامعى ولد الظبى عين ماء السلطان ، ففطن المأمون لمراده واستدعى بالقرطاس وكتب إلى ناظر نهر الملك : اخترناك فصرفناك ، واخترناك فصرّفناك . وكان الرجل شكا من ابن غزال ناظر نهر الملك ، فعزله المأمون . فقوله : (مسامعى) أراد : آذانى . وقوله (ولد الظبى) أراد : ابن غزال . وقوله (عين ماء السلطان) أراد : ناظر نهر الملك . وهذا يعد من غاية ذكاء المأمون » . فنرى أنه كنى بمسامعى عن آذانى التى هى جمع أذن ، ثم انتقل من هذا إلى آذانى الفعل من الإيذاء ، وكأن هذا تعمية بمرتبتين ، وأراد بولد الظبى : ابن غزال ، علم الإنسان ، وقال : (عين) وأراد الناظر ، وأراد بماء السلطان نهر الملك . وهذا عجيب حقاً .

٧ — وعند المحدثين ضرب من التعمية يكون بقلب حروف الكلمة . ومن هذا قوله :

يا أيها العطــار أعرب لنا عن اسم شىء قــل فى سومكا
تنظره بالعين فى يقظــة كما يُرى بالقلب فى نومــكا

فقوله (بالقلب) يريد بقلب الكلمة (نومكا) وقلبها أن تبتدىء بعجزها ، فتأتى بالكاف والميم والواو والنون ، ويحصل من هذا كمّون ، وإن كانت الميم فى كمّون مشددة ، وهذا هو المطلوب .

٨ — ومن ضروب التعمية : التعمية ، فى الشعر . وهو أن تجعل مكان كل حرف من البيت اسما ـ وتطلب الاهتداء إليه وإلى تأليفه . وهـذا صعب عسير . وقد عقد له أبو هلال العسكرى فصلا فى ديوان[1] المعانى ، وأبان طريقة استخراجه هناك ، ومن شاء أن يتوسع فى هذا فليرجع إليه .

(١) ج ٢ ص ٢٠٨

٩ ــ ومن ضروب ، التعمية : التعمية في الكتابة . فقد يلغز بالحركة والشدة إلى معنى بعيد . ومن أقوى الأمثلة على هذا ما ذكره ابن خلكان في وفيات الأعيان في ترجمة سديد الملك علي بن مقلد بن منقذ صاحب قلعة شيزر ، قال : « وكان موصوفاً بقوة الفطنة . وينقل عنه حكاية عجيبة . وهي أنه كان يتردد إلى حلب قبل تملكه شيزر . وصاحب حلب يومئذ تاج الملوك محمود بن صالح بن مرداس . فجرى أمر خاف سديد الملك على نفسه منه ، فخرج من حلب إلى طرابلس الشام ، وصاحبها يومئذ جلال الملك بن عمار فأقام عنده ، فتقدم محمود بن صالح إلى كاتبه أبي نصر محمد بن الحسين بن علي بن النحاس الحلبي أن يكتب إلى سديد الملك كتاباً يتشوقه ويستعطفه ويستدعيه إليه . وفهم الكاتب أنه يقصد به شراً ، وكان صديقاً لسديد الملك ، فكتب الكتاب كما أمر إلى أن بلغ إلى (إن شاء الله تعالى) فشدد النون وفتحها ، فلما وصل الكتاب إلى سديد الملك عرضه على ابن عمار صاحب طرابلس ومن في مجلسه من خواصه ، فاستحسنوا عبارة الكاتب واستعظموا ما فيه من رغبة محمود فيه وإيثاره لقربه ، فقال سديد الملك : إني أرى في الكتاب ما لا ترون ، ثم أجابه عن الكتاب بما اقتضاه الحال وكتب في جملة الكتاب : أنا الخادم المقر بالإنعام وكسر الهمزة من (أنا) وشدد النون . فلما وصل الكتاب إلى محمود ووقف عليه الكاتب سُرَّ بما فيه ، وقال لأصدقائه قد علمت أن الذي كتبته لا يخفى على سديد الملك ، وقد أجاب بما طيَّب نفسي . وكان الكاتب قد قصد قول الله تعالى : « إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » فأجاب سديد الملك بقوله تعالى : « إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها » فكانت هذه معدودة من تيقظه وفهمه .

هذا والعناية بكشف المعمى واستخراجه قديمة . وفي معجم الشعراء [١] للمرزباني ذكر محمد بن خلاد الكاتب ، وقال فيه : « معمعى » ، وكان من أحذق الناس بإخراج المعمى » ومن المعنيين به أبو الحسن العروضي ، ذكره أبو هلال العسكري . ومنهم أبو المعالي الحظيري الوراق صاحب كتاب : « الإعجاز في الأحاجي والألغاز » يقول فيه صاحب الخزانة : « وهو كتاب تكل عن وصفه الألسن ، فيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين » .

وقد توفر على البحث في المعمى في العصور المتأخرة علماء العجم ، كتبوا فيه بلغتهم ثم ترجموه إلى العربية ، وقد بقي لنا من كتبهم ، كنز الأسما في كشف المعمى ، لقطب الدين المكي الحنفي ، رحل إلى مصر سنة ٩٤٥ هـ وهو مخطوط في دار الكتب المصرية . ولصاحب الخزانة بحث جليل فيه في ج ٢ ص ١١٣ وما بعدها . والله الهادي إلى سواء السبيل .

محمد علي النجار
الأستاذ بكلية اللغة العربية

---

(١) ص ٤٢٦

الاحتكار والربح الفاحش حرام كالربا

تحدث مندوب « الأهرام » الخاص إلى فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر عن الأزمة المستحكمة التي تعانيها في هذه الأيام المواد الغذائية الضرورية ، بسبب اختزان بعض هذه المواد طلباً للربح الفاحش ، وطلب إلى فضيلته أن يوضح للناس حكم الشريعة السمحة في مثل هذا الإجراء ، وقد تفضل فضيلته بإجابة هذا الطلب وقال :

إن الاحتكار الذي حرمه الله عز وجل هو إمساك شيء من الأغذية وضروريات الناس ، والامتناع عن بيعها انتظاراً للغلاء ، حتى إذا ازداد اضطرار الناس إليها تحكم محتكرها ببيعها بالسعر الفاحش الذي يفرضه عليهم .

وهذا العمل حرام شرعا ، ولا يعد من البيع الحر الذي أحله الله ، ولذلك كان الكسب منه كسباً خبيثاً لا يباركه الله عز وجل ولا يرضى عن صاحبه .

إن مثل المحتكرين كمثل المرابين من جهة استغلال الفريقين حاجة الناس وتحكمهم فيهم بسبب هذه الحاجة . غير أن المحتكرين يزدادون عند الله إثماً من جهتين : إحداهما أن استغلال حاجة الناس إلى الأقوات والأغذية وما أشبهها أفظع من استغلال الحاجة إلى النقود . والثانية أن استغلال المحتكرين لأقوات الناس وضرورياتهم يعم ضرره جماهير الناس ، أما استغلال المرابين لحاجة من يحتاج إلى النقود فإن نطاقه ضيق يخص عدداً قليلا منهم ولا يعم جماهيرهم ، فإذا كان المرابي يأكل ربحه من الربا ناراً في جوفه لاستغلاله حاجة عدد محدود من الناس ، فالمحتكر يأكل ربحه من الاحتكار لهباً من نار الجحيم بقدر ما ينال جماهير الناس من أذى جشعه الذي لن يبارك الله له بشيء منه .

وقد صح في الحديث النبوي أن عاقبة المحتكر أن يضربه الله بالإفلاس ، أو بأخبث الأمراض وهو الجذام .

روى الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه في مسنده بإسناد صحيح ، أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى المسجد فوجد طعاماً منثوراً ، فقال : ما هذا الطعام ؟ قالوا : طعام جلب إلينا . قال : بارك الله فيه وفيمن جلبه . قيل : يا أمير المؤمنين فإنه قد احتكر . قال : ومن احتكره ؟ قالوا : فروخ مولى عثمان وفلان مولى عمر . فأرسل أمير المؤمنين إليهما فدعاهما فقال : ما حملكما على احتكار طعام المسلمين؟ قالا: ياأمير المؤمنين نشتري بأموالنا ونبيع . فقال عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ومن احتكر

على المسلمين طعامهم ضربه الله بالافلاس ، أو بجذام » . فقال فروخ عند ذلك : يا أمير المؤمنين أعاهد الله وأعاهدك أن لا أعود - أى إلى الاحتكار - فى طعام أبدا . وأما مولى عمر فقال : إنما نشترى بأموالنا ونبيع . قال أبو يحيى المكى راوى هذا الحديث : فلقد رأيت مولى عمر مجذوماً.

ومما يلاحظ فى هذا الحديث ، أن النبى ﷺ سمى الأغذية العامة المعروضة للبيع طعام المسلمين ، لأنه إذا كان للذى يشتريها لبيعها حق الثمن الذى يشترى به ثم يتقاضاه فى البيع ، فإن إباحتها فى السوق من حق المسلمين لأنها طعامهم وغذاؤهم ومن ضرورياتهم ، فبيعها لهم بالثمن هو من حق رأس المال ، وأما إباحتها وعرضها فى السوق فهو من الحق العام الذى هو حق الأمة ، واحتكارها اعتداء على الحق العام وهضم لحقوق الأمة .

وفى مسند الإمام أحمد أيضاً عن سعيد بن المسيب أن معمر بن عبد الله بن فضلة القرشى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا يحتكر إلا خاطىء » . والخطأ فى الشرع الخروج عن سبيل الشرع ، وسبيل الشرع هو سبيل الله ، ويا ويل من يخلىء سبيل الله لأجل كسب حرام غير مشروع يستغل به ضرورات الأمة فى غذائها وقوت عيالها ، فيستحق عليه ما أنذره به النبى ﷺ من الإفلاس أو الأمراض الخبيثة ، ويعاقب عليه يوم القيامة بما يستحقه الذين يسخطون الله فى إيذاء مخلوقاته .

وروى الإمام أحمد أيضاً فى مسنده عن الحسن البصرى عن معقل بن يسار رضى الله عنه وهو من أهل بيعة الرضوان ، وهو الذى حفر نهر معقل بالبصرة بأمر عمر بن الخطاب ، أنه لما ثقل المرض على هذا الصحابى الجليل جاءه أمير البصرة عبيد الله بن زياد يعوده ، فدار بينهما حديث ، ثم قال معقل رضى الله عنه : أجلسونى . ثم قال : اسمع يا عبيد الله حتى أحدثك شيئاً لم أسمعه من رسول الله ﷺ مرة ولا مرتين ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من دخل فى شىء من أسعار المسلمين ليغليه عليهم فإن حقاً على الله أن يقعده بعظم من النار يوم القيامة » . فقال عبيد الله لمعقل : أأنت سمعته من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، غير مرة أو مرتين .

ومن هنا يعلم كل مسلم يتاجر فى المواد الغذائية والضرورية للمسلمين ، أن احتكارها ليس من البيع الذى أحله الله ، بل هو كسب حرام وأشد ضرراً على عامة المسلمين من المراباة والعياذ بالله . والنبى ﷺ قد أنذر مرتكبه بالإفلاس والأمراض وبنار جهنم يوم القيامة . فليعلم المحتكر عاقبة عمله قبل أن يقدم عليه .

العناية بدراسة الإسلام في جامعات العالم

لا أعجب لشيء عجبي لجهل هذه الأمم الغربية باجتماعيات الإسلام وما فيه من مبادىء قوية للحياة القارة والهناءة الإنسانية، وللأمن والسلام الدولى والسلام المحلى. على حين أن هذه الشعوب الغربية الراقية قد بحثت كل شيء وتخصصت في كل شيء وبلغت الغاية في كل بحث إلا في شيء واحد، هو دراسة الإسلام واجتماعياته وأدبياته وتشريعاته، دراسة بأناة وإخلاص لمصلحة الحياة الإنسانية، دراسة بريئة من التعصب المسيحى الذى خلفته الحروب الصليبية ودعمته مؤلفات باطلة منتشرة جعلت الهوة سحيقة بين الشرق والغرب، وتركت آثارها التقليدية باقية في نفوس العلماء والباحثين بما بثته من ذلك في نفوس الناشئين في الكتب المدرسية. وعن هذه الهوة السحيقة بين الشرق والغرب. وتنافس الغرب في استعمار الشرق واستغلال خاماته وأسواقه وملايين الأيدى العاملة فيه، نشأت تلك الحروب الطاحنة التي عاد ضررها على الغرب بأكثر مما قد يكون عاد على الشرق، والتي لا تزال تضمر للعالم شراً ما حقاً يأتي على المدنية كلها — (إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون)، كل ذلك بسبب العصبية الوراثية عند العلماء الأوربيين ضد الإسلام ودراسته، بينما هو دين اجتماعي بالمعنى الذى لا يوجد في دين آخر ولا في قانون ولا دستور من دساتير العالم.

فأين العلماء الباحثون الاجتماعيون من الأوربيين والأمريكيين؟ وأين الدراسات الجامعية لتفتح أسوار اللغة العربية ويدرسوا هذا القرآن الكريم ويبحثوا فيه عن عناصر السلام كما يبحثون الآن في طبقات الأرض عن عنصر الأورانيوم. ومعلوم أن اللغة العربية قد كانت لغة العلم في القرون الوسطى وما قبلها فلم لا تدرس؟.

ولعمر الله لعنصر السلام والإصلاح في طبقات القرآن أدنى منالا من عنصر الأورانيوم في طبقات الأرض وأعم نفعاً وأعمق رحمة بالإنسانية وأدفع للشر فيما بينها.

والعبرة في البحوث العلمية والتشريعية وفي الاكتشافات إنما هي بمعيار ما تؤدى للإنسانية من خدمة وما يبدو فيها من نفع عام، ومتى يكون الميل إلى الخير أرجح من الميل إلى الشر في طبيعة البشر؟

وإذا كان القانون الروماني في سائر جامعات العالم ، يظفر بكراسي فيها ، وهو ما هو ، أفلا يظفر القرآن الإسلامي في تلك الجامعات بمثل تلك الكراسي وتتفتح له عيون وتصحو له قلوب وتدرس اللغة العربية في تلك الجامعات كما تدرس اللغة اللاتينية فيها ليتمكن العلماء الباحثون المنصفون من دراسة هذا الكتاب السماوي الحديث دراسة سليمة من التخبط الشنيع الذي وقع فيه كثير من المستشرقين ، لعاملين كبيرين لم يزالا في الأوساط العلمية الأوربية : أولهما ضعف المستشرقين في اللغة العربية ضعفاً يضحك القارئين لبحوثهم ، والثاني غلبة التعصب الصليبي في تلك الأوساط . وثالث وهو ما في نفوس الكثير منهم من الالحاد والمعاداة لأصل الأديان ، كل هذا حال بين المستشرقين وبين ما وجهوا أنفسهم إليه فخرجوا للناس في أوربا بصورة مشوهة للإسلام تزيد في بغضهم له ولأهله ، وبذلك ازدادت الفرقة بين الشرق والغرب .

ولو أن الجامعات العلمية خلعت عن أكتافها ثياب التعصب المسيحي ، واتجهت إلى هذا الركن من البحث في الإسلام وعناصره وأهداف كتابه المقدس ، لرأت بعيني رأسها ما هي تجهله الآن ، وهو أن القرآن كتاب اجتماعي إصلاحي أكثر مما هو كتاب عبادة ودين بالمعنى الذي يفهمه البسطاء من العبادة والدين ، فآيات القرآن الاجتماعية أضعاف ، عشرات المرات ، من آيات الصلاة والصوم والحج ، إذ ضعفت عقول قوم عن هضم هذه العبارات وما فيها من أسرار للنفوس والمجتمع .

وبما أن الشرق والغرب الآن تلتحم فيهما العلاقات الدولية وترغمهما على الاتحاد والامتزاج والتضامن والتكافل في درء الشيوعية والمبادئ الهدامة ، ويأخذان شكل جبهة واحدة ، والإسلام أشد إباء وصلابة ضد المبادئ الشيوعية ويعتنقه الآن أكثر من أربعمائة مليون مسلم . وقد جاء الوقت الذي يحتاج العالم إليه أشد ما يكون من احتياج .

فوجب نفض التعصب ضد الإسلام ، والانتفاع بمبادئه العالمية وكلها عالمية في خدمة سعادة البشر ورفاهيتهم ، وهذا قول نبي من الأنبياء ، ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد ، فلا يجرمن» قادة بريطانيا وأمريكا بغضهم للإسلام وازدراؤهم به أن يصيبهم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح أو قوم لوط . وما الحربان العالميتان السابقتان منهم ببعيد . هذا إرشاد القرآن .

وإذا كان العالم الآن على فوهة بركان يوشك أن يضطرب فيلتهم أمما ويمسحها عن وجه الأرض ، كأن لم تكن موجودة من قبل ، فلماذا لا يلجأون إلى كتاب مقدس بين أيديهم ينذرهم ويدعوهم إلى السلام ويقول ، والله يدعو إلى دار السلام ، ويقول ، إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ١٠ - ٤٤ ، ويقول ، قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون ١٠ - ٥٠ ، ويقول ، فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ، قل فانتظروا إنا معكم منتظرون ١٠ - ١٠٢ ، ولا شك أن الحرب الآتية هي حرب إبادة كما يعلمون .

والمشكلة الإنسانية الآن ، هي المشكلة الشائعة في كل زمان ومكان ، وهي أن من يملك لا يعرف ومن يعرف لا يملك . فالمسلمون الآن في أيديهم دستور حكيم عالمي يكفل الأمن والسلام للبشر ، ولكنهم لا يملكون تنفيذه لا في بلادهم ولا بثه في الروح الدولية العامة لضعف نفوذهم السياسي أولا ولتغلب الإباحية الفاجرة في العالم المتحضر الغالب بتقاليده على الحياة العامة . والإباحية الفاجرة هي العدو رقم (١) للإسلام الذي جاء بصورة جدية عميقة لا يعرف الهوادة في الشرور والفسق وما يسمونه الحرية الشخصية التي يعتنقونها في الغرب كما يعتنقون الطعام والشراب ، كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ١٠ - ٣٢ ، . . وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ١٧ - ١٦ ، والله يأمر الناس بالرشد والإنصاف فيما بينهم أفرادا وأمما ، وينهاهم عن الفسق والإباحية الفاجرة وهم يعصونه ويحاربونه فيدمرهم إن لم يتلافوا أمرهم - تدميرا كما دمر الأمم السابقة ، ونحن نعيش الآن في ديارهم وأرضهم ، أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ٩ - ٣٠ ، .

وهنا أقرر وأنا مطمئن إلى صدق ما أقول أن الأمم الغربية لهذا العهد ترضى أن تسحق سحقاً تاماً بالقنابل الهيدروجينية والذرية ولا ترضى أن تغير شيئا من أوضاعها الحالية في استغلال الشعوب الضعيفة واستعمارها وظلمها وفي نشر الإباحية الفاسقة والانحلال الأخلاق الفاشي في حياتها الاجتماعية وإلقائهم بالمرأة في ميادين الرجال ... وقواعد الحياة الاجتماعية في الإسلام غير ذلك .

محمد عبد السلام القباني

أستاذ بكلية الشريعة

من ذكريات الميلاد

من الأحداث الكريمة ما يغير مجرى التاريخ الإنسانى ، ويبدل أوضاع الحياة ، ويعدل سلوك الناس ، وينقلهم من ضيق إلى سعة ، ومن قلق الى دعة ، ومن حضيض إلى رفعة ، ومن ذل إلى عزة ، ومن فزع واضطراب إلى هدوء وأمن واستقرار .

ومن أنصع الحوادث التى مرت بالإنسانية ، فغمرتها بالنور والسعادة ، ونقلتها من الضلالة إلى الهداية ، ومن الظلم والفجور إلى العدل والتقى ، ومن حياة عابسة مضطربة مختلة الجوانب والأوضاع ، إلى حياة باسمة هادئة ناصعة الحدود مشرقة المعالم : ميلاد الرسول الأكرم محمد بن عبد الله النبى الأمى الذى أرسله ربه إلى الناس كافة ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم . فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون » .

لقد نشأ محمد صلوات الله عليه فى بيت طاهر كريم كله صلاح وتقوى وعبادة وتدين . وكان يطلق على أهله أهل الله ، لأنهم جاوروا البيت الحرام وقاموا بأمره وأخذوا أنفسهم بخدمته ، ومن هنا كانت لهم السلطة الروحية التى فرضت على الناس احترامهم ومحبتهم ، وقذفت فى النفوس تبجيلهم وهيبتهم ، وجعلت أقدارهم فوق أقدار الناس . وكان عبد المطلب جده يأمر أولاده بترك الظلم والبغى ويحثهم على مكارم الأخلاق وينهاهم عن دنيئات الأمور وكان يقول دائماً : لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه وتصيبه عقوبة الله . إلى أن هلك ظالم غشوم من أهل الشام لم تصبه عقوبة ، فقيل لعبد المطلب فى ذلك فقال : والله إن وراء هذه الدار دار يجزى فيها المحسن بإحسانه ويعاقب المسىء بإساءته .

ولما ولد رسول الله سماه جده محمداً ، وقيل له كيف سميته باسم ليس لأحد من آبائك وقومك فقال : إنى لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم .

ولقد تمثلت حياطة الله ورعايته لنبيه ومجتباه أتم تمثيل ، فقد مات أبوه قبل أن يولد ، فولد فى كنف جده عبد المطلب . هذا الرجل البر التقى الذى توسم فيه الخير وتنبأ له بالمجد والعظمة . وتوفى كافله عبد المطلب وهو فى الثامنة من عمره . فقام على كفالته وتربيته عمه أبو طالب ، وانتقل من قلب عاطف رقيق إلى قلب عاطف رقيق ، اتسع له بالحب والعطف

والشفقة أكثر مما اتسع لأبنائه ، فرعاه أحسن رعاية وحفظه أتم حفظ ، فكان لا يأكل إلا معه ويخصه بأطيب الطعام ، ولا ينام إلا إذا كان إلى جانبه ولا يسافر فى تجارة إلا كان فى صحبته وهكذا مما وعته صحائف التاريخ .

وأول عبرة نقتبسها من سيرته وسلوكه : الوفاء الحق الذى عز على الناس أن يأخذوا أنفسهم به وأن يردوا طباعهم إليه . فقد نشأ محمد يتيما فقيراً وكان لذلك أثره فى نظر الناس له وإقبالهم عليه ، فهذا اليتيم لابد له من مرضع تقوم بأمره وتتكفل بحضانته وتؤويه فى باديتها ، ليشتد جسمه ، ويشب عوده ، ويستقيم لسانه ، ويتسع أفقه ، وتقوى طبيعته فى جو البادية الفسيح .

أقبلت النساء على مكة يلتمسن الرضعاء فى عام ممحل مجدب ، وعرض عليهن الأطفال وفيهم محمد . فلا تكاد مرضع تراه حتى تنزوى عنه ولا تكاد رغبة تبدو فيه حتى تخمدها دوافع المادة ومطالب الحياة وإلحاح الحاجة ، وأخذت كل امرأة وليداً توسمت فيه الخير ورجت من ورائه المنفعة . وبقيت امرأة فقيرة يائسة ، أجهدتها الحاجة وألح عليها العوز فى سنة شهباء أكلت الأخضر واليابس وجففت الضرع وأتلفت الزرع وأعطبت الثمر ، تلك هى حليمة السعدية ، وبينا هى تتأهب للرحيل إذا بهاتف من أعماق نفسها يهيب بها ويستحثها أن يكون نصيبها هذا اليتيم الذى أجفلت عنه المراضع وفترت فيه رغبات النساء ، فاستجابت لهذا الهاتف وعادت إلى اليتيم فأخذته وهى أشد ما تكون حاجة إلى وليد ميسور الحال كثير المال . ولكن ببركة هذا المولود ويمن طالعه لم يلبث أن انهال عليها الخير لبناً يدر من ثدييها وحياة تدب فى ضرع ناقتها الهزيلة المسنة التى جففها الجوع والكبر منذ أمد طويل ، فرضيت واستقرت ونعمت حياتها ، ورأى الناس عليها مظاهر النعمة ، فكانوا يعجبون لما أصابها من نعيم بعد بؤس ورخاء بعد شدة ، وفطنت هى كذلك لنعمة الله عليها بهذا الرضيع الأغر الميمون النقية ، فكان أثيراً على نفسها حبيباً إلى قلبها محاطا بالإكرام والرعاية من زوجها وأبنائها ، وكانت بنتها الشيماء تفرح به لتلاعبه وتنشد له الأناشيد الحية .

وقد أرادت أمها ذات مرة أن تعنفها وتلومها على خروجها به فى الحر الشديد ، فقالت يا أماه والله إن الشمس لا تصيبه أبداً ، فقد رأيت غمامة تظله ، إذا وقف وقفت ، وإذا سار سارت ، ومكث عند حليمة حتى تم فصاله وأرجع إلى أهله .

على أنه بعد ذلك لم ينس لحليمة ما قدمت إليه من إكرام ، وما أسلفت له من رعاية ، لم ينس خدمتها وإخلاصها ، فوفى لها أكرم الوفاء وكافأ جميلها وذكر معروفها وبذل لها مما يملك ما قرت به عينها واطمأنت نفسها .

فقد روى أنها وفدت عليه بعد أن تزوج خديجة وشكت إليه الجدب والفقر والحاجة فأعطاها عشرين رأساً من الغنم وبكرات ، وفى هذا أنصع الدلالة على ما يكن فى فؤاده من تقدير كريم وعرفان صادق . وكانت بنتها الشيماء من بين من أسر من بنى هوازن بعد حصار الطائف ، فلما جيء بها إليه رجع بذكرياته إلى الماضى البعيد وإلى عهد الطفولة السعيد وإلى الزمن الجميل الذى قضاه معها فأكرمها وأعادها إلى أهلها كما رغبت وأحبت .

ذلك مثل كريم من أمثلة الوفاء النادر ، يجب أن يتدبره الناس ويهتدوا عليه فى حياتهم ويتأسوا به فى دنياهم . ويجب حين تطوف بنا ذكرى مولد الرسول الأكرم أن نذكر أكرم صور الوفاء وأروع آيات الإخلاص ، فإنه لا يهيج الأحقاد ويورث نار العداوة بين الناس مثل كفران المعروف وإنكار الإحسان .

وهذه صورة أخرى من صور وفائه وإنابته ، فإن أهل مكة كان قد أصابهم جدب شديد وحلت بهم ضائقة ماحقة ، وكان عمه أبو طالب ذا عيال كثير فآذته تلك الضائقة وأرهقه ما أرهق الناس من شدة وضنك ، فلما رأى محمد ما حل به وكان قادراً على أن يمد له يد العون والمساعدة لم يبخل ولم يتردد ، فاتفق مع عمه العباس على أن يخففا عنه الحمل وينهضا معه بالعبء ، فأخذ العباس جعفراً وأخذ محمد ﷺ علياً ، وقام بأمره وما زال عنده حتى بعثه الله نبياً فكان أول صبي آمن به وصدقه .

والعبرة الثانية التى تشرق من تاريخه وتنبجس من حياته ، الصبر على المكاره والثبات فى الحق وصدق الجهاد فى سبيل الله .

أوذى فى نفسه وفى صحابته ، فلم يلن عوده للخطب يرهقه ، ولم يتزعزع ثباته للحدث المدلهم مهما برح الألم . وقال له عمه : يا ابن أخى إنا لا نستطيع حرب هؤلاء القوم ولا طاقة لنا بخلافهم ، فاترك ما أنت فيه ولك ما تحب . فقال تلك الكلمة الخالدة التى وعاها سمع التاريخ : والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه .

فهذه السيرة العطرة وذلك التاريخ المشرق ، يحفل دائماً بأروع الأمثلة فى الصبر على الأحداث والثبات عند الخطوب وعدم الاحتفال للقوة الغاشمة مهما طغت واستبدت .

إنه يذهب إلى الطائف لدعوة أهلها إلى الحق وإلى رب العالمين فإذا بهم يقابلونه أبشع مقابلة ويحيونه أشنع تحية ويغرون به سفهاءهم وصبيانهم يرمونه بالحجارة حتى يدموا عقبيه ويجلس إلى جوار حائط متعباً مكدوداً ، ثم يتجه إلى ربه قائلا : « اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى » .

ويترك الرسول ﷺ مكة ويهاجر إلى يثرب فتظهر دعوته ، وتنتشر كلمته ، وتسرى فى الآفاق شريعته ، ويداخل قريشاً الحقد والغيظ ، ويدب فى نفوس العتاة الجبابرة مالا يستطيعون دفعه من الكراهية والحسد ، فيلتئم جمعهم ويجتمع شملهم وتتفق كلمتهم على أن يقوموا بعمل حاسم يقضى على الدعوة ويطمس ذلك التاريخ الحافل . وحالف قريشاً جميع القبائل الضاربة حولهم كما حالفهم يهود المدينة والمنافقون منها ، واختارت كل قبيلة أحسن رجالها وخير قادتها ، وزهرة أبنائها ، وخرجوا من مكة وعدتهم اثنا عشر ألفاً على رأسهم أبو سفيان بن حرب وفيهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص .

هنا يتجلى إيمان محمد وحكمته وحسن تدبيره ، يتجلى إيمان قائد يعوزه السلاح وتنقصه العدة فإن أتباعه عراة إلا من لباس التقوى ، ضعفاء إلا من قوة الإيمان ، مجردون إلا من سلاح الحق والثقة برب العالمين ورضا أحكم الحاكمين . استشار الرسول أصحابه . فقال البعض : يا رسول الله ما لنا بهم من طاقة . نعطيهم ثلث ثمار المدينة ليرجعوا عنها . وصاح سعد بن معاذ بكل قوته قائلا : يا رسول الله لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً ، أحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

واستقر الرأى على عمل خندق حول المدينة . فأخذوا فى الحفر ، وكان أبو بكر وعمر ينقلان التراب فى ثيابهما لأنهما لا يجدان مكاتل ، ورسول الله يأخذ المعول فيكسر الحجر

الذى يعترضهم فى حفرهم، ثم أخذ الجيش القليل يحرس الشـلم ورسول الله يحرس ثلثه فى البرد القارس والجوع الشديد .

وفى هذا الوقت العصيب الشديد الذى يواجه فيه المسلمون قوة عاتية طاغية باطشة مجهزة بالخيل والنبل والسلاح وخيرة الفوارس ، كان الرسول يطمئن المسلمين ويعدهم بالنصر ويقول « والله لتفتحن الشام ، ولتظهرن عليه ولا ينازعكم أحد ، ولتفتحن اليمن ، ولتفتحن هـذا المشرق » .

ويزيد على ذلك فيرسل إلى أبى سفيان قائلا « أما بعد فقديماً غرك بالله الغرور ، ولقد ذكرت أنك سرت إلينا فى جمعكم ، وأنك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا ، وذلك أمر يحول الله بينك وبينه ويجعل لنا العاقبة حتى لا تذكر اللات والعزى » .

ولقد حقق الله لنبيه وعده بالنصر ، فأرسل على قريش وأحلافهم ريحاً قوية وعواصف شديدة ، كفأت قدورهم وقلبت أخبيتهم وقلعت خيامهم ، فانقلبوا راجعين من حيث أتوا ، « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً » .

وهكذا كل ناحية من نواحى الرسول الأكرم تروع العالم بما فيها من جلال العبرة وسمو الموعظة وحسن الأسوة . صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحابته الأمجاد .

عبد الحميد محمود المسلوت
المدرس فى كلية اللغة العربية

أنى لك هذه ؟!

قال عالم الصحابة عبد الله بن عمر بن الخطاب :

أهدى أبو موسى الأشعرى الى عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل (زوجة أمير المؤمنين عمر) طنفسة أراها تكون ذراعاً وشبرا . فدخل عليها عمر فرآها ، فقال : أنى لك هذه ؟

قالت : أهداها إلى أبو موسى الأشعرى .

فأخذها عمر فضرب بها رأسها حتى نفض (أى تحرك واضطرب) ثم قال :

على بأبى موسى الأشعرى ، وأتعبوه ! فأتى به وقد أتعب وهو يقول :

لا تعجل على يا أمير المؤمنين . قال عمر : ما يحملك على أن تهدى لنسائى ؟ ثم أخذها عمر وضرب بها فوق رأسه وقال : خذها ، فلا حاجة لنا فيها . . .

تحديد الملكية في الإسلام

كان الفقه الإسلامي ولا يزال معينا للحاكمين على تحقيق العدل بين الشعوب ، فاتحا لهم باب النهوض بأممهم بنور الحق الذي يستمده من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وكثيرا ما جدت في الأرض مشاكل اجتماعية بل علل في جسمها مستعصية لو أن الفقه استشير في حلها لوضح أنه الطبيب النطاسي ولوقيت الأمة كثيرا من الآفات .

ومسألة اليوم : هي تحديد ملك الأراضي ، أي منع الناس من الزيادة على قدر معين فيما يتملكون ، وإجبارهم على بيع ما زاد على هذا المقدار إن كان لهم ملك يزيد عليه ، فما رأى الفقه الإسلامي في هذه المسألة ؟

قرر الإسلام حق ملكية الأراضي واحترمه ودافع عنه وأثبت للمالك حق الانتفاع بأرضه والتصرف فيها . فقد جاء الإسلام وأهل مكة والمدينة في أيديهم دور وأراض يملكونها ، فاحترم الإسلام هذا الملك ورتب عليه آثاره . وفي صحيح البخاري أن قوله تعالى « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم » الآية نزلت في يهودي غصب الأشعث بن قيس أرضه فترافعا إلى النبي ﷺ فلما عجز الأشعث عن البينة طلب يمين اليهودي ، قال الأشعث : إذاً يحلف ويذهب بمالي ، فنزلت الآية . وقوله تعالى « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم » يشير إلى أن أهل مكة أخرجوا بالهجرة من أرض كانوا يملكونها .

ولم يوقف الإسلام هذا الحق عند حد إلا عند الداعية ، فقد كان من الصحابة من أفرط في الثراء كعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ولم يتعرض الإسلام له . فقد صالحت إحدى زوجاته الأربعة وهي السيدة تماضر عن ربع ثمنها بثمانين ألف دينار .

وسواء أكان سبب هذا الحق : الشراء أو التبرع أو الميراث ، أما إذا كان السبب هو الاغتنام والاستيلاء بسبب الغلبة في الحرب فقد اختلف فيه المسلمون من عهد الصحابة فمنهم من يرى أنها مملوكة لأهلها الأول . ومنهم من يرى أنها ملك للجند الفاتحين ، ومنهم من يرى أن رقبتها ملك للدولة وللناس استغلالها وعليهم خراجها ، وفي ذلك تروى المناظرة المشهورة بين عمر وبلال رضي الله عنهما في سواد العراق .

كذلك حق تملك الأراضى مقرر محترم بإجماع المسلمين وقد كان مكان مسجد المدينة ملكا لبعض بنى النجار فثامنهم النبى ﷺ إياه.

لا يوقف الإسلام هذا الحق عند حد ولا ينتهى إلى غاية لأن الإسلام يأذن بحرية الكسب الحلال ويشجع عليه ويجعل عمل العامل له بعد أن يوفى لله حقه والدولة ضريبتها منه.

غير أن هذا الحق بطبيعته أمر مباح، والمباح يظل على إباحته إلا أن تترتب على مزاولته مفسدة أعظم من المصلحة التى شرع من أجلها، فعندئذ ينقلب المباح محظورا، كبيع السلاح من أهل الفتنة حيث يعود محظورا لأنه إعانة على الفساد فى الأرض، وكإحراق فضلات الزرع فى أرضه والريح شديدة، فإنه يعود محظورا، لأنه إضرار بالناس، وهذا كله عمل بقاعدة: إزالة الضرر عن المسلمين، التى قررها الحديث الكريم «لا ضرر ولا ضرار فى الإسلام»، ومن هذا ما روى عن أبى حنيفة من الكراهة التحريمية لأكل لحم الخيل: فإنه رحمه الله علله بأنه وإن كان مباحا فى الأصل لكن يترتب عليه مفسدة تقليل آلة الجهاد.

فإذا كان الإفراط فى تملك الأرض الذى هو حق مباح يترتب عليه مفسدة عظيمة وضرر كبير هو حرمان جمهور المواطنين من رزقهم وقوتهم الذى سبيله الزراعة واستثمار الأرض، على حين ينفق الملاك فيما يفيد وما لا يفيد ويعيشون عيشة الترف والسرف والتبذير فى المحرمات والشهوات أو يكنزونه ويحبسونه عن أفواه الجائعين أو مشاريع الخير، انقلب ذلك المباح محظورا وملك ولى الأمر سلطة إبعاد الناس عن مزاولة هذا الحق بقانون يسنه أو أمر يصدره، بناء على ما قررنا من أن زوال الضرر أمر محتوم ينبغى أن تتقيد تصرفات الناس به.

واعتبار الأملاك المجموعة فى أيدى قلة مع حرمان الكثير منها مفسدة كبرى بنص القرآن، حيث كرهها وجعلها من الآفات التى يجب إخلاء المجتمع عنها. فإن الله تعالى أمر بقسمة الفىء على من ذكرهم فى الآية الكريمة «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل». وعلل هذا بقوله «كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم» يعنى والله أعلم قسمنا الفىء فى الوجوه التى بينا كيلا يكون المال ملكا مجموعا فى يد الأغنياء يتداولونه بينهم ويتقلبون به ويتصرفون فيه بمحض شهواتهم ولا يصل إلى الفقراء منه خير. فاتخاذ المال على هذه الصورة شر مستطير ومفسدة عظيمة،

أمر الله بقسمة الفيء كي لا يقع الناس فيه . ونهى عنه نهيا صريحا بقوله بعد « وما نهاكم عنه فانتهوا » . وليس الأمر خاصا بالفيء بدليل قراءة الرفع فى « دولة » أى لئلا تقع دولة بين الأغنياء .

إذاً فكون الأراضى دولة بين الأغنياء ، مفسدة ينبغى أن تدرأ باجتناب كل ما يوصل إليها ، فإذا كان حق التملك من غير تقييد بحد معلوم يؤدى إلى تلك المفسدة وجب حظره والمنع منه لأن صاحبه أساء استعماله ، نظير ذلك التزوج بأكثر من واحدة فإنه حق أذن فيه الشرع وأباحه لكنه رفع هذه الإباحة إذا ترتب على استعمال هذا الحق مفسدة الظلم « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » .

بقى علاج تضخم الملك بإجبار المالك على بيع ما زاد على القدر المعقول فما رأى الفقه فيه ؟

عرف الإسلام الإجبار على البيع دفعاً للضرر الخاص كبيع العقار للشفيع دفعاً لضرر سوء الجوار ، والإجبار على بيع ما للمدين لقضاء دينه دفعاً للضرر عن الدائن ، والإجبار على قسمة المال القيمى ، وهى بيع من وجه ، لدفع ضرر تعطيل منفعة الشريك أو نقصها ، وعرف الإجبار على البيع دفعاً للضرر العام كبيع طعام المحتكر لحاجة الشعب إليه وامتناع مالكه عن البيع ، وكبيع أرض بجنب مسجد أو طريق ضاق أحدهما على الناس حيث يجبر صاحب الأرض على بيعها للدولة دفعاً لضرر يلحق مسجد العامة أو طريقهم ، ورووا فى هذا أن أصحاب الأملاك الملاصقة للمسجد الحرام أجبروا على بيع أملاكهم للدولة ليوسع بها المسجد على عهد الصحابة ، فكان ذلك إجماعاً منهم على جواز البيع الجبرى دفعاً للضرر ، وبالتالى تحقيقاً للمصلحة العامة . وهذه الأحكام كلها وإن كانت مستثناة من شرط الرضا فى العقود ، مبنية على قاعدة سد الذرائع .

وقد تقدم أن ترك المال دولة بين الأغنياء يتمتعون به فى حلال أو حرام ويتحكمون به فى إرادة الناس ويسلبونهم حريتهم ويحرم منه جمهور الأمة . قرر القرآن أنه شر مستطير ومفسدة كبرى كما بيناه ، فإذا لم يكن دفع هذا الشر إلا بإجبار المفرطين فى الغنى على بيع أراضيهم جاز ذلك ووسع ولى الأمر أن يفعله ، ونروى فى هذه المسألة أثرا عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يصلح شاهدا لها ودليلا عليها .

روى أبو عبيد فى كتاب الأموال وأبو يوسف فى كتاب الخراج واللفظ لأبى عبيد قال: وكانت بجيلة ربع الناس يوم القادسية فجعل لهم عمر ربع السواد وأخذوه سنتين أو ثلاثا قال: فوفد عمار بن ياسر إلى عمر ومعه جرير بن عبد الله فقال عمر لجرير: يا جرير لولا أنى قاسم مسئول لكنتم على ما جعل لكم، وأرى الناس قد كثروا فأرى أن ترده عليهم. ففعل جرير ذلك فأجازه عمر بثمانين ديناراً.

وتفسير هذا الأثر مع ما روى عن عمر أنه لم ير قسمة أرض السواد بين الفاتحين: أن هذه الأرض كما صحح النووى فى المنهاج قسمت أولا بين الفاتحين وكانت قبيلة بجيلة منهم، ثم استردها عمر بعوض وأقر أهلها الأول عليها. والأثر يفيد بصراحته أن عمر استرد الأرض من مالكيها لزيادة السكان حتى لا يكون المال دولة بين الأغنياء، وإن كانت هناك أسباب أخرى وردت فى الآثار.

هذا ولولى الأمر تحديد أعلى المقدار الذى يصح أن يبقى فى يد الغنى متوخيا فى ذلك العدل بين أفراد المجتمع.

هذا هو البحث كما استلهمنا فى تخريجه نصوص الشريعة وأصولا وضعها الأئمة وقواعد أحكموها وأشباها فرعوها والله يفتح لنا باب هدايته.

احمد فهمى أبو سنة
مدرس بكلية الشريعة

الطريقة الاسلامية فى قبول المنافع

روى الإمام أحمد أن عبد الله بن السعدى (وكان نزيلا فى الأردن من أرض الشام) قدم على عمر بن الخطاب فى خلافته، فقال له عمر: ألم أحدث أنك تلى من أعمال الناس أعمالا، فإذا أعطيت العمالة (أى الراتب أو المكافأة) كرهتها؟ قال ابن السعدى. — قلت: بلى!

قال عمر: فما تريد إلى ذلك؟ قال: إن لى أفراساً وأعبداً، وأنا بخير، فأريد أن تكون عمالتى صدقة على المسلمين. قال عمر: فلا تفعل. إنى كنت أردت الذى أردت، فكان النبى ﷺ يعطينى العطاء فأقول: أعطه أفقر إليه منى. حتى أعطانى مرة مالا، فقلت: أعطه أفقر إليه منى: فقال النبى ﷺ: «خذه فتموله وتصدق به. فما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل، فخذه. وما لا، فلا تتبعه نفسك».

حاتم الأصم

كانت وفاته سنة ٢٣٧ هـ واسمه : أبو عبد الرحمن حاتم بن عنوان الأصم [١] . وهو من أهل بلخ [٢] ، وكان أوحد من عرف بالزهد والتقلل ، واشتهر بالورع والتقشف ، وله كلام مدون في الزهد والحكم ، وأسند الحديث عن شقيق ، وشداد بن حكيم البلخيين ، وروى عنه حمدان بن ذى النون ، ومحمد بن فارس البلخيان .

وكانت حكمه وعظاته تتناقلها الرواة ، ويتحدثون بها فى المجالس حتى تصل إلى بغداد ، وكان له كلام عجيب يسمو سمو النفس البشرية ، ويتعالى عن دركاتها . قدم بغداد فاجتمع إليه أهلها ، فقالوا : يا أبا عبد الرحمن ، أنت رجل أعجمى ، وليس يكلمك أحد إلا قطعته ، فلأى معنى هذا ؟ فقال حاتم : معى ثلاث خصال ، بها أظهر على خصمى ، فقالوا : أى شىء هى ؟ قال : « أفرح إذا أصاب خصمى ، وأحزن له إذا أخطأ ، وأحفظ نفسى فلا أتجاهل عليه » . وبلغ هذا الكلام أحمد بن حنبل فقال : سبحان الله ما أعقله من رجل !

وكما سمع أحمد بن حنبل بحاتم الأصم ، سمع حاتم به ، إلا أن حاتما سبق فضله فبدأ بزيارته ، وسعى إليه . قال أبو جعفر الهروى : كنت مع حاتم مرة ، وقد أراد الحج ، فلما وصل إلى بغداد قال : يا أبا جعفر : أحب أن ألقى أحمد بن حنبل ، فسألنا عن منزله ، ومضينا إليه ، فطرقت عليه الباب ، فلما خرج قلت : يا أباعبد الله : أخوك حاتم ، فسلم عليه ، ورحب به . وقال له بعد بشاشة له : أخبرنى يا حاتم ، فيم التخلص من الناس ؟ قال يا أبا عبد الله فى ثلاث خصال ، قال : وما هى ؟ قال : أن تعطيهم مالك ، ولا تأخذ من مالهم شيئاً ، وتقضى حقوقهم ، ولا تستقضى منهم حقاً ، وتحمل مكروههم ، ولا تكره أحداً منهم على شىء . قال : فأطرق أحمد ينكت بأصبعه الأرض ثم رفع رأسه وقال : يا حاتم إنها لشديدة ، فقال له حاتم : وليتك تسلم ، وليتك تسلم !

---

(١) غلب عليه اسم الأصم لنادرة جرت بين يديه . جاءته امرأة ، فسألته عن مسألة فاتفق أن خرج منها فى تلك الحالة صوت ، فخجلت ، فقال حاتم : ارفعى صوتك . وأرى من نفسه أنه أصم . فسرت المرأة بذلك ، وقالت : إنه لم يسمع الصوت !

(٢) قاعدة خراسان .

بهذا تجرد حاتم من الأثرة ، واستعان بعزيمته وشحذ إرادته ، حتى استطاع أن يتخلص من شهوات النفس العارمة ، وقضى على نفسه أن تلتزم هذه الحدود الثلاثة ، ويتشوق إلى سماعها الإمام الورع التقى أحمد بن حنبل ، فيجدها صعبة على نفسه ، ويقول : إنها لشديدة !

ويقصده سائل فيقول له : على أى شيء بنيت أمرك ؟ فيقول : على أربع خصال ، يعتقدها المرء ولا يحيد عنها فى اعتقاده ، ثم يحمل نفسه على تتبعها ، والعمل بها ، على ألا أخرج من الدنيا حتى استكمل رزقى ، ولا يأكله غيرى ، وعلى أن أجلى لا أدرى متى هو ؟ وعلى ألا أغيب عن الله طرفة عين .

وكان اشتهر من أمره أنه يجوز المفاوز بغير زاد . فقال له رجل فى ذلك ، فقال : بل أجوزها بالزاد ، وإنما زادى فيها أربعة أشياء ، قال : وما هى ؟ قال : أرى الدنيا كلها ملكا لله ، وأرى الخلق كلهم عباد الله وعياله ، وأن الأسباب والأرزاق بيد الله تعالى . وأرى أن قضاء الله نافذ فى كل أرض الله ، فقال له الرجل : نعم الزاد زادك يا حاتم أنت تجوز به فى مفاوز الآخرة .

وكان يحمل على نفسه ، ويتيسرها على ما يريد ، ولو كان فى ذلك انقطاع الجسم وإعياؤه ، ما دام ذلك يقربه إلى الله تعالى .

كان ظاعنا إلى مكة ، وجعل على نفسه — إن قدمها — أن يطوف حتى ينقطع ، ويصلى حتى ينقطع ، ويتصدق بجميع ما معه ، ولندعه يكمل لنا القصة فيقول :

« فلما قدمت مكة ، صليت حتى انقطعت ، وطفت كذلك ، فقويت على هاتين الخصلتين ، ولم أقو على الأخرى ، كنت أخرج من هنا ويجيء من ههنا » .

وكان يبلغ — والفصل شتاء — فمكث فى بيته ثلاثة أيام مع أصحابه ، ثم قال : ليخبرنى كل رجل منكم بتهمته ، قال : فأخبرونى ، فإذا ليس فيهم أحد إلا يريد أن يتوب من تلك التهمة . ثم قالوا له : ما تهمتك أنت يا أبا عبد الرحمن ، فقال : تهمتى ألا شفقة لى على إنسان يريد أن يحمل رزقى فى هذا الطين ، وإذا برجل قد جاء ، ومعه جراب خبز ، وقد زلق ، وامتلأت ثيابه طينا ، وقال : يا أبا عبد الرحمن خذ هذا الخبز !

وكان فى موضع التلف ، وموطن الجزع ، لا يتغير أو يتحول ، وفى ذلك يقول :

خرجت فى سفر ، ومعى زاد ، ففقد زادى فى وسط البرية فكان قلبى فى السفر والحضر واحداً .

وروى كأنما لا يسعى لرزق ، ولا يجشم نفسه مشقة الحصول عليه ، فقيل له : من أين تأكل ؟ فقال : « ولله خزائن السموات والأرض ، ولكن المنافقين لا يفقهون » .

وهو يعلم أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، ولا تخالجه ريبة فى ذلك ، مع أن له أربع نسوة ، وتسعة من الأولاد ، وفى ذلك يقول : ما طمع الشيطان أن يوسوس إلى فى شىء من أرزاقهم .

وكان حاتم من هؤلاء الأبطال الذين يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، ويحدثنا حديث الرجل المؤمن عن حادث طريف جرى له فى إحدى الغزوات ، قال : لقينا الترك ، فكانت بيننا جولة ، فرمانى تركى بسهم ، فقلبنى عن فرسى ، ونزل عن دابته ، وقعد على صدرى وأخذ بلحيتى هذه الوافرة ، وأخذ من خفه سكيناً ليذبحنى بها ، فوحق سيدى ، ما كان قلبى عنده ولا عند سكينه ، إنما كان قلبى عند سيدى ، أنظر ماذا ينزل به القضاء منه ، فقلت : يا سيدى ، قضيت على أن يذبحنى هذا ، فعلى الرأس والعين ، إنما أنا لك وملكك . فبينما أنا أخاطب سيدى ، وهو قاعد على صدرى ، وقد أخذ بلحيتى ، إذ رماه بعض المسلمين بسهم ، فما أخطأ حلقه ، فسقط عنى . فقمت أنا إليه ، وأخذت السكين من يده ، وذبحته بها ، فما هو إلا أن تكون قلوبكم عند سيدكم ، حتى تروا من عجائب لطفه ما لم تروا من الآباء والأمهات .

وجاء إليه رجل ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، أى شىء رأس الزهد ، ووسط الزهد ، وآخر الزهد ؟ فقال حاتم : « رأس الزهد الثقة بالله ، ووسطه الصبر ، وآخره الإخلاص » .

ومن كلامه رحمه الله تعالى : لو أن صاحب خبر جلس إليك ليكتب كلامك لاحترزت منه ، وكلامك يعرض على الله فلا تحترز منه ؟!

عبد الله قاسم صقر
من علماء الأزهر الشريف
ومدرس بالساحل الثانوية

حاجة الشرق إلى حكم صالح

يدهش الناس . أن يروا الشرق قد تخلف عن الغرب فى كل ناحية من نشاط الحياة ، الشرق مهبط وحى السماء ، الذى تلق الأديان ديناً إثر دين ، فتفهمها ، وتمثلها ، وبشر بها ، ونشر ألويتها بين العالمين ، الشرق الذى عرف الخالق فعبده ، وإنسان العالم يسير قطعاناً تمرح فى الجبال والأودية ، أو الغابات والأحراش .

الشرق مهد الحضارة والمدنية الإنسانية ، فيه نشأت ومنه انتشرت ، وعنها أخذت الدنيا وعلبها تتلمذ العالم ، وتأثر خطى الشرق فيها فتمدن وتحضر ، بعد أن كان إنسانه يأكل لحم أخيه الإنسان .

الشرق رب الفلسفات والثقافات . انبثقت فيه أصول العلم والمعرفة ، الشرق الذى يضم مصر مخترعة الكتابة ، ومدونة العلم ، ومعلمة البشرية ، ومنها ومن بابل وآشور وكلديا وفينيقيا ، ثم من الهند والصين ، أخذت أضواء العلم تبدد حجب الظلام ، كما أخذت أنوار المعرفة ترسل بأشعتها إلى كل مكان ، فرسمت للبشرية خطوط الخير والجمال ، ودفعت بها إلى النهوض والترقى ، ودانت الدنيا بإنسانيتها للشرق العتيد .

الشرق : الشرق فى روحانيته المتغلغلة المستقرة فى أعماق أعماقه ، وفى فلسفاته الدينية والمادية ، وفى تقاليده السياسية القوية ، وعاداته الاجتماعية المثالية ، سيد العالم عصوراً تلو عصور !!!

هو هو الشرق بعينه اليوم ، الشرق المتأخر عن العالم فى كل نواحى الحياة !! فالأديان التى رفعت من شأنه ، واهتز بها وساد ، هى هى قارة فيه لم تزايله ! وعلومه وفلسفاته ، وتقاليده وعاداته ، إن امتدت إلى غيره فإنها لم تهجره : ترى ما السبب إذن فى تأخره وأديانه هى أديانه ، وفلسفاته هى فلسفاته ؟ فلنواجه الحقيقة جادين ، لنتعرف إلى مواطن الداء ، حتى تنجح فى وصف الدواء!

• • •

أما الغربيون فقد ردوا تأخر الشرق عن ركب الحضارة إلى ذاتية أديانه : وطبيعة

فلسفاته ، ثم خصصوا فردوا ضعف المسلمين وتأخرهم إلى طبيعة مبادىء دينهم وعلومهم . وفاتهم أو فات بعضهم أنهم من قبل ، قد نسبوا قوة الشرق ، وقوة المسلمين إلى ذاتية دينهم ، وطبيعة فلسفاتهم ، ثم إلى ما فى مبادىء الإسلام من قوة وعزة ، ووسائل تربية قويمة ، فهل تصبح أسباب القوة والعزة ، بذاتها وظروفها وكيفياتها ، هى نفس أسباب الضعف والذلة والتخلف عن ركب الحضارة ؟ ألا إن الحق لا يكون باطلا ، وإن الخير لن يكون شراً ، ولن يتصور ذلك عقل مكتمل ، ولا بصيرة سليمة ! !

وأما المستغربون الذين تربوا على لبان الغرب وأفكاره ، ورغبوا فى أن يظهروا أنفسهم فى مسوح الشرقيين الوطنيين المستنيرين المجددين ، فقالوا : إن تلك الأديان والفلسفات كانت أسباب قوة فى أزمنتها ، أما اليوم فقد تغيرت أحوال الشرقيين وظروفهم ، وتطوروا ، وتطورت بيئاتهم ، واقتضى ذلك التجديد فى الدين ؛ وفى التشريع ، لأن ما صلح بالأمس لبيئة لا يصلح اليوم لأخرى ، وهؤلاء الذين فسدت شرقيتهم بالقاح الغربى ، والذين لم يرضعوا لبان الشرق والإسلام ، فاتهم أن الطبائع ثابتة ، وأن ما بالطبع لا يتغير ، وأن التطور غير التغير ، وأن مشرع الدين ، ومنظم شرائع الإسلام دائم خالد ، عليم بالطبائع والتطورات ، وقد اقتضت حكمته أن تواجه تشريعاته كل زمان ومكان ، فوضع لكل حال حالا . ولكل داء دواء ، وتوخى صلاحية المبادىء للتطبيق ، وإن تطورت البيئات واختلفت الظروف والأحوال : كما فاتهم ما أجمع عليه الربانيون ، والعلماء الإنسانيون ، من أن القانون الذى اتفق على صلاحيته ، لا يقلل من احترامه مخالفة البعض أو الكل لمبادئه ، لأن الجريمة قديمة فى طبع الإنسان ، ولولا وجود جرائمها فى طبائعه لساد الخير العالم كله . ولما كانت هنالك حاجة إلى تشريع أو تقنين . فمخالفة القانون . أو مخالفة الدين . لا تقدح فى القانون ، ولا تطعن فى الدين ، وإنما تقدح وتطعن فيمن التزموا بتطبيق مبادئه ، وتحكيمها فى حياتهم العامة !

وأما المستسلمون فقالوا : هذا قدر مقدور ، وعلينا الرضا بما قدره الله علينا . وفاتهم أن الله قد دعاهم إلى الاستمساك بأسباب القوة والعزة ، وتوعدهم بالنكال إن جنحوا إلى الضعف والذلة ، وأن الله لا يرضى بفساد ، ولا يأمر بفاحشة ، ولا يرضى لهم الكفر به ولا بنعمه ، كما لا يرضى أن يرتضوا لأنفسهم الظلم والاستعباد لغيره ، دعاهم إلى ذلك لأمر جلى لا غموض فيه . هو أنه اختارهم له جنوداً ، وجند الله هم الغالبون الأعزة وأهل السيادة . وهو ولى الذين آمنوا .

ولا ولاية لغيره عليهم وهم حزبه وحزب الله هم المفلحون . أصحاب الغلبة والعزة والسيادة!

وإذن ماذا نريد ؟ أريد أن أقول : إن فساد الحكم فى الشرق ، فى مبادئه . وفى أساليبه ، هو سر البلاء . ومرد نكبة الشرق وآلام الشرقيين والمسلمين خاصة ! !

إن الأديان والدساتير ــ مهما سمت مبادئها وتقررت صلاحيتها ــ لا تكون لها القوة الدافعة إلى التوجيه ، ما لم يوجد المؤمن بها القادر على التوجيه . إذن أن المبادىء وحدها لا تسير ، ولا تقتحم الميادين ، دون مؤمن متقحم ، ولهذا جاء إرشاد الله سبحانه لعباده ، أن يوجدوا بينهم القدوة الحسنة ، على مثال القدوة التى أوجدها لهم « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » والقدوة الحسنة هى القيادة الرشيدة التى توجه المجتمع إلى الخير ، وتحمل الأفراد بسلوكها الخاص ومنهجها فى الحياة ، على ابتغاء ما تبتغيه من خير ، واستهداف ما تهدف إليه من صالح الجماعة . والسيرة العملية للقائد . والقدوة ، أقوى تأثيرا فى نفوس الأفراد من قوة السيف ، وضغط الحديد والنار وبها يقرع القائد أشمخ آناف المخالفين الذين يبتغون العاجلة ، ويفضلون مصالحهم على مصلحة الجماعة ، ولتنظر ــ رعاك الله ورعانى ــ ماذا فعلت القدوة الحسنة فى العام الخامس عشر من الهجرة ، عام المجاعة التى اجتاحت أرض العرب ، المجاعة التى ألصقت أيدى المسلمين بالتراب . حتى سموا عامها : عام الرماد أو الرمادة ! ! هال الأمر عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، وفى يديه ذهب الدنيا وخيرها ، ولو شاء نعيمها لأغرقه فيه أصغر أمرائه فى الشرق أو الغرب ، ولكن الرجل أقسم بالله لا يذوق سمنا ولا عسلا ، ولا لحما ولا شحما ، ولا يطعم غير ما يطعم المسلمون حتى يحيا الناس ، ولعل كلمه ، حتى يحيا الناس ، ترشدك إلى أنها كانت مجاعة مميتة فاتكة ! وظل عمر مقيما على قسمه ، حتى هزل جسمه ، وشحب لونه ، واعرورق وجهه ، فاجتمع كبار الصحابة : سعد والزبير وغيرهما من زعماء القوم ، وقرروا أن يحملوا الخليفة على التحلل من قسمه لأن حياته ملك للمسلمين لا له . ثم ذهبوا إليه ، وخاطبه فى ذلك سعد فقال : يا أمير المؤمنين تبلغ ببعض الأدم لمصالح المسلمين ، لحياتك خير لهم وبركة ! فصرخ عمر فى وجوههم قائلا : أوقد قلتموها ؟ ! لا والله لا أذوق شيئاً مما ذكرت ، لا أشبع الله بطن عمر إن أكلت مالا يأكل الناس ، بئس الحاكم أنا إن شبعت وقد جاع الناس ! ! لم إذن كنت إماما ؟ وكيف أصلح للناس قدوة ، إذا لم يمسنى ما مسهم ، ولم يصبنى ما أصابهم ؟ ! ثم انظر إليه وهو يوصى عامله الأشعرى بأن يكون خير قدوة للناس : « وإياك أن تكون كالبهيمة مرت بواد خصيب فجعلت همها فى السمن ، ومادرت أن حتفها فى السمن » ولقد استقام له الأمر ،

فاستطاع أن يربط عزة المسلمين بأسباب السماء ، وكانوا خير أتباع لخير قدوة ، جعلوه مثالهم وإمامهم فى كل شىء فعزوا به : واعتز بهم جميعاً دينهم ووطنهم ! !

وليس الحكم فى الحقيقة غير هذه القيادة الرشيدة ـ لأنه كما يقولون : مأخوذ من حكمت الدابة أى ضبطت سيرها ، ووجهتها إلى الخير والرشد ، فإذا لم يكن الحكم كذلك فهو تحكم لا حكم ، تحكم يقوم على الاستعباد والاستغلال .

ومنذ صار حكم المسلمين تحكماً ، أى منذ اعتقد الحكام أنهم أسمى وأرفع من المحكومين ، وأن الحكم حق وراثى لهم يرثونه مع المتاع والضياع عن آبائهم ، منذ صار الحكم ملكا لاصلة له بالدين . منذ ذلك الحين والشرق الإسلامى بصفة خاصة يمعن فى الانحلال ، والتحلل من المثل الرفيعة جريا وراء الملوك المتحللين ، والأمراء الفاسدين ، فكانوا لقمة سهلة على المستعمرين .

إن نظم الحكم فى بلاد المسلمين عامة ، نظم فاسدة ، لاتتفق مع طبيعة الشرق ولامقررات الإسلام فى الحكم والقيادة ، هى نظم مسيحية ، أخذها المخدوعون من المسلمين عن الغربيين ، ليبتعدوا بها عن مقررات الإسلام فى الحكم والتوجيه ، لأن ذلك فى نظرهم « رجعية » وجمود على الإلف . وإننا فى عصر نور وتجديد ، ولا يصح منا أن نقول ما عابه الإسلام على أهل الجاهلية « إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون » ، ولم يعلم هؤلاء أن الغرب قد أخذ الأسس التى بنى عليها حياته السياسية عن الإسلام ! ثم لم يأخذوا الإسلام وإنما أخذوا منه ما ينفعهم على الرغم من عداوتهم للإسلام ، فما بالنا نأخذ عنهم أسوأ ما عندهم ، ونقتطع مما أخذوا أصله من عندنا ، وعندنا نحن الأصل الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

لقد ثبت منذ عشرات السنين فساد الأثرة كنظام للحكم فى الشرق الإسلامى ، كما ثبت ظلمه وخلقه للمشاكل بين المحكومين ، وكما ثبت فساد الحكم الذى يستند إلى الديكتاتورية البرلمانية ، سواء كان لونه ملكياً أو جمهورياً .

كذلك لايستند الحكم فى الشرق إلى العناصر الطبيعية ، فكما فقد عنصر القدوة ، فقد عنصر الأهلية ، ولا نعنى بالأهلية الكفاية والقدرة ، وإنما نعنى الأهلية الفطرية ، وهى أن يكون حاكم الإقليم من أبنائه وأهله ، كما فقد عنصر الانسجام والتجاوب بين الحاكمين والمحكومين .

وإذا كان الإسلام هو الطابع العام للشرق فإن نظم الحكم فيه تتجافى مع نظام الإسلام . وسنعرض لذلك كله بالتفصيل فى كلمة تالية ، والله يوفقنا إلى الحق ويهدينا إلى الرشد . محمود قباصه

مولد منقذ الإنسانية محمد رسول الله

١

فى فجر يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل ، أو لتسع ليال مضت منه ، كما يذهب إليه الكثير من الباحثين (وذلك يوافق العشرين من شهر أبريل عام ٥٧١ م) .

فى هذه اللحظات الخالدة فى تاريخ البشرية ، ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصى ، ولد الطفل الذى هتفت بذكره الأرجاء ، وسجل مواقفه الرائعة التاريخ ، وأنصتت لحديثه الدنيا ، واهتزت لأنباء جهاده فى بلاد العرب وما حولها الأمراء والملوك والأكاسرة والقياصرة ، وآمنت بمبادئه وكبرت لشريعته الحيـــاة والناس أجمعون .

ولقد ألهم الله أمه آمنة أن مصير العالم سيكون بعد قليل فى يدى طفلها الوليد هذا ، وأن اسمه سيحتل الصفحات الأولى فى سجل تاريخ الإنسانية ، وأن عصوراً جديدة توشك أن تبدأ ويكون بطلها الأول محمد بن عبد الله .. فأرسلت إلى جده عبد المطلب أنه قد ولد لك غلام ، فأتاه فنظر إليه وحدثته بما فى قلبها وما تزدحم به مشاعرها من شتى البشريات ومختلف الذكريات ، فأخذ عبد المطلب طفله ودخل به الكعبة ، وقام يدعو لله ويشكر له ما أعطاه ، ثم خرج به إلى أمه فدفعه إليها ، وقال لها : لقد سميته محمداً ليحمد فى الأرض والسماء .. وفى اليوم السابع لمولده ختنه جده كما كان العرب يفعلون .

والتمس عبد المطلب لطفله مرضعاً من نساء البادية ، وكان من عادة العرب أن تلتمس المراضع لأولادها فى البادية ؛ فاسترضع له امرأة من بنى سعد بن بكر ، وهى حليمة ابنة أبى ذؤيب ، وكان زوج حليمة هو الحارث بن عبد العزى وكان يكنى بأبى كبشة ، وكان إخوة محمد من الرضاعة : عبد الله بن الحارث وأنيسة بنت الحارث وخذامة بنت الحارث .

وأقام محمد مسترضعاً فيهم قريباً من أربع سنين ؛ وكانت حليمة تحدث أنه ما حملها على أخذ هـذا الطفل اليتيم لتقوم برضاعه إلا أنها لم تجد غيره ، وأنها قالت لبعلها وهى فى مكة

تبحث عن طفل تذهب به : « والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ، ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه » ، فقال لها زوجها : « لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة » ؛ فذهبت إليه فأخذته ، وكانت حليمة ترى الخير والنماء والبركة منذ مقدم هذا الطفل إلى حيها ؛ وكان محمد يشب شبابا حسنا ؛ وكان رضاعه عامين فلما نفدا وفدت به على أمه بمكة ترجو أن ترجع به ليقيم معها فى البادية زمناً آخر ، فلما مضت أشهر معدودة من عودته مع حليمة ذهب ليلعب مع أخيه خلف البيوت ، وسرعان ما قدم أخوه إلى أمه حليمة يشتد ، وهو يقول لها ولأبيه : « ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثيابٌ بيض ، فأضجعاه ، فشقا بطنه ، فهما يسوطانه » ، فخرجت حليمة وبعلها نحوه ، فوجداه قائما منتقع الوجه ، فالتزمته والتزمه أبوه ، فقالا له : « مالك يا بنى ؟ » ، قال : « جاءنى رجلان عليهما ثيابٌ بيض ، فأضجعانى ، وشقا بطنى ، فالتمسا شيئا لا أدرى ما هو . فخافت حليمة وزوجها على محمد .

ولما عادت به إلى مكة ، قصت على أمه قصته ، فقالت آمنة لحليمة : « إن لابنى لشأنا ، ولقد رأيت حين حملت به نورا خرج منى فأضاء لى قصور بصرى من أرض الشام ، ثم حملت به ، فوالله ما رأيت من حمل حاملة قط كان أخف ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض ، رافع رأسه إلى السماء ؛ دعيه عنك وانطلقى راشدة » .

٢

وأقام الغلام مع أمه فى كلاءة الله وحفظه ، ينبته الله نباتا حسنا لما يريد به من كرامته . فلما بلغ ست سنين توفيت أمه آمنة بالأبواء بين مكة والمدينة ، وكانت قد قدمت به على أخواله من بنى عدى بن النجار تزيره إياهم ، فماتت وهى راجعة به إلى مكة : واستمر فى كفالة جده عبد المطلب يرعاه ويحبه ، ويجلسه معه على فراشه فى ظل الكعبة وبنو عبد المطلب يجلسون حول الفراش ، لا يستطيع أحد منهم الجلوس عليه مع عبد المطلب وطفله محمد ، وكان عبد المطلب يقول : « دعوا ابنى فوالله إن له لشأناً » .

ولما بلغ الغلام ثمانى سنين مات عبد المطلب بن هاشم ، وورث مفاخره ابنه العباس ، وصار محمد بعد عبد المطلب فى كفالة عمه أبى طالب .

وكان أبو طالب سيدا من أجل سادات قريش وبنى هاشم ، وكان الناس يتنبأون أمامه بمستقبل جليل لهذا الغلام الصغير ، وأنه سيكون له شأن وأى شأن . ولما سافر بمحمد

إلى الشام فى تجارته ، وقابله بحيرا الراهب قال بحيرا لأبى طالب : ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم .

وحفظ الله محمدا وعصمه من أقذار الجاهلية ، وصار أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم حسبا ، وأحسنهم جوارا ، وأعظمهم حلما ، وأصدقهم حديثا ، وأبعدهم عن الفحش والدنس ، وأكثرهم أمانة ، حتى سماه قومه « الأمين » .

وخاض مع قومه حرب الفجار وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، واشترك فى حلف الفضول على نصرة المظلوم ، وتزوج خديجة بنت خويلد الأسدية وهو فى الخامسة والعشرين من سنى حياته الميمونة ، وهدمت قريش الكعبة لتجدد بناءها واختلفوا فيمن يكون له شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه فكان محمد الحكم بينهم ، وارتضى حكمه الناس جميعاً ، وكان إذ ذاك فى الخامسة والثلاثين .

وكان يعبد الله على الحنيفية البيضاء دين إبراهيم وإسماعيل ، ويتعبد فى غار حراء الليالى ذوات العدد ، فلما بلغ الأربعين اختاره الله لرسالته العظمى ، واصطفاه ليحمل أمانة الله ووحيه إلى الناس كافة ، وليكون خاتم المرسلين وخير النبيين ، ونزل عليه جبريل بالوحى وهو فى حراء يوم الاثنين لسبعة عشرة ليلة خلت من رمضان (٦ أغسطس ٦١٠ م) وعمره إذ ذاك أربعون سنة وستة أشهر وثمانية أيام . . قال له جبريل :

اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، قال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » ، وسمع الصوت مجلجلا فى السماء : « يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل » .

وبلغ محمد قومه رسالة ربه ، فآمن من آمن ، وجحد من جحد ، وظل يدعو إلى الله سراً ، وهو فى قومه ، ثلاث سنين ، أجابه فيها عدد قليل من الرجال والنساء والأطفال والمستضعفين ، ثم جهر بالدعوة ، وصمد لإيذاء قريش عشرة أعوام أخرى ، ثم هاجر من مكة إلى المدينة مبشراً بدين الله ، وداعيا إلى شريعة الإسلام والحق والخير والمساواة .

٣

وانتصر محمد فى المدينة فى معارك كثيرة : انتصر فى حربه مع المنافقين واليهود والذين يعملون على وأد الإسلام دعوة الحرية والطهر والسلام ؛ وانتصر فى حربه مع الشرك والوثنية ففتح مكة وحطم الاصنام والأوثان وجعل كلمة الله والتوحيد هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ؛ وانتصر فى الحروب التى فرضتها عليه القبائل العربية فرفع الحصار

تلو الحصار عليه وعلى جيشه الظافر ؛ وانتصر فى الميدان السياسى انتصاراً باهراً ، فجمع العرب كلها فى وحدة واحدة وتحت ظلال سياسة إسلامية كريمة واضحة الأهداف والنزعات الإنسانية العالية ؛ وانتصر فى ميادين الإصلاح والاجتماع ، فألف بين القلوب ، وداوى المزمن من الأمراض ، وأطفأ نزعات القلوب واستل ماطويت عليه من حقد وخصومة وإحن.

وأقام اشتراكية بارعة تجمع بين الغنى والفقير برباط المحبة والتعاون والإخاء ويشارك الفقراء فيها الأغنياء ، والأغنياء الفقراء ، مشاركة فعالة ملهمة حافزة على العمل لخير المجموع الإنسانى وسعادته ، وأقام المجتمع الإسلامى على أصول متينة قوية لايعتريها الضعف والوهن ، أصول تجمع بين النظام والحرية والشورى والإيثار والتضحية وحب الجماعة وتقديس حقوق الفرد ، وبين العدالة والإنصاف والحرص على كرامة الناس وطمأنينتهم ورفاهيتهم وتقدير كل ذى كفاية وموهبة وكل عامل يعمل الواجب ويشعر بالمسئولية ويقدس مصالح الناس وحقوقهم. وحارب محمد الفقر والجهل ، ودعا إلى أنبل الأخلاق وأسمى الفضائل وأكرم الأعمال ، وقضى على الفساد فى مختلف ألوانه ، وطهر الحياة من الأدران والآثام والفوضى والاستغلال ، ونشر دين الله ، وبشر بكتاب الله ورسالته ، ووجه العرب لدعوة الأمم إلى هذه الشريعة المطهرة ، وتلك العقيدة الكريمة ، فلم تمض أعوام قلائل بعد وفاته ، حتى فتحوا الشام ومصر والعراق وبلاد الفرس ، ثم أخذوا يسيحون فيما وراء هذه الأقطار ، داعين إلى كلمة الله ، محطمين للأغلال والوثنية والشرك والاستعباد ، ناشرين العدالة بين الأمم كافة ، مضحين بكل عزيز لديهم فى سبيل إنقاذ البشرية وهداية الإنسانية ؛ كل ذلك بدافع الإخلاص لله ولرسوله الكريم ولكتابه الحكيم.

فما أعظم هذا الرسول العربى الأمى الذى بدّل سير التاريخ ، وحوّل مجرى الحياة ، وقضى على عصور الوحشية والجاهلية الظالمة ، وحارب كل استغلال جشع ، وإقطاعية مفترسة ، وهمجية متنمرة ، ووثنية مضللة.

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ، ما أضاء النهار وأظلم الليل ؛ وهدى به أمته إلى خير الأعمال والعقائد ، وإلى سعادة الأولى والآخرة ، إنه أكرم مأمول ، وأجل مسئول ، وما توفيقنا إلا بالله ...

محمد عبد المنعم خفاجى
المدرس بكلية اللغة العربية

روضة الشعر

في مولد الرسول الأعظم

عُلّمتَ بالوحى لا باللوح والقلم ... علماً خصصت به من بارىء النسم
به طلعتَ كشمسٍ غيرِ آفلة ... أو كالرحيق بدا بالكأس من أمم
يا أكرم الناس ، منك الجود مقتبسٌ ... ودأبك العفو فى حربٍ وفى سلم
فى بيئة كان فيها الجهل منتشرا ... وعمٌّ فيها جحود القوم للعشَم
والخمر رائجـةٌ والفسق مشتهرٌ ... والحق عنه بنو عدنان فى صمم
كنت البعيد عن الأوثان تبغضها ... كنت الحكيمَ إن احتاجوا إلى الحكم
كنت العفيف عن الفحشاء تمقتها ... أما الحديث فقالوا صادق الكلم
والخمر ما عرفت يوماً لكم شَفة ... وكيف تشرب أم الشر والسقم
هـذى بدايتكم بالفضل ناطقةٌ ... تنبي البداية عن وحىٍ وعن حِكم

* * *

وفى حراء أمين الوحى جاءكم ... فوجئتَ بالوحى لا بالسحر واللمم
وخبكم ضم إعـداد وتهيئة ... وقال قولةً معصوم لمعتصم
ولابن (نوفل) تصديقٌ بيعثتكم ... ينفى الظنون وينفى سائر التهم
عدلت قبل نزول الوحى فاحتكمتْ ... إليك مكة لم ترفض ولم ترم
فاحكم به حكمك المأمون من خطأ ... وارفع كتابك رفع الجند للعلم
فى كتابك أسمى ما يهذبنا ... من السياسة والأحكام والنظم
وفى حديثك جل الله ملهمه ... تأديب مستمعٍ تثقيف ملتزم
ومنهما دام نور الحق مرتفعاً ... فنى الدساكر أنوارٌ وفى الأطم
رفعت للحق فى الدنيا منارته ... شتان بين منار الحق والهرم

محمد عبد القادر
واعظ القاهرة

مملكة تقلى

١

فى الركن الجنوبى من مديرية كردفان ، توجد منطقة جبلية ، تسكنها قبائل النوبا . وفى الركن الشمالى الشرقى من هذه المنطقة توجد جبال تقلى ، حيث نشأت مملكة تقلى فى أواسط القرن السادس عشر ، تلك المملكة المجيدة التى نشرت الإسلام فى هذه الأصقاع الوعرة النائية .

وجبال تقلى تطلق على مساحة من الأرض ، يبلغ اتساعها أربعين ميلا مربعاً ، وتقع فيها الآن قرى كيريا Keraia ، والهوى el Hoi ، وتاسى Tasi ، وجوليا Juluia . ولهذه البلاد جاذبية ، حتى فى فصل الجفاف ، حيث يكون كل شىء عارياً ، لا لون له . ولكنها تكتمل سحراً فى فصل الأمطار ، عندما تنمو الحشائش القصيرة ، وتكتسى الأرض بثوب سندسى أخضر . وبجانب ذلك ، توجد الغابات الكثيفة الناعمة الخضراء ، التى تنمو فى سفوح التلال ، والتى تخترقها الأودية ، بينما تتناثر هنا وهناك بعض الزراعات التى تعرض أمام العين منظرا حياً جميلا . والمياه هنا ، ليست شحيحة ، بل يوجد كثير من المجارى المائية التى تنحدر فى مسارب عميقة فوق الصخور . وتلتقى هذه المجارى المائية ، بالأخوار الرملية ، فى السهول الخلفية . وعقب سقوط الأمطار تبدو لنا مناظر المساقط المائية من بعيد .

وتنحدر جبال تقلى تدريجياً نحو الشمال ، حيث تتلاشى فى سهل يمتد بعيداً نحو جيزان Geizan . كما تنحدر هذه الجبال انحداراً جانبياً نحو الشرق إلى دار الأحامدة ، وتمتد الوديان الخصبة من التلال إلى السهول مقدمة الماء والمرعى لقطعان الماشية والإبل فى فصل الجفاف . ويزرع فى هذه الوديان كثير من الحاصلات مثل الجوز الأرضى والدخن والقطن والذرة والشليك والبصل ...

ومنذ أربعمائة عام تقريباً ، وفى جبال تقلى ، أنشأ رجل فقير من إحدى القبائل الشهرية ، هذه المملكة القديمة ، التى ذاعت شهرتها فى السودان الشمالى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وهذه المملكة هى موضوع البحث الذى نقدمه اليوم . ولقد نسل من ذرية هذا الرجل تسعة عشر ملكاً ، حكموا البلاد حكما متصلا ، لم يقطعه شىء ، منذ ولى الحكم « جيلى أبو جريدة » ، وهو ابن ذلك الرجل الفقير ، « آدم النيل جيلى » .

واستطاع ملوك تقلى ، فى وقت من الأوقات ، أن يبسطوا سلطانهم ، على جبال النوبا الشرقية ، من « أبى حبل » فى الشمال إلى « تالودى » فى الجنوب .

واعترف بسلطانهم ، كثير من القبائل العربية ، التى كانت تدخل هذه المنطقة من آن لآخر . واستطاع هؤلاء الملوك ، أن يقاوموا بنجاح الحكومة التركية فى السودان سنين عديدة ، وظلوا على الدوام شوكة فى جانبها . وبلغ من علو قدر هؤلاء الملوك ، أن الوافدين على مملكتهم من الشمال ، كانوا يخاطبونهم بقولهم « الله يطول عمرك » . وكان لتشجيع هؤلاء الملوك للهجرة والاستقرار فى سنى حكمهم الأولى ، أثر كبير فى تعديل بعض عادات رعاياهم الدينية والاجتماعية .

وهؤلاء الملوك أدخلوا فى الإسلام جماعات النوبا [1] التى كانت صارمة الوثنية ، والتى ينتمى إليها النوباويون الحاليون ، ثم لم يكتفوا بذلك بل صاهروهم ، واختلطوا تقريباً بكل العناصر فى السودان الشمالى . ولم يبق عنصر نوباوى خالص الآن ، إلا القبائل التى تقطن « جبال الكجاكجة » . وكان معظم الدم الخارجى فى تقلى نفسها ، جعلى ، وغيره من دماء القبائل النهرية . كما نجد عنصر الفونج ، وغيره من الأجناس الأخرى الغربية الآتية من دارفور وماوراءها ، ومجموعات عربية صغيرة مستقرة من البديرية والجوامعة ، وبطون بأجمعها من قبيلة الكواهلة وكنانة .

وبالرغم من أن سكان مملكة تقلى كانوا مزيجاً من عناصر مختلفة ، فإننا نجد لهم طابعاً عاماً يعزى إلى تأثير أجيال متتالية من حكم هؤلاء الملوك الوراثيين الأقوياء المطلقين . ولم تكن دولة هؤلاء الملوك ديمقراطية ، بل كانت أوتقراطية خالصة بسيطة . وكانت كل السلطة والقوة مركزة فى يد الملك نفسه ، يدير مملكته بواسطة موظفين اثنين ، كانت وظيفتهما وراثية ، وأشهرهما يلقب « بالجندى » ، وكان يصرح لهذا الموظف فقط بمقابلة الملك ، فى أية ساعة من ساعات الليل أو النهار . ولم يكن يصرح لأحد بمقابلة الملك إلا عن طريقه ، كما أنه كان مسئولا عن سلامة الملك ، يشرف على مجموعة « المكوك » فى الجنوب ، وعن طريقه ، تقدم هداياهم وما عليهم من ضرائب إلى الملك . أما الموظف الآخر فيلقب « بالسوكاراوى Sokarawi » . ولم تكن علاقة هذا الموظف بالملك وثيقة كعلاقة الجندى به ، وهو مسئول عن أجزاء المملكة فى شمال وشرق تقلى . وبعض

---

(١) قبائل النوبا غير سكان بلاد النوبة التى فى جنوب مصر .

ملوك تقلى كانوا يتخذون وزراء ، يلقون إليهم بكثير من السلطة ، وهؤلاء الوزراء من أقرباء الملك . وعبء انتخاب الملك ، إذا كان هناك أكثر من مرشح واحد ، يقع على عاتق الجندى ، ولم يكن أحد ليستطيع الاعتراض على سلطة الملك المطلقة ، أو مركز عائلته الرفيع . ولم يكن نتيجة ذلك فقط ، الاتحاد الواضح بين أجزاء المملكة ، واختفاء الفوضى من أى لون كانت ، بل صحب ذلك أيضاً ، تجانس فى عادات وطرق معيشة الناس جميعاً . وكان هذا هو المعنى الجليل الذى خلد اسم تقلى فى العالم ، بحيث كان الشخص يفضل أن يدعى تقلاويا — إذا كان ثمت ما يدعوه إلى ذلك — على أن ينسب نفسه إلى قبيلته الرئيسية .

وسكان تقلى جميعا يتصفون بالذكاء ، وهم فلاحون كادحون ، يجدون اللذة كلها فى زراعة محصولات جديدة ، ولا يحتقرون الطرق المستحدثة التقدمية . وهم إلى جانب ذلك مشغوفون بالتعلم ، ويستحسنون الوسائل الطبية . ولم يكن خضوعهم التام للملك ، نتيجة أفق ضيق ، ولكن لطول ما لازمت الصفة الأرستقراطية التقليدية بينهم الحاكم . وهذا فى حد ذاته علامة على تميز جنسهم ، ودليل على التقدم لا التأخر . ومثل هذا النظام ، الذى تعنى فيه السلطة تقدير المسئوليات أكثر مما تعنى خلق أدوات جديدة ، يكون أسسا ثابتة لتقدم المملكة ورفاهية أهلها .

أما عن الإسلام فى تقلى ، فقد عرف الإسلام هنا على يد هذا الرجل الجعلى الفقير ، الذى أسس المملكة ونسل منه ملوك تقلى الذين حكموا أربعمائة عام . والإسلام هو العنصر الفعال فى تطور تاريخ هذه المملكة . وليس من العسير على أى زائر لتقلى اليوم أن يتبين أهمية الإسلام فى حياة أهلها . ففى كل قرية هامة يوجد مسجد ، وهو مكان لحفظ القرآن والصلاة ، يقوم ببنائه رجل محسن ذو مركز ملحوظ ، ثم يقوم نسله على خدمته من بعده . وجميع أهل تقلى يدينون بطبعهم . وتعتبر تقلى قلعة من قلاع الإسلام الحصينة ، ويتبع الأهالى كثيراً من الطرق الدينية ، ولكن أغلبهم يتبع طريقة الشريف يوسف الهندى .

وإلى مقال قادم نتابع فيه الحديث عن هذه المملكة ، ذات الشأن الخطير فى تاريخ الإسلام بالسودان .

عبد المنعم محمد الشيخ
مدرس أول الآداب بمعهد الزقازيق



درجات الناس

هو كتاب نفيس لفضيلة الأستاذ الشيخ طه محمد الساكت ، وهو أعرف من أن نعرّفه إلى قراء مجلة الأزهر ، لأنه من أركان تحريرها من سنين كثيرة ، وهو يتصل بقرائها في كل شهر حول سنة رسول الله ﷺ ، فإذا ألف كتابا ليتكلم فيه على درجات الناس فإن أول ماينظر به إلى درجاتهم ، المقاييس التي قررتها سنن الإسلام ، وعمل بها أهله الأولون من الصحابة والتابعين .

والمؤلف : يرى أن سبب مصائب المسلمين ، أنهم فقدوا قاعدة التناصح والتواصي بين الراعي والرعية إلا رسوما ومظاهر لا تغني فتيلا ، وقد ضرب الأمثلة لذلك من التاريخ وقرر قاعدة الإسلام ، كما تكونون يولى عليكم . وقال في درجات الأفراد ماقاله فيهم السنة المحمدية ، الناس كالإبل المائة لا تجد فيها راحلة ، ووصف المثل الكامل الذي رسمه الإسلام وقال إن الكمال درجات ، والأمم أيضاً درجات كما أن الأفراد درجات . وذكر فضل الصحابة والأدب معهم ، ونوه بمقام التابعين وأتباعهم . ولو شئنا أن نمضي في كل ما تعرض له المؤلف مما به صلاح الراعي والرعية لاحتجنا إلى نشر كتابه كله ، ولكننا نحيل القارىء عليه ، وننصح له بإطالة التأمل فيه . ومن مظاهر التقدم في الوعي الإسلامي أن هذا الكتاب تنشر منه الآن الطبعة الثالثة ، مع أن طبعته الأولى قريبة العهد بالناس . وقد جاءت هذه الطبعة في ١٢٧ صفحة كبيرة . فنحث القراء على مطالعته .

تاريخ العراق لابن سند

والاسم الذي يعرف به تاريخ العراق لابن سند هو (مطالع السعود) سجل فيه أحوال العراق في خمسة وخمسين عاماً ، من سنة ١١٨٨ إلى سنة ١٢٤٢ ، وما مضى عليها في تلك المدة

من أحداث في حواضرها وعشائرها ، وفي عاصمتها بغداد والمنطقتين التابعتين لها في الشمال والجنوب ، وهما منطقة الموصل وتكريت وبلاد الكرد ، ومنطقة البصرة والمنتفك وعشائر العراق . وكان المقصود بهذا التاريخ تسجيل أحداث ولاية داود باشا الذي كان من وجوه كثيرة مشابهاً لمحمد علي في موقفه وآماله في مصر ، لكن ابن سند بدأ بتاريخ العراق من سنة ولادة داود باشا ، فذكر فيه أخبار الولاة الذين كانوا من سنة ١١٨٨ ، فجاء تاريخه حلقة ثمينة في سلسلة تاريخ العراق ، ولما كان المؤلف شاعراً ، فقد امتلأ تاريخه بشعره وشعر غيره ، فرأى الشيخ أمين بن حسن الحلواني المدرس في الحرم النبوي الشريف في أوائل القرن الرابع عشر الهجري ، أن يحذف هذه القصائد ليكون مقتصراً على الحوادث فجاء هذا المختصر جامعاً مفيداً . وكان الحلواني قد طبعه في الهند سنة ١٣٠٤ هـ ، وأصبحت نسخه الآن أندر من المخطوطات ، فتولى رئيس تحرير هذه المجلة تحقيقه والتعليق عليه ، ووضع الفهارس المتعددة له ، ونشره أخيراً مصدراً بترجمة ابن سند ، وترجمة للشيخ الحلواني ، فجاء في ٢٣٠ صفحة حافلا بما يصور حالة العراق في المدة التي استقصى أخبارها .

رسالة الصلاة للإمام أحمد

صلى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله مع قوم فرآهم يسيئون في صلاتهم ، ويسابقون إمامهم في الركوع والسجود والخفض والرفع ، فكتب إليهم هذه الرسالة يعظم لهم أمر الصلاة ، وأنها حق الله على عباده ، وأن من أقام ما بينه وبين الله على وجهه الذي أمر به فهو على إقامة ما بينه وبين الناس أقدر ، ومن استهان بها فهو بما بينه وبين الناس أشد استخفافا واستهانة . وبعد أن أورد لهم النصوص من سنة رسول الله ﷺ على ما ينبغي للمسلم من إقامة الصلاة وحسن أدائها قال في آخرها : « رحم الله امرءاً احتسب الأجر والثواب ، فبث هذا الكتاب في أقطار الأرض » .

وإن فريقا من الشباب الجامعي من أعضاء لجنة الشباب المسلم ، أرادوا أن يكون لهم نصيب من الدعوة الصالحة التي ختم بها الإمام أحمد رسالته ، فبادروا إلى طبعها طبعا جميلا ، وعهدوا بتصحيحها ومراجعتها إلى الأستاذ محمود محمد شاكر فجاءت في ٦٤ صفحة صغيرة . وهي مما لا يستغنى عن قراءته مسلم .

النشاط الثقافي للأزهر

المقارنة العلمية بين الشريعة والقوانين

كان بعض أعضاء جماعة كبار العلماء قد اقترحوا، قبل نحو عشر سنين على مشيخة الأزهر، تأليف لجنة منهم للقيام ببحوث في المقارنة العلمية بين الشريعة والقوانين، وتألفت بالفعل لجنة لذلك. ثم تجدد هذا الاقتراح في عهد الشيخ مأمون الشناوي - رحمه الله - ولم تنته هذه الاقتراحات إلى عمل منظم، لأنها لم توضع موضع التنفيذ حتى الآن. وأخيراً تقدم بعض أعضاء جماعة كبار العلماء إلى المشيخة بمثل هذا الاقتراح، فعرض ذلك على الجماعة، ورأت جماعة كبار العلماء أن تحيل هذه المقترحات إلى لجنة من أعضائها لبحثها ودراستها.

ومما تعنى به المشيخة كذلك محاربة البدع الضارة بعقائد المسلمين، وهي آخذة بسبيل ذلك من تعريف هذه البدع وتحديدها وتعيين الطرق التي تحارب بها. وهي موقنة بأن العهد الجديد يؤيدها في ذلك ويعينها على إنقاذ الأمة مما ابتليت به من بدع وخرافات، لأنها من صميم البرنامج الإصلاحي.

وهنالك أمور ألحقت بالعقائد وليست منها، ومن أهم واجبات الأزهر، بيانها للناس، وإرشادهم إلى العقائد السليمة التي جاء بها الدين.

ولهذا وذاك تألفت من جماعة كبار العلماء لجنة تسمى (لجنة تنظيم النشاط العلمي للجماعة) وقد تفرعت إلى شعبتين أصليتين (شعبة الدرس) و (شعبة البحث)، والشعبة الأولى يقوم بها هيئات التدريس في الكليات والمعاهد، وأما الشعبة الثانية فتتولى البحث والإنتاج خارج النطاق المدرسي. وهي تتفرع إلى أغراض كثيرة، من بينها القيام بدراسة واسعة للمقارنة بين الشريعة والقوانين الوضعية في جميع المواضع المشتركة بينهما، واستنباط الأصول الكلية التي يلزم التحاكم إليها في الفصل بين السنة والبدعة، وتطبيق هذه الأصول على العادات الجارية، تطهيراً للشريعة مما ألصق بها وليس منها.

وقد رأت اللجنة مراعاة التنظيمات الآتية:

١ — يعد للجماعة مكان مناسب يتسع لاجتماعاتها، ولنشاط اللجان المختلفة التي تؤلفها، بحيث يكون بمثابة (المجمع العلمي الأعلى للأزهر)

٢ — يزود هذا المكان بمكتبة كاملة، مجهزة بالمؤلفات القديمة والحديثة والصحف ليستعين بها الباحثون في مختلف المسائل.

٣ — رئيس المجلس هو رئيس الجماعة، وله نائبان وسكرتير فني.

٤ — أعضاء المجمع الأساسيون هم أعضاء الجماعة، ويحسن أن يضم إليهم أعضاء مندوبون أو مراسلون من مشاهير علماء مصر والعالم الإسلامي.

الأدب والعلوم في شهر

العربية في باكستان

قررت لجنة الكتب المدرسية في وزارة المعارف لمقاطعة «بهاولبور» من بلاد باكستان أن يكون تعليم اللغة العربية إجباريا في مدارس المقاطعة .

مؤتمر للغة السنسكريتية

تحتفل مدينة بومباى (ثغر الهند) عند مثول هذا الجزء للطبع بعقد مؤتمر لغوى عظيم يشترك فيه نحو مائتى عالم متخصص باللغة السنسكريتية القديمة ، لتيسير نشرها والانتفاع بها في حياة الهند الجديدة .

واللغة السنسكريتية بالنسبة إلى الهند تشبه من وجوه كثيرة اللغة اللاتينية بالنسبة إلى لغات أوربا .

ولما كانت الهند كثيرة اللغات بحيث لا يتفاهم أهل لغة منها مع أبناء اللغات الأخرى ، فقد كانوا في عهد الاحتلال البريطاني الذى انتشرت فيه اللغة الإنجليزية بين جميع المثقفين وأصحاب المصالح في الحكومة ، قد اتخذوا من اللغة الإنجليزية لغة مشتركة للتفاهم ، وفي الوقت نفسه كانت جماهير المسلمين تعتمد في التفاهم — إلى حد كبير — على اللغة الأوردية . وفي مقابل ذلك تحاول حكومة الهند أن تستفيد من معارف المتخصصين بالسنسكريتية لأجل تعميمها وتيسير الانتفاع منها في الحياة العامة .

الدين والأخلاق في المدارس

أقامت مدرسة القبة النموذجية الثانوية حفلا خاصاً لجلة من آباء التلاميذ عددها خمسة عشر والداً ، يختارون بالاقتراع ، للتشاور معهم في شئون المدرسة بمناسبة العام الدراسي الجديد . وقد كان من أعضاء هذه اللجنة — منذ العام الماضي — الرئيس اللواء محمد نجيب ، وبالرغم من كثرة أعماله حرص على حضور هذا الحفل الذى خطب فيه ناظر المدرسة والدكتور مهدى علام وكيل كلية الآداب بجامعة إبرهيم، ثم تكلم الرئيس اللواء محمد نجيب فقال :

« يلذ لى أن أتحدث عن التعليم فإنه من أحب الموضوعات إلى قلبى لسببين : أولهما أنى بدأت دراستى بدراسة التربية والتعليم ، فقد كان التخصص يبدأ من أول المدرسة الثانوية في السودان حيث تعلمت ، وأردت أن أدرس

لهندسة فلم أمكن من ذلك ، ووجهت إلى قسم المعلمين فدرست فيه أربع سنوات وكان مما درسته التربية وعلم النفس . والسبب الثانى أنى أرى أن التربية والتعليم هما دعامة كل تقدم فى حياتنا » .

ثم وجه حديثه للمعلمين فقال : « إنكم من خيار الناس ، وإنها لفرصة من خير الفرص ، أستطيع فيها أن أفصح عن بعض ما فى نفسى : لا شك أنكم أنتم الذين تضعون الأسس فى الأمة كلها ، وعلى أيديكم بناء أبنائنا ، وعلى قدر ما تكون متانة الأساس تكون متانة البناء ، فعليكم أنتم بناء الأمة .

« إن التربية هى إعداد التلاميذ لحسن التصرف فى مواقف الحياة . ويجب أن يكون هذا هو هدفنا من التعليم . نريد من مدارسنا أن تخرج شبابا أقوياء أصحاء البنية قادرين على التفكير السليم متخلقين بالخلق الكريم . لا نريد شبابا ناعما كالذين يلبسون القمصان المشجرة فإن فيهم طراوة ورخاوة ، إنما نريد شبابا خشنا يستطيع مواجهة مواقف الحياة ومصاعبها ، حتى يستطيع الوطن أن يعتمد عليهم . لا نريد أن يكتفى شبابنا بمعرفة الفضائل بل يجب أن يتخذوها أساساً لسلوكهم .

« إن الدين أساس الأخلاق . ولقد تلقيت تعليمى فى السودان فى مدرسة كان يشرف عليها انجليز ، ومع ذلك فقد كان بها مسجد ، ولهذا فأنا مندهش من أن هذه المدرسة ليس بها مسجد . وأنا لإيمانى بأن الدين أساس الأخلاق لا أمانع فى تدريس الدين ، حتى الدين اليهودى ، بشرط أن يكون فى أيد أمينة ، أيد تعتبر الوطنية من دينها فإن الدين شىء والتعصب الدينى شىء آخر . وأنا أحب أن نقيم الأخلاق على تعاليم الدين » .

الكليات العملية لا النظرية

اجتمع مندوب المصرى فى الإسكندرية بوزير المعارف وهو يغادر مصر إلى باريس لحضور مؤتمر اليونسكو ، فسأله عن بعض شئون التعليم والمعارف ، ولما سأله عن جامعة محمد على التى لم يتم إنشاؤها بعد ، قال له الوزير : من رأيى أن نبدأ بإنشاء الكليات العملية لا الكليات النظرية ، وذلك لأننا فى عهد يحتاج إلى التصنيع والإنشاء والتعمير وهذه الكليات تحتاج إلى معامل وورش لا يمكن أن تتم قبل عامين على أقل تقدير .

الفردية والوعى الاجتماعى

يقول الدكتور محمد جمال صقر فى مقال له عن عيوب المدارس المصرية : إن الأطفال فيها يجلسون فى الفصل جنباً إلى جنب كأنهم جمع لا رابطة تربط بين أفراده إلا مجرد الصدفة التى جمعت بينهم فى فصل واحد . والمعروف عند المدرسين وعند التلميذ أن

القانونين الأساسيين السائدين في تنظيم العمل المدرسي والبيئة المدرسية هما: «على كل أن يعمل لنفسه»، و«على كل فرد أن يسعى إلى سبق زملائه ما استطاع». ونظام هذا قوامه لا يعد الفرد إلا لمجتمع تنتعش فيه الأنانية، وإثارة النفس على الغير، والعمل على استغلال الآخرين للمصلحة الذاتية، والتغالي في حب الذات، وتسخير كل ما حول الفرد لإشباع الحاجيات الفردية، وما يستتبع ذلك من طرق باب الوسائل المشروعة وغير المشروعة للوصول إلى الغاية المرجوة.

أما التربية التي يجب أن نوجه إليها اهتمامنا، فهي التي تهدف إلى تنمية صفتين أو خاصتين طالما ساد الاعتقاد بأنهما متعارضتان، وهما «الفردية»، و«الوعي الاجتماعي»، كي نستطيع التوفيق بين إمكانيات الطفل ومطالب المجتمع، وبين الخبرة الفردية والمثل العليا الاجتماعية.

سياسة التعليم في وزارة المعارف

يقول الأستاذ سيد قطب في مقال له بجريدة الأخبار الجديدة: إن الإنجليز كانوا يدركون أنهم في يوم من الأيام - قريب أو بعيد - سيجبرون على التخلي عن الإدارة المباشرة لجهاز مصر الحكومي، لذلك لم يكن لهم بد من تربية أجيال من «الإنجليز السمر». تسير سياسة التعليم في وزارة المعارف إلى أمد طويل. وهذا هو الذي كان! ألا نقرأ في كتب التاريخ التي بين أيدي التلاميذ يوما هذا العنوان: «مزايا الحملة الفرنسية على مصر»؟ أو هذا العنوان: «الإصلاحات التي تمت في عهد الاحتلال»؟ وما ذا كانت السياسة الاستعمارية تملك أكثر من أن تسجل في ضمير الناشئة أن الحملات الاستعمارية يمكن أن يكون لها مزايا، وأن تتم في ظلها إصلاحات؟!.

ثم هذه العزلة المطلقة بين المدرسة وبين المشكلات الحية للشعب وللحياة القومية، وتحريم الدراسات السياسية والاجتماعية على المدرسة طوال هذا الأمد، وتحقير دين الشعب ومقوماته، حتى ليقف رجل ذو مركز خطير جدا اليوم في وزارة المعارف، يقف يوما في معهد التربية ليقول لطلابه الذين سيصبحون مدرسين: إن محمد ابن عبد الله كان مصروعا، وإن ما كان يسميه الوحي هو هذا الصرع الذي كان ينتابه.

إننا نخدع أنفسنا إذا اعتقدنا أن «دنلوب» قد ذهب من وزارة المعارف، فإن شبح دنلوب لا يزال هناك.. بل إن أشباح دنلوب ما تزال قائمة في كل مكان.

وواجبنا هو ألا نستسلم للبساطة المريحة في معالجة آثار الاستعمار الفكري والروحي واقتلاع جذورها من الأساس، ولن تقتلع هذه الجذور إلا يوم أن يصبح المشرفون على تنشئة الأجيال المقبلة من المؤمنين بمصر والمؤمنين بمقومات الشرق.

العالم الإسلامي في شهر

مصر والسودان

اتفقت مصر فى الشهر الماضى مع جميع الأحزاب السودانية على ما يأتى :

تؤمن الحكومة المصرية إيمانا ثابتاً بحق السودانيين فى تقرير المصير، وفى ممارستهم له ممارسة فعلية فى الوقت المناسب، وبالضمانات اللازمة .

ورغبة فى بلوغ هذا الهدف تبدأ على الفور فترة انتقال تستهدف تمكين السودانيين من ممارسة الحكم الذاتى الكامل ، وتهيئة الجو الحر المحايد الذى لابد من توافره لتقرير المصير .

ولما كانت فترة الانتقال هى تمهيد لإنهاء الإدارة الثنائية انهاء فعليا ، فإن هذه الفترة تعتبر تصفية لهذه الإدارة ، وتعلن الحكومة المصرية أن السيادة على السودان تظل محتفظا بها للسودانيين إلى أن يتم لهم تقرير مصيرهم .

فرنسا والمغرب الأقصى

احتفل فى المغرب الأقصى بمرور ربع قرن على ولاية سلطانها سيدى محمد بن يوسف فأذاع فى أمته خطابا رائعاً لهذه المناسبة قال فيه: « إنى متأثر أشد التأثر بصداقة الفرنسيين إلا أنى أود لو ابتعدوا عن شئوننا الداخلية» ثم ذكر معاهدة سنة ١٩١٢ التى تحتج فرنسا بها فى تحكمها بالشعب المغربى وبلاده فوصف تلك المعاهدة بأنها « ملابس طفل يراد فرضها على رجل كبير » . ثم قال : ولا شك أن إخفاق فرنسا فى التقدم بمقترحات فعالة تتفق مع روح العصر هو السبب فى هذا التوتر الشديد الذى يسود شمال إفريقية . وقد رفضنا مشروع الاصلاح الفرنسى لأنه يقوض دعائم سيادتنا .

ثم استعرض المراحل التى مرت بها المفاوضات الطويلة مع الفرنسيين ، فاتهم فرنسا بأنها تحاول الابقاء على الحالة السيئة الراهنة نصاً وروحا . وسرد الاقتراحات الفرنسية للإصلاح مستدلا بها على سوء نية الفرنسيين .

انضمام ليبيا إلى الجامعة العربية :

افتتح الملك إدريس السنوسى البرلمان الليبى ، وتلى خطاب العرش وفيه تنويه بالعلاقة الطيبة بين ليبيا وشقيقتها الكبرى مصر والدول العربية الأخرى ثم قال : وسنعمل على الانضمام إلى الجامعة العربية وحضور وفد ليبى فى الاجتماع الذى تعقده الجامعة فى شهر مارس المقبل .

تعويضات ألمانيا لإسرائيل
ومشكلة اللاجئين العرب

كان فى ألمانيا عند ما تولى هتلر السلطان عليها فى سنة ١٩٣٧ نحو ٥٣٠ ألف يهودى. فلما رسمت حكومة هتلر خطتها للتحرر من اليهـــود وتأثيرهم الفكرى والاجتماعى والاقتصادى والسياسى على ألمانيا، جمعت مؤلفات علمائهم فى الميادين العامة وأضرمت فيها النار، ثم أخذ اليهود فى الرحيل إلى بلاد أخرى، وأكثرهم تحول إلى فلسطين حتى بلغ عدد المهاجرين إليها من يهود ألمانيا ٣٠٠ ألف. ومع أن القائمين على السياسة الصهيونية كانوا مسرورين من نزوح بنى جنسهم عن ألمانيا ليستعمروا بهم بلاد العرب فى فلسطين فإنهم استغلوا هذا الحادث وبالغوا فيه وجسموا وقائعه وملأوا الدنيا صراخاً بالشكوى.

وأخيراً حملوا أمريكا وانجلترا وفرنسا على إرغام حكومة ألمانيا الغربية بتعويض اليهود الذين زعمـــوا أن هتلر طردهم من بلاده، متجاهلين أن القوانين المعمول بها لا تجبر أية حكومة على دفع تعويضات من غير طريق القضاء فى دعاوى شخصية لأشخاص كانوا من رعاياها. غير أنـــ موقف ألمانيا الغربية السياسى فى الوقت الحاضر أجبرها على الإذعان فتقدمت بتعويض مقداره ٨٣٠ مليون دولار تعهدت بتسليمها إلى حكومة إسرائيل أقساطاً نقدية ومصنوعات مما تحتاج إليه إسرائيل فى استعدادها الحربى والصناعى.

وقد رأت الحكومات العربية أن فى ذلك تهديداً لها وإطالة لحياة حكومة إسرائيل عشرة أعوام أخرى أو أكثر، وستكون منه سابقة لأخذ اليهود تعويضات أخرى من بلاد يزعمون أن بنى جلدتهم اضطهدوا فيها أيضاً، ومنها النمسا وألمانيا الشرقية وهنغاريا ورومانيا وبولندا ... الخ.

وتقول الحكومات العربية فى مذكرة أرسلتها إلى ألمانيا الغربية : إن إسرائيل فى حالة حرب الآن مع سبع دول عربية، فعلى الدول المحايدة — ومنها ألمانيا — التزام واجب الحياد، وعدم تقديم مساعدات لأحد الطرفين المتحاربين. وإن مساعدة ألمانيا لإسرائيل ستخل بالتوازن الحالى فى الشرق الأدنى، وتمكن إسرائيل من القيام بعدوان على البلاد العربية. ثم إن إسرائيل ليست وريثة حقوق اليهود المتضررين، فكيف تكون طرفاً فى تسوية مع ألمانيا على حقوق يهود لم يكونوا رعايا حكومة إسرائيل، وكيف يحكم أى قانون خاص أو دولى على ألمانيا بدفع تعويض لإسرائيل التى لم تكن موجودة يوم وقع الاضطهاد المزعوم من ألمانيا على رعاياها اليهود. زد على ذلك أن حكومة إسرائيل لا تعترف بحق التعويض فى القانون الدولى، ولو كانت تعترف بهذا الحق لدفعت تعويضات إلى اللاجئين العرب وفقاً لقرارات الأمم المتحدة.

ودعوى إسرائيل أنها تتقاضى هـــذه

التعويضات لقاء ما أنفقته على إسكان نصف مليون يهودى طردهم النازى فهاجروا إلى فلسطين ، متعوضة بأن معظم هؤلاء قد هاجروا قبل حكم النازى أو بعد انتهائه ، ولم يكن لهم باعث على القدوم إلى فلسطين التى كانت آهلة بسكانها العرب . فكان مجيئهم الاختيارى اضطهاداً للعرب ، وبغياً عليهم ، واغتصابا لوطنهم .

وقد عرض وزير الخارجية المصرية فى خطابه الذى ألقاه فى هيئة الأمم وجهة العرب فى هذه القضية فقال :

« إن بعض مشاكل الشرق الأوسط التى لم تستطع الأمم المتحدة أن تجد لها حلا صالحاً إلى اليوم ستبقى دائماً موضع تفكير مصر والبلاد العربية قاطبة وانشغالها . ولا زال هذا هو حال اللاجئين العرب الذى يثير القلق ، ولن يكون أى مشروع جديراً بالالتفات إذا لم يكفل حلا إنسانياً عادلا لمثل هذه المشاكل . ولقد شرد تحت ضغط الصهيونية العالمية أكثر من مليون من العرب وانتزعوا من ديارهم فى فلسطين فى غير رفق ولا رحمة . ولأول مرة فى التاريخ يحدث أن يشرد سكان متوطنون فى بقعة ما ليحل عليهم أناس غيرهم بزعم أنهم شردوا من بقاع أخرى .

ولقد وقع أخيراً الضغط نفسه على حكومة ألمانيا الغربية ، وإن خضوع هذه الحكومة بقبولها تزويد إسرائيل بمبالغ نقدية كبيرة تحت ستار التعويضات وبكميات هائلة من الآلات الثقيلة لاستخدامها فى تقوية إمكانياتها الاقتصادية والحربية ، لا يحدونا إلى التفاؤل بمستقبل السلام والاستقرار فى الشرق الأوسط . وإن الحكومة المصرية لتنظر فى قلق بالغ إلى اتفاق التعويضات المقترح . وإننا لعلى يقين تام أنه لا حق لإسرائيل بأية حال فى الحصول على تعويضات من ألمانيا نيابة عن يهود العالم أجمع ، إذ ليس ذلك من حقها ، كما أنه ليس من حق أى بلد إسلامى أو مسيحى الحصول على مثل هذه التعويضات باسم المسلمين أو المسيحيين فى جميع أنحاء العالم » .

قضية كشمير

كما تصفها صحيفة أمريكية

وصفت صحيفة (باكجراوند فور توموررو) التى تصدر فى واشنطن قضية كشمير بقولها :

« إن الهند لم تعد تكتفى بأن تجعل من غزو كشمير مادة للسخرية من الغرب ، بما تبديه نحوه من عدم المبالاة ، بل هى تحاول أن تجعل منه وسيلة لتحطيم الباكستان كأمة . وعجز الأمم المتحدة عن القيام بعمل إيجابى حول هذه الأزمة سيؤدى حتما إلى شعور سكان هذا الجزء وغيره من العالم بأن هذه الهيئة الدولية تسعى إلى حتفها بما تتخذه لنفسها من سياسة عقيمة مرتجلة .

• إن جهود الدكتور فرانك جرهام الشفوية لم تفلح في زحزحة نهرو عن موقفه إزاء كشمير ، وهو موقف يذكرنا بستالين ، كما أن موجة الاستياء من الكتلة العربية الآسيوية ومن أعضاء مجلس الأمن لم تجد من يعبأ بها ، وأن نيودلهى تقف من كل هذا ساكنة لا تتحرك بينما كراتشى قد بدأت تفقد صبرها . ويحاول نهرو - بأقصى استطاعته - ألا يسمح لأمة إسلامية بأن تشاركه وقومه الهندوس في القارة الآسيوية ويساعده على ذلك أن اقتصاد الباكستان يعتمد على نهر السند الذى تغذيه أنهار كشمير الثلاثة ، فاتخذ من ذلك سلاحاً حاداً وورقة رابحة يلوح بها كيفما شاء مدعيا أنه يعمل بذلك على تنمية المصادر الطبيعية لبلاده .

• وبعد جهد طويل وافق نهرو على إجراء استفتاء في كشمير ، وهو يستخدم القوات الهندية وغيرها من وسائل القمع لتهيئة الجو لاستفتاء يحصل عليه كما يريد . وإن الهنود اتخذوا من هذه المسألة نكتة يتندرون بها على الأمم المتحدة . هذا بينما الأموال الأمريكية تستخدم لبناء السدود وتنظيم المياه بطريقة تقضى بالحرمان على الباكستان من الرى الذى يبقى على حياة ساكنيها . وإذا نشب القتال بسبب ذلك فلن يقتصر على كشمير ، بل لا بد أن يعم الباكستان والهند جميعاً .

من أسباب ثورة ماو - ماو

زار نائبان بريطانيان من حزب العمال بلاد كينيا التى نشبت فيها الثورة المعروفة هناك بثورة ماو - ماو . ولما أخذا يبحثان عن أسباب الاستياء التى دفعت الوطنيين إلى هذه الثورة أخذ عدد كبير من الأهالى يتصلون بهما ويفضون إليهما بشكاوى الإفريقيين من غطرسة المستعمرين وسوء استغلالهم للشعب وفرضهم عليهم رؤساء وأنظمة لا يطيقها البشر .

وهذان البريطانيان هما مستر فينر بروكواى ومستر ليزلى هيل . ولما وصلا إلى مدينة نيروبى في شرق إفريقيا أعلنا استياءهما وامتعاضهما من قيام السلطات الاستعمارية بالقبض على عدد كبير ممن اتصلوا بهما أثناء زيارتهما لكينيا .

وقد صرح مستر ليزلى هيل بأن من أسباب هذه الثورة ما يعانيه الأهالى من الجوع ، وانخفاض أجور العمال الإفريقيين ، وارتفاع الأسعار . ثم إن السلطات الاستعمارية تفرض على الأهالى والقبائل رؤساء وضيعين منحطى الأخلاق .

فإذا كان هذا بعض ما يقوله نائبان بريطانيان عن فساد الحكم الاستعمارى حتى أدى إلى ما نسمع به - من جانب واحد - عن تفاصيل تلك الثورة ، فكيف لو تمكن سكان كينيا من بسط شكواهم وإذاعتها في العالم ؟!

أنباء العالم الإسلامي

وزارة الإرشاد القومي :

تألفت في مصر وزارة جديدة للإرشاد القومي ، والغاية منها توجيه أفراد الأمة وإرشادهم إلى ما يرفع مستواهم المادي والأدبي ويقوي روحهم المعنوية وشعورهم بالمسئولية ويحفزهم إلى التعاون والتضحية ومضاعفة الجهد في خدمة الوطن . وتزويد الرأي العام العالمي بأصدق البيانات والإحصائيات والأرقام والصور عن حقائق الأمور في مصر .

وقد تكونت نواة هذه الوزارة من الإذاعة المصرية ، ومصلحة السياحة ، وإدارة الدعاية والإرشاد الاجتماعي ، ومراقبة الأفلام والسينما ، وإدارة المطبوعات ، والمكاتب الصحفية بهيئات التمثيل المصري في الخارج ، ومعرض وادي النيل ، ومؤسسة الثقافة الشعبية وقسم الدعاية الصحية ، ودار الأوبرا الملكية ومتاحف الحضارة المصرية وبيت الأمة والفن الحديث ، والمتحف الحربي عدا المكتبة ، وأقسام الإنتاج السينمائي والفني في وزارات المعارف والصحة والزراعة والشئون الاجتماعية .

ولا يبعد أن تتطور هذه الوزارة عندما تسير في عملها وتتقدم لتحقيق رسالتها .

تعدين الحديد وصناعته بمصر :

أسفرت بحوث بعثة التعدين الفنية التي أوفدتها مصلحة المناجم إلى الواحات البحرية عن اكتشاف طبقات سمكية من رواسب أوكسيد الحديد الأصفر ويتراوح سمكها بين متر وعشرة أمتار ، وهي تختلف عن منطقة مناجم الحديد في أسوان بأن أوكسيد الحديد في أسوان أحمر اللون ، وأن سمك طبقاته الظاهرة فوق سطح الأرض أقل من سمك طبقات الواحات البحرية التي تبين أنها غنية بالحديد ، وهي ذات أهمية خاصة نظرا لاهتمام الحكومة المصرية الآن بتنفيذ مشروع مصنع الحديد والصلب . ويقدر خبراء مصلحة المناجم كمية الحديد الموجودة في هذه المنطقة مبدئيا بنحو عشرين مليون طن .

وينتظر أن توجد مناجم أخرى للحديد في وادي الكريم ووادي سويحاب أم لصف ، ووادي أم حجاليج ، ولعل حديد هذه المناطق مغناطيسي على شكل طبقات عمودية تتجه إلى باطن الأرض ويتراوح سمكها بين ٣٠ سنتيمترا و١٥ مترا ، وترتفع عن سطح الأرض من ٥٠ إلى ١٥٠ مترا .

ويحتمل أن توجد مناجم للحديد فى الصحراء الشرقية وشبه جزيرة سينا .

وقد قرر مجلس الوزراء الموافقة على مشروع إنشاء مصنع للصلب والحديد تساهم فيه وتديره شركة تساهم فيها الحكومة المصرية والشعب المصرى والممولون الأجانب ، على أن يكون ٥١ فى المائة منها لمصر حكومة وشعباً ، والحكومة تقدم عن نصيبها فى رأس المال ما يوازى قيمة المعدات واللوازم التى اشترتها أخيراً من ألمانيا وتقوم بإعدادها فى منطقة حلوان . وسيحدد إنتاج المشروع الكامل فى أول مراحله بما لا يقل عن ١٥٠ ألف طن من الحديد والصلب ثم يتوسع به فى المستقبل تمشيا مع التطور الصناعى . وتحتفظ الحكومة المصرية لنفسها بحق الأولوية فى الحصول على ما تحتاج إليه من منتجات الشركة اللازمة لأغراضها المختلفة .

قنوات السدود بأعالى النيل :

بين بلدة جونجلى (القريبة من بحر الجبل فى جنوب السودان) ومنطقة الملكال (بين بحر السوباط والنيل الأبيض) مياه وأنهار كثيرة تضيع سدى فلا يستفاد منها فى حصيلة مجرى النيل . وقد قامت وزارة الأشغال المصرية ومهندسو الرى فيها من مصريين وأجانب بالتفكير فى مشروع لشق قناة تجمع هذه المياه وتذهب بها من منطقة بلدة جونجلى إلى النيل الأبيض لتزيد فى حصيلة النيل فيستفاد منها فى الرى مدة التحاريق . وهذه القناة التى يراد شقها يبلغ طولها ٣٠٠ كيلو متر وعرضها ١٢٠ متراً وعمق المياه فيها خمسة أمتار وتصرفها اليومى ٥٥ مليوناً من أمتار الماء المكعبة فى أثناء الفترة الحرجة وإذا ضمت هذه الحصيلة المائية إلى المنقول بواسطة بحر الجبل يزداد الماء الواصل إلى أسوان أيام التحاريق بمقدار خمسة مليارات و٢٠٠ ألف من الأمتار المكعبة فى سنة متوسطة الإيراد .

ويشمل المشروع أيضاً توسيع قناة جونجلى أو تشق قناة أخرى بجوارها موازية لها لحمل خمسة مليارات أخرى من الأمتار المكعبة تصرف من الخزان فى الفترة الحرجة أيضاً لزيادة الماء الواصل لأسوان بمقدار ٣ مليارات و ٣٠٠ ألف متر فى السنين الشحيحة الإيراد . وإذا تم هذا كله تصبح الزيادة المتوفرة فى أيام التحاريق ٨ مليارات ونصف من الأمتار المكعبة ويقدر المسئولون بوزارة الأشغال التكاليف الخاصة بهذا المشروع بنحو ٢٨ مليوناً من الجنيهات .

وقد دعت وزارة الأشغال لجنة دولية من كبار مهندسى الرى مؤلفة من مستر ب . و هـ . بليجن الخبير الهولندى ، ومستر ز . ا . س رولف ممثل شركة بروس وهويت الإنجليزية ،

ومستر ف . هنري شون الخبير الأمريكي لزيارة المنطقة المراد شق هذه الترعة فيها بين جونجلي والنيل الأبيض ، وزودتهم بمذكرة عن هذا المشروع وضعها الدكتور محمد أمين ومستر بايدوج المفتش العام المساعد للنيل الجنوبي ، ووزعت عليهم خرائط التقطت لمنطقة السدود من الجو ، وتسلموا مذكرات أعدها الدكتور محمد مجاهد الأستاذ المساعد لعلم النبات بكلية العلوم عن نتيجة دراساته وبحوثه في الحشائش والنباتات الموجودة في منطقة السدود . ثم وزعت عليهم مذكرة بالقواعد التي سيجرى عليها بحث المشروع ، وبرنامج الرحلة إلى تلك المنطقة .

وبالفعل سافرت هذه اللجنة بطريق الجو لمعاينة مكان الحفر وطوله وطبيعة أرضه وصخوره وحشائشه ، وصحبهم في هذه الرحلة الخبير الفني لوزارة الأشغال والمفتش العام للنيل الجنوبي وينتظر أن ينتهوا من مهمتهم في أوائل شهر ديسمبر .

انارة مكة بالكهرباء

كانت مكة محرومة من الكهرباء في زمن الحكم العثماني ثم في زمن الحكومة الهاشمية . وبعد التحاق الحجاز بالمملكة السعودية دخلت الكهرباء هذه المدينة الإسلامية المكرمة بما أقامه بعض الأمراء والأعيان من أجهزة توليد خاصة عقب تنوير الحرم المكي بالنور الكهربائي .

وأخيراً أخذت الحكومة السعودية في إنشاء محطة توليد كبرى في خارج البلد الحرام وقد أوشكت أن تتم فيتيسر بها تنوير مكة كلها بالكهرباء ، وسوف تنتج هذه المحطة في الأشهر القريبة الآتية ٤٠٠٠ كيلوات ولا يمر وقت آخر حتى يزيد الإنتاج إلى ١٠،٠٠٠ . وتوجد غير هذه المحطة الكبرى ١٥ محطة فرعية صغيرة داخل مكة . ويبلغ طول الأسلاك الكبيرة المستخدمة في هذا المشروع ٢٥ ميلا ، ولا يقوم على تنفيذ هذا العمل إلا مسلمون .

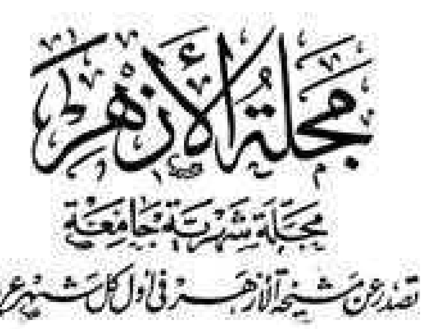
دنانير اسلامية :

عثر عمال كانوا يحفرون لمصلحة الآثار المصرية تحت السور الأثري لكنيسة أبادير وبوحنا في حارطة الشيخ مبارك بحي مصر القديمة (الفسطاط) على أربع دنانير ذهبية إسلامية نقش على وجهها بالخط الكوفي « لا إله إلا الله لا شريك له ، محمد رسول الله » وحجم الدينار ووزن ذهبه أقل من نصف الجنيه الإنجليزي ، وقد باع العمال هذه الدنانير إلى أربعة من الصاغة وتجار من الحلي ثم اختلفوا فيما بينهم فافتضح أمرهم واستطاع البوليس أن يسترد دينارين من التاجرين اللذين اشترياهما . والمظنون أنهما من العصر الطولوني قبيل مجيء الفاطميين . ولا يبعد أن تظهر في تلك المنطقة نقود أخرى عندما يستمر الحفر تحت السور .

فهرس

الجزء الثالث — المجلد الرابع والعشرون







الجزء الرابع - القاهرة في غرة ربيع الثاني ١٣٧٢ - ١٩ ديسمبر ١٩٥٢ - المجلد الرابع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام والسلام

إن من الأديان ما يدعو أتباعه إلى المحبة العامة للبشر، ولا يحول بين تعاون أتباعه وأتباع الديانات الأخرى، سواء أكانوا يسكنون معهم في وطن واحد أم كانوا يسكنون أوطاناً أخرى من هذا العالم.

وإن منها ما ليس كذلك، فلا يدعو إلى محبة ولا تعاون، بل ربما وقف في سبيل التعاون البشري والإخاء الإنساني، وهذا يكون إما من تحريفه أو بطلانه. وإن مثل هذا الدين يكون شراً تنوء به الحياة لأن الاختلاف بين البشر في العقائد والأديان واقع ماله من دافع، وليست هناك قوة يمكنها رفعه، فإذا جهل الدين هذه الحقيقة، وأراد محو الأديان الأخرى ما عداه، فلم يكن فيه عنصر التعاون مع أتباعها، كان محاولا ما لا يكون، إنما الذي يكون هو الشقاق والتنابذ والحرب المتأججة التي لا تخمد، والحكم الحق على هذا الدين أنه لا يصح أن يكوّن أتباعه مع أتباع دين آخر وطنا واحداً، ولا يصلحون أن يتعاونوا وسكان هذا العالم، وهل أسوأ من وطن يتعادى أبناؤه ولا يقدرون على التعاون على جلب مصلحة له أو دفع مفسدة عنه؟

وهل أسوأ من أمة تكون نشازاً في هذه الدنيا؟ تعادى الأمم الأخرى وتذكى نار الحرب، وتكدر السلم وتقف في طريق الغاية العظمى للإنسانية، وهي السلام الدائم على هذه الأرض.

أما الدين الأول فهو نعمة وبركة على معتنقيه وعلى من لا يعتنقونه ، فهو لا يدعو معتنقيه إلى التورط فى حروب تلو حروب ولا يكدر سلام العالم بشن الغارات وحمل السلاح.

والدين الإسلامى أين مكانه ؟ أفيه عنصر تعاون أتباعه مع من يخالفونهم ؟ أم هو من الشق الثانى ؟ فهو حرب على الأديان الأخرى يشن عليها الحروب ويغير عليها كلما واتته فرصة ؟

إن الباحث المحقق يجد الدين الإسلامى من الأديان التى تدعو إلى السلم ، والذى يمكن أن يتعاون أتباعه مع المخالفين فى دولته أو فى دول أخرى. وذلك يتضح من أمور :

١ — أنه بيّن فى غيرما آية ، أن الاختلاف فى العقائد والأديان من ضرورات البشر ، والله حكم بذلك فهو واقع لابد منه ، ومحاولة تغيير سنن الكون عناء فى عناء ، لاتجدى إلا الكد والنصب فيما لا يكون ، « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » .

وإذا علم المسلم أن طبيعة البشر تقتضى ذلك وأن هذه مشيئته ، لم يكن ثمت داع للحقد ولا للبغض .

٢ — أنه وضع هذه القاعدة الحاسمة التى لا هوادة فيها « لا إكراه فى الدين » ، فكل امرىء يختار عقيدته ، لا سلطان لكائن ما عليه ، فله أن يتخير عقيدته كما يتخير ثوبه ، وهذه توجب على المسلمين ألا يحاولوا إكراه أحد على الإسلام ، وألا يقاتلوا أمة ليخرجوها من دينها .

٣ — قوله تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منًا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » ، أجاز فى الأسرى أن يمن المسلمون عليهم فيطلقوهم ويهبوهم حياتهم بدون عوض ، أو يأخذوا منهم عوضاً فيطلقوهم بفداء ، وفى هذا تعليم عملى للمسلمين أن يعطوا مخالفيهم حق الوجود ، وأن يمنحوهم إياه حتى بعد اعتدائهم وحربهم والقدرة عليهم .

٤ — أنه أجاز أن يعقد المسلمون مع من يخالفونهم فى الدين ذمة ، وأن يسكنوا فى وطن واحد .

٥ — أن الرسول بيّن حقوق أهل الذمة والعهد ، فإذا هى مثل حقوق المسلمين ، لهم مالنا وعليهم ما علينا ، أى لهم ما لنا من حقوق وعليهم ما علينا من واجبات .

٦ ــ صرح تصريحاً قاطعاً لا يقبل الشك ولا التأويل ، أن الاختلاف فى الدين لا يؤدى إلى عدم البر بالمخالفين وتوليهم والعدل فيهم ، إنما الذى يؤدى إلى ذلك هو عدوانهم :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

٧ ــ أن القرآن دعا إلى الرفق والصبر والدعوة إلى الحق بالتى هى أحسن ، وحصر مهمة الرسول فى البلاغ :

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » .

« فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » ، « وما أنت عليهم بجبار » « ادفع بالتى هى أحسن السيئة » ، « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ، « فإن تولوا فإنما عليك البلاغ » .

هذه القواطع والأصول التى ينبغى أن تكون محكمة فتجعل أم الكتاب وكل ما خالفها من المتشابه يرد إليها .

ولعل قائلا يقول : إن ما ذكرته من دعوة الإسلام إلى السلم يعارضه ما ورد فيه من الدعوة إلى الحرب وقتال المشركين كافة : « يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال » ، « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » ، « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » ، « يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » ، « فليقاتل فى سبيل الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة » ، « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » .

أليست هذه الآيات تدل على أن الإسلام دين حرب ، وأنه يدعو إلى القتال ويطلب أن تقاتل الكافرين لكفرهم والمشركين لشركهم ، ويرى أن الكفر والشرك جريمة عقابها الحرب ، حتى يقلعوا عنها كما ورد .

قلنا إن من المخالفين من ناصبوا المسلمين العداء ، وحاربوهم ووقفوا فى سبيل الدعوة ، وهؤلاء هم الذين أباح الإسلام قتالهم ، بل حض عليه ، وما كان يطلب أحد من الإسلام أن يغضى عن ناصبوه العداء ، وأن يطلب من معتنقيه أن يقفوا مكتوفى الأيدى ، وأن يمدوا أعناقهم للذبح ، لا يكلف أحد الإسلام بذلك ، لأنه يخالف طبيعة الوجود والمبدأ القائل : لكل

أحد حق الدفاع عن نفسه ، ويكفي الإسلام حبا للسلام أنه يبغيه ويطلبه ، مع من لم يعتدوا عليه ، ولا يقدح في حبه للسلام ودعوته إليه أنه يأمر أهله بقتال من يعتدون عليهم . وهذا هو محل الآيات والأحاديث التي تدعو إلى الجهاد والقتال وهي تارة تأتي مقيدة بالعدوان وتارة تأتي مطلقة عن التقييد لعلمه . من الحال ، كأن يكون الكلام في قوم مقاتلين بالفعل ، أو لعلمه من النصوص التي تحرم قتال من لم يعتد ، وما كان الله ليترك هذه المسألة وهي تتعلق بمستقبل البشرية وسلام العالم ، دون نص قاطع وبيان واضح وقد جاء هذا البيان في قوله : تعالى « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ، « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » ، « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم » ، « لا إكراه في الدين » .

أعلم أن من أعداء الإسلام من يتهمون الإسلام بهذه التهم ويلصقونها به ، وهم قوم يكرهونه ويكيدون له ويريدون محوه من الوجود ، ويرون أن السبيل المعبدة لذلك ، هي تأليب دول العالم عليه وإفهامهم أنه حرب للسلام وللتعاون البشري والإخاء الإنساني ، ليقفوا منه موقف العداء ويحاربوه بكل سلاح .

إنهم يجهدون في أن يفهموا الدول القوية أنه غير صالح للبقاء ، وأنه لا يجاري روح العصر في الغاية العظمى من نشر السلام ، وأنه شر على أتباعه وعلى الإنسانية ، لأنه لو ترك وشأنه ، لورّطها في حرب تلو حرب ، وفي نزاع دائم وخلاف مستمر ، لذلك يجب أن تقلم أظفاره ويحارب كما تحارب الجراثيم الضارة والأوبئة المهلكة ، وهذا هو الذي يجعل هذا البحث أعظم جدوى وأجل فائدة وأيمن على المسلمين وعلى أهل الأرض من كل بحث سواه ، إنه يدفع هذه التهم الباطلة عن الإسلام ، ويرد هذا السلاح الخطر الذي يكيد به أعداء الإسلام للإسلام ، إنه يعلم المسلمين موقف الإسلام من السلام فيعملوا عليه فلا يضيعوا جهودهم في جهاد في غير عدو ، ويعلم أهل الأرض ذلك فلا ينظروا إلى أهل الإسلام نظرهم إلى العدو المتربص الذي يريد أن ينقض ، ونتيجة ذلك التعاون والسلام .

محمد عرفة

عضو جماعة كبار العلماء



قبل نحو تسعة أشهر ، وكان قد مضى أربعة أسابيع على حريق القاهرة ، أراد صحفى مصرى أن يستنير برأى سياسى مصرى قادم من أمريكا حيث كان ينظر إلى مصر من بعيد فيحكم على ما يقع فيها وهو غير متأثر بالاعراض والأغراض التى يتأثر بها المتأثرون بالعادة والإلف ، فسأله الصحفى :

— ما الذى تراه من أحوالنا هنا ؟ إننا نحن الذين نعيش داخل الدوامة العنيفة من الأحداث الكبيرة التى تجرى فى الوطن ، لا نستطيع أن نرى كل شىء ، وأنت هنا تمتاز عنا بأنك تقف بعيداً ولكن عينك دائماً على الوطن ترى كل ما يحدث فيه .

والسياسى الموجه اليه هذا السؤال هو الأستاذ محمود فوزى وزير خارجيتنا الآن ، وكان إلى ذلك الحين مندوب مصر فى الأمم المتحدة . والسؤال أكبر وأخطر من أن يجيب عنه رجل رسمى كالأستاذ محمود فوزى ، ولذلك سرعان ما غير موقفه من سائله وقال له :

— أريد أن أسألكم جميعاً وأسأل نفسى معكم :

« من نحن ؟ أين نحن ؟ ماذا نريد ؟ ما هى وسائلنا لنحقق ما نريد ؟ » .

وهذه الأسئلة التى وجهها إلينا وزير خارجيتنا ، بل مندوب مصر الدائم فى الأمم المتحدة ، بقيت من ذلك الحين بلا جواب . ولأجل أن يلفت الأستاذ محمود فوزى الأنظار إلى خطورتها وجه الى أمته السؤال الآتى :

« ما هو رأيكم — مثلا — فى رجل تلتقون به فى الطريق العام ، وهو يعدو بأقصى سرعة ، وتستوقفونه قليلا وتسألونه عن اسمه . . فإذا هو لا يعرف اسمه . وتسألونه عن عنوانه وعمله ، فإذا هو بلا عمل ولا عنوان . وتسألونه عن وجهته ، فإذا هو (منطلق) فى الطريق ، منطلق إلى غير هدف محدد ، وبدون غاية يقصدها . ما هو رأيكم فى مثل هذا الرجل الذى

لا يعرف نفسه ؟ لقد أصبحت أعتقد أن سر أزماتنا جميعاً يرجع إلى جهلنا بأنفسنا ، وبت أعتقد أن ظروفنا لم تعد تحتمل بعد اليوم أن تبقى نفوسنا سراً مغلقاً علينا . دعونا نحاول أن نعرف نفوسنا ، فإن هذا وحده هو المفتاح الذى يفتح أمامنا جميع المسالك ، وحاولوا أن تجيبوا عن هذه الأسئلة الأربعة تجدوا لنا جسراً عاقلا نعبر عليه مرحلة الخطر ! » .

إن الأستاذ محمود فوزى لم يحاول الإجابة عن أسئلته الأربعة ، لكنه توسع فى عرضها عرضا سريعاً بمقال نفيس [1] أظن انى لم أقرأ عن المجتمع المصرى مقالا أنفس منه منذ عشرين سنة .

من نحن ؟

هذا السؤال وضعه الأستاذ محمود فوزى على لسان مصر حكومة وشعباً ، ويصح أن يوضع على ألسنة الأقطار الممثلة فى جامعة الدول العربية ، وعلى ألسنة الأقطار التى يتألف منها العالم الإسلامى كله . . . وإذا أجيب عنه بجواب سديد كان مفتاح التوجيه السليم لكل مجتمع إسلامى وفى مقدمته مصر .

لقد مر علينا زمان فى مدة الاحتلال البريطانى لمصر ، كان يتبجح فيه بعض الكتاب بالتحدث عن الأمم التى احتلت مصر فيقولون : إن مصر وقع عليها الاحتلال من الرومان والفرس والعرب والكرد والشركس والترك والفرنسيس والإنجليز . وهم لا يقولون هذا فى معرض الشكوى من احتلال الفرنسيس والإنجليز ، بدليل أنهم فى مقالات أخرى مما خطته أقلامهم يذكرون حسنات الاحتلال الفرنسى والإصلاح الذى تم فى مصر مدة الاحتلال البريطانى . بل لعل هذه الحسنات الفرنسية وهذا الإصلاح البريطانى مما سجلوه بأقلامهم حتى فى كتب الدراسة الابتدائية والثانوية . وهذا يدلك على أنهم يريدون من سرد أسماء الأمم التى احتلت مصر أن ينقشوا فى أذهان قرائهم من المصريين ولا سيما الطلبة أن العرب كانوا محتلين لمصر ، وأن مصر التى مر على عروبتها أربعة عشر قرنا لا تزال غير عربية ، وأن الذين تولوا الحكم فى مصر من أبناء الأمم الإسلامية الأخرى كانوا يمثلون احتلالا

---

(١) فى مجلة آخر ساعة العدد ٩٠٥ الصادر فى ٢٧ فبراير سنة ١٩٥٢ .

أجنبياً ، متجاهلين ما كان بين هؤلاء وبين المصريين من وحدة العقيدة وآصرة الإسلام واتحاد الهدف من زمن الصحابة رضوان الله عليهم حتى الآن . فنشأ فى مصر بسبب هذه الدعايات نشء إذا أراد أن يتساءل ، من نحن ؟ ، يمر فى ذهنه طائف من الشكوك فى أن مصر عربية ، وأن الإسلام دخيل طرأ عليها . والطلبة الذين لا يجدون فى مناهج تعليمهم ما يعرفون به حقيقة الإسلام ، معذورون إذا صدقوا أن الإسلام أثر من آثار الاحتلال .

يقول الرئيس محمد نجيب ـ سدد الله خطاه ، وحقق له أمانيه الصالحة ـ فى كلمة له ألقاها فى مدرسة القبة النموذجية الثانوية ، وقد نشرناها فى الجزء الماضى (ص ٣٨٣) : « إن الدين أساس الأخلاق . ولقد تلقيت تعليمى فى السودان فى مدرسة كان يشرف عليها إنجليز ، ومع ذلك فقد كان بها مسجد ، ولذا فأنا مندهش من أن هذه المدرسة ليس بها مسجد . وأنا لإيمانى بأن الدين أساس الأخلاق لا أمانع فى تدريس الدين ، حتى الدين اليهودى ، بشرط أن يكون فى أيد أمينة ، وأنا أحب أن نقيم الأخلاق على تعاليم الدين » .

وأنا أقول للرئيس محمد نجيب : إن مدرسة القبة الثانوية ليس بها مسجد لأن الدعاية التى كانت منتشرة مع تيار العهد المنصرم ، كانت تتنكر للإسلام وتربية النشء عليه ، وكان القائمون عليها يعتبرون العروبة والإسلام احتلالا ، ولذلك فإن جميع الطوائف التى تعيش فى مصر ـ من كاثوليكية أو أرثوذكسية أو يهودية ـ تعنى فى مدارسها بآداب دينها وعقائده ، وتبث ذلك فى قلوب أبنائها ، حتى يجرى فى عروقهم مع دمائهم . أما المسلمون فأيتام ، ليس لهم من يحقق لأبنائهم أمنية الرئيس محمد نجيب التى أشار إليها فى كلمته ، فلا عجب إذا أدهشه أن لا يرى فى مدرسة القبة النموذجية الثانوية مسجداً . ولو وجد فيها مسجداً لرآهم قد اتخذوه مخزناً للمهملات ، ولو لم يشغلوه بالمهملات لكان من المستبعد أن يكون فى المدرسة تلاميذ تربوا على الخوف من الله والرجاء له واللذة بالوقوف بين يديه خلف إمام تعنى المدرسة بإشرافه عليهم فى دينهم كإشراف مدرس الرياضة البدنية عليهم فى ألعابهم اليومية .

إن الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر تحدث عن التعليم فى المدارس المصرية حديثاً نشرناه فى جزء صفر من هذه المجلة (ص ١٩٨ ـ ٢٠٠) فكان مما قاله : « إنه تعليم جاف

لايعنى بتكوين الإنسانية فى الإنسان ، ولا الإسلامية فى المسلم ، ولا الوطنية فى ابن الوطن ، ولا يصل حاضر الأمة بماضيها فى طريقهما إلى أهداف قومية متحدة » . ثم قال : « ولعل أصدق شهادة على هذه الحقيقة جنوح كثير من كبار رجال وزارة المعارف نفسها ـ فضلا عن غيرهم ـ إلى تخريج أبنائهم فى مدارس أجنبية ، يعلمون أنها أسست لأبناء جاليات لاحاجة بهم إلى كثير مما يحتاج إليه التلاميذ المصريون فى قوميتهم ودينهم ، لكنهم اضطروا إلى الرضا لأبنائهم بهذه المدارس الغريبة عنهم ، العارية من أمس حاجاتهم القومية والملية ، فراراً من ناحية الضعف التى أزمنت عللها فى مدارسنا ، واستشرى داؤها مدة نصف قرن وأكثر » .

وكل هذا متفرع عن الأصل الأصيل وهو أن القائمين على وزارة المعارف المصرية من نصف قرن إلى الآن لا يريدون أن يعترفوا بأن مصر بلد إسلامى ، ولو عرفوا ذلك واعترفوا به لربوا أبناء هذه الأمة تربية إسلامية ، لكنهم لا يفعلون ، لأنهم إذا تساءلوا « من نحن ؟ » قد يخطر على بالهم أن يجيبوا عن هذا السؤال بعشرين جواباً ليس فيها جواب واحد ينطقون به بشجاعة وصراحة قائلين : « نحن مسلمون » . ولو أنهم عرفوا بأنهم مسلمون وأنهم مؤتمنون على أبناء أمة إسلامية ، لاستعدوا الاستعداد التام لتربية التلاميذ المسلمين تربية إسلامية ، كما يربى التلاميذ الأرثوذكس فى المدارس الأرثوذكسية تربية أرثوذكسية ، وكما يربى التلاميذ الكاثوليك فى المدارس الكاثوليكية تربية كاثوليكية ، وكما يربى التلاميذ اليهود فى المدارس اليهودية تربية يهودية . وإذا كان هذا لم يتحقق قبل الآن ، فذلك لأن البلد لم يكن فيه رجل قوى جهير الصوت كالرئيس محمد نجيب ينادى بأعلى صوته صادقاً مخلصاً : « إن الدين أساس الأخلاق ، وأنا أحب أن تقيم الأخلاق على تعاليم الدين » .

أما وقد قالها هذا المصلح السليم الطوية المخلص لأمته ووطنه ، فقد آن لوزارة المعارف أن تعلم أن هذا هو طريق العهد الحاضر فى التعليم ، ومن الجناية على الوطن إضاعة سنة أخرى حتى نستعد لذلك فى العام الآتى ، وإذا كان ما لا يدرك كله لا يترك جله ، فينبغى أن تصدر الأوامر والمنشورات من هذه الساعة إلى نظار المدارس ومدرسيها جميعاً بملاحظة ذلك ومحاولة تحقيقه من صميم القلب وبكل الوسائل الممكنة على قدر الطاقة ، إلى أن ترسم له الخطط الثابتة من بداية العام الدراسى القادم ، وأن يعتبر المتلكىء فى هذا الأمر عضواً أشل فيبادر إلى بتره حالا .

لقد كنا فيما مضى لا نعلم « من نحن ؟ » بشهادة سياسي كبير من رجالنا .

أما الآن فيجب أن نعلم ، أننا مسلمون ، ويجب أن تقوم تصرفاتنا كلها على هذا الأساس ، وأن ترى أعمالنا إلى هذا الهدف ، وأن نلاحظ ذلك في كل حركة من حركاتنا وعمل من أعمالنا .

• • •

ويأتي بعد ذلك موقفنا من أسرة العروبة ، ومنزلة الكرسي الذي يمثل مصر في جامعة الدول العربية ، والأثر الذي تركه فينا تكلمنا بلغة العرب وتأدبنا بالأدب العربي من زمن عمرو بن العاص إلى اليوم .

إن القومية في القبيلة وحياة البادية مناطها الأنساب ، لأن حياة القبيلة قائمة على الانفراد والانزواء في دائرتها في أغلب الأحوال .

أما الحضارة فإنها بوتقة تذوب فيها الأصول والأنساب ، والعبرة فيها لرابطة اللغة أولا ، وللمصالح المشتركة ثانياً . فسكان فرنسا - مثلا - ليسوا جميعاً من أصل واحد ، والفرنسي فيها يكون فرنسياً ولو كان جده الثاني إيطالياً أو إسبانيا . ونابليون بونابرت - وهو من مفاخر فرنسا - مولود في الجزيرة الإيطالية كورسيكا ، من أبوين كانا يتكلمان اللغة الإيطالية . بل يقال عن بسمارك إن أجداده من أصل صقلبي ، وكثير من سكان ألمانيا الشرقية تجرى في عروقهم الدماء الروسية . والكاشاني الذي هو اليوم في مفاخر إيران عربي قرشي يعرف نسبه في بني هاشم . وكمال أتاتورك من سلانيك ، وقد يكون جده الثالث من أصل غير تركي . بل أكثر سكان الأناضول إما من أصل رومي أو من سلالة الحيثيين الذين تقول التوراة عنهم إنهم إخوة الكنعانيين (أي الفينيقيين) ، وهؤلاء أصلهم من نجد العربية ومن سواحل الأحساء على الخليج الفارسي . فهذه الاعتبارات التاريخية في الأصول والأنساب لم تمنع سكان أي قطر متمدن من أن ينتموا إلى قومية اللغة التي ولدوا يتكلمون بها ، ونشأوا متأدبين بأدبها ، وقد تكون لغتهم وآدابها حديثة عهد من بضع مئات من السنين . أما مصر التي تتكلم اللغة العربية من أربعة عشر قرنا ، وتتأدب بالأدب العربي حتى صارت لها فيه الإمامة والقيادة ، فإنها لا تزال تتساءل « من نحن ؟ » . ويريد بعض حملة الأقلام فيها أن

يقولوا إن العربي لا يكون إلا أعرابياً ، فإن لم يكن أعرابياً فلا تكفي عراقته في العربية وآدابها أربعة عشر قرناً ليقول بملء فيه ومن صميم قلبه ، نحن عرب مصريون ، كما يقال في العراق ، نحن عرب عراقيون ، وكما يقال في سوريا ، نحن عرب سوريون ، .

إن الأسيوطي أسيوطي ومصري لأن أسيوط جزء من الوطن المصري ، والمصري مصري وعربي لأن مصر جزء من الوطن العربي ، والعربي المسلم عربي ومسلم لأن الوطن العربي جزء من العالم الإسلامي . وكذلك الأندونيسي المسلم أندونيسي ومسلم لأن أندونيسيا جزء من العالم الإسلامي ، والباكستاني المسلم باكستاني ومسلم لأن باكستان جزء من العالم الإسلامي. وكون الأسيوطي أسيوطياً ، لايتعارض مع كونه مصرياً ، وكون المصري مصرياً ، لايتعارض مع كونه عربياً ، وكون العربي المسلم عربياً ، لايتعارض مع كونه مسلماً . فكل فرد منا إذا اعتبر نفسه في مركز دائرة فإن بلده الذي ولد فيه هو الدائرة الصغيرة الأولى حول النقطة المركزية ، ومصريته هي الدائرة الثانية التي تلي الدائرة الأولى ، وعروبته هي الدائرة التي تلي مصريته وتشملها ، وجامعته الإسلامية هي الدائرة الكبرى الجامعة التي تحيط بذلك كله ولا تتنافى مع شيء منه .

من نحن ؟ هذا السؤال يجب أن لا يبقى بلا جواب . ومتى عرفنا من نحن ، عرفنا المشاركين لنا في المصالح ، والخارجين عنا فيها ، وعرفنا واجباتنا نحو ما ننتمي إليه ، لأنها في الواقع واجباتنا نحو أنفسنا . وهذه المعرفة التي يتم بها الجواب عن السؤال الأول من الأسئلة الأربعة التي وجهها الأستاذ محمود فوزي إلى نفسه وإلى أمته ، كفيلة بالجواب عن الأسئلة الثلاثة الأخرى ، فنعرف أين نحن ، وماذا نريد ، وما هي وسائلنا لتحقق ما نريد ؟

وعلى معاهد التعليم كلها ، من يومنا هذا ، أن لا تكتفي بأن تعرف « من نحن ؟ » ، بل تستعد لتعريف ذلك لأبناء الجيل كلهم من طلبة المدارس ، حتى إذا آمنوا بمصريتهم وعروبتهم وإسلامهم ، تجندوا للعمل بهذا الإيمان ، يوم يتولون أزمة الوطن في حكومته وأسواقه ومرافقه ومعاهده ، وكان بذلك البعث الذي ينشده العهد الحاضر ، ويعمل لتحقيقه ؟

محب الدين الخطيب



حقوق الأكفياء

تقدير الكفايات ـ مثلان فى السياسة العليا ـ جيش الأمراء ـ مكان الحب وابن الحب ـ طعن فى غير مطعن ـ الإسلام يمحو العصبية ـ أروع الأمثال فى إكبار القادة .

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : بعث النبي ﷺ بعثا ، وأمّر عليهم أسامة ابن زيد ، فطعن بعض الناس فى إمارته . فقال النبي ﷺ : « إن تطعنوا فى إمارته فقد كنتم تطعنون فى إمارة أبيه من قبل : وايم الله إن كان لخليقا للإمارة ، وإن كان لمن أحبّ الناس إلىّ ، وإن هذا لمن أحب الناس إلىّ بعده » رواه الشيخان ، واللفظ للبخارى .

• • •

إذا كان من حقوق الأمة على بنيها أن يسخروا قواهم لخيرها ، ويجندوا أنفسهم لعزها ومجدها ، فإن من حقوق أقويائها الأمناء ، وعلمائها الأتقياء ، أن يكونوا موضع الثقة والمثابة منها ، والتجلة والإعزاز فيها ؛ كل له مقام معلوم ، ومكان محفوظ ، كفاء ما وهب الله له من موهبة ، وما منحه من فضيلة ، وما آتاه من قوة فى الحق ، وبصر فى تقدير الأمور .

وبتقدير الأمم الكفايات وحدها ، دون أن يكون للعداوة أو المحبة أو غيرهما سلطان ، فى تولية أو حرمان ـ تستقيم أمورها ، وتصلح شئونها ، ويشتد بنيانها ؛ لأنها وقيت شر الحاسد والحاقد ، والقاطع والباغض ، إلى غير أولئك من معاول الهدم فيها والقضاء عليها !

• • •

حسبك من السياسة الرشيدة أن تقدر الكفايات قدرها ، وتسند الأمور إلى أهلها ، غير ناظرة إلا إلى المصلحة الخالصة وحدها ، فإذا صاحب الكفاية تقرير قاعدة من قواعد الإصلاح ، أو تثبيت أصل من أصول التربية ، أو هدم عامل من عوامل الفساد ـ فذلك منتهى السمو فى سياسة الشعوب ، وغاية الرشد فى قيادة الأمم .

وفى هذا الحديث من ضروب السياسة العليا، التى يهدى بها النبى ﷺ أمته إلى طريق الكمال الإنسانى، مثلان: تأميره أسامة بن زيد حبه وابن حبه، على جيش عدته ثلاثة آلاف، فيهم سبعمائة من قريش، منهم كبار المهاجرين والأنصار، وفى طليعتهم الشيخان: أبو بكر وعمر، وأمين هذه الأمة: أبو عبيدة بن الجراح. بعث به إلى مشارف الشام، وهى حدودها مما يلى الصحراء. وكان هذا آخر جيش جهزه النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته، وأول جيش أنفذه الصديق رضى الله عنه فى خلافته؛ وتأميره أباه زيدا من قبله على جيش عدته ثلاثة آلاف كذلك، بعثه إلى مؤتة من مشارف الشام أيضا، وولى عليه ثلاثة أمراء أولهم زيد؛ عقد له النبى صلى الله عليه وسلم لواء أبيض ودفعه إليه، وقال: إن قتل زيد فأميركم جعفر بن أبى طالب، فإن قتل فأميركم عبـــد الله بن رواحة، فإن قتل فليرتض المسلمون برجل منهم، ومن هنا سمى هذا الجيش بجيش الأمراء.

• • •

ومن أعلام نبوته ﷺ أن ينعى الأمراء الثلاثة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فيقول: أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة، فأصيب — وإن عينى رسول الله ﷺ لتذرفان — ثم أخذها سيف من سيوف الله خالد بن الوليد من غير إمرة ففتح الله تعالى له.

والحكم بالغة لم يول خالداً أول الأمر، قد يكون منها أنه حديث عهد بإسلام؛ إذ لم يكن مضى على إسلامه قبل هذه الغزوة الأولى له أكثر من ثلاثة أشهر، فتوليته إذ ذاك لا تصادف من الجيش موقعاً وقبولا، وإذا اختلف الجيش فقل على النصر السلام!

وبعد أن شرف الله الأمراء الثلاثة بالشهادة فى سبيله، نصر المسلمين على يد خالد نصراً عزيزاً، وهزم عدوهم هزماً ذليلا، وكانوا مائة ألف أو يزيدون.

• • •

جهز النبى ﷺ جيش الأمراء دفاعا عن الإسلام، وتثبيتاً لقواعد السلام، وإرهاباً لأولئك الذين اعتدوا على حرمات المسلمين، وقتلوا رسول رسول الله ﷺ، مع أن الرسل لا تقتل! وإشهاداً للعالم بأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وبأن أساس النصر ليس كثرة العدد ولا قوة العُدد، ولكن النصر من عند الله العزيز الحكيم.

ثم جهز صلوات الله وسلامه عليه جيش أسامة قبيل وفاته ، وندب الناس لغزو الروم — وهم والفرس أعظم دول العالم حينئذ — وعقد بيده الكريمة لواء أسامة ، وقال له سر إلى موضع مقتل أبيك ، وأغر صباحا ، وأسرع المسير تسبق الخبر ، فإن ظفرك الله بهم فأقل اللبث فيهم .

وبينا أسامة يتأهب للرحيل اشتد برسول الله ﷺ وجعه ، وطعن قوم في تأميره على الجيش ، وعلى رأسهم عياش بن أبي ربيعة المخزومي . فرد عليه عمر وأخبر النبي ﷺ ، فغضب غضباً شديداً ، ولم يمنعه مرضه أن يخطبهم غاضباً وأن ينكر عليهم الطعن في إمارته وإمارة أبيه من قبله ، وأن يوصي بإنفاذ الجيش إلى الوجهة التي ولاها ... ثم انتقل صلوات الله وسلامه عليه إلى الرفيق الأعلى فأنفذ الجيش أبو بكر بعد استخلافه تنفيذاً للوصية النبوية التي تكشف الغطاء عن عظمتها وجليل آثارها قريباً .

سار الجيش كما أمر رسول الله ﷺ ، وأمضى عشرين يوما أو تزيد ، قتل فيها قاتل زيد أبي أسامة ، وأرهب فيها عدو الله ، ثم عاد بعدها سالماً غانماً معززاً منصوراً .

• • •

لم تقتصر إمارة زيد وابنه على هذين الجيشين العظيمين اللذين أشهدا العالم على عظمة الإسلام وعزته ، وبلوغه الذروة في كرمه وعدالته ، بل أمرهما النبي ﷺ على غيرهما من البعوث والسرايا ، وإن لم تبلغ مبلغ هذين الجيشين أهبة ووجهة وعديداً ، فهذه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول : ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في جيش قط إلا أمره عليهم ولو بقي لاستخلفه ، وهذا سلمة بن الأكوع رضي الله عنه يقول : إنه خرج فيما يبعث النبي ﷺ من البعوث تسع غزوات يؤمر عليهم مرة أبا بكر ومرة أسامة .

ولا يعنينا هنا أن نفصل أنباء هذه البعوث والسرايا ، فقد تكفلت بها كتب السير والمغازي ، وإنما يعنينا أن نتبين منها كفاية زيد وابنه ، وأن كلا منهما أهل للإمارة بحق ؛ وأن نتبين كذلك خبرة النبي ﷺ وثاقب نظره في الرجال وحسن اختيارهم ، حتى إن العرب على مراسهم للحرب وبلائهم فيها لم يستطيعوا أن يطعنوا في كفايتهما الحربية ، ومقدرتهما الفائقة التي جعلت من زيد أميراً فوق الأمراء ، بل رشحته لأن يكون خليفة لخاتم الأنبياء ، على خير أمة أخرجت للناس . ثم جعلت من ابنه أسامة — وهو غلام حدث لم يجاوز الثامنة

عشرة — قرنا لأبى بكر وعديلا له ، بل أميراً عليه وعلى المشيخة من المهاجرين والأنصار ، ومنهم صاحب البلاء الحميد ، فى البأس الشديد .

• • •

وإذا لم يكن للطاعنين مطعن فى كفايتهما وحسن بلائهما ، فإن مطعنهم فى أمر وراء الكفاية ، ستكشف الغطاء عنه على أثر إلمامة بمكان أسامة وأبيه من العرب ، ثم من النبى ﷺ . كان زيد مع أمه فى زيارة أخواله فأغارت خيل فى الجاهلية على أبيات لهم فاحتملوا زيداً فى صبية معه وقدموا به إلى سوق عكاظ . وكانت خديجة أوصت حكيم بن حزام ابن خويلد أن يبتاع لها غلاما ظريفاً عربياً إن قدر ، فأعجبه كيس هذا الصبى وظرفه ، فابتاعه وقدم به على عمته ، ففرحت به وأكرمته . حتى تزوجها رسول الله ﷺ وهو عندها ، فلما أعجبه ظرفه وأدبه استوهبه منها فوهبته له . فشب عند النبى صلى الله عليه وسلم حتى إذا خرج فى إبل لأبى طالب بالشام مر بأرض قومه فعرفوه ، ثم قدم أبوه وعمه وأخوه يفتدونه من النبى ﷺ بما يحب من الفداء ، فقال لهم أعطيكم خيراً من ذلك : أخيره فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، فقالوا جزاك الله خيراً فقد أحسنت وزدت على النصف . . فلما خيره صلوات الله وسلامه عليه قال ما أنا بمختار عليك أحداً أنت منى بمنزلة الأب والعم ، فلما رأى أنه آثره على أبيه وعمه وأخيه خرج إلى حجر إسماعيل وقال : اشهدوا على أنه حر ، وأنه ابنى يرثنى وأرثه ، فطابت أنفسهم بذلك لما رأوا من كرامته عليه .

ولم يزل يدعى فى الجاهلية زيد بن محمد حتى نزلت الآية الكريمة « ادعوهم لآبائهم » فدعى زيد بن حارثة ، وشدد النبى ﷺ النكير على دعاء أحد إلى غير أبيه وهو يعلم . وللقضاء على هذه الدعوى المنكرة أحل الله تعالى للمتبنى أن يتزوج زوجة الدعى إذا طلقها وقضت عدتها ، وأمر نبيه أن يتزوج زينب بنت عمته أميمة ، وكان زوجها زيداً ، لمكانته عنده ، غير أنها كانت تتعالى عليه وتفخر بحسبها ونسبها ، وكان يشكوها إلى النبى ﷺ فى قصة طويلة معروفة .

وورث أسامة أباه فى الفضل والنبل ، والكياسة والسياسة ، والكفاية فى الإمارة وعظيم البلاء فيها . كما شارك أباه فى حب النبى ﷺ له ، وثقته البالغة به ثم فى عده من موالى قريش وعتقائهم تبعا لأبيه من قبل .

هذه عجالة خاطفة فى تاريخ الحب وابن الحب ترينا مكانهما من النبى ﷺ ومن العرب ، وأن ما لصق بهما من العتق والولاء إن يكن ذنباً فلا يد لهما فيه ولا عيب عليهما به . وحسبهما أن الله أنعم عليهما ورسوله ، فأخرجهما من ظلمة الشرك ، ومذلة الرق .

أفرأيت كيف طعن الطاعنون فى زيد وابنه ، وشق عليهم أن يكونوا تحت إمرة مولى من مواليهم وعتيق من عتقائهم ؟ بله غلاما حدثا يتأمر عليهم ولما يبلغ العشرين من عمره إنها الأنفة والكبر والعصبية التى جاء النبى صلى الله عليه وسلم لمحوها واجتثاث أصولها ، قولا وعملا وسيرة وهديا ، لأنها من أشجار الفتن ، ومعاقد البلايا والمحن فى كل أمة تمنى بها ! ومن أحق بأن يحمله شرف القضاء عليها من حبيبه ، وأقرب الناس إليه .

يضاف إلى كفاية زيد وابنه ، وما صاحبها من بناء قاعدة المساواة بين الناس جميعاً ، وهدم دعامة الفخر بالأحساب والأنساب — أن زيداً أعلم بالجهة التى انتدب إليها ؛ لأنه نشأ فيها ؛ ولأن قومه منها ؛ ثم إن ابنه أولى الناس بالقصاص من قاتل أبيه ؛ فاختياره أحيا لنفسه ، وأبعث لهمته ، وأجدر ألا يدخر منها فى سبيل الله وسعا ، وكذلك كان .

• • •

رأى هذا كله وأكثر منه كبار أصحاب رسول الله ﷺ ، فلم يطعنوا ولم يعترضوا ، وإن رغب بعضهم فى أن يتوجه جيش أسامة وجهة أخرى لمحاربة المرتدين ، كما رغب بعضهم أن يستبدل بأسامة من هو أكبر منه سنا ، وأسبق فى بلاء الحروب قدما ، وهنا يضرب الصديق أروع الأمثال حزما وعزما ، ويأبى كل الإباء إلا أن ينفذ جيش أسامة دون أن يغير فى قضاء رسول الله ﷺ شيئاً ، ثم يزيد فى إكبار القائد الحدث وإجلاله ، فيستأذنه فى إبقاء الفاروق بجانبه ليكون له ردءاً وعوناً على مهمات الخلافة وأعبائها ، ثم يودع الجيش ماشيا ، فيقول له أسامة : يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن ، فيقول الخليفة ، التى لم تزده الخلافة إلا تواضعا وإنكارا لذاته : والله لا تنزل ولا أركب وما علىّ أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله ؟

• • •

أو رأيت كيف يصنع الله لنبيه ؟ وكيف يهديه فى سياسته ، وكل شأن من شئونه وشئون أمته ، للتى هى أقوم ، ويجمع له فى الأمر الواحد ما تفرق من قواعد الإصلاح ، ودعائم الرشد والفلاح ؟ « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

طه محمد الساكت

تطهير الأداة الحكومية في تاريخ الإسلام

١ ـ الحكم في الإسلام :

الحكم في الإسلام جزء من شريعته، وواجب لا يتم الدين إلا به . وينبغي أن يقوم هذا الحكم على العدل الذي أمر الله به ، فلا ينحرف عن دستور الإسلام الذي أنزله الله بالحق كما خلق السموات والأرض بالحق .

يقول الله عز وجل : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » . ويعلق على هذه الآيات شيخ الإسلام ابن تيمية فيقول : « فالمقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب أن يقوم الناس بالقسط ، في حقوق الله وحقوق خلقه ... فمن عدل عن الكتاب قوم بالحديد . ولهذا كان قوام الدين بالمصحف والسيف . وقد روى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نضرب بهذا ـ يعني السيف ـ من عدل عن هذا ـ يعني المصحف » [١] . ويقول المودودي « فالمراد من الحديد في الآية القوة السياسية . والآية قد بينت ما تبعث الرسل لأجله ، وهو أن الله قد أراد بعثهم أن يقيم في العالم نظام العدالة الاجتماعية على أساس ما أنزله الله عليهم من البينات ، وما أنعم عليهم في كتابه من الميزان أي نظام الحياة الإنسانية العادل » [٢] .

وإن الحكم الإسلامي ينبغي أن ينتهج كل طريق يوصل إلى العدل والقسط والحق . فما كان في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فهو واجب الاتباع ، وما لم يوجد منهما بالنص ولكن وافق مقاصد الشارع وساير روحه وقاس على أحكامه ولم يعارض فيها شيئاً فهو مقبول إذا اقتضته حاجة الناس . يقول ابن القيم « فإن الله أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، وهو العدل الذي قامت به السموات والأرض فإذا ظهرت أمارات الحق وقامت أدلة العدل وأسفر صبحه بأي طريق كان فثم شرع الله ودينه ، ورضاه وأمره .

(١) السياسة الشرعية ـ طبعة دار الكتاب العربي ص ٣٤ . (٢) نظرية الإسلام السياسية .

والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وأماراته فى نوع واحد ، وأبطل غيره من الطرق التى هى أقوى منه وأدل وأظهر ، بل بين ما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة الحق والعدل وقيام الناس بالقسط ، فأى طريق استخرج بها الحق ومعرفة العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها ، والطرق أسباب ووسائل لاتراد لذواتها ، وإنما المراد غاياتها التى هى المقاصد ـ ولكن نبه بما شرعه من الطرق على أسبابها وأمثالها ، ولن تجد طريقاً من الطرق المثبتة للحق إلا وهى شرعة وسبيل للدلالة عليها . وهل يظن بالشريعة الكاملة خلاف ذلك ؟؟ ولا نقول إن السياسة العادلة مخالفة للشريعة الكاملة ، بل هى جزء من أجزائها ، وتسميتها سياسة أمر اصطلاحى ، وإلا فإذا كانت عدلا فهى من الشرع »[1] .

ولقد زخرت المكتبة الإسلامية بتآليف جليلة فى سياسة الحكم على أساس إسلامى . منها كتاب « الأموال » لأبى عبيد القاسم بن سلام وكتابا « الخراج » ، وأحدهما لأبى يوسف يعقوب بن إبراهيم المتوفى سنة ١٩٢ هـ ، والآخر ليحى بن آدم القرشى المتوفى سنة ٢٠٢ هـ ، ويتعلقان ببحث السياسة المالية . أما السياسة العامة فنى مقدمة مؤلفاتها « الأحكام السلطانية » لأبى حسن الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ، و« الأحكام السلطانية » لمعاصره القاضى أبى يعلى ، ثم « السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية » لشيخ الإسلام ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ ، وكذلك « الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية » لتلميذه ابن القيم المتوفى سنة ٧٥١ هـ رضى الله عنهم أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

٢ ــ سمعة الحكم :

يقوم الحكم على دعامتين هامتين : عدل الحكم ، وعدالة الحاكمين بمعنى « العدالة » فى الفقه الشرعى .

فاستقامة الأوضاع على أمر الله ، واستقامة الأفراد على أمر الله ، صنوان لا غنى بأحدهما عن الآخر : « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » . يقول المودودى « إن الحكومة الإسلامية تتطلب وتقتضى أن يكون سائر أجزاء حياتها الاجتماعية ، وجميع مقومات بنيتها الإدارية من الرعية والمنتخبين والنواب والموظفين والقضاة والحكام وقواد العساكر والوزراء والسفراء والنظار لمختلف

(١) أعلام الموقعين ـ جـ ٤ ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

دوائرها ومصالحها - تقتضى أن يكونوا من الطراز الخاص والمهاج الفذ المبتكر . وهى تطلب بسجيتها رجالا يخشون الله ويخافون حسابه ، يؤثرون الآخرة على الحياة الدنيا » [١] .

لذلك حرصت دولة الإسلام من أول أمرها على طهارة الحكم وتطهيره على مدى الأيام . وفى مناقب عمر بن الخطاب لأبى الفرج بن الجوزى عن ابن سعد قال : كان عمر استعمل النعمان بن نضلة على ميسان وكان يقول الشعر فقال :

ألا هل أتى الحسناء أن حليلها   بميسان يسقى فى زجاج وحنتم

فى أبيات يقول فى ختامها :

لعل أمير المؤمنين يسوءه   تنادمنا بالجوسق المتهدم

فلما بلغ عمر قوله قال : نعم والله إنه ليسوءنى ، من لقيه فليخبره أنى قد عزلته .

فقدم عليه رجل من قومه فأخبره بعزله ، فقدم على عمر فقال : والله ما أحب شيئاً مما قلت ، ولكن كنت امرأ شاعراً وجدت فضلا من قول فقلت فيه الشعر . فقال عمر : والله لا تعمل لى على عمل ما بقيت [٢] .

فالإسلام حريص على سمعة الحاكمين ، لأن أخطاء الأمير بلقاء مشهورة ، والصغيرة منه كبيرة ، وهو محاسب على مجرد القول إن حوسب العامة على مقارفة العمل فقط .

والإسلام هنا لا يفرق بين الأخلاق الشخصية ، وبين القيام بالأعمال الرسمية ، لأن الإسلام لا يقيم الدولة لحفظ الكيان كائناً ما كان ، ولكنه يقيمها لإعلاء المثل العليا الإنسانية التى أتى بها الإسلام « تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . يقول المودودى « ... ويبدو لمن أنعم النظر فى دستور الدولة الإسلامية وغايته الحكيمة ووضعيته الإصلاحية ، أن هذه الدولة لا يتولى أمرها إلا الذين آمنوا بهذا الدستور ، وجعلوه غاية حياتهم ومطمح أنظارهم ، الذين لم يخضعوا لبرنامجه الإصلاحى ولم يظهروا تأييدهم لخطته العملية فحسب ، بل كان الإيمان بصدق تعاليمه قد تغلغل فى عروقهم وكانوا على معرفة تامة بروحه وطبيعته وما يشتمل عليه من التفاصيل والجزئيات » [٣] ويقول « إن إعلاء كلمة الله

---

(١) منهاج الانقلاب الاسلامى .

(٢) المناقب عمر لابن الجوزى - أشهر مشاهير الاسلام - المجلد الأول - ص ٢٩١ .

(٣) نظرية الاسلام السياسية .

والدعوة إلى القيام بها تحتاج إلى رجال ذوى صلاح يتقون الله فى السر والعلن ، ممن لا يلهيهم عن العمل بالشريعة والاستمساك بعروتها شىء من مطامع الدنيا ، ولا تصرفهم عن ذلك العقبات والشدائد »[١] .

ولقد كان الإسلام فى أحكامه حريصاً فى إقامة الاعتبار المعنوى والقانونى للشخص على الأساس الأخلاقى ، ففى رسالة عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى : « المسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً فى حد ، أو مجربا عليه شهادة زور » وأسقط الفقه الإسلامى عدالة من اعتادوا بعض التصرفات ، أو امتهنوا حرفا فيها مساس بالكرامات ، وفى علم الحديث بلغ « التعديل والتجريح » مبلغه ، فكيف بمن يلى للمسلمين أمراً من الأمور ؟ ؟ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « إن الأئمة متفقون على أنه لابد فى المتولى من أن يكون عدلا أهلا للشهادة »[٢] .

٣ — نزاهة الحكم :

فرض القرآن الكريم النزاهة قاعدة للحكم الإسلامى ، فقال تعالى « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » ولقد حذر الحديث الشريف من كل ما فيه شبهة أو ظنة ، ولو كان هدية لا رشوة ، أورد أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود أن النبى ﷺ استعمل رجلا من الأزد على الصدقة فلما قدم قال : هذا لكم ، وهذا أهدى إلى . فقال النبى ﷺ : « ما بال الرجل نستعمله على العمل مما ولانا الله فيقول : هذا لكم ، وهذا أهدى إلى ؟ ؟ فهلا جلس فى بيت أبيه أو بيت أمه فينظر أيهدى إليه أم لا ! ! والذى نفسى بيده لا يأخذ منه شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته ، إن كان بعيراً له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر ، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتى إبطيه وقال : « اللهم هل بلغت ؟ ؟ . قالها ثلاثا » .

وإنما تتحقق نزاهة الحكم بأمرين مهمين : عدم استلاب شىء من بيت المال وعدم استلاب ما فى جيوب الخلق استغلالا للنفوذ .

ولقد وجه الأنظار إلى الحرص على مال الدولة بوضوح وقوة صاحب « السياسة

---

(١) منهاج الانقلاب الإسلامى .

(٢) السياسة الشرعية ص ١٩ .

الشرعية »[1] حيث يقول : « وليس لولاة الأموال أن يقسموها بحسب أهوائهم كما يقسم المالك ملكه ، فإنما هم أمناء ونواب ووكلاء ـ ليسوا ملاكا كما قال رسول الله ﷺ : « إني ـ والله ـ لا أعطى أحداً ولا أمنع أحداً ، وإنما أنا قاسم أضع حيث أمرت » رواه البخارى من حديث أبي هريرة رضى الله عنه ، فهذا رسول رب العالمين ، قد أخبر أنه ليس المنع والعطاء بإرادته واختياره ، كما يفعل ذلك المالك الذى أبيح له التصرف فى ماله ، وكما يفعل ذلك الملوك الذين يعطون من أحبوا ، وإنما هو عبد الله يقسم المال بأمره ، فيضعه حيث أمره الله تعالى » .

وأورد أبو جعفر الطبرى[2] عن السائب بن يزيد قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : « والله الذى لا إله إلا هو (ثلاثا) ما من أحد إلا له فى هذا المال حق أعطيه أو أمنعه . . . وما أنا فيه إلا كأحدهم ، ولكننا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله ﷺ » .

وقد وعى تاريخ الإسلام خطوات عملية لتنفيذ ذلك ، ومحاسبة المتولين للأمور المالية على ما تحت أيديهم ، والحرص بكل سبيل على نزاهة الأداة الحكومية وكانت المحاسبة تتم عن طريق الرؤساء وفى مقدمتهم الخليفة ، ثم تطورت بعد تدوين الدواوين وارتقائها واتساع دائرة الحكم فصارت فى يد جهات خاصة تتولاها .

يتبع

محمد فتحى محمد عثمان

مدرس الآداب بالمعاهد الدينية

أول معرفة الأخطل بجرير

قال محمد بن سلام الجمحى : حدثنى شيخ من ضبيعة قال :

خرج جرير إلى الشام ، فنزل منزلا لبنى تغلب ، فخرج متلثما عليه ثياب سفره ، فلقيه رجل لا يعرفه فقال : من الرجل ؟ قال : من بنى تميم . قال : أما سمعت ما قلت لغاوى بنى تميم ؟ (وأنشده مما قال لجرير) ، فقال له جرير : أما سمعت ما قال لك غاوى بنى تميم ؟ (وأنشده) . ثم عاد الأخطل ، وعاد جرير فى نقضه ، حتى كثر ذلك بينهما . فقال التغلبى : من أنت ، لا حياك الله ؟ والله لكأنك جرير ! قال : فأنا جرير . . . قال التغلبى : وأنا الأخطل . . .

(١) ص ٢٩ . (٢) ج ٥ ص ٢٣ .

في الفقه الإسلامي
نشأته - خصائصه

١ — تكلمنا فيما سبق عن نشأة الفقه الإسلامي وتدرجه حتى وصل إلى كماله، وعن دور التقليد الذي أخذنا بحمد الله في التخلص منه، والآن نتكلم عن بعض خصائص هذا الفقه. ومن المفهوم أن لكل من القوانين التي عرفها البشر ما يتميز به عن القوانين الأخرى، وبذلك يكون له طبيعته أو طابعه الخاص.

وخصائص فقه الإسلام كثيرة؛ ومنها ما يرجع إلى طبيعته نفسها، وما يرجع إلى الأصول التي قام عليها، وما يرجع إلى الوسائل التي يصطنعها في تقرير أحكامه في العقول والنفوس، وما يرجع إلى الغاية التي يهدف لها ويرضاها الشارع الحكيم الأعظم للعالم كله. وليس من الممكن استيعاب هذه الخصائص، ولو بإجمال في كلمة أو كلمات محدودة؛ ولهذا لابد من الاكتفاء بالكلام عن بعض هذه الخصائص، ومن الرضى بالإجمال بدل التفصيل.

٢ — وأول خاصة الفقه الذي نعرفه للإسلام، أنه يرجع في أصوله وأسسه إلى وحي الله تعالى، هذا الوحي الذي يتمثل في القرآن والسنة. وكان هذا، لأن الإسلام جاء للعالم والإنسانية عامة بعد الديانات السابقة، التي كانت محدودة في الزمان والمكان، وبعد أن استنفد كل منها أغراضه وأدى رسالته، فأصبحت البشرية تحس الحاجة الشديدة لدين جديد، يكون خاتم الأديان التي عرفتها. وكان هذا الدين هو الإسلام، وكانت وسيلته — لتصل الإنسانية إلى ما ترجوه من حياة العز والكرامة والسعادة — بيان العقيدة الحقة وتقريرها، وتشريع القوانين التي يصلح بها العالم على اختلاف الزمان والمكان ويسعد بها الفرد والجماعة.

ولا عجب في هذا، فلم يتنزل وحي الله بالإسلام ليكون دينا لجنس دون آخر، ولا لأمة دون أخرى، بل للعالم جميعا على اختلاف ألوانه وأجناسه ومواطنه، وعلى مر الزمن والقرون. ومن هنا كان لابد أن تكون تشريعاته عن الله العليم بحاجات البشر عامة، الخبير بما يصلحون عليه في العاجل والآجل من الزمان، بل وفي الدار الأخرى أيضا.

٣ — أساس هذا الفقه هو إذاً ما جاء في كتاب الله الحكيم وسنة رسوله العظيم ﷺ، وفي هذين المصدرين الكريمين المقدسين نجد الأسس العامة، بل التفصيلات في حالات كثيرة يجب فيها التفصيل، لكل ما عرف العالم من قوانين حديثة عديدة:

المدنى المالى ، الجنايات ، الدستورى ، الدولى ، وغير ذلك كله من فروع القانون وأقسامه .

وكل فقيه من فقهاء المسلمين ، رضوان الله عليهم جميعاً ، يرى نفسه مقيداً بنصوص القرآن وسنة الرسول ، ويجد فيهما غناء أى غناء ! فإن أعوزه النص من القرآن المحكم والسنة الثابتة الصحيحة ، كان له أن يجتهد مستلهماً روح الإسلام وأصوله ومقاصده . نريد أن نقول بأن على المجتهد المسلم أن يدور دائماً فى فلك الكتاب والسنة ، وأن لا يتعدى فى اجتهاده مسارهما ، وإلا فلا قيمة لما يخرج به من رأى يؤديه إليه عقل ناقص محدود القوى بطبيعته .

٤ — وقيمة أى قانون لا تجىء من إحكام وضعه وحسن تنظيمه فحسب ، ولا يتحقق ما يرجوه من أهداف وغايات بتنفيذه على غير رضى ممن وضع لهم ، إنما يكون ذلك كله إذا كان تنفيذه والنزول على تشريعاته مرجعه إلى اطمئنان النفوس له والإيمان بعدالته ، وإلى الاعتقاد بأن فى طاعة هذا القانون المثوبة وحسن الجزاء .

وهنا نجد الفقه الإسلامى بلغ الذروة من ذلك كله ، بما نرى من قيام كل تشريعاته على ركائز ثابتة من الدين والأخلاق ، وهذا يجعل النفوس تؤمن بها كل الإيمان وترضى بها كل الرضاء ، لا فرق فى ذلك بين المسلمين وغير المسلمين . فلا يحاول أحد من المؤمنين بها التفلت من شىء من أحكامها وإن لم يخف سلطان القانون والقضاء . وقد يكون من الخير أن نضرب بعض المثل لما نريد بيانه ، ويكون فيها غنية عن كثير من المثل التى نراها على جمل الذراع لمن يريد :

(ا) لا يعيش الإنسان فى قريته أو بلده وحده ، بل له من أمثاله جيران يشركون فى كثير مما لا يستغنى عنه فى حياته . وهنا نجد القوانين الوضعية التى تختلف باختلاف من وضعت لها من الأمم والشعوب لا تعمل فى هذه الناحية أكثر من بيان ما للجار من حقوق على جاره ، ثم تقدير عقوبات لمن يخرج عليها . ومن ثم ، نجد خصومات كثيرة تجد من هذه الناحية ، ويصل الكثير منها للقضاء ، على أن هذا لا يمنع من بقاء العداء بين المتقاضين .

لكن الله العليم بما فطر عليه الإنسان من حب النفس والأثرة ، وبأنه لا يقبل تنفيذ القانون إلا بوازع قوى من ضميره يغرسه فيه الدين ، نراه يؤكد قبل كل شىء ما للجار من حقوق وما عليه من واجبات لجاره ، ويذهب فى هذا السبيل إلى حد أن جعل القيام بحق الجار أمراً مفروضاً يجىء بعد الإيمان بالله جل وعلا ، فيقول فى سورة النساء : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، وبذى القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذى القربى والجار الجنب » . ثم نرى الرسول ﷺ يقول : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره » ، وفى حديث آخر : « فليكرم جاره » .

وبعد أن يقدر القرآن والسنة حق الجار هكذا على جاره ، تغدو مهمة الفقهاء والمشرعين هينة يسيرة : فما عليهم إلا أن يبينوا هذه الحقوق ، وما يقابلها من الواجبات ، فإذ بالمؤمن بالله وكتابه ورسوله يسارع لإعطاء الجار حقوقه ، ما دام وحي الله ـ المتلو وغير المتلو ـ يأمر بإكرام الجار وليس بخسه بإعطائه حقوقه . وحينئذ لسنا في حاجة للقضاء ، إلا لمعالجة من لم يخالط الإيمان قلوبهم وينتزع ما فيها من عوامل الأثرة والظلم .

(ب) وجرى الأمر أيضاً على هذا المنهاج الحكيم في فرض الزكاة والجهاد في سبيل الله والوطن . فإن الله ، جلت حكمته ، يعلم ما فطر عليه الإنسان ـ إلا من عصم الله من مصطفيه الأخيار ـ على الشح بالمال والنفس ، ولذلك نرى الشارع الأعظم يمهد لفرض الزكاة بأنها تطهر المال وتنميه وتزكي النفوس . فقال : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » ، ثم نرى الرسول يقول : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا » ، كما جاء في البخاري ومسلم .

أما فيما يختص بالجهاد ، فنجد القرآن يقول : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » ، ويقول : « ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما » . وبعد ذلك ، نجد الرسول يؤكد هذا فيقول : « لغدوة في سبيل الله أو روحة ، خير من الدنيا وما فيها » ، ويقول : « تكفل الله لمن جاهد في سبيله ، لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلماته ، أن يدخله الجنة أو يرده إلى مسكنه بما نال من أجر أو غنيمة » .

وكان لهذا المنهاج النفسي الحكيم لتشريع الجهاد فرضاً على المؤمنين ، ونشراً للإسلام وذياداً عنه وعن الوطن ، أثره البالغ في تحبيب الاستشهاد إلى المؤمنين ، حتى إن جابر بن عبد الله يقول للنبي عليه الصلاة والسلام يوم أحد : أرأيت إن قتلت ، فأين أنا ؟ ، قال في الجنة ، فألقى تمرات في يده ثم قاتل حتى قتل .

٥ ـ وبعد ذلك ، فهناك خاصة أخرى للفقه الإسلامي تتصل من قرب بسابقتها . إن القانون الوضعي يمكن أن يعرف بأنه « مجموعة القواعد التي تنظم الروابط الاجتماعية ، والتي تقهر الدولة الناس على اتباعها ولو بالقوة عند الاقتضاء »[1] . ومن هذا التعريف يتبين أن من خصائص القانون جزاء من يحيد عن أحكامه ، إلا أن هذا الجزاء يكون دنيويا بطبيعة الحال ، لأن واضعه لا يملك شيئاً من أمور الآخرة وما فيها من ثواب أو عقاب ، بل لا يملك

---

(١) أصول القانون للأستاذين عبد الرزاق السنهوري وأحمد حشمت أبو ستيت، ص ١٣ .

لنفسه نفعاً أو ضرراً فى هذه الحياة الدنيا . ومن أجل ذلك ، لا جناح على من يستطيع الإفلات من هذا الجزاء الدنيوى ، اللهم إلا تأنيب الضمير .

كما أن القانون ليس له إلا غاية نفعية ، هى تنظيم المجتمع واستقرار أموره على النحو الذى يفهمه واضع القانون ، وهذه الغاية النفعية محدودة ، لأن عقل واضعه قاصر محدود . ومن ثم ، ترى القانون كثيراً ما يبيح أموراً لا تتفق مع الدين الحق والخلق الصحيح وفائدة المجتمع البعيدة ، مثل الزنا ، وشرب الخمر ، والقمار فى بعض صوره .

أما الفقه الإسلامى ، وهو قانون سماوى شرعه الحكيم العليم المحيط بالعالم كله ما كان منه ومالا يكون ، فهو يهدف لسعادة المجتمع القريبة والبعيدة والدائمة ، لا المنفعة العاجلة المحدودة فقط ، وهو يثيب ويعاقب فى هذه الحياة وفى الحياة الأخرى الخالدة . ولذلك يحس المؤمن به بدافع نفسى ووازع قوى يحمله يطيع ما يأمر به وينهى ، حتى ولو أمكن له أن يكون بنجوة من عقابه فى الدار الدنيا . وليس كهذا باعثا على إثبات التشريعات فى رضى من النفس واطمئنان .

والتشريعات الفقهية تقصد لصلاح الفرد والمجتمع فى كل آن ومكان ، وهذه غاية نفعية بلا ريب . إلا أنها تعمل على بناء مجتمع يكون مثاليا نقيا عما يشوب الدين والخلق ويجافيهما ، كما أنها تعمل أيضا على أن يتبعث الإنسان من نفسه للقيام بواجبه نحو خالقه ونحو نفسه وإخوانه فى الإنسانية .

٦ — وهنا نجدنا نصل إلى الحديث عن خاصة هامة أخرى للفقه الإسلامى ، وهى خاصة لها خطرها هذه الأيام التى اشتجرت فيها الحرب بين المذاهب الاقتصادية والاجتماعية ، ونعنى بهذه الخاصة النزعة « الجماعية » التى تسود الشريعة الإسلامية . ونريد بكلمة : « جماعية » ، معنى أوسع من كلمة « اشتراكية » التى أخذت معنى خاصا هذه الأيام ، حتى يشمل الناحية المالية وغيرها من الحقوق والواجبات جميعا . وهنا نجد كثيرا من المثل التى لها قيمتها :

(ا) إن للحكام وولاة الأمور أن يسمع لهم الشعب والرعية ، ولكن هذا الحق مقيد بأن يكون هدفهم المصلحة العامة للأمة جميعا ، وفى هذا يقول الرسول : « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب أو كره ، مالم يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » ، وهذه الكلمة الجامعة تعبر خير تعبير عن أصل من أصول الحكم والسياسة العامة للدولة ، إذ أنها تحدد بدقة العلاقة التى يجب أن تكون بين الحاكم والمحكوم .

(ب) ويروى أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى عام ٢٢٤ هـ ، عن أبي عبيدة بن الجراح أن ناساً من أهل البادية سألوه أن يرزقهم من مال الأمة ، الذى تحت يده ، فقال : لا ، حتى أرزق أهل الحاضرة أولا ، فمن أراد بحبحة الجنة فعليه بالجماعة ، وبمثل هذا كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله يزيد بن الحصين يقول : « مر للجند بالفريضة : وعليك بأهل الحاضرة : وإياك والأعراب فإنهم لا يحضرون محاضر المسلمين ولا يشهدون مشاهدهم » . وهذا ليس معناه أنه ليس للبدو حق فى بيت المال العام ، ولكن معناه أنه ليس لهم الحق فى رواتب جارية فى أهل الحاضرة بل على الدولة أن تعينهم فى أوقات الشدة ، كما إذا دهمهم عدو أو أصابتهم جائحة فى أرزاقهم [1] .

وربما جازلنا أن نشير بعد هذين المثلين ، تدليلا على نزعة الفقه الإسلامى الجماعية ، إلى فرض الزكاة ، والحث على الصدقة وضروب البر المختلفة ، وترك عمر بن الخطاب سواد العراق والشام بيد أهلها على أن توضع عليهم الجزية والخراج ، بل تقسيمه بين الفاتحين ، وذلك ليكون ما يحصل من ذلك عوناً وذخراً للأمة جميعاً .

(٧) وهذه النزعة ترجع فيما نعتقد إلى أن الإسلام يعتبر أن الإنسان وكل مايراه من حقوق له هو ملك لله وحده ، وهو يمنح منها ما يريد للفرد لتحقيق الخير له وللمجتمع معاً على حين يرى القانون الوضعى ، وعلى الأقل فى الماضى القريب ، أن الفرد هو كل شيء ، فما يجعله من الحقوق له يعتبر أمراً طبيعيا ، ولا حرج عليه حينئذ إن أساء استعمالها أو إن لم ير أن للمجتمع حقاً مفروضاً عليه .

وبعد ، هذه بعض الخصائص التى تجعل للفقه الإسلامى طابعاً خاصاً يتميز به عن القوانين الأخرى ، وهى خصائص من شأنها أن تجعل من الفرض على المسلمين فى هذا الزمن دراسته بقصد الانتفاع به والإفادة منه على وجه عملى . وفى الكلمة الآتية ، وهى تتمة هذا الحديث إن شاء الله تعالى ، بيان الغاية التى نراها حقيقة بالطلب من دراسة الفقه هذه الأيام ، وبيان الوسيلة التى نراها لبلوغ هذه الغاية ، وبالله العون والتوفيق .

الدكتور محمد يوسف موسى
أستاذ الشريعة الاسلامية
بكلية الحقوق – جامعة القاهرة

---

(١) كتاب الأموال ، ص ٢٢٧ – ٢٢٨ .

أكمل رسالات الله

حديث لفضيلة الأستاذ الأكبر

فى احتفـــال الأزهر بالمولد النبوى الشريف

يحتفل العالم الإسلامى اليوم بمولد الإنسان الكامل، الذى اختاره الله لحمل أكمل رسالاته إلى البشر كافة، فكان هذا الحادث فى تاريخ الإنسانية الحد الفاصل بين الحق مموهاً بأهواء المتقلبين ومطامع المغالطين وأغراض الظالمين، فهو لذلك عرضة للتغيير والتبديل. وبين الحق الأبلج النقى من شوائب الأهواء والمطامع والأغراض، فهو لذلك ثابت خالد إلى يوم الدين.

إنه احتفال بمولد الحق مجرداً خالصاً صافياً، وبدعوة الخير عامة شاملة كاملة.

إنه احتفال بانتقال الإنسانية من عهد طفولتها ورعونتها، إلى ما ينبغى لها عند اكتمال نضجها وبلوغها عهد رشدها.

كل ذلك مما يحتفل به العالم الإسلامى اليوم، إذ يحتفل بمولد خاتم رسل الله محمد صلوات الله وسلامه عليه. وقد أكرمه ربه بما حف به ولادته من أصالة النسب وصفاء الفطرة وسلامة الخلق. ثم استرضع فى بنى سعد بين أخبية البادية وآفاقها، فازدادت آصرته بالبيئة السعيدة البعيدة عن شوائب المجتمع. وكان كلما شب بعد ذلك ونما، اتسمت شهرته بين قومه بالأمانة والصدق والاستقامة فى الطريق المستقيم، حتى إذا بلغ مبلغ الرجال دعته السيدة خديجة بنت خويلد إلى التزوج بها، لما اشتهر به من كريم الفضائل ومعالى الأخلاق، فأجابها إلى ذلك، ورأى فيها من الكمال والوفاء ما قابلها عليه بأحسن منه.

ولما قارب أمر الرسالة، جعل يختلى فى غار حراء للتحنث والعبادة ومناجاة الله عز وجل، فكانت زوجه السيدة خديجة، رضى الله عنها، تساعده على ذلك وترسل إليه زاده فى هذه الخلوة القدسية بينه وبين ربه.

وآن أوان بعثه العامة الشاملة إلى الأمم كلها عند ما بلغ من عمره الشريف نحو الأربعين، فأوحى الله إليه فى سورة الأنعام — وهى مما أوحى به إليه فى مكة قبل الهجرة — «قل الله شهيد بينى وبينكم، وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ»، فهو صلى الله عليه وسلم

نذير برسالته لمعاصريه ، ولكل من تبلغه دعوته فى كل زمان ومكان تتلى بهما آيات هذا القرآن على ألسنة الأمم ، فتبلغ أحكامها وحكمها مسامع الأجيال ، ولأن رسالته عامة شاملة كتب رسائله المشهورة إلى ملوك الأرض فى زمنه : قيصر وكسرى وهرقل والمقوقس والنجاشى وملكى عمان وغيرهم ، يوجه فيها الدعوة إليهم وإلى أممهم بأن يدخلوا فى دين الله .

وقد تحمل صلوات الله عليه فى سبيل أداء الرسالة وتبليغ الدعوة ما كان يتحمل أنبياء قبله من الأذى والجفوة والصد عن قبول الحق ، إلى أن استجاب له الأنصار وبايعوه على الإيمان ، ثم نهضوا مع إخوانهم المهاجرين لمقاومة من يقف فى سبيل الدعوة أو يصد عن انتشارها ، فكتب الله النصر لدعوة الحق فى بدر ثم فى غيرها ، إلى أن فتح الله لرسوله مكة أم القرى ، وتم تطهير بيت الله الأعظم من لوث الوثنية ، ودانت العرب كلها لهذا الدين القيم ، فما انتقل صلوات الله عليه إلى الرفيق الأعلى حتى كان سكان جزيرة العرب كلهم ، قد آمنوا إلا طائفة من اليهود والنصارى أبقاهم صلى الله عليه وسلم على دينهم ، ومنحهم ذمة الإسلام المتكفلة بحماية أنفسهم وأموالهم وشعائرهم .

ولقد حمل أصحابه الكرام رضوان الله عليهم بهدايته وساروا على سنته السنية ، فمضوا فى الدعوة بعده إلى دين الحق ، ملتزمين ما التزمه ﷺ من العدل والرأفة والرحمة ومكارم الأخلاق ، لا يفرقون فى ذلك بين من اتبع دينهم أو خالفه ، عملا بقول الله عز وجل فى سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » وبذلك فتحت لهم الممالك ، واستجابت لدعوتهم الأمم ، ووجد شعوب الأرض فى هذه الدعوة كل ما كانوا ينشدونه فى مطالب الحياة من حقوق ومواريث وآداب ومواعظ وأخلاق وحكم وإرشاد لأكمل الأحكام فى الحرب والسلم ، وكل ما يحتاج إليه الفرد والمجتمع الصالح فى هذه الحياة . ومع أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين خرجوا من جزيرة العرب ليحققوا الانقلاب العظيم ، الذى أراد الله أن يكون به الحد الفاصل بين الحق والباطل ، كانوا قلة بالنسبة إلى الممالك والامبراطوريات التى واجهوها بدعوتهم ، فإن الله عز وجل جعل الغلبة لهم منذ تعلموا من هدايتهم القرآنية أن العبرة فى الغلبة ليست للكثرة التى لم يلازمها الحزم والإخلاص للحق والصبر عليه ، وذلك فى قول الله عز وجل من سورة المائدة : « قل لا يستوى الخبيث والطيب ، ولو أعجبك كثرة الخبيث » ، وقد شبه النبى ﷺ الكثرة إذا تجافت عن الحق والخير بأنها « غثاء كغثاء

السبيل » ، وقال الله عز وجل فى سورة البقرة : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » .

فجعل فضيلة الصبر على إقامة الحق من أسباب الغلبة والنصر ، ولو كان القائمون بالحق الصابرون عليه قليلا عددهم عند مواجهتهم الكثرة من أنصار الباطل ، وبهذا ربى الإسلام من أبنائه الأولين كتلة حازمة لا تهاب الموت فى سبيل عزتها والدفاع عن حقها ، فعاش المسلمون الأولون سادة قادة ذادة يحميهم الحق ويحمونه ، وتحملهم فضائل الأخـــلاق ويحملونها ، ويملأون الدنيا عدلا ورحمة ، وتحوطهم الدنيا بالعزة والغبطة والإعجاب .

ولما فشلت كثرة الباطل فى قمع الحق الذى بعث به صاحب هذه الذكرى صلوات الله عليه ، أراد المبطلون فى زمن البطن الأول من أصحابه أن يفسدوا دعوة الحق بالانتساب إليها ، ودس العقائد الباطلة فيها ، فأنشروا فى بعض الضعفاء دعوة تأليه على عليه السلام ، وبعض من ينتمى إلى آل البيت ، فكان أول من غضب لهذه الدعوة وبطش بالمبطلين من أصحابها ، على نفسه كرم الله وجهه ، ومن ذلك اليوم انفتحت جبهة أخرى للدفاع عن الحق الذى بعث الله به رسوله ، بقيام طائفة من أئمة الإسلام فى كل زمان ومكان يفرقون بين الحق والباطل والهدى والضلال والرشاد والغى والصدق والكذب ، وطريق أولياء الله السعداء وأعداء الله الأشقياء ، وبهم حفظ الله دينه الذى وعد بحفظه إلى يوم الدين .

إن ذكرى مولد صاحب هذا الانقلاب الإنسانى العظيم تذكرنا بكل ما كان لهذه الدعوة من أثر عظيم فى عقول البشر وأخلاقهم ومداركهم ، وبالنجاح المنقطع النظير لمن عملوا بها فى أنفسهم ، وتطوعوا لنشرها بين الناس ، وهى تدعونا إلى أن نرجع من جديد إلى هداية الإسلام كما كانت فى صفائها ونقائها ، ليرجع لنا أثرها من العزة فى أنفسنا ودولتنا والسعادة فى بيوتنا وأوطاننا ، والكرامة بين شعوب الأرض .

صلى الله وسلم على معلم الناس الخير وعسى الله أن يهدى أمته للرجوع إلى هذا الخير ، فى هذا العهد الطاهر المبارك ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

افتحوا للفقه أبواب الحياة

الفقه مجموعة الأحكام التى تنظم علاقة الناس بربهم وعلاقة الناس بعضهم ببعض أفراداً وجماعات ، فهو حلول ومخارج من المشاكل التى مست المجتمع فأشقت الحياة وأضرت ببنى الإنسان . وكما أن الطبيب المداوى لا يعالج من الأمراض إلا ما انتاب الأجسام ، كذلك الفقه ما كانت تشرع أحكامه إلا بقدر ما يحدث من قضايا وما يجد من جرائم وينشأ من مظالم ، ولهذا قال عمر بن عبد العزيز « تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا » . وأحكام القرآن الكريم إنما نزلت بسبب حوادث وقعت فى عهد النبى ﷺ وأسئلة وجهت إليه ، وهكذا أمر الأحكام فى السنة الكريمة .

والمجتهدون من عهد الصحابة ما كانوا يجتهدون إلا فى حكم ما يجد من النوازل ، وكانوا يكرهون الإفتاء فيما لم يقع ، ولهذا روى عن معاذ أنه كان إذا استفتى فى مسألة لم تقع يقول « أيها الناس ، لا تستعجلوا البلاء قبل نزوله » ، وروى مثل هذا عن عثمان وعلى ، وكان بعضهم يقول « دعوها حتى تقع » ، ولما فتحت الممالك على المسلمين ونشأ فيها المجتهدون كالأئمة الأربعة وغيرهم فصلوا باجتهادهم فى مشاكل هذه البلاد التى لم تكن فى الغالب موجودة فى منازل الوحى بحكم تغير العادات وكثرة مشاكل المدينة .

ولهذا رأينا القضايا التى ذكرت أحكامها فى الفقه تمثل عادات البلاد التى دون لها ، فالفقه الحنفى يمثل حياة العراق وبلاد العجم والهند ، والفقه المالكى يمثل حياة الحجاز والمغرب والأندلس ، والفقه الشافعى يمثل الحياة فى مصر ، والفقه الحنبلى يمثل الحياة فى العراق والشام ، والفقه الزيدى يمثل حياة اليمن ؛ وهكذا . فمجموعة الأحكام المأثورة فى المذاهب المختلفة إنما هى أقضية وفتاوى لأمور كانت وطلب فيها رأى الشريعة ، ومع هذا فإن بعض هذه الأحكام تغيرت ظروفها وتبدلت لتبدل عللها ومقتضياتها ، وبعض الأحكام التى كانت راجحة فيما مضى للمصلحة التى دعت إلى تشريعها أصبحت مرجوحة لتغير وجه المصلحة فيها ، ولا نريد بهذا طبعاً الأحكام التى نص عليها الكتاب والسنة ،

وإنما نريد الأحكام الاجتهادية ، فإنه قد يتغير فيها وجه الاجتهاد لتغير الأسباب التي بنيت عليها . ومنذ المائة الرابعة . تقيد الفكر الفقهي نوعا ما ، فبعد أن كان الفقيه هو المجتهد المطلق الذي يستمد أحكامه من مصادرها الأولى : القرآن والحديث والإجماع وفتاوى الصحابة والقياس على النصوص . أصبح يفكر في دائرة نصوص إمامه الذي يقلده ويتقيد بأصوله وفروعه . وإذا جدت قضية لم يجدها في منقول إمامه وإلحاق النظير بالنظير ، ومع هذا استطاعوا على مر العصور أن يحلوا مشاكل المجتمع ويسعدوا حياة الناس ويظهروا عدل الله بينهم .

ومنذ عهد بعيد تعطل الفقه في باب العقوبات فلم يعد يفصل فيها بأحكام الشريعة ، ومنذ عام سنة ١٨٨٣ تعطل عمل الفقه في المعاملات المالية والتجارية وأصول التقاضي فلم يعد يفصل فيها إلا بالقانون الفرنسي المصري فيما بعد ؛ فأصبح الفقه من هذا التاريخ عضوا أشل ومصباحا لا يضيء ولسانا لا يتكلم ، لأن القضايا في المحاكم لم تعد تستفتيه ، ولأن مشاكل الناس لم تستفتيه ، على حين جدت بين الناس مشاكل جمة وقضايا معقدة دعت إليها المدنية وانتشار العمران والحروب التي نشبت والانقلابات التي حدثت ، كمشاكل الطيران والكهرباء والبخار والأسلحة الحديثة وأساليب جديدة في التجارة ومضاربات في البورصة وشركات تعقد على أوضاع مختلفة ومصانع تؤسس ، ولكل وضع من هذه حكم كان يستطيع شرع السماء أن يقوله وأن يستنبطه لو استفتي . لكن استفتيت قوانين الناس ، والناس أفكارهم محدودة يؤثر فيها الزمان والمكان وتسخرها الأغراض والشهوات . ولو استشير الفقه لنطق لسانه بالعدل الإلهي ونشر مصباحه النور السماوي ، وبعد هذا يقول الناس إن الفقه مقيد ، إن الفقه مسجون ، ولو حل قيده ، وخرج من سجنه وسأله القاضي والمفتي في كل ما يرفع من القضايا والاستفتاءات ونافع بنظرياته المحامي لكان قادرا ولكان خيراً وبركة على الناس .

فإلى أن تقضي المحاكم بالشرع الإسلامي في القريب إن شاء الله بفضل هذه النهضة المباركة التي قامت دعامتها على الإصلاح الشامل ، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما صلح به أولها : إلى أن يكون هذا ، على الأزهر أن يمهد له ؛ فيكتب الفقه من جديد ، ويقرأ القوانين الحديثة ليعرف ما جد من القضايا فيحكم فيها بأحكام الشريعة ، وليعرف ما في القانون من نظريات أحكمتها الأفكار المتلاحقة التي لو عملت في محيط الفقه الإسلامي لأنتجت أحسن الآثار . عليه أن يكون لجنة من رجال المذاهب المختلفة المبرزين في فقههم ، ويضم إليهم عددا من علية

رجال القانون المعروفين بالإيمان بالله والإخلاص لدين الله فيكتبوا القسم المدنى وقسم العقوبات والمرافعات على ضوء ما جد من المشاكل ، ليحكموا فيها كلها بشريعة السماء . عليه أن ينشيء فى كلية الشريعة كرسيا لدراسة النظريات القانونية على ضوء الفقه والموازنة بين الشريعة والقانون كما درس القدماء الفلسفة اليونانية فى ضوء عقائد الإسلام وردوا الباطل منها .

بهذا نستطيع أن نستمد من الشريعة قانون البلاد ، وبهذا يمكن للفقه أن يعيش . أما إن تركت كتبه فى رفوف المكاتب يأكلها السوس ، وذهب الناس فى حياتهم الهائجة المائجة يبغون حكم الجاهلية فالموت للفقه والفناء له والضلال للناس : فافتحوا للفقه أبواب الحياة .

أحمد فهمى أبو سنة
مدرس بكلية الشريعة

القليل المتواصل والكثير المنقطع

روى المرزبانى فى كتاب (الموشح) أن الأخطل أتى العضبان بن القبعثرى الشيبانى فى الكوفة وكان سيد بكر بن وائل ، فسأله فى حمالة . فقال له ابن القبعثرى : إن شئت أعطيتك ألفين وإن شئت أعطيتك درهمين . قال الأخطل : ما بال الألفين وما بال الدرهمين ؟ قال : إن أعطيتك ألفين لم يعطكها غيرى إلا قليل . وإن أعطيتك درهمين لم يبق بكرى بالكوفة إلا أعطاك درهمين ، وكتبنا لك إلى إخواننا من أهل البصرة فلم يبق بكرى إلا أعطاك درهمين فخفت عليك المؤونة وكثر لك النيل . قال الأخطل : فهذه إذن . قال : تقسمها لك إلى أن ترجع من البصرة ، وكتب له بالبصرة الى سويد بن منجوف السدوسى وهو زعيم بكر ابن وائل بالبصرة .

الكتب الفلسفية
وما اعتراها من تحريف الوراقين
وسبيل إصلاحها

فى مصر الآن نهضة لإحياء كتب الفلسفة والعلوم القديمة ، تقوم بذلك وزارة المعارف إذ قررت أن يطبع كتاب « الشفاء » لابن سينا ، وسائر كتبه المنطقية والرياضية والإلهية والأخلاقية احتفالا بذكرى مرور ألف سنة على وفاته ، ويقوم بذلك بعض دور النشر وبعض الأفراد كالأستاذ عبد الرحمن بدوى إذ نشر من كتاب المنطق لأرسطو خمسة كتب : المقولات ، والعبارة ، والقياس ، والبرهان ، والجدل . ويقوم به أيضاً فى خارج مصر بعض المستشرقين كالأب بويج إذ نشر « تهافت الفلاسفة » للغزالى ، و « تهافت التهافت » لابن رشد ، و « تفسير ما بعد الطبيعة » لابن رشد أيضاً ، وبعض كتب أخرى . وهذه جهود تشكر لهم ، لأنهم يعانون الأمرين من هذه الكتب الخطية القديمة . لأنها رديئة الرسم أحيانا وغريبة الاصطلاح أحيانا وقد يكون عدا عليها الدهر فأكلتها الأرضة ، أو أصابها بلل فمحا بعض سطورها ، وإن أحدهم ليبحث عن النسخ المتعددة من الكتاب الواحد فى العالم فينسخها أو يصورها ، ويقابل بعضها ببعض ويبين مواضع الاختلاف فى مطبوعه ، وهذا جهد ليس بالقليل فهو مضن وفوق الطاقة ، يقر بذلك من كابد بعض الكتب الخطية القــديمة .

وإنى أذكر أنى علمت أن جامعة فؤاد الأول استحضرت مصورا من كتاب المنطق لأرسطو عن مخطوط باريس ، فذهبت إلى كلية الآداب ، وحاولت أن أنتفع به فلم أفلح لرداءة خطه وطمس سطوره ، وقيل لى إن التصوير غير متقن ، فما هو إلا أن رأيته بعد ذلك بإخراج الأستاذ عبد الرحمن بدوى مطبوعا طبعاً أنيقا ، وعلى ورق مصقول فأخذت أقرأ لا تعيينى القراءة ، فكم من يد أسداها محبي العلم ، وكم من يد يسديها الناشرون ، وكم من يد تسديها

وزارة المعارف بتذليل الكتب العلمية القديمة، وتيسيرها للقارئين والدارسين. لقد ذكرنا أنهم لم يألوا جهدا فى تيسيرها للقارئين، فهم يحرصون بأمانة على أن يجعلوا المطبوع صورة مطابقة للأصل من المخطوط، وإن كانت هناك نسخ متعددة بينها اختلاف بينوه، ولكن هناك معضلة فى هذا الإحياء كله، ليست معضلة كتاب واحد وإنما هى معضلة الكتب جميعا، ذلك أن هذه النسخ الخطية قد اعتراها المسخ والتشويه والتبديل. فالمؤلف أو المترجم يخرجها صحيحة مبرأة من العيب. ولكن الحاجة تقضى بأن تعم وتتداول فينسخ منها ناسخ، فيصحف كلما ويسقط كلما ويزيد كلما، وتصبح نسخته هذه إماما فينسخ منها ناسخ فيعتريه مايعترى الأول فيقع فى خطئه ويزيد عليه مثل، أو أكثر، مما صنع الأول، وهكذا تتعاوره النساخ ويتداوله الوراقون حتى يعود خطأ بحتا وباطلا صرفا.

فإذا حافظ الناشرون على أوضاع هذه النسخة فهم يحافظون على الخطأ، ويتحرون الفاسد. وكثرة مايطبع من هذا القبيل، وإنه فى الكتب الفلسفية العلمية أكثر، وفى الكتب الدينية والأدبية أقل، ذاك لأن هذه قد اتصل سندها وكثرت العناية بها فكانت تقابل وتدرس وتتحرى حتى جاءت أقل خطأ وتحريفا، أما الفلسفة فقد انقطع سندها وقل المشتغلون بها وكان الناسخون لكتبها يجهلون ما فيها، ومن هنا وقع المسخ والتغيير والتبديل والتحوير.

وإنى أريد أن أمثل لما قلته بكتاب «المنطق لأرسطو» الذى أخرجه الأستاذ بدوى.

لقد ذكرت أنه قام بجهد عنيف مشكور حين أخرجه، وحين أبرز هذه النسخة القديمة البالية، فى هذا الثوب القشيب.

لقد عكفت على قراءته فلم أفهم، وعاودت القراءة فلم أفهم، فأنكرت نفسى أولا ثم أنكرت النسخة ثانيا واتهمتها بالتحريف، فقرأت على أن لا أتبع الألفاظ ولا أتقيد بالكلمات، وإنما أفهم من السطور ومن بين السطور، وأستخلص المعنى من مجموع الكلام، فإذا ما استوى لى ذلك، بحثت عما كان يلزم من الألفاظ لتستوى العبارة، فإذا التصحيف تارة، وإذا الحذف تارة، وإذا الزيادة تارة أخرى، فإذا ما كل ذلك فى الباب أو الفصل سهل فهمه، وعذب مورده. لا إغلاق فيه ولا إلغاز. وسأمثل:

ورد فى نسخة المنطق المطبوعة ص ٣١٠ فى أوائل كتاب البرهان، «وقد تجب ضرورة

ما يقدم فيعرف على جهتين ، فبعضها تحتاج من الضرورة إلى أن تقدم فتتصور أنها موجودة ، وبعضها الأولى أن تفهم فيها على ماذا يدل القول ، وبعض الأشياء قد تدعو الضرورة إلى أن يتقدم فيعرف من أمرها كلا الصنفين » .

وهذه عبارة تجدها قلقة مضطربة لا تكاد تفهم فإذا علمت أنه يريد أن يقسم مبادىء البرهان التي يجب أن تعرف قبل البرهان إلى ثلاثة أقسام : الأول ما يجب التصديق بوجوده ، والثاني ما يجب تصور ما يدل عليه اللفظ ، والثالث ما يجب فيه الأمران جميعا ، علمت ما في العبارة من تصحيف وإن كان حقها : « وقد تجد ضرورة ما يقدم فيعرف على جهتين فبعضها يحتاج من الضرورة إلى أن يتقدم فيتصور أنها موجودة ، وبعضها إلى أن تفهم فيها على ماذا يدل القول » .

فانظر كيف وقع التحريف فسد طريق الفهم فلما أصلح تيسر فهمه . وورد في ص ٣١٣ : « وأما أن البرهان من أوائل غير مبرهنة فذلك أنه لم يكن يوجد السبيل إلى أن تعلم إذا لم يكن عليها برهان ، وذلك أن معنى أن تعلم الأشياء التي عليها برهان لا بطريق العرض إنما هو أن تقتني البرهان عليها » .

فإذا علمت أنه يريد بهذا أن يبين أن البرهان لابد أن ينتهي إلى أوائل ليس عليها برهان لأنه إذا كان عليها برهان لم يمكن أن تعلم إلا به فيتسلسل والتسلسل محال ، أدركت أن في العبارة تصحيفا وأنه يجب أن يقال بدل إذا لم يكن عليها برهان : إذا لم يقتن عليها برهان .

وقد تجد تصحيف الكلمات من فتح حرف فيها إلى كسره يجعل العبارة مغلقة لا تفهم ، فإذا فتح الحرف بعد كسره عرف ما يراد منها كما ورد في الصفحة نفسها « وأما أنها أقدم فإن كانت عللا ، بكسر همزة فإن — وإذا كانت عللا فماذا ؟ .

فإذا علمت أن أرسطو يشترط في مبادىء البرهان أن تكون أقدم من النتيجة ، واستدل على ذلك بأن المبادىء يجب أن تكون عللا لما قدمه ، فيلزم أن تكون أقدم ، لأن العلة أقدم من المعلول ، علمت أن حق العبارة « وأما أنها أقدم فأن كانت عللا » بفتح همزة فأن أي فلأن كانت عللا .

ومثال التحريف بالنقص ما ورد فى ص ٤٦٢ : « وأما أن العلم الذى بغير ذوات وسط أترى هو واحد بعينه أم ليس كذلك » .

وفى العبارة نقص وحقها ، وأما أن العلم الذى بغير ذوات وسط والعلم ، الذى بذوات وسط ، أترا هما واحداً بعينه » .

أى العلم بالمبادىء التى بدون برهان ، والعلم بالأشياء التى هى ببرهان ، أهما علم واحد أم جنسان مختلفان ؟ .

ومثال التحريف بالزيادة ما ورد فى ص ٤٦٤ : « ومن التجربة عندما يثبت ويستقر الكلى فى النفس » .

وحقها : ومن التجربة يثبت ويستقر الكلى فى النفس ، بحذف (عندما)، وهذه بعض أمثلة وسبيلنا أن نمثل ولا نستقصى .

وإذا وقع هذا التصحيف والتحريف فى هذه النسخة المطبوعة ، وهى منقولة عن نسخة منقولة من نسخة الحسن بن سوار ، وقوبلت بنسخة كتبت من نسخة عيسى بن إسحاق بن زرعة ، المنقولة من نسخة يحيى بن عدى فكان أيضا موافقا — كما أثبت بآخر كتاب البرهان — ومعنى ذلك أن هذه النسخة أنجبها أصل فلسفى ، وهى نسخة الحسن بن سوار ، وزكاها عدل مقبول وهو نسخة عيسى بن إسحاق بن زرعة ، المنقولة من نسخة يحيى بن عدى ، وهما اثنان من الفلاسفة ، ولهما مرتبة عليا فيها ، فما بالك بنسخة لم تظفر بمثل هذا النسب العالى وبمثل هذه التزكية .

أرأيتم أنه لا يغنى التصحيح الأول عن التصحيح الثانى ، وأنه لا يمكن الفهم إلا بهذا التصحيح المعنوى .

أرأيتم هذا الجهد المضنى ، أرأيتموه يقل تعباً وعسراً عن رفع الأثقال وقطع الأحجار ، بل ربما كان قاطع الأحجار أبل ريقاً وأسهل طريقاً ، وكان صاحب هذا الجهد محبوس الأنفاس ، منقبض العضلات ، مرهف الحواس مخافة أن يند عنه ما يوشك أن يقع فى شباكه .

أرأيتم جهداً أعنى من هذا الجهد ، وتعباً أجدى من هذا التعب .

إنه لا تقل جدواه عن جدوى المعلم الأول أرسطاطاليس الذى ألفه ، ولا جدوى أبى بشر متى بن يونس الذى ترجمه . فإذا كان الأول قد ألف ، والثانى قد ترجم وبذلك سهلاه ويسراه للمتعلمين ، فإن الزمن قد جار عليه ، وغيره وبدله فلم يعد ينتفع به إلا بهذا الجهد الأخير الذى أزال النسخ والمسخ ، وعاد به كيوم ألفه المؤلف وترجمه المترجم .

إن التصحيح الأول عمل عضوى لايحتاج إلا إلى عمل حاسة البصر . فالمصحح يقرأ النسخ المختلفة ويعرف مواضع الاختلاف وينبه عليها . أما التصحيح الثانى فهو عمل عقلى شاق عميق يقتضى أن يكون صاحبه عارفا بالعلم الذى يصحح فيه ، وقل فى زماننا من يعنى بهذه العلوم الفلسفية ، فقل من يعلم المنطق على طريقة أرسطو ، وقل من ينظر فى علم الطبيعة على طريقة الفلاسفة المتقدمين ، وقل من يعرف علوم ما بعد الطبيعة على وعورتها ، وقل من يصبر على هذه العلوم مع انصراف الناس عنها . وانقطاع السند فيها وعدم الجزاء المادى عليها ، وإنه لا يتوفر على دراستها إلا من أوتى حظا من حب الحكمة ملك عليه أمره ، فهو يصرفه فى بيداء الفكر وشعاب العلم ، يقضى فيها نهاره وليله يسعد بما فيها ، وإنه ليكتفى بذلك ويزهد فيما فى أيدى الناس من متاع وزخرف .

لا بد إذا من العالم بهذه العلوم الفلسفية ليصحح هذا التصحيح المعنوى ، ولكن لا بد من أن يحافظ على الأصل فيكتبه وينبه على أن المعنى يقتضى كذا ويثبت ما يقتضيه فى أسفل الصفحة .

وإنما أوجبنا ذلك لأن المرء موكل به النسيان والغلط ، فربما زيف فهما صحيحاً ، وربما أصلح فأفسد ، وأزال التحريف فأوقع فى التحريف . ولعلة أخرى وهى عدم التحكم فى القارىء فهو بذلك يقول لمن ينظر فى هذا الكتاب : هذا هو الأصل وما يقتضيه على هو كذا ولك الخيار فيما تأخذ وما تدع . وحبذا لو كتب خلاصة لكل باب يترجمه إلى لغة العصر لتكون أعون على فهمه .

هذا ما نراه فى إخراج الكتب الفلسفية ولعل وزارة المعارف تقتنع به وتراعيه لأنها إذا أخرجت الكتب الفلسفية بدونه ، تكون قد أحيت ولم تحى ويسرت ولم تيسر وأخرجت للناس كتباً شبيهة بأقوال المجانين لا نظام يجمعها ولا معنى يفهم منها كما قال أبو تمام :

عقلا شبيها بالجنون كأنما قرأت به الورهاء شطر كتاب

وأحب أن أنبه إلى أنه يجب إذا ظفرت وزارة المعارف بمن يصححون منها هذا التصحيح ألا تطلب منهم الكثير فإنهم لا يعنون بالكثرة، وإنما يعنون بالجودة، وكل قليل من الجيد فهو كثير لو لم يكن إلا أن يخرج أحدهم كتاب الشعر أو الخطابة أو البرهان لأرسطو لكفاه ذلك، فبحسبه أن أخرج كتاب البرهان أو الشعر أو الخطابة مقروءا مفهوما وبحسب الأمة أن تظفر بذلك.

وأحب أيضاً ألا تضن عليهم فتحاسبهم بالورقة أو بالملزمة بل تكافئهم مكافأة من يعلم قيمة عليهم وجدواه، وما فيه من صعوبة، فهو خلاصة دأب العمر، وجهد الحياة.

ليس بكثير على رجل أنفق عمره فى خدمة العلم والاشتغال بعلوم الأوائل حتى استوى له أن يصحح كتابا من كتب المعلم الأول، أو كتب ابن سينا أو ابن رشد، تصحيحاً يزيل غلط الدهور وخطأ الأحقاب، أن يأخذ من أموال الدولة ما يوازى تعب عقله ونصب فكره. وما ينبغى أن تعطى الدولة من يسر لها كتابا مما تود نشره من كتب العلم ما يكافىء عمله فهى ليست تشده وتبذل الجهد والمال فى إخراجه للناس إلا للانتفاع به، ولا ينتفع به ويتيسر فهمه إلا بهذا التصحيح المعنوى الذى قلناه.

إنه يجب أن تتغير نظرتنا إلى العلم والعلماء فلا نستكثر على العلماء ما لا نستكثره على من لا يغنون غناءهم وينفعون نفعهم.

إذا أراد المرء أن يعرف مقدار تقدم أمة فى الحضارة نظر إلى ما ينفق فيها ويروج فإن كان الذى ينفق فيها المضحكات والمسليات، فهى ذات نصيب قليل من التقدم والرقى، وإن كان الذى ينفق فيها الجد والعلم عرف أنها تعرف للعلم خطره، وللجد أثره، وخير للأمة المصرية أن تتجاوز الطور الأول إلى هذا الطور الأخير.

محمد عرفه
عضو جماعة كبار العلماء

الحديث النبوى
مقاصده ، ألفاظه ، معانيه

تناولت فى حديث سابق كلام النبوة من ناحية أغراضه ومراميه ، واليوم أعرض له من جهة بلاغته .

ولعمر الحق ان يصفه واصف بأبلغ ولا أوجز ولا أدل من قوله «أنا أفصح العرب ، بيد أنى من قريش ، واسترضعت فى بنى بكر بن سعد» .

وقال له أبو بكر ذات يوم : لقد طفت للعرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك ، فمن أدبك ؟ فقال ﷺ : «أدبنى ربى فأحسن تأديبى» .

وذكر أبو على البغدادى فى أماليه أن النبى ﷺ كان جالسا بين أصحابه فنشأت سحابة فقالوا : يا رسول الله هذه سحابة فقال : كيف ترون قواعدها ؟ قالوا : ما أحسنها وأشد تمكنها . قال : وكيف ترون رحاها ؟ قالوا : ما أحسنها وأشد استدارتها . قال : وكيف ترون برقها أو وميضاً أم خفيا أم يشق شقا ؟ قالوا : بل يشق شقا . فقال : فكيف ترون جونها ؟ قالوا : ما أحسنه وأشد سواده فقال ﷺ : الحيا . فقالوا : يا رسول الله ما رأينا الذى هو أفصح منك . قال : وما يمنعنى ؟ فإنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين [1] .

والقارئ الكريم يستطيع أن يفهم من هذه الأحاديث كيف امتاز النبى ﷺ بهذه الفصاحة التى كانت موضع إعجاب أصحابه ودهشتهم ، وفيهم أبو بكر نسابة العرب وراوية أخبارها وطوائفها بالآفاق .

فهو صلى الله عليه وسلم كما يقول فى الحديث الأول : من قريش وهى أفصح العرب لغة وأقومها منطقا لأنها كانت تتخير من لغات الوافدين إليها فى المواسم ما خف على اللسان وحسن فى الآذان فلطفت لهجتها وجاد أسلوبها وزادت ثروتها . وكرمها القرآن فنزل بلغتها .

---

(١) الوميض : اللمع الخفى . والخفى بالتخفيف : البرق الضعيف .

وهو صلى الله عليه وسلم قد استرضع فى بنى سعد بن بكر وكانوا من العرب الضاربين حول مكة يتبدى فيهم أطفال قريش يطلبون نشأة الفصاحة ، وقد أجمع الرواة على أن لهم اختصاصا وامتيازا من بين العرب فى الفصاحة وحسن البيان ومحمد صاحب الاستعداد الخصيب والفطرة العالية فكيف يبلغ من أدبهم .

وهو صلى الله عليه وسلم كما وصف نفسه فى الحديث الثانى قد أدبه ربه وصنعه على كرائم ما يؤتى الناس من مبان ومعان جل مواهبها ، وذلك الركن الركين والسر المكين والغاية التى لا تدرك .

ثم هو تلميذ القرآن وخصيصه وصفيه ونجيه كما يقول وما ينمى فإنما أنزل القرآن بلسان عربى . وهذا الكتاب نعم المؤدب والمهذب ، وللقارىء فيه من العلم والأدب والبيان واللسان بمقدار ما له فى القارىء من تفرغ ، وانجاه وهل كان إلا للقرآن يتعهده ويهذبه ويعلمه البيان .

وفى هاتين الناحيتين (مدارسة القرآن وتأديب الرحمن) موضع التفرد فى رسول الله ﷺ فقد اصطفى له ما شاء من صور البيان كما اصطفاه على جميع الأنام وكانت له بلاغة : « سجدت الأفكار لآيتها ، وحسرت العقول دون غايتها ، ألفاظ يعمرها قلب متصل بجلال خالقه ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه فهى إن لم تكن من الوحى ولكنها جاءت من سبيله ، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هى من دليله [1] » .

ولا تتوهمن أن بلاغة النبوة كانت من نوع ما قد يتوهم القارىء فى بعض الحديث الأخير من غرابة وأن ذلك كان مصدر إعجاب الصحابة ، كلا فقد كان ﷺ أبعد الناس من الغريب والحوشى كما ترى فيما بعد ، وإنما هى مجازات فى القواعد (الأسافل) وفى الرحى (الوسط) وفى البواسق (الأعالى) . والغرابة بالمجاز محمودة إذا كانت فى صخرها وحانها . وقد جعل الله غرابة كلام النبوة أحيانا فى دقة معانيه ولطف استعاراته وتماسك لبناته وتجامع كلماته ودقة تشبيهاته وإحكام تطابقها .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى

وربما أغرب حين يخاطب من ليس من قريش فيكون ما يتكلم به أو ما يكتبه غير مألوف لقومه ، ولكنه لغة المخاطبين وبغيره لا يفقهون فهو يحدثهم بما يفهمون . ولذلك وصف النبي ﷺ بأنه واضع فى اللغة ومشتق فيها ، وروى المبرد فى الكامل أنه ﷺ قال لأبى تميمة الهجيمى « إياك والمخيلة » فقال يا رسول الله نحن قوم عرب فما المخيلة ؟ قال : سبل الإزار .

وإذا ، فقد صورت للقارىء بعض عوامل بلاغته ﷺ بمقدار ما أوردت الأحاديث الكريمة السالفة الذكر . ولا ريب أن عوامل بلاغته أكثر من ذلك ، ولكننى لست فى هذا السبيل فإن السفر طويل وليس المجال بمستدع ذلك ، فتاريخ النبي وما يحف به من الأمور الجلية ، بل إن شاء قائل أن يقول إن النبي ﷺ فى غنى عن الاشارة ببلاغته وبيانه ، وإن من الفضول إزجاء الوقت فى تصوير ذلك كان له ذلك . ولكننى أردت أن أوجه القارىء صوبها وأذكره بالواجب نحوها ، وأجدد فى نفسه معانى تقديرها حتى لا يتخذ هذا الكلام السامى مهجوراً ، وحتى يلتمس أقرب الطرق إلى البلاغة فى تفقه ذلك البيان العظيم من ذلك النبي الكريم . وأعود إذاً بالقارىء إلى وصف كلامه صلى الله عليه وسلم وأجعل العمدة فى ذلك ما يتناقله الأدباء من وصف الجاحظ له وهو الناقد البصير والواصف الخبير قال الجاحظ فى البيان والتبيين (١) :

« هو الكلام الذى قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف . قال الله تعالى : (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين) فكيف وقد جانب أصحاب التقعير ، واستعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر . وهجر الغريب والوحشى ، ورغب عن الهجين والسوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق . وهذا الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، ومع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة . ولا زلت به قدم . ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ،

---

(١) ج ٢ ص ٨

ولا أفحمه خطيب ، بل يبز الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعلمه الخصم ولا يحتج إلا بالصدق ولا يطلب الفلج إلا بالحق ولا يستعين بالخلابة ولا يستعمل المواربة . ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح عن معناه ولا أبين فى فحواه من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

هذا وصف الجاحظ لكلام السيد الرسول ، وهى أوصاف عظيمة وإن كان فى تصويرها شىء من الترهل فى العبارة والتكرار ، وهى تتلخص فيما يأتى مع شىء من التأييد .

(١) كان ﷺ موجز اللفظ يقصد إلى الهدف ويهدى إلى الجادة فى القول كما هدى إليها فى الفعل ، وهى من خصائص النبوة وآيات العبقرية . ولهذا وصفت البلاغة بين الأدباء بأنها الإيجاز ، لأن كل متكلم يستعين على الإفهام ويردد فى سياق الكلام لنقص عليه بحاجة السامع ، وعدم اطمئنانه إلى أنه وفى . ولهذا تكثر الإطالة فى كلام الأعاجم ومن على شاكلتهم فأما العرب الخلص فيتنافسون فى لمحة دالة وكلمة جامعة .

ومن قرأ لهذا الجاحظ الذى يضرب به المثل فى البيان ، أو لأمثاله من فرسان هذا الميدان كابن المقفع ، وأحمد بن يوسف ، وعبد الحميد من قبلهما ، أدرك فرق ما بينهم وبين النابغين فى البلاغة وعلى رأسهم محمد بن عبد الله .

وهذا ما جعل السيد الرسول يتحدث بنعمة الله عليه فيقول « أوتيت جوامع الكلم ، واختصر لى الكلام اختصاراً » . وجوامع الكلم غير الاختصار كما قد يتوهم . وكان ﷺ يقول « نحن معاشر الأنبياء بكاء » لأنهم يكرهون الفضول ، ويقصدون إلى الأهداف ، ويعمدون إلى الصراحة . ولما نصح جرير بن عبد الله قال له « إذا قلت فأوجز ، وإذا بلغت حاجتك فلا تكلف » . ولهذا قال « أبغضكم إلى الثرثارون المتفيهقون » . وقد أحصى العلماء كثيراً من الكلام المفيد السامى الذى يشتمل على كلمتين من كلامه كقوله « الإيمان يمان » و « الدين النصيحة » . « الدين المعاملة » . « العدة دين » . « السماح رباح » . وما إلى ذلك من الكلام العذب المغدق الخصيب المتحلى بمحاسن البديع الطبيعى .

ولعلك ترى فى هذه المحاولة أن ذلك كان توفيقاً لا إقلالا ، وإصابة لا عجزا ، وهو من الحكمة التى وصف بها الجاحظ هذا الكلام فقال : إنه لم ينطق إلا عن ميراث حكمة . على أنه كان يطيل فى الحين بعد الحين كما قال الجاحظ أيضاً أنه يبسط فى موضع البسط ويقصر فى موضع القصر . وروى عن أبى سعيد الخدرى أنه صلى الله عليه وسلم خطب بعد العصر فقال : « ألا إن الدنيا حلوة خضرة ، ألا وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون . فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء . ألا لا يمنعن رجلا مخافة الله أن يقول الحق إذا علمه » . قال أبو سعيد : ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف .

وفى كلام النبى صلى الله عليه وسلم نوع من الأطناب يسمى « التوشيع » وقد تردد كثيرا فيها بجمال فائق وإحسان عظيم ، لأنه يتفق مع الإجمال ثم التفصيل ، لزيادة تقرير المعنى وإيصاله إلى السامع . وهو إحكام لصنعة البلاغة ، ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يقول الكلمة ثلاثا لتفهم عنه ، ولم يكن يسرد كسردنا .

وفى هذه المناسبة أقول : إن الجاحظ قد تورط فيما اعتقد فذكر أنه كان يستغنى عن إعادة الكلام ، وكان السامع فى غير حاجة إلى المعاودة إلا أن يتكلف لتصحيحه بعض التأويل . وهذا التوشيع يجده القارىء الكريم فى مثل قوله « عشر خصال من الفطرة الخ » وقوله « أوصانى ربى بتسع الخ » وقوله « سبعة يظلهم الله الخ » وقوله « أربع من كن فيه الخ » وقوله « آية المنافق ثلاث الخ » وهو مما يجعل السبك رصينا والأسلوب متماسكا .

هذا ولغلبة الإيجاز على كلام النبى صلى الله عليه وسلم فى غير تكلف ولا عناء مع بلوغ الغاية كان إعجاب الأصحاب به وتعجبهم من مسلكه ، وفى الحق إن ذلك ناحية الامتياز الكبرى فى بيانه صلى الله عليه وسلم فإن اجتماع الكلام بقلة ألفاظه مع اتساع معناه وإحكام أسلوبه فى غير تعقيد ، واطراد ذلك فى كل معنى وفى كل باب شىء لم يعرف لأحد قبله . فأما غيره فإنه يستهلك بالاختصار معنى الكلام ويستولى عليه بالتكلف . ومن شاء فلينظر فى المختصرات ومختصرات المختصرات فيما بين أيدينا من الكتب ليرى كيف يصنع الاختصار من تشويه الحقائق وتكلف ما يحول دون الفهم . « يتبع »

محمود النواوى
المفتش بالأزهر

الحكم التكليفي والوضعي

— ١ —

من المعلوم أن الاصطلاحات العرفية والشرعية ترجع في أصلها إلى الأوضاع اللغوية. ولهذا يلزمنا أن نعرف الحكم في الوضع اللغوي، ثم ننتقل منه إلى الحكم الشرعي. فالحكم في اللغة: الصرف والمنع للإصلاح. وجاء منه، حكمة الفرس، وهي الحديدة التي تمنعه عن الجموح. وجاء منه، الحكيم، لأنه يمنع نفسه ويصرفها عن هواها. ومنه، الإحكام، أي الإتقان. وقد جاء في القرآن الكريم «كتاب أحكمت آياته» أي منعت وحفظت عن الخلط والكذب والباطل والخطأ والتناقض. و «الحكم» بمعنى الفصل والبت والقطع. وفي اصطلاح المناطقة إسناد أمر إلى آخر إيجابا أو سلبا، وإدراك وقوع النسبة أو لا وقوعها. وإذا كان الحكم هو الثمرة المطلوبة من منابع التشريع الإسلامي وأدلته، فإن أنظار الأصوليين المستنبطين للأحكام الشرعية محصورة في وجوه دلالة الأدلة السمعية على الأحكام الشرعية - ولأجل ذلك جرت عادة الأصوليين أن يعرفوا الحكم الشرعي ويقسموه ثم يبينوا الحاكم والمحكوم فيه والمحكوم عليه.

وقبل أن نبدأ السير في بيان هـــذه الحقائق المنقسم إليها الحكم الشرعي. ننبه إلى أن الأصوليين جرت عادتهم بذكر تعريفات متعددة لكل نوع من أنواع الحكم بل قد اختلفوا في تعريف الحكم نفسه. وإنا لنأخذ أنفسنا في هذا البحث بذكر ما رجحه جمهرة العلماء أو واحد منهم، ونعرض عن غير الراجح من التعاريف. وقد عرف الآمدي الحكم الشرعي بأنه «خطاب الشارع المفيد فائدة شرعية». وهذا الخطاب إما أن يكون متعلقاً بطلب أو لا يكون متعلقاً بطلب. فإن كان الأول فهو طلب الفعل أو الترك. وكل واحد منهما إما جازم أو غير جازم. فما تعلق بالطلب الجازم للفعل فهو الوجوب. وما تعلق بالطلب غير الجازم فهو الندب. وما تعلق بالطلب الجازم للترك فهو الحرمة. وما تعلق بالطلب غير الجازم للترك فهو الكراهة، وإن لم يكن متعلقاً بطلب، فإما أن يكون متعلقاً بخطاب التخيير

أو غيره . فإن كان الأول فهو الإباحة. وإن كان الثانى فهو الحكم الوضعى كالصحة والبطلان ونصب الشيء سبباً أو مانعاً أو شرطا ، وكون الفعل عبادة وقضاء وأداء وعزيمة ورخصة . وهذا التعريف يقرب من قول بعضهم : الحكم عند الأصوليين خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين طلباً أو تخييراً أو وضعاً .

وعبارة الشاطبي واضحة فى تقسيم الأحكام الشرعية ، إذ يقول الأحكام الشرعية قسمان : أحدهما يرجع إلى خطاب التكليف والآخر يرجع إلى خطاب الوضع . فالأول ينحصر فى خمسة أنواع : الإباحة والندب والكراهة والإيجاب والتحريم . والثانى ينحصر فى الأسباب والشروط والموانع والصحة والبطلان والعزائم والرخص . ومن هذا يعلم أن الأصوليين عرفوا الحكم بالخطاب الذى يطلب به الشارع من المكلف فعلا أو يخيره بين أن يفعل وأن لا يفعل ، أو يجعل بخطابه شيئا من الأحكام سببا أو شرطا أو مانعا . فنحو قوله تعالى ، أقيموا الصلاة ، ، وإذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، ، ولا تقربوا الزنا ، ، وذروا البيع ، ، فإذا حللتم فاصطادوا ، ، أقم الصلاة لدلوك الشمس ، كل هذه أحكام شرعية فى نظر الأصوليين .

وللفقهاء معنى آخر للحكم . فهو عندهم الصفة التى هى أثر ذلك الخطاب . فالحكم الشرعى عندهم هو الوجوب للصلاة . والإرشاد لكتابة الدين . والحرمة للزنا . والكراهة للبيع وقت النداء . والإباحة للاصطياد بعد الإحلال . وسببية الوجوب لدلوك الشمس . وليست هناك ثمرة لهذا الخلاف ، ولا أثر عملى فى إثبات الأحكام .

والفرق بين الأحكام التكليفية والوضعية ، أن التكليفية ينظر فيها إلى ترتب الثواب على الفعل والعقاب على الترك ، وأما الوضعية فإنه ينظر فيها إلى اعتبار الفعل صحيحا فى نظر الشارع ومعتدا به أو ليس صحيحا ولا معتبرا .

وقد أجمع أهل السنة على نفى الأحكام عند عدم الخطاب من الشارع ، ذهابا منهم إلى عدم اعتبار حكم العقل فى إثبات الأحكام . فالعقل لا يحسن ولا يقبح فلا يثبت به حكم . والعقل لا يوجب شكر المنعم .

وقد ذهبت المعتزلة إلى أن الأفعال تنقسم إلى حسنة وقبيحة . فنها ما يدرك بضرورة العقل كحسن إنقاذ الغرقى والهلكى وشكر المنعم . ومعرفة حسن الصدق وقبح الكذب

وإيلام البريء . ومنها ما يدرك بنظر العقل كحسن الصدق الذي يترتب عليه ضرر ، وقبح الكذب الذي يترتب عليه نفع . ومنها ما يدرك بالسمع كحسن الصلاة والحج وسائر العبادات .

ولا نرى من الخوض في هذا الجدال عظيم فائدة تستحق منا مزيد المعاناة ، ولعل ذلك هو الذي حدا بمتقدمي الأصوليين إلى الإعراض عن الخوض في هذا اللجاج الذي يكون ذكره في مسائل علم الكلام أولى وارتباطه به أقوى .

ومقصد الشارع من تشريع هذه الأحكام وإلزام البشر بها إنما هو تحقيق سعادتهم في العاجل والآجل . وقد وقع الخلاف في علم الكلام بين طائفتين تزعم الرازي إحدى تلك الطائفتين مدعيا أن أحكام الله ليست معللة بعلة البتة ، كما أن أفعاله لا تعلل ولم يستطع هذا الرأي أن يثبت أمام التطبيق العملي والنظري في الأحكام المعللة في الكتاب والسنة . فالقرآن الكريم مليء بالأفعال والأحكام المعللة . فإن الله تعالى يقول في حكمة بعثة الرسل « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » . ويقول في وصف خاتم المرسلين بأنه رحمة للعالمين « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . وفوق هذا فإن آيات القرآن التي تعرضت لمبدأ الخلق وحكمته ظهر فيها التعليل بوضوح وجلاء إذ يقول عز من قائل « وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا » . ويقول « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ويقول « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » .

وفي تعليل جزئيات الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة فيض عظيم ، لا يستطيع معارض أن يحجز نوره أو يحبس ضوءه أو يصد شمسه . ففي آية الوضوء يظهر التعليل واضحاً في قوله تعالى « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم » ويقول في الصوم « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » وفي الصلاة « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وفي القبلة « فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة » وفي الجهاد « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » وفي القصاص « ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب » وفي الحمل على التقرير بوحدانية الله سبحانه وتعالى بأبلغ وجه وأفصح عبارة وأشرف ديباجة ، إذ يقول جل وعلا في صدد ذلك « ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » ولو أطلقنا العنان لتقصي

أحكام الكتاب والسنة وتعاليلها لكنا ملزمين بأن نضع مؤلفاً بدل أن ندبج مقالة لمجلة الأزهر.

ولعلي أوفق في مستقبل الأيام إلى كشف اللثام عن أسرار هذه التعليلات.

وجملة مايمكن أن يقال فيها إنها حكم وأسرار ليست باعثة للشارع ولا ملزمة له، بل هي راجعة في الحقيقة إلى مصلحة العباد، وتحقيق الخير لهم والله غني عن العالمين.

ونعود إلى الرأي الثاني الذي تزعمته المعتزلة وهو أن أحكام الله وأفعاله معللة برعاية مصالح العباد ومعهم أكثر الفقهاء. وإذ حللت رأي الرازي وخرجته على الوجه الذي بسطته فقد أصبح موافقا لرأي المعتزلة، وبذلك حقق علماء الأصول التوفيق بين رأي المعتزلة ورأي الرازي، إذ أن ما قاله المعتزلة في تعليل الأحكام والأفعال راجع في الحقيقة إلى مصالح العباد ومنفعتهم لا إلى منفعة الله سبحانه وتعالى، لأنه غير محتاج إلى الأفعال ليتكمل بها. ولا يستطيع الرازي أن ينكر أن العباد ينتفعون بهذه الأحكام، وأن عللها تعود بالخير والنفع لهم، وتمكنهم من الخلافة الصلحة في الأرض التي يباهي الله بها ملائكته، والتي أشار إليها سبحانه بقوله «وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها، ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم مالا تعلمون. وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم».

وفقنا الله إلى إدراك أسرار تشريعه وحكمه إنه على ما يشاء قدير.

عبد الله المراغي
مدير قسم المساجد بوزارة الأوقاف

يُصلح في إسلامه ما أفسده في كفره

كان عبد الله بن الزبعرى السهمي شاعراً من شعراء قريش ومن أشدهم عداوة للإسلام، ثم أسلم ومدح النبي صلى الله عليه وسلم واعتذر إليه فأحسن فقال:

يا رسول المليك إن لساني ... راتق ما فتقتُ إذ أنا بُورُ
إذ أجاري الشيطان في سنن الغيّ ... ومن مال ميله مثبور
آمن اللحم والعظام بربي ... ثم قلبي الشهيد أنت النذير

أزمة الأدب وحرية التعبير

يجتاز العالم فى هذه الفترة الأخيرة من حياته مراحل خطيرة من التطور والانتقال ، نتج عنها انهيار فى بعض القيم الخلقية والاجتماعية والسياسية ، وظهور قيم أخرى جديدة مؤسسة على الفهم الجديد الذى أحدثه التطور فى شتى نواحى الحياة الإنسانية .

والأدب كظاهرة أساسية من الظواهر البشرية كان فى المقدمة : بل كان الجهاز الحساس الذى يسجل كل هذه التغيرات . وقد اعتبر كثير من المؤرخين أن الأدب مصدر أساسى من مصادر التاريخ الاجتماعى والسياسى لدولة من الدول ، ثم ابتدأ هذا التقويم لوظيفة الأدب يتسع حتى أصبح من المقرر أنه ليس تعبيراً ذاتياً يقوم به أفراد معينون يعبرون عن ذواتهم ، بل اتجه إلى معنى أوسع وأعمق ، إلى أنه تعبير اجتماعى ضخم لمرحلة تاريخية فى حياة الإنسان .

ومن هنا ألقيت على عاتق الأديب مهمة اجتماعية ثقيلة ، ووضعت فى عنقه أمانة التعبير عن الجيل الذى يعيش فيه ، وأرغمته على أن تكون صلته بهذا المجتمع أكثر ارتباطاً ، وأشد حساسية .. واعتبر الكاتب غير محقق لرسالته كأديب ما لم يكن مرآة صادقة لعصره !

وليس هناك شك فى أن الأدب ليس هو التاريخ ، ولا المذكرات أو اليوميات المسجلة للأحداث التى تجرى فى حقبة بعينها ؛ لأن هذا يجرده من دوره الأصيل ، وهو التعبير عن موقف الإنسان تجاه مشكلة من المشاكل والأسلوب الذى يتخذه فى مجابهتها ، كاشفاً عن الإمكانيات التى تنطوى عليها الطبيعة الإنسانية ، ويتحول الفن أو الأدب هنا إلى دراسة أوسع وأعمق يستفيد منها علم النفس الحديث وفروعه .

ومن زاوية أخرى يقوم الأدب بتقرير وجهة نظر معينة تعبر عن اتجاه خاص للكاتب أو لجماعة يشترك معها الكاتب فى الرأى والعقيدة . وهكذا يساهم الأدب ليس — فقط — فى بناء التاريخ ، ولا فى الدراسة المتعددة الجوانب للإنسان ، بل فى الاتجاه الفكرى أو المذهبى لطائفة من الناس ، وكلما كان الكاتب واعيا بمجتمعه أمينا على الحقيقة كان الرأى الذى يعبر عنه فى صالح الجموع الإنسانية التى تشاركه حياته ، وأصبح بعيد الأثر فى كل ما يحدث فى التاريخ البشرى من تقدم وارتقاء .

ولا يمكن للأدب أن يؤدي وظائفه هذه ما لم يكن صادقا ، بصيراً بالأمور لا تختفي عن واعيته حقائق الحياة التي تكون عادة مخبأة تحت كتل مكدسة من التضليل والتعقيد !

ونحن هنا نتكلم عن هذا اللون المخلص من الأدب ، فكلما كان الأدب مخلصا ازدادت خطورته . وعلى هذا لم تكن مهمة هذا الأديب سهلة ميسورة في كل العصور والعهود . فلقد أدرك أصحاب السطوة ما للأدب من أثر ووقفوا على دوره المتعدد الجوانب . وابتدأوا يحاربونه إما بتحويله عن اتجاهه الطبيعي ، وإما باستغلاله لتحقيق أغراضهم ، وإما بقطع الصلة بينه وبين جمهور الشعب - الذي يمثل الجانب الآخر من التفاعل - بمصادرته وإقامة السدود في سبيله ، إما بالتشريعات القانونية وإما بالسيطرة المباشرة !

وبهذا أضافوا وظيفة أساسية من وظائف الفن المخلص ، هي الدفاع عن الحرية ، لأنه بغير الحرية لا يمكن لهذا الأدب أن يصبح له وجود .

والأدب الحر لا يخشى على حريته من حرية الآداب الرخيصة ، فعلى الرغم من أنه معلوم لأصحاب الاقتصاد ، أن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق ، إلا أن هذا لا ينطبق على الأدب ، وربما لا ينطبق على شيء من حياة الإنسان . لأن هذا الأدب يؤمن بالجوانب الخيرة ، ويعتقد أنها أساسية في الإنسان . وتاريخ الأدب نفسه يمنح هذه الثقة ، فكل الآثار الأدبية الرفيعة التي بقيت واكتسبت صفة الاستمرار ، استمدت قدرتها هذه من توفر تلك الصفات فيها .

وفي هذه الفترة من حياتنا ننظر إلى آدابنا فنجد أنها تعاني أزمة شديدة ، ربما لم تعانيها فترة أخرى قبلها .. ولقد أحس الكتاب أنفسهم هذه الأزمة ، بل ابتدأوا يعانونها .. وسواء كانوا مخلصين ، أو غير مخلصين فقد عقدوا المؤتمرات لدراستها ومحاولة القضاء عليها .. وليس الأمر بالسهولة التي تتصورها للوهلة الأولى ، فالاختلاف في الآراء يأتي تبعاً للاختلاف في الإخلاص لرسالة الأديب التي شرحناها ، وليس هذا الإخلاص شيئاً مسلماً به بين الكتاب جميعاً ..

فنحن نعيش في أزهى العصور الإنسانية ، وأكثرها تقدماً . ففي عصرنا وقفنا على حقائق علمية كانت تبدو لأسلافنا ضرباً من الخرافة . وابتدأنا نحدد موقفنا من عالمنا تحديداً ربما يكون أقرب إلى الصواب من الذين قبلنا . وقد أعطينا للتراث الفكري القديم قيمة كبرى ، وأصبح على الأديب بل للمثقف أن يلم بهذا التراث قبل أن يخط سطراً .. وأصبح

عليه أيضاً أن يلم بكل حقائق هذا العصر، وثقافة هذا العصر .. ومع أننا نقف على أكتاف هؤلاء الذين سبقونا، فما زال بين كتابنا المعاصرين كثير من الأقزام ...

على أنه يجدر بنا أن نذكر أن العراقيل التي تقف في سبيل الكاتب في عصرنا - افتئاتا على الحق الدستوري في حرية التعبير - أكثر تعقداً من أية عراقيل أقيمت في سبيل كاتب من قبل. فكلما تقدمت البشرية في الثقافة وأوغلت في استغلال فهمها للقوانين الطبيعية، ازداد تقدم الاستبداد في ابتكار الوسائل المختلفة لحماية استبداده .. وكرد فعل طبيعي تنشط الجماهير لرد هذا العدوان وهي أكثر ثقافة وأكثر وعياً من قبل .. وباختصار أصبح الاستبداد من التنبه بحيث صار وجود أدب حر خالص شيئاً أشبه بالمستحيل!

ولكننا مهما غلونا في تقدير هذه العقبات، فإننا لا نستطيع أن ننسى أبدا، أنه في ماضي الزمن، قبل أن يسمع امرؤ عن حقوق الإنسان، كان الكاتب والمفكر يشنق أو يقتل لأتفه الأمور. ومع هذا فقد وصلت إلينا كل الآراء الطيبة التي تشترك بصخورها الصلبة المتينة في بنائنا الفكري حتى الآن .. ومعنى هذا أن هناك صراعاً دائماً بين المفكر الحر والاستبداد - على اختلاف أساليب أصحاب السطوة في الصراع خشونة ونعومة - وإن على الكاتب أن يفترض بداءة أن الاستبداد سيقف في سبيله، وأن يهيء نفسه لاستقبال كل طعنة وأن يعلم نفسه كيف يستطيع أن يكسب المعركة على الرغم من كل شيء ..

ومن غير هذا الصراع - بل هذه الخاصية التي يتمتع بها الأدب - يصبح الأدب شيئاً للهو والزينة، ويصبح أتفه من أن يلتفت إليه إنسان لا في هذا العصر ولا في أي عصر آخر من العصور القادمة ....

وأزمة الأدب المعاصر تعود - بالدرجة الأولى - إلى الكاتب نفسه .. فمهما تكن السلطات قد درعت نفسها ضد الكتابة الحرة، فإن الأدب بإمكانياته الفريدة من حيث قدرته على الإيحاء والتوجيه تلميحاً وتضميناً ورمزاً في أضيق الحلقات، يستطيع أن يحطم هذه الحصون مهما تكن قوتها .. وهذا ما لم يفعله أحد من الذين يندبون أزمة الأدب المعاصر .. ولقد كان لويس السادس عشر ومن قبله أبوه وجده، مثلا سيئاً للاستبداد، ومع ذلك فقد استطاع فولتير وجان جاك روسو ومونتسكيو وغيرهم أن يكتبوا، وأن يبلغوا الناس عن طريق الأدب والفلسفة والعلم!

وفى أقصى مراحل الاستبداد القيصرى فى روسيا وقف دستويفسكى الكاتب الروسى ينتظر دوره لتنتزع المشنقة حياته .. ومع هذا فقد قرأنا لدستويفسكى وتولستوى وتورجنيف وتشيكوف .. واعتبرناهم عمالقة ، وكان عصرهم أزهى العصور الأدبية !

بقى شىء واحد يجب تقريره : إن كتابنا - وقد يشمل هذا كتاب الغرب أيضا الذين يعانون الأزمة - غير مخلصين لقضية الإنسانية ، من حيث هى تقدم وارتقاء فى جميع أركان الحياة . وقد يكون بعضهم مخلصاً لقضية أخرى غير هذه القضية ، ولكن طبيعة قضيته الخاسرة تجره إلى الخلف وتجعله من كتاب الأزمة ، لأنه بقدر مايكون الكاتب صاعداً مع الصاعدين ، يكتسب الاستمرار والخلود ..

والواقع أن كتابنا المعاصرين يعتبرون من المتخلفين عن قضايا جيلهم ، وعن فهمها . وقد اتخذت أكثريتهم الجانب المنحل من المجتمع لتقف إلى جواره ، وتدافع عن أهدافه ومطامعه ، قانعة بالراحة والثروة وشىء من الجاه الحقير .. وها هى ذى الأوضاع قد زلزلت فى مصر ، وهى تزلزل فى جميع أنحاء العالم مؤذنة بالتغيير الضخم الذى يحدث لمصلحة المجموع . ويكتشف كتاب الأزمة - بعد فوات الفرصة - أنهم كانوا فى الجانب الخاسر ، على أنه كيف يتأتى للإنسان أن يصطنع الإخلاص وهو لا يكون فيه إلا طبعاً أصيلا ؟! إن الأزمة التى يعانيها الأدب العربى الآن ، أزمة فى الضمير الأدبى والثقافى عند الكتاب العرب قبل أن تكون أزمة الافتئات على حرية التعبير .. ولن نستطيع أبداً أن نتوجه بهذه الكلمة إلى أحد غير الكتاب لأننا - مهما نكن من البلاهة والغفلة - ما كنا لنطلب إلى الاستبداد الراحل أن ينتحر بالسلاح الذى فى يده .

أحمد عباس صالح

فى مسير الرسول من حنين إلى الطائف

قال الشاعر الأنصارى كعب بن مالك :

قضينا من تهامة كل وتر ... وخيبر ، ثم أجممنا السيوفا
نخيرها ، ولو نطقت لقالت ... قواطعهن دوساً أو ثقيفا
فلست لحاصن[1] إن لم تروها ... بساحة داركم منا ألوفا
فننتزع العروش ببطن وج ... ونترك داركم منا خلوفا
ونردى اللات والعزى وودا ... ونسلبها القلائد والشنوفا

(١) الحاصن : المرأة العفيفة الكريمة .

الدعوة إلى التقشف

كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يرسل ولاته إلى الأقطار الإسلامية ليكونوا (معلمين) قبل أن يكونوا (حاكمين). ومن بواعث السعادة لمصر أن ربّان سفينتها اليوم — وهو الرئيس القائد محمد نجيب — يبرهن فى كل موقف من مواقفه على أنه المعلم الحكيم الذى يلاحظ مواطن الضعف فى الكيان المصرى، فيرشد أمته إلى أقرب الطرق لمعالجة ضعفها بما يخرجها منه إلى موطن السلامة.

ولما وقف يخطب فى حفلة إرساء حجر الأساس لمبنى الإذاعة اللاسلكية دعا جميع مواطنيه إلى اتباع سياسة التقشف وقال:

«إن التركة مثقلة، ونحن نعيش تحت بناء منهار نريد أن نرفع أنقاضه، ولم نرفع منه حتى الآن إلا التراب. وهذه الحالة ليس المسئول عن تحقيقها محمد نجيب وحده، بل كل رجل فى البلد يجب أن يتعاون ويتضافر ويعمل معنا لإقامة البناء سليما متينا».

إذن فنحن نعيش تحت بناء منهار، والذى يقول هذه الكلمة هو الرجل الواقف على دخائل البناء الذى نعيش تحته، فصاح بنا يدعونا إلى النجاة.

إنه يعرف ما لا يعرفه أكثرنا، أو على الأقل يعرف ما لا أعرفه أنا، ومما أعرفه أنا عن بنائنا الذى نعيش تحته أن هذه الحركة المباركة لما قامت لأجل الإنقاذ كان ميزان مصر التجارى هكذا:

إن مصر استوردت من الخارج مصنوعات وأدوات وضروريات وكماليات فى الأشهر الخمسة الأولى من سنة ١٩٥٢ تزيد قيمتها ٣٧ مليونا و١٤٧ ألف جنيه عما صدرته إلى الخارج من حاصلات مصر ومنتجاتها. فمجموع ما دخل فى جيوب المصريين من المال ثمنا لقطنهم ومحصولاتهم الزراعية ومنتجاتهم الصناعية تنقص ٣٧ مليون جنيه عما خرج من جيوبهم ثمناً لما استوردوه من منسوجات وحبوب وأغذية وأدوية وأدوات ومكنات وخمور ودخان وأحمر شفايف وأدوات زينة وتوافه سخيفة، ولا يدخل فى هذا النقص المخيف ثمن كل ما أدخل خلسة وبطريق التهريب من حشيش وكوكايين وسموم أخرى منع القانون مرورها من الجمارك فلم يتناولها الإحصاء الرسمى، وإن أمة تخسر فى خمسة أشهر ٣٧ مليونا هى فرق

ثمن ما تنفقه من أموالها فى الخارج عن ثمن ما تصدره من محصولاتها إلى الخارج ، فهى أشبه بمن يعيش تحت بناء منهار ، وإذا دعا محمد نجيب أمته إلى التقشف فينبغى لكل مصرى وكل مصرية أن يفهما من ذلك أن النجاة من انهيار البناء على رءوس الجميع متوقف على الاستغناء عن هذه التوافه التى تعرضها المتاجر الكبرى فى أكرم موضع من أماكنها البارزة ، وتسلط عليها أنوار الكهرباء فتخادع صغيرات العقول من النساء وضعاف الأحلام والأخلاق من الرجال حتى يخرجوا ما فى محافظهم من الجنيهات فيقذفوا بها فى بالوعات هذه المتاجر لتنقل إلى بلاد الغرب تاركة وراءها هذا البناء المنهار الذى نعيش تحته . ولو أن هذا المعنى يلاحظه كل مثقف فى أوربا تعلم من بلاد الإنجليز استعمال شرابهم الويسكى ، أو تعلم من بلاد فرنسا استعمال شرابها من الكونياك ، لخجل من نفسه إن لم يخجل من ربه . ولئن يفقود مصر أن تتحول إلى الخارج عن طريق هذه الكئوس التى يهدم بها السكير نعمة العافية عليه من الله ، كما يهدم بها هذا البناء الذى يعيش تحته وهو الذى نسميه الوطن .

٣٧ مليون جنيه خسرناها فى خمسة أشهر من أول يناير الى آخر مايو من سنة ١٩٥٢ ، والجناية على الوطن من هذه الخسارة واقعة على رأس كل امرأة تبذل أموال زوجها ووطنها فى توافه الزينة وسخافات المتاجر الكبرى ، وتقع على كل من يضع بين شفتيه سيجارة ليحرق ثمنها فى الهواء ، أو يقرب كأس الويسكى أو الكنياك من فمه ليكون ثمن ذلك إعانة منه لتجار الخمور وصانعيها فى البلاد التى تنكل بأهل تونس والجزائر والمغرب الأقصى ، أو تصب وابل العذاب على أهل كينيا .

إن دعوة الرئيس أمته إلى التقشف دعوة كريمة إلى « التحرر » من الكماليات والسخافات والتوافه . وهذا التحرر مصدر من مصادر السعادة ، ومرتبة عالية من مراتب تحرير النفس ، وإعدادها لحمل أعباء الجد ، ومواجهة المصاعب عند وقوعها . وقد حاول الاسبرطيون هذا « التحرر » بالمرانة والاعتياد فكانوا به من أهل الكفاح والغلب . ونشأ عليه العرب بالفطرة ، فأهلهم ذلك لحمل أعباء الرسالة الإسلامية والنجاح بها فى أقطار الأرض بما يعده التاريخ من المعجزات التى لا يعرف مثلها لغير العرب . وكما أن العربى كان يرى من « البلاغة » أن يختزل من بيانه كل حرف يستطيع أن يؤدى غرضه بالاستغناء عنه ، كذلك كان يرى من « التحرر » أن يستغنى فى معاشه عن كل هنة يستقيم له العيش مع الاستغناء عنها . وليعلم كل شعوبى على وجه الأرض أن ذلك لم يكن من العرب عن قلة

وفاقة وحرمان ، بل لأنهم يرون فيه تمام حريتهم واكتمال إنسانيتهم . ألا ترى إلى معاوية رضي الله عنه يوم استقدم إلى الدار الخضراء فى دمشق حرة من سيدات البادية وكريماتها العاقلات لتكون سيدة قصره وأم ولده ومنجبة ولى عهده ، فضاق صدر هذه السيدة الحكيمة - وهى ميسون بنت بحدل القضاعية - بترف أهل المدن الذى يحاق طبعها العربى الحر ، ولا نزال إلى اليوم نترنم بقولها :

لبيتٌ تخفق الأرواح فيه أحبُّ إلىّ من قصر منيف

فهذه النظرة السليمة إلى الحياة هى مما أهّل قوم ميسون بنت بحدل للنهوض بعبء الإسلام ، وتحقيق أهدافه ، وتربية الأمم عليه فى صدر الإسلام ، ففهم الناس منهم أن الإسلام دين الاعتدال فى كل شىء : الاعتدال فى الثروة والغنى ، والاعتدال فى الفقر والزهد ، والاعتدال فى الحب والبغض ، والاعتدال فى الراحة وبذل الجهد ، بل إنه - وهو دين - جاء يدعو إلى الاعتدال حتى فى الدين : « لا رهبانية فى الإسلام » ، « إن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق » ، « الدين يسر ، ولن يغالب الدين أحد إلا غلبه » ، « إياكم والغلو فى الدين ، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين » .

فالإسلام يدعو إلى الاعتدال فى الدين ، وفى المعيشة ، وفى كل شىء . والرئيس محمد نجيب إذا دعا الى التقشف فإنه يدعو إلى مدلوله الإسلامى ، وهو « التحرر » من الكماليات والسفاسف والمظاهر الكاذبة والأعراض الزائلة ، ولا يعنى به معناه البرهمى الذى طرأ علينا باسم التصوف فأدى الى تعذيب النفس بما لا فائدة منه ترتجى فى المجتمع الصالح .

إن محمد نجيب كان يصيح بنا وهو يرسى حجر الأساس فى بناء الإذاعة اللاسلكية لنصحو من غفلتنا ، ونفيق من سكرتنا . وهو لا يريد بنا أن نتقشف تقشفا برهميا إلى الحد الذى كان عليه غاندى ، ولكنه يريد منا الاعتدال على طريقة الإسلام وسجية العرب لوصل ما انقطع بين حاضرنا وماضينا ، ولنتدارك ما سيقع على رءوسنا من انهيار البناء فى المستقبل إذا أصررنا على هذا السرف الذى انقضى عهده مع العهد البائد . فالى العهد الجديد واعتداله أيها المواطنون .

محب الدين الخطيب

رواية الحديث وتدوينه

الحديث ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خلق أو خُلق؛ أو هو أعم من أن يكون قول الرسول ﷺ أو الصحابة أو التابعين وفعلهم وتقريرهم .

ولا يكاد يخلو صحابي من رواية شيء من الحديث النبوي قلّ أو كثر؛ وقد اشتهر بسعة الرواية منهم طائفة حصرهم الذهبي في واحد وثلاثين، منهم اثنان من أزواجه ﷺ . هما: عائشة وأم سلمة - رضي الله عنهما - وخلفاؤه الراشدون الأربعة رضي الله عنهم ، وأوسعهم رواية علىّ ، ويليه عمر ، ثم عثمان ، ثم أبو بكر .

وأكثر الصحابة رواية أبو هريرة ، فرواياته خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وسبعون ، ثم عبد الله بن عمرو . فله ألفان وستمائة وثلاثون ، ثم أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ، فله ألفان ومائتان وستة وسبعون ، ثم عائشة ، فلها ألفان ومائتان وعشر ، ثم عبد الله بن عباس ، فله ألف وستمائة وسبعون .

وليس معنى ما سلف أن الخلفاء الراشدين دون أبي هريرة ومن يليه علماً بحديث رسول الله ﷺ ، فهم أدرى بشأنه كله ، وغايته أنهم لم يكثروا من التحديث ، لمثل ماذكره الذهبي بإسناده إلى قرظة بن كعب . قال : لما سيرنا عمر إلى العراق مشى معنا عمر وقال : أتدرون لم شيعتكم ؟ قالوا : نعم . مكرمة لنا ، قال : ومع ذلك أنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم ، جوّدوا القرآن ، وأقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ ، وأنا شريككم ، فهو كما ترى تحرُّج من مزاحمة القرآن ، أو تخوُّف مما تجره كثرة الرواية من الشبهات . وقد صرح بأولى العلتين عروة بن الزبير فقال : كنا نقول : لا تتخذ كتاباً مع كتاب الله ، فمحوت كتبي ، فوالله لوددت أن كتبي عندي . إن كتاب الله قد استمرت مريرته . وصرحت بالثانية عائشة فيما ترويه عن أبيها رضي الله عنهما إذ أحرق صحيفة كانت عنده فيها خمسمائة حديث خشية أن يكون فيها حديث عن رجل قد ائتمنه ووثق به ولم يكن كما حدثه .

هذا ومن أسباب سعة الرواية طول الصحبة ، وهو من أسباب إكثار عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما ؛ وهو ، والرواية عن بعض الصحابة ، وطول العمر من أسباب إكثار أنس خادم رسول الله ﷺ . فقد أخذ عن أبي بكر وعمر وعثمان وأبيّ ، وطائفة ؛ وجميعها مع قوة الحفظ من أسباب إكثار أبي هريرة . فقد كان مسكيناً من أصحاب الصُّفة يلزم النبي ﷺ على مَلْء بطنه ، فكان يحضر ما لا يحضر من إخوانه من المهاجرين والأنصار ، ويعي ما لا يعون . وروى أبو هريرة عن أبي بكر وعمر وأبي بن كعب . وعن الشافعي : أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهره ، ونحوه يقوله عن نفسه ؛ والكتابة من أسباب إكثار عبد الله بن عمرو بن العاص . كتب عن النبي ﷺ علما كثيراً ، وكان يعترف له أبو هريرة بالإكثار من العلم . وقال : إنه كان يكتب عن النبي ﷺ وكنت لا أكتب .

هذا وليس بعجيب أن نرى التابعين وتابعيهم أوسع رواية من الصحابة . فإنهم جمعوا إلى ما تفرق من رواياتهم فتاواهم وآثارهم ، حتى كانت رواية سفيان بن عيينة نحواً من سبعة آلاف حديث ، وشعبة بن الحجاج ـ الذي يقول فيه الشافعي : لولا شعبة لما عرف الحديث بالعراق ـ عشرة آلاف حديث ، ولحماد بن سلمة بضعة عشر ألفا ، ولإبراهيم بن سعد الزهري نحو من سبعة عشر ألف حديث في الأحكام سوى المغازي ، ولسفيان الثوري ـ وهو وأبوه من علماء الكوفة ـ ثلاثون ألف حديث ، ولهشيم بن بشير ابن أبي خازم نزيل بغداد عشرون ألف حديث ، وقد تصل رواية الرجل الواحد إلى مائة ألف ، كعبد الله بن وهيب بن مسلم ، وبعد هذه الطبقة بلغت رواية البخاري أربعمائة ألف ، ومسلم ثلاثمائة ألف ، لم يخرجا منها إلا عشرة آلاف ، بل روى أن الإمام أحمد بن حنبل كان حفظه ألف ألف .

والروايات مضطربة في إباحة تدوين الحديث ، وصورة من هـــذا الاضطراب في كشف الظنون . وقد عرفت رأى الصديق في ذلك ، فيما روته عائشة ، من إحراقه الصحيفة لما سلف منه رضي الله عليه ، وعلى أنه كان في صدر الإسلام كتابة للحديث ، كالذي سلف من كتابة عبد الله بن عمرو ، فالظاهر أنها لم تكن إلا لمجرد التقييد دون ترتيب أو تبويب .

وفى أوائل السيوطى : وأول من دون الحديث ابن شهاب فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، وفيه قال مالك فى الموطأ : إن عمر بن عبد العزيز رحمه الله ـ كتب إلى أبى بكر بن محمد بن حزم ، أن انظر فيما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سنته ، أو حديث عمر ، أو أخبار الخلفاء الأربعة وفقهاء الصحابة ، أو نحو ذلك فاكتبه لى ، فإنى قد خفت دروس العلم وذهاب العلماء ؛ فدون كثير من العلوم فى خلافته ، رحمه الله .

وفى كشف الظنون : أنه اختلف فى أول من صنف ، فقيل : الإمام عبد الملك ابن عبد العزيز بن جريج البصرى (فى سنة ١٥٥ هـ) . وقيل : أبو النصر سعيد بن أبى عروبة (فى سنة ١٥٦ هـ) ، وقيل : ربيع بن صبيح (فى سنة ١٦٠ هـ) ، ثم صنف سفيان بن عيينه ، ومالك بن أنس بالمدينة ، وعبد الله بن وهب بمصر ، ومعمر وعبد الرزاق باليمن ، وسفيان الثورى ، محمد بن فضيل بن غزوان بالكوفة ، وحماد بن سلمة ، وروح ابن عبادة بالبصرة ، وهشيم بواسط ، وعبد الله بن المبارك بخراسان .

ومن مظاهر الحرص آئذ على التدوين والأخذ عن الشيوخ قول ابن المبارك : كتبت عن ألف شيخ ومائة شيخ ؛ ومن مظاهر عناية الخلفاء بالمحدثين ، أن الرشيد وصل أبا بكر ابن عياش المحدث الكوفى بستة آلاف دينار . وعن أبى معاوية الضرير ، محدث الكوفة ، : أكلت مع الرشيد فصب على يدى رجل لا أعرفه . فقال الرشيد : يا أبا معاوية ، تدرى من كان يصب على يديك ؟ قلت : لا . قال : أنا . قلت : أنت يا أمير المؤمنين ؟! قال : نعم . إجلالا للعلم ؛ ووراء هذه العناية الدينية عناية أخرى أدبية فمثل أبى نواس من الشعراء وإسحاق الموصلى من المغنين والأدباء من رواة الحديث الآخذين عن الشيوخ ، فقد كتب أبو نواس الحديث عن عبد الواحد بن زياد وأزهر السمان وغيرهما ، وروى إسحاق الحديث ، ولقى أهله مثل مالك بن أنس وسفيان بن عيينة وهشيم بن بشير وإبراهيم بن سعد وأبى معاوية الضرير وروح بن عبادة وغيرهم من شيوخ العراق والحجاز .

محمود فرج العقدة
مدرس بكلية اللغة العربية

كيف بنى المسلمون مجدهم

ذكر التاريخ فى أنصع صفحاته ، ذلك المجد الذى بناه المسلمون فى مطلع فجرهم ومشرق شمسهم ، وكتب بمداد العجب والفخار ، عن تلك الهمم العلياء التى دفعت بالمسلمين إلى جوب البقاع والوهاد ، وطى المهامه والفيافى ، وإخضاع الممالك المترامية الأطراف فى أقل من ربع قرن من الزمان .

ولقد بينت الحوادث الخالدة أن ذلك المجد لم يكن وليد الحظوظ ، ولم تسقه المصادفات ؛ ولكنه كان محفوفا بكثير من المخاطر ، مقرونا بشتى المتاعب والمصاعب .

ولولا الثقة بالنفس ، والاستهانة بالحياة ، لوقف المسلمون حيث بدءوا ، وماتوا حيث ولدوا ، وبادوا حيث وجدوا .

وإذا كان الإنسان كبير النفس ، وثاباً إلى المعالى ، فإنه يحلق فى الآفاق بأجنحة من الفخار ، ويبنى مجده على هامة الوجود .

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

اعتقد المسلمون فى مبدإ أمرهم أنهم خلقوا للكفاح والجهاد ، وأنهم وجدوا للنضال والجلاد ، وأن الدين يتقاضاهم واجب الدفاع عن الوطن ، والذياد عن حياضه ؛ فهبوا عاملين لا يرهبون الموت ، ولا يتهيبون المنايا ، ولا يحرصون على البقاء ، حتى حققوا المجد العريض ، وأدركوا الشرف الرفيع .

لقد أحبوا الموت فوهبوا الحياة ، وباعوا القليل فربحوا الكثير ، وهجروا الأكواخ فسكنوا القصور ، وشقوا زمناً قليلا ، فسعدوا دهراً طويلا ، وذلك شأن العاملين ، ومآل المخلصين ، ونهاية المجاهدين .

ذلك كان شأن المسلمين أيام كان المسلم يعلم أن عليه واجبات يتقاضاها منه ربه ودينه ، ووطنه وأمته ، فيبادر إلى قضائها مبادرة الظامىء إلى ورد الماء ، ويندفع إلى أدائها اندفاع السيل فى مجراه ، والسهم صوب مرماه .

كانت نفوس الجماعة إذ ذاك ملتئمة ، والقلوب متصافية ، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، فملا شأنهم ، ونبه ذكرهم ، واستقام أمرهم ، وتلفتت نحوهم الأبصار والعيون ، تضفى عليهم الإكبار والإجلال .

مضى ذلك العصر بخيره ، ومضى معه ذلك التراث الذى خلفه الآباء ، وكان مثار الإعجاب ، وموضع الفخار حقباً من الزمان .

مضى ذلك ، من يوم أن احتل البغض فى القلوب موضع الحب ، والشتات والفرقة موضع الاتحاد والألفة ، والتدابر والتقاطع موضع التواد والتواصل .

وإذا انفرط عقد الأمة ، وسرت فيها روح التخاذل ، فقد أفل نجمها ، وغابت شمسها ، وطويت صحيفتها .

ثم ضاع ذلك المجد التليد من يوم أخذت الأمة بتلابيب الانفراط ، وأقام أفرادها من أنفسهم أمما متشعبة ، همُّ الواحد منهم أن يكون لنفسه عونا ، وللغريب على أمته ساعداً وعضداً ؛ ونسوا أن الأمم تحيا وتموت بأفرادها ، وترجح وتخف كفتها بأبنائها . فإذا أخذتهم الغيرة عليها ، وأشربت قلوبهم محبتها ، وعلموا أن المجموع هو الفرد المتكرر ، استطاعوا أن يقوا أمتهم على الدهر تصرع تحت أقدامها خطوبه ، وتنهار أمام قوتها صروفه ، وتتمزق بسطوتها أحداثه .

وإذا ركبوا أهواءهم ولم يرعوا لأمتهم كرامة ، ولم يروا لها حرمة ، فقد أسلموها إلى الفناء ، ورموها بأيديهم فى مكان سحيق .

بالأمس وقف الإسلام وقفة ، كان ملء عين الدهر وبصره ، وتلا على الشعوب كتاب القوة من مبتدئه إلى خبره ، وخط فى أفق الوجود سطوراً من الحكمة ، وعتها الأمم المعادية له وحذقتها ، واسترشدت بها واستضاءت بنورها .

أما أبناؤها فقد استناروا بها حينا من الدهر ، بلغوا فيه أوج السعادة ، ثم طاف بهم طائف من التفريط ، شأن كل غالب يرتكز على قوته ثم يهمل أمرها ، ويعتمد على ظفره دون أن يرعاه بالحيطة .

طاف بهم ذلك الطائف وهم فى نشوة النصر ، وسكرة الظفر ؛ وقد نسوا أن هناك أمما مقهورة بسيوفهم ، وعروشا مثلولة برماحهم ، وأن الموتور لا ينام عن وتره ، وأن ضعيف اليوم ربما يكون قويا فى غده .

نسوا ذلك فكان المصير ما نراه، وكان المآل تلك الحسرة التي تحترق بنارها قلوبنا حزنا على ما فقدناه من مجد بناه الآباء بلبنات من فلذ الأكباد.

أيها المسلمون: لا ضعف بدائم أبداً، ولا قوة بباقية على الدهر، ولكن الأيام دول، والأمم التي تتفتح عيونها تسترد شبابها، والدول التي تنتبه عقولها تستعيد مجدها، والشعوب إذا أنجبت شبابا يشعر بالواجب يجتمع شملها، ويتجدد بناؤها.

ومن كان مثل الأمة الإسلامية التي تمشي إلى الحياة، في ضوءين من دين قويم يهتدى بنوره، ومجد رفيع تستمد منه القوة، توشك أن تعود إلى ما كانت عليه يوم لا سلطان في الوجود إلا سلطانها، ولا قوة في الأرض غير قوتها. أجل إن مثل الأمة الإسلامية مع ميزاتها لو أخذت بالأسباب التي أخذ بها السلف الصالح، وانتهجت تلك الجادة التي انتهجها أولئك الأمجاد السابقون، لخطت إلى بغيتها أميالا في المدة التي يخطو غيرها فيها بضع خطوات. وما ذاك إلا أن هناك دافعاً من الدين الإسلامي، الذي طبع نفوس أبنائه بطابع العمل والكفاح، وهناك أسس من المجد لا تزال قوية القواعد، ولا تحتاج إلا إلى أيد عاملة تقيم عليها ما تشاء من البناء، وليس بعد ذلك إلا السعادة المبتغاة.

ليس بين المسلمين وبين استعادة مجدهم وقديم عزهم، إلا أن يمشوا على جسر من وحدة الكلمة واتحاد المشرب، وأخذ القوى بيد الضعيف، وأن يكونوا كتلة واحدة غير متخاذلة الأجزاء، ولا متفرقة الأوصال.

ليس بينهم وبين الحياة الحقة إلا أن يرجعوا إلى تعاليم دينهم، ويقفوا عند حدوده المشروعة، ويتخلقوا بالأخلاق الكريمة التي كانت لآبائهم، والتي مكنتهم من الغلبة والظفر، كالشجاعة والإقدام، ومباراة الأمم في الجد والكفاح.

إذا تداركوا أنفسهم بالتحلي بهذه الصفات، وبرءوها من كل خلق ذميم، ونظروا بأعينهم إلى أسباب الفرقة فاجتثوها من قلوبهم، فقد وقفوا في صفوف الأمم الحية، وساروا في طريق الفلاح سيراً حثيثاً، حقق الله الآمال، إنه نعم المولى ونعم النصير.

عبد الرحيم فرغل البلينى
المفتش بالأزهر

المسئولية الحكومية في الإسلام

قال عليه الصلاة والسلام : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ذلك بأن لكل شخص سلطانا يستوى فى ذلك سلطانه على زوجته وأولاده ، وسلطانه على خدمه وتابعيه وسلطانه على موظفيه ومرءوسيه . ولما كان كل سلطان تقابله مسئولية تعادله ، شمل الحديث سالف الذكر الناس جميعا ، وكان بغير منازع أصلا من أصول القانون الدولى الخاص فى العصور الحديثة . وإنه لمن دواعى الفخر حقا أن تسبق الدولة الإسلامية الأمم جميعا فى العمل بهذا الأصل القانونى ، ولا أدل على ذلك من قول عمر بن الخطاب فى مسئولية الوالى : « والله لو عثرت دابة فى العراق لرأيتنى مسئولا عنها » . فقيل له : وما ذنب أمير المؤمنين فى ذلك ؟ فقال : « أمير المؤمنين مكلف بإصلاح الطرق وتسويتها لتمشى عليها الناس والدواب بدون عثار واضطراب » ، من ثم كان الولاة والحكام المسلمون لا يحجبون أنفسهم عن الرعية حتى يتسنى لهم سماع كل شاك ومظلوم ، فقد قال المصطفى ﷺ : « أبلغونى حاجة من لا يستطيع إبلاغها إلىّ ، فإن من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة » .

وبذلك أوصد نظام الحكم الإسلامى الأبواب كلها فى وجه المحسوبية والرشوة ، فحق الحق وأزهق الباطل ، وأمن الناس على أرواحهم وأموالهم . هكذا تميز هذا النظام بالعدالة الصحيحة . فألزم كلا من الحاكم والمحكوم بقدر متساو من الواجبات . فأما واجبات الحاكم قبل الرعية فإنها تتلخص فى : (١) تنفيذ أوامر الشريعة الغراء فى الحكم ، مع إقامة العدل والعدالة بين الناس (٢) حفظ الحقوق الطبيعية للأفراد مثل حق الحياة وحق العمل وحق إبداء الرأى . لهذا كان الحاكم الإسلامى يباشر بنفسه حالة الولاة والعمال مباشرة دقيقة .

وأما واجبات الأفراد نحو الحكومة فتتلخص فى أمرين هما :

(١) طاعة الحاكم ولو كان عبدا حبشيا أو مفضولا بأفضل منه ، مادام لم يظلم ، وما دام لم يأمر بمعصية .

(٢) حفظ الأمن ودفع الضرائب والزكاة .

والمدهش حقاً هو تكافؤ واجبات الأفراد مع واجبات الحكومة مما يقطع فى الدلالة على أن نظام الحكم الإسلامى هو نظام دستورى بأوسع معانى الكلمة ، فكان الأمير يستمد سلطته من بيعة شعبه له . ومن ثم كانت مسئولية الأمير مسئولية كاملة بمعنى أنه مسئول أمام كل رجل من رجال الأمة . ومن الأمثلة الطريفة فى ذلك أنه عندما تولى عمر ابن الخطاب الخلافة خطب الناس قائلا « يا أيها الناس ، إذا وجدتم فى خطأ فأعينونى » فقال له أحد الأعراب : « والله يا عمر لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا » فقال عمر رضى الله عنه : « الحمد لله الذى جعل فى الأمة من يقوم عمر إذا اعوج منه » .

وينفرد الحكم الدستورى الإسلامى بأنه يمنح الأفراد نوعا من السلطة لا يتمتعون بها فى ظل أى نظام آخر ، فلهم مثلا حق حماية غير المسلمين ، وعلى الأمير أن يحترم هذه الحماية حتى ولو كان الرجل المحمى فى حرب مع المسلمين ، ويروى التاريخ فى ذلك أن أبا العاص ابن الربيع زوج السيدة زينب بنت رسول الله ﷺ وابن خالتها كان مشركا ففرق بينهما الرسول فى مكة ، غير أن السيدة زينب لحقت بأبيها فى المدينة وهناك افتدت زوجها المشرك بالقلادة المهداة إليها من والدتها فى عرسها ، فرآها الرسول وقال : هذه قلادة خديجة . ولما وقف على حقيقة الأمر قال لابنته « أكرمى زوجك ، ولا تجعليه يقربك حتى يسلم » فأسلم وحسن إسلامه .

وللناس أيضاً فى ظل النظام الإسلامى حق التمتع بجميع الحقوق العامة مطلقة غير مقيدة ، يستوى فى ذلك المسلم والذمى . كما لهم أيضاً التمتع بالحقوق الخاصة من زواج وتعامل وتقاض ، فالفرد يستطيع أن يقاضى من يشاء ولو كان الأمير نفسه ، فقد روى أن يهوديا قاضى سيدنا عليا بن أبى طالب أمام أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب فى إمارته ، فنادى عمر عليا « يا أبا الحسن قف بجوار خصمك » فامتعض على من المناداة عليه بأبى الحسن . وبعد الحكم سأله عمر عن سبب امتعاضه فأجاب على « لأنك أكرمتنى بالمناداة على بكنيتى » .

وبعد فهل هناك نظام أحق وأعدل من النظام الإسلامى الذى لو استقصينا مبادئه وأهدافه لرأيناه النظام المثالى الذى تنشده الإنسانية فى أرقى ما تصل إليه .

السيد كمال الشورى
مأمور الشهر العقارى

سيد الشهداء

حمزة بن عبد المطلب

أسد من أسود الله ورسوله ، وسيد من سادات المسلمين . ورث السؤدد عن آبائه ، واكتسب الفضل بصادق جهاده ، وانحدرت إليه الشجاعة العربية فى أصلاب أجداده ، فكان الشهم الأبى ، والفارس المعلم ، والبطل المغوار ، وحامى الذمار . ذلكم هو سيد الشهداء أبو عمارة حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، فهو أحد فروع الدوحة الهاشمية الباسقة ، وعم رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاعة ، إذ أرضعتهما ثويبة جارية أبى لهب ، وكان أسن من رسول الله بسنتين ، وقيل بأربع ، والأول أصح . وأمه السيدة هالة بنت وهيب ابن عبد مناف بن زهرة ، فهى ابنة عم السيدة الفاضلة آمنة بنت وهب والدة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو كريم الأبوين طاهر المعدنين ، وما بالك بشخص يجتمع برسول الله فى جده لأبيه ، وجده لأمه ، وجمع إلى شرف النسب شرف الإسلام والجهاد فى سبيله ، لا شك أنه من خيار الناس فى جاهليته وإسلامه .

« إسلامه » : أسلم فى السنة الثانية من مبعثه ﷺ . ولما أسلم فرح بإسلامه رسول الله ﷺ فرحا شديدا ، لأنه كان أعز فتى فى قريش وأشدهم شكيمة . ولإسلامه قصة ، ذلك أن أبا جهل عدو الله ورسوله مر بالنبى ﷺ عند الصفا فآذاه وسبه ونال منه ، ورسول الله يقابل سفهه بالصفح ، وجهله بالحلم ، وكان هذا المشهد على مرأى ومسمع من مولاة لعبد الله بن جدعان فى سكن لها . ثم انصرف أبو جهل إلى نادى قريش بجوار الكعبة لجلس مع قرنائه القرشيين ، وكان حمزة رضى الله عنه من هواة الصيد والقنص ، وكان إذا رجع من قنصه لا يذهب إلى بيته حتى يطوف بالبيت الحرام ، وفى روحة من روحاته مر على الصفا متوشحا سيفه ، متنكبا قوسه فقالت له هذه المولاة : يا أبا الوليد - كنيته - لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفا من أبى الحكم بن هشام — تعنى أبا جهل — وجده هنا جالسا فآذاه وسبه ونال منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد . وآنئذ تحركت عاطفة الرحم فى نفس حمزة ، وأخذته الشفقة على ابن أخيه ، وهو من بنى هاشم كما تعلم ، وأدركته لحظة من لحظات التجلى الآلهى ، فذهب والدم يغلى فى عروقه من شدة الغضب ، ولم يلو على شىء ،

حتى دخل المسجد فرأى أبا جهل جالسا فى القوم ، فقام على رأسه ورفع القوس وضربه فشجه شجة منكرة ، ثم قال له : أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ فرد ذلك على إن استطعت . وقام رجال من بنى مخزوم عشيرة أبى جهل لينصروه فقالوا لحمزة : ما نراك إلا قد صبأت — أى دخلت فى دين محمد — فقال حمزة : وما يمنعنى وقد استبان لى منه أنه رسول الله والذى يقوله حق ؟ والله لا أنزع ، فامنعونى إن كنتم صادقين . فقال لهم أبو جهل : دعوا أبا عمارة (١) ، فإنى والله قد أسمعت ابن أخيه شيئا .

انتهت الملاحاة إلى هذا الحد . ولكن أمرا ذا بال أهم حمزة وأوقعه فى حيرة من أمره ، حتى استبان له الحق ، ذلك أنه لما رجع إلى بيته تسور عليه الشيطان وصار يلقى إليه بالوساوس ويقول له : أنت سيد قريش ، اتبعت هذا الصابىء وتركت دين آبائك ، الموت خير لك مما صنعت . وبات بليلة لم يبت بمثلها قط من وسوسة الشيطان وتلبيساته ، فلم يجد مفرا من أن يلجأ إلى الله فقال : « اللهم إن كان رشدا فاجعل تصديقه فى قلبى ، وإلا فاجعل لى مما وقعت فيه مخرجا » .

ولما أصبح ، غدا إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فقال : يا ابن أخى ، إنى وقعت فى أمر لا أعرف المخرج منه ، وإقامة مثلى على ما لا أدرى أرشد هو أم غى شديد . فأقبل عليه البشير النذير ﷺ فذكره ووعظه وخوفه وبشره ، فألقى الله فى قلبه الإيمان بما سمعه من رسول الله ، وشرح صدره لذلك ، فلم يلبث أن قال : أشهد أنك صادق ، فأظهر يا ابن أخى دينك » .

وقد ازداد رسول الله ﷺ بإسلام عمه حمزة عزة ومنعة بين قريش ، وخفت حدة إيذاء المشركين له ، وأمكن لصبح الدعوة الإسلامية أن يتنفس بعد ليل طويل . ولقد أكل كبد المشركين أن يروا المسلمين يخرجون إلى الكعبة وفى مقدمتهم السيدان الكريمان عمر وحمزة يعلنوها حربا شعواء على الشرك وأهله ، ويدعوا إلى عبادة الله وحده ، ونشر نور الهداية والعرفان .

حياة الكفاح والجهاد :

كانت حياة أسد الله حمزة بن عبد المطلب حياة الكفاح والجهاد ، فمن يوم أن أسلم بذل نفسه وماله فى سبيل الله ونشر الدعوة الإسلامية ، وما أن بدئت السرايا حتى عقد له رسول الله

(١) كان رضى الله عنه يكنى بأبى عمارة وأبى يعلى ، وهما ولدان له [أسد الغابة] ، وقد سمعت آنفا أنه كان يكنى بأبى الوليد أيضا .

ﷺ اللواء ، ويقال إنه أول لواء عقد فى الإسلام ، وأرسله على رأس سرية ليقطع على أبى جهل وعيره الطريق جزاء على عقوقهم وإخراجهم المسلمين من ديارهم وأهليهم وأموالهم ، فقام بمهمته خير قيام ، وإن لم يقع بينه وبين المشركين قتال . وفى غزوة الأبواء كان يحمل لواء رسول الله ورايته البيضاء حمزة بن عبد المطلب ، ولا تسل عما كان من أسد الله فى غزوة بدر الكبرى التى فصل الله فيها بين الحق والباطل ، ففيها خرج من صفوف المشركين ثلاثة : عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد ، وطلبوا المبارزة ، فبرز إليهم ثلاثة إخوة من الأنصار ، فقال عتبة نريد أبناء عمومتنا . فندب لهم رســـول الله عبيدة ابن الحارث وحمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب وثلاثتهم من بنى هاشم ، ولم يلبث حمزة وعلى أن أجهزا على صاحبيهما وأعانا عبيدة على صاحبه ، وحمل عبيدة إلى رسول الله تشخب ساقه دما ، فوسده رسول الله ﷺ ساقه وبشره بالجنة . ولما التحم الجمعان : جمع المسلمين وجمع المشركين ، أبلى السيد حمزة فى هذا اليوم بلاء مشهودا ، وأظهر من نفسه شجاعة منقطعة النظير .

ونطوى بعض صفحات من التاريخ لنصل إلى غزوة أحد التى ابتلى فيها المسلمون ، فقد قاتل فيها حمزة قتال الأبطال ، وما قرب منه أحد من الأعداء إلا قصمه بسيفه البتار . وروى أنه كان يقاتل يوم أحد بسيفين : وبينا هو يجول ويصول فى المعركة إذ استمكن منه وحشى غلام جبير بن مطعم فرماه بحربته التى لا تخطىء الهدف ، فخر شهيداً بعد أن أرضى الله وأرضى رسوله ، وهأنذا أدع وحشيا يحدث عن فعلته النكراء ، التى كفر عنها فيما بعد بقتل مسيلمة الكذاب ، قال وحشى - وقد سئل عن مقتل سيد الشهداء حمزة - : « سأحدثكما ماحدثت به رسول الله حين سألنى عن ذلك ، كنت غلام جبير بن مطعم ، وكان عمه طعيمة بن عدى قد أصيب يوم بدر ، فلما سارت قريش إلى أحد ، قال لى جبير : إن قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت عتيق . قال : فخرجت مع الناس ، وكنت رجلا حبشيا أقذف بالحربة قذف الحبشة قلما أخطىء بها شيئا ، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته فى عرض الناس كأنه الجمل الأورق ، يهد الناس بسيفه هدّاً مايقوم له شىء ، ثم قال : فهززت حربتى حتى إذا رضيت عنها ، دفعتها عليه فوقعت فى ثنته حتى خرجت من بين رجليه ، فذهب ليقوم نحوى فغلب ، وتركته وإياها حتى مات فأخذت حربتى ثم رجعت إلى مكة فعتقت » . ومكث وحشى بمكة حتى فتحت على المسلمين ، فهرب إلى الطائف ، فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله صلى الله

عليه وسلم ليسلموا ، عيِّيت عليه المذاهب ، حتى هم أن يذهب إلى الشام أو اليمن ، وبينا هو في هم قيض الله له رجلا فقال له : ويحك ، والله إن محمدا لا يقتل أحدا من الناس دخل دينه وشهد شهادة الحق ، فخرج حتى أتى المدينة فوقف على مجلس رسول الله وشهد شهادة الإسلام ، فلما رآه رسول الله قال : أوحشي أنت ؟ قال : نعم يا رسول الله . قال : حدثني كيف قتلت حمزة فحدثه ، فلم يتمالك رسول الله نفسه أن قال ، ويحك ، غيب عني وجهك فلا أرينك ، فكان يحرص على أن لا يرى رسول الله وجهه ، ورسول الله بشر وإنسان كامل الإنسانية ، ثم هو رقيق القلب بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فلا عجب أن طلب من وحشي أن لا يراه لأن وجهه تتمثل فيه صورة مقتل حمزة وتمثيل المشركين به ومقتلى أحد ، فيثير في النفس كوامن الأسى والحزن ولواعج الألم والحسرة على هؤلاء الشهداء الأبرار ، وقد حزن رسول الله على عمه حمزة حزنا شديدا ، ولا سيما وقد مثل به المشركون ، فقد بقرت هند بنت عتبة ـ الموتورة من المسلمين من يوم بدر ـ بطن حمزة وأخذت كبده فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها ، وجدع أنفه وأذنه ، وليس أدل على حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمه حمزة ، من هذه الكلمات التي قالها وهو واقف عليه ، لن أصاب بمثلك أبدا ، وما وقفت موقفا قط أغيظ إلى من هذا ، ، وفي رواية أنه قال ، رحمك الله ياعم ، لقد كنت وصولا للرحم ، فعولا للخيرات ، ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في قبر واحد ، فدفن عمه حمزة مع عبد الله بن جحش ، ابن أخته أميمة بنت عبد المطلب في قبر واحد ، وذلك في سفح أحد ، ولا يزال قبره معروفا هناك .

وكان عمر سيدنا حمزة حين استشهد خمسا وخمسين سنة وقيل سبعا وخمسين سنة ، فرضي الله عنه وأرضاه .

، وبعد ، ، فهذه صفحة مشرقة من حياة سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، يتمثل فيها الطهر والوفاء ، والشجاعة والإخاء ، وبذل النفس في سبيل العقيدة ، والثبات في مواطن الموت ، والصدق عند لقاء الأعداء ، والاستشهاد حيث تطيب الشهادة ، فلا عجب أن لقبه رسول الله بأسد الله وأسد رسوله ، وإن كان بحق ، سيد الشهداء ، ، وعسى أن يتخذ المجاهدون والمكافحون في سبيل عقيدتهم وحرياتهم من هذه السيرة العطرة ، أسوة حسنة يتأسون بها في حياة الكفاح والجهاد ، وأن يستفيئوا بها في شق طريق الظفر والنصر ، وحب الاستشهاد في سبيل الحق والمثل العليا ، لكي يكتبوا في سجل الخالدين .

محمد محمد أبو شهبة
المدرس بكلية أصول الدين

موقف الإسلام من الشيوعية والرأسمالية

حديث لفضيلة الأستاذ الأكبر

كتب مندوب « الأهرام » الخاص يقول :

كانت جلسة هادئة طيبة ، تلك التى جلستها مع فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، فى حفلة خاصة كان الشيخ الأكبر فيها ملتقى الأنظار ، وموضع التقدير ، وكان كل واحد يحب أن يستأثر به ليقف على جلية حكم من أحكام الشريعة فى موضوع معين ، وقد رأيت أن أنتهز هذه الفرصة الطيبة لأتبين موقف الإسلام من « الشيوعية » ، وحكمه على الرأسماليين ، ونظرته إلى الفقراء بين هذه وتلك ، وقد حدثت لفضيلته أن آثر « الأهرام » بعنايته فأجابنى إلى طلبتى وتحدث إلى بقوله :

من مظاهر الكمال فى دين الإسلام وأحكامه ، أنه لم يعارض الفطرة الإنسانية فى طبيعة من طبائعها ، وحتى ما كان فيه انحراف أو مظنة زلل من هذه الطبائع الإنسانية ، فإن الإسلام اكتفى بتعديله وتوجيهه وجهة خير ، مع إقراره أصل الفطرة ، ومحاولة تهذيبها وإصلاحها . ولما كان مبدأ « التملك الشخصى » من مقتضى الفطرة ، فإن الإسلام اعترف به وأقره ، لكنه جنح فيه إلى الاعتدال ، كدأب الإسلام فى الأمور كلها ، واشترط أن يكون هذا التملك الشخصى بالأساليب المشروعة التى أحلها الله . ثم رتب عليه تكاليف شرعية ، هى نصيب الجماعة من أموال أصحاب الأموال ، كما حث أهل الغنى على الأخذ بأيدى أهل الفاقة ، حتى لا يكون فى المجتمع الإسلامى إلا المحبة والتراحم والتعاون ، على البر والتقوى .

وكما أقر الإسلام مبدأ التملك الشخصى وجنح فيه إلى الاعتدال ، ونظمه تنظيماً يسعد به المجتمع ، كذلك أقر مبدأ آخر من مبادىء الفطرة ، وهو تفاوت الناس فى مواهبهم ومداركهم ومقدرتهم على الكسب لأنفسهم وعلى النفع للمجتمع ، فهذا التفاوت موجود فى كل زمان ومكان لأنه من فطرة البشر ، ويترتب عليه التفاوت والتفاضل فى المعايش ، لكن الإسلام مع إقراره هذا الأمر الفطرى ، شرع الأحكام لتعديل آثاره والتقريب بين طبقات الناس ،

وأوجد لهم مراتب أخرى يكتسبونها من فضائلهم الأدبية والخلقية ، وجعل لذلك قيمة رفيعة فى المجتمع الإسلامى ، بحيث يغبط أهل الدرجات العليا فى المال إخوانهم من أهل الدرجات العليا فى الأخلاق والفضائل ، بحسب ما سنه الإسلام لأهله فى المجتمع الإسلامى .

ومن أعظم ما اتخذه الإسلام ، لحماية الفقراء من استغلال الرأسماليين وأصحاب الأموال تحريمه للربا وقطعه لدابر المرابات فى المجتمع الإسلامى . وهذه الحماية ، لا نظن أن أمة من أمم الأرض — حتى ولا المحكومة بالشيوعية — تمتعت بمثلها فى نظام غير نظام الإسلام .

وتزعم الشيوعية أنها نزعت عوامل الاستغلال ، ووسائل استعمال الثروة من أيدى الأفراد ، لحرمت عليهم امتلاكها ودفعت بها إلى الجماعة . والذى يتأمل فى الواقع ، يرى أن ما زعموا أنهم فوضوا أمره إلى الجماعة فى وسائل الإنتاج وتوزيع المنتجات والمصنوعات ، إنما تولته فى النظام الشيوعى هيئة قليلة العدد من الرجال المنظمين ، فبعد أن كان هذا التملك خفيف الوطأة بما هو معرض له من المنافسة وتعدد المالكين ، أصبح فى النظام الشيوعى منحصراً فى إدارة واحدة ، يقوم عليها نفر قليل ، يتمتعون الآن بمعايش وقصور لا تقل فخامة وسرفا وغطرسة واستعدادا عما كان فى قصور القياصرة ، بينما الجماعة كلها مجندة فى السلم والحرب لتقضى حياة مملة على وتيرة واحدة لا تزيد عن حياة العمال فى البلاد الأخرى ، غير أن العمال يملكون فى البلاد الأخرى أمرهم ويستقلون بإرادتهم وتصرفاتهم ، فينتقل أحدهم من مصنع إلى مصنع إذا أراد . أما جمهور الأمة فى النظام الشيوعى ، فمسلوب الإرادة ، ولا يملك حق الانتقال من مصنع إلى مصنع ، لأن المصانع كلها لا تتمتع بمزية التنافس ما دامت إدارتها فى يد واحدة ، تتصرف فى جميع العمال كما تتصرف فى المواد الخام . وبذلك تحول أغنياء البلاد المحكومة بالنظام الرأسمالى ، إلى رجل واحد فى النظام الشيوعى ، يتصرف بلا منافس فى كل ما فى البلاد من بشر وشجر وحجر ، كما تحول إقطاعيو البلاد الأخرى إلى إقطاعى واحد فى النظام الشيوعى ، فأضحى رعاياه محجوزين وراء ستار حديدى ، لا يدخل عليهم أحد ولا يتمكن من الانفصال عنه أحد .

هذا فى أمور العيش وحرية التملك ، وأما فى أمور الدين وحرية التدين ، فإذا كان أهل الديانات الأخرى يشكون من اضطهاد الشيوعيين لهم فى كنائسهم والسيطرة على عباداتهم ، فإن المسلمين يزيدون على ذلك أن دينهم لا يقتصر على أنه دين عبادة ومسجد ، بل إن نظامه

المالى والاجتماعى هو من صميم الدين ، وحرمان المسلم من حريته فى نظامه المالى والاجتماعى ، يعد حرماناً له من عناصر مهمة هى أيضاً من كيان الدين ، وهى خير لكل مسلم من أى نظام آخر ولاسيما النظام الشيوعى ، الذى يضطهد كل الأنظمة المخالفة له ، ونظام الإسلام فى طليعة الأنظمة المخالفة له من كل وجه .

وإن الإسلام فى اعتداله وكونه من الأصل لم تشرع أحكامه لمصلحة أى طائفة من من الطوائف دون غيرها ، ولا أى طبقة من الطبقات دون غيرها ، بل إن الله شرعها لجميع بنى الإنسان ، بتعديل طبائعهم وتهذيب فطرتهم بعد إقرارها والاعتراف بها ، وبذلك جمع التشريع الإسلامى فى نظامه الاجتماعى والمالى ، جميع الحسنات والمزايا التى توجد فى كل نظام آخر ، وجرده من جميع العيوب التى توجد فى أى نظام آخر . وكان من أعظم ما أسىء به إلى الإسلام ، إطلاق يد الأقوياء فى معايش الضعفاء ، حتى تجاوزا حدود الاعتدال الإسلامى فى التملك والتسلط والأثرة ، بل لم يكتفوا بتجاوز حدود الاعتدال ، حتى خرجوا عن نظام الإسلام ، إلى ما حرمه من الاستغلال المحرم والبغى المنظم من الأقوياء على الضعفاء ، فانتهز دعاة الشيوعية والمذاهب الباطلة هذه الحالة الشاذة ، التى كانت سائدة فى بعض بلاد المسلمين فاحتجوا بها عند قليلى العلم بمزايا دينهم من عوام المسلمين ، أو المتعلمين تعلما أجنبياً ، ومن هنا أصيب بعض أبناء هذه الملة بهذه النزعات التى ازلقت بها أقدامهم عن طريق الإسلام ، فامتلأت بهم السجون ، وراح أهلهم وذووهم سادرين فى أحزان مؤلمة بسبب هذا الضلال الاجتماعى والجهل بدين الإسلام .

أما وقد منّ الله الآن بهذه النهضة التى أخذت فى القضاء على أسباب البغى والأثرة والاستغلال وانتزاعها من جذورها ، فقد زال ما كان يحتج به دعاة الأنظمة الباطلة والمنافية للإسلام ، وانفتح الطريق واسعاً أمام المستنيرين من شباب المسلمين ، ليبثوا فى الوعى القومى أن الإسلام باعتداله وعدالته ورحمته وتعاونه ومواساته للجميع ، هو أكمل أنظمة الدنيا فى إسعاد الإنسانية ، لأن النظام الإسلامى أقر المبادىء المقررة فى فطرة الإنسان ، ثم هذب ميولها وعدل اعوجاجها ، وأحسن توجيهها إلى الحق والخير .

وإلى هنا شعرت أن الشيخ الأكبر قد وفى هذا الموضوع حق توفيته ، فشكرته على عنايته واستأذنته على نشره فأذن مشكوراً .

ثورة الإسلام
على الفوارق الجاهلية

درج الناس من قديم على أن يقيموا موازين، ويضعوا فروقاً تكون أساس التمايز بينهم، ومعيار المفاضلة والترجيح عندهم، وسمات تحدد أماكنهم فى بيئاتهم ومواضعهم من مجتمعاتهم. ولهذا يختلفون ويتباينون، فهذا سيد وذاك مسود، وهذا شريف وذاك حقير، وهذا له الفضل والصدارة، حتى تجب طاعته وتلبى إشارته، وذاك له الضعف والتخلف حتى لا تحترم إرادته ولا تستجاب رغبته.

طبيعة تأصلت فيهم، وسجية تمكنت منهم، فأثرت فى حياتهم وأقدارهم وموازينهم أثراً ليس بالقليل. لكنهم يختلفون فى هذه المقاييس اختلافاً يرجع إلى طبائعهم واتجاهاتهم، وما يؤثرون من المعانى، أو يفضلون من مظاهر الحياة وألوان الجاه. فبعض الناس يروعه ويفتنه لون الخلقة البشرية والسحنة الآدمية فيفضل الأبيض على الأسود، أو يؤثر الأحمر على الأصفر، مدفوعاً إلى ذلك، وإن لم يشعر، بالشهوة الحيوانية والنزوة الطاغية والعصبية الجنسية، التى تفسد الحكم وتسيء التقدير وتعكس موازين الاختيار والترجيح.

وبعض الناس لا يستهدفون فى أحكامهم إلا الجاه والحسب والنسب فيحكمون بالفضل ويدينون بالطاعة، لمن يزعمون له حسباً وجاهاً ويتوهمون له نسباً وطهراً. يورطهم فى هذا ما ألفوه من صغار وذلة، وما تشأروا فيه من هوان واستخذاء.

وغير هؤلاء يوقرون الغنى المكثر، ويعظمون ذا المال الموسر، وإن طغى وبغى وملك الشح عليه أقطار نفسه، وشل منه عاطفة البر والمرحمة.

وطبعى أن تختلف الموازين وتضطرب القيم وتضل العقول، ما دام رائدها الهوى وانفعال النفس، وما دام العامل الذى يوجه الناس إلى هذه الأحكام هو العصبية الجاهلة

والاندفاع الأحمق والاعتداد على مظاهر لا يرضاها عقل سليم ، ولا تقرها فطرة صحيحة ، ولا يسندها دين إلهي كريم .

ولو ترك الناس لما تضطرم به الأهواء ، وتنزع إليه الشهوات ، لما أظلهم سلام ولا أسعدهم أمن ، ولا سرى فيهم روح من الإخاء والتراحم .

ولكن الله الذى جعل المسلمين خير أمة أخرجت للناس ، ورضى لهم الإسلام ديناً والقرآن شريعة ومنهاجا ، لم يدعهم يتيهون فى هذا الضلال كما تاهت أمم ، ويخبطون فى تلك الظلمات كما خبطت شعوب ، ضلت هداها وتبعت هواها وتحكمت منها عصبية الجنس أو صولة المال أو نزعة الجاه الزائف المكذوب ، بل إن الله تعالى بين للمسلمين فى وضوح وقوة وصراحة ، الحدود الواضحة والمعالم الصريحة والمميزات الحقة التى تستبين بها الخصائص وتتميز القيم والأقدار ، وحارب مع ذلك المظاهر الخادعة التى يتوهمها الجاهلون مقاييس للفضل ، وموازين للتقديم والرجحان .

حارب الإسلام فوارق اللون والجنس أشد حرب ، لأنها تبيد الأمم وتهلك الشعوب ، وتدمر الأنظمة وتزرع الأحقاد فى النفوس ، وتغرس الأضغان فى القلوب ، وتجعل المجتمع يعيش فى أتون مستمر من التفكك والانحلال ، ولأنها النزعة الآثمة التى تدعو إلى سيادة جماعة لجماعة وسيطرة فريق على فريق . ونبه الناس إلى أنهم من أصل واحد ، لا يتفاضلون إلا بالتقوى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وأوحى إلى أتباعه أنهم إخوة يوجب عليهم الإخاء أن يعيشوا متساوين ، ويدعوهم إلى العدل ورعاية الحقوق : « إنما المؤمنون إخوة » .

فمجال التفاضل الحق والترجيح الصحيح فى نظر الإسلام ، هو التقوى والعمل الصالح ، ولقد خطب رسول الله ﷺ فقال : « أيها الناس إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » . وقال صلوات الله عليه لأبى ذر ، حين تلاحى مع آخر وقال له يا ابن السوداء : « يا أبا ذر ، أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية »

ذلك أصل كريم من أصول الاجتماع تعتمد عليه سعادة البشر، وتقوم على دعائمه سيادة الأمم، فالكل في شرعة الحياة وتحت لواء القانون سواء.

أما ما تورط فيه أمم ضلت القصد وغشي على أبصارها وبصائرها، فأقامت حواجز سميكة بين الملونين، حتى شب ذلك الصراع العنيف في أفريقيا من أجل ذلك، فهو نسيان لحكم العقل ومجافاة لأبسط قواعد الإنسانية.

ما أعجب أمر هؤلاء الذين يزعمون أنهم أرباب المدنية وحماة الحرية، ثم تتملكهم النزوات الطائشة والعصبيات الممقوتة والمقاييس الظالمة الطاغية، فيجعلون للأبيض ما لا يباح للأسود، كأنما الطينة غير الطينة، والصانع غير الصانع. وتنشب من أجل ذلك الثورات الطاحنة وتسيل الدماء، فتخضب الأرض وتحيل جمالها إلى قبح مخيف. ومع ذلك يظل أولئك الطغاة البغاة سادرين في عدوانهم ممعنين في ظلمهم الوحشي.

لينظر من أعشت المدنية الخادعة عينه، وليعرف من عميت عليهم الأمور، أن الإسلام قرر حقوق الإنسان منذ أربعة عشر قرناً، فقدس إنسانيته وكرم بشريته ولم يجعل فيه عبودية إلا لله الذي خلقه في أحسن تقويم. فهل من معتبر وهل من مدكر؟

لم يجعل الإسلام كذلك، للأنساب قيمة في أوضاع الناس وميزان أقدارهم، فقيمة المرء عنده بما يقدمه لأمته من الخير، وما يتقرب به إلى ربه من العمل الصالح، والرسول الأكرم ﷺ كان يقول: « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ». وكان يقول: « يا فاطمة بنت محمد، لا أغني عنك من الله شيئاً ». وهو الذي يدعو الناس دعوة قوية حازمة إلى العمل بهذا الأثر الكريم: « لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأحسابكم ».

بهذه التعاليم الكريمة والمبادىء القوية، قامت الدولة الإسلامية القوية، لا يظلم أحد أحداً، ولا يبغي إنسان على إنسان، فسعد الناس وعاشوا حيناً من الدهر كراماً أعزة. فلما نسوا تعاليم دينهم ورسالة نبيهم، ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، وسلط عليهم أعداءهم، ففرقوهم شيعاً وأحزاباً ومزقوهم طوائف وجماعات كلما دخلت أمة لعنت أختها.

هذا عمر بن الخطاب يجيئه رجل من أهل مصر فيقول: يا أمير المؤمنين سابقت ولداً لعمرو بن العاص فسبقته فضربني، وقال أنا ابن الأكرمين. فاستدعى عمراً وولده فلما مثلا بين يديه أعطى الدرة المصري، وقال له اضرب ابن الأكرمين كما ضربك. فلما فعل قال له

ضع الدرة على صلعة عمرو فإنما ضربك بسلطانه . ثم التفت إلى عمرو وقال له : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً .

فهل شفع لولد عمرو فى دولة الإسلام نسبه أو أعفاه من العقوبة جاهه ؟ كلا .

وطلب سهيل بن عمرو وأبو سفيان بن حرب ورهط من سادة العرب لقاء عمر بن الخطاب ، وطلبه معهم بلال وصهيب ، فأذن لهما أولا ، فغضب أبو سفيان وأخذته العزة وقال لأصحابه : لم أر كاليوم قط ، يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه ! فقال سهيل : أيها القوم ، إنى أرى والله الذى فى وجوهكم ، إن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم . دعى القوم إلى الإسلام ودعيتم ، فأسرعوا وأبطأتم . فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم . وهكذا انتصر الإسلام ورجال الإسلام لهؤلاء الذين يقال لهم عبيد ، وفضلوهم على من يزعمون أنفسهم وجوه القوم ورؤساء الحى .

أما المال الذى جن به الناس جنوناً ، وفتنوا به فتوناً ، والذى أصمهم وأعمى عن الحق عيونهم ، وأظلم بصائرهم ، فلم يجعل له الإسلام أثراً فى قيمة المرء ، ما لم يكن عوناً على غوث ملهوف ، أو عون مكروب أو فك عان أو البر بمحتاج .

والقرآن الكريم يحكى أن قارون قد وهبه الله من الكنوز ، ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، فلما لم يبتغ فيما آتاه الله الدار الآخرة ، ولما لم يحسن كما أحسن الله إليه ، عاجله الله بالعذاب وأغرقه فى النكال : « فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » .

وهذا عمر بن عبد العزيز بلغه أن ولداً له اشترى خاتماً بألف درهم ، فكتب إليه يقول : « إذا أتاك كتابى هذا فبع الخاتم وأشبع به ألف بطن ، واشتر خاتماً بدرهمين ، واجعل فصه حديداً صينياً ، واكتب عليه : رحم الله امرأ عرف قدره » .

هذه ثورة الإسلام على الأوضاع الظالمة ، وموازينه القوية للحياة الحرة الكريمة .

نسأل الله أن يوفقنا للعمل بهديه ، والسير على نهجه .

عبد الحميد المسلوت
المدرس فى كلية اللغة العربية

الإيمان يصنع المعجزات

لقد صنع إيمان أبناء الصحراء في فجر الإسلام معجزات ما زالت تهز روعتها عروش الشرق والغرب ، وما زال المسلمون يجثون أمام صورها خاشعين تنتفض مشاعرهم وترتعش أحاسيسهم من رهبة ذلك الإيمان الذي انطلق من المدينة شامخاً جباراً لا تقعده لفحات الهجير ، ولا ترده نكب الأعاصير ؛ لقد زلزل ذلك الإيمان الأرض تحت أقدام قريش في بدر فطار صناديدها .

طاروا وظنوا متون الجرد تحميهم فلا تطير كساق الهارب الجرد

ثم دخل مكة بعد عشرة أعوام اغترب فيها عن مهده الأول دخلها قويا يحطم اللات والعزى على مرأى من عباد اللات والعزى . وأنّى لهم حمايتها من تلك القوة العارمة : قوة الحق ، وقوة الإيمان بذلك الحق ؟

هذا هو الإيمان الذي صرع مسيلمة الكذاب وهو في منعة من حراب قومه لم تثبت ساعة أمام حرارة الإيمان التي تسلقت عليهم أسوارهم ، وملأت بالرعب قلوبهم ، فخروا مستسلمين ، وخر دونهم صلف العناد .

هذا هو الإيمان الذي صنع المعجزة في موقعة الجسر التي كانت بين العرب والفرس حينما نفرت خيول المسلمين من الفيلة فترجل أبو عبيد بن مسعود وتقدم وفي يده رمح وفي قلبه إيمان يضطرم ويدفعه لصراع الفيل الذي احتمت وراءه جيوش الفرس وطعنه بالرمح في عينه طعنة أطارتها فضربه الفيل ضربة صرعته ، وقد شتت أبو عبيد بطعنته عزم الفيل فجال المسلمون بعده بسيوفهم ورماحهم في صفوف الفرس حتى كتب الله لهم النصر .

وذلك الإيمان هو الذي حمله المغيرة بن شعبة رسول المجاهدين المسلمين إلى ذي الجناحين أحد ملوك فارس حينما تقدم بين يديه وفي يده رمح يدك به البسط فيخرقها ثم قال للملك : إنا معشر العرب كنا أذلة يطؤنا الناس ولا نطؤهم ، ثم إن الله بعث منا نبياً في شرف منا

وعدنا أنا سنملك ما ها هنا ونغلب عليه ، وإنى أرى ها هنا هيئة وبزة ما من خلق يتاركها حتى يصيبوها أو يموتوا .

وقد صدق الله وفتح على المسلمين ذلك الملك الواسع فبات إيوان كسرى مصلى لسعد ولجيش سعد ، ورتت فى أبهائه آيات القرآن فمحت صدى عزف القيان وامتلأت جوانبه بالراكعين الساجدين بعد أن غصت أحيانا بالمختالين الجبارين ، وقد ملك العرب بإيمانهم وحده بلاد الروم وزلزلوا عروشهم وقوضوا ملكهم . فأين من المسلمين اليوم ذلك الإيمان الغازى الذى حمله الرعيل الأول فعنا له كل جبار عنيد وانحنت أمامه هامات الأكاسرة وتطامنت عنده تيجان القياصرة ؟ أينه ليصنع نفوسا جديدة تصقلها حرارته وتثقفها قوته ، ثم تخرج إلى الوجود شامخة تصنع ما صنع الأوائل ، وتبنى للإسلام كما بنى المكافحون الصابرون ؟ ليس الإيمان حديثا يذيعه اللسان أو خطبة منمقة أو قصيدة منسقة أو ألفاظا مصقولة أو أساليب معسولة .

ليس هذا هو الإيمان الذى فتح به المسلمون البلاد وخفقت فى ظله البنود فوق الصين والهند وبلاد الفرس وبلاد الروم ، واجتازبه طارق بحر الروم إلى الأندلس .

نريد إيمانا لا كإيمان المنافقين الذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم .

نريد إيمانا لا كإيمان العجائز اللواتى أسلمهن الكبر إلى المحاريب يتبتلن بين يديها .

نريد إيمانا لا كالسراب يلمع حتى إذا حزبت الشدة لم نجده شيئا .

نريد إيمانا صارخا يغلى فى كل قطرة من دمنا بحقنا فى الحياة ، وبسيادتنا لأنفسنا .

نريد إيمانا برسالتنا فى هـــذا الوجود كمسلمين من حقهم أن يعيشوا ، بل من حقهم أن يتزعموا ، وأن يقودوا وأن يسودوا .

نريد إيمانا عميقا بمجدنا الذى كان ، وبحقنا أن نعيده .

نريد إيمانا نصارع به ما صنع العلم من مدمرات ، ونرهب به الأجنة فى بطون الأمهات

ليس الإيمان وليد العلم والثقافة والبحث ، وليس الإيمان وقفا على المعاهد والجامعات ، بل رب جاهل يصنع إيمانه من المعجزات ما يعيى قادة الأمم وزعماءها .

أيها المسلمون :

عودوا إلى قلوبكم فنقبوا لعل ومضة من الإيمان تعيش بين جوانبها فألهبوها لتصنع على ضوئها المعجزات .

أيها المسلمون : أنتم الآن مئات الملايين ، ولكنكم مستضعفون فى مشارق الأرض ومغاربها ، لأنكم تعيشون بغير إيمان .

أيها المسلمون : إنكم تحبون الحياة ولن يجتمع حب الحياة والإيمان الذى يرخص الحياة.

أيها المسلمون : إن القرآن وهو المصنع الأول للإيمان تجرى على اللسان آياته ، فلا تجاوبها من القلب الخفقات . وهذا هو المصنع الذى صنع فيه المسلم الأول قلبا تتهاوى عنده الأهوال وتتقاعس عن إدراك عزائمه الخيال .

إن القرآن لن يفشل أبدا فى خلق النفوس القوية لو أنها عاشت له وتقدمت صادقة إليه . فلنمش بأرواحنا فى روحانيته لعلها تخلق من ضعفنا قوة ، ومن شبابنا فتوة ، ومن شعوبنا المشتتة أمة واحدة يحب الله أن يراها خير أمة تستعذب الكفاح فى سبيل فكرتها وعقيدتها وتستهين بالموت لتشترى للإسلام الحياة .

محمد خليفة

المدرس فى الأزهر

فى يوم أحد

قال الشاعر الصحابى كعب بن مالك أحد بنى سلمة من الأنصار يذكر يصف موقف المسلمين فى يوم أحد :

جئنا إلى موج من البحر وسطه ... أحابيش ، منهم حاسر ومقنع
ثلاثة آلاف ، ونحن نصية [1] ... ثلاث مئين إن كثرنا وأربع
فراحوا سراعاً موجفين كأنهم ... جهام هراقت ماءه الريح مقلع
ورحنا وأخرانا بطاء ، كأننا ... أسود على لحم ببيشة ظلع

---

(١) النصية : الخيار والأشراف .

بين الفلسفة وعلم الكلام
عند المسلمين

— ٢ —

لقد انتهينا فى مقالنا الأول إلى أن الرسول عليه الصلاة والسلام وخلفاءه من بعده إلى زمن فتنة عثمان رضى الله عنه، كانوا يهتمون من أمر دينهم بشيئين: هما إصلاح القلب بالإيمان الصادق والاعتقاد الصحيح، وإصلاح النفس بالعمل، والأول وهو الإيمان الذى وصفناه هو الأصل للثانى أى العمل، فإن الإيمان الذى لا يحمل صاحبه على العمل بما آمن به لا يعول عليه، ولا يؤبه له، ولا يسمى إيماناً، وإن كنا سنرى بعد اختلاط العناصر الدخيلة على الإسلام والمسلمين بالمؤمنين المخلصين أن كلمة الإيمان قد تناقصت حتى أصبحت كالشجرة العقيم التى لا ثمر لها، ولا فائدة ترجى من ورائها.

لقد حدد القرآن الكريم فى أول سورة البقرة « المتقين » بأنهم الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله، وبأنهم الذين يؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ وبما أنزل على من قبله من الرسل السابقين، وبأنهم الذين يوقنون بالآخرة. هؤلاء هم أهل الهدى من المؤمنين، وهم أهل الفلاح [١].

ثم بين فى موضع آخر أن المؤمنين هم الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، وأنهم يتوكلون على ربهم، وأنهم الذين يقيمون الصلاة، وينفقون مما رزقهم الله وأن هؤلاء هم المؤمنون حقاً [٢].

فالقرآن بهذا قد جعل الإيمان مركباً من أمرين ـ كما قلنا ـ اعتقاد، وعمل. فإذا انهدم أو انعدم أحد ركنى الإيمان، وهما الاعتقاد القلبى، والعمل الجسمى، فلا يكون إيماناً.

على هذا الدستور القرآنى انقضت حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه ومن تلمذ لأصحابه من بعده.

وقد وقع خلاف فى بعض الحوادث التى لم يكن لها نظير فى عهد الرسول عليه السلام بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى. من هذا اختلاف المسلمين فى موضع دفنه عليه السلام أيكون فى مكة مسقط رأسه، أم فى المدينة مكان هجرته؟ ثم أزال هذا الخلاف بينهم حديث

---

(١) الآيات ٢، ٣، ٤، ٥ من سورة البقرة (٢) الآيات: ٢، ٣، ٤ من سورة الأنفال

رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنبياء يدفنون حيث يموتون ، ثم اختلافهم في الإمامة بين المهاجرين والأنصار ، ثم انتهى بمبايعة عمر رضى الله عنه أبا بكر رضى الله عنه بالخلافة ، ثم اختلافهم في قتال مانعى الزكاة ، فقال قوم بقتالهم ، وقال آخرون بعدم قتالهم ، ولكن حزم سيدنا أبي بكر في قتالهم قضى على هذا الخلاف .

هذا بعض ما وقع للمسلمين من خلاف بعد وفاة الرسول صلوات الله عليه ، ولكن يلاحظ أن خلافهم كان في أمور عملية لم يقع مثلها في عصره عليه السلام ، ثم لم يلبثوا أن هداهم الله إلى الحق فيها وزال الخلاف ، لأن القلوب لم تزل منيرة بنور الإيمان ، مضيئة بضياء النبوة .

وسنرى أنه كلما تقدم بنا الزمن بعيداً عن عهد الرسول انتاب القلوب غيم ، والنفوس رين ، حتى غلظت وأصبحت كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله [1] .

لقد رأينا أنه لم يقع في عهد أبي بكر رضى الله عنه شيء يمس ناحية العقيدة . وكل ماوقع في عصره من خلاف إنما كان على أحداث وقعت من غير أن يسبق لها نظير في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، فإذا عرف أحدهم نصا من كتاب أو سنة يفيد الحكم فيما حدث ، وقفوا عند حد النص ، وإلا اجتهدوا حتى تستريح نفوسهم إلى حكم في الحادث الجديد . ولكن هنا في عهد عمر رضى الله عنه سمعنا من يعصى بالسرقة ويتعلل بقضاء الله ، حيث تذكر بعض كتب الفرق [2] أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أتى له بسارق ، فقال له : لم سرقت ؟ فقال : قضى الله علي . فأمر به فقطعت يده ، ثم ضربه أسواطا . فاعترض عليه البعض في الحد ، حيث زاد في حد السرقة الضرب بالسوط ، فقال عمر رضى الله عنه : القطع للسرقة ، والجلد لما كذب على الله .

هذه واقعة جديدة على المسلمين الأولين ، ولكن يظهر أنها لم تقع ممن أسلم على يدي رسول الله ﷺ ، وإنما وقعت من أخلاط الأمم ودخلائها على المسلمين الذين لم يتدبروا القرآن ، ولم تخالط حلاوته قلوبهم ، ولم تستنر به نفوسهم . وقد يكونون من أصحاب دين قديم قد أثيرت حوله مثل هذه الشكوك في القضاء والقدر ، والتعلل به في فعل المعاصي ، كما يفعله ضعفاء الإيمان في زماننا ، أو الذين يجهلون حقيقة هذا الأمر . فإن أغلب الناس

---

(١) الآية ٧٤ من سورة البقرة (٢) المنية والأمل لابن المرتضى ص ٨

وهم الجمهور ، بل وبعض من يدعون العلم يظنون أن القضاء والقدر ملزمان لوقوع الأفعال من الناس ، وهو غير صحيح ، فإن من يعرف معنى القضاء والقدر كما عرفهما العلماء لا يخلط فى الأمر ، ولا يتعلل بهما فى فعل المعاصى .

فالقدر كما عرفه علماء الكلام « خروج الممكنات من العدم إلى الوجود واحداً بعد واحد مطابقا للقضاء » ، وأما القضاء « فهو وجود جميع الموجودات فى اللوح المحفوظ مجتمعة » .

فالفرق بين القضاء والقدر ، أن القضاء فى الأزل ، والقدر فيما لا يزال ، وأيضاً القضاء كما تقدم وجود جميع الموجودات فى اللوح المحفوظ مجتمعة ، والقدر وجودها متفرقة فى الأعيان بعد حصول شرائطها .

ولقد رد القرآن الكريم رداً شافياً على من تعلل من المشركين بأن وقوع الشرك منهم بمشيئة الله قال تعالى « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون (١) » .

ثم قال تعالى فى آية أخرى « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء ، كذلك فعل الذين من قبلهم ، فهل على الرسل إلا البلاغ المبين (٢) » .

هاتان الآيتان قد تعلل بهما المشركون فى فعل ما حرم الله ، وهناك آية أخرى تعلل بها المشركون فى ترك ما أمر الله ، قال تعالى « وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله ، قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ؟ إن أنتم إلا فى ضلال مبين (٣) » .

إن هؤلاء المعاندين من المشركين ، والجهلة من المعاصرين يخلطون بين أمر معلوم لنا ، وأمر مجهول لنا ، أما الأمر المعلوم لنا فهو ما بينه الله سبحانه وتعالى من الشرائع على لسان أنبيائه ، وهو الذى كلفنا سبحانه وتعالى بأداء ما أمرنا به ، وترك ما نهانا عنه ، وأن من أدى ما أمر به ، وترك ما نهى عنه كان من أهل السعادة ، وأن من ترك ما أمر به ، وفعل ما نهى

---

(١) الآية ١٤٨ من سورة الأنعام . (٢) الآية ٣٥ من سورة النحل .
(٣) سورة يس الآية ٤٧

عنه كان من أهل الشقاوة ، وليس فيما كلفنا به سبحانه مشقة ولا عنت « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » . هذا هو الأمر المعلوم لنا ، والمسؤولون عن أدائه ، وأما الأمر المجهول لنا فهو قضاء الله أزلا ، وقدره فيما لا يزال ، ولا شك أن علمنا بما أمر الله به ونهى عنه سابق على علمنا بما قضى الله وقدر ، لأن الأول وهو أمر الله ونهيه علم قبل وقوع الفعل المخالف على لسان الرسل . وأما الثاني وهو القضاء والقدر فلم يعلم إلا بعد وقوع الفعل المنهى عنه ، أو ترك المأمور به ، لكن إذا كان الواقع فى مخالفة الأمر والنهى ممن خصهم الله بعلم من عنده حتى اطلع على اللوح المحفوظ ، وعرف ما قضى الله به عليه ثم نفذ المقضى به عليه فلا كلام لنا معه ، فإن مثل هذا له شأن آخر عند الله .

ومن هنا كان رد سيدنا عمر رضى الله عنه على من اعترض على ضرب السارق بأنه كذب على الله ، حيث إنه لم يعلم بالمقضى عليه من الله قبل وقوع فعل المخالفة ، وإنما الذى يعلمه أن فعل السرقة مخالفة لما نهى الله عنه ، وكذلك كان رد القرآن الكريم على المشركين الذين تعللوا لفعل المحرم بمشيئة الله ، حيث قال تعالى لهم فى الآية الأولى : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » ، أى تكذبون حيث لا يعلم بمشيئته إلا هو تبارك وتعالى ، وفى الآية الثانية رد عليهم بأن الرسل بلغوا بلاغا مبينا ، وهذا ما كلف الله به عباده ، فهو أعلمهم على لسان رسله بالواجب عليهم ، فليس لهم أن يتعللوا بالمجهول وهو المشيئة على ترك المعلوم وهو ما شرع الله . وفى الآية الثالثة سفههم بأنهم فى ضلال مبين حيث يتركون المعلوم ، ويتعلقون بالمجهول وهو مشيئة الله التى لا علم لهم بها ، ولا اطلاع لهم عليها .

وهكذا نرى فى عهد سيدنا عمر رضى الله عنه أن بعض من دخلوا فى الإسلام على جهل أو على نفاق أخذوا يثيرون الشكوك حول عقيدة المسلمين الناصعة البيضاء الخالصة من كل الشبهات ، وهكذا كلما تقدم بنا الزمن بعيدا عن النبع الأول للإسلام ، نرى الشبهات تكثر والخلافات تشتد والجدل يطغى ، وتصبح العقيدة الخالصة مخلوطة بتشويش المشوشين ، وشبهات المضللين ، ولكن من الخير أن ندرس شبههم ، ونعرف حيلهم ، حتى ننقى العقيدة مما علق بها ، وندفع عنها ما أحاط بها . وفى مقال تال إن شاء الله نتحدث عن آثار فتنة سيدنا عثمان فى الآراء ، والفرق التى حدثت فى المسلمين ، وكان لها الأثر العظيم فيما وقع بين المؤمنين .

على مصطفى الغرابى
المدرس فى كلية أصول الدين

ذكريات تهز مشاعر الإنسانية

من بين الذكريات الخالدة على الزمن ، الباقية على مر الأجيال ، التى تهز مشاعر الإنسانية هزاً عميقاً متواصلا : ذكرى هذه الحرب المقدسة التى أعلنها محمد صلوات الله عليه على الفقر ، عدو البشرية اللدود ، وخصمها الجبار ، الذى حارب الإنسان فى حياته وسعادته وأمنه دون تردد أو إشفاق .

والفقر كثيراً ما يكون سببه توزيع الثروة بين الناس ، أو الجهل باستنباط الثروة واستغلالها ، أو جدب الأرض وقلة خيراتها .

ولقد نظر محمد ﷺ إلى مشكلة الفقر باهتمام شديد ، وسعى بنجاح تام إلى القضاء على هذه المشكلة بعقل المشرع وحكمة المصلح وإلهام الرسول ، مع صعوبة التغلب على الفقر فى بيئة كبيئة الصحراء ، وفى مجتمع لا يعرف إلا العصبية والفروق الظالمة بين طبقات الأغنياء والفقراء .

كان الناس ينظرون إلى المال على أنه هو الوسيلة لحياة الرفاهية والترف ، ولاستعباد الفقراء ، وتسخير الضعفاء : فحارب محمد ﷺ هذه الفكرة الخاطئة ، وأعلن أن المال إنما هو سبب لعمل الخير والبر والرحمة والمعروف ومواساة المنكوب وإغاثة الملهوف وإطعام الجائع وكسوة العارى وإسعاد الناس ، ووديعة الله فى أيدى الأغنياء ، ومال الله استخلفهم عليه ؛ وجعل من سنة الإنسان المهذب فى الحياة الإيثار لا الأثرة ، والإعطاء لا الأخذ ، والقناعة والرضا والشكر لا الجشع والطمع والسخط والجحود .

وكان الأغنياء لا يرون فى المال حقوق الله والفقراء والمساكين ، فطالبهم محمد ﷺ بما طالبهم به القرآن الكريم فى قول الله تعالى : « فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون » ، ونهاهم عن البخل والإمساك والشح والتقتير ، فقال صلوات الله عليه : « إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » ، وقال الله تعالى : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ، ومدح المؤمنين الذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ،

وفرض حق الضيف وابن السبيل، وجعل ﷺ البر واجباً، والإحسان فريضة، والصدقة شريعة اجتماعية، والزكاة أمراً محتوماً لمصلحة المجتمع كله. ونظم الوحدة الاجتماعية بين الناس وجعل أساسها الأسرة، وفرض على الرجل حقوقاً يؤديها من ماله لأسرته وأقاربه وأهله، وطالبه بأن يرعى أبناءه حق الرعاية، ويوفر لهم بعمله وجده وسائل الحياة الكريمة. وحث على القناعة والاقتصاد، فقال صلوات الله عليه: «طوبى لمن قنع بالإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به» وقال: «ما عال من اقتصد».

وشرع الله لنبيه الكريم شرائع الزكاة والصدقات، فدعا إليها الرسول ﷺ وحض عليها ونادى بها، وسنّ كذلك تشريعات العمل والإجارة والمزارعة والوصية والهبة والوقف والرهن والوديعة والقرض وعقود الشركات والمضاربة وسواها، لكي تتداول الأيدي المال، ويعمل فيه الفقراء والأغنياء قصداً الربح والكسب الحلال، ومن ثم حرم الإسلام ورسوله الكريم الربا والاحتكار والاستغلال وأكل أموال الناس بالباطل، وقرر محمد ﷺ حرمة المال فقال: «كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه»، ودعا إلى اكتساب الأموال من طرقها المشروعة فقال: «من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار». وعمل على حفظ كرامة الفقراء ففضل صدقة السر، وحض على ترك المنّ والأذى، وكره السؤال وحرّمه عن غير حاجة، وجعل اليد العليا خيراً من اليد السفلى.. وحبس محمد ﷺ الأموال - التي تؤخذ من الفيء، والخراج، والجزية، والغنائم والعشر والركاز وسواها - على مصالح الفقراء، والتمكين لهم في الحياة والمعيشة، وحرر رقيق الأرض من العبودية، وطالب باحترام حقوق الرقيق الذي أسر في حرب مشروعة، وبالعمل على تحريره كما حرر العامل والخادم والمرأة من القيود والأغلال.

ودعا إلى توزيع الثروة توزيعاً عادلا بإخائه بين الأنصار والمهاجرين، وبما فرض من حقوق مشروعة للفقراء في أموال الأغنياء، وبدعوته إلى العمل وحضه عليه حتى يأخذ الفقير حظه الكامل في الحياة مع مرور الأيام، وبتقسيمه العادل للميراث بين أولي الأرحام وبغير ذلك من أسباب التمكين للفقير والمسكين والمحروم، ونهى عن كنز المال دون أداء حقوقه، وكره الاستكثار منه والتكالب على جمعه، حتى قال رسول الله ﷺ لبلال: «الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا».

وحث على الجود والبذل والسخاء ، وكان ﷺ كما وصفه على : أجود الناس كفا ، وكما وصف فى حديث البخارى ، فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة ، وتقول عائشة رضى الله عنها : ما شبع رسول الله ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ولو شئنا لشبعنا ، ولكننا كنا نؤثر على أنفسنا . . . ودعا الناس إلى التعاون على دفع الضر عن الفقراء فقال : « أيما أهل عرصة أصبح فيهم أمرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى » ونهى عن المحاباة فى كل شىء حتى فى اختيار الموظف ، فقال صلوات الله عليه : « من ولى من أمر المسلمين شيئا فأمر عليهم أحداً بمحاباة فعليه لعنة الله ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله النار » ، كما نهى عن الخيانة فى الأمـــوال العامة فقال : « من استعملناه على عمل ورزقناه فما أخذ بعد ذلك فهو غلول ، أى خيانة به » .

ولقد حبب محمد ﷺ الناس فى الكسب الحلال المشروع ، ودعاهم إلى استنباط المجهول من وسائل الثروات ، وقال لهم : أنتم أعلم بشئون دنياكم . . وجعل بيت المال فى خدمة الناس والفقير ، من بينهم خاصة ، ولم يكن لرسول الله بيت مال يضع فيه الأموال وإنما كان يضعها فى بيته وبيوت أصحابه ، وكان الزبير بن العوام وجهيم بن الصلت يكتبان له أموال الصدقات ، ومعيقب بن أبى فاطمة وكعب بن عمر يكتبان المغانم ، وكان حذيفة ابن اليمان يكتب لرسول الله ﷺ خرص تمر الحجاز . وكان يتخير ولاته وعماله ويقتصد فى رزقهم ، فاستعمل عتاب بن أسيد الأموى والياً على مكة وجعل رزقه كل يوم درهما ؛ وصالح صلوات الله عليه أهل فدك على نصف ثمارهم وصرفها على الفقراء . وكان بعمله الشريف ودعوته الكريمة يقوى بذور الرحمة والخير والتعاون والمودة والإخاء بين الناس حتى يستطيع المسلمون التغلب على آثار الجدب الذى كان غالباً على جزيرة العرب .

وقد دعا ﷺ إلى اصطناع الأيادى عند الفقراء ، يقول : « أكثروا من معرفة الفقراء ، واتخذوا عندهم الأيادى ، فإن لهم دولة ؛ قالوا : يا رسول الله ، وما دولتهم ؟ قال : إذا كان يوم القيامة قيل لهم : انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوباً ، فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة، وجعل الرسول الأكرم فى كل معروف وكل عمل صدقة فقال : « كل معروف صدقة ، وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له به صدقة ، وما وقى به الرجل عرضه فهو له صدقة ، والدالُّ على الخير كفاعله ، والله يحب إغاثة اللهفان » ؛ ورفع من منزلة الفقراء ولم يجعل المال أساساً للحكم على الأشخاص .

ولقد قرر محمد صلوات الله عليه حقوق الإنسان كاملة غير منقوصة ، وحارب الرق والاستبداد والاستغلال والفوارق الاجتماعية الظالمة بين الناس ، ورفع من الفقراء والمستضعفين ذوى الكفايات والمواهب حتى بلغوا أعلى المنازل فى الدولة الإسلامية ، مما قلب الأوضاع فى توزيع الثروات بين الناس وإنصاف الفقراء ، وفتح باب الأمل الواسع على مصراعيه أمامهم يدخلونه بقوة وعزم وكرامة وتفاؤل بالحياة .

وهكذا كان محمد صلوات الله عليه الإنسانية فى أروع صورها ، والمثل الأعلى فى أمجد مظاهره ، والقائد المظفر الذى خاض معركة السلام وانتصر فيها ، والنور الأبدى الخالد الذى هدى الحياة وأخرجها من الخوف والقلق والفوضى ، إلى الأمن والهدوء والاستقرار . وكانت حياته كلها كفاحاً مجيداً فى سبيل الله والحق والمعروف وتقرير حريات الفقراء وكراماتهم ، وكانت جهاداً صادقاً وجهته الخير وإسعاد الناس ، ومن أجل ذلك توّج هذا الجهاد بالنصر ؛ وهزت ذكرياته مشاعر الناس والجماعات والشعوب فى كل مكان وجيل ، ولا تزال هذه الذكريات حديث الدنيا ، ونشيد الحياة ، وفرقان البشرية الظامئة إلى نبع هذا الوحى المقدس والناموس السماوى الحكيم .

لقد استطاع محمد صلوات الله عليه أن يجعل الفقراء والأغنياء إخواناً متحابين متآخين متعاونين ، وأن يقيم فى المجتمع الإسلامى اشتراكية عادلة تؤمن بالمبادىء الروحية والمثل العليا وتجعلها أساساً من أسس الاقتصاد التعاونى الجماعى فى الدولة الإسلامية الناشئة ، واستطاع بما بذره من بذور الخير فى الأرض أن يقضى على الفرقة والخصومة والجريمة والثورة والاضطراب والقلق بين الطبقات ... وكانت ثورة محمد الكبرى من أهدافها تحرير الإنسان من الفقر والعوز والحاجة والخوف ، وكفالة حريته وحقه فى الحياة الهانئة الكريمة وهدم كل الصروح التى أقيمت ظلماً وبهتاناً بأيدى الإقطاعية والإقطاعيين الجائرين .

ولا تزال هذه المبادىء الحية الكريمة ينطق بها كتاب الله وسنة رسوله ، ويقوم عليها تراثنا الروحى الخالد الذى يعد مفخرة من مفاخر البشرية فى نهضتها وتوثبها إلى الكرامة والحرية .

محمد عبد المنعم خفاجى
المدرس فى كلية اللغة العربية



البُذُورة ، الطلْيان ، عامٌ بَرْخ .

١ — يطلق أهل الحجاز فى هذا العصر البُذُورة على صغار الأولاد . وقد سمعت هذا من حجازىّ فى القاهرة ، وحكى لى بعض الحاجّ أنه سمعه من أهل مكة حين حجّ . وقد أثار فضولى هذا الحرف ومنزلته من اللغة العربيّة .

ويلوح للباحث فى بادئ الأمر أن البذورة جمع البَذْر ، وهو أوّل ما يخرج من الزرع والبقل والنبات . فشبّه صغار الذريّة بهذا الذى ينجم من الزرع وينمو حتى يستوى ويؤتى أكله ؟ إذ كان الأولاد ينمون وينتقلون من طور إلى طور حتى يستووا رجالا . والجمع الوارد للبذْر : بُذُور و بِذَار . وإلحاق التاء لصيغة الجمع كثير ؛ كالعمومة والخئولة والفحولة فى جمع العمّ والخال والفحل ؛ وقالوا : الحجارة والبِكارة والفِحالة والعِظامة والجمالة فى جمع الحجَر والبكر والفحل والعظم والجمل . وهذا لتأنيث الجمع كما يؤنّث المفرد ؛ نحو القصعة والشجرة والغُرْفة . وهذا التخريج فيه مقنع ورضىً لمن شاء .

وقد سنح لى تخريج آخر حين وقفت على النص الآتى فى ذيل (١) الأمالى للقالى : « يُدعى عليهم ، فيقال : قطع الله بُذَارتهم . والبُذَارة من البَذْر ، كأنه أراد النسل » وفى اللسان (بذر) : « والبُذَارة : النسل » . وذلك أن يكون البُذورة أصلها البُذَارة تحوّلت إلى البذورة . وتحويل الفُعالة إلى الفُعُولة يجرى فى لسان العامّة ؛ يقولون فى العُمَالة — وهى أجرة العامل — : العُمُولة . يقول أحدهم : إذا قمت لى بكذا فلك عُمولة كذا .

٢ — وذكرنى هذا الحديث بحديث أفضى به إلىّ بعض أصدقائى الذين أدّوا فريضة الحجّ ، قال : مررت مع غلام حجازى على مجزرة ، فقلت له : ما هذا ؟ فقال : هنا تُذبح الطليان . والطُلْيان جمع الطَلِىّ ، وهو الصغير من أولاد الغنم .

---

(١) ص ٦٠ من طبعة دار الكتب .

وهذا المثال والذى قبله يحفزاننا إلى دراسة اللغة الحاليّة لجزيرة العربية وتعرف ما بقى فيها من الفصحى ؛ فقد يكون فى ذلك غناء كبير لدارسى اللغة . فعسى أن ينشط لهذا بعض الجماعات فينفقوا على من يقوم بهذا الأمر ويضطلع به من العلماء .

٣ — ويحضرنى فى هذا المقام قصة نبأنى بها صديقى الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى . فقد كان فى تونس ـ حماها الله ودفع عنها كيد الأعداء ـ فى رحلة علمية ، وضمه مجلس فيها ، وكان قد اتفق كلمة سمعها هناك ، وهى (بَرْخ) يقولونها فى الكثير الموفور . يقولون : السكر برخ عندنا ، فذكر هذه الكلمة وتجارى فيها مع الحاضرين ، ورأى بعضهم أنها تمت بسبب إلى العبرية ، وذكر هو أيضا أن فى موطنه الأصلى ومسقط رأسه ، محلة أبو على ، من أعمال الزقازيق يقال : هذه سنة برخة للسنة يرجى فيها الخصب والخير . ولقد شعرت حين أورد لى الصديق الكريم هذه القصة أن للكلمة « برخ » صلة بمادة البركة فى العربية ، وعمادها كثرة الخير ووفرة ما يشتهى .

ولقد وجدت فى اللغة مؤيداً للاستعمال السابق لكلمة « برخ » و « برخة » فى بلاد المغرب ، وفى قرية « محلة أبو على » . فى اللسان : « يقال : كيف أسعارهم ؟ فيقال : برخ أى رخيص . والتبريخ : التبريك » . وفى القاموس : « البرخ : النماء والزيادة ، والرخيص من الأسعار (عمانية) . وقيل : هى بالعبرانية أو السريانية » . وقد آثرت فى صدر المقال أن أورد العبارة « عام برخ » فأعدل عن « سنة » لما أن السنة توهم الجدب والأزمة . وانظر قوله تعالى : « ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » . وانظر الروض الأنف ١٩٢/١

هِنْدِىّ ، هِنْدَكِىّ

النسبة إلى الهند هندى ، وجمعه هنود ، يقال : رجل هندى ، ورجال هنود ، كزنجى وزنوج ، وقد ورد فى النسبة إلى الهند هندكى ، ويقال فى جمعه الهنادك والهنادكة ، قال أبو طالب فى لاميته [1] .

بنى أمة مجنونة هندكية بنى جمح عبيد قيس بن عاقل

---

(١) انظر سيرة ابن هشام على هامش الروض الأنف ١٧٨/١

وقال كثير عزة :

ومقربة دهم وكمت كأنها ... طماطم يوفون الوفار هنادك

فالهنادك : رجال الهند ، والطماطم جمع الطمطم ، وهو الأعجم لا يفصح .

ويسترعى النظر هذان الوجهان من النسبة ، وبالحرى الوجه الثانى منهما ، وهو الذى فيه الكاف ، إذ كان هذا غير مألوف فى النسبة العربية ، بل هو معهود فى الإضافة والنسبة فى اللغة التركية ، وإن كانت الكاف عندهم مكانها جيم . ولقد سرت هذه النسبة فى كلمات كثيرة فى لسان العامة . ومن هذا التمرجى لمن يقوم بأمر المريض ، وهو منسوب إلى تمر ، وهو النبض ، كما أخبرنى بذلك من يعلم هذا الشأن ، فهو الذى يقوم بجس النبض . ومنه الكفتجى . وهو نسبة إلى كفتة ، وهو فى اللغة الفارسية مصدر معناه تقطيع اللحم . وقد تضاف علامة النسبة هذه إلى كلم عربية ، قالوا : السفرجى فى النسبة إلى السفرة ، وقهوجى فى النسبة إلى القهوة . ومثل هذا كثير غنى عن الإيراد .

ويبدو أن هذا دخل فى لسان الناس الذين يتكلمون بالعربية من قديم ؛ فنى رسالة الغفران ذكر أبى الفرج الزهرجى ، وذلك إذ يقول أبو العلاء : « وأما أبو الفرج الزهرجى فعرفته بالشيخ تقسم أنه للأدب حليف ، وللطبع الخيّر أليف ، وظاهر أنه منسوب إلى الزهر على اصطلاح الأتراك .

وقد كانت مسألة « هندكى » لغرابتها فى العربية موضع بحث عند لغويى العرب .

١ — فيرى ابن جنى أن الكاف فى هندكى ليست زائدة ؛ إذ ليس هذا من موضع زيادتها فى قانون الصرف . فهندكى نسبة إلى هندك لا إلى هند ، وإن لم ينطق بهندك . وهذا كما قالوا : تهامى فى النسب إلى تهامة ، على نية النسب إلى تَهَمٍ أو تُهُمٍ وإن لم ينطق بهما . وعلى هذا فهند وهندك — وإن كان هذا الأخير لا يظهر إلا فى النسب — من مادتين مختلفتين لا من مادة واحدة ؛ إذ كانت الأولى ثلاثية ، والثانية رباعية . وإذ كان معناهما واحداً كان هذا من تداخل الثلاثى والرباعى ، كدمث ودمثر ، وسبط وسبطر . وقد عقد ابن جنى لهذا باباً فى الخصائص . وإنى أسوق إليك كلام ابن جنى فى سر الصناعة (حرف الكاف) : فأما قول كثير .

ومقربة دهم وكمت كأنها ... طماطم يوفون الوفار هنادك

فقال محمد بن حبيب : أراد بالهنادك رجال الهند ، فظاهر هذا القول يقتضي أن تكون الكاف زائدة . ولو قيل : إن الكاف أصل ، وإن هندى وهندكى أصلان بمنزلة سبط وسبطر لكان قولا قوياً ، وهو الصواب . ويقول [1] أبو حيان بعد أن أورد بيت كثير : « تخرجه أصحابنا على أن الكاف ليست زائدة ؛ لأنه لم تثبت فى زيادتها فى موضع من المواضع فيحمل هذا عليه ؛ وإنما هو من باب سبط وسبطر » .

٢ — ويرى [1] أبو حيان أن هذه العلامة اللاحقة (ك) علامة النسب ، وأنها سرت إلى العرب من لسان الحبش ، وقد كان قيّما بهذا اللسان وصنف فيه . وهاك مقالة هذا الحبر الضليع : « والذى أخرجه عليه أن من تكلم بهذا من العرب إن كان تكلم به فإنما سرى إليه من لغة الحبش ؛ لقرب العرب من الحبش ودخول كثير من لغة بعضهم فى لغة بعض . والحبشة إذا نسبت ألحقت آخر ما تنسب إليه كافا مكسورة مشوبة بعدها ياء . يقولون فى النسب إلى قند : قندكى ، وإلى شواء : شوامكى ، وإلى الفرس : الفرسكى . وربما أبدلت الكاف تاء مكسورة ؛ قالوا فى النسب إلى جبر : جبرتى . وقد تكلمت على كيفية نسبة الحبش فى كتابنا المترجم عن هـذه اللغة ، المسمى بجلاء الغبش عن لسان الحبش . وكثيراً ما تتوافق اللغتان لغة العرب ولغة الحبش فى ألفاظ وفى قواعد من التركيب نحوية ؛ كحروف المضارعة وتاء التأنيث وهمزة التعدية » .

وإنا لنحمد لأبى حيان — وهو من جلة النحاة واللغويين ، وكانت وفاته سنة ٧٤٥ هـ — عنايته بغير لغة العرب ، ونزوعه إلى موازنة اللغات . فقد رأيت أن له تأليفاً فى اللغة الحبشية ، وفى ثبت كتبه : « منطق الخرس فى لسان الفرس » و « الإدراك للسان الأتراك » . وهذه النزعة قليلة فى علماء العربية ، وإنما استولت على العلماء الغربيين فى العصر الحديث ، وكان لهذا أجل الآثار وأعظم الجدوى . وما زال الشرقيون متخلفين عنهم فى هذا المضمار ، ولو نهجوا نهجهم لكان لهم من الآثار ما يفوق آثار أولئك الغربيين .

على أن ما ذكره أبو حيان عن لغة الحبش من النسبة بالمقطع (كى) لا يعرف الآن على ما أخبرنى به من اطلع على الكتب المصنفة فى هذا اللسان ؛ وكذلك النسبة بالتاء .

---

(١) أنظر البحر المحيط ٤ / ١٦٣ .

والمعروف أن الجبرتى منسوب إلى الجبرت . وفى مستدرك التاج : « وبقى هنا على المؤلف « جبرت » ، وهو بلد الحبش . وينسب إليه أقوام من العلماء ، ولكن أبا حيان غير ظنين فيما يروى وينقل ، وإن كان المعروف عن هذه العلامة (ى) أو (جى) أنها من سمات النسبة عند الأتراك .

هذا ، وإبدال الياء جيما معروف فى العربية ، فى النسب وفى غير النسب . وذلك لما بين الحرفين من تقارب المخرج ؛ إذ كانا من وسط اللسان . ويقول أبو عمرو بن العلاء [1] : قلت لرجل من بنى حنظلة : ممن أنت ؟ فقال : فقيمجّ . فقلت : من أيهم ؟ قال : مرجّ . أراد : فقيمى ، ومرى . وفقيم قبيلة من العرب ، وكذلك مرة . وقال هميان بن قحافة أحد الرجاز فى وصف الإبل :

تثير بالأيدى عجاجا راهجا يطير عنها الوبر الصهابجا

العجاج : الغبار ، والصهابج أراد : الصهابى من الصهبة وهى من الألوان .

ومن هذا ما يعرف بعجعجة قضاعة ، يحولون الياء جيما مع العين ، يقولون : هذا راعج ، خرج معج ، يريدون : هذا راعى خرج معى . ومن هذا الرجز المشهور :

خالى لقيــط وأبو علج المطعمان اللحم بالعشج

يريد : أبو على ، وبالعشى . ويقول ابن السكيت : بعض العرب إذا شدد الياء جعلها جيما ، ويقول أبو عبيد البكرى فى اللآلى : وبنو تميم يجعلون ياء النسب جيما .

ويبدو لى أن بعض العرب نسب إلى الهند على هذه اللهجة فقال : هندج ، بإبدال الياء جيما ، ثم توهم من جاء بعد أن الجيم من سنخ الكلمة ، فألحقها ياء النسب ، فقال : هندجى . وأبدلت الجيم كافا ؛ لما بينهما من تقارب ، وقد قالوا [2] : مربرتج وبرتك إذا ترجرج ، وأخذه شك فى بطنه وسج : إذا لان بطنه ، وريح سيهوك وسيهوج : شديدة .

محمد على النجار
الأستاذ بكلية اللغة العربية

---

(١) انظر أمالى القالى ٢ / ٧٧ (٢) انظر المزهر ١ / ٢٧٠

العلية في فلسفة هيوم

يقوم مذهب هيوم على الوجدان الخالص ، فالمعرفة عنده مجموعة إدراكات . وتداعي المعاني ، هو القانون الذي ينشيء العلاقات بين المدركات بالتشابه أو بالتقارن في الزمان والمكان أو بالعلية . وعلاقة العلية ذات قيمة كبيرة في العلوم الطبيعية .

ولكن ما مقدار معرفتنا للعلة ؟ أليست هي الحادثة السابقة التي نشاهدها قبل حدوث معلولها ؟ ثم ، أليس من الضروري أن نشاهد الحادثتين معا حتى نحكم بأن إحداهما علة والأخرى معلول ؟

الواقع أن هيوم ينكر العلية سواء أقلنا عنها إنها موجودة كامنة في الأشياء المادية أو النفسانية أو قلنا إنها رابطة ضرورية بين الأشياء أو المظاهر النفسية . فكل ما هنالك — على حد تعبيره — هي حوادث مفككة متفرقة يلي بعضها بعضا ، لا نلاحظ بينها أي رباط أو أي عقدة وإن ظهرت لنا متجاورة .

هذا هو الموقف السلبي القاسي الذي وقفه هيوم من العلية . قد يكون من المفيد في سبيل فهمه أن نعرف ما قاله الفيلسوف مالبرانش قبله وما قاله الفيلسوف كانت بعده . فما هو موقف مالبرانش من العلية ؟ إن ذلك القسيس المتبتل لم يشأ إلا أن يدخل الله في كل شيء ، كما كان التراجيديون اليونان يفعلون حين يقحمون الله في المواقف التي تحرج عليهم . فالله عند مالبرانش هو علة معرفة الأجسام وعلة لمعرفة النفس .

فهذه الأجسام التي نراها بما لها من صفات أولية أو ثانوية ، أو بعبارة أخرى هذا الامتداد ومظاهره ، لا ترتبط أحواله بعضها ببعض ارتباطا ضروريا . وهذه النفس ومكوناتها والجسم المتصل بها ومكوناته ليس فيهما ما يحملنا على أن نعتقد أن الأول علة لحالات الثاني ولا أن الثاني علة لأحوال الأول ، ويؤيدنا في ذلك مبدأ التمييز الديكارتي الذي يقول إنه ليست هناك علة بالمعنى الصحيح لا في الجسم ولا في النفس ولا في صلة النفس بالجسم ، فالذي يوجد إذن هو تتابع ليس إلا لأحوال الجسم وأحوال النفس ، وليس ارتباطا ضروريا بحال

من الأحوال . الله هو العلة الوحيدة لأن القوة صفة قدسية لا يمكن أن تحمل إلا على الله سبحانه وتعالى ، فهى صفة الخالق ذاته فى طبيعته كخالق ، وليس هناك موجود إلا الله سبحانه وتعالى نرى بينه وبين معلوله ارتباطا ضروريا ، فمن المستحيل كما يقول مالبرانش أن تؤثر الموجودات المخلوقة بعضها فى بعض ، سواء أكانت مادية أم روحية .

ولكن ما هى علة حركة جسم معين ؟ يجيبنا مالبرانش بنظريته الجديدة فى العلة وهى نظرية العلل المناسبة فيقول إنه علته الصحيحة الفعالة هى إرادة الله لخلقه وحفظه فى مكان معين بالنسبة إلى أجسام أخرى أو حفظه فى عدة أمكنة مختلفة بالنسبة لأجسام ثابتة ، وأن علته المناسبة هى حركة الأجسام الأخرى التى تتقابل معه ، وقولنا فى كلتا الحالتين صحيح بشرط أن ندرك تماما أن علة الله الفعالة وعلة الجسم المناسبة تسيران وفق قوانين ثابتة رسمها الله ، قوانين بها يوفق الله بين عمل الجسم غير الفعال وعمله الفعال .

هذا هو حل مالبرانش لمشكلة العلية ، حل يشبه إلى حد كبير ما أورده هيوم فى كتابه المسمى Inquiry وإن اختلفت النتيجة المستخلصة عند هذا الأخير عنها عند الأول . فهيوم وإن اعترف بأن مالبرانش قد وصل بنقده إلى أسمى درجة ، إلا أنه ينكر عليه بعد ذلك ولوغه فى عالم خرافى لا يمكن أن يستخلص منه شىء مؤكد ، ويظهر هذا من تسليمه بالقوى التى انتزعها من الأجسام والأشياء الإنسانية ، فهو حين سلم بها ، سلم بها فى كائن أسمى هو مصدر القوى الظاهرة سواء فى الأجسام أو فى الأنفس . وهذا عيب فى نظر هيوم يظهره بوضوح فى إحدى نصوص كتابه ، حين يقول : « إن جميع الحوادث تبدو مفككة متفرقة ، لحادث يلى حادثاً آخراً ، ولكننا لا نلاحظ أبداً أى رباط أو أى عقدة بين هذه الحوادث فهى تظهر متجاورة ولكنها ليست أبداً مرتبطة ، وبما أنه لا يمكن أن يكون لدينا معنى عن شىء لم يظهر أبداً لا للحس الخارجى ولا للشعور الباطنى ، فالنتيجة اللازمة لذلك أنه ليس لدينا أى معنى عن الرابطة أو عن القوة وأن هذه الألفاظ لا معنى لها على الإطلاق كلما استعملت فى الحجج الفلسفية أو فى الحياة الجارية » .

من هذا النص تبين لنا النتيجة القاسية التى يقف عندها هيوم ، وهى إنكار العلية إنكاراً

مطلقاً ، ولكن الواقع غير هذا ، فهيوم لا يصل إلى هذا الحد من الإنكار ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لا يريد أن يقع فيما وقع فيه مالبرانش ، فكيف إذن يفسر موقفه؟

سيعرف الجواب بعد ذكر بعض الأمثلة . إذا رأينا حادثة معينة نتجت عنها حادثة أخرى ، فهل نحكم من أول مرة أن الحادثة الأولى علة والأخرى معلول ؟ إننا مهما أوتينا من سرعة الخاطر ودقة الانتباه فلن نستطيع ذلك ، ولكن إذا ما تجدد الحادث الأول ونشأ عنه دائماً الحادث الآخر فإنه يمكننا أن نسمى الحادث الأول علة والثانى معلولا . فاستنتاجنا العلة والمعلول يأتى بعد تتابع الحادث الأول والتتابع الذى لزمه به الحادث الثانى ، لأننا إذا نظرنا إلى الحوادث ذاتها من الناحية الموضوعية لما وجدنا فارقاً البتة بين الحالة الأولى والأحوال الأخرى ، فكُرة البلياردو مثلا لا تكاد تمس كرة أخرى حتى تبدأ الأخيرة فى الحركة وهذا هو ما يحدث بعينه فى كل مرة لا أزيد ولا أقل ، هذا من الناحية الموضوعية ، ولكن الأمر سيتغير لو نظرنا إلى نفوسنا وما يعتريها من أثر بهذه الحوادث . ويذكر هيوم فى ذلك نصاً يقول فيه : « الحالة الأولى التى رأينا فيها حركة ناتجة من احتكاك كرتى البلياردو مشابهة تماما لأية حالة يمكن أن تقع لنا مرة أخرى إلا فى أننا كنا عاجزين فى الحالة الأولى أن نستنتج حادثاً من حادث آخر ، الأمر الذى أصبحنا قادرين عليه بعد مرحلة طويلة لتجربة ثابتة . فليس لدينا أى معنى عن القوة ، أو أى معنى عن الرابطة الضرورية ، أو أى معنى عن عليّة موضوعية ، وكل ما هنالك هو تغير النظر بعد تكرار الحوادث وفعل هذا التكرار فى نفوسنا » .

فمصدر العلية إذن ، مصدر نفسانى ، وفى هذا يقول هيوم : « ليس هناك بين حالة واحدة وعدة حالات من المفروض أنها جميعاً متشابهة ، أى فارق ، إلا فى أن العقل بعد التكرار يتوقع حين ظهور حادث معين ، وبفعل العادة فقط ، "قرينه" المعتاد . فالرابطة التى نحس أو نشعر بها رابطة عقلية ، والانتقال التعودى للمخيلة من موضوع إلى قرينه المعتاد ، هو الشعور أو الإحساس الذى نشتق منه معنى القوة أو الرابطة الضرورية » فكرة العلية ، مصدرها نفسانى داخلى هو الإيمان بالتوقع ، ومن ذلك نستطيع أن نصل

إلى تعريف العلة عند هيوم وهو « العلة شيء يتبعه شيء آخر وظهوره ينتقل بالعقل إلى هذا الشيء الآخر » .

ليس لمعنى العلة إذن أى أساس الظواهر فى ذاتها أو فى طبيعتها ، فكل ما فى العقل حين يفكر فى مشكلة العلية هو ما ذكره وما ذكره فقط من حدوث ظاهرة أخرى وتوقع الظاهرة الثانية بعد تكرار الأولى ، ففكرة السببية إذن ذاتية محضة وهى خدعة من الخيال الذى يميل إلى فرض رابطة بين الأشياء ، والحوادث ليس لها وجود إلا فى العقل الذى يدركها ، ومن هذه الفكرة توصل هيوم الى القول بأن للعالم الخارجى وهم باطل ، ونزل بمعوله على العالم المادى ، فليس فى الكون إلا أفكار ندركها ومن الخطل أن نفرض وجود مالا نعلم ، وعلى كل حال فهذا مبحث آخر خارج عن موضوعنا .

هذا هو نقد دافيد هيوم للعلية ، إذا نحن قارناه بنقد كانت ، رأينا الأخير يفرض تتاليا بين الظواهر وليس فقط بين تأثراتنا الشخصية بهذه الظواهر ، وأن التتابع فى ظهور الشخصية ليس له أى قيمة موضوعية ، مالم يكن هناك تتال بين الظواهر ، وهذا معناه أن الظواهر تسير على قاعدة أساسية هى « أن حادثا ما يلى آخر ، وأن الحادث الثانى لا يمكن أن يسبق فى الزمن الحادث الأول أو بعبارة أخرى لا يمكن أن يرجع التالى إلى الوارد قبل المقدم » ، فمبدأ العلية عند هيوم — على حد قول كانت — إنما هو تعبير آخر عن القاعدة الأساسية للتفكير التى تعين الزمن كنظام موضوعى بين الحوادث (كقبل وبعد) ، وأن هذا النظام ليس نتيجة لانفعال مخيلتنا ولتداعى الأفكار فيها ، كما تصور هيوم ، بل إن حوادث المخيلة والتميز بين (قبل وبعد) مبنى على القاعدة التى تسلم بضرورة هذا التميز ، أى أن أولية العلية ما هى إلا تعبير آخر عن تعيين الفكر لخاصيات الزمن أو هو عبارة عن رفع طبيعة الزمن إلى مرتبة يمكنه فيها أن يكون أساسا للنظام الداخلى .

وبعد ، فهذا مقال فى نقد العلية عند فيلسوف الإنجليز دافيد هيوم ، لا أحب أن أوضحه أكثر من هذا ، فإنى أخشى ما خشيه هيوم من قبل : « إذا ما أظهرته فى أنوار مختلفة أن يصبح أكثر غموضا وأكثر تعقيدا » .

سعيد زايد

الرئيس يزور الأزهر

أقام سكان حى الأزهر وأصحاب المتاجر فى شارعه العظيم معالم الزينات احتفالا بالرئيس المصلح اللواء محمد نجيب فى زيارته للأزهر يوم ٧ ربيع الأول ١٣٧٢ (٢٥ نوفمبر) وفى منتصف الساعة الحادية عشرة وصل الرئيس فاستقبله فضيلة الأستاذ الأكبر وكبار العلماء وجلسوا حول منصة أقيمت فى صدر الفناء الكبير الذى يقع فى مبنى الأزهر الجديد أمام كلية الشريعة وقاعة الاحتفالات الكبرى بالأزهر ، وقد ركبت إلى جوانبها مكبرات للصوت . وبعد ابتداء الحفل بآى الذكر الحكيم وقف فضيلة الأستاذ الأكبر وخطب قائلا :

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على أفضل المرسلين .

وبعد وقد تفضل الرئيس اللواء محمد نجيب بزيارة أهل العلم وطلابه ، وهم الذين يرجى أن يكون المستقبل بهم مشرقا زاهراً ، وإننا إذ نشكره اليوم فإنما نشكره شكر الأرض الكريمة إلى الغيث النافع ، ونؤكد بهذه الزيارة ما عرفناه فيه من عنايته بدين الإسلام ، وتصريحه بأنه دين النظام . وتحضرنى فى هذه المناسبة قصة موجزة : ذلك أن القاضى أبا يوسف كان جالساً ذات يوم إلى جانب الرشيد ، فدخل يهودى ورفع قضية على الخليفة ، فقام القاضى أبو يوسف من مكانه وقال لليهودى : اجلس إلى جانب خصمك ، وجلس أمامهما وحكم لليهودى على الخليفة ، ثم قال القاضى : إنى لا زلت أستغفر الله من أن خطر بنفسى أن يكون الحق مع الخليفة . وإنى أعود فأشكر الرئيس هذه الزيارة الكريمة ، وأدعو له ولرجال الجيش البواسل ، وأسأل الله له ولهم التوفيق والسداد .

ولما جلس فضيلة الأستاذ الأكبر وقف مندوب الطلبة الأزهريين وألقى كلمة حيا فيها الرئيس باسم الطلاب وختمها بقوله : « إن هذا اليوم ليوم تاريخى عظيم يسجله الأزهريون بمزيد من الفخار والزهو » .

وعلى أثر ذلك قام الرئيس اللواء وألقى كلمة قال فيها :

يا أبناء الأزهر ،

السلام عليكم ورحمة الله .

جئت اليوم لتحية الأزهر ، وأنتم أبناؤه وحملة رسالته وحماة تقاليده ، فأنتم بهذا حملة رسالة الإسلام ، وقادة الأمة إلى الخير ، ومنافذ رحمة الله للعالمين .

وإن الأزهر ملاذ اللغة العربية ، ومعاذ الشريعة الإسلامية ، وواجب كل عربي أن يصون الأزهر ليصون به لغة القرآن . وواجب كل مسلم أن يرفع رايته لترتفع به راية الإسلام .

ولقد كان الأزهر وما زال هو الجامعة الإسلامية العظيمة ، تهفو إليه أرواح المسلمين في كل موطن ، وتتطلع إليه آمالهم من كل مكان ثم يفدون إليه من كل قطر من أقطاره ، ويغترفون من مناهل معارفه وعلومه ، ليرجعوا بعد ذلك إلى بلادهم وأهليهم كما قال الله سبحانه وتعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) .

ولقد وقف الناس أمام الأزهر طائفتين : طائفة ترى فيه موطن أمل ، وموضع رجاء ، فهي تحرص عليه وتعينه على بلوغ غايته . وطائفة أخرى ترى فيه حصناً منيعاً دون غاياتها الاستعمارية ، فهي تكيد له حتى تصرفه عن الهدف السامي الذي أراده الله له . ولكن الأزهر بفضل الله ، وجهود أبنائه ، وغيرة الغيورين من أبناء الوطن العزيز ، سيصل إلى غايته من نشر رسالة الإسلام ، وجمع شمل المسلمين ، وحملهم على أن يتعارفوا ويتآلفوا ويتناصروا حتى يكونوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

وإني ، وأنا أحيي الأزهر الشريف ، لا أحييه تحية الغريب للغريب . فإن الحركة المخلصة التي قام بها الجيش ، ليست إلا معنى من معاني الإصلاح الذي ينشده الإسلام ، والإسلام دين الحرية ودين العدل ، والأزهر هو القائم برسالة الإسلام ، والحفيظ على هذه الرسالة في نفوس المسلمين . ولذلك أشعر وأنا أحيي الأزهر أنني فرد من أفراد الأزهريين ، لأنني فرد من أفراد المسلمين .

إن الإسلام يحب الحرية ويقدسها ، ويكره الذين يختارون الضعف والعبودية ، وأنتم أعلم بقول الله في كتابه العزيز (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا

كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا) .

إن الإسلام يحب العدل ويحرص عليه ويأمر به (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) .

ولقد اكتوينا واكتوت مصر معنا بنار العبودية ونار الظلم ، وكان الملك السابق يكاد يدعى أنه الإله من دون الله . واستباح لنفسه ما حرمته شرائع السماء المقدسة ، فبغى وظلم وانتهك الحرمات وسفك الدماء فى استهتار بالغ بإرادة الشعب ، وخروج آثم على أوامر الله ، ولم يكن بد من أن يوقف الشعب ، ممثلا فى جيشه ، هذا الطغيان ، فقام بحركته التى يرضى عنها الله ورسوله والمؤمنون ، وتؤيدها مبادىء الإسلام الذى يرفع الأزهر رايته ويؤدى رسالته .

والآن وقد ذهب الطاغية إلى غير رجعة ، وتخلصت الأمة من الكابوس الذى كان يجثم على صدرها ، ويكاد يحبس أنفاسها ، نتجه إلى الله جلت قدرته أن يوفقنا جميعاً إلى ما يعلى راية الخير ويثبت دعائم الحق ويأخذ بيد أمتنا إلى الحرية الشاملة والعدالة الكاملة والاستقرار السعيد العزيز .

وأن أمامنا سبلا كثيرة للإصلاح وتوفير أسباب الحياة الماجدة للشعب الكريم ، وإنا لواثقون أننا وأبناء الوطن العزيز يد واحدة ، وإننا بفضل توجيه الأزهر للأمة وإرشاده إياها ، سنستعين بالصبر على عزائم الأمور ، وسنكون كما يوجه القرآن الكريم (والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) .

وكانت هذه الكلمة الجامعة تقابل فى كثير من مواضعها بالهتاف المدوى والتصفيق الشديد .

ثم نهض فضيلة الأستاذ الشيخ سليمان نوار شيخ كلية اللغة العربية وألقى كلمة جامعة حيا فيها الرئيس وبارك عهده الميمون وقال : إن علماء الأزهر على بكرة أبيهم يتساندون فى نصرة هذا العهد لأنه عهد الحرية والكرامة والنور والعرفان .

وعلى أثر ذلك وقف الرئيس ، فتعالى هتاف الطلاب واشتد تصفيقهم ، فحيا العلماء والطلاب ، واستقل سيارته وانصرف بين مظاهر التكريم والإجلال .



مملكة تقلى

— ٢ —

قدمنا فى الجزء الماضى من هذه المجلة لمملكة تقلى، بعرض جغراف وتاريخى عام لهذه المملكة الإسلامية. والآن نواصل الحديث عنها مبتدئين بذكر تاريخ تقلى، قبل أن ينشأ البيت المالك فيها.

يقطن تقلى اليوم شعب مكون من خليط من قبائل كثيرة، ومزيج من الدماء المختلفة. ويرجع ذلك إلى هجرة الكثيرين إليها، بعد أن تأسس فيها البيت المالك، واستقر هؤلاء المهاجرون بتقلى. وتتضح آثار هذه الدماء المختلفة، فى شعب تقلى اليوم.

ومنذ أربعمائة عام، كان سكان الجبال الشمالية الشرقية، عنصراً جنسياً واحداً، يحيا حياة منعزلة فى ثلاث مناطق هى (١) ترمى Tirmi فى أم طلحة، (٢) جبال الكجاكجة، (٣) تقلى نفسها.

وكان هؤلاء القوم وثنيين، يحيون حياة بسيطة بدائية، تحت سلطة زعمائهم الوراثيين، الذين اتخذوا «تيجال آرو، Tegal'arro,» قاعدة لهم، وهى تقع قريبة من قرية «الهوى» الحالية. وكان سكان الجبال الشمالية الشرقية، يعرفون باسم «الممج». وسلالة هؤلاء السكان، موجودة اليوم، فى جبال الكجاكجة، نقية من الدم الغريب. ولقد انقرض هذا العنصر، لدرجة كبيرة، فى سائر جهات تقلى الأخرى، إلا أن دماءهم تسربت إلى معظم سكان هذه الجبال الشمالية الشرقية.

وسكان الكجاكجة يعتنقون الإسلام، ومن المحتمل أن يكونوا قد أسلموا منذ ثلاثمائة عام، إلا أنهم ما زالوا يمارسون كثيراً من عاداتهم القديمة، وإن تكن القرون قد غيرت قليلا من مظاهر حياتهم. وزراعاتهم قليلة، أهمها القمح، يزرعونه فى جبالهم، التى قلما يخاطرون بالابتعاد عنها. ويتكلم قليل من سكان الكجاكجة، العربية، بينما نرى أن سكان تقلى، جميعهم يتكلمون العربية.

وقد عفت الأيام على لغتهم الأصلية تماماً ، وقل أن تجد اليوم متحدثاً بها . وكان « الجندى » يسيطر على قبائل الكجاكجة ، وهو وارث سلطات رؤساء القبائل . ولما تأسس البيت المالك الجعلى ، ظل هذا الجندى يشغل منصبه فى عهدهم . وإذا استثنينا الديانة والملبس ، فإننا نجد أن سكان الكجاكجة اليوم ، فى حياتهم وعاداتهم ، يشابهون أولئك الذين عمروا الجبال الشمالية الشرقية منذ أربعمائة عام . ولقد وجدهم هناك ذلك الرجل الجعلى الفقير ، الذى أسس البيت المالك ، ونسل منه ملوك تقلى . ورواية نسب هؤلاء السكان مشوشة مضطربة ، وإن كانت ذريتهم تعتز بهذه النسبة ، وتحتفظ بها ، فى أغانيها وقصصها . ويمكن أن نتتبع آثارهم فى خرائب منازلهم فى « تيجال آرّو » و « ترى » ، حيث تجد الحصون التى أقاموها لصد المهاجمين . ونستنتج من ذلك ، أنهم لم يكونوا قوماً مسالمين ، كما هم الآن . وكان سلاحهم القذف بالحجارة ، والرمى بالسكاكين والحراب ، من خلف هذه الأسوار التى أقاموها .

ويجمل بنا أن نقف قليلا ، لنعرف من هم هؤلاء الغزاة ، الذين بنيت هذه الحصون لردهم . كان هناك خوف ، فى ذلك الوقت ، من غزاة يأتون من الشمال أو الشرق ، لأن سكان الجبال ، كانوا دائماً متناحرين . وتذكر الرواية أن سكان الجبال الشمالية الشرقية ، كانوا متحدين تحت زعامة واحدة . ولكن الأرجح أن كل جماعة منهم كانت تحيا حياتها الخاصة تحت زعامة رئيس محلى . وذلك يفسر لنا نشوب العداوات بينهم . وتنسب الرواية لهؤلاء الرؤساء المحليين سلطة واسعة . وفى « تيجال آرّو » ، تكوّن بيت تقلى القوى ، الذى نشر نفوذه فيما بعد .

ومعرفتنا بأصل هؤلاء القوم محدودة . وبين سكان الكجاكجة و « الكوالب » اليوم عداوات وإحن تفسر لنا شيئاً من تاريخهم القديم . وبين الجماعتين كثير من التناقض ، مرده إلى اعتناق سكان الكجاكجة الإسلام منذ أمد بعيد ، بينما الكوالب وثنيون حتى اليوم . ويمثل سكان « تاكام Takam » و « تورجوك Turjok » و « تاجوى Tagoi » حلقة متوسطة بين الجماعتين السالفتين ، لأنهم اعتنقوا الإسلام حديثاً . ويقال إن هؤلاء السكان ، الحديثى الإسلام ، يرجعون هم والنوباويون فى الجنوب إلى أصل واحد . وعلى كل حال فهذه أمور لا زالت تحتاج إلى مزيد من العناية والبحث . غير أن الشيء

الذى نستطيع أن نؤكده ، هو أنه كان يعيش فى تقلى ، فى بداية القرن السادس عشر ، قوم بدائيون وثنيون ، وقد كانوا متشابهين فى كثير من الوجوه مع سكان النوبا ، وهم يختلفون الآن فيما بينهم اختلافاً كبيراً ، نتيجة للهجرات التى تدفقت إلى بلادهم ، بعد أن بدأ عهد الملوك . ونحن لا نعرف هل كان لهذه الجماعات اتصال بالعالم الخارجى أم لا . وبين هؤلاء الناس ، وفى هذا التاريخ ، بدأت مملكة تقلى بدءاً متواضعاً بسيطاً .

وفيما يختص بنشأة البيت المالك فى تقلى ، تقص علينا الرواية ، أن شخصاً يدعى « محمد الجعلى »[1] ، قدم الى تقلى من الشمال ، حوالى عام ١٥٣٠ م . وأسس فيها البيت المالك ، الذى حكم تقلى . ويحتمل أن يكون محمد الجعلى هذا ، واحداً من الوعاظ الذين كانوا ينتشرون فى الأرض ، لينشروا العقيدة الإسلامية ، مع موجة الفتح الإسلامى ، التى أعقبت تأسيس مملكة سنار عام ١٥٠٤ م ، ويحتمل كذلك أن يكون هذا الجعلى طريد قبيلته النهرية ، أو مجرد سائح مغامر ، يبغى المخاطرة وكل ما نعرفه عن ذلك الرجل ، أنه كان تقياً ، تمتلىء جوانحه بالشفقة والرحمة .

ولقد وفد ذلك الرجل إلى تقلى ، وبصحبته رفيق له يدعى « أبو هياما Abu Hayama » ووصل الرجلان فى تجوالهما ، الى التلال الصغيرة ، التى اعتصمت بها الرئاسة الوثنية فى « تيجال آرو » ، ويوجد فى هذه التلال الآن قرى « الهوى » و « كيريا » . ولما التقى رجال الجبال ، بالرجلين الوافدين ، قادوهما إلى زعيمهم كابر - كابر Kabr- Kabr ، فقدما له فروض الطاعة والصداقة ، ولما رق الزعيم لحالهما ، عاملهما بمنتهى التكريم ، فهدأ لذلك بالهما ، وقر قرارهما على الاستيطان فى مهجرهم ذاك الجديد ، وعزما على التعريف بالإسلام بين هذه الجماعات الوثنية ، وأخذا يعلمانهم الصلاة ، وأصول العقيدة . ووضح ، منذ البداية ، أن الرجلين قد نجحا فى مهمتهما .

وانتشرت الديانة الجديدة سريعاً بين الناس ، وتملكت قلوبهم ، وتوطد بذلك مركز « محمد الجعلى » بين هذه الجماعات ، وكانت شفقته ورحمته وسلوكه العام ، مما جعله يحتل مكاناً محترماً ، ومركزاً فريداً بينهم ، وأضحى الرجل وله تأثير روحى كبير عليهم .

---

(١) يقال إنه من قبيلة الجموعية إحدى قبائل الجعليين .

وتزوج « محمد الجعلى » من ابنة « كابر — كابر » المذكور ، وولد له منها ولد يدعى « أبو جريدة » . ولما بلغ أشده ، ورث عن أبيه خلقه الكريم ، وساعد أباه ، فى نشر الدعوة الإسلامية ، فى المناطق المجاورة . ولما مات « كابر — كابر » اختار كبراء المجتمع حفيده « أبا جريدة » رئيساً عليهم ، وهو بعد حديث السن ، ودعوه فى نفس الوقت « جيلى Geili » [1] وعلى هذا فنحن نرى أنه حوالى عام ١٥٦٠ م تأسس البيت المالك فى تقلى فى شخص « جيلى أبو جريدة » ومنذ ذلك الوقت ، وذريته من بعده ، تحكم البلاد حكماً متصلا لم يقطعه شيء . ولا شك أن قوة هؤلاء الملوك وشهرتهم التى أحرزوها ، ترجع الى طول ما حكموا ، وإلى طول ما كافحوا فى سبيل نشر الإسلام . وعندما تولى « جيلى أبو جريدة » الإمارة ، لم تكن مملكته تتكون إلا من تلال تقلى نفسها ، وربما الكجا كجة أيضاً ، أى المناطق التى كانت خاضعة لجده (كابر — كابر) .

ولقد كان لجيلى أبى جريدة ، شخصية قوية أهلته ـ رغم أنه أجنبى ـ لكى يتربع على كرسى زعيمهم القديم . ومما يذكر بالخير لجيلى ، أنه هو الذى أكمل تحويل تقلى إلى الإسلام ، وهو العمل الذى بدأه والده . كما أنه حقق أطماعه ، فيما وراء المناطق المجاورة ، ونشر فيها الإسلام . وعمل كذلك على تقوية نفوذه الشخصى ، بجلب الجماعات من الشمال والشرق ، وتوطينهم فى مملكته . وشعر هؤلاء المهاجرون ، أن حياتهم وكيانهم ، مرتبطان بهذا البيت الجديد فآزروه مخلصين . وبنى جيلى مسجداً لا تزال آثاره باقية إلى اليوم ، كما بنى حوشاً له فى « الهوى » التى تبعد عن « تيجال آرو » بمقدار نصف ميل إلى الشمال . وترك جيلى بعد وفاته مملكة راسخة القواعد ، قوية البنيان ، وإليه يعزى الفضل الأكبر ، فيما أحرزته ذريته من بعده من قوة وسلطان . ودفن جيلى بحوشه الذى ابتناه لنفسه بالهوى . ويمكن الآن تتبع آثار هذا الحوش . وانتهى حكم جيلى عام ١٥٨٥ م .

وإلى مقال قادم ، نتابع فيه التأريخ لهذه المملكة ، ذات التاريخ المشرق ، فى نشر الإسلام فى السودان الشمالى .

عبد المنعم محمد الشيخ
مدرس أول الآداب بمعهد الزقازيق

---

(١) جيلى معناها بالبربرية الأحمر ، وكانوا يلقبونه بذلك إشارة إلى أنه من دم أجنبى ، وليس من ثمرة الحكام الاصليين .

نداء فضيلة الاستاذ الاكبر

إلى العالم الاسلامى

بما يجب عليه لإخوانه المسلمين فى تونس والجزائر والمغرب الأقصى

أذاع فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر البيان التالى على المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها فى صباح يوم الخميس ٣٠ ربيع الأول:

أيها المسلمون الآمنون فى أوطانهم، المتمتعون من الله عز وجل بنعمة العافية والاطمئنان. إن دماء إخوانكم فى الإسلام تناديكم من الحدود الغربية لمملكة ليبيا إلى أقصى جبال الأطلس لتكونوا عوناً لأهلها على درء الظلم عنهم، ووضع حد للبغى على حقوقهم الإنسانية والوطنية، وتمكينهم من أن يعيشوا فى ديارهم أحراراً كراماً آمنين.

إن إخوانكم هؤلاء هم ذرية الأبطال الذين كانوا مع طارق بن زياد فى إيصال رسالة الإنسانية والحضارة والآداب والعلوم والعمران إلى غرب أوربا، وفيهم سلالة اللاجئين من الأندلس فراراً بدينهم وإنسانيتهم من مظالم دواوين التفتيش عند خروج المسلمين من ذلك الفردوس المفقود. وهذه أسلاك البرق وموجات الأثير تنقل إليكم بين كل ساعة وساعة صدى قذائف المدافع الرشاشة ومختلف الأسلحة وهى تغتال الأحرار بأساليب قطاع الطرق، وتحصد أرواح المدنيين العزل من السلاح كما يفعل الجبناء، وتأخذ لأصحابها ـ من المسلمين الآمنين فى تونس والجزائر ومراكش ـ الثأر الذى عجزوا عنه فى شرق فرنسا لما وطئت أرضهم سنابك خيول الألمان فى بداية الحرب العالمية الثانية.

يقول نبى الرحمة صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه الإمام أحمد فى مسنده عن أبى هريرة: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله» أى لا يظلمه إذا كان فى ولايته وتحت سلطانه، ولا يخذله إذا مسه الظلم من عدو له يبغى عليه.

نحن المسلمين العاملين بقواعد الإسلام ـ وهو دين السلام ـ قد فتحنا أبوابنا وأوطاننا ورحابنا للفرنسيين وغير الفرنسيين من أمم الأرض، فأقاموا بيننا مرافقهم ومدارسهم، وقصدوا أسواقنا بمصنوعاتهم ومنتجاتهم، ولقوا من حسن معاملتنا ورحابة صدورنا وسلامة قلوبنا ما لم يروه فى أى بلد آخر. كل ذلك على أمل منا بأن يحسنوا معاملة كل من له علاقة بهم من إخواننا

فى الدين ، وأن يقوموا لهم بحقوق الإنسان على أخيه الإنسان ، وأن يحترموا حريتهم ويحافظوا على كرامتهم .

وإننا لا نزال على أخلاقنا وآداب ديننا مع جميع الأمم . ومن ينكر علينا أو على طائفة من إخواننا فى الدين ما يجب عليه أن يرعاه من حقوقهم الإنسانية والوطنية والملية فإن أقل ما يجب على المسلمين حينئذ ألا يتعاونوا مع أهل البغى فى تجارتهم وصناعتهم ومرافقهم ، وأن يكون أول ما يفعلونه مقاطعة مدارسهم ومعاهدهم وكل وسائل التعاون معهم وأسباب الاتصال بهم .

والولاية فى الإسلام هى النصرة . والتعاون والاتصال من أوثق مظاهر الولاية ، والله عز وجل يقول فى كتابه العزيز : « ومن يتولهم منكم فإنه منهم » ولو أنهم قائمون لأبناء ديننا بحقوقهم ، محافظون لهم على كرامتهم وحريتهم فإن المسلمين من أصدق أمم الأرض عهداً مع غيرهم من الأمم . ومن كان منه لإخواننا المسلمين عكس ذلك من البغى والظلم كما هو جار الآن من الفرنسيين فى شمال إفريقيا فإن أقل ما يتحقق به الواجب الشرعى على المسلمين فى جميع بقاع الأرض مقاطعة أهل البغى فى جميع وسائل التعاون وأسباب الاتصال ، إلى أن يعرفوا لإخواننا فى الدين حقوقهم الإنسانية والوطنية والملية ويقوموا بها حق القيام .

بهذا تحكم الشريعة المطهرة ، وبهذا تنادى دماء المسلمين المسفوكة فى جناح الإسلام الغربى . ومن حق هذه الدماء وأهلها على المسلمين أن يبادروا لها بإسعاف المنكوبين وتضميد جراح المجروحين ، ومعاونة الأيامى والأيتام والمنكوبين . والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه .

****

زائران عظيمان لمصر :

استقبلت مصر فى هذا الشهر بعظيم الحفاوة وبالغ الإكرام حكومة وشعباً ، زائرين عظيمين : أولهما ملك ليبيا ، فكان من نتيجة زيارته زيادة التقارب والتآلف ، ويوشك بعد ذلك أن تنضم ليبيا إلى جامعة الدول العربية .

والثانى : العقيد أديب الشيشكلى زعيم النظام القائم الآن فى الدولة الشقيقة سوريا ، فكان من نتيجة زيارته التفاهم بين مصر وسوريا على أهم ما يهم البلدين والعروبة من وسائل الاتصال والتعاون على النهوض بالقومية العربية وتنظيم قواها الأدبية والاقتصادية والدفاعية حتى تبلغ إن شاء الله المكانة اللائقة بها بين الأمم . وكنا نود أن نسهب فى تفاصيل هاتين الزيارتين لو أن مجلة شهرية كمجلة الأزهر يحتمل نطاقها هذا الواجب .

وسنشير بعد الآن إلى ما سيكون من نتائج لهذه الزيارة فى تطور العلاقات بين مصر وجارتيها وتعاونهما معهما على ما فيه الخير والمصلحة .



(طبقات فحول الشعراء)

لمحمد بن سلام الجمحي

محمد بن سلام الجمحي (١٣٩ - ٢٣١) إمام من أئمة العربية وأدبها وتاريخها وأنسابها . أخذ العلم عن فحول أهله الذين نبغوا فى دولة بنى أمية ، ولا سيما علماء البصرة منهم ، وكان من مفاخر صدر دولة بنى العباس ، وأخذ عنه كبار أئمة الأمة ممن عاصروه . وهو ينتمى إلى ولاء بنى جمح ، وولاؤه فيهم لقدامة بن مظعون الجمحى ، وكان أبوه سلام من شيوخ العلم ، وأخوه عبد الرحمن من رواة الحديث ، وابنه وابن أخته كل هؤلاء كانوا من العلماء .

وكتاب « طبقات الشعراء » سبق إلى طبعه المستشرق يوسف هل سنة ١٩١٣ - ١٩١٦ عن مخطوطتين للشنقيطى نقلتا عن أصل فى مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة بالمدينة لعله مختصر أو ناقص ، ثم وقع فى يد السيد أمين الخانجى الكتبي دشت اطلع عليه الأديب الضليع المحقق الأستاذ محمود محمد شاكر قبل أكثر من ربع قرن وجمع منه أشتاتا من أصل قديم لهذا الكتاب القديم كانت جيدة الخط حسنة الضبط محررة اللفظ يقل فيها الخطأ ، ويظن الأستاذ محمود شاكر أنها ترتد إلى القرن الخامس الهجرى ، وما وجده منها أوراق متتابعة أو مفرقة من أول النسخة وأوسطها وآخرها ، فنقل منها نسخة بخطه وبقيت من آخرها أوراق لم ينقلها لعلها لا تتجاوز عشرين ورقة ، ثم تصرف السيد أمين الخانجى بالأصل العتيق فلا يعلم أين هو الآن ، ولكن النسخة التى نقلها عنه الأستاذ محمود شاكر ، مضافاً إليها علمه وبصيرته النافذة فى الأدب والشعر ، ومقارنته هذا الأصل بكل ما نقله المؤلفون كأبى الفرج الأصبهانى فى الأغانى والمرزبانى فى الموشح عن طبقات الشعراء للجمحى ، قد رد إلينا هذا الكنز النفيس بأكمل ما يمكن أن تصل إليه يد العلم والتحقيق .

فطبقات فحول الشعراء للجمحي في طبعتها الجديدة التي صدرت في هذا الشهر من دار المعارف بتحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر في أكثر من سبعمائة صفحة كبيرة تمتاز بجودة الأصل الذي اعتمد عليه في الإخراج ، وما فيه من زيادات على الأصل المختصر المحفوظ بمكتبة عارف حكمة بالمدينة ، ثم تمتاز برجوع الأستاذ محمود شاكر إلى أمهات كتب الأدب القديمة التي نقلت عن طبقات الجمحي ، فقارن المنقول فيها بالأصول الموجودة ، وتدارك النقص بما حفظته تلك النقول من زيادات . وقد وهب الله الأستاذ محمود شاكر روحاً تتجاوب مع أرواح شعراء الجاهلية وصدر الإسلام في لغتهم وديباجتهم والمعاني التي يتألق وميضها في شعرهم البليغ ، فهو يفهم عنهم كل ما في كتاب طبقات الشعراء للجمحي من نصوص كما يفهم أحاسيس نفسه وخطرات فكره وعواطف قلبه ، وليس هذا بكثير على شارح قصيدة الشماخ الغطفاني التي يصف بها القوس الغدراء ، بقصيدة تعد آية من آيات البعث والإحياء للمعاني العربية الأصيلة بلغتها التي تستمد من لغة الإعجاز [1] .

أما شرح الأستاذ محمود شاكر لطبقات الشعراء فإنه بذاته كتاب آخر نفيس ، قد حفل بوجوه التحقيق ، ولآلىء الفوائد ، ودقيق الملاحظات . خذ لذلك مثلا قول ابن الزبعرى في يوم أحد (ص ١٩٩) :

ليت أشياخي ببــدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
حين ألقت (بقناة) بركها واستحرّ القتل في عبد الأشل

فإن جميع كتب الأدب تحرف فيها البيت الثاني بلفظ « حين ألقت بقباء بركها » وقباء لم ينشب فيها القتال يوم أحد ، والذي يقوله ابن هشام (٣ : ٦٦) ان قريشاً أقبلوا حتى نزلوا بجبل بطن السبخة من (قناة) مقابل المدينة . فرجح أن تكون (بقباء) محرفة عن (بقناة)

وقول ابن الزبعرى بعد ذلك (ص ٢٠٠) :

فقتلنا النصف من سادتهم وعدلنا ميل بدر فاعتدل

يتحرف في كتب الأدب بـ (فقتلنا النصف) و (فقتلنا الضعف) . قال الأستاذ محمود شاكر : إن المشركين لم يقتلوا يوم أحد نصف المقاتلة ، فإن من شهد القتال من المسلمين ٧٠٠ قتل منهم ٧٤ من الشهداء . ولا قتلوا ضعف ما قتل المسلمون يوم بدر من المشركين فإن عدة

---

(١) انظر مجلة (الكتاب) جزء جمادى الأولى ١٣٧١

قتلى بدر من المشركين ٧٠ أو ٧٤ وإنما أراد ابن الزبعرى أنهم قتلوا من المؤمنين فى أحد مثل الذى قتله المسلمون منهم فى بدر فانتصفوا منهم ، والنصف العدول والانتصاف .

وفى شرح الأستاذ محمود شاكر لقول جزء أخى الشماخ يرثى عمر بن الخطاب (ص ١١١)

وما كنت أخشى أن تكون وفاته بكفى سبنتى أزرق العين مطرق

يقول : وقدماء علمائنا يقولون فى النمر يشبه أن يكون سمى سبنتى لجرأته . وأنا أرى أنه مأخوذ من الإسبات وهو أن تطرق الحية فلا تتحرك . والمسبوت الدليل إذا بقى كالنائم يغمض عينيه فى أكثر أحواله ، وذلك صفة النمر . ولا معنى للجرأة هنا فإنه أراد الذم وسائر البيت دال عليه .

وقول ابن رواحة (ص ١٨٦) وقد أخذ بزمام ناقة النبى ﷺ فى عمرة القضاء :

خلوا بنى الكفار عن سبيله خلوا ، فكل الخير مع رسوله

نحن ضربناكم على تأويله كما ضربناكم على تنزيله

نسبه ابن هشام لعمار بن ياسر مستدلا بأن المشركين لم يقروا بالتنزيل ، وإنما يقتل على التأويل من أقر بالتنزيل ، ثم تهاوى المؤلفون على سقطة ابن هشام كما فعل الشيعى فى كتاب وقعة صفين ص٣٨٦ . قال محمود شاكر : ليس المراد بالتأويل فى البيت تفسير الكلام الذى تختلف معانيه ، بل التأويل هنا هو ما يؤدى إليه نبأ الله لنبيه ومصير المؤمنين إلى ما وعدهم به كما فى قوله تعالى ، هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله ، . وفى قول ابن رواحة إشارة إلى ما كان فى عمرة الحديبية ـ قبل عمرة القضاء بسنة ـ ورؤيا النبى ﷺ أنه دخل البيت آمنا وأخذ مفتاح الكعبة ، فلما رجع بصلح الحديبية كره ذلك من كرهه فأنزل الله ، لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق . . . . . فمن عام قابل أمر رسول الله أصحابه أن يعتمروا عمرة القضاء . . . فهذا هو التأويل ، وما صارت إليه موعدة الله لرسوله .

وفى ص ٣١٩ صحح قول أبى الفرج فى الأغانى (٨ : ٦) : ، قال محمد بن سلام : ورأيت اعرابيا من بنى أسد ، فقال الأستاذ محمود شاكر : ولم أعرف جريرا هجا بنى أسد ، والصواب ، بنى أسيد ، بتشديد الياء على التصغير . ثم أورد الأدلة على ذلك ، وصحح أخطاء أخرى فى الأغانى .

وفى ص ٣٩٠ رد على الجاحظ فى الحيوان ٦ : ١٧٨ - ١٧٩ قوله ، ويقال للرجل المفرط الطول : يا ظل النعامة ، واستشهد الجاحظ بقول جرير :

فضح العشيرة يوم يسلح قائما ظل النعامة شبة بن عقــال

فقال الأستاذ محمود شاكر : وقـــول الجاحظ فى إفراط الطول ليس بشىء ، فالنعامة طويلة العنق منتفخة الوسط دقيقة الساقين وظلها لا يطول . وربما كان له وجه لو قال إنه أراد قبح المنظر . وأرى أن النعامة هنا (أى فى شعر جرير) خشبتان ينصبهما الربيئة أو الصائد فى ربد الجبل ويلق عليهما الثمام ليستظل به من الشمس أو المطر ، وهى خليقة أن تكون مختلطة الظل قبيحته . والجاحظ جرىء قادر ، ولكنه يخطىء الخطأ يتوارثه الناس من بعده ثقة بعقله .

وفى ص ٣٩٥ انتقد مصححى دار الكتب لتحريفهم فى الأغانى ٨ : ٨٤ قول الفرزدق :

سقى أريحاء الغيث ، وهى بغيضة إلينا ، ولكن كى ليسقاه هامها

فزعموا أن « كى ليسقاه » تحريف . ويقول الأستاذ محمود شاكر : هو صواب محض جاء فى الشعر (واستشهد بشعر لابن قيس الرقيات) .

وفى ص ٤٦٨ صحح لابن سلام الجمحى ما رواه عن مرور الفرزدق بذى الرمة وهو ينشد :

أمنزلتى مى ســـلام عليكما هل الأزمن اللاتى مضين رواجع

قولى الفرزدق وهو ينشد :

ودوية لو ذو الرميمة رامهـــا بصيدح أودى ذو الرميم وصيدح

فقال الأستاذ محمود شاكر : وقد روى فى ديوان الفرزدق ١٤٧ أن الفرزدق مر به وهو ينشد فى المربد :

أمنزلتى مى ســـلام عليكما على النأى والنائى يود وينصح

قال : وهذه الرواية أشبه بالصواب ، لأنها هى التى ذكر فيها ناقته صيدح فذكرها الفرزدق فى بيته .

هذه نماذج من تحقيقات الأستاذ محمود شاكر وله مئات من أمثالها فى شرحه على طبقات الشعراء لابن سلام . وقد ألحق به فهرساً للأعلام والقبائل ، وآخر للأماكن ، وثالثاً للغزوات والأيام ، ورابعاً لقوافى الشعر ، وخامساً للأرجاز ، وسادساً لشعراء الطبقات على حروف المعجم ، ثم فهرست الكتاب . ولو أن كل أصل من أصول الأدب والعلم فى تراث العروبة والإسلام يقيض له من يعنى بتزيين المكتبة العربية به مصححاً محققاً مفهرساً مشروحاً كما فعل الأستاذ محمود شاكر بطبقات الشعراء لكان ذلك بعثاً لمفاخر الأمة وإحياء لثمرات عقولها .

إلى الإسلام من جديد

هذا الكتاب حلقة من سلسلة اطلعنا حتى الآن على ست عشرة حلقة منها ، في بعضها بحوث اقتصادية لطيفة كتبت بلغة الخطابة ، قارن فيها المؤلف نظام الإسلام الاجتماعي والاقتصادي بغيره من الأنظمة ولا سيما الشيوعية والرأسمالية فأحسن في المقارنة وأجاد على قدر ماوسعه علمه . وتعرض في بعض هذه الحلقات لما لا يفهمه ولا يعلمه من علوم الشريعة الإسلامية فسقط في هاوية من الكفر لا يقيله منها إلا الرجوع إلى حظيرة الملة بالتوبة إلى الله عز وجل من التعرض لما يجهله . ونضرب المثل لذلك برسالة (الصلاة كما فرضها الله في القرآن) وهي في ٦٢ صفحة ذهب فيها إلى أن فريضة صلاة الصبح غير فريضة صلاة الفجر ، وإلى أن صلاة القيام (فرض) يومي دائم ، وأن صلاة الظهر ليست من فرائض الصلاة الإسلامية ، وأن صلاة المغرب أربع ركعات لا ثلاث ، وصلاة الفجر أربع ركعات ، وصلاة الصبح أربع ركعات ، وفريضة القيام أربع ركعات ، وفريضة الجمعة أربع ركعات ، وأن من الفروض نافلة الليل وهي أربع ركعات ، وأن سجدة التلاوة أربع . وهذه الصلوات الرباعيات المفروضة في زعمه تصلى مثنى مثنى . وقد أصيب هذا المؤلف بهذا الخلل القادح في دينه لأنه ينكر سنة رسول الله ﷺ ويبغضها ويحاربها ويجادل في صحتها بلا علم ولا دراسة ولا اطلاع . وفي كتابه الجديد « إلى الإسلام من جديد » نموذج من هذا الهذيان . ولا ندري هل هو كافر بالتاريخ كما هو كافر بالسنة المحمدية ، فينكر – مثلا – ما يعلمه الناس عن الاسكندر المقدوني وسقراط وسولون ويوليوس قيصر وقسطنطين وشارلمان وشارل مارتل والحروب الصليبية والأخبار المدونة عند الإنجليز عن تاريخ ملوكهم وتوسعهم الاستعماري ، والأخبار المدونة عند الفرنسيين عن القديس لويس وجاندارك وقيام الجمهوريات الفرنسية وسقوطها . فإن كان كافراً بكل ما تعرفه الأمم عن ماضيها فإننا ندعو له بالشفاء من هذا المرض الذي أصيب به وحده . وإن كان مصدقاً بتاريخ البشر ، وما دونته الأمم من أحداث ماضيها وأقوال عظمائها وأعمالهم ، فإن ما عند المسلمين من سنة نبيهم أوثق صحة وأعظم تمحيصاً وأكثر تحقيقاً من كل ما بذلته أمم الأرض من تحقيق في تدوين التاريخ . ومن فنون الجنون أن يكون الرجوع « إلى الإسلام من جديد » قائماً في مذهب مؤلف هذا الكتاب على أساس إنكار سنة

رسول الله ﷺ بدعوى الاكتفاء بالقرآن ، ولو كان فهمه للقرآن سليما لعلم أن السنة من أعظم ما أقره القرآن ، والذى ينكر إقرار القرآن للسنة لا يجوز له هو أن يثق بفهمه للقرآن ، فما بالك بحكم الناس عليه . ولا ندرى هل إنكاره للسنة المحمدية متفرع عن اعتقاده بأنه لو كان معاصراً للنبى ﷺ لكان غير مطيع له فيما صح صدوره عنه وأمره به ، أم أنه يقف هذا الموقف من أوامر رسول الله ونواهيه لإقحامه نفسه من الهندسة إلى علم لا معرفة له به .

ولعل القارىء يحب أن يعرف من هو هذا المؤلف الذى أسقط عن المسلمين صلاة الظهر ، وفرض لهم فرائض غير التى عرفها المسلمون من نبيهم ﷺ ، وأحدث لهم هذا التغيير فى هيئاتها وأعداد ركعاتها بهندسة تنافى فقه الإسلام وما تواتر من شريعته وعبادته .

إنه مساعد كبير مهندسى التليفونات الأستاذ نجيب متولى ، وكان فى الحلقات السالفة من سلسلة مؤلفاته يخجل من المسلمين أن يواجههم باسمه ، فلما ذاع الآن فى أقطار الأرض اسم قائد حركة الإصلاح فى مصر أباح منكر السنة المحمدية لنفسه أن يدخل تعديلا على اسمه كالتعديل الذى أدخله على فرائض الصلاة الإسلامية فوضع على كتابه الجديد اسم (محمد نجيب) ، وهذا التعديل يسمى « تدليساً » فى اصطلاح علم السنة الذى ينكره هذا المؤلف . أما اسم كتابه الجديد (إلى الإسلام من جديد) ، فقد استعاره من كتاب مشهور تكرر طبعه فى مصر بهذا العنوان وهو من تأليف أحد مفاخر مسلمى باكستان الأستاذ أبى الحسن على الحسنى الندوى الذى كان ضيف مصر منذ عهد قريب ، غير أن كتاب الأستاذ أبى الحسن الندوى يدعو للإصلاح والخير ، وقد أصبح اسم كتابه من أسماء الأضداد بعد إطلاقه الآن على كتاب يدعو صاحبه إلى إماتة سنة رسول الله ﷺ وتعطيل العمل بها .

فهارس البخارى

لم تعتن أمة على وجه الأرض بتحقيق ما صدر عن إنسان من أقوال وأفعال ، ولا بتمحيص ما نسب إلى عظيم من عظماء التاريخ ، بل لم تبذل أمة من الجهود الكريمة الحكيمة للتثبت من صحة أى جانب من جوانب تاريخها وأحداث ما فيها ، كما اعتنى أصحاب رسول الله ﷺ بضبط ما سمعوا ورأوا من أقوال النبى محمد ﷺ وأفعاله وأحواله ،

وكما محص التابعون لهم بإحسان روايات أساتذتهم من الصحابة وضبطوها وحفظوها وأدوا أماناتها لمن تلاهم من تلاميذهم إلى أن دون الزهرى ثم مالك وطبقتهما ذلك التراث العظيم وهو لا يزال غضا كما قطف ، صافيا كما خرج من ينبوعه ، فكان تدوين مالك فى الموطأ عن نافع ما حدثه به عالم الصحابة عبد الله بن عمر بن الخطاب ، يكاد يشبه تناول الأمين الأمانة من أمين آخر كما يتناول الناس الأشياء من يد إلى يد سليمة كاملة نقية يرضى عنها الله ورسوله. وقد سن الصحابة والتابعون وتلاميذهم لهذه الأمة سنة فى تحرى العدالة والضبط عند من يأخذون عنه سنة نبيهم ﷺ لأنهم مؤمنون بأنها دين وأن من الدين التثبت من صحة صدورها كما هى عن صاحب هذا الدين الذى توعد من يكذب عليه متعمداً بأن يتبوأ مقعده من النار .

ومن أحفل صحاح الحديث النبوى وأكثرها عناية بالمتن والسند ، صحيح الإمام البخارى ، وكان أئمتنا السابقون يحفظونه بأسانيده ويحفظون غيره من أمهات دواوين السنة فلا يحتاجون إلى فهارس تدلهم على مواضع الحديث فى هذه الكتب ، إلى أن ضعف الحفظ فعنى العلماء بتأليف الفهارس وكانوا يسمونها (الأطراف) ومنها كتاب الأطراف للحافظ المزى فى ثمانية مجلدات وأطراف الصحيحين لابن خلف الواسطى ، وأطراف الكتب الأربعة (أى السنن) للحافظ ابن عساكر ، وأطراف العشرة للحافظ ابن حجر ، وآخرها ذخائر المواريث لعبد الغنى النابلسى . ومن الفهارس مفتاح الصحيحين لأحد علماء الترك ونبراس السارى لأحد علماء الهند ، وحتى المشتغلون بالعلوم الإسلامية من المستشرقين ألفوا مفتاح كنوز السنة ، وتقوم (اليونسكو) الآن بالإنفاق على طبع فهرس لجميع ألفاظ السنة ومواضع وجودها فى كتب الحديث وقد صدر منه فى ليدن بهولنده ثمانية عشر مجلداً ولا يكاد يبلغ نصف الكتاب .

وأمامنا الآن كتاب على جهد خاص بأحاديث صحيح البخارى ألفه فضيلة الأستاذ المحقق المتقن الشيخ رضوان محمد رضوان وقسمه إلى أربع فهارس : الأول للأحاديث المسندة وهى معظم الكتاب فأورد الحديث القصير بتمامه ، وأخذ من الطويل قطعة منه تدل على الباقى ثم ذيله باسم راويه من الصحابة وذكر عقب ذلك مواضع تكرير الحديث فى الكتاب وقد تبلغ فى بعض الأحاديث سبعة مواضع أو ثمانية أو تزيد . وهذا الفهرس فى ٤٠٠ صفحة كبيرة . وبعده فهرس للأحاديث المعلقة نحا فيه نحو ما صنعه فى الفهرس الأول ، والفهرس الثالث للآثار ، والرابع لكتب صحيح البخارى وأبوابه التزم فيه أرقام الأجزاء والصفحات

فى الطبعة الأميرية سنة ١٣١٤ والطبعة التى أخذت عنها بالتصوير الشمسى . وإلى جانب ذلك دل على أرقام أجزاء وصفحات فتح البارى طبعة الخشاب سنة ١٣٠٨ : وشرح الكرمانى طبعة سنة ١٣٥٢ ، وشرح القسطلانى . وبهذه الفهارس المتممة للفهرس الأول بلغت صفحات الكتاب ٦٠٠ صفحة من القطع الكامل لجزى الله المؤلف بالمثوبة والرضا على مابذل من جهد وتعب فى إتقان عمله تيسيراً للباحثين وخدمة لسنة سيد المرسلين ﷺ .

هواتف إسلامية — للشيخ إبراهيم على أبو الخشب

هى مجموعة من الهواتف الصاخبة عرضت لفضيلة الأستاذ المؤلف فى أوقات مختلفة وظروف متنوعة فانساق فى تسجيلها كما ينساب الماء فى النهر هادئ السير متئد الحركة والانتقال . وقد عالج فيها بعض الموضوعات الدينية أو المشاكل الإسلامية فصورها بريشة الأدب لأنه أصبح الوسيلة العظمى فى لغة التخاطب للعقول الناضجة والأذهان المستنيرة . لجاء الكتاب فى نحو مائتى صفحة من القطع الكبير ، فلفت إليه أنظار القراء والمتأدبين .

السجل الثقافى لسنة ١٩٥٠

اعتادت إدارة التسجيل الثقافى منذ ثلاث سنين إصدار كتاب سنوى حافل بعنوان (السجل الثقافى) تؤرخ فيه حركة الطباعة والنشر والصحافة والمحاضرات والهيئات والمؤتمرات والتعاون الثقافى والمهرجانات والمسابقات والمتاحف والحفائر والمعارض والمسرح والسينما . وقد صدر عنها الآن المجلد الثالث من هذه السلسلة التى تعد مرآة لنهضة مصر فى العلم والأدب والفن وكل ما يتصل بالثقافة من إنتاج فكرى ونشاط أدبى فى سنة ١٩٥٠ ، فلاحظنا فيه تقدماً على أخويه السابقين بالتوسع فى بعض الأبواب ، وإضافة أبواب جديدة لم يتسع لها السجل فى سفريه السابقين ، وتقديم نبذة موجزة بين يدى كل باب تشرح ما يحتويه الباب وطريقة تسجيل المادة فيه حتى يسهل الأمر على من يريد أن يتصفح السجل فى عمومه وشموله قبل أن ينتقل إلى تفصيل القول فى كل باب من أبوابه .

وقد دعا القائمون على هذا العمل العلمى الشاق أهل الفضل من رجال الفكر والثقافة لأن يعاونوهم فى استكمال ما قد يستشعرونه فيه من نقص ، وذلك مما يقوى الرجاء فى أن يطرد التوسع فى أسفار السجل الآتية مع إطراد التقدم الثقافى فى المجتمع المصرى ، حتى يكون أصدق مرآة له فى الحاضر والمستقبل .

معجم غريب القرآن

مستخرجا من صحيح البخارى

قال الجلال السيوطى فى الإتقان عند كلامه على غريب القرآن : « إن أولى ما يرجع إليه فى ذلك ما ثبت عن ابن عباس وأصحابه الآخذين عنه ، فإنه ورد عنهم ما يستوعب تفسير غريب القرآن بالأسانيد الثابتة الصحيحة . وما ورد عن ابن عباس من طريق ابن أبى طلحة خاصة ، فإنها من أصح الطرق ، وعليها اعتمد البخارى فى صحيحه ، ونقل السيوطى فى موضع آخر من الإتقان قول الإمام أحمد بن حنبل « بمصر صحيفة فى التفسير رواها على بن أبى طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيرا » . قال الحافظ ابن حجر وهذه النسخة كانت عند أبى صالح كاتب الليث بن سعد رواها عن معاوية بن صالح عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس . وهى عند البخارى عن أبى صالح كاتب الليث وقد اعتمد عليها فى صحيحه كثيرا فيما يعلقه عن ابن عباس . وقال قوم : لم يسمع ابن أبى طلحة من ابن عباس التفسير ، وإنما أخذه عن مجاهد وسعيد بن جبير . قال ابن حجر : بعد أن عرفت الواسطة وهو ثقة فلا ضير فى ذلك .

ولما اطلع الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى على هذه الحقائق ، أراد أن يجمع ما يمكن جمعه من صحيفة ابن أبى طلحة بعد أن أصبحت مفقودة فعكف على صحيح البخارى متقصيا كلماته كلمة كلمة ، فتصيد منها الحرف الغريب من القرآن وأرصده فى جزازة ، حتى إذا أوفى على الغاية من الاستقصاء والتحرى وتكاملت الجزازات أقبل عليهن يرتبهن وينظمهن على أوائل حروف المادة التى منها اللفظة الغريبة وبوبها حتى خرج له من ذلك هذا المعجم جامعاً لكل ما جاء فى صحيح البخارى من تفسير الغريب ، بعضه من صحيفة ابن أبى طلحة عن ابن عباس وبعضه عن غير ابن عباس . والبخارى لم يرو فى صحيحه كل الصحيفة وإنما روى ما يتعلق بشرح معنى اللفظ الغريب . وعلى كل حال فهذا المعجم لغريب القرآن يعد من أقدم معاجم العربية ، وقد جاء فى ثلاثمائة صفحة من حجم صفحات هذه المجلة ، وعنيت بنشره دار إحياء الكتب العربية بحروف جلية مضبوطة . فنلفت إليه الأنظار .

معضلات الاقتصاد وحلها فى الاسلام

هى إحدى رسائل المفكر الإسلامى الكبير أبى الأعلى المودودى أمير الجماعة الإسلامية فى باكستان ، استعرض فيها معضلات الاقتصاد وذكر كيف أن الاقتصاديين بالغوا فى تعقيدها وهولوا فى أمرها ، ولو رجعوا فى دراستها وحلها إلى أساليب الفطرة على المنهج الإسلامى ، لتمكنوا من اكتشاف سبيل الإنسانية إلى السعادة . وقد أورد فى هذه الرسالة ما يقوله أهل المذاهب الاقتصادية المختلفة عن معضلات الاقتصاد وطريقتهم فى حلها وقارنها بأساليب الإسلام مبينا أنه هو أسلوب الفطرة وهو الأليق بالإنسانية ، وأن الآخرين أوجدوا المعضلات وضخموها بسبب المذاهب التى يزعمونها لحل تلك المعضلات .

وكانت الرسالة مؤلفة باللغة الأوردية ، ونشرت بها وبالعربية لأول مرة فى باكستان ، ثم أعيد نشرها الآن فى مصر ، بعناية لجنة الشباب المسلم ، مع تحسين فى أسلوبها العربى ، فجاءت فى ٧٦ صفحة من القطع الصغير . فلفت الأنظار إليها .

حقوق المرأة فى الاسلام

كتيب لطيف بقلم الفاضل الأستاذ عبد القادر شيبة الحمد بناء على الآية القرآنية ، ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة ، فأفاض فى تفاصيل حقوق المرأة وامتيازاتها فى الإسلام ، وأن ذلك كان نعمة لها فى ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، وهى قريرة العين به ، حتى انطلق أقزام العقائد من بلاد الغرب لتفريق الصفوف ، وتمزيق الشمل ، فاستطاعوا بوسائلهم الخبيثة أن يصلوا إلى أعماق ما يريدون ، وارتفعت أصوات فى كل بلد تردد أفكار المحتلين ورغباتهم ، وتميزت من هذه الأصوات أصوات تحمل فى صداها ثورة لنساء الإسلام يرددها أدعياء الإســـلام ليفسدوا على الأمة مجتمعها وعلى نساء المسلمين هناءهن وسعادتهن .

والرسالة على إيجازها حافلة بالمعلومات القيمة والآراء الصحيحة والنصيحة للمرأة المسلمة والأمة كلها ، وهى فى نحو مائة صفحة صغيرة . فنحث الشباب من أبناء المسلمين وبناتهم على تدبر ما فيها من حقائق .

العالم الإسلامي في شهر

تعديل الوزارة المصرية

عدلت الوزارة المصرية يوم ٢١ ربيع الأول (٩ ديسمبر) فتولى وزارة الخارجية الدكتور محمود فوزى سفيرنا فى لندن بدلا من الأستاذ فراج طايع ، وتولى وزارة التجارة والصناعة الدكتور حلمى بهجت بدوى وكيل البنك العقارى بدلا من الدكتور محمد صبرى منصور الذى عين وزيراً للتموين . وتولى وزارة الشئون البلدية والقروية الأستاذ وليم سليم حنا الأستاذ بكلية الهندسة بدلا من الأستاذ عبد العزيز على الذى عين حارساً على أموال الملك المخلوع . وتولى وزارة الشئون الاجتماعية الدكتور عباس عمار مدير اليونسكو فى مصر بدلا من الأستاذ فؤاد جلال وزير الشئون الاجتماعية الذى تولى وزارة الإرشاد القومى بدلا من الأستاذ فتحى رضوان الذى عين وزيراً للدولة وتولى وكالة الخارجية إلى أن يحضر الأستاذ محمود فوزى من لندن.

ومما لفت النظر فى هذا التعديل أن كتاب استقالة الوزارة افتتح ببسم الله الرحمن الرحيم، وأن الذين رشحوا لتعيينهم فى الوزارة الجديدة كانت دعوتهم بالتليفون فتلاقى الخارجون والداخلون للتفاهم على التعديل الوزارى .

سقوط دستور ١٩٢٣

أذاع الرئيس اللواء محمد نجيب من منزله بحلمية الزيتون فى الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة من صباح الأربعاء ٢٢ ربيع الأول (١٠ ديسمبر) بياناً تاريخياً أعلن فيه باسم الشعب المصرى سقوط دستور سنة ١٩٢٣ لأن البلاد كانت قبل قيام الجيش بثورته قد وصلت إلى حال من الفساد والانحلال أدى إليها تحكم ملك مستهتر ، وقيام حياة سياسية معيبة ، وحكم نيابى غير سليم ، فبدلا من أن تكون السلطة التنفيذية مسئولة أمام البرلمان كان البرلمان هو الخاضع لتلك السلطة الخاضعة لملك غير مسئول ، وكان ذلك الملك يتخذ من الدستور مطية لأهوائه ، ويجد فيه من الثغرات ما يمكنه من ذلك بمعاونة الذين كانوا يقومون بحكم البلاد .

والآن بعد أن بدأت حركة البناء وأصبح لزاما أن نغير الأوضاع التى كادت تودى بالبلاد التى يسندها ذلك الدستور المليء بالثغرات ، ولكى تؤدى الأمانة التى وضعها الله فى أعناقنا لا مناص من أن نستبدل بذلك الدستور دستوراً جديداً يمكن للأمة أن تصل إلى أهدافها حتى تكون بحق مصدر السلطات وإن الحكومة آخذة فى تأليف لجنة تضع

مشروع دستور جديد يقره الشعب ويكون منزها عن عيوب الدستور الزائل.

وختم الرئيس بيانه مناشداً الجميع بأن ينسوا أشخاصهم، وأن يبذلوا من أنفسهم ما يضمن للوطن القوة والسعادة والمجد، متحدين متكاتفين، فلا مصالح شخصية ولا أهواء حزبية بعد اليوم.

قضية فلسطين والأمم المتحدة

دفعت بريطانيا ممثلي ثماني دول من الدول المحايدة، كهولندا والدانمرك والنرويج وكندا إلى تجديد الاقتراح في هيئة الأمم المتحدة بدعوة إسرائيل والدول العربية إلى الدخول في مفاوضات مباشرة للاتفاق على مسألة فلسطين. وعقب تقديم الاقتراح وقف مندوب إسرائيل فأيده. ثم وقف السيد أحمد الشقيري الأمين العام المساعد للجامعة العربية فقال: «إن هذا الاقتراح يقضي على القرارات السابقة التي اتخذتها الهيئة بعودة اللاجئين العرب إلى وطنهم وتدويل القدس وغير ذلك مما ضربت به إسرائيل عرض الحائط. وفي الوقت الذي يعلم فيه اللاجئون العرب أنهم لن يعودوا إلى ديارهم، ويرفض فيه اليهود إطاعة قرارات الهيئة، يعرض علينا هذا الاقتراح العجيب الذي لا يهدف إلى السلام. إن العرب إذا فقدوا فلسطين كلها بسبب محاباة الغرب لأصدقائه (وسادته) من اليهود فإن خسارة فلسطين لا تعد إلا جزءاً تافهاً من العالم العربي الذي يمتد من الدار البيضاء إلى بغداد، ولكن على إسرائيل والدول الغربية أن تواجه سبعين مليونا من العرب لن ينسوا هذه المأساة إلى الأبد. ولا يستطيع مخلوق أن يتحكم في المستقبل أو يقرر مصاير البشر كما يريد. وإن العاصفة العربية المقبلة ستكون بمعونة الله عاتية وستقتلع كل شيء يعترضها في طريقها».

وشعر ممثلو الدول العربية والإسلامية بأن الدول الضالعة مع اليهود جادة في إصدار قرار من اللجنة السياسية بالموافقة على اقتراح الدول الثمان المحايدة، فقامت سوريا في اللحظة الأخيرة بمحاولة لمنع أخذ الأصوات على ذلك، إذ اقترحت أن تعرض قضية فلسطين على محكمة العدل الدولية. وينهض الاقتراح السوري على نقط أربع تريد سوريا أن تعرضها على محكمة العدل وهي:

١ - هل من حق اللاجئين الفلسطينيين العودة إلى أوطانهم الأصلية ومزاولة حقوقهم المدنية ومصالحهم المالية؟

٢ - هل من حق إسرائيل إنكار هذه الحقوق؟

٣ - هل من حق الدول التي لا يتبعها اللاجئون أن تفاوض من أجل هذه الحقوق؟

٤ - هل لأعضاء الأمم المتحدة الحق القانونى فى الاتفاق على هذه الحقوق ؟

ومن عجيب التصرف الصادر عن الدول الممثلة فى اللجنة السياسية لهيئة الأمم - وهى تعد زعيمة الحضارة البشرية فى هذا العصر - أنها لم تبال بهذه الأسئلة الأربعة الواضحة وضوح الشمس ، وكان عندها الجرأة العجيبة بأن أجازت اقتراح الدول الثمان التى يسمونها « المحايدة » ورفضت الاقتراح السورى باستفتاء محكمة العدل فى هذه الأسئلة الدامغة .

لقد صدق السيد أحمد الشقيرى ساعة قال إن الغرب يحابى أصدقاءه (وسادته) من اليهود فى قضية فلسطين ، وإن الغرب يقدم للتاريخ دليلا جديداً على هذه الحقيقة .

ولما انعقد مجلس النواب الأردنى فى اليوم التالى لخطبة أحمد الشقيرى فى الأمم المتحدة اتخذ قراراً باستنكار موقف بريطانيا فى الامم المتحدة من قضية فلسطين واللاجئين العرب وأرسل برقية احتجاج إلى الحكومة البريطانية باسم جميع النواب الأردنيين على ذلك الموقف الذى ينطوى على الاستهتار بالعدالة وحقوق الإنسان ، ثم قرر المجلس تحديد جلسة خاصة لمناقشة سياسة بريطانيا فى الأردن .

وفى ساعة الظهر من يوم الاثنين ٢٧ ربيع الأول (١٥ ديسمبر) استدعى وزراء خارجية الحكومات العربية - فى جميع عواصمها - ممثلى بريطانيا المعتمدين لديهم وقدموا لكل منهم شبه احتجاج شديد اللهجة على موقف بريطانيا الجديد من قضية فلسطين والتحيز الظاهر من وفدها فى الأمم المتحدة إزاء الصهيونيين فى القرار الذى أصدرته اللجنة السياسية للهيئة بدعوة العرب وإسرائيل للدخول فى مفاوضات مباشرة ، غير مبالية بقرارات الأمم المتحدة السابقة بشأن إعادة اللاجئين إلى ديارهم ، وتعويضهم عن ممتلكاتهم ، وتدويل مدينة القدس . وقد اتهمت الحكومات العربية فى مذكرة الاحتجاج الحكومة البريطانية بأنها هى التى وضعت القرار ودفعت به إلى الدول الثمان التى تقدمت به باسمها ، ثم إنها هى التى قامت بالضغط السياسى على الكثير من الحكومات لتوافق على هذا القرار الذى جاء مخيباً لآمال الحكومات العربية فى الأمم المتحدة ، وقد تجنبت فيه الأمم المتحدة مبادىء ميثاقها وعدالة القضية المعروضة عليها . وإن بريطانيا بتحيزها هذا للصهيونيين أرادت أن تطعن الحكومات والشعوب العربية طعنة جديدة . وأعلنت الحكومات العربية فى ختام مذكرتها أنها غير مستعدة إطلاقا لتنفيذ القرار الظالم ، وتطلب من الحكومة البريطانية تصحيح الوضع عند عرض موضوع فلسطين من جديد على الجمعية العمومية للأمم المتحدة .

قطارات الرحمة

كان الرئيس اللواء محمد نجيب قد قال بحماسة بالغة في جمعية الكفاح لتحرير الشعوب الإسلامية : « من العار أن نطلب المعونة للاجئين العرب ممن كانوا سبباً في النكبة التي حلت بهم » .

والرئيس محمد نجيب إذا قال كلمة الخير بادر إلى التفكير في تحقيقها ، وقد كان تحقيقها بمشروع (قطارات الرحمة إلى اللاجئين من عرب فلسطين) ، وقد ساهمت في تنفيذ هذا المشروع البنوك والمصارف المالية وكل من يقدر على المساهمة في هذا العمل الإنساني . وما وصل خبر هذا المشروع إلى البلاد العربية الشقيقة التي تؤوي ألوفاً من هؤلاء اللاجئين المشردين عن وطنهم المحبوب ظلماً وعدواناً حتى شرعت في اقتفاء أثر مصر في القيام بمثل هذا العمل العظيم الذي سيتولاه في مصر الجيش المصري من بداية العمل إلى نهايته دون حاجة إلى اشتراك الكويكرز التابعة للأمم المتحدة كما اقترح ذلك بعضهم ، ودون حاجة أيضاً إلى اشتراك الهيئات النسائية كمبرة محمد علي وغيرها ، فالجيش المصري وحده هو الذي سيتولى هذا الأمر في مصر وسيعمل على توفير الأغذية والكساء والأغطية للاجئين وعلى جمع أدوات البناء ليتولى اللاجئون بأنفسهم إنشاء البيوت لهم ولأسرهم . وقد أبدى رجال القوات المصرية على اختلاف أسلحتها استعدادهم التام للتنازل عن « التعيين » المخصص لكل واحد منهم يومياً لمدة خمسة أيام فتقدم كيانه كلها إلى إخوانهم اللاجئين من عرب فلسطين . أما قطارات الرحمة فستمر بكل بلدة وكل قرية لجمع التبرعات وستقام ساحات شعبية في القرى لهذا الغرض الإنساني العظيم .

انتحار الاستعمار الفرنسي في شمال أفريقيا

فقد الاستعمار الفرنسي وعيه فعمد إلى أساليب الانتحار في الشمال الإفريقي ، وكان آخر ما صدر عنه من بغي تأليف العصابات لاغتيال الأحرار والعاملين على تحرير وطنهم . وفي فجر ١٦ ربيع الأول (٤ ديسمبر) بينما كان المجاهد التونسي فرحات حشاد زعيم اتحاد نقابات العمال التونسيين وعضو الاتحاد الدولي لنقابات العمال الحرة مجتازاً بسيارته الطريق من تونس إلى سوسة انهمر عليه الرصاص من مدافع رشاشة أطلقت عليه من سيارة كانت تتبعه فأصابته في مواضع عديدة من جسمه .

وقد عقد الأمير الشاذلي نجل ملك تونس مؤتمراً صحفياً اتهم فيه عصابة اليد الحمراء الفرنسية باغتيال فرحات حشاد ، وقال : إن الكفاح بين تونس وفرنسا الآن أصبح علنياً .

وما كاد نبأ اغتيال الزعيم التونسى يطرق مسامع الناس حتى أعلن ثمانون ألف عامل تونسى الإضراب العام ، وأغلقت الحوانيت والمتاجر العربية ، وخرجت مئات الألوف فى مواكب حداد واحتجاج . ومع فرض نظام عدم التجول فإن الاضطرابات اتسع نطاقها وأدت إلى مقتل عدد كبير من الفرنسيين والمجاهدين التونسيين ، واجتاحت الثورة مدائن كثيرة فى مناطق شتى ، وتجاوزت حدود تونس إلى الجزائر ، وقامت المظاهرات الدامية فى وهران ، وقتل المدير العام لإدارة الأمن فى الجزائر ، ثم اخترقت الثورة حدود الجزائر إلى المغرب الأقصى فقامت الاضطرابات فى الدار البيضاء وغيرها من المدن ، واضطرت السلطات الفرنسية إلى إنزال الدبابات الحربية فى الشوارع واستعملت المدافع الرشاشة .

وهكذا أراد الاستعمار الفرنسى أن يقمع الثورة التونسية باغتيال زعيم العمال ، فكان كالذى يحاول إطفاء الحريق بالبنزين .

ويرى القراء فى الخبر الذى ذكرنا فيه احتفال القاهرة بافتتاح مركز التدريب النقابى أن عمال مصر الممثلين فى ذلك الاحتفال ، وعلى رأسهم الوزير محمد فؤاد جلال ، وقفوا حداداً على روح الشهيد فرحات حشاد ، وقال الوزير : إن وقفة الحداد هذه كانت أروع ما فى ذلك الاحتفال

وقد أبرقت الهيئات المصرية الكبرى : الإخوان المسلمون والشبان المسلمون والحزب الوطنى الجديد وحزب العمال وجماعة الكفاح لتحرير الشعوب الإسلامية والحزب الاشتراكى ولجنة تحرير المغرب وحزب الفلاح برقية إلى رئيس الجمعية العامة للأمم المتحدة وسكرتيرها العام والاتحاد الدولى لنقابات العمال يحتجون على الطريقة التى ابتدعتها فرنسا فى الاغتيال ، وعلى الارهاب المسلح الذى تقوم به السلطات الاستعمارية فى تونس والجزائر والمغرب الأقصى .

ثم كان يوم الخميس ٢٤ ربيع الأول يوماً مشهوداً فى المدرج الكبير بمدينة الأزهر الجامعية احتجاجاً على الاستعمار الفرنسى الغاشم من تونس إلى أقصى المغرب ، ومع أن المدرج يتسع لأكثر من عشرة آلاف مستمع لم يبق فيه موضع قدم لشدة ازدحامه بعلماء الأزهر وأبنائه ورجال الهيئات الإسلامية .

وقد ألقى كلمة الأزهر فى هذا الاجتماع العظيم وكيل المشيخة الشيخ عبد اللطيف دراز فقال : إنى باسم الإسلام وباسم رجال الدين أحمل فرنسا ما تأتيه من عنف وما ترتكبه من فظائع تأباها الإنسانية بل تأباها البربرية . وطالب أن يقف المسلمون فى جميع بلاد

الأرض على قلب رجل واحد مع تونس والجزائر والمغرب ضد هذا الاستعمار الغاشم حتى تتحقق لهذه الشعوب حريتها . وتلاه شيخ علماء الجزائر السيد البشير الابراهيمى فدعا إلى الانصراف عن الكلام والتصفيق إلى العمل فى البلاد الإسلامية كلها لتحريرها وإخراج البغاة منها . ثم تكلم السيد الفضيل الورتلانى والأستاذ محي الدين القليبى فوصفا جرائم الاستعمار وأساليبه فى شمال إفريقيا . ثم قرر المجتمعون استنكار فظائع الاستعمار ومطالبة الحكومات العربية والإسلامية بتنظيم سياسة اقتصادية يكون هدفها الاستغناء عن معاملة الدول الاستعمارية .

وفى يوم الجمعة ٢٤ ربيع الاول أدى الرئيس اللواء محمد نجيب وضيف مصر العقيد أديب الشيشكلى صلاة الجمعة فى الجامع الأزهر . فكانت خطبة الجمعة على منبر الأزهر عن فرنسا وما تحصده من أرواح أهل المغرب وما تهرقه من دمائهم ، وعن التعصب الجنسى فى جنوب أفريقيا وما يلقاه (الملونون) من ظلم الأوربيين .

ثم أعلن الخطيب وجوب التعاون بين شعوب الإسلام ، لأن الإسلام قام على أساس أن العقيدة هى الوطن ، فإذا أصيب المسلمون فى مغارب الأرض بظلم فقد أصيب المسلمون فى مشارقها بما أصيب به إخوانهم فى مغاربها . وبعد أداء الفريضة اصطفت جماهير المصلين لأداء صلاة الغائب على شهداء تونس والمغرب تلبية لنداء اتحاد علماء المساجد وأداها القائدان مع المصلين . وبعد الانتهاء من صلاة الغائب صافح العقيد الشيشكلى الأستاذ الخطيب وحياه شاكراً ، كما صافح فضيلة الأستاذ الأكبر وكبار المصلين .

وفى مساء ذلك اليوم (الجمعة) عقدت هيئات إسلامية ووطنية مؤتمراً كبيراً فى دار الشبان المسلمين خطب فيه الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر وممثل للإخوان المسلمين وممثل للشبان المسلمين وممثل للحزب الوطنى وممثل للحزب الاشتراكى ، ثم تكلم الأستاذ عبد الرحمن عزام والدكتور محمد صلاح الدين ، والسيد بشير الإبراهيمى .

وفى الختام قرر المؤتمر الاحتجاج الشديد على اغتيال الزعيم العمالى فرحات حشاد وقتل المئات من الوطنيين الأحرار وتضامن الشعوب العربية والإسلامية مع شعوب شمال افريقيا فى نضالها وتكوين لجنة دائمة للمؤتمر برئاسة الدكتور محمد صلاح الدين لوضع برنامج مفصل لهذا التضامن ومناشدة الحكومة المصرية والحكومات العربية والإسلامية تقديم المساعدات اللازمة ، والضغط على الحكومة الفرنسية من النواحى السياسية والاقتصادية والثقافية لتعترف بحقوق شعوب المغرب ومناشدة الشعوب العربية والإسلامية بمقاطعة البضائع والمعاهد

الفرنسية واعتبار قضايا تونس والجزائر والمغرب وحدة لا تتجزأ .

وبينما كانت مصر والشرق الإسلامى كله على مثل هذه الحالة من الغضب لتونس والمغرب على ما ترتكبه فرنسا فيهما من همجية ، كانت اللجنة السياسية فى هيئة الأمم المتحدة تعمل على تأييد الاستعمار الفرنسى برفض مشروع قدمته الكتلة العربية الأسيوية فى مشكلة تونس ، فنال هذا المشروع ٢٦ صوتا منها أصوات الدول العربية الأسيوية وهى ١٣ وأصوات الكتلة السوفيتية وهى خمسة وأصوات الصين وأثيوبيا وجواتيالا وليبريا وسيام ويوغوسلافيا . وعارضته ٢٧ دولة منها (تركيا) وأمريكا وبريطانيا وإسرائيل وبقية أعوان الاستعمار .

ومن العجيب أن الضمير العالمى فى أوربا وأمريكا مصاب بخدر قوى ، فهو يكتفى بوقفة المتفرج تجاه هذه المآسى ، بل إن انجلترا وبلجيكا الاستعماريتين تتعاونان مع فرنسا على هذا البغى ، وتحاولان معها خنق صوت الحرية التى تزعم هذه الدول أنها من دعاتها .

أما العالم الإسلامى الذى تغلى فى أفئدة أهله نيران الغضب على هذا البغى ، فإنه كان يقرأ مع أخبار شمال أفريقيا أخباراً أخرى عن احتفال الأمم الغربية يوم ١٠ ديسمبر بمرور العام الرابع على إعلان الجمعية العامة للأمم المتحدة ما يسمونه « حقوق الإنسان » ، وإنه ليحق للشرق أن يضحك ـ وشر البلية ما يضحك ـ لاشتراك أبناء الاحتفال بإعلان حقوق الإنسان مع أبناء الدبابات والرشاشات التى تحصد بنى الإنسان فى شمال أفريقية لتمنعهم من المناداة بأنه إذا لم يكن لهم ولجميع الشرقيين النصيب الأول فى « حقوق الإنسان » فإن هذه الحقوق تكون حينئذ من الأكاذيب .

وفى الساعة العاشرة من صباح الثلاثاء ٢٨ ربيع الأول لبى أعضاء جماعة كبار العلماء دعوة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر لاجتماع عقدوه لبحث ما يجب على المسلمين إزاء موقف الاستعمار من الأقطار الشقيقة تونس والجزائر والمغرب وبعد أن استعرضت الجماعة الحالة القائمة الآن فى هذه الأقطار ، والاعتداءات المتكررة من فرنسا الباغية عليها منذ عهد بعيد ، وبعد تداول الرأى فيما يجب على المسلمين إزاء ذلك تقرر بالإجماع ما يأتى :

١ ـ استنكار ما يقوم به الاستعمار الفرنسى من كبت الحريات وإراقة الدماء واغتيال الأحرار الذين يطالبون بحقهم الطبيعى والإنسانى فى بلادهم .

٢ ـ إعلان هذا الاستنكار إلى جميع الدول الإسلامية ، وإبلاغه إلى جميع ممثلى

الدول الأجنبية في مصر، وإلى جميع الهيئات الدولية، ونشر ذلك في العالم كله بمختلف الوسائل.

٣ — دعوة الأمة المصرية وسائر الأمم الإسلاميـــة إلى القيام بالواجب الديني والإنساني حيال فرنسا الباغية وموقفها العدواني في شمال إفريقيا، وأقل ما يتحقق به هذا الواجب الآن أن يقاطعوها مقاطعة تامة في تجارتها وصناعتها ودور تعليمها.

٤ — دعوة الجامعة العربية والحكومات الإسلامية إلى مقاطعتها سياسياً، وإلى منع الاستيراد منها.

٥ — دعوة هيئات الخدمة الإنسانية إلى المسارعة بإسعاف المنكوبين وتضميد جراحهم

٦ — دعوة الشعوب الإسلامية في الأقطار كافة إلى الاكتتاب العام لمساعدة هؤلاء المجاهدين وتخفيف ويلاتهم. وقد افتتح أعضاء الجماعة — فعلا — قائمة الاكتتاب فيما بينهم، على أن تودع المبالغ المكتتب بها تحت إشراف حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ورئيس الجماعة

٧ — ان يوجه فضيلة الأستاذ الأكبر رئيس الجماعة نداء عاماً إلى المسلمين في جميع الأقطار يفهمهم فيه إلى ما أوجبه الله تعالى عليهم في هذا الموقف (وقد نشرنا النداء في مكان آخر).

وفي صباح الأربعاء ٢٩ ربيع الأول اجتمع بالحرم الجامعي بالجيزة نحو خمسة عشر ألف طالب جاءوا ليعلنوا سخطهم على الاستعمار؛ وبعد خطب حماسية قوية ألقيت في هذه الجموع. قرر الطلبة المجتمعون تأييد الشعب المغربي في كفاحه، واعتبار عدوان فرنسا على المغرب وانجلترا على مصر وأفريقيا والتدخل الأمريكي في الشرق الأوسط حلقة استعمارية واحدة، واعتبار معركة المغرب امتداداً لمعركة التحرر التي بدأت في فلسطين والقنال، واعتبار تموين أمريكا لفرنسا بالسلاح اعتداء أصلياً. والسعي لإنشاء وحدة اقتصادية بين جميع البلاد العربية. وتكوين جبهة من الشباب الشرقي بالجامعة لمكافحة الاستعمار بأنواعه ومطالبة وزير المعارف بإغلاق جميع المعاهد الاستعمارية في مصر.

وطلبت جمعية الهلال الأحمر المصري رسميا من السفارة الفرنسية في القاهرة تصريحاً بسفر بعثة من سيدات الهلال إلى تونس والمغرب للقيام بأعمال الإغاثة والإسعاف للمصابين بالحوادث التي تقع هناك، ونكتب هذا والمجلة على وشك الصدور ولما ترد السفارة الفرنسية على هذا الطلب الإنساني.

وأدلى مصدر رسمي مسئول بأن وزير الخارجية المصرية (وكذلك كل وزير للخارجية في الدول العربية الشقيقة) استدعى سفير أمريكا، وأوضح له مدى الأثر السيء الذي يحدثه استمرار العدوان في تونس ومراكش

والجزائر ، وقد وعد السفير الأمريكى بأنه سيرفع الأمر إلى حكومته فوراً .

وبدأ وزير الخارجية المصرية من يوم الأربعاء ٢٩ ربيع الأول فى مقابلة ممثلى الكتلة الأسيوية ، فاجتمع بكل من القائم بأعمال سفارة أندونيسيا ،ثم بممثل الباكستان وسفير الهند وممثل الحبشة ، وسيقابل كلا من سفير إيران والأفغان ، وكان الجميع مجمعين على رأى واحد فيما يتعلق بقضايا البلاد العربية ، وقضايا شمال إفريقيا .

افتضاح الاستعمار البريطانى

أعلن فى مجلس العموم البريطانى أنه ابتداء من آخر سنة ١٩٥٢ يصبح من حق المستعمرات البريطانية أن تقترض مباشرة من بنك التعمير والإنشاء الدولى . ومن المعلوم أن أكثر أموال هذا البنك أمريكية .

وحينئذ نهض أحد أعضاء المجلس وقال : « أننا بذلك نترك المستعمرات تبيع شهادات ميلادها لدولة أخرى » .

فقال مستر أ. ليفرليتلتون وزير المستعمرات جوابا على هذه الكلمة وكلمات أخرى فى معناها :

« إننا لم نعد نملك شلناً واحداً نبذره فى أرض مستعمراتنا . بل لقد أصبحنا مدينين لهذه المستعمرات بمبلغ ٩٦٤ مليون جنيه أخذناها مقدما . وليس فى استطاعتنا أن نمنع نشوء مشرعات جديدة بأموال غيرنا فيما وراء البحار ما دمنا لا نملك المال اللازم لإنشاء تلك المشروعات بأنفسنا » .

أفريقيا للإفريقيين

دخلت ثورة كينيا على الاستعمار البريطانى فى شهرها الثالث وقد تبين للرأى العالم العالمى أن ماكان يزعمه الاستعمار البريطانى من أن ثورة كينيا همجية وتافهة إنما هو زعم لا يقوم على أساس ، وقد أذاعت وكالات الأنباء برقية من لندن تقسها بأن ثوار كينيا يسعون للاتصال بثوار شمال أفريقيا على الاستعمار الفرنسى ، وبالمتضررين من قوانين الاضطهاد العنصرى فى جنوب أفريقيا ، ليتفقوا جميعاً على التعاون للخلاص النهائى من الاستعمار توطئة لتقرير مبدأ « إفريقيا للإفريقيين » .

وقد اعترفت (التيمس) بأن حوادث كينيا تعتبر مرحلة من مراحل الكفاح التى تقوم بها الحركة الوطنية فى أفريقيا ، وأن هناك أوجه شبه كثيرة بين هذه الحركة والحركة الوطنية على ساحل الذهب فى غرب أفريقيا .

وقد بدأت تنتشر بعض المعلومات الصحيحة عن زعيم الاتحاد الأفريقى فى كينيا واسمه (جومو كنياتا) ويسميه الوطنيون « الرمح المشتعل » وهو قوى البنية فصيح اللسان وكان مدرساً فى مدارس كينيا ، وتلاميذ كينيا يمجدونه كما يمجد المسيحيون المسيح . وقد زادت شهرته وتعلق الشعب به بعد اعتقاله فى سجون الإنجليز ، فلم يفدهم اعتقاله شيئاً .

الأدب والعلوم في شهر

تعميم التعليم

تضج البلاد الآن من جمود وزارة المعارف العمومية على الأسس القديمة التي رسمت لتخريج موظفين لا لتخريج رجال علم وعمل ، وتتكرر الصيحات بمطالبة الوزارة بأن تعنى بالتربية والأخلاق والدين ، وبتاريخ أمجاد العروبة والإسلام كعنايتها بالألعاب الرياضية على الأقل ، ليتم بذلك اتصال حاضر الأمة بماضيها ، وليكون منه بدء تحول بالمدارس من مصانع لتخريج موظفين ، إلى معاهد لتخريج رجال مثقفين مهذبين يعرفون واجبهم نحو وطنهم وقوميتهم ودينهم وتاريخهم والنهضة التي سيعيشون معها وتعيش معهم .

وإلى الآن لم تسمع لوزارة المعارف صوتا في الاستجابة لهذه الدعوة الصادرة من ضمير العهد الجديد . وكل ما يتحدث به رجالها كلام عن تعميم التعليم وما يحتاج إليه من أموال ، ليخيفوا رجال هذا العهد من التبعات التي تترتب على هذا التعميم حتى يشمل جميع أطفال الوطن الذين في سن التعليم . فتفكير رجال وزارة المعارف لا يزال منصرفا إلى (الشكل) و (الكمية) مع بقاء الداء كما هو ، فإذا زادت كمية مدارس وزارة المعارف إلى ضعف عددها الحاضر سرت العدوى التي تشكو الأمة منها في المدارس الموجودة إلى الجديد منها الذي يخوفون البلاد من تبعاته المالية . وحبذا لو يعلم رجال وزارة المعارف أن تفكير قادة الرأي في الأمة منصرف إلى (الكيفية) وشكواهم تدور حول الداء المزمن في المدارس منذ أريد منها تخريج آلات لمكنة الحكومة غير معنى بناحية التربية والأخلاق العملية في تكوينهم ، ولا بناحية إعدادهم للاضطلاع بمرافق الوطن الأخرى في خارج الحكومة .

فالمطلوب الآن أن تنسجم مدارس وزارة المعارف مع العهد الجديد بتغيير تلك الأسس كلها ، وأن يكون الأساس الأول في مناهجها التربية والأخلاق وأن يستعد الشباب المتعلم للكفاح في سبيل إصلاح المجتمع وإسعاده كما يستعد لإصلاح شئونه الشخصية وسعادته الذاتية ، وبذلك يكونون صالحين للنهوض بأعباء الوطن في مرافقه واتجاهه الصالح نحو التقدم . فهل لوزارة المعارف أن تلبي هذا الطلب حتى تكون مدرسة العهد الجديد ملائمة لروح العهد الجديد ؟

في المكتبات :

نظم معهد التربية للمعلمين بجامعة إبراهيم حلقة دراسات مسائية بين طلبة المعهد لدراسة فن المكتبات ، ويقوم بإعداد هذه الدراسات والإشراف عليها مستر جامبى الخبير الأمريكى فى فن المكتبات والأستاذ حسن رشاد ، وسيدعى بعض رجال التعليم لتلقى الأسس العلمية والعملية التى تكفل النهوض بالمكتبات المدرسية .

حلقة الدراسات الاجتماعية

عقدت حلقة الدراسات الاجتماعية دورتها الثالثة فى دمشق ، وقد قامت بتنظيمها جامعة الدول العربية بالتعاون مع هيئة الأمم المتحدة . وكانت حفلة الافتتاح بمدرج الجامعة السورية بدمشق . واشتركت فى هذه الحلقة جامعة الدول العربية والجمهورية السورية والمملكة الأردنية والمملكة العراقية والمملكة العربية السعودية والجمهورية اللبنانية والمملكة اليمنية ومملكة مصر والسودان والمملكة المتحدة الليبية . وحضرها ممثلون وخبراء من المنظمات والوكالات المتخصصة التابعة للأمم المتحدة وهى هيئة العمل الدولية وهيئة التغذية والزراعة وهيئة الصحة العالمية وهيئة الأمم المتحدة للعلوم والتربية والثقافة (اليونسكو) ووكالة إغاثة اللاجئين . ومراقبون من الإمارات العربية والبعثات السياسية المعتمدة من سوريا والهيئات الأهلية والخيرية غير الحكومية فى البلاد العربية . ومدة هـــذه الحلقة من ٨ إلى ٢٠ ديسمبر (٢٠ ربيع الأول إلى ٣ ربيع الآخر) ، ومن أهم ما يدرس فى هذه الحلقة موضوع التكافل الاجتماعى وأثر التنمية الاقتصادية فى وسائل التكافل . وإن وفد مصر فى هذه الحلقة يرأسه الدكتور محمد عوض محمد وأعضاؤه الدكتور عزيز المراغى والأستاذ محمد أبو زهرة والأستاذ أحمد حسن إسماعيل ينضم إليهم مستشارون والملحقان العسكرى والثقافى بدمشق . وقد دعى للاشتراك فى هذه الحلقة الأستاذ سيد قطب .

مسئولية تحقيق الأهداف :

فى يوم السبت ١١ ربيع الأول زار الرئيس اللواء أركان حرب محمد نجيب كلية الطب بجامعة إبراهيم ، وخطب فى الطلبة فقال :

أبنائى الطلبة ، بل جنودى الطلبة : إنكم أهم من الجنود ، لأن الجنود لهم مهمة معروفة ، أما أنتم فلكم مهمة ألخصها فى أنكم مسئولون مسئولية تامة عن تحقيق مبادىء وأهداف هذه الحركة .

إن ألمانيا ليست أحسن منا ، إنها هزمت فى حربين ، لكنها قامت ونهضت من جديد .

ونحن فى أشد الحاجة إلى ما قامت من أجله (الرسالة النبوية الشريفة) وهى جمع صفوف العرب وغيرهم من الذميين الذين يعيشون

منهم . فنحن كذلك فى حاجة الى جمع الصفوف لنعمل يداً واحدة لمصلحة واحدة هى مصلحة مصر والسودان .

إن النظام يوفر الوقت ، ويكسبنا احترام العالم . إن النظام معناه « العمل » ، وأنتم تعلمون أنه بغير عمل لا يستطيع الانسان أن ينجح .

لكل إنسان أن ينتقد ، على أن يصف العلاج لموضوع نقده . وافرضوا أنفسكم من قادة الحركة تستطيعوا أن تنتقدوا بملء حريتكم وثقوا أن كلا منكم يستطيع أن يكون محمد نجيب ، فأنا لم أنهض إلا باستمداد الأمة وتضامنها .

إن رسالتكم ليست تحقيق هذه المبادىء فقط ، ولكن أن تكونوا أيضا لسانا للدعاية عن هذه المبادىء ، فتعلموا كل من يحيط بكم .

إن الكتب السماوية جميعا تحضنا على المحبة والوئام والنظام ، فليس هناك عمل بدون نظام .

وثقوا أن كل ما تطلبونه سيجاب لكم ، ولكن فى حدود مقدرة الدولة . فأنتم تعلمون كيف تركوا مصر . ولهذا فنحن فى حاجة للاقتصاد ، والتقشف . وثقوا أننا لو اقتصدنا قليلا فسنكسب فيما بعد كثيرا . والسلام عليكم ورحمة الله .

الوطن آلة كبيرة :

احتفل بافتتاح مركز التدريب النقابى بالقاهرة . وعند بدء الاحتفال اقترح أحد العمال الاشتراك بالحداد على الزعيم العمالى التونسى الشهيد فرحات حشاد ، فوقف الجميع دقيقتين سادهما الصمت الرهيب . ثم خطب الوزير محمد فؤاد جلال فقال : إن أروع ما فى هذا الاحتفال وقوفنا حداداً على روح زميل كريم ذهب ضحية الاستشهاد ، فبدت روح التضامن قوية بين العمال العرب فى أوطانهم . ثم قال :

« نحن نجتمع هنا ليكون كل منكم رسولا إلى زملائه فى أنحاء البلاد ، فما الأمة إلا مجموع من العمال ، ولا مكان فى هذه الدولة لمن لا يعمل . هذا هو شعار العهد الحاضر فى سعيه لبناء الدولة من جديد . انى أتمنى أن أرى اليوم الذى يصبح فيه العمال وأصحاب الأعمال طرفا واحد شعاره ، حكمة معاوية الخالدة » : « لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، والشعرة هنا هى مصلحة العمل ، فحافظوا على هذه الشعرة ولا تقطعوها .

« إننى أحب الرجل الذى يتمسك بحقه ولا يتنازل عنه ، وأحب أيضاً ألا ينسى حق الوطن فلا يضيعه . إن الوطن آلة كبيرة ، والعامل الذى يعمل ينفع بنى وطنه ، وينفع نفسه وغيره من العمال إذا حافظ على هذه

الآلة ورعى حقها حتى يقبل أصحاب الأموال على استغلال أموالهم فى الصناعة ».

أدباء السلف والأدباء المعاصرون

يقول الدكتور شوقى ضيف فى تعريفه بكتاب « الهوامل والشوامل » لأبى حيان التوحيدى ومسكويه (فى فصل نشرته مجلة الكتاب) « أصبحنا فى عصر السرعة ، وأصبحنا لا نكاد نسأل حتى نجيب . فلم تعد عندنا هـــذه الصفات التى كان يتحلى بها الأسلاف ، صفات التؤدة والروية والتعمق فى المسألة وتشقيقها ، حتى لتصبح كأنها شجرة ذات فروع ، وما تزال غصون تمتد فى الفروع إلى ما لا نهاية .

« قرأت هذا الكتاب وخيل إلى عقب قراءته كأننا لا نستطيع أن نجارى فى عصرنا الحديث هؤلاء الناس الذين سبقونا ، لأننا مشغولون بالدعوى العريضة ، وبإلقاء الأحكام ونحن نرى بهذه الأحكام يمينا وشمالا ، لا نكاد نتدبر أنفسنا ولا نتدبر ما نقول .

ويظهر أن المسألة لا ترجع إلى السرعة كما زعمت ، بل ترجع إلى أننا لا نتعب أنفسنا فى فهم المسائل وتبينها ، وكشف جوانبها وبواطنها وظواهرها ، إنما نكتفى بما نعرفه من الخارج وما تمر عليه أفكارنا .

« وقد نكون اختلفنا عن الأسلاف لأن الأديب منهم لم يكن يزعم لنفسه هذا الوصف إلا بعد تثقف عميق بكل ضروب الثقافات من فلسفية وغير فلسفية ، ولم يكن عندهم هذا التخصص الذى نشقى به فى العصر الحديث والذى يجعل طالب الأدب لا يعرف فلسفة ولا كيمياء ولا طبا ولا قانونا وشريعة ، فانحصر فكره فى دوائر ضيقة ، ولم يعد من الممكن أن يكون متموجا أو ملونا بكل حظوظ الثقافة كما كان أدباء العصر العباسى ».

اثنا عشر ألف أثر عربى

كان الأستاذ كانون رشمانز أستاذ اللغات السامية بجامعة لوفان قد قام مع عبد الله فلبى برحلة فى بلاد العرب الجنوبية للبحث عن آثار العرب القديمة برعاية الملك ابن سعود ، فقطعا ١٧٥٠ ميلا ، ثم دخلا مناطق عربية لم تطأها قدم أعجمى قبل الآن ، وعثرا فى هذه الرحلة على اثنى عشر ألف أثر عربى يرجع بعضها إلى عهد ملوك سبأ . وتقوم الآن أكاديمية النقوش والذخائر الأدبية فى باريس على دراسة هذه النقوش وكتابة تقرير عنها .

مخطوطات طورسينا

ألفت جامعة الاسكندرية لجنة لتنظيم دراسة صور المخطوطات والوثائق الأثرية التى اشتركت بعثة الجامعة فى تصويرها مع بعثة الآثار الأمريكية فى دير سانت كاترين فى طورسينا . وتعد هذه المخطوطات والوثائق

أم مجموعة تاريخية من نوعها فى العالم من حيث تنوعها وكثرة موضوعاتها وغزارة مادتها وتعدد اللغات المكتوبة بها فهى تبلغ أثنى عشرة لغة . وفيها غير الكتب الدينية المسيحيه بعض المخطوطات اللغوية والأدبية والفلسفية والجغرافية والتاريخية والطبية ، علاوة على الفرمانات والوثائق القانونية التعليمية . ومن كتبها نسخة مخطوطة من الانجيل بالعربية الفصحى تعد فريدة فى نوعها وقد سميت فيها الأناجيل الأربعة مصاحف كمصحف لوقا ومصحف متى الخ ، ويظن أن هذه الترجمة العربية القديمة تصحح أخطاء لاتخلو منها الأناجيل بتراجمها العربية المتداولة وكان الامريكيون قد حاولوا شراء هذه المخطوطة بمبلغ ضخم فرفض ذلك القائمون على الدير .

وينتظر أن تستغرق دراسة مخطوطات طورسينا سنوات عديدة ، وهى تقتضى الاستعانة بالخبراء العالميين . إلا أن جامعة الاسكندرية تحفظ لمصر الفضل الأكبر فى إظهار أهمية هذه المخطوطات والعناية بها .

أصغر جمهورية إسلامية .

ظهرت للوجود فى الشهر الماضى جمهورية جزائر مالديف الواقعة فى المحيط الهندى ، وهى تبعد ٤٠٠ ميل عن سيلان . وكانت فى ثمانية القرون الماضية تحكم بنظام الملكية حكما عادلا هنيئاً ، والمسلمون فى هذه الجزائر وادعون يلتزمون الحق ويعيشون للخير وليس عندهم سجون وأكثر ما يتجرون به السمك يتقايضون بالزائد منه للحصول على ملابسهم وضرورياتهم من سيلان .

فى سبيل الاستعمار المشئوم

أوشكت أن تتم ست سنوات على الحرب الاستعمارية المشئومة التى تخوضها فرنسا فى الهند الصينية .

وقد بلغت خسائر الفرنسيين هناك حتى الآن ١٢٠٠ ضابط و ٣٠٠ ألف جندى . ولا نعلم كم بلغت خسائرهم فى الأموال ، لكن الذى نعلمه أن الاعتمادات الفرنسية لهذه الحرب فى ميزانية العام القادم هى ٣٩٠ مليون جنيه استرلينى أى نحو ربع مجموع النفقات العسكرية فى فرنسا .

طرائف علمية وأدبية

بركان فيزوف :

ترتفع قمة جبل فيزوف ٤٠٠٠ قدم عن سطح البحر ، وترقد على سفحه عشرات القرى الجبلية . وأشهر ثورات هذا البركان فى القرنين الأخيرين وقعت فى سنوات ١٧٧٩ و١٧٩٣ و١٨٣٤ و١٨٥٥ و١٨٦٧ وأخيراً فى سنة ١٩٤٤ . وقد انتشرت سيول الحمم التى تدفقت فى ثورته سنة ١٧٧٩ إلى مسافة ١٥٠٠ قدم ، وقطعت فى سيرها حوالى ثلاثة أميال ونصف ميل قبل أن تنتهى إلى ساحل البحر . ويتوقع بعض الجيولوجيين أن تتجدد ثورة هذا البركان عما قريب فتدمر القرى القائمة فى جواره من سفح الجبل .

مراكز الإدراك فى المخ :

تمكنت إدارة المحاربين القدماء فى أمريكا من إتمام دراسة استمرت سنتين على ١٥٠٠ مريض بالأمراض العقلية أجريت لهم جراحات فى الفصوص الأمامية للمخ ، وهى مراكز الإدراك فى الإنسان ، وفى هذه الدراسة اشترك ١٢٨ من الخبراء فى شتى الأمراض العقلية وقالوا فى تقريرهم إن ٤٠ فى المائة من الحالات تحسنت إلى حد كبير ، وكان أكثر المتحسنين من المصابين بمرض الشيزوفرانيا وقد عادوا جميعاً إلى منازلهم ، منهم ١٠٢ فقط أمكنهم العودة إلى أعمالهم . وإن حالات العنف والعدوان والميل إلى الانتحار خفت كثيراً فى أكثر الحالات وأصبح من السهل قيادة هؤلاء المرضى وبدأ أكثر من نصف المصابين يهتمون بما حولهم غير أن ١٠ فى المائة منهم زاد انطواؤهم على نفوسهم . ورغم هذه النتائج الحسنة فإن الخبراء لم يستطيعوا تفسير ما يحدث للمصاب عقب الجراحة وإن أفتوا بأن تغيراً يحل بشخصيته . ولهذا ينصحون بألا تجرى هذه الجراحات إلا بعد استنفاد الوسائل الأخرى وفى الحالات العنيفة التى يتعذر فيها التعامل مع المريض وتنهار كل الآمال فى إمكان علاجه .

الورق من فضلات القصب

صرح وزير التجارة الأمريكية بأن ورق الصحف المصنوع من قصب السكر يضارع فى جودته الورق المصنوع من لب الخشب إن لم يكن أفضل منه . وأن تكاليف الورق المصنوع من القصب ستكون زهيدة .

وأن الكميات الموجودة في أمريكا من فضلات قصب السكر تفي بجميع حاجات أمريكا المتزايدة من الورق.

معجم بأسماء المجرمين

تقوم مصلحة الشرطة في سكوتلاند يارد بإعداد ونشر معجم مطول لأسماء وتراجم المحتالين والنصابين العالميين على غرار الكتاب السنوي للشاهير المسمى (من هو ؟) ، ليستفيد منه زوار الجزائر البريطانية من الأجانب المنتظر حضورهم حفلات التتويج ، فيكون لهم من معرفة هذا العنصر الخطر من البشر ما يحميهم منه . وقد شاركت في تأليف هذا المعجم إدارات تحقيق الجرائم في إنجلترا ودول الكومنولث وفي أمريكا وفرنسا .

عمائم حربية للميدان

في جريدة الأهرام - من بداية الانقلاب الأخير حتى الآن - ركن عسكري عنوانه « سلاح الغد » يحرره كاتب من رجال الجيش يرمز لاسمه بكلمة « صاروخ » ، وقد نشر في العدد الصادر يوم ١٢ المحرم (١١ أكتوبر) كلمة عن أحدث ما ظهر من التطور في صناعة غطاء الرأس للوقاية من الرصاص والشظايا والقنابل بدلا من الخوذات الفولاذية المعروفة إلى الآن .

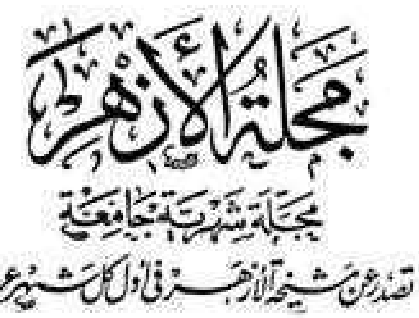
وهذا الغطاء الجديد للرأس هو (عمامة) من البلاستيك تشتمل على أجزاء إضافية لوقاية الأكتاف والرقبة والوجه وأعلى الصدر ، ولا يزيد وزن هذه المجموعة الواقية على رطل واحد ، وهي كالصلب في مناعتها إن لم تزد عليه ، وتكاليف كل خمس وأربعين عمامة من هذا الاختراع الجديد تعادل تكاليف خوذة فولاذية واحدة مع التفوق في الخصائص الوقائية . وقد نشر مع هذه الكلمة صورة لهذه العمامة الجديدة ، فتبين منها أنها في منتهى الجمال والهيبة ، ويعنينا منها نحن المسلمين على الخصوص أنها توافق تقاليدنا والمألوف عندنا إلى درجة أن شكلها يصلح في الوقت نفسه لأن نقتبسه لحياتنا المدنية فضلا عن الحياة الحربية في الميدان ،

وإذا كانت العمامة الحربية تصنع من البلاستيك والمواد الصالحة للوقاية من الرصاص والشظايا ، فإن هذا الشكل إذا اتخذ للحياة المدنية ومن نسيج لطيف مريح فإنه بلا شك يصح أن يتخذ أساساً لوحدة الأزياء التي ينشدها من يدعو إليها . ونحن نلفت أنظارهم إلى هذه الكلمة في الأهرام ، وإلى الصورة المنشورة معها ، وإلى الوصف الشيق الذي وصفت به هذه العمامة التي تعد أحدث ما وصلت إليه العقول فيما يتعلق بغطاء الرأس في البلاد المتحضرة .

فهرس

الجزء الرابع — المجلد الرابع والعشرون







الجزء الخامس ـ القاهرة فى غرة جمادى الأولى ١٣٧٢ ـ ١٥ يناير ١٩٥٣ ـ المجلد الرابع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

العاجلة والآجلة

الآن ، وقد أخذنا نصلح ما أفسده الدهر من كياننا القومىّ ـ فى حكومتنا ، ومجتمعنا ، وفى تعاوننا مع الدول العربية الشقيقة ، ومع البلاد الإسلامية والآسيوية ـ وبدأنا نواجه الغرب مدافعين عن حقوقنا ، ومحاولين أن نحدد مكاننا من الأمم ؛ فقد آن لنا أن نباشر الإصلاح من أساسه ، فنحدد موضع دائنا ونحسن تشخيصه ، لنتمكن من معالجة ضعفنا فى مصدره الأول .

لقد نقلتُ فى الجزء الماضى من هذه المجلة (ص ٢٩٧) قولَ وزير خارجيتنا الأستاذ محمود فوزى فى تشبيه مجتمعنا العجيب برجل نلقاه فى الطريق الدام وهو يعدو بأقصى سرعة لكنه لا يعرف إلى أين هو منطلق ، ولا يعرف من أين هو آت ، وإذا سألته عن عمله وعنوانه فإذا هو بلا عمل ولا عنوان ! ...

إن الأستاذ محمود فوزى وصف لنا حالتنا ـ وهى تنطبق على الفرد ، وعلى الأمة ، وعلى الدولة ـ كما رأى ذلك بعينه لما عاد إلينا من أمريكا قبل عشرة أشهر . فهل لنا أن نتساءل عن السبب الأول فى ذلك ، ولماذا بلغت بنا الحال حتى إلى أن نجهل من نحن ؟ وأين نحن ؟ وماذا نريد ؟ وما هى وسائلنا لتحقيق ما نريد ؟

هذه الجهالة المضاعفة أجدرُ بها أن تقلقنا ، وتقضّ مضاجعنا ، وأن نحلم فى نومنا بأسبابها وعواقبها بعد أن نشغل أيامنا فى التفكير بذلك إلى أن نجد لنا من هذه الحالة فرجا

ومخرجا . ولست أدرى كم عدد الذين أخذوا يفكرون فى هذا الأمر منذ قرأوا فى الشهر الماضى كلمة « من نحن ؟ » ، وكم عدد الذين توصلوا بتفكيرهم إلى اكتشاف موطن الداء فينا حتى صرنا إلى ما وصفنا به الأستاذ محمود فوزى .

أما أنا فيخيل إلى أن ما نحن فيه الآن عقوبة من الله لنا معشر المسلمين ـ أفراداً وجماعة وحكومات ـ لأننا خرجنا عن فطرة الإنسانية وسنن الإسلام بإيثار (العاجلة) على (الآجلة) وكان من حقنا ـ بقدر ما نحن مسلمون ـ أن نتماد فى أنفسنا وفى تعاون بعضنا مع بعض إيثار الآجلة على العاجلة ، لأن الآجلة خير وأبقى وأدوم ، وإن لم يكن فيها إغراء العاجلة وزخرفها ووميضها الذى يخطف الأبصار والبصائر .

أسس رجل نشيط من غير المسلمين جريدة الأهرام ، فلما مات صارت إلى أخيه ، ومات أخوه فصارت إلى ابنه وكان قاصراً ، ثم مات الابن فصارت إلى الحفيد ، وهى الآن فى السنة الثامنة والسبعين من حياتها . وأسس رجل من المسلمين أكثر منه نشاطا جريدة المؤيد فعاشت معه ثم ماتت بموته . وأسس رجل نشيط من غير المسلمين مجلة الهلال ، فلما مات ازدادت بعده قوة وحيوية وانتشاراً . وأسس رجل من المسلمين أكثر منه نشاطا مجلة المنار فعاشت معه ثم ماتت بموته . ولو شئت أن أضرب عشرات الأمثال لاسعفنى الواقع بأكثر مما أريد . فلماذا هذا ؟ لماذا تتقصف أعمار أعمالنا ومشروعاتنا ومؤسساتنا بعد أن تجتاز سن الطفولة وتصير فى طور الأيد والقوة والنضوج ؟ فى ظنى أن المرض مزدوج ، فالذين يؤسسون المؤسسات يعيشون فى جو (العاجلة) فلا يرسمون لمؤسساتهم خطة طويلة الأمد ، ولا يعدون لها من يخلفهم عليها ويضمن بقاءها . والذين كان ينتظر منهم العون على استمرارها من أعيان الملة يعيشون لأنفسهم فى جو (العاجلة) فلا يبالون بمؤسسات أبناء ملتهم ، ولا يعتبرونها من تراث الملة ومن ثروتها ، ولعلهم يسرون بموتها عند موت صاحبها . فنحن أمة يعيش أفرادها ـ ولا سيما خاصتها ـ للساعة التى هم فيها ، محاولين أن يغتنموا فيها كل ما يستطيعونه من مغانم مهما كان لونها أو ريحها أو طعمها ، على قاعدة أحد ملوك قرننا حين قال : إن الدينار لا ريح له ، فلا يضيره سوء مصدره . وقس على الدينار الجاه والمنصب والوجاهة والتقدم

إن من أعجب العجب أن يكون فينا ــ نحن المسلمين ــ الأذكياء الذين يؤثرون الكسب العارض المنقطع لأنه كثير خلاب ، على الخير الدائم النبيل لأنه قليل لا بريق له . وأن

تستعجل جماعاتنا بالشيء قبل أوانه انخداعاً منها بالمظهر ، ثم لا تتعظ بعد ذلك إذا عوقبت بحرمانه ، وقد كانت حكومتنا إلى عهد جد قريب تشبه ذلك الرجل الذى تحدث عنه الأستاذ محمود فوزى وصوره لنا وهو يعدو منطلقاً بأقصى سرعته ، مع أنه لا يعرف لماذا يعدو ، ولا أين هو منطلق ، وسبب ذلك أنه لم يرسم لاتجاهه خطة يعرف بها أين يكون مصيره فى العام الآتى ، وبعد خمسة أعوام ، وبعد جيل .

لقد كان لبطرس الأكبر قيصر روسيا وصية تتناول أهداف دولته فى قرون ، فالتزم العمل بها خلفاؤه ، ثم جاءت الشيوعية فهدمت كل أوضاع القيصرية إلا خطتها العامة المرسومة فى وصية بطرس الأكبر ، فإنها تعمل إلى هذه الساعة على تحقيقها بكل عناية وأمانة واهتمام ، أكثر مما كان يفعل ذلك القياصرة أنفسهم .

والإنجليز تتداول الحكم فى بلادهم أحزاب متباينة الأغراض ، ووزارات مختلفة المشارب ، ولكنهم فى سياستهم العامة وأهدافهم القصوى سائرون فى طريق واحد لا يحيدون عنه ويستلهمون تصرفاتهم من قواعدهم وتقاليدهم مكتوبة فى السطور أو محفوظة فى الصدور فلا ينقض جيل عمل الجيل الذى سبقه ، ولا يسن جيل للجيل الذى سيخلفه سنة الاعوجاج عن طريقه القويم ، أو الشك فى أغراضه القومية المأثورة ، وأهدافه الثابتة التى يتواصون بها كابراً عن كابر .

كلهم فى عاجلتهم يعملون لما رسموه لآجلتهم ، لا يحولهم عن ذلك نفع شخصى زائل ، ولا طمع ذاتى خسيس . إنهم يعيشون لأمتهم ، فتعرف لهم أمتهم أقدارهم ، وهكذا يكمل اللاحق ما بدأ به السابق ، ويتعاون السابق مع معاصريه ، واللاحق مع أبناء جيله بكل إخلاص بعيدين عن الأنانية وانتهاز الفرص المعمية للوجاهة الكاذبة والكسب الحرام .

إن اضطراب سير مجتمعنا ودولتنا ناشىء عن اضطراب سير أفرادنا ، ولا سيما خاصتنا : يتولى وزارة المعارف زكى أبو السعود فيقرر مشروع تأليف دائرة معارف عربية تستوفى أرقى ما وصل إليه العلم من المعارف الكونية والفكرية ، منضماً إلى ذلك أشمل ما وصلنا إلى معرفته من تراث سلفنا وتاريخ أمتنا وتراجم أعلامنا والتعريف ببلداننا ومذاهبنا وكل ما يتعلق بنا وبثقافتنا . ويأتى بعد زكى أبى السعود وزير آخر للمعارف يكبر عليه أن يحقق مشروعاً قرن باسم سلفه ، فيميت ذلك المشروع ويدفنه مكفناً بالحسد والحقد والشماتة ، ويرضى لأمته أن تستمر فى حرمانها العلمى . ويعمد اليهود قبل أن تصير لهم دولة إلى تأليف

دائرة معارف إسرائيلية ، على فقرهم فيما نحن أغنياء به من الأمجاد العلمية والخلقية والحربية والعمرانية ، فيتم لهم هذا العمل الضخم بتعاونهم ، وتساندهم ، ويأكل آخرهم ما بدأ به أولهم وهذه هي دائرة المعارف اليهودية موجودة فى أيديهم ، وإن ما دونوه فيها كان مما أعان ساستهم على نشر الفكرة الصهيونية وتثبيت الإيمان بها فى شبابهم وبناتهم حتى قامت لهم دولة من العدم بعد أن عاشوا أذلاء محكومين لغيرهم أكثر من عشرين قرناً .

كل الناس فى الأمم الأخرى يعيشون لمجموعهم ، والفرد منهم يعظم ويجل بإخلاصه للمصلحة العامة والحياة المالية والمجد القومى والعمران الوطنى . وأفرادنا ـ ولا سيما الخاصة منا ـ يعيش الواحد منهم لنفسه مستهزئاً بالمبادىء النبيلة ، معطلا القواعد الصحيحة الراجحة من رسالات الله ، ومحاولا أن يختلس من مجتمعه وأمته ودولته أقصى ما يستطيعه من مال أو جاه أو منصب ، حتى أصبحت قاعدة الإسلام « طالب الولاية لا يولى » أرخص فى نظرهم من قطعة النقود النحاسية التى بطل التعامل بها . ولو أن الذكى من أذكيائنا أخلص النية لله فيما يعمل ، واكتفى بأن يعرف اللهُ ذلك له وإن لم يعرفه الناس ، لكافأه الله بالحلال الطيب الدائم أضعاف ما طمع باختطافه من حرام لا يدوم .

لم يبلغ الطمع بالحرام فى شخص أكثر مما بلغ فى طريد مصر قبل أقل من نصف سنة : هذه قصوره قد خلت منه ، وهذا حرسه الذى كان يقيمه كالدمالج إلى جانب قصوره لم يستطع أن يمنع عنه نقمة الله عند نزولها به ، وهؤلاء الذين كانوا يتملقونه ويتزلفون إليه بأكثر مما يتملق به الحمار قد انقلبوا عليه ، وهم الآن يملأون صحفهم بالزراية عليه وحكاية ما يعرفونه أو يتشكرونه من قالة السوء فيه . ولو أن هذا الحادث الجسيم الذى شاهدناه بأعيننا وقع فى أزمان المعجزات السابقة للإسلام لكان معجزة من معجزاتها ، ومع ذلك فإنه ـ فى الواقع ـ آية من آيات الله على أن الذين يحبون (العاجلة) ويذرون الآخرة ، لا شك أن وجوههم ستكون عند الله باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة . ولما كان الله يملى لهم وهم سادرون فى غيهم ، كانوا يذرون وراءهم يوماً ثقيلا ، والله قادر على أن يبدل أمثالهم تبديلا .

إن القدر المشترك الذى تتم به القناعة والرضا من المعايش ميسور للذين ينشدونه بجدهم وكفاءتهم وإتقانهم وإخلاصهم ، ثم إذا صاروا إلى ربهم صاروا إليه بوجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة . وما زاد عن العيش المعتدل من نعيم العاجلة ومغانمها ـ مما لا يصيبه المرء

إلا بتضحية شيء من أخلاقه ، والحيف من دينه ، والنقص من آجله - فإنه لا يخفى على الناس وإن ظنه يخفى عليهم :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

على أنه لو خفي شيء من ذلك على الناس فإن الله لا تخفى عليه خافية ، وعنده مما أنزل بفاروق شيء كثير لغيره من الفواريق . وكما أنذر الله من يحب العاجلة بأن له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ، فإن سنة الله مضت فى أهل العاجلة أن يعجل لهم العقوبة فى الدنيا أيضا فلا يدفعها عنهم ذكاؤهم ولا أحابيلهم ولا أنصارهم ولا أموالهم ولا الذين يتملقونهم صادقين أو كاذبين .

إن الإسلام ليس بشهادة الميلاد ، وإن رسالته من الله عز وجل بقواعده وسننه إنما بعثها لإقامتها وتحقيقها والتعامل بها ، وفى طليعة قواعد الإسلام وسننه أن يكتفى المسلم بالقدر المعتدل من نعيم الدنيا ، وأن يترفع عما يتزاحم عليه صغار الأحلام من سفاسف الوجاهة والمظاهر ، وأن يؤثر بعد ذلك مراضى الله عز وجل فى آجل خيراته ، على مساخطه فى عاجل المغانم من هذه الدنيا الفانية . ومن ضحى بهذه السفاسف إيثاراً لآجل رحمة الله ورضاه ، عظمه الله فى عيون الناس ، ورفع مقامه فى الدنيا فضلا عما وعده فى الآخرة . وكلما كثر فى هذه الأمة الإسلامية عدد الذين يؤثرون الآجلة على العاجلة ، اقتربت بهم الأمة إلى مراضى الله وإعزازه ، وسهل على أهل النيات الصالحة من ولاة الأمور إنشاء الدولة القوية التى تعتز الملة بها ، وييأس الأعداء من تسخيرها لمآربهم الاستعمارية . ولا تصلح الدولة وتقوى وتعتز إلا بصلاح الأمة ونظافة سرائرها وسلامة أهدافها ، ولا تصلح الأمة وتصفو سرائرها وتسلم أهدافها إلا بإيثار الأفراد - ولا سيما الخاصة منهم - الآجلة على العاجلة . بهذا مضت سنة الله فى أسلافنا الصالحين من زمن الصحابة إلى دولة بنى أمية فالصدر الأول من دولة بنى العباس ، وفى الفترات المتعددة بعد ذلك من تاريخ الإسلام . وإن لم نفعل فإن الله لنا بالمرصاد ...

محب الدين الخطيب

خصب العقول وجدبها

لا أعرف شيئاً فى الوجود أسمى قيمة ، وأعظم مقداراً من العقل فهو الذى ميز الإنسان عن سائر الحيوان ولولاه لكان من الحيوان ما هو خير منه .

لم يتميز عنه بالقوة البدنية فإن من الحيوان ما هو أقوى بدناً منه كالثور والجمل ، ولم يتميز عنه بحدة الأنياب والأظفار فإن من الحيوان ما هو أحد منه أنياباً وأظافر ، وإنما تميز عنه بهذه اللطيفة الربانية التى هى العقل .

به استحق خلافة الله فى الأرض ودانت له أحجارها ونباتها وحيوانها ، ولو أعطى النمل العقل وزاد على الإنسان بمقدار خردلة منه لكانت له الخلافة فى الأرض ولاستعبد الإنسان واستخدمه فى مصالحه كما يستخدم الإنسان سائر الحيوان ، والأمة التى تسمو عقول أبنائها على عقول أمة أخرى تسخرها فى مصالحها كما تسخر هى الحيوانات التى هى أقل منها عقلا وأنقص إدراكا . لقد خلق الله الإنسان ولا صوف له ولا شعر ولا وبر يتقى بها الحر والبرد ولا أنياب له ولا أظفار تحميه من افتراس جوارح الطير وسباع الحيوان وليس له من قوة الجسم ما للجمل والحصان والثور ولكن وهبه الله العقل فكان سدادا من عوز وعوضاً عن الجميع .

ولو سئلت بماذا تشير على أمتك بعد طول ما جربت وكثرة ما قرأت من كتب الحكمة والفلسفة والاجتماع لقلت إن أول ما أشير به أن تعنى بعقولها وأن تنميها وتزكيها وتبلغ بها أقصى ما قدر لها من قوة ونماء .

وإنى لأعجب للأمم التى تعنى بقوة أجسامها ولا تعنى بتقوية عقولها ، لو خيرت بين أن تخصب الصحارى المحيطة بمصر حتى تصير جنات وارفة الظلال وتجدب عقول أبنائها أو تخصب العقول وتجدب الصحارى لاخترت خصب العقول ولو أجدبت الأرض والبلاد .

إن خصب العقول يخصب الجدب من الأرض ، وإن جدب العقول يجدب الخصب منها وإذا بقيت على خصبها لم يحتفظ بها وغلبه عليها المخصبون عقولا والأقوياء بعقولهم ، قال الأصمعى لصبى من الأعراب أيسرك أن يكون لك مائة ألف وأنك أحمق ؟ فقال لا إنى أخاف أن يجنى على حمق جناية تذهب بمالى ويبقى على حمق . وقال النبى ﷺ ما اكتسب

المرء مثل عقل يهدى صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى . وقال الحسن البصرى ما استودع الله أحداً عقلا إلا استنقذه به يوماً ما ، واعترف أهل جهنم بأنه ما جنى عليهم إلا ضعف عقولهم وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ، وقالوا العقل أفضل مرجو ، والجهل أنكى عدو ، وإن الجاهل ليبلغ من نفسه ما لا يبلغه أعداؤه منه .

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

ولكل قوة فى الجسد طريق لتربيتها ، فإذا مرنت بلغت كمالها ، وإذا أهملت بقيت كامنة مستورة ناقصة .

والعقل من قوى النفس له طرق لتنميته وإكماله قد عرفها اليونان فى القديم . فأنتجوا العلوم والمعارف ، وهذه ثروتهم باقية على الدهر ، وقد عرفها علماء الإسلام فى قرونه الزاهية فشغفوا بالعلم والفلسفة وأنتجوا فيهما ، وقد هدى إليها علماء أوربة فى عصر النهضة فأنتجوا هذه المخترعات وغيروا وجه الأرض بمبتكراتهم .

ومن الطرق لتنمية العقل تكليفه بأعمال عقلية يستخرج بها المجهولات من المعلومات كمسائل الحساب والهندسة ومسائل العلوم الصعبة كمسائل التوحيد والأصول ودراسة المنطق الذى يبحث فى قوانين الفكر التى توصل إلى المجهول وكيف يحترز عن الخطأ فيها ، ومما لا شك فيه أن علماء المسلمين كانوا يعرفون هذه السبل لتنمية العقل ويستعملونها ، قال ابن خلدون وكان شيوخنا يقولون : إن الهندسة للذهن كالصابون للثوب تغسل وضره وتزيل أدرانه .

وقد بدأت النهضة فى أوربا عند ما بدأوا يبحثون عن المنطق وطرق ابتكار المجهول من المعلوم ويناقشون المنطق القديم ويريدون أن ينقدوه ويزيدوا عليه — وإنى أريد من الأمم الإسلامية أن يجعلوا العقل قوة من قواهم يعملون على تربيته وإنمائه كما يتمرنون على المصارعة وحمل الأثقال والرياضة البدنية فليست حاجتهم إلى تنمية عقولهم بأقل من حاجتهم إلى المصارعة وحمل الأثقال بل يجب أن يعلموا أن حاجتهم إلى عقولهم أشد حاجة .

وليست مصائبنا الاقتصادية والسياسية والأخلاقية إلا من عدم نمو ملكة الابتكار والاستنتاج فينا بالقدر اللازم لهذه الحياة المشتبكة .

إن منا من يدرسون علم الاقتصاد والاجتماع والتربية ولكن ليس منا من يتنبأ بالأزمات قبل وقوعها ويهدى أمته إلى طريق الخلاص منها ، بل إننا نخلق الأزمات بأيدينا ونضر أنفسنا بأكثر مما يضرنا به أعداؤنا .

ولعل القارئ يعجب من ذلك وسأضرب أمثالا له :

نحن الآن في أزمة اقتصادية شديدة يتخوف منها ولاة الأمور وقد غلت الأسعار وبلغت خمسة أمثال أو عشرة أمثال ما كانت عليه قبل الحرب الأخيرة وهذا من صنع أيدينا ومن أنه ليس عندنا ملكة الابتكار بالقدر الذي ينجينا في هذه الحياة المشتبكة المرتبكة .

كنا نعيش بميزانية قدرها أربعون مليونا قبل الحرب الأخيرة وكانت تكفينا وتسد حاجة الدولة فزادت بعدها إلى مائتي مليون بالتدريج ، وهذه الزيادة أكثرها من دخل غير ثابت كرسوم الجمارك ، وكان ينبغي ألا نرتب عليها نفقات ثابتة خوف أن ترجع الأمور إلى حالها ويذهب الإيراد غير الثابت ويبقى المصروف الثابت لا نجد له دخلا إلا الاحتياطي أو الاستدانة .

كان ينبغي أن نعلم أن هذه الحالة شاذة وطارئة والشاذ لا يجعل مقياساً ، وإنما تبنى الأمور على الأصول المطردة وعلى الأعم الأغلب .

ولكن وقعنا في الخطأ وذهبنا نستكثر من الموظفين والمصلحة الواحدة اشتقت منها مصالح عدة وجعل لكل منها إدارة وكتاب ومستشارون الخ . وزيدت رواتب الموظفين وبذلك ألقيت هذه الزيادة في المرتبات في السوق وهي أموال استهلاكية وقلت السلع المطلوبة عنها فغلت الأسعار وتضخم النقد ولو أننا عشنا بميزانيتنا القديمة وزدنا زيادة يسيرة في مصاريف الاستهلاك وضممنا الزيادة الكثيرة في الميزانية إلى مدخر الحكومة أي الاحتياطي وأنفقنا منه في مشاريع منتجة لكانت فرصة انتهزناها وكنا الآن من أغنى الأمم وكنا بذلك نجنب الأمة غلاء الأسعار وتضخم النقد الناتج من طرح مال في الاستهلاك لا يجد السلع التي يريدها ولاتقينا تلك الأزمة المقبلة الناشئة من انخفاض في الدخل غير الثابت الذي وظف عليه نفقات ثابتة .

كنا نزيد في الموظفين وفي مرتباتهم وكلما زدنا كلما اندفعوا إلى السوق يستهلكونها فيها وكلما فعلوا ذلك زاد التجار أثمان سلعهم وكلما زادوها شكا الموظفون وكلما شكا الموظفون زدنا في المرتبات . وهكذا وقعنا في هذه الحلقة المفرغة أو في هذا الدور الذي يزيد الأول في الثاني ويزيد الثاني في الأول حتى يصل إلى أن يرهقنا .

وقد وقعنا في دور آخر وهو أن الدولة تزيد في رسوم الجمارك لتدبر المال لزيادات

الموظفين وكلما زادتها زادت السلع وكلما زادت السلع شكا الموظفون فتعمد الدولة إلى زيادة رسوم الجمارك وهكذا .

أرأيتم كيف نصنع قيودنا بأيدينا أرأيتم كيف تخلق الأزمات وما نحن أولاء ، تدعو الأمة إلى التقشف وكيف تستجيب لصوت العقل وفيها هذا المال الكثير المطروح للاستهلاك ، إنه لا منقذ لنا إلا أن نعود بميزانيتنا إلى مثل ما قبل الحرب أو قريب منها في المصروفات ونحذف كل زيادة جدت عليها ، إني أعلم أن هذا فطام والفطام شديد ، ولكنه هو الدواء الوحيد .

أتدرون ماذا فعلت أمم أخرى أكثر منا تجربة وأوسع عقلا وأبعد نظراً ، خرجت إنجلترة من الحرب الثانية مدينة للدول الأخرى بالبلايين من الجنيهات لأنها كانت تنفق في كل شروق شمس من أيام الحرب اثنى عشر مليوناً من الجنيهات ، وكان يظن الناس أنها لا تجد وفاء ، وأنها عاجزة عن السداد فاذا فعلت حتى خرجت من هذه الضائقة ، لقد فرضت على نفسها التقشف وأبقت القيود على الاستهلاك التى كانت في زمن الحرب كما هى ولم ترحم نفسها بعد أن كابدت سبع سنين شداداً ذاقت فيها الحرمان بل مدت هذا الحرمان طواعية إلى أيام السلم وانتهزت غلاء منتجاتها في البلاد الأخرى وأرسلت بها إليها وحرمتها على نفسها ، وهل تجد فرصة ذهبية كهذه وتضيعها ، إن متر الصوف الذى كان يباع بنصف جنيه أصبح يباع بأربعة جنيهات فلم لا تحرمه على نفسها وتبيعه في أسواق العالم ، إنها أبقت نظام البطاقات فلا تأكل ولا تلبس إلا بقدر معلوم ونظام محدود .

وكانت العاقبة أن وفت كثيراً من ديونها وتخلصت من عون أمريكا واجتازت هذه الأزمة بسلام .

هاتان أمتان إحداهما خرجت من الحرب دائنة للأخرى بأربعمائة مليون جنيه ، والثانية خرجت مدينة لها ولأمم أخرى بآلاف الملايين ولكن العقل بدل الحال ، وغير المآل .

وقبل ذلك ارتكبت غلطة كبيرة في أيام الحرب وذلك أن عند البنك الأهلى تصريحا من الحكومة المصرية بأن يصدر أوراقا نقدية بضمان الخزانة البريطانية ، فلما كثرت جيوش الحلفاء بمصر في أيام الحرب واحتاجت إلى المئونة والكسوة ، كلفت البنك الأهلى بإصدار أوراق مصرية نقدية ، وأخذت هذه الأوراق ونزلت بها إلى الأسواق مشترية : إلى سوق اللحم والخضر والفاكهة ، وكان همها أن تحصل على حاجتها ولا تبالى بما تدفع من ثمن

فأدى ذلك إلى ارتفاع الأسعار ارتفاعا فاحشا ؛ ولقى المصريون من جرائه عسرا وعنتا ، كان يجب على الحكومة المصرية أن تدرك هذه النتيجة فتطلب من القيادة أن يكون تموين الجيوش عن طريقها ، فتشترى هى بما لا يؤدى إلى رفع الأثمان وتوزع توزيعاً عادلا بين الأمة والجيوش .

وهناك مثل آخر :

ارتفع ثمن القطن عقب الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٩ حتى بلغ خمسين جنيهاً للقنطار الواحد ، وقد حسد مصر بعض النواب البريطانيين فى مجلس العموم ورأى أنها قد جنت من قطنها ما يسدد ديونها ولم يدر أن هذه الثروة الضخمة لم تلبث حتى تسربت إلى أيد أخرى كانت أحزم وأعقل وأعلم بالعواقب ، لأن المصريين جعلوا الأثمان فى هذا العام الشاذ قاعدة وقاسوا عليها ولم يعلموا أنها نتيجة إقفار المغازل طول الحرب ، فقاسوا عليها ما يأتى من أعوام ، واندفعوا فى شراء الأرض التى تنتج لهم القطن الذى يبيعون قنطاره بخمسين جنيها فغلت أثمانها لكثرة الطلب ، ورأت شركات الأراضى فى ذلك فرصة فباعت ما تحت أيديها من أرض وقبضت بعض الثمن وأجلت باقيه ، فلما جاءت السنة التالية هبطت أثمانه إلى خمسة جنيهات فأصبحوا مدينين بدين لا يجدون له وفاء ، فرجعت إلى الشركات أراضيها وفازت بما عجل من ثمنه ، وربما نزعت مالهم من عقار تليد ، ثروة لم تمكث بأيدى المصريين إلا ريثما دخلت خزائنهم ثم خرجت كأنما قد عنوا بقول الشاعر :

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا لكن يمر عليها وهو منطلق

لهذا كله أهيب بأمتى أن تعرف للعقل قيمته التى لا تعلوها قيمة لشىء آخر فتسعى لاستكماله فيما سعى من يعلم أنه إن حرمه هلك ، ولا تطمئن إلى شىء حتى تبلغ بعقولها مبلغ أرقى أمة فى العالم .

لم يحرص الإسلام على شىء كما حرص على أن يستعمل المسلمون عقولهم وينموها ويعيشوا بضياء عقولهم فى ظلمات هذا الوجود .

وماذا كان يفعل فى التنفير من الجهل والحمق أكثر من قوله « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » .

وماذا كان يفعل فى بيان شرف العقل والعلم أكثر من قوله «هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

وهل هناك ما يحض على استعمال العقل وتحريك الفكر أكثر من قوله «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها» .

«ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا» .

«قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين» .

وما أكثر ما نقرأ فى ختام الآيات أفلا يعقلون ، بل أكثرهم لا يعقلون ، ولقد ارتضى الله أن يحكم العقل بينه وبين خلقه ، فكثيراً ما تحاكم فى القرآن إليه ورضى حكمه .

ولقد بغض فى إهمال العقل وعدم استعماله وكره أن يكون أداة مهملة يطفئه صاحبه ويمشى فى الظلمات وقد جعله الله نبراساً يضىء له أينما سار ، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ، «إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا» .

«إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم» .

والظاهر أن الإسلام أراد من المسلم أن يعمل عقله ولا يهمله ولو أدى إلى خطأ ، ويدل على ذلك أنه جعل للباحث الذى بحث واستقصى أجرين إن أصاب ، وأجراً إن أخطأ فأثابه على خطئه ولم يجعل للكسلان الذى أراد السلامة شيئا من الأجر .

هذا الهدى الإلهى حبب السالفين الأولين من المسلمين فى عقولهم فحرصوا عليها واستعملوها وكانوا يبغضون التقليد فى الدين . فقد قال ابن مسعود : أغد عالماً أو متعلماً ولا تغد إمعة فيما بين ذلك - والإمعة هو المحقب دينه الرجال - وقال عبد الله بن المعتز : لا فرق بين بهيمة تقاد ، وإنسان يقلد ، ولكن خلفت خلوف أهملوا عقولهم ورضوا بالتقليد فى أمر دينهم ودنياهم واستناموا إلى الكسل العقلى فلا يقرءون إلا السهل ، ولا يقفون أمام مشاكل الحياة يبغون حلها بل يهربون منها ما دامت تكلفهم تفكيراً وعملا عقليا ، ولو مرنوا عقولهم على العمل والابتكار لوجدوا لذتهم فى العمل العقلى الصعب ولبحثوا عن المشكلات لحلها جريا وراء اللذة العقلية .

إن العقل الذى كان يعيش به أسلافنا فى حياتهم السهلة البسيطة لا يكفينا اليوم لنعيش به فى حياتنا الصعبة المعقدة فلا بد من ترتيبه وإنمائه وتعويده حل مشكلاتنا لنعيش سعداء .

لا أدرى لم لم يفهم علماء المسلمين من هذه النصوص الكثيرة أن العناية بالعقل وتربيته وإنمائه حتى يبلغ مرتبة النظر الصحيح وحتى يمرن على العمل الفكرى ويأنف من التقليد فرض من فرائض الإسلام كالصلاة والصيام والحج ، أكانوا يريدون نصوصا أصرح من هذه وأوكد ، إن الأوامر الدالة على وجوب ما ذكرنا لم تبلغ مبلغ الأوامر الدالة على وجوب النظر وعلى تحريم التقليد وعلى المحافظة على أعمال العقل وإنماء الفكر .

إنهم لو هدوا إلى ذلك لكان هناك علم واسع يشبه علم المنطق ويزيد عليه فى معرفة ما يؤدى إلى الكسل العقلى والركون إلى التقليد لتجتنب ، ومعرفة ما يؤدى إلى النشاط الذهنى والأنفة من التقليد لتتبع ، ولكان من وراء ذلك كله إنماء العقول فى البلاد الإسلامية حيث جعل فرضا متعبداً به يأثم تاركه ويثاب فاعله .

أريد أن ألفت المسلمين إلى عقولهم ليعلموا أن فيها كنوزاً خيراً من كنوز الدنيا جميعها .

وما بالك بكنز إذا ملكه صاحبه جعل كنوز الدنيا كلها وكنوز الآخرة كلها تحت قدميه .

أريد أن يتدارك المسلمون ما فاتهم من العناية بعقولهم ، وأن يعلموا أنه واجب تحتمه عليهم ظروف الحياة القاسية ليتخلصوا من شرورها وآثامها كما يوجبه عليهم دينهم الذى ارتضاه الله لهم .

إننا فى هذا العصر الجديد نريد أن نرقى فى كل شىء ، نريد أن نرقى فى الزراعة ، والصناعة والتجارة ، وفى مستوى المعيشة ، ولن نرقى فى شىء من ذلك إلا إذا رقيت عقولنا وارتفعت إلى مستوى أعلى من المستوى الذى هى عليه الآن .

إن كل رقى يأتى من الخارج يدوم ما دام ذلك الخارج ، فإذا زال زال .

أما الرقى الذى يبقى فهو ذلك الرقى الذى يأتى من داخلنا ومن عقولنا فتستنير العقول وتنير لنا طريقنا وتوحى لكل فرد منا بما يجب عليه فى هذه الحياة فإذا كل شىء فى حركة وكل شىء فى تقدم ، وكل شىء فى نظام ، هذا هو الطريق ولا طريق سواه .

محمد عرفه

عضو جماعة كبار العلماء

نفحات القرآن

ولم لا أكتب عما يجيش بالخواطر من نفحات القرآن ، وما لها من الأثر الواقعي في تهذيب النفس ، وتربية الخلق ، وتغذية العقل ، وحياة القلب ؟؟

أليس ذلك أليق بنا ، وألزم لنا ، وأجدى على الناس مما ينشره آخرون من باطل القول بنسخ القرآن بعد وفاة الرسول ﷺ ، وبأن الدين لا يتصل بالسياسة والحكم ، وأن الناس يملكون التحلل من نصوص القرآن طواعية لما يرونه مصلحة لدنياهم ؟؟

كنا نربأ بتلك الأقلام عن فتنة الناس في دينهم بهذه النزعات التي أثيرت من قبل ، ثم قبعت في وكرها ولم يعد لإيقاظها اليوم سبب مفهوم .

وكنا نغتبط ونطمئن لما يطلع علينا به أولئك الكرام الكاتبون ، حتى حملت إلينا عنهم مجلة تسمي نفسها « رسالة الإسلام » ، وتسمى نفسها « لسان التقريب » ، فباعدت بيننا وبين الثقة فيما يكتبون ، وأوحت إلينا - بعملها في ترويج الضلالات - أنها نصبت نفسها للتفريق لا للتقريب ، وأنها لا ترى بأساً من تشكيك المسلمين في أحكام القرآن ، وإطلاق العنان لكل من كتب فيها ولو كانت كتابته أباطيل .

أنستطيع أن نقول لأولئك الأفاضل : وقروا كتاب الله ، ولا تهتكوا حرمانه ، ولكم في مجال الفكر متسع ، فأشرعوا أقلامكم فيما ينفع ، لا فيما يضر ؟؟ ولكن كأن قائلهم يقول وهو واثق من شذوذه :

كل من في الوجود يطلب صيداً غير أن الشباك مختلفات

وبعد ، فما بنا من حاجة إلى الانصراف عما نحن بسبيله ، والانسياق وراء هذه النزعة ، ونحن نتجه بالقارىء إلى ما أعددنا إليه .

استنفد البحث في جوانب القرآن جهوداً وجهوداً من العلماء ، وسايرته الأجيال قروناً وقروناً من الزمن ، فما استعصى عليهم هديه ، ولا ضاقت بهم رحابه . . .

وقد عنى القرآن أى عناية بالتربية الخلقية ، والاتجاه بالإنسانية نحو مثلها العليا ، وإحاطتها بسياج من الإرشاد ، لا وهن فيه ، ولا إرهاق ، ولا سآمة منه ، وإن تردد على الأسماع بكرة وعشيا .

وها نحن ـ وقد عشنا والحمد لله فى أحضان القرآن ـ وإن كانت نزعتنا الدينية لم تبلغ مبلغها من الكمال ، نرى القرآن مغريا للأسماع ، تنصت إليه وكأنها تلتمس فيه كل حين من نشوة القلب شيئاً غير الذى سبق لها أن وجدته ، وتقبل عليه وكأنها تحس فى طيه نفائس مكنونة غير الذى وقفت عليه من جهود الباحثين طوال القرون .

ولا نزال نعهد فى القرآن إذا خلى ما بينه وبين القلب من لهو الحياة ، وإذا تهيأت له النفس صافية من شوائب الغرور : كأنه والحالة هذه فى مطلعه الجديد سحراً ، وجاذبية ، وطرافة .

وما تستطيع فطرة إنسان أن تتعاظم على الإعجاب به ، إلا أن تكون فطرة منقوصة ، أو مدخولة بالآفن ، أو سادرة فى تيمية غاشمة جهلاء ...

ومن المسلم به أن للقرآن فى خطاب الإنسان مسالك تتنوع بتنوع المقام والغاية : فأنت تراه مرة يشتد باللائمة فى تعنيفه ، ويصفه بما فيه من نقائص ، وبما يلازمه من هنات ، وتراه يذكره بما نسى من ضعفه وهوانه ، ويمن عليه بما يغمره من فضل الله ونعمائه مع تنكره للنعمة ، وصلفه عن تقدير الفضل وشكرانه .

ذلك التجبيه ليقيم عليه الحجة ، ويكفه عن غلوائه ، ويلفته إلى الجانب الإلهى لفتة فيها استكانة ومذلة ، وفيها ترضية وتقرب ، وفيها آدمية وادعة دائما أمام جبروت إلهى وسلطان . يلهج القرآن فى ذلك بأن الإنسان ظلوم كفار ، وأنه يطغى أن رآه استغنى ، وأنه مختال فخور ، وأنه يصعر خده للناس ، ويمشى فى الأرض مرحا ، وإن كان لا يخرق الأرض ولا يبلغ الجبال طولا ، وهكذا ، مما يعاب فى نظر الإسلام ، وفى نظر التربية الحقة .

وحينما ينظر القرآن فى الإنسان إلى جانب العقل الذى آثره الله به ، وينظر إلى مقوماته الأخرى التى رفعته على غيره إلى تعليم الخلافة فى الأرض عن ربه يسلك فى خطابه مسلكا لينا ، فيه رفق ، وترويح ، وفيه تلطف يثير به الحساسية الكريمة ، ويستنهض به الوجدان الحى ، ويندبه ندبا لا قهر فيه إلى التجمل بالكمال الخلقى ، والترفع عن المهانات .

ووسيلة الكتاب العزيز في هذا الجانب إما خطاب صريح ، أو تعريض وتلويح .

فأنت تراه يرفع من شأنه إذ يناديه « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم » الآية ، « قل ياعبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم ـ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » الآية ، « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله » ، « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم » ، وهكذا مما يكثر مثله في نسق القرآن .

فهذه نداءات هينة ، فيها تفاهم ، وإيقاظ للمشاعر ، وهو توجيه معسول ، لا يظفر به المرء إلا إذا قصد القرآن أن يستدرجه إلى الهداية ويستلين جانبه إلى الخير لنفسه ، ولم يتركه تكتنفه الأخطاء ، وتحيط به الرذائل ، ثم يستبد به اليأس ، ويجثم على صدره القنوط .

وإن يكن ذلك منوطاً بالسياق اللفظى ، أو متصلا بالمصطلحات الفنية في طرق الدلالة وما يحيط بها من تعليلات ، فقد سما القرآن عن الوقوف عند المصطلحات فيما تخيره من أسلوب التعريض والتلويح ، وعمد في التربية بهذا الأسلوب إلى الإيحاء ، واعتمد على روحانيته في الدعوة التهذيبية لا في الأحكام والتكاليف العملية .

ويجب ـ فيما أفهم ـ أن نلحظ هذه الروحانية ، وألا نتجاهلها كوسيلة في التربية : بل في التربية المثالية التي لا تكاد تدرك بالنظم الوضعية . وعلماؤنا لا يمانعون ـ فيما أعلم ـ أن لكلام الله إشعاعاً نيراً ، ونفحاً أريجاً ، ولعل فينا من يستمع فيحس للآيات إشعاعاً يدخل إلى القلب فيصحو من غفوته ، ويحس بنفحة السياق تتضوع في جنبات نفسه ، وحنايا صدره فينشط منه الوعى ، وتنتعش الحساسية المعنوية ، وتتركز في القلب نجوى القرآن ، ويكون من أثر هذا الإيحاء في التربية والتهذيب نصيب ، أي نصيب ؟ ؟

وقد تبدو لك هذه الظاهرة في كثيرين ممن لا علم عندهم ولا تعلم : تهش وجوههم للقرآن وتبدو عليهم ملامح التذوق لحلاوته ، حتى ليفصح بعضهم عما يخالج شعوره ، وأحسب أن هذا التأثير هو ما سماه الأعرابي حلاوة وطلاوة ، حينما راعه القرآن بقوته ورقته معا ، فأعلن شهادته : إن هذا ليس من قول البشر . وليس يستكثر هذا الوصف من يذكر أن القرآن نزل ليسمع قبل أن يكون متلوا ، وأنه للتأثير بأسلوبه وروحانيته أكثر مما هو لمجرد التلاوة والتعبد بها ، حتى كان خصومه من قريش يدركون ذلك بسليقتهم ، ويخشون على أنفسهم وأتباعهم أن يعمل القرآن فيهم عمله ، فكانوا يتحاشون سماعه ، ويتناجون بالتحذير من ذلك ، « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن ، والغوا فيه لعلكم تغلبون » .

ولدينا أمور تؤكد ما نقول إن كان بحاجة إلى التأكيد : منها ـ أن النبي ﷺ كان يتهافت حين النزول على تلقف ما يسمعه من جبريل ، فأمره الله أن ينصت قبل أن يتلو « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ... » ، « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه » .

وإذا كان ذلك التعليم ففيه الدلالة الواضحة على أن الإنصات مطلوب ممن يسمع ، كما طلب إلى النبي ﷺ أن يرتل القرآن ترتيلا ، وكما طلب إلينا مع ذلك كله أن نتدبر آياته ، وليس للإنصات ، والتدبر ، والترتيل من حكمة واضحة سوى التفرغ لسماعه والإقبال على تفهمه ، وهذا مجال تنساب فيه الروحانية والعظة إلى النفس انسيابا .

ألم يطلب إلينا النبي ﷺ أن نحسّن القرآن بأصواتنا ؟ ولقد كان هو نفسه يطرب لسماعه من صوت جميل ، كما حدث عن نفسه لأبي موسى الأشعري إذ سمعه يقرأ في جوف الليل فأصغى إليه في إعجاب ، ثم ذكر ذلك صبحاً لأبي موسى فقال له : « لو علمت أنك تسمعني لحبرته لك تحبيرا » ، يريد تجويده بصوت أحسن مما سمع الرسول وطرب له . ولقد كان تأثير القرآن شديدا جديدا على كفار قريش إذ رآهم يقاومونه بعواطف متحجرة ، ويستقبلونه بصدور حانقة ، وليس يحول بينهم وبين الاستجابة له إلا أن يحاولوا توجيه نفوسهم « أفمن هذا الحديث تعجبون ، وتضحكون ولا تبكون ، وأنتم سامدون ؟ فاسجدوا لله واعبدوا » .

وكذلك : من الأمور التي تؤكد ما نقول ، أن القرآن يعتمد على الإيحاء ـ إلى جانب ما سلف ـ من طريق بارزة أكثر ، وهي : ضرب الأمثال ، والإشادة بالأنبياء والصالحين والتنويه بشأن الأزمنة والأمكنة التي جعل الله لها اعتبارا أرجح من سواها .

فمن الأمثال « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ـ الآية » إلى أن قال « ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار » .

وواضح أن ليس القصد مجرد المقابلة بين شيء حسن وآخر قبيح ، بل ما يوحى به ذلك التمثيل ، ويستدعيه من فطنة ومتابعة ؛ وهكذا في بقية الأمثال ، ومن أجل ذلك امتن الله علينا بضرب الأمثال ، وعاب علينا أننا لا نهتدي بهديها لأننا نكون حينئذ في معزل عن محيط العقلاء ، ولسنا من ذوى الألباب « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » « وما يذكر إلا أولو الألباب » .

وكذلك فى قصصه لسير الأنبياء وذكر مناقبهم وذكر الصالحين الذين سبقوا ، فهو حين يصفهم بقوله « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً » أو بقوله « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » ، لا يقصد مجرد خبر عنهم ، فليس القصد التاريخى غاية أولى للقرآن . وإنما يوحى إلينا أن نمعن فى الآيات مثل ما أمعنوا ليتجلى من أسرارها ما تسكن إليه النفس ويزداد به الإيمان ويتم عليه الخلق الكريم .

وكذلك إذا نوه بشأن الأوقات والأماكن ، فإنما يوعز إلينا بما لها من فضل ، ويحثنا على انتهازها فرصا نغتنم العمل فيها ؛ فهو يذكر الفجر ، والليالى العشر ، ويذكر الصبح ، والضحى ، والعصر ، والليل . ويذكر الغدو والآصال الخ . . .

فإذا رجع الإنسان إلى كل هاتيك النواحى ، ولحظ أنها منوطة بفضل ، وأن لها من أجل ذلك اعتباراً خاصا تبين له أنه يعيش فى إطار من نظام التربية ، وأنه واجد من وسائلها ما يحصن به نفسه كل حين إذا لم تغلب عليه شقوته .

وإذا فطن المرء إلى أن الإسلام وفر لأهله العظة ، ورجع بهم مرة إلى سير السابقين ، وإلى ضرب الأمثلة ، أو دفعهم مرة أخرى إلى اغتنام الأوقات والأماكن التى لها اعتبار خاص كالمساجد ومجالس العلماء ، تبين له أن هذه معالم هداية تجتمع الأمة عليها فى نهارها أو ليلها ، وترتبط بها كتوثيقات وعهود بينها ، فتكون مستمدة منها تقوية للصلة ، وارتباطاً فى الشعور والاتجاه .

وهكذا سيظل القرآن بيننا منارة وضاءة وإن أعشى ضوؤها عيوناً رمداء ، وسيظل روضة فياحة وإن زكمت لنفحها أنوف .

عبد اللطيف محمد السبكى
عضو جماعة كبار العلماء



تخير العاملين

أساس الاختيار ـ القوة والأمانة ـ تولية الأقارب ـ الحرص على الولاية ـ الإنقاذ من الطغيان ـ خيار الأئمة وشرارهم

عن أبي موسى رضي الله عنه قال : دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من بني عمي ، فقال أحد الرجلين : يارسول الله أمرنا على بعض ماولاك الله عز وجل ، وقال الآخر مثل ذلك ؛ فقال : « إنا والله لا نولي على هذا العمل أحداً سأله ، ولا أحداً حرص عليه » .

وعن أسيد بن حضير رضي الله عنه أن رجلا من الأنصار خلا برسول الله ﷺ ، فقال : ألا تستعملني كما استعملت فلاناً ؟ فقال : « إنكم ستلقون بعدي أثرة ، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض » . رواهما الشيخان ، واللفظ لمسلم .

• • •

عرضنا في الحديث السابق لهدي النبي ﷺ في تقدير الأكفياء من صحابته ، والاستعانة بهم على بناء أمة قوية رشيدة ، جديرة بأن تكون من أمم الأرض جميعاً موضع القدرة والإمامة ، مصداقا لقول بارئها جل ثناؤه : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

ونعرض في هذين الحديثين لهديه صلوات الله وسلامه عليه وحسن سياسته في تخير عماله ، وتوجيه كل منهم إلى الوجهة التي أعده الله لها ، والانتفاع بالموهبة التي مازه الله بها ، وكل ميسر لما خلق له .

« لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » فهو صلوات الله وسلامه

عليه ـ بشهادة ربه ـ معلم أمته الأول ، وإمامها الأمثل ، وقائدها الأعلى ، وأسوتها الحسنة ، فى كل ما جاءت به شريعته الباقية الدائمة ، وما دعت إليه رسالته العامة الخالدة : من إقامة دينهم ، وولاية أمرهم ، وسياسة دولتهم ، ورعاية مصالحهم ، فى الحضر والسفر ، والسلم والحرب . . .

لا جرم أن هذه أعباء جسام ، وشئون عظام ، لابد أن يعاون الإمامَ الأعظم فيها ولاة وأمراء ، وقواد وعمال ، وقضاة وهداة ؛ يمثلونه فى حفظ الدين وسياسة الدنيا عامة ، وفيما وُسِّد إلى كل منهم خاصة ، ولئن قضى ربك أن يجعل عباده درجات ، وأن يقسم بينهم الكفايات ، لقد قضى ـ بشهادة المعصوم ﷺ ـ أن يكون أصحابه أوفى الناس من الفضائل والمكارم حظا ، وأعظمهم سداداً ورشداً ، كما هدى خاتم النبيين ، لفضائل الرسل السابقين « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » .

وكان صلوات الله وسلامه عليه أدرى الناس بأصحابه ، وأعلمهم بما يصلح له كل منهم ، وبما يجدر به أن يتولاه ويحسن البلاء فيه ، فرب شيخ وقور يصوم النهار ويقوم الليل ، ويُستسقى بوجهه الغمام ، لا رأى له فى الحرب ؛ ورب فتى محنك ضرغام ، يقود الجيوش ، ويخوض المعارك ، وينازل الفُرسان والأبطال ، لا خبرة له بإدارة الأموال وحساب الخراج ؛ ورب قوى فى الدين ، راسخ فى اليقين ، لا يغنى فى ولاية أمر يسير ، غناء من هو أقل منه شأناً ، وأضعف منه يقينا . ومن هنا كانت معرفة الرجال ، وتوزيع الولايات والأعمال ، على ما تقتضيه المصلحة الخالصة والسياسة الراشدة ـ من أخص صفات الأئمة الهادين ، والولاة المقسطين ، وفى المقام الأول منهم أنبياء الله ورسله ، فقد عرَّفهم الله سبحانه طبائع النفوس ، وسياسة البشر ، وكل ما تحتاج إليه الدعوة ؛ ليدعوا إلى الله على بينة وبصيرة .

* * *

على هذا الأساس جرت سياسته ﷺ فى شئون الدولة الإسلامية . ومن عرف أن خلقه القرآن ، يرضى برضاه ويسخط بسخطه ، ويتأدب بأدبه ـ علم أن هديه فى الإمارة والولاية على الجيوش والبُلدان والصدقات وغيرها من مرافق الدولة ، هو هدى القرآن الكريم نفسه ، الذى يفرض أول ما يفرض تحقيق خلتين لا مناص منهما للنجاح فى الأعمال وأدائها على وجهها كاملة غير منقوصة ، تانكم القوة ، والأمانة ، وإن شئتم فقولوا : الحفظ ،

والعلم ، كما قالت ابنة الشيخ الكبير (١) في شأن موسى عليه السلام : « إن خير من استأجرت القوي الأمين » ، وكما قال قبلها الصديق عليه السلام لملك مصر : « اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم » .

• • •

والقوي على الأمر الذي يسند إليه هو العليم به ، البصير بداخله وخارجه ، القدير على إحكام خطته ، وإنفاذ سياسته ، على مقتضى العلم والحكمة ، والمصلحة العامة ، وإيثار الحق والعدل على نفسه وأهله والناس أجمعين .

وليس القوي بالفظ الغليظ ، ولا بالمتكبر الجبار ، الذي يتسلح بسلاح العظمة والجبروت ساعة من نهار ، ثم يلقيه مهزوما أمام الشهوات والأهواء . ولقد رأينا رأي العين أن أصلب القادة عودا ، وأقوم الهداة طريقا ، أرقهم قلبا ، وألينهم جانباً ، وأولاهم بالرعية حباً « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

والأمين على الأمر هو الحفيظ عليه ، والحريص على أدائه كما حمل ، الذي يدرك بإخلاصه لله عز وجل ، ثم بصدقه ونصحه وكياسته ، ما لا يدرك الخائن بإخلاصه لنفسه ، ثم بكذبه وغشه وشطارته (٢) .

والإمام الأعظم ونوابه ومن يعاونه في سياسة الدولة من بطانته وأهل مشورته ، أحوج الناس إلى التخلق بالقوة والأمانة ، والحفظ والعلم ، والتطبع بها حتى تكون منهم بمنزلة الخليقة الثابتة ، والسجية المتأصلة ، وإلا فخير لهم أن يتنحوا عن سياسة الأمة طائعين ، قبل أن ينحيهم الأقوياء والأمناء يوماً ما مكرهين مدحورين .

• • •

ومن دقائق السياسة النبوية التي يجحدها أو يجهلها من لا يقدر النبي ﷺ قدره ، ألا يولي العمل أحداً سأله أو حرص عليه ، ولا سيما إن كان من يغني غناءه كفاية ورشداً ، بله من يفضله ويزيد عليه . وذوو الكفايات في العهد النبوي أكثر من أن يحصيهم العد .

ومن هذه الدقائق التي تطالع الناظر في السنة النبوية أنه صلوات الله وسلامه عليه إن

---

(١) المشهور أنه شعيب النبي المرسل عليه السلام ، وعليه أكثر المفسرين .

(٢) شطر فلان على أهله من باب قتل وظرف : ترك موافقتهم وأعياهم لؤما وخبثا .

آنس من السائل رفقاً ولطفا وكان فى سؤاله أقرب إلى العرض والاستشارة، تلطف فى إجابته وبين له وجه المعذرة فى الرد؛ وإن آنس منه إلحاحا وحرصا اقتصر على إجابته بمجرد الرد؛ ليعلمه أن الحق بالسؤال والحريص على الأمر قلما يواتيه التوفيق والرشد، وأن من آتاه الله الإمارة عن غير مسألة أعانه عليها، ومن آتاه الإمارة عن مسألة وطلب وكله إليها، ومن وكله الله إلى غيره فالويل له!

وما قصة أبى موسى الأشعرى، وأسيد بن حضير الأنصارى، رضى الله عنهما إلا شاهدان من الشواهد التى لا تحصى على صدق هذا الهدى الحكيم النبوى:

قدم على أبى موسى رجلان من أبناء عمومته الأشعريين فقالا انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ فإن لنا إليه حاجة، ولم يخبراه ما هى؟ ولم يسألها عنها. وما إن ذهب بهما إليه صلوات الله وسلامه عليه حتى سألاه أن يؤمرهما على بعض البلدان التى جعلها الله تحت يده، فقال النبى ﷺ: ما تقول يا أبا موسى أو يا عبد الله بن قيس؟ كأنه يلومه فى أمرهما، فاعتذر له أبو موسى مقسما بمن بعثه بالحق إنهما لم يطلعاه على ما فى أنفسهما، فقبل عذره وصدقه، وقال لهما إنا لن نستعمل على عملنا من أراده، ولكن اذهب أنت يا أبا موسى. فبعثه على اليمن، ثم أتبعه معاذ بن جبل، فكان كل منهما على عمل مستقل، وكانا يتزاوران ويتعاونان ويتذاكران قيام الليل...

ولم يول هذين الأشعريين عملا حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى صلوات الله عليه. وكذلك الحرص على الأمر مع الإصرار عليه لا يزيد طالبه إلا بعداً عنه.

ولقد كان خيراً منهما أسيد بن حضير رضى الله عنه، وهو نفسه الذى خلا برسول الله ﷺ، وفلان الذى يعنيه هو عمرو بن العاص رضى الله عنه، كما قال صاحب الفتح، وكأنه كنى فى الموضعين ولم يصرح رمزاً إلى معان من الأدب واللطف لا تخفى على ذى لب.

لم يكن أسيد حريصاً على طلب الولاية ولا مصراً، بل كان إلى العرض والاستشارة أقرب منه إلى الطلب والحرص، ولذا لم يجبه الرسول ﷺ بما أجاب به الأشعريين، وإنما أفهمه بلطف أن مصلحة المسلمين العامة — وهى مقدمة على المصالح الخاصة — تقتضى ألا يوليه العمل، لا غمطاً لحقه، ولا نقصاً لفضله، ولا إيثاراً لغيره عليه، فقد علم الناس من هم الأنصار، ومكانتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وقد كان أسيد من أفاضلهم

وأسبقهم إلى الإسلام ، وحسبه شرفاً أنه أحد النقباء ليلة العقبة ، وأنه ممن ثبت يوم أحد ، وأن أبا بكر رضي الله عنه لم يكن يقدم أحدا من الأنصار عليه . بيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم اختار عمرا لكفايته النادرة في الحرب وعظيم بلائه ودهائه فيها ، وسياسته في ولاية الأمور ، وفتوحاته وبلاؤه في الإسلام أشهر من أن تذكر . وما أجدره بشهادة عمر رضي الله عنه وقد رآه ذات مرة يمشي فقال ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميرا . وما كان اختياره صلى الله عليه وسلم عمرا أو تأميره إياه على العمرين والسابقين من أصحابه ليقدمه عليهم في الفضل ، إنما هي مصلحة المسلمين فوق كل شيء . ومن القضايا الثابتة أن المزية لا تقتضي الأفضلية .

ثم زاد أسيدا طمأنينة بأن الإيثار للهوى وللحظوظ الدنيوية لن يكون في عهده صلى الله عليه وسلم ، وإنما يقع بعده حينما تفتح لهم الدنيا ويتنافسون فيها ، وإن عليهم حينئذ أن يصبروا ويرضوا خشية الأحداث والفتن ، وسيلقونه صلى الله عليه وسلم على حوضه المورود راضياً عنهم ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، وإخباره صلى الله عليه وسلم بهذا ونحوه من أعلام نبوته .

• • •

هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون من بعده يولون الأقوياء الأمناء شئون الدولة ، ويؤثرون مصلحة الأمة على ما سواها لا يبالون أن يكون الأمير صغيرا أو كبيرا ما دام للإمارة أهلا ، وحسبنا ما قدمنا في أسامة بن زيد رضي الله عنهما ، في الحديث السابق . غير أن العمرين رضي الله عنهما بالغا في الحزم والورع واتقاء الشبهات فأغلقا في وجه الأهل والأقارب باب الولايات ، حتى فتحه ذو النورين رضي الله عنه ، فلما عوتب في ذلك أجاب بأن له في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، فقد ولى أولى الكفاية من أقاربه ، وبأن الخليفتين بعده منعا أقاربهما في الله عز وجل وأنه يعطى أقاربه في الله عز وجل ، ولئن كان كل منهم على هدى ونور من ربه ، إن طريقة الخليفتين أحكم وأحزم ، وطريقة ذى النورين ـ على شاكلته ـ أرفق وأرحم . أما الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم فهو المؤيد المعصوم الذى لن تحوم حوله شبهة ولن يقترب من ساحته هوى .

• • •

إن الحرص على الولايات والتنافس فيها ، وتولية غير ذوى الكفايات والأمانة ، كل ذلك أدى إلى سفك الدماء وهتك الأعراض واستباحة الأموال ، وظهور الفساد فى البر والبحر ! بل أدى إلى قتل الكفايات وإهدارها ، والطمع فى رياسة الأعمال وسياسة الأمم بالرشا والنفاق والدهاء والمكر !! وإنه ليؤذن لأولى الكفايات حينئذ أن يطلبوا الإمارة ويحرصوا عليها قصداً إلى الإصلاح ما استطاعوا . بل يجب عليهم الطلب والحرص وجوبا لا رخصة فيه إذا لم يكن من ولايتهم بد . وحق عليهم أن ينبهوا على أنفسهم إذا لم ينبه عليهم أحد . ومن هنا قال الصديق عليه السلام لملك مصر « اجعلنى على خزائن الأرض » وربما أوحى الله إليه أن اطلب ذلك من الملك لتؤدى رسالتك كما أداها آباؤك من قبل ، وقد جعلت الملك طوع يمينك جزاء ما اتقيت وصبرت !

بل إن حقاً محتوما على القادرين من الأمة وأولى الغيرة فيها والحرص عليها أن ينقذوها من الفساد والطغيان ما استطاعوا إلى الإنقاذ سبيلا ، ثم لا يمكنوا من ولايتها ورعايتها إلا قويا أمينا حفيظاً عليما ، يهديها إلى الحق ، ويبصرها طريق الرشد ، ويفتح لها أبواب المجد والكرامة ...

وعلى ولى الأمة الذى تختيره قائداً لها وإماما ألا يألو جهداً فى اختيار العاملين المخلصين فى نصحها وإعلاء كلمة الله فيها ، ولن يكون إلا كما وصف الفاروق رضى الله عنه إذ قال : لا يصلح أن يلى أمور الناس إلا حصيف العقل ، وافر العلم ، قليل الغرة ، بعيد الهمة ، شديد فى غير عنف ، لين فى غير ضعف ، جواد فى غير سرف ، لا يخاف فى الله لومة لائم ، واستشار عمر بن عبد العزيز رحمه الله بعض صفوته فى قوم يستعملهم ، فقال له عليك بأهل العذر ، قال ومن هم ؟ قال الذين إن عدلوا فهو ما رجوت ، وإن قصروا قال الناس اجتهد عمر . والقول الفصل فى خيار الولاة وشرارهم ما رواه مسلم عن عوف بن مالك رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم [1] وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم . قال قلنا يا رسول الله أفلا ننابذهم ؟ قال : لا ، ما أقاموا فيكم الصلاة » ؟

طه محمد الساكت

(١) تدعون لهم ويدعون لكم .

أساس الشعور بالمسئولية

أخشى أن تصبح كلمة « المسئولية » فى عرفنا كلمة مستكرهة ، لكثرة ما استخدمت أخيراً فى أوضاع معينة ، توحى ببعض المعانى الرهيبة أو المهيبة .

فأكثر ما تستعمل هـــذه الكلمة اليوم فى وضع يشعر المسئول فيه بشىء من القلق والخوف ، إما توقعا لجزاء مادى ، كموقف المتهم أمام القاضى ، وإما توقعاً لحرمان أدبى ، كموقف الممتحن أمام لجنة الامتحان .

لكن الواقع أن فكرة المسئولية ، فى أساسها ومنبتها ، ليست لهـا هذه الدلالات المزعجة وإن كانت فى بعض أطوارها وملابساتها تحوم حولهـا هذه المعانى .

تفصيل ذلك أن المسئولية صفة تلازم صاحبها فى فترة ممتدة ذات طرفين : بداية ونهاية ؛ وأن لهـا فى كل طرف منهما معنى خاصاً ، ودلالة معينة . فالمسئولية تبدأ حين يطالبك الواجب ، ويناديك منادى العمل ؛ وتنتهى بعد أن تقدم حسابك عما صنعته فى جواب ذلك الدعاء . وبين هذين الطرفين برزخ يطول أو يقصر على حسب المدة المقدرة لإنجاز عملك .

ها هنا إذاً ثلاث مراحل : مرحلة نداء الواجب إيانا ، ومرحلة إجابتنا لهـذا النداء ، ومرحلة المحاسبة والتقدير لقيمة هذه الإجابة .

ولنكتف الآن بالمرحلة الأولى من هذه المراحل ، وهى مرحلة مطالبة الواجب لنـا بالعمل . وسنرى أن فكرة المسئولية فى هـذه المرحلة توحى إلينا معنى القوة لا الضعف ، وأنها تبعث فينا شعور السيادة واليد العليا ، لا شعور الرهبة أو الهوان .

جاوز بطرفك عالم الإنسان ، ثم ارجع البصر كرتين مصعداً منحدراً ، فيما شئت من العوالم التى تشاهدها فى السماء والأرض ، وانظر هل ترى من بينها مسئولا واحداً عن حاله فضلا عن حال غيره ؟ هل تسأل الجبال الراسيات عن استقرارها وثباتها ، أو الرياح المتحركة عن حركاتها وتقلباتها ، أو البدر عن استدارته واستنارته ، أو الشمس عن ضوئها وحرارتها أو البحر لمـاذا هو ملح أجاج ، أو النهر لمـاذا هو عذب فرات ، أو الطير لمـاذا لا تعيش فى المـاء ، أو الأسماك لمـاذا لا تسبح فى الهواء ؟؟ .

إن هذه العوالم كلها ليست مسئولة عن شيء ، لأنها لا تملك شيئاً : فلقد حددت لها الفطرة طريقاً معيناً هي مسيرة فيه ، ميسرة له ، لا خيرة لها في السير على خطها المرسوم ، ولا حيلة لها في الخروج عن مدارها المعلوم . ألا يكون من العبث والحالة هذه أن يطلب إليها سلوك سبيل هي سالكتها حتما بغير اختيارها ، أو ترك مجال هي تاركته حتما بغير إرادتها ثم ألا يكون من أسفه السفه أن يطلب إليها التحول عما هي ملجأة إليه في كلا الحالين ؟

إن كل إلزام أدبي يفترض فيمن يوجه إليه الخطاب أن يكون ذا شخصية مستقلة ، تعمل لحسابها الخاص ، لا لحساب الطبيعة القاهرة . وذلك يقتضي أول كل شيء أن ينطوي المسئول على إمكانيات متعددة ، وأن يكون أمامه مسالك متنوعة ؟ ويقتضي بعد ذلك أن يكون له من قوى التفكير والتروّي ، والمقايسة والموازنة ، ما يمكنه من الترجيح بين الطرائق الممكنة المعروضة عليه ؛ ثم أن تكون له الحرية بعد ذلك ، في التصميم على قبول ما يشاء ورفض ما يشاء من هذه الحلول ؛ وأخيراً أن تكون له القدرة على تنفيذ ما قدره في عزمه ، وأجمع عليه أمره . فكل شيء كان نصيبه الطبيعي الحرمان من هذه المؤهلات كلا أو بعضاً ، وكل شيء ثبتت براءته من الحول والطول ، كان حريا بأن يأبى حمل أمانة التكاليف ، وأن ينفض يده من كل مسئولية . وهذا كله لو تأملته ينطوي في معنى الآية الحكيمة : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها » .

من ذا الذي يتأمل إذاً أن يتصدى لحمل هذه الأمانات ، ويدعي لنفسه القدرة على التزام النهوض بها ، وعلى الوفاء بالتزاماته ، من بين سائر العوالم التي يقع عليها حسّنا ؟

لا شك أنه هو الكائن المجهز بجهاز يستطيع أن يصرفه باختياره ذات اليمين وذات الشمال ، في استقامة واعتدال ، أو في انحراف واعوجاج . لا شك أنه هو الكائن المزود بمؤهلات الخطاب ، وقوى الفهم والبيان ، والحرية والإمكان . ذلكم هو الإنسان ، بما هو ذو عقل وإرادة واقتدار ... فهو إذاً الذي رشحته فطرته لهذه الأعباء ، فأصبح ذا مسئولية ، وموضع أمانة ، وصاحب نفوذ وسلطان ، ومصدر إنشاء وابتكار . وهذا هو معنى ختام آية الأمانة : « وحملها الإنسان » .

* * *

الشعور بالمسئولية إذاً شعور نبيل : لأنه شعور بالاستقلال والتحرر من أسر الطبيعة ، شعور بالقدرة على تغيير معالم الأشياء ، وعلى معالجتها بالعزيمة والإرادة المبتكرة ، شعور بالكرامة التى كرم الله بها بنى آدم ، وبالفضل الذى فضلهم به على كثير من خلقه .

والمسئولية إذاً صفة يستمدها كل امرىء من فطرته الإنسانية قبل أن يتلقاها من واضعى الشرائع والقوانين ، وهى كما قلنا صفة لازمة للإنسان بما هو ذو عقل وإرادة واقتدار ؛ وليست صفة له بما هو مقهور مجبور ، مسير مسخر . ومن عجيب أمر الإنسان أنه يجمع هذين الوصفين المتناقضين فى علاقته بالكون : إنه سيد مسود ، وحاكم محكوم ، ولكن فى ميدانين مختلفين فهو فى عالم المادة وعالم الحياة ، وعالم النفس ، لا يخرج عن أن يكون جزءا من هذه العمارة الكونية ، خاضعاً لنواميسها وقوانينها : « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان » ، ألا تراه حين يثب فى الهواء لا يلبث أن يعود إلى الأرض قسراً عنه ؟ لأنه من حيث هو جسم مادى يخضع لقوانين المادة ، التى من أوائلها قانون الثقل والجاذبية .

أولا تراه فى تنفسه وهضمه ونبضات قلبه ، وفى نموه واكتهاله ، وشيخوخته وهرمه كائناً حياً ككل كائن حى تسرى عليه قوانين الحياة ؟ ثم ألا تراه حين يأخذه النوم : كيف تساوره الأحلام ؟ وحين تتقلب عليه المؤثرات : كيف يسر ويحزن ويخاف ويأمن ، ويرضى ويغضب ؟ لأنه ذو نفس تسرى عليها أحوال النفوس وأعراضها الجبلية .

الإنسان فى هذه الميادين كلها أسير طبيعته ، وسجين فطرته . . . لا جرم وضعت عنه فيها كل الأحمال والأعباء ، لأنه يستوى هو وسائر الأشياء .

لكن له من فوق هذه الميادين ميداناً أعلى ، يملك فيه حريته ، ويبرز فيه سلطانه ، تتقرر فيه مسئوليته ، ذلك حيث تسلس له الطبيعة قيادها وتملكه زمامها ، وتمهد له سبلها المختلفة ينتقى منها وينتخب : تحليلا أو تركيباً ، تعميرا أو تدميرا ، وذلك حيث تأذن له قواه البدنية والنفسية وعلائقه الخاصة والعامة ، أن يتصرف فيها قبضاً أو بسطا ، رفعا أو خفضاً قطعاً أو وصلا يؤاسى ويأسو ، أو يجرح ويقسو ؛ يألف ويؤلف ، أو يتجبر ويتكبر ، يضيع أمانته أو يصونها ؛ يحمى أوطانه أو يخونها ؛ يرفع رأسه إلى السماء طلباً للمثل العليا ، أو ينكس بصره إلى الأرض سعيا وراء زخرف الدنيا .

الإنسان فى هذا كله وفى سائر تصرفاته الاختيارية سيد مسئول ، ومسئوليته مشتقة من سيادته ، إنه سيد بتسويد الله له منذ جعله خليفته فى الأرض ، فمكنه منها واستعمره فيها ، وإنه مسئول بموجب هذه السيادة أن يؤدى حقها .

كم من مرة سمعنا الكلمة المأثورة : « إن من نعم الله عليكم حاجة الناس إليكم » ، غير أننا عند سماع هذه الكلمة كنا نفهمها على صورة ضيقة ، وفى نطاق محدود ، إذ كان يبدو لنا أن صاحب المال ، أو صاحب الجاه هو الذى ينبغى أن يعد نفسه فى نعمة ، لقدرته على قضاء حاجة المحتاجين . أما الآن فإننا نفهمها فى أوسع معانيها ؛ ونستطيع أن نناشد بها الناس جميعاً قائلين : « إن من نعم الله عليكم ، حاجة المجتمع ، بل حاجة الكون إليكم » ذلك أن مطالب الحياة والصحة ، والعلم والقوة ، والأمن والرخاء ، والعدل والبر ، والرحمة والإحسان ، وسائر القيم الكبرى ، والمثل العليا ، لا غنى لها طرفة عين عن تضافر القوى البشرية ، وتماسك أيديها وسواعدها ، وتعاون عقولها وقلوبها . فنحن جميعاً شركاء فى المسئولية ، لا فضل لكبير على صغير ، ولا لقوى على ضعيف : كل على قدر وسعه ، وفى حدود متناوله ، مطالب بنصيب قل أو كثر ، فى عمارة هذا الكون بالصلاح والإصلاح . وإن كل سهم تبخل به عزيمة من العزائم ، تنقص به لبنة أو لبنات فى بناء المجتمع الصالح ، الذى يطالب منا إقامته بمقتضى خلافتنا فى الأرض ، والذى لولا يد الإنسان ما ارتفع له بنيان ، بل لولاها ما تغير وجه التاريخ فى هذا العالم . فقديماً قال بعض الحكماء : « أرونى ما ذا أضافت العجماوات إلى ما وهبته لها الطبيعة ، منذ نشأة العالم إلى اليوم !.. بينما ترى الإنسان قد غير وجه الأرض ونقب فى أحشائها ... واليوم وقد أمضى العقل الإنسانى ألوف السنين فى بحث وتنقيب ، لا يزال معينه جارياً لم ينضب ، ولا يزال يبتكر الجديد المفيد . إنه لا شىء يقف أمام العقل الإنسانى ، ولا شىء يضع حدا لكشفه وابتكاره ، إلا شىء واحد ، هو كسله وتراخيه »[1] .

هكذا كل شىء فى الكون ينادينا منذ نشأتنا بأننا مسئولون ، لا بمعنى أننا متهمون محاسبون ، بل بمعنى أننا مقصودون مأمولون . وإن من أكبر دواعى الفخار للإنسانية أن تكون هى محط هذا السؤال العالمى ، ومناط ذلك الأمل الكونى .

وهكذا يتبين لنا أن المسئولية فى أساسها ليست خطاب تعنيف وتخويف ، وإنما هى

---

(١) الفيلسوف بوسويه فى الفصل الثامن من كتاب « معرفة الله » .

لقب تشريف، وخطاب تكليف، وهى تشريف من حيث هى تكليف؛ إذ لا يكلف بحمل الأعباء إلا من هو أهل لحملها .

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم

نعم إننا بفطرتنا مسئولون، لا سؤال اتهام ومناقشة حساب، بل سؤال التماس ودعاء ورجاء . وليس الإنسان المسئول هو الذى يلتمس ويرجو، بل هو المدعو المرجو ... فالمصالح المادية والأدبية تلتمس منه أن يقوم بأدائها، والقيم الأخلاقية والاجتماعية والروحية تدعوه أن يتدخل بإرادته وعزيمته لتحقيقها؛ ثم تناشده مؤهلاته ومرشحاته نفسها أن يسرع إلى تلبية هذا النداء السرى العميق، الذى تبسطه الكائنات بلسان حالها، قبل أن تبسطه الأنبياء والرسل بلسان مقالها: « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

دكتور محمد عبد الله دراز
عضو جماعة كبار العلماء

العربية

رمز وحدة العالم الإسلامى فى الثقافة والمدنية

قال العلامة الألمانى المحقق يوهان فك Johann Fuck فى خاتمة كتابه النفيس عن (العربية) الذى ترجمه الدكتور عبد الحليم النجار .

« إن العربية الفصحى لتدين حتى يومنا هذا بمركزها العالمى - أساسياً - لهذه الحقيقة الثابتة، وهى أنها قد قامت فى جميع البلدان العربية — وما عداها من الأقاليم الداخلة فى المحيط الإسلامى — رمزاً لغويا لوحدة عالم الإسلام فى الثقافة والمدنية .

ولقد برهن جبروت التراث العربى التالد الخالد على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها إلى زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المسيطر . وإذا صدقت البوادر، ولم تخطىء الدلائل، فستحتفظ العربية بهذا المقام العتيد من حيث هى (لغة المدنية الإسلامية) ما بقيت هناك مدنية إسلامية » .

طريق الإفادة من الفقه الإسلامي

١ — بعد أن ألممنا بنشأة الفقه الإسلامي وتدرجه حتى وصل إلى نضجه وكماله ، وبعد أن عرفنا شيئاً من خصائصه التي تجعله نظاماً فريداً يصلح له أمر المسلمين والعالم كله ـ نقول بعد هذا وذاك ، ما هو الطريق للإفادة من هذا الفقه في حياتنا العملية والقانونية؟ وبخاصة وقد توالت الصيحات من الراغبين حقاً في الإصلاح بوجوب أن تكون الشريعة الإسلامية أساس ما تحكم به الأمة من قوانين على اختلاف فروعها .

ولكي نعرف السبيل للاستفادة من هذا « الفقه » ، يجب أولا أن نعرف الغرض من هذا الفقه ، والغاية العليا التي ننشدها منه ومن دراسته . ثم ننظر ، بعد ذلك ، في الطريق التي سرنا عليها الآن في دراسته لنرى إن كنا نسير في هـــذا على الجادة المستقيمة ، أو قد أخطأنا السبيل .

٢ — والفقه الإسلامي قانون من القوانين التي عرفها البشر ، إلا أنه يمتاز بأنه قانون إلهي في أسسه العامة وأصوله التي قام عليها . والقانون لأمة من الأمم ، سواء أكان سماويا أم وضعياً ، من شأنه أن يعمل على ما يأتي :

(ا) حماية عقائد الأمة وتقاليدها الطيبة .

(ب) صيانة الأخلاق الفاضلة والمثل العليا الصالحة للفرد والجماعة .

(ح) توجيه الأمة للخير بصفة عامة .

وما صرنا إلى ما نحن فيه من بلاء يتمثل فيما نحسه من انحلال الأخلاق ، والزيغ في العقيدة والإلحاد في الدين ، والسير دون هدى ورقابة من الضمير المستقيم ، إلا بسبب ما فرض علينا من قوانين غربية أو غريبة عنا ، قوانين لم توضع لنا ، بل لم تصلح لمن وضعت لهم من الأمم البعيدة عنا بعقائدها وتقاليدها وأخلاقها ، فأصبح من الواجب رفع هذا الإصر عنا ، وأن نتخذ لنا قوانين مستمدة حقاً من كتاب الله وسنة رسوله .

٣ — إذاً ، يجب أن تكون دراسة الفقه الإسلامي ، في الأزهر وفي غيره من المعاهد الدينية في الأقطار الإسلامية ، قائمة على وجه يؤدي لتحقيق هذا الغرض منه ، وموصلة إلى

الغاية التي ننشدها من الدراسات الإسلامية بصفة عامة ، أي إلى أن يكون التشريع الإسلامي هو القانون الذي تحتكم به الأمة المسلمة في مصر وغيرها .

أما أن نجرى في دراستنا الفقه في الأزهر ومثله من المعاهد الدينية ، على طريقة لا يمكن أن تؤدى لما نرجو بل لما نريد ، ثم نلهج في كل مناسبة بالمطالبة بتطبيق التشريعات الإسلامية فذلك صنيع لا يليق بالمصلحين الجادين في طلب الإصلاح . ذلك بأن العقل والمنطق السليم يقتضيان على من يريد الإصلاح حقاً ، أن يحدد الغاية التي يريد ، وأن يرسم لها الوسائل والطرق التي تؤدى إليها .

٤ — يجب أن نكف عن ترداد : « صلاحية الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان » ، من غير أن نتقدم بأى عمل يثبت عملياً هذه « الصلاحية » ويجليها للناس؛ فقد عرف علماء القانون في الغرب للشريعة الإسلامية قدرها ، وأقروا بذلك في أكثر من مؤتمر من مؤتمراتهم . ومن هذه المؤتمرات ما كان في « لاهاى » عام ١٩٣٨ ، وكان من قراراته : اعتبار الشريعة الإسلامية قائمة بذاتها غير مأخوذة عن غيرها ، وأنها مصدر من مصادر التشريع ، وأنها حية صالحة للتطور[١] .

علينا أن نكف عن الكلام ، وأن نبدأ العمل الذي كان يجب أن نبدأ فيه منذ زمن طويل . إن علينا بيان الفقه الإسلامي في مراجعه الأولى الأصيلة ، ولن يكون ذلك إلا بنشر هذه المؤلفات نشراً علمياً صحيحاً ييسر دراستها والإفادة منها للباحثين . وبعد ذلك يجيء دور نشر أمهات كتب الفقه التي عرفها العالم الإسلامي قبل قفل باب الاجتهاد وركود التفكير الإسلامي في كل نواحيه . وهنا يجب أن يكون هذا العمل شاملا لكل المذاهب الفقهية المعروفة ، ومنها المذهب الظاهري وسائر المذاهب الموجودة والمندرسة ، فإن في هذه المذاهب من الآراء ما قد يؤدى لنا فائدة كبرى في النهضة التي نريدها .

٥ — ثم - وهذا هو الأمر المهم - لابد من تغيير منهج الدراسة في الكلية التي يدرس فيها قسم المعاملات من الفقه في المرحلة العالية بالأزهر ، وهى كلية الشريعة . ولا نعنى « بالمنهج » مواد الدراسة ، ولكن الطريقة التي يدرس بها الفقه . إنهم يدرسون ما يدرسون من الفقه في هذه الكلية دراسة مذهبية في الغالب من الأمر ، بينما الواجب أن يدرس

---

(١) من الخجل أن نحتاج لشهادة الأخرى لشريعتنا ، وأن نسر لذلك ونلهج به كثيراً .

دراسة مقارنة . نريد دراسة مسائل قسم المعاملات من الفقه دراسة يقارن فيها المذاهب بعضها مع بعض ، ثم تقارن كلها باعتبارها وحدة ، مع القانون الحديث . وفضل الدراسة المقارنة ، في الفقه وفي غير الفقه ، فضل معروف لا ينكره أحد من الذين يعرفون طرق البحث العلمية المنتجة ، وإذاً فلا نطيل الكلام في هذه الناحية .

وقد أدرك رجال الجامعة ، وبعض الأزهريين ، أن هذه الطريقة هي الطريقة المثلى ، وهي في الفقه لازمة جدّ لازمة ، وبها وحدها نستطيع أن نعرف نحن وغيرنا مقدار ما عندنا من كنوز في التراث الفقهي الذي خلفه لنا أسلافنا الأمجاد .

٦ — ومن الواجب أن يخصص بعض الأساتذة بكلية الشريعة أنفسهم داخل الكلية لدراسة المعاملات المالية الحالية ، هذه المعاملات التي تجري في الأسواق والبنوك ، وتتناول كل محاصيلنا الزراعية من القطن والحبوب وغيرها . ولدراسة هذه المعاملات الحالية على ضوء الكتاب والسنة والفقه الإسلامي ، يجب أن نعرفها أولا كما تجري الآن .

وسبيل هذه المعرفة دراسة علم الاقتصاد السياسي ، كما يدرس على الأقل بكلية الحقوق، فمن هذا العلم تقف على ما يحصل في سوق البضاعة الحاضرة وسوق العقود وأسواق الحبوب[1] ومنه نعرف أن كثيراً من هذه المعاملات ما قد يتفق مع شريعة الله ، ومنها ما ليس كذلك لأنها تدخل في باب الغرر أو بيع الإنسان ما لم يقبض ، وهذا وذاك مما نهى عنه الرسول ﷺ وما جاء به من تشريع .

٧ — وهناك مع ذلك كله واجب آخر على رجال القانون هو العمل على استقلال التشريع عندنا فلا يكون تابعاً للتشريع الغربي ، فقد آن لنا - إن كنا مسلمين ومصريين حقاً - أن نحقق هـــذا الاستقلال في التشريع ، ليكون لنا تشريع يتفق مع ديننا وقوميتنا وتقاليدنا ومصالحنا .

وهنا ، نترك الأستاذ الكبير الدكتور عبد الرزاق السنهوري يتحدث في هذه الناحية ، إذ يقول [2]: « فإذا قُدّر لنا أن نستقل بفقهنا ، وأن نفرغه في جو مصري ، يشب فيه على قدم مصرية وينمو بمقومات ذاتية ، بقي علينا أن نخطو الخطوة الأخيرة فنخرج من الدائرة

(١) هذا ليس عسيراً ، فقد أخذت نفسي به هذه الأيام ووصلت فيه إلى ما أردت بفضل الله تعالى .

(٢) من الكلمة الافتتاحية لكتاب النظرية العامة للالتزامات ، الجزء الأول في نظرية العقد .

القومية إلى الدائرة العالمية ، وتؤدى قسطاً مما تفرضه علينا الإنسانية ضريبة فى تقدم الفقه العالمى » .

٨ — ومن أهم الوسائل فى الوصول إلى ذلك ، كما يقول أيضاً فى هذا الموضع الأستاذ السنهورى « العناية بالشريعة الإسلامية : شريعة الشرق ووحى إلهامه ، وعصارة أذهان مفكريه ، نبتت فى صحرائه ، وترعرعت فى سهوله ووديانه ، فهى قبس من روح الشرق ومشكاة من نور الإسلام ، يلتقى عندها الشرق والإسلام ، فيضىء ذاك بنور هذا ، ويسرى فى هذا روح ذاك ، حتى يمتزجان ويصيران شيئاً واحداً . هذه هى الشريعة الإسلامية ، لو وطئت أكنافها وعبدت سبلها ، لكان لنا فى هذا التراث ما ينفخ روح الاستقلال فى فقهنا وفى قضائنا وفى تشريعنا ، ثم لأشرفنا نطالع العالم بهذا النور الجديد فنضىء به جانباً من جوانب الثقافة العالمية فى القانون » .

٩ — ثم نرى بعد ذلك ، الكاتب والقانونى الكبير يعمل على الإفادة حقا من الفقه الإسلامى فيما يضع من قوانين ، وفيما يقوم به من دراسات فى كلية الحقوق . يعمل على الإفادة من الفقه الإسلامى بكل ما فى وسعه ، ويلتمس العون على ذلك عن يتوسم فيه القدرة على العون ، ويدفع طلابه إلى دراسة هذا الفقه والإفادة منه ، ويتمنى أن يرى أمهات كتب الفقه الإسلامى منشورة ومدروسة على الوجه العلمى الصحيح .

ونستطيع أن نتبين هذا كله من قوله :(١) أما « جعل الشريعة الإسلامية هى الأساس الأول الذى يبنى عليه تشريعنا ، فلا يزال أمنية من أعز الأمانى التى تختلج بها الصدور وتنطوى عليها الجوانح . ولكن ، قبل أن تصبح هذه الأمنية حقيقة واقعة ، ينبغى أن تقوم نهضة علمية قوية لدراسة الشريعة الإسلامية فى ضوء القانون المقارن . ونرجو أن يكون من وراء جعل الفقه الإسلامى مصدراً من المصادر الرسمية للقانون الجديد ، ما يعاون على قيام هذه النهضة » .

ومن أولى بالقيام بدراسة الشريعة الإسلامية ، فى ضوء القانون المقارن من رجال الأزهر متعاونين مع رجال القانون المخلصين للإسلام وشريعته ! ليكون من وراء هذه الدراسة جعل الأساس الأول للتشريع الحديث هو الفقه الإسلامى .

١٠ — وحتى يحين الوقت الذى يكون فيه الفقه الإسلامى هو المصدر الأساسى الأول

---

(١) الوسيط فى شرح القانون المدنى الجديد ، نظرية الالتزام ، ص ٤٨ بالهامش .

ـ بل الوحيد ـ للقانون ، أو إلى أن يحين الوقت الذى تكون الشريعة الإسلامية هى القانون فى مصر وسائر البلاد الإسلامية ، ونرجو أن يكون ذلك قريباً بفضل الله تعالى وجهود الأزهر والعلماء من الإخوان المسلمين ، علينا أن نعمل على تقنين الفقه حسب التقنين الذى نعرفه للقوانين الحديثة ، أى جعله فى مواد تناسب روح العصر ومستمدة من الكتاب والسنة والروح الإسلامية فيما لا نص فيه . وبذلك ، لا يضل الباحث بين الآراء المختلفة التى تزخر بها كتب الفقه التى لا يكاد يحصرها العاد ، وبذلك يخرج الفقه الإسلامى إلى وضح النهار والحياة العملية بعد أن ظل قروناً طويلة فى بطون الكتب .

ولنا أسوة فى السوابق التى عرفها تاريخ الإسلام الحديث ، ومن تلك السوابق المجلة العدلية ، وأعمال المرحوم قدرى باشا فى كتبه العديدة المعروفة . والله يوفق للخير ويعين عليه ، متى طلبناه وسلكنا له سبله الصحيحة .

الدكتور محمد يوسف موسى
أستاذ بكلية الحقوق ـ جامعة القاهرة

الحق مغضبة

قال أبو سليمان الخطابى فى كتاب (العزلة) : أخبرنى أحمد بن إبراهيم بن مالك قال حدثنا الدغولى أن سليمان بن معبد قال :

قلت للأصمعى : ما قول الناس « الحق مغضبة » ؟

فقال . وهل يسأل عن مثل هذا إلا رازم (أى ضعيف هزيل) . قل ما يُكِعُّ أحد بالحق إلا عرم له (أى اشتد وبدت شراسته) .

قال أبو سليمان : وأنشدونا عن الرياشى :

وكم سقت فى آثاركم من نصيحة   وقد يستفيد البغضة المتنصح

نشأة كتب الأمالي وخصائصها

إن هناك نوعا من التأليف تعرف بالأمالي ، وهي ثمرة من ثمار أساليب التعليم والتثقيف في الإسلام ، ووليدة نهج أئمة الحديث في تلقينهم وطرق تحملهم عما سنفصله بعد .

قال حاجي خليفة في كشف الظنون :

« الأمالي جمع إملاء وهو أن يقعد عالم وحوله تلامذته بالمحابر والقراطيس ، فيتكلم العالم بما فتح الله سبحانه وتعالى عليه من العلم ، ويكتبه التلامذة فيصير كتابا يسمونه « الأمالي » . وكذلك كان السلف من الفقهاء والمحدثين وأهل العربية وغيرها في علومهم فاندرست لذهاب العلم والعلماء ، وإلى الله المصير . وعلماء الشافعية يسمون مثله « التعليق » » .

وذكر ابن النديم في الفهرست :

« ولأبي العباس مجالسات وأمال أملاها على أصحابه في مجالسه تحتوي على قطعة من النحو واللغة والأخبار ومعاني القرآن والشعر ، رواها عنه جماعة » .

فهذا الضرب من التأليف إذن يسمى بالأمالي وبالمجلس أو المجالسات وبالتعليق . وهي كثيرة متنوعة أشهرها أمالي ثعلب أو مجالس ثعلب ، وأمالي الزجاجي ، والقالي وابن الشجري ، والمرتضى ، والخفاجي ، وكل هذه مطبوعة سنصفها إن شاء الله ونذكر خصائصها .

أما ما لم يكن مطبوعا فهو كثير ، يصادف ذكره الباحث في معجم ياقوت وخزانة الأدب للبغدادي والمزهر للسيوطي وغيرها .

مثل أمالي ابن الأنباري ، وأمالي جحظة ، وأمالي ابن الحاجب ، وأمالي الصولي ، وأمالي المرزوقي .

نشأتها

مقدمة :

للعرب أساليب مختلفة في تعليم أبنائهم تعليما أدبيا ، وتثقيف فلذة أكبادهم تثقيفاً لغوياً .

أول تلك الأساليب روايتهم الشعر وتلقينهم الأخبار شفاها، اعتماداً منهم على الحفظ لا على الكتابة.

فقد كانت العرب في جاهليتها أمة تغلب عليها الأمية فهي لا تقرأ ولا تكتب، وكان كل عربي بطبيعته راويا فيما هو بسبيله من أمره وأمر قومه، وأكثر ما كانوا يروونه الشعر. لأنهم يعتبرون الشعر ديوانهم، وسجل مفاخرهم، ومرآة عاداتهم وأخلاقهم.

ولهذا الأسلوب في التعليم محاسنه وله مساوئه:

أما محاسنه فإنه الطريق الوحيد الذي به حفظ كلام العرب وأخبارهم وأشعارهم، وبعبارة عامة أدبهم.

وأما مساوئه فإن ما حفظ ونقل شفاها اعتوره النقص والزيادة والتقديم والتأخير ووضع لفظ موضع آخر. إذ لا يعقل أن الناس - كيفما قويت ملكة الحفظ فيهم - يضبطون كل ما يسمعون بلا تغيير ولا تبديل. وإلى هذا يرجع الاختلاف الذي لا يكاد يخلو منه نص قديم أو شعر جاهلي.

هكذا كان شأنهم في التعليم والتأديب عصر الجاهلية.

فلما جاء الإسلام جرت العرب على مثل عادتها من رواية الأشعار ونقل الأخبار وحفظ الأنساب والأيام، بل توسعوا في ذلك أول عهدهم بالإسلام لحاجتهم في الرد على شعراء المشركين، الذين كانوا يهاجون النبي ﷺ وأصحابه. فأخذ كل فريق من أنصار الإسلام وأعدائه يدافع عن أحسابه وأنسابه ويشيد بذكر قومه.

وهناك سبب آخر دعا إلى العناية برواية الشعر، وهو حاجتهم اليه في تفسير القرآن والحديث. فقد كان ابن عباس يقول: «إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب، فإن الشعر ديوان العرب».

وكان إذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعراً. وقد ذكر صاحب العمدة أن عائشة رضي الله عنها كانت كثيرة الرواية للشعر.

بيد أن كل ما حفظوه وتناقلوه لم يدون فيه شيء، ولم يكن فيه إسناد، حتى انقضى عهد الخلفاء الراشدين فلم تكتب قصيدة ولم يدون خبر، بل كان عمدتهم في ضبط آدابهم الحفظ والرواية، هذا عدا ما دون من المصاحف لبعض الصحابة وشيء يسير من الحديث.

ويحسن بنا قبل أن نترك هذا العصر وننتقل إلى العصر الأموى أن نشير إلى أنه فى هذا العهد - عهد الخلفاء الراشدين - وجدت أول صورة من صور المعاهد العلمية ، وأول شكل من أشكال الأمكنة التى تلقى فيها الدروس ، وتروى فيها وسائل التهذيب والتعليم وهى المساجد ، فقد كان مسجد المدينة منتدى أدبيا تلقى فيه القصائد وينشد فيه الشعر فيروى ويسمع ، كما كان موطنا للعبادة وتلاوة القرآن ، فقد اتخذه الرسول ، صلوات الله عليه ، معهداً للتدريس والتلقين والتثقيف والتعليم .

روى البخارى عن أبى واقد الليثى قال : بينا رسول الله ﷺ جالس فى المسجد إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ فوقفا فرأى أحدهما فرجة فى الحلقة فجلس ، وجلس الآخر خلفهم .

لا جرم أن يكون المسجد مركزاً للثقافة الإسلامية فى أوسع معانيها واختلاف ضروبها ، فذلك أمر طبيعى ، لأن الباعث الأكبر على نشر العلم حينذاك كان دينياً ، فأماكن العبادة مدارسه ، وبيوت الله معاهده ، ورجال الدين هم القائمون بمهمة التعليم فى حلقات ومجالس ، فإن المدارس بمعناها الفنى لم تعرف إلا فى القرن الرابع الهجرى .

ذكر الحافظ الهيثمى فى « مجمع الزوائد » ، عن قرة أن رسول الله ﷺ كان إذا جلس ، جلس إليه أصحابه حِلقاً حِلقاً .

وقال أنس : كان الصحابة إذا صلوا الغداة قعدوا حلقاً حلقاً يقرءون القرآن ويتعلمون الفرائض والسنن .

وعن أبى معاوية الكندى قال : قدمت على عمر بالشام ، فسألنى عن الناس فقال : لعل الرجل يدخل المسجد كالبعير النافر ، فإن رأى مجلس قومه ورأى من يعرفهم جلس إليهم ؟ فقلت : لا ، ولكنها مجالس شتى ، يجلسون فيتعلمون الخير ويذكرونه . قال : لن تزالوا بخير ما دمتم كذلك .

وأخرج ابن ماجة فى سننه عن عبد الله بن عمرو قال : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم من بعض حُجره فدخل المسجد ، فإذا هو بحلقتين : إحداهما يقرءون القرآن ويدعون الله ، والأخرى يتعلمون ويعلمون . فقال النبى ﷺ : كل على خير ، هؤلاء يقرءون القرآن ويدعون الله فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وهؤلاء يتعلمون ويعلمون وإنما بعثت معلماً . فجلست معهم .

فلما كان عصر الدولة الأموية تعددت سبل التعليم ، وتنوعت وسائل التربية الأدبية اللغوية . فكانت الرحلة إلى البادية لأنه فى هذا العصر قد شاع اللحن حتى لوث ألسنة الخاصة فتشدد الخلفاء فى تربية أبنائهم على إلف الملكة العربية ، فكانوا يرسلونهم إلى البـــادية ليروضوهم على الفصاحة ، وينشئوهم تنشئة الأعراب الفصحاء ، كما فعل معاوية بن أبى سفيان فى تربية ابنه يزيد ثم استحضار معلمين أو مؤدبين للتعليم والتأديب ليخرجوا أبنـاءهم فى الإعراب واللسن ، كاتخاذ عبد الملك بن مروان مؤدباً لابنه ، واتخاذ هشام بن عبد الملك سليمان الكلبي مؤدباً لولده .

ويذكر الراغب الأصفهانى فى محاضرات الأدباء أن المنصور بعث إلى مَن فى الحبس من بنى أمية من يقول لهم : ماأشد مامرّ بكم فى الحبس ؟ فقالوا:ما فقدنا من تأديب أولادنا.

ويلاحظ الباحث فى هذا النمط من التأديب ـ وهو مايعرف فى هذه الأيام (بالدروس الخصوصية) ـ أن ولى الأمر يضع للمؤدب أحيانا المنهج الذى يسير عليـه فى تربية ابنه والبرنامج الذى يدرسه .

روى الجاحظ فى (البيان والتبيين) أن عتبة بن أبى سفيان قال لعبد الصمد مؤدب ولده : ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بنى إصلاح نفسك ، فإن أعينهم معقودة بعينيك فالحسن عندهم ما استحسنت ، والقبيح عندهم ما استقبحت . وعلمهم كتاب الله ، ولاتكرههم عليه فيملوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه . ثم روهم من الشعر أعفه ، ومن الحديث أشرفه . ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه ، فإن ازدحام الكلام فى السمع مضلة للفهم . وتهددهم بى ، وأدبهم دونى ، وكن لهم كالطبيب الذى لا يعجل بالدواء قبل معرفة الداء . وجنبهم محادثة النساء . وروهم سير الحكماء . واستزدنى بزيادتك إياهم أزدك . وإياك أن تتكل على عذر منى لك ، فقد اتكلت على كفاية منك . وزد فى تأديبهم أزدك فى برهم إن شاء الله تعالى .

فهذه من أجل الوصايا وأنفعها ، وأولى أن تكون دستوراً للمؤدبين يحتذونه ، ونموذجا فى طريقة التأديب ينتهجونه .

ومن أساليب التعليم أيضاً فى ذلك العصر الكتاتيب أو المكاتب بالمعنى المعروف اليوم ، وهو المكان يعلم فيه الصبيان .

فقد ذكر ابن خلكان فى ترجمة أبى مسلم الخراسانى أنه نشأ عند عيسى بن معقل ، فلما ترعرع اختلف هو ووالده إلى المكتب .

وقد هجا بعضهم الحجاج فقال : كان هو وأبوه معلمين بالطائف . وكان عبد الحميد الكاتب معلم صبية .

وهنا يجدر بنا أن نقول كلمة عن لقب « معلم » و « مؤدب » والفرق بينهما فى ذلك العصر الغابر . يظهر أن لقب (معلم) كان أحط الرتب العلمية فى عرف ذلك العصر ، وذلك :

أولا — لأنه كثيراً ما يقرن بتعليم الصبية قال ابن خلكان فى ترجمة عبد الحميد الكاتب « وكان فى الكتابة وفى كل فن من العلم إماما ، وكان أولا معلم صبية » .

ثانياً — ما ذكرناه من أن الحجاج وأباه قد هجيا بهذا اللقب .

ثالثاً — أننا نجد فى كتب الأدب ذكر لقب المؤدب بجانب العظماء كأبناء الخلفاء والخاصة من كبار الدولة حتى بعد هذا العصر ، فيقولون مثلا إن أبا إياد كان مؤدب المعتصم ، وكان أبو حفص النحوى مؤدبا لآل طاهر .

وذكر ابن خلكان أيضاً فى ترجمة الكسائى أنه كان يؤدب الأمين بن هرون الرشيد ويعلمه الأدب .

وقال فى ترجمة ابن السكيت : وكان يؤدب أولاد المتوكل .

رابعاً — ما ذكره الجاحظ نفسه فى (البيان والتبيين) بعنوان (باب فى ذكر المعلمين) يساعدنا أيضاً على التفرقة بين مؤدب ومعلم . فقد قال الجاحظ فى مفتتح هذا الفصل : من أمثال العامة : « أحمق من معلم كتاب » فنرى هنا أنه أضاف هذا اللقب إلى الكتاب ثم قال : والمعلمون عندى على ضربين منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة ، ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة . فكيف تستطيع أن تزعم أن الكسائى وقطربا وأشباه هؤلاء يقال لهم حمق .

والرأى عندنا فى حملة الجاحظ على المعلمين والتهكم بهم أن يرد ذلك أمور منها مسايرة الجاحظ للعامة فى اعتقادهم ومجاراتهم فى تفكيرهم ، لأن الجاحظ ككتاب الصحف فى عصرنا يحرصون أشد الحرص على أن يقرأ العامة كتاباتهم ، فهم يهتمون الاهتمام كله لارضائهم والحصول على إعجابهم وكذا كان الجاحظ .

وفيها وربما كان أقواها، احتقار العرب للمهن التى لا تظهر فيها أعمال الرجولة التى تتجلى فى الحروب والغزو وركوب الخيل إلى غير ذلك. وليس بمستغرب أن ينظر العرب هذه النظرة إلى طائفة تصرف معظم أوقاتها فى مصاحبة الصبية وتحت سقوف البيوت، بدلا من معاشرة الرجال وانفاق الساعات الطوال على صهوات الخيل وقرع السيوف. والعرب مثلهم فى ذلك مثل فرسان العصور الوسطى الذين حسبوا أن أعمال التعليم إنما تليق بالرهبان والقسوس فاستغنوا عن القراءة والكتابة بأعمال الفروسية والحرب.

أضف إلى ذلك أنه ربما اضطر الناس إلى احتقار معلمى الصبيان لما كان يبدو من بعضهم ما يدل على صغر النفس والمسكنة وسخافة العقل والغطرسة على الصغار.

ذلك كان الوجه المظلم فى مركز المعلم، أما الوجه المنير فلا بد من إظهار حقيقته أيضاً للمعلمين، واعترافا بشرف مهنتهم، وتقديراً لعظيم جهودهم. فإنه كما اختلفت المعاهد العلمية بين كتاب وجامع ومدرسة، اختلفت أيضاً درجات المعلمين وتباينت مقاماتهم. فمن معلم صبية إلى شيخ فمدرس فأستاذ فمعيد. مما سنبينه بالتفصيل فى مطاوى هذا البحث.

فإن من الشيوخ الأفاضل والأئمة المبرزين ما لا ينكر فضلهم على المجتمع الإنسانى علماً وخلقاً، ويكفى أن نذكر أن الإمام مالك بن أنس طلبه الخليفة هارون الرشيد ليأتى إليه، فأجاب «أن العلم يؤتى»، فانتقل الرشيد إلى منزل مالك خاشعاً. تبجيلا للعلم وأهله.

ومن وسائل التأديب والتعليم فى هذا العصر الأموى ما ذكرناه فى عصر الخلفاء الراشدين وهى الجوامع والمساجد فى صورة أوسع وشكل أعم.

أما فى العصر العباسى وما يليه من الأعصر فسيجىء الكلام عليه فى المقال الآتى إن شاء الله.

عبد الوهاب حمودة
الأستاذ بكلية الآداب
جامعة القاهرة

طلحة بن عبيد الله

سيد من سادات المسلمين وأجوادهم ، وأحد السابقين الأولين الذين أسلموا على يد الصديق أبي بكر رضى الله عنه ، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة : مكارم من حظى بواحدة منها استحق التكريم والتمجيد والثناء العاطر ، فكيف بمن حظى بها كلها ؟

ذلكم هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ابن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة القرشي التيمي ، من أكرم بيوتات العرب وأشرفها وأنجبها . وأمه الصعبة بنت الحضرمي من أهل اليمن ، وهي أخت العلاء بن الحضرمي . وأهل اليمن أرق الناس قلوبا وأفئدة ، وأحكمهم رأيا ، فلا عجب أن كان طلحة رضي الله عنه شجاعا مغوارا ، يعاف الفرار ويثبت في مساقط الموت ، وأن كان رجلا رقيق القلب رحيما كثير الجود والبر والخير ، معروفا بالحكمة وإصالة الرأى ، وذكر الحافظ ابن حجر في « فتح البارى » أنه كان يقال إن طلحة بن عبيد الله من فقراء قريش ، وقد بسط الله الرزق لطلحة حتى بلغت غلته من ماله كل يوم ألف درهم ، وبسط هو يديه للإنفاق ، فلم يضن بمال الله على عباد الله حتى كان يعطى من غير مسألة ، وتلك شيمة الكرماء .

روى الحيدى في الفوائد بسنده عن قيس بن أبي حازم قال : صحبت طلحة بن عبيد الله ، فما رأيت رجلا أعطى لجزيل مال من غير مسألة منه . وكانت له يد مشكورة على الدعوة الإسلامية استحق بها أن ينعته رسول الله بخير الألقاب وشريف الصفات .

روى أبو بكر بن عاصم بسنده عن طلحة أنه قال : « سماني رسول الله ﷺ يوم أحد طلحة الخير ، ويوم العسرة طلحة الفياض ، ويوم حنين طلحة الجود » . وما ذلك إلا لكثرة جوده وبره . وقد صارت هذه الأوصاف سمات له في العصر الذى كانت تسوده الصراحة وقول الحق . ويندر — إن لم ينعدم — في ذلك العصر المداهنة والإسراف في إضفاء الألقاب بدون مسوغ . وكان مما قاله على كرم الله وجهه عند وقعة الجمل : « منيت بأربعة أدهى الناس وأسخاهم طلحة بن عبيد الله ، وأشجع الناس الزبير ، وأطوع الناس في الناس عائشة ، وأسرع الناس إلى فتنة ، يعلى بن منية ... » وسمع على رجلا ينشد :

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه   إذا هو ما استغنى ويبعده الفقر

فقال : ذلك أبو محمد طلحة بن عبيد الله ، وكان طلحة رضي الله عنه رجلا آدم ـ وقيل أبيض ـ حسن الوجه ، كثير الشعر ، ليس بالجعد القطط ولا السبط ، لا يغير شيبه ، مربوعا إلى القصر أقرب ، رحب الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، ضخم القدمين إذا التفت التفت جميعاً . وهذه الصفات الأخيرة من أمارات القوة والجلادة والتحمل . ومن الموافقات اللطيفة ما قيل من أن طلحة تزوج أربع نسوة أخت كل منهن عند النبي ﷺ : أم كلثوم بنت أبي بكر ، أخت عائشة . وحمنة بنت جحش ، أخت زينب . والفارعة بنت أبي سفيان ، أخت أم حبيبة . ورقية بنت أبي أمية أخت أم سلمة .

إسلامه

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أول من أسلم من الرجال الأحرار ، وما أن عرض عليه الرسول الإسلام حتى سارع وأذعن ولم يتلعثم ، ولم يكتف الصديق بإسلامه فحسب ، بل بذل نفسه وماله في سبيل الله ، ونصب من نفسه داعية إلى الإسلام . وكان له من دماثة خلقه وحلو شمائله وبره وكرمه ورجاحة عقله وعلمه بأنساب قريش وما فيها من خير وشر ما أعانه على القيام بهذه المهمة الشاقة الجليلة ، فأسلم على يديه نفر من السابقين الأولين ، ومن هؤلاء طلحة بن عبيد الله . وكان طلحة رجل أسفار بسبب تجارته ، فساقته الأقدار إلى سوق بصرى ، والتقى هناك براهب من الرهبان فسمع منه البشارة بظهور نبي آخر الزمان وأغراه باتباعه وحذره من أن يفوته شرف السبق إليه ، فقفل طلحة مسرعا حتى قدم مكة فلقي أبا بكر فدعاه أبو بكر إلى الإسلام وصحبه إلى رسول الله ﷺ فشرح الله صدره للإسلام. روى محمد بن عمر الواقدي بسنده عن محمد بن طلحة بن عبيد الله قال : قال طلحة بن عبيدالله : حضرت سوق بصرى فإذا راهب في صومعته يقول : سلوا أهل الموسم أفيهم رجل من أهل الحرم ؟ قال طلحة : قلت : نعم أنا . فقال : هل ظهر أحمد بعد ؟ قلت : ومن أحمد ؟ قال : ابن عبد الله بن عبد المطلب ، هذا شهره الذي يخرج فيه ، وهو آخر الأنبياء ، مخرجه من الحرم ومهاجره إلى نخل وحرة وسباخ[1] فإياك أن تسبق إليه . قال طلحة فوقع في قلبي

(١) ومصداق ذلك من كتاب الله [الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل] الآية ١٥٧ من الأعراف . وقوله [وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد] سورة الصف الآية ٦ .

ما قال، فخرجت سريعاً حتى قدمت مكة فقلت. هل كان من حدث؟ قالوا: نعم، محمد ابن عبد الله الأمين قد تنبأ وقد اتبعه أبو بكر بن أبي قحافة. قال: فخرجت حتى قدمت على أبي بكر فقلت: اتبعت هذا الرجل؟ قال: نعم، فانطلق إليه فادخل عليه فاتبعه، فإنه يدعو إلى الحق فأخبره طلحة بما قال الراهب، فخرج أبو بكر بطلحة فدخل به على رسول الله ﷺ فأسلم طلحة. وأخبر رسول الله ﷺ بما قال الراهب فسر بذلك»[1].

ولم يسلم أبو بكر وطلحة رضي الله عنهما من أذى جبابرة قريش، فقد كان نوفل ابن خويلد بن العدوية ـ وكان يدعى أسد قريش ـ يأخذهما فيشدهما في حبل واحد ولا تستطيع بنو تيم أن تمنعهما منه، فلذا كان يقال للصديق وطلحة، القرينان. وحسبهما شرفاً أن يلزا في قرن واحد في سبيل العقيدة والدين، وحسب طلحة فخراً أن يكون قريناً للصديق وصنوا له.

روايته الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقد جمع طلحة إلى شرف الصحبة شرف الرواية عن رسول الله، فقد أخذ عنه كثيراً من الأحاديث النبوية التي هي مبعث الهدى والعلم، وحفظها ووعاها وبلغها لمن جاء بعده. وروى عن طلحة بنوه: يحيى وموسى وعيسى، وقيس بن أبي حازم وأبو سلمة بن عبد الرحمن والأحنف ومالك بن أبي عامر وغيرهم.

جهاده في سبيل الاسلام

ذكرنا آنفا أن طلحة بن عبيد الله من السابقين الأولين الذين سارعوا إلى الإسلام. ولما أذن رسول الله ﷺ لأصحابه في الهجرة هاجر إلى المدينة. ولما آخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار إخاء الارتفاق والمودة والنصرة آخى بينه وبين السيد الجليل أبي أيوب الأنصاري، وقيل آخى بينه وبين كعب بن مالك. وقد ساهم في بناء صرح الإسلام الشامخ بنفسه وبماله. وكانت له مواقف مشرقة لا تنسى له ما بقي مسلم على وجه الأرض.

وقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، إلا بدرا. وقد اختلف في سبب تخلفه عنها، فقال الزبير بن بكار: إن تخلفه كان بسبب اشتغاله بتجارة له في بلاد الشام. وقيل: إن السبب في ذلك أنه كان يتجسس الأخبار للمسلمين.

---

(١) البداية والنهاية جزء ثالث ص ٢٩، والاصابة في تاريخ الصحابة جزء ثان ص ٢٢٩.

قال الواقدي : بعث رسول الله ﷺ قبل أن يخرج من المدينة إلى بدر طلحة ابن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى طريق الشام يتجسسان الأخبار ، ثم رجعا إلى المدينة فقدماها يوم وقعة بدر .(١) وهذا الخبر الثاني هو الصحيح ، ولهذا ضرب له رسول الله صلوات الله عليه بسهمه وأجره من بدر .

وقد روى ابن سعد وموسى بن عقبة عن ابن شهاب قال : لم يشهد طلحة بدراً وقدم من الشام بعد رجوع رسول الله من بدر ، وكلم رسول الله ﷺ في سهمه فقال « لك سهمك » ، قال : وأجري يا رسول الله ؟ قال : وأجرك . فلولا أن خروجه كان في مصلحة الدعوة الإسلامية لما ضرب له رسول الله بسهمه وأجره وإذا كانت البطولة تقاس بكثرة حضور المواقع والغزوات وإجادة الطعان والنزال ، فإنها تقاس أيضاً بالثبات حين يشتد الهول ويعظم الخطر وتحدق بالشخص أسباب الموت . ورب يوم إذا وزن بعشرات الأيام رجحها وزاد عليها . ولئن كان طلحة شهد المشاهد كلها عدا بدراً فله من هذه الأيام يوم مشهود وهو يوم أحد ، فإنه لما دارت الدائرة على المسلمين بسبب مخالفتهم أمر الرسول ، ونادى مناد : أن محمداً قد قتل ! وفر أناس ممن لم قدم ثابتة في الإسلام لهول الموقف ، ووقع هذا النبأ على نفوسهم ، لم يثبت مع النبي ﷺ إلا عصبة قليلة ممن عصمهم الله من الفرار ، منهم الشهم الوفي طلحة بن عبيد الله ، فقد وفى بنذره حين يعز الوفاء وفدى رسول الله بنفسه ودافع عنه دفاع الأبطال ، حتى قطعت إصبعه وشلت يده ووجد بجسمه بضع وسبعون جراحة ما بين طعنة أو رمية أو ضربة . روى البخاري بسنده عن قيس بن أبي حازم قال : « رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي ﷺ » . وفي مسند الطيالسي من حديث عائشة عن أبي بكر قال : أتينا طلحة بن عبيد الله فوجدنا به بضعاً وسبعين جراحة وإذ قد قطعت أصبعه » .

وقد كان رسول الله ﷺ يعلم من طلحة جلده وصبره عند اللقاء ويدخره لوقت اشتداد الكرب والبلاء . روى الإمام البيهقي في الدلائل بسنده عن جابر قال : « انهزم الناس عن رسول الله يوم أحد وبقي معه أحد عشر رجلا من الأنصار وطلحة بن عبيد الله وهو يصعد في الجبل فلحقهم المشركون فقال : ألا أحد لهؤلاء ؟ فقال طلحة : أنا يا رسول الله . فقال : كما أنت يا طلحة ، فقال رجل من الأنصار : فأنا يا رسول الله : فقاتل عنه . وصعد

(١) الاستيعاب لابن عبد البر جزء ٢ ص ٢٢٦ على هامش الإصابة .

رسول الله ومن معه ، ثم قتل الأنصاري فلحقوه فقال : ألا رجل لهؤلاء ؟ فقال طلحة مثل قوله الأول . فقال رسول الله مثل قوله : فقال رجل من الأنصار : فأنا يا رسول الله . فقاتل وأصحابه يصعدون ثم قتل فلحقوه ، فلم يزل يقول مثل قوله الأول ، ويقول طلحة أنا فيحبسه ، فيستأذنه رجل من الأنصار القتال فيأذن له فيقاتل مثل من كان قبله حتى لم يبق معه إلا طلحة ، فغشوهما ، فقال رسول الله : من لهؤلاء ؟ فقال طلحة : أنا . فقاتل مثل قتال جميع من كانوا قبله ، وأصيبت أنامله فقال : « حس » ، فقال رسول الله : لو قلت « بسم الله » لرفعتك الملائكة والناس ينظرون إليك حتى تلج بك في جو السماء . ثم صعد رسول الله ﷺ إلى أصحابه وهم مجتمعون .

ولما نهض رسول الله إلى صخرة من الجبل ليعلوها ، وكان قد ظاهر بين درعين ، فلما ذهب لينهض لم يستطع لكثرة ما نزف من دمه ، فطأطأ له طلحة بن عبد الله على ما به من جراح فنهض به حتى استوى عليها ، فحينذاك قال الرسول - فيما رواه الترمذي عنه - : « أوجب طلحة » .

وقد عرف رسول الله ﷺ لطلحة هذا اليوم المشهود ، فقد روى أن ناسا من أصحاب رسول الله قالوا لأعرابي جاء يسأل عمن قضى نحبه : (١) سل رسول الله ، فسأله في المسجد فأعرض عنه ، ثم سأله فأعرض عنه ، ثم طلع طلحة من باب المسجد وعليه ثياب خضر فقال رسول الله : أين السائل ؟ قال : ها أنذا . فقال « هذا ممن قضى نحبه » وفي رواية ابن أبي حاتم ما يفيد أن هذه القصة كانت عقب الرجوع من أحد (٢) . كما عرف الصحابة لطلحة هذا اليوم . وكان الصديق إذا حدث عن يوم أحد قال « ذاك يوم كان كله لطلحة » . وكان علي كرم الله وجهه إذا سئل عن طلحة قال : ذاك امرؤ نزل فيه قول الله تعالى « فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر » .

وفي غزوة تبوك وكانت وقت الجهد والحر وقلة الظهر خطب رسول الله ﷺ حاثا على الانفاق ، فجادت أريحية طلحة بمال كثير .

---

(١) النحب النذر والعهد ، والمعنى وفى بعهده . وقد كان طلحة ممن عاهد رسول الله على الموت يوم أحد فوفى بالعهد . ويطلق النحب على الموت . وقد فسرت الآية الكريمة بكل من المعنيين . وحمل الآية على المعنى الأول هو الذي يوافق هذه الرواية . (٢) تفسير ابن كثير جزء ٦ ص ٣٧٨ ط المنار .

ولما علم رسول الله ﷺ أن بعض اليهود اجتمعوا فى بيت سويلم اليهودى يأمرون ويثبطون الناس عن الخروج فى جيش الرسول ، ندب لهم طلحة فى نفر من أصحابه وأمرهم أن يحرقوا عليهم البيت ، فامتثلوا أمر الرسول وقضوا على الشر قبل استفحاله . فلله هذه الحياة الحافلة بصحائف من البطولة وجلائل الأعمال وأنها لمثل يحتذى لمن ينشد الرجولة الحقة والوفاء .

وفاتــــــه

كان طلحة رضى الله عنه ممن خرج مع السيدة عائشة أم المؤمنين إلى البصرة ليثأروا من قتلة عثمان رضى الله عنه . وكان ما كان من أمر موقعة الجمل . وقد لقى على طلحة قبيل الموقعة فحاجه وذكره بأشياء من سوابقه وفضله — وكان الرجل ينشد الحق ، ويطلبه ولم يكن خروجه إلا عن اجتهاد منه لا عن هوى وشهوة — فما لبث أن استجاب لعلى واعتزل القتال والصفوف ، فلم يلبث أن جاءه سهم فوقع فى ركبتيه وانتظم السهم مع ساقه خاصرة الفرس فجمح به حتى كاد يلقيه وهو يقول : إلى عباد الله ! فأدركه مولى له ، فركب وراءه وأدخله البصرة فمات بها . ويقال إنه مات بالمعركة ، وإن عليا لما رآه بين القتلى تألم وجعل يمسح التراب عن وجهه وقال : « رحمة الله عليك أبا محمد ، يعز على أن أراك مجدلاً تحت نجوم السماء » . ثم قال : « لوددت أنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة » .

وقد عاش طلحة حميداً ومات شهيداً . روى أبو القاسم البغوى بسنده عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « من أراد أن ينظر إلى شهيد يمشى على الأرض فلينظر إلى طلحة ابن عبيد الله » وكفى طلحة جزاء وفاقاً أن يكون جاراً لرسول الله فى الجنة . روى الترمذى بسنده عن على كرم الله وجهه قال : سمعت أذناى رسول الله ﷺ يقول : « طلحة والزبير جاراى فى الجنة » ، والزبير كان ممن ثبت مع رسول الله يوم أحد ووفى بنذره ، وقد كانت وفاته يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين من الهجرة وكان عمره حين استشهد اثنين وستين سنة وقيل أربعا وستين سنة . فسلام عليه فى الأولين ، ولسان صدق له فى الآخرين ، وأمان له من مولاه يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟

محمد محمد أبو شهبة
المدرس بكلية أصول الدين

تبديد المخاوف
من إقامة دين الله

من طول ما هجر الناس الروح الدينية فى المجتمع ، وتغلبت الإباحية فى ثوب براق من الحرية الزائفة فى الأمم المتمدنة ، وانتقلت هذه العدوى إلى الشرق مهد الأديان والأنبياء ، وقعت الوحشة بين الناس ودينهم ، حتى عند بعض المتدينين أنفسهم ، فكيف بمن نشأوا بعيدين عن التربية الدينية فى إباحة وحرية من كل قيد إلا ما تقيدهم به قوانين بلادهم بحسب مايلتزمون من ذلك ظاهرا ويتحللون منه باطناً فى سلوكهم الشخصى ، ويعود ذلك بالضرر الوبيل على ما فى أيديهم من مصالح الوطن وحقوق الشعب .

وهذا هو حال كثير من أبناء هذا الجيل بين سمعنا وبصرنا يتولى المرء منصبا من مناصب حماية الآداب وهو فى دخيلة نفسه شر معول على الآداب ، ويتولى الأمانة على أموال الدولة وهو اللص الذى يختلس خفية من هذه الأموال ، كل ذلك لأنه لا يحمل فى نفسه عقيدة ولا إيمانا يحملانه على حرمة الواجب وحق الوطن .

ومن قبل هذا العهد الذى وفدت إلينا فيه وافدات الغرب وعدواه كان إسناد الوظائف والمصالح إنما يوكل أولا وقبل كل شىء إلى الرجل المتدين الأمين ، وكان الرجل إذا وقعت منه شائنة أو عرف بسوء الخلق أو اقتراف المعاصى نزع من عمله ، علماً بأن استقامته فى العمل لاتكون إلا عن استقامته فى نفسه ودينه ، ومن ليس له دين ليست له أمانة ، ومن هنا كانت لا توجد اختلاسات فى المصالح ولا فى أموال الأمة ، ولا يقع فساد مثل هذا الفساد الذى برزت قرونه فى الثلاثين السنة الأخيرة واكتشفته النهضة الحديثة فى كثير من المصالح وفى كثير من الشخصيات التى تختال فى حلل الثقافة والتربية الغربية اللادينية .

وإبليس الاستعمار الرجيم هو أول من وضع فى مصر أن مقياس الموظف ليس خلقه الشخصى وإنما هو نشاطه وعمله ، وكل إنسان حر فى شخصه وأخلاقه الخاصة به . مبدأ وضعه الاستعمار فى مصر منذ وضع أقدامه فيها فنبت وامتدت أغصانه فى جميع المصالح وأصبح هو المعيار الذى تقاس به قيم الموظفين فى الحكومة ، ومنه سرت المقاييس فى قيم الناس

ودرجاتهم عامة بعد أن كانوا يقاسون بالصلاح والتقوى والأمانة والعفة إلى آخر الفضائل الدينية ، ولا يبلغ الرجل درجة الاحترام بين مواطنيه إلا بذلك .

فأصبح ناس من الحكام فى مصر بعد الاستعمار مباشرة يجاهرون بالمعاصى والفسوق وقلة المبالاة بالآداب الدينية ، والحكام هم قدوة المواطنين ، فانزوى الدين وآدابه وأهله ، وضعفت القيمة الروحية ، وكسدت سوق الفضائل ، وعاد ذلك بالضرر الفادح على الأمة ومصالحها ، حيث ارتفعت دولة الأشرار الفساق وفى يدهم مصالح العباد ، وفى ذلك مكسب ضرورى للاستعمار لأجل أن يلجأ إليه المواطنون بالشكوى من حكامهم هؤلاء المستبدين المستهترين ، وتتسع هوة الخلاف بين أبناء الوطن ، ويتسلط المستعمر الغريب ، وقد حصل .

وصدق الله العظيم فيما حكى عن بلقيس : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » . كذلك صار جانب الدين والخلق والأمانة والعفة فى مصر ذليلا معدوما منذ حل بها الاستعمار ، وما سلبت أمة دينها وأخلاقها إلا حلت الوحشة والفرقة بين أبنائها ، وحل التخاصم والتنازع محل التراحم ، حيث ذهبت لحمة ما بين الناس وهى الدين ، لأن الدين رحم بين أهله .

وإذا ضربنا المثل بما كشفته لجان التطهير فى أيامنا هذه من فساد امتد إلى إضرار الجيش الذى كان من حقه علينا أن يفدى بأرواح الأمة بدل إضراره وإدخال الغش عليه ، وهو فى حرب مع العدو ، بتقديم الأسلحة الفاسدة إليه ، واختلاس فروق الثمن إلى جيوب الموردين للأسلحة ، ضربناه لأسوأ الأثر فى انتزاع الروح الدينية والخلقية وروح الأمانة من الأمة بيد الاستعمار الأثيمة ، فماذا ينتظر القارىء بعد ؟

ولعل المثل البارز لقلة الدين الذى حلق فى جو الصحف العالمية ، وأصبح حديث المنتديات عن مصر ، وسيكون مادة للسمر والروايات فى مستقبل الأيام والقرون ، مثل الطاغية السابق الذى أغرق فى الفسوق والعصيان ، هو أكبر ما يُنعى به على سلب مصر من شرفها الأخلاق وروحها الدينية الكريمة التى لو كانت كسابق عهدها فى التمسك بالدين وآدابه حينما كان ينقد العلماء على أعواد المنابر فى خطبة الجمعة أعمال السلطان ، فيقوم السلطان ويقبل أيديهم ويبكى إليهم ويتيب ، لكان لمصر شأن غير هذا الشأن ، ولكان الدين له السلطان على نفوس الكافة من حكام ومحكومين ، ولبرزت آدابه وأحكامه الرحيمة الحكيمة ناصعة

تتلقفها الشعوب والأمم حينما يرونها رحمة العالمين ، لأن الناس لم يعرفوا بعد سلطان الإسلام حينما يكون نافذاً نفوذاً سليما صحيحاً يوزع العدل بين البشر على السواء ، ويحارب الجهل والفقر والمرض ، ويرفع الإنسانية من أوحال المبادىء المتضاربة المثيرة للحروب وزلزلة الأمن العام .

وما ظهور الشيوعية واستفحال أمرها والتهامها كثيرا من الشعوب ووقوفها على قدم وساق لحرب العالم إلا نتيجة اضطهاد الدين فى الغرب والإفراط فى الانحلال الخلقى حتى بلغ الذروة ، وتطور فى روسيا بأسباب اقتصادية وخلقية إلى هذا الوحش المخوف .

ولو أن الذين مقتوا الدين فى الغرب وسامتهم طقوسه وألوانه ولم يهضموا تعاليم القسس والكهان بدل أن يكفروا بالدين كله وينطلقوا فى أعنة الانحلال وهم يعلمون أن الدين ضرورة اجتماعية لا يصلح بدونها البشر ، كانوا يبحثون عن دين آخر ، ولعل أحدث دين وهو دين الإسلام كان أقرب إلى متناولهم وليس فيه ما يمقتون ، فلا كهانة فيه ولا سيطرة لرجال الدين ولا احتكار لتفسيره ومعانيه .

وكله دين متفق مع الفطرة ومع المبادىء التى اهتدى إليها البشر بعد الدماء المستبحرة من الحرية والعدالة والمساواة وسائر الفضائل البشرية السليمة وعدالة الحكم التى لا تعرفها الأمم ودعم الألفة بين أبناء الوطن الواحد بله أبناء الإنسانية حتى يشعر العالم بأنه جسد واحد فترتفع الخصومات ويقضى على الحروب وتتضافر إمكانيات العالم فى خدمة الإنسانية . ولا زال الباب مفتوحا لذلك قبل أن تنشب الحرب العالمية الثالثة . ومصر وأزهرها الشريف هما صاحبا الاختصاص العالمى فى دراسة الإسلام وأنه دين السلام ودين الرحمة للإنسانية ، فكيف يخاف منه إذا طالب به مطالب ، فلا بد من عقد مؤتمر عالمى من رجال الاجتماع والاقتصاد ورجال السلام ومقاومة الحروب ورجال الدين الإسلامى من مصر وغيرها لدرس الإسلام كدستور عالمى للبشر يخفف ويلات الحروب ويدفع فى صدر الشيوعية وليظهر به تبديد هذه المخاوف التى تعتور الأجانب فى مصر حينما يسمعون بالدعوة إلى إحياء العمل بالاسلام فيظنونه وحشا سيخرج عليهم يأكلهم ، فهل يرضى علماء المسلمين أن يعتقد الناس فى الإسلام أنه وحش مخوف بينما هم يعتقدونه بحق أنزل رحمة للعالمين .

محمد عبد السلام القبانى
أستاذ بكلية الشريعة

الحديث النبوى
مقاصده . ألفاظه . معانيه

٢ — والكلام النبوى شىء جل عن الصنعة ، لأن الصنعة إنما تعوز ما فقد الحسن الذاتى فاحتاج إلى تجميل عرضى ، فأما الكلام الصادق فى بلاغته الذى يجرى مع النفس سهولة ويسرا ، فهو غنى عن كل ذلك. وليس معنى هذا أن الكلام النبوى خلا من المحسنات ، ولكنها تجىء عفواً فى كلامه فتكون حسناً على حسن ، كقوله « أسلم سالمها الله ، وغفار غفر الله لها ، وعصية عصت الله ورسوله » . وقوله للأنصار « إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع » ، وفى هذا الحديث مقابلة وسجع فى غاية الحسن ونهاية الإفادة ، وغيره كثير فى كلامه ، ولكنه لا يوصف بصفته ، والتنزه عن التكلف متصل بذلك إلا أن التكلف أوسع دائرة ، فهو ﷺ ما كان يعانى جهداً ولا مشقة ، ولا كان يعد لموقف من المواقف كما كان غيره من الخطباء أو الكتاب أو الشعراء ، بل كان يقتضب فى المناسبات — وكل حياته ﷺ مناسبات طارئة — ، وهذا من المعانى العجيبة فى صاحب الرسالة ﷺ فقد كان يقع الأمر وهو فى أصحابه فى سفر أو حضر فيقف موقفه فما يشعر الناس إلا وقد هدأت نفوسهم وتحولت اتجاهاتهم ونسوا رعوناتهم وانقادوا للسيد الكريم ﷺ وكان يحضر أحيانا بعض الخصوم اللد أو الخطباء الوافدين يعد كل لموقفه بين يدى هذا الزعيم الأعظم عدته من متخيرات الأغراض والألفاظ والمعانى ، فربما أوجز وربما أطنب ، والرسول ومن حوله يسمعون ، فإذا سمع الفصل والقول الجزل ، والحكمة البالغة ، والعذوبة السائلة فى كلام محمد ﷺ خر لها رأسه ورءوس السامعين ساجدين ، ما استطاع أحد أن يأخذ عليه ما أخذ على غيره من عثرة لسان أو خفقة جنان ، ولا كلمة كان ينبغى أن يكون غيرها ، ولا جملة زادت أو نقصت عن حاجتها .

ذلكم هو محمد المحدث الملهم ، والمؤيد الأعظم ، وكان ذلك عاملا أعظم من سواه فى نشر دعوته ، وصيرورة سمعته ، لأنه فى قوم لدٌ يتفاخرون بالبيان ، ويتحدون برجاحة الأحلام . والبلاغة أكبر مظاهرها ، وأعظم ظواهرها .

لقد كان حديثه فى الاضطراب سكنا للنفوس ، وفى الضلال هداية ، وفى الفقر غنى ورضا ، وفى المرض سلامة وعافية . ولهذا كانوا يزعمون أنه ساحر يفرق بين المرء وزوجه ، ولعمر أبيهم لقد كان سحراً حلالا يفرق بين الضلال والهدى ، وبين الشقى والسعيد .

٣ — ولهذا كله كان ﷺ فى غنى عن أن يستعمل الغريب والوحشى ، فهو إنسان يرفض الإيحاش ، ويتودد بالإيناس ويكره الأذى ، ولا يحب أن يشق . وفى الغريب والوحشى إيحاش وأذى ومشقة ، وإنما يحتاج إليه أحمق قد حاد عن القصد ، أو جاهل لم يجد ما يستعمله من اللفظ العذب ، أو جاف جلف لا يبالى أن يقسو فى قوله كما يقسو فى فعله .

وقد نزه الله محمداً ﷺ من كل ذلك ، وسخر له لغة العرب يتخير منها ويتصرف فيها ويبدل سيئاتها حسنات ، كما فعل ذلك فى كل الجهات . ومن قرأ له ولغيره من الكتاب قبله أو معه أو بعده ، وكذلك من الخطباء والشعراء ، رأى كيف كان وصفه فى البيان ، ووضعه من هذا الميزان ، فلا غرو أن يصفه الجاحظ بأنه شدد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وبأن الله ألقى على كلامه المحبة ، وجمع له بين القبول والمهابة ، لأنه سهل فى إدراكه وفهمه ، صعب على طالب لحاقه ودركه .

كالبدر أفرط فى العلو وضوؤه للعصبة السارين جد قريب

٤ — على أنه ﷺ كان يحمى تلك العذوبة عن كل ما ينزل بمستواها إلى حد التبذل ، وإنما هو فى الحد الوسط . وإنما المبتذل لا يتفق مع البلاغة فى كلام العامة فكيف يكون فى كلام سيد الأمة .

وعلى أنى أستطيع بعد ذلك أن أعود بك إلى ما أشرت إليه فى جملة ما سبق من أنه ﷺ استعمل الغريب النسبى ، والوحشى الإضافى ، معنى ذلك أنه كان يخاطب غير القرشيين بلغتهم توفيقا من الله وتعليما ، واستكمالا لأدوات البلاغ ، فى البلاغة التى هى إيصال المعنى إلى السامع من أقرب طريق وأوضحه . وتلك ميزة خاصة أيضاً له ، وهى مما كان مثار العجب بين أصحابه . وفى البيان والشفاء وغيرهما من كتب الأدب الشىء الكثير من ذلك الباب .

قال القاضى فى الشفاء : إنه علم ألسنة العرب ، يخاطب كل أمة بلسانها ، ويحاورها بلغاتها ويباريها فى منزع بلاغتها حتى كان كثير من أصحابه يسألونه عن شرح كلامه . ومن تأمل حديثه وسيرته علم ذلك ، فليس حديثه مع قريش والأنصار وأهل نجد والحجاز ككلامه مع ذى المشعار الهمدانى[1] وطهفة النهدى[2] الخ ، ماعدد . وأورد على ذلك عدة شواهد منها

(١) مالك بن نمط زعيم يمنى قدم على النبى صلى الله عليه وسلم مرجعه من تبوك مع كثير من قومه مسلمين .

(٢) سيد يمنى أيضا .

فى كتابه إلى همدان ، إن لكم فراعها (١) ووهاطها (٢) وعزازها (٣) تأكلون علافها (٤) وترعون عفاءها (٥) ، ثم لك أن ترجع إليه وإلى غيره من كتب السير وإلى البيان والتبيين إن شئت التوسع فى ذلك .

٧ — على أن فى كلامه ﷺ من قيود الدين والأدب والمنطق ما كان جديراً أن يحدث ضيقاً فى مجال البيان ، أو ضنكاً فى معترك الحجاج . فإن التحلل من القيود ضرب من اليسر على المتكلم شاعراً أو كاتباً أو خطيباً أو محاوراً . ولكن السيد الرسول مع هذه القيود لم تقع له فى كلامه زلة ، ولم يسمع بما هو أعم منه نفعاً ولا أحسن موقعاً ولا أسهل مخرجاً ولا أفصح عن معناه ولا أبين فى فحواه . كان ﷺ يتقيد بالصدق فيما يقول ، وبمجانبة الخيال والخلابة ، وبما يعرفه الخصم إذا كان فى مقام خصومة ، ولكنه مؤيد ملهم ومبلغ معزز مكرم .

ولعلى قد أطلت على القارىء الكريم ولكنى لا أترك المجال حتى أقرى ذهنه بشىء من أدب النبوة :

فما لم يشارك فيه ﷺ ما أورده من قوله « ياخيل الله اركبى » ، « حمى الوطيس » ، « مات حتف أنفه » ، « كل الصيد فى جوف الفرا » ، « هدنة على دخن » ، « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

ومن أدعيته الفخمة المفخمة المعبرة عن كل ما فى نفوس المؤمنين الصادقين :

« اللهم إنك سألتنا من أنفسنا مالا نملكه إلا بك ، فأعطنا منها ما يرضيك عنا » .

« اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وأرضنا وارض عنا » .

« اللهم إنى أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يسمع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن علم لا ينفع ، أعوذ بك من هؤلاء الأربع » .

ومن بارع المجاز والتشبيه فى قوله :

« بعثت فى نفس الساعة » ، « اليد العليا خير من السفلى » ، « الخيل معقود بنواصيها الخير » ، « الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة » ، « أنتم الشعار والناس الدثار » ، « الناس معادن : خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » .

ولو شئت أن أعرض لبعض مطولات الأحاديث أو الخطب إذاً لطال المدى ، وامتد الشوط ، وضاق النطاق ، فإلى فرصة أخرى إن شاء الله .

محمود النواوى

المفتش بالأزهر

---

(١) ما ارتفع من الأرض . (٢) ما اطمأن منها . (٣) ما صلب .

(٤) ما تأكله الماشية . (٥) ما صفا منها .

هل للمرأة أن تباشر الوظائف العامة

حديث لفضيلة الأستاذ الأكبر

عادت مسألة المرأة إلى الظهور ، على مسرح الحياة الاجتماعية والسياسية ، وعادت المرأة نفسها تنادى بأن لها حقوقاً معينة ، ومن هذه الحقوق أن تكون عضواً فى البرلمان ، ووكيلا للنائب العام ، وضابطا من ضباط البوليس ، ومحضراً يعلن الأحكام ويباشر عمليات الحجز التحفظى أو الحجز على مختلف أنواعه . وهى تقول فى هذا المقام : إنه ليس بدعا فى تاريخ الأديان ، ولا فى فقه التشريع أن تباشر مثل هذه المهام الاجتماعية والسياسية ، وخاصة فى هذا العصر الذى استطاعت المرأة فيه أن تظفر من الحقوق العامة بحق المساواة والحرية . ويمكن أن يقال فى مقام التدليل على صحة هذه الدعوى إن الحكومة قد وافقت أخيراً على أن تنشىء المرأة حزبا سياسيا ، وهذه الموافقة فيها اعتراف ضمنى بأن الحكومة قد أقرت المرأة على وجهة نظرها . ولكن فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر يرى أن فى هذا قلبا للأوضاع المنطقية ، وأن المرأة قد جاوزت فى هذه الدعوى القدر المحدود لها بحكم طبيعتها فى الحياة العامة .

وقد استهل فضيلته حديثه فى هذا الموضوع الخطير بالسؤال عن الغاية التى تهدف إليها المرأة من وراء هذه الدعوى ، وقال : هل تريد أن تهجر البيت لتقضى وقتها بين الأندية والمجتمعات والمحافل السياسية فى مناقشة القوانين ، وفيما يجب أن يفرض من العقوبات ويرسم من الحدود ، وما إلى ذلك من مسائل التشريع والتقنين . إن كان هذا مقصدها ، فهل لها أن ترشد أهل الصواب والمنطق والحق فى أى عصر إسلامى كان هذا ؟ وفى أى عهد من العهود التى ازدهرت فيها تعاليم الإسلام وانتشرت أحكامه ومذاهبه تولت المرأة شئون الولاية العامة !؟

ثم استطرد فضيلته فقال : إن الشريعة الإسلامية تحرم اختلاط المرأة بالرجال . والدعوى بمنح المرأة حقا سياسيا إنما هى وسيلة من وسائل الاختلاط تريد المرأة فى هذا العصر أن تتذرع بها لتكسو اختلاطها بالرجال ثوب المصلحة العامة ، وهذا عمل لا تقره الشريعة الإسلامية ، وليس جائزا فى أى مذهب من مذاهبها ، لأن الشريعة قد فطنت إلى

ما ينجم عن اختلاط المرأة بالرجل من مضار اجتماعية وخيمة ، ومن شرور لو قلنا إنها محتملة الوقوع لكان ذلك الاحتمال كافيا لمنعها ودرئها . وإذا كانت المرأة تريد فى سبيل تبرير دعوتها أن تلجأ إلى السباب وإلى الغض من أقدار سلف العلماء والطعن عليهم والنيل من كرامتهم وتحقير شأن من يريد أن يبصرها بالصواب والرأى السديد ، فإنما تكون قد أقامت الدليل القاطع على أنها لا تصلح عضوا فى معترك الحياة ، لأن مثل هذا الطريق لا يلجأ إليه إلا من ضعفت حجته واختلطت عليه موازين الأشياء ومقاييس الأمور .

ولقد سبق أن أفتت لجنة الفتوى فى الأزهر ، فتوى شرعية بينت فيها بمختلف طرق التبيين : على مختلف الآراء الفقهية ما للمرأة من حقوق وما عليها من واجبات ، وفصلت لها نوع الولاية ، وعرفتها أن الولاية العامة هى السلطة الملزمة فى شأن من شئون الجماعة ، كولاية سن القوانين ، والفصل فى الخصومات ، وتنفيذ الأحكام ، والهيمنة على القائمين بذلك ، وقالت : إن الشريعة الإسلامية قد قصرتها على الرجال إذا توافرت فيهم شروط معينة ، وزادت على ذلك فى مقام التبيين أنه لم يثبت أن شيئا من هذه الولايات العامة قد أسند إلى المرأة ، لا مستقلة ولا مع غيرها من الرجال ، وقد كان فى نساء الصدر الأول مثقفات فضليات ، وفيهن من تفضل كثيرا من الرجال ، كأمهات المؤمنين ، وساقت قصة سقيفة بنى ساعدة ، فى اختيار الخليفة الأول بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ بويع أبو بكر البيعة العامة فى المسجد ، ولم تشترك امرأة مع الرجال فى مداولة الرأى ، فى السقيفة ولم تدع لذلك .

وقد أفاضت لجنة الفتوى فى بيان أحكام الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بما يجب أن تمنع منه المرأة من الوظائف العامة ، ودعمته بالبراهين القطعية ، والأسانيد التاريخية ، والأدلة اليقينية . وكان المأمول أن تقف المرأة عند حدودها التى رسمتها لها الشريعة الإسلامية ، فى بلد إسلامى ، ودولة إسلامية ، وأن تعمل من جانبها على أن تسترشد بما يراه أهل الرأى من الفقهاء فى أمرها ، فتلزم بيتها فى رعاية زوجها وكنفه ، ولكنها عادت مرة ثانية إلى المناداة بوجوب منحها حقوقا سياسية معينة ، ومع أن الشريعة الإسلامية قد أفسحت لها الطريق فى كل ما يتعلق بمسائل الولاية الخاصة ، وقد ساوتها بالرجل فى هذا النوع من الولايات ، إذ جعلت لها حق التصرف فى أموالها بالبيع والهبة والرهن والإجارة ، وغير ذلك من مختلف ضروب التصرفات ، وأجازت لها الوصاية على الصغار والولاية على المال والنظارة على الأوقاف ، إلا أنها لم تقنع بما رسمته لها الشريعة الإسلامية وأرادت أن تدفع

نفسها بنفسها ، وأن ترسم الطريق حسب أهوائها وغاياتها ، لتتولى وظائف الدولة التى تدخل فى نطاق الولاية العامة ، كسن القوانين ، والفصل فى الخصومات ، وتنفيذ الأحكام . الخ .

وإذا كانت الشريعة الإسلامية قد جعلت القوامة على النساء للرجال ، وقد قال الله تعالى « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض » ، وجعلت حق طلاق المرأة للرجل وحده ، ومنعتها السفر دون محرم أو زوج أو رفقة مأمونة ، وجعلت لها حق حضانة الصغار دون الرجل ، وأوجبت على الرجل حضور الجمعة والجماعة والجهاد ولم توجب عليها شيئاً من ذلك . أقول إذا كانت الشريعة الإسلامية قد رسمت لها حدودها وبينت لها مهمتها فما بالها تريد أن تخرج على أحكامها لتزج بنفسها فى انتخابات تدافع فيها وتدفع ، وتختلط فى ميدانها بالجماعات والأفراد من الرجال ، وهى بطبيعة أنوثتها غير مأمونة ولا معصومة . وما بالها تريد أن تثير حولها الزوابع وتخوض المعامع ، فى الوقت الذى كفتها فيه الشريعة مؤونة الكفاح وجنبتها مواطن الزلل ، ورسمت لها من الحدود ما يتكافأ وطبيعتها فى ميدان العمل المنتج المفيد لها وللجماعة التى تعيش فيها .

وأعتقد أنه من المستحسن أن أسوق بعض ما رأته لجنة الفتوى فى مقام التدليل الفقهى على منع المرأة من الاشتغال بوظائف الولايات العامة ، فقد استندت إلى ما رواه البخارى فى صحيحه وأخرجه أحمد فى مسنده والنسائى فى سننه والترمذى فى جامعه . قال البخارى : حدثنا عثمان بن الهيثم ، قال : حدثنا عوف عن الحسن البصرى عن أبى بكرة ، قال : لقد نفعنى الله بكلمتين أيام الجمل ، لما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم أن فارس ملكت ابنة كسرى قال « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » ، وقد ذهبت اللجنة فى استنتاج المراد من هذا الحديث وفى استنباط دلالته العامة مذهب صدق فقالت : إن الرسول ﷺ لا يقصد بهذا الحديث مجرد الإخبار عن عدم فلاح القوم الذين يولون المرأة أمرهم لأن وظيفته عليه الصلاة والسلام بيان ما يجوز لأمته أن تفعله حتى تصل إلى الخير والفلاح ، وما لا يجوز لها أن تفعله حتى تسلم من الشر والخسار ، وإنما يقصد نهى أمته عن مجاراة الفرس فى إسناد شىء من الأمور العامة إلى المرأة ، وقد ساق ذلك بأسلوب من شأنه أن يبعث القوم الحريصين على فلاحهم وانتظام شملهم على الامتثال ، وهو أسلوب القطع بأن عدم الفلاح ملازم لتولية المرأة أمراً من أمورهم .

ولا شك أن النهي المستفاد من الحديث يمنع كل امرأة في أي عصر من العصور أن تتولى أي شيء من الولايات العامة ، وهذا العموم تفيده صيغة الحديث وأسلوبه كما يفيده المعنى الذي من أجله كان هذا المنع .

وهذا هو مافهمه أصحاب الرسول ﷺ وجميع أئمة السلف ، لم يستثنوا من ذلك امرأة ولا قوما ولا شأنا من الشئون العامة ، فهم جميعاً يستدلون بهذا الحديث على حرمة تولي المرأة الإمامة الكبرى والقضاء وقيادة الجيوش ، وما إليها من سائر الولايات العامة .

هذا الحكم المستفاد من هذا الحديث ، وهو منع المرأة من الولايات العامة ، ليس حكما تعبديا يقصد مجرد امتثاله دون أن تعلم حكمته ، وإنما هو من الأحكام المعللة بمعان واعتبارات لا يجهلها الواقفون على الفروق الطبيعية بين نوعي الإنسان : « الرجل والمرأة » .

ذلك أن هذا الحكم لم ينط بشيء وراء « الأنوثة » التي جاءت كلمة « امرأة » في الحديث عنوانا لها ، وإذا فالأنوثة وحدها هي العلة فيه .

وواضح أن الأنوثة ليس من مقتضاها الطبيعي عدم العلم والمعرفة ولا عدم الذكاء والفطنة ، حتى يكون شيء من ذلك هو العلة ، لأن الواقع يدل على أن للمرأة علماً وقدرة على أن تعلم كالرجل وعلى أن لها ذكاء وفطنة كالرجل ، بل قد تفوق الرجل في العلم والذكاء والفهم . ؟ فلابد أن يكون الموجب لهذا الحكم شيئاً وراء ذلك كله .

إن المرأة بمقتضى الخلق والتكوين مطبوعة على غرائز تناسب المهمة التي خلقت لأجلها ، وهي مهمة الأمومة وحضانة النشء وتربيته ، وهذه قد جعلتها ذات تأثر خاص بدواعي العاطفة ، وهي مع هذا تعرض لها عوارض طبيعية تتكرر عليها في الأشهر والأعوام من شأنها أن تضعف قوتها المعنوية ، وتوهن من عزيمتها في تكوين الرأي والتمسك به والقدرة على الكفاح والمقاومة في سبيله ، وهذا شأن لا تنكره المرأة من نفسها .

ولا تعوزنا الأمثلة الواقعية التي تدل على أن شدة الانفعال والميل مع العاطفة من خصائص المرأة في جميع أطوارها وعصورها .

فقد دفعت هذه الغرائز المرأة في أسمى بيئة نسوية إلى تغليب العاطفة على مقتضى العقل والحكمة .

وآيات من سورة الأحزاب تشير إلى ما كان من نساء النبي ﷺ وتطلعهن إلى زينة الدنيا ومتعتها ، ومطالبتهن الرسول أن يغدق عليهن مما أفاء الله به عليه من الغنائم حتى يعشن

كما تعيش زوجات الملوك ورؤساء الأمم ، لكن القرآن قد ردهن إلى مقتضى العدل والحكمة ، من ذلك « يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما » .

وآية أخرى من سورة التحريم تحدث عن غيرة بعض نسائه عليه الصلاة والسلام ، وما كان لها من الأثر فى تغليبهن العاطفة على العقل ، مما جعلهن يدبرن ما يتظاهرن به على الرسول ﷺ ، وقد ردهن القرآن إلى الجادة « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ، وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه ، وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير » .

هذه هى المرأة فى أسمى البيئات النسوية ، لم تسلم من التأثر الشديد بدواعى العاطفة ، ولم تنهض قوتها المعنوية على مغالبة نوازع الغيرة ، مع كمال إيمانها ونشأتها فى بيت النبوة والوحى ، فكيف بامرأة غيرها لم تؤمن إيمانها ، ولم تنشأ نشأتها وليس لها ما تطمع به أن تبلغ شأوها أو تقارب منزلتها ؟!

فالحق أن المرأة بأنوثتها عرضة للانحراف عن مقتضى الحكمة والاعتدال فى الحكم ، وهذا ما عبر عنه الرسول ﷺ بنقصان العقل ، ورتب عليه كما جاء فى القرآن الكريم أن شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل .

ومجمل القول فى هذا كله أن المرأة لا يجوز لها أن تباشر عملا من أعمال الولاية العامة مطلقاً ، ولا يجوز لها كذلك أن تغشى الأندية والمحافل والمجتمعات العامة مهما كان السبب الذى يدفعها إلى ذلك ، لأننا أمة إسلامية ، والإسلام يلزمها هذه الحدود ، ولا يجيز لها أن تتعداها .



على أحول من خالد

يأتى (أحول) من الحيلة أى حسن التدبير فى الأمر وإصابة المخرج فى الضيق ، فيكون اسم تفضيل ، فيقال : هو أحول من فلان ، أى أبصر منه بالخروج من المآزق ، والانسلال من المشاكل . ويصاغ منه التعجب فيقال : ما أحول فلانا ! والتعجب والتفضيل من بابة واحدة ، كما هو واضح جلى . وفى اللسان (حول) : « يقال هو أحول منك أى أكثر حيلة ، وما أحوله ! » .

وهناك أحول من الحول فى العين ، وهذا لا يصاغ منه تفضيل ولا تعجب ؛ إذ كانت هذه الصفة لأصل الوصف . فلا يقال فى هذا المعنى هو أحول من فلان . وإنما يقال : هو أشد حولا ، ويقال : ما أشد حوله ! ولا يقال : ما أحوله ! ومثل هذا أسود ، يكون من السواد فلا يصح منه تفضيل ولا تعجب عند أكثر النحويين ، ويكون من السؤدد أو السيادة فيصح منه التفضيل والتعجب ، فيقال : هو أسود من فلان ، وما أسوده ! وفى اللسان (سود) . « وفى حديث ابن عمر : ما رأيت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسود من معاوية » .

وقد دعانى إلى هذا البحث أنى وجدت فى كتاب « الوسيط فى تاريخ أدباء شنقيط » للأستاذ أحمد بن الأمين الشنقيطى فى ترجمة محمد بن السالم أنه كان شاعرا رقيق الألفاظ سلسها وكان يرى نفسه أفضل من شاعر شنقيطى آخر يدعى الأحول ؛ وكان إذا سمع الناس يطرون هذا الشاعر الأحول يقول : أنا أشعر منه وأحول . فتعقب ذلك عليه مؤلف الكتاب وقال :[1] وكان القياس أن يقول : أشد حولا ؛ لأن أفعال العاهات لا يأتى منها التعجب

---

(١) الوسيط ٣٠٠

ولا اسم التفضيل ، وإنما جرى فى ذلك على مصطلح العامة ، والشاعر لم يذهب إلى ماذهب إليه ابن الأمين أن يكون أحول من الحول الذى هو من العاهات ، وإنما يريد أحول من الحيلة ، وهـذا من المحامد وسمات الكمال والميز ، وليس من العاهات والمثالب ، والموطن موطن افتخار وبأو ، وتعظم على من يناقسه . فما أتى به هو عين الصواب والســــداد .

لما تزورنى أزورك

يكثر مثل هذا التأليف ، ولا يحس القائل لهذا حرجا فى القول ، ولا شناعة فى الكلام وهذا منكر لا يسوغ فى العربية ، وذلك أن لما هذه ـ وتسمى الحينية لأنها فى معنى حين ـ تختص بالماضى فلا تدخل على المضارع ، وهى تقتضى تعليق حدث على حدث آخر ، ويقال فيها : حرف وجود الوجود ، أو حرف وجوب لوجوب ، ومعنى ذلك أنها تدل على وجود الثانى لوجود الأول ، أو وجوب الثانى لوجوب الأول ، ويقول صاحب المغنى « الثانى من أوجه لما أن تختص بالماضى ، فتقتضى جملتين وجدت ثانيتهما عند وجود أولاهما : نحو لما جاءنى أكرمته » .

ويبدو أن الخطأ فى دخول لما على المضارع قديم فاش ، فقد جاء فى كلام أحد جلة العلماء الفهماء فى النحو ، الذين لا يعزب عنهم أمر لما وما يطلب فيها ، وذلك هو أبو بكر الشنوانى فى كتابته على القطر فهو يقول [1] : « فإن قلت . قد ورد فى الحديث أن إبليس لما يجىء له بعض أولاده ويقول له : ما تركت حتى فرقت بين الرجل وامرأته يدنيه منه ويقول : نعم أنت » وقد حكى هذا القول عنه السجاعى المتوفى سنة ١١٩٧ هـ فى كتابته على القطر ولم يعقب عليه ، ولم ير فيه ما يستوجب التنكير . وهـذا على حين أن السجاعى فى حاشيته على ابن عقيل فى مبحث عوامل الجزم يقول عند قول الشارح : لم ولما ، وهما للنفى ، ويختصان بالمضارع ما نصه : « وخرج بهذا لما الحينية ـ وهى الرابطة لوجود شىء بوجود غيره ـ والتى بمعنى إلا ـ وتسمى الإيجابية ـ فإنه لا يحفظ دخولها على المضارع أصلا ،

(١) انظر حاشية السجاعى على القطر فى آخر باب الفاعل .

لو كلما سمعت شيئا حفظته لكنت أعلم الناس

قد يتردد هذا الأسلوب ، وقد يحتاج إليه فى تأدية مثل هذا المعنى . ولكنه أسلوب يجافى للعربية نابٍ عنها . ذلك أن لو للشرط ، وكلما أيضاً تفيد الشرط والتعليق ، ولا يدخل الشرط على الشرط . وتصحيح هذا الأسلوب أن يقال : لو أنه كلما سمعت شيئاً الخ

وقد وقع مثل هذا التركيب فى شعر لأبى العباس أحمد بن سريج أحد أعلام فقهاء الشافعية المتوفى سنة ٣٠٦ هـ ، والذى وصف بأنه المجدد للأمة أمر دينها على رأس القرن الرابع . وذلك حيث يقول :

ولو كلما كلب عوى ملت نحوه ... أجاوبه إن الكلاب كثير
ولكن مبالاتى بمن صاح أو عوى ... قليل لأنى بالكلاب بصير

ويقول أبو حيان فى الارتشاف (١) : إن أبا العباس فى هذا ركّب ما دخلت عليه « لو » تركيبا غير عربىّ . ولم يذكر السبب فى هذا الحكم . والظاهر عندى هو ما ذكرت آنفا ، وهو كراهة دخول الشرط على الشرط .

وقد أورد ابن السبكى فى كتابه « طبقات الشافعية الكبرى » فى ترجمة ابن سريج كلام شيخه أبي حيان والرد على ابن سريج ، ولم يرض كلام شيخه ، وتصدى لتصحيح كلام ابن سريج . وسأسوق كلامه على طول فيه ، فهو لا يخلو من الفائدة : « (٢) ولم يبين - يريد أبا حيان - وجه خروج أبي العباس من اللسان فى هذا . فإن أراد تسليط لو على الجملة الاسمية فهو مذهب كثير من النحاة ، منهم الشيخ جمال الدين بن مالك : جوزوا أن يليها اسم ، ويكون معمول فعل مضمر مفسر بظاهر بعد الاسم . قال فى التسهيل : وإن وليها اسم فهو معمول فعل مضمر مفسر بظاهر بعد الاسم . وربما وليها اسمان مرفوعان . انتهى .

---

(١) انظر الورقة ٢٩١ ب من مخطوطة دار الكتب المصرية المحفوظة برقم ٩١٠٦ نحو .

(٢) الطبقات ٢ / ٩٠ .

ومثال ما إذا وليها اسم ما روى فى المثل من قولهم : لو ذات سوار لطمتنى ، وبقول عمر ـ رضى الله عنه ـ : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ! وقال الشاعر :

أخلاى لو غير الحمام أصابكم عتبت ولكن ما على الدهر معتب

وقال آخر :

لو غيركم علق الزبير بحبـله أدى الجوار إلى بنى العوام

وقال آخر :

فلو غير أخوالى أرادوا نقيصتى جعلت لهم فوق العرانين ميسما

فالأسماء التى وليت لو فى كله معمولة لفعل مضمر يفسره مابعده ؛ كأنه قال : لولطمتنى ذات سوار لطمتنى . وكذا تقول فى قول ابن سريج : ولو كلما كلب . . . المعنى : ولو كان كلما كلب عوى . ويدله على ذلك قوله تعالى : « قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية الإنفاق » ولا يلزم من رد أبى حيان لهذا المذهب ودعواه أنه غير مذهب البصريين أن يكون مردوداً فى اللسان ، وإن أراد حذف الجواب إذ التقدير : ولو كان كلما عوى كلب ملت نحوه كى أجاوبه لسئمت أو تعبت أو نحو ذلك لأن الكلاب كثير ، فقد نص هو وغيره على جواز حذف جواب لو لدلالة المعنى عليه . وعليه قوله تعالى : « ولو ترى إذ وقفوا على النار » . وشواهده كثيرة .

وأغلب الظن عندى أن الأمر وراء ما ذهب إليه التاج ، وإنما المانع هو دخول الشرط على الشرط ، وهذا غير سائغ فى العربية ، إذ يوجب مماطلة فى الكلام وتعقيداً ، فكلا الشرطين يحتاج إلى شرط وجواب ، ولم يعهد اجتماع ما يدنو من هذا إلا فى الشرط والقسم ، وعقد الكلام فيهما على حديث الشرط . فأما القسم فإنه يشد من خبر الشرط ويؤكده ، كما تقول : والله إن جئتنى أكرمك . وقد أنكر أبو حيان هذا التركيب ونفاه عن العربية ، ولم يخص ذلك بمذهب البصريين ، كما فهم التاج ، وأبو حيان من أكثر النحاة إحاطة بمذاهب النحاة وأجمعهم لذلك ، وقد حشر فى كتابه الارتشاف من الآراء فى النحو مالم يجمع فى كتاب . وما كان يخفى عليه مذهب ابن مالك ولا ما ذكره التاج ، وإنما رأى فى هذا التركيب مالا يتفق مع المزاج العربى عند الجميع .

محمد على النجار
الأستاذ بكلية اللغة العربية



بسم الله الرحمن الرحيم :

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين :

« وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » .

هذه الآية أوضح ما تكون فى ارتباطها بما قبلها أن تكون مرتبطة بقوله تعالى « ومن الناس من يقول آمنا » فإنه يراد بتصوير حالهم هذه أن تلك حال تتنافى فى وضوح مع زعمهم الإيمان . فإن أول ما يقتضيه الإيمان متى حل فى القلب ، وأشرق نوره على النفس الكف عن الإفساد فى الأرض فإن الإفساد شر مستطير ، لا يمكن أن يكون من شخص حل فى قلبه نور الايمان فكأنه يقول « يقولون آمنا وهم مفسدون » ، وإذا نهوا عن الإفساد بالغوا فى التبرىء منه ، ولو كانوا مؤمنين كما زعموا لما كان ذلك شأنهم .

وإنما سلك فى التعبير ذلك الأسلوب فقال وإذا قيل لهم (بالبناء للمفعول) دون أن يسند الفعل إلى فاعله :

أولا — لأن مصدر القول المعبر عن النهى عن الإفساد ليس مصدرا واحدا ، فقد يصل آذانهم هذا النهى مرة من رسول الله وأخرى من أصحابه ، وقد يفهمون هذا النهى مرة من صريح القول وأخرى مما كانوا يقابلون به من ناحية الرسول وأصحابه من تجهم وإعراض .

وثانيا — للدلالة على أن ما سلكوه من أسلوب فى الدلالة على براءتهم مما نسب إليهم إنما هو أثر لجيعتهم التى كانت عن مفاجأتهم بأن ما حاولوا إخفاءه ، وما أسدلوا عليه أستار نفاقهم معلوم للرسول وأصحابه ، ولو بنى الفعل للمعلوم وأظهر الفاعل لربما توهم أن ذلك الأسلوب الذى سلكوه لبراءتهم ، إنما كان مما أحسوه من شدة ما ووجهوا به من قائل

معين ، وبهذا يتبين أن بناء الفعل للمفعول أبدى حال المنافقين وصور ذعرهم بأنه لكشف أستارهم لا لشدة مواجهتهم . هذا وإنما عبر بقوله « لا تفسدوا » بدل أن يقول مثلا « نهوا عن الفساد » ليتم إسناد فعل الإفساد لهم إسنادا مدلولا عليه بالعبارة لا بالاشارة ، فإنه قد يفوت إذا عبر (بنهوا عن الفساد) التنصيص على إسناد الإفساد لهم .

وعلق بالفعل الذى هو الإفساد قوله « فى الأرض » إيذانا بأن الإفساد مهما ضاقت حدوده ، فإنه لابد يوما أن يتعدى الحدود إلى ما وراءها ، فقد يعم ويشمل إن لم يشتد فى الاحتياط له . لذلك جعل ظرف إفسادهم ، الأرض كلها مع أنهم فى بقعة محصورة . وتراه أطلق كلمة الإفساد دون أن يحدد له صورة ليشير إلى أن كل مخالفة لما شرعه الله سواء كان ذلك راجعا إلى الشخص نفسه أو إلى المجتمع ، فهو إفساد ، إذ الكذب إفساد ، وإيذاء الجار إفساد ، والسرقة والقتل إفساد ، وهكذا لا تجد مخالفة لتشريع الله إلا وهى إفساد . وتدهش حين تسمع ردهم على نهيهم عن الإفساد إذ تراهم قد بالغوا فى الرد لحصروا أنفسهم أولا فى الإصلاح مبالغة المفجوع المفاجأ بكشف أستار حقيقته ، فتراهم لم يقتصروا على أن يقولوا (إنا مصلحون) ، بل قالوا (إنما) ، ثم أكدوا الجملة بكونها اسمية ليدلوا بذلك على أن شأنهم فى الإصلاح ثابت لازم ، ولما كان ما عبروا به عن براءتهم باطلا لا يمت إلى الحق والواقع بصلة ، ترى القرآن قد وضع فى الرد عليهم جملة صدرها بأداة الاستفتاح إيذانا بأن ما قالوه يجب أن يهمل إهمالا ، فلا يتصل الرد به ، بل يجب أن يكون وصفهم بالإفساد قضية مبتدأة مقررة حتى يتلقاها السامع غير مشغول النفس بما قالوه فى براءتهم لتأخذ من النفس حيزا كاملا مطمئنا فقال : (ألا إنهم هم المفسدون) ،وأكدا الجملة بعدة تأكيدات ، أولا بتصديرها بإن ، وثانيا بتأكيد الضمير المتصل بضمير منفصل حتى يتم إلصاق الخبر بالمبتدأ . وثالثا باسمية الجملة ، ورابعا بإفادة قصرهم على الإفساد فى مقابل قصرهم أنفسهم على الإصلاح ولما كان الرد عليهم بتأكيد إفسادهم فى مقابل تأكيدهم أنهم هم المصلحون مما يفيد تقابلا بين الحالين واضحا يستدعى عجبا كيف يصفون أنفسهم بأنهم لاحال لهم إلا الاصلاح وهم لاحال لهم إلا الافساد . أراد القرآن أن يزيل هذا العجب بقوله (ولكن لا يشعرون) . فما كان قولهم الذى قالوه إلا عن غباء حاط إحساسهم وشمل مشاعرهم فأمسوا لايدركون من شأن أنفسهم شيئا ، شأن

الذين غلف الباطل قلوبهم وأظلم نفوسهم حتى صار الباطل فى تقديرهم حقا والخطأ فى ميزانهم صوابا والإفساد عندهم إصلاحا فبحق هم غير شاعرين بأنهم مفسدون .

ويصح أن يكون لقوله تعالى : (وهم لايشعرون) معنى آخر ، وهو أنهم لا يشعرون بأن غيرهم عالم بحالهم علماً مؤكدا ، وأنهم مفسدون ممعنون فى الإفساد ، أو أنهم - جهلا منهم - لا يشعرون بأن الله عالم بشأنهم وما هم عليه من سوء . وقد يكون فى المعنى الثانى من تسوئه واستئصال أعذارهم ماليس فى المعنى الأول ، إذ قد يكون لهم بمقتضى المعنى الأول فى ظنهم الإفساد إصلاحا وتقديرهم الخطأ صوابا ما يخفف المؤاخذة عنهم ، ولكنى المعنى الثانى فيه أنهم أتوا الفساد قاصدين الإفساد عالمين بأنهم مفسدون ، ولكنهم حاولوا ستر حالهم بصور نفاقهم ، وظنوا أن تلك الأستار الواهية قد تستر على الناس حالهم وتخفى عنهم أمرهم . وفى المعنى الثالث تصوير جهلهم البالغ ، حتى ظنوا أن ربهم غير عالم بحالهم ، وهو تحديد لنزول تفكيرهم إلى أسفل الدركات وأعمق الوهدات ، وعلى أى حال فإن أنسب هذه الوجوه الثلاثة بشأن المنافقين إنما هو الوجه الثانى . ففيه أنهم مستحقون لغضب الله ، وأنهم أغبياء إلى حد أنهم لا يفرقون بين ما يدركه الناس منهم ومالا يدركون .

وإلى هنا يكون القرآن قد عرفنا شأن المنافقين من غباء وإفساد ، وهم بذلك يكونون أضر الطوائف بالمجتمع ، يفسدون العلائق بين الناس ويقلبون مابينهم من تواد إلى تباغض ، وما بينهم من اتصال تقاطعا ، فيبطل التعاون فيما بينهم ؛ إن المنافقين هم الطائفة التى تلقاك بوجه وتولى عنك بوجه آخر ، هم الطائفة التى لاألسنتها إذكاء الفتن وإشعال الإحن وإثارة الأحقاد وتقوية الخصومات ونشر ريح العداوة حتى يبطل بين أفراد المجتمع الإيناس وتقتلع الطمأنينة من القلوب ، ويصبح كل واحد من أفراد المجتمع محتاطا من أخيه ، يتآمرون ويستيقظون على مخافة وشقاق واحتياط وافتراق .

وإن أول ما كان يجب على ذوى الأمر فى الأمم والشعوب هو تطهير المجتمع من أمثال هؤلاء حتى يتم للأمة هناؤها ورخاؤها وسعادتها ونعيمها .

اللهم طهر قلوبنا من النفاق وأبعدها عن الشقاق واملأ نفوسنا بالمحبة والوفاق .

حامد محيسن
عضو جماعة كبار العلماء

المسلمون في مفترق الطرق

تسرع الأمم الحية، وتخف الشعوب الناهضة إلى التماس العبرة واقتباس العظة مما تسوقه الأحداث المطيفة وتتمخض عنه الأيام من وقائع ومفاجآت، لتقف في معترك الحياة قوية الجانب منيعة البنيان خفاقة العلم، كاملة الهيبة، لا يتمكن منها عدو، ولا يتحكم فيها دخيل ولا يبسط عليها ظالم يد الظلم، ولا يمد إليها سيف البغي والعدوان.

والأمة التي تمر بها الخطوب وتحل بساحتها المحن، فلا تثير من حفيظتها، ولا توقظ من غفوتها، ولا تلهب من غيرتها وحماستها، هي أمة متبلدة الحس، فاترة النفس لا تستحق البقاء، لأن منطق الوجود يحتم عليها أن تشعر وأن تنفعل بما يجري حولها من الظواهر.

هكذا علمنا التاريخ، وقص علينا الزمن. فالأمة تعز وتسود وتبقى وتخلد بمقدار ما يتغلغل فيها من مضاء العزم وذكاء القلب ونقاء الفطرة، وما يسري في دمها من شجاعة ويوجهها من إيمان بالله واستمساك بالفضائل.

فإذا ضعف فيها الإيمان وتزلزلت الثقة وتحللت الرجولة ونال منها الخور وألقت عن كاهلها العبء واستسلمت للماضي تعيش على أطيافه وتتغنى بأطلاله وتسبح مع خياله، سكن في نفسها معنى الهزيمة، وربض في حياتها روح الذل، ولازمها دائماً مظهر الضعف والاستسلام، فتوارت في زحمة الحياة، وتخلفت عن ركب الوجود، وأصبحت هدفاً لكل رام وغرضاً لكل صائد.

ولقد أنذر الرسول الأكرم - صلوات الله عليه - المسلمين بهذه الحالة حين قال «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: أمن قلة نحن يا رسول الله؟ فقال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله المهابة من صدور عدوكم وليقذفن في قلوبكم الوهن. قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت».

إن للمسلمين في ماضيهم المجيد عبرة أي عبرة، ولهم كذلك مثل عليا تروع الناس بجلالها وجمالها.

لقد كانت لهم دولة قامت على الخلق وتحصنت بالعدالة وسادت فى ربوعها الحرية والإخاء والمساواة ، وأشرق عليها نور العطف والتراحم . فكان المسلم على قلب أخيه المسلم : يفرح لفرحه ، ويأسى لأساه ، ويدبر له فيما ينوبه من مهام العيش ومشاكل الحياة ، إذا مرض عاده ، وإن افتقر عاد عليه ، وإن غاب سأل عنه ، وإن مات تبع جنازته وتعهد أسرته ، وإن زاغ عن الحق أذكره به وحمله عليه ، وإن تحرف عن الهداية بصره بالسبيل القصد وسدده على النهج الواضح .

وكان لهم ولاة ورعاة يستشعرون فى أعمالهم خوف الله فيما ولاهم ، ويتمثلون رقابته فيما عهد إليهم من أمانة ، ويلوح لهم دائماً دستور عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « لو أن جملا هلك ضياعاً بشط الفرات لخشيت أن يسأل عنه آل الخطاب » .

كانت للمسلمين دولة قامت على الأمانة والدقة ، فلا يطمع حاكم ولا محكوم فيما ليس من حقه أن يأخذه ، وكانت عفتهم فى هذا مضرب المثل ، حتى ليروى أنه قد أتى عمر ابن الخطاب بتاج كسرى عقب فتح فارس ، فاستعظم الناس قيمته لما كان يحوى من جواهر . وجعل عمر ينظر إليه متعجباً . ثم قال : والله إن قوما أدوا إلينا مثل هذا لأمناء ، فالتفت إليه على بن أبى طالب وقال : يا أمير المؤمنين ، إنك عففت فعفوا ، ولو رتعت لرتعوا .

كان أسلافنا رضى الله عنهم يوقنون أن أساس عزة المسلمين هى قول الحق تبارك شأنه « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » ، وبهذا الشراء أو بهذه العقيدة انطلقوا يحملون الراية ويخوضون المعامع ، لا يحرصون على دنيا ولا يلتفتون إلى حياة ، وبهذا دكوا المعاقل واقتحموا الحصون وثلوا العروش وصرعوا التيجان ، وتغلبوا على خصوم أقوياء أشداء ، وامتلكوا أرضهم وديارهم ووقفوا فى ساحاتهم يرددون قول رب العالمين : « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما آخرين ، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » .

فلما بدل المسلمون ما بهم ونسوا الخلال والآداب التى ملكوا بها الدنيا ، والتعاليم التى بهروا بها العالم ، لما نسوا سماحة دينهم ورسالة نبيهم والشمائل التى يجب أن يتحلى بها جندى الإسلام ، لما نسوا التقى والورع وحرصوا على الشهوات والمطامع ، تسرب الدخيل إلى صفوفهم فأشاع فيها الخصام والفرقة ، وتمكن العدو منهم فألقى بينهم العداوة والبغضاء ،

وتركهم شيعاً وأحزابا، يلعن بعضهم بعضا، وينشر بعضهم سيئات بعض. وهكذا تقسمتهم المحن وتناوشتهم الغوائل وأصبحوا غرضاً للزمان يرميهم بنبله ويقذفهم بسهامه.

لماذا يتصايح المسلمون الآن بالشكوى ويجأرون بالأنين؟ لماذا يقفون فى المعترك الدولى يتلقون لطمة إثر لطمة، ويستقبلون عدوانا بعد عدوان، ويستصرخون خصومهم أن ينجدوهم فلا يرون منهم نجدة، ويتلفتون إلى أعدائهم أن يعينوهم فلا يحسون منهم من عون أو نصير؟ لماذا ضعف المسلمون وغلبوا على أمرهم وملكوا زمامهم ومواردهم ومصاير أمورهم لمن لا يحس فى قلبه رحمة لهم، ولا تتردد فى فؤاده عاطفة من الاحترام والحب نحوهم؟

ليس لذلك من سبب إلا ضعف الإيمان وانحلال العزم وفتور النفس والاغترار بالدنيا والبعد عن الله.

ليس لذلك من سبب إلا أنا تعودنا أن نقول فنحسن القول، فإذا اتجهنا إلى العمل خارت قوانا وتفككت أوصالنا وشاع فينا التخاذل والنكوص!.

هؤلاء إخواننا فى الدين يلقون ألوانا مضنية من الإعنات والإرهاق، فماذا صنعنا لهم وماذا قدمنا من أجلهم؟. هؤلاء إخواننا فى تونس والجزائر ومراكش وفى فلسطين يسامون الخسف ويلقون الذل والهوان والعسف، يسفك العدو دماءهم، ويمزق أشلاءهم وينهك حرماتهم، ويقف فى الميدان الدولى وقد تلطخ وجهه بجريمته فما يندى له جبين من الخجل، وما يخفت له صوت من الحياء.

ها هى ذى قراهم تدمر وأرزاقهم تسلب وقادتهم وزعماؤهم يقتلون ويسجنون، وشبابهم يتساقطون صرعى تحت وابل الرصاص المنهمر من الأيدى الغادرة المجنونة، فماذا صنعنا لهم عما يعين به الأخ أخاه، ويسعد الجار جاره؟!

إن العقلية الاستعمارية لم تعتبر بما مر عليها من عظات الحياة وعبر الأحداث وضربات القدر. لقد كانت بالأمس تستصرخ الدنيا وتستنجد العالم ليعينها على عدو أذلها وعبث بمقوماتها ومقدساتها، وكانت تصور الظلم ومآسيه بصورة تقشعر لها الجلود ويشيب منها الولدان، فما بالها لم تنفض عنها بعد غبار الهزيمة والعار، تحاول أن تمثل دور الظالم الطاغية الذى يستمتع بمنظر الدماء المسفوحة، والأعراض المفضوحة، والجلود الممزقة.

إنه لا ينبغى أن نخاطب هؤلاء الناس باسم السلام العالمى ولا الأمن الدولى ولا القوانين التى يحتمون بها ويدعون أنهم حاملو لوائها ، لأن هذه الكلمات لا وزن لها فى نفوسهم ولا تقدير لها فى مجتمعاتهم ، ولا ينبغى أن نخاطبهم باسم العاطفة الإنسانية والرحمة البشرية التى تسكن كل قلب وتسرى فى كل نفس ، فقد صفرت قلوبهم من العاطفة وخلت نفوسهم من الرحمة ، وأصبحت كالحجارة أو أشد قسوة .

فهؤلاء الذين تمردوا على إنسانيتهم وثاروا على بشريتهم ، ولبسوا جلود الوحوش الكاسرة والذئاب العاوية ، لا يجدى لديهم المنطق ولا ينفع عندهم الاتجاه إلى الشعور والإحساس .

إنما منطقهم الذى يفهمونه واللغة التى تفزعهم وترهبهم هى لغة القوة أو لغة المقاومة المصممة المعاندة التى لا تضعف ولا تلين .

لقد هب المسلمون فى كل مكان وتيقظوا لأساليب الاستعمار ودسائسه ومكايده التى يديرها فى كل مكان ، ولن يغضوا عيونهم بعد اليوم عن القذى ، ولن يطووا صدورهم على الهوان . وعندما تنطلق الصيحة من أقصى الشرق فسيتردد صداها فى أقصى الغرب .

فلنقف على أقدامنا نستمد القوة من صدورنا وإيماننا ، ونلتمس الحلول من وحى تفكيرنا وعقولنا ، وليكن شعارنا دائماً فى كفاحنا وجهادنا ، قول الله تبارك وتعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

بهذا نأخذ فى الحياة وضعنا الكريم الذى ننشده ، ومكاننا اللائق الذى نصبو إليه . ونستطيع أن نفخر حقاً بأننا مسلمون تجرى فى دمائنا العزة الإسلامية ، وتملكنا الفضائل الدينية الكريمة . والله الهادى إلى سواء السبيل .

عبد الحميد محمود المسلوت
المدرس بكلية اللغة العربية

الإشاعات والأراجيف

الإشاعات سلاح خطر يفتك بجسم الأمة ويفرق بين أهلها، ويسىء ظن بعضهم ببعض، ويؤدى إلى بغض المحكومين للحاكمين وعدم الثقة بهم، فقد تنتشر الإشاعة وتلصق بالحاكمين تهمة، فيسمعها المرء من مصادر متعددة، وتتكرر على ذهنه فيصدقها للتوكيد والتكرار.

وأسرع الأمم تصديقاً للإشاعات هى الأمم الجاهلة، فهى بسذاجتها تصدق ما يقال لها وليست فيها قدرة النقد والتمحيص، وقد تحمل الإشاعة تكذيبها ولكنهم لا يفطنون إلى هذا التكذيب.

أما الأمم العالمة، فهى أبعد الناس عن تصديق الإشاعات وعن أن تروج فيهم. فالمتعلمون فيها إذا ألقيت إليهم إشاعة كاذبة محصوها وعرضوها على النقد فيبين لهم كذبها وزيفها، ولكن العلماء المحصين قليل، والكثرة الكاثرة أجهل من أن تمحص وأضعف من أن تنقد، ولذلك كانت الإشاعات سلاحاً حاداً شديد الفتك. وقد أدركت الأمم فتك هذا السلاح فحاربت أعداءها به، وافتنت فيه وجهدت فى أن تقى أمتها شره.

ومن قبل ذلك أدرك المسلمون الأولون خطورة هذا السلاح ومضاءه، وقد حاربوا وحوربوا به، وكانوا إذا حاربوا به أحكموه، وإذا حوربوا به فلّوه، لعلمهم بقوته ونكايته وإدخاله الرعب والفزع والشك والشبهة فى نفوس الأمة التى تبلى بها.

يحدث التاريخ أن المنافقين أشاعوا الشائعات حول امرأة طاهرة الذيل عفيفة الإزار، وهى السيدة عائشة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ، اتهموها فى عفتها وهى حصان رزان، ماتزن بريبة، قد ربيت فى بيت كريم، بيت أبى بكر الصديق، وخرجت منه إلى بيت كريم، مهبط الوحى ومنزل النبوة، ومثوى الأبرار الصالحين وهو بيت محمد ﷺ، وكانوا يريدون بهذه الإشاعة إثارة الشكوك فى نبوته ﷺ، فيقول القائل إنه كسائر الناس تتهم نساؤه ويطعن من خلفه، ولو كان نبياً لكان أكرم على الله من ذلك، ولأعلمه بما يدور فى بيته، ولكن ما لبثت هذه الإشاعة أن قضى الله عليها، فقد نزل القرآن ببراءتها عما رميت به، وتوعد الذين جاءوا بالإفك بأشد أنواع العذاب، ورسم للمسلمين سياسة حكيمة فى إشاعات السوء

وموقف المؤمنين منها ومن مروجيها ، فما نزل فى براءة السيدة عائشة : « الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ، والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ، أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم » . ومما توعد به الذين أشاعوا الفاحشة : « إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم . يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين » . ومما طلبه من المؤمنين الذين يسمعون إشاعات السوء : « لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين ، لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فى ما أفضتم فيه عذاب عظيم إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ، ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم » .

فقد علّم الله المؤمنين كيف يحاربون الإشاعات والأكاذيب ، وكيف يتقونها فطلب أن يرجع المسلمون إلى ما علموه من سيرة من قيلت فيه الإشاعة ، وألا يتركوا ما علموه من نزاهته وصلاحه ، إلى مالم يعلموه من هذه الأكاذيب ، وأن يغلب المؤمنون حسن الظن ، ويظنوا بأنفسهم خيراً فيكذبوا ما قيل وأن يقفوا من هذه الأكاذيب موقف الناقد الفاحص والقاضى العادل ، فلا يصدق إلا بيقين ، ولا يحكم إلا ببينة .

وأخطر شىء فى الإشاعات هو التحدث بها وترديدها والإفاضة فيها إذ بذلك يمكن للإشاعة من أن تفسد العدد الكثير ، وتعين الأمة بذلك عدوها عليها ، وتتولى إفساد ذات بينها بيدها ، ويكون نصيبها فى ضررها أكثر من نصيب عدوها إذ هو يخلق الإشاعة ويرمى بها وهنا ينتهى عمله ، والأمة تتولى الباقى فتضر نفسها أكثر مما يضرها عدوها .

لذلك جعل الله من أعظم ما تتقى به الإشاعة عدم تلقيها بالألسنة ، وعدم الإفاضة فيها ، وقتلها فى مهدها : « ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم » .

فليت أمتنا الكريمة تعمل بهذه السياسة الرشيدة لفل سلاح الإشاعات ، فترجع إلى ماعلمته من نزاهة القائمين بالحركة ، ومن تجربتهم أرواحهم حين قاموا بثورتهم ثم قيامهم بالإصلاح فى الأداة الحكومية ، ثم ما عملوه من تحديد الملكية ، وكل ذلك يكسبهم أعداء حانقين ، ولم يبالوا بذلك فى سبيل الخير والإصلاح ، فهم لا يعملون لأشخاصهم ، وإنما يعملون للخير والمصلحة

العامة ، ويجب ألا يكونوا سريعى التصديق ، وأن يطالبوا مروِّجى الإشاعات بالحجة والدليل ، ويجب أخيراً ألا يعينوا عدوهم عليهم بترديد الأراجيف والإفاضة فى الإثم والبهتان .

وقد لقى النبى ﷺ وأصحابه ، من حرب الإشاعات عنتاً كثيرا ، كانوا إذا خرجت سرايا النبى ﷺ أرجف بها مروِّجو الأراجيف ، فيقولون هزمت وقتلت ، ليكسروا بذلك قلوب المؤمنين .

فتوعدهم الله أعظم وعيد ، وأنزل فيهم عقوبات هى أشد ما أنزل فى مواطن وهى قوله : « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ، ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا » . فهل سمع سامع بعقوبات أشد وأنكى من هـذه العقوبات ، وإنها لا تزال قائمة يصبها القانون الإلهى على ناشرى إشاعات السوء ومروجى الفتن والمرجفين فى الأمة .

وقد اضطر المسلمون فى عصر النبى ﷺ أن يحاربوا بالإشاعات ، وكان ذلك فى واقعة الخندق ، وهى واقعة تألب فيها الشرك على الإسلام ، فقد تألبت اليهود وقريش وغطفان وجاءوا فى العدد والعدة ، وحاصروا المدينة ، وإذ أردت أن تعلم ما كان المسلمون فيه من هول ، فاقرأ قوله تعالى فى وصفه : « إذا جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا » .

فى هذه العسرة وهذا الضيق ، جاء نعيم بن مسعود الغطفانى إلى النبى ﷺ وقال : يارسول الله « إنى أسلمت وإن قومى لم يعلموا بإسلامى فأمرنى بما شئت » ، فقال رسول الله : إنما أنت فينا رجل واحد فخذِّل عنا ما استطعت ، فإن الحرب خدعة ، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة من اليهود ، وكان لهم نديماً فى الجاهلية ، فقال : يابنى قريظة قد عرفتم ودى إياكم وخاصة مابينى وبينكم ، قالوا صدقت ، لست عندنا بمتهم ، فقال لهم : إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لاتقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فليسوا كأنتم ، فإن رأوا نهزة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم ، يكونون لديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه ،

فقالوا له : لقد أشرت بالرأى ، ثم خرج حتى أتى قريشاً ، فقال لأبى سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش : قد عرفتم ودى لكم وفراق محمداً ، وأنه قد بلغنى أمر قد رأيت على حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم ، فاكتموا عنى قالوا : نفعل ، قال تعلموا أن معشر يهود ، قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه أنا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم . فأرسل إليهم أن نعم ، فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحداً . ثم قال مثل ذلك لغطفان ، ثم أرسل أبو سفيان يستنهض اليهود للقتال فقالوا : لسنا نقاتل حتى تعطونا رهنا من رجالكم فقالت قريش وغطفان إن الذى حدثكم به نعيم بن مسعود لحق ، وأبوا عليهم . فقالت اليهود إن ما حدثكم به نعيم بن مسعود لحق ، فخذل الله بينهم واختلف أمرهم ، وكان أن أرسل الله عليهم رعباً شديدة فى ليلة شاتية شديدة البرد ، فأصبحوا مرتحلين ونجى الله المسلمين .

لقد كان نعيم بن مسعود أرد على المسلمين من مائة ألف سيف تنافح عن المسلمين ـ فإذا كان المثل يقول إن من الرجال من هو بألف فإنى أقـــول إن نعيم بن مسعود بأمة أو بجيل من الناس .

وقد فعل السير ستافورد كريبس سفير إنجلترا فى روسيا ما فعله نعيم بن مسعود فما زال يخوف روسيا من ألمانيا ويذكر لها ما طلبته من الصلح معهم على حرب روسيا ، حتى أوجسوا شراً من ألمانيا ، وظهر ذلك منهم لمخافتهم ألمانيا ، ووقعت معهم فى حرب أعجزتهم قتلا وأفنت رجالهم وعددهم وسلاحهم ، وخف بذلك الضغط على بريطانيا وكسب الحلفاء النصر .

وإذا تأمل المرء يجد أن المصريين قد أتوا فى كثير من حروبهم من الإرجاف وقالة السوء ، فقد كان يرجف فى واقعة عرابى ، بأن جيشكم قد هزم وعرابى قد سلم فتفعل فيهم ما يفعل الداء بالجسم المريض ، ويقع الرعب ثم يقع التسليم .

الآن قد علمتم قوة الإشاعات والأراجيف فما أحراكم بالحذر منها وعدم تمكين عدوكم منكم بتصديقها والإفاضة فيها .

محمد عرفة
عضو جماعة كبار العلماء

الرحمة وآثارها

الرحمة صفة تكشف بنتائجها، وتدرك بمظاهرها، وتعرف بآثارها، وهي تضاف للمخلوق كما تضاف للخالق، وإن كانت بالنسبة لله قديمة باقية، وبالنسبة للعبد حادثة فانية.

وسأبين بعض آثارها بالنسبة للخالق والمخلوق، راجياً أن يكون فيها عظة وذكرى، «والذكرى تنفع المؤمنين».

إن رحمة الله وسعت التائبين من الكافرين، فمحا الله عنهم بها بعد الإسلام ما اجترحوه قبله من السيآت، وما حملوه من الآصار، وما تلبسوا به من الأوزار.

وشملت التائبين من المذنبين، فطهرهم بها من الذنوب، وأقالهم من العثرات، وتجاوز لهم عن التبعات. قال تعالى: «ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون».

واكتنفت السابح في الماء، والسائح في الهواء، والسارح في الغبراء، فسخر لهم بها الشمس والقمر، والليل والنهار، والحر والبرد، وغير ذلك من أسباب الرزق ووسائل الحياة، ولوازم البقاء.

وعمت العصاة إلى أجل ما، فلم يؤاخذهم الله حين التلبس بالمعصية، ولم يعاجلهم بالعقوبة غب اقترافها، ولكنه بواسع رحمته، وعظيم لطفه، أمهلهم عساهم يدركون قبح عصيانهم، وتركهم عساهم يثوبون إلى رشدهم، ويقرعون باب الله نادمين، «وسعت كل شيء» في هذا الوجود، فأغدق الله بها النعم السابغة، والعطايا الشاملة، والمنن الوارفة، التي لا يبلغها الوصف، ولا يحيط بها الحصر: «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار».

أعطى الخلائق بالإفضال نعمته	وأرسل الغيث للأكوان يرويها
وأخرج النبت من يبس بقدرته	سبحانه واهب الدنيا وما فيها
من يحفظ الكون لولا فيض رحمته ؟	ومن يقوم على الأفلاك يحميها ؟
لولا الخفي من الألطاف يمسكها	جاء الفناء بماضي العزم يرديها

وأما رحمة العبد : فأول آثارها الكف عن الاعتداء على أموال الناس ودمائهم ، وحقوقهم وأعراضهم ؛ وما ذاك إلا أن صاحب الرحمة يكون طاهر النفس ، صافى القلب ، يراقب الله فيما يورد ويصدر ، ويخافه فيما يأتى ويذر ، وإذ ذاك يسمو عن الضرر والضرار ، ويتبرأ عن الشرور والآثام ، ويجعل الخير وجهته فى جميع الأحوال .

وإذا وقع منه ما يؤذى الغير بدون قصد قادته نفسه إلى الاعتذار ، وحملته على التحلل من خطئه . وهذا منتهى الخلق الكريم الذى يورث صاحبه عز الحياتين ، ونعيم الدارين :

لو أننى خــيرت كل فضيلة ما اخترت غير مكارم الأخلاق
كل الأمور تبيد منك وتنقضى إلا الثنـاء فإنه لك باق

وإذا لم يكن للرحمة التى تسكن قلب الإنسان غير هـذا الأثر المحمود ، لكفى بها فضيلة تتقى بها الأخطار التى يبوء بها الظالمون ، ويبوء بها المظلومون .

وثانى آثارها تأدية العبد ما فرضه الله عليه من زكاة ، لأن الرحماء لا يستطيعون أن يقبضوا أيديهم عن إخوان قد أحرق الجوع أحشاءهم ، ومزقت الفاقة أجسادهم ، وأذاب البؤس نفوسهم ، ولكن الرحمة تبسط بالعطاء أيديهم ، فيتقاطر منها الإحسان كما يتقاطر الحيا على الزهر الذابل فتعود إليه النضرة والحياة :

لو وفا بالزكاة من جمع الدنـ ـيا ، وأهوى على اقتناء الحطام
ما شكا الجوع معدم أو تصدى لركوب الشرور والآثام
خصها الله فى الكتاب بذكر فهى ركن الأركان فى الإسلام
بدأت مبـدأ اليقين وظلت لحياة الشعوب خــير قوام

وثالث آثارها : أنها تبعث صاحبها على إغاثة الملهوف ، وإعانة المكروب ، وإبلاغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها ، لأنه يرى أن السعادة فى هذه الحياة ليست عبارة عن المتع والملذات ، ولكنها تقوم على التعاون مع بنى الجنس على قطع مراحل الحياة ، وإمدادهم بما آتاه الله من مال وجاه ، وعلم وسلطان . فما لا شك فيه أن الشخص الذى تدفعه الرحمة إلى إسداء الجميل لا يكون مخلوقا لنفسه ، ولكنه يكون مصدرا لإسعاد أمته ، ومن كان هذا شأنه فإنه يكون محط الرجاء ، وموئل العفاة .

ورابع آثارها : أنها تحمل صاحبها على إكرام جاره ، وتذكره بحقوقه وواجباته ، فلا يطيب خاطره أن يراه فى العوز والفاقة ، ثم يتجاهل أمره ، ويغض عنه طرفه ؛ ولكن الرحمة تحرك فى نفسه عاطفة الخير ، وتبسط يده إليه بالكرم والجود .

ولقد عنى الدين الإسلامى بشأن الجار أيما عناية حتى قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » ، وقال : « ليس المؤمن الذى يشبع وجاره جائع » .

وإن تلك العناية العظيمة بالجار لتحمل فى طياتها أبلغ الحكم ، وأجل المصالح ، وأعظم الفوائد ، ذلك أنها تعقد بين الجيران أواصر المحبة ، وتخلق من شتاتهم قوة ووحدة ، وتلك بغية الشرائع ، ونهاية المقاصد .

وبالجملة فصاحب الرحمة مجبول على حب المصلحة ، مفطور على بذل الخير والمنفعة ، معوان للبائسين . ولكن يجب ألا تكون الرحمة سبباً فى الخروج عن حدود الدين ، وأداة لتنكب الطريق المستقيم .

ولبيان ذلك نقول : إن الحاكم مثلا يجب عليه أن يقتص من الظالم وأن يعاقب المجرم ، فإذا دعته الرحمة إلى الإغضاء عن السارق ، أو حثته على التجاوز عن الزانى ، فإنه يكون جاهلا بمعنى الرحمة ، ملوما أمام الحق والعدل ، لأنه إذا رحم فرداً بترك عقوبته فقد قسى على الجماعة ، وأضاع حقوقها وواجباتها ، ذلك أن الجرائم تفشو بينهم ، وتشيع الفاحشة فى أوساطهم ، وتسود الفوضى ويختل النظام ، وتتعرض الأمة بتمامها للفناء .

ولهذا قال الله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » . وقال : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله » .

فالرحمة الممدوحة هى التى تكف الإنسان عن الأذى ، وتدفعه إلى أن يؤدى ما عليه من واجبات ، وتحمله على فعل الصالحات وترك السيئات .

وقد حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرحمة ، ونعى على قساة القلوب فقال : « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » . وقال : « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » وقال : « لا تنزع الرحمة إلا من قلب شقى » .

وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « كنت أضرب غلاما لى بالسوط ، فسمعت صوتاً من خلق : اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام ، فنظرت فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : لا أضرب غلاما بعدها أبداً ، فقال : « أما لو لم تفعل للفحتك النار » .

وكان للحيوانات نصيب من حث الرسول صلى الله عليه وسلم على رحمتها والرفق بها . فقد روى أن رجلا أضجع شاة ليذبحها بشفرة كليلة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أتريد أن تميتها موتتين ؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها » ؟ .

وبعد فهذه كلمة فى الرحمة نسوقها إلى القراء لمناسبة ماتقوم به الحكومة من بعث النفوس إلى الرحمة بالبؤساء والمحاويج ، والفقراء والمساكين ، والمهاجرين والمشردين ، راجين أن تكون نافعة لمن تقبلها بقلب سليم ، والله الهادى إلى الصراط المستقيم .

عبد الرحيم فرغلى البليقى
المفتش بالأزهر والمعاهد الدينية



ضمائر المتقاضين فى القضاء الاسلامى

فى صحيحى البخارى ومسلم وغيرهما بروايات متعددة وألفاظ متقاربة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« إنما أنا بشر ، وإنكم لتختصمون إلى ، وعسى أن يكون بعضكم ألحن بحجته من من الآخر فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها » .

عمر بن عبد العزيز والقرآن

القرآن الكريم هو دستور السماء الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو الغيث الإلهى الذى تنزّل من لدن الرحمن الرحيم على الأرض الجدبة الماحلة ، فأحيا مواتها ، ورد عليها شبابها . ولا يستقيم لمسلم إسلام أو يتم إيمان ، بدون رابطة له مع القرآن المجيد ، ولذلك قال رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام : « إن الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن كالبيت الخرب » .

ولقد كان لرسول الله صلوات الله عليه مع القرآن نبأ أى نبأ ، فهو ربيع قلبه ، ونور سبيله ، وسمير وحدته ، وزينة مجمعه : يسمعه ـ وعليه أنزل ـ فإذا القلب الواجف والروح الخائف واللسان الذاكر . وفى الحديث أن عبد الله بن مسعود قرأ على الرسول قوله تعالى : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » ثم التفت إليه ابن مسعود ، فإذا عينا الرسول تذرفان ... وصلوات الله عليه ، فهو القائل : شيبتنى هود وأخواتها ... وهو القائل : إن الله يرفع بهذا القرآن أقواماً ويضع به آخرين ... وهو القائل : « اقرأوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه » .

وحينما كنت أتتبع سيرة الإمام العادل ، والخليفة الخامس ، عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، فى مصادرها ومظانها ، لفت نظرى كلمات وأخبار ومواقف لعمر بن عبد العزيز مع القرآن الكريم ، ورأيت أن جمعها من شتاتها ، والربط بينها ، ونظمها فى سلك واحد من المقال ، وسيلة من وسائل التخليد والتمجيد ، وطريقة من طرق التأديب والتهذيب ، وباباً من أبواب التذكير والتحذير ...

* * *

لعل أول ما نطالع فى سيرة هذا الإمام التقى العادل من صلة له بالقرآن بعد أن حفظه وهو غلام حدث أنه يروى عن أبيه عبد العزيز بن مروان عن أبى الدرداء قوله : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا خشى أحدكم نسيان القرآن فليقل : اللهم ارحمنى بترك المعاصى

أبداً ما أبقيتني ، وارحمني بترك ما لا يعنيني ، وارزقني حسن النظر فيما يرضيك عني ، وألزم قلبي حفظ كتابك كما علمتني ، ونوّر به بصري ، واشرح به صدري ، واجعلني أتلوه كما يرضيك عني ، وافتح به قلبي ، وأطلق به لساني ... فيكون هذا الدعاء الذي ترويه كتب السيرة أو التاريخ شاهداً على أن عمر بن عبد العزيز يعرف للقرآن قدره ، وإذا نسيه ذكره ، وإذا غفل عنه تاب إلى ربه واستغفره .

ثم نشاهد عمر بن عبد العزيز في موقف آخر مع القرآن الكريم : إنه يدمن القراءة له ، ويديم المذاكرة له ، فهو يألف المصحف ، ولا يكاد يمر عليه يوم دون أن يتناوله ويتلو فيه جانباً من القرآن ، سواء أكان يريد تثبيت ذلك الجانب إن كان محفوظاً من قبل أو يريد استذكاره واسترجاعه إذا كان قد ندّ عنه . وها هو سعيد بن عامر يحدثنا عن إسماعيل ابن أبي حكيم قال : كان عمر بن عبد العزيز لا يدع النظر في المصحف كل يوم ، ولكنه لا يكثر . وفي رواية أخرى : كان عمر بن عبد العزيز قلما يدع يوما يقرأ في المصحف بالغداة فلا يطيل .

ولعل عدم الإكثار ، أو عدم الإطالة ، مما يستوقف النظر هنا . ولكن الراجح أن عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه كان يستهدي في ذلك بقول الرسول عليه صلوات الله : « اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ، فإذا اختلفتم فقوموا عنه » . فهو يهرع إلى القرآن ما دام هادئا فارغا ، وما دام لا يجد من معوقات الحياة ، أو اختلاف الأمور أو الأشخاص ما يصرفه عنه .

ويؤكد هذا المعنى أن عمر كان إذا سمع القرآن شغله المعنى أكثر مما يشغله اللفظ ، واستبد به التفكير أكثر مما تستبد به متابعة الترتيل أو روعة التلحين ... حدّث الغلابي قال حدثني رجل أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قرأ عنده قارئ مرة ، فقال له مسلمة ابن عبد الملك - وكان حاضراً - : لحنت . فقال عمر : أما شغلك معناها عن لحنه ؟ ... وحدّث عثمان بن عبد الحميد ابن لاحق قال : سمعت أبي قال : قرأ رجل عند عمر ابن عبد العزيز سورة ، وعنده رهط ، فقال بعض القوم : لحن . فقال عمر : أما كان فيما سمعت ما يشغلك عن اللحن .

وليس هذا فيما يظهر تسويغاً من عمر للحن في كتاب الله . فحاشاه أن يفعل ، ولكن لعله أراد ألا يخجل القارئ من جهة ، وأراد أن يخفف من مجابهته بنقد الناقد من جهة أخرى .

ولكنه رأى من أسلوب الناقد ما أفهمه أنه غفل عن تتبع المعنى والتأثر به ، واكتفى بإحصاء الهنات والهفوات ...

* * *

والإجابة الحاضرة عن معنى آية من آيات القرآن عقب السؤال عنها لا تتيسر على وجهها إلا لرجل ألف القرآن تلاوة ، وتدبرا ، واستيحاء . ويلوح لنا أن عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه كان من ذلك الصنف الممتاز الذى طالت صحبته للقرآن الكريم ، واستطاع من وراء ذلك أن يفقه معانيه ، وأن يستحضرها حين السؤال عنها ، دون الحاجة إلى استكناه المراجع أو المظان ... وهاك بعض الشواهد السريعة على ذلك ، وهى بعض الزهرات المنثورة فى سيرة ذلك الخليفة التقى .

حدث محمد بن كعب القرظى قال : اجتمع نفر من علماء أهل الشام وعلماء أهل الحجاز ، فكلمنا عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز فقلنا : نحب أن تسأل عمر ونحن نسمع عن قول الله تعالى : « وأنى لهم التناوش من مكان بعيد » . قال : فسأله ونحن نسمع . فقال عمر : سألت عن التناوش ، وهو التوبة ، طلبوها حين لم يقدروا عليها .

وهذا تفسير جميل لا تستوحش منه أقوال المفسرين فى كلمة « التناوش » ، فى كتاب (مفردات القرآن) للراغب الأصفهانى : « النوش التناول ... وتناوش القوم كذا تناولوه . قال : وأنى لهم التناوش ، أى كيف يتناولون الإيمان من مكان بعيد ، ولم يكونوا يتناولونه من قريب فى حين الاختيار والانتفاع بالإيمان ، إشارة إلى قوله : يوم لا ينفع نفسا إيمانها ... الآية » .

وقال الزمخشرى فى كشافه فى تفسير الآية : « التناوش والتناول أخوان ، إلا أن التناوش تناول سهل لشىء قريب ... وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون ، وهو أن ينفعهم إيمانهم فى ذلك الوقت ، كما ينفع المؤمنين إيمانهم فى الدنيا » .

والتوبة قريبة من الإيمان ، فقد قال الراغب أيضاً : « التوب ترك الذنب على أجمل الوجوه ، والكفر رأس الذنوب ، وفى التوبة رجوع إلى الله ، والرجوع إليه خضوع له وإيمان به !! ...

ومن جميل تفسيره للقرآن أنه سئل — كما حدث إبراهيم بن زيد — عن قول الله تعالى: « أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات » فقال: لم تكن إضاعتها أن تركوها، ولكن أضاعوا المواقيت. وسياق الإجابة يدل على أنه أجاب حين سئل، دون استنباء أو رجوع، وذلك يدل على صلته الدائمة بالقرآن ومعرفته له وأنسه به.

وهذا تفسير طريف آخر لبعض آيات القرآن الكريم، ذكره عمر بن عبد العزيز، ولمح فيه من ألفاظ القرآن ما قد يغيب عن سواه: كتب إليه بعض عماله يقول: يا أمير المؤمنين إنى بأرض قد كثرت فيها النعم، حتى لقد أشفقت على من قبلى من أهلها ضعف الشكر... فكتب إليه عمر يقول:

إنى قد كنت أراك أعلم بالله، إن الله لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمه. لو كنت لا تعرف ذلك إلا فى كتاب الله المنزل فقد قال الله تعالى: (ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) وقال الله تعالى: (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين، وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين) وأى نعمة أفضل من دخول الجنة؟

والظاهر أن عمر رضى الله عنه لا يريد بذلك التهوين من شأن النعم الإلهية، ولكنه يحث على مداومة الحمد المصحوب بالشكر وحسن العبادة، وذلك خير مقابلة للنعم، وإذا تذكرنا أن التوفيق للحمد على وجهه نعمة أخرى كبرى، فقد عرفنا كيف تتصل النعم وتدوم.

• • •

ويلوح من سيرة عمر بن العزيز ومواقفه مع القرآن المجيد أنه رضى الله عنه كان يقبل عليه بالسمع والبصر والفؤاد، ويبدأ فى تلاوته يقظ القلب حاضر اللب طاهر الروح؛ ولذلك هو يتنبه لفواصله، وتتبع تنقلاته، ويتأثر بألوان عباراته، ويندمج فى جوه الروحى السامى، فينال من حسه ونفسه وشعوره الشىء الكثير؛ فهو مثلا يقرأ قراءة الفاهم، ويسمع سماع المتابع، ويدرك ما يناسب كل آية من تجاوب أو تعليق. حدث وكيع عن صالح بن سعيد المؤذن قال: بينما أنا وعمر بن عبد العزيز بالسويداء، فأذنت بالعشاء الآخرة، فصلى، ثم دخل القصر فقلما لبث أن خرج، فصلى ركعتين خفيفتين ثم جلس فاحتبى، فافتتح

(الأنفال) فما زال يرددها ويقرأ ، كلما مرّ بتخويف تضرع ، وكلما مر بآية رحمة دعا ، حتى أذنت الفجر !!

وهو يهتز قلبا وقالبا إذا استبان أنوار الجلال القدسي أو ملامح القدرة الإلهية في التعبير القرآني ... حدّث بجدل الشامي عن أبيه – وكان صاحبا لعمر – قال : رأيت عمر بن عبد العزيز يتلو على المنبر هذه الآية : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، حتى ختمها ، فمال على أحد شقيه يريد أن يقع . يعني أنه فعل ذلك من شدة تأثره بما تلا .

وهو كثير البكاء حين يتلو القرآن ، وإنما البكاء ترجمان حسى عما يعتلج في صدره ، وما يصطلي به كبده من زفرات :

حدث الفضيل بن موسى عن مقاتل بن حيان قال : صليت خلف عمر بن عبد العزيز فقرأ : (وقفوهم إنهم مسئولون) فجعل يكررها لا يستطيع أن يجاوزها – يعني من البكاء وشدة التأثر .

وذكر أبو المليح عن ميمون بن مهران قال : قرأ عمر عبد العزيز : (ألهاكم التكاثر) فبكى ثم قال : (حتى زرتم المقابر) ما أرى المقابر إلا زيارة ، ولا بد أن يرجع إلى الجنة أو إلى النار ... ولله ما ألطف ذلك التأويل ، وما أجمل استنتاج ذلك المعنى الرقيق المؤثر من الآية الكريمة ... أرأيت كيف يلمح من كلمة « زرتم » أن البقاء في القبور إنما هو بقاء الزائر ، والزائر يخفف زيارته عادة فلا تطول وهي مهما طالت قصيرة ، ولا بد له من عودة وإلى أين العودة هنا ؟ . إلى الجنة أو النار !.

وقد روى عن عبد الأعلى بن عبدالله الغزى أنه رأى عمر يوم جمعة صعد المنبر فخطب فقرأ (إذا الشمس كورت) حتى إذا انتهى إلى قوله تعالى : (وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلفت) بكى وأبكى أهل المسجد ، حتى ارتجج بالبكاء . قال الغزى : حتى رأيت حيطان المسجد تبكى معه !! ...

وليس ذلك بعجب ، فعمر عندما تلا تصور ، وبلغ به التصور حده ، فكأنه يرى أهل الجنة وهم يتزاورون فيها ، ويرى أهل النار وهم يصطرخون فيها .. وإذا لم تكن الحيطان قد بكت حقيقة – إن أردت المراجعة – فلا أقل من أن تفهم أن هذه اللحظة بما فيها من جلال وخشية واستغراق جعلت الغزى يرى كل شيء حوله باكيا !! ..

وقال محمد بن الحصين : حدثني من شهد عمر بن عبد العزيز — وهو أمير المؤمنين — وقرأ عنده رجل : (وإذا ألقوا منها مكانا ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً) فبكى عمر حتى غلبه البكاء وعلا نشيجه فقام من مجلسه فدخل بيته ، وتفرق الناس .

وروى سعيد بن أبي عروبة أن عمر بن عبد العزيز قال لابنه : اقرأ : قال : ما أقرأ ؟ . قال : اقرأ سورة (ق) . فقرأ حتى بلغ : (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) فبكى ، ثم قال : اقرأ ، اقرأ يا بني . قال : ما أقرأ ؟ . قال اقرأ سورة (ق) . حتى إذا بلغ ذكر الموت بكى أيضاً بكاء شديدا ؛ يفعل ذلك مراراً .

ولعله يشير بذكر الموت فى آخر الخبر السابق إلى قوله تعالى بعد الآية السابقة : (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا فى البلاد هل من محيص) . أو إلى قوله تعالى بعد ذلك فى السورة نفسها أيضاً : (إنا نحن نحيي ونميت والينا المصير) فني كل منهما إشارة الى الموت . .

وأخبر رجل من بنى ضبة قال . شهدت رجلا يقرأ عند عمر بن عبد العزيز ، فكلما انتهى إلى هذه الآية : (فمن الله علينا فوقانا عذاب السموم) بكى عمر حتى اشتد بكاؤه ، ثم ازداد بكاؤه ، فلم يزل يبكى حتى غشى عليه !! . .

• • •

والظاهر من سيرة عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه أن أسرته كانت تشاركه الشعور بجلال القرآن ، وتتجاوب معه فى ذلك الحزن العميق والألم البليغ إذا جاء ذكر الحساب والعقاب ، ولا عجب فقد كانت ذرية مقودة بزمام الحق والإيمان .

حدث أبو مودود قال : بلغنا أن عمر بن عبد العزيز قرأ ذات يوم : « وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولاتعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه » . فبكى بكاء شديداً حتى سمعه أهل الدار ، فجاءت فاطمة (زوجته) فجلست تبكى لبكائه ، وبكى أهل الدار لبكائهما ، فجاء عبد الملك (ابنه) فدخل عليهم وهم على تلك الحال يبكون ، فقال : يا أبتِ ، ما يبكيك ؟ . قال : خير يا بنى ، ود أبوك أنه لم يعرف الدنيا ولم تعرفه ، والله يا بنى لقد خشيت أن أهلك ، والله يا بنى لقد خشيت أن أكون من أهل النار .

وهذا خبر نجعله خاتمة هذه المواقف ، ولعله جدير بأن يكون خاتمتها ... لقد بكت عليه زوجته فاطمة بنت عبد الملك بعد وفاته بكاء شديداً موصولا ، فلما أرادوا أن يصدوها عن ذلك أبت وقالت فيما قالت :

رأيته ذات ليلة قائماً يصلى ، فأتى على هذه الآية : « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش ، فصاح : واسوء صباحاه ! . ثم وثب فسقط لجمل يخور حتى ظننت أن نفسه ستخرج ، ثم إنه هدأ فظننت أنه قد قضى ، ثم أفاق إفاقة فنادى : ياسوء صباحاه ! . ثم وثب لجمل يجول فى الدار ويقول : ويل من يوم يكون الناس فيه كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش ... قالت : فلم يزل كذلك حتى طلع الفجر ، ثم سقط كأنه ميت ، حتى أتاه الإذن للصلاة ؛ فوالله ما ذكرت ليلته تلك إلا غلبتنى عيناى ، فلم أملك رد عبرتى !! .

* * *

رضوان الله عليك أيها الإمام التقى الصالح ، بقدر ما أعليت من شأن القرآن ، وأقبلت عليه ، واحتفلت له ، وبقدر ما حزنت لوعيده وتحذيره ؛ وأعلى الله مكانك بين الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

أحمد الشرباصى
مبعوث الأزهر إلى الكويت

سر نجاح حركة الجيش

قال الرئيس محمد نجيب فى حديث له نشرته الأهرام : « لقد قامت حركتنا على نكران الذات ، فليست لى ولا لأحد من زملائى مطامع شخصية سوى مصلحة البلاد العليا . ولعل هذا هو سر نجاح الحركة ، وهو السر الذى نعمل اليوم على إشاعته فى البلاد ليعمل الجميع متعاونين فى خدمة غرض واحد وهو نهضة البلاد وعظمتها » .

الرفق بالحيوان
في الشريعة الإسلامية
حديث لفضيلة الأستاذ الأكبر

كتب مندوب « الأهرام » الخاص يقول :

هذه مسألة لم يألف الناس أن يتحدثوا فيها ، إذ الحيوانات عندهم لا حقوق لها ، وهي عجماوات لا تفصح ، وخرساء لا تبين ، ونحن نضربها ضربا مبرحا أليما ، حتى لنكاد نمزق أجسادها بالسياط ، ونحمل عليها ما يرهقها ، وما يثقل كاهلها . وغايتنا أن نحمل أثقالنا ولا يعنينا ما ذا تكون . ولقد أراد فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر أن يعطى هذه الناحيـــة بعض عنايته : إذ الحيوانات خلق مثلنا ، وعوالم تتعاون معنا في هذه الحياة .

قال فضيلته : وهل جهل هؤلاء الذين يعنفون الحيوانات أنهم يخالفون قواعد دينهم ويخرجون على تعاليمه السمحة ؟

ثم استطرد فضيلته فقال : لقد أقام الإسلام هدايته على أساس الرحمة المحفوفة بالحكمة ، والرحمة تبعث النفوس مبعث الرفق والإحسان ، والحكمة تقف بالرحمة عند حدود لو تجاوزتها انقلبت إلى ضعف ورعونة . وعلى هذا الطريق الوسط جاءت الأحكام والآداب الإسلامية الخاصة بالتصرف في الحيوان .

فقد أذن الإسلام في قتل الحيوان المؤذى - كالكلب العقور والفأر - لكنه أمر بالإحسان في قتله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله كتب الإحسان في كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة » . وأذن الإنسان في ذبح الحيوان للاستمتاع بالطيب من لحومه ، لكنه أمر بالإحسان في ذبحه ، فقال صلى الله عليه وسلم « وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة . وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » .

وقد ذكر أئمة المسلمين آدابا اقتبسوها مما جاءت به الشريعة فى أصول الرفق بالحيوان ، فقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « من الإحسان للذبيحة أن لا تجر الذبيحة إلى من يذبحها » .

وقال ربيعة الرأى أحد فقهاء المسلمين وأئمتهم فى المدينة : من الإحسان أن لا تذبح ذبيحة وأخرى تنظر إليها .

ونص الفقهاء على أنه يستحب للذابح أن لا يحد شفرته بحضرة الذبيحة ، وأن لا يصرعها بعنف .

وأباحت الشريعة صيد الحيوان ، ولكنها منعت أن ينصب الحيوان غرضا (أى هدفا) ليرمى بالنبال والرصاص ، وفى صحيح مسلم قول النبى صلى الله عليه وسلم « لا تتخذوا شيئا فيه الروح غرضا » أى لتتعلموا به الصيد والرماية . وفى صحيح مسلم أيضا أن عبد الله بن عمر ابن الخطاب مر بفتيان من قريش قد نصبوا طيرا وهم يرمونه ، وجعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم ، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا ، فقال ابن عمر : من فعل هذا ؟ لعن الله من فعل هذا ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذ شيئا فيه روح غرضا .

ومن الرفق بالحيوان تجنب أذيته فى بدنه بنحو الضرب الأليم . وورد النهى عن خصاء البهائم ، كما جاء فى شرح معانى الآثار للامام الطحاوى من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يخصى الإبل والبقر والغنم والخيل . وحتى لو دعت الضرورة إلى ذلك فى الحيوان الذى يخشى عضاضه ، فانه إذا وجد طريق لمنع أذاه من غير طريق الخصاء فانه لا خلاف فى منع الخصاء حينئذ ، لأنه تعذيب ، وقد نهى الشارع عن تعذيب الحيوان .

ومن الرفق بالدابة أن لايتابع السير عليها متابعة ترهقها تعبا ، فقد روى مسلم وأبو داود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا سافرتم فى الخصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض » .

وورد فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يبقين فى رقبة بعير قلادة من وتر إلا قطعت » ، فذهب بعض أهل العلم فى فهم الحديث مذهب الرحمة بالحيوان وقال : إنه أمر بقطع القلائد من أعناق الإبل مخافة اختناق الدابة بها عند شدة الركض ، لأنها تضيق عليها نفسها ورعيها ، وكراهة أن تتعلق بشجرة فتخنقها أو تعوقها عن المضى فى سيرها .

ومن المحظور وقوف الراكب على الدابة وقوفا يؤلمها، فقد ورد فى سنن أبى داود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر ، فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس » .

وحرمت الشريعة الإسلامية الإساءة إلى الحيوان بتحميله من الأثقال مالا يطيق ، وكان الصحابة ، رضى الله عنهم ، يعرفون أن من حمل دابة ما لا تطيق حوسب على ذلك يوم القيامة ، حتى روى عن أبى الدرداء ، رضى الله عنه ، أنه قال لبعير له عند الموت : يا أيها البعير لا تخاصمنى عند ربك ، فإنى لم أكن أحملك فوق طاقتك .

ولا يجوز الحمل على ما لم يخلق للحمل كالبقرة ، قال القاضى أبو بكر بن العربى : لاخلاف فى أن البقر لا يجوز أن يحمل عليها ، وذهب كثير من أهل العلم إلى المنع من ركوبها نظراً إلى أنها لاتقوى على الركوب ، إنما ينتفع بها فيما تطيقه من نحو إثارة الأرض وسقى الحرث .

ومن الرفق بالدابة أن لايركبها ثلاثة أشخاص يكون هيؤهم عليها ثقيلا . أخرج ابن أبى شيبة عن الكندى أحد علماء التابعين فى الكوفة ، أنه رأى ثلاثة على بغل فقال : لينزل أحدكم فإن رسول الله ﷺ لعن الثالث .

وأخرج الطبرى عن على رضى الله عنه أنه قال : « إذا رأيتم ثلاثة على دابة فارجموهم حتى ينزل أحدهم » .

ويحمل هذه الآثار على حال ما إذا كان ركوب الثلاثة يرهق الدابة ، فإن كانت تطيق ذلك كالناقة ، أو البغلة ، يركبها رجل وصبيان مثلا ، فليس به بأس ، ولا سيما ركوبها فى مسافة قصيرة ، وهذا ما كان من النبى ﷺ حين قدم مكة راكبا على بغلته ، فاستقبله أغيلمة من بنى عبد المطلب ، فحمل واحدا بين يديه والآخر خلفه .

ومن الفنون التى يسلكها قساة القلوب فى تعذيب الحيوان تهييج بعض الحيوان على بعض كما يفعل بعض الكباش والديوك وغيرها ، وهو من اللهو الذى حرمته الشريعة ، لما فيه من إيلام الحيوان وإتعابه فى غير فائدة ، وفى سنن أبى داود والترمذى : « نهى رسول الله ﷺ عن التحريش بين البهائم » ، والتحريش بينها إغراء بعضها ببعض .

وروى أبو داود عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن أبيه قال : « كنا مع النبى ﷺ فى سفر ، فانطلق لحاجته ، فرأينا حمرة (وهى طائر قد يسمى الحمرة) معها

فرخان ، فأخذنا فرخيها ، فجاءت الحمرة فجعلت تعرش (أى ترتفع وتظل بجناحيها) فلما جاء رسول الله ﷺ قال : « من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها » . ورأى قرية نمل قد أحرقناها فقال : « من أحرق هذه ؟ قلنا : نحن ، قال : إنه لا ينبغى أن يعذب بالنار إلا رب النار » .

ونص علماؤنا على حرمة تمكين الصبى من التلهى بالطير على وجه فيه إيلام له .

وروى الطبرانى والبزار عن أنس أن رسول الله ﷺ رأى حماراً موسوما على وجهه فقال : « لعن الله من فعل هذا » .

وقال المقداد بن معدى كرب : سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن لطم خدود الدواب .

وفى صحيح مسلم أن امرأة كانت على ناقة فضجرت فلعنتها ، فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بإعراء الناقة مما عليها وإرسالها ، عقوبة لصاحبتها ، وفى رواية أنه قال : « لا تصاحبنا ناقة عليها لعنة » .

ووردت الأحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم فى فضل سقى الحيوان وإطعامه ، وعدهما من عمل الخير الذى تنال به الزلفى عند الله ، فجاء فى صحيح البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مسلم يغرس غرسا ، أو يزرع زرعا ، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة » .

وفى صحيح البخارى أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئرا ، فنزل فيها فشرب ثم خرج ، فإذا بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : قد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خفه ، ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكره الله فغفر له . قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا فى البهائم أجرا ؟ . فقال « فى كل ذات كبد رطبة أجر » .

وفى صحيحى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « عذبت امرأة فى هرة لم تطعمها ولم تسقها ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض » .

وقرر الفقهاء وجوب القيام على سقى الدابة وإطعامها ، وصرحت طائفة منهم بأن القضاء الإسلامى يجبره على ذلك إذا قصر فيه ، فإن لم يقم للدابة بما يجب عليه من حسن تغذيتها وسقيها ، باعها ولى الأمر ، ولم يتركها تحت يده تقاسى .

وفى سنن أبى داود أن النبى صلى الله عليه وسلم مر ببعير قد لحق ظهره ببطنه ، فقال : « اتقوا الله فى هذه البهائم المعجمة (أى التى لا تقدر على النطق) فاركبوها صالحة ، وكلوها صالحة » .

وبلغ من تأثر الصحابة والمسلمين الأولين بهذا الأدب فى الرفق بالحيوان أن كان عدى ابن حاتم يفت الخبز للنمل ويقول : إنهن جارات ولهن حق ، روى ذلك النووى فى تهذيب الأسماء .

وبلغ من أدب إمام الشافعية أبى اسحاق الشيرازى فى الرفق بالحيوان أنه كان يمشى فى طريق يرافقه فيه بعض أصحابه ، فعرض لهما كلب ، فزجره رفيق الإمام أبى اسحاق ، فنهاه الإمام وقال له : أما علمت أن الطريق بينى وبينه مشترك . !

وإذا كانت جمعية الرفق بالحيوان فى انجلترا قد تأسست سنة ١٨٢٤ ، فان الإسلام أيقظ عاطفة الرحمة بالحيوان فى قلوب جميع المسلمين فأسس منهم - منذ بضعة عشر قرنا - أعظم وأقدم جماعة فى الدنيا للرفق بالحيوان ، فضلا عن الرفق بالإنسان ، ولا يشذ أحد منهم عن ذلك إلا بعد أن يكون قد شذ عن آداب دينية وأوامر شريعته .

وفاة حرم فضيلة الأستاذ الأكبر

انتقلت إلى ساحة رحمة الله الواسعة السيدة البارة الصالحة حرم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر السيد محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر ، بعد أن عاشت معه ربع قرن فى سيرة فاضلة كانت فيها المثل الأعلى للزوجة المسلمة فى البيت الإسلامى السعيد .

وقد مشى فى تشييع نعشها قبل ظهر يوم الجمعة ١٦ ربيع الآخر الرئيس اللواء محمد نجيب والوزراء والعلماء والأعيان وممثلو الهيئات الإسلامية . وأوفد صاحب السمو وصى العرش حضرة التشريفاتى لإبلاغ عزاء سموه وسائر أعضاء الأسرة .

تغمد الله الفقيدة برحمته ورضوانه ، وأحسن عزاء حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر ، وأمتع المسلمين بحياته المباركة وتوجيهه الصالح فى هذا العهد الصالح .

بين الفلسفة وعلم الكلام
عند المسلمين

— ٣ —

لقد انتهينا فى مقالنا السابق من الكلام عند عقيدة المسلمين فى عصر سيدنا عمر ، وأشرنا إلى ما جد فى عهده من التعلل بالقدر فى فعل بعض المعاصى ، مثل ما حصل من الرجل الذى سرق ، متعللا بقدر الله ، وأن عمر رضى الله عنه قطع يده للسرقة ، وضربه للكذب على الله.

وقد وعدنا بأن نبدأ حديثنا من وقت فتنة عثمان رضى الله عنه ، أو بعبارة أقرب إلى الحقيقة ، فتنة المسلمين » . ونريد من هذه الفتنة طبعا الثورة التى انتهت بشهادة أمير المؤمنين ذى النورين رضى الله تعالى عنه .

إن من يستعرض تاريخ الدين الإسلامى يرى أن أصحاب الديانات الأخرى غير الإسلامية لم ينسوا موقف الدين الإسلامى منهم حين رأوا - فى زعمهم - أنه قد اعتدى على سلطانهم وثار على دينهم ، وإذن لا بد من محاربته ، والوقوف فى سبيل نشره ، فرد كيدهم بسيفه ، بعد أن لم يقتنعوا بحجته . فلما عجزوا عن مقاومته بسيوفهم ، ورده بحرا بهم ، أخذوا يدبرون فى الكيد له ، فتروى بعض كتب التاريخ [1] أن يهودياً دس لأبى بكر السم فى شىء من الطعام وكان السم لسنة ، ثم مرض قبل وفاته بخمسة عشر يوماً بسببه ، وهكذا توفى أبو بكر رضى الله عنه نتيجة لحقد اليهود على الدين الإسلامى . وإذا تركنا أبا بكر الخليفة الإسلامى الأول إلى عمر ، الخليفة الثانى ، رأينا أن صاحب دين آخر هو الدين المجوسى قد ثأر لدينه منه رضى الله عنه ، وهو أبو لؤلؤة المجوسى من أهل نهاوند ، قعد لعمر فى زاوية من زوايا المسجد فى الغلس ، وكان عمر يخرج فى السحر ليوقظ الناس للصلاة ، فلما مر به طعنه ثلاث طعنات كانت سبباً فى موته [2] . وهكذا قضى أصحاب دينين على خليفتين من خلفاء المسلمين ثأراً لدينيهما من الدين الإسلامى الذى غلب أمره على جميع الديانات التى تخالفه .

لكن ما وقع لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما على يدى رجلين غير مسلمين هل يسوغ لنا أن نحكم على قاتلى عثمان رضى الله عنه بأنهم من غير المسلمين ، مع أن كتب التاريخ قد ذكرت من بينهم محمد بن أبى بكر ؟ الحق أن محمد بن أبى بكر رضى الله عنه كان ممن دخلوا على عثمان

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٢ ص ١١٤ . (٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢١٢ .

لقتله ولكنه خرج ولم يشترك معهم، وإنما قتله رجال آخرون كما روته كتب التاريخ [١]، وإذا علمنا أن الثوار أتوا من الكوفة والبصرة ومصر، فليس بالبعيد أن يكون لمن يضمرون للإسلام الشر ممن غلبوا على أمرهم من أهل الديانات المخالفة النصيب الأكبر في هذه الثورة على الخليفة الإسلامي الثالث.

وإنما قلنا النصيب الأكبر لأن بعض المسلمين ممن خلصت نيتهم، واستضاءت طويتهم بنور الإيمان قد خدعوا ـ حرصاً على تحقيق العدالة المطلقة بين المسلمين ـ بتلبيس هؤلاء الجبناء فثاروا معهم على الخليفة، ولكنهم لم يلوثوا طهارتهم بدنس الاشتراك في قتل خليفة المسلمين. ومن هنا نعرف أن أصحاب الديانات الأخرى مازالوا ولا يزالون يسددون ضرباتهم القاتلة للقضاء على الإسلام وأهله، ولكن الله حافظه، ولن تضع الحرب أوزارها بين أهل الديانات المختلفة حتى تقوم الساعة، « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين [٢] ».

إن موت الخليفة الإسلامي لا يؤثر على قوة إيمان المسلم الصادق ولا يفت في عضده، لأن إيمانه بأن « كل نفس كل ذائقة الموت »، حتى محمد ﷺ « ماهو إلا رسول قد خلت من قبله الرسل »، وإيمان المسلم بهذا جزء من عقيدته، ولهذا كان يصح أن يكون قتل عثمان رضى الله عنه أمراً عادياً كموت زميليه: أبي بكر وعمر رضى الله عنهما، لكنه لم يكن كذلك لأنه ترتب على موته ـ بخلاف موت زميليه ـ صدع وحدة المسلمين، وانشقاق صفوفهم، وتفرق كلمتهم، مما بقى أثره حتى يومنا هذا، لقد قامت إثر هذا الحادث المشئوم حروب عظيمة أضعفت من شأن المسلمين مما جعل مجالا لغير المسلمين في زيادة الكيد للدين الإسلامي، تارة باستعمال السيف مع الخارجين على الحكام، وتارة بإثارة الشبه حول العقيدة الإسلامية الناصعة الخالصة.

بعد هذه الفتنة مباشرة قامت حرب ضروس بين المسلمين جعلت جماعتهم صفين، ثم صيرتهم يكفر بعضهم بعضاً، فنشأت فرقة الخوارج التي يكفر كل من عداهم من المسلمين، وكذا فرقة الشيعة التي تكفر كل من عداهم أيضاً من المسلمين، ومن هنا أصبحنا نسمع أن مسلماً يكفر مسلماً لخلاف في الرأي الذي لم يرد به نص صريح في الدين الإسلامي، ونسى المختلفان قوله تعالى، « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا [٣] ».

ثم شاع القول بالتكفير بارتكاب الكبيرة، أي أن من يرتكب كبيرة من الكبائر من المسلمين يصبح كافرا ويخلد في النار خلود أهل الكفر، لأن الإيمان اعتقاد وعمل،

(١) مروج الذهب، جـ ٢ صـ ٢٢٣ (٢) الآية ١١٨ من سورة هود (٣) من الآية ٩٤ سورة النساء

فمن لم يعمل بما أمر به الله ورسوله ، فقد انهدم نصف إيمانه ، فلا يكون مؤمنا بل يكون كافرا وجزاء الكافر الخلود فى النار .

وكان الخوارج هم أصحاب هذا الرأى . وفى هذا الوقت الذى كانت تنادى فيه الخوارج بأن مرتكب الكبيرة كافر لعدم تحقق أحد جزأى الإيمان فيه وهو العمل ، وجدت طائفة تقول بأن الإيمان هو التصديق القلبى فقط وليس العمل جزءا منه ، وبالغ متطرفوهم حتى قالوا لا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، بل ذهب بعض الغلاة منهم إلى أن الإنسان إذا آمن بقلبه وأتى من الأعمال ما هو كفر كالسجود للشمس والقمر والصنم فلا يكون سجوده لها كفرا فى نفسه ، ولكنه علامة الكفر [1] .

بعد أن قام الخلاف على مرتكب الكبيرة وهل هو كافر كما قالت الخوارج ، أو مؤمن كما قالت المرجئة ، جر هذا الخلاف إلى خلاف آخر كان وجوده أمرا طبيعيا لا بد منه ، وقد نشأ هذا الخلاف من السؤال التالى : هل الإنسان عنده القدرة على أن يأتى ما يشاء من الأعمال ويترك ما يشاء منها ؟ حتى نحكم عليه بأنه كافر إذا أتى من الأعمال ما يخالف مقتضى الايمان بناء على ما ذهب إليه الخوارج ، أو نحكم عليه بأنه ما زال مؤمنا وإن أتى من الأفعال ما يتنافى مع إيمانه على رأى المرجئة ؟ من هنا نشأت مشكلة جديدة هى مشكلة الجبر والاختيار . وهى : هل الإنسان مجبور على أفعاله ، ولهذا لا نحكم عليه بشىء ؟ أو أنه مختار فى أفعاله وعنده الاستطاعة عليها ، وإذن لا بد من الحكم عليه ؟

هذه هى المشكلة الثانية (مشكلة الجبر والاختيار) التى كانت نتيجة للمشكلة الأولى وهى الحكم على مرتكب الكبيرة بالإيمان أو الكفر .

وفى المقال التالى إن شاء الله نبدأ بالكلام على أصحاب القول بالجبر ، ثم على أصحاب القول بالاختيار ، وما أساس هاتين المشكلتين ، حتى يتأتى لنا حصر المشاكل التى قامت حول الدين الاسلامى بعد عصر النبى ﷺ وأصحابه ، ثم كيف نمت هذه المشاكل وزادت من شأنها الفلسفة بعد أن ترجمت إلى المسلمين ؟ ثم كيف اختلف علم الكلام بالفلسفة ، حتى أصبح عند المسلمين تراث كبير من علم الكلام .

على مصطفى الغرابى
المدرس فى كلية أصول الدين

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى ١ـ ص ٢٢٩ طبع محمود توفيق .

تطهير الأداة الحكومية

— ٢ —

روى ابن عبد الحكم (١) أن المكاتبات دارت بين الخليفة عمر بن الخطاب ووالى مصر عمرو بن العاص بشأن حصيلة جباية أموالها : يقول الخليفة « ... أما بعد فإنى فكرت فى أمرك والذى أنت عليه ، فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة ، قد أعطى الله أهلها عددا وجلدا وقوة فى بر وبحر ، وأنها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكماً مع شدة عتوهم وكفرهم فعجبت من ذلك ، وأعجب ما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحط ولا جدب . ولقد أكثرت مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج ، وظننت أن ذلك يأتينا على غير نزر ، ورجوت أن تفيق فترفع إلى ، فإذا أنت تأتينى بمعاريض تعبأ بها لا توافق الذى فى نفسى ، ولست قابلا منك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك » وقد رد عمرو بن العاص مدافعاً عن سياسته وعن أمانته وتعددت بين الخليفة وواليه المكاتبات .

وكان (ديوان الزمام) ويشبه ديوان المحاسبة اليوم — من أعظم النظم التى أدخلها الخليفة المهدى ، كما كان (ديوان الخراج) أيام بنى أمية أهم دواوين الدولة . ويقصد بديوان الأزمة أو الزمام ، أن الدواوين تجمع لرجل يضبطها بزمام يكون له على كل ديوان ، فيتخذ دواوين الأزمة ويولى على كل منها رجلا . وقد أنشأ العباسيون (ديوان النظر) أو المكاتبات والمراجعات : وينقسم إلى ديوان الجيش وفيه الاثبات والعطاء ، وديوان الأعمال ويتولى الرسوم والحقوق ، وديوان المال ويختص بالتقليد والعزل ، وديوان بيت المال وينظر فى الدخل والخرج (٢) .

ولقد كانت تقارير ديوان المحاسبة فى مصر محرومة من القوة التنفيذية والسلطة الجزائية حتى صدر أخيراً المرسوم بقانون بإنشاء مجلس تأديبى لمحاكمة الموظفين المسئولين عن المخالفات

---

(١) فتوح مصر ص ١٥٨ . (٢) النظم الاسلامية - النسخة المنقحة ص ٢٢٢ - ٢٢٣

المالية . كما صدر من وقت قريب مرسوم بقانون الكسب غير المشروع ، وصدر أخيراً مرسوم بقانون بتعديله ، ويقتضى ذلك رد الكسب غير المشروع ويعاقب صاحبه .

وهذه الناحية الإيجابية فى ضمان نزاهة الحكم سابقة فى تاريخ الإسلام . فقد سن الأمويون نظاماً غاية فى الدقة للإشراف على جباية الأموال ، وفى عهد عبد الملك بن مروان كان يعمل تحقيق دقيق مع الجباة وموظفى الخراج عند اعتزالهم أعمالهم الإدارية ، وكان للتحقيق أماكن خاصة تسمى « دار الاستخراج » ، وينتهى الأمر بالإقرار بأسماء من أودع عندهم الموظفون ودائعهم وأموالهم ، ويرد إلى بيت المال حقه المسلوب [1] .

ولم تقف نزاهة الحكم فى الإسلام عند ضمان حقوق الدولة من أن تضيع ، فلربما لوث الحاكمون أنفسهم دون أن يمسوا من بيت المال ـ بطريق مباشر ـ درهما ولا ديناراً ، وذلك باستغلال نفوذهم . فيستلبون الأموال من جيوب الشعب بدلا من استلابها من خزانة الدولة . كان عمر بن الخطاب يرى الدابة السمينة لولده فيقول : ما أسمنها إلا بجاه أنك ابن أمير المؤمنين !! ويصادرها ويردها لبيت المال . وخرج ابناه عبد الله وعبيد الله إلى البصرة ، فأعطاهما أبو موسى الاشعرى مالا مما تحت يده للمسلمين ليتاجرا فيه ، فيرجعا رأس المال ويكون لهما الربح . فلما علم عمر سألهما : أكل الجيش أسلفه ؟؟ ثم أمرهما أن يؤديا المال وربحه . وقبل بعد لأى أن يجعله قراضاً فيأخذ لبيت المال رأس المال ونصف ربحه .

ولقد سن عمر بن الخطاب طريقاً عملياً لتطهير الأداة الحكومية من كل كسب يُشك فى مصدره . فعرف عنه (نظام المقاسمة) ، وذلك بعمل إحصاء دقيق لثروة الولاة قبل توليتهم ، والتى لا تسمح بها رواتبهم [2] . يقول البلاذرى « كان عمر يكتب أموال عماله إذا ولاهم ، ثم يقاسمهم ما زاد على ذلك ، وربما أخذه منهم . فكتب إلى عمرو بن العاص :

---

(١) السيادة العربية لفان فلوتن ص ٢٧ ـ ٣٢ ـ تاريخ الاسلام السياسى جـ ١ ص ٦١٤ ـ النظم الاسلامية النسخة المفصلة ص ٢٧٠

(٢) إلا إذا ثبت عليهم أنها كانت من طريق غير مشروع فإنها ترد كلها .

« إنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم تكن حين وليت مصر ، فكتب إليه عمرو » إن أرضنا أرض مزدرع ومتجر ، فنحن نصيب فضلا عما نحتاج إليه لنفقتنا ، فوجه إليه محمد بن مسلمة ليقاسمه ماله [1] .

ولقد استعمل عمر عتبة بن أبي سفيان على كنانة فقدم المدينة بمال فقال له : ما هذا يا عتبة ؟ قال : مال خرجت به معى واتجرت فيه . قال : ومالك تخرج المال معك فى هذا الوجه ؟؟ فصيَّره فى بيت المال .

وعلى هذا النحو ردَّ معاوية بنفسه إلى بيت المال نصف الثروة التى جمعها ، ليطيب له الباقى ، . وكذلك شاطر عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص على ماله ، وشاطر أبا هريرة أيضاً . وشاطر خالد بن الوليد على ماله ، حتى الخفين أخذ منهما واحدا وترك الآخر وصادر غيرهم أيضاً ورد أموالهم إلى بيت المال . [2]

ودلالة هذه العمريات واضحة على نزاهة الحكم الإسلامى التى لا ترعى « محسوبيات » ، وهى قائمة على السبق فى الإسلام ، ولا تسمح بوجود « أرستقراطية دينية » من أى نوع من الأنواع . بل إن الحكم الإسلامى كان يحاسب هؤلاء الصحابة الأكرمين بأشد مما يحاسب غيرهم ، فالحكم أمر خطير ، والصحبة شأنها جليل ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين كما يقولون ، لذلك ضاعف الإسلام العقوبة على الأحرار ، وضاعف العذاب على نساء النبى صلى الله عليه وسلم . ولئن كان الفرد العادى له حصانات وضمانات فى حالة اتهامه ، فإن الرجل العام شأنه أن يتقى مواطن الشبهات من بعيد ، لذلك أخذته سياسة الشرع فى سمعته ونزاهته بما لم تأخذ به غيره من عامة المسلمين .

ودلالة هذه العمريات أيضاً أن الحكم الإسلامى فى سائر الأرجاء ، ليس تحكم « الحجاز » كقطر غالب فى بلاد مقهورة ، وليس استعلاء العرب المسلمين على غيرهم من غير العرب وغير المسلمين . ولو كان لأبيح للحاكمين من البلد الفاتح أن يعيثوا بأموال البلد المفتوح ،

---

(١) فتوح البلدان ص ٢٢٧ النظم الاسلامية ، النسخة المنقحة ص ٢٦٩

(٢) الطبرى - فى مواضع متفرقة منها قصة خالد جـ ٤ ص ٥٦ و ص ٢٠٥ (طبعة الحسينية) - أشهر مشاهير الاسلام م ١ ص ٤٠٠ ، ٤٠١

ولترك الخلفاء عالم العرب المسلمين يسترقون دماء الشعوب ما دامت لا تتكلم العربية ولا تدين بالإسلام !!! ولكن الإسلام ليس حكم « أفراد » أو « أجناس » أو « أقطار » وإنما هو « حكم المثل العليا الإنسانية » في كل البقاع .

وقد يكون استغلال النفوذ لا بكسب المنفعة بالمال ، ولكن بكسب المنفعة بتولية ذوى القرابة والحظوة . ولقد نهى الشارع أيضا عن ذلك فى الحديث : « من ولى من أمر المسلمين شيئاً ، فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه ، فقد خان الله ورسوله » وفى رواية « من قلد رجلا عملا على عصابة ، وهو يجد فى تلك العصابة أرضى منه ، فقد خان الله . وخان المؤمنين » — رواه الحاكم فى صحيحه . يقول شيخ الإسلام ابن تيمية [1] « . . . . فيجب على ولى الأمر أن يولى على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل . . . ولا يقدم الرجل لكونه طلب الولاية أو سبق فى الطلب ، بل ذلك سبب المنع ، فنى الصحيحين : « إنا لا نولى أمرنا هذا من طلبه » . . . فإن عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره لأجل قرابة بينهما ، أو ولاء عتاقة أو صداقة ، أو موافقة فى بلد أو مذهب أو طريقة أو جنس كالعربية والفارسية والتركية والرومية ، أو الرشوة يأخذها منه من مال أو منفعة ، أو غير ذلك من الأسباب ، أو لضغن فى قلبه على الأحق أو عداوة بينهما ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ودخل فيما نهى عنه فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » ثم قال : « واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم » . (يتبع)

محمد فتحى محمد عثمان
مدرس الآداب بالمعاهد الدينية

---

(١) السياسة الشرعية ص ٦ و ٧

دستور الدولة في نظر الإسلام

أهل التقنين الحديث قصدوا بالدستور مجموعة القواعد التي ترسم نظام الحكم في الدولة، ببيان نوع الحكومة ومصدر السلطات، ومن يتولاها، وكيفية تكوينها، واختصاصاتها، وبيان حقوق الشعب على الدولة وواجباتها عليه.

وقصارى القول أن هذه القواعد تنظم العلاقات بين الحاكم والمحكوم على وجه يصون مصالح الدولة والرعية وتعتبر أساساً للقوانين الخاصة التي يحكم بها الناس في منازعاتهم المالية والجنائية وشئون الأسرة. وهذه المبادىء من المقررات الأولى في نصوص الكتاب والسنة وعمل الخلفاء الراشدين المهديين، بل ألف علماء المسلمين كتباً في أصول الحكم ونظام الدولة الإسلامية لم يصل إلى إحكامها وسموها عباقرة الساسة في القرنين التاسع عشر والعشرين، وإن كانوا لم يعطوا لهذا النظام اسم الدستور.

فإذا تبينا مضمون القانون الدستورى وغايته، وأردنا أن نوازن في رأى الإسلام بين الدستور المصرى الذى أسقط في آخر عام ١٩٥٢ ودستور يصلح أساساً للحكم في بلد مسلم، وجدنا أن الأول تضمن أحكاما كان يجب أن تعدل، ونقصا ينبغى أن يكمل. ويتبين هذا في الخطوط الرئيسية الآتية:

الحكم في الدولة الإسلامية يقوم على أصول أربعة:

الأصل الأول ـ «الإسلام أساس الحكم».

إن القوانين في كل دولة تتجه الوجهة التي يحددها قانونها الأساسى وتتأثر بالنظام الذى يضعه. وهناك حقائق يسلم بها المنصفون.

الأولى: أن القرآن أمر المسلمين أن يحكموا في قضاياهم وفي سياسة أمورهم وفي تقاليدهم بما أنزل الله، قال تعالى «فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر». والرد إلى الله ورسوله هو العمل بما جاء في الكتاب الكريم والسنة المطهرة.

الثانية: أن شريعة الإسلام مقصدها الأساسى هو قضاء مصالح الخلق والوفاء بحاجاتهم كما يقول تعالى لنبيه «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» وكما يرشد إليه النص على الغرض من شرع الأحكام المختلفة، كالزواج والقصاص والطهارة والصلاة، وأن هذه الشريعة أمرت بتحقيق العدل بين الناس والإحسان إليهم ورفع الحرج عنهم ما استطاع الحكام إلى ذلك سبيلا «إن الله يأمر بالعدل والإحسان»، «ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج»

سوت بين المسلمين وغيرهم فى الحقوق ولم تنهم عن البر بغيرهم ما سالموهم ، وأمرتهم أن يتركوهم وما يدينون .

الثالثة : أن مصر بلد مسلم وأن أهلها توارثوا الحكم بالشريعة منذ فتحها عمرو بن العاص ولهم فى الأحكام الإسلامية فقه وقضاء وفتاوى ساهم فى بنائها عباقرة الفقهاء كالليث بن سعد والشافعى والطحاوى وابن القاسم وابن الهمام والعز بن عبدالسلام ، واستطاعوا بفضل مرانة الإسلام وسهولته أن يحلوا مشاكل المجتمع المصرى قرابة أربعة عشر قرنا ، وورثوا المصريين ثروة قانونية عز على الزمان أن يجود بمثلها ، وهى من تالد مجدهم الذى يفاخرون به أعظم من مفاخرتهم بحضارتهم القديمة وملكهم العريض ، وصارت أحكام الإسلام محببة إلى قلوب المصريين ، مألوفة لهم لأنها الشريعة التى أحس الشعب بسماحتها ورضيها لنفسه دينا .

هذه الحقائق هى التى صنعت الأصل الأول ، الإسلام أساس الحكم ، وهى التى تحتم أن يكون من دعائم دستور الدولة ليكون حكمها وقوانينها وتقاليدها مطبوعة بالطابع الذى يرتضيه سواد الأمة الأعظم ويرتاح إليه ويعده طابعه القوى الأصيل .

الأصل الثانى ـ « الأمة مصدر السلطات » : هـــذا الأصل يتناول السلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية وهو من صميم الإسلام ، لأن أساس الحكم فى الدولة هو الشورى كما يدل عليه قوله تعالى فى مدح المؤمنين « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم » فرئيس الدولة يتولى سلطانه برأى الأمة وسلطته ليست مطلقة بل مقيدة برأى مجلس الشورى المؤلف من أهل الحل والعقد . على هذا جرى عمل السلف من المؤمنين :

أما الأول ـ فقد أجمع المسلمون على أن يكون للدولة رئيس مستجمع لصفات الأهلية التى تمكنه من الحكم بأن يكون كامل العقل سليم الدين ، عالماً بأحكام الله ، صاحب رأى يسوس به الأمة سياسة رشيدة ، وجرى عملهم فى عهد الخلفاء الراشدين على أن يكون تعيينه برأى أهل الحل والعقد وفى علماء الأمة ووجوهها ورؤساء جماعاتها .

فقد انتخب أبو بكر يوم مؤتمر السقيفة بعد أن قال فيهم أثره المشهور « لا بد لهذا الأمر من إمام ، فانظروا وهاتوا آراءكم رحمكم الله » . واستخلف أبو بكر عمر بعد أن استشار أعيان الصحابة وقد أشرف على الناس فى مرضه وقال ترضون من استخلفت عليكم ؟ فلم يخالفوا ، ولما طعن عمر رأى حصر الشورى فى الزعماء الستة الذين توفى النبى صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، لعلمه أنهم رؤساء الناس وأنه لا يخالفهم أحد ، وكذلك تمت الخلافة لعلى ببيعة جمهور الأمة . وأما ولاية العهد التى كانت فى الأمويين والعباسيين فلا حجة فى عملهم بل فى

عمل العصر الأول، على أن خلفاء بني أمية وبني العباس كانوا يأخذون البيعة لأولادهم حرصا على جمع الكلمة، وفي ذلك ضرب من الشورى.

وأما أن سلطة الحاكم مقيدة برأي الأمة فلأن رئيس الدولة يستمد سلطته من أهل الشورى، ولهذا كان لهم عزله إذا خرج عن الجادة. ولما ولى أبو بكر خطب الناس فقال «إني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن رأيتم في اعوجاجا فقوموني» ودأب الخلفاء على اتخاذ مجالس للشورى يصرفون أمور الدولة بعد استشارتهم، وقدوتهم في ذلك عمل النبي صلى الله عليه وسلم. ونحن نعلم أنه استشار أصحابه في مشاهد كثيرة كبدر وأحد والخندق.

ومجلس الشورى وليد رأي الأمة لأن ارتفاع أعضائه إلى تلك المكانة إنما كان بتقديم قبائلهم لهم وثقتهم فيهم ورضاهم عنهم. ولم يكن للخلفاء إجبار أهل الشورى على رأي معين، بل على العكس كانت لأهل الشورى الكلمة على الخلفاء. وهذا المجلس بمثابة البرلمان الذي بيده عمل القوانين ومراقبة الحكومة. فإذا كانت الشورى في سلف المسلمين أساسها الشريعة وجب أن يكون البرلمان على هذا النحو في القوانين التي يسنها والآراء التي يشير على الحكومة بها. والإسلام لم يحدد وضعا معينا لأهل الشورى بل ترك تنظيم ذلك لأفكار الساسة.

ومما يجدر التنويه به بكثير من الإعجاب طريق الإسلام في الانتخاب وهي أخذه برأي الرجال أهل الحل والعقد الذين يفهمون مصاير الأمور ويفرقون بين من يستطيع أن يرعى مصالح الدولة بعلم وعدل وأمانة ومن لا يستطيع.

أما انتخاب المرأة والانتخاب المباشر فعمل السلف لا يدل على اعتبار الإسلام لهما لأن الناس في كل عصر منهم الخامل والجاهل والضعيف الذي يمكن أن تستغل إرادته بالمغريات، والمرأة لم تخلق للولايات العامة ولا تصلح لها. وعن هذا الأصل الثاني يتقرر أن الحكم الإسلامي ليس استبدادياً.

الأصل الثالث — تحقيق مصالح الأفراد والضمانات التي تحميهم من السلطة الحاكمة، كما قال رسول الله ﷺ «الإمام الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته»، وقال عمر رضي الله عنه «إنما مثل العرب مثل جمل آنف اتبع قائده فلينظر قائده حيث يقوده» وفي سبيل ذلك ينبغي أن يتضمن الدستور أموراً:

(١) الحرية: بأنواعها في الاجتماع والإقامة والتعليم وإبداء الرأي وفي الاعتقاد وإقامة الشعائر والتملك والحرية الشخصية، كل ذلك إذا لم يصادم المصالح العليا للوطن وعقائد الأمة. وقد وضع عمر رضي الله عنه مبدأ هذه الحرية بقوله: «كيف تستعبدون الناس وقد ولدتهم

أمهاتهم أحراراً » . ولما أراد المنصور أن يحمل الناس على موطئ مالك ، قال له مالك : « إن الصحابة تفرقوا فى الأمصار وأذاعوا أحاديث غير أحاديث أهل الحجاز التى اعتمدتها وأخذ الناس بها فاتركهم » . وقال تعالى : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

(ب) تقرير : الحرمات كحرمة النفس والمال والعرض والمسكن قال ﷺ : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام » ، وقال أيضاً : « من غصب شبراً من أرض طوقه الله بسبع أرضين » ، وهو يعم الحاكم وغيره ، وقال تعالى : يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا » .

(ج) المساواة : فى الحقوق المدنية والسياسية ومعناها أنه لا تفريق بسبب الجنس والنسب والحسب والدين قال ﷺ فيما روى البزار « كلكم بنو آدم وآدم من تراب » وقال « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ، وقال فى أهل الذمة « لهم مالنا وعليهم ما علينا » .

الأصل الرابع — واجب الدولة على الأفراد الإذعان لأوامرها فى إقامة مرافق الأمة إلا أن تأمر بما فيه معصية الخالق ، قال النبي ﷺ : « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » .

وعلى الجملة ينبغى أن يتضمن الأصل الثالث والرابع تقرير الإلتزامات التى تحقق التضامن الاجتماعى بين الأفراد والجماعات وتساهم فى بناء الشعب بناءاً قوياً من ناحيتيه المادية والأدبية تحقيقاً لقول النبي ﷺ : « المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً » ، وبه يلتزم الفرد بالتعلم والعمل وإتقانه وبذل عونه لإخوانه والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتلتزم الدولة بإعانة العاجزين وجباية الزكاة وفرض الضرائب التصاعدية والمنع من تضخم الثروة فى أيدى فريق وحرمان الآخرين .

هذه هى أصول الدستور كما يراها الإسلام لتكون أساساً لحكم صالح يحقق سيادة الدولة المستمدة من حقوق الأمة وسيادتها ، فهل لنا ونحن على أبواب بناء دستور جديد أن نطمع فى حكومتنا المسلمة المصلحة أن تضمنه هذه الأصول ؟ ذلك ما تهفو إليه قلوب الملايين « ربنا آتنا من لدنك رحمة وهىء لنا من أمرنا رشدنا » .

أحمد فهمى أبو سنة
المدرس بكلية الشريعة

الخصومات الأدبية وأثرها في النقد

شهد تاريخ النقد العربي خصومات عدة محتدمة منذ العصر الجاهلي أكسبته كثيراً من الحيوية، كما أضافت إليه قدراً كبيراً من الآراء والأفكار النقدية، التي ربما لم يكن من الممكن الوقوف عليها لولا وجود هذه الخصومات العنيفة، وربما كانت طبيعة النقد بوجه عام هي أن ينمو ويزدهر كلما احتدمت هذه الخصومات وعنفت. ولست أود هنا أن أفصل تاريخ هذه الخصومات فهذا يحتاج إلى كتاب بأكمله، وإنما سأنتقل تنقلات سريعة حتى أصل إلى أعنف هذه الخصومات في رأيي، وهما خصومتان شهدهما القرن الرابع الهجري وحده، وهما في جبين هذا القرن أوفي جبين النقد العربي بعامة درتان لامعتان: أولاهما ـ الخصومة حول أبي تمام والبحتري كما سجلها الآمدي في كتابه «الموازنة»، والأخرى ـ الخصومة حول المتنبي كما سجلها القاضي الجرجاني في كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه.

ومن المستفيض في كتب الأدب القديمة أن النابغة كان يضرب له في سوق عكاظ قبة حمراء، وينصب عليها حاكما بين الشعراء الذين كانوا يأتون إليه كل عام يحتكمون في شعرهم، وكان عمله أن يجعل منهم طبقات بحسب إجادتهم. واختصام امرىء القيس وعلقمة إلى زوجة الأول للفصل بين شعرهما في وصف فرسيهما أيهما أجود؟ معروف. ومعروف أيضاً أن قصة الاختصام هذه قد انتهت بطلاق زوجة امرىء القيس لأنها قدمت عليه علقمة، وكثير من هذا الاختصام قد شهدته مجالس الخلفاء والأمراء والقواد الأمويين. ولكننا نلاحظ أن هذه الخصومات وإن كانت تأخذ صورة جدية ويسعى إليها الشعراء سعيا كما كان شأنهم في مجلس السيدة سكينة، فإن المحصول النقدي من القواعد والمبادىء والنظريات لم يصل إلى حد الضخامة، ولم يؤلف فيه كتاب كما سنرى في كتابي الآمدي والجرجاني.

فوجود شاعرين متمايزين في اتجاههما الأدبي وفي الصنعة الشعرية هما أبو تمام والبحتري لم يخلق بينهما خصومة لا تتعدى شخصيهما، وإنما خلق هذه الخصومة بين الناس حولهما، بحيث نجدهم ينقسمون فريقين متميزين، فريق يناصر المذهب الجديد مذهب أبي تمام ويدافع عنه وفريق يؤيد مذهب البحتري وينافح دونه.

وعند ما أقول المذهب الجديد عند أبى تمام فإنى أقرر بذلك حقيقة كبرى هى أن أبا تمام كان صاحب مذهب فنى جديد . وليس المقصود بالمذهب هنا بطبيعة الحال مجرد الطريقة ، وإنما أعنى المذهب بمفهومه الأوسع عند ما يدل على أسس ثابتة وقواعد مقررة كلها تتآلف لإظهار فكرة جديدة . وعلى ذلك فقد كان أبو تمام صاحب مذهب فنى جديد بهذا المعنى ، وكان له أنصار يؤازرونه ويتشيعون له . وكان للبحترى مذهب أيضاً لا يقل فى ثبات أسسه وتقرير قواعده عن مذهب أبى تمام ، بل ربما كان فى عهده أكثر منه ثباتاً وقوة ، وكان له من الأنصار - بالتالى - عدد أضخم . كان البحترى هو القمة الفنية التى يتمثل فيها بكل وضوح مذهب « عمود الشعر » ، أو تستطيع أن تسميه نحن « مذهب الطبع » وكان أبو تمام على عكس ذلك فى مذهبه الجديد الذى تستطيع أن تطلق عليه « مذهب الصنعة » . وهاتان التسميتان الجديدتان تلخصان ما بين المذهبين من اختلاف فى الاتجاه وبعد ما بينهما من افتراق .

وطبيعى أن يختلف الناس حول شاعرين من أبرز أعلام الشعر العربى لهذا السبب من تباين مذهبيهما ، وطبيعى أيضا أن يمتد هذا الاختلاف إلى إبداء الرأى وإعلانه ، وطبيعى كذلك أن تشتبك هذه الآراء وتتعارض فتأخذ صورة من صور المحاجة والتناظر : هؤلاء يتشيعون لشاعرهم ويبينون محاسن مذهبه ، وأولئك يتعصبون لمذهب شاعرهم ويظهرون محاسنه ، وهؤلاء وأولئك يذمون على الشاعر الآخر عيوبه ويحصون عليه زلاته . وعلى هذه الوتيرة تأخذ الخصومة مجراها .

والناقد الحصيف الذى يرقب التيارات المتدافعة هو الذى ينتبه لما يتخلل هذه الخصومات من أفكار قيمة وآراء سديدة فيسجلها . ولكن الآمدى لم يسجل ما استخلصه من أفكار هؤلاء وهؤلاء ، وإنما هو أعطانا فى كتابه صورة أطرف من ذلك بكثير ؛ فقد نقل إلينا الخصومة كما جرت بين المتخاصمين ، فكنا نرى الرأى والرد عليه من الطرفين المتخاصمين ، فيتوافر لدينا بذلك الحكم والبينة أو النقض له والحجة . ولذلك استمر الآمدى فى تصوير هذه الخصومة هذا التصوير الطريف حتى استنفدها ، ولكنها لم تكن بهذه الصورة طريفة ممتعة فحسب ، بل ربما كانت العائدة فيها والدسم أكثر بكثير ؛ فقد استطعنا من تتبع هذه الخصومة أن نخرج بالعناصر أو الأسس — كما سميتها — التى يقوم عليها كل من المذهبين ، كما عرفنا محاسن كل مذهب منهما وعيوبه . وربما كانت هذه هى الغاية التى هدف إليها الآمدى من كتابه ، فقد ذكر لنا أنه لن يفصل فى هذه المنازعات وإنما سيتركها للقارىء

الحصيف يستخرج منها ما يشاء ، فيرضى عن هذا المذهب أو ذاك كما يحلوله . وحسنا فعل الآمدى لأنه لو أبدى رأيه وتدخل فى الخصومة لما كان يعدو أن يكون واحداً من أولئك المتعصبين لأبى تمام أو للبحترى . وهناك اتهام يسرى فى كتب النقد الحديثة ، أو بعبارة أدق فى الكتب التى تتناول النقد القديم بالدراسة ، يذهب إلى أن الآمدى كان يتشيع لمذهب البحترى ويتعصب له على مذهب أبى تمام . ولست أدرى وقد طالت عشرتى لهذا الكتاب كيف يجوز هذا الاتهام والآمدى لم يخرج فى كتابه على المنهج الذى رسمه له منذ اللحظة الأولى . فإذا كان فى هذا المنهج يحصى أخطاء أبى تمام وعيوبه فليس معنى ذلك أنه يتعصب عليه ، لسبب بسيط هو أن منهجه أيضاً فيه باب لإحصاء أخطاء البحترى وعيوبه سواء بسواء .

ومهما يكن من شيء فإن كتاب الآمدى ليس تفصيلا لخصومة أدبية بين شاعرين فقط وإنما هو تصوير دقيق للتيارين الأدبيين اللذين كانا يتجاذبان الناس فى القرن الثالث الهجرى وحتى منتصف القرن الرابع تقريباً . ونستطيع أن نلخص العمل الذى تم فى هذا الكتاب فى أمرين :

أولا ـ أنه يمثل منهجاً أدبياً عمليا فى نقد الشعر ، يستعرض الآراء السابقة ، ثم يتركها جانباً لبناء رأى شخصى جديد .

ثانياً ـ الاعتماد فى الحكم على الذوق الشخصى والخبرة الطويلة .

ثم يحفل القرن الرابع أيضاً بخصومة لاتقل فى عنفها عن تلك الخصومة حول الطائيين ، وهى الخصومة التى كانت بين المتنبى ومن يعارضون مذهبه .

ونحن نعلم أن الصاحب بن عباد كان من زعماء هذه الخصومة البارزين ، وقد ألف رسالة مشهورة فى الكشف عن مساوىء المتنبى عبر فيها عن رأيه ورأى أستاذه ابن العميد . ومهما يكن سبب تأليف هذه الرسالة أدبياً أو شخصياً بين الصاحب والمتنبى ، فالذى لاشك فيه أنها اشتملت على وجهات نظر فى النقد قيمة إذا هى جردت من عنصر المبالغة والتحامل .

وقد تنقل المتنبى بين الأقطار الإسلامية ، فكان يثير فى كل قطر خصومة ، حتى إننا نستطيع أن نذهب إلى أن الخصومة حوله تعد أفسح الخصومات ميداناً ، وأوسعها رقعة ، وأكثرها انتشاراً . وربما كانت أسباب هذه الخصومة فى كثير من الأحيان شخصية ، وإنما

كان شعره يتخذ تكأة للنيل منه . وربما قيل إن المتنبي لم يجن عليه مثل كبره وعجرفيته ، وأقول إنه لم ينفع المتنبي مثل كبره ، ولم يخدم أدبه مثل عجرفيته .

وقد عاصر القاضي الجرجاني تلك الخصومة ورأى وسمع وقرأ الكثير ، وكان من هذا الذي قرأه رسالة الصاحب . ورغم صلة الود الوطيدة بين الجرجاني والصاحب ، فإن ذلك لم يمنع الجرجاني ـ وهو القاضي العدل المنصف ـ من أن ينتصف للمتنبي . وإذا كان هناك من يغالي أيضاً في الانتصار للمتنبي ، فقد رأى الجرجاني أن مهمته تتحدد في دفع هذا الغلو سواء عند المناصرين أو المعارضين .

وقد قسم الجرجاني وساطته أقساماً ثلاثة :

القسم الأول ـ وقد أفرده لمبادىء عامة في النقد جرته إليها المحاولة التي سينتهي إليها في الدفاع عن الشاعر . ويمكننا أن نلخص هذه المبادىء فيما يلي :

أولا : أن الخطأ في الشعر داء قديم لم يسلم منه شاعر ، وأن هذا الخطأ وحده ليس سبباً كافيا لإسقاط شاعر كبير ، بل هناك مقومات فنية أخرى هي محل الاعتبار .

ثانيا : لابد من توافر أربعة عناصر في الشاعر حتى يصل إلى درجة الفحولة وهي : الطبع والرواية والذكاء والفطنة .

ثالثا : مجانبة التكلف والركون إلى الطبع وترك الصنعة المقرونة والاكتفاء منها بالقليل .

رابعا : توسط الأسلوب بين السهولة التي تنحدر به إلى الضعف والركاكة ، وبين التصعب الذي يميل به إلى الوعورة والوحشية .

خامسا : تقسيم الألفاظ على رتب المعاني .

سادسا : وأخيراً أن يكون الشاعر جيد المطلع ، حسن التخلص ، محبوك الخاتمة .

القسم الثاني ـ وهو القسم الأكبر ، وفيه يتبين لنا منهجه في الوساطة ـ أو إن شئنا في الحكم ـ بين المتنبي وخصومه ، وتطبيقه لهذا المنهج . ويمكننا أن نلخص أفكاره الماضية فيما يلي :

أولا : أن الشعراء يقع لهم الحسن كما يقع السيء ، وأن المتنبي كسائر الشعراء في ذلك .

ثانيا : لا تذهب سيئات الشاعر بحسناته ، ولا ضعفه بقوته .

القسم الثالث والأخير - وربما كان أكثر قيمة من سابقه لما نجده فيه من نقد عملي تصحبه الحجة ويسنده الدليل والتعليل .

ثم يختم الجرجاني وساطته بفصل أخير يعرض فيه لما عابه اللغويون على المتنبي . وفي هذا الفصل وحده نسمع صوتاً لأنصار الشاعر من اللغويين أنفسهم وعلى رأسهم ابن جني .

وقد يطول بنا المقام لو أننا وقفنا مع القاضي الجرجاني في كتابه فصلا فصلا ، ونحن لم نهدف منذ اللحظة الأولى إلى هذه الدراسة - وأرجو أن تتاح لها فرصة قريبة - وإنما كان هدفنا أن نتبين أثر الخصومات الأدبية التي احتدم أوارها حول الأدب العربي والشعراء العرب في نهضة الحركة النقدية ونموها وازدهارها . ولو تصورنا أن تاريخ الأدب العربي خلا من أبي تمام والبحتري والمتنبي لما كان من الممكن أن نحصل على هذه الثروة الضخمة في النقد الأدبي ، وذلك التراث الحي الذي خلفه لنا الآمدي والجرجاني وأضرابهما كدعبل والأصمعي والصولي وغيرهم .

وربما شهد النصف الأول من القرن العشرين لونا من هذا الصراع وهذه الخصومة الأدبية بين مدرستين شبيهتين في وضعهما بمدرستي أبي تمام والبحتري وأعني بهما المدرسة الاتباعية وكان مثار الخصومة فيها شوقي ، والمدرسة الابتداعية وكان على رأسها شكري والعقاد . هذه المدرسة تمثل مذهباً وتلك تمثل مذهبا آخر : فكان لا بد من اختصام بين المذهبين ، وقدم كل منهما الحجج التي هي بمثابة الأسس التي يقوم عليها المذهب ، وجادل ونافح من أجلها ، فنتج عن ذلك أيضا بطبيعة الحال حركة نشطة في ميدان النقد الأدبي وانتعاش وازدهار من جديد .

وهكذا كانت الخصومات دائما بداية لنهضة النقد الأدبي . وكم نود أن تستمر خيوط هذه الخصومة الأدبية التي مثلها الجيل الماضي وخبا أوارها ، كم نود أن تعود جذعة من جديد ، والكسب في هذه الحالة للأدب العربي والنقد معاً .

فإلى الناهضين بالأدب والنقد : هل من خصومة ؟! .

عز الدين اسماعيل

مدرس اللغة العربية في كلية الآداب - بجامعة ابراهيم

الجندية في صدر الإسلام

درست الفنون العسكرية، وأصول القتال وأساليبه في الكلية الحربية ثم في كلية أركان الحرب. ثم قرأت - فيما أقرأ - ما كتب عن السيرة النبوية الشريفة، ولم أكن في قراءتي هذه إلا طالباً لثقافة عامة في ناحية من نواحي التاريخ.

وفيما كنت أقرأ غزوة بدر، قرأت قول رسول الله ﷺ للمسلمين بعد أن عدل صفوفهم استعداداً للقاء قريش: «إن دنا القوم منكم فانضحوهم بالنبل واستبقوا نبلكم، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم».

ومعنى «فانضحوهم» ادفعوهم عنكم بالنبل، «واستبقوا نبلكم» أي لا ترموها على العدو وهو بعيد عنكم بل انتظروا حتى يقترب.

هنا تملكتني الدهشة والعجب!.. إن ما قاله الرسول الكريم هو نفسه مبدأ من المبادىء العسكرية التي درستها، والتي يدرسها العسكريون في جميع أنحاء العالم في ناحية أصول الدفاع ضد هجوم العدو. فإن النبي ﷺ كان يعني بما يقول أمرين هامين هما:

أولا - تأخير قذف السهام من القسي حتى يقترب الأعداء وهذا معنى قوله: «واستبقوا نبلكم».

ثانياً - منع استعمال السيوف إلا إذا أصبح العدو قريباً منهم، وهذا معنى قوله: «ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم».

وأصول الحرب الحديثة، التي وضعها العسكريون الذين تعلموا فنون الحرب واتخذوها صناعة وعاشوا لها، تقضي على المدافع الذي يقف يترقب هجوم عدوه، عليه أن يتبع المبادىء الآتية:

١ - كبت النيران وعدم إطلاقها على العدو المهاجم حتى يقترب ويصبح من القرب بحيث يمكن معه أن تصيب كل رصاصة رجلا منه فتقتله.

فالبندقية المستخدمة في الجيوش حديثاً يمكن لرصاصها أن يصل إلى مسافة ألف ياردة على الأقل، ولكن أصول الدفاع تقضي بألا تطلق إلا إذا وصل العدو إلى مسافة مائتي

باردة حتى تضمن إصابته إصابة قاتلة ، وحتى لا تترك له فرصة للإفلات من الفخ بحيلة من الحيل ، ولا شك أن نيران المدافع عندما تكون شديدة لها أثر مروع فى نفوس المهاجمين ، فتحطم روحهم المعنوية وتضعف قدرتهم على القتال ، ومن ثم كان كبت النيران أفضل من الضرب على مسافات بعيدة يطيش معها رصاص المدافعين ويذهب أكثره فى الهواء ، فضلا عن أنه ينبه العدو إلى مكان المدافع فيحتاط لأمره ، وقد يلجأ إلى الخدعة والحيلة ليفوت على المدافع غرضه ويفسد عليه خطته .

وهكذا أراد الرسول بقوله « واستبقوا نبلكم » ألا يطيش سهم من سهام المسلمين ، بل يكون كل سهم برجل من المشركين ، كما أراد أن يقوم المسلمون بقتالهم قومة رجل واحد ليلقوا الرعب والهلع فى نفوس المهاجمين .

٢ — استخدام السلاح الأبيض عندما يصبح المهاجمون بين المدافعين ويستحيل عملياً إطلاق البنادق ، وهذا ما عناه الرسول فى قوله : « ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم » .

ولقد زادنى تأملا ودهشة وإعجاباً أن تصدر هذه التعليمات من محمد ﷺ وهو لم يتعلم الحرب ، ولا درس فنها فى أية مدرسة عسكرية ، ومع ذلك تسبق إرشاداته العسكرية بألف وثلاثمائة عام الأصول الحديثة فى استخدام الأسلحة ، والتى يدّعى دهاة الحرب أنها من صنعهم ووضعهم .

وهكذا خرجت من هذه المقارنة بعزم أكيد على أن أعود إلى حيث بدأت فى قراءة السيرة النبوية الشريفة وأتابع قراءتها إلى نهايتها بإمعان ، فأصبحت غايتى منها البحث الدقيق والموازنة والمقارنة ، لا مجرد طلب الثقافة العامة فى ناحية من نواحى التاريخ .

وسرعان ما اكتشفت من الأمور ما جعلنى أومن بأن غزوات الرسول ﷺ حوت من فنون الحرب ، وأساليب القتال ، وآيات حسن القيادة ما يحير العقول العسكرية ، وأن جيش الإسلام الذى خاض هذه الغزوات سجل فى التاريخ أنه لا يقل عظمة عن جيوش العالم وأن « محمداً » قائد هذا الجيش سجل فى تاريخ الفنون العسكرية أنه قائد فذ بارز لا يتسامى إليه أحد من قواد الحروب ، مع أنه لم يتعلم فن الحرب ولم يتخذ القتال صناعة .

ولست بحاجة إلى الحديث عن سر مشروعية القتال فى الإسلام ، فليس هذا من غرضى ، ولم يعد هناك من ريب فى أن الدين الإسلامى قام على الحجة والبرهان ، وظهر على كل

الأديان بقوة البيان وإعجاز القرآن ، لا بقوة السيف والقهر والجبروت ، « لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى » ، وقد تظاهرت الأدلة والبراهين على أن الإسلام لم يسل السيف فى وجوه أعدائه إلا بعد اعتدائهم وبغيهم على النبى وأصحابه ، ووقوفهم فى طريق الدعوة إلى الحق يصدون عن سبيل الله وصراطه المستقيم ، فلم يشرع القتال حباً فى دنيا أو طمعاً فى مال أو رغبة فى سيادة ، وإنما شرعه لرد الظلم ودفع الأذى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » . وقال تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » . إلى آخر ما نزل فى مشروعية القتال من آيات الكتاب الحكيم .

ولعله من المناسب هنا أن نقدم لموضوعنا بالحديث عن جيش الإسلام وعن قائد جيش الإســـلام :

جيش الإســـلام .

كان هذا الجيش من العرب الذين نشأوا فى الجزيرة العربية ، ولقد وهبتهم طبيعة بلادهم الصحراوية صفات طبيعية جعلتهم جنودا بالفطرة ، ثم جاء الإسلام فتناول هذه الطبيعة بالتهذيب والتوجيه ، فخرج العربى من المدرسة الإسلامية جنديا مثالياً يتصف بهذه الصفات الطبيعية التى تعد من خصائص الجندية :

١ ــ صحة الإبدان :

وهذه ناحية هامة لها أثرها فى القوة العسكرية ، وهى تقوم على أمرين :

أولها ــ الزهد والتقشف وأثر الطبيعة فى صحتهم وفى هذا يقول ابن خلدون :

« أما أهل البدو فمأكولهم قليل فى الغالب ، والجوع أغلب عليهم لقلة الحبوب حتى صار لهم ذلك عادة . أما علاج الطبخ بالتوابل والفواكه فإنما يدعو إليه ترف الحضارة ، وهم بمعزل عنه ، فيتناولون أغذيتهم بسيطة بعيدة عما يخالطها ويقرب مزاجها من ملاءمة البدن . وأما أهويتهم (أى الجو) فقليلة العفن لقلة الرطوبات والعفونات إن كانوا آهلين ، أو لاختلاف الأهوية إن كانوا ظاعنين . ثم إن الرياضة موجودة فيهم لكثرة الحركة فى ركض الخيل أو الصيد أو طلب الحاجات لمهنة أنفسهم فى حاجاتهم فيحسن بذلك كله الهضم

ويجود ويفقد إدخال الطعام على الطعام فتكون أمزجتهم أصلح وأبعد من الأمراض ، فتقل حاجتهم إلى الطب ، ولهذا لا يوجد الطبيب فى البادية بوجه » .

هذا وقد ورد عن رسول الله ﷺ ما يعد أسلم طريق للمحافظة على صحة الأبدان : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » ، أى أن المرء لا يأكل إلا إذا أحس بالجوع ، وإذا أكل خفف ولم يسرف .

وإن لاكتفاء العربى بالقليل من الطعام وقوة احتماله وصبره على الظمأ والجوع لأثرا عظيما فى جعله جنديا من الطراز الأول ، فهو إذا خرج للقتال حمل معه طعاما بسيطا حتى إذا أحس بالجوع فحسبه بضع تمرات تقوم بأوده وتكفيه طويلا .

وقد قال نابليون : « إن الجيوش تمشى على بطونها » ، أى أن الجيش إذا تأخر عنه طعامه ضعف عن القتال . ولهذا لم تكن مسألة طعام الجيش فى صدر الإسلام مما يعد فى هذا الزمن من أعقد المشكلات .

وثانيهما — الرياضة ، كان العربى رياضيا بطبيعته ، فهو خبير بركوب الخيل فهى وسيلته فى تنقله وسفره إلى جانب سفينة الصحراء ، وكان يعتز بالخيل حتى لقد قيل لبعض الحكماء : أى الأموال أشرف ؟ فقال : فرس يتبعها فرس فى بطنها فرس .

وكان سباق الخيل من أحب الألعاب عند العرب ، كان الرجل يراهن صاحبه فى المسابقة ، يضع هذا رهنا وهذا رهنا ، فأيهما سبق فرسه أخذ رهنه ورهن صاحبه .

ومن رياضتهم السباق على الأقدام والمصارعة ورمى النشاب (النبال) واللعب بالسلاح ، إذ يحتاجون إليه فى الدفاع عن أنفسهم . ويروى أن بعض الأحباش كانوا يلعبون بالحراب فى المسجد أمام الرسول عليه السلام ، فأنكر عليهم عمر بن الخطاب ذلك ، وأهوى إلى الحصباء ليرميهم بها ، غير أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : « دعهم يا عمر » ، وهذا يدل على تقديره لأهمية هذا الفن . (يتبع)

يوزباشى أركان الحرب

محمد جمال الدين محفوظ



صحيح ابن حبـــان

بتحقيق الشيخ أحمد شاكر

من نعم الله على هذه الأمة الإسلامية فى دينها ، بل من نعمه عز وجل على الإنسانية فى حسن توجيهها إلى الحق محضاً وإلى الخير صرفا ، أن أصحاب خاتم رسل الله ﷺ حفظوا عنه ماحمله إلى الإنسانية من رسالات الله ، ثم نقلوه إلى الكثلة العدول من أتباعهم ، ثم أداه هؤلاء بعناية وضبط إلى الحفظة الأمناء من نوابغ تلاميذهم ، فكان ذلك هو الأساس الذى قام عليه تدوين السنة فى الموطأ والكتب التى صنفت بعده ، وأعظمها صحيحا البخارى (١٩٤ - ٢٥٦) ومسلم (٢٠٦ - ٢٦١) ، لأن هذين الإمامين الجليلين التزما فى اختيار الصحيح شروطاً دقيقة كان بها ماخرجاه فى كتابيهما أعلى أنواع الصحيح درجة ، ولم يلتزما استيعاب الصحيح كله ، بل تركا كثيراً من الصحيح الذى على شرطهما ، والصحيح الذى هو أقل درجة من شرطهما .

وقد تبعهما فى صنع كتب تقتصر على صحيح الحديث ، كثير من الحفاظ الأئمة الكبار ، منهم إمام الأئمة شيخ الإسلام محمد بن إسحاق بن خزيمة (٢٢٣ - ٣١١) ، وصحيح ابن خزيمة من تراث المسلمين الذى فرطوا فيه فعدت عليه عوادى الفتن والجهل فلا نعلم له الآن وجوداً ، ولعل الله يظفر أهل الفضل بمخطوطات منه فيقوم العلماء بعنه ونشره .

ومن الذين ألفوا فى الصحيح الإمام الحافظ أبو حاتم محمد بن حبان التميمى (حوالى ٢٨٠ - ٣٥٦) وهو من تلاميذ الإمام ابن خزيمة . فصنف كتاب (المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع ، من غير وجود قطع فى سندها ، ولا ثبوت جرح فى ناقليها) وهو المعروف بين علماء الحديث باسم (التقاسيم والأنواع) واشتهر على ألسنة الناس باسم (صحيح ابن حبان) ، وقد قال ابن حبان فى مقدمة صحيحه : « ولعلنا قد كتبنا عن أكثر من ألفى شيخ

من اسبيجاب إلى الإسكندرية ، ولم نرو فى كتابنا هذا إلا عن مائة وخمسين شيخا ، لا أقل أو أكثر .

ولعل معول كتابنا هذا يكون على نحو من عشرين شيخاً ممن أدرنا السنن عليهم ، واقتصرنا برواياتهم عن رواية غيرهم ، على الشرائط التى وصفناها » .

قال السخاوى فى شرح ألفية العراقى (ص ١٤ طبعة الهند) عند الكلام على ابن حبان فى صحيحه : « ومذهبه إدراج الحسن فى الصحيح ، مع أن شيخنا (يريد الحافظ ابن حجر) قد نازع فى نسبته إلى التساهل إلا من هذه الحيثية . وعبارته إن كانت باعتبار وجدان الحسن فى كتابه فهى مشاحة فى الاصطلاح ، لأنه يسميه صحيحاً ، وإن كانت باعتبار خفة شروطه فانه يخرج فى الصحيح ما كان راويه ثقة غير مدلس ، سمع ممن فوقه ، وسمع منه الآخذ عنه ، ولا يكون هناك إرسال ولا انقطاع » . قال السخاوى : « ويتأيد بقول الحازمى : ابن حبان أمكن فى الحديث من الحاكم . وكذا قال العماد ابن كثير : قد التزم ابن خزيمة وابن حبان الصحة ، وهما خير من المستدرك بكثير ، وأنظف أسانيد ومتونا . وعلى كل حال فلا بد من النظر للتمييز . وكم فى كتاب ابن خزيمة أيضاً من حديث محكوم منه بصحته وهو لا يرتقى عن رتبة الحسن . بل وفيما صححه الترمذى من ذلك جملة ، مع أنه ممن يفرق بين الصحيح والحسن » .

وكان أصل صحيح ابن حبان معتبراً فى حكم المفقود كصحيح ابن خزيمة ، غير أنه بقيت منه بقايا ، منها قطعة من الجزء الأول فى مجاميع كتب مصطفى فاضل باشا رقم ٢١٧ بدار الكتب المصرية ، وكانت فى الأصل «ملك ولى النعم الحاج ابراهيم سرعسكر عدد ١٢٦» ولعلها من الكتب التى جاء بها من الشام ، وهى ناقصة ومخرومة بين الورقتين ٦٩ و٧٠ وعدد أوراقها ٧٢ ورقة ، وهذه القطعة واضحة الخط جيدة الضبط تغلب عليها الصحة ، والظاهر أن كاتبها من أهل العلم بالحديث ، ولعله أحد تلاميذ الحافظ ابن عساكر ، لأنه لما ذكر سلسلة رواية هذا الجزء عن العلماء إلى مؤلفه وقف عند رواية ابن عساكر ، وهذا مما يرجح أنه هو شيخه الذى روى عنه الكتاب . والراوى الأول لهذا الصحيح عن ابن حبان هو أبو الحسن محمد بن أحمد الزوزنى ، وقد نبه العلامة الشيخ أحمد شاكر على خطأ السيد مرتضى الزبيدى شارح القاموس (فى مادة بحث) بجعل الزوزنى هذا هو أبو العباس الوليد بن أحمد خلافا للثابت فى الورقة الأولى من هذه المخطوطة ،

وفى السماعات ونصوص أخرى. وقد وقع سبق قلم من الشيخ أحمد شاكر فى تعليقه على ص ٢٥ من مقدمته فذكر أن البحاثى شيخ الزوزنى ، وهو تلميذه.

ومن بقايا أصول صحيح ابن حبان الجزءان الثانى والثالث من نسخة أخرى نفيسة محفوظة فى مكتبة أحمد الثالث بالقسطنطينية رقم ٣٤٧ عدد أوراق كل منهما ٢٢٢ وهما بخط أحمد بن يحيى بن على بن محمد بن عبد الرحمن بن عساكر فرغ من كتابتهما تجاه الكعبة المشرفة فأتم الجزء الثانى فى ١٧ جمادى الأولى سنة ٧٣٩ والجزء الثالث فى ٢٣ رجب من تلك السنة وقرأهما فى العام نفسه فى الحرم الشريف تجاه الكعبة على عالمين أحدهما قطب الدين أبو بكر محمد بن المكرم (وهو ابن صاحب لسان العرب) ووفاة قطب الدين فى سنة ٧٥٢ ببيت المقدس وهو من تلاميذ الإمام ابن القيم . والظاهر أن ابن عساكر هذا ليس من آل عساكر الدمشقيين . وعلى هذين الجزءين سماعات علية على طريقة السلف لعلماء أجلاء خرجت النسخة من تحت أيديهم صحيحة مخدومة معتنى بها ، فضلا عن العناية التى بذلها كاتبها وهو من العلماء المثبتين . وهذان الجزءان نصف الكتاب .

ومن بقايا أصول هذا الكتاب الجزء الثالث من نسخة أخرى جيء بصورته الشمسية من القسطنطينية ، وهو جزء نفيس بالغ الغاية فى الإتقان والضبط مكتوب بخط الحسن ابن على الجوزى فى سلخ المحرم ٦٠١ ، وعليه سماعات كثيرة تأثر بعضها بما يشبه البلل . وقد أفاض الشيخ أحمد شاكر فى وصف هذه السماعات وعنى بالترجمة لأصحابها كعادته فى استيفاء ما يتعرض له من البحوث .

وأنت ترى أن هذه القطع من أصل صحيح ابن حبان تنقص الجزء الرابع وأكثر الجزء الأول ولا يكتفى بها فى نشر الكتاب كاملا ، زد على ذلك ما قاله السيوطى فى تدريب الراوى (ص ٣٢) من أن «صحيح ابن حبان ترتيبه مخترع ، ليس على الأبواب ولا على المسانيد ، ولهذا سماه (التقاسيم والأنواع) ، وسببه أنه كان عارفاً بالكلام والنحو والفلسفة . . . والكشف من كتابه عسر جداً ، وقد رتبه بعض المتأخرين على الأبواب» . وهذا العالم المتأخر الذى رتبه على الأبواب هو الأمير علاء الدين أبو الحسن على بن بلبان الفارسى المصرى (٦٧٥ — ٧٣٩) من تلاميذ أبى حيان الأندلسى والحافظ الدمياطى والبهاء ابن عساكر . وكان عظيم المنزلة أيام المظفر بيبرس ، وعين مرة للقضاء ، وله غير ترتيب صحيح ابن حبان ترتيب المعجم الكبير للطبرانى . وقد سمى ترتيبه لصحيح ابن حبان (الإحسان ،

فى تقريب صحيح ابن حبان) وهو لم يصنع فيه غير الترتيب والتبويب المستحدث ، لم يخرم منه كلمة ، ولم يسقط منه حرفاً . أثبت الكتاب كله بنصه فى مواضعه من الكتاب الجديد ، حتى الخطبة وما بعدها وخواتيم الأقسام ، أثبتها كلها فى مقدمة (الإحسان) فكان كتابه كما كان أصله (صحيح ابن حبان) .

ومن كتاب (الاحسان) نسخة جيدة متقنة يمكن الثقة بها والاطمئنان اليها ، موجودة بدار الكتب المصرية (٣٥ حديث) فى ٩ مجلدات من الأول إلى السادس ثم الثامن والتاسع . ثم مجلد من نسخة أخرى يكمل النقص الذى بين السادس والثامن وكتب عليه أنه «الجزء الرابع» وهو أكبر حجما من أجزاء تلك النسخة . وهذه الأجزاء كلها من مخطوط القرن الثامن ، وهى غير مؤرخة ولم يسم من كتابها إلا كاتب الجزء الرابع الذى اعتبر السابع وهو يوسف ابن على بن محمد المعروف بصلاح السعودى ، ويؤكد الشيخ أحمد شاكر أن الأجزاء الأخرى (غير السابع) هى نسخة المؤلف الأمير علاء الدين الفارسى نفسه وأنها ليست بخطه بل بخط أحد الناسخين نقله من مسودة المؤلف ولعله باشارته وإشرافه .

على هذه الأصول الجيدة اعتمد الشيخ أحمد شاكر فى تحقيق صحيح ابن حبان بترتيب الأمير علاء الدين على بن بلبان ، والشيخ أحمد شاكر أعلم من نعلم بهذا الفن وأقدرهم على تحقيق أصوله وحسن إصدارها وإتقان نشرها . وأمامنا الآن الجزء الأول من صحيح ابن حبان فى ٣١٥ صفحة كبيرة تضمنت ١٣٨ حديثاً منه وكانت فى ٢٢٤ صفحة من الجزء الأول فى الأصل المخطوط . وفى أول الجزء مقدمة للشيخ أحمد شاكر فى التعريف بالكتاب ومؤلفه ومرتبه ووصف الأصول التى اعتمدها وما فيها من سماعات . يليها ٩ صور شمسية لبعض صفحات تلك الأصول . والذين اطلعوا على تحقيق الأستاذ وتعليقاته على الطبعة الثانية من مسند الإمام أحمد وغير ذلك من الكتب ككتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشى ورسالة الأصول للإمام محمد بن إدريس الشافعى لا يحتاجون إلى التنويه بالمجهود العلمى العظيم الذى يقوم به لكتب أئمة الملة مما لا مطمع الآن فى الزيادة عليه .

وقد نبه فى كل حديث إلى ما وقع فيه من اختلاف النسخ ، وذكر الحكمة فى ترجيح ما رجحه ، مع المقارنة بمواضع الحديث فى الكتب المشهورة ، وقد يستقصى ما يتعلق به فى المظان الأخرى بأقصى ما يتمكن منه العالم الصابر الكثير الاطلاع . وربما علق على الحديث بخواطر علمية تفيد جمهور المطالعين ، كتعليقه على الحديث ٢١ فى تأبير النخل

بقوله : « وهذا الفرق بين شئون الدين وشئون الدنيا إنما هو فى أمور الصناعات والأمور المادية والتجارب وما إليها ، ليس فيما يتعلق بالأحكام والآداب والأخلاق ونحوها مما يتصل بأمور الناس فى الدنيا ومعاملاتهم وكل شأنهم ، فهذه من أمور الدين يقينا ولكن الملحدين فى عصرنا [1] ، والذين طغت على عقولهم التربية الافرنجية والعقائد الدخيلة . . يلعبون بالأحاديث التى وردت فى هذا المعنى ليخرجوا بها كل شىء من شئون الناس من حكم الدين ليأخذوا بأحكام الأهواء والشهوات ويخلصوا من قيود الإسلام الخ » .

ومما صحح به الأصل ما علق به على الحديث ٣٢ فى بدء الوحى وقد جاء فيه « ثم انطلقت خديجة حتى جاءت به ورقة بن نوفل وكان أخا أبيها » فقال الشيخ أحمد شاكر : هكذا وقع هنا فى أصل العلاء الفارسى وفى مخطوطة ابن عساكر ، وهو خطأ أو وهم من بعض الرواة دون عبد الرازق ومخالف للثابت المعروف من عمود النسب ، ثم استوفى بيان هذه الحقيقة . وفى الحديث نفسه « فقالت له خديجة : أى عم » فصححه من روايتى أحمد والبخارى « أى ابن عم » ، وأفاض فى بيانه .

ووقع فى اسم الأخوين على ومحمد ابنى الحسين بن ابراهيم بن الحر اختلاف فى لقبهما « ابن إشكاب » فى الحديث ٢٩ و« ابن إشكيب » فى الحديث ٣٦ فأشار الشيخ أحمد شاكر إلى مواطن استعمال هذا اللقب فى الكتب الأخرى وقال : الظاهر عندى أن هذا لقب أعجمى مما تنطق الألف فيه بالإمالة فصح فيه الألف والياء .

وفى الحديث ٤٩ الخاص بالإسراء كلام مدرج لابن حبان هو مبتدأ وخبر ، وهو قول ابن حبان « ذكر شد البراق بالصخرة فى خبر بريدة ورؤيته موسى ﷺ يصلى فى قبره » ليسا جميعاً فى خبر مالك بن صعصعة ، فظن كاتب ترتيب الأمير الفارسى أن قول ابن حبان « ذكر شد البراق بالصخرة » عنوان فكتبه بالأحمر ، وقد نبه الشيخ أحمد شاكر إلى هذا الخطأ ، وإلى خطأ آخر وهو كتابة لفظ « ليسا » برسم « ليثبتا » .

وتكلم على الحديث ٧٢ المروى تارة عن ابن أبى مليكة عن القاسم عن عائشة ، وتارة عن ابن أبى مليكة عن عائشة مباشرة ، فأثبت تلقى ابن أبى مليكة عن عائشة مباشرة وعنها بواسطة

---

(١) المجلة : كذلك المجتهد الذى أباح للمسلمين أن لا يؤمنوا بما ثبت صدوره عن النبى صلى الله عليه وسلم من أمور الغيب (انظر ص ٣٢٩ فى الجزء الثالث من هذه المجلة فى سنتها الجارية)

القاسم بن محمد وقال : إن هذا الحديث من المزيد فى متصل الأسانيد ، وقد سمعه ابن أبى مليكة مرتين إحداهما من عائشة والأخرى من القاسم عنها فحدث به على الوجهين كما سمع .

وصحح لابن حبان نفسه فى الحديث ٨٩ ما اتفقت عليه الأصول الثلاثة فى سند ، أحمد ابن على بن المثنى عن محمد بن مسروق عن محمد بن بكر ، وهو البرسانى ، فحقق الشيخ أحمد شاكر أن ، محمد بن مسروق ، خطأ وصوابه ، محمد بن مرزوق ، وهو محمد بن محمد بن مرزوق الباهلى من شيوخ مسلم والترمذى وابن ماجة وابن خزيمة وأبى يعلى وغيرهم .

وحقق فى الحديث ٩٤ شخصية ، أبى بكر بن نافع العمرى ، فقال هو عندهم اثنان مترجمان فى التهذيب والميزان وغيرهما أحدهما أبو بكر بن نافع مولى عبد الله بن عمر والظاهر أن ابن حبان ظن أنه هو الراوى هنا أو وقعت له الرواية هكذا إذ وصفه بأنه ، العمرى ، . والثانى أبو بكر بن نافع مولى زيد بن الخطاب وهو الذى وقع فى رواية البخارى هذا الحديث فى الأدب المفرد (ص ٦٨) قال ، حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب ، قال : حدثنى أبو بكر بن نافع ، واسمه أبو بكر ، مولى زيد بن الخطاب . . الخ ، والبخارى فرق بين الترجمتين فى كتاب الكنى رقم ٩٧ و ٩٨ وفرق بينهما صاحب التهذيب (١٢ : ٤١ و ٤٢) وجزم بأن راوى هذا الحديث هو الثانى ، ونحو ذلك صنع الذهبى فى الميزان (٣ : ٣٤٩) فذكر الترجمتين الخ وبعد أن استقصى القول فى ذلك وعد بزيادة البحث عما إذا كان أبو بكر بن نافع شخصيتين أو شخصية واحدة .

ونبه فى الحديث ٩٦ إلى أن ، عبد الله بن عياش بن عباس عن أبى عبد الرحمن الحبلى ، خطأ وأنه سقط من بينهما ، عن أبيه ، ثم خرج الحديث بعناية وتحقيق مبينا صحة ما ذهب إليه .

والحديث ١٠٤ ، إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة ، تحرف فيه لفظ ، أسند ، بلفظ ، اشتد ، وسقط من أحد الرواة قوله ، إلى غير أهله ، فنبه عليه الشيخ أحمد شاكر ورده فى التعليقات إلى أصله المحفوظ فى صحيح البخارى ومسند أحمد .

وحديث رؤيا الظلة التى تنطف السمن والعسل ، وهو الحديث رقم ١١١ ، سقطت منه فى الأصل جملة فى قريب من سطرين فنبه على ذلك وأثبت النقص بين حاصرتين من رواية مسلم بالاسناد الذى عند ابن حبان .

وسقط من الحديث ١١٤ اسم الراوى الذى أخذ عنه شيخ ابن حبان فوجده الشيخ أحمد شاكر فى تاريخ ابن عساكر (١ : ١١٢) .

وحقق فى الحديث ١٣٢ صحة سماع الحسن البصرى من الاسود بن سريع خلافا لكلمة قالها على بن المدينى فتابعه فى ذلك العلماء وقلد بعضهم بعضا استنباطا من أخبار لم تثبت ، فنقل الشيخ أحمد شاكر نصاً عن السرى بن يحيى وجهه البخارى فى تاريخيه الكبير والصغير عن إثبات سماع الحسن من الأسود وتابع على ذلك يونس بن عبيد والمبارك بن فضالة .

وهكذا جاء الجزء الأول من صحيح ابن حبان بتحقيق الأستاذ الشيخ أحمد شاكر مصححاً منقحاً مقارناً بروايات الأئمة معلقاً عليه بملاحظات وتحقيقات علية عظيمة النفع ، مطبوعاً بمطابع دار المعارف طبعاً نفيساً على ورق خاص ممتاز . وقد طبعت منه نسخ قليلة لقلة الخواص الذين يعنون باقتناء هذه الطبقة من مؤلفات السلف ، وقد قصد من طبعه إحياؤه . ولعل من يهمهم تعميم مثل هذا الأثر النفيس يساهمون فى طبعه طبعة شعبية يعم بها نفعه كما سبق مثل ذلك فى مسند الإمام أحمد . والله الموفق .

المدخل الفقهى العام

إلى الحقوق المدنية

الفقه الإسلامى كنز من كنوز العدالة المطلقة فى الحكم بين البشر فى كل ما يتقاضون فيه من حقوق والتزامات وعقود ، وفى كل ما يختلفون عليه من علاقات بعضهم ببعض . وقد انتبه لذلك علماء القانون العالميون ، وأعلنوه معترفين به فى مناسبات كثيرة لعل آخرها القرار الإجماعى من أعضاء المؤتمر الذى عقدته فى يوليو سنة ١٩٥١ شعبة الحقوق الشرقية من المجمع الدولى للحقوق المقارنة وبحثت فيه موضوع الفقه الإسلامى فى أسبوع أطلقوا عليه اسم (أسبوع الفقه الإسلامى) برئاسة المسيو ميو أستاذ التشريع الإسلامى فى كلية الحقوق بجامعة باريس ، ومما جاء فى قرار المؤتمر الاجماعى : « إن مبادىء الفقه الإسلامى لها قيمة (حقوقية تشريعية) لا يمارى فيها . وإن اختلاف المذاهب الفقهية فى هذه المجموعة الحقوقية العظمى ينطوى على ثروة من المفاهيم والمعلومات ومن الأصول الحقوقية هى مناط الإعجاب ، وبها يتمكن الفقه الإسلامى أن يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة والتوفيق بين حاجاتها » . وقد أعلن المؤتمرون رغبتهم فى أن يظل (أسبوع الفقه الإسلامى) يتابع أعماله سنة فسنة ، ويأملون أن تؤلف لجنة لوضع (معجم للفقه الإسلامى) يسهل

الرجوع إلى مؤلفات هذا الفقه ، فيكون موسوعة فقهية تعرض فيها المعلومات الحقوقية الإسلامية وفقاً للأساليب الحديثة » .

وبينما الغرب يوجه مثل هذه العناية للفقه الإسلامى ، فإن الجامعة السورية فى دمشق كانت تقوم من جانبها أيضاً ببعض ما يجب على المسلمين لفقههم وتشريعهم من دراسة وحسن عرض . وأمامنا الآن مجلد ضخم فى ثمانمائة صفحة كبيرة هى الجزء الأول من (المدخل الفقهى العام إلى الحقوق المدنية) يشتمل على مقدمة تعريفية وتاريخية للفقه الإسلامى ، وعلى النظريات الإسلامية فى مبانيه ، وشرح قواعده الكلية ، مع مقارنات مهمة بالفقه الأجنبى والقانون المدنى ، قام بتأليفه العالم الجليل الأستاذ الشيخ مصطفى الزرقا أستاذ القانون المدنى والشريعة الإسلامية فى كلية الحقوق بدمشق ، وقد سبق له طبعه مرتين ، وأمامنا الآن الطبعة الثالثة فريدة ومنقحة مشتملة على فهارس عديدة وفهرس أبجدى مهم . وهو مطبوع بمطبعة الجامعة السورية أجمل طبع وأتقنه . ولو أن كل علمائنا المشتغلين بالفقه الإسلامى ـ بحثا وتدريسا ـ يبذلون مثل هذه الجهود أو بعضها فى تحرير بحوث الفقه ، والإشارة إلى مراجعها ، ومقارنة المذاهب بعضها ببعض ، ومقارنتها كلها بالتشريع الأجنبى إن أمكن ، لاستطعنا فى سنين قليلة أن نهىء الأسباب لتأليف موسوعة الفقه الإسلامى التى تمنى مؤتمر باريس والقائمون بأسبوع الفقه الإسلامى فيه أن يقوم بها من يعنيهم الأمر وفقا للأساليب الحديثة .

وإذا كان هذا المجلد البالغ ثمانمائة صفحة كبيرة هو المجلد الأول من المدخل الفقهى العام إلى الحقوق المدنية ، وهو كما ذكرنا يشتمل ـ بعد المقدمة التعريفية والتاريخية للفقه الإسلامى ـ على القواعد الكلية التى كانت تسمى أصولا ، كقاعدة « الأمور بمقاصدها » و « الضرر يزال » و « اليقين لا يزول بالشك » ... الخ ، فإن ذلك يدلنا على أن الأستاذ المحقق الجليل الشيخ مصطفى الزرقا قد وطن نفسه على تنظيم الحقوق المدنية من الفقه الإسلامى تنظيما مبسوطا منقحا مقارنا ستخرج منه إن شاء الله مجموعة عظمى فى الفقه تجلو جماله وتعلن كماله وتبرهن للإنسانية على أن الفقه الإسلامى هو الجدير بأن يكون مصدر التشريع لا للمسلمين وحدهم ـ فهذا أقل ما يجب عليهم لأنفسهم ودينهم وتعميم العدالة فى أوطانهم ـ ولكن للأمم كلها ودول الغرب فى مقدمتها . ونحن ندعو له بأن يمد الله فى حياته حتى يؤدى مهمته الإنسانية .

اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان

امتاز المسلمون بتحرى الصحيح مما أثر عن رسول الله ﷺ من أقواله ، وأفعاله ، وما أقر عليه الصحابة مما صدر عنهم ليكون قدوة لغيرهم . وأعلى الصحيح من سنة رسول الله ﷺ مرتبة ما اتفق عليه الإمامان العظيمان أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى (١٩٤ — ٢٥٦) وأبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى (٢٠٦ — ٢٦١) فى صحيحيهما اللذين هما أصح الكتب المصنفة .

وقد سبق لبعض المؤلفين الجمع بين ما اتفق عليه الشيخان ، ثم قام أخيراً حضرة الفاضل الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى بإصدار هذا الكتاب (اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان) فى ثلاثة أجزاء من القطع الكامل ، التزم فيه ذكر نص حديث البخارى الذى هو أقرب النصوص انطباقا على نص الحديث الذى اتفق فيه مسلم معه ، وهو التزام شاق لم يتقيد به قبل الآن أحد ممن ألف ، أو قال ، إن هذا الحديث متفق عليه . وقد ضرب الأستاذ فؤاد عبد الباقى المثل لذلك بأن الحافظ ابن حجر ـ وهو أستاذ الدنيا فى علم الحديث ـ قرر فيما قرره أن المراد بموافقة مسلم للبخارى موافقته على تخريج أصل الحديث عن صحابيه ، وإن وقعت بعض المخالفة فى بعض السياقات . ولما وضع الإمام النووى ـ شارح صحيح مسلم ـ كتابه (الأربعون النووية) وابتدأه بحديث الأعمال بالنية ، وأشار إلى أنه مما اتفق عليه الشيخان لم يذكر أقرب نصوص البخارى إلى نص مسلم ، بل ذكر أول نص أخرجه البخارى فى صحيحه ، وبينه وبين الحديث الذى أخرجه مسلم بعض المخالفة فى السياق .

فالتزام مؤلف كتاب (اللؤلؤ والمرجان) ذكر نص حديث البخارى الذى هو أقرب النصوص انطباقا على نص الحديث الذى اتفق فيه مسلم معه جعل لكتابه مزية ظاهرة يشكر على ما بذله فى سبيلها من مجهود ، ومما يسر ذلك عليه أنه سبق له تأليف كتابين لم يطبعا بعد ، أحدهما (جامع مسانيد صحيح البخارى) والآخر (قرة العينين فى أطراف الصحيحين) ومن الكتاب الثانى اهتدى إلى الأحاديث المتفق عليها مع إحصائها وحصرها ، ومن الأول وقف على النص الذى التزمه فى (اللؤلؤ والمرجان) .

ومزية أخرى لكتاب (اللؤلؤ والمرجان) هى أن من سبقه إلى جمع ما اتفق عليه البخارى ومسلم وهو الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطى مؤلف كتاب (زاد المسلم) بلغ عدد

جميع أحاديثه ١٣٦٨ حديثاً بينما الأحاديث التي أوردها مؤلف (اللؤلؤ والمرجان) بلغت ٢٠٠٦

زد على ذلك امتياز (اللؤلؤ والمرجان) بجمال الطبع ودقة الضبط وترقيم الأحاديث والتعليق عليها بالضروري من الشرح والتفسير.

وقد مضى في ترتيبه على ترتيب صحيح مسلم في أسماء كتبه وأبوابه مع أرقامها، وأخذ من صحيح البخاري نص الحديث الذي وافقه مسلم عليه. وبين عقب سرد كل حديث موضعه من صحيح البخاري بذكر اسم الكتاب وعنوان الباب مع الأرقام التي قام على أساسها كتاب (مفتاح كنوز السنة).

ولا تفوتنا الإشارة إلى أن التزام المؤلف ما التزمه من ذكر نص حديث البخاري الذي هو أقرب النصوص انطباقاً على نص الحديث الذي اتفق مسلم معه إنما كان باقتراح ناشر الكتاب السيد محمد الحلبي مدير دار إحياء الكتب العربية التي تأنقت في طبعه وإصداره، لجزاه الله والمؤلف على العناية بسنة رسول الله ﷺ أفضل الجزاء.

غوطة دمشق — للأستاذ محمد كرد علي

غوطة دمشق مجموعة كبيرة من قرى عاصمة الشام كانت تتسع وتتقبض باتساع العمران وضيقة واستتباب الأمن والعدل أو اضطرابهما، ويقدر طولها الآن بنحو ٢٠ كيلو متراً وعرضها بين ١٠ و ١٥ كيلو متراً ومساحتها ٥٣ ألف فدان، تحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها ولا سيما شمالها، فإن جباله عالية جداً والمياه العذبة خارجة من تلك الجبال وتمتد في الغوطة في عدة أنهر فتسقى بساتينها وزروعها، ويصب باقيها في بحيرتي المرج والهيجانة. والغوطة كلها أشجار وأنهار متصلة قل أن يكون بها مزارع للاستغلال إلا في مواضع يسيرة. قال ياقوت بعد أن طاف المعمور في زمنه: والغوطة بالإجماع أنزه بلاد الله وأحسنها منظراً، وهي إحدى جنان الأرض الأربع، وهي: الصغد، والأبلة، وشعب بوّان، والغوطة — وهي أجلها — قال ابن قيس الرقيات:

أحلك الله والخليفة بالغـــوطة داراً بها بنو الحكم
المانعو الجار أن يضام فما جار دعا فيهم بمهتضم

وقال:

أقفرت منهم الفراديس فالغـــوطة ذات القرى وذات الظلال

قال الراعي:

ونحن كالنجم يهوى في مطالعه وغوطة الشام من أعناقها صدرُ

وأعلم الناس اليوم بالغوطة وعاسنها الأستاذ محمد كرد على رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق . وقد أحسن كل الإحسان بكتاب ألفه فى كل ما يخطر على البال ، وكل ما يصل إليه البحث ، من أحوالها فى ماضيها وحاضرها . مستعينا بمصادر جليلة بلغ عدد المخطوط منها ٣٨ كتابا والمطبوع فى أوربا والشرق الإسلامى ٧٦ كتاباً ، مضافا ذلك إلى خبرته الشخصية بزراعتها وعمرانها وبقاعها لأنه ابنها الناشىء فيها ، فذكر حدودها وبساتينها وقراها وسكانها وأديانهم والفصيح فى كلام أهلها والطرائق الزراعية فيها ، ثم وصف متنزهاتها وثمارها وزروعها وأنهارها وريها ، وتمليك الأرض فيها وجبليتها وأموالها وما يتعلق بها من الحكم والإدارة والعلم والأدب ، وما قام فيها من مدارس وخوانق وربط وزوايا وألم بمدنيتها والأخلاق والعادات فيها وعوامل خرابها فى الكوارث والحوادث ، وقراها الداثرة والقصور والجواسق والديورة التى كانت فيها قديماً .

وكتاب كرد على عن الغوطة من منشورات المجمع العلمى وفيه فهرس للأعلام ، وثان للأمم والقبائل والبطون ، وثالث للأديان والمذاهب ، ورابع للكتب ، وخامس البلدان والقرى والجبال والأنهار ، وسادس لفصول الكتاب ومباحثه ، وسابع لمنتوجات الغوطة من نبات وأزهار وغير ذلك .

ولو أن كل بقعة من بقاع الوطن العربى والعالم الإسلامى يعنى أفاضل أهلها بتدوين المعلومات الجغرافية والتاريخية والعمرانية والأدبية المتعلقة بها كما فعل الأستاذ محمد كرد على فى كتاب الغوطة لكان ذلك من دلائل وفائنا لأوطاننا ومحبتنا لها والتعبير عن هذا الوفاء وهذه المحبة بلسان العلم الخالد أهله بخلوده .

أحوال النفس — لابن سينا

وثلاث رسائل أخرى له

نشر الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى هذه المجموعة فى أحوال النفس لابن سينا ، وقال فى أحد فصول التصدير إن ابن سينا طلب معرفة النفس من صدر شبابه كما تحدث فى رسالة القوى النفسانية التى ألفها للأمير نوح بن منصور السامانى فكانت أول مؤلفاته .

وإذا كان قد استهل حياته الفكرية برسالة النفس فقد اختتمها أيضاً بعد أربعين سنة من تأليف ذلك الكتاب برسالة صغيرة فى النفس الإنسانية ، وألف فيما بين ذلك كثيرا

من الرسائل النفسية ، والفن السادس من طبيعيات الشفاء يعد أوفى ما كتب فى هذا الباب ، وهو يصور جملة آرائه وقد نقل بعضه بتمامه فى كتاب النجاة ، ولأنه جمع أطراف هذا العلم المتفرق جمله هو ـ أوغيره ـ تأليفاً منسقاً مترابط الأجزاء فى رسالة (أحوال النفس) المنتزعة من كتاب الشفاء ، جعلها الدكتور الأهوانى أول هذه المجموعة معتمداً فى تحقيقها على ثلاثة أصول : الأول فى برلين والثانى بمكتبة أحمد الثالث بالقسطنطينية ـ وفى مكتبة جامعة فؤاد الأول صورة شمسية لكل من هذين الأصلين ـ والثالث بمكتبة رضا رامبور فى الهند وتوجد صورته الشمسية فى الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية . وهناك ترجمة فارسية لهذه الرسالة تختلف عنها بعض الاختلاف وعنوانها (در روان شناسى) أى « فى معرفة النفس » وقد اطلع عليها الناشر . والمقدمة التى تكلم فيها على هذه الأصول واستعرض فيها موضوع الرسالة بلغت ٤١ صفحة ، ثم أثبت بعد المقدمة نص رسالته (أحوال النفس) وهى فى ١٦ فصلا (من ص ٤٥ إلى ١٤٢) .

وثانى رسائل هذه المجموعة (مبحث عن القوى النفسانية) وهو الذى كان المستشرق صموئيل لانداور قد نشره فى سنة ١٨٧٥ وأعاد نشره بمطبعة المعارف بالقاهرة سنة ١٣٢٥ الأستاذ ادوار فنديك الذى كان مفتشاً بالمعارف ، وهو ابن الدكتور كرنيليوس فنديك أحد أركان جامعة بيروت الأمريكية فى عهدها الأول ، وقد اختار له عنوان (هدية الرئيس للأمير) ولم يعتمد الدكتور الأهوانى فى هذه الطبعة الثالثة على مخطوطات جديدة ، ولكنه اكتفى بتصويب ما فيها من أخطاء بالذوق العربى ومعرفة سياق الكلام ، وحذف جميع الاختلافات الموجودة بالهامش ، والرسالة فى عشرة فصول (من ص ١٤٧ إلى ١٧٨) .

وتليها (رسالة فى معرفة النفس الناطقة وأحوالها) كان الدكتور محمد ثابت الفندى قد طبعها بمطبعة الاعتماد وكتب عليها أنها الطبعة الثانية ، ورجع فى نشرها إلى ثلاث مخطوطات : اثنتان منها فى مكتبة طلعت والثالثة فى برلين . فأعاد الدكتور الأهوانى طبعها بمجموعته دون الرجوع إلى الاختلافات مرجحا قراءته الخاصة ، وهى فى ثلاثة فصول وخاتمة (من ص ١٨١ إلى ١٩٢) .

وآخر المجموعة رسالة فى الكلام على النفس الناطقة كان الدكتور الأهوانى نشرها فى مجلة الكتاب (أبريل ١٩٥٢) معتمداً على مخطوطة ليدن المصورة فى المعهد الفرنسى فى القاهرة وأعاد طبعها فى هذه المجموعة (من ص ١٩٥ إلى ص ١٩٩) .

النشاط الثقافي للأزهر

بعثة من علماء الأزهر إلى جنوب السودان

أصدرت مشيخة الأزهر قراراً يقضي بإيفاد بعثة من علماء الوعظ إلى السودان برياسة فضيلة الأستاذ الشيخ علي جعفر، على أن يكون مقره في الخرطوم. أما علماء البعثة فقد تقرر أن تكون دائرة نشاطهم العلمي والثقافي الديني في جنوب السودان.

وقد قدمت مشيخة الجامع الأزهر إلى الرئيس اللواء محمد نجيب مذكرة خاصة بفتح اعتماد إضافي لمواجهة تكاليف طلاب جنوب الوادي بالأزهر.

مدينة الأزهر للبعوث الإسلامية

كان طلاب البعوث الإسلامية إلى الأزهر يقيمون جميعاً - قبل أن يزيد عددهم على النحو الأخير - في أروقة الأزهر، وهي ٢٩ رواقاً كل رواق لأهل قطر من الأقطار الإسلامية: كالشاميين، والمغاربة، وأهل الحرمين، والهنود، والترك وغيرهم. وللأبناء الأقاليم المصرية أيضاً أروقة يوزعون عليها. وهذه الأروقة مؤلفة من غرف ومبان أنشئت في أوقات مختلفة.

ولما تضاعف عدد طلاب هذه البعوث في السنوات الأخيرة، اضطر الأزهر إلى إسكانهم في أماكن أخرى: ففي معهد القاهرة يسكن منهم حوالي ٥٠٠ طالب، وليس من المصلحة الاستمرار على ذلك، لأن مسكن الطلبة يتوسط أماكن الدراسة. وفي بيوت وشقق مستأجرة يسكنها حوالي ٧٠٠ طالب، ويدفع الأزهر إيجاراً سنوياً عن هذه الأماكن يبلغ ١٠٢٠٠ جنيه، واضطر الأزهر بعد ذلك إلى إسكان الطلبة في الفنادق حتى بلغ عددهم فيها ١٠٥٠ من الطلاب، وهم موزعون على ٢٦ فندقاً ويتكلفون في إقامتهم بها حوالي ٤٢ ألف جنيه في السنة. وإلى جانب فداحة هذا المبلغ فإن إقامة طلاب العلم في الفنادق قد تعرضهم إلى الاتصال بأخلاط الناس ولا تهيء المجال للإشراف عليهم على النحو الذي ينبغي.

ولقد كان هناك مشروع لإنشاء (مدينة لطلاب البعوث الإسلامية بالأزهر)، ووردت لهذا الغرض تبرعات مقدارها ٢١١٠٠ من الجنيهات مودعة ببنك مصر. ولما كان طلاب البعوث الإسلامية أمانة في عنقه، وهو المسئول عن توجيههم وإعدادهم الإعداد الديني الصالح الذين نزحوا إلى الأزهر

من أجله ، ولن يتحقق هذا بطبيعة الحال إلا إذا كان الإشراف عليهم إشرافاً دقيقاً متصلا ، لذلك أبدت مشيخة الأزهر للرئيس اللواء محمد نجيب رغبتها فى إنشاء مدينة جديدة للبعوث الإسلامية تنتظم جميع الطلاب الوافدين من مختلف البلدان الإسلامية . ولما كان مجموع ما ينفق على إسكان الطلاب فى الوقت الحاضر ٥٢٢٠٠ جنيه كما تقدم ، فلو أضيف هذا المبلغ إلى ما جمع من تبرعات بلغ ذلك ٧٣٣٠٠ من الجنيهات ، وبهذا المبلغ يمكن إنشاء مبان خفيفة (على نظام المعسكرات) فى الأرض الفضاء المملوكة للحكومة فى تلال الدراسة أو صحراء العباسية التى لا تبعد عن الأزهر بأكثر من ١٥ دقيقة مشياً على الأقدام ، على أن تكون هذه المبانى من طابقين وتتسع لأربعة آلاف طالب ، فالطابق الأول يعد لصالات الطعام وقاعات المذاكرة وحجرات الألعاب الرياضية والمرافق العامة ، والطابق الثانى للنوم فقط ، على أن تكون بجدرانه دواليب للوازم الطلبة ، ويلحق بهذا البناء مغسل للملابس ، ومطبخ لإعداد الطعام ومقصف ليقدم لمن يشاء من الطلاب المشروبات الساخنة والمثلجة والكراسات والأقلام وما إليها .

وبهذا يتيسر الإشراف على طلبة البعوث الإسلامية بالأزهر إشرافا منتجا محققا للغرض الذى وفد هؤلاء الطلاب من أجله ، فضلا عن أنه يخفف عنهم أعباء المعيشة بتنظيم وجبات الطعام لهم من هذا المكان الواحد ، على أن تخصم تكاليف الطعام من إعاناتهم الشهرية ، وإذا أخذ فى تنفيذ هذا المشروع من الآن فإنه يمكن جنى ثمرته فى أول العام الدراسى المقبل بإذن الله .

اجازة نصف السنة :

أصدر فضيلة الأستاذ الأكبر قراراً بأن تبدأ إجازة نصف السنة لطلبة الكليات والمعاهد الأزهرية من يوم ٢٨ ربيع الآخر

مصادرة مجلة الأزهر فى تونس :

تلقينا من وكلاء (مجلة الأزهر) فى الديار التونسية إشارة تلفونية ثم رسالة مفصلة عن مصادرة الفرنسيين فى تونس نسخ الجزء الماضى من هذه المجلة ، وهذه بشارة لنا ولأقطار العالم الاسلامى بأن إدارة الحماية الفرنسية فى ذلك القطر الشقيق قد بلغت من الوهن والجزع وســوء التدبير إلى درجة الخوف من مجلة دينية تمثل أقدم معاهد العلم فى العالم وأعظم جامعة دينية للمسلمين . وإذا كان نطاق الحرية الفرنسية قد ضاق وتقلص حتى صار لا يحتمل مثل مجلة الأزهر الشهرية فلا شك أن هذا نذير للاستعمار الفرنسى بأنه فى الذماء الأخير من حياته ، وأنه فى أيامه الأخيرة ، ومن يعش يره .

الأدب والعلوم في شهر

وظيفة المدرسة

يقول الدكتور أحمد عبد السلام الكرداني:
« إن أهم تقدم حدث فى عالم التربية فى عصرنا الحديث ، هو أن عملية التربية والتعليم لا يمكن أن تتم كما ينبغى ، وأن تؤتى الثمرة المرجوة من إيصال المعلومات ونقل المعرفة للتلاميذ ، ومن التكوين الخلق الصحيح لهم ، إلا إذا اتخذت الدراسة فى المدرسة اتجاها عمليا يستغل نشاط التلميذ وفاعليته ، ويستغل كذلك تعاون التلاميذ بعضهم مع بعض فى تحقيق أهداف لهم يحسونها بأنفسهم كجماعة . أى أن التربية لا تتم على وجه صحيح إلا إذا جعلنا من المدرسة مجتمعاً حياً صغيراً يعد الفرد للحياة فى المجتمع الطبيعى الذى سينغمس فيه عند ما يكبر . تلك هى (وظيفة المدرسة) وهذا أحدث الاتجاهات فى كيفية اضطلاعها بمهمتها كما ينبغى . وإن (المدرسة المصرية) بوجه عام لا تزال بعيدة كل البعد عن فهم مهمتها على هذا الأساس » .

قلنــا : ومن العجيب أن يعلن هاتين الحقيقتين رجل من رجال التربية والتعليم فى مصر ، ووجه العجب فيه أن لا يدعو زملاءه ورجال الوزارة على تحويل اتجاه وزارة المعارف إلى هذه الوجهة مادام مؤمنا بها ، ولعله بنشره هذه الحقيقة فى جريدة الأهرام أراد أن يخلص ذمته وينبه رجال هذا العهد إلى موضع الداء فى كيان مصر ، إلا أن هذه الطريقة فى تخليص الذمة لا تصلح فى عهد النهضة والإصلاح الذى دخلنا فيه ، ولابد لتغيير الأساليب الفاسدة من إعلان فسادها بصوت جهير ودعوة خالصة لوجه الله .

النظام فى المدارس

خطب الرئيس اللواء محمد نجيب فى زيارته الكتيبة المشاة الحادية والعشرين بثكنات العباسية ، فكان مما قاله : « لقد كنا فى أيام المدارس الأولى نحترم النظام كل الاحترام ، حتى جاءت مظاهرات سنة ١٩١٩ فأفسدت كل شىء ، وبدأت مدارسنا تحتقر النظام ، مع أن ثورة سنة ١٩١٩ بدأت سليمة قوية حتى أقضت مضاجع الإنجليز ، إلا أن حب الزعامة بين الأفراد أفسدها ، فأصبح فى البلد أكثر من زعيم وأكثر من رئيس ، ولم يترك هذا الفساد ركناً إلا دب فيه ، حتى وصل بالزعماء إلى المهاترات فى الأعراض ، وحتى أصبحوا كالأطفال يوم العيد : يجرون وراء إشارات الإنجليز للفوز بالوزارة ، كما يفعل الأطفال بالأراجيح » .

التعليم الدينى فى المدارس :

قابل وفد من الاتحاد العـــام للهيئات

الإسلامية الرئيس اللواء محمد نجيب ، وقدم إليه مذكرة بجعل التعليم الديني مادة أساسية في جميع مراحل التعليم ، للنهوض بالأمة نهوضاً يوفر لها العزة والخلق والقوة والنظام .

ونحن لا نزال على ما أعلناه غير مرة ، وهو أن التعليم - ولا سيما بطريقة شحن الذاكرة كما هو متبع فى مدارس وزارة المعارف - لا يفيد فى السمو بنفوس الجيل إلى المستوى الذى يرجوه هذا العهد وأنصاره من كل الطبقات مالم يقترن بالتربية الإسلامية العملية ، وقد كانت طريقة صاحب الرسالة الإسلامية ﷺ تعتمد أولا على التربية ثم على التعليم ، فتقرير التعليم الدينى مادة أساسية إذا اتبع فيه طريقة شحن الذاكرة كما هى الحال فى العلوم الأخرى لا نظن أنه يؤدى مهمته ، فالتربية الاسلامية أولا هى التى تكون الجيل الصالح .

مدارس التحرير

يفكر المسئولون فى الجيش المصرى بعدة مشروعات ثقافية لرفع مستوى الحياة الاجتماعية والثقافية بين رجال الجيش .

ومن هذه المشروعات إنشاء مدارس لتأهيل ضباط الصف والجنود للشهادات العامة ، وستسمى هذه المدارس « مدارس التحرير » وينتظر أن يفتتح الرئيس اللواء محمد نجيب أولى هذه المدارس فى هذين اليومين وهى تضم خمسمائة طالب ، وقد ساهمت وزارة المعارف فى هذا المشروع بالمدرسين وبعض ما يلزم المشروع للتعجيل بتحقيقه .

وما دامت هذه المدارس ستنشأ من جديد فتلفت الأنظار إلى ضرورة تأسيسها على الأخلاق العملية والتهذيب الإسلامى .

البعثات السعودية بمصر

وصل إلى القاهرة بطريق الجو ١٢٠ طالبا سعودياً لإتمام تعليمهم فى مصر ، وسيلتحق ٣٠ منهم بالكلية الحربية ، و ١٥ بكلية الطيران ، و ٢٥ بمختلف الكليات ، و ٢٠ بسلاح المهمات ، و ١٠ بسلاح الصيانة .

وكان يوجد فى مصر - قبل وصول هذه البعثة - نحو ٢٥٠ طالباً سعوديا موزعين فى مدارس مصر وجامعاتها .

وقد استقبل البعثة الأخيرة فى المطار الرئيس اللواء محمد نجيب ، وكان فى انتظاره هناك الأمير نواف رئيس الحرس الملكى السعودى والشيخ عبد الله الفضل سفير المملكة السعودية وطائفة من رجال البلدين الشقيقين.

وقد خطب فيهم الرئيس محمد نجيب فقال : « أرحب بقدمكم وأشكر الملك السعودى على التفضل بإرسالكم إلى ديارنا التى هى دياركم ، وأرجو أن تعتبروا أنفسكم مواطنين مصريين لأنكم فى الواقع مصريون ولأننا فى الواقع سعوديون . أو الصحيح أننا إخوان لا فارق بين مصرى وسعودى » .

إن وجود ٤٠٠ طالب سعودى فى مصر دليل على أن الحجاز وبقية البلاد العربية السعودية آخذة فى التوسع العلمى ، وسيكون لذلك أثره فى السنين الآتية إن شاء الله .

أنباء العالم الإسلامي

دستور الباكستان الجديد

خطب فى مدينة بشاور السيد عبد القيوم خان رئيس وزارة ولاية الشمال الغربى لباكستان فقال: إن الإسلام أساس الوحدة، إذ يؤلف بين جميع الطبقات فى أى قطر إسلامى، على الرغم مما قد يكون بين هذه الطبقات من تفاوت فى الثقافة والثروة، ولهذا ينبغى للبلاد الإسلامية أن تجعل دستورها موافقاً لأحكام الإسلام ليكون أكثر تحقيقاً لمبادئ الإنسانية.

والآن، والبرلمان الاتحادى الباكستانى فى صدد دراسة التقرير الذى قدمته لجنة المبادئ الأساسية لوضع الدستور، ومدى ما ينبغى أن يكون لمبادئ الإسلام من أثر فى كيان الدولة السياسى، فإن الولايات الخمس التى تتألف منها دولة باكستان وتنفصل بينها مسافات شاسعة وتختلف لغاتها وثقافاتها، فإن أقوى رابطة تؤلف بينها هى رابطة المبادئ الإسلامية السليمة التى دفعتها إلى إنشاء وطن موحد.

دستور إسلامى لأندونيسيا

تقوم الآن لجنة ذات صفة تشريعية فى أندونيسيا بدراسة فكرة الأخذ بالقواعد الأساسية فى الإسلام ليكون منها دستور لهذه الأمة التى أوشك أن يبلغ تعدادها مائة مليون نسمة. وأهم هذه القواعد أن تكون الزكاة مورداً مالياً لإنشاء منظمات ومنشآت تعنى بالعجزة والشيوخ والأيتام.

وقد سبق القائمون على دولة الباكستان إلى الأخذ بفكرة الدستور الإسلامى لدولتهم التى ستكون جمهورية، وتعداد سكانها يبلغ أربعة أضعاف سكان القطر المصرى.

ميثاق اجتماعى للدول العربية

نوهنا فى الجزء الماضى (ص ٥١٤) بحلقة الدراسات الاجتماعية التى عقدت دورتها الثالثة فى دمشق من ٨ إلى ٢٠ ديسمبر (٢٠ ربيع الأول إلى ٣ ربيع الآخر).

ونزيد الآن على ذلك أن التوصيات التى وضعتها الحلقة خلال مؤتمرها الأخير قد أحيلت إلى الإدارات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية فى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، لإعدادها فى شكل (مشروع ميثاق اجتماعى) شبيه بالمعاهدة الثقافية القائمة بين الدول الأعضاء، وستعرض على مجلس

الجامعة العربية هذا الميثاق خلال دورة شهر مارس لإقراره وحينئذ يصبح ملزما لجميع دول الجامعة .

التبشير فى جنوب السودان :

ألقى الأستاذ الشيخ أحمد حسن الباقورى خطبة فى بلدة (جوبا) وهو يودع الألوف من سكانها عن أقبلوا لتوديع البعثة المصرية قبل سفرها شطر الجنوب ، ومما قاله فى خطبته « إننى أعلن للعالم - بصفتى وزيراً مسئولا - أن الإرساليات التبشيرية فى جنوب السودان إنما تقوم دعوتها على مخالفة التعاليم المسيحية نفسها ، فقد ثبت أن رجال تلك الإرساليات يتجرون بالدين المسيحى ، كما أنهم يتجرون بالاستعمار . إنهم يحاربون الإسلام لصالح المستعمر ، ويمنعون المسلمين من تأدية شعائر دينهم . ولو كانوا يدعون إلى المسيحية الخالصة لما فعلوا هذا لأن المسيحية لا تعارض غيرها كما أن الإسلام لا يعارض غيره » .

ثم قال الباقورى : « إن الاستعمار قد طال أمده فى جنوب السودان ، فتاريخه يرجع إلى خمسين عاما ، ولكنه لم يكن إلا سلاحا مسموما ضد أهل الجنوب . وانظروا إلى الجنوبيين بعد هذا الدهر الطويل من الاستعمار ، مازالوا عراة جياعا ! » .

وثيقة جنوب السودان

لما وصلت البعثة المصرية إلى (توريت) فى جنوب السودان عقد الصاغ صلاح سالم وقائد الجناح عمر الجمال ، اجتماعا حضره أكثر من خمسمائة شخص يمثلون توريت والبلاد المحيطة بها . واستمر الاجتماع زهاء خمس ساعات ، وفى هذا الاجتماع الحاشد وقع السلاطين والزعماء والأعيان والتجار على وثيقة تضمنت موافقتهم على اتفاقية القاهرة بين مصر وشمال السودان ، وعلى وحدة شمال السودان وجنوبه ، والمطالبة بجلاء الانجليز فى خلال ثلاث سنوات وإحلال السودانيين محلهم ، على أن يشغل الجنوبيون جميع الوظائف التى تخلو فى الجنوب ، وعلى أن يبذل كل جهد فى رفع مستواهم بإنشاء المدارس والمستشفيات وغيرها من المشروعات .

تحذير

بعث مستر ريتشارد كروسمان النائب الاشتراكى البريطانى الذى يزور الشرق الأوسط الآن ببرقية إلى لندن قال فيها : « إذا لم تتخذ بريطانيا وأمريكا قراراً حاسما لحل مشكلة اللاجئين فإن الدول العربية ستنفجر فى وجوهنا واحدة بعد الأخرى ، وإن ثورتها هذه ستحدث فجأة وبطريقة تجلب كوارث فادحة كما حدث لنا فى إيران . وإذا حدث هذا فإن بريطانيا ستفقد كل الأمل الباقى فى زيت الشرق الأوسط والقواعد الحربية الموجودة فيه » .

وحث مستر كروسمان الحكومة البريطانية بعد ذلك على أن تقلل من اهتمامها بالزيت

والخطط الاستراتيجية ، وتقف جهودها على حل مشكلة مليون لاجىء مشرد ، وعلى إجابة الأمانى القومية للشعوب العربية .

اللامركزية
والإصلاح الاجتماعى بمصر

تتجه الجهود فى مصر الآن للعمل بالنظام اللامركزى فى جميع أنحاء الوطن ، لتربية الشعور فى كل منطقة بالمسئولية عن إصلاحها الاجتماعى ، ووضع حد للتواكل الناشىء عن استئثار العاصمة بالشئون كلها ، وتجاهل التفاوت فى الظروف والأحوال بين مختلف المناطق . وسيكون من آثار هذا النظام انحصار مهمة العاصمة بأنها مقر الجهاز الذى يرسم السياسة العامة لتنفيذ المشروعات الاجتماعية ، أما تفاصيل التنفيذ فتقوم بها كل منطقة بنفسها مراعية ظروفها وحاجاتها ، وستمد العاصمة جميع المناطق بالموظفين الفنيين والإداريين الذين يتولون التنفيذ الأخير .

والمنتظر أن تسمى كل منطقة بالوحدة الاجتماعية يخدم كل منها عدداً معينا من السكان يختلف باختلاف تركيزهم ، ويقدر هذا العدد بحوالى ٣٠٫٠٠٠ نسمة فى المناطق الريفية و ٥٠٫٠٠٠ نسمة فى المدن ، وتقوم كل من هذه الوحدات بتنفيذ سياسة الإصلاح الاجتماعى التى تقررها الوزارة بعد أن تقوم بأقلمتها الإدارة الإقليمية بالمديرية أو المحافظة وبعد أن تقوم الوحدة بتحويرها بحيث تتفق وظروف البيئة التى تخدمها ، على أن يشرف على كل وحدة إدارة تنشأ بعاصمتها برياسة مدير يعاونه أخصائيون فى مختلف فروع الخدمات التى تقوم بأدائها .

وسيستعين المدير فى رسم السياسة العامة للاصلاح الاجتماعى فى منطقته بمجلس من الأهالى فى المديرية أو المحافظة ، مع الانتفاع بجهود المتطوعين من الأفراد والجماعات فى تنفيذ هذه السياسة الحكيمة .

ومما يذكر لهذه المناسبة أن الدولة العثمانية فى السنوات القليلة السابقة للحرب العالمية الأولى كانت أحوج البلاد الإسلامية إلى هذا النظام اللامركزى ، لاختلاف أقطارها فى اللغة والجنس والاحتياجات المادية والفكرية . وكان الأمير صباح الدين ابن أخت السلطان عبد الحميد أحد المقتنعين بضرورة العمل بهذا النظام اليه ألف الرسائل بالدعوة وتأسست فى البلاد العربية (سوريا ولبنان والعراق والحجاز واليمن) فروع لحزب اللامركزية الإدارية العثمانى الذى كان مركزه العام فى القاهرة برئاسة رفيق بك العظم ومن أعضائه السيد رشيد رضا وكان أحد كاتمى سره رئيس تحرير هذه المجلة . ولو أن الدولة العثمانية عملت بهذا النظام لتجددت بحيويتها وحفظت به بقاء العناصر التى انفصلت عنها ولما

بق الأتراك وحدهم مضطربين فى نزعاتهم الفكرية كما هى حالهم اليوم. وإننا نذكر هذه الحقائق لنبرهن على بعد نظر القائمين على العهد الحاضر وحسن تفكيرهم فيما تنهض به البلاد، وتشعر معه بكرامتها وبمسئوليتها وبمكانتها فى إدارة دولاب المجتمع.

مشروعات السنوات الخمس

رأى القائمون على توجيه العهد الجديد فى مصر أن الحاجة ماسة إلى وضع نظام يكفل لبرامج الدولة الدوام والاستمرار، مع توجيه هذه البرامج توجيها يحقق الخير لأفراد الشعب جميعاً، فقرروا وجوب قيام أداة للتخطيط والتنسيق حتى لا تأتى المشروعات مرتجلة ولا متعارضة وحتى يمكن تفادى الإسراف فى الإنفاق وتوفير الجهود والوقت والمال، مع زيادة الفائدة التى يمكن الحصول عليها من الأموال المخصصة للخدمات العامة وتنفيذ المشروعات.

ولما كان كثير من المشروعات الحكومية يحتاج فى تنفيذه إلى أكثر من عام، ونظراً لعدم وجود خطة مرسومة لهذا التنفيذ، فقد استدعى الأمر فيما مضى إحداث تعديلات مرتجلة تمشياً مع مقتضيات الظروف وأحوال الميزانية مما ترتب عليه تعثر المشروعات والسير بها فى غير الطريق المستقيم.

لذلك تقرر تشكيل أداة للتخطيط والتنسيق تتولى دراسة المشروعات التى تقدم إليها وإعداد البيانات الصحيحة عنها ودراسة الاحتمالات التى تكتنفها، واقتراح مشروعات جديدة ووضع الخطط التنفيذية اللازمة لها، وقد تقرر إنشاء مجلس دائم لتنمية الإنتاج القومى فى المشروعات التى تتصل بوزارات المالية والأشغال والزراعة والتجارة والصناعة ليكون الارتباط وثيقاً بين مشروعات الوزارات الأربع ووزارة التموين. وبذلك ينهض الاصلاح وتدخل مصر فى طور جديد إن شاء الله.

إذاعة أذان الظهر

تقرر إذاعة أذان الظهر من دار الإذاعة بالقاهرة، وتعتذر دار الإذاعة ببعض الموانع التى تحول دون إذاعة أذان الأوقات الخمسة كلها، وهى تقول إنها تذيع أذان الأوقات الخمسة فى طول شهر رمضان وأيام العيدين والجمع وبعض المواسم الدينية، ومجموع هذه الأيام ٩١ يوما فى العام.

وجمهور الأمة يجيب على اعتذار دار الأذاعة بأنه مادام ممكنا إذاعة أذان الأوقات الخمسة فى ٩١ يوما فهذا دليل على إمكان الاستمرار فى هذه الأذاعة فى كل أيام السنة وليس هذا بالكثير على وطن أكثر من تسعة أعشاره مسلمون.

فهرس

الجزء الخامس ـ المجلد الرابع والعشرون







الجزء السادس ـ في غرة جمادى الآخرة ١٣٧٢ ـ ١٥ فبراير ١٩٥٣ ـ المجلد الخامس والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

حقائق

كانت مصر — إلى فجر يوم الأربعاء غرة ذي القعدة من العام المنصرم (٢٣ يولية) — كأنها القصر شامخ الذرى ، فخم البنيان ، عظيم الأركان ، ضخم الجدران . لكنه لضعف الأساس الذي كان قائماً عليه ، ولطول ما اعتراه من إهمال المستبدين به عصراً فعصراً ، وانصرافهم عن تعهده بالإصلاح والتجديد ، كثرت في جدرانه الصدوع المنذرة بقرب انهياره ، وأوشك أن يتداعى . فجاءوا له بأبرع النقاشين يرأبون صدوعه بالجص وبما هو أوهى من الجص ، وينقشون ظاهر جدرانه بأجمل النقوش وأبدعها وأزهاها : يخادعون بذلك أمتهم وغيرها من الأمم ، وما يخدعون إلا أنفسهم .

وهكذا اطمأنت قلوبهم للغش والرياء ، فأغروا بهما كل من يتعامل معهم ، أو يرجو حباءهم ، أو يطمع في الزلفى إليهم . حتى إذا أوفى الغش والرياء في المجتمع المصري على غاية الغايات ، وبات ذلك هو الأصل المعروف والمتعامل به ، أما الاستقامة على الحق والتعامل بالنصيحة والصدق فذلك هو الأمر الشاذ والعمل المنكر — حينئذ تدارك الله كنانته برجال قويت نفوسهم بسلاح الأخلاق ، واطمأنت قلوبهم لقواعد الدين ، فحملهم ذلك على المغامرة بتجريد سلاح الأمة لإنقاذها من الغش المخزي والرياء المخجل ، وحاولوا انتشال

هذا الوطن المسكين - المظلوم من قراءته ، المهضوم الحق من أقويائه وأذكيائه - فاجتثوا شجرة الغش والرياء فى اليوم الرابع من ذى القعدة (٢٦ يولية) وألقوا بها فى عرض البحر لتقذف بها أمواجه فى بقاع أخرى إلى غير رجعة . وكان ذلك إيذاناً من الله بتحويل دفة السفينة المصرية وشراعها عن اتجاههما الخاطىء ، إلى الوجهة السليمة التى يوشك أن يتحول بها كل عامل فى هذا الوطن — بمداركه أو مواهبه أو جوارحه — إلى عضو نافع سليم ، فى شعب نافع سليم ، يسبح الله بحسناته فى هذه الأرض ، ويتعبد له بالإحسان فى كل ما يحسنه من عمل صالح ، ويعلن شكره لمولى النعم على نعمه بحسن استعمالها فيما خلقت له ، إلى أن يأتى يوم لا تذهب فيه قطرة واحدة من مياه النيل الى البحر المالح ، بل تستعمل كلها فى رى الصحارى القاحلة شرقاً وغرباً . وتثار المعادن الجافة والسائلة من جوف الأرض لتكون فى أيدى شبابنا حراباً ومدافع ، وفى حقولنا فئوسا وعحاريث ، وفى مصانعنا آلات ودواليب دائبة الحركة بالثروة والسعادة والعزة والرضا .

إن النظام الذى كان قائماً فى العهد البائد ، إنما كان قائماً على دعائم كثيرة من الباطل والشر ، وقد تعاونت على حياطته ورعايته وضمان استمراره عناصر من عناصر الرياء والغش سيحللها التاريخ ، وسيحمّل كل عنصر منها مسئولية ما كان يحمله من دعائم ذلك العهد ، وما كان يتولاه من نظامه الفاسد . وأخطر بقايا تلك الشجرة الخبيثة وأشدها ضرراً تلك الجذور التى كانت ممتدة فى الثرى ، وطالما مثلت فى هذا المجتمع أدوار الغش والرياء ، وبقيت تطمع بأن تعود فتعمل ، ليعود بها عهد الرياء والغش فيحيا من جديد .

تلك هى أحزاب العهد البائد التى بذرت بذور الفتنة والشقاق فى الصحف وقرائها ، وفى معاهد العلم ومجامع الوطن ، وفى البيوت والأسر ، حتى فرقت بين الأخ وأخيه ، والأب وبنيه ، والمدرس وزملائه ، والطلبة فى فصولهم ، والقرويين فى حقولهم ، وحتى أودت بكيان البلاد ، ومزقت وحدتها ، وشتتت شملها لمصلحة نفر قليل من محترفى السياسة وأدعياء الوطنية .

والآن — وقد تمت كلمة ربك بانهيار الطاغوت الأكبر وهو أعز ما كان بباطله وطغيانه ، وبتمزيق شبكة الغش والرياء التى كان يستعين بها فى تقييد نشاط الحق ، وبتحكم بخيوطها فى الحد من حرية الفضائل ، فقد آن للحق أن ينشط من عقاله ، وأن يتخلص من ضعفه وهزاله . وآن للفضائل أن تتحرر من قيودها ، وتنطلق من معتقلاتها وسجونها ، فتعود

إلى هذه الأمة مزاياها الموروثة عن سلف عظيم ، لتتجدد بها أمجاد خلدها جهاد عظيم فى تاريخ عظيم .

والحق لا ينشط مجرداً ، مالم يتول ذلك منه أهله وأولياؤه .

والفضائل لا تتحرر بنفسها ، إلا إذا نهض لها بذلك أنصارها وجنودها .

إن الإسلام دين الحق ، والحق من عند الله ، « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق » . وقد آن للمسلمين أن يحملوا فى أوطانهم لواء الحق ، وأن يربوا عليه أنفسهم وأبناءهم وتلاميذهم ، وأن يُعِـدوا له الجيل الذى سيخلفهم على أمانات الله . وبداية إعداد الجيل لذلك أن نجعل له من أنفسنا قدوة فى الإيمان بالحق والعمل به ، « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » . وهذا الخلق ، أى شهادة المسلم لله ولو على نفسه أو والديه والأقربين ، قد اضمحل وزال فى عهد الرياء والغش ، لأن الشهادة لله ولو على النفس من أخص خصائص الحق والقوامين عليه ، والحق لايجتمع مع الرياء والغش فى نفس واحدة ، فلما تعامل المسلمون بالرياء والغش أعرضوا عن الحق فأعرض الله عنهم .

وبانهيار صرح الرياء والغش يجب أن يقوم للحق صرح جديد فى عهد جديد يكون منه بعث للإسلام فى فضائله العليا ، وأعلاها إقامة الحق وتربية النفس عليه ، وتكوين كيان الجيل الآتى على أساسه ، حتى يكون المسلم ، وحتى يكون كل مسلم ، من الشهداء لله بالحق ولو على نفسه أو والديه والأقربين .

إننا يوم ننجح فى تربية الجيل الآتى على الحق ، سيهبط عدد المحاكم المصرية وقضاتها ووكلاء النيابة والمحامين وضباط البوليس وجنوده إلى أقل من عشر عددهم الآن ، وستقتصد الدولة كل ما تنفقه فى هذا السبيل وأمثاله ، وسيخف عبء الضرائب عن عواتق أفراد الأمة ، وسيتاح لهذا الشعب أن يستعمل فضل أمواله فيما ينتج ويثمر وينفع من مرافق ومشروعات ، وفيما يقوى به كيانه فيعتز ويسعد .

لقد كانت مصر قبل مائة وخمسين سنة فى أحط عصر من عصور الإسلام ، وكان أرقى عصورها فى الإسلام هو العصر الأول الذى لم ير المصريون أسعد لهم منه ولا أكرم ولا أعدل ، فبلغ من احترامهم له وإعجابهم به أن اندمجوا فى نظامه ، وآمنوا بحقائقه ،

وتنازلوا عن لغتهم حباً منهم بلغته ، وبذلك صاروا هم أهله وسادة مرافقه وقادة أموره . ثم استعجم الإسلام فى مصر وأخذ يخرج عن طريقه شيئاً فشيئاً حتى ابتعد عن المحجة ، فبدا أثر هذا الابتعاد فى ضعف الأمة وانحطاطها فى آخر الحكم العثمانى ، وكان أسوأ أحوالها فى تاريخ الإسلام هو ما كانت عليه قبل مائة وخمسين سنة ، فعاقبها الله بالاحتلال الفرنسى ، ثم بتسلط أسرة محمد على ، وبما منيت به البلاد فى عهد هذه الأسرة من مصائب الاحتلال البريطانى . وفى خلال هذه المائة والخمسين من السنين اتخذت مصر لنفسها كياناً آخر ، واتخذت لكيانها نظاما آخر ، وتفننت فى نظامها إلى أن صار إلى ما نعرفه إلى يوم الناس هذا ، وصار الغالب عليه ما وصفناه من رياء وغش عم جميع الطبقات حتى تدارك الله مصر بهذا العهد الذى بدأنا نفكر فيه بما يجب علينا له ، وبما ينبغى لنا أن نرسمه لأنفسنا من خطط السعادة والطمأنينة والعيشة اللائقة .

لقد اخترت لمقالى هذا عنوان « حقائق » ، والحقائق لا يخاف منها إلا مبطل أو جبان .

ترى هل كنا فى المائة والخمسين سنة الأخيرة فى أنظمة ومعيشة وأخلاق أصلح مما كنا فيه قبيل حملة نابليون على مصر ، أم أسوأ مما كنا فيه ؟

وهل كانت الأمانة فى نفس المصرى أقل يومئذ ، فارتقينا فى ظل الأنظمة الأوربية والخديوية ؟ أم كانت الأمانة قبل ذلك أعظم فانحطت نفوسنا فى ظل الأنظمة التى تعاقبت علينا فى المائة والخمسين سنة الأخيرة ؟

أنا معترف بأن العصر الإسلامى الأخير الذى أعقبته الحملة الفرنسية هو أحط عصور الإسلام فى مصر ، ومع ذلك فإن العلماء الفرنسيين الذين صحبوا الحملة الفرنسية وشاهدوا بأعينهم أمانة المصريين وأخلاقهم فى ذلك الوقت قد شهدوا لهم بأنهم كانوا أرقى مما صاروا إليه فى ظل الأنظمة التى تعاقبت على مصر فى المائة والخمسين سنة الأخيرة . وهذه الحقيقة يجب أن تعلن على رءوس الأشهاد لنستفيد منها فى تعيين طريقنا نحو المستقبل .

عقد المسيو جومار ـ أحد مهندسى الحملة الفرنسية التى قدمت مصر مع نابليون ـ فصلا علمياً عن تخطيط القاهرة بحثته الحملة فى المجلد التاسع عشر من كتاب (وصف مصر) ، فكان مما جاء فيه أن بولاق كانت مرفأ القاهرة فى الشمال ، كما كانت الفسطاط (مصر القديمة) مرفأها فى الجنوب ، فكانت بولاق فرضة تجارة الوجه البحرى ، وكانت مقراً لجمرك القاهرة .

ومما لفت نظر مسيو جومار كثرة الوكائل التجارية فى بولاق ووفرة الغلال التى كانت تكدس على ساحل النيل بلا حراسة وبغير أن توضع فى مخازن .

قال مسيو جومار : إن الثقة بين الناس فى مصر كانت على أتم ما يكون بحيث لم يكن ثمة خوف من أن تمتد يد إلى تلك الغلال ، وهذا يدلك على أن الصدق والأمانة كانا من فضائل الخلق المصرى .

هكذا يشهد للمصريين شاهد عيان من الفرنسيين المحتلين ، وقد سجل شهادته فى أعظم أثر علمى تفتخر به تلك الحملة ، أو يفتخر به الفرنسيون من بعدها حتى اليوم .

وهكذا كانت مصر فى أحط عصورها الإسلامية ، وأما عصر الإسلام الأول فيها فإن مصر من عشرة آلاف سنة إلى الآن لم تر أسعد لها منه ولا أعدل ولا أكمل ، ولذلك اندمجت فيه وكانت من خيرة أهله .

والآن وقد قوض الله عهد الطغيان ، فإن مصر التى تبلغ نسبة المسلمين من أهلها ٩٢ فى المائة تحب أن ترجع إلى إسلامها كما كان يوم أحبته فى المائة السنة الأولى من تاريخ الفتح الإسلامى . وأعظم عظماء الأرض وأنبل أبطال التاريخ هو الذى يعمل على تجديد ذلك العهد الزاهر من عهود مصر يبعث أخلاقه وعدالته وبساطته ورفقه والمحبة الصادقة بين جميع سكان الوطن من كل المشارب والمذاهب ليتعاونوا على الأخذ بأرقى وأدق ما وصلت إليه أمم الأرض من علومها وصناعاتها ووسائل تنظيم أعمالها وتحسين مرافقها وتجميل عمرانها حتى نأخذ من كل شىء أحسنه ، وحتى نكون من أعرق الأمم فى ذلك ، ومن أكثرها انتفاعا بالعلوم الصناعية والحقائق الكونية والأساليب الإدارية ، فنبقى مسلمين بأخلاقنا وأحكامنا وطريقتنا فى تبسيط الوسائل ، ونكون مع ذلك سباقين إلى التقدم فى علــوم الكون جميعاً .

إن وزارة المعارف - بمناهجها الحاضرة التى فشلت فى كل شىء - إنما هى عنصر من عناصر العهد البائد ، فينبغى لها أن تسارع إلى إصلاح نفسها والقذف بمناهجها وأساليبها العقيمة فى أعمق بئر تدفن فيها الخبائث ، لتبنى نظامها الجديد على تخريج جيل يؤمن بالأخلاق والفضائل التى لا يمكن الإيمان بها إلا عن طريق التربية الإسلامية الأصيلة ، والتشبع بمحبة عظماء الإسلام الأولين ، وتقمص أرواحهم ، واتخاذهم قدوة وأسوة فى تجديد عهدهم الأول الذى أحبته مصر منذ عرفته فزجت عن محبتها له بالاندماج فيه والامتزاج به بشغاف قلبها .

وإن مدرسي المعاهد والكليات الأزهرية يجب عليهم أن يقودوا حركة التجديد في الأخلاق، وأن تكون لكل مدرس منهم رسالة علوية قدسية يؤديها في فصله وبين تلاميذه بإيمان وخشوع كوقفه بين يدي الله عز وجل في صلاته، لأن القيام بذلك من أعظم العبادات التي يقوم بها المسلم في العهد الجديد، لتحويل أبناء الجيل عن قاذورات العهد البائد إلى أخلاق الإسلام وفضائله التي يجب أن تكون شعار هذه الأمة ودثارها بعد اليوم، وبذلك نستحق الحكم الصالح، وتتجاوب قلوبنا مع قلوب القائمين عليه.

إنما انهار العهد البائد، وقوض الله صروحه، لأنه لم يقم على أساس من الأخلاق، ولأنه تبدل من الصدق والأمانة بالرياء والغش، فكان الناس يمثلون هيئات الفضائل وأشكالها ويحسنون الحديث عنها وهم ينطوون على أضدادها، وقد صدق الله عز وجل في قوله الحق «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

محب الدين الخطيب

التعليم الأجنبي — والتعليم القومي

يقول حكيم البراهمة وشاعرها رابندرانات تاغور:

«التعليم بلغتنا هو الذي أنعش روحنا وأحيانا، ورأيي أن التعليم ينبغي أن يكون كالأكل، بمعنى أنه عندما يسيغ الآكل اللقمة الأولى تنتبه معدته إلى عملها قبل أن تمتلئ، ويتمكن حينئذ عصيرها من أن يؤثر كما يجب؛ ونقيض ذلك التعليم الأجنبي: فإن اللقمة الأولى تؤذن الطاعم بخلع سطرى أسنانه، أو تزلزل فمه، وفي اللحظة التي يبتدئ يعرف فيها أن اللقمة ليست من جنس الحجارة - وإنما هي من السكر وقابلة للهضم - يكون قد ولى نصف عمره، وبينما هو يعالج مضغ كتابتها ونحوها تبقى روحه جائعة، فإذا تذوقها تكون شهيته قد ذهبت».

ولما قرأنا هذا خطر على بالنا أن نستفتي وزير المعارف وجميع رجال وزارته: هل التعليم في مدارسنا من النوع الأول، أم من النوع الثاني؟

بماذا نبدأ

قد تغير العهد القديم ، وجاء على أنقاضه عهد جديد ، يريد الإصلاح فيلتفت حوله فإذا كل شيء بحاجة إلى الإصلاح . نحتاج إلى الإصلاح في المال والاقتصاد وفي الزراعة والصناعة وفي رفع مستوى المعيشة وفي التربية والتعليم ، فيسائل المصلحون أنفسهم بماذا نبدأ ؟ فالعقل يقضي بأن يقدم الأهم على المهم ، وبأن يقدم ما لا نجد منه بدأ على ما نحن واجدون منه بدا . ويقضي بأن تقدم في الإصلاح ما لو إذا أصلحناه أصلحت المرافق الأخرى ، وما لو أهملناه لم يستقم لنا إصلاح في جميع المرافق .

فبماذا نبدأ ؟

الحق أقول إنه يجب البدء بإصلاح نفوسنا قبل كل شيء والعناية بذلك عناية من يعلم أنه إن حرمه هلك ، إنه يجب أن نصلح أول ما نصلح المصريين أنفسهم .

إن مصر عبارة عن شيئين المكان والسكان ، والسكان مقدمون في العناية على المكان ، وأولى السكان بالإصلاح الإنسان ، وذلك لأنه إذا أصلح أصلح ما معه من السكان وأصلح المكان ، وليس إذا أصلح غيره صلح هو . وأول ما يجب إصلاحه في الناس أنفسهم ، وهذا يشمل إصلاح العقول وإصلاح الأخلاق ، فإذا صلح هذان في الإنسان أصلحا البدن كله ، وإذا صلح الإنسان أصلح كل ما يحيط به . وإذا أهمل إصلاح الإنسان لم ينفع إصلاح ما عداه . وسأبين ذلك بأمثلة :

١ — أراد محمد على أن يصلح الصناعة في مصر فأدخل كثيراً من الصنائع وجلب لها العمال ليتعلموها ويصنعوا ، فحييت الصناعة ما حي محمد على ، فلما مات ماتت الصناعة بعده . ولو بدأ محمد على بحبب الصناعة إلى السكان وعرفوا ما فيها من مزايا مالية تعين على المعيشة فاندفعوا إليها بشوق من نفوسهم وأعانتهم الدولة بما تريد المعونة به ، لبقيت الصناعة ما بقى الشوق في نفوسهم وما بقى متوارثاً يرثه الخلف عن السلف .

٢ — أرادت الدولة أن تصلح مياه الشرب في القرى فتنقيها وتقطرها لتقى سكانها من البلهارسيا والإنكلستوما والأمراض التي تسببها المياه الملوثة ، فكان السكان يعافونها ويشربون من مياه الترع والقنوات ويرونها أصح لأجسادهم ويقيسون قياساً مشاهداً لديهم

فيقولون إنها تفيد الزرع من القمح والذرة ، فكيف لا تفيد الإنسان ؟ ولو بدأت الدولة فعرفتهم ما تحمل هذه المياه الملوثة من جراثيم تضر بالأجساد وأن المياه المطهرة خير منها وأصح ، لبحثوا عنها بأنفسهم ، ولعرفوا بر الحكومة بهم إذ سهلتها لهم وقربتها إليهم .

٣ — بنت الدولة مراحيض فى بعض القرى وطلبت من السكان أن يقضوا حاجتهم فيها ، ولا يقضوها فى المياه والموارد ليتقوا أضرار ذلك ، فكانوا يقضونها ويذهبون إلى ما ألفوا .

٤ — ظفرت الأمة بالدستور سنة ١٩٢٣ وقد اعترف فيه لها بأنها مصدر السلطات ، وبأن الحكومة مسئولة أمام مجلس النواب ، واعترف لها فيه بالحريات ، ولكن هل انتقلت السلطات من الملك إلى الأمة حقاً ؟ أكانت الحكومة مسئولة أمام مجلس النواب حقاً أم كان النواب مسئولين أمام الحكومة ؟ هل احترمت الحريات والكرامات ؟ هل عاشت الأمة فى ظله خيراً مما كانت ؟

لا ، لم يكن شىء من ذلك .

ذلك أننا عنينا بكتابة دستورنا فى السطور ، ولم نعن بكتابته فى الصدور ، ولو كتبناه فى صدورنا ، ونقشناه على قلوبنا ، وآمنا به وبأنه لا حياة كريمة ولا تقدم لنا إذا خولفت نصوصه وانتهكت حرماته . لما رضينا بأن يخالف وأن تنتهك حرماته .

قال قائل : إن بريطانيا ليس لها دستور مكتوب فقلت كيف وهو مكتوب فى أربعين مليون نسخة ؟ فعجب ، فقلت إنه مكتوب فى صدر كل بريطانى ، وتقدمه إنما هو فى هذه الكتابة لا فى كتابته فى الأوراق والصكوك .

كل هذه المشروعات أخفقت لأنه بدىء بالنتيجة قبل المقدمات ، وكان الأولى أن يبدأ بالمقدمات قبل النتيجة .

وهذا كله قد عرفه النبى ﷺ حين قال : ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب .

أصلحوا القلوب بإصلاح العقول وإصلاح الأخلاق وتهذيبها يصلح لكم كل شىء .

إن العقل جعله الله مصباحاً يستضىء به الإنسان فى هذه الحياة ، فدعوا لكل إنسان مصباحه ، وأمدوه بالزيت النقى حتى يضىء له طريقه ويبصره ما ينفعه فى هذه الحياة .

وأول ما يجب أن يربى عليه المرء خلقياً هو الكرامة الإنسانية . ومن اعتقاد المرء بهذه الكرامة تنبعث كل الفضائل والخيرات ، وتحارب كل الشرور والآثام ، فإذا ما آمن المرء بكرامة نفسه وكرامة الناس حوله ، طلب الحرية لنفسه وطلب المساواة بين الناس جميعاً وأبى أن يسيطر عليه أحد من الطغاة والمستبدين ، وطلب مثل ذلك للناس . يجب أن يؤمن الناس بذلك ويحبوه كما يحبون الحياة أو أكثر من الحياة ، وأن يفضلوا الموت مع الكرامة على الحياة مع الذلة ، وما استعبد قوم ورضوا بالذلة والعبودية إلا بعد أن فقدوا إيمانهم بالكرامة الإنسانية ؛ هذا الإيمان بالكرامة هو الدرع الواقى للأمة من استعباد الظالمين واستبداد الجبارين ، ولن تنفع القوانين والدساتير فى وقاية الأمة من التحكم والاستبداد إذا فقدت هذه الكرامة .

وإن الأمة التى تؤمن بكرامة نفسها تحوّل كل حاكم مستبد إلى حاكم عادل ؛ لأنها تؤمن بكرامتها وتعرف حقوقها ، وتأبى أن يعتدى عليها معتد وأن يستذلها مستذل ، وكلما حاول ذلك أحد ردته بسيوفها وبكل ما تملك من قوة ؛ والأمة التى لا تؤمن بهذه الكرامة تحوّل كل حاكم صالح إلى حاكم مستبد ، لأن الظلم من شيم النفوس ، وليس يردها عنه إلا المقاومة ، فإذا فقدت رتع الحاكم لأنه أصبح مخلى بينه وبين هواه ، وهـــذا معنى ما ورد : « كما تكونوا يولى عليكم » .

هذه هى الروح السائدة فى العالم ، وهذه هى التربية الحديثة التى تأخذ بها الأمم لأنه يؤيدها العلم والاختبار .

وسيأخذ الناس العجب حينما أبين لهم أن هذا هو الإسلام وأن هذه هى التربية الإسلامية ، وأن الله بعث محمد بن عبد الله ليربى الأمة الإسلامية على ما ذكرنا من الكرامة وما يتبعها من الحرية والمساواة .

إن أول ما يميز المسلم من غيره الشهادة ـ لا إله إلا الله محمد رسول الله ـ ومعنى هذه الشهادة التى جعلت فرق ما بين المسلم والكافر هو الكرامة الإنسانية ، فإن المرء إذا اعتقد أن لا إله له إلا الله ، فلا معبود له يستحق العبادة والخضوع والرجاء والسؤال إلا الله ، لأنه ليس من ينفع أو يضر ، أو يعز أو يذل ، أو يحيى أو يميت ، أو يرزق أو يمنع إلا الله . نقول إذا اعتقد المرء ذلك فقد آمن بكرامته ومساواته للبشر ، فلا يخضع ولا يذل ، ولا تعنو جبهته ، ولا يخشع صوته إلا لله ، ومن أراد ذلك ممن يساوونه من الناس أبى ذلك عليهم

ووقف دونه . ولم يكتف الإسلام بذلك بل ذكر أخبار الملوك الظالمة ، والطغاة المستبدين واستعبادهم أممهم وإرسال الرسل إليهم ليخلصوهم من الهوان ، ويعيدوا إليهم كرامتهم الإنسانية ، فذكر بني إسرائيل واستعباد فرعون إياهم .

« وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » وذكر محاورة موسى لفرعون في دعوى الألوهية والتسخير ، وهي محاورة يجب أن تكتب على كل قلب لتكون وقاية له من فقد الكرامة والارتكاس في مهاوى الذلة والاستعباد : « فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بني اسرائيل . قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين . وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين . قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين . ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين . وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بني اسرائيل . قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين . قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون . قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين . قال أو لو جئتك بشيء مبين . قال فأت به إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين » .

وقد ذكر الله هذا الحوار البديع ليوحي إلى الناس ضعف الإنسان ومساواته لغيره من الناس ، فإذا تمرد وبغى وخرج عن طوره وجب إقناعه بالحجة ، فإذا لم يقتنع وجبت مقاومته ومحاولة الخلاص منه ، وقد ذكر الله هذه المقاومة في كثير من سور القرآن وبين أن العاقبة للشعب المقاوم والدمار والهلاك للطاغية المستبد ، بشرط واحد : وهو أن يصبر الشعب على المقاومة : « فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ، وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » وبين في القرآن أن إرادة الله وعونه وحمايته ، للمغلوب المستضعف ليغرس الأمل في النفوس ، والإيمان بالغلب في القلوب :

« إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم

ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » ، ولم يكتف القرآن بما ذكرنا بل ذكرها كلمة خالدة ناطقة بكرامة الإنسان : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

أرأيتم التربية الإسلامية كيف كانت مبناها على الكرامة الإنسانية ، وكيف كانت تربى الأمة على التخلص من المستبدين الظالمين ، وكيف كانت كلمة التوحيد مخلصة للأمم من الداء الوبيل المبيد للأمم وهو الذل والاستعباد ، كما هى مخلصة من سوء الآخرة وعذابها بشرط أن يفهم معناها على وجهه ، وأن يرقى المرء عليها حتى تختلط بلحمه ودمه .

ولا يظن ظان أنى أحمّل كلمة التوحيد فوق ما تحتمل وأفسر الربوبية والعبودية بأكثر من معناها ليتسنى الوصول إلى ما أريد ، فإن ذلك كان يعنيه النبى ويبنى أكثر منه ، فقد ورد عن عدى بن حاتم أنه قال أتيت رسول الله ﷺ وفى عنقى صليب ، فقال لى يا عدى ألق هذا الوثن من عنقك ! وانتهيت إليه وهو يقرأ سورة « براءة » حتى أتى على هذه الآية : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » ، قال قلت يا رسول الله : إنا لم نتخذهم أربابا ، قال : بلى أليس يحلون لكم ما حرم الله عليكم فتحلونه ، ويحرمون عليكم ما أحل لكم فتحرمونه ، فقلت بلى ، فقال : تلك عبادتهم .

ولو شئت أن أقول إن جل ما فى الإسلام يدور على تثبيت هذه الكرامة الإنسانية لقلت ، فإن الإسلام كله يؤيدنى فى ذلك .

استكبر سادة قريش أن يجلسوا مع النبى ومعه ضعفاء المسلمين من أمثال صهيب وعمار وبلال ، وقالوا للرسول اطرد هؤلاء الأعبد ونحن نستمع إليك ، فأنزل الله : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين ، وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ، وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم » ، فكان النبى إذا رأى هؤلاء الضعفاء مقبلين بدأهم بالسلام تطييبا لنفوسهم وغرسا للكرامة فى قلوبهم ، وهل كان عتاب النبى ﷺ فى أمر الأعمى الذى جاء وهو مشغول بكفار قريش ،

ويرجو أن يهديهم الله تخاف أن يشغل به عنهم فيفوت ما يرجوه، فأنزل الله هذا العتاب وسجله على وجه الدهر فى هذه الآيات : « عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى . فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى . وأما من جاءك يسعى . وهو يخشى . فأنت عنه تلهى ، كلا إنها تذكرة » .

نقول هل كان هذا العتاب القاسى إلا ليذكر دائما بالكرامة الإنسانية وبكرامة هؤلاء الفقراء خاصة كلما قرأه قارىء أو تدارسه دارس .

وهل أمر الإسلام بالرفق فى الأمور كلها وبغض فى الفظاظة والغلظة ، فقال الله فى كتابه الكريم : « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » ، وقال النبى ﷺ : « ما كان الرفق فى شىء إلا زانه » ، حتى إنه أمر بالرفق بالعبيد والإماء ، وقال لأبى ذر وقد قال لآخر يابن السوداء :

« ياأبا ذر أعيرته بأمه ، إنك امرؤ فيك جاهلية »! .

نقول هل فعل الإسلام ذلك إلا ليحفظ على الأمة عزتها ويبقى لها الكرامة الإنسانية؟ وقد خطب عمر بن الخطاب لما تولى الخلافة فقال : « إذا رأيتم فى اعوجاجا فقومونى » ، فقام إليه رجل وقال : « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » ، فقال « الحمد لله الذى جعل فى هذه الأمة من لو رأى فى اعوجاجا لقومه بسيفه » ، فهل كان فرح عمر بذلك وحمده الله عليه إلا لأنه استوثق من أن الأمة فيها خلق العزة والكرامة الإنسانية ، وأنه يحفزها هذا الخلق على ألا تقر لظالم ، ولا تعنو لمستبد .

ولما كان مما يهدر الكرامة الإنسانية استعلاء قوم على الآخرين بالجنس والدم أو باللون أو بأعراض خارجة من المال والجاه والسلطان ، أبطل الإسلام ذلك كله وأهدر تلك المقاييس الفاسدة التى درج الناس على أن يقيسوا بها الناس ، ويميزوا بها الرجال ، وأنزل فى كتابه العزيز تلك الآية الذهبية التى هى أصل عظيم من أصول الاجتماع الإنسانى والإصلاح البشرى ، والتى أهدر فيها تفاضل الناس بالأحساب والأنساب والمال والجاه والسلطان ، ووضع مقياسا خيراً من ذلك كله وهو التقوى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . وجاءت السنة الكريمة بشرح هذا الأصل فقال النبى ﷺ « كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ، « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ، ومن أسرع به عمله

لم يبطىء به نسبه »، «يا معشر قريش لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم »، « يا فاطمة بنت محمد لا أغنى عنك من الله شيئا ».

ولم تكن هذه التعاليم كلمات متلوة على اللسان ، لاتتأثر بها القلوب كما هي عند المسلمين اليوم ، بل تأثرت بها قلوبهم ، وانطوت عليها صدورهم .

يحكى التاريخ أن سهيل بن عمرو وأبا سفيان بن حرب ورهطا من سادة قريش طلبوا الإذن على عمر بن الخطاب وطلبه معهم صهيب وبلال من ضعفاء المسلمين ، فأذن لهما أولا ، فغضب أبو سفيان وأخذته العزة ، وقال لأصحابه لم أر كاليوم قط يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه ! فقال سهيل إنى أرى والله الذى فى وجوهكم ، إن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم ، دعى القوم إلى الإسلام ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم ! .

وهذا هو السر فى أن الإسلام ديننا جميعاً ولكنه نفعهم ولم ينفعنا ، إننا أخذناه على طرف اللسان ، ولم يتجاوز الآذان ، أما هم فقد تغلغل فى الضمائر وأشربته نفوسهم واختلط بلحمهم ودمهم بمبادئه السامية فكانت لهم العزة فى هذه الأرض .

أيها المسلمون : غيروا نظركم إلى الدين وغيروا فهمكم إياه ، لا تفهموه تعاليم جافة ، ولا تفهموه جزئيات مبعثرة لا رابطة تربطها ، ولا تفهموه معنياً بإزالة الحدث والخبث دون أن يكون معنياً بهذه الحقائق العالية ، بل افهموه على حقيقته : تعاليم مثمرة ، وقواعد باقية يراد بها تغيير النفوس وقلب الأوضاع الباطلة ، والاصطلاحات الظالمة التى تؤدى إلى استعلاء طبقة على طبقة ، واستغلال طبقة لغيرها من الطبقات . جاءت لرفع ذلك ليعيش الناس سعداء ، وقد فطن لذلك أمم الغرب فطبقوها فى حياتهم ، فضمنوا السعادة لأكبر عدد من أممهم ، وكانوا أحظى بها من المسلمين الذين نزلت عليهم ولم يفطنوا لها ولم يأخذوها مأخذ الجد والحزم ، وهذا هو تغيير الدين وتبديله وتحريف الكتاب وتأويله والمروق منه كما يمرق السهم من الرمية .

ربوا عليها الرضيع ونشئوا عليها الصغير ، وأرضعوها لأطفالكم مع اللبن تعيشوا أباة حماة كراما لا يطغى عليكم طاغ ، ولا يستبد بكم مستبد ، وكلما أراده منكم ذو سلطان وجد من يقول له : قف مكانك ، إنى هنا أحمى حقيقتى ، وأذود عن كرامتى .

إذا الملك الجبار صعر خده مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

محمد عرفة

عضو جماعة كبار العلماء

نفحات القرآن

البيت العتيق :

من آثار النبوة ، أن لله خواص فى الأزمنة ، والأمكنة ، والأشخاص .

وإذا كانت لنا كلمة سابقة عن شىء من هاتيك الخواص فى أشخاص أشاد القرآن بذكرها وفى أزمنة رفع الله من شأنها حتى أقسم بها ؛ أقف اليوم خاشعاً فى إكبار ، وهائماً فى إجلال ، أمام بقعة من البقاع آثرها ربك بفضله ورضوانه ، وأضفى عليها من حمايته وسلطانه ، فكانت فى عين الزمن حلية الدنيا ، وكانت فى حساب العقل متنفس الحياة .

بقعة : اختصها ربك بالإيثار فسماها بيته ؛ وإن كان الملك كله ملكه ، والمساجد كلها بيوته ، فأى بيت هذا ؟ ذلك هو البيت العتيق (الكعبة) .

وإن فى وصفه بالعتاقة لإيذاناً بأصالته فى الشرف ، وسبقه على ما بعده ، إذ يكون معهوداً قبل أن يعهد غيره ، ومشهوداً له بالرسوخ فيما هو من خصائصه .

وسواء أكانت العتاقة لأنه موضع بيت كان مطاف الملائكة قبل آدم ، أم كانت عتاقته تبدأ من عهد آدم إلى زمن الطوفان ، أم كانت عتاقته لأنه بنى فى عهد إبراهيم ـ عليه السلام ـ فهو على أى قول رجح من هذه الأقوال أول بيت فى الأرض كان للعبادة .

وليس فى معالم التاريخ ، ولا فيما أثر عن الأنبياء وما بنوه من المعابد بيت يسبقه .

ثم كان المسجد الأقصى من بعده ـ كما أطبقت الروايات ـ ولكن بأزمنة اختلف فيها التقدير ، وبالبيت العتيق هتف القرآن غير مرة ، وركز فى الأذهان أنه المهبط الذى تخيرته عناية الله أول ما تخيرت ، وربطت به تاريخ البشرية فى رحلة من مراحلها الحية ، وجعلته أساساً للقومية الجديدة فى الشرق ، ومنارة تشع بضوئها فى جنبات الدنيا ، « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة ، مباركا ، وهدى للعالمين » .

وحسبنا هذه الآية وثيقة لتاريخ البيت ، وستضيف إليها الآيات من بعد ، مناقب أخرى جدت على الأيام .

وكأن تلك المناقب كانت آمالا تداعب الإنسانية منذ فجرها الأول، وتنشدها منذ صبوتها الضالة، لتأنس بها فى مهامه دنياها، وتركن إليها كلما هبت من حولها الأعاصير فى حياتها الطولى.

حتى إذا ما حان لكل منقبة من مناقب البيت موعدها المقدور عند الله، برزت فى عالم الوجود، وتم بها جانب من جلال البيت على ما شاء صاحب البيت له من جلال.. إبراهيم أبو الأنبياء يؤثر لطفله إسماعيل، ولزوجه هاجر عزلة عن الناس، حتى يقضى الله فيهما أمراً كان مفعولا؛ فما يروق له سوى المكان القفر بالمثوى القصى، فيدع أمانته هذه فى جوار بيت الله، وعلى جانب تلك البقعة الميمونة، مطمئناً إلى صيانتها، مؤمناً بحسن رعايتها، وليس عليه إلا أن يدعو ربه مستعطفاً لها، قبل أن يولى وجهه عنهما، «ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون».

وهذه دعوات الوالد الواله، يؤججها فى قلب إبراهيم لذع الفراق للولد العزيز، وللزوجة الأثيرة، ويلطفها على نفسه المحرورة غلبة الرجاء فى رعاية الله لجيرة بيته الحرام، ثم يأخذ سبيله، ويدع جانباً من قلبه، ويتجه إلى ما يتجه إليه من شئون، وإذا عاد فإنما يعود لماما وهو فى حله وترحاله يتماسكه الإشفاق، ويلازمه الحدب، فتظل دعواته صاعدة من قلبه، جارية على لسانه، ولمن يازى دعاؤه؟ للبلد كله من أجل البيت، ولقطان البلد من أجل إسماعيل وهاجر. فتراه مسوقا بعاطفة رحمة وموجها بإلهام غيبى إلى الضراعة حيناً بعد حين فهو يجأر مرة: «رب اجعل هذا بلداً آمناً، وارزق أهله من الثمرات لعلهم يشكرون»، ثم يعود أخرى، ويجدد إلى الله دعاءه، ويوثق رجاءه أن يرعى رب البيت هذا البلد، وأن يجنبه ما كان يرى — فى غير مكة — من جهالة ضاربة، وطغيان مستبد، وأصنام جاثمة، وكفر متوطن، يوم كان يرى ذلك من أبيه آزر وقومه فيشتد عليهم فى نكيره، ويقول: «ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون... لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين». ويوم كان يقرع صمم أبيه بقوله: «إنى أراك وقومك فى ضلال مبين» فهو اليوم يسأل ربه فى لهفة ورجاء: «رب اجعل هذا البلد آمناً، واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام، رب إنهن أضللن كثيراً من الناس، فمن تبعنى فإنه منى، ومن عصانى فإنك غفور رحيم».

أليست الدائرة التي دعا لها إبراهيم مقراً للبيت الذي آثره مأوى لولده وزوجه ، بعد أن سبق له العلم بأنه بيت كريم على صاحبه ، وأنه محفوف بحراس من السماء ، وأن له سياجا من رعاية الله ، حتى ذكره في دعائه بوصف ينم عن قداسته ، عند بيتك المحرم ، أو ليس إبراهيم صديقاً نبياً ، ترفع الحجب دون دعواته ؟؟

هنا يتجلى عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظوراً ، ويشاء الله أن يشب إسماعيل بعد أن لقيت أمه في رعايته ما لقيت أيام الطفولة أو بعد أن احتمل والده ما احتمل من صروف ، وبعد أن أبطأ عليه الأمل في الولد ، ولم تبق له إلا بقية من عمر ، يغلب عليه الظن أنها أيام قصار .

وقد كان إبراهيم يتصابر على ذلك الحظ المتباطىء في الذرية ، وهو راض عن هذا بالدأب على رسالته ، وكان يواجه من أمره صعابا ، ويتخذ من صبره على المكاره عدة النجاح وأسبابا ، وإذا كان من أولى العزم فليس يقل النصيب من قوته ، ولا ينال من عزيمته ، وإنما هو على أكمل ما تكون شخصية النبوة ، حتى يمتحنه ربك مرة أولى في نفسه أيام شبابه ، يوم ائتمر عليه عباد الأوثان ليصرفوه عن دعوتهم ، فأضرموا له نارهم ليحرقوه وينصروا آلهتهم من تنكيره وتقبيحه ، بما كان يواجههم به وهم في كثرة ، وهو في قلة ، وهم يظنونه ضانا بشبابه مطاوعهم في الكف عن رسالته ، ولكنه يرخص حياته في جنب الله ويجود بنفسه ، بينما المرء في شبابه يضن بالتافه من عرض الدنيا ، فما بالك بالحياة ؟ فلتوقد نيرانهم في غير تريث ، وليطرح فيها إبراهيم في غير رفق ولا رحمة ، وليقف الطغاة حول نارهم ليشمتوا فيما نزل بإبراهيم ، غير أن ربك ينصر من أسلم وجهه إليه ، ويعز من أعز دينه ، وانتصر لربه ، فلم يعظم على قدرته أن تكون النار برداً وسلاما على إبراهيم ، وأن يحبط كيد الكائدين ، ويجعلهم الأخسرين .

ثم تقتضي حكمة الله أن يمتحنه على الشيخوخة مرة ثانية في ولده إسماعيل ، وهو الموهوب له على الكبر ، الممنوح له بعد حرمان ، فيوحى إليه فيما أراه الله من منامه أن يتقرب إلى ربه بذبح ولده وأن يودعه إلى غير لقاء ، والمرء في كبره أحوج إلى البنين ، وأعطف على الولد ، ولكن إبراهيم إن يكن والدا حنوناً فهو نبي صديق ، وخصائص الرسالة أملك للإنسان من عواطف الأبوة ، فلم يتهم نفسه في صدق رؤياه ، ولم يتردد في تنفيذ ما أمر الله ، وكذلك لم يعص الولد البار في تمكين والده من رقبته ، ولم يعوقه عن المبادرة إلى طاعة مولاه .

ونحن نعلم أن الحرص على الحياة غريزة ، وأن حداثة السن تغرى بالعصيان ، وأن العناد أو التدلل فطرة فى الأحداث ، فلم لا يبدو من إسماعيل شيء من ذلك إذ أفضى إليه والده بما رآه فى منامه ، وصارحه بما ليس أشد من وقعه على السمع ؟ ؟ ولكنها ذرية بعضها من بعض .

وهنا يتمثل لطف الله فى قضائه ، وحكمته فى تدبيره ، فيفتدى — سبحانه — الولد لأبيه بذبح عظيم من عنده ، وينادى خليله فى تزكية وثناء « أنْ يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزى المحسنين » .

وبهذا الوفاء تبين لإبراهيم وولده إسماعيل من أمرهما وبرهما ما كان مطوياً عنهما ، من دخائل النفس ، وتجلت لإبراهيم حظوة عند ربه له ولولده كان يأملها ويرجوها فيما كان يدعو به لنفسه ولذريته ، « والله أعلم حيث يجعل رسالته » .

ثم يكون من تدبير الله أن يجعل من شباب إسماعيل المفدى نصيباً لإقامة البيت الذى أوى إليه رضيعاً ، واحتمى به طفلا ، وشب فى جواره يافعاً ، وآن له أن يقف إلى جانب أبيه فى إبراز ما كان فى حجب الغيب ، وطالما اختلج بنفس إبراهيم ، ولهج به لسانه ، فعهد الله إليهما « أن طهرا بيتى للطائفين ، والعاكفين ، والركع السجود » .

وفى مثل ما كان إبراهيم ينشط إلى الدعاء والرجاء كان نشاطه هو وإسماعيل إلى الاستجابة لهذا التكليف فى رحابة صدر ، وأكرم وفاء ، وأفسح أمل ، وأطيب دعاء « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل : ربنا تقبل منا ، إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ، يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم » .

كانت هذه الدعوات الخاشعات أنشودة إبراهيم وإسماعيل وهما ينهضان بالبناء ، وما أشق البناء بالصخور ، وتناوله باليد ، وفى قلة من الأعوان ؟ وما أشفق الوالد ، إذ يرى ولده مجهداً معه يتكلف الأمر الذى لا يطيقه أترابه إلا فى عنت وسآمة ؟ وما أعطف الولد الرحيم وأشد وجله على أبيه الشيخ ، إذ يراه مكدودا فى شأن يخشى أن ينال من شيخوخته ، وهو أحوج إلى الاستكانة ، وإلقاء العبء ، ولكنه مع ذلك مأخوذ بالغبطة له ، وآخذ بالمضى فيه ؟

تتجاوب العاطفة بين الشيخ والفتى فيحبب إلى نفسيهما ما قد يكرهه غيرهما ، ويسهل عليهما ما يشق على سواهما ، ويريان من اليسير الهين ما قد يكون فى ذاته غير يسير ولا هين ، بل ولا من اليسير والهوان فى شىء .

وهل ترى إبراهيم وإسماعيل ذاكرين لشخصيهما فى هذا الموقف ؟ أو شاعرين بما يلحقهما من عنائه ؟ أو حاسبين لشىء مما هنالك أدنى حساب : إلا أنهما يقومان بأمر الله ، ويرفعان بناء ترمقه عين الزمن ، وستستظل به الإنسانية فى حياتها المستأنفة ، وتستشف الدنيا من خيره فى أطوارها القابلة ؟ ؟

لم يكن إلا ذلك : شعور حق ، وأمل وصدق ، واطمئنان بالله ، وثقة فى رضوان الله ، وليس بعد الله جانب تستمد منه القوة ، وتلتمس منه المعونة ، فلتكن الغبطة شاملة للشيخ وولده ، بدلا من كل تقدير آخر ، ولتنبثق الدعوات على لسانهما أوسع مما كانت ، فهما يسألان الله القبول ويسألانه تثبيتهما على الإسلام ، ويسألانه تخليد الإسلام فى أمة من ذريتهما ، وأن يريهما مناسكهما فى البيت ، وحول البيت الذى عهد إليهما بناءه وتطهيره من كل رجس يشينه ، وأن يديم عليهما توبته ، ويسألانه أن يبعث فى الأمة المسلمة من ذريتهما نبيا منها ، يكون رسولا إليها ، يتلو عليهم آيات الله ، ويعلمهم الكتاب وما فيه من أحكام ، وما يتضمنه ويتصل به من حكمة ، ويزكيهم من كل شائبة تنقصهم .

فتظهر الغبطة عند إبراهيم وإسماعيل دعاء شاملا لا يخصهما ، بل يتسع لهما ولمن بعدهما ممن يشاء الله ، وذلك شأن الظافر يغتبط : إذا زكت نفسه ، واستقامت وجهته ، تراه لا يختص نفسه بحب الخير ، وطلب المزيد ، بل يفسح رجاءه لبنيه كما أفسح لنفسه ، ويفسح لغيرهم كما أفسح لنفسه ولبنيه ، وتراه يزداد على النعمة شكراً لا بطراً ، ويشتد إقبالا على الله ، ولا يعرض عن ربه مفتونا ولا أشرا .

دعوات ينضح منها عطف الأبوة ، وتشف عن روح النبوة ، وتجتذب الفكر إلى التأمل ، وتثير الخواطر نحو ما تنطوى عليه من غايات .

ومن لهذه النجوى مثل إبراهيم المبارك ؟ ؟ أليس قد أكرمه ربه فى نفسه فآتاه رشده من قبل ، ورفعه فى الأكرمين عنده حتى أيده (أمة قانتا لله حنيفا ، ولم يك من المشركين ؟)

ألم تشف دعـواته المبكرة عما تدخر له الأقدار بعد ؛ فكان من ذريته شجرة أينعت في النبوة ؟ ؟

حقا : « إن إبراهيم — كما شهد الله — لحليم ، أوّاه ، منيب » .

وإذ آن لدعوات إبراهيم أن تبرز إلى عالم الوجود ، ولصبح المنى عنده أن ينبلج ، ولساعة الاجابة أن تدق . هبط وحي ربك بالأمر المرتقب ، « وأذن في الناس بالحج ، يأتوك رجالا وعلى كل ضامر ، يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها ، وأطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا تفثهم — يزيلوا ما بهم ويتنظفوا — وليوفوا نذورهم ، وليطوفوا بالبيت العتيق » .

وبهذا الأمر صدع إبراهيم ، وأعلن في الملأ أن البيت أصبح مثابة للناس وأمنا .

وحان لهذه الحياة أن ترتسم على صفحاتها خطوط لم تكن ، وأن تقوم على جوانبها المظلمة معالم الهداية شاعخة ، وأن تشرق جوانبها المترامية بقبس وضاء من نور السماء .

وحان للبيت الفراغ أن يعمر بأفئدة من الناس تهوى إليه ، ولمكة أن تنهض لاستقبال عهد خصب تترادف عليها ثمراته ، ولم يكن لها في حساب . . لها بقية .

عبد اللطيف محمد السبكي
عضو جماعة كبار العلماء

الاستعمار كما يصفه نائب فرنسي

جاء في تقرير النائب الفرنسي مسيو موتيه الذي رفعه إلى مؤتمر الاتحاد البرلماني في برن سنة ١٩٢٤ :

« من المحقق أن الاستعمار عمل لا يسوّغه قانون ، وكثيراً ما ظهر بمظهر الفظاظة والغلظة ، لأنه يقضي بحكم القوى على الضعيف . وقد مضى على وجوده قرون بحجة نشر المدنية والارتقاء بين الشعوب المزعوم جهلها وخمولها . والحقيقة أنه لم ينشر من تلك المدنية وذلك الارتقاء إلا الأسماء التي تنتحلها لنفسها الأمم المستعمرة . وقد أراد المستعمرون أن يسدلوا على أعمالهم ثوباً شرعياً قانونيا فقرروا ضم ما استولوا عليه من البلدان إلى ممتلكاتهم بحجة نشر المدنية والعلوم ، والحقيقة أنهم لم يفعلوا ذلك إلا لمصلحة بلادهم » .

ثم ختم كلامه بقول لاروشفوكو : « النفاق حكمة تقدمها الرذيلة للفضيلة بكل احترام » .



١ – التطهير فى الاسلام

عناية الإسلام به – مبلغ الشرائع الوضعية منه – المبايعة على ترك الموبقات
رجال تخرجوا فى مدرسة التطهير – درجات الناس فى الوفاء بالعقود

عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه – وكان شهد بدراً ، وهو أحد النقباء ليلة العقبة – أن رسول الله ﷺ قال ، وحوله عصابة من أصحابه : « بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا فى معروف . فمن وفى منكم فأجره على الله ؛ ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ؛ ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقبه ، فبايعناه على ذلك . رواه الشيخان ، واللفظ للبخارى .

• • •

أشرنا فى الجزء الثانى من هذا العام إشارة مجملة إلى التطهير فى الإسلام ، ثم بدا لنا أن نفصلها فى هذا الجزء وما يليه إن شاء الله ؛ ليعلم من لم يكن يعلم كيف عُنى الإسلام ورسول السلام بالتطهير عناية ما كانت لتخطر لأحد على بال .

لقد عنى الإسلام بالتطهير بطنا وظهرا ، وسرا وجهرا ، وحسا ومعنى : فى النيات والسلوك والعقائد والأعمال والأحوال ، وسائر شعبه وشرائعه كلها ، جليلها ودقيقها ، فرضها ونفلها ، فى الأفراد والجماعات والرجال والنساء والأطفال ، والأمم والشعوب ، وفى السفر والحضر والسلم والحرب . لم يدع صغيرة ولا كبيرة فى هذه الشئون عامة وخاصة إلا جعل التطهير أساسا لها أو مرتبطا بها . وهل الإسلام إلا أوامر تمتثل ، ونواه تجتنب ؟ وما الأوامر فى الإسلام إلا الفضائل أو الخير ممثلا فى شعبه ومناهجه ودرجاته ، وما المناهى فيه إلا الرذائل أو الشر ممثلا فى ضروبه وأبوابه ودركاته .

ألا فليعلم من لم يكن يعلم أن ضروب التطهير قديما وحديثا فى الشرائع الوضعية كافة ،

لم يبلغ معشار ما بلغه فى الإسلام ، بل لم يبلغ فيها ما يبلغه القشر من لبه ، ولا الزبد من زُبده ، وأين تدبير العباد الضعفاء وتطهيرهم ، وهم لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ، من تدبير الحكيم الخبير وتطهيره ، وهو الذى أحاط بكل شىء علما ، وأحصى كل شىء عددا ، وخلق كل شىء فقدره تقديرا ؟!

إن التطهير فى الإسلام - إلا ما تدعو الضرورة إليه - أمر اختيارى يوكل إلى العبد حتى يزكى نفسه بنفسه من غير جبر ولا إكراه ، وما هو إلا الإرشاد والبيان ، والدعوة والبرهان : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ، « فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمصيطر » ، « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » ، « قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » .

وأما التطهير فى الشرائع الوضعية فإنه إجبارى ، يوكل أمره إلى ذوى النفوذ والسلطان ، يتولونه بالعنف والقوة ، ويأخذون فيه بالشدة والغلظة . ولا يستوى تطهير أسس على الطوع والاختيار ، وآخر أسس على الكره والاضطرار .

وفى هذا الحديث الجامع يروى عبادة بن الصامت ، رضى الله عنه : كيف بايع النبى ﷺ هذه العصابة المطهرة من أصحابه ؟ وكل أصحابه أطهار كرام : بايعهم النبى ﷺ على التطهير من ستة خبائث هن جماع الموبقات ، وأصول المهلكات ، من وقيهن فقد وقى شراً مستطيراً ، وأعد إعداداً كريماً ، يرشحه لأن يكون عضواً حياً فى خير أمة أخرجت للناس . والعصابة - ومثلها العصبة - هى الجماعة بين العشرة والأربعين .

* * *

ذكر البخارى لعبادة رضى الله عنه منقبتين من أجلّ مناقبه ، ليرينا أى إنسان كان راوى هذا الحديث ؟ ذكر أنه شهد بدراً . وحسبك فى فضل أهل بدر ما جاء فى الصحاح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ... لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، وذكر أنه أحد النقباء ليلة العقبة .

وجملة القول فى أخبار العقبة - وهى فى طريق الذاهب من مكة إلى منى - ان النبى صلى الله عليه وسلم لما يئس من قومه أخذ يعرض نفسه على القبائل فى موسم الحج يدعوهم إلى الله تعالى . وقبل الهجرة بعامين لقى ستة من الخزرج ، فعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم

القرآن ، فأسلموا وحملوا الإسلام إلى المدينة . ويذكر بعض أهل السير والمغازى أن منهم عبادة . . فلما كان العام المقبل لقيه من الأنصار اثنا عشر رجلا : خمسة من السابقين وسبعة غيرهم أسلموا جميعا . وهذه هى البيعة الثانية ، وكان فيها عبادة يقينا . فلما كان العام الذى يليه قدم من المدينة جم غفير من الأوس والخزرج وبايعه منهم سبعون رجلا وامرأتان ، واختار منهم ـ اقتداء بالقرآن ـ اثنى عشر نقيبا أحدهم عبادة ، وجعلهم كفلاء على قومهم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم . وهذه هى البيعة الثالثة .

وكانت بيعتهم فى العقبة على الإيواء والنصرة ، وأن يمنعوه ﷺ عما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ، لا على التطهير من هذه الموبقات الست التى ينتظمها هذا الحديث ، كما ظن كثير من المحدثين وأهل السير ، وإنما كانت المبايعة التى فى الحديث هنا بعد فتح مكة ، وبعد أن نزلت آية الممتحنة : « يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك » فبايع النبى ﷺ النساء ثم بايع الرجال . ومرجع الالتباس على من ذهب إلى أن هذه البيعة كانت فى العقبة قبل الهجرة أن عبادة بايع البيعتين جميعا ، إلى غيرهما من المبايعات ، وكانت بيعة العقبة من أجل ما يتمدح به ، ولذا أشار إليها البخارى فى هذا الحديث ، وكان يذكرها عبادة تنويها بما من الله عليه ، فلما أشير إليها فى مقدمة البيعة التى هنا ، وهى على مثل بيعة النساء ، توهم من لم يقف على جلية الأمر أن بيعة العقبة وبيعة الفتح سواء .

* * *

وإذا كان عبادة راوى هذا الحديث واحداً من المتخرجين فى مدرسة الطهر والتطهير والتحرر والتحرير ، فحق علينا أن نأتى على بعض صفاته وأخباره ؛ لنتبين كيف تربى المدرسة الطاهرة أبناءها ؟ وكيف تؤتى الشجرة الطيبة أكلها كل حين بإذن ربها ؟!

آتى الله عبادة رضى الله عنه بسطة فى العلم والجسم ، والقوة والشجاعة والصلابة فى دين الله عز وجل ، ومن أجل ذلك كان يجله الفاروق رضى الله عنه ويكرمه ، حتى بلغ من إجلاله إياه أن قال له على أثر مقدَمه من الشام لنزاع بينه وبين معاوية : إرجع إلى مكانك ، فقبح الله أرضاً لست فيها ولا أمثالك ، وكتب إلى معاوية : لا إمرة لك على عبادة . ومن إجلاله إياه أنه أمد عمرو بن العاص بأربعة آلاف فى فتح مصر ، فلما أبطأ عليه الفتح أمده بأربعة آلاف أخرى ، وأمر على كل ألف واحداً من أربعة : عبادة ، والزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، ومَسلمة بن مخلّد ، وكتب إليه : قد أنفذت إليك أربعة آلاف على كل

ألف منهم رجل مقام ألف ، فصار معك اثنا عشر ألفا ، ولا تغلب اثنا عشر ألفاً من قلة [1] .

وشهد رضي الله عنه بعد بدر أحدا ، وبيعة الرضوان ، والمشاهد كلها .

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامع

* * *

عاهد النبي ﷺ صحابته وأمته - أول ما عاهد - على التطهير من رجس الشرك في كل صورة من صوره ؛ لأنه منبع كل بلاء ، وموطن كل داء ، لا يرفع معه إلى الله عمل ، ولا يزكو في أرضه نبت ، والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا ، وقد اتفقت رسالات الله كلها على أن الشرك أكبر الكبائر ، وأشد الموبقات ، وأعظم الظلم ؛ لأنه جحود للرب ، وإهدار للعقل ، وإمعان في كفر النعم والمنعم ، واستحباب للعمى والضلال المبين .

وعاهدهم على التطهير من السرقة ، قليلها وكثيرها ، ولعن السارق ، لأنه يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده [2] والسرقة كسب خبيث غير مشروع ، مضيعة للشرف والمروءة ، مجلبة للخزي والعار ، مزرعة للبطالة والدناءة والكسل ، موجبة للعنة والنكال في الدنيا والآخرة .

وعاهدهم على ألا يقربوا الزنى : « إنه كان فاحشة وساء سبيلا » . وكان فاشيا في الجاهلية على أنحاء شتى . وهو أعظم الجرائم هتكا للأعراض ، ونشرا للأمراض ، وهدما للبيوت والأسر ، وقتلا للأحساب والأنساب ، وخيانة للأمانات ، ومقتا عند الله والناس !

وكانوا يقتلون أولادهم خشية الفقر أو العار ، وشاع فيهم وأد البنات إسرافا في الكراهية لهن دون ذنب جنينه . والوأد هو قذف البنت في حفرة أعدت لدفنها بالحياة . وفي هذه الجريمة الشنعاء يقول تبارك وتعالى : تبكيتا لصاحبها « وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت » جريمة تقشعر من ذكرها الأبدان . وتشيب من هولها الولدان ، وتصف أفظع صورة لقسوة الإنسان !! وهي بعد ذلك قطيعة للرحم ، وعدوان على المخلوق الضعيف الذي لا يملك أن يدفع عن نفسه شيئا ، واتهام للخلاق الرازق ذي القوة المتين ، من بيده مفاتيح الرزق وخزائن السموات والأرض - بأنه عاجز عما تكفل به !! واجتماع هذه الجرائم البشعة

---

[1] ليس عجبا أن يعد الواحد منهم ألفا بالقول ، فباب المجاز واسع ، وإنما عده ألفا بالحساب والفعل وبناء الحكم المنطق .

(2) لأن سرقة ما لا قطع فيه تجري على ما فيه القطع . ومنهم من أخذ بظاهر الحديث فجعل القليل والكثير سواء في إقامة الحد .

فى قتل الولد هو سر التخصيص فى النهى وإن كان القتل كله منكرا، ولكن كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، ونظير هذا الزنى بحليلة الجار، ونكاح امرأة الأب، وكلاهما إلى الفاحشة قطيعة وسوء أدب، وهذا هو سر إضافة «المقت» فى قوله تبارك أسماؤه «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا» وفى الصحيحين وغيرهما عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قلت يا نبى الله: أى الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله ندا وهو خلقك، قلت ثم أىّ؟ قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أى؟ قال أن تزانى حليلة جارك.

* * *

وإتيان البهتان هو اختلاق الزور والكذب الذى يبهت من يرمى به ويدهشه لشدة هوله وفظاعته! وخص الأيدى والأرجل بالذكر، لأنهما الأداة فى معظم الأفعال، إذ هما العوامل أو الحوامل للمباشرة والسعى، وقد يعاقب الشخص بجريمة قولية فيقال هذا بما كسبت يداك وإن كان الكاسب هو اللسان، وقيل كنى عن الذات بالأيدى والأرجل لأنها بينهما، فالمعنى لا تأتوا ببهتان تنشئونه من قبل أنفسكم، أو من قبل ضمائركم وقلوبكم.

وأظهر ما يكون البهتان فى نساء الجاهلية، وكانت إحداهن تلتقط المولود وتقول للرجل هذا ولدى منك زورا وإفكا! ومن هنا استدل بعض المحققين على سبق بيعة النساء، وسوق بيعة الرجال على منهاجها.

ثم يختم النبى ﷺ مبايعته بالوصية البليغة الجامعة، التى تنهى عن كل قبيح ذكر أو لم يذكر، كما تتضمن الأمر بكل حسن جميل من مكارم الأخلاق التى بعث لإتمامها صلوات الله وسلامه عليه.

والتقييد بالمعروف مع أنه صلوات الله عليه لا يأمر إلا به، لتنبيه أمته على أنه لا طاعة لمخلوق وإن عظم فى معصية الخالق جل وعلا، وفى هذا أبلغ رد على من زعم أن طاعة أولى الأمر واجبة من غير قيد ولا شرط.

وبعد أن وفى رسول الله ﷺ هذه الأمور الست التى عاهدهم عليها، بين لهم أن الناس فيها فرق ثلاث. فرقة توفى بعهد الله إذا عاهدت فجزاؤها إلى الله عز وجل، ونعما هو، وفرقة تقصر ثم تطهر، وفرقة إلى الله أمرها، وفى عليه عاقبتها.

وإذا ضاق المقام عن بيان هذه الفرق فوعدنا الجزء الآتى بعون الله ومشيئته.

طه محمد الساكت

أزمة الفقه الإسلامي

١ — شجعني تقبل كلمتي الماضية في هذه المجلة : « طريق الإفادة من الفقه الإسلامي » بقبول حسن ، من المعنيين بحق بما فيه صلاح الأزهر وإقداره على أداء رسالته ، ومن الذين يعنون بما فيه الخير للعالم الإسلامي بعامة ، على أن أتقدم بكلمة أخرى في هذا الشأن ، كلمة أخرى فيها الصراحة الواجبة في معالجة مشاكلنا وإن آلم هذا بعض الناس :

إن صاحب هذا القلم الضعيف ظل سنوات طويلة يكتب في إصلاح الأزهر ، وفيما يتصل من قرب أو بعد بالشئون الإسلامية العامة ، وهو يائس من أن يكون لما يكتب أثر أو صدى قوي لدى أولي الأمر وبخاصة في الأزهر . ذلك ، بأننا كنا في عهد استشرى فيه الفساد وعم جميع مرافق الأمة ، فلم يكن يلق المؤمن بما يكتب سمعاً ولا تقديراً من القائمين على الحكم وتصريف شئون الأمة .

والآن ، وقد انبلج في هذا العهد الحاضر المبارك فجر جديد قوي نوره حتى صار ضوءاً نسير في الإصلاح على هداه ، وصار ناراً تحرق الفساد والمفسدين ، صار من الواجب أن نكتب وندلي بما نؤمن به من آراء ، وأن نكتب بقوة في سبيل الإصلاح . وبخاصة ونحن نرى أن الثورة التي نعيش الآن في نعمتها لم تمس حتى الآن بعصاها السحرية الأزهر ، فتخرجه عن الطريق الذي ظل فيه دهراً طويلاً إلى الطريق الذي يجب أن يسلكه إن أراد الخير لنفسه وللعالم الإسلامي كله .

٢ — وبعد هذا ، ماذا نريد أن نقول ؟ نريد أن نقول إن الفقه الإسلامي في أزمة حادة عنيفة منذ زمن بعيد ، زمن يقدر بالمئات من الأعوام ، وقد اشتدت هذه الأزمة حتى أصبحنا لا نحس بها ونلتمس السبيل للخروج منها ، وحتى تناسيناها واستنمنا إلى ما نحن فيه ورضينا به .

ولكن هذه الأزمة أخذت تنفرج ، أو على الأقل أصبحنا نلمح في الأفق بوادر

انفراجها . فقد أحسسنا بها ، ومتى أحس المريض بمرضه يأخذ طبعاً فى الطبِّ له وعلاجه حتى يبرأ منه ويعود صحيحاً سليم الجسم . وكان من بوادر قرب انفراج هذه الأزمة ، أن صار إحياء هذا « الفقه الإسلامى » كما نعرفه من كتاب الله وسنة رسوله ، ثم الدعوة فى إلحاح من سائر الأقطار الإسلامية ، قضية عامة ومشكلة تشغل الدولة والمصلحين المسلمين ، وذلك لتبشرى أمارة قاطعة على أننا صحونا حقاً بعد نوم طويل .

٣ — وكل « أزمة » فى أية ناحية من نواحى العلم والحياة ، لها بلا ريب أسبابها وأعراضها وعلاجها ، وهكذا نجد « لأزمة الفقه » ما نجد لأية أزمة أخرى : نعنى الأسباب التى أحدثتها ، والأعراض التى عرفناها منها ، ثم العلاج الذى به يكون البُرْء أو الشفاء والتخلص منها .

وإذا كانت أعراض المرض تظهر أولا للعين المشاهدة الملاحظة ، ثم يجىء الطبيب للفحص عن أسبابه ، فإن علينا أن نتعرف أولا أعراض الأزمة التى يمر بها فقه الإسلام . إن أعراض هذه الأزمة ترجع فى جماعها إلى أمرين :

١ — الانصراف عن هذا الفقه شيئاً فشيئاً حتى أطرحناه جملة فى تشريعاتنا وقوانيننا الحديثة ، وكان ذلك منذ زمن بعيد يرجع إلى ما قبل إنشاء المحاكم الأهلية ، إذ عمد رجال القانون عندنا إلى الأخذ عن القوانين الغربية وبخاصة القانون الفرنسى اللاتينى .

٢ — استنكار كثير من الناس ، وبخاصة أولى الأمر ورجال القانون الصيحات التى أخذت تتجاوب فى أنحاء العالم الإسلامى ، والتى تنادى بوجوب الرجوع للشريعة الإسلامية فى تشريعاتنا الحديثة ، وكان من أثر هذا الاستنكار ، أن عمد الداعون للفقه الإسلامى إلى الاستشهاد بآراء علماء القانون فى الغرب فى صلاحية الفقه الإسلامى للتطور وأن يكون من مصادر التشريع الحديث . وهذا الاستشهاد نفسه أمارة على استشراء الداء واشتداد الأزمة ، حتى نحتاج فى تقوية ثقتنا بأنفسنا وتشريعاتنا الأصيلة إلى الاستنجاد بأقوال الأجانب عنا !

٤ — وبعد أن عرفنا أعراض هذه الأزمة الخطيرة ، لابد أن نحاول تعرف الأسباب التى أدت إليها ، ليكون من الميسور بعد ذلك الأخذ فى علاجها بما يستأصل هذه الأسباب ، فيعود لفقه الإسلام مكانته الملحوظة بين التشريعات والقوانين العالمية ، وليتأتى له أن يسهم بأوفر نصيب فى تقدم الدراسات الفقهية فى العالم كله لخير الإنسانية عامة .

والكلام فى هذه الأسباب طويل ، ويتشعب هنا وهناك ، ولكنها ترجع فى رأينا إلى إهمال القائمين على دراسة وتدريس الفقه فى الأزهر إهمالا شنيعاً للدراسة التاريخية والدراسة المقارنة . وهذا ما تكلمنا عنه بإجمال فى الكلمة الماضية ، ونود فى هذه الكلمة أن نتناوله بشىء من التفصيل .

٥ — إن الدراسة العلمية الحديثة للفقه أو القانون وغيره من ضروب العلم المختلفة ، تميز باتجاهين خطيرين : الاتجاه أو البحث التاريخى ، والبحث المقارن ، وقد كان الأمر قبل ذلك مقصوراً ، إذا اكتفينا فى كلامنا الآن على القانون ، على أن تدرس كل أمة نظمها القانونية لمعرفة أحكامها وتطبيقاتها على الحوادث والحالات الفردية الموجودة ، ولا تتعدى ذلك إلى دراستها التاريخية لمعرفة نشأتها وتطورها ، ووسائل هذا التطور .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان علماء القانون فى أمة من الأمم يتناولون بالدراسة نظمها القانونية وحدها ، ولا يعدون بحوثهم إلى دراسة مثيلاتها فى الأمم الأخرى غافلين عن قيمة الدراسة المقارنة وخطرها ، هذه الدراسة التى تعرف أن أى ضرب من ضروب المعرفة فى أمة ما ، ليس إلا جزءاً من كلٍّ : هو المعرفة الإنسانية العامة التى تسهم فيها الأمم كلها بنصيب قليل أو كثير .

٦ — ولما اتصل العالم والشعوب بعضها ببعض ، اتجه العلماء فى دراساتهم إلى التاريخية والمقارنة ، ومن ذلك عرفوا أن الشعوب تتشابه إلى مدى بعيد فى ظروف نشأتها وتطورها وفى وسائل معالجتها وتنظيمها لشئونها وأحوالها الاجتماعية ، وقد عرفوا ذلك كله من الدراسة التاريخية .

كما عرفوا من الدراسة المقارنة مقدار ما بين الأمم من تشابه ، بل تماثل فى نواح عدة ، فى تقاليدها وأنظمتها القانونية ، وأن بعضها أفاد من بعض فى هذا السبيل . وكان من أثر هذه الدراسة المقارنة ، أن ظهرت أصالة بعض الشرائع بالنسبة للبعض الآخر ، فكان لتلك فضلها غير المنكور .

٧ — وقد أتى على الشريعة الإسلامية حين طويل من الدهر كان الفقه يدرس فيه دراسة قيمة لا ينقصها البحث المقارن بين مذاهبه العديدة ، ما خلد منه حتى الآن وما اندرس بفعل الزمن ، وفى هذه الفترة المجيدة ، التى كان الجهل والظلام يسودان فيها على العالم الغربى ، وضع علماء الفقه الأصلاء الأجلاء نظمه وقواعده التى تتسع لكل ما جد ويجد

من النوازل والحوادث ، وهذا بفضل ما قامت عليه هذه النظم والقواعد من أصول قوية ومرنة تسمح بتطور الفقه حسب الزمان والمكان ، مع بقائه دائماً يسير فى فلك كتاب الله وسنة رسوله .

ولكن هذه الفترة يطويها الزمن الذى لا تنقطع عجلته عن الدوران ، وتتوالى السنون والأعوام ، وإذا بفقهاء المسلمين يفقدون الحيوية والأصالة ، وإذا بهم يجمدون على ما وصل إليهم من تراث فلا يعملون على تنميته ، بل ولا على تجليته وعرضه للناس عرضاً طيباً ، وإذا بالفقه الإسلامى لا يعيش إلا بين جدران الأزهر لا يحس بالعالم ولا يحس العالم به ، وإذا بعلماء القانون الوضعى يولون وجوههم شطر أمم غريبة عنا بنظمها وتقاليدها وعاداتها فيأخذون عنها لنا ، يأخذون عن هذه الأمم لنا نحن المسلمين الأغنياء بتراثنا الفقهى لو عرفنا الإفادة منـــه .

٨ — فإذا ما أنشئت « كليات » ، منها كلية الشريعة التى تقوم على دراسة الفقه وعلومه وأدواته ، قلنا الآن بدأ الأزهر يفيق من غفلته ويستيقظ من نومه ، وقلنا وقال الناس معناً الآن يبدأ الفقه الإسلامى استعادة حيويته وأصالته ، والآن سيكون لنا من خريجى قسم تخصص المادة أو الأستاذية ثروة فى الفقه تظهر الناس على خصائصه التى تميزه عن سائر القوانين والشرائع ، ثم بعد قليل سيكون للقارئين بالعربية بحوث أصيلة مقارنة تكره رجال القانون من المصريين وغيرهم من الغربيين على الاعتراف لفقه الإسلام بمكانته ، ثم يكون من أثر ذلك الاتجاه الرسمى الجاد إلى الإفادة منه فى تشريعاتنا وقوانيننا الحديثة حتى يكون أخيراً هو المصدر الأول لتلك القوانين.

ولم نكن مسرفين فى الأمل ، ولا متجاوزين حد الممكن بل الميسور فيما رجوناه ؛ فإن خريجى أقسام تخصص المادة أو الأستاذية نشأوا فى ظروف غير ظروف شيوخهم الأجلاء ، وأعدوا لزمان غير زمانهم ، والمفروض أنهم حذقوا من أساليب البحث ما لم يحذقه أساتذتهم ، فليس كثيراً عليهم إذاً أن يحققوا ما رجوناه وانتظرناه منهم . ولكن ، والأمر مؤسف مؤلم ، لم نر شيئاً ذا غناء تحقق من هذا الذى رجوناه منهم . فلماذا ؟ وعلى من تقع التبعة ؟

٩ — إنى أرى أن التبعة فى ذلك لا تقع عليهم وحدهم ، بل ربما كان نصيبهم منها

ضئيلا ، ولكن أكبر جانب من هذه المسئولية تقع على عاتق المسئولين عن الأزهر بعامة ، وعن كلية الشريعة بخاصة [١] ، وذلك لأمور :

(١) ان لخريجى هؤلاء المتخصصين رسائل نالوا بها درجاتهم العلمية . فأين هذه الرسائل ؟ إن أكثرها لايزال مخطوطاً لم ير نور الشمس ، ولا أعرف فى الفقه رسالة مطبوعة إلا رسالة واحدة عن « العرف والعادة فى رأى الفقهاء » ، وهى رسالة تنم عن بحث جيد وعرض طيب ووصل صاحبها الفاضل إلى نتائج محمودة لها أثرها . وكان من الفرض على الكلية أن تعمل على نشر سائر الرسائل ، فإن هذا واجب عليها بلا ريب ؛ ليعرف رجال القانون أن الأزهر قد تغير وتطور فى البحث ، وعزم على المشاركة فى تقدم الدراسات الفقهية .

(٢) ان كثرة هؤلاء المتخصصين ، إن لم نقل إنهم جميعاً ، ظنوا خطأ أنهم بنيلهم الدرجات العلمية بعد رسائلهم التى تقدموا بها قد عملوا كل الواجب عليهم . وكان من هذا أن أعفوا أنفسهم من البحث والإنتاج ، على حين أن درجة الدكتوراه نفسها من جامعة من الجامعات لا تعتبر إلا جوازاً للوصول إلى التدريس فى كلية من الكليات . ثم على صاحبها بعد ذلك أن يأخذ نفسه بالبحث والإنتاج فيما تخصص فيه ، إلى درجة أنه ليس له أن يتشوف إلى ترقية فى كليته إلا جزاء إنتاج جديد .

(٣) ومن المعروف أن المقرر دراسته من الفقه أو الأصول فى فرقة من فرق كلية الشريعة لا يتسع عام واحد بل أكثر من عام لدراسته واستيعابه ، وهنا يجد المدرس المجال فسيحاً أمامه لاختيار موضوع من موضوعات المقرر لدراسته فى هذا العام ، ثم يختار آخر لدراسته فى العام التالى فى الفرقة نفسها ، وهكذا حتى يتم دراسة جميع المقرر دراسة جادة عميقة ، وعليه أن يذيع بحثه لكل موضوع مطبوعاً يقرأه الناس ويفيدون منه . ولكن الأمر يسير فى كلية الشريعة ، وغيرها من كليات الأزهر ، على غير هذا المنهاج المستقيم ، وتسير الترقيات للمدرسين على قاعدة مرور الزمن وحدها ، بلا نظر إلى الكفايات والإنتاج العلمى الأصيل . وبذلك تعظم الخسارة ويطول نوم الأزهر ، ونظل نحن الأزهريين نعيش على هامش الحياة ، وتظل الصلة منقطعة أو تكاد بين الفقه الإسلامى والقوانين الأخرى وربما لها .

---

(١) إنى اتكلم هنا عن الفقه وحده ، ولذلك خصصت بالحديث عن المسئولية كلية الشريعة ، والأمر كذلك فى الكليتين الأخريين فيما يختص بكل منهما .

١٠ — وأخيراً ، كان من قدر الله الرحيم بالإسلام وتراثه العلمي أن اتصل الغرب بالشرق ، وكان علماء الغرب الطائفة التي نعرفها باسم « المستشرقين » ، وهذه الطائفة تقاسمت التراث الإسلامي فيما بينها ، فكان منهم من توفر على الجانب الفقهي منه . ثم كان من ازدياد الصلة بين الغرب والشرق ما جعل الجامعة ترسل كثيراً من أبنائها لجامعات أوروبا ، وكان من هذه البعوث كلية الحقوق ، وكان من هؤلاء من كتبوا رسائلهم في موضوعات فقهية إسلامية أو موضوعات تتصل بالفقه الإسلامي من قرب ؛ فعرف كثير من رجال القانون في الغرب جانبا غير قليل من فقه الإسلام ، وعرفوا له بسبب ذلك قيمته السامية بين سائر القوانين [1] .

وهنا ، كما يقول الأستاذ الكبير علي بدوي [2] ، نكاد نلمس الوسيلة السامية الفعالة للكشف عن أسرار الشريعة الإسلامية ، وإبراز مبادئها في ثوبها العصري ، ووضعها في المستوى الجدير بها بين الشرائع الأخرى . تلك الوسيلة التي يجب أن تتوفر وأن تقوى في البيئة العلمية الإسلامية على وجه عام ، والتي يجب أن نعمل على توفرها وتقويتها في البيئة العلمية المصرية على وجه خاص ؛ وهي تفقه رجال القانون في علوم الشرع الإسلامي من جانب ، ووقوف علماء الشريعة على مبادئ القانون المصري وأساليب بحثه من جانب آخر . فإذا تم تبادل الثقافتين الدينية والمدنية ، وامتزاج العقليتين الشرعية والقانونية ، جاءت الجهود متضامنة والمعونة مزدوجة ، وقامت الصلة بين الشريعة والقانون ، وأخذ الفقه الإسلامي مكانه في العلم الحديث .

الدكتور محمد يوسف موسى
أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة

---

(١) وهنا نشير أيضا إلى الأثر الطيب الذي أحدثه اتجاه كثير من طلاب الدكتوراه في كلية الحقوق بمصر إلى رسائلهم في موضوعات فقهية إسلامية ، فحصلت الصلة المباشرة بين رجال القانون وبين الفقه الإسلامي ، وهي صلة تزدهر ونتوقع أن تزيد كثيراً .

(٢) ص ٧ من كتابه : أبحاث التاريخ العام للقانون ، الجزء الأول .



لقد علمت في الكلية الشرعية في دمشق ، والكلية الشرعية في بيروت ، والكلية الشرعية في بغداد ، منذ أكثر من خمس عشرة سنة ، وكلها قد أنشىء على غرار معاهد الأزهر وكلياته وكلها يتبع مناهج قريبة من مناهجه — فكنت أعجب من القائمين عليها كيف يهملون (علم التوحيد) . ويسمون باسمه ، ويقيمون مقامه (شيئاً) هو أبعد عن التوحيد ، من الأرض عن السماء ، مع أن التوحيد من الدين ، بمقام الروح من الجسد ، وأنه أول أغراض الرسل جميعاً — وأعظم مقاصد القرآن ، ولأجله بعث الأنبياء ، وشرعت الديانات .

والذى يقرأ اليوم على أنه توحيد مما اشتملت عليه العقيدة النسفية وأمثالها (ولا أستثنى من ذلك رسالة الشيخ محمد عبده) لا يكاد يقوي عقيدة ، ولا يثبت إيماناً ، ولا يبعث في النفس خشية الله ، ودوام مراقبته ، ولا يدفع إلى إخلاص في عبادة ، ولا يذيق صاحبه حلاوة الإيمان . يخاطب العقل بالمنطق ، وكان من حقه أن يخاطب القلب بالشعور ، وربما انتهى إلى جدل عقيم لا يلد فائدة ، ولا ينتج نفعاً ، وأعجب ما فيه رواية شبه أقوام انقرضوا ، وتلقين الطالب ضلالاتهم (وكفرياتهم) التى لم يبق اليوم أحد على ظهر الأرض يعرفها أو يقول بها .

ولقد كان المسلمون الأولون ، وهم أئمة الدين ، وصفوة المؤمنين ، لا يعرفون من علم التوحيد ، إلا الآيات التى أنزلها الله فى القرآن ، أقبلوا عليها تلاوة خاشعة ، وعلماً وفهماً ، فأعطاهم الله بها إيماناً ثابتاً ظهر فى كل حركة من حركاتهم ، وسكنة من سكناتهم ، وكانوا يعلمون أن للإيمان شعباً تجمع مطالب الخير والحق كلها ، فكانوا متمسكين بشعبه جميعاً [1] من تنزيه الله عن الشريك ، وإخلاص العبادة والدعاء له ، وابتغاء الخير منه ، والاستعانة (فيما وراء الأسباب) به وحده ، إلى ما يبدو أنه أيسر أعمال الخير وهو إماطة الأذى عن الطريق . وكانوا لا يأتون المحرمات ، لأنه (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن) ولا يشرب الخمر شاربها وهو مؤمن ، وكيف يزنى وهو (مؤمن) بأن الله مطلع عليه ، وناظر إليه ؟

[١] أحسن مرجع فى هذا المعنى مقالات الأستاذ الكبير محب الدين الخطيب فى الفتح .

هل يستطيع أن يزنى من يعلم أن أباه أو أستاذه ، قائم فى شباك ينظر إليه ، وكانوا أهل نظافة وطهارة فى ثيابهم ، وأجسادهم ومساكنهم ، وألسنتهم لا يدنسونها بالخنا ، وأعمالهم لا يوسخونها بالغش والرياء والفسوق والعصيان ، لأن (النظافة من الإيمان) .

وكان فى عصرهم مخالفون من كل نحلة ومذهب ، فما ضرهم فى إيمانهم ومناظرتهم لخصومهم أنهم لم يدرسوا علم الكلام ، ولم يعرفوا منطق أرسطو ولم يقرءوا الفلسفة ولا ما يشبه الفلسفة ، وما احتاجوا أن يسلكوا فى جدال هؤلاء المخالفين والرد عليهم غير مسلك القرآن .

ومر على ذلك القرن الأول ، وهو خير القرون ، وشيء من الثانى ، ثم نجمت فى الأمة طائفة المتكلمين من المعتزلة ، وقد أجمعت كلمة العلماء فى عصر نشأتهم على إنكار بدعتهم ، وتقبيح نحلتهم على ما كان لهم من إخلاص فى نية الذب عن الإسلام ، وثبات فى مواقف الدفاع ، ونصر بصناعة الجدل ، وما كان لهم من سعة علم وحدة نظر ، وروعة بيان .

واتفق أن إماماً من أئمتهم ، ولساناً من لسنهم ، ترك الاعتزال ورجع إلى الجماعة ، ولكنه حمل معه تفكيره وأسلوبه وطريقته ، وهو أبو الحسن الأشعرى ، فلم تتحول هذه الطريقة حتى تصير سلفية قرآنية ، ولكن تحولت طريقة السلف به فصارت منطقية عقلية ، وانخلع بذلك التوحيد الذى كان مصدره ومرده ، إلى آيات القرآن لا يعرف غيرها ، ولا يعتمد إلا عليها ، ونشأ علم الكلام ، الذى يعتمد على منطق أرسطو .

والغريب أن هذا العلم الذى نسميه خطأ بـ (علم التوحيد) وندرسه فى مدارس الدين ونشغل به الطلاب ، ونأخذه على أنه طاعة من الطاعات ، وقربة من القربات قد كرهه علماء الملة وأئمة الاسلام ، ولما وصل المصرى الذى أرسله ابن العاص إلى عمـــر بن الخطاب ووجده يتكلم فى شيء يشبه علم الكلام اليوم بسؤاله عن معنى الاستواء وأمثال ذلك من المتشابه ضربه ونفاه وأمر الناس بمقاطعته ، مع أن ما ضربه لأجله هو ما تمتلىء به كتب علم الكلام الذى نسميه علم التوحيد .

ومالك لما سئل عن ذلك عد السؤال بدعة ، وجوابه مشهور معروف ، ونهى أبو حنيفة ابنه عن مناظرة رجل كان يناظره فى القدر وأمره ألا يعود ، ومنع أصحابه من الصلاة خلف رجل كان يتكلم فى خلق القرآن وآخر كان يرد عليه ، فقيل له الأول ينكر قدم القرآن ، فما بال الآخر ؟ قال : ينازع فى الدين ، والنزاع فى الدين بدعة ، وروى عنه النهى عن الصلاة خلف أصحاب الكلام ، وقال الشافعى : حكمى فى أهل الكلام أن يضربوا

بالجريد والنعال ويطاف بهم فى العشائر والقبائل ، ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على كلام أهل البدعة ، ونقل عنه أنه قال : « لأن يلقى العبد الله بكل ذنب خلا الشرك خير له من أن يلقاه بعلم الكلام . وقال : إذا سمعتم الرجل يقول الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهدوا أنه من أهل الكلام » .

وقال أحمد بن حنبل : علماء الكلام زنادقة . وقال : لا يصلح صاحب الكلام أبداً .

* * *

وقد يقول قائل : إن هذا كله فيمن جاء بما يخالف نصوص القرآن وظواهره من المعتزلة وأشباههم . فما يقول هذا القائل فيما روى عن جماعة نعدهم اليوم من أكابر علماء أهل السنة والجماعة ، مارسوا علم الكلام حتى صاروا الأئمة فيه ، وصرنا نأخذ عنهم أكثر ما نملأ به كتبنا التى ندرسها فى معاهدنا وكلياتنا ، ثم ندموا واستغفروا ، وتابوا وأنابوا ، أولهم الأشعرى ذكر فى كتاب (الإبانة) وهو آخر كتاب ألفه ، أنه رجع فى عقائده إلى مذهب أحمد بن حنبل [1] ، ورجع الغزالى إلى مذهب السلف ، ذكر ذلك فى كتابه (إلجام العوام) وأعرض عن تلك الطرق جملة حتى مات والبخارى على صدره [2] والرازى قال :

ولقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفى عليلا ، ولا تروى غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريق القرآن . اقرأ فى الآيات « الرحمن على العرش استوى » و « إليه يصعد الكلم الطيب » واقرأ فى النفى « ليس كمثله شىء » ، « ولا يحيطون بشىء من علمه » إلى أن قال : ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل تجربتى .

وهو القائل :

نهاية إقدام العقول عقال ... وغاية سعى العالمين ضلال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

والشهرستانى يقول فى الفلاسفة والمتكلمين :

---

[1] التعليم والإرشاد للحلبى ص ١٧٠ طبع مصر ١٩٠٦ . [2] شرح الفقه الأكبر لملا على القارى ص ٥ طبع مصر ١٣٢٣ .

لعمرى لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفى بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادم

وأبو المعالى الجوينى قال : يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام . فلو عرفت أن الكلام يبلغ بى إلى ما بلغ ما اشتغلت به . وقال عند موته : لقد خضت البحر الخضم ، وخليت أهل الإسلام وعلومهم ، ودخلت فى الذين نهونى عنه . والآن إن لم يتداركنى ربى برحمته فالويل لابن الجوينى .

إلى أن قال — وهأنذا أموت على عقيدة عجائز أهل نيسابور .

وقال الخسروشاهى وهو من أجل تلاميذ الفخر الرازى لبعض الفضلاء : ما تعتقد ؟ قال : ما يعتقده المسلمون . قال : وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به ؟ قال : نعم . قال : أحمد الله على هذه النعمة . فإنى والله ما أدرى ما أعتقد . وبكى حتى اخضلت لحيته .

وقال الخونجى عند موته : ما عرفت شيئا مما حصلته سوى أن الممكن مفتقر إلى المرجح . ثم قال : الافتقار وصف سلبى . أموت وما عرفت شيئا .

وقال آخر : أضطجع على فراشى وأضع الملحفة على وجهى ، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر ولم يترجح عندى شىء منها .

فأين بعد هؤلاء ؟ وهؤلاء هم أعلام الكلام فى الإسلام ؟

• • •

هذا هو علم الكلام الذى نشتغل به اليوم ، تشتغل بالصفات وهل هى عين الماهية أو شىء زائد عنها . والأعراض وهل تبقى زمانين ، والطفرة والاستطاعة وخلق القرآن وأشياء أخر قرأتها من قديم ونسيتها ولله الحمد ، وليس بعض من يسمون أنفسهم بالسلفيين على خير من هذه الحال ، فهم يشتغلون بالمتشابه الذى ضرب عليه إمام السلف الصالح عمر بن الخطاب ، ولا دأب لهم إلا الكلام فى اليد والوجه والاستواء ينكرون التأويل وهو من سنن العرب فى كلامها ، والقرآن أنزل بلسان العرب ، ولا يعرفون كيف يخرجون عما أدخلوا نفوسهم فيه من هذه المضايق ، فيقع الجهلة منهم بالتجسيم وهم لا يدرون ،

ويأتون على ادعائهم السلفية بما لم يعرفه السلف من مثل قولهم : الله بائن من خلقه . وإلزامهم صغار الطلبة والمبتدئين بحفظ ذلك واعتقاده .

فهل هذا هو التوحيد الذى بعث الله به محمداً ؟ هل هذا هو الطريق الذى سلكه النبي ﷺ فى الدعوة إلى الله؟ أ مبتدعون نحن أم متبعون ؟ ومصلحون نحن أم مفسدون ؟

إنى أرجو من أستاذنا وصديقنا العلامة الأديب المصلح السيد الخضر ، شيخ الإسلام علما ومنصبا أن يأمر بتعديل المناهج وإلغاء هذه الكتب جملة واحدة . وأن يجعل علم التوحيد مقصورا على إفهام الطلاب آيات التوحيد فى القرآن ، على إفهامها ولم أقل على تفسيرها ، لئلا يدخل من باب التفسير شيء مما فى تفسير الفخر وأمثاله وأن يتولى ذلك مدرس حاضر القلب ، قوى الإيمان ، من المسلمين الصادقين ، والعلماء العاملين ، يعلم بفعاله أكثر مما يعلم بمقاله ، ويصلح بصلاح نفسه أكثر مما يصلح بنجاح درسه ، وأن يكون المنهج منهج الرسول فى تلقين التوحيد لمن كان يفد عليه من الكفار ، يقيمون اليوم أو الأيام ، ويسمعون الحديث أو الأحاديث ، فينصرفون وهم مؤمنون ، وهم عارفون بالإسلام ، وهم دعاة إلى الله ، وما تعلموا منطق أرسطو ، ولا ناقشوا فى رؤية الله فى الآخرة ، ولا لقنوا أنه بائن من خلقه !

وأن يتفرغ بعد ذلك بعض كبار الطلبة لدراسة علم الكلام الذى ينبغي أن يوضع من جديد ، العلم الذى يرد على الخصوم الأحياء من الشيوعيين والقوميين الملحدين والقاديانية والأحمدية والبهائية والتيجانية ، يدرس مقالاتهم المنادية للإسلام ، ويبين ضعفها وفسادها ، ولا يشتغل إلا بالشبه الدائمة المنتشرة وإلا كان عوننا للعدو علينا ، ومذيعا لضلالاتهم فينا ، وينبغي أن تعين الطوائف التى يجب الرد عليها فى مطلع كل سنة مدرسية . وأن يترك الرد على الجهمية والمعطلة والمشبهة وما لا أذكره الآن من ألقاب الخالفين — إلى الأبد !

وبذلك نكون قد دعونا إلى الإيمان ، ودافعنا عن الإسلام .

على الطنطاوى

قاضى دمشق

خير نظام للحكم

حديث لفضيلة الأستاذ الأكبر

كتب مندوب « الأهرام » يقول :

أثيرت فى الأيام الأخيرة بحوث حول نظام الحكم ، كيف يكون ، وعلى أى وضع يقوم؟ والحق أن هذا الموضوع من الدقة والخطورة بحيث يصح أن يستأثر بشىء كبير من عناية الباحثين . وقد كانت فرصة طيبة تلك التى أتيحت لى فى مساء أمس ، إذ التقيت بفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، وتحدثت إلى فضيلته فى هذا الموضوع الحيوى ، وكان الأستاذ الأكبر صريحاً على عادته فتحدث إلى يقول :

تجتاز مصر فى أيامها التاريخية الحاضرة أعظم انقلاب اجتماعى مر بها منذ قرون ، لأنه الانقلاب الوحيد الذى ينشد لمصر النظام لتتمكن من الاستقرار عليه والاستمرار فيه إلى الأبد .

ومما يلاحظ فى هذا الموقف أن التطورات الماضية لم تكن نتيجة طبيعية للوعى القومى ، ولذلك كان الوطن يفاجأ بها مفاجأة ، وكان نظام الحكم الذى يترتب على تلك المفاجآت يفرض على البلاد فرضاً ، إما من استعمار قاهر ، أو من مستبد متغلب . ولذلك قلما كان يلاحظ فيه حاجة الأمة واقتناعها ، والأساليب التى ترتاح إليها وتعتبرها منتزعة من روحها وذوقها ومن المبادىء التى آمنت بها ، ونشأت عليها ، وترجع بذكرياتها وتقاليدها إلى ما حفظه التاريخ من مفاخرها وأمجادها ، لذلك كان نظام الحكم فى مصر فى العصور الأخيرة بعيداً عن أمنية الاستقرار ، وكان مؤيداً بالقوة القائمة عليه ، لا بالاقتناع به والطمأنينة له والإيمان بصلاحه .

والآن وقد عزمت مصر على أن تختار نظامها بمحض إرادتها ، فمن سعادتها أن يكون نظامها المرتجى منتزعاً من مثلها العليا التى تؤمن بها ، وترتاح إليها ، بوازع من النفس وإيمان من القلب ، لا بوازع من سلطان القوة الصماء ، ونصوص القانون الذى كثيراً ما شكا أقطابه مواطن الضعف فيه .

ولقد أخذ كل عالم بمزايا نظام من الأنظمة الأجنبية يعرض على الرأى العام مزايا ذلك النظام محاولا إقناع الأمة بالأخذ به . إن هذه الأنظمة ـ مع كثرة عيوبها وما يحف بها من مواطن الضعف ـ لا يتعاملون بها مع كل من يتعامل معهم من الشعوب القوية والضعيفة والمشاهد من حالهم أنهم مع الشعوب القوية فى عداء متواصل ، ومع الشعوب الضعيفة فى بغى مخجل ، وما هكذا يكون أصحاب المبادىء الإنسانية السليمة ، والنظم البريئة التى يراد منها سعادة المجتمع فى عصر يفتخر بحضارته وعلومه . فالوصف النظرى الذى نسمعه من فصحائنا وخطبائنا لبعض تلك النظم الأجنبية عنا ، لا نرى آثاره فى البلاد التى اخترعته وعملت به وقلبت جميع الأوجه فى تعديله وترقيعه وتحويره ليفتح لها السعادة ، فكان أملها منه فى السعادة كأمل الظمآن بالسراب ، فكيف بنا ونحن الأجانب عن تلك النظم المخترعة لغيرنا ، ولو حاولنا استعارتها لكانت لنا كما تكون الألبسة التى تستعار للممثلين .

إن الدعاة لتلك الأنظمة قرروا فى مؤلفاتهم وأعلنوا فى صحفهم ، أنها كل لا يتجزأ ، وهم يدعون هذه الأمة إلى أن تأخذ بهذا الكل الذى لا يتجزأ شاءت أو أبت ، والأمة لها نظام فطرى نظيف ينظر إلى الحق من حيث هو حق وإلى الخير من حيث هو خير وتدين لله بقول خاتم رسله : « أيها الناس إنما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » ، وقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى رسالته المشهورة إلى أبى موسى الأشعرى واليه على البصرة : « آس بين الناس فى مجلسك وفى وجهك وقضائك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك » .

هذا النظام الفطرى الذى يقيم الحدود على الكبير والصغير سواء ، لا فرق بين عربى وعجمى إلا بالتقوى ، وحث على استعمال الأصلح ، واختيار الأمثل فالأمثل للولايات العامة والوظائف ، وأوجب على ولى الأمر أن يقلد أعمال المسلمين لمن يجده صالحاً منهم ، فقد قال النبى ﷺ : « من ولى من أمر المسلمين شيئاً . فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله » . وفى رواية أخرى لهذا الحديث : « من قلد رجلا على عصابة وهو يجد فى تلك العصابة أرضى منه ، فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين » .

وقد جاء كذلك عن عمر بن الخطـــاب أنه قال : « من ولى من أمر المسلمين شيئاً ، فولى رجلا لمودة أو قرابة بينهما ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » . ومعنى هذا أن النظام

الذى يكفل المساواة بين جميع الأفراد فى الحقوق والواجبات ، ويجعل من الواجب على كل من ولى شيئاً من أمر المسلمين أن يوجه فى موضع وفى كل عمل من الأعمال أصلح من يقوم به ويؤديه الأداء الصحيح ، فإن عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره ، بسبب قرابة أو صداقة أو موافقة فى بلد أو مذهب أو طريقة ، أو لرشوة يأخذها منه من مال أو منفعة ، أو لضغينة فى قلبه على الأحق ، أو لعداوة بينهما ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين .

وهو النظام الذى يشعر الحاكم والمحكوم بأنهما سواء ، وهذا أبو عبيدة الجراح يضرب لنا أروع الأمثال فى هذا الباب ، فقد فتح بلد حمص ، فجاءوا له بطعام فاخر صنع له خصيصاً فما كان منه إلا أن سأل : أهذا الطعام قد أطعم منه الجيش ؟ فقالوا : كلا ، وإنما هو لك . فقال . ردوه . . . فإنى لا آكل طعاماً لم يأكل الجيش منه !!!

وقد جاء فى الآثار أن بعض خلفاء بنى العباس سأل بعض العلماء أن يحدثه عما أدرك ، فقال أدركت عمر بن عبد العزيز ، فقيل له يا أمير المؤمنين : أقفرت أفواه بنيك من هذا المال وتركتهم فقراء لا شىء لهم . وكان فى مرض موته فقال : يا بنى . . . والله ما منعتكم حقاً هو لكم ولم أكن بالذى آخذ أموال الناس فأدفعها إليكم ، وإنما أنتم أحد رجلين ، إما صالح ، فالله يتولى الصالحين ، وإما غير صالح . فلا أترك له ما يستعين به على معصية الله ، قوموا عنى . . .

هذه هى الأمثال التى تضرب فى معنى العدالة فى ولاية أمور الناس ، وكلها تجمع على أن الإسلام دين إنسانى محض ، وهو نظامنا الذى نؤمن به ، خلافاً للأنظمة الأجنبية عنا ، وإن العمل به ليحول هذه الأمة إلى كتلة فولاذية مؤمنة بنظامها كإيمانها بكعبتها وقرآنها . والأمر أعظم وأخطر من أن ترتجل فيه الخطط والنظم .

ونحن لا ندعو الأمة وأهل الحل والعقد فيها إلا إلى التروى والتفكير والدرس والمقارنة . مع العلم بأن مصر لا تعلم منذ عشرة آلاف سنة إلى الآن حكماً أعدل ولا أرأف ولا أسعد من الحكم الذى بسط جناح رحمته عليها فى المائة السنة الأولى من الفتح الإسلامى ، ودليل عدله ورأفته وسعادته أن مصر باختيار منها تحولت إليه بأرواحها وقلوبها وألسنتها ، فكانت الدرة المتألقة فى تاج الوطن العربى والإسلامى ، ويرجو لها كل محب لها أن تبقى كذلك إن شاء الله إلى ما شاء الله .

نشأة كتب الأمالي وخصائصها

— ٢ —

تحدثنا فى المقال السابق عن معاهد التعلم فى صدر الإسلام والدولة الأموية . والآن لنتحدث عن العصر العباسى وما يليه فنقول :

أما فى العصر العباسى وما يليه من الأعصر فقد استمرت تلك الوسائل ، وزيد عليها معاهد جديدة . وهى :

المدرسة — : فما لاشك فيه أن المدارس من منشئات هذا العصر ، غير أنه بين المؤرخين خلاف فى تحديد الزمن الذى ظهرت فيه .

يقول (زيدان) فى الجزء الثالث من كتابه « تاريخ التمدن الإسلامى » : « وقد أجمع المؤرخون تقريباً على أن أول من بنى المدارس فى الإسلام نظام الملك الطوسى وزير ملك شاه السلطان السلجوقى فى أواسط القرن الخامس الهجرى . ومن الغريب أن ينقضى العصر العباسى ويتم نقل الكتب وينضج العلم على اختلاف موضوعاته ولم ينشىء المسلمون مدرسة ، أو أن ينشئوا المدارس ولا يرد ذكرها فى تاريخهم » .

ثم يقول (زيدان) : « على أننا رأينا فيما ذكره المسلمون عدة مدارس أنشئت فى نيسابور عاصمة خراسان قبل نظام الملك منها مدرسة ابن فورك المتوفى سنة (٤٠٦ هـ) ذكر ذلك ابن خلكان ، والمدرسة البيهقية نسبة إلى البيهقى المتوفى سنة (٤٥٠ هـ) بنيسابور ، والمدرسة السعدية بنيسابور بناها نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود الغزنوى ، ومدرسة بنيت للأستاذ أبى إسحق الاسفراينى . وكل هذه المدارس بنيت قبل بناء المدرسة النظامية ببغداد » .

وهنا نقول لزيدان : إذا كان الأمر كذلك فكيف جاز لك أن تقول « قد أجمع المؤرخون على أن أول من بنى المدارس فى الإسلام نظام الملك » ؟

أما كان الأجدر أن تصاغ العبارة فى أسلوب يقلل من هذا الاجماع أو يردّه أو يصرح بنقده . على أننا نرى أن (زيدان) إنما نقل القول ببناء هذه المدارس عن شيخ الإسلام السبكى ولم يشر اليه مما سنبينه بعد .

والدليل على ذلك العبارة الآتية فهى بنصها مذكورة فى كتاب « طبقات الشافعية الكبرى » للسبكى .

يقول « زيدان » : « ولعل السبب فى اشتهار أسبقية نظام الملك فى إنشاء المدارس الإسلامية أنه أول من بنى مدرسة كبرى فى بغداد وجعل التعليم فيها بالمجان وفرض لتلاميذها الأرزاق » .

ونحن نقول إنما يرجع السبب فى إنشائها إلى استرضاء الشعب بنشر التعليم الدينى وإجراء الأرزاق على الأساتذة والتلاميذ ولتأييد المذهب السنى والقضاء على مذهب الشيعة .

وقد ذكر شيخ الإسلام السبكى « فى طبقات الشافعية الكبرى » فى ترجمة نظام الملك فقال : وشيخنا الذهبى زعم أن نظام الملك هو أول من بنى المدارس ، وليس الأمر كذلك ، فقد كانت المدرسة البيهقية بنيسابور قبل أن يولد نظام الملك ، والمدرسة السعدية بنيسابور أيضا ومدرسة ثالثة بنيسابور بناها أبو سعيد الإستراباذى الواعظ الصوفى ومدرسة رابعة بنيسابور بنيت للأستاذ أبى إسحق الاسفراينى . وقد قال الحاكم فى ترجمة الأستاذ : لم يبن بنيسابور قبلها يعنى مدرسة الأستاذ مثلها . وهذا صريح فى أنه بنى قبلها غيرها ، ثم يقول السبكى « وقد أدرت فكرى وغلب على ظنى أن نظام الملك أول من قدر المعاليم للطلبة ، فإنه لم يتضح لى هل كانت المدارس قبله بمعاليم للطلبة أولا ، والأظهر أنه لم يكن لهم معلوم » .

وذكر ياقوت فى « معجم الأدباء » أن أحمد بن عبد الملك بن أحمد (٣٨٨ - ٤٧٠ هـ) كان يؤذن على منارة المدرسة البيهقية .

وذكر المقريزى : أن أول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة فى الاسلام أهل نيسابور ، فبنيت بها المدرسة البيهقية .

ومهما يكن من شىء فإن العصر العباسى هو الذى أنشئت فيه المدارس ، بمعنى أماكن خصوصية لدراسة العلم رتبت فيها الدروس على درجات ورتبت وظائف للطلبة والعلماء وظائف (أى مرتبات) وجعلت منهم طائفة يبيتون فى المدارس بما يشبه النظام فى مدارسنا .

هذا فى المشرق . أما فى مصر فقد قال ابن خلكان :

لما ملك السلطان صلاح الدين بن أيوب بالديار المصرية فى القرن السادس الهجرى لم يكن بها شىء من المدارس فبنى السلطان صلاح الدين بالقرافة الصغرى المدرسة المجاورة

للإمام الشافعي وبنى مدرسة مجاورة للمشهد الحسيني بالقاهرة ثم مدرسة الحنفية وبنى مدرسة الشافعية ومدرسة المالكية ـ ثم احتذى أثره في ذلك بنو أيوب في ممالكهم بمصر والشام ثم سلاطين المماليك من بعدهم .

من ذلك يتبين أن المسلمين سبقوا الأوربيين في إنشاء المدارس بأكثر من (٥٠٠ سنة) .

قال « نيكلسون » في كتابه « التاريخ الأدبي للعرب » :

« بينما كانت المبادئ الأولى للتعليم في أوربة المسيحية خلال القرن العاشر الميلادى محصورة بين القسوس والرهبان ، كان كل فرد في الأندلس تقريباً يستطيع أن يقرأ ويكتب » .

ويعبر « هيوار » في كتابه ـــ تاريخ الأدب العربي ـــ عن مدرسة بغداد النظامية بأنها الجامعة النظامية .

وكذا « نيكلسون » يعبر عنها بالكلية النظامية ، وأحيانا بالأكاديمية النظامية .

وبودنا لو نطيل البحث في كل هذه المدارس وبرامجها ونظمها وأثرها لولا أن هذا ليس بموضوع بحثنا .

وعلى الرغم من كل هذه النصوص التاريخية التي يبين فيها فضل العرب وسبقهم في هذا المضمار مما يبرهن على أن الشرق أستاذ الغرب وأن الغرب مدين للشرق دين التلميذ لأستاذه ، فإننا لا نعدم باحثاً غير منصف مثل (أندريه سيرفييه) يقول في كتابه « الإسلام وعلم النفس عند المسلمين » :

« إنه لا فضل للعرب على العلم والتعليم والحضارة ، إذ لم تأت أعمالهم بشيء حسن ، فالحياة العربية كانت مجدبة تقريباً لم تكد تثمر » .

وإزاء هذا الرأي الخاطئ آراء أخرى منصفة لمستشرقين اعترفوا بفضل العرب وقدروهم خير تقدير . من أولئك المستشرق الانجليزى (استانلى لين بول) والأستاذ الأمريكى (درابر) في كتابه « النزاع بين الدين والعلم » .

ومن أساليب التعليم التي لها الأثر في هذا العصر مجالس الأدباء والشعراء فقد زادت فيه تلك المجالس ، وكان المسجد أكبر معهد لها . فكان مسجد عمرو في مصر ، ومسجد البصرة ، ومسجد الكوفة ، والحرم المكى ، والحرم المدنى ، وغيرها من المساجد كمسجد ابن طولون ، والجامع الأزهر تقوم مقام الكليات والجامعات في عصرنا .

فكان يجلس الإمام فى قبة بجانب سارية من ساريات المسجد ويجتمع الطلبة حوله . فكنت ترى هنا حلقة لعلوم الدين ، وهناك حلقات لعلوم العربية ، وحلقات لعلماء الكلام ، وحلقات للشعر والأدب .

ففى سنة (٢٥٣ هـ) رحل الطبرى إلى مصر وأملى فى مسجد عمرو شعر الطرماح عند بيت المال فى الجامع . وحكى المرزبانى فى كتابه « الموشح » أن مسلم بن الوليد كان يملى شعره فى المسجد .

وكان أبو العتاهية يجلس فى المسجد وحوله الناس . وقال أبو محمد اليزيدى . كان أبو عبيدة يجلس فى مسجد البصرة إلى سارية وكنت أنا وخلف الأحمر نجلس جميعا إلى أخرى .

ومن هذه المجالس أيضاً مجالس المناظرة ، فكانت تعقد فى الدور والقصور وفى المنازل وأفنيتها وفى مجالس الخلفاء وبحضرة الإمراء . وقد حكت لنا بعض كتب النحو مناظرات بين العلماء فى المسائل النحوية والصرفية واللغوية . وقد جاءت فصول ممتعة منها فى الجزء الثالث من كتاب « الأشباه والنظائر » للسيوطى .

والآن وقد وصلنا إلى هذا الحد ، يجدر بنا أن ننتقل إلى نشوء كتب الأمالى وخصائص كل . فكتب الأمالى ثمرة من ثمار تلك المجالس التى ذكرناها ، ونتيجة لنظام الرواية التى تشعبت طرقها وتطورت حياتها وهى صورة لا بد منها لعدم وجود الطباعة .

فلنبدأ أولا ببيان ما طرأ على الرواية من تغيير وتبديل . وذلك :

أولا : أن الرواية أصبحت صناعة علمية عرف بها نفر وهم الذين إليهم ينتهى الإسناد فى الأدب ، إذ لا إسناد فى الروايات يكاد يرجع الى عرب الجاهلية . ومن رجال الرواية الذين كونوا الطبقة الأولى حماد الراوية المتوفى سنة (١٥٥ هـ) وهو أول من خص بلقب الراوية من الأدباء ، وكأبى عمرو بن العلاء المتوفى سنة (١٥٤ هـ) ، وكأبى عبيدة معمر ابن المثنى المتوفى سنة (٢٠٩ هـ) ، وكالأصمعى المتوفى سنة (٢١٤ هـ) . فهؤلاء عمد الرواة ، وعنهم أخذ الأدباء .

ثم ظهرت الطبقة التى أخذت عن هؤلاء ، وقد رأت هذه الطبقة أن ما بعث على الإسناد فى الحديث قد تحقق فى الأدب من انتحال اللغة والتزيد فى الأخبار والصنعة فى الشعر ، فلذا

أوجبوا الإسناد في الأدب . وهذا أثر من آثار الحديث في الأدب ، فلولا الحديث وإسناده لما خلصت اللغة من شائبة الكذب والتدليس .

ثانيا : قد عنى المحدثون بعلم الرجال أتم عناية وأكملها ، فحاكاهم في ذلك علماء الأدب ، فجرحوا من جرحوا وعدلوا من عدلوا ، فالجرح والتعديل انتقلا من الحديث إلى الأدب .

فعدلوا الخليل بن أحمد وأبا عمرو بن العلاء ، وجرحوا قطربا .

ثالثاً — أن الرواية الأدبية ضعفت في القرن الرابع حين كثرت الكتب . فأصبح الإسناد من يومئذ مقصورا على تلك الكتب وروايتها بالسند عن مؤلفيها ، لأن العلم قد نضج وكملت فنونه ، فقلما يظهر كتاب لإمام في فنه . إلا سارع الناس إلى قراءته عليه ، أو يقرأ عليه وهم يسمعون . فكان أبو العباس ثعلب إمام الكوفيين المتوفى سنة (٢٩١ ﻫ) يحفظ كتب الفراء كلها . والفراء أملى هذه الكتب كلها من حفظه إلا بعض أوراق استعان فيها بالمراجعة — كما يذكر ابن خلكان — وكان مقدارها ثلاثة آلاف ورقة .

وهنا لا بأس بأن نستطرد إلى تحديد معنى ثلاث كلمات تصادفنا كثيرا في كتب الأدب .

الكلمة الأولى : « الوراقون » والثانية « الورقة » والثالثة « المجلد » أو « المجلدة » .

أما الوراقون : فهم الذين صنعتهم الوراقة .

والوراقة كانت حرفة احترفها كثير من العلماء ، وهي انتساخ الكتب ، وتصحيحها ، وتجليدها ، والتجارة فيها ، فهي تقوم مقام الطباعة في عصرنا هذا ، بل أكثر منها ، إذ كان الوراق ينتخب الورق وينسخ الكتاب — أو ينسخ تحت إشرافه — ويصحح هذا النسخ حتى لا يقع فيه تحريف ويجلده ويبيعه ، وقد كان ابن النديم صاحب كتاب « الفهرست » وراقا .

ذكر ابن خلكان في ترجمة (الفراء) نقلا عن الخطيب في تاريخ بغداد : أن الفراء لما اتصل بالمأمون أمره أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العربية ، وأمر أن يفرد بحجرة من حجر الدار ، ووكل به من يخدمه ويقضي له حاجاته ويؤذنونه بأوقات الصلاة ، وصير له الوراقين وألزمه الأمناء ، فكان يملي والوراقون يكتبون حتى صنف كتاب الحدود في سنتين (وهو يريد بالحدود التعاريف ، كحد المعرفة والنكرة ، وحد

النداء والترخيم . وهذه أمور لم يعتد بها سيبويه كثيرا فى كتابه ، لأنها أثر من آثار المنطق والفلسفة فى النحو) .

فبعد أن فرغ الفراء من ذلك خرج الى الناس وابتدأ بكتاب المعانى .

قال الراوى : وأردنا أن نعد الناس الذين اجتمعوا لإملاء كتاب المعانى فلم نضبطهم ، فعددنا القضاة فكانوا ثمانين قاضيا ، فلم يزل يمليه حتى أتمه .

ولما فرغ من كتاب المعانى خزنه الوراقون من الناس ليكسبوا به وقالوا لا نخرجه إلا لمن أراد أن ننسخه له على خمس أوراق بدرهم . فشكا الناس إلى الفراء فدعا الوارقين فقال لهم فى ذلك . فقالوا : إنما صحبناك لننتفع بك ، وكل ما صنفته فليس بالناس إليه من الحاجة ما بهم إلى هذا الكتاب ، فدعنا نعيش به .

فقال : فقاربوهم تنتفعوا وينتفعوا . فأبوا عليه . فقال سأريكم ، وقال للناس : إنى ممل كتاب معان أتم شرحاً وأبسط قولا من الذى أمليت .

فجلس يملى فأملى (الحمد) فى مائة ورقة ، فجاء الوراقون إليه وقالوا نحن نبلغ الناس ما يحبون ، فنسخوا كل عشر أوراق بدرهم .

وكان سبب إملائه (كتاب المعانى) أن أحد أصحابه وهو عمر بن بكير كان يصحب الحسن بن سهل ، فكتب إلى الفراء : أن الأمير الحسن لا يزال يسألنى عن أشياء من القرآن لا يحضرنى عنها جواب ، فإن رأيت أن تجمع لى أصولا وتجعل ذلك كتاباً يرجع إليه فعلت .

فلما قرأ الكتاب قال لأصحابه : اجتمعوا حتى أملى عليكم كتاباً فى القرآن . وجعل لهم يوما ، فلما حضروا خرج إليهم ، وكان فى المسجد رجل يؤذن فيه وكان من القراء ، فقال له اقرأ فقرأ فاتحة الكتاب ، ففسرها حتى مر فى القرآن كله على ذلك يقرأ الرجل ، والفراء يفسره ، وكتابه هذا نحو ألف ورقة .

وقد سقنا هذه القصة لأنها صورة واضحة من الصور التى كان عليها الإملاء .

وذكر (متز) فى كتابه « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » : « وقد قيل إن من آفات العلم خيانة الوراقين ، وكان العلماء الذين يحرصون على سلامة العلم ينسخون كتبهم بأنفسهم إن استطاعوا » .

أما الورقة : فقد قدر ابن النديم في الفهرست ما ذكره من المؤلفات بعدد الأوراق ، ويريد بها الورقات السليمانية ، منسوبة إلى سليمان بن راشد الذي كان والياً على خراسان في أيام هرون الرشيد ، ومقدار ما في الصفحة من هذه الورقة عشرون سطرا . وكان قدر كتاب الأغاني المطبوع في واحد وعشرين جزءاً بخمسة آلاف ورقة من ذلك القرار .

أما المجلد : في اصطلاحهم . فقد ذكر ابن خلكان في تاريخ أبي محمد اليزيدي النحوي عن أبي حمدون الطيب بن إسماعيل قال : شهدت ابن أبي العتاهية وقد كتب عن أبي محمد اليزيدي قريباً من ألف مجلد عن أبي عمرو بن العلاء خاصة فيكون ذلك عشرة آلاف ورقة ، لأن تقدير المجلد عشر ورقات .

والآن يمكننا أن نأخذ في الحديث عن كتب الأمالي وموعدنا المقال الآتي إن شاء الله .

عبد الوهاب حموده
الأستاذ بكلية الآداب جامعة القاهرة

أقدم الخرائط الرمزية من اليمن

جاء في مجلة المقتطف (م ٦٩ ص ٤٥٩) : إن أقدم الخرائط الرمزية خريطة محفورة على حجر من القرن التاسع قبل المسيح وجدت في بابل . ويظهر من شكلها أنها من جنوب بلاد العرب ، مما يدل على قدم العمران هناك . وقد ظن الدكتور ويدر أن خريطة الاصطخري — أول جغرافي العرب — التي صنعها في القرن العاشر الميلادي بنيت على هذه الخريطة . ومن المحتمل أيضاً أن بطليموس بنى خريطته عليها في إيصاله إفريقية بآسيا عند الأوقيانوس الهندي .

صدى قاصمتي مجلة دار التقريب

لما اطلعنا في العدد الرابع للسنة الرابعة من مجلة دار التقريب (ص ٣٦٩) على فتوى مجتهد الشيعة محمد حسن الآشتيانى التى نقلها رئيس المحكمة الشرعية الشيعية العليا عن الأصل الرابع من أصول الفقه الشيعي فى كتاب (بحر الفوائد) للاشتيانى المذكور ، ومضمونها الإباحة للمسلم بأن لا يؤمن بما ثبت صدوره عن النبى ﷺ من أمور الغيب مثل كيفية خلق السماوات والأرض ووصف الجنة ، بدعوى أن هذه الأمور الغيبية ، لادخل لها بشريعة سيد المرسلين ! ؟ » .

وفى ذلك العدد نفسه من مجلة دار التقريب (ص ٢٩٢ — ٢٩٣) دعوة للمجالس التشريعية والنيابية فى العالم الإسلامى بأن تنسخ ما تشاء من آيات القرآن وأحكامه بدعوى أن النسخ فى القرآن لم ينته حكمه بوفاة الرسول ﷺ ، بل إن آية « وأمرهم شورى بينهم » نقلت حق التشريع من الله إلى الأمة ، فالله عز وجل ، كان هو المشرع ابتداء ، ثم غدا التشريع إلى الأمة انتهاء ! ؟ » .

لما اطلعنا فى مجلة دار التقريب على هاتين القاصمتين الخبيثتين ، رأينا أن من أول واجبات كل مجلة إسلامية فى العالم — وعلى رأسها مجلة الأزهر — أن تستنكر هذه الجرأة على الله ورسوله . ولا ريب فى أننا أدينا بعض ما يجب على كل مسلم بما كتبناه فى ص ٣٢٩ - ٣٣٠ من الجزء الثالث لهذه السنة بعنوان « قاصمتان خبيثتان فى مجلة دار التقريب » ، وبما نشرناه لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد اللطيف السبكى عضو جماعة كبار العلماء فى ص ٢٨٣ - ٢٨٧ بعنوان « طوائف » ، ولفضيلة الأستاذ المحقق الشيخ محمود النواوى المفتش بالأزهر فى ص ٢٨٨ - ٢٩٥ بعنوان « نظام الإسلام السياسى » وهو نفس العنوان الذى كان لمقالة الدعوة إلى نسخ القرآن فى مجلة دار التقريب .

وكنا نتوقع من مجلة دار التقريب أن تعتذر فى أول جزء يصدر منها بعد الجزء الذى تلطخ بتينك المقالتين ، بأى عذر يقبله أهل العقول ، ولكنها آثرت السكوت ، واكتفت

بنشر مقالة الدكتور محمد يوسف موسى بعنوان « فى سبيل القرآن والسنة » التى علق فيها على القاصمتين بقوله (فى العدد الأول ، السنة الخامسة ، ص ٨٠) :

« فى هذين الرأيين تعرض خطير لأقدس ما يحرص عليه المسلمون ، وهو كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وسنة رسوله الحكيم الذى لا ينطق عن الهوى . ومن أجل هذا ليس من الممكن أن يمر المسلم بهما كما يمر بكثير من الآراء الخاطئة المنتشرة هنا وهناك ، بل يجد من الواجب الدينى والعلمى مناقشتهما مناقشة موضوعية لا هدف لها إلا معرفة الحق » .

ثم قال عن موضوع النسخ : « وهذا الرأى على خطأه الواضح له عرق قديم فى تاريخ الفكر والآراء . لقد قال من قبل برأى قريب منه نجم الدين الطوفى » .

قلنا : ورأى الطوفى يدور حول تقديم المصلحة على النص ، متجاهلا الحقيقة التى برهن عليها أئمة الإسلام وآخرهم معاصره شيخ الإسلام ابن تيمية ، وهى أنه ليس فى الشريعة الإسلامية نص صريح يخالفه العقل الصحيح أو المصلحة الشاملة . وقد تطرأ مصلحة شاذة كخطر الموت من الجوع على من لا يجد إلا لحم الميتة ، أو خطر الموت بالغصة على من لا يجد ما يسوغها به إلا الخمر ، فحينئذ يعمل فى أمثال هذه الحالات الشاذة والخاصة بقاعدة « الضرورات تبيح المحظورات » مقيدة بالحدود الضيقة فى القاعدة الأخرى : « الضرورة تقدر بقدرها » . ورسالة الطوفى فى هذا الموضوع كانت مجلة المنار قد نشرتها وعلقت عليها فى المجلد التاسع . ثم أعادت نشرها مجلة دار التقريب نفسها بالعدد الأول من سنتها الثانية ، ورد عليها علامة النجف الشيخ محمد الحسين كاشف الغطا .

ولئلا ينخدع بعض القراء بالطوفى (٦٥٧ - ٧١٦) ، على بعد ما بين مذهبه ومذهب الداعية إلى نسخ القرآن ، ننبه إلى أنه أحد الأذكياء المتلاعبين بالمذاهب والعقائد ، ولد فى قرية طوف من قرى منطقة صرصر على نهر عيسى بالعراق فى طريق الحاج من بغداد ، وانتقل إلى الشام أيام شيخ الإسلام ابن تيمية فلم يجد فيها لهمته العسكرية مرتعا ، فخرج منها وهو يهجو أهلها ، ثم حضر إلى مصر ، وافتضح بها ، وحكم عليه قاضى الحنابلة سعد الدين الحارثى بالتعزير والضرب والحبس بسبب عقائده الباطلة وإطالة لسانه على أم المؤمنين عائشة

وقوله فى صاحبى رسول الله ﷺ وخليفتيه على أمته سيدنا أبى بكر الصديق وسيدنا على ابن أبى طالب رضى الله عنهما :

كم بين من شك فى خلافته … وبين من قيل إنه الله !

وهو الذى يصف نفسه بقوله (على ما جاء فى كتاب الدرر الكامنة للحافظ ابن حجر ٢ : ١٥٥) :

حنبلى رافضى ظاهرى … أشعرى ، إنها إحدى الكبر

ونقل الحافظ ابن حجر كلاما له يدل على جهله بالسنة ، ثم نقل الرد عليه من قول الحافظ ابن رجب بما لا يتسع المقام لبسطه .

ونقل ابن حجر أيضاً قول ابن مكتوم فى ترجمة الطوفى من تاريخ النحاة : « قدم علينا فى زى الفقراء ، ثم تقدم عند الحنابلة ، فرفع إلى الحارثى (قاضى الحنابلة بمصر) أنه وقع فى حق عائشة فعزره وسجنه . . ثم أطلق فسافر إلى قوص » .

ونقل ابن حجر عن الصلاح الصفدى أنه لما حوكم أخرجوا بخطه هجواً فى الشيخين (أبى بكر وعمر) وبعد حبسه أطلق وتوجه إلى قوص فنزل عند بعض النصارى .

وقال الحافظ ابن رجب فى طبقات الحنابلة : وذكر بعض شيوخنا عمن حدثه أنه كان يظهر التوبة ويتبرأ من الرفض وهو محبوس . قال ابن رجب : وهذا من نفاقه ، فإنه لما جاور فى آخر عمره بالمدينة صحب السكاكينى شيخ الرافضة ، ونظم ما يتضمن السب لأبى بكر . ذكر ذلك عنه المطرى حافظ المدينة ومؤرخها .

وانظر ترجمة الطوفى فى الدرر الكامنة (٢ : ١٥٤ - ١٥٧ طبع حيدر أباد الدكن بالهند) وفى شذرات الذهب لابن العماد (٦ : ٣٩ - ٤٠ طبع القاهرة) .

وعلى كل حال فإن هذا الحنبلى الرافضى الظاهرى الأشعرى المتلاعب بالعقائد والمذاهب ، لم يرد فى رسالته موضوع البحث على أن المصلحة تقدم على النص ، أما دعوة المجالس النيابية والتشريعية فى البلاد الإسلامية إلى أن تنسخ ما تشاء من القرآن فلا نظن أن فى الكرة الأرضية صحيفة تنتسب إلى الإسلام تبلغ بها الجرأة إلى أن تعلن ذلك وتنشره .

ثم علق الدكتور محمد يوسف موسى (ص ٨٤) على كلام المجتهد الشيعى محمد حسن الاشتيانى بقوله : « ومن العجب أن يضرب المثل بخلق السماوات والأرض وأحوال

الدار الآخرة لما لا يجب التدين به من أقوال الرسول وإن علمنا بصدوره عنه ، بدعوى أن ذلك لا دخل له بشريعة سيد المرسلين ! إن مهمة الرسل الذين اصطفاهم الله من خلقه لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، تقوم - أول ما تقوم - على إثبات وحدانية الله ووجود الدار الآخرة وتفهيم من أرسلوا اليهم شيئا من أحوال هذه الدار ليسهل عليهم التصديق بها ، فكيف لا تجعل ذلك مع كيفية خلق العالم من الشريعة التي جاء بها رسولنا عليه الصلاة والسلام ؟ ! لو أن الكاتب ضرب الأمثال لما لا يجب التدين به في رأيه من أحاديث الرسول بشيء مما يعرف بالتجربة كأمور هذا العالم الذي نعيش فيه (١) لكان له بعض العذر ، ولكن خلق العالم وأحوال الدار الآخرة وأمثال ذلك ، من الأمور التي لا يمكن أن تعرف بيقين إلا بوحي من الله ، لأنها من عالم الغيب لا عالم الشهادة ، فكيف نفهم أو نتصور أن الرسول كان يجازف ويقول في شيء من ذلك برأيه ؟ ! وهذا ، فضلا عن أن هذه الأمور جاء بها القرآن ، فهل نقول : لا يجب التدين أيضا بما جاء عن ذلك في القرآن ، وهو كثير ؟ ! » .

****

ومن صدى قاصمتي مجلة دار التقريب أن رصيفتنا القديمة (مجلة العرفان) الغراء وهي لسان الشيعة في جبل عامل ، رأت الطريق المختصر للخروج من ورطة الفتوى الشيعية بأن تتبرأ من هذا المجتهد الشيعي ، أي الاشتياني ، فقالت في الجزء الثاني من المجلد ٤٠ ص ٢٢٨ : « ونحن لا نعرف شيئا عن هذا الاشتياني وعن آثاره ، بالرغم من كثرة الكتب المخطوطة والمطبوعة طبع إيران عندنا ، بل نعلم أن مراجع الشيعة في القرن الثالث عشر م : الميرزا حسن الشيرازي المتوفى سنة ١٣١٢ ، والميرزا حبيب الله المتوفى سنة ١٣١٤ ، والشيخ محمد حسين الكاظمي المتوفى سنة ١٣٠٦ . ولو سلمنا أن الاشتياني قال ذلك فيكون شاذاً عما يعتقده الشيعة ، وسواء كان الاشتياني أو الشيخ محمد جواد مغنية فقولهما ليس حجة على الشيعة » . وهذا قول حسن نشكر رصيفتنا مجلة (العرفان) عليه ، ولكن أين هذا الكلام من دعوى الشيخ مغنية بأن مثل هذا الاجتهاد الشيعي لو اطلع عليه الخواص من علماء السنة لقويت ثقتهم بالشيعة وتفكيرهم ؟ ! » .

****

وأهم ما نعتبره صدى لقاصمتي مجلة دار التقريب رسالة مطولة حملها إلينا بريد العراق من أحد كبار مجتهدي الشيعة في هذا العصر وهو الشيخ محمد مهدي الخالصي ، وكنا نود

---

(١) مجلة الأزهر - أي كمسألة تأبير النخل وشئون الصناعات والمهن .

لو اقتصرت رسالته على هذا الموضوع ، إذن لنشرناها بحذافيرها ، ولكنها تعرضت لأمور كثيرة فى غير موضوعنا هذا ، وفى كل سطر منها فقرة لو نشرناها لاضطررنا إلى الجواب عليها بمقال أو أكثر ، فبعد أن نكون مع الاشتيانى ومغنية ودار التقريب ، ننتقل إلى مناقشات عقيمة ليس من خطتنا الخوض فيها إلا عند الضرورة ، وإنما نحن الآن فى موقف دفاع ، نستنكر فيه كل منكر فى الدين ، لأن مجلتنا تأسست يوم تأسست لبيان الحق فى مثل هذه المواقف .

ومما يدخل فى موضوعنا من رسالة العلامة مجتهد الشيعة الشيخ الخالصى أنه نقل لنا نص كلام الاشتيانى فى كتابه بحر الفوائد مطولا غير مختصر . والخالصى كان ينتظر منا قبل أن نكتب ما كتبناه أن نطلع على كتاب الاشتيانى لنتثبت مما عزى إليه فيه . ولكن إذا كانت مكتبة رصيفتنا مجلة (العرفان) ليس فيها كتاب الاشتيانى ولم يسمعوا باسمه ، فإن من تكليف التعجيز تكليفنا بأن نكون أكثر اطلاعا على كتب متأخرى الشيعة من الشيعة أنفسهم . ومع ذلك فإن حملتنا لم تكن على الاشتيانى ولا على كتابه ، بل على الكلام الصريح المنشور فى مجلة دار التقريب منقولا لها من قاض شيعى كبير يعرضه على أهل السنة على أنه نموذج ممتاز من اجتهادات الشيعة التى يباهون بها عند أهل السنة ، فكان موقفنا من ذلك هو الموقف السليم الذى لا ينبغى غيره لأمثالنا . وسواء عندنا بعد ذلك أكان هذا الكلام من قول الاشتيانى أو مغنية أو المجلة نفسها ، لأننا لم نكن فى معرض الحكم على الاشتيانى بالذات ، بل فى معرض الحكم على كلام صريح ، وقد تلطفنا كثيراً فى الحكم عليه .

على أننا باطلاعنا على النص المفصل الذى نقله المجتهد الخالصى رأينا أن الاشتيانى يعتبر أحاديث رسول الله ﷺ فى أمور الغيب لا تخبر عن الأمر الدينى !؟ كأن الإيمان بالغيب ليس عنده من صميم الإيمان الإسلامى !؟ ويجزم بأنه « لا إشكال فى أنه لا يجب التدين به !؟ بعد حصول العلم به !؟ فضلا عن الظن به !؟ » ولما رأى نفسه قد تورط وأسرف وأشفى على الشفير ، استدرك على نفسه فقال « نعم ، لا يجوز إنكاره بعد ثبوته من حيث إيجابه لتكذيب النبى فيكون كفراً » وهذه هى الفقرة التى أهملها الشيخ مغنية وتعلق بها الخالصى . وفيما عدا ذلك فإن ما نقله الشيخ مغنية كان أمينا فيه . بقى أمر الجمع بين قول الاشتيانى عن الحديث الثابت صدوره عن النبى ﷺ فى شعب الإيمان بالغيب بأنه « لا إشكال فى أنه لا يجب التدين به بعد حصول العلم به » وقوله « لا يجوز إنكاره بعد ثبوته » ، فقد وقف مريديه على صراط أدق من الشعرة فوق واد من أودية الجحيم بتحريضه

إيمانهم على عدم التدين بما صح صدوره عن النبي ﷺ من أمور الغيب ، وفي عدم تجويزه إنكاره بعد ثبوته . وهو موقف لا نعرف مسلماً يحمد عليه هذا المجتهد الاشتياني الذى أثنى عليه المجتهد الخالصي مستنكراً براءة مجلة (العرفان) منه فقال عنه : « إنه من تلاميذ الشيخ المرتضى الأنصاري في النجف وأكبر علماء طهران عاصمة إيران طيلة ملكية ناصر الدين شاه ، أي مدة خمسين سنة ، وكتابه (بحر الفوائد) من أنفس الكتب في أصول الفقه وهو مشهور بين العلماء » .

ثم يقول مجتهد الشيعة العلامة الخالصي في رسالته إلينا : « وأما مجلة رسالة الإسلام ، فأنا أعرف بعض كتابها وأشكرهم على حسن نيتهم ، وأطلب منهم أن يواظبوا على التحصيل والدراسة ، ويمتنعوا عن نشر مجلتهم ، إلى أن يتقنوا ما في دين الإسلام ، فإنها غير خالية من بعض النقول ، والأستاذ مغنية سلمه الله غير معذور في نقله صدر عبارة الاشتياني وطرحه تمام كلامه حتى نقلته مجلة رسالة الإسلام جهلا ، وأوقعت مجلة الأزهر في هذا الخطأ العظيم (كذا !) الذى لا يرد عقابه إلا حسن النية والاستغفار [1] ولا تحسبوا أن علماء العراق يكتبون شيئاً في رسالة الإسلام لأن المقالات التى تنشر فيها يكتبها غالباً مبتدئون في التحصيل لأن علماء العراق استولى عليهم اليأس من المجلات والنشرات ، لما يرونه فيها من الشذوذ ، ولم أجد في رسالة الإسلام إلا مقالا لعالم واحد لحسب [2] » .

ومما تعرض له المجتهد الخالصي في رسالته إلينا دعوة الأزهر ومجلته الى السعي في جمع الكلمة . وهي فرصة طيبة تتيح لنا الكلام في موضوع جمع الكلمة وأمنية التقريب :

نحن بقدر ما نؤمن باستحالة التقريب بين مذهبين دينيين — حتى لو كانا من أصل واحد كالشافعي والحنفي — فإننا نؤمن كذلك بضرورة تعاون جميع أهل المذاهب المنسوبة الى الإسلام على كل ما فيه مصلحتهم الدنيوية والاجتماعية ، كمقاومة الاستعمار ، وكالتعاون على ما يصلح المسلمين في أخلاقهم ومعايشهم وأسباب تقدمهم . أي أن التعاون في المصالح

---

[1] مجلة الأزهر — إذا كنا نستحق العقوبة التى لا يردها إلا الاستغفار بعد ثبوت حسن النية ، لأننا تعرضنا لقدس الأقداس بما تحدثنا به عن الاشتياني وفتواه ، فما الذى يستحقه الاشتياني لتقريره أن ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم من الأحاديث في أمور الغيب لا يجب على المسلم التدين به لأنه لا يغني من الأمر الديني ؟ ! . . . أننا نرجو المثوبة من الله على موقفنا من الاشتياني ، وليحاسب الخالصي نفسه على موقف الاشتياني من النبي صلى الله عليه وسلم وما صح عنه من أحاديث الايمان بالغيب الالهى .

[2] مجلة الأزهر — لعل المجتهد الخالصي يشير الى رد كاشف الغطاء على الألوف .

الاجتماعية والمعيشية والخلقية مطلوب بين أهل المذاهب الإسلامية . أما التقريب بين المذاهب نفسها بفتح الأندية لذلك واصدار المجلات لهذه البحوث خاصة فإنه يدعو الى عكس ما يراد منه .

ومما لا يختلف فيه اثنان أن جميع فقهاء الشافعية والحنفية المعاصرين لنا لا يملكون أن يقربوا بين هذين المذهبين ـ وهما من أصل واحد ـ فى أى حكم فقهى كحكم الشافعية بأن لمس الزوج المتوضىء يد زوجته ينقض وضوءه ، وحكم الحنفية بعكسه . وكحكم الشافعية بأن خروج الدم من المتوضىء لا ينقض وضوءه ، وحكم الحنفية بعكسه . فلو حاول بعض الشافعية والحنفية أن يقربوا بين المذهبين بغير ما هو مقرر فيهما لخرجوا بذلك عن المذهبين ولأحدثوا به مذهباً جديداً لا يعترف لهم به الشافعية ولا الحنفية

أما التعاون الآخر الذى يتناول مصالح أهل المذاهب الإسلامية فى شئونهم الأدبية والعلمية والاجتماعية وعزتهم الملية فنحن من أقدم دعاته . ونضرب المثل لذلك فى هذا المقام بأن فقيد العلم الشيخ أبا عبد الله الزنجانى لما قدم من إيران إلى مصر للمرة الثانية قبل نحو سبعة عشر عاما اقترح رئيس تحرير هذه المجلة على مولانا صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر إقامة حفلة تكريم له فى دار الهداية الإسلامية ، للتوصل الى المودة المطلوبة بين أهل القبلة ، وكانت الحفلة التى أقيمت له فى جمعية الهداية الإسلامية يومئذ عظيمة جداً وحافلة بأهل الفضل ، وخطب فيها مولانا الأستاذ الأكبر والشيخ أبو عبد الله الزنجانى ، وكان كاتب هذه السطور هو الساعى فى ذلك ، ولا يزال إلى هذا اليوم مغتبطاً بما فعل . أما العبث بالمذاهب بدعوى التقريب بينها فلم يأت يوما بخير ، ولا يرضى عنه العلماء من أهل كل مذهب ، ولا يترتب عليه إلا إحداث فرقة أخرى . وموقفنا نحن من كل ذلك هو موقف من يدرأ المفسدة عند وقوعها من أى جهة وقعت ، ولذلك تأسست هذه المجلة قبل نحو ربع قرن ، وعلى ذلك هى اليوم وبعد اليوم إن شاء الله .

وقبل أن نختم هذه الكلمة ـ نقدم الشكر للأستاذ الخالصى على هدية لمكتبة المجلة وصلت إلينا منه ، وهى مؤلفاته ، ومنها (إحياء الشريعة فى مذهب الشيعة) وكتابه (الشيخية والبابية) ورسائله الى قوام السلطنة لما أراد رضا فهلوى شاه محو الشيعية من إيران وإقامة المجوسية والبابية دينا للايرانيين ، وغير ذلك من الرسائل ، فنكرر الشكر له .

محب الدين الخطيب

فصل الدين عن الدنيا

إن صح في دين لا يصح في دين الإسلام

فصل الدين عن الدنيا ، تلك الأسطورة التي عرفت في أوربا في القرون الوسطى ، وأصبحت فكرة عامة تأثر بها الكتاب عندنا واقتضتها هناك في ذلك التاريخ تصرفات القسوس والباباوات ، لا يوجد مثلها في المجال الإسلامي ، لأنه لا يوجد في الإسلام رجال دين يدعون لأنفسهم الوساطة بين الله والناس ، ولا أن بيدهم الجنة والنار يمنحون منهما كيف شاءوا ، ولا أن ما يربطونه في الأرض يرتبط في السماء ، ولا رسوم مالية في الموت ولا في الحياة ، ولا معمدان ولا اعتراف ولا أي لون من هذه الألوان التي أخذت على الأحرار أنفاسهم فضاقوا بها ذرعا ولم ينتهوا منها إلا بقرار فصل الدين عن الدنيا في سنة ١٨٧٠ متذرعين بما قيل عن المسيح سلام الله عليه من قوله ، إن مملكتي ليست من هذا العالم ، وقوله ، أعطوا ما لله لله وما لقيصر لقيصر ، ، وإنما الإسلام دستور إصلاحي اجتماعي عالمي ليس فيه عصبية لأحد على أحد ولا لطائفة على أخرى ، ولا شعب يرفعه فوق شعب ، ولا لجنس يعلو به على جنس ، فهو الدين الخالي من ألوان العصبيات جميعها ، وأية أمة تعتنقه وتقيم مبادئه وحدوده تكون هي الأمة الفضلى التي تستحق الزعامة على العالم الإسلامي جميعه لا زعامة أوتوقراطية ، ولكنها زعامة ديمقراطية حقة بالمعنى الذي ينشده أول من تكلموا في الديمقراطية .

فالإسلام الذي يدرس الآن في الأزهر وفي سائر المعاهد الدينية والذي هو مستمد صراحة من القرآن الكريم ونصوص السنة المحمدية التي هي شرح وبيان للقرآن ، وأعمال الخلفاء الراشدين ، وأفهام الصحابة وفقههم في تلك النصوص ، واجتهاد المجتهدين في ذلك ، كل ذلك مدون فيما يسمى كتب الفقه الإسلامي ، مفصل إلى فصول وأبواب وكتب في جميع شئون الدولة وسياستها الداخلية والخارجية ، وكل معاملة تقع بين اثنين على نحو أوسع وأدق وأعدل من كل قانون في العالم للبشر ، لأنه ينتهي إلى أسس ليست من وضع البشر ، ولم تتأثر بأهواء بعضهم على بعض ومطامع بعضهم ببعض .

وأول حجر أساسي في صرح الإسلام : هو إفراد الله بالعظمة ، واستواء جميع البشر بعد ذلك في سلك المساواة التامة ، لا فرق بين ملك وصعلوك . وحسب العالم دليلا على نصاعة مبادىء الإسلام ثورة مصر هذه الصارخة التي دلت على أن الخروج على الإسلام ومحاربة أهدافه وانتهاك حدوده ومبادئه شر مستطار حيث وضعوا في دستور الدولة أن الملك غير مسئول وأن ذاته لا تمس ، تلك المادة التي حاربوا الله بها ، حيث جعلوا لله شريكا آخر من البشر غير مسئول والله يقول « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » ، فكان من نتيجة ذلك ما حصل في الأمة من طغيان وجور من تلك الذات التي قدسوها وأشركوها بالله في عدم المسئولية طغيانا أصبح في تاريخ مصر وصمة لا تزول ، ولولا ما قيض الله لمصر من هذا الجيش الكريم الأبي الذي أنقذ مصر لرسفت في قيود الذل والطغيان والاستعمار إلى ما شاء الله .

والحجر الثاني في بناء الإسلام : هي الشهادة لمحمد بن عبد الله بأنه رسول الله الذي أرسله للبشر كافة معلما ومبشراً ونذيرا ، وهذه الذات التي تجب الشهادة بذلك هي شخصية مثالية تاريخية أشادت بكل ما سبق من رسالات الله ، فكتب عنها الكتاب المسلمون والأجانب آلاف الكتب في فضائل أخلاقها ومعاملتها المثالية ، وقدرتها التي قلبت بها التاريخ البشرى وأخرجته من وصمة عبادة الأحجار والأوثان إلى نور الحرية والمساواة .

ووجب أن يقال بحق في محمد بن عبد الله نبي الإسلام أنه أبو التاريخ العالمي الحديث ، وصاحب الفضل في تحرير العقل البشرى من خرافات الجاهلية وعقائدها الضالة ، وأول عامل على نشر تعميم تعليم القراءة والكتابة ومحاربة الأمية ، وأول موجه للقوى الحربية على أساس الإصلاح الإنساني ، ومحاربة الضلال والفساد في الأمم المجاورة ، حتى نجح نجاحاً باهراً في قلب الدنيا إلى شيء آخر خلاف ما كانت عليه من قبل .

والدعامة الثالثة في الدين الإسلامي العالمي هي ما يسمى بإقامة الصلاة في اليوم خمس مرات ، أولاها قبل طلوع الشمس من مشرقها بساعة ونصف ودعا إليها الإسلام بحث وحض شديدين ليوقظ البشر من سباتهم إلى العمل والنشاط ، ووزع الأربعة الأخرى على أوقات الناس في الحياة اليومية وجعل ذلك فرضاً عاماً على الذكر والأنثى واشترط لها الطهارة التي كانت سبب تعويد الناس على النظافة العامة التي أصبحت بعد هذا التشريع الديني

أمم شئون المتحضرين وقد كانوا قبل لا يعرفون النظافة ولا الحمامات ، حتى كانت تفتك بهم الأمراض والعلل ، ولا يعرفون كيفية الوقاية منها ، وما انتشرت الحمامات فى أوربا ونظمها إلا عن طريق الأندلس فى الإسلام ، وهبطت بذلك فيها إحصائيات الأمراض والعلل والوفيات ، فالعالم المتحضر مدين فى تاريخ حياته الصحية للإسلام فى الأندلس ، ويعترف له بذلك المنصفون .

وفرض الإسلام هذه الصلاة على الكافة ، ففرض أن تكون جماعة على الرجال يصلونها فى مساجد عامة مفتوحة للكافة ديمقراطية الوضع لا يتقدم فيها غنى على فقير ولا حاكم على محكوم ولا كبير على صغير ، يؤم الناس أفقههم ولو كان أفقرهم ، ويتلو على أسماعهم فى الصلاة الجهرية ما شاء الله من القرآن . فرض الإسلام إقامة هذه الشعائر كل يوم خمس مرات ، وفرض كل أسبوع اجتماع الكافة من أهل الحى أو القرية أو الخط من الرجال أعيانهم وحكامهم وأمرائهم ، وأغنيائهم وفقرائهم ، وكبارهم وصغارهم ، تتزاحم أكتافهم وتصطك ركبهم بعضهم إلى بعض من جميع الطبقات يسمعون قبل الصلاة إلى الخطيب الذى يعظهم فى شئونهم الحاضرة التى تمس حياتهم وأحوالهم اليومية ، فينشأ على ذلك صغيرهم ويدوم على ذلك كبيرهم ، فيتمرنون على الامتزاج والائتلاف فى أخص عبادة يؤدونها للرب ، فى أطهر وأقدس مكان يجتمعون لله فيه .

وأية فرصة للشعب تجمعه قسرا أو تخلط أفراده بعضهم إلى بعض فيتعرفون أحوال أنفسهم وشئون جيرانهم وإخوانهم وتمتلىء أعينهم بمختلف أحوال مخالطيهم من حال يرثى لها أو خلق يوعظ فيه صاحبه . يتعلم فى تلك المدرسة الأخلاقية الصغير من الكبير والجاهل من العالم والفاسق من التقى : تفاعل أخلاق ما قام فى جماعة إلا صلح أمرها ونضجت فيها الحياة الاجتماعية على أحسن مثال ، وتألفت فيها القلوب ، وتعاطفت فيها القوى ، واستغنى بها الفقير ، واستجود بها البخيل ، وتكتلت بها أسرة المجتمع . فأية عملية هذه وأية مدرسة اجتماعية ربى بها الإسلام شعوبه وألف بين أبنائه وأخضع الكافة للكافة وأنزل الحاكم إلى المحكومين ودفع الغنى إلى البصر بالفقراء وأسمع الصحيح أنين المريض وأخضع الطائش برؤيته خشية الخاشع وتقاه .

فهذه الصلاة التى ينظر الناس إليها كأهون شىء وأبسطه فى الإسلام وهذه بعض آثارها

وأفضالها فى المجتمع . فهل يمكن فصل الدين عن الدنيا وهذه أخص عبادة فيه أنزل العتاة الجبارين والأغنياء المتكبرين من صياصيهم وقصورهم إلى الامتزاج بأصحاب الأكواخ والبائسين فى بيوت الله على مائدة عبادة الله سبحانه ، وأى اجتماع مائدة أصفى للقلوب من ذلك .

فكيف تتجافى عقول أناس عن دين هذه آثاره فى المجتمع وأى زعيم إصلاحى أو حاكم سياسى لا يتشبث بهذا الدين الذى يساعده على ما يروم للإصلاح والزعامة .

إن هذه المساجد التى ينظر الناس إليها وقد أهملت وأصبحت مهجورة ذات منظر مؤسف كئيب من إهمالها وفرشها بالحصر البالية أو تركها بلقعا بلا فراش ، هذه المساجد كانت أعظم أثر فى الأمة من برلماناتها الآن لأنها كانت مصدر تعليم الأمة وإرشادها ، ومبعث الرحمة بين أفرادها مهبط الوحى بالعواطف الرقيقة قلوب مرتاديها ، يدخلها الجناة الاجراميون فيسمعون عظة من عالم متواضع فتفعل فيهم ما لا تفعله قوانين الحكومة وسجونها . فهل يفصل هذا الدين الكريم عن الدنيا ويعزل ، وهل هذا الدين هو الذى يقال فيه ذلك .

محمد عبد السلام القبانى
أستاذ بكلية الشريعة

إنما يقدس المرء عمله

روى عبد الله بن هبيرة أن أبا الدرداء كان قاضياً بالشام ، فكتب إلى سلمان : « هلم إلى الأرض المقدسة وأرض الجهاد ، فأجابه سلمان : « كتبت تدعونى إلى الأرض المقدسة وأرض الجهاد . ولعمرى ، ما الأرض تقدس المرء ولكن المرء يقدسه عمله . وقد بلغنى أنك جلست طبيباً تداوى (أى واعظا تعظ) ، فإن كنت طبيباً مبرئا فطوباك ، وإن كنت متطبباً فاتق الله لا تقتل إنسانا فتدخل النار » .

الحزبية في القرآن الكريم

ما أشبه القرآن الكريم بالكنز الفريد المجيد ـ ولله المثل الأعلى ـ ، وهذا الكنز يضم في أرجائه مختلف اللآلىء وشتيت الجواهر ، وكل ناظر فيه بالتعمق والتدبر يستطيع أن يحصل منه على بعض هذه الفرائد ، وتختلف حظوظ الناظرين فيه والعاكفين عليه من هذه الخرائد ، ولكن الجميع لا يستقصون جوانبه ولا يحصون عجائبه . ومن غرائب القرآن أنك تتابع كثيرا من ألفاظه في متباين استعمالاتها ، فترى للفظ معنى عاما واسعاً ، يشمل استعمالاته أو يغلب عليها ، ويمكنك من هذه المتابعة للفظ من الألفاظ أن تقعّد لاستعماله في الغالب قاعدة أو ما يقاربها ، ولا يشترط أن تكون تلك القاعدة موجودة بنصها وفصها عند كل استعمال ، بل تكون هي أو ما يشير إليها أو يذكر بها من قريب أو بعيد .

وللحزبية ، وما تفرع من مادتها في القرآن الكريم ، حديث قد يدخل في هذا التقعيد أو يدنو منه ، وقد تابعت استعمال « الحزبية » في التنزيل ، ورأيت أن أعرض له بالبحث ، لعل في ذلك من الفائدة ما يتلاءم مع مناسبات الزمان ، وإلا فهو على الأقل تذكير بحديث القرآن .

وقبل أن نعرض للحزبية في القرآن يحسن أن نعرض معانيها في اللغة ، فقد تتعاون المعاني اللغوية مع الاستعمالات القرآنية لتلك المادة على إيضاح ما نريد استنتاجه من ذكر ألفاظ الحزبية في الكتاب الحكيم . .

نلاحظ أن معنى الحزبية الغالب في اللغة يدل على التفرق والانقسام والاختلاف ، والشدة والغلظ أحيانا ، فقد جاء في القاموس : « الحزب بالكسر الورد والطائفة والسلاح وجماعة من الناس ، والأحزاب جمعه ، وجمعٌ كانوا تألبوا وتظاهروا على حرب النبي صلى الله عليه وسلم ، وجند الرجل وأصحابه الذين على رأيه ، وإني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب هم قوم نوح وعاد وثمود ومن أهلكه الله من بعدهم ، وحازبوا وتحزبوا صاروا أحزاباً ، وقد حزبتهم تحزيباً ، وحزبه الأمر نابه واشتد عليه أو ضغطه ، والإسم الحزابة . . وأمر حازب وحزيب شديد جمعه حُزُب ، والحزابي والحزبية مخففتين الغليظ إلى القصر كالحزاب

بالكسر ، والحزب والحزباءة بكسرهما الأرض الغليظة وجمعه حزباء وحزابي . . وحازبه كنت من حزبه » .

وفي النهاية لابن الأثير : طرأ على حزبي من القرآن فأحببت ألا أخرج حتى أقضيه . الحزب ما يجعله الرجل على نفسه من قراءة أو صلاة كالورد . والحزب النوبة في ورود الماء . . . وفي حديث أوس بن حذيفة : سألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف تحزبون القرآن . . . اللهم اهزم الأحزاب وزلزلهم . . . كان إذا حزبه الأمر صلى ، أي إذا نزل به مهم أو أصابه غم . . . ومنه حديث علي نزلت كرائه الأمور وحوازب الخطوب ، . . . ومنه حديث الإفك : وطفقت حمنة تحازب لها ، أي تتعصب وتسعى سعي جماعتها الذين يتحزبون لها . . . ومنه حديث الدعاء : اللهم أنت عدتي إن حزبت ! . . . »[1] .

وها هو ذا الراغب الأصفهاني في كتابه (مفردات القرآن) يشير إلى المعاني اللغوية العامة لكلمة (الحزب) في القرآن الكريم فيقول : « الحزب جماعة فيها غلظ ، قال عز وجل : « أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً » ، وقوله تعالى : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب » ، عبارة عن المجتمعين لمحاربة النبي ﷺ . « فإن حزب الله هم الغالبون » ، يعني أنصار الله . وقال تعالى : « يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب » .

* * *

والقاعدة العامة ، أو المعنى الغالب في استعمال القرآن لكلمة (الحزب) هو الدلالة على الانحراف إلى السوء والشر ، والرمز إلى الباطل والسفه ، فلا يرد هذا اللفظ إلا في مواطن الفسوق والإجرام ، اللهم إلا إذا أضيفت كلمة (الحزب) إلى الله فإن المقام يكون مقام خير وتبشير ، في الحال أو الاستقبال ، وأما إذا أضيفت إلى غيره فهي سوء وضلال ، في الحاضر والمآل .

وكأن القرآن يشعرنا بذلك أن الحزبية البعيدة عن صراط الله سيئة أيا كانت ، وكأنه قد استعمل كلمة (الحزب) في موطن النسبة إلى الله لمجرد المشاكلة ومجاراة السياق ، على حد

---

(١) لم ننقل عن القاموس والنهاية كل ما ورد بهما عن المادة ، بل قطفنا من كل منهما الجزء الكافي للموضوع .

قوله تعالى : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » . ولذلك نرى تعبير القرآن « حزب الله » يأتى فى سياق التعرض لحديث « حزب الشيطان » ! .

وفى القرآن الكريم ذكر لأربعة أصناف من أحزاب الشر والضلال : الأول منها أتباع الشيطان مطلقاً ، والثانى القوم الكافرون الضالون قبل محمد صلوات الله عليه وسلامه . والثالث الأحزاب الذين تألبوا عليه فى غزوة الخندق وأذاقهم الله بقوته ما أذاقهم من النكال والوبال . وقد خص الله سورة من سور القرآن الكريم باسمهم ، وكأن ذلك أيضاً من بين الإشارات إلى خطرهم وسوء تحزبهم ، فهم يحتاجون إلى التنبيه الجلى لنحذر منهم الحذر القوى ، والصنف الرابع هم شذاذ اليهود والنصارى الذين عارضوا الإسلام ، ووقفوا فى طريقه معاندين أو مفترين . . ويجمع هذه الأصناف كلها جامع الشر والسوء والضلال كما أسلفنا .

هذا هو التصوير العام لحديث الحزبية فى القرآن ، وما يستفاد منه من سمات عامة أو غالبة ، ومن حق البحث علينا بعد ذلك أن نذكر شواهد هذا التصوير من القرآن الكريم .

يقول الله تعالى فى الآية السادسة من سورة فاطر : « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » . فقد أخبر الله جل جلاله هنا أن الشيطان لنا عدو مضل مبين ، وأن حزبه على فساد وإلى سوء معاد ، ووعظنا بأن نتخذه عدوا ، لأنه ـ كما علمنا ـ عدونا الذى لا عدو أعرق فى العداوة منه ، واتخاذه عدواً يكون بمخالفته فى العقائد والأعمال ، لأنه يدعو حزبه ـ وهم شيعته ومتبعو خطواته ـ إلى ورود موارد الشقوة والهلاك ، وهل هناك أشقى ممن ينتهى إلى عذاب السعير المقيم ؟ .

وقريب من هذا قول الله تعالى فى سورة المجادلة : « استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » . وقد نتعرض لهذه الآية فيما نستقبل من البحث . وهاتان الآيتان تشيران إلى الصنف الأول من أصناف الأحزاب فى القرآن .

وننتقل إلى الصنف الثانى منها . يقول الله تبارك وتعالى فى الآية الخامسة من سورة « غافر » : « كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب » .

والأحزاب : هنا هم الذين تركوا طريق الرحمن وخالفوا الرسل ، وهم عاد وثمود ، وفرعون وغيرهم ، وقد وصف القرآن هؤلاء الأحزاب بأوصاف سيئة ، فهم طغوا وبغوا

على رسلهم ، وحاولوا ليتمكنوا منهم ويعذبوهم أو يقتلوهم ، وهم قد جادلوا بطلهم ، وهم قد أرادوا بذلك محاربة الحق : فما كانت عاقبة هؤلاء الأحزاب؟ ... «فأخذتهم فكيف كان عقاب».؟!.

ويقول الله سبحانه أيضاً في الآيتين الثلاثين ، والحادية والثلاثين من سورة غافر : « وقال الذى آمن يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ، مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد » . والأحزاب فى الآية الأولى قد فسروا فى الآية الثانية ؛ وهم قوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم ، من الذين كفروا وتمردوا وعصوا الرسل ، فوصفهم سيء ، والجزاء أليم ، فلكل حزب منهم كان له يوم دمار ، وقد فصل القرآن الكريم لنا ذلك فى مواطن كثيرة .

ومما يدخل فى هذا الصنف ما أشار إليه القرآن فى قوله فى الآية السابعة والثلاثين من سورة «مريم» : « فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من عذاب عظيم » . والآية وردت بعد قصة سيدنا عيسى عليه السلام ، والمراد بالأحزاب هنا الذين تحزبوا على الأنبياء ، لما قصوا عليهم قصة سيدنا عيسى اختلفوا فيه من بين الناس ، ولذلك أنذرهم بالويل فى يوم شديد .

ومثل ذلك الآيات التى وردت فى سورة الزخرف وهى : « ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ، ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون ، إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ، فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم » .

وفى الآية الحادية عشرة من سورة (ص) نجد القرآن يقول : « جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب » . وبعدها فى الآية الثالثة عشر يقول : « وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب » . والآية الأولى جاءت بعد آيات تصور جهالات الكفار على الرسول وعنادهم معه ، فهى تقول على لسانهم : « ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق ، أأنزل عليه الذكر من بيننا » . فرد الله عليهم قائلا : « بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب ، أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ، أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا فى الأسباب ، وهذا استنكار من الله لطريقتهم السيئة ؛ ثم أرشد رسوله ألا يبالى بهم ، ولا يكترث بجمعهم ، ولا يهتم لعنادهم ، فقال : « جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب » . ما هم إلا فئة من الكفار المتحزبين على رسل الله ، وهم مهزومون مكسورون عما قريب ، فلا تبال بما يقولون .

أحمد الشرباصى

« يتبع » مبعوث الأزهر الشريف إلى الكويت

آراء وأحاديث

بدأ حضرة السيد الأديب البحاثة صاحب التوقيع « م . ع » يكتب سلسلة أحاديث تحت هذا العنوان ، فاستهلها بما يدل على نفوذ ودقة وحرص على الاختراع والجدة ، وهى ناحية خطيرة فى الاصلاح العلمى لايهدى إليها إلا الفحول ، ولا يوفق لها إلا كل كامل من أهل البحث . إنها ناحية لو لم يكن فيها إلا تحرير الفكرة وفتح باب الاستقلال لكفى بهما يدآ طولى بيضاء على العلم .

ولقد نعى حضرة الكاتب على من خلف بعدهم ممن تركوا الإنتاج والابتكار والنقد ، ووقفوا عندما ترك الأولون فلم يزيدوا حرفا ، ولم ينقدوا رأيا ، ولم ينتجوا قاعدة .

وعد ذلك العقم مرضاً خطيراً لابد من علاجه . فإنما تتفاضل الأمم بالعقول ، وتمتاز بالإنتاج ، فكلما خصب العقل فى أمة وكثر الانتاج فيها انتفعت ببركات الحياة وثمراتها ، وسارت فى هذا الوجود على هدى .

إن جديرا بالأزهر أن تصلح مناهجه تمشياً مع دعوة التحرر ، وأن يحسن لطلابه التخير . ولو لم يكن فى ذلك الإصلاح الذى أناشدهم الله أن يحققوه إلا إصغاء إلى تلك القضية العادلة الحكيمة ، العلم أكثر من أن يحاط به ، فخذوا من كل شىء أحسنه ، لكان فى ذلك ما يكفى لتحقيق إصلاح المناهج ، وتغيير الأوضاع فيما يدرسون .

إن عاراً على الأزهر أن يُسبق فى ميدان التجديد الصالح ، وهو السباق إلى المكارم . وإن التجديد الصالح لهو أساس النشاط الفكرى ، والمظهر المشرف للحياة العلمية العقلية الرشيدة ، وهو صورة من صور التقدم والتوثب . فأما الجمود على التقليد ، فشىء تأباه النفوس الكريمة وتمجه العقول السليمة .

جدير به أن ينشط لهذه الدعوة ويعيرها ما تستحق من تقدير ، فيجمع أهل الحل والعقد من رجاله للنظر فى مناهجه ، ونبذ ما لا يتفق مع حاجة كلياته ومعاهده . وجدير به أن يكون

لجاناً من المتفوقين للتأليف فيما يحتاج إلى تغيير فى الأسلوب أو طريق البحث . ولقد تفتحت أذهان الطلاب مع حضرات أساتذته إلى هاته الناحية ، فأخذوا يرمون بعض المؤلفات ، ويشكون من عدم مناسبة أساليبها ولا لياقتها فى هذه الأوقات ، وهو شىء يبشر بروح طيب كريم ، ويدعو ولاة الأمور لالتماس العلاج والاستطباب .

نشكر لحضرة السيد الباحث أنه جرأ أقلامنا على تناول تلك الناحية ، ونرجو أن يدخل الأمر فى حده العمل الجدى ، وألا يكون مجرد إزجاء للوقت فى أقوال نظرية تخلو من تحقيق الغاية المثمرة وبالله التوفيق .

علوم البلاغة فى الميزان

هذا أول عنوان على بدأ به الكاتب الكريم بحوثه ، وسأستميحه وحضرات القراء الكرام عذراً إذا جمح بى قلم قد سنحت له فرصة أن ينفث على هذا القرطاس أولا خوالج كانت مكبوتة وأفكاراً كانت محجورة ، لأن هذه الفاتحة الكريمة من حضرة الكاتب أنشطت عقلا وحررت حبسا ، فالشىء يذكر الشىء ، وإن كان فضيلة الكاتب يعجب من الكاتبين فى البلاغة فى بعض مناهجهم فى البحث فذلك عندى شىء يسير ، فما ضر البلاغة لو أنهم تعوجوا فى تعليل لذكر أو حذف أو تقديم أو تأخير على أن يستقيم اتجاههم العام وتتحقق ثمرة الدراسة فى الجملة لطالب البلاغة . البلاغة التى جعلوها : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته . والبلاغة التى وصفها الأولون بأنها « إصابة المعنى والقصد إلى الحجة » . والتى وصفوا بها الفرزدق لأنه لقى الحسين بن على فى مسيره إلى العراق فسأله الحسين عن الناس فقال الفرزدق : القلوب معك ، والسيوف عليك ، والنصر من السماء . والتى وصف بها شبيب بن شبة لأنه يقول عند باب الرشيد وقد سئل عن الناس كيف رأيتهم فقال : رأيت الداخل راجيا ، والخارج راضيا . والتى يمثلون لها بقول على رضى الله عنه وقد قيل له : كم بين المشرق والمغرب ؟ فلم يتلعثم ، ولكنه قال : مسيرة يوم للشمس . قيل له : فكم بين السماء والأرض ؟ قال : مسيرة دعوة مستجابة . هذه البلاغة التى أعيا على الناس دركها ، وعز عليهم مطلبها ، حتى تكون هناك طبيعة صافية ، ونفس دراكة ، وتغلغل فى مزاولة أساليب الأفذاذ من الفصحاء والبلغاء فى النثر والنظم ، وفقه ذلك وإدراكه ، ومحاولة محاكاته . هذا الفن الجميل ، وهذا المعنى الجليل قد اشتراه أولئك القوم فى دعواهم أنهم رجاله وأنهم تناولوه فى كتبهم بالبحث والاخضاع لقواعد الأصول والمنطق ومصطلح

اليونان وأهل الفقه . وقد أفلسوا فى كل مؤهل للبلاغة إلا هذه المصطلحات وبعض أصول تراءى أشباحا هزيلة ، لأنه لا غذاء لها ولا منبت صالحا يحفظها ، وإنما هى أشياء تكلم الشيخ عبد القاهر بما يشبهها ، ونقل عنه السكاكى بعضاً منها فأخضعه لضوابطه وتحقيقه ، والبلاغة شىء يأبى أن يخضع إلا للذوق أو ينال إلا فى رائع النثر والنظم .

انظر كيف صرنا نضفى هذه الألقاب على من حقق فى دراسة السعد وشروحه ، وما حقق السيد فى بعض تعليقه ، وما كتب عبدالحكيم السيلكوتى ، أو العصام ، أو السمرقندى أليس هذا أعجب العجب ، لأنه تحريف مناف للحق كل المنافاة ؟

لقد صرنا نعدّ فهم هذه الاصطلاحات الوصفية والمماحكات اللفظية عملا عظيما تميز به العلماء لأنهم يستطيعون فهم معنى من عبارة معقدة ، ويرجعون الضمير ، ويبينون المشار إليه فى جملة ، ويقدرون مضافا أو مضافين ، ويجرون استعارة بالكناية على مذهب الخطيب والسكاكى والعصام والقوم .

ولقد كان أول من حمل لواء هذا الابتداع فى الانحراف بالبلاغة عن كنهها ، ووضعها فى غير موضعها ، ذلكم الرجل المتكلم الأصولى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ، ثم الخطيب القزوينى من بعده ، فقد وجدا فيما يتدارس العلماء والمتكلمون شيئا له اختصاص بمعرفة إعجاز القرآن الكريم يسمى البلاغة ظنا أنها على ذلك النحو الذى رسمه الشيخ عبد القاهر فى كتبه دراسة توجيهية كان عمادها الذوق وفهم أساليب البلغاء ممزوجا بشىء مما هدى إليه من القواعد فى سنن الخاصة من العرب والمتأدبين ، فشغلا بهذه القواعد ومباركتها والبحث فيها والزيادة عليها وضبطها . ثم ادعى السكاكى بذلك الاجتهاد والمذهب الخاص ، وأخذ يناقش القدماء فى اصطلاحهم ويجادلهم فى تقسيمهم ، ويرى أن الأقسام أحيانا قد تزيد على الحفظ وأن له طريقا فى تقليل الضبط ، وأن الربيع يطلق على الله سبحانه ، وأن المراد بعيشة راضية صاحبها ، وما إلى ذلك من نواحى الاقتصاد ليجعل للخطيب مجالا فى مناقشته ، ثم السعد والسيد فى تأييد الخطيب أو الدفاع عن السكاكى ، ثم ليترك الجميع عبارات يتنافس الأواخر فى تحريرها وتنقيحها وتفسيرها كما يفسر الكتاب والسنة وكلام العرب ، لأنها أقوال رجال برزوا فى المنطق والفصول ، وأئمة هم عندهم الفحول الفحول .

والفخر كل الفخر لمن خدم كلامهم وقدم للناس أقوالهم . وهكذا اتسع الخرق على الراقع واندست البلاغة تحت هاتيك البراقع فنسى الناس معالمها ، وجهل الدارسون أصولها

وحقائقها ، لأن رجال العلم والمشرفون عليه يقولون إن هذه هي البلاغة . ورحم الله البلاغة . بدأ السكاكى والخطيب يحصران البلاغة فى حظيرة هذه الأوراق التى كتباها ، أما السكاكى ففى مفتاحه الذى وضعه فى العلوم العربية كلها لا فى البلاغة وحدها ، وأما الخطيب ففى تلخيصه وإيضاحه . ولو وقف الأمر عند ذلك الحد لوجد طلاب العلم متفسحا من الزمن يسيرون فيه مع الاستعداد الخصيب على ضوء ما بقى من توجيهات ، إلى مدارسة الأدب وخصائص لغة العرب ، حتى يتكون الذوق ويصح تصور الإعجاز ولو إلى حد ، وحتى تتكون ملكة الأداء ويقع التفريع بين الصحيح والتقسيم فى صور الأداء ، ولكن شروح المفتاح وشروح التلخيص قد تعهدا بالبقية من الزمن والعمر مع البقية من الذوق والفهم فأضاعاها على طلاب العلم ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ثم جاء الأزهر المعمور يجدد ما درس من كتبهم ، ويحيى معالم معارفهم ، وقد جاز ذلك يوم كانت مدرسة الألفاظ هى المدرسة القائمة ، ولم تكن بين أيديهم مدرسة البلاغة الأدبية فى كتب أبى هلال وابن الأثير والثعالبي وابن رشيق والجاحظ . أو كتب قدامة ومن على شاكلته من أهل التفلسف الذى لا يعطى معالم البلاغة ولا يحجبها بحجب جمة بين المصطلح الشريف وشرح ألفاظ المتون ثم ألفاظ الشروح ثم اختيار الحواشى وترجيح واحدة على أخرى ثم التقارير وما حوت من معارف فى كل شىء عدا البلاغة .

فلئن شاء القارىء من غير رجال الأزهر ، أو أراد رجل الأزهر ، أن يجدد العهد بطرق بحثهم إجمالا فى هذه المناسبة ليتصور كيف جنى هؤلاء ومن تبعهم من حيث لا يقصدون ولا يحتسبون على بلاغة العرب ، ودراسة الرحيق المختوم من أساليب الأدب ، فليتذكر بعض ما يعجلني به الخاطر الآن من مقدمات ووسائل فى دراسة المسائل : فالبلاغة المقصودة بالدرس لها أصل هو الفصاحة ، كما حكم الإمام السكاكى .

فأما الشيخ عبد القاهر فهو يسوى بين الفصاحة والبلاغة فى كتابه ، ثم هذه الفصاحة تكون فى عدة أشياء : المفرد ... الخ ، ثم هى فى المفرد خلوصه ، ثم تفسير الفصاحة بالخلوص لايخلو عن تسامح ... ثم لماذا ؟ لأن أحدهما وجودى والآخر عدمى . ثم تخوض الحواشى والتقارير فى معركة الوجودى والعدمى ، والفرق بينهما ، ويطول المقام جداً حتى يسمحون بنقلك إلى أصل البحث : ما المراد بالمفرد ، وهل يشمل المركب غير المفيد ، هل المركب غير المفيد داخل فى الكلام . وكيف ولماذا . ثم ما التنافر وهل هو ذوق ،

أهو كما يقول بعضهم يرجع إلى الخارج أو الصفات وكيف تكون « أعهد » في « ألم أعهد » فصيحة . ما معنى الغرابة ، وما المراد بالمسرج ، وماذا قال المرزوقي في المسرج ، وهل « أزمان » في قول العجاج اسم امرأة . وهل الكراهة في السمع قسم مستقل يجب الاحتراس عنه لتحقق الفصاحة ... ؛

ما اعراب مع فصاحتها وما الفساد الذي يترتب على بعض وجوه الاعراب ، ومن المنتصر في معركة الاعراب ، ما المثال الفذ ، للتعقيد المعنوي . هو بيت العباس بن الأحنف الذي ذكره عبد القاهر . ألم تجدوا في الأدب غيره ، ولكن استغفر الله هل فرغوا من مناقشاتهم في فهم العبارات ؟

وهكذا تسير في هذه المقدمة لتصوير البلاغة وحصر موادها بالعمليات الحسابية ، وولادة أبوابها بالطرق الطبية الفلسفية ، ثم وضع أسمائها وكتابتها على شهادات الميلاد حتى لا تضيع ولا تنسى ، وما يعترى ذلك من بحوث نفيسة قد يجود بها السعد في الشرح المطول لأنها من ذخائر المعارف ، وكنوز المصطلح الشريف . وكانت تدرس في عام طويل قبل النظام ، فإذا انتقلت إلى أول أبوابها « الإسناد الخبرى » فما الإسناد ، وما محترزات القيود ، وهل الإسناد مرادف للحكم . وما معانى الحكم الخ الخ ثم ما المراد بالخبر ولماذا . وما الفائدة ، وما المراد باللازم ، ولماذا كان لازما . ويقول السكاكى إن الأولى بدون الثانية تمتنع ، ولكن الثانية بدون الأولى لا تمتنع كما هو حكم اللازم المجهول المساواة ... وتسير طويلا حتى تصل إلى أن الإسناد منه حقيقة عقلية ومجاز عقلى ، وما قيود كل وما المحترزات وما صور كل منهما حتى لا يلتبس بالآخر ؟ ومعركة عبد القاهر والرازى في أن هل كل مجاز عقلى له حقيقة ؟ فيقول الرازى لابد لكل فعل من فاعل ، فإن ظهر وإلا فهو الله سبحانه .

وهكذا حتى ينتهى باب الإسناد وهو أحد الأبواب الثانية للمعانى وحدها وهو أقلها ، وما خرجت منه فيما يسمونه البلاغة بأكثر من أضرب الخبر على مقتضى الظاهر أو خلاف مقتضى الظاهر ، ثم الحقيقة الفعلية والمجاز وقرينته .

فإذا صرت إلى الباب الثانى : أحوال المسند إليه ، فما المراد بالأحوال ؟ وهل الحال هو الأمر الداعى الذى تقدم التنويه به ؟ وما الداعى إلى تقديمه المسند إليه ، ولماذا عبر

فى جانب المسند إليه بالحذف ، وفى جانب المسند بالترك . وهل صورت لك دواعى الحذف تصويراً يميز لكل واحد . وهل مثلوا كل داع على حدة فتجدد المعلومات ، أم لملك تحير فى تصور النكات وهى لا تتزاحم . والذكر لماذا ؟ لأنه الأصل ولا مقتضى للعدول . وهل الأصل نكتة بلاغية . وما الفرق بين المعانى الأولية والمعانى الثانوية . ثم التعريف . . ولماذا يكون بالاضمار . ولماذا يكون بالعلمية ، وما العلمية ، وهل القيود للاحتراز ؟ أم لعلها لتحقيق مقام العلمية فهو مقام خطير . وهكذا تسير على ذلك المنوال من المسند إليه وتمر بهذه المباحث النفيسة وفيها سلب العموم عند المناطقة ، وهل يشمل سلب العموم عموم السلب ويصدق عليه ، وما مذهب ابن مالك فى ذلك .

هكذا هكذا تسير . فلا تخرج من هذه البلاغة بفنونها الثلاثة إلا وقد مررت بعدة بحوث فى مختلف العلوم ولا سيما المنطق والمقولات (الكيف والأين والمتى الخ) .

وهل تستطيع أن تمله كذلك إلا وقد درت فى كل فن من تلك الفنون وأخذت منه بطرف صالح .

هذا إلى ما يحشون به ذهنه من ألفاظ (ثبوت النسبة واللاثبوتها : الغير والأين) المعنى المصدرى والإسمى ، هل البسيطة والمركبة ، وجود الشىء ووجود الشىء للشىء وغير ذلك لا استقصيه الآن ، ولكنى لعمر القارىء الكريم أكتب من الذاكرة لا من مرجع أمامى من طول ما زاولت هذه الكتب فنضحت على منها بالشىء الكثير .

وبعد فهل بعد هذا العناء والدرس كان يزاولها بليغاً ، وكانت له ملكة نقد فى النظم والنثر ، أو مقدرة على كتابة أو خطابة أو شعر كما تعطيه عبارة (البلاغة العربية) ؟ لا والله إنها لتبعد عن البلاغة بما تضيع من وقت فى غيرها ، وبما تحشو به الذهن من كلها وجملتها ومتى كان واحد من هؤلاء بليغاً يحسن التعبير عما فى الضمير ؟ وهل فاقد الشىء يعطيه ؟ إن العمليات نفسها قد دلتنا على الحقائق ، فهل آن لكم أيها الناس أن تدرسوا البلاغة الأدبية التى لا ترجع إلى الحكم العقلى ومصطلحاته ؟ هل تتلمسون ذلك فى الأدب نثره ونظمه وفيما بين أيديكم من كتاب الله وسنة رسول الله ؟ وهل آن أن تتعلموا حكومة الذوق التى لا تخطىء ولا تحيد ، وهل آن أن تقرءوا إن شئتم التوجيه كتب العسكرى والآمدى والجمحى وابن الأثير الجزرى وابن رشيق القيروانى حتى تكونوا لأنفسكم نقداً وذوقاً ، ثم تكتبوا مثل ما يكتبون ؟ اللهم وفقنا وبصرنا الحق وأما المناقشة مع السيد الكريم صاحب التوقيع م . ع ، جزاه الله خير الجزاء فإلى العدد المقبل إن شاء الله حتى تستمر هذه المساجلة النافعة

محمود النواوى

الفتاوى

جاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

شرعت بلدية الكويت فى إنشاء طريق داخل مدينة الكويت وخارجها واستعانت فى ذلك بمهندسين رسموا الخرائط التى تتفق مع التقدم العمرانى . وقد اعترض أحد الشوارع المراد أنشاؤها خارج الكويت مسجد جديد لم يبنه واقفوه إلا بناء بدائياً وهذا المسجد يدخل جزء كبير منه فى الشارع لو مر على استقامته . ومما لا شك فيه أن الشارع المستقيم يسهل سير المارة والسيارات أكثر من الذى يتخلله انحراف واعوجاج . وفى إمكان البلدية إذا أزيل هذا الجزء من المسجد أن تصل باقيه بقطعة من الأرض أعظم مساحة من الجزء المزال وتتكفل بعمارته على نظام أحسن مما هو عليه .

ولما كان الإقدام على مثل هذا العمل يتوقف على العلم بجوازه شرعا — وعلماؤنا مختلفون فى ذلك — فنرجو إفادتنا .

وبهذه المناسبة نرجو أن تكون الفتيا عامة فيما تتخذه نحو جميع المساجد والمقابر التى تعترض الطريق المزمع إنشاؤها مع العلم بأننا لا نهدف إلا المصلحة العامة المتفقة مع تقدم الكويت ، والتى تستوجب إنشاء وإصلاح الطرق على هيئة تكفل الأمن والنظام .

مدير بلدية الكويت

الجواب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال وتفيد بأنه قد جاء فى الجزء الثالث من حاشية ابن عابدين على الدر المختار من كتب الحنفية أنه إذا كان الطريق ضيقاً والمسجد واسعاً لا يحتاج إلى بعضه جازت الزيادة فى الطريق من المسجد لأن كلا منهما للمصلحة العامة ، وهذا هو المعتمد وعليه متون المذهب .

وجاء فى كتب المالكية أن ما كان لله فلا بأس فيه أن يستعان ببعضه فى بعض، ومعنى هذا أنه يجوز توسيع الطريق من المسجد والمقبرة، كما يجوز توسيع المسجد من الطريق والمقبرة وتوسيع المقبرة من الطريق والمسجد، تراجع حاشية العدوى على الخرشى على متن خليل فى باب الوقف.

وجاء فى اختيارات ابن تيمية الحنبلى أن جمهور العلماء جوزوا تغيير صور الوقف للمصلحة، وأنه إذا كانت هناك حاجة فإنه يجب إبدال الوقف بمثله، أما من غير حاجة فإنه يجوز الإبدال بخير منه لظهور المصلحة، ثم قال: ونقل صالح، عن أحمد، أنه ينقل المسجد لمنفعة الناس.

ومن هذه النصوص يتبين أنه متى كانت الحاجة ماسة الى أخذ جزء من المسجد لتوسعة الطريق واستقامته تيسيرا على المارة والسيارات فإنه يجوز أن يؤخذ ذلك الجزء من المسجد للطريق العام.

وإذا كانت إدارة البلدية مع هذا قد التزمت فى موضوع السؤال بتعويض المسجد بأكثر مما يؤخذ منه، والتزمت أيضاً بإعادة بناء المسجد أحسن مما كان عليه فإنه يجوز بالأولى.

هذا - وكما يجوز ذلك فى المسجد أخذاً من هذه النصوص - يجوز أن يؤخذ من المقابر ما يوسع به الطريق ولكن بعد أن ينقل رفات الموتى الى المكان الذى يجعل مقبرة، كما نص على ذلك الفقهاء.

هذا هو الحكم الشرعى فى هذه المسألة على المذاهب التى قدمنا نصوص فقهائها - وعلى ولاة الأمر أن يقدروا هذه المصلحة العامة الواضحة ويعملوا على وفقها بالنظر الى المساجد والمقابر والطرق العامة.

وبهذا علم الجواب عن السؤال، والله أعلم ؟

٦ جمادى الأولى سنة ١٣٧٢ رئيس لجنة الفتوى

٢٢ يناير سنة ١٩٥٣

جاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

يوجد فى سوريا أيتام وفتيات غرباء ، أصلهم من أبناء المملكة العربية السعودية ، وقد أمر الله البعض من محسنى المملكة بأن يهتموا بالأمر الذى يكفل سعادة هؤلاء الأيتام الفقراء أبناء السبيل بحث أن يبنى لهم ملجأ فى دمشق يكون مأوى لجمع شمل الفتيات الغريبات اللواتى لا أزواج لهن ولا كاسب يعولهن ، وللأطفال الذكور أيضاً الذين لم يبلغوا سن الرشد ، فهل هناك مانع شرعى من دفع الزكاة الشرعية بهذا السبيل . نرجو الإفادة .

فهد بن مازن
مندوب الحكومة العربية السعودية لمقاطعة
إسرائيل بدمشق - بالسفارة السعودية

الجواب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال ، وتفيد بأن صرف الزكاة فى إنشاء الملاجىء والإنفاق فى مصالحها جائز شرعاً ، لأن ذلك من الإنفاق فى سبيل الله ، الذى جعله الله تعالى مصرفاً من مصارف الزكاة فى قوله سبحانه : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » .

وذلك أن « سبيل الله » علم يتناول كل ما هو من وجوه الخير والبر ، وجاء فى كتاب بدائع الصنائع للكاسانى فى فقه الحنفية (وأما قوله تعالى « وفى سبيل الله » فهو عبارة عن جميع القرب ، وقال الفخر الرازى فى تفسيره الكبير ، واعلم أن ظاهر اللفظ فى قوله « وفى سبيل الله » لا يوجب القصر على الغزاة ، فلهذا المعنى نقل القفال فى تفسيره عن بعض الفقهاء أنهم أجازوا صرف الصدقات إلى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وبناء الحصون وعمارة المساجد لأن قوله « وفى سبيل الله » علم فى الكل) ا . هـ .

وظاهر أن ذكر تكفين الموتى وما عطف عليه إنما هو لمجرد التمثيل لبعض وجوه الخير التى تتناول هذا وغيره . وبهذا علم الجواب عن السؤال . والله أعلم .

١٩ جمادى الأولى سنة ١٣٧٢
٤ فبراير سنة ١٩٥٣ رئيس لجنة الفتوى

مملكة تقلى

– ٣ –

انتهينا فى مقالنا السابق ، إلى أن « جيلى أبا جريدة » ترك بعد وفاته ، مملكة راسخة القواعد ، قوية البنيان ، وخلفه على عرش المملكة ، ابنه « سابو Sabo » الذى نقل قاعدة ملكه من « الهوى » إلى « تودم To'dim » ، ومن القاعدة الجديدة ، واصل « سابو » نشر الإسلام ، وتوسيع ملكه ، وسار على سياسته من بعده ، ولداه ، « جيلى محمارة » و « جيلى أبو شيميرا » ، وكذا حفيده ، جيلى عوان الله » ، وقد اعتلى كل منهم العرش على التوالى ، ودفنوا جميعاً ، فى حوش « الهوى » ، حيث ترقد رفات « جيلى أبو جريدة » ، ويمكن اليوم مشاهدة أطلال مقارهم ، ومقابر من يلوذ بهم من الأقرباء والوزراء .

ونحن نعرف القليل عن الحياة الشخصية لهؤلاء الملوك الأوائل ، غير أننا نعرف الكثير عن اتساع المملكة فى عهدهم . وتقلى – مثل روما – لم تشيد فى يوم واحد ، ولقد نما نفوذ هؤلاء الملوك ، أول الأمر بطيئاً ، ثم لم يلبث أن أصبح لهم السلطان المطلق فيما بعد ، وسر نجاحهم كامن ، فى احتضانهم الدعوة ، إلى الإسلام ، وكانت أهداف هؤلاء الملوك مزدوجة ، فهم يريدون نشر العقيدة الإسلامية من جهة ، وهم إذ يفعلون ذلك ، فإنما يمكنون لنفوذهم الشخصى من جهة أخرى ، واستطاعوا أن يظلوا بسلطانهم تقلى ، وما جاورها من التلال ، وساروا فى نفس الدرب الذى سلكه ، جيلى أبو جريدة ، من تشجيع الهجرة إلى بلادهم ، وعن طريق ذلك ، احتكوا بالعالم الخارجى ، وجذبوا إلى تقلى كثيراً من رجال الدين والتجار والمغامرين من كل نوع ، وكانت أيام هؤلاء الملوك ، باختصار ، عصر هجرة عربية إلى السودان ، وعصر عزة وفخر لهؤلاء العرب .

ولقد وفد على تقلى ، بعض مبعوثى ملوك الفنج ، من رجال الدين ، للتعريف بالإسلام وكان من بين هؤلاء ، « حسن ولد حسونة » و « تاج الدين البخارى » ، وزار كلاهما تقلى فى أوائل القرن السابع عشر ، وكان هدفهما من هذه السياحة مزدوجاً : المتعة الروحية بنشر الإسلام فى هذه الأوكار الوثنية ، والحصول على الكسب المادى بالمتاجرة فى هذه الأصقاع .

وكان من عادة ملوك تقلى ، إذا قدم لهم أحد هؤلاء الدعاة الإسلاميين ، أن يعينوا له منطقة وثنية ، لتكون ميداناً لنشاطه التبشيرى ، وذلك فى مقابل بعض الفوائد المادية ، التى يحصل عليها من السكان دون إكراه ، وكثير من رجال الدين هؤلاء ، ومن التجار ، كانوا يقررون الاستيطان فى تقلى ، وكانوا يمنحون الملك بعض المال ، باختيارهم ، فى نظير حمايته لهم .

وبهذه الوسائل ، استطاع ملوك تقلى ، نشر العقيدة الإسلامية فى ديارهم ، كما استطاعوا بذلك أيضاً توطيد أركان ملكهم : لأنهم أضحوا حماة العقيدة الجديدة ، وأخذوا يضمون لملكهم ، الجبال تباعاً ، وتزاوج المهاجرون الجدد ، مع أهل البلاد الأصليين ، ولا زالت الذرارى الناتجة عن هذه المصاهرات ، موجودة فى كل الجبال الشمالية الشرقية ، فى هيئة قبائل وعشائر ، ومنهم الآن ، مشايخ القرى ، فى تلك الجهات .

وقبل مضى وقت طويل ، قويت مملكة تقلى بادىء ذى بدء ، بهذه الوسائل السلمية لدرجة مكنت الملوك ، فيما بعد ، من توسيع نطاق ملكهم ، بالقوة الحربية ، وبالرغم من أن مملكة تقلى ، قد أصبحت بغير حاجة ، إلى مهاجرين جدد ، إلا أن سيل الهجرة لم يتوقف ، ومن هؤلاء المهاجرين ، تكون الجنس الخليط الذى يقطن تقلى اليوم .

ولم يكد ينتصف القرن السابع عشر ، حتى كان لملوك تقلى ، السيطرة التامة ، على كل الجبال الشمالية الشرقية ، ولما كان هؤلاء الملوك على علاقة حسنة بملوك سنار ، فإنهم استطاعوا ، أن يضموا تحت لوائهم المهاجرين من الفنج ، وكان من هؤلاء مكوك ، رشاد ، و « تاجوى » و « قدير » ، ويمكن أن نرجع نجاح هؤلاء الملوك فى سياتهم إلى عدة اعتبارات : منها أنهم أظلوا الأرض بظلال القانون والنظام ، وهى عناصر لم تكن موجودة من قبلهم ، ومنها طرقهم فى الاستعمار ، ومنها شجاعتهم الشخصية ، ومنها ـ وهو أهم هذه الاعتبارات جميعاً ـ أنهم جاءوا معهم بالإسلام ، واستطاعوا بكل ذلك ، أن يجعلوا لبيتهم مركزاً محترماً مرموقاً ، بين مواطنيهم ، وظل العرش وراثياً فى ذريتهم ، مدة أربعمائة عام ، وقليل من البيوت الحاكمة ، من تهيأت له أسباب العزة والمنعة ، كذلك البيت الذى استطاع بوسائله أن يوجد مجتمعاً متحداً سعيداً .

وخلف « جيلى عبد الله » ابنه « جيلى أبو قرون » الذى حكم من عام ١٦٤٠ إلى عام

١٦٦٥ م . ومعلوماتنا عن هذا الملك قليلة . ولقد تزوج من « أجم شيلا » ابنة الملك « الرباط ابن بادى » ملك سنار . وقد أحضرت هذه الأميرة معها كثيراً من الاتباع ، أحلتهم فى حوش « بالولا » التى انسحبت إليها عقب وفاة زوجها . ومعظم النُقنج فى تقلى من هـذه الحاشية وسلالتها (١) . وكان هـذا الزواج الملكى سبباً فى تقوية أواصر الصداقة بين سنار وتقلى ، غير أن هذه الصداقة ، ما لبثت أن انفصمت عراها ، عندما هاجم « بادى الثانى أبو دقن » مملكة تقلى فى عهد « أبى قرون » .

وكان لأبى قرون هذا ، ولدان ، من هذه الأميرة السنارية ، وكلاهما قد اعتلى العرش . وعاشت الأميرة عمراً طويلاً ، ولعبت دوراً هاماً ، فى تاريخ مملكة تقلى ، سنعرض له فيما بعد .

وفى منتصف القرن السابع عشر ، ازداد سلطان ملوك تقلى ، وأصبحوا حكاماً طغاة ، فأخذوا يجبون الضرائب ممن يمر بمملكتهم ، وكل مسافر لا يتفق معهم على هـذه الضريبة يكون معرضاً لنقمتهم . وقد عرّض « جبلى أبو قرون » بسياسته الخرقاء ، نفسه ومملكته للخطر ، عندما عامل صديقاً لملك سنار معاملة سيئة ، وزاد على ذلك ، أنه تحدى علناً ملك سنار ، معتقداً أن فى جباله المنعة والعصمة . وقبل ملك سنار التحدى ، وسار هو ورجاله صوب جبال النوبة ، فوصلوها ، وذبحوا كثيرين من أهلها ، وأسروا كثيرين ، ثم تقدموا حتى وصلوا تقلى فحاصروها ، وكان الملك « أبو قرون » قد حصنها ضدهم . غير أنه عامل المحاصرين معاملة كريمة ، مما دفع ملك سنار ، إلى فك الحصار . واتفق الطرفان على جزية سنوية ، تؤديها تقلى إلى سنار . وبذلك أصبحت تقلى تابعة أو خاضعة لسنار ، ولم تعد كما كانت دولة مستقلة ذات سيادة . وساد الوئام بين المملكتين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، على اعتبار أن ملوك سنار سادة لملوك تقلى .

وتوفى الملك « جبلى أبو قرون » ودفن فى « كيريا » ، وخلفه على العرش ابنه الأكبر « محمد » الذى بنى قلعة فى « تاسى » واستقر هو وخلفاؤه فى هذه القلعة مدى قرنين من الزمان . وخلف « محمداً » أخوه « عمر أبو زِنْتير » وهو أول ملوك تقلى ، الذين يذكرون ، فنذكر معهم الصفات السيئة . فالظلم والقسوة والطغيان ، كانت السمات العامة لعهده ،

(١) مثل عائلة « اريد » ومنها عمدة « بالولا » .

لذا كرهته رعيته . وقد كانت أمه تخشاه ولا تثق به ، فعملت على إقصائه عن العرش ، واستخلاصه لحفيدها « اسماعيل » ابن ولدها « محمد » . ويقال إنها أعدت طبقاً من الطعام ، ودست له فيه سماً ، وقدمته له . ولما اكتشف « عمر » السم ، طار صوابه ، وذبح ثلاثين من عبيده ، ظناً منه ، بأنهم هم الذين دسوا له ذاك السم .

وأثارت هذه المذبحة نيران الثورة عليه ، فى تقلى كلها . وطرد هو وأتباعه عنوة واقتداراً ، ونصب إسماعيل بدله ، ملكا على تقلى . ودارت حروب بين إسماعيل وعمر ، كان عمر الخاسر فيها . وذهب إلى سنار يلتمس معونتها ، عملا بنصيحة أمه التى كتبت سراً إلى قريبها ملك الفنج ، تطلب منه فيه حجز عمر ومنعه من العودة إلى تقلى ، بل وقتله إذا أمكن .

ولما وصل « عمر » وأتباعه إلى سنار ، استقبلهم الملك « بادى الأحمر » ملك الفنج استقبالا كريماً ، وكان الملك آنذاك مشغولا بثورة إحدى القبائل فى الجهات النائية من مملكته فرغب إلى « عمر » أن يذهب للقضاء على هذه الثورة ، مؤملا الخلاص منه فى هذه الثورة ، ورضخ « عمر » لذلك ، مع إدراكه قلة الفرصة فى النجاح ، ولكنه استطاع أن يخضع الثوار وعاد ظافراً إلى سنار . فأغدق عليه الملك الهدايا ، ووعده ـ غير صادق ـ بمساعدته على استعادة عرشه المسلوب ، وترك « عمر » سنار بناء على هذا الوعد ، وعول الملك على إغراقه فى مياه النيل الأبيض عند عبوره ، وقد كان ، وأغرق بحارة « بادى الأحمر » القوارب ، فذهب « عمر » وأتباعه إلى قاع اليم ، ما عدا اثنين من أتباعه ، نجوا من الغرق ، وربما شطر تقلى يقصان مأساة « عمر » .

وإلى مقال قادم ، نعرض فيه بإذن الله حلقة جديدة من حلقات هذا البحث ؟

عبد المنعم محمد الشيخ
مدرس أول الآداب بمعهد الزقازيق

قضية فلسطين

وخذلان ألمانيا الغربية بحيادها في اتفاقية التعويضات لإسرائيل

حديث لفضيلة الأستاذ الأكبر

قال مندوب « الأهرام » الخاص :

أتيح لي أن أقضي بعض الوقت مع فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين ، شيخ الجامع الأزهر ، وهو رجل أحبه وأوثره المودة والتقدير ، لما جبل عليه من صفات الرجل المؤمن ، وكان على غير عادته ، إذ كان يبدو غضبان أسفا . وقد أعرب حقا عن ألمه البالغ حين تحدث إلى في مسألة إسرائيل والتعويضات التي رأت ألمانيا الغربية أن تمدها بها .

قال الشيخ الأكبر في عنف وغضب :

لو أن المؤرخين أرادوا أن يؤرخوا أسوأ مثل لأقبح حادث أسيء به إلى الإنسانية ومبادئها في القرن العشرين ، لما وجدوا أبلغ من تاريخ هذا الحادث المروع الذي تألبت فيه بعض دول الغرب وعاونت على إخراج أهل فلسطين الشرعيين من بيوتهم وبساتينهم وحقولهم ومتاجرهم ومصانعهم ، ليحلوا محلهم فيها أقواما من اليهود الغرباء الذين كانوا أشتاتا في مختلف أقطار الشرق والغرب ، من بلاد روسيا إلى أقصى أودية اليمن وجبالها .

هذا الحادث الإنساني الأليم الذي كان من نتائجه أن العنصر اليهودي المتعرب الذي كان تعداده في فلسطين سنة ١٩١٤ أقل من عشر السكان الشرعيين ، فما زال يتزايد هذا العدد شيئا فشيئا بالحشود التي كانت تنضم إليهم من المهاجرين غير الشرعيين ، الذين حملتهم الحركة الصهيونية بمعاونة المحتلين على مزاحمة أهل البلاد الحقيقيين في مساكنهم ، وضيقوا عليهم الخناق في ممتلكاتهم ومعايشهم وحريتهم ، حتى لقد أصبحوا الآن أصحاب الدولة في البلاد ، بينما أضحى أصحاب البلاد مشردين فيها تحت كل نجم : يعانون آلام البرد والزمهرير شتاء ، ولهب القيظ صيفا ، حتى صاروا في حالة من الضنك والهوان والبؤس والشقاء توجب الاشفاق والرحمة ، من قلوب تشعر من معاني الرحمة بما لا تشعر به قلوب كبار ساسة الغرب .

إن إسرائيل الباغية على أهل فلسطين لا تزال فى حالة حرب مع مصر والدول العربية والأمم الإسلامية ، بسبب تلك الجريمة التاريخية ، وكان ينبغى على الحكومات المحايدة ، وفيها ألمانيا الغربية ، أن تلتزم الحياد التام بين العرب وإسرائيل ، فلا تعين إحداهما على الأخرى ، ولا تبسط يد واحدة لتغل يد الأخرى ، ولكن مما يؤسف له كثيرا أن ألمانيا الغربية قد أخلت بهذا الحياد الذى كان واجبا عليها أن تلزم نفسها به ، فجاءت تمثل فصلا جديداً فى هذه الرواية المخجلة للضمير الإنسانى ، إذ تقدمت بمبلغ ٨٣٠ مليونا من الدولارات تعهدت بأن تسلمه إلى حكومة إسرائيل ، أقساطا مقسطة ، بعضها مال وبعضها عتاد من منتجات مصانعها ، بدعوى تعويض اليهود ـ الذين قبل إن هتلر قد طردهم من بلاده ـ عن الخسائر التى تكبدوها ، مع أن هؤلاء اليهود الذين طردوا من ألمانيا كانوا رعايا ألمانيين .

والقوانين الدولية لا تلزم أية حكومة بدفع تعويضات من غير طريق القضاء ، فى الدعاوى التى تقام من أشخاص كانوا من رعايا تلك الدولة . وفضلا عن ذلك فإن إسرائيل التى يراد دفع هذه التعويضات إليها ليست هى التى تستحقها ، وكان الوضع السليم يقضى على ألمانيا بدلا من أن تدفع هذه التعويضات ، أن تفتح أبوابها ليعود إليها كل يهودى يثبت انه أخرج من ملك كان له فى ألمانيا ، وأن يعود إلى فلسطين كذلك كل عربى يثبت أنه اخرج من ملك كان له فى فلسطين . أما العدول عن ذلك الى أن تعطى ألمانيا الغربية مئات الملايين من الدولارات لاسرائيل ، وهى فى حالة حرب مع مصر والدول العربية والعالم الإسلامى ، فإن ذلك يعد من ألمانيا الغربية إخلالا بقواعد الحياد ، ويصورها فى صورة المتالع مع أحد الطرفين المشتبكين فى حرب ضروس سجال ، وتعده الدول العربية تهديدا لها ، وإطالة لحياة حكومة إسرائيل عشرة أعوام أخرى أو أكثر ، بينما هى تعيش الآن على الصدقة والاستجداء ، وسيكون هذا العمل من ألمانيا الغربية سابقة تستعين بها إسرائيل على أخذ تعويضات أخرى من بلاد يزعمون ان بنى جلدتهم اضطهدوا فيها أيضا ، ومنها النمسا وألمانيا الشرقية وهنغاريا ورومانيا وبولندا . الخ ...

ويجب أن تعلم ألمانيا الغربية أن مساعدتها هذه لإسرائيل ، ستخل بالتوازن الحالى فى الشرق الأدنى ، وتمكن إسرائيل من القيام بعدوان جديد على البلاد العربية ، بينما الذين يدعون أنهم الأوصياء على السلام العام واقفون يتفرجون على هذه المهزلة التى لم يسبق لها نظير فى العالم .

إن إسرائيل ليست وريثة لحقوق اليهود المزعوم أنهم تضرروا من حكومة هتلر ، لذلك لا يجوز أن تعتبر طرفا فى تسوية مع ألمانيا الغربية ، على حقوق يهود لم يكونوا يومئذ من رعايا إسرائيل ، بل لم تكن حكومة إسرائيل هذه موجودة فى الدنيا يوم وقع الاضطهاد المزعوم من ألمانيا على رعاياها اليهود .

وحكومة إسرائيل هذه لا تعترف بحق التعويض فى القانون الدولى ، ولو كانت تعترف بهذا الحق الموهوم بالنسبة لليهود الألمان الذين كانوا قبل وجودها ، لكان ينبغى لها أن تعترف بالحق الأبلج الماثل أمام أعينها وأعين رجال حضارة القرن العشرين للاجئين العرب الذين أخرجوا من ديارهم وبساتينهم وحقولهم ومتاجرهم ومصانعهم ، وقررت الأمم المتحدة التعويض لهم ، فهزأت إسرائيل بقرارات الأمم المتحدة ، وألقت بها فى سقط المهملات .

إن يهود ألمانيا الموجودين الآن فى فلسطين وتزعم إسرائيل أنها تتقاضى التعويضات من ألمانيا الغربية باسمهم ، قد هاجر معظمهم إلى فلسطين قبل اضطهاد هتلر لليهود وقسم كبير منهم جاء الى فلسطين بعد انقضاء حكم النازى فى ألمانيا ، وقد جاءوا الى فلسطين فى الحالتين عند ما كانت فلسطين آهلة بأصحابها الشرعيين من العرب ، فكان مجيئهم الاختيارى إلى فلسطين اضطهادا منهم للعرب وبغياً عليهم واغتصاباً لوطنهم ، حتى بلغ عدد العرب الفلسطينيين الذين شردوا من وطنهم الشرعى تحت ضغط الصهيونية العالمية أكثر من مليون نسمة نساء ورجالا ، أطفالا وشيوخا ، فانتزعت منهم ديارهم فى غير شفقة ولا رحمة ، ولأول مرة فى التاريخ يشرد سكان متوطنون فى بقعة ما ، ليحل عليهم أناس غيرهم بزعم أنهم شردوا من بقاع أخرى .

إن النازى غير موجودين اليوم ، فأعيدوا المشردين الألمان إلى وطنهم فى ألمانيا ، وأعيدوا المشردين من عرب فلسطين إلى وطنهم فلسطين ، وإلا فإن دعوى الإنسانية والحق فى بلاد الغرب المتمدنة تكون من أكبر الأكاذيب التى سيسجلها التاريخ لتخجل منها الأجيال الآتية مادام للإنسانية ومبادئها أنصار صادقون فى العالم .



اختر بين هذين الأمرين

هذا نمط جديد استحدث فى كلام الكتاب . وفى صحيفة المصرى الصادرة فى ١٩٥٢/٦/٢٣ « وعلى أن يكون للسودانيين حق الاختيار بين الوحدة أو الانفصال فى استفتاء حر خال من كل شائبة » . وقول الكاتب : « أو الانفصال » الصواب فى هــذا الموطن أن يقال : « والانفصال » بالواو لا بأو ؛ فإن لفظ « بين » لا يضاف إلا إلى متعدد ، وأو لأحد الشيئين أو الأشياء ؛ كما هو واضح مستبين .

واستعمال « بين » مع الاختيار ، غير معروف . وإنما يقال : اختر أحد الأمرين ، أو اختر من الأمرين ما تشاء ، أو اختر الأمرين ما تشاء على حذف « من » ؛ وذلك على حد ما جاء فى قوله تعالى : «(١) واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا » والأصل : اختار من قومه ... ، وكما قال الشاعر :

اخترتُك الناسَ إذ رثّت خلائقهم واعتل من كان يرجى عنده السؤل

وقال الفرزدق :

ومنا الذى اختير الرجال سماحة وجوداً إذا هبّ الرياح الزعازع

وإنما تأتى « بين » مع صيغة التخيير ، تقول : خيرته بين الأمرين ، وكأن ذلك لأن التخيير يتضمن الترديد ؛ فإذا قلت : خيرتك بين أمرين فكأنما قلت : أرددك وأميلك بين الأمرين . فأما الاختيار فجزم بالمختار واقتصار عليه ، فلا موطن فيه للفظ « بين » . وفى المصباح : « خيرته بين الشيئين : فوضت إليه الاختيار ، فاختار أحدهما ، وتخيره » . وقد يقال : أنت بين أمرين فاختر أحدهما ، أو اختر بحذف المفعول ؛ كما قال الأعشى :

فقال : ثكل وغــدر أنت بينهما فاختر وما فيهما حظ لمختار

(١) آية ١٥٥ سورة الأعراف .

إنى مقدر لك جهدك وإخلاصك للعلم

يكثر هذا الأسلوب فى معرض عرفان الفضل وتعظيم صاحبه وتبجيله. وفى كلمة وزير المعارف عند افتتاح المجمع اللغوى يخاطب أعضاء المجمع [١] : تشرفت بحضور هذا الاجتماع وإنى أنتهز هذه الفرصة لأحييكم وأرحب بكم، وأهنئكم بثقة حضرة صاحب الجلالة الملك وبتقدير الحكومة المصرية لفضلكم ومكانتكم».

وقد فرط من قوم الإنكار على هذا الأسلوب، وأوجبوا الأخذ من الثلاثى (قدر) فيقال: إنى قادر لك جهدك وفضل سعيك. وذلك ليكون وفق قوله تعالى [٢] : «وماقدروا الله حق قدره»، ولأن الثلاثى فى هذا المعنى هو الوارد فى المعاجم التى بين أيدينا.

فقد جاء فى القاموس فى سرد معانى القدر «التعظيم» وزاد التاج: «وبه فسر قوله تعالى: وما قدروا الله حق قدره» والقدر مصدر الثلاثى، كما هو معروف. وفى اللسان: «وقوله تعالى: وما قدروا الله حق قدره أى ما عظموه حق تعظيمه. وقال الليث: ما وصفوه حق صفته». وجاء فى اللسان فى موطن آخر ما يوهم ورود قدر - بالتشديد فى معنى التعظيم. وذاك حيث يقول: «وقوله: وما قدروا الله حق قدره خفيف ولو ثقل كان صوابا» فقد يسبق إلى الوهم أنه يريد التخفيف والتثقيل فى الفعل، وإذن فقد ورد قدر، وهذا بعيد عن مراد صاحب اللسان، وإنما يريد التخفيف والتثقيل فى المصدر فى قوله «حق قدره» ويعنى بالتخفيف تسكين الدال، وبالتثقيل فتحها. وذلك لأن الحركة - أيا كان نوعها - أثقل من السكون. ويدل لذلك قوله عقب هذا: «وقوله: [٣] إنا كل شىء خلقناه بقدر مثقل» ولا معدل عن أن يراد بالتثقيل هنا التثقيل فى القدر.

على أن البحث قد هدى إلى أن التقدير فى معنى التعظيم عربى صحيح لا مجال لإنكاره. ولبيان ذلك يحسن الرجوع إلى المعنى الأصلى لمادة (قدر) الذى تفرع عنه التعظيم. ذلك لأن هذه المادة لا تفيد فى أصلها هذا المعنى؛ كما هو ظاهر. فأصل هذا أن يقال: قدَّر [٤] الشىء إذا حزره ليعرف مبلغه. ويقول أبو حيان: «أصل [٥] القدر معرفة الكمية. يقال: قدر الشىء إذا حزره وسبره وأراد أن يعلم مقداره» وظاهر هذا أن يأتى فيما لا يقع تحت

---

(١) أنظر مجلة المجمع، صدر الجزء الاول.

(٢) آية ٩١ سورة الانعام ٦٧ سورة الزمر. (٣) آية ٤٩ سورة القمر

(٤) انظر أفعال ابن القوطية ٢٣١، ومستدرك التاج فى المادة نقلا من تهذيب الأفعال لابن القطاع

(٥) انظر البحر ٤٣٩/٢.

الحس ومثاله الحزر والسبر . وهو يأتى فيما لا يقع تحت الحس من المعقول بالقياس على الحس . تقول : قدرت فلاناً وفضله ، أى عرفت مبلغ أمره ومقداره فى فضله أو علمه . ويستوى فى هـذا بحسب أصله أن يعلم منه الكمال فى ذلك أو النقص والتقصير ، ولكنه تعورف فى معرفة الكمال وكثر إيراده فى مقام المدح والتعظيم ، وصار هذا كما يقال : عرفت قدر فلان ، فى معرض التنويه به والإعلاء من شأنه .

وفى كتابة الشهاب على تفسير البيضاوى فى آية الأنعام « وقد فسر البيضاوى الآية فى الأنعام بمعنى : ما عرفوا الله حق معرفته ، والآية فى سورة الزمر بمعنى : ما عظموا الله حق تعظيمه : فسره هنا بما عرفوه حق معرفته ، وفى الزمر بما قدروا عظمته فى أنفسهم حق تعظيمه لأنه فى الأصل معرفة المقدار بالسبر ، ثم استعمل فى معرفة الشىء على أتم الوجوه حتى صار حقيقة فيه ، كما قالوا : رحم الله من عرف قدره ـ أى نفسه وحقيقته ـ ومعرفة الله لما لم تكن إلا بصفاته فسر فى كل محل بما يليق به » .

ويرى بعضهم أنه مأخوذ من القدر ، وهو شرف الإنسان ومكانته ، ألا تراهم يقولون : لفلان قدر ، وفلان لا قدر له بين قومه . فمعنى قدرت فلاناً : عرفت قدره وفضله .

وأعود بعد هذا إلى صيغة « التقدير » فهل جاءت فى معنى حزر الشىء وسبره وتعرف مبلغه ؟ إنها إذا جاءت لذلك ساغ أن تجىء للتعظيم بالاتساع والاستجازة ، كما جاء ذلك فى « القدر » .

والجواب على هذا السؤال بالإثبات والإيجاب ، كما يقولون . فقد قال أبو جعفر النحاس : « معنى [1] قدرت الشىء ، وقدرته : عرفت مقداره » وأيضاً فقد جاء فى معانى التقدير ـ على ما فى اللسان ـ التفكير فى تسوية أمر . وسبر الشىء يرجع إلى هذا ، ومنه قوله تعالى فى سورة المدثر : « إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر » أى قدر فى نفسه قوله وعرف مبلغه .

فإن أراد القارىء استظهاراً على ما ذكرت من تسويغ التقدير فى معنى التعظيم فذلك له ، وحكمه مستمط ، ذلك أنه قرىء فى الآية : « وما قدّروا الله حق قدره » بتشديد الدال فى الفعل ، قرأ ذلك عيسى بن عمر الثقفى والحسن البصرى ، وهما من هما فى تحرى الفصيح والمعنى فى الآية التعظيم .

ويقول أبو حيان فى البحر فى تفسير آية الزمر : « وما قدروا الله حق قدره أى ما عرفوا الله حق معرفته ، وما قدروه فى أنفسهم حق تقديره ، إذ أشركوا معه غيره ، وساوَوا بينه وبين الحجر والخشب فى العبادة ، وقرأ الأعمش : حق قدَره ، بفتح الدال ، وقرأ الحسن

(١) أنظر تفسير القرطبي ٣٢/٢ .

وعيسى وأبو نوفل وأبو حيوة: «وما قدّروا» - بتشديد الدال - الله حق قدَره - بفتح الدال - أى ما عظموه حقيقة تعظيمه»، وفى الكشاف: «وقرىء بالتشديد على معنى: ما عظموه كنه تعظيمه»، وفى البيضاوى: «ما قدروا عظمته فى أنفسهم حق تعظيمه، حيث جعلوا له شركاء ووصفوه بما لا يليق به، وقرىء بالتشديد».

البندار — تاجر الجملة

تاجر الجملة فى هذا العصر يراد به التاجر الكبير الذى يأخذ منه السلع تجار دونه فيبيعون. وهو يجمع مقادير كثيرة من السلع ويكون كثير المال الذى يقلبه فى التجارة. وقد وقفت على كلمة تؤدى هذا المعنى، وهو البندار. والبندار كلمة فارسية، ومن معانيها فى الفارسية الثرى والمحتكر. وقد دخلت هذه الكلمة العربية، وتصرفت العرب فيها فأدخلوا عليها أل، وجمعوها على البنادرة. وفى اللسان: «والبنادرة دخيل وهم التجار الذين يلزمون المعادن. وفى النوادر: رجل بندرى ومبندر، ومتبندر، وهو الكثير المال».

ونرى فى التاج النص الآتى: «وفى كتاب ابن الصلاح فى معرفة الحديث: البندار: من يكون مكثراً من شىء يشتريه منه من هو دونه ثم يبيعه». وهذا يثبت ما رأيت من أن البندار معناه تاجر الجملة، كما يثبت وجود هذا الضرب من التجار فى المدنية الإسلامية فى عصورها الغابرة.

هذا الرجل يقتنى الطيور غواية فيها

يستعمل الناس مادة (غ و ى) فى معنى الهوى والميل. فهم يقولون فلان غاو للموسيقى، أى يميل إليها بطبعه، وينزع بشوقه إليها. وقد أنكر على هذا الاستعمال، وأوجب الباحثون أن يستعمل فى مكانها الهوى وما اشتق منه، وأحب هنا أن أدون نصاً وجدته فى آخر ديوان ابن قزمان الأندلسى صاحب الزجل والمبرز فيه. وفى النسخة أنه «طالعه أضعف عباد الله وأقوام طمعاً فى رحمته أحمد بن محمد المراس، لطف الله به وسامحه سنة ٦٨٣»، وهذا النص هو: «استكتبه لنفسه الأديب محمد بن أبى بكر القطان بصفد المحروسة، استحساناً له وغواية فيه». فتراه استعمل الغواية فى معنى الميل، كما هى فى الاستعمال الشائع الآن، وهذه النسخة مطبوعة بالفرتسنات من صورة نسخة مخطوطة، وقد تم طبعها فى برلين سنة ١٨٩٦.

محمد على النجار
الأستاذ بكلية اللغة

وحدة الأمة

سبيلها إلى النصر

حين يفكر الإنسان فى حال هذه الأمة ، وما تفشى بينها من أدواء مهلكة وأمراض قاتلة ، لايلبث أن تملكه الحسرة وتغالبه الدمعة ويحس فى أعماقه بالألم الدفين والهم اللاذع ، فنحن أتباع دين كريم يدعو إلى القوة البانية المشيدة ، ويوصى أصحابه بالعزة ، ويحذرهم من الضعف والاستكانة والذلة . والله تعالى يقول : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ، ورسولنا صلوات الله عليه يقول : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » .

والتاريخ الصادق الأمين حافل بروائع المثل التى ضربها أسلافنا العظام حين تجردوا من مطامع الدنيا وطهروا أنفسهم من رجسها ولم تلههم طيبات الحياة ومفاتن العيش عن الجهاد فى الله والفناء فى سبيله فعزوا وفازوا ، وكانوا قادة الدنيا وسادة العالم .

ومن العجب أنا نطالع فى أسفار التاريخ هذه المثل ، ونؤمن بها ونعتز بما تحوى من صور البطولة والعظمة ، ولكننا لا نحاول أن نأخذ أنفسنا بهذا السلوك ، ولا أن نحملها على التحلى بما كانوا عليه من فضائل . ولذلك ضعف شأننا وهان أمرنا ، وتمزقت وحدتنا وتحللت قوتنا وحل بيننا الخصام محل الوئام والتدابر مكان التآلف ، وأصبحنا لقمة سائغة لا تغص بها الحلوق ، وغنيمة سهلة لا تكلف الناهزين المستغلين عناء ولا مشقة .

لماذا لا نلتمس الدواء من ماضينا ؟ ولماذا لا نصلح آخر هذه الأمة بما صلح به حال أولها ؟

إن عبر الحياة وأحداثها ناطقة بأن العماد الذى تقوم عليه الدول وتحيا به الشعوب عزيزة الجانب منيعة السلطان نافذة الكلمة ، هو الوحدة : وحدة الجهود ، ووحدة المشاعر ، ووحدة القلوب ووحدة الأهداف والغايات . كما أن التفكك والانحلال واضمحلال الشخصية وفناء المقومات وضياع النفوذ وانهيار السلطان لايتسرب إليها إلا من قبيل الفرقة والتنازع ، ومن هنا حرص الإسلام أشد الحرص على تأكيد الوفاق فى نفوس الناس ، وأنذر المتنازعين بالفشل وذهاب الريح .

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » . « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » . « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » .

فإذا اتحدت الأمة وتآلفت فيها القلوب وتآخت النفوس ، وعاشت متماسكة مترابطة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، استطاعت فى سهولة ويسر أن تعمل وأن تنتج وأن تخيف العدو الطامع وترهب الخصم المساور ، وتسير فى موكب الحياة شامخة سعيدة لا يشغلها توزع النفوس بالخصومات الفاجرة ولا اشتعال القلوب بالأحقاد الثائرة . ولا نزوع الناس إلى الانتقام الغادر .

إذا اتحدت الأمة صفت النفوس من المواجد والأضغان ، وطهرت القلوب من الحسد والتباغض ، وشعر كل فرد بأنه عضو فى هذا الجسد القوى يجب أن يصونه ويحافظ على سلامته .

ولقد ضرب الرسول الأكرم صلوات الله المثل الرائع فى هذا المعنى ليقتدى به كل من يريد أن ينجح فى دعوته ويوفق فى رسالته ؛ فإنه حين جهر بالدعوة وصدع بأمر ربه لم يغفل المعنى الذى تقوم به الجماعات وينجح به الدعاة . لم يغفل الرابطة التى يجب أن تقوى بين المجاهدين وتتوثق بين العاملين . بل ألف بين قلوب لم تكن تعرف الألفة ، وآخى بين نفوس طالما تمردت على الإخاء ، وربط بالحب بين أفئدة أنكرت الحب حقبا متطاولة من الزمان ، وجعل المسلم يؤمن حقيقة أنه أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ويحب له ما يحب لنفسه .

ولما دخل المدينة قضى على كل ما كان يتسعر فيها من فتنة ، وينشب بين قبائلها من عداوات مد مرة ، وآخى بين المهاجرين والأنصار ، وجعل المتخاصمين المتدابرين من الأوس والخزرج جسما واحدا وقلبا واحدا وكتلة واحدة يظلها الحب ويكتنفها الإخاء . فلم يقدر أن يطمع فيهم عدو ولا أن يمشى بين صفوفهم دخيل ، ولم يستطع غريب أن ينفض عليهم دعوتهم أو يكيد لهم فى صفوفهم . وحذرهم أشد التحذير من أن يصيخوا إلى دعاة الفرقة ، وأبواق الشتات الذين يبغون فيهم الفتنة . « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » .

أليست بين أيدينا هذه العظات البالغة هادية لأمة ؟ ألسنا نعتز بأننا سلالة هذه الصفوة التى عرفت ربها فنصرها ، وأعزت دينها فأعزها ، وقامت بحقه فأمدها بالعون والنصر والتأييد . ؟ بلى ولكننا استسلمنا لما يتردد فى نفوسنا من شهوات طاغية ، وخضعنا لما

يستبد بنا من أهواء متيمة ودنيا مؤثرة وأطماع خلابة ورغبات متقدة في اللذة والاستمتاع ، استسلمنا للشياطين المضلة التي توسوس في صدورنا بالتفرق وتصدع الشمل ، وتدعونا إلى الكيد والختل والتباغض والتحاسد . ومن العجب أننا نقف بعد ذلك متباكين متصايحين .

تمر بنا صور الحياة فلا نأخذ منها العبرة ، وتطوف أحداث الوجود فلا تنتبه إلا على القوارع المدوية والصيحات المجلجلة ، فإذا استفقنا من الغاشية واستيقظنا من السبات العميق وجدنا الركب قد سار ونحن خلف القافلة ، ووجدنا الدنيا كلها مشغولة بالكفاح والعمل ، ونحن ما زلنا ننفض عن عيوننا غبار النوم والكسل .

يجب أن نشق هذه الصدور وأن نغسلها من إدران الضغن والموجدة ، يجب أن نطهرها من الأطماع التي ألحت عليها فأظلمتها ودنست أرجاءها وجوانبها . يجب أن نعودها الطهر والمحبة فقد تعبت من طول ما كرهت ، وشقيت من كثرة ما عانت من البغض والخصام .

لقد جرب الناس الخلاف والشقاق فلم يحصلوا إلا على الضنى والعذاب والشقاء المقيم ، وجربوا العكوف على الشهوات والإقبال على اللذات والحرص على المطامع والغايات ، وجربوا الإثم والعصيان والبعد عن الله والاقبال على الدنيا . أفما آن لهم أن يجربوا الطاعة الخالصة والاخوة الطاهرة والحب في الله ؟ « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا تكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » .

إن العدو لا يأتي المسلمين من قلة عدد ، إنما يهدم بناءهم ويمزق وحدتهم ويفرق جمعهم ويشتت صفوفهم بتنابذهم واختلافهم ، وتفرقهم في الأهواء والمشارب ، وتوزعهم في الاغراض والمطامع . فما أحوج المسلمين في هذه الفترة العصيبة إلى أن يوحدوا صفوفهم ويربطوا بين قلوبهم برباط الإخاء والحب حتى يخرجوا من هذه المعركة الحامية فائزين منتصرين .

عبد الحميد محمود المسلوت
المدرس في كلية اللغة العربية

تطهير الأداة الحكومية في تاريخ الإسلام

— ٣ —

العدل في الحكم :

يقول الله عز وجل : « إن الله يأمر بالعدل » ، ويأمر سبحانه وتعالى : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، وفي الحديث الشريف : « يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة » .

ولقد كان (الخليفة) يفتح قلبه للشاكين من عماله ، وهو ما يعرف اليوم بالشكوى « بالطريق الإدارى » .

أخرج الطبرى في التاريخ [1] عن أبي فراس قال : خطب عمر بن الخطاب فقال : يأيها الناس إني والله ما أرسل إليكم عمالا ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكني أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليّ ، فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه . فوثب عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين أرأيتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته ، إنك لتقصه منه ؟؟ قال : إي والذي نفس عمر بيده ، إذن لأقصنه منه ، وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه ؟؟ ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تجمروهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم .

ولقد اعتزم عمر رضي الله عنه رحلة يجوس فيها خلال ديار الإسلام بنفسه ليتفقد أحوالهم ويتسمع شكواهم ، فقال : « لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولا ، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني ، أما عمالهم فلا يرفعونها إلي ، وأما هم فلا يصلون إلي . فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين ، والله لنعم الحول هذا » [2] .

---

(١) جـ ٥ (طبعة الحسينية) ص ١٩ — ٢٠ (٢) الطبرى جـ ٥ ص ١٨ .

ولقد كان الفقه الدستوري القديم في الغرب يرتضي من العدل صورة سلبية تكمن في منع الحاكم من الاعتداء على حقوق الفرد ، ولكن الفقه الدستوري الآن لا يقنع إلا باتجاه إيجابي يلزم الحاكم فيه أن يهيء الظروف للفرد كي يمارس حقوقه . فنصت وثيقة حقوق الإنسان الأخيرة الصادرة عن هيئة الأمم المتحدة ، مثلا ، على ما لم تتضمنه سابقتها وليدة الثورة الفرنسية ، فني المواد ٢١ : ٢٤ نُصَّ على حق كل فرد في أن يجد عملا بشروط عادلة وأجر مجزٍ ، وفي حمايته من البطالة ، وفي تكوين نقابات ، كما نص على حقه في الغذاء والمسكن والعلاج الطبي والتمتع بمستوى اجتماعي يضمن له ولأسرته الراحة في الحياة ، والضمان ضد البطالة والمرض والعجز والشيخوخة .

والإسلام قد قرر هذا العدل الاجتماعي ووجّه إلى هذه النزعة الإيجابية قبل أربعة عشر قرناً . روى أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة عن الرسول ﷺ « ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة . اقرءوا إن شئتم قول الله : النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم . فأيما مؤمن مات وترك مالا فليرثه عصبته من كانوا ، ومن ترك دَيْناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه » - رواية البخاري . ولقد جاء في صحيح البخاري وغيره من كتب الحديث أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ يطلب إليه أن ينظر في أمره لأنه خال من وسائل الكسب ولا شيء عنده يستعين به على القوت . فدعا الرسول ﷺ بقدوم ودعا بيد من خشب سواها بنفسه ووضعها فيها ، ثم دفعها للرجل وأمره أن يذهب إلى مكان عينه له ليعمل لكسب قوته ، وطلب إليه أن يعود بعد أيام ليخبره بحاله ، فعاد الرجل يذكر حسن حاله ويشكر رسول الله عليه الصلاة والسلام . وفي هذا أبلغ دلالة على التزام الدولة التزاماً إيجابياً بكفالة الحقوق الاجتماعية . ولقد ندب الغزالي في « الإحياء » ولي الأمر أن يزود العامل بآلة العمل ، فللنجار آلة النجارين ، وللحداد مثل ذلك وهكذا [1] .

وكتب خالد بعد فتح العراق « . . . . أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر ، وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته ، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام » .

---

(١) في هذا تفصيل في كتاب [الاسلام : لا شيوعية ولا رأسمالية] للاستاذ البهي الخولي صفحة ٧٠ وما بعدها .

ومرة ثانية تقول : هكذا كان يحكم المسلمون دولتهم ، ويرعون رعيتهم ولو كانوا على غير دينهم !!!

وحين تلقى عمر شكاية يهودى طاعن فى السن يسأل الناس ليفى بالجزية والحاجة فى شيخوخته ، لم يرفض عمر الشكوى ، شكلا ، لأنها خارجة عن الاختصاص ، فلم تكتف دولة الإسلام فقط بالاتجاه السلبى الذى يقنع بحماية الحقوق من العدوان ، دون العمل على تهيئة السبيل للتمتع بهذه الحقوق . ولذلك بادر عمر بالفرض للشيخ الذى من بيت مال المسلمين قائلا : « ما أنصفناك . أكلنا شبيتك وتركناك عن الشيخوخة » !! ووضع عنه الجزية [١] . وعمر أيضاً هو الذى راعى أن يكون الأجر مجزياً ، حين رفض أن يقيم الحد على خادم يجيعه من يعمل عنده .

ولقد عرف تاريخ الإسلام ، القضاء الإدارى ، حيث يشكو الرعية من سوء استعمال السلطة .

فقد كانت هناك محكمة عليا هى (محكمة المظالم) ، وكانت تستأنف أمامهم الأحكام القضائية الصادرة من قضاة أول درجة ، كما كان يطعن فى القرارات الإدارية سواء بسواء ، وينقل إلينا أبو الحسن الماوردى اختصاصات هذا النوع من القضاء :

١ — النظر فى القضايا التى يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة إذا انحرفوا عن طريق العدل والإنصاف ، وعمال الخراج إذا اشتطوا فى جمع الضرائب ، وكتاب الدواوين إذا حادوا عن إثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة .

٢ — النظر فى تظلم المرتزقة - أى موظفى الدولة - إذا نقصت أرزاقهم ، أو تأخر ميعاد رفعها لهم .

٣ — تنفيذ ما يعجز القاضى والمحتسب عن تنفيذه من الأحكام .

٤ — مراعاة إقامة العبادات ، كالحج والأعياد والجمع والجهات [٢] .

وهكذا جعلت السلطات الإدارية تحت رقابة المحاكم ، وجعلت العبادات من مهام الدولة العامة التى تسأل عنها قضائياً أمام أعلى قضاء . ذلك أن دولة الإسلام دولة ربانية

---

(١) الخراج لأبى يوسف

(٢) الأحكام السلطانية ص ٧٢ - ٨١

الفطرة السليمة عند ديكارت

يرى ديكارت أن الفطرة السليمة ملكة قادرة على تمييز الحق من الباطل وعلى الاهتداء إلى الحق ، فهي — بعد — لم تحجب فيها بذور المعرفة بالأخطاء . فمن يرد تقرير شيء محقق في العلوم يجب أن يبدأ من جديد ، فيطرح جانباً كل ما علق بذهنه من معارف ، ويشك في جميع مناهج العلوم وأساليبها ، مثله في ذلك مثل البناء يزيل الأنقاض ، ويحفر الأرض ، حتى يصل إلى الصخر الذى يقيم عليه بناءه . وأساسنا هنا ، هو الفطرة السليمة مجردة وخالصة من كل شائبة .

والفطرة السليمة ، واحدة فى جميع الناس ، مقسمة بينهم بالتساوى ، ومحتوية على بذور المعرفة ، وليست صفحة بيضاء كما تصور المدرسيون . فهى تملك بالقوة — منذ البداية — ما سيكون — بعد — فى الفكر بالفعل .

وإذا كان ذلك كذلك ، وكانت الفطرة السليمة واحدة فى كل الناس ، فما هو السبب فى اختلاف آرائنا ، وتشعب وجهات نظرنا ؟ إن السبب ، جد بسيط : إن الاختلاف ينشأ من توجيه الأفكار إلى وجهات مختلفة ، وعدم اتحاد نظرات كل منا إلى الأشياء . فليس يكفى

عبادية ، تقوم على رسالة لها شعائرها ودعائمها التى تميز شخصيتها . هذه الرسالة هى أن « عبادة الناس لله » التى قامت عليها الأديان المنزلة ، هى القاعدة الرشيدة التى بها تصلح أحوال البشر فى سياستهم واجتماعياتهم واقتصادياتهم ، فإن الروح فى ظل دين الله تطمئن بعبادة ربها ، والناس حين يرجون الله واليوم الآخر تمحى من مقاييسهم « الفردية » و « النفعية » و « الإباحية » ، ويغدون مرتبطين بشرع الله ، وهو رحمة للعالمين أجمعين . فكيف لا تكون العبادات بهذه المنزلة فى أنظمة الدولة ، وهذه هى منزلتها فى فكرتها ورسالتها ؟ .

****

بهذا كانت الحكومة الإسلامية طاهرة فى جهازها لأمانة أفرادها ، مطهرة فى إدارتها لسلامة أوضاعها : عدالة فى الحكام ، وعدل فى النظام « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » .

محمد فتحى محمد عثمان

مدرس الآداب بالمعاهد الدينية

إذن أن يكون المرء فطرة سليمة بل أن يحسن استخدامها . والتسرع فى الأحكام ، سبب آخر من أسباب اختلاف الآراء .

فالفطرة السليمة صادقة بطبيعتها ، ووجودها معلوم قبل أى وجود ، وكذا علمها أوضح من علم أى وجود ، فهو قائم على البداهة ويهدينا إليه النور الفطرى . ذلك النور الذى تحجبه آثار المجتمع والأخطاء الكثيرة التى تكدست أمامه . فالعلم إذن هو ما اشتملت عليه النفس وما عدا ذلك يعد وهماً خادعاً . وإذا نحن استمعنا إلى صوت الطبيعة فينا تبين لنا الصواب من الخطأ ، وفعلنا ما فعله « أودكس » ذلك الرجل ذو الفهم العادى الذى لم تفسد أحكامه بالاعتقادات الباطلة ، والذى لا تزال فطرته السليمة على حال نقائها الطبيعى .

وما دامت الفطرة السليمة واحدة فى كل الناس ، وأن السبب فى اختلاف مراتب اليقين بين العلوم هو اختلاف المناهج التى يسلكها الباحثون ، أيقن ديكارت أنه لو اتبع كل باحث المنهج الرياضى لبلغت نتائج العلوم حالة مستقرة ثابتة ، وانتفى اختلاف العلماء وجدالاتهم .

وأساس المنهج الرياضى هو الاستنباط ، وتسبقه عملية أخرى هى الحدس ، الذى به يستطيع كل إنسان أن يرى بالبداهة أنه موجود وأنه يفكر ، وأن المثلث محدود بثلاثة خطوط ، وما إلى ذلك من الحقائق المماثلة .

ويضع ديكارت أربع قواعد لتدبير العقل هى : اليقين ، والتحليل ، والتأليف ، والإحصاء التام . أما اليقين فهو « ألا يقبل المرء شيئاً على أنه حق ، ما لم يعرف يقيناً أنه كذلك ، فينبغى أن يتجنب التهور والسبق إلى الحكم قبل النظر ؛ وألا يدخل فى أحكامه إلا ما يتمثل أمام عقله فى وضوح ، بحيث لا يكون لديه أى مجال لوضعه موضع الشك » . فالتهور ، إذن ، أحد مصادر الخطأ عند ديكارت ، وهو عبارة عن الجزم بحكم قبل تبين وجه اليقين فيه ، وتصديق النتائج قبل تحقيق المقدمات .

وأما التحليل فهو أن « ينبغى للمرء أن يجزئ كل مشكلة يريد فحصها إلى أكثر ما يمكن من الأجزاء ليتسنى له حلها على أحسن وجه مرضى » ، فعليه أن يرجع إلى الحقائق الفطرية على حال نقاوتها الأولى وبساطتها ، فهى « كامنة كمون النار فى الحجر الصوان » .

والتأليف هو أن « يسير المرء أفكاره بنظام بادئا بأبسط الأمور وأسهلها معرفة ، ثم يتدرج قليلا قليلا حتى يصل إلى حقيقة أكثر تركيبا ، ويفرض — أحيانا — ترتيبا بين الأمور التى لا يسبق بعضها البعض الآخر بالطبع » .

أما الإحصاء التام فهو : « أن يعمل المرء فى كل الأحوال إحصاءات كاملة ومراجعات شاملة ليكون على ثقة من أنه لم يغفل شيئا » . والغرض من هذه القاعدة واضح الفائدة فيها يكمل العلم ، وذلك بالمرور — بحركة فكرية متصلة — على كل الموضوعات التى تتصل به ، والإحاطة بها فى إحصاء كاف منهجى .

وهذه القواعد الديكارتية التى وضعت لتدبير العقل تضيف صاحبها إلى طائفة الفلاسفة الاسميين ، الذين ظهروا فى القرن الرابع عشر ، واعتبروا التجربة أساسا للمعرفة ، فكانوا بذلك أول الخارجين على فلسفة أرسطو . فالمعانى الكلية — فى نظره — أسماء جوفاء ، ويجب الاستعاضة عنها بتلك الطبائع البسيطة وعن منطق أرسطو بمناهج الرياضيين .

يلزم من ذلك أن ليس هناك حقائق منطقية ضرورية ولا أحكام مطلقة ، ويكون لدينا سبب آخر للشك فى العقل شكا حقيقيا لا منهجيا . ويستبعد ديكارت بالفعل الحكم الأرسطى مثل أسناد محمول إلى موضوع أو وصف شىء بشىء . ويستعيض عنه بمعنى آخر هو « أن الحكم اعتقاد الإرادة بوجود خارجى لموضوع فكرة ما » ، فليس فى العقل سوى الطبائع البسيطة يضم بعضها إلى بعض أو يفصل بعضها من بعض وليس فى العلم سوى « قوانين » . فالإرادة هى أساس المعرفة عند ديكارت ، ولا يقع الخطأ على الحقيقة ذاتها بل يأتى من الحكم عليها . ويشبه أبو الفلسفة الحديثة فى هذا أفلاطون والأبيقوريين فى مثلهم المشهور وهو أنه إذا رأى إنسان الشمس فى حجم التفاحة فليس هذا خطأ بل الخطأ هو الحكم بأنها كذلك ، أى أن الخطأ يأتى من تدخل الارادة . . . ينتج من هذا أن الأحكام عند ديكارت تتكون من عنصرين : ملكة الذهن التى ترى الصورة الذهنية وتتبينها ، وملكة الارادة التى توافق أو ترفض هذه الصورة الذهنية ... فالذهن المحدود قد يرى الصور الذهنية على غير حقيقتها ، وتسرع الارادة فى الحكم بأنها كذلك قبل التأمل فى الحقيقة هو الذى يوقعنا فى الخطأ .

وهناك موضوع آخر يعرض للذهن حين يكتب المرء عن الفطرة السليمة ، هذا الموضوع هو النفس . فالطبيعة الإنسانية مؤلفة من نفس وجسم وهما جوهران متضادان بل متمايزان فالنفس روح بسيط مفكر . والجسم امتداد قابل للقسمة ، وقد يشك الإنسان فى وجود جسمه والأجسام جميعاً دون أن يتأثر بذلك الشك وجود فكره ونفسه ، ولم يسبق ديكارت أحد فى هذا البرهان من الفلاسفة اليونانيين الذين قالوا بتمايز النفس عن البدن ، وإن سبقه الفيلسوف الإسلامى ابن سينا فى كتابه الإشارات حين قال : « ولو توهمت ذاتك قد خلقت

أول خلقتها صحيحة العقل ، والهيئة وفرض أنها على الجملة من الوضع والهيئة بحيث لا تبصر أجزاءها ولا تلابس أعضاءها بل هي منفرجة ومعلقة لحظة ما في هواء طلق ، وجدتها قد غفلت عن كل شيء إلا عن ثبوت إنيتها » ، ويرجح أن يكون ديكارت قد اطلع على ترجمة الإشارات اللاتينية .

ولكن ، كيف يفسر قوله باتحاد النفس والجسم اتحادا جوهريا ، مع ماذكرناه قبلا من تمييز النفس والجسم إلى حد التضاد ؟ ... الواقع أنه يذعن هنا مكرهاً بشهادة الوجدان ، وأن مذهبه ثنائي لا يطيق الوحدة بحال ، فهو في مواضع كثيرة يتكلم عن النفس والجسم كأن النفس حالة في الجسم بمجرد حلول ، وهو يعين لها مكانا ممتازاً هو الغدة الصنوبرية ، حيث تقوم بوظائفها ، فكلما أرادت شيئاً حركت الغدة المتحدة بها الحركة المطلوبة ، لإحداث الفعل المتعلق بتلك الإرادة ، أما الجسم فيؤثر في النفس بأن يبلغ إليها الحركات الواقعة عليه والحادثة فيه فتترجمها هي ألوانا وأصواتاً وروائح وطعوما ورغبات وآلاما ، هكذا رتب الله الأمور لخير الانسان وحفظ كيانه .

يلجأ ديكارت إذن إلى « الله » ليتوج به مذهبه إذ « لا يلوح أن باستطاعة العقل الإنساني أن يتصور بجلاء وفي نفس الوقت تمايز النفس والجسم واتحادهما ، إذ أن ذلك يقتضي تصورهما شيئاً واحداً وشيئين ، وهذا تناقض » .

يظهر مما تقدم ، أن ديكارت قد حرر العقل من سلطان الوجود ، وأعلن أن الفكر يكفي نفسه ولا يخضع لشيء سواه ، فالعقل في ذاته هو القانون الأكبر والأوحد « لا يسلم بشيء إلا أن يعلم أنه حق ، أي إلا أن يعقله هو ويركبه بأفكار واضحة جلية هي في الواقع أفكار سهلة ، فإن استعصى عليه شيء أنكره » .

وديكارت بذلك قد قلب الوضع الطبيعي الذي يجعل العقل الإنساني تابعاً للوجود ، ومحتاجاً إلى التعلم ، وأقام الفردية على أساس فلسفي ، وكانت من قبل أقرب إلى التمرد منها إلى الحق ، تلك الفردية التي تجعل الشخص يظن نفسه أهلا للحكم على الأشياء ، كأن ليس هناك عقول غير عقله ، ويجعل من نفسه أيضاً مركزاً تدور حوله الأسرة والمجتمع ، فتورث بذلك الفوضى العقلية والاجتماعية .

سعيد زايد

نظم الحكم في الشرق

نظم الحكم القائمة الآن فى الشرق الإسلامى نظم تجافى طبع الشرق الروحى ، ولا تتفق مع مقررات الإسلام فى الحكم والقيادة الخيرة الرشيدة ، هى نظم تلقفها المخدوعون من بنى الشرق المسلم عن الغربيين ليحكموا بها بلاد المسلمين ، وغاب عن هؤلاء المخدوعين أن الغربيين عند ما بهرتهم مبادىء الإسلام فى الحكم ، تعلقوا بها واستمدوا منها كل ما يقوم مجتمعهم المتحلل فى السياسة والاجتماع والاقتصاد : هذه المبادىء التى تضع الأمة فى المحل الأرفع ، وتضع فى قبضتها كل مقدرات الحكم ، إذ هى تعين حكامها عن رضى واختيار ، من ذوى الكفاية والإيمان والصلاحية ، ولها ، بل عليها أن تراقب تصرفات الحكام ، ولها حق إمضائها أو تعديلها أو إلغائها ، ولها أن تقوم الحاكم إذا اعوج ، وتسدده بالنصح إن أخطأ ، وتحمله على الجادة إن مال أو جنح ، ولها عزله إذا لم يرعو لناصح ، ولج فى عتوه وفجوره ، واتصلت حلقات ظلمه ، فإن أبى الاستقامة على المحجة والعدالة ورفض أن يعتزل ، عزلته بقوة السلاح ونصب الحرب له ، ما دامت ترى ذلك فى مصلحتها .

ولا غرو ، فالحكم فى الإسلام خدمة عامة ، لا سيادة على العامة ، والحاكم مجرد وكيل عن الأمة فى القيام بقيادتها وتدبير مصالحها ، ومباشرة كل سلطاتها التى لا تستطيع الأمة أن تقوم بها مجتمعة ، وبالضرورة ليس للوكيل سيادة على الموكل ، ولا من حقه الافتيات عليه ، واغتصاب حقه ، أو استعباده واستغلاله ، ضرورة أنه خادم رفيع الشأن له أجر خدمته ، وبالجملة فقد وضع الإسلام أنظمة الأمة فوق رأس الحاكم ، وسلطها عليه ، وكلفها بمراقبته وقرر مسئوليتها عن كل تصرفاته [1] .

وجد الغربيون ذلك وأكثر منه فى الإسلام ، فأدركوا سر قوته ، وسر قوة المسلمين الذين يتبعون شريعته بإحسان ، وآمنوا بأن نهضتهم ، وإصلاح مجتمعهم ، مقرونان بالعمل بهذه المبادىء القوية القويمة .

---

(١) راجع بحوثنا [الفقه السياسى للإسلام] فى أعداد السنتين الماضيتين من هذه المجلة .

ولكن ليس من المستساغ عند أوربا المسيحية المتعصبة ، أن تنقل إليها مبادىء الإسلام على أنها مبادىء الإسلام ، وإلا كان ذلك كفراً ، أو إلحاداً على الأقل ، فى نظر رجال الكنيسة والعامة الذين يتأثرون بهم ، ولم يقف ذلك فى وجه المفكرين من رجال العلم السياسى والدستورى ، الذين وجدوا منفذاً لهم فى نظرية التعاقد الإغريقية التى تقرر أن الحكم فى الأصل تعاقد بين الحاكم والمحكومين ـ على وجه ما من أوجه التعاقد ـ ؛ وهنا دسوا مبادىء الإسلام القوية ، فى نظريات التعاقد ، بل هم فى الواقع خلقوا بها نظريات تعاقدية جديدة ويظهر ذلك بوضوح فى فلسفات السياسيين المتحررين الذين دعوا إلى هدم الملكية القائمة فى بلادهم كنظام للحكم ثبت فساده وظلمه ، وخلقه المشاكل بين المحكومين ، وتفريق وحدتهم بجعلهم طبقات يمتاز بعضها على بعض بالألقاب والأحساب ، ويجعل الشرف وراثياً ، لا دخل لعمل الشخص وسلوكه فى تحصيله ؛ ونخص بالذكر من هؤلاء الفلاسفة المتحررين « روسو » الفرنسى صاحب كتاب « العقد الاجتماعى » الذى قرر : أن الأمة هى مصدر السلطات ، وهى سيدة الحاكم الذى يستمد منها قوته وعزته وسلطانه ؛ ثم يقرر فى نفس الكتاب : « أن محمداً قد أقام نظاما سياسيا بارعا لحكم دولته ، وقد كان ذلك سر قوة خلفائه الذين اتبعوه فى حكم المسلمين ما داموا ملتزمين لنظامه » . ولو علم أولئك المخدوعون أن مبادىء « روسو » التى حطمت عرش البربون ، مبادىء قاصرة بالنسبة لمبادىء الإسلام الحقيقية فى الحكم على الأقل لأن « روسو » يعتبر أن أفراد الأمة قد تنازلوا عن شىء من حرياتهم وحقوقهم ليجعلوا من مجموع هذه « التنازلات » سلطة ممتازة للحاكم . بينما الإسلام لم يعترف بشىء من هذا التنازل إطلاقا ، إذ التعاقد فيه قائم على أساس الوكالة ، فالحاكم وكيل خاضع لسلطان الأصيل ، وسيادة الموكل على وكيله ثابتة ، والحاكم خادم للأمة لا سيد عليها ، وشرط دوام حكمه ، أن يتوجه به إلى صالح المحكومين ؛ فإن جعل نفسه سيدا ، أو وجه الحكم لصالحه وصالح خواصه ، فسد الحكم ، وزالت عنه صفة الوكالة ، أو أزيلت عنه . وفى هذا يقول عمر رضى الله عنه : « مثلى وإياكم كمثل والى اليتيم منه ومن ماله . . » وواضح أن ولى اليتيم لا سيادة له عليه ، ولا ماله ، وإنما هو راع وموجه للخير ، وناصح أمين ، يأخذ أجر رعايته وتنميته للمال إن كان فقيرا ، وعمر أيضاً هو القائل : « إن من استرعاه الله على المسلمين فقد وجب عليه ما يجب على العبد لسيده » الخ

أقول : لو علم المخدوعون بالغرب من رجالنا ما في مبادىء الإسلام من قوة وجمال وحيطة لصالح الشعوب ، لسعوا إلى الإسلام وينابيعه الصافية الطاهرة قبل أن يذهبوا إلى الاستجداء من موائد الغربيين وهي من فتات موائد الإسلام ! ولكنه الجهل بالإسلام ، وحب تقليد أهل المدنية . .

وإن من أهم ما يشترطه الإسلام لصلاحية الحكم قيام الانسجام بين الحاكم والمحكوم ، وتحقيق التجاوب العاطفي بينهما ، وتبادل الشعور بمسئولية كل منهما عن الآخر ، فإذا لم يكن هناك توافق وانسجام بين الحاكم والمحكومين ، وإذا لم يتحقق التجاوب العاطفي بينهما ، وإذا فقد الطرفان الشعور بالاشتراك في المسئولية عن الصالح العام للدولة ، فسد الحكم وتوزعت الميول ، وتعددت الأهداف ، فيستبد الحاكم بالحكم ، ويحقد المحكوم على الحاكم ومن هنا تقوم الثورات نتيجة لفساد الحكم وضياع الغاية منه ، وهي تحقيق الصالح العام للدين والدولة ؛ ولهذا أوجب الإسلام التضامن الجماعي بين كل فرد وفرد وبين كل فرد والجماعة ، وحمل كلاهما من مسئولية الحكم مثل ما يحمله الآخر . وفي ذلك جاء قول الرسول الكريم صلوات الله عليه : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ، ويحبونكم ، وتصلون عليهم ، ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم » وقوله : « من ولي من أمور المسلمين شيئاً ثم لم يحطهم بنصحه ، كما يحوط أهل بيته ، فليتبوأ مقعده من النار » .

ولتحقيق الانسجام بين الحاكم والمحكوم ، يجب أن يكون الحاكم واحداً من الشعب الذي يراد حكمه ، غير غريب عنه ، لأن ابن الشعب أعرف بتقاليده ، وأدرى بمصالحه ، وهو أعطف عليه من الغريب ، وهو أرحم به منه ، لأن الغريب لا يهمه من الشعب إلا أن يحكمه ، ويستعبده ، ويستغل كل إمكانياته ؛ ثم إن همة الغريب عن الشعب تتجه حتما إلى تدعيم حكمه ، وتثبيت مركزه ، واصطناع الأعوان والأنصار ، ولا يتأتى له ذلك إلا بتفرقة وحدة الشعب ، وضرب بعض المحكومين ببعض ، وغالباً ما يضحي بمصلحة الدولة والصالح العام في سبيل الوصول إلى غايته هذه ؛ وكثيراً ما يعتمد الرشوة وشراء الذمم ، فتفسد الأخلاق تبعاً لفساد الحكم ، ولا يهم الحاكم الغريب كل هذا ما دام يسيطر على الجميع !

وإلى هذا المبدأ الجليل يرشد القرآن الكريم عن طريق الإيحاء ، فالقرآن يتحدث عن

أولى الأمر فيقول : « . . . أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ، « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » . ولما كان الحاكم معدوداً من أولى الأمر فى نظر العلماء ، وجب أن يكون من المحكومين ، وهذه إشارة قوية لها دلالتها ، ولقد كان المسلمون الأولون يتركون حكم الأقاليم لأهلها ، ويكتفون بالإشراف العام ، ومراعاة تنفيذ أحكام الإسلام .

ولدينا إشارة إرشادية تعليمية ، فيما قصه الله علينا من أنباء الرسل عليهم السلام « وإلى عاد أخاهم هوداً » ، « وإلى ثمود أخاهم صالحاً » ، « وإلى مدين أخاهم شعيباً » ، « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين » . هذه سنة الله فى إرسال الرسل . وهم الهداة المعصومون ، المرعيون بعناية الله ، وتأييد الوحى . وقد اقتضت حكمته جل شأنه أن يختار الرسل من أبناء الشعوب الذين يرسلهم إليها ، لأنهم أعرف بأحوالها ، وأدخل من غيرهم على عواطفها ، والرسل قادة ربانيون ، ونماذج يبعثهم الله للاقتداء بهم وجرياً على هذه السنة الربانية فى اختيار الرسل يجب أن يكون حكام كل شعب من الشعب نفسه ، لأن ذلك أدنى إلى تحقيق المصلحة ، وأوقع فى نفوس المحكومين ، وهو طريق تحقيق الانسجام والتفاعل الوجدانى بين الشعب وحاكمه .

وكذلك يجب أن يكون الحاكم مؤمنا بما تؤمن به أغلبية المحكومين ، ليتوحد الهدف ، وتتماثل الميول ، وتتجه فى اتجاه واحد ، وعندئذ يمكن التعاون بين طرفى الحكم فى سبيل تحقيق صوالح المجموعة كلها ؛ وتوفير أكبر قسط من السعادة للمحكومين وهو هدف الحكم .

فإذا كان الحاكم غير مؤمن بما تؤمن به الأغلبية ، كأن يأتى مثلا من صفوف الأقلية أيا كان لونها ؛ أو كان مؤمناً بما لا تؤمن به الأغلبية ، فإن حكمه لا بد أن يكون قائما على التجبر والقهر وكبت الحريات ، وإشاعة المظالم ، هضما لحقوق الشعب ، اعتماداً على بطش السيوف ، وضغط الحديد والنار ، وزحمة الجيوش .

ومثل هذا النوع من الحكم الذى ينعدم فيه الانسجام والتعاطف بين الحاكم والمحكومين حكم فاسد لا يقره الإسلام بأى حال من الأحوال ؛ إذ الحكم فى الإسلام ـ كما قررنا من قبل ـ خدمة عامة ، تهدف إلى تحقيق أكبر قسط من السعادة للمحكومين : وطريقه الحق

والعدل ، وهو يعتمد على الإيمان العميق بمقدسات واحدة ، يلتزم ما تفرضه الحاكم والمحكوم على السواء ؛ ثم هو يستند إلى التقاء القلوب على حب الخير للجميع ، وقوة التعاطف الأخوى فى ظلال الشعور بالمسئولية المشتركة عن صالح الدين والدولة ...

وطبعى أن الحكم فى الشرق الإسلامى لا يقوم على هذا النمط الإسلامى ، فهو إما حكم ملكى أوتوقراطى ، أو ملكى دستورى ، أشبه بالديكتاتوريات التى تقوم على الغلبة وقوة السيف ؛ أو هذه الديكتاتوريات ، أوحكم أوليجاركى يقوم به جماعة من التجار الذين يسمون أمراء فى بعض البقاع ؛ أو حكم جمهورى ديكتاتورى ، أو حكم فى الجملة يستند إلى ما يسمى فى العصر الحديث ، الديكتاتورية البرلمانية ، التى يقولون إنها شر أنواع الحكم .

وفى كل لون من هذه الألوان الحكومية ، تختنق أصوات الشعوب ، وتضيع مصالحها ، وسط ضجيج الجيوش ، وجور السلطان ، وضغط المظالم ؛ ولا يتصل لون منها بأى سبب بالإسلام من قريب أو بعيد .

وقد آن لنا ـ نحن علماء المسلمين ـ أن نتحسس شيئاً من ماء الحياء فى وجوهنا ، حتى نكف عن تأييد هذه النظم الباغية ؛ وقد آن أيضاً لزعماء العلماء ، وكبار قادة الفكر الإسلامى ، أن يطلبوا فى إلحاح من المشرفين على مقدرات الحكم فى الشرق الإسلامى ـ كل فى محيطه ـ أن يديروا حكمهم على منهج إسلامى .

يا قوم : إن الوعى الإسلامى قد استوى اليوم على سوقه ، وروحه تسرى فى الشرق الإسلامى قوية ، تدفع إلى التحرر من جمود الدعاة ، وظلم الحكام ، وأقسم إن لم تسرعوا إلى العمل الجدى المنتج ليجرفنكم التيار ، وليفلتن من أيديكم الزمام ، فسارعوا إلى تحصين التحرر بالدين الصفى الخالص من شوائب الأهواء ، وأهواء الطوائف ، واهتفوا بالناس جميعا : حكمّوا الإسلام فى مشاكلكم وحياتكم ، فإن الشرق فى حاجة إلى حكمه الصالح ، ولقد أفلح من تزكى ، ولتعلمن نبأه بعد حين .

محمود قياسه
مدرس التاريخ الإسلامى
بكلية أصول الدين

ما أشبه الليلة بالبارحة

دماء مهراقة تفور فوق رمال الصحراء، وأجسام مبعثرة تشهد على ظلم الإنسان نجوم السماء، وأشلاء مزقتها قذائف الطغاة، ورءوس عبثت بها الأهوال، ونفوس شواها سعير النضال.

إنها دماء التونسيين أحفاد طارق وجند طارق، إنها أجسام الذين أفزعت صيحات جدودهم فرنسا فتمنت فى الأرض نفقا يقيها سيوف الغزاة وبأس الغزاة، إنها أشلاء أبناء الفاتحين الذين أترعوا فجاج الأرض عدلا وحرية.

فماذا دهى المسلمين؟ أهم قلة حيث تداعت عليهم الأكلة؟ أم هم كثر كغثاء السيل؟

إن النفس لتتمزق حسرات كلما سمعت أنات الشعوب الإسلامية وقد جرح الطغاة عزتها، وطحن الغدر كرامتها، وسحق البغى سلامتها وحق لها أن تتمزق ويدميها الأسف على تلك العزة الإسلامية التى انهارت فى المغرب واستسلمت للطغيان منذ قرون، منذ هزت الدسائس والفتن عرش غرناطة رويداً رويداً، حتى انكفأ وسقط تاج أبى عبد الله آخر ملوكها، وخرج منها متعثراً يلم فى يده المرتعشة أذيال الخيبة ووراءه رنات الأسى تشيع ذلك الأمل المتهدم.

إن ما يعانيه المغرب اليوم صدى لأحداث الماضى البعيد، اختفى فى غضون الزمن حيناً ليظهر عاصفاً يجتاح من لم توقظه العبر.

لقد نسى المسلمون خروج أبى عبد الله من غرناطة ووقوفه متحسرا يلقى على (الحمراء) نظرات الأسف ثم يسترجعها مبللة بالدموع.

لقد نسى المسلمون منظر أبى عبد الله حين أغمض عينيه ليعيش لمحة بين ذكريات (الحمراء) وقصرها المنيف وظلها الوارف، ثم فتحهما فإذا رماح الأعداء حوله، وإذا السيوف تظلل رأسه التى يحها التاج، وإذا النذر تصيح فيه: إلى صحراء المغرب، إلى صحراء المغرب...

لقد نسي المسلمون وقفته حزيناً على تلك الصخرة التي وثب عليها طارق من قبل معتزاً بإيمانه وإيمان أصحابه الذين مزق بهم تاج (لذريق) وداس بهم لآلئه، وقد لمعت فيها قطرات دم الشعب الأسباني التي استنزفها الطاغية واستنزف معها حيوية شعبه، فلما رفرفت عليهم رحمة الإسلام أعادت إليهم حيويتهم المسلوبة.

لقد نسي المسلمون وقفة أبي عبد الله على تلك الصخرة التي نفدت صلابتها تحت قدميه، فلانت، ثم ذابت، فانساخ في ذراتها ذلك الطريد الذي أسلمته ظروفه إلى حالة، ظلمات القبر أهون منها على نفوس الأباة.

إن أمواج الزمن تحمل إلينا من أغوار الماضي البعيد تلك الصيحة التي أرسلها أبو عبد الله بين يديه إلى أحد ملوك أفريقية:

مولى الملوك ملوك العرب والعجم   رعيا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن   جار الزمان عليه جور منتقم
هي الليالي وقاك الله صولتها   تصول حتى على الآساد في الأجم
كنا ملوكا لنا في أرضنا دول   نمنا بها تحت أفنان من النعم
فلا تنم تحت ظل الملك نومتنا   وأي ملك بظل الملك لم ينم

حقاً لقد أيقظته سهام الردى، وأفاق على سقوط ملكه وتداعي عرشه، وانتبه على أجراس الكنائس تدق فتمحو صلصلتها صوت الأذان الذي دوى في الأندلس ثمانية قرون.

لقد صك المسلمون في الماضي البعيد أسماعهم عن صرخات النجدة وأصوات الاستغاثة التي هتف بها الأندلسيون، فلم يستجب لهم شعب إسلامي، ولم تتيقظ الحمية في نفس ملك من ملوك المسلمين حين نادته الأندلس الجريحة.

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا   إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست   فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وفي بلنسية منها وقرطبة   ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلها الإشراك مبتسما   جذلان، وارتحل الإيمان مبتئسا

ولم يلبها أحد من أصحاب التيجان المزيفة حين دعته وأهابت به أن ينتشلها من بعاث العثاء:

نادتك أندلس فلب نداءها واجعل طواغيت الصليب فداءها

وهكذا أخذت تستنجد بمن ماتت فى نفوسهم حب النجدة حتى مضت من الوجود تاركة وراءها سحائب من الدموع لن تجف أبداً .

ما أشبه الليلة بالبارحة ، وما أشبه المذابح التى تلطخ دماؤها أرض تونس بمذابح محاكم التفتيش فى الأندلس ، وما أشبه استنجاد مسلمى المغرب اليوم باستنجاد مسلمى الأندلس بالأمس . فهل هى صرخات ضائعة فى أودية كما ضاعت صرخات الأمس ؟ وهل ماتت أحاسيسنا ففقدنا النخوة ، وأودعنا فى بطون التاريخ القديم الشهامة والرجولة .

إن شجاعة أقلامنا حين نكتب ، وقوة منطقنا حين نخطب ، وجرأتنا فى أقطارنا على الثورة ونحن بمنأى عن رحى المعارك الدائرة ، كل ذلك لا يحسب له العدو حساباً ، وكل ذلك لا يعيد للصريع حياته ، ولا يضمد للجريح جروحه ، ولا يرد كيد الطغاة فى نحورهم .

لقد ضيع مسلمو الأمس الأندلس حين قعدوا عن الكفاح وقد استنفرتهم أخوة العقيدة وازورت أعناقهم عن تلبية ندائها وهى مثخنة بالجراح . وكأن الله عاقب الأحفاد بجريمة الأجداد ، جريمة إيثار الحياة على حب الله ، جريمة خذلان المسلم للمسلم ، جريمة السكوت على عدوان اللادينيين على أرض كانت محاريب لعباد الله ثمانية قرون .

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية وأين شاطبة أم أين جيان
قواعد كن أركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبق أركان
تبكى الحنيفية البيضاء من أسف كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما فيهن إلا نواقيس وصلبان
يا من لذلة قوم بعد عزهم أحال حالهم كفر وطغيان
بالأمس كانوا ملوكا فى منازلهم واليوم هم فى بلاد الكفر عبدان
يارب أم وطفل حيل بينهما كما تفرق أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس اذ طلعت كأنما هى ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان فى القلب إسلام وإيمان

هذه صورة أندلسية دامية يصورها أحد شعرائها فيصور ذلك الانقلاب الذى أتى على المسلمين وعلى آثار المسلمين وعلى أعراض المسلمين .

إنها صور الماضى التى ظلت حية فى التاريخ ، حتى انعكست على المغرب اليوم مكبرة تكشف عن الانسانية المعذبة بين أهوال التنكيل والعسف ، فكم من رضيع مسلم حرمته وحشية الفرنسيين صدر أمه التى جادت للموت بروحها ، وضنت على الفرنسيين بكرامتها . وكم من كهل أدمت القيود أعقابه ، وحطمت الأغلال أصلابه ، فلم يرحمه أولئك الذين أسبغ عليهم منذ سنوات رحمته .

لو أن لفرنسا ضميراً لتمزق حين رأى جنودها يتنكرون بل يقتلون من حموهم وقذائف الألمان تحصدهم وأطعموهم حين استولت النازية على أقواتهم وآووهم وغوائل برد الصحراء تلتهمهم .

وأخيراً ماذا يكون موقف مسلمى اليوم من تلك الأحداث ؟ أهو موقف الاسترجاع ؟ أهو موقف القاعد الذى ينتظر دوره وهو مؤمن بأنه سيؤكل كما أكل الثور الأبيض .

أيها المسلمون ، أفيقوا قبل هبوب العاصفة ، وأجمعوا شتاتكم لتردوا عن كيانكم التآمر الذميم ، تآمر الأطماع ، وتآمر الاستغلال ، تآمر القضاء على الحريات .

أيها المسلمون :

إن الأخوة الاسلامية هى السلاح الوحيد الذى يقضى على ذلك التآمر ، ويمزق نيات المتآمرين ، على أن تكون الأخوة قلبية تجمع بين هذه الشعوب المتباعدة الأقطار ، وتكتل قواها أمام كل من تسول له نفسه النيل من ضعيفها أو قويها .

أيها المسلمون :

إذا فاتكم أن تعيشوا فى الدنيا أعزة كراما ، فلن يفوتكم أن تموتوا بين معامع الحروب سادة أشرافا تكتبون بدمائكم الطاهرة أعظم صفحات من البطولة الخالدة .

أيها المسلمون :

إذا كانت قد أيقظتكم صيحات تونس فلتهتف قواكم وجميع ألوان أسلحتكم : لبيك يا تونس . ثم أذنوا فى الوجود : لقد تيقظنا ، ولن نسمح بعد اليوم لقوة فى الدنيا أن تمس قداسة أرضنا .

محمد خليفة

المدرس فى الأزهر

الدعـــــوة

إلى عقد المؤتمر الاسلامي في القاهرة

حديث لفضيلة الأستاذ الأكبر

كتب مندوب الأهرام يقول :

يعد اجتماع المؤتمر الإسلامي في مدينة القاهرة حدثا تاريخيا له دلالته وأهميته ، ولعل أولى نتائجه أن الأمم الإسلامية سوف يتاح لها أن تجتمع في صعيد واحد ، لتتدارس ما يعتورها أو ما كان يعتورها من مختلف العوامل لتقول كلها كلمة واحدة ، ولتضع نظاما واحداً من شأنه توحيد الجهود لمقاومة العدو المشترك ، سواء أكان هذا العدو مرضا وفقرا وجهلا ، أم كان مستعمرا يجثو فوق رءوسنا وصدورنا بعدده وعدته وخيله ورجله .

وقد رجعت إلى فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر لأقف منه على ما قد يعرض على هذا المؤتمر في اجتماعه المقبل من امهات المشكلات المشتركة بين الأمم الاسلامية .

والحق أن فضيلته قد تردد كثيرا في إجابتي الى ما طلبت ، وذكر لي أن من الخير أن لا نتحدث عن مثل هذه المشكلات قبل أن يتخذ المؤتمرون فيها قرارا عمليا قد يكون له أثره المرتقب . ولكني شرحت له أن هذا الاعتبار وإن كان اعتبارا له قدره إلا أنه لا يصح أن يقف حائلا دون الاعداد والتمهيد ، فقال فضيلته .

زعماء المسلمين

لقد تقرر أن يجتمع كبراء المسلمين ، وزعماؤهم في مؤتمر عام يعقد في القاهرة ، كما عقد في مدينة كراتشي في العام الماضي ، للتفاهم أو للتفكير والبحث في « التعاون » على البر والتقوى .

واستطرد فضيلته فقال متسائلا : فهل لنا أن نمهد لذلك بالتفكير في أنفسنا ، ثم في بحوثنا عن سبل الانتفاع الصادق بهذه الرابطة التي عقدها الله بين قلوب خمسمائة مليون مسلم على الحق والخير ، وأباح بها لهم جميعا سبل التعاون على الانتفاع بكل ما في أوطانهم من نعمة مدخرة .

إن التفكير في ذلك من مصلحتنا ، ومن أسباب سعادتنا . ولا سيما إذا استلهمناه من روحنا الأصيلة ، ومن مبادىء ميثاقنا الأقوم ، معتبرين الأخوة التي عقدها الاسلام بيننا خطوة الى الإنسانية التي تنشدها الأمم اليوم وتتمناها ، ولكن العصبيات القومية ، والاختلافات الوطنية والتنافس على توافه المتع وسفاسف الرغائب تحول بينهم وبين ذلك .

ولو وقفنا نحن إلى شيء من ذلك لضربنا المثل به لأمم الأرض ، فتستكشف بضوئه مسالكها إلى السعادة والتعاون فى أسمى معانيه .

وهنا سكت فضيلته قليلا ثم عاد يقول :

المسلمون أسرة واحدة

كانت الإنسانية فى بدء تكوينها أسرة واحدة ، تتعاون كما تتعاون الأسرة الواحدة ، وتتراحم كما تتراحم . ثم تكاثرت واتسعت . فطرأت عليها العصبيات والاختلافات والتنافس على توافه المتع وسفاسف الرغائب .

وما زالت هذه العصبيات والاختلافات تنمو وتستفحل حتى نشأت عنها العداوات والإحن بين الأسر ، فالمجازر والمذابح بين القبائل ، حتى إذا تمكنت الأثرة والأنانية من النفوس ، وانتقلت من القبائل إلى الشعوب ، جاء الاسلام وهذا المرض الانسانى فى مقياس واسع بين الروم والفرس ، فكان من أعظم رسالات الله إلى الإنسانية على لسان خاتم النبيين دعوة الأمم للرجوع بالإنسانية إلى وحدتها الأولى متآلفة بميثاق جديد ، وهو ميثاق الحق حيثما كان والخير كيفما يكون .

رسالة الاسلام

جاء الإسلام بهاتين الكلمتين « الحق » و « الخير » باسطا يده إلى أمم الأرض لا فرق بين أصفر وأحمر وأبيض وأسود ، فكل من دخل منهم فى ميثاق الحق والخير ، كان أخا للداخلين فيه ، لا فضل فى ذلك لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بقدر مبادرته فى الاستجابة لهذا الميثاق الانسانى ، وتجنبه كل ما يخالفه أو يخل به .

روى الحسن بن أبى الحسن البصرى ، أن خطيب قريش سهيل بن عمرو أحد بنى عامر ابن لؤى ، وأبا سفيان بن حرب بن أمية ، والحارث بن هشام بن المغيرة المخزومى ، وغيرهم من أشراف قريش كانوا بباب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وكان فى بابه أيضاً بعض الموالى كصهيب وبلال وغيرهما ممن شهد بدراً فخرج إذن عمر للموالى ، وأخر عنهم أولئك الأشراف ، فامتعض بعض هؤلاء وقال أبو سفيان لم أر كاليوم قط ، يأذن لهؤلاء العبيد وتركنا على بابه لا يلتفت إلينا . فقال سهيل بن عمرو وكان من ذوى أحلامهم : أيها القوم ، إنى أرى والله الذى فى وجوهكم ، إن كنتم غضاباً فعلى أنفسكم فاغضبوا . دعى القوم ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم .

هذه هى أخوة الإسلام التى رفعت الضعفاء جزاء مبادرتهم فى الاستجابة لدعوة الحق والخير ، وساوت بلالا وصهيباً وأمثالهما بأشراف قريش وساداتها ، بل قدمتهم عليهم .

الاخاء فى الاسلام

وفى ظل هـذا الميثاق الإنسانى الأعظم كان الإسلام قد عقد الإخاء بين الأوس والخزرج ، فكانوا جميعاً أنصار هذا الحق ، ودعاة هذا الخير ، ثم عقد الإخاء بين الأنصار والمهاجرين بمـا لم يسبق له نظير فى تاريخ الإنسانية لما تتمناه الإنسانية من التواسى والتراحم والتعاون فى أسمى معانيها . وأن هذا المثل الإسلامى الأعلى لا يزال مضروباً للناس جميعاً ـ وفى مقدمتهم المسلمون ـ ليعودوا إليه فيعظموا به ، وليأخذوا بمبادئه فيقووا ويسعدوا .

الحق والخير من مبادىء الإنسانية الأولى فى الأزل ، وسيبقيان جديدين إلى الأبد ، وميثاق الحق والخير مدعو إلى الأخذ به كل إنسان يعرف قدر الإنسانية ، والذى يستجيب لدعوته التى نادى بها الإسلام يضمن بذلك السعادة لنفسه وذويه ، والإسلام لا يطلب منه جزاء على ذلك . وأول من ينبغى لهم أن يستجيبوا لدعوة الحق والخير وإحياء ميثاقهما هم المسلمون ، وسيجدون أنفسهم وبلادهم وأممهم بعد ذلك قد استحالت خلقاً آخر غير الذى كانت فيه .

وتعال نتساءل

وتعال نتساءل : ما بالنا نحن المسلمين لا نفكر فى ذلك ، وما بالنا لا نحسن إلى أنفسنا بالرجوع إلى مبادىء الإسلام الطيبة ، وأساليبه الحكيمة الطاهرة فى الأخوة والتعاون ، ألسنا نعلن فى كل يوم أن الناس بخير ما تعاونوا ؟

لماذا نستحسن التعاون على قروش فى مواد البقالة ، ولا نجرب التعاون على السعادة بحذافيرها فى مواد الحياة ومبادئها ؟ ! !

لقد دعانا الإسلام لنكون إخوة متعاونين ، لا على الأمور الصغيرة كفتح دكاكين البقالة وحسب فإن هـذا التعاون مطلوب بعد الإيمان بمبدأ التعاون الإسمى فيما هو أسمى من ذلك وأوسع نطاقاً وأعظم آفاقاً .

نحن الآن أمة لا يقل عددها عن خمسمائة مليون أو تزيد ، فما أقوانا وما أسعدنا لو تعاونا على كل ما نشترك فى الانتفاع به من معادن نفوسنا ومرافقنا ومدخراتنا ، وما أكثرها وأعظمها وأثمنها ! بل لماذا لا نتعاون فى آلامنا وأوصابنا ، وأوجاعنا ، وما أشدها ! وفى آمالنا لحاضرنا ومستقبلنا ، وما أوسع آفاقها !

لقد أنعم الله علينا بدولتين جديدتين مستقلتين الباكستان وأندونسيا وفيهما أكثر من ربع

عدد المسلمين فى العالم ، وأنعم علينا بتطهير أرض الكنانة من أسوأ نظام وأبشعه ، وأنعم علينا باليقظة فى كل مكان ، والاستعداد للأخذ بما هو أحسن ، حتى نصل إلى الاستقرار والطمأنينة والرضا بالحق والإقبال على الخير ، وفى ميثاقنا الإنسانى الأول الذى أنعم الله به علينا فى أكرم رسالاته ما يحقق ذلك كله لنا على أتم الوجوه وأجلها ، فلماذا لا نمد يدنا إلى هذا الماء النمير العذب الصافى فنغترف منه ؟ وفى أوطاننا الإسلامية من أقصى أندونسيا إلى آخر دنيا المسلمين كل أنواع المعادن والمحصولات والمنتجات والمواد الأولية ، فلماذا لا نتعاون مع إخواننا من أهلها على تبادل هذه المنافع ، وإكمال ما ينقصنا من أوطان إخواننا الذين يكثر ذلك عندهم ؟ لماذا لا نعتبر الوطن الإسلامى وطناً واحداً فى تبادل منافعه بالحق والخير ، مع الاعتراف لأهل كل بقعة بأن الأقربين لها أولى بالمعروف ، وأن عليهم أعباءها فى مقابل ذلك ، ثم علينا معاونتهم ولنا عليهم أن يكونوا فى عوننا ؟ ولماذا لا نفتح لهم قلوبنا ليفتحوا لنا قلوبهم ، وبذلك نحصل على مفاتيح الخير كلها فى السماوات والأرض ؟

ميثاق الانسانية

إن عقبة واحدة واقفة فى طريق تحقيق ذلك ، وهى أننا تناسينا ميثاق الإنسانية الذى عقدته رسالة الإسلام بين الأصفر والأحمر والأسود والأبيض ، وقد علمنا الاستعمار فى داخل فصول مدارسنا التى ننفق عليها من أموالنا بأن المسلمين أجانب عن المسلمين ، وأن الإسلام نفسه شبح مخيف يجب أن نتنكر حتى الأخلاق التى جاء يدعو إليها ، وللمثل العليا فى التاريخ التى ضربها أبطال التاريخ الإسلامى للعالم بما بنوا من أمجاد ، وبما أقاموا من حق ، وبما نشروا من دعوة الخير ، فنشأ أبناؤنا ومعاصرونا غرباء عن هذا الجو ، متخوفين من فتح نوافذهم إلى ناحيته ، ولهذا بقى المسلمون متقاطعين فيما بينهم ، ومقاطعين لميثاقهم الإنسانى الأعظم ، ومتجافين عن أخلاق دينهم التى بعث الله نبيهم ليتمم مكارمها ويجمل الإنسانية بها .

مدارسنا وروح الاسلام

وإذا كانت مدارسنا لا تحب أن تعلم هذه الأشياء لأبنائنا ، فلماذا لا يقوم سليمو النية من أفاضلنا وأذكيائنا ومثقفينا بدراسة روح الإسلام من ناحيتها التعاونية والتعاملية ، ويحاولون استنباط معادن الخير منها لننتفع بها فى أزماتنا الحاضرة ؟

اختيار الزوجة في الشريعة الإسلامية

جاء الإسلام فوضع لنا قواعد لبناء هذا المجتمع على أساس صالح ، ليخرجنا من ظلمات التعاسة والشقاء إلى نور السعادة والهناء ، قال تعالى « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » وقال « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

ومن هذه القواعد ما جاءت به الشريعة الغراء لتنظيم الأسرة ، لأنها أساس المجتمع ونواته ، فإذا صلحت صلح المجتمع كله وسار قدما نحو التقدم والرفاهية .

وأول لبنة فى بناء الأسرة وتكوينها هى الزوجة الصالحة التى تسعد زوجها وتوافقه وتطيع رغباته وتشاركه أفراحه وأحزانه وتجعل من بيتها جنة فينانة وعشاً جميلا يأوى اليه الزوج فينسى همومه وآلامه ومتاعبه وأسقامه . هذه الزوجة هى التى عناها الله بقوله تعالى « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » ، « وهو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها » .

ولكن أين هى هذه الزوجة المثالية ، وما مقياس هذه السعادة الزوجية ؟

هل هو الثراء ، أم الجاه ، أم الجمال ، أم الأخلاق الفاضلة ؟

أفكار تختمر وتتردد فى ذهن كل إنسان يرغب فى الزواج ، فالبعض يفضل الغنى لأن الثراء فى نظره هو كل شىء فى الحياة ، فيعتقد أن زواجه من غنية سيسعده ويؤدى به إلى العيش الرغيد من غير جهد أو تعب ، والبعض الآخر يرى فى الجمال مبتغاه وغاية مناه لأنه رجل شهوانى يسمع بفينوس تمثال الجمال فيريد أن يراها فى بيته تقدم له الطعام الشهى وتجاذبه أطراف الحديث الطلى وتسرد له العبارات المزوقة والألفاظ المنمقة ، وفريق ثالث يرى أن سعادته هى فى الزواج من كريمة أحد (الباشاوات) أو الوزراء أو من عائلة معروفة الحسب والنسب ليصل إلى غرضه كترقية أو تعيين فى إحدى الوظائف أو افتخار على غيره من الأقران الذين ينقصهم هذا الجاه الجديد والمصاهرة السعيدة ، وهناك فريق رابع لا ينظر إلى هذه الاعتبارات جميعها فيجعلها دبر أذنه وتحت قدمه ، ويفضل عليها الزوجة ذات الخلق والعقل والدين ويرى فيها المثل الأعلى للزوجية الصالحة التى يسعد بها ويعيش فى ظلالها الوارفة .

أوضح لنا الإسلام أى هذه الطرق أولى بالسلوك ، وأى هذه الاعتبارات أحق بالنظر ، فبين لنا أن الجمال طلاء زائل وعرض حائل ، وأنه إن لم تزينه الأخلاق الفاضلة كان نكبة نكباء وطامة كبرى تدفع الزوجة إلى الطغيان والفساد والاستهتار بالحياة الزوجية ، ولذا حذرنا منها الرسول ﷺ وشبهها بالنبات الأخضر الجذاب وسط الدمن والأوساخ والقاذورات فقال : « إياكم وخضراء الدمن . قيل : وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال : المرأة الحسناء فى المنبت السوء » . كما بين لنا أن الغنى وحده — من غير أخلاق تحد من طغيانه — لا يصلح أساسا للزوجية ، فهو يدفع الانسان إلى البطر والغرور والكبرياء ، والتعالى على الزوج وامتهان كرامته ، قال تعالى : « إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى » .

وكذلك الجاه يفسد الزوجة إن لم يكن لها من عقلها ودينها وأخلاقها رادع يقفها عند حدها ، ويشعرها بأنها وإن كانت أنسب وأحسب من زوجها ، إلا أنها صارت زوجته ، وواجب عليها طاعته ورضاؤه ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا تزوجوا النساء لحسنهن ، فعسى حسنهن أن يرديهن . ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن . ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة خرماء سوداء ذات دين أفضل » . وقال : « ألا أخبركم بخير ما يكنز المرء : المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرته ، وإذا غاب عنها حفظته ، وإذا أمرها أطاعته » . وقال : « الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة » ، « تنكح المرأة لأربع : لمالها وجمالها وحسبها ودينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » .

وروى أن سيدنا عمر رضى الله عنه نهى الباعة عن مذق اللبن بالماء ، فخرج فى إحدى الليالى يتفقد الرعية ، وإذا به يسمع امرأة تقول لابنتها : ألا تمزقين اللبن بالماء فقد أصبح الصباح ؟ فقالت البنت : كيف ذلك وقد نهى عنه أمير المؤمنين ؟ قالت : قد فعل الناس فافعلى مثلهم ، فما يدرى أمير المؤمنين ؛ فقالت : إن كان عمر لا يعلم ، فإله عمر يعلم . ما كنت لأفعله وقد نهى عنه .

فسر سيدنا عمر لذلك ، فلما أصبح دعا عاصما ابنه وقال له : يا بنى اذهب إلى موضع كذا وكذا فاسأل عن الجارية ووصفها له . فذهب عاصم فإذا جارية من بنى هلال ، فقال له عمر : اذهب يا بنى فتزوجها فما أحراها أن تأتى بفارس يسود العرب . فتزوجها عاصم بن عمر فجاء من نسلها عمر بن عبد العزيز خليفة المسلمين .

فعمر رضى الله عنه قد اختار هذه الفتاة زوجا لابنه لصلاحها وتقواها ، ولمراقبتها الله فى سرها ونجواها ، وهى صفة قلما توجد إلا فى ذوى الضمائر الحساسة والنفوس العالية التى عرفت الله حق معرفته لمخافته فى السر والعلن ، وأحست به فى تصرفاتها ، وأدركت أنه مطلع عليها ، وهو ما قصده المصطفى ﷺ بقوله « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

فالإسلام إذن قد جعل أساس اختيار الزوجة هو تقواها وصلاحها وتمسكها بدينها ومراقبتها الله وتحليها بالأخلاق الفاضلة والطباع الكريمة ، وهذا لا يعنى ألا تجمع الزوجة مع الأخلاق الكريمة الجمال أو الغنى أو الجاه قال ﷺ « إن أفضل المؤمنين إيمانا هو أحسنهم خلقا » ، « خير ما يعطى العبد خلق حسن » ، « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

محمد فهمى الطماوى

مفتش تحقيقات بالشئون الاجتماعية

الجزائر فى ستة أشهر

بلغ عدد الذين اعتقلتهم السلطات الفرنسية فى الجزائر فى الستة الأشهر الأخيرة ٨٩٠ من أنصار حزب الشعب ، وحكم فيها بالسجن لمدة سنة على ٣٢٥ متهماً سياسياً ، وأبعد ١٨٥ لمدة سنة ، وحرم ٣٠٥ من الحقوق المدنية والسياسية لمدة سنة ، وهذه الاعتقالات قاصرة على المحكوم عليهم ولا تشمل الوطنيين المسجونين بلا محاكمة أو حكم .



تاريخ مدينة دمشق

للإمام الحافظ أبي القاسم على بن الحسن المعروف بابن عساكر (٤٩٩ - ٥٧١ هـ)
نشره المجمع العلمى العربى بدمشق . بتحقيق الأستاذ صلاح الدين المنجد
المجلدة الأولى ٨٥٩ ص . ك

الحافظ أبو القاسم بن عساكر (٤٩٩ - ٥٧١) إمام من كبار حملة العلم الإسلامى ، ولد فى دمشق فى بيت من أكبر بيوت الحديث والفقه والقضاء ، فتضلع وارتوى من العلم منذ نشأته الأولى إلى أن كان - كما قال عنه السبكى فى طبقات الشافعية - رأس بيت معمور بالأئمة والمحدثين ، بل كانت أمه كذلك من آل القرشى وكان منهم قضاة دمشق مدة طويلة . وفى سنة ٥٢٠ بدأ رحلته إلى العراق فى طلب الحديث ، ثم حج فى السنة التالية ، واستأنف رحلته بعدها إلى العراق وخراسان ونيسابور حتى بلغ سرخس فى أعماق المشرق ، ولقى علماء الأقطار وكتب عنهم ما انفردوا به حتى بلغ عدد شيوخه الذين سمع منهم ألفا وثلاثمائة شيخ ، والذين أخذ عنهم الشعر ستة وأربعين ، ومن شيوخه بضع وثمانون امرأة . ثم عاد إلى العراق فدمشق وقد أوفى على الثالثة والثلاثين من سنه فتبوأ أريكة التحديث فى تلك العاصمة المليئة بالعلماء والحفاظ ، واستمر بعد ذلك قرابة أربعين عاماً يؤلف ويدرس ويملى على طالبي المعرفة حتى ملأ الدنيا علماً من مؤلفاته الكثيرة ، ونبغ على يده طائفة كبيرة من العلماء الذين تلمذوا له فى تلك العشرات من السنين . ولما دخل السلطان المجاهد الفاتح نور الدين محمود ابن زنكى مدينة دمشق ، بلغه خبر (تاريخ مدينة دمشق) الذى اشتغل ابن عساكر بتأليفه ولم يكن قد أتمه فكان السلطان متشوقا لإكماله ، وحثه على ذلك فراجع العمل فيه إلى أن أتمه ، فجاء حافلا بتراجم أعلام الإسلام الذين أنجبتهم دمشق أو دخلوها من صدر الإسلام إلى

القرن السادس الهجرى . وهو بلا ريب أوسع تاريخ كتب فى الإسلام لأية عاصمة من عواصمه ، ولا نعلم كتاباً أكثر منه تخليداً لمآثر خلفاء هـــذه الملة وأئمتها ونوابغ عظمائها فى الحرب والسياسة والعلوم والآداب والرواية والصلاح ومكارم الأخلاق . والمرجح أنه ألفه فى عشرين سنة ، مع اشتغاله بالتدريس والتأليف وغيرهما . وطريقته فيه كطريقة الإمام أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى فى إيراد كل خبر بسنده إلى مصدره ، وابن عساكر كالطبرى حريص على تزويد قارئه بوجهات النظر المختلفة ـ حتى ما يعتقد المؤلف نفسه أنه من الأخبار الضعيفة ، أو من روايات المخالفين له فى النحلة . وعنده أن إيراد الخبر بسنده يفيد من بعض الوجوه حتى لو كان ضعيفا ، ثم على من يريد أن ينتفع بأى خبر أن يقف أولا على منزلة رواته ليعرف درجة الخبر الذى جاءوا به . وابن عساكر استمد أخبار كتابه من مصادر ذهب الدهر بكثير منها لحفظ لنا تاريخ دمشق ما اقتبسه منها .

وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر معجم تراجم لعظماء الإسلام مرتبة أسماؤهم على حروف الهجاء بدقة ، إلا أنه بدأ بمن اسمهم أحمد تيمناً باسم النبى ﷺ ، ثم تابع إثبات التراجم مرتبة مسلسلة ، حتى أنه راعى الترتيب فى أسماء الآباء والأجداد . والذين اشتهروا بكنيتهم ولم تعرف أسماؤهم أفرد لهم قسما مستقلا ، وبعده قسم للذين اشتهروا بنسبتهم ، ثم خصص قسما للنسوة والإماء والشواعر . والذين ترجم لهم ذكر ما عرفه لهم من ثناء ومدح ، وما فيهم من هجاء وقدح ، وما ذكره العلماء فيهم من تعديل وجرح ، وحكى ما نقل عنهم من جد ومزح ، وأورد بعض ما وقع له من رواياتهم ، وتعريف ما عرفه من موالدهم ووفياتهم .

وهذه المجلدة التى تم طبعها الآن من تاريخ مدينة دمشق بلغت ٨٥٩ صفحة بالقطع الكامل ، ومع ذلك فإنها استوعبت نحو نصف مقدمة التاريخ ، وقد أورد فيها المؤلف الأحاديث والأخبار عن أولية دمشق وفضائلها والثناء على أهلها ، وأنها صفوة الله من بلاده ، إليها يجتبى خيرته من عباده ، وفيه أخبار جهاد الصحابة فيها ، وتاريخ فتحها ، وما يتعلق بذلك . وفى المجلدة الثانية التى لم تنشر بعد بقية المقدمة عن خطط دمشق ووصف مسجدها وما كان عليه من قبل وبناء الوليد بن عبد الملك له ، وما فى دمشق من مساجد ومآثر ومعالم . ثم يأتى بعد ذلك معجم التراجم وسيكون بمجلدات كثيرة .

وقد عهد المجمع العلمي العربي بدمشق في إخراج هذه المجلدة الأولى وتصحيحها وتحقيقها إلى الأستاذ الفاضل السيد صلاح الدين المنجد مؤلف (خطط دمشق) المطبوع في بيروت سنة ١٩٤٩ ، وكتاب (دمشق القديمة) المطبوع بدمشق سنة ١٩٤٦ ، و (مخطط دمشق القديمة) الذي نشرته مديرية الآثار العامة بدمشق سنة ١٩٤٧ . فقام بهذا العمل خير قيام ، واستعان في بعض مواطنه بأهل العلم والتخصص ، وقد أحضر له المجمع العلمي صورة شمسية لخمسة الأجزاء الأولى من النسخة المقروءة على المؤلف ابن عساكر سنة ٥٧١ والمحفوظة في مكتبة الجامع الأزهر بالقاهرة برقم ٧١٤ تاريخ (١٠٦٧٠ ع) إلا أن تصويرها كان غير جيد فضلا عن أن أصلها فيه آثار الرطوبة والأرضة والترميم ، وهذه الأجزاء الخمسة الأولى تبلغ النصف الأول من هذه المجلدة الأولى التي تم طبعها . ومن حسن الحظ أن خمسة الأجزاء التالية لها والمتممة للمجلدة الأولى من مطبوعة المجمع العلمي بدمشق توجد الآن في المتحف البريطاني ، وقد سعى المجمع العلمي بدمشق بتصويرها في فلم تم تكبيره بدمشق ، وهي جيدة واضحة الخط ، فتم بالاعتماد عليها تحقيق المجلدة الأولى مع المقارنة بمخطوطات المكتبة الظاهرية بدمشق ومكتبة كيمبردج وغير ذلك .

وكان الشيخ عبد القادر بدران رحمه الله قد بدأ باختصار تاريخ دمشق هذا ، وطبع منه في دمشق سبعة مجلدات إلى ترجمة عبد الله بن يسار ، كما أن الشيخ أبا الفتح الخطيب (والد رئيس تحرير هذه المجلة) قام باختصاره وتوجد منه في المكتبة التيمورية خمسة مجلدات مذكورة في فهرسها الخاص بكتب التاريخ ، ومنه جزء في مكتبة جامعة برنستون مذكور في فهرس مخطوطاتها ص ١٩٢ ، وفي مكتبة دار الشيخ بالروضة جزآن من أوله برقم ٧٤٥ ، ونعتقد أن هذا المختصر لم يتم .

أما هذه الطبعة التي قام على تحقيق المجلدة الأولى منها الأستاذ صلاح الدين المنجد فقد بلغت الغاية من الجودة والإتقان ، وقدم لها الأستاذ العلامة محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي بمقدمة قال فيها : « قد يكون تاريخ دمشق أوسع تواريخ المدن ، وهو أيضاً من أوسع المصادر في تراجم الرجال ، حتى ليجرد منه كتب على حدة في موضوعات مختلفة ، كولاة دمشق مثلا ، وقضاتها ، وشعرائها ، ومنه يستخرج أحسن تاريخ لبني أمية كتبت معظم التواريخ عنه . . . الخ » . وبعد مقدمة الأستاذ كرد علي تأتي مقدمة الأستاذ المنجد ،

وفيها سلسلة نسب أشهر رجال بنى عساكر، وسلسلة بنى القرشى أخوال الحافظ ابن عساكر، وخريطة للعالم الإسلامى فى زمن المؤلف مشار فيها إلى المعروف الآن من المدن التى رحل إليها فى طلب العلم إلى ما وراء خراسان من البلاد التى تقع الآن فى حكم روسيا، وذلك فى خلال ترجمة كتبها الأستاذ المنجد للمؤلف فوقعت فى نحو أربعين صفحة كبيرة.

ثم زين محقق الكتاب هذه المجلدة بالسماعات العلمية التى وجدها فى آخر الأجزاء الباقية من النسخة المقروءة على المؤلف، وألحق بها فهرساً هجائياً لشيوخ ابن عساكر الذين سماهم بأول كل خبر من أخبار هذه المجلدة، وفهرساً للأحاديث مرتبة بحسب أوائلها، وفهرساً للأمم والقبائل والأرهاط والجماعات، وفهرساً للأشعار، وفهرسا للبلاد والمدن والقرى والأماكن والجبال والأنهار، وفهرساً للأعلام من الرجال والنساء، وفهارس أخرى متعددة غير ما ذكرنا. ويقول الأستاذ المنجد: « لقد بذلنا الجهد فى إخراج هذه المجلدة، ومع ذلك فما استعصى علينا كثير. وكان علماؤنا الذين لجأنا إليهم يحارون أو يتوقفون مثلنا. وهــذا التاريخ من مفاخر التراث العربى، فليتفضل من يجد فيه خطأ أو خللا بتصحيحه، فإنما هو ملك للمسلمين والعلماء عامة ».

فشكراً للمجمع العلمى العربى بدمشق، ولمحقق هذه المجلدة الأستاذ صلاح الدين المنجد. ونرجو الله أن يوفقهم إلى الإسراع فى إصدار المجلدات التالية. فإن الناس فى تعطش إلى ما فى الكتاب من تراجم، ولا سيما ما لم يسبق نشره من مختصره. وماذا يضير لو أنهم سارعوا ببقية حرف العين وما بعده على أن يعودوا بعد ذلك إلى المجلدة الثانية أو الثالثة فما بعدها؟.

ما وراء الآيات — للأستاذ أحمد محمد جمال

مطبعة مصطفى الحلبى، ١٨٠ ص جاير

الأستاذ أحمد محمد جمال من أفاضل أدباء الحجاز، وقد انتشرت له قبل الآن مؤلفات فى التاريخ والشعر والأدب. وكتابه هذا (ما وراء الآيات) مجموعة أحاديث له أذاعها من محطة الإذاعة السعودية اقتبسها من قصص القرآن، وأدارها فى الغالب على ما اشتهر

فى كتب التفسير عن أسباب النزول ، ثم استخلص منها ما يقتضيه المقام من فوائد وعبر وملح وإرشاد . غير أن أسباب النزول التى يوردها المؤلفون فى التفسير يتساهلون فيها كتساهل بعضهم فى إيراد الإسرائيليات ، وحتى الذين يذكرون أسباب النزول مروية بأسانيدها التى وصلت إليهم رأينا أكثر ما أوردوه من هذه الأسانيد منقطعاً ومنها ما بين وقت النزول وأعلى راو لها نحو مائة سنة أو أكثر ، ومع انقطاع هذه الأسانيد فإن فى بعض رواتها ضعفا . والمفسرون الذين يوردون أسباب النزول بأسانيدها يكلون أمرها إلى من يقف عليها ليحكم على تلك الأخبار بما تستحقه فى قواعد الجرح والتعديل . ونضرب المثل لذلك بآية الحجرات التى قيل إنها نزلت فى بنى المصطلق ، فقد اجتمع فيما رووه من أخبار سبب نزولها انقطاع السند وضعف الرواة كما نبه عليه القاضى أبو بكر بن العربى فى العواصم من القواصم (ص ٩٠ — ٩٣) وترى أدلة ذلك فى التعليق عليه . وطريقة السلف فى التحدث عن مثل هذه المسائل إما نقل سبب النزول بسنده ليتبين الواقفون عليه درجة صحة الخبر من ذلك ، أو أن يتولى المؤلف ذلك بنفسه على طريقة أهل الجرح والتعديل حتى إذا تبين له أن سبب النزول الذى ذكروه لا يثبت على طريقة علماء الحديث صرف النظر عن بناء الأحكام عليه وإيهام القارىء أنه صحيح ثابت .

وعلى كل حال فإن النية فى هذه الأحاديث حسنة ، وما استخلصه الأستاذ أحمد محمد جمال من إرشاد وعبرة نافع مفيد وهو مشكور عليه . وكما أحسن فى أحاديثه من محطة الأذاعة أحسن كذلك فى جمع هذه الأحاديث فى كتاب مستقل ، فشكراً له .

التربية فى القرآن ـ للأستاذ محمد عبد الله السمان

مطبعة دار الكتاب العربى ، ٧٧ ص نصف القالبين

يقول مؤلف هذه الرسالة فى خاتمة المقالة الأولى منها : إن آيات القرآن من أولها إلى آخرها دستور شامل للتربية الصحيحة والتوجيه السليم ، وهذا ما حدا بالمستشرق (كارليل) أن يقول :

« إن الإحساسات الصادقة الشريفة ، والنيات الطاهرة الكريمة ، تظهر لى فضل القرآن ، الفضل الذى هو أول وآخر فضل وجد فى كتاب نتجت عنه جميع الفضائل على اختلافها » .

ثم استعرض المؤلف آيات القرآن فى تربية الأمم ، وفى تربية الدعاة ، وفى تربية النفس ، وفى الفضائل — ومنها السمو الخلق ، والاتزان ، والتروى ، والاعتدال ، ويقظة الضمير ، وآداب السلوك ، وحضرية الإنسانية . وفى الرذائل — ومنها : الغرور ، والمكابرة ، والتمادى فى الغى ، والأنانية ، والنفاق ؛ وكفران النعمة . ثم دروس فى الحياة ، والتربية العامة .

وهى رسالة لطيفة يجدر بشباب الأمة وجمهورها أن يتدبروا ما فيها من آيات الله فى تربية النفس الإنسانية ليزدادوا بها علما ، بل ليتمرنوا على التربية الإسلامية عملا ، إلى أن تكون من صميم سجاياهم وأصيل فطرتهم ، ثم ليكونوا بعد ذلك قدوة فيها لكل من يتصل بهم ، وبهذا يكون المسلم المتأدب بأدب القرآن كتابا معروضا على أنظار الناس يقرأون به حقائق الإسلام فى أسواقهم وبيوتهم ومجتمعاتهم .

تفسير جزء عم

لخصه من التفاسير المعتمدة الأستاذ محمد توفيق عبيد

المكتبة العربية بدمشق ، ٤٤ ص قالبين

إن السور التى تضمنها جزء عم هى السور القصار التى تتلى فى الصلوات غالباً . وقد آثر الأستاذ محمد توفيق عبيد تقديمها بتلخيص تفسيرها تلخيصاً وسطا بين الإيجاز والإسهاب ، مستمداً ذلك من تفاسير البيضاوى والجلالين والشيخ محمد عبده ، ثم قابله على تفسير النسفى وغيره . وقد جعل السور بخط جلى من خطوط المصاحف فى وسط التفسير مشكولة الآيات مرقمة ، فجاءت جميلة الطبع ، مصقولة الورق ، تفى بحاجة الجمهور ، جزاه الله خيراً .

رد على كتاب السقيفة

للأستاذ عبد الله الحضرمى ، مطبعة دار الكتاب العربى بمصر ، ٢٣٨ ص جابر

قال الله عز وجل مخاطبا أصحاب رسول الله ﷺ : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ، فألف رجل من أهل النجف اسمه محمد رضا المظفر كتابا عنوانه (السقيفة) ليقول فيه لأصحاب محمد ﷺ : كنتم شر أمة أخرجت للناس . وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » ، فأراد النجفى مؤلف كتاب (السقيفة) أن ينقض هذه الحقيقة التى أيدها الواقع والتاريخ فكانت من أعلام النبوة ، لجاء محاولا إقناع قرائه بأن شر القرون قرن أصحاب رسول الله ﷺ ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم .

إن أصحاب رسول الله ﷺ لم يكونوا معصومين ، فإنه لا معصوم بعد رسول الله ، ولكنهم كانوا بأجمعهم عدولا أخياراً بشهادة الله ورسوله لهم ، وكانوا أفضل جيل عرفته الإنسانية من آدم إلى هذا اليوم ، وقد مضى فى طريقهم التابعون وتابعو التابعين فكانوا المثل العليا للحق والخير ، ولذلك استجابت لدعوتهم الأمم ، ودخلت فى الإسلام على أيديهم ، وهذا العالم الإسلامى كله من ثمرات دعوتهم وبركتهم وجهادهم فى الله حق جهاده وقيامهم بتبليغ رسالات الله على ما يرضى به الله .

وقد صدر فى الرد على كتاب النجفى هذا الكتاب للأستاذ عبد الله الحضرمى ، وتكرم فأهداه إلينا فى هذا الشهر . وفى اعتقادنا أنه خير من الرد على هذه الكتب السخيفة تأليف كتب مختصرة ومتوسطة ومطولة فى تاريخ عصور الصحابة والتابعين والتابعين لهم بإحسان ، ونشر رسائل فى تراجم أعلامهم مستمدة من كتب الثقات وأئمة السنة وأعلام الدين ، وبذلك يرد الحق إلى نصابه ، وينشأ شباب الإسلام عارفين بفضل الصحابة والتابعين على العالم الإسلامى وعلى الإنسانية كلها ، ولو كره الذين فى قلوبهم مرض .

الرسالة الجامعة — المنسوبة للحكيم المجريطى

نشرها المجمع العلمى بدمشق ، بتحقيق الأستاذ جميل صليبا ، جزءان ١١٦٤ صفحة قاليبين

الحكيم المجريطى المنسوبة إليه هذه الرسالة الجامعة هو أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطى القرطبى الأندلسى ، ومجريط هى (مدريد) عاصمة اسبانيا الآن ، وكان المجريطى إمام الرياضيين بالأندلس فى القرن الرابع الهجرى ، وقد ترجم الأوربيون كتابه فى الاسطرلاب باللاتينية ، وكتابه فى الفلك الذى نقله عن بطليموس — وهو يبحث فى الكرة السماوية المسطحة — ترجمه باللاتينية هرمان سكوندوس ، وقد اشتهر المجريطى بكتابيه (رتبة الحكيم) فى الكيمياء و (غاية الحكيم) فى السحر والطلسمات .

والرسالة الجامعة المنسوبة اليه بقيت منها نسخ مخطوطة : إحداها فى دار الكتب الظاهرية بدمشق ، وثانية فى المكتبة التيمورية ، وثالثة فى طهران ، ورابعة فى المكتبة الوطنية بباريس ، وخامسة فى دار الكتب المصرية ، وسادسة فى مكتبة أحد الإسماعيليين فى السليمية من بلاد الشام .

والظاهر أن نسبة هذا الكتاب إلى المجريطى نشأت عن وهم توهمه مؤلف كتاب كشف الظنون ، وأسلوب الكتاب أشبه بأسلوب رسائل إخوان الصفا منه بأسلوب كتب المجريطى ، وأبوابه هى أبواب رسائل إخوان الصفا ، وعدد الرسائل فى الكتابين واحد وإن اختلفت الفصول فيهما . بل قد وردت عبارات من إخوان الصفا فى هذا الكتاب متفقة بالحرف ، ونبه على ذلك محقق الكتاب فى مواضعه .. إلى غير ذلك من القرائن الكثيرة على أن (الرسالة الجامعة) متممة لرسائل إخوان الصفا .

والذى نقل رسائل إخوان الصفا من المشرق إلى الأندلس هو الكرمانى تلميذ المجريطى كما يقول القاضى صاعد فى طبقات الأمم ، والكرمانى توفى سنة ٤٥٨ والقاضى صاعد توفى سنة ٤٦٢ ، فيحتمل كثيراً أن تكون (الرسالة الجامعة) التى قلنا إنها متممة لرسائل إخوان الصفا قد جاء بها الكرمانى إلى الأندلس مع ما جاء به من الكتب الفلسفية عند رحلته إلى حران وبلاد الجزيرة والعراق .

وتتفق الرسالة الجامعة مع رسائل إخوان الصفا فى أنهما يتضمنان صورة ما بلغ إليه العلم بالرياضيات والطبيعيات والفلسفة فى القرن الرابع ، ولو كان الغرض من رسائل إخوان الصفا والرسالة الجامعة هو العلم المحض لما كان هناك داع إلى خفاء اسم مؤلف هذه الرسائل ، سواء أكان واحداً أو أكثر ، غير أن دراسة هذه الرسائل تدل على أن لكاتبها ـ أو لكاتبيها ـ أغراضاً أخرى دينية تخالف رسالة الإسلام فى صميمها ، وسياسية تضمر ما تنكره الدولة القائمة فى ذلك الحين ، والشر يدعو دائماً إلى التستر ، والخير لا يتستر أحد منه .

وان الدكتور حسين الهمدانى ـ أحد دعاة الاسماعيلية المعاصرين لنا ، وقد كتب محقق الرسالة الجامعة اسمه محرفاً بالحاء : الحمدانى ـ كان يقول قبل نحو ربع قرن « إن رسائل إخوان الصفا كتاب الأئمة ، والقرآن كتاب العامة ، والظاهر أن مؤلفى رسائل إخوان الصفا والرسالة الجامعة كانوا يدعون إلى هذا المعنى القبيح ولذلك تستروا وكتموا أسماءهم .

وعلى كل حال فنحن فى هذا العصر نستفيد من الرسالة الجامعة ورسائل اخوان الصفا أمرين اثنين : أحدهما معرفة المستوى العلمى فى القرن الرابع الهجرى ، والثانى التنقيب عن المرامى الالحادية والسياسية التى كان يضمرها مؤلفو الكتابين ويدسونها فى مطاوى القضايا العلمية فيفسدون العلم بذلك من حيث يريدون افساد الدين .

ومن حسن حظ الرسالة الجامعة — مع أنها الآن فى طبعتها الأولى — أن تحظى من العناية والتحقيق بما لم تحظ بمثله رسائل إخوان الصفا على شهرتها وتكرر طبعها فى الهند أولا وفى مصر آخيرا ، وقد جاءت الرسالة الجامعة فى مجلدين كبيرين أولهما فى ٧٣٠ صفحة والآخر فى ٤٣٣ صفحة من قطع صفحات هذه المجلة ، وموضوعات المجلدين كموضوعات رسائل إخوان الصفا ، والغرض فى الكتابين واحد ، وأهل المذهب الإسماعيلى يرفعون مقام هذين الكتابين فوق مقام كل كتاب آخر فى الارض ، أما غيرهم من علماء الشرق والغرب فلا يرون لهما فائدة أكثر من الدلالة على تطور التاريخ العلمى والفكرى فى حقبة من الزمن .

مجمل تاريخ حاضرة الصعيد (أسيوط)

اطلع فضيلة الأستاذ الشيخ سيد على الطوبجى من علماء أسيوط على بحث فى إحدى الصحف الكبرى عن ماضى أسيوط وأعلامها ، فبدا له أن يتوسع فى الموضوع لتدارك ما فات تلك الصحيفة ، لكنه اقتصر فيما نشره على الجزء الأول فى ٥٧ صفحة واعداً بأن يرجع إلى ذلك فى أجزاء أخرى . وما سرده فى هذا الجزء لم يتعمد فيه الترتيب ، بل أورد فيه من خواطره المتعلقة بماضى أسيوط البعيد والقريب وأبنائها المعاصرين والذين سبقوهم . وقاعدته فى السرد أن الواو لا تقتضى ترتيبا . والمعلومات المشحونة فى الجزء الأول تفيد الباحثين فى تاريخ أسيوط ، ولعل المؤلف عند نشره الأجزاء الأخرى يلتزم فيها التبويب والتقسيم بحسب التسلسل الزمنى والموضوعى ، فتكون الفائدة به أتم ، والانتشار له أعم .

هداية المرشدين الى طرق الوعظ والخطابة

للشيخ على محفوظ ، مطبعة دار الكتاب العربى ، ٥٤١ ص قالبين

كان العلامة المخلص الصالح الشيخ على محفوظ رحمه الله أبا الوعاظ ومؤسس الوعظ السليم فى الديار المصرية . ولد رحمه الله فى محلة روح من أعمال طنطا وتلقى علومه

فى الجامع الأحمدى ثم فى الأزهر الشريف ، وتخرج منه سنة ١٩٠٧ ، ثم اشتغل بالتدريس ونال عضوية جماعة كبار العلماء سنة ١٩٣٩ ، وانتقل إلى رحمة الله يوم ٣ ذى القعدة ١٣٦١ (١١ نوفمبر ١٩٤٢) وله كتب نافعة من أهمها (هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة) ولا يزال الوعاظ والمرشدون ينتفعون به إلى يومنا هذا وبين أيدينا الطبعة الخامسة منه قام أنجاله بنشرها .

وفى هذا الكتاب التعريف بالدعوة والحاجة إليها ، والسنن العامة فى دعوة الرسل إلى الدين ، وهديه صلوات الله عليه فى الدعوة وفى تربية أصحابه ، وواجب العلماء فى الوعظ والإرشاد ، وقد ألم بتاريخ الوعظ الدينى قديما ، وبآداب الداعى ، وبالكثير من المواعظ الدينية ، وبطرق الوعظ من ترغيب وترهيب ، وبنماذج من مواعظ القرآن والسنة النبوية ، وفى الكتاب محاضرات وخطب علمية ودينية وخلقية واجتماعية ، وما ينبغى أن يراعى فى وضع خطب المنابر ، مع إيراد نماذج جيدة منها . فالكتاب كما ترى سفر نفيس جدير بما حظى به فى طبعاته السالفة من إقبال عليه من جميع الطبقات .

نظرية الأنساب فى الميزان

هو بحث قيم قام به العالم المحقق الأستاذ عبد الوهاب حمودة ونشره فى مجلة كلية الآداب ، ثم فصل منه نسخاً مفردة أهدى إلينا نسخة منها . وقد بحث فيه عن معنى كلمة « النسب » فى اللغة وما بينها وبين لفظ « سبب » من علاقة ، وما كانت تطلق عليه فى أول استعمالها وكيف تطورت بعد ذلك . وانتقل إلى موقف المستشرقين من أنساب العرب وآراء كل فريق منهم ، وأفاض فى بيان مذهب من ذهب منهم إلى أن الأمومة هى الأصل فى الأنساب ، وهو مذهب نقضه وأثبت خطله كثير من علمائنا قبل نحو نصف قرن لمناسبة انتشار رسالة بندلى صليبا الجوزى . وانتهى الأستاذ حمودة بعد استعراض أدلتهم إلى القول بأن الأمومة « لم تكن قانونا شائعاً عند جميع القبائل ، ولكن لا مانع فى رأينا من أن يكون العرب قد مروا قديما فى هذا الدور ، وكان للأم عندهم اعتبار ومركز ممتاز » . وأنت ترى أن الأستاذ على تسامحه مع القائلين بالأمومة عند العرب بنى رأيه على الظن والاحتمال فى دور قديم ليس لدينا ما نقطع فى حقيقة ما كان عليه .

ثم عقد فصلا ذكر فيه رأيه فى الأنساب معتمداً على آراء لبعض المستشرقين وعلماء

الإسلام ، وافتتح هذا الفصل بالإشارة إلى ما فى بعض كتب الأنساب من تخليط ووهم واختلاف . وفى اعتقادنا أن هذا الحكم على كتب الأنساب كان ينبغى أن يتناوله التفصيل والتمييز ، ولعلنا نقترب من الصواب كثيراً إذا علمنا أن الأنساب لا تتناول كل أفراد القبائل ، وإنما يقتصر نسب القبيلة على أعمدته من بيوتها المشهورة دون المغمورة . وما أثبته علماء النسب من أنساب البيوت المشهورة قريب جداً من الواقع ، وليس لأعيان أمة من أمم الأرض ما لأعيان الأمة العربية من المعرفة بأنسابها ، وإذا وقع الخطأ فى ذلك فإنما يقع فى النقص لا فى الزيادة ، لأن التاريخ والوعى القومى يحفظان أسماء المشهورين بالرياسة أو الفروسية أو الكرم أو الشعر والخطابة والحكمة ، وقد تخفى عنهما أو تسقط من حفظهما أسماء المغمورين من رجال سلسلة النسب فتجيء السلسلة ناقصة عما هى عليه فى الواقع ، ومن المستبعد وقوع الزيادة بتسمية رجال لم يكونوا فى الواقع من آباء تلك السلسلة . أما جمهور العامة ممن ينتمى إلى قبيلة من القبائل فإنهم يكتفون بانتمائهم إليها فى الجملة ولا يعرفون لبيوتهم سلسلة أنساب كما يعرف الأعيان ذلك لآبائهم وسلفهم .

وما أشار اليه الأستاذ حودة من تخليط أو اختلاف فكثيراً ما ينشأ عن وفاة أب من آباء بيت معروف النسب ، فتتزوج زوجته فى قبيلة أخرى وينشأ ابنها الصغير من زوجها الأول فى بيت زوجها الثانى فينسبه من لا يعرف ذلك إلى زوجها الثانى ، كما نسبوا قضاعة إلى معد مع أن نسبه متصل عند قومه من حمير الذين يعرفون أباه مالك بن عمرو بن مرة ابن زيد بن مالك بن حمير . وقد يقع الاختلاف بسبب نزوح قبيلة عن ديار القبائل التى تجمعها بهن صلة النسب إلى ديار قبائل أخرى غريبة عنها ، فتنسجم بها وتشاركها فى سلمها وحربها ، فينشأ أبناء المتحالفين ممتزجين كامتزاج المتناسلين من أصل واحد ، فينسبهم من يعرف نسبهم إلى أصلهم الأول ، ويلحقهم من يجهل ذلك بالقبائل التى طرأوا عليها . وعلى كل حال فإن هذا الاضطراب يكون فى جمهور العامة ، أما أعيان القبيلة فيحفظون أنسابهم حيثما ارتحلوا .

وفى رأينا أن نسب كل قبيلة يرجع فيه إلى العلماء من أبنائها إن بقيت لهم مؤلفات تحفظ أنسابهم ، فقبائل حاشد وبكيل من همدان حفظ لنا الهمدانى أنسابها فى الجزء العاشر من كتابه (الاكليل) بدقة وأمانة لانظير لها ، وما اطلعنا على نسب همدانى فى كتاب من الكتب وعارضناه بما ذكره الهمدانى فى الاكليل إلا وجدناه عند الهمدانى صحيحاً مضبوطاً لا غبار عليه وأنساب قبائل كلب القضاعيين توسع فيها ابن الكلبي فى جمهرة النسب

التي اختصرها ياقوت ، وفي دار الكتب المصرية نسخة من هذا المختصر . وإنك لا تعارض ما نسبه ابن الكلبي لبيت من بيوت قومه في الجهرة بما حفظه العلماء ودونوه في كتبهم الأخرى إلا ظهر لك علم ابن الكلبي وجودة حفظه إلى أقصى غاية .

ولو حفظ لنا الدهر كتبنا القديمة في الأنساب - وفي طليعتها مؤلفات الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، ومؤلفات الهيثم بن عدى الطائي ، ومؤلفات أبي الوزير محمد بن مطرف العبدي ، ومصعب بن عبد الله بن مصعب الزبيري ، ومحمد بن حبيب البغدادي ، وكتب ابن خداع ، والمفقود من أجزاء كتاب أنساب الأشراف وأخبارهم للبلاذري ، لحصلنا من هذا التراث العظيم على تحقيق دقيق في أنساب العرب نحل به أكثر ما يشكل علينا من تخليط ووهم واختلاف .

هذا في القبائل المعروف أعيانها بالرئاسة والفروسية والبلاغة والكرم في الأدوار التاريخية من ماضي العرب . أما العصور العريقة في القدم فالعلم بأنسابها علم إجمالي ، وما يجهله التاريخ من أسماء آباء النسب في تلك العصور أكثر بكثير من الذي حفظه لنا . ثم إن الأمم التي أباد الله سلطانها وأزال ملك رؤسائها كعاد وثمود وقوم شعيب والمعينيين والسبأيين ، فإن جماهير عامتهم اندمجت في الأمم التي نهضت بعدهم وورثت السيادة عليهم ، فهم موجودون بدمائهم وأنسالهم ، ومنقرضون بأنسابهم وأصولهم منذ انقرضت دولهم واضمحل سلطانهم .

ونظن أن المفقود من أمهات كتب الأنساب ، إذا جاد الدهر بظهور شيء منه وتناولته يد البحث والنشور بالطبع والتحقيق ، ستتمحص به أنساب العرب وتعرف قيمتها وتتبوأ مكانها في تراثنا من آداب العرب وتاريخهم .

قصة المولد النبوي — لنافع الجوهري الخفاجي

العلامة نافع بن الجوهري الخفاجي التلباني (١٢٥٠ — ١٣٣٠) من أفاضل رجال الأزهر المتأخرين ، كان كثير التأليف ، ومن مؤلفاته هذا المولد الشريف الذي سعى بنشره فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجي عن نسخة بقلم المؤلف ، وتولى تصحيحه وكتابة مقدماته ، وهو من مطولات الموالد فقد بلغت صفحاته ١٢٨ صفحة فشكراً لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجي على مجهوداته في سبيل نشر العلم .

الأدب والعلوم في شهر

اللغة الأجنبية في التعليم الابتدائي

استقر الرأى فى اجتماع اللجنة العليا للتعليم على إلغاء تعليم اللغات الأجنبية خلال المرحلة الابتدائية الإجبارية ، على أن يكون التلميذ الذى يرى فى نفسه الكفاءة والمقدرة للالتحاق بعد ذلك بالمرحلة المتوسطة أن يتقدم لامتحان يجيز الناجحين فيه الالتحاق بها إذا كانت سنه بين العاشرة والثانية عشرة .

رسالة الجامعة :

يرى الدكتور محمد محفوظ وكيل جامعة الإسكندرية أن رسالة الجامعة لا تقتصر على تخريج باحثين ومستنبطين ومستغلين لجميع قوى الطبيعة وخباياها .

قلنا : ولن يتيسر ذلك للجامعات المصرية ، حتى لو أرادته وحرصت على تحقيقه ، ما لم يتحول طلبة المدارس الثانوية من ببغاوات يحفظون نصوصاً وأعلاماً وأرقاماً ليرددوها فى الامتحان بحروفها ، تحقيقاً لخطة وزارة المعارف التى لا يرضى مفتشوها بغير ذلك . فإذا سمحت لهم وزارة المعارف بإطلاق أرجلهم من قيود الحفظ الحرفى لمواد مناهجها ، وصارت تعتبر الفهم والتصرف فى التعبير من أسباب النجاح لا من أسباب السقوط ، فإن من يتخرج من هؤلاء الطلبة الثانويين بعد ذلك ويدخل الجامعات يصبح مستعداً للبحث والاستنباط ، لأن البحث والاستنباط من ثمرات الفهم والتحرر من قيود وزارة المعارف فى مدارسها .

الجامعى الصالح

يقول الرئيس السابق على ماهر فى حديث له مع جريدة المصرى : « إن السبيل إلى إعداد الجامعى الصالح هو أن تنمى فى نفوس أبنائنا الطلاب الاستعداد الذاتى للتربية الذاتية ، وأن نحبب إليهم مواصلة الدرس ومتابعة الحياة فى تطورها ، وأن ندربهم على الملاحظة والتجربة ، والانتهاء من امتثال المعارف إلى خلق الجديد المبتكر . وأن نغرس فى نفوسهم التمسك بالواجب ، ونحصنهم بالمعانى الروحية السامية والمبادئ الخلقية القويمة » .

وفى اعتقادنا أن هذه الأمنية لا تتحقق إلا بانقلاب أساسى فى الأساليب الجامعية المتبعة الآن فى مصر ، وأن تتغير النية التى ينويها الطالب عند التحاقه بالجامعة كما تتغير

النظرة التى ينظر بها المدرس بالجامعة إلى مهمته كما كان متبعاً حتى الآن . فجامعتنا لم تخرج فيما مضى الجامعى الصالح لأنها لم تكن تعلم أنها أقيمت لذلك وفتحت أبوابها لتحقيقه .

الدراسات الإسلامية فى الصومال :

يقول الشريف محمود عبد الرحمن رئيس الرابطة الإسلامية فى مدينة مقديشو عاصمة الصومال الإيطالى : إن الجهد الموفق الذى بذله العلماء مبعوثو الجامع الأزهر إلى بلادنا ظهر أثره الطيب فى نفوسنا جميعاً ، فقد رفعوا مكانة بلادهم فى ربوعنا وفى قلوبنا ، وفى ضوء السعى المشكور والعمل الدائم تم افتتاح معهد الدراسات الإسلامية الذى كان أمنية جميع سكان الصومال منذ أمد طويل ، وأقيمت لهذه المناسبة حفلة كبيرة حضرها نائب الحاكم العام الإيطالى والأستاذ محمود حماد العضو المصرى فى المجلس الاستشارى للأمم المتحدة وقناصل الدول وأعضاء البعثة الأزهرية وجميع ذوى المكانة .

وقد خطب نائب الحاكم الإيطالى العام فقال : « إن تأسيس هذا المعهد كان تنفيذاً لمشروع السنوات الخمس المتعلق بنشر الثقافة فى الصومال ، وكان مقدراً أن يفتتح فى العام الدراسى القادم ، غير أن معونة الحكومة المصرية وجهود حضرات العلماء مبعوثى الأزهر الشريف قد بكرت بافتتاح المعهد ، وهيأت لأبناء هذه البلاد الفرصة للتزود بقدر من الثقافة يدفع بعجلة حياتهم دائماً إلى الأمام .

ولا شك أن معهد الدراسات الإسلامية سيهيىء لشباب هذا القطر أيسر السبل إلى التسلح بذخيرة الإيمان وفضيلة العدل ، فتسند إليهم مناصب القضاء والتدريس والوعظ . وليكن شعارهم دائماً قول الله تعالى ، وقل رب زدنى علما ، وأن الله القدير ، يرفع الذين أوتوا العلم درجات » .

وخطب الأستاذ محمود حماد فكان مما قاله : « إن الإسلام ليس ديناً فحسب ، إنما هو دين ومدنية وحضارة . وما من شك فى أن حضارتنا القائمة الآن مدينة للإسلام بنصيب وافر » .

مدرسة إسلامية فى كارديف :

ينتظر أن يساعد الأزهر فى تشييد مدرسة إسلامية للجالية الإسلامية الكبيرة التى تقطن فى كارديف بانجلترا . وستكون هذه المدرسة بجوار مسجد (نور الإسلام) وقد صمم بناؤها من طابقين على الطراز العربى ، وقدر لنفقات البناء ٣٠ ألف جنيه استرلينى تجمع من التبرعات التى يشرف عليها الشيخ عبد الله الحكيمى . وستكون المدرسة ذات خمسة فصول تتسع لنحو ١٢٠ إلى ١٥٠ تلميذاً وتستغرق عملية البناء أربعة عشر شهراً .

أنباء العالم الإسلامي

قواعد الحكم
فى فترة الانتقال

أعلن القائد العام للقوات المسلحة وقائد ثورة الجيش ـ باسم الشعب ـ أن حكم البلاد فى فترة الانتقال سيكون وفقاً للأحكام الآتية :

جميع السلطات مصدرها الأمة .

المصريون لدى القانون سواء فيما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات .

الحرية الشخصية وحرية الرأى مكفولتان فى حدود القانون ، والملكية حرمة وللمنازل وفق أحكام القانون .

حرية العقيدة مطلقة ، وتحمى الدولة حرية القيام بشعائر الأديان والعقائد طبقاً للعادات المرعية ، على ألا يخل ذلك بالنظام العام ولا ينافى الآداب .

تسليم اللاجئين السياسيين محظور .

لا يجوز إنشاء ضريبة إلا بقانون ، ولا يكلف أحد بأداء رسم إلا بناء على قانون ، ولا يجوز إعفاء أحد من ضريبة إلا فى الأحوال المبينة فى القانون .

القضاء مستقل لا سلطان عليه بغير القانون وتصدر أحكامه وتنفذ وفق القانون باسم الأمة .

يتولى قائد الثورة بمجلس قيادة الثورة أعمال السيادة العليا ، وبصفة خاصة التدابير التى يراها ضرورية لحماية هذه الثورة والنظام القائم عليها لتحقيق أهدافه ، وحق تعيين الوزراء وعزلهم .

يتولى مجلس الوزراء سلطة التشريع .

يتولى مجلس الوزراء والوزراء ـ كل فيما يخصه ـ أعمال السلطة التنفيذية .

يتألف من مجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراء مؤتمر ينظر فى السياسة العامة للدولة وما يتصل بها من موضوعات ، ويناقش ما يرى مناقشته من تصرفات كل وزير فى وزارته .

واللواء أركان حرب محمد نجيب القائد العام للقوات المسلحة وقائد ثورة الجيش قد أعرب بعد إعلان هذه القواعد عن إيمانه بضرورة قيام نظام دستورى ديمقراطى كامل الأركان أثر فترة الانتقال ، وبضرورة توفير حياة حرة كريمة ومستقبل مشرق باسم للجميع وعلى الجميع أن يساهموا فى بنائه .

الجمعيات التعاونية وانهاض القرية :

يدرس كبار التعاونيين فى مصر مشروعا يهدف إلى أن تتولى الجمعيات التعاونية سلطات المجالس القروية فى القرى التى ليس لها مجالس ، وذلك لأن للتعاونيين وأنظمتهم من المقدرة على الاضطلاع بهذه المهمة ما ليس لغيرهم فى القرى المصرية .

السودانيون يقررون مصيرهم

إذا كان ميلاد الدولتين الإسلاميتين باكستان وإندونيسيا ، وخروج الفرنسيين من بلاد الجمهوريتين الشقيقتين سوريا ولبنان ، سيكون فى نظر الأجيال الآتية أعظم الأحداث فى تاريخ الإسلام والعروبة فى هذا العصر ، فإن نجاح قائد مصر إلى الخير الرئيس « محمد نجيب » فى خطواته السديدة التى كان آخرها حل معضلة السودان بتوقيع الاتفاق عليها بين الجانبين المصرى والبريطانى فى يوم الخميس ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٣٧٢ هـ (١٢ فبراير سنة ١٩٥٣) ، لن يكون أقل شأناً ولا أهون خطراً من ميلاد دولتى باكستان وإندونيسيا فضلا عن جلاء القوات الفرنسية عن سوريا ولبنان . ولا ريب أن الفوز المتواصل الذى يلقاه رئيس مصر فى أعماله إنما هو انتصار للأخلاق ، ومعجزة من معجزات الحكمة عند ما يحسن أصحابها استعمالها ، ويعالجون المشاكل بهدايتها وعلى ضوئها .

إن القصة التى بدأت بمغامرات غوردون وكتشنر ، وحبكت باتفاقية سنة ١٨٨٩ م ، انتهت أخيراً فى يوم الخميس ١٢ فبراير من هذا العام ، فلم يبق على إخواننا السودانيين إلا أن يستعرضوا خاتمتها فى ثلاثة أعوام ، والأعوام الثلاثة فى حياة الأمم كلمح بالبصر ، ثم يصدر البرلمان السودانى إن شاء الله قراره التاريخى الذى يعرب فيه عن رغبته فى اتخاذ التدابير للشروع فى تقرير المصير ، فتنسحب حينئذ القوات العسكرية ـ المصرية والبريطانية ـ من السودان فور صدور ذلك القرار ، فى مدة لا تتعدى ثلاثة أشهر . وإن التدابير التفصيلية لعملية تقرير المصير ـ بما فى ذلك الضمانات التى تكفل حيدة الانتخابات وأى تدابير أخرى تهدف إلى تهيئة الجو الحر المحايد ـ ستخضع لرقابة دولية ، وستقبل الحكومتان ـ المصرية والبريطانية ـ توصيات أية هيئة دولية تنشأ لهذا الغرض . وبعد انسحاب القوات المصرية والبريطانية من السودان فى خلال الأشهر الثلاثة التى تلى الأعوام الثلاثة تقوم الجمعية التأسيسية بتقرير مصير السودان (الشمالى والجنوبى) بوصفه وحدة لا تتجزأ ، كما تقوم بإعداد دستور جديد للسودان يتوائم مع القرار الذى يتخذ فى هذا الصدد ، وتسن معه قانونا جديداً لانتخاب برلمان سودانى دائم .

وسيتقرر مصير السودان إما بأن تختار الجمعية التأسيسية ارتباط السودان بمصر على أية صورة ، وإما باختيار الجمعية التأسيسية الاستقلال التام . وقد تعهدت الحكومتان المصرية والبريطانية من الآن باحترام قرار الجمعية التأسيسية فيما يتعلق بمستقبل السودان ، وستقوم

كل منهما باتخاذ جميع الإجراءات اللازمة لتنفيذ هذا القرار .

والفترة التي تمر بين هذا الحادث التاريخي الجديد (١٢ فبراير ١٩٥٣) ونهاية السنوات الثلاث تعد (فترة انتقال) يمهد فيها لتصفية الإدارة الحاضرة في السودان وإنهائها إنهاء فعلياً ، ويحتفظ إبان فترة الانتقال بسيادة السودان للسودانيين حتى يتم لهم تقرير مصيرهم بإرادتهم واختيارهم .

وفي إبان فترة الانتقال يمارس الحاكم العام سلطاته الدستورية وفقاً لقانون الحكم الذاتي بمعاونة لجنة خماسية تسمى « لجنة الحاكم العام » وهي تشكل من اثنين من السودانيين ترشحهما مصر وبريطانيا بالاتفاق بينهما ومن عضو مصري وآخر بريطاني ، واتفق على أن يكون العضو الخامس باكستانيا ، ويتم رسمياً تعيين هذه اللجنة بمرسوم من الحكومة المصرية .

وقد اتفقت الحكومتان المصرية والبريطانية على أن لا يمارس الحاكم العام السلطات المخولة له بمقتضى قانون الحكم الذاتي على أية صورة تتعارض مع المبدأ الأساسي للسياسة المشتركة للحكومتين في الاحتفاظ بوحدة السودان بوصفه إقليما واحدا .

وسيظل الحاكم العام للسودان مسئولا مباشرة أمام الحكومتين المتعاقدتين ـ فيما يتعلق بالشئون الخارجية ، وأي تغيير يطلبه البرلمان السوداني بمقتضى المادة ١٠١ من قانون الحكم الذاتي فيما يتعلق بأي جزء من ذلك القانون . وكل قرار تتخذه اللجنة ، ويرى فيه الحاكم تعارضا مع مسئولياته يرفع أمره إلى الحكومتين المصرية والبريطانية ، وعلى كل منهما أن تبلغ ردها على ذلك في خلال شهر واحد من تاريخ الإخطار الرسمي ، ويكون قرار اللجنة نافذا إلا إذا اتفقت الحكومتان المصرية والبريطانية على خلاف ذلك .

وهنالك لجنة أخرى مختلطة للانتخابات تشكل من سبعة أعضاء : ثلاثة منهم سودانيون يعينهم الحاكم العام بموافقة لجنته ، وعضو مصري ، وآخر بريطاني ، وعضو من الولايات المتحدة الأمريكية ، والسابع هندي . ويكون تعيين الأعضاء غير السودانيين بمعرفة حكومة كل منهم ، ويرأس اللجنة العضو الهندي . ويعين الحاكم العام هذه اللجنة بناء على تعليمات الحكومتين المصرية والبريطانية .

ولتهيئة الجو الحر المحايد لتقرير المصير ، تشكل لجنة للسودنة تتألف من عضو مصري وآخر بريطاني ترشح كلا منهما حكومته ، ثم يعينهما الحاكم العام ، وثلاثة أعضاء سودانيين يختارون من قائمة تتضمن خمسة أسماء يقدمها إليه رئيس وزراء السودان ، ويكون اختيار هؤلاء الأعضاء السودانيين وتعيينهم بموافقة سابقة من لجنة الحاكم العام ، وفي هذه اللجنة عضو أو أكثر من لجنة الخدمة العامة السودانية للعمل بصفة استشارية بحت دون أن يكون له حق التصويت .

وهكذا سيمضي العمل في فترة الانتقال ، إلى أن تنقضي السنوات الثلاث بتوفيق الله وعونه على أحسن حال إن شاء الله .

مذبحة الدار البيضاء

هي المذبحة الشنيعة التي دبرها مع دار الإقامة الفرنسية العامة في مراكش الفرنسيون المتوطنون هناك ، فقتل فيها يومى ٧ و ٨ ديسمبر الماضي أكثر من ألف مراكشي مسلم راحوا ضحية التعصب والحقد والطمع والانحطاط في المبادىء الإنسانية .

ولما وصل خبر هذه المذبحة إلى باريس عقد فريق من أصحاب الضمائر من الفرنسيين اجتماعاً خطيراً في « دار المثقفين الكاثوليك » ، وحضر هذا الاجتماع مئات من الساسة والصحفيين والأساتذة والطلاب ، ورأس الاجتماع الكاتب الفرنسي الشهير مسيو فرانسوا موریاك فخطب منددأ بالاستعمار الفرنسي في مراكش ، ونادى بضرورة إنعام النظر في مذبحة الدار البيضاء وقال : يجب على الفرنسيين أن يصرحوا بالحقيقة مهما كان ثمنها .

وخطب مسيو أندريه دوبيرتي المستشار السابق للاتحاد الفرنسي فقال : لم يبق في شمال أفريقية من أثر لسياسة فرنسا الغاشمة غير الخوف والحقد والتعصب العنصري . وإن أفراد الجالية الفرنسية في شمال أفريقية قطعوا علاقتهم بفرنسا التي لم تهمهم في شيء ، كما أنهم لا يرون في المغاربة أصحاب البلاد إلا أنهم أداة للاستغلال .

وخطب مسيو بيير كورفال أحد مستشاري الاتحاد الفرنسي سابقا فأفاض في استنكار السياسة الفرنسية . ثم تلاه مسيو روبير بارا سكرتير الجمعية فقدم للجمعية ملفا بوثائق خطيرة عن مذبحة الدار البيضاء التي بلغ عدد القتلى فيها ألف مراكشي ، وقد استخدموا رجال المطافىء لغسل الشوارع من الدماء الغزيرة ، لطمس معالم هذه الجريمة .

ثم خطب القسيس الأب ديوم الذي عاش ١٥ عاما في المغرب ، والمسيو شارل أندريه جوليان الأستاذ بجامعة السوربون ثم مسيو فرانسوا ميتيران الوزير السابق فنددوا بهذا الاستعمار الهمجي وجرائمه الشنيعة .

التعويضات الألمانية لإسرائيل

أوفدت ألمانيا الغربية وفداً إلى مصر ليعبر عن شعور بلاده بالأسى والحزن لما حل باللاجئين العرب ، وليفاوض ذوى الشأن في مصر للوصول إلى الوسائل التي تؤدى إلى استمرار العلاقات الودية بين ألمانيا ودول الجامعة العربية ، والتقليل من أثر التعويضات الألمانية لإسرائيل .

وقد اجتمع الوفد الألماني بممثلي الدول العربية ، وكان الاجتماع في وزارة الخارجية المصرية ، وأعلن وزير الخارجية المصرية في الاجتماع الأول أن « العرب من جانبهم

قرروا الوقوف في وجه اتفاق ألمانيا مع إسرائيل على التعويضات » .

وأجاب رئيس الوفد الألماني معبراً عن شعور بلاده وما ترجوه من توثيق العلاقة العظيمة مع البلاد العربية ، واعتذر بأن ألمانيا تواجه بعد الحربين العالميتين كثيراً من المصاعب والمتاعب لكنها رغم ذلك مستعدة لمساعدة العرب في كل ما يقوى صناعتهم وينشط اقتصادياتهم ، وأن تزود العالم العربي بالمشورة الفنية في جميع الميادين مع ما تتطلبه هذه المشورة من أمور أخرى .

وقد استقر الرأى على تأليف ثلاث لجان فرعية لبحث التفصيلات الفنية ، المتعلقة بالصناعات والمشروعات والتمويل على أن يشترك في كل لجنة أعضاء يمثلون الفريقين .

والسائد في الجانب العربي أنه في حالة الوصول إلى اتفاق فإن قرار المقاطعة العربية سيطبق على كل هيئة أو شركة ألمانية يثبت للعرب أنها تتعامل مع إسرائيل .

دستور باكستان الجديد

تحدث سفير مصر في الباكستان الدكتور عبد الوهاب عزام إلى مندوب جريدة البلاغ عن دستور باكستان الجديد ، والنحو الذي تنحوه تلك الدولة في ذلك فقال :

« في عام ١٩٤٩ نشرت (لجنة الأصول) في الباكستان تقريرها متضمناً (القواعد) التي يوضع عليها دستور الباكستان ، وقد أقرت تلك القواعد الجمعية الدستورية ، ونشرت اللجنة تقريرها في ديسمبر عام ١٩٥٢ وأعطيت مهلة ليتسع الوقت لبحث ذلك الدستور حتى ٢١ يناير ١٩٥٣ ، وقد قام الدستور الجديد على أساس (الصلة بين القوانين الباكستانية والشريعة الإسلامية) ، ونص فيه على أنه : « لا يجوز إصدار تشريع يخالف للكتاب والسنة » ، وجعل لأعضاء المجلس التشريعي الاعتراض على أي قانون يخالف الإسلام . ونص الدستور على أن تؤلف اللجنة من أعضاء عالمين بالشريعة الإسلامية لا يزيدون عن خمسة ، فإن اختلفت اللجنة فلرئيس الدولة الخيار في إصدار القانون أو رده للمجلس ، وإن أجمعت اللجنة على أن القانون يخالف للإسلام وجب على رئيس الدولة إعادته إلى المجلس مقترحاً النظر فيه على وجه يبينه .

فسأله مندوب البلاغ :

هل رجع الباكستانيون عند وضع الدستور إلى الدساتير المختلفة للأمم ، واستعانوا بها على إنشاء دستورهم ؟ أم أنشأوه كله جديداً مستمداً من روح الباكستان والإسلام ، ومن التقاليد والعادات والخلق الباكستاني ؟

فقال السفير :

« لقد رجعوا بالطبع إلى دساتير الأمم المختلفة ، واستعانوا فوق ذلك بخبراء من الأجانب . ولكن للروح الإسلامية ، وللطابع الإسلامي ، والمبادئ الإسلامية في دستور الباكستان مكاناً كبيراً ومنزلة تكاد تسيطر عليه وتسوده » .

محطة للحجر الصحي بجدة

كان حجاج الشرق الذين يقصدون جدة من طريق باب المندب تفرض عليهم المراقبة الصحية ذهابا وإيابا في محجر صحي أقيم في جزيرة كمران تجاه ثغر الحديدة اليمني من أيام الدولة العثمانية . فلما زال الحكم العثماني عن اليمن احتل الإنجليز جزيرة كمران وأصبح محجرها الصحي خاضعا لهم وللهولنديين .

وقد أنشأت الحكومة العربية السعودية الآن محجرا جديدا في جدة لحجاج الشرق ، ليحل محل محجر جزيرة كمران الذي كان يستقبل زهاء مائة ألف حاج . والمحجر الحجازي الجديد يتألف من محطة حجر صحي ، ومستشفى للأمراض المعدية ، ومستشفى عام ، ومعمل . وستساهم الهيئة الصحية بتزويده بالأجهزة والمعدات الإكلينيكية . وسيشرف على هذه المحطة الدكتور صبري القار الخبير المصري في شئون الحجر الصحي موفدا من المكتب الصحي الإقليمي .

ومحطة جدة الجديدة ستكون أول محطة من نوعها خاضعة لسلطة الحكومة السعودية .

الخطر الإسرائيلي

قالت جريدة المصري في مقالها الافتتاحي :

« لقد آن للدول العربية أن تعترف بالحقيقة التي طالما صعب عليها الاعتراف بها ، وهي أن إسرائيل أصبحت خطراً حقيقيا علينا ، وأن هذا الخطر يزداد يوما بعد يوم ، ويتراءى في صور شتى وأساليب مختلفة . وإن أعظم مظهر لهذا الخطر ما تؤديه شهادة الأرقام والإحصاءات من أن هذه الدولة تعمل ليل نهار ، وتقيم عملها على ضوء العلم والنظام ، وتجند قواها كاملة استعداداً لعدوان جديد على نمط واسع . ولا يستطاع فهم هذا الخطر على حقيقته إلا إذا قورن جهد إسرائيل الدائم المنظم بمثله في الدول العربية . وعلى كل عربي أن يكلف نفسه عناء هذه المقارنة ويستخلص منها ـ ولو لنفسه خاصة ـ النتائج المنطقية الصحيحة ، فهو إن فعل ذلك استيقن من حقيقة الخطر الإسرائيلي الذي أسلفنا الإشارة إليه ، وأخشى ما نخشاه أن يستنيم العرب إلى كثرة عددهم وموافقة بعض الظروف الحاضرة لهم ، في حين أن الكثرة العددية لا خطر لها إذا كانت جاهلة ، أو غير منظمة ، أو غير معدة للعمل . أما الظروف فإنها قد تتغير فجأة من النقيض إلى النقيض ، وعلى كل حال فإن القوة تهيىء الظروف الملائمة ، والضعف يحرم صاحبه من الظروف الحسنة ويحيلها إلى ظروف سيئة » .

رئيس لبنان يزور الرياض

زار رئيس الجمهورية اللبنانية الملك عبد العزيز آل سعود في عاصمته النجدية (الرياض) فاستقبل بحفاوة عظيمة . ولما اجتمع الرئيس اللبناني بالملك السعودي بعد ظهر اليوم الأول من وصوله إلى الرياض لبثا معا ما يقرب من ساعة ، وتناول الحديث العلاقات بين

الدول العربية ، وضرورة توثيق الروابط الاقتصادية والثقافية والدفاعية بين دول الجامعة بشرط أن يكون في ذلك مايصون استقلال الدول العربية وما لا يتعارض مع حريتها وابتعادها عن الخضوع لهذا المعسكر أو ذاك .

جزائر مالديف

نشرنا في جزء ربيع الآخر من هذه السنة (ص ٥١٧) خبر إعلان الحكم الجمهوري في جزائر مالديف الإسلامية ، ونزيد الآن أنها دخلت في الإسلام في سنة ٥٤٨ للهجرة على يد رجل صالح من المغاربة اسمه الشيخ الحافظ ابن البركات ، وكان حاكم هذه الجزائر بوذياً فدعاه هذا الشيخ إلى دين الإسلام وعرفه بمحاسنه وحقائقه فاستجاب له ، وأسلم معه سائر سكان هذه الجزائر التي يبلغ عدد الآهل بالسكان منها ٢١٥ جزيرة ويتبعها أكثر من ألف جزيرة أخرى خالية من السكان . وظلت هذه الجزائر مستقلة حتى احتلها البرتغاليون في سنة ٩٦١ هـ ثم أجلاهم عنها السكان المسلمون في شهر ربيع الأول سنة ٩٨١ بجهاد زعيم من زعمائهم ولوه بعد ذلك عليهم وهو السلطان الغازي محمد تكرفان ، والمالديفيون يعتبرون يوم تحررهم من الاحتلال البرتغالي عيداً قومياً . وفي سنة ١١٦٦ احتل هذه الجزائر قوة من بلاد مالابار ، ثم تحررت منهم بعد سبع سنوات بقيادة السلطان حسن عز الدين . وقبل ٢٢ سنة تحولت حكومتها إلى حكومة دستورية ، ثم ألغى في هذا العام نظام الحكم الوراثي وأعلنوا الحكم الجمهوري كما ذكرناه في جزء ربيع الآخر ، وكان آخر رؤسائهم الزعيم المصلح الحاج عبد المجيد ديدي رحمه الله ، ثم كان الآن أول رؤساء جمهوريتهم الزعيم الوطني محمد أمين ديدي الذي يجمع بين العلم والأدب ومزايا الحكم الصالح .

قانون حماية الآداب

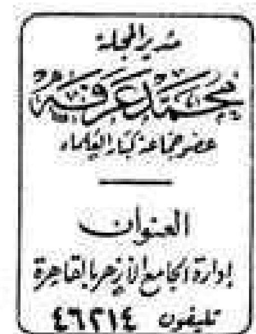
تبحث وزارة العدل الآن في تعديل القانون الخاص بحماية الآداب بحيث يحقق الغاية التي سن لبلوغها وأنشيء مكتب الآداب من أجلها . وقد طلبت من بعض رجال الأمن موافاتها بنتائج خبرتهم في هذه الناحية حتى يجيء التعديل المطلوب محققاً لما يستهدفه العهد الجديد من رفع مستوى الأخلاق إلى أقصى حد ممكن .

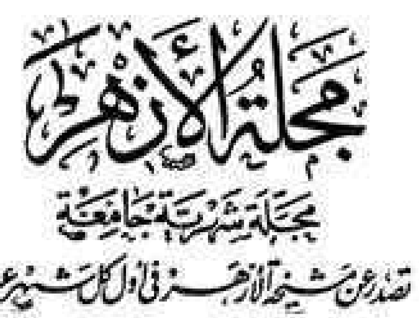
تحريم الخمر في إيران

كما تعنى حكومة مصر الآن بمكافحة المخدرات ومطاردة من يبيعها أو يشتريها أو يحملها ، فكذلك يحاول مجلس النواب الإيراني مطاردة الخمرة ، فوافق ٨٨ من أعضاء المجلس على اقتراح قدمه ١٦ نائباً يقترحون فيه منع استعمال وشراء واستيراد وبيع وصنع المسكرات التي لعن الإسلام شاربها وصانعها وبائعها ومشتريها ومن يرضى بها . وكذلك طلبوا في اقتراحهم تحريم الأفيون ، والمنتظر أن تصدر الحكومة الإيرانية مشروع قانون بذلك في خلال ستة أشهر .

فهرس

الجزء السادس — المجلد الرابع والعشرون







الجزء السابع - في غرة رجب ١٣٧٢ - ١٥ مارس ١٩٥٣ - المجلد الرابع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

أمانتان

أما أولاهما فخمسمائة مليون مسلم منتشرون في بقاع الأرض كالأيتام الذين لا راعي لهم، ولا يجدون من يجدد ارتباطهم العملي بالإسلام وأخلاقه وقواعده وسننه، بعد أن صارت بيوتهم غير إسلامية، ومعايشهم غير إسلامية، وروابط الصداقة والتعاون والتعامل فيما بينهم غير إسلامية، ومجتمعهم كله غير إسلامي، وحتى أهدافهم قد انحرفت عن أهداف الإسلام، ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث فيهم مرة أخرى لأنكرهم ولأنكر نسبتهم إليه . . .

ترى هل أخلاق الإسلام وقواعده وسننه جاءت لتكون خاصة بالجيل الذي صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وهل المنتسبون إلى الإسلام الآن في حل من أن يتنكروا لتلك الأخلاق، وألا يعملوا بتلك القواعد، ولا يلتزموا تلك السنن؟

أنا لا أنكر أن المساجد حافلة ولله الحمد بالمصلين، بل إنها على كثرتها يضطر المئات من المصلين إلى افتراش الحصر والجبب في خارج أبوابها ليصلوا الجمعة مع الذين سبقوهم إلى الصلاة في داخلها، وبين كل حين وآخر يحتفل المسلمون بإنشاء مساجد جديدة، ومع ذلك فإن المجتمع الإسلامي لا يتعامل فيه الناس بأخلاق الإسلام، ولا يعترفون بقواعده، ولا يلتزمون سننه.

إن الأئمة الأربعة وغيرهم من أعلام الفقه الإسلامى اختلفوا فى كثير من أحكام العبادات كنواقض الوضوء وإسبال الأيدى فى الصلاة أو عقدها ، لأن النصوص التى اعتمدوا عليها فى استنباط تلك الأحكام متعددة فى أحوال مختلفة ، أو هى ليست من الصراحة والقوة بالدرجة التى تمنع الخلاف عليها فى المذاهب الفقهية .

أما النصوص التى تلزم المسلمين بأن يكونوا أمة صدق ، وبأن يقيموا الحق ، وأن يتعاونوا على الخير ، فإنها أصرح وأوضح وأقوى من جميع النصوص التى اعتمد عليها أئمة الفقه فيما اختلفوا فيه من أحكام الفروع فى العبادات . فكيف استباحت جماهير المسلمين — إلا من عصم الله — هذا التساهل المشاهد الآن فى أخلاق الإسلام ومنها الصدق وإقامة الحق والتعاون على الخير ، مع أن الكثيرين من الذين يتساهلون فى ذلك يتشددون فى الأحكام المختلف عليها بين المذاهب لأنها من أمور الدين ، أما الأخلاق فأكثرهم يحسب أنها من أمور الدنيا ، وأن لهم أن يتصرفوا فيها بحسب ما يظنونه مصلحة لهم . نعم إن التشدد فى أحكام العبادات ضرورى لكل مسلم حتى ما اختلفت المذاهب على أدلته من النصوص ، ولكن كيف يجوز لعامة المسلمين فى بيوتهم وأسواقهم ومجتمعهم أن يعتبروا الأخلاق من أمور الدنيا لا من أمور الدين ، وكيف يستبيحون التحلل من أوامر الله فيها مع أنها أصرح وأقوى من أدلة الفروع الفقهية المختلف عليها بين الأئمة ؟

اللهم إن هذا منكر يجب على المسلمين معالجته عمليا بكل ما يزيله من العالم الإسلامى ، ويطهر هذه الأمة منه ، حتى تعود كما كانت أمة صدق ، وحتى تعلو فيها كلمة الحق ، وتعم جميع أفرادها سجايا الخير . وبهذا الإصلاح يعود المسلمون مسلمين ويرد إليهم اعتبارهم بين الأمم ، ويصلح الله لهم به دنياهم ، وتتعرف شعوب الأرض إلى الإسلام بمشاهدة أخلاقه معمولا بها فى جماعات المسلمين وأفرادهم .

وهنا يحسن بنا أن نتساءل : من الذى يتولى معالجة هذا المنكر حتى يزيله ، ويرد المسلمين إلى إسلامهم حتى يكونوا من أمة نبيهم حقا ؟ .

كنت أعتقد منذ طفولتى أن هذا الواجب فى أعناق علماء الإسلام ، وأنهم ورثة المقام النبوى فى معالجة كل ما كان يعالجه رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم من نقائص الناس ومواطن ضعفهم . لكنى سمعت الكثيرين منهم فى فترات كثيرة من حياتى يعتذرون بأنهم

ليس لهم من « الأمر » شيء ، وأن هذه الأمانة فى أعناق ولاة « الأمر » . وهنا نقف مرة أخرى لنتساءل : ما هو هذا « الأمر » ، لنعرف من هم ولاته ؟

إن « الأمر » فى الإسلام وأمة الإسلام هو الإسلام نفسه وأخلاقه وقواعده وسننه . ويوم كان أمراء المؤمنين وولاتهم وعمالهم هم الذين يرتقون منابر الإسلام ليقوموا بمهمة التوجيه للمسلمين ، ولما كانوا يؤمون المسلمين فى دينهم كما يؤمونهم فى دنياهم ، كانت «المسئولية» يومئذ فى أعناقهم مباشرة ، ومع ذلك فإن ورثة مقام النبوة من علماء المسلمين لم يكونوا يتنصلون من هذه المسئولية ، وكان كل واحد منهم يقوم بنصيبه الذى يطيقه منها .

وأما بعد أن انحصر « أمر » الإسلام ورسالته وقواعده وأخلاقه وسننه فى ورثة مقام النبوة من علمائنا ، فقد انحصرت فيهم ولاية هذا الأمر ، ولن يخلصهم من مسئولية ذلك فى يوم الحساب الأكبر أى عذر يعتذرون به .

إن هذه الأمة الإسلامية « أمانة الله » فى أعناق علمائها ، فعليهم أن يعدوا أنفسهم لقيادتها إلى الإسلام وأخلاقه والعمل بقواعده وإحياء سننه ، بأن يجعلوا لها من سيرتهم قدوة تقتدى بها ، ومن إيمانهم الصادق مصباحاً تستنير به ، ومن توجيهم الحازم اتجاهاً تسير به إلى أهداف الإسلام بصدق وعزيمة وأمانة وإخلاص .

ولأقطع الحجة على الذين يقولون منهم : ليس لنا من « الأمر » شيء ، أتحدث إلى سادتى شيوخ الكليات الأزهرية والمعاهد الدينية الإسلامية فأسألهم : أليس « الأمر » لكم فيمن وضعهم الله تحت أمانتكم من شباب المسلمين الذين أقبلوا على معاهدكم ليتلقوا منها رسالة الإسلام ، ثم ليكونوا خلفاءكم فى بقائهم على وراثة مقام النبوة ، يوم تشهد لهم معاهدهم بأنهم صاروا من العلماء ومن ورثة الأنبياء ؟

نعم يا أسيادي ، إن هؤلاء الطلبة « أمانة الله » فى أعناقكم ، وفى أيدى المتعاونين معكم من أساتذة الأزهر والمدرسين فيه ، وإن أمثالهم من طلبة العلم فى جميع أنحاء العالم الإسلامى « أمانة الله » فى أيدى أساتذتهم من علماء المسلمين فى كل بقعة من تلك البقاع .

إنها لأمانة ثقيلة فى ميزان الله ، وعظيمة المسئولية فى يوم الحساب . . .

وإذا كانت الأمانة - بوجه عام - قد تهيبتها السماوات والأرض يوم عرضها الله عليهن ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ، فإن جزءها الذى ائتمن الله عليه سادتنا العلماء من شيوخ

الكليات والمعاهد والمدرسين فيها وفى أمثالها بكل بلد ، لا شك أنه أثقل ما فى أمانات الله وأعظمها خطراً ومسئولية .

إن الرعاة الذين سيعهد إليهم بعد سنوات قريبة بالإشراف على مئات الملايين من المسلمين هم هؤلاء الألوف وعشرات الألوف من طلبة الكليات والمعاهد الأزهرية فى مصر وأمثالها فى الأوطان الإسلامية الأخرى . وإن كانت قد فاتتنا الفرصة فيما مضى لإعداد هؤلاء الرعاة الإعداد الصالح لرعاية الشعوب الإسلامية بلا تهرب من هذه المسئولية ولا تعلل بالمعاذير للتخلى عنها ، فقد آن لنا أن نشعر اليوم بثقل مسئوليتنا من هذه الناحية ، وأن نتذكر أن المعاهد الإسلامية ينبغى أن تكون ـ قبل كل شىء ـ دور إعداد وتربية وتكوين خلق وتوجيه ملى ، ثم هى بعد ذلك معاهد تعليم . والصحابة فى عصر النبوة كانوا يتلقون الأخلاق والفضائل وحسن التوجيه من المبعوث إلى الإنسانية ليتمم مكارم الأخلاق ، أكثر مما كانوا يتلقون العلوم كما صرنا نفهمها فى عصور الانحطاط . وقد ثبت أن الصحابة والتابعين كانوا يتلقون الآيات القليلة من القرآن فيتقنون تلاوتها ، ويتدبرون أغراضها فى أوسع آفاقها وأبعد مراميها ، ولكثرة تكرارها لتدبرها كانوا يحفظونها أتم الحفظ وأجوده ، وفى خلال ذلك يتخلقون بكل ما فيها من أخلاق ، ويعملون بكل ما فيها من توجيه وأحكام ، حتى إذا استوفوا ذلك على أتم الوجوه وأكملها فى هذه الآيات القليلة ، انتقلوا منها بعد ذلك إلى آيات أخرى غيرها . قالوا : فكنا نتعلم العلم والعمل به . وإذا تعلموا العلم والعمل به ، حملوا رسالتهما إلى كل مكان حلوا فيه ، فعلموه لجميع من يتصل بهم من إخوانهم المسلمين ، وحملوهم على العمل به كما التزموا هم العمل به فى السر والعلن والمنشط والمكره . وبذلك ورثوا مقام النبوة فى الإسلام . أما العلم الكثير الذى ينظر اليه كبضاعة للتصدير لا للقنية ، فإنه هو العلم الذى لا ينفع ، وكان رسول الله ﷺ يستعيذ بالله من هذا النوع من العلم كما يستعيذ من الشيطان ، وطالما قال ﷺ « أعوذ بالله من علم لا ينفع » .

فالعمل بالعلم ، والتخلق بما يرشد اليه من فضائل يجب أن يكون فى مقدمة ما يعنى به المدرس فى نفسه أولا ، ثم فى توجيه أبنائه الطلبة اليه ، ومراقبة عملهم به ، كما يراقب الأب الحكيم ابنه الحبيب وكلما صدر ذلك عن المدرس من صميم القلب ، وتأيد عنده به بعمله به ، رسخ ذلك فى قلوبهم ، وتشبعت به نفوسهم ، وجرى مع دمائهم فى عروقهم ، لا سيما إذا اقتنعوا بفائدته

لهم فى معترك الحياة . ومما ينبغى لنا معرفته أننا مقبلون على زمن ينحط فيه ويفشل فى الحياة كل من عامل الناس بالأخلاق الملتوية ، ويرقى فيه وينجح فى الحياة كل من عامل الناس بالأخلاق المستقيمة . وإن الأخلاق الإسلامية هى العنصر المطلوب بعد الآن فى المجتمع ، والمجتمع سيبحث بمصباح ديوجين عن المتخلقين بأخلاق الإسلام ليأتمنهم على مصالحه ومرافقه وخيراته . وكما رأينا أصحاب الأخلاق الملتوية ممن وصلوا إلى المقامات العليا فى عهد قريب قد سقطوا الآن فى أقفاص محاكم الجنايات ، أو فتحت دفاتر حسابهم عما اقترفوا فيما مضى من آثام ، فإن السنين الآتية لن يكون فيها لأمثال هؤلاء مجال للعمل ، وإن العمل كله سينشد له المجتمع عمالا من المتخلقين بالأخلاق التى كان يبتهج بها رسول الله ﷺ ويمتلىء قلبه محبة لأهلها وسروراً بهم .

إن على أساتذة الكليات والمعاهد الأزهرية أن يرغبوا طلبتهم فى معرفة تراجم أصحاب رسول الله ﷺ وفضائلهم وما كانوا عليه من أخلاق ، ويطمعوهم فى أن يكونوا مثلهم فيها ، بل عليهم أن يفهموهم بأن على المسلم أن يكون له فى رسول الله ﷺ وأخلاقه السامية أسوة حسنة كما أرشد الله المسلمين إلى ذلك ، ومن أولى من طالب العلم الإسلامى بأن يطلب الأسوة والقدوة لنفسه وقلبه وعقله وأخلاقه بكل ما كان عليه رسول الله ﷺ من سجايا وفضائل ؟ والسيرة المحمدية يجب أن تعرف لا للتحدث بها من الألسنة إلى الأسماع ، بل للتأسى بها حتى تترجم بالأخلاق والأعمال ، فيتلقاها الناس بالمشاهدة والنظر ، والتعامل بها والعمل . حتى إذا تخرج طلبة الأزهر وهم متحلون بهذه الحلية ، استطاعوا أن يقودوا الأمة الإسلامية ويعدلوا بها عن طريق الشيطان إلى مرضاة الرحيم الرحمن ، وبذلك يتحول المسلمون من غثاء السيل ، ويطهر الله قلوبهم من جراثيم الوهن ، ويملأ صدور الأمم مهابة لهم ، فتتبوأ المكانة الكريمة التى أرادها رسول الله ﷺ لأمته .

الأخلاق قوة ، والمسلمون ضعفاء الآن فى كل شىء ، لأنهم نشأوا وتكونوا أيتاماً ليس لهم من يحسن القيام عليهم فى إعدادهم الخلقى وتوجيههم الإسلامى . ولن يكونوا مسلمين حقا إلا إذا تخلقوا بأخلاق الإسلام ، وإن لم يتول علماء المسلمين هذه الأمانة فى أمة محمد فمن ذا الذى يتولاها فيهم ؟

يا أسيادى شيوخ الكليات الأزهرية والمعاهد الدينية ، ويا إخوانى من أساتذتها ومدرسيها : إن الأمر جد ، والزمان قد استدار ، ويوشك أن يكون كهيئته يوم بعث الله محمداً ﷺ بالحق والخير ، فأصبحت هذه المهمة هى مهمتكم الأولى . وإذا لم تعتبروا أنفسكم ولاة هذا الأمر فى جماهير المسلمين ، فأنتم بلا شك ولاة الأمر كله فى طلبتكم وأبناء كلياتكم ومعاهدكم . وإن الدرس قد يؤخذ من الكتب ، أما التكوين الخلق والتوجيه الإسلامى فنبعه قلب المدرس المؤمن بأخلاق الإسلام والذى يشعر بخطر الأمانة التى ائتمنه الله عليها .

أيها المدرس الأزهرى ، أنت قائد ، والذين تتصل بهم من طلبتك الأزهريين هم جندك، فسلحهم بأخلاق الإسلام ، واملأ قلوبهم وأرواحهم برسالته ، وادفعهم بإيمانك وحكمتك إلى ميادين الجهاد ومعاقل النصر ، وإن الله سيكتب بجهادكم الصادق الظفر الكامل للفضائل فتزول بها الرذائل التى أوهنت المسلمين وأطمعت بهم الأمم . إنك أيها المدرس المسلم على ثغرة من ثغور الإسلام ، فحذار أن يؤتى الإسلام من قبلك !

* * *

وبعد فهذه إحدى الأمانتين ، وقد اتسع القول فيها لأنها عظيمة فى مصير الإسلام وأهله ، وثقيلة فى موازين الله عز وجل . وسأتحدث عن الأمانة الأخرى فى الجزء الآتى إن شاء الله .

محب الدين الخطيب

علمـــــــاء السلف

لما تقلد الخاقانى الوزارة أرسل إلى الإمام محمد بن جرير الطبرى بمال كثير ، فأبى أن يقبله ، فعرض عليه القضاء فامتنع . فعاتبه أصحابه وقالوا له : لك فى هذا ثواب ، وتحيى سنة قد درست . فانتهرهم وقال : « قد كنت أظن أنى لو رغبت فى ذلك لنهيتمونى عنه » .

دفاع عن الأزهر

شر ما تبلى به أمة من الأمم شك بعضها فى بعض ، وانعدام الثقة بين أفرادها ، فكلما أشار عليها أولو الأمر فيها شكوا فى مشورتهم ، وأساءوا بها الظن ، وذهبوا يلتمسون الأسباب والعلل للتفلت منها .

وإنا نحس تدبيرا خفياً يعمل فى الظلام للتفريق بين الأمة وعلماء الدين فيها ، ويبذر بذور الشك فى أقوالهم ونصائحهم وفتاواهم . لقد سارت الأمة منذ عهد بعيد منذ مجىء الإسلام على حسن الظن بهم والتماس مشورتهم فى كل حادث جد وفى كل خطب نزل ، وكانت تأتمر بأمرهم وتصدر عن رأيهم ، وكانوا يحذرونها من أعدائها ويُرونها مكرهم ودسائسهم ، ويعرفونها كيف تتقى حبائلهم وتأمن مكرهم ، ولم يخف ذلك على أعدائها فسعوا فى غرس الشك فى قلبها وخلقوا سوء الظن بهم ، لتنفرد عن علمائها وينفرد أعداؤها بها .

« وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية » .

وقد أصابوا بعض النجاح فى ذلك ، فلا يخطئك أن ترى فى بعض الصحف تشويها لهم وإساءة ظن بمشورتهم . ونحن إذا التمسنا العذر لبعض الكاتبين ، فلا نجد عذرا لبعض علماء الدين الذين يبذرون الريب والشكوك فى العلماء ، ويصورونهم بصورة من باعوا دينهم وضمائرهم لدنيا يصيبونها أو عرض يقتنونه ، وقد رأينا منهم من يطعن فى قدماء العلماء ومحدثيهم ، فإذا رأى فتوى فى أمر هو مجال الاجتهاد طعن فيهم إذ لم يأخذوا بالرأى المخالف ، وإذا كانت الفتوى صحيحة ليست باطلة ، جعل الباعث عليها سيئا ، والأمور تسوء بسوء الباعث عليها حتى العبادات نفسها . قال رجل فى مجلس الأمير : سبحان الله ، استعظاما لأمر وقع من بعضهم ليغرى به الأمير ، فقال بعض العلماء : ما علمت أن سبحان الله معصية إلا فى هذا اليوم .

وإذا رأى العلماء ينزلون على الأمر الواقع حين غزا نابليون مصر وتغلب عليها نعى عليهم ذلك ، كأنما كان يريد بعد أن سقطت المقاومة أن يقاوموا ويحملوا المصريين على المقاومة ليبيدهم أعداؤهم ، وإن حكم الشرع والعقل يأبى ذلك ـ قال الشاعر القديم :

إذا المرء أولاك الهوان فأوله ... هوانا وإن كانت قريبا أواصره
فإن أنت لم تقدر على أن تهينه ... فدعه إلى اليوم الذى أنت قادره
وقارب إذا ما لم تكن لك حيلة ... وصمم إذا أيقنت أنك عاقره

وقد رأينا الألمان في الحرب الثانية يغزون الممالك فلا تقف أمامهم إلا أياما ، وكانوا أعظم المحاربين شجاعة وإقداما ، ولكنهم لما سقطت مقاومتهم خضعوا للأمر الواقع ، وساروا على حكم الوقت ، لحكم قوادهم واستجابوا لما يفرض عليهم .

فهل كان يطلب من علماء الدين في عهد احتلال الفرنسيين غير ذلك ؟ وهل كان يطلب منهم أن يقودوا الأمة إلى حتفها بعد أن سقطت مقاومتها ؟ ! لا ، إن العقل يقضى بمسايرة الأمر الواقع ، والعمل على التخلص والصبر حتى تمكن الفرصة كما كان ، فقد جاءت الفرصة وأخرج نابليون والفرنسيون من مصر .

هذا مرض يجب أن يطب علماء الدين له ، ويجب أن يعنوا به ويتعرفوا أسبابه وعلله ، فليس ذلك يمس أشخاصهم فحسب ، وإنما ذلك يمس المصلحة العامة وخير المجتمع .

إن العلماء هم الهداة المرشدون بحكم الدين ، وإنه لا يقبل قولهم ولا يسمع نصحهم إلا إذا وثق بهم ، وهذه الحملة المديرة عليهم تفقدهم هذه الثقة .

إننا نعلم أن صلة العالم المسيحي بالبابا وبرجال الدين فيهم صلة تجعلهم إذا أمروهم بأمر نفذوه في بلدان العالم المختلفة .

وإن اليهود في جميع العالم يرتبطون برباط وثيق ، وإن الأمر ينزل عليهم من هيئتهم العليا ، فإذا هو قول مطاع وحكم منفذ ، وهذا سر قوتهم ونجاحهم ، إن قادتهم يرون في الأمر فتبين لهم وجوهه المختلفة فيختارون ويضعون الخطة ولو لمئات السنين ، ويعلمون اليهود في جميع بقاع الأرض بذلك ، فيأخذون جميعا في التنفيذ ، فليست هناك آراء مرتجلة ولا عمل وقتى ولا رأى شخصى ، إنما هو الرأى المدروس المتفق عليه الذى هو أمنية الأجيال والقرون .

أما نحن فلا نزال على عتبة الباب ، ولا نزال متفرقين مختلفين لا يعلم بعضنا شيئا عن بعض ، ولا يزال بعضنا ينزع الثقة من بعض ، حتى نصير بددا متفرقين ، لا نجتمع على رأى ولا نستجيب لنداء .

إن الأمر جد خطير ، يجب أن يلتمس له الدواء لإعادة الثقة وحسن الظن ، ولعل هذا هو الذى دعا الرئيس اللواء محمد نجيب إلى أن يستقرى التاريخ حتى يعثر على مواقف مشرقة لعلماء الأزهر من وقوف في وجه ظالم أو عمل على رفع مظلمة ، أو إنقاذ الأمة من جبار متعنت ، فيسجلها في خطبه العامة ويشيد بها في مواقفه التاريخية ؛ فقد ذكر في خطبته في عيد التحرير في يوم ٢٣ يناير سنة ١٩٥٣ ما يأتى : « لقد أرادت مناهج التربية والتعليم في الماضى أن تطمس هذه الصفحة المشرقة من تاريخ بلادنا لينشأ أبناؤنا على الذلة وليستقر في أذهانهم

أنهم كانوا عبيدا أبدا ، لذلك أراني اليوم مطالبا بأن أعلن أن أجدادنا كافحوا من أجل الحكم الصالح ، وأنهم جاهدوا فى سبيل الدستور الصحيح منذ أكثر من قرن ونصف قرن من الزمان ، فقد عزل الشعب فى ١٣ مايو سنة ١٨٠٣ واليا معينا من قبل السلطان ، فقال الوالى إنى مولى من طرف السلطان فلا أعزل بأمر الفلاحين ، فرد عليه علماء الأزهر ، وكانوا وقت ذاك نواب الشعب ، إن للشعوب طبقا لما جرى به العرف قديما ، ولما تقضى به أحكام الشريعة الإسلامية ، الحق فى أن يقيموا الولاة ولهم أن يعزلوهم إذا انحرفوا عن سنن العدل ، وساروا بالظلم ، لأن الحكام الظالمين خارجون على الشريعة ، فحركتكم التى تحتفلون اليوم بعيدها كما ترون موصولة الأسباب بجهاد أجدادكم ، فما قاله الأجداد فى سنة ١٨٠٣ قاله الأحفاد فى ٢٣ يوليو الماضى » .

وفى خطابه الذى افتتح به أعمال لجنة الدستور أشار إلى إحدى الثورات الدستورية التى قامت فى مصر بقيادة الشيخ أحمد الدردير والشيخ الشرقاوى ، وقد قال الرئيس إن هذه الثورة قام بها شعب مصر قبل أن يستتب الأمر لثورات أوربا الكبرى .

هذا ما نسجله للرئيس اللواء محمد نجيب مغتبطين له ، مقدرين هذا الشعور النبيل ، وهذا التوجيه النافع ، فماذا يجب على علماء المسلمين أن يعملوه ، وماذا يجب أن يساعدوا به فى إعادة الثقة بهم .

إن البون بينهم وبين النظام الواجب شاسع ، ولكن ذلك لا يمنع من جعله غرضا ساميا يسعون للوصول إليه ويلتمسون له الأسباب ، إن الثقة بهم هى التى تجعل قولهم مقبولا وأمرهم مطاعا ، ولن تنال هذه الثقة إلا بأن يؤمن رجال الدين بأنهم لم يخلقوا لأنفسهم ، وإنما خلقوا لهداية أمتهم ، وأنهم مسئولون عنها إذا زاغت أو ضلت ، وبأن يعملوا على مقتضى هذا الإيمان ، فيجب أن تجدهم أمتهم إذا اشتجرت الآراء ، وعصفت الأهواء ، ناصحين هادين ، ويجب أن ترى فيهم تضحية بأموالهم ومناصبهم وبأرواحهم إذا اقتضى الأمر فى سبيل خيرها وإنقاذها ، يجب أن تعلم فيهم أنهم لا يجبنون عن قول الحق ، ولا ينكصون عن نصرة الصدق .

ويجب أن يتحللوا من ذلك الواجب الذى يفرض على المرء ألا يتحدث عن أعماله وألا يزكى نفسه ، فإن عليهم أن يتحدثوا عن أعمالهم ، ويبينوا خدماتهم وتضحياتهم ما داموا يدافعون عن أنفسهم ويردون قول خصومهم ، وما داموا يرجون من وراء ذلك إعادة الثقة أو توطيدها برجال الدين ليتمكنوا من بذل النصيحة ومن توجيه الأمة إلى خير العمل وعمل الخير .

محمد عرفة

عضو جماعة كبار العلماء



– ٣ –

٢ – البيت العتيق :

« وأذن فى الناس بالحج »

صدع إبراهيم بالأمر ، وامتد فى الآفاق نداؤه ، وتحقق لمكة رجاؤه ، فأصبحت وجهة للقصاد بعد أن طالت عزلتها ، وهوت إليها أفئدة من الناس وإن بعدت عليهم شقتها ، وتوافد الناس عليها من كل حدب ، « وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » .

وكان قد اندمج إسماعيل فى العروبة فنشأ على لسانها ، وشب بين ناشئتها ، وائتلفت فيه روحانية الأبوة بخصوبة الأمومة المصرية ، واشتمل عليه الطابع العربى فى مزاياه المحمودة : من نجابة ، وصراحة ، وصدق ، ووفاء .

وبهذا التكوين كانت شخصية إسماعيل طرازاً جديداً للرسالة الدينية فى طور حديث من التاريخ ، وكان مهيأ للبعث فى الأمة العربية . . على غير ما كانت تتجه الرسالات من قبل « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

ثم بدو توجيه القدر المحتوم فى تلقيح العروبة القديمة بما يخفف من جفوتها ، ويلطف من خشونتها لتساير حياتها القابلة فى سبيل التدرج .

بدا ذلك فى إصهار إسماعيل إلى العرب ، فكانت ذريته ـ العرب المستعربة ـ وكانت بعد : قبائل ، تبتدىء منه ، وتتأصل به ، وتمتد فروعها فى جنبات مكة ، وفيما حولها ، حتى لتزخر بهم مكة يوما فيوما ، وغمر الله البلد الماحل بما رزق أهله من الثمرات مجلوبة إليهم على أيدى من هداهم الله لتلبية أذان إبراهيم بالحج . وتلك دعوة من دعوات الخليل .

تعارف الناس فضل البيت ، وتوارثوا قداسته ، وأصبح تاريخه عندهم مطلع تاريخ

العرب المستعربة . . وأصبح كذلك فى تقديرهم - وهو حق - منقبة من مناقب الشرف المؤثل لإسماعيل وذريته من بعده .

وعندى - وهو استطراد حسن - أن انتساب العرب لإسماعيل بنسب محفوظ ، وارتباطهم بالبيت فى تاريخ مصدوق كانا من بواعث العزة التى عرفوا بها ، ومن أسباب الخصال المحمودة التى لم تكن لسواهم ، فإن يكن هذا فى البيئة العربية الأولى فقد وضح فى بنى إسماعيل أكثر ، وقوى اعتزازهم بذلك منذ أصبح نجمهم فى تألق ، ونجم الآخرين فى أفول ، ومنذ أصبح لهم إدلال بأبوة إبراهيم وإسماعيل ، وأصبحت لهم منقبة بالبيت الذى أقيم فيهم ، ولا يزال بينهم ، فمن حقهم أن يتساموا بالنسب الكريم ، ومن الحق عليهم أن يتسابقوا إلى المكارم : حماية للشرف الموروث ، وإعلاء للمجد المعروف ، وتعزيزاً للسيادة الموهوبة .

بلغنا السماء مجـــدنا وسناؤنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهراً

وقد تأصل فى العرب إذا امتدح الواحد منهم نفسه أن ينحاز إلى أعراقه الأولى ، حتى ينتهى إلى إسماعيل لو يستطيع ، وإلا يستطع فحسبه أن يصعد فى النسب الضارب فى العروبة إلى غاية . ولم يكن فيما تعارفوه أزكى لأحدهم من نسب معترف به وإن صفرت يده من المال ، ولا أخزى من نسب منكور وإن كانت الدنيا فى قبضته ، . وكل ما هناك من شمائل محمودة أو شائنات مرذولة فرده عندهم إلى أصل كريم ، أو نسب لئيم .

ويخيل إلى أن هذا من وحى الفطرة ، فإنا نشهد من أنفسنا نزوعا إلى ما نزعوا إليه فشعور الواحد منا بعراقته ، واحتسابه المجد فى عمومته وخئولته قد يدفع به إلى النبالة فيما يقول أو يعمل ، بل فيما يفكر ويتخيل ، وكثيراً ما يصرفه ذلك عما يخدش مجده الذى يعتز به ولو كان فى صنيعه بنجوة من الرقباء .

كما أن استكانة المرء إلى هوان منبته ، وضآلة نسبه واختفاء معالمه قد تزهده فى الترفع ، وتبعده عن المكارم ، وتؤيسه من المجد . وليس يغنى عن كرم المحتد مظهر زائف ، ولا يمنع الإناء من رشحه طلاؤه بالتمويه بل قد تكون الحداثة فى الظهور مغرية بالإسفاف ، فإنها كالنكسة شرها أخل وأنكى من المرض الهاجم .

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

. وعلى تأييد هذا جاءت تعاليم الإسلام فيما أوصت به عند اختيار الزوجة ، وفيما حذرت منه : مخافة الافتتان بخضراء الدمن — المرأة الجميلة من أصل سوء — فإن للنسب شأناً مراعى ؛ غير أن الإسلام لم يجعل كرم النسب شفيعاً للمسيء ، ولا لؤم النسب مسوغاً للعدوان والتحقير ، ولا مانعاً من التزكية بالدين ، والعلم ، والخلق ؛ والميزان الحق في نظر الدين مع ما للأنساب من أثرها في توجيه الإنسان إنما هو العمل ، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه .

وأعود — بعد الاستطراد — فأقول : ظل بيت الله والعرب من حوله هم أهله ورعاته تربطهم به رابطة الوطن ، ورابطة التاريخ ، فهو منارة في أم القرى ، وهو وثيقة تاريخهم التي لا يماريهم فيها أحد . وتربطهم كذلك رابطة الدين منذ دعاهم إبراهيم وبعث فيهم إسماعيل .

فليس بدعا أن يدين العرب على تعاقب الأزمان بأن بقاءه بجدهم في الحفاظ عليه ، وأن سيادتهم في الالتفاف حوله والانتساب إليه .

ثم يتطاول العهد ، وتتصدع القومية العربية من بعض جوانبها ، وتجرفهم ضلالات حاقت بهم ، وتنطوى على الأحداث صفحات من التاريخ ...

ولكن شيئاً واحداً ظل شاخصاً فيهم ، مهيباً عندهم : ذلك — هو البيت العتيق — يدأبون على رعايته وعمارته ، ويتعهدون الحجيج إليه بالسقاية وكرم الوفادة ...

وإذا اختصموا في البيت ساعة ما ، وتنازعوا الأولوية به ، وتقاسموا الأمر في قبائلهم فهو على أي حال في ولد إسماعيل ، لا يدعيه غيرهم ، ولا ينتزعه أحد من أيديهم ، ولا يستطيع منافس حانق أن يصرف الناس عنه وإن توفرت له القوة أو تمكن له السلطان . ولم تكن رعاية الله لبيته لتدع أصحاب الفيل ينالون من قداسة البيت ، أو يقتربون منه مع بالغ قوتهم وكثرة حشدهم ؛ بل نزل بهم ما نزل من هلاك ، وبقى بيت الله المحرم مثابة للناس وأمنا .

فإذا اضطربت حياة العرب لأسباب ناجمة فيهم ، أو اندلعت بينهم الحرب تزاحماً على غرض ، أو إدراكا لثأر ، فمكة بمعزل من هذا الصخب ، وأرضها وسماؤها ، وطيرها ونباتها ، والملازمون لها ، واللاجئون إليها : كل أولئك في حماية البيت ، لا تمتد إليهم يد ، ولا يلحقهم إيذاء .

ذلك لعرفانهم أن الله أفاء على مكة فى حدودها المعلومة لهم ظلا ظليلا من حمايته ، وجعلها من أجل بيته حرماً آمناً بينما يتخطف الناس من حوله .

وعلى هذا النمط المفكك يعيش أهل مكة ومن إليهم : بين اعتزاز بتراثهم ، واضطراب فى مجتمعهم ، وبعد أن كانت لهم تقاليد تتصل فى أولها برسالة إبراهيم ثم إسماعيل أخذت تقاليدهم تتسع وتضيق ، وتصيب وتخطئ ، حتى انحرفت عن الرشد ، وتحكمت فيهم الجهالة ، ولم يبق البيت لله وحده كما ورثوه ، وإنما أصبح مباءة للوثنية النكراء ، والأباطيل الفاحشة ، وأصبحت الحياة فى مكة مذعورة قلقة ، وصارت كذلك أو أشد من ذلك فيما حولها ، حتى سئمت نفوس من طول ما أعنتها ، ونزعت إلى الله خواطر تلتمس من لدنه رحمة تنقذهم من هذا البلاء ، وتكشف عنهم غضبة السماء .

وكأن هذه الأمنية كانت ترديداً لدعوات إبراهيم من قبل .

وكأنها كانت من قدر الله ـ سبحانه ـ على موعد تتمثل فيه بغية إبراهيم وإسماعيل ، وتتحقق أنشودتهما قديماً « ربنا وابعث فيهم رسولا من أنفسهم ، يتلو عليهم آياتك ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

حان ذلك الموعد المقدور . لتستأنف مكة يقظتها بعد فترة مديدة ، وتنهض إلى رسالتها فى وثبة فتية جديدة .

وها هو ذا : محمد بن عبد الله ـ صلوات الله عليه ـ من صميم العرب ، ينهض بين عشيرته ليعلن فيهم رسالته ويدعوهم ، ويتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ، ويردد فى الخافقين من جديد ما هتف به إبراهيم « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » .

بدأ البيت الحرام يستعيد شأنه قوياً ، ويسترد مجده فتياً ، ويتجلى فى ضوء الاسلام ما له عند الله من قدر ، وما لزيارته بين فرائض الله من مقام وخطر .

وإنك لتلحظ هذا ـ أولا ـ فى أن الله واجه عباده بإيجاب الحج عليهم جميعاً « ولله على الناس حج البيت » وفى هذا التعميم لأول ما ترى إشعار بأن حج البيت يبلغ مبلغ الصلوات فيما عرف المسلمون من تأكدها وتعلقها بذمة كل مسلم دون استثناء « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » .

فإذا ما قصر الوجوب بعد هذا التعميم على المستطيع بقوته وماله ، فإنما هذه رحمة بذوى الأعذار ، وتخفيف عنهم أن يتكلفوا مالا يطيقون ، والله سبحانه رحمن رحيم ، يسلك بعباده سبيل التيسير فيما شرع لهم من دين ، فهو يكلفهم بالمقدور ، ثم يعفى من التنفيذ صاحب العذر المقبول .

ونلحظ هذا - ثانياً - فى أن إيجاب الحج متبوع بقوله تعالى « ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » وهذا مقام التهديد لمن ترك الحج إلى بيت الله ، وقد بولغ فى التشنيع عليه حتى اعتبره القرآن فى حيز الكفر ، وسيق التهديد له مساق التنديد بالكفر وأهله ، . وكفى بذلك إفصاحا عن شأن البيت وأهمية الحج اليه .

أرأيت أن القرآن الكريم لم يقف من شأن البيت عند إيجاب الحج ، والتهديد القوى على تركه ؟ بل يواصل التنويه إلى كرامة البيت على الله ، ويتابع الإشادة بذكره فى الكتاب ، حتى ليبلغ من شرف هذه البنية فى تلك البقعة أن يردد الله ذكرها ، وذكر البلد المحمى بها ، فى سبع وخمسين آية من آياته ، وتراها منثورة فى ست عشرة سورة من سور كتابه العزيز .

وتأخذك الروعة إذا تنبهت إلى إبداع الله فيما صنع بتلك الآيات وهذه السور . . فنى الآيات ترديد لذكر البيت موصوفا بصفات كريمة متعددة : فهو البيت المحرم ، وهو البيت العتيق ، والبيت المعمور ، والبيت الحرام ، وهو أول بيت وضع للناس ببكة : مباركا ، وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمناً ، وهو البيت مضافا إلى الرب « رب هذا البيت » ، وهو البيت مضافا ومستغنياً بالإضافة عن كل وصف وثناء « وطهر بيتى » .

وكذلك توصف مكة وما حولها من أجل البيت بأوصاف كريمة متعددة . . فهى البلد الأمين ، والحرام الآمن ، وبها الصفا والمروة من شعائر الله ، وهناك عرفات : ملتقى الحجيج من كل صوب ، وموقفهم الرهيب فى وقت محدود ، ومنه الإفاضة إلى المشعر الحرام ، وفيه ذكر الله مطلوب ، وطيب مشهود ؛ ثم تنتهى تلك المواقف إلى البيت وكان البدء منه « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ، واستغفروا الله ، إن الله غفور رحيم » .

لكل وصف من تلك الأوصاف معنى ، وفى كل منسك من هاتيك المناسك حكمة ، فإن لم نحط بتفصيلها علما ، فحسبنا أنها ذكريات صادقة لما شهده أسلافنا بتلك البقاع ،

وأنها معالم ناطقة بالأوضاع الأولى لتاريخ الإسلام ؛ والتاريخ تعوزه كثيرا الدلائل المادية وتقيده ، وحسبنا أنها مشاهد حية لما سبقنا إليه تاريخ الأوائل ، وليس من الأمور الثانوية أن يجدد الإنسان المتدين سالف ذكرياته التي يركز بها عقيدته ، ويدعم بها يقينه ، ويشد بها أواصره الدينية بأواصر من سبق ، ويدلى بها إلى من لحق ؛ ولعل ذلك مما يشمله قول الله عز شأنه ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، فليس يبعد أن يظل الحبل ممدودا بين الأوائل والأواخر ، فهو من جانب السلف ذكريات كريمة ، ومن الخلف تبعية لقدوة مستقيمة ، وجميعهم على تقوى من الله ، وعلى نهج مما رسم لهم دين الله ؛ فإذا تتابعوا على الهدى فهم معتصمون بحبل الله جميعا . ألم يكن من دعاء إبراهيم عليه السلام ، رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين ، واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » .

فهو يسأل التوفيق للأخذ بما أخذ الصالحون من قبله ، ويسأل التوفيق أن تكون له الذكرى الطيبة - وهى اللسان الصدق فى الآخرين ، لتكون به القدوة للخلف ، كما يجب هو الاقتداء بالسلف ؛ وهذى هى الصلة القوية أو الحبل الممدود بين السلف والخلف .

ثم انظر ثانيا فيما أبدع الله بتلك السور التى اشتملت على هذه الآيات ؛ فهى ست عشرة سورة ، منثورة بين سور القرآن : الأربع عشرة والمائة ، من سورة البقرة فى أوله إلى سورة قريش فى آخره .

ويبدو لى - فيما أفهم - أن الحكمة فى نثرها وتناول ذكر البيت على هذا النحو : أن يكون البيت شاخصا فى كل مرحلة من مراحل القرآن ، وأن تكون ذكراه جارية على لسان القارىء ، ماثلة فى ذهن السامع ، كلما تنقلا فى التلاوة والسماع من روحة إلى روحة ، وبهذا تمتزج بالخواطر دائما روابط الأخوة التى تجمع المسلمين حول البيت من عام إلى عام ، والتى تقفهم إلى جهة البيت فى صلواتهم الخمس أينما كانوا ، فتقوى فيهم المحبة إذا قطنوا ، وتتأكد قوميتهم الدينية إذا حرصوا وتذكروا دائما أن البيت هو قطب الدائرة الإسلامية ، ومشرق نورها ، وليس أوضح من هذا الصنيع القرآنى فى توجيه الناس إلى تقديس ما قدس الله ، وإلى وصل البيت كما وصله الله . وإن أمة تسير على هذا النهج لهى الأمة التى تمناها إبراهيم وإسماعيل من ذريتهما ، وهى الأمة التى بعث فيها محمد بن عبد الله ؛ ومن أجله ، وباتباع هديه كانت خير أمة أخرجت للناس .

« الحديث موصول »

عبد اللطيف السبكى
عضو جماعة كبار العلماء



بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ، ألا إنهم هم السفهاء ولكن لايعلمون » .

لما كان الغرض من هذه الآية والآيات قبلها بيان حال المنافقين وما أدى إليه نفاقهم وزعمهم أنهم آمنوا وما آمنوا ، إلى تناقضات واضطرابات : تناقضات بين أقوالهم وأفعالهم ، واضطرابات فى أساليبهم وأقوالهم . فلما قالوا آمنا وما آمنوا وجه إليهم النهى عن الفساد ؛ لأن ماهم عليه من إفساد يناقض زعمهم أنهم مؤمنون ؛ ولما بالغوا فى أنهم غير مفسدين بحصر أحوالهم فى الإصلاح وجه إليهم طلب أن يؤمنوا إيمانا كإيمان الناس ، وفى ذلك الطلب إظهار لباطلهم وكشف لغبائهم وبيان أنهم نازلون فى جدلهم وحجاجهم إلى درك منخفض . فكان الإيمان المطلوب منهم كإيمان الناس ، وكأنه يقال لهم لا نريد منكم إيمانا تفوتون به الناس ، أو يكون فيه مالا تطيقون ، أو يكون منه إرهاق لكم ومشقة عليكم ؛ لا نريد إلا أن تكونوا كالناس ؛ وفى ذلك بيان لأن الموازين التى يطالبون بوزن أعمالهم بها مبصرة واضحة أنهم كلفوا ، وحدود ما كلفوا به ظاهرة نيرة ، فلاهم يستطيعون دعوى مالا يطيقون ، ولاهم يستطيعون التخلص بزاعمهم عما به يؤمرون ؛ أى إن كنتم صادقين فى أنكم آمنتم فلا نطلب منكم إلا إيمانا كإيمان الناس . غير أن المنافق الذى مرن على المخادعات وبالغ فى الحيدان عن الجادة حتى جف ماء الحياء من وجهه ، من ذلك شأنه لا يعدم مخلصا عما يواجه به من الحجة ومنفذا عما يُغَلّ به من دليل ، إذ المبطل الذى لاحياء له جرىء جدا على المجادلة بغير الحق ، سمج فى المواجهة بالباطل .

لذلك نرى هؤلاء المنافقين لم يعدموا مخلصا مما حاق بهم من حجة واضحة وطلب محدد ، فتراهم وردهم على ما طلب منهم هو « أنؤمن كما آمن السفهاء » ، وهم فى هذا يحتمل أن يكون مرادهم بالاستفهام والإنكار هو إنكار إيمان غير إيمانهم ، أو إنكار إيمان يماثلون به

إيمان الناس ، فيكون المعنى على الأول : أ إيماننا إيمان سفهاء حتى تطلبوا منا غيره أو أتطلبون منا إيمانا كإيمان الناس ، وهؤلاء الناس سفهاء فتطلبون منا إيمانا كإيمانهم ؟ إيماننا إيمان صحيح لا نرضى غيره . أو هؤلاء الناس سفهاء لا نرضى أن يكون إيماننا كإيمانهم ، وهكذا المأزوم بالحجة تراه لايجد مخلصا حين يحزبه الأمر وتضيق به الحجة إلا أن يلجأ إلى بذىء القول ورمى مخاطبه بالعيب والسفه . وإنك لتشهد ذلك كثيرا فيمن يضيق عليهم الخناق فى الجدل ؛ فإن ألسنتهم تطول بفاحش القول وتتسع أفواههم بالمراء الذى لايغنى ولا يفيد .

ولما كان ذلك هو ردهم الذى لم يكن إلا تخلصا من خناق الحجة وفرارا من حصار البرهان ، ترى القرآن الكريم قول الحكيم العليم فى رده عليهم قد فصله بألا الاستفتاحية إيذانا بأن قولهم هذا مما لا ينبغى أن يتصل به رد . لذا فصل الرد بألا الاستفتاحية عن جوابهم كأنه قول مستقل وقضية مستأنفة استئنافا ، ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون » .

هكذا ترى الأسلوب مؤكدا بتأكيدات عدة : أكد أولا بإنّ ، وثانيا بإعادة الضمير « إنهم هم السفهاء » ، وثالثا باسمية الجملة إذ لا يكون فى مقابل ما ردوا به إلا ذلك القول المستأنف المؤكد الذى قطع عن جوابهم قطعا « إنهم هم السفهاء » وإن السفاهة قد لبسوا منها شعارا ودثارا ، وحاطتهم من جميع جوانبهم ، وحاقت بهم من كل نواحيهم ؛ فإنه لاسفه بعد أن يكونوا على الحال التى هم عليها ، تلك الحال المعلومة لمن حولهم من كذب وفساد وتردد ، مرة إلى هؤلاء وأخرى إلى هؤلاء ، ثم لايزالون يجهلون أن أمرهم مستور على الناس وأنهم لا يزالون يظنون أن مزاعمهم يستطيعون رواجها ، وأن دعاواهم لا يزالون يفهمون إقناع من حولهم بها ، ولكنه الجهل هو الذى غشى عقولهم وغمر آفاق نفوسهم ، فأصبحوا وقد جمدت مشاعرهم وتبلدت إحساساتهم فلا يدرون حقيقة أحوالهم . لهذا ترى القرآن يقول : « إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون » .

ويحتمل أن يكون المعنى : لا يعلمون أن من حولهم يعلمون أحوالهم ، أو لا يعلمون أن الله عليم بكل شىء فهو عليم بخفى شئونهم وظاهرها ، أو لا يعلمون أنهم سفهاء نتيجة غباتهم وتبلدهم . كل محتمل ، ولكن أنسب هذه الوجوه أن يكون المعنى ولكن لا يعلمون أن الله عالم بشأنهم ؛ إذ لو أدركوا ذلك لتكشف من أذهانهم غباؤها ، ولتفتق عن قلوبهم أغلفتها ، ولتقشع عن أنفسهم ظلامها ، فجهلهم بشأن ربهم جر عليهم نواحى الجهل كلها ، فجهلوا بغباتهم

أنهم سفهاء، وجهلوا أن الناس بحالهم يعلمون نتيجة جهلهم بالله وما يجب له من علم محيط بالسر وأخفى، ألا يحق إذ جهلوا شأن ربهم إنهم هم السفهاء ولكنهم يجهلون .

وهكذا شأن المنافقين في المجتمع يرمون غيرهم بدائهم في قحة وتبجح، إذ أنهم بانحرافهم عن الجادة ومرانهم على الكذب والادعاء أصبحوا لا يبالون؛ وإن أزموا بالحجة فزعوا إلى البذاءة والشتائم، لأنهم إذ يواجهون بحقيقة باطلهم، وإذ تحوطهم الحجة ويحصرهم البرهان ترى ما خيلوه في أنفسهم من حجج ومعاذير ظانين أنهم يستطيعون أن يواجهوا بها مخاطبيهم ترى ما خيلوه لأنفسهم وما زوروه من قول زائف، تراه عند المواجهة يفر من بين أيديهم خجلا مستتراً بأستار الخزى فما هو إلا أن يواجهوا حتى ترى أيديهم قد صفرت من الحجج وساحاتهم قد خلت من المعاذير، وما كان في كل عصر من العصور من ضرر بالمجتمع إلا بأمثال هؤلاء المنافقين . وإنه ما من أمة طهرت من أمثال هؤلاء إلا كانت خطواتها إلى الأمام واسعة، وتدرجاتها في مدارج الكمال قوية مسرعة . وإنا لا يهمنا في تلك المناسبة من أمل يحقق وأمنية تتم، إلا أن يطهر الله شعبنا وشعوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها من ذلك العنصر، عنصر المنافقين الخبيث المنتن ريحه المؤذى جواره المعطل لمن هم فيه من شعوب عن السير إلى الغاية . ألا قاتل الله المنافقين .

«وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون».

قد بينت الآيات السابقة حالهم حين ينهون عن سوء وحين يؤمرون بخير، وأنهم في هذا إنما يلجئون إلى المبالغات في التبرؤ شأن المفجوع الذي فوجىء بالكشف عما حاول ستره أو إلى البذاءة والسفه انفجاراً عن ضغط الحجة وأزمة البرهان؛ وفي هذه الآية يبين القرآن سيرتهم وما هم عليه من غير نهى ولا أمر ليكون ذلك تعليلا لما يردون به عند المواجهات إذ أن من حاله هو تلك الحال، وأنهم يلقون الناس بوجوه مختلفة فإن لقوا المؤمنين قالوا لهم إنا مثلكم مؤمنون، وإذا لقوا إخوانهم الشياطين قالوا لهم إنا معكم في عقيدتكم وتغريركم ما آمنا ولا صدقنا ولكننا بهم مستهزئون . وانظر إلى ما سلكوه في الإخبار عن أنهم مستهزئون بالمؤمنين؛ فتراهم قد أكدوا وبالغوا في التأكيد، فجاءوا بأداة الحصر، وجاءوا بالجملة اسمية تطمينا لشياطينهم على أحوالهم، ويحدثون شياطينهم عن مقابلة المؤمنين بأنهم مستهزئون ولم يصدقوهم فيما أخبروهم عن واقع أمرهم، ألا إنهم إنما يقولون ذلك وقاية لأنفسهم، وبعداً بها عن المؤاخذة والإيذاء، ولكن لا يريدون أن يخبروا عن حقيقة ما في نفوسهم

إبقاء على الاحتفاظ بشأنهم أمام إخوانهم، ألا وإنهم مهما حاولوا فليسوا بمخفين شأن أنفسهم، ولا مقيمين لها وزنا فى نظر شياطينهم، فهم نازلون نازلون وصاغرون صاغرون مهما حاولوا.

وإذا نظرت إلى الأسلوب وتمعنته وجدت فيه عجائب البلاغة وآيات الإعجاز: يعبر عن حالهم مع المؤمنين بالملاقاة، وعن حالهم مع الشياطين بالخلوة، إيذانا بأن هؤلاء المنافقين لا أنس لهم بالمؤمنين ولا طمأنينة منهم إليهم، فهم لا يجالسونهم ولا يسامرونهم، وإنما كل ما هنالك أن يلقوهم فى عرض طريق أو فى مكان عمل عن مصادفة. أما شأنهم مع شياطينهم فهم إليهم يركنون وإليهم يتسارون ويتحادثون؛ لذلك هم بهم يخلون ولكن للمؤمنين منهم لقاء عارض وتقابل عن مصادفة، هذا أولا. وترى القرآن يحدد ما فى نفوسهم فتراهم إذ يحدثون المؤمنين لم يزيدوا عن أن يخبروا بأنهم آمنوا غير مؤكدين ولا مبالغين، وإذا تحدثوا إلى شياطينهم أكدوا وبالغوا فى التأكيد وعللوا فقالوا إنا معكم، ثم يجيبون عما يرد عليهم فى ذلك القول إذا كنتم معنا فما قولكم لهم آمنا؟ بجواب هذا إنما نحن مستهزئون، فيؤكدون ويدفعون ما يرد من اعتراضات على أخبارهم ومحادثاتهم ليبقوا على منزلتهم فى نفوس شياطينهم. ثم ما أعلى ذلك الأسلوب وما أروعه! يحدد حال هؤلاء تحديداً يكشف للسامع واقع حالهم وحقيقة أمرهم، وهكذا المنافق مهما حاول ستر ما خبأ فى نفسه لابد أن تغلبه جوارحه التى ضغط عليها فى توجيهها، فمرة يدل عليه ما يبدو فى وجهه من بشر أو عبوس أو تقطيب أو انبساط، وأخرى يغلبه لسانه بما يهتك أستاره ويكشف عما فى نفسه كما تراه ها هنا، إذا لقوا الذين آمنوا لم يزيدوا عن قولهم آمنا وإذا خلوا إلى الشياطين قالوا مؤكدين إنا معكم ودافعين ما يرد بقولهم إنما نحن مستهزئون بتأكيد التعليل أيضا وتثبيت الدليل، وبهذا وأمثاله يفتضح أمر المنافقين.

ومهما تكن عند امرىء من خليقة — وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وإن الله يعلم بأن المنافقين فى كل شعب مفضوح أمرهم مكشوف سترهم، ولكنهم إنما يعيشون فى المجتمع فى منازلهم بين أفراد الشعب لإهمال الشعب نفسه، وإن الأمم لتختلف فى مواقفها إزاء أمثال هؤلاء؛ فمن أمة تسارع إلى استئصالهم حتى يطهر المجتمع وتزال من طريقه العوائق والمعطلات؛ ومن أمة لاتعنى بذلك فتزيد فى طريقها الأشواك وتعظم فى سبيلها إلى غايتها المعوقات. فالهم رشادا وتوفيقا إلى تمييز المنافقين من المخلصين تمييزا يبعد فيه عن الهوى ويجانب فيه الغرض حتى يكون تمييزاً صحيحا ليجزى كل فريق بما يعمل وبما يستحق.

قال الله تعالى « الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » .

لما وضحت الآيات السابقة شأن المنافقين وما هم عليه وما يقابلون به المؤمنين وما يقابلون به الشياطين ، كان لابد أن يكون للسامع سؤال : إذا كان هذا شأن هؤلاء فكيف تركهم الله ولم يعاقبهم ؟ فكان الجواب « الله يستهزىء بهم » وليس مهملهم ولا تاركهم ، ولكن لما كان شأن القوى مع الضعيف والمتمكن مع المزعزع والمحيط علماً بكل الشئون مع الجاهل بكل شىء ألا يهتم بإساءة المسىء وسفه السفيه فلا يهتم بمعاجلة ذلك الضعيف بالعقوبة لأنه إذا مرت فرصة فلديه فرص أخرى إذ كل الشئون خاضعة له فيوجه العقوبة إلى المسىء فيما يشاء من زمان وكما يشاء من مكان وعلى ما يشاء من حال ، فعبر القرآن عن شأن الله مع هؤلاء بالاستهزاء على سبيل الكناية ، لأنه يراد هنا من الاستهزاء لازمه وهو عدم العناية بما يأتيه هؤلاء لأنه محيط بظروفهم قادر على شئونهم جميعها متمكن من جميع نواحيهم ، فهو مدخر لهم عقوبة منكية فيما يحدد لها من زمن وما يشاء لها من مكان وما يخصص لها من مآل .

ذلك هو ما يراد التعبير عنه بالاستهزاء ، فهو مما لا يعبر به فى جانب الله ؛ ولذلك تراه قد أتبع الاستهزاء بهم بمده لهم فى طغيانهم إذ المعنى من قوله « ويمدهم فى طغيانهم » أى يطيل لهم وجودهم فى مهاوى الطغيان حتى تكون أخذته لهم أخذة رابية ، وإيلام العقوبة لهم إيلاما ممضاً إذ طول الزمن بهم فى الطغيان مما يوجب غرورهم بأنفسهم ويخطر ببالهم أنهم قد مكن لهم ، فإذا أصابتهم الصاعقة وهم فى غرورهم وظن تمكنهم كانت أقسى عليهم وأمر . وقوله : « يعمهون » حال من الضمير فى يمدهم ؛ أى أن الله يطاول لهؤلاء فى الطغيان حال كونهم عمين عن وجه الصواب ونور الحق ، فهم فى سيلهم حائرون ، أإلى المؤمنين يتحازون أم إلى الكفار الشياطين يتحيزون ؟

وهكذا شأن المنافق ذى الوجهين : تراه دائماً معوج السير حائر الاتجاه ، إن سار خطوات يميناً سار مثلها شمالا ، وإن تقدم خطوات رجع إلى الوراء أخرى ؛ ذلك لأنه لم يستغرق نفسه عقيدة بهذا ولا عقيدة بذاك ، ولم تطمئن نفسه للاستمساك بمبدأ من المبادىء ، فهو مروع القلب حائر النفس زائغ البصر لا يطمئن لأحد فى المجتمع ولا يطمئن أحد فى المجتمع إليه ، فلا يجدون لأنفسهم متجراً إلا الإيقاع بين الناس وجمع أحطاب الفتنة وإذكاء نارها ؛ ألا قاتلهم الله وطهر منهم كل الشعوب حتى تعيش آمنة مطمئنة . اللهم حقق وأنت العليم الخبير .

حامد محيسن



٢ ــ التطهير فى الاسلام

من المثل العليا فى التطهير ــ رجال ونساء يجودون بأنفسهم لله عز وجل ــ ستر الله وكنفه ــ الأدب مع الله ــ الخوف منه والرجاء فيه .

عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه ، وكان شهد بدرا ، وهو أحد النقباء ليلة العقبة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، وحوله عصابة من أصحابه : « بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا فى معروف ؛ فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله ، فهو الى الله ، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه » ، فبايعناه على ذلك . رواه الشيخان ، واللفظ للبخارى .

بعد أن عاهد النبى ﷺ أصحابه وأمته على التطهير من هذه الموبقات الست : أصول الرذائل ، وجماع المآثم ــ بين أنهم فى الوفاء ببيعته على ثلاث درجات ، بين كل درجة ودرجة من التفاوت والفضل ما لا يقدره إلا الله عز وجل ، بل إن أهل الدرجة الواحدة فى الفضل والمنزلة ليسوا سواء .

أما أهل الدرجة الأولى فقد وفوا بعهد الله كاملا غير منقوص ، فوفى الله لهم بعهده وضمن لهم على لسان رسوله أجرا عظيما ، هو النعيم المقيم ، والمقام الكريم ورضوان من الله أكبر « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

وأما أهل الدرجة الثانية فهم الذين اقترفوا من هذه الموبقات شيئاً ما عدا الشرك الأكبر ،

فإن الله لا يغفر أن يشرك به ، غير أن الله طهرهم بإقامة الحاكم الحدّ عليهم ، إذ يقطع يد السارق ، ويجلد أو يرجم الزانى ، ويقتل القاتل ، ويجلد القاذف . وهكذا كانت العقوبة ماحية لذنب صاحبها مطهرة له ، حتى يلحق بالسابقين ، ولا حرج على فضل الله سبحانه ؛ وأما أهل الدرجة الأخيرة فهم الذين اقترفوا من هذه الموبقات شيئاً ـ ما عدا الشرك كذلك ـ إلا أن الله تعالى سترهم ، فإن تابوا وأحسنوا فإن الله يتقبل توبتهم فضلا منه وكرما ، وإلا فأمرهم مفوض إلى ربهم ، إن شاء غفر لهم وإن شاء عذبهم .

وليس عجباً أن يغفر الله لمن تاب إليه وأناب ، ولو بلغت ذنوبه عنان السماء ، أو أدركته منيته قبل أن يعمل بعد توبته عملا صالحاً ، وحسبنا من الشواهد الكثيرة على هذا ما رواه الترمذى عن أنس رضى الله عنه فى الحديث القدسى عن النبى ﷺ عن ربه عز وجل قال : « يابن آدم ، إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى ؛ يابن آدم ، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ؛ يابن آدم ، إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة »(١) . وما رواه الشيخان وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه فى الرجل الذى قتل تسعة وتسعين نفساً ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب ، فسأله : هل له من توبة ؟ فقنطه من رحمة ربه ، فكمل به المائة ؛ ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على عالم ، فسأله كما سأل صاحبه ، فقربه من رحمة ربه ، ليعلم أنها أوسع من ذنبه ، وأمره أن يهجر هذه الأرض التى عصى الله فيها إلى أرض سماها له ليعبد الله بها مع قوم عابدين . ولكنه قضى نحبه فى نصف الطريق ! فاختصمت فى شأنه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فكان قضاء الله الرحيم ، الذى يغفر الذنب العظيم ، للأولين على الآخرين (٢) .

ومن هذا القبيل قصة الكفل : أخرجها الترمذى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : كان فيمن كان قبلكم رجل يسمى الكفل وكان لا ينزع عن شىء ، فأتى امرأة علم بها حاجة فأعطاها ستين ديناراً ، فلما أرادها على نفسها ارتعدت وبكت ، فقال ما يبكيك ؟ فقالت لأن هذا عمل ما عملته قط وما حملنى عليه إلا الحاجة ! فقال أنت تفعلين هذا من مخافة الله تعالى ؟ فأنا أحرى بذلك ، فاذهبى ولك ما أعطيتك ، ووالله

(١) العنان : السحاب وزنا ومعنى ، وقراب الأرض بالضم ويجوز الكسر : هو ما يقارب ملئها .

(٢) اكتفينا بمعنى الحديث إجمالا لشهرته فى مواطن كثيرة ، وأقربها رياض الصالحين .

لا أعصيه بعدها أبداً ؛ فمات من ليلته ! فأصبح مكتوباً على بابه : إن الله قد غفر للكفل . فعجب الناس من ذلك حتى أوحى الله إلى نبي زمانهم بشأنه .

بل ليس عجباً أن يغفر الله تعالى لمن شاء من عباده الذين ماتوا قبل أن يتوبوا عما اجترحوا من كبائر الإثم – إلا الشرك – وليس لنا أن نحكم على أحد معين من أهل التوحيد بالنار بالغة ما بلغت ذنوبه وسيئاته ، فإن هذا سوء أدب مع الله عز وجل وافتيات على شئونه ، وانتهاك لحرماته . وفي الصحيح أن رجلا قال : والله لا يغفر الله لفلان ، فقال الله تعالى : « من ذا الذي يتألى علي ألا أغفر لفلان ؟ فإني قد غفرت له وأحبطت عملك ! » وجاء في الصحيحين وغيرهما أن بغياً رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من شدة العطش والحر فنزعت له موقها [خفها] فلأته ماء وسقته ، فشكر الله لها وغفر لها به ؛ ورووا مثل هذه القصة عن رجل كان يمشي بطريق فاشتد عليه العطش فوجد بئراً فشرب منها فإذا كلب يلهث الثرى من العطش ! فقال : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني فملأ خفه من البئر وسقى الكلب ، فشكر الله له وغفر له بما صنع . وأعجب من هذين ما رواه الشيخان وغيرهما عن الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه قال : بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله تعالى له ، فغفر له .

وأكبر الظن أن هؤلاء جميعا تداركهم الله بفضل منه ورحمة قبل أن يتوبوا ، وجائز أن يكون الله قد من عليهم فوفقهم للتوبة حين وفقهم لهذا الصنيع الذي شكره لهم ، وجعله مع التوبة سبب مغفرته ورضوانه .

وأيا ما كان الأمر فلا تزال للملوك أسرار ، ليس من أدب العبيد أن يتجسسوا عليها ، بله أن يقتحموا حماها .

وإذا لم يحل لأحد أن يحكم على آخر من أهل القبلة بعذاب الله وسخطه ، فلا يحل له كذلك أن يحكم لأحد بالغة ما بلغت حسناته وخيراته ، بنعيم الله ورضوانه ، ما عدا المبشرين بالجنة على لسان المعصوم صلوات الله عليه وسلامه ، فإن الأعمال بالخواتيم ، ولا يعلمها إلا علام الغيوب سبحانه .

غير أن ستر الله لعبده وكنفه عليه في الدنيا أمارة على كنفه عليه ورضاه عنه في الآخرى ومن دلائل هذا ما رواه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع كنفه عليه [ستره ورحمته] فيقرره

بذنوبه ، فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : رب أعرف ، قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، فيعطى صحيفة حسناته » .

ولا يغرّنّ أحدا ما توسوس به نفسه ، أو ما يخدعه به شيطانه ، من سعة فضل الله تعالى وعظيم رحمته ؛ فإن ذلك من الحق الذى يراد به الباطل ، ومن الخير الذى يتوسل به إلى الشر والأذى ! فن تلا قوله تعالى « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » وقد قيل إنها أرجى آية فى القرآن الكريم ، فليتل بعدها « وإن ربك لشديد العقاب » ومن روى أحاديث الرجاء فى الله فليرو معها أحاديث الخوف من الله ، ومن أحسن الظن به سبحانه فليحسن الأدب معه ؛ فإن قوما غرتهم الأمانى وقالوا نحن نحسن الظن بالله تعالى ، وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل [1] .

ويجمل القول فى هذا المقام أن يتأدب العبد مع ربه بأدب الخوف منه والرجاء فيه ، فلا يطغى خوفه حتى يقنط من رحمته ، ولا يطغى رجاؤه حتى يتهاون فى طاعته ، فإذا أحس بقرب قدومه على مولاه فليغلب الرجاء فيه ، وليحسن الظن به ، وليوقن أنه قادم على أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين .

وبعد ، فالناس فى التطهير أو التطهر من الموبقات على طبقات ، لا يحصيها إلا من فضل بعضهم على بعض ورفع بعضهم درجات :

فمنهم من قوى إيمانه ، وعظم يقينه ، حتى جاد بنفسه ـ فى سبيل تطهيرها ـ لله عز وجل ، ومن هؤلاء ماعز بن مالك الأسلمى رضى الله عنه . أتى النبى ﷺ فقال يا رسول ، إنى ظلمت نفسى وزنيت وإنى أريد أن تطهرنى ، فرده . فلما كان من الغد أتاه فقال يا رسول الله إنى قد زنيت ، فرده الثانية . فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه ، فقال هل تعلمون بعقله بأسا ؟ تنكرون منه شيئا ؟ فقالوا ما نعلمه إلا وفىّ العقل ، من صالحينا فيما نرى . فأتاه الثالثة فأرسل إليهم أيضا فسأل عنه فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله ، فلما كان الرابعة حفر له حفرة ثم أمر به فرجم .

ومن هؤلاء امرأة من جهينة ، أتت رسول الله ﷺ وهى حبلى من الزنى فقالت يا رسول الله ، أصبت حداً فأقمه على ، فدعا نبى الله ﷺ وليها فقال أحسن إليها ، فإذا وضعت فأتنى بها ففعل ، فأمر بها فشدت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها . فقال

(١) اقتباس من آثار الحسن البصرى ، وليس حديثا كما ظن بعض أهل العلم .

عمر : أتصلي عليها وقد زنت ؟ فقال ﷺ : لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل ؟ !

وأعجب من هذه امرأة من غامد ـ بطن من جهينة ـ قالت يارسول الله : إني قد زنيت فطهرني فردها ، فلما كان من الغد قالت يارسول الله لم تردني ؟ لعلك أن تردني كما رددت ما عزا فوالله إني لحبلى ، فلما رآها لا تريد الستر على نفسها أمر بالإحسان إليها حتى تلد وترضع ولدها وتفطمه حتى جاءت به وقد أكل الطعام ، فدفعه إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فرجمت ، وكان ممن رجمها خالد بن الوليد فتضح الدم على وجهه فسبها ، فسمع النبي ﷺ سبه إياها فقال : مهلا يا خالد ، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له .

وصاحب المكس ـ أو الماكس ـ هو الذي يجبي الضرائب من الناس بغير حق . والمكس من أقبح المعاصي والذنوب الموبقات ؛ لكثرة مطالبات الناس له وظلاماتهم عنده . وفي مسند الإمام أحمد وغيره عن عقبة بن عامر رضي الله عنه عن النبي ﷺ : لا يدخل الجنة صاحب مكس ، قالوا هو العشار الذي يأخذ العشر على ما كان يأخذه أهل الجاهلية ، كان يأخذ من التجار إذا مروا به مكساً باسم العشر . وأما من يعشرهم [1] على ما فرض الله سبحانه لحسن جميل ، وقد عشر جماعة من الصحابة للنبي ﷺ ، وللخلفاء بعده ، فكانوا يأخذون عشر ما سقته السماء ، وعشر أموال أهل الذمة في التجارة .

وأعجب من هؤلاء جميعاً رجل تلقى امرأة تريد الصلاة فغشيها وقضى حاجته غصباً ، فصاحت ! فانطلق ؛ فانطلق خلفه عصابة من المهاجرين فأخذوا رجلا دلت عليه غلطاً فأتوها به ، فقالت نعم هو هذا ، فلما أمر النبي ﷺ به ليرجم قام صاحبها الذي وقع عليها فقال يا رسول الله أنا صاحبها ؛ فقال لها اذهبي فقد غفر الله لك ، وقال للرجل قولا حسناً ، وأمر بالذي نحلها أن يرجم ، فرجم ، وقال : لقد تاب توبة لو تابها أهل المدينة لقبل منهم ! [2]

ومن الناس من لم يقدر على تطهير نفسه جهراً ، أو قدر عليه ولكنه آثر ستر الله تعالى فطهر نفسه فيما بينه وبين ربه سراً ، ومنهم من تولى الله تطهيره بما ابتلاه من ضروب المحن والبلايا !!

وإذا ضاق المقام عن استيفاء البيان فوعدنا الجزء التالي وبه الخاتمة إن شاء الله تعالى .

طه محمد الساكت

---

[1] عشرهم يعشرهم بالضم عشراً بضم الدين : أخذ عشر أموالهم ، ومنه العاشر والعشار بالتشديد اه مختار .

[2] راجع كتاب الحدود في تيسير الوصول وغيره .

كيف نَنتصر على أنفسنا

تنظيم العلاقة بين الارادة والغرائز

يخطىء الذى يزعم أن الإنسان فى هذه الحياة مخلوق أعزل ، قد شد وثاقه إلى عجلة الكون ، وسخر تسخيراً بطبيعته وطبيعة الأشياء ، كما يخطىء الذى يزعم أن الانسان فى هذا الكون سيد مطلق اليدين ، يتصرف على حريته فى طبائع الأشياء وطبيعة نفسه .

وعبثاً حاولت بعض المذاهب الفلسفية أن تصوره لنا فى أحد هذين الطرفين :

فالحقيقة ، كما قلنا ونقول ، إن الانسان مسير مخير معاً ؛ ولكنه يقوم بهذين الدورين فى ميدانين مختلفين .

وليس من العسير علينا فى كثير من الشئون ، أن نتبين ما هو من عمل الطبيعة القاهرة ، وما هو من عملنا الحر المستقل ؛ غير أن هناك حالات خاصة تلتبس فيها المعالم ، وتشتبه فيها الحدود ، ويدق الفصل فيها على غير الناقد البصير ، ومن هنا يميل أكثر الناس فيها إلى التنصل من مسئولياتهم ، وإلقاء عبئها على كاهل الطبيعة ، زاعمين أنهم كانوا من نوعين بحركة قسرية لا حيلة لهم فى وقفها ولا تصريفها .

تلك هى الحالات التى يلتقى فيها عمل الغريزة وعمل الإرادة ، ويكون هذا استمراراً لذلك حتى يخيل للمرء فى بادىء الرأى أنه كان معطل الإرادة أو مسلوبها ، وأنه كان يتحرك حركة آلية ليست من صنعه ولا من كسبه .

لا جرم كان من أول مهمات المربى الحكيم - حين يتولى قيادة الإرادة وتربيتها على أخذ الأمور بالقوة والحزم - أن يكشف الغشاوة التى تحيط بهذه المنطقة المختلطة المشتبهة ، وأن يبصر العقول بكنه الحركات النفسية والجثمانية التى تدور فى فترة هذا الاتصال ، ليعرف كل امرىء إلى أى حد تنتهى حركة الفطرة فيه ، وسلطانها عليه ، وعند أى نقطة تبدأ حركة اختياره واقتداره ، وسلطانه ومسئوليته .

ولسوف يرى المطلع على وجهة نظر الإسلام فى ذلك أنها نظرة بريئة من عنف البرهمية

وجفاف البوذية ، وغرور أدعياء الصبر والجلد فى الفلسفة الإغريقية ، وأنها فى الوقت نفسه منزهة عن ميوعة اليسوعية [1] وخور الجبرية ، ورخاوة الكسالى فى كل ملة ونحلة . فبينما يذهب الفريق الأول إلى إنكار الغرائز ، والمكابرة فى سلطانها ، ودعوى القدرة على محوها واستئصالها ، وبينما يميل الفريق الثانى إلى التسليم لها ، والانهزام أمامها ، والنزول الكلى على حكمها ، تقف الدعوة الإسلامية على الجادة الوسطى مشرفة بنظرها على جانبى الطريق ، فتعترف بسلطان النزعات الجبلية إلى حد محدود ، ثم تترك المجال للهمم والعزائم فى الوقوف بتلك النزعات عند حدها ، ومقاومة الاسترسال معها فى غير ضروراتها الملحة ، وصدق منزل هذه الشريعة الحكيمة فى وصفه لدعوته « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى » .

فلننظر الآن فى الصلة بين هذين العاملين حين يلتقيان : عامل الجبلة وعامل الاكتساب الإنسانى . ولنبرز الخط الفاصل الذى رسمه الإسلام بينهما ، حتى جعلهما لا يبغيان ، ولنتأمل كيف كان الإسلام فى تطبيقه لهذه الحدود على طائفة من الانبعاثات والانفعالات ، قد وضع أوضح منهج عملى لتربية الإرادة ، وتدريبها على التزام موقف الحكمة والهدى ، والثبات أمام تيار الهوى .

وإليك مثلا من ذلك :

١ — فى كظم الغيظ ، والحد من الغضب .

كلنا نعرف أن ظاهرة الغضب ظاهرة مزدوجة : فيسيولوجية وبسيكولوجية ؛ أعنى أنها عضوية نفسية فى وقت واحد . ألسنا نرى الانفعال النفسانى فيها تصحبه ثورة دموية ، تغلى منها مراجل الصدر ، وترتفع بها حرارة الجسم ، وقد تتقلص منها عضلات الوجه ... فى أعراض تشبهها ... ثم يتبع ذلك لواحق أخرى ، كالجهر بالقول ، والبطش باليد ، إلى غير ذلك ؟

ها هنا يتدخل الفرقان السماوى فيفصل هذه الظواهر إلى شطرين اثنين ؛ تاركا الشطر

---

(١) فرقة من المسيحية

الأول منهما لحكم الجبلة الذى لا سلطان لنا عليه ، ولا مسئولية علينا فيه . أما الشطر الثانى ، وهو شطر اللواحق ، فان هذا التوجيه الحكيم ينبهنا إلى أنه - فيما عدا الحالات المرضية الشاذة ، التى يأخذ الغضب فيها صورة تشنجية لا يسيطر عليها العقل ولا الإرادة - شيء نصنعه نحن باختيارنا ، داخل فى نطاق مسئوليتنا ، حتى لو فرض أن جهاز النطق وجهاز الحركة يقومان بوظيفتهما إذ ذاك بطريقة آلية اندفاعية ، فان نوع الكلام ونوع الحركة يبقيان خاضعين لشيء من التفكير والإرادة ، بحيث نستطيع أن نوجههما الوجهة التى نريدها . ولذلك يطالبنا الشرع الحكيم فى أشد حالات الغضب ، ما دمنا متمتعين بوعينا وإدراكنا ، أن نسيطر على حركات ألسنتنا وجوارحنا ، ويحاسبنا على الأسلوب القولى والفعل الذى نختاره فى التعبير عن شعورنا . ذلك أن قصارى الثورة الغضبية - حين تندفع إلى التعبير عن نفسها بالقول أو بالفعل أو بهما معا - أن تكون كالشحنة الكهربائية التى لابد لها متى اندفعت أن تفرغ ، فلا سبيل إلى كبت حركتها ، ولكن لنا سبيلا إلى اختيار المجال الذى تفرغ فيه ، وذلك بوضع جهاز « مانعة الصواعق » فى مكان ما . وهو كما نعلم جهاز لا يوقف التيار الكهربائى بل يستقبله ويتلقاه ، ثم يحوله بعيدا عن هدفه الأول . فكذلك نستطيع أن نتصرف فى موقف الغضب ، لا بمصادمة هذه الغريزة نفسها ، ولا بمقاومة حركتها الطبيعية فى بداية اندفاعها ، ولكن بتوجيه هذه الحركة ، وتحويل خط سيرها على النمط الذى رسمه لنا القدوة الأعظم صلوات الله عليه .

فلنستمع إلى شيء من إرشاداته الحكيمة التى يوجهها إلى من يقع تحت سلطان الغضب ، وهى إرشادات تبرهن على ما لصاحبها من علم واسع عميق ، وإدراك كامل دقيق ، لمدى هذه القوى النفسية فى حدودها الطبيعية ، وفيما وراء تلك الحدود .

ففى اللحظة التى يدفعنا فيها الغضب إلى التفوه بكلمة تنفس بها عن صدورنا ، لا يأمرنا الرسول الحكيم بأن نسكت ونحبس أنفاسنا ، بل يرشدنا بالعكس إلى أن نقول شيئا ، ولكنه يختار لنا الصيغة المعبرة عن هذا الانفعال « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » أليست هذه الكلمة وحدها كافية لفتح صمام المرجل الذى يغلى فى الصدر ، وتخفيف الضغط الذى كان يولد فيه الانفجار ؟ أليس كل ما يجيء وراء هذه الكلمة يعد نافلة وتزيداً تستطيع الطبيعة أن تستغنى عنه ؟ . فإذا ما دفعتنا حدة الغضب إلى شيء أكثر من القول ، وانبعثت

فينا نزعة قوية إلى البطش باليد أو غير ذلك من الحركات البدنية ، فإن الإرشاد النبوى يساير هذه الحركة الطبيعية أيضاً فى مبدئها ؛ ولكنه لا يلبث أن يحول مجراها برفق بعيداً عن هدفها ، فالمستمع له عليه الصلاة والسلام حين يقول : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليقعد ، فإن ذهب عنه الغضب ، وإلا فليضطجع »(١) .

هل نجد أيسر وأسرع ، وأدق وأنجع من هذا العلاج الروحى البدنى معاً ؟

٢ — فى الحب والبغض :

هذا الفرقان الحكيم بين نصيب الغريزة ونصيب الإرادة ، نجده بصورة واضحة فى ظاهرتى الحب والبغض ، وهما حالتان نفسيتان ، وليدتا أسباب يبدو لنا بعضها ويخفى عنا بعضها ؛ فقد يكون مردها إلى مجرد تجاذب الأرواح أو تنافرها ، أو إلى تقارب الأذواق والآراء أو تباعدها ، أو إلى غير ذلك من البواعث ، وأيا ما كان فهما من صنع الله مقلب القلوب ، وكذلك ما يتبعها من الآثار الجبلية التى لا تنكر : قرة عين ، وإشراق جبين ، وانفساح صدر وراحة ونعيم ، فى لقاء من نحب ومناجاته ، وأضداد ذلك فى لقاء من تبغض . إلى هنا يقف عمل الفطرة الذى رفعت عنا فيه الأقلام ، ولكننا فى غالب الأمر نضيف إليها آثاراً من صنعنا ، إذ نفرق فى المعاملة بين من نحب ومن نبغض ، ولا نسوى بينهما فى الحكم ؛ بل نكيل لهما بكيلين ، ونزن بميزانين : فنحابى من نحب ، ونغضى عن هفواته ، ونتحامل على من نكره ونغطى على حسناته . وهذا هو الجور الذى نهانا الله عنه ؛ إذ يقول عز شأنه : « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » ، ويقول : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » . هكذا حملنا الإسلام مسئولية عملنا ، وعافانا مما ليس من كسبنا : فلم يكلفنا اقتلاع عاطفة الرضا ونازعة السخط من أنفسنا ، ولا كف آثارهما الجبلية ، ولكن كف آثارهما الاختيارية الجائرة ، وقد جعل لنا فى ذلك الأسوة الحسنة بصاحب الخلق العظيم ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يعدل حق العدل بين زوجاته ، ثم يقول : « اللهم هذا جهدى فيما أملك ، ولا طاقة لى فيما تملك ولا أملك »(٢) .

---

(١) رواه أبو داود فى كتاب الأدب .

(٢) رواه ابن ماجه وأصحاب السنن .

٣ — فى انفعالات الحزن :

وترى الناس إذا أصابهم ما يكرهون فاندفعوا فى هلع هالع ، وجزع جالع ، اعتذروا بشدة الصدمة الأولى ، وبعجزهم فيها عن الصبر والتجمل . كلا إنها حجة داحضة ! ولله الحجة البالغة ؛ فإن للحزن أثرا طبيعيا لا جناح فيه ؛ وإنما السبيل على قول الهجر ، وفعل النكر ، الذى تبرأ منه الفطرة .

ها هنا أيضا نجد فى مشكاة الشريعة من الاضواء الباهرة ما يكشف لنا حدود مسئولياتنا ، وما وراء تلك الحدود . فنى الأثر الصحيح الذى يرويه البخارى أن النبى صلوات الله عليه دخل على ابنه إبراهيم وهو يعالج سكرات الموت . فلما رآه رق له قلبه ، وجعلت عيناه تذرفان الدموع . فقال له عبد الرحمن بن عوف : « وأنت يارسول الله » ! فقال : « يا ابن عوف . إنها رحمة ، إنها رحمة . ثم قال : إن العين تدمع . والقلب يحزن . ولا نقول إلا ما يرضى ربنا . وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون » . هكذا فرق الرسول الحكيم بين الظواهر الحيوية والنفسية التى ليست من كسبنا ، وبين الأقوال والأفعال التى تتبع هذه الحالات الطبيعية ولكنها من محض عملنا ، واقعة تحت مسئوليتنا .

٤ — فى غريزة التشهى والتمنى .

وإليك مثالا آخر من هذه الطبائع ، المستعصية علينا فى نفسها ، الخاضعة لإرادتنا فى توابعها ولواحقها . تلك هى غريزة التشوف والتطلع ، التى أودعها الله فى فطرة الإنسان لحكمة بالغة ؛ فهى التى تحفزه إلى طلب ما به قوام حياته المادية والمعنوية . فليس من الصواب مكافحتها ، بل ليس فى الطاقة اقتلاعها ؛ فان الطبع غلاب كل مغالب . ولكننا على الرغم من ذلك نستطيع معالجتها من طريقين : إما بتحويل اتجاهها ، وإما بوقف آثارها .

ومعنى تحويل الاتجاه أن نستبدل بالهدف الأول ، الذى اتجهت إليه رغبتنا بادىء ذى بدء ، هدفا آخر يلهينا عنه ، ويعوضنا منه . بحيث يكون مثلنا فى معالجة أنفسنا مثل مؤدب الطفل حين يراه شديد الشغف بلعبة خطيرة . فالسياسة الرشيدة فى هذه الحال لا تعمد إلى كبت إرادة الطفل كبتا كليا ، بل تقدم له لعبة أخرى تشبهها أو تفضلها . غير أنها تكون عديمة الخطر . وكلما كان الاستبدال لما هو أنفس قيمة وأجزل نفعا ، دل ذلك على حصافة عقل المربى وكمال رشده .

وهكذا علمنا القرآن كيف يكون موقفنا أمام إلحاح رغباتنا الجامحة : خطوراً يأذن لنا أن نشبع رغبتنا بأسلوب آخر نستبدل فيه الحلال بالحرام ، والطيب بالخبيث . وهذا هو علاج الجمهور والعامة . وطوراً يلفتنا عن هذا الوضع الرخيص كله ، ويصرف همتنا عن حقرات الأمور وسفسافها ، موجها إياها نحو معالى الأمور وأشرافها ، وهذه هي رتبة الصفوة والخاصة . وأياما كان فإنه لا يأمرنا بترك التشهى والتمنى إطلاقا ، ولكنه يرسم لنا أهداف هذا التمنى . فلنستمع له حين يقول : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » ثم يقول : « واسألوا الله من فضله » . وهذا نفسه هو الأدب الذى أدب الله به نبيه فأحسن تأديبه ؛ إذ قال له : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه . ورزق ربك خير وأبقى » . وما أجمل الوصية الذهبية التى يقول فيها الرسول العظيم : « خصلتان من كانتا فيه كتبه الله شاكرا صابرا . ومن لم تكونا فيه لم يكتبه الله شاكراً ولا صابراً : من نظر فى دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به ، ونظر فى دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على ما فضله به عليه كتبه الله شاكراً صابراً . ومن نظر فى دينه إلى من هو دونه ، ونظر فى دنياه إلى من هو فوقه ، فأسف على ما فاته منها لم يكتبه الله شاكراً ولا صابراً [1] » .

هذه هى سياسة تحويل الاتجاه .

وأما سياسة وقف السير فإنها تتبع فى ظروف خاصة ، كأنها استثناء من القاعدة ؛ وحتى فى هذه الحالات الخاصة ، ليس المطلوب منا أن نسكت صوت رغائبنا ، وأن نحملها قسراً على الجمود والخمود ؛ فالله أرحم بنا من أن يكلفنا ما لا طاقة لنا به ؛ وإنما العلاج هو أن ندع جهاز الغريزة يدور حول نفسه ، ولا نقـــدم له المادة التى يطلبها . وتلك هى السياسة التى رسمتها شريعة الصوم ، فطامنا لنا عن المشتهيات إطلاقا فى أوقات معلومة . تلك هى سياسة قمع الهوى التى يقول فيها الكتاب المجيد : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » .

ولا أطيل فى سرد الأمثلة وتعداد الشواهد ؛ فكل غرائزنا ونزعاتنا على هذا النمط ،

---

(١) رواية الترمذى فى صفة القيامة .

لم يجعل الله لنا سبيلا عليها فى تكوينها ولا انبعاثاتها الطبيعية ، ولكنه جعل لنا عليها سلطانا فى ضبطها ، وتوجيهها ، وتنظيم آثارها العملية .

* * *

وإلى القارىء النجيب صورة حسية ملموسة ، لعله يكون قد لمحها من خلال هذا البيان : فليتصور جهازاً متحركا ، يتألف من ثلاثة أجزاء رئيسية :

(١) مفتاح المحرك (الكونتاكت) .
(٢) دفة التوجيه (الدريكسيون) .
(٣) الرباط (الفرملة) .

وليفترض أن مفتاح المحرك فى اتصال دائم بالمحرك ، وأن المهندس أو السائق لا يستطيع ، لأمر خارج عن إرادته ، منع هذا الاتصال ، وأنه ليس فى متناول يده إلا « الدفة » و « الرباط » . فهل يخليه ذلك من مسئولية المصادمات والتردى فى الحفر التى فى الطريق ، على حين أنه كان فى استطاعته أن يستعمل : إما « الدفة » ، للتحويل عن الخطر ، وإما « الرباط » لوقف العجلات عن السير ، مع بقاء المحرك يدور على نفسه .

ذلك هو مثل الوسائل الخارجة عن ملكنا (القلب الذى مفتاحه بيد الله) ، والوسائل التى خوّلها الله لنا فى قيادة أعمالنا (العقل والإرادة) ، وهذه الوسائل الأخيرة هى الفيصل بين طبيعة الكائنات الحية المسخرة لغرائزها ، وطبيعة الإنسان المسيطرة على قواه ، المسئول عن حسن سيرها . فلو تناول الإنسان كل ما اشتهى ، ومد يده وسمعه وبصره إلى كل ما يهوى ، وترك نفسه كالكرة أمام صولجان عواطفه ، يطيعها طاعة عمياء ، دون تروّ ولا توقف ، ولا تنظيم ولا تنسيق ، فأى ميزة يمتاز بها عن الحيوان الهائم على وجهه ، الذى لا عقل له ولا عقال ؟

ألا فلنفكر فى صلة النسب بين هاتين الكلمتين : كلمة « العقل » ، وكلمة « العقال » ، فإن العقل ما هو إلا عقال معنوى ، وقيد أدبى ، جامع مانع ، جالب دافع ؟ فبه نقيد حركاتنا ونحجزها عن الشرود والوقوع فى مهاوى الخطأ والضلال ، وبه نقيد شوارد العلوم والمعارف التى تهدينا سواء السبيل . وإن هدى الله هو الهدى .

محمد عبد الله دراز
عضو جماعة كبار العلماء

أزمة الفقه الإسلامي

نظرية السبب في العقد

١ — نحب ونحن نتكلم عن طريق الإفادة من الفقه الإسلامي وعن الأزمة التي يعانيها منذ قرون طويلة [١] ، أن نؤكد أن هذا الفقه غني كل الغنى بأحكامه وحلوله التي جاء بها لمختلف المسائل والمشاكل التي كانت في عصوره المختلفة ، ولكن مما ينقصه أن يقوم الفقهاء والمعنيون بالدراسات الفقهية في هذا الزمن بأمرين :

(ا) العمل على أن يتطور « الفقه » — في حدود الكتاب والسنة وأصوله المعروفة — ليعيش في كل عصر مع الزمن ، لا على هامشه كما هو الحاصل الآن بكل أسف ، وأن يكون هذا على غرار ما كان من الصحابة والفقهاء الأولين ، فإن هذا التطور في فقه الإسلام بدأ منذ عصر الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ، بل منذ عهد عمر بن الخطاب نفسه حين كان الإسلام غضاً وقوياً ، وحين كانت تعاليم الرسول صلوات الله عليه لا تزال حارة دافقة خصبة تحس بها قلوب المسلمين جميعاً [٢] .

نعم إن الأحداث التي حدثت بين عصر الرسول وعصر الفاروق ، كانت من الكثرة والقوة والسعة والعرض بدرجة استلزمت هذا التطور ؛ فليس يقاس الزمن بالطول فقط ، بل بالعرض أيضاً ، وربما كانت الفترة القصيرة منه أحفل بالأحداث من الفترة الذاهبة في الطول إلى مدى بعيد ، ولعل الفترة التي مرت منذ ثورة الجيش المصري المباركة مصداق ما تقول هذه الأيام .

(ب) استخلاص النظريات الفقهية العامة التي تندرج تحت كل منها طائفة عديدة

---

[١] راجع العددين الماضيين : جمادى الأولى وجمادى الآخرة .

[٢] مثل تطور الفقه في عهد الإسلام كثيرة ، ونشير هنا إلى بعض ما كان من ذلك أيام سيدنا عمر ابن الخطاب : إمضاء الطلاق الثلاث بكلمة واحدة ثلاث طلقات ، وإسقاطه سهم المؤلفة قلوبهم من الصدقات ، وعدم قسمة أرض العراق ونحوها بين الفاتحين .

من الحلول والأحكام التطبيقية ، بدل أن يظل الفقه الإسلامى على ما نعرف من كثرة التفريعات ، دون العناية بتأصيل النظريات العامة .

وهذا على عكس ما يتميز به الفقه الغربى هذه الأيام ، نعنى العناية باستخلاص النظريات وتأصيلها ، ثم دوران البحوث عليها ، وأخيراً يجىء التطبيق والتفريع .

وليس هذا الذى ندعو إليه هنا بجديد كل الجدة ، فقد عنى غير قليل من الفقهاء بهذه الناحية ، وإنما الجديد هو أن نستأنف عمل هؤلاء السابقين ، ونستطيع أن نذكر من بين هؤلاء الفقهاء الأمجاد : ابن رجب الحنبلى صاحب القواعد الفقهية ، وابن جُزَى المالكى صاحب القوانين الفقهية ، وابن نجيم الحنفى ، والإمام جلال الدين السيوطى الشافعى ، وكلاهما صاحب كتاب فى الأشباه والنظائر .

٢ — وبعد أن أشرنا إلى هذين الأمرين اللذين يجب العناية بهما هذه الأيام أشد عناية ، نذكر أن كبير رجال القانون فى مصر وهو الأستاذ الكبير الدكتور عبد الرزاق السنهورى ذكر فى بعض دروسه فى قسم الدكتوراه بكلية الحقوق من جامعة القاهرة منذ بضعة أسابيع ، أن الفقه الإسلامى لم يعرف نظرية السبب فى العقود .

وللأستاذ الكبير كل العذر حين يذهب إلى هذا الرأى ، فإن أحداً من رجال الفقه الإسلامى فى مصر لم يحاول التعمق فى البحث والتنقيب فى التراث الفقهى الإسلامى فى هذه الناحية ، مع أنه من الحق أن نؤكد أن جرثومة هذه النظرية نجدها واضحة فيما ترك بعض الفقهاء القدامى ، وإن كنا قد أغفلنا متابعتهم فى البحث قروناً طويلة فى هذا السبيل . ولولا هذا الإغفال من جانبنا ، الذى كان نتيجة الكسل والقناعة العلمية بما لدينا من قديم لعرفنا أن الفقه الإسلامى عرف هذه النظرية فى أسسها وأصولها العامة ، بل وفى كثير من فروعها وتطبيقاتها ، هذه النظرية التى عرفها البحث القانونى فى الغرب منذ عصور طويلة .

٣ — ذلك ، أنه من الحق أن نقرر أن رجال الفقه والقضاء فى الغرب قد عنوا بهذا البحث الدقيق منذ قرون طويلة . وكان من هذه العناية ، ومما امتازوا به من الروح التحليلية والفلسفية ، أن تكونت عندهم نظرية لسبب العقد أو الالتزام بعامة .

نجد هذا لدى الرومان فى عصورهم المختلفة ، ولدى الفقهاء الفرنسيين وغيرهم فى الزمن

القديم والحديث ، ثم لدى رجال القانون فى مصر متأثرين ومستلهمين رجال القانون فى أوربة [١] .

٤ — ومن أجل ذلك ، ومن باب التطبيق لما ندعو إليه من ضرورة استخلاص النظريات العامة فى الفقه الإسلامى ، رأينا أن نحاول بهذه الكلمة والتى بعدها إن شاء الله تعالى بيان ما قد يكون من التفات الفقهاء المسلمين لاعتبار سبب صحيح للعقد أو الالتزام ، وذلك ليترتب عليه أثره الشرعى ، ثم مقدار عنايتهم بهذه الناحية .

وهنا ، نذكر أنه إن فات هؤلاء الفقهاء أن يبحثوا « سبب العقد » فيما تركوا لنا من تراث فقهى مجيد ، فإنه لم يفتهم بحث ذلك فى علم أصول الفقه . وقد كانوا بحاجة لهذا البحث ما دام السبب الصحيح شرعاً يعتبر شرطاً لابد منه فى العقد والالتزام ، إن لم نقل يكاد يكون ركناً من أركانه . وبخاصة ، وهذا يعم جميع أبواب الفقه من عبادات ومعاملات ، فكل من ضروب المعاملات لا بد له من سبب شرعى يختلف باختلاف العقود والتصرفات .

٥ — وبحث السبب فى العقد يتطلب منا أن نعرض لهذه النواحى :

(ا) تعريفه ومعانيه وما يراد منه فى الفقه .

(ب) الشروط التى يجب أن تتوفر فيه ليكون سبباً صحيحاً شرعا يجب رعايته .

(ج) حكم التصرف المجرد عن السبب .

٦ — فن ناحية تعريفه ، نستطيع أن نذكر أن « السبب » فى باب العقود هو « الغرض المباشر المقصود فى العقد » ، وذلك أخذاً من كلام علماء أصول الفقه حين يتكلمون عن السبب أو الغرض أو المقصد .

ذلك ، بأنه من أصول الشريعة الإسلامية ، أن كل فاعل عاقل مختار إنما يقصد بعمله غرضاً من الأغراض ، حسناً كان أو قبيحاً ، مطلوب الفعل أو الترك أو غير مطلوب شرعا » . [٢] ولهذا ، « قد تظاهرت أدلة الشرع وقواعده على أن القصود فى العقود معتبرة ،

[١] يرجع فى ذلك إلى النظرية العامة للموجبات والعقود فى الشريعة الاسلامية ، للدكتور صبحى محمصانى ، ج ٢ : ٨٢ وما بعدها ؛ الوسيط للأستاذ السنهورى ، ص ٤١٧ وما بعدها ، وص ٣٥ ، وما بعدها ، وص ٤٧١ وما بعدها . وانظر أيضاً ، فى نظرية السبب بصفة عامة ، نظرية الالتزام فى القانون المدنى المصرى ، للدكتور أحمد حشمت أبو ستيت ، مطبعة مصر عام ١٩٤٥ م ، ص ١٦٦ وما بعدها .

[٢] الموافقات للشاطبى ، ج ٢ ، ٢١٧

وأنها تؤثر فى صحة العقد وفساده وفى حله وحرمته ، بل أبلغ من ذلك ، وهى أنها تؤثر فى الفعل الذى ليس بعقد تحليلا وتحريما : فيصير حلالا تارة وحراما تارة باختلاف النية والقصد ، كما يصير صحيحاً تارة وفاسداً تارة باختلافها »[1] .

ونتيجة هذا كله ، أن يكون لكل فعل أو تصرف أو عقد غرض أو سبب يجب قصده ، و « أن كل تصرف لا يترتب عليه مقصوده لا يشرع » كما يقول الإمام القرافى . أو كما يقول أيضاً فى موضع آخر ، « كل تصرف كان ، من العقود كالبيع أو غير العقود كالتعزيرات ، وهو لا يحصل مقصوده ، فإنه لا يشرع ويبطل إن وقع » إلى آخر ما قال[2] .

ولذلك ، امتنع بيع الحر ونكاح المحرم ، والإجارة على الأفعال المحرمة ، وتعزير من لا يعقل الزجر كالسكران والمجنون ، فإن مقاصد أو أسباب هذه العقود والتصرفات لا تحصل بها ، والأمر واضح كما نرى .

٧ ــ على أن للسبب إطلاقات ومعانى عديدة مختلفة فيما بينها ، فلا ينبغى لنا أن نخلط بينها ، إذ لكل منها معنى خاص قد لا يكون هو المراد هنا ، وهذه الإطلاقات ـ كما يذكر الإمام الغزالى ـ[3] هى :

(ا) ما به يحل ويحرم المال وغيره من موضوعات العقود ، وهذا كالبيع والإجارة والزواج وغير ذلك من العقود ، فالعقود على هذا تعتبر أسباباً ظاهرة لحل أو حرمة موضوعاتها التى ترد عليها .

(ب) الفعل المباشر الذى يؤدى إلى نتيجة ما ، كالرمى بالسهم أو الرصاص ، فإنه يعتبر سبباً لما ينتج عنه من القتل ، وإن كان هذا قد حصل بالإصابة فعلا لا بمجرد الرمى الذى يتخطى هدفه ، فهى على التحقيق سبب لعلة القتل . ومن هذا القبيل حفر البئر الذى يعتبر سبباً لموت من يتردى فيه ، وإن كان السبب الحقيق هنا هو التردى فى البئر لا حفره ، ولكن سمى سبباً لحصول الهلاك عنده .

---

[١] إعلام الموقعين لابن القيم ﺟ ٣ ص ٩٦ .

[٢] الفروق ﺟ ٣ ص ٢٥٤ ، وانظر أيضا ص ١٧١ - ١٧٢

[٣] المستصفى ﺟ ١ ص ٩٣ - ٩٤

(٣) ما يحسن إضافة الحكم إليه ، مثل ملك النصاب يعتبر سبباً لوجوب الزكاة ، دون حولان الحول عليه وإن كان هذا شرطاً لابد منه لوجوب الزكاة . فهنا ، نرى أن ملك النصاب هو سبب وجوب أداء الزكاة ، ومرور العام على هذا الملك شرط ضرورى لوجوبها .

٨ — وبعد الغزالى المتوفى عام ٥٠٥ ﻫ نجد غيره من الأصوليين قد تكلموا فى السبب وما يطلق عليه لغة ، ثم على ما يراد به فقها ، وعلى منزلته من الحكم الشرعى . ومن هؤلاء سيف الدين الآمدى المتوفى عام ٦٣١ ﻫ ، إذ يقول : « والسبب فى اللغة عبارة عما يمكن التوصل به إلى مقصود ما ، ومنه سمى الحبل سبباً والطريق سبباً ، لإمكان التوصل بهما إلى المقصود . وإطلاقه فى اصطلاح المتشرعين على بعض مسمياته فى اللغة ، وهو كل وصف ظاهر منضبط دل الدليل السمعى على كونه معرفا لحكم شرعى »[١] .

ومن هؤلاء الأصوليين أيضاً ، أبو إسحاق الشاطبى المتوفى عام ٧٩٠ ﻫ إذ يذكر أن المراد بالسبب ما وضع شرعا لحكمة يقتضيها ذلك الحكم ، كما كان حصول النصاب سبباً فى وجوب الزكاة ، والزوال سبباً فى وجوب الصلاة ، والسرقة سبباً فى وجوب القطع ، والعقود أسباباً فى إباحة الانتفاع أو انتقال الأملاك ، وما أشبه ذلك[٢] .

٩ — وواضح مما تقدم ، أنه لا يراد بالسبب الذى نحن الآن بصدد بحثه فى العقد شىء من هذه المعانى التى يطلق السبب عليها بصفة عامة فى اللغة وأصول الفقه . وإنما المراد به هنا ما سبق أن ذكرناه من أنه الغاية أو الغرض المباشر المقصود فى العقد ، أى الذى دفع المتعاقدين إلى عقده . وهذا المعنى واضح من الشذرات التى نقلناها عن الفقهاء ، الآن عند ما أردنا تعريفه .

ونعتقد أخيراً ، أنه من الحق أن نؤكد ما قررناه سابقاً من أنه يمكن بشىء من البحث والاستقصاء استخلاص نظرية فى « سبب العقد » من الفقه الإسلامى ، هذه النظرية التى تقوم على وجوب تعرف إرادتى طرفى العقد والغرض أو المقصد الذى يستهدفانه من العقد .

وفى الكلمة الآتية تمام الحديث إن شاء الله تعالى ، بالكلام على شروط السبب والحكم الشرعى للتصرف المجرد منه .

الدكتور محمد يوسف موسى

---

(١) الأحكام ، ح ١ ، ١٨١

(٢) الموافقات ، ح ١ ، ١٨٥ .

شهر التصرفات بين القانون والشريعة

الغاية من التقنين الوضعي في كل أمة تنظيم العلاقات بين الأفراد والجماعات في المعاملات الجارية بينهم ، وتدبير أمور الناس بما يحقق الصوالح العامة والخاصة ويدرأ الضرر عن المجتمع ، وهذا بعينه هو مقصد الشرع الإسلامي . بيد أن الأساس في التقنين أفكار الناس وعقولهم في نطاقها الضيق المحدود بحدود الزمان والمكان ، وقد تؤثر فيه الأغراض والأهواء ، ثم إن العقول بطبيعتها خطاءة ما لم يعصمها نور من الله .

أما الأساس في الشريعة فوحي الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وما نزل إلا ليكون منارة للعقول يهديها في مشاكل الحياة الهائجة التي طالما ضل في علاجها أئمة الاجتماع والاقتصاد والسياسة عند ما سلكوا غير سبيل الإسلام كضلال الملاح في بحر لجي « يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » .

إن يد ذلك الشرع البصير قد غلت عن تدبير أمر الناس في مصر منذ عشرات السنين في الأمور المالية والجنائية ، وكم فمه عن توجيههم برأى السماء ، وترك التدبير لآراء استعمارية مفروضة بقوة المدفع وقوة التقليد الأعمى ، حتى بلغ بنا الأمر على مر السنين أن كان البعض منا يقول : إنما الوحي من أوربا لا من الله .

فالمفروض علينا الآن لنرد الحياة القانونية إلى الإسلام في انسجامه واعتداله ، أن ننظر إلى القوانين الوضعية المدبرة لنبحث مواضع التجديد فيها أو ما يظن تجديدا ، ونوازن بينه وبين آراء المجتهدين المستمدة من نور الكتاب والسنة ، فنرى أيها نقره وأيها نعدله وأيها نلغيه ، لنعود بقوانيننا إلى الصراط المستقيم .

ومسألة اليوم هي تحتيم القوانين المصرية شهر بعض التصرفات وإعلانها بتسجيلها في مكاتب الشهر العقاري لترتيب آثارها عليها . فقد جاء في المادة ٩٣٤ ، ١٠٥٣ من القانون

المدنى والمادة ٩ من قانون الشهر العقارى أن جميع التصرفات الواردة على العقار التى من شأنها إنشاء حق من الحقوق العينية الأصلية كالملك فى البيع ، وحق الحبس فى الرهن ، والحبس فى الوقف ، أو التى من شأنها نقله أو زواله ، لا تترتب عليها هذه الأحكام إلا إذا شهرت بتسجيلها فى سجل الشهر العقارى . وهذه النصوص شاملة للعقود العوضية وعقود التبرعات كالهبة والوصية ، كما أنها شاملة للرهن والإيجار الزائد على ثلاث سنوات . والمادة الأولى من قانون الوقف تنص على أن الوقف لا يصح إلا إذا صدر به إشهاد أمام المحاكم الشرعية وضبط فى سجلاتها . ومقصود القوانين السابقة أن أحكام هذه التصرفات لا تثبت بين المتعاقدين أو فى حق الغير إلا بالتسجيل ، اللهم إلا فى عقد الرهن فإن التسجيل فيه شرط لنفاذه فى حق الغير ، وهو نافذ فى حق المتعاقدين من حين العقد . وقد أبانت المذكرات التفسيرية أن العقود مالم تسجل ليست إلا التزامات شخصية تترتب عليها الحقوق التى من شأن هذه التصرفات إفادتها ، كالتعهد بإتمام التصرف والمطالبة بباقى العوض واسترداده إن لم يتم التصرف . وأبانت أيضاً أن الوقف بدون إشهاد باطل .

ونحن نعلم من النصوص فى الفقه أن التصرفات تترتب عليها آثارها بمجرد الإيجاب والقبول ، أو الإيجاب فقط فى الإرادة المنفردة دون اشتراط كتابة أو تسجيل . والذى دعا المقننين إلى القول بضرورة التسجيل هو ما شوهد من التحايل فى العقود والتلاعب بالحقوق وعدم احترامها بغية ابتزاز أموال الناس وإضاعتها عليهم ، فقد يبيع إنسان داره أو يرهنها ويقبض المال ، ثم يبيعها أو يرهنها لشخص آخر جاهل بالتصرف الأول . وقد يقف أرضه على مسجد ، ثم يعبث بالوقف فيبيعها أو يغتصبها غيره وتتعذر إقامة الدليل على الوقف . وهكذا أسرف الناس فى تجاحد الحقوق ، فرؤى شهر التصرفات العقارية ليكون عاصماً من هذه الحيل ؛ فأصبح مريد الشراء أو الرهن لا يقدم إلا بعد علمه بخلو العين من الحقوق العينية ، وأصبح المالك والمرتهن آمنين من طغيان الغير على حقهما .

والفقه لا يعترض على صيانة الحقوق ، لكنه يعترض على الوسيلة التى اتبعت فى ذلك ، ولكى نعرف رأيه ينبغى أن نتبين التكييف الفقهى للتصرف الذى لم يسجل .

يتبين من العرض السابق لما حوته النصوص والمذكرات أنه تصرف استوفى أركانه وشرائطه ، غير أن أحكامه لا تترتب عليه إلا بالتسجيل ، بمعنى أنه إن سجل نفذ وإن لم يسجل بطل ، ومثل هذا الوضع يحكم عليه الفقه بأنه تصرف موقوف على التسجيل ، ويتبين فى الوقف غير المسجل أنه باطل .

والشريعة : ترى أن هذه التصرفات قبل التسجيل صحيحة نافذة تترتب عليها آثارها بمجرد انعقادها شفاها أو كتابة ، وولى الأمر لا يستطيع أن يحكم على العقود النافذة إجماعا بأنها موقوفة بقوة سلطانه كما جاء فى قوانين التسجيل ، نعم تستطيع فى الوقف أن تصوب اعتبار واضع القانون الإشهاد من شروط صحته ، وذلك بأن يحكم عليه عند عدم الإشهاد بالبطلان أخذاً برأى من يذهب إلى بطلان الوقف كله كشريح وأحمد بن صالح وإحدى الروايتين عن أبى حنيفة ، ويحكم عند الإشهاد بصحته أخذاً برأى الجمهور .

أما فى عقود التمليك وعقد الرهن فاعتبارها موقوفة بأمر الحاكم غير جائز لأنه خروج على إجماع الفقهاء القاضى بترتب الملك على عقود التمليك وحق الحبس على الرهن فور حصولها إلا لمانع شرعى كبيع الفضولى .

ونظرة إلى متقدمى الفقهاء ترينا كيف وقفوا أمام مثل هذه المشكلة الاجتماعية : لقد كثر ادعاء الملكية لعقارات أو منقولات فى حوزة ملاكها الذين طالت مدة وضع يدهم عليها ، وربما حكم للمدعين بحجج زائفة تقدم منهم ، وكان فى ذلك خطر على الحقوق التى يجب أن تصان ؛ لأن وضع اليد المدة الطويلة ، من غير اعتراض من أحد عليه مع التمكن من الاعتراض قرينة عرفية على صحة اليد وكذب الدعوى ، فأجاز الفقهاء للحاكم علاجا لهذه المشكلة أن يمنع القضاة من سماع دعوى العقار بعد مضى المدة الطويلة .

نقل الحموى فى حاشية الأشباه عن يحيى المنقارى أن سلاطين آل عثمان أمروا قضاتهم فى جميع ولاياتهم أن لا يسمعوا دعوى بعد مضى خمس عشرة سنة سوى دعوى الوقف والإرث ، ونقل فى الفتاوى الحامدية عن المذاهب الأربعة عدم السماع بعد نهى الحكام . ومستندهم فى المنع من مثل هذه الدعاوى هو أن لولى أمر الدولة تخصيص القضاء بالزمان والمكان ونوع من القضايا .

وهذا المبدأ عمل به المقنن المصرى فى دعوى الزواج فمنع من سماعها إلا إذا كان الزواج ثابتاً بوثيقة رسمية وحصل فى سن معينة للزوجين ، وهذا المنع كف الناس عن مباشرة الزواج إلا بالشرطين السابقين فابتعدوا بذلك عن أضرار صحية واجتماعية بالغة كالعقم والشقاق بين الزوجين والطمع فى مال القصر ، وأخذ به أيضا فى الوقف قبل صدور القانون الأخير حيث نص فى لائحة ترتيب المحاكم الشرعية على أنه لا تسمع دعوى الوقف غير المسجل .

فلو أن واضع القانون المدنى أخذ بهذا المبدأ فنع من سماع الدعوى بالتصرفات غير المسجلة لوفق بالمصالح المرجوة من غير خروج على الشريعة .

وبعض إخواننا من فقهاء سوريا يرى أن العقد غير المسجل باطل بعد أن صدر قانون التسجيل ، وكان قبل ذلك صحيحاً شرعا ، لكن لولى الأمر أن يأمر ببطلان العقود الصحيحة للمصلحة . واستدل على هذا المبدأ بفتوى أبي السعود مفتى آل عثمان فى أوائل القرن العاشر الهجرى عندما سئل عمن وقف على أولاده هربا من الديون ، هل يصح وقفه ؟ فأجاب بأن وقفه باطل ، والقضاة ممنوعون من قبل السلاطين عن تسجيله وعن الحكم به صيانة لأموال الدائنين .

ففهم المستدل من الفتوى أن الوقف الصحيح ينقلب باطلا بأمر ولى الأمر ، فأخذ منه مبدأ عاما هو أن التصرف الصحيح يصير باطلا بأمر الحاكم للمصلحة الداعية [1] . لكن أمر الحاكم لا يجعل الصحيح فاسدا إلا بمستند من تقليد لأحد الفقهاء أو اجتهاد ، على أن العقود المجمع على صحتها كالبيع والرهن والزواج لا يصح الاجتهاد المؤدى إلى بطلانها ، لأن الاجتهاد فى مقابلة الإجماع باطل .

وأما فتوى أبي السعود ببطلان وقف المدين فليست مستمدة من الأمر ، بل هى ترجيح لمذهب المالكية ، وأمر السلاطين بالمنع من القضاء بصحته تخصيص للقضاء بهذا المذهب ، لأن المصلحة كانت فى العمل به ، ومن الأصول المقررة جواز ترجيح مذهب معين ، والأمر باتباعه للمصلحة ، ومذهب المالكية بطلان وقف المدين بدين مستغرق أو غير مستغرق إذا كان الباقى بعد الوقف لا يكفى للوفاء به . ويمكن أن تكون الفتوى وأمر السلاطين عملا بإحدى الروايتين عن أبي حنيفة ، وهى القول ببطلان الوقف .

أما بطلان العقود الصحيحة بمجرد الأمر من غير أن يكون له مستند من تقليد أو اجتهاد فلا يمكن أن يكون مبدأ فقهياً يستخدم فى تدبير أمور الناس ، وإلا لدخل على الشريعة من قبل الحكام التبديل والمحو والزيادة والنقص والعياذ بالله ، ولاسيما أنهم لم يرتفعوا إلى مرتبة المجتهدين الذين يعرفون وجه المصلحة والاستمداد من الأدلة ، وكثر منهم الظالمون الذين يجهلون طريق المعدلة . والله أعلم بأحكامه .

أحمد فهمى أبو سنة
المدرس بكلية الشريعة

(١) انظر (المدخل الفقهى) للاستاذ الزرقا جـ ١ ص ٩٩

حقيقة الوجوب والنهي

وعدنا القارىء في مقالنا السابق بمواصلة بحث الأحكام التكليفية والوضعية . وها نحن أولاء نفي بهذا الوعد فنبدأ بذكر الواجب وما يتعلق به من أبحاث ، مع ذكر الخلاف بين اصطلاحي الحنفية والشافعية في الفرض والواجب ، حتى يزول ما يعلق بالذهن من شبه حين النظر في بعض المسائل الفقهية التي يقع فيها الخلاف بين الشافعية والحنفية .

تعريف الواجب لغة وشرعا : الوجوب في اللغة يطلق بمعنى السقوط ، وفيه يقال « وجبت الشمس » ، إذا سقطت . « ووجب الحائط » إذا سقط . وقد يطلق بمعنى « الثبوت والاستقرار » ، ومنه قوله عليه السلام « إذا وجب المريض فلا تبكين باكية » أي استقر ، وزال عنه التزلزل والاضطراب .

وأما الوجوب في العرف الشرعي فقد ارتضى فيه الغزالي تعريف القاضي أبي بكر الباقلاني إذ يقول « هو الذي يذم تاركه ويلام شرعا بوجه ما » لأن الذم أمر ناجز والعقوبة مشكوك فيها لجواز العفو ، ويشمل التعريف : الواجب المعين ، والواجب المخير ، والواجب الموسع . فإنه يلام على تركه مع ترك العزم على امتثاله . ولا فرق بين الواجب والفرض عند الشافعية بل هما من الألفاظ المترادفة كالحتم واللازم .

تفرقة الحنفية بين الفرض والواجب : وفرق الحنفية بينهما ، فخصوا الفرض بما يقطع بوجوبه ، وخصوا الواجب بما لا يدرك إلا ظناً . ولا ينكر الشافعية انقسام الواجب إلى مقطوع ومظنون . فيرجع الأمر إلى مجرد الاصطلاح ، وقد اشتهر بين العلماء أنه لا مشاحة في الاصطلاح إذا ما فهمت المعاني وتمايزت الحقائق واتضحت .

ويقرب تعريف القاضي أبي بكر من تعريف الآمدي إذ يقول « الوجوب الشرعي عبارة عن خطاب الشارع بما ينتهض تركه سبباً للذم شرعا في حالة ما » ، وشرح هذا التعريف بقوله : إن القيد الأول وهو « خطاب الشارع » يمنع من خطاب غير الشارع . والقيد الثاني وهو « انتهاض تركه سبباً للذم شرعا » يخرج بقية الأحكام الشرعية . والقيد الثالث

وهو « وجود الذم فى حالة ما » يجعل التعريف شاملا الواجب الموسع إذا ترك فى أول الوقت بدون عزم على الامتثال وأداء الفعل فيما بعد، كما يشمل ترك الواجب المخير .

تعريف الفرض ، نظر الحنفية فى الفرض والواجب : والفرض فى اللغة يطلق بمعنى التقدير ، قال تعالى (فنصف ما فرضتم) أى قدرتم ، وبمعنى القطع : قال تعالى (نصيباً مفروضاً) أى مقطوعا محدوداً . ويطلق الفرض على ما يعطى بغير عوض ، تقول العرب « ما أصبت منه فرضاً ولا قرضاً » ، ويطلق بمعنى الإنزال كقوله تعالى (إن الذى فرض عليك القرآن) أى أنزل . ويطلق بمعنى التبيين : قال تعالى (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) أى بينها . ويطلق بمعنى الإحلال : قال تعالى (ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له) أى أحل الله له .

وقد رتب الحنفية أحكاما مختلفة لكل من الفرض والواجب بناء على قطعية الدليل بالنسبة للفرض وظنيته بالنسبة للواجب ، وها هى عبارة البزدوى حيث يقول « وأما الفرض فحكمه اللزوم علماً وتصديقاً بالقلب وهو الإسلام . وعملا بالبدن وهو من أركان الشرائع ، ويكفر جاحده ويفسق تاركه بلا عذر . وأما حكم الوجوب فلزومه عملا بمنزلة الفرض لا علماً على اليقين لما فى دليله من الشبهة حتى لا يكفر جاحده ويفسق تاركه إذا استخف بأخبار الآحاد . فأما متأولا فلا ، لأن الدلائل نوعان : مالا شبهة فيه من الكتاب والسنة ، وما فيه شبهة ، وهذا أمر لاينكر . وإذا تفاوت الدليل لم ينكر تفاوت الحكم وبيان ذلك أن النص الذى لا شبهة فيه أوجب قراءة القرآن فى الصلاة وهو قوله تعالى « فاقرءوا ما تيسر من القرآن » . وخبر الواحد فيه شبهة بعين الفاتحة فلم يجز تغيير الأول بالثانى بل يجب العمل بالثانى على أنه تكميل لحكم الأول مع إقرار الأول . وكذلك الكتاب أوجب الركوع وخبر الواحد أوجب التعديل فيه . والمتتبع لكتب الفقه الحنفى يرى فروقاً كثيرة وأحكاما متباينة لكل من الفرض والواجب .

نظر الشافعى فى الفرض والواجب : وإذا ذكرنا الفرض والواجب عند الحنفية وبينا وجهة نظرهم فى الاختلاف بينهما ، فيحسن بنا أن نذكر وجهة نظر الشافعى فى الفرض والواجب . وقد جعلهما الشافعى فى تعطين مترادفتين لمعنى واحد منكراً التفرقة بينهما . وقال هما مترادفان ويطلقان على معنى واحد وهو الذى يذم تاركه ويلام شرعاً بوجه ، سواء

ثبت بدليل قطعي أو ظني ، واختلاف طريق الثبوت لايوجب الاختلاف في حقيقة الفرض والواجب ، وتخصيص اسم الفرض بالمقطوع والواجب بالمظنون تحكم ، لأن الفرض هو التقدير مطلقاً سواء أكان مقطوعاً به أم مظنوناً . وكذلك الواجب هو الساقط سواء أكان مظنوناً به أم مقطوعاً . فكان تخصيص كل واحد بقسم تحكما . ومحل القول في هذا النزاع أن وجوب العمل في الواجب عند الشافعي مثل وجوب العمل في الفرض ، والتفاوت بينهما في ثبوت العلم وعدمه . وعند الحنفية التفاوت بينهما ثابت في وجوب العمل أيضاً حتى كان وجوب العمل في الفرض أقوى من وجوبه في الواجب ، ولم ير الشافعي وبقية الأئمة فرقا بين الفرض والواجب إلا في الحج استناداً إلى دليل شرعي يوجب التفرقة ، فقد ورد عن الشارع في بعض أعمال الحج أن تركها مفسد له فسميت أركانا ، وفي بعضها أن تركه غير مفسد له ويجبر بدم فسميت واجبات .

نظر الحنفية في النهي : ولما فرق الحنفية بين الفرض والواجب جعلوا النهي موجباً للتحريم إن كان ثابتاً بطريق القطع ، وموجباً لكراهة التحريم إن كان ثابتاً بطريق مظنون . وعلى ذلك تكون الأحكام التكليفية عندهم سبعة : واجبة ، ومفروضة ، ومندوبة ، وحراما ومكروهة كراهة تحريم ، ومكروهة كراهة تنزيه ، ومباحة .

عبد الله المراغي
مدير المساجد بوزارة الأوقاف

التربية بالقدوة

كتب أمير المؤمنين عمر إلى أبي موسى الأشعري واليه على البصرة :

« إن أسعد الرعاة عند الله من سعدت به رعيته ، وإن أشقى الرعاة من شقيت به رعيته .

وإياك أن ترتع فيرتع عمالك ، فيكون مثلك عند الله كمثل البهيمة نظرت إلى خضرة من الأرض فرتعت فيها تبتغي بذلك السمن ، وإنما حتفها بسمنها » .

نشأة كتب الأمالي وخصائصها

– ٣ –

أمالي ثعلب

ثعلب هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن يسار الشيباني المعروف بثعلب ، إمام الكوفيين في النحو واللغة والحديث .

ولد سنة مائتين ، وابتدأ النظر في العربية والشعر واللغة وهو في سن السادسة عشرة .

روى ياقوت عنه وهو يتحدث عن نفسه :

« حذقت العربية ، وحفظت كتب الفراء كلها ، حتى لم يشذ عني حرف منها ، ولي خمس وعشرون سنة ، وكنت أعنى بالنحو أكثر من عنايتي بغيره ، فلما أتقنته ، أكببت على الشعر والمعاني والغريب » .

وقد ظهرت كل أنواع هذه الثقافات في أماليه ظهوراً واضحاً ، فهي تمثل بحق ضروب دراسته وألوان ثقافته .

عاش أبو العباس ثعلب دهرا طويلا ما بين سنتي (٢٠٠ ، ٢٩١ هـ) وقضى حياة حافلة بخدمة النحو واللغة والأدب في بيئة بلغت فيها المنافسة بين البصريين والكوفيين غايتها إذ ذاك .

شيوخه :

لقد طلب أبو العباس كل علم من أهله ، فجلس إلى ابن الأعرابي في اللغة ، وتلقى على سلمة بن عاصم النحو ، وروى كتب أبي زيد الأنصاري عن ابن نجدة ، وكتب الأصمعي عن أبي نصر ، وكتب أبي عمرو عن ابنه عمرو . فاجتمع له بذلك علم واسع صحيح ، جعل شيوخه أنفسهم يلجئون اليه .

قال ياقوت : كان ابن الأعرابي إذا شك في شيء يقول لثعلب : ما عندك يا أبا العباس في هذا ؟ ثقة بغزارة حفظه .

ومن شيوخه كذلك محمد بن حبيب ، وفيه يقول : حضرت مجلسه فلم يُمْلِ ، وكان والله حافظاً صدوقاً .

ومنهم محمد بن عبد الله بن قادم ، وكان من أعيان أصحاب الفراء .

ومنهم ابراهيم بن اسحاق بن بشير الحربى ، حدث أبو عمر الزاهد قال : سمعت ثعلبا مرارا يقول : ما فقدت ابراهيم الحربى من مجلس لغة أو نحو خمسين سنة .

ومنهم ابراهيم بن المنذر الحزامى ومحمد بن سلام الجمحى والزبير بن بكار .

ومنهم أبو الفضل العباس بن فرج الرياشى البصرى .

وكان لأبى العباس ولوع بأن يحضر مجالس العلماء للإفادة منهم .

قال ياقوت فى معجم الأدباء نقلا عن الصولى :

قال أبو العباس ثعلب : لم أسمع من جماعة كلهم قد رأيته وتمكنت منه ، ولو أردت ذلك ما فاتنى عنهم جميع ما أطلب ، منهم أبو عبيد القاسم بن سلام واسحاق الموصلى وأبو توبة ، والنضر بن حديد . وإنى لأذكر موت الفراء ذكراً جيداً ، وأنا فى الكتاب .

ويروى الخطيب البغدادى فى تاريخه أن ثعلبا قال :

كنت أحب أن أرى أحمد بن حنبل فصرت اليه ، فلما دخلت عليه قال : فيم تنظر ؟ فقلت : فى النحو والعربية . فأنشدنى أبو عبد الله أحمد بن حنبل :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل … خلوت ولكن قل علىَّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ما مضى … ولا أن ما تخفى عليه يغيب
لهونا عن الأيام حتى تتابعت … ذنوب على آثارهن ذنوب
فياليت أن الله يغفر ما مضى … ويأذن فى توباتنا فنتوب

وكان مع اشتغاله بعلوم العربية لا يزال به حنين ينازعه إلى علوم الدين .

قال أبو بكر بن مجاهد ، كما ذكر صاحب نزهة الألباب :

كنت عند أبى العباس أحمد بن يحيى ثعلب فقال لى : يا أبا بكر ، اشتغل أصحاب القرآن بالقرآن ففازوا ، واشتغل أصحاب الحديث بالحديث ففازوا ، واشتغلت أنا بزيد وعمرو ، فليت شعرى ماذا يكون حالى فى الآخرة ؟!

تلاميذه :

وأما تلاميذه فكثير ما هم ، وأشهرهم هو أبو عمر الزاهد محمد بن عبد الواحد ، كان من أكابر أهل اللغة وأحفظهم لها ، وكان يعرف بغلام ثعلب .

وكان يشاركه في هذا اللقب محمد بن علي بن الحسين أبو طالب النحوي ، كان يسمى كذلك غلام ثعلب .

وممن كان يسمى (ثعلبا) من النحويين محمد بن عبد الرحمن النحوي .

كان ثعلب يتولى زعامة مدرسة الكوفة ، على حين كان المبرد يتزعم أهل البصرة .

وكل منهما كان علما وإماما في صناعة العربية ، فأحدث ذلك بينهما من المنافسة ما حفظه التاريخ وسجله الشعر .

حكى ابن السراج قال : كان بين المبرد وثعلب ما يكون بين المعاصرين من المنافرة ، وكان أهل التجميل يفضّلون المبرد على ثعلب .

مؤلفاته :

حفظ التاريخ لأبي العباس أكثر من أربعين مؤلفا في فنون العربية والقرآن ، بيد أن كثيرا منها عدت عليه عوادى الأيام ، فيما عدَتْ على التراث العربي الضخم .

ونحن نكتفي هنا بذكر ما نرى له صورة في أماليه :

١ — إعراب القرآن .

٢ — القـــراءات .

٣ — معاني القرآن .

٤ — معاني الشعر .

٥ — اختلاف النحاة .

٦ — كتاب الفصيح ، وهو أشهر كتبه .

الأمالي :

وتسمى أيضا « مجالس ثعلب » و « مجالسات ثعلب » .

اشتملت (أمالي ثعلب) على ضروب شتى من علوم العربية ، وحفظت لنا في مطاويها

كثيرا من المسائل النحوية على مذهب الكوفيين ، وهي في هـــذه البابة من أهم الوثائق العلمية في بيان مذهب المدرسة الكوفية ، على أن ثعلبا كثيرا ما يتعرض في أثناء هـذه المجالس أو الأمالى بعض آراء مدرسة البصرة .

وهو كذلك كثيرا ما يعرض لتفسير بعض آيات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، ويذكر أقوال العلماء واللغويين في ذلك ، مجادلا آراءهم ، مخطئا لهم أحيانا ، ومنتقدا أحيانا أخرى .

وله مختارات من الشعر تنبىء بما منح ثعلب من حسن الاختيار ، وجمال الذوق ، ويلمس الباحث في أراجيزه التي اختارها ، وهي كثيرة وبعضها نادر ، أنه لغوى متمكن ، وعالم مدقق ، وراوية ثبت .

وأسلوب ثعلب في أماليه أنه أحيانا يبدؤها هو بذكر خبر أو بيت ثم يستطرد منه إلى فنون شتى من علوم العربية ليس بينها وحدة ولا ارتباط ، إلا أنها من اللغة العربية وآدابها .

وأحيانا أخرى يتقبل الأسئلة من طلابه فيجيب الجواب السديد تارة ، ويتردد تارة أخرى ، وأحيانا يقول : « لا أدرى » .

على أننا لا ندرى تاريخ تلك الأمالى ، وفي أى الأيام كان يجلس لها ، كما سنرى ذلك في بعض الأمالى الأخرى كأمالى ابن الشجرى أو أمالى المرتضى .

والذى نأخذه على ثعلب في أماليه ، أنه لم يبرأ مما وقع فيه بعض الرواة من ذكر أخبار هى أشبه شىء بالأساطير ، ولم يعن هو كما لم يعن غيره بنقد النص وتطبيقه على الممكنات العقلية أو الآراء العلمية ، كالذى ذكره في مطلع الجزء الثامن :

حدثنا أبو العباس أحمد بن يحيى النحوى ثعلب قال :

حدثنى عمر بن شبة قال : حدثنى عبيد بن جناد ، حدثنا عطاء بن مسلم عن أبى جناب الكلبى قال :

أتيت كربلاء فقلت لرجل من أشراف العرب بها : بلغنا أنكم تسمعون نوح الجن ؟

قال : ما تلق حراً ولا عبداً إلا أخبرك أنه سمع ذلك .

قلت : فأخبرنى ما سمعت أنت :

قال : سمعتهم يقولون :

مسح الرسول جبينه فله بريق في الخدود
أبواه من عليا قريش جده خير الجدود

فنرى أن ثعلباً قد تقبل الفكرة الشائعة عند الرواة للشعر بأن للجن شعراً ، ولم يأخذ بأي مقياس من مقاييس النقد التي وضعها علماء الحديث ، مع أنه ممن عرفوا الحديث ، ووقفوا على مناهج النقد عند علمائه .

ونحن نرى أن هذا الشعر من وضع الشيعة ولا جرم ، وهم في ذلك يحتذون حذو من وضع منهم الأحاديث على لسان الرسول صلوات الله عليه ، وهي كثيرة . فإذن قد جنت المذاهب وتطرفها على الشعر كما جنت من قبله على الحديث .

وأمالي ثعلب في جملتها ، قد رواها جماعة ـ كما ذكر ابن النديم ـ منهم أبو بكر بن الأنباري وأبو عبد الله اليزيدي ، وأبو عمر الزاهد غلام ثعلب ، وابن درستويه ، وابن مقسم .

أما المطبوعة التي بين أيدينا فهي من رواية أبي بكر محمد بن الحسن بن يعقوب بن مقسم المقرىء العطار . وفي هذه النسخة زيادات لابن مقسم من تفسيرات ينص هو عليها منسوبة إليه وهذه الأمالي اثنا عشر جزءاً ، وقد طبعت في (٦٦٦) صفحة .

نماذج منها

الأجزاء في القرآن :

عن محمد بن يعقوب السمرقندي رحمه الله أخبرنا محمد بن الحسن بن مقسم ، ثنا أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، ثنا محمد بن يعقوب السمرقندي ، ثنا أبو بكر الحميدي عبد الله بن الزبير ، ثنا أبو الوليد عبد الملك بن عبد الله بن شعوة ، عن اسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين ، عن حميد الأعرج أنه حسب حروف القرآن فوجد النصف الأول من القرآن ينتهي إلى خمس وستين آية من سورة الكهف عند قوله تعالى : « هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً ، قال إنك لن تستطيع » ، وهو الربع الثاني ، والسدس الثالث ، والثمن الرابع ، والعشر الخامس وصارت « معي صبراً » من النصف الآخر إلى أن تختم القرآن .

والثلث الأول ينتهي إلى بعض إحدى وتسعين آية من براءة ، عند قوله : « كذبوا الله ورسوله سيصيب » إلا الباء من سيصيب ، وهو السدس الثاني ، والتسع الثالث ، وصارت الباء من سيصيب من الثلث الأوسط . والثلث الأوسط إلى بعض ست وأربعين آية من

سورة العنكبوت ، عند قوله تعالى : « إلا بالتي هي أحسن إلا » وهو السدس الرابع ، والتسع السادس ، وصارت « الذين ظلموا » من الثلث الآخر إلى أن تختم القرآن .

النحو الكوفي :

وأنشد :

اسمع حديثاً كما يوماً تحدثه عن ظهر غيب إذا ما سائل سألا

رفع . وقال : زعم أصحابنا أن (كما) تنصب ، فإذا حيل بينهما رفعت ، وغيرهم يقول : (كما) ترفع ، قال هشام : تقول أفعل كما يفعلون ، قال : يزعم البصريون أنها لا تعمل كما تعمل كي . قال : وأصحابنا يقولون (كما) مثل (كي) قال الكسائي : أمثل ذلك، أتيتك كي فينا ترغب ؟

تفسير القرآن :

قال أبو العباس في قوله : « يأيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين » .

قال : قالوا للنبي ﷺ اطرد صهيبا وسلمان وبلالا ـ وهؤلاء قد سبقوا إلى الهجرة ـ حتى نتبعك . فأنزل الله هذا .

وهذه رواية غريبة لم ترد في تفسير من التفاسير التي بين أيدينا : لا في الطبري ، والكشاف ، والفخر ، وأبي السعود ، والنيسابوري ، والنسفي ، والقرطبي ، وأبي حيان ، وابن كثير ، والبيضاوي ، والجلالين ، والبغوي ، والطبرسي ، والألوسي ، والأحكام للجصاص ، ولا ابن العربي ، ومشكل القرآن لابن قتيبة ، فهذه ثمانية عشر تفسيرا لم نجد فيها الرواية التي ذكرها ثعلب .

فضلا عن أن النقد الموضوعي لهذه الرواية يجعلنا لا نقبلها بسهولة ، وذلك أن السورة مدنية بالإجماع ، وهؤلاء أسلموا بمكة ، فإن كان هناك حديث عنهم فليكن في مكة ، وقد وردت هذه القصة في صدد آيات مكية وهي في سورة الأنعام عند قوله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين) .

روى أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وغيرهم عن عبد الله بن مسعود قال : مر الملأ من قريش على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب وعمار وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء من الله عليهم

من بيتنا ؟ أنحن نكون تبعا لهؤلاء ؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم أن نتبعك . فأنزل فيهم القرآن (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم - إلى قوله - أليس الله بأعلم بالشاكرين) .

وروى مثل ذلك أيضا في سبب نزول آية سورة الكهف وهي مكية كسورة الأنعام والآية هي (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) الآية .

وهذا هو الواقع وهو المعلوم من السيرة النبوية ومن سنة الله تعالى في خلقه المبينة في آيات كثيرة من كتابه .

وهو أن أول أتباع خاتم الرسل عليه السلام هم كأتباع من تقدمه من إخوانه الرسل ، أكثرهم من الضعفاء الفقراء ، وأن أعداءه كأعدائهم هم المترفون من الأكابر والرؤساء ، وأن هؤلاء الأعداء المستكبرين عن الإيمان كانوا يحتقرون السابقين إلى الإيمان ويذمونهم بل يسومونهم سوء التعذيب .

وتارة يقترحون على الرسل طردهم وإبعادهم . قال تعالى في سورة هود حاكيا قول الملأ - أي الأشراف - من قوم نوح (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي) .

وقد حكى الله عن كفار قريش أنهم قالوا في هؤلاء الضعفاء السابقين إلى الإسلام (لو كان خيرا ما سبقونا إليه) .

على أن الإنصاف يقتضينا أن نعترف لأبي العباس ثعلب بما في أماليه من محاسن كثيرة مما يدل على الاستقراء والتتبع وسعة الاطلاع وطول الباع . من ذلك ما يذكره من الكليات في جانب معاني القرآن التي تطبق على جميع الآيات ، مثل قوله :

(لا يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت في السموات والأرض)

قال : كبر علمها على أهل السموات والأرض . . . قال : وكل شيء لم يعلم فهو ثقيل . .

وهذا الرأي عندي في التفسير خير من رأي الراغب في مفرداته .

وكقوله في قوله عز وجل (تظن أن يفعل بها فاقرة . كلا) .

الفاقرة : الداهية ، من فقرت أنفه ، أي حززت أنفه .

و (كلا) في القرآن كله ، أي ليس الأمر كما يقولون ، الأمر كما أقوله أنا .

ومهما يكن من شيء فهذه الأمالي جديرة بالبحث والدرس والقراءة والاطلاع .

عبد الوهاب حمودة
الأستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة

آراء وأحاديث

علوم البلاغة فى الميزان

كتبت فى العدد الماضى من مجلة الأزهر الغراء تعليقاً على مقال كاتب فاضل فى هذه المجلة أبدت فيه حضرته فيما ذهب إليه فى وجوب التجديد فى البحث ، واستطردت إلى بيان واجب الأزهر الشريف وحظه من تلك الناحية ، وأنه أولى الناس بأن يجدد فى مناهجه ، ويغير فى مؤلفات الأولين ما لا يناسب الزمن أو لا يحقق الغرض ، أو لا يكون على شرعة الصواب .

ثم انتقلت مع حضرة الكاتب الفاضل (مسايرة لاتجاهه) إلى ناحية من نواحى البحث وتكلمت فى البلاغة كما هى فى الكتب التى تدرس فى الأزهر منذ قرون ، فأثرت مسائلها وأثرت مباحثها ، وأبنت معايبها ، ودعوت إلى وجوب نسخها ، والاستبدال بها ، ضناً بالوقت ، والتماساً للحق .

ثم أعود اليوم إلى ما وعدت من التفاهم مع حضرة الكاتب الفاضل فيما أخذ على حضرات الكاتبين فى البلاغة من تعليلات فى الحذف والذكر ، ثم تصوير للتجريد البديعى . وقصدت مع واجب الوفاء أن يظل باب البحث مفتوحاً لى ولمن شاء ، فإن البحث فى الفنون العلمية والأخذ والرد حرىّ أن يحدث فى الأذهان حركة ، وأن يبعث فيها نشاطاً منشوداً ، وربما نبه القائمين بالأمر إلى حفز الهمم على الإصلاح والتجديد إن شاء الله .

• • •

بدأ حضرة الكاتب الكريم يعترض على ما كتب الأولون من تعليل الحذف بغير علته النفسية إذ قالوا إن الحذف يكون للاحتراز عن العبث بناء على الظاهر أو تخييل العدول إلى أقوى الدليلين من العقل واللفظ الخ .

ولا بد لى قبل التفاهم أن أبين للقارىء الكريم كيف سلك هؤلاء الكاتبون بعد الشيخ عبد القاهر فى بحثهم للبلاغة ، وكيف عللوا بهذه العلل التى تسوى بين الذكر والحذف والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير وما إلى ذلك .

أما أساس بحثهم ومسلكهم بالعلل فقد كان هو ما كتب الشيخ عبد القاهر من النكات التى يسميها علل النحو ، إلا أنه كان يعتمد قبل ذلك على الذوق ثم يحاول أن يجعل له أساساً وقاعدة تكون حكما عند التخالف ، وقل أن يقع التخالف عند المتذوقين ، فالذوق المعنوى كالحسى لا يقلب الحلو مراً ولا العذب الفرات ملحاً .

ونظير ذلك معرفة النظم وما فيه من اتزان وغير اتزان ، فإن العارف بالذوق لابد أن يعرف البيت الصحيح من المكسور إذا عرض عليه ، ولكن الوزن بالتفعيلات جعل حكما عند الخلاف ، وقل أن يقع الخلاف إلا أن يكون بين ذائق وغير ذائق ، فإذا رجعا إلى حكم الأوزان اعترف غير الذائق بصحة قوله . فالشيخ عبد القاهر جعل البلاغة تآخى معانى النحو بين الجمل وجعل معانى النحو هى تلك التى سماها القوم أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال من الحذف والذكر . الخ الخ .

وتكلم الشيخ فى أبواب من تلك المعانى قصد بها أن يمهد الطريق أمام الأديب المتذوق ليتعلم فلسفة البحث فى التراكيب لتكون عدة له إذا جادله من لا يحسن ما يحسن ومن لا يتذوق ما يتذوق . ولم يستوعب جميع تلك الأبواب ، وما كان له عند الحق ولا لأحد أن يستوعب ولا أن يحاول إلا أن يتكلف مالا يستطيع ولا يحسن ، ونعوذ بالله أن نتكلف ما لا نستطيع ولا نحسن .

أما القوم من بعده وإمامهم السكاكى فقد حصروا حصراً منطقياً ليحوزوا البلاغة من أقطارها ، ويجمعوا النكات من أطرافها .

وقالوا إن الكلام العربى إما خبر أو إنشاء ، ولا بد من مسند ومسند إليه وإسناد ، والمسند قد يكون له متعلقات إذا كان فعلا أو شبهه ، وكل إسناد وتعلق فهو إما بقصر أو بغير قصر ، والجملة مع غيرها إما معطوفة عليها أو غير معطوفة ، والكلام البليغ إما على قدر

المعنى أو زائد عليه لفائدة أو أقل ، فلا بد عندهم من تفصيل الأحوال في هذه الأبواب الثمانية وبيان العلل لكل الأحوال .

وأحوال المسند إليه الذي في ضمنه بحث اليوم هي الباب الثاني من الأبواب الثمانية ، وقد حصروها في الحذف والذكر ، والتعريف بأقسامه الستة والتنكير ، والوصف ، والتوكيد ، والبيان ، والبدل ، والعطف ، والفصل بضمير الفصل ، وليكون القارىء الكريم على بينة تامة بالأشباه ، فليعلم أن الشيخ عبد القاهر لم يذكر من هذه المباحث إلا ثلاثة :

١ — الحذف : فقد ذكر صوراً منه جارية في كل أنواعه غير مقيدة بالمسند إليه مع سياقة روائع من النظم تصلح لبنات متينة لتكوين الذوق السليم ، على أن القوم من بعده قد وزعوا الحذوف على ما يصلح من الأبواب الثمانية ، ولم يذكر الشيخ الذكر .

٢ — التقديم والتأخير : ذكر صوراً منهما تدور مع كل مجال في المسند إليه وغيره ومع الاستفهام والخبر وفي النكرة والمعرفة ، وحقق فروق ما بينهما في آيات من القرآن الكريم وأبيات من الشعر الجيد .

٣ — التعريف والتنكير : ذكر منهما صوراً مطلقة أيضاً ، وفيها فروق سليمة واضحة ، وتطرق إلى فروق في القصر لها مجالها العملي الأدبي الجليل .

أما القوم فقد أطالوا وأجالوا ولم يعللوا بالعلل المثمرة إلا أن يتبعوا الإمام عبد القاهر ، ولم يكن ذلك قاصرا على علل الحذف والذكر ولكنه مطرد شامل .

ولو أنهم أنصفوا إذا لعرضوا ما عرض الإمام من النماذج ، ولبحثوا عن نظائرها لجددوا العهد بالأدب وبالذوق .

مسألة الحذف والذكر

هذه هي الناحية التي ناقش الكاتب الكريم بعض عللها . فإن السكاكي إمام المتأخرين قد ذكر للحذف عللا عدة قد يتداخل بعضها مع بعض ، فذكر الاحتراز عن العبث ، وتخييل العدول إلى أقوى الدليلين : العقل واللفظ . وإيهام تطهير اللسان أو تطهيره عن اللسان أو تأتي الإنكار ، أو التعين حقيقة أو ادعاء أو اتباع الاستعمال الخ . ثم أتى للذكر بعلل

منها قصد التخصيص والاحتياط وزيادة الإيضاح الخ . وتبعه من بعده في الجملة . والكاتب الفاضل يناقشهم الحساب فيقول إنهم يعللون الحسن بغير العلل النفسية وأنهم لم يسلكوا مسلك الشيخ ولا وفقوا للتعليل النفسي المقنع .

وإني أؤيده في أنهم لو اتبعوا الشيخ لأفادوا وأفادوا ، فقد جاء بأمثلة شريفة شافية للنفوس كبيت الكتاب [1] :

اعتاد قلبك من ليلى عوائده وهاج أهواءك المكنونة الطلل
ربع قواء أذاع المعصرات به وكل حيران سار ماؤه خضل

وكقول القاسم بن عقيل المرى يمدح زفر بن أبي هاشم وقومه :

هم حلوا من الشرف المعلى ومن كرم العشيرة حين شاءوا
بناة مكارم وأساة كلم دماؤهم من الكلب الشفاء

وقد ذكر غير هذا وغير ما ذكره حضرة الكاتب صورا من النظم لها أثرها في تهذيب اللسان والقلم والذوق كدأبه .

ولكنني أناقش حضرة الكاتب مناقشة لا تخلو من طرافة لاندماجها في سلك طريق القوم كما شاء حضرته ، ولتكن المناقشة في ناحيتين : ما سلكه في التعليل ، وما ناقش به الكاتبين في البلاغة . أما ما سلكه من التعليل ففيه ما يأتي :

(١) سلك مسلك التعليل النفسي ، وهو كما بينه في آخر الكلام : معنى يشعر المرء بأثره ولا يدركه ، ولكن الفلسفي العارف بخفايا النفوس يدركه ويؤمن به .

وإذا كان ذلك فلماذا لم يطبقه على قولهم الاحتراز عن العبث بناء على الظاهر . أو تخييل العدول إلى أقوى الدليلين . أليس ذلك لازما لقوله إنه إذا ذكر مع القرينة كان كالثقيل الخ .

ولا يضره أن يدققوا بمراعاة قيود معينة مثل كلمة (بناء على الظاهر) وكلمة (تخييل)

[١] راجع ١١٢ فما بعدها من دلائل الاعجاز طبع المنار . قواء : لا أنيس به . المعصرات : السحائب . وأذاع بالشيء : ذهب به .

فإن ذلك هو مقتضى الدقة الفلسفية ما دام قد رضى الرجوع إلى حكم الفيلسوف ، فإن الفيلسوف لا بد أن يحتاط فيجعل كلامه منطبقاً على الواقع كل الانطباق .

وفى الحق إن المتكلم لا ينطق بالبلاغة فى حذفها وذكرها ، إلا مستمدا من ذوق سليم ينشأ كما قلنا من مزاولة التراكيب التى تجعله يضع الهناء مواضع النقب . ويقول : كالذى ما قالت العرب .

وأذكر فى هذا المقام قول البحترى يعتّب على بعض العلماء فى عصره :

كلفتمونا حـــدود منطقكم   فى الشعر يكفى عن صدقه كذبه
والشعر لمـــح تكفى إشارته   وليس بالهـذر طولت خطبه

ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنطق : ما نوعه وما سببه ؟!

٢ ــ أورد حضرته ثلاث علل للحذف جعل الثانى منها الهجوم بالخاطب على المطلوب دفعة ، وهذا المعنى يلزمه الوجه الأول وهو دفع الاستثقال والاستكراه ، فإن من هجم بك على المطلوب فقد دفع عنك ثقل الفضول الذى تقذى به العين . على أنى كنت أحب ألا يورد فى هذا المقام البيت الذى أورده .

وهو قوله :

قال لى كيف أنت قلت عليل   سهر دائم وحزن طويل

فإن القريب من النفس أن الحذف هنا لضيق المقام بسبب المرض وما يحدثه من ضجر وإن اشتغال المريض بشأنه جدير أن يحول دون مراعاته لحال السامع ، وإذا كان المريض مشغولا بأمره عن احترام الزائر والاعتدال له وتحيته الخ ، فأحرى ألا يفكر فى الهجوم به على المطلوب .

٣ ــ العلة الثالثة للحذف فى كلام حضرته الجدة والطرافة ، وهو يقول : إن الناس لم يعتادوا الأسلوب الذى حذف منه بعض أجزائه .

وأستطيع أن أقول لحضرته إن الناس اعتادوه كثيرا ؛ اعتادوا أن يحذفوا المعلوم ، وأن يتركوا ما تدعو المقامات إلى حذفه ، والبلاغة تصرف عقلى أولا ثم ذوق وممارسة ثانيا ، وللعامة القدح المعلى فى ذلك ، ولهم بلاغة عجيبة الأسلوب ، وأذواق فى التخاطب ، وكثيرا

ما يصلح بعضهم لبعض عبارة تصدر ، وكثيرا ما تسأل مريضا ما شكواك ؟ فيقول : رأسي ، أو رجلي ، أو بطني ، ولا يزيد . وتقول لأحدهم من زارك ؟ فيقول سعيد . ويراك تنتظر القطار فيقول لك إذا جاء ولم تره : القطار . أضيق الفرصة ، ويقول إذا رأى العقرب : عقرب فإذا قلت : أين ؟ قال : في الحائط . وكل ذلك مشتمل على حذف . والدليل على ذلك من كلام حضرة الكاتب نفسه ، فهو يقول في العلة الأولى : إن الكلمة الخالية من الفائدة كالثقيل الخ .

والثقيل غير محبوب وفى الطباع العمل على التخلص منه ، فإن الناس يحبون الخفة والرقة ، فليس من الإنصاف أن نجرد حتى العامى من الذوق وحسن التخير ، وإن لهم بلاغة تكون أحيانا مادة لأئمة الأدب والبيان . قالوا إن أبا تمام كان يصنع قصيدة فأرتج عليه في أثنائها ، حتى كان بالطريق فسمع سائلا متسولا يقول : بياض عطاياكم فى سواد مطالبنا . ففتح ذلك له مجال القول وقال :

وأحسن من نور يفتحه الصبا   بياض العطايا فى سواد المطالب

وسار فى القصيدة .

وأما مناقشته فيما يرد به على الكاتبين فى البلاغة فإنه يقول :

إن السكاكى والخطيب ومن بعدهما أبوا أن يكون الحذف مزية على الذكر الخ . ففى كلام حضرته بحث ، لما يأتى :

١ ــ إن أراد عدم المزية مطلقا حتى تكون منزلة الذكر كمنزلة الحذف لا فرق بينهما أبدا ، فذلك ما لا يدل عليه كلامهم ولا يتعرضون له ، وليس من رأيهم فيما كتبوا أن يعقدوا موازنات بين حال وأخرى ، وإنما يكتفون بإيراد العلل والتوجيهات التى تناسب كل معنى ، فالحذف لكذا والذكر لكذا والتعريف لكذا والتنكير لكذا ... الخ .

وأما أن مسلك الحذف أدق أو سبيله أغمض أو غير ذلك فقد أعفاهم الله منه لأنهم لم يرعوا فى جانبه ولم يحاولوه .

٢ ــ بقى الوجه الثانى : وهو أنه ليس للحذف مزية ، على معنى أنه يجوز أن يكون

للذكر مزية كما أن للحذف مزية ، وهذا المعنى هو الواقع وإن كانت عبارة الكاتب لا تهدى إليه أولا ، وهو معنى صحيح لا غبار عليه ولا معنى لإنكاره على الكاتبين في البلاغة .

إن الذكر في موضعه وضع صحيح يبلغ له مزيته بحيث لو حذف المذكور لنقص الجمال . وكلام حضرة الكاتب في مبدئه وهو ما نقله عن الشيخ وأقره ، من أنك تحس في الكلام المحذوف منه بعض أجزائه في بعض الحالات الخ ، ومعنى ذلك أنه (الحذف) في بعض الحالات لا يكون حسناً إذا كان المقام للذكر فيكون الذكر هو الحسن . وقد أجمع الأدباء والبلغاء على أن للذكر مقامات لا يسد غيرها أبداً مسدها ، بل إنها قد تدق جداً وتخفى على غير الفحول ، كالذكر في سورة الرحمن « فبأى آلاء ربكما تكذبان » وفي قصيدة مهلهل التي تكررت فيها : على أن ليس عدلا من كليب .

وهم ما يزالون ينوهون بالذكر في قوله سبحانه « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » فيقولون إن ذكر اسم الإشارة مرة ثانية مع إمكان أن يقال « والمفلحون » مع صحة المعنى لأنه أريد استحضار صفاتهم والإشارة إلى أنها أساس الفلاح كما يدل عليه الذوق العربي . ونظيره عكسا قوله سبحانه « أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون » .

ومن هذا الباب قوله سبحانه « وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به » .

وانظر إلى جمال الذكر وروعته في قول المتنبي :

وما عفَّت الرياح له محلا عفاه من حدا بهم وساروا

ولو قال من حدا بهم وساروا لصحّ الكلام مع ثقل الحذف ، للحاجة إلى المحذوف كما يشهد به الذوق .

فالذكر في موضعه بلاغة كالحذف ، غير أن الحذف قد يكون فيه من اللطائف التي قل أن يهدى إليها في جملتها وعلى وجهها إلا المذاكى القرح والجياد السبق .

هذا وإني أخشى أن يكون القلم قد اشتط على القارئ الكريم فأدع بقية المناقشة إلى مجال آخر ، إن شاء الله .

محمود النواوى
المفتش بالأزهر

حقوق الإنسان في شريعة الإسلام

> « ... يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم »
>
> [من سورة الأعراف]

مقـــدمة :

جرنا الحديث فى مقالنا السابق «تطهير الأداة الحكومية فى تاريخ الإسلام» إلى أن نقول عند الكلام عن العدل :

« ولقد كان الفقه الدستورى القديم فى الغرب يرتضى من العدل صورة سلبية تكتفى فى منع الحاكم من الاعتداء على حقوق الفرد ، ولكن الفقه الدستورى الآن لا يقنع إلا باتجاه إيجابى يلزم الحاكم فيه أن يهيء الظروف للفرد كى يمارس حقوقه . فنصت وثيقة حقوق الإنسان الأخيرة الصادرة عن هيئة الأمم المتحدة مثلا على ما لم تتضمنه سابقتها وليدة الثورة الفرنسية ، ففى المواد ٢١ - ٢٤ نص على حق كل فرد فى أن يجد عملا بشروط عادلة وأجر مجز ، وفى حمايته من البطالة ، وفى تكوين نقابات ، كما نص على حقه فى الغذاء والمسكن والعلاج الطبى والتمتع بمستوى اجتماعى يضمن له ولأسرته الراحة فى الحياة ، والضمان ضد البطالة والمرض والعجز والشيخوخة .

والإسلام قد قرر هذا العدل الاجتماعى ، ووجه إلى هذه النزعة الإيجابية قبل أربعة عشر قرنا » ا . هـ

العـدالة السياسية :

ذلك أن الإسلام لم يكتف فقط بتقرير أصول العدالة السياسية بل تعداها إلى تقرير أصول العدالة الاجتماعية . لأن العدالة السياسية وحدها لا تغنى فتيلا فى شعب عامته من الجائعين المحرومين ، فمن العبث الكلام عن الحرية الفردية أو قدرة الفرد على التأثير

فى نظام المجتمع الذى يعيش فيه ، فلا حرية لمن لا يمتلك شيئاً . والذين لا يتغذون تغذية صالحة أو يرهقهم العمل المضنى لا يرون فى حق الاستمتاع بالنقد سوى نوع من الترف لا قبل لهم به ولا رغبة لهم فى تذوقه لأنهم أحوج إلى ملء بطونهم منهم إلى تحريك ألسنتهم ، (١) » والإخاء لا يقوم بين مترف ومحروم ، والمساواة أمام القانون يصعب تحققها ما دام فى استطاعة أحد المتقاضين بماله من جاه وثراء أن يأتى بالأدلة ويستعين بالدفاع ويستقدم الشهود . وفى بعض أمم العالم تعد وظائف ومهن معينة مقصورة على طوائف بالذات ، كما أن التعليم ترتفع نفقاته فى المرحلتين الثانوية والعالية . وفى بعض الأمم يقصر حق الترشيح على من يدفع قدراً معيناً من الضرائب ، فضلا عن أن كثيراً من الناس لا يشتركون فى الانتخاب لظروف اقتصادية » . (٢)

فالعدالة السياسية وحدها لا تكفى إلا إذا كانت مقرونة بالعدالة الاجتماعية ، والعدالة الاجتماعية وحدها لا تكفى إلا إذا كانت إيجابية تعتنقها الدولة فكرة وعقيدة ، وتحققها تشريعاً وتنفيذاً ، وتحاسب عليها سياسياً وقضائياً .

هذا والعدل السياسى فى الإسلام وطيد الأركان ، فقد وكلت شريعته اختيار الحاكم إلى الأمة إذ جعلت أمر الرعية بين أفرادها شورى ، وجعلته مسئولا مسئولية سياسية عن كل تصرفاته ؛ وهذا هو الإمام مالك رضى الله عنه يعلق على خطبة أبى بكر حين استخلف ، إذا أحسنت فأعينونى وإن أنا زغت فقومونى ، فيقول فيما أورده السيوطى :

« لا يكون أحد إماماً أبداً إلا على هذا الشرط »(٣) . كما أن الحاكم الأعلى مسئول مسئولية قانونية ـ مدنية وجنائية ـ فهو يؤاخذ فى فقه الإسلام بالقصاص والأموال ، وإذا كان أمر الحدود دون القصاص إليه ـ لاشتراط الإمام لاستيفائها ـ فإننا نجد بالنظر إلى قوله تعالى « فاجلدوا . . . . » أن الخطاب موجه لجماعة المسلمين ، وما الإمام إلا نائب عنه فى تنفيذ الأحكام وإقامة الحدود ، وهى صاحبة الحق أولا وبالذات ، فعليها تنفيذ حكم الله فيه إذا أصاب حداً من حدود الله . ولقد جاء فى مذهب الشافعية : يقيم عليه الحد من ولى الحاكم عنه كما قال القفال . وجاء فى استيفاء الحد : ويستوفيه من الإمام بعض نوابه(٤) .

---

(١) المذاهب السياسية المعاصرة ـ أدم ـ ص ٨٧
(٢) النظام الاشتراكى ـ البرارى ـ ص ١٤٦ : ١٥٢
(٣) أشهر مشاهير الاسلام ـ م ١ ـ ص ١١٩ ـ ١٢٠ .
(٤) فقه القرآن والسنة ـ شلتوت ـ ص ٩٦ ، ٩٧ .

ومن ميزات العدل الإسلامى : أنه عدل إنسانى للناس أجمعين ، إذ أن رسالة الإسلام رحمة للعالمين ، على اختلاف الأجناس والبلدان والأديان . ومن ميزاته كذلك أنه مرتبط بعقائد الناس ، ومن ثم يتعبد الناس بإقامته : فينفذه العالم المجتهد ويسوس الحاكم ويقضى القاضى ويحتكم المختصمون عن إخلاص ويقين ، وهذا أدعى لأن يأخذ العدل حقه وينال التشريع مكانته ، ولا تنفصل فكرة العدالة – عن الفكرة الأخلاقية كما حدث عند غيرنا فيما يفرضه أوزفلد كولبه ، كانت فلسفة القانون فى مبدأ الأمر جزءاً من علم الأخلاق . . . ولكن كلما انفصلت فكرة العدالة عن الفكرة الأخلاقية ، بحيث تظهر الأولى فى صورة قوانين محدودة تنشرها الدولة وتلزم الناس بها إلزاماً – انفصل العلمان اللذان يدرسانها انفصالا تدريجياً وتميز أحدهما عن الآخر . . . وقد وضع (كانت) حداً فاصلا بين قانونية الفعل وأخلاقيته بأنها العمل بمقتضى القانون فى الظاهر »[1] .

ونحن فى هذه الكلمات نعرض للعدل الاجتماعى فى شريعة الإسلام ، وللاتجاه الايجابى فى تقرير حقوق الإنسان المعاشية ، لنبسط من روائع صنع الله جانباً يغفل عنه الكثيرون وينكبون على التماسه عند الفلاسفة والمشرعين شرقاً وغرباً ، ولا يخطر ببالهم – مجرد خاطر – أن فى الإسلام غناء ، بل ربما لا يفكرون قط أن الإسلام اتجه مثل هذا الاتجاه فى قليل أو كثير . ونحن بعد ذلك نعرض هذا الجانب ليستيقن الناس ويزداد الذين آمنوا إيمانا أن الله يأمر الناس بعبادته لينتفعوا بهدايته وشريعته ، لا ليزدان ملكه بطاعة الطائعين . وأن الله تعالى يأمرنا بعبادته وطاعته لا لتسكن أرواحنا فحسب بل لتطمئن أجسادنا أيضا بالطعام واللباس والسكن ، وأن الله تعالى يجازينا على طاعتنا فى الدنيا حياة طيبة ، ثم مردنا فى الآخرة إلى مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

العدالة الاجتماعية :

بين الله فى كتابه حدوداً كالقصاص فى القتل ، وقطع اليد فى السرقة وغيرها من العقوبات . ومن الطبيعى أن يسلك الإسلام سبيل التشريع القانونى بعد أن سلك سبيل التوجيه الفكرى عن طريق العقيدة ، والتدريب العملى عن طريق العبادة .

ولكن تشريع الإسلام القانونى لايكاد يذكر حتى تثب إلى أذهان الناس صورة مشوهة من الأيدى المقطوعة والأبدان المرجومة وهكذا . وحقيقة أن رحمة الله للعالمين التى يطالب

[1] المدخل إلى الفلسفة – تعريب عفيفى – ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

بها كل داع إلى الإسلام ليست بمجرد الاشتفاء بتنفيذ العقوبات ، ولكنها ما سنت العقوبة إلا بعد أن سلكت سبيل الوقاية كما يقول فرنسيس آيفانج ، إذا كانت غايتنا هي مصلحة المجتمع وجب أن يكون الغرض من العقاب هو الوقاية . وأى وسيلة تحقق هذا الغرض يجب أن تعتبر صالحة من الوجهة الاجتماعية . فإذا كان فى إمكاننا أن نستبعد أسباب الإجرام وظروفه ـ سواء ـ أكانت هذه الأسباب ترجع إلى البيئة أم إلى الشخص نفسه فهى الوسيلة المثالية التى يجب علينا أن نتخذها . ولقد قامت بالفعل عدة محاولات فى هذا السبيل عن طريق الخدمات الاجتماعية ... ولكن لو أن جميع الظروف المتعلقة بالبيئة قد أصبحت مهيأة على خير وجه ، يبقى علينا أن نفكر فى الأسباب النفسية التى تؤدى إلى ارتكاب المخالفات[1] .

فكما يقرر الإسلام توقيع القصاص فى القتل ، فهو يقرر أيضاً استئصال عوامل البغضاء بين الناس التى تنتج من الخلافات العصبية أو الحزبية أو الطبقية . وكما يقرر الإسلام قطع يد السارق فهو يقرر حقوق الفرد المعاشية ويقرر مسئولية الدولة لضمانها . وكما يقرر الإسلام رجم الزانى أو جلده يقرر تيسير سبل الزواج ، وصيانة الحرمات بستر العورات وغض الأبصار والنهى عن الخلوة ؛ وهكذا يسير التشريع الاجتماعى بجانب التشريع الجنائى أو يسبقه .

وسنعرض فى الجزء الآتى إن شاء الله لمحات سريعة خاطفة عن تقرير الإسلام للضرورات المعيشية للأفراد ، وإلزام الدولة مسئولية ضمان هذه الحقوق ، لتبين حقيقة النظام الإسلامى فى أسسه الاجتماعية الأصيلة ، بعد أن صارت معرفة الناس مقصورة على جانب العقوبات وحده .

محمد فتحى محمد عثمان
مدرس الآداب بالمعاهد الدينية

---

(١) علم النفس قديماً وحديثاً ص ١٦٩ ــ ١٧٠

جيل يؤمن بالأخلاق

حديث لفضيلة الأستاذ الأكبر

قال مندوب جريدة الأهرام الخاص :

حضر أمس الأول فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر اجتماعا عاما انتظم عديداً من ذوى المناصب العامة المختلفة ، من ضباط الجيش ورجال القانون والهندسة والطبابة ، كان خطباء الاجتماع يتسابقون فى تعداد الصفات التى يجب أن نتسلح بها لنواجه المستقبل الحافل بجسام الأمور . فتوجه فضيلته بالحديث الى قائلا :

إن الأمم الناهضة تحتاج نفوسها إلى الغذاء الجيد ، من الأخلاق والسجايا ، لتقوى به على مواصلة النهوض إلى المعالى ، كما تحتاج أجسامها إلى الغذاء الجيد من الطعام ، لتقوى به على مواصلة الكفاح فى سبيل المعايش ، والشجاعة غذاء من أغذية الأمة فى طور التحرير ، لا يتهاون به إلا صغار النفوس ، والذين يستعذبون موارد العبودية ، وإن لم تفرض عليهم ، وأصل الشجاعة أن تعرف الحق : حق الله ، وحق الأمة ، وحقوق المواطنين ، وحقك الشخصى ، فتوطن نفسك على أن تكون صادق العزم فى إعطاء كل ذى حق حقه بالعدل والإنصاف .

وقد أوصى المسلمين بأن يكونوا أهل الشجاعة فى مواقف الدفاع عن الحق ، ما داموا يرجون لهذا الحق العزة والاستعلاء ، فقال عز وجل فى سورة النساء ، ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله مالا يرجون ، وكان الله عليما حكيما ، ، فأرشدهم الله إلى أنهم بما يرجون من إقامة الحق ومعونة الله عليه ، ينبغى لهم أن يكونوا أبعد من أعداء الحق عن الوهن والضعف ، لأن المؤمن الذى يرجو الحق ويعيش له ويعد نفسه لإعلائه ونصرته ، يجب أن يكون من أبعد الناس عن الوهن فى سبيله

ومن هنا يتبين لنا أن الشجاعة العسكرية وليدة الشجاعة الأدبية ، لأن كلا نوعى الشجاعة منبعث عن الولاء للحق ، وتوطين النفس على إقامته ونصرته . وإن الرجل الشهم الذى يوطن نفسه على الدفاع عن الحق ويؤدى الشهادة الصادقة على نحو ما علم دون أن

يهاب ذا جاه أو سطوة ، لا يقل عن البطل الصنديد فى موقفه بساحة الحرب أمام نيران العدو مدافعاً عن حق أمته وملته ووطنه .

واستطرد فضيلته فقال :

إن المسلم الذى يعلم أنه لم يكن مسلماً إلا بشهادة الحق ، لا إله إلا الله ، يوطن نفسه على ألا يشهد إلا بالحق ولو على نفسه وعلى والديه فى كل المواقف ، متمثلا دائماً فى ذهنه أمر الله عز وجل للمسلمين « ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » .

ولما ربى الإسلام أبناءه على إقامة الحق ونصرته ومحبته والشهادة به والإعانة عليه ، ربى فيهم بهذه السجية ، خلق الشجاعة فى النفوس فأخرج منهم أمة لاتهاب الخطوب ، وترى الموت فى سبيل إعلاء كلمة الحق خيراً من ألف حياة يقضيها صاحبها فى مشاهدة الباطل يمشى فى الأرض مرحا .

انظروا إلى قول الخليفة الأول أبى بكر الصديق فى وصيته لقائده العظيم خالد بن الوليد « احرص على الموت توهب لك الحياة » فباقتحام موارد الموت فى سبيل إقامة الحق تبرهن الأمة على أنها جديرة بالحق ، وبهذا نكون من أهل الحياة ، وأن الشهداء من رجالها أحياء عند ربهم ، وأحياء فى قلوب عباده ، والذين لم ينالوا منهم نعمة الشهادة يتمتعون بالحق وبما يفيضه عليهم الحق من نعمة الحياة . وإلى هذا المعنى يشير الفارس الشاعر حصين بن الحمام أحد بنى سهم بن مرة :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما

جلس القائد المجاهد الشهير مسلمة بن عبد الملك مع أخيه الخليفة الأموى هشام ذات ليلة ، فقال له أخوه الخليفة :

« يا أبا سعيد هل دخلك ذعر قط لحرب أو عدو ؟ » فأجاب مسلمة : « ماسلمت فى ذلك من ذعر ينبه إلى حيلة ، ولم يغشنى فيها ذعر سلبنى رأيى » فقال له هشام : « هذه هى البسالة » .

ولما كان الحكم والسلطان فى إسبانيا للخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر ، رفع أحد التجار قضية على الخليفة إلى القاضى الأكبر فى عاصمة الأندلس (قرطبة) وهو العالم الفقيه الورع ابن بشير ، فحكم ابن بشير للتاجر على الخليفة ، ولم يكتف بإصدار الحكم بل كان

حريصاً على سرعة تنفيذه ، فذهب إلى الخليفة يخبره بنص الحكم الذى صدر عليه ، وينذره بالاستقالة من القضاء إن لم يبادر الخليفة بالتنفيذ .

وحتى فى أحط أدوار الدولة العبيدية بمصر دخل الإمام أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى على الملك الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى - وكان الأفضل وزير مصر للمستنصر والمستعلى والآمر - فتكلم الطرطوشى موجهاً الموعظة والنصيحة للملك الأفضل . ولاحظ فى أثناء موعظته أن إلى جانب الملك رجلا لا يؤتمن على الدولة ولا تهمه مصلحة الملة ، فختم الطرطوشى موعظته بالحديث عن ذلك الرجل غير المؤتمن وأشار اليه بيده ، فلم يكن من الملك الأفضل - لما استشعره من صدق الإمام الطرطوشى وغيرته على الحق وشجاعته فى إعلانه - إلا أن أمر ذلك الرجل الجالس إلى جانبه بأن يتنحى عن ذلك المقام .

ثم قال فضيلته :

إن الأمة الضعيفة المستكينة لا تستحق الحياة ، وهى لا تقوى وترتقى وتعتز إلا إذا شاع فى أفرادها - ولا سيما شبابها ، خصوصاً المثقفين منهم - خلق الصدق ، ومحبة الحق ، وتوطين النفوس على نصرته ، والصراحة فيه ، والدفاع عنه . ومن هذا الخلق يولد الجيش الباسل الذى لا يغلب ، بل من ذلك الخلق يولد الجيل الفاضل الذى لا يطمع فى حق غيره ولا يطمع غيره فى حقه . والحق شطر الإسلام ، بل هو عظامه التى تقوم بها بنيته ، أما الشطر الآخر فهو الخير ، وهو فى مقام اللحم والشحم من بقية الأسلام . ولم يرد فى الإسلام أمر ولا نهى إلا وهو يرجع إلى شعبة من شعب الحق أو إلى شعبة من شعب الخير . والمسلمون لن يعودوا كإخوانهم الذين حملوا لواء الحق ونشروا قانونه فى الأرض إلا إذا تضلعوا من معين الحق وارتووا من موارد الخير ، فأصبحوا يعرفون بين الأمم بأنهم أمة الحق والخير ، وحينئذ يكون منهم الجيش الغالب الظافر الذى يقتحم كل عقبة تحول بينه وبين الحق ، ويجتاز كل مخاضة تمنعه من الوصول إلى أهداف الخير . وكما ينبغى أن يجهز الجيش بالدبابات والمدافع الضخمة والطائرات النفاثة والقنابل الذرية ، فإن كل هذه المعدات لا تنفعه ان لم يستمد جنوده وضباطه من أمة تربت على الصدق ، وآمنت بالحق ، ووطنت نفسها على محبة الخير . بل ان تجهيز الأمة بسجية الصدق ، وتربيتها على الإيمان بالحق وعلى الإيمان بالخير ، هو الذى ييسر لها الأسلحة من كل نوع ، والأنصار من كل أمة ، وهو الذى يملأ

بالهيبة والحرمة لها قلوب الأمم جميعاً . وهكذا الأخلاق لا تزال معيار الأمم ، وهي مفتاح الأماني المغلقة وهي السبيل إلى استرداد الحقوق وتيسير السبل اليها .

إن إعداد شباب الجيل بسجية الصدق ، وتربيتهم على الإيمان بالحق وعلى محبة الخير عنصر من عناصر الإسلام .

ولقد صرنا الآن إلى عهد قام بالأخلاق ، وهو فى حاجة إلى الاستعانة بجيل يؤمن بالأخلاق . والمصانع المصرية لتربية الأخلاق هي معاهد العلم التى يتوقف عليها نجاح هذا العهد ، ويكون لأمتنا منها الجيش الظافر الذى هى بحاجة اليه فى مصيرها القريب وكل يوم تضيعه معاهدنا العلمية ، وتحجم فيه عن البدء فى مناهجها الصالحة يكون خسارة على الأمة ، وعلى حقوقها .

إن الأمر جد ، والوقت أثمن من أن يضيع بغير عمل .

اللحن فى العربية كذب وذنب

روى الشيخ عبد الوهاب خلاف أنه سمع الشاعر حافظ إبراهيم يتلو شعراً فى مجلس الشيخ محمد محمود التركزى الشنقيطى فلحن فى حركة العين من أحد الأفعال ، فغضب الشيخ الشنقيطى وقال له : كذبت !

والشيخ الشنقيطى مسبوق إلى مثل هذا الموقف بالإمام الحسن بن أبى الحسن البصرى ، فإن لسانه عثر مرة بشىء من اللحن فتراجع وقال : « أستغفر الله » ، فسأله حين سمع ذلك منه عن سبب الاستغفار فقال : من أخطأ فى العربية فقد كذب على العرب ، ومن كذب فقد عمل سوءاً ، وقد قال الله عز وجل : « ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما » .

ويروى الخليل بن أحمد أنه سمع أيوبا السختيانى يحدث بحديث فلحن فيه فقال : « أستغفر الله » يعنى أنه عد اللحن ذنبا .

نفسيات

«نفس بحثه نفس — والأسى بادٍ ومحتبس»
وبلا للمجد أسلبه — كخمود النار تقتبس
ألمنى من دونها حذر — كالمهى من دونها حرس
والعلى من غير طيبة — حلم لم يدنه نفس !!!
غرة الأخيار مقبل — طاح عن أثوابه الدنس
كم حياة في منافسة — وحياة الزاهد النفس
ألكريم الحر مبتئس — للكريم الحر يبتئس

****

خطرات الحسن تاركتي — وفؤادي للمها جرس
لا أبيح القرب يعصمه — حرم للحسن أو قدس
شد ما أزهى فلا حور — يزدهي لي ولا لعس !!!
لا أحب الظبي مبتذلاً — عفه كالظبي يفترس
غبطة الفضاح خزيته — طاب للزنجية الفطس !!!
الفتى يشرى لعزته — والمساعي وحدها قبس

****

خدعة لليأس يمضغه — مقول يشنفه الخرس !!!
خطبة الآمال في دعة — كل ما يوحي به الهوس
أستقي حقي مناجزة — وعداة الحب تختلس !!!
آفة المغلوب رقته — راح في آماله الشرس
من أبى والحق مستلب — ضل به والحق يلتمس !!!
ناهض يزهى بسالبه — ثاكل في بيته عرس
ما رأيت الحق منتصفاً — مذ رأيت الحق يلتبس !!!

«البصير»



وهبك الله النعمة والخير الكثير !

يكثر استعمال وهب متعدية لمفعولين كما ترى ، كأنها مرادفة فى المعنى والعمل لأعطى . ويشيع هذا فى ألسنة الفقهاء فى الحديث عن الهبة ، وهم يجعلون من صيغها الشرعية وهبتك كذا ، ووهبت لك كذا . والوارد فى فصيح الكلام تعدية الفعل إلى من يتملك الموهوب بحرف اللام ، فيقال : وهبت لك مالا ، كما قال سبحانه وتعالى : « يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور » وقال سبحانه : « فهب لى من لدنك وليا » .

وتعدية الهبة ومتصرفاتها إلى مفعولين موضع بحث قديم . ومن المنكرين لها إمام النحاة سيبويه . فهو يقول فى الكتاب ١٦٠/١ بعد كلام جرى له : « إنما تجرى ذا كما أجرت العرب . ومثل ذلك عددتك وكلتك ووزنتك . ولا تقول : وهبتك ؛ لأنهم لم يعدوه ، ولكن وهبت لك » ، وسيبويه يريد أن يقول إن الأفعال : عدَّ وكال ووزن تتعدى فى الأصل إلى من يُفعل الفعل له بحرف الجر ، تقول : عددت لك الدراهم ، وكلت لك الحب ، ووزنت لك القطن ، وقد تتعدى هذه الأفعال بحذف حرف الجر ، فتقول : عددتك الدراهم ، وكلتك الحب ، ووزنتك القطن ، إذ ورد هذا عن العرب ، ومن ذلك قوله تعالى : « وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » ، والأصل وإذا كالوا لهم أو وزنوا لهم ، فحذف الحرف وعدى الفعل بنفسه ، فأما وهب له مالا ، فإن العرب لم يحذفوا فيه الحرف فلم يقولوا : وهبه مالا ، كما قالوا كلتك الحب فى كلت لك الحب . وسيبويه يرى العمل على ما جرى عليه العرب واطراح ما اطرحوه .

فمن ثم قال فى ختام بحثه : « ولا تقول : وهبتك لأنهم لم يُعدوه ولكن وهبت لك » . وقد أورد السيرافى فى شرحه لسيبويه رأيا للمبرد أنه يجوز أن يقال : وهبتك مالا ، ولا يجوز

وهبتك ؛ لأن الصيغة الأخيرة تحتمل أن الهبة واقعة على المخاطب ، وهذا فى أيام الأرقاء والموالى ، أما فى عصرنا فلا يخطر هذا الاحتمال . ويعزز السيرافىّ رأى المبرد بأنه سمع من العرب نحو وهبته مالا ، فكانت صيغة وهب كصيغ عد . وكال ووزن : سواءٌ فى القبول والاستساغة .

وإنى أنقل هنا كلام السيرافىّ فهو جد نفيس قال (١) : « وكان المبرد يقول : إنما قالوا : عددتك ووزنتك وكلتك فى معنى عددت لك ووزنت لك وكلت لك لأنه لا يشكل . ولم يقولوا وهبتك فى معنى وهبت لك لأنه يجوز أن يهبه . فإذا زال الإشكال (٢) زال ، وهو أن تقول : وهبتك الغلام أى وهبت لك (٣) . وإنما ذكر سيبويه كلام العرب أنهم يحذفون حرف الخفض فى عددتك ووزنتك وكلتك وإن لم يذكر المعدود والمكيل والموزون ؛ كما قال عز وجل : « وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » . ولا يجوز مثل ذلك فى وهبتك لأن ما كان أصله متعديا بحرف لم يجز حذفه وإن لم يكن لبس إلا فيما حذفته العرب ، ألا ترى أنه لا يجوز مررتك ولا رغبتك على معنى رغبت فيك . وحكى أبو عمرو الشيبانىّ عن بعض العرب : انطلق معى أهَبْكَ نَبْلا ، يريد : أهب لك نَبْلا . وهذا يؤيّد قول أبى العباس »

وكأن ابن الشجرى رأى ما استقر عليه السيرافى من جواز وهبتك مالا فذكره من غير تعقيب إذ يقول (٤) : « يقال : وهبت لك درهماً ، ووهبتك درهماً ؛ كما تقول : وزنت لك الدراهم وزنتك الدراهم ، وكِلْت لك البُرّ وكلتك البُرّ ؛ كما جاء فى التنزيل : وإذا كالوهم أو وزنوهم أى كالوا لهم أو وزنوا لهم » .

والقارىء يخرج من هذا البحث باستساغة أن يقال : وهبك الله النعمة والخير الكثير .

التلميذ المجد لا يخفق إلا فى الندرة

تستعمل الندرة فى ألسنة الناس بضم النون . ولا يكاد يخطر ببال قارىء أو متكلم فيها غير ذلك . ولشد ما يعروه العجب إذا رأى ضم النون موضع بحث ومجال أخذ ورد ، وأن الجادة فيه هو فتح النون : النَّدرة .

---

(١) انظر شرح السيرافى ٢ — ٢٨٠ نسخة التيمورية ، (٢) كذا . وكأن الأصل : زال المنع .

(٣) هذا من كلام السيرافى لا من كلام المبرد (٤) انظر أمالى ابن الشجرى المطبوعة فى الهند ١ / ٥

فى القاموس : « ولقيته ندرة ، وفى الندرة مفتوحتين » ، وهو يريد فتح الحرف الأول مع سكون الثانى ؛ كما هو اصطلاحه . ونرى مثل هذا فى اللسان بفتح نون الندرة بضبط القلم . وفيه زيادة على ما فى القاموس : « ويقال : إنما يكون ذلك فى الندرة بعد الندرة إذا كان فى الأحايين مرة » .

وكأن الندرة فى الأصل : المرة من ندر الشىء إذا زال عن مكانه وخرج عن مستقره ، فمن هذا كان مفتوحا على حد اسم المرة . وفى الجمهرة لابن دريد ٢ / ٢٥٨ : « كل شىء زال عن مكانه فقد ندر ، يندر ، ندرا ، فهو نادر . فيقال : ضربه على رأسه فندرت عينه أى خرجت من موضعها . وسمى نوادر الكلام ، لأنه كلام ندر فظهر من بين الكلام » .

ويبدو أن جريان الألسنة بضم نون الندرة وتنكب جادة الفتح فى ذلك قديم أتت عليه السنون والأحوال حتى أخفى لا يعرف سواه . وبلغ من هذا أن صار ضبط الندرة فيما يعنى بضبطه بضم النون تحفظا على الصواب ، وتحرزا من الخطأ المردى . فهذا التاج السبكى يعرض فى كتابه الخالد « جمع الجوامع » حرف « الندرة » فيضبطها بالضم ، فقد جاء فى أوائل كتاب السنة : « وفعله ﷺ غير محرّم ، للعصمة ، وغير مكروه للندرة » فيقول شارحه الجلال المحلى فى حديثه عن الندرة : « بضم النون بضبط المصنف » ، يريد أن التاج السبكى ضبطها كذلك بضبط القلم . وقد وثق المحلى بالتاج أن كان ضليعا فى العلم بحرا ، أخذ العربية عن أبى حيان وغيره من أعلام عصره . وكانت وفاة التاج سنة ٧٧١ هـ ، ووفاة الجلال المحلى سنة ٨٦٤ هـ ، وكان[1] علامة فهما ، ويؤثر عنه أنه كان يقول : فهمى لا يقبل الخطأ .

ونرى لغوياً معاصراً للسبكى يذكر الفتح فى الندرة ، ويضم إليه الضم على أنه لغة . ذلك هو الفيومى صاحب المصباح ، فهو يقول : « وندر العظم من موضعه : زال . ويتعدى بالهمزة . والاسم الندرة بالفتح ، والضم لغة » . ويتبعه صاحب المعيار إذ يقول : « نَدر الشىء ، ندوراً ، كقعد قعوداً : سقط وخرج من غيره ، ومن بين أشياء فظهر . ومنه النوادر والاسم الندرة كضربة ، وكغرفة ، لغة » . ولا أدرى علام اعتمد صاحب المصباح فى إثبات ضم النون لغة . وقد يكون مرى له هذا من نطق الناس بضم النون فخاله لغة ، وضمه

---

(١) انظر فى هذا : حسن المحاضرة .

إلى ما وجده فى دواوين اللغة . وهو فى ذلك أحق بالعذر من ابن السبكى الذى اعتمد على سمعه وما لقنه من الشيوخ فضبط (الندرة) بالضم .

وقد وقع هـذا الخطأ فى طبعة المخصص لابن سيدة : ففيه : « ويقال لقيته الندرى ، وفى الندَرى ونَدرى أى فى الندرة يعنى بين الأيام » ، وفيه ضبط (الندرة) بضم النون . وبعد فإن النفس بعد هـذا لا تركن إلى الضم فى هذا الحرف ، وأرى أن تعوّد الألسنة الفتح ، وهو الصواب .

العبيط

يقال العبيط فى لسان العامة ، لذى الغفلة والبله . وهذا المعنى لا يبين فى معانيه اللغوية . فإن العبيط فى اللغة يقال للدم الطرى ، وللحم السليم من الآفات الذى لاداء فيه ، ولا يقال لذى البلاهة . وقد تصدى لغـويان لتخريج الاستعمال العامى وبيان أصله فى العربية ، فيرى الأستاذ حسن العدل فى رسالته : « أصول الكلمات العامية » أن الأصل فى ذلك : الهبيت ، وهو الجبان الذاهب العقل : قال طرفة بن العبد :

الهبيت لا فؤاد له والثبيت عقله قيمه

فأبدلت الهـاء عينا ، والتاء طاء . وهذا تخريج قريب ونظر صحيح .

ويرى الأستاذ عبد القادر المغربى فى بحثه المنشور فى مجلة المجمع اللغوى ٣/٢٩٣ أن العبيط مقلوب البعيط ، وهو فعيل من قولهم : بعط فى الجهل إذا أبعد فيه وأغرق ، فالبعيط هو المغرق فى الجهل ، وقلبه العامة إلى عبيط . وهذا التخريج فيه بُعد إذ لم يرد فى المـادة بعيط ، وقياس الوصف منه باعط .

وقد بدا لى تخريج ثالث . ذلك أن العبيط يقال للطرى غير النضيج . وجاء فى الحديث : فقاءت لحماً عبيطا فسر بالطرى غير النضيج ، والأبله ذو الغفلة يشبه بالفج الذى لم ينضج ، وما زلنـا نقول فى المدح : هذا رجل ذو نضج ، وفى الذم : هـذا رجل غير ناضج ، والله الموفق للصواب .

محمد على النجار

الأستاذ بكلية اللغة

الإسلام في أمريكا

قالت جريدة « أخبار اليوم » بتاريخ ١٨ / ٣ / ١٩٥٠ تحت عنوان « أمريكا مستعدة لقبول الإسلام » ما يلي :ـ

« زار كامل عبد الرحيم (بك) سفير مصر فى وشنطن فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر فى خلال هذا الأسبوع ، وتحدثا فى موضوعات كثيرة ، وكان أهم هذه الموضوعات ما قاله كامل (بك) ، عن أن الشعب الأمريكى استمع له فى الشهر الماضى ، فى محاضرة دينية ألقاها فى إحدى الكنائس الأمريكية ، عن الدين الإسلامى ، وأظهر المستمعون إهتماماً كبيراً بهذه المحاضرة ، وعلق السفير على ذلك بقوله : إن الشعب الأمريكى على استعداد لتفهم حقيقة الدين الإسلامى ، إذا ما عنيت السلطات الدينية فى مصر بهذه الناحية الهامة ، وقد وعد شيخ الأزهر بدراسة الموضوع . . . » .

وها هو ذا قد مضى على هذا الوعد ثلاث سنوات تقريبا ، ولم نعلم ما الذى استقر عليه قرار مشيخة الأزهر بعد ، وإنى أود شكر (سعادة) السفير على محاضرته تلك أولا ، وتفكيره بهذا الأمر الجليل ثانياً ، وعرضه على الأستاذ الأكبر ثالثاً .

ثم أود القول ، بأن تاريخ العناية بالقرآن الكريم ، يبين لنا أن نفراً من المسيحيين فى الشرق والغرب ، قد عنوا عناية كبيرة بالقرآن الكريم ، فدرسوه ونقلوا ما تيسر لهم نقله إلى لغاتهم ، ودرسوا علومه وتفسيره ، ونقلوا من كل ذلك الشىء الكثير ، ولقد أفرد الأستاذ الفيكونت فيليب دى طرازى ، فصلا كبيراً فى كتابه « خزائن الكتب العربية فى الخافقين » عن كل ذلك .

ويتبين مما نقله الأستاذ طرازى ، أن كثيرين من رجال الطوائف المسيحية ، أخذوا من القرآن الكريم طائفة من الشرائع وجعلوها فى شرائعهم فقد قال حضرته :

« أقبل فريق كبير من أئمة النصارى وعلمائهم ومفكريهم ، على دراسة القرآن ، فدققوا النظر فى سوره وآياته . وأمعنوا وتعمقوا فى نواميسه وشرائعه ، ثم كتبوا عنه الشىء الكثير أو القليل فى تصانيفهم وفتاويهم ، واتخذوه دستوراً فى بعض القضايا والفرائض الدينية .

وتفرغ بعض جثالقة النساطرة وأساقفهم لإنشاء قوانين مدنية لملتهم ، استمدوها من أحكام القرآن وسننه ، ومن أقدمهم الجاثليق حنيشوع الأعرج (٦٨٦ - ٧٠١ م) ، ولميخائيل الكبير بطريرك السريان (١١٦٧ - ١٢٠٠ م) ، عدة أحكام مدنية استخلصها من القرآن ، وجرى بموجبها أبناء ملته ، وجاء بعده أبو الفرج ابن العبرى (المتوفى سنة ١٢٨٦ م) بخلاف فصولا ممتعة فى الشرائع والفرائض اقتبسها من القرآن ، وقد أثبت زبدتها فى تاريخيه المدنيين ، ولا سيما فى مؤلفه المشهور بكتاب « الهدى » وهو دستور تمشى عليه أبناء ملته فى العصور الغابرة وما برحوا يسيرون بأحكامه حتى اليوم .

وطفق الأستاذ فليب طرازى يسرد أسماء الذين نقلوا الشرائع عن القرآن الكريم ، والذين درسوا علوم القرآن وحققوا فضل القرآن على العرب جميعا والعالم أجمع ، إلى أنه قال :

وإذا انتقلنا من الشرق إلى الغرب رأينا رهطا من نوابغ المستشرقين ينافسون المسلمين فى درس القرآن وشرحه وتحليله ، ويعتنون بتدوين تواريخه واكتناز مخطوطاته ويكرون إلى ترجمته وطبعه ، ومن ذلك أن المستعرب بابا غانينى طبع القرآن فى مدينة البندقية منذ القرن السادس عشر ، وعدت طبعته العربية هذه باكورة طبعات القرآن برمتها ، ونشرت مطبعة ليدن بهولندا سنة ١٦١٧ سورة يوسف وهى السورة الثانية عشرة من سور القرآن ، وهى أول طبعة عربية أبرزتها مطابع أوربا بالشكل الكامل .

• • •

واقد نقلت كل ما تقدم ، لأسائل نفسى ، وأسائل أولياء الأمور : ما الذى عملناه نحن لنشر الإسلام ، وإذاعة مبادئه العادلة فى العالم ؟ إن بعض كبار رجالنا من ذوى الرأى ، يهتزون اهتزازات عصبية ، إذا قلنا إننا نود تشريعاً إسلامياً ، ليعرف الناس فضل الإسلام فى العالم ، وانقضى على المبادىء الشيوعية الهدامة ، ومع أن هؤلاء المفكرين مسلمون جغرافياً فالظاهر أنهم لا يعلمون شيئاً عن أسرار الإسلام وسننه ومبادئه ، ولو أنهم درسوا قليلا من الشريعة الإسلامية ، ومن سير مشرعى الإسلام ، أو أصحاب المذاهب الإسلامية ، لخجلوا من منجهيتهم السخيفة ، وها هو ذا سفير مصر فى أمريكا يقول إنه حاضر عن الإسلام ، فى عشر دور المسيحية ، فماذا لقى ؟! لقد لقى كل ترحيب وكل عناية ، مما جعله يطلب من رجال الأزهر العمل على نشر الإسلام فى تلك الربوع ، التى وجد فيها استعداداً لقبول مبادىء الإسلام السمحة ، وشرائعه الحكيمة .

وإذا شككنا فى أقوال السفير ، لأنه مسلم ، فها هى ذى أقوال وأفعال المسيحيين أنفسهم ، بل ها هى ذى مآخذهم عن الإسلام ليتخذوها شرائع لهم نقلها عن رجل مسيحى فاضل اشتهر بأنه مؤرخ مدقق ، فماذا بعد هذا كله ؟ ! ألا يحق لنا بعد هذا كله ، أن نطالب بأن يكون التشريع الحديث ، تشريعاً مطابقاً لأصول الإسلام وسننه وقواعده ، ومعلوم أن الإسلام جمع فضائل وقواعد الشرائع الإلهية السابقة وهى : اليهودية ، والنصرانية . ويحضرنى فى هذا المقام كلمة سمعتها من عمى السيد محمد رشيد رضا رحمه الله عن ناظرة المدرسة السنية وكانت بريطانية فى عهد دنلوب صاحب المبادىء الاستعمارية الهدامة للوطنية ، فقد رأت تلك الناظرة الفضلى أن العمل جار على خروج البنات المسيحيات من الدرس فى أثناء إلقاء الدروس الإسلامية ، فاعترضت على ذلك ، وقالت ما معناه : « إنى لا أوافق على خروج البنات القبطيات من حصة الدروس الإسلامية ، لأنى لم أر فى برامج تلك الدروس ما يخالف الشريعة المسيحية ، بل إنى أرى أن الآداب التى تتضمنها تلك الدروس ، تتفق تمام الاتفاق مع الآداب المسيحية » . فلما علم بذلك دنلوب فهاج وماج وعمل على تنحية تلك الناظرة وإعادتها إلى بلادها بعـــد ما قال لها : « لقد جئت لمحاربة أعمالنا كلها باتحاد العنصرين !! » .

إن التشريع الإسلامى ، وإن العمل بآداب الإسلام ليحترم المسيحية والمسيحيين أشد الاحترام ، وحسبك أن تعلم أن القرآن الكريم يحرم على أتباعه سب ما يدعون من دون الله أيا كان ذلك المدعو أو المعظم ، عملا بقوله تعالى : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ، فيسبوا الله عدوا بغير علم ، كذلك زينا لكل أمة عملهم ، ثم إلى ربهم مرجعهم ، فينبئهم بما كانوا يعملون » . (١٠٨ الأنعام) .

فالشريعة التى تقول لأتباعها : دعوا كل عامل وما يعمل لحسابه ليس عليكم وإنما حسابه عند ربه ، والشريعة التى عومل المستظلون برايتها خير معاملة ، والشريعة التى رد رجالها الأموال الأميرية إلى المستظلين بحكمها يوم عجزوا عن حمايتهم ، لهى شريعة مثالية تليق أن يستظل الجميع تحت رايتها ويتمتعوا بعدلها الفطرى وفضائلها السامية ، فهل يحرم مع هذا على أهلها الاحتكام إلى أحكامها مع أن بعض الطوائف الأخرى أخذت شرائع لها منها كما بينا فيما تقدم نقلا عن الأستاذ فيليب دى طرازى .

تفكروا يا أيها القوم والله ولى التوفيق .

محيى الدين رضا

الفتـــاوى

خطبة الجمعة بغير العربية

جاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

إن بلادنا تحتوى على اثنتى عشرة مقاطعة ، وفيها زهاء ثلاثين مليون مسلم يقيمون شعائر الإسلام ، مع أن اللغة المستعملة عندنا غير العربية .

فالسؤال الأول — هل يجوز إلقاء خطبة الجمعة بلغة غير عربية ، إذ الذين امتلأت بهم المساجد لا يستفيدون من الخطبة بالعربية شيئا ، مع أن الخطابة إنما جعلت لطرق الإنذار والتبشير ، وإن لم يجز إلقاؤها فما المانع ؟

ثانياً — هل يجوز تفسيرها بغير العربية بعد إلقائها قبل الصلاة ؟

الطلبة المشتغلون بالجامع الأزهر
عنهم أبو بكر أحمد محمد مختار
والقاسم البيهق

الجــــواب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال ، وتفيد بأنه لا يشترط فى خطبة الجمعة أن تكون باللغة العربية عند أبى حنيفة وهو رأى عند الشافعية لأن المقصود من الخطبة هو الوعظ والإرشاد وذلك إنما يحصل باللغة التى يفهمها السامعون .

وبناء على ذلك ترى اللجنة — تحقيقاً للغرض من الخطبة — أن يتعين إلقاؤها باللغة التى يفهمها القوم .

ولا يفوت اللجنة فى هذا المقام أن توصى قادة الشعوب غير العربية أن يبذلوا جهدهم فى تعليم الناس اللغة العربية ليتيسر لهم فهم القرآن وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام والانتفاع بما فيهما من أحكام وآداب ، وليتحقق بذلك رباط التفاهم بين المسلمين فى جميع الأقطار وهو أقوى مظاهر الوحدة التى حث عليها القرآن .

وبهذا علم الجواب عن السؤال ، والله أعلم .

٢٧ جمادى الأولى سنة ١٣٧٢

رئيس لجنة الفتوى
محمد عبد الفتاح العنانى

(مجلة الأزهر) نزيد على الشطر الأخير من الفتوى أن شيخ الإسلام ابن تيمية نبه فى كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم) إلى أن طريقة سلف هذه الأمة من أيام الصحابة والتابعين ، قامت فى جميع بلاد الإسلام على إرشاد الأمم الإسلامية إلى أن تكون العربية لغتهم ، للحكمة التى أشارت إليها الفتوى ، أى تيسير فهم القرآن والحديث النبوى مباشرة بقدر الإمكان .

ومن ذلك يفهم أن سياسة الإسلام فى هذا الباب هى نقل الأمم إلى الإسلام لتفهمه بنفسها من لغته مباشرة ، لا نقل الإسلام إلى الأمم بترجمات قد يتشبث بها الرأى وتختلف الفهوم ويضيع الغرض الأول من وحدة المسلمين وتثبيت الأخوة بينهم ، وعلى كل حال فإن الغرض من خطبة الجمعة فهمها بأى حال .

****

زكاة المال الشرعية غير الضرائب

والصلاة فريضة بدنية لا تغنى عنها فدية

وجاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

أرجو إفادتى فى أمر زكاة المال الآن التى قدرها الشارع باعتبار أنها ربع العشر ، فى حين أن الأموال المقول عنها هى نتيجة محصول أطيان وإيجار مساكن تؤخذ عنها الضريبة سنوياً ، خصوصاً وأن الضرائب لا يستهان بها الآن .

كما أرجو إفادتي عما إذا كان هناك قول بدفع شيء من المال نظير ما فات المرء من صلوات لم يؤدها ، وإن وجد قول فني أي مذهب ؟ وفي حالة ما إذا لم يؤدها لعدم قدرته على الأداء مع ملاحظة أن القدرة شرط التكليف فكم يدفع عن اليوم الواحد أي الخمس الفرائض أو عن الفرض الواحد ؟

الشيخ عبد الحكيم محمد خليفة
شارع سعد زغلول — بني سويف

الجـــــواب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال ، وتفيد عن السؤال الأول — بأن زكاة المال واجبة متى بلغ المال نصابا وحال عليه الحول ، ومصرف هذه الزكاة مبين في قوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين ... » الآية .

أما الضريبة التي تتقاضاها الحكومة من أصحاب الأموال فلا علاقة لها بالزكاة ، ولا تغني عن إخراج الزكاة الواجبة .

وعن السؤال الثاني — بأن الصلاة من الفرائض البدنية التي فرضها الله تعالى تهذيباً للنفوس كما قال تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ، فلا يجوز للمرء تركها بحال من الأحوال .

وقد راعت الشريعة السمحة في أدائها التيسير على الناس ففرضتها من قيام على القادر عليه ، فإن عجز عن القيام أداها من جلوس ، فإن لم يستطع ذلك أداها مستلقياً على ظهره أو مضطجعاً مع الإيماء والإشارة برأسه أو بعينيه إن لم يستطع الإشارة بالرأس ، فإن لم يستطع أداءها بوجه من الوجوه فقط سقط التكليف بها .

ومن هذا يتبين أن من استطاع الصلاة بوجه من الوجوه التي بيناها ولم يؤدها فهو آثم ، ولا يغنيه عن ذلك فدية ولا أي عمل من الخير .

وهذا هو ما تفتى به اللجنة ، والله أعلم .

٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٢

رئيس لجنة الفتوى
محمد عبد الفتاح عناني

لماذا صار المسلمون هدفا للمستعمرين ؟

الإسلام يحض على التماسك والترابط والألفة بين القلوب

حديث لفضيلة الأستاذ الأكبر

تفضل فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر فأدلى بالبيان التالى إلى جريدة (الأهرام) ونحن ننقله عنها . قال :

إن مصر وجميع أقطار العالم الإسلامى تجتاز الآن دوراً من أعظم أدوار التاريخ ، وكلما أدرك أهلها واجبهم ، ووطنوا أنفسهم على القيام به ، وبذل التضحيات الثمينة فى سبيله ، عجل الله لهم بثمراته الطيبة ، وكافأهم بأضعاف ما كانوا يأملون . والإسلام قد تكفل لأهله بالتوجيه السليم إلى كل ما يقيم لهم الكيان القوى ، والمجتمع الصالح ، والدولة العادلة المهيبة . ولو أنهم لم ينحرفوا فى العصور الأخيرة عن التوجيه الإسلامى فى أنفسهم وجماعاتهم وحكوماتهم ، لما وجد الاستعمار سبيلا إليهم ، فقد أراد الإسلام لأهله أن يكونوا أقوياء بالإيمان الصحيح والأخلاق الكريمة والعمل الصالح ، وأقوياء بالاستعداد الحربى والتأهب دائماً للدفاع عن كيان الأمة وحقوقها . وقد كانوا بالفعل هم أهل العزة فى الأرض ، والهيبة فى عيون الأمم ، عند ما كانوا منقادين لهذا التوجيه الإسلامى وعاملين به . فلما تهاونوا به فى المئات الأخيرة من السنين ، وقصروا فى الاستعداد من كل نواحيه ، لتقصيرهم فى معرفة الحقوق التى أتاحها الإسلام لهم ، والواجبات التى أوجبها عليهم ، طمعت دول الاستعمار حينئذ فى استعبادهم واستغلال خيراتهم ، وتذرعت بأوهى الأسباب لبسط سلطانها عليهم ، وكان ما قد حدثنا عنه التاريخ من استيلاء الهولنديين على جزائر أندونيسيا قبل نحو ثلاثمائة

سنة ، ومحاولة البرتغاليين السطو على سواحل العالم الإسلامي ، وتوغل الإنجليز في الهند وغيرها ، واستيلاء فرنسا على الجزائر ثم على بقية بلاد شمال أفريقيا . وهذا كله لتقصير المسلمين في معرفة ما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات التي بينها الإسلام لهم ، ثم لتهاونهم في متابعة التوجيه الإسلامي أفراداً وجماعات وحكومات . ولقد كان رسول الله ﷺ ينظر إلى ذلك بنور الله عز وجل من وراء العصور الكثيرة ، ويصدر في بيانه لأمته عن وحي صادق من الله فيما أنذرهم به ، وذلك فيما رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث ثوبان مولى رسول الله وقد رواه عن ثوبان أيضاً الإمام أبو داود في الباب الخامس من كتاب الملاحم من سننه أن رسول الله ﷺ قال : يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن . فقال قائل : وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا ، وكراهية الموت » .

فالمسلمون لما وهنت قلوبهم في العصور الأخيرة لإيثارهم توافه الدنيا على المثل العليا ، ولتهيبهم الموت في سبيل حقائقهم وحقوقهم ، نزع الله حينئذ من صدور الأمم ما كان يملأها من مهابة المسلمين بسبب ما شاهدوه من موت هممهم وانحطاطهم فيما كان أسلافهم يمتازون به من سمو الخلق وعلو النفس والغيرة على الحقوق والحقائق ، فأصبح المسلمون بسبب ذلك كالغثاء التافه الذي يطفو على سطح الماء في الأنهار ومجاري السيول . وحينئذ طمعت فيهم الأمم المستعمرة ، وتداعت لالتهامهم كما يتداعى الجائعون إلى التهام الطعام . ثم كان ما كان من جثوم الاستعمار كالكابوس البغيض على صدور المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وإن كان المحتل يجد في من ينتمي إلى الإسلام قلوباً يقلبها بأصبعه كما يشاء ، وألسنة يحركها في أغراضه كما يريد ، فإن تلك القلوب وتلك الألسنة ـ إلا من عصم الله أصبحت مأمورة بالشعور الذي يريها الحقوق رأي العين ويمنعها من أن تستخدم إلا في صالح المحتل وتمكنه من احتلال ما شاء . وفي الأمثال البديعة : أن أشجاراً رأت فأساً ملقى بجانبها ، فانزعجت منه ، فقالت لها شجرة منهن ، لا تخافوا منه ، فإنه لا يكسرنا إلا إذا دخل فيه عود منا .

والآن وقد أخذت اليقظة تدب فى أرواحنا وانتشرت الدعوة بيننا إلى معرفة حقوقنا والاستمساك بها والتعويل على الدفاع عنها بأى ثمن ، فقد أصبح من الواجب على كل فرد منا أن ينتظم فى صفوف هذا الدفاع فى كل مكان . وقد رأى المسلمون بعد الحرب العالمية الأخيرة كيف أن الله عز وجل كافأ أهل كل قطر إسلامى هب للدفاع عن حقوقه ، فوهبه الظفر بأمانيه ، والتوفيق بالحصول عليها بأسرع مما كانوا يأملون . وإن قيام دولتى أندونيسيا وباكستان أعظم شاهد ملموس فى هذه السنوات على صدق ما وعد الله به الذين يجاهدون فى سبيل حقوقهم من المسلمين . ومن سنة الله فى هذه الأمة أن يعلى مقامها ، على قدر ما تعرف من حقوقها وتؤديه من واجباتها . والدنيا كلها بين حق وواجب ، وما ضاع حق سعى له أهله من طرقه المعقولة الحكيمة ، ولم يخيب الله أمة قامت له بما يجب عليها .

لغة العرب وعلومها

قال (فريتاغ) الألمانى فى مقدمة معجمه الكبير فى اللاتينية والعربية :

« ليست لغة العرب أغنى لغات العالم وحسب ، بل إن الذين نبغوا فى التأليف بها لا يكاد يأتى عليهم العد ، وإن اختلافنا عنهم فى الزمان والسجايا والأخلاق ، أقام بيننا — نحن الغرباء عن العربية — وبين ما ألفوه فيها حجابا لا نتبين ما وراءه إلا بصعوبة » .

والعلامة فريتاغ يقول هذا عن تراث أمة أباد الدهر أغلى تراثها وأجوده ، فكيف به لو شاهد وشاهدنا معه كل ما ألفه العرب والمسلمون من بدء التأليف إلى الآن !؟

الجنتية في صدر الإسلام

— ٢ —

ومن لم يرو رمحه من دم العدى إذا اشتبكت سمر القنا بالقواضب
ويعطى القنا الخطى فى الحرب حقه ويبرى بحد السيف عرض المناكب
يعيش كما عاش الذليل بغصة وإن مات لا يجرى دموع النوادب

٣ — خبرتهم بعلم الفلك وعلم القيافة :

نشأ العرب فى البادية وحياتهم كلها ترحال وانتقال من مكان إلى مكان وراء الرزق والمرعى ، وكانت لهم تجارة بالقوافل . ولم يكن عندهم آلات للرصد يستخدمونها فى سيرهم بل كانوا يعتمدون على الطبيعة وعلى ما فيها من ظواهر وكواكب وأفلاك ، وصارت عندهم خبرة بمسالك الصحراء ودروبها ، السهل منها والوعر ، لكثرة ما تنقلوا فيها ، وكانوا أعلم بأماكن المياه ومواردها لشدة حاجتهم إليها فى أسفارهم .

وكان من علومهم « القيافة » وهى تتبع آثار الأقدام والحوافر وكانت لهم فراسة فى هذا ذاعت فيهم .

٤ — حدة البصر وقوة السمع :

لا شك أن حاستى الإبصار والسمع كانتا عند العرب مكتملتين بجميع عناصر القوة ، فقد كانت حواس العربى طليقة تعيش على سجيتها ، لم تصطدم بما يضعفها أو يؤثر فى قوتها من مظاهر المدنية من أنوار وضجيج وغير ذلك .

ويقترن بحدة البصر براعتهم فى رمى القوس ، والقصة التى نرويها الآن خير دليل : خرج أعرابى للصيد فصاد ضباً فعلقه على ظهره ثم مر بخباء ليس فيه إلا عجوز ، فجلس فلما أمسى حضر شيخ كبير يسوق إبلا كثيرة فلما رآه رحب به وأكرم مثواه ثم ناموا ، فانتهز الأعرابى هذه الفرصة وقام إلى الإبل فربط أحدها ببعيره وخرج تتبعه سائر الإبل ، وأسرع

الرجل فى سيره يرجو أن يصل إلى مكان أمين بينه وبينه مسيرة ليلة . فلما طلع الفجر أبصر ذلك المكان فإذا عليه سواد ، فلما دنا وجد الشيخ قاعداً وقوسه فى حجره فقال : أضيفنا ؟ قال : نعم . قال : استخر نفسك عن هذه الإبل . فقال : لا .

فأخرج الشيخ سهماً وقال : انظر بين أذنى الضب المعلق فى ظهرك . ثم رماه فصدع عظمه من دماغه ، ثم قال : ما تقول ؟ قال : أنا على رأيى الأول ... فقال انظر هذا السهم الثانى فى فقرة ظهره الوسطى . ثم رمى به فكأنما قدر بيده ثم قال : ما رأيك ؟ فقال : إنى أحب أن أستثبت . قال : فانظر هذا السهم الثالث فى عكوة ذنبه ، والرابع والله سيكون فى بطنك . ثم رماه فلم يخطئها . فلم يسع الأعرابى إلا أن يرد الإبل لصاحبها وهو خائف يرتعد .

● — صفاء الذهن :

كان ذهن العربى صافياً كصفاء الطبيعة من حوله ، مشرقاً كإشراق الشمس والنور ، لم يصطدم بما يغبر صفحات العقول ، ويكدر مرايا الأفكار من دخان الحضارة .

وإذا تحققت هذه الصفة فى الجندى كان أقدر من غيره على فهم الأوامر ، وعلى تدبير الحيلة ، وحسن التصرف ومعالجة الأمور ...

بهذه الصفات الفطرية التى ذكرناها دخل العربى المدرسة الإسلامية ، فتناول الإسلام هذه الطبيعة ، وهذه المواهب بالتهذيب المستبصر ، والتوجيه الصحيح ، ناشداً فيهم أعلى الفضائل على ما سنذكره فيما يلى ، حتى أخرج من هذا العربى جندياً عظيما ، وبطلا قاهراً ، وفارساً مغواراً .

١ — الفضائل ومكارم الأخلاق :

تولى رسول الله ﷺ إرشاد العرب الذين دخلوا المدرسة الإسلامية ، إلى الفضائل ومكارم الأخلاق ، ولقد تجلى ذلك بكل معانيه فى معاملته لهم بأخلاقه وفضائله ، فكان لهم خير أسوة يحرصون عليها الحرص كله ، والأسوة خير مرشد ، على أنه لم يكلهم إلى ذلك فحسب ، بل كان يتعهدهم بالإرشاد إلى الخلال الحميدة ويمرنهم على الأخذ بها حتى تصير ملكة وخلقاً ، وحتى يتنافس فيها المتنافسون .

انظروا إلى قوله : « ثلاث من كن فيه استوجب الثواب ، واستكمل الإيمان : خلق يعيش به فى الناس ، وورع يحجزه عن محارم الله ، وحلم يرد به جهل الجاهل » .

وإلى قوله : « إن أحبكم إلى وأقربكم منى منزلة يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، الموطأون أكنافاً ، الذين يألفون ويؤلفون » .

ولقد غرس النبى فى المسلمين مبادىء قوة العزم والرأى واستقلال الفكر ، والاعتماد على النفس ، ولم تلبث ثمار هذا الغرس أن ظهرت وأينعت ، فلم يجد عليه الصلاة والسلام فى أصحابه ضعفا فى مواقف الجد ، لم يجد هممهم فاترة ، وعقولهم قاصرة كما وجد موسى عليه السلام فى بنى إسرائيل ، ذلك الخور الفاضح حين ذهب بهم إلى العدو فإذا بهم ينكصون على أعقابهم ويخاطبونه بلسان الخائن الجبان : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون » كلا لم يجد من أصحابه مثل هذا ، بل وجدهم يقولون « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون » .

٢ — الشورى :

لما كان استقلال القائد بالرأى ، يشعر باستبداده وترفعه ، وعدم مبالاته أو تقديره لرجاله ، ويورث الضاضة ويستثير الحفيظة ، اقتضت شريعة الرسول الحكيمة أن يعامل أصحابه بمبدأ الشورى ولا سيما فى أمور الجهاد ، إذ أن ذلك يشعرهم بمكانتهم عنده ، واعترافه بصحة رأيهم وشدة إخلاصهم : عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت هذه الآية (وشاورهم فى الأمر) قال النبى ﷺ « إن الله ورسوله غنيان عنها ، ولكن جعلها رحمة فى أمتى ، فمن شاور منهم لم يعدم رشدا ، ومن ترك المشورة منهم لم يعدم غيا » .

ولقد جعل الله تعالى الشورى أساساً للحكم فى الإسلام وأمر نبيه بها ، وامتدح القائمين بها فى قوله (وأمرهم شورى بينهم) . فأخذ الرسول يسوس المسلمين بها ، بل كان يتنزل معهم إلى أبعد من ذلك ؛ روى أنه كان فى سفر وأمر أصحابه بإصلاح شاة ، فقال رجل : يارسول الله علىّ ذبحها ، وقال آخر : على سلخها ، وقال آخر : على طبخها ، فقال الرسول : وعلى جمع الحطب . فقالوا : يا رسول الله نكفيك العمل ، فقال : علمت أنكم تكفوننى ، ولكننى أكره أن أتميز عليكم ، وإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه .

(يتبع)

يوزباشى أركان الحرب

محمد جمال الدين محفوظ

رسول الله في الطائف

تمر كتب السيرة على رحلة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الطائف مروراً عابراً عما جعل كثيراً من المسلمين القارئين لها يفهمون أن هذه الرحلة كانت من الرحلات السهلة الهينة ، ويعتقدون أنها كانت رحلة إلى ضاحية من ضواحي مكة ، مع أنها كانت أقسى رحلة وأشقها على رسول الله ، وأشهد أنى كنت عن يفهمون هذا الفهم الذى وجدته عند كثير من المثقفين حتى حضرت إلى مكة فى العام الماضى وتقرر أن يكون عملى فى الطائف ، وكنت إلى تلك اللحظة أعتقد أنها على بعد يسير من مكة ، ولكن بعض العارفين أخذ يعطينى فكرة عن الطائف فعرفت منه أن السيارة تقطع إليها من مكة ما يقرب من ١٥٠ كيلو مترا فدهشت وتساءلت : وهل قطع الرسول عليه الصلاة والسلام هذا الطريق الذى نقطعه الآن ؟ إننا كنا نظن أنه ذهب إليها وعاد منها فى يوم أو فى ضحاه !! قال : إن الرسول قطع المسافة إلى الطائف من طريق أخصر من هذا قليلا لا تسير فيه السيارات الآن وهو يقرب من مائة كيلو متر يقطعه الناس اليوم سيراً على الأقدام أو ركوباً على الدواب !! قلت إنها مسافة طويلة جداً عما كنا نظن ، وإنها لرحلة شاقة ومتعبة لابد أنها أخذت أياما قاسية من حياة الرسول ﷺ .

ثم رجعت إلى كتب السيرة فوجدت ابن هشام يذكر عن هذه الرحلة « ولما هلك أبو طالب ـ بعد وفاة خديجة ـ نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه فى حياة عمه أبى طالب ، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل فخرج إليهم وحده » .

إذن كان الرسول عليه الصلاة والسلام بمكة فى أزمة نفسية ، وكان فى شدة بلغت أوجها بعد أن فقد النصيرين : الزوجة التى كانت تلقاه فى البيت بصدر حنون وقلب شفيق فتزيل عن نفسه المجهدة المتعبة كثيراً من الهم والتعب ؛ ثم تبعها العم الذى كانت تخشاه قريش فتمتنع عن محمد ـ كارهة ـ كثيراً من سفاهتها . فوجد الرسول نفسه بعدهما فى أتون اتقدت ناره ،

وتشعب لهيبه، وأصبح بمكة وقد أطلق عليه سفهاؤها وتناولوه بالإيذاء والاعتداء. فإذا رجع إلى بيته وجد الحزن يخيم على جوانبه، فثارت فى نفسه ذكرى الزوج الوفية فتمتلىء نفسه من الهم، وتفيض عينه من الحزن، ويبحث حوله عن نصير فى الخارج أو مواس فى الداخل فيعز عليه النصير والمواسى، ويفكر فى الدعوة التى حمله الله أمانتها - وهل يفكر إلا فيها - ويحاول أن يجد لها متنفساً بعد أن ضيق القرشيون عليه الخناق ولم تعد مكة بيئة صالحة لنشر دعوته، فإلى أين يذهب وقد بلغ الأمر منتهاه ؟ وفكر الرسول فوجد أنه فى الجنوب الشرق من مكة قوم من ثقيف يقطنون الطائف، وبينهم وبين قريش عداء ربما يساعد على احتضان دعوته وهم إن استجابوا كانوا نعم العون والنصير.

ولابد أن الرسول مرت به حالة من التفكير العميق فى هذه الرحلة ونتائجها، وإن الإنسان ليتصور الحالة النفسية التى كان الرسول يمر بها فى هذه الآونة: كيف يذهب ؟! وهل يستجيب له هذا الحى من العرب بعد هذا السفر الطويل ؟ إن هذا هو الأمل!! ولكن كيف يكون موقفه إن تنكروا له ؟! ثم كيف تكون عودته إلى مكة حينئذ ؟! وماذا يفعل الشامتون ؟! لابد أن الرسول قد فكر فى هذا كله ومرت بنفسه فترات من الأمل المشرق له ولدعوته حينا، فتنبسط أسارير وجهه، وتشرق جنبات نفسه، ويتصور المستقبل الباسم للإسلام، وحينا تمر به صور اليأس من استجابتهم ومن النتائج المرة التى تتبع إعراضهم فتمتلىء نفسه هماً وحزناً وخوفاً من هذا المستقبل القاتم!! ولكن هل يستسلم لهذا الجانب المظلم ويقعد خوفاً من إعراضهم ومن النتائج المؤلمة التى تترتب عليه ؟ كلا!! إنه عليه الصلاة والسلام لا يترك فرصة أمامه لدعوته إلا انتهزها، وليكن بعد ذلك ما يكون من مصاعب ومشاق فكل شىء يهون احتماله فى سبيل دعوة التوحيد.

وجاء الوقت المحدد فخرج الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الطائف وحده وبدأ رحلة المشاق والمتاعب ليس معه أحد إلا ربه الذى يرعاه ويحفظه، لقد تصورت الرسول سائراً بين الجبال يحمل عبء الدعوة وهو ينقل خطاه صاعدا فوق الجبال أو هابطاً منها، تصورته حينما كنت أنظر لما حولى من السيارة التى تنهب بى الأرض نهبا إلى الطائف.

ثم تصورته عليه الصلاة والسلام وحيداً يقطع هذه المسافة تحت ثقلين من تعب النفس وتعب الجسم. إذا رأيت عربياً يسير هنالك فى بطن الجبل يعلو ويهبط، قلت: ألم يكن الرسول تضمه الجبال كهذا الرجل ؟ كان يسير فى الشمس المحرقة وفى ظلمات الليل البهيم، لا يؤنسه شىء إلا تفكيره فى ربه واتصاله بخالقه وحارسه. من كان يظن حين يراه

أنه يحمل أمانة ربه ؟! ومن كان يظن حين ينظر إليه أن ينظر إلى المثل الأعلى للإنسانية إلى الرجل الذى اختاره الله ليبلغ رسالة السماء وليكون خاتم الأنبياء ؟! من كان يظن حين ينظر إلى هذا الرجل العربى — كأى عربى تضمه هذه الجبال — أنه ينظر إلى الرجل الذى سيهز العالم بأسره وأن لفظ الخلود سيقترن بمبادئه واسمه ؟ من كان يفكر ممن رآه أن هذا الرجل سيجذب الملايين إليه وإلى دعوته، وأن هذه الملايين من خارج الجزيرة ستؤمن به قائداً ومنقذا وشفيعاً ؟! من كان يفكر أن هذا الرجل العربى الذى يسير وحيداً فى فيافى الجزيرة القاحلة سيحيى مواتها ويجعلها مهوى الأفئدة فى جميع أنحاء العالم، ويجعل لغتها التى تحاصرها الجبال فلا تخرج إلى ما وراءها — لغة عالمية خالدة تتعصب لها دول وشعوب، وتطرق المجامع الدولية، وتبعثها موجات الأثير من كل ناحية، وتصبح بفضله لغة شعوب ولسان حضارات ؟! نعم من كان يظن حين ينظر إلى هذا الذى يسير مثقلا بالهموم أنه سيفعل كل هذا ؟!

كانت هذه خواطر مرت بى سريعا سرعة السيارة التى أركبها، وقلت لا أشك فى أن كل من رآه من عليه كأى عربى يمر عليه بالليل والنهار؛ ولم يكن يعلم أية نفس يحمل هذا الرجل، ولا أية رسالة يؤديها !!.

قطع الرسول ﷺ هذه المسافة الطويلة المتعبة، ولا شك أن الأمل كان يدفعه فى كل خطوة من خطواته، الأمل فى أفق جديد لدعوته، ولا شك كذلك أنه كان مع هذا الأمل شىء غير قليل من الخوف، الخوف من الفشل؛ كان الرسول يؤمل أن تنضم إليه ثقيف وتنصر دعوته ضد أعدائه وأعدائها بعد أن عز عليه النصير فيهم، ولكن هذا الأمل كثيرا ما كان يختنق أمام عوامل القلق والخوف من إعراضهم وصدودهم، وهذه حالة لم تمر بحياة الرسول قبل ذلك ولا بعده، فقد كان يعرض نفسه على القبائل فى موسم الحج، ولكنه لم يتكلف سفرا كهذا السفر، ولم يلجأ مع ذلك إلى أعداء قريش كما لجأ هذه المرة، وقد سافر بعد ذلك إلى المدينة، ولكنه لم يخرج إليها إلا بعد أن اطمأن إلى مركزه فيها وأرسل طلائعه يعلمون أهلها الإسلام فكانوا على الرعاية والعناية، ومكث مدة تكونت فيها جماعة إسلامية تفوق أصحابه بمكة، فلم يكن إذن حين سافر للمدينة على خوف أو قلق من المصير المجهول، ولكنه كان مطمئنا إليها عازما على الإقامة فيها .

وأقبل الرسول عليه الصلاة والسلام على الطائف، وعمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم وهم إخوة ثلاثة، [1] أقبل عليهم الرسول ونفسه متجهة إلى الله أن

---

[1] سيرة ابن هشام .

يهديهم سواء السبيل ويهدي بهم من وراءهم من قومهم ، ولكن قلوبهم كانت مغلقة ، ونفوسهم كانت متكبرة ، حتى ليقول له أحدهم في سخرية واستهزاء ، وكأنما عز عليه وهو السيد الكبير أن يرى هذا القرشي اليتيم رسولا من الله يدعوه إلى هذا الأمر العظيم فيقول له : « أما وجد الله أحدا يرسله غيرك »[1] كأنما ظن أن الرسالة تتبع الجاه والمال ، فاهما أنها ملك وسلطان ، وقد جهل المغرور أن « الله أعلم حيث يجعل رسالته » وكانت هذه نغمة سائدة في الناس حينئذ حكاها القرآن ورد عليها حين قال « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم !! أهم يقسمون رحمة ربك ؟! » وكان هذا الرد من الثقفي الكبير الذي يحمل كل معاني الاستخفاف والاستعلاء صدمة لآمال الرسول عليه الصلاة والسلام في القوم ، وصدق الله العظيم « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » « لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » وكانت نتيجة مريرة على نفسه العظيمة ، فقد قطع الآمال الطويلة والأمل يحدوه ، ومن ورائه قريش لا بد أنها سترقب في لهفة أمر هذه الرحلة بعد أن تعلم بها وتتوق إلى فشلها ، حتى تشمت كما تحلو لها الشماتة ، وتزداد في عتوها . والرسول عليه الصلاة والسلام يحس كل هذا ويقدره حتى لنجده يقول لهؤلاء الثلاثة المتكبرين من ثقيف بعد أن يئس منهم : « إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني » وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه عنه فيذئرهم « يجرئهم » عليه »[2] .

إن الرسول قد لقي إعراضا وصدودا من كثيرين قبل ذلك ، ولكنه ما كان يحسب لأي إعراض سابق ما حسبه لهذا الإعراض ؛ كان يدعو الناس في موسم الحج ووراءه الصادون عن دعوته ينفرون الناس منه ، وما كان يقيم لهم وزنا ولا حسابا ، أما هذه المرة فتختلف ظروفها وأوضاعها ، لقد ترك مكة حزينا لفقد النصيرين واشتداد الإيذاء عليه ، وسافر طويلا إلى أعداء قريش والتجأ إليهم لعلهم ينضمون إليه ويدخلون في دينه ، ولكنهم لم يستجيبوا فماذا تفعل قريش إذن ؟ وما مبلغ فرحها وشماتتها ؟ إنهم لا شك سيشمتون ، وسيزدادون عليه جرأة ، ومن هنا كان حزن الرسول وخوفه من إذاعة الخبر .

كل المصائب قد تمر على الفتى ... وتهون غير شماتة الأعداء

عبد المنعم النمر

مبعوث الأزهر وأستاذ التفسير بدار التوحيد بالطائف

---

[١] و [٢] سيرة ابن هشام .



الحكم بما أنزل الله

****

خلق الله سبحانه النوع الإنسانى لعمارة الأرض وإصلاح الكون ، وركب فيهم عقولا وجعلها مناط التكاليف ، وخلق فى الإنسان غير القوة العقلية القوة الشهوانية والقوة الغضبية وغيرهما من الغرائز النفسية التى تضعف سلطان العقل وتنال من شأنه ، بل تتغلب وتنتصر عليه فى بعض الأحايين ، ومهما سما العقل واكتمل فما هو بمستطيع أن يهدى المرء إلى جميع ما يحتاج إليه فى تحصيل السعادة الدنيوية فضلا عن الأخروية ، لقصوره عن إدراك هذه المنزلة ، فكان لابد للعقل من هاد يكمل هدايته ، ويرسم له الطريقة المثلى فى الحصول على الكمال الدينى والدنيوى ، وكان هؤلاء الهداة رسلا مبشرين ومنذرين يصطفيهم الله عن زكت فطرتهم وكملت عقولهم ويفيض عليهم من أنواع وحيه ما يشاء ، فيأخذون بزمام العقل ويدلونه على المنهج الواضح والصراط المستقيم ، وهؤلاء الرسل يستمدون هدايتهم من المشرع الأعظم ، وهو الله سبحانه وتعالى العليم بما كان وما يكون ، الخبير بالنفس البشرية وغرائزها وطبائعها ، الحكيم فى كل شئونه وتصرفاته ، المنزه عن العبث واللهو والهوى والشهوة ، فلذلك كان تشريع الله عادلا كل العدل صادقا غاية الصدق ، لا يطرق ساحته خلل أو نقص أو إبطال ، وصدق الله حيث يقول « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم » ، وهذا فرق ما بين شرع الله وقوانين الانسان .

وقد اقتضت حكمة الله أن تكون رسالات الأنبياء السابقين محدودة بالزمان والمكان ، فجاءت شرائعهم ملائمة لزمان خاص ، ولبيئة خاصة . فلما بلغت البشرية كما لها العقلى وسن الرشد وجأرت إلى الله تطلب الغوث مما حاق بها من صنوف الفساد فى الحياة الدينية والخلقية والاجتماعية ، اقتضت رحمة الله أن يرسل خاتم النبيين وسيد البشر محمدا صلوات الله وسلامه عليه بشريعة هى خاتمة الشرائع ، فجاءت على أتم وأكمل ما تكون شريعة فى الوفاء بحاجات البشر لتحصيل السعادة الدينية والدنيوية .

وجعل هـــذه الشريعة هى المهيمنة على الشرائع السماوية السابقة فما وافقها فهو الحق

وما خالفها فهو مما تزيده المتزيدون ؛ قال سبحانه « أنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق » . والشريعة الإسلامية هي الشريعة العامة للبشر كافة الباقية على وجه الدهر إلى أن يرث الله الأرض وما عليها ؛ وصدق الله حيث يقول « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » . وفي الحديث الذي رواه البخاري « وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة » . وهي التشريع الذي ارتضاه الله لإصلاح الكون ، والحكم بها بين الناس واجب محتم ، وهذا قول الله لنبيه محمد ﷺ « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك » ؛ وقد شدد الله النكير على من لم يحكم بما أنزل الله ووصفه بأشنع الصفات وأعظمها إثما فقال « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » وفي آية ثانية « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » وفي آية ثالثة « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » [1] ، والآية الأولى - وكذا الثانية والثالثة عند من يحمل الظلم والفسق على أعلى أنواعهما - محمولة على من فعل ذلك مستحلا له طيبة به نفسه راضيا به قلبه فهو الكافر ولا محالة وهو الظالم ، لأنه وضع الأمور في غير موضعها ، وهو الفاسق لأنه فسق عن أمر ربه وتمرد على شرع الله وخرج بعمله من حظيرة الدين الحق إلى مباءة الهوى والباطل .

روى ابن جرير عن علي بن طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » قال : من جحد ما أنزل الله فقد كفر ، ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق ، وروى مثل ذلك عن عكرمة .

وهذه الآيات وإن ذكرت في القرآن الكريم في سياق الكلام عن التوراة والإنجيل والحكم بما أنزل الله فيهما ، والرد على من لا يرتضون حكم الله من اليهود الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويشترون بآيات الله ثمناً قليلا من الرشا وابتغاء الجاه ورضا الناس [2]

[1] الآيات ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ من سورة المائدة .

[2] ذكر الرواة أن السبب في نزول الآيات ما حدث من أن يهوديا ويهودية زنيا وكانا محصنين وكان حكم التوراة الرجم ولكنهما كانا شريفين فلم يقيموا عليهم الحد ، وقد احتكم اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فحاجهم وبين لهم أن حكم الله الرجم ، فلم يجدوا بدا من النزول على رأيه . وقيل إن السبب ما كان بين بني قريظة والنضير من عدم التساوي في القتل وإعراضهم عن حكم الله إلى اتباع الهوى والشهوة .

إلا أن حكمها عام، إذ لفظها عام والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وإلى القول بعموم الآيات وأنها ليست خاصة بأهل الكتاب ذهب كثير من السلف: روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنها عامة فى اليهود وغيرهم. وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: «نعم القوم أنتم، ما كان من حلو فهو لكم، وما كان من مر فهو لأهل الكتاب». وكأن ابن عباس يرى أن حكم الآيات يشمل المسلمين ويرد على من يقول إنها فى أهل الكتاب خاصة [1].

وروى الحاكم وصححه وعبد الرزاق وابن جرير عن حذيفة رضى الله عنه أن الآيات الثلاث ذكرت عنده، فقال رجل: إن هذا فى بنى إسرائيل خاصة، فقال حذيفة: نعم الأخوة لكم بنو إسرائيل، إن كان لكم كل حلوه ولهم كل مره، والله لتسلكن طريقهم حذو النعل بالنعل، [2] وأخرج عبد بن حميد عن حكيم بن جبير أنه سأل سعيد بن جبير عن قوله تعالى: «ومن لم يحكم ... ومن لم يحكم ...»، قال: فقلت إنها نزلت على بنى إسرائيل، ولم تنزل علينا، قال: اقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال: «لا بل نزلت علينا». ولعل مراده بنزولها على بنى إسرائيل أنها نزلت فى شأنهم.

وكان الشعبى يرى تفريق الآيات على حسب الطوائف الثلاث. روى ابن جرير عن الشعبى فى قوله تعالى: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» قال هذا فى المسلمين «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون» قال هذا فى اليهود «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون» قال هذا فى النصارى.

نعم روى عن بعض السلف أن الآيات فى أهل الكتاب وليس شىء منها فى أهل الإسلام، ولعل مراد هؤلاء أنها نزلت فى شأنهم وقصتهم، لا أن حكمها ليس عاما شاملا، فإن من عمل من المسلمين بمثل عملهم فقد استحق أن يوصف بمثل ما وصفوا به، بل المسلمون إن عدلوا عن الحكم بما أنزل الله فهم أحق بهذه الأوصاف من أهل الكتاب، لأن شريعتهم واقية باقية، وأدلة الأحكام عندهم متوافرة، فليس لهم عذر فى الحكم بغير شرع الله وقد جعل الله سبحانه وتعالى الحكم بغير ما أنزل الله جاهلية جهلاء وضلالة عمياء فقال فى شأن اليهود الذين لا يرتضون حكم الله «أفحكم الجاهلية يبغون، ومن أحسن من الله

---

(١) تفسير المنار جزء ٦ ص ٤٠٣

(٢) تفسير الألوسى جزء ٦ ط . منير

حكما لقوم يوقنون »[1] وصدق الله فلا أحد أصدق ولا أعدل من الله حكما عند ذوى اليقين والتفكر . وللشيخ العلامة ابن كثير فى تفسير هذه الآية كلام حسن أحببت نقله عسى أن يكون فيه وازع وعظة قال « ينكر تعالى على من خرج من حكم الله المشتمل على كل خير الناهى عن كل شر وعدل الى سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم وكما يحكم بها التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم « جنكز خان » الذى وضع لهم « الياسق » وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية ، وفيها كثير من الأحكام من مجرد نظره وهواه ، فصارت فى بنيه شرعا متبعا يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله »[2] .

فالحكم بما أنزل الله والدعوة إليه أمانة فى عنق كل مسلم وسيسأله الله عنها يوم القيامة ، وعلى كل مسلم أن يجهر به ويطالب أولى الأمر بالعمل على تنفيذه ، وذلك عن طريق الحجة والإقناع وإثبات أن خير الشرائع لحكم الناس وصلاح الأحوال هو الاسلام الذى ارتضاه الله للناس كافة والذى أقام دولة الإسلام الأولى التى كانت ولا تزال مضرب الأمثال فى العدل والتراحم والأمن والسلام .

وإذا كان الله سبحانه قيض لهذه الأمة من أبنائها الأحرار الغيورين على مصالحها من رفع عنها نير الظلم والاستذلال ، وأراد تحريرها من أى سلطان أجنبى عنها سواء أكان فى السياسة أم فى الثقافة والتشريع والأخلاق ، فمن حقنا عليهم أن نرغب اليهم فى أن تكون القوانين التى تحكم بها تتفق هى وأمة إسلامية لها الصدارة بين الدول الاسلامية .

ولقد قدر لى أن أكون مبعوث الأزهر للتدريس ببلد الله الحرام ، وقد هيأ لى ذلك الالتقاء بكثير من رجالات الإسلام فكانوا يأخذون على مصر أنها لا تهتدى بهدى الإسلام فى كثير من شؤونها ، ويستكثرون على مصر بلد الأزهر العتيق ومنارة العلم والاسلام

---

(١) الآية ٥٠ من سورة المائدة .

(٢) تفسير ابن كثير جزء ثالث ص ١٢٤ ط المنار .

أن يكون فيها كل هذا اللهو والفجور والمظالم والمخازى التى يندى لها جبين الانسانية الفاضلة ونحن الآن على مفترق الطرق ، فإما إلى طريق يحفظ لمصر مكانتها بين أربعمائة مليون مسلم ينظرون إليها كما ينظر الطير إلى اللحم ويحصون عليها كل كبيرة وصغيرة ، والطريق إلى ذلك سهلة قريبة لمن يتناول الامور بجد وعزم ، وإما إلى طريق أخرى تضيع علينا ما كسبناه فى مئات السنين ، وهذا ما لا نحبه ولا نرضاه .

نحن لا نريد قوانين تحمى الإلحاد والإباحية والرذيلة وما إلى ذلك من عوامل الهدم والفناء للأمم ، وإنما نريد تشريعاً يدعو إلى الإيمان والحق والعدل والفضيلة ، ويقرر القيم الأخلاقية العالية ، ويطهر المجتمع من أمراضه وأدرانه ، ويحيط الأعراض والدماء والأموال والعقول بسياج من الحفظ والرعاية ، نريد تشريعاً يقضى على الشفاعات السيئة والأثرة والرشوة والكسب الحرام والظلم واستغلال النفوذ والسلطان ، ويهدف إلى تحقيق العدل فى كل شأن من شؤوننا ، نريد حكماً يقوم على الشورى الحقة التى نوه بها القرآن الكريم منذ قرابة أربعة عشر قرناً ، وأثنى على المتمسكين بها فى قوله تعالى ، وأمرهم شورى بينهم ، وأمر الله بها رسوله فى قوله ، وشاورهم فى الأمر ، .

وكل هذه الأصول الفاضلة لن نجدها متمثلة بأجلى صورها إلا فى شرعة الإسلام الحقة ، وبحسبنا قول رسول الرحمة وهادى الأمة ، تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، .

وفقنا الله جميعاً الى ما فيه إقامة الحق والعدل .

محمد محمد أبو شهبة
المدرس بكلية أصول الدين

أمر الله والقائمون عليه

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : ، لا يقيم أمر الله إلا رجل لا يضارع ، ولا يصانع ، ولا يتبع المطامع . ولا يقيم أمر الله إلا رجل لا ينتقص غربه ، ولا يكظم فى الحق على حزبه ، .

الحاكم في الإسلام

كانت الحكومة فى صدر الإسلام لمحمد ﷺ ، وكان المؤمنون يخضعون له عن رضى وإذعان ، وانقياد وقبول ، فهو الذى يقضى بين المتخاصمين ، ويؤلف بين المتنافرين ، ويقرب بين المتباعدين ، ويقيم الحدود ، وينفذ الأحكام ، والأمر كله له دون منازعة أو خلاف « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » ، وعلى الرغم من أنه كان أمينا على الوحى ، منفذا لكلمة الله فيما ينزل به جبريل ، لم يكن فيه استبداد الرؤساء ، ولا كبرياء السلطين ، ولا زهو الحكام ، إنما كان يضع نصب عينيه فى كل حالاته أن مهمته الإنقاذ من التردى ، والانتشال من التورط ، والهداية إلى الصواب ، والإرشاد إلى ما يجب أن يكون ، وأنها رسالة ألقيت مسئوليتها على عاتقه من الله الذى له ملك السموات والأرض ، وحين يمتثل تكليفه إياه ، ويستجيب لإلزامه له « بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس » ، لا يجد نفسه بحاجة إلى الامتنان عليهم ، لتأخذه العنجهية ، ويهزه الصلف ، لأنه أسدى معروفا ، وقدم غنما يحصلون فائدته ، ويجنون ثمرته : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

لهذا فإن أول ما أدرك العرب من معانى الشورى كان مما رأوه من النبى الكريم ، الذى لم يكن يأبى أن يعرض المسألة على أصحابه يناقشونه غير متبرم بمناقشتهم ، أو حاقر لجدلهم . وقد حصل فى بدء استعداده لملاقاة المشركين ببدر أن نزل بعيداً عن البئر المسماة بهذا الاسم ، وقال له أحدهم : أهو وحى نزل عليك ، أم رأى رأيته ؟ فقال : بل هو الرأى ، فقال : لننزل على الماء لئلا يحول العدو بيننا وبينه ، وبذلك تضعف شركتنا ، وتفتر همتنا ، وتلحق بنا الهزيمة والانكسار ، ولم يسعه صلوات الله عليه إلا أن يقول لصاحب هذا الرأى : نعم ما رأيت ! .

وهكذا كان يبادلهم المشورة ، ويظهر من التبسط معهم ، وخفض الجناح لهم ، ما يدل على أن شأنه شأن الأب الحانى على ولده ، والراعى الشفيق برعيته ، وصدق الله العظيم « حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » .

والأمر الحتم من الكتاب العزيز أن نطيعه وأن نطيع من بعده أولى الأمر منا ، والتصريح فى الآية الشريفة بأولى الأمر « منكم » دليل على أن قيام الحاكم فى الأمة يقود زمامها ، ويتحمل أعباءها ، ويرد عدوان القــوى ، وظلم المتعسف ، وطمع الجائر ، من الواجب على أهل الرشد ، وأصحاب الحصافة .

ولذلك لم يلبث المسلمون أن انتخبوا أبا بكر رضى الله عنه ، ووسدوا إليه زمام السلطان بعد أن ارتفع الصادق الأمين إلى الرفيق الأعلى ، وهنالك قضى على الفتنة ، وحارب المرتدين ، ونشر ألوية الأمن ، وجاء فى إثره عمر بن الخطاب فنهج نهجه ، واهتدى بسيرته ، وتتابع الخلفاء والولاة بعدهما ، ونظموا الملك ، ودونوا الدواوين ، ووزعوا الاختصاصات بين الموظفين ، فقام كل منهم بما عهد إليه ، وانصرف إلى مصلحة الرعية فى حدود استطاعته .

فوجود الحاكم للشعب ، وتملكه مقاليد الأمور فى الأمة فضلا عن كونه من ضرورات العمران ، وحاجة الاستقرار ، ولوازم النظام السياسية يوجبه الدين لأنه يهتم بالإصلاح ويعنى بالسكينة ، ويرعى الحقوق ، ويكره النزاع والخصومة ، ويرغب إلى الناس أن يلتزموا حدودهم ، وينصرفوا إلى البر والمعروف ، والعمران والتقدم ، وهذه أشياء لا تتم من غير راع يكلؤها ، وسلطان يحرسها ، وقوة حازمة تصونها ، وعقل كبير يدبر شؤونها ، ويصرف أمورها . ولا بد أن يكون من هؤلاء الذين يحبون العدل ، ويؤثرون الإنصاف ، ويميلون إلى إيصال الحقوق إلى أربابها ، وأن يعطى من سيرته وسلوكه ، وأخلاقه وآدابه ، وزهده وورعه ، وتدينه وتقواه ، ورأيه وكياسته ، وعلمه وفضله ، واعتدال ميزانه فى تقدير الأشياء وحل المشاكل ، وفهم المعضلات ، ما يجعل الناس يلتفون حوله ، ويبالغون فى الولاء له ، والتمسك به ، والعطف عليه ، ليعيش فى دنيا من قلوبهم ، وملك من أفئدتهم ، ويؤازروه فى المحن ، ويواسوه فى الشدائد .

وكذلك كان المسلمون مع الملوك والرؤساء فى مختلف العصور والأزمنة ، يجعلون طاعتهم من الدين ، والرضا بأحكامهم من أوجب الواجبات . غير أنه « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » كما يقول صاحب الشريعة المطهرة هدانا الله بهديه .

ولذلك رسم القرآن الدستور الذى يحكمون به ، والقانون الذى يسيرون على ضوئه ، ويعملون بمقتضاه « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » ومن أجل ذلك كانوا يلاحظونه ، ويتبعون هديه ، ويسترشدون به فى كل عمل يعملونه ، أو أمر يقدمون

عليه ، بل كانوا أسبق من العامة إلى الاختلاف إلى المساجد ، وحضور الجماعات ، وقد حدث - فى الأندلس - أن شغل الخليفة الناصر عند بنائه مدينة الزهراء ففاتته صلاة الجمعة ، ثم انتهى إليه أن الإمام المنذر بن سعيد خطب على المنبر وجاء فى خطبته الاستشهاد بقوله تعالى « أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » ، فلما بلغته الخطبة علم أنه المقصود فبكى واستغفر ولم ينقطع عن الجمعة والجماعات إلى أن مات .

وليست ولاية المسلمين ، وتملك زمام أمورهم بالشيء الهين عند الله سبحانه ، لأنه تكليف قبل أن يكون تشريفا ، ولا يدرك معنى هذا التكليف إلا من يتصور موقف « الخليفة الثانى » فى السياسة والحكم ، والسلطان والرعاية ، والعناية والإصلاح .. وكيف أنه كان يبذل جهده وتفكيره ، وراحته ونومه ، ليوفر السعادة للأمة ، والرخاء للناس ، والطمأنينة للشعب ، غير مدخر من وقته وعافيته ، ورأيه وتدبيره ، بما يسمع لنقد الناقد ، ولوم اللائم .

ومع ذلك قال عند موته لمن أشار عليه أن يجعل الخلافة بعده لابنه عبد الله : حسب آل الخطاب أن يحاسب الله واحداً منهم عن هذه الأمة يوم القيامة ! . وما أظن وراء هذا كله من العدل والإنصاف ، والسهر على المصلحة ، والتفانى فى خير الناس ، والدأب على إرضاء مطالبهم ، وإشباع رغباتهم ، وتوفير الأمن والسلامة لهم ، غير أنه الورع والتقوى والمبالغة فى مراقبة العزيز الجبار الذى لا يأمن مكره إلا الكافر ، ولا ينسى رهبة عذابه إلا الجاحد ...

ولعل المتتبع لسيرة هذا الرجل — بالذات — يعرف إلى أى مدى كان يرسم بتاريخه السياسة والملك ، والحكومة والسلطان ، والتدبير والرأى ، حتى لا تجعل الولاة والقضاة ، والأمراء والخلفاء ، تلك المراكز سبيلا إلى المغانم السافلة ، والمطامع الدنيئة ، والشهوات المرذولة ... لأنهم مسئولون أمام الله عن الفقر الذى يصيب المعوزين ، والمرض الذى تعمل معاوله فى أجسام المرضى ، والجهل الذى ينشر الجرائم ، ويشيع الفساد ، ويغرى بالفوضى .. والواحد منهم مؤاخـــذ يوم العرض على رب العالمين بحساب هو من أشق ما يكون ، « ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

ابراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

الفرض العلمى

— ١ —

إذا تأملنا فى تاريخ الحركة الفكرية ، وعلى الأخص فى القرون الحديثة ، نجد أن لكل قرن ـ على وجه التقريب ـ ميزة خاصة به تميزه عما عداه من القرون . فإذا أمكن القول بأن القرن السابع عشر هو قرن التكوين العلمى الصحيح فى الغرب ، إذ كان للعقل فى حركاته العلمية نصيب كبير ؛ يمكن القول إن القرن الثامن عشر ـ على العكس من ذلك ـ يقيد ، بقدر غير قليل ، حرية العقل من الميدان العلمى .

ولقد كان للفرض العلمى نصيب كبير فى نظريات المنهج والمنطق فى القرن السابع عشر ، بعكس ما كان له من قيمة محدودة فى القرن الثامن عشر ، فلم يكن يرجع إليه إلا فى أحوال اضطرارية . وسنستعرض هنا آراء عالمين مبرزين هما ديكارت فى القرن السابع عشر ونيوتن فى القرن الثامن عشر ، ثم نذكر حالة الفرض العلمى فى القرن التاسع عشر ، عسى أن نفلح فى إعطاء القارئ فكرة عن الفرض .

تعطى الفلسفة الديكارتيه للعقل كامل الحرية فى البحث والاستنتاج فى ميدان ما وراء الطبيعة ، وهى حين تعرج إلى البحث فى مجال الطبيعة لا تضعف هذه الحرية وإن حددت اتجاهاتها ومراماها . وأبو الفلسفة الحديثة يؤمن ـ بصفة عامة ـ بنوع واحد من الفروض هى الفروض الاستنتاجية . فإن المتأمل للجزء السادس من كتابه « مقال عن المنهج [1] » ، يرى أنه بعد أن أوضح قوانين الحركة وطبيعتها التى تتكون من الامتداد المتجانس أجزاء العالم المختلفة ، رأى أنه بين الحركات العامة الآلية أو الميكانيكية الخاصة بالأجسام المختلفة توجد مرحلة لا يمكن للاستدلال العقلى المحض أن يجتازها ، فلا بد من إجراء تجاريب مختلفة للتيقن من أن تطبيقاً معيناً لقانون عام ألزم أو أنجع من تطبيق غيره . ولكن العقل قبل أن يصل إلى هذه المرحلة التجريبية يفرض التطبيقات الممكنة نظريا للمبادئ العامة

---

(١) نقله إلى العربية الأستاذ محمود الخضيرى ، ونشرته المطبعة السلفية .

ويختار بينها قبل أن يحاول تحقيق إحداها ، هـذا الفرض الأول فرض استنتاجى لأن الظواهر تستنتج منه . هذا ملخص رأى ديكارت فى « المقال عن المنهج » ، يصعب على القارئ أن يستخلص منه رأى ديكارت الحقيق فى الفرض ، فمن الجائز أن يكون قد اعتبره فى الطريق إلى القانون العلمى ، ومن الجائز ألا يُعتبر قانون علمى بأى معنى من المعانى .

غير أننا إذا قلبنا كتابا آخرا من كتبه ويسمى « مبادئ الفلسفة » وجدناه يقول « إن المعرفة الفرضية لعلل الطبيعة كافية كما لو كانت هناك معرفة صحيحة بهـذه العلل ، إذ أن الطب والميكانيكا وغيرهما من الفنون التى تستخدم قوانين الطبيعة لا تعمل إلا على تطبيق بعض أجسام محسوسة على البعض الآخر ، ونصل من هذا إلى نتائج محسوسة أيضاً ، ثم يستطرد قائلا « وهو ما سنفعله لو درسنا ما ينتج عن علل تخيلناها ، ولو أنها خاطئة ، كما لو كانت صحيحة ، وذلك لأن النتائج تتشابه لو نظرنا إلى الآثار الحسية » . وموقف ديكارت هنا ، موقف من تأكد من قوانين الحركة بأنها قوانين مطلقة للعالم ، ولكنه حين انتقل من المجال العام إلى المجال الخاص لم يرجع للتجربة فقط بل إلى القول إن الطريقة التى تسير عليها الطبيعة لا يمكن معرفتها ، إذ لا يمكن معرفة أى طريقة اختارها الله فى هـذا المجال .

هذا هو رأى ديكارت فى الفرض .

أما نيوتن فإنه يبدو لأول وهلة معارضاً لتلك الحرية الفكرية التى نادى بها ديكارت والفروض على اختلاف أشكالها ، فهو يقول « الفروض لا تخترع » .

وعلى كلٍّ فليس هنده ما يدعو إلى الإيمان بضرورة الفروض أو إلى الاقتناع بموقف فرضى لا يتحول إلى قانون طبيعى . وموقفه هذا ناتج عن طريقته فى الكشف عن التفسير الصحيح للطبيعة وخاصة فى الكشف عن مبدأ الجاذبية العام . فهو بعد أن تأمل حركة التفاحة الساقطة وفحصها بعقله ، انتقل من هـذه الظاهرة الخاصة إلى ظاهرة الجاذبية ، وفرض أن هذه الجاذبية تشابه تماما حركة القمر بالنسبة إلى الأرض ، وأنه فى اللحظة التى يصل فيها العقل إلى القانون الحسابى الجبرى لهذه الجاذبية فإنه يكون قد اقترب جدا من كشف قانون عام فى الطبيعة له على الأقل عمومية قوانين ديكارت . فنيوتن يفرض أن الأجسام يجذب بعضها بعضا كما تجـذب الأرض القمر ، ثم يتوصل - بعـــد تحليل تجريبى ورياضى كامل

لظواهر النظام الشمسي ـ إلى أن القانون الحسابي المذكور يسمح بتفسير كل حركات أجسام هذا النظام ، وفي هذه اللحظة ، أي بعد التحليل ، يصبح الفرض قانونا طبيعيا صحيحا .

ولكن من الواجب أن نعرف أن نيوتن يتجه في بحثه نحـــو القانون الطبيعي لثقته الكاملة في الآلة الرياضية التي يستخدمها وهي آلة حساب اللانهايات ، ولثقته التامة في الآلات التي يعرف بها الطبيعة الظاهرة ويستنتج الخفية ، وأن الفرض الذي دعمته التجارب المختلفة وعبرت عنه العمليات الرياضية الدقيقه لم يعد فرضا بل أصبح قانون الله للطبيعة فهو إذن لا يحذف الفروض الاستنتاجية من العلم بل يقبلها ، بشرط أن تقترب من الظواهر المختلفة للطبيعة ، وبشرط ألا يكون للفرض وجود في ذهن عالم الطبيعة لأنه لا يفرض بل يثبت ويبرهن فقط .

ولقد بدا أثر نيوتن فيمن جاء بعده ، فأوغست كونت (في أوائل القرن التاسع عشر) ينتقد الحركة الفرضيـة للعقل ولا يسلم إلا بما تقرره الملاحظة والتجربة ... ولكن من ناحية أخرى نرى جون هرتشل Herschel يحث العلماء على ألا يوقفوا فروضهم على عتبة الباب بل يتجاوزوا ذلك ويذهبوا إلى تفسير داخليـة الأجسام وتركيبها العنصري . وهذا لازم في رأيه ، فهناك من الظواهر ما هو خفي على الحس ، ولا يمكن تفسيره ما لم نحاول أن نخمن ما وراء الحس ، فالفرض التخميني متضمن في حركة العقل الاستقرائية ، فالبحث عن عناصر الأجسام وعن مكوناتها موجـه إلى التكوين الداخلي للمادة عامة لا إلى طائفة خاصة من الأجسام .

(٢) وبعد ، فما هي الفروض؟ الفرض من ناحية ماهيته هو الفكرة التي يرى المرء قبل دخوله في مشكلة عقلية أنها ما يحتمل أن تكون هي الحل أو النتيجة ، أو هو الشيء الذي نفكر فيه ونظن أنه الحل الذي يصح أن يكون ، فنعمل على تحقيقه بإثبات صحته أو بطلانه ، وفرض الفروض ـ كما يقول العلامة ميل ـ يحث على الملاحظة وعمل التجارب وهو شيء ضروري في تقدم العلوم ، بل يمكن القول إنه ما من مسألة عقلية أو مشكلة علمية إلا ولها نصيب من الفرض .

وهناك مفهومات مختلفة لكلمة الفرض : فهناك الفرض الرياضي . ونجده عند اقليدس منذ القدم ، وقد استعمله أفلاطون في محاورته Menon ، وفيها يقول (عند ما رأى نفسه

أمام مسألة عويصة من مسائل الهندسة ، لم يستطع حلها بطريق الاستنتاج المباشر) : « لنرجع إلى فرض ، أو لنبحث فرضيا هذه المسألة » . ويعرف أرسطو الفروض بأنها « المبادىء التى تبنى عليها قضية ما » . فلو حاولنا مثلا أن نبرهن على تساوى زوايا المثلث المتساوى الأضلاع وجدنا – حتما – فى برهاننا إلى تساوى الأضلاع كشىء مفروض مقبول نحاول أن نتجه منه إلى شىء مطلوب ... فهناك إذن معنيان رياضيان للفرض : فرض بمعنى قضية صحيحة هى مبدأ البرهان ، وفرض بمعنى قضية لم نقطع بصحتها بل نسلم بها مؤقتاً دون برهان ثم نحاول باستخلاص نتائجها البرهنة على صحتها .

وهناك أيضاً الفروض الطبيعة ، وهى إما استنتاجية وإما تكوينية ، فالاستنتاجية هى التى إذا سلمنا بها ، سلمنا كذلك وبمقتضاها ، بالظواهر المشاهدة فى مجال معين ، والفروض الاستنتاجية إما أن تكون فروضاً لا يجزم بصحتها ولا بخطئها وهى موجوده عند ديكارت فى الكتاب الثالث من مبادىء الفلسفة فهو يقول « لكى يدرك كل شخص أنه حر فى أن يقرر ما يشاء بصدد ما كتبته ، أرجو أن يعتبر ما كتب كمجرد فرض ، ربما كان بعيداً كل البعد عن الحقيقه » .

ويزيد على ذلك فيقول « وإنى سأضع بعض فروض أعتقد أنها كاذبة ولكن كذبها لم يمنع من أن تكون نتائجها صادقة » وإما أن تكون فروضاً موجزة أو ملخصة وتوجد عند إرنست ماخ ودوهيم ، والفرض هنا عبارة عن تلخيص الظواهر الملاحظة ملاحظة جيدة ، كما أن وظيفة النظرية العلمية منحصرة فى إيجاز القوانين المسلم بها فى العلم وجمعها فى عبارة بسيطة ، وإما أن تكون فروضاً مفسرة وهى التى توجد عند نيوتن ، وهى فروض توضع لكى تصبح قانونا علميا .

أما النوع الثانى من الفروض الطبيعية فهى الظروف التكوينية وهى التى تبحث فى الأشياء وفى حقيقة الظواهر الداخلية .

(٣) بقى أن نتكلم عن شروط الفرض ، فليس كل مايفترضه الإنسان بالفرض المقبول ، وليس كل تخمين برأى سديد ، فلابد لكى يكون الفرض علمياً يصح قبوله واستخدامه كوسيلة من وسائل التفكير ، ألا يكون خيالياً يستحيل تحقيقه ، وألا يتعارض مع الحقائق العلمية المسلم بصحتها ، وأن يكون قضية قابلة للبرهنة على صحتها أو فسادها وإلا تركنا الحبل على

الناوب للتخمينات والظنون ، كما يجب ألا يتأثر الباحث فى فرضه برأى أو نظرية مرجحة لم تصل بعد إلى مرتبة القوانين ، وألا يكون متحيزاً لآراء تصدر عن أشخاص عنازين ، فقول العلامة أديسون عن الأرواح ، لو أن هناك أرواحا تخاطب لكنت أول من يخترع آلة لمخاطبتها ، . هذا القول لا يصح اتخاذه أساساً للبحث فى عالم الأرواح ولو أنه صادر عن عالم كبير .

ولكن ، يجب التمييز بين الاعتقاد العلمى الصحيح الذى وصل إليه الفكر البشرى بعد البحث والتفكير المنطقى قرونا عديدة حتى أصبح حقيقة لا تقبل الجدل ، كالاعتقاد فى كروية الأرض مثلا وغير ذلك من الحقائق التى يصح اتخاذها أساساً لفروض تفرض لحل مشكلات علمية ، وبين المعتقدات التى نشأت عن أساطير أولية تداولها الناس جيلا بعد جيل حتى أصبحت عند العامة فقط حقائق لا تقبل الشك .

وبعد ، فهذه آراء فى تاريخ الفرض وماهيته وشرطه . وفى المقال القادم إن شاء الله سنتكلم عن تحقيقه ومراحل هذا التحقيق .

سعيد زايد

الحياء

قال الهادى الأعظم ﷺ : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة : إذا لم تستحى فاصنع ما شئت » .

وقال علقمة بن علاثة للنبى ﷺ : يا رسول الله عظنى . فقال له ﷺ « استحى من الله استحياءك من ذوى الهيبة من قومك » .

فضل الرسول على قومه

متى نعود إلى وضعنا فى التاريخ ؟

« إن العرب دخلوا التاريخ من الإسلام » .

كلمة سديدة رشيدة ، لم يقلها مسلم أو عربى ، ولكن قالها منصف غربى :

كلمة لا يسع المفكر إلا أن يتحسس معانيها فى نفسه . وأن يدير مغزاها على نواحى حسه ، كلما أراد أن يستشعر فضل محمد ﷺ على العرب وفضل الإسلام على المسلمين .

حقا إن الإسلام كان هو الطريق الذى دلف منه العرب إلى التاريخ ، فتبوءوا أول صفحاته واحتلوا مسرح الوجود قرونا ، فتلوا فوقه الأدوار الأولى ، وتزعموا القافلة البشرية فقادوها من زمامها فى رفق ولين إلى معارج الرقى والتقدم والمعانى المثالية الرفيعة .

كان العرب قبل الإسلام أمة أمية . ولم يكن لهم فى التاريخ العالمى شأن يذكر . طوقتهم الجغرافية بدول كبرى جبارة كالفرس والرومان والأحباش . دعتهم هذه الدول ذات البطش والجبروت تارة برعاة الإبل ومرة بالحفاة العراة . . فما هو إلا أن بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بهذا الدين الحنيف فأخذ يروضهم عليه ، ويعلمهم بتعاليمه السامية ، ويحفر لهذا الغيث الإلهى مجاريه ومساربه فى أعماق هذه النفوس المتأبية ليبذر فيها البذرة الأولى لكلمة طيبة « كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء » . أمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى . وحث على الوحدة فى جميع أشكالها وصورها ، وحذر من الفرقة ومن كل ما يقرب إليها من قول أو عمل . ودعا إلى توحيد الكلمة كما دعا إلى كلمة التوحيد تماما : وأبرز الفضائل النفسية والفكرية والعملية صورة مجلوة واضحة فى إطار من البلاغة القرآنية التى أخذت بمجامع القلوب أخذا . وسدت على المعاندين منافذ القول سداً . أنذر وبشر ورغب وأرهب . واستعمل من وسائل الإقناع والتربية ما دلت العلوم النفسية والتربوية الحديثة على أنه كان ضرباً من ضروب الإعجاز ، هو الذى بعث فى الأميين

فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ، فماذا بقى بعد وفاة الرسول من نصر ومن أمر ؟ بقى شيء كثير ، فلم تكن رسالة الإسلام موضوعية ودستوره ينادى « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً »[1] ، ولم يكن لأصحاب النبي وورثته الذين رباهم تربية إسلامية سليمة أن يتركوا الجهاد ليتركوا أعداء الإسلام يتربصون به الدوائر ، ويتحينون الفرص للانقضاض عليه واقتلاع جذوره من شبه الجزيرة ، فلم يكن بد من أن تندفع خيل الله كالسيل الجارف من شبه الجزيرة إلى ما والاها فتدك بسنابكها القوية عروش القياصرة والأكاسرة فيمتد ظل الإسلام من الصين شرقا إلى الأندلس غربا بسرعة لم يعهد لها نظير فى التاريخ ، ويتوطد للإسلام ملكه وجلاله فى عهد الدولة الأموية ، ثم تتوطد حضارته وتزدهر فى عهد الدولة العباسية ، ويحدث الإسلام باسم العرب والمسلمين مدنية خدمت العلم والثقافة والفقه والقانون والفلسفة والطب والفلك والموسيقى والطبيعة والكيمياء ، ودفعت الإنسانية بكلتا يديها إلى الأمام أشواطاً ، وكان منها القبس الذى قبسته أوربا فى العصور الوسطى فكان أساساً لنهضتها هاته التى تدل بها اليوم على الإسلام ناسية أنها منه مأخوذة وأنها كانت عليه فى يوم من الأيام تلميذة . وهكذا تفاعلت مبادىء الإسلام وتعاليمه بما طبعت عليه النفسية العربية من خصائص ومزايا فأحدث هذا التفاعل تلك العجائب . وهكذا أثبت العرب بالإسلام وجودهم ، وكان منهم الخليفة الذى يتحدى السحاب أن ينزل فى أرض لا يجبى إليه خراجها ، والقائد الذى تقول له الشعراء :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخلق

وصدق الله وهو يقول لنبيه عن القرآن والإسلام « وإنه لذكر لك ولقومك »[2] . . .

* * *

ترى هل خرجت الأمة العربية الإسلامية اليوم من التاريخ ، فهى على هامشه بعد أن كانت فى صلبه ؟! .

كانت هى الوسط المحمى فاتفضت منها الحوادث حتى أصبحت طرفا

فليس للعرب اليوم بين أمم الأرض خطر : يحكمون ولا يحكمون ، ويساسون

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٠٨ .

(٢) سورة الزخرف الآية ٤٤ .

رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين [١] » .

استجاب لله وللرسول من استجاب . وآمن بهذا الدين من آمن . من أهل الحق والخير الذين استثار الإسلام بجماله وجلاله ما كان كامنا فى نفوسهم من حمية للحق والخير والجمال . تبطنوا الإسلام قبل أن يلتحفوه ، بحبه خفقت قلوبهم لتدفع الدماء إلى عروقها نابضة بحرارة الإيمان وحرارة الحياة معا فيدمائهم وأعصابهم ومشاعرهم امتزج الإسلام فكانوا الشراة الذين باعوا أنفسهم لله . اعتنقوه دينا ودولة . مصحفاً وسيفا . عقيدة وجهادا . رهبانا بالليل وفرسانا بالنهار « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون » [٢] عز جانبهم بالإسلام ، وعز بهم جانب الإسلام ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويحملون على الرجس والأوثان حتى تستحيل بها الجزيرة العربية قبيل وفاة الرسول إسلامية خالصة بيضاء واضحة ليلها كنهارها وينفض الرسول يده من ثلثمائة وستين صنما كانت حول الكعبة يحطمها وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » .

لم ينس ﷺ قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى أن يخط بكفه الشريفة الخطوط الأولى فى خريطة الامبراطورية العربية الإسلامية التى صيرتها فيما بعد أكف المقادير حقيقة واقعة تسامت الخلود . وتتحدى الزمن وتفرض نفسها على التاريخ فرضا . فكتب كتبه التاريخية المشهورة إلى هرقل والمقوقس وكسرى والنجاشى وغيرهم يدعوهم بدعاية الإسلام ليسلموا ، فإن تولوا فعليهم إثم غيرهم ، ثم قال ــ وكأنه يزيد هذه الخريطة إيضاحا ــ « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده . والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله » .

فإذا كان النصر فى حياة النبى قد تم للإسلام والمسلمين فى داخل الجزيرة العربية ونزل على الرسول قوله تعالى « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا

---

(١) الآية . من سورة الجمعة وقريب منها الآية ١٦٤ من سورة آل عمران « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا الآية » .

(٢) الآية ١١١ من سورة التوبة

ولا يسوسون ! كثرة فى العدد وقلة فى العدد، تصدق فيهم نبوءة نبيهم حين قال « ستتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها ، فقال قائل : أمن قلة يا رسول الله ؟ قال : « كلا ، أنتم يومئذ كثرة ، ولكنها كغثاء السيل ، ولينزعن الله مهابتكم من صدور أعدائكم ، وليلقين فى قلوبكم الوهن » ، قالوا : وما الوهن ؟ قال : « حب الدنيا وكراهية الموت » .

فإذا كان ذلك صحيحاً فمن أى طريق خرج العرب من التاريخ ؟ إنهم خرجوا من نفس الطريق الذى دخلوا منه : الإسلام . فالإسلام قوة وعزة ، ونحن فى ضعف وذلة . الإسلام وحدة ووفاق ، ونحن فى فرقة وحزبية عمياء . الإسلام نظام ، ونحن فى فوضى ضاربة الأطناب . الإسلام عمل وجهاد ، ونحن فى نوم وكسل . الإسلام « إيثار » جميل ، ونحن فى « أثرة » مقيتة . الإسلام علم ومعرفة ، ونحن فى جهل وأمية . أعرضنا عما أنزل الله ، فأعرض الله عنا ، وصدقت فينا آيته « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى[1] » .

عبد الغنى عوضه الراجحى

بعض الجرائد

جرائد ما خط حرف بها لغــير تفريق وتضليل
يحلو بها الكذب لأربابها كأنها أول إبريل

حافظ إبراهيم

---

(١) سورة طه الآية ١٢٤ .

أسرار الإسلام

في تعـــــدد الزوجات

تقوم في هذه الأيام حملة شعواء على أحكام الإسلام بحجة الانتصاف للمرأة والانتصار لها . ويقود هذه الحملة قوم لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، ولا يدركون منه إلا رسمه .

ولقد تمادى هؤلاء القوم في عدوانهم ، ولجوا في طغيانهم ، حتى جرءوا المرأة على منازلة الرجل في ميادين الجدل من غير استحياء ، ومهاجمة الشرع في شتى المواقف من غير خجل ، وهي التي كانت عن كثب تهاب الرجل وتخشاه ، وتحفظ الشرع وترعاه .

ومن تلك الأحكام التي صارت غرضاً لسهام الغاوين ، وأضحت مقصداً لمرماها ، حكم تعدد الزوجات في الدين الإسلامي .

فلقد طلعت علينا بعض الصحف اليومية ذات مساء تنشر آراء طائشة ، وأفكاراً ضالة تدعو إلى وجوب تقييد الرجل بزوجة واحدة تمشياً مع حضارة العصر في نظرهم ، وتتهجم على آيات الكتاب وسنة الرسول ، فتؤولها تأويلا يمليه الهوى ، ويدبجه يراع الإلحاد ، وينشره دعاة السوء .

ولقد رأيت من واجبي - إزاء هذه الحملة - أن أبين حكمة هذا التشريع على صفحات هذه المجلة الغراء ، عسى أن يرد الله بها النفوس الشاردة ، ويرشد بها العقول الغاوية ، ويهدي بها الأفكار الحائرة . فأقول :

ثبت بداهة أن كل أمة يزيد عددها ، يرتفع - في الغالب - مجدها ، ويسطع في سماء العز نجمها ، ويرهب لدى الأمم جانبها ، وتسعد في حاضرها ومستقبلها .

وبعكس هذا أمة أصيبت بالعقم الجنسي ، فإن نجمها يأفل ، ومجدها يبيد ، وشأنها يهون وظلها يتقلص حتى تمحى من قائمة الوجود .

وإن أنجع الوسائل إلى نمو الأمم وكثرتها كثرة تورثها القوة والعز ، وتكسبها الشرف والمجد ، هو - بلا شك - تعدد الزوجات الذي أباحه القرآن ، وأرشد إلى سره نبي الإسلام حيث قال : « تناكحوا تناسلوا تكثروا » .

ومن أسرار ذلك التشريع : أن الله سبحانه وتعالى قد أجرى سنته أن يكون عدد النساء أكثر من عدد الرجال ، لما يقوم به الرجال من مهام الأمور : كتدبير أمور الدول وصيانتها ، وتنظيم الجيوش وإعدادها ، ومواجهة الأخطار وصدها ، وإحباط الفتن وقمعها ، وغير ذلك من شئون الحياة التي لا يستطيعها غير الرجال ، والتي تسبب لهم الوهن والضعف ، وتسلم أجسادهم في النهاية إلى الردى والفناء .

فلو أنه حظر على الرجال تعدد النساء في هذه الأحوال ، ومن محتاجات إلى الأزواج في ضرورة الكفالة والتحصين ، لكانت فتنة في الأرض وفساد كبير .

ومن أسرار ذلك التشريع : أن المرأة غير مستعدة للنسل في كل آن ، لأنها عرضة للمرض والضعف ، والكبر واليأس ، والعقم وفقد أسباب النسل .

فلو منع تعدد الزوجات لظل الرجل محروما من الولد ، معذباً بلظى الشوق إليه ، أو وقعت الزوجة في أضرار الفراق . وما ذلك شأن العدل ولا شرعة الإنصاف .

ومن تلك الأسرار : أن بعض الرجال تغلب الشهوة على طباعهم إلى حد لا يصبرون معه على ملامسة النساء ، وقد تكون الزوجة مريضة ، أو غائبة ، أو حائضاً ، أو نفساء .

فلو منع تعدد الزوجات لوقع الرجل الذي هذا حاله في الفاحشة وساء سبيله ؟ .

ومن الأسرار المهمة : أن صاحب الزوجة الواحدة إذا كان يبغضها لدمامتها أو بذاءتها ، وألزمناه بها دون سواها ، فإن العشرة تسوء بينهما ، والهدوء ينقلب إلى ضده ، ويصير البيت جحيما لا راحة فيه .

ولا علاج لمثل هذه الحالة إلا إباحة التعدد الذي يصون الحقوق والنفوس ، ويحقق الصفاء والهدوء .

مما تقدم يتضح ما في إباحة التعدد من حكم سامية ، وفوائد هامة ، يتوقف عليها نظام الحياة ، وتقتضيها ضروريات الوجود .

وقد أدرك بعض الأوربيين تلك الأسرار وغيرها في هذا التشريع الجليل ، فنصبوا من أنفسهم دعاة لتعميمه حتى إن الكاتب الإنكليزي الكبير (برناردشو) قال في كتابه الحياة الزوجية عند الكلام على تعدد الزوجات في الدين الإسلامي :

« إن الدولة الإنكليزية تضطر حسب تقدمها المطرد إلى اتخاذ الإسلام ديناً لها قبل انقضاء القرن العشرين » .

وجاء فى جريدة (لندن تروث) الإنكليزية بقلم بعض الكاتبات الإنكليزيات ما ترجمته: « لقد كثرت الشاردات من بناتنا وعم البلاء، وقل الباحثون عن أسباب ذلك، وإذ كنت امرأة أرانى أنظر إلى هاتيك البنات وقلبي يتقطع شفقة عليهن. وماذا عسى أن يفيدهن بثى وحزنى، وتوجعى وتفجعى وإن شاركنى فيه الناس جميعا، لا فائدة إلا فى العمل بما يمنع تلك الحالة الرجسة. وقد در نبي الإسلام، فإنه رأى الداء ووصف الدواء الكامل للشفاء، وهو الإباحة للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة، وبهذه الواسطة يزول البلاء لا محالة، وتصبح بناتنا بنات بيوت، فالبلاء كل البلاء فى إجبار الرجل الأوربي على الاكتفاء بامرأة واحدة.

أى ظن وخرص يحيط بعدد الرجال المتزوجين الذين لهم أولاد غير شرعيين أصبحوا كلا وعالة على المجتمع الإنسانى؟! فلو كان تعدد الزوجات مباحاً لما حاق بأولئك الأولاد وأمهاتهم ما هم فيه من العذاب الهون.

وإن مزاحمة المرأة الرجل ستحل بنا الدمار، ألم تروا أن حال خلقها تنادى بأن عليها ما ليس على الرجل، وعليه ما ليس عليها، وبإباحة تعدد الزوجات تصبح كل امرأة ربة بيت، وأم أولاد شرعيين.

هذا هو رأى غير المسلمين فى بعض أحكام الإسلام، أما أبناؤه فإنهم يدأبون على التقليل من شأنه، والعمل على محاربة أحكامه بكل ما ملكوا من وسائل وأسباب.

وإن من المطاعن التى وجهوها إلى إباحه تعدد الزوجات فى الإسلام قول بعضهم: إن الرجل الذى يجمع بين زوجتين يعتبر فى نظر المجتمع آثما، لأنه يخلق العداوة بين أبنائه، والبغضاء بين نسائه».

وأقول: إن ما يشاهد من هذه العداوة والبغضاء لم يكن مصدره تعدد الزوجات، بل منشؤه جور الرجل على زوجاته، وعدم عدله بين أولاده. ومن كان هذا شأنه لا يبيح له الإسلام من هذا التعدد شيئا.

ويجدر بنا بعد هذا أن نذكر الدليل على جواز التعدد من كتاب الله تعالى فنقول: الدليل عليه قوله تعالى: « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم، ذلك أدنى ألا تعولوا ».

نزلت هذه الآية قاضية بجواز الجمع بين الأربع من النساء ، وقد بين النبي ﷺ المراد منها حيث قال لغيلان الصحابي الذي أسلم وتحته خمس نسوة : « أمسك عليك أربعا وفارق واحدة » .

فدل كلام المصطفى ﷺ على أن معنى الآية . « فانكحوا مثنى ، أو ثلاثا ، أو رباعا » على التخيير لا التحتيم .

وإن الله سبحانه وتعالى قد أباح الجمع بين النساء ، ولكنه لم يطلق القول بإباحته ، بل حظره على من خاف من نفسه عدم العدل بينهن ، وأمره بالاقتصار على واحدة ، مبيحاً له أن يمسك ما شاء من الإماء المملوكات . فقال جل وعلا « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا » .

ولما كان تمام العدل بين النساء لا يمكن لبشر أن يحققه ، وكان اشتراطه منافياً لسماحة الدين ، لما فيه من شدة الحرج ، تجاوز لنا سبحانه وتعالى عن بعض الأمور كالمحبة القلبية وسائر ما لا يدخل تحت الاختيار ، وحتم علينا العدل في بعضها ، كالمبيت والإنفاق والسكنى ، وسائر ما يدخل تحت الاختيار . فقال جل وعلا : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » .

أي محال أن تقدروا على تمام العدل بين الزوجات بحيث لا يقع جور ما ، ولو حرصتم على إقامة العدل وبالغتم فيه ، فلا تجوروا على المرغوب عنها كل الجور ، فتذروها كالمعلقة التي ليست بذات بعل ولا مطلقة .

وقد كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه ويعدل فيما يدخل تحت الاختيار ، ثم يقول : « اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك » يعني فرط محبته لعائشة .

وبعد فهذه هي أسرار التشريع الإسلامي في إباحة تعدد الزوجات نضرب بها في وجوه الملاحدة الذين يحاولون النيل من سماحة هذا الدين ، والحط من شأنه .

وقد فاتهم أن الإسلام كالطود الشامخ لا تزلزله العواصف ، ولا تؤثر فيه النوازل .

كيف وقد أنزله الحكيم العليم ، ودعمه الرسول الأمين ؟ ! .

عبد الرحيم فرغل البلبيثي
أستاذ بكلية الشريعة

التشريع الاسلامى

فى دراسات أعلام الغربيين وقرارات مؤتمراتهم

يقول الدكتور أريكو أنساباتو فى كتابه (الإسلام وسياسة الحلفاء) :

إذا كان الإسلام فى شكله ثابتاً لا يتغير ، فإنه - مع ذلك - يساير مقتضى الظروف ويستطيع أن يتطور معها دون أن يتضاءل مهما مرت عليه الأزمان ، فهو لذلك محتفظ بحيويته وبمرونته ، ولا يجوز قط أن يهدم هذا الصرح العظيم من العلوم الإسلامية ، ولأن يغفل شأنه ، أو أن تمسه يد بسوء . إنه أوجد للعالم أرسخ الشرائع ثباتاً ، وإنها لشريعة تفوق الشرائع الأوربية فى كثير من التفاصيل .

****

والقانونى الإيطالى (يولاكازيلى) الذى كان مستشارا ملكيا لوزارة العدل ورئيساً لجنة قضايا الحكومة زمناً طويلا هو القائل :

« يجب على مصر أن تستمد قانونها من الشريعة الإسلامية ، فهى أكثر من غيرها اتفاقاً مع روح البلد القانونية » .

****

وفى سنة ١٩٣٢ قرر المؤتمر الدولى المنعقد فى لاهاى للقانون المقارن أن الشريعة الإسلامية مصدر من مصادر القانون المقارن ، وبهذا صارت مصادر القانون المقارن أربعة وهى : القوانين الفرنسية ، والقوانين الألمانية ، والقوانين الانجليزية ، والشريعة الإسلامية

****

وفى سنة ١٩٣٨ انعقد مرة أخرى المؤتمر الدولى للقانون المقارن وأعلن أن الشريعة الإسلامية شريعة مستقلة بذاتها ليس لها صلة بالقانون الرومانى ولا بأى تشريع آخر .

****

وليس بين الغربيين العارفين بحقائق الشرق من لا يؤمن بكلمة جيبون الشهيرة : « القرآن مسلم به من حدود الأوقيانوس الاطلانطيكى إلى نهر الغانج بأنه الدستور الأساسى ، ليس لأصول الدين فقط ، بل للأحكام الجنائية والمدنية وللشرائع التى عليها مدار حياة نظام النوع الإنسانى وترتيب شئونه » .



الدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى

نشره المجمع العلمى العربى بدمشق بتحقيق الأمير جعفر الحسنى جزءان فى ١٥٠٠ ص قالبين

العلماء هم الناس . ومن العناصر الأصلية فى تاريخ كل أمة معرفة حال علمائها ومستواهم الخلقى فى أداء رسالة العلم ، وكلما كثرت المراجع التى تنير طريق المؤرخ وتبين له عمل العاملين لإصلاح حال المجتمع من راع ورعية ، كان ما يسجله من حقائق التاريخ أعمق بحثا وأدسم مادة وأوضح بيانا لحقائق الأشياء ؛ لأن تقدم الأمم ونهوضها نتيجة لعوامل كثيرة من أهمها أمانة العلماء فى أداء رسالتهم لأمتهم ، كما أن تقهقر الأمم وانحطاطها نتيجة لعوامل أخرى من أهمها كفر العلماء برسالة العلم ، وجهلهم أقدار أنفسهم ، وقصور هممهم عن بلوغ ما أراده الله لهم من مرتبة وراثة النبوة .

وكتاب (الدارس فى تاريخ المدارس) لعبد القادر بن محمد النعيمى (٨٤٥ — ٩٢٧) أحد نواب القضاة الشافعية بدمشق من أمتع الكتب فى تاريخ معاهد العلم فى عاصمة الشام وتراجم علمائها فى نحو خمسة قرون (من القرن الخامس الهجرى إلى عصر المؤلف فى القرن العاشر) ، ويجوز لنا أن نعتبره متمماً لتاريخ الحافظ ابن عساكر الذى وصفنا المجلد الأول منه فى الجزء الماضى ، وقد جمع فيه النعيمى ما تشتت فى الكتب السابقة له عن تاريخ العلم ومعاهده وشيوخها ، ومن أهم مراجعه ابن الأثير وأبو شامة وابن خلكان وابن شداد والبرزالى والذهبى وابن الكتبى والصفدى والحسينى وابن كثير والحسبانى وابن قاضى شهبة وقد جاء فى مقدمة الكتاب ص ٢ بلسان تلميذ من تلاميذ المؤلف لم يصرح باسمه قوله : « فلما رأيت غالب أماكن الخير الموقوفة بدمشق الشام اندرست ... سنح لى أن أشرع

بجمع تراجم تحيي لهما ذكرا ... فاذا شيخنا الامام العالم المؤرخ المحقق المدقق محي الدين أبو المفاخر عبد القادر بن محمد النعيمي الشافعي قد سبقني إلى جمع ذلك ، ولكنها عنده في مسودتها إلى الآن ، فسألته في تبييضها على طول الزمان ، فتعلل علي بضعف الحال وهم العيال ، ثم أمرني بتعليق ذلك ناحيا على منواله ، فقابلت أمره بامتثاله ، غير أني ربما اختصرت تراجم متصدريها الأعلام اعتماداً على الطبقات وتواريخ الإسلام » .

إذن فنحن في هذا الكتاب أمام كتاب هذبه أحد تلاميذ العليمي واختصره بعض الاختصار من كتاب شيخه ، والمخطوطات المتداولة من كتاب العليمي كلها من هذا المهذب أو المختصر ، أما أصل العليمي فلم يعثر عليه إلى الآن ، والذين قاموا باختصاره منهم شمس الدين محمد بن طولون وعبد الباسط العلموي وأحمد البقاعي وآخرهم الشيخ عبد القادر بدران المتوفى في القرن الرابع عشر الهجري ، وأغلب الظن أن الشمس ابن طولون هو صاحب هذا التهذيب أو الاختصار لأنه أقربهم من المؤلف .

ومعاهد العلم الدمشقية الموصوفة في هذا الكتاب نحو ثلاثمائة وخمسين بين مدرسة ومسجد وخانقاه وكلها مما كانت تدرس فيه العلوم ويتخرج فيه العلماء . وإن مدينة واحدة من مدن الاسلام يكون فيها مثل هذا العدد من معاهد العلم لبرهان على أن رسالة الاسلام رسالة علم ، ولا غرو فإن المسلمين يتوارثون عن نبيهم ﷺ ما رواه ابن قتيبة في غريب الحديث أن ساعة من العالم على فراشه يتفكر في علم الله تعالى أحب إلى الله من عبادة العابدين أربعين عاماً . وفي هذا قال الامام الشافعي رحمه الله : الاشتغال بالعلم أفضل من صلاة النافلة .

وكان المجمع العلمي العربي بدمشق قد عهد قبل خمس عشرة سنة إلى ثلاثة من أعضائه بمعارضة نسخ هذا الكتاب وبيان اختلافها . ثم قام الأمير جعفر الحسني من أعضاء المجمع بتحقيق الكتاب والاشراف على طبعه فاستعان على ذلك بخمسة وثمانين مرجعاً بين مطبوع ومخطوط . وألحق به فهرسا بأسماء المؤلفات المذكورة في نص الكتاب ، وفهرسا للأمكنة والبقاع والمساجد والمدارس والمعاهد ، وفهرساً للأعلام من رجال ونساء وجماعات . وقد بلغ الكتاب بفهارسه ألفاً وخمسمائة صفحة من قطع صفحات هذه المجلة . وكما أنه

مرجع من أوفى المراجع فى تاريخ العلم والعلماء فى إحدى عواصم الاسلام مدة خمسة قرون ، فهو كذلك مرجع من أوفى المراجع فى الخطط وتاريخ العمران إلى العصر العثمانى الذى انحطت فيه الأمة وبلادها ودرست معالم العلم فيها على ما ذكره المؤلف .

فشكراً للمجمع العلمى العربى ورجاله على مساهمتهم فى نصيب كبير من مهمة البحث والإحياء العلمى مدفوعين إلى ذلك برغبة صادقة من خدمة العلم احتساباً لوجه الله ، ولذلك تأتى أعمالهم وعليها طابع التجويد والاخلاص .

أسماء جبال تهامة وسكانها

وما فيها من القرى وما ينبت عليها من الأشجار وما فيها من المياه

لعرام بن الأصبغ السلمى

نشره وجيها الحجاز الشيخ محمد نصيف والشيخ يوسف زينل
بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون

لما كان حفاظ السنة وأئمتها يطوفون البلاد ليلقوا الشيوخ المسنين من رواة الحديث الأولين فيتلقوه عنهم ليدونوه ويحفظوه ، كان حفظة اللغة وأئمتها يقومون للغة القرآن بمثل هذه العناية فيتنقلون فى البادية ليلقوا علماء الأعراب فيحفظوا عنهم مفردات اللغة وشواهدها من الأشعار والأمثال ، وليتعرفوا منهم أسماء بقاع الجزيرة العربية من جبال وأودية ومنازل ومياه ، وأسماء ما فيها من نبات وشجر ، فيدونوا ذلك فى الكتب قبـــل أن يموت العلم بموت أهله .

ومن المراجع العريقة فى القدم للمواد الجغرافية فى الوطن العربى هذا الكتيب النفيس من علم عرام بن الأصبغ أحد علماء الأعراب من بنى سليم ، وهو كما يقول ابن النديم فى الفهرست أحد أقران أبى الهيثم الأعرابى وأبى المجيب الربعى وأبى الجراح العقيلى ، وكانت الأيام قد جمعت بهذا العالم الأعرابى عالماً من أهل الحضر فى صدر القرن الهجرى الثالث ،

وهو أبو الأشعث عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك الكندى ، فناق العالم الحضرى عن العالم الأعرابى كل ما فى هذا الكتيب من المعلومات ، وكان يستمليها منه فيمليها عليه ، ثم تلقاها عن أبى الأشعث الكندى تلميذه عبد الله بن عمرو الأنصارى الوراق المعروف بابن أبى سعد (١٩٧ — ٢٧٤) وتلقاها عن ابن أبى سعد تلميذه عبيد الله بن عبد الرحمن السكرى المتوفى سنة ٣٢٣ ، وأخذها عن عبيد الله السكرى تلميذه أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافى القاضى (٢٩٠ — ٣٦٨) .

وكتاب عرام السلمى كان المظنون أنه فقد مع ما فقد من تراثنا القديم ، غير أن العلماء كانوا يتعزون عن ذلك بانتشار نصوصه فى معاجم البلدان ، ولا سيما كتاب معجم ما استعجم لأبى عبيد البكرى علامة الأندلس ، ثم ظهرت مخطوطة من هذا الأصل فى المكتبة السعيدية بحيدر أباد (بمجموعة رقم ٣٥٥ حديث) كتبت سنة ٨٧٦ ، ولكنها بخط نسخى غامض ردىء وكثيرة التحريف والتصحيف ، ومخطوطة ثانية نقلت عنها بخط الشيخ ابراهيم حمدى مدير مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة بالمدينة فنسخ صورة منها الشيخ سليمان الصنيع من أفاضل المملكة العربية السعودية ، وقد عنى بمراجعتها وتحقيق بعض مواضع منها ، وكذلك وجد عين أعيان الحجاز الشيخ محمد نصيف مخطوطة ثالثة نقلها الشيخ عبد الرحمن بن يحيى اليمانى عن الأصل الهندى ، وأنت ترى أن الأصل فى هذه النسخ واحد وهو المحفوظ فى المكتبة السعيدية بحيدر أباد ، فعهد وجيها الحجاز وعينا أعيان أفاضلها الشيخ محمد نصيف والشيخ يوسف زينل إلى حضرة الفاضل المحقق الأستاذ محمد عبد السلام هارون بأن يحقق هذا الكتيب ويعنى برده إلى أصله بقدر الطاقة ، فقام بذلك خير قيام مستعيناً بمعاجم البلدان وكتب اللغة وغيرها ، فجاء فى ١١١ صفحة من قطع الجاير مزيناً بفهرس للبلدان والأماكن وآخر للأعلام ، وثالث للقبائل والطوائف ، ورابع للنبات والشجر ، وخامس للحيوان ، وسادس للقوافى ، وسابع اللغة ، فشكراً للناشرين الكريمين على سعيهما بإحياء هذا الأصل القديم خدمة خالصة منهما للعلم ، وهذا هو دأب الشيخ محمد نصيف حفظه الله فى مواصلة السعى والعمل والإحياء فى كتب العلم النافعة .

كنوز الأجداد

للأستاذ محمد كرد علي

نشره المجمع العلمي العربي بدمشق – في ٤٣٨ صفحة قالبين

الأستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العربي بدمشق من رجال هذا العصر الذين عاشوا للعلم ودأبوا على خدمته من ستين سنة إلى الآن . وكان مما عنى به في عشرات السنين دراسة تراجم علماء هذه الأمة وقادة الأدب والفكر في مختلف الأمصار والأعصار ، وتسجيل أعمالهم ، وجرد تركتهم ، ووصف ما خلفوه لنا وللإنسانية من تراث خالد على الدهر . وكتابه هذا (كنوز الأجداد) يتضمن تراجم بضع وخمسين إماماً من أئمة الدين والعلم والأدب كتبها الأستاذ المؤلف في سنوات مختلفة ونشر كثيراً منها في مجلة المجمع العلمي العربي أو في أوائل بعض المؤلفات التي تولى الأستاذ كرد علي نشرها وترجم لأصحابها . وأكثر ما يعنى به في ترجمة الرجال وصف علمهم وأدبهم ونواحي اختصاصهم والتعليق على ذلك في مواطن العبرة من أعمالهم . وقد أحسن كل الإحسان بجمع هذه التراجم في هذا الكتاب النفيس الذي يضارع أجود كتب التراجم المشهورة كوفيات الأعيان للقاضي ابن خلكان وإرشاد الأريب لياقوت .

وقد تولى الأستاذ صلاح الدين المنجد وضع ثلاثة فهارس له أحدها للكتب المذكورة فيه ، والثاني للأعلام والثالث للبلدان ، وفاته أن يفرد الفهرس الأساسي لأسماء المترجم لهم والدلالة على مواضع تراجمهم من الكتاب ، أما إدراج أسمائهم في عامة أسماء الأعلام فلا يغني عن ذلك الفهرس .

الكتاب الذهبي لمهرجان ابن سينا

نشرته الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية في ٤٦٣ صفحة قالبين

(و ٦٩ صفحة القسم الافرنجي)

كانت الأمة العربية قد احتفلت بمرور ألف سنة على علمين من أعلام الأدب والفكر وهما أبو الطيب المتنبي وأبو العلاء المعري ، ثم اشتركت لجنتان من مصر والعراق في إقامة

مهرجان ذهبي في بغداد لمرور ألف سنة على وفاة أبي علي بن سينا ، فعقد في هذا المهرجان عشر جلسات : واحدة افتتاحية ، وأخرى ختامية ، وثمان بينهما للدراسة والبحث ألقي فيها ثلاثة وثلاثون بحثا وتسع محاضرات ، وقد دارت مناقشات حول أصل ابن سينا ونسبه وتاريخ مولده وعقيدته وعلاقته بالشيعة والإسماعيلية ، وهل فلسفته ملحدة وتصوفه ستر لهذا الإلحاد . وقد تبين من النقاش بما لم يبق معه مجال للشك أن ابن سينا نشأ في وسط إسماعيلي وأنه تأثر بدعاة الإسماعيلية وتعاليمهم التي كانت منتشرة في عصره . وإن البحث القيم الذي ألقاه الأستاذ عباس العزاوي في اليوم الثالث من أيام المهرجان بعنوان « ابن سينا وأثره في التصوف » من أجود ما قيل في هذا المهرجان وأكثره تحقيقا . والحق أن ما عرض في هذا المهرجان من بحوث عن ابن سينا قد ألم بجميع نواحي حياته وإنتاجه . ولذلك أحسنت الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية كل الإحسان بجمع هذه البحوث كلها ونشرها في كتاب ذهبي نفيس جاء في ٥٣٠ صفحة من قطع هذه المجلة .

تاريخ الدعوة الاسلامية في الهند وباكستان

للأستاذ مسعود الندوي ـ نشرته لجنة الشباب المسلم ـ في ١٩٠ ص

إن اتساع نطاق التعاون بين مسلمي باكستان والهند وإخوانهم في الأوطان العربية والبلاد الإسلامية ، منذ قامت للإسلام هذه الدولة الجديدة في ربوع الهند ، قد أشعرت الفريقين بالحاجة إلى زيادة التعارف . وقد كان من نتائج ذلك ظهور هذا الكتاب اللطيف بقلم الأستاذ مسعود الندوي معتمد دار العروبة للدعوة الإسلامية في باكستان وصاحب مجلة الضياء التي كانت تصدر بالعربية في مدينة لكنو ومترجم مؤلفات الداعية الإسلامي الكبير أبي الأعلى المودودي من الأوردية إلى العربية . وآخر أعماله العلمية النافعة هذا الكتاب (نظرة إجمالية في تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند وباكستان) ذكر فيه بداية دخول الإسلام إلى القارة الهندية وتطور انتشاره ، ثم محاولة الملك أكبر في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري الكيد للإسلام بتقليص ظله ، وظهور المجاهد المصلح المجدد أحمد السرهندي ووقوفه في وجه ذلك الملك الطاغية حتى تغلب عليه بإخلاصه وعزيمته وتقواه ، وقيام العلماء

بعده يمثل هذا الجهاد وفى مقدمتهم الشيخ عبد الحق الدهلوى وولى الله الدهلوى وتلاميذه ، ثم الإمامان الشهيدان السيد أحمد بن عرفان والشيخ اسماعيل حفيد ولى الله الدهلوى ، فاستعرض المؤلف حالة مسلمى الهند الدينية فى العصور الثلاثة الماضية وما طرأ عليها من شرور وما يسر الله لها من قيام العلماء الأعلام الأبرار لإرجاع الناس إلى سنة نبيهم وتعريفهم بدينهم والسير بهم فى طريقه المستقيم ، إلى أن تأسست معاهد العلم الإسلامية النافعة وفى مقدمتها مدرسة ديوبند ثم ندوة العلماء ودار العلوم التابعة لها ، وموقف مسلمى تلك الديار وحركاتهم السياسية والتحريرية التى قاموا بها على بصيرة من الله ، وما كان يعترضهم من ضلالات مبثوثة وأباطيل ألبست لباس الدين وليست منه ، ثم انتهى هذا الكفاح الإصلاحى بقيام دولة باكستان ، فانبرى حينئذ أهل النزعات المختلفة فى التعصب لنزعاتهم ومحاولة التأثير على الأمة لاستمالتها اليهم ، وموقف دعاة الإسلام الصحيح من ذلك كله ، وما قاموا به لدين الله من الدعوة إلى سبيله بالحكمة واليقظة والموعظة الحسنة فكتب الله لهم التوفيق بأكثر مما كانوا يرجون .

إن هذا الكتاب على إيجازه يقدم للمسلمين فى الأوطان العربية والأقطار الإسلامية صورة صحيحة لحيوية الإسلام وتطورها فى القارة الهندية ، وقد كتب مقدمته رئيس تحرير هذه المجلة معرفا قراءه بصديقه القديم الأستاذ مسعود عالم . وقد تولت نشره لجنة الشباب المسلم المؤلفة من أفاضل أبنائنا الجامعيين فى مصر ، وقد سبق لها نشر الكتب النافعة التى نوهنا بها غير مرة . والكتاب مختوم بفصل عقبت به اللجنة على ما ورد فيه ، ملخصة أبوابه ، ومشيرة إلى مواطن العبر منها . وهو بلا شك كتاب طريف لا نعرف فى العربية كتابا يغنى عنه فى بابه .

أحاديث الثلاثاء بدار السلام

نشرتها دار السلام للنشر — فى ٧٢ ص قالبين للقسم العربى ، و ١٤٠ ص للقسم الفرنسى

فى مصر مرافق ومعاهد وندوات للعلم قد لا يعرف المشتغلون بالعلم شيئا عنها ، ومنها ندوة اسمها « دار السلام » تألفت من فريق من الفرنسيين والشرقيين للبحوث الفلسفية

والصوفية على اختلاف مصادرها البرهمية أو المسيحية أو الإسلامية أو غيرها ، وقد أهدى إلينا من أعمالها كتاب بالعربية والفرنسية عنوانه «أحاديث الثلاثاء بدار السلام سنة ١٩٥١» اشتمل على النص الفرنسي والترجمة العربية لمقال كتبه المستشرق الأستاذ لويس ماسينيون بعنوان « قيمة الكلمة الانسانية كشهادة » وقد عنى فى هذا المقال بتحديد الطريقة الحسنة لقراءة الكتب السماوية ، والذين يعرفون الأستاذ ماسينيون يعرفون مشربه الصوفى ونظرته من هذه الجهة إلى المأثور من أقوال الحلاج وأمثاله ، وبهذا المشرب ومن هذه الجهة ينظر إلى التوراة والأناجيل وسائر الكتب السماوية ، وقد لا يوافقه علماء جميع هذه الديانات على فهمه وتفسيره وتلقيه لكل ذلك ، وقديما افترق الطريق الصوفى عن الطريق الشرعى حتى عند أهل المنبع الأول للتصوف وهم براهمة الهند ، ومن باب أولى فى اليهودية والمسيحية والإسلام ، غير أن هذا لا يؤيس المتعلقين بالتصوف من مواصلة السير فى طريقهم على أمل أن يتفاهموا ويتقاربوا مهما اختلفت نسبتهم الدينية ، ولعل هـــذه هى مهمة دار السلام وأحاديث الثلاثاء فيها .

ويأتى بعد مقال الأستاذ ماسينيون فى هذا الكتاب بحث مستفيض للأستاذ لويس غارديه عنوانه « البحث عن (المطلق) فى التصوف المسيحى والتصوف الإسلامى والتصوف الهندى » وهو ينقسم إلى خمسة أبواب أولها فى « التعاش نحو المطلق » والثانى عن « اليوغا الهندى فى شكله الكلاسيكى » والثالث عن « حالات الانفراد والتجربة الصوفية » والرابع « التجربة الصوفية فى نظر ابن سيناء » والخامس « معرفة الله ومحبته عند الفلاسفة والمتصوفة » .

إن الفرنسيين الأفاضل الذين يشتغلون بهذه البحوث لا يشتغلون بها باعتبار أنها بحوث تاريخية ، بل يظهر من كتاباتهم أنهم هم أنفسهم صوفيون وأصحاب دعوة ، ومن أغراض دعوتهم أن يكون فيها تجاوب بين متصوفى أهل الديانات المختلفة ، ونحب أن نقول فى هذا المقام إن الإسلام هو الإسلام ، والتصوف الذى ينحرف عن ظاهر نصوصه لا يجوز أن يسمى تصوفا إسلامياً ، بل إن الإمام الشافعى كان يكره هذه التسمية ، وله فى ذلك كلمة مشهورة رواها عنه الحافظ أبو نعيم فى حلية الأولياء وأبو الفرج بن الجوزى فى صفة الصفوة ، والإسلام دقيق جداً فيما ينتسب إليه وما يخرج عنه ، وأكثر ما يسميه المستشرقون تصوفا إسلامياً لا يلتقى مع الإسلام فى طريق .

فاتح مصر عمرو بن العاص

الأستاذ صابر عبده ابراهيم من شباننا الأفاضل المعروفين بنشاطهم وإنتاجهم ، وقد سبق له قبل ست سنوات نشر سلسلة من الرسائل فى تراجم الصحابة رضى الله عنهم كان لها جميل الحظوة بين شباب المسلمين . وهو الآن يستأنف نشاطه بالشروع فى سلسلة أخرى أهدى إلينا الحلقة الأولى منها عن فاتح مصر العظيم (عمرو بن العاص) رضى الله عنه ، وقد اعتذر المؤلف عن الإحاطة بسيرة هذا الصحابى الجليل بأن أعماله وجهاده ونبوغه وعبقريته ليس من المعقول أن يتسع لها كتاب كهذا الكتاب ، لأن تاريخه فى الجاهلية والإسلام حافل بعظائم الأعمال التى تدعو إلى البحث والنظر فى سر القوة الكامنة فى هذا الرجل القوى . ومع ذلك فإن المؤلف استعرض من سيرة هذا الداعية الأول إلى الإسلام فى مصر ما وسعه المقام من عظيم أعماله ، فجاء كتابه فى ١٢٥ صفحة . فنرجو لهذه السلسلة الجديدة من (أعلام الصحابة) ما لقيته السلسلة السابقة من الإقبال عليها والانتفاع بها .

القعقاع بن عمر التميمى وبلاؤه فى الاسلام

للأستاذ عبد الله قاسم صقر

القعقاع بن عمرو من أفاضل الصحابة وشجعانهم وأهل الرأى والعدالة فيهم ، وقد كانت له مواقف فى الجهاد الإسلامى مدة الخلفاء الراشدين استعرض الأستاذ عبد الله قاسم صقر أخبارها فى كتب التاريخ ، وجعلها فى كتاب بلغ ٩٢ صفحة مرتبة بحسب تاريخ وقوعها ، وعنى بما للقعقاع من الشعر فأورده وفسره ، فكان كتابه بذلك كتاب تاريخ وأدب . جزاه الله خيراً .

الأدب والعلوم في شهر

انحطاط التعليم الثانوى

قال الدكتور محمد عوض محمد مدير جامعة الاسكندرية فى حديث له مع مندوب جريدة المصرى : « إن الجامعات فى مصر كلها مزدحمة ازدحاما شديداً لا يتفق ورسالة التعليم الجامعى وهى تخريج قادة الأمة فى مختلف الميادين .

« ويكاد الاجماع ينعقد على أن التعليم الثانوى بحالته الراهنة لا يؤهل للتعليم الجامعى ، وليس جميع الحاصلين على شهادة التوجيهية بقادرين - لا من حيث الاستعداد ، ولا من حيث دراساتهم - على الالتحاق بالجامعات . وبانحطاط المستوى العلمى للطلاب لم يكن هناك مفر من انحطاط مستوى التعليم الجامعى أيضاً ، حتى لقد انتشر فى كثير من الأقسام الدراسية بكل الكليات - بدلا من إلقاء محاضرة - أن يملى المدرس إملاء على الطريقة التى تتبع فى المدارس الثانوية . فمن الضرورى أولا رفع مستوى التعليم الثانوى وشهادة التوجيهية بصفة خاصة .

سياسة التعليم خاطئة

حتى فى التعليم الصناعى

زار وزير التجارة والصناعة الغرفة التجارية فى القاهرة ودارت بينه وبين أعضاء مجلس إدارتها أحاديث مهمة ، منها أن أحد الأعضاء أشار إلى مشكلة الحاجة إلى الكتبة التجاريين إذا حتم القانون على تجار مصر جميعاً وعددهم حوالى ستمائة ألف تاجر أن يمسكوا دفاتر قانونية ، فأجاب الوزير :

« إن التعليم الفنى فى مصر قد مات . وكما نشكو فى مصر من أن الطبقة المتوسطة فى المجتمع قد ماتت نشكو أيضاً من أن التعليم الفنى الذى يخرج رؤساء عمال فنيين أو كتبة تجاريين غير موجود . وليس فى مصر مدارس تخرج من الفنيين من هم بين مركز المهندس والعامل . وكل المدارس الصناعية فى مصر

تخرج موظفين للحكومة فقط ، مع أن عصب الصناعة فى العالم هو « الاسطى » أو « العامل المتعلم » . وأعتقد أن هذا سببه أن سياسة التعليم الصناعى فى مصر سياسة خاطئة ، وأنه يجب أن يكون التعليم الصناعى فى مصر وفقاً لأحدث النظم فى البلاد الصناعية ليخرج عمالا فنيين مهرة » .

مكتبات فى المساجد

دعا الرئيس اللواء محمد نجيب المواطنين إلى قضاء جانب من أوقات فراغهم فى المساجد ، وعلقت (الأهرام) على هذا النبأ بأن وزارة الأوقاف تحسن صنعاً لو نظمت ـ بمعاونة وزارة المعارف ـ مكتبات علمية وأدبية تزود بها المساجد ، فتحبب إلى المواطنين قضاء أوقات فراغهم فيها وتقرن العلم بالدين .

والمسجد فى التاريخ الإسلامى معهد علم ، ومجمع أدب ، وكان فى بعض أدوار التاريخ محكمة للقضاء العام ، وداراً للشورى ومركزاً للقيادة والاستعداد للجهاد . ولم تسقط منزلة المسلمين وتنحط أخلاقهم إلا منذ اخترع لهم إبليس هذه المقاهى وحشرهم فيها ، فخسروا دنياهم وآخرتهم . ومن العجيب أن جميع أمم الأرض لا تكثر المقاهى فى أمة منها كما تكثر فى بلادنا معاشر المسلمين !

معلم المدرسة وضابط الجيش

فى خطبة ألقاها الرئيس اللواء محمد نجيب عن التعليم قال : « نظريتى فى التعليم هى أنه السبيل إلى إعداد المواطن الصالح الذى يحسن التصرف فى الأمور ، ويكون له من الغيرة الوطنية قدر وفير . ولهذا أعتقد أن المعلم هو النواة الأولى فى هذا السبيل . فالمعلم يعد المواطنين ، والضابط يعلمهم الجهاد . وأنا أضع التعليم فى المحل الأول من عنايتى . فإن رجال التعليم لا يقلون فى نظرى عن ضباط الجيش وجنوده ، بل إن المعلمين بمثابة جنود المقدمة أو الفرسان لأنهم يضعون الحجر الأول فى سبيل إعداد جيل سليم . والمعلم فى حرب طول حياته ، الأمر الذى يجعل له عندنا مكانة خاصة » .

الكتب فى المدارس الأهلية

كانت وزارة المعارف توزع كتب الدراسة على تلاميذ المدارس الأميرية التابعة لها . وفى الأيام الأخيرة قرر مجلس الوزراء أن يكون نظام الكتب شاملا المدارس الأهلية أيضاً فتوزع على تلاميذها كما توزع على تلاميذ المدارس التابعة للوزارة .

أنباء العالم الإسلامي

تصرفات الإنجليز في السودان :

من دواعي الأسف الشديد أنه قبل أن يجف المداد الذي كتبت به الاتفاقية التي عقدت بين مصر وبريطانيا بشأن السودان ، أخذت ترد إلى مصر من مختلف أنحاء السودان شكاوى صارخة من المعاملة السيئة التي يعامل بها الإداريون البريطانيون في الأقاليم الجنوبية من السودان بعض الزعماء الذين وقعوا اتفاقات مع مصر وكثيرين غيرهم من الأهلين وقد ورد في هذه الشكاوى أن زعماء ورجالا عديدين ألقوا في غياهب السجون ، وإن الإداريين البريطانيين في السودان عادوا إلى سيرتهم الأولى من الالتجاء إلى التهديد والوعيد ، وجميع هذه الأعمال لا تتفق في شيء مع ما تنص عليه الاتفاقية التي قالت مصر عقب توقيعها : إن العبرة في تنفيذها تنفيذاً دقيقاً وسليما .

وقد صرح الرئيس اللواء محمد نجيب تعليقاً على هذه الحقائق بأن الإداريين البريطانيين خرجوا على الاتفاقية ، وأقاموا الدليل الملموس على عدم توفر حسن النية عندهم. قال : « وهذا ما يحملنا من غير شك على عدم الثقة بهم والاطمئنان إليهم في إبرام أية معاهدة معهم » .

ثم قال بلهجة قوية « لقد اختار الحسيبان النسيبان والزعيمان الكبيران السيد عبدالرحمن المهدي والسيد علي الميرغني المندوبين السودانيين في لجنة الانتخابات ، ووافقنا على اختيارهما ، ومع ذلك فقد اعترض الجانب البريطاني على هذا الاختيار من غير ما سبب ، وبلا أدنى موجب ، ويترتب على هذا الاعتراض تأخير إجراء الانتخابات في حين كان الواجب على الجانب البريطاني أن يوافق هو الآخر على اختيار هذين المندوبين ما دام أصحاب الشأن الأول هم الذين اختاروهما ثم وافقنا نحن على هذا الاختيار » .

وقال : « لقد وردت إلينا من مصادر رسمية وغير رسمية أنباء عن ازدياد حوادث التعسف والاضطهاد . وطلب الكثيرون من المواطنين السودانيين العمل على إيفاد هيئة دولية للتحقيق في هذه الحوادث . كما وردت أنباء عن محاولات يعمد هؤلاء الإداريون البريطانيون إلى اتخاذها دون حساب ولا مبالاة ، وذلك بتعيين موظفين بريطانيين في وظائف ثابتة كالوظائف القضائية وغيرها ،

لإبقائهم فى السودان أطول مدة ممكنة ، وهذا عمل لا يجوز الإقدام عليه ، بل ولا التفكير فيه ، إلا بواسطة لجنة الحاكم العام التى تنص عليها الاتفاقية » .

ثم ختم الرئيس تصريحاته بلهجة الحزم والعزم الشديدين قائلا : « إننا إذا اتفقنا ، فإن رجولتنا الحقة هى التى تصون هذا الاتفاق وتنفذه بحذافيره . ونحن رجال نعرف حق المعرفة كل ما لنا فنحصل عليه ، وكل ما علينا فنعطيه لصاحبه . ولست أدرى كيف تتوفر الثقة عندنا وتنبعث الطمأنينة فى نفوسنا لنعمل اتفاقا آخر مع الانجليز وهذا موقفهم العجيب من اتفاقية أبرمت بيننا وبينهم يوم ١٢ فبراير الماضى ، أى لم يمض بعد شهر واحد على إبرامها ، وهذا ما يجب أن يكون واضحا من جانبنا لهم ، فليتدبروا الأمر ، ولنا بعد ذلك ما نريد » .

واحة البريمى

هذه الواحة واقعة بين أراضى المملكة العربية السعودية وأراضى عمان ومسقط المحمية من الإنجليز . ولما زار سلطان مسقط وعمان فى المدة الأخيرة العاصمة البريطانية ووقع مع حكومتها اتفاقية جديدة ، أخذت تنتشر من لندن الأخبار عن اختلاف على واحة البريمى ، وعن تدخل الإنجليز فى هذا الأمر بصفتهم أصحاب الحماية على أراضى مسقط وعمان ، وعرضوا الالتجاء إلى التحكيم فى هذه المسألة ، فعقب على ذلك متحدث باسم وزارة الخارجية السعودية بأن حكومته تطلب استفتاء سكان المنطقة فى أمر تابعيتهم لأنهم أهل الحق فى ذلك ، ولا ترى الالتجاء إلى تحكيم أحد . ومع أن بين الحكومتين اتفاقاً على وقف كل نشاط عسكرى فى هذه الجهة ، فإن ممثلى الحكومة البريطانية فى الخليج الفارسى قاموا بإجراءات سريعة فحلقت طائراتهم على الواحة بقصد التأثير على أهلها ، وساقوا قوات مسلحة من الجنود الذين جلبوهم من بعض البلاد العربية لإلزام الأهالى بالخضوع .

ولما لم تجد الاتصالات الودية لمنع هذا التعدى قامت الحكومة السعودية — عملا بالمادة ٣٣ من ميثاق الأمم المتحدة — بتوسيط الولايات المتحدة الأمريكية فى الأمر . وإن الحكومة السعودية تستند فى ملكيتها لهذه المنطقة إلى التاريخ والواقع ، وإلى أن سكان واحة البريمى يدينون بالطاعة للحكومة السعودية هم وآباؤهم وأجدادهم من قبل ، وقد ظلت هذه المنطقة تحت حكم السعوديين إلى المدة التى غاب فيها والد الملك عبد العزيز عن قلب الجزيرة وهى مدة إحدى عشرة سنة ، ثم عاد ابنه الملك عبد العزيز بعد تلك الفترة وبسط سلطانه على البريمى وغيرها ، ومازال الأمر على ذلك من ٥٢ عاما بلا منازع .

الوحدة العربية :

يظهر أن مبدأ « الاتحاد » فى مصر سيكون خطوة نحو الوحدة العربية والتعاون بأسلوب أقوى بين الشعوب الناطقة بالضاد . ولذلك دلائل متعددة أحدها قول البكباشى جمال عبد الناصر لمدير القسم العربى بإذاعة صوت أمريكا صباح يوم ١١ جمادى الآخرة (٢٥ فبراير) : « إن الشعوب العربية قاطبة — كشعوب — تشعر بالرغبة التواقة الى الوحدة وأقول لك عن مصر صادقا : إننا نعد أى عربى نزيه مخلص أخا لنا وواحدا منا . وتجاه هذا الشعور السارى فى صفوف الشعوب العربية جمعاء فإنه ينبغى للأمم الصديقة أن تلمس هذه الرغبة المشتركة بين العرب وألا تنتقص منها أو تستخفها ، وألا تحاول وضع العراقيل فى سبيل تحقيقها » .

وقال له أيضا : إن أمة قوية غنية كالولايات المتحدة قادرة على استرداد ما كان لها من منزلة شريفة بيننا وفى أرجاء العالم العربى قاطبة إن هى وعت وأدركت الرغبة الصادقة لشعوب هذه المنطقة ، وفهمت عزم هذه الشعوب على أن تعيش إلى جانب الأمم الأخرى وتعامل معها تعامل الأحرار المستقلين . وكما قال لكم الرئيس اللواء محمد نجيب فإننا نرى فى الواقع تشابها كبيرا بين هذه المرحلة من تاريخنا فى مصر والمرحلة الأولى من تاريخ تحرير أمريكا ، لا من الحكم الأجنبى فحسب ، بل تحررها أيضاً من الفوضى والفساد فى الداخل » .

من هو الأجنبى فى البلاد العربية ؟

صدر مرسوم جديد فى سوريا يتناول تنظيم بعض أمور الجيش فى الحرب والسلم ، ومما جاء فيه أنه « يحظر على العسكريين الزواج من أجنبيات » . وتنص هذه المادة على أن « المرأة العربية لا تعتبر أجنبية » .

تعاون المسلمين جميعا :

عادت من باكستان البعثة العسكرية المصرية التى زارت تلك البلاد الاسلامية أخيرا ، وفى الاحتفال باستقبالها خطب الرئيس اللواء محمد نجيب فقال : « لقد سرنى كثيراً ، ما سمعته عن النهضة المباركة فى باكستان ، مما ينشرح له صدر كل مصرى . وأرجو الله أن يحقق آمالنا ، وأن يقرب اليوم الذى نجد فيه جميع أبناء البلاد الإسلامية والعربية متكاتفين ، حتى تقف جميعاً جبهة واحدة أمام الخضم الكبير من الأطماع » .

المسلمون فى الحكم الشيوعى

يرهن الشيوعيون فى ظل حكمهم الذى يسيطرون على بخارى وخيوة والقرم والقفقاس وسائر الأقطار الشرقية الداخلة فى نطاق حكمهم

على أنهم أشد ملل الأرض تعصباً لعقائدهم واضطهاداً لعقائد غيرهم .

فقد جاء في كتاب انتشر في الشهر الماضي بقلم البروفسور والتر كولارز من علماء تشيكوسلوفاكيا وصف مطول لحالة دول آسيا الوسطى ، وكانت حتى في العهد القيصري تدين بالإسلام وتعتز بالثقافة الإسلامية . فسرد البروفيسور كولارز - بصراحة - قصة التوغل الشيوعي في هذه الدول وشرح كيف تحامل الشيوعيون على الإسلام واعتدوا عليه وحالوا دون نشر الثقافة الإسلامية في أوطانها الصميمة التي ظهر منها أعلام الإسلام كالإمام البخاري ، ثم حملوا شعوب هذه الدول على نبذ اللغة العربية ، وفرضوا عليهم الحروف اللاتينية ، ثم اللغة الروسية ، واعتقلوا قادة المسلمين ورجال الدين والفكر ، وصادروا المصاحف والكتب الدينية ، وألغوا مناهج التعليم الإسلامي ليحولوا دون نشوء أجيال أخرى مؤمنة بهذا الدين . ولم يكتفوا بذلك بل جعلوا اللغة الروسية هي اللغة الرسمية في هذه البلاد الإسلامية من سنة ١٩٣٩ إلى الآن ، وبسبب ذلك فقدت تلك البلاد طابعها الإسلامي ، ونشأ شبانها الأحداث لا يدرون شيئاً عن الإسلام ولا يشعرون بعلاقة بينهم وبين المسلمين أو الماضي الإسلامي . بل إن روسيا دربت عدداً كبيراً من أبناء المسلمين في مدارسها ثم أعادتهم إلى بلادهم وعلى رأسهم المدعو (أفندي كابييف) الكاتب التترى الذي كتب في أحد مؤلفاته يقول : « أيتها اللغة الروسية العظيمة ، إنني أركع تحت أقدامك ، وأسألك أن تنشرى فوق جناحيك ، لأن جناحيك رحمة وبركة » .

الإصلاح يبدأ بالأمعون

شكا السيد سامي الصلح رئيس الوزارة اللبنانية السابق إلى مندوب جريدة الأخبار الجديدة ما يلقاه رجال الحكم من الصعوبات بسبب فساد الأخلاق فقال عن الحالة في لبنان :

« إن إصلاح الحال من المحال : فالتربية السياسية عندنا بحاجة إلى معالجة سريعة ، والحاكم بيننا لا يستطيع أن يحكم بدون تأييد قطاع الطرق ومهربي الحشيش ، والزعيم بيننا لا يتزعم إلا بنفوذ أصحاب أندية القمار والمشردين والمطاردين أمام القانون . ومن هؤلاء وهؤلاء يستجدى الحاكم والزعيم نفوذه وسلطانه .. ولعنة الله على الزعامة التي لا تأتي إلا عن هذا الطريق ، ويا ضيعة الحكم الذي لا يتحقق إلا بتأييد هؤلاء وهؤلاء . إن الرجال الذين تعاونوا مع الانتداب .. ثم تعاونوا مع عهد الاستقلال .. ثم تعاونوا مع الشيخ بشارة الخوري .. هم اليوم - بأنفسهم - أبطال هذه الأيام » .

الروتين الحكومى

خطب الأستاذ محمد فؤاد جلال (وزير الإرشاد القومى) فى قاعة يورت الأمريكية ، فكان مما قاله عن إصلاح الإدارة الحكومية : « إن أداة الحكم هى ذلك المخلوق الخطير المترامى الأطراف الذى أنشىء جهازه منذ أكثر من مائة عام وظل يتسع شيئاً فشيئاً . والثورة (يعنى تطور العهد الجديد) إما أن تقتل « الروتين » ، وإما أن يقتلها الروتين . وليس هناك حل وسط . ولذلك اتجهت الثورة إلى قلب الأوضاع فى نظم الأداة الحكومية قلبا أساسيا يجعل من هذه الأداة المعوقة أداة فعالة تستهدف ما تستهدفه الثورة نفسها ، بل تصبح جزءا منها . وهنا لانجد الأمر هيناً كما وجدناه فى الخطوات السابقة التى لم تكن فى ذاتها هينة . فان الأداة الحكومية قد وضعت لنفسها نظما وقوانين وتقاليد بالمتون والشروح والحواشى ، وجعلت لنفسها دهاقنة وكهانا لا تفلت من بين أصابعهم الدقيقة شعرة ، فأصبحت دولة داخل دولة ، بل أصبحت هى الدولة ، وكأنها غاية فى ذاتها ليست وراءها غاية من الغايات . وواقع الأمر أن الأداة الحكومية وسيلة لتحقيق الغايات ، وإذا لم تفلح فى تحقيق الغايات فلا كانت ولا كان لها وجود » .

نواة الجيش الإقليمى

أخذت مصر فى افتتاح معسكرات لتدريب الشباب تمهيدا لجعلها نواة لجيش مصر الاقليمى ، ولما افتتح الرئيس اللواء محمد نجيب معسكر إمبابة ألقى خطبة قال فيها : إن الله يحب الأقوياء ويكره المستضعفين . وهذه باكورة معسكرات التدريب العسكرى يقوم عليها نفر من خيرة شباب ضباطنا ليتعهدوا شبابكم بالتدريب على حمل السلاح واستخدامه ، وعلى رياضة النفس والجسم على تحمل المشاق واجتياز المصاعب ليعدوا الشباب إعدادا قوياً للدفاع حين يحزب الأمر ويدوى النفير أن « انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » .

تشجير مصر

قاد الرئيس اللواء محمد نجيب حركة مباركة لتشجير بقاع مختلفة من الأرض المصرية ، وإن العزيمة معقودة على غرس ملايين كثيرة من الأشجار بأيدى رجال الجيش وطوائف الطلبة والموظفين وغيرهم من الجماعات والأفراد . وقد خصصت لذلك مساحات واسعة من الأرض ، وينتظر أن تكسب مصر من هذه الحركة النشيطة قيام كثير من الغابات فى جميع الأنحاء .

العلم المصرى

تتجه النية إلى التحرر من الرمز للتابعية العثمانية الممثل فى العلم المصرى ، وتصحيح الرأى الخاطىء فى الشرق والغرب بأن الهلال رمز دينى فى الإسلام ، وليس فى الإسلام نص على أن الهلال رمز له ، بل إن استحداث

الهلال فى الراية حديث عهد حتى فى الدولة العثمانية المنقرضة ، فإنها فى بداية عهدها لم يكن الهلال رمزاً لها .

وقد اختارت هيئة التحرير علما لها مؤلفاً من الألوان الثلاثة : البياض والسواد والحمرة ولا يمنع أن يعمم هذا العلم فيكون هو علم الدولة المصرية . وقد لاحظ بعضهم أن اللون الأخضر الذى تتألف منه أرضية العلم المصرى الذى يراد تغييره أصرح تعبيراً عن طبيعة مصر وخصب واديها وبركة نيلها فى تربتها ، وعندنا أنه لا بأس فى أن يكون اللون الأخضر هو اللون الثالث فى العلم المصرى مع اللونين الأبيض والأسود . ومن الثابت فى التاريخ أن الرايات الإسلامية الأولى كان منها الأبيض ومنها الأسود ومنها الأخضر ، وكان كل من هذه الألوان شعاراً لدولة عربية إسلامية مجيدة فى التاريخ ، فإذا جمع العلم المصرى هذه الرموز التاريخية مميزاً بالنسر أو بالصقر الذى كان هو أيضاً من الرموز العربية والمصرية قبل الاسلام كان التوفيق حليف مصر فى هذا الاختيار .

مديرية التحرير

تقرر إنشاء مديرية جديدة فى الصحراء الغربية بالقرب من الطريق الصحراوى بين القاهرة والإسكندرية تسمى (مديرية التحرير) . وستكون مساحة هذه المديرية ٣٣ ألف فدان ، وفيها مركزان إلى جانب حاضرتها وعدة نقط للبوليس فى جهات ستكون مأهولة بالسكان . وقد وضع لهذه المديرية تصميم هندسى ، وينتظر أن يبدأ العمل فى تنفيذ مشروعات العمران ، وأولها شق ترعة تبدأ من مصرف المحيط عند مديرية الجيزة ويبلغ طولها حوالى عشرة كيلو مترات وقد أصبح فى حكم المقرر توزيع أراضى هذه المديرية على المعدمين وذوى الأسر المؤلفة من خمسة أشخاص على أن يكون نصيب كل أسرة خمسة أفدنة يزرعها صاحبها بتقاوى توزعها وزارة الزراعة .

مدافن جديدة للقاهرة :

اعتادت مصر من زمن الفراعنة العناية بالأموات أكثر من عنايتها بالأحياء ، وتقيم لدفن الموتى مدافن أعظم مما تقيم من البيوت لسكن الناس . ومع أن الاسلام قد وضع حداً لهذا الشذوذ العمرانى ، فإن آثاره لا تزال باقية إلى الآن عند المسلمين وغيرهم ، مع أن المسلمين يرون منذ نحو أربعة عشر قرناً أن المسلم الأول فى مصر والسبب الأول فى إسلام كل مسلم فيها وهو عمرو بن العاص صاحب رسول الله ﷺ ، لم ينشأ ابنه وسائر أصحابه من القواد والولاة والعمال أن يقيموا له على قبره بناء ، لأن الاسلام يرى أن المسلم

إذا مات يجب أن يخلد ذكره بأعماله لا بما يقام على قبره من أنصاب ومعالم .

تقول هذا لمناسبة عزم ولاة الأمور على تخصيص ٢٥٠ فداناً في الجبل الأخضر لإقامة مدافن صحية جديدة عليها يراعى فيها المساواة التامة بين الطبقات ، فلا يمتاز قبر الغني لغناه على قبر الفقير ، بل يقتصر فيها جميعا على إعـــدادها بما يتناسب مع جلال الذكرى والشروط الصحية .

تحريم المسكرات في برقة

أصدر ملك ليبيا قانوناً بتحريم المسكرات في ولاية برقة على كل مسلم ، فأحسن بذلك إلى أهل ذلك الوطن الإسلامي في عقولهم وأخلاقهم وثروتهم كما أحسن به إليهم في دينهم

أمريكا والعرب

عقب زيارة الأمير فيصل السعود وزير الخارجية السعودية للرئيس ايزنهاور أصدر البيت الأبيض بيانا أعلن فيه أن رئيس الولايات المتحدة أعرب عن اهتمامه وقلقه بقيام بعض الأدلة على أن العلاقات بين الولايات المتحدة والدول العربية تدهورت في المدة الأخيرة ، ويقول البيان إن ايزنهاور وعد بالعمل على تصحيح الأخطاء ، وأنه أبلغ الأمير فيصلا أنه سيجعل هدفه الثابت العمل على إعادة روح الثقة والطمأنينة .

فتنة القاديانية في لاهور

كان الداعية المأفون غلام أحمد القادياني يرمي بدعوته إلى أغراض متعددة أحدها إعانة الاستعمار الأجنبي بدعوى أن حكمه على المسلمين حكم شرعي ، وأن الجهاد نسخ ، وذلك فضلا عن الضلالات الأخرى في هذه الدعوة كادعائه بأنه نبي يوحى إليه ، وإطالة لسانه على بعض الأنبياء والصحابة ، وكان المنتظر من أتباعه المثقفين — ولا سيما بعد زوال سلطان الاستعمار — أن يكفوا عن هذه الدعوة وأن يرجعوا إلى أحضان الإسلام ويجعلوا نشاطهم وقفاً عليه .

فلما رأى منهم مواطنوهم المسلمون أنهم لا يزالون على إصرارهم السابق في الدعوة إلى هذه الضلالة ، وهم مواصلون نشاطهم فيها مستفزين مشاعر الجمهور الأعظم ، نشأت عن ذلك فتنة في الأسابيع الأخيرة بمدينة لاهور قتل فيها أحد عشر شخصا وجرح أربعة عشر فأعلنت حكومة باكستان الأحكام العرفية في تلك المنطقة وهيمن الجيش عليها ليحول دون وقوع اضطرابات أخرى .

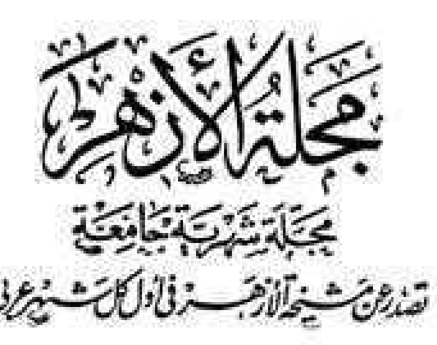
تصـــــــحيح

تحرفت كلمة « عام » بكلمة « عــــلم » في وصف « سبيل الله » بالسطرين ١٧ و ٢٢ من الصفحة ٧١٧ في الجزء الماضي والصواب فيهما : « سبيل الله » عام .

فهرس

الجزء السابع — المجلد الرابع والعشرون







الجزء الثامن ـ في غرة شعبان ١٣٧٢ ـ ١٥ ابريل ١٩٥٣ ـ المجلد الرابع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الأمانة الثانية

هي هذا التراث العلمي العظيم الجسيم الذي ملأ خزائن كتب الأمم من كنوز شريعتنا ، وجهود أعلامنا وأئمتنا وعلمائنا وحكمائنا وخطبائنا في أربعة عشر قرناً .

هي هذا النهب المقسَّم بين أيدي الدهر ، وأهواء الملل ، وحسد الأقوياء ، وشهوات العلماء والجهلاء ، وآفات الأرض والسماء .

ومن قبل هذا التراث الإسلامي الأعظم ، كانت ألسنة أسلافنا وعقولهم مؤتمنة من الله على هذه اللغة العريقة في القدم ، البالغة في أوديتها وجبالها أقصى غايات الكمال والجمال ، حتى اضطر عدو العروبة والإسلام العلامة الفرنسي الكبير ارنست رينان لأن يقف ـ في كتابه تاريخ اللغات السامية ـ أمام عظمة العربية وجلال روعتها ، وخصب مادتها ، ودقة الأحاسيس التي تعرب عنها بكل حرف من حروفها ، وبكل صيغة من صيغها ، وبكل لحن موسيقي ساحر من ألحان نبراتها وجمال منطقها ، وعما في ظلال هذه الحروف والصيغ والألحان من باهر الدلائل على رجاحة أحلام قدماء الناطقين بها ، وسعة مداركهم ،

وبعد أغوار إنسانيتهم ، فأنساه ذلك كله ما انطوت عليه نفسه من إحنة للعروبة والإسلام ، فلم يلبث أن رأى صوته يهتف بكلمته الخالدة يوم قال :

« إن هذه اللغة قد بلغت حد الكمال فى قلب الصحراء عند أمة من الرحل ، ففاقت اللغات بكثرة مفرداتها ، ودقة معانيها ، وحسن نظام مبانيها . وكانت مجهولة من الأمم ، لكنها من يوم علمت ظهرت للناس فى حلل الكمال ، ولم يعرف لها فى كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة . ولا نعلم شبيها لهذه اللغة التى ظهرت للباحثين كاملة من غير تدريج ، وبقيت حافظة كيانها ، خالصة من كل شائبة » .

إن أمة ائتمنها الله على هذه اللغة المحسودة ، وعلى هذه الشريعة الحكيمة التى هى رجاء الإنسانية فى مبادئها المثالية العليا لو قيض لها رجال يتقنون تنظيمها ويحسنون عرضها ويتعاملون بأحكامها وأخلاقها حتى يراها الناس بأبصارهم لا بأسماعهم ، ثم ائتمنها الله على جهود قادة الفكر وأئمة العلم فى الدنيا منذ كان الفكر معطلا من نشاطه إلا فى أوطاننا ، ومنذ كان العلم غريباً عن الناس إلا فى معاهدنا ومساجدنا وحلقات دروسنا ...

هذه الأمة التى ائتمنها الله على تراث للعقول والفهوم والعلوم لا نظير له فى ماضى أمة أخرى من الأمم ، ما أدرى بماذا يحكم عليها قضاء الله العادل جزاء إعراضها عن هذه الثروة الفخمة الضخمة ، وإهمالها هذه التركة الغنية بأثمن مواريث الفكر البشرى والترف العلمى والمتاع الثقافى والأدبى .

أليس من العجيب أن يتسع وقت موظف واحد من موظفى الحكومة المصرية فى القرن السابع الهجرى لتأليف معجم لسان العرب فى عشرين مجلداً بلغ بها فى زمانه حد الاتقان ، ثم نعجز نحن وأزهرنا وجامعاتنا ومجمعنا اللغوى عن أن نؤلف لزماننا معجما للعربية يكون — فى إتقانه وشموله وسهولة استعماله وحسن التسلسل الاشتقاقى والتاريخى فى مواده — مضارعا للمعاجم الممتازة فى اللغات الأخرى ، ثم نختصر منه لجمهور المثقفين معجما متوسطاً ، ونختار من الوسيط لصغار الطلبة معجما وجيزاً ، فنسد بهذه المعاجم الثلاثة الوافية حاجة العصر إلى مراجع فى اللغة يرتاح الناس إليها ويقضون وطرهم منها .

أليس من العجيب أن يحدث الله هذا الانقلاب السريع فى اتجاه الطلبة الجامعيين ، فبعد أن كانوا قبل عشرين سنة طابوراً خامساً يتنكر للتراث الإسلامى ، صار لنا منهم الآن

مئات ومئات يهتفون من أعماق قلوبهم : القرآن دستورنا ، لكنهم يحثون آناء الليل وأطراف النهار عن مراجع جيدة يتعرفون منها إلى تفاصيل أحكام هذا الدستور القرآني فلا يجدون بين أيديهم ما يشبعون به نهمتهم الفكرية ، وما يسهل به عليهم التفقه بسنن الإسلام في تكوين المجتمع الصالح ، والأمة المفلحة ، والدولة الإسلامية المثالية .

إن فقهاء القانون الفرنسي - على قرب عهده - قد أصدروا معاجم لفقه قانونهم حافلة بكل معنى من معانيه وكل غرض من أغراضه ، مؤيدة بنصوص القوانين المعمول بها ، ومقارنة بأمثالها في مختلف البلاد اللاتينية الأخرى ، ومشفوعة بأحكام المحاكم العليا في فرنسا وبلجيكا وسويسرا وغيرهن ، ومرتبة موادها على حروف المعجم ، فيستطيع القاضي أو المحامي أو طالب الحقوق أن يراجع كل معنى يريده في دقائق ليجد نصوص القانون وآراء علمائه في تفسيرها وأحكام المحاكم وحيثياتها في تطبيقها . أما فقهنا السابق على فقه القانون الفرنسي بأكثر من ألف سنة ، والذي ملأ علماؤنا وأئمتنا خزائن الأرض بأجود المؤلفات في تأصيله وتفريعه ، وفي شرحه وبيان حكمته ، وقد حكم به مئات الألوف من قضاتنا في أوربا (الأندلس وغيرها) وفي آسيا وإفريقيا بأحكام أصابت كبد العدل المجرد عن كل غاية وهوى ، وأفتى بدقائق وقائعه ومختلف مذاهبه ألوف الألوف من أعلام الفتيا في جميع أمصار الإسلام من عصر الصحابة إلى الآن ، فإنه - ويا للأسف - لا يزال مبعثراً في المخطوط والمطبوع من كتبه التي لم يتمرس بمراجعتها ولم يأنس بالإفادة منها حتى طلبة كلية الشريعة بالأزهر ، فما بالك بطلبة كليات الحقوق في الجامعات المدنية ! بل إن أنفس كتب الفقه وأتمها لا تزال مخطوطة وموزعة في آفاق الشرق والغرب ، والمطبوع منها أصبحت طبعاته نادرة وفي حكم المخطوطة . وحتى غير النادر منها كيف يتوصل طلبة العلم إلى مراجعتها بوقت سريع وهي لم تنظم تنظيماً مقارناً يقوم عليه فقهاء مليمون أمناء على هذه الشريعة ويعتبرون عملهم هذا عبادة كما كان فقهاؤنا الأقدمون يتعبدون بهذا الضرب من ضروب القربة إلى الله عز وجل ؟

وأعلام هذه الأمة من الصحابة والتابعين والفاتحين والدعاة والحاكمين والعلماء والأدباء والساسة والمؤرخين والشعراء والمؤلفين وقادة الرأي ، لماذا لا يكون في الأيدي كتاب واحد يجمع تراجمهم جميعاً من قدمائهم الأولين إلى زماننا هذا ، ليجد شباب الجيل في سيرتهم الأسوة والقدوة ، وليعرفوا طريقهم إلى أهدافهم سائرين فيه على آثار من تقدمهم .

والمذاهب والنحل التي نجمت في الإسلام ، لماذا تبقى إلى الآن عالة في معرفتها على كتابي الشهرستاني وابن حزم ، ولماذا لا يقوم في علمائنا من يدرس ما جد بعد الشهرستاني وابن حزم من مذاهب وطوائف ونحل آخرها البابية والبهائية والشيخية والبكتاشية والتجانية والقاديانية والأحمدية ؟ أليس من الفقر العلمي أن لا يكون في أيدي الناس معجم عصري جامع لكل فرقة ونحلة وطائفة وطريقة ومذهب نجم في تاريخ الإسلام ، ولكل داعية من دعاة الفتنة والفساد الذين حاولوا أن يحدثوا في الإسلام بدعة لم تكن منه ، وانحرافا عن كتاب الله وسنة رسوله بالدس أو التأويل أو التضليل أو غير ذلك من أساليب الشيطان، فيكون هذا المعجم قائماً على دراسة كل فرقة ، والتعريف بها من نصوص كتبها وصميم دعوتها ، وكيف تطورت ، وما هي مقاطع أطوارها ، ومن هم الذين مثلوا هذه الأدوار ، وما هي مقاصدهم ، ولحساب من كانوا يعملون ؟ .

وهذا الوطن الإسلامي والعربي ، هل في أيدينا معجم واحد شامل لكل ما فيه من أمكنة وبقاع كما هي اليوم وكما كانت من قبل ؟ إننا لا نزال نعيش في ذلك على مجهود أبي عبيد البكري يوم كنا نحن أصحاب البلاد الإسبانية ، وعلى مجهود ياقوت الحموي قبل مئات كثيرة من السنين . وقد قامت بعدهما معالم للعمران تغيرت بها الأرض غير الأرض ، وجدت لأبناء العروبة والإسلام ذكريات تاريخية ومفاخر أو كوارث ملية وقومية في جبال وطن المسلمين والعرب وأوديته ومرابعه لم يكن يعرفها أبو عبيد البكري ولا ياقوت ، فهل تحركت في قلب عالم من علمائنا المشتغلين بالجغرافيا أمنية التفرغ لتأليف معجم جديد للبلدان الإسلامية والعربية يبنى فيه على ما أسسه البكري وياقوت ، ويستقصي أسماء الأمكنة والبقاع إلى زماننا ، وكما هي في زماننا ، فتحيى به مواطن الذكريات لنشأة عظمائنا وأحداث تاريخنا وميادين جهادنا الحربي والعمراني والعلمي .

وحديث نبينا أيضاً كدنا نصير فيه عالة على الأجانب عنا في ديننا ولغتنا وعلومنا ! أليس من الخجل أن يسهر في بلاد هولندا رجال من علمائها على دراسة السنة المحمدية في دواوينها الكبرى دراسة شمول واستقصاء ، فيتتبعوا كل لفظة وردت في أي حديث نبوي ، ويثبتوها في مكانها من معجم عظيم يشتغلون الآن بتأليفه ، ويضمون إلى جانب تلك اللفظة كل حديث وردت فيه ، ومكان ذلك الحديث في كتبه المعتبرة مع تعيين أجزائها وصفحاتها من تلك الكتب. ونحن كان لنا من القرن السادس الهجري كتاب النهاية في غريب الحديث، وهو معجم

لألفاظ السنة ألفه ابن الأثير الجزرى بعد مؤلفات كثيرة تقدمته فى هذا الموضوع ، وجدت بعده كتب أخرى على هذا النمط ، غير أن هؤلاء المولنديين لم يريدوا من معجمهم تفسير غريب الحديث ، بل أرادوا استيفاء ألفاظه واستقصاء الأحاديث التى استعملت فيها هذه الألفاظ والدلالة على مواضعها من كتب السنة ليتمكن طالب كل حديث من معرفة مواضعه فى الكتب المشهورة بسرعة وبسر ، ومع أن المؤلف الأول لهذا المعجم قد مات ، فإنه قد خلفه على الاستمرار فيه عالم من مريديه وأصدقائه ، ثم مات هذا المؤلف الثانى ، فتكفلت مؤسسة (اليونسكو) بالإنفاق على إتمامه والاستعانة بأهل العلم للمضى فيه ، وقد صدر منه إلى الآن ثمانية عشر جزءاً ، ومن الإنصاف الاعتراف للعاملين الأولين فى هذا الكتاب بأنهم لم يخطر على بالهم فيه أى كسب مادى ، وإنما قاموا به ليملأوا فراغاً علمياً شعروا - قبلنا - بوجوده ، فأعدوا أنفسهم لسد ثغرة العلم من هذه الناحية ، ومضوا فى عملهم بجد وصبر ومثابرة لا يعرف قدرها إلا من يعرف قدر العلم ، ويشعر بالسعادة فى السهر عليه ، دون أن يخامره خاطر من خواطر الكسب المادى من وراء ذلك .

وتاريخ العروبة والإسلام ، وهو من حاجياتنا الأساسية فى مدارسنا ودراساتنا ، لا يزال إلى اليوم مهملا ، بحيث لا نستطيع أن نزعم أن لنا كتاباً واحداً فيه يعطى صورة صادقة لأبناء الجيل عن عظمة أسلافهم وما قاموا به للإنسانية وأمجادها من جهاد لم تبلغ أمة من أمم الأرض عشر معشاره . وإن أسلافنا البررة المخلصين ، والمعاصرين لهم فى كل أدوار التاريخ من أعداء الطابور الخامس فى الإسلام ، قد سجل هؤلاء وهؤلاء وقائع التاريخ ، فجاء فيه الصدق والحق من طريق أهل الحق الصادقين ، وجاء فيه الإفك والزور من طريق ذوى الأهواء والمغرضين ، وقد يختلط هذا بهذا على الطلبة وأنصاف المتعلمين إن لم يبادر أهل الألمعية من علمائنا العارفين بأقدار أسلافنا فيمحصوا هذه الروايات ويجردوها من آفاتها ويردوها إلى أصلها الصحيح ، ثم يحسنوا عرضها فى كتب وجيزة ومتوسطة ومطولة ، فيتم البعث بذلك لجهاد مجيد قام به عظماء كانوا بشهادة الله لهم « خير أمة أخرجت للناس » ، وسار فيه على قدمهم مجاهدون من التابعين لهم بإحسان فتحوا الممالك ونشروا دعوة الله إلى الهدى ، فنبغ فى ظلال نظامهم رجال من أبناء البلاد التى دخلت فى الإسلام على أيديهم كانوا أئمة الدنيا ومفخرة العلم والعدل ، وكانوا هم الناس فى زمانهم . بينما كتب التاريخ التى تلقن الآن فى مدارسنا ومعاهدنا لا يجد فيها شباب الجيل الصورة الصحيحة لتلك العصور ، وكل ما فيها قشور عن اختلافات زيد فيها وحرفت عن حقيقتها حتى صار

فيها العظيم صغيراً ، وذو اليد الكريمة على أمته ذميا لئيما . ولو أن ماضى المسلمين كان للألمان وأمثالهم عشره أو جزء من مائة جزء منه فى ماضيهم لكتبوه بأساليب حكيمة تقنع أبناءنا فضلا عن أبنائهم بأنهم هم الذين كانوا خير أمة أخرجت للناس . أنا لا أدعو إلى محاباة الأسلاف ، ووصفهم بغير ما كانوا عليه ، وإنما أدعو إلى تجريد سيرتهم من أكاذيب الطابور الخامس التى دسوها فى كتبهم وأصابت فيما مضى رواجا بتشجيع أهل الأهواء من ذوى السلطان ، وقد آن أوان تطهير التاريخ الإسلامى من هذه الطوارىء عليه والدخائل فيه .

ثم لقد آن أوان هذا التطهير والتنقيح فى كتب المناهج ، ومن الواجب على معاهد الأزهر وعلى وزارة المعارف أن يبدأ النظر فى كتب الدراسة ، وأن تكتب من جديد بالأساليب التى تلائم تكوين الأمة تكوينا جديداً سليما تتبوأ به مكانها بين الأمم .

يزعمون أننا فى عصر تقدم وارتقاء ، ومن الناس من يريد أن يوهمنا بأن عصور أسلافنا كانت دون عصرنا هذا فى نهضته العلمية وتقدمه الثقافى . ويكفى لإدحاض هذه الأكذوبة دليلان قائمان لا يستطيع أن يمارى فيهما أحد : أولهما أن الأقدمين كفوا أزمانهم ما كانت تحتاج إليه من المؤلفات والمعاجم الكبرى التى لا نزال عالة عليهم فيها ، والآخر أنهم كانوا يعملون لله معتبرين العلم وخدمته عبادة لا يشوبونها بشىء من شهوات الكسب المادى أو أنانية الاستعلاء .

ولو أننا من خمسين سنة إلى الآن أخلصنا للعلم كما أخلص له ابن منظور فى تأليف لسان العرب ، والنووى فى تأليف ما خلفه لنا من مصنفات نفيسة ، وابن حجر العسقلانى فى هذه العشرات الكثيرة من المجلدات التى خدم بها السنة ورجالها والشريعة وعلومها والتاريخ وأعلامه ، وابن تيمية الذى أحدث فى علوم الإسلام بعثاً جديداً بمؤلفات مبتكرة لو تفرغ أربعة رجال من بدء حياتهم إلى نهايتها ليبيضوا مسوداتها لما أتوا على آخرها — وهكذا كان علماؤنا من زمن الإمامين الشافعى وأحمد إلى زمن السيوطى وأضرابه يتعبدون بخدمة العلم وتمحيصه وتدوينه لوجه الله وحده . فلو سار علماؤنا من خمسين سنة فى طريقهم وخدموا العلم بالنية التى كان يخدمه بها الأسلاف ، لوجدت فى الأيدى حتى الآن أمهات الكتب التى نحن محتاجون إليها ، ولأمكن تتويج هذه الجهود بتأليف دائرة لمعارفنا كما ألفت الأمم — وآخرها اليهود — دوائر لمعارفهم .

وأعظم ما أئتمن الله علماءنا عليه من أمانات العلم فى التراث الإسلامى (سنن الإسلام) التى يجب على كل مسلم إحياؤها والعمل بها فى الأخلاق الشخصية ، والتقاليد المنزلية ، والمعاملات فى السوق ، والآداب فى المجتمع ، والأحكام فى المحاكم ، والأهداف فى سياسة الحكم . وكيف يستطيع المسلم أن يحيى هذه السنن إن لم يعرفها ، وكيف يعرفها المسلمون إن لم يقم العلماء بأعباء هذه الأمانة الإسلامية بجد وحزم وعناية واستقصاء ، وأول مراحل القيام ببعث سنن الإسلام بعد العلم بها العمل بها ، وأول من يترتب عليه العمل بها العاملون بها. فإحياء سنن الإسلام أول جهاد العلماء ورأس واجباتهم ، وإثم انحراف الأمة عن هذه السنن وتعطيلها فى جميع المرافق - بعد تعطيلها فى النفوس والبيوت - واقع بلا شك على المقصرين فى تعريف المسلمين بها ، ودلالتهم عليها بالبيان العلمى ، وحسن عرضهم لها بالسيرة والتعامل والأخلاق .

وبعد فإن تراثنا العلمى القديم أغنى وأضخم من تراث أى أمة أخرى ، ولكن تقصيرنا فى دراسته وتنظيمه والإفادة منه قد تجاوز كل حد ، حتى كاد يحكم علينا المستشرقون بأننا لسنا من أهله ، ولو أننا نحن أصحابه لكان لنا فيه شأن آخر .

ترى هل آن الأوان لتغيير موقفنا من أمانة العلم ، وهل يحاسب كل منا نفسه على ما قام به فى حركة البعث والإحياء ، لتصل حاضرنا بماضينا ، وتكوّن أمتنا فى عصرنا تكويناً عربياً إسلامياً نعيد به ما مضى من جمال كياننا ، مع ما نحن قائمون به من تجهيزه بأحدث معارف العصر وصناعاته وأسباب قوة الأقوياء فيه ؟

إن التفكير فى ذلك ، والتماس الأسباب لتحقيقه ، من تمام ما نحن فيه من تجديد ، فى هذا العهد الجديد ؟

محب الدين الخطيب

العاجلة والآجلة

من كلام سهل بن هارون :

من طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى توفيه رزقه فيها ، ومن طلب الدنيا طلبه الموت حتى يخرجه منها .

الشرق والغرب وهل يجتمعان

الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولا يلتقيان أبدا .

هذه الكلمة قالها كبلنج الشاعر الإنجليزى وشاعت فى البيئات العلمية ، وأخذها كثير من الناس بالقبول ، وأدخلت فى قلوبهم يأسا من الوصول إلى عالم أفضل يتفاهم فيه الشرق والغرب ، ويتعاونان لا على التغلب على مشاكل الإنسانية الحاضرة فقط ، بل على التغلب عليها فى المستقبل أيضا ، فإن تعاون البشر جميعا يجب ألا يكون تبعا لمصلحة وقتية ، يبرمه قوم متى شاءوا ويحلونه متى شاءوا ، بل يجب أن يكون تبعا لمصلحة الإنسانية الخالدة فى جميع عصورها ، ويجب أن يكون تعاونا فى العلم والأخلاق والسلوك . وفى غزو المجهولات من قوانين الكون ، وفى غزو الأفكار والنظم التى تفتك بالبشر ، وفى غزو الأحقاد والأضغان والأطماع والاستعلاء والاستبداد ، وفى غزو الشقاء والحرمان ، وفى غزو هذا النقص الذى فى الإنسانية والعروج بها نحو الكمال الممكن .

إننا نؤمن بأن هذا التعاون ممكن ، وأنه لا يقف فى سبيله اختلاف بين الشرق والغرب ، وأن الشرق والغرب يمكن أن يجتمعا وأن يلتقيا لخير الإنسانية الحاضرة والمستقبلة . وسبيلنا هنا أن نساير هؤلاء القوم الذين يرون أن الشرق والغرب لا يجتمعان ، ونعلم حججهم ونرى أهى تبرر لهم ما يعتقدون ؟!

يرى القوم أن بين الشرق والغرب فوارق فى العقلية والمعتقد والقيم الأخلاقية والنظر إلى الحياة . وهذا الاختلاف مما يبعد بينهما ويجعل الالتئام والتفاهم عسيرين ، فالغرب مادى موغل فى المادية ، والشرق روحى موغل فى الروحية ، والغرب تعنيه الحياة الدنيا والعمل لها أكثر مما تعنيه الحياة الأخرى ، والشرق بالعكس ، لذلك ترى الأول معنيا بإصلاح دنياه فى حين أن الثانى مهمل لها ، والأول يحكم المصلحة حتى فى عالم الأخلاق فلا يبقى بالتزاماته وعهوده ومواثيقه إذا رأى المصلحة فى ذلك ، والثانى بالعكس ، فهو يفى بعهوده ولو أدت إلى ضرره أو قتله أو قتل من يحب ، والأول يعتقد الحرية والاختيار فى تكوين نفسه وصوغ مستقبله ، والثانى يرى أنه محكوم بقوة غيبية هى التى تصرفه وهى التى تحركه وقد كتبت مستقبله

وهو ينشر ما كتبه ويتصرف فى الحياة على ما رسمه . وهذان الاعتقادان لهما تأثير عظيم فى عمل كل منهما وفى تصرفاتهما فى الحياة ، والأول ينسب الحوادث إلى أسبابها الظاهرة والثانى ينكر الأسباب وينسبها إلى الله مباشرة فعلا وتقديراً لأنه لا فاعل إلا الله .

وهذه الخلافات العقلية والنفسية بين الشرق والغرب كونتها البيئة الطبيعية فى كل منهما من الحر والبرد ، والرطوبة واليبوسة ، وسهولة الأرض وحزونتها ، وخصبها وجدبها ، وكرمها وبخلها ... الخ . فإذا كانت الأرض على حالة ، كوّن أهلوها على وفق هذه الحالة ، فالأرض الخصبة الكريمة التى تعطى أهلها خيراتها عفوا تولد فى أذهان أهلها سطحية لأنها لا تحوجهم إلى كد الذهن واستنباط الفكر ليأخذوا ما يحتاجون إليه منها ، والأرض البخيلة بالعكس تكسب أهلها عمقا فى التفكير لأنهم يعملون عقولهم فى استنباط ما يحتاجون إليه منها ، وكما تؤثر فى العقول تؤثر فى الأخلاق ، فالأرض التى تعوّد أهلوها أن يأخذوا خيراتها فى مواعيد محدودة لا تكاد تتخلف ، وبكثرة وسخاء لا تشح ولا تقل ، تعود أهلها الكرم والبذل والتهاون وعدم التفكير فى العواقب ، والعكس صحيح ، فالأرض الشحيحة البخيلة بخيراتها تعوّد أهلها البخل والاحتفاظ بما فى أيديهم والتفكير الطويل فى المستقبل والاستعداد وأخذ الأهبة . وهكذا . وما بنى على أسباب طبيعية لا تتغير فسيبقى ما بقيت هذه الأسباب . وكما كان الحر فى المناطق الحارة يسود لون البشرة ، والبرد فى المناطق الباردة يبيضها ، ولا تغير النتيجة ولو حاول المرء التغيير ، كذلك الحال فى تأثير البيئة الطبيعية فى الأخلاق والعقول .

إننى أعلم هذا جميعه ، وأعلم أن منه ما هو قابل للمناقشة ، وأنا أحاول التوفيق وإزالة أسباب الخلاف والعمل على تكوين مجتمع إنسانى أفضل ، وأريد أن أقتصد فى بحثى وأتناول جزءاً من ذلك الموضوع العام وهو الإسلام والغرب ، وأرى أن الفجوة التى بين الإسلام والغرب ليست فيما ذكرنا بعضه من أخلاق وعادات وبيئات طبيعية وجغرافية ، ولكن الفجوة قد عمقها ووسعها حوادث تاريخية خلقت كثيراً من سوء الظن وعدم الثقة وقواعد السلوك والمعاملة . ونحن سنجمل بعض ذلك فيما يلى :

كانت المسيحية تبسط نفوذها على كثير من البلدان التى فتحها الإسلام كسورية ومصر وشمال أفريقيا وبلاد الأندلس ، فكان كلما فتح بلداً آلم معتنق المسيحية ، وتناقلت أخباره الركبان إلى البلاد القريبة والبعيدة وكان له رنة أسى وحزن وعدُّوه خذلانا واندحاراً للمسيحية أمام الدين الجديد : الإسلام ؛ وكانوا يرونه رقا واستعباداً للمسيحيين

ويتناقلون الأخبار الكاذبة عن سوء المعاملة . وقد أراد المسيحيون أن ينصروا هذه الأكاذيب ويغرقوا فى المبالغة والخيال ليغضوا الشعوب المسيحية فى الإسلام والمسلمين ليستثيروا عزائمهم وأقصى ما عندهم لدفع الإسلام ورده عن بلادهم .

وقد كان فتح بيت المقدس وسورية نصراً مؤزراً ذا نتائج باهرة وخيرات عظيمة للإسلام والمسلمين ، ولكنه كان من جهة ثانية أكبر العوامل فى تعميق الهوة بين الإسلام والمسيحية ، فقد رأى المسيحيون أن الإسلام استولى على الأرض المقدسة التى هى مكان يحجون إليه من جميع بلاد الدنيا ، ويقدسونه لأنه ولد فيه المسيح وفيه تربى وفيه علم تعاليمه وفيه صلب ودفن ـ على ما يعتقدون ـ فهو محل الذكريات الدينية المقدسة وهو مكان الوحى والإلهام وموطن النفحات القدسية والبركات الإلهية والحج والمزار والتقديس والاعتبار ، فكان ذلك حادثا بغض اليهم الإسلام والمسلمين وأحدث فجوة عظيمة الاتساع عميقة الغور بين المسيحية والإسلام .

وعلى الرغم من أن الإسلام كان يعظم موسى وعيسى وآثارهما وكان يعظم داود وسليمان وأنبياء بنى إسرائيل ويعظم بيت المقدس وجعله من المساجد الثلاثة التى لا تشد الرحال إلا إليها ، وعلى الرغم من أنه احتفظ بالكنائس والبيع لأربابها ، حتى أن الخليفة الثانى عمر ابن الخطاب لما زار بيت المقدس بعد أن فتحه المسلمون وحضرته الصلاة أبى أن يصلى فى كنيسة للنصارى مخافة أن يتخذها المسلمون مصلى ومسجدا ، فتخرج من أيدى أصحابها ، وبالرغم من أنه لم يحل بين المسيحية والحج إلى بيت المقدس ، بالرغم من ذلك كله ظلت المسيحية ترى قلبها النابض الذى يرسل إليها الحياة فى أيدى المسلمين فاستعمل رجالها الدعايات وصوروا الإســـلام دينا وثنيا يهيم بالشهوات الجسدية وليس فيه معان إنسانية مقدسة وصوروا رسوله بصورة الكاذب المشعوذ الهائم باللذة الجسدية والذى يدعو معتنقيه إلى عبادتها والهيام بها .

أفسحت الدعايات الباطلة فى خلق روح معادية للإسلام والمسلمين مملوءة بالأحقاد والأضغان والإحن .

وكان هذا الرصيد من البغض والكراهية وحب الانتقام من الإسلام والمسلمين قد حمل أوربة ، ملوكها وقوادها وشعوبها ، على أن تقطع الفيافى والقفار والوديان والبحار لغزو المسلمين فى عقر دارهم وتخليص الأرض المقدسة من أيديهم وإعادة بلاد النصرانية إلى

النصرانية، وكانوا يرون من المسلمين معاملة إنسانية سامية، وكانوا يعاملون المسلمين معاملة وحشية قاسية ولم يخفف حقدهم وموجدتهم مع هذا كله وتكررت الغزوات والحملات ومكثت ما شاء الله من الزمن الطويل.

وللأمم رأى فى دراسة التاريخ فهى تسخره لخدمة شعوبها وأغراضها، فهى ترفع أوطانها وأبطالها إلى الذروة وتنتقص الآخرين ولا يعنيها أن يطابق التاريخ الواقع، إنما يعنيها أن يخدم وطنها وأن تغرس الكرامة والمحبة لأحبابها وتغرس الحقد والبغض والهوان لأعدائها أو لمن تراهم أعداءها، وعلى ذلك جرى التعليم والتربية فى مدن أوربة ولقى الإسلام والمسلمون جوراً وظلما واتهاما كانا بريئين منها، ولكنها عمقت الهوة بين المسيحية والإسلام.

وكان لمثل فتح بيت المقدس فتح القسطنطينية، فقد كانت عاصمة الروم الشرقية وكانت المسيحية تعتز بها، فلما فتحت كان له من الأثر مثل ما لفتح بيت المقدس.

وهذا هو السر الدفين فى كثير من الحركات والحوادث فى التاريخ، فالحروب المتوالية التى استمرت قرونا بين الأسبانيين والمسلمين فى الأندلس، والتى انتهت بإجلاء المسلمين عنها وخروج هذه الدرة اللامعة من التاج الإسلامى، وما كان فى خلال ذلك وبعده من اضطهاد دينى يقشعر المرء منه عند سماعه، مرجعها هذه الروح التى ربتها الأجيال والقرون والدعايات المغرضة، وهذا هو السر أيضا فى أخطاء الباحثين فى الدين الإسلامى من المستشرقين، فكثير منهم كان يعالجه بهذه الروح، ولقد خرج بعض منهم من قيود هذه الروح فأنصفوا الإسلام ونبى الإسلام كالكونت دى كاسترى وكارليل، ورأوا فيه دينا أدى للإنسانية خدمات، وعرج بها درجات.

وهذا هو السر أيضا فى أن أوربة تنكر على الإسلام والمسلمين أنهم ساهموا فى رقيها، وقاموا بقسط وافر فى نقلها إلى هذه الحضارة التى تنعم بها اليوم، والمسلمون فى الأندلس الذين جوزوا كما جوزى سنمار، هم الذين دونوا الفلسفة وشرحوها ولخصوها وأزالوا عنها أغلاط القرون وفساد الدهور، فأخذتها عنهم وشغلت بها نقداً وتمحيصا وبناء على ما عرفوا منها حتى كانت هذه المدنية التى يتمتع بها العالم اليوم.

هذه هى الحوادث التاريخية والدعايات الباطلة التى أثرت فى نفوس الغربيين وباعدت بينهم وبين الإسلام وخلقت روحاً عامة فى أوربة معادية للإسلام والمسلمين.

أما الحوادث التاريخية التى أثرت فى نفوس المسلمين وحملتهم على فقد الثقة بالغرب فهى ما لا يزالون يذكرونه من الحروب الصليبية ومن تجمع أوربة عليهم وعلى غزوهم

فى عقر دارهم ، ثم إخراج المسلمين من الأندلس ، وإزالة ملكهم منها ومحاكم التفتيش ، ثم حروب البلقان ومعاونة أجزائه على الانفصال من حكم الإسلام ، ثم تقسيم تركة الرجل المريض ، ثم ذلك الاستعمار الذى جثم على ممالك الإسلام وتوزيع ممالكه بين المستعمرين ، ثم حوادث فلسطين الدامية وتشريد سكانها فى الفيافى والقفار ، ومنح اليهود إياها تحت سمع العالم المتمدن وبصره ، فهى مثل الحوادث التى أثرت فى نفوس أوربة ، والفارق أنه لم تصحبها دعايات باطلة . فما زال عيسى ابن مريم فى الإسلام روح الله وكلمته ، وما زال يقر له بالكرامة والمعجزات وما زال ينزهه وينزه أمه عما قرفهما به اليهود وما زال يتلى فى كتابه الخالد :

« ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » .

وقد أصبح الدواء معروفا مما تقدم وهو ينحصر فيما يأتى :

١ — أن ينصف الفريقان بعضهما بعضا فى التاريخ فيعلم كلاهما أن الأرض التى هم عليها قد أخذوها ممن كان يملكها قبلهم ، وأن من كان يملكها قبلهم قد أخذها ممن كان يملكها قبله ، وهكذا دواليك ، وأن هذه سنة الله فى الوجود ، وأنه لو صح لأحد أن يطالب بها بحجة أنه كان يملكها قبل ذلك بقرون ، لصح لسكان أرض فرنسا وانجلترا الغابرين أن يطالبوا بإخراج الفرنسيين والإنجليز الآن من أراضيهم بحجة أنهم كانوا يملكونها قبل ذلك :

ولو دامت الدولات كانوا كغيرهم رعايا ولكن ما لهن دوام

وبذلك تسقط حجة اليهود فى أن فلسطين لهم لأنهم كانوا يملكونها من قديم .

وقد كان بعض هذا التعاقب فيه صلاح البشرية وتقدم الإنسانية . إذا علمت هذه الحقائق خفت الموجدات والأحقاد وبطلت هذه السياسات التى تعمل على رد ما كان إلى ما كان .

٢ — أن تغير دراسة التاريخ فى أوربة ولا سيما ما يتعلق بتاريخ الإسلام والمسلمين ، فلا يدرسوه على وجه يحيى العصبيات على الإسلام والمسلمين ويدعو إلى احتقاره واحتقارهم ، بل يدرسوه دراسة منصفة تبين حقيقته وما قام به من جهد فى تقدم الإنسانية وخدمة البشرية وأن تنصف المسلمين كذلك ، ومن حسن الحظ أن بعض علماء أوربة قد درس الإسلام وعلم حقيقته وأنصفه وأنصف المسلمين وبيَّن ما لهم من قسط وافر فى نقل الحضارة والعلوم إلى أوربة .

ومن حسن الحظ أيضاً أن هيئة اليونسكو التابعة لهيئة الأمم المتحدة قد علمت ضرر

دراسة التاريخ على وجه يثير العصبيات والأحقاد فأوصت أن يدرس على غير هذا الوجه في الشرق والغرب والعبرة بالتنفيذ؛ ونرجو أن يصاحبه التوفيق.

٣ — يجب أن يزول نظام الاستعمار وتسلط أمة على أمة وأن يكون لكل أمة الحق في تقرير مصيرها، وإذا كان الضمير الإنساني قد أنكر أن يستعبد فرد فرداً، فأعظم نكراً منه أن تستعبد أمة أمة. يجب أن تزول علاقة السيد بالمسود والحر بالعبد وتحل محلها علاقة الشريك بالشريك والمعاون بالمعاون والحر بالحر. وتجربة بريطانيا في الهند والباكستان تشجع على ذلك.

وكما أن نظام الرق يجعل الأرقاء لا يصلحون لشيء إلا لخدمة من استعبدوهم، كذلك نظام الاستعمار يعطل المواهب والعقول ويسخر الأمم لخدمة المستعمرين.

وهذا مخالف لسنة الوجود، لأن البشرية تريد أن تنتفع من جهود جميع أبنائها وأن يعمل الجميع لتقدمها ولا تحتمل فساد طائفة لأن الفساد يعدي، والداء يسري.

إن الاستعمار يولد بغضاً وحقداً في الأمم المستعمرة على من استعمروهم، وكذلك يولد الحقد والبغض بين الأمم الراقية، لأن الأمة المحرومة تحقد على الأمة التي ملأت يديها من خيرات الأرض وفازت بقسط أكبر من المستعمرات، فتريد أن يكون لها هذا النصيب فتشعل نار الحرب. وإذا دققت النظر في الحربين العالميتين الأخيرتين وجدت أسبابهما ماذكرنا، فإنك تلمح المجال الحيوي الذي كانت تتشبث به ألمانيا، وتدعو إليه، وتلمح موازنتها بين ما يملكه الفرد الألماني من الأرض وما يملكه الفرد الهولندي أو الانجليزي أو الفرنساوي والفرق الشاسع بينهما بسبب الاستعمار.

ومهما قيل من أسباب أخرى، فذلك إبعاد في الخطأ وإيغال في البعد عن الحقيقة، ولفت للأنظار عن السبب الحقيقي وذلك ليس في مصلحة الإنسانية.

ومن حسن الحظ أيضاً أن هيئة الأمم المتحدة أدركت ذلك أيضاً وأعلنت حقوق الإنسان وحق كل أمة في تقرير مصيرها، ونتولها ثانية: إن العبرة بالتنفيذ، وقد سمعنا مثل هذا في شروط الرئيس ولسون عقب الحرب الأولى، كما سمعنا الميثاق عقب الحرب الثانية من الرئيس روزفلت.

من مصلحة الإنسانية أن يكون ذلك صدقاً وحقاً، وأن تعمل الدول على تحقيقه.

محمد عرفة
عضو جماعة كبار العلماء

نفحات القرآن

– ٤ –

٣ – البيت العتيق

« وأتموا الحج والعمرة لله »

فى ظل الدعوة الجديدة التى هتف بها محمد ﷺ فى مكة ، واستقرت دعائمها فى المدينة ، وكثر سواد المسلمين بها ، كانت للنبى وأنصاره غلبة على قريش ، واستردوا البيت من أيديهم بعد أن حيل بينهم وبينه ثمان سنوات ، منذ هجر النبى وصحبه وطنهم الأول إلى دار النصرة والإخاء .

منذ اليوم خضعت رءوس كانت تتشامخ بالجبروت ، وخشعت للحق أصوات كانت تصايح بالباطل ، ودكت فى هوان ومذلة أصنام كانت تحاط بالإجلال .. وطهر البيت العتيق من لوثه ، وعاد كما كان أول نشأته ، وتركزت راية الإسلام فى مستقرها الأول .

وعرفوا بعد طول شقاق أن لله الدين الخالص : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » .

وإلى اليوم لم يكن حج البيت عندهم إلا تقليداً موروثاً ، وعادة مرعية يحتفظ بها العرب كما كانوا يحتفظون بغيرها من عادات وتقاليد ، ولئن كان فى أول أمره ديناً على عهد إبراهيم وإسماعيل ، فقد تبدل كما تبدل الحق بينهم فى كثير من صوره ، وطغى عليهم الباطل فى أغلب الأوضاع .

فأما وقد نهض الحكم لله فى مكة العائدة ، وأصبح الشأن للإسلام الذى كان طريداً منها ، فقد آنت دعوة الناس جميعاً إلى الحج والعمرة بعد أن استقرت بمكة قدم الفاتحين بعام واحد : أعنى فى السنة التاسعة من هجرتهم إياها .

وبذلك تألفت أركان الإسلام الخمسة ، إذ كانت الصلاة ، والزكاة ، والصوم قبل الحج بأعوام .

وأصبح المسلمون من قريش وسواهم يتشبحون بشعار الوحدة الدينية المتماسكة ، وأصبح

البيت من جديد ملتقى جموعهم وإن شطت بهم الديار، وموسم تزاورهم وإن اجتازوا إليه المهامه واستهدفوا الأخطار، وقبلة صلاتهم، وإن ترامت بهم الأقطار وزخرت دونهم البحار.

فهو البيت الذى تتوحد فيه أوطانهم، وتندمج عنده جنسياتهم، وتأتلف حوله عواطفهم، وتتآخى على الحب قلوبهم.

فإذا اجتمعوا إليه: أحاطوه بالأجساد والأرواح.

وإذا تفرقوا من حوله: رمقوه على البعد بالأفئدة، والخواطر، والبصائر، فأى صلة تكون بين المسلمين آكد من هذه؟؟

وأى عهد أوثق عند الله من عهد تولى الله عقده بينه وبين خلقه، وربط به بين الآخذين بدينه، وجمعهم به على ملة أبيهم إبراهيم؟؟

ولم تك ملة إبراهيم سوى الإسلام مهما تحيفوا منها، أو بدلوا فيها، أو صبغوها بالطائفية، وسموها بغير ما سماها الله.

«ما كان إبراهيم يهوديا، ولا نصرانيا، ولكن كان حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين». «أم تقولون إن إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط: كانوا هوداً، أو نصارى؟؟ قل: أأنتم أعلم أم الله؟؟».

دين إبراهيم هو الإسلام: الإسلام الخالص.. «ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو فى الآخرة من الخاسرين».

فمن الذى يرتكس فى الضلالة عن هذا، أو تجرفه الجهالة فيحسب جميع الناس سواء فى عاقبتهم إذا كانوا على عمل طيب فى دنياهم، ويتعامى عما فرق الله به بين خلقه فيما يعتقدون.. «إن الذين آمنوا، والذين هادوا، والصابئين، والنصارى، والمجوس، والذين أشركوا، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد..» هذا تقرير القرآن، وما سوى ذلك فباطل[1]. درج المسلمون على هذا، وفرغوا قديماً من تمحيص العقيدة، واطمأنوا إلى ما بينهم من أسباب تصلهم بالله، وتجذبهم إلى نقطة الارتكاز التى هى معقل الإسلام وبرجه الشامخ الظليل، ... وهم حفيون بالبيت العتيق وإن ازورت منه أمم ضالة، وفرحون به وإن حنقت عليه طوائف مكبوتة، ومتعلقون به وإن انحرفت عنه نفوس مريضة.

(١) انظر الجزء التاسع رمضان سنة ١٣٧١ ص ٢٢ من هذه المجلة.

وهم يعتقدون حقاً أن من رحمة الله بهم، وكرمه فيما تخير لهم أن دعاهم إلى الحج والعمرة، وجعل هذا فيما شرع لهم أمراً حتمياً ولم يكن اختيارياً، إلا لمن أدى فرضه، وأبرأ ذمته.

ونحن نقف الآن من حكمة الله موقف المستهدى إلى تعرفها، والتثبت منها، ليزداد الذين آمنوا إيمانا، فالله سبحانه يقول بعد تشريعه دعوة الناس إلى الحج: « ليشهدوا منافع لهم ».

فما هي تلك المنافع التي يستنهضنا اليها القرآن، بل استنهضنا اليها الإسلام من عهد إبراهيم عليه السلام، وأين هي؟ سيما أن القرآن يوجهنا إلى أنها مشهودة، والمشهود لا يحول بينه وبين مبتغيه إلا أن يخف إليه، ويدركه فيما يدرك بجهد يسير.

كما أن القرآن لا يدعو إلى أمر متخيل، ولا يرغبنا في خير طفيف، وإنما يعتمد الواقع، ويحث على الجزيل.

ونحن في ضوء هذا التوجيه نلحظ أن أسلوب الدعوة إلى الحج أقرب إلى الترغيب والتشويق والإطماع في الخير، ويكاد لا يفصح عما يلابس أعمال الحج من متاعب كما يفصح عما يقترن به من آمال، فأنت تقرأ ـ مثلا ـ قوله تعالى: « ليشهدوا منافع لهم، ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير، ثم ليقضوا تفثهم، وليوفوا نذورهم، وليطوفوا بالبيت العتيق، ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ـ ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ».

تقرأ هذه الفقرات فتلمس فيها ترغيباً قوياً، وتلمس فيها إشادة بالأيام المعلومات ـ أيام الحج ـ، وإشادة بذكر الله في هذه الأيام لما لها من خصوصية، وتلمس فيها امتناناً من الله على عباده بما رزقهم من بهيمة الأنعام، وبما أتاح لهم من متاعة مباحة، ومن عمل صالح، فهم يأكلون، ويطعمون البائس الفقير، وهم يوفون لله بما نذروا، ويطوفون ببيته، ويعظمون شعائره، ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب.

تقرأ هذا السياق الرطب المعسول عن الحج والعمرة إلى بيت الله الحرام، وما يتصل بذلك من مقاصد مشكورة، وهذا يهزك ويغريك وينسيك ما قد يكون من نصب وعنت، وتقرأ في مقابلة هذا شيئا عن الإحصار الذي يصادف المحرم بعد أن تلبس بالنسك، والتزم

وفاءه واحتمال ما به من حرج ، ونقرأ عن حظر الصيد فى الحرم ، وحظره على المحرم أينما كان ، وعن عدم حلق الرأس إلى أمد معين ، وعما سوى ذلك من محظورات الإحرام ، وما يترتب عليها من فدية وجزاء ؛ على ما هو مبين ويعرفه أولو العلم .

والنظر إلى هذا الجانب يوقع فى الروع أن فى الحج متاعب ، وخاصة على المغترب والمترف ، وأن العناء فى أعماله قد يزيد عما هو فى الحسبان ، وقد ينال من الإنسان كثيراً .

فلم أفصح القرآن وأشاد فى جانب الدعوة ، ولم أجمل واقتصد فى الجانب الآخر : جانب المشقة ؟

قلت : إن القرآن يعتمد الواقع ، ويبرزه فى صورة تكشفه ترغيباً فيه إن كان مشوقاً ، وترهيباً منه إن كان مخوفا .

لذلك كانت إشادته بنفع الحج بقدر ما علم الله فيه من خير ومغنم ، فإن فاتنا شيء من علم ذلك الخير المرجو ، فحسبنا اطمئناناً أن الله نوه إليه ، ووعد به ، ورغب فيه وأحبه لنا ، « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » .

وأما ما يعلق بالحج من مخاوف ، أو يعترض قاصد بيت الله من مشقة ، فلا يدانى ما فيه من فضل ، وما له من مقام . لذلك لم يأبه القرآن فى هذا الجانب إلا بذكر ما يترتب على المحظور ، وبيان ما يقتضيه الشأن ، وما سوى هذا فلا يقام له وزن فى باب الطاعات ، ومن شأن النفوس الخيرة السلسة القياد أن تسبق إلى الغرض وتتوق إلى الفوز ، وتخف إلى المبادرة ، وتنشط إلى التلبية غير حاسبة حساباً لما يلم بها من شظف . . على أن متاعب النسك قد لا تبلغ فى قسوتها على المترف مخاوف سفر آخر يقصد للربح ، أو يراد لغاية أخرى من الغايات .

فى حين أن أى سفر آخر وإن عظم لا يجدى على المرء ما يجديه القصد إلى بيت الله الحرام فإذا كان الربح المبين ، والمتعة التافهة مما يدفع بالناس إلى ركوب المخاطر ، فكيف يقعد المستطيع عن ربح خطير وعد به الله ، وهتف به القرآن ؟ ؟ .

ومع هذه الموازنة وبيان أرجحية النفع فقد يسر الله على عباده ، وجعله فى العمر مرة ، وشرط فيها القدرة والأمن ، وكان من شأن هذا التيسير أن يجتذب الناس إلى السمع والطاعة خروجاً من عهدة الفرض وشكرا على هذا الرفق ، ولكن الناس توسعوا فى تمحل المعذرة

واستمرأوها حتى توانوا عن ركن من أركان دينهم ، وهم قادرون عليه ، وانقضوا فى تجمع بغيض على أقدس مظهر من مظاهر القومية الدينية ، وأجهر شعيرة من شعائر الإسلام .

نستطيع بعد هذه اللفتة اليسيرة أن نعود إلى تعرف المنافع التى حدثنا القرآن أنها مشهودة ، وهى بعينها الحكمة التى نيط بها تشريع الحج والعمرة فى دين الله منذ القدم .

١ — نرى الحياة الدنيا بعد أن اجتازت من عمرها شوطاً بعيداً ، ونرى الحضارة منذ بدأت تنضج فى جوانب دنيانا ، ونرى العقلية الاجتماعية منذ نشطت من عقالها : نرى كل هذه الأمور الثلاثة توجه الناس توجيهاً لا مندوحة عنه إلى الاتصال ، وتدفعهم دفعاً إلى التلاق ، وتحفزهم على تقريب المسافات رغبة فيما وراء هذا من منافع لا تنال إلا باشتراك الجهود فى عمارة الدنيا ، وبسط أجنحة الحضارة ، وإسعاد الإنسانية أينما كانت ، وبهذا ترددت فى الآفاق دعوات المصلحين الواقفين على مشارف النهضات ، بعد أن كشفت لهم تجارب الزمن عن الحاجة إلى التضافر الأشمل : غير أنهم وإن تصايحوا بالدعوة إلى تلك الأهداف لا يزالون أشتاتاً متفرقين فى الاتجاه ، لأن إيمانهم بما يدعون إليه لم يتنزه عن الغايات ، ولم تبرأ دعوتهم من الألاعيب ، ولم تزل نياتهم فى قبضة الشيطان .

ولكن الإسلام ـ وهو دين الفطرة ـ أدرك من قبل : ما أدركه الناس من بعد ، فسبق إلى تشريع مؤتمره العام ، وحاطه بنظام يغنى عن الكد فى التقنين وهيأ للمسلمين ، بل حتم عليهم أن يتلاقوا فى مؤتمرهم كل عام فى بيت الله الحرام .

وما كان لدين يوجه دعوته إلى من هنا ومن هناك ، وينظر إلى سكان الأرض نظرة سواء ، ويرمى إلى تكوين أمته على غرار متحد وقومية متماسكة : ما كان له أن يغفل جمع أهله فى مواسم معهودة ، ليتعرفوا ما بينهم ، ويدركوا ما يحيط بهم ، ويأخذوا بما ينبغى لهم ويجدر بهم ، حتى لا تتعطل مواهبهم ، ولا تضعف شوكتهم ، ولا يستبد الجهل بعقولهم فتضيق عليهم سبل الحياة بما يصيبهم من كسل ، أو يحدق بهم من هوان .

باجتماع المسلمين فى البلد الأمين كل عام تتفتق أذهانهم عما توحى به الفطرة الجماعية ، ويستفيدون من مجال الرأى ما يدعمون به حياتهم ، ومن التعارف ما يشد أواصرهم ، ويتعاظمون به على من عاداهم ، ويرهبون به من طمع فيهم ، وذلك جانب خطير فى تركيز الدولة لو فطن الغافلون .

فأنت ترى من هذه الناحية وحدها أن الإسلام ، القديم على حضارتنا الراهنة ، قد سبقها

منذ قرون إلى جدتها المستحدثة ، وهو مع ذلك أكمل فى نظامه وأصدق فى دعوته . وأخلص فى أهدافه ، فهو شباب فى حضارته وإن تقدمت به السنون .

٢ — وناحية ثانية - لا يعوزها الإيضاح - فيما ينطوى عليه تشريع الحج والعمرة : ناحية التربية الفردية ، لتكوين أشخاص تتألف منهم الأمة المنشودة .

فالإسلام فى مساواته بين الناس يتمثل فى مظاهر المحرمين بالنسك من الرجال ، إذ يقتضيهم أن يخلعوا ملابسهم ، ويطرحوا ما عداه من مميزات البيئة ، ومظاهر النماء ، ليتوارى عن الأعين ما يكون من أمارات السؤدد ، ومياسم المجد ، فلا زهو ولا خيلاء ؛ أو ما يكون من أكسية فيها ابتذال ورثاثة ، فلا غضاضة ولا هوان .

فإذا استووا فى شعار الإحرام على نحو ما وصفت الشريعة - إلا من اضطر - أحس الجميع بتلاشى الفوارق ، ورجعت بهم الخواطر إلى المساواة فى العبودية لله ، وإلى الأخوة فى الإنسانية ، وصغرت فى نفوسهم الظواهر الشخصية أمام العزة الدينية ، ودبت فيهم الحساسية بالكرامة ، وأنه لا سيد بينهم ولا مسود ، ولا راجح ولا مرجوح ، وإنما هم جميعاً عفاة ضارعون ، خرجوا من ديارهم ، واغتربوا عن أهليهم ، وخلفوا وراءهم ما كان يشغلهم من أموال ، ومن كان يعز عليهم من بنين ، وتمثلوا فى تجردهم من المخيط بما سيلقون عليه ربهم بعد ارتحالهم عن الدنيا . وتقدموا فى تواضعهم هذا إلى ساحة إله كريم ، يجأرون إليه بالاستجابة : (لبيك اللهم لبيك ؛ لبيك لا شريك لك لبيك الخ) . وهكذا يناجون ربهم بالدعوات الطيبات ، ويستشفعون بأعمالهم الصالحات .

يتعاطف بعضهم على بعض ، لأن الإسلام هو اللحمة الواصلة بينهم ، ومرضاة الله مطمعهم وأملهم ، وبذلك تذهب الأنانية من بينهم ، ويملأ الإخلاص قلوبهم ، وتتركز لديهم العقيدة الإسلامية على أساس من الحق ، وركن شديد من اليقين .

وإذا كانت هذه الخصائص من نفحات الله على بيته ، ومن فيضه على زواره ، أفلا يكون من الخير لعباده أن جعل الحج إليه ركناً من أركان دينه ، ليتفقهوا ويفقهوا : كيف « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » ؟ ؟

وإذا فقهوا ذلك فلن يصرفهم عنه كبرياء ، ولن يزهدهم فيه خطأ فى التقدير ، وسيعلمون ، أو يعلم الموفقون المهديون منهم ، أن المتقاعدين عن البيت - وهذا شأنه -

متخلفون عن نفع كبير ، وخير غير يسير ، وأنهم متقضون على نظام خطير وضع لصلاح الفرد ونظام المجتمع ، وإنها لكبيرة لا يبوء بها إلا من سفه نفسه .

ولكن : مهما غفل عن بيت الله غافلون ، فإن جماعة المسلمين على إيمان حق بأنهم إذا شخصوا إلى البيت فإنما يلوذون بمقام تهبط فيه الرحمات ، وتستجاب عنده الدعوات ، إليه يلجأ العائذ بربه ، ويطهر فيه التائب من ذنبه ، ويتجدد فيه العهد ، ويتوثق فيه الإيمان .

هو مشهد تزدحم فيه الأشباح ، وتتلاقى بها الأرواح ، والمسلم الحاضر هناك . . أخو المسلم الغائب هنا . . يذكره كما يذكر نفسه إذا زار البيت ودعا . . ويذكره إذا وقف بعرفات وأفاض ، وإذا طاف وسعى ؛ وربك من دعاء قريب ، وهو للأوابين مجيب .

ورب قائل : ـ قد يفيض الرضا من جانب الله ، ويغمر من لدنه العفو ، وقد يشمل بإحسانه القاصر والمقصر ، والغافل والمتذكر ، ويهب العاصين للطيعين ، والمذنبين للمستغفرين ، ثم يدخل عباده فى ساحة رضوانه أجمعين .

نعم ! ! ولكنه ـ سبحانه : ـ علمنا أن الأمل لا يغنى عن العمل ، والرجاء لا يجدى مع الكسل ، وقد أهاب بنا إلى طاعته ، فحق علينا أن نستجيب لدعوته .

فأما العفو المطموع فيه فمن شأن ربك ؛ وقد وعد العاملين المخلصين ، وهو أعلم بالسرائر ، وأدرى بالنوايا . . وكرمه أوسع من أن يضيق بالرجاء ، وهو لا يخلف الميعاد .

(للحديث بقية)

عبد اللطيف محمد السبكى
عضو جماعة كبار العلماء

تدارك

وقع اشتباه فى المقال السابق بعدد رجب ، إذ أننى ذكرت (ربنا وابعث فيهم رسولا من أنفسهم) والصواب (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) الآية فأرجو التنبه مع الشكر .

السُّنَّة

٣ - التطهير في الإسلام

مبايعات النساء على التطهير - مكان المرأة في الإسلام - هل تستعيد المرأة سيرتها الأولى؟ - التطهير بالمحن والبلايا حتى يحسن ستر العورات؟! - القول الفصل في مبايعات الصوفية - دعوة إلى إصلاح الطرق.

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: أَخَذَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ كَمَا أَخَذَ عَلَى النِّسَاءِ: أَلَّا نُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا نَسْرِقَ، وَلَا نَزْنِيَ، وَلَا نَقْتُلَ أَوْلَادَنَا، وَلَا يَعْضَهَ بَعْضُنَا بَعْضًا (١) فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَتَى مِنْكُمْ حَدًّا فَأُقِيمَ عَلَيْهِ فَهُوَ كَفَّارَتُهُ، وَمَنْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ فَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ.

رواه الشيخان واللفظ لمسلم.

• • •

رجحنا في صدر البيان لهذا الحديث أن المبايعة على التطهير من هذه الموبقات الست كانت بعد فتح مكة، وبعد نزول آية الممتحنة «يأيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك»، فبايع النبي ﷺ النساء، ثم بايع الرجال على وفق مبايعتهن اقتداء بالقرآن الكريم.

وكنا سقنا في كل من المقالين السابقين لفظ البخاري لهذا الحديث في كتاب الإيمان،

---

(١) أي لا يرميه بالعضيهة وهي البهتان والكذب، فالجملة هنا بمعنى الجملة الأخرى «ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم».

لأنه أوفى الروايات وأدلها على فضل هذه البيعة والمبايعين ؛ ثم بدا لنا في هذا المقال الأخير أن نختار رواية مسلم في كتاب الحدود ، تأييداً لما رجحناه ، وتمهيداً لذكر مبايعات النساء ومكانتهن في الإسلام . .

لقد بايعهن الرسول ﷺ وبايعهن غير مرة : في مكة بعد الفتح ، وفي المدينة ، أخرج الإمام مالك في موطئه عن أميمة بنت رقيقة [1] رضي الله عنها أنها قالت : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسوة بايعنه على الإسلام ، فقلن يا رسول الله : نبايعك على ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيك في معروف : فقال رسول الله ﷺ : فيما استطعتن وأطقتن ، قالت فقلن : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ، هلم نبايعك يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : إني لا أصافح النساء ، إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة .

وممن بايعنه بمكة ، صلوات الله وسلامه عليه ، هند بنت عتبة زوج أبي سفيان ، ففي حديث أسماء بنت زيد قالت : كنت في النسوة المبايعات وكانت هند بنت عتبة في النساء ، فقرأ ﷺ عليهن الآية ، فلما قال «على ألا يشركن بالله شيئاً» ، قالت هند : وكيف نطمع أن يقبل منا ما لم يقبله من الرجال ؟ ! فلما قال : «ولا يسرقن» ، قالت : والله إني لأصيب الهنة من مال أبي سفيان لا يدري ، أيحل لي ذلك ؟ فقال أبو سفيان : ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال ، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها ، فقال لها : وإنك لهند بنت عتبة ، قالت : نعم ، فاعف عما سلف يا نبي الله ، عفا الله عنك ! فقال «ولا يزنين» ، فقالت : أو تزني الحرة ؟ تعني أن الحرة لا تزني أو لا ينبغي لها أن تقترف هذه الفاحشة ! فإنها لا يتردى في بؤرتها إلا الأمة وأشباهها من الساقطات ، وإلا فليس يخفى على مثلها أن ذوات الرايات في الجاهلية كن حرائر ! فقال : «ولا يقتلن أولادهن» ، فقالت : ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً ! تعني ما كان من أمر ابنها حنظلة بن أبي سفيان ، فإنه قتل يوم بدر ، فضحك عمر حتى استلقى ، وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويروى أنها قالت : قتلت الآباء وتوصينا بالأولاد ! فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : «ولا يأتين ببهتان» ، فقالت : والله إن البهتان لأمر قبيح ، ولا يأمر الله تعالى إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ؛ فقال : «ولا يعصينك في معروف» ، فقالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا

---

(١) بقافين مصغرة كأبلتها ، وفي بعض النسخ رقية وهو تحريف .

أن نعصيك فى شىء . ولم يرو عن امرأة من المبايعات على كثرتهن ما روى عن هند فى جرأة مراجعتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وشدة تعقيبها عليه ، وإذا صحت هذه الجرأة فى المراجعة فلحداثة عهدها بالجاهلية ، مع حدة فى اللسان وقوة فى الجنان ، ثم لمكان ابنة زوجها أم المؤمنين رملة [١] ، رضى الله عنها ، من النبى صلى الله عليه وسلم .

• • •

واحتفال القرآن العظيم والنبى الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، بمبايعة النساء وتعليمهن وإرشادهن والاستماع إليهن ، ثم مبايعة الرجال على مناهجهن - أعظم دليل على إنقاذ المرأة من وهدتها ، وإعلاء الإسلام لمكانتها ، والسمو بها إلى أوج العزة والكرامة ، بعد أن كانت من سقط المتاع !!

ولو أن المرأة عرفت فى الإسلام مكانتها ، لشكرت نعمة الله عليها ، بالتزام حدوده وآدابه ، واستمساكها بهديه وكتابه ، ولكنها بدلت نعمة الله كفرا ، فسلبت نعمة المعرفة والهداية . وتخبطت فى متاهة الضلالة والغواية ، فلم يكن عجبا - وقد ركبت رأسها ، ومشت مكبة على وجهها - أن تبيع ما ملكها الإسلام من ملك عظيم ، ببهرج من المدنية الكاذبة ، وزبرج [٢] من الحضارة الفاتنة الصاخبة ، حتى خسرت نفسها ودينها ومكانها جميعاً !!

بيد أن باب التوبة مفتوح على مصراعيه لمن شاءت أن تئوب إلى رشدها ، وتتطهر من رجسها ، وتنظر بنور الإسلام إلى تاريخها ، مستعينة بالله تعالى أن يعيدها سيرتها الأولى .

• • •

وبعد فقد بينا فى المقال السابق درجات الناس فى التطهير من الموبقات ، وضربنا أروع الأمثال بأناس جادوا بأنفسهم لله عز وجل ، وذكرنا فيمن ذكرنا أناساً لم يقدروا على تطهير أنفسهم جهرا ، أو قدروا ولكنهم آثروا ستر الله ، فطهروا أنفسهم فيما بينهم وبينه سرا ، رأوا أنه تعالى ستير يحب الستر ، وأنهم ما كان لهم أن يكشفوا ستر الله عنهم وقد سدله عليهم وجللهم ، فباتوا لله ضارعين باكين ، منفقين مستغفرين ، مستكثرين من الصالحات والخيرات ، مطمئنين إلى أن الحسنات يذهبن السيئات .

---

(١) كنيتها أم حبيبة ، وأمها صفية بنت أبى العاص بن أمية عمة عثمان رضى الله عنه .
(٢) البهرج : الباطل ، والزبرج الزينة والذهب والسحاب اهـ نهاية .

ومن شكر نعمة الله تعالى على عبده فى ستر فضائحه ومساويه - وما أعظمها من نعمة - أن يستر عورة أخيه، ويعف عن ذكرها ما استطاع إلى الستر سبيلا، فقد روى أبو داود والنسائى عن عقبة بن عامر رضى الله عنه، قال، قال رسول الله ﷺ: «من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا موءودة». وفى حديث مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه: «ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة»، ولكن لا يحسن الستر إلا على ذى مروءة تعد هفواته، ويرجى منه الخير وقبول النصيحة؛ وأما من لا يرعوى عن غيه، ولا يبالى نصح الناصحين، ولا هداية الهادين، فإن الستر عليه لا يزيده إلا غيا وضلالا!.

وآخرون أراد الله بهم خيرا فعجل عقوبتهم فى الدنيا بما ابتلاهم من ضروب المحن والبلايا، حتى يلقوا ربهم مطهرين أبرارا. فقد روى الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة». وروى الترمذى أيضا عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة فى الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة». وقال النبى صلى الله عليه وسلم: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط». وروى الشيخان عن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب[1] ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه». وروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه لما نزلت: «من يعمل سوءا يجز به»، بلغت من المسلمين مبلغا شديدا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قاربوا وسددوا ففى كل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى النكبة ينكبها والشوكة يشاكها».

* * *

وإنما تكون النكبات والمصائب - على اختلاف ضروبها - مطهرة ومكفرة، إذا صبر المصاب عند الصدمة الأولى، راضياً بقضاء الله وقدره، مؤمناً بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ فإن أمر المؤمن كله له خير: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له. ومن آثار عمر رضى الله عنه: الصبر

---

(١) النصب: التعب، والوصب: المرض.

والشكر مطيتان لا أبالي أيهما ركبت . بين ، رضوان الله عليه ، أن شأن المؤمن في كل أحيانه أن ينتقل من خير إلى خير ومن أجر إلى أجر .

ولا يقدح في الإيمان والصبر والرضا أخذ المصاب بالأسباب المشروعة من التداوي والسعي وما إليهما ، بل ربما كانت واجبة يثاب عليها ولا يجوز التهاون فيها وكل من عند الله ، وكل بقضاء الله حتى العجز والكيس . وللتفصيل مقام غير هذا .

فإذا جزع العبد ولم يرض بقضاء الله تعالى كان كل ما أصابه عقوبة معجلة في هذه الدنيا : « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

• • •

ولن يتم تطهر العبد إلا بتخليه عن التبعات والمظالم ورد الحقوق إلى أهلها ما استطاع إلى الرد سبيلا ، فإن عجز فليكثر من الاستغفار لهم ، والتصدق - ما استطاع - عنهم ؛ فإن ذلك أدنى أن يرضى الله ويرضى خصومه عنه ، وإلا فويل له ثم ويل له يوم يطالبه غرماؤه بديون لا قبل له بها ، ثم يكبه الله على وجهه وقد خسر الدنيا والآخرة !

إن ذلك هو المفلس الذي عناه النبي ، صلى الله عليه وسلم ، حين سأل أصحابه فقالوا : هو من لا درهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا ؛ فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار . رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

• • •

ذلك ، والصوفية وأرباب الطرق يعتمدون على أحاديث المبايعات في مبايعاتهم المختلفة ، وأخذ العهود والمواثيق على المريدين في التوجيه والسلوك . والقول الفصل فيما يعملون هم أو غيرهم من عمل ، أن يعرض على كتاب الله وهدى نبيه صلوات الله وسلامه عليه فما وافقهما فهو الرشد والهدى ، وما خالفهما فهو الغي والهوى . « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » .

لا جرم أن البيعة على الاستقامة والهداية وما جاء به النبي ، صلى الله عليه وسلم ، من أمر ونهي ، وورد وذكر ، وفرض ونفل ، من غير إرهاق ولا تنطع ، ولا تكاسل ولا تواكل

ولا ذلة ولا مهانة — فهي تجديد لما بايع النبي صلوات الله وسلامه عليه أصحابه وأخذهم به ورباهم عليه، وذلك من العهود المسئولة، والأمانات المحمولة، والعقود التي لا يوفي بها إلا القوي الأمين، من أمثال هؤلاء النفر الذين يروى مسلم حديثهم عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه فيقول: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: ألا تبايعون رسول الله ﷺ؟ وكنا حديثي عهد ببيعة، فقلنا قد بايعناك يا رسول الله. فبسطنا أيدينا، وقلنا قد بايعناك يارسول الله فعلام نبايعك؟ قال: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وتصلوا الصلوات الخمس، وتسمعوا وتطيعوا، وأسر كلمة خفية ـ قال: ولا تسألوا الناس شيئا، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه.

إن رجال الطرق في مصر وغيرها من بلدان الإسلام، كثرة ذات شأن وثروة ذات بال، وهم مسئولون بين يدي الله والتاريخ عن تربية أتباعهم، فعليهم أن يطهروا أنفسهم ويأخذوها بالتي هي أقوم، وأن يكونوا قادة للناس يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويهدون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والهدى النبوي فيما يأتون ويذرون، لا عصبية ولا هوى، ولا ابتداع ولا انحراف. وإنما هو التعاون على البر والتقوى، وإيثار الحق أينما كان.

وعلى ولاة الأمور من العلماء والحكام أن يعاونوهم ويهيئوا لهم أسباب الرشاد والسداد.

وقد علم الناس أن نفرا من أولي الفضل قد استجابوا في هذه الأيام لدعوة طالما وجهها كثير من ذوي الغيرة الإسلامية لإصلاح هذه الطرق وتنقيتها مما يشينها من البدع والخرافات والانحراف عن دين الله الحنيف. وها هم أولاء، ينتظرون ما وراء هذه الإجابة من خير ورشد وهداية إلى الصراط المستقيم: صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين [1] «والله المستعان»، «وعلى الله قصد السبيل».

طه محمد الساكت

---

(١) نرجو أن يكون لنا بحث في إصلاح هذه الطرق في مناسبة قريبة إن شاء الله.

التقليد والمحاكاة في نهضتنا الحاضرة

ما يجب أن نقتبسه من مظاهر القوة والخير

حديث لفضيلة الأستاذ الأكبر

تفضل فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر فخص « الأهرام » بهذا المقال الذي ننشره فيما يلي :

نحن الآن في طور من أطوار التاريخ ، عزمنا فيه على أن نعالج أسباب ضعفنا ، وأن نأخذ إن شاء الله بجميع وسائل القوة ، لنعود كما كنا أمة صالحة سليمة الاتجاه سعيدة العيش محترمة من الأمم ، ومتبادلة معها حقوق المصالح والمنافع ، ومتعاونة مع الجميع على التقدم بالإنسانية إلى أهدافها العليا .

وأول ما ينبغي لنا تمييزه في معالجة أسباب الضعف والأخذ بوسائل القوة ، أن نكون على بينة مما نأخذه عن غيرنا ، وما ينبغي لنا التمسك به من أصولنا ومبادئنا ، وما به قوام كياننا .

إن الإسلام يأمرنا أمرا دينيا بأن نكون أمة قوية بأخلاقها ، قوية بعلومها النافعة وصناعاتها التي عليها مدار العمران ، قوية باستعدادها العسكري للدفاع دائما ، وفي أي لحظة عن كل ما لنا من حقوق ، وما نؤمن به من حقائق . فالأخذ بأسباب القوة من جميع هذه النواحي ، والاضطلاع بالعلوم اللازمة له من طبيعة وكيمياء وميكانيكا ورياضة واقتصاد وإحصاء ، فرض لازم على المسلمين ، لأن دينهم أمرهم بأن يكونوا أقوياء ، فأصبح ذلك واجبا عليهم ، وكل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

ومما ينبغي لنا في هذه الأمور ألا نقتصر على المحاكاة والتقليد ، بل يجب أن نعد الأذكياء من أبنائنا وشباننا للتقدم فيها ، حتى يكونوا من أئمتها المبتكرين وعلمائها المخترعين ، وقد وهبهم الله من الألمعية والذكاء ، وعظيم الاستعداد ما يساعدهم على ذلك في سنوات قريبة إن شاء الله .

هذا هو الجد ، وبهذا تتم النهضة فنأخذ فى طريق الفلاح ، ونبلغ مقام الإمامة فى العلوم ، ونتأهل لما وراء ذلك مما استخلف الله به الانسانية الكاملة فى الأرض .

أما الأمور التى بها قوام كياننا والعمل بمبادئنا والرجوع إلى أصولنا ، فهذا مما لا يجوز لنا محاكاة غيرنا فيه ، بل إن كل أمة تحترم نفسها وتعتز بكيانها تترفع عن محاكاة غيرها فى أصولها ومبادئها ، وإننا لا نزال نذكر ما وقع فى انجلترا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية فإن أعضاء حزب العمال فى وزارة تشرشل كانوا يطالبون بتجديد الانتخابات النيابية ، وكان تشرشل يحب أن يتأنى فى ذلك ، فكتب إلى مستر أتلى يقترح أن يستعاض عن تجديد الانتخابات بعمل استفتاء عام ، فأجابه مستر أتلى بكتاب لا يزال يرن صداه فى الآذان حتى اليوم ، إذ قال له فيه : « إن فكرة الاستفتاء ، اختراع أجنبى ، وليس من الخير أن يسمح له بدخول البلاد البريطانية » ولقد كان مستر أتلى على حق فى هذا ، لأن كل أمة ذات أصول ومبادىء تتصل بنظامها الخاص بها ، وبكيانها الذى تعتز به فى تاريخها ، لا يجوز لها أن تفرط فى أصولها ومبادئها لتحاكى غيرها فى شىء من ذلك ، وهذا الاعتزاز بأصول الأمة ومبادئها من مظاهر قوة الأمة ، بل هو من وسائل تلك القوة ، أما التفريط فى ذلك والتلون بالألوان الغريبة ، فإنه من مظاهر الضعف ومن وسائله ، وهذه الحقيقة الاجتماعية قررها ابن خلدون فى مقدمة تاريخه وبرهن عليها ، ولا تزال من حقائق الاجتماع إلى الآن ، على أنه لو لم يكن هذا من حقائق الاجتماع ، فإن الإسلام حتمه على أهله وألزمهم بالتزامه ، وكان أسلافهم أقوياء يوم كانوا ملتزمين به ، ولو قيض الله لهذه الأمة علماء من أهل البصائر النيرة ، يدرسون ما عندنا من هذه الأصول والمبادىء دراسة علمية بلا تعصب ولا غرض ، لتبين لهم أنها هى المبادىء السليمة والأصول الصحيحة التى تقوى بها الأمة وترق ، وأن التفريط فيها من مدارج الضعف وأعراض الانحطاط ، ونحن إذا عمدنا إلى التفريط فيها نكون متناقضين مع أنفسنا فيما نحاوله من أسباب القوة فى مرافقنا المادية من زراعية وصناعية واقتصادية وعسكرية وغير ذلك ، إذ لا معنى لذلك إلا الجمع بين أسباب الضعف وأسباب القوة فى وقت واحد .

إن هذه القاعدة المزدوجة ـ وهى الأخذ بكل ما وصلت إليه الأمم من علوم القوة والتقدم العمرانى وأسبابهما ، مع التمسك بالأصول والمبادىء الخاصة بنا والموروثة عن أسلافنا ـ هى التى ينبغى لنا أن نعمل بها فى أنفسنا أفرادا ، وفى بيوتنا وأسواقنا ومجتمعنا ودولتنا ، فالفرد منا يجهز نفسه وبيته بكل ما يحتاجه مما توصل إليه العلم ،

كالأدوات الكهربائية والتليفون وأمثال ذلك ، وفى الوقت نفسه يتوقى كل ما لا يتفق مع آداب دينه ، كاختلاط النساء بغير محارمهن . وفى مصانعنا نستعين بكل ما وصل إليه العلم من آلات دقيقة وسريعة لتنافس الأمم بتقدمنا وجودة إنتاجنا ، وفى الوقت نفسه نتعامل مع عمالنا وعملائنا بكل ما أرشد إليه ديننا من رفق وتراحم وتعاون وإخلاص وأمانة وحفظ المواعيد ، وتمسك بالعهود وتجنب لنقيضى البخل والإسراف والمحاباة والإجحاف . وفى مجتمعنا نتحرى المبادىء والقواعد والأصول الخاصة بنا فى كل ما نحاوله من تنظيم وعمل مع ما نحرص عليه من أسباب القوة والتقدم والنجاح ، ليتصل حاضرنا بماضينا ، ولنكون به قدوة لمن يأتى بعدنا من الأجيال .

إن النهضة التى تقوم على هذين الأساسين هى النهضة الصادقة الثابتة الخطى ، الوثيقة الدعائم ، وهى التى تتقبلها الأمة بالاستبشار ، لأنها توافق مصلحتها وتتفق مع راحة ضمائرها ، وتكون بذلك فى عبادة ، لأنها جمعت بين سعادة الدنيا وفضائل الدين .

أما الذين يشغلون الأمة عن سعادة الاستعداد للنهوض بالتعرض لأمور تراها الأمة ماسة بأصول ومبادىء عزيزة عليها ، وهى فى الوقت نفسه لا دخل لها فيما نحن آخذون به للنهوض بالمرافق الصناعية والزراعية والعسكرية ، كمحاولة محاكاة الأمم الأجنبية فى نظام الأسرة وشئون الزواج والأمور الشكلية كالأزياء وما إليها ، فإن ذلك كله ليس من مصلحة الوطن ، ولا خير فيه لهذه الأمة ، وهى فى هذا الطور المعظم من أطوار نهوضها وتقدمها .

ومما ينبغى لجمهور الأمة أن يكون على علم به أن كل ما طرأ علينا من عدوى أجنبية فى حياتنا الاجتماعية ، كالإضراب عن الطعام احتجاجا على أمر من الأمور ، أو الإضراب عن العمل لاختلاف بين العمال وأصحاب الأعمال ، فإنه مما لا يليق ببلد إسلامى ، لأن الإضراب عن الطعام انتحار ، والانتحار يسخطه الله ، وصاحبه يبتعد عن حياة الدنيا وحياة الرضا فى الآخرة ، والإضراب عن العمل قتل للوقت وسخط للرزق ، وتعطيل لمصالح الأمة ، وما دامت أبواب العدل مفتوحة ، ومرافق الدولة مستعدة للنظر فى الشكاوى والتوفيق بين المصالح ، فذلك هو الطريق للوصول إلى الحقوق العادلة ، وإن هذا الشرق الإسلامى فى حاجة إلى أن يأخذ عن غيره أسباب القوة ، لا وسائل التعطيل والانتحار .

ومن أدق موازين الحكم على الوعى القومى والنضوج الاجتماعى مراقبة ما تأخذه الأمة عن غيرها من خير ، وما تتجنبه مما لا خير فيه ، ونحن اليوم فى هذا الطور من أطوار التاريخ ، والتاريخ يراقبنا فى هذا الامتحان ليرى ما نأخذ وما ندع .

أزمة الفقه الإسلامي

نظرية السبب في العقد

(تتمة)

١ — ذكرنا فيما سبق أنه يجب أن نعمل على استخلاص النظريات الفقهية التي تندرج تحت كل منها طائفة عديدة من التفريعات والأحكام التي نعرفها في الفقه ، وبهذا يتغير الفقه الإسلامي في منهجه وطريقة عرضه ، ويأخذ في طريقه إلى التقدم .

ورأينا في الكلمة السابقة لهذه ، أن نعرض لنظرية السبب في العقد أو الالتزام ، وذلك من باب التطبيق لما ندعو إليه : ولنؤكد للعلماء بالقانون أن العلماء بفقه الإسلام وأصوله لم يغفلوا هذه الناحية في بحوثهم ، وإن كانوا لم يصلوا إلى وضع نظرية عامة فيها .

وانتهينا في تلك الكلمة من الحديث عن تعريف السبب ومعانيه وما يراد به في الفقه ، واليوم نتكلم عن الشروط التي يجب أن تتوفر فيه ليكون سبباً صحيحاً شرعا يجب رعايته ، ثم عن حكم التصرف المجرد عن السبب ، وبذلك يتم البحث .

٢ — ونحب أن نؤكد من أول الأمر أن الفرق كبير جداً ، فيما يتصل بشروط السبب الصحيح وتطبيقاتها ، بين الفقه والقانون . فالشريعة الإسلامية ، وهي تقوم على رعاية الصالح العام للفرد والمجتمع ، تتدخل حين يجب التدخل للحد من حرية المتعاقدين ، ومن ثم لا تجيز من العقود إلا ما لا يتنافى مع الأخلاق الطيبة والمصلحة العامة للمجتمع ، على حين نرى القانون يجعل « العقد شريعة المتعاقدين » ، ومن ثم لا يتدخل في حريتهما إلا بقدر محدود .

حقيقة إن من القواعد القانونية أن ما يخالف النظام العام والآداب باطل ، وأنه لا يوجد الالتزام إلا إذا كان له سبب حقيقي ومشروع ، وأن السبب يكون غير مشروع إذا حرمه القانون أو كان مخالفا للآداب والنظام العام ، وأنه يجب أن يتوفر في السبب أن يكون موجوداً وأن يكون مشروعا[1] . كل هذا حق ، ولكن شيئا منه لم يمنع أن يجوز

---

(١) نظرية الالتزام في القانون المدني المصري ، للأستاذ الدكتور حشمت أبو ستيت ، ص ١٦٦ ، ١٧٠ .

قانونا ما كان من استئجار الدور للدعارة في مصر وغيرها ، ولا يزال يحصل حتى الآن بكل أسف من استئجار الدور لتكون مباءة للخمر والميسر ، إلى نحو هذا وذاك من العقود التي لا يقر أسبابها خلق أو دين أو شريعة فاضلة .

٣ — هذا ، والشريعة الإسلامية ، التي تقدر أن الأعمال بالنيات ، وأن الأمور بمقاصدها ، توجب أن يتوفر في سبب العقد شروط ثلاثة :

(ا) ألا يكون واجباً على أحد طرفي العقد بدون العقد .

(ب) أن يظل قائماً حتى يتم تنفيذ العقد .

(ج) أن يكون مشروعاً حقاً .

وهذه الشروط الثلاثة نستخلصها من كلام الفقهاء في أبواب كثيرة من الفقه ، وكذلك من بحوث الذين عنوا منهم بقواعد الفقه العامة ، مثل ابن رجب الحنبلي وابن جزى المالكي . ولم يكن هؤلاء الفقهاء نظريين ، بل كانوا عمليين يضعون الحلول لما يعترض في الحياة من مشاكل ومسائل ، ولذلك نجد في ثنايا كتب الفقه وقواعده كثيراً من التطبيقات لتلك الشروط .

٤ — فمن تطبيقات الشرط الأول أنه لا يكون صحيحاً أن يستأجر إنسان خادمه أو زوجته على عمل هو واجب على أحدهما ، لأن عقد الإجارة في هذه الحالة لا سبب له .

ولذلك يذكر الإمام الزيلعي أنه لا يجوز استئجار الأم لإرضاع طفلها إذا كانت في عصمة زوجها (أي الأب) أو في عدته ، « لأن الإرضاع مستحق عليها ديانة ... فلا يجوز أخذ الأجرة عليه . ولهذا لا يجوز أن تأخذ الأجرة على خدمة البيت من الكنس وغيره ، وإنما لا تجبر عليه لاحتمال عجزها فعذرت ، فإذا أقدمت عليه ظهرت قدرتها فلا تعذر » ، إلى آخر ما قال [1] .

٥ — ولو كان للعقد سبب من أجله أقدم عليه المتعاقدان ، ثم زال هذا السبب ، كان هناك حينئذ مقتض لفسخ العقد ، ولذلك مثل كثيرة تمدنا بها كتب الفقه ونكتفي هنا بذكر البعض منها [2] :

---

(١) راجع شرح الزيلعي ، جـ ٣ : ٦٢ — ٦٣ في باب النفقة .

(٢) يراجع في هذه الأمثلة وغيرها ، البدائع للكاساني جـ ٤ : ٢٢٢ — ٢٢٣ ، مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية ، جـ ٥ : ٢٢٤ وما بعدها ، القواعد في الفقه الاسلامي ، لابن رجب ، ص ٣٢١ — ٣٢٢

(ا) استئجار مرضعة للطفل ، أو خادمة لخدمته وحده ، أو معلما لتربيته ، ثم يموت الطفل .

(ب) استئجار أرض للزراعة فانقطع الماء عنها أو صارت غير صالحة للزراعة لأى سبب من الأسباب .

(حـ) استئجار دار للسكنى فانهدمت أو صارت غير صالحة للسكن ، أو محل للتجارة ثم أفلس المستأجر أو اضطر لترك البلد التي بها المحل .

ففي هذه الحالات وأمثالها ، نجد سبب العقد قد زال وأصبح غير قائم ، والنتيجة لذلك انفساخ العقد وانتهاؤه فى رأى جمهرة الفقهاء ، ومن هذه الحالات المرأة تهب مهرها لزوجها طلبا لاستدامة العشرة بينهما ، ثم يطلقها ، فلها حينئذ الرجوع عن الهبة لزوال سببها .

٦ — ومن باب التطبيق للشرط الثالث وهو وجوب أن يكون للعقد سبب مشروع [1] نذكر هذه العقود [2] .

(ا) استئجار أحد المجرمين للإضرار بآخر ، بحرق بيته أو زراعته أو قتله مثلا .

(ب) بيع عصير العنب لمن يصنعه خمراً .

(حـ) بيع أدوات القتال لقاطع طريق أو لأهل الفتنة ، ومثل ذلك بيع أدوات الميسر والقمار .

(ى) تأجير دار للدعارة أو للعب الميسر أو لتكون حانة يباع فيها الخمر .

(هـ) الهدية لمن يتشفع للمهدى لدى أصحاب السلطان .

فهذه العقود ونحوها التي تقوم على سبب غير مشروع ، غير صحيحة فى رأى كثير من الفقهاء ، وما هذا إلا لعدم شرعية أسبابها .

٧ — بقى بعد ما تقدم ، أن نبحث بإيجاز التصرف المجرد عن سبب ، لنعلم هل يجب

---

(١) يوجب القانون ، كما عرفنا ، أن يكون للعقد سبب مشروع ، ولكن ما أعظم الفرق بين ما يعتبر مشروعا فى القانون وبين ما يعتبر كذلك فى الفقه الاسلامى .

(٢) راجع المحلى لابن حزم حـ ٩ : ٢٩ — ٣٠ ، الحطاب على خليل حـ ٤ : ٢٦٣ وما بعدها ، القواعد لابن رجب صـ ٣٢٣ .

الوفاء بما يكون فيه من التزام أولا يجب ، وهنا نجد الله تعالى يقول فى سورة الصف : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » ، كما نجد الرسول ﷺ يقول : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذ وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » ، كما يقول : « وأى المؤمن حق واجب [1] » .

ومن أجل هذه الآيات والأحاديث التى ذكرناها ، يرى بعض الفقهاء أن من يعد غيره بشىء ، ولو بلا سبب إلا ابتغاء الثواب من الله تعالى ، يجب عليه أن يفى بما وعد ؛ وإلا كان من الذين يقولون مالا يفعلون ، وكان فيه لذلك خصلة من خصال النفاق الثلاث .

٨ — وهنا نجد العلامة ابن حزم الأندلسى المتوفى عام ٤٥٦ هـ ، ثم الإمام القرافى المالكى المتوفى عام ٧٢٣ هـ ، يتعرضان فى دقة وتحليل لمسألة الوعد (وهو نوع من أنواع التصرف المجرد) لبيان ما يجب الوفاء به منه وما لا يجب مطلقاً .

لقد استعرض الأول آراء الفقهاء فى هذه المسألة ، فذكر أن أبا حنيفة والشافعى وداود بن على شيخ أهل الظاهر ، لا يرون أن الواعد يلزمه - شرعا وقضاء - الوفاء بما وعد ، بلا سبب . ولا فرق بين أن يكون قد أدخل من وعده فى كلفة أو لم يدخله ، وإن كان من الأفضل طبعاً أن يفى بما وعد ، ثم ذكر أن الإمام مالكا يرى أن الوفاء لازم فى الحالة الأولى فقط ، وأن ابن شُبرمة يرى أنه لازم فى الحالتين ، وانتهى إلى أن الوفاء غير لازم مطلقاً إلا أن يكون الواعد قد وعد بشىء واجب عليه ، وهذا مثل الإنصاف من دين أو أداء حق [2] .

أما الإمام القرافى ، فقد ذكر شيئا من اختلاف الفقهاء فى المسألة ، ثم قال [3] : « وجه الجمع بين الأدلة المتقدمة ، التى يقتضى بعضها الوفاء به وبعضها عدم الوفاء به ، أنه إن أدخله فى سبب ما يلزم بوعده لزم ، كما قال مالك وابن القاسم وسحنون ، أو وعده مقرونا بذكر السبب كما قاله أصبغ ، لتأكد العزم على الدفع حينئذ ، ويحمل عدم اللزوم على خلاف ذلك ، ومن الوعد المقرون بالسبب أن يقول إنسان لآخر : اهدم دارك وأنا أسلفك ما تبنى به ، اشتر هذه السلعة أو تزوج هذه المرأة وأنا أسلفك .

---

(١) الوأى : هو الوعد وزنا ومعنى ، وهذا الحديث رواه أبو داود ، انظر ابن حزم جـ ٨ : ٢٩

(٢) المحلى ، جـ ٨ ، ٢٨ ، ٢٩

(٣) الفروق ، جـ ٤ : ٢٧

٩ — ومن الواضح أن ما ذهب إليه الإمام مالك هو الصحيح ، نعني وجوب الوفاء من الواعد إن تسبب بوعده في إدخال الموعود في كلفة ونفقات ، وعدم وجوبه - إلا في شرعة الأخلاق - إن لم يكن الأمر كذلك .

وأخيراً ، هذه هي نظرية السبب في العقد والالتزام ، عرضناها بإيجاز كما يمكن أن تستخلص من أقوال الفقهاء في كثير من أبواب الفقه . ولم نرد بذلك أكثر من تقرير أن الشريعة الإسلامية لم تغفل هذه الناحية الفقهية ، كما لم تغفل شيئاً مما يتمدح به رجال القانون في هذه الأيام ، وما علينا ، نحن ورثة أولئك الأسلاف العظام ، إلا أن نعني بدراسة الفقه دراسة تاريخية مقارنة من ناحية ، ثم العمل على استخلاص النظريات التي يمكن أن تنتظم أحكامه وفروعه المنثورة هنا وهناك ، وحينئذ نكون قد قمنا بعملية « التركيب » ، بعد أن قام أولئك الأسلاف رضوان الله عليهم بعملية « التحليل » والتفريع .

الدكتور محمد يوسف موسى
أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق
بجامعة فؤاد الأول

****

من أقوال أناتول فرانس

- من الحسن أن يكون القلب ساذجاً والفهم غير ساذج .
- من الحق العظيم أن تحتقر خطراً يهددك .
- في الهموم تسلية عظيمة .
- ينشأ الخطأ عن ضعف في الخلق ، أكثر مما ينشأ عن ضعف في الإدراك .
- كل تبدل يطرأ علينا - وإن تمنيناه كثيراً - يورث حزناً وغماً ، لأن ما نتركه جزء منا ، وينبغي أن نموت في حياة لندخل في حياة أخرى .
- لكل صورة شعرية معان عدة ، فأي معنى وجدته ، كان عندك معناها الحقيقي .



استــــــدراك

عرضت فى جزء جمادى الآخرة ١٣٧٢ من هذه المجلة للعبارة الشائعة « اختر بين كذا وكذا » وقد خرجت من البحث إلى أن هذه العبارة لا سند لها فى العربية ولم يرد مثالها . وقد وجدت مثيلاً لها فى صيغة تساوق « اختار » من مادتها ، وهى « تخير » ، فيقال : تخير بين كذا وكذا ، ويقال على نسق هذا : اختار بين كذا وكذا . ويراد من التخير والاختيار حينئذ الترجيح بين الأمرين أو الأمور .

وتقول العرب فى هذا المعنى أيضاً : ميّل بين الأمرين ومايل . وفى اللسان (ميل) : « وتقول العرب : إنى لأميّل بين ذينك الأمرين وأمايل بينهما أيهما أركب ، وأمايط بينهما » . وشاهد ما أرمى إليه من ورود « تخير بين الأمرين » قول الكلحبة[1] :

يا كأس ويلك إنى غالنى خلق	على السماحة صعلوكا وذا مال
تخـيرى بين راع حافظ برم	عبد الرشاء عليك الدهر عمال
وبين أروع مشمول خلائقه	مستهلك المال للذات ، مكسال
فأى ذينك إن نابتك نائبة ؟	والقوم ليسوا - وإن سوُّوا - بأمثال

كأس : بنته ، ولها يقول فى قصيدة مفضلية فى شأن فرسه :

فقلت لكأس ألجميها فإنما ... نزلنا الكثيب من زرود لنفزعا

و « غالنى خلق » أى أهلكنى ، وإنما أهلك ماله ، وقد راعى فى الخلق أن المرء مطبوع عليه فقال : « على السماحة » أى طبعى على السماحة . والصعلوك : الفقير لا مال له . والبرم :

---

(١) انظر نوادر أبى زيد ١٥٤

الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر ، بخلا منه وشحاً بماله ، وهذا مذموم عندهم [1] . والرشاء : حبل الدلو . يريد بعيد الرشاء من جهة الإستقاء والامتياح ، ولا يعنى بالغزو وهمّ السادة . والأروع : الرجل الكريم ذو الجسم والجهارة والفضل والسؤدد . والمشمول الخلائق : كريم الأخلاق ، طيبها ، أخذ من قولهم : ماء مشمول ، وهو الذى هبت به ريح الشمال فبردته . وقوله : « مستهلك المال للذات » أى يبذل ماله ويفنيه فى سبيل لذاته من الخمر والنساء ، وكان ذلك مما يتمدح به العرب ، كما كان الكسل مدحا عندهم إذ يدل على النعمة والرفه . وقوله : « فأى ذينك » برفع « أى » ، وهو مبتدأ محذوف الخبر ، أى فأى ذينك خير . ويروى « فأى ذلك » بنصب « أى » وفعله محذوف أى فأى ذلك تختارين ، والإشارة على هذا بذلك إلى المذكور من الرجلين ، وقد أفرد نظراً لذلك كما فى قوله تعالى : « لافارض ولا بكر عوان بين ذلك » .

الطيارة أحد الأشياء المخترعة

المذياع إحدى الأدوات المستحدثة

« أحد » و « إحدى » من أسماء العدد . ولها فى أغلب الأمر استعمالات واضحة لا تعقيب فيها ، تقول : هذا الكتاب أحد الكتب النافعة ، وهذه الرسالة إحدى الرسائل الممتعة .

وقد تعرض لها فى بعض المواطن استعمالات تدعو إلى النظر ، كما فى المثالين المصدر بهما البحث . فهل تراعى المضاف إليه فتقول : الطيارة أحد الأشياء المخترعة ، أو المحدث عنه فتقول : الطيارة إحدى الأشياء ؟ وهل يقال : المذياع إحدى الأدوات المستحدثة ، أو أحد الأدوات ؟

والذى يبدو أن الأصل فى ذلك مراعاة المضاف إليه فى التذكير والتأنيث ، إذ كان أحد وإحدى بعض ما يضافان إليه . فاذا جاء الكلام على هذا الأصل فلا كلام فيه ، إذ جاء على الجادة وعلى طريقة الملحّب . وإذا اختلف المحدث عنه ـ وهو بالموصوف بأحد

(١) البخل ـ لأن الموسرين منهم كانوا يدخلون فى الميسر فى زمن القحط ، أو فى الشتاء إذا أقفرت الأرض من الكلأ والمرعى ، فيضربون بالقداح على الابل ثم يجزرونها ويطعمون منها فقراء الحية . فمن أبى من أغنيائهم أن يساهم فى ذلك نسبوه إلى الأنانية والشح .

وإحدى ـ والمضاف إليه فى التذكير والتأنيث كما مر فى الأمثلة السابقة فلا ضير أن يراعى المحدث عنه ، فإذا قلت : رسالة الشافعى أحد الكتب الجليلة كان هو الأصل فى الباب ، ولك أن تقول : رسالة الشافعى إحدى الكتب ، فتأتى بإحدى نظراً للرسالة . وهذا بالقياس على الضمير والإشارة إذا اختلف مرجعهما مع ما بعدهما . تقول : قراءة العلم نافعة ، وهو أمر محمود ، وهى أمر محمود ، وتقول : الحنطة تزرع فى مصر : وهذا غذاء جيد ، وهذه غذاء جيد .

وقد جاء من هذا قوله تعالى فى الآية ٧٨ من سورة الأنعام : « فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر » فترى أن اسم الإشارة فى الآية للشمس وهى مؤنثة ، وإشارتها « هذه » ولكنه أتى بالإشارة مذكراً نظرا للخبر وهو « ربى » . ويقول « الزمخشرى » : « فإن قلت : ما وجه التذكير فى قوله : هذا ربى والإشارة للشمس ؟ قلت : جعل المبتدأ مثل الخبر لكونهما عبارة عن شىء واحد ، كقولهم : ما جاءت حاجتك ؟ ومن كانت أمك ، ولم تكن فتنتهم . وكان اختيار هذه الطريقة واجباً لصيانة الرب عن شبهة التأنيث ، ألا تراهم قالوا فى صفة الله : علام ولم يقولوا : علامة ، وإن كان العلامة أبلغ ؛ احترازا من علامة التأنيث » . وقوله : ما جاءت حاجتك أى ما صارت ، وقد ورد نصب « حاجتك » على أنها خبر « جاء » واسمها ضمير ما . وقد أنث الاسم مع عوده على ما ـــ ولفظها مذكر ـــ نظراً لمعناها وأنها حاجة . وكذلك قولهم : من كانت أمك ، فاسم كان يعود على من ، ولولا أنه يراعى فيها أنها أم لذكر ضمير الاسم ، وهذا كله مبنى على أن الاسم يسرى إليه التأنيث من الخبر . وهذا يرجع إلى باب واسع فى العربية يترجم عنه بباب مراعاة المعنى . وقد أفرد له فى الخصائص بابا ذكر فيه أمثلة كثيرة . ومن مراعاة المعنى قوله تعالى فى الآية ٣٢ من سورة القصص : « أسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه » ويقول أبو حيان فى البحر ٧/١١٨ « فذانك ، إشارة إلى العصا واليد ، وهما مؤنثتان ، ولكن ذكر لتذكير الخبر ؛ كما أنه قد يؤنث المذكر لتأنيث الخبر ؛ كقراءة من قرأ : « ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا » بالتاء فى تكن » .

وقد جاء فى عيون الأخبار ٣ / ١٣٢ : « وسأل آخر قوما فقال : رحم الله امرأ لم تمجج أذناه كلامى ، وقدم لنفسه معاذا من سوء مقامى ، فإن البلاد مجدبة ، والحال مصعبة والحياء زاجر من كلامكم ، والعدم عاذر يدعو إلى إخباركم ، والدعاء أحد الصدقتين .

ورحم الله امرأ أمر بخير، ودعا بخير. فقال له رجل من القوم: ممن الرجل؟ فقال: اللهم غفرا إمن لاتضرك جهالته، ولا ينفعك معرفته. ذل الاكتساب يمنع من عز الانتساب». والقارىء يرى فى قوله «الدعاء أحد الصدقتين» أنه راعى المحدث عنه، ولو شاء لقال: إحدى الصدقتين، نظرا للمضاف إليه. وقد جاء فى بعض الحديث: قلة العيال أحد اليسارين، ولو جرى على ما جاء فى خبر الأعرابى السائل لقيل: إحدى اليسارين.

وقد وقعت مباحثة فى مسألة شبيهة بما نحن فيه بين علمين من أعلام النحو والعربية، وهما السهيلى المتوفى سنة ٥٨١، وابن خروف المتوفى سنة ٦١٦. وقد كانا من محاسن الأندلس فى عصره الزاهر. وقد ساق هذه المباحثة الجلال السيوطى فى الأشباه والنظائر النحوية ٣/ ٩٩، وأورد الحجاج بينهما.

وحاصل المسألة أنه جرى فى عقد ذكر ذكور وإناث مجرورين، وكتب الكاتب فى الحديث عن أنثى: «إحدى المجرورين»، فتناول الشيخان هذه العبارة ونظرا فيها من جهة العربية. ويرى السهيلى أنها خطأ، ويرى ابن خروف أنها صواب.

ويعتمد ابن خروف على شواهد فى العربية روعى فيها المحدث عنه، ولم يراع المضاف إليه فى أحد وإحدى. من ذلك قول النابغة:

بانت سعاد وأمسى حبلها انجذما ... واحتلت الشرع فالأجزاع من إضما
إحدى بلىّ وما هام الفؤاد بها ... إلا السفاه وإلا ذكرةً حُلُما

فتراه يقول: إحدى بلى فى الحديث عن سعاد، ولم يراع المضاف إليه وهو بلى. وكذلك قول العرجى:

عوجى علينا ربة الهودج ... إنك إلا تفعـــلى تحرجى
إنى أتيحت لى يمانية ... إحدى بنى الحارث من مذحج

ومما استدل به ابن خروف قوله تعالى فى الآية ٣٨ من سورة الأعراف: «حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار»، فترى أن المضاف إليه أولى وأخرى جماعة الذكور، وجاء أولى وأخرى مؤنثين نظرا إلى معناهما وأن الحديث بهما عن أمتين.

ولا يرضى السهيلي ما ذهب إليه ابن خروف ، ويدفع احتجاجه بالبيتين بأن الكلام فيهما على حذف المضاف ، أى إحدى نساء بلى ، وإحدى نساء بنى الحارث ، وقد يدفع هذا ابن خروف بأن الأصل عدم التقدير ، ولا داعى إليه ما دام له وجه من التأويل .

ويدفع السهيلي احتجاج ابن خروف بالآية بأن المضاف إليه ضمير الأمم ، ومفرد الأمم أمة ، وهى مؤنث ، فلا شيء فى أولى وأخرى ؛ إذ يراد بهما الأمة ، وكأنه يرى أن التأويل فى الضمير المضاف إليه ، إذ جعل للذكور وهو للأمم نظراً للمعنى ، ولو روعى لفظ الأمم لقيل : أولاهن وأخراهن . ولابن خروف أن يقول : إن الأمم روعى فيهم التذكير ، فجاء ضميرهم ضمير جماعة الذكور ، فصار واحدهم حقه التذكير من هذه الجهة . فكان حقه أن يقال : أول وآخر ، فلما جاء أولى وأخرى علم أن ذلك نظراً للمحدث عنه فيهما لا للمضاف إليه .

والقارىء يخرج من هذا بجواز ما صدر به البحث إن شاء الله .

محمد على النجار
الأستاذ بكلية اللغة

****

الزهـــــر

الزهر أحلى مخلوقات الله ، غير أنه لم يهب له نفساً ناطقة . هـ . و . بتشر

خلق الله الزهر زينة للأرض ، وتعزية للبشر . وأسعد الناس حظاً من يقرأ آيات الحكمة السماوية فى زهرة واحدة . وورد سورث

الزهرة كتاب فتحه الله أمام أنظار خلقه ليتعلموا منها اللطف والتسامح فى كل شيء ، حتى أنهم ليطأونها بأقدامهم فترفع لهم رأسها وعلى وجهها ابتسامة جميلة . دى مونتغمرى

الأزهار كواكب الأرض ، والكواكب أزهار السماء . مسز بلفور

حديث القرآن عن اللغو

ما أكثر الكلام بين الناس، وما أهون شأنه على الثرثارين الفارغين، وما أقل الأعمال الطيبة عند هؤلاء، وخاصة فى المجتمعات الضعيفة المتحللة التى تقنع باجترار الألفاظ وترديد الكلام وتشقيق الأمانى، وقد راعت هذه الحقيقة كثيراً من المصلحين والحكماء منذ أقدم العصور، وجسمها أبو العلاء المعرى فى بيت موجع له، فقال:

لو غربل الناس كيما يعدموا سقطاً لما تحصل شىء فى الغرابيل!!

وللقرآن الكريم حديث عن «اللغو» له عظته وعبرته، وفيه فائدته وثمرته! ويحسن بنا قبل عرض الحديث القرآنى عن «اللغو» أن نستأنس بمعانى المادة الكثيرة المتقاربة فى معاجم اللغة.

فما جاء فى لسان العرب عن مادة «اللغو» قوله: «اللغو واللغا: السقط، وما لا يعتد به من كلام وغيره، ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع. وعن الفراء: ولد الشاة المبيعة يسمى لغواً لأنه تبع لها، ولا ثمن له مسمى. وقال الأصمعى: هو الشىء الذى لا يعتد به. وجماع اللغو هو الخطأ إذا كان اللجاج والغضب والعجلة. وكلمة لاغية: فاحشة، وفى التنزيل العزيز: «لا تسمع فيها لاغية» هو على النسب، أى كلمة ذات لغو، وقيل أى كلمة قبيحة أو فاحشة. وقال قتادة: أى باطلا ومأثماً. وقال مجاهد: شتما؛ ونباح الكلب: لغو أيضا. وقال الفراء فى قوله تعالى: «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه»، قالت كفار قريش: إذا تلا محمد القرآن فالغوا فيه، أى الغطوا فيه يبدل أو بلنى فتغلبوه. وإذا أمروا باللغو: بالباطل. ولغا فلان عن الصواب وعن الطريق: إذا مال عنه».

وفى معجم «مقاييس اللغة» لابن فارس فى مادة «لغو»[1] هذه العبارة: «اللام والغين والحرف المعتل ـ الواو ـ أصلان صحيحان، أحدهما يدل على الشىء لا يعتد به، والآخر على اللهج بالشىء. فالأول اللغو: ما لا يعتـد به من أولاد الإبل فى الدية، قال العبدى:

أو مائة تجعـل أولادها لغواً، وعرض المائة الجلمد

[1] ج ٥ ص ٢٥٥ ط الحلبى.

يقال منه لغا يلغو لغوا ، وذلك لغو الإيمان . واللغا هو اللغو بعينه . قال الله تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » أى ما لم تعقدوه بقلوبكم . والفقهاء يقولون : هو قول الرجل لا والله ، وبلى والله . وقوم يقولون : هو قول الرجل لسواد مقبلا : والله إن هذا فلان ، يظنه إياه ، ثم لا يكون كما ظن . قالوا : فيمينه لغو ، لأنه لم يتعمد الكذب .

والثانى قولهم : لغى بالأمر ، إذا لهج به ، ويقال إن اشتقاق اللغة منه ، أى يلهج صاحبها بها .

* * *

والقاعدة العامة التى نفهمها من حديث القرآن الكريم عن « اللغو » أن اللغو باطل ، وأمر قبيح مكروه ، لا يليق بالمسلم ولا يحسن منه ، وأن الله يبغض اللغو ويكرهه ، ويبعده عن ساحة عباده المكرمين فى الدنيا والآخرة ، وأن هذا « اللغو » سواء أكان قولا أم عملا من شأن الذين كفروا ، وأن المؤمنين يفرون منه ويعرضون عنه ، وأنهم إذا وقعوا فيه خطأ فإنما يقعون فيه عن طريق السهو والنسيان ، وسرعان ما يتذكرون ويرجعون ، ولذلك لا يحاسبهم الله عليه ولا يؤاخذهم به ، وأن الجنة ـ وهى موطن الراحة والتنعم ـ ليس فيها هذا « اللغو » ! . . . ولتوضيح ذلك نقول :

قال الله تبارك وتعالى فى الآية السادسة والعشرين من سورة فصلت : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » . وهذا هو المظهر الأول من مظاهر تنفير القرآن الكريم من اللغو ، إذ جعله عملا من أعمال الذين كفروا التى يتواصون بها ، فهى إذن أدخل فى باب الكفران والعناد من غيرها . ومعنى الآية الكريمة أن الكفار قالوا : لا تسمعوا لهذا القرآن الذى يتلوه محمد ، وتشاغلوا أثناء تلاوته عنه برفع الأصوات وإحداث الضجات وترديد الهذيان والخرافات ، حتى تخلطوا على القارىء ، وتغلبوه على قراءته ، وبذلك تغلبونه وتنتصرون . وأى امرىء مسلم يقبل أن يلغو فيكون عظنة الإضافة إلى حى هؤلاء ؟ . . .

وانظر ـــ حديث الصواب ـــ إلى الآية التالية للآية السابقة ، تراها إنذاراً مخيفاً لهؤلاء اللاغين ، ووعيداً مفزعاً لهم ، إنها تقول : « فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ، ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون » فصلت ـ ٢٧

والله تبارك وتعالى يقول فى الآية الثالثة من سورة المؤمنون : « والذين هم عن اللغو معرضون » . وهذا الوصف قيل فى شأن المؤمنين ، لأن السورة الكريمة بدأت هكذا « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون » . وبالآية الثالثة هنا يبدأ المظهر الثانى من مظاهر تنفير القرآن من « اللغو » .

ولنتذكر هنا أن اللغو هو مالا يعنى من قول أو عمل ، وأن « اللسان » يقول إن جماع اللغو هو الخطأ إذا كان اللجاج والغضب والعجلة . فكأن القرآن يقرر حقيقة من حقائق النفس المؤمنة التى لا تكون مؤمنة إلا بها ، وهى إعراضها عن اللعب والهزل والباطل من القول والفعل ، وكل ماتوجب المروءة إلغاءه وإطراحه ، لأن النفس المؤمنة تجد من ميادين العمل المثمر والسعى الواجب ما يشغلها عن لغو القول والعمل .

ولنلاحظ كيف وصف الله المؤمنين أولا بالخشوع فى الصلاة ، ثم بالإعراض باللغو ، ليجمع لهم بين الفعل والترك الحميدين الشاقين على الأنفس ، الذين هما قاعدتا بناء التكليف ، لأن هذا التكليف لا يخرج عن الأوامر والنواهى ، والأوامر تطالب بأعمال تؤدى ، والنواهى تحذر من أمور تترك . وإنه لشأن جليل أن يوضع الوصف بالإعراض عن اللغو هنا ، وقبله ذكر الصلاة وبعده ذكر الزكاة ! . . .

ويلحق بهذا الموطن قوله تعالى فى الآية الثانية والسبعين من سورة الفرقان : « والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما » ، وهذه آية من آيات فى وصف « عباد الرحمن » ، ومعناها أن عباد الرحمن هم الذين يتباعدون عن مجالس الكذب والبهتان من القول فلا يشهدونها ولا يقربونها ، تنزها عن مخالطة الشر ومصاحبة أهله ؛ وإذا مروا باللغو — وهو كل ما ينبغى أن يلغى ويطرح — أو مروا بأهله ، مروا معرضين عنهم ، مترفعين بأنفسهم عن مشاركتهم ؛ وقد يدرك الذوق البيانى شيئاً من جمع شهادة الزور مع اللغو ؛ فلا يحسبن خاطىء أن أمر اللغو ميسور ، بل إن إتيانه واعتياده من أخطار الأمور .

ويقول الله تعالى فى الآية الخامسة والخمسين من سورة القصص : « وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين » . والحديث هن عباد الله الطيبين . وسلام عليكم ، أى توديع لكم ومتاركة[1] . وعن الحسن : هى كلمة

---

(١) استفدنا من الكشاف فى معانى الآيات .

حلم من المؤمنين . ولا نبتغى الجاهلين ، أى لا نريد مخالطتهم أو صحبتهم . وما أشد التعريض حينما يقول القرآن عقب هذه الآية : « إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين » ، القصص — ٥٦

* * *

ويقول الله تبارك وتعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم ، البقرة ٢٢٥ ؛ ويقول أيضاً فى الآية التاسعة والثمانين من سورة المائدة : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان » ، وهنا يأتى الموطن الثالث من مواطن تنفير القرآن من اللغو ، فاللغو من الأيمان والأقسام هو الساقط الباطل الذى لا يعتد به ولا يتعلق به حكم ، ولا عقد معه ؛ ولما كان باطلا وليس داخلا فى همة المسلم أو قصده ، وليس مما يحسن به الالتفات إليه أو الاعتماد عليه ، جعله الله لغواً ، وعفا عنه فيما يعفو عنه ، والله غفور حليم .

وقد أفاض المفسرون والفقهاء الحديث عن لغو اليمين ، وتعددت آراؤهم فيه تعدداً مبيناً ، ولكنك تستطيع أن تلمح فيها بسهولة جامعاً يجمع بين أغلبها ، وهو عدم القصد لهذه اليمين ، وعدم عقد القلب عليها أو اعتبارها من كسب المرء المراد له ، وإنما هى فلتات اللسان أو هزات الغضب أو توابع الخطأ والسهو والنسيان ؛ وإليك ما نعرفه من وجوه اختلاف العلماء فى تحديد اللغو :

عن ابن عباس : هو قول الرجل فى درج كلامه واستعجاله فى المحاورة : لا والله ، وبلى والله ، دون قصد لليمين . وعن عائشة : أيمان اللغو هى ما كانت فى المراء والهزل والمزاح والحديث الذى لا ينعقد عليه القلب . وعن أبى هريرة : إذا حلف الرجل على شىء لا يظنه إلا أنه إياه ، فإذا ليس هو ، فهو اللغو ، وليس فيه كفارة ؛ وروى أن قوماً تراجعوا القول عند الرسول صلى الله عليه وسلم وهم يرمون بحضرته ، فحلف أحدهم قائلا : لقد أصبت وأخطأت يا فلان ، فإذا الأمر بخلاف ذلك ؛ فقال الرجل : حنث يا رسول الله . فقال النبى : « أيمان الرماة لغو ، لا حنث فيها ولا كفارة » ، وعن سعيد بن المسيب : هو يمين المعصية ، كالذى يقسم ليشربن الخمر ، أو ليقطعن الرحم ؛ وبره ترك ذلك الفعل ولا كفارة عليه ، وقيل إن الحجة فى ذلك قول الرسول كما فى سنن ابن ماجة : « من حلف على يمين

فرأى غيرها خيراً منها فليتركها ، فإن تركها كفارة » . وعن ابن عباس : لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان ، وذلك لقول الرسول كما فى صحيح مسلم : « لا يمين فى غضب » . وعن سعيد بن جبير : لغو اليمين تحريم الحلال ، مثل مالى على حرام إن فعلت كذا . وعن زيد بن أسلم : لغو اليمين دعاء الرجل على نفسه ، مثل أعمى الله بصره ، أذهب الله ماله . وعن مجاهد : هما الرجلان يتبايعان فيقول أحدهما : والله لا أبيعك كذا . ويقول الآخر : والله لا أشتريه بكذا . وعن النخعى : هو الرجل يحلف ألا يفعل الشىء ثم ينسى فيفعله . وعن ابن عبد البر : اللغو أيمان المكره . وعن ابن العربى : أما اليمين مع النسيان فلا شك فى إلغائها ، لأنها جاءت على خلاف قصده ، فهى لغو محض . وقال الضحاك : لغو اليمين هى المكفرة ؛ أى إذا كفرت اليمين سقطت وصارت لغواً . .

الأقوال كثيرة كما ترى ، والجامع بين أكثرها أنها غير معتبرة أو مقصودة ، فهى لغو ، ولا يؤاخذ صاحبها عليها ، والله هو ذو المغفرة ، وأقرب الآراء إلى القبول هنا هو القول الأول ، أى ما يحدث فى درج الكلام واستعمال المحاورة . .

• • •

ثم يأتى الموطن الرابع من مواطن تنفير القرآن عن اللغو ، وتصويره له بصورة الشىء المكروه المرغوب عنه . فالجنة وهى دار الثواب والتنعم ، وهى محل الزينة والمتعة ، تخلو من « اللغو » ، وكأن فى هذا إشارة بليغة من القرآن ، ورمزاً دقيقاً للمؤمنين الطالبين لنعيم الجنان ، بأن يتجنبوا لغو القول ولغو العمل ، حتى فى لهوهم وتنعمهم وسمرهم ، لأن الجنة وهى مثلهم الأعلى فى المتاع والنعيم خالية من هذا اللغو الذى لا يليق . يقول الله تبارك وتعالى : « لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً ، إلا قيلا سلاما سلاما » الواقعة ـ ٢٥ ، ٢٦ .

أى لا يسمعون فى الجنة شيئاً من اللغو أو التأثيم ، ولكن يقولون ويسمعون : سلاما سلاما ، أى يفشون السلام بينهم ، فيسلمون سلاما بعد سلام . ويقول : « لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » مريم ـ ٦٢ ، أى لا يسمعون فضول الكلام وما لا طائل تحته ، ولكن يسلمون سلاما ، ويأتيهم رزقهم فيها رغداً صباحا ومساء ، ويتكلمون كلاما يسلمون فيه من النقيصة والعيب .

ويقول : « لا تسمع فيها لاغية » الغاشية ـ ١١ ، أى لا تسمع فيها لغواً ، أو كلمة ذات لغو ، أو نفسا تلغو ، إذ لا يتكلم أهل الجنة إلا بالحكمة وحمد الله على مارزقهم من النعيم الدائم

ويقول : « لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا » النبأ - ٣٥ . أي لا يكذب بعضهم على بعض ، ولا يكذب بعضهم بعضا . ومن الممكن أن نلحظ من طريق الذوق اقتراب اللغو من الكذب ، إذ اجتمعا في موطن واحد .

ويقول : « يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم » الطور - ٢٣ ، حتى الخمر في الجنة ليس فيها لغو . أي يتعاطى المؤمنون ويتبادلون هم وجلساؤهم وإخوانهم كأسا من الخمر لا لغو في شربها ؛ فلا يتكلمون أثناء تناولها بسقط الحديث أو ما لا نفع فيه ، كما يفعل اليوم المجرمون الآثمون المتنادمون على الشراب في عربدتهم وسفههم ، ولا يأتون إثما كالكذب أو الشتم أو الفواحش ، وإنما يتكلمون بالحكم والكلام الحسن ، متلذذين بذلك ، لأن عقولهم ثابتة ، وهم علماء حكماء .

وهكذا ينزه الله عباده عن اللغو حتى في الآخرة ، وهي الدار التي لا تكليف فيها ، نعوذ بالله من الخوض فيما لا يعنينا من قول أو عمل .

وقد يكون من مقتضيات الحال أن نعرف شيئاً عن استعمال كلمة « اللغو » في الحديث النبوي الشريف . يقول ابن الأثير في كتاب النهاية : « قد تكرر في الحديث ذكر لغو اليمين ، قيل هو أن يقول لا والله ، وبلى والله ، ولا يعقد عليه قلبه ، وقيل هي التي يحلفها الإنسان ساهياً أو ناسياً ، وقيل هو اليمين في الغضب ، وقيل في المراء ، وقيل في الهزل ، وقيل اللغو سقوط الإثم عن الحالف إذا كفر عن يمينه . يقال : لغا الإنسان يلغو ، ولغى يلغى ، إذا تكلم بالمطَّرَح من القول وما لا يعني وألغى إذا أسقط ... وفيه : من قال لصاحبه والإمام يخطب : أنصت فقد لغا . والحديث الآخر من مس الحصا فقد لغا ، أي تكلم ، وقيل عدل عن الصواب ، وقيل خاب ، والأصل الأول وفيه : والحمولة المائرة لهم لاغية ، أي ملغاة ، لا تعد عليهم ، ولا يلزمون لها صدقة ، فاعلة بمعنى مفعلة ، والمائرة : الإبل التي تحمل الميرة ، ومنه حديث ابن عباس أنه ألغى طلاق المكره أي أبطله ، وفي حديث سلمان : إياكم وملغاة أول الليل . الملغاة مفعلة من اللغو والباطل ، يريد السهر فيه ، فإنه يمنع من قيام الليل » .

أما بعد ، فاللغو في القول والعمل شيء قبيح باطل ، وقد صوره القرآن بصورة منفرة في جميع أحواله وليس من شأن المسلم أن يألفه أو يميل إليه ، فلنسأل الله أن يأخذ بنواصينا إلى الجد ، وأن يوفقنا لصالح القول والعمل .

أحمد الشرباصي
مبعوث الأزهر إلى الكويت

ديوان مجد الإسلام

من بدائع الشاعر الإسلامي الكبير أحمد محرم رحمه الله

بتعليق الأستاذ إبراهيم عبد اللطيف نعيم

« كانت مجلة « الفتح » هي المجلة الإسلامية الوحيدة التي زفت البشرى إلى العالم الإسلامي ، بشروع الشاعر الإسلامي الأكبر أحمد محرم ، في نظم ديوان مجد الإسلام أو الإلياذة الإسلامية ، وقد نشر بها الفقيد القصيدتين الأوليين منه ، ثم حملنا العبء من بعده ، فوصلنا ما انقطع من النشر بمجلة « الرسالة » حتى شاء لها الله أن تحتجب .

فاليوم نبدأ من حيث انتهينا في « الرسالة » بنشر الديوان ، على صفحات « مجلة الأزهر » الغراء ، والأزهر ، كان وما يزال ، أحق الهيئات برعاية هذا الأثر الإسلامي الفريد » .

مصرع أبي جهل

ضربه معاذ بن عمرو بن الجموح ، ومعوذ بن عفراء ، من الأنصار ، وأجهز عليه ابن مسعود ، وكان سيف ابن مسعود كليلا . فقال له أبو جهل : خذ سيفي فاحتز رأسي به ، ففعل . وقال له وهو يعلو صدره يحتز رأسه : لقد ارتقيت يا رويعي الغنم مرتقى صعبا . لو غير أكار قتلني (الأكار الزارع) ، وكان الأنصار أهل زرع . وقد أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم سيفه :

بسيفك فيما اخترت من عاجل القتل ... سُقيت ذُعاف الموت ، فاشرب (أبا جهل)

هو السيفُ ، لولا الجبنُ لم يعص حده ... ولم يرض في جِد الكريهة بالهزل

شهدت الوغى ، تبغي على الضعف راحة ... لنفسك من حقد مذيب ومن غل

أ (فرعونُ)[1] إن تجهل فلن تجهل الوغى ... (فراعينها) من ذي شباب ومن كهل

أصابك فيها ما أصابك من أذى ... وفاتك ما نال (الرُّويعي) من فضل

رماك (معاذٌ) قبله و(معوّذٌ) ... وجاءك مشبوباً تحيته تغلي

---

(١) كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول عن أبي جهل : إنه فرعون هذه الأمة .

سق السيفَ عفواً من دم لك تطبُع فن (مرتقىً صعبٍ) إلى مستقىً سهل
دع المزلَ يا (ابنَ الحنظليَّة) إنه هو الجِدُّ كلُّ الجِد لو كنت ذا عقل
هي (اللاتُ والعزّى[1]) أضلّتك هذه وزادتك هذى من ضلالٍ ومن خبْل
مضى جارُكَ المأفونُ[2] خزيانَ وانقضت حبالُكَ فانظر هل ترى الآن من حبْل[3] ؟
لقد كنت ترجو أن ترى (الْهُبَلَ) الذى رضيتَ به رباً يفوزُ ويستعلى
أصبت (ابنَ مسعودٍ) سناةً ورفعة وباءَ عدوُّ اللهِ بالخزْى والذلّ
فخذ سيفَه ، ثم ارفع الصوتَ شاكراً فما بعدَ ما أعطاكَ ربك من سُؤْل

• • •

سواد بن غزية

كان سواد بن غزية حليف بنى النجار من أفراد الجيش فى هذه الغزوة ، فرآه النبى صلى الله عليه وسلم خارجا عن الصف وهو يعدل الصفوف ، وكان بيده سهم فطعنه به فى بطنه وقال له : استوِ يا سواد . فقال : يا رسول الله أوجعتنى ، وقد بعثك الله بالحق والعدل ، فأعطنى القصاص . فكشف الرسول الكريم عن بطنه وقال : « استقد » أى خذ قودك ، وهو القصاص ، فاعتنقه سواد ، وقبل بطنه الشريف :

(يومُ بدرٍ) وأنت أعلى مُقاما إن ذكرْنا من بعدِكَ الأياما
ما ذكرنا بك القواضبَ يقظى أنت أيقظتها شعوبا نياما
غرقتْ فى الظلام لا تحسبُ البغْـ ـىَ ذميما ، ولا الفسوقَ حراما

---

(١) كان المسلمون يقولون فى هذه الوقعة : « الله مولانا ولا مولى لكم » . وكان أبو جهل يقول : « لنا العزى ولا عزى لكم » .

(٢) تمثل إبليس فى صورة سراقة بن مالك للمشركين وقال لهم : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ، وكانت يده فى يد الحارث بن هشام أخى أبى جهل ، فلما رأى الملائكة انتزع يده من يده ، ثم نكص على عقبيه ، فقال له الحارث . يا سراقة ، أتزعم أنك جار لنا ؟ قال : إنى برىء منكم ، إنى أرى مالا ترون . إنى أخاف الله . فتشبث به الحارث وقال والله لا أرى إلا خفافيش يثرب . قال الحارث : ما علمت أنه الشيطان إلا بعد أن أسلمت .

(٣) لما قتل رؤساء المشركين ، قال أبو جهل : يا قوم ، لا يهولنكم قتل من قتل ، فواللات والعزى لا نرجع حتى نقرن محمدا وأصحابه بالجبال ، لا تقتلوهم ولكن خذوهم باليد .

تكرهَ العـــدلَ فى الحقوق وترضى ... حين يأبى سادا تُها ــ أن يُقاما
استقمْ يا (سَوادُ) فى الصف واعلمْ ... أنَّ للجيشِ فى الحروب نظاما
يالها يا (ســواد) طعنة سهم ... صادفت منكَ أريحيًّا هُماما
لو يُريدُ الأذى بها لم تطِقْها ... من يعاف الأذى ، ويأبى العُراما
عدَّل الصفُّ فاستوى ، وقضى الأمــــر على شِرعة الهُــدى فاستقاما
إنها شِرعــةٌ لربك يمضيـــها فتهـــدى الشعوبَ والأقواما
تمنع المرء ذا البراعةِ أن يؤ ... ذى وتحمى الضعيف من أن يُضاما
وتُريه القوىَّ يذعن للحــــق ويبغى بجانبيه اعتصاما
قلت : أوجعتنى ، وقد جئت بالحـــق وبالعـــدل رحمـــةً وسلاما
القصاصَ القصاص ، إنى أراه ... يا (إمام الهـــداة) أمراً لزاماً
قال : هــذا بطنٌ لبطنك كفؤٌ ... فاستـقِد إن للضعيف ذماماً
طابت النفس يا (سوادُ) وعاد الآ ... ن برداً ما كان منها ضراما
واعتنقتَ (الرسولَ) بعد شكاة ... فاعتنقت الحلال غـــراً وسَاما
وابتدرتَ (البطنَ المطهرَ) لثما ... فابتدرتَ الخيراتِ شتى عظاما
هاهنا العدلُ والسماحةُ والإحــــسان أعظِمْ بذا المقام مَقاماً
أدَّب اللهُ (عبدَه) وهداه ... واصطفاه للمتقينَ إماما
أىّ دين كدينه فى علاه ! ... أىّ قوم كالمسلمين القُدامَى ؟
أرأيت الضعافَ فى كل أرض ... كيف أمسوا للأقوياءِ طعاما
حرّموا الطيباتِ بغياً وظلماً ... واستحلوا الذُّنوبَ والآثاما ؟
ربِّ إنْ شئت للشعوب حياةً ... فابعث المسلمين والإسلاما
إبعث النورَ فى الممالكِ ، يهدى ... كلَّ شعبٍ غَوَى ، ويمحو الظلاما



إمام

مع القارىء الفاضل فى إمام كان واحداً من ستة انتهى إليهم علم الإسلام فى أزهى عصوره، كما كان من قبل، سادس ستة ما على وجه الأرض مسلم غيرهم. إمام من أئمة الهدى والفضل كان أشبه الناس بمحمد ﷺ فى هديه وسمته ودله [1] كان محبوبا: يشهد إذا غاب الناس، ويؤذن له إذا حجب الناس، ملك فى زى مسكين، وقوى بلا عشيرة من الأقربين، وهاد خطير وهو عند المحجوبين من المستضعفين رفعه العلم والاستقامة، وتألق نجمه بالجد والاستدامة، أشرق نور الحق فى قلبه غلاما منذ رأى صاحب الرسالة يباركه الله باليسر والرعاية، فترك شأنه كله ولازمه حتى انطبعت فى نفسه معارف الوحى من الكتاب والحكمة وحتى صار لا يفرق بينهما إلا ما خص الله به نبيه فى شخصه من الرسالة، وفى نوعه من النسب العريق والجمال فى الخلق. فكان محمد رسولا ونبياً، وكان هو معلماً وولياً، وكان محمد فى نسب وحسب من قومه وآبائه، وكان نسبه وحسبه فيما أفاد من محمد من دينه وإيمانه وكان محمد جميلا لا يدرك جماله، وكان جماله فيما أخذ عن محمد من رفقه ودله وسمته ومنطقه.

وجدير بك أيها القارىء الكريم أن تدرس سيرة هذا وأمثاله - وقليل ما هم - ليؤتيك الله سبحانه تقوى تكمل بها نقصك. ودينا تحفظ به عقلك، وخلقاً ترفع به شأنك. ورياضة نفسية تحجزك عن كثير من الشهوات والشذوذ. وتتجه بك إلى المجد المنشود، والحق الرفيع، والمجد الذى لا يدرك. ذلك أن النفس حيث تضعها أنت. وهى تصدأ كما يصدأ الحديد فتنزل إلى الدرك الأسفل وتستعصى على الرفعة (وهى خير لها) حتى تجلو صدأها بذكرى الرجال وتواريخ المجاهدين العاملين، فعند ذلك تلتمس سمواً عما خلقها الله له فتخرق الحجب، وتأبى إلا أن تقر فى السماء ذات البروج.

---

[1] الدل ما يكون على المرء من سكينة وسمت.

وبعد فذلك هو ، عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلى ، حليف بنى زهرة الذى كان يرعى الغنم لعقبة بن أبى معيط ، حتى رأى محمداً فشرح الله للإسلام صدره ، ولزم باب أمير الأنبياء ، وأسلم نفسه له يلقنه من القرآن والعلم والحكمة ما شاء ، وشهد مع السيد الرسول جميع المشاهد لحاز الفضل من أقطاره حتى صار مرجع العلماء ، وموضع تبجيل الأمراء والكبراء ، وتخيره عمر - وهو من تعلم فى تخيره ودقته - تخيره قاضياً على الكوفة ومعلماً ووزيراً ، لعلمه الفياض وحكمته ، وتخيره أميناً على بيت المال لما استفاض من أمانته ، حتى عزله عثمان أيام الفتنة ، وهو أطوع ما يكون ، وأبعد الناس من الفتنة ، وصار إلى المدينة موضع التعزيز والهداية لأمة محمد حتى كانت وفاته بها سنة ٣٢ عن بضع وستين سنة .

كان عبد الله نحيفا قصيراً تكاد الجلوس توازيه . تقتحمه العين ، ويزدريه أهل الشرك ، حتى ذكروا أن أبا جهل خاطبه وهو يجهز عليه فى بدر فقال : لقد رقيت مرقى عاليا يا رويعى الغنم ! ولكنه لما اتصل بصاحب الرسالة وترك الدنيا إيثاراً لصحبته ، وإخلاصا له ، وطلبا لما عنده من فضل وعلم ودين ، أعزه الله وأعلاه وفضله .

روى أبو نعيم وغيره بأسانيدهم إلى عبد الله بن مسعود قال :

« كنت غلاما يافعا أرعى غنما لعقبة بن أبى معيط بمكة ، فأتى علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر فقال : ياغلام ، عندك لبن تسقينا ؟ فقلت : إنى مؤتمن ولست بساقيكما فقال : هل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل بعد ؟ فأتيتهما بها . فاعتقلها أبو بكر وأخذ رسول الله ﷺ الضرع فدعا ، لحفل الضرع ، لحلب وشرب هو وأبو بكر . ثم قال للضرع: أقلص [1] فقلص . فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : علمنى من هذا القول الطيب فقال رسول الله : إنك غلام معلم . فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعنى فيها أحد » .

هذه بداية عبد الله بن مسعود فى الإسلام ، فما ظنك برجل تكون هذه بدايته . لهذا كان عبد الله يعتد بتلك الناحية فى مزاياه ، ويدعو الناس إلى الأخذ بقراءته ، ويعجب من أمر من يترك روايته ويأخذ بقراءة زيد فيقول « عجباً للناس وتركهم قراءتى وأخذهم بقراءة زيد

[1] من قلص الظل ينقلص تقلصا . انقبض .

وقد أخذت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة وزيد بن ثابت صاحب ذؤابة يجىء ويذهب بالمدينة » .

لزم عبد الله رسول الله يأخذ عنه القرآن والدين ، وخالطه مخالطة جعلت من لا يعلم أمره يرى أنه من أهله .

أخرج الشيخان والترمذى بأسانيدهم إلى أبى موسى الأشعرى قال :

« قدمت أنا وأخى من اليمن فمكثنا حينا وما نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثرة دخولهم على رسول الله ولزومهم له » .

وقد استفاضت الأخبار أن عبد الله وفق فى هذه الناحية أيما توفيق ، فكان خادما مخلصا أمينا ، وتلميذا حاذقا رشيدا . كان صاحب سر رسول الله ووساده ، وعصاه وسواكه ، وطهوره فى سفره . وبلغ من خدمته وإخلاصه أنه كان يلبسه النعل إذا قام ، ثم يمسك بعصاه فيسير بها أمامه ، فإذا عاد إلى مجلسه خلع نعله فوضعها فى كم قميصه ، فإذا قام إلى بيته سار أمامه حتى يدخل الحجرة قبله لا يمنع ولا يحجب كما أمره رسول الله وأمر له . ثم يوقظه إذا نام ويستره إذا اغتسل ويفتديه بنفسه فى أحرج الأوقات .

ذلك وهو يسمع ما يقول محمد وما يقال له ، ويتقبل تعاليمه وشرائعه . وهل خدمه إلا ليفيد منه الدين واليقين ؟ لهذا يقول فى لذة المعتد الواثق فى مجمع الأصحاب « ما أنزلت سورة إلا وأنا أعلم فيما أنزلت ، ولو أعلم أحداً أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل أو المطايا لأتيته[1] » .

ويقول أبو وائل راوى هذا الخبر : إننى كلما سمعت ابن مسعود يقول ذلك والقوم شهود قمت إلى الحلق أسمع ما يقولون ، فما سمعت أحداً من أصحاب محمد ينكر ذلك عليه .

ولقد كان فى ابن مسعود من سابقة الجهاد والجلاد التى هى صفحات مشرقة لكل من عرف بها وفى تعزيزه ذلك بالدين واليقين والخلق الكريم والنفع المستديم ما يخول له أن يعتد بنعمة الله ، ويذكرها فى مناسبات الفرص . وفى مواقف التوفيق . أليس هو الذى

---

[1] أسد الغابة وطبقات ابن سعد وحلية الأولياء فى ترجمة ابن مسعود .

زاحم عمر بن الخطاب - وربما سبقه - إلى إظهار الدعوة والجهر بها فى قوم يضطهدون دعوة الإسلام بتجمعهم على الباطل ، ويضاعفون الأذى لكل من أظهر كلمة الله والحق ولا سيما إذا لم يكن من قومه فى عشيرة قوية ومنعة تحميه ؟ إن ذلك الإشراق جدير ألا تمحوه الأيام ، ولا تنساه الأجيال .

ذكر صاحب أسد الغابة فيما ينقله عن أصوله بالسند الى عروة بن الزبير عن أبيه ، قال : كان أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله ﷺ عبد الله بن مسعود . اجتمع يوما أصحاب رسول الله فقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعهم ؟ فقال عبد الله بن مسعود : أنا . فقالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلا له عشيرة تمنعه من القوم إن أرادوه . فقال : دعونى فإن الله سيمنعنى . فغدا عبد الله حتى أتى المقام فى الضحى وقريش فى أنديتها ، حتى قام عند المقام فقال رافعاً صوته : « بسم الله الرحمن الرحيم . الرحمن علم القرآن » . فاستقبلها فقرأ بها . فتأملوا فجعلوا يقولون : ما يقول ابن أم عبد ؟ ثم قالوا : إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد ، فقاموا فجعلوا يضربونه فى وجهه وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ . ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا بوجهه ، فقالوا : هذا الذى خشينا عليك . فقال : ما كان أعداء الله قط أهون على منهم الآن ، ولئن شئتم غاديتهم بمثلها غدا . قالوا : حسبك ، قد أسمعتهم ما يكرهون . بخ لك يابن أم عبد ، لقد فزت بها نفساً سخية كريمة تستعذب فى سبيل الله العذاب ، وتستهين فى مرضاته بجميع الصعاب .

جدير بعبد الله إذاً أن يكون موضع العلوم والمعارف فى هذه النفس الخصية العظيمة ، وأن يقدره الناس جميعاً قدره ، حتى عمر بن الخطاب الذى قل أن سلم من سوطه أو نقده ، والخلاف عليه كثير من الناس .

لقد كان حافظاً للقرآن على وجهه ، يستمع إليه الرسول ويعجب بقراءته ، وكان مفسراً للقرآن عارفا بمعانيه ، يدرسه بالمدينة وبالكوفة بعد أن أوفده عمر إليها ، فيخرج بها كبار التابعين من سلف هذه الأمة ، وكان راوياً للسنة ينقل عنه البخارى ومسلم وغيرهما الكثير منها ، وتحصى الرواة له ثمانمائة وثمانين حديثاً مع تحرجه من الرواية خشية التبديل فى كلام السيد الرسول ، ترتعد فرائصه إذا روى أو نقل عنه ، ولهذا كان يفتى ، ويتول بنفسه على مقتضى علمه ، وقد أخذ عنه كثير من أجلاء الصحابة كحبر الأمة عبد الله ابن عباس وابن

عمر وعمران بن حصين وعبد الله بن الزبير وغيرهم ، وروى عنه كثير من أجلاء التابعين كعلقمة وأبي وائل والأسود ومسروق [1] .

وكانت له يد طولى في الفقه والاستنباط والقياس ، كما كان عمر بن الخطاب وبعض الصحابة الذين يستثمرون الكتاب والسنة ويحكمون في غير ما ورد على قياس ما ورد ، خلافاً لبعض المتحرجين من الصحابة كعبد الله بن عمر وغيره ، وجدير بمن كانت له ثمرة يانعة من المنقول وثروة ضخمة من المأثور وعقل راجح وقلب مشرق ونفس أمينة كعبد الله أن تكون له ملكة تقوم رأيه وتنضج فقهه .

قال أبو البختري : أتينا علياً فسألناه عن أصحاب محمد ﷺ ، فقال : عن أيهم ؟ قلنا : حدثنا عن ابن مسعود . قال : علم القرآن والسنة وكفى به علماً ، قلنا : حدثنا عن أبي موسى ، قال : صبغ في العلم صبغة ثم خرج منه . قلنا : حدثنا عن عمار بن ياسر . قال مؤمن نسي ، وإذا ذكر ذكر . قلنا : حدثنا عن حذيفة . قال : أعلم أصحاب محمد بالمنافقين . قلنا : حدثنا عن أبي ذر . قال : وعى علماً ثم عجز فيه . ثم قلنا : حدثنا عن سلمان . قال : أدرك علم الأول والآخر ، بحر لا ينزح قعره . قلنا : فأخبرنا عن نفسك . قال : إياها أردتم ، كنت إذا سألت أعطيت ، وإذا أمسكت ابتدئت .

ولو كان المقام يتسع للتعليق . . ولكن المقصود شهادته لعبد الله بن مسعود بأنه أوتي علم الكتاب والسنة وكفى به . قال ذلك وهو يعلم ما كان عليه ابن مسعود من الفقه والاستنباط والقياس فدل على أن ذلك لا يخرج عن علم الكتاب والسنة . ولله أمير المؤمنين وإدراكه .

ولعلك إذا علمت أن علم الكتاب والسنة لم يكن رواية فقط وإنما كان رواية وإدراكا يقسم الله فيه الحظوظ بين العباد لفهمت هذا المعنى في مثل عبد الله بن مسعود حق الفهم .

قال عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين يقرءون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله ابن مسعود أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات من النبي لم يتجاوزها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل .

---

(١) أسد الغابة .

وانظر شهادة الخريت العليم المحدث عمر بن الخطاب له وإعجابه به إذ أرسله إلى أهل الكوفة وقال لهم: إنه من النجباء والنقباء من أصحاب محمد، فاسمعوا له، وقد آثرتكم به على نفسى.

وقال زيد بن وهب: إنى لجالس مع عمر إذ جاءه ابن مسعود فضحك حين رآه فجعل يكلم عمر ويضاحكه، ثم ولى فأتبعه عمر بصره حتى توارى وجعل يقول «كنيف ملىء علماً» [1]

وقد كان لذلك، ولما عرف الناس له مما استفاض من معارفه، كان لذلك أثره فى تلقى الناس عنه والتزامهم كنفه.

وفيما انتشر من علم الدين بالكوفة، فإنه لم ينزل بها من الأئمة إلا على وابن مسعود، أما على فقد شغله ما نعلم من سياسات وحروب وخلافات، وأما ابن مسعود فهو الذى قدم إليها لهذه الغاية، قدم إليها قاضيا ومعلما وأمينا على بيت المال فقط، فخرج أئمة العلم بها من أهل الفقه والاستنباط ممن يقول فيهم سعيد بن جبير: كان أصحاب عبد الله سرج هذه الأمة.

ومن عجيب الحكمة أنه كان سادس ستة فى الإسلام أولا، وكان واحدا من ستة فى العلم ثانيا، وكان أستاذ أئمة ستة فى الكوفة آخرا. وهم علقمة، والأسود، ومسروق، وعبيدة، والحارث بن قيس، وعمرو بن شرحبيل. أولئك الذين خلفوه بحركة كبيرة فى العلم صارت تتوارث حتى توجت بأبى حنيفة تلميذ حماد تلميذ النخعى تلميذ علقمة تلميذ عبد الله بن مسعود.

ذلك بعض فضل عبد الله فى العلم والمعرفة، أما مزاياه النفسية والخلقية، وعباراته الحكمية والأدبية، وإرشاداته الرياضية فلها مقام آخر إن شاء الله.

محمود النواوى

---

[1] تصغير كنف وهو الوعاء.

حقوق الإنسان في شريعة الإسلام

- ٢ -

العدالة الاجتماعية

١ — تقرير ضرورات المعيشة : من تكريم الله لبنى آدم أن تصان هيئتهم باللباس والنظافة والزينة ، وأن يحملوا في حلهم في المساكن ، وأن يحملوا في ترحالهم بوسائل [المواصلات ، وأن ينالوا من طيبات المطعم والمشرب ، وهذا مفهوم من قول الله تعالى في سورة الإسراء « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

ولقد أمر الإسلام بعدم قتل النفس والإلقاء باليد إلى التهلكة . والطعام فيه حفظ النفس . كما أمر بستر العورة وأخذ الزينة . وهذان الأمران لا يكونان إلا باللباس . ولقد حدد الله للباس أن يوارى السوءة وأن يقي من الحر - وأيضاً من البرد - يقول تعالى « يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم » (سورة الأعراف) . وقال تعالى في سورة النحل « وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر » . وقال تعالى في سورة الأعراف « خذوا زينتكم عند كل مسجد » . كذلك تحدث القرآن عن السكن . قال تعالى في سورة النحل « والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم » وقال تعالى عن وسائل المواصلات ما ورد في سورة الإسراء « وحملناهم في البر والبحر » . وفصلت آيات أخرى الحديث عن أنواع من مواصلات البر وعن الجوارى المنشآت في البحر كالأعلام .

كل هذه النعم التي كرم الله بها بني آدم لا بد أن توفر لهم ليحيوا حياة طيبة ولير ى الله نعمته عليهم . ولقد كان الرسول ﷺ يحب أن يرى الإنسان في أحسن تقويم خلقه الله فيه . روى أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم أن أبا الأحوص الجشمي روى عن أبيه قال : رآني النبي ﷺ سيء الهيئة فقال : هل لك من شيء ؟ ؟ قلت : نعم - من كل المال قد آتاني الله . قال : إذا كان لك مال فلير عليك[1] . وروى النسائي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) النسائي حـ ٨ ص ١٩٦

رأى قوما يظهر عليهم جهد الفاقة ، فتغير وجهه الشريف وطلب إلى الناس أن ينفقوا ليعطى هؤلاء . ثم وقف فقال « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها ... إلى آخر الحديث »(١)

(٢) وسائل الحصول على هذه الضرورات : والحصول على هذه الضرورات وسائل متعددة تندرج فى أصلين كبيرين : العمل ، والتأمين الاجتماعى :

(ا) العمل : العمل فى الإسلام حق للفرد وواجب عليه فى الوقت نفسه ، إذ لا يباح للفرد أن يعيش على التسول أو السلب والنهب . ودولة الإسلام واجبها الأول أن تهىء العمل للقادرين عليه وأن تحمى حقوقهم وأن تراقب أداءهم لواجباتهم . وليس واجبها فقط كما يزعم البعض أن توزع الإعانات والصدقات لأنها تربى الناس على الإباء والكرامة لا على البطالة والهوان . يروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم أعد لرجل درهمين وقال له « كل بأحدهما واشتر بالآخر فأساً واعمل به » وروى البخارى وغيره أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم يطلب اليه أن يدبر حاله لأنه خال من وسائل الكسب ولا شىء عنده يستعين به على القوت . وهنا ذكر الرواة كلاما آخر قالوا بعده : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بقدوم ودعا بيد من خشب سواها بنفسه ووضعها فيها ثم دفعها للرجل وأمره أن يذهب إلى مكان عينه وكلفه أن يعمل هناك لكسب قوته وطلب اليه أن يعود بعد أيام ليخبره بحاله ، فعاد الرجل يشكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم صنيعه ويذكر له ما صار اليه من يسر الحال . فالعاطلون كانوا يرون أن لهم حقوقا على الدولة ، فيذهبون إلى ولى الأمر أعزاء باسم هذه الحقوق ليدبر لهم أمرهم بما يراه ، والدولة تقر العاطلين على هذه الحقوق وتدبر لهم العمل فوراً بل وتلتمس نتائج عملها . ولقد أوجب الغزالى فى « الإحياء » أخذاً من هذا الحديث على ولى الأمر أن يزود العامل بآلة العمل . ومن بركات العقيدة هنا أن الناس العمل يسميه الإسلام ابتغاء من فضل الله مما يزيد الإنسان حرصاً عليه . يقول تعالى « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » « علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله » .

والدولة إذ تدبر للعامل عمله فإنها تحمى حقوقه فى الأجر ، فينبغى أن يكون الأجر كافياً . وقد جعل الحديث ثالث الثلاثة الذين يخاصمهم الرسول ﷺ يوم القيامة : رجلا

(١) النسائى جـ ٥ ص ٧٥ - ٧٧

استأجر أجيراً فاستوفى منه فلم يعطه أجره . وهذا الأجر لا يقبل المماطلة ففي الحديث « اعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه »[1] . كذلك ينبغي أن يراعى تحديد ساعات العمل بما يلائم الطاقة الإنسانية . وفي الحديث أوامر عامة بالرفق والرحمة تنسحب بلا شك على هذه الناحية . وقد صحح السيوطي ما رواه أبو يعلى وابن حبان والبيهقي في شعب الإيمان « ما خففت عن خادمك من عمله فهو أجر لك في موازينك يوم القيامة » .

(ب) التأمين الاجتماعي : فإذا تعطل إنسان عن العمل ، أو كان أجره لا يكفيه لزيادة في أفراد أسرته أو عجز عن العمل لمرض أو شيخوخة فهو في كفالة الجماعة في صور شتى : في كفالة الأسرة التي ينتمي إليها إذ يأمر الشرع بالنفقة وصلة الأرحام ، وفي كفالة المجتمع الذي يعيش فيه فقد قال ابن حزم أخذاً من الحديث « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » : من تركه يجوع ويعرى - وهو قادر على إطعامه وكسوته - فقد أسلمه ، وهو أولا وأخيراً في كفالة الدولة التي تلتزم بنفقاته من بيت المال أولا ، وتلزم بسلطة الحكم واجبات أسرته والمجتمع الذي يعيش فيه إزاءه ثانيا ، ولذلك قال عمر بن الخطاب « لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين »[2] جاء في كتاب الخراج لأبي يوسف أن عمر بن الخطاب رأى شيخا يهوديا يتكفف الناس فسأله عن سبب ذلك فأجاب : أسأل الجزية والحاجة والسن . قال : « ما أنصفناك أكلنا شبيبتك وتركناك عند الشيخوخة . وطرح جزيته وأمر أن يعال من بيت مال المسلمين هو وعياله »[3] .

هذا التأمين الاجتماعي في حالة التخلف عن العمل أو عدم كفاية الأجر واجب لابد منه ، يقول ابن حزم « فرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ويجبرهم السلطان على ذلك ، إن لم تقم الزكاة بهم ، ولا في سائر أموال المسلمين ما يقوم بهم ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لابد منه ، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة »[4] .

بل إن الإسلام يرخص للفرد ما هو أكثر من ذلك في سبيل هذه الحقوق الاجتماعية إذ يعتبره في حالة دفاع شرعي عن نفسه ما دام يجد فضل مال عند واحد من الناس . قال

---

[١] رواه ابن ماجه وأبو يعلى والطبراني والحاكم . قال المنذري (يكتسب بكثرة طرقه قوة)
[٢] المحلى جـ ٦ ص ١٥٧ [٣] الطبرى جـ ٥ طبعة الحسينية ص ٣٣
(٤) المحلى جـ ٦ ص ١٥٦

ابن حزم « ولا يحل لمسلم اضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاما فيه فضل عن صاحبه لمسلم أو لذمى ، لأن فرضاً على صاحب الطعام إطعام الجائع ، فإذا كان ذلك كذلك فليس بمضطر إلى الميتة ولا إلى لحم الخنزير . . . ـ إلى أن قال ـ : ومانع الحق باغ على أخيه الذى له حق ، وبهذا قاتل أبو بكر الصديق رضى الله عنه مانع الزكاة [1] » . وقد تناول التشريع الجنائى الحديث موضوع عقاب مرتكب جريمة القتل بطريق سلبى . وفى رأى الإمام الدردير المالكى فى كتاب (الشرح الكبير على متن الخليل) « يضمن من يترك تخليص مستهلك من نفس أو مال قدر على تخليصه بقدرته أو جاهه أو ماله فيضمن فى النفس الدية وفى المال القيمة » ، ومن ترك إنساناً يموت جوعا أو عرياً وهو يقدر على تخليصه فإنما يكون قد قتله بطريق الترك أيضاً .

ولقد كانت الدول الإسلامية تحمل رسالة ضمان الحقوق الاجتماعية حين تنشر رايتها على أى قطر . وهذا خالد بن الوليد يتحدث عن سياسته فيما غلب عليه فيقول « . وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته ، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام » [2] ، بل إن للإسلام ضرباً فريداً فى التأمين الاجتماعى وهو تأمين الناس على ديونهم ، فمن مصارف الزكاة أن توجه الى « الغارمين » لتسد ديونهم وتفرج كروبهم . وهكذا تصرف الدولة اهتمامها إلى حفظ كيان هؤلاء . بدلا من أن تصرف هذا الاهتمام إلى ترتيب الإجراءات الخاصة بشهر إفلاسهم كما يجرى الآن . ومن آثر عمر بن الخطاب أنه أقام دور الضيافات وأدر عليها الأرزاق . عن ابن سعد قال . اتخذ عمر دار الدقيق فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج إليه يعين به المنقطع ، ووضع فيما بين مكة والمدينة فى الطريق ما يصلح من ينقطع به ، كما فعل ذلك بالطريق بين الشام والحجاز [3] .

٣ ـ التعليم : طلب العلم فى الإسلام فريضة [1] ، فهو حق للفرد وواجب عليه . والدولة تلتزم تهيئة السبيل إليه ، ذلك أن الإسلام لا يكتفى بضمان الضرورات المعيشية المادية ، بل يضمن أيضاً وسائل التثقيف والتهذيب . ولقد كان الرسول ﷺ يرسل إلى الجهات المختلفة من يبصر الناس بالإسلام فأرسل مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم إلى المدينة بعد بيعة العقبة الثانية . وفى خبر بئر معونة أرسل عليه الصلاة والسلام سبعين شابا

(١) المحلى ٦ ص ١٥٩ (٢) عبقرية خالد ص ١٨٣ [٣] أشهر مشاهير الإسلام مجلد ١ ص ٣٧٨

يسمون القراء إجابة لدعوة عامر بن مالك . وقد تكلف رسل الهداية هؤلاء حياتهم فى الطريق نتيجة عدوان وقع عليهم وإن القرآن الكريم وخطب الجمعة والعيدين من وسائل التثقيف والتهذيب التى تضمنها الإسلام فى عباداته . وقد أتت النساء إلى رسول الله ﷺ شاكيات من غلبة الرجال على مجالسه ويطلبن منه وقتاً يخصص لهن ليتعلمن فيه ، فأجابهن الرسول ﷺ إلى ذلك (١) . وفى غزوة بدر خرج الإمام أحمد من حديث عكرمة عن ابن عباس قال : كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة ... وقال عامر الشعبي : كان فداء الأسرى من أهل بدر أربعين أوقية أربعين أوقية ، فمن لم يكن عنده علم عشرة من المسلمين فكان زيد بن ثابت ممن علم (٢) .

فالإسلام إذ شرع إقامة الحدود فقد شرع معها توفير الحقوق وترقية المستوى المادى والأدبى . يقول تعالى : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » . فلابد من أن يبين للناس الهدى ويبصروا بسبيل المؤمنين حتى يتحملوا تبعة أعمالهم ويتولوا مسئولية مشاقتهم لأوامر الله ورسوله .

٤ — العلاج : ومن تمام واجبات الدولة أن تتكفل بعلاج المريض ، والأمر بعيادة المريض مثبت فى كثير من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد التزم عليه الصلاة والسلام أن يهيء للمرضى مكاناً يتداوون فيه ويتقهون . فى سيرته المطهرة أن نفراً من عرينة - ثمانية - قدموا عليه فأسلموا ، واستوبأوا المدينة وشكوا ألم الطحال فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى لقاحه ، وكان سرح المسلمين بذى الجدر ناحية قباء قريباً من عير ترعى هناك - فكانوا فيها حتى صحوا وسمنوا ، وكانوا استأذنوه أن يشربوا من ألبانها وأبوالها فأذن لهم . وإن كان هؤلاء قد قابلوا المعروف بالإساءة بعد برئهم فعدوا على اللقاح فاستاقوها (٤) .

وكان عمر بن الخطاب يحاسب ولاته على عيادة المرضى ، فكان الوفد إذا قدموا على عمر سألهم عن أميرهم فيقولون خيراً . فيقول : هل يعود مرضاكم ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : هل يعود العبد ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : كيف صنيعه بالضعيف هل يجلس على بابه ؟

---

(١) الحديث الذى رواه ابن عبد البر عن أنس وصححه السيوطى

(٢) البخارى ج ١ طبعة منير ص ٦٠ - ٦١ (٣) إمتاع الأسماع للمقريزى ص ١٠١

(٤) إمتاع الأسماع ص ٢٢٢

فإن قالوا الخصلة منها لا ، عزله [1] . ولقد مر يوم مجيئه الشام على قوم من المجذومين ففرض لهم شيئا من بيت المال ومنعهم بذلك عن التكفف بين الناس [2] . واشتهر الوليد بن عبد الملك من خلفاء بنى أمية بعمله على تخفيف آلام المرضى وتخصيص أعطيات للمجذومين لمنعهم من سؤال الناس ، كما أعطى كل مقعد خادما يهتم بأمره ، وكل ضرير قائدا يسهر على راحته [3] . وفى عهد أحمد بن طولون من حكام مصر فى العصر العباسى الثانى بنى ابن طولون فى مؤخر مسجده ميضأة وخزانة شراب بها الأدوية والأشربة ، وقرر لهذا المكان الخدم ، وعين طبيباً خاصاً يقوم بتطبيب المرضى من المصلين ، كما بنى مستشفى بأرض العسكر « المارستان » وأدخل فيه ضروبا من النظام تشبه ما فى أرقى المستشفيات الآن ، وكان يتفقده بنفسه فى يوم الجمعة فيطوف على خزانة الأدوية ويتفقد أعمال الأطباء ويواسى المرضى [4] .

٥ — مسئولية الدولة : هناك اتجاه فى تقرير حقوق الإنسان فى الوثائق الدولية والقواعد الدستورية إلى ألا يكتفى بتقرير الحقوق تقريراً سلبياً ، بل أن ينص على التزام الدولة بصفة إيجابية ضمان هذه الحقوق وتهيئة الوسائل لمزاولتها . فحق العمل وحق التعليم للأفراد يقترنان بواجبات على الدولة فى تهيئة موارد الكسب ومعاهد العلم .

والدولة الإسلامية من ذلك الطراز الذى يضطلع بواجبات إيجابية فى ضمان حقوق الأفراد . ولقد قدمنا كيف كان ولاة الأمور وعلى رأسهم النبى ﷺ فى عصره يتكفلون بتهيئة فرص العمل والعلم والعون الاجتماعى والعلاج للأفراد .

وقد علق المودودى على الآيات الكريمة « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » ، « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » فقال فى تعليقه عليها : — « فمن تدبر هذه الآيات اتضح له أن الدولة التى يريدها القرآن ليس لها غاية سلبية فقط ، بل لها غاية إيجابية أيضاً . أى ليس من مقاصدها المنع من عدوان الناس بعضهم على بعض وحفظ حرية الناس والدفاع عن الدولة فحسب ، بل الحق أن هدفها الأسمى هو نظام العدالة الاجتماعية الصالح الذى جاء به كتاب الله . وغايتها فى ذلك النهى عن جميع أنواع المنكرات التى ندد الله بها فى آياته ، واجتثاث شجرة الشر من جذورها ، وترويج الخير المرضى عند الله

(١) الطبرى طبعة الحسينية ج ٥ ص ٣٣ (٢) أشهر مشاهير الاسلام مجلد ١ ص ٧٨
(٣) تاريخ الاسلام السياسى الطبعة الأولى ج ١ ص ٤٧٨ (٤) تاريخ الاسلام ج ٣ ص ٥٧٢ - ٥٧٣

المبين فى كتابه . وفى تحقيق هذا الغرض تستعمل القوة السياسية تارة ، ويستفاد من منابر الدعوة والتبليغ العام تارة أخرى ، ويستخدم لذلك وسائل التربية والتعليم طوراً ويستعمل لذلك الرأى العام والنفوذ الاجتماعى طوراً آخر كما تقتضيه الظروف والأحوال . يقول تعالى « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » فالمراد من الحديد فى الآية هو القوة السياسية . والآية قد بينت ما يبعث الرسل لأجله وهو أن الله قد أراد يبعثهم أن يقيم فى العالم نظام العدالة الاجتماعية على أساس ما أنزله عليهم من البينات وما أنعم عليهم فى كتابه من الميزان أى نظام الحياة الإنسانية العادل(١) .

صحح السيوطى ما رواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى وابن ماجة عن النبى ﷺ « ما من مؤمن إلا وأنا أولى به فى الدنيا والآخرة . إقرءوا إن شئتم قول الله « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » فأيما مؤمن مات وترك مالا فليرثه عصبته من كانوا ، ومن ترك ديناً أو ضياعا فليأتنى فأنا مولاه (٢) » . وفى هذا تقرير صريح لمسئولية الدولة فى توفير الحقوق . ومسئولية الدولة هى مسئولية عامة تجاه الرعايا جميعاً على اختلاف أديانهم وأجناسهم . وهذا يؤخذ من القاعدة العامة : لهم ما لنا وعليهم ما علينا . وقد تقدم كيف كان عمر يفرض حتى لليهود ، وكيف كانت سياسة خالد فى البلاد المفتوحة .

هذه الحقوق كلها فى ضرورات المعيشة من مأكل وملبس ومسكن ، وفى التعليم والعلاج ، هى التى يكفلها الإسلام فى شريعته وتلتزم بضمانها دولته . والدعوة إلى تحكيم القرآن إنما تعنى كفالة هذه الحقوق وإقامة الدولة التى تلتزمها شرعاً ، وتتعبد بنشر رحمة الله للعالمين .

والذى ينظر إلى نظام الإسلام هذه النظرة يجد أن تطبيق هذا النظام مدعاة للانتفاع بهذا التشريع الاجتماعى الجليل بجانب التوجيه الأخلاقى النبيل . ولن تكون العقوبات ـ ممثلة فى الحدود الشرعية ـ إلا بعد استكمال سبل الوقاية المادية والنفسية من كل دواعى الإجرام .

وفقنا الله إلى الانتفاع من بركات شريعته ، ونحن فى عهد تقنين دستورى جديد « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ... فآواكم وأيدكم بنصره ... ورزقكم من الطيبات ... » اللهم اجعلنا من هؤلاء ... آمين .

محمد فتحى محمد عثمان
مدرس الآداب بالمعاهد الدينية

[١] نظرية الاسلام السياسية . (٢) البخارى طبعة منير جـ ٣ ص ٢٣٨

هل يعيد التاريخ نفسه

قام جدل على طويل بين علماء التاريخ والسياسة والاجتماع حول العبارة القائلة « التاريخ يعيد نفسه » ، بل لقد ألفت فى ذلك الجدل كتب قيمة ، واختلفوا بين رأيين : جماعة قالوا : إن التاريخ يعيد نفسه حقيقة بكل الظروف والملابسات والمقومات ، أما الشخصيات التى تدور عليها حوادث التاريخ ، فاختلافها لا وزن له فى تقرير هذه الحقيقة ، وآخرون قالوا : إن التاريخ لا يمكن أن يعيد نفسه تماما ، وكل ما هنالك أن ظرفا قد يشبه ظرفا ، وأن أحداثا قد تتماثل ، فتتشابه النتائج التاريخية التى يسفر عنها تشابه الظروف والملابسات ؛ ولابد من وجود فوارق حتما بين السابق واللاحق .

ومهما يكن من أمر فإن التاريخ يعيد نفسه إلى حد بعيد ، وليس المقصود من ذلك التطابق التام بين الظروف والأحوال والنتائج والأشخاص ، فى السابق واللاحق ، وإنما المقصود أن الإنسان هو الإنسان ، وأن المجتمع الإنسانى لا يفقد خصائصه الذاتية بالتطور العام ، وأن الإدراك البشرى قد يتماثل ، وأن التعقل والتفكير ، كثيراً ما يتبع نمطا واحداً ، ومقدمات واحدة ، فيصل إلى نتائج واحدة ، وأن بعض البلاد قد يمر بظروف متشابهة مع ما مر به بلد آخر . وهنا نضرب مثلا بجميع البلاد التى خضعت للاستعمار ثم تحررت ، أو هى فى طريق التحرر . فما لا شك فيه أن التماثل والتوافق بين الظروف والملابسات والنتائج فيها ظاهر جلى ، وأن التاريخ فيها يعيد نفسه . ونحن لا ننسى أمراً إنسانيا فطريا غريزيا ، هو المحاكاة التى يقيم علم النفس التربوى عليها أسساً تربوية هامة ؛ ويصدق هذا المثل كثيراً جداً فيما يتعلق بالأشخاص وتاريخهم ، لأن الابطال يحاكى بعضهم بعضا ، ويقتدى الحاكم العادل بعادل سابق ، والطاغية بآخر سابق عليه ، حسب استعداد كل شخص . وهنا يصل التوافق إلى حد يتعذر معه التمايز والتفرقة بين الحادثين فى النظر السريع ، وهذا كالقول بأن « الضغط يولد الانفجار » ، وهى حقيقة علمية مقررة فى علمى الطبيعة والكيمياء ، وتقوم عليها نظريات هندسية وحربية لها أهمية كبيرة ؛ ويقصد منها فى التاريخ والسياسة أن الحكم الظالم الذى يقوم على كبت الشعور ، والضغط على الحريات ، يدفع دائما إلى الثورة ، والظلم هو الظلم مهما اختلفت وسائله وأساليبه ، ونتائجه دائما واحدة .

فعندما يثور شعب مظلوم على حاكم ظالم - كيفما كانت طريقة الثورة - ويحصل الشعب على حريته اقتداء بشعب آخر يصح أن يقال ، إن التاريخ يعيد نفسه » .

ونحن اليوم فى هـذا العهد الجديد نرجو أن يعيد التاريخ نفسه إلى أبعد الحدود ، وإنا لنلمح أمارات اتجاه قوى إلى سبل الحكم الرشيد ؛ ونلمح اتجاه قائد الثورة إلى الاقتداء بأعدل حاكم عرفه تاريخ المسلمين حتى اليوم - أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - الذى ظلم فى مصر كثيراً فى العهد البائد ، ولم يرع الحكام ولا العلماء والكتاب مكانته وكرامته وقدسيته ، فنزلوا به إلى درجة أحط حاكم عرفه تاريخ المسلمين . إلى أن شاءت قدرة الله سبحانه ، أن ترفع الظلم عن مصر ، وعن أمير المؤمنين عمر فى وقت واحد ، وإلى القارىء ملاحظات عابرة نسجلها إحياء للذكرى العاطرة ، ذكرى أمير المؤمنين عمر ، أعظم قدوة حسنة للحاكم الذى يفنى فى خدمة المحكومين :

الأولى : كان عمر يرتفع بنفسه وبعماله فوق الشبهات ، وكان يجعل من نفسه وأهله نموذجا علياً حياً للعمال والرعية على سواء ، فكان إذا أراد أن يصدر أمراً ، جمع أهله وقال لهم : « إن الناس ينظرون إليكم نظرة الطير إلى اللحم ، إنى سآمر الناس بكذا ، وأقسم لو أخذ أحدكم بمخالفته لأضاعفن له العقوبة » ، وكان أهم ما يحرص عمر على تحذير عماله منه ، ويشهد الناس عليهم فيه هو الهدايا ، قائلا : « إياكم والهدايا فإن الهدايا هى الرشا » لأنه كان يعتقد أن الهدية التى تقدم للعامل إنما تقدم على حساب مصلحة المسلمين ، وعلى حساب الإسلام والحق والعدل ، ولقد فهم عمر رضى الله عنه ، أن الهدية تساوى الرشوة أو الاختلاس ، من قول الرسول عليه السلام : « ما بال الرجل نرسله فى أمر المسلمين فيرجع إلينا ويقول : هذا لكم . وهذا أهدى إلى . فهلا جلس فى بيت أبيه وأمه لينظر أيهدى إليه ؟ » ولقد أهدت ملكة الروم إلى زوجته أم كلثوم بنت على هدية فصادرها عمر ورد إلى بيت المال !! ولم يستمع فى ذلك إلى تعليلات فقهية من بعض إخوانه . لأنه قدوة ، ويجب أن يكون فوق الشبهات ، بعيداً عن الظن والتقول !! ومن محاسن اقتداء الخلف بالسلف فى عصرنا أن الرئيس القائد يرد إلى متحف من متاحف الدولة كل هدية تقدم إليه ، فكأنه يحولها إلى بيت المال ، وكأنه يرفضها ، وهو محق فى ذلك ، وغير هذا لا يليق به ، فهل كان هؤلاء المهدون إليه ، يهدون إليه قبل ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ ؟ والذى نرجو أن يكمل الرئيس اقتداءه فيه بعمر ، هو تحريم الهدايا على جميع الوزراء والموظفين العامين ، وهذا أحوط وسائل تحقيق العدالة .

الثانية : حدث بعد فتح مصر واستقرار الإسلام بها ، أن تسابق محمد بن عمرو ابن العاص - ابن أمير مصر - مع شبان من المسلمين والمصريين المسيحيين ، فسبق شاب مصري مسيحي محمد بن عمرو ، فغضب ابن الأمير وضرب المصري سوطاً على ظهره قائلا : خذها وأنا ابن الأكرمين ، . ومر الحادث يومها بسلام كما خيل للمتسابقين ، ولكن الفتى المصري الذي يعرف عدل عمر وسماحة نظام الإسلام لم يهدأ له بال حتى وقف أمام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وقص عليه القصص ، وكان موسم الحج قد قرب . فاستبق الخليفة المصري حتى حل الموسم ، واستقدم الخليفة أمير مصر عمرو بن العاص وابنه محمداً ، وفي مجمع من المسلمين في موسم الحج ضم أمير مصر وابنه ، نادى عمر : أين المصري ؟ فهب الفتى المصري هاتفاً : لبيك أمير المؤمنين ، فناوله عمر السوط قائلا : اضرب ابن الأكرمين ، ضعف ما ضربك ! فتناول المصري السوط وضرب به محمد بن عمرو أمام أبيه مثل ما ضربه ، ثم ناول السوط للخليفة ، فقال له عمر : أعل به صلعة عمرو فإن ابنه ما ضربك إلا بسلطانه !! فأبى المصري قائلا : إنه أخذ حقه وزيادة . فقال الخليفة لأمير مصر في غضب : « يا عمرو . متى تعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » . وهكذا اقتص عمر الحاكم العادل ، للضعيف من القوي ، فرد عليه بذلك عزته وكرامته ، وجعل أمره حديث الدنيا بأسرها حتى تقوم الساعة . ومن محاسن اقتداء الخلف بالسلف في زماننا ما روته الصحف عن فلاح مصري مسكين جاء إلى دار الرياسة ، يشتكي إلى الرئيس القائد ضراً أنزله به عمدة بلده وهو عمدة جبار من الطغاة العتاة ، الذين رضعوا لبان الظلم في عهد الفساد ، ونحن جميعاً نعرف مدى استبداد هؤلاء العمد بالفلاحين ، فاستقدم الرئيس العادل هذا العمدة الجبار ، وأذله أمام أخينا الفلاح ، وأرغمه على رد حقوق الفلاح إليه ، وجعله عبرة للمستبدين ، وهكذا انتصف الرئيس العادل للفلاح الضعيف من العمدة المستبد ! وهو مالم يحدث في مصر من زمن طويل .

الثالثة : في سنة ١٥ هـ حدثت مجاعة شديدة ببلاد العرب ، وسموا عامها عام الرماد أو الرمادة ، لالتصاق الأيدي بالرماد . فأقسم الخليفة عمر : ألا يذوق سمناً ولا عسلا ، ولا لحما ولا شحما حتى يحيا الناس . وبر الخليفة بقسمه ، فشحب لونه ، ونحل جسمه ، واعرورق وجهه ، حتى خاف الصحابة أن يلحقه من جراء ذلك مكروه ! فاتفقوا على حمله على التحلل من قسمه ، وإفهامه أن حياته ليست ملكا له ، وإنما هي خير وبركة للمسلمين ، وعليه أن يحافظ عليها من أجلهم ، فقالوا له ذلك . فرد عليهم غاضبا بقوله : وأنتم الذين

تقولون الذي قالم ، لا أشبع الله بطن عمر ، بئس الحاكم أنا إذا شبعت وجاع الناس !!
لم إذن كنت إماما ؟ وكيف أصلح للناس قدوة ، إذا لم يصبنى ما أصابهم ، وكيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسنى ما مسهم ، أيها الناس : إن لنا عليكم حقا ، النصح بالغيب ، والمعاونة على الخير !؟

وبالأمس القريب ذهب الرئيس نجيب لمواساة أهل قرية صهرجت الصغرى التي دمرها الحريق ، وبعد أن طاف بالقرية ، وواسى أهلها ، ووزع عليهم معونة الله لهم ، صمم على رؤية المصابين حيث هم ، ليطمئن قلبه على راحتهم ، فقال له مأمور مركز أجا : ياسيدى الرئيس ، انهم فى مستشفى أجا ومستشفى ميت غمر ، وشرح له متاعب الطريق الزراعى الطويل ، ثم قال : تستطيع يا سيدى الرئيس إنابة من تشاء لزيارة المصابين ، فقال الرئيس : إنى أريد زيارة المصابين بنفسى ، أما الراحة التى تحدثنى عنها فأسقطها من حسابك ، وكيف لى بالراحة ، وهؤلاء المساكين يفترشون الأرض ويلتحفون السماء !! ، وأصر على الركوب إلى المصابين للاطمئنان بنفسه عليهم ، وهذا أمر يستحق التسجيل لأن مصر لم تتعوده من حكامها الناعمين المترفين ، المتألهين فى تاريخ حديث طويل !؟

هذه ملاحظات عابرة نقصد منها التوجيه إلى الخير ، وتقدير إحسان المحسنين ، وتحرى ولاة أمورنا الاقتداء بسلفهم فيما كانوا عليه من الكمال المثالى .

وإذا كنا نطمع اليوم فى « القدوة الحسنة » التى نجدها فى الرئيس نجيب ، أن تعيد لنا وبنا عهد العزة والكرامة ، عهد عمر بن الخطاب ، فلسنا نسرف على أنفسنا وقادتنا ، فهذا الذى ذكرنا يشير عودة بالحكم إلى معنى خدمة الشعب ، وإن الحاكم خادم أو رائد للشعب ، وقائده إلى الخير العام ، أو أنه كما قال عمر : « مثلى وإياكم كمثل ولى اليتيم منه ومن ماله » ، أى حسن الرعاية ، وحسن الإرشاد ، لا السيادة والاستعباد ، ونحن فيما نلمح من بشائر وأمارات نؤمن بأن العهد الجديد لابد بالغ بنا إن شاء الله إلى ذروة العزة والكرامة ، وأنه سيعيد للإسلام مجده وقوته ، وأنه سيجعل « دين الدولة الإسلام » بحق ، لا كما كان فى العهد الماضى حبراً على ورق ، وإنا له أعوان وأنصار « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز » .

محمود فياض
أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية أصول الدين

الأزهر والثورة العرابية

لم يقتصر دور الأزهر فى التاريخ المصرى على الناحية العلمية ، بل كان للأزهر مواقف خالدة فى تاريخ مصر القومى ، ومن أهمها الدور الذى قام به فى الثورة العرابية :

بعث روح النهضة الفكرية والأدبية : ساهم الأزهر بنصيب وافر فى إذكاء الحماسة ونشر التعليم وإعداد النفوس لتلبية نداء الحرية ، فقد قام رجاله وعلى رأسهم الشيخ عبد الله الشرقاوى منذ أوائل القرن التاسع عشر بإعلان حقوق الشعب وإلزام الوالى باحترام هذه الحقوق ، ثم ظهر بعد ذلك رجال أفذاذ سجلوا للأزهر صفحات ذهبية فى تاريخنا مثل رفاعة رافع والسيد عبد الله النديم والشيخ محمد عبده .

فالأول كان زعيما لنهضة العلم والأدب فى عصره ، ومن أهم أعماله تأسيس مدرسة الألسن التى خرّجت نخبة من العلماء والأدباء والشعراء ، كما قام بترجمة الدستور الفرنسى ، وعلق على الترجمة تعليقات تدل على فهم صحيح لأحكامه ومبادئه ، وميل فطرى إلى [1] النظم الحرة ، وترجم القانون المدنى الفرنسى ، ونشر رحلته فى فرنسا وسماها (تخليص الإبريز) ، ولم يقتصر نشاطه على التأليف والترجمة والتدريس بل خدم وطنه بقصائد شعرية تدل على وطنية صادقة وتفان فى محبة الوطن حتى بلغ من حماسته أنه عرب نشيد (المارسليز) الفرنسى الذى يعتبر من أعظم الأناشيد الحماسية القومية حتى لا يحرم أبناء وطنه من تذوق هذا النشيد .

وهناك السيد عبد الله النديم الذى حاول أن ينفث فى الأمة روح الحماسة كى يستيقظ الشعب من غفوته ، ونادى بضرورة تعليم أبناء الوطن تعليما نافعا ، وفى سبيل تحقيق أغراضه أسس (الجمعية الخيرية الإسلامية) ونحا نحوا جديداً لنشر أفكاره ، فألف مسرحيتين إحداهما (الوطن وطالع التوفيق) والأخرى (العرب) ، مثلهما هو وتلاميذه على مسرح زيزينيا بالاسكندرية . وقد بين فى مسرحيته الأولى جميع الأمراض والعلل التى تهدد

---

(١) تاريخ الحركة القومية للعلامة عبد الرحمن الرافعى ج ٣ ص ٤٧٩ .

وجود الأمة من عدم اكتراث بمصالح البلاد القومية وانصراف إلى الملذات واستغلال لضعف الجمهور وابتزاز للأموال ظلما وعدوانا . وقد نجح في تصوير هذه الأدواء نجاحا منقطع النظير ، ثم عمل على نشر أفكاره عن طريق الصحافة فأسس صحيفته الاسبوعية (التنكيت والتبكيت) .

وبينما كان صوت النديم يجلجل بالإصلاح ويمهد للثورة في نفوس المثقفين كان الشيخ محمد عبده يبث تعاليم السيد جمال الدين الأفغاني في دروسه ، ويعالج الشئون العامة للبلاد في صحيفتي الأهرام والوقائع الرسمية [1] .

ومالنا نذهب بعيدا ورأس الثورة المفكر (أحمد عرابي باشا) تلقى علومه في الأزهر مدة أربع سنوات ، وكان لهذه المدة على قصرها أثر كبير في تكوين شخصية عرابي كزعيم ثوري إذ جعلت منه خطيبا مفوها يستولي على عقول سامعيه ويهز مشاعرهم .

ووسط هذا النضوج الذهني اندلع لهيب الثورة .

الشيخ محمد عبده يضع صيغة اليمين الوطنية :

في ٢٥ مايو عام ١٨٨٢ قدمت كل من انجلترا وفرنسا مذكرة يطلبان فيها إبعاد عرابي باشا وإرسال كل من على باشا فهمي وعبد العال باشا حلمي إلى أية جهة داخل القطر المصري واستقالة وزارة البارودي ؛ فرفض مجلس الوزراء مطالب الدولتين ، واجتمع أحمد عرابي باشا ومحمود سامي باشا البارودي وكبار الضباط في قشلاق عابدين واتفقوا فيما بينهم على أن يكونوا يدا واحدة في الدفاع عن البلاد ، وأرسلوا إلى الشيخ محمد عبده ليضع لهم صيغة يمين الثورة فوضعها لهم ، وتلاها عليهم ، فرددوها في صوت واحد .

العلماء والضباط ينسحبون من مجلس الخديو :

استقالت وزارة البارودي يوم ٢٦ مايو عام ١٨٨٢ ، وأراد الخديو توفيق أن يبث التفرقة في صفوف الزعماء ، فعقد اجتماعا يوم ٢٧ مايو حضره من العلماء الشيخ محمد الانبابي شيخ الجامع الأزهر والشيخ محمد عليش والشيخ حسن العدوي والشيخ أبو العلا الخلفاوي ، وحضره شريف باشا وكبار النواب والضباط وعرض الخديو على المجتمعين تشكيل وزارة

(١) مقالاته منشورة في الجزء الثاني من تاريخ الامام محمد عبده .

رياسته ، وقبول المذكرة الإنجليزية الفرنسية . فأجاب طلبة باشا عصمت على كلام الخديو قائلا « إننا مطيعون لجناب السلطان الشاهانى والجناب الخديوى . ولكن هذه اللائحة يستحيل علينا تنفيذها ، ولا حق للدواين فى طلب تنفيذها ، فهى تتعلق بمسائل من اختصاص الباب العالى أن ينظر فيها ويستحيل علينا قبول أحد رئيساً للجهادية خلاف رئيسنا أحمد باشا عرابى » ، ووافق على قوله الشيخ عليش والعلماء جميعاً . ثم غادر طلبة باشا مجلس الخديو بدون استئذان وتبعه الضباط والعلماء .

العلماء يصدرون فتوى بعزل الخديو توفيق .

بعد ضرب الاسكندرية فى ١١ يولية عام ١٨٨٢ قام عرابى باشا للدفاع عن البلاد ، فأصدر الخديو أمراً بعزله فى ٢٠ يولية ، وبناء على ذلك اجتمع المؤتمر الوطنى للمرة الثانية فى ٢٢ يولية سنة ١٨٨٢ ليقرر موقف الأمة من الخديو الذى أعلن بتصرفاته انضمامه إلى الإنجليز . وتلا الشيخ محمد عبده على أعضاء المؤتمر أوامر الخديو التى تثبت إدانته ، ومنشورات عرابى باشا التى تدعو إلى الدفاع عن الوطن . ثم ألقى على باشا الروبى خطبة ندد فيها بموقف الخديو المزرى إزاء قضية البلاد ، ثم تليت فتوى شرعية أصدرها العلماء بمروق الخديو عن الدين لانحيازه إلى الجيش المحارب لبلاده ، فأصدر المؤتمر الوطنى قراره التاريخى بعزل الخديو ووقف أوامره وتكليف عرابى باشا بالدفاع عن البلاد ، وتكليف المجلس العرفى بتبليغ هذه القرارات للسلطان ، ووقع الحاضرون على ما قرره المؤتمر الوطنى وكان من بين العلماء الموقعين على ذلك : —

الشيخ محمد الانبابى شيخ الجامع الأزهر ، الشيخ حسن العدوى ، الشيخ عبد الله الدرستاوى مفتى الحنفية ، الشيخ محمد عليش مفتى المالكية ، الشيخ يوسف الحنبلى مفتى الحنابلة ، مفتى الأوقاف ، الشيخ عبد الهادى الأبيارى ، الشيخ محمد الأشمونى ، الشيخ خليل العزازى ، الشيخ مسعود النابلسى ، الشيخ محمد القلماوى ، الشيخ زين المرصفى ، الشيخ حسين المرصفى ، الشيخ سليم عمر القلماوى ، الشيخ عثمان مدوخ ، الشيخ عبد الرحمن السويسى ، ومن رجال القضاء الشرعى : الشيخ أبو العلا الخلفاوى ، الشيخ عبد القادر الرافعى ، الشيخ عبد القادر الدلبشانى ، الشيخ أحمد الخشاب .

جهود العلماء أثناء الحرب :

بذل العلماء مجهوداً كبيراً فى سبيل الدفاع القومى فدعوا إلى التطوع فى صفوف الجيش

المصرى وإمداده بالمؤن والتبرعات . وكان من أبرزهم الشيخ محمد عبده والشيخ حسن العدوى والسيد عبد الله النديم الذى كان لسان الثورة الناطق والذى كان يستدعى للخطابة بالبرق حتى لقب بخطيب الثورة بل (خطيب الشرق) .

محاكمة العلماء الذين اشتركوا فى الثورة العرابية :

بعد انتهاء الثورة العرابية قبض على زعمائها وعلى المشتركين فيها وقدموا للمحاكمة . وهاك بيان العلماء الذين قبض عليهم والأحكام التى صدرت ضدهم وأمام كل منهم اسم البلد التى اختارها لمنفاه [1] :

الشيخ عبد الرحمن عليش	نفى خمس سنوات خارج القطر المصرى	(الآستانة)
« عبدالقادر قاضى مديرية القليوبية	« أربع « « « « «	(بيروت)
« محمد الحجرسى	« « « « « « «	(مكة المكرمة)
« أحمد عبد الجواد القاياتى	« « « « « « «	(بيروت)
« محمد عبد الجواد القاياتى	« « « « « « «	(بيروت)
« يوسف شرابة	« « « « « « «	(غـــزة)
« محمد عبـــده	« « « « « « «	(بيروت)

هذا مع تجريدهم من الرتب والامتيازات والمناصب وعلامات الشرف .

وحكم على العلماء الآتية أسماؤهم بتجريدهم من جميع رتبهم وعلامات شرفهم وامتيازاتهم :

الشيخ حسن العدوى وابنه الشيخ أحمد العدوى ـ الشيخ أحمد المنصورى ـ الشيخ محمد السملوطى ـ الشيخ أحمد البصرى ـ الشيخ محمد أبو العلا الخلفاوى العضو الأول بالمحكمة الشرعية ـ الشيخ عبد الوهاب عبد المنعم قاضى إسنا سابقاً ـ الشيخ محمد أبو عائشة قاضى بور سعيد سابقاً ـ الشيخ على الجمال نقيب الأشراف بدمياط ـ الشيخ أحمد عبد الغنى ـ الشيخ محمد عسكر ـ الشيخ أحمد مروان ـ الشيخ محمد جبر قاضى المنصورة سابقاً ـ الشيخ عبد البر الرملى قاضى العريش سابقاً ـ الشيخ أحمد صلى نائب محكمة المنصورة سابقاً ـ الشيخ محمد غزال قاضى مركز البحيرة .

---

[١] الثورة العرابية للعلامة الرافعى صفحة [٩٤٠] وما بعدها .

شجاعة الشيخ حسن العدوى رحمه الله تعالى .

استدعى هذا العالم الجليل من السجن لمحاكمته يوم الثلاثاء ١٤ محرم سنة ١٣٠٠ (الموافق ٥ ديسمبر سنة ١٨٨٢) فنطق بالحق غير هياب ولا وجل ولا مكترث بالحكم الذى سيصدر عليه، ونقتبس هنا طرفاً من محاكمته: سئل رحمه الله تعالى: هل ختم على عزل الخديو وإسناد أمر الدفاع عن البلاد إلى عرابى باشا برغبته ورضاه، أم لسبب آخر ؟.

فأجاب، ختمت تابعاً للعلماء الذين ختموا قبلى مثل شيخ الإسلام ومفتى الجامع الأزهر وشيخ الجامع وغيرهم، وكان ختمى برغبتى ورضائى للمدافعة الواجبة شرعا وسياسة، وما كان ينبغى لأحد أن يمتنع عن الختم.

س: علم المجلس أنك أفتيت بعزل الجناب الخديوى، فهل هذا حقيقة أم لا ؟.

ج: لم تصدر منى فتوى فى ذلك، ولم أسأل فى هذه المادة. ومع ذلك فإذا جئتمونى الآن بمنشور فيه هذه الفتوى فإنى أوقعه، وما فى وسعكم وأنتم مسلمون أن تنكروا أن الخديو توفيق مستحق للعزل لأنه خرج عن الدين والوطن».

هذه هى صفحة من الصفحات المجيدة سجلها الأزهر بحروف من نور فى تاريخنا القومى.

أحمد عز الدين عبد الله خلف الله

المدرس بمعهد دسوق

إلى الذين يشوهون تاريخ الاسلام

* إذا أردت أن تتكلم عن ميت، فضع نفسك فى موضعه ثم تكلم.
* ليس المصلح من استطاع أن يفسد عمل التاريخ، فهذا سهل ميسر حتى للحمق. ولكن المصلح من لم يستطع التاريخ أن يفسد عمله من بعده.
* للتاريخ حدود كحدود الأرض، فلا يتسع إلا لعدد محدود.
* لو اجتمع الذين ملأوا الدنيا بشهرتهم، ما ملأوا داراً صغيرة.

مصطفى صادق الرافعى

الغزو الفكري للبلاد الإسلامية

بعد فشل الغزو العسكري الصليبي

منذ اندحرت جيوش أوروبا في حملاتها الصليبية على البلاد الإسلامية أمام جحافل صلاح الدين ومن جاء بعده من سلاطين المسلمين وملوكهم وقادتهم المجاهدين الذين قاوموا الغزو الصليبي بكل ما لديهم من قوة وبأس ولم يفتروا في مقاومته مدة مائتي سنة أو تزيد حتى قضوا عليه قضاءا مبرما، وطهروا منه البلاد وأراحوا العباد، وحفظوا بذلك لبلاد الشرق حريتها واستقلالها وأبقوا لها صبغتها الإسلامية والعربية، مما جعل التاريخ لأولئك المجاهدين الأبرار بأجل التقدير والإعجاب.

ومنذ ارتدت فلول الصليبيين إلى بلادها تجر أذيال الفشل والإخفاق، أخذت حكومات أوروبا وجمعياتها وساستها وكبار رجال كنائسها على اختلاف مذاهبهم ونحلهم، في بحث أسباب هزيمتهم واندحارهم أمام جيوش المسلمين، وبعد أن رجعوا إلى تاريخ حملاتهم على البلاد الإسلامية وسبروا أعمالها بكل دقة وتمحيص اتضح لهم أن لإخفاقهم أسباباً وعوامل متعددة، وتأكد لديهم أن العامل الأول في صدهم وطردهم من البلاد الإسلامية هو إيمان المسلمين بالله ورسوله محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وتغلغل هذه العقيدة الإسلامية في أعماق نفوسهم واعتبارهم الجهاد في سبيل الله عبادة مفروضة يتقربون بها إلى الله، وأن استمساك المسلمين بأوامر الإسلام وآدابه وحرصهم على أداء واجباتهم الدينية كان له أكبر الأثر في ثباتهم في ميادين القتال وتصميمهم على مقاومة عدوهم والانتصار عليه مهما كلفهم ذلك من خسائر في الأموال والأنفس والثمرات، وغير ذلك من تضحيات يعتبرونها قربات إلى الله تعالى.

فبهذا الإيمان العميق والإخلاص والصدق في دفع العدوان عن دينهم وأوطانهم وديارهم استحقوا النصر والفوز على أعدائهم.

فلما ثبت لديهم بالدليل القاطع أن قوة المسلمين في عقيدتهم وتعاليم دينهم، وأنهم ما داموا مستمسكين بها فلن تستطيع أية قوة من الغزاة أن تسيطر على بلادهم، حينئذ أخذ

أولئك الصليبيون من الساسة والقادة ورجال الكنيسة يرسمون الخطط ويضعون البرامج لإضعاف الروح الدينية فى نفوس المسلمين وفتنتهم عن دينهم وتنصيرهم إن أمكن ، فأعدوا حملات منظمة لغزو بلاد المسلمين فى المشرق والمغرب غزواً ، سلمياً ، بإرسال طوائف وجماعات من القسس والرهبان والراهبات المدربين تدريباً خاصاً والدارسين تاريخ وعادات وتقاليد البلاد التى ندبوا للعمل فيها ، وأدخلوهم فى بلاد المسلمين للتبشير بالنصرانية بين المسلمين وأمدوهم بالأموال الطائلة وجعلوهم فى حماية الدولة الكبرى وتحت رعايتها وإشراف رجالها من مدنيين وعسكريين .

قال مستر ادوين بلس فى كتابه (ملخص تاريخ التبشير) : « إن ريمون لول الأسبانى هو أول من تولى التبشير بعد أن فشلت الحروب الصليبية فى مهمتها ، فتعلم لول اللغة العربية بكل مشقة وجال فى بلاد الإسلام وناقش علماء المسلمين فى بلاد كثيرة [1] » .

وقررت اللجنة التى ألفها مؤتمر أدنبرج التبشيرى لبحث الأعمال المدرسية التى يقوم بها المبشرون فى البلاد الإسلامية ، ما يلى :

« اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى فى عاصمة تركيا على أن معاهد التعليم الثانوية التى أسسها الأوروبيون ، فى البلاد الإسلامية ، كان لها تأثير على حل المسألة الشرقيه يرجح على تأثير العمل المشترك الذى قامت به دول أوروبا كلها » [2] .

وقال اللورد بلفور رئيس الشرف لمؤتمر أدنبرج التبشيرى فى تأييد المبشرين ووجوب تشجيعهم ومعونتهم ما نصه « إن المبشرين هم ساعد لكل الحكومات » يعنى الاستعمارية » ، ولولاهم لتعذر عليها أن تقاوم كثيراً من العقبات . وعلى هذا فنحن فى حاجة إلى لجنة دائمة يناط بها التوسط والعمل لما فيه مصلحة المبشرين . فأجيب اللورد إلى اقتراحه وتألفت لجنة مختلطة لمواصلة العمل [3] » .

٢ — وجاء فى مجلة العالم الإسلامى الفرنسية أن المسيو جيرو حاكم أفريقية الشرقية

---

[١] عن كتاب (الغارة على العالم الاسلامى) ص ١٢ تأليف مسيو لوشاتليه وتعريب الاستاذين محب الدين الخطيب ومساعد اليافى .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٢

(٣) نفس المصدر ص ٧٨

الإنكليزية صرح فى المؤتمر الذى أقامه المبشرون على ظهر الباخرة «غالف» فى البحر الأحمر أنه يجب على المبشرين أن يشتركوا فى العمل ضد الإسلام »[1] .

وقد ذكر مستر بلس فى كتابه تفصيلات عن أعمال الجمعيات التبشيرية الإنجليزية والأمريكية والهولندية والفرنسية والسويدية والدانماركية وسواها من جمعيات اقتحمت العمل فى الأقطار الإسلامية فى مصر والسودان وسوريا وفلسطين والعراق وبلاد إيران والهند وجاوا وبلاد المغرب وأفريقيا وغيرها من أقطار .

فقد انطلق أولئك المبشرون والمبشرات بتأييد من حكوماتهم يجوسون خلال الديار الإسلامية منذ القرن الثامن عشر الميلادى أو قبل ذلك كما تدل بعض الروايات التاريخية ، مستغلين ضعف الحكومات الإسلامية فى القرون الأخيرة ، ومن جراء ذلك الضعف استطاع المبشرون أن يؤسسوا فى أكثر الأقطار الإسلامية كمصر والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين وبلاد المغرب والهند وأفريقيا وسواها مدارس وكليات ومستشفيات ومصحات ودوراً للكتب وجمعيات ومنتديات للذكور والإناث ظاهرها معالجة المرضى وتدريس العلوم العصرية واللغات الأجنبية وإلقاء المحاضرات العلمية والأدبية . وباطنها وحقيقة قصدها محاربة العقيدة الإسلامية ومقاومة الآداب والتقاليد العربية والشرقية الفاضلة .

ولا شك فى أن المبشرين قد نجحوا كثيراً فى تنفيذ جانب كبير من خططهم وأهدافهم فى البلاد الإسلامية ، وبخاصة توطيدهم للاستعمار الأجنبى ، وعملهم على خدمته . كما أن مدارسهم الأجنبية ودعاياتهم السامة تتحمل أكبر قدر من تبعة ما تعانيه مصر وسوريا ولبنان والعراق وفلسطين وبلاد المغرب وسواها من بلاد العرب والمسلمين من انحلال خلق وانطلاق من آداب الإسلام وتقاليده الحميدة ، فقد بث المبشرون والمبشرات الشكوك والشبهات واحتقار العقيدة الإسلامية فى نفوس النشء من أبناء المسلمين وبناتهم ممن أدخلوا مدارسهم وطبعوهم بطابعهم الأجنبى الغريب عن الإسلام وتقاليده ، وآدابه ، وعودوهم على مشاركتهم فى طقوسهم وعاداتهم ، وأغروهم باتباع مباذل التقاليد الأوربية الإباحية بزعم أنها من أسس التمدن والرقى العصرى ، وبإغرائهم انتشرت الحفلات الماجنة

(١) منه ، ص ١٣٧ .

التي يختلط فيها الرجال والنساء يحورون في حلبات الرقص الهمجي المستهتر المخالف لكل دين وخلق نبيل .

ولقد أثر المبشرون والمعلمون الأجانب على عقول تلاميذهم المسلمين وحشوا أدمغتهم بتاريخ أوروبا وأمريكا وتمجيد قادتها وساستها ومفكريها من الفلاسفة والمخترعين والعسكريين وصوروهم لهم بصور الأبطال العباقرة الذين يجب الاقتداء بهم ، وحملوهم بطريق مباشر أو غير مباشر على الاستهانة بدين الإسلام والاستهتار بأوامره وآدابه وفضائله ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، مصورين لهم بصورة مشوهة مفتراة تاريخ النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقادة الإسلام وحماته ، ذاكرين تاريخ فتوحات المسلمين ومفاخرهم وما كان لهم من قوة وعلم وحضارة بشكل قاتم لينفروا أولئك الصغار السذج من البنين والبنات من دينهم الإسلامي الحنيف ومن أبطاله المجاهدين الذين ملأوا الأرض إبان دولتهم قسطا وعدلا وحكمة وحضارة وعلماً .

ومما يقررونه لتلاميذهم أن حرية الفكر والرأي ينبغي أن لا تمنع الإنسان من الطعن في الدين ومخالفة ما عليه جماهير المسلمين وعامتهم ، وأن الشخص لن يكون متمدينآ عصرياً إلا إذا قلد الأجانب في زيهم وعاداتهم ، وساير الغربيين في تقاليدهم ، وانغمس في حفلاتهم ومباذلهم ، واقترف مثل ما يقترفون من آثام في اجتماعاتهم المختلطة رجالا ونساء ، وتعاطى ما يتعاطون من كؤوس المشروبات المحرمة إلى جانب كؤوس المخادنة وما يتبعها من فحشاء ومنكر وتقويض للعقل والأخلاق ثم خراب للبيوت وانتهاك الأعراض والحرمات .

فتلك الآراء الضالة التي بثها أولئك الأجانب في تلاميذهم من أكبر العوامل في حدوث البلبلة الخلقية والاجتماعية التي يشكو منها المجتمع الإسلامي والعربي اليوم .

ولا نكون مبالغين إذا قلنا : إن هذا الغزو الفكري الأجنبي لمصر والسودان وسواهما من بلاد المسلمين والعرب في المشرق والمغرب لا يقل خطره وضرره عن الغزو العسكري ، بل يفوقه ويضيره . وإن الأقطار العربية والإسلامية لن تطمئن على حريتها واستقلالها إلا إذا تخلصت من الغزو الأجنبي بأنواعه سواء أكان غزواً عسكرياً أم فكرياً أم اقتصادياً أم اجتماعياً .

إن الدين الإسلامى يفرض على المسلمين كافة أفراداً وجماعات أن يتعاونوا على مقاومة الغزو الأجنبي بجميع أشكاله ليحفظوا دينهم وعقيدتهم ، ويصونوا أوطانهم وديارهم من كل نفوذ أجنبي ليعيشوا أحراراً كما خلقهم الله .

وإن مقاومة حملات الغزو الفكرى الأجنبي تحتاج إلى خطط مضادة وتنظيم وكفاح مرير يقوم به علماء الأزهر الشريف وإخوانهم من علماء المسلمين ، وقادتهم وزعمائهم وأصحاب الرأى منهم فى مختلف الأقطار ، وإنى لأوجه أنظار القادة الداعين إلى مؤتمر العالم الإسلامى المزمع عقده فى هذا العام إن شاء الله أن يقى مؤتمرهم بمعالجة هذا الموضوع ويرسم الخطة العملية لإنجاحه .

وإنى لأهيب بقادة هذه النهضة الإصلاحية المباركة فى مصر ، الذين عانوا من فساد المبشرين وكيدهم فى جنوب السودان ما عانوا ، أن يعملوا للخلاص من هذا الغزو الفكرى الاستعمارى ، باتخاذ خطوات إيجابية حازمة تستأصل الشر فى جذوره وترد كيد العدو إلى نحره ، وذلك بإنشاء مدارس كافية ومستشفيات ومصحات ومكتبات يستغنى بها الشعب المصرى عن معاهد الأجانب ، وأن يسن قانون جديد يوحد نظم التعليم المصرى وبرامجه وينص فيه على وجوب تعليم الدين الإسلامى لكل تلميذ مسلم وإنشاء مسجد فى كل مدرسة مصرية أو أجنبية فى جميع البلاد المصرية ليؤدى فيها المسلمون من الطلبة والطالبات فرائض الصلوات والشعائر الدينية الإسلامية . ولا جدل فى أن اتخاذ مثل هذه الوسائل الحازمة وتنفيذها من حق أبناء الوطن ، وذلك كفيل بإراحة البلاد والعباد من شرور أعداء الحق وضلالاتهم ، وأى إجراء تتخذه حكومة مصر فى هذا السبيل سيكون له صداه وأثره الحميد فى جميع البلاد الإسلامية والعربية التى ستقتدى بمصر وتتبع خطواتها وأساليبها فى ذلك إن شاء الله .

محمد صبرى عابدين
من علماء الأزهر الشريف

آراء وأحاديث

علوم البلاغة فى الميزان

إنا نتقدم بالشكر إلى الأستاذ الشيخ محمود النواوى ، أن أجاب دعوتنا إلى مناقشة ما كتبناه فى نقد علوم البلاغة لحفز العقول إلى البحث والابتكار ، وغربلة تراثنا الماضى لنطرح منه الزوان ونبقى منه الحب الخالص النافع ، وقد حصر ما نقدنا به فى أمور :

١ — أنه جعل للذكر بلاغة مثل الحذف إلا أن الحذف أدق وجعل منه « فبأى آلاء ربكما تكذبان » .

على أن ليس عدلا من كليب . « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به . وقول الشاعر :

وما عفت الرياح له محلا   عفاه من حدا بهم وساقا

وما ذكره يؤدى إلى أن يكون جاء زيد وضرب عمرو وأكل خالد بليغا لأنه ذكر صادف موضعه فيقال ذكر المسند إليه لأنه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه .

ومثل هذا لا يوصف بالبلاغة وإنما يوصف بالصحة والسلامة من الخطأ واللحن ، وما ذكره من الأمثلة ليس بعضه مما نحن فيه بل هو من باب آخر هو باب التكرار مثل : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » التى تكررت فى سورة الرحمن ومثل : على أن ليس عدلا من كليب . التى تكررت فى قصيدة المهلهل .

وكنا نود أن يأخذ بالمنهج الذى رأينا أن نأخذ أنفسنا به وهو أن نعرض القول على أذواقنا فإن أحسسنا له جمالا وأخذتنا له أريحية ، علمنا أنه بليغ وبحثنا عن علة جماله وسببه ، ولو أخذ نفسه بهذا المنهج لما رأى فى أمثال جاء زيد وضرب عمرو جمالا وحكم بأنه وإن كان من باب الذكر الذى صادف موضعه لأنه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه ليس بليغا ، ولحكم بأن عبد القاهر كان مصيباً حين عمد إلى أبواب وخصها بالقول وبين ما فيها

من بلاغة ولم يجمل كل كلام كـكل كلام ما دام قد أصاب النحو ولم يخالف موضعه ولو سار المتأخرون كما سار عبد القاهر لميزوا الجمال وأفردوه وهدوا إليه ودلوا عليه ولأجدى ذلك على المتعلمين فكانوا بذلك التمييز والإفراد يعرفونه ويتوخونه فى نثرهم وشعرهم .

٢ — لما قلنا إن فى الحذف جدة وطرافة لأن الناس لم يعتادوه اعترض بأن الناس اعتادوه ثم ذكر هنا أن العامة تعرف البلاغة وذكر حكاية :

وأحسن من نور تفتحه الصبا بياض العطايا فى سواد المطالب

ونحن لا نزال نؤكد أن الكلام الذى لم يحذف منه آلف وأشد دوراناً على ألسنتهم وأن الكلام المحذوف منه أقل من القليل .

وما زلنا نرى فى الكلام المحذوف جدة وطرافة ونرى مكان المحذوف خاليا نفتقده فلا نجده من حيث كنا نترقب وجوده .

وأما أن العامة قد يقع لها كلام بليغ فهذا ما لم ننكره ولم نخالف فيه ، بل قد صرحنا به وقد كنا نود أن نمثل فى باب الحذف بقولهم :

شاكى ومين يسمع منى باكى ومين يسأل عنى

والمعنى أنا شاك ، وأنا باك ولكنه حذف فكان له هذا الحسن وهذا الجمال .

٣ — وأما اعتراضه بأن قول علماء البلاغة بأنه يحذف للاحتراز عن العبث بناء على الظاهر أو تخييل العدول إلى أقوى الدليلين من العقل أو اللفظ لازم لقوله إذا ذكر مع القرينة كان كالثقيل .

ولا يضرهم أن يدققوا بمراعاة قيود معينة .

ونحن ننقل عبارته بلفظها ليشاركنا القارىء فهمها .

سلك مسلك التعليل النفسى وهو كما بينه فى آخر الكلام معنى يشعر المرء بأثره ولا يدركه ولكن الفلسفى العارف بخفايا النفوس يدركه ويؤمن به .

وإذا كان ذلك فلماذا لم يطبقه على قولهم الاحتراز عن العبث بناء على الظاهر ، أو تخييل العدول إلى أقوى الدليلين أليس ذلك لازما لقوله إذا ذكر مع القرينة كان كالثقيل الخ .

ولا يضره أن يدققوا بمراعاة قيود معينة مثل كلمة ، بناء على الظاهر ، وكلمة ، تخييل ، فإن

ذلك هو مقتضى الدقة الفلسفية ما دام قد رضى الرجوع إلى حكم الفيلسوف فإن الفيلسوف لا بد أن يحتاط فيجعل كلامه منطبقاً على الواقع كل الانطباق » .

الفرق بين العلل التي نذكرها والتي يذكرها العلماء المتأخرون أن العلل التي نذكرها هي أمور إذا كان الكلام عليها اكتسب الجمال والروعة سواء أعلها المتكلم أم لم يعلمها أما العلل التي يذكرونها فهي أمور يقصدها المتكلم فلا بد أن يكون عارفاً بها ولذلك إذا اعترضنا عليهم حين يقولون بأن المسند إليه يحذف لتخييل العدول إلى أقوى الدليلين من العقل واللفظ ، بأن هذه معان لا تدور بخلد المتكلم ولا يعرفها - لا يلزمنا ذلك في تعليلنا لأننا لم نقل إن المتكلم يقصدها ، أما هم فقولهم تخييل العدول أى تخييل المتكلم العدول يقتضى أن المتكلم يعرفه ويقصده لأنه كيف يخيل شيئاً لا يعرفه ولا يقصده ، فقوله ولا يضر أن يدققوا بمراعاة قيود معينة مثل كلمة «بناء على الظاهر» وكلمة «تخييل» فإن ذلك هو «مقتضى الدقة الفلسفية ما دام قد رضى الرجوع إلى حكم الفيلسوف فإن الفيلسوف لا بد أن يحتاط فيجعل كلامه منطبقاً على الواقع كل الانطباق .

قلنا ذلك يضر كل الضرر لأن المتكلمين ليسوا جميعاً فلاسفة بل الفيلسوف يكون واحداً في المليون أو أقل ، فلا يراعون هذه المعانى الدقيقة والقيود الخفية المحتاط فيها كل الاحتياط ، أما نحن فلم توجب أن يعرف المتكلم علل البلاغة التي نذكرها ، وإنما يعرفها العالم الذى اشتغل بالعلوم الحكمية ، وهما جميعاً يحسان جمال الكلام وروعته ، وبعد ذلك يختلفان ، أما العامي فلا يدرى العلة والسبب ، وأما الحكيم فيدرى العلة والأسباب ، ومثل ذلك مثل عالم وحكيم يسمعان قطعة موسيقية أو يريان روضاً نضيراً ، فيطربان ويبتهجان ولكن الحكيم يدرك من تناسق النغم ومن بدائع الصنعة ما لا يدركه الآخر .

وقد بقى من اعتراضات حضرته اعتراض واحد وهو أن بعض العلل التي ذكرتها لازم لبعض ، فالهجوم بالخاطب على المطلوب دفعة يلزمه دفع الاستثقال والاستكراه ، فإن من هجم بك على المطلوب فقد دفع عنك ثقل الفضول الذى تقذى به العين - وأقول وإذا كان أحدهما يلزمه الآخر فماذا يقدح فى كونهما شيئين - لا أنه لا يقدح فى كونهما شيئين وقد عددناهما أمرين لذلك ، وهما حقيقتان متميزتان كل التميز . ثم قال: مع أنى كنت أحب ألا يورد فى هذا المقام البيت الذى أورده .

قال لى كيف أنت قلت عليل   سهر دائم وحزن طويل

فإن القريب من النفس أن الحذف هنا لضيق المقام بسبب المرض وما يحدثه من ضجر، وإن اشتغال المريض بشأنه جدير أن يحول دون مراعاته لحال السامع وإذا كان المريض مشغولا بأمره عن احترام الزائر والاعتدال له وتحيته، فأحرى ألا يفكر فى الهجوم به على المطلوب. وأقول هذا الاعتراض يزول بما قدمناه من أن العلل التى علمنا بها حسن الكلام لا يلزم أن يقصدها المتكلم فلايضرنا أنه مشغول بأمره عن أن يفكر فى الهجوم على المطلوب دفعة، فإن ذلك لازم للحذف سواء أراده المتكلم أم لم يرده، فإن من سمع فى جواب كيف أنت؟ عليل. فقد هجم على المطلوب دفعة دون أن يشغل بأمر آخر، وما ارتضاه من أن الحذف هنا لضيق المقام بسبب المرض وما يحدثه من ضجر لا يتنافى مع ما قلناه فيمكن أن يجتمعا، ولو شئنا المشاحة لقلنا إذا كان ضيق المقام لم يمنعه أن يتبسط فى الجواب، فيقول عليل سهر دائم وحزن طويل لحرى ألا يضيق بقوله: أنا.

وأكرر شكرى للأستاذ النواوى مرة أخرى وأسأل الله أن يلهمنا الصواب ويجنبنا الزلل.

م. ع.

المرأة

• لا شىء يشرف المرأة مثل صبرها، ولا شىء يشينها مثل صبر زوجها عليها.

جوبير

• خير للمرأة أن تنظر فى شأن منزلها وأطفالها، من أن تبحث فى أمور لا شأن لها بها.

نابليون

• المرأة أفقدتنا الفردوس، وهى وحدها قادرة أن تعيده إلينا.   هوتير

• أصعب شىء على المرأة أن تكتم أمراً.   شكسبير

• يختبر الذهب بالنار، وتختبر المرأة بالذهب، ويختبر الرجل بالمرأة.   شيلون

• امرأة كسيحة فى البيت، خير من امرأة طائشة متسكعة فى الطرقات.

برودون

الأمانة الأولى

للأستاذ الكبير رئيس التحرير بمجلة الأزهر الغراء جولاته القوية الموفقة ، وبحوثه الضافية القيمة ، وتوجيهاته السديدة الرشيدة فى سبيل الإصلاح والمصلحين ، وهو إذ يعالج كيف تنهض الأمة يضع أمله فى العلم ورجال التعليم ، ويطلب إلى وزارة المعارف أن تسارع إلى إصلاح نفسها ... لتبنى نظامها الجديد على تخريج جيل يؤمن بالأخلاق والفضائل .

فإذا تكلم عن مدرسى الأزهر رأى واجباً عليهم أن يقودوا حركة التجديد فى الأخلاق وأنهم أولو الأمر فى الإسلام ، وبخاصة منذ تخلى الخلفاء والملوك والولاة عن قيادة الناس وإمامتهم وإرشادهم الدينى .

ويقول الأستاذ : « إن هذه الأمة أمانة الله فى أعناق علمائها ... وإن الرعاة الذين سيعهد إليهم بعد سنوات قريبة بالإشراف على مئات الملايين من المسلمين هم هؤلاء الألوف وعشرات الألوف من طلبة الكليات والمعاهد الأزهرية فى مصر وأمثالها فى الأوطان الأخرى » .

وهذا الكلام القوى الرائع من مثل الأستاذ فى مكانته وعلمه وجهاده المعروف ، ومن فوق هذا المنبر العتيق الخالد ، سيكون له بإذن الله أثره المرجو فى حفز الهمم الوانية ، وإيقاظ العزائم الخابية ، وتوجيه العقول والقلوب إلى مواطن الضعف ومواقف الإصلاح .

وإن الأزهرى فى حاجة إلى أن يسمع هذا الكلام الصادق الجميل ، فلم يخرج الأزهرى عن دنيا الناس يوما ، وإنما هو بشر من البشر ، يسوؤه ما يسوؤهم ، ويسره ما يسرهم ، وطالما سمع القوارص اللاذعة من المحبين والشانئين على السواء ، وطالما آذاه الجحود والنكران حتى أوشك بنوه أن يفقدوا الثقة بأنفسهم ومعهدهم ، من كثرة ما يسمعون ويقرءون على ألسنة قوم يجيدون الهدم ، وقلما يحسنون البناء .

الأزهر مسئول عن تراث النبوة ، ولغة العروبة ، وبلاغ الدعوة إلى العالمين ، ما فى ذلك ريب ، وليس يحديه ولا يعفيه أن يرى السلطان فى يد غيره ، فسلطانه بالدين أقوى ، وعزه بالله أوثق ، وبلدنا والحمد لله بلد إسلامى يستجيب للدين متى وجد من يوجهه إليه فى حكمة وموعظة حسنة .

وفى الأزهر قوى كثيرة مذخورة ، وجنوده بحمد الله لا يحصيهم العد ، ولو أحسن توجيههم وقيادتهم لأنهضوا مصر عن أقرب طريق وأيسر سبيل ، ومن وراء مصر العالم الإسلامى كله ، ولشع نوره ، وبهر ضوؤه أبصار الغرب والشرق البعيد ، لجاء النصر من الله والفتح ، وكان الدين كله لله .

إنه لحق ، يرونه بعيداً ونراه بتيسير الله قريباً .

ولكن أمر الإسلام يا سيدى ليس واجب الأزهر فحسب ، إنه واجب كل مسلم يستطيعه ، وإذا كان الأزهر يقوم به فرض كفاية عن جميع المسلمين ، فإن حق الأزهر على الدولة أن تمكن له فى أداء هذا الفرض على أكمل الوجوه وأتمها .

وإنما أردت المشاركة بكلمات معقولة أطلقها المقال القيم « أمانتان » ، وأملى فى الإصلاح كبير ، لتدخل هذه الكلمات فى إعداد هذا الجيل من الرعاة للأمة الإسلامية .

إن أول ما يشكوه الطالب الأزهرى فى دراسته صعوبة الكتب ، وكلها أو جلها قد كتب فى عصور تقضت ، ليست هى بأرقى العصور الإسلامية فكرا ، ولا أغزرها علماً ، ولا أعظمها مدنية أو حكما ، بل كان دأب المؤلفين فيها أن يوجزوا فيجمعوا المعانى الجمة فى الألفاظ القليلة كأنها ممدوح الشاعر يقول فيه :

ويقتضب المعنى الكثير بلفظة ... ويأتى بما تحوى الطوامير فى سطر

مما اضطرهم إلى الشروح والتقريرات والحواشى ، فلا يسترسل الطالب فى طريق معبد يسير به قدما إلى غايته ، يحبب إليه الدرس ويغريه به ، وإنما ينتزعه من المعنى العام الذى يريد المؤلف أن يؤديه إلى ملاحظة ما تشير إليه لفظة ، أو تقيده عبارة ، أو تعنيه جملة ، أو يستقيم عليه تأويل وتخريج . ولئن كان فى ذلك نوع من التربية لقوة الملاحظة فإن الإسراف فيه جعله ثقلا فادحا معوقا عن التحصيل ، فلا يكاد الدارس ينتهى إلى نهايته حتى يكون استنفد قواه ، وشت موضوعه ، وتفرقت وحدة مسائله .

وقد كان ذلك هينا نوعا ما ، يوم أن كانت العلوم والمعارف محدودة ، ولم يكن الأزهرى فى حاجة إلى غير كتبه ، وكان هو وحده العالم المشهود له . أما الآن وقد اتسعت المعرفة وكثرت فروعها وتنوعت فنونها ، وشاعت الثقافة ، وصار القارىء أو السامع يلم بأخبار العالم فى دقائق ، ويعلم آخر ما جد من أنباء العلوم والمعارف ، والحياة كلها سباق لا هوادة فيه ،

فلم يعد مفهوما أن يظل الأزهرى معنى بهذه الكتب يحمل أثقالها ، فأما أن تبهظه فينوء بها ويتبرم ويود لو تخلص منها - وقلما أجدت على من زهدها وقلاها - وإما أن ينقطع لها ، ويقف حياته عليها ، ويصحبها فى غدوه ورواحه يتألف نافرها ، ويعالج ما استعصى عليه منها ، فإذا ملكها وملكته فهو عن دنيا الناس فى معزل .

وقد أحسن فضيلة الأستاذ الأكبر - أدام الله له التوفيق وأعانه - حينما استجاب لرغبات كثيرة فى هذا الشأن فعهد إلى أصحاب الفضيلة شيوخ المعاهد بتأليف لجان من الأساتذة فى كل علم ، لدراسة أمر الكتب المقررة ، وإبداء الرأى فى مقدار صلاحيتها للدراسة .

ولسنا نريد الوقوف عند حد إبداء الرأى فى الكتب ، ليغير كتاب بكتاب مثله أو أفضل منه ، إنما نريد نهضة علمية شاملة ، تجدد من حياة الأزهر وروحه وقواه ، نريدها نهضة تنتظم هذه القوى الشتيتة ، وتستثير فى ذلك الأسد الرابض نشاطه ، عله ينفض عن نفسه ذلك الخدر الذى طال عليه الأمد .

فى الأزهر كبار الشيوخ ممن تعرف الأمة ، وممن لا يعرفهم سوى الأزهر ولهم فى العلم أقدام راسخة . وفى الأزهر شبيبة ناهضة متبصرة ، فلم لا ينتفع بكل أولئك القوى فى تجديد شباب الأزهر وخدمة الإسلام ؟

لقد ذكر الشيخ الأكبر أن من صميم عمل الأزهر قيامه بناحيتين : ناحية الدرس وتتولاها هيئة التدريس بالمعاهد والكليات . وناحية البحث ، وتقوم بها جماعة كبار العلماء ممن توفروا على بحث قضايا العلم والدين ، لم لا ينتفع بجهود هؤلاء الأعلام فى البحث والتأليف ولم لا تكون هناك اللجان العلمية للمعاهد والكليات ، تتابع النظر فى البرامج ، وتدرس وتقارن وتقرر وتعدل ، مستنيرة برأى الأساتذة القائمين بالتدريس - كما طلب ذلك اتحاد العلماء بالغربية فى مذكرته المرفوعة إلى صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر وولاة الأمر فيه .

لقد طلبوا فى جملة ما رأوا من وجوه الإصلاح العلمى :

أن تؤلف لجنة دائمة للشئون العلمية ، لا شأن لها بالنواحى الإدارية ، وليست كتلك اللجان المعهودة !! وإنما يجب أن تعمل جديا على رفع المستوى العلمى والخلقى فى الأزهر ، وأن تستعين بالأكفاء وذوى الرأى وأن يتاح لكل راغب فى الإصلاح الاتصال بها على أن نواجه العام الدراسى الجديد بثمرة هذه الجهود .

لسنا نريد إذن مجرد الرأى فى الكتب ، فهناك موضوعات جديدة كثيرة يجب أن يلم الطالب الأزهرى بها ، فقد جد فى الفقه مثلا ما لم يكن معروفا لغير الخاصة وكانوا يتحرجون منه وصار الآن أمرا مقضيا يتعامل الناس عليه فى حياتهم الجارية ، وتعتمده الفتيا الرسمية . وجد فى التوحيد من الآراء والمذاهب والشبه ما يضطر الطالب إلى دراسته وتفهمه ومعرفة وجه الحق فيه . وهكذا سائر العلوم المقرر تدريسها فى الأزهر ومعاهده .

وليكن ذلك الجهاد العلمى بين الأساتذة أساسا لتقدير الكفايات العلمية ، والمكافآت الأدبية والترقيات إلى الكليات والمناصب الكبرى ، وليكن كذلك علاجا ناجعا لكثير من المشاكل الحاضرة التى تزداد على الأيام تعقداً .

أما الوسائل الأخرى لإعداد هذا الجيل من ثقافة وخلق ونشاط مدرسى وغيره فإلى مقال تال إن شاء الله .

كمال أحمد عون
المدرس بمعهد طنطا

المسلمون بين يقظتهم وسباتهم

المسلمون على جهالة بعضهم ... عرفوا الحياة نعيمها والبوسا
أخذوا عن الزمن المشاغب علمها ... وتجرعوه من الخطوب دروسا
أفيلغون صدى العواصف توّهما ... أم يدركون سنا البروق جلوسا
ليس الذى لبس السلاح كعاجز ... جعل التهيب والنكول لبوسا
قل للألى جهلوا الجهاد وحكمه ... لا تأخــذوه عرفا معكوسا
خوضوا الغمار ، فلن تنالوا مأربا ... حتى تروها تستطير ضروسا
لو ضن معتنق الحتوف بنفسه ... مانال من دنيا الرجال نفيسا

أحمد محرم

كفاح الحياة

قصة كفاح مسلمي الفلبين

حين أشرق نور الإسلام على الجزيرة العربية ، بدل حياة أهلها من خمول ولهو إلى جهاد وعمل ، فإذا بالأمة العربية المبعثرة التى لم تكن تحس بها الإمبراطوريات العظيمة الموجودة حينذاك ، إذا بها تهز العالم المعروف هزاً ، وتغزو أراضيه ، وتنشر دين الله ، فيدخل الإسلام القلوب ، ويقيم فيها راسخاً لا يزلزله أمر مهما عظم .

وأخذ العرب يسيحون شرقا وغربا ، يركبون متن البحار أو يقطعون الفيافى ، يملأ النشاط جوانب حياتهم ، ويفيض عنهم ، فيغمر من يتصل بهم من شعوب . وعن طريق هؤلاء الرحالة الجوابين فى كل الآفاق ، المتاجرين فى كل ثغر وميناء ، دخل الإسلام جزر الهند الشرقية ، وتمكن من قلوب أهلها ، فغدت بلادا إسلامية ، وكانت المدنية الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى تلمع بأسطع أشعتها فتضىء الطريق لكل من يريد أن يهتدى .

وعرفت جاوة والملايو الإسلام عن طريق هؤلاء التجار العرب ، ولم تكن العلاقات التجارية وحدها هى السبب فى اعتناق أهلها الإسلام ، وإنما هى قوة العقيدة فى نفوس حامليها ، تفيض منهم إلى غيرهم ، فتأخذ طريقها إلى القلوب ببساطتها ، وإلى العقول بقوتها ، فلم يكن عجيباً أن يكتسح الإسلام فى هذه الأقاليم الديانتين السائدتين وهما البرهمية والبوذية .

• • •

ودفعت الحالة الاجتماعية أهل الملايو إلى الهجرة ، وكان طريقهم الطبيعى يتجه إلى مجموعة من الجزائر - هى المعروفة بجزائر الفلبين - فوصلوا إليها على ثلاث دفعات ، الأولى ما بين سنة ٢٠٠ - ١٠٠ ق م ، والثانية ما بين ١٠٠ ق . م - ١٣٠٠ م . والثالثة من

١٣٧٠ - ١٥٠٠ م ، وكان أهل الملايو فى هذه الفترة الأخيرة قد دخل الإسلام قلوبهم ، فنقلوا معهم دين الله الحنيف إلى جزائر الفلبين [١] .

والفلبين مجموعة ضخمة من الجزائر ، يبلغ عددها ٧٠٨٣ جزيرة تقريباً [٢] ، تقع بين خطى عرض ٢١ ، ٤ شمالا ، وخطى طول ١١٦ ، ١٢٨ شرقا ، وهى جزائر بركانية جبلية كثيرة الزلازل ، غنية بمحاصلاتها النباتية والمعدنية .

وسكانها الأصليون زنوج أقزام Nigritoes من جنس الـ Aetas ، قاربوا الانقراض ، ولا يوجد منهم الآن إلا أقل من ٣٠ ألفاً ، موزعين فى جبال المناطق الكبرى ، يعيشون على الفطرة ، ثم جاء أهل الملايو ، ويكونون العنصر الغالب فى السكان الآن بجانب جاليات صينية ويابانية ضخمة ، وعدد من الأوربيين .

وعدد السكان - حسب إحصاء ١٩٤٨ يزيد عن ١٩ مليونا ، ٤ ٪ منهم مسلمون أى ٨٠٠ ألف نسمة كلهم سنيون ، يقيمون فى جزيرة منداناو وخليج صولو .

أما باقى السكان فيدينون بالمسيحية والوثنية ، وكان توزيعهم سنة ١٩٣٠ كالآتى :

مسيحيون ٨٤٨٦٧١٣ ، مسلمون ٣١٥٩٨١ ، وثنيون ٧٠٠،٥٧٨ .

ويطلق على المسيحيين لفظ Philippinos ، وعلى المسلمين لفظ Moros [٣] .

• • •

قام فرديناند ماجلان برحلته المعروفة حول الأرض فى أوائل القرن السادس عشر ، وفى ١٦ مارس ١٥٢١ وصل إلى أرخبيل كثير الجزر ، أطلق عليها إسم جزائر الفلبين ، تيمنا باسم الملك فيليب الثانى ملك أسبانيا وقتئذ . ودخلت هذه الجزائر باب التاريخ الحديث من ذلك اليوم ، فحاول الأسبان تثبيت أقدامهم فيها بقوة السيف ، ووطئوا أرضها بقواتهم سنة ١٥٦٥ ، وما لبثوا أن أرسلوا إليها رئيساً دينياً Bishop أسبانيا سنة ١٥٨١ ليشرف على نشر المسيحية فى هذه الجزائر ، بنفس الطرق التى اتبعتها أسبانيا بعد خروج المسلمين من أرضها ، والتى اتبعتها فى كل مستعمراتها ، وهى طرق محاكم التفتيش .

---

(١) عن مجلة Islamic Review عدد يناير سنة ١٩٥٣

[٢] ذكر الأمير شكيب أرسلان أن عددها ١٢٠٠ جزيرة فقط . راجع حاضر العالم الاسلامى .

(٣) Encyclopedia Americana ED. 1944 — V. 21.

ومن هنا جاء اصطدام الإسبان بالمسلمين ، الذين أطلق عليهم إسم « مورو » لأنهم يدينون بنفس الدين الذى يعتنقه المراكشيون أو « المورو » باللغة الأسبانية ، فقد حاول هؤلاء أن يخرجوا المورو عن دينهم ، ولكن التاريخ يقص علينا أنه ما من شعب اعتنق الإسلام إلا بقى عليه ، وليس ثمت أمة اعتنقت هذا الدين الحنيف وتركته . وثار المورو من أجل دينهم ، وثاروا من أجل حريتهم فكان كفاحهم العنيف ضد المستعمرين .

يروى تاريخ المورو أن « مقدم » أحد العلماء المسلمين من ملقا نزل بساحل جزيرة صولو وأرسى أول حجر فى تاريخ الإسلام فى الفلبين ، ثم توالى قدوم العلماء المسلمين وعدد من أمرائهم ، فأنشأوا الممالك ، ونشروا العدل ، وعدلوا نظام الحكم إلى النظام الإسلامى [1] ودخل أهل هذه الجزائر فى دين الله أفواجا ، وعم نور الإسلام أنحاء كثيرة منها حتى جاء الإسبان .

وأراد الإسبان أن يغتصبوا الأرض ، وأن يستعبدوا الناس ، وأن يحولوهم إلى الدين المسيحى . واستجاب الوثنيون إلى رغباتهم ، أما المسلمون فوقفوا دون أرضهم وحريتهم وعقيدتهم وقفة الأبطال واستمروا يكافحون ضد المستعمرين قروناً طويلة استشهد فيها منهم عدد عظيم ؛ ولكنهم حفظوا استقلالهم بشرف دفاعهم . ولم يمكنوا الإسبان منهم .

بدأ الإسبان العدوان ، فأرسلوا حملة ضد مسلمى صولو سنة ١٥٧٨ فاستولت عليها على الرغم من الدفاع المجيد والمقاومة العنيفة . وكانت هذه الحملة بدءا لسلسلة طويلة من الغزوات والحروب بين المورو والإسبان ، كان النصر فيها سجالا بين الطرفين . وكان الإسبان يستعينون بالفلبينيين المسيحيين ، ولكن الثورات ما لبثت حتى عمت أهل الفلبين جميعاً ، وأخذ النصر تتأرجح كفته بين أصحاب البلاد المؤمنين بدينهم وحقهم فى الحرية ، وبين المغتصبين المعتزين بقوتهم وطغيانهم .

ورأت إسبانيا أنها لن تجد سبيلا إلى الاستقرار ، وأن السلاح القوى فى أيدى جنودها لن يجديها نفعاً ضد هؤلاء المسلمين المتعطشين إلى الموت فى سبيل دينهم وحريتهم ، ومن ثم عمدت إسبانيا إلى عقد المعاهدات معهم ، وكانت أول هذه المعاهدات سنة ١٦٤٥ ، وأهم بنودها النص على التبادل التجارى .

---

(١) لا يزال هؤلاء يكونون الطبقات الحاكمة (دائرة المعارف البريطانية) .

ولكن لم تلبث الحرب أن استؤنفت .

وشهد النصف الثانى للقرن الثامن عشر أعنف صور الحرب بين المورو والإسبان ، فأخذ الأولون يشنون هجماتهم فى قوة وعنف على المراكز الإسبانية ، ويكبدونهم خسائر فادحة فى المال والأرواح والعتاد .

وكان المورو إذا فقدوا أحد مراكزهم ، انتقلوا إلى غيره واتخذوه قاعدة يشنون منها هجماتهم ، كانوا كتلة من الإيمان المشتعل ، لا يخمد لهم أوار ، ولا يفل لهم عزم ، كان النصر يدفعهم إلى نصر آخر ، وكانت الهزيمة تؤملهم فى نصر قريب .

وإزاء هذا الإصرار الكريم فى الدفاع عن الأهل والأرض ، جلا الإسبان عن منداناو وصولو سنة ١٨٩٩ ، وحل محلهم جنود أمريكيون [1] ، واضطر هؤلاء إلى الحرب أيضاً ، فخسروا خسائر فادحة فى أيام قليلة ، ورأوا أن يجنحوا عن السلام بعقد معاهدة مع المورو ، وبسطوا وجهة نظرهم وهى أنهم لم يجيئوا مستعمرين للنهب والاستغلال وفرض الدين المسيحى ، ثم عقدت معاهدة عرفت باسم معاهدة Bates نال بها المورو الحكم الذاتى وتعهد الأمريكيون باحترام دينهم ، وحلت فترة من السلام والاستقرار فعمروا ما خربته الحرب ، وأقاموا المدارس . [2]

وهكذا كان المورو سكان جزر منداناو وصولو أعظم أهل الفلبين شجاعة وبطولة ، فقد فشل الإسبان فى إخضاعهم رغم أربعة القرون التى استغرقها الكفاح بينهما .

* * *

استقر المورو فى بلادهم ، واطمأنوا إلى حريتهم وإلى دينهم ، ولكن انشغالهم هذه القرون الطويلة بالكفاح جعلهم لا يعرفون من أمور دينهم إلا القليل ، فرأوا أن يولوا وجوههم شطر البلاد الإسلامية يسألونها العون للتفقه فى أمور الدين .

ولم يكن أمامهم سنة ١٩١٣ إلا تركيا ، فأوفدوا إليها رسولا يلتمس إرسال مرشدين لتفقيه مسلمى الفلبين فى أمور الدين ، واستجابت المشيخة الإسلامية فى استانبول إلى الالتماس ، فأوفدت أحد العلماء العرب وجعلته أشبه بإمام للفلبين [3] ، واستقبله المسلمون هناك أجمل

---

(١) نشبت الحرب بين أمريكا وإسبانيا فى الفلبين سنة ١٨٩٨ وانتصرت أمريكا ، وفى معاهدة باريس تركت إسبانيا لها عن جزائر الفلبين نظير ٢٠ مليون دولار .

(٢) تذكر دائرة المعارف البريطانية أن المورو عظيمو الاحترام لأنفسهم ، وعلى قدر كبير من الكرامة الشخصية ، شديدو الشوق للتعلم ، يميلون إلى الموسيقى ، كرماء ، وهم جنس مثالى جم الأدب . V. 17-P. 730.

(٣) عن كتاب حاضر العالم الإسلامى ـ تعليقات شكيب أرسلان ـ الطبعة السلفية .

وأحق استقبال ، وبدأ في تحقيق مهمته لولا أن دهمه المرض فعاد إلى بلاده ، ثم أبت المشيخة الإسلامية (في تركيا) أن تعنى بالأمر بعد ذلك ، مهملة أمر المسلمين في الفلبين ، فرأى المبعوث ، بعد أن أبل من مرضه ، أن يعود على نفقته ، وقد ذكر في بعض تقاريره أن مسلمي الفلبين يتراوح عددهم بين مليون ومليونين . (١)

* * *

وكنت أود - حتى ينتهي هذا الحديث نهاية منطقية - أن أتحدث عن الصلة التي قامت بين الأزهر ، وبين مسلمي الفلبين ، ولكنني لم أجد لدى مراقبة البحوث والثقافة الإسلامية بالجامع الأزهر ، الأوراق التي تبين طبيعة هذه الصلة ومبدءها وتطورها ، بحجة ضياعها من المراقبة في العهد السابق ، وهو أمر مؤسف ، إذ أن مثل هذه الأوراق والمراسلات إنما هي ملك للمسلمين جميعاً وللتاريخ ، وفي ضياعها ضياع لكثير من الحقائق التي كان يجب أن تبقى وأن تذاع .

ومهما يكن من أمر ، فقد انتقلت زعامة العالم الإسلامي ، بعد الحرب العالمية الأولى إلى مصر ، فكان طبيعياً أن تتجه أنظار المسلمين إليها ، وأن ترنو قلوبهم نحو جامعتها الأزهرية العظيمة التي هي حلم كل مسلم في مختلف أرجاء العالم .

وكانت قد تكونت في الفلبين عدة جمعيات إسلامية تهدف إلى الرقي بالمسلمين ، وتعمل على تفقيههم أمور دينهم ، واتصلت هذه الجمعيات بالأزهر ، فرأت مشيخته أن توفد إلى هذه الجزائر اثنين من الأندونيسيين المتخرجين في الأزهر - وهما من أبناء أقرب الشعوب الإسلامية إلى شعب الفلبين - لتفقيه المسلمين في أمور دينهم ، فسافرا حوالي عام ١٩٥٠ م ، ولا يزالان يعملان - تحت إشراف الأزهر وعلى نفقته - على أداء رسالة الأزهر السامية ، فأنشأ بعض المدارس ، وعمرا كثيراً من المساجد ، وبذلا الجهد الكبير للرقي بهؤلاء القوم الذين طالما كافحوا من أجل دينهم وحرياتهم .

عمر طلعت زهران
أستاذ في الآداب

---

(١) عددهم في إحصاء ١٩٤٨ نحو ٨٠٠ ألف فقط . والاحصاءات الأجنبية للمسلمين في أوطانهم كثيراً ما يعتمد فيها نشر أرقام قديمة لاحصائيات قرن سابق ، ومن هنا يظهر التفاوت بين ما يعرفه المسلمون عن عددهم وما ينشره الأجانب عنه .

النقد الأدبي وتاريخه

في اللغة ، النقد والتنقاد : تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها . ومن المجاز نقد الكلام : ميَّز جيده من رديئه . وكان العلماء المتقدمون يريدون بنقد الكلام تعقب الأدباء وبيان أخطائهم . وقد ألف أبو عبد الله المرزباني المتوفى سنة ٣٨٤ هـ كتاب (الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء) ضمنه عيوب الشعراء العائدة إلى سقطاتهم في اللفظ والمعنى أو الوزن أو القواعد .

وكانت كلمة « النقد » تقابل كلمة « التقريظ » المراد بها بيان المحاسن والكشف عن مواطن الجودة والصواب . والمراد بالنقد في اصطلاح مؤرخي الآداب دراسة النصوص الأدبية دراسة تفسرها وتشرحها وتحللها وتوازن بينها وتحكم عليها حكماً يكشف عن قيمتها في نفسها ودرجتها بالنسبة إلى غيرها . وبعبارة أخرى هو « التقدير » الصحيح للأثر الأدبي ، وبيان قيمته في ذاته ودرجته بالنسبة إلى ما سواه .

تاريخ النقد

وقد نشأ النقد موجزاً مرتجلا ، فقد كان في العصر الجاهلي نقد أدبي لكنه فطري يعتمد على الذوق يسير ملائماً للعصر الجاهلي وللشعر الجاهلي نفسه . فالشعر الجاهلي إحساس محض ، والنقد كذلك ، كلاهما مبني على انفعالات نفسية وتأثر بما يشاهد أو يقرأ أو يسمع . وهو جار على السنن الطبيعي لكل نقد أول نشأته فالعربي مرهف الحس ، سريع التأثر ، تنال القصيدة الرائعة منه فيطرب لها ، وتؤذيه الكلمة النابية فينفر منها . وفي كلتا الحالتين يحكم على هذه الآثار بذوقه وبنظرة عاجلة ، غير معتمد في حكمه على أسس موضوعة ، أو أصول مقررة .

ومن أجل هذا نستطيع أن نقول إن النقد الأدبي في هذا العصر لا يتعدى أن يكون مآخذ على الشعر هدى إليها الأدباء والشعراء بطباعهم . وعيوباً دلهم عليها ذوقهم السليم .

وظل النقد على فطرته وسذاجته فى صدر الإسلام فلم يعلل ناقد حكمه ، أو يبين الأسباب الموجبة للتحسين أو التقبيح ، وإن كان قد تقدم بعض الشىء مسايرة لسنن الارتقاء . فالرواة يحدثوننا أن عمر بن الخطاب فضل زهيراً على الشعراء بأنه كان لا يعاظل فى الكلام ، وكان يتجنب وحشى الشعر ، ولم يمدح أحداً إلا بما فيه . فهو يشرح لنا سبب التفضيل بأنه كان واضح المعنى ، تنكشف العبارة عنه ، ليس فيه غريب ولا تعقيد ، بعيد عن الإفراط فى المدح . ففضل زهير يرجع إلى وضوح أسلوبه . ففى هذا العهد مال النقد إلى شىء من الدقة وحاول أن يترجم عن بعض الخصائص الفنية لاتساع تفكير العرب بما فتق القرآن الكريم من عقولهم وصقل من أذهانهم . لكنه لم يعد أن يكون باقياً خاضعاً للانفعالات النفسية والأذواق الفطرية فلم يضف شيئاً جديداً إلى النقد وأساليبه .

وفى النصف الأخير من القرن الأول تغير النقد وتعددت مذاهبه ، وهو الوقت الذى يمكن أن تؤرخ به النقد الأدبى ، فقد قويت نهضة الشعر وتعددت بيئاته وتبارى الشعراء فى تجويده وتهذيبه ، وساعد على ذلك إحياء العصبية وقيام الحروب الداخلية وشيوع الغناء بالحجاز وتتابع الوفود على الخلفاء والولاة ، فتقدم النقد وتناول اللفظ المفرد والمركب والمعنى والخيال والوزن ، وصرنا نسمع « صفاء الطبع » و « جمال الصنعة » و « الجزالة » و « رقة الأسلوب » و « متانة التركيب » و « القوافى المختلفة » وتناول فنون الشعر كلها ، وشمل المفاضلة بين الشعراء ، وقسمهم إلى طبقات ، ودار بين فحول الشعراء كجرير والفرزدق والأخطل وشعراء الغزل كجميل وكثير وعمر بن أبى ربيعة والأحوص وغيرهم ، ولاحظ الصلة بين الشاعر وبيئته . فعدى بن زيد ليس فى مرتبة المتقدمين من أقرانه لأنه حضرى مقيم بالحيرة فنال ذلك من ملكته الشعرية واللغوية . وابن قيس الرقيات لا يوثق به لأنه أقام بتكريت .

ومع هذا التقدم ، فإن النقد إلى هذا العهد يعتبر امتداداً للنقد الجاهلى وشبيهاً به فى قيامهما على الذوق واعتمادهما على السليقة .

وفى القرن الثانى نهض الأدب والنقد لتقدم النشاط العلمى وتطور الحياة الاجتماعية وقيام ثورة على الأدب القديم تولى كبرها فحول الشعراء أمثال بشار وأبى نواس وأبى العتاهية

ومسلم بن الوليد ، وتبع ذلك قيام النقاد يفضلون بين مذهب وآخر فوجد من يتعصب القديم فيؤثر عفو الخاطر وجمال الطبع ، ومن يتعصب للحديث فيؤثر الصناعة والتعمق في المعنى ، وتنتهي أصول النقد عندهم إلى أصلين عامين : ما يسرى إليهم من العصور السابقة وما تجدد لهم من أثر الفلسفة والجدل والبلاغة والمنطق . ولكل طائفة آراؤها التي ذهبت إليها وأنصارها المؤيدون لها . وجد المبرد والسكرى من اللغويين وابن المعتز صاحب كتاب البديع من الأدباء وابن قتيبة من العلماء وقدامة صاحب كتابي نقد النثر ونقد الشعر من الذين تأثروا بالفلسفة ، وكان من آثار ذلك تفاوت مناحي النقد والوقوف على خواص الشعر المحدث وما يؤخذ عليه وإن لم يبلغ رجاله في التفسير والتعليل ما بلغ نقاد القرن الرابع فإن النقد في هذا القرن بلغ أوفى غاية الغايات من حيث شموله وعمقه ودقته ، ونضجت ملكة الذوق عندهم لطول ممارستهم للآداب ونظرهم في أعقابها وموازنتهم للآثار الأدبية ، فاجتمع لهم جمال الطبع وحسن الصنعة وصفاء الذوق ، فنقدوا الآثار الأدبية نقداً عميقاً واسع الآفاق ، فيه تحليل للظواهر الأدبية وردها إلى أصولها الصحيحة ، ودارت معركة عنيفة بين أنصار أبي تمام وأنصار البحتري ثم بين أنصار المتنبي وخصومهم ، وكسب النقد من وراء ذلك كتباً قيمة مثل كتاب (الموازنة بين الطائيين) للآمدي و (الوساطة بين المتنبي وخصومه) للجرجاني . ورسالة الصاحب بن عباد في (الكشف عن مساوىء المتنبي) ودخلت مسألة السرقات الشعرية في باب النقد ، ولم يبق شيء يمكن أن ينقد غفل عنه أدباء القرن الرابع ولم يشرعوا فيه .

وكان هذا النقد الأدبي العامل الأول في نشأة علم البلاغة ، فإن هذه المآخذ والآراء تحولت إلى قوانين علمية هي قوانين البلاغة .

عبد الغني اسماعيل
المدرس في كلية اللغة

أيهما المعتدى ؟

لو كنت قاضيا ، ورفع إلىَّ شاب تجرأ على امرأة فمسها أو احتك بها أو طاردها أو أسمعها ، وتحقق عندي أن المرأة كانت سافرة مدهونة مصقولة متعطرة متبرجة لعاقبت هذه المرأة عقوبتين : إحداهما بأنها اعتدت على عفة الشاب ، والثانية بأنها خرقاء كشفت اللحم للهر . مصطفى صادق الرافعي

الفتاوى

جاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

اتجهت النية إلى نقل رفات شهداء حملة فلسطين من مقابر سيناء إلى المقبرة الجديدة بالحفير التى أعدت تكريما لهؤلاء الشهداء وتعزية لأهلهم الذين كرروا الرجاء لنا بطلب نقل رفات شهدائهم إلى القاهرة .

فنرجو التكرم بإفادتنا عن المراسيم الدينية التى تقتضيها الشريعة الإسلامية الغراء أثناء النقل وعند الدفن ، مع العلم بأنه سبق أن اتخذت حيالهم المراسيم الدينية كشهداء عند دفنهم هناك .

ملاحظة : الشهداء المذكورون منهم من صلى عليه ومنهم من لم يصل عليه قبل الدفن ولم يعلم من صلى عليه من غيره . وأيضا قد كان مع المسلمين مقاتلون من غير المسلمين ولا يتميز المسلم من غيره . فنرجو الإفادة عن ذلك .

قائم مقام

رئيس إدارة الجيش

الجواب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال وعلى البيان الملحق به . وتفيد بأن الشهداء الذين قتلوا فى المعركة من المسلمين وغيرهم لا يغسلون بل يدفنون بجروحهم ودمائهم وثيابهم التى عليهم بعد أن يصلى عليهم ، وثيابهم هذه هى كفنهم لا يزاد عليه ولا ينقص منه ، لكنه إذا كانت ثيابهم لا تكفى لتغطية أجسامهم فينبغى أن يزاد عليها ما يكفى لذلك ، كما ينبغى أن ينزع عن كل منهم حذاؤه وجوربه ومنطقته وقلنسوته وسلاحه وكل ما ليس من جنس ثياب الكفن .

وإذا كان هؤلاء الشهداء قد صلى عليهم قبل دفنهم فى مقابر سيناء فلا تعاد الصلاة عليهم مرة أخرى . أما إذا كانوا قد دفنوا من غير صلاة ، فإنه يصلى عليهم هناك قبل نقلهم ،

أو يصلى عليهم فى مصر بعد نقلهم إليها ، كما أنه يصلى عليهم لو كان هناك شك فى أنه صلى عليهم قبل ذلك .

وإذا اختلط بهؤلاء الشهداء غيرهم من الذين كانوا يقاتلون معهم من غير المسلمين ، ولم يمكن التمييز بين المسلمين وغيرهم لأجل الصلاة على الشهداء ، فإنه يصلى على الجميع بنية الصلاة على الشهداء . وبهذا علم الجواب عن السؤال والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

وجاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

نرجو التفضل بالإفتاء على مذهب الإمام الشافعى أو على غيره من المذاهب عن صرف البعض من زكاة التجارة على غير الأصناف المذكورة فى الكتاب الكريم :

أولا — إذا صرف البعض من زكاة التجارة على المدارس الدينية التى ليست لها أوقاف ولا مساعدة من أغنياء المسلمين تقوم بالكفاية ، وأن آباء التلاميذ لعاجزون عن القيام بنفقات الأساتذة أو يحصل منهم شىء ، وإذا لم تجمع كمية وافرة من زكاة التجارة التى تسد رواتب الأساتذة لسنة كاملة توقف تلك المدارس عن مباشرة عملها وسيعيش الأولاد فى ظلمات الجهل .

ثانياً — إذا صرفت أيضاً لتأسيس المدارس الدينية أو لعمارة المساجد أو لإعانة الملاجىء التى يأوى إليها الفقراء العاجزون عن الكسب وليس لهم من يعولهم ، أو على غير ذلك من المشروعات الخيرية . فهل يجزى صرفها على المشروعات الخيرية التى ذكرناها .

سعيد بن صالح السبيلى
التيمين

الجواب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال ، وتفيد بأنه يجوز الصرف من الزكاة على المدارس الدينية التى ليست لها أوقاف ولا مساعدات من أغنياء المسلمين تقوم بكفايتها مع عجز آباء التلاميذ عن القيام بنفقات التعليم فى هذه المدارس كما هو وارد فى السؤال .

وكذلك يجوز صرفها فى تأسيس المدارس الدينية وعمارة المساجد وإعانة الملاجىء ،

التى يأوى إليها الفقراء العاجزون عن الكسب وليس لهم من يعولهم ، وغير ذلك من المشروعات الخيرية وأعمال البر .

وهذه الجهات تعتبر من « سبيل الله » الذى جاء فى آية مصارف الزكاة وهى قوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين الآية » فإن سبيل الله ليس مقصوراً على الجهاد ، بل هو شامل له ولكل ما هو من أعمال البر والخير . وبهذا تفتى اللجنة ، والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

إن لجنة جامع بلودان فى جمعية الهداية الإسلامية بدمشق قد عزمت على بناء جامع فى قرية بلودان يتسع للمواطنين والمصطافين الذين يقصدون هذا المصيف الجميل . وقد أقبل على هذا المشروع جمهور كبير من ذوى الغيرة والدين مما جعل اللجنة على ثقة من فضل الله الكريم بنجاح هذا المشروع الإسلامى .

ولكن بعض الجيران من المسيحيين أراد المساهمة فى بناء هذا الجامع بالتبرع بشىء من الأرض لتأمين الوصول إلى حديقة الجامع ، وبعضهم تنازل عن مواسير حديدية لا فائدة له منها ويستفيد الجامع بنقل مائه بواسطتها . فهل يجوز شرعا قبول هذا التبرع منهم . كما نستفتيكم فى جواز قبول المال عن يتبرع من المسيحيين ليضم إلى المال الذى ينفق على عمارة المسجد .

أمين سر جمعية الهداية الإسلامية
بدمشق

الجواب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال ، وتفيد بأنه لا مانع شرعا من تبرع المسيحيين للمسجد بقطعة الأرض المشار إليها ، أو بمال ، أو بأدوات يستعان بها فى بنائه .

وقد نص فقهاء الشافعية فى معتمدات كتبهم على جواز وقف غير المسلم على المساجد ونحوها مما هو قربة عند المسلمين . وجاء فى المادة السابعة من قانون الوقف المعمول به فى مصر رقم ٤٨ لسنة ١٩٤٦ ما نصه « وقف غير المسلم صحيح ، ما لم يكن على جهة محرمة فى شريعته وفى الشريعة الإسلامية » .

ومتى كان الوقف من غير المسلم على المسجد جائزاً فيكون التبرع بغير طريق الوقف جائزاً أيضا . وبهذا علم الجواب عن السؤال . والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

بين الجد واللعب

خطرات - فى فترات - تجد، فتكد، وتسف فتحف

البينات

تلوت خبراً رقيقاً عن دابة كانت فاقدة فردت ، فقال مالكها فى إثبات ملكيتها : إنه يتقبل أن ترسل دابته فى أطراف بلده ، فإن لم تعمد إلى داره ، فليست بدابته !!! ، على أن القانون - فيما يقولون - لا يقر هداية الدواب ، كما يقر الشهادات !!!

خبرٌ طريفٌ ، على أن لى فيه هذا الحديث الطلى المجدى :

اتخذ رجلٌ مريبٌ ، بيتاً مريباً فى ضاحية بغداد ، يأوى إليه المريبون ، فلما أُخذ بفعلته جحد تهمته ، فقيل له إن دواب المكارين كلها تعرف بيتك ، لكثرة ما تغشاه بركابها !!! ، فلما أرسلت عمدت إليه !!! ، فقال الرجل : إن الله عز وجل يقول : « ممن ترضون من الشهداء » وأنتم تسمعون شهادة الحمير !!! .

هزلٌ هذا ، ربما كان أداة الجد !!! ، أما أن القانون لا يتقبل مثل هذه البينة أو القرينة ، فإن فيه مقالا للتشريع :

كان الفقه الإسلامى يقول فى البينة : إنها الشهادة ، حتى قال الإمام « ابن تيمية » ، أو تلميذه « ابن القيم » ، أو هما معاً : كلا ، إن البينة كل ما أبان الحق[1] !!! ، فكان هذا الرأى من عالم إسلامى خطير ، مفخرة التشريع فى الإسلام والشرق ، بل وفى الغرب !!! .

لقد سبق الإمام « ابن تيمية » وتلميذه « ابن القيم » أساطين العلم والقانون فى الشرق وفى الغرب حين قالا : إن البينة كل ما أبان الحق ، لا الشهادة وحدها ، فأدخلا فى البينات كل ماهو يسبيل من إبانة الدعوى ، وجلاء الحقوق . أجل ، إن التحليل الكيماوى ، والتصوير

---

(١) المجلة - إن الامام ابن القيم توسع فى بيان ذلك فى كتابه « أعلام الموقعين » عند شرحه كتاب أمير المؤمنين عمر فى القضاء إلى أبى موسى الأشعرى واليه على البصرة .

والخط ، والصوت فى الحاكى والتسجيل ، وتهدّى الحيوان ، هذا ، مما يبين الحق من البينات ، عاهو عماد العمل فى القضاء المصرى . ولقد كان قبل « ابن تيمية » وقبل تلميذه ، من القرينة على الجريمة !!!

لعينى البيان :

الكناية فى الأدب العربى طلاوة البيان ، سحر الاحسان ، بل هى قيد الحسن ، مغزى الجمال .

قال شاعر يتبرم بليله يتبلد ، وصبحه لا يتبلج :

أســدوا مسارح ليل العرا ق أم صبغوا لجره أسودا ؟؟؟

« صبغوا لجره أسودا » معجزة البيان العربى كله . أما السحر بجملته ، فى جلال الشعر ، وأما الفتنة البحتة ، فى وقار الحشمة : وعزة العصمة ، فتلك كلمة « ليلى العفيفة » فى قصيدتها التى تستعدى فيها قومها ، وأخاها ، وابن عمها « البراق » حيث تقول فى إسارها والنيل منها :

ليت « للبراق » عينـــا فترى ما ألاقى من بلاء وعنا

ثم تقول فيها من الكناية الساحرة :

قيـــدونى ، غللونى ، ضربوا « ملمس العفة » منى بالعصا ! !

لقد درجت عصور الأدب كافة ، على أن فى كلمة « ليلى العفيفة » « ملمس العفة » نفثة السحر ، لا فتنة الشعر ، وحشمة الحياء ، فى ثوب الإباء .

بيد أنى لست أدرى : لم ؟ ؛ ولا كيف ؟ ، تلغى تلك الكلمة على عمد ؟ ، لهـذا العهد ، وتبدل بكلمة أخرى ؟ ، وهى عفة خفرة ؟ ، يندى لتركها البيان والأغنيات ، وجبين الخفرات .

قديم وجديد :

أطبقت الآراء كافة ، وزكتها صور الرجالات الماثلة ، على أن المثقف القـديم إذا اتسق له أن يكتسى إلى قديمه مسحة من جدة العلم والحياة ، ويحذق طرازاً من المدنية ، كان رجل الدنيا ، ظفر بالاجازتين ، وذهب بالحسنيين ، كذلك أطبقت الآراء ، وزكتها المشاهدة ، على أن الدارس إذا كان قديما بحتاً ، لم تصقله جدة العصر والعلم ، فإن عجائز القرى ، وقعائد الأكواخ ، أقوم منه لباً ! ، وأنضر تحضراً ! .

تنبأ ساحر عجب ، لا بالعجيب ولا المستندر ، أن تأخذ الشرطة بالأمس مسجديا يتجر في المخدرات ! ! ! ويتصرف في الأفيون ! ! ، ولست أمارى في أن هذا المسجدى تنزل عليه وحى كتبه العتيقة المتبذلة ، التي تؤمن بأن « حشيشة الفقراء » على التثيل ، كانت من كشف أبناء الطرق الصوفية ، فليست كبيرة الحرمة ، وإن ذهبت بالحرمة ! ! !.

تعالى الله ماشاء ، لقد تبلج الدين ، وتوضحَ اليقين ، بأن كل ما عدا على الجسمان من المأكل حرامٌ قراح ، حتى الخبز ، وكل ما سطا على اللب والحصاة من الشراب حرام محض ، حتى اللبن ! ! !

هذا المتجر المتصرِّف في المخدِّرات والأفيون ، قديم الدراسة ، غاب عن أنظمة العصر !! ولم يشهد تحضر القانون !!! الذى يحظر كل ما سطا على الجسمان ، واستلب اللب ، ولو شهد العصر !!! ، لتعلم حرمة المخدِّرات كحرمة المخدِّرات !!! .

ولو شئت أشهدتك ، دارساً قديماً ، إن شئت حذقت على يده الصناع المبتكرة ، تزييف النضار والعسجد !!! ، بالنحاس !!! وصرف الدرهم ديناراً !!! يضمنه عن فتيا ، بل دعوى .

رأى عتيق زائف عند ذلك المزيف وأشباهه من قدامى الدارسين ، أن سك النقدين لا يحظر إلا حيث يكون الحاكم الشرعى القائم ، والخلافة إسلامية !!! فيها أمير المؤمنين ومنبر .

أما أن يتق الدارس القديم معرة القانون ، والعهد ، فلا يرى الجهرة بفتك ضخمة من التزييف ، ولجيمة نكراء ، من إتلاف النقد ، لا ينادى وليدها !!! ، فليس هذا منه في رأى بعد ، ولا هو عما يعتد !!!

من يدخل الأفيون بيت لسانه فليأق بين يديه نقد حياته !!!

تلك المسجدية القديمة كما تشهد ،

أما حديث « أبو سمرا ! ! ! » فذاك أن علامة كبيراً قديم الدراسة ، لقيني ، فقال لى : أبلغك تحية « أبو سمرا ! ! ! » ، فقلت حياه الله ، أحسبه بعض من يداخلنا من السوقيين والخدم ! ! ! ، ثم مضيت ، ومضى .

تكشفت دخيلة الأمر في « أبو سمرا ! ! ! » ، الذى يبلغنى الأستاذ الكبير تحيته ، عن سيد عربي أصيل ، هو بضعة من الزهراء بنت محمد صلوات الله عليه ! ! ! ، وهو على ماتيك

عالم مدرس عريق، وشاعر كبير ، بيد أن أشعة الشمس الوقادة ، نفضت عليه لون السمرة !!! وكأن الأستاذ لجهالة التاريخ !!! ، لم يسمع بأن فى السمر بعد ، إلا عبد !!! .

هما خطتان : إما دراسة مدنية حديثة ، وأنت سيدٌ من العلماء ، وإما دراسة عتيقة بحتة ، ولست وإن طاولت السماء ، من العلماء !!! .

بيض محول :

فكاهة ساحرة ، أو دعابة ساخرة ، فقد يفرط الجد ، فيكد ، وتسأم حين تدأب ، فتلعب !!! ، قال شاعر ، أشك فى أنه « أبو دلامه » يهجو عبد الصمد بن المعذل الشاعر :

ابن المعذل من هو ومن أبوه المعذل !!!
سألت « وهبان » عنه فقال « بيض محول » !!!

« بيض محول » هذا مغزاه أن عبد الصمد ليس لأبيه بل هو « لغية » ! .

سمع « وهبان » بائع الحمام هذا ، فخاف معرة الهجاء من عبد الصمد بن المعذل ، فطاف على مجالس العلماء وأنديتهم فى المساجد . يقسم لهم : أنه لم يقل إن عبد الصمد بن المعذل « بيض محول » فقال عبد الصمد : من يعذرنى من « وهبان » فإن طوافه على الناس فى المحافل يقسم لهم : إنه لم يقل إن عبد الصمد بن المعذل « بيض محول » أغيظ لى من الهجاء ، بهذا الشعر البارد !!!

هذه طرفة التاريخ الأدبية ، أما طرفة الأدب العصرية ، فهى هذه :

حرش شيخ من شيوخ القضاء والأدب ، تغمده الله برحمته ، أديبين هما اليوم فى رحمة الله مثله : أحدهما شاعر وزجلى مقتدر ، والثانى طالب علم دينى قديم ، وزين لهما أن يتهاجيا ، وجعل لمن يدمغ صاحبه بالهجاء جائزة يظفر بها ، وإن كانت دراهم معدودة ، فقال الشاعر يهجو صاحبه الطالب ، فدمغه :

حتى متى أنا صامت وعن الأعادى ساكت
لعن الإله معاشرا الجهـــل فيهم ثابت

فتبلد الطالب الدينى طويلا ، ثم قال تافهاً :

قال النبي المنتمه ابن الأمه ما الأمه !!!

استطير الشاعر فرحة وطرباً بهذه المقالة ، أو هذه النبوة ، واغتنمها من صاحبه !!! ، والشاعر فكهٌ مرحٌ ، فأقسم ليبلغن من عِلك أمر هـذا الطالب . أنه يتكذب على النبي صلوات الله عليه حيث يقول :

قال النبي المنتبه ابن الأمه ما الأمه !!!

وعنده ، وهو أكبر يقينه ، لا ظنه ، أن النبي صلوات الله عليه لم يقله ، وقد أوقع ما تهدد به !!! ، فتغضب رؤساء الطالب غضبتهم الدينية ، على شاعر يصنع على النبي أنه قال « ابن الأمه ، ما الأمه » فتبوأ مقعده من النار !!! ، فحشدوا لمحاكمته مجلساً علياً ، ثم فضوه ، حين قيل لهم : بعض هـذه الأضاحيك !!! ، إنما هي مجانة أدبية ، ومساجلة في قهوة !!! ماجنة ، بين أديبين ، ليست من الدين ، ولا اليقين !!! .

إن التفاهة الساخرة أن تجد الغضبة ، والحديث يلعب !!! ، ولعل أخذ الطالب الأديب بالكذب على النبي صلوات الله عليه ، في حديث بشاشة وفكاهة ، أغيظ له من نصرة خصيمه عليه ، كما كانت براءة ، وهبان ، من مقالة ، بيض عول ، أغيظ لابن المعذل الثائر ، من هجاء الشاعر !!!

« السير »
عضو المجمع اللغوى

الطبقة المتوسطة

حكى عن ابن المعتمر السلمى قال :

الناس ثلاثة أصناف : أغنياء ، وفقراء ، وأوساط .

فالفقراء موتى ، إلا من أغناه الله بعز القناعة .

والأغنياء سكارى ، إلا من عصمه الله بتوقع الغِيَر .

وأكثر الخير مع أكثر الأوساط ، وأكثر الشر مع أكثر الفقراء والأغنياء ، لسخف الفقر وبطر الغنى .

البلاغة والتجديد

— ١ —

البلاغة العربية مدينة فى نشأتها الأولى لجهود علماء اللغة والأدب ، ولمثابرة الرواة والنقاد والباحثين فى أصول البيان العربى ؛ مع الأثر الفذ الذى أحدثه الكتاب والشعراء والأدباء فى القرن الثانى والثالث الهجرى .

ولقد تلاحقت الثقافات ، واتصلت المعارف ، وتبودلت الأفكار ؛ فى عواصم العلم والثقافة فى العالم الإسلامى القديم ، على أيدى العرب الذين نبغوا فى اللغات الأجنبية ، والموالى الذين حذقوا اللغة العربية وأجادوها ، والمترجمين الذين كانوا همزة الوصل بين الثقافات القديمة والثقافة العربية الإسلامية الأصيلة .

كان خلف لا يشق له غبار فى صناعة النقد « لنفاذه فيها وحذقه بها وإجادته لها »[1] . وكان أبو عبيدة يعجب من فطنة بشار وجودة قريحته وصحة نقده للشعر[2] ، وكان خلف يعجب من نقده للشعر ومذاهبه[3] . وكان الجاحظ[4] يرى أن بشارا زعيم المولدين .ثم جاء ابن سلام والجاحظ وابن قتيبة والمبرد وابن المدبر وابن المعتز ، فكان لجهودهم أثر كبير فى نشأة البلاغة ونمو البحث فى أصول البيان .

ولا ننسى جهود طائفة أخرى من العلماء فى إثارة البحوث البلاغية والتعليق عليها ، وتلك الطائفة هى جماعة العلماء الذين شغلوا بالبحث فى إعجاز القرآن الكريم وتفهم أسرار هذا الاعجاز والتأليف فيه ، فكشفوا الكثير من غوامض البلاغة وأصولها ، ومن هؤلاء أبو عبيدة والجاحظ وسواهما من أئمة المعتزلة وفحولها .

وعلى أيدى قدامة وأبى هلال والآمدى والقاضى الجرجانى وغيرهم من أفذاذ النقاد فى القرن الرابع الهجرى ، نرى البحث البلاغى ينمو ويقوى ويزدهر . . ثم تلاهم الباقلانى وابن سنان وابن رشيق من علماء النقد والبيان .

---

(١) ١٩٧ / ١ العمدة
(٢) ٢٣ / ٣ الأغانى
(٣) ٢٠٧ طبقات ابن سلام
(٤) ٩١ / ١ العمدة

ولقد لمعت عبقرية عبد القاهر الجرجانى المتوفى عام ٤٧١ هـ فى هذا العهد ، وكان مظهر هذه العبقرية الفاحة كتابان جليلان ألفهما قبل وفاته بقليل هما ، دلائل الإعجاز ، و « أسرار البلاغة » اللذان يعدان حتى اليوم أصلا ضخما من أصول البيان وبحوث البلاغة والنقد والموازنة .

وبعد عبد القاهر انطفأ السراج ، وذبل العود ، وأصيبت الأذواق بالعى والعجز ، كما أصيبت البلاغة بالتأخر والاضمحلال . . وبعد نحو قرن ونصف قرن ظهر لجأة السكاكى بعقليته المنطقية وذوقه الأعجمى ؛ فأحال البلاغة إلى جدل عقيم فى الألفاظ والأساليب ، وإلى قواعد جافة لا صلة لها بالذوق ولا بالحياة ؛ وكثر تلاميذ السكاكى ، وانتشر مذهبه فى البلاغة الذى يمثله القسم الثالث من كتابه « المفتاح » ، والذى عنى فيه مؤلفه بالقشور لا باللباب وبالتوافه لا بالحقائق ؛ ولا تزال دراستنا للبلاغة حتى اليوم قائمة على أصول مذهب السكاكى وتلاميذه وحده دون سواه .

— ٢ —

ولقد نهض جماعة من أدبائنا يدعون إلى التجديد فى البلاغة ، فمن قائل : إن الكتب القديمة يجب أن تحل محلها كتب أخرى مؤلفة على النهج الحديث ؛ ومن دعاة إلى تلقيح البلاغة العربية بأصول الدراسات البلاغية فى شتى اللغات الحديثة الأوربية ، ومن ناهجين مناهج الغرب فى بحث أسرار البلاغة وأصولها ، ومن منادين إلى مذاهب البلاغيين القدماء من أمثال عبد القاهر وقدامة وأبى هلال .

وهكذا تعددت الآراء ، وتخاصمت الأفكار ، فى التجديد فى البلاغة ، وبيان كيف يكون هذا التجديد ، على أن أذواق علمائنا المعاصرين وأدبائنا المشهورين لا تكاد تساعد على الوصول إلى هدف أو غاية ينشدها المشفقون على البلاغة العربية اليوم . . والذين يحاولون التجديد فيها يكتفون بنقل أفكار الغربيين دون فهم أو يقظة فكرية أو إلمام ما بتراثنا القديم الخالد فى البلاغة والبيان والنقد .

ومن أمتع صور البحث البلاغى والنقد البيانى هذه الصور الجميلة التى قرأناها فى مجلة الأزهر ـ عدد ربيع الأول ١٣٧٢ هـ ـ بعنوان « علوم البلاغة فى الميزان » والتى اتجه فيها الكاتب إلى إثارة الملكات ، وتنشيط الأفكار ، وتحريض الأذهان على النظر والبحث والنقد والاستنتاج والكشف ، وحفز إليهم للبحث والابتكار . . وهى محاولة مجدية قوية فى سبيل التجديد البلاغى المنشود . وأول ذلك الأسرار البلاغية الدقيقة للحذف

ومحاولة الكشف عنها ، فلقد عرض عبد القاهر الجرجاني للحذف ومكانه من البلاغة دون أن يبين سبب هذا الحسن والإحسان ، وسر هذا الجمال البياني الأخاذ .

وجاء السكاكي والخطيب وتلاميذهم فجعلوا الحذف في موضعه كالذكر في موضعه ؛ لكل مكانه من البلاغة ، ومنزلته من سحر البيان ؛ وأبوا أن يكون للحذف مزية على الذكر بل هما يحصلان البلاغة ويوجدانها ؛ ثم عللوا الحذف بعلل متكلفة لا صلة بينها وبين أحكام الذوق الأدبي السليم .

ويحاول الباحث أن يعلل سر جمال الحذف وبلاغته بأسباب نفسية وأمور بيانية ، منها الهجوم بالسامع على المطلوب دفعة ، والجدة التي نراها في أسلوب الحذف ، ومنها أن المحذوف تدل عليه القرائن فإذا ذكر كان ثقيلا في موضعه لأنه تعريف لما عرف وبيان لما بين ؛ فيربط بذلك بين البلاغة وأحكام الذوق وأسرار البيان وملكات النفس الإنسانية .

ومن البحوث التي أثارها الأستاذ ، أسلوب التجريد وتحليل ألوان جماله وسر هذا الجمال ، بعيداً عن تكلف القدماء البغيض وتأويلهم المصنوع .

وكذلك عرض لأسلوب : رأيت اليوم حاتما ولقيت مادرا وسمعت سحبان وما أشبه ذلك مما أوله البلاغيون فجعلوا حاتما هنا كأنه موضوع للجوار ، فانتزعوه من معناه وهو العلمية على الرجل المعروف من طيء ؛ وبهذا التأويل يكون حاتم متناولا للفرد المتعارف المعهود والفرد غير المتعارف وهو من يتصف بالجود ، فيصير استعماله في غير المتعارف استعمالا في غير ما وضع له فيكون عندهم استعارة .

وأستاذنا يبحث ذلك كله ويناقشه وينقده ، ويحاول الوصول إلى الصواب في أمره ، حيث يرى أن المراد هنا تشبيه هذا الكريم بحاتم في جوده ، فحاتم باق على معناه دون تغيير أو تبديل .

وهكذا نجد نهجا جميلا في البحث والمناقشة ومحاولة الكشف عن أسرار البلاغة وأصولها ؛ وهو نهج طريف ما أجدر الأزهر أن يسير عليه في الدراسة والبحث ، لتكون دراسة البلاغة فيه مجدية منتجة ، وليحاول أن يقف على قدميه أمام هؤلاء الذين يزرون بالبلاغة القديمة إزراء شديداً .

إن القديم ليس كله صوابا ، وليس كله خطأ ؛ بل فيه الصواب ، وفيه الخطأ ؛ وفيه سوى ذلك ألوان من القصور العلمي الذي يجب ملافاته ؛ فما أجدرنا في الأزهر بتجديد البحث والدراسة في أصول بلاغتنا ، وفي مذاهب البيان وأسراره .

محمد عبد المنعم خفاجي
المدرس في كلية اللغة العربية

الفرض العلمي

— ٢ —

تكلمنا فى المقال السابق عن الفرض العلمى ، وسنفصل فيما يلى الكلام عن تحقيقه . ونستطيع أن نميز مرحلتين لهذا التحقيق ، هما مرحلة التحقيق النظرى ، ومرحلة التحقيق العملى .

١ — ويعد العلامة إرنست ماخ والعلامة لالاند من أوائل المهتمين بالتحقيق النظرى . وقد لاحظ ماخ أن كبار العلماء مثل جاليليو يباشرون تجريباً عقلياً سابقا ، ويأخذ هذا التجريب أحد اتجاهين ، فإما أن ينجح ويكفى العالم مؤونة التجريب العملى ، وإما أن يكون نجاحه جزئيا فيساعده على توجيه التجريب العملى .

وهناك ثلاثة مظاهر للتجريب النظرى ، أولاها : مظهر التغيير المتصل ، وهو تصور العالم للظروف والأحوال التى تحدث فيها ظاهرة معينة . هذه الظاهرة تتغير تغيراً متصلا يوقفنا ـ عقليا ـ على كل الأحوال المختلفة لهذه الظاهرة أو لقانونها .

فإذا لاحظنا مثلا أن حجراً يسقط على الأرض على بعد معين ، وفرضنا أننا زدنا فى بعد هذا الحجر حتى أصبح على بعد القمر من الأرض وزدنا فى حجمه حتى أصبح فى حجم القمر . فإن هذا التصور يؤدى بنا مباشرة إلى تصور سقوط القمر نحو الأرض ، فإذا تصورنا بعد ذلك أن القمر ذاته يكبر تدريجيا حتى يصل إلى حجم الأرض ، فإنا سنلاحظ أولا أن كبره هذا لم يمنع من سقوطه ، ونستنتج ثانيا أن الأرض متجهة هى أيضا نحو القمر ، أى أن الجاذبية متبادلة ، وإذا استمر الذهن فى هذه الحركة العقلية بما فيها من تغييرات متصلة فى الظواهر ، فسيرى أن الأرض والقمر مكونتان من حجارة وأن مكوناتها فى جاذبية مستمرة متبادلة .

ويلاحظ ـ من ناحية أخرى ـ أنهما لا يختلفان جوهريا عن الأجسام الأخرى المكونة للنظام الفلكى العام ، وأن حركة كوكب معين لا تختلف كثيراً عن حركة مقذوف أياً كان ، وعجلة هذه الحركة متوقفة بطبيعتها على بعد الكواكب عن الشمس ، إذ هى ككل عجلة متوقفة على المسافة ، من كل ذلك نستنتج أن تغييرنا المتصل للظواهر وانتقالنا شيئاً فشيئاً بواسطة البرهان التمثيلى يوصلنا إلى قانون الجاذبية العام ، أى أن العقل ـ بواسطة تجريب عقلى سابق على التجارب العملية ـ يوسع حدود الفرض ، وإن لم يصل إلى تحقيقه تحقيقاً تاما .

والمظهر الثاني، هو التجريب العقلي بالخلف؛ وقد رجع إليه جاليليو بصدد قانونه الخاص بسقوط الأجسام. فهو قد فكر قبل أن يصل إلى هذا القانون في أنه لو كان صحيحاً أن الأجسام الأكثر ثقلا تسقط بسرعة أكبر من غيرها، لاضطررنا إلى قبول النتيجة التالية: لنربط مثلا جسما ثقيلا بجسم خفيف، فنسلم بمقتضى الفرض السابق بأن الجسم المكون من الاثنين يسقط ببطء، ما دام الجسم الثقيل قد يبطىء في السقوط بسبب الخفيف. ولكننا نرى مباشرة أن قضيتنا الأخيرة متناقضة مع نفسها إذ أن الجسمين المكونين للجسم الساقط أثقل من الجسم الثقيل ذاته الذي يسقط بسرعة مفروض فيها أنها أكبر من سرعة الجسم الخفيف.

أما المظهر الثالث فهو مظهر الحذف التجريبي: فقد يمكن — بواسطة الفكر فقط — تخفيف أو إضعاف أو حذف عنصر أو عدة عناصر لها تأثير هام في الظواهر التي ندرسها، مع تصور أن العناصر والظروف الأخرى تعمل وحدها في الظاهر، والواقع أن التخفيف والحذف لبعض العناصر والظروف التي تحيط بالظاهرة لا يمكن تطبيقه عملياً، فلو تصورنا مثلا أن احتكاك جسم متحرك على سطح أفقي يخف شيئاً فشيئاً حتى ينعدم، فنتصل من هذا التصور إلى أن نتمثل جسما متحركا بحركة منتظمة دون أية مقاومة خارجية، والحقيقة أن هذه الحالة التي نتصورها لا تحصل تماما في الواقع التجريبي؛ ولكن هذا التصور ذاته هو الذي ساعد جاليليو على التحقق من قانون القصور الذاتي الذي يقول: «لا يمكن لجسم أن يغير شيئاً في حالته ساكناً كان أم متحركا ما لم يقع تحت تأثير قوة جديدة».

هذه هي مظاهر ثلاثة للتجريب النظري، يظهر فيها إمكان الاستغناء عن التجريب العملي، ولكن هناك أحوالا أخرى لا تغنينا عن التجريب العملي بل تعد الطريق لهذا التجريب، ولا يتسع المقام لذكر أمثلة عنها.

٢ — أما التحقيق العملي، فله أيضاً طرائق ثلاث: أولاها، الطريقة المباشرة، وظاهر من اسمها أنها تفسر العلاقات العلية بين الظواهر المشاهدة أو التي تخضع للتجربة، وتدخل قواعد (مل) الخمسة ضمن هذه الطريقة:

وأول قاعدة من قواعد مل، هي «قاعدة الاتفاق»، وتتلخص في أنه إذا كان هناك عامل مشترك بين حالتين أو أكثر لظاهرة معينة، فإنه يعتبر بمثابة العلة أو المعلول لهذه الظاهرة: فإذا مرض سكان قرية ما بمرض البلهارسيا مثلا، وأراد الأطباء أن يعرفوا علة هذا المرض، فعليهم أن يبحثوا كل الظواهر التي سبقت حدوثه، كلبس نوع معين من الملابس

مثلا أو أكل نوع معين من الطعام أو شرب ماء معين ، فإذا وجدوا أن المرضى لم يشتركوا إلا فى شرب نوع معين من الماء عرفوا بذلك علة المرض ، وهذا المثل يضرب للبحث عن العلة . ولا بأس من أن نذكر مثلا يضرب للكشف عن معلول فيما يأتى : إذا أرادت حكومة أن تلغى البغاء مثلا ، فعليها قبل أن تقدم على هذا العمل أن تفحص جميع اللواحق التى اتفق وقوعها فى جميع الحالات التى ألغى فيها البغاء فى بلاد أخرى : هل زادت منازل الدعارة السرية ؟ أم كثر الإقبال على الزواج ؟ فإذا تبين لنا أن الإلغاء تلاه فى بلد ما ازدياد منازل الدعارة السرية ولكن صحبته مع ذلك كثرة الإقبال على الزواج ، وأنه فى بلد آخر تلاه قلة انتشار الأمراض السرية وصحبته أيضاً كثرة الإقبال على الزواج ، من ذلك نستطيع أن نستنبط النتيجة التى يؤدى إليها إلغاء البغاء وهى كثرة الإقبال على الزواج لأنه قد ازداد فى كل مرة . . . ويتضح مما ذكرنا من أمثلة أن أساس هذه القاعدة هو فى وجود الظاهرة والعامل المشترك الذى يسمى علة أو معلول تلك الظاهرة ، ولكن هذه القاعدة ليست عامة مطردة فى كل زمان ومكان ، ولا تعطينا صورة منطقية توصلنا إلى قانون حاسم ، فن الصعب وجود ظواهر مختلفة تتفق فيما بينها فى صفة واحدة فقط تعد بمثابة العلاقة العلية بينها .

والقاعدة الثانية من قواعد مل هى « قاعدة الاختلاف » ، وهى عكس القاعدة الأولى فالحالتان هنا تشتركان فيما بينهما فى كل العوامل ما عدا عامل واحد يظهر فقط فى إحداها ولا يظهر فى الأخرى ويعد علة أو معلول الظاهرة التى لدينا .

أما القاعدة الثالثة فتجمع بين القاعدتين السابق ذكرهما ويتضح ذلك من اسمها وهو « المنهج المركب من الاتفاق والاختلاف » . وتتلخص فى أنه إذا وجد عامل مشترك بين حالتين ، وتخلف هذا العامل ذاته من حالتين أخريين ؛ فإن هذا العامل يعد علة أو معلول الظاهرة . فثلا إذا تغيب طالب عن حضور درس معين ثم رسب فى الامتحان ، فقد يظن أن السبب فى رسوبه هو عدم حضوره هذا الدرس ، وإذا عرف أن كل من حضر هذا الدرس نجح فى الامتحان ازداد يقينه ، وإذا عرف أيضاً أن كل من لم يحضر هذا الدرس قد رسب ازداد يقينه أكثر ونسب رسوبه إلى عدم حضور الدرس . فإذا وقع المقدم يقع التالى والعكس صحيح .

أما القاعدة الرابعة فهى « قاعدة البواقى » ، وتتلخص فى أننا إذا حذفنا من ظاهرة الجزء الذى عرف عن طريق استقراءات سابقة أنه المعلول لمقدمات معينة فإن بقية هذه الظاهرة

تكون معلولة لبقية المقدمات ، فإذا قذف مدفع طلقة إلى مسافة ألف متر ثم ركبت ماكينة أخرى فزاد بذلك بعد الطلقة مائة متر ، فعرف من ذلك أن الفرق بين قوتى الماكينتين هو علة المسافة مائة متر التي زادتها الطلقة .

أما القاعدة الخامسة والأخيرة فهى « قاعدة التغير النسبي » ، وفكرتها الرئيسية هى أنه بين أية ظاهرتين إحداهما علة والأخرى معلول تلازم ، بحيث أن أى تغير فى العلة يستلزم تغيراً موازياً له فى المعلول . فمثلا إذا لاحظنا أن جو حجرة الدراسة التي فتحت نوافذها بارد ، ثم لاحظنا أنه بعد قفل نافذة صار الجو دافئاً قليلا ، وبعد قفل نافذة أخرى ازداد الجو دفئاً ، وهكذا أمكننا أن نستنبط أن النوافذ المفتوحة هي علة ازدياد البرودة . وهذه القاعدة ـ كما يتضح من المثال ـ عبارة عن قانون الاستنباط الذى بمقتضاه نحكم بأن حادثة معينة علة فى وقوع أخرى لأنهما متلازمتان فى التغير .

هذه بالإجمال قواعد العلامة مِل في تحقيق الفروض ، وهى لا تكفى فى إثبات وتحقيق جميع الفروض ، فهى تقوم على وجود علاقة علية بين الظواهر التي نشاهدها أو تجرى عليها التجارب ، أما إذا جهلنا العلة الواقعة بين الظواهر التي لدينا فإننا لا نستطيع أن نحقق لنا الفرض ، وبذلك يتحتم الالتجاء إلى : ـ

الطريقة الثانية من طرق التحقيق العملى ، وهى الطريقة غير المباشرة ، وهذه تفترض وجود علاقة علية بين حالتين أو جملة حالات ، وبناء على هذا الفرض نستنتج النتائج ، فإن قابلت حقائق صحيحة أيقنا بصحة الفرض وإلا فلنلجأ إلى فرض آخر .

أما الطريقة الثالثة فهى عبارة عن شكلين عامين يذكرهما العلامة لالاند ، وأولهما ، الطريقة السلبية أو منهج الحذف : وتتلخص فى أنه إذا بقى لدى العالم عدد معين من الفروض بعد نقد سابق ، فليكوّن منها قائمة ، ثم يقوم بحذف الفروض التي تناقض التجارب التي يقوم بها للتحقيق . فلا يقبل فرض يعارض القول بأن الضوء ينتشر بسرعة أكبر من سرعة الصوت فى الانتشار . وثانيهما الطريقة الإيجابية وهى تثبت صحة الفرض بنجاحه فى أحوال مختلفة كل الاختلاف ومتباعدة كل البعد كما وكيفاً عن الأحوال التي وجهتنا نحو الفرض ، أى أن العالم الذى يريد تحقيق فرض معين يطبقه عملياً فى أحوال مختلفة كل الاختلاف عن الحالة التي بدأ بها العالم الذى فكر فى الفرض ، ويجمع نتائج هذه التطبيقات ويقابلها بالفرض الذى لديه ليرى مبلغ اتفاقها أو مبلغ اختلافها ، وبعبارة أخرى يرى مدى اتفاق العمليات الرياضية المجردة مع تجارب المعمل .

صبحى زاهر



لا يوجد بحث من البحوث التى تشغل بال الاجتماع وتحتل عقول المصلحين أكثر أهمية ، ولا أدخل فى باب الحداثة ، ولا أشد تعقداً ، ولا أعظم ـ بالتالى ـ فوزاً بالصدارة من بحث العلاقة بين العلم والدين . ومأتى ذلك هو أن العلم ـ منذ أن فاز بحريته فى فجر النهضة الحديثة ـ قد أصبح يزعم لنفسه المقدرة على فرض سلطانه المطلق على العقول والأجسام ، بينما يهدف الدين ـ منذ أول عهده بالبشرية ـ إلى سيادة سلطته الروحية وإلى قيادة الحياة العملية فى الأمم وإرشادها إلى سبل الهدى والسعادة . ولا جرم أن هوة الخلاف بين المعسكرين قد اتسعت أرجاؤها إلى حد أن عدداً كبيراً من العلماء العصريين قد وضعوا نصب أعينهم تجاهل كل التعاليم الدينية التى تبتعد عن التجارب العملية ولا تسترشد بهدى الأقيسة الموضوعية الخاضعة للمناهج العلمية الحديثة .

ولما لم تؤد هذه الخطة التى سلكها العلماء المحدثون إلى إسعاد الإنسانية ، بل بالعكس قد انتهت بها إلى فقدان التوازن الروحانى من جهة ، ولما كان باب النقاش فى هذه النظرية لايزال مفتوحاً على مصراعيه من جهة ثانية ، وكانت العقول المثقفة المتزنة لا تزال تنتظر لها حلا مقنعاً يحقق السعادة الإنسانية من جهة ثالثة ، فقد حاولنا منذ أعوام أن نعالج موضوع الصلة بين الدين والعلم على صفحات هذه المجلة موجزين آراء علية المفكرين الذين عنوا بدراسة هذه المشكلة ومجهوداتهم التى بذلوها للتوفيق بين العلم والدين ، أو لتضييق هوة الخلاف بينهما ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، لكى تكون دراستنا علمية مؤسسة على دعائم التطور التاريخى المألوف .

وبهذه المناسبة لا يسعنا إلا أن نتقدم إلى قرائنا الأعزاء الذين رافقناهم على صفحات هذه المجلة زهاء ثلاثة عشر عاما ، ثم احتجبنا عنهم بغتة معتذرين إليهم بأن ظروفاً ملتوية تختلف مع طبيعتنا قد أحاطت بالمجلة فجعلتنا نقطع صلتنا بها راضين عن أنفسنا مطمئنين

إلى مبادئنا . والآن نعود إلى وصل ما انقطع محاولين الإحاطة بهذه المشكلة من جميع جوانبها بقدر الإمكان . وإليك البيان :

ألممنا فى الفصول السالفة من هذا البحث بآراء « ديكارت » ممثلة للقرن السابع عشر ثم بآراء « جون لوك » و « جان جاك رسو » معبرة عن أكثر تفكير القرن الثامن عشر . واليوم نستأنف الحديث عن ناحية أخرى من ذلك العصر المذكور وهى آراء « كانت » Kant التى يعثر عليها الباحث فيما يسميه مؤرخو الحركة العقلية : « ثورة كانت الفلسفية » .

ومجمل هذه الآراء أن « كانت » يزعم أنه عندما نظر فى فلسفة القرن السابع عشر هاله ما هوى فيه العقل البشرى من تناقض واضطراب حينما جعل يحاول حل معضلتى وجود الإله وكنه النفس البشرية . ومن دلائل ذلك عنده تناقض بعض الفلاسفة العقليين مع البعض الآخر ، بل تناقضهم مع أنفسهم ، وهو ينتهى فى آخر هذه الدعوى إلى تقرير أنه ينبذ ذلك المبدأ الشهير الذى ساد القرن السابع عشر كله ، وهو القول بأن فى مكنة العقل أن يدرك الموجود فى ذاته ، وبالتالى هو يستطيع - فى غير تجربة عملية - أن يصل إلى المعرفة المطلقة ، وأنه يستطيع فى سهولة أن يتحدث بيقين عن الموجود اللامحس ، وأن يقيم الدليل القاطع على وجوده عن غير طريق الواقع المشاهد ، وأنه لابد من وجود نوعين من العلم يسيران متوازيين جنباً إلى جنب ، أحدهما العلم الطبيعى الذى يشتغل بالظواهر المادية ، والآخر العلم الأعلى الذى موضوعه ما فوق الحس أو ما بعد الطبيعة ، ومعنى هذا أن غايتى العلمين مختلفتان ، وليستا متعارضتين . وذلك كله باطل من أساسه .

حقا إن النظرة العاجلة فى النقد الذى وجهه « كانت » إلى تراث ما بعد الطبيعة أو إلى ما يسميه هو بالميتافيزيكا التقليدية ولا سيما منها براهين وجود الإله والحياة الأخرى من شأنها أن تلقى فى روع الباحث الحكم على العقل بالعجز والقصور البالغين ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، إذ أنه لم يحتقر العقل إلى هذا الحد ، وإنما أراد - فيما يزعم - أن يعيد إليه سلطانه الحقيقى على صورة جديدة يمكن أن نجملها فيما يلى :

يؤمن كانت بوجود العالم الخارجى حق الإيمان ، وهو فى الوقت عينه يقرر أن هناك موجودات فى ذاتها ، ولكنها غير قابلة للمعرفة بالنسبة لنا ، ويمكن أن يطلق عليها اسم « نومينون Nouménon » وهى نفس الكلمة الإغريقية « نومينا Nooumena » التى كان أفلاطون يطلقها على « المثل » .

على أنه لكى تتحقق معرفتنا بالعالم الخارجى يجب أن يخضع العقل البشرى ذلك العالم لقوانينه الخاصة حتى يبدو لنا فى صور ظواهر وأحداث : « فينومين Phanomen » وحينئذ يصير العقل سلطة تشريعية يذعن لقوانينها كل ما من شأنه أن يكون موضوعاً للمعرفة . وعلى هذا النحو هو يعترف للعلم باليقين ما دام أن المعلوم لا يخرج عن نطاق التجربة .

بيد أن العقل الإنسانى بفطرته طموح يتطلع إلى ما هو أسمى من ذلك فيرنو - فى شغف مشروع - إلى ما وراء استقرار قوانين الطبيعة وما فوق معرفة الظواهر الحسية فيدرك فكراً من عالم الموجود فى ذاته كفكرة النفس وفكرة الكون وفكرة الإله التى هى ماثلة الحقائق أقصى آواج المعقولية .

على أنه إذا كان فى مقدور أدوات العقل البشرى شرح الظواهر المادية وتعليلها ، فإن الذى لا ريب فيه أن الشأن ليس كذلك عند ما يتعلق الأمر بالنظر فى « الموجود فى ذاته » أى الموجود الذى لا يخضع للتجربة كجوهرية النفس وبساطتها ، أو كنشأ الكون ، أو كالاستدلال على وجود الإله ، إذ أن جميع المحاولات التى عالجت أمثال هذه الجوانب عن طريق العقل عندما ينعم المرء فيها نظره فى شىء من الدقة يلفى أنها مشتملة على متناقضات لا يمكن قبولها ، أو متعارضات بدون حلول أو ضعف فى الأسانيد المؤيدة على أقل تقدير .

من هذا كله يتبين إجمالا أن العقل يستطيع أن يصل إلى العلم اليقينى فى كل ما ينحصر فى منطقة التجربة وأنه منعطف بطبعه إلى إدراك وجود حقائق أخرى أسمى من عالم الحس ، وهى غير قابلة لموضوعية العلم ، بل هى قابلة لموضوعية الإيمان المشروع الذى يهدف إلى غاية أخرى مغايرة لغاية المعرفة النظرية التى لا تلحق إلا موضوع العلم فى نظره كانت ، وإذن فيجب على الميتافيزيكية أن تقنع بدورها الحقيقى وأن تتواضع فتدرك منزلتها الصحيحة وأن تقدر مهمتها الطبيعية حق قدرها ، فبدلا من أن تتعقب غاية مستحيلة بالنسبة لها ، وهى محاولة مد سلطان العلم إلى ما وراء التجربة الحسية ، يكون حسبها أن تقف به عند حدود التجربات التى هى حدود المقدرة البشرية ؛ وبهذا الاتجاه تصبح الميتافيزيكية عملية منتجة لا نظرية مجردة . وعلى هذا النحو لا يفوتها شىء مما هو ضرورى للمعرفة أو للحياة ، لأن من الخطل أن تتعلق بما يتجاوز حدود معرفتنا طمعاً فى أن ينظم هذا المجهول - المستعصى

علينا فهمه — سلوكنا . ولهذا كان من العبث أن نجعل يقيننا بالحياة الأخرى هو الحامل لنا على التمسك بالفضيلة ، أو أن نتخذ عدم قابلية النفس للفناء حافزاً لنا على العمل أملا فى جزاء الخير ، لأن ما لا يدخل فى نطاق التجربة لا يصلح لأن يدفع إلى تنظيم سلوك الحياة الواقعية مستنداً إلى تعليل نظرى .

والحق بإزاء هذه المعضلة أن القلب هو الذى يقود العقل فيها فيفرض عليه بديها أن أداة المعرفة هنا عاجزة معدومة الفائدة لقصورها ، بل لعجزها ، وأن أواس القانون الخلق التى تنظم الحياة وتقوم السلوك وتدفع إلى الفضائل هى مستقرة فى أعماق النفس الإنسانية ، وأنها ، تنبثق منها عند الحاجة ، أى قبل الحكم على أى عمل بله الشروع فيه ، وأنها — فيما يبدو — هى التى تحدد منزلة كل فرد فى الحياة الأخرى .

على هذا النحو كان ، كانت ، يعتقد أنه من الممكن التخلى عن الميتافيزيكية التقليدية دون أدنى عدوان على الفضيلة الخلقية والدينية التى كان يضعها فوق كل اعتبار . ولا جرم أن أبرز نواحى مذهب ، كانت ، فى هذه المشكلة هى إعتماده على الفرق الواضح الذى يلح عليه بين العلم التجريبى والعقيدة التسليمية ، فهو يصرح بأن الأول يبحث عن معارف حقيقية مؤسسة على أدلة يقينية غير قابلة للاعتراض ، بينما أن الثانية تعتمد على إيمان بسيط وتسليم أبسط ، وأن ظلمة المشكلات وتعقدها والضرورة الملحة على وجوب الاختيار السريع والتصميم الحاسم ، كل هذه العوامل تخلق من الإيمان التسليمى البسيط شيئاً لا نلبث أن نتخذه مبدأ لأحكامنا ثم لسلوكنا . على أن هذا المبدأ ليس تافهاً أو خفيف الوزن ، وإنما هو مؤسس على الرجحان ، أوله ما يبرره من شهادة شخصية جديرة بالتصديق . وإذن فلا يمكن استبعاد العقائد الدينية بحجة أنها مؤسسة على إيمان تسليمى إذ أن تلك العقائد لها ما يبررها من اليقين بأحقية الإله نفسه .

وإذن فلو أن المرء دقق النظر فى معتقداته وعنى بفحصها عناية فائقة فلم يحتفظ منها إلا بما هو من الوحى الإلهى حقاً ، وبذل جهده فى اقتناص المعانى الحقيقية لهذه الموحيات لصارت العقيدة الدينية مبدأ من مبادئ اليقين الذى لا يقل عن العلم بأكل ما فى هذه الكلمة من معان .

وعلى هذا الأساس استطاع « كانت » أن يجد فى اختصاصات العقل جميع الشرائط الأساسية للعلم والدين . فأما العلم فبادئه مستقرة فى العقل حينما يكون نظريا ، إذ هو فى هذه الحالة يؤلف دعائم العلم مطبقاً على العالم الحسى التجريبى قوانينه التى تصيّر ذلك العالم قابلا للمعرفة ، وهى معانى الزمان والمكان والعلية .

بيد أن هذا العقل لا يستمر دائماً نظريا ، وإنما يكون أحيانا عمليا إنشائياً فلا يكتفى بشرح العالم الخارجى وتحليل ظواهره وأحداثه ، وإنما هو يود أن يعمل عملا منتجاً ، وهذا العمل محتاج إلى قواعد تنظمه وتنسقه ، وفى هذه الحالة الأخيرة يبرز العقل أقصى ما يشتمل عليه من عناصر . وإذ ذاك يجب أن ننبه على امتداد سلطانه حتى يلحق بالغاية الأخرى المؤسسة على الإيمان والتى باجتماعها مع العلم تحقق أسمى وظائف العقل .

وإذا كانت طبيعة تكويننا تقضى علينا بضرورة وجود بعض المبادئ لإمكان تنظيم سلوكنا ، فإنه يجب علينا أن نقبل هذه المبادئ الإلهية المنظمة كحقائق حتمية ، وتلك هى المبادئ الميتافيزيكية كالألوهية وحرية الاختيار وخلود النفس وما شاكل ذلك . ولكن قبولنا هذه المبادئ هو على معنى أنها عملية خلقية لا علمية ولا نظرية . وإذن فالعقيدة على هذا الاتجاه « الكنتى » شىء لابد منه لتحقيق المبادئ الخلقية التى لا نستطيع التدليل على صحتها علميا ، لشذوذها عن قواعد التجارب الحسية كما أسلفنا .

وأخيراً نستطيع أن نجمل مذهب « كانت » فى : أن العقل يكون نظريا وعملياً حسب اختصاص اتجاهه . فإذا كان هدفه التعقل والفهم كان نظريا ، وإذا كانت غايته التنظيم الخلقى كان عمليا ؛ وثمرة الحالة الأولى العلم ، وثمرة الثانية الأخلاق . ومن هذه الحالة الأخيرة تنبثق العقيدة ، وكل من هذين الاتجاهين مستقل عن الآخر تمام الاستقلال ولكنهما متصلان فيما بينهما عن طريق ذلك الرابط العام المشترك وهو العقل .

الدكتور محمد غلاب

تصحيح

وقع فى الجزء الماضى خطأ فى ترتيب صفحتين من المجلة . فالصفحة التى رقمها ٨٧٩ وأولها « ورسولا منهم » كان ينبغى أن يكون رقمها ٨٧٨ بدلا من الصفحة التى قبلها وصواب ترقيمها ٨٧٩

الكتب

التفسير الواضح — للأستاذ محمد محمود حجازى

إن الجمهور المثقف من المسلمين يحتاج فى كل عصر إلى تفسير لكتاب الله يقتصر فيه على ما ييسر للمسلم فهم آياته للاهتداء بها فيما نزلت له . وفى مختلف عصور الإسلام كان العلماء يقومون بهذه المهمة ، كما فعل الجلال المحلى ثم الجلال السيوطى فى إخراج تفسيرهما اللطيف المنسوب إليهما . وقد تصدى لأداء مثل هذه المهمة الإسلامية لشبابنا الآن فضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمود حجازى ، فأخذ يصدر (التفسير الواضح) فى أجزاء متتابعة كتب الله لها القبول عند من ألف هذا التفسير لهم ، حتى إن بعض أجزائه أعيد طبعها والكتاب لا يزال فى إبان تأليفه ونشره . وطريقة المؤلف فيه أن يأتى ببضع آيات متناسقة يتم بها المعنى ، فيتخير لمعناها عنواناً ، ويجعل الآيات بحروف جلية وبالشكل الكامل ، ثم يتبعها بتفسير مفرداتها تفسيراً لغويا مشفوعا بالمراد بها فى الآية ، ويعقبه بإيراد المعنى الإجمالى للآيات بعبارة وجيزة واضحة . وقد يتخلل ذلك ذكر المناسبة وسبب النزول ، وأحيانا يتعرض لمواضع العظة من قصص القرآن وأمثاله .

وأجزاء التفسير يقع الواحد منها بين ٨٠ صفحة و ١٠٠ ، وذلك مما يسهل على الشبان قراءة الجزء والإفادة منه إلى أن يصدر الجزء الذى يليه .

وقد صدر إلى الآن أحد عشر جزءاً من التفسير الواضح بلغ بها المؤلف إلى آخر سورة يونس . فنرجو له من الله دوام التوفيق فى هذا وغيره من الأعمال العلمية الإسلامية .

الرسالة المحمدية — لعلامة الهند السيد سليمان الندوى

نشرها المركز العام للإخوان المسلمين — ١٨٤ ص — بالمطبعة السلفية

كانت جامعة مدراس الهندوكية فى الهند قد أباحت منبرها لبعض كبار علماء الديانة المسيحية ليحاضروا الطلبة من كل المذاهب والأديان فى بيان الأسس التى تقوم عليها رسالتهم

الدينية . ولما انتهوا من ذلك اقترح الطلبة المسلمون فى تلك الجامعة على رؤسائهم أن يأذنوا لهم بدعوة أحد علماء المسلمين ليحاضر الطلبة بمثل ذلك عن رسالة الإسلام .

وبالفعل دعوا لذلك علامة مسلمى الهند السيد سليمان الندوى أمتع الله الإنسانية بفضله وسعة معارفه ، فألقى من منبر تلك الجامعة الشهيرة ثمانى محاضرات عن الرسالة المحمدية أدارها على معانى تناولها حقها غيره من ألوف المصنفين فى السيرة المحمدية بمختلف اللغات . ومن ذلك إعلانه امتياز هذه السيرة بأنها هى السيرة الوحيدة التى يجوز وصفها بأنها « تاريخية » ليصح الاقتداء بها واتخاذها أسوة فى الحياة ، بينما سير مؤسسى الديانات الأخرى لا يكاد يعرف عنها التاريخ إلا النزر القليل مما لا يتم به التأسى والاقتداء .

ومنها أن الرسالة المحمدية هى العامة الخالدة ، ولذلك جاءت بشرائع ثابتة للإنسانية كلها فى كل زمان ومكان ، بينما الرسالات الإلهية الأخرى جاءت مختصة بعصر واحد من العصور ، أو بعنصر واحد من عناصر الناس ، فانتهت مهمتها بانقضاء زمانها ، أو انحصرت بالعنصر الذى اختصت به .

ومنها أن السيرة المحمدية : هى المعلومة للناس بكمالها وتمامها وشمولها من ميلاد صاحبها إلى أن اختاره الله اليه ، فلم يخف شىء من دخائلها عن أعداء صاحب هذه الدعوة ولا عن أوليائه .

ومنها أن حياة محمد ﷺ جمعت كل ما تفرق فى الأنبياء مما امتازوا به ، لأن ما أعطاه الله لرسله جميعا متفرقين ، قد أوتيه محمد صلى الله عليه وسلم وحده . وقد أورد السيد سليمان الندوى الشواهد والمقارنات التاريخية فى هذا الباب ، واستعرض مدرسة محمد ﷺ وبين كيف كانت جامعة للطوائف والطبقات وأجناس الأمم ، وبرهن على أن محمد صلى الله عليه وسلم هو المصلح الأخير للإنسانية ، وأن العالم لا تتم هدايته إلا بهذا المصلح الأخير .

ثم تكلم على الناحية العملية فى السيرة المحمدية ، فبين أن الأنبياء والمصلحين من الساميين أو من أهل المشرق البعيد كانوا يبثون رسالاتهم لأممهم بلسانهم ، فأدوا عن الله رسالاته . غير أنهم لم تتح لهم فرصة التعبير عن رسالات الله بالعمل والتطبيق كما أتيحت لمحمد ﷺ . وقدم المحاضر براهين ذلك من تاريخ الأنبياء ، ومؤسسى الديانات ، بأمثلة لا تقبل المراء أو الجدل .

وكانت خاتمة محاضراته تبياناً لأسباب فساد الديانات القديمة وكيف تطرق إليها الباطل من ناحية تشبيه الله بالبشر وتأليه البشر بسبب ذلك ، أو من ناحية تجسيم الصفات الإلهية والرمز لكل صفة بوثن من الأوثان ، فنشأت عن هذين الأمرين عبادة البشر وعبادة الأوثان . وكيف أن الإسلام وحده هو الذى جاء بتوحيد الله فى أسمائه الحسنى وصفاته العليا وأنه ليس كمثله شىء ، فلم يعرف التاريخ الإنسانى دعوة قضت على عبادة البشر وعلى عبادة المخلوقات - بحجة أنها رموز للإله - كما قضت على ذلك رسالة الإسلام بأصرح بيان وأقوى حجة .

إن لغات البشر كلها حافلة بألوف الكتب فى السيرة المحمدية ، ولكن محاضرات السيد سليمان الندوى هذه عنيت بهذه النواحى بأكثر مما نجده فى أى كتاب آخر . وكان قد ألقاها باللغة الأوردية ونشرت بها كما نشرت ترجمتها الإنجليزية . فلما وفد على كراتشى فى العام الماضى وفد من الإخوان المسلمين فى القاهرة للاشتراك فى المؤتمر الإسلامى حظى أعضاؤه بزيارة هذا الإمام العلامة الكبير وطلبوا منه هدية إلى شباب المسلمين فى مصر والوطن العربى ، فأهدى إليهم هذه المحاضرات النفيسة مترجمة بالعربية ليقوم المركز العام للإخوان المسلمين بنشرها فى مصر وجميع أقطار العروبة .

وقد ناط المركز العام للإخوان المسلمين برئيس تحرير هذه المجلة كتابة مقدمة لهذا الكتاب والتعريف به وبمصنفه العلامة الكبير ، والإشراف على طبعه ، فتم طبعه فى هذه الأيام بلغة عربية فصحى زادت فى محاسن الكتاب . فنحث قراء العربية جميعاً على تدبر ما جاء فيه من الحقائق الناصعة وإطالة النظر فيها ، فإنها جديرة منهم بذلك .

الأموال ونظرية العقد فى الفقه الاسلامى

للدكتور محمد يوسف موسى — ٥٢٤ ص قالبين — نشرته دار الكتب الحديثة

يقول الدكتور المؤلف فى مقدمة كتابه هذا : إذا كان لكل قانون ، سماوى أو وضعى ، طبيعته وسماته وخصائصه التى يتميز بها عن غيره من القوانين ، فان الفقه الإسلامى من هذا كله ما يجعله بحق ضرباً فريداً من التشريعات والقوانين التى عرفها العالم حتى الآن ، سواء من ناحية الأسس التى قام عليها ، والمقاصد والغايات التى استهدفها ، والأحكام والحلول التى جاء بها على مر العصور .

وموضوع « الأموال ونظرية العقد » هو الذى يعرف فى كتب الفقه بالمعاملات ، وقد ألف المؤلف كتابه هذا لطلبة كلية الحقوق بالجامعة ، وسيستفيد من ذلك بالعرض جميع الذين يعنيهم دراسة الفقه الإسلامى من مراجعه الأصيلة ، وقد امتاز الكتاب بصفة خاصة بالمقارنة بين آراء الفقهاء المسلمين من مختلف المذاهب ، ثم بالمقارنة بين هذه الآراء والمذاهب وما جاء فى القانون المصرى الحديث ، عند ما يتطلب الأمر وموضوع البحث هذه المقارنة.

والفقه الإسلامى هو فقه السواد الأعظم من الأمة المصرية ، وإن ٩٢ فى المائة من هذه الأمة يؤمنون بأن هذا الفقه هو تشريعهم الأصيل ، وكل ما عداه أجنبى عنهم ، وكما يرون أنه فقههم الذى اطمأنوا إليه وتعاملوا به مدة ثلاثة عشر قرنا وأكثر ، يرون كذلك أنه هو الأليق بهم والأنفع لهم واللائق بمجتمعهم ، وزيادة على ذلك فإن إحياءه والتعامل به يعدونه دينا ، ويعتقدون أنهم يثابون عليه كما يثابون على العبادة ، وبعكس ذلك يعتبرون إهماله وتضييعه والتنكر له جريمة يعاقبهم الله عليها . لذلك كان مما يسر له المصريون عناية علمائنا بالفقه الإسلامى تدريساً وتأليفاً وبحثاً ، وحسن عرضه فى مؤلفات تقطع الحجة على كل من يساهم فى تعطيله وإحلال الفقه الأجنبى فى محله من المجتمع المصرى.

ويقول الدكتور المؤلف فى مقدمة هذا الكتاب : « وفى الفقه الإسلامى ثروة ضخمة من التشريعات العديدة التى تتناول الفرد ، والمجتمع ، والدولة ـ من النواحى المختلفة ـ بل تتناول أيضاً العلاقات الدولية بين الأمم جميعاً . ولن يستطيع أن يقف على مبلغ هذه الثروة من قصر نفسه على مذهب واحد من مذاهب الفقه لا يعدوه إلى غيره ، بل يجد تجاوزه غير جائز له ما دام قد التزمه مذهباً له » .

والكتاب فى ثلاثة أقسام : أولها المدخل لدراسة الفقه وفلسفته ، ذكر فيها نشأته وتدرجه وأدواره والمذاهب الفقهية المهمة ، وأصول الفقه ومصادره ، وطبيعة الفقه الإسلامى وخصائصه . والقسم الثانى فى الأموال ، وفيه تعريف المال والملك وتقسيمهما وحقوق المنفعة والارتفاق ، والأسباب الناقلة للملكية . والقسم الثالث فى نظرية العقد وتكوينه وشروطه وأقسامه وانتهائه .

وكان المؤلف على نية الكتابة بإيجاز على العقود عقداً عقداً ، كالبيع والإجارة والرهن والعارية وغيرها ، لكنه عدل عن ذلك اكتفاء بما كتبه عنها فى أثناء بحث نظرية العقد وقد جاء كتابه فى ٥٢٤ صفحة مستوفياً لما أراده منه ، وسيفيد منه طلبة كليات الحقوق ومن فى درجتهم من المثقفين فائدة تخطو بهم خطوات للاستقلال فى البحث والاستئناس باتجاهات الفقه الإسلامى .

خلاصة تاريخ تونس

نشرته دار الكتب الشرقية بتونس — ٢٠٠ صفحة

هو مختصر مدرسي للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب يشمل حوادث القطر التونسي من أقدم العصور إلى الزمان الحاضر . وكان قد طبع قبل الآن مرتين فأعيد الآن طبعه للمرة الثالثة بعد أن أصلح فيه المؤلف ما تعين إصلاحه ، وحور البعض ، وأضاف إليه فقرات وفصولا وخرائط جغرافية رجاء أن يزداد الكتاب بذلك شرحاً وإيضاحاً .

ومثل هذه الكتب في التعريف بالأقطار الإسلامية وأجزاء الوطن العربي مما يعين على تعارف المسلمين والإلمام بأحوال أوطانهم ليتم بذلك شعورهم جميعاً بأنهم أمة واحدة . وللمؤلف تاريخ آخر لتونس مبسوط يعنى بجمعه وتأليفه منذ أحقاب ، فعساه يبادر إلى نشره ليعم النفع به .

ديوان ابن حيوس

نشره المجمع العلمي العربي - بتحقيق خليل مردم بك - في مجلدين ٧٥٠ صفحة قالبين

الأمير أبو الفتيان محمد بن سلطان المشهور بابن حيوس الغنوي الدمشقي (٣٩٤-٤٧٣) من أعلام الشعر العربي ، وكان شاعر الشام في عهد الدولة الفاطمية في القرن الخامس ، عاصر أبا العلاء المعري ، وكان جده الهيثم بن عثمان الغنوي من قواد المعتصم ومن الرؤساء الذين مدحهم البحتري . ونشأ ابن حيوس من أول شبابه جامعاً إلى وجاهته وثرائه واتصاله بالولاة والحكام ، الميل إلى الفصاحة والجزالة والارتياح إلى نظم الشعر ، فنحا منحى أبي تمام في الصنعة اللفظية والغوص على المعاني ، كما ذهب مذهب البحتري في استواء الشعر وعدم التفاوت وطول النفس . ويعاب عليه انزلاقه في مناصرة ولاة الفاطميين والتحامل على خصومهم ، فاضطر على سنيته - إلى مجاملة الباطنيين وأتهم بما لا يجوز صدوره عن مسلم ، ولا يليق إلا بمثل ابن هانىء . وقد عاقبه الله على ذلك ، وعلى تهوينه من شأن قومه العرب إرضاء لمثل انوشتكين الدزبري ، بأن دالت دولة هؤلاء وهؤلاء ففقد ما كانت تملك يداه ، وأراد أن يذهب إلى بغداد فتذكر أنه قد أغضب بني العباس ونال منهم تقرباً إلى بني عبيد وولاتهم . وأراد أن يذهب إلى حلب فصده عن ذلك أنه ملأ الدنيا بشعره في ذم الأمير

صالح بن مرداس وابنه نصر بن صالح لما كان يمدح أنوشتكين العدو الألد لآل مرداس . إلا أن الله أنقذ شيخوخة هذا السرى الشاعر على يد الأمير على بن منقذ فتوسط له عند الأمراء آل مرداس وأمر ابنه نصر بن على بن منقذ بأن يصحبه ويقدمه إلى أمير حلب محمود ابن نصر المرداسي فكان وسيلة التجمل والصفاء بعد الجفاء . وأنشد بين يديه قوله فى مدحه :

قفوا فى القلى حيث انتهيتم تذمما ولا تقتفوا من جار لما تحكما
أرى كل معوج المودة يصطفى لديكم ، ويلقى حتفه من تقوما
حنى الناس من قبلُ القسيُّ لتقتنى وثُقف منـآد القنا ليحطما
وما ظلم الشيب الملم بلمتى وإن بزَّنى حظى من الظلم واللما
إلام أبقى النفس ما لا تناله وأذكر عيشاً لم يعد مذ تصرما
وقد قالت السبعون للهو والهوى دعانى أمرى واذهبا حيث شئتما

فأحسن الأمير محمود بن نصر المرداسي وفادة ابن حيوس واحتفى به ووهب له ألف دينار ذهباً فى صينية فضة وجعلها له رسماً عليه فى كل سـنة ، وأنساه بنى عبيد ووزراءهم وأمراءهم . فقال يخاطب ابن منقذ ويذكر الأمير ابن مرداس :

يا ابن المقلد قد قلدتنى مننا ما قارب الحمد أدناها ولا كربا
فيمنُ جدك أفضى بى إلى ملك ما ابتزه الشعر إلا هزه طربا
أغنى وأقنى وأدنى ثم أغرب فى إنعامه فأفاد العقل والأدبا
فكل نوء بمصر جادنى زمنا فداء نوء سقانى الرى فى حلبا

ويقول محقق هذا الديوان العالم الأديب الشاعر المحقق السيد خليل مردم : « دخل ابن حيوس حلب فى شوال سنة ٤٦٤ وهو ابن سبعين سنة ، وبقى فى كنف آل مرداس حتى انقرضت دولتهم سنة ٤٧٣ ، وفى الديوان من شعره فيهم ثلاثون قصيدة من أجزل شعره وأحسنه ، يعجب الإنسان كيف استجابت له وهو فى عشر الثمانين من عمره » .

وفى ذلك يقول :

وما أضعفت عشر الثمانين منتى كما تضعف الضرغام وهو غضنفر

ومما ذكره محقق الديوان من أخلاق ابن حيوس أنه كان يغلب عليه الجد والتعاون ،

وأنه ليس فى سيرته أو شعره لهو أو عبث أو مجون ، ولم يكن مختالا فخوراً ، ولا سبابا طعانا ، ويكاد ديوانه يخلو من الغزل ووصف الخمر والفخر والهجاء ، ولعل غلبة الجد عليه جعلته خشنا فى بعض أحاديثه كالذى رواه الحافظ ابن عساكر (١٠:١ ٤) فى ترجمة الشريف أحمد بن على النصيبى قاضى دمشق للمستنصر العبيدى ، فقد قال القاضى لابن حيوس يوماً : وددت لو أنى كنت فى الشجاعة مثل على وفى السخاء مثل حاتم . فقال له ابن حيوس : وفى الصدق مثل أبى ذر . يعرض له بأنه كذاب لأن القاضى كان يرمى بالكذب . وكان ابن حيوس معجباً بشعر معاصره عبد المحسن الصورى ، حتى لقد روى عنه ابن عساكر (ج ١٠ ورقة ٢٢٥ مخطوط) أنه كان يقول : إنى ليعرض لى الشىء من شعر أبى تمام والبحترى وغيرهما من المتقدمين فأعمل فى معناه فأبلغ مرادى منه ، ولا أقدر على أن أبلغ من موازنة شعر عبد المحسن الصورى ما أريد لسهولة ألفاظه وعذوبة معانيه وقصر أبياته . وكان يعترض على من يقول إن جريراً أغزل الشعراء ويقول : أغزل منه عبد المحسن الصورى فى قوله :

بالذى ألهم تعذيـــبى ثناياك العــذابا
ما الذى قالته عينا ك لقلبى فأجابا

وكان أبو العلاء المعرى يعيب عبد المحسن الصورى بقصر النفس ، فلما حضر ابن حيوس عند أبى العلاء أنشده أبو العلاء أبياتا لعبد المحسن وقال : « هذه لقصيرك » فقال له ابن حيوس : « هو أشعر من طويلك » يعنى المتنبى . فمد أبو العلاء يده إليه وقبض على ثوبه وقال : « الأمراء لا يناظرون » وأراد بذلك أن يحول مجرى الحديث .

وقد تعرضنا لنقل هذه الأخبار ليعرف المتأدبون أن بلغاء هذه الأمة وأعيان البيان فيها قد طوى النسيان منهم العديد الأكثر ، والمشهورون منهم هم النزر القليل .

فشكراً للمجمع العلمى العربى على إحيائه هـــذا الديوان البليغ من تراثنا الأدبى ، وأضعاف هذا الشكر للسيد خليل مردم على ما بذله من روحه وأدبه فى حسن إخراج شعر ابن حيوس صحيحاً مضبوطا مشروحاً بأجمل طبع وأنفسه .

الأدب والعلوم في شهر

معهد دمنهور الديني

في زيارة الرئيس اللواء محمد نجيب لمدينة دمنهور يوم الأربعاء ٣٠ رجب وضع بيده حجر الأساس لمعهد دمنهور الديني في الأرض التي تبرع بها أعيان دمنهور لهذا الغرض . وقد خطب الرئيس في هذا الحفل فكان مما قاله : « أحب أن أقول لكم إننا نستمد هدينا من القرآن ، وإن أعمالنا جميعا من وحيه . وإني لأتساءل : هل قصرنا في الأخذ بأهداب الدين ؟ هل خرجنا عن حدوده ؟ ألم تقرر الصلاة في المدارس ؟ ألم نجعل تعليم الدين مادة أساسية ؟ إذن ماذا تريدون ؟ افهموا أن النظام والاتحاد والعمل هي وسيلتنا الوحيدة لطرد الإنجليز . من كان يحب بلاده فعلا فلينظم نفسه وليقلع عن النفاق الذي لا هدف له إلا حب الظهور ، وخدمة الأغراض الخاصة . إن الذين يهتفون في كل مناسبة : نريد القرآن . لا حكم إلا بالقرآن . . يسيئون إلينا وإلى أنفسهم وإلى بلادهم ، لأننا لم نقصر في تطبيق القرآن . اعملوا بمبادىء القرآن إذا كنتم حقا تؤمنون بما تقولون . طبقوه على أنفسكم ، وعلموا أولادكم الصلاة ، وساعدوا جيرانكم ، وانشروا الفضيلة . وإني أقول لكم بملء صوتي : من رأى فينا منكرا فليواجهنا به ، من رأى منا خروجا على القرآن فليحدثنا عنه . إننا نريد أن نعمل . وعلى كل من يريد أن يطبق القرآن أن يطبقه على نفسه وذويه . هذا هو الدين الصحيح » .

معهد ديني بزفتى

كان الوجيه السيد كشك من أعيان زفتى رحمه الله ، قد أنشأ معهداً دينيا أهليا ببلدته ووقف عليه وقفا داراً من أطيانه للإنفاق منه على هذا المعهد . وقد زار نجله الكريم الأستاذ بسيوني كشك الناظر على أوقافه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر وقدم له طلباً رسميا بأن يلحق المعهد بالجامع الأزهر وتعهد بأن يقدم لإدارة الأزهر الريع الموقوف على هذا المعهد لاستمرار الإنفاق منه عليه . فعهد فضيلة الأستاذ الأكبر إلى المختصين بإتمام ذلك بحسب النظام المتبع في أمثاله .

ومعهد ديني بفاقوس

تبرع الأستاذ محمد فريد الطاروطي بقطعة أرض مساحتها فدان ونصف فدان فى موقع جميل بمدينة فاقوس، وبألف جنيه، ليشيد عليها معهد ديني وجمعية للمحافظة على القرآن.

علم تجويد القرآن الكريم :

مرسوم بتعديل أحكام امتحانه :

صدر أمس مرسوم بتعديل بعض أحكام المرسوم الصادر فى ١٢ يونيه سنة ١٩٤٥ بإنشاء قسم فى كلية اللغة العربية لتدريس علم تجويد القرآن الكريم وفن القراءات ننشره فيما يلي :

المادة الأولى - يستبدل بالمادتين ٨، ١١ من المرسوم الصادر فى ١٢ يونيه سنة ١٩٤٥ بإنشاء قسم فى كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر لتدريس علم تجويد القرآن الكريم وفن القراءات النصان الآتيان :

« مادة ٨ - يكون الامتحان فى جميع مراحل سني قسم القراءات وفى امتحان الحصول على الشهادة، على دورين. ويكون الامتحان فى سني النقل تحريرياً فى جميع علوم السنة التي يجرى فيهما الامتحان، وشفوياً فى حفظ القرآن الكريم ومادة القراءات وعلمى النحو والصرف فى المرحلة الأولى والنحو والبلاغة فى المرحلة الثانية.

ويكون الامتحان فى إجازة حفظ القرآن تحريرياً فى جميع العلوم، وشفوياً فى القرآن الكريم حفظا وأداء وفى التجويد والنحو.

ويكون الامتحان فى إجازة حفص تحريريا فى القراءات، وشهادة التخصص فى القراءات تحريريا فى علوم السنة النهائية عدا مادة القراءات فيكون الامتحان فيها فى جميع مقرر المرحلة. ويكون الامتحان شفويا فى حفظ القرآن الكريم وفى مادة القراءات فى جميع مقرر المرحلة وفى النحو والصرف فى الشهادة العالمية والنحو والبلاغة فى شهادة التخصص.

ويكون امتحان المكفوفين شفوياً فقط فى جميع ما يمتحن فيها المبصرون أسوة بالطلبة المكفوفين فى المعاهد الدينية ».

« مادة ١١ - لا يعيد الطالب فى كل مرحلة من مرحلتي شعبة القراءات أكثر من سنتين ولا يعيد فى السنة الواحدة أكثر من مرة ولشيخ الجامع الأزهر منح الطالب سنة استثنائية ».

المادة الثانية - تلغى المادة العاشرة من المرسوم الصادر فى ١٢ يونيه سنة ١٩٤٥ المشار إليه.

المادة الثالثة - على رئيس مجلس الوزراء تنفيذ هذا المرسوم ويعمل به من تاريخ نشره فى الجريدة الرسمية ».

التعليم الجامعي

يقترح الدكتور على ماهر أن يكون من أغراض التعليم الجامعي الإعداد المهني، وأن تترك وزارة المعارف أمر التعليم العالي كله للجامعات. وأن تختص إحدى كليتي الآداب في جامعتي القاهرة باللغات، وأن تختص كلية الآداب الأخرى بالفنون الأدبية كالتاريخ والجغرافيا والفلسفة والاجتماع. وأن تختص إحدى كليتي الهندسة بشئون الري والعمارة والكلية الأخرى بالميكانيكا والكهرباء. وأن تختص إحدى كليتي العلوم بالرياضة والفلك والأخرى بالطبيعيات والجيولوجيا. أما العلوم المشتركة فيتولاها القسم المختص في الكليتين معا حسب النظام الذي يوضع هذا.

وقد أخذت لجنة الأهداف والمبادىء العامة للتعليم الجامعي في دراسة مقترحات الدكتور على ماهر هذه وما يلحقها من مقترحاته الإدارية.

اختناق الجامعات المصرية :

دل آخر إحصاء لعدد الطلبة في الجامعات المصرية الثلاث أنها اختنقت بكثرتهم، ففي جامعة فؤاد ٢٢ ألف طالب، وفي جامعة ابراهيم ١٥ ألفا، وفي جامعة الاسكندرية ٦ آلاف. ومجموعهم حوالي ٤٣ ألف طالب وترى اللجان الفرعية للتعليم الجامعي أن كل كلية يجب أن لا يزيد عدد طلبتها عن ألف في الحد الأعلى ليستقيم التعليم فيها، ومعنى هذا أن عدد طلبة الجامعات الثلاث يجب أن يهبط إلى نصف عددها الحالي، وألا تقبل الجامعات الثلاث من الطلبة الجدد إلا حوالي ستة آلاف في كل عام، أي ٢٠٠ إلى ٣٠٠ طالب لكل كلية. والواقع أن الذين التحقوا بالجامعات المصرية هذا العام زاد عددهم على ١١ ألفا، والمنتظر أن يكون عدد المتقدمين للجامعات في العام الآتي أكثر من ذلك. وما دام إقبال الحاصلين على الشهادات الثانوية على الدخول في الجامعات كما هو الآن فلا مناص من إنشاء ثلاث جامعات أخرى.

نظام التعليم الثانوي :

أقر مجلس الدولة مشروع القانون الجديد الخاص بنظام التعليم الثانوي وأرسله إلى وزارة المعارف تمهيدا لعرضه على مجلس الوزراء. وهو يقوم على تقسيم التعليم الثانوي إلى مرحلتين: الأولى (المرحلة الإعدادية) ومدتها أربع سنوات والغرض منها تهيئة وسائل النمو لطلبات التلاميذ وميولهم على اختلاف أنواعها من أدبية وعلمية وعملية وفنية، والتصرف على ما يظهر فيهم من

مواهب وميزات وميول خاصة ، حتى يمكن أن يتجهوا فى المرحلة الثانية وهى (المرحلة النهائية) ومدتها ثلاث سنوات إلى نوع الدراسة الثانوية الذى يلائمهم ، وفى هذه المرحلة الثانوية النهائية تنطوى الدراسة على نوع من التخصيص . وفيها يبدأ تنوع الدراسة .

وقد جعل (الدين) مادة من مواد امتحان الانتقال فى جميع الفرق بالمرحلتين . وانص فى المشروع على إعفاء غير المسلمين من دراسة القرآن الكريم ، وإذا وجد عدد كاف منهم فى الفرق ترتب لهم دروس خاصة فى الدين .

وسيترتب على هذا النظام الجديد إلغاء امتحان شهادة الدراسة الابتدائية وامتحان شهادة الدراسة الثانوية (القسم العام) ويكتفى بامتحانين عامين يجتازهما التلميذ فى المرحلة الثانوية هما امتحان شهادة الدراسة الإعدادية وامتحان شهادة الدراسة الثانوية العامة التى ستحل محل شهادة القسم الخاص . وسيكتفى فى نهاية التعليم الابتدائى بامتحان تعقده أقسام التفتيش لمن أتموا دراسة مناهج هذا التعليم ويمنح الناجحون فيه إقرارا بذلك .

استعمار القلوب والعقول

أذاعت جريدة (المصرى) فى مقال ممتع مملوء بالتوجيه والعبر قول وزير خارجية أمريكا فى خطاب له لم يذع فى بلاد الشرق الأوسط .

« يجب أن نفهم نحن – الأمريكيين – أن كل مشاريعنا السياسية والعسكرية فى الشرق الأوسط ، ستصبح بلا جدوى ، ما لم يكن لنا (إشراف كامل) على ثقافة هذا الجزء الحيوى من العالم .

« إن (إشرافنا) على ثقافة الشرق الأوسط يعتبر أمراً جوهرياً بالنسبة لمستقبل مشروعاتنا العسكرية والسياسية والاقتصادية ! » .

إحصاءات ثقافية

نشرت اليونسكو كتيبا فى ٦٠ صفحة تضمن إحصاءات ثقافية لمختلف الأقطار ، ومما جاء فيه أن تنلندا أقل بلاد الأرض أمية لأن نسبة التعلم فيها ٩٩ فى المائة .

وانجلترا أكثر البلاد خزائن كتب ، فقد بلغ عدد دور الكتب فيها ٢٣٧٥٩ مكتبة . وبلغ عدد الكتب التى نشرت فيها سنة ١٩٥٠ نحو ١٧٠٧٢ مؤلفا ، وفى الولايات المتحدة ١١٠٢٢ مؤلفا ، وفى فرنسا ٩٩٩٣ مؤلفا .

وفى انجلترا توزع الصحف اليومية بنسبة ٥٩٨ نسخة لكل ألف ساكن ، وفى الولايات المتحدة يستهلك من ورق الصحف ٣٦ كيلو غراما لكل فرد فى السنة .

اعتماد للبعوث الإسلامية

قرر مجلس الوزراء فتح اعتماد إضافى بمقدار ٥٧٫٥٠٠ جنيه فى ميزانية رياسة مجلس الوزراء للسنة المالية ١٩٥٢ – ١٩٥٣ زيادة على اعتماد الـ ١٥٠٫٠٠٠ جنيه المخصص لطلاب البعوث الأزهرية ، على أن يؤخذ هذا الاعتماد من وفور مخصصات الجامع الأزهر والمعاهد الدينية .

أنباء العالم الإسلامي

إصلاح الحرم النبوى .

عاد وفد الجامعة العربية من زيارة المملكة العربية السعودية برياسة أمين الجامعة الأستاذ عبد الخالق حسونه . وقد قال الأستاذ عبد الخالق عقب وصوله إلى مصر : إن العمل سيبدأ قريباً فى إصلاح وبناء الحرم النبوى الشريف ، وإن المسئولين فى المملكة السعودية أخذوا فى إعداد الوسائل للبدء فى هذه الإصلاحات فوراً .

سكة الحجاز الحديدية :

زار الأمير سعود ولى عهد المملكة العربية السعودية لبنان للبحث فى وسائل التقارب بين الحكومات العربية ضمن نطاق الجامعة . وعند انتهائه من زيارة لبنان قام بمثل هذه الزيارة لدمشق .

وقد انتهزت الغرف التجارية والزراعية والصناعية فى سوريا هذه الفرصة فعقدت اجتماعا قررت فيه مفاتحة الأمير سعود فى مسألة إعادة تسيير الخط الحديدى الحجازى لربط سوريا بالمملكة السعوديه وتوثيق التبادل بينهما .

وهذه الأمنية ما زالت تردد وتتجدد منذ بضع وثلاثين سنة ، ونرى أن الوقت الحاضر أجدر الأوقات بالاستجابة لتحقيقها .

المحمل

لما كان موكب الحاج يسافر براً على الجمال أيام الدولة العثمانية ، كان من لوازم ذلك أن يصحبه حرس عسكرى ، وجرت العادة أن يكون سفر الموكب بحرسه فى موعد واحد وعودته فى موعد واحد كذلك ، فكان لسفره حفلة وداع ولعودته حفلة استقبال ، واتخذوا فى مصر والشام محملين مزركشين يرون أنهما من تمام مظاهر هذا الموكب . ومعلوم أن ذلك ليس له أصل فى الدين ، وإذا توهم العامة أن له علاقة بالدين ، كان ذلك منهم تزيداً فى الدين يأثمون به . لأن الزيادة فى الدين كالنقص منه . زد على ذلك أن وسائل المواصلات غيرت الأوضاع كلها فصار الحجاج يسافرون ويعودون فى أوقات متتالية لا فى وقت واحد ، وكان المحمل المصرى قبل سنة ١٣٤٤ (١٩٢٥) يسافر بالفعل إلى الأراضى الحجازية باعتباره جزءاً من القوات التى ترافق الحجاج حينما كانوا جميعاً ينتقلون على الإبل من جدة إلى

مكة ومنها إلى المدينة ، فلما استتب الأمن في الحجاز بما لا نظير له وصار انتقال الحجاج بالسيارات في الأكثر الغالب ، انقطع سفر المحمل ، ومع ذلك بقيت مظاهر الاحتفال بوداعه واستقباله . ومن العجيب أن تحتفل الدولة والأمة باستقبال محمل لم يرسل فكيف يعود !

وبما أن مصر هي التي تتولى نسج كسوة الكعبة المشرفة ، وتقوم بإرسالها في كل عام ، فقد اتجه الرأي إلى إلغاء حفلة وداع المحمل واستقباله ، والاقتصار على الاحتفال بعرض الكسوة إيذاناً بالحج في أول الموسم ونهايته عملا بالآية الشريفة « وأذن في الناس بالحج » . ولعل الموسم المقبل سيكون أول مواسم الحج في مصر يلغى فيه عرض المحمل والاحتفال بوداعه واستقباله .

قبة المسجد الأقصى

تبين للمهندسين المصريين الذين أوفدتهم الحكومة المصرية إلى القدس لدراسة حالة قبة المسجد الأقصى أن المياه المتسالة من السقوف إلى جدران القبة في سنين متطاولة قد أثرت فيها حتى أدى ذلك الإهمال إلى ضرورة إحداث إصلاحات قد تبلغ تكاليفها ٤٢٠ ألف دينار أردني .

جامع جديد في لندن

كان المسلمون المقيمون في لندن يتمنون دائماً لو يقام لهم جامع يؤدون فيه الفرائض لأن من غير اللائق أن لا يوجد في تلك المدينة الكبيرة إلا جامع « ووكنج » الذي يقوم عليه القاديانيون ، وأخيراً تقرر بناء جامع إسلامي في المركز الثقافي الإسلامي بقلب مدينة لندن وتألفت لهذا المشروع لجنة أوصياء وتبرع كذلك نظام حيدر أباد السابق بسبعين ألف جنيه ، كما تبرعت الحكومة المصرية بعشرين ألف جنيه ، وستتصل اللجنة الفرعية التي يرأسها المندوب السامي للباكستان في لندن بالحكومات الإسلامية وكبار الزعماء المسلمين للحصول على التبرعات اللازمة لإتمام هذا المشروع .

ولايات متحدة عربية

أدلى الرئيس اللواء محمد نجيب بتصريح في افتتاح مؤتمر الصحافة العربية أعلن فيه أنه يود من صميم قلبه أن يرى الدول العربية قد صارت « ولايات عربية متحدة » .

وقد سئل الأستاذ أحمد الشقيرى الأمين المساعد للجامعة العربية عن رأيه في هذا التصريح ، وعن علاقة هذه الفكرة بميثاق الجامعة العربية فقال :

ليس في ميثاق الجامعة العربية ما يمنع تحقيق هذه الفكرة الجليلة ، بل إن هذا الميثاق يدعو إلى كل ما يزيد روابط العرب رسوخا وتمكينا . ثم إن الجامعة العربية

ليست نهاية ، ولكنها بداية ، ونحن نعلم أن هذا الرأى الموقف الذى أبداه رجل مصر الأول هو تعبير صادق عن أماني الشعوب العربية . وأرجو أن يأتى ذلك اليوم الذى تتهيأ فيه الأسباب والظروف لتحقيق هذه الفكرة النبيلة ، وسواء انتهت علاقة العرب فيما بينهم إلى « وحدة » أو « اتحاد » أو أى نظام آخر فإن المهم أن نصدر فى أمورنا عن رأى واحد إلى هدف واحد .

نواة لمؤسسة إسلامية كبرى :

علقت جريدة (باكستان تايمز) التى تصدر فى كراتشى على تصريح الرئيس اللواء محمد نجيب فى مؤتمر الصحافة بشأن أمنية « الولايات المتحدة العربية » فقالت : « إن أمل اللواء الرئيس سيلقى اهتماماً كبيراً فى جميع أنحاء العالم العربى . ولا شك أن أى اتحاد عربى سيكون نواة لمؤسسة إسلامية كبرى تقرب بين الحكومات الإسلامية ، وتضع لها سيادة موحدة إزاء المشاكل المشتركة . ويجب أن يقوم مثل هذا التعاون على أسس علمية إيجابية ، لا على أسس عاطفية » .

جامعة الدول العربية

نعمة ... ضائعة

فى قطعة عما ينشر يومياً فى (الأهرام) بعنوان « سلاح النقد » وبتوقيع « صاروخ » قرأنا هذه الفقرات يوم ٢٤ رجب الماضى عن جامعة الدول العربية :

« هذه الجامعة تعد فى الواقع إحدى المنظمات الإقليمية الرئيسية فى العالم . وللأسف الشديد فإن قيمة أو قوة هذه المنظمة تكاد تكون مجهولة تماماً من القائمين بأمرها أو الأوصياء عليها ، فى حين أنها تستطيع أن تكون بالفعل أداة إيجابية تجذب إليها الدنيا بمن فيها وما عليها » .

« من العجيب أن تدرك كل من الكتلتين الماردتين - فى الشرق والغرب - قوة أو خطورة هذه المنظمة ومدى الطاقة الكامنة فيها ، فتعمل كل من هاتين القوتين على تكييف أمورها وسياستها على أساس وجود هذه المنظمة « الناعسة » أو « التائهة » والتى لو استيقظت لاستطاعت أن تفرض على الدنيا ما تشاء ، ولكانت هى القوة التى ترجح أى جانب تتجه إليه » .

« إننى أكاد أذوب حياء وضعفاً من أن أكون أنا ممن يوجهون الجامعة العربية وهى التى تضم من الأقطاب والمحترفين لتجارة السياسة والدبلوماسية ما يزيد عن حاجة الدنيا كلها » .

أعظم معارك التحرير

يقول المسئولون البريطانيون فى نيروبى - سواء منهم الرسميون وغير الرسميين - إن المعركة التى تدور رحاها الآن بين قبائل

ماو ماو وقوات الاستعمار البريطاني قد تصبح أعظم معارك نصف القرن الحالي . وهم يرون أن ثوار ماو ماو في كينيا ليسوا سوى رمز للثورة التي تجتاح الآن القارة الإفريقية ، وأنها قد تسبب مضايقات ومتاعب لاحد لها في القارة كلها من أدناها إلى أقصاها . ففي كل مكان في القارة (من السودان شمالا إلى جنوب أفريقيا) يسمع المرء قصة واحدة لا تتغير وهي قصة حرب المبادىء التي لا يغير لها أوار .

إن سكان أفريقيا الشرقية ينظرون إلى ما حصل عليه سكان أفريقيا الغربية (ليبريا وساحل الذهب وروديسيا الجنوبية) فتدور رءوسهم غضباً وإصراراً على أن يظفروا بحقهم في الحرية والحياة . ولكن الغربيين ينكرون عليهم هذا الحق بحجة عدم استعدادهم .

خطيب سيف ومنبر

هكذا كان أسلافنا ، يرقى أعواد المنابر في مساجدهم من يقودهم في حروبهم ومن يوجههم في مجتمعهم وكيانهم . وفي يوم الجمعة ٢٦ من رجب ارتقى أعواد المنبر في مسجد الحنفي بحي السيدة زينب البكباشي أنور السادات عضو مجلس قيادة الثورة فألقى منه خطبة الجمعة ، وكانت مفاجأة مدهشة المصلين إذ رأوا في القائد خطيباً من الطراز الأول ، وكانت الخطبة شيئاً جديداً لا عهد لهم بمثله لأنها صادرة عن القلب وكان يخاطب بها القلوب ، ففسر التحرير بأنه لا يقتصر على إجلاء الغاصب ، ولا على نفي الطاغية ، بل هو ينصرف أولا وقبل كل شيء إلى تحرير النفوس من أنانياتها وما خلفته فيها الأحوال السابقة من أثرة واستئثار وسائر ألوان الضعف ، إلى أن ينتصر كل مواطن على نفسه بقوة إيمانه وتوجيه دينه ، فيتمكن من إخراج إبليس وجنوده من النفس المسلمة ويصبح كل واحد منا ولياً من أولياء الحق ورجلا من رجال الخير ، وبذلك نعود أمة صالحة ، وبذلك نكون خير أمة أخرجت للناس كما أراد لنا الله أن نكون .

تحرير سوريا الاقتصادي

من ذيول الانتداب الفرنسي الذي رفع الله كابوسه عن البلاد السورية بقاء النقد السوري مكبلا باتفاقية البنك الفرنسي التي وضعت في أيام الانتداب وتمتد مدتها إحدى عشرة سنة أخرى (أي إلى سنة ١٩٦٤) ولكن سوريا خطت في هذا العام خطوة جريئة للتحرر من هذا الاحتلال الاقتصادي ، فسنت قانوناً لإنشاء بنك سوري أهلي تنتقل إليه مهمة إصدار أوراق النقد المالية الرسمية . وهي خطوة لا تقل عن قرار تأميم بترول عبادان في إيران ، بل إن السيد سعيد الزعيم وزير

المالية السورية يقول إن المشروع الجديد بإنشاء البنك الأهلي السوري يعادل في أهميته جلاء القوات الفرنسية عن سوريا ولبنان عام سنة ١٩٤٦ ، وقد نشرت الصحف صورة الليرة السورية الجديدة وهي في شكلها – كما هي في حقيقتها – عربية محضة لم تشب بأي شائبة من اللغة الأجنبية أو حروفها وأرقامها .

مطامع

في برقية من بغداد أذاعتها وكالة الأنباء العربية خبر عجيب عن تفاصيل تلقتها جريدة (الحارس) البغدادية جاء فيها أن قوات عسكرية إيرانية أعدت سراً لغزو جزر البحرين التي يحكمها الأمراء آل خليفة منذ دهر طويل .

وتوالى الأخبار من قبل ذلك بأن هجرة منظمة يقوم بها بعض الإيرانيين من بلادهم إلى البحرين والكويت مجتهدين في أن تكون لهم جاليات أكثر عدداً في هذه البلاد العربية من الأزل ، حتى تكون هذه الجاليات الصغيرة حجة تبرر هذه المطامع !

ترى أليس في أحوال إيران ما يشغلها عن مثل هذه المساعي التي تضر ولا تنفع ؟ !

تركيا في نظر الأمريكيين

نقلت مجلة (التحرير) قول الكاتب الأمريكي المعروف (جون جنثر) : « لا يمكن ولو عن طريق الخيال أن يطلق على تركيا دولة ديمقراطية بالمعنى الغربي المعروف .

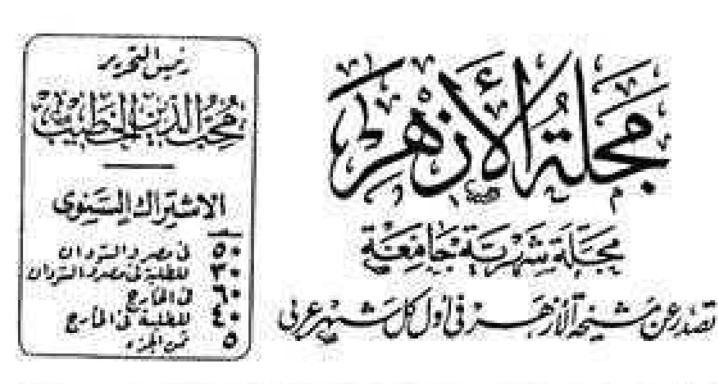
ولسنا نريد أن نخدع أنفسنا بمثل هذا الكلام . والواقع أننا لا ننفق أموالنا في تركيا لنساهم في دعم ديمقراطيتها ، ولكننا ننفق أموالنا هناك لنستعملها كسلاح حربي عام ، وذلك بمساعدة الأتراك على الاستعداد لمواجهة أي خطر يحتمل أن تسببه روسيا ، إننا لا نساعد الأتراك ، ولكننا ننفذ في تركيا جزءاً من برنامجنا الدولي . وليس الأتراك أكثر من وسيلة في نضالنا الدولي مع الاتحاد السوفيتي . لكن هذا واضحاً من الآن ، ولنواجهه بصراحة » .

سماحة وبغي

تلقت وزارة الشئون الاجتماعية من حكمدار الإسكندرية تقريراً عن جمعية تبشيرية استقدمت ثلاثة من الأجانب لإلقاء محاضرات دينية وتوزيع نسخ من كتاب ديني فيه بغي على الإسلام وافتراء عليه . وقد طلبت إدارة الهجرة من هؤلاء المحاضرين أن يغادروا البلاد ، ورفضت تجديد مدة إقامتهم . ولما تلقت وزارة الشئون الاجتماعية تقرير حكمدار الإسكندرية أخذت في دراسة أغراض الجمعية التي استقدمت هؤلاء المحاضرين الثلاثة وما في أعمالها من تعارض مع قانون الجمعيات .

فهرس

الجزء الثامن — المجلد الرابع والعشرون



مدير المجلة
محمد عرفة
عضو جماعة كبار العلماء

العنوان
إدارة الجامع الأزهر بالقاهرة
تليفون ٤٦٣١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

رئيس التحرير
محب الدين الخطيب

الاشتراك السنوي
٥٠ في مصر والسودان
٣٠ للطلبة في مصر والسودان
٦٠ في الخارج
٤٠ للطلبة في الخارج
٥ ثمن الجزء

الجزء التاسع – في غرة رمضان ١٣٧٢ – ١٤ مايو ١٩٥٣ – المجلد الرابع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

من طالب علم إلى طلاب العلم

وكلنا طلاب علم .

وإن طلب العلم فريضة من فرائض الإسلام ، وكان أسلافنا يتواصون بأن يكونوا طلاب علم من المهد إلى اللحد .

وقد بشر النبي ﷺ أمته بأنه ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضاً بما يصنع . وكان أبو الدرداء يحدث في مسجد دمشق بأنه سمع النبي ﷺ يقول : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة » .

إنها قافلة مباركة من طلاب العلم ما برحت تغذ السير منذ نحو أربعة عشر قرناً ، وإن أولها عند أولئك النفر الأولين الذين كانوا يختلفون إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم بجوار الكعبة والصفا ، يوم كان الإسلام في النشأة ، وآخرها في كلية أصول الدين بشبرا ، وفي كليتي الشريعة واللغة العربية بالدراسة ، وفي المعاهد التي تصنع طلاب العلم لتلك الكليات ، وفي زميلاتها في كل بقعة من بقاع العالم الإسلامي .

هي قافلة طويلة من طلاب العلم ، كان فيها الخلفاء الراشدون ، والعشرة المبشرون بالجنة . وكان فيها أمهات المؤمنين وعلماء الصحابة وحلقات العلم التي التفت حولهم في مساجد الأمصار الإسلامية الأولى وفي بيوت المسلمين الأولين . وكان فيها أعلام التابعين ، والدعاة الذين دخلت أقطار الدنيا في الإسلام استجابة لدعوتهم ، وعملا بعلمهم ، واقتداء بخلقهم ، وتأسيا بسيرتهم وسنتهم . وكان فيها أئمة الفقه الأربعة وشيوخهم وأندادهم وتلاميذهم في مدينة الرسول ، وفي العراق والشام ، وفي الفسطاط - فسطاطنا نحن الذي كان أفقا في سماء العلم العالمي ، تشرق منه شموس العلم الساطعة أنوارها في الخافقين، فتحول اليوم إلى جبانات ومقابر للروم والأرمن واليهود . ولو أن الليث بن سعد ومحمد بن إدريس ويونس بن عبد الأعلى عادوا اليه لأجهشوا بالبكاء دماً على ما صارت إليه قافلة العلم في ألف سنة مرت عليه بعدهم ، وكان ينبغي لنا في زماننا أن نضيف إلى علمهم علوما ، وإلى أخلاقهم فضائل ، وإلى سيرتهم وجهادهم أمجاداً ومحامد تتحدث الدنيا بنبلها وكمالها وجمالها .

هي قافلة غنية بالرجال ، غنية بالحكمة والمعرفة ، غنية بالأخلاق ومعادن النفس ، غنية بالمصنفات التي يعكف علماء الغرب على دراستها وترجمتها والإفادة منها منذ بضعة قرون ، وغنية بالعمل الصالح لإسعاد الإنسانية ، ولإخراجها من الظلمات إلى النور .

هي قافلة طويلة ما برحت تسير ، وتسير ، ولا تزال تسير ، حتى انتهى (القلم) عندنا نحن : عند جيلي الذي كان يختلف إلى المدارس والمعاهد في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وجيلكم أنتم - يا إخواني وأبنائي طلاب العلم - الذين تختلفون إلى المدارس والمعاهد في النصف الأخير من هذا القرن .

فأنا وأنتم أبناء قافلة واحدة يجمعنا فيها طلب العلم ، بل نحن معاً في قافلة تجمعنا بأعلام العلم وأئمة الإسلام وعظماء المصنفين وهداة الدنيا ودعاة الإنسانية إلى الحق والخير . فمن نعم الله عليّ وعليكم أن جعلنا طلاب علم ، لنكون في زمرة هؤلاء ، ولأن العلم في ذاته نور ، بل هو قوة ، بل هو ثروة ، وأهله هم الناس ، وكل الناس غيرهم تبع لهم . فتعالوا يا إخواني ويا أبنائي طلاب العلم لنعرف مكانتنا في هذه القافلة ، ولنعرف نظامها ، ولنتبين الاتجاه الذي هي ذاهبة بنا إليه .

إن هذه القافلة - التي أولها في دار الأرقم بن أبي الأرقم ، وآخرها في كليات أصول الدين

والشريعة واللغة العربية — لها تاريخ طويل ينبغى لنا أن نلم به ، بل لقد بلغ من عظمتها وخطرها أن كان التاريخ واقفاً بشيخوخته المهيبة يراقب سيرها خطوة خطوة ، ويستعرض وجوه أهلها وجهاً وجها ، ويزن بأدق موازين الذهب والسموم خلجات نفوسهم ، وخفقات قلوبهم ، واتجاهات نياتهم : فمن كانت هجرته فى هذه القافلة لله وحده ، وللخير الذى به سعادة أهله ، وللحق الذى قامت به السماوات والأرض ، سجله له التاريخ فى صفحاته التى اختص بها الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الحق من تلاميذ دار الأرقم بن أبى الأرقم والمسجد المدنى . ومن كانت هجرته فى هذه القافلة لدنيا يصيبها ، أو متعة زائلة يتمتع بها ساعة أو يوماً أو سنة ثم يفنى طعمها فى فمه ، بل ينسى أنه كان قد تمتع بها ، سجلها له التاريخ وسجل صاحبها معها فى قائمة التافهين والمنسيين .

يقول معلم الناس الخير ﷺ فيما رواه عنه الإمام محمد بن إسماعيل البخارى فى صحيحه من حديث أبى موسى الأشعرى :

« مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا ، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا . وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ . فذلك مثل من فقه فى دين الله ، ونفعه ما بعثنى الله به ، فعلم وعلم . ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

يا أبناء القافلة الذين التحقوا بها فى الجيل الجديد ، إن من سبقكم على الذين ارتادوا لكم الطريق وتقدمت بهم السن فى هذه القافلة ولا يزالون أحياء فيها أن يجعلوا تجاربهم فى خدمتكم ، لأنكم بمنزلة أبنائهم ، ولكم فى قلوبهم مثل ما فى قلوب الآباء للأبناء من محبة وعاطفة ونصيحة صادقة .

إن الفرق جد قليل بين طلاب العلم الذين يسجلهم التاريخ فى صحائف الخالدين من أبناء القافلة ، وبين طلاب العلم الذين يسجلهم فى التافهين والمنسيين .

إنه فرق ما بين النية والنية ، وما بين النظرة والنظرة :

إن طالب العلم التافه ، والذى سيبقى تافهاً مدة طلبه العلم وبعد انتهائه منه ، هو الذى ينوى بطلبه للعلم أن يحترف العلم ليعيش من التكسب به ، كما يلتحق الصبى بدكان الكواء

أو المبض ليحترف الصنعة ويعيش من التكسب بها . أما طالب العلم الذى سيكون فى الخالدين فهو الذى ينوى بطلبه العلم أن يتحرى الحق فى كل ما يتعلمه، وأن يقيم الحق فى كل ما يعمله، وأن يوجه أمته إلى مواطن الحق حتى تكون من أهل الحق فيعظم الله هيبتها فى عيون الأمم ويعلى درجاتها عنده .

وطالب العلم الذى سيسجل فى قائمته مع الخالدين ، هو الذى يوطن نفسه على أن يبدأ بنفسه فيراقب ما فيها من شوائب لا تليق بالإنسان الخالد ، فينظفها منها . وهو الذى يراقب كل ما يقع تحت نظره من حسن فيحرص على أن يتحلى به ، أو قبيح فيحمد الله على أن عافاه منه . وبعد أن يكون له من هذه المراقبة عادة مستمرة فى الإقبال على كل حسن ، والنفرة من كل قبيح ، يعاهد ربه على أن يكون ذلك ديدنه فى أمته ووطنه طول حياته : فكل ما كان حسنا تعاون عليه مع أهله ، وكل ما كان قبيحاً أيقظ أهله بحكمة ورفق إلى أن من مصلحتهم ومن الخير لهم الاقلاع عنه .

إن إقامة الحق والتحلى بمحاسن كل شىء هو سبيل الله الذى بعث به أنبياءه ، وهو الذى يدعو اليه الحكماء فى كل زمان ومكان . والطالب فى قافلة العلم إذا كان ممن ينشدون الخلود يبدأ بنفسه فيجعلها من أهل الحق ، ويحليها بمحاسن كل شىء ، بينه وبين نفسه ، وبينه وبين ربه . ثم يحرص على أن يشيع ذلك فى أمته ووطنه ، فيدعو اليه إخوانه وجيرانه وذوى قرابته وأبناء بلدته ، متوسلا إلى ذلك بالرفق والحكمة . ذلك هو سبيل الله ، وتلك هى صفة الخالدين من أبناء القافلة التى أولها فى دار الأرقم بن أبى الأرقم وآخرها فى جامع الخازندارة والدراسة والبراموني وفى كل ما للمسلمين الآن من معهد علمى .

أيها الطالب ، إن طريق العظمة والخلود مفتوح أمامك ، لا يصد أحداً عنه إلا حماقته . ثم هو لا يرزأ صاحبه شيئاً ، وما هى إلا النية ، ومراقبة النفس ، وتحبيب الحق إليها ، وتمرينها على كل شىء حسن حتى يكون ذلك ذوقا لصاحبه وخلقاً من أخلاقه ، وبعد ذلك تكون الدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة .

أيها الطالب النجيب ، إن من حقك على الذين ارتادوا الطريق قبلك أن يتحدثوا إليك عنه ، وأن يصفوه لك كما رأوه ، والرائد لا يكذب أهله .

لما كان عمك كاتب هذه السطور طالباً فى القسم الثانوى قبل نحو خمسين عاما ، كان يتوسم كل طالب فى فرقته وفى سائر الفرق ، وكلما توسم فى واحد منهم الخير ، وغلب على ظنه أن ذلك الطالب فيه استعداد لأن يكون عند الله من الخالدين ، بادر إلى عقد الصداقة معه ، وتعاون معه على الحق والخير . وقد كسبتُ بذلك أصدقاء كانوا هم الدنيا ، والدنيا بغيرهم لا تساوى جناح بعوضة . وقد يكون كثير من أبنائى الطلبة قراء هذا المقال قد رأوا فى الصحف صورة وزير سوريا المفوض فى مصر الأمير مصطفى الشهابى . إنه رجل عالم ، بل هو عالم جليل ، وله مؤلفات وبحوث وتحقيقات هو بها أعظم منه فى منصبه . ومع ذلك فإن له أخا أكبر منه ـ رحمة الله عليه ـ كان أعظم منه ، وكان ـ فى نظرى على الأقل ـ فى الذروة العليا من أبناء جيله . وهذا الأخ الأكبر للأمير مصطفى الشهابى هو الشهيد السعيد الأمير عارف الشهابى ، كان معى فى دراستنا الثانوية ، ثم كنا معاً عندما انتقلنا إلى التعليم العالى . ولما كنا فى الدراسة الثانوية كان هو أحد الذين تعاونت معهم على الحق والخير ، فأحببنا إسلامنا ورأينا فيه الحق كله ، وأحببنا عروبتنا وساق الله إلينا الأدلة والبراهين من مطالعاتنا واطلاعاتنا ودراساتنا الشخصية على أن فى هذه العروبة الخير كله .

ويوم أتممت دراستى الثانوية ألح على فى دعوتى الى منزلهم لأكون فى ضيافة والده الأمير سعيد الشهابى أسبوعا ، وكان والده فى تلك السنة مأمور المال للدولة العثمانية فى بلدة المعلقة المجاورة لبلدة زحلة فى لبنان ، وهو مع ذلك من الشعراء المجيدين . وفى ذات مساء من أسبوع هذه الضيافة أخذ عارف الشهابى بيدى وخرج بى الى متنزه جميل فى أفق جميل بين سماء صافية وأرض زاهرة زاهية ، فمد الى يده مصافحاً ومعاهداً ، وقال : « لقد آن لنا بعد هذا التعاون الطاهر على الحق والخير أن نعاهد الله بأن نجعل حياتنا وقفا على الحق والخير كما تكون الدكان وقفاً على مدرسة أو كما يكون المنزل وقفاً على الحرمين الشريفين . لقد كنا متعاهدين على هذا بلسان الحال ، فلماذا لا نوثق هذا العهد بصريح كلماتنا ونبرات أصواتنا حتى تشهد على ذلك هذه السماء الصافية وهذه الأرض الزاهرة الزاهية ؟ » قلت : بلى ، انى أعاهدك وأعاهد ربى على هذا ، وإن كنا على هذا العهد من قبل أن ننطق به .

أما هو فقد ثبت على العهد إلى أن ارتقى أعواد المشنقة فى سبيل العروبة والإسلام بأمر عدوهما جمال باشا ، وهو اليوم عند ربه مع الشهداء والصالحين .

إن المدرسة الثانوية التى تخرجنا فيها كان يعلمنا العربية فيها شيخ تركى ، من كتاب ترك

وضعته وزارة المعارف التركية لمدارس الأناضول ففرضوه علينا في عاصمة عبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز . وكانوا يملوننا الجهل . وكان أكثر كتب الأدب والتاريخ المطبوعة الآن طبعاً أنيقا على ورق صقيل لم تكن قد طبعت بعد ، فكنا نقرأ العقد الفريد ونفح الطيب والكامل لابن الأثير وقلائد العقيان والبيان والتبيين للجاحظ من طبعات سقيمة على ورق أصفر ، وكنا نعتبرها كنوزاً ، وننقل منها بخطوط جميلة النصوص التي نختارها ، ونحفظ عن ظهر قلب ما نختاره منها ، ونرى أن العربية من تمام الدين ، وأن الأدب من غذاء الخلق وبه حياة النفوس ، وكنا نعيش مع الأخيار والأبرار من رجال القافلة ، ونتحرى معرفة أخلاقهم وسننهم كما لو كنا معاصرين لهم وسائرين في القافلة بجوارهم ، ونحاول أن نتطبع بطباع من نحبهم من رجال القافلة ، وأعرف من زملائي من كان يحاول أن يملأ فراغ من يحبه من السلف ببعث أخلاقه كما عرفها من الكتب ، وبالتعامل مع الناس بتلك الأخلاق .

يا طلاب العلم ، إن طلاب العلم هم الناس ، ولكن إذا أحسنوا النية لله في طلبه ، وإذا صبروا على العلم فطلبوه على الصعب والذلول ، وارتووا منه غرفا من البحر أو استنباطا من الصخر ، وإذا عاهدوا الله على أن يعيشوا بالحق وللحق ، وأن يقيموه في المجتمع دعاة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأنا أضمن لهم على الله بعد ذلك أن يعطيهم حتى يرضوا .

محب الدين الخطيب

من الأعماق

• الإيمان واحة مخضلة الجوانب في صحراء القلب ، لا تبلغ إليها قوافل الفكر .

• يحتاج الحق إلى رجلين : أحدهما لينطق به ، والآخر ليفهمه .

• الناس رجلان : رجل يستيقظ في الظلام ، ورجل ينام في النور .

• الحياة موكب عظيم . ينظر إليه بطيء الحركة فيحسبه سريعاً جداً ، ولذلك يهرب منه . وينظر إليه سريع الخطا فيحسبه بطيئاً ، فيهرب منه .

• ويل لأمة كل قبيلة فيها أمة .

• ليس الشعر رأياً تعبر الألفاظ عنه ، بل هو أنشودة تتصاعد من جرح دام أو فم باسم

جبران خليل جبران

مشكلات التعليم في مصر

للتعليم فى مصر مشكلات كثيرة ، لا مشكلة واحدة ، فهناك مشكلة التوسع فى التعليم العالى ، ومشكلة التوسع فى التعليم الابتدائى والثانوى ، وكيف نجعل المدرسة تربى فى التلاميذ العقول والأخلاق والإرادات ليكونوا أعلى بزمانهم ، وأقدر على مواجهة مشكلات عصرهم والتغلب عليها ، وكيف ندخل فى عقول الأمة أن الغرض من التعليم هو هذا ، وتصرفها عن أن يكون الغرض منه التوظف ؟ وكيف نعيد للمدرسة احترامها ؟ وكيف نعيد إليها النظام ؟ وكيف نحبب العلم إلى التلاميذ ؟ وكيف نعيد إلى الأستاذ حب تلاميذه والشفقة عليهم كما يشفق الوالد على ولده ، ويكدح ليله ونهاره لإفادتهم وحل مشكلاتهم ؟

هذه وغيرها هى مشكلات التعليم عندنا .

ومن العجب أن بعضها مرتبط ببعض ، وأن بين الفساد والفساد تلازما ، كما بين الصلاح والصلاح تلازم ، حتى أن الأمر الواحد فى التعليم إذا فسد جر إليه ما لا يحصى من الفساد ، وإذا صلح جر ما لا يحصى من الصلاح ، ومثال ذلك نظر الأمة إلى التعليم وغايتها منه ، فإذا تلمست غاية التلميذ أو أبويه من التعليم وجدتها الحصول على وظيفة من وظائف الدولة ، ولما كان السبيل إلى ذلك هو الحصول على الشهادة ، وكان نوال الشهادة موقوفا على جواز الامتحان ، تعلقت الأنظار كلها بالشهادة وجواز الامتحان ، حتى أنظار المعلمين والنظار وإدارة التعليم ، وجعل ذلك غاية ، والتمست الأسباب والسبل للوصول إليه ، فمنها الحفظ ولو بدون فهم ، ومنها السبل غير الجائزة وأنواعها كثيرة لا تحصى . ولا يمكن إصلاح التعليم ما دامت هذه هى الغاية ، وما دامت الشهادة هى الغرض ؛ ومن الواجب الحتم أن تصلح الغاية من التعليم فتجعل تثقيف العقول وتهذيب الأخلاق واستقلال الفكر واكتساب ملكة الإقدام والعزم والقدرة على المساهمة فى بناء هيكل العلم بابتكار علوم جديدة أو باستغلال العلم فى الحياة .

وإذ كان الأمر كذلك أردنا أن نتكلم عن ذلك كله إجمالا ونبدأ بالكلام عن :

مشكلة التوسع فى التعليم العالى والثانوى :

وقد اختلفت الآراء : أنفتح أبواب التعليم على مصاريعها يدخلها من شاء ، أم ، نضيق من أبوابه ونضع حراسا عليها ، فلا يسمحون بالدخول إلا لمن كانت فيه أهلية التعليم الثانوى

ثم العالى، والسبيل إلى معرفة ذلك هى اختبار المتقدمين بمقاييس الذكاء . والقائمون على التعليم الآن من أنصار الرأى الثانى ، والذين كانوا يقومون عليه قبل من أنصار الرأى الأول ، ولهم فى ذلك أقوال كثيرة وآخرها تهكم مُرّ على مقياس الذكاء ومناداة لرجال الثورة بأن يتوسعوا فى التعليم العالى على مقدار التعليم الثانوى ، وفى التعليم الثانوى على مقدار التعليم الابتدائى . وقد طال هذا الخلاف وقدم ، وكلما تولت طائفة جرت بالتعليم على نحو ما تذهب اليه من توسع أو تضييق.

وإن المسألة جد خطيرة يجب أن تعالج ويقطع فيها برأى ، وتوضع لها سياسة ثابتة لا تتغير ، ويلزم كل وزير باتباعها لأمور : منها أن لها أثراً عظيما فى حياة الأمة واستقرارها ، ومنها أن المحو والاثبات والجزر والمد فى سياسة التعليم مما يدعو إلى اضطرابه وعدم ثباته .

إنه يجب على من يريد أن يحكم على التعليم العالى فى مصر أيتوسع فيه أم يضيق منه ، أن ينظر إلى فعله وإلى من يخرجهم ، فإن كان فعل التعليم أنه يخرج رجالا نافعين لأنفسهم وللأمة مهما كثروا ومهما بلغ عددهم وجب أن يتوسع فيه ما أمكن الجهد ، وما بلغته الطاقة ، وإن كان فعله أنه يسد حاجة جزئية وأن من يخرجهم إذا زادوا على هذه الحاجة لم ينفعوا أنفسهم ولا الأمة بشيء بل ضروا أنفسهم وضروا أمتهم وجب أن يقتصر فيه على مقدار هذه الحاجة الجزئية وألا يتوسع فيه لئلا يأتى الضرر .

ولعمرى إن هذا دليل منصف ، وإن الناس ليستعملونه فى حياتهم اليومية ، فمن عنده مصنع ينتج جوارب يجد لها الرواج فإنه يتوسع فيه ، ولكن إذا كانت لا تروج إلا بعدد محدود فإنه لا يتوسع فيه إلا بقدر هذا العدد وبمقدار هذا الرواج .

والواقع أن المتخرّجين من التعليم العالى يطلبون جميعاً وظائف فى الدولة فإن وسعتهم وإلا تعطلوا ، والدولة قد فتحت لهم أبوابها فى أيام اليسر فكانت تشتق من الإدارة الواحدة إدارات كثيرة وتعين لها المديرين والوكلاء والكتاب وما هناك من أسماء .

وكانت بذلك تستوعب المتخرّجين وتضر بالادخار والمشروعات الإنتاجية ، فلما جاءت أيام العسر وتقلصت ميزانية الدولة كفت الدولة عن التوظيف فتعطل خريجو التعليم العالى إلا قليلا ، وسيزداد عدد المتعطلين عاماً بعد عام ، حتى يصير جيشاً عرمرما يطلب القوت ويهدد سلامة البلاد وتنتشر فيه المبادىء الخطرة .

إن التعليم بحالته الراهنة لا يربى المتعلمين على الإقدام والاعتماد على النفس فى الحياة وكسب الرزق ، وإنما يعتمدون على الدولة فإن أسعفتهم وإلا عاشوا متعطلين وملأوا المقاهى والمنتديات .

إن التعليم بحالته الراهنة يأخذ أبناء الأمة من الصناعة والتجارة والزراعة ، ويدفع بهم إلى حالتين لاثالثة لهما : إما وظائف الدولة وإما البطالة والتعطل ، وهو على خير حالتيه يخرجهم من زمرة المنتجين الحقيقيين الذين يفيدون المجتمع والدولة بزراعتهم وصناعتهم وتجارتهم ، أى من الذين يكسبون للدولة إلى الذين يكسبون منها ويعتمدون فى حياتهم ورزقهم عليها ، وشتان بين من يكسب للدولة ومن يكسب منها ومن يزيد فى الإنتاج القوى ومن ينقص منه .

إن التلميذ يسير فى مراحل الدراسة الشاقة وأمامه غاية واحدة وهى الوظيفة وإن مرتبها المضمون وعلاواتها الرتيبة ودرجاتها المتدرجة لتسهل عليه مشاق التعليم .

وإن والدى التلميذ لينفقان عليه ويتحملان شظف العيش ويحرمان أنفسهما من اللقمة واللباس ليوفرا ذلك لولدهما فى التعليم ، يفعلان ذلك رجاء أن يظفر بوظيفة كابن جارهما القاضى أو وكيل النيابة أو المستشار أو المعلم أو ناظر المدرسة أو ما إلى ذلك من وظائف ، ومن البديهى أن عدد وظائف الدولة محدود ومتناه ، وعدد المتخرجين غير محدود ولا متناه ، والمحدود المتناهى لا يسع غير المحدود وغير المتناهى .

إحدى اثنتين : إما أن يكون عند الدولة وظائف تتسع لكل من يتخرج ، ولها حينئذ أن تتوسع فى التعليم ماتشاء ، وإما ألا يكون عندها مايتسع ، وحينئذ يجب عليها أن تضيق منه حتى لا يتعطل المتخرجون وتفقد البلاد إنتاجهم . فأما ألا يكون عندها متسع فى الوظائف وتفتح هذه المصانع الهائلة التى لاتصنع إلا موظفين وتتوسع فيها ، فهذه جناية عظمى ، جناية على التلاميذ لأنها صرفتهم عن تعلم حرفة أو زراعة أو تجارة تكسبهم قوتهم إلى سراب خادع أطمعهم فلما جاءوه لم يجدوه شيئاً ، وجناية على آبائهم لأنهم أرهقوا من أمرهم عسراً لغاية لم ينالوها ، وجناية على الأمة لأنها حرمتها من كد صفوة من شبابها فى الأعمال المنتجة ورمت بهم فى زمرة غير المنتجين .

يقولون من حق من يطلب العلم ألا تغلق أبوابه دونه ، ومن حقه أن تيسر له الدولة سبيله كلما أراد .

ونحن لا تخفى علينا أسرارنا وأغراضنا ، ونعلم أننا لا نريد العلم للعلم ، وإنما نريد الوظيفة ، فعلى الدولة أن تحد من التعليم العالى إذا لم تكن الوظيفة .

وإنا نعلم أن التلاميذ وآباء التلاميذ يتذرعون بحب العلم وبغض الجهل ، فإذا نالوا الشهادة طلبوا الوظيفة وألحوا فى طلبها واعتقدوا أن حقاً على الدولة أن تيسرها لهم .

يقولون إن الديموقراطية توجب أن تيسر الدولة لكل راغب فى الازدياد من التعليم رغبته ـ كأنما الديموقراطية توجب أن تنشر الدولة البطالة والتعطل وتحرم الأمة من جهود شبابها .

إنها رغبات مخطئة ، ويطالب من الدولة أن تلبيها فتتوسع فى التعليم وتكدس الطلاب فى الفصول ، ثم لهم الوظائف أخيراً .

لو تغير هذا الأساس الفاسد فى التعليم لما كانت هناك أزمة فى الجامعة ولما كان هناك عدد جم من المتعطلين وكان أولياء التلاميذ لا يسرفون فى الطمع فى وظائف الدولة لأنهم يعلمون أنها ضئيلة ومحدودة ، ويتجهون بأبنائهم إلى ناحية الرزق الطبيعى من الأرض والأسواق والمعامل .

إلى أن يكون ذلك ، وإلى أن يصلح التعليم فيعنى بتربية الأخلاق والملكات ويعلم البحث العلمى ، ويعين على الإنتاج الفكرى ، ويربى فى المتعلمين ملكة الإقدام والمغامرة والاعتماد على النفس ، يجب أن يحد من هذه المصانع التى تصنع الموظفين ولا يكون منها إلا ما تمس إليه الحاجة .

فى حديث للسيدة سهير القلماوى أن بعض حملة شهادة كلية التجارة لم يجد وظيفة فى هذه الأيام ، فعلق شهادته على عربة وسار حول الجامعة يبيع لباً ، ليعبر بذلك عن سخطه على الجامعة ، ولو كنا نحسن الاعتبار لسخطنا على ميولنا وميول آبائنا وعلى فكرتنا فى التعليم .

يقولون إننا سنرفع التعليم العالى ونزيل عيوبه ونجعله يربى فى المرء الشجاعة والإقدام والاعتماد على النفس فلا خوف بعد من التعطل لأن المتخرجين إما أن يجدوا أماكن فى وظائف الدولة ، وإما أن يجدوا أماكن فى الحياة الحرة .

قلنا فلنتريث فى التوسع فى التعليم حتى يصلح ، أما وهو بهذه الحال فحرام أن نتوسع فيه وأن نشير بالتوسع فيه .

التوسع فى التعليم الابتدائى :

وأما التوسع فى التعليم الابتدائى أو فى التعليم العام ، فهذا مالا يخالف فى وجوبه أحد ، ولكن مع المحافظة على الجودة فى التعليم .

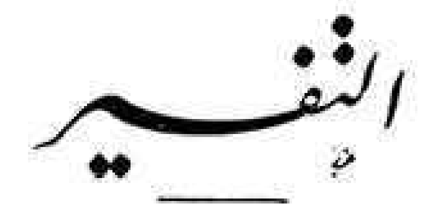
لقد أصيبت مصر بحمى التوسع فى التعليم فى السنين الأخيرة ، فلم تسر إليه رويداً وعلى مهل ، محافظة على الجودة وعلى تثقيف العقول وتهذيب النفوس وتنمية الملكات . ولم تنظر إلى إمكانيات الدولة ولا إلى الظروف الاجتماعية ولا إلى مرافق الإنتاج الأخرى التى هى بأشد الحاجة إليها - بل سارت إليه قفزاً وطفرة ، فلم يعقها مكان ولا إمكان ، لحشدت التلاميذ فى الردهات وفى الفصول حشداً يمنع المدرس أن يراعيهم ويعنى بهم ، ورمت بنظريات قواعد التربية وقواعد علم النفس ، ومزقت بهما ، وقاست قياساً عجيباً وهو أن الجهل حريق والعلم ماء ، وكما أنه لا ينتقى الماء الذى يطفأ به الحريق فيطفأ ولو بماء آسن كذلك يجب أن يزال الجهل ولو بتعليم فاسد غير صالح .

إذا كان الجهل هو عدم معرفة القراءة والكتابة ، والعلم هو معرفتهما فتلك لا تزيد على أن تكون صنعة يدوية لا تصلح نفساً ولا تربى ملكة - وإن كان العلم معرفة قوانين الكون وطرق تربية الملكات من العقل والخلق والعاطفة ، وكانت التربية الحقة هى أن يتفوق امرؤ فيما ذكرنا ويطبع تلاميذه على غراره ، فهذا لا يحسنه إلا المعلم الصالح ولا يوصل إليه إلا التعليم الصالح ، وفاقد الشىء لا يعطيه ، فلا تطلب من ضعيف فى العقل والتفكير أن ينمى ملكة العقل فى غيره ، ولا تطلب من ضعيف الخلق لا يؤمن بالفضيلة أن يربى غيره على الفضائل النفسية ، وأن يحليهم بمكارم الأخلاق وحميد الصفات .

إنكم إلى الآن تنظرون إلى التعليم نظرة بدائية ، لا يعنيكم منه إلا الكم دون الكيف ، فجهدكم ينحصر فى كثرة المتعلمين ، أما كيفه وجودته وما الذى يحققه وكيف يربى العقل وينميه ويجعله أقدر على الاستنباط وعلى الابتكار أو على الانتفاع بعلومه وتطبيقها فى الحياة ، وكيف يربى العزم والشجاعة والاستقلال والاعتماد على النفس ، وكيف يكون مواطناً صالحاً ينفع مجتمعه وينتفع منه ، نقول أما هذا وما ينخرط فى سلكه فلا يعنيكم ، ولا تنظرون إليه ، ولا تفاخرون به ، مع ما تتفاخرون به من الكم والعدد والكثرة .

محمد عرفة

عضو جماعة كبار العلماء



بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهـــدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

بينت الآية السابقة جزاء الله المنافقين على سيرتهم الشائنة المخزية ، وعلى مخادعتهم ومحاولاتهم الناتجة عما اختاروه لأنفسهم من وضع كانوا فيه لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . . . فكان جزاؤهم على ذلك استهزاء الله بهم ، وهو استهزاء من جبار ذى عظمة وجلال وقدرة لا تقادر ، استهزاء من ذى القوة المتين بضعيف مهين حاول مغالبة لجند الله ومخادعة لربهم . وكان إلى الاستهزاء إطالة إغراقهم فى طغيانهم على حيرة مقلقة موقعة لهم فى الاضطراب والفزع . فجاءت تلك الآية فى موضع البيان لهؤلاء الذين استحقوا ذلك الجزاء وجاءت مفصولة غير موصولة ، وجعل المسند إليه فيها اسم إشارة ليكون فى البيان به توضيح وتمييز للمستهزئ بهم ، والممدين فى الطغيان . وفى التعبير عنه باسم الإشارة إعداده جليا للصق المسند به حتى تبدو صورته واضحة وقد لبس وصف المسند ويكون ذلك إذا كان المسند أمراً عجيبا . وهو هنا عجيب إذ كان مؤذنا بغباء الموصوف به وبلادته وظلمة قلبه وتخلف تقديره . فإن هؤلاء قد اشتروا ضلالة بهدى أى اشتروا ظلمة بنور وضعة بشرف وذلة بعزة وضيقاً بسعة . وبماذا يكون الشخص سميك الغباء مغلف القلب مظلم النفس إذا لم يكن كذلك .

عبرت الآية بالاشتراء على سبيل الاستعارة ليتحدد مقدار رغبتهم فى الضلالة ، وزهدهم فى الهدى فإن المشترى يكون شديد الرغبة فيما يشترى ، رغبة تجعله شديد الزهد فيما يبذله من ثمن ، فهم راغبون فى الضلال زاهدون فى الهدى وقد تلا هذا التعبير وهو قوله (اشتروا) ترشيحات أخرى من شأنها أن تقوى بها الاستعارة فجاء قوله (فما ربحت) وقوله (تجارتهم) والمعنى أن هؤلاء قد اشتدت رغبتهم فى الضلالة وارتفعت عندهم قيمتها على قدر ما زهدوا فى الهدى ونزلت عندهم قيمته .

اشتروا الضلالة ظانين أنهم سيربحون فيحصلون على وقايتهم من أذى المؤمنين ، وعلى منزلتهم فى نفوس الكافرين ، منزلة الود والمحبة ، ولكن هيهات أن يتحقق لهم غرضهم هذا وهم على سيرتهم تلك إذ المتردى فى سيره المعوج فى طريقه قد يصعب عليه الوصول إلى غايته إن لم يترد فى طريقه فى حفرة تهلكه قبل الوصول .

لذا كانت النتيجة كما بينت الآية وهو ما فرعته بالفاء على الاشتراء أى قوله (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) أى أنهم اشتروا الضلالة بالهدى ، متجرين فى ذلك محاولين ربح فاسد أغراضهم ووضيع غاياتهم ، ولكن كانت نهايتهم أنهم أولا لم يربحوا فى تجارتهم وعزت عليهم طلباتهم ومقاصدهم ، وثانيا ذهب نور الهدى من حولهم فبقوا فى ظلمة الضلال خاسرين . وما أوجع أن يجتمع على التاجر خسارته وتورطه ، ما أوجع أن يجتمع على التاجر أن ينقطع عن غايته وأن يكون فى ظلمة تعوقه عن التبصر .

وإنه لطبيعى أن تكون عاقبة من يشترى تسفلا بعلو وغموضا بوضوح وضعفا بقوة وانقطاعا بصلة وبغضا بتحبب ومودة وجفوة بعطف وتحنن ، إنه لطبيعى أن تكون عاقبته تلك العاقبة . فهؤلاء المنافقون قطعوا صلاتهم بذوى العزة من المؤمنين وأثاروا كرههم لهم وحاولوا إعداد منزلة لهم فى نفوس الكافرين . ولكنهم لا إلى هؤلاء استقروا ولا إلى هؤلاء اطمأنوا ، وبقوا على حالهم مهددين فى الظلمة حائرين . « مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » .

لما كان اشتراء الظلمة بالنور والذلة بالعزة واشتراء الضلالة بالهدى مما يثير فى نفس السامع العجب ويهيج الدهشة ، فإن فى ذلك التصرف دلالة واضحة على أن طبائع هؤلاء طبائع مركوسة وعلى أن تقديراتهم تقديرات منكوسة كان لابد أن يتساءل السامع : ألهؤلاء فى الناس أمثلة ونظائر لجاءت تلك الآية منفصولة غير موصولة تشرح حال هؤلاء وتبين مثلهم الذى يوضح سوء تصرفهم ، وأنه ليس هناك ما يماثلونه إلا الذى استوقد ناراً ثم بعد إضاءتها ما حوله ذهب نوره وبقى فى ظلمة حالكة لا يبصر بإطلاق لا عن بعد ولا عن قرب ، لا عن اليمين ولا عن اليسار لا ما هو أمامه ولا ما هو خلفه . إذ أن هؤلاء المنافقين لما نزل كتاب الله هدى ونوراً مضيئاً للمستقيم من السبل موضحا الجادة . وكان موقفهم منه هو ذلك الموقف المتردد ، ذلك الموقف الذى سدوا فيه آذانهم وأغمضوا عيونهم ،

وحولوا فيه قلوبهم . فكان القرآن الذى هو الهدى والنور عليهم ناراً محرقة بما كشف من أستارهم وما أبرز من طوياتهم ، وما حرر فى المجتمع من موازينهم .

وما كاد الكتاب الهادى والقرآن المبين - وهو فى حقيقته النور - يضىء ما حولهم ليستبينوا مواطن الهداية ومهابط الرشاد حتى حولوه بسيرتهم ذلك التحويل ، فانقطع عنهم ذلك النور . وأظلمت من حولهم الآفاق ، وراحوا مضطربين لا يركنون إلى المؤمنين ، ولا يستقرون إلى الكافرين . فما أشبه حالهم بحال الذى انطفأ مصباحه فى يده ، وهو فى ظلمة حالكة . فإن الذى تكون حاله تلك الحال ، لا يستطيع سيراً إلى الأمام ولا رجوعا إلى الخلف ولا ميلا إلى اليمين ولا إلى اليسار . وكذلك يكون حال المنافقين فى المجتمع . فهم دائما مضطربون فزعون لا تحل قلوبهم طمأنينة ولا يحل بساحاتهم استقرار نتيجة لما يقومون به فى المجتمع من أن يلقوا كل فريق بوجه غير الوجه الذى يلقون به الفريق الآخر ولن يفوت المجتمع دائما منهم أذى وشر وتفكك وخصام وإن كانوا لا يفوتهم من المجتمع سىء الجزاء - بغضهم واحتقارهم وتجنبهم واستصغارهم - فلا يأنسون ولا يؤنسون ، ولا يسمر إليهم أحد ولا يسمرون هم إلى أحد من الناس . يتحرجون من الناس ويتحرج الناس منهم لحياتهم نكدة وعيشهم مرير . ولا يكون إلا كذلك جزاء المنافقين .

فمعنى الآية على الجملة أن مثل هؤلاء المنافقين مثل الذى حاول إشعال نار حتى إذا أخذت تضىء جوانبه انطفأت وبقى فى ظلمة . وما أشد الظلمة إذ تعقب إضاءة ، وما أعمق ألم الذى تنطفىء ناره وهو فى ظلمة حالكة .

وإذا أنت استعرضت الآية وجدتها تعبر باستوقد دون أوقد رأيت دليل الإعجاز والبلاغة . فإن الاستيقاد يدل على أن هؤلاء قد حاولوا ذلك محاولة هم فيها حريصون على ما حاولوه . ولم يكن تحول النور نارا إلا عن معالجة ورغبة . . . . وترى ثانيا أن الآية قد عبرت بأضاءت دون أنارت . والضوء أعظم من النور ليدل ذلك على مبلغ ما فى القرآن من هدى ورشاد وليدل من ناحية أخرى على عظم مصيبتهم ، فإن الإظلام بعد الإنارة أخف من الإظلام بعد الإضاءة . . . . وترى ثالثاً أنه عبر بذهب الله بنورهم دون انطفأ إيذانا بأنه استئصال لا رجاء معه . . . وترى رابعاً أنه عبر بالذهاب بالنور فلم يقل ذهب الله بضوئهم لأن ذلك قد يخيل أن ذهاب الضوء قد لا يفهم معه ذهاب النور . تعبر بالنور فى ناحية الذهاب ليدل على استئصال النور . فإن ذهاب النور ذهاب الضوء ، وليس ذهاب

الضوء ذهابا للنور . . . وترى خامساً أنه عبر بقوله تركهم ولم يقل ذهب بنورهم ويقرا في ظلمات ليدل بذلك على قطع الصلة بينهم وبين ربهم . وأنهم متروكون غضباً عليهم ونكاية بهم . ثم ختم الآية بقوله (لا يبصرون) وكان يكفى أن يقال تركهم فى ظلمات . ولكنه أراد أن ينص على لازم كونهم فى الظلمات صراحة حتى لا يفوت السامع تصويرهم فى تلك الظلمات . وهكذا نجد فى القرآن دلائل الإعجاز وآيات البلاغة فى كل مقطع نستعرضه من ذلك الكتاب المبين .

يقول الله تعالى : (صم بكم عمى فهم لا يرجعون) جاءت الآية هكذا بدون عاطف مفصولة عما قبلها . وإنما جاءت كذلك لأحد وجهين . إما لأنها بمثابة التأكيد للآية السابقة عليها ، وإما لأنها جواب لسؤال نشأ عن الآية التى قبلها . .

أما الأول : فلأن ما دلت عليه الآية السابقة . من أنهم فرجئوا بعد الإضاءة بظلمة انعدم معها الإبصار انعداما مطلقا . الأمر الذى دل عليه عدم ذكر المتعلق فى قوله : لا يبصرون مما يستلزم اضطراب مشاعر المفاجئين واختلال حواسهم فجاءت تلك الآية للتنصيص على ما فهم لزوما من سابقتها للتأكيد والتثبيت .

وأما الثانى : فلأن الآية السابقة لما دلت على أن عدم الإبصار إنما هو للظلمة التى حاطتهم كان لابد أن يثير ذلك سؤالا مؤداه : أإذا انبلج الفجر يعودون إلى الإبصار والسمع والنطق أى يستردون مشاعرهم ويعود إليهم انتظام حواسهم فجاءت تلك الآية جوابا عن ذلك مبينا أن اختلال مشاعرهم مطرد مستمر . فهم قد صاروا بما رضوه لأنفسهم من وضع دائمى الصمم والبكم والعمى . فهم لا يصيخون لصوت الحق والإرشاد . بل هم لاوون عن الحق أعناقهم مصعرون عن الرشاد خدودهم ، لا ينطقون بحجة لإحساسهم ببطلان ما هم عليه ولا يطرحون شبهة ليزيلوها من ساحة الحق . لأنهم راغبون عن الحق مستهزئون بأهله ، لا يفكرون فيما أقام الله فى الأفق وفى الأنفس من آيات . فهم مغمضون عيونهم عن نظرها إذ لا يقوم فى نفوسهم دافع إلى تدبرها وتقديرها . وما داموا لا يصيخون إلى برهان ولا ينطقون بحجة لهم أو شبهة ، ولا ينظرون فى آية من آيات الكون إذاً فهم صم بكم عمى إذا نودوا لا يسمعون ، وإذا حاولوا النداء لا ينطقون . وإذا أرادوا تكشف الطريق لا يبصرون ويكونون بذلك كالمثبتين فى مكانهم لا هم يستطيعون سيراً إلى الأمام ، ولا هم يستطيعون عودا إلى بدايتهم . فلا إلى الوراء ولا إلى الأمام ،



— ٥ —

٤ – البيت العتيق

« خاتمـــــــــــة »

« وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود »

ألممنا بجوانب الحديث عن البيت العتيق فى كلمات سابقة ، وطوفنا بك حول مناقبه ومباهجه ، حتى تكشف لنا من مثاني القرآن – إلى حد ما – ما له عند الله من قدر ، وما له بين معالم الإسلام من خطر ، وحتى انتهينا إلى صدق الإيمان به قبلة للراكعين والساجدين ، والاقتناع به ملاذاً للطائفين ، وموئلا للعاكفين ، والاطمئنان إليه مثابة للوحدة الدينية : منها تبتدىء ، وعنها تصدر ، وإليها تجتمع وتأتلف ، والاتجاه إليه منارة تشع هدايتها فى الخافقين ، لا يحجب ضوءها حدود إقليمية ، ولا تستأثر بها جنسية على جنسية ، وإنما هو فى ظل العروبة تحت إشراف ولد إسماعيل ، ومكة للناس سواء : العاكف فيه والباد .

ولا إلى اليمين ولا إلى اليسار . وكذلك المنافقون فى كل مجتمع يخطون خطوات إلى الأمام قد يكون فيها ارتطامهم ، وخطوات إلى الوراء قد يكون فيها ترديهم ، وميلا إلى اليمين أو اليسار قد يكون فيه تمزق أستارهم وانكشاف أحوالهم وافتضاحهم فى المجتمع . فتكون حيرتهم فى أمرهم وخشية انكشافهم هى الحبال التى تشدهم إلى مكانهم الذى هم فيه ، والدثر التى تسمرهم فى أوضاعهم التى انتهوا إليها ثم أمسوا لا يستطيعون تحولا عنها . إذا (فهم لا يرجعون) كما جاء فى الآية تفريعا على اختلال مشاعرهم واضطراب حواسهم .

وقى الله المجتمع شر المنافقين وحفظه من سوء طوياتهم وخبيث محاولاتهم إنه هو الحفيظ العليم .

حامد محيسن

عضو جماعة كبار العلماء

لجدير بالبيت الذي هذا شأنه، والذي انعقد به تاريخ الإسلام من فجره الأول، أن نقف منه موقف المحاسبين لأنفسنا عن ما نبدى نحوه من عناية، وما نقدم إليه من تكريم..

فليس يكفي من حقه علينا أن نحج إليه ونطوف حوله، ولا من تكريمنا له أن نتعلق بأهدابه، ونبلل أستاره بالدمع الهتون.

تلقى إبراهيم الأمر بتطهير البيت، وما كان إبراهيم إلا ملبيا بالطاعة، ومبادرا إلى التنفيذ، فن أي شيء - يا ترى - كان التطهير، ولمن يكون القصد في تطهيره؟؟

نتجه إلى أنفسنا بهذين السؤالين، ونتجه إلى أنفسنا في الإجابة عنهما، ولعل من وراء ذلك تنبها من غفلة، وصحوة إلى واجب، ووصولا إلى غرض، وراحة لضمير.

ا - من أي شيء كان التطهير؟ قد يخطر بالبال أن البيت يومذاك كان مدخولا بالأصنام، ولكن هذا لا يجارى الواقع المأثور، إذ لم يكن البيت معبدا مأهولا قبل ذلك بعباد ولا بأوثان، وإنما كان بقعة مباركة مجهولة، عرفها إبراهيم بتوجيه الله، ثم بناها هو وإسماعيل تنفيذاً لأمر الله، ومن يومئذ ابتدأ العهد باتخاذه للعبادة. فإذا شئنا توجيه الأمر بالتطهير إلى الواقع الوجودي، فإنما يراد تطهيره من الأقذار، وتجليته في مظهر حسن يلائم طهره المعنوي وقدره الأدبي، فلا يكون من الإهمال والابتذال كما يكون موضع آخر مهين.

ب - ولمن يكون القصد في تطهيره؟ تفصح الآية بأنه للطائفين والقائمين والركع السجود...

نعم!! فما ينبغي أن يلتاث بالنجاسة، أو يتقذر بالمكروه مكان يطوف به الطائف مناجيا ربه بدعواته، وينهض فيه القائم خاشعا لله في صلاته، ويهوى من قيامه ضارعا بركعاته وسجداته. بل ما ينبغي أن يكون ملتقى الحجيج إلا أبهج ما يروق للعين مظهره، وأروع ما يجذب النفس رواؤه.

فإن لم يكن: - فلا أقل من نظافة - والنظافة في حساب الفطرة وقاية مطلوبة ومرغوبة، وأيسر ما يفي منها بالتكليف أن تتوفر الطهارة من اللوث والقذر، حتى تكون كرامة البيت غير مشوبة. لذلك أوحى إلى إبراهيم فيما أوحى من شأن هذا البيت أن ينشط إلى تطهيره مما هنالك، والتطهير أيسر مقدور.

وهل يقف الأمر بالتطهير عند هذا الحد ، ويضيق عما يحدث بعد ؟ لا !!

وإنما الأمر فى مثل هـذا ممتد فى الزمن ، وشامل لكل ما لا يتفق وصيانة المسجد الحرام ، فهو واصل إلينا فيما وصل من شريعة إبراهيم « . . ملة أبيكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل ، وفى هذا . . . » والتطهير المطلوب به يتعلق بكل ما يتكشف عنه الزمن من أرجاس . . ولقـد بدت عناية الإسلام فى حرص على تطهير المساجد عامة حتى ذاد عنها أسباب الفلثة ، فحماها من ولوج أصحاب الأحداث المغلظة ، وبالغ أكثر من ذلك فى صيانة البيت الحرام حتى منع من لا يدين به أن يقترب منه ، واعتبر الكفر به نجاسة تقتضى البعد عنه . . « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » ، كل ذلك ليتوفر للبيت العتيق إجلاله ، وتكمل له قداسته ، ويظل مناط الثقـة فى نقاوته ، ويبعث الحياة الروحية بنفحاته .

بل لم تقف عناية الإسلام بتطهير المساجد عند الجانب السلبى بمنع الأنجاس أن تتسرب إليها فرفع من شأنها حتى كلفنا أن نتأهب لدخولها بالتزين فى ملبسنا ومظهرنا : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » ، فما بالك بمسجد أفسح له القرآن كثيراً من آياته ، وأضفى عليه ما أضفى من الخصائص ، حتى جعل ثواب الصلاة فيـه يعدل ثواب الصلاة فى غيره مائة ألف مرة ، ولم يقاربه فى هذا إلا مسجد اشتملت روضته على أكرم جثمان على الله ـ مسجد المدينة ـ فإن ثواب الصلاة فيه يعدل ثواب ألف فى سواه من مساجدنا ، وذلك ما عرفناه عمن لا ترقى إلى صدقه شبهة ، (صلوات الله وسلامه عليه) .

فإذا اجتمعت الطهارة الحسية للمسلم فى مظهره وفى معبده ، وكان فى هندامه الشكلى متجاوباً مع إيمانه القلبى ، فليس من وراء ذلك إلا نظافة من دخائل النفس ، ونقاوة فى أطواء القلب ، وطهارة فى مخبوء السريرة .

وذلك هو الشعار الحق ، والطابع الصدق لما يبدو من حقيقة المسلم ، وهذا هو الهدف الذى يبتغيه الإسلام إلى أهله فيما كلفهم به من اتخاذ الزينة وتطهير المساجد .

ونفحات القرآن بادية فى كل ذلك ، وقد جلاها قول النبى ﷺ « النظافة من الإيمان » فإذا انتهينا إلى وجهة الإسلام فيما ينشده إلى أهله ، وفيما ينشده للمساجد عامة فهل الأمر فى شأن المسجد الحرام من تكريمه بتنظيفه ، والتنظف له ، على نحو ما تنادى به الشريعة ؟ وتقضى به العاطفة الدينية ؟؟ أولا يستحق هذا البيت كلمة صريحة تبرىء بها الذمة وترضى بها الحق ؟؟

رأيت البيت فى موسم الحج ، وجلت هناك كما يجول الوافدون على مكة ، فوقع تحت النظر ما لا يرضى ، ورأيت من الإهمال ما يكفى لإثارة الغضب ، والنهوض بالعتب على على من بيدهم الأمر ، ولو فرض الله على المسلمين أن يهملوا بيته لما صنعوا به أكثر عما هو عليه اليوم .

أفلم يكن يستحق بيته على الحكومات التى تعاقبت على الحجاز أن تمد كل واحدة منها يد الإصلاح إلى جانب من الجوانب التى حرمت من النظام طوال هذه السنين ؟ ؟ نعم : للعامل الزمنى حكمه ...

ولكن : لو أتيح لبيت الله الحرام نصيب من عناية فى كل عهد من عهوده لكان اليوم أحسن حالا من حاله التى يتأذى لها الحس ، ويجزع لها الفؤاد .

ليس من الإنصاف أن نلقى التبعة كلها على الحكومة القائمة ، فإن عهدها فى الحجاز لم يبلغ ما بلغ عهد سواها من قبل ، ويبدو من المعالم هناك أن تلك الحكومات لم يتسع نطاقها الإدارى أن تشمل البيت ولا غيره من مناسك الحج بشىء من وفاء ، فأصبح للحديث مجال عن البيت ، وعن المسعى ، وعن عرفات . والحديث عن هذه حديث عما يلقاه الجميع من شقاء وعنت ، وهو حديث يستريح إليه المنصفون ، فإن فيه تنبيهاً من غفلة ، وتوجيهاً إلى واجب ، وإن تخيل من تخيل أن فيه مساساً فما قصدت ذلك ولا يدخل فى تقديرى ، وإن كان : فالأمر أمر يجل عن مراعاة خاطر .

من ذا يظن أن بيت الله الحرام الذى تهوى إليه الأفئدة ، وتنحدر إليه الأفواج من كل صوب ، يظل يتوارى بين الأبنية حتى كادت تخنقه لشدة انطباقها عليه ، والتفافها حوله ، مع ما هنالك من قمم عالية تقترب منه ، وتقوم عليها المساكن أشبه - لارتفاع بقعتها - بناطحات السحاب ، وإذا روعى إلى جانب هذا أن مكة محفوفة بالجبال حولها أشبه بالحلقة ، فمن أين يكون جو مكة طيبا ، أو يكفل عدم الاختناق لمن لم يتعود مثل هذا الحصار ؟ ؟

لم تنفرج هذه الأبنية عن بعضها لتدع السبيل إلى البيت ؛ إلا بحارات ضيقة ملتوية ينحدر سالكها من علو ، ويصعد من هبوط ، وعلى جانبيه حوانيت الباعة ، ويكتظ الممر بينها بالمتباعين لعروض مكة التجارية ، وفى اجتيازها على هذا الوصف جهد غير يسير ، وإن الداخل إلى البيت من أى منفذ من هذه المنافذ ليحس بانقطاع الصلة بين ما كان يرتسم

فى ذهنه من تخيلات بهيجة عن موقع المسجد الحرام فى أبهته ، وبين ما يرى بعينيه ، حتى لكأنه فى سوق ريفية تجتمع فى طرقاتها السلع ، ويتدافع أمامها الناس ، فى غير إشفاق ، ولا تمكن من الهوينا .

وإن تكن هناك طرق فسيحة نوعا فهى تدج بالسيارات المتلاحقة ، والمشاة المتلاحمين ، فأنت إذ تتق خطر السيارة يدفع بك دافع إلى اليمين ، وآخر إلى اليسار ، وإذا خطوت فسيلتوى بك المسير لتفسح لمن يقابلك سائراً فى عكس اتجاهك ، وقد يتوقف السير ويكتظ الموقف حتى يشق عليك التنفس ، أو يجر بتدميك العياء .

وعلى هذا الوصف من غير مبالغة طريق السعى بين الصفا والمروة ، وهو فى أى لحظة من اللحظات غاص بالجموع الزاخرة كبحر متلاطم الأمواج .

فإذا اعترضك فى شوطك ثلة من الجند تأخذ سبيلها فى نظام عسكرى ، أو رتل من السيارات يتلاحق فى تتابعه ، فقد يطول بك الموقف حتى يجتاز كل أولئك ويتخطوا طريق السعى المعترض للدرب المسلوك . فانظر : كم يلاقى المحرم فى أشواطه السبعة بين الصفا والمروة ، وخاصة إذا كان الوقت ظهيرة حارة ، أو كان شيخاً مسنا ، أو سيدة حبلى ؟؟

تلك حالة السبل المؤدية بك إلى البيت ، والتى حوله من كل جانب ، وأحسبك لا تكذبنى إذا قلت لك : إن طريق السعى حين يخلو (وهو لا يخلو إلا فى ساعات من الليل ، آخر موسم الحج إذا خف الحجيج إلى المدينة أو إلى أوطانهم) يكون الدرب الممتد بين شعائر الله مسرحا للمعز والخراف ولغيرها مما لا أسميه من الحيوانات ، فكيف يرضى غيور على تلك البقاع أن تكون بهذا الابتذال ؟ ؟

وإذا دخلت إلى رحبة المسجد ، وحومت على زمزم ، وجدتها فى حجرة ، وحول البئر جدار يحيط بها ، ويقف عليه المختصون برفع المياه ومناولتها للراغبين ، والراغبون طبعاً هم جموع تتهالك ويخالف بعضها بعضا ، فإذا بحثت عن نظافة البيت أو طهارته فى هذه البقعة (وهى من الكعبة ومقام إبراهيم على شكل مثلث) وجدت نفسك بين شكوك تساورك ؛ فإن الماء يتموج تحت أرجل المتزاحمين على زمزم ، وأكثر هؤلاء - كما يبدو من شأنهم - لا يعرفون ما ينبغى للطهارة وما لا ينبغى ، والماء ينساب من أرض الحجرة إلى خارجها ، وكذلك هؤلاء يخرجون مبتلة أرجلهم ، ويحوسون فى رحبة البيت المتصلة بحجرة زمزم ،

وجيث يصلي هناك المصلون ، أرأيت أن حكم الطهارة المطلوبة للبيت في كتاب الله يكون حترفاً الآن ، أم هو ساقط في اعتبار المسئولين ؟؟ وما مقدار اطمئنانك على صلاتك وأنت ترى بنفسك هذه الهرادة في مراعاة النظافة والتطهير ؟؟

ثم انظر إلى أولئك الذين يغطون الليل كله في نومهم على الحصباء في رحبة المسجد الحرام ، وما يكون من شأنهم إذا حفزهم البول وليس بقربهم مرافق ، ثم يتخذون من مضاجعهم مرافق ولا حرج عندهم ، لأنهم في الأغلب يحجون البيت بعاطفة قوية ، ولكن الجهل مطبق ، والإدراك مفقود ، والطهارة والنظافة أبعد ما يكون عن معارفهم ، وأعجب ما يعجبك أن ينام الواحد منهم ملء عينيه طول ليله ، فإذا هتف المؤذن لصلاة الفجر نهض ذلك النائم إلى الصف مع المصلين ، وهو لا يدري أن للصلاة طهارة مشروطة ، وكيف تنصح ذلك المسكين ولسانه غير لسانك ، وذهنه لا يفهم بالإشارة والتشخيص ؟؟ رأيت ذلك ، ورأيته نهاراً في محرم تخير أن ينام ضحوته تحت المروحة الكهربائية ، حتى تودى لصلاة الجمعة فعل ما فعل غيره في صلاة الصبح ، وكأن هؤلاء يعرفون أن في الإسلام حجا وكفى ، خليت من يوجههم إلى الصواب !!

ثم — إن حكومة السعوديين أخذت في تنظيم المياه ، وتناولها من زمزم في غير تزاحم ، وذلك بتوزيعها في الأنابيب ، وإعدادها في كل جانب من جوانب المسجد . ولكن بقي ما ذكرت من رعاية هؤلاء ، وبقي توفير المرافق بكثرة وكثرة ، وبقي أن يسلك النظام سبيله إلى عرفات ومنى ، حتى تكون الخيام مبثوثة بين الأقذار ، وحتى لا يجد المرء جرعة الماء إلا بعد شديد الظمأ ، وبعد المساومة وترضية الجشع ، وحتى يجد وضوءا للصلاة في تلك الصحراء في شيء من اليسر .

تلك وأمثالها من المتاعب التي يتعرض لها المحرم ، إلا من خرج في سيارته وانتهى في يسير من الوقت ، وكم عدد هؤلاء ؟ وهم أيسار الحجاز لا من جمهرة المسلمين المغتربين .

قلت : إن العامل الزمني له كبير الأثر في اختناق المسجد بتلك الأبنية القديمة وليست حكومة السعوديين ملومة على ذلك ، ولكنها وقد أصبح الأمر إليها ، ولها من النشاط ما هو مشهود في نواحي الحياة الاجتماعية لديهم فإنا نتجه إليها بالرجاء ألا تغض الطرف

عن أخطاء العهود السابقة وتقصيرها نحو بيت الله وحجاجه ، وإذا كانت المروءة العربية بدت في نهضتها إلى إصلاح الحرم المدني ، ثم منها الترفع والإباء عن تناول المعاونة من الأقطار الإسلامية فإن أمر مكة لأعظم خطرا وأحوج إلى مال أكثر مما يحتاج الحرم المدني .

وما دام الأمر في الواقع أمر المسلمين جميعاً فليس من الحرج أن ترفع مكة نداءها للمسلمين أن يتآزروا في التعاون على ما يقتضيه تنظيم البيت والمناسك من نفقات ، وليس في الناس ولا في تقدير المفكرين ما يمنع ذلك ، ولا معابة فيه ، وإن الاستيلاء على الأملاك المجاورة للمسجد الحرام إن كانت أملاكا شخصية ، أو استبدالها بالنقود إن كانت أوقافا لمشروع لا تنهض به خزانة الحجاز فيما أعتقد ، وإصلاح الوسائل لتعميم المياه والمرافق في عرفات ومنى ليس أهون من سابقه فيما يقتضيه من مال .

وليس عملا منتجا ، ولا تفكيراً صائبا ، ولا أملا مرجوا أن نكل الأمر ونلقي الحمل على عاتق الحجاز ، وليس كريما ولا مستساغا أن يترك الأمر على ما مضى عليه الحال منذ قرون وقرون ، وإن المدنية الحديثة التي امتدت إلى مجاهل الدنيا أو التي أبدلتنا في الحجاز طيارات وسيارات بدل النوق والجمال ، لتأبى أن تستكين إلى هذا الوضع المهين .

هناك عين فوارة عثروا عليها بعد مكة بأميال ، وتعميم الماء منها كفيل بخلق حياة جديدة في مكة وفيما حولها ، فليس ينبغي أن نتوارى عن الموقف ، ونترك حكومة الحجاز ما بين حياء يمنعها ، وعجز يثبطها ، ومتاعب الحج فوق ما يطاق في هذا الزمان ، وفي الإهمال صد للناس عن سبيل الله ، وفي الإنجاز دعاية ، وتشجيع ، ونشر للدعوة الإسلامية ، ولقد سبق إلى شيء من ذلك وزير مصر أحمد حمزة ، فأوجد مولداً كهربائيا ، فكانت الكهرباء للإضاءة وللتهوية بعد المصابيح ، وبعد اصطلاء الحر أزمانا وأزمانا ، فهلا كان لحمزة من حمزات به يقتدون ؟؟

عبد اللطيف السبكي
عضو جماعة كبار العلماء



من أسرار الصوم وآدابه

مكان الصوم من العبادات ـ سر إضافته إلى الله تعالى ـ ضروبه ، والمراد منها فى الحديث ـ من المناهج النبوى فى التربية ـ آثار الصوم الحق فى الفرد والأمة ـ بشائر الصائمين .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : قال الله عز وجلّ : كلُّ عملِ ابنِ آدمَ له ، إلا الصيامَ فإنه لى وأنا أجزى به . والصيامُ جُنّةٌ ، فإذا كان يومُ صومِ أحدكم فلا يرفثْ ولا يَصْخَبْ ، فإن سابّه أحدٌ أو قاتله فليقلْ : إنى صائمٌ . والذى نفسُ محمدٍ بيده لخلوفُ فمِ الصائمِ أطيبُ عندَ الله من ريحِ المسكِ . للصائم فرحتانِ يفرحُهما : إذا أفطر فرحَ ، وإذا لقىَ ربَّه فرحَ بصومِه . رواه الشيخان واللفظ للبخارى .

• • •

أفاض العلماء والباحثون قديماً وحديثا فى حكم الصوم وأسراره ما شاء الله أن يفيضوا ، وجهدوا فى استكشافها ما شاء الله أن يجهدوا . ولكنهم مهما يكشفوا من أسراره الفردية والجماعية ، وحكمه المادية والروحية ، وآثاره الطبية والتهذيبية : فلن يدركوا غايتها ولن يحيطوا بتفصيلها علما .

وأكبر الظن أنهم فى جهدهم هذا يعنون أشد العناية ببيان حكمه وأسراره مستقلا عن سائر أركان الإسلام وشعبه ؛ إذ لم ينل ارتباطه بها وتأثيره فيها من هذه العناية إلا قليلا .

فهل لنا أن نتم النظر فى كشف أسرار الصوم مرتبطا بغيره من شرائع الإسلام وشعبه ومؤثراً فيها ، كما أنعمنا النظر فى أسراره وآدابه مستقلا عنها وبلغنا أمدا بعيدا ؟ وهل لنا أن ننتقل بعد ذلك إلى سائر هذه الشعب فندرس صلة كل منها بأخواتها ومدى تأثيرها فيها ، ثم ندرس صلاتها مجتمعة متعاونة متضافرة ـ كما أعدها العليم الحكيم ـ على إعداد الفرد والأمة ، إعدادا قويا متيناً ، يجدد بناء أمتنا الإسلامية ، ويعيدها سيرتها الأولى ؟

إن مثل الصوم فى أركان الإسلام وشرائعه كمثل المصفاة اللطيفة الدقيقة النقية التى صفت فى نفسها وأعدت لتصفية غيرها . فهى تنقى أعمال الصائم وأحواله ، وشئون جسمه وروحه كلها - دقيقها وجليلها - من سمومها المادية والمعنوية . وعلى قدر نقاء هذه المصفاة ولطفها تكون تنقيتها لغيرها . أو كمثل امتحان سنوى دقيق ، يستغرق من العام شهراً كاملا ، تمتحن فيه أعمال العبد وشئونه حتى تمرن على الإخلاص والقوة ، وتخلص من الدنس والضعف والهزال ، ويتجدد الامتحان كل عام حتى يتخرج الصائم عضواً نافعاً ، ولبنة سليمة قوية فى بناء هذه الأمة الإسلامية .

وإذا كان هذا الامتحان السنوى إجبارياً فى كل عام ، فإن هناك امتحاناً اختيارياً ، سنه معلم الناس الخير ، ومخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربه صلوات الله وسلامه عليه ، سنه فى خلال كل شهر ما عدا شهر رمضان ، بل فى كل أسبوع لمن شاء أن يترق فى معارج الكمال ، ويبلغ الذروة فى فضائل الأعمال .

• • •

وليس الصوم نفسه بحاجة إلى مصفاة أو امتحان : لأن الله العليم الحكيم قد اصطفاه لنفسه ، واختصه من بين العبادات والشرائع بالإضافة إليه ، تكريماً له وتشريفاً ، ومزية له دون غيره من الطاعات : لاجرم أنه يتولى تصفيته وتنقيته على حسب ما قدر لعبده من منزلة ، وما رفعه من درجة ، وقد بات من القضايا الأولية ، أن المزية لا تقتضى الأفضلية .

ولعل السر فى اختصاص الصوم بهذه المرتبة العليا من التشريف والتكريم ، ما قيل من أنه لم يعبد به أحد غير الله عز وجل ، فلم يعظم الكفار فى عصر من الأعصار معبوداً لهم بالصيام ، بل عظموه بصورة الصلاة والسجود والقيام ، والذبح والحلف والنذر ، والطواف والصدقة والذكر ، وما إلى ذلك من فنون الجاهلية وأعمال المشركين ؛ أو لأن الصوم - لخفائه - أبعد ما يكون عن الرياء . فليس للصائم فيه حظ ولا شهرة كما له فى غيره من العبادات ؛ أو لأن الاستغناء عن الطعام والشراب وما إليهما ، من صفات الرب الذى يطعم ولا يطعم ، فأضاف الصوم إليه لأنه يوافق صفة من صفاته الربانية ، وإن جلت صفاته سبحانه عن الشبيه والنظير : « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » .

• • •

ولما كرم الصوم - عز اسمه - بنسبته إليه وحده ، تولى هو أيضاً جزاءه واختص به ،

وتفرد علماً بمقداره وتضعيفه ، وجعله سراً محجوباً لا يطلع عليه أحداً من عباده ، كما كان الصوم نفسه سراً بين العبد وربه . جزاء وفاقاً .

وإذا كانت الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، في أعمال ابن آدم الظاهرة التي أسندت إليه ، وأنبأه الله ثوابها وعظيم جزائها ، فكيف بهذا السر الذي اختص الله به نسبة وجزاء ؟ ! لا جرم أنه جزاء لا يهتدى اليه حساب الحاسبين ، ولا يمتد اليه وصف الواصفين . وإذا كان الصيام نصف الصبر كما صح في الأثر ـ فإن الصائمين في طليعة الصابرين الذين بشرهم ربهم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب .

* * *

وبعد ، فأي صوم هذا الذي كرمه الله ذلك التكريم ، ووفى صاحبه ذلك الجزاء العظيم ؟ ! لا ريب أنه درجات متفاوتة بتفاوت الصابرين المخلصين ، ولعل أدناها أن يتخلى من الآثام الظاهرة والباطنة قولا وعملا ، ويتحلى بالآداب النبوية فقها وهديا . وأما صيام العامة وأشباه العامة ، وهو مجرد الإمساك عن الطعام والشراب وما إليهما مع اقتراف الآثام فليس من الصيام الرباني في شيء . وقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه .

ويرى الزهاد والمتصوفة أن الصوم درجات ثلاث : صوم العوام وهو هذا الذي ذكرناه آنفاً ؛ وصوم الخواص وهو هذا مع اجتناب المحرمات من قول أو فعل ؛ وصوم خواص الخواص وهو الصيام عن غير ذكر الله وعبادته ؛ ثم يزعمون أن هذا الأخير هو المراد في الحديث . وهو زعم لا دليل عليه ، وفيه تحجير لرحمة الله الواسعة وتضييق لفضله العظيم .

* * *

والذي يدل عليه الهدى النبوي في هذا الحديث وغيره ، أن المراد إنما هو الصوم الذي يؤدي وظيفته التي من أجلها شرع ، وحكمته التي من أجلها كتب ، وإليها الإشارة بقوله عز من قائل : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » ، وقوله صلوات الله وسلامه عليه : « الصيام جُنَّة » .

والجنة : السترة والمانع ؛ لأن الصوم الحق يمنع صاحبه من الرفث والآثام ، ومن غضب الله

وعذابه ، كما يمنع المجن ـ وهو الترس ـ صاحبه من السلاح . ومثل من لا يقيه صيامه سهام الذنوب والآثام ، كمثل من لا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، كلاهما لا يزداد من الله إلا بعداً !

* * *

وإذا كان الصيام مجناً لصاحبه وحصناً له من عدوه : نفسه وهواه وشهوته ، وإبليس وذريته فمن كيس الصائم أن يكون يقظان فطناً ، يأخذ حذره أن يخرق العدو مجنه ، أو أن يهدم عليه حصنه ، فيكون فريسة عدو لا يألوه خبالا ، أو ضحية حق هو أشد وبالا ونكالا !

ومن أكيس الكيس ألا يدع منفذاً من منافذ العدو التى يهجم منها عليه إلا سده سداً محكما ، متعهداً هذه المنافذ وسدودها ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وأقرب المنافذ إلى العدو رفث الصائم وصخبه ، وسبابه وجداله ، وما إلى هذا من آفات لسانه الذى بين فكيه !

والرفث : السخف وفاحش الكلام ، وما لا ينبغى إلا بين المرء وزوجه فى غير أوقات الصيام .

والصخب : ويقال بالسين أيضاً ، هو الصياح والخصام وما إليهما من المراء والجدال .

وفى نهيه ﷺ عن أقرب خطايا الصائم وأهونها عليه ، تنبيه على أبعدها منه وأشقها عليه ، كما فى نهيه عز وجل عن التأفيف فى معاملة الوالدين : ليكون أحرى بنهيه عما وراء ذلك من إيذاء وعنف .

وليس الصائم وحده هو المقصود بالنهى عن هذه الصغائر التى قد تكون ستاراً لما وراءها من كبائر ، بل غير الصائم مثله فى أصل النهى ، ولكن يتأكد فى حق الصائم ما لا يتأكد فى حق غيره ، ويطالب الصائم من الاجتهاد والمحافظة والوقار بما لا يطالب به غيره .

* * *

فإذا شاتم الصائم أحدٌ أو خاصمه ، فليعف وليصفح ، ولا يقابلن الشر بمثله ، وليذكر الصوم وحرمته ، وليقل بقلبه ولسانه مرة أو مرتين : إنى صائم ، فذلك أدنى أن يكف عن خصمه وأن يكف عنه خصمه . . ثم لا بأس أن يجلس إن كان قائما ، أو يقوم إن كان جالساً ، فذلك أعون على صرف الشيطان وجنده . فما استعان الشيطان على أحد بمثل غضبه وصخبه .

وفى تذكير العبد نفسه بأنه صائم عند العدوان عليه سفها وجهلا ، تقوية لظهره ، وشد لأزره ، وتمرين لنفسه على تربية الإرادة القوية ، والعزيمة الماضية ، التى لا يحوم حولها جبن ولا تردد ، ولا ينال منها إيذاء مؤذ ولا تثبيط مثبط ، وذلك من آثار التقوى التى هى ملاك الحكمة فى الصيام وشرعته .

ومن لنا بمن يبلغ علماء النفس والتربية منهاج النبى المربى الحكيم صلوات الله وسلامه عليه ، فى تربية أمته على قوة الإرادة ومضاء العزيمة ، بهذا الأسلوب العملى الميسر ، الذى يستوحيه المرء من نفسه لنفسه فيجده أسرع مجيب له وناصر بإذن ربه .

هذا الصائم ـ الوقور المتقى الذى لم يكن ـ بصيامه ـ صورة صماء ممسكة عن الطعام والشراب والشهوة فحسب ، بل كان بصيامه وتقواه ، قوة من جند الله : « وما يعلم جنود ربك إلا هو » ، وكان روحا وثابا إلى المجد والعلا ، سائحا فى ميادين الخير ، والتعاون على البر ، والدفع بالتى هى أحسن ، يهدى إلى سبيل الرشاد بصومه ، ويرفع بناء المكرمات بأيده وعزمه ـ هو الحقيق بأن يزف إليه الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه ، بشارة الرضا والقبول ، والفوز بالمأمول ، ممن بيده الخير كله ، وهو الذى لا يضيع أجر من أحسن عملا .

والخلوف بضم الخاء ـ ويجوز فتحها ـ هو تغير رائحة الفم من أثر الإمساك عن الطعام والشراب ، وتقزز الناس منه أمر طبعى لا لوم عليه ، لكنه عند الله تعالى آية الرضا والمحبة للصائم الذى وصفناه آنفا .

وإنما أقسم صلى الله عليه وسلم ـ وهو الصادق المعصوم ـ توكيدا لهذه البشارة ، وتفريحا لأصحابها . وكان أكثر إقسامه بالذى نفسه بيده وهو ربه ومالك أمره ، إشعارا بتقواه ومراقبته وأنه أعلم بعبده وأقرب إليه من حبل الوريد .

ثم بشر النبى صلى الله عليه وسلم ذلك الصائم ببشارتين أخريين ، كلتاهما من آثار البشارة العامة السابقة : فرحة عاجلة فى ختام كل يوم من أيام صومه ، بتمام عبادته وسلامتها وتوفيق الله له فيها ، ثم برزق الله له ، وإنعامه عليه بالحلال الطيب الذى يعينه على عبادة ربه والإخلاص له ؛ وفرحة آجلة بلقاء ربه راضيا مرضيا ، مستبشرا بجزائه الذى وعده إياه على لسان نبيه دون أن يحسب أو يقدر ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

طه محمد الساكت

الأزهريون والتدريبات العسكرية

حديث لفضيلة الأستاذ الأكبر

زخرت إدارة المعاهد الدينية بجماهير حاشدة من العلماء والطلاب الأزهريين ، وقد قابلوا فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر وذكروا لفضيلته رغبتهم فى الانضمام إلى التدريبات العسكرية التى تنتظم فى هذه الأيام طوائف الأمة على بكرة أبيها ، وقالوا : إنه يجمل بهم أن يكونوا فى مقدمة تلك الطوائف مرانا على حمل السلاح الجهاد فى سبيل الدفاع عن الوطن . وقد استمع فضيلة الأستاذ الأكبر لرغباتهم ، ثم ذكر أن ما يرغبون فيه واجب مقدس فى سبيل الوطن ، وعليهم أن لا يدخروا جهداً فى سبيل الانضمام إلى معسكرات التدريب ، وأن يكسبوا من المران على حمل السلاح وغيره من أدوات الجهاد ما يكفيهم فى ميدان الدفاع عن الوطن .

وقد رأى مندوب « الأهرام » أن يرجع إلى فضيلته ليقف على رأى الإسلام فى هذه التدريبات العسكرية ، فقال فضيلته :

الدفاع عن الوطن ركن من أركان الإسلام ، وفريضة من فرائض عباداته . وإن الاستعداد له ، والتمرن على حمل السلاح وحسن استعماله للقيام بذلك عند الحاجة ، معدود من لوازم هذه الفريضة . والعلماء مطالبون بالعمل به كغيرهم من سائر المسلمين ، بل قبل غيرهم من إخوانهم أفراد الأمة . ولذلك كان علماء الصحابة أسبق الناس إلى ساحات الجهاد ، وأولهم استعداداً له ، ومبادرة لإجابة دعوة الداعى إليه .

ولما استحر القتال باليمامة وغيرها أيام فتنة الردة ، كان علماء الصحابة وحملة كتاب الله فى طليعة المجاهدين والشهداء ، ولذلك بادر الصحابة إلى جمع القرآن وكتابته لئلا يضيع شىء منه مع حفاظه من علماء الصحابة الذين كانوا أسرع من غيرهم إلى نيل مقام الشهادة فى سبيل الله .

وما من حرب نشبت فى صدر الإسلام إلا كان علماء الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان فى طليعة المجاهدين ، وأسماؤهم فى السطور الأولى من قائمة الشهداء ، ومواقفهم فى ساحات القتال وعلى الحدود ، وفى الثغور معلومة مشهورة .

ولما فتح المسلمون صقلية سنة ٢١٢ هـ كان قائد أسطولها والرئيس الأعلى لجيوش الفتح البرية والبحرية إماما من أئمة الفقه وقاضياً من قضاة الشرع ، هو الإمام أسد ابن الفرات تلميذ الإمام مالك بن أنس ، والإمام محمد الحسن صاحب أبى حنيفة وطبقتهما ،

فهو الفاتح الأول لهذه الجزيرة الإيطالية المتيمة التي نعمت بسببه بالحكم الإسلامي الرحيم زمناً طويلا . فكان فاتحها الفقيه الإمام الكبير من أبرع حملة السلاح بيمينه التي اشتهرت قبل ذلك بتدوين أحكام الشرع وبتبيين آداب الإسلام وسننه الرفيعة .

واستشهد أبو الربيع الكلاعي في واقعة أنيجة بالأندلس ، وهو يتقدم الصفوف ، وينادي بالجند : أعن الجنة تفرون ؟ حتى قتل صابراً ، وكان حافظاً للحديث ، مبرزاً في نقده .

وقال ابن خلدون في مقدمته : ربما كانوا يحملون للقاضي قيادة الجهاد في عساكر الطوائف .

وكان القاضي يحيي بن أكثم يخرج أيام المأمون بالطائفة إلى أرض الروم ، وكذا منذر بن سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر من بني أمية بالأندلس .

هكذا كانت حال علماء الإسلام في كل عصر ومصر ، وعند ما حشد صلاح الدين الأيوبي الجيوش الإسلامية سنة ٥٨٣ هـ لقمع الصليبيين وإجلائهم عن فلسطين كان في جحافله عدد لا يحصى من العلماء ، والفقهاء ، والصالحين ، نذكر منهم الإمام موفق الدين عبد الله ابن قدامة المقدسي مؤلف أجود الكتب وأشهرها في الفقه الحنبلي ، وأخاه الأكبر الشيخ أبا عمر مؤسس المدرسة العمرية الشهيرة في سفح جبل قاسيون بدمشق ، وكانت لهما ولتلاميذهما في معسكر صلاح الدين خيام تنتقل مع الجيش من معركة إلى معركة ، ومن نصر إلى نصر حتى ختم الله ذلك الجهاد بموقعة حطين الفاصلة التي انتهت بإخراج جميع الأوربيين من فلسطين .

ولما عظم البغي من وثني التتار ، وزحفت جيوشهم على الشرق العربي ، كان الإمام تقي الدين بن تيمية هو معلن النفير بالجهاد العام ، وهو الذي قدم من الشام إلى مصر لاستنفار حكومتها وشعبها وجيشها للاشتراك في الدفاع ، وكان ابن تيمية في تلك الحرب أول شاهر للسيف مقاتل به ، على ما هو معروف من سيرته ، فكان بذلك من أعلام المجاهدين بالسيف كما كان من أعلام المجاهدين بدروسه ومؤلفاته .

إن جهاد علماء المسلمين في كل كتيبة خاضت غمرات الحرب استمر من صدر الإسلام في كل عصوره ، حتى في العصور المتأخرة اشتهر جهاد الإمامين الشهيدين ، السيد أحمد ابن عرفان من تلاميذ الشيخ عبد العزيز بن ولي الله الدهلوي ، وصنوه الشيخ اسماعيل ابن عبد الغني الدهلوي ، فقد قاما في الهند على رأس جيش من المسلمين في الدفاع عن حياة الأمة ببسالة منقطعة النظير إلى أن نالا مقام الشهادة في سبيل ذلك ، وهما من العلماء الأعلام في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري ، فكان جهادهم امتداداً لما سبقهم اليه أئمة الإسلام وعلماؤه من أقدم عصوره ، وكانوا في ذلك المثل الأعلى لجهود المسلمين في التضحية والجهاد ، وحفظا للأوطان وإرضاء للرحمن ، وعلى غرار هؤلاء الأسلاف يسير العلماء وطلبة العلم الإسلامي في مصر وغيرها كلما دعاهم داعي الجهاد ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

الإسلام لا يقر المحسوبية

حديث لفضيلة الأستاذ الأكبر

إن عناية الإسلام بالناحية الخلقية للفرد والجماعة من أبرز النواحي التي تناولها نصوصه، لأن من أكبر مقاصده تكوين الأمة الصالحة، وأول وسائل ذلك تقويم أخلاق أفرادها وجماعاتها، وحسن توجيههم الى كل ما يرضى الله عز وجل من مكارم الأخلاق. لذلك كانت المحسوبيات والوساطات للتوصل إلى المقاصد من غير استحقاق لها فى مقدمة ما قاومه الإسلام وصان أهله عن الانزلاق فيه. ولو لم يكن منع الإسلام للوساطات والمحسوبيات داخلا فى رسالة الإسلام الخلقية التى قال فيها الرسول صلى الله عليه وسلم: « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »، فإنها داخلة فى إقامة الحق الذى هو ركن عظيم من أركان الإسلام، وقد سماه الله عز وجل « دين الحق » فى مواضع متعددة من كتابه الحكيم.

وأى غمط للحق أكبر من إيثار امرىء بمالا يستحقه من المنافع أو المناصب لأنه محسوب لجهة لا يمت إليها آخر هو أكثر استحقاقا وأهلية لتلك المنفعة أو ذلك المنصب؟. وأى غمط للحق أعظم من أن يحابى امرؤ فى درء حد من حدود الله عنه، أو إعفائه من حق وجب عليه، رعاية لجهة قوية ينتمى إليها، أو وساطة ذى مكانة ما كان لولاها ليعفى من القيام بالحق الذى وجب عليه.

وأكثر المسلمين يحفظون فى ذلك موقف النبى صلى الله عليه وسلم من المرأة المخزومية التى سرقت. فخاطبت قريش أسامة بن زيد ليكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إسقاط الحد عنها، فقال صلوات الله عليه: « أتشفع فى حد من حدود الله! »، ثم أتى المسجد فخطب خطبته المشهورة التى قال فيها: أيها الناس، إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف فيهم تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها ».

ومن هذا الينبوع أخذ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب المبدأ الإسلامي العظيم الذي قرره في رسالته إلى أبي موسى الأشعري واليه على البصرة فقال له فيها: « آس بين الناس في مجلسك وفي وجهك وقضائك . حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك » .

ثم مضى على هذا المبدأ أئمة المسلمين وولاتهم وقضاتهم ، وقد رأس القضاء بأجمعه في الفسطاط عاصمة الوطن المصري ، عظيم من فقهاء الإسلام وهو ابراهيم بن أبي بكر الاجنادي ، فكان مما قاله مترجموه في وصفه : « كان لايقبل وساطة ولا شفاعة ، بل يصدع بالحق ، ولا يولى إلا مستحقا » .

وابراهيم بن إسحاق قاضي مصر ذكروا في ترجمته أنه حكم في قضية لرجل على آخر ، وكان المحكوم عليه قريب الصلة بالأمير ، فتشفع المحكوم عليـــه بالأمير ريثما يصطلح المتقاضيان . فما كان من القاضي إبراهيم بن إسحاق إلا أن أقفل باب المحكمة وترك القضاء وذهب إلى منزله . فأرسل اليه الأمير يسأله الرجوع قائلا للقاضي: إني لا أعود الى الوساطة في شيء أبدا ، وليس في الحكم شفاعة .

ومن المعلوم في أحكام الفقه الإسلامي أن الحاكم ليس له أن يشير على الخصوم بالصلح إلا إذا لم يتبين له الحق .

وقد بقيت هذه الأخلاق في علماء المسلمين حتى أيام الدولة العثمانية ، فقد ذكر التاريخ أن السلطان بايزيد حضر إلى المحكمة بين يدي شمس الدين محمد بن حمزة الفناري قاضي القسطنطينية ليشهد في قضية رفعت اليه ، فما كان من القاضي الفناري إلا أن رد شهادة السلطان ولم يقبلها . ولما سأله السلطان عن وجه ردها قال له : إنك تارك للصلاة مع الجماعة، فبنى السلطان في الحال جامعا أمام قصره وعين لنفسه موضعا فيه ولم يترك صلاة الجماعة بعد ذلك .

فالمسلم الذي يأمره إسلامه برد شهادة شاهد لسبب من الأسباب فيرد شهادته مع أنه صاحب السلطان المطلق عليه ، لاشك أنه ذو دين قد ربى أهله على إقامة الحق في كل الظروف ، وعلى ألا ينحرف أحد منهم عن الحق لأية عاطفة من عواطف الحب والبغض، والرغبة والرهبة.

يروى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه قال لرجل ـ ولعله قاتل أخيه زيد فى يوم اليمامة ـ : إنى أكرهك . فقال له الرجل : وهل تمنعنى بهذا حقاً ؟ قال : لا . فقال الرجل : إذن لا أبالى . إنما يحرص على الحب النساء .

ومثل ذلك موقف أم المؤمنين عائشة من القائد المجاهد معاوية بن خديج السكونى أحد الذين شهدوا فتح مصر ، وكان له جهاد وفتوح فى شمال أفريقيا . فإن أم المؤمنين عائشة كانت تبغضه لما بلغها من أنه كانت له يد فى مصرع أخيها محمد بن أبى بكر . فلما سمعت من الذين جاهدوا تحت لواء معاوية بن خديج ثناءهم عليه ، وذكروا رفقه بهم وبالناس ، نسيت مصرع أخيها وعاطفة الكره للذين كانوا فى مصرعه وقالت : « أستغفر الله ، إن كنت لأبغضه من أجل أخى ، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اللهم من رفق بأمتى فارفق به ، ومن شق عليهم فاشقق عليه » .

وهكذا كان المسلمون والمسلمات فيما تلقوه عن معلم الناس الخير ﷺ من تربية يؤثرون بها الحق والخير على كل شىء . فالحق عندهم فوق العواطف والرغائب والأهواء ، فضلا عن الشفاعات والوساطات .

وبذلك كانوا خير أمة أخرجت للناس ، وسيعودون كما كانوا خير أمة أخرجت للناس إذا عادوا إلى الحق فى إيثاره على صداقاتهم وقراباتهم وآبائهم وأنفسهم .

والذى أصيب به المسلمون أخيراً من خذلان الحق نزولا على ميولهم ورغائبهم وأهوائهم ووساطات من يرجونه أو يخشونه ، إنما هو مرض عارض لهم بعد أن لم يكن فيهم . ولعل عدواه سرت إليهم من الأجنبى الذى بلغ فى أنظمة استعماره لبلاد الإسلام أن صار يؤثر بعض الناس ويقربهم ويعطيهم المناصب والمنافع لاستهوائهم . مع أن الإسلام ينهى عن ذلك وينأى بأهله عن الإسفاف إليه والانزلاق فى مهاويه .

وإن الرجوع بعد اليوم إلى أخلاق الإسلام سيعيد إلى المسلمين إنسانيتهم فى كل ضرب من ضروب الإصلاح والفلاح ، ومنها القضاء على الوساطات والمحسوبيات إلى الأبد إن شاء الله .

كفانا تقليداً فى الفقه

لعل من شر ما تمنى به جماعة من الجماعات ، وبخاصة فى الفترة من فترات نهضة الأمة ، أن يكتفى بعض أفرادها بترتيب المقدمات دون استخلاص النتائج منها ، والاتكال على الدعاوى والأمانى الطوال العراض من عمل جادّ يؤدى إلى تحقيقها ، وإرسال القضايا من غير براهين تؤيدها ، وقد تكون هذه البراهين على حبل الذراع لمن يريد !

وهذه الحالات وأمثالها ، ظواهر نراها كثيراً فى كل آن ، ولكنها أكثر ظهورا هذه الأيام : وهى مع ذلك من أمارات ضعف الهمة وكسل العقل وعدم الإقبال على تناول الحياة تناولا جادا كما يفعل أصحاب الهمم القوية والعقول المستقيمة الراغبون حقا فى السير بالحياة دائما إلى الأمام . ولهذا ، نراهم يتخذون للأمر عدته ، ويسلكون إليه السبل المنجحة .

وقد دأبنا ، نحن فى الأزهر ، منذ زمن بعيد على ترداد هاتين القضيتين :

(ا) صلاحية الفقه الإسلامى ، باعتباره مجموعة من القوانين الإلهية والإنسانية ، لكل زمان ومكان .

(ب) إن هذا الفقه قانون حى خالد ، وقابل للتطور ليناسب كل زمن وبيئة وليصلح أساسا لحل ما ينوبنا من مشاكل مختلفة .

ثم أخذنا هاتين القضيتين سندا وأساسا لما نلح فى طلبه هذه الأيام ، نعنى وجوب أن تكون الشريعة الإسلامية هى المصدر الوحيد لتشريعاتنا وقوانيننا التى تحكم بها الأمة .

ذاك ما نردده ، وهذا ما نلحف فى طلبه ، وهذا وذاك حق فى نفسه ، ولكن لم نسع خطوة واحدة فى تأييده ، وتقديم الأدلة الصحيحة عليه من واقع الفقه وواقع الحياة ومشاكلها التى تتطلب منا أن نقدم حلولها من تراثنا التشريعى المجيد .

إننا اكتفينا بالقضايا نرسلها إرسالا ، وهى وإن كانت صادقة فى رأينا لا بد من التدليل

عليها ليؤمن الآخرون ، كما قنعنا بالأماني نطالب بها ، دون أن نسير في السبيل الذي ينتهي إلى تحقيقها . بل ، إننا لو أردنا أن نسير في هذا السبيل نجد عقبة كبرى تسد أمامنا الطريق وهي عقبة التقليد الذي ران على القلوب والعقول منذ قرون طويلة .

وهذه العقبة صارت مشكلة من مشاكل اليوم ، وصرنا نحس أن لها ناحيتين في كلتيهما يكمن الخطر الشديد بل إن هذا الخطر قد استعلن منذ أمد بعيد . نعني بذلك ناحية الجمود في الفقه والتشريع ، وناحية الطفرة في الاجتهاد بفتح أبوابه لكل من أراد ، فيلج منها من ليس أهلا له .

ثم ! هناك طائفة ، هي الكثرة الكاثرة من رجال الدين والفقه في مصر ، وغير مصر من البلاد الإسلامية ، ترى أن ليس في الإمكان أبدع مما كان ! وأنه ليس لنا أن نحيد عن آراء الفقهاء القدامى التي تملأ كتب الفقه ، في ترتيب أحيانا وفي غير ترتيب أحيانا أخرى . وهم لذلك ، يستمسكون استمساكا شديدا بباب الاجتهاد الذي أقفل منذ قرون حذر أن يحاول أحد من رجال الفقه اليوم فتحه ، فيكون في هذا بلاء شديد .

وهناك في الطرف الآخر جماعة من الشباب ، متأثرون بغيرهم من المفكرين غير الأزهريين ، يرون أنه آن لهذا الباب أن يفتح على مصراعيه بعد طول إغلاق ، وأنه آن لنا أن نجتهد ونستحدث من التشريعات ما يناسب هذا العصر الذي نعيش فيه ، وما فيه حلول صحيحة للمشاكل التي جدت وتجد على مر الأيام .

إلا أن جماعة هذا الطرف ـ وهنا الخطر ـ تظن أن الخطب سهل يسير ، وأنه ما على من أخذ شيئاً من الفقه والقانون إلا أن يخالف ما ذهب إليه رجال الفقه الأقدمون رضوان الله عليهم ، فإذا هو مجتهد ، وإن لم يكن على شيء من العلوم والدراسات التي لا بد منها لمن يكون له أن يتعرض للاجتهاد !

ومن ثم نرى أننا بين طرفين كلاهما غال : مفرط أو مفرط ، وكلاهما خطر ، وكلاهما لا يليق بنا أو بأي من الناس ينتسب للعلم ، ومن ثم نرى أنه خير لنا أن نواجه هذه المشكلة وألا نتعامى عنها ، وأن نعمل على حلها حلا حاسما يعالجها من طرفيها : طرف الجمود والتقليد ، وطرف الرغبة في الطفرة بالاجتهاد .

ولعل هذا الحل هو التوسط بين الطرفين ، فقديما قيل : إن كلا طرفى الأمور ذميم ، وإن خير الأمور الوسط ، وهـذا التوسط نجده فى القرآن الكريم الحكيم نفسه ، وهو الأساس الذى قام عليه مذهب أرسطو فى علم الأخلاق .

وإن من الحق أن الاعتزاز بتراث الماضين من الاجداد والأسلاف أمر طبيعى وغريزى فى الإنسان ، وأنه من العبث والحق أن نحاول التنكر لهـذا التراث والاستغناء عنـه ، وأنه من المستحيل على أحد من الناس أن يقيم علماً من العلوم دون أن يفيد من جهود الماضين وثمار تفكيرهم .

كل هذا حق ، بل حقائق بديهية لا ينكرها إلا أحق عابث ، أو معاند مكابر ، ولكن من الحق أيضاً أن الجمود من سمات الموت ، وأن الحركة هى الخاصة الأولى للحياة : وأن القرآن العظيم نعى فى كثير من آياته الكريمة على التقليد والمقلدين . لأن هذا التقليد للآباء والأجداد ، فى غير حق ومع وضوح الدلائل على بطلان ما يدعو إليه ، كان ولا يزال من أكبر العقبات أمام الإصلاح والمصلحين .

وقد نهى أئمة الفقه أنفسهم ، رضوان الله عليهم وأثابهم خير الجزاء ، عن تقليدهم ، وقد نقل هذا النهى عن الإمام أبى حنيفة وغيره ، ومن ذلك قول الشافعى كما ذكره عنه البيهق : « مثل الذى يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل ، يحمل حزمة من حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدرى » . ويذكر إسماعيل بن يحيى المزنى فى أول مختصره فى الفقه بأنه اختصره من علم الشافعى ليقربه على من أراده ، مع إعلامه نهيه عن تقليده وتقليد غيره ، لينظر فيه لدينه ويحتاط فيه لنفسه [1] .

وليس لأحد منا أن يخلط بين التقليد المنهى عنه ، وبين الاتباع المأمور به والذى أثنى الله تعالى عليه بقوله : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان » فيقول بأن تقليد هؤلاء اتباع لهم يرضاه الله جل ثناؤه . ثم ! ليس لنا أن نلجأ إلى مثل ذلك ، فإن اتباع الجلة من صحابة الرسول ﷺ من المهاجرين والأنصار هو احتذاؤهم فى طرق

---

(١) إعلام الموقعين لابن القيم ، ج ٢ : ١٣٩ - ١٤٠ ، من طبعة منير الدمشقى .

استدلالهم وفى الأحكام الشرعية التى أخذوها من الكتاب والسنة ، وفرق بين هذا وبين التقليد الذى نهوا هم عنه !

وقد ذكر أبو داود أنه سمع الإمام أحمد بن حنبل يقول : « الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبى ﷺ وعن أصحابه ، ثم هو من بعدُ فى التابعين مخير » . كما أنه قال أيضا : « لا تقلدنى ، ولا تقلد مالكا ولا الثورى ولا الأوزاعى ، وخذ من حيث أخذوا » .[1] فأين هذا مما نحن عليه اليوم من تقليدنا غير قليل من الفقهاء المتأخرين ، وجعل آرائهم شريعة واجبة الاتباع !

وهناك ، بعد ما تقدم ، وجه آخر لمشكلة الاجتهاد والتقليد له خطورته أيضاً ، ونعنى بهذا الوقوف على ما نص عليه الفقهاء القدامى فقط . فإن الواحد من له ملكة فقهية ، وله من الخلق والدين ما يعصمه عن الميل مع الهوى ، قد يرى الرأى الصالح لحل مشكلة من مشاكل العصر الاجتماعية أو الاقتصادية فيقال له : ائتنا بنص من كتب الفقه !

يا لله من هذا الجمود ومن هذا اللون من الحجة ! إن كثيراً من مشاكلنا التى تتطلب حلولا تتفق وشريعة الله وقرآنه وسنة رسوله لم تعرض فى الأزمنة المتقدمة ، فكيف نطالب بالإتيان بنص من الكتب السالفة فيها ؟ ولو أنها عرضت فى تلك الأزمنة ، لكان من الراجح جداً أن نرى أولئك الفقهاء قد عالجوها بما يتفق والصالح العام فى زمانهم .

ثم ، كيف نعيب على أهل الظاهر مذهبهم الذى يوجب عليهم الوقوف عند ظاهر الكتاب والسنة ، ويتركون من أجل ذلك التعليل والقياس وسائر أصول الفقه وأدلته الأخرى ؛ ثم لا نعيب على أنفسنا هذه المطالبة بالوقوف عند ظاهر نصوص الفقهاء حتى المتأخرين منهم !

إن رحمة الله ، أيها القوم ، واسعة تسع الناس جميعا فى كل عصر ، وإن الله لا يخلى أمة الإسلام فى كل عصر من بعض من يمكن أن يكونوا أئمة فى الشريعة باجتهادهم متى كانوا

---

(١) إعلام الموقعين لابن القيم ، ج ٢ : ١٣٩ ـ ١٤٠ ، من طبعة منير الدمشقى .

أهلا له . وإن تاريخ الفقه الإسلامي ليؤكد لنا جميعاً أن كثيراً من آراء الأئمة القدامى ، رضوان الله عليهم ، قد تغيرت بتغير الزمن والحال ، ومنهم أنفسهم من رجعوا عن آراء كانت لهم إلى أخرى اقتضتها المصلحة أو ظهور أدلة أخرى لهم ، وقد كانوا في هذا وذاك كله لا يستلهمون أو يتقيدون إلا بالقرآن والسنة الصحيحة .

وإن الأزهر يكون عقيما لو حكمنا أنه ليس من أبنائه ورجالاته الفقهاء من هو أهل للاجتهاد في هذه الأيام ، وإن كلية الشريعة لا تقوم برسالتها إن لم تكن قادرة على إعداد طائفة من علمائها ليكونوا أهلا للاجتهاد ، وإن الله تعالى أرحم بعباده وبالعالم الإسلامي كله من أن يجعلنا دائماً عالة على تراث العصور المتأخرة .

من ذلك كله ، نرى أن الأمر جد خطير ، وأن مشكلة الاجتهاد والتقليد والوقوف عند نصوص الفقهاء المتأخرين بلغت الذروة من التعقيد ، وأننا صرنا في مفترق الطرق ، وأن علينا أن نختار الطريق الذي يجب أن نسير فيه ؛ حتى لا ندع الأمر فوضى ، وحتى لا نظل الشيبة في ذبذبة وحيرة ، بين الجمود وبين الطفرة .

إن من الخير ، بل من الواجب ألا يظل شيوخنا في العلم وزملاؤنا في الدرس على ما عليه أكثرهم من الغلو في التقليد ، وأن يفسحوا صدورهم للآراء الناضجة تصدر عن أهلها ولا تتعارض مع الكتاب والسنة .

وإن من الواجب على أبنائنا وإخواننا ، من الأزهريين ، أن يتريثوا فلا يحاولوا الطفرة ، فإنه ليس في الطفرة في الغالب من الأمر إلا الشر ؛ وألا يحاولوا الوثوب ، فإن في الوثوب في كثير من الحالات دق الأعناق .

وإن علينا جميعا ، في مصر وغيرها من بلاد الإسلام ، أن نحس إحساساً بما لهذه الفترة التي نعيش فيها من خطورة ، وأن نعمل على أن يتطور الفقه ويتسع — في ضوء الكتاب والسنة دائما — ليكون هو المصدر الأول للقوانين التي تحكم بها الأمة .

وهذا ما لا يكون قط بجمودنا ، وإغفالنا تطور الزمن وتنوع أحداثه ومشاكله . هذا الزمن الذي تدور عجلته دائما وفي إسراع ، وتخلف وراءها من لم يتماق بها ويتخذ له مكانا فيها ، وكفانا ما صرنا إليه من تخلف لازمنا قرونا ولازلنا نعاني من عقابيله حتى اليوم .

الدكتور محمد يوسف موسى
أستاذ الشريعة الإسلامية
كلية الحقوق - جامعة فؤاد



وهو ذلك الذى تحدثت فى مقال سابق بما صور فضله ، وأبان قدره ، وتناول بشىء من البسط مبلغ علمه وبصره بالكتاب والسنة والفقه الإسلامى .

وأنا اليوم أحاول أن أتناول بشىء من البسط مبلغ تقواه ، وصفاته النفسية والأدبية ، ونواحيه العظيمة العملية التى انبعثت عن فيض معرفته وعلمه النافع ، وما فيه من مواهب فطرية ، وخصوبة جبلية ، وما كان ينطق به من حكم روائع ، ومعان بدائع ، نضحها عليه قلبه السليم ، ودينه القويم ، وفضل الله العظيم : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب » .

ولعمرك إذا كان الناس كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » ، لقد تمثل هذا المعنى جليا فيما ظهر من عبد الله بن مسعود فى صباه . أول ما اجتمع بمحمد رسول الله قبل أن يؤمن به ، لحرص على تمثيل الأمانة والوفاء . ولم يقبل أن يمنح محمدا وصاحبه شربة لبن من غنم عقبة آجره ، لأنه مؤتمن ، والمؤتمن لا يخون ، فهو من ضميره فى يقظة لا يضطرب ولا يخاف فى الحق لومة لائم . وإن كان فى أمر يتسامح الناس بمثله وهو شربة من لبن لقادم كريم له خطره ومركزه — هو محمد وصاحبه — ضم إلى ذلك ما تعطيه هذه القصة (وقد أوردناها لك من قبل) من معنى آخر ملأه علما وحكمة وجعله من أحبار هـــذه الأمة الأخيار . ذلك هو انقياده للحق واستجابته أيضا لدعوة النفس الباطنة التى لمست نور النبوة فى محمد ، وأنست نفس الحق من قبل ما منح الله عبده من مكرمة ، وأجرى عليه من معجزة . فهو لم يشك كما شك المتجبرون ، ولم يصف المعجزة بالسحر أو الخرافة كما كان يقول الجاهلون . وهنا يتجلى لك فرق ما بين الجبار المستكبر الذى ران على قلبه كبره وبطره ، وختم على سمعه وقلبه وبصره طيشه وغروره واعتداده بمظهره واعتزازه بغير خالقه . وما بين الرضى الحليم والناظر الحكيم وطالب الحق . لقد وصف الله سبحانه أولئك الجبارين فقال : « سأصرف عن آياتى الذين

يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين »، ووصفهم بكثير من الصفات التى جعلتهم شر الخلق وأهل الجهل والكفر. وأحق الناس بجهنم وساءت مصيرا.

ولقد وصف المتواضعين المستضعفين فقال: « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين، تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين »، ووصفهم بكثير من الصفات التى جعلتهم خير الخلق وأهل الإيمان والعلم. ولما سأل هرقل أبا سفيان عن محمد: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قال بل ضعفاؤهم فقال هرقل: هم أتباع الرسل. ذلك بأن فطر هؤلاء أسلم، ونظرهم أحكم، وبصيرتهم أنقى، وقلوبهم أتقى.

وكان عبد الله بن مسعود واحداً من هؤلاء، فهو لم يشك فى الحق مذ رآه، ولا حال دون انقياده تقليد ولا جاه، ولكنه لبى داعى الفطرة، وانتهز للسمو هذه الفرصة، والله ولى المتقين.

كان إذاً أميناً وفياً، وكان بفطرته براً تقياً، منقاداً للحق لا يستبدل به. فقد انقاد لمحمد قبل أن يدعوه، وقد عرف فيه النبى ﷺ بفراسة النبوة ونور اليقين، أنه من أهل العلم الفطرى الذى هو أصح العلوم وهو نور يقذفه الله فى قلب عبده، وهداية إلى الصراط من عنده. فلما قال للنبى ﷺ: علمنى من هذا العلم. قال له « إنك غلام معلم »، وكانت بشرى فتحت أمام عبد الله أبواب الطيران والتحليق فى جو السماء للسمو الروحى والكمال النفسى، وكذلك المؤمن إذا مدح فى وجهه، فلزم باب أمير الأنبياء. وكان ما أعطاه الله عما شاء.

ونرى من عجائب صنع الله فى هذه النفس المتواضعة السامية مظاهر من الجهاد والجلاد والتضحية فى هذا الجسم النحيل الضئيل القمىء الذى كان إذا وقف وازاه الجلوس. وكان إذا صعد شجرة ضحك الناس من دقة ساقيه اللتين يكادان يكونان كساق الطائر فيقول لهم رسول الله: « مم تضحكون؟ لرجل عبد الله أثقل فى الميزان يوم القيامة من أحد ».

ولقد صدق السيد الرسول، فهى رجل طالما سعت فى مرضاة الله، تحمل هذا الجسد الناحل إلى معارك الجهاد ومواقف الجلاد، وتخطو به إلى المساجد لطلب العلم، وإقامة

الصلاة ، وترفعه عن مضجعه بين يدى الله فى جوف الليل إذا ارتخت رجل النائم الغافل ، ما سارت به فى ريبة ، ولا حملته نحو فاحشة ، ولا سعت به إلى نميمة ، فأى رجل أجدر منها أن تكون ثقيلة فى الميزان ، وإن خفت فى هذا الجسد الفانى .

فأنت قد قرأت أنه أول من جهر بالقرآن، فى سورة الرحمن ، حين قال المسلمون إن قريشا لم تسمع هذا القرآن يجهر به . ولعله يفتح فى بعض النفوس منهم بابا إلى الهداية أو طريقا إلى تخذيل بعض المعاندين أو المتحاملين الذين يغلون فى العداء ، ولا يبصرون حقيقة الدعوة الكريمة . ثم قالوا : فمن يستطيع أن يسمعهم دعوة الحق فى هذا الكتاب العظيم ؟ وتلكأ الجميع وخافوا عاقبة هذه المخاطرة ، إلا عبد الله ، ذلك الغلام المعلم ، فإنه قال : « أنا ، أنا » . وعندها أشرأبت الأعناق إليه ، وتجمع القوم حواليه . أنت أيها الضعيف فى بدنك ، المضطهد فى بيتك ؟ إنما نريد رجلا له عشيرة تحميه وبيت يؤويه ، وجماعة تدفع عنه السوء . وتراجع الجميع أيضا إلا عبد الله فإنه قال : « أنا وحدى، دعونى فإن الله سيمنعنى » . وعندها علم القوم أنه استجاب لداعى فطرته (وهو الغلام المعلم . والمحدث الملهم) .

وأتى عبد الله بن مسعود المقام فى الضحى ، وقريش فى أنديتها بالحرم ، تجتمع حول رؤساء الضلال طوائف طوائف ، فوقف عبد الله يملئه إيمانا حلق فيه بروحه العظيم ، وظهر فيه جبروت نفسه الجبار ، لا يرى إلا الحق ملأ طباق الأرض وآفاق السماء : « بسم الله الرحمن الرحيم . الرحمن علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان » . واستقبلها فقرأها . وطاشت أحلام قريش ودهشوا لهذا المظهر ، فقاموا إليه بحكم العادة الآلية ينهالون عليه ضربا فى وجهه وسائر بدنه ، وهو سائر فى قراءته مطرد فى انجاهه ، لا يحس ما يجرى عليه ، ولا يفكر إلا فى صفات الرحمن ، وما أنشأ فى الأكوان . وهذا الذى تحمله السورة من معان . ولا يقف إلا بروحه الطاهرة ، ونفسه السماوية . ولو كان يعمل بهذا الجسد لما كان فكر بالأمس ، ولما احتمل ذلك الضرب القاتل هذا اليوم .

لو كان عبد الله يعمل بهذا الجسد . لما قال لأصحابه من الصف الأول المحمدى وقد قالوا له : هذا الذى خشيناه عليك : ما كان أعداء الله قط أهون علىّ منهم فى هذا اليوم ، ولئن شئت غاديتهم بمثلها غداً .

ولقد كان عبد الله جديراً أن يغاديهم بمثلها لولا أن الصحابة قالوا له حسبك فقد أسمعتهم ما يكرهون .

فهذه أيضاً من صفات عبد الله التي جعلت له منقبة في الإسلام لم يسمع بمثلها إلا عن عمر ابن الخطاب حين دخل الإسلام فأعلنه . ولكن فارقا بينهما لا يجهل ، هو أن لعمر منعة في عشيرته وله قوته المادية ، وأما عبد الله فإن منعته في عشيرة السماء . وأكرم بها ، وفي قوة الروح وأهول بها ، أليس جديراً إذا بهذا الرجل أن يكون أقرب الناس هديا ودلا وسمتا برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حل هذه النفس الكريمة .

أليس جديراً بمثله ذلك ، وقد حاول أن يفتك يوم بدر بعصابة الكفر في زعيمها أبي جهل ولما سُبق إلى ذلك علاه في مصرعه واحتز رأسه وأخذ يجر به حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك له إعجابا وتقديراً .

كان يتمثل في عبد الله ما وصف الله به جماعة الصف الأول أعظم تمثيل : لقد وصفهم الله سبحانه فقال : « والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا » ، فكان عبد الله شديداً على أعداء الحق فيما رأيت من بعض صوره ، رحيما في جماعة الحق فيما استفاضت به أخبار الجماعة من مشابهته لرسول الله في دله وهديه ، وما اطردت به الأخبار من لينه ورفقه .

وقد استطارت الأخبار أن جماعة من خيرة هذه الأمة كانوا عند علي بن أبي طالب فقالوا : ما رأينا رجلا أحسن خلقا من عبد الله بن مسعود ، ولا أرفق تعليما ، ولا أحسن مجالسة ، ولا أشد ورعا . فقال لهم علي : أنشدكم الله ، أهو الصدق من قلوبكم ؟ قالوا : نعم . قال : اللهم اشهد ، إني أقول بمثل ما قالوا وأفضل .

وأما ركوعه وسجوده فحسبك من رجل لزم باب النبي فلم يتركه في سفر ولا حضر حتى كان يرى من هله وهو غلام معلم ، وحريص على الاتباع والإفادة من كل ما في هذا الدين من أدب وتوجيه .

روى صاحب أسد الغابة عن عبيد الله بن عبد الله بن مسعود قال : كان عبد الله إذا نامت العيون قام ، فسمعت له دويا كدوي النحل حتى يصبح .

وروى أبو نعيم بسنده إلى عمر بن الخطاب أنه قال لرجل (في مناسبة) سأحدثك عن عبد الله ، « إنا سمرنا ليلة في بيت أبي بكر ثم خرجنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بيني وبين أبي بكر : فلما انتهينا إلى المسجد إذا رجل يقرأ ، فقام النبي ﷺ يستمع إليه فقلت : يارسول الله أعتمت فغمزني بيده أسكت . قال فقرأ وركع وسجد وجلس يدعو ويستغفر

فقال النبي ﷺ : « سل تعطه » ثم قال : « من سره أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد » الحديث[1] ، والأخبار في قراءته وحب رسول ﷺ لها وثنائه عليها كثيرة ، وإنما المقصود إثبات أنه كان من الراكعين القانتين الذين يبيتون لربهم سجدا وقياما .

وجدير بمثله أن يكون مهذب النفس ، قوى الإيمان بالله حكيما فيما يباشر من أمر في الحياة ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب .

وهل نجد تهذيبا أعظم من ضبط نفسه ، وعدم اغتراره بمركزه ، ووضع كل شيء في موضعه غير مباه ولا فخور ، فقد ولاه عمر بيت المال بالكوفة وما عرف رجل أشد تحفيزاً منه لعياله ، وأقره إلى آخر حياته في حين أخذ على غيره من كبار الصحابة بعض الترخصات ، فعزل بعضاً وأدب بعضاً . ثم بقى في عهد عثمان واليا حتى كانت الفتنة ، وكان يخالف عثمان ولا يخرج عليه التزاما لجانب الأدب وتهدئة الفتنة . ثم استدعاه عثمان فما تلكأ ولا خالف .

ولما قيل له أقم بالكوفة ونحن نمنعك قال قولة الفصل والحكمة والدين : « إن له على حق الطاعة ، وإنها ستكون فتن وأمور ، فلا أحب أن أكون أول من فتحها » فرد الناس وخرج إليه . رحمك الله يا عبد الله لقد تخففت من جميع الأوزار . وتثقلت في كل أعمال الأبرار ، حتى قال فيك حذيفة وهو الناقد العليم بالرجال ، لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أن ابن أم عبد أقربهم وسيلة إلى الله يوم القيامة ، وإنى أسأل القارىء الكريم أن يتأمل قوله (أقربهم وسيلة) فهى عبارة تدل على أن جميع الأصحاب دونه . وهى عقيدة عجيبة جدا ومهما يكن فإن لها دلالتها على مقام عبد الله وأن له أنصارا ومعجبين من خلاصة الصحابة .

وبلغ من رفع محمد ﷺ قدرة أن قال : لو كنت مؤمرا أحدا من غير مشورة لأمرت عبد الله بن مسعود . وقالوا إنه بعد رسول الله ﷺ شهد المشاهد العظيمة ومنها اليرموك بالشام .

---

(١) حلية الأولياء جـ ١ ص ١٢٤

وقالوا إنه مرض فعاده عثمان فقال : ما تشتكى ؟ قال : ذنوبى . قال : فما تشتهى ؟ قال : رحمة ربى . قال : ألا آمر لك بطبيب ؟ قال : الطبيب أمرضنى . قال : ألا آمر لك بعطاء ؟ قال : لا حاجة لى فيه . قال : يكون لبناتك ؟ قال : أتخشى على بناتى الفقر ؟ وإنى أمرت بناتى أن يقرأن سورة الواقعة ، وروى حديثاً فى ذلك عن رسول الله .

وبعد فهذا ابن مسعود أقدم لك منه رجلا فاضلا تقيا عاملا نافعاً مصلحاً صالحاً ، بعد أن قدمته لك قارئاً حافظاً وفقيهاً معلماً . وهو فى كلنا حاليه المثل الأعلى والنمط الذى لا يلحق فإن تقاضيتنى عذرى بنقل أقواله ، فإنى أعتذر إليك على رغم إطالتى عليك ، ولكنى سأورد لك القليل مجتزئا به . والعلم أكثر من أن يحاط به .

وردت عن عبد الله بن مسعود آثار كثيرة فى توجيه القارىء والعالم ، وفى الحث على العلم وطلبه . فمن ذلك قوله « ينبغى لحامل القرآن أن يعرف بليله إذ الناس نائمون . وبنهاره إذ الناس يفطرون . وبحزنه إذ الناس يفرحون . وببكائه إذ الناس يضحكون . وبصمته إذ الناس يخلطون وبخشوعه إذ الناس يختالون ، ولا ينبغى لقارىء القرآن أن يكون جافيا ولا غافلا ولا صخابا ولا صياحا ولا حديدا » .

وقوله : « إن هذا القرآن مأدبة الله ، فمن استطاع أن يتعلم منه شيئاً فليفعل . فإن أصفر البيوت من الخير البيت الذى ليس فيه من كتاب الله شىء . وإن البيت الذى ليس فيه من كتاب الله شىء كخراب البيت الذى لا عامر له . . ! إن هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره . . ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية . . ويل لمن لا يعلم ولو شاء لعلم . وويل لمن يعلم ثم لا يعمل سبع مرات . . ما منكم من أحد إلا أن ربه سيخلو به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر ، فيقول : يا ابن آدم ما غرك بى . ابن آدم بماذا أجبت المرسلين . ابن آدم ماذا عملت فيما علمت . . إنى لأحسب الرجل ينسى العلم كان تعلمه للخطيئة عملها » .

ومن مواعظه التى تدل على صحة توحيده وزهده وإقباله على الله قوله :

« ذهب صفو الدنيا وبقى كدرها ، فالموت اليوم تحفة لكل مسلم .

ألا حبذا المكروهان الموت والفقر . وأيم الله إن هو إلا الغنى أو الفقر . وما أبالى بأيهما ابتليت . إن كان الغنى ، إن فيه للعطف وإن كان الفقر ، إن فيه للصبر » .

هذه حكمة تعلم الناس عدم التكالب وتلفتهم إلى تبعات الغنى وواجباته ، وأن المال للعطف وإلا فالهلاك .

قال : « لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يحل بذروته ، ولا يحل بذروته حتى يكون الفقر أحب إليه من الغنى ، والتواضع أحب إليه من الشرف . وحتى يكون حامده وذامه عنده سواء » .

« والذى نفس عبد الله بن مسعود بيده ما يضر عبدا يصبح على الإسلام ويمسى عليه ما أصابه فى الدنيا » .

« والذى لا إله غيره ما أصبح عند آل عبد الله ما يرجون أن يعطيهم الله خيرا أو يدفع عنهم سوءا إلا أن الله قد علم أن عبد الله لا يشرك به شيئاً » .

وقال رجل عنده : ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين . أكون من المقربين أحب إلى .

فقال ابن مسعود : لكن هيهنا رجل يود أنه إذا مات لم يبعث ، يعنى نفسه .

وما أكثر مواعظه وجوامعه ومن أعجب المطولات المقبولة إلى نفسى قوله فى حديث طويل : « وأشرف الحديث ذكر الله ، وخير القصص القرآن ، وخير الأمور عواقبها ، وشر الأمور محدثاتها . وما قل وكفى خير مما كثر وألهى . ونفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها . وشر العذيلة حين يحضر الموت . وشر الندامة ندامة القيامة . وشر الضلالة الضلالة بعد الهدى . وخير الغنى غنى النفس . وخير الزاد التقوى . وخير ما ألقى فى القلب اليقين . وشر العمى عمى القلب . والخمر جماع كل إثم . والنساء حبالة الشيطان . والشباب شعبة من الجنون . والفرح من عمل الجاهلية » . الخ ما قال .

رحم الله عبد الله لقد كان أمة يملأ الدنيا على ضآلة جسمه ، وقلة ماله وأحر بأن يقال فى مثله :

والنجم تستصغر الأبصار صورته والذنب للطرف لا للنجم فى الصغر

محمود النواوى

نشأة كتب الأمالي وخصائصها

أمالي المرتضى

المرتضى هو أبو القاسم علم الهدى على بن الطاهر أبي أحمد الحسين ، ينتهي نسبه فى نظر النسابة إلى على بن أبي طالب .

ولد ببغداد فى سنة ٣٥٥ هـ ، وتوفى بها فى سنة ٤٣٦ هـ ، وهو أكبر من أخيه الشريف الرضى الشاعر المشهور .

وصفه ابن بسام الأندلسى فى آخر كتابه « الذخيرة » فقال : « كان هذا الشريف إمام أئمة العراق ، بين الاختلاف والاتفاق ، إليه انتمى علماؤها ، وعنه أخذ عظماؤها ، صاحب مدارسها ، وجماع شاردها وآنسها ، ممن سارت أخباره ، وعرفت به أشعاره ، وحمدت فى ذات الله مآثره وآثاره ، تآليفه فى الدين وتصانيفه فى أحكام المسلمين ، مما يشهد أنه فرع تلك الأصول ، ومن أهل بيت الرسول » .

آلت إلى الشريف المرتضى نقابة العلويين بعد أخيه الشريف الرضى - وهى رياسة آل البيت العلوى والحكم فيهم مستقلين عن طبقات الأمة الإسلامية لما لهم من الاتصال بصاحب الرسالة عليه السلام - ولا يزال فى أكثر البلدان الإسلامية نقابة للأشراف تنظر فى شئونهم ، وإن لم يكن لها من الميزات كل ما كان لها فى حكومة العباسيين أيام حياة الشريف المرتضى .

وكان المرتضى إماماً فى علوم كثيرة كالفقه وعلم الكلام والأصول والأدب والنحو والشعر واللغة ، مما دعا أبا العلاء المعرى إلى مدحه بقصيدة جاء فيها :

لو جئته لرأيت الناس فى رجل ... والدهر فى ساعة والأرض فى دار

قيل إنه مؤلف « نهج البلاغة » المنسوب إلى الإمام على بن أبي طالب ، وقيل إن أخاه الشريف الرضى هو الذى ألفه .

وله ديوان شعر يبلغ العشرين ألف بيت أو يزيد ، ولكن شهرته فى الشعر أقل من شهرة أخيه الشريف الرضى .

والشريف المرتضى فضل كبير على التعليم عند الشيعة ، كان يرعى علماءهم ويجرى عليهم الأرزاق من ماله ، وقد كانت له ثروة طائلة . وجمع عددا كبيرا من الكتب ، واشتهر مجلس علمه ، فكان له تلاميذ كثيرون يحضرون عليه ، قيل إن عددهم بلغ الأربعمائة .

وله مؤلفات كثيرة ، ظلت تدرس مع التوقير فى مدارس الشيعة ، عدة قرون ، خصوصاً كتابه « الذريعة إلى أصول الشريعة » وهو فى أصول فقه الشيعة ، عُنى فيه بمسائل الخلاف أكثر من عنايته بما اتفق عليه .

ومن أشهر مؤلفاته كتابه « غرر الفرائد ودرر القلائد » المشهور بأمالى المرتضى .

هذه الأمالى هى مجالس ، وكل مجلس يبتدىء غالباً بآية من القرآن أو حديث ، ثم يستطرد المرتضى بعد ذلك إلى الشعر والأدب .

وأزهى ألوانها علم الكلام ، وبخاصة آراء المعتزلة ، ففيها تقرير لآرائهم ، ودفاع عن مذاهبهم ، ومناقشة لآراء المعارضين ، والرد عليها .

فن موضوعاتها التى تمت إلى مذهب المعتزلة :

رؤية الله تعالى ـ خلق أفعال العباد ، مسألة إرادته تعالى القبائح والرد عليها ، القول بوجوب الأصلح عليه تعالى .

وإلى جانب هذه الموضوعات الكلامية ، موضوعات طريفة فى الأدب والنقد ، وتأويل الأحاديث ، وأصول اللغة ، وبين هذا وذاك استطرادات فى ترجمة كثير من الشعراء والعلماء ، وتحقيق لأسرار بلاغية فى أسلوب القرآن .

ففيها مثلا حكمة التكرار الواقع فى سورة « الكافرون » وسورة « الرحمن » ، وبيان أن ذلك جار على ما عرف فى أساليب العرب فى بلاغاتهم ، وسوق الأمثلة على ذلك .

وفيها باب فى الجوابات الحاضرة المستحسنة التى تسمى المسكتة . وتمهيد المصنف فى ذلك .

وفيها رد على الآمدى فى نقده لشعر البحترى .

وفيها استرواح بذكر حكايات لطيفة وفكاهات خفيفة .

وفيها ترجمة لكثير من الشعراء والكتاب الذين اتهموا بالزندقة كمطيع بن إياس ، وصالح بن عبد القدوس ، وابن المقفع وبشار بن برد .

وهذه الأمالى عدد مجالسها ثمانون ، تبتدىء بتأويل قوله تعالى (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها . ففسقوا فيها) إلى آخر الآية .

وتنتهى مجالسها بمجلس فى تأويل قوله تعالى (وهديناه النجدين) .

فرغ المرتضى من أماليه هذه أو مجالسه يوم الخميس فى الثانى والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ٤١٣ هـ) .

وقبل أن نسوق أمثلة من تلك الأمالى نجيب عن سؤال يدور فى ذهن الباحث وهو :

كيف أن إماماً من علماء الشيعة يتولى الدفاع عن آراء المعتزلة والترويج لمذهبهم . أما كان الأجدر أن يكون لسانا من ألسنة الدفاع عن أهل السنة ؟

والجواب عن ذلك نقول :

إن المرتضى نفسه جاء فى أماليه بما يصلح أن يكون جوابا ، فقد عقد فى أماليه « المجلس العاشر » جاء فيه .

« اعلم أن أصول التوحيد والعدل مأخوذة من كلام أمير المؤمنين على عليه السلام » .

فالشيعة إذن يعتقدون أن أصول المعتزلة مأخوذة من رأس أئمتهم على بن أبى طالب .

فالمذهب الشيعى ينطوى بطبيعته على اتجاه يخالف اتجاه السنة مخالفة صريحة ، والنزعة الغالبة على التشيع فى المسائل التى لاتتأثر الإجابة عليها بنظرية الإمامة إنما تقترب كثيراً من نزعة المعتزلة ، حتى أن فقهاء الشيعة عرفوا كيف يستعينون بالآراء الاعتزالية على بناء القواعد الخاصة بمذهبهم ، فقد مالوا إلى أن يتسموا بالعدلية ، أى أنصار العدل ، وفى هذا كما يبدو اتصاف باللقب الذى أطلقه المعتزلة على أنفسهم .

ومن مبادىء المعتزلة التى تتجلى فيما أقره فقهاء الشيعة ، مسألة أن الإمام الحق ينتمى إلى مدرسة العدل والتوحيد ، أى إلى مذهب المعتزلة .

وقد قال الشيعة كما قال المعتزلة بأن صفات الله غير ذاته ، وبأن القرآن مخلوق ، وبانكار الكلام النفسى ، وإنكار رؤية الله بالبصر فى الدنيا والآخرة .

كما وافق الشيعة المعتزلة فى القول بالحسن والقبح العقليين وبقدرة العبد واختياره ، وأنه تعالى لا يصدر عنه قبيح ، وأن أفعاله معللة بالعلل والأغراض .

على أن كثيرا من المعتزلة كان يتشيع ، والظاهر أنه عن طريق هؤلاء تسربت أصول المعتزلة إلى الشيعة .

وبعد ، فهاك أمثلة من أمالي المرتضى تصور فنونها المختلفة ، واتجاهاتها المتعددة .

قال في المجلس التاسع :

إن سأل سائل :

ما وجه التكرار في سورة (الكافرون) وما الذي حسن إعادة النفي لكونه عابداً ما يعبدون ، وكونهم عابدين ما يعبد ، وذكر ذلك مرة واحدة يغني ؟

وما وجه التكرار في سورة (الرحمن) بقوله تعالى (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ؟

عن هذا السؤال ثلاثة أجوبة :

أولها : ما حكي عن أبي العباس ثعلب أنه قال : إنما حسن التكرار لأن تحت كل لفظة معنى ليس هو تحت الأخرى .

وتلخيص الكلام : قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون الساعة وفي هذه الحال ، ولا أنتم عابدون ما أعبد في هذه الحال أيضاً ، واختص الفعلان منه ومنهم بالحال . وقال من بعد ولا أنا عابد ما عبدتم في المستقبل ، ولا أنتم عابدون ما أعبد فيما تستقبلون .

فاختلفت المعاني ، وحسن التكرار في اختلافها ، ويجب أن تكون السورة على هذا مختصة بمن المعلوم أنه لا يؤمن . وقد ذكر مقاتل وغيره أنها نزلت في أبي جهل والمستهزئين ولم يؤمن من الذين نزلت فيهم أحد .

والجواب الثاني : وهو جواب الفراء أن يكون التكرار للتأكيد ، كقول المجيب مؤكداً بلى ، بلى ، والممتنع مؤكداً : لا ، لا . ومثله قول الله تعالى (كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون) .

والجواب الثالث : وهو أغربها أني لا أعبد الأصنام التي تعبدونها ولا أنتم عابدون ما أعبد أي أنتم غير عابدين الله الذي أنا عابده إذ أشركتم به واتخذتم الأصنام وغيرها معبودة من دونه أو معه وإنما يكون عابدا له من أخلص له العبادة دون غيره وأفرده بها وقوله (ولا أنا عابد ما عبدتم) أي لست أعبد عبادتكم ، و (ما) في قوله (ما عبدتم) في موضع المصدر كما قال تعالى (والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها) أراد طحيه إياها ، وتسويته لها .

وتلخيص ذلك أن النبي ﷺ قال للكفار لا أعبد آلهتكم ومن تدعونه من دون الله ولا أنتم عابدون إلهى ، وإن زعمتم أنكم عابدون إلهى فأنتم كاذبون إذ كنتم من غير الجهة التى أمركم بها تعبدونه ، فأنا لا أعبد مثل عبادتكم ، ولا أنتم ما دمتم على ما أنتم عليه تعبدون مثل عبادتى .

فإن قيل : أما اختلاف المعبودين فلا شبهة فيه ، فما الوجه فى اختلاف العبادة ؟

قلنا إنه ﷺ كان يعبد من يخلص له العبادة ، ولا يشرك به شيئاً ، وهم يشركون فاختلفت عبادتهما ، ولأنه أيضاً كان يتقرب إلى معبوده بالأفعال الشرعية التى تقع على وجه العبادة ، وهم لا يفعلون تلك الأفعال ، ويتقربون بأفعال غيرها ، يعتقدون جهلا ، أنها عبادة وقربة .

فأما التكرار فى سورة (الرحمن) فإنما حسن للتقرير بالنعم المختلفة المعددة ، فكلما ذكر نعمة أنعم بها ، قرر عليها ، ووبخ على التكذيب بها ، كما يقول الرجل لغيره ألم أحسن إليك بأن خولتك الأموال ؟ ألم أحسن إليك بأن خلصتك من المكاره ؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا وكذا ؟

فيحسن منه التكرير لاختلاف ما يقرره به . وهذا كثير فى كلام العرب وأشعارهم . قال مهلهل بن ربيعة يرثى أخاه كليبا :

وهمام بن مرة قد تركنا ... عليه القشعمان من النسور
على أن ليس عدلا من كليب ... إذا طرد اليتيم عن الجزور
على أن ليس عدلا من كليب ... إذا ما ضيم جيران المجير
على أن ليس عدلا من كليب ... إذا خيف المخوف من الثغور

وقالت ابنة عم للنعمان بن بشير ترثى زوجها :

وحدثنى أصحابه أن مالكا ... أقام ونادى صحبه برحيل
وحدثنى أصحابه أن مالكا ... ضروب بنصل السيف غير نكول
وحدثنى أصحابه أن مالكا ... جواد بما فى الرحل غير بخيل

وهذا المعنى أكثر من أن نحصيه .

فإن قيل : إذا كان الذى حسن التكرار فى سورة الرحمن ما عدده من الآيات ومن نعمه ، فقد عدد فى جملة ذلك ما ليس بنعمة ، وهو قوله تعالى : (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) وقوله : (هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن) فكيف يحسن أن يقول بعقب هذا (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وليس هذا من الآلاء والنعم ؟

قلنا : الوجه فى ذلك أن فعل العقاب ، وإن لم يكن نعمة ، فذكره ووصفه والإنذار به من أكبر النعم ، لأن فى ذلك زجراً عما يستحق به العقاب وبعثا على ما يستحق به الثواب .

مثال آخر :

قال فى « المجلس السابع والأربعين » .

رأيت الآمدى قد أخطأ فى معنى قول البحترى :

من يتطاول على مطاولة العيـــــش تقعقعْ من ملة عمـــده

حيث قال : معنى يتقعقع من ملة عمده أى عظامه يجىء لها صوت إذا قام وقعد من كبره وضعفه . قال وقوله ـ من ملة ـ أى من تملى العيش يريد طوله ودوامه ، ومنه تمليت حبيبك .

والأمر بخلاف ما توهمه ، ومعنى : تقعقع من ملة عمده . أى من تطاول عمره تعجل ترحله وانتقاله من الدنيا ، وكنى عن ذلك بتقعقع العمد . وهذا مثل معروف للعرب ، يقولون : من يتجمع ، يتقعقع ، عمده ، يريدون أن التجمع داعى التفرق ، وإن الاجتماع يعقب ويورث ما يدعو إلى الانتقال الذى يتقعقع معه العمد .

والآمدى مع كثرة ما يدعيه من التنقيب والتنقير على علوم العرب إن كان لم يعرف هذا المثل ومعناه فهو طريف ، وإن كان قد سمعه وجهل أن معنى البيت يطابقه فهو أطرف .

هذان المثلان لا يغنيان فى معرفة قيمة الكتاب عن مطالعته ومدارسته .

عبد الوهاب حمودة
الأستاذ بكلية الآداب . جامعة القاهرة

الجهاد على مراتب العبادة في الإسلام

بيان للأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر

أعد فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر بياناً فى توضيح مراتب الجهاد فى الإسلام ، وتبيان نظامه العسكرى ، فى زمن النبى محمد ﷺ ، وكيف أنه كان يستعرض بنفسه أبناء المسلمين مرة فى كل عام ، وكيف كان يعدهم وهم فى الحول الخامس عشر رجالا مكلفين بأداء ضريبة الدم ، ويجيز لهم حمل السلاح تحت إشراف القيادة ، ونحن ننشر هذا البيان فيما يلى :

الرسالة الإسلامية رسالة (سلام) ومنه اشتق الله اسم (الإسلام) - غير أنها قبل أن تكون رسالة سلام كانت رسالة « الحق » ، ومن تمام رسالة الحق حمايته .

وقد جمع الله سبحانه بين هاتين الحقيقتين فى آيتين متعاقبتين من سورة الأنفال ، فقال عز وجل : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » ، ثم قال بعدها : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » .

فالحق والسلم هما غاية الإسلام ، ولما كان من دأب الإنسانية أن أهل الحق معرضون فيها دائما لبغى أهل الباطل عليهم وطمعهم فيهم واعتدائهم على حقهم ، فقد أمر الله أهل الحق بالاستعداد لحمايته بكل ما فى طاقتهم ، وبكل ما يصل إليه العقل البشرى والعلم الإنسانى من وسائل القوة وفنونها وأنظمتها وصناعاتها بحسب ما تقتضيه حاجة العصر ، وعلى قدر ما تمس إليه الحاجة .

وبالفعل صار هذا « الاستعداد » من آداب الإسلام ومن شيمة المسلمين .

لقد كان من نظام الإسلام العسكرى فى زمن النبى ﷺ أن يستعرض النبى بنفسه أبناء المسلمين مرة فى كل عام ، فمن بلغ منهم الخامسة عشرة عده من الرجال المكلفين بضريبة الدم وأجازه ليحمل السلاح تحت إشراف القيادة وأمره بالاستعداد لإبراز نشاط رجولته ، ومن كان دون الخامسة عشرة رده إلى أن يبلغ هذه السن ، وكان غلمان المهاجرين والأنصار يتنافسون فى هذه الشهادة لهم بأنهم صاروا رجالا ، وأنهم نالوا شرف الانخراط فى سلك

المجاهدين ، ويحزن الغلام منهم أشد الحزن إذا أرجيء إلى سنة أخرى ، حتى إن سمرة بن جندب لما رده النبي ﷺ لأنه لم يبلغ الخامسة عشرة ، قال له : يارسول الله : أجزت فلانا ورددتني ، ولو صارعني لصرعته ! فتبسم ﷺ وقال له : صارعه ! قال سمرة : فصارعته فصرعته ، فأجازني !

وهكذا كان المسلمون أمة دفاع وكفاح وجهاد وتحرير من يوم يبلغون الحلم إلى أن يلقوا الله . فهم في حربهم أمة عسكرية لا يتخلى فيها عن ضريبة الدم أحد من عالم أو تاجر أو سري ، أو عامل ، أو زارع ، إلا أن تشغله الدولة في جهاد آخر هو من لوازم الجهاد العام وفي حالة السلم يتمرنون باستمرار على فنون الحرب واستعمال السلاح .

روى البخاري في صحيحه من حديث سلمة بن الأكوع أن النبي ﷺ خرج على نفر من قبيلة أسلم وهم ينتضلون (أي يترامون بالسهام على سبيل التمرين) فقال لهم : « ارموا بني اسماعيل ، فإن أباكم كان راميا . ارموا وأنا مع بني فلان » ، فلما قال ذلك أمسك الفريق الآخر عن الرمي ، فقال لهم : ما لكم لا ترمون ؟ » قالوا : كيف نرمي وأنت معهم ؟ قال : ارموا وأنا معكم كلكم » .

وفي كتب السنن من حديث عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال : إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه ، والرامي به ، والممد به (أي الذي يناول الرامي النبل ليرمي به) ثم قال : « ارموا ، واركبوا . وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا . كل لهو باطل إلا ثلاثا : تأديب الرجل فرسه ، وملاعبته أهله ، ورميه بقوسه ونبله . ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة عنه فإنها نعمة تركها » .

وفي صحيح مسلم من حديث عقبة بن عامر أيضاً أن فقيما اللخمي قال له : تختلف بين الغرضين (أي بين الهدفين اللذين تسدد السهام نحوهما) وأنت شيخ كبير يشق عليك ؟ فقال له عقبة : لولا كلام سمعته من رسول الله ﷺ لم أعانه ؛ سمعته يقول : « من علم الرمي ثم تركه فليس منا » .

وفي صحيح البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عروة بن الجعد أن النبي ﷺ قال : الخيل معقود في نواصيها الخير - الأجر والمغنم - إلى يوم القيامة » .

وفي سنن أبي داود من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب أن النبي ﷺ كان يضمر الخيل يسابق بها .

والاستعداد للجهاد من تمام الجهاد . بل هو كالسلاح ، عنصر أساسى من عناصره ، وممارسة الاستعداد بنية الجهاد عبادة كعبادة الجهاد . لأن المجاهد إذا لم يستعد للجهاد بالتمرين وممارسة استعمال السلاح لا يقوى على أداء هذه المهمة عند الحاجة إليها .

والمسلمون الأولون كانوا دائما على قدم الاستعداد لكل طارىء حربى ، فلم يستطع عدو أن يفاجئهم بسوء وهم على غرة .

وإن النبى ﷺ كان مفطوراً على اليقظة للطوارىء ، وهو أعظم استعداداً لاستقبالها منهم جميعاً .

روى البخارى ومسلم وأصحاب السنن ومؤلفو كتب السيرة النبوية أن أهل المدينة فزعوا ذات ليلة لصوت استغاثة سمعوه . فانطلق ناس منهم إلى جهة الصوت . فما راعهم إلا أن رأوا النبى ﷺ راجعا قد سبقهم إلى جهة الصوت واستبرأ الخبر على فرس عرى لأبى طلحة ، والسيف فى عنقه وهو يقول : « لن تراعوا » .

وتنظيم الصفوف عند القتال ، وفى التمرين للاستعداد له من أعظم القربات عند الله . والنبى ﷺ كان يقوم به بنفسه ويندب له خاصة رجاله . وقد ذكر الإمام أبو منصور الماتريدى وغيره فى تفسير آية « وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال » أنها تشريع فى تعاهد ولاة الأمر أحوال الجند وتنظيمهم ودفع الخلل والضياع عنهم ، وأن على الأمة طاعة الأئمة فى هذا التنظيم . وللإمام أبى الوليد الطرطوشى فصل فى تفصيل ذلك بحسب نظام الجند فى زمانهم ، وهو فى كتاب (سراج الملوك) وهو يقول : إن على كل أمة إسلامية أن تقوم بالتنظيم العسكرى اللائق بزمانها . ونقل قول الحكماء « الملك بناء والجند أساسه . فاذا قوى الأساس دام البناء ، وإذا ضعف الأساس انهار البناء » .

وكل الذى تقدم خاص بالاستعداد والتمرين فى زمن السلم ، أما الجهاد عند وقوع الحرب فهو أعلى مراتب العبادة فى الإسلام ، والنصوص على ذلك تملأ الكتب .

روى البخارى ومسلم من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال : مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائت بآيات ربه لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع .

وروى البخارى من حديث عبد الله بن عباس أن النبى ﷺ قال : « ما اغبرت قدما عبد فى سبيل الله فتمسه النار » .

نشأة المعاجم اللغوية وتطورها

تدوين اللغة

— ١ —

تنشأ الحاجة إلى تدوين اللغة بتأثير واحد أو أكثر من عوامل مختلفة :

مثل القصد إلى حفظ هذه اللغة عند خشية تلاشيها وذهاب ريحها من اثر الاحتكاك بلغة أو لغات غريبة عليها .

أو الحرص على تسجيل آثارها ، لا سيما إذا بلغت تلك الآثار مستوى غير عادى فى ميادين النتاج العقلى .

أو تيسير تعليمها : لأبنائها أنفسهم ، إذا اتسعت دائرة الناطقين بها ، وتشعبت بهم الأوطان والمنازل ، أو للأجانب الطارئين عليها ، إذا تجلى إقبالهم نحوها ، وحرصهم على الاستمداد من معينها ، والاقتباس من نورها .

أو تسهيل متناولها لاستخدامها فى الترجمة والتأليف ونحو ذلك من الأغراض .

أو محاولة تكملة ما بها من نقص يعوقها عن مجاراة التطور ، وتوسيع نطاقها على نحو يجعلها أداة كافية وافية للتعبير فى شتى فنون البيان .

إلى غير ذلك من العوامل .

إذاً فالشعور بالحاجة إلى تدوين اللغة وليد يقظة فى وعى الناطقين بها ، ونتيجة تقدمهم فى ركب الحضارة ، واتصالهم بأسباب العلم والمعرفة ، وإدراكهم لما يستطيعون أن يقدموه إلى الإنسانية عن طريق لغتهم من وسائل تستحث هذه الإنسانية فى سبل الخير والحق والجمال .

وربما استطعنا أن نستخلص من هذه الحقيقة عدة نتائج :

١ — أنه إذا كانت الحضارة لم تبسط ألويتها على الإنسانية منذ البدء ، بل كانت مرحلة نهائية من مراحل حياتها ، وأدوار صراعها للاحتفاظ بالبقاء ، فلا جرم أن تكون

قد انقرضت لغات أو لهجات بدائية سبقت موكب الحضارة ، قبل أن يهتدى الإنسان إلى وسيلة من وسائل تسجيلها ، أو يشعر بالحاجة إلى هذا التسجيل .

٢ ــ أن هذه الحقيقة قد تفسر لنا ظاهرة متجلية فى كل ما كشف عنه إلى الآن ـ على وجه التقريب ـ من اللغات القديمة ، إذ نجد أكثرها قد وصل إلينا على مستوى من النضج أقرب إلى حدود الكمال .

بل لقد نجد بعض هذه اللغات أقرب إلى غاية الكمال كلما تقهقرنا معها إلى حياتها الأولى ، كالأكادية التى نجدها فى قوانين حورابى ، أميل إلى الاحتفاظ بصورة ثابتة من القواعد والقوالب ، كما أنها أشد حرصاً من الكتابات المتأخرة على متابعة الإعراب ، والدقة فى استعماله .

وقد سُجِّلت العبرانية والسريانية ، مثلا ، فى طور ينم على درجة من الإعلال ، كانت مسبوقة بصورة أتم وأدق وأقرب إلى الكمال .

٣ ــ أن حصول التسجيل اللغوى فى عهد استكمال اللغة ، أو اعلالها المسبوق بالكمال أو ما يشبهه ، ربما كان من الأسباب القوية فى ظاهرة من الاضطراب العلمى تتجلى بوضوح فى نظر القدماء إلى أصل اللغات .

ذلك هو ما نجده عند علماء اللاهوت السابقين على الإسلام (١) ، وعند بعض علماء اللغات الإسلاميين (٢) ، الذين يرون أن اللغات توقيفية علمها الله آدم ، أو نزل بها الوحى على الأنبياء .

فقد تكون هذه الصورة النهائية القريبة إلى الكمال ، التى كانت عليها اللغة عند فحصها أو تسجيلها ، أو قبل ذلك التسجيل ، مدعاة إلى توهم أولئك العلماء أن هذا الكمال لا يمكن أن يكون من صنع بشر (٣) .

وقليل من العلماء القدامى من أدرك سر التطور اللغوى ، واهتدى إلى أن هذا الكمال إن هو إلا صورة ناضجة من النمو اللغوى الحى ، الذى تضافرت عوامل كثيرة على تغذيته وإنضاجه .

---

(١) أنظر الفصلة ١٩ فما بعدها من الاصحاح الثانى من سفر التكوين .
(٢) أنظر المزهر للسيوطى ج ١ ص ٥ فما بعدها (بولاق) .
(٣) أنظر كلام ابن جنى فى الخصائص ج ١ ص ٤٧ (دار الكتب ١٩٥٢) .

على ضوء ما ذكر من وجوه الحاجة إلى التدوين اللغوى ، وباستعراض الأمم ذوات الحضارات القديمة ، نستطيع أن نتبين عند تلك الأمم جميعاً خطوات هدفت إلى تسجيل لغاتها تسجيلا أكثر من الاقتصار على تخليد نتاجها العلمى والأدبى ، أعنى بالتأليف اللغوى المباشر ووضع المجاميع أو المختصرات التى تقصد إلى تفسير طائفة أو طوائف من الألفاظ ، مرتبة على وجوه مختلفة من الترتيب المعنوى أو الموضوعى أو نحو ذلك .

وجد ذلك عند الآكاديين والمصريين والهنود القدماء ، كما وجد عند الإغريق واللاتين ، وفى استطاعة من يعنى بالرجوع إلى تاريخ الأدب عند كل من هذه الأمم أن يجد تحقيق ذلك . بيد أن الرغبة فى وضع ديوان جامع يهدف إلى حصر اللغة ، وضم شتاتها ، ولم شعثها ، أمر لا يزال محتاجا إلى الدليل العلمى التاريخى على وجـــوده عند الأمم التى ازدهرت حضاراتها قبل العرب .

ومن هنا قد نستطيع أن ندعى أن وضع المعجم اللغوى من حيث هو معجم ، أى مرتب على حروف المعجم ، هو من ابتكار العرب لم تسبقهم إليه أمة ، على الأقل إلى أن يثبت بالدليل العلمى ما يناقض ذلك .

وينبغى أن نقدم كلمة موجزة لتحديد ما نقصد إليه .

— ٢ —

اشتهر لفظ : « المعجم » ، فى الأدب الإسلامى للدلالة على نوع من المؤلفات المشتملة على مجموعة من التفسيرات اللغوية أو العلمية ، مرتبة على حروف المعجم .

وحروف المعجم معناها حروف الإعجام ، كالمدخل بمعنى الإدخال ، والمخرج بمعنى الإخراج :

« وقل رب أدخلنى مُدخل صدق وأخرجنى مُخرج صدق » .

وحروف الإعجام أى الحروف التى من شأنها أن تعجم ، أى حروف : أبجد هوز الخ . .

والإعجام من : أعجم الكتاب نقط ، كعجّمه وعجّمه ؛ قال صاحب القاموس : وقول الجوهرى لا تقل عجَمت وَهْم .

وكأن معنى إعجام الحرف هو إزالة ما به من عجمة بوساطة النقط المعين للنطق ؛ وعلى

ذلك فالهمزة فيه بمعنى السلب ، كما فى أقسط بمعنى عدل أى نفى القسط وهو الظلم ، وكما فى أشكى أى أزال الشكوى من شكا .

هذا ، والأصل فى تسمية الكتاب بالمعجم أن ترتب معلوماته على الحروف ، وإذا فلا يصح أن يطلق على غير ذلك من مجاميع اللغة أو غيرها اسم المعجم إلا تجوزا ، مثل كتب الغريب فى اللغة والقرآن والحديث ، التى رتبت على طوائف مختلفة من المعانى والموضوعات ، وغيرها من المجاميع اللغوية التى لم ترتب على حروف المعجم ، كما فى : فقه اللغة للثعالبى ، والألفاظ الكتابية للهمذانى ، والمخصص لابن سيده ، ونحو ذلك؛ وإن تساهل بعض المتأخرين[1] فى إطلاق التسمية بالمعاجم اللغوية على مختلف الكتب التى عنيت بجمع اللغة مطلقا .

وعلى ذلك فالمعاجم اللغوية عند العرب مثل : القاموس المحيط للفيروزابادى ، لسان العرب لابن منظور ، الصحاح للجوهرى ، الجمهرة لابن دريد ، التهذيب للأزهرى ، العين للخليل بن أحمد .

والمعاجم غير اللغوية مثل : الإصابة فى تاريخ الصحابة لابن حجر ، وما شاكل ذلك من كتب الطبقات أو دوائر المعارف المرتبة على الحروف .

— ٣ —

أصل الفكرة فى ترتيب اللغة على الحروف هو القصد إلى الحصر والاستقصاء ، أى حصر المفردات اللغوية واستقصائها حسب الإمكان .

ذلك أن اللغة ليست علماً منهجياً يمكن ضبطه تحت أبواب ، أو قواعد ، أو موضوعات ، كما يتأتى ذلك فى مختلف العلوم والفنون . وإنما اللغة صيغ وأبنية تتألف من الحروف والأصوات على نظام معين ، وصور متعددة داخل هذا النظام ، فالحروف هى الإطار

---

(١) وقع كثير من العلماء المحدثين فى ذلك التساهل ، مثل الدكتور على عبد الواحد وافى : فقه اللغة ص ١٨٩ فما بعدها ، والظاهر أن منشأ ذلك هو التساهل فى ترجمة الألفاظ الدالة على معنى القواميس ودوائر المعارف فى اللغات الأجنبية مثل الكلمات : Dictionnaire, Lexicon, و Vocabulaire ونحوها ، ولكن هذه الكلمات لا علاقة لها فى أصل معناها بالترتيب على الحروف ، وإنما معناها : كتب المفردات أيا كان ترتيبها .

الشامل الذى يضم شملها ، ويجمع شتاتها ؛ وهى التى يمكن بوساطتها - حتى عن طريق الحساب العقلى - استقصاء جميع احتمالات أوزانها وقوالبها .

بقى لنا أن نتساءل : هل ذلك القصد إلى حصر اللغة واستقصائها كان موجوداً عند غير العرب ممن سبقهم من الأمم ، أو أنه لم يوجد أولا إلا عند العرب ، وما الذى دعاهم إلى ذلك ؟

نعم وضعت مؤلفات لغوية قبل العرب - كما ذكرنا - فى تفسير مجاميع من المعانى والموضوعات ، ولكنها كانت بعيدة عن غرض الحصر والاستقصاء بحكم الدواعى التى أوحت بالحاجة إلى ذلك . فقد كانت هذه الدواعى لا تعدو القصد إلى تفسير كلمات غريبة على اللغة لكونها دخيلة فيها ، كما كان الشأن فى القوائم اللغوية الأكادية التى عنيت بتفسير الدخيل فى اللغة السامية الأصل من السومرية الغريبة عنها ؛ أو شرح عبارات وألفاظ أبهم معناها ، أو غمض أصل تكوينها ، بسبب تقادم العهد وتطور اللهجات : أو لغرض التعليم المدرسى الذى يتطلب محصولا من الكلمات ووجوه التعبير يعين الناشئة على التمرس باللغة أو التمكن منها ؛ إلى غير ذلك مما حصل عند الإغريق واللاتين وغيرهم .

بيد أن هناك عاملا هاما ربما كان قد حال بين الأقدمين وبين القصد إلى حصر اللغة واستقصائها . ذلك هو أن اللغة فى طبيعتها كائن حى دائم النمو والتجدد ، قابل للتغيير والتطور . وهذا قد يجعل من المتعذر الإحاطة بها فى جميع بيئاتها وميادين استعمالها ؛ أو على الأقل لابد أن يوجد من المرجحات القوية الملزمة ما يجعل القيام بذلك فرضاً ومقصداً من المقاصد الأساسية .

وأغلب الظن أن مثل هذه المرجحات لم يتحقق وجودها على الوجه الأكمل قبل الإسلام . فالإسلام ، الذى قامت رسالته على الدعوة العالمية إلى الهداية الإنسانية المطلقة ، يصبغ الحضارة العربية بصبغة ربما اختلفت ، من الوجهة التى ذكرنا ، عن جميع حضارات الأمم السالفة ، سواء فى ذلك الحضارات الروحية والمادية .

وبما أن منبع الإسلام ، وشرعة هديه هو القرآن الكريم ، المنزل بلسان عربى مبين ، لا جرم أن تكتسب العربية بسبب ذلك لوناً من القداسة فى أعين المسلمين أجمعين .

وإذا فلابد من إحاطة العربية بكل الوسائل التى تحول دون ضياعها وانحلالها ، وتحفظها من الوهن والسقم ، وتقيد كل شاردة وواردة منها ، وتستبق لها على أقل تقدير الصورة التى

نزل القرآن بها ، والتي تسمح بجعل القرآن على كر الدهور ، ومر العصور شرعة سائغة ، وموردا معيناً .

هذه العقيدة في وجوب دوام اللغة وخلودها على درجة معينة من درجات النمو التي وصلت إليها ، ربما لم تكن قد تغلغلت في أمة من الأمم قبل الأمة العربية (بالمعنى العام) .

نعم كانت اللغة السنسكريتية عند الهنود القدماء لغة مقدسة ، وكانت هذه الفكرة عنها سبباً في بذل كثير من المحاولات العلمية لتخليدها والاحتفاظ بها ، بل لقد تولدت من ذلك أيضاً دواعي التأليف اللغوي الحاضر ؛ ولكن هذا التأليف لم يقدر له البروز إلى حيز الوجود الواقعي ، كما سيأتي .

بيد أن طابع اللغة السنسكريتية ، وطابع ما ألف بها من كتب دينية يختلف اختلافاً بيناً في النظرة العالمية ، والروح الوجودية العملية عن الإسلام .

أما محاولات السريان في مدرسة جنديسابور ، وعنايتهم بدراسة النحو السرياني وضبطه ، فهي بعيدة عن حصر اللغة التي كان تفرعها وتشعب مواطنها أوسع نطاقاً من جهودهم .

وجملة القول أن علماء العربية القدامى كانوا ينظرون إلى عربية القرآن على أنها غاية للنمو اللغوي العربي ، ومثل أعلى لكمال التعبير والبيان ؛ وأن كل تطور في اللغة بعد ذلك لن يكون تطورا نحو السمو والنمو الحيوي ، بل انحدارا إلى الانحلال والاضمحلال المرضي ، وإذاً فلتتضافر الجهود ، وتنشط الهمم إلى بحث وسائل الوقاية والتصحيح والتخليد ؛ لا سيما وقد خاطب الإسلام الإنسانية جمعاء ، وعدها أمة واحدة ، ودخل الناس في دين الله أفواجا .

وإذاً فقد نستطيع أن نفسر حرص العرب منذ عهد صاحب الرسالة ﷺ على صيانة العربية من اللحن والخطأ ؛ وإقبال الناس من شتى الأمم على تعلمها والتضلع منها ، ونشاط كثير من العلماء إلى جمعها وضبطها ، ورواية آثارها ، وتسجيل نتاجها ، وتبوغ عدد غير قليل من الأجانب وبلوغهم الغايات القصوى في إجادة التعبير بها .

كما قد نستطيع على هدى الموازنات المختلفة أن نزعم أن الوعي اللغوي الحافز إلى حماية اللغة وحفظها قبل العرب لم يكن يبرز إلى الواقع إلا بعد أن تجري الأمة المقدمة عليه أشواطاً غير قصيرة المدى في ميادين الحضارة والمرونة ؛ على حين تجلى ذلك الوعي مكتملا عند العرب في مفتتح حياتهم العالية ، وربما قبل انبعاث حياتهم العلمية . « يتبع »

دكتور عبد الحليم النجار
أستاذ بكلية الآداب ـ جامعة فؤاد

ديوان مجد الإسلام

من بدائع الشاعر الإسلامي الكبير أحمد محرم رحمه الله

بتعليق الأستاذ إبراهيم عبد اللطيف نعيم

أصحاب القليب

كانوا أربعة وعشرين رجلا هم : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأمية بن خلف ، وأبو جهل بن هشام ، وعبيدة والعاص ولدا أبي أحيحة ، وسعيد بن العاص بن أمية ، وحنظلة بن أبي سفيان ، والوليد بن عتبة ، والحارث بن عامر ، وطعيمة بن عدى ، ونوفل ابن عبد ، وزمعة وعقيل ابنا الأسود ، والعاص بن هشام أخو أبي جهل ، وأبو قيس بن الوليد ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهمي ، وعلي بن أمية بن خلف ، وعمرو بن عثمان عم طلحة أحد العشرة ، ومسعود بن أبي أمية أخو أم سلمة ، وقيس بن الفاكه بن المغيرة المخزومي ، والأسود ابن عبد الأسد أخو أبي سلمة ، وأبو العاص بن قيس بن عدى السهمي ، وأمية بن رفاعة . أمر النبي ﷺ بهم فألقوا في القليب ، إلا أمية بن خلف فإنه انتفخ في درعه فملأها ، فذهبوا يحركوه فتزايل ، وتقطعت أوصاله ، فألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة :

تلك عقبى البَغْي ، فانظر كيف عادا ... يا له من مُصعَب ألقى القيادا

أرأيت القومَ شراً وأذىً ؟ ... ورأيت القومَ ناراً ورَمادا ؟

غيبوا في حفرة مسجورة (١) ... تخمد الدنيا ، وتزداد اتقادا

ملئت رعباً ، وزيدت رَوعةً ... من عذاب كان ضعفا ، ثم زادا

قف عليها ، وتبين ما بها ... هل ترى إلا انتفاضا وارتعادا ؟

يا لهم إذ زعموا أصنامهم ... تُعجِزُ اللهَ كفاحا وجلادا

جلَّ ربي لم يغادر بأسه ... أنفساً منهم ، ولم يترك عتادا

عاصموا الله ، وعادَوا جندَه ... ورأى الأصنام أولى أن تعادَى

هي غرتهم فضلوا وعتوا ... واستحبوا الكفر بغياً وعنادا

حلقوا بالأمس في طغيانهم ... ثم بادوا في مهاويه وبادا

عظة في الترب كانت فتنةً ... وعذابٌ كان شراً وفسادا

---

(١) موقودة .

كل هنيئاً من قليب قرم [١] ... يبلع الكفار مثنى وفرادى
طال منك الصوم ، واشتد الطَّوَى [٢] ... خذ القرم النهاما وازدرادا
جربوا الحرب ، وجاءوا فلقوا ... مُغماً جلَّى ، وأهوالا شدادا
سمعوا الصوت ، وما من ناطق ... يخبر السائلَ منهم حين نادى [٣]
يا (رسول الله) هم فى شأنهم ... غمرة تطغى ، وبلوى تتمادى
صدق الوعد ، فكل موقنٌ ... يا له منهم يقيناً لو أفادا
أنكروا الحق ، وراموا غيرَه ... فكأنَّ الله لا يجزى العبادا
هكذا من يعبد الطاغوت لا ... يتق رباً ، ولا يرجو معادا
جل ربى وتعالى ، إنه ... بالغٌ من كل أمرٍ ما أرادا
إرفعى يا دولة الحق العمادا ... وأقيمى يا طواغيتُ الحدادا
أى حق ذل فى سلطانه ؟ ... أى زور عز فى الدنيا وسادا ؟
إن لله سيوفاً خُذَّماً [٤] ... وجنوداً لا يملون الجهادا
بعث الأسطول فى آياته ... جائلا يعيى الأساطيل اصطيادا
قوة أرسلها من أمره ... تفتح الدنيا ، وتحتل البلادا
إن كل الخير يا (صفوان) [٥] فى ... مهلك القوم ، فلا تعد الرشادا

(١) القرم الشديد الشهوة للحم .

(٢) الطوى الجوع .

(٣) جاء النبى صلى الله عليه وسلم إلى القليب بعد ثلاثة أيام ثم وقف على شفيره وأخذ ينادى زعماءهم بأسمائهم ويقول : هل وجدتم ما وعد الله ورسوله حقا ؟ فإنى وجدت ما وعدنى الله حقا . وفى رواية : انه قال لهم : بئس عشيرة كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس .

(٤) قواطع .

(٥) جلس عمير الجمحى مع صفوان بن أمية بن خلف بالحجر ، فتذاكرا ما أصاب قريشا يوم بدر وذكر أصحاب القليب ومصابهم . فقال صفوان : والله ما فى العيش خير بعدهم . فقال عمير : صدقت ، أما والله لولا دين على ليس له عندى قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيق بعدى ، لكنت آتى محمدا حتى أقتله وان لى فيهم علة ، ابنى أسير فى أيديهم فاغتنمها صفوان وقال له : على دينك ، أنا أقضيه عنك وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا فتعاقدا على ذلك ، وأخذ عمير سيفه فشحذه وسمه ثم انطلق حتى قدم المدينة ، ودخل به عمر على النبى صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بحمائله فى عنقه . فقال له : أرسله يا عمر

دع (عميرا) لا تهجه واتئد ... إن للعاقل في الأمر اتئادا
أخذ السيفَ صقيلا مرهفاً ... يأخذ الأبطال والبيضَ الحدادا
ظل يسقيه ، وما أدراه ، هل ... كان سماً ما سقاه ، أم شهادا ؟
كره الحق . فلما جاءه ... نبذ الحقد ، وأصفاه الودادا
من حديث أنبأ الله به ... خير من حدث عنه فأجادا
قال : أسلمت لربي ، وكفى ... بالسبيل السَّمح دنيا واعتقادا
إقرأ القرآن ، واتبع هديه ... يا عمير الخير إنَّ ذو الغنى حادا
إنه النور الذي يجلو العمى ... إن السر الذي يحيي الجمادا
أين يا (صفوان) ما أمَّلته ؟ ... أين ما حدَّثتَ تستهوي السوادا ؟ [1]
يا لها داهية طارت بها ... أعقُبُ الجو [2] وقد كانت نآدا [3]
لا تظن الجود دَيْناً يُشترى ... سترى الجود المصفى والجوادا
ستراه وادياً من نعم ... يعجز الآمال سعياً وارتيادا
هو من فيض العباب المرتمي ... يتقصى الأرض مداً واطرادا
(الرسول السمح) والمولى الذي ... يسع الأجيال براً واقتصادا
اقترح ما شئت ، واطمع ، لا تخف ... من ندى كفيه نقصاً أو نفادا
حبذا الموئل فيما تتقي ... من أذى الدهر ، وما أعلى المصادا [4]
سبب لله ، من يعلق به ... لم يخف ضيما ، ولم يخش اضطهادا

= أدن يا عمير ما الذي جاء بك ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم (يعني ولده ، واسمه وهب) قال : فما بال السيف ؟ قال : وهل أغنت السيوف عنا شيئا ؟ قال النبي : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر (وذكر له ما كان بينهما) . فقال عمير : أشهد أنك رسول الله ، الحمد لله الذي هداني للاسلام .

قال النبي لأصحابه حين أسلم عمير : فقهوا أخاكم في دينه ، واقرئوه القرآن ، وأطلقوا له أسيره ففعلوا ، وأسلم ابنه رضي الله عنهما .

كان صفوان يقول لأهل مكة بعد خروج عمير إلى المدينة : أبشروا بوقعة تنسيكم وقعة بدر ! .

أسلم صفوان رضي الله عنه عقب تقسيم غنائم حنين بالجعرانة حين أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم واديا مملوءاً من النعم ، وكان يسمى سيد البطحاء .

(١) السواد : العدد الكثير ومنه السواد الأعظم .

(٢) الأعقب . جمع عقاب .

(٣) النآد . الداهية العظيمة .

(٤) المصاد الهضبة العالية . وأعلى الجبل .

رمضان وشيطانه

تكون منهمكا بعملك أو لهوك مستغرقاً فيه لا تكاد تشعر بنفسك ، فيصل عقرب الساعة إلى الموضع الذى كنت عقدت عليه جرسها ، فينبهك إلى حلول الوقت الذى أنت فى انتظاره . وحينئذ تخرج مما كنت فيه ، وترى كأنك كنت نائما فاستيقظت .

ذلك مثل شهر رمضان مع غيره من أشهر السنة : يكون الناس قبله كالقافلة التى تسرى فى جوف الليل لا تعرف من الوجود شيئا غير أنها تسرى ، فيطلُّ عليها القمر من وراء الجبل فيبدو لها كل أمر من أمورها كأنما هو جديد .

فأهلا بشهر رمضان نجدد به أنفسنا ، ونتنبه لها ، بعد أن كنا فى غفلة عنها .

الناس فى سكرة : فمنهم من يرجع إلى نفسه فيصحو فى رمضان ، وما يزال الصحو يتسع ويشيع فى عوالم نفسه حتى يصير من أهل البصيرة .

ومنهم من يزيده رمضان ارتكاسا فى سكرته ، فلا يخرج منها إلا يوم يجتاز القنطرة التى يجتازها كل ابن أنثى بين حياتين : إحداهما سريعة كالخيال ، وأخرى دائمة دوام الأبد .

رمضان شهر يذكرك بنفسك ، فتخلو بها تحاسبها وتحاسبك . وكم وكم خرج الموفقون من هذا الحساب إلى حياة جديدة يتعجبون كيف كانوا فى غفلة عنها ، وكيف كانت أوهام المجتمع تحجب عنهم جمالها .

فى رمضان نغير حياتنا ، وهذا التغيير ضرورى لتجديد الحياة ، وتجديد الحياة ضرورى لمن يريد أن يلتفت إلى الوراء ينظر فى أى طريق كان سائراً ، ثم يرسل نظره إلى الأمام يكتشف المصير ...

فى رمضان نحاول أن نقهر النفس لنعوِّدها الطاعة العسكرية فى سبيل الواجب ، ومن لا يستطيع أن يحكم نفسه فيصرِّفها على مقتضى المصالح فانه خير كثير .

فى مثل هذا الشهر من كل عام نستقبل رمضان ، فيجب علينا قبل كل شيء أن نعرف رمضان الحقيق الذى نحن مستقبلوه . والحذر الحذر أن يخدعنا شيطان رمضان فيوهمنا أنه هو ، ويصحبنا الشهرَ بطوله ثم يذهب بنا فى داهية ...

هنالك رمضان ، وشيطان رمضان . ويجب أن نكون من الفطنة بحيث لا يضحك علينا شيطان رمضان فيوهمنا أنه رمضان .

رمضان يعلم المسلم الصبر والبشاشة والحلم والرضا ، وشيطان رمضان يورث صاحبه ضيق الصدر والكآبة والغضب .

فإذا جاء رمضان وكنت ممن يدخن فامتنعت عن التدخين ، فإن رمضان يمرنك على الصبر عنه حتى يكون الصبر عنه بحبة لك قد تبلغ بك إلى ترك الدخان بتة بما تسلحت به من قوة العزم وفضيلة الصبر . وأما شيطان رمضان فيعظم لك أمر الدخان ، ويوهمك أنك متألم للامتناع عنه ، وينصح لك بأن تخفف من ألمك بالغضب على من هم دونك من خدمك وأقاربك وذويك ، فيفسد عليك شيطان رمضان ، مزية من مزايا رمضان ، وهى اعتياد الصبر واتخاذه بحبة لك وسلاحا تتق به كثيراً من شرور الحياة .

رمضان يمنعك من الطعام بياض نهارك لحكمة ستدركها إذا راقبت أثر ذلك فى نفسك . وشيطان رمضان يغريك بحشد صنوف الطعام فى جوفك وكرشك حتى تفسد فى ساعة الغروب ما أصلحته عامة نهارك . فتغدو محروما صفاء النفس الذى هو الغرض الأول من صوم رمضان . وتخسر علاج الحمية الذى هو نفع عارض من منافع رمضان الكثيرة .

ورمضان يحبب إليك الاقتراب من ربك فى لياليه ، والقربُ إلى الله منزلة أيسر مزاياها أنها تحجب لذتها عن غير أهلها . وأما شيطان رمضان فيسوق صاحبه إلى المقهى أو السينما أو إلى سهرات أخرى تهرب منها الملائكة وتشهدها الشياطين . وأكثر الصائمين يتفننون فى إعداد هذه السهرات فى بيوتهم وبيوت أصدقائهم أو فى بيوت الشياطين يحسبون أنها جمال رمضان ، وإنما هى جمال شيطان رمضان .

وصائم رمضان تتغلب فيه على ألم الجوع لذة الصبر ، وبهجة الرفق والحلم . أما صاحب شيطان رمضان فيجوع نهاره ويفسد على نفسه ثواب هذا الجوع بما يصحبه من كآبة وغضب وبذاءة لسان ، ثم يفطر إفطار من لا يعرف حكمة الصوم ، ثم يسهر سهر من لا يريد أن يعلم أن نهار رمضان لا يلائمه إلا ليل من جنسه .

إن المسلم الذى يعرف مرامى الإسلام ، ويفهم حكمة الصوم ، يخرج فى رمضان من ضوضاء الحياة المادية التى أحيط بها المزاحمون على توافه الدنيا وزبالتها من أهل القافلة التى تسرى فى الظلام ، فيكون له من رمضان جرس ينبهه إلى التخلق بأخلاق رمضان فى ليله ونهاره ، وهذا سبيل تصفو فيه النفس ، وتتجدد ، وتسمو بصاحبها إلى منزلة من منازل الكمال .

جعلنى الله وإياك يا أخى من أهلها ، وأحيانا إلى أمثاله إن كان الخير فى حياتنا إلى أمثاله .

محب الدين الخطيب

الصوم والتربية النفسية

من مقاصد الشريعة الإسلامية إصلاح المجتمع الإنسانى ، وإقامة هذا الإصلاح على أساس من الخلق الكريم والفضائل الثابتة التى لا يقوم مجتمع فاضل إلا عليها ، كالتعاطف والتراحم والتعاون والتكافل والتحاب والتواد ، والإصلاح لايثمر ثمرته ولا يرجى بقاؤه إلا إذا كان منبعثاً من قلب الإنسان ونفسه وشعوره ووجدانه ، والإسلام يهدف فيما يهدف إليه أن يقوم الإصلاح على أسس روحية وممان نفسية ، لا على أساس من سلطة الحاكم وسطوة القانون فحسب ، وإلا فسرعان ما يمرق الإنسان من قيود الخير والحق والفضيلة إذا غفل الرقيب أو وجد ثغرة ينفذ منها إلى التحلل من سلطان القانون . وقد أشار الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه إلى هذا الأصل الذى يقوم عليه الإصلاح الصحيح بقوله ـ فيما رواه البخارى عنه ـ « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح البدن كله ، وإذا فسدت فسد البدن كله ، ألا وهى القلب » ، ولذلك كثيراً ما نجد القرآن والسنة يدعوان إلى الإخلاص ومراقبة الله وتحسين النيات وتذكية النفوس والخشية من الله ، لأنها دعائم الصلاح والاستقامة .

ومن محاسن الإسلام أنه حينما يدعو إلى تقويم السلوك الإنسانى وجعله موائماً للحق والخير والفضيلة لا يعمل على كبت الغرائز النفسية وتجاهل الفطرة البشرية وإنما يعمل على توجيه الغرائز توجيهاً سليماً ، وتنمية النزعات النفسية الخيرة بحيث تسيطر على أعمال الإنسان وسلوكه الدينى والدنيوى ، وذلك عن طريق التشريعات الحكيمة التى توصل إلى المقاصد الشريفة .

ومن شرائع الإسلام التى تربى النفوس على الأخلاق الحميدة ، وتنمى نزعاتها الخيرة ، شرعة الصوم . وأول صفة ينميها الصوم فى نفس الصائم هى قوة الإرادة ، فالصائم الذى يفطم نفسه عن المآكل والمشارب والشهوات الجسدية والنفسية وهى على قيد الذراع منه مدة

من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ثم يستمر على ذلك شهراً كاملا لا بد أن يخرج من صومه وهو ذو إرادة قوية عاقلة حازمة ، فما بالك إذا تكرر الصوم عاما بعد عام ، بل ماذا يكون الحال لو أنه حرص على أداء الصوم المسنون فى جميع أيام العام حتى يصير الصوم له عادة ، والمسلم إذا تربت فيه قوة الإرادة أصبح مسيطرا على رغبات نفسه فلا يكون عبدا لهواه ولا أسيرا لشهواته ، ومن ثم يملك زمام نفسه ويوجهها التوجيه الواجب ، وحينئذ يسهل عليه الائتمار بما أمر الله وإن كان شاقا على النفس ، والانتهاء عما نهى عنه وإن كان محبوبا لها . وإذا علمنا أن أكثر الفساد والاضطراب فى حياة الناس إنما يأتى من ضعف الإنسان أمام شهواته وأهوائه ، أدركنا ما للصوم من أثر بعيد فى حركة الإصلاح والتطهير وتكوين المجتمع المثالى الكريم ، وما أشد احتياج المسلم الذى تتناوشه زخارف الحياة وزينتها إلى إرادة قوية حازمة تعصمه من الفتن وتقيه شر الزلل ، وعلى قدر تفاوت البشر فى قوة إراداتهم وصلابتهم فى إحقـــاق الحق وإزهاق الباطل تكون منازلهم فى الفضل والكرامة ، وصلاحهم وإصلاحهم .

ولا عجب إذا كان الصوم سمة من سمات الأنبياء والصديقين والصالحين ، وإن اتخذوه وسيلة من وسائل مجاهدة النفس وتربيتها تربية صحيحة ، وأن جعله الله فريضة فى كل شرع ودين ، وصدق الله حيث يقول : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات » .

وإن الأمم فى حياتها لتتعرض لهزات اقتصادية ربما يترتب عليها نقص فى مواد معايشها وأرزاقها ، وغلاء فاحش فى بعض الأسعار ، فلو أن كل إنسان ـ بما كسب من قوة الإرادة ـ كف نفسه عن شهواتها وفطمها عن بعض مستلذاتها وتقشف بعض التقشف ، لمرت كل الأزمات الاقتصادية بسلام ، ولاضطر الجشعون والمستغلون لحاجات الناس إلى الحد من غلوائهم وعرض السلع بأقل من ثمنها المعتاد ، ورحم الله القائل :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع ، وإن تفطمه ينفطم

ومن الصفات النفسية التى يربيها الصوم فى نفس الصائم صفة المراقبة ، مراقبة الله عز وجل فى السر والعلن والغيبة والشهود . والمسلم إذا راقب الله حق المراقبة فقد بلغ غاية

الإحسان . وفى حديث جبريل المشهور الذى رواه الشيخان أنه سأل رسول الله ﷺ فقال : ما الإحسان ؟ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ولا تكاد تجد عبادة تتجلى فيها مراقبة الله مثل الصوم ، فالصائم الذى لا يراقب الله سبحانه ربما يأكل ويشرب فى الخفاء ثم يظهر أمام الناس بمظهر الصائم المتنسك .

فالصوم فى الحقيقة سر بين العبد وبين ربه ، ولا يطلع على حقيقته إلا الله . ولكونه سراً بين العبد وبين ربه أضافه الله إلى نفسه وشرفه بهذه الإضافة ، فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « قال الله تعالى : كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به ، والصيام جنة ، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إنى امرؤ صائم » . الحديث ، ولا يزال الصوم يقوى من صفة المراقبة حتى تصير ملكة من الملكات النفسية ، وإذا صارت ملكة راسخة تحكمت فى سلوك الإنسان ووجهته إلى المسارعة فى الخيرات والإحجام عن المنكرات ، إذ كلما أمرته نفسه الأمارة بالسوء بمنكر تذكر عظمة الله وجلاله وأنه مطلع عليه ومراقب له فتقول له اترك ولعمل الخير أسرع ، وصدق الله حيث يقول : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذاهم مبصرون » . وصلاح الأفراد والجماعات متوقف إلى حد كبير على هذا الوازع النفسى الذى يجعل من صاحبه رجلا حاضر القلب متيقظ الشعور حى الضمير .

ولو أن كل إنسان وكل إليه أى أمر من الأمور راقب الله فى عمله وفيمن تحت يده وتيقن أن هنا محاسبا لايغفل ، لقطع دابر الفساد والشرور والآثام ولساد الحق وعم الخير البلاد والعباد .

وصفة أخرى يربيها الصوم فى النفس ، تلك هى صفة الصبر والاحتمال ، الصبر على الطاعات واحتمال ما يحيط بها من مكاره ومشاق ، والصبر عن المعاصى والشهوات ، أليس مايتطلبه الصوم من الصائم أن يكون على سمت خاص فى العبادة وأن يكف نفسه عن شهوات بطنه وفرجه ، ولسانه عن الهجر والفحش من القول ، وجوارحه عن فعل مايؤثم ؟ وهل الصبر إلا حبس النفس على ما تكره وصرفها عما تحب وتشتهى ، فالصبر ثمرة من ثمرات الصوم

وغاية من غاياته ، وفى حديث الباهلى الذى رواه أبو داود أن النبى ﷺ قال له : « صم شهر الصبر ويوما من كل شهر » ، فقد سمى رسول الله رمضان شهر الصبر ، ولايزال الصائم يروض نفسه على الصبر حتى يصير عادة ، وحينئذ يمكن للمسلم أن يشق عباب الحياة المتلاطم بأمواج الفتن والبلاء والشدائد والمكاره ، فالصوم اختبار عملى لتعرف أحوال النفوس البشرية ومدى صلاحيتها لتكاليف الحياة وحمل أعبائها ، وأن الصوم فى الأيام الشديدة الحرارة ، ولا سيما مع مزاولة العمل الشاق ، ليستحق أن يكون درسا عمليا فى الاحتمال دونه كل درس ، وما من شخص فى الدنيا إلا وهو فى حاجة إلى الصبر وترويض نفسه عليه ، فالفلاح فى مزرعته والصانع فى مصنعه والعامل فى عمله والطالب فى استذكار دروسه والأم فى القيام بأعباء بيتها - كلهم فى حاجة إلى هذا الدرس العملى .

هذا إلى ما فى الصوم من غرس الرحمة فى القلوب ، فترق القلوب القاسية وتهذب النفوس الشحيحة وتبسط الأيادى المغلولة وتدر الخير على الفقراء المحتاجين الذى تمر بهم الأيام ولايجدون ما يقيم صلبهم ويرطب قلوبهم ولا يشعرون بأن لهم إخوانا فى الإنسانية يمدون إليهم يد المعونة والانفاق ، فالصائم إذا أحس من نفسه ألم الجوع وحرارة العطش ومرارة الحرمان من لذائذ الحياة وطيباتها دفعه ذلك دفعا إلى العطف والبذل والعطاء ؛ وشتان بين من يؤمن بالإعطاء وقد ذاق ألم الجوع ومرارة الحاجة وبين من يؤمن ولم يجع يوما ولم يذق ألم الحرمان ، وإن المجتمع الذى لا يعطف فيه الأغنياء على الفقراء ولا يرحم فيه الأقوياء الضعفاء ولا يسود فيه التكافل والتعاون على البر والخير لهو مجتمع مجرد من خصائص الإسلام ويخشى عليه من الزوال والدمار .

وبحسبنا ما ذكرت فى بيان أثر الصوم فى تربية النفوس وإصلاح المجتمع إصلاحا قائماً على دعائم روحية ونفسية لتكون أبقى أثرا وأدوم نفعا ، ولعلك أدركت معى - أيها القارىء الفطن - حكمة الله الدقيقة السامية فى تشريع الصوم ، وأن تشريع ربك كله خير ورحمة وصدق وعدل ، وصدق الله : « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم » .

محمد محمود أبو شهبة
المدرس بكلية أصول الدين

الفتاوى

جاء إلى لجنة الفتوى خطاب مرسل إلى مشيخة الجامع الأزهر من م . ا . س . صالح بكولومبو ، وهو يشتمل على اقتراح أن يكون الاعتماد فى بدء الصوم وانتهائه على حساب الفلكيين ليتيسر توحيد بدء الصوم ويوم العيد فى جميع البلاد الإسلامية وصاحب الاقتراح يعلل ضرورة الأخذ به بأن الحساب يفيد العلم القطعى بأول كل شهر ونهايته . وأنه أبعد عن إثارة الخلاف بين الأقطار الإسلامية بسبب اختلافها فى الرؤية .

الجـــواب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فقد اطلعت اللجنة على هذا الاقتراح ، وتفيد بأنها تقدر لصاحب الاقتراح الغرض النبيل الذى يرمى اليه بمقترحه . ولكنها ترى أن التعويل على الحساب فى إثبات بدء الشهر ونهايته لا يحقق الغرض المقصود الذى ينشده لأن الحساب مرتبط بمطلع القمر ، ومطالع القمر تختلف باختلاف الأقطار . فاذا كانت الأقطار تختلف فى الرؤية بسبب اختلاف المطالع ، فكذلك الحساب يختلف هذا الاختلاف لارتباطه بالمطالع . فلا يتحقق المعنى المقصود بالتعويل على الحساب كما يقترحه حضرة السائل .

واللجنة ترى أن اعتماد الرؤية على الوجه الذى اتفق عليه جمهور الفقهاء وأئمة المذاهب هو طريق يتحقق به المقصود من توحيد المسلمين فى الصوم والافطار .

وأن هذا الذى اتفق عليه الجمهور هو ما يفيده حديث رسول الله ﷺ الوارد فى الرؤية . أما الوجه المشار اليه فهو أن القول الصحيح الراجح فى مذاهب الحنفية والمالكية والحنابلة أنه إذا ثبتت رؤية الهلال فى إقليم وجب على أهل الأقاليم الأخرى أن يعملوا بها فى صومهم وإفطارهم متى بلغهم نبأ ثبوتها من طريق موثوق به .

وهذا هو ما تشرح به كتب هذه المذاهب .

أما الحديث فقد رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن ، وهو قول الرسول ﷺ : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » . وهو خطاب عام يوجب على جميع المسلمين أن يصوموا إذا تحققت رؤية الهلال فى قطر يعتبر ثبوتا له بالنظر إلى جميع الأقطار فإنه ليس المعنى أن وجوب الصوم يتوقف على رؤية كل من يجب عليه ، وإنما المعنى - كما قلنا - أنه يجب الصوم على جميع المسلمين متى تحققت الرؤية ولو من بعضهم .

وإذا كان الحال كذلك ، فإن الطريق لتوحيد وقت الصوم فى جميع الأقطار أن يبلغ أهل القطر الذى ثبتت فيه الرؤية سائر الأقطار ، فيجب عليهم جميعاً أن يصوموا بناء على هذا التبليغ .

هذا مع ملاحظة أن الرؤية التى يناط بها حكم الصوم والفطر كما تكون بالعين المجردة تكون بواسطة ما جد من الوسائل العلمية الحديثة .

وتوافر وسائل الرؤية هذه مع الوسائل الحديثة لتبليغ الأنباء إلى الأقطار المتباعدة يسهل أمر تبليغ الرؤية من أى قطر إلى سائر الأقطار .

وبهذا علم الجواب والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

المجلة - أما عيد الأضحى فهو عيد الوقوف بعرفة ، وإتمام شعائر الحج . والوقوف بعرفة وإتمام شعائر الحج لا يكون إلا بمكة وعرفات .

فإذا تعين يوم وقوف الحجاج بعرفة ، وأمكن معرفة الأقطار الإسلامية بذلك ، كانت الأقطار الإسلامية كلها تبعاً لحجاج بيت الله الحرام فى تعيين يوم عيدها ، فيكون عيد الأضحى فى جميع الأقطار الإسلامية هو اليوم التالى لوقوف الحجاج بالفعل ، ويكون المسلمون كلهم تبعاً لأهل مكة فى ذلك .

جهاد النفس تربية روحية

> « قيل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : أى الجهاد أفضل ؟ فقال : جهادك هواك »

المبرد

نستطيع أن نتبين من خلال تجاربنا العملية فى الحياة أن الإنسان فى حاجة إلى إرادة قوية يسيطر بها على نزعاته ، ويكبح بها نزواته الجامحة ، ويصمم فينفذ التصميم ، ويعزم فيمضى العزم . وهذه الإرادة القوية والعزيمة الصادقة لا يكتسبها الإنسان بسهولة ويسر ، ولا يكاد يحصل عليها بميراث ، وإنما هو فى أغلب الأحوال فى حاجة ماسة ـ كيما يوفرها لنفسه ـ إلى لون من المجالدة والمجاهدة النفسية ، يمارسه كثيراً ويتدرب عليه مراراً كما يتدرب المعتل على تذوق الدواء المر حتى يألفه لسانه ، فلا يجد فى تعاطيه مشقة ، ولا يذوق منه غضاضة .

ولن يجاهد الإنسان نفسه إلا إذا تعرض فى الحياة للمواقف الحازبة التى يقف منها الإنسان حائراً ، لا لأنه لا يدرى ماذا يعمل ولا كيف يتصرف فيها ، ولكن لأنه يجد من نفسه دائما فى لحظة وموازعا فى أخرى ، أو بعبارة أخرى فإنه يقع تحت ذلك اللون من الصراع النفسى الداخلى العميق . ذلك الصراع الذى لا يظهر على السطح ، ولا تدل عليه الملامح ، وإنما هو خاف مستبطن لا يطلع عليه ، ولا يعانى منه ، ولا يشترك فيه سوى صاحبه .

وقد سأل سائل آخر : لماذا لا تصنع ؟ فأجاب : لا أستطيع . فقال : كيف لا تستطيع وفى يدك أن تحرمه دخول الامتحان ؟ فأجاب : ليس فى يدى أن أحرمه دخول الامتحان . قال : فتستطيع إذن أن تأتيه فى الامتحان الخاص بأسئلة صعبة فلا يجيب عليها ويرسب ؟ قال : هذا هو الحل الوحيد وسأروض نفسى عليه . ألا ترى أن فى إهانتى سبباً كافياً لأصنع به هذا . وغداً الامتحان ، وإن غداً لناظره لقريب .

نفس تريد أن ترفع ما لحقها من إهانة فتلتمس الوسائل ، ولا تعجزها الوسيلة كما لا يعجزها التبرير المنطقى لها ؛ فقد أهينت ولحقها ضرر لا يغسله إلا الانتقام .

وسأل سائل آخر: لماذا لا تصنع ؟ فأجاب: لا أستطيع قال: كيف وفى خزائنك المال لا عد له ولا حصر ؟ قال: وما أصنع بالمال ؟ فأجاب: تستطيع أن تغريه به، وعندئذ يبيعك نفسه وضميره. قال: وما موقفى إن كان عفيفاً لا يغريه بريق المال، ولا يزدهيه تذللى له ؟. قال: فاختر بين أن تضيع من عمرك سنة أو أن تنفذ هذه الحيلة.

نفس تشرف على الهلاك، وتوشك أن تبتلعها الدوامة، وهى تبذل النفيس مما تملك لتصل إلى بر السلام، ولكن هل قوة الإنسان هى التى تتجه أم قوة أمواله حين تصرف لهذه الغاية بطريقة غير نظيفة ؟! ولكنها الوسيلة الوحدى فى يده، ماذا تراه يصنع ؟ هل يقدم أم يحجم ؟

وسأل سائل آخر: ولم لا تصنع ؟ فأجاب: أتراني أبيع ضميرى وذمتى ؟ قال: ولكنك فى حاجة ماسة إلى مال تقيم به حياتك ؟ قال: هذا صحيح ولكن من أى الطرق ؟ قال: إنك ستبذل من وقتك وجهدك، ونحن لا نحصل على المال إلا نظير ما تبذل من وقت وجهد. قال: رأيك صواب، وسأحاول أن أضمن له النجاح المنشود.

أزمة نفسية أخرى تعانى منها النفس: بين منطق يبرر وضمير يأبى وحاجة ملحة. ماذا يضير العالم فى أن يضمن له النجاح ؟ وهو بذلك يوسع على نفسه وعياله. هذا دافع. ماذا تكون قيمته من حيث هو إنسان ذو ضمير وهو يخدع العالم ويزيف عليه ؟ ذاك وازع. وهو بين الدافع والوازع لقىً إلى حين.

وتنجلى هذه المواقف. يأتى الامتحان، وإذا بالأسئلة من الصعوبة بحيث لا يمكن الإجابة عليها بحال. وتكون النتيجة أن يرسب الطالب ويشق ما بنفس أستاذه.

وينتهى الأمر الآخر إلى أن يذهب إلى أستاذه ويبدر بين يديه وقدميه المال بدراً يأخذ بالبصر. وأخيراً يتهافت الأستاذ - وقد أغراه البريق - على المال، فيملأ به جيوبه ويقضى حاجاته، ويضمن لتلميذه غير النجيب النجاح.

هذه صور لا أعتقد أنها غريبة لأنها من واقع الحياة. وليست هى كل الصور التى قد نصادفها فى الواقع فهناك مئات الصور والمواقف الأخرى لا تقل فى دلالتها عما ذكرت، والإنسان بهذا عرضة فى أغلب الأحيان إلى أن يقف هذا الموقف أو ذاك من تلك المواقف، ولكنه كثيراً ما يصطنع منطق التبرير، وهو منطق لا يعييه إثبات الباطل، ولا يعجزه

نصرته على الحق . ذلك أنه يفشل فى أن يستمع لضميره ويستجيب لندائه . وأقول يفشل لأنه لو نجح فى الاستماع إليه لانتصر الحق ووضعت الأمور فى نصابها .

ولكى ينجح الإنسان دائماً فى الاستماع إلى ضميره فإنه فى حاجة إلى تجارب وتجارب تكون بمثابة حقول التدريب النفسى الذى ينشط فيها قوة الضمير ، فيجعله قوياً متسلطاً منتبهاً فى كل لحظة . وقد يخيل إلى الإنسان أنه من السهل عليه أن يحكم ضميره ، وأن يتخلى عن كل نزواته ، فى كل ما يعرض له فى حياته الخاصة والعامة .

ولكن يبدو أن هذا مجرد خيال . فإن التربية الروحية ليست من السهولة فى شيء ، وأرجو ألا تصرف عبارة « التربية الروحية » إلى المعنى الصوفى الذى قد توحى به ؛ لحق أن فى الصوفية معنى من مجاهدة النفس ، ولكنها مجاهدة تأخذ نتائجها صورة سلبية ؛ فهى رغم فعاليتها لا تدفع بالحياة فى سيرها المستمر ، ولا تمدها بقوى إيجابية دافعة إلا من طرق بعيدة جداً وغير مباشرة . أما « التربية الروحية » فهى لون آخر من المجاهدة النفسية غير الصوفية هى التدرب كما قلت على التصرف فى الحياة لا كما تملى الحاجة الملحة والضرورة الحازبة ومنطق التبرير ، ولكن كما تملى المصلحة العامة والمنطق العام والضمير الحى . سمها بعد ذلك تربية روحية ، أو سمها كما يسميها العلماء المحدثون « التسامى بالغرائز » ، أو سمها كيف شئت ، فإن اختلاف الأسماء لن يغير من الحقيقة الأولى شيئاً ، وهى صعوبة هذه المجاهدة على النفوس . يدرك هذه الصعوبة كل من عانى التجربة إدراكاً كافياً .

وإذا عدنا إلى الصور الثلاث التى ذكرناها نجد أن العواقب النفسية ـ فضلا عن النتائج الخارجية ـ كانت وخيمة ؛ فقد رسب الطالب وامتلأت نفسه غلا وإحنا ، ورضيت نفس أستاذه أول الأمر ، ولكنه عاد فأحس بشيء من الجريمة صار ينغص عليه حياته ، وأما الثانى فقد فرح أول الأمر بالنجاح الذى أحرزه ولكنه عاد يخجل من نفسه وجهله الذى افتضح فى العام التالى . وأما أستاذه فقد سر بالمال فأنفق عن سعة ولبى كل رغباته وحاجاته ، وحين نفد المال عادت فعلته تنغص عليه العيش وتقلق نهاره وليله .

عواقب وخيمة كلها ، رغم النتائج السريعة المرضية ، فقد كان إرضاؤها مؤقتاً ، وكانت لذتها النفسية مؤقتة ، وأصبح كل وقد استشعر الجرم فاستبشعه ، وأحس بالفعلة إحساساً صادقاً فاستشنعها ، ولكن ما جدوى هذا وقد انتهى الأمر ؟ وليس غريباً أن نسأل عن الجدوى وقد سميناها منذ لحظة عاقبة أو عواقب وخيمة ؛ ذلك أن هذه التجربة الكاملة

ستكون الحرز الحريز الذى يعصم كلا من أن يتعلق وراء شهوة مؤقتة أو نزوة عارضة ، فلا يعود إلى تكرارها .

على أن هناك حقيقة نفسية عظيمة لمسها القرآن الكريم حيث يقول : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » . وحيث يقول : « صم بكم عمى فهم لا يرجعون » . وهذه الحقيقة هى أن الإنسان حين يجرب شيئاً فيستمرئه ويعود إليه ويكرره مهما كان فيه من باطل أو كذب أو خداع ، فإن إحساسه يتبلد شيئاً فشيئاً ، وإدراكه يخمد ويجمد قليلا قليلا حتى يصبح وقد غلبت عليه النزوة ، لأن تكرارها طبع نفسه عليها فأصبح لا يجد فيها ما يستبشع . فالنفوس عجينة مرنة إذا كيفتها على وجه من الوجوه ، وصورة من الصور ، لقيت أول الأمر فى هذا التكيف صعوبة ، ثم لا تلبث أن تعتاد ذلك الوجه أو تلك الصورة.

وإذا أفدنا من هذه الحقيقة الصادقة كان علينا ألا نكرر الزلات التى سبق أن وقعنا فيها ما دمنا قد استشعرنا ما فيها من جرم ، بل يجب أن نفيد منها إفادة عملية فنتخذ منها حرزا - كما قلت - يعصمنا من التردى فيها مرة أخرى . وهنا تلزمنا الإرادة الحازمة والعزم الماضى .

وحين نقول إن فى جهاد النفس صعوبة أى صعوبة ، ويكلف الإنسان مشقة شاقة ، فربما كان هذا استلهاما ؛ يقول عمر بن العزيز رحمه الله تعالى : إن جهاد الهوى هو أفضل أنواع الجهاد . ذلك أن جهاد الحرب فى سبيل الله ، وهو جهاد نعرف جميعاً قيمته ومكانته ويكفى أنه يخلد صاحبه عند ربه وبين الناس ، فإن هذا اللون من الجهاد لا يحتاج من الإنسان إلا أن يتحلى بالشجاعة ويجالد خصما له يراه أمامه رأى العين ، ويشتبك معه فى صراع حسى واضح . ولكن جهاد النفس ، ذلك الجهاد الذى لا يراه أحد ، ولا يحس به غير صاحبه فإنه أكثر مشقة على النفوس : ذلك أن الإنسان هنا إنما يصارع نفسه لا بالسلاح ولا بالشجاعة ، ولكن بالسلاح النفسى والشجاعة النفسية ، أو لنقل بالإرادة الحازمة .

وفى رمضان المبارك درس نفسى فى جهاد النفس ، يتكرر كل عام فيحيى بليد الحس ، ويصقل كل ما علق بالنفوس من رجس ، ويمنحها قوة جديدة تحيا بها طول العام ، وإرادة قوية تتغلب بها على النزوات والصعاب .

عز الدين إسماعيل

مدرس اللغة العربية بكلية الآداب - بجامعة إبراهيم

الذكريات الخالدة في رمضان

الذكريات الطيبات للأفراد والجماعات ، فيها حياة تبعث الأمل وتثير التأمل ، وتوقظ الهمم وتسمو بالإنسانية إلى أعلى مثل . وهى روافد لقوة الإيمان وصدق اليقين وحوافز للتضحيات فى سبيل الحق وإقامة العدل ونصرة الدين والعمل على الإخاء والمساواة .

وأجمل الذكريات وأجدرها بالإشادة والتحدث ما تعلقت أسبابها بوحى من الله أو توجيه من الرسول الذى يدعو الناس إلى الدين القيم والهدى المستقيم : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ... »

ورمضان شهر الذكريات الإسلامية والمواقف الإنسانية والجهود السامية بها وفيها كمال القدوة : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ... »

فواجبنا نحن المسلمين ما تعاقبت الشهور والأعوام وتوالت الأحداث الضارة أو السارة أن نلتفت إلى ماضينا المجيد لنجد فى نفوسنا راحة الإيمان وثقة الاطمئنان وننتفع بتوجيه المعجزات الباقيات وإنها لشاهدات على قدرة الخلاق بما يثبت العقيدة ، وناطقات بصدق محمد خاتم النبيين — تبارك الذى نزل الفرقان على عبده — فيه تبليغ وتشريع وتنظيم للعلاقة بين العبد وربه وتبيين المناهج الصالحة لإسعاد العباد . لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من أصول الإصلاح إلا أحصاها « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » .

• • •

تسامت ذكريات رمضان الذى أنزل فيه القرآن وصدق الله « إنا أنزلناه فى ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر . ليلة القدر خير من ألف شهر . تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هى حتى مطلع الفجر ... »

فأعظم بها من ليلة من الله فيها على الإنسانية بتقدير دينه ، وتحديد الخطة لنبيه فى دعوة البشرية ، وما أشرفها من ليلة تحراها الرسول ووجهنا الى الإيمان فى ترقبها . وحثنا على اللهفة والشوق إليها ودعانا الى إكثار الطاعات ومضاعفة العبادات حتى نفوز بمغفرة من الله ورضوانه ، قال عليه السلام : « تحروا ليلة القدر فى العشر الأواخر من شهر رمضان »

ثم علم أمته — كما روت السيدة عائشة — كيف تدعو وتضرع الى الله عندما تنسم روائح ليلتها المباركة . قالت أم المؤمنين : يا رسول الله أن علمت ليلة القدر بماذا أدعو ؟ قال عليه السلام : « قولى : اللهم انك عفو تحب العفو فاعف عنى » .

وفى رمضان تجلت معجزة النصر فى معلم الفرقان يوم التقى الجمعان فصرع الشرك على بطاح الوادى وطوى قلبيه بردة الشر وعصابة البغى بعد ما وقعت الواقعة التى فرقت بين الحق والباطل ومازت الخبيث من الطيب .

فكان الويل للشرك الذى نفخ فى صناديده لحشدوا قرابه ألف مقاتل أعدوا وأجلبوا بخيلهم وخيلائهم مكاثرين بجزورهم وقيانهم .

وكان الرسول لهم بالمرصاد فى صحبة من الصفوة القليلة يعدها حتى لتدحر الفئة الكثيرة.

فى شهر الصوم والصبر والجهاد وتحت راية القرآن يتوجه إلى السماء مستعينا مبتهلا « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك اللهم فنصرك الذى وعدتنى » .

وينزل الله على قلبه السكينة فيهتف أثر مناجاته مبشراً أصحابه بقول ربه : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » .

وتتجاوب فى جموع المسلمين — وهى قلة العديد المشرك — بشريات الرسول بالنصر فتحبب إلى الصحابة الاستشهاد ويكون الصراع قاب قوسين أو أدنى ، وقوى الشرك تصايح وتتفاخر وتتكاثر وعلى رأسها أبو جهل تريد القضاء على الإسلام والمسلمين وفى زحمة الشر ينصح قرشى عصابته قائلا وأننا خرجنا لنمنع أموالنا وقد نجت فلنرجع .

ولكن أبا جهل يركب رأسه وتأخذه العزة بالإثم ويأبى إلا أن ينادى : « لا نرجع حتى نرد ماء بدر فنغنم ، ثلاثا ننحر الجزور ونطعم الطعام ونشرب الخمر وتعزف علينا القيان فلن تزال العرب تهابنا » .

ويرتفع صوت فى وجه قائد الفتنة : واقوماه هذا عمل أبى جهل لانه ترأس الناس فبغى، والبغى منقصة وشؤم ... والمواقف تصيح بهم وتردد فهر المخاوف أحلامهم وتسل عليهم أوهامهم .

أفيابيع من أمسى عدو محمد لقد جار عن قصد الهدى وتحيرا

كل هذا والرسول فى أصحابه لا تزيده شدة الموقف إلا سعة صدر وقوة اطمئنان إلى

المهاجرين والأنصار . يقوم عمر فيقول ويحسن ، كما قال أبو بكر وأحسن . ويشير الحباب ابن الجموح على الرسول بالمكان الصالح لكسب المعركة فينزل النبي عند اختياره . وبين المناجاة وقبيل النزال يقول الرسول لمن أخلصوا دينهم لله : أشيروا على أيها الناس . فيتقدم سعد بن معاذ بطل الأنصار بما يرضى الله ورسوله ، وحسبه وحسبنا من كلامه ، إنا قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به حق ، فأعطيناك مواثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة ، فأمض بنا يا نبي الله لما أردت ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما بقى منا رجل .

والذى نفسه بيدة ما سلكت هذه الطريقة قط ومالى بها من علم وما نكره أن نلقى عدونا . إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء . لعل الله يريك منا ما تقر به عيناك » .

ويقول الرسول : سيروا على بركة الله ، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين . والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم ...

وهنالك يعقد الألويه ثم يلتقى الجمان ويمد الله المسلمين بألف من الملائكة مردفين « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » .

وتنجلى المعركة البدرية عن فوز الإسلام ، وتعلو العقيدة الخالدة ، ويسود النظام ، وتسمو القيم الإنسانية ، وينهزم الباطل فى حشده أمام اليقين وصدقه .

ويعود المسلمون — المدافعون عن دينهم — إلى المدينة وفى غنائمهم أسارى ، وماهم بأسارى ، لحسن المعاملة ويسر الفداء ، ومن كان فى عسرة فيسرته تعليم عشرة من أبناء المسلمين ، تلك يد من النبي الأمى فى تيسير العلم وإشاعة التعليم .

حتى إذا كانت السنة الثامنة للهجرة وجاء النصر والفتح المبين ، ومن الله على الذين أخرجوا من ديارهم — بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله بالعودة — إلى مكة فى شهر رمضان فى موقف الفتح الظافر ، أصدر الرسول عفوه العام فقال لمن آذوه فى نفسه وصحبه ودعوته : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين .

تلك جوانب من ذكريات الإسلام الخالد كما فيها العفو والإحسان نذكرها فى رمضان شهر البر والقرآن ؟

كامل محمد عجلان

الجندية في صدر الإسلام

٣ — الطاعة :

إن الطاعة أولى دعائم النظام العسكري قال الله تعالى : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » ، وأولو الأمر هم الذين ائتمنهم الله على من هم في رعايتهم ممن هم دونهم في الرتبة ، وقال : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » .

٤ — الأقدمية والقيادة :

من الطبيعي أنه حينما وجد العمل الاجتماعي الذي يحتاج إلى التدبير ، ظهرت الحاجة إلى الرئاسة ، وقد أوصى بها الرسول الكريم ﷺ بقوله : « إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم » .

ومقياس الرئاسة عنده شرطان هما جماع الشروط في كل رئاسة : الكفاءة والحب ، فقال : « أيما رجل استعمل رجلا على عشرة أنفس علم أن في العشرة أفضل ممن استعمل ، فقد غش الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين » ، « وأيما رجل أمّ قوما وهم له كارهون لم تجز صلاته أذنيه » ، ولقد دعا الاسلام إلى احترام الرئيس فقال تعالى « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً » .

٥ — والاستعداد والقوة :

أمر الله تعالى المسلمين أن ينفقوا أقصى ما يستطيعون في الاستعداد للدفاع فقال : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » .

ولقد ذكر الله عز وجل هنا وسائل الدفاع بلفظ عام هو : « من قوة » ، ليتناول كل ما يحتاج إليه في الدفاع ، ويكون له أثر في الفوز على الأعداء ، فهو يشمل آلات الطعن والضرب ، وآلات الرماية وبناء الحصون ، وإعداد ما يحتاج إليه الجند من ملبس وطعام .

٦ — التحذير من التنازع :

قال تعالى « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين » ، فهو يحذر من أن يقع تنازع بين قواد الجيش أو بين أفراده ، أو بين الجيش وقادته ، لأن الشقاق يبعد ما بين النفوس ، ويذهب بروح التناصر ، فيكون أبعد أثرا وأشد تنكيلا بالجيش عما يفعله به عدو بعدده وعدده .

٧ — الإخلاص فى الحرب والثبات فى الميدان :

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال له : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ فقال الرسول : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

وهكذا تعلم المسلمون أن الذى يقاتل ليحرز منصبا أو مالا أو ليتحدث الناس عن شجاعته قد يقف إقدامه عند حد ، أما من يقاتل دفاعا عن أشرف عقيدة ، ويرى أنه بالعزة والكرامة يعلو الحق ويشرق ، فإنه يثبت فى المعركة وشعاره النصر أو الموت .

وقد عنى القرآن الكريم بتربية فضيلة الشجاعة فى النفوس ، وحث المسلمين على الثبات فى القتال فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا » .

وحذر الله من الفرار من الصفوف وعده من الكبائر فقال : « ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » .

• • •

وبعد فهذا قليل من كثير مما تعلم العربى فى المدرسة الإسلامية ، التى تم فيها إعداده إعداداً متناسباً مع شرف المهمة التى كانت تنتظره وهى الدفاع عن دين الله . وليس ثمة شك فى أنه أصبح مقاتلا من الطراز الأول ، قد جمع من الصفات ما يسمو بها على أفضل جنود العالم ، فهو كان مسلماً صابرا على الشدة شجاعا ، ومطيعا وقويا ، ويقظاً وحازما ، وذكيا متبصراً ، قد عرف له غاية ليس أسمى منها هى الدفاع عن دين الله ، فإن أصابته فى سبيل ذلك طعنة رمح ، أو رمية سهم ، أو ضربة سيف ، لقى مولاه سعيداً راضيا مطمئنا إلى وعد ربه الكريم : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

وقد قدر قادة الحروب أهمية الروح المعنوية فى القتال ، وعرفوا أنها سلاح لا يقل أهمية عن أسلحة الحرب ، وأدركوا أن أقوى الأسلحة لا قيمة لها إذا لم تكن روح الجنود المعنوية عالية ، وفى هذا يقول أحد قادة الحرب الحديثة : « إنه ليس المدفع ، ولكن ذلك الرجل الذى يقف خلف المدفع "It is not the gun ; but the man behind the gun"

لقد كانت الروح المعنوية لجيش الإسلام فى أسمى درجاتها ، إن منهم من قال :

ولست أبالى حين أقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى

وإن منهم خالد بن الوليد ، الذى عرفته حروب الإسلام مقاتلا من أعظم المقاتلين ، وقائدا من أعظم القواد ، والذى عز عليه أن توافيه المنية على الفراش فى بيته فيقول فى ألم وحسرة : « لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ، وما فى موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح ، وها أنذا أموت على فراشى كما يموت العير ، فلا نامت أعين الجبناء » .

وأخيراً فهؤلاء هم جنود الإسلام الذين استشهدوا فى سبيل الله ، يطلع الله على أرواحهم فيقول : يا عبادى ما تشتهون فأزيدكم ؟ فيقولون : ربنا لا فوق ما أعطيتنا الجنة ، نأكل منها حيث شئنا ، إلا أن نحب أن ترد أرواحنا فى أجسادنا ، ثم نرد إلى الدنيا فنقاتل فيك حتى نقتل مرة أخرى . . . !

محمد جمال الدين محفوظ
يوزباشى أركان حرب

المرأة المسترجلة

قال نابليون :

لا أفهم حياة الرجال بلا زواج ، ولا أفهم الزواج بلا أبناء ، ولا أفهم الأبوة والأمومة بلا حنان ، ولا أحب المرأة التى تريد أن تقوم فى هذه الحياة بما يجب على الرجل وحده أن يقوم به .

فالمرأة المسترجلة فى نظرى كالرجل المخنث .

صدى

الأمانة الثانية

ورجاء مرفوع إلى فضيلة الأستاذ الأكبر

أخى الفاضل الأستاذ محب الدين الخطيب ! سلام وتحية وتقدير لما كتبته فى مقاليك عن « الأمانتين » ، ولعله يكون للروح القوية التى أملتهما أثر فى تحقيق ما تحب ونحب جميعاً . وأذكر أن أخا لك قد بحّ صوته من قبل لكثرة ما كتب وقدم من تقارير فى هذه النواحى وأمثالها ، وقد التقى بك فى بعض ما جاء فى المقال الثانى وبخاصة فيما يتعلق بدراسة الملل والنحل وكتابة معجم للقرآن والفقه ، ولكنه لا يسعه بعد ما جرب كثيرا إلا أن يتمثل بقول الشاعر : لقد أسمعت لو ناديت حيا . . . والله المستعان .

والآن ، لنكن عمليين فقد انتهى عهد الكلام كما يقولون ، لقد ذهب الذين كانوا « يتعبدون بخدمة العلم وتمحيصه وتدوينه لوجه الله وحده » ، فلم يبق إلا أن نحمل القادرين على هذا العمل حملا ، وذلك بصدور قرار من فضيلة الأستاذ الأكبر يعفى فيه هؤلاء من التدريس ، ويقسمهم جماعات قليلة تقوم كل جماعة بالكتابة فى بعض ما ذكرت فى مقالك الثانى ، وتعين مكافآت على ما ينجز من أعمال يجب تحديد مدة لها .

هذه وسيلة من الوسائل التى تؤدى بنا لما نريد ، وهناك غيرها طبعا ، والمسألة أنه يجب أن يهتم فضيلة الأستاذ الأكبر بالأمر ويوليه ما يستحق من عناية وتشجيع ، والله يوفق ويعين متى صدقت منا النية واتجهت الإرادة .

وأذكر ، وهذا مما يؤلم كثيرا ، أنى فكرت فى عمل معجم للقرآن ، تكلمت فى ذلك مع اثنين من كبار رجال الأزهر ومن جماعة كبار العلماء وممن لهم مراكز علمية ورسمية ، وأفهمتهما أن هناك باللغة الفرنسية معجما ضخما للتوراة والانجيل ظهر منه إلى عام ١٩٤٩ نحو عشرين مجلدا ، فمن الضرورى عمل معجم متوسط للقرآن يدل للباحث ما حوى من العقائد

والتشريعات وأصول الأخلاق وغير ذلك كله من العلوم التى تضمنها هذا القرآن العظيم ، فهل تدرى أيها الأخ ماذا كان الجواب ؟

كان أنهما أجاباني بأنه لا حاجة مطلقا لمثل هذا المعجم ، وما على من يريد شيئاً من هذه العلوم إلا أن يتعب كما تعبنا ! غفر الله لهما ، كأنهما يعتقدان أنهما تعبا ووصلا إلى غاية محمودة من العلم الإسلامى !

ولك منى أخيرا ، خالص التحية والتقدير .

محمد يوسف موسى

المجلة — من الحقائق التى شاع العلم بها فى العالم الإسلامى بالعشرين السنة الأخيرة أن المسلمين إلى خير ولكن الضعف فى القيادة ، أى فى القيادة الثقافية والعلمية ، وفى القيادة الاقتصادية ، وفى القيادة التوجيهية . وإن نصيبنا نحن معاشر المشتغلين بالعلم من هذه المسئولية أعظم من مسئولية غيرنا . وما ذكره الدكتور محمد يوسف موسى عن اعتذار أحد العلماء بأن على من يريد شيئاً من هذه العلوم أن يتعب كما تعبنا ، هو مظهر من مظاهر الضعف فى القيادة ، ومما نذكره من أعراض هذا المرض أن العلامة المؤرخ أحمد زكى (باشا) رحمه الله كان عنده جزازات فى التاريخ والجغرافيا لا نظير لها لأنها ثمرة مطالعاته واطلاعاته مدة نصف قرن ، فلما ذهب إلى اليمن بعد الحرب العالمية الأولى أوصى الأستاذ السيد خير الدين الزركلى بأن يلقى هذه الجزازات فى النيل إذا حانت منية صاحبها وهو فى اليمن ، لئلا ينتفع أحد بما تعب هو فى جمعه وإعداده ، ومعلوم أن أحمد زكى (باشا) عاد من اليمن سالماً وعاش بعد ذلك سنين ، ومع ذلك فإننا لا نعلم شيئا عن مصير هذه الجزازات الثمينة بعد وفاته . فإن كان قد أمر أحداً بإتلافها فيكون ذلك من مظاهر هذا المرض من أمراض القيادة ، وهو أن لا ينتفع الناس بما تعب واحد منهم بجمعه وتحصيله ، « وعلى من يريد شيئاً من هذه العلوم أن يتعب كما تعبنا » . فهذا المرض أحد مظاهر الضعف فى القيادة ، وفى تقديرنا أنه قد آن لنا أن نشفى منه ، وأن يعيش كل واحد منا لأمته بعد اليوم لتعرف له أمته ما قدم لها من عمل صالح .

في يوم الفتح الأعظم

في اليوم العشرين من رمضان ، وفي العام الثامن من الهجرة النبوية المباركة ، وحينما تأذن الله أن يتم نوره ويعلي كلمته ويجري في الخلق سنته . . جاء نصر الله والفتح ، وأقبل الحق يسعى إلى البلد الأمين ، يسوقه الإيمان كما تسوق الريح الصيب المتون ، فاهتزت له بطحاء مكة وربت ، واخضر به الوادي الجديب وتفتحت لاستقباله القلوب ، وبدأت مكة عهداً جديداً توارى فيه شبح الوثنية البغيض إلى غير مآب . ودخل الناس في دين الله أفواجا « وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد » .

وكلما طافت الذكريات بهذا اليوم الخالد على الزمن رجعت حافلة بالعبرة والموعظة الحسنة ، وهذه العبر التي يفيض بها تاريخ الإسلام هي الغاية التي يجدر بنا أن نضعها بين أيدينا ولا غرو ففيها التوجيه الحكيم والإرشاد الهادي والتبصرة النافعة ، ونحن لذلك سنقف بالقارئ عند بعض العبر في قصة الفتح سائلين الله أن يجعل لنا من ذلك هدى ونوراً وشفاء لما في الصدور .

• • •

ففي يوم الفتح الأعظم برز الوفاء في جوهره النقي وصورته الحسناء ، فانتصر على الغدر والخيانة فلقد نقضت قريش ما تعهدت به في صلح الحديبية مع رسول الله ﷺ فنصرت بكراً على خزاعة المحالفة للرسول . وكان العهد القائم بين الفريقين أنه « من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده فليدخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه » فدخلت خزاعة في حلف محمد ودخلت بكر في حلف قريش ، ولو أن قريشاً احترمت عهدها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فكر الرسول في فتح مكة ، ولقدر لهذا البلد الأمين أن يقضي فترة أخرى في ظلمات الشرك والوثنية ، ولكن الله أبى إلا أن يتم نوره فأبت قريش إلا أن تغدر وأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا الوفاء .

وكانت خزاعة حليفة الرسول ﷺ ضحية لغدر قريش إذ عاونت بنى بكر عليهم وهذه فاجأتهم عند ماء لهم يقال له الوتير وقتلت نفرا منهم تشفيا لحقد دفين وثأر قديم .

قال ابن اسحق ، فلما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة وأصابوا منهم ما أصابوا ، ونقضوا ما كان بين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة وكانوا فى عقده وعهده ، خرج عمرو بن سالم الخزاعى حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة وكان ذلك مما هاج فتح مكة ـ فوقف عليه وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى الناس فقال :

يا رب إنى ناشد محمدا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم ولدا وكنا والدا ... ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرا أعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا

ثم يقول :

إن قريشا أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا ... وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هجدا ... وقتلونا ركعا وسجدا

فأجابه رسول الله ﷺ قائلا : « نصرت يا عمرو بن سالم »[1] ، ثم قام من فوره ليعد للأمر عدته . وليقوم بواجب الوفاء نحو خزاعة ، وبين هذا الوفاء من جانب الرسول ﷺ والغدر من جانب بكر وقريش كانت الحكمة البالغة والآية الكبرى ، فانتصر الحق وأينع وأثمر . وزلزل الباطل وتداعى بنيانه ، وإن فى ذلك لعبرة !!

إن الوفاء بالعهود والمواثيق يكاد يكون فى حياة الأمم والشعوب حبرا على ورق ، وإنه لأقرب إلى الوهم والخيال منه إلى الحقيقة المشاهدة والواقع الملموس ، ولعل هذا هو السبب الذى جعل الإنسانية تشق دائما بالثورات والفتن والمعارك الدامية ، ولا غرو فلو عرفت كل أمة ما لها وما عليها ، وألزمت نفسها بتنفيذ ذلك لأمكن أن تهدأ نار البغضاء والشحناء وأن تجف الأرض ، ولو قليلا من الدماء والدموع . ولكن تيار الأنانية الذى يجرف النفوس إلى الشر والسوء ويوردها موارد الهلكة يأبى إلا أن يستمر فى طغيانه ،

---

[١] سيرة ابن هشام ﺟ ٢ ص ٢٦٥ .

وحينئذ تبدو حاجة الناس إلى الشرائع السماوية والقوانين الوضعية والدعوات الإصلاحية لكي تقاوم هذا الطيش والجموح وتخفف من غلوائه .

ولقد دعا الإسلام الناس إلى الوفاء فقال تعالى « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » ، وقال « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا » .

وثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « أربع من كن فيه كان منافقا خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

وقد عرفت الأديان السماوية جمعاء والقوانين الإصلاحية في مختلف العصور قيمة الوفاء في تنظيم العلاقة بين الأفراد والأمم ، وإنما العيب كل العيب فيمن يتنكبون طريق الخير والهداية ، واللوم كل اللوم على من يشترون الضلالة بالهدى ويستبدلون الظلام بالنور !

* * *

وهل أتاكم نبأ حاطب بن أبي بلتعة ؟

إنه صحابي جليل شهد يوم بدر مع إخوانه المهاجرين والأنصار ، ولكن كان له في فتح مكة كبوة كبرى وموقف مشين !!

فلقد عمل الرسول على إخفاء مسيره إلى مكة قائلا : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها » وتلك خطة حربية ناجحة فإن الحرب خدعة ، ومباغتة الأعداء سلاح قوي لا يفل حده .

ولكن حاطباً المؤمن زلت به القدم حيناً من الزمن ، وكم للنفس البشرية من زلات يتغلب فيها الشيطان فيغطي الحقائق ويعمي المسالك ويظهر الشر القبيح في مظهر الحسن والجمال ، وهذا من سمات العجز الإنساني والضعف البشري الذي عناه رسول الله ﷺ بقوله : « كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » .

أجل . زلت قدم حاطب فأرسل إلى قريش نبأ جيش المسلمين قائلا « إن النبي ﷺ قد توجه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل ، وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم فإنه منجز له ما وعده [١] » ، وقد كتب ذلك في رقعة وأرسلها مع مولاة لبعض بنى عبد المطلب تسمى سارة . ولكن الله كشف حقيقة هذا الأمر لنبيه الكريم فأرسل إلى تلك المرأة من لحقها في الطريق وجاء بهذه الرقعة إلى رسول الله ﷺ . فدعا رسول الله حاطباً فقال : يا حاطب ، ما حملك على هذا ؟ فقال : يا رسول الله ، أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدلت ، ولكنى كنت امرءا ليس لى في القوم من أصل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليهم . فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله دعنى فلأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق ، فقال رسول الله ﷺ ، وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .

ألا أن في هذا الحادث لعبرة !! فرسول الله ﷺ يلقى على العالمين درساً نافعا في تقدير الأعمال ، ووزن الخير والشر بميزان سليم ، والتماس المعذرة للمخطىء إذا وضحت له الحقيقة فرجع وتاب وأناب ، وكثير من الناس يختلط الأمر عليهم فلا يغفرون السيئة الصغيرة مهما تقدمها من حسنات كبار . ولكن رسول الله ﷺ وقد عرف حقيقة الإنسان وتسلط الشيطان عليه ، ثم عرف مع ذلك قول الله تعالى « إن الحسنات يذهبن السيئات » وقوله « إلا من تاب » وقوله « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » قد وضع ذلك كله في الميزان فغفر لذلك الصحابي الجليل زلته الطارئة أمام بلائه السابق في خدمة الإسلام وحضوره غزوة بدر ابتغاء مرضاة الله وجهادا في سبيله .

• • •

وبعد . فهذه بعض العبر التي تفيض بها الذكريات في يوم الفتح الأعظم ـ وكم في هذا اليوم من عبر وعظات ـ وإنه لحق على المسلمين أن يلتمسوا الخير والنور من تاريخهم المجيد ، كي يستردوا المجد الغابر ، ويصلوا الماضي بالحاضر ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

محمد الطيب النجار
أستاذ في التاريخ الإسلامي بالأزهر

[١] الروض الأنف ٢/٢٦٦

خير الزوجات
فى نظر الاسلام

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها . فاظفر بذات الدين تربت يداك » رواه الشيخان .

للزواج فوائد كثيرة عليها يستند نظام الحياة ، وتستقر قواعد العمران ، وترتكز دعائم الإصلاح .

وله آثار جليلة بها تقوم المصالح بين الأسر ، وتتحقق المنافع بين العشائر ، وتسود العلاقات بين القبائل .

وفيه ثمرات طيبة بها تطهر الأمم من جرائم الفساد ، وتبرأ من أدواء الآثام ، وتتخلص من عوامل الأسقام .

فهو السبب الأعظم فى بقاء النوع الإنسانى بقاء صالحا ، تتفجر منه ينابيع الخير ، وتتحدر منه غيوث البر ، ويخرج منه النبت الحسن المبارك .

وهو السبيل الأقوم إلى توكيد الصلات بين الأفراد والجماعات ، توكيدا يكون به التناصر والتعاضد ، وينشأ عنه التآزر والتعاون ، إذا وجبت النجدة ، وجد الجد ، وحزب الأمر .

وإذا استقامت أحوال أمة ، ونأت عن المنكرات بجانبها ، وماتت فيها فكرة التخاذل ، وشاعت فيها روح التعاون ، فقد سطع نجمها ، وانبلج صبحها ، واقترب ضحاها .

وقد جرت عادة الناس أنهم يرغبون فى الزواج بالمرأة لواحد من الأغراض الآتية ، يجعلونه مدار أفكارهم ، ومحط أنظارهم ، ومرمى أبصارهم :

فمنهم من يرغب فى الزواج بالمرأة لمالها ، ولو كان المنبت خبيثا ، والمنظر دميما ، والخلق ذميما .

ويعللون تلك الرغبة بأن المرأة إذا كانت ذات مال ومتاع ، ونشب وضياع ، فقد

تستغنى بمالها عن إرهاق زوجها بالمطالب ، وإثقاله بالحوائج ، وتكليفه ما لا يطيق مما تشاؤه وتبتغيه ، وتميل إليه وتشتهيه .

وقد يرزق منها بولد ، فيعود إليه مالها بالميراث ، فينشأ ثريا ، ويعيش غنيا ، ويموت كريما .

ولكنهم — وقد تملك حب المال عقولهم — غفلوا عن المتاعب التى تلحقهم من جراء ذلك الزواج المادى ، والتى لا تعد تلك المنافع فى جانبها شيئا مذكورا .

ذلك أن ذات المال من النساء تكون — فى الغالب — طاغية عاتية ، متجبرة قاسية ، لا ترعى لزوجها حرمة ، ولا تحفظ له كرامة ، ولا تؤدى له واجبا .

ومما لا شك فيه أن تعاظم المرأة على الرجل ، وترفعها عليه ، وأخذها بزمامه وقياده ، فيه عكس السنة الإلهية ، وتغيير الأوضاع الدينية ؛ فإن الله تعالى جعل الرجال قوامين على النساء قيام ولاية ورعاية ، وإصلاح وتقويم ، بما فضلهم عليهن من تمام العقل وكمال الدين ، وبما التزموه لهن من النفقات والصدقات .

فأولئك القوم الذين يطلبون الزوجة لمالها ، غاضين الطرف عن أخلاقها ، قوم سفهاء الأحلام ، ضعاف الثقة بالله ، قد رضوا لأنفسهم فى سبيل هذا الحطام البالى بحياة الذل والمهانة ، والعبودية والاسترقاق .

ومنهم من يرغب فى الزواج بالمرأة لحسبها ، أى لشرفها بآبائها وأقاربها ، وهى رغبة محمودة محبوبة ، ووجهة قويمة سليمة ، قد طلبها الدين ، ودعا إليها خير المرسلين .

قال عليه الصلاة والسلام : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » أى إن العرق نزاع ينزع إلى أصل الأم وطباعها .

فالمطلوب من الرجل أن يتخير زوجة حسيبة نسيبة ، قد نبتت من أرومة طيبة ، ونشأت من أصل كريم — ويكره له أن يقترن بامرأة خسيسة وضيعة ، قد خرجت من شجرة خبيثة ، ونبتت فى بيئة دنيئة .

وحكمة التشريع فى ذلك أن سليلة الحسب تكون ذات خلق حميد، وعرض سليم، وعفة كاملة، وترفع عن الدنايا، وتحفظ من الشبهات، وهذا هو مصدر راحة الزوج وهناءته، وسر تقويم الولد ونجابته، ومبعث نظام الأسرة وهدوئها.

ولكن الحسب وحده غير كاف فى اختيار الزوجة ما لم يكن معه دين يدفع عنها غواشى الشر ويصرف عنها دواعى السوء.

ومنهم من يرغب فى الزواج بالمرأة لجمالها. والجمال مطلوب فى كل شيء. لا سيما فى المرأة التى تكون صاحبة وقرينة.

وإذا سلم الجمال من التيه المفضى إلى الملل. والإعجاب المؤدى إلى الفتور، وكان بجواره قبس من جمال الشرع والدين، فإن ذلك الزواج يكون دائم الألفة، مستحكم الوصلة، يحمل عز الحياتين، ونعيم الدارين.

ومنهم من يرغب فى الزواج بالمرأة لدينها، وهذه الوجهة يجب أن تكون مطمح أنظار العقلاء. فإن المرأة إذا كانت ضعيفة فى دينها وأخلاقها، متهاونة فى شرفها وعفافها، أزرت بزوجها، وثلت عرضه، وجرحت منه مواضع العزة.

لذلك كله بالغ الرسول ﷺ فى الحث على التزوج بذات الدين بقوله: «فاظفر بذات الدين، تربت يداك» لأن لها من دينها ما يحميها عن المعاصى، ويحفظها من المساوىء، ويجعلها من غوائل الفتنة فى حصن حصين، وحرز منيع.

ومعنى: «تربت يداك» لصقت يداك بالتراب، وأصبت بالفقر والعوز، والضيق والضنك، إن ضللت ذات الدين، وصدفت عن صاحبة الخلق المتين.

ثم إن النساء على قسمين: صالحات مطيعات، تصون الواحدة منهن عرضها من الدنس وتحفظ شرفها من الخسة، وتقوم على مصالح زوجها بالتدبير والرعاية. فإذا من الله على العبد بامرأة منهن تستمتع بهذه الخلال، وتتجمل بهذه الصفات، فإنها نعمة من ربه وصلت إليه، تستوجب الشكر، وتستأهل الحمد والثناء، قال عليه الصلاة والسلام:

« خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرتك ، وإن أمرتها أطاعتك ، وإن غبت عنها حفظتك في مالك ونفسها ».

وفاسدات فاجرات . قال عليه الصلاة والسلام : « صنفان من أهل النار لم أرهما بعد : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا » . ومعنى : (كاسيات عاريات) أن الواحدة منهن تستر بعض بدنها وتكشف البعض الآخر ، إظهارا لجمالها . ومعنى : (مائلات مميلات) أنهن يمشين متبخترات مميلات لأكتافهن من الخيلاء . ومعنى : (رءوسهن كأسنمة البخت المائلة) أنهن يغطين الرءوس بلف العصائب عليها حتى تصير كأسنمة الإبل .

وهذا الحديث من علامات النبوة ، فقد وجد الصنفان بالمشاهدة وظهرا للعيان ظهورا لا شك فيه .

وجملة القول أن اللائق بذى المروءة والعقل أن يكون الدين مطمح نظرهم في كل شيء ، لا سيما في النكاح الذي يدوم أمره ، ويعظم خطره . قال عليه الصلاة والسلام : « لا تزوجوا النساء لحسنهن ، فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تزوجوهن لأموالهن ، فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة سوداء ذات دين أفضل » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من نكح امرأة لمالها وجمالها حرم مالها وجمالها ، ومن نكحها لدينها رزقه الله مالها وجمالها » .

وبعد فهذا موضوع خطير أسوقه إلى القراء ليستلهموا منه الرشد في حالة اجتماعية تشغل الأفكار والعقول ، ويتوقف عليها نظام الأسرة ، وهدوء الحياة ، وصلاح المجتمع ، وفلاح النشء .

والله أسأل ـ وهو خير مسئول ـ أن يجعل النفع به عميما . إنه نعم المجيب ؟

عبد الرحيم فرغلى البلينى

من نوادر المخطوطات العربية

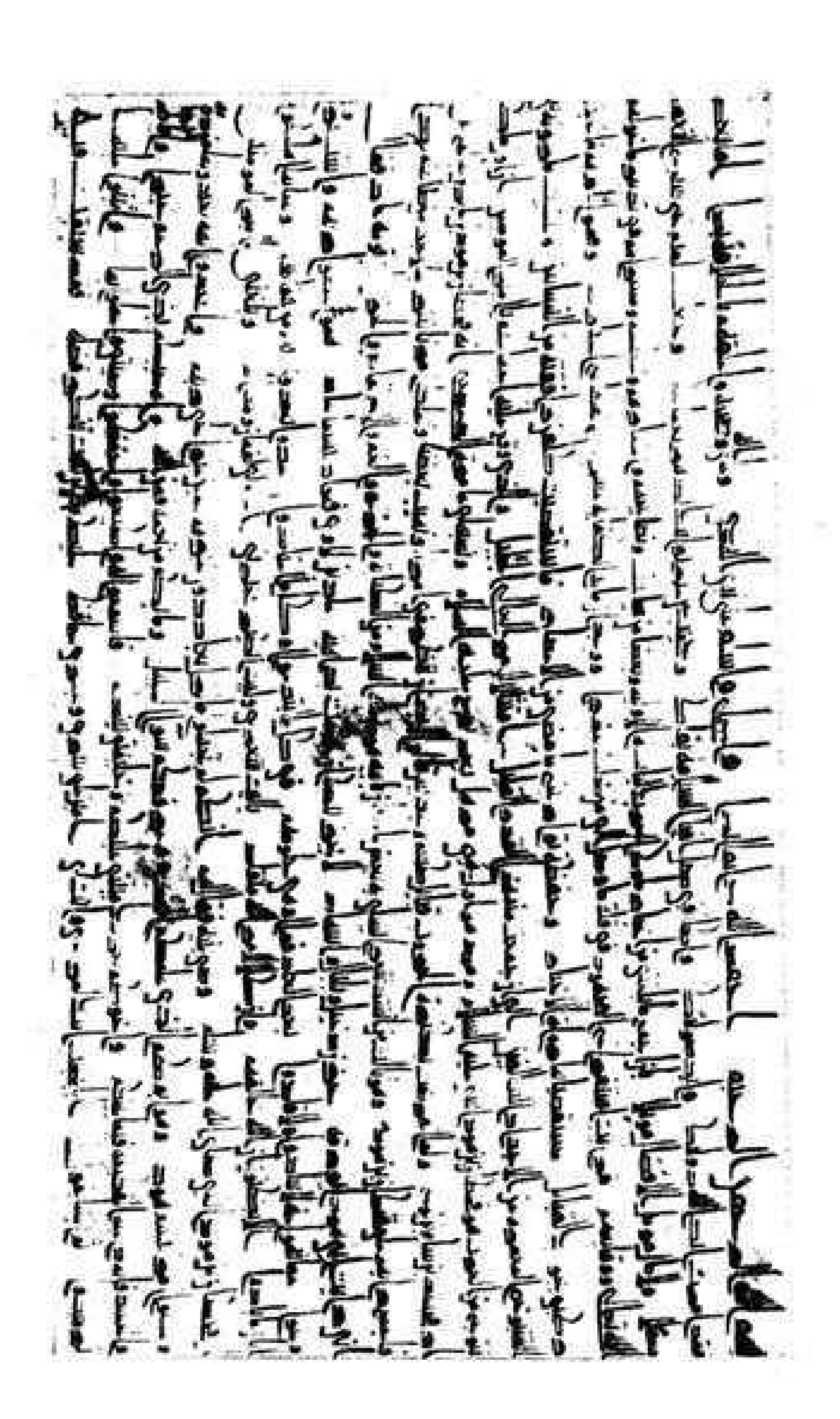
بعد وفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه اتجه العرب إلى الدنيا يحملون لها دينهم ويدعون إليه بالتي هي أحسن . ولم يشهد التاريخ حروبا أكثر إنسانية - إن كان فى الحرب إنسانية - من الحروب التى قام بها المسلمون الأولون دفاعا عن دعوتهم .

ولم يتجهوا إلى تدوين علومهم أول الأمر باستثناء القرآن الكريم ، فقد دون عثمان رضى الله عنه مصحفاً نشره على الأمصار ليتخذ إماما . ثم اتسعت رقعة الإسلام ودخلت فى تكوين ثقافته عناصر كثيرة ، بعضها يتلاءم مع طبيعة تكوينه فقبلها ، وبعضها ينافر هذه الطبيعة ، فظل فى صراع معها . وكانت علوم اللغة من أقدم العلوم التى حظيت بعناية المسلمين ، ذلك لأنها كانت وسيلتهم إلى فهم كتابهم وإدراك معانيه ، وكانت الشعوبية والقبلية والصراع العنيف الذى نشب بين العرب وبين غيرهم من الأجناس ، هذا الصراع الذى حدا بكثير من المؤلفين العرب إلى أن يبحثوا فى ماضى أممهم ويفتشوا عن دارس أيامها ، فإن وجدوها رووها بأسانيدهم واثقين منها ، وإن لم يجدوها على نحو يرضيهم رووها على نحو ما بلغتهم ، رغبة منهم فى نصرة فكرتهم ، أو قبيلتهم .

ولا تزال الكتب العربية تحتفظ بالكثير من هذه الروايات عن عرب الجاهلية . وقد تكون أقرب إلى الأسمار منها إلى حقائق التاريخ . ولكن هذه الأسمار ، أو هذه الروايات ذات قيمة كبيرة فى دراسة العرب من الناحية الميثولوجية ، ولا تزال هذه الناحية بكراً ، مع أننا نجد الباحثين فى تاريخ الأمم الأخرى يولون هذه الناحية عناية كاملة ، وأوضح مثل على ذلك تاريخ اليونان والرومان والفرس .

• • •

وأنا أقدم للقراء حديثاً قصيراً عن أقدم مخطوط عربى كامل ، ألفه الأصمعى للمأمون وكتبه ابن السكيت :



بسم الله الرحمن الرحيم . أحمد الله دائما أبدا وأصلي وأسلم على نبي الهدى وعلى آله وصحبه وأعلقهم بالخلافة يدا . أما بعد . /
فقد أمرت أيد الله دولتك وأيد صولتك وأطال في ظل أفياء السلامة بقاءك ، وحجب عن غير نوائب الدهر نماءك وجعلك لمتوخي سبوغ النعم . /
معقلا ولآمال مؤمل الأفضال موئلا بأن أجمع ما بلغني من أخبار ملوك العرب البائدة الأولية وبعضا من سياستهم ونصائحهم وأشعارهم وخطبهم
ومسراهم في تدبير ما خولهم الله تعالى ووقائعهم فرأيت استفراغ المجهود في قلة ما وصل إلى من ذلك عذرا ووجدان ما به الكفاية عسرا لانقطاع
أخبارهم ومحو آثارهم فأتعبت . /
ركبي بجوب القبائل مستقصيا بها رواة الأخبار وحفظة تواريخ ما مضى من الأمصار فاستقصيت كل من وافقته من النسابين وتلقيت ما روته لي . /
الشيوخ المعمرة من الأجداد السالفين إلى أن جمعت منه هذا القدر القليل امتثالا للأمر العالي الجليل والذى وقع عليه إجماعهم يا أمير المؤمنين أن أول ملك . /
تتوج من العرب هو قحطان بن هود النبي عليه السلام وهود هو أول نبي مرسل بعد نوح عليه السلام ونسبه لي عامرة الصمصمي أنه قحطان بن هود
ابن عابر بن سالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح ولما انقرضت بكثرة الحروب قبائل طسم وجديس قالوا لابد أن ننظر في أمرنا ونهب بعضنا ونملك
أمرنا شريفا لا نجد من طاعته بدا . /
فأجمع رأيهم على قحطان بن هود وهو ثالث من أنشد شعرا يسلي به بعض ما كان بأبيه هود عليه السلام من الكآبة والجزع والغم والارتماض
والحزن على قومه عاد فقال : /
إني رأيت أبي هودا يؤرقه حزن طويل وبلبال وإسهاد لا يحزنك إن خصت بداهية عاد بن لاوى فعاد بئسما عاد . هم عصوا ربهم واستكبروا . /
وعتوا عتوا نهوا عنه لاسادوا ولا عادوا بعدا آماد فما أرهى حلومهم في كل ما ابتدعوا أو كل ما اعتادوا غدوا يعدون عنهم من سفاهتهم وعنايا أهلكوا /
إيان ما بادوا ألا يظنون أن الله خالقهم وأن كلا لأمر الله منقاد . ياليت شعري وليت الطير يخبرني أسالم لي لقمان وشداد ، وبلغني يا أمير المؤمنين . /
أن قحطان بن هود النبي ﷺ وصى بنيه فقال لهم إنكم لم تجهلوا ما نزل بعاد دون غيرهم حين عتوا على ربهم واتخذوا آلهة يعبدونها من دونه . /
وعصوا أمر نبيهم هود وهو أبوكم الذى علمكم الهدى وعرفكم سواء السبيل وما بكم من نعمة فمن الله وأوصيكم بذي الرحم خيرا وإياكم . /
والحسد فإنه داعية القطيعة فيما بينكم وأخوكم يعرب أميني عليكم وخليفتي بينكم فاسمعوا له وأطيعوا واحفظوا وصيتي واعملوا بها واثبتوا عليها . /
ترشدوا ثم أنشأ يقول : أيا يشجب أنت المرجى وأنت لي أمين على سرى وجهري حافظ عليك بدين لست تنكر فضله ، فقد سبقت فيه . /

الأصمعي : مؤلف الكتاب هو عبد الملك بن قريب بن عبدالملك ، أبو سعيد الأصمعي (١) نسبة إلى جده أصمع بن مظهر بن رباح بن عبد شمس (٢) الباهلي . فهو عربي مضري . وهو من أهل البصرة ، والبصرة في العربية تاريخ مجيد ، ولما ولي هارون الرشيد استدعاه وأبا عبيدة معمر بن المثنى إلى بغداد فقدما اليها ، وقد كان بينهما منافرة مردها إلى اختلاف أصيل في الأصل والمزاج والهدف : فأبو عبيدة فارسي من أسرة يهودية كان متعصباً على العرب ، نصيراً للشعوبية عليهم ، يؤلف في مثالبهم ، وقد ظنه كثير من مؤرخي الأدب خارجيا وليس هو من الخوارج في شيء (٣) . وأما الأصمعي فعربي عريق متعصب للعرب على الشعوبية ، يؤلف في مناقبهم ، ولعل الشافعي رحمه الله لم يعد الحقيقة حين قال عنه : « ما عبر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعي (٤) » .

وتوفي الأصمعي قريباً من سنة خمس عشرة ومائتين .

وأما ابن السكيت فهو يعقوب بن اسحاق بن السكيت ، أبو يوسف النحوي اللغوي ، وصاحب كتاب إصلاح المنطق كان خوزيا يعلم أولاد العامة — أولا ببغداد ، ثم لم يزل حتى علم أبناء الأمراء ، وولد جعفر المتوكل على الله (٥) . وكان يتعصب لآل علي ولذلك غضب عليه المتوكل آخر عمره (٦) فقتل سنة أربع وأربعين ومائتين . وهو يومئذ رأس في العربية .

ونستطيع الآن بعد أن فرغنا من هذه العجالة عن مؤلف هذا السفر العتيق وناسخه أن نقدم للقراء وصفا ظاهريا لهذه المخطوطة الفريدة .

---

(١) تاريخ بغداد : جـ ١٠ ص ٤١٠ .

[٢] اللباب . جـ ١ ص ٥٦ .

[٣] A Literary History of The Arabs. by R. Nicholson. Combridge 1930. P. 344 F.

[٤] تاريخ بغداد . جـ ١٠ ص ٤١٧ .

[٥] تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ٢٧٣

[٦] Sitier. Hist- of Tharabs P 343 . وكذلك تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان . جـ ٢ ص ١١٨ .

دخلت هذه المخطوطة حوزة خزانة الكتب الأهلية في باريس BibliothequeNationale ضمن مكتبة المسيو يونيون الذي كان يوما ما قنصلا لفرنسا في حلب [١] .

وهي تقع في ثمانية وعشرين رقا من رقوق الغزال النادرة يشتمل كل رق منها على سبعة عشر سطرا ، في كل سطر إحدى وعشرون كلمة ، ويكاد عرضها أن يكون ضعف طولها (٤١ + ٢٧ سم) . وقد كتبت بخط كوفي قديم .

ويلاحظ أن الرق قد استعمل للكتابة عليه من قبل ثم غسل وكتب عليه هذا الكتاب ففي بعض الرقوق لا يزال أثر الكتابة الأولى بينا للتمعن .

وفي الرق الأخير من هذا المخطوط ما يأتي : « فرغ أبو يوسف يعقوب بن السكيت من استنساخها في عاشر شوال سنة ثلاث وأربعين ومائتين » .

وقد جمع الأصمعي هذه الأخبار امتثالا لأمر الخليفة المأمون فأقطعه عليها أراضي (الأميرية) ويبدو أن الذين قاموا على طبع فهرس خزانة الكتب الأهلية في باريس قد التبس عليهم المعنى القديم بالاستعمال الشائع اليوم لكلمة أميرية وترجموها هكذا .
" Conceda en fiefs les terres emiriennes d'Alkarkh," [٢] وإنما هي الأميرية من قرى النيل من أرض بابل ببغداد [٣] .

وهذه الرقوق محفوظة في خزانة الكتب الأهلية بباريس تحت رقم ٦٧٢٣ أما حقيقة نسبتها إلى الأصمعي ، وحقيقة كتابة ابن السكيت لها فهذا موضوع حديث آخر ؟

نور الدين شريبة
من الأزهر

---

[١] مجلة المشرق مـ ٢٨ ص ٤١ — ٤٣ من مقال بقلم الأديب حبيب زيات تحت عنوان . نصرانية الحارث بن كعب ومخطوطة خزانة باريس . ٢٣ ٦٧

[٢] فهرست خزانة باريس . ص ٣١٧ طبع سنة ١٩٢٥ .

[٣] معجم البلدان . حـ ١ ص ٣٦٥ نشره فستنفلد Wustenfeld في ليزج سنة ١٨٦٦ .

نقد الكتب :



لابن سينا وابن طفيل والسهروردي
نشر وتحقيق وتعليق الدكتور أحمد أمين

قصة «حي بن يقظان» لا سيما تلك التي تنسب لابن طفيل ، قطعة نادرة من فلسفة المسلمين الاشراقية ، تصور لنا بأسلوب أدبي رائع كيف يصل الإنسان المنعزل من الجماعة ، بعقله إلى حقائق الدين الجوهرية ، وكيف ينتهي به الشوط إلى حالة الاتحاد الصوفي بالله ! وإن القصة لتعد بحق - كما يقول العلامة «كارا دي فو» Carra de Vaux - من أعجب كتب العصور الوسطى .

وتاريخ الفلسفة الإسلامية يعرف قصتين أخريين بهذا العنوان ، إحداهما لابن سينا الشيخ الرئيس ، والثانية للسهروردي المقتول شهاب الدين .

ولقد أراد الأستاذ أحمد أمين أن يقدم للباحثين في الإسلاميات عامة وفي الفلسفة منها بوجه خاص ، قصة «حي بن يقظان» لمؤلفيها الثلاثة مطبوعة مشروحة ، وأن يجعل ذلك منه تحية للشيخ الرئيس في عيده الألفي . ولقد رضخت مطبعة المعارف لمشيئة الأستاذ وإرادته ، فأخرجت هذه المجموعة ضمن سلسلة «ذخائر العرب» .

والأستاذ الناشر — مع الأسف الشديد — لم يحدثنا عن أي أصول تلك التي نشر عنها قصتي ابن سينا وابن طفيل ، كما تقضي بذلك أساليب النشر العلمية ، ومهما يكن من شيء فقد آسفنا بحق أن تخرج هذه النشرة مليئة بالأخطاء والسقطات ، التي قد تتسع أحياناً إلى ما يقرب من صفحة كاملة ، مما يستحيل معه المعنى وينغلق ، ويسوء أساءة بالغة إلى الفيلسوفين الكبيرين ابن سينا وابن طفيل .

لذلك آثرنا أن نقوم بنقد الكتاب - أو بعبارة أدق بنقد قصتي ابن سينا وابن طفيل

دون قصة السهروردى وهى ورقتان لم يتيسر لنا مقابلتهما على أصولها المخطوطة ـ نشداناً هنا للحق وحده ، وتحية خالصة إلى الشيخين الكبيرين أبى على وأبى بكر .

وأكبر الظن أن الأستاذ أحمد أمين ـ وقد زاول القضاء حيناً ـ سيزن عملنا هذا بموازين العدالة ، وسينظر إليه نظرة مجردة عن الهوى والغرض ، قائمة على المعايير العلمية الدقيقة التى لا تعرف المجاملة أو المحاباة . وأكبر الظن أيضاً أن الأستاذ سيصطحب معه هذا النقد عند تفضله بزيارة المطبعة لإعادة الطبع .

• • •

١ ــ يقول الأستاذ فى المقدمة (ص ٦) بصدد تحدثه عن ابن سينا إنه « ولد فى بلخ من أعمال التركستان » . ولا ندرى من أى مصدر استق الناشر هذا الخبر ؟ ولم يقل أى مرجع من المراجع العديدة التى ترجمت للشيخ الرئيس ، إنه ولد بهذه المدينة ، وابن سينا نفسه يحدثنا فيما رواه تلميذه وكاتب سيرته « الجورجانى » فيقول : « إن أبى كان رجلا من أهل بلخ ، وانتقل منها إلى بخارى فى أيام نوح بن منصور ، واشتغل بالتصرف بقرية خَرْمَيْثَن ، وتزوج أمى من قرية يقال لها أفشنة وولدت منها بها ... » الخ . راجع إن شئت ابن العبرى وابن أبى أصيبعة والبيهق والقفطى وابن خلكان .

٢ ــ ويقول الناشر (ص ٧) بصدد تحدثه عن الشيخ أبى بكر بن طفيل : « وكان (ابن طفيل) معاصراً للفيلسوف المشهور ابن رشد ، وإن كان ابن رشد أكبر منه سنا » . ولا شك أن هذا خلط كبير : فالتاريخ يحدثنا أن ابن طفيل هو الأسن ، وتاريخ ميلاده وإن لم يكن معروفاً على وجه التحديد إلا أنه لا يتجاوز بحال العقد الأول من القرن السادس الهجرى ، بينما ولد ابن رشد باتفاق عام ٥٢٠ هـ .

٣ ــ ويقول الناشر فى نفس الصفحة : « وقد حل ابن طفيل طبيباً للسلطان لما طعن ابن رشد فى السن » . وليس هذا خطأ لحسب ولكنه أيضاً قلب للحقائق ؛ فالمصادر تحدثنا أن ابن طفيل هو الذى قدم الشاب ابن رشد إلى السلطان أبى يعقوب يوسف ، وطلب منه ـ كما يروى المراكشى ـ أن يلخص لأبى يعقوب كتب أرسطو ويقرب أغراضها ، ثم يقول ابن طفيل لابن رشد :

« وإنى لأرجو أن تفى به ، لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك

إلى الصناعة ، وما يمنعني من ذلك إلا ما تعلمه من كبرة سنى » الخ . والمصادر تحدثنا كذلك أن ابن رشد هو الذى خلف ابن طفيل كطبيب للسلطان حينما علت بأبي بكر سنه ؛ يقول « كازادى فـو "Casa de Vaux" فى دائرة المعارف الإسلامية » .

ولما طعن فيلسوفنا ـ ابن طفيل ـ فى السن ، حل ابن رشد محله فى الطبابة للخليفة عام ٥٧٨ هـ .

ومن الطريف حقا أن الأستاذ أحمد أمين يسهو عما ذكره هنا ليعود فيقول (ص ١٠) ثم تخلى ابن طفيل عن عمله كطبيب للمنصور وتركه لابن رشد !!

٤ ـــ والأستاذ يؤرخ مقتل السهروردى بعام ٥٧٨ هـ (ص ٨) وهو بذلك يتقدم بمصرعه تسع سنوات كان الرجل فيها حيا يرزق ، إذ لاق السهروردى حتفه عام ٥٨٧ هـ ، قال ابن خلكان : « وكان ذلك فى خامس رجب سنة سبع وثمانين وخمسمائة بقلعة حلب .

(٥) ويقول الناشر (ص ١٠) : « ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه (ابن طفيل) كان تلميذاً لابن رشد ! وإنا نلتمس من الأستاذ الجليل أن يدلنا على هـذا « البعض » من المؤرخين أو من المخرفين ، فالحق أن أحـداً لم يقل بذلك أبداً . وأكبر الظن أن الأستاذ ، وقد رأى المراكشي وبعض الباحثين يذكرون أن ابن طفيل كان تلميذا لابن باجة المعروف بابن الصائغ ـ وهي دعوى يبطلها أبو بكر نفسه الذى يصرح بأنه لم يلق شخص ابن الصائغ ـ أقول أكبر الظن أن الأستاذ ، وقد رأى ذلك ، قد اختلط عليه ابن رشد بابن باجة بابن طفيل فقال إن من المؤرخين من يقولون بتلمذة ابن طفيل لابن رشـد ، وهو ما لم يقل به إنسان غير أحمد أمين الذى يريد لبضاعته هـذه التعجيل بالظهور فى السوق دون تمحيص على ، وهذه هي خمسة أخطـاء كبيرة فى مقدمة صغيرة ضئيلة ، فلننتقل بالقارىء الكريم إلى قصة « حى بن يقظان » كما نشرها الأستاذ :

٦ ـــ فى صفحة (٤٣) يقول ابن سينا : « نزعت إلى مخاطبته ، وانبعثت من ذات نفس لمداخلته ومجاورته » . وهذه عبارة مضطربة لا يستقيم معها المعنى ، ومن الطريف حقاً أن الأستاذ الناشر علق عليها بقوله « يلاحظ القارىء أن تعبيراته (يقصد ابن سينا) تعبيرات أعجمية غامضة لا كما هو الشأن عند ابن طفيل » والحق ياسيدى أن العيب ليس على تعبيرات ابن سينا أو عجمتها ، وإنمـا العيب على ناشر هذه التعبيرات ، فقدمها الأستاذ الكبير عند

نشرها فسقطت منها كلمات ، كان سقوطها دون ريب هو علة هذا الاضطراب ، وتصويبها كما فى نشرة الكردى « جامع البدائع ص ٩٢ » [١]) . « فنزعت إلى مخاطبته ، وانبعث من ذات نفسى متقاض لى بمداخلته ومحاورته » .

٧ — وفى نفس الصفحة يقول ابن سينا : « وتنازعنا الحد حتى أفضى بنا إلى مسائلته عن كنه أحواله واستملامه سنه وصناعته [٢] . » الخ وأكبر الظن أنه لا معنى أبداً لإقحام « السن » هنا ، والصواب سنته ، أى مذهبه وطريقته .

٨ — وفى صفحة (٤٥) : « فلا تحنج إليه أو يؤتيك مرفقاً من الله غليظاً » والصواب « فلا تجنح إليه » .

٩ — وفى نفس الصفحة السابقة : « فتى تجردت للسياحة بكنه نشاطك وافقتك وقطعتهم » والصواب « وافقتنى » .

١٠ — وفى صفحة (٤٦) : « سرت فى جوارحه منة مبتدعة يقوى بها على قطع تلك المهام » . وصوابها « الهامه [٣] » وهى جمع « مهمة » أو « مهمهة » وهى المفازة البعيدة .

١١ — وفى صفحة (٤٧) : « وكلما أهلت بهار نبت لهم فابتنى بها آخرون » والصواب « نبت بهم » .

١٢ — وفى نهاية قصة ابن سينا (ص ٥٣) : « قال الشيخ حسن بن يقظان لولا تعزبى إليه بمخاطبتك » والصواب « لولا تقربى » .

١٣ — وفى قصة ابن طفيل (ص ٥٨) : « بل يعتز به من الطرب والنشاط » وصوابها « بل يعتريه » .

١٤ — وفى صفحة (٦٠) نقص كبير لا ندرى على أى وجه أفلت من الناشر : فقبل قول ابن طفيل « وقد خرج بنا الكلام » يجب وضع هذا النص نقلا عن مطبوعة دمشق لعام ١٩٣٩ [٤] .

---

[١] المجلة — وكذلك العبارة بتمامها فى طبعة ليدن ص ٢ .
[٢] المجلة — وكذلك هى على الصواب « سنته فى طبعة ليدن ص ٣ .
[٣] المجلة — وهى على الصواب « الهامة » فى طبعة ليدن ص ٨ .
[٤] المجلة — وقبل مطبوعة دمشق كان هذا النص مثبتا فى مطبوعة الوطن بالقاهرة سنة ١٢٩٩ هـ .

« وقد يوجد في النادر من هو بمنزلة من كان أبداً ثاقب البصيرة ، مفتوح البصر ، غير محتاج إلى النظر ، ولست أعني — أكرمك الله بولايته — بإدراك أهل النظر ههنا ما يدركونه من عالم الطبيعة ، وبإدراك أهل الولاية ما يدركونه عما بعد الطبيعة ، فإن هذين المدركين متباينان جداً بأنفسهما ، ولا يلتبس أحدهما بالآخر ، بل الذي نعنيه بإدراك أهل النظر ، ما يدركونه عما بعد الطبيعة ، مثل ما أدركه أبو بكر ، ويشترط في إدراكهم هذا أن يكون حقاً صحيحاً ، وحينئذ يقع النظر بينه وبين إدراك أهل الولاية الذين يعتنون بتلك الأشياء بعينها ، مع زيادة وضوح ، وعظيم التذاذ ، وقد عاب أبو بكر ذكر هذا الالتذاذ على القوم ، وذكر أنه للقوة الخيالية ، ووعد بأن يصف ما ينبغي أن يكون حال السعداء عند ذلك بقول مفسر مبين . وينبغي أن يقال له ههنا : « لا تستحل طعم شيء لم تذق ، ولا تتخط رقاب الصديقين » . ولم يفعل الرجل شيئاً من ذلك ، ولا وفى بهذه العدة ، وقد يشبه أن منعه عن ذلك ، ما ذكره من ضيق الوقت واشتغاله بالنزول إلى « وهران » ، ورأى[1] أنه إن وصف تلك الحال ، اضطره القول إلى أشياء ، فيها قدح عليه في سيرته ، وتكذيب لما أثبته من الحث على الاستكثار من المال والجمع له ، وتصريف وجوه الحيل في اكتسابه ، وقد خرج بنا الكلام . . » الخ .

١٥ — وفي صفحة (٦٤) يقول ابن طفيل : « فهذه صفة تعليمه وأكثره إنما هو رمز وإشارة لا ينتفع بها إلا من وقف عليها ببصيرة نفسه أو لإمام سمعها منه ثانياً . . » الخ . وتصويب العبارة[2] : « ببصيرة نفسه أولا ، ثم سمعها منه ثانيا » .

١٦ — وفي صفحة (٦٥) : يقول الشيخ أبو بكر : « لكن كتبه (الغزالي) المضنون بها ، المشتملة على هدم المكاشفة لم تصل إلينا ... » وصواب العبارة : « المشتملة على علم المكاشفة[3] » .

١٧ — وفي صفحة (٧٠) : « وهي أنواع الحيوان وهذه الصقيلة في المثال المتقدم » وصواب العبارة : « وهذه بمنزلة الأجسام الصقيلة في المثال المتقدم[3] » .

١٨ — وفي صفحة (٧٥) : « كان يرى أنه أغمض عينيه أو حجبها بشيء لا يبصر شيئاً » والصواب : « أنه إذا أغمض عينيه أو حجبهما بشيء . الخ[3] » .

---

[1] المجلة — في مطبوعة الوطن (أو رأى) .
(٢) المجلة — وهذا الصواب هو الذي في مطبوعة الوطن أيضا ص ٨ .
[٣] المجلة — وكذلك هي على الصواب في مطبوعة الوطن [انظر ص ١٢ و١٦ و٢٠ و٢٦ و٢٨] .

١٩ — وفى صفحة (٨٠) : « ومات الحيوان ذلك على النور » والصواب : « ومات ذلك الحيوان على الفور [١] » .

٢٠ — وفى صفحة (٨١) : « والتى يحارب بها تنقسم إلى ما يدفع به نكاية غيره ، وإلى ما ينكس بها غيره » والصواب : « وإلى ما ينكى بها غيره [١] » .

٢١ — وفى صفحة (٨٨) : « وهو الذى يعبر عنه النظام بالنفس النباتية » والصواب « النظار [١] » .

٢٢ — وفى نفس الصفحة السابقة : « ورأى طائفة من ذلك الفريق فى الصورة الأولى والثانية تزيد عليه بصورة ثالثة » وفى العبارة نقص أخطرت له المعنى ، والصواب : « ورأى طائفة من ذلك الفريق ، مع أنها تشارك الفريق فى الصورة الأولى والثانية ، تزيد عليه بصورة ثالثة [١] » .

٢٣ — وفى صفحة (٩٠) : « فرأى أن وراء هذا الامتداد معنى آخر هو الذى يوجد فيه هذا الامتداد وحده لايمكن أن يقوم بنفسه » .

وفى العبارة نقص ، وصوابها : « فرأى أن وراء هذا الامتداد معنى آخر ، هو الذى يوجد فيه هذا الامتداد ، وأن الامتداد وحده ... الخ [١] » .

(٢٤) وفى صفحة (٩٦) : « والمحرك إما أن يكون قوة سارية فى جسم من الأجسام ، إما جسم المحرك نفسه وإما جسم آخر » والصواب « إما جسم المتحرك نفسه ... » [١]

(٢٥) وفى صفحة (٩٩) : « وكيف يكون العدم تعلق أو تلبس بمن هو الموجود » . والصواب « تعلقٌ أو تلبُّس [٢] » .

(٢٦) وفى نفس الصفحة أيضاً : « والصلابة واللين والخشونة والملامسة » والصواب « والخشونة والملاسة [٢] » .

(٢٧) وفى صفحة (١٠٧) : « وإما على يتشبه بالأجسام السماوية » . والصواب : « وإما على يتشبه به بالأجسام السماوية » [٢] .

(٢٨) وفى صفحة (١١٣) : « أذهى بجملتها لا يليق بهذه الحالة » والصواب : « عما لا يليق » [٢] .

---

(١) المجلة — وكذلك هى على الصواب فى مطبوعة الوطن (أنظر ص١٢و١٦و٢٠و٢٦و٢٨ على التوالى)

(٢) المجلة — وكذلك هى على الصواب فى مطبوعة الوطن [أنظر ص٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٣٤ .

(٢٩) وفى صفحة (١١٥) : « بل ليس شىء إلا ذات الحق » والصواب : « بل ليس ثم شىء »[٢] .

(٣٠) وفى صفحة (١١٦) : « وكذلك جميع الذوات المفارقة للمادة بتلك الذات الحقة » وفى العبارة نقص والصواب : « المفارقة للمادة العالقة[١] بتلك الذات الحقة » .

(٣١) وفى صفحة (١٢٢) : « ورجع القول فيهما ، كما كان فى طباعه من دوام الفكرة وملازمة العبرة الغوص على المعانى » ، وصواب العبارة « ورجع القول فيها ، لما كان فى طباعه من دوام الفكرة وملازمة العبرة والغوص على المعانى »[٢] .

(٣٢) وفى صفحة (١٢٤) : « فجعل حى بن يقظان يتقرب منه قليلا » ، وصواب العبارة : « يتقرب منه قليلا قليلا » .

(٣٣) وفى نفس الصفحة السابقة : « فلما نظر إليه وهو مكتسى بجلود الحيوانات » ، والصواب « فلما نظر إليه أسال وهو مكتسى بجلود الحيوانات »[٢] .

(٣٤) وفى صفحة (١٢٥) : « ففكر حى بن يقظان فيما كان عقد على نفسه من الشرط قد تناول الغذاء » ، والصواب « فى تناول الغذاء »[٢] .

(٣٥) وفى نفس الصفحة أيضا : « وقد كان أولع به حى بن يقظان تخشى إن دام على اقتناعه يوحشه فأقدم على ذلك الزاد » . وصواب العبارة : « وقد كان أولع به حى بن يقظان تخشى إن دام على امتناعه أن يوحشه الخ . . »

(٣٦) وفى صفحة (١٢٧) : « والاعتراض عن الحق » والصواب « والإعراض »[٢] .

(٣٧) وفى نفس الصفحة كذلك : فلم يتأت لهم فهم ذلك » ، وصواب العبارة : « فلم يتأت له فهم ذلك »[٢] » .

(٣٨) وفى صفحة (١٢٨) : « فشرع حى بن يقظان فى تعليم وبث أسرار الحكمة إليهم » والصواب « فى تعليمهم »[٢] .

(٣٩) وفى صفحة (١٢٩) : « وقد نبذوا أعمالهم على خفتها وسهولتها وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا » والصواب « واشتروا بها الخ » .

---

(١) المجلة - فى ص ٤٨ من مطبوعة الوطن « المفارقة للمادة العارفة » .

(٢) المجلة ـ وكذلك هى على الصواب فى مطبوعة الوطن (انظر ص ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ على التوالى) .

(٤٠) وفى نفس الصفحة : « وأنه لايفوز منه بالسعادة الأخروية إلا الشاذ النادر » ، والصواب « وأنه لا يفوز منهم[1] .. الخ » .

(٤١) وفى نفس الصفحة أيضاً : « أو عمل من أعمال الشرع يتزين أو يدافع الخ . . . » ، والصواب : « يتزين به أو يدافع الخ . . . »[1] .

(٤٢) وفى صفحة (١٣٠) : « وهو من العلم المكنون الذى لا يقبله إلا أهل المعرفة بالله ولا يجهله إلا أهل العزة بالله ، وقد خالفنا فيه طريق السلف الصالح فى الضنانة به والشمع عليه » .

وتصويب العبارة : « ولا يجهله إلا أهل الغرة بالله ، وقد خالفنا فيه طريق السلف الصالح فى الضنانة به والشح عليه »[2] .

وبعد فهذه مآخذنا على قصتى ابن سينا وابن طفيل ، ولم نتكلف أنفسنا هنا مراجعة مخطوطة السهروردى وهى ورقتان ، وأكبر الظن أن صاحبنا المقتول لم يكن عند الناشر أحسن حظا من صاحبيه ، ولا يسعنا فى ختام هـــذا النقد إلا أن نأسف بحق لوقوع هذه الأخطاء فى نشرة الأستاذ أحمد أمين هذه ، التى أساء بها أساءة بالغة إلى الشيخين الجليلين ابن سينا وابن طفيل ، مع أننا قد أغفلنا الكثير من الهنات والهفوات التى تدرك للنظرة الأولى ، ونحن ننصح للأستاذ الناشر أن يكف عن هذا العبث بذات السلف ، وأن يعود إلى سيرته الأولى من الأناة والاتزان والعمق فى البحث والتجويد فى الانتاج ، وأن يترك هذه البضاعة الرخيصة التى إن جلبت له المال الكثير فهى دون ريب تجلب عليه سخط الباحثين ، وتمحو اسمه سريعاً من سجل العاملين المخلصين .

سعيد محمد حسن

المدرس بوزارة المعارف

---

(١) المجلة ــ وكذلك هى على الصواب فى مطبوعة الوطن (انظر ص ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ على التوالى) .

(٢) المجلة ــ وفى الكتاب المنقود مآخذ أخرى كثيرة غير التى ذكرها الناقد ، منها ما هو فى المتن ومنها ما هو فى التعليقات العربية والافرنجية .

اختيار الزوجة فى الشريعة الاسلامية

— ٢ —

هناك صفات أخرى جعلها الإسلام أساساً لاختيار الزوجة وإن كانت تلى فى الأهمية صلاح الزوجة وتقواها . قال رسول الله ﷺ « تزوجوا الودود الولود ، فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة » . فالإسلام يفضل الزواج بالودود الولود ، لأن ذلك فيه إكثار للنسل وتقوية للأمة الإسلامية وإنهاضا لشأنها ، ومحافظة على كيانها ، ودرء العدوان عنها ، فما من أمة قل نسلها أو ضعف عدد أبنائها إلا صارت عرضة للفناء والاعتداء ، ولذلك نرى كثيراً من الدول تشجع الزواج وتفرض ضريبة على العزاب من أبنائها فوق ما تقرره من إعانات عائلية تزداد بازدياد عدد أفراد العائلة .

والإسلام بصفة عامة يفضل البكر على الثيب قال الله تعالى يمدح الحور فى الجنة : « إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا » . وقال ﷺ مخاطباً أحد الصحابة وحاثاً له على زواج البكر « هلا بكراً تداعبها وتداعبك » ، ذلك لأن البكر أقرب إلى السذاجة والفطرة من الثيب فيمكن للزوج أن يشكلها حسب طبيعته ، كما أنها تكون أقرب للرضا بزوجها من الثيب لأنه لم يسبق لها أن عاشرت زوجاً آخر من قبل ، وفى البكر خفر وحياء ، والحياء زينة المرأة ، بل هو شعبة من شعب الإيمان لا يتحلى بها من لا حياء له ، ولذلك اعتبر سكوت الزوجة رضاء بالزواج بعكس الثيب التى لا تستحى أن تقول نعم أو لا .

ومع ذلك فالثيب تفضل فى بعض الحالات كحالة وجود أولاد للزوج .

روى عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل نكحت يا جابر ؟ قلت : نعم قال : بكرا أم ثيباً ؟ قلت : لا بل ثيباً . قال : فهلا جارية تلاعبك . قلت : يارسول الله إن أبى قتل يوم أحد وترك تسع بنات كن لى تسع أخوات فكرهت أن أجمع إليهن جارية خرقاء مثلهن ، ولكن امرأة تمشطهن وتقوم عليهن . قال : أصبت .

والنبي صلى الله عليه وسلم ، وإن كان قد تزوج ثيبات ، فلأسباب خاصة وظروف معينة معروفة ، كرغبته عليه الصلاة والسلام في أن يعولهن أو يعوضهن عن أزواجهن الذين استشهدوا في القتال ، كزواجه بسودة بنت زمعة وأم سلمة ، أو لحكمة تشريعية عليا كزواجه بزينب بنت جحش رضي الله عنها التي تزوجها صلى الله عليه وسلم بعد أن طلقها زيد بن حارثة مخالفا بذلك عادة العرب من عدم الزواج بزوجة المتبنى ، وكان زيد يدعى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيقال ، زيد بن محمد ، ، قال الله تعالى « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا » .

والإسلام يفضل الزواج بالغريبة على الزواج بالقريبة ، قال صلى الله عليه وسلم « اغتربوا لا تضووا » ، أي لا تهزلوا وتضعفوا . وقد ثبت علميا أن الزواج بالقريبات فيه إضعاف للنسل ، أما الزواج بالغريبة ففيه تجديد في الدماء والطباع والأخلاق .

يقول الدكتور محمد وصفي في بحث له بمجلة لواء الإسلام (ذو القعدة سنة ١٣٦٦) :

« ولا شك أن الاستمرار في هذا الزواج (الزواج بالأقارب) يؤدي إلى تجمع عيوب مرضية وخلقية في النسل ، وقد لوحظ أن اليهود لاتباعهم طريقة زواج الأقارب كالخالات والعمات والاغراق في زواج أولاد الأعمام والخالات مدفوعين إليها بتعرضهم للاضطهادات في مختلف العصور ، ينتشر بينهم شلل الأطفال المصحوب بالبلاهة وغير ذلك من العيوب المنتشرة بينهم سواء أكانت جسمية أو غير ذلك ، وقد لوحظ في حالات الصمم المصحوب بالبكم أن الآباء أولاد عم أو عمة أو أولاد خال أو خالة .

ومن الأمراض التي تورث بهذا الزواج الهيموفيليا وهو مرض يصيب الذكور ويتميز باستعداد خاص للنزف بعد الجروح ، وقد كانت الأسرة الملكية الاسبانية السابقة مصابة به وكذلك أبناء الملكة فكتوريا ، وبعض أبناء قيصر روسيا السابق .

وقد قيل : إن سكان جزائر (الودا) الذين يعيشون في جزيرة سيلان يتفشى بينهم قصر الأجسام والعتم إلى درجة يخشى معها عليهم من الفناء . وثبت أن الحد من تزاوج أبناء العم أو الخال أو أبناء العمة أو الخالة يقطع دابر بعض الأمراض بنسبة تتراوح بين ١٥ ٪ و ٥٠ ٪ » .

وإذا كان الزواج بالغريبة مستحبا شرعا فذلك في حالة تساويها مع القريبة في الصفات والأخلاق وكمال الصحة ، أما إن كانت في الغريبة عيوب خلقية أو مرضية فيكون التفضيل

القريبة لأن الغاية التي يقصدها الإسلام هي تقوية النسل وتطهيره من الأمراض النفسية والجسدية التي تنتقل بالوراثة كالزهري والصرع ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم لا تنكحوا القرابة القريبة فإن الولد يخلق ضاوياً ، وفي هذا يقول الشاعر :

تجاوزت بنت العم وهي حبيبة مخافة أن يضوى على سليلها

ويقول الأصمعي : بنات العم أصبر ، والغرائب أنجب ، وما قرع الأبطال كابن الأعجمية .

هذا فضلا عن أن الزواج بالقريبة فيه ألفة ومحبة وارتباط بين عائلات جديدة ، والدين مبناه وأساسه المحبة والإخاء والتآلف ، وهذا سبب من أسباب تحريم الزواج بالمحارم كالعمة والخالة .

أما اختيار الزوج فأساسه كذلك الأخلاق الكريمة والصفات النبيلة وصلاح الإنسان وتقواه ، قال ﷺ « إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، إن لا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » فلا ينظر الإنسان إلى مال الزوج أو جاهه وينسى خلقه وتقواه ، فالغنى أو الحسب وحده لا يكفي لإسعاد الزوجة ، بل ربما كان سبباً في تعاستها وشقائها فيكفينا من الزوج أن يكون قادراً على الإنفاق عليها وإسعادها قال الله تعالى « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم » . وقال رجل للحسن البصري : قد خطب ابنتي جماعة فمن أزوجها ؟ قال : ممن يتقي الله ، فإن أحبها أكرمها ، وإن أبغضها لم يظلمها » .

ولقد كان السلف الصالح رضوان الله عليهم يرفضون أن يزوجوا كريماتهم للملوك وأبناء الملوك والحكام والأغنياء ويفضلون عليهم الصالحين الأتقياء من عباد الله .

فقد روى أن سعيد بن المسيب العالم الفقيه أبى أن يزوج بنته لولي عهد أمير المؤمنين وزوجها لتلميذه التقي الورع ابن أبي وداعة مع فقره وشدة حاجته .

ويجب أن نشير في نهاية هذه الكلمة إلى أنه من الواجب ألا نبالغ في المهور ، وألا نطالب الأزواج بأكثر مما يطيقونه ، لأن في ذلك خروجا بالزواج عن غايته التي قصد بها ، إلى نوع من البيع والشراء ، فضلا عن أنه يؤدي إلى تعطيل الزواج ، لأن الكثير من الناس يرغبون في الزواج ولكن ضخامة المهور تحول دون ذلك ـ قال ﷺ « من بركة المرأة سرعة تزويجها وسرعة رحمها (يريد الولادة) ويسر مهرها » .

محمد فهمي الطحاوي

تصويب لغوي

سي وستي — مخطىء خاطىء — يُفلح ويُفلِح — أمسية

سي وستي

كتب أثريٌّ أديبٌ كلمة يتحدث فيها عن رأي له في كلمتي « سي » و « ستي » العربيتين ، وعن مقترح له فيهما ، يقول في كلمته : إن الكلمتين من أصل مصري قديم !!! ، ويقترح أن تحلا في الاستعمال محل كلمة « حضرة » التي كانت قد اقترحت للاستعمال بديلا في لقب حظره القانون .

أما الذي يعني مجتمع الأدب الرصين أن يقوله ، فذاك أننا لا نزال نرى أن كلمتي « سي » و « ستي » عربيتان محرفتان تحريفاً قريباً بيناً ، عن كلمتي « سيدي » و « سيدتي » ، وقد عرف هذا التحريف والاستعمال قديماً ، وقد يكون هذا الذي يقوله الأستاذ المقترح عن مصريتهما من تلاقي اللغات ، وما هكذا يكون التلاقي فيما أحسب !!!

على أنه يطيب للأدب أن ينشد بيتي « البهاء زهير » الشاعر المصري الرشيق ، قائل السهل الممتنع ، في تعليله المتقبل الرقيق ، لاستعمال كلمة « ستي » المتلطفة إحــــدى هاتين الكلمتين المحرفتين .

قال البهاء زهير :

بنفسي من أسميها بستي فتنظرني النحاة بعين مقت
ولكن غادة ملكت جهاتي فلست بلاحن إن قلت « ستي »

أما ذلك المقترح باستعمالها بديلا من كلمة « حضرة » فإن الرأي فيه لمن يملكه لا من يراه !!! ، على حين أن الكلمتين الأصيلتين ، وهما سيدي وسيدتي باقيتان سائدتان إلى اليوم !!!

مخطىء وخاطىء :

تقول كتب اللغة : أخطأ فلان ، جاوز الصواب والخطأ عند الاصابة ، رباعى اسم الفاعل منه مخطىء ، وتقول كتب اللغة : خطىء الرجل يخطىء من الخطيئة والذنب ، ثلاثى اسم الفاعل منه خاطىء ، فى معنى مذنب مسىء .

هذا كذلك ، بيد أن بعض الكاتبين يضع الخاطىء موضع المخطىء ، فيما لا خطيئة فيه ، ولا ذنب ، بل فيه الخطأ وحده ، فهذا الكاتب مخطىء وإن كان غير خاطىء .

جاء فى إحدى الصحف هذه الكلمة « بيانات خاطئة » والمقال عن حساب وأرقام ، وفى طبيعة الحساب والأرقام أن تكون مخطئة حيناً ، لا خاطئة !!! ، إن ثمة فرقاً بين المخطىء والخاطىء ، يسرنا الله للسداد ، وجنبنا الخطأ والخطيئة .

شهدت إذ أنا نائب وزيراً قام خطيباً فى إحدى الجلسات ، فقال من حديث مثل هذه الكلمة : لقد كان هذا الحديث خاطئاً !!! ، فقال له وزير آخر : كلا يا مولاى إنما هو مخطىء لا خاطىء !!! ، فقنع بالتصويب ، من أديب ، وأقر كفء ، نقد الكفء .

يفلح ويفلح :

استمعت إلى عالم أديب محاضراً فى محطة الاذاعـــة ، لعهد سالف ، فجرى فى محاضرته ما يأتى :

أن الحديد بالحديد يفلح ! ، فتمثل بهذا المثل ـ فيما تهدى إليه السمع ـ بفتح ياء الفعل ، وفتح لامه ، كأنه يحسبه من الجدوى والافلاح !! ، وليس المثل فى شىء من ذلك !!! .

إن الصواب يتمثل بهذا المثل السائر المتعارف كهذا الذى أصف : « الحديد بالحديد يفلح » بياء مضمومة ، ولام مفتوحة ، ومعنى يفلح يشق ويكسر ، وبه سمى الفلاح فلاحاً ، لأنه يشق الأرض بالحـــراثة ، والأفلح مشقوق الشفة ، ومغزى المثل أن القوة لا يقاومها إلا القوة .

وبعد : فمعذرة إلى الصديق المحاضر من هذه العريضة الأدبية ، أو الشغب اللغوى ، فإنمـا نعمد إلى الهتاف به استمتاعا بذكر زميل كريم ، فإن الأدب عزيز دلينا مثله ، على أن الأستاذ يقول ـ وهو خليق بالصواب ، أنه قاله على ما نصف من الصواب ، وإنما تخطىء الأذن ، ولا بد من الصواب ، للشباب :

أنت عينى وليس من حق عينى غض أجفانها على الأقذاء!!!

أمسية :

يكثر بعض الكتاب أن يقول هذه المقالة - على التمثيل - خرجنا للتريض فكانت لنا هناك أمسية طيبة ، وجرى كيت وكيت .

أما القارئ ، فما أكثر حيرته فى كلمة « أمسية » هذه ، فى مثل هذا المقال ، إذ كان مغزاها أنهم خرجوا فى يومهم فكان لهم فى أمسيته أو أمسه شأن رقيق ، فما هذا الشأن ؟؟؟ وما ذلك الأمر الذى لم يقع فى يومك ، وإنما جرى فى أمسيته ؟؟؟ وسالفه !!! وإنما أمسية يومك هى اليوم الذى قبله !!!

إنى لأحسب كلمة « أمسية » هذه محولة عن كلمة « مسائية » وإنما يريد هذا الكاتب أن يقول : خرجنا اليوم ، فكان لنا فى مسائيته شأن هو كيت وكيت ، أليس كذلك !! أجل ؟

« البيبر »

عضو المجمع اللغوى

كلمات للصاحب بن عباد

- مثل الكاتب كمثل الدولاب : إذا تعطل تكسّر
- الصبر على حقوق الثروة أشد من الصبر على ألم الحاجة
- أحسن ما يكون الحسَن بجنب القبيح
- ما أحد رأى فى ولده ما يحب ، إلا رأى فى نفسه ما يكره
- ثلاثة تدل على عقول أربابها : الهدية ، والكتاب ، والرسول
- السنين تغير السنن
- السلاح ثم الكفاح
- لا تمنع عدوك السبيل فى هزيمته
- عرض خير من ألف مقاتل



ديوان علي بن الجهم

نشره المجمع العلمي العربي — بتحقيق العلامة الأستاذ خليل مردم — ٣٠٠ ص. قالبين

أبو الحسن علي بن الجهم من شعراء عصر المأمون إلى زمن الخليفة المتوكل ، يرجع بنسبه الى قريش العازبة من بني سامة بن لؤي الذين نزلوا خراسان ، وانتقل أبوه إلى بغداد فنشأ ابن الجهم فيها وصار يعد من كبار شعرائها. وكان لعلي أخ يسمى محمداً قال عنه ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ، مصحفه كتب أرسطاطاليس في الكون والفساد والكيان وحدود المنطق ، بها يقطع عمره . أما ابن الجهم الشاعر فكان يختلف الى مجالس الإمام أحمد بن حنبل يسأله ماينفعه في دينه وتصحيح عقيدته . ولما اشتد الخليفة الواثق على أهل الحديث في مدة خلافته ضعفت مدائح علي بن الجهم فيه وظهرت عليها دلائل انقباض الصدر وعدم الارتياح ، بل إن لابن الجهم في ذلك الدور قصيدة هجا بها وزير الدولة محمد بن عبد الملك الزيات غير مبال بما كان له من صولة وجبروت . فلما صارت الخلافة الى المتوكل — وكان يرى رأي أهل السنة وأصحاب الحديث — انطلق لسان علي بن الجهم وكثرت أخباره ، وأكثر ما بقي من شعره قاله في المتوكل أو في زمنه . ومن ذلك قوله ساعة تولى المتوكل الخلافة :

قالوا أتاك الأمل الأكبر — وفاز بالملك الفتى الأزهر
واكتست الدنيا جمالا به — فقلت قد قام إذن جعفر

ولما تمت له البيعة قام علي بن الجهم في مجلس الخلافة وألقى قصيدة كأنها خطبة العرش مطلعها :

وقائل أيهما أنور — الشمس أم سيدنا جعفر
قلت لقد أكبرت شمس الضحى — جهلا وما أنصفت من تذكر

هل بقيت فيك مجوسية ... فالشمس فى ملتها تُكبر
فكيف قابست بها غرة ... غراء لا تخفى ولا تستر
قام وأهل الأرض فى رجفة ... يخبط فيها المقبل المدبر
والدين قد أشفى وأنصاره ... أيدى سبا موعدها المحشر
فأمّر الله إمام الهدى ... والله من ينصره ينصر
وقال والألسن مقبوضة : ... ليبلغ الغائب من يحضر
أنى توكلت على الله لا ... أشرك بالله ولا أكفر
والله لا يعبد سراً ولا ... مثلى على تقصيره يعذر
وجرد الحق فأنجى به ... من كان عن أحكامه ينفر
فصاح إبليس بأصحابه ... حل بنا ما لم نزل نحذر
مالى وللغر بنى هاشم ... فى كل دهر منهم منذر
أكلما قلت خبا كوكب ... منهم بدا لى كوكب يزهر
والله لو أمهلنا ساعة ... ما هلل الناس ولا كبروا
وشتموا القوم الذين ارتضى ... بهم رسول الله واستكبروا
فردهم طوعا وكرها إلى ... أن عرفوا الحق الذى أنكروا
الردة الأولى ثنى أهلها ... حزم أبى بكر ولم يكفروا
وهذه أنت تلافيتها ... فساد ما قد كاد لا يذكر

قالوا وكان فى هذا المجلس قاضى قضاة المعتزلة أحمد بن أبى دواد ، فأطرق استنكاراً لما يسمع .

وبعد أن حظى ابن الجهم من المتوكل بموضع الثقة التامة تآمر عليه ندماء الخليفة وشعراؤه حتى أغروه بحبسه ونفيه إلى خراسان ثم أطلق سراحه فساء رأيه فى الناس وصار يلزم المقابر وقد قال فى ذلك :

يشتاق كل غريب عند غربته ... ويذكر الأهل والجيران والوطنا
وليس لى وطن أمسيت أذكره ... إلا المقابر إذ صارت لهم وطنا

وفى آخر حياته خرج للجهاد فى ثغور الروم ، وفيما هو فى الطريق هاجمه قطاع الطرق فقتل ، وقال وهو يحس بالموت :

أزيدٌ في الليــل ليل ... أم سال بالصبح سيل
يا إخــوتي بدجيل ... وأين مني دجيل

ووجدوا في جيبه رقعة يقول فيها :

وارحمتا للغريب في البلد الـــنازح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا ... بالعيش من بعده ولا انتفعا

إن إحياء هذا الديوان حسنة من حسنات المجمع العلمي العربي ، وقد طبع طبعاً أنيقاً على ورق صقيل عن مخطوطة أثرية ثمينة من مخطوطات الاسكوريال بتحقيق بالغ الغاية من العناية قام به الأديب الكبير والشاعر المبدع الأستاذ خليل مردم وزير سوريا المفوض في العراق أحسن الله إليه .

دين ودولة

للأستاذ أحمد محمد جمال ، ١٧٠ص ، مكتبة الثقافة بمكة

هو الكتاب الثاني من سلسلة (على مائدة القرآن) التي تكلمنا في جزء جمادى الآخرة على الكتاب الأول منها وكان بعنوان (ما وراء الآيات) . وهذا الكتاب الثاني يشتمل على ثلاثة فصول : أولها بعنوان « فلسفة التطهر والتعبد في القرآن » ، وتكلم فيه المؤلف حول الإغراء بالتوحيد ، والتطميع في العبادة ، ومكارم التقوى ، ومصلحة الجسد والروح ، وعلم الغيب ، وحقيقة القدر ، وواجب الذكرى . والفصل الثاني بعنوان « منهاج التعليم والتربية في القرآن » وتكلم فيه حول المنهاج ، ومقاومة اليأس ، والخير في القلة ، ودلائل النعمة ، وجريرة الغنى ، ووقود الجريمة ولقاح العطل ، وحرمة الأعراض ، وواجب الدعاية . والفصل الثالث بعنوان « المجتمع الإسلامي حكومة وشعبا في القرآن » وتكلم فيه على حقيقة الحاكم ، ووحدة المحكومين ، وحريتهم ، والإلزام بالشورى ، وديمقراطية الاقتصاد والاجتماع ، وقواعد الأمن العام ، ونظام الجندية ، ورعاية الأجانب ، وكرامة المرأة . ووضع المؤلف ثلاث مقدمات للكتاب اثنتان لعظيمين من عظماء الإسلام أحدهما شهيد مصر وهو المرشد الأول للإخوان المسلمين الأستاذ حسن البنا رحمه الله مقتبسة من رسالته « مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي » ، والمقدمة الثانية لعظيم يوشك أن يكون شهيد الإسلام في باكستان وهو مفخرة باكستان ومحبوب المسلمين فيها وفي العالم الإسلامي

الأستاذ أبو الأعلى المودودى الذى وردت الأخبار بصدور الحكم عليه بالإعدام لأنه يريد لباكستان إسلاما لا شائبة فيه . ومقدمة أبى الأعلى المودودى مقتبسة من رسالته « الدين القيم » . والمقدمة الثالثة للمؤلف وهى على غرارهما وروحها من روحهما .

إن كتاب (دين ودولة) أجود ما أهداه الفاضل الحجازى الأستاذ أحمد محمد جمال للمكتبة العربية . فجزاه الله خيراً

كتاب وقف أسعد باشا العظم

بتحقيق وتعليق الدكتور صلاح الدين المنجد ـ ٢٧ ص قالبين ـ طبع دمشق

آل العظم الذين كان منهم ولاة دمشق فى القرن الثانى عشر الهجرى ، ومنهم الست الشامية زوجة شريف باشا وصاحبة جامع الست الشامية أمام وزارة الداخلية بالقاهرة ، أصلهم من معرة النعمان من عرب تلك الجهات ، وصارت لهم النباهة والمكانة فى الدولة العثمانية . وأسعد باشا العظم هو الوزير الثانى من هذه الأسرة تولى وزارة دمشق بعد أبيه إسماعيل باشا . وكان أبوه قد أنشأ المدرسة الكبرى فى دمشق المعروفة بمدرسة الخياطين وكان لها شأن فى الحركة العلمية هناك . ومما امتازت به أنهم وقفوا عليها مكتبة بدأ بها إسماعيل باشا وتابعه فى تنميتها ابنه أسعد باشا .

ولما أسس مدحت باشا والى الشام وحمدى باشا الذى تولاها بعده دار الكتب الظاهرية جمعت كتبها من عشر مكتبات إحداهن مكتبة مدرسة الخياطين التى وقفها إسماعيل باشا العظم وابنه أسعد باشا . وكتب مكتبة الخياطين وقفت على دفعات والظاهر أنه كلما وقف عليها مقدار من الكتب كان يعمل لذلك كتاب ووقف رسمى يسجل بالمحكمة الشرعية وقد عثر الدكتور صلاح الدين المنجد على كتاب لإحدى هذه الوقفيات من أسعد باشا العظم تاريخه ١١ شوال ١١٦٥ وفيه أسماء ٩٣ مخطوطا منها تاريخ دمشق لابن عساكر فى عشرة مجلدات ، وتفسير اللباب لابن العادل الحنبلى فى ثلاثة مجلدات ، وانتقاض الاعتراض للحافظ ابن حجر فى رده على العينى فى شرح البخارى وأمثال هذه الكتب . فعنى الدكتور المنجد بنشر كتاب هذه الوقفية وقدم له بمقدمة تاريخية عن هذا الوقف وواقفه . ثم نشر هذه الوثيقة وعلق على كل كتاب من الكتب الموقوفة بالإشارة إلى محل التعريف به من كشف الظنون وغيره وألحق به فهرسا أبجديا لأسماء المؤلفين . فشكراً له على هذه العناية التى لم يدفعه إليها إلا خدمة العلم محضا .

آدم عليه السلام

للأستاذ البهى الخولى — ١٤٢ ص جاير — مطابع دار الكتاب العربى

عرض الأستاذ البهى الخولى لقصة آدم عليه السلام على أنها من قصص القرآن، ونظر إليها من ناحية أنها قصة تكوين البشرية ومبدأ تقلبها فى الغواية والرشد، ومهمتها الخطيرة التى اختيرت لها فى هذه الأرض.

وتبدأ القصة بتقرير أن الإنسان ليس مخلوقا أرضياً بحتا، بل هو مزاج من المادة والروح فاختلط سر الروح بطبيعة التراب، ونشأ من تلاقيهما فى الكيان البشرى ضرب من الحياة فيه سر السمو والنزوع إلى الله، وفيه طبع الانجـــذاب إلى الأرض، والركون إلى متعتها الحيوانية.

وعرض المؤلف فى باب تكوين الإنسان إلى موقف القرآن من نشأة الحياة على الأرض وصلة آدم بمن سكنوا الأرض قبله وإلى مرونة القرآن فى التحدث عن بدء خلق الإنسان. ثم تكلم على تكافؤ تكوين الإنسان مع مقتضيات الخلافة على الأرض، وعن العقل المنطق والعقل الروحى. وعن ضرورة العلم للخلافة وآثار موهبة العلم فى عمران الأرض. وانتقل بعد ذلك بالإنسان من الملأ الأعلى إلى أفق الغرائز فبين غريزة الزوج وغريزة حب الخلود وغريزة الملك وفطرة التدين، وأن ما طرأ على آدم من التطورات النفسية والعضوية جعل فيه مزاجا جـــديدا لا يجانس الجنة، فصار ذلك به إلى الأرض، وكان له فيها مستقر ومتاع إلى حين.

مذاعات فى الاسلام

للأستاذ أحمد مظهر العظمة — ٨٢ ص قالبين — نشرته جمعية التمدن الإسلامى بدمشق

هى مجموعة أحاديث تخيرها الأستاذ أحمد مظهر العظمة مما ألقاه فى محطة الإذاعة بدمشق فى موضوعات شتى انتظمها عقد الاســلام، وكان قد نشرها فى المجلد الثامن عشر من مجلة التمدن الاسلامى الدمشقية تكلم فى بعضها على ليلة الذكرى النبوية، وعلى الأخلاق الدينية، وعمل الإسلام فى سبيل المساواة، وسياسة المال فى الإسلام، وعلاج الفقر والمرض فى الإسلام، وعلى دعوة الحق وصيانتها، وكيف كانوا يفهمون الإسلام، والبعثة الكبرى وشباب الإسلام. وأكثرها فى كلام موجز، لأن للإذاعة إيجازها الجامع ووقتها المحدود.

المرأة بين البيت والمجتمع

للأستاذ البهي الخولي - ١٤٨ صفحة - من رسائل الإخوان المسلمين

هذه الرسالة اقترح تأليفها فضيلة الأستاذ حسن الهضيبي المرشد العام للإخوان المسلمين، وكتب لها مقدمتها، وأراد منها أن تبين حقوق المرأة المسلمة وواجباتها في البيت والمجتمع، وأن تلم بحكم الإسلام في ذلك مأخوذاً من الكتاب والسنة بعيداً عن جدل المجادلين وتزمت المتزمتين وترخص المترخصين، فقام بذلك الأستاذ البهي الخولي على عادته في مؤلفاته الممتعة، فتكلم على فطرة الإسلام إلى المرأة، وعن حقوق الأسرة، والزواج، وتعدد الزوجات، والطلاق، وتحديد النسل، وزينة المرأة، وحقوق الأولاد، وحرمة البيت، والمرأة والمجتمع، والمرأة والاشتغال بالأعمال الحرة، والمرأة ووظائف الدولة، وحقوق المرأة السياسية. وقد فرق المؤلف بين حقوق المرأة السياسية وبين أهليتها لمزاولة هذه الحقوق. وقال إن القائمين بدعوة الحق السياسي للمرأة لا يبغون بها رفع ضيم واقع بها، ولا سد فراغ شاغر عجز الرجال عن ملئه، بل هي فقاقيع التقليد التافه طافية على قلوبهم وأذهانهم. ولو كانت الغيرة والمصلحة العامة هي التي تدفعهم إلى تحرير المرأة المزعوم لآثروا الأهم على المهم ولعملوا على درء المفاسد قبل أن ينادوا بجلب المصالح. وإذا أتيح لنا أن نأخذ بمناهج الدين والعقل والخلق القويم نكون قد بدأنا مهمتنا في إعداد المجتمع الفاضل الذي تمارس فيه المرأة حقها السياسي، وحينئذ لا تكون فتنة ويكون الأمر كله لله.

بنو خفاجة وتاريخهم السياسي والأدبي

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي، الأجزاء ٦ — ٩ في ٢٨٨ ص

نوهنا في جزء صفر من مجلة الأزهر لهذه السنة بالأجزاء الخمسة الأولى من هذا التاريخ وقد صدر منه الآن أربعة أجزاء أخرى في مجلد واحد، جمع في جزء منها طائفة من أخبار الخفاجيين وما قيل فيهم وفي جزء آخر أخبار الخفاجيين في دمياط ومعلومات عامة عن دمياط وفي أحد الأجزاء بيان مسهب عن جهاد المؤلف وجهوده ونشاطه. وفي الجزء الأخير وهو التاسع أعاد طبع كتابه (توبة شاعر البطولة) ،كما أعاد طبع كتابه (نشيد الصحراء) ، فجاءت هذه المجموعة كما ترى حافلة بالطرائف، كما هو دأب المؤلف في مؤلفاته الكثيرة.

تاريخ جبل نابلس والبلقاء

الجزء الأول للأستاذ إحسان النمر - ٣٠٠ ص - بمطبعة ابن زيدون بدمشق

عنى المؤلف بهذا الجزء من تاريخ نابلس والبلقاء بالكلام على حوادث سوريا من نهاية الحروب الصليبية إلى الفتح العثماني ، ثم ذكر بدء بروز شخصية جبل نابلس ، وعصر بنى النمر (أسرة المؤلف) وهم ينتمون إلى أسد ربيعة وتتفرع منهم أسر كثيرة معروفة الآن بأسماء أخرى فى دمشق وحوران وعجلون والكرك ونابلس من القرن الحادى عشر الهجرى ، ثم تناول حوادث عهد الأقطاع فى تلك البقاع إلى حملة محمد على بالجيش المصرى على فلسطين وسوريا فنهاية القرن الثالث عشر الهجرى .

والكتاب طريف ، ويدل على سعة اطلاع لا على جميع المؤلفات المتعلقة بهذا الموضوع وحسب ، بل على سجلات المحاكم ، ومدخرات الأسر الكبيرة ، وعلى الروايات المحفوظة أيضا فجاء كتابا ينتفع به كل من يكتب عن تاريخ هذه الجهات فى العصور الأخيرة .

وعسى أن المؤلف الفاضل لا يدخر وسعا فى إكمال الأجزاء الباقية من تاريخه ليتم النفع به .

كارثة القرم الاسلامية

للأستاذ يوسف ولى شاه — ١٨٢ ص — مكتبة الخانجى

كانت جزيرة القرم قلعة من قلاع الإسلام ، بما نبغ فيها من علماء ، وبما كان فيها من صحف إسلامية ، وبما كان يضطلع به تجارها من نشاط اقتصادى عظيم . وكانت روسيا القيصرية دولة ظالمة متعصبة تسىء إلى المسلمين باضطهاد هذا النشاط العلمى والصحفى والاقتصادى فيها . ولكن النظام السوفيتى بما انطوى عليه من غل ذميم لكل نظام آخر غيره ولا سيما الإسلام قد أنسى المسلمين كل سيئات روسيا القيصرية وجعلهم يؤمنون بأن المثل الأعلى للتعصب الباغى والظلم الفاجر هو الذى تخفق رايته الآن بيد النظام السوفيتى فى آفاق البلاد الإسلامية التى أوقعها سوء الحظ تحت حكم خلفاء القياصرة .
وكتاب (كارثة القرم الإسلامية) يحمل تفاصيل هذه الحقيقة وبراهينها والمعلومات التى لا يجوز لمسلم أن يجهلها .

لغة القانون فى الدول العربية

للدكتور عدنان الخطيب — ١١٦ ص — نشرته حلقة الدراسات العلية بدمشق

الدكتور عدنان الخطيب المعاون العام لدى محكمة الاستئناف بدمشق وشارح قانون العقوبات السورى أحد المتضلعين من القانون وله دراسة وبحوث فى المقارنة بين قوانين البلاد العربية ، وهذا الكتيب الجيد تكلم فيه على صياغة القانون وما هو جار الآن من الإخلال بها وضرب الأمثلة لذلك من قوانين عربية مختلفة . ثم تكلم على لغة القانون واختلاف البلاد العربية على مصطلحاته ، ووجوب تصفية اللغة القانونية وتوحيدها فى الدول العربية كلها . وتحدث عن التشريع والمشرعين ومن يضع التشريع فى الدول العربية ومن يجب أن يضعه . ثم ختم الكتاب يبحث عن صلة القانون بالأدب وعن الأدب وأثره فى القانون وحاجة رجل القانون إلى الأدب .

وللكتاب مقدمة بليغة قيمة بقلم قاضى دمشق الأستاذ على الطنطاوى . فلفت أنظار وزارات العدل فى الدول العربية إلى هذا الكتيب المفيد .

الاسلام رسالة الاصلاح والحرية

للأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى — ٢٤٠ ص جاير — مكتبة الأزهر

هذا الكتاب كسائر مؤلفات فضيلة الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى يدل على نشاط وغزارة إنتاج . ويتألف من فصول عن رسالة الإسلام الخالدة ، وعن الإسلام والمجتمع ، وعن الأخلاق والآداب الإسلامية ، وأسرار التشريع الإسلامى ، وذكريات خالدة لرسول الإسلام ﷺ ، يليها فصول فى أصول ومبادىء عامة ، وفى ختامه فصول أخرى عن الإسلام والشيوعية والمقارنة بين نظاميهما .

أستاذ المرأة

للشيخ محمد بن سالم البيحانى ـ ٢٧٠ ص ـ مطبعة الكمال فى عدن

الشيخ محمد بن سالم البيحانى من كبار علماء عدن واليمن ، وقف حياته على الدعوة إلى الإسلام الصحيح ، وقد رأى أن من مجال دعوته تعريف المرأة المسلمة ولا سيما فى جنوب جزيرة العرب بما يصحح لها أمر دينها ، ويصونها من مزالق البدعة ، ويدلها على طريق الشرع فى كل ما يعرض لها من الشئون ، فألف لها ولسائر المسلمين هذا الكتاب النافع الحافل بأحكام الفقه وآداب الإسلام وبيان الحقوق والواجبات . فجزاه الله خيراً

الأدب والعلوم في شهر

مكتبة قصر عابدين

يبلغ عدد الكتب التي تحتويها مكتبة قصر عابدين نحو نصف مليون بعضها نادر الوجود.

ولما كان في النية إنشاء (دار للوثائق القومية) فقد عهد مجلس الوزراء إلى اللجنة القائمة ببحث هذا المشروع أن تبحث أيضاً في خير وسيلة للاستفادة من مكتبة قصر عابدين التي كان الانتفاع بها محدوداً جداً فيما مضى، ولا يستفاد منها إلا في أغراض كثيراً يكون المراد منها تشويه التاريخ أو النظر إليه من زاوية تغير كثيراً من مفهومه السليم.

التعليم الديني بالمدارس الأجنبية

أرسل صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر كتابا إلى حضرة وزير المعارف يقول فيه: «كان مما أثلج صدورنا وملأ نفوسنا غبطة ما قررته الحكومة من جعل دراسة الدين إجبارية على الناشئة، وإلزامهم بأداء الصلاة في مدارسهم، مما سيكون له أطيب الأثر في تقويم أخلاقهم وتهذيب نفوسهم. على أننا نرجو أن تتبع هذه الخطوات المباركة بعمل حاسم يتفق مع الروح الإصلاحية الجديدة فيما يتعلق بطائفة عامة من أبناء المسلمين الذين يتعلمون في المدارس الأجنبية، ويحتاجون أشد الحاجة - خصوصاً مع وجودهم في تلك البيئة الخاصة - إلى تبصيرهم بأمور دينهم وتزويدهم بالمقومات الضرورية للاحتفاظ بتقاليدهم الخلقية والاجتماعية والقومية فقد كتب إلينا الكثيرون من أولياء أمور هؤلاء التلاميذ يطلبون منا أن نرجو حضرتكم العناية بالجانب الديني لتلاميذ هذه المدارس. ونأمل من حضرتكم ومن عناية العهد الجديد إزالة سبب شكواهم، وإصلاح هذه الناحية الهامة من نواحي التربية».

وقد أجاب وزير المعارف على هذه الرسالة شاكراً لفضيلة الأستاذ الأكبر عنايته بأمور المسلمين، وواعداً بتحقيق رغبته الكريمة.

معهد فاقوس الديني

نوهنا في الجزء الماضي بما تبرع به الأستاذ محمد فريد الطاروطي من أرض ومال لإنشاء معهد ديني بمدينة فاقوس. وفي هذا الشهر وجه هذا الأريحي الكريم الدعوة إلى فضيلة الأستاذ الأكبر لإرساء حجر الأساس في هذا المعهد، وفي حفل كبير حضره فضيلة الشيخ محمد عبد اللطيف دراز وكيل الأزهر ومدير الشرقية ومندوب هيئة التحرير أرسى فضيلة الأستاذ الأكبر حجر الأساس بيده، وقدم الأستاذ الطاروطي لفضيلته صكا بألف جنيه لتكون دفعة أولى من نفقات بناء المعهد وتبرع فضيلة الأستاذ الأكبر بمائة جنيه ثم انهالت التبرعات من الحاضرين

العالم الإسلامي في شهر

محادثات الجلاء وتوقفها

في صباح الإثنين ١٣ رجب (٢٧ أبريل) بدأت في القاهرة المحادثات الخاصة بجلاء القوات البريطانية عن منطقة قناة السويس وتسليم القاعدة الحربية فيها إلى القوات المصرية. وقيل يومئذ إن بريطانيا قابلة بالجلاء الشامل بعد الاتفاق مع مصر على وسائل صيانة القاعدة وإدارتها، وأن يبدأ الجلاء عند الاتفاق على ذلك، ويكون الانسحاب متوقفاً على توافر القوات المصرية اللازمة لتحل محلها. وأن الجلاء يشمل جميع القوات الجوية من قواعدها في المنطقة. وتسلم الحكومة البريطانية للحكومة المصرية القاعدة الحربية بكامل معدانها ومنشآتها ومخازنها، وتتعهد مصر بصيانة القاعدة وجعلها مستعدة في كل وقت للأعمال التكتيكية، مع توافر العدد اللازم من الفنيين لإدارة المنشآت العسكرية والقوات اللازمة للحراسة. ولا تمانع بريطانيا في استخدام مصر للفنيين من مختلف الجنسيات، على أن يراعى في استخدامهم بعض الشروط الخاصة بالكفاءة والاستمرار في العمل طوال المدة اللازمة لتدريب الفنيين المصريين.

وقد وضع الجانب المصري مذكرة تناولت تنظيم عملية الانسحاب وقدرت المدة اللازمة لإتمام الجلاء على ضوء المعلومات الدقيقة التي وقف عليها العسكريون المصريون بشأن عدد القوات البريطانية والمنشآت العسكرية، وحسب تقدير الخبراء عن السفن ووسائل النقل المتهيئة لإتمام هذا الانسحاب. ووجهة نظر مصر عن صيانة القاعدة الحربية وعدد الفنيين الذين ترى مصر لزومهم للقيام بهذا العمل، والعدد المتوافر لديها منهم والفنيين الذين تستعين بهم حتى يتم تدريب العدد الباقي من الفنيين المصريين.

والمعروف بصفة إجمالية أن عدد أفراد القوات البريطانية الموجودة الآن في المنطقة يبلغ نحو ثمانين ألفاً، والمنشآت والمعسكرات يبلغ عددها ٦٠ يضاف إليها ١٣ محطة للسلاح الجوي، ويبلغ طول المنطقة ٨٠ ميلا وعرضها ٤٠ ميلا. وهي مخزن عظيم للذخيرة تستطيع القوات إذا دخلته عند الاقتضاء من طريق البحر الأحمر أو البحر الأبيض أن تخرج من الطرف الآخر وهي مجهزة بأفضل الذخائر وأحدث الأسلحة. وفي خارج نطاق هذه المنطقة يقع مستودع عظيم للذخيرة يعرف في التقليد العسكري باسم (تلك) وهو محاط بالأسلاك الشائكة وبحقول الألغام وتسلط عليه في الليل أنوار كاشفة ضخمة. ويقوم بحراسة هذه المنشآت ١٢ ألف جندي. وكان هذا المستودع يزود في الحرب الأخيرة ١٩

فرقة بالأسلحة والذخائر ، وهو اليوم أكبر مما كان من قبل .

وفى الاجتماعات الأربعة الأولى قطعت المباحثات مراحل الافتتاح التى يجمل فيها كل من الفريقين وجهة نظره تسجيلا عاماً وبحثنا فى الإجراءات التى تتبعها اللجان المشتركة فى الأبحاث الفنية ، ونظرنا فى تقسيم المباحثات إلى موضوعات رئيسية بحسب طبيعتها وأهميتها كما بحثنا مرحلة كتابة التعليمات التى توجه اللجان الفنية فى دراستها .

وكان الجانب المصرى يجنح إلى وضع المبادىء الرئيسية وصياغتها بشكل محدد ، لئلا يقبل التأويل والاختلاف فى المستقبل ، وليكون فى هـذا التحديد توجيه للفنيين فى اللجان العسكرية إلى وضع التفصيلات لتنفيذ هذه المبادىء المحددة ، أما الجانب البريطانى فكان يميل إلى إرجاء هذا التحديد الصريح إلى ما بعد انتهاء اللجان الفنية من أعمالها الفرعية المتشعبة . ولما رأى أن الجانب المصرى لا يتزحزح قيد أنملة عن موقفه فى أن يكون الجلاء الناجز وغير المشروط هو قاعدة الأسس فتسير المباحثات فى طريق إعداد وسائل التنفيذ ، طلب الجانب البريطانى حينئذ تأجيل المباحثات إلى حين حتى يستطلع رأى لندن فى الأمر ، فصدر بيان مشترك يوم الأربعاء ٦ مايو معلناً أن « المباحثات بلغت مرحلة تستدعى إعلان موعد الاجتماع القادم فيما بعد » وصدرت الصحف صباح الخميس ٧ مايو وفيها بيان للبكباشى جمال عبد الناصر قال فيه :

« لقد أعلنا أهدافنا واضحة للشعب ، وكنا نعنى ما نقول ، ولقد حددنا هذه الأهداف منذ الجلسة الأولى للجانب البريطانى ، ولقد توالت الجلسات دون أن نتزحزح عن موقفنا الذى لا نملك بأى حال من الأحوال أن نتراجع دونه ، ولم نقبل الدخول فى أية تفصيلات دون أن نتفق على الأسس الرئيسية إذ لا داعى مطلقاً أن نغرق فى لجان وتفصيلات ثم نجد أنفسنا أخيراً دون هدف واحد متفق عليه ، ولقد آثرنا أن لا نضيع الوقت ، فنحن أحرص ما نكون على وقتنا ، ولذلك لم نشأ أن نترك الزمام يفلت من أيدينا ونكرر ما حدث فى المفاوضات السابقة التى استمر بعضها عاماً ونصف عام . فقد طلبنا من الجانب البريطانى - بعد أن تعثرت المباحثات - أن يوضح موقفه بالأسس الرئيسية التى تحقق للشعب المصرى حقوقه الطبيعية والسيادة على أراضيه ، وأغلب ظنى أن الجانب البريطانى وجد أنه يتحتم عليه قبل أن يستمر فى المباحثات أن يراجع حكومته » .

وفى مساء الخميس ٧ مايو زار السفير البريطانى والجنرال روبرتسون الرئيس اللواء محمد نجيب بدار رئاسة الوزراء ، وسلماه رسالة من الحكومة البريطانية قيل إنها تتضمن الرجاء الخاص باستئناف المباحثات على أساس (مناقشة) وجهة النظر المصرية . ويقال إن الرئيس رفض هذا الرجاء الخاص ، وصمم على عدم استئناف المباحثات إلا إذا وافقت الحكومة

البريطانية مقدما على وجهة النظر المصرية صراحة ، ثم تجرى المباحثات بعد ذلك للاتفاق على التفاصيل وتنظيم عملية الانسحاب .

وفى أواخر شعبان عقد وزراء خارجية الدول العربية مؤتمراً فى القاهرة أصدروا فى جلستهم الختامية - وهى الجلسة الخامسة - قراراً بأن دول الجامعة تتخذ الخطوات التنفيذية للعمل بمعاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادى التى أبرمتها دول الجامعة باسم (ميثاق الضمان الجماعى) وذلك فى خلال شهرين من هذا التاريخ ، وأن تقف دول الجامعة العربية إلى جانب مصر فى كفاحها لتحقيق الجلاء عن أراضيها .

وفى يوم ٢٧ شعبان (١١ مايو) وصل إلى مصر مستر فوستر دالاس وزير الخارجية الامريكية فى رحلة إلى دول الشرق الأوسط للاطلاع على الحالة عن كثب . وفى الساعة التى كان وزير الخارجية الامريكية يجتمع فيها برجالات مصر للإلمام بما جاء لأجله ، كان تشرشل رئيس الوزارة البريطانية واقفا يخطب فى البرلمان البريطانى بعقلية القرن التاسع عشر متجاهلا كل ما حدث فى الدنيا من تطور بين أيام الملكة فكتوريا وما بعد الحربين العالميتين زاعماً ، أن الرئيس محمد نجيب ورفاقه يحاولون أن يفوزوا بما يستطيعون الفوز به من حب الشعب المصرى على حساب البريطانيين ! ، وهدد تشرشل المصريين بأن الحامية البريطانية فى القناة قادرة على الدفاع عن نفسها . وأثنى على اسرائيل والصهيونية والجيش اليهودى بما لم يدع مجالا لأى شك فى أن تشرشل عــدو لدود لكل ما تعده الصهيونية عدوة له فى دنيا العروبة والاسلام

ورد الرئيس محمد نجيب فى اليوم التالى على خطاب تشرشل بأن تشرشل أراد أن يخفى نياته الاستعمارية فى العالم العربى خلف اسم جديد هو « الدفاع عن مصالح العالم الحر » ولكن مصر تعتبر بقاء أى قوات أجنبية فى أراضيها تحت أى ستار استمراراً للعدوان البريطانى الذى بدأ عام ١٨٨٢ بدعوى « حماية العرش » ، فالاحتفاظ بالقوات البريطانية فى منطقة القناة وادعاء أنها للدفاع عن الشرق الأوسط ليست إلا ذريعة للابقاء على الاستعمار البريطانى فى هذه البقعة من العالم . ومعاهدة سنة ١٩٣٦ الملغاة فرضت على مصر تحت ضغط قوات الاحتلال ، ومع ذلك فانها لا تسمح الانجليز إلا بعشرة آلاف جندى بمنطقة القناة بينما تشرشل يعترف بأن لهم الآن ثمانين ألف جندى . إن الدفاع عن بلاد الشرق الأوسط لا يمكن أن يقوم به إلا شعوبها مستكملة سيادتهم وحقوقهم ونحن الآن فى القرن العشرين لا فى القرن التاسع عشر .

ورد الرئيس فى اليوم الذى بعده على الجزء الخاص باسرائيل والصهيونية من خطاب تشرشل فقال : إن كلامه هذا يحمل معنى التهديد لمصر والعرب ، ويؤكد إفلاس السياسة الاستعمارية البريطانية أمام الحركات القومية

الدافقة فى الشرق الأوسط . ولقد أسقط فى يد تشرشل عندما جاءه نبأ إخفاق السياسة الاستعمارية البريطانية للتفرقة بين العرب ، فقد كان تأييد وزراء خارجيتهم للقضايا القومية العربية وفى مقدمتها قضية مصر ضربة قاضية للسياسة الاستعمارية ، فكان رد تشرشل على اتحاد كلمة العرب سريعاً فى شكل تمنيات لإسرائيل حتى يتحول تيار الكراهية المتدفق ناحية الاستعمار وهو العدو الأساسى - إلى إسرائيل ، وإهمال الأهداف الحقيقية لحركاتنا القومية الدافقة .

وفى صباح الأربعاء ٢٠ مايو أذيع فى مصر بيان تاريخى عظيم من الرئيس اللواء محمد نجيب قال فيه : منذ قطعت هذه المباحثات والناس يتساءلون عن الخطوة التالية التى سوف تخطوها الحكومة التى أتشرف برياستها . إنى أكاشفكم جميعاً بأننا قد عقدنا العزم على أن نستخلص حقوقنا بأيدينا ، لأننا نؤمن بأن الحقوق تؤخذ ولا توهب . ومن أجل هذا لن تقبل مصر - وأنا هنا أتكلم بلسانها - أن ترد إليها حقوقها مشروطة أو منقوصة . لكن استخلاصنا لحقوقنا من غاصبيها لن يكون سهلا ولا هينا ، وإنما هو أمر جلل يقتضينا - كحكام مسئولين عن سلامة هذا الشعب . وكحكام تقدر حقه علينا وواجبنا نحوه - أن نستعد له ، وأن نحكم الاستعداد . فلا نترك أمراً مهما بدا تافهاً دون أن تدبره ، ولا نترك منفذاً يحتمل أن ينفذ منه عدونا إلينا دون أن نسده . فلسنا نرتضى لأنفسنا أن نزج بأبناء مصر فى امتحان كهذا الذى ينتظر ، ما لم نعدهم له إعداداً كاملا ، وما لم نوفر لهم كل الامكانيات التى تعينهم على الصمود لذلك الامتحان وتمكنهم من النجاح فيه . وليس التنظيم والتدريب العسكرى الذى نأخذ به الآن إلا بعض هذه الإمكانيات ، وإنا لموفرون البعض الآخر فى يوم قريب . قال الله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » . إننا حريصون أشد الحرص على ألا نكرر أخطاء من سبقونا ، لن نكرر مأساة فلسطين ، ولن نكرر مأساة القناة التى حدثت عقب إلغاء المعاهدة فى سنة ١٩٥١ . نعم لن تندفع ولن ندفع الناس نحو الخطأ بشهوة لأنفسنا بذلك التصديق الأجوف الذى ما يلبث حتى يقع وتبقى الأعمال راسخة فى أذهان الناس وصفحات التاريخ .

ولن تستطيع قوة ما أن تجعلنا ندخل المعركة فى غير الموعد الذى نراه نحن مناسبا لدخولها . نحن الذين سنحدد موعد المعركة ، ونحن الذين سنختار أسلحتها ، ونحن الذين نعين الظروف التى ينبغى أن تدور فيها .

ويجب أن يعلم الشعب نفسه كيف يصبر على ما يكره وأن يروض نفسه على مواجهة الحرمان والجوع كما قال الله عز وجل « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين »

أنباء العالم الإسلامي

قرارات الجامعة العربية

وافق مجلس جامعة الدول العربية على المسائل الأربع التالية التي درستها اللجنة السياسية :

١ — مشروع اتفاقية مزايا وحصانات جامعة الدول العربية، وتوصية الدول الأعضاء بأن تبادر بالانضمام إلى هذه الاتفاقية والعمل بأحكامها .

٢ — مسألة الأملاك العربية فى فلسطين والقواعد التى تتبعها إسرائيل بشأنها مخالفة بذلك إعلان حقوق الإنسان وقواعد القانون الدولى وميثاق الأمم المتحدة والقرارات الخاصة بفلسطين . وتوصى اللجنة بأن تتقدم الدول الأعضاء إلى الأمين العام للأمم المتحدة بطلب إدراج هذه القضية فى جدول أعمال الجمعية العامة فى دورة هذا العام . وبالنظر لما يقاسيه عرب فلسطين فى القسم المحتل من قبل إسرائيل تكلف الأمانة العامة أن تتقدم بالاقتراحات اللازمة لتلافى هذه الحالة .

٣ — توافق اللجنة السياسية على التقرير الذى وضعه وزير الخارجية العراقية بشأن المقاطعة الاقتصادية لإسرائيل مع اعتماد مبلغ عشرين ألف جنيه لشئون المقاطعة .

٤ — توافق اللجنة السياسية على الاعتماد الذى تطلبه الأمانة العامة للقيام بأعمال الرعاية فى حدود مبلغ تسعين ألف جنيه تدرج فى ميزانية الأمانة لعام ١٩٥٣ .

تقارب الحكومات العربية

زار الأمير سعود ولى عهد المملكة السعودية عواصم البلاد الشقيقة فى الشمال — دمشق وبيروت وعمان وبغداد — فتناول فى زيارته هذه القضايا العربية المهمة ، من أهمها تصفية الخلافات الدفينة بين الأسرتين السعودية والهاشمية . وينتظر أن يزور الملك حسين ملك الأردن الجديد العواصم العربية فى هذين الشهرين مبتدئاً بالرياض وبغداد فبيروت ودمشق . والمظنون أن نتائج هذا التقارب العربى الذى سعى لتحقيقه رئيس الجمهورية اللبنانية ستلمسها الشعوب العربية فى كل ما يعرض لذلك من مناسبة بعد الآن .

كتيبة خالد بن الوليد

الأزهر يلقى على المسلمين درساً عمليا فى الجهاد فيعلن أنه أعلى مراتب العبادة ، وبالرغم من أن السنة الدراسية فى أهم أدوارها ، فإن كتيبة من علماء الأزهر بدأت بالتدريب فى

أواسط شعبان ، وشهد لها قائد معسكر الأزهر الصاغ محمد سليم مشرقة بأن أفرادها أبدوا جلداً ونظاماً وإقبالا كبيراً على التدريب مما أثار إعجاب مدربيهم من الضباط . وقد تلقت كتيبتهم ٣٠ درساً فى أعمال الفدائيين ، وتدربوا على مختلف الأسلحة وأعمال النسف والتدمير وحرب العصابات .

وقد أدى أفراد الكتيبة بعض التدريبات العملية فى ضرب النار ، ونال كل من فضيلة الشيخ عبد العزيز سمك وكيل معهد طنطا والشيخ محمد بدران الأستاذ بكلية أصول الدين الدرجة النهائية فى إصابة الهدف إذ حصلا على ٢٥ نقطة كما حصل فى الإصابة بمدفع رن على ١٨ نقطة من ٢٠ . وقد تفضل الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر فزار معسكر تدريب الأزهريين ، وشاهد عمليات التدريب ومنها عملية النسف بالجلجنايت ، وأخذت لهم مع فضيلة الأستاذ الأكبر بعض الصور التذكارية وأهدى فضيلته إلى كل منهم نسخة من كتابه (آداب الحرب فى الإسلام) .

وقد احتفل فى أواخر شعبان بتخريج هذه الدفعة وأطلق عليها اسم (كتيبة خالد ابن الوليد) ، وكان الأزهر قد قدم قبل هذه الكتيبة المؤلفة من العلماء كتيبة غيرها مؤلفة من الطلاب وأتمت تدريبها بنجاح أيضاً .

تحريم التعامل
مع القوات البريطانية فى القنال

صدر القرار الوزارى الآتى :

« لا يجوز التعامل بتوريد شىء للجيش البريطانى من أصناف المواد الغذائية - بما فى ذلك المشروبات الروحية والغازية - وكذلك خامات الصناعة والبناء وغير ذلك من الحاجات الأولية بما فيها الخردوات ، إلا بترخيص من وزارة التموين وطبقاً للمقادير التى تحددها » .

وقد تقرر فرض نظام مراقبة الطرق المؤدية إلى منطقة قنال السويس من الشرقية والدقهلية والطرق الصحراوية ، لضمان مراقبة نقل هذه المواد وتوفيرها للاستهلاك المحلى لأهالى منطقة القناة .

شهداء حرب فلسطين

احتفلت مصر فى أواخر شعبان بنقل رفات شهداء حرب فلسطين إلى القاهرة . فأصدرت إدارة الشئون العامة للقوات المسلحة كتاباً عن هذه الحرب نشرت فيه صور ضباط الجيش المصرى الذين استشهدوا وأسماء الجنود الشهداء ، وقد تبين من هذا الكتاب أن عدد الشهداء من الضباط ١٠٠ والجنود ٨٦١ ، فإلى جنات النعيم أيها الشهداء الأبرار .

وقد خطب الرئيس اللواء محمد نجيب فى هذا الاحتفال خطبة فياضة قال فيها : « إن

كارثة فلسطين لم تكن هزيمة للشعوب العربية وإنما هى درس وقارعة قرعت الأذهان فى مصر ، وقرعت أذهان العرب ، وسيأتى من ورائها الخير الكثير . كانت صيحات الشعوب العربية من خلف جيوش العرب مدوية تدعو إلى التعبئة الروحية ، وتهيب بالقادة والوزراء ليعدلوا وليستقيموا وليكفوا عن لهوهم وملقهم . وهى صيحة إن كانت فى الأمس صرخة فى واد ، فإنها اليوم صرخة تذهب بالأوتاد » .

مؤتمر إسلامى بأندونيسيا

عقد فى مدينة (ميدان) بأندونيسيا مؤتمر إسلامى فى النصف الأخير من شعبان الماضى دعى فيه إلى إنشاء مجموعة شعوب إسلامية (كومنولث) تتعاون على العمل ضمن هيئة مرنة ، على أن تطبق الشريعة الإسلامية ، بعد ما ظهر من اشتداد رغبة جميع الشعوب الإسلامية فى ذلك وترجيحها على القوانين التى هى من صنع الاستعمار .

وينص القرار الأول الذى اتخذه المؤتمر على أن يدعى الرأى العام الإسلامى جديا إلى العناية بالتفكير فى النواحى العملية التى تؤدى إلى إنشاء مجموعة الشعوب الإسلامية على أساس حكومى يجوز أن يتخذ صفة هيئة استشارية إسلامية ، وأن خلاص العالم الإسلامى فى يد أبنائه ومن العبث الاعتماد على أى كتلة دولية أخرى . وقد شرح هذه الناحية سكرتير المؤتمر العام الله خان مندوب باكستان .

ومن قرارات المؤتمر أن الإسلام دين تقدمى يتمشى مع جميع الظروف فى جميع الأقطار ، وعلى جميع المخلصين أن يملأوا الفراغ الناشىء عن انتفاء قيام القوانين على أساس الشريعة .

ومما قرره المؤتمر وضع قوانين للرعوية المشتركة بين أبناء العالم الاسلامى .

أبو الأعلى المودودى

وردت الأنباء من كراتشى بأن محكمة الأمور العسكرية فى حكومة باكستان أصدرت حكماً بالاعدام على الزعيم الاسلامى الكبير أبى الأعلى المودودى أمير الجماعة الاسلامية فى باكستان والهند .

وأبو الأعلى المودودى هو مؤلف الرسائل الاسلامية التى يعتبرها شباب الاسلام فى العالم دستوراً لهم فى حياتهم الاجتماعية والملية . وأول ما عرف عن هذا الزعيم الناشىء صحيفة (ترجمان القرآن) سنة ١٣٥٢ (١٩٣٣) التى كونت فى الشباب فكرة صادقة سليمة عن الاسلام وأنه دين لا يمكن أن يحيى حياة كريمة مستقلة فى ظل دين غيره أو نظام غير نظامه . وفى سنة ١٣٦٠ (١٩٤١) أسس (الجماعة الاسلامية) لتعميم الدعوة التى أعلنها

فى مجلة (ترجمان القرآن) ومن مبادئها العناية بالكيفية لا بالكمية ، فهى لا تحرص على الاكثار من عدد أعضائها بقدر حرصها على حسن انتقائهم والاطمئنان إلى صحة إيمانهم . وهم يتعلقون بالمبادىء لا بالأشخاص ولذلك أبيح لهم نقد رجالهم والاحتكام فى تصرفاتهم إلى المبادىء .

ولما انتشر فى مصر خبر الحكم بالاعدام على هذا الزعيم العظيم كان له وقع سىء فى كل مكان ، وقـــد أبرق فضيلة الاستاذ الهضيبى المرشد العام للاخوان المسلمين البرقية الآتية إلى الجهات المسئولة فى باكستان : « إن الحكم باعـــدام المودودى جريمة فى حق الحركة الاسلامية . والمسلمون فى أنحاء العـــالم يستنكرون هذا الحكم ، ويطالبون الحاكم العام بإيقافه حرصا على الروابط التى تجمعنا مع باكستان القائمة على أساس الاسلام » .

وعلمنا أن برقيات كهذه أرسلت إلى المسئولين فى باكستان من سماحة الحاج محمد أمين الحسينى مفتى فلسطين ومن جمعية الشبان المسلمين بتوقيع رئيسها العام اللواء محمد صالح حرب ، ومن جمعية الكفاح الاسلامى بتوقيع فضيلة الشيخ محمد عبد اللطيف دراز . فعسى أنهم يستدركون الامر بحكمتهم .

الاسلام فى تركيا

قام فريق من بقايا أنصار الإسلام فى تركيا بتنظيم مؤتمر لذكرى مرور خمسمائة عام على الفتح الإسلامى لمدينة القسطنطينية ، وعينوا لافتتاح المؤتمر يوم ٢٤ مايو ، ولكن الحكومة التركية أبت أن ترخص باجتماع هذا المؤتمر ، وأبلغت ذلك إلى السيد نورى ديميراك أحد رجال الأعمال الأتراك الذى كان سينظم هذا المؤتمر ويتولى رئاسته .

وتقول السلطات التركية أنها منعت عقد هذا المؤتمر لأنها تخشى أن يشجع عقده الأوساط الدينية الرجعية فى البلاد !

تعاون الاستعمار

شحنت بريطانيا نصف مليون قذيفة مدفع من منطقة قناة السويس لمعاونة فرنسا فى صراعها مع المستعمرة الفرنسية فى الهند الصينية .

واكتفت دوائر لندن من التعليق على هذا الخبر بقولها : إنه إذا صح فلن يكون له أثر فى الأغراض التى يستهدفها العالم الغربى من قاعدة قناة السويس العسكرية .

وفى هذا التعليق معنى استعمارى مزدوج ، فهو ينفى أن تكون هذه الشحنة تخفيفاً من وطأة الاستعمار فى مصر ، ولا ينكر أنه تعاون استعمارى بين العجوزتين انجلترا وفرنسا .

معاكسة النساء فى الطرق

تقدم مكتب حماية الآداب العامة بوزارة الداخلية بمذكرة إلى وزارة العدل طلب فيها تعديل مواد قانون العقوبات الخاصة بالآداب العامة ، وتشديد العقوبة بالحبس بدلا من الغرامة على من يعترض السيدات والفتيات فى الطريق العام .

مديرية التحرير

نوهنا فى جزء رجب (ص ٩٠٢) لهذه السنة بالمديرية الجديدة المزمع إنشاؤها فى الصحراء الغربية . ونزيد الآن أن مساحة المديرية ستكون ٦٠٠ ألف فدان ، وتحدها شمالا ترعة النوبارية وشرقا مديرية البحيرة وغربا الطريق الصحراوى بين القاهرة والاسكندرية وجنوبا طريق عام . وسيتم إعداد أرض هذه المديرية على ثلاث مراحل : تروى فى المرحلة الأولى ٢٤ ألف فدان منها رياً عاديا و١١ ألف فدان بالرفع حتى ستة أمتار . وستقسم المديرية إلى ثمانية مراكز . فى كل مركز ثلاث نقط بوليس يسكن فى منطقة كل نقطة بوليس حوالى ١٤٠٠ نسمة يختارون ممن تتوفر فيهم سلامة الجسم وأن يكونوا على قدر كاف من التعليم ليكون جميع سكان المديرية من المتعلمين الأصحاء . وسوف يمكن للسكان فى المستقبل أن يتقدموا لتعمير المساحات الأخرى القابلة للزراعة إلى الغرب من هذه المديرية فتعمر الصحراء الواقعة على جانبى الطريق بين القاهرة والاسكندرية . وقد تم تخطيط ترعة التحرير وهى الترعة الرئيسية التى تروى منها أراضى المديرية ويبلغ طولها ٦٠ كيلومترا وتنتهى فى ترعة النوبارية ، وقد بدأ العمل فعلا فى حفر الترعة وأوفدت مصلحة المساحة بعثتين من المهندسين إحداهما لتخطيط المشروعات العمرانية للمنطقة وعمل الخرائط التفصيلية والأخرى لمسح جزء من المديرية من الجو بالاشتراك مع سلاح الطيران الجوى المصرى وينتظر أن يبدأ يوم ٢٣ يوليه القادم بتوزيع ٣٠٠٠ فدان على الرعيل الأول من سكان المديرية الجديدة .

بنك دولى عربى

يقول السيد عبد الحميد شومان مؤسس البنك العربى ومديره العام إن العالم العربى فى الشرق الأوسط أحوج ما يكون الآن إلى وحدة اقتصادية تامة ، وتحقيق هذه الوحدة يقتضى أن ترعى جامعة الدول العربية مشروع بنك عربى يقوم بتنفيذ مشروعات التقدم الاقتصادى وأعمال الانشاء ، ويرمى هـذا المشروع إلى ثلاثة أغراض أساسية :

١ — انشاء منطقة النقد العربى على غرار منطقتى الاسترلينى والدولار .

٢ — تنمية جميع الموارد الطبيعية .

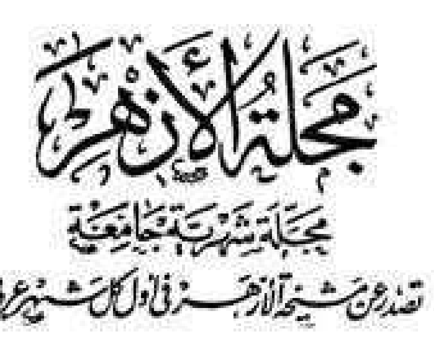
٣ — إنشاء بحرية تجارية عربية تعمل لمصلحة المنطقة التجارية كلها .

ولا سبيل إلى جعل هـذا البنك ذا صفة عربية شاملة إلا بخطوة تخطوها جامعة الدول العربية لتأخذ تحت جناحها تلك الأجزاء من الوطن العربى التى استثنيت إلى الآن لأسباب سياسية ، وهى الكويت وجزيرة البحرين وقطر وإمارات الخليج العربى ومحمياته . وينبغى أن يكون رأس مال هذا البنك فى بداية الأمر مائة مليون جنيه وتتولى جامعة الدول العربية جمع الاشتراكات فيه من الدول العربية بحصص تتناسب مع ميزانيات هذه الدول .

فهرس

الجزء التاسع — المجلد الرابع والعشرون







الجزء العاشر – في غرة شوال ١٣٧٢ – ١١ يونية ١٩٥٣ – المجلد الرابع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

ثقافتنا الحائرة

لما قام وفد مصر إلى مؤتمر المستشرقين الثامن في ستوكهلم عام ١٣٠٧ (١٨٨٩) مؤلفاً من الشيخ حمزة فتح الله وعبد الله فكري وابنه أمين فكري ومحمود عمر، كانت الباخرة (غامبوج) من بواخر المساجيري ماريتيم تبحر من القسطنطينية إلى أوربا وعليها كبير كتاب الترك في ذلك الوقت العلامة أحمد مدحت افندي ممثلا للدولة العثمانية في ذلك المؤتمر. ومع أن مؤلفات هذا الأديب التركي قد أربت يومئذ على مائة كتاب، فإنه أدرك بفطنته وإنصافه أن الفلك الذي تدور فيه ثقافته على سعتها لا يؤهله لعضوية مؤتمر المستشرقين، وأعلن في مقدمة كتاب رحلته إلى ذلك المؤتمر اعترافه بأنه رجل وقف حياته على نقل معارف الغرب إلى الشرق، فهو – لذلك – يعد « مستغرباً » أكثر منه « مستشرقاً » فضلا عن أن يكون شرقياً في اتجاهه الثقافي.

وقد يكون في قادة الفكر من أدباء الترك من كان يتجه بثقافة بلاده اتجاهاً غربياً أكثر مما فعل أحمد مدحت افندي، بل قد يكون فيهم من يذهب إلى أن حضارة الغرب « كل لا يتجزأ »، فعلى الأمم الشرقية وهي تأخذ الحضارة عن الغرب أن تأخذها بحذافيرها

كما دعا إلى شيء من ذلك بعض حملة الأقلام عندنا . أما أحمد مدحت افندى فأشهد أنه كان أديباً إسلامياً ، وأن له مواقف مشرفة حتى في الرد على المبشرين ، وأنه كان حريصاً على توجيه الشباب التركى فى قافلة الإسلام ، وكان من رسالته أن تكون للترك ثقافة مستقلة تعصمهم عن أن يذوبوا فى الثقافة الغربية ، وتدرأ عن عقولهم وقلوبهم حملات الاستعمار الفكرى وأخطاره ومع ذلك فإنه - بحكم الاختصاص الذى كان له فى عالم الثقافة - اعترف بأنه يعد « مستغرباً » أكثر منه « مستشرقاً » ، واعتذر بذلك عن حداثة عهده بالجو الذى يستقبله فى مؤتمر المستشرقين .

تحتاج الأمم فى نهضاتها إلى أن تأخذ من علوم الأمم الأخرى كل ما يجد عندها ، لتنتفع به فى تقدم صناعاتها ، والنهوض بأسباب قوتها . أما الثقافة والأدب فإن لكل أمة ثقافتها وأدبها ، خصوصاً الأمة التى لها رسالة سامية إلى الإنسانية ، ولها تراث فياض من لغة عريقة فى القدم زاخرة بدقائق المعانى وثمرات المدارك وخطرات الأفكار ومشاعر القلوب. وكلما كان تراثها الأدبى أغزر وأغنى ، كان تفريط أبنائها فى استغلالهم الثقافى جناية منهم على قوميتهم وخيانة لها . وقلما يكون ذلك إلا تحت سلطان الاستعمار وبإرشاده ، وتنفيذاً لخطط رسمها رجاله لمعاهد التعليم ، فأخرجت للبلاد حملة أقلام يفكرون بعقول أجنبية ، ويوجهون الرأى العام وجهة أجنبية ، ويزينون للناس أذواقاً أجنبية .

نقول هذا بعد أن هدأت المعركة الأخيرة حول الأدب العصرى فى مصر بين الذين كانوا يسمون أنفسهم المجددين فى الأدب ، وبين أبنائهم الذين يدعون إلى تجديد فى ذلك التجديد حتى يبقى معه قديماً . ولا يبعد أن يخلف هؤلاء خلف من الأحفاد بعد عشرين سنة أخرى يدعو إلى تجديد ثالث بدعوى أن تجديد التجديد قد أدركه الهرم فصار قديماً بعد قديم.

وأما أقرر — بأسف عميق وحزن شديد — أننا فى عصرنا هذا ليس لنا أدب جديد ولا قديم ، لأن أدبنا — فى وضعه الحاضر — لا رسالة له ، وقد نشأ ذلك عن كونه أدب أمة لا تعرف من هى ، ولا أين هى ، وماذا تريد ، وما هى وسائلها لتحقيق ما تريد .

وفى ظنى أن القارىء لا يزال على ذُكر من هذه الحقيقة المريرة التى أعلنها فى العام الماضى وزير خارجيتنا الألمعى الأستاذ محمود فوزى ، وقرر فيها أننا أمة لا تعرف

من هي (١) . ولو أن أدبنا الشائع الآن أدب سليم لارتفع بنا من أعماق التيه الذى نحن فيه ، فأشرف بنا على مصادر ضعفنا وينابيع قوتنا ، ولكان لنا به من دقة الحس ما نسمع به نابض الحياة فى مجالى الحقيقة . بل لكان لنا منه غذاء شهى نقوى به على بلوغ مطمحنا المتوارى وراء الآفاق .

أدب الأمة أوسع أفقا وأبعد مدى من أن يختص بجيل واحد ، أو بلد منفرد . وإنما هو القلب النابض بحيوية الأمة من أقدم عصور بيانها ، وفى أوسع آفاق مشاعرها . وهو موجه الأمل القوى الذى يتخطى الدهور فيتصل بالأهداف الأولى مهما أوغلت فى أحشاء المستقبل .

إن أدبنا فى مصر يجب أن تتجاوب رسالته مع رسالة عمرو بن العاص فيما كان قد رسمه لمصر العربية الإسلامية من اتصال بجناحيها فى الشرق والغرب ، ويجب أن تتجاوب رسالته مع رسالة كل ناطق بالضاد من فلسطين إلى أقصى وطن الأدب العربى وراء فلسطين ، ومن ليبيا إلى أقصى هذا الوطن الواحد بعد ليبيا ، وبذلك يحمل أدبنا الأصيل لواء الجهاد الفكرى فى دنيا العروبة والإسلام ، مؤدياً رسالته لأمة تعرف نفسها وتمضى وراء أهدافها .

أما النقاش الذى قام أخيراً بين الجديد الذى صار قديماً ، وبين الوليد الذى يحاول أن يكون شيئاً جديداً ، فإنما قام بين أدبين أجنبيين عن رسالة الأدب العربى ، وغريبين عن القلب النابض بحيوية هذه الأمة ، فكانت الأمة بهما كاليتيم الذى لا عائل له ، وكالمظلوم ليس له من ينطق بحقه ويدفع الظلم عنه .

أدب الأمة هو اللسان الناطق برسالة الأمة . فإذا كانت الأمة لا تعرف من هى ، وإذا كان لسانها الناطق برسالتها غير مؤمن بهذه الرسالة ، فأى قيمة لهذا الأدب جديدا كان أو جديد الجديد ، وقديما كان أو قديم القديم .

أدبنا كأغانينا يتكسب مما تتكسب منه الأغانى ، ويتقصف ويتخلع فى الجو الذى تتقصف فيه وتتخلع هذه الأغانى . وكل ذلك من أثر ثقافتنا الحاضرة التى تلقاها أجيالنا عن مناهج سنها لنا رجال الاستعمار ، ولا تزال دائرين فى فلكها ، تائهين فى أغراضها ، بعيدين عن رسالتنا القومية التى أولها فى الانقلاب الاجتماعى الأعظم الذى تم على أيدى

---

(١) انظر جزء ربيع الآخر من هذه المجلة (ص ٣٩٧)

عمرو بن العاص وصحبه يوم رسموا خطط الفسطاط . وأخشى أن تكون تناسينا هذه الرسالة منذ أفل نجم الفسطاط وخلا مسجده العتيق من علمائه وأدبائه ، ومن قادة الفكر الذين طلعوا شموساً فى سمائه .

وإذا كان الأدب الجديد وجديد الجديد أدباً أجنبيا لأنه لا يتصل برسالة هذه الأمة ولا بالقلوب التى تستمد قوتها من قوة هـــذه الرسالة ، فان البلاغة من المواهب الباقية فى الناس ما بقى الناس . ولن يعود للأمة أدبها إلا إذا نبغ فيها بلغاء مؤمنون برسالتها ، ولهم قلوب تتجاوب مع تراثها الأول ، وبصائر تكشف أهدافها من آفاق المستقبل ، حتى إذا هتفوا بهذه الأمة يدعونها إلى أن تعرف من هى ، وأين هى ، وماذا تريد ، انتعشت حينئذ ثقافتنا الأصيلة ونمت وأينعت وزالت حيرتها ، وإن تحقيق ذلك رهن بتغيير مناهج معاهدنا كلها : فى الأزهر ، ومدارس وزارة المعارف ، والجامعات ، فاذا تجاوبت مناهجنا مع رسالتنا نهض العملاق حينئذ من نوم طال عليه الأمد ، وخرج من كهفه ليستقبل الدنيا بعقل جديد وأدب جديد ، وسلاح جديد ؟

محب الدين الخطيب



نزوع المرء إلى أصله

قال نهشل بن حرى :

أرى كل عود نابتاً فى أرومة ... أبى نبت العيدان أن يتغيرا

بنو الصالحين الصالحون ، ومن يكن ... لآباء سوء يلقهم حيث سيرا

أبوك هناب سارق الضيف برده ... وجدى يا حجاج فارس شمرا

الأمم السعيدة والأمم الشقية

في الأرض أمم سعيدة وأمم شقية ، أمم راقية وأمم منحطة ، أمم لها العزة والسؤدد وأمم لها الذلة والخزى ، أمم تعيش فيما بينها كأنما تعيش في الفردوس سعادة ونعمة ، وأمم كأنما تعيش في الجحيم شقاء وبؤساً ، أمم لم تدع خيرا من الخيرات إلا تمتعت به من كرامة وجاه ، وأمم لم تدع شقاء إلا جلبته لنفسها وشقيت به ، فما الذى جعل بعض هذه الأمم سعيدا وبعضها شقيا ؟

إن الجواب عن هذا السؤال أنفس شيء في هذه الحياة لأنه يعطى المرء المفتاح الذى تفتح به الأمة باب السعادة ، والمفتاح الذى تغلق به باب الشقاء . إن سعادة فرد واحد مرغوب فيها ومبحوث عنها ، فكيف سعادة أمة بأكملها . وإن الأمر وإن كان على ما ذكرت تراه لا يؤبه به في الشرق ولا يفكر فيه ، وترى الأدباء ورجال الاجتماع يعنون بما هو أقل من ذلك شأنا ولا يعنون بهذا الأمر الخطير .

إن أول واجب على رجال الاجتماع وعلى الأمة بأسرها ، أن تبحث عما به تسعد الأمم وتتبعه وأن تبحث عما به تشقى الأمم وتجتنبه .

إن الأمة السعيدة أمة علمت أنها لم تكون أمة إلا لتجلب كل خير لها وتدفع كل شر عنها ، وأنه يجب أن يعمل كل واحد لخير المجموع ودفع الشر عن المجموع ، وأنه يجب أن يشعر كل واحد أنه مدين لباقى الأمة بوجوده وعلمه ومنطقه وسعادته ورفاهيته ، ولن تبلغ الأمة السعادة إلا إذا كانت العلاقة بين أفرادها علاقة عدالة ، فتكون فيها عدالة في توزيع الثروات وعدالة في المعاملات وعدالة في الحقوق وعدالة في الواجبات .

تعلم ذلك علماً لا يخالجه ريب يستولى على نفوسها ، وتتصرف جوارحها على مقتضى هذا العلم فتروض نفسها على أن تعترف لذوى الحقوق بحقهم ويؤدى كل ما وجب عليه للغير .

أما الأمم الشقية فهى أمم جاهلة لم تعلم هذا العلم ، بل ربما اعتقدت أو اعتقد الأقوياء فيها أنها لم تكون أمة ولم تجتمع في هذه البقعة من الأرض إلا ليستغل قويها ضعيفها ، ويستعبد عزيزها ذليلها ، وما وجدت عامتهم إلا لتخدم خاصتهم ، فنشأ من هذا الاعتقاد

أن تكون العلاقة بينهم علاقة ظلم واغتصاب ، فالمسألة مسألة قوة فمن قدر أن يحظى بخيرات الأمة فعل ، ومن قدر أن يستخدم الغير فعل ، ومن قدر أن يبنى سعادته على شقاء الآخرين وبكائهم فعل .

من هذه المعرفة ومن هذه الجهالة تنشأ سعادة الأمة وشقاؤها ، فمن هـذه المعرفة ينشأ العدل والتعاون والمحبة ، وهى أساس كل سعادة ، ومن هذه الجهالة ينشأ الظلم والتخاذل والبغض وهى أسباب كل شقاء .

يرى الفرد فى الأمم العالمة أنه مدين لأمته بوجوده وجميع الخيرات التى هو فيها فيحبها ويربط مصيره بمصيرها ، ويجهل الفرد فى الأمم الجاهلة ذلك فلا يرى لأمته حقا ولا يرى عليه واجبا لها ، فلا يعمل لخيرها ولا يسعى فى نفعها . يرى الدهماء والعامة فى الأمم العالمة أنهم مغمورون بنعمة الخاصة فقد بنوا لهم المستشفيات والمدارس ، وأن الدولة تعولهم إذا عجزوا وتداويهم إذا مرضوا فيحبون خاصتهم ويتعلقون بدولتهم ، ويرى الدهماء والعامة فى الأمم الجاهلة أن كبراءهم لم يفيدوهم وأنهم يحلبونهم ويهزلونهم وأنهم مغموطو الحق ، مهضومون فى أمتهم فيحقدون على كبرائهم ويضمرون الشر لدولتهم وتكون الأمة معسكرين: معسكراً ظالما ومعسكراً مظلوما . فأما الأول فيزداد فى الظلم ليخمد أنفاس الآخرين . وأما الثانى فيجتهد لينجو من ظلم الأول ، ويتبع ذلك ما يكون بين الجميع من كراهية وبغض وظلم وتدابر وانتقام وفوضى مما يوجب الفساد والشقاء .

المسألة إذن مسألة علم وجهل وتربية على الحق والإنصاف . يبلغ من جهل كبراء الأمم الجاهلة أنهم يعتقدون أنهم إذا ظلموا ضعفاءهم وقهروهم على مصالحهم استتب لهم العيش وأنه يمكن أن تعيش الأمة على أن يستغل أقوياؤها ضعفاءها .

ويبلغ من علم الأمم العالمة أن تنظر إلى أبعد من ذلك وترى فى حجب المستقبل أنه لا يمكن أن تعيش أمة على هـــذا النمط ، وأنه إذا سلط بعض الأمة على بعض فأذلوهم واستعبدوهم أفقدوهم الحمية والعزة ، فإذا غزا الأمة عدو أجنبى هرع كبراء الأمة الظالمون إلى بقية الأمة المظلومين فاستنصروهم فلم يجدوا عندهم غناء ، وكيف يجدون عندهم غناء وهم أذلوهم فأفقدوهم الحمية وسلبوهم العزة والقوة الغضبية ، وهـذه هى الدروع التى تتق بها أمة إغارة أمة ، وتنتصر بها دولة على دولة ، أيظنون أنهم يكسرون شوكتهم اليوم ويسلبونهم

أسلحتهم ثم يدفعون بهم عدواً مغيراً ، إن من ذل لك ذل لغيرك ، والعبد لا يعرف الكر ، وإنما يعرف الحلب والصبر .

يعلمون ذلك كله فلا يلحون على أممهم بالظلم ، وإنما يعاملونهم بالعدل ليستبقوا عزتهم ونخوتهم وحميتهم ، فإذا جاء الجد وأغار عليهم مغير وجدوا منهم أسوداً غاضبة وليوثاً كاسرة يدفعون عن الحمى ويذودون عن الحرية . هذا مبلغ العلم وهذا مبلغ الجهل .

وما قوة المسلمين فى أول دولة الإسلام إلا من هذا العلم ، وما ضعفهم أخيراً إلا من هذا الجهل ، هذا الجهل الذى ذكرناه هو الذى أفقد المسلمين عزتهم وحميتهم فى هذا العصر ، فصاروا غرض كل صائد وفريسة كل مفترس ونهب كل مغير .

كان الخلفاء الراشدون لأممهم كالأب الشفيق على أبنائه يعولهم صغاراً ويدخر لهم كباراً ، وكان كالراعى الشفيق على غنمه ينأى بهم عن موارد الهلكة ويرتاد لهم الخصب .

ولقد قال بعض الرعية لعمر بن الخطاب : والله لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا ، فقال : الحمد لله الذى جعل فى هذه الأمة من إذا وجد فى اعوجاجاً قومنى بسيفه .

حمداً لله على ذلك لأن هذا دليل على أن فى الأمة الحمية والغضب والقوة والشجاعة فى الحق ، والأمة إذا كان فيها ذلك لم تهن ولم تضعف ، وقد غضب على عمرو بن العاص حين ضرب ابن القبطى ، وقال له : متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً . غضب وحنق لأنه خاف أن يلحوا عليهم بالظلم فيستعبدوهم ويذلوهم فيسلبوهم العزة والأنفة والحمية والغضب وهى عدد الأمة فى هذا الوجود .

ولقد بلغ من حمية العرب وأنفتهم أن معاوية ذكر الأحنف بن قيس بمقامه مع على فى حرب صفين فقال : والله يا أمير المؤمنين إن السيوف التى قاتلناك بها لعلى عواتقنا ، وإن القلوب التى أبغضناك بها لبين جوانحنا ، وإنك إن تدن من الحرب شبراً دنونا منها ذراعاً ، وإن تدن منها ذراعاً دنونا منها باعاً ؛ ثم خرج مغضباً فقال يزيد لأبيه لم تحلم على هذا العربى الجلف ، فقال : يا بنى إنه أبو مائة وأخو مائة وعم مائة إذا غضب غضبوا لغضبته لا يسألونه لماذا غضب . ثم جاء بعد ذلك خلفاء ظلمة وأمراء جائرون فألحوا على الأمة بالظلم حتى أذلوها وأفقدوها الشعور بالكرامة ووجدوا فى سبيل ذلك عنتاً وشدة ، وقاومتهم الأمة مقاومة عظيمة ولكنهم انتصروا أخيراً ، انتصروا بالأمة عليها .

ولقد بلغ من إذلال الأمة أن يقول الحجاج على المنبر : والله يا أهل الشقاق ومعدن النفاق إنى لأرى رؤوساً أينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها ، وإنى لأرى الدماء تترقرق بين العمائم واللحى ؛ فلا يجد من ينتصر لكرامته أو يرد هذا الجبار عن جبروته .

ازداد الولاة ظلماً وعسفاً ، وازدادت الأمة ضعفاً وخسفاً ، وما زالوا بهم يفقدونهم عزتهم ونخوتهم ويفسدون نفوسهم إلى أن صارت الأمم الإسلامية مباحة لكل طامع ، لا تدفع عن نفسها ولا تغنى عن بلادها ، ولقد خرج عليها ، هولاكو ، وجنكيز خان ، فملكوا معظم البلاد الإسلامية فى زمن وجيز كأنما كانا فى رياضة لا فى فتح واستعمار ، وما ذاك إلا لأن القوى الحقيقية التى يدفع بها الأسد عن عرينه والطير عن وكره والكلب عن وجاره والإنسان عن وطنه قد أفقدهم إياها هؤلاء الظلمة ، فصاروا أكلة كل آكل وطعمة كل جائع ، وغبرت الأيام ، وتلك سنة الولاة الظالمين والرعية المظلومين ، إلى أن جاءت العصور الحاضرة فأغارت أوروبة على الشرق فوجدت حمى مباحاً لا حام ولا راع .

من ذلك يعلم أن مصائبنا منا وداءنا فينا وصدق الله إذ يقول : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » .

ولن نرقى ونسعد إلا إذا أخذنا بأسباب الرقى والسعادة ونبذنا أسباب الشقاء والانحطاط ، « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

محمد عرفة
عضو جماعة كبار العلماء

من كلام الصاحب بن عباد

- الإحجام فى مواطنه ، كالإقدام فى مواضعه .
- اللبيب من الإيماء يكفيه ، والإيحاء يغنيه ، واللفظة تجزيه ، واللمحة تؤثر فيه .
- المكيدة أبلغ من النجدة.

نفحات القـرآن

العدل والظلم

من الألفاظ البارزة فى القرآن : لفظا عدل وظلم .. فى صيغ مختلفة .. وهما متقابلان .. إذا جرى أحدهما على لسانك خطر الثانى ببالك .. وذلك هو الشأن فيما بينهما التضاد : مثل خير وشر ، وحسن وقبيح ، ونافع وضار .. هكذا عرفنا من الكتب .. ولكن الأمر فيما نحن بسبيله فوق الضوابط المسطورة .. فللوجدان إدراك ، وللفطرة مذاق ، وللشعور تقدير ، وللإحساس تصوير .

وخصائص القرآن ـ كما عهدنا إليك من قبل ـ تنطوى عليها ألفاظه ، وتمتزج بها معانيه ، ويقترن بها سياقه ، فلا يمكنك أن تراها شيئاً غيره ، ولا تستطيع أن تباعد فيما بين شىء وشىء .. والسمع يتلقف من ألفاظ القرآن ما يقابل بعضه بعضا : كالعدل والظلم ، والهدى والضلال ، والرحمة والعذاب ... الخ ، فتجنح الحساسية القلبية إلى جانب ، وتزور عن جانب : تجنح إلى لفظ كلفظ العدل .. حيث يدرك الوجدان حنوه ، وتتذوق الفطرة عذوبته ، ويقدر الشعور فيه رفاهيته ، ويتصوره الوعى الإنسانى كالظل الظليل : يأوى اليه اللاهث المحرور فيطرح عناءه ، ويسترد راحته ، ويتخيله الوعى كالماء القراح : ينحدر اليه الظامىء المكدود فيروى صداه ، ويبرد به الكبد الحرى .. وهل ترى لفظ العدل الذى توجنا به حديثنا إلا أمانا شاملا من المخاوف عامة ؟؟ هو أمان تنادى به الفطرة الاجتماعية ، وتهتف به الانسانية ، وترنوا اليه الدنيا لتسلم الحياة على طولها من كل ما يلويها عن السير قدما إلى الأمام ..

العدل !! وما العدل ؟ وفيم يكون ؟؟ ... العدل : اعتدال بين جانبين : لا إلى اليمين ، ولا إلى الشمال فهو كميزان قائم لا يميله عن الجادة مساس ، ولا تقربه النسمات فتتأرجح كفتاه ... ولقد أغنانا القرآن عن الأسهاب فى تشخيصه ، فضرب له الأمثال ، وهى من بينها

بذكر الميزان . . واشترط فيه أن يكون بالقسطاس المستقيم ـ العلامة الوسطى التى يضبط بها التساوى ـ وعلمنا ـ سبحانه ـ أنه آخذ فى شأنه معنا بنحو ذلك ، وأنه سيقيم الميزان بينه وبيننا يوم الفصل « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ـ والوزن يومئذ الحق » .

وليس بعد ذلك تمثيل أوضح فى التعليم ، ولا توجيه أقوى إلى العدل ـ إلا ما فى علم الله

ثم يكون العدل منك فيما لك أو عليك ، وفيما يصدر عن جوارحك من قول أو عمل ، وفيما يجرى تحت سلطانك من شئون الناس ، وفيما يقع تحت عينك وتستطيع أن تطول اليه يدك ، أو ينطق فيه لسانك : بل يكون فيما تنطوى عليه سريرتك مما يخفى على الناس ولا يخفى على رب الناس « إن السمع والبصر والفؤاد : كل أولئك كان عنه مسئولا » .

والعدل كالقوة الجاذبة تتآخى به النفوس ، وتشتد به العلائق وتستقيم عليه الجماعة .

وسطوة العدل تقوِّم المعوج ، وتروع الجائر ، وتمهد للحضارة أن تسير ، وللدنيا أن تزدهر

أما الظلم : — فلفظه بغيض ، ومعناه موحش ، وحوله مكاره ، وهو على الإيجاز مسخوط يقض المضاجع اللينة ، ويشرد الخواطر الساكنة ، ويزعج النفوس الآمنة ، ليس للدنيا حظ فيه ، ولا للحياة نصيب منه ، ولا للانسانية رغبة اليه ، ولا تجنح إليه النفس إلا نفسا خالطتها وحشية ، أو طغت عليها البهيمية فأفسدت عليها فطرتها ، ونأت بها عن الهدى ، فكانت آفة من آفات المجتمع ، وشوكة فى جنب الحضارة ، وقذى فى عين الحياة .

الظلم !! وما الظلم وفيم يكون ؟؟ الظلم انحراف عن الجادة أو ميل من جانب إلى جانب ، ويمثله لك ميزان مضطرب ، يعطيك مرة أكثر أو أقل مما لك ، ويأخذ منك مرة فوق أو اقل مما عليك ، وهو فى جملته وتفصيله شذوذ عن سنن الفطرة .

ويكون الظلم كذلك فيما بينك وبين الناس من كافة الشئون ، ويكون فيما يقع تحت عينك ، وتملك أن تطوله يدك ، أو ينطق فيه لسانك . . والظلم فى حساب الفطرة كاللهب مسامسة تهلكة ، والقرب منه مخافة وعاقبته خسار وبوار ، ومهما هان وقع الظلم فهو قبيح مشئوم ، تنقبض لذكره المشاعر ، ولا تستقيم عليه الحياة بحال ، لذلك حرمه الله على نفسه ، ونهانا فى تأكيد من الآيات عن التظالم إبقاء على مصالحنا فى دنيانا ، واحتفاظا بعمارة الكون كما شاء مبدعه . . واستبقاء لمنامة الفرد فى محيطه الذى يعيش فيه .

حفلت آيات الكتاب بذكر العدل والظلم ، ولكن لماذا يقف ذكر العدل عند العشرين مرة مع أنه محبب إلى القلوب ؟ ولماذا يتردد ذكر الظلم خمس عشرة وثلاثمائة مرة مع أنه مرذول بغيض .

أحسب ذلك لأمرين . . أحدهما : ـ إن العدل نجى الفطرة البريئة من الشوائب ، فهو شاخص لديها لا يغيب عنها ، وإنما يذكر للتذكير ، حتى لا تغيم عليه الشواغل ، ولا يستشرى فى إغفاله الظلم والعدوان .

ثانيهما : ـ أن الظلم دعوة الشيطان فهو دائما يزينه ، ويجتذب اليه ، فكان الإكثار من ذكره للصد عنه ، ولمقاومة المغريات التى يقدمها الى كل نفس شيطانها من الجن أو الإنس . . والمرء بحاجة الى تبصيره بسوء ما يعرضه شيطانه ، وتأمره به نفسه ، ويدفعه اليه هواه على أن كل نهى عن الظلم فى طيه أمر بالعدل ، وكل تشويه لآثار الظلم تزكية للعدل : ضرورة المقابلة بين المتضادين كما أسلفنا . فالإكثار من ذكر الظلم للتشويه والتقبيح.

وللقرآن فى حديثه عن العدل مسلك حكيم ، فهو يذكره أولا ـــ كمبدأ عام : يأخذنا به من غير تفصيل ، وفى هذا توجيه إلى أن العدل فى اعتبار الشريعة كما هو فى حساب الفطرة الانسانية : لا يتخصص بشأن دون شأن ، ولا يختص به قوم دون آخرين ، وفى هذا يقول الحكيم سبحانه « إن الله يأمر بالعدل » فلم يقيد أمره بمعقول . بل ساقه بصيغة الاطلاق ليكون سلطان الأمر مبسوطا على كل من يقع تحت التكليف أو يكون صالحا لذلك . وكذلك أطلق العدل ، فلم يحصره فى شيء ولم يقرره بزمن ، وعلى هذا يكون العدل كما قلنا مبدأ منشودا على وجه التعميم والاطراد .

ثم تأتى آيات أخرى تؤكد ذلك ، نحو قوله تعالى « ولا يجرمنكم شنآن قوم ـــ بغضهم على ألا تعدلوا . اعدلوا : هو أقرب للتقوى » وهنا تحسم الخصومات ، فلا تنال من العدالة بل ولا تمتد إليها بالانتقاص مهما يكن سببها : فلا تشفٍ ، ولا حنق ، ولا جنف ، ولا انحراف . وإنما هو تخلق بأخلاق الرحمن ، وأخذ بالكمال حتى مع من لا يكون مـــواليا ، ولا مطيعا « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم ـــ الآية » .

ومن مسلك القرآن ـــ ثانيا ـــ فى ذكر العدل أن يتجاوز التعميم إلى التطبيق فيعرض لأمور يبرز فيها العدل أكثر ، ويأتى على كثير منها بالتصريح : منها : « وإذا حكمتم

بين الناس أن تحكموا بالعدل » . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » . « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » ، فهل ترى تأكيدا آكد ، وتصريحاً أصرح من طلب العدل فى الحكم على هذا النحو واعتبار الخروج عن العدل فيه كفراً : وظلما : وفسوقا : ؟ وهل بعد هذه الثلاثة شناعة ؟ ومنها « أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم : الآية » . « والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » . « ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » : ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ؟ الآية ، وهكذا من مواطن العدل البارزة يسوقها الكتاب العزيز مساق التطبيق للمبدأ العام فيما يجرى مع الناس ، وبين الناس من أعمال ، أو يجرى على ألسنتهم من أقوال ولو لم تكن عالقة بأحد ، ومن باب الأولى إذا كانت عالقة « وإذا قلتم فاعدلوا .. ولو كان ذا قربى » . وفى هذه الآيات وأمثالها تحصين للعدالة أن تذهب ضحية الهوى ، أو تميل بها العصبية ، أو يلتوى بها التأويل المغرض .

والمسلك الثالث للقرآن فى ذكر العدل ـ بعد تركيزه كمبدأ ، وبعد التمثيل فى تطبيقه ـ مسلك التصوير الدقيق لحقيقته ، والكشف عن مداه ـ ولو تقريبا ـ ليتبصر العقل ، ويتيقظ الوجدان ... ومن ذلك أن الله يضرب لنا الأمثال عن شأنه وهو الحكم الأعلى غير مدافع ولا مسئول « إن الله لا يظلم الناس شيئا ـ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ـ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ـ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ـ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ـ يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة ، أو فى السموات ، أو فى الأرض يأت بها الله » .

فذلك تصوير بارز : فيه تأكيد ، وتقوية للعهد ، يأخذه الله على عباده أن يستنوا بسنته وينزلوا عند إرادته ، ويقيموا شرائعهم على هذا الأساس من شريعته ، حتى مع من خاصموا ربهم فى دينه ، ولم يستجيبوا لدعوة رسوله فإن الله قد عدل مع هؤلاء ، ولم يطاردهم من ملكه . ولم يقطع أرزاقهم فى دنياهم ، ولم يأخذهم على غرة ، فإنه خلقهم بقدرته ، وأبقاهم بإرادته وحكمته ، فكان حقا لائقا أن يعدل ، وقد عدل ، وطلب إلينا أن نأخذ بهديه ذلك

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم ، وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » .

فالقرآن يطوف بنا حول العدل فى أوضاعه البينة : مبدأ ـ وتطبيقا ـ وتصويرا ، ولم كل ذلك ؟؟ لأن العدل للحياة الاجتماعية كأنفاس الحياة للكائنات الحية ، وهو لنهضات الشعوب كالماء العذب فى سقى الزروع . فإن لم يكن فى القلوب متسع لهداية القرآن : فلتكن لنا هداية من تجارب الأزمان . وما شهدنا أمة جارت ، ولا حاكما ظلم ، ولا أسرة طغت إلا ثأر الله بقوته ممن عبثوا بسنته ، وغفلوا عن دعوته ، وفى الآيات نذر تسمع من به صمم ، وفى الكون دلائل مشهودة لمن يميته قذى ، وكلها تنادى : العدل .. العدل !! .

فمن لم يعدل ـــ ولو فى خاصة نفسه ـــ أو اجترأ ولو فى شأن غير ذى بال ... فقد ساهم فى كبت العدالة ، ومناصرة العدوان ، ومن وراء ذلك اختناق الحياة وتعويق الحضارة ، ومحادة لله فيما رسم لنظام الكون ... وربك بالمرصاد ، ولن يهمل مهما أمهل .

وإنك لترى فى بعض الآيات تخويفاً من الظلم أكثر مما ترى فى جانب غيره من المآثم ، فانظر ـ مثلا ـ إلى قوله سبحانه « إنه لا يفلح الظالمون » « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم » وفى هذا الاستثناء إيذان بأن صوت المظلوم مسموع فى كل ما يتجه به الى الله ... وقد أكدت أحاديث الرسول ذلك فأفادت فى صراحة أن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب .. وأفادت أن الله ينصر دعوة المظلوم ولو بعد حين ..

وأفادت أن الظلم فى الدنيا ظلمات يوم القيامة .. أى ـ انها ظلمات متكاثفة تكتنف بشاعتها الظالم ، وتحدق به حتى يكون شأنه مفضوحا ، ويكون بين الخلائق فى هول وضجر وآلام .. بينما يكون لغير الظالمين فى ذلك الموقف الرهيب نور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، وعن شمائلهم ثم هم يتزيدون فيقولون « ربنا أتمم لنا نورنا » .. ويقول الظالم : ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله » ولديك من التخويف بالحق الذى يصدع رءوس الجبابرة : أن الله تعالى حينما دعانا الى الحكم بالعدل جعل الخروج عنه كفرا ، ثم ظلما ، ثم فسوقا .. على هذا الترتيب فى الآيات ، فإذا كان الظلم قرين الكفر والفسوق ، وكان بينهما فى الذكر : صح لك أن تقول فى هذا السياق . شر الثلاثة أوسطها ، كما تقول فى باب الثناء : خير الأمور أوسطها .. وتوجيه ذلك ـ أن الكافر على ما به من شؤم واضح الشأن

لا يتاح له أن يدلس على الناس مثل ما يدلس الظالم وهو مستتر وراء تسمية دينية يبتدعها ثم لا ينزل على حكمها ولا يراعى مقتضاها .

ولا أذهب بك بعيداً فى التذكير والإقناع ، فالقرآن نفسه يصارحك بما يؤكد لنا ما يفيده السياق أو ما أسميه فى اصطلاحى الخاص بالنفحات - واليك قول الله تعالى « ولو أن لكل نفس ظلمت : ما فى الأرض - لافتدت به . . . » .

فاتخاذ الظلم فى هذا التهديد والإخبار عنه بأن ما فى الأرض لو كان مملوكا للظالم لقدمه فداء لنفسه يومذاك : مما يكشف لك فى غير خفاء عما ينتظر الظالم هنالك من وبال ولا تقل : ان المراد من الظلم خصوص الكفر . . فقد عمم القرآن ، وقرن بينهما فى قضية واحدة ، واذا لم تكن توبة مقبولة فربك لا يغفل عما يعمله الظالمون ، انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار » .

عبد اللطيف محمد السبكى
عضو جماعة كبار العلماء

****

أخلاق المجاهدين

قال الحافظ ابن عساكر إن حبيب بن مسلمة قدم على أمير المؤمنين عمر فى حجة ، وكان حبيب تام القامة ، فسلم على عمر ، فقال له عمر :

— إنك لفى قناة رجل

فقال : اى والله وفى سنانها

فقال عمر : افتحوا له الخزائن فليأخذ ما شاء ! ففتحوها له ، فعدا عن الأموال ، وأخذ السلاح .

تحقيق القول في ليلة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فهذه كلمات قصدت بها تحرير القول فى معنى ليلة القدر وبيان المراد بها أخذا مما تفيده الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تتحدث عن هذه الليلة فى معرض حديثها عن نزول القرآن الكريم .

والذى دعانى للكتابة فى هذا الموضوع أن كثيرا من الكتاب والخطباء فى أوقاتنا الحاضرة قد انتحوا بهذه الليلة فى مقالاتهم وخطبهم ناحية قد تعتبر — فى بادىء الرأى — من التجديد الشائق فى تفسير آيات الكتاب العزيز .

فأردت بهذه الكلمات أن أبين أن هذا الذى ذهبوا إليه فى تفسير سورة القدر ، وفى تعيين المعنى الذى اختاروه لليلة القدر ليس جديدا ، وإنما هو رأى قديم غير مشهور وأن السر فى أنه لم يسعد بالشهرة عند العلماء ومن يعنيهم أمر القرآن ممن تخصصوا فى تفسيره وكانوا أهدى من غيرهم فى فهم نصوصه هو أنه رأى ضعيف لا تنهض به حجة قوية ، ولا يساعد عليه أسلوب الآيات القرآنية نفسها فى حديثها عن هذه الليلة .

وقد ضمنت هذه الكلمات الأبحاث الآتية :

معنى ليلة القدر - ليلة القدر ونزول القرآن - شرف ليلة القدر وجلالة شأنها - هل هى ليلة واحدة فى عمر الدنيا أو تتكرر بتكرر الأعوام ؟ موقعها من ليالى السنة . والله الموفق والهادى إلى الصواب وحسن السداد .

« ليلة القـدر » : جاء فى القاموس ولسان العرب وغيرهما من كتب اللغة « القدر » بسكون الدال يطلق على معان :

منها الشرف وعظم الشأن ورفعة المكانة .

ومنها التعظيم والتبجيل ورفع المكانة .

ومنها تقدير الشىء وتحديده وضبط صفاته وأحواله .

فن الأول قولك : فلان له قدر أى له شرف وعلو شأن .

ويصح أن يكون منه ومن الثانى قولك : المسلمون يقدرون الرسول قدره ، أى يعرفون له سمو المكانة أو يعظمونه حق التعظيم . ومن ذلك أيضا قوله تعالى فى المشركين : « وما قدروا الله حق قدره » أى ماعظموه حق عظمته وما قدسوه حق تقديسه .

ومن الثالث قولك : قدّر الله الآجال والأرزاق قدرا ، بمعنى كتبها وحددها وضبط مقاديرها ومواقيتها وسائر أحوالها . ومن هذا القبيل قولك : قدر فلان القذة بالقذة إذا ضبط الأولى بالثانية وحدد بها مقدارها فأتت على وفقها مساوية لها .

وبسبب اختلاف معنى القدر لغة وتنوعه على النحو الذى ذكرنا قد اختلف علماء السلف فى معنى القدر الذى نسبت إليه الليلة فى كلمة « ليلة القدر » :

فنهم من قال إن الشرف والسمو وعظم الشأن ورفعة المكانة . فليلة القدر هى ليلة الشرف والشأن العظيم وهى ليلة البر والخير والسلام والبركة .

ومنهم من قال : إن القدر معناه تقدير الأشياء وتدبيرها وضبط صفاتها وأحوالها .

فهذان قولان يدور عليهما الاختيار فى تحديد معنى ليلة القدر . ولا حاجة بنا للتعرض لغيرهما من الأقوال فأنه مما لا يكاد يعول عليه :

غير أنه ينبغى أن يوقف عند كل من هذين القولين ليسأل :

أولا : إذا كان القدر معناه الشرف والعظم ورفعة الشأن فبماذا كان شرف ليلة القدر ؟ وهل هى ليلة لها معينات سابقة على الرسالة وعلى نزول القرآن ، ولها وجود يمكن أن تبق معه باسم « ليلة القدر » حتى مع عدم مراعاة أنها الليلة التى نزل فيها القرآن ؟

وثانياً : إذا كان القدر معناه التقدير فما المراد بهذا التقدير ؟ وما هى الأشياء التى تقدر فى تلك الليلة ؟ هل هى خصوص أحكام الشريعة وقواعد الدين أو هى جميع ما أراد الله أن يجريه على العباد والأكوان مما سبق به علمه المحيط ؟

وأما عن الأول ، فقد صرح القرآن فى سورة القدر تصريحاً لا يقبل الشك أن القرآن أنزل فى هذه الليلة ، وأنها ليلة كلها خير وسلام من أولها حتى مطلع الفجر ، وأنها خير من ألف شهر : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هى حتى مطلع الفجر » .

وقال تعالى : في سورة الدخان : « حم والكتاب المبين ، إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين » .

ولكن هل ما امتازت به هذه الليلة من الخير والبركة والسلام والأمن ، وما وصفت به من الشرف والسمو ورفعة الشأن قد اكتسبته من نزول القرآن فيها فحسب ، وأنه لولا ذلك ما كان ليثبت لها شيء من هذه المزايا ، وما كان يطلق عليها اسم «ليلة القدر» ؟ أو أنها ليلة قدر وشرف ، لها من قبل الرسالة ونزول القرآن خصائصها وميزاتها ، ولها اسمها وسمو مكانتها ، وأنها من أجل فضلها وشرفها اختارها من بين الليالي لينزل فيها ما نزل من القرآن .

قد مال إلى الوجه الأول الشيخ محمد عبده ، عليه سحائب الرحمة ، ولم ير أن لليلة القدر فضلا ولا شرفا ومزية إلا من أجل أن الله تعالى ، قد أعلى فيها منزلة نبيه ، وشرفه وعظمه بالرسالة ، ، وأوحى اليه بما أوحى من القرآن الذي هو كتاب الهداية والسعادة والخير والبر والبركة » .

اختار ـ رحمه الله ـ هذا الوجه متابعا فيه بعض من تقدم من العلماء ثم تبعه عليه كثير من أهل العلم في عصرنا الحاضر .

وقد يكون لهذا الوجه ـ في بادىء النظر ـ شيء من الوجاهة . ولكننا نرى في الوجه الثاني عند التحقيق ـ أجود الرأي وأوجهه وأحقه بالنصرة والتأييد ، وذلك للمعاني التالية :

« الأول » : أن قوله تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » إعلام من الله سبحانه لنبيه بعد ما أوحى اليه في تلك الليلة بما أوحى من القرآن الكريم ـ أنه كرمه بهذا الوحي في ليلة القدر والشرف العظيم ، وأن هذه الليلة لها من الخصائص والمزايا ما جلاه الله لنبيه في هذه السورة وفي مفتتح سورة الدخان . ولا يستقيم أن يكون ما لليلة القدر من المزايا وخصائص الشرف التي أريد إعلام النبي بها ـ مقصوراً على ما كان في ليلة الوحي ؛ فانه عليه الصلاة والسلام يعلم حق العلم أنه قد أكرم فيها بنزول القرآن ، وأنها من أجل ذلك ليلة مباركة كلها خير وسلام ، ويعلم حق العلم أنه قد جاء فيها الروح الأمين أمين الوحي ؛ ولا بد أن يكون له علم كذلك بمن تنزل فيها من ملائكة الله . وعلى هذا يكون بعيداً جداً أن يكون المقصود إعلامه بشيء من ذلك الذي هو به جد عليم . وهل يكون مستقيما ـ بعد ما عرف فضل هذه الليلة بنزول القرآن ، وعرف تنزل الملائكة فيها ورأى الروح

الأمين رؤية العيان ـ أن يقال له : إنا أنزلنا القرآن فى الليلة التى اكتسبت الفضل والشرف بنزولها بما تنزل فيها من الروح والملائكة ؟ أليس يكون ذلك إعلاما بما هو معلوم ؟ .

ومهما بذلت الجهود فى التماس الوجوه لاستقامة هذا الإخبار فإنه على ذلك المعنى الأول الذى سار عليه الشيخ محمد عبده غير مستقيم .

والذى نراه أن قوله تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » ظاهر جداً فى أن القدر والشرف وجلالة الشأن ثابتة لليلة القدر من قبل أن ينزل القرآن ، وأنها ليلة معروفة بذلك الاسم عند الله وعند من أطلعهم الله عليه من عباده وصفوة خلقه ، وأن هذا التعبير « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » من قبيل قولك : قدم فلان فى ليلة العيد أو ليلة الصوم أو ليلة كذا وكذا من الليالى المشهورة بمعنى من المعانى . فليلة القدر معروفة ـ كما قدمنا ـ بذلك الاسم الذى صار علماً عليها لما اختصت به من المزية والشرف . وهذه الليلة المعروفة بذلك الاسم والمخصوصة بتلك المزية وذلك الشرف من بين ليالى السنة أراد الله أن يعلم نبيه أنها هى الليلة التى اختارها لينزل فيها أول ما نزل من القرآن فيتناسب بذلك شرف الكتاب العظيم مع شرف الزمن الذى نزل فيه .

« الثانى » أن قوله تعالى : « تنزل الملائكة والروح فيها » ظاهر فى أن ليلة القدر يتكرر كونها ، ويتجدد مجيئها ، فليست ليلة واحدة فى الدهر كله كما يقتضيه القول بأنها خصوص الليلة التى بدىء فيها بإنزال القرآن ؛ فإن الأصل فى صيغة المضارع أنها تدل على حصول معناها فى المستقبل ؛ ولو كانت هى الليلة التى نزل فيها القرآن وحدها لقيل : « تنزلت الملائكة والروح فيها » من حيث أن الحديث عنها حديث عن امر وقع فى الماضى . وهذا شىء معلوم يعرفه جميع أهل العربية .

فإذا راعينا ـ مع ما تدل عليه صيغة المضارعة من معنى الاستقبال ـ أن الليلة التى أنزل فيها القران وفيها تنزلت الملائكة والروح معها قد أطلق عليها اسم ليلة القدر علمنا أن تنزل الملائكة والروح الأمين من خصائص هذه الليلة وأنه يتكرر بتكررها ، ويتجدد كلما تجددت .

« غير أنه قد يقال » إنه كثيراً ما يعبر فى القرآن عن الأمر الماضى بصيغة المضارعة لاعتبارات تختلف وتتنوع باختلاف المواطن وتنوعها . والاعتبار فى الموطن الذى نحن بصدده قد يكون إرادة استحضار صورة ذلك الماضى واقترانه حاصلا ساعة الحديث عنه

قصدا إلى كشف المعنى للسامع وتجليته أقوى تجلية ، وذلك من المقاصد البلاغية الرائعة التى يعرفها أيضا أهل العربية ، فإن الحديث عن الشيء ساعة حصوله أقوى وآكد وأوقع فى النفس من الإخبار عنه بعد ما يحصل ويمر زمنه .

« والجواب » أن ذلك لا يقدح فيما قلنا من أن الأصل فى المضارع هو دلالته على الشيء يكون فى المستقبل ، فإطلاقه على ما كان فى الماضى خلاف الأصل ، لا يصار إليه ولا يدعى أنه المراد إلا إذا كان هناك دليـــل يصرفه عن ذلك الأصل ثم يجيء الاعتبار البلاغى كالاستحضار ونحوه مصححا ومسوغا إطلاق المضارع على المعنى الماضى .

ولا يصلح الاعتبار وحده دليلا على أن المراد من المضارع هو المعنى الماضى ؛ اللهم إلا إذا ثبت أن المتكلم أراد ذلك الاعتبار ، وقصد ـ فى مثل مسألتنا ـ إلى معنى الاستحضار ، وهذا ما لا سبيل إليه ، وليس الكلام قاطعا ولا ظاهرا فيه ؛ بل اللجأ إلى دعواه هو عين ما يسمى بالمصادرة كما يعرف ذلك أهل العلم .

« وبعد » فأنت ترى أننا ـ فى هذا الوجه الثانى من الاستدلال ـ قد اقتصرنا على ما تفيده صيغة المضارع ، ولم نتعلق بما تدل عليه صيغة « التفعل » من معنى التكرار والتجدد ؛ فإنه إذا كانت هذه الصيغة التى جاءت على نهجها كلمة « تنزل الملائكة » تدل على تجدد نزول الملائكة وحصوله مرة بعد مرة فليست نصا فى أن ذلك التجدد يحصل فى أكثر من ليلة ؛ لأنه يصح أن يكون نزول الملائكة متتابعا وعلى دفعات كثيرة فى ليلة واحدة ، تنزل طائفة منهم وتتبعها طائفة وطائفة ، وهكذا حتى مطلع الفجر . وحينئذ لا يكون فى التعلق بحديث التجدد وتكرر الحصول الذى تدل عليه صيغة « تنزل » إثبات المطلوب الذى هو تجدد الليلة وتكررها بتكرر الأعوام .

« الثالث » : أن قوله تعالى فى سورة الدخان ـ : فيها يفرق كل أمر حكيم » . يدل على أن ليلة القدر تتكرر وتتجدد ، وليست ليلة واحدة على ما يقضى به القول أنها الليلة الماضية التى نزل فيها القرآن ؛ وذلك لمجيء « يفرق » بصيغة المضارعة التى تدل بأصلها على أن فرق الأمر الحكيم وبيانه وتفصيله يكون فى المستقبل كما قدمنا الكلام على ذلك فى قوله تعالى : « تنزل الملائكة » ، وأنه إذا كانت ليلة نزول القرآن التى سميت ليلة القدر قد فرق فيها الأمر الحكيم فذلك لأن شأن ليلة القدر ذلك : فرق فيها دائما كل أمر حكيم ؛ فيكون

الحديث عن ذلك مقصودا به الإعلام بأن نزول القرآن قد كان فى الليلة التى من خواصها أنه يفرق فيها كل أمر حكيم .

« الرابع » : أن قوله تعالى : « فيها يفرق كل أمر حكيم » معناه أنه يبين فى الليلة المباركة ويفصل كل أمر موافق للحكمة والصواب متفق لاخلل فيه ولا اضطراب ؛ وذلك يفيد أنها ليلة تتكرر وتتجدد ، وليست هى خصوص الليلة التى بدأ فيها الوحى بشىء من آيات القرآن فإن ما نزل فى تلك الليلة — وإن كان أمراً حكيما من غير شك ولا امتراء — لا يمكن أن يقال فيه إنه هو كل أمر حكيم . وسنعود قريباً إلى هذا بمزيد من التفصيل .

« الخامس » : ما ورد فى صحاح الأحاديث من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتحرى ليلة القدر ، وأنه أمر الناس بالتماسها وتحريها فى العشر الأواخر من رمضان :

١ — فقد روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور فى العشر الأواخر من رمضان ويقول : تحروا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان .

٢ — وروى البخارى أيضاً عن عائشة قالت : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله » .

٣ — وروى كذلك عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : تحروا ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر من رمضان » .

٤ — وعن ابن عباس رضى الله عنهما فيما رواه البخارى أن النبى ﷺ قال : التمسوها فى العشر الأواخر من رمضان : ليلة القدر ؛ فى تاسعة تبقى ؛ فى سابعة تبقى ؛ فى خامسة تبقى »

٥ — وروى البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ يجاور فى رمضان العشر التى فى وسط الشهر ، فإذا كان حين يمسى من عشرين ليلة تمضى ويستقبل إحدى وعشرين رجع إلى مسكنه ورجع من كان يجاور معه ، وأنه أقام فى شهر جاور فيه الليلة التى كان يرجع فيها ، فخطب الناس فأمرهم ما شاء الله ، ثم قال : كنت أجاور هذه العشر ، ثم قد بدا لى أن أجاور هــذه العشر الأواخر (١) فمن كان اعتكف معى

(١) وقد ورد فيما روى عن أبى سعيد الخدرى أن جبريل قال للنبى صلى الله عليه وسلم لما اعتكف العشر الاوسط إن الذى تطلب أمامك ، يريد ليلة القدر .

فليثبت في معتكفه ، وقد أريت هذه الليلة ثم أنسيتها فابتغوها في العشر الأواخر ، وابتغوها في كل وتر ، وقد رأيتني أسجد في ماء وطين ، فاستهلت السماء في تلك الليلة فأمطرت فوكف المسجد في مصلى النبي ﷺ ليلة إحدى وعشرين فبصرت عيني رسول الله صلى الله عليه وسلم ونظرت إليه انصرف من الصبح ووجهه ممتلىء طينا وماء » .

٦ — وروى البخاري عن عبادة بن الصامت قال : خرج النبي صلى الله عليه وسلم ليخبرنا بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين فقال : خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت ، وعسى أن يكون خيرا لكم ، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة .

ففي هذا كله دلالات واضحة على أن ليلة القدر لها فضلها وشرفها ، ولها مزيتها وراء ما ثبت لها بنزول القرآن فيها ، وأنها تتكرر وتتجدد ، وأن مظنة موافقتها هي العشر الأواخر من شهر رمضان ؛ فإنها لو كانت خصوص الليلة التي نزل فيها القرآن لما كان هناك معنى لتحريها ولا الأمر به بعدما انقضت تلك الليلة ومرت .

ولا يصح أن يقال إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقصد بأمره بتحري ليلة القدر ولا باعتكافه العشر الأوسط أو الأخير إلا إحياء ذكرى الليلة التي نزل عليه فيها القرآن وتكريمها ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لم يكن لتخفى عليه هذه الليلة العظيمة فيجهل موقعها من الشهر الذي كانت هي إحدى لياليه حتى يتحراها باعتكاف العشر الأخير من رمضان ويأمر بتحريها في ذلك من يريد إحياء ذكراها في كل عام . هذا بعيد غاية البعد ؛ وإذا لا يستقيم ما يقوله بعض الناس اليوم ارتكانا إلى ما اختاره المرحوم الشيخ محمد عبده من أنه ليست هناك ليلة تسمى ليلة القدر غير تلك الليلة التي نزل فيها القرآن ، وهي ليلة واحدة لا تتكرر ، وأنه لا معنى للاحتفال بها في كل سنة إلا أن يكون المقصود من ذلك إحياء ذكرى تلك الليلة كما تحيي ذكرى العظماء وذكرى الليالي والأيام التي اشتهرت بوقائع وحوادث لها خطر وشأن .

وإذا لم يكن لاحتفال الناس بليلة القدر معنى سوى إحياء ذكراها فماذا يقال في تحري رسول الله ﷺ هذه الليلة وأمره الناس بتحريها ؟ .

هنا نجد الأستاذ الإمام عليه الرحمة يعمد إلى الأحاديث الواردة في ذلك فيضرب عليها بكلمة ويرى أنه بذلك قد خاص منها :

يقول: إن تلك الأحاديث رواياتها مضطربة، وأغلبها ضعيف، والكثير منها موضوع ومثل ذلك لا يصح الأخذ به في باب العقائد.

ولكنه ـ رحمه الله ـ لم يبق لنا أي هذه الأحاديث موضوع وأيها ضعيف وبماذا كان ضعف هذا الضعيف، ولم يكشف كذلك عن الاضطراب الذي يصح معه أن يضرب صفحاً عن أحاديث أخرجها البخاري وغيره عن جماعة من الصحابة يروى أحدهم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان»، ويروى آخر أنه قال: «تحروا ليلة القدر في الوتر في العشر الأواخر من رمضان»، ويروى ثالث قوله عليه الصلاة والسلام: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان ليلة القدر في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى في خامسة تبقى».

فهل هذا هو الاضطراب الذي يأبى معه قبول الأحاديث؟

نحن لا نجد بين ما أوردناه من أحاديث الأمر بالتحرى شيئاً من الاضطراب في السند أو المتن بحيث يقدح في صحتها ويوجب طرحها؛ وكل ما فيها إنما هو اختلاف بالإجمال والتفصيل أو بوضع لفظ مكان مرادفه. وإذا كان جميع الناس ـ إلا من لا يعتد برأيه في هذا المقام ـ على أنه يجوز رواية الأحاديث بالمعنى ما دام ذلك لا يخل بما قصد الرسول صلى الله عليه وسلم إفادته من المعنى فالاختلاف الذي أشرنا إليه لا يضر في شيء ولا يصح معه دعوى الاضطراب الذي تطرح من أجله الأحاديث.

«وبعد» فقد تبين مما قدمناه من الكلام على المعنى الأول لكلمة «القدر» أنه الفضل والشرف وعلو المنزلة، وأن ليلة القدر لها شرف وفضل بنزول القرآن فيها من غير شك، لكن لها ـ وراء ذلك ـ شرفاً وفضلا بما خصها الله به مما سنعرض للكلام عنه فيما يلي؟ وأنه من أجل ذلك قد اختارها الله تعالى لتكون ليلة افتتاح الوحي ونزول أول ما أنزل من القرآن

«وأما عن المعنى الثاني» وهو «التقدير» فقد اختار الشيخ الامام فيه أيضاً خلاف ما جرى عليه جمهور المتقدمين من العلماء:

قال ـ رحمة الله عليه: «سميت الليلة ليلة القدر إما بمعنى ليلة التقدير، لأن الله ابتدأ فيها تقدير دينه وتحديد الخطة لنبيه في دعوة الناس إلى ما ينقذهم مما كانوا فيه».

فهو يحمل التقدير على خصوص ما يكون بالقرآن من الارشاد والبيان وتحديد طريق

السعادة والفصل بينها وبين طرائق الشقاوة والضلال ، ويقول إن هذا هو المراد مما ورد في سورة الدخان من فرق الأمر الحكيم في تلك الليلة ، فالأمر الحكيم إنما هو أمر الرسالة والأوامر والأحكام لا شيء آخر سواها ، هذا هو ما يرتضيه من معنى التقدير ومعنى فرق الأمر الحكيم .

وغريب جداً أن يحمل التقدير على ذلك المعنى الذى لا يخرج عما يتعلق بالوحى والرسالة وتحديد الدين أحكام الشريعة .

ونحن إذا كنا نتساهل فنقبل تأويل المرحوم الشيخ محمد عبده لهذا التقدير والتحديد ونقول إنه ليس بلازم في تسمية الليلة ليلة التقدير أن تقدر فيها جميع أصول الدين وتحدد جميع أحكام الشريعة بل يكفى أن يكون بدء ذلك كله في تلك الليلة - إذا كنا نتساهل فنقبل هذا التأويل فليس من السهل أن يقبل ما يؤدى إليه مما يضيع معه معنى الاخبار في قوله تعالى « إنا أنزلناه في ليلة القدر » أليس يكون معناه حينئذ : « إنا أنزلنا القرآن - أى ابتدأنا إنزاله في الليلة التى بدأنا فيها بإرسال الوحى بالرسالة وبتحديد الشريعة وأحكام الدين ؟ وماذا يكون حاصل المعنى - إنا ابتدأنا إنزال القرآن في الليلة التى ابتدأنا فيها بإنزال القرآن ، وهذا شيء لا يقبله عاقل ولا يصح أن ينزل على مثله كلام عوام الناس فما بالك بكلام رب العالمين ؟ .

وكذلك الحال في آية الدخان : « فيها يفرق كل أمر حكيم » ؛ فإنه متى كان هذا الأمر الحكيم هو ما يختص بالرسالة والوحى والأوامر والأحكام - كما يقول الأستاذ الامام - كان المعنى أنه يفرق ويبين ويفصل في تلك الليلة الوحيدة التى لا تتكرر ولا تتجدد على مر الدهور والأعوام كل أمر حكيم من أمور الدين وأحكام الشريعة . وإذا كان معلوما بالضرورة أن تلك الليلة التى نزل فيها أول ما نزل من القرآن لم يبين فيها كل أمر حكيم من أمور الشريعة والدين فكيف يكون تأويل آية الدخان التى تنطق بأن الليلة المباركة وهى ليلة القدر يفرق فيها كل أمر حكيم ؟.

نحن نوقن أن الأستاذ الامام - عليه سحائب الرحمة - شعر ببعض الحرج في تأويل الآية على النحو الذى يوافق ما يرى إليه من المعنى فأراد أن يتخلص من هذا الحرج بتقرير « أن ابتداء نزول القرآن كان فرقا بين الحق والباطل وكل ما جاء منه كان كذلك ، ثم توالى النزول بعد الليلة الأولى بما هو من نوع ما نزل فيها كما قال ، إنا كنا مرسلين رحمة من ربك » ؛ فصح أن ينسب اليها أنه يفرق فيها كل أمر حكيم ، لأن كل ما جاء فيها كان أمرا حكيما فرق به

بين الحق والباطل وبداية لما يكون بعده من مثله ، كما صدق قوله : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » مع أنه لا يكون بينة وفارقا بين الحق والباطل إلا ما ظهر للناس منه وهو ما نزل وبلغ اليهم بالفعل أو كان بسبيل أن يبلغ ، فليس الأمر الحكيم الذى يفرق فى الليلة المباركة إلا أمر الدين والأحكام ، اهـ

فهو يقول : إن ما نزل من القرآن فى الليلة الأولى التى جاء فيها الوحى أمر حكيم فرق به بين الحق والباطل وهو بداية لكل أمر حكيم جاء به القرآن بعد ذلك وفرق به بين الحق والباطل فكأن كل أمر حكيم جاء به القرآن من أوله إلى آخره قد كان فى ليلة الوحى الأولى .

ونحن نقول إن هذا شيء فى غاية التكلف لا ينبغى أن يلجأ إليه فى تفهم آيات القرآن الكريم .

يقرر الأستاذ الإمام أن كل ما جاء فى تلك الليلة كان أمرا حكيما . وهذا حق لا مرية فيه

ويقرر أن ما جاء فيها كان بداية لما جاء بعده من الأمر الحكيم . وذلك حق أيضاً لا ينازع فيه منازع .

ولكن ذلك كله لا يسوغ أن يقال إن بيان كل أمر حكيم قد كان فى تلك الليلة .

وليس من هذا القبيل قوله تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات » فانه إذا كان القرآن - كما يقول الأستاذ الإمام - يطلق على جميع الكتاب العزيز وعلى أى جملة منه وكان كله هداية وفى كل جملة منه هداية صح أن يقال : إن القرآن نزل فى شهر رمضان ما دام قد نزل جزء منه فى هذا الشهر ، ولا سيما أن هذه الآية لم تقل إن شهر رمضان قد أنزل فيه القرآن كله كما جاء فى آية الدخان : « فيها يفرق كل أمر حكيم » .

ثم إن فرقا كبيرا بين أن يقال : إن ما نزل فى تلك الليلة كان كله أمرا حكيما وأن يقال : إن كل أمر حكيم نزل فى تلك الليلة ، فلا يصح الخلط بين هاتين القضيتين ولا التخطى من إحداهما إلى الاخرى بدون وسيلة صالحة .

ولهذا لا يسعنا إلا أن نسير فى معنى « ليلة القدر والتقدير » على ما جرى عليه المتقدمون من العلماء .

فليلة القدر على هذا هي الليلة التي تقدر فيها الآجال والأرزاق والأقوات، وتضبط فيها شؤون سائر الكائنات وتحدد صفاتها وأحوالها.

غير أنه ينبغي أن يعلم أنه ليس المراد من تقدير هذه الأشياء في ليلة القدر بدء تقديرها وإنشاء تحديد مواقيتها وضبط شؤونها وأحوالها؛ فإن ذلك أزلي سبق به علم الله وإرادته منذ القدم، وإنما معنى ذلك إظهار هذه الأمور للملائكة وكشفها لهم ليضبطوها في صحفهم ويقوموا فيها بما أمرهم الله.

وهذا هو ما اختاره ابن حجر العسقلاني في فتح الباري وحرر القول فيه قبله الإمام النووي الذي اعتمد فيه على ما قرره الأئمة الأعلام:

قال النووي: قال العلماء: سميت ليلة القدر لما تكتب فيها الملائكة من الأقدار لقوله تعالى: «فيها يفرق كل أمر حكيم»؛ ورواه عبد الرزاق وغيره من المفسرين بأسانيد صحيحة عن مجاهد وعكرمة وقتادة وغيرهم وقال التوربشتي: «إنما جاء القدر بسكون الدال وإن كان الشائع في القدر الذي هو مؤاخي القضاء فتح الدال ليعلم أنه لم يرد به ذلك: وإنما أريد به تفصيل ما جرى به القضاء وإظهاره وتحديده في تلك السنة لتحصيل ما يلقى إليهم فيها مقدارا بمقدار» ا هـ

أي فالقدر بفتح الدال هو تقدير الأشياء وتحديدها في الأزل؛ وهذا ليس الكلام فيه. وأما القدر بسكون الدال فهو تحديد ذلك للملائكة وضبطه وإظهاره لهم في الليلة التي تسمى ليلة القدر من ليالي كل سنة.

وخلاصة القول في هذا أنه إذا أخذت كلمة «القدر» بمعنى التقدير فلا يصح أن يقصر هذا التقدير على تقدير أمر الرسالة وتحديد أحكام الشريعة وإنما هو تقدير كل شيء أراد الله إعلام الملائكة به وإطلاعهم عليه ليقوم كل منهم بما وكل إليه من ذلك. وهذا هو معنى فرق الأمر الحكيم. فالأمر الحكيم ليس هو خصوص أمر الرسالة والقرآن؛ وإنما هو كل أمر اشتمل على الحكمة ووافق الواقع واقتضت الإرادة الإلهية نفاذه في الكون من شؤون الدين والدنيا؛ يطلع الملائكة منه في ليلة القدر كل سنة على ما أراد كونه فيها.

وهذا هو الشرف وعظم الشأن الذي خص الله به ليلة القدر.

ويتلخص مما قدمناه أن ليلة القدر هي ليلة من كل سنة ، فتتكرر بتكرر الأعوام ، وإن الأحاديث الصحيحة قد طلبت تحريها والتماسها رجاء موافقتها بالعبادة وعمل الخير ، فإن الجزاء على ما يكون من ذلك في ليلة القدر خير من الجزاء على ما يكون منه في ألف شهر .

ولكن أى ليلة هي من ليالى السنة ؟ وهل هي ليلة معينة في ذاتها لا تنتقل في أشهر السنة أو أنها تنتقل فيها أو في شهر رمضان خاصة في لياليه كلها أو في العشر الوسط منه أو في العشر الأواخر ؟

قد اختلف العلماء في ذلك اختلافا كبيراً . والذى رجحه ابن رشد في مقدمات المدونة ، أنها تنتقل باختلاف الأعوام ، ولكن في شهر رمضان خاصة . قال : وهذا هو الذى ذهب إليه مالك والشافعى وأحمد بن حنبل وأكثر أهل العلم ؛ وهو أصح الأقاويل ، وأولاها بالصواب .

ويرى ابن رشد أنها تختص في تنقلها ـ في الأغلب من حالها ـ بالعشر الوسط وبالعشر الأواخر من رمضان ، وأن هذا القول هو الذى يتمشى مع جميع الأحاديث الصحيحة الواردة في هذا الشأن .

ويقول إن الأغلب أنها تكون من العشر الوسط ليلة سبع عشرة وليلة تسع عشرة ، ومن العشر الأواخر في الأوتار منها .

ويقرر ابن حجر في فتح البارى أن أرجح أقوال العلماء في ليلة القدر أنها في وتر من العشر الأخير ، وأنها تنتقل في أوتار هذا العشر .

وقال ابن القيم في « زاد المعاد » في بيان هدى الرسول صلى الله عليه وسلم في اعتكافه ـ أنه عليه الصلاة والسلام كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل واعتكف مرة في العشر الأول ثم الأوسط ثم العشرة الأخيرة يلتمس ليلة القدر ، ثم تبين له أنها في العشر الأخير فداوم على اعتكافه حتى لحق بربه عز وجل . ا هـ .

ويمكن أن يستخلص من هذا كله أن أرجح الأقوال في ليلة القدر أنها تنتقل في أوتار الثلث الأخير من رمضان .

وكذلك اختلف العلماء في أنه هل لليلة القدر علامات تظهر لمن وفقت له ؟ .

والذي اختاره الطبري أنه ليس لها شيء من العلامات وأنه لا يلزم فيها رؤية شيء أو سماعه. أما العلامة التي حدث عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري - أنه عليه الصلاة والسلام رأى في منامه أنه يسجد في ماء وطين وأن ذلك قد تحقق صبيحة ليلة إحدى وعشرين من رمضان فهي لا تدل على أن علامة ليلة القدر في كل سنة أن ينزل فيها المطر أو يشتد: كما لا يدل ذلك على أن ليلة القدر تكون دائما ليلة إحدى وعشرين من رمضان. وإنما كان ذلك علامة على ليلة القدر في تلك السنة لا غير. قال ابن جرير وذلك أنا شهدنا سنين كثيرة ينقضي فيها رمضان دون مطر مع اعتقادنا أنه لا يخلو رمضان من ليلة القدر.

عبد الرحمن تاج
عضو جماعة كبار العلماء

****

التجديد في الادب

التجديد في الأدب إنما يكون من طريقتين:

فأما واحدة: فإبداع الأديب الحي في آثار تفكيره، بما يخلق من الصور الجديدة في اللغة والبيان.

وأما الأخرى: فإبداع الحي في آثار الميت، بما يتناولها به من مذاهب النقد المستحدثة وأساليب الفن الجديدة.

وفي الإبداع الأول إيجاد مالم يوجد، وفي الثاني إتمام مالم يتم. فلا جرم كانت فيهما معاً. حقيقة التجديد بكل معانيها، ولا تجديد إلا من ثمة، فلا جديد إلا مع القديم.

مصطفى صادق الرافعي

كفانا تقليداً فى الفقه

تتمة الحديث

ذكرنا فى الكلمة السابقة أن كثيراً من مشاكلنا التى تتطلب حلولا تتفق وشريعة الله وقرآنه وسنة رسوله لم تعرض فى الأزمنة المتقدمة ، فكيف نطالب بالإتيان بنص من الكتب السالفة فيها ! ولو أنها عرضت فى تلك الأزمنة لكان من الراجح جداً أن نرى أولئك الفقهاء قد عالجوها بما يتفق والصالح العام فى زمانهم .

وانتهينا من الحديث إلى أن الأمر جد خطير ، وأن مشكلة الاجتهاد والتقليد والوقوف عند نصوص الفقهاء بلغت الذروة من التعقيد ، وأننا صرنا فى مفترق الطرق ، وأن علينا أن نختار الطريق الذى يجب أن نسير فيه ؛ حتى لا ندع الأمر فوضى ، وحتى لا تظل الشبيبة فى ذبذبة وحيرة بين الجمود وبين الطفرة .

ونحب أن نذكر الآن أن الأحكام الشرعية ، كما نعرفها من القرآن وسنة الرسول ﷺ ومن أقوال الفقهاء أصحاب المذاهب معللة ، وإن كانت بعض هذه العلل احتاجت أو تحتاج إلى شىء من الجهد والتعمق للوقوف عليها .

كما يجب أن يكون معروفا أن الشريعة لا تأمر بشىء أو تنهى عن شىء إلا لتحقيق مصلحة معتبرة عند الشارع ، فما جاء الإسلام إلا لتحقيق مصلحة الأفراد والجماعة ، ومن المسلم به فى الفقه وأصوله أن الحكم يجب أن يدور مع علته وجوداً وعدما ، ولم يصب الفقه الإسلامى بالعقم أو العجز عن متابعة الزمن إلا لأن الفقهاء المتأخرين - وكذلك الأعم الأغلب من فقهاء اليوم - وقفوا عند نصوص أسلافهم وتجاهلوا اعتبار المصلحة وتقديرها .

إذاً ، الدعوة اليوم إلى الاجتهاد ليست بِدْعاً من الأمر ، بل هى دعوة كان يجب أن نشتد لها منذ زمن طويل ، وهى دعوة طبيعية تتفق والحياة التى نحياها وما تجىء به من مشاكل وحوادث لم تعرض لأسلافنا رضوان عليهم . وفى سائر البلاد الإسلامية من يجب أن يكون قد توفر له بفضل الله أدوات الاجتهاد ومؤهلاته ، وهؤلاء فرض يجب عليهم القيام به وإن ضاقت بهم صدور بعض المتعنتين الجامدين على التقليد !

ولا ينبغي أن يُظن أن الدعوة إلى الاجتهاد دعوة إلى نسخ شيء من الأحكام التي ثبتت بالكتاب أو السنة ، بعد أن أتم الله على المسلمين نعمته بإكمال دينه وشريعته . كذلك لا ينبغي أن يظن أن في هذه الدعوة دعوة إلى التجهم لشيء من نصوص القرآن المحكمة أو السنة النبوية الشريفة الصحيحة ، فمعاذ الله أن ذهب أو يذهب أي مسلم إلى شيء من هذا ما دام قلبه عامرا بالله ودينه وشريعته المطهرة .

ولكن الذي نلهج بالدعوة إليه ، وهو السبيل للاجتهاد الصحيح ، هو أن تقتدى بالصحابة والتابعين ومن سار سيرتهم من الفقهاء المجتهدين ، رضي الله عن الجميع وجزاهم خير الجزاء عن دينه وشريعته . وذلك بأن نسلك السبل التي سلكوها لمعرفة علل الأحكام الفقهية أولا ، ثم تبين المصلحة الحقيقية المعتبرة التي تهدف إليها هذه الأحكام ثانيا ، وأخيراً أن ننظر للنصوص والآثار بهذا الضوء ثالثا . وبهذا ، يتطور الفقه ويحيا حياة قوية صالحة ، وبهذا يستطيع أن يلبي حاجات الزمن في ضوء القرآن والسنة دائما .

والنأخذ الآن في شيء من التفصيل لبعض ما أجملناه ، ثم نأتي ببعض المثل التي تبين منها كيف سلك الصحابة ومن إليهم من التابعين والفقهاء المجتهدين ، كما تبين منها بوضوح أن النظر بعين القداسة لنصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة لم يمنع ولا ينبغي أن يمنع من الاجتهاد والفقه ، ما دمنا نسير دائما في فلك هذين المصدرين العظيمين المقدسين للشريعة الإسلامية .

قلنا إن الحكم الشرعي يدور مع علته ومع المصلحة وجودا وعدما ، وهذا ما يجب أن نفهمه تماما ونراعيه حين التطبيق ، ففي ذلك باب من أبواب الاجتهاد ، ونكتفي هنا ببعض المثل التي لها دلالتها :

١ — روى أبو داود في سننه (١) أن رسول الله ﷺ قال : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ، ولكن ليخرجن وهن تفلات » ، أي غير متطيبات . وأنه قال : « لا تمنعوا نساءكم المساجد ، وبيوتهن خير لهن » . ثم مضى زمن الرسول ﷺ وتغير الحال ، وصار خروج النساء للمساجد الذي أباحه الرسول ﷺ مظنة فساد اجتماعي فرأى البعض عدم الوقوف عند هذا النص رعاية للمصلحة التي تقتضي المنع ، دون أن يكون في ذلك أي مخالفة لقول الرسول صلى الله عليه وسلم ومقصده .

---

(١) ج ١ : ٢٢١ طبعة مطبعة السعادة عام ١٩٥٠ .

وهنا نرى سيدتنا عائشة رضى الله عنها تقول ، رواه أبو داود أيضاً (ص ٢٢٢) : « لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن المسجد ، كما منعه نساء بني إسرائيل » . ثم نرى عبد الله بن عمر يقول : قال النبي ﷺ « ائذنوا للنساء إلى المساجد بالليل » ، فقال ابن له : « والله لا نأذن لهن فيتخذنه دغلا ، والله لا نأذن لهن » ، فسبه وغضب وقال : أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ائذنوا لهن ، وتقول : لا نأذن لهن !

٢ — ومثال آخر نأخذه من موقف عمر مع أبي بكر رضى الله عنهما في مسألة نصيب المؤلفة قلوبهم من الصدقات ، وهو مثال معروف ، فقد كان الرسول ﷺ يعطى هؤلاء الناس نصيبهم من الزكاة الذي شرعه الله لهم في سورة التوبة من القرآن ، وذلك تأليفاً لهم على الإسلام واتقاء لما قد يكون منهم من عدوان . وكذلك كان يفعل الصديق أبو بكر من بعده ، حتى إنه أقطع عيينة بن حصن والأقرع بن حابس قطعة من الأرض وكتب بذلك كتاباً .

ولكن عمر بن الخطاب الملهم الذي وافقه القرآن في مواطن غير قليلة ، أخذ الكتاب فتفل فيه ومحاه وقال : إن رسول الله كان يتألفكما والإسلام يومئذ قليل ، وإن الله قد أغنى الإسلام ، إذهبا فاجهدا جهدكما لا يرعى الله عليكما ! فما كان من الخليفة الأول إلا أن رضى ولم ينكر هو ولا غيره على الفاروق رأيه وما ذهب إليه [1] . ومعنى هذا أن الحكم الأول كان لعلة استوجبته ومصلحة قصد إليها ، فلما ذهبت العلة وصارت المصلحة في ترك الإعطاء تغير الحكم ، وكان في المنع تقوية لثقة المسلمين بأنفسهم وعدم حاجتهم لتألف هؤلاء الناس وأمثالهم .

٣ — ومثال ثالث يتصل بالتسعير ، نعني بالنهي عنه من الرسول ثم إباحة بعض الفقهاء المجتهدين له ، فقد روى أبو داود في سننه [2] أن الناس قالوا يا رسول الله غلا السعر فسعر لنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله هو المسعر القابض الباسط الرازق ، وإني لأرجو أن ألقى الله وليس أحد منكم يطالبني بمظلمة في دم أو مال » . إذاً لم يرض الرسول بالتسعير حتى لا يكون هذا سبباً في أن يكره الناس على بيع أموالهم بما لا يرضون من الأثمان .

---

(١) انظر في هذا أحكام القرآن للجصاص ، طبع مصر عام ١٣٤٧ هـ ، ٣ : ١٥٢ .

(٢) حـ ٢ ، ٢٢٠ .

لكن بعض الفقهاء من التابعين أولا، ثم من جاء بعدهم ثانيا، رأوا جواز التسعير رعاية للمصلحة ودفعاً للضرر عن المستهلكين مستوحين فى هذا أنه لاضرر ولا ضرار فى الإسلام، ومن هؤلاء التابعين سعيد بن المسيب وربيعة بن عبد الرحمن ويحيى بن سعيد. وهذا الرأى منهم فيه، كما يقول أبو الوليد الباجى[1] المتوفى عام ٤٧٤ هـ، نظر لمصالح الناس ومنع للإفساد عليهم، وليس فيه جبر على الباعة حتى يكون منافيا لذلك، ولكنه منع من البيع بغير هذا السعر على حسب ما رآه الإمام من المصلحة فيه للبائع والمبتاع، ولا يمنع البائع ربحاً ولا يسوغ له ما يضر بالناس. ولعلنا جميعاً، معشر المشتغلين بالفقه، نوافق تمام الموافقة على هذا الرأى وتعليله، ونراه محققا للمصلحة العامة هذه الأيام.

٤ — ونذكر أخيراً هذا المثال مكتفين به وربما سبقه، لأن المثل لما نريد كثيرة وهى على جعل الذراع لمن يريد من الباحثين، وهو خاص بحل التزوج من النساء الكتابيات كما جاء بالقرآن، ولكن من الثابت أن حذيفة تزوج بيهودية أيام عمر بن الخطاب فأمره بتخلية سبيلها لا لأن التزوج بها حرام شرعا، بل دفعاً لفساد يخشى منه، ودفع الفساد من المصالح التى تقصد بالطلب والتحقيق بلا ريب. وفى بيان هذا الفساد يذكر عمر فى كتابه لحذيفة: «إنى أخاف أن يقتدى بك المسلمين فيختاروا نساء أهل الذمة، وكفى بذلك فتنة لنساء المسلمين»[2].

وهنا، نذكر أن فى عدم منع مثل هذا الزواج ضرراً أكبر من ذلك متى وقع فى ظروف خاصة ولأناس مخصوصين — نريد أن نقول إن زواج الشباب المثقف فى البلاد التى ابتليت باستعمار فرنسا من فرنسيات، يضر بقضية الوطن ضرراً كبيراً إذ يجد هؤلاء الشبان من زوجاتهم الفرنسيات تعويضاً كبيراً لهم عما يجب عليهم من جهاد المستعمرين.

وكذلك الحال فى البلاد التى يكون فيها المسلمون أقلية بين غير المسلمين، وفى هذا أتذكر أنى استحسنت منذ سنين، ما عرفته من أحد تلاميذنا بكلية أصول الدين بالأزهر، وهو أن مفتى بولونيا أفتى بتحريم زواج المسلمين هناك من غير المسلمات، خشية أن يضيع المسلمون بين الكثرة الكاثرة هناك من غير المسلمين.

---

(١) فى شرحه لموطأ مالك ج ٥ : ١٨.

(٢) راجع أحكام القرآن للجصاص، ج ٢ : ٣٩٧؛ كتاب الآثار للإمام محمد بن الحسن الشيبانى طبع الهند، ص ٧٠.

وبعد ! إن هذه الأمثلة وسواها كثير ، من نحوها أفتى فيه الفقهاء بجوازه ، استحسانا ، من المعاملات ، ترينا أن الحكم الشرعي يتبع العلة والمصلحة دائما ، وأن من الواجب علينا في هذا الزمن أن نعنى أتم عناية بالاجتهاد من هذا الباب على الأقل وحينئذ يكتسب الفقه الإسلامي حياة وقوة فقدهما منذ سد باب الاجتهاد ، وحينئذ يستطيع هذا الفقه أن يعيش مع الزمن ويلبي حاجات كل عصر .

على أننا نرى واجباً أن نتقدم أخيراً بهاتين الملاحظتين :

الأولى : أنه ليس في شيء من ذلك كله نسخ لحكم مثبت بنص من الكتاب أو السنة ، وإنما هو فهم لهذه النصوص وتفهم لعلل الأحكام التي جاءت بها وللمصالح التي كانت تهدف لتحقيقها ، فالنص الذي جاء به الحكم يبقى قائماً للأرب ويجب العمل به متى كان محققاً للمصلحة التي قصدها الشارع . فنهى الرسول ﷺ عن التسعير مثلا ، كان لعدم وجود ما يقتضي التسعير في زمنه اقتضاء لازماً كما نحس هذه الأيام ، ولو كانت الحاجة الملحة تدعو للتسعير في زمنه لقال به حتما .

الثانية : لا يمكن أن نقول بأن الأحكام الشرعية كلها قابلة للتغير تبعاً للمصلحة ، فهناك منها العدد الأكبر الذي لا يتغير بحال ؛ مثل حرمة الربا ، وشرب الخمر ، والزنا ، إلى غيرها من الأحكام التي لا تتغير بحال إلى آخر الدهر . وإنما الكلام هو في طائفة من الأحكام الفقهية التي نرى الفقهاء يذهبون إليها في أزمان خاصة لمناسبتها حينذاك ، ثم لا تكون محققة للمصلحة التي يصح اعتبارها شرعاً في أزمان أخرى ، وذلك ككثير من المعاملات التي أجازها الفقهاء استحساناً في عصور مختلفة ، ومن قال إن كل الأحكام الفقهية هي شرائع أبدية فقد أعظم على الله الفرية [1] !

هذا ، ونسأل الله التوفيق والسداد ، ونستغفره مما قد يكون الصواب جانبنا فيه .

دكتور

محمد يوسف موسى

أستاذ الشريعة بكلية الحقوق ـ جامعة فؤاد

---

(١) ومن العجب أن جمهرة أئمة الفقه أصحاب المذاهب يجعلون ما يسمى « بالمصالح المرسلة » أصلا من أصول الفقه وأدلته ، ثم لا نحاول نحن هذه الأيام الانتفاع بهذا الأصل وتطبيقه مع الحاجة لذلك حاجة ماسة واضحة !



من صفات القائد

حاضر العالم الإسلامى ـ نهضاته ـ قادته ـ القيادة المثلى ـ القائد الأعلى ـ صفاته ـ الدعوة إلى التخلق بأخلاقه ـ الجود والشجاعة ـ مصدرهما ـ أثرهما فى بناء المجتمع .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناس ، وكان أجودَ الناس ، وكان أشجع الناس ؛ ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة ! فانطلق الناس قبل الصوت ! فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعا وقد سبقهم إلى الصوت ، وهو على فرس لأبى طلحة عُرْى ، فى عنقه السيف وهو يقول : لم تُراعوا لم تُراعوا . قال : وجدناه بحرا ، أو إنه لبحْر . قال : وكان فرسا يبطأ . رواه الشيخان ، واللفظ لمسلم .

• • •

فى حاضر العالم الإسلامى نهضات إصلاحية متعددة النواحى : فنها التشريعى ، ومنها التهذيبى ، ومنها الاقتصادى ، ومنها التوجيهى ، إلى غير أولئك مما يكمل بعضه بعضا ، ويشد بعضه أزر بعض ، ويتعاون فى جملته وتفصيله على البعث والتحرير ، والإنشاء والتعمير ، أو حينا تحاول إحسان الظن ـ على إعادة مجد الإسلام وإحياء فضائله الأولى ـ والأعمال بالنيات ، ولكل امرىء ما نوى .

لا جرم أن لكل نهضة من هذه النهضات قائدا مسئولا عنها . وعن مدى إخلاصه وإصلاحه فيها ، ثم عن مدى توجهه وتوجيهه إلى الخير حتى ينجزه فى أقرب زمن مستطاع ، من أقرب طريق مشروع ، فكم من مشروعات نافعة أماتها البطء فيها ، أو الحقد الدفين على مبتكريها ، أو كثرة الخلاف والتعقيد فى طرائق إنقاذها !!

وعلى قدر المهمة الملقاة على عاتق القائد مسئوليته ، وعلى حسبها يكون حسابه أمام الله والتاريخ ! .

ولما كان ، من الحقائق التى شاع العلم بها فى العالم الإسلامى بالعشرين السنة الأخيرة أن المسلمين إلى خير ولكن الضعف فى القيادة ، كما جاء فى الجزء السابق من هذه المجلة ، على لسان رئيس تحريرها الجليل - أحببنا أن نذكر قادتنا بشىء من صفات قائدهم الأعلى ، غير مدافعٍ ولا منازعٍ ، صلوات الله وسلامه عليه ، عسى أن يتخذوا منها نبراسا يضىء لهم طريق القيادة المثلى ، ويهديهم فى كل نهضة إصلاحية للتى هى أقوم .

* * *

وفى مقدمة هذه الصفات التى نذكّر بها قادتنا ، الجود ، والشجاعة وقد بلغ فيهما وفى غيرهما صلوات الله وسلامه عليه المثل الأعلى ، والغاية القصوى ، مما لا مطمع لأحد - كائنا من كان - أن يدانيه فيها ، بله أن يساويه .

فإذا كان صلوات الله عليه - بنعمة ربه - أحسن الناس ، فى كل صفة من صفات الخير ، وكل فضيلة من مكارم الأخلاق ، فذلك لأنه تعالى شأنه أدبه فأحسن تأديبه وهذبه فأكمل تهذيبه ، وآتاه مالم يؤت أحدا من خلقه ، وأثنى عليه بما هو أهله مالم يثن على أحد قبله ...

وإذا كان ﷺ أجود الناس ، فلذلك لأنه أوثق الناس بربه ، ولا ريب أن كرم العبد وإنفاقه على قدر ظنه بسيده ، وحسبك أنه ما سئل عن شىء قط فقال لا ، إن كان عنده أعطاه وإلا سكت ، أو قال لسائله : ما عندى شىء ولكن ابتع على ، فإذا جاءنا شىء قضيناه . وقد قال له عمر ذات مرة : ماكلفك الله ما لا تقدر عليه فرؤيت الكراهية فى وجهه ﷺ حتى إذا قال له رجل من الأنصار : أنفق يا رسول الله ولا تخش من ذى العرش إقلالا ، تبسم وعرف البشر فى وجهه ، وقال : بهذا أمرت .

وإذا كان ﷺ أشجع الناس كافة ، فلأنه أجود الناس كافة ، وذلك لأن الجود والشجاعة صفتان متحالفتان لا تكادان تفترقان ، وينبوعهما هو الثقة بالله تعالى والإيمان به .

وما من شجاع إلا وقد أحصيت عليه هفوة أوعدت عليه كبوة ، إلا سيد الشجعان صلى الله عليه وسلم ، فقد فرت الفرسان من حوله غير مرة وهو مقبل لا يبرح ، وثابت لا يدبر ولا يتزحزح . ومن آيات شجاعته ما رواه أنس رضي الله عنه في هذا الحديث من أن أهل المدينة اضطربوا وفزعوا ذات ليلة وظنوا أن عدوا أغار عليهم ، فأسرع أناس من شجعانهم نحو الصياح الذي سمعوا ، فما راعهم إلا أن يجدوا رسول الله ﷺ عائداً بعد أن استبرأ الخبر ، واستكشف الأمر واطمأن على المدينة وأهلها ثم طمأنهم وأزال مخافتهم .

ومن عجيب فروسيته وشجاعته أن يركب فرساً لأبي طلحة معروفاً بالبطء والعجز وسوء السير ، يمتطيه عاريا من السرج فيثبت عليه وهو متقلد سيفه في عنقه ، ثم ينقلب الفرس سريعاً ببركته ﷺ كأنه بحر .

وأبو طلحة هو زيد بن سهل الأنصاري الخزرجي ، زوج أم سليم والدة أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ وراوي هذا الحديث . كان من فضلاء الصحابة وشجعانهم وذوي الجود والكرم منهم ، وكان رامياً مشهوراً ، يجثو بين يدي رسول الله ﷺ في ميدان الحرب ويقول :

نفسي لنفسك الفداء ووجهي لوجهك الوقاء

ثم ينثر كنانته بين يديه . وكان يتطاول بصدره ليقي به رسول الله ﷺ ويقول : نحري دون نحرك .

ولا ريب أن أصحاب رسول الله ﷺ تخلقوا بخلقه وبلغوا من الشجاعة والكرم والفضل ، بمقدار حبهم له وإيمانهم به وذلك ميزان سليم مستقيم ، توزن به فضائل من بعدهم إلى يوم القيامة .

* * *

وبعد ، فلسنا بسبيل تفصيل جوده وشجاعته ﷺ ، وعظيم أثرهما في صادق الإيمان به من أمته ، فقد تكفلت بذلك المؤلفات الكثيرة في سيره وشمائله وإن لم يبلغ الغاية في شرح

مكارمه وفضائله . . ولكننا بسبيل الدعوة إلى التخلق بأخلاقه عامة ، وبهاتين الفضيلتين منها خاصة ، إن كنا جادين فى نهضاتنا ، صادقين فى عزماتنا ، واثقين بعون الله لنا على احتمال التبعات الجسام الملقاة على عواتقنا .

وأجدر الناس بقبول هذه الدعوة والاستجابة لها هم قادتنا وأولو الأمر منا ، إن كانوا يؤمنون بأنه صلوات الله وسلامه عليه هو قائدهم الأعلى ، وأنهم لن يحققوا لأممهم ما يرجون لها من العزة والسيادة ، إلا إذا كانوا تحت رايته ، مستظلين فى ظل هدايته .

• • •

وإذا ذكرنا الشجاعة فلا نعنى بها مجرد الشجاعة الحربية التى تفسر بأنها ثبات القدم عند مواقع القتال ، ومكافحة الأبطال ، وإنما نعنى بها الشجاعة فى أوسع معانيها وأبعد مراميها ، ولاسيما الشجاعة الأدبية التى تقصد إلى مناصرة الحق ، وإظهاره فى إخلاص وصدق ، دون مبالاة بذى جاه أو سلطان . ولن تؤتى هذه الشجاعة أكلها ، إلا إذا تقبلناها من أهلها ، وتجمناهم على المضى فيها ما كانوا إلى الخير داعين ، وإلى الحق قاصدين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم .

وإذا ذكرنا الكرم فلا نعنى به ما ينفق من أموال طائلة فى مظاهر الفخر والأبهة ، فإن ذلك إسراف وتبذير ، عظيم الضرر وخيم العاقبة ! وإنما نعنى به الأريحية للإنفاق فى سبيل الله وتحرير الوطن وإحياء موات الأمة ، وإزاحة ما ضرب عليها من الذلة والمسكنة .

إن هذه المثل العليا التى تدعوا إليها القادة والمشرفين على نهضاتنا الحاضرة ، وفى مقدمتها الشجاعة والكرم والتضحية والبذل ليست من أمهات الفضائل وحسب ، ولا من صفات القائد المثالى وكفى ، ولكنها إلى ذلك كله من الدعائم الأساسية الأولى ، لتحرير الشعب ، وإنقاذ الوطن ، وبناء المجد .

طه محمد الساكت

الاستعمار يقرب من نهايته

حديث لفضيلة الأستاذ الأكبر

عاض الغرب معركة استعماره الشرق فى القرنين الماضيين مستعيناً بما كان يسود ظروف تلك المعركة من متناقضات . فالغرب كان قد أخذ يستنير بمعارفه المادية ويقوى بآلاته الصناعية وأنظمته المبتكرة ، وأسلحته الجديدة غير أن لجج الظلام كانت قد بدأت تغمره بنزعات الإلحاد والتحاسد والجشع والبغى والفراغ السياسى من الدافع الأعلى ، كما يقول المؤرخ ولز ، بينما الشرق كان قد أخذ ينحط بضعف حكوماته وتخلفها وتقاطعها ، وإن كانت شعوبه لم تزل يومئذ ممتازة ببقية كريمة من الأخلاق النبيلة كالقناعة والتراحم والأمانة والثقة حتى لقد شهد المسيو جومار أحد مهندسى الحملة الفرنسية على مصر بأنه رأى بعينه الغلال وبضائع التجار تتكدس على ساحل النيل فى فرضة بولاق التى كان فيها جمرك القاهرة ، فلم يكن يمسها أحد بسوء ليلا ولا نهارا مع أنها متروكة فى العراء بلا حراسة ولا خفراء .

فالاستعمار كان فى القرنين الماضيين بغيا من القوة المادية على شعوب ذات فضائل وأخلاق منتهزاً فرصة الضعف الذى دب إلى حكومات تلك الشعوب الطيبة الأعراق الآمنة فى أوطانها السعيدة بقناعتها وأمانتها وتراحمها .

وكان الغرب يمن على الشرق فى استعماره بأنه حمل إليه الحضارة والنظام والمعارف ، وهو لم يحمل إليه من الحضارة إلا قشورها ، ومن النظام إلا ما يجعل الشرق آلة فى يد الغرب ومن المعارف إلا ما يستعمر به القلوب والعقول بعد استعمار الأرض وخيراتها ، وبذلك كان الغنم فى كل هذه الأمور للمستعمر ، وغرمها على الشعوب التى رزئت باستعماره بلادها واستغلاله كنوزها وخيراتها .

هذه هى قصة استعمار الغرب للشرق فى سيرة هولندا مع الأندونيسيين ، وفى سيرة انجلترا مع الهنود وسكان ملايو والمصريين والسودانيين ، وفى سيرة فرنسا مع الجزائريين والتونسيين والمراكشيين .

إن استيلاء فرنسا على الجزائر مثال من أمثلة التاريخ على الظروف المتناقضة التي نشأ عنها الاستعمار . فالشعب الجزائري كان يومئذ من أقوى شعوب الأرض بأخلاقه وحيويته بينما حكومة الجزائر التي كانت تتولى أموره كانت من أفسد الحكومات في الأرض وأضعفها وأحمقها ، والمستعمر كان يستعد قبل ذلك طويلا للبغي على الجزائر ويتخذ لذلك مختلف الذرائع التي تنافي الدافع الأعلى .

فلما وقعت الواقعة خارت قوى القائمين بالحكم على الجزائر ، وتخلفت الحكومة العثمانية التي كانوا تابعين لها من أن تؤدي واجبها في هـــذا الموقف ، وهنا تجلت حيوية الشعب الجزائري وأخلاقه فنظم صفوف جهاده بقيادة الأمير عبد القادر وظل يجاهد بطولة منقطعة النظير مدة ثمانية عشر عاما ، ومن ذلك الحين إلى الآن والحوادث تبرهن على ضعف المستعمر الأدبي وفراغه السياسي من الدافع الأعلى . وعلى قوة الشعب الجزائري الأدبية وحيويته في مقاومة مالا يستطيع مقاومته إلا أعظم الأمم بطولة من صنوف البغي الاستعماري الذي لا يجنح إليه إلا أضعف الدول في أخلاقها ومبادئها الأدبية ، وقس على حيوية الجزائر حيوية جارتها في الشرق والغرب ، تونس والمغرب الأقصى ، ولو أن مؤرخا من الحكماء أمثال فولتير وجيبون ولو أراد أن يقارن بين قوة فرنسا وضعفها في بداية استعمارها لشمال أفريقيا ونهايته وبين قوة المغاربة وضعفهم بين تلك البداية والنهاية لحكم مطمئناً بأن فرنسا اليوم تعاني في شمال أفريقيا أعراض الاضمحلال بالنسبة إلى ما كانت عليه في سنة ١٨٣٠ . بينما تخايا بغيها من المغاربة لم يزدهم البغي إلا قوة وحيوية وقد استيقظوا من غفلتهم وتخلصوا من ضعف حكوماتهم وأصبحوا من نتائج الفوز والفلاح قاب قوسين أو أدنى .

وما يقال عن فرنسا في شمال أفريقيا يقال مثله عن الهند التي شاهدنا بأعيننا وشاهد التاريخ معنا عواقب الاستعمار البريطاني فيها واضطراره إلى الانسحاب من تلك الربوع وازدهار الحيوية في باكستان والهند حتى صارت منهما دولتان من كبريات الدول ، وشاهدنا كذلك عاقبة الاستعمار الهولندي في أندونيسيا بعد أن رسخت أقدامه فيها ٣٠٠ سنة فاضطر أخيراً إلى التسليم بالأمر الواقع .

لقد شب عمرو عن الطوق ، بل لقد استيقظ العملاق من نومه فأخذ يبحث عن مكانه اللائق بين الأمم ، وإن الحوادث المتكررة برهنت على أن اعتماد الاستعمار على قوته المادية

لا تجد به نفعاً وأنه إنما أتى من ناحية ضعفه الأدبي لأنه قائم على البغى ، وآخر الشواهد على ذلك هذه المؤامرة الاستعمارية على إخراج نحو تسعمائة ألف فلسطيني من وطنهم الذى هم أصحابه منذ دهور ، وتشريدهم فى العراء لإحلال أجانب غرباء فى أرضهم وأملاكهم الشرعية ومثل هذه المؤامرة لا يمكن أن يرضى بالاشتراك فيها إلا الذين يعيشون فى فراغ سياسى من الدافع الأعلى كما يقول المؤرخ ويلز والاستعمار الذى يعيش فى هذا الفراغ الخزى لا شك أنه اليوم أضعف مما كان فى بداية بغيه قبل مائة سنة ، أما فريسة الاستعمار التى وقعت فيما مضى بين يديه بسبب ضعف حكوماتها المنهافتة وأخذت تفق من الضعف الذى جرتها إليها تلك الحكومات ، وقد نهض فيها رجال يحسنون التعاون مع شعوبهم ، ولا شك أن يقف الجميع معاً أمام الاستعمار الضعيف موقف المؤمن بحقه الحازم فى دفاعه عنه المصمم على التخلص من هذا العدو الذى أنهكنا جشعه .

وإنى أقدم لأمتى النصيحة مخلصاً بأن أقوى أسلحتها لمقاومة الاستعمار إنما هو الأخلاق والدين هو الذى يهدى إلى مكارم الأخلاق وإذا كان على ولاة الأمور أن يفكروا فى توفير أسباب القوة المادية وتنظيم استعمالها ، فإن على كل فرد من أفراد الأمة أن يتسلح بالأخلاق وأن يتعامل بها مع أفراد أمته وأن يعلم أن أعظم رسالات الله وأكملها إنما جاءت للتعامل بمكارم الأخلاق .

****

الحق يؤخذ ولا يعطى

كتب برناردشو إلى مستر بانت يقول : « أخشى أننا سنلاقى أوقاتاً عصيبة فى الهند . ولكن على الهنود وعلى المصريين أيضاً أن يعملوا على تحقيق حرياتهم ، فليس فى وسعنا أن نطلق سراحهم ما لم تجابهنا الهزيمة ويتداعى صرح الامبراطورية فى جهات أخرى » .

وقد تحققت فراسة برناردشو ، وتداعى الصرح ، وخرج الاستعمار من الهند وسيخرج من كل مكان .

الأردن والبلقاء في تاريخ الإسلام

كنت فى زيارة أحد كبار شيوخ العلم بمصر ، فوجدت عنده جماعة من زعماء العرب ، ومن بينهم عربى ذو مركز سياسى ممتاز ، وقد أخذ الحضور يتحدثون عن أحوال بلاد المسلمين والعرب وقضاياهم مع الاستعمار ووجوب تعاونهم على تحرير أوطانهم وديارهم من سيطرة الأجانب واستعمارهم ، وجرى الحديث عن شرق الأردن ، وإذا بالسياسى العربى يقول : بأن اسم « الأردن » أو « شرق الأردن » لم يكن معروفا عند العرب من قبل ، وإنما ابتكره مهندس أمريكى واستحسنته السلطة الإنجليزية ، ومن ثم صار إطلاقه على تلك الإمارة أو المملكة التى عرفت باسم : « شرق الأردن » .

فقلت له : إن اسم إمارة الأردن مسجل فى تاريخ الإسلام ومعروف لدى العلماء من قبل ألف سنة ، وليس هو اختراعا أمريكيا ولا ابتكاراً انجليزيا . فعجب من ذلك وقال : صدقونى إذا قلت لكم إنى لم أسمع بهذا قبل الآن .

من أجل ذلك وبيانا للحقيقة والواقع وخدمة لتاريخ الإسلام وتاريخ فتوحاته فى بلاد الشام التى منها الأردن والبلقاء كتبت هذه المقالة :

إن البلاد التى يطلق عليها فى هذا الزمان اسم « شرق الأردن » هى أراضى ومدن وقرى تجمعها كورة البلقاء من بلاد الشام ، شرق بيت المقدس وعاصمتها عمان ، ومن أشهر مدنها الكرك والصلت وإربد ومعان وجرش والطفيلة والشوبك وغيرها ، وكلها واقعة على الجانب الشرقى لنهر الأردن كما تقع فلسطين على جانبه الغربى .

ولقد ورد اسم الأردن والبلقاء فى الحديث النبوى الشريف وفى كتب التاريخ والسير وفتوح البلدان ومعاجمها ، وفى تلك الجهات كانت (واقعة مؤتة) التى استشهد فيها الأمراء جعفر بن أبى طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ، رضى الله عنهم ، وقبورهم موجودة إلى هذا الزمان فى قرية تسمى (المزار) قرب الكرك ، وإلى تلك الجهات كان بعث جيش أسامة بن زيد رضى الله عنه فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه بعد انتقال النبى ﷺ

إلى الرفيق الأعلى ، وتدل النصوص الواردة فى تاريخ الإسلام على أن كورة الأردن وجند الأردن كانت تطلق منذ فتحها المسلمون على منطقة من الأراضى والمدن والقرى واقعة فى جهات الغور الشامى وما حولها أكثرها على الجانب الغربى لنهر الأردن وبعضها على جانبه الشرقى ، وأيام الحروب الصليبية فى عهد صلاح الدين حدثت فى أراضى الأردن الشرقية عدة معارك بين جيوش المسلمين والصليبيين الذين اتخذوا من إمارتهم الصليبية فى الكرك وما حولها قاعدة لمهاجمة الحجاز وشواطئ البحر الأحمر وأراضى سيناء والعقبة ، حتى هزمهم جيش مصر وأسطولها بقيادة حسام الدين لؤلؤ ، فأباد جندهم وغرق أسطولهم .

الأردن والبلقاء فى الحديث الشريف .

روى الترمذى والحاكم عن ثوبان رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال « حوضى من عدن إلى عمان البلقاء » الحديث وأخرجه السيوطى فى الجامع الصغير ورمز له بعلامة الصحيح : وأخرج القاضى مجير الدين المقدسى الحنبلى فى (الأنس الجليل) ج ١ ص ٢٠٧ ،

عن ربيعة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ « لاتزالون تقاتلون الكفار حتى تقاتل بقيتكم جنود الدجال ببطن الأردن ، بينكم النهر ، أنتم غربيه وهم شرقيه » قال ربيعة فقال المحدث من أصحاب رسول الله ﷺ : « فما سمعت بنهر الأردن إلا من رسول الله ﷺ » .

غزوة مؤتة فى البلقاء سنة ٨

قال أبو الفتح بن سيد الناس (عيون الأثر فى المغازى والسير) ج ٢ ص ١٥٣ :

غزوة مؤتة وهى بأدنى البلقاء من أرض الشام فى جمادى الأولى سنة ثمان وكان سببها أن رسول ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدى بكتابه إلى الشام إلى ملك الروم فعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى فأوثقه ثم قدمه فضرب عنقه صبراً ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره ، فاشتد ذلك عليه حين بلغه الخبر عنه ، فبعث رسول الله ﷺ بعثة إلى مؤتة وأمر عليهم زيد بن حارثة وقال : « إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس ، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس » ، فتجهز الناس ثم تهيئوا للخروج وهم ثلاثة آلاف ، ثم مضوا حتى نزلوا معان من أراضى الشام ، فبلغهم أن هرقل قد نزل مآب فى أراضى البلقاء فى مائة ألف من الروم وانضم إليهم من لخم والقين وبهراء وبلى مائة ألف منهم عليهم رجل من بلى يقال له مالك بن رافلة . فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان

ليلتين ينظرون في أمرهم وقالوا : نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا ، فإما يمدنا بالرجال وإما يأمرنا بأمره فنمضي له ، فشجع الناس عبد الله بن رواحة وقال : « والله يا قوم إن الذى تكرهون للتى خرجتم لها تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلقوا ، فإنما هى إحدى الحسنيين : إما ظهور ، نصر ، وإما شهادة » .

فمضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب « المتنصرة» بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف ثم دنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها «مؤتة» فتعبأ المسلمون ثم التقى الناس فاقتتلوا ، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى استشهد ، فأخذ الراية جعفر فقاتل بها حتى قطعت يمينه فأخذها بيساره فقطعت يساره فاحتضن الراية وقاتل حتى قتل رحمه الله وسنه ثلاث وثلاثون سنة ، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة وقاتل حتى قتل ، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد ، فلما أخذ الراية دافع القوم وحاشى بهم ثم انحاز وانحيز عنه حتى انصرف بالناس .

بعث أسامة بن زيد على رأس جيش إلى البلقاء وفلسطين :

فى المحرم من سنة ١١ جهز رسول الله ﷺ جيشا إلى الشام وأمر عليهم أسامة بن زيد ابن حارثة . وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء ، فى شرق الأردن ، والداروم من أرض فلسطين ، وفى رواية أخرى للطبرى أن النبى صلى الله عليه وسلم أمره أن يوطئهم من آبل الزيت من مشارف الشام الأرض بالأردن ، وكان فى هذا الجيش المهاجرون الأولون ومنهم عمر بن الخطاب فقد كان جنديا فى جيش أسامة وبينما الجيش فى الخندق متأهبا للرحيل إلى البلقاء والداروم اشتد المرض برسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أن قبضه الله تعالى إلى الرفيق الأعلى إلى ما أراد به عز وجل من رحمة وكرامة ثم اختار المسلمون أبا بكر رضى الله عنه خليفة لرسول الله ، وبحث كبار الصحابة ما ينبغى فى شأن بعث أسامة فاقترحوا على عمر أن يراجع أبا بكر ليأمر بعودة جيش أسامة ، وإذا أصر على بعثه أن يختار بدله قائدا من كبار الصحابة فإن أسامة لم يكن يتجاوز عمره حينئذ العشرين سنة ، فذهب عمر إلى أبى بكر وحدثه فى ذلك فاشتد غضبه وقال « والذى نفس أبى بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفنى لانفذت بعث أسامة كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو لم يبق فى القرى غيرى لانفذته » .

ولما قال له عمر : إن الأنصار أمروني أن أبلغك أن تولي رجلا أقدم سنا من أسامة ، فوثب أبو بكر وكان جالسا فأخذ بلحية عمر ثم قال ، ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه ! » ، ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم فأشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامة راكب وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر ، فقال له أسامة : يا خليفة رسول الله والله لتركبن أو لأنزلن ، فقال : والله لا تنزل ولا أركب ، وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة حتى انتهى ، ثم قال لأسامة ، إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل . فأذن له . ثم وصاهم أبو بكر وصيته التي تعتبر دستوراً مثالياً لما تضمن الإسلام من رحمة وإنسانية وعدل في معاملة الأعداء . قال أبو بكر : « يا أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بعيراً إلا لمأكل ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفقوهم بالسيف خفقا اندفعوا باسم الله » .

ثم قال لأسامة : اصنع ما أمرك به نبي الله ﷺ ، ابدأ ببلاد قضاعة ثم ائت آبل « بالأردن » ، فمضى أسامة إلى ما أمره رسول الله ﷺ ، وبث الخيول في قبائل قضاعة والغارة على آبل فسلم وغنم ، وكان فراغه في أربعين يوما سوى مقامه ومنقلبه راجعاً . (الطبري ج ٣ ص ١٣،٢١٢) .

الأردن والبلقاء في معاجم البلدان

قال ياقوت في (معجم البلدان ج ٢ ص ١٧٧) : « البلقاء من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى ، قصبتها عمان ، وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة ، وبجودة حنطتها يضرب المثل » .

وقال النووي في (تهذيب الأسماء واللغات) ج ٢ ص ١٨ قسم اللغات :

« الأردن الكورة المعروفة من أرض الشام بقرب بيت المقدس ، وهي بضم الهمزة وإسكان الراء وضم الدال وتشديد النون . قال أهل العلم : إنما سمي بذلك من قولهم للنعاس الثقيل أردن » .

نهر الأردن :

وقال ياقوت فى (معجم البلدان) : « الأردن بالضم ثم السكون وضم الدال المهملة وتشديد النون . يقول اللغويون أن الأردن النعاس ، وهى أحد أجناد الشام الخمسة ، وهو كورة واسعة منها الغور وطبريا وصور وعكا وما بين ذلك .

ثم قال : والأردن يأخذ من بحيرة طبرية ويمر نحو الجنوب فى وسط الغور فيسقى ضياع الغور وأكثر مستغلهم السكر ومنها يحمل إلى سائر بلاد الشرق ، وعليه قرى كثيرة منها بيسان [1] وقراوة وأريحا والعوجاء وغير ذلك ، وعلى هذا النهر قرب طبرية قنطرة عظيمة ذات طاقات كثيرة تزيد على العشرين ويجتمع هذا النهر ونهر اليرموك فيصيران نهراً واحداً فيسقى ضياع الغور وضياع البثنية [2] حتى يصب فى البحيرة المنتنة « البحر الميت » فى طرف الغور الغربى » .

عدد كور الأردن كما ذكرها ياقوت فى معجمه :

ثم قال ياقوت فى معجمه . ج ١ ص ١٧٦ — ١٧٧ : وللأردن عدة كور منها كورة طبرية وكورة بيسان وكورة بيت راس وكورة جـــدر وكورة صفورية وكورة عكا وغير ذلك .

وقال البلاذرى فى فتوح البلدان ص ١٢٣ وياقوت فى معجمه فى ص ١٨٧ . « وفتح شرحبيل جميع مدن الأردن وحصونها ، ففتح بيسان وسوسية وأفيق وجرش وبيت راس وقدس والجولان وغلب على سواد الأردن وجميع أرضها ، ومما ذكره ياقوت والبلاذرى يتضح أن رقعة إمارة الأردن فى زمن الفتح الإسلامى كانت تشتمل على بلاد بعضها واقع فى أراضى سورية الآن مثل الجولان وبعضها فى أراضى لبنان مثل صور وبعضها من أراضى فلسطين مثل عكا وبيسان وصفورية ، وفى روايتيهما أن شرحبيل رضى الله عنه فتح مدينة جرش من الأردن ، وجرش واقعة فى شرق الأردن وهى مشهورة بآثارها القديمة .

---

(١) بيسان مدينة تاريخية فى شمال فلسطين ، وإليها ينسب القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى كبير وزراء صلاح الدين الأيوبى وبالقرب من بيسان كانت معركة فحل بكسر الفاء وسكون الحاء فى سنة ١٣ هجرية التى انتصر فيها جيش المسلمين على جيش الروم فأصيب منهم نحو ثمانين ألفا لم يفلت منهم إلا الشريد .

(٢) قال ياقوت ج ٢ ص٦ : البثنية هو اسم ناحية من نواحى دمشق وقيل قرية بين دمشق وأذرعات

سواحل الأردن ومصانع المراكب الحربية في عكا وصور :

قال البلاذري في فتوح البلدان ص ١٢٣ «نقل معاوية قوما من فرس بعلبك وحمص وإنطاكية إلى سواحل الأردن صور وعكا وغيرها سنة اثنين وأربعين» : ثم قال البلاذري في ص ١٢٤ ولما كانت سنة تسع وأربعين خرجت الروم إلى السواحل وكانت الصناعة «صناعة المراكب الحربية» بمصر فقط فأمر معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بجمع الصناع والنجارين وبثهم في السواحل وكانت الصناعة في الأردن بعكا ، وقال الواقدي لم تزل المراكب بعكا حتى ولي بنو مروان فنقلوها إلى صور فهي بصور إلى اليوم وأمر أمير المؤمنين المتوكل على الله في سنة ٢٤٧ بترتيب المراكب في عكا وجميع السواحل وشحنها بالمقاتلة وقال ياقوت ج ص ١٨٧ ولم تزل الصناعة في الأردن بعكا إلى أن نقلها هشام بن عبد الملك إلى صور وبقيت على ذلك إلى صدر مديد من أيام بني العباس حتى اختلف باختلاف المتغلبين على الثغور الشامية . وقال المتنبي يمدح بدر بن عمار وكان قد ولي على ثغور الأردن والساحل من قبل أبي بكر بن رائق :

تهي بصور أم نهنها بكا وقل الذي صور وأنت له لكا

أمير الأردن وفلسطين في عهد الدولة الأموية .

وقال ياقوت في ج ١ ص ١٨٨ وقد نسبت العرب إلى الأردن حسان بن مالك الكلبي لأنه كان واليا على الأردن وفلسطين ، وبه مهد لمروان بن الحكم أمره وهزم الزبيرية (أتباع عبد الله بن الزبير) وقتل الضحاك بن قيس الفهري في يوم مرج راهط وكانت ابنته ميسون بنت حسان أم يزيد بن معاوية وإياه عنى عدي بن الرقاع بقوله .

لولا الاله وأهل الأردن اقتسمت نار الجماعة يوم المرج نيرانها

وإياه عنى كثير بقوله :

إذا قيل خيل الله يوما ألا اركبي رضيت بكف الأردني انسحالها

ونسب الى الأردن جماعة من العلماء والقدة ذكر ياقوت أسماء طائفة منهم .

وقد كان للأردن موقف عظيم في الحروب الصليبية سنفرد له مقالا مستقلا .

محمد صبري عابدين
من علماء الأزهر



شهداء بدر

استشهد من المسلمين فى هذه الوقعة المباركة أربعة عشر مجاهدا ، ستة من المهاجرين ، وثمانية من الأنصار . فالأولون هم : عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، ومهجع مولى عمر بن الخطاب ، وعمير بن أبي وقاص ، وعاقل بن بكير الليثي ، وصفوان بن بيضاء الفهرى وذو الشمالين عمير ، وقيل الحارث ، وقيل عمرو ، بن عبد عمرو بن نضلة الخزاعى . وأما الأنصار فهم : عوف بن عفراء ، وشقيقه معوذ بن عفراء ، وحارثة بن سراقة ، ويزيد بن قيس بن مالك ، ورافع بن المعلى ، وعمير بن الحمام بن الجموح ، وسعد بن خيثمة ، ومبشر بن عبد المنذر ، رضى الله عنهم أجمعين :

طف بالمصارع واستمع نجواها ... والثم بأفياء(١) الجنان ثراها

ضاع الشذى القدسى فى جنباتها ... فانشق وصف للمؤمنين شذاها

حلل(٢) يروع جلالها ومنازل ... من نور رب العالمين سناها

ضمت حماة الحق ، ما عرف امرؤ ... غزاً لهم من دونه أوجاها

الطالعين به على أعدائه ... موتاً ، إذا نشروا الجنود طواها

الخائضين من الخطوب غمارها ... المصطلين من الحروب لظاها

الباذلين لدى الفداء نفوسهم ... يبغون عند إلههم عقباها

ما آثروا فى الأرض إلا دينه ... ديناً ، ولا عبدوا سواه إلها

---

(١) الافياء الظلال (٢) حلل :

سلكوا السبيل مسددين تضيئه … آى (المفضل [١]) يبتغون هداها
قوم هم اتخذوا الشهادة بغية … لا يبتغون لدى الجهاد سواها
هم فى حمى الايمان أول صخرة … فسل الصخور ، أما عرفن قواها ؟
حملت جبال الحق فى دنيا الهدى … بيضا شواهق ، ما تنال ذراها
تؤتى الممالك والشعوب حياتها … وتقيم من أمجادها وعلاها
ذهبت ترفرف فى مسابح عزها … ومضت يفوت مدى النسور مداها
تجرى الرياح الهوج [٢] طوع معنانها … وتخافها ، فتحيد عن مجراها
طاف الغمام ، مهللا بظلالها … فسقته من بركاتها وسقاها

* * *

(شهداء بدر) أنتم المثل الذى … بلغ المدى بعد المدى فتناها
علمتم الناس الكفاح ، فأقبلوا … ملء الحوادث ، يدفعون أذاها
أما الفداء ، فقد قضيتم حقه … وجعلتموه شريعة ترضاها
من رام تفسير الحياة لقومه … فدم الشهيد يبين عن معناها
لولا الدماء تراق لم تر أمة … بلغت من المجد العريض مناها
أدنى الرجال من الممالك من إذا … عرضت منايا الخالدين أباها
وأجل من رفع الممالك مظهرا … بارى الموج السماح بناها
كم أمة لم توق عادية الردى … لولا الذى اقتحم الردى فوقاها
تسمو الشعوب بكل حر ماجد … وجبت عليه حقوقها فقضاها
ما أكرم الأبطال يوم تفيأوا … ظلال المنايا ، يبتغون جناها
راحوا من الدم فى مطارف [٣] أشرقت حمر الجراح بها ، فكن حلاها
لو أنهم نشروا رأيت كلومهم … تدمى ، كأنك فى القتال تراها [٤]
ليسوا وإن وردوا المنية للألى … غمر البلى ورادهم أشباها

---

(١) القرآن الكريم . (٢) الشديدة التى لا تستوى فى هبوبها جمع هوجاء (٣) جمع مطرف وهو الرداء المعلم (٤) جاء فى الأثر الشريف . أنا شهيد على هؤلاء الشهداء ، وما من جريح يجرح فى الله إلا بعثه الله يوم القيامة يدمى جرحه . اللون لون الدم ، والريح ريح المسك . وأصيب عبد الله بن عمرو والد جابر رضى الله عنهما فى غزوة أحد بجرح فى وجهه فمات ويده على جرحه . فأميطت يده عن وجهه فانبعث الدم ، ثم ردت إلى مكانها فسكن

م عند ربك يرزقون [١] لحيهم — وصف الحياة لأنفس تهواها
الله باركها (ببدر) وقعـــة — كل الفتوح الغر من جدواها
منعت (ذمار الحق) حين أتاها — وحمت (لواء الله) حين رعاها
بخل الزمان ، فكنت من شعرائها — لو شاء ربي كنت من قتلاها [٢]
كم دولة للشرك زلزل عرشها — بدماء (بدر) واستبيح حماها
في دولة المسلمين يشوقهم — أيامها ، وتهزهم ذكراها
يا ويح الأمم الضعاف : انتفض — دنيا الشعوب ، وما انقضت بلواها ؟
أم هوالك ما لمست جراحها — إلا بكت ، وبكيت من جراها
لم أدر إذ ذهب الزمان بريحها — ماذا من القدر المتاح دهاها ؟
إن الذي خلق السهام لمثلها — جمع المصائب كلها فرماها



الجهاد بالنفس والمال

قال رسول الله ﷺ - « لا يجتمع غبار في سبيل ودخان جهنم في منخري رجل مسلم ، وإيمان في قلب رجل مسلم » .

= ومن الروايات للمأثور في هذا الباب أنه حين أراد معاوية رضي الله عنه اتخاذ مجرى الماء في خلافته تقع مدافن شهداء أحد في طريقه أمر الناس بنقل موتاهم ، فأصابت المسحاة (الجرفة ونحوها تكون من الحديد) قدم حمزة رضي الله عنه فانبعث منها الدم .

(١) (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) .

(٢) المجلة - وإذا بخل الزمان عليك وعلينا بهذه الأمنية العليا أيها الشاعر الاسلامي ، فإن الله عز وجل أكرم الأكرمين ، وهو يثيب بالنيات ، وكما أكرمك بأن جعل شعرك من سلاح الاسلام ، فسيكرمك على نيتك بواسع فضله وكرمه .

المرأة في ظلال الإسلام

أعلت الشريعة الإسلامية من قدر المرأة ما لم تعله شريعة ولا قانون وضعى ورفعت مكانها وأحلتها المحل اللائق بها وساوتها بالرجل إلا فيما تأباه طبيعتها وتقصر عنه فطرتها، فتعبدها بالتكاليف وشرفها بالخطاب كما تعبد الرجل وشرفه، ووعدها المثوبة والحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة، قال تعالى. «من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون»، وقال ﷺ. «إنما النساء شقائق الرجال» وندبها إلى طلب العلم ولم يقصرها على لون منه دون لون فقال: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»، وكثيراً ما جلست إليه متعلمة وكان يتعهدها بالحكمة والموعظة الحسنة وطلبت إليه أن يجعل لها يوما يعلمها فيه فأجابها إلى ذلك وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال النساء للنبى غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوما من نفسك. ووعدهن يوما لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن وعن عائشة رضى الله عنها «نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين»، وفرض لها الإسلام نصيباً فى الميراث، وأباح لها أن تملك ما شاءت من المال وتستثمره بالطرق المشروعة، وجعل لها أن تدافع عن الأمة فترافق الجيش مداوية مواسية مطعمة ساقية. وعن أم عطية رضى الله عنها: «غزوت مع رسول الله سبع غزوات، وكنت أخلفهم على الرجال فى رحالهم وأصنع لهم الطعام وأداوى الجرحى وأقوم على المرضى»، كما جعل لها أن تؤمن المستأمن وتجير الخائف. وقد أجارت أم هانىء رضى الله عنها أحد أحمائها فقال رسول الله: «أجرنا من أجرت». هذا إلى حقوق كثيرة منحها إياها الإسلام، ولما تزل محرومة من بعضها فى هذا العصر وفى أرقى الأمم، بينما كانت تنكر عليها بعض الأمم السابقة إنسانيتها فضلا عن حريتها وحقوقها. وكانت تضعها بعض الأمم موضع الماشية فتورث من زوجها مع المتاع والبهائم.

وكان بعض العرب يستخزى لولادتها. وفى القرآن الكريم: «وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون»، ومن أهم ما عنى به الاسلام من أمور المرأة سلامة عرضها وحسن سمعتها تكريما لها وتقديرا لخطر ذلك فى بناء الأسرة وكيان الأمة وإذا

استقام شأن المرأة استقام شأن الأمة ، والمرأة منشئة الأجيال وصانعة الرجال ، وبتماسكها في خلقها وحزمها في تربية أبنائها تماسك الأمة ويستمكن بنيانها ، وهي الرائد إما إلى حياة كريمة وإما إلى حياة عليلة سقيمة . وما فسد العالم واضطربت أحواله وتعاورته المحن والنكبات الخلقية والاجتماعية إلا بفساد المرأة وإلقاء حبلها على غاربها واستجابة الرجل لرغباتها وآرائها فصار طوع بنانها تصرفه كما شاء له طيشها وعاطفتها ، وصار ذلك الوضع المقلوب بدعة العصر وآية تقدمه ، وسميت الأوضاع المنكوسة مدنية وتقاليد ينبغي مراعاتها ، وصار من أمارة ذوق الرجل إذا التقى بامرأة في محفل أو ناد أن يركع لها ويقبل يدها ، وإذا دخلا منزلا أو ركبا سيارة أو قطارا كان من آداب السلوك أن تتقدمه وعليه أن يبدأ بإشعال سيجارتها ، ورأيها الأعلى في اختيار ما تأكل الأسرة أو تلبس ، إلى أمثال هذه السخافات التي وفدت إلينا كما تفد الأمراض المعدية والأوبئة الفتاكة .

إن الشعوب التي تشكو الانحلال الخلقي ترى أن من أهم الأسباب في ذلك فساد المرأة وخروجها عن الجادة في سلوكها ، وقد حرمت كنيسة روما دخول المرأة الكنيسة في ثياب فاضحة لا تلائم جلال المكان ووقار العبادة .

وقد سلك الإسلام في سبيل صيانة المرأة وحسن سمعتها طريقا يساوق الفطرة ، ويشهد بصحته الواقع والتجربة ، فحرم أن تهيأ للرجل والمرأة فرصة الاجتماع والخلوة ، فإن الخلوة أساس الشر وجرثومة الإثم ، ولا شك أن بين طبيعتي الرجل والمرأة تعاطفا وانجذابا ، فإذا خلا كل منهما بالآخر أسفرت الحيوانية وتحركت البهيمية وتخاذلت الارادة أمام سلطان الغريزة القاهر ، ونشط الشيطان في مهمة الإغراء والتزين ، وما اختلى رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما ، وهناك تطل الفتنة وتتمثل الجريمة .

وتلك قضية المنطق والواقع لا تقبل مناقشة ولا جدالا ، وإنها لسفسطة ومكابرة أن يزعم أنصار الاختلاط أن التعليم أو التهذيب يكفكف من سلطان الغريزة ويكبح جماحها ويجعل الاجتماع مأمون العاقبة ، لأن رغبة كل من الجنسين في الآخر طبيعة وفطرة ، وما بالطبع لا يتخلف كما يقول الفلاسفة ، ولعلنا لا نعدو الواقع إذا قلنا : إن التعليم وما إليه يضاعف من خطر الاختلاط ويجعل كلا منهما أقدر على التماس الحيل وابتكار الوسائل للوصول إلى الأغراض ، والواقع والتجربة يغنيان عن الأسهاب في الاستدلال . لذلك كان

أنجع الطرق فى وقاية المرأة والاحتفاظ بسمعتها وسمعة المجتمع أن يحال بينهما ، وهذا ما أمر به الإسلام ، فقد حرم أن يخلو غير المحرم بالمرأة ولو كان ذا قرابة قريبة .

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكم والدخول على المغيبات » فقال رجل من الأنصار : يارسول الله : أفرأيت الحمو ؟ قال « الحمو الموت » وقال العلامة النووى : المراد من الحمو فى الحديث أقارب الزوج غير آبائه وأبنائه لأنهم محارم للزوجة يجوز لهم الخلوة بها ولا يوصفون بالموت قال : وإنما المراد الأخ وابن الأخ والعم وابن العم وابن الأخت ونحوهم ممن يحل لها تزوجه لو لم تكن متزوجة ، وجرت العادة بالتساهل فيه فيخلو الأخ بامرأة أخيه فشبهه بالموت » .

وبالغ الإسلام فى الاحتياط فحرم أن يخلو الرجل بامرأة أجنبية فى سفر أو حضر ولو كان سفر الطاعة يغلب على الظن فيها حسن النية وسلامة الطوية ومجافاة الريب كالسفر الى الحج ونحوه ، وأوجب على المحرم أنه يرافقها فى سفرها أيا كان السفر ، وجعل هذه المرافقه مقدمة على كل شأن من شئون الدنيا والدين ، فلو كان الرجل على أهبة الجهاد فى سبيل الله وسجل اسمه فى الغزاة وكتب فى قائمة الجند كان عليه أن يترك ذلك الواجب الخطير لمرافقة زوجه أو قريبته صيانة لها واحتفاظا بسمعتها ، وفى الحديث « لا تسافر امرأة إلا ومعها محرم فقال رجل : يارسول الله ! اكتتبت فى غزوة كذا وكذا وخرجت امرأتى حاجة فقال : اذهب فحج مع امرأتك .

وقد أهمل المسلمون هذا الهدى الإسلامى ، واسترخت الرقابة على النساء وأفلت من أيديهم زمام العفة ووقعت فيهم السنة السوء وساءت الظنون بالفتيات وتهددتهن العنوسة والبوار . وإذ من العجب أنه يباح الاختلاط بين شابات الأسر وشبابهم لمجرد الجوار أو التعارف أو لمجرد التلويح بالخطبة ، فاذا قدم الخطيب الشبكة كان ذلك جواز المرافقة والمخالطة وصك الامتزاج والانسجام ، يتزاور الخطيبان بمقتضاه ويرتادان الملاهى والخلوات فى اطمئنان من أعين الرقباء وأولياء الأمور .

فأين موقف المسلمين من تعاليم الدين ؟ إن الدين يخشى على المرأة من أقاربها الأقربين ويحتاط لرفع الخطر لتحريم الخلوة بها ، والمسلمون على ما ذكرنا من الإهمال والتفريط . ولم يكتف الإسلام لتحريم الخلوة بالمرأة بل احتاط كذلك بسد ذرائع الفساد بالاختلاط وقطع السبل إليه ، فحرم على المرأة أن تبدى زينتها إلا لمن يحل لها أن تبديها له ، وأمر المؤمنين والمؤمنات أن يغضوا أبصارهم عما لا يحل لأن الأنظار حبائل الشيطان .

والمرء ما دام ذا عين يقلبها في أعين الغير موقوف على الخطر

قال تعالى : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » .

ومن أعظم الجرائم في نظر الإسلام الزنا ، وعقوبته الجلد لغير المحصن والرجم أي القتل بالحجارة للمحصن وشدة العقاب على قدر عظم الجريمة ، كما أن من أعظم الجرائم القذف بالزنا ، وعقوبته الجلد ثمانين جلدة . قال الله تعالى : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم » .

شرع الإسلام هذه الأحكام رعاية لمصلحة المرأة واحتفاظا بشرفها وكرامتها وحرصا على مستقبلها . ورأس مال المرأة الشرف والكرامة والسمعة الطيبة ، والمرأة كالدرة في صدفها كلما زادت تحجبا ازدادت إشراقا ولمعانا ، والمبالغة في العرض تغري بالطلب إلا المرأة فإن كثرة العرض ترخصها وتبخس قيمتها وتورث الرغبة عنها وقد جنى السفور والتبرج على المرأة وأورثها سوء ظن الشبان بها والإعراض عنها ، وخلق لنا مشكلة اجتماعية استعصت على العلاج وهي مشكلة إعراض الشبان عن الزواج التي تحس بوطأتها الأسر الكريمة إشفاقا على مستقبل فتياتها .

وإن من أكبر الجرائم في تاريخ المرأة المصرية جريمة السفور التي زعمته حقا دأبت على المطالبة به ووجدت من الرجال من يظاهرها عليه حتى تمت الجريمة وحصلت عليه . ولقد جنت المرأة وجنت الأمة المر من ثمره ، وحسبنا من ثماره هذه الفوضى الخلقية التي نعاني آثارها ، وإنا لنرجو أن يكون لهذه التجربة آثارها في ردع المرأة عن الاسترسال في المطالبة بحقوق أخرى تحاول في تهوّر كسبها ولعمري لهي الخسارة التي سيكشف الزمن عنها إن قدر لها أن تبلغها .

إن الشعوب التى سبقتنا إلى منح المرأة هذه الحقوق المزعومة التى تطالب بمثلها المرأة المصرية بدأت تعترف بخطئها فيما عملت وتحس بخطر ممارسة المرأة لهذه الحقوق وتصايح عقلاؤها بوجوب النظر فى حالة المرأة ووجوب أن تعود إلى وظيفتها الطبيعية كأم وربة أسرة مكانها المنزل ووظيفتها القيام عليه وعلى أطفالها بالرعاية والتهذيب ، وليس مكانها المعمل أو النادى أو البرلمان ، فإن ذلك خروج على الطبيعة وانصداع فى كيان الأسرة والأمة ينبغى أن يعالج حتى لا يتفاقم الشر ويستفحل الداء ، ولن تقنع المرأة المصرية بما يقوله علماء الإسلام فى هذا الموضوع لأنها تتهمهم بالتحامل والجمود ، وقد تكون أقرب إلى الاقتناع بما يقوله مفكرو الافرنج فنعرض هنا بعضاً مما قالوه عن تجربة بعد ممارسة المرأة لهذه الحقوق .

تحدث أحد هؤلاء المفكرين عن طبيعة المرأة فقال : « أن أظهر علامات الجيل المنحل المضطرب تدخل المرأة فى الحياة العامة من وراء الستار فإن اهتمام المرأة بالشئون العامة كان دائماً أكذوبة ووسيلة للاتصال بالرجال وحيلة انتقام من بعضهم أو بعض النساء المتزاحمات على مصالح شخصية ، فالمرأة بطبيعتها تنفر من الحياة العامة ولا تطمئن لها ولا تلق بنفسها فى أحضانها إلا للشهوات ، سواء أكان فى أمور الدين أو فى أمور الدنيا ، وكل ماظهرت به فى هذا السبيل كان بدعة سيئة ومخزاة ومدرجة للفجور .

وقال آخر فى الكلام عن نتيجة دخول المرأة فى البرلمان : « ولكن هذه التجربة بل المحنة لم تسفر عن نتيجة سارة ، وكل ما فى أمرها أن بضع نساء ذوات مال ومنصب جلسن بين الرجال واتخذ هيئة خاصة بالقبعات وألوان الثياب أو اعوجاج الخصور أو خفض الجفون ، ولم نسمع لإحداهن كلمة جامعـــة أو موعظة حسنة أو رأياً خصيباً يخرج الأمة من الظلمات إلى النور » .

ذلك أخف ما قاله هؤلاء المصلحون فى هذا الصدد ونمسك عن باقيه إشفاقاً على المرأة وعملا بتعاليم الإسلام فى صيانتها وحسن سمعتها ، وعسى أن تستفيق المرأة ويستفيق أنصارها وتستبين لهم ، واحات الصواب والمصلحة للمرأة والأمة ويقاموا عما تورطوا فيه مشكورين .

أبو الوفا المراغى



بعد الحديث عن جيش الإسلام يأتى الحديث عن قائده!

يقول القائد العسكرى المشهور الفيلد مارشال ويفل فى كتابه القادة والقيادة : «يجب أن يكون القائد عفيفاً وقوراً قنوعا ، يتحمل الشاق من الأعمال ، متوسط العمر ، فصيحاً ، رب عائلة ، وينتمى إلى بيت ذى شهرة ، ومؤدبا ودوداً سهل الاقتراب منه ، رزين الطبع ...»

هذا ما سجله ذلك القائد الكبير الذى حنكته تجارب الحروب ، فى كتابه الذى أخرجه فى ختام حياته العسكرية مسجلا فيه خلاصة تجاربه وأفكاره . فإذا نحن نظرنا إلى ما قال ، حسبناه كأنما درس صفات رسول الله قائد جيش الإسلام ، فوقف من دراسته على هذه الفضائل الذاتية الحميدة فأوردها فى كلامه وهو على ثقة تامة أنها إذا اجتمعت فى قائد كان قائداً مثالياً ...

فلقد اجتمعت هذه الصفات الحميدة جميعاً فى محمد قائد جيش الإسلام ، بل لقد اجتمعت فيه صفات حميدة غيرها لا حصر لها ...

شرف النسب :

لم يزل النبي ﷺ ينتقل من خير الآباء حتى انتهى إلى كبير مكة وقريش فى الجاهلية عبد المطلب بن هاشم ، ثم إلى أبيه عبد الله ، فهو ذو نسب زكى ، وإلى ذلك يشير قوله : «إن الله اصطفى من ولد ابراهيم إسماعيل ، واصطفى من اسماعيل كنانة ، واصطفى من كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار» .

وكذلك يقول عمه أبو طالب :

إذا اجتمعت يوما قريش لمفخر ... فعبد مناف سرها وصميمها
وإن حصلت أنساب عبد منافها ... ففى هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوما فإن محمدا ... هو المصطفى من سرها وكريمها

والحق معه ، فلم يكن فى آبائه مغمور ، بل كلهم سادة قادة ...

كريم النشأة :

كان الله تعالى يريد كرامة رسوله ، فجعله تحت حراسته ورعايته ، وحفظه من أدناس الجاهلية ، حتى كان أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقاً ، وأكرمهم حسباً وأرجحهم حلما ، وأصدقهم قولا ، وأبعدهم عن الفحش ، حتى عرف بين أهل مكة فى حداثة سنه بالأمين ، لأنه استوفى من مكارم الأخلاق كل مكرمة لم ينلها إنسان قبله ولا بعده ، كل ذلك لأن الله تعالى تولاه حتى خاطبه بقوله (وإنك لعلى خلق عظيم) وحتى حدّث هو عن نفسه فقال : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

كمال العقل :

لقد كان الرسول ﷺ من كمال العقل والعلم فى الغاية القصوى التى لم يبلغها بشر سواه ، وعلى الرغم من أنه لم تسبق له عارسة ، ولا مطالعة كتب يتعلم منها أخبار الماضين ، فقد تبين من التاريخ أنه أعقل العالمين . أنظر إلى حسن تدبيره وسياسته للعرب الذين كانوا أهل عزة وإباء وانطلاق ، مع الطبع المتنافر المتباعد ، وكيف احتمل جفاءهم وصبر على أذاهم بكل سياسة وحكمة وبعد نظر ، حتى انقادوا إليه ، والتفوا حوله ، وقاتلوا فى سبيله أهليهم وآباءهم وأبناءهم ، واختاروه على أنفسهم ، وهاجروا معه ، وتركوا أوطانهم وأحبابهم

احترام النفس والتواضع .

كان رسول الله يعرف قدر نفسه ، ويحترمها ، فكان بريئا من الرياء والتصنع ، مستقل الرأى ، لا يدعى ما ليس فيه ، ولم يكن متكبرا ولا ذليلا ، بل لقد كان فى ثوبه المرقع الذى كان يرقعه بنفسه يخاطب بقولة الحق أكاسرة الفرس وقياصرة الروم . وكان لا يؤخر عمل اليوم لغده ، وما عبث قط ، ولا ظهر فى قوله وفعله روح اللهو ، وكان يكره أن يحوط نفسه بالمظاهر الكاذبة أو مظاهر السلطان والملك فكان يقول لأصحابه « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم . إنما أنا عبد الله ، فقولوا عبد الله ورسوله » . وخرج على جماعة من أصحابه متوكئاً على عصى فقاموا له فقال : « لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا »

الصبر وقوة الاحتمال والثبات على المبدأ .

أما الصبر وقوة الاحتمال ، فقد كان النبى فيهما المثل الأعلى ، لقد أوذى فى الله فى نفسه وأصحابه فلم يلحقه جزع ، بل كان شجاعا حكيما ، وصبورا كريما ، فكم ناله من أذى المستهزئين

وكيد المنافقين ، فما لج بالشكوى ، بل كان دأبه الصبر مع التفويض لله تعالى حتى جعل له من أمره فرجا .

وكان يقابل الأذى بالصبر الجميل ، ويعامل أعداءه بالمداراة ويتألفهم بحسن المصانعة ، فكان يقابل الخرق والحمق بالحلم والرفق ، والصلف واللجاج بالوداعة والأناة .. وحسبنا أن نلق طرفا على تاريخ الدعوة الإسلامية لنعرف كيف كان النبي مثالا فى الثبات على المبدأ وهى فضيلة كبيرة فى القائد .

أنظر كيف لبث ثلاث سنين يدعوا إلى الإسلام أقواما جفاة لا دين لهم إلا عبادة الأصنام ، وحجتهم أنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم ، وأخيرا لم يسلم إلا ثلاثة عشر رجلا فأى نجاح هذا ؟ لاشك أنه غير مشجع ، ولكنه ظل ثابتا على مبدئه ، مستمرا فى دعوته بكل عزم وإرادة .

ثم أنظر إليه وهو يقول لعمه وهو يحاول إقناعه بالرجوع عن قريش وترك الدعوة « والله يا عم : لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه ، ما تركته ! » .

الوفاء :

والوفاء كذلك فضيلة إذا تحلى بها القائد كان قائداً عظيما ، إذ بالوفاء يأسر القائد قلوب رجاله ، ويرفع روحهم المعنوية إلى قمتها ، ولقد كان النبي ﷺ شديد الوفاء بالعهد ، يروى أن عبد الله بن أبى الحمساء طلب إلى النبى أن ينتظره فى مكان ما حتى يأتيه بشيء ثم نسى حتى ذكر ذلك بعد ثلاثة أيام فجاء إلى الرسول فإذا هو فى مكانه فقال « يا فتى لقد شققت على ، أنا هاهنا منذ ثلاث انتظرك » .

وبعد وفاة خديجة رضى الله عنها كان دائم التحدث عنها والترحم عليها والعطف على أحبائها ، يقول أنس رضى الله عنه : كان رسول الله إذا أتى بهدية قال اذهبوا بها إلى بيت فلانة إنها كانت صديقة لخديجة ، إنها كانت تحب خديجة .

الشجاعة والنجدة :

كان الرسول فى ذلك المثل الذى لا يجارى ، والقدرة المنقطعة النظير ، قال ابن عمر : ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله ﷺ . وأى شجاعة أعظم

من أنه قام لأمر الله وحده ، ومضى قدما يدعو أقواما ليس عندهم من مكارم الأخلاق إلا ما كان مرتبطاً بالعزة والأنفة مما كان يؤدى كثيراً إلا شن الغارات والحروب وإهراق الدماء .

ولقد فزع أهل المدينة ليلة إذ سمعوا صوتا قويا غير عادى ، فانطلق بعض الناس نحو الصوت فتلقاهم رسول الله راجعاً قد سبقهم إلى الصوت وعرف الخبر ، وكان راكبا فرساً عاريا والسيف فى عنقه وهو يقول « لن تراعوا » .

وهكذا كان أسبق القوم إلى النجدة .

حسن الصورة وكمال الخلقة :

لا شك أن لحسن صورة القائد أثراً قويا فى الجنود ، يجعلهم ملتفين حوله ، مخلصين له ، متسابقين إلى تنفيذ أوامره ، متفانين فى أداء واجباتهم .

ولقد كان الرسول مكتملا لجميع نواحى جمال الصورة وكمال الخلقة ، وقد ورد فى هذا الكثير من المأثورات .

وبعد فهذا قليل من كثير من الصفات الحميدة التى تحلى بها الرسول الكريم ، فكان بها قائداً طبيعياً ، وسوف نرى بعد ذلك إن شاء الله عن دراستنا لمعارك الإسلام كيف كان الرسول قائداً حربياً من طراز فريد .

محمد جمال الدين محفوظ

يوزباشى أركان حرب

****

الجدل والعمل

قال الإمام الأوزاعى : إذا أراد الله بقوم سوءاً أعطاهم الجدل ، ومنعهم العمل .

النقد الأدبي وتاريخه

حدثناك في مقال ماض أن النقد صار فناً تؤلف فيه الكتب ، بعد أن كان شذرات منثورة وخطرات عابرة . وسأحدثك في هذا المقال عن كتاب من خيرها في رأيي وأحبها نفسي وأقربها إلى الروح العلمية وأجمعها لآراء النقاد وأحفلها بالرائع الممتع ، ذلك كتاب (الموازنة بين أبي تمام والبحتري) لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي . كان ذلك الكتاب ينبوعاً لما ألف بعده ومصدراً من مصادر البيان العربي ومادة للذين كتبوا في علوم البلاغة وذخيرة نفيسة للذين يدرسون النقد وتاريخه .

بدأ الآمدي يعرض علينا آراء الأدباء في الشاعرين العظيمين ، فذكر أن علماء اللغة والأدب فرق ثلاث : فريق يفضل البحتري وهم الكتاب الأعراب والشعراء المطبوعون الذين يؤثرون سهولة العبارة وصفاء الديباجة ووضوح المعنى ، وفريق يقدم أبا تمام وهم أهل المعاني والشعراء أصحاب الصنعة ومن يميلون إلى الدقة والأخذ بطرف من الفلسفة . وآخرون يسوون بينهما . وينكر الآمدي على القائلين بالتسوية ويذكر أنه لا يفصح بتفضيل أحدهما على الآخر إنما يعرض عليك مساوئهما ومحاسنهما ويدعك وحكمك ، وذلك عنده أمثل الطرق وأشبهها للإدراك السليم والكشف عن وجه الحق . وكان الظن بهذا العالم ألا يشفق من الفصل فإن شخصية الكاتب لا تظهر بهذا العرض الرخيص .

ثم أخذ يقص عليك حجج الخصمين ويبسط آراءهما ، وخلاصتها أن أبا تمام أستاذ البحتري بشهادته ، وصاحب مذهب في البديع عرف به وأخذ عنه ، وله الروائع التي تنقطع دونها الآمال والمعاني الفريدة التي سحرت البحتري فسرقها وقاس ذرعه بها ، إلى علم باللغة وأسرارها لم يمهد لأمثاله من الشعراء .

وينكر أصحاب البحتري التلمذة ولا يدفعون الصحبة ، ويقولون إن البديع موجود في القديم حفل به مسلم بن الوليد من غير أن يجور على المعنى أو يتحيف سلامة النسج ، ثم جاء أبو تمام فأفرط فيه فاستكره الألفاظ وأضل المعاني وترك السامعين والقارئين ، يظلعون على عمياء . ولو أنه قبل من هذا الأمر عفوه وسار فيه على سجيته لبلغ فيه جسيماً وبرز على كثير من الشعراء . ثم أخذ في الموازنة فرسم لنفسه طريقاً عبر عنها بقوله « وأنا أبتدىء بذكر مساوىء الشاعرين لأختم ببيان محاسنهما ، وأذكر طرفاً من سرقات

أبي تمام وإحالاته وغلطه وساقط شعره ، ومساوىء البحتري في أخذ ما أخذه عنه وغير ذلك مما غلط فيه ، ثم أوازن من شعريهما بين قصيدتين إذا اتفقتا في الوزن والقافية وإعراب القافية ، ثم بين معنى ومعنى فإن محاسنهما تظهر في تضاعيف ذلك ، ثم أذكر ما انفرد به كل واحد منهما من معنى سلكه ولم يسلكه صاحبه ، وأفرد بابا لما وقع في شعريهما من التشبيه وبابا للأمثال أختم به هذا الكتاب وأجعله مرتبا على حروف المعجم ليقرب تناوله إن شاء الله » .

سار الآمدي على هذا النهج وأطنب في سرقات أبي تمام مع اعترافه بأن الطاعنين عليه لا يجهلون السرقات من كبير عيوبه لأنه باب قلما يخلو منه أحد ، واحتفل في بيان أخطائه ورد تأويل الصحيحين لها ، وذكر كثيراً من استعاراته القبيحة وطباقه وجناسه الخارجين عن حدود الاعتدال . ومس البحتري مساليا في باب السرقات وبرأه من عيوب الإفراط في البديع لأنه مولع بتهذيب ألفاظه سالك سبيل الأولين من الأخذ بنصيب منها حين تأتي عفواً لا تكد خاطراً ولا تجني على معنى . ثم ختم الكتاب بذكر محاسنهما والموازنة بين معان اعتوراها وهي ترجع إلى بكاء الديار والوقوف على الأطلال ومساءلتها والدعاء لها . ولم نجد في النسخ التي بأيدينا ما وعد به من ذكر بابي التشبيه والأمثال ، فجائز أن يكون الكتاب قد عدا عليه الزمن ، أو تكون الأحداث قد عاقته عن الوفاء بوعده . وأياما كان فالقارىء لا يشعر بأن الرجل قد انتهى إلى غايته وأن الكتاب بلغ نهايته فاستراح إلى الخاتمة المقدرة له .

والآن بعد هذا العرض الوجيز لكتاب الموازنة أحب أن أدون لك مؤاخذاتي على الآمدي :

ظهر تحيز الآمدي للبحتري وتحامله على أبي تمام في غير موضع من كتابه ، حتى كأنه موكل بالرد عليه لا حكم عادل يتجنب الهوى ، فهو رقيق متأول إن مس البحتري بعيب ، عنيف مجسم للظل مكبر للهنات إذا تناول أبا تمام . وجملة ما اعتد به على أبي تمام إغرابه في استعمال الغريب ، وخروجه على أوضاع اللغة ، وانحرافه عن قواعد النحو ، وإسرافه في التماس البديع ، وإفراطه في طلب الاستعارة ، ومجافاته لطريقة الأوائل في صوغ الشعر حتى عسر فهمه على أئمة اللغة ، وحتى قال بعضهم إن كان هذا شعرا فكلام العرب باطل . وقال آخر إنه يرمي بالدرة في بحر من خرء فمن يغوص عليها ليأخذها ؟ فأما البحتري فهو محتذ حذو المتقدمين ما فارق عمود الشعر مع طبع سليم وقريحة مواتية ونظر صائب في أعقاب

معانيه وألفاظه ، حتى خرج شعره حسن الرصف جميل الوصف واضح المعنى ، يصل إلى قلبك قبل وصول لفظه إلى سمعك ، فلا عيب فيه إلا إذا حاكى أبا تمام فى بعض مذاهبه أو استعار منه بعض معانيه فإنه تزل به قدمه ويهوى به إلى الحضيض تقليده .

أما أنا فأرى أبا تمام أحد أربعة خدموا العربية خدمة عظمى ، ولولاهم لكان الشعر العربى جدبا كالصحراء التى نبت فيها ودرج عليها : لولا أبو نواس وأبو تمام وأبو الطيب المتنبى وأبو العلاء المعرى لكان شعراً ساذجا لا حظ فيه لفكر ولا أثر فيه لخيال . وبفضل هؤلاء الشعراء صار أدباً عظيما يسامى آداب الأمم الراقية التى أخذت حظا كبيرا من الحضارة وبلغت مبلغا جسيما من نضوج العقل وصفاء الذوق وسمو الوجدان ، وأخذ العلماء يتفرغون له ويتناولونه بالدرس والبحث ، ويؤلفون فيه الكتب فيكشفون للناس عن ثروة عقلية وجمال فنى جدير أن تعشقه نفوس محبة الكمال مؤثرة لحياة روحية نبيلة .

هؤلاء شعراء عباقرة مبدعون سمت بهم عبقريتهم أن يعيشوا فى ظلال العجز وإن شئت فقل فى ظلال التقليد ، فهما عندى عبارتان متساويتان فى المعنى ، والفرق بينهم وبين أمثال البحترى كالفرق بين المجتهد والمقلد هذا يحسن الاتباع وذاك يجيد الإبداع ، ومن هنا غلط فى فهم هؤلاء اللغويون الواقفون عند نصوص اللغة وبعض الأدباء الذين يرون المزية فى اتباع الأوائل لاعتقادهم أن الأول ما ترك للآخر شيئا وأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان وأن الخير كله فيما كان عليه الآباء ، فهم يريدون إلينا أن نشبه أعجاز النساء بكثبان الرمل والفلفل ببعر الآرام وأن نقف ونحن فى قصور شامخات على ربوع مية وأطلالها نبكيها ونستبكيها ونركب إلى حاجاتنا الجمال فى الصحراء وإن كنا فى عصر الذرة . يا لله من هوان للبشر وللخليقة جمعاء فإن راعى الأدباء مقتضيات العصر وفتحوا أبوابا جديدة للفكر وخرجوا باللغة من الحصار المضروب عليها قالوا فارقتم عمود الشعر وجانبتم طرائق المتقدمين وأكثروا من هذا الذى يمر به العاقل فيزدريه . وأعود بك إلى تلك العيوب التى نسبوها إلى أبى تمام والتى هجنت شعره عندهم وهونت من أمره عليهم وحطته عن مرتبة أمثاله .

أما استعماله الغريب فهو رجل طالت ملازمته للشعر جاهلية وإسلامية وفيه كثير من هذه الألفاظ فكثر ترددها على لسانه وتكرارها فى [illegible] مه فلم تعد غريبة بل انتقلت إلى حد المألوف الذى يأنس المرء له ، وليس كل غريب يقبح استعماله بل هناك غريب لا تجد معدلا عنه وتجد المعنى يقتضيه والنظم يطلبه والكلمة المجاورة تحن إليه . اقرأ إن شئت قول الله تبارك وتعالى « تلك إذا قسمة ضيزى » ثم ضع بدلا منها كلمة « جائرة » التى ترادفها ثم تحسس

نفسك واستفت حسك أتجد لهذا البدل ما كان يجده من اللذة لتلك ، وأيحدث عنده من النشاط والطرب ما كانت الكلمة الأولى تحدثه ؟ أيشعر بهذا اللحن الموسيقى العنيف الذى يحرك القلوب القاسية وينبه الأذهان الغافلة ويدعوها الى التفكير فى غرابة هذه القسمة ، الى هذا التجاوب العجيب بينها وبين الفواصل الأخرى فى الآيات الكريمة .

إذاً فالغريب قد يكون أليق بالموضع من المستعمل المأنوس ، ومع أن فى الغريب إحياء لجانب من جوانب اللغة فقد تدعو إليه القافية أو الفاصلة أو غرابة الفكرة أو عدم وجود المتعارف أو غير ذلك مما يمر بالشاعر فيلتمسه اختياراً أو يلجأ إليه اضطراراً ، وليس معنى هذا أنى أسوغ الإكثار منه ، ولكنا نأخذ منه بقدر الضرورة وحين نجد أنفسنا مدفوعين إليه ، والمقام هو الحكم الذى يحسن بالأديب أن ينزل على حكمه فلا ضير على أبى تمام فى استعماله إذا سنحت له حالة من تلك الحالات التى فى إيثارها مراعاة لمقتضى الحال كما يقول البلاغيون ، وأما الخروج على أوضاع اللغة وقواعد النحو فالحق أن اللغويين محيرون مختلفون فيما بينهم : يظن الرجل منهم أن اللغة ما انتهى إليه علمه ولا شيء وراء هذا ولبعضهم تحكم يزرى به ويصفه بالقصور العقلى مثل قوله لم تقل العرب هذا ولا تعرف العرب إلا هذا . وما النحاة بأقل منهم فى هذا الباب . وهؤلاء وهؤلاء لا يصلحون للحكم بين الشعراء ولا يحسنون التمييز بين جيد الشعر ورديئه .

يتحدث الجاحظ عن أبى عمر الشيبانى فيقول : رأيته يكتب أشعاراً ليدخلها فى أبواب التحفظ والتذاكر ، وربما خيل إلى أن أبناء أولئك الشعراء لا يستطيعون أبداً أن يقولوا شعرا جيدا لمكان أعراقهم من أولئك الآباء ، ولولا أن أكون عيابا ثم للعلماء خاصة لصورت لك فى هذا ما سمعت من أبى عبيدة ومن هو أبعد فى وهمك من أبى عبيدة .

والخصومة من قديم قائمة بين اللغويين والنحاة ، وبين الأدباء والشعراء . والرواة يحدثوننا أن ابن إسحاق الحضرمى استدرك على الفرزدق حين قال :

على عمائمنا تلقى وأرحلنا ... على زواحف تزجيها محاسير

فقال زير بالكسر معرضاً له بالإقواء فى البيت فأصلح الفرزدق قائلا :

على زواحف نزجيها محاسير

ثم هجاه الفرزدق بقوله :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ... ولكن عبد الله مولى مواليا

فعاد ابن إسحاق فقال كان عليه أن يقول مولى موال .

ومآخذ اللغويين والنحويين دونت فيها كتب ، ومنهم من تطاول على تصحيح روايات القرآن فليس عجيباً ألا يسلم منهم أبو تمام .

وكان الشعراء يشعرون بتحذلق هؤلاء وتهافتهم فيبالغون فى السخرية منهم ويصنعون من الشعر ما يعييهم ، والأغانى يحدثنا أن الفرزدق كان يرسل البيت معقداً معاياة لعلماء النحو واستهزاء بهم ، وأحسب أن معقد أبى تمام من هذا الضرب الذى يقصد به العبث بالنحاة . وأما إفراطه فى الاستعارة فهذا من طبيعة الشاعر العبقرى لأنه يجد فى نفسه من المعانى مالا تحيط به حقائق اللغة فيعود بالمجاز ويتوسع فى القول ومؤرخو الأدب الانجليزى يذكرون أن الشاعر الخالد شكسبير كان يفعل ذلك يقولون إن أهم ما يمتاز به أسلوبه هو كثرة الاستعارات فتجد فى الجملة الواحدة استعارتين أو أكثر .

بقى ما ينعونه عليه من غموض المعانى ، وأنا أهجم عليك بغير ما تنتظر : إنى لست من أنصار هذا الوضوح الذى يطيلون الثناء على البحترى من أجله ، ويجعلونه المعيار الذى تقاس به أقدار الأدباء ، إن انكشاف المعانى انكشافا تاما يوجد فى كلام العامة وأشباههم وما وجد فى كلام قط إلا زهد فيه إن القصيدة التى لا أجمع لها نفسى وأنفى من أجلها الخواطر عن ذهنى من الأدب الرخيص الذى كتب عليه الفناء والذى يقرب مأتمه من عرسه ويغلب صوت نعيه على صوت المبشر به إن جمال الصورة الشعرية فى عمقها وفى سفر الفكر بينك وبينها وفى تقليب البصر فى أعطافها ، وما قيمة صورة شعرية لا تشحذ ذهناً ولا تربى ذوقاً ؟ إن التواء الحسناء يغرى بها وتمنعها يهيج نار الشوق إليها ، وبقدر دنوها منك يكون انصرافك عنها . وقد تفهم من الصورة الشعرية غير المعنى الذى أراده الشاعر ، وقد يفهم غيركما غير معناكما ، فإن ذلك أدل على تأصلها فى باب البلاغة ، وأظهر لمواطن الفصاحة فيها . يقول أناتول فرانس : لكل صورة شعرية عدة معان ، فأى معنى وجدته كان عندك معناها الحقيقى . والشاعر الفذ هو الذى يعوذ أحيانا بالإبهام ليورث الصورة ضربا من الحسن ، كما يلجأ الرسام إلى الظل فى تجميل الصورة ، ولكن على شريطة ألا تحجب محاسنها بل يكون هذا الظل أعرق لها على إظهار كمالها ، وإلى اللقاء مع الآمدى إن شاء الله .

عبد الغنى اسماعيل
أستاذ بكلية اللغة العربية

الأزهر وتاريخنا الدستوري

يعطي بعض المؤرخين صورة خاطئة لتاريخنا القومي ، إذ يصورون الشعب في صورة المستكين المستسلم الذي لا يعرف لنفسه حقاً ، وقد أشار إلى هذا الخطأ حضرة الرئيس اللواء محمد نجيب في خطابه التاريخي الخالد الذي ألقاه عند افتتاح أعمال لجنة الدستور [١] فقال : « لقد كان تاريخ هذا الماضي - ماضي أمتنا - ضحية من ضحايا أعداء تلك الأمة . فلقد أوهموا ناشئتنا وعلموا معلمينا أننا كنا كماً مضيعاً لا يأبه به الحاكمون ، ولا يحفلون بوجوده . وهذا كذب صراح أود أن أصححه في دار النيابة وفي يوم الدستور . والحقيقة أن الشعب المصري لم يتخلف عن ركب التطور والتقدم ، فقد قام وعلى رأسه شيوخ الأزهر - وكانوا رسل الثورة وقادتها - بمقاومة الطغاة في بسالة نادرة المثال . ويصف حضرة الرئيس في خطابه المذكور هذه المقاومة بقوله « إن أبناء مصر لم يكفوا عن استكمال حقوقهم ورد العدوان عن دستورهم غير المكتوب : دستور حرية أفرادهم ، وشرف عقائدهم ، والتزام الحاكم لصالحهم : فالغلاف الخارجي لحياة المصريين في القرنين الماضيين غلاف الاستسلام والإذعان والمهادنة : غلاف خادع كاذب ؛ وأنا باسم الأمة أزيحه من مكانه ، بل باسمها أمزقه تمزيقاً ليتضح للعالمين صورة مصر الحرة على حقيقتها » .

ثم أشار حضرة الرئيس في خطابه التاريخي إلى ثورتين هامتين تعتبران من أسبق الثورات الدستورية العالمية ، إحداهما كانت بقيادة أكبر علماء ذلك العصر وهو الإمام أحمد الدردير ، والأخرى بقيادة شيخ الأزهر في ذلك الوقت الشيخ عبد الله الشرقاوي رحمهما الله تعالى .

ثورة الإمام الدردير رحمه الله تعالى [٢] : —

في يوم من أيام ربيع الأول عام ١٢٠٠ هـ (يناير عام ١٧٨٦ م) نهب حسين بك شفت وجنوده داراً لشخص يدعى أحمد سالم الجزار بالحسينية جهاراً نهاراً ظلماً وعدواناً . فثارت ثائرة الأهالي ، وتشاوروا فيما يجب عليهم أن يفعلوه واتفقوا أخيراً على الالتجاء إلى أقوى

(١) يوم ٢١ فبراير سنة ١٩٥٣ .
(٢) الجبرتي طبعة بولاق جـ ٢ ص ١٠٣ - ١٠٤ .

العلماء شخصية وأوسعهم نفوذا وهو الإمام الدردير ، فاجتمع الأهالى فى اليوم التالى للحادث وعموا شطر الجامع الأزهر وقصدوا الشيخ وأخبروه بالواقعة . فغضب الشيخ على استهتار الأمراء وتعسفهم ، ونادى فى الجماهير غير هياب ولا وجل : « أنا معكم ، وغداً نجمع أهالى الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة وأركب معكم وننهب بيوتهم كما نهبوا بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم ، وأمر الشيخ بدق الطبول على المنارات إيذانا بالاستعداد للقتال ، وترامت الأخبار بين الأهالى فأسرعوا نحو الأزهر للاشتراك فى المعركة ، وكانت أخبار الجماهير الهائجة قد وصلت إلى إبراهيم بك وبلغه تصميم الإمام الدردير على قيادة الشعب ضد الأمراء ، وكان يعلم مقدار ما للشيخ من نفوذ ومكانة عند الأهالى ، فخشى أن يستفحل الأمر ويؤدى الى ضياع سلطانه فى مصر ، فأرسل نائبه ومعه أحد الأمراء الى الامام الدردير واعتذر له عما حدث ، ووعد بأن يكف أيدى الأمراء عن الناس ، كما قرر توبيخ حسين بك شفت على صنيعه وطلب قائمة بجميع ما نهبه ليأمره برد ذلك الى صاحبه وهكذا وضع هذا الامام قاعدة دستورية هامة وهى احترام الحاكم لإرادة المحكومين .

ثورة الشيخ عبدالله الشرقاوى رحمه الله تعالى وكان شيخاً للأزهر عام ١٢٠٨ هـ [1] .

فى شهر ذى الحجة عام (١٢٠٩ هـ) (١٧٩٥) اشتكى فلاحو قرية من قرى بلبيس الى الشيخ عبد الله الشرقاوى من ظلم محمد بك الألفى ورجاله ، فبلغ الشيخ الشرقاوى الشكوى إلى كل من مراد بك وإبراهيم بك ، وخاطبهما فى كف أذى محمد بك الألفى عن الفلاحين فلم يفعلا شيئا . فما كان من الشيخ الشرقاوى رحمه الله تعالى إلا أن عقد اجتماعا فى الأزهر حضره العلماء وتشاوروا فى الأمر فاستقر رأيهم على مقاومة الأمراء بالقوة حتى يجيبوا مطالبهم ، وقرروا إغلاق أبواب الجامع الأزهر وأمروا الناس بغلق الأسواق والحوانيت استعدادا للقتال

وفى اليوم التالى : ركب الشيخ الشرقاوى ومعه العلماء وتبعتهم الجماهير وسار الجميع إلى منزل الشيخ السادات يستشيرونه فى بدء المعركة ، وكان قصر إبراهيم بك قريبا من قصر الشيخ السادات ، فراعه احتشاد الجماهير هناك ، وعلم باجتماع العلماء عند الشيخ السادات ، فبادر بإرسال أيوب بك الدفتردار ليسأل عن مرادهم .

---

(١) نفس المرجع جـ ٢ ص ٢٥٨

فقالوا له : نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها وأحدثتموها .

فأجابهم قائلا : لا يمكن الإجابة إلى هذا كله فإننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش والنفقات .

فقالوا له : هذا ليس بعذر عند الله ولا عند الناس ، وما الباعث على الاكثار من النفقات وشراء المماليك ، والأمير يكون أميراً بالإعطاء لا بالأخذ !) .

فقال لهم : حتى أبلغ . وانصرف ولم يعد لهم بجواب .

صمم العلماء فى هذا المجلس على أن يخوضوا المعركة مع الأمراء ، وإما أن يستشهدوا أو ينالوا حقوق الشعب كاملة . وأعلنوا أهالى القاهرة بعزمهم ، فتقاطرت الجماهير صوب الأزهر وباتوا هم والعلماء داخل المسجد وحوله .

هال إبراهيم بك ما بلغه من احتشاد الشعب ومرابطته مع العلماء استعدادا للقتال . فأرسل إلى العلماء يعتذر إليهم ويبرىء نفسه ملقيا التبعة على شريكه فى الحكم مراد بك ، بل ذهب إلى أبعد من هذا إذ يقول ، أنا معكم وهذه الأمور على غير خاطرى ومرادى ، وأرسل مراد بك يستحثه لعمل شيء ويخيفه عاقبة الثورة التى توشك أن تنفجر .

وفى اليوم الثالث للثورة توجه والى مصر إلى منزل إبراهيم بك واجتمع مع أمراء المماليك وقرروا إيجاد حل سريع حاسم قبل أن يفلت الزمام فتشتعل الثورة ، وأرسلوا إلى العلماء ليحضروا الاجتماع ، لحضر الشيخ السادات والسيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ الأمير وطال الحديث بينهم وكان مداره حول حقوق الشعب ، ولم يستطع ابراهيم بك ولا مراد بك ولا الأمراء المكابرة فى هذه المرة ، فقد كانت القاهرة تغلى كالمرجل وكانت أشبه ببركان يوشك أن يثور وكان الشعب المتكتل فى الخارج يلوح مهددا متوعدا ، وانتهى هذا المجلس التاريخى بموافقة الأمراء والوالى على القرارات[1] الآتية :

أولا : لا تفرض ضريبة إلا إذا أقرها مندوبو الشعب .

ثانيا : أن ينزل الحكام على مقتضى أحكام المحاكم .

ثالثا : ألا تمتد يد ذى سلطان إلى فرد من أفراد الأمة إلا بالحق والشرع .

---

(١) ذكر هذه القرارات حضرة الرئيس فى خطابه الذى افتتح به أعمال لجنة الدستور .

وكان القاضي الشرعي حاضرا لحرر (حجة) تضمنت هذه القرارات وقع عليها الوالي وختم عليها ابراهيم بك وأرسلها إلى مراد بك لختم عليها أيضا وانحلت الأزمة . ورجع العلماء يحيط بكل منهم موكب من الأهالي وهم ينادون (حسب ما رسمه ساداتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطالة من مملكة الديار المصرية)

ولو تأملنا في هذا النص الذي ساقه مؤرخ مصر الجبرتي ودققنا النظر في قوله (حسب ما رسمه ساداتنا العلماء) لوجدنا أن هذه العبارة الظاهرة تحمل مبدأ دستوريا هائلا : وهو أن الأمة مصدر السلطات .

وقد أشار حضرة الرئيس في خطابه المذكور إلى هذه الحجة بقوله ، وقد توافق رأى أكثر المؤرخين الفرنجة على أن هذه الحجة بمثابة وثيقة (إعلان حقوق الإنسان) سبقت بها مصر غيرها .

وقد طبق وكلاء الشعب ورؤساؤهم العلماء والأعيان هذا المبدأ ـ مبدأ الأمة مصدر السلطات ـ على والى مصر خورشيد باشا حين عجز عن ضبط الأمن في البلاد ، إذ عقدوا مؤتمرا وطنيا يوم ١٣ صفر عام ١٢٢٠ هـ وقرروا عزل الوالي ؛ ولما رفض الإذعان لهذا القرار قام العلماء والأعيان والشعب بتنفيذ قرار الأمة بالقوة ودارت رحا الحرب بينهم وبين الوالي وكانت الأوامر خلال المعركة تصدر باسم السيد عمر مكرم والعلماء بصفتهم وكلاء الأمة ، وأجبروه أخيراً على الإذعان لقرار الأمة في ٢٩ جمادى الأولى عام ١٢٢٠ هـ .

هذا وقد سجل التاريخ للعلماء السابقين مواقف مجيدة في الدفاع عن حقوق الشعب نذكر منهم الإمام شمس الدين محمد الحنفي المتوفى عام ٨٤٧ هـ ، والشيخ شمس الدين الديروطي الواعظ بالأزهر الشريف والمتوفى عام ٩٢١ هـ ، وشيخ الإسلام الإمام محمد بن سالم الحفني المتوفى عام ١١٨١ هـ .

نستنتج من هذا كله أن العلماء والشعب خلال صراعهم العنيف في سبيل نيل حقوق الأمة استطاعوا أن يستخلصوا عدة مبادىء كانت تدار بموجبها شئون الحكومة وتحفظ بمقتضاها حقوق الرعية ، حتى انتهى الأمر إلى إعلان حقوق الإنسان وأن الأمة مصدر السلطات ، وتعتبر هذه المبادىء أهم الأصول التي بنيت عليها الدساتير الحديثة .

أحمد عز الدين عبد الله خلف الله
المدرس بمعهد دسوق

غرور

من العوارض البارزة والأحداث الظاهرة ما يطوف بالجماعات فيتغلغل فى صفوفها، ويتمكن بين أفرادها، ويلم بالأمة فى غزوه المنكر ونزوله الملح، فتخضع فترة من الزمن لسلطانه، وتعيش ردحا من الدهر تترنح تحت وطأته. تتمرد عليه حينا وتخبت له أحيانا. تحاول أن تبعد عنه آنا وتستسلم لغواشيه المطبقة وطوفانه المغرق آنا آخر. حتى إذا قوى منها العزم، واستحصد لديها الحزم، ونفذت الإرادة، استطاعت أن تفلت من آصاره وتتخلص من قيوده.

وإلمام الظواهر التى لا تحب ولا تستساغ، أمر عادى يتسرب إلى الأفراد ويتفشى فى الجماعات، ما دامت النوازع الإنسانية والأطماع البشرية والأهواء والشهوات تضطرم فى النفس وتفور فى الجسد.

ولكن الذى لا ترضاه العقول السليمة، ولا يطمئن إليه التفكير الصحيح، ولا تقره شريعة رب العالمين، أن تقع فريسة للعوارض المهلكة والأدواء القاتلة، والأمراض النفسية الخبيثة فلا تحاول التمرد عليها والخلوص من أوزارها.

قد يغفل الضمير أو تغفو المشاعر الإنسانية وتهجع فى النفس قوة المراقبة فيدخل عليها الداء من حيث لا تقدر، ويتسرب إليها الوهن من حيث لا تشعر. ولكن العاقل الذى يحاسب نفسه لا يلبث أن ينتزعها مما يحل بها من آفة ويتسلط عليها من داء. ولعل هذا أبرز فارق بين البر والفاجر، فإن البر سريع الإنابة إلى ربه، كثير الإقلاع عن ذنبه، شديد الندم على ما يبدو منه من مخالفة، أما الفاجر فهو دائما سادر فى لهوه، عمه فى غيه لا يوقظه إلا القوارع المجلجلة والمحن العاصفة.

إن الأفراد والجماعات لا تصاب بعلة مميتة وآفة لعينة مقيتة ، تدمر نظامها وتحطم تاجها وتفسد أمرها وتضعف الثقة فيها وتعدم التعاون بينها ، مثل آفة (الغرور) فهو أساس كل شر ومصدر كل فساد وسبب كل هلاك . وما أحبط أعمال الناس وأصارها إلى الإمحال والجدب ومكن بينهم العداوة والبغضاء ودعا إلى الخصام والشحناء وأشاع الذعر والخوف والاضطراب إلا داء الغرور حين يستولى على النفوس ويستبد بالقلوب ، فيحول مودتها إلى عداوة وصفاءها إلى كدر وإخلاصها إلى ضغينة وحسد .

يغتر المرء بجهده وعمله ويخدع جاهلا فى كفايته وقدرته . ويخيل اليه الوهم الكاذب والسراب الخادع والعقل الحائر والتفكير الضحل أن قوته فوق القوى ، وقدرته لا توازيها قدرة . هو فى نفسه عالم يفقه أدق مشاكل العلم وأعقد مسائله ، وهو سياسى يدرك من خفايا السياسة الداخلية والخارجية ما يستعصى على الآخرين ، وهو بين الأدباء أديب بارع الفكر ، رائع الخيال . هو فى كل شىء أشد الناس فهما وأصدقهم حكما وأنفذهم نظراً وأعمقهم غوراً وأسماهم فكراً ، لا يقبل فى ذلك جدلا ولا مناقشة . وبهذه الفكرة الخاطئة والنظرة الباطلة ، والوهم الكاذب لا يمكن أن يلتقى بالناس فى عمل مشترك أو تعاون مفيد . وهل يلتقى فى نظره السقيم الثرى بالثريا أو يجتمع الخامل والعبقرى .

ويدعى إلى سلوك طيب يكون له وللناس فيه خير ، فتأبى عليه نفسه وينفر طبعه ويداخله الحنق والغضب لأن سلوكه فيما يرى أقوم سلوك وأدبه أرفع ومقامه أسمى من أن يتطاول إليه نصح أو توجيه وقبح الله الغرور .

ويراد على الإحسان فى عمله والإجادة فى إنتاجه ، فيستفزه الغضب وتستثيره الحدة لأن عمله أحكم صنعا وأدق أداء وأعظم من أن يتطاول إليه متطاول .

ويفسد فى الأرض ويستسلم لنزوات الشر ودوافع الإثم وتمتد عينه ويده إلى ما حرم الله عليه ، فإذا وجه إليه نقد أخذه الحقد واستبد به الغرور لأنه عند نفسه فوق أن يخضع لنقدات الناقدين .

وهكذا يدخل الفساد على الأمة ويتسرب إليها الداء ويبدأ فيها الشر والعوج ، كل فرد أمة وكل شخص دولة : فهو مستقل فى رأيه مستبد بفكره ، لا سلطان لأحد عليه ثم يجىء

بعد ذلك الضلال فى الرأى والخطأ فى التقدير والتخبط فى السلوك . لأن ما استقر فى النفوس من الغرور قد أفسدها وأظلم آفاقها ، فلم يعد أحد يصغى إلا لما تهتف به شهوته وتضطرم فيه نزوته وينزع إليه هواه .

وهكذا يتداعى بناء المجتمع وتضطرب أركانه وتختل موازينه وتتضاءل قوته وتنحل عروته بما يشيعه الجاهلون من فساد ، وما يأتيه المغرورون من حمق .

إن فى الغرور ادعاء واجتراء : ادعاء يسلب الإنسان وقاره الخلقى وحليته النفسية ، واجتراء يثير فى الأنفس الحقد على الناس والضغينة بينهم فيقطع ما اتصل من أسباب المودة ويفسد ما صلح من عوامل الألفة ، ويهدم ما يقوم من رغبة فى التعاون والجهاد فى هذه الحياة .

ولقد أراد الله تعالى لهذه الأمة القرآنية أن تعيش سليمة من الآفات بريئة من الأدواء والعلل ، وأن تربى تربية نفسية لا يداخلها شوب من الفساد ، ولا عامل من الانحلال ، فحذرها الله جل شأنه بما شرع من آداب واستن من سنن ، أن تستسلم لداء أو تخضع لآفة . ولقد قال جل شأنه (فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) .

ثم أشار جل شأنه إلى أن مصدر هذه الآفة تأميل فى طول عيش ، أو طمع فى طيبات الحياة وزينة الدنيا ، أو رغبة فى الاستمتاع بنعمة الولد وهكذا فقال : (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت . إن الله عليم خبير) .

يجب أن نعالج ما يعترينا من نقائص ، وما يتفشى بيننا من أوزار ، ويجب أن نربى أنفسنا على ما يلتمع فى تاريخنا من روائع الصور وبارع الأمثلة التى كتبت هذا التاريخ وبنت ذلك المجد . وليعلم أولئك الذين يخفون إلى الاقتداء فى الشر ويسرعون إلى الاحتذاء فى الضرر ، أن الاتباع فى الخير والاقتداء بمن مضوا من سلفنا الصالح يغرس فينا الفضيلة ويسددنا نحو النهج القويم .

لقد كان عمر بن الخطاب حريصاً أشد الحرص على أن يكسر نخوة نفسه ، وأن يستل داء الغرور من كل من يحيط به . فهو الذى أمر المصرى أن يضرب ولد عمرو بن العاص

ثم يضع الدرة على صلعة عمرو ليذهب ما عسى أن يكون قد داخله من خيلاء الحكم وكبرياء السلطان . وكان رضى الله عنه يحاول دائماً أن يقتل ما فى نفسه من نخوة ويطرد ما يمكن أن يساورها من وسواس .

يقول عروة بن الزبير : رأيت عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، وعلى عاتقه قربة ماء . فقلت : يا أمير المؤمنين إنه لا ينبغى لمثلك هذا . فقال : أنه لما أتتنى الوفود سامعة مطيعة مهادنة دخلت نفسى نخوة فأحببت أن أكسرها . ومضى بالقربة إلى حجرة امرأة من الأنصار فأفرغها فى إنائها .

ويروى الأحنف بن قيس أنه كان بصحبة أمير المؤمنين عمر لجاءه رجل فقال : يا أمير المؤمنين إن فلاناً ظلمنى فأعدنى عليه . فرفع درته وضرب بها رأسه وقال : تدعون عمر وهو معرض لكم ، حتى إذا شغل فى أمر المسلمين أتيتموه ، تقولون أعدنى .

فانصرف الرجل متذمراً فقال عمر : على بالرجل . فجىء به إليه ، فألقى إليه الدرة وقال له : اقتص ! فقال : بل أدعه لله ولإرادة ما عنده . وانصرف .

يقول الأحنف . ثم جاء عمر فدخل منزله ونحن معه فصلى ركعتين ثم جلس وقال : يا ابن الخطاب كنت وضيعاً فرفعك الله ، وضالا فهداك الله ، وذليلا فأعزك الله ، ثم حملك على رقاب الناس فجاء رجل يستعديك على من ظلمه فضربته . ماذا تقول لربك غدا ؟ فجعل يعاتب نفسه أشد المعاتبة .

ويقول رجاء بن حيوة : كنت ليلة عند عمر بن عبد العزيز وهو خليفة فضعف المصباح ، فقام رجل ليصلحه فقال : اجلس ، فليس من الكرم أن يستخدم المرء ضيفه .

ثم قام بنفسه فأصلح السراج . فقال رجاء : أتقوم إلى السراج وأنت أمير المؤمنين ؟ فقال : قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز بمثل هذه السير النقية والأخلاق الطاهرة والآداب الكريمة تعز الجماعات وتسعد الأمم .

عبد الحميد محمود المسلوت
المدرس فى كلية اللغة العربية

الدين في أوربا وعلاقته بالعلم

— ٣ —

كان التيار الذى طبع النصف الأول من القرن التاسع عشر بطابعه — سواء أكان ذلك فى الجانب الدينى أم الأدبى — هو تيار تلك الحركة القوية التى دعيت فى التاريخ باسم الحركة الرومانتيكية ، والتى كانت إحدى نتائج الانقلاب الثورى الفرنسى ، والتى امتد سلطانها إلى أكثر دول الغرب .

ولما كان لا يعنينا الآن من هذه الحركة غير الدين من حيث علاقته بالعلم ، فقد وجب أن نقصر حديثنا اليوم على ذلك . ومجموع القول فى هذا الشأن هو أننا إذا تعقبنا الفكر الدينية فى ذلك العصر ألفينا أن أسسها العامة فى المحيط الثقافى تعتمد على مبادىء « جان جاك رسو » "Jean Jacques Rousseau" الذى يمكن أن يعتبر ضمن طلائع تلك الحركة الرومانتيكية ممن أعدوا العقول لذلك الانقلاب كله وهيئوا النفوس لاستقباله . ويمكن أن نوجز أقوال « رسو » فى الديانة بأنها إيمان نابع من داخل النفس ، منبثق من شغاف القلب ، منبجس من أعماق العواطف الإنسانية .

وعلى جملة من القول يمكن حد الدين على حسب قوله بأنه مجموعة من المبادىء التى بلغ الشعور بوجودها أقصى أوجه وإن لم يكن من الممكن التدليل عليها بالبرهان العقلى ، أو تأييدها بالحجة المنطقية القاطعة لأنها لا تعدو كونها وثبات روحانية غير معتمدة على المقدمات العقلية ، ولم تنشئها تأملات نظرية . وموضع هذا الدين هو إرضاء حاجات القلب وقيادة السلوك الخلق .

ولا جرم أن هذه النظرة إلى الدين تجعله عاطفياً بحتاً وتنتهى به إلى الانفصال نهائياً من العلم ، بل تجعله ينطق بلغة غير لغة العلم ، ويسير فى الحياة على غير نهجه وبغير أسلوبه ، وبهذا يستطيع كل منهما أن يتجه فى طريقه نامياً متطوراً اتجاه الخطين المتوازيين اللذين لا يلتقيان مهما امتدا .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن العاطفة قد استطاعت أن تساير الديانة المسيحية

مسايرة تختلف مع مسايرة العقل الذى كثيراً ما يبدو متعارضاً معها، وقد نشأ هذا التعارض من أن مظاهرها تخاطب القلوب والمشاعر أكثر من مخاطبة الفكر، وتعتمد على الحب والإيثار أكثر من اعتمادها على المتعقلات الفلسفية أو المدركات النظرية. ولا ريب أنها تنتزع — عن طريق هذه الاتصالات العاطفية — كثيراً من النتائج الناجحة المثمرة.

وأيا ما كان فإن آراء «روسو» فى الدين والسياسة والأخلاق والتربية كانت — منذ أواخر القرن الثامن عشر — نقطة البدء التى صدرت عنها الأفكار الحديثة فى أوربا كلها، بل كانت أساس النهضة الدينية الجديدة التى تبعت الحركة الرومانتيكية التى بعثت الدين من مرقده بعد تلك الصدمة العنيفة التى تلقاها من الثورة الفرنسية ثم حددت موقفه بإزاء العلم.

ويجمل هذا الموقف إذ ذاك هو أن الدين لا يعتمد على العقل، بل على القلب، وأن له مبادئه وأسانيده ومنتجاته التى تفرض نفسها فرضاً على العقل باسم سلطان أعلى منه. ولقد انتقل التيار الثقافى فى ذلك العهد بل الحياة كلها من جانب الفكر الذهنى إلى جانب أولئك الذين كانوا — دون أن يأبهوا للعقل الحر ولا للعلم المستقل وأن يعبثوا بعقد صلة بينهم وبين الفلسفة — قد جعلوا يتركون الدين يمتد فى حرية معتمداً على سلطانه الذاتية التى لا تعرف لم، ولا تعترف بكيف، وهى القلب والتقاليد والعقيدة، وكان عمل أولئك القوم يكاد يكون محصوراً فى إنماء القوة الروحية وتفخيمها. ولكى نمثل لهذه الحركة يجب أن نشير إلى كاتبين من زعمائها، أحدهما فرنسى، والآخر ألمانى فأما الأول فهو«شاتوبريان» "Chateaubriand" طليعة أدباء فرنسا الذين أيقظوا الحركة الدينية من سباتهاواستعادوالها مجدها التى أنهكتها الثورة، بل أوشكت أن تأتى عليها، وذلك لأن هذا اللون من الإيمان قد بدأ فى فرنسا أدبيا قبل كل شىء. ولقد ظهرت طوالعه الأولى فى كتاب «عبقرية المسيحية "Le Génie du Christianisme" تأليف «شاتوبريان».

ويجمل القول فى هذا السفر أن مؤلفه — صادراً عن مبدأ «جان جاك روسو» وهو سيادة سلطان العاطفة — قد عول على أن يبدل الحياتين: الفردية والاجتماعية اللتين لم تكونا بعد قد أفاقتا من تلك الهزة القاسية التى أصابتهما بها الثورة الفرنسية فزلزلت كيانهما الدينى أن يدخل فيهما كل الطقوس والتقاليد الكاثوليكية فى صورها العملية وأشكالها الواقعية. وليس هذا فحسب، بل إنه لم ير فى هذه الطقوس وتلك التقاليد إلا ظواهر ثانوية لا يؤبدها

العقل فضلا عن أنها لا تدخل فى نطاقه ألبتة ، وأكثر من ذلك أنه اندفع فى هذه السبيل إلى حد أن وضع تفاصيل هذه الظواهر الخارجية فى مرتبة واحدة مع ما يحتويه الدين من المبادىء الخلقية السامية ، واتخذ من النوعين كليهما الدليل على سماوية عنصره . ومن أسانيد ذلك عنده أن جميع هذه التفاصيل تتجه مباشرة إلى الخيال وتأسر القلب وتسحر الوجدان الإنسانى وتواسيه ، وتهديه وتقويه ، وتنعشه وتحمسه ، وبالإجمال : تترك فيه أعمق الأثر . ومن العبارات التى وردت فى مؤلفاته فى هذا الشأن قوله : إن السبيل التى يجب اتباعها اليوم هى الاتجاه من المعلولات ، إلى عللها ، والتدليل على أنه ليست المسيحية سامية لأنها من عند الله ، بل إنها من عند الله لأنها سامية ، وعلى أن ما يشتمل عليه الناقوس من شعر وجدانى يتجه إلى الشعور مباشرة هو أقوى من حجج الأقيسة المنطقية لأننا نشعر بالأول حيا فى كوامن نفوسنا بينما لا تكترث قلوبنا الثانية .

ومن هذا يتبين المرء أن « شاتوبريان » شاعر حقا ، وأنه لا يكترث أدنى اكتراث بالمعرفة ما دام أن عقيدته وتقاليده التى يعرض بذلك الأسلوب الفصيح البليغ تاتجها الخيرة الساحرة ، وأنه سواء عليه أكانت هذه الثمار نتيجة من أصول موجودة وحقيقة أم كانت مجرد أخيلة عابثة قصدنا بها إرضاء رغباتنا وأحلامنا .

ومهما يكن من شىء فإن التيار الذى كان يقتاد الحركة الرومانتيكية بفرعيها : الدينى والأدبى فى أوروبا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر هو تيار تلك الآراء السالفة التى تتركز فى أن العاطفة هى القاعدة الوحيدة ، وأن الغاية التى يهدف إليها الإنسان الراقى هى أن يشعر بأنه يحيا ، وأن يهب نفسه تماما للشعر والهوى أو شدة الانفعال والحماسة التى تهز النفس ، وأن يفر من المجردات التى لا تمس إلا العقل المحض .

وهنا ينبغى أن نسائل أشياع هذه المبادىء قائلين : ألا تخشون — إذا وهبتم أنفسكم للعواطف على هذا النحو — أن تضعوا أنفسكم على طرفى نقيض مع العلم ؟ ولا ريب أن الجواب على هذا السؤال هو أن الرومانتيكى الأصيل يجهل أو يتجاهل هذه المشكلة ، فبينما يشتغل العالم بالتحليل والتعليل والاستنباط ، نراه هو يكتفى بأن يحيا ويؤمن ويحب . وأكثر من ذلك أنه هو يعود فيسأل بدوره دهشاً : كيف يجرؤ العلم أن يحاول أن يسلب منه أبيته ؟

وأما ثانى هذين المفكرين فهو « اشلايير ما كير » "Schleiermacher"⁽¹⁾ الألمانى الذى سطع نجمه فى أوائل القرن التاسع عشر والذى ثبت ذلك المبدأ الرومانتيكى فى قلب الدين وإن كان فى صورة أقرب إلى ما بعد الطبيعة منها إلى الأسلوب الأدبى الذى انتحاه « شاتوبريان » . وهاك مجمل آرائه مرسومة فى عباراته .

ليس فى مكنة العقل ولا الإرادة نقلنا إلى المنطقة الدينية لأن الدين ليس نوعاً من المعرفة الموضوعية ، ولا لوناً من القواعد الخلقية المقررة ، وإنما هو حياة ومران . ولهذه الحياة منبعها الخاص فى أعمق جانب من جوانب كينونتنا وهو العاطفة . وليس من الممكن الاتجاه إلى الدين صدوراً عن المعرفة بالدين ، وبعبارة أوضح لا يمكن اتخاذ معرفة الدين أساساً للتدين ، لأن الدين أمر أولى ينطق به الشعور بادىء ذى بدء . ولأن المرء إذ يشعر بديا بالانفعال الدينى هو يثنى بالبحث عن وسيلة يشرح بها دخيلة نفسه ، وينقب عن برهان يبرر به الشعور أمام عقله ، ثم هو لا يكتفى بذلك ، بل يحاول أن يوضح طبيعة حالته النفسية وأسبابها .

وهكذا ينتهى به بحثه وتأمله إلى العثور على ضالته المنشودة ، وهى شعوره بالعلاقة المطلقة التى تصل المخلوق بالخالق وليست الحياة الدينية شيئاً آخر سوى إنماء هذا الشعور وإشعاعه ، إذ هو الذى يثير الأفراد بهيئة لا يستطيعها العلم ولا تظفر بها الأخلاق . وهذا الشعور لا يمكن شرحه بوساطة الفكر ، ولكن عن طريق الرموز التى هى وحدها القديرة على تقديم ذلك الشرح إلى الوجدان والتى تجعل نقل بيان الانفعالات الدينية إلى الغير أمراً ممكناً .

على أن العلم نفسه لا يستطيع أن يضع أية عقبة فى سبيل خلق الرموز الدينية المختلفة ولا فى سبيل قبولها واعتناقها .

ومجمل القول عند « إشلايير ما كير » هو أن الموجود أسمى من المعرفة وقبلها ، وأن حياة النفس والعاطفة هى أسمى الحقائق ، وأن كل ما يوجد من مظاهر هذه الحياة الروحية من قواعد وطقوس وتعبيرات وكائنات ومادة ليس له من قيمة إلا بمقدار ما يكون رمزاً لتلك الحقيقة التى هى أسمى من كل تعقل .

---

(١) هو أحد الفلاسفة الالهيين الألمان ، وقد ولد فى برسلو سنة ١٧٦٨ وتوفى فى سنة ١٨٣٤

بان من كل هذا أن العلائق بين العلم والدين كانت - فى النصف الأول من القرن التاسع عشر - إيضاحاً لثنائية كاملة ، فكل من العلم والدين كان مستقلا عن الآخر فى أهم النقط التى تميز كلا منهما على حدة . فكان العلم يبسط سلطانه على العقل ، بينما يختص الدين العاطفة بخطورته ، وبفضل هذا الاستقلال فى السلطان ، كان من الممكن وجودهما فى وجدان واحد دون منازعة ولا عداء ، بل قل إنهما كانا على وئام . وعن طريق هذا الوئام نفسه كان لكل منهما جميع أنواع الأمن والاطمئنان والسلام والحرية .

بيد أن هذه الهدنة فى الواقع لم تدم إلى منتصف القرن التاسع عشر ، إذ أن مواجهات جديدة لم تلبث أن نشأت بين العلم والدين ، فكان من نتائجها تلك المعارك الحامية الوطيس التى سنراها فيما بعد .

الدكتور محمد غلاب

من نثر شوقى

الوقت آلة الرزق إذا استعمل، وآفة الرزق إذا أهمل . ثقة العاطفة شهر، وثقة العقل دهر.

من أخل بنفسه فى السر ، أخلت به فى العلانية . يستريح النائم من قيود الحياة ، كما يتروح السجين ساعة فى فناء السجن . الفضائل حلائل ، والرذائل خلائل .

فى الغمر تستوى الأعماق .

الصالحون يبنون أنفسهم ، والمصلحون يبنون الجماعات .

العاقل من ذكر الموت ولم ينس الحياة .

التعبير في الفن

يقبغى أن تعتمد نظريات النقد السليمة على دعامتين هما التقويم والتعبير . ونحن قد لا نستبين الطريقة التي تتخذ بها تجاربنا القالب الذى تصاغ فيه ، فإننا كائنات اجتماعية درجت على التعبير عما يخالجها منذ نشأتها . إلا أنه من الحقائق المعروفة ، أننا نصل إلى كثير من طرق تفكيرنا وشعورنا ، بالوراثة عن آبائنا وأجدادنا . فالتعبير عن هذه الأفكار والمشاعر أبعد غوراً ، وأوغل قدما مما قد يتراءى لنا فى كثير من الأحايين . والعقل البشرى نفسه ، قد اكتسب تركيبه الخاص ، بحيث يتلاءم مع عملية التعبير التى شغلت الإنسان منذ مئات الآلاف من السنين التى مرت عليه خلال تطوره ، بل وقبل ذلك بكثير . بل إن كثيراً من السمات التى تميز عقلنا البشرى ، تعود إلى وظيفته كآلة نستخدمها فى التعبير ...

أما تجاربنا التى تصادفنا فى حياتنا ، فلا بد لها أن تتشكل قبل أن نعبر عنها ، بل إنها لتصاغ فى القالب الذهنى الذى نستطيع به التعبير عنها . وقد كانت قدرة الإنسان على التعبير عن أغراضه ، والإفصاح عن مراميه ، فى مقدمة الأمور التى استغرقت مرحلة طويلة من مراحل الانتخاب الطبيعى .

والفنون هى أسمى قالب يمكن أن ينصرف إليه نشاطنا الفكرى ، وقدرتنا التعبيرية . وعلى هذا الضوء يتضح لنا كثير من الأمور المعقدة الغامضة التى قد تثار حول التراكيب والقوالب الفنية ، والتى منها سبق الشكل والقالب على الفكرة والموضوع ، ومنها أيضاً الموضوعية ، وإقصاء المؤثرات الذاتية ، مما يدعو إليه ويلح فيه علماء الجمال فى الطبيعة والفن . بيد أنه ينبغى لنا اصطناع كثير من الحذر فى نظرتنا للفنان ، فهو قوة معبرة ، قلما ترى نفسها فى هذا الضوء . فهو حين يأخذ فى إبراز تجاربه الذهنية ، لا يلقى إلى جهوده التعبيرية بالا ، ولا يحفل بها قصداً ؛ وحين نسأله عن نتاجه الفكرى ، نجده يراه شيئاً جميلا فى ذاته ، يضفى على نفسه الشعور بالبهجة والارتياح ، ويعبر عما يخالجها من أحاسيس عميقة وعواطف مشبوبة . أما أن نتاجه سوف يقرأ ، ويتلقى منه الكثيرون ما يختلط به من

تجارب ، وما يداخله من مران . فكل هذه أمور عرضية ، ومسائل فرعية ، لا تعنيه ولا تدخل في حسابه .

فالفنان لا يتجه قصدا لإتقان التعبير ، بقدر اتجاهه مثلا إلى بلوغ الكمال في إبراز قصيدته ، أو مسرحيته ، أو تمثاله ، أو لوحته الفنية ، أو غيرها من نتاج فكرى ، يسعى إلى تصويره في الصورة التي ترتاح إليها نفسه . وهو يرمى إلى تجسيم زاده الفكرى ، ومعينه الذهنى ، وجعل نتاجه مطابقا لتجاربه ، ومتفقا مع مرانه كل الاتفاق ، مما يضفى عليه روعة فنية ، قد يغض منها كثيرا توجيه اهتمامه وعنايته للتعبير وحده ، وليس في وسع الفنان أن يتريث ليتدبر رأى الجمهور القارىء ، أو الطبقات المثقفة منه خاصة ، في نتاجه الفكرى ، وهل يقبل عليه ، أو يعرض عنه . وهو يصيب وينهج النهج القويم حين يبتعد بفنه عن هذه الاعتبارات جميعا . فكثيرا ما أدى تركيز انتباه الأديب أو الفنان في إتقان التعبير ، وفي توجيه نتاجه الفكرى لجمهور قارىء (ونستثنى من ذلك قلة نادرة من الفنانين كان شكسبير مثلا إماما لهم) إلى التهوين من شأنه والغض من نتاجه الفكرى .

ولسنا نبغى بتجاهل الفنان للعنصر التعبيرى الذى ينقل فكرته للقارىء ، لسنا نبغى بذلك أن نهون من قيمته وأهميته ، فإن الجهد الذى يبذله الفنان في إخراج نتاجه الفكرى سليما متقنا لا بد أن ينتهى به ، في تضاعيف الطريقة التى يسلكها ، إلى إبراز الجلال الذى تنشده للفن في مظهريه الفكرة والقالب . بل إننا نستطيع القول مطمئنين ، إن الفنان حين يقصد إلى إبراز ما يخالجه من مشاعر وأفكار ، وحين ينصرف عن العناية بالصورة والاحتفال بها ، فإن تلك الصورة نفسها تكون أروع وأبهى منها ، لو أنه أنفق جل وقته وفكره في إتقانها وحدها . ذلك أن مقياس الجمال والجلال في النتاج الفنى ، وبالتالى تأثيره في القراء ، إنما يكون بقدر ما يشتمل عليه من التوافق والإنسجام بينه وبين ما يعبر عنه الفنان من تجارب ومران .

ولكن الفنان ، مهما بالغ في الابتعاد عن توجيه نتاجه الفكرى لجمهور قارىء ، ومهما أنكر رغبته في إثارة غرائز الناس ، والتأثير فيهم بما ينقله إليهم من تجارب ، فإنه لن يجد في الواقع دليلا واحدا يصرفنا عن النظر للتعبير والنقل للقراء ، كهدف من أهم أهدافه غير المباشرة ، وغاية من أسمى الغايات التى تنتهى إليها مراميه

ولطالما أساء النقاد ، وعلماء الأخلاق ، ورجال التربية ، وعلماء الجمال ، إلى حد بعيد ، فهم الفن ، واستيعاب الدور الذى يمثله بين كافة ألوان النشاط الذهنى للإنسان وليس من اليسير تفسير المدى الذى ذهب إليه كل هؤلاء حين أخطأوا فهم الفن ومراميه ، فنهم من أرهفت أذواقهم ، ودقت ملكاتهم ، واكتملت مواهب الاستجابة لديهم ، بيد أنهم بلغوا فى إساءة فهم الفن ومراميه مبلغاً كبيرا ؛ ومنهم من يعرف ماهية الفن ، وما ينبغى نحوه ، وهؤلاء جلهم من بين أهل الفن أنفسهم ، غير أنهم أعرضوا عن تفسيره تفسيراً واضحاً جلياً ، وربما وجده الكثيرون منهم شيئاً بالغاً فى الوضوح والجلاء ، ومن ثم لم يكن فى نظرهم ، فى حاجة إلى مزيد من الإيضاح . أما من حاول منهم القيام بتلك المهمة ، فقد خانته اللغة ولم يسعفه التعبير . ولا مراء فى أن العقبة العسيرة التى حالت دائما دون تفسير ألوان الفن واستيعابها . إنما كانت تكمن دائما فى اللغة والتعبير .

وفى الواقع ، إننا لم نكن يوما ما فى حاجة إلى فهم الفن ، واستيعاب أثره فى حياتنا ، بقدر حاجتنا لذلك فى الوقت الحاضر ... وربما أخذت تلك الحاجـــة فى الازدياد كلما تقدم بنا الزمن .

وليست الفنون سوى وعاء يودع فيه أهلها أسمى تجاربهم ، وأجدرها بالتسجيل . فهى ثمرات تنضج فى أثمن اللحظات من حياة أشخاص ممتازين . حين تبلغ سيطرتهم على تجاربهم ، وقدرتهم على توجيهها ، مبلغاً كبيرا ، يعينهم على تمحيص الحياة ، والغوص إلى مكنونها ، وكشف أسرارها والنفاذ إلى أعماقها .

ونحن قد نستطيع نقل تجاربنا البسيطة التافهة ، دون الاستعانة بتلك الأدوات الذهنية الرفيعة ، أما التجارب الدقيقة الخفية الغامضة ، فهى تبدو للكثيرين منا بعيدة عن الوصف عصية على التعبير والنقل ؛ إذ أنها لا تخضع لغير الفن ، الذى تجرى فى قنواته طيعة مواتية ، ولا تلين إلا للفنان . الذى يلهو بها كما يلهو الساحر ببضاعته أمام الناس ، فيملك عليهم لبهم ويسلب عقولهم ، ويشغل أسماعهم وأبصارهم .

حمزه محمد الشيخ
ليسانسيه فى الآداب ودبلوم فى الصحافة
من جامعة القاهرة

العلم .. بين الاساتذة والطلاب

في هذه الفترة بين عام دراسى أوشك أن ينقضى ، وبين عام جديد يستقبله المدرسون والطلبة بعد أشهر الاستجمام ، رأيت أن أتحدث إلى إخوانى مدرسى المعاهد وأبنائهم الطلبة بما ينبغى للفريقين أن يطيلوا التأمل فيه عندما يفرغون من فترة الاستجمام ، استعداداً لاستئناف عهد جديد فى الحياة الدراسية .

إن أجمل ما فهمه المسلمون من معانى « العلم » قول أبى حامد الغزالى فيه : إنه عبادة القلب ، وصلاة السر ، وقربة الباطن إلى الله ، وكما لا تصح الصلاة التى هى وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر من الأحداث والأخباث ، فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته من خبائث الأخلاق .

وهذا الفهم الجميل لمعنى العلم فى الإسلام إذا كان ينبغى لمدرسى المعاهد الأزهرية وطلبتها أن يجعلوه دستوراً لهم فى حياتهم الدراسية فى جميع المعاهد ، فإن أولى ما ينبغى لهم أن يتخذوه دستوراً فى هذا العهد الذى أخذ يتجدد فيه نظر الأمة إلى جميع أوضاعها استعداداً لاستئناف حياة سعيدة مباركة النتائج ويانعة الثمرات إن شاء الله .

من المأثور عن رسول الرحمة ﷺ أنه كان يقول لأصحابه ــ وهم الطبقة الأولى من طبقة العلم فى تاريخ الإسلام ــ : إنما أنا لكم مثل الوالد لولده

وإن المدرس فى المعاهد الإسلامية ينبغى له أن يستقبل سنته الدراسية المقبلة بهذه الروح العالية وبهذا الأدب الإسلامى الرحيم ، فيكون لتلاميذه مثل الوالد مع الولد ، روى الذين دونوا ترجمة الإمام الفاتح أسد بن الفرات أنه لما كان يأخذ العلم عن الإمام محمد بن الحسن الشيبانى تلميذ الإمام أبى حنيفة ، كان الإمام محمد بن الحسن إذا رأى تلميذه أسد بن الفرات غلب عليه النوم وهو يسهر فى تلقى العلم عنه نضح على وجهه رشاشا من الماء ليجدد له نشاطه شفقة منه عليه ورغبة منه فى أن ينهض إلى مستوى الإمامة فى العلم . ولولا أن محمد بن الحسن

تأدب بأدب الإسلام وعمل بالمبدأ المحمدى فى أن يكون لتلميذه كما يكون الوالد لولده لاتنهز فرصة غلبة النوم على تلميذه وأرجأ الدرس إلى الليلة الثانية ، هذا مع ما نعلمه من مقام الإمام محمد بن الحسن فى الدولة وكثرة أعماله العلمية ، لكنه لما كان يعلم أن من أدب الإسلام أن يكون التلميذ من أستاذه بمنزلة الولد من الوالد التزم مع أسد بن الفرات هذا الأدب الرحيم ، وكان من نتيجة نبوغ أسد بن الفرات وقيامه للملة الإسلامية بما لا يقوم بمثله إلا أفذاذ النوابغ من صفوة البشر .

وهذا الشيخ ابن التلمسانى أحد كبار علماء شمال أفريقيا سأله السلطان عن مسألة فقال : « إن تلميذى فلانا يحسن الجواب عنها » ، فوجه السلطان السؤال إلى تلميذ ابن التلمسانى ، فأحسن الجواب ، فأجازه وأحسن منزلته ، وكان ابن التلمسانى أعلم من تلميذه فيما سأله عنه السلطان لكنه لاعتباره تلميذه بمنزلة ولده أراد أن ينوه به فى حضرة السلطان كما لو كان ولده حقا .

والطلبة فى دستور الإسلام عرفوا كيف يقابلون هذا العطف الأبوى من أساتذتهم بما يكافئه من حرمة ومحبة وإجلال . ومن أقدم الأمثلة على ذلك ما رواه الشعبى أن زيد بن ثابت صلى على جنازة ، ثم قربت إليه بغلته ليركبها ، فبادر إليه عبدالله بن عباس فأخذ بزمام البغلة ليساعده على الركوب ، فقال له زيد : خل عنه يابن عم رسول الله ، فأجابه ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء .

وقد حافظ ذرية ابن عباس على هذا الأدب من التلاميذ نحو أساتذتهم بعد أن صار بنو العباس ملوك الدنيا ، فقد نقل برهان الإسلام الزرنوجى فى كتاب تعليم المتعلم ، وهذا الكتاب ترجمة رولاند إلى اللغة اللاتينية وطبعه فى مدينة أوتراخت بألمانيا قبل نحو مائتين وخمسين سنة ، أن أمير المؤمنين هارون الرشيد بعث ابنه إلى الأصمعى ليعلمه العلم والأدب ، فرآه يوماً يتوضأ وابن الخليفة يصب الماء على رجله فعتب الخليفة على الأصمعى لأنه لم يأمره بأن يصب الماء بإحدى يديه ويغسل رجل أستاذه باليد الأخرى ، ورأى أن تقصير ابنه فى ذلك تقصير فى أدب التلميذ مع أستاذه .

وروى الزرنوجى فى هذا الكتاب أيضاً عن شيخه برهان الدين صاحب الهداية أن أحد كبار أئمة بخارى وهو فى حلقة درسه فى المسجد رأى ابن أستاذه يمر أمام باب المسجد فقام له تعظيما لحق أستاذه .

وقد علمنا من سيرة ابن خلدون أنه لما رزىء بوفاة كبار شيوخه (وكان منهم قاضي القضاة محمد بن عبد السلام والرئيس أبو محمد الحضرمي والعلامة محمد بن ابراهيم الآبلي) ضاق به وطنه فترك مقامه الوجيه الذي وصل إليه في قصر الإمارة ورحل عن تونس إلى الجزائر والمغرب الأقصى ، لأن مقام أساتذته كان في نفسه فوق كل مقام .

وهذه المحبة الصحيحة التي يكنها التلميذ لأستاذه هي التي حملت العالم أحمد بن القاضي على أن يقول في شيخه المنجوري : «وصارت الدنيا تصغر بين عيني ، كلما ذكرت أكل التراب للسانه ، والدود لبنانه» .

ومن ذلك قول ابن عرفة :ـ

إذا لم يكن في مجلس الدرس نكتة وإيضاح أشكال بأحسن صورة

الأبيات . فيجيبه تلميذه الأبي بقوله :

يميناً بمن أولاك في العلم رتبة وزان بك الدنيا بأحسن زينة
لمجلسك الأعلى كفيل بكلها على حينما عنه المجالس ولت

ووقت خروج جنازة أستاذنا الشيخ عمر بن الشيخ من منزله ليصلى عليها في جامع الزيتونة ذكرت خروجه منه لدرس كتاب المواقف والشيوخ ينتظرونه بموضع الدرس ، وذكرت قول أحد الأساتذة في قصيدة ألقاها عند ختم الكتاب :

إذا عمر بن الشيخ وافى لدرسه تصال التفت دار بعلم جفان

ففاضت عيناي بالدموع .

إن هذا الأدب الإسلامي الذي جعل من الطلبة أبناء للأساتذة كفلذات أكبادهم ، وجعل من الأساتذة آباء لتلاميذهم ، يعطفون عليهم أكثر من عطف الآباء على أبنائهم ، هو الأدب اللائق بنا أن نرجع اليه لتجدد في تاريخنا عهداً سعيداً ، فتنعم به ونسعد بنعمته ، والطلبة الذين يكتسبون من دراستهم مثل هذا الأدب ينالون به من السعادة أضعاف ما ينالون به من دراسة العلم مهما تقدموا فيه .

الختـــــــــان

نريد عرض بعض المشكلات الجنسية التى تهم الشباب والتى لها ولتوجيهها الوجهة الطبية أثر حسن ، ولكن يمنعنا الحياء لأننا لم نعتد عرض هذه المشكلات على صفحات الصحف والمجلات ، وإن كنا قد اعتدنا معالجتها فى الكتب . وقد كدنا نساير هذا الحياء فينا ونمشى على مقتضاه لو لا إلحاح بعض القراء فى أن نعالج هذه المشكلات ، وقد رأينا الحاجة ماسة والفائدة مرجوة ، وقــــد استشرنا الدين فرأيناه يقول لا حياء فى الدين ، ورأينا من نساء الصحابة من تسأل النبى ﷺ عن أمور قد يستحى منها ، عن خولة بنت حكيم أنها سألت النبى ﷺ عن المرأة تحتلم فى منامها ، فقال إذا رأت الماء فلتغتسل .

فاعتزمنا أن نعرض هـــــذه المشكلات : كالعادة السرية وموقف الدين منها ، وكالختان فى الذكر والأنثى وموقف الدين والعلم منها ، وسنبدأ بالكلام على الختان .

الختان فى التاريخ :

قال هيرودت المؤرخ اليونانى القديم إن الختان معروف منذ زمن بعيد فى مصر والحبشة ومنه يعلم أن المصريين والحبشة كانوا يمارسون الختان منذ زمن متقدم ، ويقال إن السوريين والفينيقيين أخذوا عادة الختان عن قدماء المصريين .

وفى سفر التكوين الإصحاح السابع عشر الآية التاسعة وما بعدها إلى الآية الرابعة عشرة : أن الله فرضه على إبراهيم وعلى جميع ذريته وجعله علامة الاتفاق والعهد بينه وبينهم .

وهو مذكور أيضاً فى قوانين موسى سفر اللاويين الإصحاح الثانى عشر الآية الثالثة وسفر الخروج الثانى عشر الآية ٤٥ و ٤٨ ، وقد حرص عليه اليهود فهم يختنون أطفالهم الذكور فى اليوم الثامن بعد ميلادهم .

وكان الختان متبعا فى أول عهود المسيحية ثم نبذه الرسل ولم تأخذ به الكنيسة فلم يبق إلا فى الحبشة .

وللختان عند اليهود قيمة رمزية إذ أنه عبارة عن عهد مبرم بين الله وإسرائيل يزكيه الدم ، وهو تعبير عن طهارة النفس ، وكان أنبياء اسرائيل يسمونه طهارة القلب ، ووجد الرحالون عادة الختان متبعة فى جميع أنحاء إفريقية السوداء ، ويظهر أن شعوب الأزتكيين فى أمريكا القديمة كانوا يعرفونها ، كما أنها مألوفة بين الشعوب الأسترالية الأصلية .

والمسلمون يؤدون عملية الختان بناء على أمر الرسول بها ، وهم يختتنون فى سن الثامنة وما بعدها من العمر .

والختان فوائد صحية وهو وقاية من أمراض تنشأ عن الالتهاب الجلدى .

والخفاض وختان الأنثى ، غير منتشر انتشار ختان الذكور ، وهو معروف بين الساميين والحاميين فى جنوب غرب آسيا وفى إفريقية ، وبين الزنوج فى جنوب إفريقية وشرقها ، وفى غرب السودان ، وعند قبائل أخرى ممن تسمى بالشعوب البدائية فى وسط إفريقيا وفى أستراليا وفى أمريكا ، ويلاحظ أن الآلات التى تستعمل فى الخفاض عند هذه الشعوب الأخيرة هى آلات بدائية مما يدل على أن هذه العادة ترجع إلى أقدم العصور .

الختان عند المسلمين :

هو قطع بعض مخصوص من عضو مخصوص ، قال الماوردى ختان الذكر قطع الجلدة التى تغطى الحشفة والمستحب أن تستوعب من أصلها عند أول الحشفة وأقل ما يجزىء ألا يبقى منها ما يتغشى به ، وقال إمام الحرمين المستحق فى الرجال قطع القلفة وهى الجلدة التى تغطى الحشفة حتى لا يبقى من الجلدة شىء يتدلى ، ونقل عن الرافعى أنه يتأدى الواجب بقطع شىء مما فوق الحشفة وإن قل ، بشرط أن يستوعب القطع تدوير رأسها ، قال النووى وهو شاذ والأول هو المعتمد ، والمستحق من ختان المرأة ما ينطلق عليه الإسم ، وقال الماوردى ختانها قطع جلدة تكون فى أعلى فرجها كالنواة أو كعرف الديك ، ويطلب ألا تستأصل .

مذاهب فقهاء الإسلام فى الختان وأدلتهم :

وأقوال علماء الفقه فى الختان ثلاثة : الأول أنه واجب فى حق الرجال والنساء ، والثانى أنه سنة فيهما ، والثالث أنه واجب فى الرجال دون النساء . حجة أصحاب القول الأول قوله ﷺ من أسلم فليختتن ، وقوله لأم عطية ، وكانت خافضة أشمى : ولا تنهكى ، وقوله ﷺ : يا نساء الأنصار اختضبن غمسا واختفضن ولا تنهكن وإياكن وكفران النعم .

وهذه الأحاديث طعن فى رجالها حتى قال ابن المنذر : ليس فى الختان خبر يرجع إليه ولا سنة تتبع [1] وحجة أصحاب القول الثانى قوله صلى الله عليه وسلم : الختان سنة فى الرجال

---

(١) وممن ذكر أحاديث الختان ونقد العلماء لها الامام محمد بن على الشوكانى فى نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار ج ١ ص ١١٢ و ١١٣

مكرمة فى النساء ، وقد طعن أيضا فى رجاله ومع كونه لا يحتج به ليس فيه ما يدل على المطلوب لأن السنة فى لسان الشارع أعم من السنة فى اصطلاح الأصوليين ، والحق أنه لم يقم دليل صحيح يدل على الوجوب فى النساء .

وخفاض المرأة موضوع يبحث فيه العالم الشرعى لبيان حكمه فى الشرع ، والعالم بوظائف الأعضاء ليبين وظيفة هذا العضو الذى يقع عليه الخفاض والعالم الاجتماعى ليبين آثار الخفاض الاجتماعية : أهى آثار حسنة أم آثار سيئة .

وعلم وظائف الأعضاء يرى أن هذا العضو حساس وأنه معين على إتمام عملية التخصيب ، وأن قطعه وإنهاكه يبعد الشهوة ، وإتمام العملية من المرأة الذى به تتم عملية الإخصاب ، ومن ذلك يرى بعض علماء الاجتماع أن الخفاض سبب فى انتشار المخدرات فى البلاد التى تزاوله ومنها مصر لأن الزوج يجد شهوته أقرب من شهوتها ، وأنه ينتهى قبل انتهائها ، ويشعر أن هذا يجعل العملية ناقصة تسبب ألما للزوجة وذلك يدعو إلى بغضها فيريد أن يكمل هذا النقص فيه ويجعل موافاة الشهوتين على قدره فيستعين ببعض العقاقير التى شاع خطأ أنها تبطىء موافاة المساء من الرجل وذلك الحشيش والأفيون والمعاجين التى يدخلان فى عناصرها ويزيدون فيقولون :

إذا أريد القضاء على آفة استعمال الحشيش والأفيون والمواد المخدرة فينبغى القضاء على أسبابها وهو خفاض المرأة لتكون المرأة طبيعية ويكون الرجل طبيعياً فلا يحتاج إلى هذه المواد كعنصر مساعد .

وأن على العالم الشرعى بعد ذلك أن يبحث فى نصوص الشرع ويرى هل هذه النصوص ملزمة حتما للخفاض فلا مندوحة عنه ، أم ليست كذلك ففيه مندوحة عنه . قد علمنا أقوال الفقهاء وأقوال رجال العلم فى ختان المرأة ، وعلمنا أن من الفقهاء من قال بأنه مكرمة وليس بواجب ومنهم من قال ليس فى الختان خبر يرجع إليه ولا سنة تتبع .

والعلم يرى أنه يضر بالحياة الزوجية ويؤدى إلى انتشار المخدرات بين الرجال ، فإذا ثبت كل ذلك فأمره سهل جداً فليس على من لم تختتن من النساء من بأس ومن اختتنت فيجب ألا ينهك هذا العضو منها ، وإذا منع فى مصر كما منع فى بعض البلاد الإسلامية كتركيا وبلاد المغرب فلا بأس ، والله الموفق للصواب .

محمد عرفة

عضو جماعة كبار العلماء

في راحة العيد :

الفكاهة في الأدب العربي

إن الضحك خلة إنسانية ، ولذا قال بعض الفلاسفة في تعريف الإنسان : إنه حيوان ضاحك ، كما قال البعض الآخر : إنه حيوان ناطق .

وذلك لأن الضحك ظاهرة تفرد بها دون سائر الحيوان .

أما قهقهة القرد فليست من الضحك إلا في الصورة والصوت ، والببغاء قد تحاكي الإنسان الضاحك كما تحاكي الإنسان المتكلم .

ولكنها جميعاً أصداء وأصوات ليس لها من التمييز المنطقي نصيب .

فالضحك ظاهرة نفسية يعبر بها الضاحك عن حالة عقلية ولكن لماذا يضحك الضاحك ؟ .

لقد بحث كثير من الفلاسفة وعلماء النفس في هذه الظاهرة ، واختلفت آراؤهم في تعليلها .

ففريق يرى أن الضحك حركة جسدية أو عملية جثمانية تنشأ من تحول الإحساس فجأة من الأعصاب إلى العضلات . فإن من المقرر في علم النفس أن التأثر إذا اشتد وألحف على الأعصاب تجاوزها إلى العضلات فظهر عليها في حركة عنيفة أو رقيقة على حسب قوته واشتداده .

فإذا حبس التأثر أو الانفعال في طريقه فجأة . تحول بغير إرادتنا من الأعصاب إلى أسهل العضلات حركة وأسرعها تأثراً وهي عضلات الوجه والشفتين ثم عضلات العنق والرئتين فتتحرك بالابتسام أو بالضحك أو بالقهقهة ، أو بالوقوف والاختلاج عند من يغلبه الضحك وتهتز له عضلات الجسم كله .

والدليل على ذلك عند أصحاب هذا الرأي هو أننا نضحك إذا غلبنا التأثر وتحول من العصب إلى العضل أيا كان الموحى به والباعث عليه ، فنضحك من الغيظ والألم ، ونضحك الضحكة الهستيرية التي يفرج بها المكروب عن أعصابه المكظومة كأنما يخفف عنها بنقل شيء من ضغط الاحساس عليها إلى العضلات .

والفكاهة تضحكنا لأنها تفاجىء التفكير بحالة غير مرتقبة وتعجله عن انتظار النتيجة فى طريقها الممهد المألوف .

ومن أصحاب هذا الرأى (هربرت سبنسر) وهو من فلاسفة القرن التاسع عشر .

فنى كل نكتة أو فكاهة، شىء من هذا التحول ، ولذلك تعد النكتة أو الفكاهة باردة إذا لم تكن محكمة التلفيق ، متقنة التزييف ، بحيث تهجم على الاحساس هجوما وتفاجىء الذهن مفاجأة .

وهناك مذهب يقول : إن علة الضحك فى الفكاهة هى اختلال فى القياس أو الاطراد على نسق واحد لا يوجب الاطراد . فالفكاهة إنما تنتج من الحقائق المتباعدة والصور المتنائية كقول ابن الرومى فى رجل اصلع :

يأخذ أعلى الوجه من رأسه أخذ نهار الصيف من ليله

فقد ألف بين صورتين متباعدتين ، وهما أن صلع الرجل جعل وجهه مغيراً على رأسه آخذاً منه كما أن تزايد نهار الصيف يجئ من تناقص ليله .

والضحك فى رأى (مكدوجل) هو وسيلة ابتكرتها الطبيعة لتنشىء ما يشبه التوازن فى نفسية الإنسان ، فهو مضطر بحكم اجتماعه بسائر الأفراد ، وبحكم ما غرز فى جبلته من ميل نحو مشاركة الغير فى همومه وأحزانه أن يحمل كثيراً من مصائب الناس . ولو كلفه المجتمع من هذا العبء ما يكلفه دون أن يحد منه أو ييسر عليه حمله ، لفدحه ذلك العبء وبهظه .

فكان حتما إذن أن نضحك من غيرنا فى المصائب الصغرى لنحزن معهم فى الكوارث الكبرى .

فإذا خدش القط إصبع الطفل ثار منا الضحك ، أما إذا عضه كلب فهشم أصابعه فإنه يتحرك فى نفوسنا الحزن والأسف .

وإذا أصيب رجل فى وجهه برذاذ من الوحل ضحكنا ، أما إذا أصابته شظايا قنبلة فعرضته للخطر حزنا وأسفنا .

ولعل هذا هو السر فى قوله تعالى ممتنا على خلقه ، مذكرا لهم بفضله ومقدرته « وإنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا » .

يقول الجاحظ فى كتابه البخلاء تعليقا على هذه الآية :

فوضع الضحك بإزاء الحياة ، ووضع البكاء بإزاء الموت ، والله لا يضيف إلى نفسه القبيح ولا يَمن على خلقه بالنقص .

والرأى عندى أنه ليس للضحك علة واحدة أو سبب واحد ، فالتماس علة واحدة لجميع الضحك خطأ لا يؤدى إلى رأى صائب . لأن الضحك وإن كان اسمه واحدا إلا أنه ليس بظاهرة واحدة حتى يكون له سبب واحد .

أما الأهداف التى تستعمل لها الفكاهة أو الضحك فكثيرة ، منها :

أولا : أن الفكاهة وسيلة يهون بها الإنسان على نفسه عبء الحاضر كما يدرىء بالنسيان كوارث الماضى ويستعين بالأمل المشرق على ظلمة الغيب المجهول . وليس للإنسان منصرف ولا محيد عن هذه السبل الثلاثة يخفف بها عنت الزمان وقسوة الحدثان . فلولا نعمة النسيان لازدحمت الذاكرة بفوادح الماضى حتى تنوء بحملها . ولولا الأمل لاجتمعت مخاوف المستقبل فيرتد أمامها الإنسان جازعاً فازعاً . ولولا الضحك نواجه به الحاضر لكان لنا من حادثاته ما ينقض ظهورنا ويهد كياننا .

ثانياً : أن الفكاهة أداة اصطنعها المجتمع لتأديب أفراده ، فقد تواضع الناس فى كل جماعة على لون من السلوك لا يجوز للفرد أن يخرج عليه إلا إذا أراد أن يضع نفسه موضع الضحك المتصل ، والفكاهة اللاذعة حتى يرتد إلى حظيرة المجتمع .

فالضحك أو الفكاهة فى هذه الحالة سوط من أسواط التأديب ووسيلة من وسائل الإصلاح .

أنظر إلى قول المتنبى فى رجلين قتلا جرذاً وأبرزاه ليعجب الناس من كبره .

وأيكما كان من خلفه فإن به عضة فى الذنب

فهذه صورة فكهة مضحكة فى هذا البيت : صورة شجار بين رجلين وبين جرذ ، فادعى الشاعر ــ ليسخر منهما ويستهزىء من فخرهما ــ أن أحدهما قد عض الجرذ فى ذنبه .

وهنا تختلط الفكاهة بالسخرية ، فينبغى أن نفرق بينهما .

السخرية من العقل ، والفكاهة من القلب ، فالساخر ينال غيره والفكه قد ينال نفسه .

والساخر يترفع ، والفكه يتساوى ويتنزل ، فالسخر من الارستوقراطية ، والفكاهة من الديموقراطية .

وأكثر السخرية سيء خبيث ، وأكثر الفكاهة ودود لطيف .

والسخر يطعن ، والفكاهة تصدم .

على أن من السخرية ما هو رقيق لين يمازجه العطف ويخالطه الرفق وفيه ضحك ، وربما يستخدم فى الأغراض التى تستخدم فيها الفكاهة .

الهدف الثالث من الفكاهة هو أنها تستخدم لونا من ألوان الحجة ، وضربا من ضروب البرهان ، وطريقا من طرق الاقناع . وأوضح مثل لذلك الجاحظ فى كتاباته ، فكان يخلط الحقيقة الجافة بالفكاهة الحلوة ، والجد المسئم بالضحك المؤنس ، والبرهان المقنع بالتهكم الموجع .

لقد توفرت لديه كل أركان الفكاهة السائغة ، والدعابة المسكتة من قصر فى القامة وجحوظ فى العينين ، وسواد فى الوجه ، ودمامة فى الخلقة ، وبشاعة فى المنظر .

وقديما اشتهر بشار بالدعابة المسكتة ، والفكاهة والنكتة اللاذعة المحرجة .

روى صاحب الأغانى عن بعض الكوفيين يقول :

مررت ببشار وهو منبطح على الأرض كأنه جاموسة فقلت له يا أبامعاذ من القائل :

فى حلتى جسم فتى ناحل لو هبت الريح به طاحا

قال : أنا .

قلت فما حملك على هذا الكذب ؟ والله إنى لأرى أن لو بعث الله الرياح التى أهلك بها الأمم الخالية ما حركتك من موضعك .

فقال بشار : من أين أنت ؟

قلت : من أهل الكوفة .

فقال : يا أهل الكوفة ، لا تدعون ثقلكم ومقتكم على كل حال .

دخل يزيد بن منصور الحميرى على المهدى ، وبشار بين يديه ينشده قصيدة امتدحه بها فلما فرغ منها أقبل عليه يزيد ـ وكانت فيه غفلة ـ فقال له : يا شيخ ما صناعتك ؟ .

فقال بشار : أثقب اللؤلؤ .

فضحك المهدى ثم قال لبشار : اعزب ويلك ، أتتنا در على خالى ؟ فقال له : وما أصنع به ؟ يرى شيخا أعمى ينشد الخليفة شعرا ثم يسأله عن صناعته .

أتى الجاحظ يوما ثقيل فقال له : قد سمعت أن لك ألف جواب مسكت ، فعلمنى منها . قال الجاحظ : نعم .

فقال له الثقيل : إذا قال لى شخص يا ثقيل الروح ، فأى شىء أقول له ؟ .

فقال له الجاحظ : قل له صدقت يا هذا ولم تكذب .

وقال الجاحظ مرة : ما أخجلنى أحد مثل امرأة رأيتها فى مدينة العسكر ببغداد ، وكانت طويلة القامة وكنت على طعام ، فأردت أن أمازحها فقلت : أنزلى كلى معنا . فقالت : أصعد أنت حتى ترى الدنيا .

والهدف الرابع من أهداف الفكاهة هو التظرف فحسب .

والهدف الخامس أنها قد تتخذ وسيلة لتحميلها خبيث الآراء وفاسد المعتقدات ، والتوارى وراءها لنشر الخطر من الآراء التى لا تبيح قوانين المجتمع نشرها . فقراراً من العتاب ونجاة من الأذى يلبسون الفكاهة تلك المذاهب ويحملون النكتة تلك الآراء .

كما حكى الجاحظ عن الشرق القطامى أن ابن أبى عتيق لقى عائشة رضى الله عنها على بغلة فقال : إلى أين يا أماه ؟

فقالت له : أصلح بين حيين تقاتلا .

فقال ابن أبى عتيق عزمت عليك إلا ما رجعت ، فما غسلنا أيدينا من يوم الجمل حتى ترجع إلى يوم البغلة .

فهذه حكاية أوردها الشرق لغله ودغله على وجه النادرة لتحفظ ، ويضحك منها ويتعلق بها من غفل وقلت فطنته ، فيكون ذلك أنجع وأنفع لما أراد من التعرض لقدر أم المؤمنين رضى الله عنها .

ومثل هذه الفكاهات كثيرا ما تصدر من المتزندقين والملحدين والإباحيين الخارجين على قوانين الأخلاق وتقاليد المجتمع .

استأذن أبو العيناء يوما على الوزير صاعد بن مخلد ، فقال له الحاجب : الوزير مشغول فانتظر .

فلما أبطأ أذنه قال للحاجب : ما يصنع الوزير ؟ قال يصلى . فقال صدقت ، لكل جديد لذة . يعيره بأنه حديث عهد بالإسلام ، والهدف السادس أن الفكاهة تتخذ وسيلة من وسائل الشفاعات والتوسط فى قضاء الحاجات لما يعقبها من سرور وما يكتنفها من خفة ومرح . فكم من ظريفة من الخطاب ومليحة من الجواب خلصت من الهلاك .

قال الأصمعى :

خرج الحجاج متصيدا فوقف على أعرابى يرعى إبلا وقد انقطع الحجاج عن أصحابه .

فقال : يا أعرابى ، كيف سيرة أميركم الحجاج ؟

فقال الأعرابى : غشوم ظلوم ، لا حياه الله ولا بياه .

قال الحجاج : فلو شكوتموه إلى أمير المؤمنين .

فقال الأعرابى : هو أظلم منه وأغشم ، عليه لعنة الله .

قال الأصمعى : فبينا هو كذلك إذ أحاطت بالحجاج جنوده ، فأومأ إلى الأعرابى فأخذ وحمل .

فلما صار معهم قال : من هذا ؟ قالوا : الأمير الحجاج .

فعلم الرجل أنه قد أحيط به ، فحرك دابته حتى صار بالقرب منه ، فناداه : أيها الأمير .

قال : ما تشاء يا أعرابى ؟

قال : أحب أن يكون السر الذى بينى وبينك مكتوما .

فضحك الحجاج وخلى سبيله .

ففكاهة الأمة مرآة تصور أخلاقها وأسرار مزاجها .

ولأهل مصر شهرة فائقة فى الفكاهات والدعابة لخفة فى الروح وظرف فى النفس وصفاء فى الطبع وبديهة فى الجواب .

كان للمرحوم الأستاذ عثمان لبيب الذى كان أستاذاً للرياضة بدار العلوم حمار يتنقل عليه فى دروب القاهرة وفى الذهاب للقيام بعمله ، فسرقه اللصوص .

فبلغ الخبر المرحوم الأستاذ محمود سلامه صاحب جريدة الواعظ ، فقال يرثى الحمار المسروق مداعباً مفاكها :

قف بسوق الحمير وانظر مليا   هل ترى أدهما أغر الحيا

خلســته يد اللصوص صباحا موكفاً ملجماً معداً مهيــاً
فخلا اصطبـــله وأصبح قاعا صفصفاً خاوى العروش خليا
كان يا حسرتا عليــه صبوراً قانع النفس راضيـاً مرضيا
كم ليال على الطوى قد طواها حامداً شاكراً ولم يشـك شيا
لا لفقر وضيق عيش ولكن كان فى الزهد راغباً وتقيا
لو أتاح الإلـه للبهم رسـلا كان فى أمة الحــمير نبيا
ليت شعرى أين الأمان وهــذا جحش عثمان قد عدمناه حيا
كان عونا له إذا رام ظعنا وخليلا لدى المقـــام صفيا
كان ان قلت (هش) أجابك طوعا وإن قلت (حا) انتحى سمهريا
لك خير العزاء عثمان ، أما سالبوه فسوف يلقون غيا

عبد الوهاب حمودة

أستاذ الأدب العربى ـ كلية الآداب بجامعة فؤاد

أول مدرسة للطب فى أوربا

أول مدرسة أنشئت للطب فى أوربا هى المدرسة التى أنشأها أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر الأموى فى قرطبة .

وقد امتلأت الأندلس بالمدارس لجميع العلوم فى عهد العرب ، بما لم يكن له نظير فى أى مملكة أوربية أخرى يومئذ .

بل يقال إن جامعة (مونبليه) الطبية فى جنوب فرنسا كان للعرب فضل فى تأسيسها .

نظرات فى كتاب الأموال

فى الفقــه الإسلامى

للدكتور محمد يوسف موسى

هذا كتاب فى الفقه وضع على نمط جديد . وهو تذليل سبل الفقه وجمع أطراف مباحثه وتقريبه من لغة القانون ونهج الدراسات الحقوقية فى هذا العصر . وقد استتبع هذا ذكر آراء الفقهاء ، ووجهة أنظارهم واختيار أدناها إلى مصالح الناس ، مع ذكر رأى القانون بجانب الفقه ، فكان فى ذلك دراسة ممتعة مفيدة . وكان هذا منهجا مفيدا لما يسمونه « الفقه المقارن »

وأحسب أن « الفقه المقارن » حل محل علم يتصل بالفقه؛ كان يعنى به قديماً ، وقد وضعت فيه التصانيف العديدة ، وهو علم الخلاف . وأساسه ذكر المسائل الفقهية المختلف فيها ، وذكر الأدلة المذهبية والحجاج لها ، ويقتصر صاحب الكتاب لمذهبه . وقد يتبع سبيل التصفة ، فلا يبالى أن ينتصر لغير مذهبه . وقد بقى بعض هذا فى كتب الحنفية ، فهى تعرض لخلاف الشافعية ، وتطيل فى ذكر حججهم والرد عليها .

ولقد أبان الأستاذ الصديق الدكتور محمد يوسف موسى الباعث له على هذه الخطة المبدعة فى الفصل الذى جعل عنوانه : « [1] الغرض من دراسة الفقه الإسلامى » . ذلك أنه حدث فى الآونة الأخيرة فى عصرنا أن مال بعض من يوكل إليهم سن القوانين فى مصر إلى جعل الشريعة هى الأساس الأول الذى يبنى عليه التشريع ، بعد إقرار مؤتمر القانون المقارن الذى عقد فى لاهاى سنة ١٩٣٨ باعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع . وقد ذكر فى هذا الصدد أن من العقبات فى هذا الغرض الكريم عسر فهم الشريعة من مصادرها الحالية ، ونأيها عن الطرق المذللة التى جرت عليها دراسة القانون . فانتدب الأستاذ للقيام بهذا العمل النبيل وهو خير من يتولى هذا الأمر ، فقد حذق الثقافة الأزهرية والثقافة الغربية التى هى عماد القانون .

وقد بدأ عمله بدراسة (العقد) فى الفقه الإسلامى . والعقد أساس المعاملات ، وبحوثه متفرقة فى كتب الفقهاء . فعنى المؤلف بجمعها ، وتكوين وحدة متماسكة منها ، حتى يكون الدارس على بينة منها ، وعلى بصيرة فى أحكامها ، وفهم لمراميها .

---

(١) ص ١٠٤ وما بعدها .

وصدر الأستاذ كتابه بمدخل لدراسة الفقه ، ضمنه علماً جماً ، ومعرفة واسعة فى تاريخ التشريع والمذاهب الفقهية ورجالاتها ، وأصول الفقه ، وغير ذلك من الدراسات الجليلة .

ولقد أشاد المؤلف بالفقه الإسلامى ، وأبان عن مآثره ، وجلى من مزاياه وفضله على القانون فى الفصل الذى عقده تحت عنوان « [1]طبيعة الفقه الإسلامى وخصائصه » وهو فصل لا يبين فضله إلا بقراءته ؛ فهو عظيم الخطر ، حميد الأثر .

هذا الكتاب إذن حرى بحسن الاستقبال ، خليق أن يكرم ويعرف له حقه . وقد نال هذا ، فأحسن الناس استقباله . وعرفوا له مكانته وشأنه .

ومن حسن استقباله أن يدرسه الدارسون ، وينقده الناقدون ، وأن يتناول كل ما فيه من دقيقة وجليلة بالبحث والتمحيص .

وكتبت مجلة الأزهر الجليلة فى جزء شعبان ١٣٧٢ (ص ١٠١٨) عن الكتاب فقرظته ونوهت به ، وأولته حقه من الثناء بما هو أهله .

والكتاب الذى عرض لكبرى المسائل وأجل البحوث والدراسات العالية ينبغى أن تكثر الكتابة عنه ، وتسجل شتى النظرات فيه ، عرفانا بجلاله وخطره .

لهذا لم أر من الحديث المعاد ولا الكلام المكرور أن أعيد النظر فيه وأن أدون نظراتى فى هذا البحث .

وهمى أن أذكر بعض ما غمض فى الكتاب رغبة فى استجلائه ، أو بعض أشياء أرى فيها غير ما يرى الأستاذ ، وسبيلنا جميعاً إن شاء الله التهدى للحق ، وابتغاء طريقه .

١ — فى ص ٢٢ عرض الأستاذ للسنة ، المصدر الثانى للتشريع بعد القرآن ، ولبيان الرسول عليه الصلاة والسلام للأحكام ، وهو فى هذا يقول : « فكان الرسول إذا سئل عن مسألة أوجدت حادثة تقتضى حكما من الشارع ينتظر الوحى السماوى ، فإن نزل بالمراد فيها ، وإلا كان هذا إيذاناً من الله بأنه وكل إلى رسوله أن ينطق بالتشريع اللازم ، ومعلوم أنه لا ينطق عن الهوى ، وأحياناً أخرى كان الرسول يجتهد فى الحكم ثم يصدر رأيه . وهنا لا يقره الله على هذا الرأى إلا إذا كان صوابا ، وقد وقفت عند الحالة الثانية ماذا يراد بها ،

---

(١) ص ١٣٦ .

إن هنا فروضا ثلاثة: أن يوكل اليه التشريع بمقتضى الوحى، أو بمقتضى اجتهاده، أو يصدر التشريع من تلقاء نفسه، لا يعتمد فيه على وحى ولا على اجتهاد.

والفرضان الأولان لا مجال للمصير اليهما؛ لأنهما الحالة الأولى والثالثة، والحالة الثانية مباينة لهما، فلا تدخل فى إحداهما. فالحالة الثانية اذن أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يشرع الأحكام من غير إستناد الى وحى ولا اجتهاد، فهو لا يتلقى الحكم من الوحى، ولا يقيس على ما جاء من الوحى أو يستلهم روح الشريعة - كما يعبر المؤلف عن الاجتهاد فى بعض الأحيان - وإنما يرتجل الحكم ارتجالا. فهل يريد المؤلف هذا؟.

يقول المؤلف فى ص ١٣٨: «أساس هذا الفقه إذاً هو وحى الله تعالى. هذا الوحى الذى نجده فى كتابه الكريم. وسنة رسوله العظيم الذى لا ينطق عن الهوى». فتراه يجعل السنة راجعة إلى الوحى. وهذا يوافق ما نقله المؤلف فى ص ١١١ عن الأوزاعى إذ يقول «إذا بلغك عن رسول الله ﷺ حديث فإياك أن تقول بغيره، فإنه كان مبلغا عن الله» ويقول الغزالى فى المستصفى ١/١٢٩: «إن بعض الوحى يتلى فيسمى كتاباً، وبعضه لا يتلى وهو السنة».

وفى الحق أن ما يرد فى السنة من الأحكام قد يرد تطبيقاً لقاعدة سبق تشريعها. وهذا أمره ظاهر، ولا يقال: إنه ثابت بالاجتهاد، فأمره أيسر أن يحتاج إلى ذلك. ومن أمثلته ما رواه سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن شراء التمر بالرطب، فقال النبى ﷺ: أينقص الرطب إذا يبس؟ قالوا: نعم فنهى عن ذلك. رواه الشافعى فى الرسالة ٣٣٢، وهو فى الموطأ.

ومن السنة ما جاء بوحى ظاهر لا مرية فيه، وذلك كبيان الصلاة وأنها خمس، فقد أوحى إليه ذلك فى ليلة الإسراء، كما هو معروف، ومن ذلك مقادير الزكاة، وغيرها، وهذا يطرد فى سائر السنة.

وإذا قيل إن السنة مبينة للكتاب فرجع البيان الوحى. ويذكر المؤلف فى عدة مواضع أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يستلهم فى البيان روح القرآن ومقاصده، وذلك كما ذكره مثلا فى ص ٢٧. ومن البين أن المجمل كالصلاة والزكاة لا يبين باستلهام روح القرآن ومقاصده. بل لا بد فى هذا من البيان الصريح يتلقاه الرسول عليه الصلاة

والسلام من الشارع الحكيم ، وحظه من ذلك التبليغ ، وهذا على حين لا يزال الوحى ينزل لبيان المجمل وتقييد المطلق وتجلية اللبس والإبانة عن الأمر بالحق اليقين ، وهذا هو الذى استقر عليه الفقهاء والأصوليون ودانوا به ، والتزموه مذهبا لهم وإماما .

على أن إعطاء الرسول عليه الصلاة والسلام سلطان التشريع رأى قال به قوم فى بدء البحث فى هذه الأمور ، ورغب الناس عنه ، وصار قولا مهجورا . وقد حكاه الشافعى فى الرسالة [1] إذ يقول : « والوجه الثالث ما سن رسول الله ﷺ فيما ليس فيه نص كتاب . فنهم من قال : جعل الله له بما افترض من طاعته ، وسبق فى علمه من توفيقه لرضاه ، أن يسن فيما ليس فيه نص كتاب » . وقد احتج الشافعى بعد للقول أن كل ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام بالوحى أو بما يلقى فى روعه .

ونرى هذا الرأى بعد مسألة نظرية جوازية غير واقعية . وقد ذكرها أبو اسحق الشيرازى فى اللمع فى أواخر الكتاب حيث يقول : « ويجوز أن يتعبد الله نبيه ﷺ بوضع الشرع ، فيقول له : افرض وسن ما ترى أنه مصلحة للخلق . وقال أكثر القدرية : لا يجوز . وهذا خطأ ؛ لأنه ليس فى تجويز ذلك إحالة ولا فساد ، فوجب أن يكون جائزا » .

٢ — وفى ص ٢٦ يذكر أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الذى بين أن المراد بشهر رمضان « الشهر القمرى لا الشمسى ، وأن الصوم يكون من الفجر إلى الغروب » . ورمضان من الشهور العربية القمرية ، وهو فى ذلك غنى عن البيان . ووقت الصوم ورد به البيان فى قوله تعالى : وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل . اللهم إلا أن يرمى المؤلف إلى ما وقع فيه بعض المسلمين من حمل الخيط الأبيض والخيط الأسود على حقيقتهما . وقد رمى بالغفلة وقلة الفطنة . « [2] وروى البخارى ومسلم عن سهل بن سعيد قال : نزلت (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود) ولم ينزل (من الفجر) فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم فى رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود ، ولا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له رؤيتهما . فأنزل الله (من الفجر) فعلموا أنه يعنى بذلك بياض النهار » .

(١) ص ٩٢ طبعة الاستاذ الشيخ أحمد شاكر .
(٢) تفسير القرطبى ٢ / ٣١٩

٣ — وفى ص ٢٤ فى الحديث عن اجتهاده عليه الصلاة والسلام ندت من الكاتب كلمة وددت لو لم يقع فيها، ولا مرية أنها فلتة لم يلق اليها بالا . وذلك إذ يقول : « فقول الله تعالى . (عفا الله عنك لم أذنت لهم) ينطوى على أن الرسول لم يصحبه توفيق الله فى اجتهاده وإذنه لمن استأذنه » .

٤ — وفى ص ١٢٠ يذكر عن السنة أنها تجىء فى الاحتجاج بعد الكتاب، ثم يقول : « فلا يصار إليها إلا عند عدم نص من القرآن يفى بما يريد » والعهد بالفقهاء أن يستدلوا على الحكم بالكتاب والسنة، ويتطلبوا السنة فيما جاء به الكتاب، ويقول الشافعى فى الرسالة : « (١) فلم أعلم من أهل العلم مخالفا فى أن سنن النبى من ثلاثة وجوه، فاجتمعوا منها على وجهين والوجهان يجتمعان ويتفرعان . أحدهما ما أنزل الله فيه نص كتاب، فبين رسول الله مثل نص الكتاب » .

٥ — وفى ص ٤٢ يذكر أن عليا رضى الله عنه رد حديثاً رواه معقل بن سنان فى المفوضة التى مات عنها زوجها دون أن يسمى لها مهرا، وآثر أن يقيس هذه المسألة على الطلاق، ولم يأخذ بما فى الخبر أن لها مهر مثلها . ويقول المؤلف : « فقدم القياس على خبر الواحد، وهو مذهب الأحناف، على حين أن عبد الله بن مسعود لا يرى هذا القياس بل يرى الأخذ بخبر الواحد الذى رواه عن الرسول معقل بن سنان » . ويتضمن هذا الكلام أمرين :

الأمر الأول أن الإمام علياً رضى الله عنه يقدم القياس على خبر الواحد، وهذا يكاد يكون مخالفا لما استقر عليه الاجماع أن الصحابة كلهم يأخذون بخبر الواحد، ولا يلجأون الى القياس ما وجدوا خبراً عن الرسول عليه الصلاة والسلام وانما كان همهم أن يستوثقوا من الرواية وتختلف طرقهم فى ذلك .

والمروى عن على رضى الله عنه أنه كان يستحلف من يروى له الخبر عن الرسول عليه الصلاة والسلام .

ويقول أبو إسحق الشيرازى فى اللمع (٢) : « وكان على - كرم الله وجهه - يرجع إلى أخبار الآحاد، ويستظهر فيها باليمين . وقال : إذا حدثنى أحد عن رسول الله ﷺ أحلفته

---

(١) ص ٩١ . (٢) ص ٤٨ .

فإذا حلف صدقته ، إلا أبا بكر . وحدثنى أبو بكر ، وصدق أبو بكر » . وكأن أبا يوسف صاحب أبى حنيفة لم يبلغه خبر على على تمامه ، فهو يقول (١) : « وكان على بن أبى طالب لا يقبل الحديث عن رسول الله ﷺ » .

وقد لاحظ هذا الشيخ الخضرى فكتب فى حاشية كتاب « التشريع الإسلامى » تعقيباً على كلام أبى يوسف (٢) « المعروف أنه كان يستحلف الرواة . وقد مثا ذلك » وهو يشير الى ما جاء فى ص ١٢٦ من كتابه ، وهو فى معنى ما رواه أبو إسحق الشيرازى ، وإنما رد على رضى الله عنه خبر معقل لأنه رآه أعرابياً لا يضبط ما يروى . ويذكر صاحب التلويح فى أصول الحنفية أن علياً قال فيه : « ما نصنع بقول أعرابى بوال على عقبيه » فرد خبره لأنه خبر واحد . ولكنه لأنه لم يستأهل أن يكون من أهل الرواية عنده .

ويذكر المؤلف أن القياس فى مسألة المفوضة لا يتفق مع خبر معقل . وهذا بالنظر إلى الطلاق . وهناك قياس أظهر منه ، وهو القياس على الدخول ، فإن الموت والدخول يجتمعان فى إيجاب العدة ، فالموت يوجب المهر كالدخول وهذا ما جاء به خبر معقل . وقد أخذ الحنفية بهذا : كما فى التلويح .

والأمر الثانى أن الحنفية يقدمون القياس على خبر الواحد . وليس هذا صحيحاً على إطلاقه ، فعندهم أن الراوى إذا كان من أهل الفقه والرواية قدم خبره على القياس . ولهم فى هذا تفصيل يعلم من كتبهم . (البحث بقية)

محمد على النجار

---

(١) انظر الأم للشافعى ٣٠٨/٧ فى سير الأوزاعى .

(٢) ص ٢٠٢ طبعة المكتبة التجارية .

كتب غربية عن الإسلام

١ ـ الدين المقارن : للدكتور ا . س . بوكيه ـ ١٩٥٠ ـ ٣١٩ صفحة

Comparative Religion - by A. C. Bouquet.

يهدف الدكتور بوكيه ـ أستاذ التاريخ والدين المقارن بجامعة كامبردج ـ إلى كتابة قصة واضحة على منهج علمى ، ومن ثم يحاول ـ بنجاح ملحوظ ـ الكتابة من وجهة نظر موضوعية ، وهو لا يكتب هذا الوصف للأديان الكبرى فى العالم للقارئ العادى غير المتخصص فى الموضوع ، فإن مثل هذا القارئ لا يلبث حتى يجد نفسه حائرًا أمام كتاباته عن أديان العالم جميعا كما يؤمن بها أصحابها ويمارسون عبادتها .

وقد خص الفصل العاشر من كتابه هذا ، ص ٢٦٤ — ٢٨٣ ، بالكتابة عن الدين الإسلامى ، فتحدث عن الصلاة ، وعن حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو حديث لا يرضى المسلمين ولا التاريخ لتجنيه على الحقيقة وبعده عن الواقع ، ثم يناقش طبيعة الرسالة المحمدية ، والقرآن وتطور الفقه والتعليم فى الإسلام ، وعلى الرغم من ضيق صفحات الكتاب ، فقد بذل المؤلف غاية جهده فى استيعاب الموضوع ؛ كما تحدث عن التصوف الإسلامى فى باب التصوف عامة أكثر من حديثه عنه فى باب الإسلام .

* * *

٢ — أركان الإسلام الخمس : ل . بيفان جونز ـ ١٦ صفحة .

The Five Pillars of Islam : L. Bevan Jones.

مؤلف هذا الكتيب كان عميدا لمدرسة هنرى مارتن للدراسات الإسلامية بجامعة عليجرة ، ونشرته « جمعية الإخوان الإسلامية » بوصفه العدد الثانى فى سلسلة كتب « أضواء على الإسلام » .

بدأ الكاتب بالتمييز بين « الإيمان » و « الدين » ، ثم تناول كلا من أركان الدين ، فوصفها فى إيجاز شارحا إياها شرحا يستفيد منه غير المسلمين ، والكتيب ـ فى صورته الموجزة ـ وصف واضح للناحية النظرية للدين .

ويلاحظ أن الناشر قد وضع على غلاف هذا الكتيب الإسلامى صورة أحد المعابد الوثنيـــة !

• • •

٣ ــ الإسلام : عقائد وعبادات : ا. س. تريتون ـ ١٩٠ صفحة .

Islam : Beliefs and Practices : A. S. Tritton London - Hutchinsons Un. Library - 1951.

كتاب فى حجم كتب الجيب يعطينا ، تقريراً عن أصـول الإسلام ، مع بيان ، بعض المفارقات الواضحة » . أما الكاتب فهو أســتاذ اللغة العربية السابق فى مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن .

والكتاب ملئ بمعلومات طريفة فى أسلوب موجز ، وذو أهمية كبيرة لمن له معرفة سابقة بالدين الإسلامى ، نظرا لشدة إيجازه وازدحام الحقائق فيه .

ولما كان المفروض أن يستطيع القارئ التمييز بين وجوه الإسلام الخاصة ، وبين وجوهه العامة ، فإن القارئ الذى يجهلها ، يجد صعوبة فى معرفة أى الفقرات تتحدث عن العادات اليومية وأيها تتحدث عن العادات غير المألوفة .

ويبدأ الكتاب بفصل عن رسالة النبى ، والقرآن ، والأركان الخمس . وعلى الرغم من أن الكتاب يهدف إلى النقد ، إلا أنه مشوب بروح الود . وفهم الأساس التاريخى .

كما يتحدث المؤلف عن : الحديث ، وعقائد الإسلام ، وشرائعه فى إسهاب .

وثمت فصل عن الفرق sects يحوى مادة لا يعرفها الكثيرون من الغربيين ، وعقد لحديثه عن التصوف فصلا استعمل فيه الاصطلاحات الصوفية ، كما ذكرها المتصوفة ، وترجمها إلى الإنجليزية .

ومما يؤخذ عليه فى الأصول السابقة عدم ذكره لمصادر ما اقتبسه من نصوص .

ويتحدث بعد ذلك عن الدولة والعدالة والتعليم والحياة الاجتماعية والنظريات الأخلاقية ، والزواج والرق والخرافات ، ثم بحث موجز عن الحركات الحديثة المقترنة بنشأة ، الفرق ، الجديدة فى إيران والهند .

وينتهى الكتاب بفهرست للأعلام والمراجع .

ويعلن الأستاذ تريتون ـ فى نهاية كتابه ـ تقديره العظيم للإسلام ، وإعجابه الجم بالمسلمين.

٤ ـ المختار عن القرآن : جورج لامزا صفحاته ٢٠ ، ٣٧٧ سنة ١٩٤٩ م .

The Short Koran-Edited by George M. Lamsa. Chicago - 1949 PP. XX. 377.

[ختار مخرج هذا الكتاب آيات معينة من القرآن الكريم ، ورتبها فى ٩١ فصلا ، يحاول أن يعرف العالم الغربى بالدين الإسلامى ، نظرا لازدياد الصلات بين الاثنين عاما بعد عام .

ويذكر محرر الكتاب أنه لم يكن يعرف عن الإسلام شيئا أكثر مما يشاع عنه بين المسيحيين ، حتى شاءت عناية الله أن يظفر بدراسته على يد شيخ مسلم ، ومن ثم عرف الإسلام دين الحق .

وتبحث مقدمة الكتاب فى السيرة النبوية ، والحالة الإجتماعية فى الجاهلية وبعد ظهور الإسلام .

ويذكر الكاتب أن المسيحيين الذين نشأوا حيث ظهر المسيح أقدر على تفهم المسيح من مفكرى الغرب لتباين الثقافات ، ويؤيد حديثه مستشهدا بالأستاذ فوربنى حين يقول « إن الكنيسة النسطورية والإسلام يقفان جنبا إلى جنب يقاومان تدخل الثقافة اليونانية فى الشرق . وقد اعتنق الآلاف من أتباع الكنيسة النسطورية فى الشرق الدين الإسلامى بعد أن رأوا فى محمد (صلى الله عليه وسلم) ، مصلحا للمسيحية ، يحمل الرسالة ضد عبادة الصور ، كما وجدوا أن تعاليم نبى الإسلام عن وحدة الله وعن الصلاة والعبادة هى أقرب إلى تعاليم المسيح من الصورة التى يرسمها المسيحيون الإغريق للمسيحية والتى فرضها عليهم الأباطرة البيزنطيون وجاء الإسلام فكان فى نظرهم ناشرا لضوء المدنية فى العالم كله » .

أما فصول الكتاب فتشمل الآيات المختصة بموضوع واحد بمجموعة من السور المختلفة ، ويجعل لكل نبى فصلا واحدا ، فيما عدا المسيح فقد أفرد له سبعة فصول . كما أفرد فصولا تناولت الأمور العامة مثل الملائكة والصلاة والربا وغير ذلك .

واعتمد محرر الكتاب ـ نظرا لعدم معرفته اللغة العربية ـ على ترجمة جورج سيل Sale ، فى اختيار الآيات التى تناسب المواضيع التى يتحدث عنها .

أعلام المسلمين

ابن المبـــــارك

في بطون التاريخ وأسفاره نفائس من كنوز المثل العليا في العلم والأدب ، والزهد والاستقامة والخلق العظيم جدير بكل طموح أن ينظر فيها ويتزود منها لتدفع به إلى فوق . ومن هؤلاء ذلك الإمام الجليل (عبد الله بن المبارك) .

• • •

لقد كان عبد الله بن المبارك مثال الرجل العالم الجامع لأشتات العالم في عهده من الحديث والفقه والعربية وأيام الناس . وإن كانت شهرته بالحديث والفقه هي التي بقيت له .

---

٥ — القرآن Le Coran : Traduction Par O. Pesle et Ahmed Tidjani. Paris - 1950

ونختم هذا الحديث بالكلام عن ترجمة فرنسية جديدة للقرآن ظهرت في باريس سنة ١٩٥٠ نتيجة لتعاون مسلم جزائري وفرنسي مسيحي . الأول مترجم إدارة الشئون الشريفية ، والثاني أستاذ في معهد الدراسات العليا في مراكش . وللترجمة « قاموس قانوني » ذكر فيه أرقام الآيات التي تبحث في أمور قضائية كالزواج والطلاق والتبني والبيع والشراء وما شابه ذلك ثم « قاموس جغرافي تاريخي » ذكر فيه أسماء الأعلام والبلدان التي وردت في القرآن مرتبة ترتيبا أبجديا . وبجانب القاموسين تعليقات مختصرة .

وكتب المقدمة أوكتاف برل أحد المترجمين . والترجمة أسلوبها جيد ، تعتمد على تفسير البيضاوي ، وإن كانت لا تخلو من أخطاء كثيرة .

ورأي الأزهر في ترجمة القرآن معروف .

محمد طلعت زهران
أستاذ في الآداب

ولقد كان على جانب خصيب من الزهد والمروءة والسخاء العجيب ، موطأ الأكناف رحب الذراع مع شجاعة نادرة فى نفس مؤمنة صادقة يجاهد فى الله حق جهاده حتى استوت له شخصية زاحمت شخصيات الملوك والخلفاء . وو ُضع فى النفوس أسمى من السماء .

ولد ابن المبارك سنة ثمانى عشرة ومائة وتوفى سنة اثنتين وثمانين ومائة ، فهو من أعلام القرن الثانى ، وأفذاذ العصر العباسى الذهبى ، الذى كان يموج بالعلوم والمعارف موجا على اختلافها ، والذى استقرت فيه علوم الشريعة الإسلامية باستقرار الملك والخلافة لآل العباس فظهر الفقه الناضج المرتب على أصوله وتنافس الناس فى سنة النبى ﷺ وهى أعز شىء بعد الكتاب عند المسلمين وهى أساس التفسير والفقه ومطلع شمس الهداية فى أمة محمد ﷺ .

وقد امتاز الموالى فى ذلك العهد بأن الكثرة الكاثرة من حملة ألوية العلم والثقافة كانت منهم لأنهم شاءوا أن ينافسوا العرب بما يرفع الإسلام وهو العلم والخلق . وكان ابن المبارك من هؤلاء الموالى وكانت أمه خوارزمية وأبوه تركيا وكان عبداً لرجل من التجار من همذان ، وعاملا فى بستان .

فقد نشأ إذا نشأة الموالى المتواضعة المنافسة فى عهد عبدت فيه سبل العلم وسهل مشارعه وشجع الخلفاء رجاله بالمال الوفير واسناد المناصب الخطيرة فى الدولة إليهم . وابن المبارك على استعداد عجيب نادر يمر وهو فى المكتب بخطيب يخطب فيحفظ خطبته ويلقيها كما سمعها .

وقد شغف بالعلم شغفاً شديداً وطلبه عند رجاله من أئمة العلم فى مرو وخوارزم وبغداد يرحل إليهم حيثما كانوا يأخذ عنهم ويكتب بين يديهم ويناقشهم ، فتلمذ لإمام دار الهجرة مالك وأخذ عنه الموطأ ، وتلمذ لسفيان الثورى وأخذ عنه ما عنده من الفقه والحديث ، وتلمذ لأعلام تفاخر بهم أمة محمد ﷺ من أمثال الليث بن سعد وشعبة والأعمش والأوزاعى وابن جريج . وكان أكثر أخذه عن سفيان الثورى ومالك بن أنس ، وما زال فى روايته وحفظه . ودرسه وفقهه وانتفاعه بعلمه حتى صار من الأئمة الربانيين فى العلم الموصوفين بالحفظ المذكورين بالزهد . وبلغ من الشهرة والصيت مبلغا جعله لا يزاحم ولا يختلف الناس فى أمره . وساعد على ذلك أدب وطيب نفس . وسخاء وشجاعة وتضحية . وزهد مع الثراء من التجارة التى كان يلجأ إليها يستعين بها على الإحسان والعطاء .

وقد تلمذ له فى العلم من صاروا أئمة فى عصره وبعد عصره من أمثال سفيان بن عيينة

ويحيى بن معين وابن أبي شيبة ويحيى بن سعيد القطان وعبد الرازق بن همام ويعمر بن بشر وغيرهم من أئمة الدين في الحديث والفقه .

المحدث : وبلغ من منزلته في الحديث أنه كتب عشرين ألف كتاب فيه كما نقلوا عنه ، فهب أنها كراسات صغيرة . أو أن في النقل بعض المبالغة غير أنها تدل على منزلة خطيرة في السنة والرواية .

ولا عجب إذا كان ذلك الزاهد الحافظ الورع يبلغ في السنة هذه المنزلة ، وقد روى أن سائلا قال له :

أتحفظ الحديث ؟ فقال : أنا لا أتحفظ . ولكن إذا أعجبني شيء علق بي .

وقد تناقل الناس عنه بالسنة وحفظه إياها في عصره حتى حضر يوما عند إمام من أئمة الحديث من ملأ من تلامذته . وهو حماد بن زيد . وكان حماد من العلماء الربانيين المعروفين بالحفظ البارعين في معرفة الآثر وطرق الروايات وأحوال الشيوخ . فقال أصحاب حماد لحماد : سله أن يحدثنا . فقال حماد : يا أبا عبد الرحمن تحدثهم ؟ فقال عبد الله : سبحان الله يا أبا عبد الرحمن ، أحدث وأنت حاضر ؟ قال : أقسمت لتفعلن . فقال عبد الله : خذوا .

وكان أصحاب الحديث بالكوفة إذا تشاجروا في حديث قالوا : مروا بنا إلى ذلك الطبيب لنسأله .

وكان أبو أسامة من أئمة الحديث يقول : ابن المبارك في أصحاب الحديث مثل أمير المؤمنين في الناس . وشهادات الناس له في الحديث ومنزلته فيهم معروفة مبسوطة في كتب الآثر فلا نطيل بها ، وحسبك أن تعلم مبلغ استعداده وتفرغه ونهمه وأن هذا العصر كان عصر إحياء الحديث ورجاله .

الفقيه : كان من الذكاء والقدرة على استنباط الأحكام في منزلة خولت له أن يكون فقيها يزاحم مالكا وأبا حنيفة ويحتج لمذاهبه بما لا يدفع . وكتب كتبا كانت مراجع للعلماء في عصره وبعد عصره حتى قال الإمام يحيى بن آدم : كنت إذا طلبت الدقيق من المسائل فلم أجده في كتب ابن المبارك أيست منه . وحتى عده عبد الرحمن بن مهدي إماما من أربعة لا يذكر غيرهم في الفقه ، فهو يقول : الأئمة أربعة : سفيان الثوري ومالك بن أنس

وحماد بن زيد وابن المبارك . وكان يقدمه على سفيان الثورى ، فقيل له : إن الناس يخالفونك ، فيقول : إنهم لم يجربوا ، ما رأيت مثل ابن المبارك . وجائز أن الناس كانوا يقدمون سفيان لأنه أسبق ، ولأنه من شيوخ عبد الله ، على أن إمامة سفيان وفضله وتقدمه لم يمنعه أن يعترف لتلميذه اعترافا دل على مبلغ فضله ، فقد جاء رجل يسأله عن مسألة ، فقال له سفيان : من أين أنت ؟ قال : من أهل المشرق قال : أو ليس عندكم أعلم أهل المشرق عبد الله بن المبارك ؟ قال : هو أعلم أهل المشرق ؟ قال سفيان : والمغرب . وكان إبراهيم بن شماس يقول : رأيت أفقه الناس ، وأورع الناس ، وأحفظ الناس . فأما أفقه الناس فابن المبارك ، وأما أورع الناس ففضيل بن عياض ، وأما أحفظ الناس فوكيع بن الجراح ، ونحن لا يعنينا أن نبالغ فى وصف العلماء وتقديمهم ، وإنما يعنينا ما فيهم من مثل صالح وقدوة تحفز على النشاط وتفريغ أنفسنا للعلم وكسبه وهو أكثر من أن يحاط به .

الفاضل الزاهد السخى المجاهد : كل أولئك وأكثر منهن قد اجتمعت فى عبد الله بن المبارك فقد بلغ من زهده فى الدنيا وجوده بها . أن كان يتعهد الناس ويلتمس أرباب العثرات فيجبرها ويخفى ذلك ما استطاع ، وقد استفاضت أخباره فى ذلك وعرف الكثير من أمره بعد موته لأنه يرجو تجارة مع الله لن تبور كما أدبته السنة وكما علمه الكتاب الكريم ، وقد دل على ذلك إجماع الناس على حبه وحفاوتهم به . ولقد كان يتجر فى تجارات واسعة وهو صائم الدهر لا لشىء إلا لينفق على الفقراء ولا سيما طلبة العلم ورجال الدين . وليسع رجال التصوف والمنقطعين لله عز وجل ، وهل رأيت رجلا يشهد له المعاصرون من أهل المنافسة فى حكم العادة فيقول قائلهم (الإمام إسماعيل بن عياش) : ما على وجه الأرض مثل ابن المبارك ، ولا أعلم أن الله خلق خصلة من خصال الخير إلا وقد جعلها فيه . ويستدل لبعض ذلك فيقول : حدثنى أصحابى أنهم صحبوه من مصر إلى مكة فكان يطعمهم الخبيص وهو الدهر صائم . . .

وخرج من بغداد يريد بلداً تسمى (المصيصة [1]) فصحبه الصوفية فأراد أن يكرمهم ويخفى ذلك ما استطاع : قال لهم إن لكم أنفسا تحتشمون أن ينفق عليكم : ياغلام ، هات الطست فألقى على الطست منديلا ثم قال : يلقى كل منكم تحت المنديل ما معه فجعل الرجل يلقى

(١) هى من ثغور للرابطة والجهاد بين بلاد الشام وبلاد الروم .

عشرة دراهم والرجل يلق عشرين فأنفق عليهم إلى (المصيصة) فلما وصل إليها أخذ يقسم ما بق فيعطى الرجل عشرة، ويعطى الرجل عشرين ديناراً، فيقول الرجل: يا أبا عبد الرحمن إنما أعطيت عشرين درهما، فيقول وما تنكر أن يبارك الله للغازى فى سبيله .

وفى أخباره ما يدل على أنه كان يفعل مثل ذلك أيام الحج . يخرج من مرو وقد اجتمع أصحابه ويأخذ ما مع كل منهم فيضعه فى صندوق ثم يركبهم من مرو إلى بغداد ويطعمهم أطيب الطعام ثم يكسوهم فى بغداد ويخرجهم فى أحسن زى فإذا وصلوا إلى المدينة سأل كل منهم عما يطلب أهله وعياله من المدينة فيشتريه له . ويفعل ذلك فى مكة بعد قضاء الشعائر . فإذا عادوا زخرف لكل منهم بابه وداره ثم صنع لهم وليمة بعد ثلاثة أيام ودفع لكل منهم صرته كما هى من الصندوق . وله فى كتب الأدب والتاريخ أخبار فى قضاء الديون وإقالة العثرات . والانفاق على طلبة العلم والصالحين يخرج استقصاؤها عن القصد والاعتدال .

ويروى البغدادى إجمالا من ذلك يقول فيه إنه كان ينفق على الفقراء كل سنة مائة ألف درهم . وكان يقول للإمام العابدى فى عهد الفضيل بن عياض لولا أصحابك ما تاجرت .

ولما لامه بعض الناس فى تفريقه الأموال فى البلدان قال : إنى أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق طلبوا الحديث فأحسنوا الطلب بحاجة الناس إليهم احتاجوا فإن تركناهم ضاع علمهم وإن أعناهم بثوا العلم لأمة محمد ﷺ ولا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم .

أيها القارىء الكريم هذه هى نفس العالم الذى يقال فيه إنه من خلفاء الأنبياء يتعهد الناس بقدر طاقته . ويحسن خلافة محمد ﷺ فى أمته ، فيكون نفاعا ما استطاع .

هذا هو العلم الصحيح النافع الذى يزهد فى الدنيا ويرغب فى الآخرة ويعلم النصح للأمة فأين العلماء ؟ لهذا وغيره من صفات هذا الإمام العارف بالله والحق يقول عبد الرحمن ابن مهدى : ما رأيت أنصح لهذه الأمة من عبد الله بن المبارك .

فأما شجاعته وجهاده بنفسه فى سبيل الله فقد دلت عليه أخباره فى تاريخه وأنه كان يشهد المعارك ، ويبارز الأعداء مبارزة عالم خبير بالحرب والفروسية .

ومن ذلك ما رواه عبدة بن سليمان المروزى : قال كنا فى سرية مع ابن المبارك فى بلاد الروم فلما التقى الصفان خرج رجل من العدو فدعا إلى البراز فخرج إليه رجل فقتله ، ثم دعا إلى البراز فخرج إليه رجل فقتله ، ثم دعا إلى البراز فخرج إليه رجل فطاعنه فقتله ، فازدحم الناس عليه فإذا هو يلثم وجهه بكمه ، فأخذت بطرف كمه فإذا هو عبد الله بن المبارك .

وهكذا أيضا تأبى عظمة نفوس العلماء الفضلاء على العلماء الفضلاء إلا أن ينتفعوا بما في هذا العلم من كنز ثمين في رفعة شأن الدين والدنيا فلقد كفل السعادة للناس في كل شيء من أمرهم وليس هو بالوضوء والصلاة وغير ذلك من الأعمال التي تحسنها العامة.

إن الدين معاملة وإنفاق وجلاد وتضحية وإيمان، وبالله الهداية والتوفيق.

والظاهر أن ابن المبارك كان يتسم بالقدح المعلى في الجهاد والجلاد، وقد اشتهر بذلك وكان قدوة صالحة ومثلا للعالم النبيل في عصره، حتى روى أن فضيل بن عياض رآه في المنام فقال: أي الأعمال وجدت أفضل؟ قال: ما كنا فيه. قال الفضيل: الجهاد والرباط. قال نعم. قال: وأي شيء صنع بك؟ قال: غفر لي مغفرة ما بعدها مغفرة.

الشخصية: لعلك بعد هذا كله تستطيع أن تدرك مبلغ شخصية ابن المبارك وسمو منزلته في الناس حتى قال عبد الرحمن الجهضمي قال لي الأوزاعي: رأيت ابن المبارك؟ قلت: لا قال: لو رأيته لقرت عينك. وقال شعبة لأحد العلماء المعاصرين: رأيت ابن المبارك؟ قال: نعم، ما قدم علينا من ناحيتكم مثله. وقال أبو عصمة: شهدت شعبان وفضيل بن عياض وقد مات ابن المبارك، فقال سفيان لفضيل: يا أبا علي أي رجل ذهب؟ فقال فضيل: يا أبا محمد، وبقي بعد ابن المبارك من يستحي منه! وقال عبد الوهاب بن عبد الحكم بلغني أن هرون الرشيد قال لما مات سفيان: مات سيد العلماء.

وبعد لحسبي أن أنقل لك هذه الحادثة وأختم بها حديثي عن ذلك الإمام:

قدم الخليفة هرون الرشيد الرقة في مناسبة، وكان ابن المبارك يسير في طريقه، فانجفل الناس خلف ابن المبارك وتقطعت النعال وارتفعت الغبرة. فأطلت أم ولد لأمير المؤمنين من برج لها فقالت: ما هذا؟ قالوا: عالم من أهل خراسان. فقالت: هذا والله الملك، لا ملك هرون الذي لا يجمع الناس إلا بشرط.

أيها العلماء والطلبة ويا رجال الدين أجمعين، هذا والله الملك، يجمعه الله في توفر العالم على علمه واعتداده بنفسه. واعتزازه بالله وحده. وفي نصحه للسلمين. وزهده في الدنيا، وفيما يتنافس المتنافس فيه بالرياء والنفاق والتزاحم على أبواب الحكام ومن لهم في الدنيا نصيب. فاتقوا الله واطلبوا هذا الملك الذي خول الله لكم ولا تزوروا نعمة الله عليكم فتخسروا الدنيا والآخرة. أسأل الله لي ولكم التوفيق والهداية.

محمود الشرقاوي

الكتب

ديوان ابن عنين

نشره المجمع العلمي العربي بدمشق — بتحقيق الأستاذ خليل مردم — ٢٧٠ ص قالبين

شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر بن عنين الأنصاري الدمشقي (٥٤٩ — ٦٣٠) أديب عالم واسع الرواية للشعر وأخبار العرب متمكن من اللغة متقن لها ، كان يستحضر كتاب الجمهرة لابن دريد ، وهو طويل الباع بالنحو ، مشارك في الحديث والفقه ، ملم بفروع الثقافة الإسلامية لعهده — وكان خفيف الروح كثير الدعابة ماجن ساخر متهكم يؤثر الهزل على الجد ، تعجبه النكتة ولو كان فيها حتفه . وأحب شيء إليه أن يستهزيء بذوي الهيئات والوقار والتزمت من الفقهاء والخطباء والواعظين ، أدرك في شبابه عصر نور الدين ثم قامت دولة صلاح الدين ، فكان ابن عنين الشاعر سليط اللسان على الناس يغمز الوزراء ويهجو القواد والعلماء ، حتى بلغت به الجرأة أن عرض بصلاح الدين نفسه في قوله :

سلطاننا أعرج وكاتبه ذو عمش والوزير منحدب

فضجر منه الناس وسعوا بإخراجه من دمشق إلى حيث يشاء من البلاد ، فخرج منها وهو يقول :

انفوا المؤذن من بلادكم إن كان ينفى كل من صدقا

وطوحت به الرحلة إلى العراق وأذربيجان وخراسان وغزنة وخوارزم وما وراء النهر ثم دخل الهند ، وكانت هذه السياحة الطويلة مدرسة له هذبت من أخلاقه ، وعرفته بقدر بلاده ، وعرف من المقارنة بين ما كان فيه وما صار إليه ، إن الذين كان يهجوهم هم ملح الأرض ومن خيرة الناس ، فانطلق لسانه يقول :

أحن ومن وراء النهر داري حنين العود أوثقه المراس

وكيف تبيت تطمع في مديحي رجاء نوالها العجم الخساس
ولو أني مدحت ملوك قومي تراغت حولي النعم الدخاس
فإن الناس في طرق المعالي لهم تبع وهم للناس راس

ولم يسعد في بلاد الشرق إلا بلقاء الفخر الرازي فاستفاد ابن عنين من علمه وهباته ، وأخذ عنه وحضر دروسه ، ثم انقلب إلى الوطن العربي فدخل اليمن والوالي عليها سيف الإسلام أخو صلاح الدين فاحتفى به وأحسن لقاءه . وقال ابن عنين في سيف الإسلام أحسن شعره . ثم أخذ يتردد بين اليمن ومصر . وفي وفيات الأعيان لابن خلكان وصف لمجالسه في مصر مع جماعة من الشعراء واحتفالهم به . ثم عاد إلى دمشق وهو لا يرى الدنيا إلا فيها ، ويستصغر كل ما كسبه من مال ومتاع ومعرفة في جانب الإقامة فيها :

ولو أني خيرت في هذه الدنيا لما اخترت غير أهلي وداري

وسأله الملك المعظم عيسى بن العادل عن عجائب ما رآه في البلاد فقال له : « كل ما في الدنيا مفرق ، هو في بلدك مجموع ، ولم يكن يحن وهو في دمشق إلا إلى مصر .

أحن إلى مصر ويا ليت أن لي إذا ذكرت مصر جناحاً أعاره

ومن مصرياته قوله في انتصار الإسلام على الصليبيين في ثغر دمياط سنة ٦١٩ وكان الشاعر يومئذ في السبعين من عمره :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا إذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلا من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم بأطرافها حتى استجاروا بنا منا

وقد طبع هذا الديوان على ثماني نسخ مخطوطة إحداها بدار الكتب الظاهرية بدمشق والثانية في كمبرج ، والثالثة مخطوطة الشاعر أحمد الصافي ، والرابعة والخامسة بمدرسة يحيي بالموصل ، والسادسة بدار الكتب الأهلية بباريس ، والسابعة بدار الكتب المصرية وأصلها من الحجاز . وكل هذه النسخ مرتبة على الأبواب ، والثامنة بدار الكتب المصرية وهي مرتبة على الحروف . وقد بذل الأستاذ الكبير خليل مردم في تحقيق هذا الديوان وتصحيحه والتعليق عليه وكتابة مقدمته والترجمة للشاعر مجهوداً عظيماً لا يقل عن مجهود ابن عنين فيما نظمه من أبيات الديوان .

أبو بكر الصديق

تأليف الأستاذ على الطنطاوى ـ الطبعة الثانية ـ نشرتها لجنة الشباب المسلم ـ ٣٢٠ ص قالبين

تساءل المؤلف فى خاتمة كتابه : « من ذا الذى يستوفى فى كتاب واحد سيرة أبى بكر كلها ، وهى أفضل سيرة فى الإسلام بعد سيرة سيد العالمين وخاتم النبيين ، وأكلها وأحفلها بكل جميل وجليل ؟ » ، ومع ذلك فإن هذا الكتاب فى سيرة أبى بكر أحفل كتاب من حجمه بالنصوص المأثورة فى سيرة هذا الرجل العظيم الذى سلمته الأقدار أعظم أمانات الإنسانية فى أشد مواقفها خطرا ، فكان بما عزم الله له من قتال المرتدين ، وإقامة الأمر على وجهه الأكمل بلا التواء ولا تقصير ولا جزع ، أعظم رجال التاريخ ، على قصر مدة خلافته ، وجلال ما تم فيها مما تغير به وجه الإنسانية واتجاه التاريخ .

ومما امتاز به هذا الكتاب فى سيرة الصديق اعتماده على المصادر الصحيحة وكثرتها ، حتى بلغت مائة كتاب بين مخطوط ومطبوع ، وكان قد طبع للمرة الأولى قبل نحو عشرين سنة ، وأقبل القراء عليه حتى نفدت نسخه من سنين كثيرة ، فأعيد الآن طبعه بالمطبعة السلفية بالقاهرة على نفقة لجنة الشباب المسلم طبعاً أنيقاً معتنى به ، وفى أوله مقدمة بقلم رئيس تحرير هذه المجلة ، فى موضوع التاريخ الاسلامى ، وأنه أغنى تواريخ الأمم فى صحة مصادره ، وأفقرها فى الاستفادة من تلك المصادر ، وفى حسن عرضه بما يعين على بعث الأمة من جديد ، وتوجيه الخلف إلى الوجهة التى كان يتحراها السلف لتتم بهم رسالة الاسلام رسالة القوة والحياة ، فنحث الشباب على مطالعته .

أهداف الصهيونية

تعريب فردريك زريق ـ نشرته جمعية التمدن الإسلامى ـ ١٣٠ ص جابر

هذا الكتاب مجموعة ٢٤ محضراً لجلسات مؤتمر قيل إن اليهود عقدوه فى مدينة بال بسويسرا سنة ١٨٩٧ وزعموا أنه مؤتمر حكماء إسرائيل لتصريف دفة الحكم وسير المجمع فى أوربا وغيرها بحسب خططهم إلى أن يتم المصير الذى رسموه لشعوب الأرض ويحققوا قيام مسيحهم الدجال . والمظنون أن واضع هــذه المحاضر يهودى من مدينة كييف اسمه سيكفرا وهو مؤسس جمعية شباب صهيون وجمعية موشى الحرية . وقد وقعت المحاضر فى يد اليكس نقولا فتش عميد أشراف شرق روسيا ، فدفعها إلى سرجيوس نيلوس

الروسى الذى نشرها سنة ١٩٠٥ . ولما شعر اليهود باطلاع غيرهم على هذه المحاضر شكا هرتسل سنة ١٩٠١ من وقوف (الكفار) على أسرار الصهيونية ، ثم جعلوا يتبرأون منها بعد انتشارها سنة ١٩٠٥ . وأول من نقلها إلى الفرنسية عن نشرة سرجيوس نيلوس محرر جريدة (فرنسا القديمة) عقب الحرب العالمية الأولى (١٩ - ١٩٢٠) وبعد ذلك بسنوات قليلة نقلها إلى العربية الخورى أنطون يمين وطبعها فى ٢٤٤ صفحة بعنوان (المؤامرة اليهودية على الشعوب) . والآن أهديت إلينا ترجمة أخرى لها بعنوان (أهداف الصهيونيه) بقلم الأستاذ فردريك زريق نشرتها جمعية التمدن الاسلامى بدمشق . وكانت جريدة منبر الشرق تنشرتباعا ترجمة ثالثة لهذا الكتاب ثم نشرت فى كتاب مستقل . وتعدد ترجمات الكتاب دليل على أهميته .

أمراضنا ومشاكلنا

للأستاذ إحسان النمر — ١٣٠ ص جاير — مطبعة ابن زيدون بدمشق

هو كتاب مقسم إلى أربعة أقسام أولها عن ماضى العرب ، والثانى عن حاضرهم ، والثالث عن عوامل الضعف فى الشعب العربى وأسبابها ، والرابع فيما يراه المؤلف من توجيه للإحياء والتنظيم ، والتعليم والتثقيف ، والعمل للتقدم .

والمؤلف من الأفاضل المفكرين ، وقد ألم فى كتابه بما لا يجده القارىء مجتمعا فى كتب أخرى فتلفت إليه الأنظار .

رائد الشعر الحديث

وهذا كتاب آخر من مظاهر نشاط فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى درس فيه شاعرية الدكتور أحمد زكى أبى شادى وعرض فيه لصور عامة لأبى شادى فى حياته ودعوته وشعره ودراساته الفكرية والأدبية ودراسات المعاصرين له . والكتاب فى أكثر من ٣٠٠ صفحة من قطع هذه المجلة ، ويرى المؤلف أن الموضوع الذى خصص له هذا الكتاب يحتاج إلى تبسط لعله يوفيه بكتاب آخر .

أنباء العالم الإسلامي

الشرق الأوسط فى مؤتمر برمودة :

يؤكدون أن رئيس الولايات المتحدة إيزنهاور سيبحث مع رئيسى الحكومتين البريطانية والفرنسية عند اجتماعه بهما فى برمودا فى هذا الشهر مختلف الشئون التى تتعلق بالشرق الأوسط وتهم العالم العربى . وأن أيزنهاور شخصياً والأميرال راد فورد قائد الأسطول الأمريكى فى الأطلنطى مقتنعان بما اقتنع به دلاس وزير خارجية الولايات المتحدة وأوصى به حكومته من الأخذ بفكرة الرئيس محمد نجيب الخاصة بالاعتماد على ميثاق الضمان الجماعى المعقود بين الدول العربية فى تنظيم الدفاع عن الشرق الأوسط .

وإلى جانب البيان الذى أذاعه دلاس على الرأى العام بعد انتهائه من رحلته فى بلاد الشرق الأوسط وفى باكستان والهند وضع كذلك تقريراً عن هذه الرحلة ، وكل ذلك يدور حول المعانى التى تقدمت الإشارة إليها .

وفى برقية من نيويورك أن بعض الدوائر الصهيونية أبدت دهشتها من قول دالاس « أن الحكومة الأمريكية تشعر بأنه ينبغى لها أن تزيل الشعور العميق بالسخط الذى تشعر به الشعوب العربية نحوها نتيجة لقيام دولة إسرائيل » .

نظام الحكم فى مصر :

سألت مجلة التحرير (العدد ١٩ — ٢١ رمضان) البكباشى جمال عبد الناصر عما يراه بشأن نظام الحكم ، فقال :

« رأيى أن نأخذ بالنظام الجمهورى ، وأن ينص فى الدستور على أن يكون (دين الدولة الرسمى هو الإسلام) كما كان فى الدستور السابق » .

آخر جمعة فى رمضان

كان من التقاليد الحديثة لحكومة مصر أن يؤدى الخديو أو الملك أو من ينوب عنهما صلاة الجمعة الأخيرة من رمضان فى مسجد عمرو بن العاص ، وقد ثبت من البحث عن أصل هذه العادة أنها بدأت من عهد محمد على وذلك أن جامع عمرو احتاج فى زمانه إلى إصلاح فى مبانيه ، وقد تم هذا الاصلاح فى شهر رمضان ، فاحتفل محمد على بذلك بأداء الصلاة يوم الجمعة الأخير من رمضان فى جامع عمرو ، ثم جرت العادة بعد ذلك على أن يؤدى القائم على ولاية مصر صلاة آخر

جمعة من رمضان فى جامع عمرو ، وسميت هذه الجمعة الجمعة اليتيمة لأنها لا جمعة بعدها فى رمضان من السنة .

ولما علم الرئيس اللواء محمد نجيب بأن ذلك من التقاليد المستحدثة ، رأى أن يؤدى صلاة الجمعة من رمضان هذا العام فى الجامع الأزهر لأنه مثابة العلم والعلماء فى الدولة المصرية .

تعديل أنصبة الدول العربية فى ميزانية الجامعة

عدلت أنصبة الدول الأعضاء فى ميزانية الجامعة العربية ، فأصبح نصيب مصر ٤٠ فى المائة ، والعراق ١٧ ، والمملكة السعودية ١٥ر٥ ، وسوريا ١٣ر٥ ، ولبنان ٦ ، واليمن ٣ ، والمملكة الأردنية ٣ ، وليبيا ٢ فى المائة

حصار إسرائيل :

أقرت اللجنة العليا لمقاطعة إسرائيل - وهى مؤلفة من وكلاء الوزارات - تشريعا يقضى بمصادرة جميع المواد الحربية والغذائية التى تضبط فى قنال السويس فى طريقها إلى إسرائيل وذلك فى حدود القانون الدولى العام .

السياسة المصرية من سنة ١٩٣٦ إلى ١٩٥١

قرر الدكتور حافظ عفيفى فى شهادته أمام محكمة الغدر يوم آخر مايو أن العهد من سنة ١٩٣٦ امتاز بعدم الاستقرار : وزارات غير مستقرة يصحبها دائما تدخل من الملك فؤاد أم فاروق - ويندر أن تتألف وزارة لم يتدخل فيها الملك برفض وزراء معينين أم بفرض وزراء معينين ، مما كان يؤدى إلى عدم التجانس فى الوزارات .

وكان الملك يتدخل فى مسائل لم يكن له حق أكثر من ابداء النصيحة فيها ولم يكن يضغط صراحة على الوزارات لقبول رأيه ، لكن كانت الوزارات ترى أن مسائل كثيرة لا تستحق أن تكون سببا لاستقالتها . فيتنازل بعض الوزراء تدريجا عن آرائهم فيضعف مركز الوزارة ، وربما كان الضغط يقع على الوزارة التى تدين بوجودها وحياتها للملك وكثيرا ما كان للملك طلبات داخلية أو خارجية أو سياسة ، وهذه الطلبات كانت تعرقل أعمال الحكومة .

هذه هى الحالة العامة : عدم استقرار الحكم ، وشل حرية الوزراء فى التصرف ، وتدخل من جانب القصر فى شئون الحكم . كان التدخل يمنع تعيين أشخاص جديرين وصالحين لتولى الوزارة ، بينما يحتل مكانهم وزراء غير صالحين أذكر أن كريم ثابت عين وزيراً ولم يكن هناك مبرر لتعيينه . وكنت رئيساً للديوان ، ولكننى لم أسأل فى هذا ولم يؤخذ رأيى فى هذا التعيين . وأنا لم أعين فى الديوان باختيارى فقد صدر أمر التعيين دون أن يؤخذ رأيى . هو كان حكم قراقوش والا إيه ؟ ! وفى اليوم التالى كان الياس اندراوس قد حل على بنك مصر !

فهرس

المجلد الرابع والعشرين

(لسنة ١٣٧٢ هـ – ١٩٥٣ م)

(ا)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)